

THE COMPLETE STORIES

EDGAR ALLAN POE

إدغار ألن بو

الأعمال القصصيَّة الكامِلَة

ترجمة

مصطفى ناصر



إدغار ألن بو

الأَعمال القصَصِيَّة الكامِلَة

I

ترجمة

مصطفى ناصر

تقديم

جون سيلاي

دار الكتاب الجديد المتحدة

الأَعمال القصَصِيَّة الكامِلَة

I

Original Title:
The Complete Stories by **Edgar Allan Poe**
A selection of Poe's stories first included in Everyman's Library, 1908
The Complete Stories first included in Everyman's Library, 1992

الطبعة الأولى
أيلول/سبتمبر 2021

الأعمال القصصيّة الكاملة
ترجمة مصطفى ناصر
موضوع الكتاب قصص
الحجم 16 × 23 سم
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
التجليد برش مع ردّه

ISBN 978-9959-29-675-7
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)
رقم الإيداع المحلي 2015/350

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع حصري في العالم ما عدا ليبيا دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس
هاتف 04 03 75 1 961 +/بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb

توزيع داخل ليبيا شركة دار أويا لاستيراد الكتب والمراجع العلمية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ ليبيا
هاتف وفاكس 013 07 34 21 218 + **نقّال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني oeabooks@yahoo.com

المقدمة

«إدغار»، كما كان يُحب أن يُسمّي نفسه مُتفاخراً، «أ. بو.. يت»، كأنما أراد بذلك أن يتخلّص من الاسم الذي فرضه عليه أبوه بالتبنّي وولي نعمته، جون ألن، إلى مُجرّد حرفٍ يُردف باسمٍ يرمز إلى هويته كشاعر.. أو كاتب يعشق كل ما يمتّ بصِلة إلى الإيغال في الغموض كأنما في نزوة لاضطهاد الذات؛ سواءً أتعلّق الأمر بالنزق الأخلاقي والتشبث بأحلام الفروسية وصرامة أرستقراطية لا تُناسب وضعه البائس، أم بذلك النوع من التشفير الذي كان يُحب ابتكاره ويسعى إلى وضع تفسيراتٍ له. هو نفسه كان إنساناً مُشفّراً، مُبرمجاً منذ مُستهل حياته على تقبّل الحرمان واستمراء اضطهاد الذات وتحمّل لعنة وراثية قدرّت له أن يُمنى بالشؤم دائماً حتى اليوم الأخير من حياته عندما لفظ أنفاسه الأخيرة على مصطبة بائسة في حديقة عامة؛ بحيث ربما نتج عن شظف العيش الذي كابده، على الأقلّ في عيون المُعاصرين له، هذا السيل من الشذوذ عن الأعراف الذي جعله ينأى بنفسه عن الاتجاهات السائدة في عصره. كان إدغار ألن بو حقّاً أول الشعراء الصعاليك اللامُنتمين، وحياته أيضاً، فضلاً عن قصائده، لم تكن لتكتسب تقييمها وشُهرتها إلا في بلدٍ غريب، بعد أن تُترجم إلى الفرنسية، وبذلك تفقد رونقها واللذة التي تُثيرها في وطنه. هُنا نرى الشاعر البائس، كما يظهر في عددٍ لا يُحصى من الصّور الفوتوغرافية القديمة، يكاد يشعر بالاشمئزاز وهو يُحملق فينا مُعاتباً، يقف فيها موقف مُهرّج بثياب الحداد؛ ذلك الجبين المُكفهر المُقطب العريض، وخصلات الشعر المُجعدة، والشارب الأنيق.. كما لو أنّه يذكّرنا بشابلن في بعض وقفاته.. أو برجلٍ عجوز مُتيّم بفتاة شابة كأنها زهرة مُتفتحة، أو يبدو كالمخمور يتمايل في نشوةٍ لا يكاد يصدق أنّها ستدوم قبل أن ينتهي بسقطة مُضحكة على الكفل. كان نموذجاً صارخاً للعناد والمُكابرة، اعتاد

أن يُعبِّر عن نفسه بعبارات مشحونة بالمُتناقضات، والاقتباسات من اللاتينية ومن لُغات شتّى حتى كوّن له شخصية أدبية تتحدّى أي شيء شائع آنذاك.. وربّما يُمكن القول: إنّه كان تجسيداً للجانب الثقافي من شخصية فرانكنشتاين. ذلك الشاعر، والفيلسوف، والرسام، والموسيقار، نموذج فريد من عباقرة الرومانتيكيين، مع غرور شيطاني أخذه من بايرون وشغفٍ معرفي من كوليردج.

هذا الوعي الذي خلقه إدغار ألن بو بنفسه والذي ميّز شخصيته ربّما كان مُستهجناً على التجربة الأمريكية، وذلك لضراوة الهوس الذي استحوذ عليه كيما يتجاوز حدود المحلّية ويتخطّى أسوار وطنه، في الوقت الذي كانت فيه المحلّية تنسجم مع أذواق جمهور المُتلقّين الأوروبيين وشغلهم الشاغل. كان مثل بطلة قصته التي أصابها مسٌّ شيطاني، لايجيا، التي تُعيد تجسيد نفسها على مراحل، وتُعبِّر عن صوته نفسه وهو يكتب عن حتمية انتصار الإرادة على المادّيات المُجرّدة، بمُختلف حالاتها ومُلابساتها. في عصرٍ تُهيمن عليه روح التملّق وكياسة مُفتعلة، ووسط ذلك المُجتمع الذي عبّر عنه واشنطن إيرفنغ في كتاباته، والذي راقته له قصص جيمس فينيمور كوبر التي تتحدّث عن مُغامرات وأسفار أخلاقية تُمجّد قِيَم الشهامة والرجولة، كان إدغار ألن بو يصرّ على التطرّق إلى صور وأصوات هي أقرب إلى الجنون، والخطيئة، والموت منها إلى عقلانية الحياة، في قصصه التي فرضها في عناده المألوف على قياسات الذوق العام.

في عام 1840، نشر إدغار ألن بو أول مجموعة قصصية كانت عبارة عن تخطيطات أوَّلية لنماذج من شخصياته التي طالما أراد سبر أغوارها من النواحي النفسية، وعمل على كتابتها طوال تسع سنواتٍ سابقة. وفي السنة نفسها أيضاً عاد كِوبر ليتناول شخصية ناتي بومبو في كتابه «المرشد»، مؤكداً على قوة البطل البدنية وتفانيه للتقاليد المسيحية، وكذلك نشر ريتشارد هنري دانا جونير كتابه «سنتان أمام السارية»، ويتضمن وصفاً ذكورياً لرحلته إلى كاليفورنيا. ودشنت مارغريت فولر مجلتها «المزولة». والتي أعلنت فيها تباشير نزعة التفاؤل على غرار ما تؤمن به فلسفة التسامي. لقد أطلق بو على مجموعته اسم (حكايات عن القبيح والمُزخرف)، ومن عنوان المجموعة فهي صرخة مُدوية أراد بها إعلان

خصوصيته وتفرّده. بينما كانت تصطفّ على أكشاك بيع الكتب، بالقرب من هذه المجموعة عناوين أكثر الكتب الأمريكية اهتماماً بالأمور المحلّية، ذات أغلفة توحي بمُحتوياتها الضحلة التي تتأكّد من الانطباع الأول. ولم تُحقق المجموعة كما كان مُتوقعاً، أي: مبيعات تلفت الأنظار. لم ترق «الحكايات» لأولئك القراء الذين كانوا يتدافعون لشراء رواية كوبر الجديدة عن جوارب النساء التي تلتصق بالجلد، وكذلك لم يعرها النقاد أدنى اهتمام ولم يكتبوا عنها مُراجعة واحدة فقد كانوا مُنشغلين آنذاك في اتّجاهات أُخرى فلم يرق لهم أسلوب إدغار ألن بو المُراوغ الذي لن يفهم إلا بعد عناء. وعلى العكس من مارغريت فولر، لم يتمكّن الكاتب أن يعوّل حتى على رأي الأقلية المُتحررة من التقاليد.

حتى يومنا هذا، نادراً ما تحظى مجموعته تلك بالقراءة الكاملة. بعض قصص إدغار ألن بو المعروفة الآن على نطاقٍ واسع نجدها في مجموعة مُستقلة.. لقد كُتبت هذه القصص خلال سبع سنوات بقيت من حياته.. وأغلبها مُختصرة وتُعبّر عن أسفار بائسة في الحكمة ومُحاولات لسبر أغوار النفس البشرية، وفيها اقتباسات توحي بسعة الاطّلاع ممزوجة بنكهة فرنسية، من حِكم وأمثال لاتينية. كانت، على سبيل المثال، قصتا «وليم ولسون» و«سقوط صرح أوشير»، وحدهما قد كتبتا في نهاية العقد، قبل وقت قصير من إدراجهما ضمن تلك المجموعة، وتقعان ضمن فئة التحف الفنية التي كُتبت في وقتٍ مُتأخر من حياة المؤلف كغيرهما من القصص مثل «برميل الأمونتلادو»، «الحفرة والبندول»، و«جرائم على جادة مورغ». أما بقية القصص، فهُناك القليل منها فحسب تُعدّ من التجارب التي تستحق أن يتذكرها المرء. بعض قصص المجموعة مثل «بيرينايس»، «رسالة في قارورة»، «موريلا»، «لايجيا»، نجد الكاتب فيها يتنقل ضمن دائرة اهتمامه المعروفة، الوضع الخطير للإنسان الذي يكاد يؤدي به إلى الجنون.

مع إن إدغار ألن بو استطاع بكل تأكيد سبر أغوار الوضع البشري في أي مكانٍ من خلال ذلك الوعي الممسوس، وهاجس الاضطهاد، والخطيئة، والجنون، والموت الذي تجلّى في عناده الثقافي، فإنّ رفضه بإصرار لا يلين للتقاليد الغربية قطع أواصر العلاقة بينه وبين الآداب الأمريكية. ربما باستثناء

القصة ذات الطابع التهكّمي «الرجل المستنفذ»، التي نشرت ضمن نسخة 1840 من (الحكايات) فإنّ أعماله الأخرى تفتقر إلى أي تلميحٍ ملموس للتجارب الإبداعية في الأدب الأمريكي، وباستثناء مُحاكاته الفاشلة لقصة إيرفنغ «إستوريا»، في قصته «مجلة يوليوس رودمان»، كانت الأعمال التي كتبها في أواخر حياته قد مُنيت أيضاً بخيبة الأمل التي أضافت إلى مُعاناته. في وقتٍ كانت فيه أمريكا تتطلّع إلى جهة الغرب، استمرّ بتجاهل الاتّجاهات، كما لو أنّه أراد إنكار وجود تلك الغزارة الثقافية المُذهلة، أو الأقاليم النضرة التي لا يُدركها الخيال، في وقت كانت فيه القوى العظمى مُنشغلة فيما بينها بالصراعات الدموية. مثل أي رجلٍ يتعلّق بحبال منطاد يُتابع الصعود إلى الفضاء باستمرار، كانت نظرات بو مُتعلقة بالساحل الشرقي، وعيناه تشخصان نحو القارة البعيدة. مثل رجل يتدلّى من المنطاد، كان يبدو عليه أنّه مُتيمٌ بفكرة الفضاء الشاسع النقي الذي لا تحدّه حدود.

كان الوعي بالفضاء يملأ آداب عصر النهضة في أمريكا. سواءٌ أكانت البراري التي يُصورها كوبر في رواياته، أو المَشاهد التي توحي باتّساع آفاق الأمل إلى الأبد لدى إمرسون، وكذلك المُحيط الذي لا تسبر أغواره لدى ملفل والذي يتضمّن إيحاءات ميتافيزيقية، أو الرياح العاتية في مجموعة (أوراق العشب) لوايتمان؛ فكرة الفضاء لدى مُعاصري إدغار ألن بو كانت مُرتبطة إلى حدٍّ ما مع البلد الذي يفتح ذراعيه، أو الحركة المُتجهة غرباً للإمبراطورية، أو رِقعة الأرض غير المُستقرة التي يتشكّل عليها المصير الموعود لأمريكا. مع استثناء يُمكن أن يُذكر هُنا، يتعلّق بهوثورن الذي كان يُشاركه في اهتمامه بالعالم الداخلي، فإنَّ أغلب الكتّاب الأمريكيين كانوا ينظرون إلى الفضاء كعالمٍ مُنفتح على مصراعيه من الإمكانات اللامحدودة. ربّما كانوا ينظرون والخوف يجتاح نفوسهم، مثل هرمان ملفل، وفي حذرٍ وتوجّس مثل كوبر، أو في شيءٍ من الأمل مثل إمرسون، أو في اغتباط مثل وايتمان، ولكنهم كانوا دائماً يرون في ذلك الفضاء امتداداً شاسعاً بلا نهاية، يقطع الأنفاس.

مثلما في أشياءٍ أُخرى، كان إدغار ألن بو ينظر إلى الفضاء نظرة مُختلفة.

على الرغم من أنّه كان يولي ظهره إلى الجهة الغربية، فإنّ نظرته العابرة للأطلسي كان يُركز فيها على المحيط المُتلاطم، وفي عددٍ من قصصه، مثل (حكاية آرثر غوردن بايم)، تجري الحوادث على متن سفينة تتقاذفها أمواج البحر، وهو ظرفٌ من شأنه أن يدفعه للتركيز فقط على وعيه الخاص. بالنسبة إليه المحيط دائماً ما يكون لولباً عملاقاً، ينجرف معه المُغامر المنحوس باتّجاه دوامة مركزية شاسعة الأبعاد. هُنا لا نرى أثراً للأُطر التي يضعها كوبر، أو لسيمفونية ملفل من المُتضادات الميتافيزيقية. الفضاء شاسع مُنفتح بلا قيود، ومع ذلك فهو يوحي بالانغلاق على الذات إلى الأبد، وهُناك ظواهر خانقة تُشبه المغارات، والجدران، والتوابيت، وحجارة البناء الثقيلة في حكاياته الأُخرى. من المُهم هُنا أن نذكر أنّ آرثر بايم يقضي مُعظم الوقت مُختفياً عن الأنظار ضمن حيّز مُنغلق مهجور على بدن سفينة توشك أن تغرق وتتحوّل إلى حطام. وحين يُنقذ أخيراً يُداهمه تيار عارم يحمله إلى مصير مجهول.

بينما كان إدغار ألن بو مُنشغلًا باهتمامات غير محلّية، مُنجرفاً وراء نشوة ثنائية في سبر الأعماق الداخلية للنفس البشرية التي تقترب من تخوم الجنون، كان يهتم من ناحية أُخرى بوصف الديكورات الخارجية الأرابيسكية، وتأثيث القبح والجمال؛ هذا الوعي الفريد في نوعه هو الذي يُعطي قصصه شكلها المُميز. في قصة «أوريكا!» التي أكملها قبل وفاته بفترة قصيرة، حاول أن يجعل عمله مُنسجماً مع فكرة الفضاء النقي، بما تحمله من دلالة ضمنية على نظريته في الكون التي تُجسد مُعادلها الموضوعي في قصصه. تتضمّن القصة أكثر من مُجرد ادّعاءات أو شطحات صوفية، أو فلسفة في الكتابة ربما تبدو مُصطنعة، مُعارضة لفكر المُتعالين، إنّها مُخطط إجمالي لفنّه المُنحرف عن مسارات التقليد، وتفسير للتأثير الذي خلقته قصصه العظيمة السابقة، ابتداء من «سقوط صرح أوشير»، على قارئ اليوم. بعد أن خرج الكون من العدم، فلا بدّ أن يعود إلى العدم؛ الكون يتماسك رغم انتشار ذراته في الفضاء الشاسع بإرادة إلهية. من وجهة نظر بو، فالجُزيئات والذرّات ينفصل بعضها عن بعض بفعل قوى الجذب المُشترك والتنافر، لكنها في الوقت نفسه في حالة من الرجوع التدريجي إلى أصل

كينونتها، إذ تسحبها الجاذبية باتّجاه العدم. كل هذه التوترات نرى لها أصداءً مُماثلة في قصص تعود إلى وقت مُبكّر مثل «رسالة في قارورة»، وهي نموذج مُصغّر من «حكاية آرثر بايم».

كتب إدغار ألن بو في «أوريكا!».. الكون يسير وفق خطة إلهية مُتكاملة، على العكس من خطط الإنسان العاجزة دائماً، إلا أنّه طالما أشار إلى مُتماثلات لا حصر لها بين كتابة القصة ونظام الكون. في العالم الذي نعيش فيه، كما تصوّر، هُناك تكيّف مُتبادل للكائنات مع البيئة، وبين البيئة والمخلوقات. المُتعة التي يمنحها للكائنات عرضٌ للعبقرية، يُشكل الاقتراب من هذا النوع من التبادلية. في الأدب القصصي، على سبيل المثال، ينبغي ترتيب الحوادث وفقاً لنسق مُعيّن بحيث نكون عاجزين عن تحديد أي حادثة منها تعتمد على حادثة أُخرى أو تدعمها. هُنا تتضمّن اللّغة التي يستعملها إدغار ألن بو تأثيرات من فن العمارة، فهو يوحي ضمناً إلى أنّ الحوادث ضمن حبكة مُعينة تُشبه في ترتيبها حجارة البناء، فكل حجر يُشارك في البناء العام من غير أن يستدعي منّا اهتماماً مُحدداً في ذاته. هذا التعديل الذي أدخل على نظريات كوليردج في التناسق العضوي له أهمية بالغة، ويُمكن اعتباره أفضل تجسيد لنظريته عن الفضاء.

كان إدغار ألن بو يكتب وفق مبدأ الثنائية. هذا القانون نراه واضحاً في «أوريكا!» في تركيزها على عنصري الجذب والطرد، المُفرد والجمع، المادة والروح. إنّ المؤلف والقارئ عنصران رئيسيان للثنائية، ممّا يُسفر عن توجّهات يتبعها المؤلف في الاندفاع غير المكبوح، وكثافة الاعتراف، والأسرار الغامضة التي يكشف عنها ربما ضمن حادثة قصيرة في بضع كلمات محمومة. لكن الازدواجية المُفترضة لاستعمال السرد بصيغة المُتكلّم هي الأساس الوحيد لكثير من الثنائيات التي ستأتي تباعاً. في قصة «متزنغيرشتاين» هُناك عائلتان بينهما حالة عدوانية مُتوارثة، تتمثلان في فارس وحيد يعدو على حصان يبتلعه فيما بعد حريق هائل؛ وفي قصة «بيرينايس» السارد تستبد به الهواجس بشأن ابنة عمته المُحتضرة؛ وفي «موريلا» و«لايجيا» أمثلة على تناسخ الأرواح؛ هُنا يأتي اللعب على الازدواجية يتلقّى نهاية تُعبّر عن تناسخ الأرواح. الجذب والطرد قوتان

رئيسيتان في عالم إدغار ألن بو، وبطلاته المجنونات يُعانين من انفصام الشخصية.. ينجذبن إلى القوى الطاردة نفسها.

ربّما كانت أكثر شخصيات إدغار ألن بو التي يبقى القارئ يتذكّرها والتي تُعاني من الانفصام هي شخصية وليم ولسون، في أدوارها المُتغيرة التي تتلوّن مع تلوّن الذات والضمير، ذلك البطل الذي في النهاية يواجه صراعاً بين الذات والذات فيقتلهما معاً.. «لقد انتصرت، وأنا أستسلم». هكذا يتلقّى وليم ولسون الخطاب بصوت يُردد صدى صوته هو.. «ومن الآن فأنت ميت أيضاً.. ميت في نظر العالم، في نظر السماء، وفي نظر الأمل! كنت موجوداً في داخلي.. وفي موتي، انظر إلى هذه الصورة، وهي صورتك.. كيف قتلت نفسك.. وكما في أوريكا!» فان اتّحاد العناصر المُتنافرة، الجسد والروح، يؤدي إلى انتهاء الكل. قانون الثنائية هو قانون انفصال، أو تشتّت الصدى. ومع ذلك فهو مبدأ اشتراك المُتضادات في معضلة تُثير الشكوك تشتبك أجزاؤها في حالة تُثير السخرية تماماً. إنّ نقطة انغلاق الحلقة تتبدّد، لأنَّ الوحدة المُطلقة هي حلقة من حلقات العدم، تتمثل في الموت. من خلال إبقاء الثنائيات مُتنافرة فقط يُمكن للحياة أن تستمر. فالاتصال يعني الدمار.

مرة أُخرى تُعتبر قصة «سقوط صرح أوشير» أفضل تجسيد فينومينولوجي لقصة «أوريكا!» الحكاية بشكلها النهائي تصارع للثنائيات، فهي تبدأ بالسارد وزميله السابق من أيام الدراسة، رودريك أوشير، وتنتهي برودريك وأخته التوأم، مادلين، آخر من تبقّى من سُلالة العائلة، والتي تموت بين ذراعي أخيها؛ هُنا تتشكّل وحدة لها علاقة بالموت تؤدي إلى انهيار مُريع لمنزل أسلافهم. القصر يبدو لنا على الفور تركيبة مادية ورمزاً لعائلة أوشير المُنقرضة أو ما تبقّى من عالمٍ يجري تصويره بكلمات كأنها نبوءة عن المصير المُرعب الذي تنتهي به الحكاية. تجري المشاهد في أرض خراب ذات حافات رمادية، وأشجار مُتداعية، وعيون تُحملق من شرفات خاوية إلى بحيرة جبلية مُعتمة تُحيط بالقصر. تبدو بعض عبارات إدغار ألن بو وهو يُعيدها مرات كثيرة ليؤكد على الإيحاء المطلوب، هُناك حافات، وأشجار، وعيون كالشرفات تنعكس على البحيرة الجبلية.

حين ينظر السارد لأول مرة إلى القصر، يُقنع نفسه بوجود شيءٍ مُريب يرتبط بالمنظر، غرابة أجواء المكان، كالوباء أو البخار الصوفي، كآبة، غثيان وكسل، لا يكاد يُدركه العقل، يحمل تدرجات ألوان الرصاص. هذا البخار الفريد للفساد والتعفن يُعزز الجوانب الخارجية للمبنى الذي تُغطّيه نباتات فطرية، لم تسقط منه أي كتلة من الحجارة، ومع ذلك يبدو أنّه انعكاس للتفكك في مُكوناته التي لا تزال قائمة، ممّا يعكس الحالة المُتداعية لحجارته كلّ على انفراد. لكن المبنى يبقى صامداً، مع وجود تصدّع بالكاد تراه العين.. يمتدّ من السقف إلى الواجهة ويشق طريقه نزولاً على الجدار باتّجاه مُتعرّج حتى يضيع في مياه البحيرة.

هذه الحالة من التصدع والانهيار الوشيك تشترك فيها الشرفات التي كالعيون مع ساكنها رودريك أوشير الذي يُعاني في هيكله المادي والعقلي انهياراً سريعاً. بإزاء هذا التقابل بين الذعر من المُستقبل، والتوجّس من دمار الحاضر يعزو أوشير كل ذلك إلى تأثير غامض للمبنى. يقتنع بأنّ شكل وجوهر منزل العائلة له تأثير مُدمر على الروح.. تأثير المادة على العقل، والجسد على الروح.. تبادل الأدوار بين الثنائيات شيء جوهري في قصة «أوريكا!» أيضاً. وكذلك تشترك أخته مادلين بدورها في حالة التداعي، فهي ضحية مرضٍ مُزمن، ودمار وشيك. في تواصلٍ بين الذات والمنزل المُتداعي يُشير أوشير إلى غموض تجريدي في الحالة العمرانية تتجلّى في دهاليز مُضاءة تحت الأرض كتب عنها قصيدة «المنزل المسكون»، يُصور العقل البشري فيها بمُصطلحات معمارية. هُنا يتذكر المرءُ تلك الشرفات التي كالعيون المُتلصصة تحملق من الأعلى في انعكاس صورتها على البحيرة الجبلية.

الكارثة التي تحصل في نهاية القصة.. والتي تعود فيها الأخت المدفونة قبل مماتها لمواجهة أخيها بالاتهام، فتتعثّر وتسقط عليه فيكون مصيرهما الموت معاً بينما تعوي الريح في الخارج وتنعكس أضواء فسفورية على جدران المنزل.. كل هذا يذكّرنا بذعر رودريك من التأثير الصامت للبناء الذي، مع موت التوأمين التعيسين، يتقوّض في لحظةٍ مُرعبة.

هذه النهاية، بمأساويتها وعنفوانها وبما تحمله من مضامين كونية، يتردد

صداها في قصةٍ أُخرى كتبها إدغار ألن بو في السنة نفسها، هي «مُحاورة أونوس وشارميون». في نهاية هذه القصة نرى الضوء الوحشي نفسه.. والصوت نفسه، لكن هُنا يحدث الدمار الذي يحلّ بالعالم كله، وليس بمنزلٍ واحد، وكأنما هو صوت إلهي..

مرة أُخرى، هذا التصميم على الثنائيات يعني الموت، فالكلمات تتصادم ضمن حيّزٍ من العدم، لأنّ إدغار ألن بو يعني بالثنائية الفراغ والخواء، التي تتألف من أجزاء مُتماسكة تجمعها إرادة الفنان، سواء أكان بصورة إله أم بصورة إنسان. إنّ «سقوط صرح أوشير» هي قصة وتركيبة بناء في وقتٍ واحد يتقوّض في صورة تنعكس على مرآة بشعة هي صورة إدغار ألن بو نفسه.

كان إدغار ألن بو ابناً لمُمثلين. أُمه إليزابيث ولدت في إنكلترا، وكانت مُمثلة بارعة، رغم أنّها لم تلفت أنظار النقاد إلا نادراً، قبل وفاتها بوقت قصير. أما أبوه، ديفيد بو، فكان مُحامياً من بالتيمور تحول إلى مُمثل لم يقتنع أحد بأدائه. كان له موقف من المسرح لم يستطع تجسيده عملياً. يبدو أنّه كان يعشق مُجرّد فكرة أنْ يُصبح مُمثلاً، تماماً مثل ابنه الذي طالما عشق أن يؤدي دور الشاعر، مع أنّ إدغار ألن بو كان موهوباً في النثر ربما أكثر من الشعر. لقد أطلق عليه إمرسون «الجرس المجلجل»، وحتى هذا الوقت يصعب على المرء أن يشعر بالحماس لشاعريته، اللّهم إلا في قصيدته «أولايوم» وبعض القصائد الأُخرى.. ربما كان هذا قدره كشاعر مع النقاد أو القراء قياساً إلى شعراء مُعاصرين له في بريطانيا من أمثال تينيسون، وبراوننغ، وباريت. لكن حين يتعلّق الأمر بالقصة القصيرة، لا يوجد مُنافس له من المُعاصرين في إنكلترا، وحتى هوثورن، كسيّد لهذا الشكل، يحتل مرتبة أدنى من إدغار ألن بو في العبقرية، إن لم يكن في الشهرة. كان ملفل وحده من بين الكتّاب الأمريكان قادراً على تحدّي عبقرية إدغار ألن بو، وملفل اصغر منه بعقدٍ من الزمن.

ولد إدغار ألن بو في سنة 1809، بينما كانت الولايات المُتحدة تُجرجر أذيالها بعناد لتخوض صراعها المُسلح الأخير مع بريطانيا العظمى. من أجل أن نضعه في سياق عصره، في تلك السَّنة كان فينيمور كوبر يعمل بحّاراً في

الأسطول الأمريكي، كان يجلس ويُفكر خارج نطاق الزمن في محطة على بُحيرة أونتاريو يتأمل مشاهد الحرب التي قدّر له ألّا يُشارك فيها ليضعها ضمن رواياته البحرية؛ وكان تشارلس بروكدين براون يعمل تاجر خردوات، وفشل في مُحاولاته أن يكسب عيشه كروائي وصحفي، وخلال سنة بعد ذلك يكون قد مات، تاركاً تاريخاً أدبياً هامشياً، (ربّما كان مصدراً لإلهام قصة «الحفرة والبندول»). كان إدغار ألن بو يقترض الكثير من المال من براون أكثر من أي كاتب آخر.. ونشر إيرفنغ قبل مدة قصيرة روايته الذائعة الصيت (تاريخ كنكربروكر لنيويورك) وفقد حبيبته ماتيلدا هوفمان، ذلك الحادث الذي راح يتداوله طوال حياته كعذر لعدم الزواج وكتبرير لاعتباره موضوعاً أساسياً في كتاباته اللاحقة، موت امرأة في مُقتبل العمر.. تلك الثيمة الوجدانية التي سوف يرجع إليها إدغار ألن بو دائماً في نهايات قصصه. وكان إمرسون في السادسة من عمره، وهوثورن في الخامسة، ولونغفيلو ووايتر في الثانية.

كانت فكرة إدغار ألن بو عن ربة الإلهام الدائمة البكاء مُستمدة من الرحيل المُبكر لوالدته، التي ماتت بمرض السل.. حين كان ابنها الثاني في الثالثة من عمره.. وهي حادثة أجازت له مُطولاً وعلى نحو مُتكرر أن يتناول صدمة رحيل الذين يُحبهم. إذا قلنا: إنّه لم ينسَ موت إلزا أبداً فتلك استهانة بالأمر. بحسب قول كينيث سلفرمان، الذي كتب ما سوف يظل، على الأقل بالنسبة لهذا الجيل، السيرة الدقيقة للكاتب، لم يكن هوسه بموت الجميلات في مُقتبل العمر مُستلهماً بالضرورة من موت إلزا، الفاجعة الأليمة التي تحمل انعكاسات من عقدة أوديب. ثم ما لبثت أن أصبحت كراهية الأب في حياته شيئاً واضحاً بسبب إهمال أبيه الحقيقي، فضلاً عن الإهمال القاسي (كما رآه بو) من والديه بالتبنّي، وخصوصاً من جانب ألن، على الرغم من أنّه كان يتظاهر بالعكس عبر عباراتٍ زائفة كانت تُضيف وقوداً إلى أحاسيسه المُلتهبة.

لقد حصل إدغار ألن بو على فرصة التبنّي الذي يُمكن أن يُسميه كلّ شخص (ومنهم جون ألن) حالة تحقق له آمالاً عريضة، اتّضح أنّها كما في رواية ديكنز سلسلة من خيبات الأمل. كان ألن نفسه، ذلك الرجل العصامي، يمتعض من

أعماله الخيرية التي تأتي دائماً في غير محلّها المُناسب، وكان ذلك ينعكس باستمرار على طريقة تعامله مع وريثه الذي تبنّاه، مما أدّى إلى أنواع من البخل كان لها دور سلبي على الصبي الموهوب. ويبدو أنّ بو من جانبه كان لا يشك في أنّه سوف يحصل على ذلك الميراث الموعود الذي كان يُثير عاصفة من التذمر، ومُراسلاته نفسها مع ألن لطالما زخرت بالتملّق، والعويل وطلبات المزيد من النقود، مع تذكيره باستمرار أنّه لم يطلب منه أن يتبنّاه، وأنّه أعطاه وعوداً أكثر ممّا نفذّها، وأنّه لا يلقى التقدير والاحترام الذي يستحقّه، وأنّه كثيراً ما يُساء فهمه، إلخ.. تلك الرسائل التي تُثير الضجر لدى القارئ. لا يُمكننا أن نعرف الآن أي نوع من الأشخاص يُمكن أن يُصبح إدغار ألن بو لو أنّ أباه الحقيقي وأمه لم يفارقا الحياة، أو كان أبوه بالتبنّي أكثر كرماً، غير أنّ تلك الرسائل المُبكرة شكّلت سابقة تعيسة؛ كان بو طوال حياته القصيرة كاتباً بارعاً يعرف التلاعب بقلمه لتحقيق مآربه، من خلال صياغة الرسائل التي يتوسّل فيها لكي يقترض الأموال التي يُحافظ بها على مُستوى لائق من الحياة.

مثلما كان يتلاعب في اسمه بصيغ مُختلفة، يبدو أنّه لم يستقر على اسم بعينه، فكان أحياناً يُسمي نفسه *Po'* اختصاراً لكلمة «الفقير» *poor* كما ينطقها سكان الجنوب من أصحابه. لقد ولد فقيراً، ومات فقيراً، وباستثناء الفترة التي عاش فيها تحت رعاية ألن، لم يعرف أكثر من عدة أسابيع لم يكن يبحث فيها يائساً عن نقود كافية ليُسدد بها ديونه. كانت الأوقات الصعبة التي عاشها شخصياً تعكس الأوضاع العصيبة للبلاد؛ خلال السنوات العشرين التي زاول فيها إدغار ألن بو حياته المهنية، تلك الفترة التي حاول فيها أن يكسب قوت يومه بمُمارسة الكتابة والتحرير في الصحف، كانت الولايات المُتحدة تُعاني من سلسلة إحباطات، وتذبذب الحالة الاقتصادية بعنف بعد أن وضع ألكسندر هاملتون سيناريو مُستقبل بلاده. كانت الخدمات العامة في أسوأ حالاتها، والأوبئة مُنتشرة مثل الكوليرا في المدن، وكان الكابتن جون براون، أحد أصدقائه المُقربين، قد طرد من عمله (وربّما أدّى ذلك إلى إصابته بالجنون أيضاً) بعد فشله المُتكرر ضمن منظومة الرأسمالية. في عام 1849، السّنة التي توفي فيها بو، تقاعد براون مع أبنائه واستقرّ في مزرعة في نورث ألبا، نيويورك؛ وهُناك راح يُفكّر في خطة

لتحقيق حلمه أو كابوسه الأسوأ الذي يُشاركه فيه أغلب أبناء الجنوب في سنة 1840 وما بعدها؛ كل ذلك كان مُتزامناً مع تمرّد العبيد الذي يُهدد بتدمير الاقتصاد الهش لمزارع الولايات التي تقع تحت خط سكك حديد ماسون ديكسون.

تلك المخاوف يتمّ تناولها في شيء من الامتعاض في نهاية رواية إدغار ألن بو الوحيدة السوداوية (حكاية آرثر غوردن بايم)، مع أنّ مُعظم قصصه ليست على وجه الخصوص «جنوبية» الهوى قدر تعلق الأمر بأي خصائص مُحددة. ولكن يُمكن القول: إنّ بو كان حتماً جنوبياً من خلال عنصريته الخفية وتظاهره بالكياسة مع الآخرين، وحتى تظاهره بانحداره من أصل أرستقراطي. مثل كثير من الجنوبيين الذين كانوا مُعاصرين له.. ومثل مارك توين، الذي كان يُشبهه أكثر ممّا يتصور المرء.. حين كان إدغار ألن بو يحصل على بعض النقود، لم يكن يتردّد في أن يصرفها فوراً على ملذّاته. كانت العوائد البسيطة التي حقّقها من هذه القضية أو تلك ينفقها في طقم شاي فضي ثمين، حين كان يعيش مع عروسه في كوخهم المُستأجر تلك الحياة التي تصوّر أنّها مُترفة ولو للحظات قصيرة. كانت لديه فرص قليلة لمثل هذه الحياة، لكن التجارب اللاحقة من شأنها أن تثبت ما هي الفرص التي يُمكن أن تنتظره لو جعله ألن وريثاً له؛ وفقاً لتلك المعايير لا شك أنّها تُعيده إلى الفقر.

غير أنّ هاجس الغربة عن الوطن الذي يعيش فيه، والحدود الضيقة التي كان يريد تجاوزها، وهذه الخصائص المحلّية لم تكن لتسهم كثيراً في تغيير نمط أعماله الأدبية.. القصائد والقصص التي كتبها إمّا أن تجري حوادثها في أماكن غريبة من وحي خياله، أو في أوروبا. لقد أمضى شطراً من شبابه في إنكلترا مع والديه بالتبنّي، وهُناك انتمى إلى مدرسة خاصة (وفقاً للمعايير الأمريكية)، إلّا أنّ الأماكن الأوروبية في قصصه نادراً ما تكون مُستمدة من التجربة.. بل من قراءاته الواسعة. لقد أظهر سوليفان إلى أي مدى كان إدغار ألن بو يستمد التفاصيل والحبكات.. وحتى فقرات كاملة.. من كتب غيره، ذلك النوع من الاقتباسات التي لا يُشار إلى مصادرها من السهولة في الواقع العثور عليها في كتاباته إذا ما فكّر

المرء في اقتفاء أثرها في أماكن مُتفرقة. كان يقتبس باستمرار مقاطع وفقرات ربما كانت صغيرة أو ينسخها، حتى إنّه اتّهم المسكين لونغفيلو بسرقة أبيات شعرية من الآخرين.. ومنه هو شخصياً.

هُناك أشياء كثيرة في كتاباته يُمكن القول: إنّها أقرب إلى الهلوسة، فالجزء الأساسي من أُسطورة إدغار ألن بو يتمثّل في حقيقة تعاطيه للكحول، ذلك المرض الذي أدّى إلى موته البائس المُذل. وهُنا أيضاً ينير سوليفان بصيرتنا؛ على الرغم من أنّه لا ينكر مُشكلة الكحول، إلا أنّه يرى أنّ ذلك هو شأن البوهيميين في ذلك الزمن كما هو الآن. إلى جانب كثير من الشائعات التي تناقلها الناس حول تعاطيه للأفيون أيضاً، وهي غير مؤكدة، فمُشكلة الكحول هي مفتاح مأساته الشخصية، ومن الملامح الأساسية للصورة التي لدينا عن الكاتب. كان تناول الكحول، إلى جانب هاجسٍ يُلح عليه أحياناً للعب القمار، من العناصر التي تُميز فترة إقامته القصيرة في جامعة فرجينيا، والتي مهّدت لعقدة اضطهاد الذات لاحقاً.

ولكن ماذا عن السنتين اللتين قضاهما إدغار ألن بو في الجيش عقب طرده من الكلية، وفترة قصيرة أمضاها في بوسطن، حيث كان يُحاول تدبر تكاليف طباعة أول كتاب يصدر له، في طموحٍ بايروني، (تامرلين)؟ على الرغم من أنّه كان في ذلك الوقت مُجنداً، إلّا أنّ الأمر لم يخلُ من منحه مسؤوليات مُهمة، وسرعان ما ترقّى إلى مناصب أعلى، حتى صار قريباً من رتبة ضابط احتياط. لكن يبدو أنّه لم يكن يتمتع بموهبة القيادة أو القدرة على الابتعاد عن القمار والكحول حين كان موقعه يتطلّب استقراراً عائلياً. كانت المهنة التي عمل فيها لاحقاً في ويست بوينت.. وحصل عليها بمُساعدة جون ألن.. حقّقت له ما يكفي من النجاح، حتى تزوّج ألن الذي كان أرملاً وقتذاك ورفض تقديم أي مُساعدة مالية، بحجة إخفاقاته الماضية. ورد عليه الابن بالتبنّي بأن أهمل واجباته التي نجح فيها سابقاً، ممّا أدّى إلى مُحاكمته وطرده.

من الواضح كما يرى سوليفان، أنّ نجاح إدغار ألن بو في الجيش، كان يُمكن أن ينتعش في بيئة مُستقرّة إلى حد ما، وهي حقيقة تُفسّر أيضاً «فلسفته في الكتابة» كما كان يُسميها. كان يقول دائماً: إنّ قصصه وقصائده تهدف لأن تخلق

تأثير الصدمة التي يرغب في أن يتركها على القراء.. فهي تستعرض طاقاته في التحكّم بموارده الإبداعية، وعلى نحو آخر فلها تأثيرٌ يبقى مُستمراً على الجمهور. ولأنّه كان يفتقر إلى القدرات المادية والنفسية للتحكّم بحياته الشخصية، كان يستغلّ مواهبه الفنية لتشييد عالمٍ مُصغّر يستطيع الهيمنة عليه ولا يُنازعه فيه أحد. كان يُفضّل كتابة قصص قصيرةٍ تُتيح له مُمارسة هيمنة مُطلقة على الصنعة التي يسعى للارتقاء بها، وحتى مُحاولته الوحيدة لكتابة رواية «آرثر غوردن بايم» هي أساساً سلسلة من الحلقات المُفبركة التي تفتقر إلى خطةٍ مُتقنة حاول فيها مُحاكاة تلك الرواية الأمريكية عن الحياة على مركبٍ لصيد الحيتان، (موبي ديك).

ربما يُمكننا أيضاً أن نُقارن بين شخصيات آرثر بايم وإسماعيل الأرستقراطي، والشاب البايروني في نوازعه والذي يحظى بالامتيازات، والرحالة الديمقراطي الأمريكي، كلها تظهر بعناية شخصية مُستمدة من سيرة ذاتية. ملفل نادراً ما كان ينسجم مع مُعاصريه.. لم يكن أبداً، حتى بعد كتابة (تايبي) كاتباً معروفاً.. يبدو أنّه كان على الأقل منبوذاً ويُتهم بالشذوذ الجنسي. ولكن في تفاصيل حياته الشخصية.. زواجه، أطفاله، شراء وإدارة مزرعة، وبالتالي تولّيه منصباً في إدارة الجمارك.. كان ملفل يُشبه هوثورن كثيراً على الأقل فيما يتعلّق بالمهنة والحياة العائلية. أما إدغار ألن بو فلا ينتمي إلى شيء من ذلك. في سلوكه الشخصي كان يبدو غريباً عمّن حوله بكل معنى الكلمة. إنّه يُمثّل الإنسان المجهول دائماً بالنسبة إلينا، ذلك الغريب الذي ولد في الجوار ويُقيم في الجوار؛ كان يؤكد اختلافاته معنا، نحن القراء، كما يؤكد اختلافه عن كل مُعاصريه، في الواقع كان ذلك الغريب يصنع فناً جميلاً من مادة الاختلافات.

مع حلول سنة 1831، حين طرد إدغار ألن بو من ويست بوينت، كان قبل ذلك قد نشر مجموعتين من أشعاره.. «تامرلين» و«العرّاف»، وعندما كان في سن مُبكرة نسبياً، أي: في الثانية والعشرين اقتنع أنّ الشعر ليس وسيلة يعتمد عليها في كسب العيش. وبعد أن حرمه أبوه بالتبنّي من الميراث، اضطر لتعديل ميوله الأرستقراطية أو الرومانسية وأن يتماشى مع مُتطلبات السوق وأذواقها في مجال القصة، فدخل عالم تحرير المجلات والكتابة التي لم يتركها حتى وفاته بعد ست

عشرة سنة. كان ذلك بالنسبة إليه عالماً غريباً، ومع ذلك فمواهبه كمحرر كانت تبدو مُذهلة. هذا التعديل على المسار لم يكن سهلاً أبداً بالنسبة إليه، بل كان مؤلماً رغم نجاحه في زيادة مبيعات الدوريات التي كان يعمل فيها، إذ كان يُعاني باستمرار من متاعب مع الناشرين بسبب نوبات الإدمان على الكحول التي تؤثر على سلوكه الشخصي. ولكن إلى حدٍّ ما كان لعمته دورٌ في ديمومة الاستقرار، تلك المرأة الحنونة السيدة كليم، وابنتها فرجينيا التي أصبحت زوجته وهي في الرابعة عشرة من عمرها. لكن ملاذه الوحيد أصبح بالتالي مصدر عذابٍ له حين أُصيبت فرجينيا بمرض السل وماتت على مراحل بطيئة، في حادثة أعادت إليه مأساة رحيل أمه، وأكملت فصول حياته الحزينة.

رغم هذه التوترات التي أُضيف إليها قلة الأموال التي كان يتلقّاها، تمكّن إدغار ألن بو أن يصل إلى مكانة مرموقة في عالم المجلّات الأدبية. من خلال قدراته في التحرير، فضلاً عن قصصه، وقصائده، ومقالاته، تمكّن أن يُلبي مُتطلبات اشتياقه للأرستقراطية ونزوعه المحموم للنظام الذي اختطّه لنفسه أيضاً. إذا ألقينا نظرة على عددٍ من المجلات التي كان يُشرف على تحريرها، سواءً كانت «ساوثيرن ليتراري مسنجر» أو «غراهامز»، لا بدّ أن نكتشف كم كان ناجحاً في الإبقاء على سرية شخصيته في الوقت الذي كان ينقل وسائل الترفيه الثقافي إلى الأمريكيين من الطبقة الوسطى. هُناك، في خضمّ طنين القصص التي كان يُقدمها كتاب ناشئون.. ومن المُحترفين الذين لديهم ذوق للإنتاج الفني.. ووسط ثرثرة الشعر الوجداني لزوجات ضجرات، وربما بعض رنين الفلسفة الأخلاقية التي تُقدّم على مضض من أستاذ في مدرسة للبنات، والألوان البراقة التي تضفيها عبقرية إدغار ألن بو التي تقف وحدها كأنها ياقوتة حمراء مغروسة غرساً في الرصاص. لقد اقتنع باللجوء إلى منطقة نائية من العقل، مُستخلصة من الذاكرة والخيال، مُلطخة بسوداوية حالة هجينة بين النوم والوعي. على هذا الساحل المُثير للنشوة، كان ينتشل البقايا المُتناثرة من السفن، وكان سيداً لكل الأشياء التي يُمسكها.

لقد نجح إدغار ألن بو كمحرر لمجلّات تلاقي رواجاً، من خلال إسهاماته

في تلك الدوريات نفسها وحقّق بذلك وضعاً مُعاكساً لطموحاته الحقيقية. لقد أُحبطت تطلعاته الشعرية، وصمّم على انتقامٍ غريب، وعبّر عن عبقريته بتشييد صروح مُشفّرة حفرها بإزميل «جرائم على جادة مورغ»، وحلّل رموزاً سرية، «الخنفساء الذهبية»، وخدع قراءه في «خدعة المنطاد»، وهز أحاسيس الطبقة الوسطى بحكاياته المُرعبة عن التعفن والموت «قضية م. فلاديمير»، وكان يُهاجم بضراوة الكتاب الذين لديهم موهبة ويمدح الذين يفتقرون إليها «الحياة الأدبية للسيد ثنغوم» وينتقم بسلاح الغموض ويتجاهل المسائل الشائعة ويصول على المجتمع في عنادٍ لا يلين.

في قصائده ومقالاته ومُناوراته الفلسفية البائسة، بقي المبدأ الذي يؤمن به كما هو، منسوجاً من وعي كاتبٍ يجلس وحيداً في غرفته يُلقي نظرة إلى نفسه في المرآة. كما لو أنّ عالمه الإبداعي كان مُقيداً بقشرة قوقعة من أحلامه السوداوية التي تدور كالحلزون أينما دارت الهواجس المُرعبة التي تعني الحقائق الوحيدة التي يُعوّل عليها. كان يكتب بسرعة عجيبة، مُحاولاً أن يُحافظ على كرامة رثة وعلى عقلٍ حصيف وسط دوامةٍ مريرة من الديون التي تثقل كاهله ونوبات السكر والعربدة، وخارج كل ذلك، خارج الحرمان من الثروة الموعودة، خارج الخلافات مع الناشرين والمُحررين، خارج إحساسه بأن الجميع يتخلّون عنه.. خارج الانسحاق بين جدران الديون والرفض، تمكّن إدغار ألن بو من تشييد مادة إبداعية في صنعته التي قيّض لها إصراره وحده أن تحقق الانتصار. ليس ممّا يُثير الاستغراب أن يكون العالم الحقيقي للكاتب وعالم الفن شيئاً واحداً؛ أن يعتمد الوجود على توازنٍ رقيق في القوى؛ أن تتحرّك كل الأشياء بشكل غير منظور باتّجاه وحدة تامة قبل أن تتعرّض للإبادة، ذلك بالنسبة إليه، كما تصوّر بطله، رودريك أوشير، يعني الموت.. إيقاع لا يُطاق لموسيقى مُضخمة آلاف المرات.

جون سيلاي

ببليوغرافيا مُختارة

دراسات عن حياة إدغار ألن بو

Hervey Allen, *Israfel: The Life and Times of Edgar Allan Poe,* Farrar & Rinehart, New York, 1926.

Marie Bonaparte, *Edgar Poe, sa vie - son oeuvre: etude analytique,* Denoel et Steele, Paris, 1933. Translated (1949) *The Life and Works of Edgar Allan Poe, a Pscho-Analytic Interpretation.*

Una Pope-Hinnessy, *Edgar Allan Poe, A Critical Biography,* Macmillan, London, 1934.

Arthur Hobson Quinn, *Edgar Allan Poe, A Critical Biography,* Appleton-Century, New York, 1941.

Vincent Buranelli, *Edgar Allan Poe,* Twayne Publishers, New York, 1961.

Edward Wagenkneght, *Edgar Allan Poe: The Man Behind the Legend,* Oxford University Press, New York, 1963.

Kenneth Silverman, *Edgar A. Poe: Mournful and Never-ending Remembrance,* Harper Collins, New York, 1991.

دراسات نقدية

Joseph Wood Krutch, *Edgar Allan Poe, A Study in Genius,* Alfred A. Knopf, New York, 1926.

Patrick F. Quinn, *The French Face of Edgar Poe,* Southern Illinois University Press, Carbondale, 1957.

Edward Davidson, *Poe, A Critical Study,* Harvard University Press, Cambridge, 1957.

Daniel Hoffman, *Poe, Poe, Poe, Poe, Poe, Poe, Poe,* Doubleday, New York, 1972.

David Halliburton, *Edgar Allan Poe, A Phenomenological View,* Princeton University Press, Princeton, 1973.

G. R. Thompson, *Poe's Fiction: Romantic Irony in the Gothic Tales,* University of Wisconsin Press, Madison, 1973.

J. Gerald Kennedy, *Poe. Death, and the Life of Writing,* Yale University Press, New Haven, 1987.

مجموعات من المقالات

Warren U. Ober, ed., *The Enigma of Poe,* Heath, Boston, 1960.

Eric W. Garlson, ed., *The Recognition of Edgar Allen Poe,* University of Michigan Press, Ann Arbor, 1966.

Robert Regan, ed., *Poe, A Collection of Critical Essays,* Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1967.

William L. Howarth, ed., *Twentieth Century Interpretations of Poe's Tales,* Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1971.

مناقشات مهمة

D. H. Lawrence, *Studies in Classic Literature.* Thomas, Seltzer, New York, 1923; Penguin Books, 1971.

Perry Miller, *The Raven and the Whale: The War of Words and Wit in the Era of Poe and Melville,* Harcourt Brace, New York, 1956.

Harry Levin, *The Power of Blackness,* Alfred A. Knopf, New York, 1958; Vintage Books, 1960.

Joel Porte, *The Romance in America,* Wesleyan University Press, Middletown, Connecticut, 1969.

Leslie Fiedler, *Love and Death in the American Novel,* Criterion Books, New York, 1960; Meridian Books, 1962.

Edwin Fussell, *Frontier: American Literature and the American West,* Princeton University Press, Princeton, 1065.

David Reynolds, *Beneath the American Renaissance: The Subversive Imagination in the Age of Emerson and Melville,* Alfred A. Knopf, New York, 1988.

الطبعة التي اعتمدنا عليها لأعمال إدغار ألن بو هي نفسها التي تولى تحريرها جيمس أ. هاريسون (1902). أما المراسلات فهي من تحرير جون وارد أوستروم، وجمعها في كتاب (رسائل إدغار ألن بو)، 2ج.، مطبعة غورديان، نيويورك، 1966.

حوادث مهمة في حياة إدغار ألن بو

1809 ولادة إدغار ألن بو في بوسطن، 19 كانون الثاني، ابن الممثل ديفيد بو والممثلة إليزابيث.

1811 موت إليزابيث بو، ويتبنّاه جون ألن وهو تاجر تبوغ من ريشموند، فرجينيا.

1815 ينتقل ألن إلى إنكلترا. ويدخل إدغار مدرسة في لندن.

1820 تعود عائلة ألن إلى ريشموند. يتابع إدغار دراسته في مدارس خاصة.

1824 إفلاس شركة ألن.

1825 يرث ألن ثروة عمه. يتقدم إدغار لخطبة الميرا رويستر.

1826 يدخل جامعة فرجينيا، ثم يتركها.

1827 يلتحق بالجيش الأمريكي. وينشر قصة «تامرلين».

1829 وفاة السيدة ألن. نشر قصيدة «العراف».

1830 يلتحق بالأكاديمية العسكرية الأمريكية «ويست بوينت». ويتزوج ألن مرة أُخرى.

1831 يُحاكم عسكرياً ويُطرد من الأكاديمية. ينشر مجموعة «قصائد» الطبعة الثانية. ويرحل مع عمته ماريا غليم وابنتها من فرجينيا، ريشموند.

1832 تنشر خمس قصص له في فيلادلفيا مجلّة (ساتردي كورير).

1833 تفوز قصته (رسالة في قارورة) في مسابقة «ساتردي فزتر» في بالتيمور.

1834 تظهر قصة «الوهم» في «كتاب الليدي غودي». يموت جون ألن.

1835 يبدأ اتصالاته مع مجلّة (ساوثيرن ليتراري مسنجر). وينتقل إلى ريشموند مع ماريا وفرجينيا غليم.

1836 يتزوج فرجينيا. يُحاول دون فائدة العثور على ناشر لقصصه القصيرة.

1837 يترك العمل في مجلة (مسنجر)، وينتقل إلى نيويورك لكنه لا يجد عملاً. تفتتح ماريا بنسيوناً.

1838 تُنشر روايته (حكاية آرثر غوردن بايم). وينتقل مع عائلته إلى فيلادلفيا.

1839 يُقيم علاقات مع مجلّة (جنتلمان) التي يرأسها برتون. ينشر قصصه القصيرة (الحكايات).

1840 تسوء العلاقة مع برتون، يطرد من مجلّة (جنتلمان) التي يتحوّل اسمها لاحقاً إلى مجلّة (غراهامز) ويُشارك فيها بكتاباته، يُخطط لإصدار مجلّة خاصة به بعنوان (بن).

1841 يعمل مُحرراً في مجلّة (غراهامز) ويستمر في مُحاولات إصدار مجلّة (بن).

1842 يستقيل من العمل في مجلّة (غراهامز).

1843 يتقدم ليشغل عملاً إداريًا في مؤسسة تايلر، لكنه يخسر الفرصة بسبب تعاطي الكحول. يُخطط لإصدار مجلّة جديدة (ستايلس). تفوز قصة «الخنفساء الذهبية» بجائزة مُسابقة مجلّة (دولار). تصدر أُولى (وآخر) كراسة من (كتابات إدغار أ. بو النثرية).

1844 ينتقل إلى مدينة نيويورك. تظهر قصته «خدعة المنطاد» في صحيفة «نيويورك صن». ينضم إلى كادر صحيفة «إيفننغ ميرور».

1845 تُنشر قصيدة «الغراب» في صحيفة «إيفننغ ميرور». تنشر دار «وايلي أند بوتنام» (حكايات) و (الغراب وقصائد أُخرى). يشتري مجلّة (برودواي) ويشتكي ضد فرانسيس سارجنت أوسغود، ويتّهم لونغفيلو بانتحال اسمه، ويوجّه إهانات إلى جمهور بوسطن أثناء قراءة قصيدة «العراف».

1846 يُصاب بالمرض، ويتسبّب فقره في التخلّي عن مجلّة (برودواي). وينتقل

مع عائلته إلى فوردهام، نيويورك. وهُناك تسوء حالة فرجينيا. ورغم مرضه، هو يتابع النشر في المجلّات، ويشتكي على مجلّة (إيفننغ ميرور) بتهمة التشهير. تترجم (الحكايات) إلى الفرنسية.

1847 موت فرجينيا. ثم يزداد مرضه سوءاً، وتتولّى رعايته السيدة كليم. ينشر قصيدة «أولالوم»، ويُخطط لكتابة «أوريكا».

1848 يستردّ صحته، ويدّعي أنّ إدمانه على الكحول كان بسبب مرض فرجينيا. يُلقي مُحاضرات من أجل زيادة دخله ولكي يصدر مجلّة (ستايلس). يشتكي ضد سارة وايتمان وترفض الدعوة. يكتب مقال «المبدأ الشعري»، وينشر «الأجراس»، «أوريكا!»

1849 يسعى إلى الحصول على دعم لإصدار مجلّة (ستايلس)، يُسافر إلى ريشموند. يتوقف في فيلادلفيا، وتبدو عليه علامات المرض. يحمله بعض الأصدقاء إلى المستشفى.. ثم يُتابع الرحلة إلى ريشموند. يخطب الميرا شيلتون. ويُسافر إلى نيويورك، ولكنه لا يتجاوز بالتيمور. يموت في 7 تشرين الأول.

1850 تُنشر له كتابات بعد وفاته «المبدأ الشعري»، «الأجراس»، «أنابيل لي».. تصدر الأجزاء الثلاثة الأُولى من (الأعمال الكاملة)، مع ذكريات كتبها عنه ر. و. غريسولد.

حكاية من أورشليم

وترك شعره الأشيب المنسدل يتدلّى

فوق جبهته المُكفهرّة...

لوكان... «فارساليا»[1].

[1] «فلنُبادر من فورنا إلى الأسوار»، صاح هابيل فايتم موجّهاً كلامه إلى بوزي بن ليفي وشمعون اللذين ينتميان إلى طائفة الفريسيين[2]، حدث ذلك في اليوم العاشر من شهر تموز، من السَّنة التي يشهدها عالمنا هذا: ثلاثة آلاف وتسعمائة وإحدى وأربعون.. «دعونا نُسرع إلى المتاريس المُحصّنة التي تُتاخم بوابة بنيامين في مدينة داود، فهي تُطل على مُخيم أولئك الهمجيين غير المختونين؛ لأنّها آخر ساعة من نوبة الحراسة الرابعة، وقد بزغ ضياء الفجر؛ والوثنيون، إنجازاً لوعد بومبي، لا بُدّ أنّهم ينتظروننا وقد جلبوا معهم حملان الأضاحي».

ويُذكر أنّ شمعون، وهابيل فايتم، وبوزي بن ليفي كانوا من رهط

---

(1) النصّ الاستهلالي باللّغة اللاتينية في الأصل:
Intensos rigidarn in frontern ascendere canos Passus era...
فارساليا: قصيدة ملحمية رومانية للشاعر لوكان تسرد وقائع الحرب بين يوليوس قيصر وقوات مجلس الشيوخ التي يقودها بومبي العظيم، ظهرت سنة 48 ق. م [المترجم]

(2) فريسيون: أعضاء رابطة سياسية وفكرية ظهرت في الأرض المُقدسة خلال ما يُعرف بفترة إقامة المعبد الثاني 140- 37 ق.م [المترجم]

الجيزباريم[3]، أولئك الذين يعملون مُساعدين لجامعي العطايا والنذور في مدينة أورشليم المُقدسة.

«ليس من شك في ذلك»، أجاب الفريسي؛ «هيا، فلنُسرع إذن، ذلك لأنّ مثل هذا السخاء المُفرط من أولئك البرابرة لا يبدو مألوفاً؛ وذلك التقلّب في المزاج يبقى على الدوام من صفات أولئك الذين يعبدون الإله بعل».

«إنهم أُناسٌ مُتقلّبو المزاج وغادرون فهذا شيء حقيقي تماماً مثل حقيقة البنتاتوش»[4]، قال بوزي بن ليفي، «مع أنّ ذلك لا يقع إلا في تعاملهم مع شعب الله. متى كان أفرادٌ من الأمونايت[5] حريصين من قبل على منفعتهم الشخصية؟ يبدو لي أنّ هذا ليس سيلاً وافراً من السخاء بحيث يسمح لنا بالحصول على القرابين من الحملان لمذبح الرب، وهم يستلمون ثلاثين قطعة من شيكلات الفضة ثمناً لذلك عن كل رأس!».

«ولكنك تنسى، يا ابن ليفي»، رد هابيل فايتم، «أنّ بومبي الروماني، الذي يطوّق الآن مدينة العلي القدير دون أدنى ورع، ليس لديه أي ثقة في أنّنا لن نستغل الحملان التي نشتريها للمذبح لإدامة الجسد، عوضاً عن إدامة الروح».

«الآن، اقسم بالزوايا الخمس للحيتي!» صاح الفريسي، وكان ينتمي إلى [2]جماعة تُدعى الداشرز (تلك الثلة من القديسين الذين يُشكل حرصهم على خبط أقدامهم بقوة على الأرصفة منذ زمن شوكة في الصدور ومصدرَ توبيخ لرهط أقلّ تحمّساً في التعصّب للدِّين.. أو ربما كان حجر عثرة لأشخاص أقل موهبة في التجوال وهم حُفاة القدمين).. «اقسم بالزوايا الخمس لتلك اللحية التي يُحظر عليّ ككاهن أن أحلقها!.. ترى هل عشنا لنرى اليوم الذي يتّهمنا فيه زنديق وثني

(3) جيزباريم: كلمة عبرية تعني «الجبارين» وردت في سفر التكوين 6: 4 [المترجم]

(4) البنتاتوش: الكتب الخمسة الأولى من التوراة: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية. [المترجم]

(5) الأمونايت: اسمهم مُشتق من «قرون آمون» لأنّ إله المصريين آمون كان يجري تصويره وهو يضع على رأسه قرون الكبش. [المترجم]

حديث النعمة من روما بأننا نُخضع أكثر العناصر قداسة ونبلاً في أرواحنا إلى شهوات الجسد؟ هل عشنا حتى نرى ذلك اليوم..»

«دعنا لا نتساءل عن دوافع الفلستيين»[6]، قطع عليه هابيل فايتم كلامه، «لأننا اليوم على كل حال نكسب لأول مرة شيئاً، سواءً من جشع ذلك الزنديق أو من كرمه؛ ولكن بدلاً من هذا فلنُسرع الخطى إلى الحصون، خشية أنّهم هُناك يحتاجون إلى العطايا في المذبح الذي لا تُطفئ نيرانه أمطار السماء، وأعمدة الدخان فيه لن تتمكّن أي عاصفة من تبديدها».

صوب ذلك الجانب من المدينة الذي يحمل اسم المعمار الذي شيّده، الملك داود، أسرع الآن الجيزباريم المُوقّر، وهو من أكثر المواقع تحصيناً ومنعة في أورشليم؛ لأنّه يقبع على تلّ صهيون الشاهق. هُنالك جرى حفر خندق دائري عريض، عميق الغور، شُقّ في قلب الصخور الصلبة، يُطل عليه سور دفاعي متين البنيان يشمخ فوق حافّته التي تواجه المدينة. تقطع هذا السور، على مسافات مُتباعدة مُنتظمة، أبراج مُربعة الشكل شُيّدت من الرخام الأبيض؛ طول البرج الأكثر علوّاً فيها مائة وعشرون ذراعاً. ولكن السور، على مقربة من بوابة بنيامين، لا يرتفع كثيراً عن قاع الخندق. على النقيض من ذلك، يفصل بين سطح الخندق وقاعدة السور المنيع جرفٌ صخري مُتعامد شديد الانحدار يمتد إلى مائتين وخمسين ذراعاً، فيُشكل بذلك جزءاً من جبل موريا الشاهق. حتى إذا وصل شمعون ومرافقوه إلى قمة البرج المُسمى أدوناي بيزيك، وهو أعلى من أبراج الهجوم كلها التي تُحيط بأورشليم، والمكان المُتفق عليه في العادة للاجتماع مع الجيش الذي يُحاصر المدينة، نظروا إلى الأسفل باتّجاه مُعسكر الأعداء من موضعهم العالي الذي يُجاوز ارتفاعه هرم كيوبس[7] بأقدام كثيرة، بل هو أكثر ارتفاعاً حتى من معبد بيلوس.

«الحق ما تقول»، تنهد الفريسي الذي كان يُعاني من نوبة دوار وهو يسترق

---

(6) الفلستيون: شعب وصف في التوراة كان يحكم خمس دويلات في غزة، من أشد أعداء مملكة إسرائيل خطورة. [المترجم]

(7) كيوبس: الهرم الأكبر في الجيزة، أو هرم خوفو. [المترجم]

النظر إلى الهاوية، «أولئك الوثنيون غير المختونين كأنهم الرمل على ساحل البحر، أو كالجراد في البرية! ها قد تحوّل وادي الملك إلى وادي أدومين».

«ومع ذلك»، أضاف ابن ليفي، «فأنت لا تستطيع أن تُشير بيديك إلى أي فلستي من هؤلاء، لا أحد منهم جميعاً.. من أليف إلى تاو.. من البراري حتى أسوار القلاع.. يبدو أكبر حجماً من حرف جود!»(8).

[3] «أنزلوا سلة شيكلات الفضة!» هُنا صاح جندي روماني بصوت أجشّ، يبدو وكأنه يصدر من أصقاع بلوتو.. «أنزلوا السلة التي وضعتم فيها عملاتكم الملعونة فتكاد تشق فك أي نبيل روماني حين يتلفّظ باسمها! أهكذا تظهرون امتنانكم لسيدنا بومبيوس الذي تنازل فارتأى الإصغاء إلى سخافاتكم الهمجية التي تلقونها جزافاً؟ فويبوس، وهو الإله الحقيقي، قد ركب عربته الحربية فوصل منذ ساعة.. وأنتم لم تأتوا إلى المتاريس حتى أشرقت الشمس؟ يا أديبول! هل تتخيّلون أننا، نحن الذين هزمنا العالم، ليس لدينا شيء نقوم به غير الانتظار عند أسوار كل مأوى للكلاب، وأن نتعامل مع أراذل الأرض؟ أنزلوها! أقول لكم.. وانظروا لكي تشاهدوا عملاتكم التافهة أكثر إشراقاً في ألوانها وأكثر إنصافاً في الميزان!».

«إيلوهيم!»(9) هتف الفريسي، بينما كانت النبرات المُتنافرة لصوت القائد الروماني تُجلجل على صخور الهاوية، ثم سرعان ما خفتت أصداؤها وتبدّدت على جدران المعبد.. «إيلوهيم! ..من يكون الإله فويبوس هذا؟.. انظروا بمن يستشهد ذلك الزنديق؟ أنت، يا بوزي بن ليفي! يا من قرأت قوانين الوثنيين من غير اليهود، وأقمت مؤقتاً فترة من الزمن مع أولئك الذين يتلاعبون الآن مع التيرافيم!(10).. هل يتكلم ذلك الوثني عن الآلهة نيرغال.. أم أشيماخ؟.. أم تراه

---

(8) أليف، تاو: الحرفان الأول والأخير في الأبجدية العبرية؛ يرمز تاو في نظام الأعداد إلى 300، جود أصغر حرف من حيث القيمة. [المترجم]

(9) إيلوهيم: تعني الإله في اللغة العبرية القديمة والحديثة. [المترجم]

(10) التيرافيم: كلمة عبرية من التوراة، بصيغة الجمع تعني مشاهير الآلهة التي تُعبد لدى شعب من الشعوب. [المترجم]

يتكلّم عن نبعاز.. أم تارتاخ؟.. أم هو يتكلّم عن أدراماليخ.. أم أناماليخ؟.. أم سكووث بينيث.. أم داغون.. أم بيليال؟.. أم بعل بيريث؟.. أم بعل بايور؟.. أم بعل زيبوب؟»[11].

«ليس من شكٍّ فيما تقول! إنّه لا يتكلّم عن أحد من هؤلاء.. ولكن احذر فأنت تترك الحبل ينزلق بسرعة من بين أصابعك؛ لأنّ الأغصان التي جُدل منها ربما علقت بذلك البروز الصخري الذي هُناك، من المؤسف أن تندلق أشياؤنا المُقدسة التي أتينا بها من الحرم».

بمُساعدة بعض الآلات البدائية الصنع، انزلقت السلة التي جرى تحميلها باحتراس إلى الأسفل وسط الجموع؛ ومن أعلى البرج، رغم الدوار في الرؤوس، شوهد الرومان يتجمّعون بارتباك حولها؛ ولكن، بسبب الارتفاع الشاهق وانتشار الضباب الكثيف، لم تتمخّض صورة واضحة عما كانوا يفعلون.

انقضى نصف ساعة إلى الآن.

«سوف نتأخّر كثيراً!» تنهّد الفريسي، وفي غضون هذه المدة كان يُطل على الهاوية.. «سوف نتأخر كثيراً! سوف يطردنا سدنة الكاثوليم[12] من عملنا».

«لقد انتهى أمرنا»، أجاب هابيل فايتم.. «انتهى أمرنا، لن نأكل بعد اليوم اللحم السمين على هذه الأرض.. لن تتعطّر لحانا بالبخور.. أو تُغطى عوراتنا بالكتان الفاخر من المعبد».

[4]«راكا!»[13]، قال ابن ليفي مُتوعداً، «هل يقصدون خداعنا، راكا، وسرقة أموالنا التي ننوي أن نشتري بها؟ أم أنهم، يا رب موسى! يضعون شيكلات المعبد في الميزان؟».

«ها هم يُعطون الإشارة أخيراً!» صاح الفريسي.. «لقد أعطوا الإشارة

---

(11) أسماء هذه الآلهة وردت في التوراة سفر الملوك 2. [المترجم]

(12) كاثوليم: في اللّغة العبرية الحديثة «كاثوليك». [المترجم]

(13) راكا: تعني «أولئك الأغبياء»، وردت كإساءة في ماثيو 5: 22. [المترجم]

أخيراً! اسحب الحبل، يا هابيل فايتم! وأنت أيضاً، يا بوزي بن ليفي، اسحب!.. لأنّ الفلستيين إمّا لا يزالون يمسكون بالسلة حقّاً، أو أنّ الرب قد أنزل على قلوبهم الرحمة فوضعوا فيها بهيمة ذات وزن لا بأس به!» وصار الجيزباريم يسحبون، بينما كان الحبل ينوء بثقله وهو في طريقه إلى الأعلى وسط عتمة الضباب الذي ما فتئ يزداد كثافة.

* * *

«بوشوه هي!»[14].. بعد ساعة، رأوا شيئاً مُعلقاً بطرف الحبل لم يستبينوا شكله بوضوح وجلاء.. «بوشوه هي!» انطلق هتافٌ من بين شفتي ابن ليفي.

«بوشوه هي!.. يا للعار!.. إنه كبش من أدغال انغيدي، كبش أعجف أجرد من اللحم مثل وادي جيهوسافت!»

«يبدو أنّه في طليعة القطيع»، قال هابيل فايتم، «أعرف هذا الكبش من مأمأته، ومن انثناء أطرافه الذي يدلّ على الوداعة. عيناه أكثر سحراً من جواهر بيكتورال، وطعم لحمه كأنه عسل مُصفّى من هايبرون».

«بل هو عجل سمين من مراعي باشان»، قال الفريسي، «الهمجيون تعاملوا معنا بسخاء عظيم.. دعونا نرفع أصواتنا ونرتّل شيئاً من المزامير.. دعونا نقدم الشكر على أنغام آلات الشوم والسنطور.. على القيثارة والهوغب.. على السايثرن والصكبت!»

فما كادت السلة ترفع فتصل إلى بضعة أقدام من أيدي الجيزباريم حتى فاجأهم صوت واهن، كأنّه نخير خنزير لم يروا من قبل مثيلاً له في الحجم.

«الآن، إيل إيمانو!» تركوا أيديهم تسقط عن الحمل في بطء، وبينما اتّجهت العيون إلى السماء نطق ثلاثتهم معاً بتلك الكلمات، ثم خرج الخنزير من مُعتقله مُتعثراً بخطوات طائشة بين صفوف الفلستيين، «ايل إيمانو!.. فليكن الله في عوننا.. إنّه ذلك اللحم الذي يَجلّ عن الوصف!».

(14) بوشوه هي: عبارة في اللّغة العبرية تعني «عليك الخزي واللعنة». [المترجم]

بون - بون

لما تغمر الخمرة المُستطابة أحشائي بعد،

أراني أكثر بصيرة من بلزاك... وأكثر حكمة من بيبراك؛

بذراع واحدة أهجم على بلاد القوزاق،

فأنهب كلّ ما فيها؛

وقريباً من بحيرة شارون أعبر فربما رأيته

نائماً في زورقه؛ وربّما ذهبت إلى الجليل أنا وإياك

دون أن يخفق قلبي لا تك ولا تاك،

فأقدّم له شيئاً من السَّعوط..

من «ملهاة فرنسية»

من المُحقق أنّ صاحبنا بيير بون ـ بون، الذي يعمل صاحب مطعم صغير ومقهى، كان يتمتع حقّاً بمواهب استثنائية فذّة؛ ذلك شيء، كما أتصوّر، لن يختلف عليه اثنان من الزبائن الذين اعتادوا، إبان عهد..، التردّد على ذلك المقهى المُتواضع الذي يقع على جادة مسدودة في حي لو فيبفير، ضاحية روين. وكان السيد بيير بون ـ بون، إلى جانب ذلك، حاذقاً في استيعاب تيارات الفلسفة السائدة في عصره، وهذا شيء، إذا جاز لي الافتراض، غير قابل للإنكار بنوع خاص. إنّ فطائر اللحم والسمك *patés à la fois* التي يشتهر بها كانت دون أي مجال للشك «مُتألقة وناصعة ولا غبار عليها»؛ ولكن هل يستطيع القلم أن يفي مقالاته في ما وراء الطبيعة حقها.. أفكاره عن خفايا الروح.. مُشاهداته التي

تتجاوز مُدركات العقل؟ لو أنّ أطباق عجة البيض *omelettes* التي يتفنّن في عملها.. لو أنّ شرائح العجل *fricandeaux* التي يُحسن شواءها كانت «من التحف التي لا تُقدّر بثمن»، فأي نوع من الكتابات الأدبية على المنوال الرائج في تلك الأيام ما كانت لتنأى عن إضفاء قيمة مُضاعفة على «هاجس فكري جامح أو رأي تقليدي من آراء بون ـ بون»، على غرار ما اعتادت تلك الكتابات أن تفعل مع كل «الكلام الفارغ» الذي تُدلي به بقية من المُتعلّمين المُتحذلقين؟ لقد دأب بون ـ بون على التنقيب في مكتبات لم يسبق لأي شخص أن سبر أغوارها.. وكان يحمل في صدره، أكثر من أي شخص، مفهوماً مُتفرداً عن القراءة.. وقد استوعب الرجل، أكثر من غيره مدى احتمالات أن يهضم المرء ما يقرأ؛ وعلى الرغم من ذلك، في الوقت الذي انتعشت فيه قدراته وذاع صيته في الآفاق، لم تكن ضاحية روين لتفتقر إلى بعض المؤلفين الذين كانوا على استعداد لإبداء رأي قاطع بأنّ «مآثره لا تكاد تبرهن على شيء مهمّ يُذكر، سواءً تعلق الأمر بأصالة ونقاء مناهج الأكاديمية، أو بعمق المُحاضرات التي تُلقى على مدرّجات الليسيوم»[15].. ومع ذلك، أرجو ألّا يُسيء احد فهمي، إذا لم تكن عقائده على كل حال قابلة للاستيعاب على نطاق واسع وسط جمهور من الناس العاديين، فهذا لا يقتضي القول: إنها صعبة أو عصية على الفهم. والسبب في هذا، كما أتصوّر، يعود إلى أنّها من المسائل البديهية التي اعتبرها كثير من الناس عويصة بالقياس إلى قُدراتهم الشخصية المُتواضعة. ويرجع السبب في ذلك أيضاً [6]إلى بون ـ بون نفسه.. دعونا لا نُسرف في هذا التقييم.. الأمر يعود إلى بون ـ بون نفسه أن أصبح من الأمور الذائعة بين الناس أنّ عمانويل كنت مدين إلى الرجل أساساً برؤاه الميتافيزيقية. لم يكن الأول في واقع الأمر من اتباع أفلاطون، أو، إن شئنا توخّي الدقة أكثر، فهو لا يُعدّ حتى من اتباع أرسطو.. ومثل ليبنتز، فيلسوف العصر الحديث، لم يكن صاحبنا يُهدر تلك الساعات الطويلة من وقته الثمين، والتي ربما استغلّها في ابتكار طبق فركاس[16] أو في تأليف قاموس مُيّسر

(1) الأكاديمية: مدرسة أفلاطون، والليسيوم مدرسة أرسطو. [المترجم]

(2) فركاس: لحم يفرم ثم يقلى أو يطهى بالغلي. [المترجم]

للعروض، أو في تحليل إحساس المرء وهو يخوض مُحاولات طائشة للتخفيف من جموح «الدهون والمياه التي تغلي» أثناء نقاش يتناول قضايا أخلاقية. لا شيء من هذا ولا ذاك يكفي على الإطلاق لتفسير الموقف. لقد كان بون ـ بون رجلاً أيوني الطراز[17].. وكان إيطالياً عريقاً على نحو مُماثل. يُفكّر عن طريق الحدس البديهي.. ويستخدم وسائل الاستدلال المنطقي أيضاً. أفكاره مُستوحاة من السليقة.. أي شيء آخر يُمكن أن يُقال في هذا الشأن! إنّه يؤمن بمقولات جورج من تربيزوند[18].. ويتحمّس لأطروحات بوساريون (أو بيساريون)[19]. ولكن على الرغم من أي شيء يُمكن أن يُقال يبدو من المُحقق أنّ صاحبنا بون ـ بون لم يكن ينتمي إلا لمدرسته الخاصة.. البونبونية.

لقد تحدّثنا عن فيلسوفنا ضمن إطار قدراته الفذّة كصاحب مطعم. ولكنّي لست أعرف أحداً من أصدقائي لعله يتخيّل أنّ بطل حكايتنا، لدى أدائه لواجباته التي توارثها في هذا المضمار، كان يسعى للحصول على إطراء من شأنه أن يتناسب مع أهمية تلك الواجبات ومُستواها الراقي. الأمر بعيد كل البعد عن هذا، فمن المُستحيل أن يُحدد المرء في أي مجال من مهنته يشعر الرجل بالفَخَار أكثر من غيره. من وجهة نظره، ترتبط طاقات الفكر على نحو لا انفصام له مع مُقدرات المعدة. وما أحسب حقّاً أنّ أطروحاته تتناقض كثيراً في هذا الشأن مع ما يؤمن به الصينيون، الذين يُصرّون على القول: إنّ الروح تستقر في مكان ما من بطن الإنسان. أما الإغريق، فقد أثبتت الوقائع كافة أنهم على حق، هكذا كان يتصوّر على الأقل، إذ أنهم استخدموا كلمات مُماثلة سواءً في التعبير عن نوازع العقل أو في وصف الحجاب الحاجز[*]. لست أقصد تلفيق تُهمة الشراهة، أو في الواقع أي تُهمة خطيرة أُخرى تتعلّق بالتعصب الفكري لدى صاحبنا المهموم

---

(3) أيوني: منسوب إلى أيونيا أو الأيونيين الذين يتكلّمون إحدى لهجات اللّغة اليونانية القديمة. [المترجم]

(4) كتب جورج من تربيزوند سنة 1464 مُقارنة بين أفلاطون وأرسطو.

(5) بوساريون: كاردينال كاثوليكي 1403- 1472 ومن علماء الإغريق الذين ساهموا في إحياء رسائل القرن الخامس عشر. [المترجم]

(*) الكلمة الإغريقية هي: φρενες. (المؤلف)

بالميتافيزيقيا. لو كانت لدى بيير بون ـ بون إخفاقاته.. وأيُّ عظيم يخلو من آلاف الإخفاقات؟.. أقول، لو كانت لدى بيير بون ـ بون إخفاقاته، فهي غالباً أشياء تافهة.. إنّها مثالب حقّاً، إذا نظر إليها المرء بمزاج رائق، لبدت في كثير من الأحيان نوعاً من فضائل العقل المُستنير. أما في ما يتصل بإحدى تلك المثالب، وما كان ينبغي لي حتى أن أذكرها ضمن سياق هذا السرد التاريخي لولا شهرتها الواضحة.. وهي الإسراف في الصلف والغرور.. حيث تبرز هذه الصفة للعيان فتكاد تطغى على المُستوى المألوف لطباعه الأُخرى بوجه عام. لم يكن الرجل يستطيع على الإطلاق أن يدع فرصة تفلت من يديه دون أن يعقد صفقة مهما كان نوعها.

لا نقصد بذلك أنّه تاجر جشع أو بخيل.. كلّا. لم يكن من الضروري أبداً لإرضاء المزاج الأخرق لهذا المُتفلسف أن تُحقق الصفقة مطامحه الشخصية تحقيقاً كاملاً. كان يحرص فقط على أن تسفر أي صفقة يبرمها مع أي شخص.. تجارة من أي نوع، وفقاً لأي شروط، أو تحت أي ظروف.. عن ابتسامة زهو وظفر يراها الآخرون تلوح على شفتيه فتبقى تُشرق على مُحياه عدة أيام بعد ذلك، فضلاً عن غمزة عين توحي باتّساع المعرفة والدراية ببواطن الأمور، كدليل ظاهر على حصافة رأيه.

في أي عصر ليس من المُستغرب مُطلقاً أن تتردّد على ألسن الناس طرفة عجيبة كتلك التي أشرنا إليها قبل الآن، فتلفت الانتباه وتُثير شتى أنواع [7]التعليقات الساخرة. ولكن في العصر الذي كُتب فيه هذا السرد الذي نُقدمه للقارئ، لو لم تكن مثل هذه الأحوال الشاذة للرجل الذي نتكلّم عنه تستحق الالتفات لكان الأمر مثاراً للعجب حقّاً. سرعان ما أصبح شيئاً مُتداولاً بين عموم الناس، في مُناسبات مُختلفة من هذا القبيل، أنّ ابتسامة بون ـ بون أضحت في العادة تتناقض مع تكشيرة التهكم المُهذبة التي يرد بها ضاحكاً على طرائفه التي يُلقيها بنفسه، أو تلك التي يُرحّب بها بأحد معارفه. كانت التلميحات تُلقى هُنا وهُناك بروح مُتّقدة؛ قصص تُسرد عن صفقات محفوفة بالمخاطر تجرى على عجل وسرعان ما يعقبها الندم في أوقات الفراغ؛ وهُناك أمثلة عن حكايات تُروى

حول قُدرات غير قابلة للتأويل، حالات اشتياق وتوجّس بخصوص أُمور مُلتبسة، وميول خارقة للطبيعة رسخت في الأذهان على يد مؤلف جميع أصناف الآثام لأغراض لعلها لا تخلو من حكمة يبتكرها بنفسه.

مع أنّه كانت لدى ذلك المُتفلسف نقاط ضعف أُخرى، إلا أنّها نادراً ما تستحق منا التأمّل الجاد. على سبيل المثال، قد يوجد بين الناس عدد قليل من الرجال الذين يمتازون بعمق التفكير ورصانة العقل على نحو استثنائي فيحدث أن يُصيبهم الضعف والهوان فيستسلمون إلى ميولهم لمُعاقرة الخمر. سواءً شكّلت هذه النزعة سبباً للفضول والتساؤل لدى البعض، أو كانت برهاناً صريحاً على رجاحة مثل هذا العمق النادر في التفكير لدى البعض الآخر، فذلك شيء من البديع حقّاً أن يتكلّم عنه المرء. ولكن لم يتصور بون ـ بون، على قدر علمي، أنّ هذه المسألة تحتمل أي استقصاء دقيق عن بواطنها؛ وما أحسب أيضاً أن الأمر يستحق شيئاً من ذلك. غير أنّه في خِضمّ الانغماس في الشهوات بهذا النمط «الكلاسيكي» المُفرط، لم يكن يفترض بصاحب المطعم أن يغضّ الطرف عن المقدرة الغريزية على حسن التمييز التي لا بدّ أن يحتاج إليها المرء لمعرفة الفارق، في موقف مُحدّد، ما ينبغي أن يتبدّل، بين شطحاته الفلسفية وأطباق الأومليت التي يتفنّن في صنعها. في الفترات التي يختلي فيها بنفسه، حتماً تكون هُناك ساعة يُكرّسها لاحتساء جرعات من نبيذ فان دو بورغون، ولحظات مؤاتية أُخرى تُكرّس لشراب كوتيه دو رون. إذ كان من وجهة نظره أنّ العلاقة بين جعة ساوترن الحلوة المذاق ونبيذ ميدوك الفرنسي الذي يُشبه الدواء لا تكاد تختلف كثيراً عن العلاقة بين كاتالوس[20] وهوميروس. كان الرجل في الواقع يُتقن التلاعب بعباراته التي تُبنى على القياس المنطقي أثناء ارتشاف جرعات من شراب سانت بيراي، وإلى هذا كله نراه ينهمك في غضون ذلك في نقاش مُحتدم عن شراب كلوس دو فوغيوت، ويطرح نظرية عن نبيذ كامبرتن الأحمر في ثورة من الانفعال الجياش. لم يكن الأمر ليحتمل ما يعيب لو أنّ الإحساس نفسه بسرعة

---

(6) غايوس فاليويوس كاتالوس (84– 54 ق.م) شاعر لاتيني عاش في أواخر عصور الإمبراطورية الرومانية. [المترجم]

البديهة والحرص على دواعي اللياقة كان مُتوفراً خلال استكشافاته التي يحفل بها بسفاسف الأمور التي ألمحنا إليها سابقاً.. ولكن هذا ما لم يحصل على كل حال. في الواقع إذا توخّينا الصدق، فتلك النزعة العقلية لدى المُتفلسف بون ـ بون كانت قد بدأت في وقت مُتأخر تكتسب بالفعل نوعاً من التركيز المُستهجن في منحاها الصوفي، حتى غدت في باطنها تمتزج مع مهارته النادرة في تكريس نفسه، على سبيل المثال، لدراسات مُعمّقة في الفكر الألماني يبدو أنّها كانت من الأشياء المُحبّذة لديه.

لا يكاد المرء يدخل ذلك المقهى الصغير المُنعزل على جادة مسدودة في منطقة لو فيبفير، في الزمن الذي تجري فيه وقائع حكايتنا، حتى يدرك أنّه أصبح من فوره داخل حرم مكرّس لرجل من العباقرة. كان بون ـ بون رجلاً ينتمي حتماً إلى جيل العباقرة. ما من أحد من كبار الطهاة في ضاحية روين لن يُخبرك بنبأ عبقرية بون ـ بون. حتى قطته تعرف هذا الأمر، فهي تتحمّل ذلك الوضع على مضض فتمتنع عن هزّ ذيلها في حضرة العبقري. أما كلبه الضخم المُدرّب على صيد طيور الماء فيبدو أنه قد تآلف بشكل مُمتاز مع تلك الحقيقة، لدى [8]اقتراب سيّده يتخلّى الكلب عن اهتماماته التافهة وذلك بإبداء شيء من الوقار والوجل في تصرّفاته، فيتغيّر اتّجاه أُذنيه، ويتدلّى فكه الأسفل على نحو لا يليق أبداً بكلب من جنسه. صحيح أنّ ذلك القدر من احترامه الفطري ربما يُعزى إلى مظهر سيده الوقور المهموم بمتاعب الميتافيزيقيا، إلّا أنّ ثمّة نوعاً من العزم يتجلّى بوضوح على سلوكه الخارجي، أجدني مُضطراً للتأكيد على أنّ لذلك تأثيره على نمط سلوك الحيوان؛ وإني على استعداد للقول قطعاً إنّ الكثير من السمات البدنية لصاحب المطعم كان لها دور فعال في تحفيز خيال ذلك الكائن ذي القوائم الأربع. هُنالك هالة من المهابة العجيبة تلتفّ حول كيان الرجل العظيم الناحل على نحو يلفت الأنظار.. لئن جاز لي أن أستخدم مثل هذا التعبير المُلتبس.. مع أنّ الخصائص الشخصية المادية وحدها تثبت في الأحوال كافة أنّها غير مؤثرة في خلق مثل ذلك الانطباع. ولكن، بصرف النظر عن قامة بون ـ بون التي لا تكاد تجاوز ثلاثة أقدام إلا قليلاً، وضآلة رأسه إلى درجة مُذهلة، فمن المُستحيل على من ينظر إلى تكوير وضخامة بطنه أن يتجاهل ذلك الرونق الذي

يكتنف مظهره الرزين. من ناحية حجم البطن فمن المُحقق أنّ الكلاب والبشر على السواء قد رأوا في ذلك ما يدلّ على مؤهلات بدنية نادرة الوجود.. وأمّا من ناحية الضخامة، فلا بُدّ أنهم رأوا في ذلك مُستقرّاً موائماً لروحه التي تسعى على الدوام إلى الخلود.

ربّما وجدت نفسي مُضطراً هُنا.. وإن كان الأمر يبعث في نفسي المُتعة بعض الشيء.. لأن أسهب قليلاً في وصف تفاصيل ذات صلة بنمط الملبس، وما إلى ذلك من مُلابسات المظهر الخارجي لصاحبنا الميتافيزيقي. وربما ألمح هُنا خاصة إلى أنّ شعر بطل حكايتنا كان مقصوصاً باعتناء، ومُمشطاً بنعومة بحيث ينسدل جزء منه فوق جبهته، وتتوّج رأسه قلنسوة بيضاء من قماش خفيف الملمس ذات شكل مخروطي تتدلّى منها شراريب.. ويُمكن القول: إنّ سترته الضيقة الخضراء التي بلون البازلاء لا تُماثل في طرازها تلك الستر العادية التي يرتديها عادة أصحاب المطاعم الذين ينتمون إلى طبقة العامة في تلك الأيام.. فالأكمام أعرض مما تسمح به مُتطلبات الموضة السائدة.. وأزرار القميص تتلألأ في إيحاء بالشموخ، ليس كما هو مُعتاد في ذلك العصر الذي يموج بالهمجية، والقماش من نوعية ولون الرداء الخارجي نفسه، ولكنه يراجه الناظر بالتصاميم الأكثر إبهاراً للمخمل مُتعدد الألوان الذي يُؤتى به من جنوة.. حتى شبشبه كان ذا لون أرجواني برّاق، مُزركش بصف من ثقوب عجيبة المنظر، ربما يكون قد صنع في اليابان، حافاته مُدبّبة بشكل لا نظير له، وحواشيه وتطريزاته مُتدرجة الألوان.. حتى إنّ بنطلونه قصير يُشبه تلك البناطيل التي تلبس لدى ركوب الخيل وهو مصنوع من مادة تُشبه الحرير الأصفر الصقيل تسمى إيمابل.. وقفطانه بلون السماء الزرقاء، يُماثل في شكله روب الحمام، وهو مزوّد بأزرار قرمزية كثيرة كأنها غشاوة الفجر تتدلّى على كتفيه في إيحاء بالعجرفة.. مظهره المُتأنق على العموم من شأنه أن يُذكّر المرء بكلمات فريدة يرتجلها بينفينوتا[21] من فلورنسا، «حتى إنّه ليصعب الحكم فيما إذا كان بيير بون ـ بون في الواقع يُشبه طيراً من طيور الجنة، أم هو

---

(7) سيليني بينفينوتا (1500- 1571) من مشاهير فناني إيطاليا فهو شاعر ونحات، وموسيقي، وكتب سيرة ذاتية شهيرة. [المترجم]

الجنة بعينها في بهائها وكمالها». ربما كنت سأقول أشياءً أُخرى فأُسهب في وصف هذه النقاط كما أشاء.. ولكني أرى [9]أن أتوقف عند هذا الحد، فمن الأفضل أن أترك التفاصيل الشخصية إلى روائيين تاريخيين.. فتلك أمور تافهة وحقيرة، ولا تليق بالمُستوى الأخلاقي الرفيع الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان في حياته الاعتيادية.

سبق أن قلْت «إذا دخل المرء إلى المقهى الذي يقع على جادة مسدودة في منطقة لو فيبفير فذلك يعني ولوج حرم خاص برجل من العباقرة».. حينئذ فالإنسان العبقري وحده يتمكّن من تقييم مزايا ذلك الحرم كما ينبغي. أول ما يجده المرء لافتة عريضة تتأرجح قبالة المدخل، على جانب منها رُسمت زجاجة؛ وعلى الجانب الآخر يافوخ إنسان. وفي وسط اللوحة كُتب بحروف واضحة «من آثار الفنان بون ـ بون». وهكذا تتناول اللوحة في دقة تامة جانبي اهتمامات صاحب المكان.

لدى اجتياز العتبة، يتجلّى للناظر بوضوح الجزء الداخلي للمكان. غرفة طويلة تنحدر في تدرّج بطيء، عتيقة الطراز، تُشكّل في الواقع المأوى المثالي الذي يُقدمه المقهى لزبائنه. في زاوية من الشقة وضع سرير صاحبنا الميتافيزيقي. وهُناك ستائر في كل ركن من المكان، مع مظلة على طراز يوناني، تُضفي على السرير مسحة كلاسيكية تبعث على الارتياح في الحال. وبين طرفي الركن المُقابل اختلطت مُحتويات المطبخ مع المكتبة في قدّاس عائلي يصدم المرء مُباشرة.. وضع طبق مليء بكتب في اللاهوت الجدلي يوحي منظرها بالطمأنينة والسلام فوق الخزانة. وفي الفرن تكدّست حمولة من آخر الكتب في الأخلاق.. وغلاية شاي بالقرب منها أكداسُ ورق من أحجام شتى.. ومجلدات في علم الأخلاق الألماني مُكدسة جنباً إلى جنب على مشبّك الشواية.. وربما اكتشف المرء شوكة تحميص الخبز إلى جوار كتاب لأوسيبيوس[22].. وأفلاطون يستلقي مُسترخياً على

(8) أوسيبيوس: (260– 339م) مؤرخ روماني وشارح للإنجيل والكتاب المُقدس، يُعدّ أباً لتأريخ الكنيسة من مؤلفاته «البراهين على صدق الإنجيل». [المترجم]

المقلاة.. ومخطوطات لمؤلفين مُعاصرين تصطفّ باتّجاه آخر على سيخ شواء اللحوم.

من جانب آخر ربما جاز القول: إنّ مقهى بون ـ بون يختلف قليلاً عن المطاعم الاعتيادية التي كانت مُنبثّة في ذلك الزمن؛ هُنا يوجد موقد يفغر فاه مُتثائباً مُقابل الباب. وإلى يمين الموقد هُنالك خزانة تعرض فيها مجموعة غير مُتجانسة من القناني بعلاماتها المُسجّلة.

في هذا المكان، زهاء الساعة الثانية عشرة ليلاً، أثناء شتاء قاسي البرودة، استفزت بيير بون ـ بون تعليقات جيرانه اللاذعة على نزواته الغريبة.. أقول، بعد أن طردهم جميعاً من شقته، أوصد الباب وهو يقسم متوعداً، وتوجه وهو في ذلك المزاج النكد ليلقي نفسه على أريكة مبطنة بالجلد، قرب النار التي تضطرم في جوفها حزمة من الحطب.

حدث ذلك في إحدى الليالي التي من النادر أن يواجه المرء نظيراً لها إلّا مرة أو مرتين في كل قرن من الزمان. الثلج كان ينهمر بكثافة مُروعة، والمنزل يتمايل على محوره مع هبوب الريح التي تندفع عبر شقوق وتصدّعات في الجدار، [10]فتخترق المكان في طيش عبر المدخنة، والستائر تهتز فتُثير الارتياع على سرير الفيلسوف، وتُعكّر التنسيق المُتواضع لأواني الخزف وأكداس الورق. تأرجحت اللافتة الكبيرة، وانكشفت إزاء حنق العاصفة، وأصدرت صريراً يُنذر بالشؤم، وسُمع صوتُ أنين من أعمدتها التي من خشب السنديان الصلب.

سحب الميتافيزيقي كرسيه في حركة تدل على مزاج مُشاكس، لا مناص من التأكيد على ذلك، وقرّبه أكثر من المدفأة. لقد حدثت مُلابسات كثيرة ذات طبيعة مُحيّرة خلال اليوم كان من شأنها أن تُعكّر صفو تأملاته. لدى مُحاولته أن يعمل طبق «بيض سمك الأميرة»، ارتكب لسوء الحظ خطأً فادحاً فعمل عجة البيض التي تشتهر بها منطقة الراين؛ وأحبطت جميع مُحاولاته لاكتشاف مبدأ في علم الأخلاق عندما انقلبت شوربة الخضار؛ وأخيراً، وليس آخراً، اضطر للانجراف وراء إحدى تلك الصفقات المُشوقة التي طالما أحسّ باستمتاع استثنائي لأن يبلغ

بها نهاية مُوفقة. ومع التنقيب الذهني المُضني في مغزى هذه التحولات الأخيرة التي تأبى أن تتقبّل التعليل، لم يفشل في أن يكتشف أنّها ترتبط إلى درجة ما مع حالة الانهيار العصبي التي نشأت رويداً، فضلاً عن ارتباطها بالغضب الذي استبدّ به في تلك الليلة الصاخبة. أطلق صفيراً إلى الكائن الأكثر قُرباً إليه، ذلك الكلب الضخم الأسود الذي تكلّمنا عنه، وبينما تمدّد مُنزعجاً على أريكته، لم يستطع أن يمنع نفسه من إلقاء نظرة مُتوجّسة على تلك الزوايا البعيدة من جدران الشقة التي كانت تُلقي ظلالاً قاتمة لا يتمكّن حتى اللهب الأحمر للموقد من إزاحتها إلّا جزئياً. بعد أن تفحّص المكان تفحصاً دقيقاً، ولم يكن الغرض من ذلك مفهوماً لديه تماماً، قرّب إلى كرسيه طاولة صغيرة تُغطيها الكتب والأوراق، وسرعان ما انهمك بتنقيح مخطوطة ضخمة كان ينوي تقديمها للنشر في اليوم التالي.

بقي على هذا النحو بضع دقائق، ثم سمع على حين فجأة صوتاً هامساً كأنّه النحيب يتردّد في أرجاء الشقة، «لست في عجلة من أمري، مسيو بون - بون».

هتف بطلنا: «الشيطان!»، ووثب على قدميه، فانقلبت الطاولة التي إلى جانبه، وصار يحملق حوله مندهشاً.

«صحيح جدّاً»، أجاب الصوت في هدوء.

«صحيح جداً!.. ما الشيء الصحيح جدّاً؟.. كيف دخلت إلى هُنا؟» هتف الميتافيزيقي، ووقعت عيناه على شيءٍ مُمدّد في استرخاء على السرير.

«كنت أقول»، قال الرجل الذي اقتحم عليه خلوته، دون مُبالاة بتساؤلاته.. «كنت أقول، لست أبالي على الإطلاق بالوقت.. المسألة التي لم أتردّد في اتّخاذ قرار [11]بشأنها ودفعتني إلى المجيء الآن ليست ذات أهمية عاجلة.. باختصار، يُمكنني الانتظار على كل حال حتى تنتهي من كتابة مُقدمتك».

«مُقدمتي!.. مهلاً الآن!.. كيف عرفت؟.. كيف تسنّى لك استنتاج أنّني أكتب مُقدمة؟.. يا إلهي!».

«اسكت!» أجاب الشخص وكانت نبرة صوته حازمة؛ ونهض على عجل من

السرير، ثم تقدّم خطوة باتّجاه البطل، بينما تأرجح المصباح ذو الإطار الحديدي الذي كان مُعلقاً في السقف بحركة مُتشنّجة لدى ارتطامه برأسه.

لم تمنع الدهشة التي أصابت المُتفلسف من إلقاء نظرة من زاويةٍ ضيقة على طراز ملبس ذلك الغريب أو على مظهره الخارجي. كانت السمات البارزة لهيئته على وجه الإجمال توحي بنحافة مُفرطة، وبصرف النظر عن قامته الاعتيادية، فقد ظهرت الجوانب الأُخرى لشكله واضحة في جلاء ودقة، فالسترة التي يرتديها سوداء باهتة اللون تكاد تلتصق بالجلد، مع أنّها مُصممة بما يتناسب مع موضة مُنقرضة منذ قرن. ولا بدّ أنّ هذه الثياب التي يرتديها كانت لشخص آخر أقصر قامة من صاحبها الحالي، فقد تركت كاحلي القدمين ومعصمي اليدين مكشوفة عدة بوصات. أمّا على حذائه فهُناك زوج من الإبزيمات اللامعة تنفي أي أثر لفقر مُدقع ربما أوحت به الأجزاء الأُخرى من ثيابه. كان رأسه عارياً، فهو أصلع تماماً، باستثناء بُقعة في الخلف تتدلّى منها ضفيرة لا بأس بطولها من الشعر الخفيف. وقد وضع الرجل نظارة خضراء على عينيه، ذات زجاج مُنزلق مُقاوم لتأثير الضوء، وفي الوقت نفسه كانت تمنع بطل حكايتنا من التحقّق على وجه اليقين من لون العينين أو صفاتهما الأُخرى. على الإجمال لم يكن ثمّة أي دليل على أنّه يلبس قميصاً، وإنما ظهرت مُجرد ربطة عنق بيضاء، منظرها قذر ومعقودة في دقة بالغة حول الرقبة بينما تتدلّى أطرافها جنباً إلى جنب في مظهر رسمي يوحي بفكرة (على الرغم من أنّي ربما أُدلي هُنا بتصريح غير مقصود) أنّ للرجل علاقة بالسلك الإكليروسي. في الواقع، هُناك كثير من الجوانب الأُخرى لمظهره أو سلوكه ربّما تدعم فكرة من هذا النوع. على أذنه اليسرى، على غرار مُحاسب شركة من العصر الحديث، وُضع قلمُ حبر عتيق الطراز. وفي جيب صدر سترته برز بشكل لافت للنظر كتاب صغير أسود الجلد مربوط بمشابك من الفولاذ. سواءً حصل ذلك على نحو عرضي أم لا، كان غلاف الكتاب مكشوفاً لكي تظهر الكلمات التي كُتبت بحروف بيضاء على غلافه الخارجي: «طقوس كاثوليكية» *Ritual Catholique*. لقد أثار حضور الغريب جوّاً من الكآبة المُثيرة للانتباه.. كأنّه جثة شاحبة.. جبهته ترتفع في خيلاء وغطرسة، مُتغضّنة بأخاديد عميقة وتوحي

حافاتها بعمق وشدة [12]التأمل. زوايا الفم مسحوبة للأسفل في تعبير عن الخنوع والطاعة. وقف هناك وقد احتضنت إحدى يديه الأُخرى، ثم تقدم رويداً باتّجاه بطل حكايتنا.. أطلق حسرة عميقة.. تزامنت مع نظرة ورع مطلق لم تفشل في خلق تأثير يأسر القلوب. تلاشى كل أثر للغضب من محيا الميتافيزيقي، وبعد أن انتهى من تفرّس عميق متأنٍ لزائره، صافحه بحركة وديّة، ودعاه للجلوس.

من الخطل الجسيم حقّاً أن ننسب هذا التحول الفوري في مشاعر صاحبنا المُتفلسف إلى افتراض نوع من التأثر الطبيعي بشخصية الآخر. في الواقع، كان بيير بون ـ بون، من خلال ما استطعت فهمه عن طباعه، من بين جميع الرجال هو الأقل تقبّلاً للتأثر بأي حجة واهية لعلها تتيح التصرف على نحو مُغاير. كان من المُستحيل أن يفشل مثل هذا الإنسان الذي يتوخّى الحرص والتمحيص الشديد في مُراقبة الناس والأشياء في أن يكتشف حالاً الشخصية الحقيقية للضيف الذي اقتحم عليه خلوته هكذا. لو اكتفينا بهذا فلم نشأ قول المزيد، فإنّ مظهر زائره من أخمص القدم حتى قمة الرأس كان قابلاً للتمييز بما يكفي.. لقد استقرّت على رأسه في خفةٍ قبعة طويلة على نحو مُبالغ فيه.. وهُناك جانب مُتهدل يرتعش مع أي حركة في الجزء الخلفي من بنطلونه القصير الذي يُشبه بنطلون ركوب الخيل.. واهتزاز ذيل معطفه حقيقة لا لبس فيها. علينا أن نُخمّن، إذن، بأي نوع من مشاعر الرضا وجد بطلنا نفسه يقف وجهاً لوجه أمام رفيق طالما أحسّ نحوه باحترام مُطلق لا نظير له. بيد أنّه كان دبلوماسياً في تصرفاته بحيث لم يسمح لنفسه بأن يُهدر أي فرصة لكي يُلمّح إلى الشكوك التي ساورته منذ زمن طويل بشأن طبيعة هذه العلاقة التي بينهما. ليس من عادته على الإطلاق أن يبدو ضعيفاً إزاء مظاهر الشرف الرفيع والتبجيل التي حظي بها على ذلك النحو غير المُتوقع؛ وهُنا بدأ يسعى حثيثاً إلى إرشاد ضيفه لخوض مُناقشة من شأنها توضيح بعض المفاهيم الأخلاقية الغامضة التي تنطوي على أهمية عظيمة، والتي ربما، إذا حصل على فرصة في نشرها على الملأ، كما يطمح، سوف تُلقي الضوء على أسرار الجنس البشري، وفي الوقت نفسه تجعل منه مُفكّراً خالداً.. إنّها أفكار، لا بدّ لي من التأكيد على أنّها مُجرد أفكار ربما، بسبب كبر سن زائره، وبراعته

التي لا خلاف عليها في علم الأخلاق، تُتاح له فرصة فيطرحها على طاولة النقاش.

بعد أن توقّد ذهنه بوجهات النظر المُستنيرة هذه، دعا بطل حكايتنا ضيفه المُهذب للجلوس، وانتهز الفرصة لأن يُلقي بعض الحطب إلى النار، ثم وضع على الطاولة التي أعادها الآن إلى وضعها السابق بعض قناني شراب الموسو. بعد هذه الإجراءات العاجلة سحب كرسيه فجعله قريباً من مكان جلوس رفيقه، وانتظر حتى يفتتح الآخر الحوار. إلّا أنّ مثل تلك التكتيكات المحبوكة بأعلى درجات المهارة غالباً ما تبوء بالفشل في مُستهل تطبيقها.. ووجد صاحب المطعم نفسه في حالة ارتباك وحيرة لدى سماعه أُولى كلمات زائره.

[13]«أرى أنّك تعرفني، سيد بون ـ بون»، قال؛ «هاه! هاه! هاه!.. هيه! هيه! هيّ.. هي! هي! هي!.. هوه! هوه! هوه! هو! هو! هو!».. تخلّى الشيطان عن وقاره المعهود، وفتح فمه إلى أقصى مدى، حتى امتدّ شدقاه من إحدى أذنيه إلى الأُخرى، ليظهر طقم من الأسنان المُدبّبة كأنها أنياب الكلاب، وارتدّ رأسه إلى الخلف بينما كان مُستمراً في الضحك عالياً، وكان صوته مُجلجلاً وضيعاً، بينما انضم الكلب الأسود الذي كان يجثو على قوائمه إلى جوقة الإنشاد في حركة شهوانية، والقطة الرمادية المُرقّطة بالسواد قفزت في مسار مقوس، واستقرت على أطرافها، ثم صرخت من مكانها في أبعد ركن من الشقة.

لكن صاحبنا المُتفلسف بقي رابط الجأش؛ كان من شخصيات هذا العالم التي تتحلّى بالتهذيب فلا يسمح له وضعه بأن يقهقه مثل الكلاب، أو يصيح بحيث يحاكي صرخات الارتياع التي لا تليق به مثلما تفعل القطط. لا بدّ من الاعتراف مع ذلك بأنه أحسّ بشيء من الاستغراب حين رأى تلك الحروف البيضاء التي تُشكّل عبارة «طقوس كاثوليكية» على الكتاب المدسوس في جيب سترة ضيفه وقد تغيّر لونها ونوع خطوطها في الحال، فخلال بضع ثوان، بدلاً من العنوان الأصلي لاحت له كلمات «دليل الإدانة» *Registre des Condamnes* تتألّق بحروف حمراء. هذا الحدث الطارئ المُذهل أضفى على لهجة بون ـ بون، لمّا أجاب على تعليق زائره، نوعاً من الإحراج لعله لن يلفت الانتباه في ظروف أُخرى.

«طبعاً، يا سيدي»، قال المُتفلسف، «طبعاً، يا سيدي، إن شئت الصراحة.. أتصوّر ..لدي فكرة ما.. فكرة طفيفة مُبهمة جدّاً.. كنت أترقّب أن أحظى بمثل هذا الشرف...»

«أوه!.. آه!.. نعم!.. حسناً جدّاً!» قطع جلالته عليه كلامه؛ «لا تقل شيئاً.. افهم كيف يبدو الأمر». وهُنا، انتزع نظارته الخضراء، ومسح زجاجها في اعتناء بكمّ سترته، ثم أودعها جيبه.

لئن أبدى بون ـ بون شيئاً من الاستغراب من منظر الكتاب، فإنّ ذهوله الآن قد تفاقم كثيراً من المشهد الذي تجلّى أمامه. حتى إذا فتح عينيه، وكان يشعر وقتها بالفضول الشديد للتحقّق من لون عيني ضيفه، لم يجد بأي حال من الأحوال أنّه لونٌ أسود، كما توقّع.. ولا رمادي، كما تخيّل.. ولا حتى بلون البندق.. ولا أزرق.. ولا، في الواقع، أصفر أو أحمر.. ولا أرجواني.. ولا أبيض.. ولا أخضر.. وليستا تحملان أي لون آخر من ألوان السماوات العلى، أو أي لون معروف في الدنيا، أو في المياه تحت الأرض. باختصار، لقد رأى بيير بون ـ بون بوضوح أنّ وجه جلالته خالٍ من العينين؛ لم يستطع بطل حكايتنا أن يكتشف أي علامات على عينين كانتا موجودتين في وقت سابق.. لأنّ الموضع الذي ينبغي أن تستقر فيه العينان بصورة طبيعية، أجدني مضطراً لأن أقول هذا، كان ببساطة خطّاً مسدوداً من اللحم.

[14]لم يكن من طبائع صاحبنا الميتافيزيقي أن يتحمّل عناء التساؤل عن مصدر تلك الظاهرة الغريبة، في حين أنّ الرد الذي أدلى به جلالته من فوره جاء سريعاً، ومُحتشماً، ومُقنعاً.

«العيون! عزيزي بون ـ بون.. العيون! هل تريد أن تقول ذلك؟.. أوه!.. آه!.. كما أتصوّر! تلك الانطباعات السخيفة، إيه، التي أصبحت مُتداولة الآن يبدو أنّها قد أعطتك فكرة زائفة عن مظهري؟ العيون!.. هذا صحيح. العيون، يا عزيزي بيير بون ـ بون، موجودة في مكانها الصحيح تماماً ..وذلك هو، يُمكنك القول، الرأس؟.. صحيح.. أنّه رأس يكاد يكون رأس دودة. ولكن بالنسبة إليك

أنت أيضاً، فهذه الوسائل البصرية في ما يبدو هي من الأشياء التي لا يُستغنى عنها.. ومع ذلك سوف أقنعك بأنّ قدرتي على الإبصار خارقة حتى إنّها تفوق قُدرتك أنت. هُناك قطة في ركن من هذا المكان.. قطة وديعة.. انظر إليها.. راقبها جيداً. والآن، بون ـ بون، هل تستطيع أن تُشاهد الأفكار.. الأفكار.. أقول لك.. الأفكار.. الانعكاسات.. التي تتوّلد داخل غشاء جمجمتها؟ ها هي، الآن.. ولكنك لا تستطيع ذلك! إنّها تعتقد بأننا نُطري على طول ذيلها وعلى فطنتها العقلية. لقد استنتجت في التو أنني أكثر الأشخاص رزانة من بين جميع رجال الدِّين في الكنيسة، وأنّك الأكثر سطحية من بين جميع الميتافيزيقيين. وهكذا فأنت ترى أنّني لست أعمى البصيرة تماماً؛ ولكن فيما يتعلّق بإحدى المحن التي أُعاني منها، أو العيون التي تتكلّم عنها، فهي مُجرد عائق مُعرّض في أي وقت للتلف بسيخ لتحميص الخبز، أو بالمذراة. أما بالنسبة إليك أنت، اسمح لي، فهذه المسائل البصرية لا يُمكن الاستغناء عنها. حاول، يا بون ـ بون، أن تستفيد منها جيداً؛ وسيلة إبصاري أنا هي الروح».

عند ذلك تحرّك الضيف بإجهاد ظاهر فانحنى على الطاولة، وملأ كأساً من النبيذ لبون ـ بون، وطلب إليه أن يشرب دون ارتياب أو تردّد وأن يعتبر نفسه في بيته تماماً.

«إنّه كتاب عبقري ذلك الذي لديك، يا بيير»، عاد جلالته للكلام، وكان يربّت في ثقة واطمئنان على كتفه، بينما وضع الآخر كأسه وقد أذعن صاغراً إلى أمر زائره. «لديك كتاب لا يقرأه سوى الأذكياء، أقول هذا على مسؤوليتي. إنّه عمل ينسجم مع أهواء قلبي. نظرتك المُنضبطة للأمور، كما أتصوّر، ربما كانت قابلة لشيء من التعديل، مع أنّ الكثير من مفاهيمك تذكرني بأرسطو. ذلك الفيلسوف من معارفي الأكثر قرباً إلى نفسي. لقد أعجبني كثيراً رغم مزاجه السيئ الفظيع، وطريقته اللبقة في تجاوز الهفوات. لا توجد غير حقيقة واحدة راسخة الجذور في جميع الأشياء التي كتبها، ولذلك فقد ألمحت إليه بضرورة تعديل بعض آرائه بدافع من تعاطفي مع نزواته الهوجاء المُنافية للعقل. اعتقد، بيير بون ـ بون، أنك تُدرك جيداً ما هي الحقيقة الأخلاقية السامية التي أتكلم عنها الآن؟»

«لا استطيع القول إنني...».

[15]«حقاً!... عجباً لقد كنت أنا الذي أخبر أرسطو بأنّ الناس من خلال العُطاس ينبذون بعض الأفكار الفائضة عن حاجتهم من مناخيرهم».

«تقصد.. الحازوقة!.. ليس من شك في أنّ تلك هي المسألة»، قال صاحبنا الميتافيزيقي: بينما كان يصبّ لنفسه كأساً أُخرى من شراب الموسو، ثمّ قرّب علبة السّعوط الخاصة به من أصابع زائره.

«وهُناك أفلاطون أيضاً»، تابع جلالته وهو يرفض بأدب جمّ علبة السّعوط رغم المُجاملة اللطيفة التي تنطوي عليها.. «هناك أفلاطون أيضاً، الذي كنت أحس إزاءه، في وقت ما، بكل العواطف التي يُمكن أن يُحسّ بها الصديق الوفي. هل تعرف أفلاطون، يا بون ـ بون؟.. آه، كلا، أرجو المعذرة ألف مرة. لقد قابلني في أثينا، ذات يوم من الأيام، في البانثيون(23)، واخبرني بأن ذهنه مهموم بفكرة ما. وطلبت منه أن يكتب، تلك القصيدة التي تبدأ بهذا البيت: «ترى أية غريزة فطرية تدفعنا إلى العزف على المزمار!» *o nous estin aulos*. وقال لي: إنه سوف يفعل ذلك، وذهب إلى بيته، بينما صعدت أنا إلى الأهرامات. إلّا أنّ ضميري ما انفكّ يؤنبني على التعبير صراحة عن تلك الحقيقة، وإن كان الدافع إلى ذلك مساعدة صديق، وأسرعت عائداً إلى أثينا، ثم وصلت إلى مكاني خلف كرسي الفيلسوف وكان في أثناء ذلك ينظم قصيدة «آولوس» أو المزمار.

«نقرتُ بطرف إصبعي على الكأس فانقلبت في الحال رأساً على عقب. وبذلك تغيّرت الجُملة وأصبحت كما هي عليه الآن: «أية غريزة فطرية تدفعنا إلى عزق الحدائق» *o nous estin augos*، وهي كما لا يُخفى عليك من العقائد الأساسية في فلسفته الميتافيزيقية».

«هل زرت روما في أي وقت؟» سأل صاحب المطعم حين أنهى زجاجته الثانية من نبيذ موسو، وأخرج من الخزانة زجاجات أُخرى من شراب كامبرتن.

(9) البانثيون: معبد إغريقي للأرباب كافة في روما. [المترجم]

«مرة واحدة، مسيو بون ـ بون، مرة واحدة فقط. في وقت ما»، قال الشيطان وكأنه يتلو مقطوعة مُقتبسة من أحد الكتب.. «في وقت من الأوقات حصلت حالة من الفوضى وأعمال شغب وانعدم وجود أي حكومة مدة خمس سنوات، أثناء ذلك اضطرت الجمهورية، وقد فُجعت بكل ضباطها وكبار موظفيها، إلى التخلّي عن أداء أي دور فعّال إزاء المُدافعين عن حقوق العامة، هؤلاء الذين لم يتمتعوا من قبل بأي نوع من امتيازات السلطة التنفيذية.. في ذلك الوقت، مسيو بون ـ بون.. في ذلك الوقت ليس غير كنت في روما، ولم أطلع، طبعاً، على مجمل فلسفتها»(*).

«ما رأيك إذن بـ .. ما رأيك بـ .. هيـ .. كب(24)!.. إبيقور(25)؟».

«ما رأيي بمن؟» قال الشيطان مُندهشاً، «لست تقصد حتماً البحث عن أخطاء إبيقور! ما رأيي بإبيقور! هل تقصدني أنا يا سيدي بهذا الكلام؟ ..أنا إبيقور نفسه! أنا الفيلسوف نفسه الذي كتب ثلاثمائة بحث خلّد ذكرها ديوجينيس لأيرتيوس(26)».

[16]«تلك مُجرّد كذبة من الأكاذيب!» قال الميتافيزيقي، ذلك لأنّ الخمرة حتماً قد لعبت برأسه قليلاً.

«حسناً جدّاً!.. حسناً جدّاً، سيدي!.. حسناً جدّاً، في الواقع يا سيدي!» قال صاحب الجلالة، وقد بدا مُتأثراً بالإطراء.

«تلك كذبة من الأكاذيب!» كرّر صاحب المطعم قوله مُتمسّكاً برأيه في إصرار لا يلين؛ «تلك... هيـ .. كب!... كذبة من الأكاذيب!».

(*) لقد كتبوا كثيراً عن فلسفةٍ يُمكن أن تُنسب إلى «شيشرو، لوكريتيوس، سينيكا» مع أنّها حقّاً فلسفة إغريقية الأصل - الفيلسوف الفرنسي كوندرسيه. (المؤلف)

(10) هيكب: صوت يصدر عن الإنسان حين يُصيبه الفواق أو الحازوقة. [المترجم]

(11) إبيقور: أو إبيكوروس (341- 270 ق.م) فيلسوف إغريقي مؤسس مدرسة فلسفية تُسمى الإبيقورية مبدؤها تحقيق السعادة والحرية من الخوف. [المترجم]

(12) ديوجينيس لايرتيوس: كاتب سِيَر شهير لفلاسفة الإغريق من القرن الثالث الميلادي. [المترجم]

«حسناً، حسناً، كما تشاء!» قال الشيطان، وكان يبدو مُسالماً، وفكّر بون ـ بون، بعد أن هزم صاحب الجلالة في المُناظرة، أنّ من واجبه إنهاء زجاجة ثانية من الكامبرتن.

«كنت أقول»، استأنف الزائر النقاش.. «كما لاحظت منذ برهة، هُناك بعض المفاهيم المُتطرفة جدّاً في المجلد الذي لديك مسيو بون ـ بون. ما الذي كنت تقصد، على سبيل المثال، بكل ذلك الهراء الذي يُقال عن الروح؟ أرجوك، يا سيدي، أخبرني ما هي الروح؟».

«إنّها.. هيــ.. كب!.. الروح»، أجاب الميتافيزيقي، وأشار بيده إلى صاحب الجلالة، «ليس من شك في أنها...».

«كلا، يا سيدي!».

«هذا مما لا يقبل الشك...».

«كلّا، يا سيدي!».

«شيء لا يقبل الجدل...».

«كلا، يا سيدي!».

«شيء لا لبس فيه...».

«كلّا، يا سيدي!».

«شيء لا يقبل الدحض أو التفنيد...».

«كلا، يا سيدي!».

«هيــ.. كب!...».

«كلّا، يا سيدي!».

«خارج نطاق أي نوع من التشكيك، إنّها...».

«كلّا، يا سيدي، الروح ليست كما تدّعي!» (هُنا بدا صاحبنا المُتفلسف

مُستعدّاً للاشتباك، وانتهز الفرصة ليُنهي، في لحظة، زجاجته الثالثة من الكامبرتن).

«إذن.. هيـ.. كب!.. أرجوك، يا سيدي.. قل لي.. ما هي الروح؟».

«إنّها شيء غير موجود هُنا أو هُناك، مسيو بون ـ بون»، أجاب صاحب الجلالة وهو مُستغرق في تأملاته. «لقد اختبرت.. أو بمعنى آخر، عرفت بعض الأرواح السيئة، وبعض.. الأرواح الطيبة أيضاً». وهُنا صار يتلمّظ بشفتيه، وبعد أن ترك يده تسقط دون وعي منه على الكتاب الذي في جيبه، تفاجأ بنوبة عنيفة من العُطاس.

ثم تابع كلامه.

«هُناك مثلاً روح الشاعر الإغريقي الكوميدي كراتينوس.. تُعتبر مُستساغة. وروح أريستوفانس.. طيبة النكهة. وروح أفلاطون.. رائعة.. ليس أفلاطون الذي تعرفه أنت، في حين أنّ أفلاطون الشاعر الهزلي؛ أفلاطون الذي تعرفه ربما يتسبّب بالغثيان حتى لسيربيروس[27].. تباً! دعني أرى! هُناك أيضاً من الشعراء الملحميين [17] الرومان نايفيوس، وأندرونيكوس، وبلاوتوس، وتيرنتيوس. ثم هُناك لوسيليوس وكاتولوس، وناسو، وكوينتوس فلاكوس.. العزيز كوينتي! مثلما كنت أدعوه عندما كان يُنشد أغنية دنيوية بغية إثارة شيء من البهجة في نفسي، وكنت حينئذ أشرب نخباً من أجله، في مرح ينمّ عن طيبة القلب، وأُقدّم له الخبز المُحمص بالشوكة. إنّهم يتمتعون بذوق رفيع، هؤلاء الرومان. رجل سمين واحد من الإغريق يُساوي اثني عشر منهم، وإلى جانب بدانته فهو قادر على التفوّق عليهم، وهذا شيء لا يُمكن أن يُقال عن رجل من كويرايت[28].. دعنا نرتشف القليل من جعة ساوترن التي لديك».

كان بون ـ بون في غضون هذا الوقت قد وطّد عزمه على أن «لا يستغرب

---

(13) سيربيروس: في الميثولوجيا الإغريقية والرومانية كائن خرافي، كلب عادة، له ثلاثة رؤوس مع ذيل أفعى ومخالب أسد يحرس مدخل العالم السفلي. [المترجم]

(14) كويرايت: الاسم الأصلي لمواطني روما القديمة، ويعني حملة الرماح. [المترجم]

من شيء» *nil admirari* وحاول أن يمدّ يديه إلى الزجاجات التي تكلّم عنها نديمه. ولكن تناهى إلى سمعه صوت غريب من الغرفة كأنّه اهتزاز ذيل. إلا أنّ صاحبنا المُتفلسف لم يُعر ذلك أدنى اهتمام، ورغم أنّه تصرّفٌ غير لائق كثيراً في حضرة صاحب الجلالة، إلا أنّه عمد ببساطة إلى ركل الكلب وزجره لكي يبقى هادئاً. واستمرّ الزائر بالكلام:

«لقد وجدت هوراس[29] يستسيغ الكثير من مقولات أرسطو؛ تعرف أنني مُغرم بالتغيير بين الحين والحين. لم أكن أفرّق كثيراً بين تيرنتيوس وميناندر. أما ناسو، فالشيء الذي أثار استغرابي، أنّه يتنكر بثياب نيكاندر. وكلمات فرجيل لها الرنين نفسه الذي يقترن بكلمات ثيوكريتوس. ومارشال يجعلني أتذكر اركيلوخوس.. وتيتوس ليفيوس حتماً لا يختلف عن بوليبوس ولا عن غيره»[30].

«هيـ.. كب!» هُنا جاء رد بون ـ بون، وواصل صاحب الجلالة حديثه:

«لو كانت نفسي تميل إلى شيء، مسيو بون ـ بون.. لو كانت نفسي تميل إلى شيء، فهي تعشق الفيلسوف الحقيقي. على الرغم من ذلك، دعني أُخبرك بشيء، يا سيدي، ليس كل شيطان.. أعني ليس كل رجل يعرف حقّاً كيف يختار فيلسوفه المُفضل. أولئك القدماء لم يكونوا بارعين؛ وأفضل واحد فيهم، إذا لم يُقشّر جيداً، فهو عرضة لأن يُصبح كريه المذاق قليلاً بسبب المرارة!».

«يُقشّر!».

«أعني يُستخرج من جلده الخارجي».

«ما رأيك في.. هيـ.. كب!.. ذلك الطبيب؟».

«لا تذكرهم لي!.. سحقاً! سحقاً! سحقاً! (هُنا أراد صاحب الجلالة التقيؤ بعنف). لم يسبق لي أبداً أن استسغت ذلك كله باستثناء واحد.. ذلك الوغد

---

(15) هوراس: (65 - 8 ق. م) من شعراء الرومان الرواد أثناء حكم الإمبراطور أوغسطوس تزامنت حياته مع تحوّل روما من الحكم الجمهوري إلى الإمبراطورية، له كتاب شهير في فن الشعر. [المترجم]

(16) شعراء من الإغريق والرومان اتّسمت أعمالهم بالطابع الملحمي. [المترجم]

الوضيع إبوقراط![31].. كانت تفوح منه رائحة الحلتيت[32].. سحقاً! سحقاً! سحقاً!.. وقد أصابتني وعكة برد حين كنت أغتسل في مياه الأسطقس[33].. على كل حال فقد تسبّب لي ذلك بالكوليرا».

«تعساً له.. هيـ.. كب!» هتف بون ـ بون، «ذلك الـ.. هيـ.. كب!.. لقد التهمت علبة كاملة من حبات الدواء!».. وهُنا سقطت دمعة من عين المُتفلسف.

«على كل حال»، تابع الزائر حديثه، «على كل حال، لو أنّ الشيطان.. لو أنّ أي رجل مُهذّب يرغب في العيش، فلا بُدّ له أن يتمتع بموهبة أو موهبتين على الأقل؛ نحن نرى أنّ الوجه السمين دليل على دبلوماسية حاذقة».

«وكيف يكون ذلك؟».

«عجباً! في بعض الأحيان نحن نندفع كثيراً للتزود بالمؤن. أنت حتماً تعرف ذلك، في طقس مُشبّع بالحرارة والرطوبة كهذا الذي نعيش فيه، غالباً ما يكون من [18] المُستحيل إبقاء الروح على انتعاشها أكثر من ساعتين أو ثلاث؛ وبعد الموت، ما لم يتم تتبيلها بالخل والملح في الحال (والروح المُخلّلة مذاقها غير طيب)، فسوف.. تفوح منها.. تفهم قصدي، ها؟ العفونة دائماً شيء مُتوقع حين تُستودع فينا الأرواح بالطريقة المعتادة».

«هيـ.. كب!هيـ.. كب!.. يا إلهي! أنّى لك أن تتحمل هذا؟».

هُنا عاد المصباح ذو الإطار الحديدي إلى التأرجح بعنف مُضاعف، وحاول الشيطان أن ينهض من كرسيه؛ لكنه تنهّد فحسب، واستردّ مزاجه السابق، ثم قال لبطلنا بنبرة واهنة: «أريد أن أقول لك شيئاً، بيير بون ـ بون، ما ينبغي لبعضنا أن يستمر في شتم البعض الآخر».

---

(17) أبوقراط أو هيبوكرايتس: (460– 370 ق. م) طبيب إغريقي قديم يُشار إليه بوصفه الأب الروحي للطب الغربي. [المترجم]

(18) الحلتيت: صمغ راتينجي كان يُتخذ علاجاً مُضاداً للتشنج. [المترجم]

(19) أسطقس: النهر الرئيسي في مثوى الأموات عند الإغريق. [المترجم]

ازدرد المُضيّف جرعة أُخرى وكأنما حاول أن يُعبّر عن قدرته على الاستيعاب وتقبّله للمُقترح، ومضى الزائر يقول من جديد:

«هذا شيء عجيب، هُنالك طرق عدة لتدارك الأمور. أغلبنا يتضوّر من الجوع: البعض يتدبر أمره بالمُخلّل: أما أنا فأبتاع خمري لإنعاش الجسد، وأرى أنها طريقة تُجدي نفعاً».

«ولكن الجسد!.. هيـ.. كب!.. الجسد!».

«الجسد، الجسد.. حسناً، وماذا عن الجسد؟ أوه! آه! إنني أُدرك ذلك. عجيب أمرك يا سيدي، الجسد لا يتأثر على الإطلاق بهذه الصفقة. لقد أجريت عدداً لا يُحصى من هذه التعاملات في حياتي، ولم تُمارس الأطراف المعنيّة أبداً أي نوع من المُضايقات. هُناك قابيل والنمرود، ونيرون، وكاليغولا، وديونيسيوس وبيزستراتوس[34]، و... وألف غيرهم، لا يعرفون ما معنى أن تبقى لدى المرء روحٌ في الشطر الأخير من حياته؛ ولكن، يا سيدي، هؤلاء الرجال كانوا يُبجّلون الحياة ضمن الإطار المُجتمعي. أنّى لهم تلك القدرات، سواءً كانت عقلية أو بدنية! منهم من يكتب قصيدة ساخرة غاية في البراعة والإتقان؟ ومنهم من يستبطن خفايا الأمور بفطنة أكبر؟ ومنهم من.. ولكن مهلاً! لدي تخويلٌ من أحدهم داخل الكتاب الذي في جيبي».

قال هذا وأخرج محفظة جلدية حمراء، واستلّ منها عدة أوراق. ألقى بون ـ بون نظرة عاجلة على حروف بعض الأسماء التوراتية: ماخي.. مازا.. رويبسب.. مع كلمات أُخرى: كاليغولا، جورج، إليزابيث[35]. وهُنا اختار جلالته منها رقاقة، وقرأ بصوت مسموع الكلمات التالية:

---

(20) النمرود: ملك بابل؛ كاليغولا: إمبراطور روما المجنون 37- 41 م؛ ديونيسيوس: (430- 367 ق.م) طاغية سيراقوسة في صقلية، قاتل القرطاجيين؛ بيزستراتوس: (605؟ - 527 ق.م) طاغية أثينا، وسّع حدود الإمبراطورية حتى شملت البحر الإيجي وساحل آسيا الصغرى. [المترجم]

(21) جورج الرابع ملك إنكلترا، كان إدغار ألن بو يكرهه جدّاً. إليزابيث الأُولى التي قتلت الملكة ماري من اسكتلندا. [المترجم]

«نظراً لدواعي عقلية لا داعي للتطرّق إليها، فضلاً عن اعتبارات تتعلّق بألف من ليرات الذهب *louis d'or*، أقرّ وأعترف، أنا البالغ من العمر سنة واحدة وشهر، لحامل هذه الوثيقة بجميع حقوقي، ولقبي، وامتيازاتي في ما يتعلّق بالظل الذي يرافقني ويُسمّى روحي. (المُوقّع أدناه) أ....»[*] (وهُنا أعاد جلالته [19] ذكر الاسم الذي لم يتخيّل أنّ ثمّة مبرراً للإشارة إليه صراحة).

«ذلك شخص يمتازُ بالذكاء»، أضاف؛ «ولكنه لا يختلف عنك في شيء، مسيو بون ـ بون، فقد كان على خطأ بشأن الروح. الروح تُشبه الظل حقّاً! الروح ظلٌّ من الظلال؛ ها! ها! ها!.. هيه! هيه! هيه!.. هوه! هوه! هوه! ولكن عليك أن تُفكّر في ظلٍ مفروم فحسب!»

«عليك أن تفكر فحسب.. هيـ.. كب!.. في ظلٍ مفروم!» هتف بطلنا الذي توقّدت قدراته الذهنية من خلال عمق الجدل مع جلالته.

«فكّرْ في الحازوقة فحسب!.. ظلٌّ مفروم! والآن، اللعنة!.. هيـ.. كب!.. همف![36] لو أني كنت مثل الـ .. هيـ.. كب!.. أيّها الساذج المُغفل! لكانت روحي، أيها السيد.. همف!».

«روحك، مسيو بون ـ بون؟».

«نعم، يا سيدي.. هيـ.. كب! روحي..».

«ماذا، سيدي؟».

«ليس لها ظل، أيُّ لعنة!».

«هل تقصد القول..».

«نعم، سيدي، روحي.. هيـ.. كب!.. همف!.. نعم، سيدي».

«ألم تكن تنوي أن تقول..».

(*) العقد مُوقّع بالاسم الحقيقي لفولتير «فرانسوا ماري أروات» *Quere-Arouet*. (المؤلف)

(22) همف: صوت يُعبّر فيه الإنسان عن الشك أو الازدراء. [المترجم]

«روحي.. هيــ.. كب!.. مؤهلة بشكل عجيب لأن.. هيــ.. كب!.. تصبح..».

«ماذا، يا سيدي؟».

«حساءً».

«ماذا؟».

«بيضاً مخفوقاً».

«نفيخة»[37].

«إيه!».

«لحماً مفروماً».

«حقاً!».

«يخنة تكثر فيها التوابل مع شريحة عجل.. انظر هُنا، يا صديقي العزيز! سوف أدعك تتذوّقها.. هيــ.. كب!.. إنها صفقة رابحة». هُنا خبط المُتفلسف صاحب الجلالة على ظهره.

«لا يُمكنني التفكير في أشياء مثل هذه»، قال الأخير في هدوء، وفي الوقت نفسه نهض من كرسيه. وأخذ صاحبنا الميتافيزيقي يُحملق فيه.

«لقد اكتفيت في الوقت الحاضر»، قال جلالته.

«هيــ.. كب، ماذا؟» قال صاحبنا المُتفلسف.

«ليس عندي ما أدفعه».

«ماذا؟».

«وإلى جانب ذلك، فهذا شيء لا يليق بي.. ».

«سيدي!».

(23) النفيخة: طعام يُحضر بشكل يكون فيه مُنتفخاً. [المترجم]

«تريد استغلال هذه الفرصة لتحقّق صفقة..».

[20]«هيــ.. كب!».

«وضعك المُقزّز الحالي لا يليق برجل مُهذب».

هنا انحنى رأس الزائر في إجلال ثم تراجع.. حدث ذلك بطريقة لا يُمكن استجلاء كنهها على وجه الدقة.. مع أنّه بذل جهداً فيما يبدو للقيام بحركات مُنسّقة بقصد التخلّص من الزجاجة التي أراد أن يُلقيها على ذلك «الوغد»، فانقطعت السلسلة الرفيعة التي كانت تتعلّق بالسقف، وسقط صاحبنا الميتافيزيقي مغشياً عليه حين هوى المصباح بإطاره الحديدي على رأسه.

دوق لوميليت

وتقدّم خطوة في الحال بقصد الوصول إلى جو أكثر برودة.

وليم كاوبر (القناع)

[21] سقط كيتس[1] من عليائه بسهام النقد اللاذع. من الذي مات بسبب عشقه لـ «أندروماخي؟»[*] يا للأرواح الخسيسة!.. دوق لوميليت قضى نحبه بسبب صعوة الحطب[2] ذلك تاريخ ليس بالبعيد! فلتكوني في عوني،

---

(1) جون كيتس 1795- 1821 شاعر إنكليزي ينتمي إلى المدرسة الرومانسية يُعتقد أنّه مات بسبب نقد لاذع تعرّض له من جون ولسون كروكر في مجلة كوارترلي ريفيو سنة 1818. [المترجم]

(*) يتكلم مونتفلوري، كما ورد في (بارناسي ريفورميه)، من مكانه في هاديس قائلاً:

"L'homme donc qui voudrait savoir ce dont Je suis mort, qu'il ne demande pas s'il de fievre ou de podagre ou d'autre chose, mais qu'il entende que ce fut de l'Andromache." *(المؤلف)*

اقتبس إدغار ألن بو هذا التعليق مُباشرة من مقال إسحق دزرائيلي عن «الممثل التراجيدي» والذي نشر في مجلة (جماليات الأدب). يقول دزرائيلي: «كان هُناك مُمثل فرنسي يُدعى مونتفلوري مات بسبب جهوده المضنية لتجسيد دور أوريسيس في مسرحية راسين (أندروماخي)». لذلك يجعله مؤلف (بارناسي ريفورميه) يُعبّر عن نفسه فيقول: «أجبرت نفسي ألف مرة على أن أظهر من الانفعالات ما يفوق تصورات لو برون في لوحاته.. أردت أن أجعل أجزاء جسدي كلها تؤدي الإيماءات التي تواكب هذه الانطباعات. فمن أراد معرفة سبب موتي، ينبغي ألا يظن أنّها الحمى، أو داء الاستسقاء أو النقرس؛ ولكن ليعلم أنّها شخصية أندروماخي بعينها!» الكتاب من تأليف غابريل غواريه 1641- 1688. [المترجم]

(2) صعوة الحطب: عصفور غريد من فصيلة مشرومات المناقير. [المترجم]

يا روح أبيكيوس[3]!.

قفص ذهبي يقبع بين قضبانه طيرٌ هائم صغير ذو جناحين، يا لمنظره الفتّان! كسير الفؤاد، خائر القوى، جائوا به إلى قصر على جادة «شوسيه دو آنتن» في باريس، حملوه من موطنه البعيد في بيرو. أخذوه من صاحبته الأصلية قرينة الملك لابيلسيما، إلى دوق لوميليت، وتولّى تلك المهمة ستة من النبلاء عملوا على نقل الطائر الجذلان.

في تلك الليلة كان على الدوق أن يتناول عشاءه وحده. في خلوة مكتبه اضطّجع بفتور همة على الأريكة التركية التي ضحّى، من أجل اقتنائها في المزايدة، بولائه للملك.. ذلك العثماني السيئ السمعة من كاديت.

دسّ وجهه في الوسادة. وكانت دقات الساعة تؤرّقه! لم يستطع كبح جماح مشاعره الفياضة، فابتلع سموّه حبة زيتون. في هذه الأثناء انفتح باب الغرفة في رفق وسُمع صوتُ موسيقى هادئة، ومن ثمّ، ويا للعجب! أصبح الطير الأكثر نعومة شاخصاً على حين فجأة أمام أكثر الوجوه انبهاراً به! أي نوع من الفزع الذي لا يُمكن أن يُوصف يُلقي ظلاله على سيماء الدوق؟ ..«يا للهول!.. أيّها الكلب الحقير!.. رحماك يا يوحنا المعمدان!.. هذا الطير!.. أوه، يا إلهي الرحيم، هذا الطير المسكين نتفت ريشه، وقدّمته على المائدة دون أن تلفّه بالورق!». لا ضرورة لمزيد من الكلام.. فقد استبدت بالدوق نوبة من الغثيان.

«هاه! هاه! هاه!» قال سموّه في اليوم الثالث من المرض الذي ألم به.

«هيه! هيه! هيه!» رد عليه الشيطان بصوت خافت، وكان يُجرجر نفسه للنهوض الذي اقترن بشيء من الغطرسة.

«عجباً، حتماً أنت لست جاداً في هذا»، قال دوق لوميليت. «لقد اقترفت خطيئة [22]شنيعة.. إنّ هذا لشيء حقيقي *c'est vrai* . . ولكن، يا سيدي الطيب،

---

(3) ابيكيوس: رجل روماني كان خبيراً في تذوق الأطعمة والأشربة والحكم عليها، ألّف كتاباً في هذا الشأن أواخر القرن الرابع الميلادي بلغة عامية. [المترجم]

تريّث!.. إنك لا تنوي حقّاً أن تضع هذه.. هذه التهديدات البربرية موضع التنفيذ».

«*ولماذا لا؟*» قال جلالته.. «هيا، يا سيدي، اخلع ثيابك!».

«أخلع ثيابي، حقاً! ليس من شك في أنّ هذا شيءٌ جميل! كلّا، يا سيدي، لن أخلع ثيابي. من أنت، أتوسل إليك، حتى تجبرني أنا، دوق لوميليت، أمير فويغراس، وأنا بهذا العمر، مُبتكر (مازوركياد)[4]، وعضو الأكاديمية، حتى أمتثل لأوامرك فأخلع أجمل سراويلي التي أنتجتها محلات بوردون الباريسية، وأكثر روب نومٍ أناقة من رومبيرت.. إذا تجاهلنا أي شيء عن شعري المُستعار فلم نتطرّق إليه.. وإذا تغاضينا عن المتاعب التي سوف أواجهها لدى خلع قفازي؟».

«من أكون؟ آه، صحيح! أنا بعل زيبوب، اسمٌ آخر للشيطان، أمير الذباب. سوف آخذك معي الآن إلى نعشٍ من خشب الورد المرصّع بالعاج. سوف تُعطر جثتك بإتقان، هُناك تُصنف جودة الخدمات مثلما تُشير إلى ذلك فاتورة الثمن. لقد أرسلك بيليال[5]، مُراقب المقبرة التي أعمل فيها. أما البنطلون، الذي تقول إنّه صُنع في بوردون، فهو مُجرّد سروال تحتي جميل من الكتان، وروب نومك كفنٌ لا تكاد أبعاده الضيقة تكفي لتغطيتك».

«سيدي!» أجاب الدوق، «لن أسمح لأي أحد يُقدم على إهانتي أن يفلت بغير عقاب!.. سيدي! سوف انتهز أقرب فرصة للانتقام على هذه الإهانة!.. سيدي! سوف تسمع عني! ولكن، في هذه الأثناء، وداعاً! *au revoir*».. أحنى الدوق رأسه في حضور الشيطان، ولكنه عاد إلى مكانه عندما فوجئ بدخول رجل

(4) مازوركياد: هُناك عشرات القصائد تحمل عناوين تنتهي بـ «ياد» ظهرت في القرن الثامن عشر وما بعده. ربما كان الدوق يوحي هُنا إلى رقصة دائرية ذات أصل بولندي. [المترجم]

(5) بيليال: اسم ورد ذكره في التوراة وأصبح في وقت لاحق يُشير إلى الشيطان في النصوص اليهودية والمسيحية. في (الفردوس المفقود) لملتون هو تابع للشيطان. [المترجم]

كان واقفاً في الانتظار. هُنا فرك سموّه عينيه، وتثاءب، وهزّ عاتقه، وأخذ يفكر. بعد أن اقتنع وتأكد من هويته، صار يتلفت يميناً وشمالاً.

منظر الحجرة يوحي حقّاً بالأبهة والفخامة. حتى إن دوق لوميليت اعتاد أن يُسمّيها «المخدع المثالي» *bien comme il faut*. لم يكن السبب في ذلك الإطراء طولها أو عرضها، وإنما ارتفاعها.. آه، يا له من شيءٍ مُذهل!.. لا يوجد سقف.. ليس هُناك سقف على الإطلاق.. بل مُجرّد طبقة كثيفة من السحب تنطلق بسرعة وكأنها ألسنة اللهب. التوى رأس سموّه وهو يُلقي نظرة إلى الأعلى. من مكان مرتفع غير مرئي في السماء، تدلّت سلسلة من معدن غير معروف بلون الدم(6)، طرفها الأعلى مفقود لا يراه أحد، كأنّه صورة لمدينة بوسطن وقد «تدثّرت بطبقة كثيفة من الغيوم» *parmi les nues*. ومن طرفها السفلي يتدلّى مشعل هائل الحجم. عرف الدوق على الفور أنّها ياقوتة؛ مع أنّها ترسل ضوءاً ساطعاً أخّاذاً، ولكنه ضوء ساكن، مُخيف، لم يسبق لسكان بلاد الفرس أن عبدوا شيئاً مثله.. ولم يسبق لغيبر(7) أن تخيّل شيئاً مثله.. ولم يسبق لموسولمان(8) أن حلم بشيء مثله وهو مخدّر بالأفيون، يجرجر نفسه مُتمايلاً على سرير من الخشخاش، وظهره مُتجه إلى الأزهار، ووجهه إلى أبولو. تمتم الدوق بكلمات كأنها القَسَم، مُستحسناً المنظر دون أي تردّد.

جوانب الغرفة مُستديرة مثل المحراب. ثلاثة أركان منها عليها تماثيل هائلة [23] الحجم. بعضها تماثيلٌ جميلة على النمط الإغريقي، وأُخرى مُشوهة المنظر يبدو أنها مصرية، ومجموعة كاملة *tout ensemble* من التحف الفرنسية. أما في المِحراب الرابع فهُناك تمثال مُقنّع محجوب عن الأنظار؛ لم يكن تمثالاً هائل

---

(6) معدن أحمر، يقال: إنّه من أتلانتس المفقودة وصف في كتاب أفلاطون «كريتياس»، ويُسمّى باللاتينية *orichalcum* وتعني النحاس الأصفر رمز الارتباط المُقدّس بالإمبراطورية الرومانية. [المترجم]

(7) غيبر: اسم مُستمد من الفارسية ويعني «الكافر» يُستخدم للإشارة إلى مُعتنقي الزرادشتية. [المترجم]

(8) موسولمان: في الفارسية «مسلمون» وفي كثير من اللّغات الأوروبية وحتى في الإنكليزية تكتب الكلمة في بعض الأحيان Mussulman. [المترجم]

الحجم. غير أنّ بإمكان المرء رؤية كاحل مُستدق، وقدم ذات صندلٍ تلوح للعيان. وضع دو لوميليت يده على صدره، وأغمض عينية، ثم عاد فرفعهما، ونظر إلى جلالة الشيطان.. واحمرّ وجهه من الخجل.

يا لروعة تلك اللوحات!.. كوبريس! استارت! استوريث![9].. ألفُ لوحة تحمل الرونق نفسه! ووقف رافاييل[10] ينظر إليها مُتعجباً! نعم، رافاييل موجود هُنا، ألم يكن هو الذي أبدع في رسمها...؟ ألم يُصبح بالتالي ملعوناً؟ اللوحات.. يا لتلك اللوحات! يا لمظاهر الترف! يا للغرام!.. لئن نظرت إلى تجليات الجمال المُترف المحظور هذه جميعاً، فهل تبقى ثمّة عيون لتنظر إلى تلك الإطارات الذهبية ذات التشكيلات الأنيقة التي تتناثر هُنا وهُناك كأنها حبات البَرَد الخفيف، كالنجوم، كسنابل الياقوت والحجر السُمّاقي على الجدران؟

إلّا أنّ الدوق كان خائر القوى، وقلبه مرهفٌ في داخله، وكاد يُغمى عليه. لم يكن، كما قد يتصور المرء، مُصاباً بالدوار أو الذهول لإشراق المنظر، ولم يكن مُنتشياً حتى الثمالة بتلك الروائح التي تنبعث من مباخر لا تُحصى فتُثير النشوة في النفوس. صحيحٌ أنّه فكّر كثيراً في كل هذه الأشياء.. ولكن! *C'est vrai que de toutes ces choses il a pense beaucoup-mais* كان دوق لوميليت مصعوقاً مرعوباً؛ لأنه وقف مُتجمّداً بإزاء منظر شديد الشحوب أُتيحت له مشاهدته من إحدى النوافذ التي لا تُغطيها الستائر، يا للعجب! لمح أكثر النيران شناعة!.

يا للدوق المسكين! *le pauvre Duc* لم يتمكن حتى من مُقاومة خيالاته التي راودته عن تلك الألحان الشهوانية المُتألقة، لا تكاد تخبو أبداً، تجتاح الصالة، تُعبّر في إصرار، تخترق، تترشح عبر كيمياء الألواح الزجاجية للنوافذ التي يؤطرها السحر؛ حقّاً إنّها تجسيدٌ لنحيب وولولة كل تلك الأرواح البائسة الملعونة! هُناك أيضاً!.. هُناك!.. على الطنافس العثمانية!.. من يكون ذلك

---

(9) كوبريس: سيدة قبرص اسم إغريقي لأفروديت. استارت واستوريث: أسماء إغريقية مُختلفة للآلهة عشتار في حضارة وادي الرافدين. [المترجم]

(10) رافاييل: 1483- 1520 رسام ومهندس معماري إيطالي يُعتبر أحد أعظم الفنانين العالميين في مُختلف العصور. [المترجم]

الشخص؟.. ذلك، الناحل *petit maitre* . . كلّا، وإنما يبدو كأنه أحد آلهة الإغريق.. من ذاك الذي يجلس وكأنما هو تمثال من الرخام، ولماذا يتبسّم *et qui sourit* في تلك الهيئة الشاحبة، بهذه الصورة *si amèrement* التي تبعث المرارة في النفس؟

ولكن لا بُدّ من عمل شيء *mais il faut agir* . . بعبارة أُخرى، فأي رجل فرنسي ما كان ليُغمى عليه صراحة في الحال. وإلى جانب ذلك، فسموّه يكره هذا المشهد.. دوق لوميليت عاد إلى طبيعته الأُولى من جديد. رأى بعض لفافات الورق مُلقاة على الطاولة.. وأخذ يُفكر في بعض المسائل أيضاً. ربما أراد الدوق التملص من الموقف *il peut s'échapper* . . استغرق في التفكير بمسألتين مُحدَّدتين، وبإيماءة سمحة لا تضاهى، عرض على جلالته فرصة للاختيار. ولكن، يا للرعب! جلالته لا يريد أن يُسوّي الخلاف!.

ولكن، ليس من شك في أنّه يعرف كيف يلعب! *mais il joue* . . يا لها من فكرة مبهجة!.. سموّه يتمتع على الدوام بذاكرة مُمتازة. لقد غطس في «عالم الخرافة» لآبي غاولتير[11]. ومن هُنا فقد قيل: «الشيطان نفسه لا يجرؤ على رفض لعب الورق» *que le Diable n'ose pas refuser un jeu d'écarte* .

ولكن الفرص.. يا للفرص الضائعة! صحيح أنّها.. تبعث على اليأس: ولكن ذلك نادراً ما يكون أكثر يأساً من الدوق نفسه. إلى جانب ذلك، ألم يكن يعيش في خفايا الظلام؟.. ألم يمر بخفة على الأب لو برون؟[12]. ألم يكن عضواً في نادي [24] فنغتون؟ «إذا خسرت»، قال، «فأنا أستحق اللعنة مرتين»... هذا كل شيء! *voilà tout* (وهُنا هزّ سموّه كتفيه)؛ أما إذا ربحت، فسوف أعود إلى صغيري صعوة الحطب؛ فليُوزّع إذن ورق اللعب!..

---

(11) آبي غاولتير: راهب كاثوليكي فرنسي 1745- 1818 اشتهر كمُصلح للتعليم. أسّس مدرسة للأطفال كان يسعى فيها إلى تعليم اللّغات والجغرافيا عن طريق الألعاب. [المترجم]

(12) جارلس لو برون: 1619- 1690 رسام فرنسي ومُصمّم معماري له تأثير كبير في فترة حكم لويس الرابع عشر له كتاب «كيف تتخلّص من الأحزان» 1667. [المترجم]

وكان سموّه غاية في الحذر، غاية في الانتباه.. وجلالته غاية في الثقة بالنفس. أيُّ مشاهدٍ لمجريات الأمور كان سيخطر على باله فرانسيس وتشارلس[13]. كان سموّه يُفكّر في لعب الورق. أما جلالته فلم يكن يُفكّر في شيء؛ خلط ورق اللعب. وقطع الدوق جزءاً.

تمّ توزيع ورق اللعب. وقُلبت الورقة الرابحة.. إنّها.. إنّها.. الملك! كلّا.. إنّها الملكة. أخذ جلالته يلعن رداءها الذكوري. ووضع دوق لوميليت يده على صدره.

استمرا في اللعب. وكان الدوق يُحصي النقاط، والكف خارج المعطف. أحصى جلالته النقاط بحذق، وكان يبتسم، ويحتسي النبيذ. وألقى الدوق ورقة.

«إنه دورك»، *c'est à vous à faire* قال جلالته، وكان يقطع الورق. أحنى سموّه رأسه، ووزع الورق، ثم نهض من الطاولة وهو يُلقي الملك *en presentant le Roi*.

ألقى جلالته نظرة تُعبّر عن الانزعاج.

لو لم يكن الإسكندر هو الاسكندر، لكان دايوجينس[14]؛ أكّد الدوق لخصمه أنّه يستأذن للانصراف، «لو لم يكن هو دوق لوميليت، لما كان لديه أقل اعتراض على أن يكون الشيطان نفسه» *que s'il n'eût été De L'Omelette il n'aurait point d'objection d'être le Diable.*

(13) فرانسيس الأول ملك فرنسا، وتشارلس الخامس الإمبراطور الروماني. [المترجم]

(14) دايوجينس: أو ديوجين 412- 323 ق. م فيلسوف يوناني دعا إلى التقشّف وعاش في برميل. وقد زاره الإسكندر في أثينا وسأله إذا كان يريد منه أي شيء، فرفض الزاهد وقال له «اغرب عن وجهي»، وهُنا علّق الإسكندر قائلاً: إنه لو لم يكن الإسكندر لتمنّى أن يكون دايوجينس. [المترجم]

انقطاع الأنفاس

(حكاية لم تقع داخل ولا خارج حدود بلاكوود)

أوه، لا تتلفّظ..، وهلمّ جرّاً...

ترنيمات مور[1]

[25] أكثر الناس الذين عُرفوا بالتعاسة وسوء الحظ لا بُدّ أن ينتهي بهم الأمر فيقعوا ضحايا لأغلال الفلسفة التي لا تكفّ عن فرض هيمنتها.. كما تخضع أكثر المُدن عِناداً فتسقط بين يدي عدو يحرص كل الحرص على المُطاولة في الأناة والحذر. كانت مدينة الملك شلمنصر[2]، كما قرأنا ذلك في الكتابات المُقدسة، موجودة قبل السامرة بثلاث سنوات؛ غير أنّها سقطت. وقد حرص ساردانابالوس[3] - انظر ما كتبه المؤرخ الإغريقي ديودوروس من صقلية - على البقاء سبع سنوات في نينوى؛ ولكن بلا جدوى. وطروادة تقوّضت على عروشها وانتهى أمرها مع نهاية الإحصاء الروماني الثاني؛ ومدينة أزوث، كما صرّح بذلك

(1) هذا الاستهلال مُقتبس من افتتاحية «ترنيمات إيرلندية» لتوماس مور 1779- 1852: «أوه! لا تتلفظ باسمه». [المترجم]

(2) شلمنصّر: لقب يُطلق على ملوك بلاد آشور خلال فترات حكمهم قبل الميلاد. [المترجم]

(3) ساردانابالوس: آخر ملوك بلاد آشور وربما كان ذلك تحريفاً لأسم الملك آشور بانيبال في القرن السابع ق. م. [المترجم]

أريستايوس(4) على مسؤوليته كمؤرخ رصين، فتحت بواباتها أخيراً لجيوش ساميتخوس(5)، بعد أن تصدّت لهم طوال العقد الخامس من القرن...

«أيتها التعيسة!.. أيتها الثعلبة الماكرة!.. يا لك من امرأة سليطة اللسان!» هكذا زجرت زوجتي في صباح يوم زفافنا؛ «أيتها المُشعوذة!.. أيتها العفريتة!.. أيتها التافهة المُتعجرفة.. يا من تغطسين حتى أُذنيك في الآثام!.. وجهك المذموم مصدرُ كلّ الشؤم والبشاعة في هذه الدنيا!.. أنت.. أنت..» هُنا وقفت على أطراف أصابعي، وأمسكت بها من بلعومها، ووضعت فمي قريباً من أذنها، كنت أنوي إطلاق سيلٍ جديد من صفات الخزي التي لن تخفق مع ذلك، إذا ما أطلقت، في إقناعها بمدى أهميتها، حين اكتشفت، لشدة ذعري ودهشتي، أنّ أنفاسي انقطعت.

كانت عبارات «انقطعت أنفاسي»، «لا يُمكنني التنفس»، وهلمّ جرّاً..، كثيراً ما تتكرر ضمن مُحادثات مألوفة كهذه؛ ولكن لم يبدُ لي أبداً أنّ مثل هذه الحادثة المُروعة التي أتكلّم عنها يُمكن أن تُصبح حقيقة لا جدال فيها *bona fide* وأنها وقعت حقّاً! تخيّل.. إن كان لديك ميل للخيال.. تخيل، أقول، شدة ذهولي.. وذعري.. وقنوطي!.

ومع ذلك، لم يُفارق روحي شيءٌ من مزاجي العبقري النادر في أي وقت من الأوقات. في أكثر حالاتي النفسية تمرداً وبُعداً عن السيطرة أبقى مُحتفظاً بشيء من اللياقة والاحتشام، «ومسارات مشاعري تقودني..» *et le chemin des passions me conduit*، كما يقول اللورد إدوارد في (جولي)(6) واصفاً ما يحدث له.. «إلى فلسفة لا تبتعد كثيراً عن الحقيقة» *à la philosophie veritable*.

---

(4) أريستايوس: شاعر ذو شخصية شبه خُرافية يُقال: إنّه كان مصدراً لمعلومات هيرودوتس في سرده عن حصار أزوث في القرن السابع قبل الميلاد ممّا جعله عرضة للشكوك. [المترجم]

(5) ساماتيخوس: أو ساماتيك اسم ثلاثة من فراعنة مصر الذين ينتمون إلى السُّلالة السادسة والعشرين. [المترجم]

(6) لورد إدوارد شخصية في رواية جان جاك روسو (جولي) 1761. [المترجم]

مع أنّي لم أستطع في بداية الأمر أن أعرف في دقة إلى أي مدى كانت تلك [26]الظاهرة تلحق بي الضرر، على أني كنت قد عقدت العزم في جميع الأحوال على أن أخفي الأمر عن زوجتي، حتى تكشف لي تجربة أُخرى عن عمق فاجعتي هذه التي لم يسمعْ بها أحد. عندها أُغيّر ملامحي في لحظة من مظهرها المُربك المُغالى فيه إلى تعبير عن الحنو والدلال وشيء من الغزل، وأربّت على أحد خدي سيدتي، وأمنحها قبلة على خدها الآخر، ودون أن أتلفّظ بأي كلمة (انفعال غريب حقّاً! ما كنت أستطيع كبح جماحه).. أتركها مُندهشة من مزاجي المُتقلّب، بينما أنسلّ خارجاً من الغرفة وأنا أدور على قدم واحدة بينما الأُخرى تتعلّق في الهواء *pas de Zephyr* كما يفعل راقص الباليه.

يُمكنك أن تنظر إليّ إذن وأنا أنزوي باحثاً عن الأمان في مخدعي، مثالٌ مُخيف عن حالة الانجرار السيئ العواقب وراء الانفعال المجنون والاستسلام السريع للغضب.. إنسانٌ لا يزال حيّاً يُرزق، يعيش بمؤهلات الموتى.. ميتٌ له ميول إنسان حي.. شذوذٌ ما بعده شذوذ على وجه الأرض.. هادئ الطباع كثيراً، غير أنّي أحسّ بانقطاع الأنفاس.

نعم! لقد تقطّعت أنفاسي. إنّني جاد حين أقول: إن أنفاسي تلاشت عن آخرها. ما كنت أستطيع أن أنفخ ريشة لو أنّ الحياة كانت تنبض في داخلي، أو أن أُلطّخ بأنفاسي الباقية صفاءَ إحدى المرايا. يا لشناعة المصير!.. إلّا أنّ هُناك شيئاً أدّى إلى التخفيف من النوبة الأُولى لحزني. وجدت في تجاربي الماضية أنّ قُدراتي على التعبير، أثناء عجزي عن التواصل مع زوجتي، ومُحادثاتي معها التي سرعان ما كنت أنهيها وأعتبرها قد انهارت بكاملها، لم تكن في حقيقة الأمر إلّا أشياءً تعرضت للإعاقة جزئياً أو مؤقتاً، واكتشفت، خلال تلك الأزمة المُثيرة للاهتمام، أنني لو خفضت صوتي وجعلته حشرجة عميقة، ربما تمكّنت أن أعبّر لها عن عواطفي؛ نبرةُ الصوت، هذه (الحشرجة) لا تعتمد، كما اتّضح لي، على تدفّق الأنفاس، وإنّما على فعل تشنجي واضح لعضلات الحُنجرة.

اضطجعت على أحد الكراسي، واستغرقت في تأملاتي بعض الوقت. لم تكن تأملاتي، فلتكن على ثقة من هذا يا صاحبي، مصدراً للعزاء والسلوى مهما

كان نوعها. استولت على روحي آلاف الأوهام حتى لقد سالت دموعي.. وخطرت ببالي فكرة الانتحار؛ ولكنّها في ما يبدو نزعة مُنحرفة عن طبيعة البشر أن يرفضوا الشيء الواضح والقريب من أذهانهم، وأن يلجؤوا إلى ما يلتبس وينأى بعيداً عن مُتناول أفكارهم. وبذلك هززت كتفي رافضاً فكرة قتل نفسي واعتبرتها من أكثر القرارات شناعة، بينما كانت القطة الرمادية تموء بإجهاد على البساط، وكلب الصيد نفسه يواظب على التنفس ويُصدر في ذلك صفيراً تحت الطاولة، كل واحد منهما يستفيد من قوة رئتيه، وكل هذا يجري في سُخرية تامة من عجزي الرئوي.

استبدّت بي فوضى عارمة من الآمال والهواجس الغامضة، حتى سمعت [27]أخيراً وقع خطوات زوجتي وهي تنزل السلم. بما أنّني كنت واثقاً الآن من غيابها، فقد عدت، وخلجات قلبي تنتفض، إلى مشهد مأساتي.

أغلقت الباب في حذر وعناية من الداخل، وشرعت أجري بحثاً في إصرار مسعور. ولكن كان من المُستحيل، كما تخيّلت، أن يُسفر بحثي عن العثور على ذلك الشيء المفقود، بعد أن اختفى منذ زمن طويل في زاوية مجهولة، أو قبع في إحدى الخزانات أو الأدراج. ربّما ينبعث منه البخار.. أو يكون ذا شكل ملموس. أغلب الفلاسفة، في مسائل فلسفية مُتفرقة، يُصبحون بعيدين عن الفلسفة. غير أن وليم غودوين[7] يقول في كتابه (مانديفيل): إن «الأشياء غير المرئية هي وحدها التي تُشكّل حقائق مُجرّدة»، وهذه، باتفاق جميع الآراء، هي المسألة التي كنت أبحث عنها. أودّ أن أطلب إلى القارئ الحصيف التريّث قليلاً قبل أن يُصدر اتهامه فيعتبر مثل هذه التأكيدات مُفرطة في العبث والسخافة. كان أناكسوراس[8]، لعلّنا نتذكر هذا، يؤكد أنّ الثلج أسود اللون، وهذا شيء وجدته ينطبق كثيراً على حالتي الراهنة منذ ذلك الوقت.

منذ زمن طويل مارست في جدية صارمة عمليات البحث والتقصّي: إلّا أنّ

---

(7) وليم غودوين: 1756- 1836 فيلسوف اجتماعي بريطاني، مهّد السبيل لظهور الحركة الأدبية الرومانتيكية في إنكلترا. [المترجم]

(8) أناكسوراس: 500- 428 ق. م فيلسوف يوناني قال بأنه لا يُمكن أن يوجد شيء من العدم. [المترجم]

الجائزة المُحتقرة التي يبدو أنّني حصلت عليها من المُثابرة على ذلك العمل اتّضح أنّها مُجرّد طقم من الأسنان الزائفة، وزوجان من الأرداف، وعين واحدة، وحزمة من رسائل الغرام *billets-doux* التي أرسلها السيد وايدينوف إلى زوجتي. ربما جاز لي أن أُشير في هذا الصدد إلى انحياز سيدتي الدائم إلى صديقي السيد و. فقد تسبّب لي بشيء من الإحراج والارتباك. لئن جاز للسيدة لاكوبريث أن تشعر بالافتتان إزاء أي رجل يمتاز بشيء مُخالف لشخصيتي فربما كان ذلك الأمر من أهون الشرور الطبيعية أو الضرورية أحياناً. يعرف الجميع أنّني إنسان غليظ الطباع وبدين بدانة مُفرطة، وفي الوقت نفسه فإنّ قامتي قصيرة بحيث لا تتناسب مع هيئتي عموماً. أي عجب، إذن، في أن يُقابل ذلك القوام الرشيق لصديقي الذي يناظر عود الخيزران، وقد أصبح مضرب الأمثال، بما يستحق من نظرات الإعجاب والتقدير من عيون السيدة لاكوبريث! ولكن فلنعد إلى موضوعنا.

كانت مُحاولاتي الجاهدة في البحث، كما سبق أن قلت، قد باءت بالفشل. خزانة بعد أُخرى.. ودرجٌ بعد آخر.. وركنٌ بعد آخر.. جرى تفتيشها دون جدوى. ولكن، ذات مرة، تصورت نفسي واثقاً أنني على الأقل سوف أحصل على مكافأة عن متاعبي، بعد أن نقّبت في إحدى حاويات الملابس، حصل مُصادفة أن تحطّمت زجاجة غراندجان التي تحتوي على زيت حشيشة الملاك.. وهو من أنواع العطور الفاخرة، وهُنا لعلي أشعر بشيء من الحرية في التعليق على هذا الأمر.. لإبداء الرأي فحسب.

عدت إلى مخدعي وقلبي يرزح تحت وطأة كرب ثقيل.. هُنالك أردت التفكير في بعض الحيل التي من شأنها أن تُساعد في التملص من تدخّلات زوجتي ومن فضولها، حتى يحين الوقت الذي انتهي فيه من الترتيبات اللازمة قبل مُغادرتي للبلاد، ذلك لأنّ هذا قرار كنت مُسبّقاً قد وطدت العزم عليه. في أجواء غريبة عني، لا أحد يعرفني فيها، ربّما، مع بعض احتمالات النجاح، أُحاول أن أخفي عن الأنظار فاجعتي وشدة تعاستي.. وهي فاجعة مقصودة، حتى إنها تفوق أكثر أشكال البؤس والفاقة، إذ إنّها تجعلني بمنأى عن الاكتراث لمشاعر البائسين، وتجلب للإنسان [28]التعيس الحظ مثلي ما يستحق من نقمة السعداء.

لم يدم تردّدي طويلاً. بما أنّني إنسان سريع البديهة في طبيعتي، فقد ألزمت نفسي بتذكر مأساة ميتامورا كاملة[9]. من حسن حظي أنّني تذكّرت، في ذروة هذه الدراما، أو على الأقل في ذلك الجزء منها الذي يُكرّس لوصف مشاعر البطل، أنّه لم تكن نبرات الصوت التي وجدت نفسي عاجزاً عن تقليدها ضرورية على الإطلاق، وإنّما يُتوقع أن تُهيمن الحشرجة العميقة على أجواء العمل كله في وقع تدريجي رتيب.

مارست بروفاتي بعض الوقت على ضفاف بحيرة كثيراً ما يتردّد عليها الناس؛ غير أنّي هُنا، دون توفر معلومات ربما تستمد على نحو مُماثل من ديموسثينيس[10]، اعتمدت على خطة من ابتكاري الشخصي ونفذتها عن وعي. وهكذا تسلّحت من النواحي كافة، وقررت أن أجعل زوجتي تعتقد أنّني قد استبد بي فجأة شغف بالمسرح؛ ونجحت بمُعجزة؛ إزاء كل سؤال أو مُقترح، وجدت نفسي حرّاً في الإجابة مُستغلاً أكثر نبرات صوتي كآبة وشبهاً بنقيق الضفادع مع تدعيمها ببعض القطع المُقتبسة من التراجيديات.. فأي جزء منها، كما لاحظت بعد وقت قصير وكنت حينها أشعر بالاستمتاع، ربما يصلح كذلك لأي موضوع غير مُحدّد. ومع ذلك فليس من المُفترض أن أثبت أبداً لدى إلقائي لتلك المقطوعات عدم قدرتي على أن أنظر خلسة.. فمنظر أسناني.. وحركة ركبتيّ.. وتشابُك قدميّ.. أو أي واحدة من تلك النعم والمواهب التي لا يُليق ذكرها، والتي تُعتبر الآن بحق من مؤهلات أي مُمثل شعبي. كي أكون صادقاً هُنا فتلك الخصائص كانت تُعبّر أصدق تعبير عن شدة معاناتي وأنا أحشر نفسي في الحيز الضيق لسترتي.. ولكن، يا إلهي! لم يشك أحد منهم قط في أنّي فقدت أنفاسي.

بعد مدة طويلة، رتّبت شؤوني وهيّأت أغراضي كما ينبغي لرجل مثلي،

---

(9) «ميتامورا أو آخر سلالة وامبانواج» مسرحية مثّل فيها أدوين فوريست، كتبها جون أوغسطوس ستون عام 1829 وعرضت على مسرح بارك، نيويورك في السنة نفسها. [المترجم]

(10) ديموسثينيس أو ديموستين: 384- 322 ق. م خطيب وزعيم سياسي يوناني، ألقى خطباً ضد الملك فيليب المقدوني عرفت بـ «الخطب الفيليبينية». [المترجم]

واتّخذت مقعدي في وقت مبكر من صباح أحد الأيام في المسرح المُتنقّل، لأنّ..، كما يُفترض أن يُفهم الأمر وسط معارفي، ذلك ينطوي على أهمية بالغة لأنّه يُثبت وجودي الشخصي في تلك المدينة.

كانت العربة مُحمّلة بالركاب حتى التخمة؛ ولكن على الضوء الباهت للغسق لم يعد في استطاعتي تمييز ملامح رفاقي الجالسين. دون أي مُقاومة تُذكر، بذلت جهدي لكي أجد لي مكاناً بين رجلين ضخمي الجثة؛ بينما راح رجل ثالث أكبر حجماً منهما يطلب الصفح منّي مُعتذراً أثناء مُحاولته التي يوشك أن يقوم بها للتحرر من الاشتباك، فألقى بكل ثقله على صدري، وسرعان ما غطّ في النوم بعد لحظة، واختنقت كلماتي المُتحشرجة كلّها وأنا أُحاول التخلّص من ذلك العبء وسط الشخير الذي يجعل زمجرة ثور فالاريس(11) تنزوي من الخجل. ولكن لحسن حظي كانت قدراتي على التنفّس تجعل الاختناق مسألة لا ترد في الحسبان.

[29]لما بزغ ضوء النهار وأضحى الجو أكثر إشراقاً ونحن نمضي في طريقنا إلى ضواحي المدينة، نهض مُعذبي وأعاد ترتيب ياقة قميصه، ثم شكرني بكلمات ودودة على حسن أخلاقي. وحين رآني ساكناً لا أنبس ببنت شفة (فكل أوصالي انحرفت عن مواضعها ورأسي مُنحرفٌ جانبياً)، بدأت أوجاله تتفاقم وأصبح أكثر اهتياجاً؛ ثم أثار اهتمام بقية الركاب، ونقل إليهم بأسلوب صارم جدّاً رأيه في أنّ هُناك رجلاً ميتاً أطبق عليهم أثناء الليل وهم يظنون أنه رفيقٌ لهم في الرحلة لا يزال حيّاً يُرزق؛ وهُنا خبطني على عيني اليمنى، في إشارة إلى حقيقة تصريحاته.

هُنا تصوّر جميع الركاب، واحداً بعد واحد (وهُناك تسعة منهم)، أنّ الواجب يُحتّم عليهم سحبي من أذني. كان معهم طبيبٌ مُتمرنٌ أيضاً، فقرّب هذا مرآة جيب من حلقي، فوجدني لا أتنفّس، واعتبرت نتيجة فحص معذبي تقريراً

(11) فالاريس: طاغية أكراغاس (الآن هي أرجينتينو) في صقلية، من 570 إلى 554 ق. م. كان لديه ثور أجوف من النحاس يوضع في داخله أحد الضحايا ويُحرق بالنار وعندما يصرخ يخرج صوت كأنه الخوار. [المترجم]

واضحاً نهائياً لا يقبل الجدل؛ وعبّرت الجماعة كلها عن العزم على عدم التحمّل أو التكيّف بعد الآن مع مثل هذا العبء الثقيل، وقرروا أن لا تمضي العربة إلى مسافة أبعد وهي تحمل جثثاً مُتعفّنة.

هُنا ألقوا بي، بعد أن حزموا أمرهم، إلى خارج العربة عند لافتة كُتب عليها «الغراب» (وهي حانة صادف أن مرت بها العربة)، دون أن تواجهني أي أعراض أُخرى سوى انكسار ذراعيّ معاً، بعد أن داست عليهما العجلة اليسرى الخلفية للعربة. إلى هذا كله يجب أن أمنح السائق ما يستحق من الإنصاف لأنّه لم ينسَ أن يُلقي وراءي اكبر صناديق أمتعتي، ولسوء الحظ فقد سقط الصندوق على رأسي، وتفطّرت جمجمتي بطريقة لا ريب فيها ومن شأنها أن تُثير الانتباه على نحوٍ استثنائي.

لما رأى صاحب حانة «الغراب»، وهو رجل مضياف، أنَّ صندوق أمتعتي يحتوي على ما يكفي لتعويضه عن أي نوع من الأضرار ربما تلحق به نتيجة لإيوائي، أرسل حالاً في طلب طبيب جرّاح من معارفه، وأوكل له مهمة الاعتناء بي على أن أدفع فاتورة العلاج التي تبلغ عشرة دولارات.

استصحبني ذلك الرجل الذي اشتراني إلى شقته وشرع من فوره بإجراء العمليات اللازمة. وبعد أن بتر أذني، اكتشف علامات تدلّ على شيء من الانتعاش. والآن رنّ الجرس، وأرسل في طلب صيدلاني يسكن في الجوار لكي يتناقش معه بشأن هذه الحالة الطارئة. لم تكن شكوكه في أنّي ما زلت حيّاً تبدو أكيدة، ففي غضون ذلك، أحدث شقّاً في بطني، وأخرج عدة أعضاء من أحشائي لغرض فحصها وتحليلها.

كان الصيدلاني يُفكّر في أنّي شخص ميت في الواقع. ولكني سعيت جاهداً إلى دحض هذه الفكرة، صُرت أركل بقدمي وأنتفض بكل ما أوتيت من قوة، وأقوم [30]بأكثر التشنجات ضراوة.. لأنّ العمليات التي أجراها الجرّاح أدّت، على نحو ما، إلى استعادة بعض قُدراتي. غير أنّ كلّ ذلك ربما يُعزى إلى تأثير بطارية كلفانية جديدة كان الصيدلاني، وهو رجل واسع الاطلاع حقّاً، قد أجرى

عليها بعض التجارب المُثيرة للإعجاب، ومن خلال دوري الشخصي في تطبيق تلك التجارب بنجاح، لم أتمكّن من مُقاومة الإحساس بالانبهار. ومع ذلك كان الأمر في نظري نوعاً من الإعدام، حتى إني أبديت مُحاولات للتعبير عن رأيي، إلّا أنّ قُدراتي على النطق تعطّلت تماماً، فلم أتمكّن من فتح فمي؛ فما بالك بالقدرة على الردّ على بعض النظريات الحاذقة بما فيها من مقولات وهمية، وكان من شأن معرفتي اليسيرة، في ظروف أُخرى، بعلم الأمراض الإبوقراطي(12) أن تُتيح لي إمكانية تفنيدها حالاً.

بما أنّهم لم يكونوا قادرين على التوصّل إلى استنتاج، فقد أخضعني الأطباء المُمارسون إلى فحوصات مُختلفة. نقلوني من مكاني إلى حجرة أُخرى في الطابق العلوي؛ وبعد أن رتّبت لي زوجة الجرّاح الأدراج التي وضعت فيها جواربي، تولّى الجرّاح نفسه ربط يدي، واستعمل منديل جيب لتقييد فكي.. ثم أغلق مزلاج الباب من الخارج بينما راح يُسرع الخطوات ليخرج ويتناول عشاءه، وتركني وحدي للصمت وللتأمّلات.

اكتشفت الآن، ويا لشدة بهجتي!، أنّ بإمكاني النطق لولا أنّ فمي مربوط بمنديل الجيب. عزّيت نفسي بهذه الفكرة، وصرت أردد في ذهني بعض المقاطع من ابتهال (الإله كلي الوجود)(13)، كما هو شأني دائماً قبل أن أستسلم للنوم، وما كدت أفعل ذلك حتى سمعت صوت قطتين، يبدو أنّ لديهما نوايا جشعة مذمومة، تدخلان من فتحة في الجدار، ثم وثبتا عالياً في حركة مُتباهية على غرار ما يفعل الراقصُ على أنغام كاتالاني(14)، وهبطتا معاً وإحداهما تواجه الأُخرى أمام وجهي مُباشرة، كانتا تنويان التنازع فيما بينهما بتصرفٍ غير لائق لإنعام النظر بعيونهما الخسيسة في أنفي.

---

(12) يُقال: إنّ أبوقراط كان يعتقد أنّ الأمراض سببها الهواء الفاسد المُنبعث عن الطعام غير المهضوم جيداً في المعدة. [المترجم]

(13) من قصيدة شهيرة لروبرت مونتغومري كتبها عام 1828. [المترجم]

(14) أنجليك كاتالاني 1782- 1849 شاعر كبير ومُنشد أوبرا، هُنا كناية فيها شيء من السخرية. [المترجم]

ولكن، مثلما اتّضح أنّ فقدان الأذنين كان وسيلة ناجحة للصعود إلى عرش سايروس[15] لدى سحرة المجوس في بلاد فارس، ومثلما ثبت أنّ قطع الأنف جعل زوبايروس[16] يستولي على عرش بابل، هكذا تبيّن لي أنّ فقدان بضع أونصات من ملامحي فيه الخلاص لجسدي. انتفضت من الألم ونهضت، وامتلأت نفسي بالنقمة المُلتهبة، وتفجّرت قواي، في مُحاولة واحدة، تهدف إلى فك الرباط والضمادات. مشيت مُتبختراً غاضباً هُنا وهُناك في وسط الغرفة وألقيت نظرة احتقار على المناوئين، ثم فتحت حزامي عنوة إزاء ذعرهما وخيبة أملهما، وزحفت حتى تمكّنت أخيراً، بمهارة لا تصدّق، من إلقاء نفسي من النافذة.

كان سارق البريد و.، الذي لم أعد أتذكر من ملامحه إلا النزر اليسير، في هذه اللحظة يُعبر الطريق من سجن المدينة مُتوجهاً إلى السقالة التي نُصبت لإعدامه [31]في الضواحي. لقد منحه ضعفه ومرضه الذي استمر طويلاً مزية عدم التقييد بالأصفاد؛ وكان يرتدي ثوب الإعدام.. وهو مُشابه جدّاً لثوبي.. وقد تمدّد الرجل بقامته الطويلة في قاع عربة الجلاد (التي اتّفق أن مرّت تحت نوافذ منزل الجرّاح في اللحظة التي ألقيت فيها نفسي) دون أن يُرافقه أي حارس آخر غير سائق العربة، وكان نائماً وقتذاك، مع اثنين من المُجندين الذين ينتمون إلى كتيبة المُشاة السادسة، وكانا ثملَيْن.

كما يُرتب القدر التعيس لتلك الأمور، فقد هبطت على قدمي في وسط العربة. وانتهز السيد و.، الذي كان حاذقاً ماكراً، تلك الفرصة العجيبة فقفز في الحال، وانطلق يجري دون أن يعقب على شيء، وسرعان ما استدار ودلف نحو أحد الأزقّة، واختفى عن الأنظار في طرفة عين. نهض المُجندان حين سمعا الجلبة، ولكنهما لم يفهما ما الذي جرى أو يكتشفا عملية التبادل. لقد شاهدا

---

(15) سايروس: 550- 529 ق. م الملك الفارسي لمنطقة أنشان في إيران واسمه في الفارسية قورش. قطع أُذني مُحارب من المجوس اسمه سمرديس بدل رأسه في حرب شرسة وعاش هذا لكي يستولي على العرش بعد موت سايروس. [المترجم]

(16) زوبايروس: من النبلاء الفرس، 500 ق. م ذكره هيرودوتس في تاريخه. وقد ساعد الملك داريوس في حملته على بابل. [المترجم]

رجلاً شبيهاً بالمُجرم من النواحي كافة يقف مُنتصباً في العربة أمامهما، وتصورا أنّ الوغد (يقصدان السيد و.) كان يسعى للهرب (هكذا عبّرا عن الأمر)، ولدى اقتناعهما بوجهة النظر هذه، تناول كلّ واحد منهما جرعة من الشراب ثم وجّه لي ضربة بعقب بندقيته.

لم يمضِ وقت طويل حتى وصلنا إلى مقصدنا. بطبيعة الحال لم يكن هُناك شيء يُمكن أن يُقال دفاعاً عني. كان الإعدام شنقاً هو مصيري المحتوم لا محالة. وهكذا استسلمت نفسي، وقد ساورتني مشاعر نصفها غبية، ونصفها الآخر مشوب بالمرارة والحسرة والألم. ولأنّ في طباعي شيء من التهكّم، فكنت أُشبّه في موقفي بكلب حقير. غير أنّ الجلاد لم يحفل بأمري بل وضع الأنشوطة حول رقبتي. وأخيراً سقط جسدي.

لا مجال للإفصاح في دقة عن طبيعة أحاسيسي وأنا مُعلّق على المشنقة؛ مع أنّي هُنا، ولا ريب في ذلك، كنت عاجزاً كل العجز أن أتكلّم عن تلك الحالة بالذات، فهو موضوع لا يُمكن للإنسان أن يقول عنه شيئاً حسناً سواءً كنت أنا أو غيري. في حقيقة الأمر، لو أراد المرء أن يكتب شيئاً عن مثل هذا الموضوع فمن اللازم أن يشنق نفسه أولاً. على أي مؤلف أن يُلزم نفسه بوصف الأمور التي جرّبها فحسب. ولهذا قام ماركوس انطونيوس بتأليف بحث عن مُعاقرة الخمور وتجربة الإنسان الثمل[17].

هُنا أكتفي بالقِول، على كل حال، إنّني لم أمت. كان جسدي مُعلقاً على الحبل، مع أنّي لم أكن أتنفس لكي أعتبر حيّاً؛ ولولا العقدة التي تحت أذني اليسرى (وهي ذات ملمس يُشبه سلاح العسكر) أكاد أجرؤ فأقول: إنّني كنت أُعاني من القليل جدّاً من الانزعاج. أمّا عن الهزة العنيفة التي كادت تقطع رقبتي لدى انفلات الحبل، فهي لم تثبت شيئاً سوى أنّها إجراء تقويمي للالتواء الذي

(17) ماركوس أنطونيوس: 83- 30 ق. م سياسي روماني وجنرال لعب دوراً حاسماً في تحوّل الجمهورية الرومانية من الأوليغاركية أو حكم الأقلية إلى الاستبداد. مقال أنطونيوس De Ebrietate Sua مذكور في كتاب بليني «التاريخ الطبيعي»، ص28. [المترجم]

سبّبه لي ذلك الرجل السمين الذي كان راكباً معي في العربة.

ومع ذلك، ولأسباب وجيهة، فقد بذلت جهدي لكي أمنح جمهور الناس ما يستحقّون من المُتعة لقاء تجشمهم عناء المُشاهدة. قيل: إنّ تشنجاتي كانت غاية في الغرابة. ونوبات ألمي وتقلصات أوصالي يصعب التغلّب عليها. وصاح [32]الجمهور استحساناً مُطالبين بمزيد من الإثارة. وأُغمي على عدد من الرجال وانتشى آخرون؛ وحُملت نساءٌ كثيرات إلى بيوتهن وهن يعانين نوبات هستيرية. وانتهز فنان يُدعى بنكست الفرصة لوضع اللمسات الأخيرة على مُخطط رائع رسمه في التو عن «مارسياس يُسلخ جلده حيّاً»[18].

لما منحت الجمهور ما يكفي من الفرجة، رأوا أنّ من المُناسب رفع جسدي من المشنقة؛.. وهذه حقيقة، لا سيما إذا كانوا في هذه الأثناء قد تعرّفوا على المُذنب الحقيقي أو قبضوا عليه، ولكن لم يسمح لي حُسن الحظ أن أعرف ذلك.

عبّر الجمهور عن كثير من التعاطف طبعاً مع حالتي، ولأنّ لا أحد طالب بأي حق في استعادة جثتي، فقد صدر أمر بدفنها في مقبرة البلدية.

هُنا، بعد فترة فاصلة مُناسبة، أودعوا جثماني. وتفرّقت زمرة المُشيعين، وتركت وحدي لمصيري. وكتبوا بيتاً من قصيدة مارتسون «الناقم»...

«الموتُ رفيقٌ لطيفُ المعشر يسمح بحيزٍ فسيح للتأمل..»[19].

وقد صعقني هذا في اللحظة بعينها كحقيقة شبيهة بكذبةٍ مُستطابة.

وما هي إلا أن بدأتُ أركل غطاء نعشي، ثم خطوت إلى الخارج. رأيت المكان موحشاً ورطباً بشكل مُروع، وجثوت هُناك وقد استبدّ بي الضجر. ولكي أسلي نفسي، فقد مضيت في طريقي وسط التوابيت الكثيرة التي كانت مرصوفة

---

(18) مارسياس في الميثولوجيا الإغريقية تحدى أبولو إلى مُسابقة في الموسيقى وفقد حياته نتيجة لذلك. [المترجم]

(19) قصيدة وردت في مسرحية كتبها جون مارتسون، توفي 1603، تُعتبر من أنجح أعماله، لكن البيت الشعري الذي يذكره إدغار ألن بو في الواقع مقتبس من مسرحية أخرى هي «أنطونيو وميليدا» ج1، الفصل 3، مشهد 2. [المترجم]

ومُرتّبة هُنا وهُناك. تلمّست تلك التوابيت واحداً بعد الآخر، وكسّرت أغطيتها، وانشغلت بالتفكير في الموتى الفانين الذين يقبعون في داخلها.

«هذا الشخص»، بدأت أُناجي نفسي، وأنا أتعثّر بإحدى الجثث، وكانت مُتورمة ومُتعفنة.. «هذا الرجل، ولا ريب، وبكل ما في الكلمة من معنى، كان بائساً وتعيساً.. لم يسبق له أن تذوّق طعم السعادة. لسوء حظه أنّه لم يكن يقوى على المشي، وإنّما كان يتمايل.. يجتاز درب الحياة ليس ككائن حي، وإنما كما يفعل الفيل.. ليس كرجل عادي، وإنّما كما يفعل وحيد القرن.

«كل محاولاته للمضي في الحياة محض إجهاض، والإجراءات اللولبية التي كان يتبعها تُمنى بالفشل الذريع. إذا تقدم خطوة إلى الأمام، فذلك يعني لسوء حظه الاتجاه خطوتين إلى اليمين، أو ثلاث خطوات إلى اليسار. كانت قراءاته ودراساته مقصورة على شعر كراب»[20]. ليس عنده أدنى فكرة عن أعاجيب رقص الباليه *pirouette*، وقفزات الفراشة *pas de papillon* بالنسبة إليه مفهوم تجريدي. لم يسبق له أن تسلّق في حياته إلى أعالي التلال. ولا سبق له أن ألقى نظرة من برج كنيسة مُرتفع ليُشاهد روائع المتروبولس. شدةُ الحرارة عدوُّه اللدود. في أيام الشعرى[21] تُصبح أيامه مُشابهة لتلك الأيام التي يعيشها أي كلبٍ من الكلاب. ومن هُنا، لطالما كان الرجل يحلم بألسنة اللهب والاختناق بالدخان.. يحلم بجبال تتكوم [33]فوق جبال.. يحلم ببيليون فوق أوسا[22]. إنه رجل سرعان ما تتقطع أنفاسه، يرى أنّ من التهور العزف على الآت النفخ مثل المزمار. هو الذي اخترع مراوح هوائية ذاتية الحركة، وأشرعة زوارقٍ تسوقها الرياح، ومعدات التهوية. وعمل على تقديم الدعم إلى دو بونت، صانع منافيخ الحدادين، ومات

(20) جورج كراب: 1754- 1832 شاعر إنكليزي، وجراح، وقاض. يعرف أكثر من أي شيء آخر باستخدامه للسرد الواقعي ووصفه لحياة الطبقة العاملة. [المترجم]

(21) أيام الشعرى: الفترة بين أوائل يوليو وأوائل سبتمبر في نصف الكرة الشمالي وتمتاز بجوها القائظ الشديد الرطوبة. [المترجم]

(22) من الجبال التي وردت في الميثولوجيا الإغريقية وخاصة في أعمال هوميروس، فرجل، وأوفيد. كانت العمالقة التي ثارت ضد الآلهة تُحاول وضع جبل بيليون فوق جبل أوسا للوصول إلى قمة الأولمبوس. [المترجم]

هذا الرجل التعيس في مُحاولةٍ لتدخين سيجارة. أحسست إزاء حالته هذه بشغف عميق.. وكنت أتعاطف معه بإخلاص.

«ولكن هاهُنا»... قلت لنفسي.. «هُنا».. وانسحبت عيناي من ذلك المنظر المُقزّز بإحساس لعله لا يخلو من الحقد؛ إنّه رجلٌ نحيف البدن، فارع الطول يبدو منظره مألوفاً لي، فأصابني ذهولٌ حين نظرت إلى حالته الغريبة المُميزة وراودني من فوري حدس بأني اعرف ذلك الشخص بحيث لا أرغب في تذكّره برحابة صدر.. «هُنا، يرقد إنسانٌ تعيسٌ لا يستحق أي مواساة من أحد على هذه الأرض». قلت في نفسي، ومن أجل الحصول على زاوية نظر أكثر وضوحاً لموضوع اهتمامي، ضغطت بإبهامي وسبابتي على أنفه، ممّا تسبّب في تقهقر الجثة رويداً حتى استقرّت على الأرض، ولبثتُ مُمسكاً بها على ذلك النحو وقد احتضنتها بذراعيّ معاً، بينما مضيت في مُناجاتي.

«إنّه لا يستحق»، قلت مرة أُخرى: «أي نوع من المواساة من أحد على هذه الأرض. من ذا الذي يُمكن أن يُفكّر بالتعاطف مع إنسان هو مُجرّد ظل؟ وإلى جانب ذلك، ألم ينل نصيبه من بركات الفناء؟ إنّه هو الذي ابتكر النصب التذكارية الشامخة.. وأبراج الرماية الشاهقة.. وقضبان منع الصواعق.. واستعمل في ذلك أشجار حور من لومباردي[23]. كان البحث الذي كتبه عن «الأستار والظلال» قد منحه الخلود. وقد عمل الرجل بمُثابرة لا نظير لها على تحرير الطبعة الأخيرة من كتاب ساوث «عن الهياكل العظمية»[24]. والتحق في وقت مُبكر من حياته بالكلية ودرس الديناميكية الهوائية. ثم عاد إلى دياره، ولم يكفّ عن الثرثرة أبداً، وكان يعزف ألحانه على بوق من صنع فرنسي؛ ودعم مشروع موسيقى القرب؛ وما كان الكابتن باركلي[25]، ذلك الذي يمشي على العكس من

---

(23) لومباردي: واحد من الأقاليم العشرين في إيطاليا عاصمته ميلان. [المترجم]

(24) عنوان الغلاف لبعض الإصدارات الأمريكية مثل «وصف مُختصر للعظام» 1825 تأليف جون فلنت ساوث. [المترجم]

(25) كابتن روبرت باركلي الأردايس، رياضي اسكتلندي مشى مسافة ألف ميل سنة 1809. [المترجم]

اتجاه الزمن، ليجرؤ على مُنافسته هو بالذات. وكان يندهام وألبريث من كتّابه المُفضلين[26].. وفنّانه المحبّذ إلى قلبه فايز[27]. ثم مات ميتة تستحق الفخر بعد أن استنشق الغاز.. لا غرابة إذن أن تكون عبارة *levique flatu corrupitur* مُشابهة لعبارة *fama pudicitae* لدى هيرونيموس[*]. ليس من شك في أنّ الرجل كان..

«كيف تجرؤ؟.. كيف.. تسنّى لك أن..؟» قاطع كلامي صوتٌ جاء من موضع انتقاداتي، كان يلهث لالتقاط أنفاسه، ويُمزق في مُحاولات جاهدة الضمادات التي حول فكيه.. «كيف يُمكن أن تجرؤ، يا سيد لاكوبريث، أن تكون بمثل هذه القسوة حتى تقرصني بتلك الطريقة المسعورة في أنفي؟ ألم ترَ كيف ربطوا فمي ..لا بُدّ أنّك تعرف.. إن كنت تعرف أي شيء.. كم هي شحيحة تلك الأنفاس التي عليّ التقاطها! فإن كنت لا تعرف، اجلس وسوف ترى. في الوضع الذي أنا فيه، من دواعي السرور والراحة أن يتمكّن المرء من فتح فمه.. أن تطوّف عيناه.. أن يتواصل مع إنسان مثلك، فمن تظن نفسك حتى تأتي من وقت إلى آخر لكي تقطع [34]على رجل مثلي سلسلة أفكاره؟ من المُزعج أن يُقاطع المرء حديث الآخر باستمرار، إنّها من الأشياء المُزعجة التي يتوجب حتماً أن يتجنّبها الإنسان.. ألا تعتقد ذلك؟.. أنت لا ترد، أرجوك،.. شخصٌ واحد يكفي للكلام في وقت واحد.. سوف أنتهي من هذا عاجلاً أم آجلاً، ثم يُمكنك أن تبدأ الكلام.. كيف دخلت، بحق الشيطان، إلى هذا المكان أول مرة؟.. لا تقل شيئاً،

---

(26) وليم وندهام: 1750- 1810 مؤلف كتاب «حياة وخطابات» سياسي بريطاني. أما ألبريث فهو شخصية مجهولة. [المترجم]

(27) هابلوت نايت براون: 1815- 1882 فنان إنكليزي عُرف بالاسم المُستعار فايز Phiz قام بعمل رسوم توضيحية لكتب دارون، ديكنز وغيرهما. [المترجم]

(*) «أن تشتهر الحسناء بالتواضع فذلك شيءٌ نادر وصعب المنال، مثل وردة رائعة سرعان ما تذبل حالما يُلامسها الهواء..» (المؤلف)

Tenera res in feminis fama pudicitiae, et quasi flos pulcherrimus, cito ad levem marcescit auram, levique flatu corrumpitur, maxime,etc... Hieronymus ad Salvinam.

النص اللاتيني مُقتبس من «الرسالة التاسعة والسبعين إلى سالفينا» لهيرونيموس أو سانت جيروم (347- 420م) وكان لاهوتياً ومؤرخاً لاتينياً مسيحياً. باريس 1842. [المترجم]

أتوسل إليك.. كنت هُنا وحدي منذ زمن.. يا لها من حادثة شنيعة!.. سمعت بها، كما أتصور؟.. كارثة فظيعة!.. كنت أمشي على الشارع تحت نوافذ منزلك.. منذ حين قريب.. عندما ضربوك وأنت على خشبة المسرح تقريباً.. يا لها من واقعة مؤسفة!.. هل سمعت بشيء يُقال له: «التقاط الأنفاس»، ها؟.. أمسك لسانك أقول لك!.. لقد أمسكت بأنف شخص آخر حتى انقطعت أنفاسه!.. وكان دائماً في حوزتي الكثير من أنفاسي الخاصة.. لقد قابلت ذلك الشخص الذي يُدعى بلاب عند ركن من الشارع.. ألن تمنحني على الإطلاق فرصة للتلفّظ بكلمة.. لا يُمكنك أن تتدخّل في كل مقطع من كلماتي من طرفك وحدك.. هاجمني، وبالتالي، انتقلت إليّ عدوى داء الصرع.. بلاب استطاع الهرب.. لعنة الله على جميع المُغفلين!.. أخذوني من مكاني وقد ظنوا أنني ميت، ووضعوني في هذا المكان المُقفر.. إنّها أفعال طيبة منهم على كل حال!.. سمعت كل ما تفوهت به عني.. كل كلمة من كلامك محض هراء وكذب.. شخصٌ بغيض!.. مُتألق.. شنيع!.. قبيح المنظر!.. لا يفهمه أحد!.. وهلم جرّاً.. وهلم جرّاً.. وهلم جرّاً..»

من المُستحيل وصف مدى استغرابي من هذه المُحاورة غير المُتوقعة، أو التطرّق إلى البهجة الغامرة التي أقنعتني تدريجياً بأن الأنفاس التي كان يلتقطها ذلك الرجل، لحسن الحظ (والذي سرعان ما اتّضح لي أنّه جاري السيد وندينوف[28] هي في الواقع ذات الأنفاس التي فقدت أثرها بنفسي أثناء حواري الماضي مع زوجتي. يبدو أنّ الزمان، والمكان، والظروف تجعل هذه المسألة غير قابلة للشك. ولكني تركت من فوري أنف السيد و. الذي يشبه خرطوم الفيل.. على الأقل لم يحصل ذلك طوال الفترة التي كان يُتحفني بها مُخترع لومباردي بتفسيراته.

هُنا تحفّزت مشاعري إزاء فطنة غير مُستغربة كانت على الدوام من الشمائل المُهيمنة على شخصيتي. صرت أفكّر في أنّ الكثير من الصعوبات ما تزال تعترض طريقي فلا يُمكن قهرها إلا بمُحاولات جاهدة من جانبي. يُخيّل إليّ أنّ كثيراً من

---

(28) وندينوف: الإسم بالانكليزية يعني «ما يكفي من الهواء Wind enough ولمعناه مغزى واضح في القصة. [المترجم]

الأشخاص لا بدّ أن يُجروا من الحين إلى الحين تقييماً للأشياء التي بحوزتهم.. وإن كانت تلك أشياءً تافهة وعديمة الجدوى لمن يمتلكها آنذاك.. مهما كانت تلك الأشياء مُسببة للمتاعب، أو للانزعاج.. على المرء أن يجري مُقارنة مُباشرة بين المزايا التي يحصل عليها الآخرون من حرصهم على اقتناء تلك الأشياء، وبين المكاسب التي ربما حصلوا عليها بأنفسهم من التنازل عنها. لعل هذا ما حصل للسيد وندينوف؟ من خلال تلهّفه الشديد لالتقاط الأنفاس التي ربما كان في الوقت الراهن [35]مُستعدّاً للتنازل عنها أيضاً، ألا أكون معه كريماً في تلبية فروض جشعه؟ هُنالك أشخاص أنذال في هذا العالم، تذكرتهم جيداً وقد أطلقت حسرة، لن يتورّعوا عن انتهاز فرصٍ غير عادلة حتى مع جارهم الذي يسكن إلى جوارهم، في ذلك الوقت تحديداً (هذه ملاحظة اقتبستها من أبيقطيتس[29] يتلهّف مُعظم الرجال أكثر من أي وقت آخر للتخلّص من أوزارهم وكوارثهم التي لا يشعرون بأدنى رغبة في تحرير الآخرين منها.

في ظل اعتبارات مُماثلة، وبينما قبضتي لا تزال تُمسك بأنف السيد و.، تصوّرت أنّ من المُناسب الإدلاء بجوابي.

«وحش!» بدأت أتكلّم بنبرة تدلّ على عمق الامتعاض.. «وحشٌ وغبيٌّ أفّاق! ..أنت الذي كان من دواعي غبطة السماء أن تُعاقبك فتلعنك لشدة ظلمك وجبروتك بعقوبة مُضاعفة ..كيف تجرؤ، أقول لك هذا وجهاً لوجه، على أن تُخاطبني بهذه الكلمات غير المألوفة وكأنك من معارفي القدامى؟.. أنا الذي يكذب، حقّاً! وتطلب إليّ أن أمسك لساني، إذا أردت قول الحق!.. إنّها مُحاورة مُشوقة حقّاً مع رجل لم يعد يمتلك من الأنفاس إلا نفساً واحداً!.. أفعل كل هذا، أيضاً، أنا من يستطيع تخليصك من الكارثة التي ترزح تحت ثقلها باستحقاق وإنصاف.. بأن أزيح عنك الأشياء الفائضة عن حاجتك والتي تلحق بك هذه الحالة الفظيعة من ضيق التنفس».

---

(29) أبيقطيتس Epictetus: 55 ـ 135 ق. م فيلسوف يوناني رواقي. كان عبداً رقيقاً ثم أعتقه سيده. [المترجم]

كأنّني بروتوس(30)، توقفت عن الكلام مُنتظراً الإجابة.. وقد بادرني بها، بمثل سرعة التورنادو، السيد ونديونوف في الحال. وتتابعت الاعتراضات واحداً بعد الآخر، وانهمرت الاعتذارات واحداً بعد الآخر. لم تكن ثمّة شروط يبدو أنّه غير مُستعد للإذعان إليها، ولا أي شروط أخفقت في الاستفادة منها على النحو الأمثل.

لم نكد ننتهي من تسوية الخلاف بشأن بعض الأمور التمهيدية، حتى أعطاني رفيقي أخيراً شيئاً من الأنفاس؛ وأعطيته لقاءها (بعد أن اختبرتها في عناية) إيصال استلام.

إنّني على وعي تام بأنّ كثيراً من الناس سوف يوجّهون لي اللّوم على التكلّم بهذه الصراحة، أو يوبخونني على عقد صفقة غير مُستساغة هكذا. سوف يتخيلون أنّه كان ينبغي عليّ التطرّق في دقة ووضوح أكبر إلى تفاصيل هذه الواقعة.. هذا شيء صحيحٌ تماماً.. إذ ربما أمكن من خلال ذلك تسليط المزيد من الضوء الذي لم يُسلّط من قبل على فرع جديد مُمتع إلى درجة كبيرة من فروع الفلسفة المادية.

أشعر بالأسف إزاء هذا، ذلك لأني لا أستطيع الرد بشيء. فالتلميح هو الرد الوحيد الذي يُسمح لي بإعطائه. هُناك مُلابسات تمنعني.. ولكنّي أعتقد أنّ من الأسلم كثيراً، إذا تأملنا مليّاً في الأمر، أن يقول المرء الشيء القليل قدر الإمكان عن مسألة عويصة كهذه ..مسألة غاية في التعقيد، أعود فأُكرر، وهي في هذا الوقت تنطوي أيضاً على مصالح طرف ثالث لم أكن أنوي أبداً، في هذه اللحظة بالذات، أن أتطرّق إلى شعوره في امتعاض مرير.

لم نبقَ بعد هذا نتناقش طويلاً حول ابتكار طريقة للهرب من زنزانات القبر. سَرعان ما اتّضحت لنا بما يكفي القوة الموحدة التي انبثقت من أصواتنا التي عادت [36]للانتعاش. قام سيزرس، وهو مُحرّر في صحيفة ويغ، بإعادة نشر بحث عن «طبيعة وأصل الأصوات التي تأتي من تحت الأرض». وتبعت ذلك

(30) إحدى شخصيات مسرحية «يوليوس قيصر» لشكسبير. هو بروتوس، ماركوس 85 - 42 ق.م. سياسي وقائد عسكري روماني، مات مُنتحراً. [المترجم]

ردود.. وتعليقات.. تدحض.. وتبرر.. نُشرت على أعمدة صحيفة «غازيت الديمقراطية». ولم يحصل إلا بعد فتح المدفن من أجل حسم الخلاف، أن ظهر السيد وندينوف وأنا نفسي فأثبتنا للطرفين المُتخاصمين أنّ كلاهما، وليس من شك في ذلك، كان على خطأ.

ليس بإمكاني الاستدلال على أنّ هذه التفاصيل التي تتّصل بحلقات نادرة جدّاً من الحياة تزخر دائماً بما يكفي من الأحداث المُشوقة، إذ لا بد أن ألفت انتباه القارئ مرة أُخرى إلى مزايا تلك الفلسفة العشوائية التي تُمثل حصناً منيعاً في وجه أنواع من الكوارث التي لا يُمكن تخيلها، أو الشعور بها، أو استيعابها بصورة كاملة. إنّ البصيرة التي تنبثق من هذه الحكمة التي كانت سائدة في أوساط العبرانيين، كما يعتقد الناس، هي أنّ أبواب السماء تنفتح حتماً أمام الخاطئ أو القديس، على السواء، إذا كانت لديه رئتان سليمتان وثقة ضمنية في الخلاص، إذا جاهر بقول كلمة «آمين!» بإخلاص، وفي جوهر هذه الحكمة، حين اجتاح طاعونٌ خطيرٌ مدينة أثينا، وباءت كُل محاولات التغلّب عليه بالفشل، نصح أبيمينديس[31]، كما يذكر لايرتيوس في كتابه الثاني عن ذلك الفيلسوف، بإقامة ضريح ومعبد مكرّس لـ «الإله الحقيقي».

ليتلتون باري[32]

(31) أبيمينديس: شخصية شبه أُسطورية من كريت في القرن السابع أو السادس قبل الميلاد قيل: إنّه فيلسوف وشاعر إغريقي. [المترجم]

(32) الاسم المُستعار الذي وقّع به إدغار ألن بو على عدد من قصصه. [المترجم]

متزنغيرشتاين

«حين كنتُ حياً فأنا الوباء بالنسبة إليك،

وإذا متُّ فذلك يعني موتك...».

مارتن لوثر[1]

الروع، والقتل، والخراب.. من الأحوال الذائعة التي تبقى تُطارد البشر [37]على نطاقٍ رحبٍ فليست مقصورة على عصر دون آخر. إذن فلماذا أعطي تاريخاً محدداً لهذه القصة التي أريد أن أرويها؟ يكفي القول إنه، في الفترة التي أتكلم عنها كان يوجد، في المناطق الداخلية من هنغاريا، اعتقادٌ راسخ، رغم أنه مخفي عن الأنظار، بمعتقدات تناسخ الأرواح. عن تلك المعتقدات نفسها.. أي، عن زيفها وبطلانها، أو احتمالات صدقها.. لن أصرّح بأي رأي هُنا. على أني أكاد أكون واثقاً بأن الكثير من الشكوك التي تساورنا.. أو كما يقول لابروييه[2]، الكثير من تعاستنا.. «تأتي من عدم قدرتنا على العيش وحدنا» *vient de ne pouvoir être seuls*[*].

---

(1) النصّ الاستهلالي باللُّغة اللاتينية ويُخاطب فيه لوثر بابا روما: *Pestis eram vivus- moriens tua mors ero.* [المترجم]

(2) جان دو لا برويه: 1645- 1696 فيلسوف أخلاق فرنسي. [المترجم]

(*) يؤكد ميرسير من خلال عبارة: *L'an deux mille quatre cents quarante,* (سنة 2440) على عقيدة تناسخ الأرواح، ويقول ج. دزرائيلي: إنه «لا توجد منظومة بمثل هذه البساطة رغم كونها تنطوي على مفهوم عويص في النأي عن الفهم»، ويُقال أيضاً: إن قصة الكولونيل إيثان ألن «صبي الجبل الأخضر» من الأمثلة الصارخة على تناسخ الأرواح (المؤلف).

غير أنّ ثمّة بعض الجوانب في الخُرافة الهنغارية سرعان ما امتزجت بعنصري العبث والسخافة. إنّهم.. أي: الهنغاريون.. يختلفون اختلافاً جذرياً عن أسلافهم من الشرقيين في هذا الشأن. على سبيل المثال، «فإنّ الروح»، كما قال الأولون.. واقتبس هُنا كلمات شخص من باريس يمتاز بالفطنة والذكاء.. «تستقر مرة واحدة في الجسد المادي.. أما في أكثر الأحيان.. لدى الحصان مثلاً، أو الكلب، أو حتى البشر.. فالروح تغدو شبحاً غير ملموس لتلك المخلوقات» *ne demeure qu'un seul fois dans un corps sensible au reste-un cheval, un chien, un homme même, n'est que la ressemblance peu tangible de ces animaux.*

لطالما تنازعت عائلتا بيرلفتزنغ ومتزنغيرشتاين[3] فيما بينهما منذ قرون. لم يحدث من قبل على الإطلاق أن خاضت أُسرتان غمار عداواتٍ مريرة بمثل ذلك النمط المُهلك الذي ذاع صيته في التاريخ. يبدو أنّ أصل هذا العداء ورد أيضاً في كلمات نبوءة قديمة.. «هنالك من الأسماء ما يُوحي بالتجبّر والاستكبار ويكون له وقعٌ مُرعب، كوقع الفارس وهو يتبختر على صهوة جواده؛ ولسوف يبقى اسم متزنغيرشتاين خالد الذكر فيقهر اسم بيرلفتزنغ على مدى الدهور».

لغرض توخّي الدقة أكثر، فالكلمات بعينها لا تكاد تحمل معنىً يُذكر، أو بالأحرى فهي ليس لها أيُّ معنى على وجه الدقة. إلا أنّ ثمّة أشياءً أكثر تفاهة ربّما منحتها أسباب البقاء.. منذ فترة ليست بالبعيدة.. كان الخلاف يعود إلى نوع من الوقائع العميقة في دلالتها على نحو مُماثل للأسماء في تعقيدها وعدم أهميتها. إلى هذا كله، فإنّ امتلاك العائلتين للأراضي الواسعة، وبعضها مُتاخم للبعض الآخر، كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى تنافس من شأنه التأثير حتى علىٍ أوضاع [38]الحكومة المُنهكة بهمومها وقتذاك. وفضلاً عن ذلك، لم يكن بالقرب من العائلتين المُتجاورتين أصدقاءٌ مُحايدون إلا فيما ندر؛ ولعلّ سكان قلعة بيرلفتزنغ كانوا يختلسون النظر في ترفّع وشماتة إلى ما يجري وراء نوافذ قصر متزنغيرشتاين. على أقل تقدير فالأمر كله لا يعني أكثر من رغبة لفرض هيبة

(3) هذه الأسماء ليس لها دلالة تاريخية، فمثلاً اسم بيرلفتزنغ معناه «الابن الصغير للدب». [المترجم]

الإقطاع، وهكذا اكتشف الناس بمرور الزمن ضرورة وجود نزعة لمُداراة وتهدئة المشاعر النزقة للمُنتمين إلى عائلة بيرلفتزنغ الأقلّ عراقة وثروة على حساب الطرف الآخر. فما العجب إذن أن تنجح كلماتُ تلك النبوءة، بصرف النظر عن مدى سخافتها، في وصف حدة الخلاف المُتأصّل الجذور بين عائلتين كانتا تميلان للتنازع الذي تُثيره شتى ضروب التحريض ويؤججه الحقد الموروث؟ يبدو أنّ النبوءة كانت تُشير ضمناً.. لو أنّها كانت تنطوي على شيء.. إلى انتصار نهائي لا بُدّ أن يتحقّق للجانب الذي يتمتع إلى الآن بالمنزلة الأقوى؛ وهو انتصارٌ يبقى يتذكّره، بطبيعة الحال مصحوباً بمرارة العداء، الطرف الأضعف والأقل سطوة.

كان فيلهلم، كونت بيرلفتزنغ، رغم انحداره من أصلٍ عريق في الوقت الذي كُتب فيه هذا السرد، عجوزاً مُخرّفاً، لا يشتهر بشيء أكثر من كراهيته الموغلة في تطرّفها لعائلة غريمه، وكان شغوفاً بالخيل كثيراً، وبالصيد أيضاً، حتى إنّ الوهن الجسدي، والتقدم في العمر، والعجز العقلي، لم تكن من الأشياء التي تمنعه عن الانخراط يومياً في مُمارساته التي غالباً ما تُعرّضه للمخاطر في المُطاردة.

أما فريدريك، بارون متزنغيرشتاين، فلم يكن من جهة أُخرى، قد تقدّم به العمر آنذاك. لقد توفي والده، الوزير ج..، وهو في مُقتبل شبابه. أما أمّه، الليدي ماري، فتبعت الأب بعد وقت قصير. لم يكن فريدريك في ذلك الوقت قد جاوز الثامنة عشرة من عمره. في أي مدينة من المدن ليس من المُتوقع أن تُشكّل سنوات العمر هذه حقبة طويلة.. ربّما يُعتبر أي شاب طفلاً حتى لو بلغ الثامنة عشرة. ولكن في البراري.. مثل براري تلك المُقاطعة القديمة ذات الجمال الآخاذ، يكون لموازين الزمن معنى أعمق.

من خلال بعض المُلابسات الغامضة فقد تولّى البارون الشاب زمام الحكم في مُقاطعة أبيه، بعد موت الأخير، وصار يُشرف بنفسه على أملاكه الواسعة. نادراً ما كان يتولّى إدارة شؤون تلك المُقاطعات قبل ذلك نبيلٌ من هنغاريا. كانت أملاكه لا تُعد ولا تُحصى. ومن أهم المُقاطعات في روعتها وامتدادها الشاسع تلك التي تُسمى «شاتو متزنغيرشتاين». ولم يسبق أن وُضعت حدود فاصلة

لمُمتلكاته من الأراضي من قبل بشكل واضح؛ غير أنّ المروج الكبرى التي يمتلكها يمتد نطاقها إلى دائرة قطرها خمسون ميلاً.

لدى تولّي إقطاعي شاب مهام الإشراف على أملاك أبيه، وكان يمتاز بشخصية معروفة على الملأ، مع ثروة لا تُضاهيها ثروة أُخرى، طفا على السطح شيءٌ من التوجّس في ما يتعلّق بنوع السلوك الذي من المُتوقّع أن يتبعه. في الواقع، خلال الأيام الثلاثة الأُولى ليس إلّا، فاق سلوك الوارث الجديد تصورات حتى هيرود(4)، وتخطّى أيضاً بعض الشيء توقعات أكثر المُعجبين به والمُتحمّسين إليه. [39]حالات فسق وفجور تورّثُ الخزي والعار.. خيانات ومؤامرات غدرٍ آثمة.. فضائحُ لم يسمع بها أحد من قبل.. كلّ هذه الأشياء جعلت أتباعه من الفلاحين الذين يعملون في أراضيه يرتعدون خوفاً وفزعاً حتى إنّهم سرعان ما أدركوا أنّ لا سبيل للاستمرار في الخضوع المُهين من جانبهم.. ولا صحوة مُنتظرة قريبة للضمير من جانبه.. لا شيء كان بمنأى منذ ذلك الوقت عن بطش الأنياب المُفترسة لذلك الشاب الحقير الذي أصبح يُضاهي كاليغولا في وحشيته. في ليلة اليوم الرابع على توليه السلطة اكتشفوا أنّ أصطبلات الخيل في قلعة بيرلفتزنغ قد شبّت بها النيران؛ واتّفقت آراء جميع الناس الذين يسكنون في الجوار على أنّ هذه الجريمة التي من شأنها إثارة الفتنة لا يُمكن إلّا أن تضاف إلى قائمة الأفعال الشنيعة المُخزية التي ارتكبها البارون قبل ذلك.

ولكن في خضمّ الفوضى التي حصلت على أثر تلك الحادثة، جلس النبيل الشاب نفسه، وقد بدا غارقاً في تأمّلاته، في إحدى الغرف الفسيحة المُنزوية في الطابق العلوي من قصر عائلة متزنغيرشتاين. كانت الزخارف واللوحات الثمينة بألوانها الباهتة والتي تقبع في كآبة منذ زمن سحيق على الجدران تُجسّد أشكالاً غامضة مهيبة لألف من أسلافه المشهورين. هُنا، كهنة مُترفون، ووجهاء بابويون، يجلسون في أُلفة جنباً إلى جنب مع حكّام وملوك مُستبدين، يفرضون الفيتو على

(4) هيرود: 73- 4 ق. م يُعرف بهيرود العظيم ملك يهودي تابع للرومان وصف بأنه مجنون قام بقتل عائلته كلها. [المترجم]

رغبات ملك مؤقت، أو يكبحون بتفويض بابوي يسبغ عليهم السلطة صولجان الشيطان بوصفه عدوّاً للجنس البشري. وهُناك تماثيلٌ تقبع في زوايا مُظلمة لأمراء من أُسرة متزنغيرشتاين بقاماتهم الطويلة.. خيولُ حربٍ مفتولة العضلات تثب كالشّهب النارية على جُثث أعدائهم الذي سقطوا أرضاً.. منظرٌ من شأنه أن يرهب أكثر الأعصاب رباطة جأشٍ من خلال تعبيرات وجوههم الجامدة؛ وهنا، مرة أُخرى، نساء جميلات شهوانيات كأنّهن البجع، من ذوات المقام الرفيع، يُذكّرن المرء بالأيام الخوالي، يطفن عالياً في متاهات الخيال أو يؤدين رقصات سحرية يتمايلن فيها على أنغام لحنٍ وهمي.

غير أنّ البارون حين كان يُصغي، أو يبدو عليه التأثر حين يُصغي، إلى تلك الأصوات الهائجة التي ما فتئت تزداد ضراوة في إصطبلات أُسرة بيرلفتزنغ.. ربما تأمّل أيضاً بعض أفعاله المُتهورة وحماقاته الأخيرة.. انجذبت عيناه بلا قصد إلى شكل هائل الحجم بألوان غير طبيعية لأحد الخيول، كانت تلك صورة مُزخرفة منقوشة على القماش تعود إلى أحد أسلاف ساراسين[5] من الأُسرة المُنافسة له على الدوام. وقف الحصان نفسه، في مُقدمة الصورة، دون حِراك كأنّه تمثال.. وفي الخلفية كان الفارسُ المدحور يتلقّى طعنة قاتلة من خنجر مُحارب ينتمي إلى أُسرة متزنغيرشتاين.

على شفتي فريدريك لاح تعبيرٌ شيطاني، بينما تحوّل ذهنه باتّجاه موقع نظراته دون وعي منه. ولم يرفع عينيه مدة طويلة عن ذلك الاتّجاه. عوضاً عن هذا لم يكن باستطاعته على كل حال تعليل الاشتياق الغامر الذي بدا أنّه يجتاح أحاسيسه فيجعلها قاتمة وكأنه غطاء النعش. استطاع بشقّ النفس أن يستردّ مشاعره الحالمة من حالتها المُضطربة، حينها أدرك على نحو مؤكد أنّه كان واعياً وليس نائماً. كلّما أطال النظر في تلك الصورة أصبح تأثيرُ السحر أكثر تغلغلاً في أعماقه.. وكلما [40]ظهر أنّ من المُستحيل عليه إزاحة نظراته عن مصدر جاذبية

(5) ساراسين: مُصطلح يُشار فيه إلى المُسلمين كان يُستخدم على نطاق واسع في أوروبا في العصور الوسطى. [المترجم]

تلك الزخارف. إلّا أنّ الفوضى غدت الآن أكثر عُنفاً على حين فجأة، وفرَضَ على نفسه عُنوة أن يتحوّل بانتباهه نحو وهجٍ من الضوء الوردي الذي تُلقيه عليه بكل قوة الإصطبلات المُحترقة من نوافذ الحُجرة.

ومع ذلك لم تكن ردة الفعل مُتوقعة، وسرعان ما تقهقرت نظراته تلقائياً نحو الحائط. وإزاء رعبه الغامر واندهاشه المُتفاقم، وجد رأس الحصان العملاق، في تلك الأثناء، قد تحوّل عن موضعه. كانت رقبة الحيوان قبل ذلك مُنحنية كأنها في حالة إشفاق على الجسد المُتهالك لسيّده، والآن امتدّت أكثر باتّجاه البارون. أما عينا الحصان، وكانتا قبل ذلك مُضمحلّتين غير مرئيتين، فقد ارتسم عليهما تعبيرٌ محموم كأنهما عيون البشر، يشوبهما ألقٌ من احمرار غير مألوف؛ والشفتان المُنتفختان للحصان الذي كان فيما يبدو مُمتعضاً تركتا، في تعبيرٍ جلي، أسنانه الضخمة تكشّر في امتعاض.

استبد به رعب مُفاجئ وكأنما أُصيبت أطرافه بالخدر، وهرع النبيل الشاب إلى الباب. ولما فتحه عنوة سقط عليه شعاعٌ من الضوء الأحمر امتدّ حتى اخترق مساحات واسعة من الحجرة، فألقى ظلالاً مُميزة على الصورة التي كانت تتمايل، فارتعدت أوصاله حين رأى ذلك الظل.. وتعثّرت خطواته فترة من الزمن على عتبة الحُجرة.. ثم وقف في موضعٍ مُناسب للرؤية، وصار ظله يُغطّي مُنحنيات صورة المُجرم المُنتصر القوي الشكيمة ساراسين بيرلفتزنغ.

بغية التخفيف من وطأة الإحباط الذي طغى على روحه، أسرع البارون فخرج إلى الهواء الطلق. عند البوابة الرئيسية للقصر، واجه ثلاثة من خدم الإصطبل الملكي. كانوا يُحاولون في مشقة شديدة، بإزاء الخطر المُحدق بحياتهم، أن يكبحوا جماح الحركات الطائشة لحصان عملاق، مسعور، غريب اللون.

«حصانُ من هذا؟ من أين جئتم به؟» هتف الشاب، وكانت نبرة صوته الأجش تُنبئ بغضبه العارم، بينما أدرك حالاً أنّ الحصان الغامض الذي على زخارف الحجرة هو نظيرٌ للحيوان الساخط الذي يقف أمامه.

«إنه من خيلك، يا مولاي»، أجاب أحد خدم الإصطبل، «على الأقل لا

يدّعي صاحب خيل آخر أنّه من أملاكه. لقد أمسكنا به وهو يكاد يطير، الدخان يتصاعد منه والزّبد يتدّفق من شفتيه؛ جاء من الإصطبلات التي احترقت في حصن بيرلفتزنغ. نحن نعتقد أنه يعود إلى خيل الكونت العجوز، من الفحول الأجنبية، وقد جلبناه هُنا بعد أن رأينا أنّه حصان شارد. لكن بعض سائسي الخيل هُناك ينكرون أنّهم يعرفون شيئاً عن هذا المخلوق؛ وهذا أمرٌ غريب، ذلك لأنه يحمل علامات لا لبسَ فيها تدل على أنه قد هرب قبل مدة قصيرة من المنطقة التي التهمتها النيران.

«الحروف ف. ف. ب. مدبوغة أيضاً بشكل ظاهر على جبهته»، قطع عليه حديثه خادم آخر، «لقد افترضنا طبعاً أنّها تدل على الحروف الأُولى من اسم فلهلم [41]فون بيرلفتزنغ.. لكن جميع الموجودين في الحصن ينكرون أنّهم يعرفون شيئاً عن هذا الحصان».

«شيء غريبٌ حقّاً»، قال البارون الشاب، وكان مُستغرقاً في أفكاره، وفي ما يبدو لم يكن واعياً إلى معنى كلماته. «إنه، كما تقولون، حصانٌ أصيل.. حيوان غير عادي على الإطلاق! مع أنّه، كما تُلاحظون حتماً، قد أتى من مكان مشكوك فيه ولا يُمكن التعرّف على صاحبه، دعوه يبقى مع خيلي في الإصطبل»، أضاف بعد أن سكت لحظة، «لعل فارس مغوار مثل فريدريك من أُسرة متزنغيرشتاين، يتمكّن من ترويض هذا الشيطان الذي هرب من إصطبلات بيرلفتزنغ».

«أخشى أن تكون على خطأ، يا مولاي؛ الحصان، كما سبق أن قلنا، ليس من إصطبلات الكونت. لو أنّ ذلك صحيح، لعرفنا ما يتوجّب علينا القيام به بدلاً من إحضاره إلى عائلتكم الكريمة».

«صحيح!» علّق البارون بجفاء، وفي تلك اللحظة خرج وصيفٌ من حجرة النوم في القصر، بشرته غامقة اللون، ويمشي بخطوات رعناء. همس في أُذن سيّده شيئاً عن الاختفاء المُفاجئ لجزء صغير من اللّوحة المُزخرفة، من إحدى الغرف التي حدّدها له؛ وانهمك في الوقت ذاته بسرد تفاصيل دقيقة عن بعض

القرائن والمُلابسات التي ترتبط بالأمر؛ ولكن بسبب نبرة صوته المُنخفضة لم يسمعه أحد حين نقل هذه المعلومات الأخيرة، ولم يتسرّب شيءٌ يرضي فضول خدم الإصطبل المُتلهفين.

أثناء ذلك الاجتماع، انشغل ذهن فريدريك الشاب بشتى الانفعالات والمشاعر المُبهمة. بعدها بوقت قصير، استعاد وضعه الاعتيادي وظهر على مُحيّاه تعبير يوحي بالعزم الذي يختلط بالبغضاء والضغينة، ثم أصدر أوامره الحازمة بغلق تلك الحُجرة في الحال، على أن يبقى المفتاح في حوزته.

«هل سمعتم بالموت المُباغت المُحزن للصياد العجوز بيرلفتزنغ؟» قال أحد التابعين للبارون.. بعد رحيل الوصيف اعتُبر الحصانُ العملاق من مُمتلكاته الخاصة، حيث جرى تقييده لمنعه من الوثوب، بينما ظلّ طول الوقت هائجاً ويركل كل من يقترب منه بعنف، ثم اقتيد أخيراً على الممشى الذي يمتد من القصر إلى إصطبلات متزنغيرشتاين.

«كلّا!» قال البارون، واستدار على حين فجأة إلى الرجل الذي كان يتكلّم معه، «مات! حقّاً ما تقول؟».

«ذلك صحيح جدّاً، يا مولاي؛ يُخيّل إليّ أنّ الخبر لن يكون مُبهجاً لنبيل في مثل منزلتك».

تسلّلت فجأة إلى وجهه وهو يُصغي ابتسامة لم تدمْ طويلاً. «وكيف مات؟».

«لدى مُحاولاته الطائشة لإنقاذ بعض الفحول من خيوله المُفضلة التي اعتاد أن يمتطيها في الصيد، قضى نحبه على نحو بائس مُحترقاً في لجة النيران».

«ح.. ق.. اً..!» صاح البارون، وكأنما ظهر عليه شيءٌ من التأثر البطيء [42]المُتكلّف بالحقيقة التي سمعها عن خبر مُثير للأحزان.

«حقاً؛» قال تابعه مؤكداً صحة الخبر مرة أُخرى.

«شيءٌ مُثير للعجب!» قال الشاب بصوت هادئ، ثم استدار وهو صامت ومضى في طريقه إلى القصر.

منذ ذلك اليوم طرأ تغيّر ملحوظ على سلوك البارون الشاب المُنغمس في الملذّات، فريدريك فون متزنغيرشتاين، فصار يُجاهر بالفحش والرذيلة على رؤوس الأشهاد. في واقع الأمر لقد فاق سلوكه جميع التوقعات، وأثبت أنّه لا يتوافق حتى مع رؤية أكثر من زوجةٍ مراوغة؛ وبينما استمرّت عاداته وتصرّفاته على ذلك المنوال، بل ازدادت إغراقاً في الشذوذ أكثر من السابق، فأضحت مُتناقضة حتى مع ما تفرضه طبقة الأرستقراطية التي تُحيط به من الالتزامات. لم يعُد يراه الآخرون يخرج إلى أماكن أبعد من حدود مملكته الخاصة؛ في عالم علاقاته الاجتماعية المُتشعّبة أصبح وحيداً تماماً دون أي رفيق يؤنس وحشته.. إلّا إذا كان ذلك الرفيق حصاناً شاذ الطباع، طائش الخطى، يتلون جسده بخطوط حادة كأنها شعل من اللهب، إذ لم يعُد منذ ذلك الوقت يمتطي غيره باستمرار، ذلك لأنّه أحس أنّه يستحقّ ذلك الشرف وإن كان من المُستهجن أن يُمنح الحيوان لقب صديقه الوحيد.

تلقّى دعوات كثيرة من وجهاء يسكنون في الجوار، وظلّت تلك الدعوات تتكرّر من الحين الى الحين. «هل يمنحنا البارون شرف حضور احتفالاتنا؟» «هل ينضم البارون إلينا في رحلة صيدٍ للخنازير البرية؟».. «متزنغيرشتاين لم يعُد يُمارس الصيد في ما يبدو»؛ «متزنغيرشتاين لن يحضر»، تلك هي الإجابات المُتعجرفة المُقتضبة التي غالباً ما كانوا يتلقونها.

حتى جاء وقتٌ لم يعد فيه النبلاء من ذوي المقام الرفيع يتحمّلون مزيداً من تلك الردود الجافة والإهانات المُتكررة. ثمّ أصبحت الدعوات أقلّ شيئاً فشيئاً من السابق، بل حتى أقلّ ودّية.. ولم يعُد يتلقّى الكثير منها بمرور الزمن.. حتى توقّفت نهائياً. وسمع الناس أرملة الكونت التعيس بيرلفتزنغ تُعبّر في يوم من الأيام عن أملها «بأن يضطر البارون للبقاء في المنزل حين لا يرغب في البقاء، ذلك لأنّه يبغض مُرافقة أحد من نُظرائه؛ وأن يضطر لركوب الخيل حين لا يرغب في ركوبها، لأنّه يؤثر رفقة الحصان». وفي هذا، إذا توخّينا الدّقة، تعبيرٌ سخيف عن حقدٍ موروث؛ ولا يثبت شيئاً سوى أنّ أقوالنا ربما تتجرّد من أي معنى على نحو مُثير للاستغراب، حيث تنشط طاقاتنا الذهنية إلى درجة تجاوز حدود المنطق.

إلّا أنّ بعض الناس الصالحين كانوا ينظرون إلى التبدل العجيب الذي طرأ على تصرّفات النبيل الشاب كتعبير عن الأسى العميق الذي من الطبيعي أن يشعر به الابن لفقدان والديه قبل الأوان.. مُتناسين تصرّفاته المُتهورة خلال الفترة القصيرة التي أعقبت تلك الفاجعة مُباشرة. ورأى البعض الآخر أنّها طباعٌ تتناسب مع العجرفة الموروثة وعزوا ذلك أيضاً إلى الغرور والشطط في تقدير الذات. ولم يتردّد آخرون (ربما نذكر منهم طبيب العائلة) في الكلام عن كآبة مرضية، واعتلال [43]في الصحة؛ وشاعت تلميحات سوداوية، ذات توجهات مُلتبسة أكثر، وسط فئات أُخرى من الناس.

في الواقع، كان الارتباط المجهول في دوافعه بين البارون وفرسه الذي حصل عليه مؤخراً.. أو تلك العلاقة التي بدا جليّاً أنّها تكتسب زخماً مُضاعفاً رغم ما يُبديه الحصان من نزعات ضارية يُشبه فيها الشيطان نفسه.. أصبحت أخيراً، في نظر الأشخاص المُتعقّلين، مثل الحُمّى البغيضة التي لا يُرجى لها شفاء. على وهج القمر.. في ساعة مُتأخرة من الليل.. سواءً أكان ذلك في حالة المرض أو الصحة.. في الأجواء الصافية أو في العواصف.. كانوا يُشاهدون الشاب متزنغيرشتاين مُتعلقاً بسرج حصانه العملاق الذي تواءمت طباعه الحرونة مع روح التحدي لدى الفارس الذي يمتطيه.

ومع ذلك فقد تغيّرت الأحوال بعد أن استجدّت بعض الأحداث مؤخراً، وأضْفت تلك التغيرات توجّسات تنذر بالشؤم وتقشعرّ منها الأبدان مع تفاقم هوس الفارس وقُدرات الحصان التي ما فتئت تزداد توحشاً وضراوة. كانت المسافات الشاسعة تُطوى في وثبة واحدة وإذا ما جرى قياسها في دقة، لوجدوها تتخطّى بفارق مُذهل أكثر التوقعات غرابة للإنسان واسع الخيال. إلى جانب ذلك، لم يكن البارون قد أعطى بعد اسماً محدداً للحيوان، مع أنّ بقية الخيل في مجموعته كانت تُميّز عن غيرها بألقاب معروفة. وقد خُصّ ذلك الحصان بإصطبل بعيدٍ عن بقية الخيل؛ وفي ما يتعلّق بأعمال الرعاية وما إلى ذلك من الواجبات الضرورية التي يقوم بها سائسو الخيل، لم يجرؤ سوى مالك الحصان على أن يتولّى ذلك بنفسه، فلا أحد غيره كان يجرؤ أن يدخل ضمن مُقتربات مربض

الحصان. وعلى الرّغم من أنّ سائسي الخيل الثلاثة الذين أمسكوا بالحصان لدى هروبه من الحريق الذي حدث في حصن بيرلفتزنغ قد نجحوا في كبح جماحه باستعمال سلسلة اللجام والأنشوطة.. لم يكن في وسع أحدهم القطع بأنّه خلال ذلك الصراع الخطير، أو في أي فترة مُقبلة، كان قد وضع يده على جسد ذلك الحيوان الهائج. وكانت هُناك حالات كثيرة تُروى تدل على ذكاء خارق للمألوف في سلوك حصان جريء من سلالة عريقة.. ولكن ظروفاً مُحدّدة فرضت نفسها عُنوة على أكثر المُتشكّكين برودة أعصابٍ؛ فقالوا: إن ذلك الحيوان في بعض الأوقات كان يجعل الناس الذين يقفون هُناك وقد استولت عليهم الدهشة يرتدّون على أعقابهم رعباً وفرقاً من حركاته الهوجاء.. حينها يتحوّل وجه الشاب متزنغيرشتاين إلى لون شاحب فيتراجع هو الآخر بعيداً عن ذلك التعبير الذي يطفو على عيني الحصان الذي كأنه يبحث عن شيء، إذ تُشبه عيناه حينئذ عيون البشر في ابتعادها عن الهزل.

بين حاشية البارون كلها، لم يتشكّك أحد في مدى جدّية ذلك التأثر الاستثنائي من جانب النبيل الشاب وافتتانه بالمواهب العجيبة والطباع الجيّاشة لحصانه؛ على [44]الأقل، لم يكن هُناك سوى الخادم الصغير المُشوّه التافه الشأن، والذي كانت عاهاته الجسدية والعقلية معروفة للجميع، وآراؤه لا يُمكن أن تحمل أدنى قيمة مُتوقعة. هذا الغلام.. لو كانت أفكاره تستحق الذكر على الإطلاق.. كان من الوقاحة أن قال مؤكداً: إنّ سيده لم يسبق له أبداً أن وثب على السرج دون أن تبدو عليه رعشة لا يُعرف كنهها، ولا يحسّ بها أحد تقريباً، ولدى رجوعه من كل رحلة طويلة من رحلاته المُعتادة، كان يبدو عليه إحساسٌ خبيث بالانتصار يشوب كل عضلة من عضلات وجهه.

ذات ليلة عاصفة، أفاق متزنغيرشتاين من نومه العميق، ونزل مُسرعاً كالمجنون من حجرته، فما لبث أن امتطى حصانه في حركة محمومة، وراح يجري نحو متاهات الغابة. لم تجذب حادثة لا تكاد تُعدّ غريبة مثل هذه أي نوع من الانتباه، إلا أنّ أتباعه وخدم قصره بقوا ينتظرون عودته بتلهّف شديد، وبعد

ساعات من الغياب، اكتشفوا أنّ السور الحصين لقصر متزنغيرشتاين كان يتشقّق تدريجياً وبدأت الصخور تتساقط على الأرض فتستقرّ عند أساساتها، وتبينوا فيما بعد أنّ حريقاً هائلاً قد وقع في أروقة القصر ولم يتمكّن أحد من السيطرة عليه.

كانت شُعل النيران، حين رأوها أول مرة، تتقدّم بصورة مُرعبة دون أن يعوقها شيء، وباءت جميع المُحاولات لإنقاذ أي جزء من البناء بالفشل الذريع، ووقف الناس الذين جاؤوا من مناطق مُجاورة عاجزين صامتين وقد اعتراهم الذهول وصعقتهم المُفاجأة واستبدّت بهم شتى الانفعالات والأوجال والأحزان. ولكن سرعان ما تسمّرت العيون على منظر رهيب، واتّضح عمق الاستغراب الذي يُمكن أن يستولي على المشاعر لدى تأمّل مآسي البشر، كم هو أعمق أثراً من أي مشاعر يحسّ بها المرء بإزاء أكثر مناظر الأشياء الجامدة رعباً!.

على الممشى الطويل الذي تحفّ به أشجار السنديان المُعمرة والمُمتد من الغابة حتى المدخل الرئيسي لقصر متزنغيرشتاين، شاهدوا حصاناً يحمل على ظهره فارساً دون خوذة على رأسه، كان يتمايل على سرجه، وما لبث أن قفز إلى الأرض وصار يجري بسرعة تفوق سرعة شيطان العاصفة نفسه(6).

لم يكن هُناك مجالٌ للشك في هوية الخيّال، ولكنه في ذلك الوقت لم يكن فيما يبدو يُحسن التحكم بالحصان. لقد أعطى الحزن الذي يرتسم على مُحيّاه والحركات المُتشنجة لجسده انطباعاً بأنّه كان يبذل جهداً يفوق تصوّرات البشر: دون أن يُصدر صوتاً، ما عدا صرخة واحدة، انفلتت من بين شفتيه المزمومتين اللتين تُطبق أسنانه عليهما مرة بعد أُخرى لشدة رعبه. في تلك اللحظة، سمعوا جِلجلة الحوافر يرافقها [45]دوي ثقيل يطغى على دمدمة الحريق وصفير الرياح.. وفي اللحظة الأُخرى كشف لهم الدخان عن حصان قفز في وثبة واحدة فاجتاز البوابة والخندق، ومضى يعدو ويصعد مُترنحاً على سلالم القصر، في حين اختفى راكبه وسط دوامة من النيران.

---

(6) شيطان العاصفة هو عزرائيل ملك الموت. [المترجم]

في الحال تلاشت العاصفة وتبدّد كلّ أثر لها، وأعقب ذلك سكونٌ مُطبق يوحي بالتشاؤم. لم تزل شعل اللهب البيضاء تطوّق القصر مثل الكفن، وتزحف بعيداً باتّجاه المناطق الجرداء الوادعة، وتُطلق معها وهجَ ضوءٍ غير طبيعي؛ بينما استقرّت سحابة من الدخان بثقلها البغيض على الأسوار المنيعة مُتخذة هيئة عملاقٍ واضح المعالم.. إنّه ذلك الحصان.

رسالة في قارورة(*)

«الذي لم تبقَ لديه إلا لحظة واحدة ليعيشها،
لن يكون لديه ما يُخفيه»(1).

كوينولت (آتيس)

عن البلاد التي أنتمي إليها، أو العائلة التي أنتسب إليها، ليس عندي إلّا [46]الشيء القليل ممّا يُمكن أن يُروى. ذلك الجحود الذي يُصاحب سوء المُعاملة وطول السنين قد أبعدتني عن أحدهما، وجعلتني غريباً على الآخر. لقد منحتني الثروة التي ورثتها فرصة ضئيلة في التعليم، وأتاح لي نزوع عقلي للتأمّل أن أصوغ قصصاً تجمّعت في ذاكرتي منذ سنوات دراستي المُبكرة المُتعبة.. بعيداً عن كل ذلك، فدراسة أفكار الأخلاقيين الألمان منحتني بهجة لا يُضاهيها شيء؛ لا يتعلق الأمر هُنا بالانحياز المُنحرف لخبالهم الذي يتجلّى في خطبهم الرنانة، وإنّما هُناك علاقة وطيدة بتلك السلاسة التي استطاعت بها مُمارساتي في التفكير

(*) هذه القصة، «رسالة في قارورة» كانت قد نُشرت أصلاً في سنة 1831، ثم مضت سنوات طويلة منذ ذلك الوقت قبل أن أطّلع على بعض الخرائط لمنطقة ميركاتور، حيث يجري تصوير اندفاع المُحيط، في أربعة اتّجاهات، نحو الخليج القطبي (الشمالي)، لكي تستوعبها مجاري الأرض؛ القطب نفسه تُمثّله صخرة سوداء، تتربع على قمة سامقة لا مثيل لارتفاعها.

(1) النص ورد باللّغة الفرنسية وهو لفيليب كوينولت 1635- 1688 من كتاب بعنوان «آتيس».
Qui n'a plus qu'un moment a vivre
N'a plus rien a dissimuler.

الصائب أن تُتيح لي اكتشاف جوانب زيف تلك الأفكار. غالباً ما كنت أتعرّض للتأنيب من الآخرين على عبقريتي «المجدبة»؛ وهي عقدة نقص لعلها تشوب خيالاتي البعيدة عن الواقع وتُلحق بي تُهمة باطلة وكأني ارتكبت جريمة لا تُغتفر؛ كانت النزعة البيرونية[2] ضمن آرائي، في الأحوال كافة، تجعلني معروفاً من القاصي والداني. في حقيقة الأمر، هُناك ميولٌ قصوى لتذوّق الفلسفة المادية، أخشى أنّه لا مناص من الاعتراف بهذا، تطبع اتجاهاتي العقلية باختلال كثيراً ما كان شائعاً في هذا العصر.. أقصد ما اعتدنا عليه من إحالة الحوادث، حتى أقلّها حساسية، إلى مبادئ العلم. على كل حال، لا يوجد شخص آخر ربما أقلّ عرضة مني لأن تقوده أفكاره بعيداً عن التخوم الحازمة للحقيقة فينجرف وراء «الوهج الأحمق المخادع» *ignes fatui* لمُستنقع الخُرافة. لقد تصوّرت أنّ من المُناسب تسطير هذه الكلمات التمهيدية، خشية أن تُعتبر الحكاية العجيبة التي على وشك أن تُروى من ابتكارات خيال جامح، عوضاً عن أن تكون من التجارب الفعلية للذهن الذي ينظر إلى جموح الخيال ومتاهات الأوهام على أنّها من وسائل التعبير المُنقرضة التي اتّضح بطلانها.

بعد سنوات طويلة قضيتها في رحلاتٍ إلى أصقاع نائية وغريبة، أبحرت في سنة - 18 من مرفأ باتافيا[3] في جزيرة جاوا الغنية بمواردها وكثرة سُكانها، في رحلة كنت أنوي القيام بها إلى أرخبيل جزر سوندا. صعدت على متن السفينة كأي مسافر آخر.. وليس في نفسي أي دوافع أُخرى غير نوع من الهوس العصبي الذي ما فتئ يُلاحقني كالشيطان.

سفينتنا كانت جميلة المنظر تزن حوالى مئة طن، مُدعّمة بألواح من خشب الزان، وقد بنيت في بومباي أساساً من خشب الصاج الذي يؤتى به من مالابار. كانت مُحمّلة بالأنسجة الصوفية والقطنية والزيوت التي جُلبت من جزر

(2) النزعة البيرونية Pyrrhonism: مدرسة فكرية في التشكك على اسم بيرو الفيلسوف الذي عاش من 360 - 270 ق. م وأُعيدت إلى الحياة في القرن السابع عشر. [المترجم]

(3) باتافيا: ربما اختيرت هُنا كنذير للشؤم، لأن هذه القرية دُمرت تدميراً كاملاً بهزة أرضية وفيضانات في سنة 1699. [المترجم]

لاشاديف[4]. [47]وكنّا نحمل أيضاً في أقبية سفينتنا قشور جوز الهند، والسُّكر الأسمر المصنوع من نسغ النخيل، والدهن الحيواني، والجوز، وبضعة صناديق من الأفيون. وقد تكدّست البضاعة هُنا وهُناك في ترتيب أخرق وسرعان ما ضاق بها المكان على ظهر المركب ممّا أدّى إلى اختلال توازنه.

مضينا في طريقنا يدفعنا نسيمٌ رخو لا يعكره أي شيء، وطوال عدة أيام كنّا نُبحر على الساحل الشرقي من جاوا، دون وقوع حادثة يُمكن أن تُزحزح رتابة مسارنا ما عدا لقاءٍ عرضي بين الفينة والأُخرى مع زوارق شراعية صغيرة مُبعثرة هُنا وهُناك على الأرخبيل الذي كنّا مُقيدين بين أكنافه.

ذات مساء، وبينما كنت مُنحنياً على درابزين مؤخرة المركب، أبصرت سحابة تنساب وحدها بعيداً عن أي شيء في السماء، مُتجهة إلى الشمال الغربي. كان منظراً لافتاً للانتباه بسبب لون السحابة، فضلاً عن أنّها أول سحابة نراها منذ مُغادرتنا باتافيا. أخذت أراقبها في انشداه حتى أشرفت الشمس على الغروب، عند ذلك توزعت أطراف تلك السحابة على حين فجأة شرقاً وغرباً، فطوّقت الأُفق بشريط ضيّق من البخار، حتى بدت كأنها خط ساحلي غائر. بعد فترة وجيزة جذب انتباهي ظهور القمر الذي بدا مُتّشحاً بألوان الغسق الحمراء الداكنة، ثم ما لبث البحر أن اضّطرب وماج على نحو مُستهجن. وسرعان ما اعترت البحر تغيّرات مُباغتة فصارت المياه أكثر شفافية من المُعتاد. على الرّغم من أني كنت أرى القاع واضحاً، إلّا أنّي حين رفعت حبل سبر الأعماق وجدت السفينة تطفو على بعد خمس عشرة قامة. كان الهواء حاراً الآن بشكل لا يُطاق، ومُشبعاً بأبخرة تتصاعد في حركة لولبية مُشابهة لتلك التي يُرسلها الحديد المُحمّى. ولما حلّ علينا الليل، تلاشى كل أثر للنسيم، وهدأ البحر بصورة يستحيل تصورها. بقيت شمعة وحيدة تحترق على مؤخرة السفينة دون أن يتمايل لهبها على نحو محسوس، لو حمل المرء شعرة بين السبابة والإبهام لسوف تبقى مُعلقة دون احتمال لأن يتعقب أثراً للاهتزاز. ولكن، كما قال لي القبطان، فهو لا يتصور أي

(4) جزر لاشاديف أو لاكشادويب في بحر لاكاديف على بعد 200 إلى 440 كيلومتر من الساحل الجنوبي الغربي للهند. [المترجم]

خطر مُحتمل في ذلك الوضع، ولأننا كنّا نطفو مُتجهين نحو الساحل، فقد أمر بأن تُلف الأشرعة كافة وتُنزل المرساة. لم يكن هُناك أشخاص يقومون بواجب المُراقبة، وبما أنّ الطاقم يتألّف على الأغلب من المالايويين المُنحدرين من سنغافورة، فقد تمدّد هؤلاء بلا اهتمام على سطح المركب. نزلت إلى الأسفل.. دون أن يعتريني شعور مُسبق بالشر المُحدق بنا. في الواقع، كانت المظاهر كلّها التي واجهتها أمامي تنذرني بوجوب توقّع إعصار سيمون. تكلّمت مع القبطان عن مخاوفي؛ بيد أنّه لم يلتفت إلى شيءٍ ما قلته، بل تركني وذهب دون اكتراث حتى بالرد عليّ. وأقضّ مضجعي عدم الارتياح والقلق فلم أتمكّن من النوم، وفي مُنتصف الليل تقريباً صعدت ثانية إلى ظهر المركب.. وحين وضعت قدمي على المصطبة العليا للسلم، أذهلتني ضجة عالية كأنّها الطنين [48]الذي يُحدثه دوران تروس الطاحونة، وقبل التأكد من مصدر تلك الضوضاء، وجدت السفينة ترتعش وتتمايل تمايلاً عنيفاً على محورها. في اللحظة التالية رشقتنا موجة ذات زبد وحشي على طرفي الدعامة الأفقية، وغطتنا من الأمام إلى الخلف، وانجرفت السفينة من مُقدمتها حتى مؤخرتها.

اتّضح لاحقاً أنّ عنف الضربة، رغم شدتها التي بلغت أقصى الحدود، لم تكن قادرة على تحطيم السفينة، فقد تمكّنا أخيراً من الخلاص. على الرغم من أنّ المياه غطّت ألواح السفينة تماماً، إلّا أنّ صواريها ظلّت تتأرجح جانبياً، ثم نهضت من أعماق الموج بعد دقيقة مُتثاقلة، وجرجرت نفسها صعوداً من لجّة البحر، ولبثت هُناك تترنّح هُنيهة تحت وطأة الصدمة الهائلة للعاصفة، وأخيراً استوت على السطح.

تُرى بأي مُعجزة تمكّنت أنا نفسي من النجاة من ذلك الدمار، إنّه لشيء من المُستحيل تقريره. بعد أن أصابني دوارٌ على أثر صدمة الأمواج، وجدت نفسي حين استعدت وعيي مُنحشراً بين ركن الدعامة الخلفية والدفة. استطعت النهوض على قدمي بعد مشقةٍ كبيرة، وصرت أتلفت حولي في انشداه، ودهمتني في البداية فكرة أننا وقعنا بين فكي أقوى الأمواج الكاسرة؛ حقّاً تلك أشياءٌ مُروعة تتخطّى مُدركات أي خيال جامح، كأنّها دوامة تختلط فيها جبال شاهقة ومُحيط

هائج مزبد فتبتلعنا بأمواجها. بعد لحظات، سمعت صوت العجوز سويد، الذي كان قد ركب معنا في اللحظات الأخيرة قبل مُغادرة المرفأ. أشرت إليه بكل ما أُوتيت من قوة أن يأتي نحوي، وجاء في الحال مُترنحاً باتّجاه مؤخرة السفينة. اكتشفنا بعد قليل أنّنا كنا الناجين الوحيدين من الحادثة. كل من كان على متن السفينة، ما عدانا نحن، قد انجرفوا من على السطح؛ لا بُد أنّ القبطان والرّفاق الآخرين قد لقوا حتفهم أثناء نومهم، ذلك لأنّ المقصورات كلها كانت مغمورة بالمياه. دون مُساعدة من أحد، لم يكن في وسعنا فعل شيء يذكر لضمان سلامة السفينة، وبدت جهودنا مشلولة أول وهلة لأنّنا توقعنا الغرق لا محالة. لقد تقطعت أسلاك جهاز الاتصال طبعاً مثل حبال القنب مع أُولى ضربات الإعصار، وغمرتنا المياه على الفور. ظلّت سفينتنا تطفو وتترنّح في اختلال توازنٍ مُخيف في وسط البحر، واخترقت تيارات المياه المُهاجمة ما تبقّى من المتاريس. ثم لم تلبث ألواح المؤخرة أن تبعثرت واحداً بعد الآخر، وفي كلّ الأحوال لم نسلم من الإصابة بجروح وكدمات؛ ولكن كم كانت فرحتنا غامرة حين وجدنا مضخات سحب المياه سليمة لم يصبها أي تضرر، وأثقال الموازنة لم يطرأ عليها تغيّر جسيم! يبدو أنّ الضربة الأساسية للعاصفة قد مرّت بسلام الآن، ولم نتوجّس من وقوع خطر عظيم مع استمرار عنف الرياح؛ ولكنّا تطلعنا إلى انقطاعها النهائي بفارغ الصبر؛ مُعتقدين أنّنا في وضعنا اليائس المُحطم هذا سوف نلقى حتفنا تحت ثقل الأمواج العملاقة التي لا مناص من أن تعود فتهاجمنا. إلّا أنّ هذا التوجّس، الذي بدا معقولاً جدّاً، لم يكن ليتحقّق عاجلاً. طوال خمسة أيام وليالٍ.. [49]بقينا نقتات على قليل من السكر الأسمر جلبناه بشق الأنفس من مُقدمة المركب.. وكانت السفينة العتيقة تجري بنا بسرعة خارج نطاق الحسبان، إزاء تيارات مُتتابعة لرياحٍ لا تُشبه التفجّر السابق العنيف لإعصار سيمون، فتلك الرياح أكثر حنوّاً من أيِّ عاصفة عاتية سبق أن واجهتني في حياتي. في الأيام الأربعة الأُولى كنا نتّجه، مع تغيرات طفيفة، نحو الجنوب أو الجنوب الشرقي؛ كنّا حتماً نمضي باتجاه سواحل نيوهولاند[5].. وفي اليوم الخامس ازداد البرد

(5) نيوهولاند: الاسم القديم لأستراليا. [المترجم]

ضراوة، رغم أنّ الرياح غيّرت اتّجاه السفينة إلى نقطة تميل أكثر إلى الشمال.. وأشرقت الشمس آنذاك، وكان رونق ألوانها يشوبه اصفرار يوحي بالسقم وهي تمضي في طريقها مُتثاقلة فوق الأفق.. لم ينبعث عنها ضوءٌ مُشرق يُمكن تمييزه على نحو مؤكد.. لم نُشاهد أي غيوم في السماء تلفت الأنظار، غير أنّ الرياح ما فتئت تزداد قوة، وصارت تهبّ في عنفوان هبوباً ثابتاً أحياناً ومُتقطعاً في أحيان أُخرى. عند الظهيرة تقريباً، بقدر ما استطعنا التخمين، لفت انتباهنا مرة ثانية ظهور الشمس. إلا أنّها لم ترسل أي ضوء أيضاً، كما يُعرف الضوء في العادة، بل مُجرّد وهج مُدْلهم يخلو من الانعكاس، وكأنّما أشعتها جميعاً مُستقطبة. وقبل أن تغطس في أعماق البحر المفتوحة على مصارعها، خمدت أشعتها المُتأججة فجأة، كأنها انطفأت على عجل بقدرة مجهولة المصدر. رأينا الشمس كتلة حالكة السواد، أو إطاراً فضياً، تمضي وحدها لتغرق في مُحيطٍ لا تُسبر أغواره.

انتظرنا عبثاً حلول اليوم السادس.. فذلك يوم، بالنسبة لي، لم يأتِ إلى الآن.. أمّا العجوز سويد، فلن يبلغه قطعاً. منذ يومنا ذاك طوقتنا غمامة من الظلام الدامس، حتى لم نتمكن من رؤية شيء على بعد عشرين خطوة من السفينة. استمرّ ذلك الليل الأبدي يُطوقنا من الجوانب كافة، لم يزحزحه تألق مياه البحر الفسفورية التي كنّا مُعتادين عليها في المناطق الاستوائية. ولاحظنا أنّنا، على الرغم من استمرار العاصفة في عنفوانها الذي لا يلين، لم نعد نستبين الحركة الاعتيادية للأمواج المُتكّسرة، ولا رغوتها التي كانت حتى ذلك الوقت تُلازمنا. كل شيء حولنا أصبح جُزءاً من مظاهر الرعب، والعتمة المُطبقة، وصحراء تموج بعمالقة سوداء من شجر الأبنوس.. زحفت أشباحٌ خُرافية مُرعبة رويداً لتستولي على روح العجوز المسكين سويد، وعلى روحي أيضاً، فصارت تلفّها بتساؤلات صامتة. أهملنا كل شَيء عن السفينة، إذ كانت حالتها أسوأ من حطام عديم النفع، وسعينا لضمان نجاتنا بأنفسنا ما استطعنا وذلك بالتمسك بجذع الصاري القريب من المؤخرة، وأخذنا ننظر ونحن نشعر بالمرارة إلى عالمٍ مُترامي الأطراف من المُحيط الشاسع. لم نمتلك أي وسيلة لحساب الزمن، ولا استطعنا تخمين موقعنا الذي كنّا فيه. ولكنّا أدركنا مع ذلك أنّنا أحرزنا بعض التقدم باتّجاه الجنوب أكثر ممّا تحقّق للملّاحين في السابق، واستغربنا كثيراً من عدم مواجهتنا أي عوائق من الجليد

كما توقعنا أن نراه في تلك الأماكن. في تلك الأثناء، كانت كل حركة نأتي بها تُهدّد بأن تكون الأخيرة.. وكل هديرٍ للأمواج التي كالجبال يُهدّد بالإسراع لابتلاعنا. ذلك الاندفاع الهادر يفوق أي شيء سبق أن تخيّلته من قبل، وإن لم نكن قد دفنّا لحظتها في قاع البحر، فتلك [50] مُعجزة حقّاً. تكلّم رفيقي عن خفة حمولتنا، وذكرني بالقدرات الفائقة العجيبة لسفينتنا؛ ولكني لم أستطع تجاهل شعوري بالعجز المُطلق عن التطلّع إلى أي أمل في النجاة، وصرت أتأهب في حزن وكآبة لاستقبال الموت الذي تخيّلت أن لا شيء يُمكن أن يُبعده عنّا خلال ساعة، ربّما، مع كل عقدة أُخرى تقطعها السفينة، ومع كل تهوّر للأمواج السوداء المُتكسّرة على البحر الذي أصبح وحشاً مُرعباً ثقيلاً يطبق على الصدر. في بعض الأوقات كنّا نواجه صعوبة حتى في التقاط أنفاسنا حين نصل إلى ارتفاعات تجاوز ما تصل إليه طيور القطرس.. وفي أوقات أُخرى عانينا من الدوار وتشوش الرؤية مع انحدارنا داخل مياه تقذفنا على نحو مُتواصل إلى قيعان الجحيم، حيث الهواء يزداد ركوداً، ولا صوت يُعكر هجوع الكركن[6].

كنّا نغرق في ما يبدو في أعماق إحدى تلك المتاهات، حين سمعت صرخة ذعر مدوية أطلقها رفيقي سريعاً فحطمت سكون الليل. «انظر! انظر!» كان يصيح، وصوته يتذبذب في أُذني، «رحماك يا إلهي! انظر! انظر!» أثناء نطقه بكلماته تلك، أدركت أنّني أرى وهجاً خافتاً من الضوء الأحمر ينعكس على جانبي الهاوية التي كنّا نتأرجح بين ظهرانيها، وقد ألقى ذلك الضوء شعاعاً لامعاً مُتقطعاً على ظهر السفينة. حوّلت عيني إلى الأعلى، فأبصرت مشهداً جعل الدماء تتجمّد في عروقي. على ارتفاع شاهق فوق رؤوسنا، وعلى كل جرف من الهاوية السحيقة التي تحت أقدامنا، وجدنا سفينة عملاقة عالقة هُناك، ربّما كانت تزن أربعة آلاف طن. مع أنّها كانت تتقهقر فوق ذرى الموج حتى مسافة تجاوز ارتفاعها بمائة مرة، إلّا أنّ حجمها تخطّى حجم أي سفينة أُخرى مُماثلة لتلك السفن التي تُبحر عادة على خط الملاحة المُتجه نحو شرق الهند. هيكلها الضخم مُغطى بطبقة سوداء، نخرة، غامقة من الصدأ الذي لا يُمكن أن يصدق المرء رؤيته على بدن

(6) الكركن: وحش بحري خُرافي اسكنديناڤي. [المترجم]

سفينة من جنسها. وهُناك صفٌّ من المدافع النحاسية تبرز من فتحات على جوانبها، كان بإمكانها أن تُطلق النيران من سطوحها الصقيلة من عدد لا يُحصى من فوهات المدافع، وقد تدلّت تلك المدافع إلى الأمام وإلى الخلف من تركيبات بدنها المتين. ولكن الشيء الذي أذهلنا أكثر وأصابنا بالذعر والحيرة أنّها لم تزل تندفع إلى الأعلى تحت تأثير شراعها الذي تُمسك به كلابات بحر هائج خارق لنواميس الطبيعة، وقبضات الإعصار الذي لا مجال للسيطرة عليه. لما اكتشفنا لأول مرة وجود تلك السفينة، لم نرَ منها إلا الجزء الناتئ من مُقدمتها وحده، ثم نهضت في بطء وتثاقل من الهوة المُعتمة المُريعة التي كانت تقبع داخلها. في تلك اللحظة التي اعترانا فيها ارتياع شديد لا يوصف، توقّفت السفينة على قمة هرم الموج بينما هي مُستمرة في الدوران كأنها في حالة تأمل لمهابة حجمها، ثم ارتعشت وتمايلت، وأخيراً انقضت انقضاضاً عنيفاً إلى الأسفل.

في هذه اللحظة، لم أعرف أي نوع من الهواجس اجتاحت كياني بغتة. كنت أترنح قدر ما استطعت الإدراك، مُنتظراً بلا وجلٍ ذلك الانهيار الذي يوشك أن يطمرنا. ثم استقرّت سفينتنا في نهاية المُطاف، بعد أن توقف صراعها اليائس، وبدأت تغرق وقد اتّجه رأسها إلى البحر. لقد جعلتها الصدمة التي تلقتها من تلك الكتلة المهولة التي اتّخذت طريقها إلى القاع ترتعش، لا سيما ذلك الجزء من بدنها الذي أصبح الآن تحت الماء، وكانت النتيجة المحتومة، ولا ريب في ذلك، أن تجذبني إليها بقوة لا سبيل لمقاومتها، مع ما جرفت من متاع السفينة الغريبة.

حين هويت من مكاني، كانت السفينة تتدلّى فوق رأسي وتتمايل فترة كأنّها تنوي التريّث قليلاً؛ وأرجعت العلة في تمكّني من الإفلات إلى الاضطراب الذي [51] أعقب ذلك دون أن يتنبّه لي أحد من أفراد الطاقم. بشيء من الصعوبة سلكت طريقي وحدي دون إدراك مني نحو القبو الرئيسي الذي كان مفتوحاً جزئياً، وسرعان ما انتهزت فرصة مؤاتية لإخفاء نفسي عن الأنظار في ذلك الحيز. لماذا فعلت ذلك؟ لست أدّعي أنّني أعرف السبب. لقد انتابت ذهني أحاسيس غامضة بالرهبة لدى رؤيتي لأول مرة بحارة السفينة، ولعل ذلك ما حملني على الاختباء. لقد عزفت عن أن أوكل نفسي إلى جنس من البشر الذين

أوحوا لي، لدى اللمحة العرضية التي التقطتها لأشكالهم، بالكثير من الأشياء المُبهمة التي لم أعهدها، من الشك والتوجّس. ولذلك فكّرت أنّ من المُناسب التمسّك بهذا المخبأ الذي أُتيح لي بأعجوبة. وقد فعلت هذا بعد رفع جانب من الألواح الخفيفة، وحصل الأمر بطريقة تُعطيني مجالاً مُناسباً للتراجع والانزواء في أي وقت بين الألواح الخشبية الضخمة للسفينة.

لم أكد أنتهي من عملي هذا، حتى أجبرني وقع خطوات من داخل القبو على الإسراع باستخدام ذلك المخبأ. مرّ رجل بمكان اختبائي كان يمشي بخطوات مُترنّحة غير مُستقرّة. لم يكن باستطاعتي رؤية وجهه، ولكن سنحت لي فرصة عاجلة لإلقاء نظرة على مظهره بوجه عام. تبيّن لي من تلك النظرة أنه مُتقدّم كثيراً في السن وقد بدا الوهن واضحاً عليه. كانت ركبتاه ترتعشان تحت ثقل السنين، وجسده كله ينتفض بسبب ذلك. تمتم مع نفسه بشيء ما بنبرة مُنخفضة مُتهدجة، بعض الكلمات قالها في لُغة لم أستطع فهمها، وتكوّم في زاوية بين معدّاتٍ مُهملة للمُراقبة والرؤية، وخرائط ملاحية قديمة مُتهرئة. كان سلوكه مزيجاً مُستهجناً من روحِ مُشاكسة، ومُراهقة مُتأخرة، ووقار وورع، ومظاهر تكلف يتصف بها أولئك الذين يظهرون بمظهر الأتقياء أمام الرب. وأخيراً صعد الرجل إلى ظهر المركب، ولم أره بعد ذلك.

* * *

أحسست بشيء لا تفسير له يستولي على كياني.. شيءٌ مبهم لا سبيل لإخضاعه لأي نوع من التحليل، بل لا تكفي الدروس كلها التي تلقيتها في الأيام الغابرة لتجعلني أفهم مغزاه، وأخشى أنّ المُستقبل لن يزوّدني بأي مُفتاح يُذكر لحلّ هذا اللّغز. بالقياس إلى عقلٍ مثل عقلي في تركيبته وطبيعته، كان الاستنتاج الأخير الذي توصلّت إليه شراً من الشرور لا محالة. الأمر المؤكد أنّني.. أعرف أنّني لن.. أقتنع مُطلقاً بشيء من تصوراتي وأفكاري. ليس من المُستغرب أن تكون هذه التصورات ذات طبيعة غير مُحددة، ما دامت جُذورها التي تستقي منها ديمومتها جديدة تماماً. هُنالك إحساس جديد.. كينونة جديدة تُضاف هُنا إلى روحي.

* * *

انقضى وقت طويل منذ أن وطأت قدمي على ظهر هذا المركب المُريع، كان يبدو لي أنّ حبال مصيري، كما خيّل إليّ، تتجمّع وتتركّز عند بؤرة بعينها. [52]رجالٌ عديمو الملامح! يستغرقون في تأملات لم أعد قادراً على تحديد كنهها، يَعبرون أمامي دون أن يتنبّهوا لأمري. الاختباء مُجرّد تصرّف أحمق من جانبي، ذلك لأنّ الناس على كل حال ما كانوا ليُبصروا شيئاً. الآن فحسب عبرت صورتي مُباشرة أمام عيني رفيقي.. ولم يمضِ وقت طويل حتى خاطرت بدخول مقصورة القبطان، وأخذت حينئذ بعض المواد التي أردت استخدامها في الكتابة، وبدأت أكتب. ولسوف أستمر، من وقتٍ إلى آخر، بمُتابعة كتاباتي التي أرسلها إلى هذه الصحيفة. صحيحٌ أنّه ربما لن تتوفّر لدي فرصة لأن أنشر كل هذا ليقرأه العالم، ولكني لن أفشل في المُحاولة على الأقل. وفي آخر لحظة سوف أضع الرسالة داخل زجاجة، وألقي بها إلى عرض البحر.

* * *

وقعت حادثة أتاحت لي فرصة أُخرى للتأمل. هل هذه الأشياء كلّها من صنع حظي العاثر الذي لا سبيل للتحكّم بمُجرياته؟ لقد غامرت بالصعود إلى ظهر المركب وألقيت نفسي على الأرضية، دون أن أثير الانتباه، وسط كومة من حبال السلالم البحرية والأشرعة القديمة المُكومة في قاع المركب. وبينما مضيت أفكّر في غرابة مصيري، ارتطمت بفرشاة قار فتلطّخت حافات شراع خفيف ملفوف في عناية مُلقى بالقرب مني على أحد البراميل. انحنى الشراع الآن وانفتحت طياته على ألواح السفينة، وكانت اللطخات العبثية التي تركتها الفرشاة تنتشر رويداً فترسم عن طريق المُصادفة حروف كلمة: «اكتشاف».

نظرت عن كثب عدة مرات خلال الساعات الأخيرة مُتفحصاً طبيعة هذه السفينة التي تحملني إلى المجهول. على الرغم من أنّ السفينة كانت متينة البنيان ومحمية بصورة جيدة، إلا أنّها ليست من السفن الحربية كما ظننت. كانت حبال أشرعتها وصواريها، وبناؤها العام، وتجهيزاتها، كل ذلك ينفي افتراضاً من هذا القبيل. ربّما كان في وسعي تخيل الغرض الذي لم تُصنع من أجله.. أمّا الغرض الذي تؤديه حالياً، فأخشى أنّ من المُستحيل معرفته. لا أعرف ما هذه السفينة،

ولا حالتها، ولكن لدى التأمل في نموذجها العجيب والتوزيع النادر لصواريها، وحجمها الهائل وحبالها المتينة المجدولة من القنّب، وطليعتها المُنحرفة انحرافاً شديداً ومؤخرتها العتيقة البالية، لا بدّ أن يبرق في ذهني عرضاً إحساس بأشياء ربّما بدت مألوفة، ويمتزج هذا دائماً مع ظلال مُبهمة لذكرى مُحددة ليس بالإمكان تفسيرها عن حوادث تاريخية في بلاد أجنبية وقعت في عصور غابرة.

كنت أُطيل النظر إلى ألواح السفينة. يبدو أنّها كانت مصنوعة من مواد لم يسبق أن رأيت مثلها في حياتي. هُناك شيء مُستهجن في ألواح الخشب أثار انتباهي وأذهلني حين أيقنت أنّها لا تُصلح للغرض الذي تستخدم فيه. أعني وجود مسامات وفراغات عريضة لعلها نتجت بمعزل عن حالة التآكل التي تسببها الديدان [53]لطول الملاحة في هذه البحار، وبعيداً عن العفن والاهتراء الذي ينتج عن التقدّم في العمر الافتراضي للخدمة. لعل استنتاجاتي تبدو مُسرفة بعض الشيء، إلّا أنّ هذا الخشب حتماً يتضمّن كل خصائص السنديان الإسباني، لو أنّ هذا النوع من الخشب ينتفخ بفعل مؤثرات غير طبيعية.

لدى مُراجعة الجُملة أعلاه خطر على بالي قول مأثور يُنسب إلى بحّار هولندي شهد حالات مناخية شاذة كهذه، وتجلّى لي ذلك القول في أجلى صورة مُمكنة. «إنّه لشيء محتوم»، كان ميّالاً إلى القول حين يتشكّك الآخرون في صدق رواياته، «شيء محتوم مثل وثوقنا بوجود البحر، أنّ السفينة بعينها يُمكن أن يتضاعف حجمها مثل الكائن الحي أو كالبحّار نفسه».

* * *

منذ ساعة تقريباً، تجرّأت فحشرت نفسي وسط جمع من أفراد الطاقم. لم يهتموا لأمري، مع أنّي وقفت بينهم، إلّا أنّه لم يبدُ عليهم الانتباه إلى وجودي. مثل ذلك الشخص الذي رأيته أول مرة في القبو، كانوا يحملون كلهم علامات التقدّم في العمر وقد غزا الشيب رؤوسهم بوفرة. رُكبهم ترتعش من العجز والوهن؛ وأكتافهم تنحني انحناءً مضاعفاً من تداعيات الشيخوخة؛ وبشرتهم مُتغضّنة ذاوية ترتجف مع الريح؛ وأصواتهم مُتهدّجة لا تكاد تُسمع، وعيونهم

تأتلق رغم تسرّب السنين من بين أيديهم ومن خلفهم؛ وشعرهم الأشيب يتموّج في حركات جنونية مع العاصفة. هُنا وهُناك حول هؤلاء الرجال، وعلى كلّ جانب من ظهر المركب، تبعثرت مُعدّات هندسية من أنواع قديمة بطل استعمالها منذ زمن بعيد.

لقد ذكرت قبل قليل شيئاً عن انثناء الشراع الخفيف. منذ تلك الفترة، بما أنّ الرياح قد أنهكت السفينة وتركتها شبه مُحطّمة، إلّا أنّها تابعت مسارها المُذهل باتّجاه الجنوب، مع انفتاح كلّ بساطٍ مُتهرئ من القنّب مُحمّل على متنها، ومن دواليب مدافعها إلى عوارض أشرعتها صارت تتدحرج بمرور الثواني والدقائق، مع اندفاع أشرعتها العليا وأطراف عوارضها السفلى، ظلت تمضي صوب جحيم مُرعب من المياه التي لا يُمكن لعقل الإنسان تخيّل مقدار وحشيتها. كنتُ قد تركت سطح السفينة قبل مدة قصيرة، إذ وجدت من المُستحيل إبقاء قدم مُستقرّة على ذلك الموضع، على الرغم من أنّ أفراد الطاقم لم يبدُ عليهم أنّهم يشتكون من الانزعاج هُناك. اتّضح لي حقّاً أنّها مُعجزة المعجزات أن لا يبتلع البحر الهائج هذا الهيكل الضخم لسفينتنا مرة واحدة وإلى الأبد. لا بدّ أنّه القدر الذي كُتب علينا أن نبقى نحوم باستمرار على شفير الأبدية، دون أن نغطس الغطسة الأخيرة إلى أعماق الهاوية. من أمواج عارمة أكثر ضخامة ألف مرة من أي شيء رأيته من قبل، نبتعد مُنزلقين بسهولة وانسياب كأنّنا السهم أو النورس؛ وعمالقة المياه تطلّ برؤوسها فوقنا كأنّها شياطين الأعماق، ولكنّها شياطين يقتصر عملها على تهديدات بسيطة ويُمنع عليها إلحاق الأذى. لا أكاد أعزو مُحاولات النّجاة المُتكرّرة هذه من قدرنا المشؤوم فقط إلى سبب طبيعي بالإمكان أن يُفسر مثِل هذه التقلّبات.. لا بدّ لي من افتراض أنّ السفينة تخضع لأسر نوع من التيارات العنيفة، أو قوة جذب تحتية طائشة.

[54]قابلت القبطان وجهاً لوجه في مقصورته الخاصة.. ولكنّه، كما توقعت، لم يعرني أي اهتمام. مع أنّ مظهره كان يخلو، بالنسبة لأي شخص ينظر إليه عرضاً، من أي شيء يُنبئ بشخصيته، على نحو ما، أكثر من كونه رجلاً.. إلّا أنّ هُنالك شعوراً لا يقاوم بالرهبة والوقار يختلط بالاندهاش من منظره مثلما

تجسّد لي. من حيث شكله الخارجي، فهو تقريباً بمثل قامتي؛ أي: أن طوله يصل إلى قُرابة خمسة أقدام وثمان بوصات. بنْيته قوية مُتماسكة، لم يكن غليظاً على نحو يلفت الأنظار ولا على العكس من ذلك. ولكن يوجد شيء مُتفرد بشأن التعبيرات التي تشوب وجهه.. إنّها علامات بارزة بروزاً جلياً وكثيفاً، تلك العلامات المُدهشة التي تنبئ بالتقدم في السن، تبرز على نحو مُطلق، مُهيمن فتُثير في نفسي إحساساً ما.. عاطفة تفوق الوصف. على الرغم من أنّ جبهته مُجعدة قليلاً، إلّا أنّها تبدو كأنها تحمل ثقل آلاف السنين.. شعره الأشيب كأنّه سجل للماضي، وعيناه الرماديتان تسجّلان نبوءات عن المُستقبل. تبعثرت على أرضية المقصورة أوراق مكبوسة بمشابك حديدية، وأدوات هندسية تالفة يعلوها الصدأ، وخرائط قديمة عفا عليها الزمن. كان رأس الرجل مُنحنياً على يديه، وهو يُحملق بعينين قلقتين في ورقة خُيّل إليّ أنّها تكليفٌ بمُهمة رسمية، وأنّها على كل حال تحمل ختم أحد الملوك. تمتم مع نفسه بشيء، كما فعل البحّار الذي سبق أن قابلته لأول مرّة في القبو، وجاءت مقاطع الكلمات النزقة التي تفوّه بها بلسان أعجمي، ومع أنّ المُتكلّم كان قريباً من مرفقي، غير أنّ صوته فيما يبدو كان يصل إلى أُذني من مسافة أكثر من ميل.

تحكّمت بالسفينة وبكل من على متنها أرواح الموتى الغابرين. كان الطاقم من البحّارة ينزلقون جيئة وذهاباً كأنهم أشباح ينتسبون إلى قرون غابرة طواها النسيان؛ عيونهم تحمل معنى الترقّب والحيرة؛ وحين اعترضت أصابعهم طريقي على الوهج الوحشي المُنبعث من فتحات تسديد نيران المدافع الحربية، شعرت بشيء لم أعهده من قبل، مع أنّي كنت طوال حياتي الماضية تاجر تحفٍ قديمة ولديَّ دراية جيدة بالأعمدة المُتهاوية في بعلبك، وتدمّر، وبيرسيبولس[7]، حتى أصبحت روحي بعينها خربة من الخرائب.

تلفتّ حولي فأحسست بالخزي من توجّساتي الماضية. لئن كانت فرائصي

---

(7) بيرسيبولس: في اللّغة الإيرانية القديمة تعني «طاق جمشيد أو فارس» كانت عاصمة إمبراطورية الأخمينيين من 550- 330 ق. م. تقع على بعد 70 كم إلى الشمال الشرقي من شيراز. [المترجم]

ترتعد خوفاً من الانفجار الذي أصابنا إلى الآن، فليس غريباً أن أقف مشدوهاً أمام نُواح الرياح التي يُرسلها المُحيط فتنقل إلينا من الأحاسيس ما يغدو معها التورنادو والسيمون مُجرّد كلمات تافهة ليس لها معنى؟ كل ما هو قريب منّي على السفينة ظلام وليل أبدي، وضوضاء تنبعث من مياه خالية من الزبد؛ ولكن، على بُعد زهاء فرسخ منّا على الجانبين كنّا نرى بعض المتاريس الضخمة من الجليد ذات ملمح مُبهم غير مُستقر، تمضي بعيداً بقممها العالية باتّجاه سماء خاوية كأنّها حقّاً جدران هذا الكون.

[55]كما توقّعت، فقد تبيّن أنّ السفينة كانت تواجه تياراً يُكبّل حركتها؛ لو أنّ تلك التسمية تُناسب وصف المد الذي يعوي بين أكناف الجليد الأبيض، وهزيم الرعد إلى الجنوب وهو يتدفّق بسرعة وينقضّ انقضاضاً طائشاً كالشلال.

لئن شئتَ تخيّل مقدار الفزع الذي اجتاح كياني، فذلك شيء مُستحيل؛ إلّا أنّ ثمّة نوعاً من الفضول يبدو أنّه يخترق الأسرار المُلتبسة لهذه المجالات التي يستحيل سبْر أغوارها، وجدته يُهيمن على قنوطي وكربي، لكي يحيلني إلى أكثر البؤر خفاءً في معضلة الموت. من الواضح أنّنا كنّا نحثّ الخطى باتّجاه نوع من الكشف المعرفي المُفزع.. نوع من الأسرار التي لا تُفشى على الإطلاق، تلك التي يعني التوصّل إليها دماراً مُحدقاً. لعل هذا التيار كان يقودنا إلى القطب الجنوبي تحديداً. لا مناص من الاعتراف بأنّ مثل هذا الافتراض الذي يبدو مُعقداً وبدائياً تؤيده جميع الاحتمالات القائمة بين أيدينا.

استمرّ أفراد الطاقم يخطون على ظهر المركب بأقدامهم الوجلة المُرتعشة؛ غير أنّ ملامح وجوههم كانت تعلوها تعبيرات فيها من الاشتياق والأمل أكثر ممّا فيها من اللامبالاة التي تنجم عن اليأس.

لم تزل الرياح، في هذه الأثناء، تخبط مؤخرة السفينة التي تكدّست عليها بضاعتنا من الكتّان، وكان بدنها يعلو في بعض الأحوال فيخرج فوق سطح البحر.. أوه، رعبٌ يتكدّس فوق رعب! الجليد ينفتح فجأة إلى اليمين، ثمّ إلى اليسار، ونحن نلتفّ في دوّامة تدوّخ الرؤوس، دوائر هائلة مُتحدة المركز، حول

أنفسنا ندور مرة بعد أُخرى، ثم ندور حول تخوم مَدرجٍ عملاق، جُدرانه ضائعة في لُجة الظلام والمسافات. غير أن ثمّة وقتاً ضئيلاً فحسب يبقى لكي أتأمل مصيري.. الدوائر تزداد ضيقاً بسرعة جنونية.. ونغطس في جنون على وتيرة واحدة بين قبضات الدوّامة.. وفي خضمّ تلك الدمدمة، والعويل المُدوي، والبلبلة المُرعبة للرعد، والمُحيط، والعاصفة، تنتفض السفينة في سكرة أخيرة، أوه، يا إلهي! وبعدها.. تغطس إلى الأعماق.

خرافة الصمت

قمم الجبل ترقد في سبات أبدي؛

الوديان، الصخور الشامخة والمغارات صامتة.

ألكمان[1]

[56]«استمع إليّ»، قال الشيطان وهو يضع يده على رأسي. «المنطقة التي أتكلّم عنها ناحية جرداء تقع في ليبيا، على جانب من ضفاف نهرٍ في زائير[2]. أبداً لا تتوقّع أي نوع من الهدوء، لا مكان هُناك للصمت..

«مياه النهر لونُها كالزعفران الشاحب؛ وهي لا تتدفّق باتّجاه البحر، بل تندفع تياراتها العنيفة منذ الأزل وإلى الأبد تحت قرص الشمس القاني بحركة مُضطربة. على ضفتي النهر اللّتين يترشّح عليهما الطمي، وعلى امتداد عدة أميال، تنبسط صحراءٌ شاسعة صفراء تنتشر عليها زنابق الوادي الضخمة البيضاء. تتنهّد تلك الشجيرات الواحدة في وجه الأُخرى وهي تعيش عزلتها الموحشة، وتشْرئبّ أغصانها الطويلة وأعناقها إلى عنان السماء، وتنحني رؤوسها إلى الأمام وإلى الخلف في حركة أبدية. يكاد المرء يسمع هُنا دمدمة غامضة وسط تلك الزنابق كأنها اندفاع تيارات مياه تجري تحت الأرض. وتتنهّد الشجيرات كأنّ بعضها يُكلّم البعض الآخر..

---

(1) ألكمان: شاعر غنائي إغريقي من القرن السابع ق. م عاش في إسبارطة. [المترجم]

(2) كان اسم ليبيا يُستخدم من قبل الإغريق القدماء للإشارة إلى قارة أفريقيا كلها، وزائير هو اسم برتغالي قديم للكونغو. [المترجم]

«لكن ثمّة حدوداً لمملكتها.. تفرضها أستار الظلام، والغابة المُرعبة البعيدة من الأشجار ذات الأعناق المُشرئبّة في إيحاء بالغطرسة. هُناك، على غرار الأمواج التي تجتاح هبرديس[3]، تتعرّض الأيكة للاستفزاز باستمرار. ولكن لا أثر للرياح في أي ركن من السماء. والأشجار ذات القامات السامقة التي تعود لقرون بدائية تتمايل إلى الأبد هُنا وهُناك على أنغام مُزمجرة هادرة. من قممها العالية، لا تتوقّف قطرات الندى عن التساقط، قطرة فقطرة. وعند جذورها تنمو أزهار سامة غريبة المنظر تتلوى في سُباتها المعكّر. فوق الرؤوس، تتحرّك سحبٌ رمادية فتصدر خشخشة وضوضاء عالية، مُتجهة غرباً على الدوام، ثم تلتفّ وتدور حول نفسها فيتكون منها شلال على جدار الأُفق المُلتهب. ولكن لا أثر للرياح في أي ركن من أركان السماء. شواطئ نهر زائير لا تعرف السكينة، ولا الصمت..

«حدث ذلك ليلاً، وكانت الأمطار تهطل؛ بقي المطر ينهمر وينهمر، وكانت السماء تُمطر بغزارة، وبعد توقف المطر، اتّضح أنّ السماء كانت تمطر دماً. وقفت في وسط المُستنقع تحيط بي أشجار عالية وحبّات خفيفة من المطر لا تزال تسقط على رأسي.. والزنابق تتنهد، يُحدّث بعضها بعضاً بصوت مهيب يُنبئ بعمق وحشتها وعزلتها الكئيبة..

[57]«وفجأة، رأيت القمر يتسلّق مُخترقاً الضباب الكثيف اختراقاً مهولاً، كان قرمزي اللّون. ووقعت عيناي على صخرة رمادية ضخمة تجثم بثقلها على الشاطئ، تُضيئها أنوار القمر. كانت صخرة رمادية، منظرها مُخيف، فهي طويلة، طويلة جدّاً.. وكانت الصخرة رمادية. على جبهتها حُفرت نقوشٌ حجرية؛ ومشيت عبر المُستنقعات التي تحفّ بها زنابق الوادي، حتى وصلت إلى مكان قريب من الساحل، أردت أن أقرأ تلك الحروف التي سُطّرت على الحجر. إلّا أني لم أتمكّن من فك شفرتها. وعدت إلى المُستنقع، وحينها كان القمر يُشرق بألوانه الحمراء القانية، تلفّتّ هُنا وهُناك وعادت عيناي تنظران من جديد إلى الصخرة، وإلى الحروف؛ وقرأت الكلمة التي تشكّلت منها: «الوحشة»..

---

(3) هبرديس: أرخبيل من الجزر المُتناثرة تقع على الساحل الغربي لاسكوتلندا. [المترجم]

رفعت رأسي لأنظر، فرأيت رجلاً واقفاً على حافة الصخرة؛ وفي الحال أخفيت نفسي بين زنابق الوادي حتى أكتشف ماذا ينوي أن يفعل ذلك الرجل. كان طويل القامة، جليل الهيئة، وقد تلفّع من كتفيه حتى قدميه بثوب روماني فضفاض قديم. لم تكن الملامح الأساسية لشكله ظاهرة بوضوح.. غير أنّ محياه على وجه الإجمال جعله يبدو شبيهاً بأحد آلهة الإغريق؛ لأنّ عباءة الليل، وستار الضباب، واحمرار القمر، والندى، كل ذلك حال دون اكتشاف ملامح وجهه. بدت جبهته شامخة توحي بعمق التفكير، وعيناه تنتاب نظراتهما وحشة غريبة المعاني؛ على التجاعيد الضئيلة التي تخترق خديه قرأت حكايات عن الأسى، والإعياء، والاشمئزاز، والرغبة في الابتعاد عن بني البشر، والاشتياق للعزلة..

«جلس الرجل على الصخرة، وقد انحنى رأسه على يده، وكان يتأمّل ذلك المنظر المُقفر. ثم تحوّل نظره إلى الأسفل باتّجاه الأرض التي تكسوها الأعشاب والشُّجيرات المُضطربة، وتجوّلت عيناه بين الأشجار السامقة الموغلة في القدم، ثم انصرف في تأملاته أكثر فأكثر نحو السماء المُقطبّة المُدمدمة، والقمر القرمزي. ولبثتُ ممدداً في موضع قريبٍ تحت ظلال الزنابق، وكنت مُنهمكاً بمُراقبة ما يفعله الرجل، وما هي إلّا أن رأيته يرتجف في عزلته؛ مع أنّ عتمة الليل جعلت الرؤية تتضاءل، وبعدها رأيته يعود للجلوس على الصخرة..

«وتحول انتباه الرجل من السماء، وأخذ ينظر إلى نهر زائير الموحش، وإلى المياه المُصفرة الشاحبة، وإلى زنابق الوادي الكثيفة. كان الرجل يُصغي إلى تنهدات الزنابق، وإلى الدّمدمة التي تصدر عنها وبعضها يُناجي بعضاً. ولبثتُ مُمدّداً في مخبئي القريب أراقب ما يفعله الرجل، ثم رأيته يرتعش في عزلته؛ لكن العتمة تضاءلت وهو جالس على الصخرة..

[58]«ثم خرجت من مخبئي إلى المستنقع خلفي، وصرت أخوض في الماء متجهاً إلى مكان منعزل من البراري التي تعجّ بالزنابق، وصادفت في طريقي الجواميس التي تقطن تلك المُستنقعات المُترامية وصحت عليها. وسمعت الجواميس ندائي وجاءت مع أفراس النهر لتقف في أسفل الصخرة، وكانت تصرخ عالياً بصوت مُخيف تحت ضوء القمر. ولبثتُ مُمدداً في مخبئي القريب

أراقب ما يفعله الرجل، ثم رأيته يرتعش في عزلته.. لكن العتمة تضاءلت وهو جالس على الصخرة..

«ثم أخذت ألعن كلَّ ما رأيته من عناصر الطبيعة بعد أن لعنت الأصوات المُشوشة؛ وتجمعت فلول عاصفة عاتية في السماء بعد أن لم يكن هُنالك أثر للرياح من قبل. وتلبّدت السماء بغيوم توحي بالعنف الذي يُرافق العاصفة.. وكانت قطرات المطر تسقط على رأس الرجل.. وفاض النهر.. وتحولت مياهه إلى زبد.. واختلجت زنابق الوادي في أحواضها.. وانكمشت الغابة أمام الريح.. وكان الرعد يهدر.. وصواعق البرق تتفجّر.. والصخرة تهتز على قواعدها. ولبثتُ مُمدداً في مخبأي القريب أراقب ما يفعله الرجل، ثم رأيته يرتعش في عزلته؛ لكن العتمة تضاءلت وهو جالس على الصخرة..

لثم استبد بي غضبٌ مُباغت وصرت الآن ألعن كل شيء، بعد أن لعنت الصمت، والنهر، والشُّجيرات، والغابة، والسماء، والرعد، وتنهّدات زنابق الوادي. كلُّ شيء صار ملعوناً، وكلُّ شيء ساكن لا يتحرّك. وتوقف القمر عن الجريان على مساره في السماء.. والرعد تلاشى أثره.. والبرق لم يعد يقصف.. والغيوم تعلّقت في أماكنها بلا حركة.. والمياه غارت في أعماق الأرض وعادت إلى مُستواها السابق ولبثت على هذه الحال.. وتوقّفت الأشجار عن التمايل.. وزنابق الوادي لم تعد تتنهّد.. والدّمدمة التي كانت تتخلّلها توقّفت، والصحراء التي لا تُسبر أغوارها لم يعد لها ظل ولا صوت. وأخذت أتلفت حولي وأنظر إلى الحروف التي كُتبت على الصخرة، وقد تغيّرت؛ وتشكّلت من تلك الحروف كلمة: «الصمت»..

«ووقعت عيناي على وجه الرجل، كان السقم يبدو على قسماته من فرط الإحساس بالذعر. وسرعان ما رفع رأسه عن يده، وانتصب واقفاً على الصخرة وبدأ يُصغي. ولكن ما من صوت في أرجاء الصحراء المُترامية التي لا حدود لها، وكانت الحروف على الصخرة تتكون من «ا ل ص م ت». وارتعش الرجل ثم أشاح بوجهه بعيداً، وأسرع بالفرار ولم أعد أراه».

[59]والآن، أقول: إنّ هُناك حكايات مُشوّقة وردت في كتب المجوس.. في كتب الأحزان ذات المشبك الحديدي التي سطّرها المجوس. هُنا، أقول، يجد المرء حكايات تاريخية عظيمة عن السماء، والأرض، والبحر ذي الجبروت.. وعن الجن الذين كانوا يحكمون البحار والأرض، والسماوات البعيدة. هُناك الشيء الكثير من الحكمة والمعرفة أيضاً في تلك الأقاويل التي تُنسب إلى السايبل[4]؛ هُناك أشياءُ مُقدسة، روايات مُقدسة يسمعها الناس عن الآباء والأجداد ويقرؤونها في صحف مُسطّرة قرب نيران المواقد الكئيبة التي تختلج حول دودونا[5].. ولكن، كما تقتضي مشيئة الله، فتلك الحكاية عينها التي أخبرني بها الشيطان حين كان يجلس إلى جانبي تحت ظلّ القبر، أرى أنّها من أكثر الحكايات تشويقاً وروعة! وحين وصل الشيطان إلى نهاية حكايته، تراجع فاختبأ داخل تجويف القبر وهو يضحك. ولم أتمكّن من الضحك مع الشيطان، فصار يلعنني لأني لم أضحك معه. وخرج الوشق الذي يسكن إلى الأبد في القبر، في ذلك الوقت، وتمدّد عند قدمي الشيطان، وكان يتفرّس في وجهه بنظرات جامدة.

(4) السايبل: نساء عرّافات يُعتقد أنّ لديهن قُدرات على التنبؤ في اليونان القديمة. [المترجم]

(5) دودونا: عرّافة في اليونان القديمة لها معبد هو الأقدم في العصر الهيليني كانت تُفسر أصوات أوراق الأشجار، على قول هيرودوتس. [المترجم]

أربعة وحوش في جسد

تجانس الزرافة

«كل إنسان له مزاياه الطيبة».

كريبليون في مسرحية كزيرسيس[1]

[60]انطيوخوس أبيفانس، كان يُنظر إليه على وجه الإجمال على أنّه مثل يأجوج ومأجوج[2] بالنسبة إلى النبي حزقيال. غير أنّ مثل هذا الشرف كان بالإمكان أن يُعزى على نحو أكثر صواباً إلى كامباسيس ابن سايروس[3]. في الواقع، فإنّ شخصية الملك السوري لا تحتاج إلى أي نوع من الزخرف اللفظي العارض. إنّ اعتلاؤه لسدة العرش، أو بالأحرى تولّيه لمقاليد السلطة، قد حدث قبل مائة وإحدى وسبعين سنة من مجيء المسيح؛ وتوالت منذ ذلك الوقت

---

(1) كريبليون، بروسبير جوليوت: شاعر وكاتب مسرحي تراجيدي فرنسي (1674- 1762) النص ورد بالفرنسية. [المترجم]

(2) يأجوج ومأجوج اسمان يظهران خاصة في التقاليد الدِّينية القديمة فضلاً عن أعمال أدبية لاحقة. وهي تتّصف بالغموض فتارة تأتي كأسماء لأشخاص أو شعوب، وتارة أخرى لمنطقة جغرافية. [المترجم]

(3) كامباسيس: أو في الفارسية كمبوجيه دوم توفي سنة 522 ق. م ابن الإمبراطور سايروس العظيم كان يُسمى ملك الملوك في بلاد فارس. [المترجم]

مُحاولاته لنهب معبد ديانا في أيفيسيوس[4]؛ وعداؤه البغيض لليهود؛ وتدميره لقدس الأقداس؛ وموته البائس في طابا، بعد حُكم صاخب مضطّرب دام إحدى عشرة سنة، كل ذلك من جُملة المُلابسات العجيبة التي حدثت في عصره، ولهذا وجدنا المؤرخين عموماً يُركزون على هذه الأشياء أكثر من تسليطهم الضوء على شخصية الرجل الفاسق، الخسيس، المُفرط في القسوة، المعتوه والغريب الأطوار، وما إلى ذلك من المآثر التي تتوّج الصفات الإجمالية لشخصيته وتفسّر أسباب شهرته.

* * *

دعنا نفرض جدلاً، أيّها القارئ العزيز، أنّ السَّنة التي نعيش فيها الآن، في عالمنا هذا الذي نتكلّم عنه، هي سنة ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثون[5]، ولنتخيّل أنفسنا بعض الوقت نعيش في أفخم الأماكن التي يُمكن أن يتخيّلها الإنسان، تلك المدينة المرموقة التي يُسمونها آنتيوش[6]. من أجل توخّي الدقة أكثر، كانت هُناك في سوريا وفي غيرها من البلدان، ست عشرة مدينة تحمل هذه التسمية، إلى جانب المدينة التي نُشير إليها هُنا. غير أنّ مدينتنا هذه تُعرف أيضاً باسم آخر هو أنطاكيا آبيفانس، لقُربها من قرية صغيرة تدعى دافني، حيث أُقيم معبد للآلهة. وقد تمّ بناء المدينة (على الرغم من بعض الاختلاف في الآراء حول هذه المسألة) من قبل سيلوكيوس [61]نيكاتور، الملك الأول للبلاد بعد الإسكندر الأكبر، وذلك تخليداً لذكرى والده أنطيوخوس، وأصبحت في الحال مُستقرّاً لسلالة الملوك السوريين. في زمن ازدهار الإمبراطورية الرومانية، شكّلت المدينة

(4) معبد ديانا: معبد إغريقي مكرّس لعبادة الإلهة أرتميس وهو واحد من عجائب الدنيا في العالم القديم موجود في بلدة سيلزوك، تركيا. [المترجم]

(5) أي: سنة 175 ق. م ويتقبّل إدغار ألن بو هُنا سنة 4 ق. م على أنّها ميلاد السيد المسيح.. وسنة 4004 ق. م على أنّها تاريخ خلق العالم. [المترجم]

(6) أنتيوش: مدينة إغريقية قديمة على الجانب الشرقي من نهر أورونتيس تنتشر خرائبها الآن بالقرب من مدينة أنطاكيا الحديثة في تركيا. أسسها في القرن الرابع قبل الميلاد نيكاتور وهو أحد قادة الإسكندر العظيم. [المترجم]

محطة مثالية يرتادها سكان الأقاليم الشرقية؛ وكان كثير من أباطرة تلك المملكة (ربما نذكر منهم خاصة فايروس وفالينس) يمضون هُنا مُعظم أوقاتهم. ولكنني أرى، بما أنّنا وصلنا الآن إلى تخوم المدينة، أن نصعد إلى هذا الحصن فنُلقي نظرة على البلدة وما يُجاورها من الضواحي.

«يا لهذا النهر العريض الذي يشق طريقه، عبر شلّالات لا حصر لها، مُخترقاً الهضاب والبراري، حتى يصل إلى هذه المباني المُقفرة!».

ذلك هو نهر أورونتيس، مصدر المياه الوحيد الذي يُمكن رؤيته هُنا، باستثناء البحر الأبيض المتوسط، إذ يمتد كأنّه مرآة هائلة الأبعاد، حتى مسافة اثني عشر ميلاً باتّجاه الجنوب. لا بدّ أن يكون أغلب الناس قد رأوا البحر الأبيض المتوسط؛ ولكن دعوني أُنبئكم بشيء، هُناك قليل من الأشخاص الذين سبق أن وقعت عيونهم على مدينة أنتيوش. وأقصد بالقليل أولئك النفر، مثلك ومثلي، الذين نالوا قسطاً من التعليم الحديث في الوقت نفسه. لهذا عليك أن تتوقف قليلاً لتلحظ البحر، وتُكرّس انتباهك إلى كتلة المنازل التي تمتد من تحتنا. سوف تتذكّر الآن أنّها سنة ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثون في عالمنا هذا الذي نعيش فيه. لو أنّها سنة مُقبلة.. على سبيل المثال، لو شاء ربنا أن تكون سنة ثمانمائة وخمس وأربعين، لحُرمنا من هذا المشهد الذي لا مثيل له. في القرن التاسع عشر تكون أنتيوش.. بمعنى آخر، أنتيوش سوف تكون لا محالة.. في حالة يرثى لها من الدمار. سوف تُصبح، في ذلك الوقت، مدمرة تدميراً شاملاً، خلال ثلاث حقب مُختلفة، بفعل ثلاث هزات أرضية مُتعاقبة. في الواقع، إذا أردنا قول الحقيقة، فأي شيء قليل من كيانها السابق يبقى حتى ذلك الحين، لا بدّ أن يكون في حالة يُرثى لها من التعاسة والدمار، بحيث إنّ البطريرك نفسه يكون قد نقل محل إقامته إلى دمشق. هذا رائع. أرى أنّك استفدت من نصيحتي، وأنّك تبذل جهداً ووقتاً لا بأس بهما لتأمّل هذه الفرضيات.. تبذل جهداً في:

... أن تُقنع عينيك،

بذكرى أشياءٍ يعرفها القاصي والداني،

والأكثر فخامة منها هذه المدينة التي هي أشهر من نارٍ على علم..[7].

أرجو المعذرة؛ لقد نسيت أنّ اسم شكسبير لن يُعرف ويشتهر قبل مضي سبعمائة وخمسين سنة. ولكن ألّا يُبرر ظهور «آبيدافن» أن أدعوها أفخم المدن؟

«إنّها ذات الحصون المنيعة؛ وفي هذا المجال فهي تدين كثيراً إلى الطبيعة بقدر ما تدين إلى البراعة النادرة في الفن».

هذا صحيح جدّاً.

[62]«هنالك عدد غير عادي من القصور المهيبة».

نعم، فعلاً.

«ومعابدٌ كثيرة، كم هي فخمة ورائعة الجمال! ربما جاز لنا أن نُقارنها مع التحف القديمة النادرة التي تستحق الثناء».

لا بدّ من الاعتراف بكل هذا. ومع ذلك فلا يُمكن إنكار وجود أكواخ من الطين لا تعدّ ولا تُحصى، وزرائب كريهة المنظر. لا مجال للتغاضي عن وفرة القذارة في كلِّ وكرٍ للكلاب، لولا الدخان المنبثّ في عنفوان من بخور الوثنيين، فليس من شك في أنّنا سوف نجد رائحة المكان نتنة بحيث لا يُمكن تحملها. هل سبق لك أن رأيت مثل هذه الشوارع الضيقة، أو تلك البنايات العالية على هذا النحو الإعجازي؟ أي نوع من العتمة الكئيبة تُلقي ظلالها على الأرض! وتلك المصابيح التي تتدلّى من صفوف لا حصر لها من الأعمدة وقد تُركت تضطرم طوال اليوم؛ كان ينبغي علينا، لولا ذلك، أن نحيل ظلام مصر إلى زمن خرابها[8].

«يا له من مكان عجيب حقّاً! ما معنى وجود ذلك البناء المُنعزل؟ انظر! إنّه يعلو على جميع المباني الأُخرى، ويقع إلى الشرق من القصر الملكي فيما أعتقد».

(7) من مسرحية شكسبير (الليلة الثانية عشرة) فصل 3، مشهد 3، ص 22- 24. [المترجم]
(8) انظر: أكسودوس 10: 21 وهُناك كلام عن الظلام في مصر. [المترجم]

«ذلك معبد الشمس الذي بُني مؤخراً، وقد أُقيم في سوريا باسم هليو غابالوس[9]. منذ هذا الوقت سوف يُدخل أحد أباطرة الرومان هذه العبادة إلى روما، ومن هُنا يُستمد لقب إحدى الأسر الرومانية، هليوغابالوس. أكاد أجرؤ على القول: إنك ترغب في أن تُلقي نظرة على مُقدّسات هذا المعبد. لستَ تحتاج لأن ترفع عينيك فتنظر إلى السماء.. على الأقل فهي ليست مركبة الشمس التي يُقدّسها السوريون. ذلك الإله يُمكن العثور عليه في المبنى الذي أمامك. إنّهم يعبدونه على هيئة عمود حجري ضخم ينتصب على قمة مخروط أو هرم، حيث يُرمز إليه بالنار.

«اسمع.. انظر!.. من يكون أولئك الحمقى، إنّهم شبهُ عُراة، وقد صبغوا وجوههم، إنّهم يصرخون ويومئون لحشود الناس!».

بعضهم مُشعْوذون. والآخرون ينتمون على وجه التحديد إلى جنس من الفلاسفة. أما أكثرهم.. لا سيما أولئك الذين يضربون الناس بالهراوات.. فهم بالأصل من حاشية القصر، وهم ينفّذون واجبهم المُكلفين به، إنّهم من زمرة المُهرّجين والمدّاحين والمُنافقين للملك.

«ماذا نفعل هُنا؟ بحق السماء! البلدة تعجّ بالوحوش الهائجة! يا للمنظر المريع!.. يا له من شيءٍ غريب وخطير!».

أمرٌ رهيب، لو شئت قول ذلك؛ ولكنّه ليس بالشيء المحفوف بالمخاطر على الإطلاق. كلٌّ حيوان منهم، إذا كنت تتحمّل المنظر فتُراقب عن كثب، يتعقّب أثر سيده في هدوء مُطلق. والبعض منهم، كي تكون واثقاً أكثر، مربوطون بالحبال من أعناقهم، ولكن هؤلاء أساساً هم الأقلّ خُطورة من غيرهم، بل الأكثر جُبناً من بين [63]جميع الأجناس. الأسد، والنمر، والفهد من الحيوانات المُتوحشة التي تُركت حرة طليقة دون قيود تمنعها من الحركة. لقد درّبوها دون

(9) غابالوس: (203– 222) إمبراطور روماني من الأُسرة السابعة، من أصل سوري، وهو الابن الثاني لجوليا ومارسيليوس، حكم مدة أربع سنين. [المترجم]

أي صعوبات على ما تقوم به حالياً، وهي تهتمّ بأصحابها المُتعاقبين بقدرتها على أن تؤدي دور «الفرّاش» *valets-de-chambre*. صحيحٌ أنّ هُناك بعض الحالات التي تُثبت فيها الطبيعة قدرتها على تجاوز نطاق المألوف؛ إلّا أنّ افتراس جنديٍّ مُدجّج بالسلاح، أو الإطباق على حنجرة ثور مُقدس، هي من الحالات النادرة التي لا تستحق الإشارة إليها في آبيدافن.

«ما تلك الضوضاء الغريبة التي أسمعها؟ إنها قطعاً ضوضاء مُستغربة في مكان مثل أنتيوش! يبدو أنّها تدلّ على وقوع نوع من أعمال الشغب الوشيكة أو المساعي غير الاعتيادية في مثل هذه الأجواء».

نعم.. وليس من شك في ذلك. لقد أمر الملك الآن بالبدء بمشهد جديد.. إنّه استعراض لبعض المُصارعين في ميدان السباق.. أو لعلها مذبحة للسجناء السكايثيين[10].. أو حريق هائل وقع في قصره الجديد.. أو تدمير معبد من المعابد الجميلة.. أو، في الواقع، هي نار أضرمها بعض اليهود في الهواء الطلق. وما لبث الضجيج الهادر أن تفاقم. وتصاعدت الضحكات إلى عنان السماء. واختلطت في الجو أصوات مُتنافرة من قرع للطبول وآلات النفخ، وأصبح الأمر فظيعاً مع صياح مليون حُنجرة في وقت واحد. دعنا ننزل، لنُلقي نظرة أو ربما نُشارك في المرح، دعنا نرى ما الذي يجري! الطريق من هُنا.. كن حذراً! ها قد وصلنا إلى الشارع الرئيسي، ذلك الذي يُدعى شارع تيمارخوس. سوف تمر جموع الناس من هُنا، ويقيناً سوف تواجهنا صعوبة في تحمل المد الهائج من البشر. إنّهم يتدفقون عبر درب هيراقليدس، الذي يبدأ مُباشرة من القصر؛ وربما كان الملك أيضاً يجتاز طريقه وسط مُثيري الشغب. نعم.. إنّني أسمع صرخات تُنادي فتُعلن عن قدومه في لكنة شرقية رنّانة. سوف تُتاح لنا فرصة فيما أعتقد لأن نُلقي نظرة على شخصه أثناء مروره بمعبد أشيما[11]. دعنا نُخفي أنفسنا في دهليز الحرم؛ سوف

---

(10) السكايثيون: قبائل إيرانية تشتهر بالفروسية كانت تسكن مناطق واسعة من سهول روسيا أو الأوراس منذ القرن السابع ق. م حتى القرن الرابع الميلادي، وقد عُرفت مناطقهم خلال العصر الحديدي في المصادر الإغريقية باسم سكايثيا. [المترجم]

(11) أشيما: من آلهة الساميين القدماء. [المترجم]

يأتي من هُنا قريباً. في غضون ذلك دعنا نتأمّل هذه الصورة. تُرى ما هي؟ أوه! إنّه الإله أشيما بشحمه ولحمه. حتماً أنت ترى أنّه ليس حَمَلاً، ولا مِعْزة، ولا هو إله إغريقي من آلهة الغابات، هو لا يُشبه كثيراً الإله «بان» لدى الأركديين(12). إلّا أنّ هذه المظاهر كافة قد ذُكرت.. أرجو المعذرة.. إنّما سوف تُذكر.. من قبل الطبقة المُتعلمة في عصور مُستقبلية لاحقة، لتصف الوضع في أشيما وسكانها من السوريين. ضع نظارتك على عينيك، وأخبرني بما ترى. ماذا هُناك؟

«تبارك الله في ما خلق! إنّه قرد!».

صحيحٌ.. إنّه من قردة البابون؛ ولكن لا مجال لأن يكون بمنزلة أقل من إله. اسمه مُشتق من كلمة «سيميا» الإغريقية القديمة التي تعني «القرد».. يا لهم من مُغفلين، تجّار الآثار هؤلاء! ولكن انظر!.. انظر!.. هُناك، ذلك الولد الشيطان الذي يعدو وهو في ثيابه الرثة. إلى أين تراه يذهب؟ بماذا يصرخ؟ ما الذي يقول؟ أوه! [64]يقول: إن الملك سوف يأتي مُنتصراً؛ وإنه قد تزيّن بثيابه الرسمية الخاصة بالاحتفال؛ وإنّه قد انتهى قبل قليل من تنفيذ حكم الإعدام، بيديه هو، بألفٍ من السجناء الإسرائيليين المُكبلين بالسلاسل! من أجل هذا فهم يحملون ذلك الولد القذر ويهتفون ويُلقون به عالياً. اسمع! ها قد جاءت قوات أُخرى ينطبق عليها الوصف نفسه. إنّهم يترنّمون بتراتيل لاتينية ابتهاجاً ببسالة الملك، ويتغنّون بهذه الكلمات أثناء مغادرتهم:

Mille, mille, mille,

Mille, mille, mille,

Decollavimus, unus homo!

Mille, mille, mille, mille, decollavimus!

Mille, mille, mille,

Vivat qui mille mille occidit!

(12) أركاديا: إقليم في اليونان بالقرب من الجزء الشرقي لشبه جزيرة بيلوبونيس. [المترجم]

Tantum vini habet nemo

Quantum sanguinis effudit!(*)

وربما يُمكننا تفسير هذه الكلمات على النحو التالي:

ألف، وألف، وألف،

ألف، وألف، وألف،

ذبحهم مُحاربٌ واحد منا!

ألف، وألف، وألف، وألف.

غنّوا وردّدوا ألف مرة!

مرحى!.. دعونا نُنشد الآن،

يعيش ملكنا،

الذي أطاح برؤوس ألف منهم بضربة جبارة!

مرحى!.. دعوا أصواتنا تصدح،

وقد منحنا أكثر من ذلك،

براميل حمراء من الدم المُتخثر،

أكثر مما تستطيع سوريا أن توفّره من الخمرة!.

«أتسمع ذلك النفخ على الأبواق؟».

نعم، الملك قادم! انظر! الناس طغى عليهم الذهول من فرط الافتتان، إنّهم يرفعون عيونهم إلى السماء تبجيلاً. إنّه قادم؛.. إنّه قادم الآن؛.. ها هو!.

(*) يقول فلافيوس فوسبيكوس: إن الترتيلة التي قُدّمت هُنا أنشدها الغوغاء بمُناسبة انتصار الإمبراطور أوراليان، أثناء حرب سارماتاي مع الفرس، بعد أن ذبح بيديه تسعمائة وخمسين فرداً من الأعداء. (المؤلف)

«من؟.. من أي اتّجاه؟.. الملك؟.. إنني لا أراه.. لا أستطيع القول: إنّني أراه».

إذن حتماً أنت أعمى.

«هذا جائز جدّاً. فأنا لا أرى شيئاً سوى حشداً من المُشاغبين الأغبياء [65]والمعتوهين، وهم ينبطحون أمام زرافة عملاقة، مُحاولين تقبيل حوافر الحيوان. انظر! الحيوان يركل الآن أحد الغوغاء.. ويركل آخر.. وآخر.. وآخر. في الواقع، لا يسعني إلا أن انْبهر ببراعة الحيوان في تحريك قوائمه».

غوغاء، حقّاً!.. عجباً، فهؤلاء من نبلاء وأحرار آبيدافن! إنّهم وحوش، ألم أقل ذلك؟.. احذر أن يسمعك أحد. ألا تدري أنّ الحيوان يتّخذ صورة رجل؟ عجباً، يا سيدي العزيز، تلك الزرافة ليست سوى أنطيوخوس أبيفانس، أنطيوخوس الشهير، ملك سوريا، والأكثر اقتداراً بين جميع حكام الشرق المُستبدين! صحيحٌ أنّه يُسمى، في بعض الأحيان، أنطيوخوس أبيمانس.. أنطيوخوس المجنون.. وذلك لأنّ الناس جميعاً ليس لديهم قدرة على تقييم مآثره. من المُحقق أيضاً أنّه في الوقت الحالي يتنكّر بزَي وحش من الوحوش، ويبذل قصارى جهده لكي يلعب دور الزرافة؛ إلّا أنّه يَفعل هذا من أجل تعزيز كرامته كملك. إلى جانب ذلك، فالملك ضخم الجثة، والثياب التي يرتديها غير لائقة به، وهي فضفاضة جدّاً. غير أنّنا سوف نفترض أنّه يتحمّلها من أجل مُناسبة ذات طبيعة خاصة. مثل، إذا سمحت لي، مذبحة راح ضحيتها ألفٌ من اليهود. أيُّ كرامة تفوق الخيال تلك التي يتخطّر فيها الملك على أربع قوائم! إنّ ذيله، كما ترى، يُرفع عالياً بين يدي محظياته المُقربات إليه أكثر من غيرهن، أيلين وأرجيلايس؛ ومظهره على وجه الإجمال يأسر القلوب إلى أبعد الحدود، لولا تورّم في عينيه، ومصدره حتماً صُداع في رأسه، وشحوب وجهه الذي أصبح باهت الملامح بسبب كمية النبيذ التي شربها. لنتبعه إلى الميدان، إلى حيث يتوجّه، ولنستمع إلى أُنشودة النصر التي يشرع بترديدها:

من ملككم غير أبيفانس؟

قولوا.. ألا تعرفون؟

من ملككم غير أبيفانس؟

برافو!.. برافو!

ليس ثمّة ملك غير أبيفانس،

كلا.. لا يوجد ملك غيره:

إذن فلتقوّض المعابد ولتسقط أعمدتها أرضاً،

ولينطفئ نور الشمس!.

الأغنية تنشد جيداً ويُبذل فيها مجهود شاق! والجماهير تُنادي به «أميراً للشعراء»، فضلاً عن أنّه «مفخرة الشرق»، و«بهجة الكون»، و«الزرافة الأكثر حُسناً وجمالاً». وقد \استحسنوا\ تصريحاته المُتدفّقة باستمرار، فهل تسمع؟.. إنّه يُغني ويُغني مرة بعد أُخرى. وحين يبلغ الميدان، سوف يتوّج بأكاليل الزهور تكريماً له على مقدرته الشعرية، وتوقّعاً لانتصاره في الألعاب الأولمبية المُقبلة.

[66]«ولكن، يا جوبيتر الطيب! ما الذي دهى الجماهير التي خلفنا؟»

خلفنا، تقول؟.. أوه! آه!.. أرى، يا صديقي، أنّك تكلّمت في الوقت المُناسب. دعنا ندخل مكاناً آمناً بالسرعة المُمكنة. هُنا!.. دعنا نُخفي أنفسنا تحت قوس هذه القناة، وسوف أخبرك في الحال عن مصدر تلك الضجة. لقد اتّضح أنّ الأمر كان كما توقعت. الظهور المُفاجئ للزرافة التي برأس إنسان، فيما يبدو، قد أثار السخط وأعمال العنف لأنّها اعتُبرت إساءة على وجه العموم للحيوانات المُتوحشة التي جرى ترويضها في المدينة. وكانت النتيجة هذا التمرّد؛ وكما هي العادة في مثل هذه المُناسبات، فكل الجهود البشرية لن تُجدي نفعاً في تهدئة الغوغاء. الكثير من السوريين افترستهم الحيوانات الآن؛ إلّا أنّ الرأي العام السائد حتى بين مُناصري الحيوان ذي القوائم الأربع يبدو أنّه يؤيد التهام الزرافة. ولذلك فإنّ «أمير الشعراء» يقف الآن على قائمتيه الخلفيتين، ويولي الأدبار طلباً

للنجاة بحياته. لقد تركه المُتملّقون بعد أن أوشكت سفينته على الغرق، ومحظياته حَذون حذو الآخرين. يا «بهجة الكون»، أنت الآن في ورطة مُثيرة للأحزان! يا «مفخرة الشرق»، أنت تواجه خطر الافتراس! فلهذا، لا تنظر أبداً إلى ذيلك تلك النظرة المُشفقة؛ ليس من شك في أنّ ذيلك سوف يُجرجر في الوحل، ولهذا لم يعد لديك أي أمل. لا تنظر إلى مؤخرتك إذن، ولا تنظر إلى العار الذي لا محالة سوف يلحق بك؛ عليك أن تتّصف بالشجاعة، عليك أن تثني ساقيك وتتحلّى بروح البسالة، فتعدو في الميدان! تذكر أنك أنطيوخوس أبيفانس. أنطيوخوس الشهير!.. وأنت أيضاً «أمير الشعراء»، و«مفخرة الشرق»، و«بهجة الكون»، و«الزرافة الأكثر حُسناً وجمالاً». رباه! يا لها من مقدرة فائقة تلك التي تُبديها في الركض! يا لها من طاقة عجيبة تلك التي تُظهرها في استعمال الساقين! اركض، أيها الأمير!.. برافو، أبيفانس! حسناً تفعلين، أيتها الزرافة!.. أنطيوخوس المُنتصر!.. إنّه يركض!.. يثب!.. يطير! كأنّه سهم ينطلق من منجنيق فيقترب من الميدان! إنّه يثب!.. يصرخ!.. إنّه هُناك! هذا شيء رائع؛ ألم تتأخر، يا «مفخرة الشرق»، نصف ثانية في الوصول إلى بوابات المسرح الإغريقي المفتوح؟ ليس هُناك من جرو دبٍّ في آبيدافن لن يلتهم قضمة من جثتك. لنبتعد.. لنرحل!.. لأنّ آذاننا المُرهفة التي تنتمي إلى عصرنا الحديث هذا عاجزة عن تحمّل الضوضاء العارمة التي على وشك أن تبدأ احتفالاً بفرار الملك! اسمع! ها قد بدأت الفوضى الآن. انظر!.. البلدة كلها تضطرب وتنقلب رأساً على عقب.

«حتماً هذه من أكثر المدن التي تعج بالسكان في الشرق! يا له من جمع هجين من الناس! يا له من خليط من جميع الأصناف والأعمار! يا له من امتزاج للطوائف [67]والأعراق من الأمم كافة! يا له من تنوّع في الأزياء! يا له من اختلاط للّغات المُختلفة! يا له من صراخ للبهائم! يا له من رنين للآلات الموسيقية! يا له من جمع حاشد للفلاسفة!»

دعنا نرحل.

«فلنبقَ لحظة! أرى هرجاً ومرجاً في الميدان؛ ما معنى ذلك، أتوسّل إليك؟»

ذلك؟.. أوه، لا شيء! النبلاء والمواطنون الأحرار في آبيدافن، كما يُصرّحون بذلك، رأوا ما يكفي من مظاهر التقوى، والورع، والبسالة، والحكمة، والقداسة التي يتحلّى بها ملكهم، وفضلاً عن ذلك، بما أنّهم كانوا شهودَ عيانٍ على خفة حركاته الأخيرة الخارقة لقُدرات البشر، فهم يعتقدون أنّ من واجبهم فحسب انتهاز تلك الفرصة لإنعام النظر في طلعته البهية (فضلاً عن التاج الذي تُوّج به تكريماً له على مقدرته الشعرية) مع إكليل الغار الذي أُعطي له في سباق الجري على الأقدام.. وهو إكليل حتماً سوف يحصل عليه في احتفال الأولمبياد المُقبل، ولهذا نجدهم يُقدّمونه إليه الآن سلفاً.

موعد لقاء

عليك أن تبقي في انتظاري هُناك! فلن أُعجز

عن التعرف عليك، هُناك، في وادي البكاء الأجوف.

(رثاء في مأتم زوجته.. هنري كينغ، أسقف شيشستر).

[68]يا له من إنسانٍ تعيس الحظ، غريب الأطوار!.. حيرانٌ لشدة فطنته واتّساع خياله، غير أنّه «يسقط من علوّ شاهقٍ في أتون شبابه الذاوي»[1]! مرة أُخرى، في خيالاتي أنظر إليك! مرة بعد أُخرى تتجلّى صورتك أمامي!.. ليس.. أوه، ليس بهيئتك الحقيقية.. في تلك الوديان والظلال الباردة.. ولكن كما ينبغي أن تكون.. صورةٌ تتبدّد وتختفي في خِضَمّ التأملات المُشرقة، في تلك المدينة التي تختلط فيها الرؤى الكالحة، مدينتك فينيسيا.. نجمة الحقول الأليسانية[2]، عشيقة البحر، ذات النوافذ العريضة التي تطلُّ قصورها المُشيدة على الطراز البالادي[3] في التفاتات ذات مغزى عميق تمتزج بالمرارة على أسرار مياهها

---

(1) اقتباس من مسرحية شكسبير (العين بالعين) Measure for Measure الفصل 2، مشهد 3. [المترجم]

(2) الحقول الأليسانية: في الميثولوجيا الإغريقية وكذلك في الثقافة المصرية القديمة، مفهوم عن الحياة الآخرة تطوّر مع الزمن ليدل على الجنة بمعزل عن هاديس أو الجحيم. [المترجم]

(3) العمارة البالادية: أسلوب أوروبي في العمارة مُستمد من تصاميم المعماري أندريه بالاديو (1508- 1580) وهو مُتأثر بالطراز الكلاسيكي الإغريقي والروماني. وكان له تأثير عظيم في أمريكا. [المترجم]

الصامتة. نعم! أعود فأقول ..كما ينبغي أن تكون صورتك. حتماً هُنالك كلمات أُخرى غير هذه.. أفكار أُخرى غير الأفكار التي تدور في أذهان الناس.. تأملات أُخرى غير تأملات السفسطائيين. إذن من الذي قد يتساءل عن سلوكك؟ من الذي يلومك على الساعات الطويلة التي أمضيتها في مُداعبة أوهامك، أو يُصرُّ على انتقادك على تلك الهموم فيعتبرها مضيعة للوقت، وهي لم تكن إلا دفقاً غامراً من طاقاتك المُستديمة؟

حدث ذلك في فينيسيا، تحت القنطرة المُسقفة التي يُسمونها بونتي دي سوسبيري، إذ التقيت للمرة الثالثة أو الرابعة على التوالي بالشخص الذي أتكلّم عنه. مع أنيّ أُحاول أن أستعيد في ذهني، بشيء من الارتباك المُشوش، مُلابسات ذلك اللقاء. ومع ذلك فما زلت أتذكر.. آه! وكيف يتسنّى لي النسيان؟.. مُنتصف الليل البهيم في تلك الليلة، على جسر التنهدات، والجمال الخلاب لتلك المرأة، وعبقري الغرام الذي يتمشّى حانقاً جيئة وذهاباً على ضفّة تلك القناة الضيقة.

إنّها ليلة حالكة السواد، عتمتها غير اعتيادية. ودقّت الساعة الكبيرة في برج بيازا مُعلنة الخامسة من ذلك المساء الإيطالي. كان ميدان كامبانيل يمتدّ ساكناً مُقفراً، والأضواء في قصر دوكال العتيق تخبو وتتلاشى بعيداً. كنت عائداً آنذاك إلى منزلي من منطقة بيازيتا، عن طريق القناة الكبرى. ولكن لما وصل بي الجندول إلى [69]مكان مُقابلٍ لمدخل قناة سان ماركو، سمعت فجأة صوتاً أنثوياً تتردد أصداؤه في سكون الليل، كانت صرخة واحدة انطلقت بوحشية هستيرية، ولكنها استمرّت مدة طويلة. أرعبني ذلك الصوت، فوثبت على قدميّ: بينما ترك صاحب الجندول مجذافه الوحيد ينزلق من يده، فسقط منه في لجة الظلام الدامس دون أي فرصة لاستعادته، وبالتالي تُركنا لمصيرنا يجرفنا التيار هُنا وهُناك في حركة قوية باتّجاه قناة أصغر. مثل نسر كثيف الريش، كنّا ننجرف بتمهّل باتّجاه جسر التنهدات، حينها أبصرنا آلاف المشاعل المُتوهجة تطلّ من النوافذ، وعلى مدرّجات قصر دوكال، فتحولت تلك الظلمة القاتمة إلى نهار مُتلألئ على نحو غير اعتيادي.

لقد انزلق طفلٌ من بين ذراعي أمه، وسقط من إحدى النوافذ العليا للمبنى

الشاهق، فابتلعته على الفور مياهُ القناة العميقة المُعتمة. أطبقت المياه الولهانة على ضحيتها في هدوء؛ ومع أنّ جندولي كان الوحيد الذي بالإمكان رؤيته هُناك، إلّا أنّ الكثير من السبّاحين الشجعان كانوا يُكافحون التيار الآن باحثين دون جدوى تحت سطح الماء عن الكنز الذي تحتم عليهم العثور عليه، ولكن يا للأسف! كانوا يبحثون في متاهة فحسب. على ألواح الرخام السوداء العريضة عند مدخل القصر، وقريباً من سطح الماء ببضع خطوات، وقفت تلك المرأة التي لا يُمكن لأحد من الذين رأوها في ذلك الوقت أن ينسوها. إنّها مارشيسا أفروديت.. معبودة جميع الناس في فينيسيا.. المرأة الأكثر مرحاً وحبوراً من غيرها.. الأكثر جمالاً من كل الجميلات في تلك المدينة.. والزوجة الشابة للعجوز المُخادع مينتوني، وأم ذلك الطفل الوديع، ولدها الوحيد، الذي يرقد الآن في أعماق المياه المُظلمة، كانت المرارة تعتصر قلبها وهي تُفكّر بقبلاتها وعناقها لابنها الجميل قبل لحظات، بعد أن انتهت حياته القصيرة في صراعٍ يائس حاول فيه أن يناديها باسمها.

وقفت وحدها. كانت صورة قدميها النحيفتين، العاريتين، الفضيتين تنعكس على مرآة سوداء إطارها من الرخام مُلقاة تحتها. لم يكن شعرها مُنسدلاً بحيث يتمايل مع نسائم الليل في تسريحة خاصة بالحفلات الراقصة، بل كان معقوداً وسط وابل من الألماس، يدور عدة مرات حول رأسها في التفافات رائعة تُشبه عقود أزهار الياقوتية الفتية. وعلى جسدها ثوبٌ من قماش أبيض كالثلج أو الشاش بدا أنّه الشيء الوحيد الذي يُغطي جسدها الناحل؛ غير أنّ الجو مع أواسط الصيف ومُنتصف الليل حار جدّاً في هذا المكان، ومُشبّع بالرطوبة، وساكن، ولا تُلحظ أي حركة في الجسد نفسه الذي يُشبه التمثال من شأنها أن تُعكّر صفو ذلك الستار الضبابي الذي تعلّق حوله كما تشمخ ألواح الرخام الثقيلة حول تمثال نيوبي(4). ومع ذلك.. أليس من الغريب أن يقول المرء هذا حقّاً؟.. لم

---

(4) نيوبي Neobe في الميثولوجيا الإغريقية القديمة هي ابنة تانتالوس وديون، وأخت بيلوبس. ورد ذكرها في إلياذة هوميروس، عوقبت على كبريائها بفقدان كل أطفالها. [المترجم]

تكن عيناها الواسعتان البرّاقتان تستديران إلى جهة القبر الذي دُفنت فيه أبهى آمالها.. ولكنهما تسمّرتا [70] باتّجاه مُختلف جدّاً! سجن الجمهورية القديم، على ما أعتقد، وهو من أفخم البنايات في فينيسيا.. ولكن كيف تمكّنت تلك السيدة أن تُحملق بنظرات ثابتة هكذا في ذلك الاتّجاه، بينما طفلها الوحيد خامد بلا حركة تحت قدميها؟ هناك كوةٌ من الظلام الكالح يبدو أنّها تتثاءب أيضاً مُقابل نافذة حجرتها تماماً ..ما عسى أن يختبئ إذن وراء ظلالها.. في نمط عمارتها.. أو وراء أشجار اللبلاب التي تمدّ أوراقها المجدولة نحو أفاريزها المتجهمة.. حتى يجعل مارشيسا دي مينتوني لا تسأم التمعّن في المنظر الذي شاهدته ألف مرة من قبل؟ هراء!.. من الذي لا يُدرك أنّ العين، في وقت مثل هذا، وكأنما هي مرآة تتكسّر عليها الصور، تؤدي إلى مُضاعفة أحزانها، فتجعلها ترى في أماكن نائية لا حصر لها، بوادر تلك الكارثة التي توشك أن تقع؟

على بعد خطوات من مارشيسا، تحت قوس بوابة تصريف المياه، وقف مينتوني نفسه وقد لبس بدلته الرسمية، كأنّه الساطير[5]. كان مُنهمكاً من الحين إلى الحين بالعزف على الغيتار، ويبدو «ضجراً» من فكرة الموت بعينها، لأنّه بين الحين والحين كان يستأنف إعطاء توجيهاته لانتشال طفله. وبما أنّني وقفت مشدوهاً مذعوراً، فلم أمتلك القدرة على التزحزح عن موقعي الساكن الذي اتّخذته لدى سماعي لتلك الصرخة لأول مرة، فلا بدّ أن أكون قد أوحيت للعيون الغاضبة بأني شبح ينذر ظهوره بالشؤم، لأنّي بملامحي الشاحبة وأطرافي المُتصلّبة، كنت أطوف وسطهم وحدي على ذلك الجندول الجنائزي.

الجهود كلها ذهبت أدراج الرياح. تراخت قبضات كثير من الرجال المُتحمسين للبحث بعد أن خابت آمالهم، فاستسلموا إلى حزنهم وكربهم. وبدا أنّ هُنالك أملاً ضئيلاً جدّاً في العثور على جثة الطفل؛ (وكانت الأم أكثر قنوطاً!) ولكن الآن، من داخل تلك الكوّة المُظلمة التي أشرنا إليها وقلنا: إنّها تُشكّل جُزءاً من السجن الحكومي القديم، والتي تُقابل نوافذ قصر مارشيسا، لاح

(5) الساطير: إله من آلهة الغابات عند الإغريق. [المترجم]

شخص يتلفّع بعباءة سوداء، وتقدّم نحو الكوّة حتى صار قريباً من الضوء، وشوهد بعد ذلك يتوقّف لحظة عند حافة الدرجات المُنحدرة التي تؤدي إلى القناة، ثم قفز على رأسه إلى الماء. بعد لحظات خرج وهو يحمل الطفل الذي كان لا يزال يتنفّس بين ذراعيه، ووضعه على لوح من الرخام قرب مارشيسا، وكانت عباءته الثقيلة التي يقطر منها الماء مفكوكة وقد تهدّلت طياتها على قدميه، فانكشفت على أثر ذلك للناظرين الذين طاش صوابهم حقيقة الشاب الذي سرعان ما عرفوا اسمه، إذ كانت مناطق شتى من أوروبا تتغنّى به.

لم يتفوّه الرجل الذي أنقذ الطفل بكلمة. ولكن مارشيسا.. وقد احتضنت طفلها الآن.. ضمته إلى صدرها قريباً من قلبها.. وتشبّثت بجسده الصغير، وداعبته وأمطرته بقبلاتها. يا للأسف! ذراعا شخص آخر اختطفتا الطفل من يدي الغريب.. ذراعا شخص آخر حملتاه بعيداً، دون أن ينتبه أحد، إلى داخل القصر! يا لشفتي [71]مارشيسا! تينك الشفتان.. شفتاها الجميلتان ترتعشان، والدموع تترقرق في مآقيها.. يا لتلك العيون، مثلها في ذلك مثل ما وصفه بليني بالزخرف الأقنثوسي[6]، «صافيتان شفافتان مثل الماء الرقراق». نعم، ويا للدموع التي تترقرق في تينك العينين.. انظر! جسد المرأة كله ينتفض ويختلج من أعماق روحها، الجسد الذي كان شاحباً ساكناً كالتمثال يعود إلى الحياة! شحوبُ الملامح الرخامية، والصدر الرخامي المُكتنز، والقدمان الرخاميتان الصافيتان، نراها فجأة وقد اجتاحها تيارٌ من الحمرة الداكنة لا مجال للسيطرة عليه؛ ورعشة خفيفة تسري في الهيكل الضامر، كأنّها نسيمٌ لطيف يهب على أشجار السوسن الفضية في قصور أثرياء نابولي وحدائقهم المُعشوشبة.

لماذا ينبغي أن تحمرّ وجنتا تلك السيدة من الخجل! لا إجابة على هذا السؤال.. باستثناء أنّ قلب الأم بعد أن اعتراه الارتياع والهلع اضطرّها لأن تتخلى

(6) الأقنثوس أو الأقنثا: نبات شائك من فصيلة الأقنثيات ومنه يُستمد نوع من الزخرف الذي يُشبه أوراق الأقنثا. وبليني: سياسي روماني قديم مات سنة 113 وهو أيضاً خطيب ورجل دولة. [المترجم]

عن خلوتها في مخدعها، فأهملت أن تدسّ قدميها النحيفتين في نعالها ونسيت تماماً أن تلف كتفيها الفينيسيتين بالرداء كما ينبغي. ترى أيُّ سبب مُحتمل آخر ربّما كان يدعوها إلى الشعور بالخجل هكذا؟.. أيُّ سبب قد يُفسر النظرة التي ارتسمت على تينك العينين الواسعتين المُغريتين؟.. العنفوان الاستثنائي الذي اجتاح ذلك الصدر المُنتفض؟.. الحركة المُتشنجة لتلك اليد المُرتعشة؟.. تلك اليد التي سقطت، لمّا استدار مينتوني وذهب باتّجاه القصر عرضاً، فاستقرّت على يد الغريب. أيُّ سبب قد يُفسر النبرة المكتومة.. الفريدة في الكتمان، للكلمات القليلة التي تلفّظت بها السيدة على عجل وهي تودّعه؟ «أنت الذي انتصرت»، قالت، أم أن هدير المياه هو الذي يخدعني؛ «أنت الذي انتصرت.. خلال ساعة بعد الشروق.. سوف نلتقي.. فليكن ذلك موعدنا إذن!».

* * *

تلاشت الضوضاء شيئاً فشيئاً، وخفتت حدة الأضواء في القصر، ووقف الغريب، الذي تعرّفتُ عليه الآن، وحيداً على ألواح الرخام. كان جسده يرتعش في اضطراب يصعب الانتباه إليه، وعيناه تنظران حوله بحثاً عن جندول. لم يكن في وسعي أن أفعل شيئاً أقلّ من أن أعرض عليه خدماتي؛ وتقبّل ذلك برحابة صدر. بعد أن التقطت المجذاف عند بوابة تصريف المياه، ومضينا في طريقنا معاً مُتجهين إلى محل إقامته، وبينما استرد رويداً شيئاً من رباطة جأشه، تكلّم معي عن علاقتنا السابقة البسيطة في مودة جمّة بادية على مُحياه.

هُناك بعض المسائل التي أجد نوعاً من المُتعة في الكلام عنها بأسلوب أكثرِ دقة. كان مظهر الشخص الغريب.. دعوني أسمّيه بهذا الاسم، فهو لا يزال لدى العالم يُعتبر غريباً.. من جملة هذه المسائل التي أودّ التطرّق إليها. من ناحية القامة ربما كان أقلّ، وليس أكثر، طولاً من المعدل المُتوسط: على الرغم من أنّ هناك [72]بعض اللحظات التي يكتنفها الانفعال المُكثّف «يتوسّع» فيها شكله الخارجي حقّاً فيُعطي صورة مُضلّلة عن مظهره. توحي هيئته المُتناسقة على وجه الإجمال، وهو يكاد يكون نحيفاً، بأشياء كثيرة من قبيل ذلك النشاط الذهني الحاضر الذي أظهره على جسر التنهّدات، أكثر من الإيحاء بالقوة الخارقة التي

عُرف عنه أنّه قادر على كبح جماحها دون جهد بالغ، في مُناسبات حرجة أكثر خطورة. أما الفم والذقن فكأنّهما فم وذقن أحد الآلهة.. والعينان فريدتان في نوعهما، وحشيّتان في اتّساعهما، شفّافتان، تتباين ظلالهما من البندقي الصافي إلى السواد شديد التألق.. ولديه غزارة في شعره الأسود الأشعث الذي تلمع من تحته جبهة عريضة لمعاناً خارقاً للمألوف مع تدرّج الأضواء على ذلك البرج العاجي.. ملامحه ما رأيت شيئاً يُماثلها في فرادتها الكلاسيكية، ما عدا ربّما تلك الملامح الرخامية لتمثال الإمبراطور كومودوس(7). إلّا أنّ مُحياه لم يكن غريباً على الناس الذين شاهدوه في فترة ما من حياتهم، ولم يُشاهدوا نظيراً له بعد ذلك. لم يكن في ملامحه شيءٌ مُستهجن.. لا مكان لأي تعبير غالب يعلق في الذاكرة؛ يرى أكثر الناس مُحياه وسرعان ما ينسونه.. مع أنّه بعد أن يُنسى يُخلّف رغبة مُلتبسة لا تكاد تتلاشى لاستذكاره واستعادته للأذهان. لا تخفق الروح التي وراء كل عاطفة جياشة، في أي وقت من الأوقات، بأن تُلقي ظلالها البارزة على صفحة ذلك الوجه أو مرآته.. غير أنّ المرآة، أو ما يُشبه المرآة، لا تحتفظ بأدنى أثرٍ من تلك العاطفة، حيث تتلاشى العواطف ولا يبقى لها من أثر يُذكر.

لما تركتُه في ليلة مغامرتنا، وجدته يتوسّل إليّ، فظننت أنّ لديه أمراً عاجلاً، وطلب إليّ زيارته في وقت مُبكر جدّاً من صباح اليوم التالي. بعد الشروق بوقت قصير، وجدت نفسي عند بوابة قصره الذي يُدعى بالازو، وهو واحد من تلك المباني الضخمة التي تمتاز بالأبهة والفخامة رغم منظرها الخارجي الكئيب، وكان القصر يرتفع فوق قناة غراند بالقرب من بلدة ريالتو. في طليعة القصر مُدرّج واسع مُتعرّج من ألواح الفسيفساء يقود إلى حجرة لا شيء يُضاهيها في الروعة، وعند المدخل يباغت المرء وهجٌ خلابٌ خادع دفعني لأن أُغمض عيني تجنباً لشدة الضياء الذي أذهلني وأنا أقف إزاء ذلك الإسراف في مظاهر الترف.

(7) كومودوس: (161- 192) إمبراطور روماني حكم من 180 إلى 192 وشارك في الحكم إلى جانب أبيه ماركوس أوريليوس من 177 حتى موت الأخير في سنة 180. [المترجم]

كنت أعلم أنّ صديقي رجلٌ ثري. فقد وصلتني معلومات تحدَّث أصحابها عن اتّساع رقعة أراضيه ومُمتلكاته حتى ظننت أنّ الأمر لا يخلو من إسراف سخيف. ولكنّي حين تلفتّ حولي، لم أتمكّن من إقناع نفسي بأن أي مظهر من مظاهر الثراء الأوروبي الفاحش قادر على أن يُلبّي مُتطلّبات هذا الرُّقي الذي يتجلّى حولي في أبهى صورة.

مع أنّ الشمس، على ما أظن، كانت قد بزغت منذ حين وارتفعت في كبد السماء، إلّا أنّ الغرفة التي دخلتها لم تزل مُضاءة بأنوار ساطعة. كان في وسعي أن أتصور، من خلال هذه المُلابسات، وكذلك من لمسة الإعياء التي بدت ظاهرة للعيان على صاحبي، أنّه لم ينل قسطاً كافياً من الراحة أثناء الليلة الماضية كلّها. في ما يتعلّق بالنواحي العمرانية وزخارف الحجرة، كان واضحاً أنّ الهدف الأساسي من تلك التصاميم يتمثّل في إبهار العيون وإثارة الذهول. لم يكن قد بُذل سوى اهتمام [73]ضئيل بديكورات ما يُسمى من الناحية الفنية «المأوى»، أو الخصائص ذات الصّبغة المحلّية. تجوّلت العين من شيء إلى آخر، ولم تستقر على شيء.. حتى اللوحات الغريبة المنظر التي تُجسّد حيوانات ونباتات وبشر، تلك التي أبدعها رسامو الإغريق، وحتى التماثيل التي تعود إلى العصور الذهبية في إيطاليا، وحتى النقوش التي تعود لفنانين فطريين من مصر القديمة لم تسلم من ذلك الانطباع. كانت الستائر الفاخرة التي تنتشر في كل ركن من الغرفة تتمايل مع الذبذبات الخفيضة لموسيقى حزينة لا يُعرف مصدرها. وجدت الأحاسيس التي تنتابني تقمع مع تصاعد روائح بخور مُختلطة يتصارع بعضها مع بعض، تفوح بقوة من مباخر لبلابية الأشكال، إلى جانب ألسنة نيران حاشدة، مُرفرفة، مُتوهجة ذات ألوان زمرّدية وبنفسجية. كانت أشعة الشمس التي أشرقت في التوّ تنسكب علىَ كل شيء عبر النوافذ، فتُشكّل لوحة واحدة على الزجاج القرمزي الباهت. لئن نظر المرء هُنا أو هُناك، إلى آلاف الانعكاسات النورانية على الستائر التي تترجرج فوق أفاريزها كأنّها شلالات من فضة مُنصهرة، لسوف تتجلّى له إشراقات من المجد الطبيعي على انسجام مُطلق مع الضوء الاصطناعي، وهي تسقط مُتمرغة في كُتل خافتة الألوان على سجادةٍ باهظة الثمن من نسيج مُذهّب من إقليم شيهلي الصيني تبدو كأنّها سائل شفاف.

«هاه! هاه! هاه!.. هاه! هاه! هاه!».. ضحك صاحب القصر وهو يقودني إلى أحد المقاعد حين دخلت الغرفة، وألقى نفسه مُسترخياً بارتياح تام على أريكة عثمانية. «أرى»، قال وهو يُدرك أنّني غير قادر مُباشرة على التكيّف مع اللباقة في ذلك الترحاب الفريد.. «أرى أنك مستغربٌ من شقتي.. من تماثيلي.. من لوحاتي.. من أصالة مفهومي عن العمارة وتنجيد الأثاث! حتماً لقد ثملت، إيه، من روعة تصميماتي؟ ولكن اعذرني، يا سيدي العزيز، (وهنا تحولت نبرة صوته فاتخذت شيئاً من الود)، اعذرني على ضحكي غير المُبرر. أرى أنّك تُبدي استغراباً مُطلقاً. وإلى جانب ذلك، فبعض الأشياء تستحق أن يضحك منها الإنسان حقّاً، فإمّا أن نضحك أو نموت. أن يموت المرء من الضحك فلا بد أن ذلك أكثر أنواع الموت مجداً وفخراً! كان سر توماس مور[8].. ويا له من رجل رائع ذلك الذي يُدعى سر توماس مور.. سر توماس مور مات وهو يضحك، أنت تتذكّر ذلك حتماً. وكذلك في كتاب (التفاهات) لرافيسيوس تيكستور[9]، هُناك قائمة طويلة من الشخصيات التي انتهى مصيرها إلى النهاية الرائعة نفسها. ولكن هل تعرف»، تابع الرجل كلامه وكأنه يستمد تأملاته من إلهام شعري، «أنّ في إسبارطة (التي هي الآن قرية «بالايجوري»)، في إسبارطة، أقول، إلى الغرب من القلعة، في وسط فوضى من الخرائب المُتقوضة والمباني التي لم يبقَ منها شيء، هُناك نوع من الحذاء[10]، لا تزال عليه حروف واضحة هي *AAEM*. وأظن أنّها جزء من كلمة *PEAAEMA*. والآن، في إسبارطة أيضاً هُناك ألفٌ من المعابد والأضرحة تعود إلى ألفٍ من الديانات والآلهة. كم هو شيء غاية في الغرابة أن يبقى مذبح الضحك من بين جميع [74]الأضرحة الأُخرى! ولكن في اللحظة الراهنة»، توقّف لحظة ثم عاد ليستأنف كلامه مع تغيّر بسيط طرأ على

---

(8) توماس مور: (1478- 1535) كاتب وفيلسوف اجتماعي إنكليزي ورجل دولة في عهد هنري الثامن، مؤلف «يوتوبيا» أو المدينة الفاضلة، تمّ إعدامه. [المترجم]

(9) رافيسيوس تيكستور: جان تيكسير دو رافيسي: 1470- 1542 من مُفكّري النهضة الفرنسيين في علم الإنسانيات وهو أستاذ في البلاغة. [المترجم]

(10) الحذاء أو socle: جزء ناتئ عند قدم الجدار أو تحت قاعدة العمود في العمارة. [المترجم]

صوته وسلوكه، «لا يحق لي أن أمزح على حسابك. ربما جعلتك تصاب بالدهشة. لا تستطيع أوروبا كلها أن تنتج شيئاً بمثل هذا الرونق، أعني مقصورتي الملكية الصغيرة. أما حُجراتي الأُخرى فهي ليست مُشيدة بالضرورة على النمط نفسه.. إنّها مُجرّد تصاميم مُسرفة *ultras* تتماشى مع تقاليد العصر الحديث التي تخلو من أي نكهة مُشوقة. أليس هذا أفضل من الموضة السائدة في الوقت الراهن؟ إلّا أنّ هذا كله ينبغي النظر إليه على أنّه مدعاة للسخط.. أي، بالنسبة إلى أولئك الذين يتمكّنون من الدفع الذي يُكلّفهم كل ميراثهم. ولكنّي كنت أتوخّى الحذر ضد أي شيء من التدنيس. باستثناء شيء واحد، فأنت الإنسان الوحيد، بالإضافة إليّ أنا وخادمي الخاص، الذي يُسمح له باكتشاف أسرار هذه الصروح الملوكية، لأنها مُزينة بأبهى صور الإشراق كما ترى!».

طأطأت رأسي اعترافاً.. لأنّ الإحساس الغامر بتألّق المكان، والروائح العبقة، والموسيقى، مع الغرابة غير المُتوقعة التي تكلّم بها وطريقة تصرفاته، حالت بيني وبين التعبير بالكلمات عن تثميني من خلال ما يُمكن أن أُترجمه إلى نوع من الإطراء.

«هنا»، عاد ليقول وهو ينهض مُنحنياً على ذراعي ثم يمشي الهوينى في أرجاء الحُجرة، «هُنا توجد بعض اللوحات لفنانين مُختلفين من زمن الإغريق إلى تشيمابوي[11]، ومن تشيمابوي إلى زمننا الحاضر. الكثير منها تمّ اختيارها، مثلما ترى، مع تباينٍ ضئيل، لتُعبّر عن آراء ومعرفة في الفنون الجميلة. إلّا أنّها جميعاً تُصلح لأن تكون من ديكورات وزخارف حجرة مثل هذه. وهُنا أيضاً توجد بعض التّحف الفنية *chefs d'oeuvre* التي تعود لفنان عظيم مجهول؛ وهُنا تصميمات ومُخططات لرجال كانوا ذائعي الصيت في زمانهم، أسماؤهم غير معروفة حتى لدى الأكاديميات العريقة التي لاذت بالصمت في ما يتعلّق بهذا، وهي غير معروفة لي أيضاً. ما رأيك»، قال ثم استدار على حين فجأة وهو يُتابع كلامه.. «ما رأيك بلوحة مادونا ديلا بايتا هذه؟».

(11) جيوفاني تشيمابوي: (1240-؟) رسام إيطالي يُعتبر رائد المذهب الواقعي في الرسم. [المترجم]

«إنّها من أعمال غويدو[12]!» قلت، ونطقت تلك الكلمات بكل الحماس الذي من طبيعتي، لأنّي كنت أُحملق بانبهار في اللوحة وأتأمل جمالها الخارق. «إنها من أعمال غويدو!.. كيف تسنّى لك الحصول عليها؟.. ليس من شك في أنها تُعتبر في ميدان الرسم مثل فينوس في ميدان النحت».

«هاه!» قال وهو يُطيل التفكير، «فينوس.. الجميلة فينوس؟.. فينوس ميديشي؟.. رأسها الذي يبدو صغيراً أكثر ممّا ينبغي وشعرها الموشّى بالذهب؟ وجزءٌ من ذراعها اليسرى (وهُنا انخفض صوته فصار يُسمع في صعوبة)، والذراع اليمنى كلها هي من أعمال الترميم؛ يُخيّل إليّ أنّ في حركة الذراع اليمنى تلك التي تدلّ على الغنج يكْمن جوهر الإبداع في تجسيد أروع مظاهر التكلف. ناولني لوحة كانوفا[13] من فضلك! ولوحة أبولو أيضاً، إنّها نسخة مُطابقة للأصل.. لا مجال للشك في ذلك.. يا لي من مُغفّلٍ أعمى، من يُمكنه أن يغفل عن إيماءة التباهي المُلهمة لأبولو! ولكنّي لا أستطيع.. يا لي من مسكين!.. لا أستطيع تجنّب تفضيل تمثال [75]أنتينوس[14]عليها. ألم يكن سقراط هو الذي قال: إن النحات يجد صورة مثالية مُجسّدة لتمثاله في قطعة جامدة من الرخام؟ إذن ميخائيل أنجلو لم يكن أصيلاً في هذين البيتين الشعريين[15].

'Non ha l'ottimo artista alcun concetto

Che un marmo solo in se non circunscriva'».

---

(12) غويدو، كاغناشي: (1601- 1663) رسام إيطالي من العصر الباروكي المُتأخر ينتمي إلى مدرسة فورلي في الرسم له لوحة شهيرة هي موت كليوباترا 1658. [المترجم]

(13) أنطونيو كانوفا: (1757- 1822) نحات إيطالي من جمهورية فينيسيا اشتهر بتماثيل العاج التي تظهر البشر عارين. وقد رسم لوحة شخصية لنفسه. [المترجم]

(14) أنتينوس: في الميثولوجيا الإغريقية (111- 130 ق. م) شاب يوناني كانت له حُظوة لدى الإمبراطور الروماني هادريان، استحال إلى إله بعد وفاته وصار يُعبد في اليونان والشرق كرمز للأخلاق الرفيعة، له تمثال نصفي في المتاحف. [المترجم]

(15) من الأناشيد التي كتبها ميخائيل أنجلو: «أفضل الفنانين ليس لديهم تصور إنّ حجارة الرخام لا يُمكن تقييدها أو الإحاطة بها». [المترجم]

هكذا حصلت الأمور إذن.. أم ينبغي علينا الإشارة، على غرار ما يفعله أي رجل مُهذب في الواقع، فقد كنّا، أنا وهو، مُدركين على الدوام لوجود شيءٍ من الاختلاف في أُسلوب فهمنا للأمور على العكس من الإنسان العادي، دون أن نكون قادرين مع ذلك على تحديد ماهية هذا الاختلاف. لئن أُتيح لهذا الرأي أن ينطبق انطباقاً تامّاً على السلوك الخارجي لصديقي، أقول: إنّني أحسست، في ذلك الصباح الذي كان زاخراً بالأحداث، أنّ الاختلاف لا يزال يمتد ليشمل مزاجه الأخلاقي وشخصيته عموماً. ليس في وسعي كذلك أن أحدد بطريقة أفضل ماهية تلك الشمائل الروحية النادرة التي يبدو أنّها تضعه أساساً في موضع ينأى فيه بعيداً عن البشر الآخرين جميعاً، فلا سبيل أمامي إذن إلا أن أدعو ذلك «من عاداته» التي مصدرها الفكر العميق الذي لا يتوقّف عن التغلغل حتى في أفعاله الأكثر تفاهة.. ويتطفّل على لحظاته العابثة.. ويمتزج مع الومضات الأكثر مرحاً وغبطة في حياته.. كأنّه ثعبان يتلوّى ويخرج من عيون الأقنعة المُتبسمة في الأفاريز التي تُحيط بمعابد بيرسيبولس.

مع ذلك لم يكن في وسعي إلّا أن أُراقب، مرة بعد أُخرى، تلك النغمة التي يمتزج بها الطيش والوقار في كلماته، حين تطرّق إلى مسائل ضئيلة الأهمية، فأتلمس شيئاً من الوجل.. درجة من العصبية الزائفة *unction* في الفعل والكلام.. ذلك الاستمتاع المُرتبك والتحمّس في السلوك الذي يظهر لي في كل الأحوال غير قابل للتعليل، ويغمرني أحياناً بالتحفز. بين الحين والحين كان يتوقّف وسط إحدى الجُمل التي لا بدّ أن يكون قد نسي نهايتها في ما يبدو، وكأنّه يُصغي بأعمق درجات الاهتمام، أو يتوقّع حدوث شيء عاجل أو مجيء زائر طارئ، أو يترقّب سماع أصوات هي حتماً من وحي تخيّلاته وحدها.

في أحلام اليقظة، أو أثناء تلك التوقفات التي تكاد تكون مُجرّدة من أي معنى، ولدى تقليب صفحة من أعمال شاعر وسياسي ذي منهج علمي، وفي مسرحيته التراجيدية الجميلة «اوريفو»[16]، (أول تراجيديا إيطالية محلّية)، كانت

(16) أوريفو: أوبرا أورفيوس وأوريدايك The Orfeo لمؤلفها أرنست كرينيك تستند إلى أُسطورة أورفيوس عُرضت لأول مرة في فيينا، 5 أكتوبر 1762. [المترجم]

تستقرّ قربي على الأريكة، اكتشفت قطعة تحتها خط بقلم الرصاص. وهي على وجه التحديد ترد في الجزء الأخير من المشهد الثالث.. كُتبت بروح وثابة تأسر القلوب.. مع أنّها لا تخلو من الشوائب، فلا أحد من الرجال بإمكانه أن يقرأها دون أن تنتابه رعشة وجدانية لم يجربها من قبل.. ولا تقرأها أية امرأة دون أن تتنهّد وتُطلق الحسرات. الصفحة بكاملها مُلطخة بدموع لم تجفّ بعد؛ وعلى الجانب المُقابل منها، [76]كُتبت الأبيات التالية باللّغة الإنكليزية بخط يد يختلف كثيراً عن خط صاحبي الذي أعرفه جيداً، حتى إنّي وجدت صعوبة في الحكم على أنّها من تأليفه:

أنتَ كل شيء في حياتي، يا حبيبي،
ها قد ذبلت روحي..
جزيرةٌ خضراء نائية في البحر، يا حبيبي،
نافورةٌ وضريح،
كلّها ذبلت مع فاكهتها وأزهارها الخيالية؛
الزهور كلّها لي.

آه، كم كان حُلماً مُشرقاً فلا غرابة أن يزول!
آه، أيّها الألم كأنّك البرق، فقد بزغت مثل النجوم
ولكن السماء مُلبّدة بالغيوم!
من أعماق المُستقبل صوت ينادي،
«هيا.. تقدم!».. ولكن ذلك كان في الماضي
(أيها الخليج المُعتم!) روحي تحوم، تتربّص،
صوتي مكتوم.. حركتي هباء.. مذعور!

يا للحسرة! يا للحسرة! انتهى أمري

شعلة حياتي انطفأت.

«كفى.. كفى.. كفى»،

(مثل هذه اللغة تكبح أمواج البحر المهيب

وتجعله يتشبّث برمال الشاطئ)،

هل تتفتّح شجرة أصابتها صاعقة،

أم يُحلّق نسرٌ كسير الجناحين!

الآن كلُّ ما تبقى لي ساعات يُغشى عليّ فيها؛

وفي ليلي المُسهّد

أرى عيناً سوداء تومض،

وقع خطوات تومض،

تؤدي رقصات سماوية،

قرب جداول إيطالية.

يا للحسرة! على ذلك الزمن الملعون

يحملونك جثة هامدة على الموج،

بعيداً عن الوله إلى زمن الألقاب والجريمة،

على وسادة مُدنّسة!

بعيداً عنّي، وعن أجوائنا السديمية،

هُناك حيث تنتحب صفصافة فضية!

لأنّ هذه الأبيات كتبت في لُغة إنكليزية.. وكنت أظن أنّ مؤلفها لا يعرف

شيئاً عن الإنكليزية.. فذلك ما أثار في نفسي شيئاً من الذهول. أدركت تماماً مدى البراعة التي يتمتع بها، وفهمت مقدار المُتعة الاستثنائية التي أحسّ بها وهو يحرص تمام الحرص على إخفائها فلا يظهرها لأحد، وعدت فاستغربت من هذا الاكتشاف الجديد؛ غير أن مكان اللقاء، يتوجّب عليّ الاعتراف بهذا، لم يتسبّب لي باستغراب كبير. كان في الأصل قد كتب على الورقة كلمة «لندن»، وبعد ذلك جرى تغييرها في عناية.. ولكن ليس بصورة مؤثرة بحيث يُخفي تلك الكلمة عن العين البصيرة. [77]أقول: لم يتسبب لي ذلك بذهول شديد؛ لأنّي أتذكّر جيداً، في مُحادثة سابقة مع أحد الأصدقاء، سؤالي له على وجه التحديد إن كان لديه وقت لأن يلتقي في لندن بمارشيسا دي مينتوني، (التي استقرّت، منذ عدة سنوات قبل زواجها، في تلك المدينة)، وجعلني جوابه، إن لم أكن مُخطئاً، أفهم أنه لم يسبق له أن زار تلك المدينة في بريطانيا العظمى. ربما جاز لي أن أذكر هُنا أنني سمعت غير مرة في وقت سابق، (دون أن أُعطي مصداقية ما بطبيعة الحال لتقرير ينطوي على هذا المقدار من الاحتمالات)، أنّ الشخص الذي أتحدث بشأنه، لم يكن إنكليزي الولادة فحسب، بل هو مُثقّف إنكليزي أيضاً.

* * *

«هناك لوحة»، قال دون أن يُدرك أنّني كنت أُراقب ذلك المشهد التراجيدي.. «ما تزال هناك إحدى اللوحات التي لم تُشاهدها بعد». ثم أزاح الستار عن صورة بالحجم الطبيعي لمارشيسا أفروديت.

لم يكن أي أثرٍ من ملامح الإبداع في الفن البشري قادراً على أن يُضفي مسحة إضافية على جمالها الخلاب الخارق للطبيعة. إنها ذات الشخصية السماوية التي وقفت أمامي في الليلة الفائتة على مدرّجات الرخام في قصر دوكال، ها قد تجسّدت أمامي مرة أُخرى. ولكن في التعبير الذي ارتسم على مُحياها، والتألق الذي يشعّ من ابتسامتها، كان لا يزال يكْمن (وهذا نوع من الشذوذ لم أتمكّن من استيعابه!) ذلك التوتر المُنحرف من الكآبة التي تبقى ملازمة لها فلا تنفصل عن صورة الجمال المِثالي. ذراعها اليمنى تنثني على صدرها.

وذراعها اليسرى تُشير إلى زهرية رُتّبت مُحتوياتها ترتيباً مُبتكراً.

قدمها الصغيرة وحدها، كأنّها شيء وهمي، وحدها مرئية، لا تكاد تُلامس الأرض؛ فلا يرى الناظرُ تلك القدم وسط هالة من التألق الذي يبدو أنّه يُحيط ويتغلغل في إشراق جمالها، هُنالك يحوم جناحان رُسما من وحي الخيال. انتقلت نظرتي بين اللوحة وصديقي، وارتعشت كلمات مُفعمة بالحيوية مُستمدة من مسرحية تشابمان «بوسي دو أمبوا»(17) غريزياً على شفتي:

«إنه ينهض، هُناك

مثل تمثال روماني!

ولسوف يظلّ شامخاً حتى يُحيله الموت إلى جسد من رخام!».

«تعال»، قال لي بعد أن طال الصمت بيننا، واستدار نحو طاولة موشّاة بزخارف فضية بارزة، عليها بضع كؤوس مذهّبة بصور مذهلة، إلى جانب زهريتين كبيرتين من الطراز الأتروسكاني(18)، مصنوعة على غرار ذلك النموذج الاستثنائي الذي وجدته في صدر اللوحة، ومملوءة بما افترضت أنه نبيذ يوهانزبرغر. «تعال»، قال على حين فجأة، «فلنشرب! لا زال الوقت مبكراً.. ولكن فلنحتسي شيئاً. الوقت مبكر حقّاً»، تابع كلامه وهو مُستغرق في تأملاته، كأنه ملاك يحمل مطرقة ذهبية ثقيلة ويدق معلناً الساعة الأُولى من بعد شروق الشمس في [78]الحجرة: «الوقت مبكر حقّاً.. وما الضير في هذا؟ فلنشرب! دعني أسكب لك شيئاً من هذا الشراب المُقدّس بالتزامن مع شروق الشمس بطلعتها المهيبة التي عبثاً تتشوّق هذه المصابيح المُبهرجة والبخور العبق لإخماد نورها!» وبعد أن أقنعني بشرب نخب، ازدرد جرعات مُتتابعة من النبيذ.

---

(17) تراجيديا Chapman's Buss D'Ambois: كُتبت ما بين 1603- 1607 لمؤلفها جورج تشابمان تنتمي إلى فترة المسرح الجيكوبي ربما كانت تُصنف على أنها نقد للتاريخ المُعاصر. [المترجم]

(18) من موروث الحضارة الأتروسكانية، وهو الاسم الحديث الذي أطلق على حضارة إيطاليا القديمة، وتوسكانيا منطقة في وسط إيطاليا. [المترجم]

«علينا أن نحلم»، تابع كلامه وقد استردّ صوته شيئاً من نبراته السابقة في تلك المُحادثة العابرة، ورفع إحدى المزهريات الرائعة وقرّبها من النور المُنبعث من إحدى المباخر.. «الأحلام شغلي الشاغل في حياتي. ولهذا هيأت لنفسي، كما ترى، مكاناً يُصلح للأحلام. في قلب فينيسيا هل كان في وسعي الحصول على مكان أفضل من هذا؟ ها أنت ترى كل ما حولك؛ شيء لا غبار عليه، خليط هجين من الزخارف. طهارة وعفة أيونيا[19] تنتهك حُرمتها مُقتنيات تعود إلى ما قبل الطوفان؛ عنقاء مصر تُلقى على بسط منسوجة من الذهب. إلا أنّ التأثير يبدو مُتنافراً في عيني الإنسان الرعديد وحده. خصائص هذا المكان، وخصائص الزمن على وجه الدقة، هي من الأشياء التي تُثير الرهبة في نفوس البشر من خلال تأمل النموذج المثالي للجمال. ذات مرة كنت أعمل أنا نفسي في تصميم الديكور؛ إلّا أنّ ذلك التصعيد المُخجل في الحماقات كان يُهيمن على روحي. كل ما تراه الآن ينسجم تمام الانسجام مع أغراضي. إنّ روحي، مثل هذه المباخر العربية، تتلوّى مع النيران، وكل هذا الهذيان والتشويش في المشهد يناسبني لاستلهام رؤى أكثر غربة ووحشية عن تلك الأرض التي تسودها الأحلام وبالإمكان أن أرحل إليها الآن بخطوات عاجلة واثقة». وهُنا توقّف فجأة، ثم انحنى رأسه على صدره، وبدا كأنه يُصغي لصوت لا يُمكنني سماعه. وفي آخر المطاف، انتصب واقفاً، وألقى نظرة إلى الأعلى، وتلفّظ بأبيات أسقف شيشستر:

«عليك أن تبقي في انتظاري هُناك! فلن أفشل

في لقائك عند تلك الأيكة الخاوية».

وفي اللحظة التالية، وبتأثير واضح لسطوة الخمرة، ألقى بثقل جسده كله على الأريكة.

(19) أيونيا: في اللغة اليونانية القديمة منطقة قديمة تقع على الجانب الساحلي وسط بلاد الأناضول أو تركيا بالقرب من أزمير. [المترجم]

سمعتُ الآن خطوات حثيثة على السلالم، وتبع ذلك على الفور طرق صاخب على الباب. توقّعت أن يواجهني شخص مُزعج آخر، فاندفع خادم من قصر مينتوني نحو الغرفة مترنحاً، ثم صدر عنه صوت مخنوق العبرات، وتفوّه بكلمات غير مُترابطة، «سيدتي!.. سيدتي!.. لقد تسمّمت!.. تسمّمت! أوه، تلك الجميلة.. أوه، أفروديت الجميلة!»

أسرعت وكأنني أطير إلى الأريكة، وحاولت أن أُزحزح جسد النائم لأُبلّغه [79]بذلك النبأ المُفزع. ولكن أطرافه كانت جامدة وشفتاه شاحبتين.. وعيناه اللتان كانتا مُتألقتين قبل الآن تسمّرت عليهما نظرة الموت. تقهقرت باتّجاه الطاولة.. ووقعت يدي على كأسٍ مكسورة لونها أسود[20].. وغمر روحي على الفور وميضٌ عجيبٌ حين أدركت فجأة ما خفي من الحقيقة المُرعبة.

---

(20) يُروى في أساطير القرون الوسطى أنّ هُناك كأساً من فينيسيا يُفترض أنّها تنكسر إذا مُلئت بالسم. [المترجم]

هانز فال ومُغامرته الفريدة

قلبٌ مُتخم بالأوهام الجياشة،

وكنت قائداً لذلك القلب،

أحمل رمحاً مُتوهجاً وأمتطي حصان الريح،

أجوب البراري..

من أغنية لـ «توم أوبيدلام»

[80]من خلال المعلومات التي وصلت مؤخراً من روتردام، بدت تلك المدينة كأنّها تعيش حالة غير مسبوقة من الارتقاء، في مجال الاهتمامات الفلسفية على وجه التحديد. في الواقع لا بُدّ من وجود بعض الظواهر ذات طبيعة غير مُتوقعة بتاتاً.. أو هي من الأمور الطارئة تماماً.. تختلف عن الآراء التي سبق أن كانت مُتداولة.. من شأنها أن لا تترك مجالاً للشك في ذهني للقول: إنه منذ زمن طويل، قبل هذا الوقت، كانت جميع أصقاع أوروبا تواجه كثيراً من المُتغيرات التي تُسبب الاضطراب والفوضى، إذ كانت علوم الفيزياء في حالة تبلور، ومُبتكرات التفكير المنطقي ومُستجدات علم الفلك تطرق أسماع حتى الناس العاديين.

يبدو أنّه حدث في يوم.. من.. (لست على يقين من التاريخ)، أن تجمّع حشدٌ غفير من الناس، لأغراض غير معروفة بدقة، في ميدان أكسجانج الفسيح في تلك المدينة التي يعيش أهلها ظروفاً اقتصادية لا بأس بها: روتردام. كان نهاراً دافئاً.. وذلك شيء مُستغرب في مثل تلك الآونة من الموسم.. بالكاد كان يهب نسيم فيداعب الوجوه؛ لم يكن المُحتشدون هُناك في مزاج سيئ مُطلقاً لأنّهم بين الحين

والحين يتلقّون رذاذاً مُنعشاً من قطرات المطر التي لا تستمر طويلاً، أو وابلاً يهطل من كتل بيضاء هائلة من الغيوم تتناثر مُتقطّعة على السماء الزرقاء. ولكن في زهاء الظهيرة دبَّ نشاط خفيف ترك أثراً مُميّزاً بين الجموع: أعقب ذلك لغط آلاف الحناجر؛ وبعد لحظات استدارت آلاف الوجوه نحو السماء، وانخفضت آلاف الغليونات في وقت مُتزامن من زوايا آلاف الأفواه، وانطلقت صيحات رنّانة لا يُمكن مُقارنتها إلا بهدير شلالات نياغارا، بقيت أصداؤها تتردّد طويلاً بنبرات عالية غاضبة في أرجاء المدينة كلها وفي ضواحي روتردام.

سرعان ما اتّضح مصدر ذلك الضجيج المُدوّي بصورة كافية. من وراء الكتل البشرية الضخمة والوجوه ذات القسمات الغائرة، والغيوم التي أشرنا إليها، [81]رأى الناس شيئاً يظهر للعيان في بطء ثم يزحف باتجاه مساحة مفتوحة من الفضاء الأزرق. شيء غريب المنظر، غير مُتجانس، ولكنه يبدو صلباً متماسك الأجزاء تماسكاً فريداً من نوعه؛ ليس بالإمكان فهم الطريقة التي ظهر بها، فلم يتوفّر للناس مُتسعٌ من الوقت حتى للإطراء على ذلك المشهد وهم يقفون وقد فغروا أفواههم تحته. ما عسى أن يكون ذلك؟ باسم جميع الأرواح الشريرة والشياطين في روتردام، ما عسى أن يكون الشؤم الذي ينذر به؟ لا أحد يعرف، لا أحد يتخيّل؛ لا أحد.. حتى عمدة المدينةماينهر سوبربوس فون أندردوك.. لم تكن لديه أدنى فكرة يستطيع بها أن يحل طلاسم ذلك اللغز المُحيّر؛ وهكذا، فلا شيء من العقلانية يُمكن أن يفعل، كل رجل منهم أعاد غليونه إلى ركن من فمه بتوجّس، وحوّل عينه باتّجاه ذلك الطارئ العجيب، وصار ينفث الدخان، ثم يتوقّف، ويتهادى في المشي هُنا وهُناك، وينخر كالخنزير بتعليق ذي مغزى.. ويعود ليتخطر، وينخر، ويتوقّف، وفي آخر المطاف.. ينفث الدخان من جديد.

في غضون ذلك، ظل ذلك الشيء يقترب رويداً باتّجاه المدينة الوادعة في إصرار وعناد، وتسبّب في إثارة سحابة من الدخان. خلال بضع دقائق وصل إلى مسافة كافية بحيث استطاع الناس ترجيح فكرة ما عن شكله. ظهر أنه.. نعم! ليس من شكٍّ في أنّه كان نوعاً من المناطيد؛ إلّا أنّ سكان روتردام يقيناً لم يسبق لهم أن شاهدوا منطاداً مُماثلاً في حياتهم. ترى، دعوني أتساءل، من يُمكن أن يكون

قد سمع بمنطاد كله مصنوع من ورق الصحف القديمة البالية؟ لا أحد في هولندا بأسرها سمع بذلك من قبل؛ ولكن، في هذا المكان تجسّد تحت سمع وبصر الناس جميعاً، أو بالأحرى على مسافة فوق أُنوفهم، نموذج مثالي لذلك الشيء الذي ما فتئوا يتساءلون عنه، وكان مصنوعاً ـ تلقيت هذه المعلومات من مصدر موثوق ـ من المواد ذاتها التي لا أحد يعرف على الإطلاق أنّها تُصلح للاستخدام في هذا الغرض بالذات. وكان في المشهد إساءة فاضحة للحس السليم لسكان روتردام. فمن الناحية الشكلية، لم تزل ظاهرة مُستهجنة. لم يكن ذلك الشيء يختلف كثيراً عن قبّعة مهرج عظيمة مقلوبة رأساً على عقب. وهذا الشبه، كما نظر إليه الناس، لم يتبدّد حتى لدى التفحص عن قرب، فقد رأوا بعض الشراريب تتدلّى من قمته، وحول الحافة العليا أو قاعدة المخروط، هُناك مجموعة من الأدوات الصغيرة، تُشبه الأجراس التي يُعلّقونها على رؤوس الخراف، ظلّت تصدر رنيناً مُستمرّاً على لحن أغنية بيتي مارتن[1]. ولكن الأسوأ من ذلك أن يتدلّى من أشرطة زرقاء في مؤخرة هذه الماكينة العجيبة شيءٌ يُشبه الصندوق، ومن الصندوق نفسه تدلت قبعة هائلة مصنوعة من جلد قندس قاتم اللون، ذات حافات عريضة مُغالى فيها، وتاجٌ نصف كروي مع حزام أسود له إبزيم فضي. من الجدير بالذكر أيضاً أنّ الكثير من مواطني روتردام [82]أقسموا أنهم قد شاهدوا هذه القبعة نفسها مرات مُتكررة من قبل؛ في الواقع بدا أنّ تلك المجاميع الحاشدة من البشر كانت تنظر إليها بعيون لا يعتريها أي نوع من الاستغراب؛ بينما هتفت امرأة هولندية تُدعى غريتل فال، لدى رؤيتها للقبعة، بعبارات اندهاش تختلط بالمرح، وصرّحت بأنها مُماثلة تماماً لقبعة زوجها الطيب نفسه. الآن صار ذلك المشهد يستحق المُشاهدة أكثر من السابق، لأنّ السيد فال سبق أن اختفى حقّاً، مع ثلاثة من رفاقه، من روتردام قبل حوالى خمس سنوات، في مُلابسات غامضة لم يتمكّن أي شخص من تعليلها، ولغاية التاريخ الذي كُتب فيه هذا السرد باءت جميع المُحاولات للتوصّل إلى أي أخبار عن

---

(1) بيتي مارتن: من الأغاني الشعبية الرائجة كثيراً والتي يُصلح لحنها للرقص في أيام إدغار ألن بو، وهي من أصل بريطاني. [المترجم]

هؤلاء الرجال بالفشل. من أجل أن نكون أكثر دقة هُنا، فقد تمّ العثور مؤخراً على بعض العظام التي تخيّلوا أنّها تعود لبني البشر، مُختلطة مع بقايا نفايات غريبة المنظر في موقع بعيد إلى الشرق من روتردام، وذهب بعض الناس بعيداً في تأويلاتهم بحيث تخيّلوا أنّه في هذه البقعة وقعت جريمة شنعاء، وقالوا: إن الضحايا كانوا على الأرجح هانز فال وجماعته. ولكن يجدر بنا أن نعود إلى مُستهل حكايتنا.

كان المنطاد الآن (فلا سبيل للشك في أنّه منطاد) قد استمر في الهبوط، ولم تبقَ إلا مائة قدم تفصله عن الأرض، ممّا أتاح لحشود الناس الواقفين في الأسفل فرصة كافية لإلقاء نظرة عن قرب على الشخص الموجود على متنه. كان ذلك الشخص في حقيقة الأمر مُهرّجاً قزماً منظره مدعاة للتسلية، لا تتخطّى قامته قدمين في أحسن الأحوال؛ غير أنّ طول القامة هذا، أو قصرها بمعنى أكثر دقة، كان سبباً للإخلال بتوازنه، إذ استمر يتمايل باتّجاه حافة عربته الضئيلة، ولولا حافة دائرية يصل ارتفاعها إلى صدره والغطاء الذي يُحيط بها وقد رُبط بحبال المنطاد لسقط من علو شاهق. كان صدر ذلك القزم عريضاً لا يتناسب مع بقية أجزاء الجسم، وذلك يمنح مظهره الإجمالي استدارة مُثيرة للضحك. طبعاً لم يكن الناس يستطيعون رؤية قدميه أبداً. أما يداه فكانتا ضخمتين ضخامة عجيبة. وشعر رأسه أشيب تماماً، وقد عُقد في ضفيرة *queue* تتدلّى من خلف. وأنفه طويل على نحو استثنائي، ومعقوف، فكأنّه مصاب بالتهاب؛ وعيناه واسعتان، متألقتان، تدلّان على حدة البصر؛ وذقنه، وخداه، على الرغم من تجاعيدٍ خلّفتها السنون، لا يختلفان في الضخامة والاكتناز، وهما ضعف الحجم الطبيعي؛ أما عن الأُذنين فليس هُناك ما يُناظرهما في النوع أو الشكل المعروفين لدى أي إنسان. هذا الرجل القزم كان يرتدي معطفاً فضفاضاً ضيقاً من قماش الساتان بلون السماء، مع بنطلون قصير من اللون نفسه، مربوط بإبزيمات عند الركبتين، وصدرية صفراء فاقعة؛ وهُناك قلنسوة بيضاء من التفتة[2] تستقر في وضع مُتبختر

(2) التفتة: نسيج حريري ناعم جعد صقيل. [المترجم]

على جانب من رأسه؛ ولإكمال مُستلزمات لياقته، فقد طوّق رقبته بمنديل حريري بلون الدم يتدلّى بأناقة على صدره في عقدة مُلتوية ذات أبعاد رائعة بكل معنى الكلمة.

بعد أن هبط المنطاد، كما قلنا سابقاً، حتى وصل إلى مسافة مائة قدم عن سطح الأرض، دهمت القزم نوبة ذعر مُفاجئة، وبدا أنّه غير راغب في الاقتراب أكثر من اليابسة *terra firma*[83]. وبالتالي ألقى كمية من الرمل من كيس القنب الذي كان يحمله في صعوبة وعناء شديدين، ووقف لحظة دون أن يُحرّك ساكناً. ثم تقدّم خطوات على استعجال فانتزع من معطفه كتاب جيب ضخم عليه جلد مراكشي. وظل يحمل الكتاب في يده ويُلقي نظرات مُتوجسة، ثم تحوّلت النظرة إلى دهشة ما بعدها دهشة، وكان واضحاً أنّه مستغرب من حجم الكتاب. وأخيراً فتح الكتاب وسحب منه رسالة عريضة مختومة بالشمع الأحمر وملفوفة في عناية بشريط أحمر أيضاً، وترك الرسالة تسقط بحيث تستقر عند قدمي عمدة المدينة، سوبربوس فون أندردوك. وهُنا انحنى معاليه لالتقاط الرسالة. إلّا أنّ الملّاح في المنطاد كان لا يزال يشعر بالقلق، وفيما اتّضح أن لم يعد لديه شغلٌ يدفعه للبقاء في روتردام، فقد شرع في هذه اللحظة بالقيام ببعض الإجراءات العاجلة للإقلاع؛ وكان من الضروري إلقاء كمية أُخرى من أثقال المُوازنة تُتيح له استئناف الطيران، فأُلقيتْ ستة أكياس، واحداً بعد الآخر، دون أن يكترث لتفريغ مُحتوياتها، فتشقلبت وتكوّمت كلها، لسوء الحظ، على قفا عمدة المدينة، فسقط الرجل وتدحرج مرات مُتكررة على الأرض؛ لقد تدحرج في الواقع إحدى وعشرين مرة أمام الرجال جميعاً في روتردام. وما ينبغي للمرء الاستنتاج من هذا أنّ العمدة العظيم أندردوك كان يُعاني جرحاً في كرامته نتيجة لتصرف ذلك القزم الذي ولّى هارباً دون أن يُعاقب على فعلته الدنيئة. على العكس من ذلك، يقال: إنّه أثناء كلّ التفافة من الالتفافات التي قام بها، وقد التفّ حول نفسه ست مرات، لم يصدر عنه شيء سوى أن نفث الدخان باهتياج من غليونه ست مرات أيضاً، إذ كان طوال ذلك الوقت يتشبث بغليونه بكل ما أوتي من قوة ويأمل (بمشيئة الله) أن يبقى مُتشبثاً به حتى مماته.

في تلك الأثناء ارتفع المنطاد مثل القبّرة، وراح يُحلّق بعيداً فوق المدينة، ثم انزوى أخيراً في هدوء خلف إحدى السحب مثلما جاء أول مرة بذلك النمط الغريب، وهكذا اختفى إلى الأبد عن عيون مواطني روتردام الطيبين الذين كانوا ينظرون باستغراب. توجّه جُل الاهتمام الآن نحو الرسالة، التي اتّضح أنّ نزولها والنتائج التي تمخّضت عنها، كانت ذات أثر مُخيّب للآمال في آخر المطاف على سمعة معاليه تحديداً، فون أندردوك. إلّا أنّ ذلك المسؤول الحكومي الرفيع لم يفشل أثناء حركاته المكوكية بأن يُكرّس وقتاً لضمان سلامة المُغلف موضع النقاش، والذي اعتبره لدى التفحص الدقيق قد وقع بين يدي الشخص المُناسب، لأنّه في الواقع معنون إليه هو بالذات وكذلك إلى البروفيسور روبادب، بصفتهما الرسمية كعميد ونائب عميد كلية روتردام لعلوم الفلك. تبعاً لذلك جرى فتح المُغلف من قبل هؤلاء الوجهاء في البقعة نفسها، فوجدوه يتضمّن معلومات غاية في الغرابة والخطورة، وهي التي سوف نأتي على ذكرها لاحقاً.

[84]

إلى صاحبي المعالي فون أندردوك وروبادب، عميد ونائب عميد كلية الدولة لعلماء الفلك، في مدينة روتردام:

«لعلّ معاليكم تتذكّرون شيئاً عن خادمكم المُتواضع والصانع الماهر الذي يُعرف باسم هانز فال، وكان هذا الشخص يوماً يمتهن حرفة مُصلح منافيخ الحدادين، وقد اختفى مع ثلاثة رجال آخرين من روتردام قبل نحو خمس سنوات في ظروف لا بدّ أنّها اعتُبرت من جميع الأطراف مفاجئة، وغير قابلة للتفسير على الإطلاق. فإذا سمح معاليكم لي، أنا كاتب هذه الرسالة، سوف أقول لكم إنّني هانز فال نفسه. من المعلوم جيداً لدى أغلب الناس من معارفي أنّني طوال أربعين سنة كنت أسكن بناية من القرميد تقع في أحد الميادين الضيقة، على طرف من الدرب الذي يُسمّى ساوركراوت، وكنت أسكن ذلك المكان عندما وقعت حادثة اختفائي. وأسلافي أيضاً قد سكنوا هُناك طوال زمن لا أحد يعرف مداه.. وكانوا، فضلاً عن المُتحدث، يزاولون الحرفة نفسها التي تحظى بالاحترام، في الواقع هي حرفة مُربحة، أقصد تصليح المنافيخ. إذا أردنا قول الحق، فحتى السنوات

الأخيرة، كانت رؤوس معظم الناس قد أثخنت بهموم السياسة، فلم يعد ثمّة عمل أفضل من الذي كنت أزاوله، فأي مواطنٍ نزيه من روتردام كان يرغب في مزاولته أو يشعر بأنه خليق به. وكان تسليف النقود عملاً رائجاً أيضاً، وما من نقص في الوظائف، ولم يكن أي رجل يُعاني من العوز سواءً للنقود أو للنوايا الحسنة. ولكن، كما أسلفت، سرعان ما بدأنا نتلمّس تأثيرات الحرية ووقع الخطابات المُنمقة المُطولة، والراديكالية، وكل ذلك الخليط من الأشياء. الناس الذين كانوا سابقاً أفضل الزبائن في العالم أصبحوا لا يُفكرون بنا الآن ولو للحظة من الزمن. مع أنّ لديهم وقتاً، هكذا يقولون، لأن يقرؤوا ما شاؤوا عن الثورات، وأن يواكبوا تقدّم الفكر وروح العصر. لئن كانت هُناك نار تحتاج للاضطرام، فبالإمكان أن يحصل الأمر في سهولةٍ ويسرٍ عن طريق ورق الصحف، ومع تزايد عجز الحكومة، لم يعد يعتريني الشك حتى في أنّ الجلود والحديد قد ازدادت متانة هي الأُخرى بالقياس إلى ما كان يحصل في الماضي، ففي غضون فترة قصيرة من الزمن، لم يعد في روتردام بأسرها زوجٌ من المنافيخ التي تحتاج إلى تصليح، أو إلى رتق، أو إلى تدخّل مطرقتي. هذه الحالة التي وصلت إليها الأمور كانت لا تُطاق. وخلال وقت قصير تحوّلت حياتي إلى فقر مدقع وأصبحتُ كالجرذ، وبما أنّ لدي زوجة وعيالٌ ينبغي تأمين رزقهم، فقد تفاقمت همومي وأعبائي بمرور الزمن وأضحى من المُتعذّر تحمّلها، وكنت أمضي ساعة بعد أُخرى في التأمّل عسى أن أجد طريقة مُلائمة لوضع حد لحياتي. ولم يترك لي الدائنون، في ذلك الوقت، مجالاً حتى لتأمّل مصيري. كان بيتي مُحاصراً على الدوام من الصباح حتى الليل. وحدث أن كان هُناك ثلاثة من رفاقي الذين سبّبوا لي القلق والمتاعب أكثر من غيرهم بحيث لم أعد أحتمل ذلك، كانوا يواظبون باستمرار على [85]مُراقبة منزلي، ويُهددون ويتوعدون بأن يقدّموا شكوى ضدي في المحكمة. إزاء إصرار هؤلاء الثلاثة على مُضايقتي أقسمت في سري أن أنتقم منهم أقسى انتقام، إذا ما أُتيحت فرصة مُناسبة لأن يقعوا في قبضتي؛ وأعتقد أن لا شيء في الكون غير الابتهاج الذي تحقّق من هذا الأمل كان يحول بيني وبين وضع خطتي للانتحار موضع التنفيذ، وذلك بأن أفجّر رأسي بالبندقية. بيد أنّي تصورت أنّ من الأفضل إخفاء غضبي، وأن أتعامل معهم بلطف وأُبادلهم

الكلمات الطيّبة، حتى تُتاح لي فرصة، من خلال تحوّلات مؤاتية في حسن الطالع، فأُحقق أُمنيتي في الانتقام.

«ذات يوم، بعد أن تذرّعت للدائنين ببعض الأعذار واستطعت أن أنسلّ بعيداً عنهم، وكنت أشعر بالاكتئاب أكثر من أي وقت، بقيت أتجوّل طويلاً هُنا وهُناك في الشوارع المُظلمة دون هدف أبتغيه، إلى أن تعثّرت أخيراً بكشك تُباع فيه الكتب في إحدى الزوايا. وجدت كرسياً قريباً مني، مُخصّصاً للزبائن، فألقيت نفسي عليه وقد استبدّ بي الإعياء، ثم فتحت، دون أن أعرف السبب الذي دعاني إلى ذلك، صفحات أول كتاب وقع في مُتناول يدي. اتّضح فيما بعد أنّه كراسٌ صغير يتطرّق إلى بحثٍ في تخيّلات وصور غريبة عن علم الفلك، وقد كتبه إما البروفيسور أينكي[3] من برلين أو مؤلفٌ فرنسي يحمل اسماً مُشابهاً. كانت تتوفّر لديّ معلومات مُشتتة عن مسائل من هذا القبيل، وسرعان ما استغرقت تدريجياً في قراءة مُحتويات الكتاب، في حقيقة الأمر كنت أقلّب صفحات الكتاب على عجل وأقرأها مرة بعد أُخرى قبل أن أفيق لأتذكّر ما يجري حولي. في غضون ذلك بدأ الليل يُرخي سدوله، واتّجهت خطواتي إلى المنزل. إلّا أنّ ذلك البحث (بالارتباط مع اكتشافات في النوماتيكا[4]، أطلعني عليها مؤخراً، مُعتبراً إياها سرّاً من الأسرار المُهمة، ابنُ عم لي من نانتز[5] ترك انطباعاً لا ينمحي على ذهني، وبينما كنت أجوب الشوارع المُعتمة، استعادت ذاكرتي في حذرٍ شديد مقولات عصية على الفهم أحياناً أدلى بها الكاتب. كانت هُناك بعض الفقرات على وجه التحديد أثارت انتباهي بقوة غير اعتيادية. وكلّما أمعنت التفكير في هذه المسائل تزايد الاهتمام في داخلي كثافة. إلّا أنّ محدودية ثقافتي عموماً، وخاصة جهلي بشأن الموضوعات التي تتعلّق بالفلسفة الطبيعية، قد أسهمت إلى درجة بعيدَة في جعلي عاجزاً عن استيعاب الآراء التي اطّلعت عليها، ولعلّ ذلك ما

---

(3) يوهان فرانز أينكي: عالم فلك ألماني بارز (1791- 1865) كان مدير مرصد برلين، سُمّي أحد المذنبات على اسمه. [المترجم]

(4) النوماتيكا: من علوم الفيزياء التي تدرس خواص الهواء والغاز. [المترجم]

(5) نانتز: مدينة في مقاطعة بريتاني، فرنسا. [المترجم]

دعاني إلى عدم تصديق كثير من الأفكار الغامضة التي تمخّضت في ذهني نتيجة لكل ذلك، غير أنّه كان حافزاً مُضاعفاً يستفز الخيال؛ وساورتني الظنون بأنّني كنت غبيّاً بما يكفي، أو ربّما عاقلاً بما يكفي، بحيث بدأت أشك في أن تلك الأفكار الهمجية التي تُراود عقول بعض المعتوهين تمتاز في مظاهرها كافة بالبلاهة، أو ربّما كانت في كثير من الأحيان، من الناحية العملية، تفتقر حقّاً إلى الرصانة، والواقعية، وما إلى ذلك من الخصائص التي ينبغي أن تُلازمها مثل الموهبة أو الحدس البديهي.

[86]«كان الوقت مُتأخراً حين وصلت إلى منزلي، فذهبت في الحال إلى الفراش. وكان ذهني مُنهكاً كثيراً ومع ذلك لم أتمكّن من النوم، ولبثتُ مُستلقياً دون أن يغمض لي جفن طوال الليل غارقاً في تأملاتي. ثم نهضت مُبكراً في صباح اليوم التالي، فرجعت مُتلهّفاً إلى كشك بيع الكتب، ودفعت ما تبقّى لدي من نقود شحيحة، فاشتريت بها بعض الكتب في الميكانيكا وعلوم الفلك التطبيقية. ومع وصولي إلى المنزل في أمان حاملاً هذه الكتب، بدأت أُكرّس جزءاً يسيراً من وقتي لقراءتها، وسرعان ما أحرزت تقدماً في متابعة دراسات من هذا النوع تصوّرت أنّها كافية لتنفيذ خطة مُحدّدة ربما يُلهمني بها الشيطان أو تُسعفني بها عبقريتي النادرة. بين الحين والحين، في ذلك الوقت كنت أسعى جاهداً للتصالح مع الدائنين الثلاثة الذين تسبّبوا لي بالمضايقات أكثر من سواهم. ونجحت هذه المساعي أخيراً.. سواءً من خلال بيع بعض مُقتنيات منزلي من الأثاث لتلبية جانب من طلباتهم، أو بالوعود التي أعطيتها لهم بتسديد جميع الديون لدى إتمام مشروع صغير أخبرتهم أنّني أتطلّع إليه، وتوسّلت إليهم أيضاً أن يُحاولوا مُساعدتي على إنجازه بما يُمكنهم تقديمه من خدمات. بخصوص هذه الإجراءات.. ولأنّهم كانوا من الأغبياء.. لم تواجهني صعوبة تُذكر في إقناعهم بالوقوف إلى جانبي لتنفيذ مآربي.

«بعد أن رتبتُ الأمور على هذا النحو، قرّرت، بمُساعدة زوجتي التي أوصيتها بتوخّي أقصى درجات الحذر والسرية، التخلّص ممّا تبقّى من مُقتنياتنا، وأن أقترض فضلاً عن ذلك كميات لا بأس بها من النقود، بذرائع شتى، ودون

اكترات (أشعر بالخزي من قول هذا) لطريقة الدفع في المُستقبل. ومع توفر تلك الكميات من النقود بدأت أشتري من الحين إلى الحين، نوعية جيدة من قماش الكتان على وجبات، ففي كل مرة كنت أشتري اثنتي عشرة ياردة؛ واشتريت أيضاً حبالاً مجدولة، وكمية وفيرة من الطلاء المطاطي، وسلة ضخمة عميقة من أغصان الصفصاف تفي بالغرض الذي في ذهني، فضلاً عن عدة أشياء ضرورية في صنع وتجهيز منطاد ذي أبعاد غير مألوفة. ثم أعطيت زوجتي توجيهات لإنجاز ما تبقّى من الأمور بالسرعة المُمكنة، وزودتها بالمعلومات اللازمة كافة في ما يتعلق بالطريقة المُتفق عليها للمضي بتنفيذ الخطة. في هذه الأثناء عملت من الحبال المجدولة شبكة ذات أبعاد كافية؛ وكسوتها بالطوق والحبال اللازمة؛ واشتريت أنواعاً أُخرى من المعدات والمُستلزمات التي تُفيد لإجراء التجارب في المناطق العليا من الغلاف الجوي. ثم انتهزت الفرصة لأن أنقل ليلاً إلى مكان مهجور شرقي روتردام خمسة براميل معدنية سعة كل منها خمسون غالوناً تقريباً، فضلاً عن برميل آخر أكبر حجماً؛ وستة صناديق من الأنابيب قطر الواحد منها ثلاث بوصات، ذات أشكال وأبعاد مُناسبة، طولها عشرة أقدام؛ وكمية مُناسبة من مادة [87]معدنية، أو شبه معدنية، لن أذكر اسمها، واثنتي عشرة زجاجة كبيرة ضيقة العنق تحتوي على مادة حمضية معروفة جدّاً. لم يسبق لأي شخص أن ابتكر من قبل هذه النوعية من الغاز الذي ينبغي أن يتولّد من هذه المواد التي ذكرتها.. أو على الأقل فهذا الغاز لم يُستعمل لأي غرض مماثل. ليس في وسعي إلّا أن أجازف بالقول هُنا إنّه من مُركّبات الآزوت «النتروجين»، ما دام غير قابل لفقدان خواصه الأساسية، وإنّ كثافته تقل حوالى 4، 37 مرة عن كثافة الهيدروجين. يمتاز الغاز بأنه عديمُ الطعم، ولكنه ليس عديم الرائحة؛ وهو يحتَرق حين يكون نقيّاً مُصدراً وهجاً يميل إلى الاخضرار، وهو قاتل على الفور لكل أنواع الحياة الحيوانية. إنّ السر الإجمالي الذي لا أرى غضاضة في البوح به، والحق يقال، يعود إلى (كما ألمحت إلى ذلك سابقاً) مواطن من نانتز في فرنسا، والذي نقل لي ذلك بعد أن فرض شروطاً. وعرض لي ذلك الشخص، دون أن يعرف نواياي البتة، طريقة صنع المناطيد من مواد مُستخرجة من جلد حيواني، وهذه المادة تكاد تجعل تسرّب الغاز مُستحيلاً. ولكني وجدت ذلك

مُكلفاً كثيراً، ولم أشك على الإطلاق فيما إذا كان قماش الموسلين الذي يُطلى بالغراء المطاطي لا يُماثل ذلك في الجودة. أتطرّق هُنا إلى هذه المسألة بالذات لأنّي أعتقد أنّ من الجائز أن يُحاول الشخص الذي أشرت إليه في وقت لاحق صنع منطاد يحلق بالغاز الجديد الذي تكلّمت عنه، ولست أرغب في حرمانه من شرف أي ابتكار يُقدّمه إلى البشرية.

«على البقعة التي كنت أنوي أن أضع فيها كل تلك البراميل الصغيرة واحداً بعد الآخر أثناء مرحلة نفخ المنطاد، قمت بصورة سرية بحفر خندق صغير عمقه قدمان؛ وقد أدّت الحفر إلى تشكّل دائرة قطرها خمسة وعشرون قدماً. في وسط هذه الدائرة، أي: الموقع المُخصّص للبرميل الكبير، عملت أيضاً حفرة عمقها ثلاثة أقدام. في كل حفرة من تلك الحفر الخمس الصغيرة، وضعت علبة تحتوي على خمسين رطلاً، وفي الحفرة الأكبر وضعت برميلاً يتسع لمائة وخمسين رطلاً من بارود المدافع. وربطت هذا البرميل والعلب كما ينبغي بسلاسل مُغطاة في عناية؛ وبعد أن تركت في إحدى العلب طرف خيط من الثقاب البطيء الاشتعال طوله أربعة أقدام، غطّيت الحفرة بالتراب، ووضعت البرميل فوقها، وتركت بوصة تقريباً من الطرف الآخر لخيط الثقاب تنتأ منها، ولا تكاد تُرى من وراء البرميل. بعد ذلك ملأت الحفر الباقية بالتراب، ووضعت البراميل الباقية فوقها في أماكنها المُحددة!.

«إلى جانب المواد التي أشرت إليها آنفاً، نقلت إلى موقع العمل، وأخفيت هُناك، إحدى الوسائل المحوّرة التي ابتكرها م. غريم على جهاز تكثيف الهواء الجوي. إلّا أنّي وجدت هذه الماكينة تتطلّب مزيداً من التحويرات قبل أن يُصبح بالإمكان استخدامها للأغراض التي كنت أنوي تطبيقها. ولكن، بجهود مُضنية [88]ومواظبة مُستمرة تمكنت من تحقيق نجاح مُبهر في تحضيراتي كلها. وسرعان ما انتهيت من المراحل الأخيرة لتصنيع منطادي. كان المنطاد يتسع لأكثر من أربعين ألف قدم مُكعّب من الغاز؛ ومن المُتوقع أن يُقلني إلى السماء بكل سهولة، كما قدّرت، مع جميع أدواتي الضرورية، وإذا جرت الأمور على النحو الذي أطمح إليه، فسوف يحمل مائة وخمسة وسبعين رطلاً من الأثقال في

الرحلة. وطليت المنطاد بثلاث طبقات من الورنيش، ووجدت نسيج الموسلين يُلبي المُتطلبات كافة التي أُريدها فهو ناعمٌ كالحرير ذاته، مع أنّه متينٌ تماماً وأقلّ تكلفة إلى درجة كبيرة.

«بعد أن أصبح كل شيء جاهزاً الآن، أخذت عهداً على زوجتي بأن تلتزم أقصى درجات الصمت والكتمان بخصوص تصرفاتي منذ زيارتي الأُولى إلى بائع الكتب؛ ووعدتها بدوري أن أعود حالما تسمح لي الظروف بذلك، وأعطيتها القليل من النقود التي بقيت عندي، وودعتها. في الواقع لم أكن أشعر بأي نوع من الخوف عليها. كان الناس جميعاً يعرفون أنّها امرأة مُحترمة ويُعتمد عليها في الشدائد، وبإمكانها تدبّر أمور الحياة دون أدنى مُساعدة مني. لئن توخّينا الصدق، يُخيّل إليّ أنها كانت طوال حياتنا معاً تعتني بي كما تعتني أي امرأة بولد عابث يقضي وقته في التسكّع، مع أنّي اعتبرتها من سقط المتاع فحسب، ولا تُصلح لشيء إلا لبناء قصورٍ في الهواء، وكانت تشعر بالسعادة على كل حال لأن تتخلص مني. في ليلة حالكة السواد ودّعت زوجتي، واستصحبت معي كمُساعدين الدائنين الثلاثة الذين تسبّبوا لي بمتاعب جمّة، ونقلنا المنطاد وعربته والمُستلزمات كافة عبر دروب مُلتوية، إلى الموقع الذي أودعنا فيه المواد الأُخرى. ووجدنا كل شيء كما تركناه هُناك، ومضيت حالاً إلى إكمال ما تبقّى من العمل.

«حدث ذلك في اليوم الأول من نيسان[6]. وكانت ليلة مُظلمة كما قلت؛ لم نُشاهد أثراً لنجمة واحدة تلوح في السماء؛ وكانت زخات من المطر تتساقط بتقطّع، وذلك ما جعلنا نشعر بشيء من القلق. كان المصدر الأساسي لتوجّساتي يتعلّق بالمنطاد، فعلى الرغم من الطلاء الذي لا بُدّ أن يحميه، إلّا أنّه أصبح أثقل وزناً بسبب الرطوبة؛ والبارود أيضاً كان من الجائز أن يفسد. ولذلك جعلت رفاقي الذين كانوا يطالبونني بالديون في إلحاح يعملون دون كلل أو ملل،

(6) يوم 1 نيسان وفيه ما يُسمى لدينا «كذبة نيسان» وهو شيء يتناسب مع الأجواء الخيالية للقصة. [المترجم]

ويُزيلون الثلج الذي تراكم حول البرميل الضخم، ويمسحون المادة الحمضية عن البراميل الأُخرى. غير أنّهم لم يتوانوا عن مُضايقتي بأسئلتهم اللحوحة عن الغرض من كل هذه المواد والتجهيزات، وقد أبدوا عدم الاقتناع من المجهود الذي جعلتهم يبذلونه. لم يستطيعوا أن يفهموا، في ما يبدو، ما هي المنفعة التي قد تُرجى من تعريض أنفسهم للرطوبة في ذلك الجو البارد، لمُجرّد الاشتراك في مثل هذه الخُرافات الفظيعة. وبدأ المزيد من القلق ينتابني، وابتكرت لهم الذرائع بما أُوتيت من سعة الخيال، لأنّي كنت على قناعة تامة من أنّ هؤلاء الأغبياء يتخيّلون حتماً أنني عقدت اتفاقاً مع الشيطان، أو [89]أنهم باختصار يرون أنّ ما فعلته شيء تافه فحسب. وهكذا استبدّت بي شتى الأوجال من أنّهم ربما تخلّوا عني. ولكني جاهدت نفسي لترضيتهم من خلال الوعود التي أعطيتها لهم بتسديد الديون كلها دفعة واحدة حالما أتمكّن من إتمام مشروعي الحالي. إزاء هذه المُحاولات الحثيثة لإقناعهم طرحوا طبعاً آراءهم الخاصة؛ ولا ريب في أنّهم تخيّلوا أنّني على كل حال سوف أحصل على كميات وافرة من الأموال بسهولة؛ شريطة أن أدفع لهم مُستحقاتهم السابقة كلها، بل الأكثر من ذلك تسديد ثمن خدماتهم، أكاد أجرؤ على القول: إنهم لم يكترثوا كثيراً لروحي ولا لمصير جثتي.

«بعد حوالى أربع ساعات ونصف وجدت المنطاد قد جُهّز بما يكفي من الغاز. وقمت بربط عربة ركوب الأشخاص، ونقلت إليها المُستلزمات الضرورية كافة: تلسكوب، وبارومتر أجريت عليه بعض التعديلات، وثرمومتر، والكترومتر، وبوصلة، إلخ، إلخ، إلخ.. فضلاً عن كرة زجاجية مُفرّغة من الهواء، ومُغلقة بسدادة مُحكمة.. ولم أنس أجهزة تكثيف الهواء طبعاً، وكمية قليلة من الكلس غير المُطفأ، وقضيب من شمع الأختام، وكمية وفيرة من الماء، وكمية لا بأس بها من المؤن، مثل البميكان[7] الذي يحتوي على مواد غذائية عالية مُقارنة بحجمه الصغير. وكذلك حرصت على أن أضع في العربة زوجاً من الحمام الزاجل وقطة.

---

(7) البميكان: طعام مركّز من أطعمة هنود أمريكا الحمر يتألف من لحم هبر مفروم مُقدد وممزوج بالدهن المُذوب. [المترجم]

ثمّ أوشك الصبح أن ينبلج، وأيقنت أن قد حان الوقت للانطلاق في رحلتي. أسقطت سيجاراً مُشتعلاً على الأرض، وكأن ذلك يحصل مُصادفة، وانتهزت الفرصة فانحنيت لكي ألتقطه، وأضرمت بنفسي عود الثقاب البطيء الاشتعال الذي كان طرفه، كما أسلفت، ينتأ قليلاً من خلف حافة أحد البراميل الصغيرة. هذه المُناورة بكل تفاصيلها لم ينتبه إليها الدائنون الثلاثة؛ ثم قفزت إلى داخل العربة، وقطعت في الحال الحبل الوحيد الذي يشدني إلى الأرض، وأحسست بالبهجة الغامرة حين انطلق المنطاد صاعداً إلى السماء بسرعة لا يُمكن تصورها حاملاً معه بكل سهولة مائة وخمسة وسبعين رطلاً من أثقال الموازنة المصنوعة من الرصاص، وكان قادراً أيضاً على حمل المزيد من الأثقال. في الوقت الذي تركت فيه الأرض كان مؤشر البارومتر يتذبذب عند نقطة ثلاثين بوصة، ودرجة الحرارة في الثرمومتر تُشير إلى 19 مئوية.

«ولكن لما وصلنا إلى ارتفاع خمسين ياردة هبّ إعصار كثيف من الدخان، فكانت النار تدمدم مُتجهة إلى الأعلى في صخب وعنفوان، واختلط سيل من الدخان والكبريت، والسيقان، والأذرع، والحصى، والخشب المُحترق، والمعدن المُلتهب، فغطس قلبي في أعماقي، وسقطت في قعر العربة، وصرت أرتعش مذعوراً. في [90]الواقع لقد أدركت هُنا أنني ربما بالغت كثيراً في تنفيذ هذا العمل، مع أنّ النتائج الواضحة للحريق لم تزل غير معروفة. تبعاً لذلك، في أقل من ثانية، أحسست أنّ ما في جسمي من الدماء كانت تندفع إلى صدغي، وفجأة حدث ارتجاج لن أنساه أبداً في عتمة الليل بدا كأنه يُمزّق قبة السماء. وحين أُتيح لي فيما بعد وقت للتأمل، لم يكن من العسير أن أعزو ذلك الانفجار الشديد، قدر تعلّق الأمر بي، إلى سببه الصحيح.. إذ كان موقعي فوق بؤرة الانفجار مُباشرة، على خط قوّته العظمى. ولكني في ذلك الوقت لم أُفكر إلّا في إنقاذ حياتي. تهاوى المنطاد في بداية الأمر، ثم تمدّد حجمه كثيراً، فصار يدور ويدور بسرعة مُرعبة، وأخيراً، تمايل وتأرجح مثل رجل ثمل، ودفعني بقوة فارتطمت بحافة العربة، وأصبحت مُعلّقاً على ارتفاع شاهق ورأسي مُتجه إلى الأسفل، ووجهي إلى الخارج، ولم يمنعني من السقوط إلا قطعة حبل نحيف

طولها ثلاثة أقدام تقريباً اتّفق أن كانت تتدلّى من شق بالقرب من قعر العربة ذات الأغصان المجدولة، وقد أنعمت عليّ العناية الإلهية بلطفها فتعلّقت قدمي اليسرى بالحبل. إنه لشيء مُستحيل.. مُستحيل حقّاً.. أن تكون لدى المرء أي فكرة كافية لتصور مدى الرعب الذي اجتاحني في موقفي ذاك. كنت ألهث في نوبات من التشنج ساعياً لالتقاط أنفاسي.. واعترتني رعشة كأنّي أصبت بالملاريا فاختلج كل عصب وعضلة في جسدي.. وأحسست بعيني توشكان أن تقتلعا من محجريهما.. ودهمتني نوبة غثيان.. ثم أُغمي علي.

«من المُستحيل عليّ تقدير المدة التي بقيت فيها على هذه الحال. ولكن لا بُدّ أنّ ذلك كان وقتاً لا يُستهان به، لأني عندما أفقت جزئياً من الغيبوبة واستردت وعيي، وجدت الشمس على وشك الشروق، وكان المنطاد على ارتفاع شاهق فوق المُحيط القاحل، وليس هُنالك من أثر للأرض على امتداد واسع من الأُفق. لم تكن أحاسيسي لدى استعادتي وعيي مُفعمة بالألم المُبرح، كما قد يتوقع المرء. في حقيقة الأمر، كنت أحس كما لو أنّي شخص استبدّ به مَسٌّ من الجنون إلى درجة فظيعة بعد مسح عاجل للموقف الذي ألمّ به. رفعت يدي إلى عيني، واحدة بعد الأُخرى، وتساءلت عن السبب الذي جعل عروقي تنتفخ هكذا، لماذا كانت أظافري مُسودة بتلك الصورة المُروعة؟ بعدها تفحّصت رأسي في دقة، هززته مرة بعد مرة، وتلمّسته باهتمام، حتى استطعت أن أقنع نفسي بأنّه لم يكن، كما ساورتني الشكوك، أكبر حجماً من المنطاد. ثم بحثت جاهداً في جيوب بنطلوني فلم أعثر فيها على علبة من الحبوب وأُخرى تحتوي على أعواد الأسنان، وحاولت تعليل سبب فقدانهما، وبما [91]أنّني عجزت عن ذلك، فقد انتابني انزعاج لا يوصف. تبيّن لي الآن أنّني كنت أُعاني من آلام في مفصل كاحلي الأيسر وتوصّل ذهني الكئيب إلى إدراك مدى خطورة موقفي. هُنالك شيء غريب! لم أكن أشعر بالذهول ولا بالرعب من خطورة موقفي. إن كنت أشعر بأي شيء على الإطلاق، فقد شعرت بنوع من الاقتناع المُثير للضحك إزاء الفطنة التي أوشكت أن أبديها في تخليص نفسي من هذا المأزق؛ لم أكن، في أي لحظة من تلك اللحظات العصيبة، أنظر إلى إمكانية خلاصي من المحنة

المؤكدة بصفتها مسألة قابلة للشك. بقيت بضع لحظات أتمرّغ في تأملات عميقة الغور. واستعدت بعض الذكريات البعيدة، مثال ذلك أنني كنت أضغط على شفتي بين الحين والحين، وأضع إبهامي على جانب أنفي، وأقوم بإيماءات وحركات لعلّها مألوفة لدى الرجال الذين يسترخون بتكاسل على أرائكهم الوثيرة ويتفكّرون في مسائل مُعقّدة ذات أهمية قصوى. بعد أن لملمت أفكاري، كما خُيّل إليّ، بصورة كافية، وضعت يدي الآن في حذرٍ شديد وتعمد وراء ظهري، وفككت إبزيم حزامي وأنا في حالتي التي لا توصف تلك. هذا الإبزيم له ثلاثة أسنان، وبما أنّها كانت صدئة بعض الشيء، فقد التفت على محورها.. أدرتها رغم ذلك بصعوبة حتى جعلتها تتحرّك في زوايا إلى اليمين من هيكل الإبزيم، وشعرت بالفرح لأنّها بقيت ثابتة في ذلك الوضع. أمسكت الأداة هكذا بين أسناني، وهُنا مضيت أفتح العقدة التي في ربطة عنقي. كان عليّ أخذ قسط من الراحة عدة مرات قبل أن أتمكّن من إنجاز تلك المُناورة، غير أنّ المُحاولة نجحت أخيراً. بعد ذلك أدخلت طرف ربطة العنق سريعاً في الإبزيم، والطرف الآخر ربطته بقوة، لضمان أقصى درجات الأمان، حول خصري. وهكذا سحبت جسدي إلى أعلى، بجهد عضلي استثنائي، ونجحت أُولى مُحاولاتي في إلقاء الإبزيم فوق العربة، حتى تعلّق، كما توقعت، في إطارها الدائري.

«صار جسمي مائلاً الآن إلى أحد جوانب العربة، في زاوية مقدارها خمس وأربعون درجة تقريباً؛ يقيناً سوف يفهم القارئ أنّني لهذا السبب وحده وجدت نفسي مُنحرفاً عن المُستوى العمودي مثل ذلك الانحراف. لو تجاهلنا كل ذلك، فقد بقي جسمي مُتدلّياً في خط يوازي الأفق تقريباً؛ إلّا أنّ التغيّر الذي حصل في هذا الوضع كان من شأنه أن يؤدي إلى ابتعاد قعر العربة حتى أصبح بعيداً جدّاً عن مُتناول يدي، وذلك طبعاً يُشكّل خطراً يُنذر بالموت. ولكن علينا أن لا ننسى شيئاً آخر، لدى سقوطي من العربة في المقام الأول، لو أنّ رأسي كان باتّجاه المنطاد، عوضاً عن أن يكون مُتجهاً إلى الخارج، وهو ما حدث بالفعل؛ بعبارة أُخرى، لو صادف أن تعلّق الحبل الذي تشبثت به بالحافة العليا، عوضاً عن فتحة بالقرب من العربة.. [92]أقول، ربما سوف يفهم القارئ هذا الأمر ببساطة،

في أي حالة من هذه الحالات المُفترضة، لكنت قد عجزت عن تحقيق الكثير من الأمور التي حقّقتها هُنا، ولضاعت المُغامرات الرائعة التي نرويها الآن وذهبت أدراج الرياح؛ إذن لدي من الأسباب ما يجعلني أشعر بالامتنان؛ على الرغم من أنّي في الواقع ما زلت إنساناً غبياً لا يقدر أن يُحقق أي شيء، وربما بقيت أتعلّق ربع ساعة على ذلك النحو الاستثنائي، دون أن أبذل أدنى مجهود مهما كان نوعه، في حالة سكون فريدة من نوعها، مُستمتعاً بوضعي ذاك كأي إنسان معتوه. غير أنّ هذا الشعور لم يتبدّد بسرعة، بل أعقبه رعب، وفزع، وقشعريرة نتيجة للعجز عن إتيان أي شيء وتوقع الهلاك في كل لحظة. في حقيقة الأمر، كانت الدماء تتجمع منذ حين في عروق رأسي وحنجرتي، ودفعت روحي للانجراف نحو تخوم الجنون والهذيان، وهُنا بدأت أتقهقر باتّجاه تلك المُقتربات المُغرية، وساهم إحساس مُختلف أُضيف إلى إدراكي للخطر المُحدق بي في حرماني من تمالك نفسي ومن الشجاعة اللازمة للتغلّب على كل تلك المحن. غير أنّ هذا الضعف، لحسن حظي، لم يدم طويلاً. فبعد قليل من الوقت جاءت لنجدتي روح مُناقضة لليأس، وبصرخات مسعورة ومُحاولات كفاح غير معهودة، دفعت جسدي إلى الأعلى، حتى تمكّنت من الإمساك بقبضة كأنها مُلزمة حديدية بالحافة العليا التي سعيت إليها جاهداً، والتفّ جسدي عليها، وسقطت على رأسي وأنا أرتعش رعباً في داخل العربة.

«أعقب ذلك وقت طويل قبل أن أسترد وعيي إلى درجة تكفي لكي ألتفت إلى ما لحق بالمنطاد من أضرار. فأخذت أتفحص منطادي باهتمام، ووجدته وقد أحسست بارتياح عظيم غير مُصاب بأضرار جسيمة. كانت أدواتي كلها سليمة، ولحسن الحظ، لم أفقد أي شيء من أثقال الموازنة ولا المؤن. في الواقع، كنت قد أمنتها جيداً في أماكنها، بحيث لم يؤثر ذلك الحادث بها على الإطلاق. ألقيت نظرة على ساعتي، فوجدتها تُشير إلى السادسة. كان المنطاد لا يزال مُستمراً في الصعود بسرعة، والبارومتر يُشير إلى ثلاثة أميال وثلاثة أرباع الميل من الارتفاع. تحتنا مُباشرة على المحيط لمحنا شيئاً صغيراً أسود اللون، مستطيل الشكل قليلاً، يبدو بحجم قطعة الدومينو، ومن النواحي كافة يُشبه إحدى لعب

الأطفال. تناولت تلسكوبي لأنظر عن قرب إليه، فأيقنت أنّها سفينة بريطانية حربية ذات أربعة وتسعين مدفعاً، متينة البنيان وتتمايل تمايلاً شديداً على البحر ومُقدّمتها باتّجاه الغرب أو الجنوب الغربي. إلى جانب هذه السفينة لم أُشاهد شيئاً سوى المحيط والسماء الزرقاء، والشمس، التي أشرقت منذ زمن طويل.

«يبدو أنّ الوقت قد حان الآن لكي أشرح لمعاليكم الغرض من رحلتي المشؤومة هذه. لا بدّ أنّ معاليكم تتذكّرون تلك الظروف الصعبة التي كانت تعيشها [93]روتردام والتي أجبرتني أخيراً على اتّخاذ قرار الانتحار. لم أكن في الواقع أشعر بالاشمئزاز الحقيقي من حياتي نفسها، ولكنّي لم أعد أحتمل المآسي الطارئة التي كانت تكتنف ظروف حياتي بين الحين والحين. إزاء مثل هذا الوضع الذهني المُرتبك، بين الرغبة في العيش، وبين الضجر من الحياة، فقد فتح البحث الذي اطّلعت عليه في كشك بيع الكتب أمامي آفاقاً واسعة للخيال، فضلاً عن الدعم الذي أسعفني به اكتشاف ابن عمي من نانتز. حتى توصّلت في نهاية المطاف إلى قرار ما. لقد عقدت العزم على الابتعاد والرحيل، على أن أعيش رغم كل شيء.. أن أترك هذا العالم الأرضي، ولكن أستمر في الحياة.. باختصار، قرّرت أن أحسم أمر هذا الجدل المُحير، بغض النظر عن جميع العواقب، أن أشق طريقي بكل ما أُوتيت من قوة، نحو القمر. الآن، خشية أن يظن الناس أنّني معتوه أكثر ممّا أنا عليه، سوف أتطرق بالتفصيل، على قدر استطاعتي، إلى الاعتبارات التي دفعتني للاعتقاد بأن الإنجاز الذي أطمح إليه ربما يتحقق بهذه الطريقة، رغم أنّه، ولا ريب في ذلك، شيءٌ صعب المنال، وحتماً مليء بالمخاطر، إلا أنّه ليس خارج نطاق الإمكانات بالنسبة إلى الروح التي تتحلّى بالجرأة.

«إنّ المسافة الحقيقية التي تفصل القمر عن الأرض هي المسألة الأُولى التي ينبغي أن توضع نصب العين. والآن، مُتوسط أو مُعدّل المسافة بين مركزي الكوكبين هي 59,9643 عن نصف القطر الاستوائي للأرض، أي: حوالى 237,000 ميل. أؤكد هُنا على مسألة المُتوسط أو المُعدل. ولكن لا بدّ من القول إنّ مدار القمر يتّخذ شكل قطع ناقص ينحرف بمقدار لا يقلّ عن 0,05484

نصف المحور الرئيسي للقطع الناقص نفسه، ومركز الأرض يقع في بؤرته، فإذا تمكّنت بأي طريقة أن أبتكر وسيلة للوصول إلى القمر، في مكانه الذي يستقر فيه، وهو في أدنى نقطة من المدار، فالمسافة المُشار إليها أعلاه سوف تتقلّص فعلياً. ولكن، إذا تجاهلنا مؤقتاً هذا الاحتمال، فمن المُحقق على كل حال أنّه يتوجب عليّ أن أنقص من مسافة 237,000 ميل نصف قطر الأرض، ولنفترض أنّه 4,000، ونصف قطر القمر، ولنفترض أنّه 1080، والمجموع هو 5,080 فتبقى عندئذ مسافة حقيقية علينا اجتيازها في ظروف اعتيادية ومقدارها 231,920 ميلاً. والآن، تلك المسافة كما تصوّرت ليست بعيدة بُعداً خارقاً. كان قطع المسافات على الأرض يتحقّق على الدوام بمعدل ستين ميلاً في الساعة، وفي الواقع ربما يُمكننا توقع قطع مسافة أكبر من هذه إذا سرنا بسرعة أكبر. إلّا أنّه حتى ضمن حدود هذه السرعة، لن يستغرق قطع المسافة المطلوبة أكثر من 161 يوماً بقصد الوصول إلى سطح القمر. ومع ذلك، هُنالك أمور مُحددة تقودني للاعتقاد بأنّ مُعدل المسافة التي سوف أقطعها ربما تجاوز ستين ميلاً في الساعة، ولأنّ هذه الاعتبارات تركت انطباعاً عميقاً في ذهني، سوف أتطرق إليها بالتفصيل لاحقاً.

«المسألة التالية التي لم يكن بدّ من أخذها بنظر الاعتبار تُعتبر ذات أهمية [94]أكبر: من خلال المؤشرات التي ظهرت على البارومتر وجدنا، عن طريق مُتابعة مراحل الارتفاع المُتحقق عن سطح الأرض، أننا عندما وصلنا إلى ارتفاع 1,000 قدم، نكون قد تركنا تحتنا حوالى واحدٍ من ثلاثين جزءاً من الكتلة الإجمالية للغلاف الجوي، وأننا عند ارتفاع 10,600 نكون قد قطعنا تقريباً ثلث المسافة؛ وعند ارتفاع 18,000، الذي لا يبعد كثيراً عن قمة جبل كوتوباكسي[8] نكون قد قطعنا نصف المسافة، أو على الأقلّ نصف الغلاف الجوي الذي يكتنف كرتنا الأرضية ويكون قابلاً للقياس. وقدّرنا أيضاً أنه عند ارتفاع لا يتخطّى واحد بالمائة من قطر الأرض.. أي: لا يُجاوز ذلك ثمانين ميلاً.. يُصبح تخلخل الهواء

(8) كوتوباكسي: جبل بركاني شاهق في سلسلة جبال الأنديز يقع على بعد 50 كم جنوبي كويتو، الإكوادور. [المترجم]

شديداً بحيث يصعب بقاء الكائن الحي هُناك، وحتى الوسائل الدقيقة التي نمتلكها للتحقّق من كثافة الهواء الجوي لا تكفي للتوصّل إلى إمكانية وجوده. ولكنّي أدركت أيضاً أنّ الحسابات الأخيرة تقوم كلها على معرفتنا التجريبية بخصائص الهواء، وعلى القوانين الرياضية التي تحكم التمدد والانضغاط، في ما يُمكن أن يُسمى، إذا تكلّمنا بأسلوب تقريبي بعض الشيء، المناطق المُتاخمة مُباشرة للأرض ذاتها؛ وفي الوقت ذاته، حتماً فإنّ حياة الكائن الحي تكون غير قابلة للتكيّف أساساً مع أي مسافة مُحددة خارقة للتصورات يُمكن بلوغها بعيداً عن السطح. هُنا، من المُحقق أن تتوافق مسارات تفكيرنا مع هذه المُعطيات بكل بساطة. إنّ أقصى ارتفاع وصل إليه الإنسان في أي وقت من الأوقات كان 25,000 قدم، وقد تحقّق ذلك ضمن رحلة استكشاف للفضاء قام بها السيدان غاي لوساك وبيوت. وهذا ارتفاع لا بأس به حقّاً، حتى إذا قورن مع الثمانين ميلاً التي نتكلّم عنها؛ وليس في وسعي إلا التفكير في أنّ الموضوع ينفتح على شتى الاحتمالات ويستحق قدراً كبيراً من التأمل.

«ولكن، في حقيقة الأمر، لدى بلوغ أي مُستوى إضافي من الارتفاع نرى أنّ كمية الهواء الكثيف على نحو لا بأس به أو القابلة للقياس التي يتمّ تجاوزها في مرحلة من المراحل لا تتناسب مع أي ارتفاع إضافي يتحقّق (كما نُلاحظ ذلك بسهولة من خلال ما ذكرناه آنفاً)، ولكن يُلاحظ أنّ النسبة تتقلّص باستمرار. ولهذا يتّضح أننا إذا أردنا الوصول إلى الارتفاع المنشود، لن نتمكّن من الناحية العملية من بلوغ مُستوى مُعيّن من الارتفاع لا وجود بعده لغلاف جوي. مع أنّي أزعم أنّه لا بدّ من وجود ذلك الغلاف، ربما في حالة تخلخل لا حدود لها.

«من ناحية أُخرى، توصلتُ إلى أنّ ما كان يدور من المُناقشات لا ينفي أبداً وجود طبقة حقيقية محدودة الأبعاد من الغلاف الجوي، وما وراء تلك الطبقة لا يوجد أثر للهواء حتماً. غير أنّه تبيّن لي أنّ هُناك مسألة أُخرى أهملها هؤلاء الذين تنافسوا فيما بينهم للوصول إلى هذه الطبقة الأخيرة، مع أنّ هذا لا يعني تفنيد [95]اعتقاداتهم بالفعل، ولا تزال هذه المسألة تستحق الاهتمام والتأمل بشكل جاد. لدى إجراء مُقارنة دقيقة جدّاً للفترات الفاصلة بين مراحل ظهور

مذنب أينكي ونقطة الرأس أو الحضيض[9] الخاصة به، وبعد أن تؤخذ بنظر الاعتبار جميع التقلبات التي تحصل نتيجة لجاذبية الكواكب الأخرى، يبدو لنا أنّ تلك المراحل كانت تتقلّص تدريجياً؛ بمعنى آخر، يتعرّض المحور الرئيسي للمسار البيضوي الذي يسلكه المذنب إلى نقصان مُستمر، ويكون في حالة تقلص بطيء ولكن في انتظام تام. والآن، هذه هي المسألة التي نُريد توضيحها، إذا افترضنا وجود مُقاومة يُسلّطها المذنب من خلال وسط أثيري مُتخلخل يسود المناطق التي يمرّ بها مداره. من الواضح أنّ هذا الوسط، مع تباطؤ سرعة المُذنّب، لا بدّ أن يتزايد معدّل انجذابه باتّجاه المركز، وذلك ما يحدث مع تناقص قوّته الطاردة المركزية. بعبارة أُخرى، تكتسب جاذبية الشمس قُدرة عُظمى، والمذنّب ينجذب نحوها أكثر فأكثر مع كل دورة من دوراته. في الواقع، لا توجد طريقة أُخرى لتسوية وتعليل المُتغيرات التي نتناولها هُنا. ولكن، مرة أُخرى، يُلاحظ أنّ القطر الحقيقي للمادة السديمية التي يتألف منها المُذنّب نفسه تزداد تماسكاً بصورة سريعة مع استمرار اقترابه من الشمس، وهي تتمدّد بسرعة مُماثلة لدى ابتعاده نحو نقطة الأوج[10]. إذن ألم تكن آرائي مُبررة حين افترضت، انسجاماً مع آراء م. فالز، أنّ مثل هذا التكثيف الواضح في الحجم يستمد جذوره من انضغاط الوسط الأثيري ذاته الذي تكلّمت عنه من قبل، والذي يكون أكثر كثافة قياساً إلى قربه النسبي من النظام الشمسي فحسب؟ كانت ظاهرة الشكل المُزدوج التحدّب، والتي تُدعى أيضاً ضوء البروج، مسألة تستحق الاهتمام حقّاً. هذا المصدر الإشعاعي الذي يبدو واضحاً تمام الوضوح في المدارات، والذي لا يُمكن للمرء أن يرتكب خطأً فينسبه إلى أي نوع من لمعان الشهب والنيازك، يتمدّد ويتوسّع ابتداء من الأفق على نحو مُنحرف للأعلى، ويتبع عموماً اتّجاه خط الاستواء الشمسي. لقد ظهر لي بصورة واضحة أنّها من الخصائص النادرة للغلاف الجوي الذي يتمدّد من الشمس إلى الخارج، ويجاوز مدار فينوس على

(9) الحضيض الشمسي، أو نقطة الرأس: أقرب نقطة في مدار الكوكب السيّار أو أي جرم سماوي آخر إلى الشمس. [المترجم]

(10) الأوج: النقطة التي يكون فيها الكوكب السيار أبعد ما يُمكن عن الشمس. [المترجم]

الأقل، وإنّما اعتقدت بأشياء أُخرى أبعد من هذا[*1] في الواقع، لم يكن في وسعي اعتبار هذا الوسط مقصوراً على مسار القطع الناقص للمُذنّب، أو على القرب المُباشر من الشمس. كان من السهولة، على النقيض من ذلك، تخيّل أنّ هذه الظاهرة تسود الأماكن كلها في منظومة الكواكب التي نعرفها، إذ يحصل تكثف ويظهر ما نُسميه الغلاف الجوي للكواكب ذاتها، وربما في بعض هذه الكواكب تتغيّر الظاهرة على نحو ما، إذا جاز التعبير، لاعتبارات جيولوجية بحتة؛ بمعنى آخر، نتيجة لأبخرة تنبعث من أجرام سماوية أُخرى.

«بعد أن اقتنعت بوجهة النظر هذه حول الموضوع، اعتراني شيءٌ من التردد أيضاً. بما أنني كنت على ثقة من أني خلال المسار الذي سوف أسلكه، لا بد أن [96]أقابل نوعاً من الغلاف الجوي الذي يُشبه أساساً ذلك الغلاف نفسه الذي يكتنف سطح الأرض، فقد تصورت، اعتماداً على الجهاز العبقري نفسه الذي ابتكره م. غريم، أنّني سوف أتمكّن بسهولة من تكثيف الهواء بكمية تفي لأغراض التنفس. ومن شأن هذا أن يُزيل العقبة الكأداء التي تعترض الرحلة إلى القمر. كنت في الواقع قد أنفقت بعض النقود والكثير من الجهد في تعديل الجهاز لكي يتلاءم مع الغرض المنشود، وتطلّعت في ثقة بالغة إلى تطبيقه بنجاح، إذا تمكّنت من إكمال الرحلة ضمن فترة معقولة. وهذا ما يجعلني أعود لتناول مُعدّل السرعة الذي بالإمكان توقّعه في رحلتي.

«صحيحٌ أنّ المناطيد، خلال المرحلة الأُولى من صعودها إلى السماء بعد أن تترك الأرض، يُعرف أنها تُحلّق بمُعدل سرعة مُعتدل نسبياً. وهُنا لا بُد من القول: إنّ القدرة على الارتفاع تكْمن على الإجمال في خاصية الخفة الفائقة للغاز المُستعمل في المنطاد مُقارنة مع الغلاف الجوي؛ للوهلة الأُولى، لا يبدو من المُحتمل مع اكتساب المنطاد للارتفاع، وبالتالي وصوله تدريجياً إلى طبقات جوية عليا ذات كثافة تتقلّص على نحو سريع.. أقول، لا يبدو من المعقول على

(*1) ربما كان ضوء البروج هو ما أسماه القدماء ترابيز *Emicant Trabes quos docos vocant*. بليني، 2، ص 26.

الإطلاق، ضمن هذا المسار المُتسارع إلى الأعلى، أن يتزايد معدل السرعة الأصلي للمنطاد. من ناحية أُخرى، لم أكن أُدرك، من خلال أي تسجيل موثّق لارتفاع منطادٍ، أنّ هُناك نقصاً يحصل في المعدل المُطلق للارتفاع؛ على الرغم من أنّ هذه الحالة ينبغي أن تعتبر صحيحة، وليس من شك في أنّها كذلك، إن لم يكن ذلك لشيء آخر سوى تسرّب الغاز من المناطيد الرديئة الصنع، والتي لا تُطلى بمواد جيدة الصنع وإنما فقط بالطلاء الاعتيادي. ولذلك يبدو أنّ تأثير مثل هذا التسرّب وحده يكفي لمُعادلة تأثير القدرة على التسارع التي تحصل نتيجة لتقلص المسافة التي تفصل المنطاد عن مركز الجذب. وهكذا فكّرت الآن في أنني ما لم أجد في رحلتي الوسط الذي كنت أتخيله، وما لم يتّضح أساساً وبصورة فعلية أنّ ذلك هو ما نُسميه هواء الغلاف الجوي، فليس هُناك فارق مؤثر نسبياً إذا ما وجدنا ذلك الوسط في حالة بالغة من التخلخل.. بمعنى آخر، بمقدار ما يتعلّق الأمر بقدرتي على الصعود المُستمر.. لأنّ الغاز ذاته في المنطاد لن يخضع للتخلخل الجزئي على نحو مُماثل فحسب (وبما يتناسب مع احتمال كهذا، فيُمكن أن أضطر لمواجهة تسرّب كمية من الغاز تكون ضرورية لتفادي حدوث الانفجار)، ولكن بما أنّه من النوعية التي ذكرتها، فهو في كل الأحوال يبقى أخف على وجه التحديد من أي مُركّب مهما كان نوعه يتألف من النتروجين والأوكسجين ليس إلّا. ولذلك هُناك فرصة.. أو في الواقع احتمال قوي.. أنّه «لن يحدث في أي مرحلة من مراحل صعودي أن أصل إلى وضع مُحدّد تتساوى فيه الأوزان الموحدة لمنطادي الضخم الثقيل، بما فيه من غاز لا نظير له، والعربة، وما فيها من المُعدّات.. مع وزن كتلة الغلاف الجوي المُحيط بنا التي تتعرض للإزاحة»، ومن السهولة فهم هذا الأمر على أنّه الشرط الوحيد الذي تتوقّف عليه رحلة الطيران التي أقوم بها. ولكن، إذا تحقق أن وصلت إلى هذه الحالة، يُمكنني عندئذ التخلص من أثقال موازنة ومواد أُخرى ربما يصل وزنها إلى ثلاثمائة رطل تقريباً. وفي هذه الأثناء، تتقلّص قوى الجاذبية باستمرار، بالقياس إلى مُربعات السرعة، ومع سرعة مُتزايدة بمُعدلات استثنائية، ينبغي أن أصل أخيراً إلى مسافات نائية تحلّ فيها جاذبية القمر محلّ جاذبية الأرض.

«ولكن برزت أمامنا صعوبة أُخرى تسببت لي بحالة من التوجس والقلق. لاحظت أنّه مع وصول المنطاد إلى ارتفاعات لا بأس بها، وبغضّ النظر عن الألم الناتج عن صعوبات في التنفس، لا بدّ أن يواجه المرء آلاماً في الرأس وأنحاء أُخرى من الجسد، وغالباً ما يُرافق ذلك نزيفٌ حاد في الأنف، فضلاً عن أعراض مُماثلة تُنذر بالخطر، ومع ازدياد الارتفاع تزداد الحالة تفاقماً(*2) لقد بدت هذه الأفكار مُثيرة للفزع في طبيعتها بعض الشيء. أليس من الجائز أن تزداد الأعراض خطورة فتُجاوز الحد المعقول، أو على الأقلّ حتى ينتهي الأمر بالمُصاب إلى الموت؟ وأخيراً قرّرت ببساطة أنّ مثل هذا الأمر لن يحدث. فلا بدّ من البحث أولاً عن مصدر تلك الأعراض ضمن سياق تخفيف ضغط الغلاف الجوي المألوف تدريجياً على سطح الجسم، وبذلك يزول انتفاخ الأوعية الدموية.. ولا يترتّب على ذلك تعكير للفعاليات الحيوية لجسم الكائن الحي، كما يحصل حين يُعاني المرء من صعوبة التنفس، حيث تكون كثافة الغلاف الجوي غير كافية من الناحية الكيميائية لتجديد الدماء في بُطينات القلب. ولكن في حالة انتفاء الحاجة إلى هذا التجديد، لا يُمكنني أن أرى سبباً يحول دون إمكانية الحياة حتى ضمن حيز من الفراغ؛ لأنّ التمدد والانقباض في الصدر، والذي يُسمى عادة عملية التنفس، هو نشاط عضلي بحت، ويشكل السبب في التنفس، وليس النتيجة التي تترتب على ذلك. باختصار، لقد أدركت أنه مع اعتياد الجسد على حالة تخلخل الضغط الجوي، فالإحساس بالألم يتناقص تدريجياً.. ومن أجل التخلص أو الحد من الإحساس بالألم المُستمر، ارتأيت الاعتماد على صلابة مادة الحديد التي تُستخدم في صنع جهاز من ابتكاري الشخصي.

«ربما أثار هذا التصريح نوعاً من البهجة في نفوس معاليكم، رغم إسرافي الواضح في التطرّق إلى بعض التفاصيل، إلا أنّها أشياءٌ لا تخلو بالضرورة من

(*2) منذ نشر حكاية هانز فال لأول مرة، وجدت السيد غرين، وهو رجل ذو سمعة سيئة في مجال المناطيد من ناساو، وملاحين آخرين مؤخراً ينكرون تأكيدات همبولدت، في هذا الشأن، ولا يُعبرون عن قلق مُتزايد.. خاصة بما يتماشى مع النظرية التي تُطرح هُنا بروح هزلية فحسب.

[98]مغزى ذي صلة بالاعتبارات التي قادتني إلى تنفيذ مشروع رحلتي إلى القمر. سوف أنتقل الآن فأضع أمامكم النتائج التي توصّلت إليها من خلال مُحاولة جريئة بكل معنى الكلمة، أو إنجاز لا نظير له في تاريخ البشرية.

«بعد أن وصلت إلى الارتفاع الذي أشرت إليه آنفاً، أي: بعبارة أُخرى ثلاثة أميال وثلاثة أرباع الميل، ألقيت من سلة المنطاد كمية من ريش الطيور، فوجدت أنني ما زلت أصعد بسرعة كافية؛ ولذلك لم تعد هُناك ضرورة لإلقاء المزيد من أثقال الموازنة. وشعرت بالسعادة لأنّي كنت أرغب في أن أحتفظ معي بما يُمكنني حمله من الأثقال، وذلك لسبب واضح وهو أنّني ليس في وسعي أن أكون واثقاً سواءً من الجاذبية أو من كثافة الغلاف الجوي على سطح القمر. لم أكن أُعاني من أي نوع من الانزعاج الجسدي، وكنت أتنفس بحرية تامة، ولا أشعر بأي ألم مهما كان نوعه في الرأس. وتمدّدت قطتي بتكلف ظاهري على معطفي الذي خلعته، وكانت تنظر خلسة إلى الحمام الزاجل بشيء من اللامبالاة. وبما أنّ هذه الطيور مربوطة من سيقانها لمنعها من الفرار، فقد انشغلت بالتقاط بعض حبات الرز التي نثرتها في قعر العربة.

«في الساعة السادسة والثلث، أظهر لنا مؤشر البارومتر قراءة للارتفاع بمقدار 26,400 قدم، أو خمسة أميال وكسر. كانت آمالنا لا حدود لها. في الواقع، من السهولة تخيّل ذلك من خلال تأمل بسيط في هندسة الأجسام الكروية، يا لها من مناطق شاسعة مُترامية الأطراف على الأرض التي أراها تحتي. إنّ السطح المحدودب لأي قطاع من الكرة، إذا ما جرى تقسيمه على سطحها الكلي ذاته، يُساوي «فرق جيب التمام عن الواحد» لذلك القطاع مقسوماً على قطر الكرة. والآن، في حالتنا التي نُناقشها، فرق جيب التمام عن الواحد.. بمعنى، كثافة ذلك القطاع من الكرة الذي تحتي.. يُساوي تقريباً الارتفاع الذي وصلنا إليه، أي ارتفاع نقطة النظر فوق السطح. لأنّ «خمسة أميال، إذن، مقسومة على ثمانية آلاف»، تُمثل نسبة مساحة الأرض التي يُمكنني رؤيتها. بعبارة أُخرى، فأنا أرى ما مقداره ستة عشر بالمائة من السطح الكلّي للكرة الأرضية. أما البحر فكنت أراه صافياً مثل المرآة، على الرغم من أنّه يظهر من منظار مُقرّب، وكان

في وسعي تصوّره وهو في حالة عنفوان مُثيرة. يبدو أنّ تلك السفينة ما عادت مرئية، بعد أن انجرفت بعيداً إلى الشرق. بدأت الآن أعاني على فترات مُتعاقبة من ألم مبرّح في رأسي، وخاصة قرب الأُذنين.. ومع ذلك لم أكن أُعاني من صعوبة ملموسة في التنفس، وإنّما هي حالة بالإمكان احتمالها. بدا لي أنّ القطة والحمام الزاجل لا تُعاني هي الأُخرى من أي اختلال في التنفس.

«قبل السابعة بربع ساعة، اجتاز المنطاد سلسلة مُتتابعة من طبقات الغيوم الكثيفة، وتسبب ذلك لي بمتاعبٍ لا توصف، وتعطّل جهاز تكثيف الهواء، وتغطّى [99]جسدي كله بالرطوبة. إنه حدث استثنائي حقّاً، لأنّي لم أعتقد أبداً أنّ بإمكان سحابة بهذه الطبيعة الغريبة أن تبقى على هذا الارتفاع العظيم. لكنني اعتقدت أنّ من الأفضل إلقاء قطعتين تزن الواحدة منهما خمسة أرطال من أثقال التوازن، ورأيت أن أحتفظ بثقل مائة وخمسة وستين رطلاً. ما إن فعلت ذلك حتى ارتفع المنطاد بسهولة وعرفت في الحال أنّني اكتسبت زيادة ملحوظة في مُعدل الصعود. في غضون بضع ثوان، بعد الابتعاد عن تلك السحابة الشنيعة، انطلق شعاع برقٍ خاطف من أحد أطرافها إلى الطرف الآخر، مما أدّى إلى إثارة موجة مشحونة بالكهرباء امتدّت على طول حجمها الهائل، فكأنها تحوّلت إلى كتلة من فحم الخشب المُضطرم. حدث هذا، على ما أتذكر، في ضوء النهار الساطع. لا مجال لأن يتخيّل المرء تلك الصورة المهيبة التي قد لا تضاهيها أي ظاهرة تحدث حتى في ظلام الليل. لعل جهنم ذاتها تُصلح لأن تكون صورة مُعبرة أصدق تعبير عما حدث. حتى إنّ شعري انتصب على أطرافه، بينما كنت أُحملق بعيداً عن تلك الهاوية المُتثائبة، وتركت الخيال يهيم بي كيفما يشاء في تلك المفاوز المُعقدة الموحشة، والخلجان والوديان الحمراء السحيقة من النيران التي لا تُسبر أغوارها. لقد استطعت الفرار في الواقع من تلك السحابة بشق الأنفس. لو بقي المنطاد مدة أطول ولو قليلاً ضمن جوانبها.. بمعنى آخر.. لولا أن دفعني الانزعاج من الرطوبة إلى إلقاء بعض أثقال التوازن، فمن المحتوم أن يؤول مصيري إلى الدمار لا محالة. ربما اعتُبرت مثل هذه الحوادث، مع أنّها لا تحظى إلا باهتمام ضئيل، من الأخطار الأعظم شأناً التي يُمكن أن يُجابهها المرء في

المناطيد. إلّا أنّي كنت في هذه الأثناء قد اكتسبت ارتفاعاً جعلني أتخطّى تلك المحنة التي واجهتني مؤخراً.

«الآن وصلت في رحلتي إلى ارتفاعات أعلى فأعلى. ومع اقتراب الساعة السابعة أشار البارومتر إلى ما لا يقل عن تسعة أميال ونصف. ثم بدأت أحس بصعوبة في التقاط أنفاسي. وكان رأسي يؤلمني كثيراً؛ وبعد أن تلمّست منذ حين رطوبة حول خدي، اكتشفت أخيراً أنّها قطرات من الدم تنزّ على نحو مُتسارع من طبلتي الأذنين. وأحسست بوخز مُتكرر في عيني أيضاً. وحين وضعت يدي عليهما بدا لي أنهما على وشك أن تقتلعا من محجريهما بشكل مُثير للاستغراب؛ كنت أرى الأشياء الأُخرى التي في سلة المنطاد، وحتى المنطاد نفسه، مُشوشة المنظر أمامي. ثم تبيّن لي أنّ هذه الأعراض خطيرة أكثر مما توقّعت، وتوجّست خيفة. هذا التحول الطائش الذي طرأ على مجريات الأمور، والذي لم يؤخذ بالحسبان، حملني على إلقاء ثلاث قطع تزن كل واحدة منها خمسة أرطال من العربة. وكانت النتيجة أن ازداد معدل الصعود فحملني المنطاد عالياً في تسارع غير مسبوق، دون تباطؤ يكفي لتدارك الأمر، إلى طبقات عُليا من الغلاف الجوي ذات ضغط مُتخلخل، واتّضح لي أنّ ذلك من شأنه أن يؤدي إلى تحوّلٍ جذري في مسار رحلتي، وفي [100]حياتي الشخصية أيضاً. انتابتني على حين فجأة نوبة غثيان دامت أكثر من خمس دقائق، وحتى عندما تلاشى ذلك الإحساس المُقرف بعض الشيء، لم أستطع التقاط أنفاسي إلّا مُتقطعة، كنت ألهث بإعياء وأتنفس بصعوبة.. والدماء النازفة طوال ذلك الوقت تُلطخ أنفي وأُذني بغزارة، بل وجدت القليل منها على عيني. رأيت الحمام الزاجل فزعاً مُضطرباً، يُكافح جاهداً للفرار؛ بينما ظلت القطة تموء بصوت مثير للشفقة، وتدلّى لسانها خارج فمها، وترنّحت هُنا وهُناك كأنها تحت تأثير مادة سامة. اكتشفت الآن بعد فوات الأوان مدى استعجالي وغبائي في إلقاء أثقال التوازن، وكم كان غضبي عنيفاً! لم أتوقع أن تكون عاقبة سوء تصرفي أقلَّ من الموت المُحقق في دقائق معدودات. لقد ساهمت مُعاناتي الجسدية التي كابدتها أيضاً في عجزي عن القيام بأي جهد لكي أحافظ على حياتي. لم تكن لدي، في الواقع، قدرة على النظر إلى اليسار، وبدا لي أنّ عنف الألم الذي أُعاني منه في رأسي أقوى من أن يُحتمل. وهكذا وجدت

أحاسيسي وأفكاري تتلاشى وتنهار معاً، وتمسّكت الآن بخيطٍ لفتح صمامات الهواء على أمل الهبوط والتخلّي نهائياً عن الرحلة، إلّا أنّ ذاكرتي استعادت تلك الألاعيب التي كنت أُمارسها مع الدائنين الثلاثة، وتذكرت النتائج الوخيمة التي سوف أواجهها بنفسي، إذا ما رجعت، فامتنعت عن اتّخاذ ذلك القرار في آخر لحظة. استلقيت في قاع العربة محاولاً استرداد شيء من رباطة جأشي وما تيسّر من قُدراتي. وتصوّرت أنّني ربّما أتمكّن من عمل شيءٍ بشأن النزيف الذي أصابني. وبما أنّني لا أمتلك مبضعاً، فقد اضطررت لإجراء العملية بأفضل السبل التي أُتيحت لدي، وأخيراً تمكّنت من فتح وريدٍ في ذراعي اليمنى، واستخدمت في ذلك شفرة سكين صغيرة. فما كادت الدماء تبدأ في التدفّق حتى أحسست بشيء من الارتياح، وفي تلك الأثناء فقدت حوالى نصف الكمية من الدم التي يُمكن أن تملأ وعاءً متوسط الحجم، وتلاشت أغلب أعراض الألم عني. ومع ذلك لم أتخيل أنّ من المُناسب مُحاولة النهوض على قدمي حالاً؛ ولكن، بعد أن ربطت ذراعي بكل قوة بقيت مُستلقياً ربع ساعة تقريباً. ومع انتهاء هذا الوقت نهضت فوجدت أنّني تخلّصت تماماً من أي نوع من الألم الذي كنت أُعاني منه خلال ساعة وربع من صعودي لأول مرة إلى المنطاد. تلاشت أعراض صعوبة التنفس بمُعدل ضئيل جدّاً، ورأيت أنّ من الضروري فعلاً اللجوء إلى جهاز تكثيف الهواء. أثناء ذلك، حين نظرت إلى القطة التي عادت للاختباء بارتياح تحت معطفي، اكتشفت إزاء دهشتي غير المحدودة أنّها كانت قد انتهزت فرصة انشغالي فولدت ثلاث قطط صغيرة. كان ذلك طبعاً يُشكّل حملاً إضافيّاً من الركاب غير [101]متوقع أبداً من جانبي؛ ولكنّي ابتهجت لتلك الحادثة على كل حال. سوف يمنحني ذلك فرصة على الأقل لأن أخضع للاختبار مدى حقيقة حِدسٍ كان يلحّ عليّ أكثر من أي شيء مع الوصول إلى ارتفاعات أكبر. كنت أظن أنّ القدرة المُعتادة على تحمّل ضغط الغلاف الجوي على سطح الأرض هي السبب، أو تكاد تكون السبب، في الألم الذي يُصيب الكائن الحي إذا ارتفع إلى مسافة ما فوق السطح. فإذا وجدنا الهريرات تعاني من اضطراب بدرجة مُماثلة لما تعاني منه أمها، عليّ اعتبار نظريتي خاطئة، أما إذا حدث عكس هذا عندئذ ينبغي النظر للأمر بوصفه دليلاً يؤكد مصداقية فكرتي.

«في الساعة الثامنة وصلت إلى ارتفاع سبعة عشر ميلاً فوق سطح الأرض. وهكذا تبيّن لي أنّ مُعدل الصعود لا يزداد تسارعاً فحسب، بل إنّ التقدم أصبح ملموساً بدرجة ضئيلة حتى لو لم ألقِ أثقال التوازن قبل هذا الوقت. غير أنّ الآلام في رأسي عاودتني بين الحين والحين وبعنف أكبر، وكان النزيف مُستمراً من أنفي؛ ولكنّي على وجه الإجمال أحسست أنّي أُعاني اضطرابات أقلّ من المُتوقع. ومع ذلك صار التنفس بين لحظة ولحظة أكثر صعوبة، فكل نفس من الأنفاس التي كنت ألتقطها يرافقه تشنّج في الصدر. وهُنا أخرجت جهاز تكثيف الهواء، وهيأته للاستعمال في الحال.

«كان منظرُ الأرض في هذا المرحلة من الصعود جميلاً خلاباً. إلى الغرب، والشمال، والجنوب، وعلى امتداد البصر، ينبسط بكل وضوح مُحيط لا حدود له كأنّه صفحة كتاب ساكنة، وفي كل لحظة يكتسب لوناً أكثر زُرقة. على مسافة شاسعة إلى الشرق، ورغم عدم قدرتي التامة على التمييز في دقة، امتدّت جزر بريطانيا العظمى، وشواطئ فرنسا وإسبانيا معاً على الأطلسي، فضلاً عن جانب ضئيل من شمال قارة أفريقيا. أما البنايات الضخمة، فلا أثر لها يُمكن للمرء اكتشافه، وأكثر المُدن فَخَاراً بزهو ورقي عمرانها، تلك التي بناها البشر اضمحلّت الآن تماماً، بل تلاشت من على سطح الأرض.

«الشيء الذي أذهلني أساساً، في مظهر الأشياء التي تحتي، كان يتمثّل في التحدب الواضح في سطح الكرة الأرضية. كنت أتوقع بما يكفي من الغفلة، أن أرى تحدّبها الحقيقي على نحو أوضح كلّما ارتفع المنطاد أكثر؛ إلّا أنّ القليل جدّاً من التأمل كان كافياً لإظهار هذا الوهم. هُناك خط يمتد من موقعي الذي وصلت إليه حتى يسقط عمودياً على الأرض، فيُشكل عمود مثلث قائم الزاوية، وتمتد قاعدته من [102]الزاوية القائمة إلى موقعي الذي أنا فيه. إلّا أنّ الارتفاع الذي وصلت إليه كان ضئيلاً أو لا يُعدّ شيئاً يُذكر مقارنة مع ما كنت أطمح إليه. بعبارة أُخرى، إنّ قاعدة وتر المُثلث المُفترض، في حالتي هذه، طويلة جدّاً مُقارنة مع الخط العمودي، بحيث إنّ الخطين السابقين ربما يُعتبران مُتوازيين تقريباً. وبهذه الطريقة، فالأُفق الذي يراه الطيّار يبدو دائماً على مُستوى واحد مع

العربة. ولكن لأنّ النقطة التي تقع تحته مباشرة تبدو حقّاً على مسافة بعيدة تحته، فهي أيضاً بطبيعة الحال تقع على مسافة بعيدة تحت الأُفق. ومن هُنا يأتي الانطباع الخادع بالتحدّب، ولا بُدّ أن يستمر هذا الانطباع إلى أن يتحقّق الارتفاع بنسبة عالية مُقارنة بالسابق، بحيث يختفي التوازي الواضح بين قاعدة المُثلث ووتره.

«بدا لي أنّ الحمام الزاجل كان يُعاني في هذه الأثناء من اضطرابات لا سبيل للتغاضي عنها، واتّخذت قراري بتخليصه من مُعاناته بإطلاق سراحه. في بداية الأمر فككت رباط إحداها، كانت حمامة وديعة مُرقطة باللون الرمادي، ووضعتها على حافة العربة. بدت قلقة كثيراً، ثم صارت تتلفّت في لهفة حولها، وترفرف بجناحيها، وتصدر هديلاً عالياً؛ لم يكن بالإمكان في ما يبدو أن تقنع نفسها بالمُغادرة. وفي نهاية المطاف أخذتها بين يدي، وألقيتها بعيداً إلى مسافة ست ياردات عن المنطاد. ولكنها لم تبذل أي محاولة للتحليق كما توقّعت، بل بدأت تكافح في إصرار للرجوع، وصدرت عنها في الوقت نفسه صرخات حادة خرقت السكون المُطبق. ثم تمكّنت الحمامة بعد مدة وجيزة من استعادة وضعها السابق على الحافة، فما كادت تفعل ذلك حتى تدلّى رأسها على الصدر، وتحرّجت حتى سقطت ميتة في داخل العربة. أما الحمامة الأُخرى التي أخرجتها فلم يكن حظها تعيساً مثل الأُولى. من اجل تفادي أن ينتهي مصيرها إلى مصير صاحبتها نفسه، وكي لا تعود من جديد إلينا فقد ألقيتها إلى الأسفل بأقصى ما أوتيت من قوة، وفرحت حين رأيتها تتابع النزول بسرعة مُذهلة، وبسهولة وبحركات تبدو طبيعية تماماً. بعد فترة قصيرة اختفت الحمامة عن الأنظار، ولا أشك في أنّها قد وصلت إلى موطنها في أمان. أما القطة فيبدو أنّها كانت تشعر بسعادة غامرة حين أفاقت من نوبة مرضها، والآن تناولتْ وجبة دسمة من لحم الطَير الميت وعادت إلى نومها الهنيء وهي راضية مطمئنة. أما الهريرات، فكانت تتحرّك بحيوية، حتى ذلك الوقت لم تظهر عليها أي علامات غير اعتيادية.

«في الساعة الثامنة وربع، وبما أنّني لم أعد قادراً على التنفس دون الشعور بألم لا يُطاق، فقد مضيت في الحال أرتّب مُلحقات جهاز تكثيف الهواء التي التقطتها من حول العربة. يتطلّب عمل هذا الجهاز شيئاً من الشرح، ولا بُد أن

معاليكم تتذكّرون غرضي الأساسي، في المقام الأول، وهو أن أُحيط نفسي وقطتي بنوع من الستار الواقي الذي يعزلنا تماماً عن الغلاف الجوي المُتخلخل كثيراً الذي نحن فيه، [103]وذلك بقصد السماح بدخول كمية مُناسبة من الهواء الذي يُحيط بنا وإبقائه ضمن هذا الحاجز، عن طريق المُكثف، فتكون كافية لنا لأغراض التنفس. على هذا الأساس تحرّكت الآن، وأنا أضع هذا الغرض نُصب عيني، وكنت هيأت سابقاً كيساً متيناً جدّاً، لا يتسرّب منه الهواء، ولكنه مرنٌ لأنّه مصنوع من البلاستيك. في هذا الكيس، بأبعاده الكافية لتغطي كل شيء، يُمكن أن تُصبح العربة ومُحتوياتها كلها بداخله. بمعنى آخر أنّه (أي: الكيس) إذا سُحب من جوانبه سوف يُغطي قاع العربة كاملاً، ويصل إلى جوانبها، ويمتدّ وصولاً إلى شبكة الحبال الخارجية، حتى ينتهي عند الحافة العليا أو الطوق الحديدي الذي تُثبت به العربة. بعد أن سحبت الكيس إلى الأعلى بهذه الطريقة، وتركت مكاناً كافياً من الجوانب كلها، وعند القاع، أصبح من الضروري الآن إحكام غلق فتحته العليا، وذلك بتمرير طرف من الكيس فوق الطوق الذي يحمل العربة.. بعبارة أُخرى، بين شبكة الحبال والطوق الحديدي. ولكن ما الذي يُمكن أن يحدث إذا انفصلت شبكة الحبال عن الطوق للسماح بمرور طرفٍ من الكيس، وما الذي يُبقي العربة في مكانها؟ الآن كانت شبكة الحبال مُثبتة في مكانها بقوة على الطوق، ولكنها مربوطة بسلسلة من العقد أو الأنشوطات. وهكذا قمت بفك بضع عقد فحسب في كل مرة، وتركت العربة تتعلّق بواسطة بعض العقد الباقية. بعد هذا أدخلت جزءاً من طرف قماش الكيس، وأعدتُ ربط العقد.. ليس على الطوق لأنّ ذلك شيء مُستحيل، فالقماش كان مُتشابكاً الآن بعضه مع بعض.. ولكني ربطتها في سلسلة من العقد الكبيرة، مُثبتة بالقماش نفسه، على مبعدة ثلاثة أقدام تحت فوهة الكيس، وكانت المسافات التي تفصل بين تلك العقد تتماشى مع مسافاتٍ بين الحلقات. بعد أن انتهيت من ذلك العمل، عقدتُ بعض الأنشوطات الأُخرى بحافة العربة، وتخلّف طرفٌ إضافي من القماش، ثم إنّ الحلقات المُتحررة رُبطت عندئذ على العقد التي تُقابلها على التوالي. بهذا أصبح من المُمكن إدخال الجزء الأعلى من الكيس كله بين شبكة الحبال والطوق. من الواضح أنّ الطوق صار الآن يتدلّى داخل العربة، في حين أنّ وزن العربة ذاته،

بكل مُحتوياتها، بقي مدعوماً بواسطة العقد القوية وحدها. ربما يبدو هذا لأول وهلة إجراءً لا يُلبّي الغرض المنشود؛ ولكن الأمر على العكس من هذا تماماً، لأنّ العقد ذاتها لم تكن قوية فحسب، وإنّما بعضها قريب من البعض الآخر جدّاً بحيث إنّ أي جزء ضئيل من الوزن الكلي سوف تدعمه واحدة منها حتماً. في الواقع، لو كان وزن العربة ومُحتوياتها أثقل ثلاث مرات مما هي عليه الآن، لما شعرت بأدنى درجة من الوجل قط. والآن قمت برفع الطوق الحديدي مرة أُخرى حتى صار داخل الكيس البلاستيكي، ودعمته عند مُستواه السابق تقريباً بثلاثة أعمدة خفيفة الوزن أحضرتها [104]لهذا الغرض. لقد فعلت هذا طبعاً لكي أجعل الكيس مُنتفخاً عند القمة، ولغرض الإبقاء أيضاً على الجزء السفلي من شبكة الحبال في موقعه الصحيح. كل ما تبقّى الآن غلق فتحة الكيس الذي دخلت فيه؛ وتحقق هذا بسهولة بتجميع طيات القماش معاً، ثم لففتها بإحكام من الداخل بنوع من الشريط اللاصق.

«على جوانب هذا الغطاء الواقي الذي صار يلفّ العربة، هُناك ثلاثة ألواح دائرية من الزجاج الصافي السميك، من خلالها كُنت أرى ما حولي دون صعوبة في أي اتّجاه أُفقي. وفي ذلك الجزء من القماش الذي يُشكّل الأرضية هُناك نافذة من النوع نفسه تقع مُباشرة فوق فتحة صغيرة في أرضية العربة ذاتها. لقد أتاح لي ذلك أن أنظر بصورة عمودية، غير أنّي وجدت من المُستحيل تدبّر أمر رؤية ما فوقي على نحو مُماثل، بسبب الطبيعة الفريدة للفتحة المُغلقة هُناك، ولوجود تجعدات في القماش بعد إحكام غلقها، فلم أتوقع أن أرى أي شيء فوق رأسي مُباشرة. ولكن هذا، بطبيعة الحال، لم يكن شيئاً بالغ الأهمية؛ لأنّي حتى لو تمكّنت من وضع لوحٍ زجاجي عند الرأس، لمنعني حجم المنطاد نفسه من الرؤية.

«على بُعد قدمٍ تقريباً من إحدى النوافذ توجد فتحة دائرية في سلة المنطاد، قطرها ثمان بوصات، وقد نُصب على حافتها الداخلية إطارٌ من النحاس مُثبت ببعض البراغي الملفوفة. على هذه الحافة رُبط أنبوبُ المكثف، وكان هيكل تلك الماكينة طبعاً داخل حجرة الكيس البلاستيكي. عبر هذا الأنبوب تُسحب كمية من

هواء الغلاف الجوي المُتخلخل الذي يكتنف المكان عن طريق قوة الشفط التي تتولّد في داخل الماكينة، وبعد ذلك يُنبذ الهواء وهو في حالة مُكثفة، لكي يمتزج مع الهواء الخفيف الموجود آنذاك في الحُجرة. هذه العملية لا بُدّ من تكرارها عدة مرات، إلى أن تمتلئ الحجرة تماماً بالهواء الذي يُصلح للتنفس. ولكن ضمن حيزٍ ضيقٍ، وخلال مدة قصيرة، يُصبح الهواء بالضرورة فاسداً، وغير صالح للتنفس نتيجة لتكرار دخوله إلى الرئتين وخروجه منهما. ثم يُطرد الهواء من خلال صمام صغير في قاع العربة.. من الطبيعي أنّ الهواء الأشد كثافة سوف يهبط بسهولة إلى تحت فيستقر في مُستوى أدنى من الهواء الأقل كثافة. بُغية تفادي حصول فراغ كلي في أي لحظة من اللحظات داخل الحجرة، فإنّ عملية التنقية هذه لا تُجرى أبداً مرة واحدة، وإنما على مراحل مُتعاقبة.. يُفتح الصمام بضع ثوان، ثم يُغلق من جديد، حتى تؤمن ضربة أو ضربتان من مضخة جهاز التكثيف مكاناً كافياً للهواء الذي يحلّ محل الهواء الذي يُطرد خارجاً. من أجل تجربة هذه العملية وضعت القطة والهريرات في [105] سلة صغيرة، وعلقتها خارج العربة في عقدة عند القاع، قرب الصمام، وبذلك يُمكنني إطعامها في أي لحظة إذا تطلّب الأمر ذلك. وقمت أيضاً بنوع من المُجازفة في هذا الشأن، قبل أن أُغلق فتحة الحُجرة، حيث مددت يدي تحت العربة وأنا أمسك بواحد من تلك الأعمدة التي ذكرتها سابقاً وربطت بها خطافاً. حالما أتيح مجال للهواء الكثيف أن يدخل الحجرة، حتى أصبحت الأنشوطة والأعمدة غير ضرورية؛ إذ أنّ تمدد هواء الغلاف الجوي في الداخل سوف يؤدي إلى انتفاخ الكيس البلاستيكي انتفاخاً قوياً.

«في الوقت الذي أنهيت فيه كل هذه الترتيبات وملأت الحجرة بالهواء كما أسلفت، وجدت الأمر لم يستغرق أكثر من عشر دقائق بعد الساعة التاسعة. طوال هذه المدة التي انشغلت فيها بالعمل، كنت أُعاني من أفظع الآلام لدى التنفس، وندمت ندماً مريراً على إهمالي، أو بالأحرى على غبائي، لما أقدمت في اللحظة الأخيرة فحسب على تطبيق خطة بهذا المُستوى من الأهمية. ولكن بعد إنجاز العمل أخيراً، سرعان ما بدأت أجني ثمار ابتكاراتي. مرة أُخرى بدأت أتنفس

بسهولة.. ولماذا لا يحصل ذلك؟ ثم انتابني فرحٌ غامرٌ واستغربت لمّا وجدت نفسي أتخلّص تماماً من الآلام المُبرّحة التي ما فتئت تعذبني حتى ذلك الحين. ومع ذلك لم يُبارح رأسي صداعٌ خفيف مصحوب بإحساس تورّم في المعصمين، والكاحلين، وقرب الحُنجرة، وكنت أشكو من كل هذه الأعراض في وقت واحد. كان واضحاً أنّ جزءاً كبيراً من اضطرابات التنفس التي نتجت عن زوال أو تخلخل الضغط الجوي قد تلاشت بالفعل، مثلما توقعت، وأنّ الكثير من الألم الذي عانيت منه خلال الساعتين الأخيرتين يُعزى حتماً إلى تأثيرات نقص الهواء.

«قبل التاسعة بثلث ساعة.. أو بعبارة أُخرى، قبل وقت قصير من إغلاق فتحة الكيس، وصل المؤشر الزئبقي إلى حده الأقصى، أو ربما بدأ يهبط في البارومتر، وكان ذلك، كما ذكرت من قبل، جهازاً متين الصنع وحجمه كبير. ثم أشار البارومتر إلى الارتفاع الذي وصلت إليه وهو 132،000 قدم، أي: خمسة وعشرون ميلاً، وتبعاً لذلك فقد ألقيت نظرة فاحصة في ذلك الوقت على مساحة الأرض التي كنت أراها وهي لا تُجاوز ثلاثمائة وعشرين جزءاً من سطحها الحقيقي. في الساعة التاسعة لم أكن أرى مرة أُخرى أي أثر للأرض في الجهة الشرقية، ولم يحدث ذلك إلا بعد إدراكي أنّ المنطاد كان ينحرف باتجاه شمالي-شمالي غربي. وكان تحدّب المحيط تحتي يبدو واضحاً جداً في الواقع، مع أنّ رؤيتي غالباً ما كانت تتقطع بسبب كُتل الغيوم التي تطفو هُنا وهُناك.

«في الساعة التاسعة والنصف حاولت أن أُجرب إلقاء كومة من الريش من [106]خلال الصمام. لم يستمر الريش في الطفو كما توقعت؛ بل سقط عمودياً، كأنّه الرصاص، سقط كلياً *en masse*، وبسرعة كبيرة.. ثم سرعان ما اختفى عن الأنظار في غضون بضع ثوان. لم أعرف في البداية تفسيراً لهذا الظاهرة الغريبة؛ إذ كنت عاجزاً عن تصديق أنّ معدل صعود المنطاد اكتسب تسارعاً هائلًا فجأة. ولكن سرعان ما اتّضح لي أنّ الغلاف الجوي هُنا في حالة تخلخل بشكل لا يتمكّن فيه حتى من حمل الريشات؛ لقد سقطت أسرع من المُتوقع في ما يبدو؛ واستغربت من اتّساق سرعتها في السقوط، ومن استمراري في الصعود.

«في الساعة العاشرة لم أجد شيئاً أشغل به وقتي. كانت الأمور تجري

بانسجام رائع، وتصورت أنّ المنطاد كان يصعد بمُعدل سرعة مُتزايد آنذاك مع أنّي لم أعد أمتلك وسيلة للتأكد من الاستمرار في الارتفاع. لم أُواجه أي نوع من الآلام أو صعوبة في التنفس، وكنت أتمتع بروح معنوية أفضل من أي مرحلة ماضية منذ رحيلي من روتردام، وحاولت أن أشغل نفسي الآن بالتأكد من وضع أجهزتي المُختلفة تارة، وفي إعادة تنظيم مُستوى الهواء داخل الحجرة تارة أخرى. هذه المسألة الأخيرة كنت أُجريها على فترات مُنتظمة مُتباعدة كل أربعين دقيقة، للمُحافظة على صحتي، وليس لأن تجدد الهواء ضروري إطلاقاً بهذا المُعدل المُتكرر. في تلك الأثناء لم يتمكّن ذهني من استبعاد بعض التوقعات والخيالات. تخيلت أنني نزلت على أرض القمر الحالم الموحش وبدأت أقصف وأعربد. تحررت خيالاتي من أعنتها للمرة الأُولى، وصارت تطوف وتتجول بحرية في وسط من العجائب والغرائب المُتغيرة باستمرار على أرض مُبهمة في مظاهرها تسودها ظلال غير مُستقرة. هُنالك رأيت غابات عتيقة نسيها الزمن، وهاويات صخرية، وشلالات مُزمجرة في تدفّقها الفوضوي نحو القيعان. ثم حلّت عليّ فجأة ظهيرةٌ ساكنة في عزلتي على القمر، فلا رياح في السماء تُعكّر السكون، أو تتخلّل مروج الخشخاش في امتداداتها الشاسعة، والأزهار تبدو مثل زنابق ضامرة تمدّ أغصانها إلى مسافات تبعث الكآبة في النفس؛ كلُّ شيء صامت لا يتزحزح من مكانه إلى الأبد. ومرة أُخرى، رحلت بعيداً، إلى بلد آخر ليس فيه إلا بحيرة مُعتمة مُقفرة، تحيط بها الغيوم من كل جانب. غير أنّ خيالاتٍ من هذا النوع ليست وحدها التي سيطرت على ذهني. هُناك شتى أنواع الصور المُروعة التي تنتمي إلى هذه الطبيعة الفريدة في غرابتها، بل هي أكثر قسوة وفظاعة غالباً ما كانت تُقحم نفسها على ذهني، فتهز كياني وروحي من أقصى أعماقها بافتراضات تكاد تبدو صوراً حقيقية. إلّا أنّي لم أدع أفكاري تمكث طويلاً لكي تقتات على هذه الوساوس والتأملات الأخيرة، وإنّما حاولت إجراء تقييم صائب للأخطار الحقيقية المحسوسة التي تكتنف هذه الرحلة بحيث لا يتشتت انتباهي أكثر.

[107]«في الساعة الخامسة صباحاً كنت مُنهمكاً بتوليد هواء صالح للتنفس في الحُجرة، ثم انتهزت الفرصة فأخذت أراقب القطة والهريرات عبر الصمام.

بدت القطة نفسها كأنها تُعاني من اضطرابات لا يُمكن التغاضي عنها، ولم أتردد في أن أعزو آلامها التي تعاني منها أساساً إلى صعوبة في التنفس؛ غير أنّ ملاحظاتي بشأن الهريرات انتهت إلى نتيجة مُستغربة جدّاً. كنت أتوقع طبعاً أن أراها تواجه نوعاً من الألم، ربما بدرجة أقلّ من أمها، وهذا لا بُد أن يكون كافياً لتأكيد رأيي فيما يتعلق بالتحمّل الفطري لضغط الغلاف الجوي. ولكني لم أتوقع أن أجدها، لدى تفحّصي الدقيق، تتمتع في ما يبدو بحالة صحية اعتيادية، وتتنفّس بسهولة وانتظام، ولا يبدو عليها أدنى أثرٍ للمعاناة. لم يكن بإمكاني تعليل كل هذا إلا بأن أوسّع نطاق نظريتي، فافترض أن تخلخل الهواء من حولنا لعله لا يكون، كما خمّنت، من الناحية الكيميائية غير كاف للبقاء على قيد الحياة، وأنّ أيّ شخصٍ يولد في مثل هذا الوسط ربما كان غير واع لأي اضطراب يحدث له أثناء عملية التنفس، في حين أنه أثناء الانتقال إلى طبقة هوائية أكثر كثافة قريبة من سطح الأرض، سوف يعاني من آلام ذات طبيعة مشابهة لتلك التي جرّبتها مؤخراً. إنّها مسألة تدعو إلى الأسف العميق أن تتسبب حادثة خرقاء في مثل هذا الوقت بحرماني من عائلتي الصغيرة من هذه القطط، وكذلك تحرمني من البصائر التي منحتني إياها خلال تجاربي السابقة. مددت يدي عبر فتحة الصمام وقدمت كوب ماء إلى القطة العجوز، فتعلّقت أكمام قميصي بالعقدة التي رُبطت بها السّلة، وفي لحظة واحدة تراخت الأنشوطة وانفلتت من أسفلها. لم أتخيّل على الإطلاق أن تختفي تلك الحيوانات المسكينة فعلاً في الهواء وتتلاشى عن الأنظار بتلك السرعة المُباغتة. من المُحقق أنه لم يمض أكثر من عُشر الثانية بين انفصال السّلة واختفائها التام مع حمولتها من القطط. وتبعتها أُمنياتي الطيبة إلى الأرض، ولكن بطبيعة الحال، لم أكن أطمح أن تعيش القطة أو الهريرات لتروي حكَايتها التعيسة.

«في الساعة السادسة، رأيت جانباً فسيحاً من الأرض باتّجاه الشرق مُغلفاً بطبقة كثيفة من الظلال، واستمرّت تلك الظلال تنتشر وتتوسع بسرعة عظيمة حتى ما قبل السابعة بخمس دقائق، حيث غُطي سطح الأرض كله بدثار الليل. لم يمضِ في الواقع وقت طويل على هذا حتى توقّفت أشعة الشمس الغاربة عن

الانعكاس [108]على المنطاد؛ مع أنّ هذا شيءٌ مُتوقع طبعاً، إلّا أنّه لم يمر دون أن يتسبّب لي بمقدار غير محدود من المُتعة. كان من الواضح أنّني، في الصباح، سوف أُشاهد الجرم السماوي المُشرق قبل أن يُشاهده سكان روتردام بساعات، على الرغم من موقعهم الذي يبعد كثيراً إلى الشرق، وبهذا، يوماً بعد يوم، قياساً إلى الارتفاع الذي أصل إليه، سوف أستمتع بضوء الشمس مدة أطول فأطول. والآن كنت قد وطدت العزم على أن أصدر لاحقاً مجلّة عن رحلاتي، فأُسجل فيها الوقائع اليومية التي حدثت على مدار أربع وعشرين ساعة دون توقّف، بل دون اهتمام حتى بالفترات الفاصلة التي يحلّ فيها الظلام.

«في الساعة العاشرة، غلبني النعاس، فقررت الاستلقاء لما تبقّى من الليل؛ ولكني وجدت مُشكلة، ربما كانت بديهية، مع أنّها غابت عن فكري حتى اللحظة التي أتحدث فيها الآن. لو خلدت إلى النوم كما أردت، ترى كيف يُمكنني إعادة تجديد وتكثيف الهواء في الحجرة في تلك الأثناء؟ من أجل أن أتنفّس مدة أكثر من ساعة، على أقصى التقديرات، فذلك يبدو مُستحيلاً، وحتى إذا امتدّ هذا الأجل إلى ساعة وربع، ربما تمخّضت عن النوم أفظع النتائج. تسبّب لي التفكير في هذه المعضلة بالكثير من القلق؛ لن يصدق أحد، بعد كل هذه المخاطر التي واجهتني، أنّني أصبحت الآن أنظر للمسألة بمثل هذه الجدية، بحيث يُمكن أن أتخلّى عن أي أمل في تحقيق ما عزمت عليه في خطتي منذ البداية، وأخيراً ربما وصل الأمر إلى حدٍّ يتحتم عليّ فيه أن أُقرر إن كان من الضروري الرجوع إلى الأرض حقّاً. غير أنّ هذا التردد لم يكن إلّا شيئاً طارئاً. بدأت أُفكر في أنّ الإنسان عبدٌ حقيقي لعاداته، وأنّ الكثير من المسائل التي يعتاد عليها الإنسان ضمن روتين حياته اليومية لا بُدّ أنّه هو الذي اعتبرها مُهمة أساساً، في الوقت الذي لا تكاد تكون فيه على جانب من الأهمية أبداً لولا أنّه اعتبرها من الأشياء المألوفة لديه. من الطبيعي أنني لن أقوى على الصمود دون نوم؛ ولكن ألا أستطيع بسهولة أن أمنع نفسي من الشعور بأي نوع من الضيق والانزعاج من خلال الاستيقاظ بين ساعة وساعة طوال المدة التي أرقد فيها! لن يتطلّب الأمر أكثر من خمس دقائق على الأغلب لإعادة تكثيف الهواء بأقصى سرعة، وهُنا

تكْمن الصعوبة الوحيدة الحقيقية التي تتمثّل في ابتكار طريقة للنهوض من تلقاء نفسي في اللحظة المُناسبة للقيام بتلك المُهمة. إلّا أنّ هذه المعضلة، وأنا على استعداد للاعتراف بهذا، لن تتطلب مُعجزة إذا أردنا حلها. لكي أكون على بصيرة من أمري، فقد سمعت أنّ أحد الطلاب، من أجل أن يمنع نفسه من الرقاد فوق كتبه أثناء فترة الدراسة، كان يُمسك بإحدى يديه كرة من النحاس، فإذا سقطت الكرة داخل حوض معدني يُوضع على الأرض بجوار الكرسي الذي يجلس عليه، سوف تؤدي الضجة العالية إلى إيقاظه فيجفل مرعوباً في أي لحظة يتغلّب عليه فيها النعاس. أما حالتي أنا فمُختلفة حقّاً، إنّها لا تترك لي مجالاً لتطبيق [109]الفكرة نفسها؛ لست أرغب في البقاء مُستيقظاً، وإنما أُريد النهوض من النوم بين الحين والحين فحسب. وفي نهاية الأمر توصلت إلى الوسيلة التي سأذكرها للقارئ، وهي من الأمور اليسيرة كما تبدو، وقد رحبت بالفكرة لحظة اكتشافها واعتبرتها اختراعاً شبيهاً تماماً لاختراع التلسكوب، أو المُحرّك البخاري، أو فن الرسم بالذات.

«من الضروري هُنا أن نُرسي دعائم فرضية ما، وهي أنّ المنطاد، عند الارتفاع الذي وصل إليه الآن، كان مُستمراً في مساره للصعود إلى الأعلى بمُعدّل ارتفاع لا يكاد يتغيّر، وتبعاً لذلك فالعربة تتبعه بصورة ثابتة بحيث يتعذّر هُنا الكشف عن أدنى تذبذب مهما كانت العلة في ذلك. هذه الحالة في ما يبدو تُناسبني كثيراً ضمن الخطة التي قررت الآن تنفيذها. كنت قد وضعت مخزوني من المياه في براميل صغيرة يحتوي كل واحد منها على خمسة غالونات، وعملت على ترتيب تلك البراميل فوزّعتها هُنا وهُناك داخل العربة في أمان. بعد ذلك فككت أحد هذه البراميل، وأخذت حبلين وربطتهما بقوة على حافة شبكة الحبال من جانب إلى آخر؛ ووضعت أحدهما على بُعد قدم تقريباً من الآخر بشكل متواز لكي أعمل نوعاً من الرفوف، ثم وضعت عليهما برميل الماء، وثبتّه في وضع أفقي. تحت الحبال مُباشرة بمسافة ثمان بوصات، وعلى بُعد أربعة أقدام من قاع العربة عملت رفّاً آخر.. لكني صنعته هذه المرة من لوحٍ خشبي خفيف كان الوحيد المُتوفر لدي. على هذا الرف الأخير، وتحت جانبٍ من البرميل الصغير، وضعت

إبريقاً فخّارياً صغيراً. ثم عملت فتحة في أسفل البرميل فوق الإبريق تماماً، وأدخلت فيها سدادة من خشب رقيق عملتها بشكل مخروطي مُتدرّج. وصرت أدفع هذه السدادة فأخرجها عدة مرات، وبعد تكرار المُحاولة، وصلت إلى درجة مقبولة من الإحكام، بحيث صار الماء ينزل من الفتحة إلى الإبريق الذي تحتها، إلى أن يمتلئ الإبريق حتى حافته خلال ستين دقيقة. هذه، طبعاً، مسألة من السهولة التأكد منها، وذلك بمُراقبة مُستوى الماء الذي يملأ الإبريق في أي وقت. بعد أن هيّأت كل هذه الخطوات، أصبحت بقية الخطة واضحة في رأسي. كان سريري مرتّباً بطريقة مُبتكرة على أرضية العربة، بحيث يكون رأسي لدى الاستلقاء تحت فوهة الإبريق مباشرة. من الواضح أنّه بعد انقضاء ساعة، حين يمتلئ الإبريق سوف ينسكب الماء، ويخرج من الفوهة التي تقع على مُستوى أوطأ بعض الشيء من الحافة. كذلك فإنّ الماء الذي ينسكب من ارتفاع يتجاوز أربعة أقدام لا سبيل له إلّا أن يسقط على وجهي، والنتيجة المؤكدة أن يوقظني في الحال، حتى من أعمق سبات في العالم.

«كانت الساعة تُشير إلى الحادية عشرة تماماً عندما أنهيت كل هذه [110]الترتيبات، وسرعان ما خلدت إلى النوم على الفور، وكنت واثقاً بفعالية اختراعي. ولم تخفق توقعاتي في هذا الشأن. بعد مرور ستين دقيقة على نحو دقيق نهضت من رقادي حين نبهتني الآلة الدقيقة التي صنعتها لضبط الوقت، حينها، وبعد أن أفرغت الإبريق في البرميل الصغير، وأنجزت عمليات التكثيف، عدت من جديد إلى سريري. هذا الانقطاع المُتكرر الذي تخلّل رقادي لم يتسبب لي بالانزعاج أكثر من المُتوقع؛ ولما نهضت أخيراً في نهار اليوم التالي، كانت الساعة تُشير إلى السابعة، والشمس قد ارتفعت عالياً فوق خط الأُفق الذي كنت أراه أمامي.

«*3 نيسان*. وجدت المنطاد يصعد إلى ارتفاع كبير حقّاً، وكان تحدّب الأرض يزداد وضوحاً بمُعدل ملموس. أما على المُحيط تحتي، فتناثرت كتلٌ سوداء، ليس من شك في أنها جُزر. وفوق رأسي بدت السماء قطعة دامسة، والنجوم مُتألقة تألّقاً خلاباً؛ في الواقع كانت النجوم تحمل هذا الرونق الأخّاذ

منذ اليوم الأول لانطلاقنا. في مكان بعيد إلى الشمال رأيت خطّاً رفيعاً أبيض اللون، كان يُرسل لمعاناً جذاباً أو شريطاً ضوئياً على حافة الأفق، ولم أتردّد في افتراض أنّه الصفيحة الجنوبية من جليد القطب الشمالي. تحفّز في نفسي فضولٌ غير اعتيادي، وساورتني الآمال في أنّني كنت أتّجه شمالاً، فربما وجدت المنطاد، في وقت ما، مُستقراً مُباشرة فوق القطب نفسه. ولكني الآن بدأت أرثي لحالي، فالارتفاع الهائل الذي بلغته في هذه الحال سوف يمنعني من القيام بمسح دقيق كنت أنوي التريّث عنده قليلاً. ومع ذلك فالكثير من المناظر كانت تنفتح على مصراعيها أمام عيني.

لم يحدث شيءٌ ذو طبيعة استثنائية في ذلك اليوم. ظلّت أجهزتي كلها تعمل بانتظام مُمتاز، واستمرّ المنطاد بالصعود دون تذبذب قابل للإدراك. إلّا أنّ برودة الجو كانت شديدة، واضطررت لأن أدثر جسدي بالمعطف. لما حَلّ الظلام على الأرض، خلدت إلى النوم على سريري، على الرغم من انتشار نور النهار الساطع ساعات طويلة في أرجاء المكان الذي أقبع فيه. كانت الساعة المائية دقيقة في أداء واجبها، ونمت حتى صباح اليوم التالي نوماً عميقاً، باستثناء الفترات الفاصلة التي كُنت أفيق فيها.

«4 نيسان. نهضت من النوم، وكنت أشعر وقتها بارتياح تام وبروح معنوية عالية، ثم استغربت كثيراً حين رأيت تغيّراً غريباً يطرأ على منظر البحر. لقد فقد البحر سُحنته الزرقاء الغامقة التي ظهر عليها طول هذه المدة، الآن أصبح رمادياً أو أبيض اللون، وبريقه يُبهر العيون. وأصبح تحدّب المُحيط جليّاً بشكل لا لُبس فيه بحيث بدت كتلة المياه البعيدة الهائلة كأنها توشك أن تنقضّ رأسياً على هاوية الأُفق، ووجدت نفسي أُصغي، وأنا أقف على أطراف أصابعي، إلى أصداء ذلك الشلال [111]الهادر. ولم تعد الجزر المُتناثرة عليه مرئية للعيان؛ فهي إما كانت تعبر تحت الأُفق صوب الجنوب، أو أنّ ارتفاعي المُتزايد جعلها خارج نطاق الرؤية، من المُستحيل معرفة ذلك. كنت أميل رغم كل شيء إلى تأييد الرأي الأخير. لقد ازدادت حافة الجليد في الجهة الشمالية وضوحاً أكثر فأكثر. ولم أحس بالبرد القارص. لا شيء مهمّ يحدث الآن، وأمضيت اليوم بالقراءة، فقد

اتّخذت احتياطاتي اللّازمة قبل ذلك فجهّزت نفسي ببعض الكتب.

«5 نيسان. لاحظت ظاهرة غريبة ذات ارتباط بشروق الشمس فيما كان السطح المرئي للأرض كلها تقريباً لا يزال يلفّه الظلام. ولكن بمرور الوقت انبثّ الضياء ذاته في كل مكان، ومرة أُخرى رأيت خط الجليد الشمالي. الآن كان منظره بارزاً جدّاً، وظهر مُظلماً في تدرّج أكثر من مياه المُحيط. كنت حتماً أقترب من ذلك المكان، وبمُعدل سرعة عظيم. تخيّلت أنني سأتمكّن من جديد من تمييز شريطٍ من الأرض على الجانب الشرقي منها، وشريطٍ آخر على الجانب الغربي، ولكني لم أكن واثقاً بتحقق ذلك. الجو مُعتدل الحرارة. لا شيء مُهم حدث أثناء النهار. نمت في وقت مُبكر.

«6 نيسان. أصابني شيءٌ من الاستغراب حين وجدت حافة الجليد قريبة فلا تبعد إلا مسافة قليلة جدّاً، ورأيت حقلاً شاسعاً من الجليد يمتد إلى مسافة بعيدة عن الأُفق باتّجاه الشمال. بدا لي أنّ المنطاد لو بقي في مساره الحالي، فسرعان ما سيبلغ المُحيط المُتجمد، هُنا لم يُساورني شك في أنّي حتماً سوف أرى القطب. خلال اليوم كله، استمرّ المنطاد بالاقتراب من المنطقة المُتجمدة. ومع حلول الليل كانت حدود الأُفق التي أراها تزداد وضوحاً فجأة، وليس من شك في أنّ ذلك يُعزى إلى شكل الأرض الذي أصبح مُفلطحاً، ووصولي إلى ما فوق المناطق المُستوية قريباً من تخوم دائرة القطب الشمالي. لما انتشر الظلام أخيراً، خلدت إلى النوع وأنا أشعر بالتلهف، كنت خائفاً أن تفوت علي فرصة رؤية شيء مشوّق لعل رؤيته لن تتكرّر.

«7 نيسان. نهضت مُبكراً، وإزاء فرحتي التي لا يُضاهيها شيء، شاهدت أخيراً ما لا يمكن الشك على الإطلاق أنّه القطب الشمالي عينه. كان هُناك، ولا ريب في ذلك، تحت قدمي مُباشرة؛ ولكن يا للأسف! كنت أصعد الآن سريعاً، بحيث لا أستطيع مُشاهدة شيء مُحدد بوضوح تام. في حقيقة الأمر، لو أردت التخمين من خلال الأرقام الكثيرة التي تُشير إلى ارتفاعات مُختلفة، قراءة بعد أُخرى، على فترات مُتعاقبة، منذ السادسة صباحاً من اليوم الثاني من نيسان، وحتى ما قبل التاسعة بثلث ساعة من صباح اليوم نفسه (وحينها كان مؤشر

البارومتر يجري جرياً)، ربّما يُمكن الاستنتاج بحق الآن أنّ المنطاد، في الساعة الرابعة من صباح [112]اليوم السابع من نيسان، قد وصل إلى ارتفاع لا يقلّ حتماً عن 254،7 ميلاً فوق سطح البحر. هذا الارتفاع ربّما كان يبدو هائلاً، إلّا أنّ التقديرات كافة التي جرى استنتاجه من خلالها تُعطي نتيجة مؤكدة تبدو أقلّ من الحقيقة. على كل حال، ليس من شك في أنّي كنت أُشاهد قطر الأرض كله؛ ونصف الكرة الشمالي يمتد تحتي كأنّه خارطة جغرافية معروضة على طاولة: والدائرة العظمى لخط الاستواء ذاته تشكّل الخط الفاصل للأفق الذي أمامي. قد يتصور معاليكم أنّ هُناك حتماً بعض المناطق المُحددة التي لم تُستكشف إلى الآن ضمن حدود دائرة القطب الشمالي، مع أنّها تقع تحتي مُباشرة، وبذلك فإنّ بالإمكان رؤيتها دون أن تبدو خطوطها مختزلة، إلّا أنّها لم تزل ذاتها مُصغّرة نسبيّاً، وتبعد مسافة كبيرة جدّاً عن مصدر النظر، وهذا شيءٌ لا مجال إلّا للاعتراف به بعد أي تفحّص دقيق. ومع ذلك، فهذه الأشياء التي في وسعي مُشاهدتها هي ذات طبيعة استثنائية مُثيرة للتعجب. باتّجاه الشمال من تلك الحافة التي ذكرتها آنفاً، والتي ربما جاز لنا أن نصفها قياساً إلى مؤهلاتنا المُتواضعة، بالحدود القصوى التي وصلت إليها الاكتشافات البشرية في هذه الأصقاع، تظهر صفيحة واحدة مُتصل بعضها مع بعضها، أو ربما كانت في الواقع غير مُنفصلة، من الجليد الذي يستمر في الامتداد إلى ما لا نهاية. في المراحل الأُولى من هذا الامتداد الشاسع، يُلاحظ المرء أنّ سطح تلك الصفيحة يمتاز بالانبساط الملموس، ثم يهبط رويداً فيتغيّر إلى سهلٍ أجرد، وأخيراً يتقعّر في حدة غير قليلة، ويتوقّف الانحدار عند القطب الشمالي نفسه فيتشكّل مركزٌ دائري تتخلّله تضاريس وعرة، قطره الواضح للعيان يُقابل المنطاد في زاوية مقدارها حوالى خَمس وستون درجة، وألوانه المُتدرجة في عتمتها تتباين في كثافتها، رغم أنّها أعمق في كل الأحوال من أي بقعة أُخرى على نصف الكرة المرئي هذا، وكانت الألوان بين الحين والحين تزداد عمقاً حتى تختلط مع الظلام الدامس الذي لا تُسبر أغواره. أما فيما وراء ذلك، فلم أتمكّن من الرؤية إلا قليلاً. في غضون الساعة الثانية عشرة كان مُحيط المركز القطبي قد تقلّص فعلاً، ومع اقتراب السابعة عصراً لم أعد أرى له أثراً على الإطلاق؛ كان المنطاد يعبر وقتها فوق

الجزء الغربي من صفيحة الجليد، ويطوف بعيداً وبسرعة باتّجاه خط الاستواء.

«8 نيسان. لاحظت تناقصاً في القطر الظاهري للأرض، إلى جانب تغيّر جذري في لونها ومظهرها على وجه الإجمال. كانت المنطقة المرئية كلها تشترك في اتخاذ درجات مُتباينة من الاصفرار الباهت، وفي بعض النواحي اكتسبت سطوعاً مؤذياً للعين أحياناً. وكانت رؤيتي للجزء الأسفل من المنطاد تُعيقها أيضاً كثافة الغلاف الجوي في مناطقٍ قريبة من السطح لأنّها مُحمّلة بالغيوم الكثيفة، ووسط تلك الكتل لم أستطع الآن إلقاء نظرة خاطفة حتى على الأرض نفسها. أزعجتني صعوبة الرؤية المُباشرة على نحو ما طوال ثمانٍ وأربعين ساعة بعد ذلك؛ إلّا أنّ ارتفاعي الهائل حالياً أتاح لي الاقتراب فعلاً من كتل البخار التي تطوّف هُنا وهُناك، مما أدّى طبعاً إلى عدم ارتياح مُتزايد أكثر فأكثر على نحو محسوس مُقارنة [113]مع مُعدل الصعود. ومع ذلك كان من السهولة عليّ إدراك أنّ المنطاد هُنا كان يحوم فوق مجموعة كبيرة من البُحيرات في قارة أمريكا الشمالية، وهو مُستمر طبعاً في الاتجاه جنوباً، وذلك من شأنه أن يوصلني إلى مدار الاستواء. هذه الأحداث الأخيرة لم تفشل في أن تمنحني إحساساً بالاقتناع نابعاً من القلب، وغمرتني الفرحة وتوقعت قُرب الوصول إلى نجاح مُحقق. في حقيقة الأمر، كان الاتجاه الذي سلكته إلى الآن يجعلني أشعر بالقلق؛ لأنّ من الظاهر، لو أنّي مضيت في ذلك الاتجاه طويلاً، لما كان هُناك أي احتمال في أن أصل إلى القمر أبداً، فمن المعروف أنّ مداره لا ينحرف عن دائرة البروج أكثر من زاوية ضئيلة تُساوي 5 درجات 48، 8». كان الأمر غريباً في ما يبدو، ولم أفهم الخطأ الجسيم الذي ارتكبته إلا في هذه الفترة المُتأخرة، لأنّي لم أجعل وقت مُغادرتي للأرض ضمن مسحاج الكسوف القمري.

«9 نيسان. اليوم اضمحلّت رؤيتي لقطر الأرض كثيراً، وكان سطح الأرض يكتسي أيضاً بلون أصفر غامق أكثر بمرور الساعات. وحافظ المنطاد على مساره الثابت نحو الجنوب، حتى وصل في الساعة التاسعة ليلاً إلى حافة خليج المكسيك.

«10 نيسان. نهضت على حين فجأة من رقادي الخفيف، في حوالى

الخامسة من صباح هذا اليوم، حين سمعت ضجة عالية، أو خشخشة مُخيفة لم أعرف لها تفسيراً. لم يستمر ذلك الصوت طويلاً، ولكنه كان مسموعاً بحيث لا يترك مجالاً للشك، ولم يكن يُشبه أي شيء أعرفه في هذا العالم. لا داعي للقول إنّني شعرت بفزع بالغ، لأنّي نسبت تلك الضوضاء في المقام الأول إلى تفجّر حدث في المنطاد. تفحّصت جميع أجهزتي مع ذلك باهتمام، ولم أكتشف أي خلل فيها. وأمضيت جزءاً طويلاً من اليوم أفكر في هذه الظاهرة الغريبة حقّاً، ولكني لم أعثر على أي تفسير معقول لها. أويت إلى الفراش وأنا غير راض عن نفسي، وكنت في حالة تعيسة من الشغف لمعرفة السبب.

«11 نيسان. لاحظت تقلّصاً مُذهلاً في القطر الظاهري للأرض، وزيادة لا بأس بها انتبهت إليها لأول مرة في قطر القمر نفسه، واستغرق الأمر بضعة أيام حتى رأيت القمر كاملاً. أصبح الأمر يتطلّب جهداً طويلاً الآن لتكثيف ما يكفي من الهواء في الحجرة للاستمرار في الحياة.

«12 نيسان. حصل تغيّر فريدٌ من نوعه في اتّجاه المنطاد، مع أنّ ذلك كان مُتوقعاً تماماً، على أنّه منحني مُتعة استثنائية. بعد أن وصل المنطاد في مساره السابق إلى زاوية اثنتي عشرة درجة بمُوازاة خط العرض الجنوبي، تحوّل فجأة [114]فاتّخذ زاوية حادة أكثر انحرافاً نحو الشرق، وبهذا صار يتقدّم طوال اليوم، مُستمراً تقريباً، إن لم يكن دائماً، في مُستوى مُطابق للقطع الناقص الإهليلجي لشكل القمر. ما تجدر الإشارة إليه حصول تذبذب ملحوظ في حركة العربة نتيجة لهذا التغير في المسار.. وهو تذبذب بقي مُهيمناً وثابتاً على أقلّ تقدير عدة ساعات.

«13 نيسان. أثار انتباهي من جديد تكرار تلك الضوضاء والخشخشة التي أرعبتني في اليوم العاشر من هذا الشهر. أخذت أفكر طويلاً في الموضوع، ولكني عجزت عن التوصل إلى استنتاج مقبول. حصل تزايد كبير في قطر الأرض الظاهر أمامي، وأصبح الآن مواجهاً للمنطاد في زاوية تتجاوز خمساً وعشرين درجة بقليل. لم أعد أرى القمر على الإطلاق، إذ كان فوق رأسي تماماً. ومع ذلك بقيت ضمن مُستوى القطع الناقص، مع أنّي حقّقت تقدماً ضئيلاً إلى جهة الشرق.

«14 نيسان. تقلّص قطرُ الأرض كثيراً. اليوم أثارتني إثارة شديدة فكرة أنّ المنطاد يمضي في مسار جانبي باتّجاه نقطة الحضيض.. أو بعبارة أُخرى، يتّخذ مساراً من شأنه أن ينتهي مُباشرة إلى القمر في ذلك الجزء من مداره الذي يقع في أقرب نقطة إلى الأرض. القمر نفسه كان فوق رأسي مُباشرة، وتبعاً لذلك فقد اختفى عن نظري. واظبت على العمل المُجهد الذي لا سبيل للاستغناء عنه في تكثيف الهواء.

«15 نيسان. لم يعُد بإمكاني حتى أن أُشاهد الخطوط العريضة للقارات والبحار على الأرض، بل ازدادت ملامحها بُعداً وصار يصعُب تمييزها. في الساعة الثانية عشرة تنبهت للمرة الثالثة لذلك الصوت المُفزع الذي أصابني بالذهول قبل ذلك. الآن استمرّ الصوت لحظاتٍ أطول، واكتسب شدة بمرور الوقت. وأخيراً، بينما كنت أقف وأنا شارد الذهن مُتوقّعاً حدوث شيء لا أعرف عواقبه، بدأت العربة ترتجف ارتجافاً عنيفاً مُضاعفاً، وطارت قطعة هائلة مُلتهبة من مادة لم أستطع تحديد ماهيتها وهي تصدر صوتاً أقوى من الرعد ألف مرة، وسمعت لها دمدمة مدوّية بجانبٍ من المنطاد. لما خمدت مخاوفي واندهاشي قليلاً، لم أجد صُعوبة في افتراض أنّ تلك الزمجرة الهائلة التي تشبه البركان المُتفجّر قد انطلقت من تخوم العالم الذي كنت أقترب منه سريعاً، فهُناك احتمالات كثيرة أن تكون تلك الكتلة من اللهب هي من النيازك التي تسقط على الأرض بين الحين والحين، أو التي تُسمّى الحجارة النيزكية في أحسن الأحوال.

«16 نيسان. نظرت إلى الأعلى بمقدار ما تسنّى لي النظر، عبر إحدى [115]النوافذ الجانبية على التناوب، فشاهدت إزاء فرحتي الغامرة جزءاً صغيراً من قرص القمر يلوح أمامي، هكذا حصل الأمر، رأيته من الجوانب كافة التي تُحيط بالمنطاد الضخم. ولم يكن للهْفتي نظيرٌ قط؛ الآن لم يعد يساورني شك في أنّي سرعان ما أصل إلى نهاية رحلتي المحفوفة بالمخاطر. في الواقع، كان الأمر يتطلّب الآن مضاعفة جهودي في تكثيف الهواء إلى أقصى مدى، وذلك ما أتاح لي فرصة ضئيلة للراحة والتقاط الأنفاس من هذا العناء، فالنوم مسألة لا مجال للتفكير فيها. استولى عليّ السقم تماماً، وأخذ جسدي يرتعش مع الإعياء

المُتزايد. من المُستحيل أن تتحمّل الطبيعة البشرية هذه المُعاناة زمناً أطول. أثناء فترات الظلام التي أصبحت الآن شحيحة خرق السكون مرة أُخرى حجرٌ نيزكي كان يعبر الفضاء بالقرب مني، وصارت هذه الظاهرة تتكرّر وتُسبّب لي كثيراً من التوجّسات.

«17 نيسان. كان هذا الصباح بالذات يُشكّل عهداً جديداً في رحلتي. سوف أبقى أتذكّر الأرض التي اتّخذت في اليوم الثالث عشر زاوية خمسٍ وعشرين درجة. هذه الزاوية تقلّصت كثيراً في اليوم الرابع عشر؛ أما في اليوم الخامس عشر فقد طرأت عليها أيضاً زيادةٌ ملحوظة، ولدى فترة الاستراحة من الليلة السادسة عشرة، لاحظت زاوية لا تتجاوز سبع درجات وخمسة عشر بالمائة من الدرجة. كم كانت دهشتي عظيمة إذن لدى استيقاظي من رقادي المُتقطع في صباح هذا اليوم، السابع عشر، حين وجدت السطح الذي تحتي يزداد ضخامة مُذهلة في الحجم فجأة، بحيث أصبح قطره يمتد إلى ما لا يقل عن تسعٍ وثلاثين درجة! صعقتني هذه الحقيقة وكادت تفقدني رشدي! لا توجد كلمات يُمكن أن تُعطي فكرة كافية عن الرعب المُدهش الذي استولى عليّ وغمرني من أعماقي. صارت ركبتاي تترنحان تحتي.. وأسناني تصطك.. وشعر رأسي انتصب على أطرافه. «لقد انفجر المنطاد حقّاً!» هذه أول فكرة فظيعة سارعت إلى ذهني: «المنطاد انفجر فعلاً!.. وكنت أهبط.. أسقط بسرعة خارقة لا نظير لها! إذا خمّنّا هذا من المسافة الشاسعة التي قطعتها في غضون تلك المدة، فلن يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق، على أقصى التقديرات، قبل أن أرتطم بسطح الأرض، وألقى حتفي حتماً!» إلا أنّ فكرة خطرت على بالي أخيراً لتبعث الراحة في نِفسي. تريثت؛ ثم بدأت أطيل التأمل؛ وبدأ الشك ينتابني شيئاً فشيئاً. إنّه لشيء يكاد يكون مُستحيل الوقوع. لا يُمكن، لأي سبب من الأسباب، أن أسقط بهذه السرعة. إلى هذا كله، مع أنّي كنت في ما يبدو أقترب من سطح الكوكب [116]الذي تحتي، إلا أنّ ذلك يحصل بسرعة لا يُمكن لها أن تنسجم مع السرعة التي تخيلت أنّها تحصل في مُستهل الأمر بهذا النمط المُذهل. هذه الفكرة التي صرت أنظر إليها نظرة جادة أفادتني في تهدئة التشويش الذي انتاب ذهني،

وأخيراً قرّرت تحليل تلك الظاهرة بعمق وإعادتها إلى سببها المنطقي. في حقيقة الأمر، لا بُدّ أن يكون الذهول الذي أصابني قد أفقدني رُشدي، حينها لم أعد أرى ذلك التباين الجسيم، في المظهر الخارجي، بين السطح الذي تحتي، وسطح أمّنا الأرض. كان السطح الأخير فوق رأسي حقّاً، ومخفياً تماماً بهيكل المنطاد، على حين أن سطح القمر.. القمر نفسه بكل بَهائه وألقه.. تحتي مُباشرة، عند قدميّ.

«الغيبوبة والذهول، من المُحقق أنّ هذه الأمور هي التي أدّت لمثل ذلك التحول الاستثنائي في ذهني فكنت أتصوّر الأشياء على العكس مما هي عليه في الواقع، ربّما كان جزءٌ مُعيّن من المُغامرة على كل حال بمنأى عن الشك أو التعليل. لأنّ هذا الانقلاب *bouleversement* ذاته لم يكن طبيعياً وحتمياً فحسب، وإنما كان شيئاً مُتوقعاً حقّاً منذ زمن طويل بوصفه نتيجة محتومة لا بد من تحقّقها حالما أصل إلى تلك المرحلة الحرجة من رحلتي التي تُستبدل فيها جاذبية الكوكب بجاذبية القمر.. أو، بعبارة أكثر دقة، المرحلة التي ينبغي أن يُصبح فيها انجذاب المنطاد باتّجاه الأرض أقلَّ تأثيراً من انجذابه إلى القمر. بغية توخي المزيد من الدقة، فقد نهضت من سباتي العميق بينما كانت أحاسيسي في حالة عجيبة من الارتباك والتشويش، لأنّي كنت أتأمل تلك الظاهرة الأخاذة، على الرغم من أنّها غير مُتوقعة في تلك اللحظة تحديداً. لا بُد أن يكون هذا التغير قد وقع طبعاً بطريقة تدريجية بسيطة، وليس من المتوقع على الإطلاق، حتى لو كنت مُستيقظاً في الوقت الذي حصل فيه، أن أنتبه إلى أي علامة داخلية توحي بحدوث تحوّل في المسار.. بعبارة أُخرى، الإحساس باضطراب بدني أو اختلال سواءً على المُستوى الشخصي أو فيما يتعلّق بأجهزتي.

«لا داعي للقول إنّ انتباهي، لدى إدراك وضعي الجديد وتخلّصي من الوجل المُباغت الذي استولى على مُقدّرات روحي، قد اتّجه مُباشرة إلى المظهر الخارجي للقمر الذي أصبحت تضاريسه تمتد تحتي كأنها خريطة مكشوفة.. ومع أني استنتجت أنه لا يبعد عني إلا مسافة لا تكاد تُذكر، إلّا أنّ تضاريس سطحه تلك كانت مُميّزة في نظري على نحو أجد نفسي عاجزاً على الإطلاق عن وصفه.

أذهلني للوهلة الأُولى عدم وجود شيءٍ من قبيل المُحيطات أو البحار، أو في الواقع أي بحيرةٍ أو نهر، أو أي مصدرٍ من مصادر المياه، فتلك من الخصائص الواضحة أكثر من أي شيء آخر في حالته الجيولوجية. إلا أنّه ربما كان يبدو من المُستغرب القول إنّني شاهدت مناطق شاسعة تمتد أمام نظري لها سماتٌ غريبة كأنّها يقيناً رواسب من الطمي، مع أنّ الجزء الأكبر الذي كنت أراه بعيداً عني من النصف الكروي [117]للقمر مُغطّى بقمم جبال بركانية لا تُعدّ ولا تُحصى ذات أشكال مخروطية، مظهرها يكاد يبدو مُصطنعاً أكثر من كونها مُرتفعات طبيعية. إنّ أعلى قمة فيها لا يتخطّى ارتفاعها ثلاثة أميال وثلاثة أرباع الميل؛ من المُحقق أنّ أي خريطة للمناطق ذات الطبيعة البركانية والتي تُسمى «حقول فليغاريان»[11] Campi Phlegraei من شأنها أن تُعطي معاليكم فكرة أفضل عن سطوحها على وجه الإجمال أكثر من أي وصفٍ لعله لا يستحق الاهتمام نُحاول أن نقدّمه هُنا. أغلب تلك المُرتفعات كانت دائماً في ما يبدو في حالة فوران وعدم استقرار، ودفعني ذلك إلى الخوف من إساءة فهم سورتها وقدرتها الجبارة، من خلال ما شاهدته سابقاً من انقضاض الشهب النيزكية التي أفلتت منها ولم أعرف حقيقتها، تلك التي لا تزال تندفع إلى الآن بصورة مُتكررة إلى الأعلى فتقترب من المنطاد بمُعدل يزداد خطورة ويُثير الرعب أكثر فأكثر.

«18 نيسان. اليوم رأيت زيادة ملحوظة في حجم القمر.. بدأ تسارع المنطاد في الهبوط يغمرني بالتوجّس. لا بُدّ أن يتذكر المرء، في مرحلة مُبكرة من تأملاتي وطموحي للقيام برحلة إلى القمر، أنّ احتمالات وجود غلاف جوي ضمن المناطق القريبة إليه، بشكل مُكثّف مُقارنة بحجم الكوكب، كانت تأتي ضمن حِساباتي الدقيقة في هذا الشأن؛ هذا الرأي يرد هُنا على الرغم من نظريات كثيرة تُعارضه، وربما أُضيف فأقول، بصرف النظر عن الاعتقاد الإجمالي بعدم وجود أي نوع من الغلاف الجوي للقمر. ولكن، فضلاً عمّا ذكرته سابقاً في ما يتعلّق

(11) حقول فليغاريان: مُشتقة من الإغريقية أي: «الحقول الملتهبة». وهي منطقة بركانية واسعة تقع إلى الغرب من نابلس، في إيطاليا. أصبحت حديقة وطنية في سنة 2003. [المترجم]

بمذنب أينكي وضوئه الساطع في دائرة البروج، فقد تعزّزت آرائي بمُلاحظات مُحدّدة كان قد طرحها السيد سكرويتر من ليلينثال. هذا الرجل بدأ في مُراقبة القمر منذ أن كان عمره يومين ونصف، مساء كل يوم بعد غروب الشمس بمُدة قصيرة، وقبل أن يُصبح الجانب المُظلم من القمر مرئياً، واعتاد الاستمرار في المُراقبة حتى يرى ذلك الجانب يبدأ رويداً بالظهور. وتبيّن أن نقطتي التقاء المنحنيين تتناقصان تدريجياً بالتزامن مع انجلاء ضوءٍ خافتٍ حاد، وكل نقطة تظهر نهايتها البعيدة قد أُضيئت في خفوت بأشعة الشمس، قبل أن يغدو أي جزءٍ من نصف الكرة المُظلم مرئياً. وبعد وقت وجيز فحسب، يُصبح الكوكب المُعتم كله مضاءً. هذه الاستطالة في الطرفين المُستدقين للقمر فيما وراء شبه الدائرة، كما تصوّرت، تحصل حتماً نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على غلافٍ جويّ يُحيط بالقمر. وقدّرت أيضاً أنّ ارتفاع هذا الغلاف (الذي قد يؤدي إلى انكسار الضوء بما يكفي على نصفه المُظلم لتظهر حُمرةٌ في الأفق أكثر سطوعاً بالقياس إلى الضوء الذي ينعكس من سطح الأرض حين ينحرف القمر بزاوية تقارب 32 درجة عن الوضع الجديد) يُقدّر بـ 356، 1 قدماً باريسياً[12]؛ وعلى ضوء هذه التقديرات افترضت أنّ أقصى ارتفاع يُمكن أن يعكس أشعة الشمس هو 5,376 قدماً. وتأكدت آرائي في هذا الصدد أيضاً من خلال قطعةٍ وردت في الجزء الثاني والثمانين من كتاب (التعاملات الفلسفية)، وفيه يذكر المؤلف أنّه في [118]حركة يلفّها غموضٌ سحري لأقمار جوبيتر الصناعية، كان القمر الثالث قد اختفى بعد أن ظلّ مدة 1« إلى 2» من الزمن غير مرئيّ، وأنّ القمر الرابع أصبح غير قابل للتمييز بالقرب من الطنُف[13][*3].

(12) القدم الباريسي: يساوي 8، 12 إنج. [المترجم]

(13) طنف الجرم السماوي أو الحافة الخارجية لقرصه الظاهري. [المترجم]

(*3) كتب هافيليوس أنه وجد في مرات عديدة، في سماءٍ صافية تماماً، وكانت حتى النجوم التي من المرتبة السادسة والسابعة تبدو واضحة للعيان بشكل مُلفت للنظر، على ارتفاع القمر نفسه، وعلى الامتداد الخطي عن الأرض نفسه، وباستخدام أحد التلسكوبات المُمتازة دون غيره دائماً، فإنّ القمر وبقعته الداكنة لم يكن يظهر صافياً =

«كنت أعوّل كثيراً، بطبيعة الحال، على وجود مُقاومة، أو على نحو أكثر دقة، على إسناد من غلافٍ جوي، يكون في حالةٍ من الكثافة التي أتخيّلها، لضمان هبوطي بأمان في المرحلة الأخيرة. ولكن لو اتّضح خطأي على كل حال، فليس أمامي تبعاً لهذا أن أتوقع شيئاً أفضل، بوصفه المشهد الختامي لمُغامرتي، سوى أن يتحطّم جسدي ويتفتّت على السطح الوعر للقمر. في حقيقة الأمر كانت لدي الآن جميع الأسباب التي تجعلني أرتعد من الرعب. إنّ المسافة التي تفصلني عن القمر أصبحت تافهة قياساً إلى السابق، في حين أنّ الجهد المطلوب لتشغيل جهاز تكثيف الهواء لم يتقلّص بتاتاً، ولم أستطع تلمّس أي علامة مهما كانت طفيفة تدلّ على تناقص في تخلخل الهواء أو قلّة كثافته.

«19 نيسان. في صباح هذا اليوم، إزاء فرحتي الغامرة، مع اقتراب الساعة التاسعة، لاحظت دنوّ سطح القمر، وذلك ما أثار فزعي، وتفاقمت توجّساتي حتى بلغت ذروتها، واكتشفت من صوت مضخة جهاز التكثيف حصول تغيّرٍ ملموس أخيراً في طبيعة الغلاف الجوي. في غضون الساعة العاشرة، فكرت بأن زيادة في كثافة الهواء لا بُدّ أن تكون قد تحقّقت على نحو ملحوظ. وفي الساعة الحادية عشرة، لم يتطلّب الأمر إلا جهداً يسيراً في تشغيل الجهاز؛ وفي الساعة الثانية عشرة، مع شيء من التردد في المُخاطرة، أقدمت على فك المرقاة *tourniquet*، ولما لم أتلمّس في داخلي أي اضطراب نتيجة لذلك، فتحت غلاف الحجرة البلاستكية وألقيته بعيداً عني، وحرّرت أطرافه من جوانب العربة. ومثلما

= بالدرجة نفسها في أي وقت. من خلال المُلابسات التي تمخّضت عن المُراقبة، يتّضح أنّ السبب في هذه الظاهرة لا يتعلّق بالهواء الجوي لكرتنا الأرضية، أو الهواء في الأنبوبة، أو القمر، أو عين المراقب، لكن يجب البحث عن السبب في شيء (في غلاف جوي؟) موجود حول القمر.

«كثيراً ما كان كاسيني يُراقب زحل، والمُشتري، والنجوم الثابتة، حين يقترب القمر من مرحلة الاحتجاب، فيرى أشكالها الدائرية تغيّرت إلى شكل بيضوي؛ وفي حالات احتجابٍ أُخرى، لم يكتشف أي تغيّر شكلي مُطلقاً. من هُنا ربما يفترض المرء أنّ هُناك، في أوقات مُحددة دون غيرها، مادة كثيفة تحيط بالقمر تنكسر عليها أشعة النجوم.

كان مُتوقعاً، اجتاحتني نوبات صداع شديد حالما انتهيت من هذه التجربة التي لا تخلو من نوع من التهور. غير أنّ مثل هذه المصاعب وأمثالها التي تُصاحب التنفس ليست ذات أهمية كبيرة بحيث تُعرّض حياتي للخطر، وقرّرت تحمّل الألم ما استطعت، لأنّي توقعت أن [119]أترك كلّ هذه المتاعب وراء ظهري لحظة اقترابي من طبقة هواء كثيفة قرب القمر. غير أنّ هذا الأمر كان لا يزال فيما يظهر بعيد المنال؛ وسرعان ما صار مؤكداً على نحو يُنذر بالخطر، وربما لم تخدعني توقعاتي هُنا بوجود غلاف جوي كثيف قياساً إلى كتلة القمر، أنّني كنت مُخطئاً في افتراض شيء من هذه الكثافة، حتى عند السطح، تكفي لتحمّل ثقل منطادي والعربة. هذه فيما يبدو حتماً هي المسألة التي لا سبيلَ للتغاضي عنها، وبدرجة مُماثلة لما يحدث على سطح الأرض، فالجاذبية الفعلية للأجسام في أحد الكوكبين تُقدّر بناءً على مدى كثافة غلافه الجوي. ولكن هبوطي الشديد جعلني أُدرك بما يكفي من الشواهد أنّ تلك لم تكن هي المسألة؛ ولماذا لا يكون الأمر كذلك! إنّه لشيء لا يُمكن تفسيره إلا بالرجوع مرة أُخرى إلى تلك الاضطرابات الجيولوجية المُحتملة التي سبق أن أشرت إليها. على كل حال، كنت الآن قريباً من سطح الكوكب، والهبوط مُستمرٌّ بأقصى ما يُمكن من الطيش المُثير للارتياع. ومع ذلك لم أترك لحظة تضيع هدراً دون أن ألقي من حافة العربة جميع أثقال التوازن أولاً، ثم ألقيت براميل الماء التي معي، وبعدها رميت جهاز تكثيف الهواء وغلاف الحجرة البلاستيكي، وأخيراً جاء دور الأدوات الأُخرى التي في العربة. ولكن كل ذلك لم ينفع. استمرّ الهبوط بسرعة جنونية، وهُنا لم تبقَ مسافة تفصلني عن سطح القمر أكثر من نصف ميل. وكإجراء أخير، بعد التخلّص من معطفي، وقُبعتي، وحذائي، فككت العربة نفسها عن المنطاد، ولم يكن وزنها كبيراً على كل حال، وتعلّقت يداي بشبكة الحبال، حينئذ لم أحظَ بوقت يكفي حتى لرؤية تلك البلاد وما فيها، ولكن بقدر ما استطاعت عيناي التقاط الصور، كانت تزدحم عليها كائنات صغيرة، وهُنا بدأ جسدي ينتفض، وتدلّى رأسي، وهوى قلبي في أعماقي حين رأيت مدينة كاملة رائعة المنظر وحشداً هائلاً من الأقزام ذوي أشكال قبيحة، لا أحد منهم يتلفظ بكلمة واحدة، أو يتجشّم عناء تقديم المُساعدة لي، ولكنّهم وقفوا، مثل زمرةٍ من الحمقى، الجباه مُقطبة،

والأفواه مكشّرة في إيحاءات مُثيرة للضحك، ينظرون إليّ تارة وإلى منطادي تارة أُخرى نظرات مليئة بالاستنكار والريبة، وقد ركز كل منهم ذراعيه على خصره. أدرت وجهي عنهم في امتعاض، وصرت أُحملق إلى الأعلى نحو الأرض التي تركتها مؤخراً، وربّما أكون قد تركتها إلى الأبد، فرأيتها مثل ترسٍ نحاسي هائل كليل، قطره درجتان تقريباً، مُثبتة دون حركة على القبة السماوية فوق رأسي، ومُحاطة من إحدى جوانبها بهلال كأنه مصنوع من أكثر أنواع الذهب لمعاناً. لا أثر فيها ليابسةٍ أو مياه يتمكن المرء من تمييزها، فكل شيء مُغطّى بغماماتٍ من بقع مُتباينة الألوان، ومُطوقٌ بخطوط تُشبه خط الاستواء.

«وهكذا، لعلَّ هذا يبعث الغبطة في نفوس معاليكم، بعد سلسلة من المُفاجآت والمُغامرات التي لا تخطرُ على أذهان البشر، وبعد تلك المخاطر العُجاب التي لم يسمع بها إنسان من قبل، وعلى أثر الانتقال من مكان إلى مكان بمُعجزات لا نظير لها، وصلت في نهاية المطاف بسلام، في اليوم التاسع عشر من مُغادرتي روتردام، [120] إلى ختام رحلة لا شك في أنّها من أكثر الغرائب التي سبق أن حققها أو ربّما تخيّلها أحد من سكان الأرض. غير أنّي أتمنّى أن تبقى مُغامراتي هذه للأجيال القادمة لترويها وتستأنس بها. في حقيقة الأمر ربّما يتخيّل معاليكم، بعد استقرار دام خمس سنوات على كوكب لا يُعد أُعجوبة العجائب من حيث طبيعته الغريبة فحسب، وإنما هو يتّصف بأضعاف مُضاعفة من هذه المواصفات التي ذكرتها، في ارتباطه الحميم، ومن خلال أهميته كقمرٍ مُنير، مع العالم الذي يسكنه البشر؛ فقد توفّرت لدي معلوماتٌ أُريد توجيهها على وجه الخصوص إلى القائمين على كلية الفلكيين التابعة للدولة، وهي معلوماتٌ على جانبٍ عظيم من الأهمية مُقارنة بكل هذه التفاصيل وتكاد تكون ضرباً من ضروب الخيال في غرابتها، عن رحلتي التي وصلتْ إلى نهايتها السعيدة. هذه، في الواقع، هي المسألة التي أُريد تأكيدها. وفي حوزتي كثيرٌ.. بل كثير جدّاً من التفاصيل التي من شأنها أن تمنحكم المُتعة إذا ما تواصلتم معي. لدي أشياءٌ كثيرة أقولها عن مناخ ذلك الكوكب؛ وعن التغيرات المُذهلة التي تطرأ على حرارته وبرودته، ووهج الشمس الساطع الذي يكاد يكون مُحرقاً، مع أنّه يتغيّر بين ليلة

وضحاها، وأشياءُ كثيرة عن حالة الانجماد القطبي ربما أرويها لاحقاً؛ والتبدّل الذي لا يتوقف في مُعدلات الرطوبة، من خلال عملية التقطير كما يحدث بين الفراغات *in vacuo*، من النقطة التي تحت الشمس مُباشرة إلى أقصى نقطة تبعد عنها؛ والإقليم بطبيعته المُتغيرة ومياهه المُتدفّقة الرقراقة، والناس أنفسهم؛ عاداتهم، وطبائعهم، ومؤسساتهم السياسية؛ وصروحهم العمرانية ذات التصاميم العجيبة؛ وقبح أشكالهم؛ ورؤوسهم التي تخلو من الأذنين، إذ يبدو أن تلك الملحقات عديمة النفع في جوٍ يتكيفون معه إلى درجة مُذهلة؛ وجهلهم الذي ينتج عن هذا النقص للاستخدام والانتفاع من خصائص اللّغة؛ وتعويضهم عن الكلام بطريقة فريدة من نوعها للتواصل فيما بينهم؛ ذلك الارتباط الذي لا تُفهم دخائله بين أي فردٍ يعيش على سطح القمر وفردٍ آخر يُقابله على الأرض.. فإنّه ارتباط يُماثل، ويعتمد على، الارتباط بين مدارات الكواكب والأقمار، ومن خلال هذا تتشابك حياة ومصائر سكان هذه الكواكب والأقمار مع حياة ومصائر سكان كواكب وأقمار أُخرى؛ وفضلاً عن هذا، إذا سمح لي معاليكم.. فإنّ لدي معلومات عن الأسرار الخفية التي تكْمن في المناطق النائية خارج سطح القمر.. وبسبب الانسجام الإعجازي بين دوران القمر على محوره وبين دورانه في فلكٍ حول الأرض، فذلك شيء ثابت لا يتبدّل أبداً، وبرحمة من الله، سوف لن يتبدل، بناءً على المُراقبات الدقيقة لتلسكوبات من صنع البشر. كل هذا، وأشياء أُخرى كثيرة.. كثيرة جدّاً.. سأكون على استعداد لأن أرويها بالتفصيل. ولكن، بُغية الاختصار، أقول: يجب أن أحصل منكم على جائزتي. إنني أنوي العودة إلى عائلتي وإلى منزلي، ولأنّ جولاتي المُقبلة التي أنوي القيام بها من جانبي تحتاج حتماً إلى مقدار من التمويل.. إذا أخذنا [121] بنظر الاعتبار الأضواء التي في قُدرتي أن ألقيها على كثيرٍ من الفروع المُهمة لعلوم الفيزياء والميتافيزيقيا.. هُنا عليَّ أن ألتمس منكم، من خلال التأثير الذي تتمتع به هيئتكم الموقرة، أن تمنحوني العفو عن الجريمة التي أذنبت في ارتكابها، وهي موتُ الدائنين على أثر رحيلي من روتردام. هذا إذن موضوع الورقة التي بين أيديكم. وقد أقنعت حاملها، وهو من سكان القمر، بعد جهدٍ جهيد، بأن ينقلها إليكم وأعطيته تعليمات صارمة على أن يكون رسولي إلى الأرض، وسوف يبقى في انتظار رد

معاليكم، شريطة أن يعود برفقة العفو الذي تكلمنا عنه، لو قدّر لي على كل حال الحصول عليه.

«يشرفني أن أكون، إلخ... الخادم المطيع المُمتثل لإرادة معاليكم،

هانز فال».

لدى الانتهاء من قراءة هذه الوثيقة العجيبة في مضمونها، قيل: إن البروفيسور روبادب أسقط غليونه على الأرض في حركة لاإرادية من أثر الاندهاش، وبعد أن رفع ماينهر سوبربوس فون أندردوك نظارته عن وجهه، ومسحها جيداً ثم دسّها في جيبه، نسي نفسه الآن وغفل حتى عن وقاره المعهود، فاستدار ثلاث مرات على عقب قدمه في تعبير جلي عن مدى ذهوله وانبهاره. لم تكن المسألة تقبل الشك.. فالعفو ينبغي أن يُمنح. إذن فقد أقسم البروفيسور روبادب على الأقل عبر كلماتٍ ملتوية، وأخيراً توصل فون أندردوك الشهير إلى قرار، وأمسك ذراع رفيقه في العلم، ودون أن ينطق ببنت شفة، بدأ يحثّ الخطى إلى منزله لكي يدرس الإجراءات التي ينبغي اتّخاذها. وحين وصل في طريقه إلى باب مسكن عمدة المدينة، غامر البروفيسور في القول: إنّه ما دام الرسول رأى من الخير له الاختفاء.. وليس من شك في أنه كان خائفاً حتى الموت من المظهر المُتوحش لمواطني روتردام.. إذن فالعفو يُصبح عديم الجدوى، فلا أحد غير الرجل الذي جاء من القمر يُمكنه أن يجرؤ على القيام برحلة يقطع خلالها تلك المسافات الشاسعة. واعترف عمدة المدينة بصواب هذا الاستنتاج، وبلغ الأمر مُنتهاه. ولكن لم ينقطع سيل الشائعات والشكوك التي انتشرت بين الناس. بعد أن قُرأت الرسالة على الملأ أثارت شتى ردود الأفعال، والشّائعات، والآراء المُتضاربة. بعض الرجال الذين عُرفوا بالحكمة ورجاحة العقل جعلوا من أنفسهم مدعاة للسخرية أيضاً بإنكار الأمر جُملة وتفصيلاً؛ إذ أنّهم اعتبروه خدعة فحسب. غير أنّ أي خدعة تُمارس مع هذا النوع من الناس، فيما أتصوّر، إن هي إلا مُصطلح عام ينطبق على جميع الأمور التي تقع خارج نطاق استيعابهم. أما من جانبي، فليس في وسعي أن أفهم على أي أساس من المُعطيات توصلوا إلى مثل هذا الاتهام. دعونا نُلقي نظرة على ما كان يقال:

أولاً: ذلك الرجل المُثير للسخرية من روتردام كان يكره عُمدة المدينة على وجه الخصوص وبعض الفلكيين.

[122]ثانياً: وهناك أيضاً ذلك القزم الضئيل الغريب المنظر الذي يستجدي قناني الشراب، والذي قُطعت كلا أُذنيه من موضع قريب جدّاً من رأسه جزاءً على ما فعله، قد اختفى عن الأنظار ولم يُعثر له على أثر منذ عدة أيام في المدينة المُجاورة بروغيه.

ثالثاً: إنّ الأوراق التي لصقت على جوانب المنطاد الصغير هي من الصحف التي تصدر في روتردام، ولا يُمكن أن تكون قد صُنعت في القمر. إنّها قديمة ومُلطخة بالقاذورات.. قذرة جدّاً.. وكان غلوك، صاحب المطبعة، مُستعدّاً لأن يُقسم على إنجيله مؤكداً أنّها من صنع روتردام.

رابعاً: هانز فال نفسه، ذلك الوغد السكير، والرجال الثلاثة العاطلين عن العمل الذين يدعوهم بالدائنين، شوهدوا جميعاً، قبل يومين أو ثلاثة وهم يرتشفون الخمر في منزل يقع في الضواحي، بعد أن عادوا قبل فترة قصيرة ومعهم نقودٌ كثيرة تملأ جيوبهم من رحلة إلى ما وراء البحار.

وأخيراً، قد يكون هذا رأياً صائباً، أو يتوجب أن يحظى بالقبول على وجه الإجمال، فإنّ كلية الفلكيين في مدينة روتردام، فضلاً عن كليات أُخرى في أماكن مُتفرّقة من العالم.. ولا داعي لذكر كلياتٍ وفلكيين آخرين بنوع عام، إذا أردنا أن نقول أقلّ ما يُمكن عن هذه المسألة، ليسوا أفضل بمثقال ذرة، ولا أعظم شأناً، ولا أكثر حكمة مما ينبغي أن يكونوا عليه.

نهاية النص

مُلاحظة.. إذا أردنا توخي الدقة ما استطعنا ذلك، فليس هُناك إلا وجهاً للشّبه يكاد يكون ضئيل الأهمية بين كل الكلام الفارغ المُلفّق الذي ورد أعلاه وبين بحث شهير حظي بالتقدير والاحترام وهو الذي يحمل عنوان «قصة القمر» وقد كتبه السيد لوك؛ ولكن لأنّ من خصائص مثل هذه المُخاتلات (رغم أن

مُحاولة الخداع التي نتحدّث عنها طُرحت بأُسلوب هزلي، إلّا أنّ المُحاولة الأُخرى وردت بأسلوب جاد لا مجال فيه لأي ضرب من الهزل)، ولأنّ كلا الخدعتين تتناولان الموضوع نفسه، أي القمر.. فضلاً عن ذلك، فما دامت المُحاولتان تسعيان لإقناعنا بمصداقية التفاصيل العلمية التي تُقدمانها.. فإنّ مُؤلف (هانز فال) يعتقد أنّ من الضروري القول، دفاعاً عن النفس، إنّ مشروعه البارع *jeu d'esprit* قد نشر في مجلة «المُراسل الأدبي للجنوب» قبل نحو ثلاثة أسابيع من صدور بحث السيد ل. في صحيفة «نيويورك صن». إذا تخيّلنا وجود نوع من التماثل أو وجوه مُقارنة ربما ليس لها وجود على الإطلاق، فإنّ بعض ما ورد في صحيفة نيويورك مُطابق تماماً لما كتبه هانز فال وقام بتلفيقه في فصل «أُكذوبة القمر»، حيث يُمكن تلمّس ذلك من خلال تعقب ما كتبه غيره من الكتّاب واحداً بعد الآخر.

لأنّ الكثير من الأشخاص قد خُدعوا في الواقع بـ «أكذوبة الرحلة إلى القمر» فدفعهم ذلك الخداع إلى العزوف أكثر عن الاعتراف بالحقيقة، ربما وجدنا هُنا شيئاً من الاستمتاع لو أردنا أن نُظهر لماذا كان ينبغي ألا ينخدع من انخدع.. لو أشرنا إلى تلك التفاصيل المُحددة من القصة التي كان ينبغي لها أن تكفي لتدعيم صورتها الحقيقية. في حقيقة الأمر، مهما كانت التصورات الخيالية التي عُرضت في هذه القصة العجيبة مُبهرة وواسعة في آفاقها، إلا أنّها تفتقر حتماً إلى التماسك الذي يُعتبر من الخصائص الضرورية هُنا، وذلك عبر الاهتمام بالحقائق المُجرّدة ذاتها وبأوجه التماثل بين الحقيقة والخيال على وجه العموم. لقد تعرّض الناس البسطاء إلى التضليل، وإن لم يدم ذلك زمناً طويلاً، وهذا يُثبِت مدى الجهل المُطبق الذي يسود بنوع عام بخصوص موضوعات ذات علاقة بعلوم الفلك.

إنّ المسافة التي تفصل القمر عن الأرض تقارب 240,000 من الأميال. وإذا أردنا التأكد من مدى بُعد القمر مثلما يبدو لنا، فإن العدسة الاصطناعية سوف تؤدي إلى تقريب القمر (أو أي شيء آخر)، علينا طبعاً تقليص المسافة، وذلك عن طريق تضخيم، أو بعبارة أكثر دقة، مضاعفة القدرة لاختراق الزجاج

المكبّر لمجاهل الفضاء. لقد جعل السيد ل. عدساته ذات قُدرة مُضاعفة مقدارها 42,000 مرة. وبهذا إذا قسّمنا 240,000 (البعد الحقيقي للقمر)، نحصل على خمسة أميال وخمسة أجزاء من سبعة، على أنّها المسافة الحقيقية التي تظهر لنا بوضوح. [123]لا يوجد كائن بإمكانه أبداً رؤية شيءٍ على هذا البُعد إلى الآن؛ فما بالك برؤية التفاصيل الدقيقة التي وردت في القصة. إنّ السيد ل. يتكلّم عن رؤية سر جون هيرشيل لأزهار (الخشخاش، طيور الرية[14]، إلخ..)، بل حتى عن لون وشكل عيون بعض الطيور النادرة. قبل وقت قريب أيضاً لاحظ هو نفسه أنّ العدسات المُقرّبة لن تُتيح لنا رؤية أشياء قطرها أقلّ من ثمان عشرة بوصة؛ ولكن حتى هذا، كما سبق أن قلنا، يعني إعطاء الزجاج قدرة هي أكثر من المُتوقع. ربما نستطيع الاستنتاج بمرور الوقت أن هذا الزجاج غير العادي، كما يُقال، يكون قد جرى صهره في معمل زجاج السادة هارتلي وغرانت في دومبارتون؛ على أنّ منشآت السادة هـ. غ. توقفت عن العمل قبل سنوات من إذاعة هذه الأُكذوبة.

على الصفحة 13، من الكرّاس المطبوع، لدى الكلام على «حجابٍ من الشعر» فوق عيون نوع من الثيران البرية، يقول المؤلف: «يظهر في الحال بالنسبة إلى العقل المُستنير للدكتور هيرشيل أنّ هذا تدبير إلهي لحماية عيون الحيوان من شدة تباين الضوء والظلام الذي يتعرّض إليه كل كائن حي يسكن في ذلك الجانب من القمر بين آونة وأُخرى». إلّا أنّ هذه لا يُمكن اعتبارها فكرة «دقيقة» من لدن الدكتور. إنّ سكان هذا الجانب من القمر ليس لديهم مُشكلة، في ما يبدو، تتعلّق بوجود نوع من الظلام، إذن لا يُمكن أن يوجد ما يُسمى «شدة الضوء» التي ذكرت. في حال غياب الشمس فهم يحصلون على الضوء الذي ينعكس من سطح الأرض على نحو مُماثل لما يحدث لدى ظهور البدر في اليوم الثالث عشر عندما لا تحجبه الغيوم.

إنّ المسائل الطبوغرافية التي جاءت في أنحاء مُتفرقة من البحث، حتى مع

(14) الرية: طير يُشبه النعامة. [المترجم]

مُحاولة الإدلاء بشيء يتوافق مع خرائط بلنت للقمر، تختلف اختلافاً جذرياً مع ما ورد في تلك الخرائط أو في أي خرائط قمرية أُخرى وهي تتعارض على وجه الإجمال حتى مع نفسها. والقراءات التي تُشير إليها البوصلة تتضمّن ارتباكاً لا مجال للتغاضي عنه؛ إذ يبدو أنّ المؤلف كان يجهل أنّ هذه الأشياء، على أي خريطة قمرية، غير مُنسجمة إطلاقاً مع المناظر التي تلتقطها تلسكوبات أرضية؛ فالشرق إلى جهة اليسار، وهلم جرّاً..

ربما انخدع أمثال هؤلاء بالعناوين المُفبركة، بحر نوبيوم.. وبحر ترانكويليتاتس.. وبحر فايكونديتاتس، إلخ.. فهذه أسماء أطلقها بعض الفلكيين سابقاً على البقع المُظلمة. وتطرق السيد ل. كذلك إلى شتى التفاصيل في ما يتعلّق بالبحار والمُحيطات وما إلى ذلك من تجمعات المياه الشاسعة الأبعاد على سطح القمر، في الوقت الذي يتوفّر فيه دليلٌ مؤكد على وجود بقع فلكية، فلا وجود لمثل تلك التجمّعات من المياه. لدى فحص الحد الفاصل بين النور والظلام (على الهلال أو القمر المُحدّب) حيث يُمكن لهذا الخط اجتياز أي نطاق من الأماكن المُظلمة، اكتشف أنّه مضطرب ومُتعرج؛ لو حصل أن وجدت المياه في الأماكن المُعتمة، لكان الخط مُستوياً على نحو واضح.

لم يكن وصف جناحي الرجل الوطواط على الصفحة 21 غير استنساخ حرفي لكتابات بيتر ولكنس عن أجنحة سكان الجزر التي يطيرون بها كما جرى وصفهم. هذه حقيقة بسيطة لا بدّ أن تُثير الوساوس في نفوسنا، على الأقل، كما نتصور نحن.

على الصفحة 23، لدينا النص التالي: «يا له من تأثير استثنائي يسلطه كوكبنا الذي يمتاز بأنّه أكبر ثلاث عشرة مرة على هذا القمر حين يكون جنيناً في رحم الزمن، ذلك الخاضع الذليل لناموس القرابة الكيماوية!» إنّه وصف غاية في الروعة حقّاً؛ ولكن علينا الانتباه إلى أنّه ليس هُناك فلكي واحد على الإطلاق يُمكن أن يُقدم هذا الرأي، وخاصة إلى مجلّة علمية رصينة؛ لأنّ الأرض بالمعنى الذي يقصده، ليست أكبر ثلاث عشرة مرة، وإنما هي أكبر تسع وأربعين مرة من القمر. ويوجد اعتراض آخر مُماثل ينطبق على الصفحات اللاحقة كلّها، فمن

خلال التمهيد بخصوص بعض الاكتشافات في زحل، كان المُراسل المُتفلسف يتطرق إلى وصفٍ غير دقيق لا يأتي به طالب مدرسة لذلك الكوكب.. وقد أرسله إلى مجلة أدنبرة للعلوم!».

ولكن ثمّة نقطة مُحدّدة نود التطرّق إليها على وجه التحديد من شأنها أن تثبت زيف هذه الخدعة. دعونا نتخيل القدرة هُنا على رؤية حيوانات على سطح القمر.. ما الذي يلفت انتباه المُراقب لأول مرة حين يرى ذلك من الأرض؟ حتماً ليس شكل الحيوانات، أو حجمها، أو أي خاصية أُخرى من الخصائص غير الاعتيادية، بقدر ما يشدّ انتباهه سريعاً وضعها المُثير للاستغراب. سوف تبدو تلك الحيوانات كأنها تمشي، بينما أعقابها إلى الأعلى ورؤوسها إلى الأسفل، كما يفعل الذباب على السقف. إنّ أي مراقب عاقل حتماً سوف يصرخ مُتعجّباً (بصرف [124]النظر عن مدى استعداده ومعرفته المُسبقة) من غرابة أوضاعها؛ أما المراقب الذي يوكّل الأمر إلى اتّساع خياله فلا يستبعد هذا الموضوع، بل يتحدّث بشأن رؤية تلك المخلوقات كاملة، على حين يبدو من الواضح أنّه لم يُشاهد سوى رؤوسها!.

لا بدّ من الإشارة في الختام إلى حجم، أو على وجه التحديد القدرات الخارقة للرجل الوطواط (على سبيل المثال، قدرة تلك المخلوقات على الطيران وسط ندرة في الغلاف الجوي.. إذا كان في القمر أي غلاف جوي على الإطلاق)، فضلاً عن تلك الخُرافات التي من نسج الخيال وقد تطرّق فيها المؤلف إلى وجود حيوانات ونباتات، وهي مُتناقضة بصورة عامة مع كافة أشكال التصورات العقلية التي تنسجم مع هذه الأشياء؛ فالتماثل المُصطنع هُنا غالباً ما يبلغ درجة البرهان الحاسم. ربما كان من غير الضروري أن نُضيف فنقول: إنّ الافتراضات كلها التي تُنسب إلى بروستر وهيرشيل، التي جاءت في بداية المقال، عن «انتقال الضوء المُصطنع عبر المُستوى البؤري للرؤية»، إلخ.. الخ..، تنتمي إلى جنس من الكتابات التخمينية المجازية التي تعتمد، في أحسن الأحوال، على أدلّة وبراهين هي في حقيقتها مُجرّد هراء.

هُناك أساس واقعي راسخ لأي اكتشاف يقوم على الرؤية البصرية وسط

النجوم.. تلك حدودٌ تحتاج في طبيعتها إلى التحقيق من أجل فهمها فحسب. لو كان الأمر في الواقع يتطلّب مُجرّد صناعة عدسات مكبّرة عملاقة، فإنّ براعة الإنسان حتماً مؤهلة لإنجاز تلك المهمة، ولعلنا نستطيع الحصول عليها بأي حجم مطلوب. ولكن، من المؤسف، بالقياس إلى ضخامة حجم العدسات، وزيادة قدرة اختراق الفضاء التي تتبع ذلك، أن ينحسر الضوء عن الأشياء بسبب انتشار وتبعثّر أشعته. هذا النوع من السلبيات ليس له علاج مُتوفر ضمن إمكانات البشر المحدودة؛ لأنّنا نتمكّن من رؤية الأشياء من خلال الضوء الذي ينعكس عليها ذاتها، سواءً كان من مصدرٍ مُباشر أو غير مُباشر. إذن فالشيء الوحيد الذي قد ينفع السيد لوك في نظريته هو القليل من الضوء «الاصطناعي» الذي ربما كان قادراً على تسليطه، ليس على «المستوى البؤري للرؤية»، ولكن على الأشياء الحقيقية التي يُراد رؤيتها وإدراك وجودها، أي: القمر. لقد أجريت بنفسي حسابات بسيطة واتّضح لي بعد زمن أنّ الضوء الذي يصدر عن أي نجمٍ يتشتّت إلى درجة كبيرة بحيث يغدو ضعيفاً مثل الضوء الطبيعي الذي يصدر عن النجوم جميعاً في ليلة صافية ليس فيها قمر، ثم لا يعود النجم مرئياً ولا يُصلح لأي غرض تجريبي.

كان تلسكوب إيرل روس الذي تمّ صنعه مؤخراً في إنكلترا يحتوي على منظار تحليل طيفي له سطح عاكس مساحته 4,071 إنشاً مربّعاً؛ أما تلسكوب هيرشيل فإنّه مُزوّد بمرآة لا تتجاوز مساحة سطحها 1,811 والهيكل المعدني الذي صُنع منه تلسكوب إيرل روس قطره 6 أقدام؛ وسمكه 5 ونصف إنش عند الحافات، و 5 عند المركز. ووزنه 3 طن. وبعده البؤري 50 قدماً.

وقد قرأت مؤخراً كتيّباً فريداً من نوعه لمؤلف عبقري، وردت في صفحة العنوان[15] البيانات التالية:

(15) العنوان باللّغة الفرنسية: الرجل الذي وصل إلى القمر، أو الرحلة الخيالية إلى عالم القمر، والتي اكتشف نسختها مؤخراً دومينيك غوانزالس، وهو مُغامر إسباني، ويُسمونها في أماكن أخرى (دليل السائح الطائر). ونقلها إلى لُغتنا أ. ب. د. ونشرتها =

«L'Homme dans la lvne ou le Voyage Chimerique fait au Monde de la Lvne, nouellement decouvert par Dominique Gonzales, Aduanturier Espagnol, autremæt dit le Courier volant. Mis en notre langve par J. B. D. A. Paris, chez Francois Piot, pres la Fontaine de Saint Benoist. Et chez J. Goignard, au premier pilier de la grand'salle du Palais, proche les Consultations, MDCXLVII.» Pp. 76.

يدّعي المؤلف أنّه ترجم عمله هذا عن كتابٍ بالإنكليزية لشخص يُدعى السيد دافيسون (ديفيدسون؟) على الرّغم من الالتباس المُذهل في هذا. يقول[16]:

"J' en ai eu, l'original de Monsieur D'Avisson, medecin des mieux versez qui soient aujourd'huy dans la cænoissance des Belles Lettres, et sur tout de la Philosophic Naturelle. Je lui ai cette obligation entre les autres, de m' auoir non seulement mis en main cc Livre en anglois, mais encore le Manuscrit du Sieur Thomas D'Anan, gentilhomme Eccossois, recommandable pour sa vertu, sur la version duquel j' advoue que j' ay tiræle plan de la mienne".

بعد التطرّق إلى بعض المُغامرات التي لا داعي للإشارة إليها هُنا، وعلى غرار ما اعتاد عليه غيل بلاس كثيراً، وهذه الجوانب تحتل الصفحات الثلاثين الأُولى، يذكر المؤلف أنّه [125]أُصيب بالمرض أثناء إحدى رحلاته البحرية، وتركه البحّارة ولم يتخلّف معه إلا خادم زنجي، على جزيرة سانت هيلينا. وبُغية زيادة الفرص في الحصول على الطعام، انفصل الاثنان وعاش كل واحد منهما

= في باريس مؤسسة فرانسوا بايوت التي تقع بالقرب من نافورة سانت بينواست؛ عند العمود الأول للصالة الكبرى لقصر العدالة، او التي تجاور مقصورات الاستشارات القانونية، 1648، ص 76. [المترجم]

(16) النصّ باللّغة الفرنسية: «كانت لديّ النسخة الأصلية من كتاب السيد دافيسون، وهو طبيب، ومن الشخصيات التي تحظى بالاحترام اليوم لسعة اطّلاعها وخاصة في المجال العلمي. إنّني مُمْتن للرجل بهذا الخصوص من جُملة أشياء أُخرى، لأنّه لم يضع بين يدي هذا الكتاب الذي باللّغة الإنكليزية فحسب، وإنّما أعطاني أيضاً مخطوطة سر توماس دو آنان، وهو رجل اسكوتلندي، وهو شيء خليق بالثناء، وأعترف أنّني قد اعتمدت على ترجمته في تنفيذ خطتي الخاصة». [المترجم]

بعيداً عن الآخر ما استطاعا ذلك. هذا الوضع قادهما إلى تدجين بعض الطيور لتقوم بدور الحمام الزاجل الذي يحمل الرسائل بينهما. وشيئاً فشيئاً تدرّبت هذه الطيور على حمل رزم ثقيلة بعض الشيء، وأخذ الوزن يتزايد تدريجياً. وفي نهاية المطاف خطرت على بالهما فكرة دمج قوى عدد كبير من الطيور، وهي وجهة نظر المؤلف نفسه. ثم ابُتكرت وسيلة لتؤدي ذلك الغرض، ولدينا هُنا وصف شامل لهذه الآلة التي ساعدت على صنعها طريقة الحفر على الفولاذ. هُنا يُمكننا أن نرى صورة سغنور غونزالس، مع قُبعة مُزركشة وباروكة كبيرة، وقد جلس مُنفرج الساقين على شيء يُشبه عصا المكنسة، وتحمله عالياً بجعات برية مربوطة بأشرطة تمتد من ذيولها حتى الآلة.

تستند الحادثة الرئيسية التي سردها سغنور بالتفصيل إلى حقيقة مُهمة يبقى القارئ يجهلها حتى نهاية الكتاب تقريباً. لم تكن البجعات التي عمل على تدجينها هي الطيور الوحيدة الموجودة على جزيرة سانت هلينا، بل ينطبق هذا على القمر أيضاً. ومن هُنا كان من عاداتها، منذ أزمنة سحيقة لا يتصوّرها العقل، أن تُهاجر إلى بعض أجزاء الأرض. وفي الموسم المُناسب طبعاً كانت تعود إلى موطنها؛ وحدث أن احتاج المؤلف ذات يوم إلى خدماتها للقيام برحلة قصيرة، وهذا شيء لم يكن مُتوقعاً، وخلال فترة قصيرة استطاع الوصول إلى القمر. هُناك اكتشف، من جملة أشياء غريبة أُخرى، أنّ الناس يعيشون في سعادة غامرة؛ وأنّهم لا يعرفون القوانين الوضعية؛ وأنّهم يموتون بلا ألم؛ وأنّ قاماتهم تتراوح من عشرة أقدام إلى ثلاثين؛ وأنهم يعيشون خمسة آلاف سنة؛ وأن لديهم إمبراطور يُدعى أردونوزور؛ وأنّهم يستطيعون القفز إلى مسافة ستين قدماً، بسبب انعدام الجاذبية، وكانوا يطيرون هُنا وهُناك بواسطة المراوح.

لا يسعني هُنا إلا أن أُقدم نموذجاً مُختصراً للإطار العام للفلسفة التي وردت في صفحات هذا الكتاب.

«عليّ أن أُفصح لكم هُنا»، يقول سغنور غونزالس. «عن طبيعة المكان الذي وجدت نفسي فيه. كانت الغيوم كلّها تحت قدمي، أو إذا شئتم، تتوزّع بيني وبين الأرض. أما فيما يتعلّق بالنجوم، لأنّه لم يكن هُنا ليلٌ في المكان الذي كنت

فيه، فهي دائماً لها المظهر نفسه؛ لم تكن مُتألقة كما جرت العادة، ولكنّها شاحبة، وتكاد تُشبه القمر في الصباح. كان قليلٌ منها مرئياً، وهذه أضخم عشر مرات (بقدر ما تمكّنت من التخمين)، مما تبدو للإنسان على الأرض. والقمر الذي يحتاج إلى يومين ليُصبح بدراً، كان حجمه كبيراً مذهلاً.

«لن أنسى هُنا أنّ النجوم تظهر على ذلك الجانب من الكرة الأرضية الذي يُقابل القمر دون غيره، وكلّما ازدادت قُرباً يكبر حجمها. وينبغي أن أُطلعكم أيضاً على أنّني كنت أجد نفسي دائماً، سواءً في جو هادئ أو عاصف، في نقطة تقع دائماً بين القمر والأرض مُباشرة. وقد اقتنعت بهذا الرأي لسببين: لأنّ طيوري كانت دائماً تُحلّق في خط مُستقيم؛ وكلّما حاولت أخذ قسط من الراحة، كنا ننجرف دون إحساس منّا حول الكرة الأرضية. اعترف بصدق رأي كوبرنيكوس، الذي طالما أكّد أنّ الأرض لا تتوقف عن الدوران من الشرق إلى الغرب، وليس على أقطاب خط الاستواء السماوي، والتي تُعرف عادة بأقطاب العالم، وإنما على أقطاب منطقة البروج الفلكية، وهذه مسألة أنوي التكلم عنها بالتفصيل في وقت لاحق، إذا أُتيحت لي فرصة لتنشيط ذاكرتي في علم التنجيم الذي تعلّمته في سالامانكا حين كنت شاباً يافعاً، ونسيت كل شيء عنه منذ ذلك الحين».

بصرف النظر عن كل هذه الحماقات التي كُتبت بخط مائل، فلا يخلو الكتاب من بعض الادّعاءات الخليقة بأن تشدّ الانتباه، لأنّه يُقدّم تصوّراً بسيطاً جدّاً عن المفاهيم الفلكية السائدة في تلك الحقبة من الزمن. من جملة هذه الافتراضات القول: إن «قوة الانجذاب» لا يمتد تأثيرها إلّا إلى مسافة قصيرة من سطح الأرض، وتبعاً لهذا، نجد الرحالة الذي نتكلم عنه «ينتقل دون وعي منه حول الكرة الأرضية»، الخ..

[126]هناك «رحلات أخرى إلى القمر»، مع أنّ أي واحدة منها لم تُحقق إنجازات مُثيرة للاهتمام أكثر من الرحلة التي نتكلّم عنها. تكاد رحلة بيرغراك تخلو تماماً من المعنى. في الجزء الثالث من مجلّة (المراجعة الفصلية الأمريكية) نجد نقداً مُسهباً بخصوص «رحلة» من النوع الذي نتكلّم عنه.. ومن العسير تحديد

إن كان الناقد الذي كتب ذلك أراد أن يكشف زيف المعلومات التي جاءت في الكتاب، أم أنّه كان ينوي إظهار مدى جهله الشخصي في علم الفلك. لقد نسيت عنوان هذا العمل؛ على أنّ الوسائل التي اتّبعت في تلك الرحلة قد أُسيء فهمها، وهذا ما يبعث الأسى في النفس، أكثر من بجعات *ganzas* صديقنا سغنور غونزاليس. لقد اكتشف ذلك المُغامر، لدى التنقيب في الأرض، وجود معدن غريب ينجذب إلى القمر انجذاباً قوياً عجيباً، وقام على الفور بصنع صندوق من ذلك المعدن، حتى إذا عمد إلى تحرير الصندوق من أربطته المُثبتة بالأرض وجده ينطلق، وهو على متنه طبعاً، مُباشرة نحو القمر. أما «رحلة طيران توماس أورورك»، فهي محض (لعبة من ألعاب الذكاء) *a jeu d' esprit* ولا يُستهان بها على الإطلاق، وقد تُرجمت هذه الرحلة إلى الألمانية. كان توماس، بطل الرحلة، في حقيقة الأمر يعمل حارساً لدى أحد نبلاء إيرلندا، ودفعته تصرفاته الشاذة الحمقاء إلى ابتكار هذه الحكاية الظريفة. وجرت رحلة الطيران على ظهر نسر، انطلاقاً من هنغري هل، وهو جبل شاهق يقع على أطراف خليج بانتري.

في هذه الكتيبات المُختلفة كان الغرض تهكّمياً على الدوام؛ والموضوع الذي يغلب عليها يتمثّل في وصف عادات سكان القمر بالقياس إلى عاداتنا نحن. لم يُبذل في أي رحلة من هذه الرحلات جهدٌ استثنائي لإضفاء العقلانية على تفاصيل الرحلة ذاتها. يبدو أنّ المؤلفين، في أي رحلة، كانوا يجهلون كل شيء يمتّ بصلة إلى الجوانب الفلكية. أما في رحلة «هانز فال» فالخطة تبدو مُبتكرة على نحو واضح، بقدر ما يتعلّق الأمر بمُحاولة جعلها مُحاكاة أقرب ما تكون للواقع، ومن خلال تطبيق مبادئ علمية (بقدر ما تسمح به الطبيعة الغريبة للموضوع)، لاستقصاء وتتبّع المسار الحقيقي بين الأرض والقمر.

الظل - حكاية رمزية

نعم، مع إني أمشي مُختَرقاً وادي الظلال...

مزمور داود

[127] نعم، أنت يا من تقرأ كلماتي التي أسطرها هُنا لا تزال طبعاً تنتمي إلى عالم الأحياء؛ أما أنا فحتماً أكون قد سلكت طريقي منذ زمن نحو بقعةٍ تحفّ بها الظلال القاتمة. في حقيقة الأمر هُنالك كثيرٌ من المُلابسات المُبهمة التي تحصل، وأسرارٌ تتكشّف، وقرونٌ طويلة تعبر، قبل أن يرى الناس هذه الشواهد التذكارية للرجال[1]. وحين ترى هذه الأشياء النور، فالبعض منها لن يكون قابلاً للتصديق، والبعض الآخر لا يخلو من الشكوك، ولكن لا بأسَ أن يجد قليلٌ من الأشخاص في هذا الكلام أشياءَ كثيرة يتأمّلون فيها ويستنطقون الشخصيات التي نُقشت ملامحها هُنا بأزميلٍ من حديد.

إنّ السَّنة التي نتكلم عنها هي من السنوات المشحونة بشتى ضروب الارتياع، بل إنّها تُثير من المشاعر ما يفوق الارتياع وحده، فتلك من الأمور التي ليس لها أي تسميةٍ أُخرى على الأرض. أعاجيبٌ كثيرة وقعتْ وسبقتها آياتٌ تُنبئ بقربِ وقوعها، نبوءاتٌ أُميط عنها اللثام على نطاق واسع وبشكل لا سابقة له، في البحر وعلى الأرض، وقد تزامن ذلك مع ظهور فرسان بيستلينس[2] الذين

---

(1) «الشواهد التذكارية للرجال» اقتباس من إنجيل القديس ماثيو 6: 5. [المترجم]

(2) بيستلينس: أربعة فرسان أسطوريين يركب كل واحد منهم حصاناً من لون مُختلف ورد وصفهم في التوراة ويرمزون إلى النصر، والحرب، والمجاعة والموت. وقد =

نشروا أجنحتهم السوداء. بإزاء علاماتٍ دهاءٍ تراءت على النجوم، لم يكن من المُستغرب أن تتّشح السماء بثوب السقم؛ وبالنسبة لي، أوينوس[3] الإغريقي، كما يسمونني، من جملة أسماءٍ أُخرى، من الواضح أنّني وصلت الآن إلى نقطة تحوّلٍ حاسمة من تلك السَّنة، سبعمائة وأربع وتسعين، حينها، على مدخل برج الحمل، يقترن كوكب المُشتري مع الحلقة الحمراء لزُحل بمنظره المُخيف. الروحُ العجيبة للسماوات، إن لم أكن على خطأ جسيم، قد كشفت عن نفسها في جلاء، ليس على المدار المادي للأرض فحسب، وإنّما في الصميم من الأرواح البشرية، وخيالاتها، وتأمّلاتها.

على طاولةٍ صغيرة تناثرت عليها بعض الدوارق من نبيذ شيان الأحمر، بين ثنايا ردهةٍ في قصر أحد النبلاء، في مدينة بطليمياس[4] المغمومة، جلسنا ذات ليلةٍ من الليالي؛ كنا جماعة قوامها سبعة أشخاص. وليس في حجرتنا التي كنّا فيها أي مدخل آخر ما عدا باب نحاسي على ارتفاع شاهق مُثيرٍ للارتياب، يقال: إنه من صنع حرفيّ ماهر يُدعى كورينوس[5]، وبما أنّه تحفةٌ نادرة كان قفله من الداخل. وتُحيط بالغرفة المُظلمة ستائر سميكة سوداء اللون تحجب القمر عن عيوننا، وتخفي أيَّ أثر للنجوم المُتلألئة، والشوارع التي خلت من المارة.. ما كانت نذرُ الشؤم وذكريات الآثام لتستبعد من هذا المكان على كل حال. هُنالك أشياء حولنا أجد نفسي عاجزاً عن وصفها وصفاً واضحاً.. سواءً كانت تلك من الأشياء المادية أو الروحية.. الجو [128]هُنا ثقيل الوطأة يقبض الصدور.. يُثير

= ظهر الطاعون الذي تتحدّث عنه القصة أول مرة في ميناء بيلوسيوم في دلتا النيل أثناء حكم جوستينيان، 542 ق. م، كما يذكر ذلك المؤرخ جيبون في كتابه (انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية). [المترجم]

(3) اوينوس: كلمة من أصل إغريقي Oinos أو باللاتينية unus وتعني رقم واحد. كان إدغار ألن بو مُهتماً بفكرة الوحدانية. [المترجم]

(4) هُناك عدة مدن قديمة تُسمّى بطليمياس؛ ربما يقصد المؤلف هُنا مدينة بطليمياس ثيرون على البحر الأحمر. [المترجم]

(5) كورينوس: اسم شاعر أسطوري عاش في زمن حرب طروادة ينتسب إلى مدينة كورينث التي تشتهر بصناعة الدروع. [المترجم]

فينا إحساساً بالاختناق.. والترقّب، وفوق هذا وذاك، تعتري المرء تلك الحالة المُريعة من تلمّس نبض الوجود التي يحس بها الإنسان المُتوتر الأعصاب حين تكون حواسه في أقصى درجات الحيوية والانتباه، في هذه الأثناء لا سبيل لقُدرات الفكر إلّا أن تبقى في حالة من السُّبات. يبدو أنّه كان هُناك شيءٌ ميت ثقيل يتدلّى فوق رؤوسنا ويكاد يصل إلى أطرافنا.. يُطلّ على أثاث الحُجرة.. يُطلّ على كؤوس الشراب؛ ويطلّ على الأشياء كلها التي تظهر في مُستوى مُنخفض، يُطلّ علينا من الأعلى على هذا النحو.. كلُّ شيء مُعتمٌ باستثناء شعل اللّهب المُنبعثة من سبعة مصابيح تُضيء المكان الذي نحن فيه. تلك الشعل التي تسمو في تثاقل وتتراقص في خطوط ضوئية عِجاف، هكذا تبقى تضطرم شاحبة، وادعة؛ وعلى مرآة تشكّلت من الضوء البرّاق المُنعكس على طاولة الأبنوس المُستديرة التي جلسنا حولها، رأى كلُّ واحد من المُجتمعين هُناك امتقاع ملامحه الباهتة، ورأى الوهج المُتموّج على عيني صاحبه المكتئبتين. على أنّنا كنّا نضحك ونلهو بطريقتنا الخاصة التي تُناسب الوضع الذي وجدنا أنفسنا فيه.. ضحكات وابتسامات هستيرية؛ وكنّا نترنم بأغاني آناكريون[6].. لعمري إن هذا جنون؛ ولبثنا نحتسي الشراب حتى الثمالة.. مع أنّ لون النبيذ الأرجواني لطالما يذكرنا بالدم. واكتشفنا وجود نزيلٍ آخر في حُجرتنا، أو لنقل هذا السجن، شابٌّ يُدعى زويلوس. إنّه ميتٌ في حقيقة الأمر، يتمدّد في استرخاءٍ على الأرض، وقد تدثّر بالكفن؛ مشهدٌ لا يُمكن أن يتخيّله إلا عبقريٌ مجنون أو عفريتٌ من الجن!. ولكن يا للأسف! إنّه لا يُشاركنا حفلتنا المرحة هذه إلا بما تبقّى من إشراقِ مُحياه، وقد عكّرته دماملُ الطاعون، لا سيما تلك التي على عينيه اللتين تمكّن الوباء القاتل وإن جزئياً من إطفاء رونقهما؛ كأنهما لا تزالان تتابعان مُجرَيات بهجتنا كما يبتهج الموتى مُصادفة بأولئك الذين يُشرفون على اللحاق بهم. ومع أني، أنا أوينوس، كنت أحس أنّ عيني الراحل تُركزان نظراتهما عليّ أنا دون غيري، فقد أجبرت نفسي على التغاضي عن مرارة التعبير الكامن فيهما، وصرت

(6) أناكريون: 582- 485 شاعر غنائي إغريقي يشتهر أكثر من أي شيء آخر بقصائده عن الخمر. [المترجم]

أحملق إلى الأسفل في ثباتٍ نحو أعماق مرآة الأبنوس، وبدأت أردد بصوت جهوري أغاني ابن تايوس[7]. غير أنّ الأغاني التي ترنّمت بها لم تلبث أن توقفت تدريجياً، وصارت أصداؤها التي انحسرت بعيداً باتّجاه الستائر القاتمة للحجرة، باهتة وغير قابلة للتمييز، وما هي إلّا أن تلاشت. عجباً! من وسط الستائر المُعتمة التي تشبّعت بأصوات الأغنية، لاح ظلٌّ لشيء مُبهم.. كأنه ظل القمر حين يتدلّى على صفحة السماء، لعلنا تصوّرنا أنّه يتّخذ هيئة رجل من الرجال: ولكنه ليس ظل رجل أو حتى ظل أحد الأرباب، ولا هو ظل أي شيء مألوف لدينا. ولبث الظل يرتعش لحظة في مكانه على الستائر، ثمّ استقرّ أخيراً في جلاءٍ تام على لوح الباب النحاسي. كان نوعاً من الظلال المُلتبسة، ظلٌّ عديم الشكل، مُجرّد من الملامح؛ ليس ظل إنسان أو حتى ظل أحد الأرباب.. لم يكن [129]إلهاً من آلهة اليونان، أو من آلهة الكلدانيين، ولا حتى أحد آلهة مصر. وأخيراً استقرّ الظل على مدخل الباب النحاسي، تحت القوس المُزخرف الذي يُتوّج أعمدة الباب، لم يتزحزح من مكانه، ولم ينطق بكلمة واحدة، بل تسمّر هُناك بغير حراك ولبث على هذه الحال. وكان الباب الذي استقرّ عليه الظل، لو أنّي كنت أتذكّر ذلك جيداً، يقع مُباشرة فوق جثة الشاب الملفوف بالكفن، زويلوس. وبعد أن رأينا نحن السبعة المُجتمعون هُناك خروج الظل من وراء الستائر، لم نجرؤ على التأمّل بعيون ثابتة، بل أزحنا عيوننا عنه، وكنّا نُحدّق طويلاً في أعماق مرآة الأبنوس. وفي آخر المطاف، تبادلنا أنا أوينوس، بضع كلمات وسألت الظل أن يخبرنا بعنوانه واسمه الكامل. فأجاب الظل: «اسمي هو الظل فحسب، وأنا أسكن قرب كهوف بطليماس، وعلى وجه التحديد عند سهوب هيلوسيون[8] المُعتمة على تخوم قناة شارون[9] المُدنّسة». نهضنا نحن السبعة من مقاعدنا وقد

---

(7) ابن تايوس: هو الشاعر أناكريون نفسه الذي ينسب إلى مدينته لعدم معرفة اسم أبيه. [المترجم]

(8) هيلوسيون: أو الحقول الأليسانية التي ترمز إلى الجنة، بالقرب من كهوف الموتى في الأساطير المصرية. [المترجم]

(9) شارون: في الميثولوجيا الإغريقية قناة في الجحيم تُحمل إليها أرواح الموتى الجُدد عبر أنهار ستايكس وآكريون التي تفصل عالم الأحياء عن الأموات. [المترجم]

أصابنا ذعرٌ شديد، كانت أوصالنا ترتجف، ووجوهنا شاحبة مذعورة، لأنّ النّبرة التي تكلّم بها الظل لا تُشبه نبرة أي كائن حي، وإنّما هي خليط من أصوات البشر[10]، تتباين في إيقاعاتها من مقطع إلى مقطع وقد سقطت مع حلول الغسق على آذاننا كالصاعقة وتمثّلت لنا فيها أصواتٌ، نتذكّرها جيداً، لآلافٍ من أصدقائنا الذين نعرفهم وسبقونا إلى الرحيل.

(10) في (الأوديسة) لهوميروس، كانت هيلين التي تسببت بحرب طروادة تتكلّم بأصوات زوجات كثير من أبطال الإغريق. [المترجم]

بيرينايس

«يقول لي صاحبي إنّني ربّما وجدتُ عزاءً لكربي،

لو زرت مثوى حبيبتي».

ابن الزيات[1]

[130]الشقاء مرآةٌ تتشعّب وجوهها وأجناسُها، وكذلك التعاسة في الأرض. هذه الوجوه تنبثّ حتى لتكاد تُلامسُ الأُفق اللّامحدود مثلها مثل قوس قزح؛ مُتنوعة المظاهر تعاستنا كألوانِ ذلك القوس في تجلياتها.. ظاهرةٌ لا لبسَ فيها، على أنّ بعض أجزائها يمتزج مع بعض في تآلفٍ ومُحاكاة لاختلاط الألوان. تمتدُّ مظاهر الشقاء والتعاسة فتُعانق الأفق العريض مثل قوس قزح! كيف يحصل أن أستوحي من الجمال ضرباً من ضروب البشاعة؟.. أستمد من عهدٍ غابر مع الطمأنينة والسلام[2] ابتسامة الأسى والأحزان؟ ولكن، كما يقولون في علم الأخلاق، فالشر ما هو إلا نتيجة محتومة للخير، إذن، في حقيقة الأمر، من رحمِ البهجة تولدُ الأحزان. سواءً كانت تلك ذكرى نشوة ماضية إلّا أنّها في حقيقتها أصلُ الألمِ المُبرح الذي نعاني منه جميعاً اليوم، أم أنّها هي الآلام التي

---

(1) هذا البيت ورد باللغة اللاتينية:

Dicebant mihi sodales, si sepulchrum amicae visitarem, curas meas aliquantulum forelevatas.

وقد أخذه إدغار ألن بو من ترجمة فرنسية لكتاب (الأغاني) للأصفهاني. وابن الزيات شاعر من بغداد توفي سنة 218هـ [المترجم]

(2) في سفر التكوين: 9، 13 يرمز قوس قُزح إلى عهد الرب مع نوح. [المترجم]

أصلها موصولٌ إلى حالات النشوة التي لعلنا قد أحسسنا بها.

اسمي الذي أعطي لي في المعمودية إيغايوس؛ أما لقبي فلن أتطرّق إليه هُنا قط. ولكن لا بدّ من التنويه إلى أنّه ليس ثمّة صروح في الأرض بقيت إلى الآن تستحق التبجيل بمرور الأزمنة أكثر من تلك الحيطان الرمادية الكالحة لمنزلنا الذي توارثناه جيلاً بعد جيل. شجرةُ النسب التي أعتز بالانتماء إليها تشتهر بامتداد موغلٍ في القدم حتى لتكاد تُدغدغ في جُذورها بعض الرؤى الخيالية؛ بخصوص كثيرٍ من التفاصيل المُثيرة للعجب.. منها ما يتعلّق بطبيعة منزل العائلة.. اللوحات الجدارية للصالة الكبرى.. ستائر غرف النوم.. الزخارف المحفورة على عواضد الأسلحة.. وبنوع خاص، معرض الرسومات والتحف.. ونمط تنسيق غرفة المكتبة.. وأخيراً، مُحتويات المكتبة نفسها في طبيعتها العجيبة.. هُنالك من الأدلة ما يكفي لتحذير المرء من أي اعتقاد مُسبق.

عن ذكريات سنوات حياتي الأُولى التي عشتها في تلك الغرفة، مع مُجلداتها.. عن هذا كله لن أبوح بشيء. هُنا ماتت أمي. وفي هذا المكان ولدت أنا نفسي. على أنّه من العبث القول فحسب إنني لم أعش أبداً قبل هذا الوقت.. أو إنّ الروح ليس لها وجود سابق[3]. أيُمكن أن يُساورك شكٌّ في هذا؟.. دعنا لا نتجادل الآن. بعد أن أقنعت نفسي بهذا، فلن أسعى إلى إقناع أحد غيري. ومع ذلك هُناك ذكريات أُخرى عن رؤى خيالية.. عيونٌ مشحونة بالمعاني تتغلغل إلى أعماق الروح.. ذكرياتُ أصواتٍ، وموسيقى حزينة.. ذكريات لن تُستبعد مطلقاً من ذهني؛ تلازمني كالظل.. أشياءٌ مُبهمة، لا تكفّ عن التحول من شكل إلى شكل، أشياءٌ غير مُحددة الملامح، غير مُستقرة المضامين؛ كأنها الظل في استحالة التخلص منها ما دام عقلي المُستنير موجوداً، ماضياً في التفكير.

[131]في تلك الغرفة ذاتها ولدت. ولذلك حين استيقظت بعد تلك الليلة الطويلة من حلمٍ تافهٍ مثلما تراءى لي، مع أنّه ليس كذلك، وجدت نفسي فيما يرى النائم أعيشُ على أرضٍ خُرافية.. قصر من الخيال.. قبعت على الفور في

---

(3) يبدو اهتمام ادغار ألن بو بتناسخ الأرواح واضحاً هُنا وفي قصص أُخرى مثل «متزنغيرشتاين»، «موريلا»، «لايجيا»، وغيرها. [المترجم]

صومعة الفكر خاصتي حتى وصلت إلى مرحلة مُتقدمة من الاطّلاع على مكنونات الحقائق.. لم يكن من المُستغرب أن أتلفّت حولي من الحين إلى الحين فانظر بعين وجلةٍ مُفعمة بالحماس.. اختفت عن ذهني أيام شبابي الأُولى وعلاقتي مع الكتب، فتبدّدت تلك الأيام الزاهية واختلطت لحظاتها مع حلم اليقظة؛ ولكن من المُستغرب حقّاً أنّه مع انصرام السنين وتلاشيها، ومع انتصاف مرحلةِ الرجولة التي وجدتني فيها لا أزال أسكن بيت والدي.. من الرائعِ حقّاً تأمّل مدى الركود الذي خيّم على ربيع حياتي.. كم هو رائع هذا الانعكاس التام في أكثر أفكاري تآلفاً مع طبيعتي! بعد أن تأثّرت بحقائق هذا العالم، تمثلتها رؤىً، رؤى فحسب، حتى لم تعُد تلك الأفكار الغريبة عن أرض الأحلام تُصاغ بدورها كمادة لوجودي اليومي، وإنّما أصبحت هي الوجود ذاته في تجلّياته المُطلقة.

* * *

كانت بيرينايس ابنة عمي، وقد نشأنا معاً في ردهات منزل والدي. على أنّ كل واحد منّا نشأ على نحو مُختلف.. أنا، الشاب السقيم دائماً، المدفون حيّاً في لجّة كآبتي.. وهي، تلك الفتاة خفيفة الظل، رشيقة القوام، ذات الطاقة الفوّارة؛ تتريض على سفوح التلال التي اعتادت تسلّقها.. مكاني الأثير إلى نفسي مكتباتُ الأديرة؛ أعيش في المكان الذي يهواه قلبي، وأُدمن، جسدياً وروحياً، اجترار أكثر التأمّلات عمقاً وإيلاماً.. وهي، تطوف بلا اهتمام في دروب الحياة، ليس لديها أدنى فكرة عن الظلال الغامضة التي تكتنف طريقها، أو عن الانفلات الصامت المُملّ للساعات التي تُطوى بلا كلل كأنها غربان بأجنحتها السوداء. بيرينايس!.. أستدعي اسمها إلى ذاكرتي.. بيرينايس!.. من خرائب الذاكرة الموحشة تفزَعُ ألفُ ذكرى وذكرى في عنفوان لدى ترديد ذلك الاسم! آه، يا لصورتها المُترعة بالحياة وهي تتمثّل أمامي الآن، كما تمثّلت في الأيام الخوالي بكل ما فيها من رونق بهيج! أوه، يا لجمالها الخلاب الذي يأسر القلوب! أوه، هيفاء رشيقة القوام ترفل وسط شجيرات أرنهايم[4]! أوه،

(4) هُنا إشارة إلى بارونة أرنهايم الجميلة بطلة رواية سر وليم سكوت (آن من جيرشتاين)، 1829. وكان قصر عائلتها ومن فيه مشهورين بالسّحر والخُرافة. [المترجم]

ناياد[5] ترقص بين نافوراتها! ومن ثمّ.. كلُّ تلك الأسرار بما فيها من تجليات الفزع، وحكاية ما ينبغي أن تُروى.. عن المرض.. ذلك المرض الفتّاك الذي انقضّ مثل ريح السَّموم على هيكلها الناحل؛ حتى عندما كنت أُحملق فيها، كان التحوّل الكارثي يجتاح كيانها، ينقضّ ليفتك بعقلها، وعاداتها، وشخصيتها، وبالطريقة الأكثر مكراً وخوفاً يعكر حتى هويتها! يا للحسرة! لقد حلّ ذلك الدمار ثم ولّى!.. والضحية.. أين هي! إنني لا أعرفها.. لم أعد أعرفها كعهدي بها، بيرينايس.

من الأعراض التي ألحقها ذلك الداء العُضال الذي أدّى إلى انقلابٍ مُريع في كيان ابنة عمي، روحياً ومادّياً، لعلنا نذكر الشيء الأكثر تأثيراً على صفاء طبيعتها، [132]إنّه نوع من الصرع الذي لا يقتصر كما جرت العادة على الغيبوبة وحدها.. وإنما هي غيبوبة غالباً ما تُشبه الذوبان الفعلي، ومن تلك الغيبوبة تسترد وعيها بغتة في أغلب الأحيان على نحو مُثير للذهول. في تلك الأثناء كان مرضي أنا.. إذ قيل لي إنّ علي ألّا أسمّيه بغير هذه التسمية.. مرضي أنا، إذن، يتفاقم سريعاً وتشتدّ وطأته، وقد اكتسب في النهاية صفة مَسٍّ أحادي[6]، على أنّه ضربٌ استثنائي غير معروف من قبل.. كان مرضي بين ساعة وساعة، أو بين لحظة ولحظة، يكتسب شراسة وعنفواناً أكثر فأكثر.. وفي آخر المطاف أحكمَ قبضته بحيث أصبح من المُتعذر أن يُفهم كنهه. هذه الأعراض التي رافقت المسّ الأحادي، إذا شئنا تسميته هكذا، تمثلت في تشوشٍ غريب يطرأ على القدرات العقلية التي تُدعى في علوم الميتافيزيقيا «الانتباه». لم يكن مُحتملاً أن يفهم أحد كلماتي؛ وهُنا أخشى، في الواقع، أنّ ليس ثمّة وسيلة أُخرى لأن أنقل بها إلى القارئ العادي تصوّراتٍ كافية عن ذلك النوع العصبي من «الاهتمام المُفرط» الذي تنهمك فيه، في حالتي أنا، قُدرات الذهن على التأمّل (إذا تفادينا الكلام

(5) ناياد: في الميثولوجيا الإغريقية نوع من حوريات الماء التي تُهيمن أرواحها على النافورات، والينابيع، والجداول وما إلى ذلك من مصادر المياه. [المترجم]

(6) المس الأحادي: اعتلال عقلي يتمحور فيه التفكير حول فكرة واحدة أو مجموعة من الأفكار التي تربطها رابطة واحدة. [المترجم]

بمُصطلحات فنية) فتنشغل دائماً بإنعام النظر بأكثر الأمور تفاهة في الكون.

طالما استغرقتُ في تأملاتي ساعاتٍ طويلة دون أن ينتابني الضجر، بينما يتركّز اهتمامي أثناء ذلك على شيءٍ هامشي لا قيمة له، أو على طبوغرافية الكتاب؛ أو يجوب ذهني طوال الجزء الأكبر من يومٍ صيفي في تتبّع ظلٍ ذي جاذبية ساحرة ينحدر على الستائر المُزخرفة أو على الأرضية؛ فأنسى نفسي ليلة كاملة أُراقب الشعلة المُحترقة على نحو مُتواصل لمصباح، أو اضطرام جمرات في الموقد؛ وأحلم أياماً كاملة بعطر زهرةٍ من الأزهار؛ أكرر في رتابة كلمة مُبتذلة، حتى يتوقف صوت الكلمة بسبب التكرار السقيم عن إعطاء أي فكرة تُذكر إلى العقل؛ أفقد الإحساس بالحركة أو بالوجود المادي، من السكون الجسدي المُطبق الذي يجثم طويلاً في عناد هُناك: هذه بعض الأعراض الغامضة المألوفة أكثر من غيرها والأقل أذىً التي تُثيرها تلك الحالة التي تطرأ على قدراتي العقلية، وإنّها لأعراض ليست، في الواقع، فريدة من نوعها إطلاقاً، ولكنّها حتماً تنأى بنفسها بعيداً عن مُتناول التحليل أو التعليل.

ولكن دعوني أقول شيئاً قبل أن يُسيء أحد فهمي: إنّ الاهتمام المُفرط، غير الهازل، المَرَضيّ في طبيعته، الذي يظهر أثناء تلك الحالة، بالأشياء التي تكون في حقيقتها تافهة ولا تستحق أدنى اهتمام، وما ينبغي لهذا أن يُخلط أبداً مع تلك النزعة الاعتيادية السائدة لدى البشر جميعاً في التدقيق والتمحيص أثناء الانشغال بالتفكير بأمر من الأمور، ولا سيّما تلك التي ينهمك فيها شخص ذو خيال شاعري جامح. فهذه حالة ليست حتى، كما قد يفترض المرء لأول وهلة، من نوعٍ مسرف في سوء التقدير، أو تنطوي على إفراط في تعريف مثل هذه النزعة، فالأمر مُختلف [133]بالضرورة ومُتفرد بحيث لا يُشبهه شيء آخر. في مظهر من مظاهر هذا الاهتمام، على سبيل المثال، يُركز الإنسان الحالم، أو الموسوس، انتباهه ابتداءً على شيء لن يُعتبر تافهاً على الإطلاق، ثم لا يلبث أن يفقد أي أثر أو ذكرى عن هذا الشيء بلا وعيٍ منه وسط فوضى عارمة من الاستنتاجات والافتراضات التي تنشأ بالتزامن مع وضعه النفسي، حتى ينقضي يومٌ كامل من الأحلام، وغالباً ما يكون كلّ يوم مُترفاً بالأحلام، فيكتشف أنّ عنصر التحريض، أو الدافع

الأصلي لشطحاته العقلية وإلهاماته، قد تلاشى ولم يُعد له من وجود، ويكتشف أنّه نسي كل شيء عنه. أما فيما يتعلّق بحالتي أنا، فإنّ محور الاهتمام يكون، كما جرت العادة تافهاً لا يكاد يتبدّل، مع أنّه يكتسب من الوسط الذي تتجسّد فيه رؤيتي المُختلة، أهمية مُشتتة غير حقيقية. هُناك بضعة استنتاجات، إن وجدت أي استنتاجات، يُمكن استخلاصها؛ وهي قليلة تعمد في مُثابرةٍ لا تلين إلى اعتبار الشيء الأصلي المنسي بؤرة للاهتمام. لم يكن الاستغراق في التأمّلات أبداً ليجلب السرور أو الانشراح إلى الصدر؛ ومع توقف أحلام اليقظة هذه، فإنّ الدافع الأول، وهو ليس خارج نطاق الرؤية، يكون قد اكتسب ذلك النوع المُسرف من الانتباه الخارق للمألوف، وتلك هي من السمات الأساسية لهذا الاختلال المرضي. باختصار، إنّ النشاطات الذهنية التي تُمارس بصورة أكثر تحديداً هُنا، قدر تعلق الأمر بحالتي أنا، كما قلت سابقاً، هي الانتباه، أما لدى الإنسان الذي يُمارس أحلام اليقظة فهُناك تركيزٌ على جانب التأملات.

في هذه الفترة، لا يُمكن أن أنكر مُساهمة كتبي إسهاماً فعالاً في التدهور وإثارة الفوضى في ذهني، فمن السهولة بمكان تخمين هذا، وذلك من خلال طبيعتها الخيالية وتطرّقها إلى موضوعات بعيدة كلّ البعد عن المنطق، فقد جعلتني أُسارع في الوصول إلى الأعراض البارزة لهذه الحالة من الاضطراب الذهني. أتذكّر جيداً، من جُملة أشياء أُخرى، البحث الذي كتبه النبيل الإيطالي، كويليوس سيكوندوس كوريو، والذي يحمل عنوان: «*De Amplitudine Beati Regni Dei*» والكتاب العظيم للقديس أوستن، (مدينة الله)؛ وكتاب تيرتوليان (عن جسد المسيح) «*De Carne Christi*» الذي وردت فيه هذه الجُملة الغامضة المُثيرة للجدل: «*Mortuus est Dei filius; credible est quia ineptum est: et sepultus resurrexit; certum est quia impossibile est,*» والتي شغلت وقتي الموصول في القراءة طوال أسابيع من البحث المضني العقيم[7].

(7) كوريو: كاهن إيطالي بروتستاني 1503- 1569 كان يمتاز بروح الفكاهة. قال: إنّ سكان الجحيم أقلّ عدداً من سكان الجنة. كتابه المُشار إليه مطبوع في باسيل سنة 1554. وكتاب القديس أوغسطين ألّفه من سنة 413 إلى 426م وقال فيه: إن المدينة الخالدة =

وهكذا يكون من الواضح أنّ عقلي الذي لا تُزحزح اتّزانه غير التفاهات، وكان يُشبه في حالته تلك جُرفاً صخرياً تتكسّر عليه أمواج المُحيط، كما وصف ذلك بطليموس هيفايستون[8]، عقلي القادر على التصدّي لأقوى تحديات العنف البشري، ولأعتى الأمواج وأكثرها رهبة وللرياح العاصفة، أقول: عقلي صار يرتعد بكل سهولة ويسرٍ للمُسة خفيفة فحسب من زهرة البرواق. على أنّ هذا ربّما بدا في نظر من لا يتوخّى الدقّة والحرص في الحكم على الأمور من البديهيات التي لا تقبل التأويل أو الشك، لأنّ التغيّر الناشئ عن مرضها هي قد أورثني التعاسة والغمّ، وكان من شأن الوضع النفسي الذي تُعاني منه بيرينايس أن يوفر لي ذرائع كثيرة للإيغال في مُمارسة ذلك النوع من التأملات الاستثنائية التي لا زلت إلى الآن أُعاني صعوبة في شرح طبيعتها، ولكن هذه في حقيقة الأمر ليست المسألة التي أنا بصددها على كلّ حال. أثناء فترات الصفاء التي تتخلّل حالتي الذهنية غير المُستقرة، كانت فجيعتها حقّاً تتسبب لي بمقدار لا يُستهان به من الألم، وتحمل إلى أعماقي ذلك الوعي بالتدهور الذي حلَّ بحياتها القصيرة فدمّرها تدميراً وفتكَ [134]بجسدها الغض وشبابها الذاوي؛ لم يكفّ عقلي عن التفكير بين الحين والحين، على الرغم من الإحساس بالمرارة، بالملابسات المُثيرة للاستغراب التي وقع واستمر فيها ذلك التحول العجيب المُفاجئ. غير أنّ هذه الأفكار لم تُسهم في تفاقم حالتي المرضية في خصوصيتها التي لا مثيل لها فحسب، وإنّما كانت، كما يُمكن للمرء أن يتوقّع في ظروف مُماثلة، من الأشياء التي يُحتمل حدوثها للبشر العاديين. صحيحٌ أنّ اضطراباتي النفسية في فرادتها تلك، كانت تُعربد في المساحات الأقل خطورة، إلا أنّها شملت التغيّرات الأشد خطورة وإثارة للذهول التي تقع ضمن الإطار المادي لشخصية بيرينايس.. وامتدّت أيضاً إلى التشويش الأكثر فرادة ورُعباً الذي انتاب هويتها.

= ليست روما المادية، بل هي مدينة الله الروحية. والجملة المُثيرة للجدل هي: «ابن الله مات، هكذا يُراد لنا الاعتقاد لأنّ الأمر غير قابل للتصديق؛ ثم دفن، ثم يقوم من الموت، ذلك شيء مُستحيل حقّاً». [المترجم]

(8) بطليموس هيفايستون: عالم إغريقي عاش في الإسكندرية أثناء حكم هادريان، تخصص في علم اللّغة والمسرح التاريخي. له مسرحية تُسمّى (أبو الهول). [المترجم]

في الأيام الأكثر إشراقاً من حياتها الجميلة، تلك الأيام التي لا يُمكن للمرء وصفها بما تستحق من الكلمات، اعترف بأني لم يسبق لي حتماً أن أُغرمت بشخصيتها. ضمن تلك الحالة الشاذة التي واكبت وجودها، لم تكن مشاعري نابعة من الفؤاد على الإطلاق، وإنّما هي مُجرّد عواطف تستمد جذورها من العقل وحده دائماً. طوال الصبح من ذلك اليوم المشؤوم.. وسط الظلال الغامضة المُشتبكة للغابة في الظهيرة.. وسط الصمت المُطبق الذي يُخيّم على مكتبتي ليلاً.. تطوف صورتها أمام عيني، لقد رأيتها.. لم تكن بيرينايس الحية التي تتنفّس، ولكنها بيرينايس الأحلام؛ إنّها لا تُشبه أي كائنٍ على الأرض، وإنما هي تجريدٌ لمثل ذلك الكائن؛ ليست شيئاً يثير الذهول، وإنّما هي من الأشياء التي تأبى التحليل؛ ليست موضوعاً من موضوعات الغرام، ولكنها ثيمة تصلح لأكثر التأملات غموضاً على تشويشها وتفككها. والآن.. والآن صرتُ أرتعش في حضرتها، ويتزايد شحوبي كلما اقتربت مني؛ إلا أنّي كنت أنتحب نحيباً مريراً على حالتها المُتدهورة التي تبعث على الأسى، وكم استدعى ذهني من الذكريات التي أراد لها أن تقنعني بأنها طالما كانت مغرمة بي! وفي لحظة شريرة فاتحتها بأمر الزواج.

وأخيراً اقترب موعد زفافنا، وذات مساء، في فصل الشتاء من تلك السَّنة.. وكان يوماً دافئاً، صافياً، ضبابياً على نحو غير مألوف أثناء ذلك الموسم، يُصلح أن يكون بحق دور حضانةٍ للقاوند الجميل[9](*)، .. جلست، (وحيداً على ما أظن)، في الحجرة الداخلية لمكتبتي. وحين رفعت عيني، رأيت بيرينايس تتمثل واقفة أمامي.

هل كان وحياً من إيحاءات خيالي المهموم.. أم إنّه الأثر المُبهم للجو.. أم

---

(9) القاوند: طائر تزعم الأسطورة أنّه يُهدّئ في دور حضانته أمواج البحر. [المترجم]

(*) لأنّ جوبيتر ربُّ الأرباب، في موسمِ الشتاء، كان يُعطي أربعة عشر يوماً يعمّ فيها الدفء، لهذا كان الرجال يُسمون هذا الجو والوقت المعتدل «دور حضانة القاوند الجميل».. سيموندياس[*] سيموندياس: (556 - 468ق.م) شاعر غنائي إغريقي.
* [المترجم].

الفجر الكاذب في الحجرة.. أم هي الستائر الرمادية القاتمة وقد تمايلت حول هيئتها.. ما الذي تسبّب بظهور كل تلك المُنحنيات التي تتذبذب وتضمحل؟ لا يُمكنني القطع بهذا. لم تتفوّه هي بكلمة؛ وأنا.. عجزت عن النطق بمقطع. سَرَت رعدةٌ باردة كالجليد في جسدي؛ شعورٌ بالتلهف لا يُحتمل استبد بكياني؛ فضولٌ غامر اجتاح روحي؛ وتراخت مفاصلي على كرسيي، ولبثتُ بعض الوقت أُحاول الْتقاط أنفاسي [135]في مشقة ولا أقوى على الحركة، بينما تسمّرت عيناي عليها. يا للحسرة! كم كان هزالها شديداً، لم يبقَ أثرٌ لكيانها السابق لم يتوارى خلف ملمحٍ من هذا الهزال. ولم تلْبث نظراتي المُلتهبة أن سقطت أخيراً على الوجه.

جبهتها لا تزال شامخة، يعتريها شحوبٌ مُفزعٌ، يكتنفها هدوءٌ مُريب؛ والشعر الذي كان ذات يومٍ فاحم السواد انسدل جزئياً على جبهتها مُغطياً تجاعيد وجهها الغائرة بما لا يُحصى من الخصلات، الآن غلبَ على بشرتها اصفرارٌ باهت، وألوانٌ تتباين في أشكالها العجيبة، كلُّ ذلك بإزاء الكآبة المُهيمنة الظاهرة على سحنتها. عيناها خاليتان من الحياة، تفتقران إلى البريق، تبدوان بلا بؤبؤين؛ ووجدت نفسي أنكمش دون إرادة مني مُبتعداً عن نظرتهما الجامدة لأعود إلى تأمّل حنكها وشفتيها المُتقلّصتين. افترقت الشفتان؛ وفي ابتسامة ذات مغزىً مبهم، انكشفت أسنان بيرينايس المُتحوّلة إلى هيئتها الجديدة في بطء لأراها. وكم تمنيت أن لم أرها أبداً، أو أنّني حين رأيتها سقطتُ ميتاً على الفور!.

* * *

انتفضت فجأة من الرعب لمّا سمعت صوت بابٍ يُغلق، ورفعت رأسي لأنظر فوجدت ابنة عمي قد اختفت من حجرتها. إلّا أنّها لم تُبارح حجرة ذهني المُشوّش، يا للأسف! لقد اختفت، ولم يختفِ طيف الأسنان البيضاء المُفزعة. لم أتبيّن أي لطخة تلوّث سطحها.. أو ظلّاً يشوب ميناها الصقيل.. أو ثلماتٍ على حافاتها.. ولكن الفترة الوجيزة التي استغرقتها ابتسامتها كانت كافية لتخلّف الكثير من التصورات في ذاكرتي. رأيت أسنانها الآن في صفاءٍ أكبر بالقياس إلى رؤيتي لها في أي وقت مضى. الأسنان!.. الأسنان!.. هُنا، وهُناك، في كل مكان،

محسوسة ظاهرة أمام عيني؛ طويلة، ضيقة، بيضاء في إفراط، والشفتان الشاحبتان تلتويان حولها، كما في لحظة ظهورها المُفزع أول مرة. ثم جاءت لحظة إحساسي العارم بالمسّ الأحادي، وصرت انتفض في مسعىً عابث للخلاص من تأثيره الذي لا يُقاوم. ضمن الأشياء التي تضاعفت رؤيتها أمامي في العالم الخارجي لم أُفكر بشيء غير الأسنان. لهذه الأسنان كنت أشتاق وتراودني رغبة مسعورة للاقتراب منها. الأشياء الأُخرى كلها وشتّى ضروب الاهتمامات انصهرت في فكرة واحدة عن الأسنان. هي.. وحدها حاضرةٌ أمام العين المُتوثبة في عقلي، وهي، في تفرّدها وانعزالها عن أي شيء صارت محور حياتي العقلية، ألقيت عليها كلَّ ضوء أُتيح لي. كنت أقلّبها في كل اتّجاه، أتفحّص خصائصها، وأستغرق مفكراً في صفاتها الاستثنائية. تأملت تشكيلاتها المُتباينة، ووجدت مُتعة غريبة في تتبّع التحولات التي تطرأ على طبيعتها. وجفلتُ حين نسبت لها في خيالي قدرة فائقة الحساسية، حتى عندما لا تدعمها الشفتان، فهي لا تفتقر أبداً إلى مقدرة التعبير عن معطياتٍ أخلاقية. كان يقال بحق عن مدموزيل سالي[10] *Que tous ses pas etaient des sentiments* [136]«كل خطوة تخطوها تحمل شحنة من العاطفة»، أما عن بيرينايس فأعتقد على نحو أكثر جدية بأنّ «في أسنانها ذاتها تكمن الأفكار كلها. يا للأفكار!» *que toutes ses dents etaient des idees Des idees!* . . آه، هُنا تكْمن الفكرة البلهاء التي ألحقت بي الدمار! يا للأفكار!.. آه، هذا إذن ما كنت أطمح إليه طموحاً مجنوناً! أحسست أنّ استحواذها عليّ يُمكن له وحده أن يُعيد لي الطمأنينة والسلام، أو يُسهم في إرجاع عقلي لي.

انقضى المساء وأنا على حالتي تلك.. ثم حلّ الظلام، ومكث قليلاً، وما لبث أن ولّى هو الآخر.. وجاء فجرُ اليوم التالي أيضاً.. وكانت سُدم ليلة ثانية تتجمّع الآن هُنا وهُناك.. ولبثتُ جالساً من غير حراك في الغرفة المُنعزلة.. مُستغرقاً بأفكاري.. فيما لا تزال الصورة المُخادعة للأسنان على سطوتها المُرعبة،

---

(10) ماري سالي (1714- 1756) كانت راقصة شهيرة وإحدى صديقات فولتير. [المترجم]

ذلك لأنّها ما فتئت تطفو بأقصى درجات الحيوية، والجلاء، والمُراوغة وسط أضواءٍ وظلال مُتباينة في شدتها داخل الحجرة. وأخيراً تفجّرت من أحلامي صرخةُ ارتياعٍ وفزع، وبعد لحظات على رنين الأصوات المُرتبكة، امتزجت بكثير من النشيج الواهن المُعبّر عن الأسى والوجع. نهضت من مقعدي، وفتحتُ بابَ غُرفة المكتبة، فرأيت خادمة تقف على العتبة وعيونها مغرورقة بالدموع، أخبرتني أنّ بيرينايس.. انتهى أمرها! لقد دهمتها نوبة الصرع في وقت مُبكر من الصباح، والآن مع انصرام الليل، أصبح القبر جاهزاً لنزيلته، وأُتمت التحضيرات كافة لمراسم الجنازة.

* * *

وجدت نفسي جالساً في المكتبة، مرة أُخرى وحدي. يبدو أنّني كنت قد أفقت من جديد، منذ حين ليس بالبعيد، من حلمٍ مُقلق. كنت أعرف أنه مُنتصف الليل الآن، وأدركت أنّ بيرينايس دُفنت منذ الغروب. ولكني لم أستوعب أي شيء مُحدّد على الأقل عن تلك الفترة الموحشة التي تفصل بين هذا وذاك. غير أنّ ذكرياتي عن تلك الفترة كانت فيما يظهر مُفعمة بالارتياع.. رعبٌ أكثر فظاعة من مجرد الوعي بالالتباس، شيء أكثر فظاعة من المجهول وحده. إنّها صفحة مُخيفة في سجل وجودي خُطت عليها ذكريات بحروف كالحة، بشعة، غير مفهومة. حاولت جاهداً فك شيفرة تلك الحروف، ولكن من غير جدوى؛ استمرّت تلك الصرخة المُتهدّجة الخارقة تتكرّر مرة بعد مرة، إنّها روحٌ في طريقها إلى الرحيل، صوتٌ أُنثوي بدأ يرنّ في أُذني. يبدو أنّني فعلت شيئاً ما.. ما الذي فعلت؟ طرحت على نفسي ذلك السؤال مراراً وتكراراً بصوت مسموع، وردّدت الأصداء الهامسة في داخل الحجرة صوتي .."ما الذي فعلت؟".

[137]على طاولة إلى جانبي هُناك مصباح لا تزال شُعلته تحترق، وبالقرب منه رأيت علبة. لم يكن شكل العلبة مُميزاً، ولكني واثقٌ أنّني كنت قد رأيتها عدة مرات من قبل، لأنّها من مُمتلكات طبيب العائلة؛ تُرى كيف وصلتْ إلى هُناك، على الطاولة، ولماذا كنت أرتعش رعباً وأنا أنظر إليها؟ هذه أشياءٌ لا تقبل التفسير، وأخيراً وقعت عيناي على صفحات كتابٍ مفتوح، على جملة تحتها

خط. إنّها كلمات فريدة من نوعها وبسيطة للشاعر ابن الزيات: «يقول لي صاحبي إنّني ربّما وجدتُ عزاءً لكربي، لو زرت مثوى حبيبتي». تُرى لماذا، حين قرأت تلك الكلمات، وقفت شعرات رأسي على أطرافها، وتجمّدت الدماء في عروقي؟

ثمّ لاح دفقٌ من الضوء عند باب المكتبة.. ودخل خادمٌ شاحب المنظر كأنه خرج في التو من القبر، يمشي على أطراف أصابعه. بدت نظراته مذعورة مُتوحشة، وتكلّم معي بصوت مُتهدّج، أجش، مُنخفض النبرات جدّاً. ماذا قال لي؟.. لم أسمع منه غير بعض الجمل المُتقطعة. أخبرني عن صرخةٍ مُخيفة عكرّت سكون الليل.. وعن تجمع لمن كانوا موجودين في المنزل.. وعمليات بحثٍ في الاتجاه الذي جاء منه الصوت؛ ثم ازدادت نبرة صوته تركيزاً وازداد خوفي أيضاً بينما همس لي عن اكتشاف قبرٍ انتهك حرمة الأرض.. وعن جسدٍ مجهول الهوية ملفوف بالكفن، على أنّ الجسد لا يزال يتنفس.. لا يزال ينتفض ..لا يزال حيّاً!

أشار الخادم إلى بعض الثياب؛ كانت مُلطخة بالتراب والدم المُتخثر. لم أنطق بكلمة واحدة، وأخذني في رفق من يدي؛ اليد عليها خدوش خلفتها أظافرٌ بشرية. حاول أن يلفت انتباهي إلى شيء يستند على الجدار. نظرت إلى هُناك بعض الوقت: إنّها مجرفة. تفجّرت صرخة مدوّية من بين شفتي ووثبت مُسرعاً باتّجاه الطاولة، وأمسكت العلبة التي كانت عليها. ولكنّي لم أتمكّن من فتحها؛ في خضمّ ارتياعي ورعدة أوصالي، انزلقت العلبة من يدي، وسقطت بثقلها على الأرض، وانفصلت إلى قطع مُتناثرة؛ وتدحرجت منها بعض الأدوات التي تستعمل في جراحة الأسنان، يختلط معها اثنان وثلاثون فصّاً صغيراً أبيض من مادةٍ تبدو كالعاج تناثرت هُنا وهُناك.

موريلا

هي ذاتها، وحدها، وحدها،
شيءٌ خالدٌ إلى الأبد، ولا نظير له[1].

أفلاطون (المُناظرة)

[138]إحساسٌ طاغٍ غائرٌ في الأعماق، وعاطفة من النادر أن تجد لها مثيلاً في الوجود.. ينتابني كلُّ ذلك في اللحظة التي أُراقب فيها صديقتي موريلا. لقد ألقتني ظروفي العاثرة إلى عالمها الخاص منذ سنوات طويلة، فأصبحت روحي منذ لقائنا الأول تضطرم بنيران لا عهد لي بها؛ غير أنّها ليست نيران أيروس[2]. وكان ممّا يبعث المرارة في نفسي ويُعذّب روحي قناعتي التي كنت أحس بها تزحف تدريجياً إلى ذهني بأنّي لن أتمكّن بأي صورة من تحديد المغزى الحقيقي الاستثنائي لتلك النيران ولا أن أسبر أغوارها الغامضة. غير أننا التقينا على كل حال؛ وارتبط مصيرنا معاً على المذبح، ولم أتكلّم معها إطلاقاً عن معنى تلك العاطفة ولا تناولنا في نقاشاتنا فكرة الحب. ولكنها انصرفت شيئاً فشيئاً عن عالمها الخاص، وكرّست حياتها لي وحدي، الأمر الذي أسعدني كثيراً. ألا

(1) هذا النص في الأصل باللاتينية من كتاب أفلاطون (المُناظرة) اقتبسه إدغار ألن بو من كتاب هنري نلسون كوليردج (مقدمة لدراسة شعراء الإغريق الأوائل). طبعة فيلادلفيا، 1831. ص 32. [المترجم]

(2) أيروس: في الميثولوجيا الإغريقية إله الحب، ونظيره لدى الرومان كيوبيد. [المترجم]

تستحق تلك السعادة النادرة أن يتشكّك المرء في حقيقتها؟ إنّها حقاً كلّ معاني السعادة التي يحلم بها الإنسان.

لا سبيل إلى إنكار أن موريلا كانت امرأة على اطّلاع واسع. وكنت أعجب لطموحي الساذج في الحياة معها، فلم تكن مواهبها من النوع العادي.. قُدراتها الذهنية خارقة عصية على الفهم. كنت أستشعر هذا، وفي كثيرٍ من أمور الحياة لا بُد أنّني أصبحت تلميذاً لها. ولكني سرعان ما وجدتها، ربما بسبب تلقّيها التعليم في برسبورغ[3]، تطرح أمامي بعض تلك الكتابات ذات التوجهات الصوفية والتي تُعتبر عادة مُجرّد نماذج تافهة من بواكير الأدب الألماني. مثل هذه الكتابات، ولم أتخيّل السبب، كانت من قراءاتها المُفضلة التي لا تكفّ عن الرجوع إليها.. وبمرور الوقت أصبحت من قراءاتي المُفضلة أنا أيضاً، وهذا يُعزى إلى التطبع التدريجي، الفعّال في نتائجه، للعادات التي يزاولها المرء وللقدوة الحسنة التي يصبو إليها.

في كل هذا، إن لم أكن مُخطئاً، لم يكن لعقلي دورٌ يذكر. لم تكن قناعاتي، أم تراني نفسي، في حالة تُتيح لها أن تخضع للتأثر الفعّال بمثالٍ أو قدوة، ولا كانت أي صبغة من الصوفية التي قرأت عنها قابلة للاكتشاف لدي، ما لم أكن على خطأ جسيم، سواءً في أفعالي أو أفكاري. بعد أن اقتنعت بهذا التحليل، سلمت أمري ضمناً إلى زوجتي لتتولّى الزمام، ودخلت بقلب صامد لا يتزحزح عن مواقفه إلى عالم دراساتها المُعقدة. ومن ثم.. حين كنت أُحملق في صفحات تنأى عن الفهم، كنت [139]أستشعر روحاً محظورة تضطرم في داخلي.. عندها كانت موريلا تضع يدها الباردة على يدي، وهي تنقب في بقايا رَماد فلسفة مُنقرضة بحثاً عن كلمات مُلتبسة لم يسمع بها أحد تبقى معانيها الغريبة تتملْمل في ذاكرتي. من ساعة إلى ساعة، كنت أجلس إلى جوارها مُستغرقاً في تأملاتي على أنغام صوتها الشجي حتى تمتزج الموسيقى المرهفة

(3) برسبورغ: المدينة التي يُتوّج فيها ملوك هنغاريا، وفيها جامعة يُعتقد أنّها موطن للسحر الأسود. [المترجم]

بالفزع الموحش، هُنالك يسقط ظلٌ من ظلالها على روحي السقيمة، ويزداد وجهي شحوباً، وأنتفض من الداخل خوفاً من تلك النغمات التي يقشعرّ لها البدن. وهكذا لا تلبث السعادة أن تتلاشى على حين فجأة وتتحوّل إلى ذعرٍ مُقيم، والأشياء الأكثر رونقاً وإشراقاً تُصبح أكثر بشاعة، ويتحوّل وادي حنّون إلى جي- هينا[4].

لا ضرورة للتطرّق إلى طبيعة تلك الكتابات في دقة تفصيلية، إذ إنّها مع تنامي اقتباسها من الكتب التي ذكرتها آنفاً أضحت، طوال فترة من الزمن، الموضوع الوحيد تقريباً لأحاديثي مع موريلا. في وسع الإنسان المُثقف الذي يعرف ما يُصطلح عليه بعلم الأخلاق اللاهوتي أن يستوعب هذه الأشياء في سهولةٍ ويسر، أما بالقياس إلى الإنسان غير المُثقف فهي تبقى، على كل حال، من المسائل العسيرة إلا فيما ندر. إنّ المفاهيم الصعبة المُستمدة من «وحدة الوجود» التي قال بها فيخته[5]؛ والأفكار المُحوّرة عن تناسخ الأرواح لدى الفيثاغوريين؛ وفوق هذا وذاك، ما يُعرف بعقائد الهوية كما يُصرّح بذلك شيلنغ[6]، كانت على نحو الإجمال من المحاور الرئيسية التي تتطرّق إليها نقاشاتنا التي تظهر في أبهى صورة فرادة خيال موريلا. ذلك المفهوم للهوية التي نُسمّيها هوية شخصية، كما يُفسّرها السيد لوك[7]، في تصوّري، بأصدق تعبير مُمكن على أنها تتجسّد في حصافة عقل الكائن المُفكر. وما دمنا نفهم شخصياً

(4) هُنا يقتبس إدغار ألن بو من توماس هوبز ما ذكره في كتابه (الليفياثان) 1651، ج3، فصل 38 حيث ورد فيه ما يلي: ... هُناك مكان بالقرب من أورشليم، يُسمّى وادي أطفال حنون؛ وكان اليهود يؤدون فيه طقوساً وثنية شنيعة، فيُضحّون بأطفالهم إلى الصنم مولوش.. ويضرمون النيران لإزالة الرائحة العفنة من المكان الملعون، وكلمة جي هينا صارت تُطلق على المكان أي: «جهنم». [المترجم]

(5) وحدة الوجود: القول بأن الله والطبيعة شيء واحد وبأن الكون المادي والإنسان ليسا غير مظاهر للذات الإلهية. [المترجم]

(6) شيلنغ: فريدريك فلهلم جوزيف (1775- 1854) فيلسوف ألماني. من رواد المثالية الألمانية. [المترجم]

(7) جون لوك (1632- 1704) فيلسوف إنكليزي عارض نظرية الحق الإلهي وقال بأن الاختيار قوام المعرفة. [المترجم]

جوهر الذكاء ومصدرُه العقل في نشاطات التفكير المنطقي، وما دام هُناك وعي يُرافق التفكير دائماً، فهذا ما يسبغ علينا جميعاً الصيغة التي نُسمّي أنفسنا بها، ويُميزنا عن غيرنا من الكائنات التي تُفكر على نحو ما، ويُضفي علينا هويتنا الشخصية. إلّا أنّ الشيء الأساسي في هذه الفردانية *principium indivduationis*، أو مفهوم تلك الهوية التي لا تُفقد عند الموت وتضيع إلى الأبد، من وجهة نظري، في جميع الأوقات، هو من المسائل الاعتبارية التي تحظى حتماً بالاهتمام المُكثف؛ ولا ينشأ ذلك من طبيعتها المُلغزة المُبهرة في نتائجها، وإنما من أسلوب الطرح الحماسي المُغاير الذي اتّبعته موريلا في مُناقشة تلك المسائل.

ولكن، في حقيقة الأمر، يبدو أنّ الوقت قد أزف بالنسبة لي الآن لكي يتبلّور أسلوبٌ خاص لحياتي الخافية التي كانت تنهكني كأنّها تعويذة سحرية. لم يعُد في وسعي تحمّل لمسة أصابعها السقيمة، ولا النبرة المُتهدجة لموسيقى لغتها التي تتكلّم بها، ولا حتى بريق عينيها الكئيبتين. وكانت هي تعرف كل هذا، ولكنّها لم ترد على ذلك بتصرّف عنيد؛ بدت واعية كل الوعي بإزاء ضعفي أو سخافاتي، كانت تبتسم، وتقول: إنه القدر. وكانت أيضاً مُدركة للدافع، وهو شيءٌ مجهول لدي، الذي وراء ذلك التحول والنفور في نظرتي؛ غير أنّها لم تلمّح لي أو تُشير ولو ضمناً إلى تلك الظاهرة. كانت تتصرّف كامرأة صامدة مثل شجرة صنوبر، مع أنّها تواجه الذبول [140]في كل يوم. بمرور الوقت، استقرّت بقعة قرمزية في ثباتٍ على الحنك، وهيمنت الأوردة الزرقاء على الجبهة الشاحبة أكثر فأكثر؛ ثم ذابت طبيعتي النزقة في لحظة من اللحظات فتحولت إلى إشفاق، ولكن في أثناء ذلك، التقطت نظراتي بعض المعاني في عينيها، ومن ثم اجتاح السِقم روحي فطاش صوابها وعانيت من الدوار، كأنني كنت أُطيل النظر إلى أعماق هاوية سحيقة.

هل أقول إذن إنني كنت أتحرّق شوقاً وتعتريني رغبة عارمة للحظة التي تموت فيها موريلا؟ هكذا حصل لي؛ غير أن روحها الكسيرة ظلّت تتشبث بعذاباتها ووهنها عدة أيام، بل عدة أسابيع وأشهر تبعث على الضجر، حتى عادت حالتي العصبية المُعذبة تُسيطر على عقلي، وتفاقم حنقي مع استمرار

التأخير، وبقلب شيطاني، بدأت ألعن الأيام والساعات واللحظات السقيمة، ذلك الزمن الذي بدا كأنه يتمدد إلى ما لا نهاية مع استمرار تدهور حياتها المُرهفة، كأنّه الظلال التي تواكب انقضاء النهار.

ذات مساءٍ خريفي، وكانت الريح تهجع في السماء، نادتني موريلا وطلبت مني الاقتراب من سريرها. على الرّغم من الضباب القاتم الذي يلفّ كل ركن من الأرض، والتألق الدافئ الذي ينعكس على سطح المياه، وسط أوراق الغابة المتساقطة في غزارة خلال تشرين الأول، لمحت قوس قزحٍ يتدلّى من القبة الزرقاء.

«إنّه يوم الأيام»، قالت حين دنوتُ منها؛ «يوم الأيام جميعاً سواءً للحياة أم للموت. إنّه يوم جميل لأبناء الأرض والحياة.. آه، وهو أكثر جمالاً لا سيّما لفتيات السماوات والموت!»[8]

طبعتُ قبلة على جبهتها، وتابعت هي الكلام:

«إنني أحتضر، ولكني سوف أعيش».

«موريلا!»

«لا عهدَ لي بالأيام التي أحببتني فيها كما تزعم.. ولكن الإنسانة التي كنت تكرهها في حياتها، حتماً سوف تُحبّها بعد رحيلها».

«موريلا!»

«أقول لك مرة أُخرى إنّني أحتضر. ولكن يبقى في نفسي عهدٌ مع تلك العاطفة.. آه، ويا لها من عاطفة شحيحة!.. تلك التي تُبادلني إياها، موريلا. وحين ترحل روحي هل يبقى الطفل الذي في أحشائي على قيد الحياة؟.. طفلك وطفلي، طفل موريلا. مع أنّ أيامك ستتحوّل إلى أيام حزنٍ مقيم.. فالحزن يدوم أطول من سواه من المشاعر، مثل أشجار السرو المُعمّرة التي تصمد أكثر من

(8) في سفر التكوين 5: 2 ورد ما يلي... «أبناء الرب شاهدوا أنّ بنات الرجال كنّ حسناوات». [المترجم]

غيرها من الأشجار. لأنّ ساعات بهجتك انتهت، والفرح لا يزورنا مرتين في حياة واحدة مثل ورود حدائق بايستوم[9] التي تتبرعم مرتين في السَّنة. لن تضطر بعد الآن لأن تلعب دوراً في خرائب تيان[10] بمرور الوقت، ولكن بما أنّك تجهل أي شيء عن الآس والكرمة، فسوف تبقى تحمل كفنك الأبيض وتدور في الأرض، مثلما يفعل المسلمون في مكة».

«موريلا!» صحت بها، «موريلا! كيف عرفت كل هذا؟» ولكنها أشاحت [141]وجهها على الوسادة وسَرَت رعشة خفيفة في أطرافها.. وهكذا ماتت، ولم أسمع صوتها بعد ذلك.

غير أنّ الطفل، كما تنبأت المسكينة، الذي ولد بينما كانت هي تلفظ أنفاسها الأخيرة، لم يتنفّس إلا بعد أن انقطعت أنفاس أمه.. أو بالأحرى فلنقل طفلتها التي وُفقت إلى العيش بعدها. وكبرت البنت واكتسبت هيئة وذهناً غاية في الغرابة، فإذا هي نموذج حقيقي للمرأة التي رحلت، وأحببتها أكثر مما تخيّلت أنّني قد أشعر بمثل تلك العاطفة نحو أي فرد من البشر على الأرض.

ومضى وقت طويل على هذا التبدّل الوجداني الخالص قبل أن تُعكّره فيما بعد أحاسيسٌ قاتمة، فاختلط معه مزيجٌ من الكآبة، والرعب، والأحزان، والدموع التي صارت تنسكب كالغيوم. لقد قلت: إنّ الطفلة كبرت على نحو مُستهجن في بنيتها وقدراتها العقلية. وإنّه لشيء غريبٌ حقّاً أن تكبر بمثل تلك السرعة المذهلة ويتضاعف كيانها، على أنّ الشيء المُفزع، أوه، بل ما هو مُفزعٌ أكثر من أي شيء هي تلك الأفكار الصاخبة التي ما فتئت تحتشد في ذهني بينما كنت مواظباً على مُراقبة تطوّرها العقلي. وهل كان يُمكن أن أتوقع شيئاً على عكس هذا، وأنا اكتشف يوماً بعد يوم أن في ذهن وتفكير الطفلة تكْمن قُدرات

(9) بايستوم: مدينة إغريقية قديمة على ساحل بحر تايرينيان، مُقاطعة ماغنا غرايسيا جنوبي إيطاليا. وهُنا اقتباس من فيرجل (الجورجيون) حيث يقول: «ورود الحدائق في بايستوم تتبرعم مرتين في السَّنة». [المترجم]

(10) تيان أو تيوس: مدينة إغريقية قديمة على ساحل أيونيا، في مقاطعة أزمير، تركيا. [المترجم]

ومؤهلات ناضجة تُماثل ما تتمتّع به المرأة؟ وكيف كان في وسعي تقبّل تلك الدروس التي تدلّ على اتّساع وعمق الخبرة من شفتي فتاة صغيرة؟ حين أجد نبض الحكمة أو تجلّيات النضج المعروفة لدى الكبار تتألق ساعة بعد ساعة في عينيها الواسعتين المُستغرقتين في التأمل؟ حين اضطرّ للاعتراف بأن كل هذا التبدل لم يعُد خافياً على أحاسيسي المفزوعة، حتى لم أعد قادراً على إخفاء حقيقة تلك الأحاسيس عن روحي، ولا أتمكّن من إبعادها عن تصوّراتي التي ترتعش خوفاً إذا تلقّتها، فمن الحق الاستفسار إذن عن مغزى تلك التوجّسات وطبيعتها المُخيفة عندما تُخلق في داخلي وتزحف لتستولي على روحي، أو التساؤل عن أفكاري وهي ترتدُّ مدحورة مشدوهة في مواجهة الحكايات الغريبة والنظريات المُثيرة للعجب التي عرفتها عن موريلا التي ترقد في قبرها؟ لقد انتزعتُ من عالم المنطق الحصيف الذي حولي كائناً يدفعني مصيره دفعاً إلى تبجيله، وفي خضم العزلة الصارمة التي أتاحها لي منزلي، صرت مدمناً على مُراقبة قلقة تورث السّقم لكل شيء يتعلّق بحبيبتي الصغيرة تلك.

ومع انقضاء السنين، كنت أُطيل التأمل يوماً بعد يوم في وجهها الذي تبدو عليه علامات وقار، ولطفٍ، وفصاحة، ويمضي ذهني رويداً يُراقب مراحل نضجها فأكتشف وجوه تشابه جديدة أكثر بين الطفلة وأمها، في سوداويتها وفي إيحاءات الموت. ومع انقضاء الساعات تزداد هذه النقاط غموضاً، خطوط التماثل هذه تُصبح أكثر تبلْوراً، وأكثر حدة، وأكثر إرباكاً، بل أكثر بشاعة في مظاهرها جميعاً على وجه الإجمال. لأنّ ابتسامتها كانت تُماثل ابتسامة أمها كلياً، فهذا شيء أستطيع احتماله؛ ولكن فيما بعد أذهلني ذلك التماثل المُطلق، عندما أكتشف أنّ عينيها تُشبهان عيني موريلا في كل شيء، وهذا ما كنت قادراً على احتماله أيضاً؛ ولكنّي أكتشف لاحقاً أنّهما كثيراً ما تُحاولان اختراق أعماق روحي فتتركان في نفسي انطباعاً مُلتبساً بأنهما عيني موريلا نفسها بكل ما تحملانه من معنى مُحيّر. على [142]مُنحنيات الجبهة الشامخة، وفي ضفائر الشعر الحريري، والأصابع النحيلة التي تُدفن هُناك، ونبرات الموسيقى الحزينة لصوتها، وفوق هذا وذاك.. أوه، رغم كل شيء، في العبارات والانطباعات

المرسومة على الشفتين الذابلتين لحبيبتي التي لا تزال على قيد الحياة، وجدت غذاءً للفكر الفاني وللرعب، غذاء دودةٍ لن تموت[11].

وهكذا انقضى طوران مُتألقان من أطوار حياتها، ولبثتْ ابنتي تعيش دون اسمٍ على هذه الأرض. «طفلتي»، و«حبيبتي»، اسمان كانا ينبعان كما جرت العادة من حنان الأُبوة، رغم العُزلة الصارمة التي تُغلّف أيامها وتمنع أي شكل من أشكال التواصل معها. لقد اندثر اسم موريلا مع موتها. لم أكن أتحدّث إلى ابنتي عن الأم أبداً في ذلك الوقت، فالكلام أقرب إلى المُستحيل. في حقيقة الأمر، إبان الفترة الوجيزة التي عاشت فيها، لم تتلقَ الطفلة أي انطباعات عن العالم الخارجي من شأنها أن تُبلور شخصيتها، ربما باستثناء تلك الضروب من الانطباعات التي توفرها حدودٌ ضيقة تسمح بها عزلتها. ولكن يبدو أنّ طقوس المعمودية أظهرت لذهني في آخر المطاف، بمظاهرها الباهتة القلقة، تحرّراً حاضراً من حالات الفزع التي تكتنف مصيري. على إناء التعميد وقفت مُتردداً باحثاً عن اسم. وتجلّت أمام ذهني كثيرٌ من الأسماء التي تعود إلى زمن الحكمة الجميل، أسماءٌ قديمة وجديدة، من الأرض التي أنتمي إليها ومن أماكن أجنبية، تزدحم على شفتي، مع كثيرٍ وكثيرٍ من الأسماء البديعة التي تحمل معاني الرّقة، والسعادة، والخير. ما الذي دفعني إذن إلى تعكير ذاكرة الموتى الذين يرقدون تحت التراب؟ أيُّ شيطان دفعني لأن أُطلق ذلك الصوت الذي كانت مجرد ذكراه تجعل تيارات الدماء الأرجوانية تنحسر عن معابد القلب؟ أيُّ شيطان تفوّه بذلك الاسم من أقصى أعماق روحي، وأنا وسط تلك الممرّات المُعتمة، وسط صمت الليل، أهمس في أُذن الرجل المُبجّل مقاطع الاسم.. موريلا؟ لا شيء غير الشيطان نفسه الذي يتلوّى على وجه طفلتي، ويُعيد تشكيل سُحنتها في تدرّج لوني يحمل إيحاء الموت، حتى إذا سمعتْ ذلك الصوت الذي لا يكاد يُسمع، أدارت عينيها الجامدتين من الأرض إلى السماء، وسقط على وجهها شعاعٌ مُنعكس على البلاطات القديمة لمدفننا القديم، وأجابت.. «أنا هنا!».

---

(11) من سفر أشعيا 66: 24 «دودتهم لن تموت». [المترجم]

أصواتٌ تتردّد في إيقاع جلي، باردة، هادئة هُدوءاً غريباً، وقعت بضعٌ منها على أُذني، ومن هُناك تدحْرجت كأنها حبّاتِ رصاصٍ ذائب يُصدر هسيساً يصل إلى ذهني. سنواتٌ.. سنوات كثيرة مرّت، على أنّ ذكرى تلك الفترة لم تتبدّد قط. ولم أستطع نسيان زهور الكرمة.. ولكن أشجار السرو والشوكران(12) كانت تغمرني بظلالها ليلاً ونهاراً. لم أعد أتبيّن موضعي من الزمان والمكان، خفتت نجومُ مصيري ورحلتْ عن السماء، وكانت الأرض تتسربل بالظلام، وأشباحٌ تتحرّك عليها تعبر قربي كأنّها ظلالُ الزمن تطوف من مكان إلى مكان، وسط ذلك كله لم [143]أُشاهد شيئاً غير.. موريلا وحدها. كانت الرياح التي تُرسلها القبة الزرقاء تهمس بصوت واحدٍ في أُذني، وأمواج البحر تُدمدم ولا تتوقف.. موريلا. ولكنها ماتت؛ وعلى يدي حملتها إلى القبر؛ وانطلقت من فمي ضحكة مريرة ظلّت أصداؤها ترنّ طويلاً حين لم أجد أي أثر للأُولى في الحفرة التي وضعت فيها الثانية.. موريلا.

---

(12) الشوكران: شجر يُستخرج من ثمره شراب سام. [المترجم]

المَلك طاعون

حكاية ذات مضامين رمزية

الآلهة تتحمّل حقاً وسوف تسمح للملوك

بالأشياء التي تشمئز منها لدى الأوغاد.

من مسرحية كتبها بوكهرست (فيركس وبوركس)[1].

[144]في الساعة الثانية عشرة تقريباً من إحدى ليالي تشرين الأول، إبان عصر الفروسية والشهامة الذي تزامن مع حكم إدوارد الثالث[2]، كان هُناك اثنان من البحّارة ينتميان إلى طاقم سفينة تُدعى «التكليف مرفوع»، وهو مركب شراعي تجاري ذو صاريين تعوّد أن يجوب منطقة تمتد من سلويز على نهر التايمز، حتى يُلقي مرساته عند تخوم ذلك النهر، أحس هذان الرجلان بالاستغراب على حين فجأة لما وجدا نفسيهما جالسين في خمّارة مُجاورة لأبرشية سانت أندروز، في لندن.. على مدخل الخمارة عُلّقت لوحة خُطّت عليها عبارة «جولي تار».

(1) هذا اقتباس من مسرحية (غوربودم) التي كتبها كل من توماس نورث، توماس ساكفيل، لورد بوكهرست، وقد عُرضت في حضور الملكة إليزابيث الأولى بتاريخ 13 كانون الثاني 1561. وكان عنوانها الثانوي (فيركس وبوركس). [المترجم]

(2) حكم إدوارد الثالث خلال الفترة 1327- 1377، وقد اجتاح الطاعون أو الموت الأسود إنكلترا عدة مرات أثناء حكمه. [المترجم]

رغم أن كلّ شيء في الخمارة سيئ الترتيب، فحيطانها مُسودّة من الدُّخان، وسقفها واطئ، إلّا أنّها من النواحي الأُخرى تتلاءم مع السِّمات العامة لمثل هذه الأماكن في تلك العصور.. وهي في نظر غالبية روادها المُتناثرين هُنا وهُناك على الكراسي، تفي بالغرض الذي أُقيمت من أجله.

من جُملة هؤلاء الجالسين كان النوتيان اللذان أشرنا إليهما، فيما أظن، يُشكلان أكثر الرواد الذين يلفتون الانتباه، إن لم نقل أكثرهم إثارة للفضول.

احدهما أكبرُ سناً من الآخر، ويُطلق عليه رفيقه تسمية لعلها تنطبق عليه كل الانطباق، «ليغز»، وفي الوقت نفسه فهو الأطول قامة فيهما. ربما كان طوله ستة أقدام ونصف، ويظهر أن التقوّس العرضي في الأكتاف كان نتيجة محتومة لمثل تلك القامة السامقة.. إلّا أنّ الوفرة في الطول كانت أكثر من مُبررة بسبب نقاط النقص في جوانب أُخرى. كان الرجل نحيفاً جداً؛ ولعله يردّ مدافعاً عن نفسه بإزاء تلك التّهمة، كما يؤكد رفاقه، حين تلعب الخمرة برأسه فيقول: إنّه يُصلح أن يكون راية مُستطيلة على صواري السفن، أو يردّ على ذلك حين يصحو فيقول: إنّه لا يختلف عن الجبوم(3). إلّا أنّ هذه النكات وما يناظرها في الطرافة، لم تكن لتؤدي في ما يبدو، في أي وقت من الأوقات، إلى تأثيرٍ مُستفز لقسمات وجه مُساعد الربّان [145]الهازل. من خلال عظام خدّيه الناتئة، وأنف مُدبب معقوف كمنقار الباشق، وحنك مُتقهقر، وفكٍّ سفلي مُتهدّل، وعينين جاحظتين يغلب عليهما البياض، كان التعبير الذي يرتسم على مُحياه، مع اختلاطه بشيء من العناد واللامبالاة بالقضايا العامة، لا يقل أبداً عن وقارٍ وجدّية تنأيان بعيداً عن أي مُحاولة للوصف أو المُحاكاة.

أما رفيقه النوتيّ الأصغر سنّاً، فصفات مظهره الخارجي على وجه الإجمال تجسيدٌ مُناقض تماماً لشخصية الآخر، إذ لا يتجاوز طول قامته أربعة أقدام. ويدعم جذعه المربوع زوجٌ من السيقان المُقوّسة، وهيكل بدنه ثقيلٌ جسيم،

(3) الجبوم: سارية تُشكّل امتداداً للدفل المائل أو العمود الضخم المُنبثق من المُقدمة في السفن. [المترجم]

وذراعاه قصيرتان ثخينتان على نحو غير اعتيادي، ولا تظهر على أطرافهما أي قبضات على غرار ما نجده لدى البشر، تتدليان على جنبيه كأنهما زعنفتي سُلحفاة بحرية. أمّا عينا الرجل فهما صغيرتان، لا لون بارز لهما، تطرفان من مكانٍ غائرٍ في رأسه. ويبقى أنفه مدفوناً داخل كتلة من اللّحم تُغطي وجهه المستدير، المُمتلئ، الأرجواني؛ وشفته العليا سميكة تستقرّ فوق شفة أُخرى أكثر سمكاً فتترك انطباعاً بالرضا عن النفس والقناعة، ذلك الانطباع الذي كثيراً ما يُعزّزه إدمان صاحبهما على لعقهما من الحين إلى الحين. من الواضح أنّه كان يرمق رفيقه في البحر بنظرة يُخالطها ضربٌ من العجب، في شيءٍ من السّخرية؛ وغالباً ما نجده يُحملق عميقاً في وجه ذلك الرجل مثلما تطلّ الشمس الغاربة بألوانها الحمراء من أعلى الصخور الشمّاء لجبل بن نيفيس[4].

كثيرةٌ هي الجولات الاستكشافية المشحونة بالأحداث التي قام بها هذان النوتيان اللذان يُثيران اهتمامنا هُنا، خلال ذلك كانا يجوبان المناطق المُجاورة ويختلفان إلى الخمارات وأماكن الرقص منذ ساعاتٍ مُبكرة من الليل. على أنّ مواردهما المالية رغم وفرتها أحياناً ما كانت لتكفيهما إلى الأبد: وحدث أن جازف أصدقاؤنا بأن دخلا، والجيوب فارغة، إلى النُّزل الذي نتكلّم عنه.

إبان الفترة المُحددة التي نتكلّم عنها إذن، والتي تبدأ فيها هذه الحوادث التاريخية في صورتها الدقيقة التي نتوخّى وصفها، جلس ليغز ورفيقه الذي يُدعى هيو تارباولن، كلٌّ واحدٍ منهما كان يُسند مرفقه على طاولةٍ عريضة من خشب البلوط تتوسّط الأرضية، بينما تستقر اليد الأُخرى على خدّه. وكانا يتفرّسان، من وراء قارورة ضخمة من شراب «همنغ ستف» القوي غير مدفوعة الثمن، في تلك الكلمات التي كُتبت بالطباشير بخطٍّ استثنائي عريض، «الدَّينُ ممنوع»، لم تظهر تلك الكلمات لأي واحد منهما، وكانا يشعران وقتها بالسخط والاستغراب، مخطوطة على واجهة المدخل بتلك المادة نفسها التي أرادا أن يوهما النفس بإنكار وجودها. ليس لأنّ موهبة فك شيفرة حروفٍ مكتوبة ــ وهي موهبة ليست

(4) بن نيفيس: أعلى جبل في الجزر البريطانية، اسكتلندا، ارتفاعه 1,344 متراً. [المترجم]

وسط عامة الناس في تلك الأيام أقلّ غموضاً في اتّجاهاتها الصوفية من فن نظم القصائد ـ كانت، إذا توخّينا الإنصاف في حكمنا، تحت تصرّف أي واحد من رفيقي البحر هذين؛ ولكن لأنّ هُناك في حقيقة الأمر، إذا شئنا الصدق، نوعاً من التذبذب والتأرجح يشوب تشكيلة الحروف.. شيءٌ لا يُمكن وصفه إلا كترنح السفينة في الأمر كله.. شيءٌ ينذر، على رأي كلا النوتيين، بمُكابدات طويلة مع المناخ السيئ؛ جعلهما ذلك يُقرّران، وفقاً للكلمات المجازية لليغز نفسه الذي هتف على الفور، «فلتتقدم السفينة، فلترفع الصواري جميعاً، فلننطلق في مهب الريح».

[146]بعد أن ازدردا على استعجال ثمالة الجعة، وربطا أزرار الصدريتين الضيقتين، انطلقا مُهرولين صوب قارعة الطريق. ومع أنّ تارباولن تدحرج مرتين فسقط أرضاً وهو في طريقه إلى الموقد ظنّاً منه أنه الباب، إلّا أنّهما أفلحا في النجاة أخيراً.. ومع اقتراب الساعة الثانية عشرة والنصف وجدا نفسيهما على استعداد مرة أُخرى لمواجهة مصيرهما البائس، وكانا في ذلك الوقت يُسرعان الخُطى للابتعاد سالكين طريقاً مُظلمة باتّجاه ميدان سانت أندروز ستير، تُلاحقهما لعنات صاحبة حانة «جولي تار».

في الزمن الذي وقعت فيه حكايتنا بملابساتها الغريبة، كانت مناطقَ شتى من إنكلترا يتردّد فيها، من الحين إلى الحين، طوال سنواتٍ قبل وبعد هذه الحكاية، وخاصة في عاصمتها، صدى صراخ مروّع: «الطاعون!» وخلت المدينة من سكانها أو كادت.. وفي المناطق التي نُكبت بذلك الوباء الفتّاك، على مقربة من نهر التايمز، وسط الدروب والأزقة المُعتمة، الضيقة، القذرة، كان «شيطان الأمِراض» وحده بما يفرّخ من سُلالات الرهبة، والذعر، والخُرافة يُسمَح له بأن يجوب الشوارع أو يتجاوز تخوم المدينة.

وبأمر من الملك شخصياً فقد فُرض حظرٌ للتجوال في تلك المُقاطعات، ومُنع الأشخاص الذين يعانون من أعراضٍ سوف تؤدي بهم حتماً إلى الهلاك من خرق نطاق عزلتهم الكئيبة التي فرضتها عليهم الأقدار. ولكن لم تكن أوامر الملك، ولا الحواجز المنيعة التي أُقيمت على مدخل كل شارع، ولا مخاطر

الموت بتلك الصورة المُفزعة التي لا بُدّ أن تغمر نفوس البائسين غير المُبالين بالمُجازفة، لتمنع الأشخاص ولا سيما أولئك الذين فقدوا أي نوع من المأوى أو الذين كانوا يتنقلون من بيت مُستأجرٍ إلى آخر خشية تعرّضهم للسرقة من لصوص الليل الذين تعوّدوا تجريدهم من كل شيء مهما كان تافهاً، لا فرق في ذلك بين أدواتٍ من حديد، أو نحاس، أو رصاص، ربما تتحوّل بطريقة أو بأُخرى إلى ورقة رابحة.

فضلاً عن ذلك، وجد الناس في الأيام الاعتيادية، خلال الفترات التي ترفع فيها الحواجز شتاءَ كل سنة، أنّ إقفال المتاجر، ورتاجاتها، وسراديبها السرية ليست من الوسائل المُجدية لحماية تلك الأماكن الغنية بالنبيذ وأنواع الخمور، بالقياس إلى مقدار المُجازفة والمتاعب التي تبذل في مُحاولة كسرها والاستحواذ على الغنائم التي فيها، إذ كان عددٌ كبير من التجار الذين يمتلكون مخازن في الجوار قد اتّفق بعضهم مع بعض على الوثوق بتدابير الأمن تلك، قبل أن يُهاجروا تاركين مُمتلكاتهم ويستأمنوا أموالهم رهناً على مثل تلك الاحتياطات القاصرة.

ولكن كان هُناك عدد قليلٌ من الناس الذين استبدّ بهم الارتياع فنسبوا هذه الأفعال إلى أيدي البشر أنفسهم. وكانت عبارات من قبيل: الأرواح الشريرة التي تسير جنباً إلى جنب مع الوباء، وعفاريت الطاعون، وشياطين الحمى تُشكّل مُختصرات تُعبّر أصدق تعبير عن محنتهم؛ وكثيراً ما تُروى حكايات تُجمّد الدماء في العروق بين ساعة وساعة؛ قيل مثلاً في تلك الحكايات: إن مجموعة كاملة من المباني التي مُنع سكانها من مُغادرتها خيّمت عليها مؤخراً سحابة تُثير الفزع في النفوس فأضحت كأنّها جثث مُتلفّعة بالأكفان، وحتى من أراد نهب تلك الأماكن ذاتها غالباً ما كان يولي الأدبار مذعوراً فزعاً لما يكون قد رآه من مناظر رهيبة نسجها في حقيقة الأمر من وحي خياله المريض لاستغلال ذلك الوضع؛ وأخيراً تُركت مساحاتٌ واسعة من تلك المناطق المحظورة ليعيش سكانها الباقون في خضمّ عتمتها، وصمتها، ووبائها، وموتها.

[147]في مكانٍ قريب من أحد تلك الحواجز والتحصينات العجيبة التي ذكرناها، والتي كانت تؤشر حدود المنطقة التي وراءها بوصفها منكوبة بالوباء

ومن المحظور على الناس تخطّيها، وبعد الانتقال من دربٍ إلى درب، وجد ليغز وصاحبه هيو تارباولن طريقهما مسدودة على حين فجأة. لم يكن الرجوع إلى الوراء مسألة واردة هُنا، وليس في الوقت مُتسعٌ للإهدار، ذلك لأنّ الأشخاص الذين كانوا يلاحقونهما قد اقتربوا كثيراً بعد اقتفاء أثرهما. أمّا الوثب على الحاجز الخشبي، فلا يستحق عناء التفكير بالنسبة إلى نوتيين شديدي البأس؛ وبعد أن دبّ فيهما عزمٌ مُضاعف كاد يفقدهما الصواب من الركض الطويل والإفراط في الشراب، وثبا من غير تردد إلى الجانب الآخر من السياج، وتابعا مسيرهما وهما يترنّحان، وتصاعد في إثرهما صراخٌ أربك اتّزانهما بأصدائه المُختلطة التي تُثير الاشمئزاز.

لولا أنّهما كانا ثملين حقّاً وفي حالة نفسية يُرثى لها تجعلهما بمنأى عن التأثر الأخلاقي إطلاقاً بما يسمعانه، لكانت خُطواتهما المُترنحة قد شُلت عن الحركة لرعب موقفهما الذي وجدا نفسيهما فيه. كان الهواء مع ذلك مُنعشاً بعض الشيء ومُلبّداً بسدم الضباب. وأحسا ببلاطات الرصيف رخوة تحت جسديهما لمّا تهاويا أخيراً على الأرض، وكانت تلك البلاطات مُبعثرة على غير انتظام وسط خلايا من العشب الطويل الذي يتدرّج حولهما ويرتفع ليصل إلى ما فوق القدمين والكاحلين. كانت المساكن المُتهاوية على عروشها تسدّ الشوارع بالأنقاض. وغمرت أرجاء المكان أكثر من أي شيء روائح خانقة تعبق بالعفونة والنتانة؛ وعلى ضوءٍ شنيع الانعكاسات لم يخفق، حتى في مُنتصف الليل، في التسلّل من الأجواء المُشبّعة بأبخرة الوباء المُهلك، ربما كان في وسع المرء تمييز جثثٍ مُلقاة هُنا وهُناك على الشوارع والممرّات الجانبية، وأُخرى ما زالت تتعفّن في المنازل التي اقتلعتْ نوافذها، جثث كثيرٍ من لصوص الليل الذين ألقت القبض علَيهم سلطات الطاعون لدى مُحاولتهم ارتكاب جريمة السرقة.

ولكن ليس للصور، أو المشاعر، أو أي عوائق من هذا القبيل، قدرة على تقصّي مسارات الرجال الشجعان في نزواتهم، لا سيما في ذلك الزمن الذي يطفح بالشجاعة وكل ذلك الهراء الذي ينشأ عن احتساء خمرة همنغ ستف! أولئك الذين يُمكنهم أن يندفعوا قدماً ما أتاحت لهم طاقاتهم، دون أن يعتري

هممهم الوهن، نحو شدقي الموت. استمرّ ليغز يجري ويجري إلى الأمام وهو مُتجهّم القسمات.. يمضي قُدماً، استمرّ يمضي بخطوات غاضبة، بينما هو يُردد ويُردد صدى الصرخات التعيسة المُخيفة، كأنها هتافات الحرب المُرعبة لدى الهنود الحمر؛ وكذلك ظل رفيقه تارباولن القصير السمين يتدحرج إلى الأمام، مُتشبثاً بصدرية رفيقه الأكثر منه حيوية، صوته المُنهك يكاد يطغى على أكثر المقاطع إجهاداً في موسيقى الأصوات خلفه، ويُطلق هديراً عالياً كخوار الثور في حلبات المصارعة من أعماق رئتيه الثخينتين.

وصلا الآن قطعاً إلى معقل الوباء. وكانت الطريق مع كل خطوةٍ أو شقلبة تزداد صعوبة وتبعث الوجل أكثر فأكثر مع تراكم مظاهر الفوضى التي تعمّ المكان.. الدروب تغدو أكثر ضيقاً وتعرّجاً. وبعض كُتل الحجارة الكبيرة تتساقط من الحين إلى الحين تاركة شقوقاً تسمح بتسرّب ضوءٍ من السقوف المُتهالكة فوق رأسيهما، وذلك يُعطي دليلاً، مع استمرار انحدارهما العسير وخطواتهما الثقيلة، [148]على مدى ارتفاع المنازل المُحيطة بهما؛ وبينما كان من الضروري أن يُبذل جهدٌ استثنائي لعبور أكوامٍ من النفايات التي تعترضهما أيضاً، لم يكن من النادر أن تلمس اليد هيكلاً عظمياً أو تستقر على جثة لا تزال مُحتفظة بلحمها المُتعفن.

وفجأة، تعثّر النوتيان بمدخل إحدى البنايات العالية، وكان منظرها مصدراً للفزع والرهبة، هُنالك انطلقت صرخةٌ ذات نبرات ثاقبة تتخطّى حدود المُعتاد من حنجرة ليغز وهو يلهث، وردّ عليها من الداخل، في تتابع وحشي مُتسارع، صوتٌ تخالطه ضحكات وصرخات شيطانية. لا شيء كان يُمكن أن يُضاهي تلك الأصوات المُفزعة التي من شأنها، في مثل ذلك الوقت، وفي مثل ذلك المكان، أن تجمّد الدماء في قلوب أكثر الناس جسارة، وإنما يتجاوز تأثيرها اللّهب الحارق، ومع ذلك اندفع السكيران من غير تردّد فأقحما رأسيهما من الباب، وفتحاه عنوة، ثم ما لبثا أن تعثّرا بأشياء مُبعثرة وهما يُطلقان وابلاً من اللعنات.

اتّضح أنّ الحُجرة التي وجدا نفسيهما بين أكنافها لم تكن إلا دكان مُتعهدٍ لدفن الموتى؛ غير أن هُناك أحد الأبواب السُّفلى، عند ركنٍ من الأرضية، بالقرب من المدخل، يُفضي إلى صفوفٍ طويلةٍ من الأقبية كدّست فيها أوعية

النبيذ، كانت أعماق السرداب تتلقّى أي صوت ربما ينبعث عرضاً من فتح الزجاجات فلا يهتز شيء من محتوياته المُرتبة بشكل لا بأس به. في منتصف الغرفة تربض طاولة خشبية.. يتوسطها حوضٌ تخلفت فيه بقايا ما يبدو أنّه شراب البنش[5]. وهُناك قناني تحتوي على أنواع شتى من النبيذ وغيره من المشروبات، إلى جانب دوارق وقوارير كثيرة من الأصناف كافة مُبعثرة على لوح الطاولة. على أطراف تلك الطاولة، وعلى التوابيت الخشبية، جلس عصبة من الرجال لا يتخطّى عددهم الستة. سوف نُحاول وصف هؤلاء واحداً فواحداً.

مُقابل المدخل، اتّخذ أحدهم موقعاً مُرتفعاً قليلاً بالقياس إلى رفاقه، كان يبدو عليه أنّه زعيم عصبة الجالسين حول الطاولة.. هيكله نحيفٌ، طويل القامة، وذلك ما جعل ليغز يجفل ويُحوّل نظره إلى شخص آخر أكثر هزالاً من الأول. وجه هذا الرجل الذي أشرنا له يميل إلى اصفرار يكاد يُشبه الزعفران.. ولكن ليس ثمّة سمة أُخرى ما خلا هذه بحيث تلفت إليه الانتباه أو تؤطر هذا الوصف الذي يُراد له أن يكون مُحدداً. هذه الصفة تتجلّى في جبهةٍ شامخة مُستهجنة المنظر، حتى إنّها لتوحي بأن على رأسه قُبّعة نسائية أو تاجاً من اللحم. أما فمه فمجعدٌ ينتهي بغمازتين تسبغان على وجهه تعبيراً بدماثة مُروعة، وعيناه، أو في الواقع، عيون كل من كان جالساً حول الطاولة، تُطلقان شرراً مردّه إلى التسمم بالكحول. هذا الرجل كان متلفعاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بطيلسانٍ أسود من قماش مخملي أو حريري مُزركش بنقوش كثيفة، يلتفّ حول بدنه في إهمالٍ واضح كأنّه عباءة إسبانية.. ورأسه مدسوس في قُبّعة فرو ذات ريش كالذي يوضع كما جرت العادة على عربات الموتى، رأسٌ يتمايل مُتبختراً يميناً وشمالاً ينمّ عن خبرةٍ ودراية بما يجري حوله؛ في يده اليمنى يلوّح بعظمة فخذ بشرية ضخمة، يبدو أنّه ضرب بها قبل قليل فرداً من جماعته لكي يحثّه على الغناء.

[149]أمام هذا الرجل، جلست سيدة يتجه ظهرها إلى الباب، لا يختلف منظرها بمِثقال ذرّة عن الشخص الغريب الأطوار الذي سبق ذكره. مع أنّها فارعة

(5) البنش: شراب مُسْكر يتألف من كحول وعصير ليمون وتوابل وماء. [المترجم]

الطول كالرجل الذي وصفناه، إلّا أنّها لا تشكو من نحافةٍ مُستهجنة على غرار ما يشكو منه. فيما يظهر كانت هذه السيدة تُعاني من مرض الاستسقاء بمراحله المُتأخرة؛ وبدنها يكاد يُشبه برميل الجعة الضخم من مخزون تشرين الأول الذي يقبع بالقرب منها وقد انقلبت فوهته باتّجاهها في ركنٍ من الحُجرة. كان وجهها مُستديراً على نحو يشدّ الأنظار، يشوبه احمرار، ومكتنزاً باللحم؛ نفس غرابة المظهر تلك، أو بالأحرى الافتقار إلى الغرابة، التي يُوصف بها مُحياها، كما قلت سابقاً عن زعيمهم يُمكن أن تنطبق عليها.. بمعنى آخر، هناك سمة واحدة من ضمن سمات وجهها تبدو ظاهرة للعيان بحيث تستدعي وصفاً مُحدداً: في الواقع كان السيد تارباولن قد انتبه على الفور من خلال نظرته الحاذقة إلى العلامة نفسها التي تكاد تنطبق على كل فرد من أفراد تلك الزمرة؛ فكل واحد منهم فيما يبدو مُستقل بصنف بارز من الأعراض النفسية. إذا تعلّق الأمر بالسيدة التي نتكلّم عنها فإنّ خاصيتها الوحيدة تتجلّى في فمها. يبدأ شقّ الفم من أُذنها اليمنى، ثم يمضي في انحدارٍ مهول إلى جهة اليسار.. والأقراط القصيرة التي تتدلّى من صوان كل أُذن تهتز في حركة لا تكاد تتوقف كأنها رقّاص الساعة حتى تقترب من فتحة الفم. ومع ذلك كانت السيدة تبذل ما في وسعها لتبقي فمها مُغلقاً في شيء من الوقار المُصطنع، وهي تضع على رأسها حجاباً مُقسّى حديثاً بالنّشا أو نحوه ومكوياً جيداً يتدلّى إلى أسفل الحنك، مع كشكش مجعّد من الموسلين.

إلى جهتها اليمنى جلست شابة نحيفة كانت فيما يبدو تتولى رعايتها. تلك المخلوقة النحيلة، في ارتعاش أصابعها الناحلة، والكلف الحمراء التي تركتها الحمى على وجهها بما تسبغ عليه من رونق لولاه لبدا شاحباً كئيباً، تُعطي في سكون حركاتها علامات لا لبس فيها على استنفاد طاقتها بعد شوط طويل من الركض. ومع ذلك لا تزال تُخالط ملامحها على وجه العموم تجليات الانتماء إلى المُجتمع الراقي والنبرة المُتعجرفة *haut ton*؛ إنّها في ملبسها مُتأنقة جدّاً في شيء من التحدّي والاستخفاف بالتقاليد، فقد لفّت جسمها بشالٍ عريض جميل يبدو أنّه مستورد من أرقى مروج الهند؛ ويتدلّى شعرها في جدائل رفيعة على عنقها. هُناك ابتسامة بشوشة تلوح على زاويةٍ من فمها؛ إلّا أنّ أنفها، في طوله المفرط،

ونحافته، وتقوّسه، ومرونته، والبثور التي تنتشر عليه، يمتد إلى مسافة مُستهجنة تحت شفتها العليا، ورغم تحريكها له بلمسات خفيفة من لسانها من الحين إلى الحين، إلى هذا الجانب أو ذاك، إلّا أنّ تلك المساعي لم تنجح في أن تخفي عن قسماتها تعبيراً مُريباً.

في ركن مُقابلٍ لهذه الفتاة، إلى يسار السيدة المُصابة بداء الاستسقاء، جلس رجلٌ عجوز نحيل، مُنتفخ الأوداج، كان يتنفّس في صعوبة مُحدثاً في ذلك صوتاً كالصفير؛ بدا واضحاً أنّه مُصاب بالنقرس، يكاد خداه يسترخيان على أكتافه، كأنّهما كيسين مُمتلئين بنبيذ أبورتو. ذراعاه مثنيتان، وقد وضع ساقاً ملفوفة بضماداتٍ على الطاولة في شيء من الخيلاء. كان يبدو عليه الإعجاب والفخار بكل بوصة من [150]مظهره الشخصي، وخاصة الحرص على إثارة انتباه الحاضرين إلى معطفه الضيق ذي الألوان المُبهرجة. فهذا المعطف، إذا قلنا الحق، لا بد أن يكون كلّفه مبلغاً ليس بالقليل من المال، وقد صُنع بحيث يتلاءم مع جسمه بصورة تامة.. واستُخدم في تصميمه نوعٌ من الأقمشة الحريرية المُطرزة بنقوش غريبة تتماشى مع شعارات النبالة التي كانت سائدة أثناء حقب الازدهار، في إنكلترا وأماكن أُخرى، تلك الشعارات التي تُعلّق كما جرت العادة في مكان يلفت الأنظار، في مساكن الطبقة الأرستقراطية المُنقرضة.

في مكانٍ قريب منه، إلى يمين زعيم تلك الزمرة، يقبع رجلٌ يرتدي بنطلوناً ضيقاً أبيض اللون. كان هيكل بدنِهِ يهتز بطريقة مُضحكة، في نوبة كان يدعوها تارباولن «كارثة الكوارث». وفكاه اللذان حُلقا حديثاً كانا مربوطين ربطاً محكماً بضمادة من قماش خفيف؛ وذراعاه مربوطتان بطريقة مُماثلة عند المعصمين بحيث لا تُساعدانه في حرية التحرّك ليمد يديه إلى زجاجات الكحول على الطاولة؛ أحس ليغز بأنّ من الضروري توخّي الحذر، لا سيما من ذلك الرجل المدمن بمنظره المُريب. له زوجٌ من الأذنين الضخمتين، ليس من شك في أنّ من المُستحيل تقييدهما، ناتئتان كالأبراج تلتقطان كل شاردةٍ وواردة في الحجرة، وبين الحين والحين تلتقطان لا إرادياً فرقعة سدادة إحدى القناني.

مُقابل ذلك الرجل، يوجد شخص آخر، هو السادس والأخير، يوحي

منظره بقوة مُفرطة وشراسة الطباع، ولكنّه فيما يبدو مُصاب بالشلل فلا يتحرّك، إذ إنّه حتماً كان، إذا توخينا الدقة، يشعر بالانزعاج من ضيق مكانه. جسده محشور انحشاراً غريباً لا يُمكن تخيّله داخل نعشٍ من الخشب الصلد، بحيث تضغط الحافة العليا للنعش على جمجمته فتكاد تُشبه قلنسوة تُغطي رأسه، وذلك يسبغ على الوجه كله منظراً من العسير وصفه. وقد زُوّد النعش بفتحات للذراعين على الجانبين تضفيان لمسة من الأناقة وليس الراحة؛ غير أنّ ذلك الحيّز الضيّق كان يمنع الرجل الذي في داخله من الجلوس مُنتصب القامة مثل رفاقه الآخرين؛ وبينما كان يُحاول الانحناء إلى الوراء وقد استند إلى حافة النعش، مُشكّلاً زاوية خمسٍ وأربعين درجة، كان زوج من العيون الجاحظة يدوران على محجرين بيضاوين بغيضين لينظران باتّجاه السقف في زهوٍ وخيلاء من حجمهما الهائل.

أمام كل فرد من تلك الزمرة وُضع جزءٌ من قحف جُمجمةٍ بشرية، كان فيما يظهر يُستخدم كقدحٍ للشراب[6]. وفوق الرؤوس تدلّى هيكلٌ عظمي بحبلٍ رُبط طرفٌ منه بإحدى الساقين فيما جرى تثبيت الطرف الآخر بحلقة مُعلّقة في السقف. أما الساق الأُخرى فلم يُقيدها شيء، وإنما كانت تتدلّى من الجسد في زاوية قائمة، وذلك [151]ما جعل الهيكل العظمي المُتراخي يُخشخش ويدور مع أي نفخة عرضية خفيفة أو هبّة ريحٍ تجد طريقها إلى الشقة. في جمجمة ذلك الهيكل بمنظره الفظيع وُضعت كمية من الفحم الذي لا يزال مُتوهجاً، والجمرات تُلقي ضوءاً مُتقطعاً براقاً على المشهد كله؛ في الوقت الذي تكدّست أكوامٌ من توابيت أُخرى، وما إلى ذلك من البضائع التي يجري تداولها عادة في دكان الدفان، أو تبعثرت هُنا وهُناك في أرجاء الحجرة، وبالقرب من النوافذ، لتمنع أي شعاع من التسلّل إلى الشارع.

على أثر الاصطدام المُباغت بالمنظر المُستهجن لهذه الجماعة، والأدوات الأكثر غرابة التي بين أيديها، لم يتصرّف النوتيّان اللذان نتكلّم عنهما بمُقتضى أي

(6) كان المُحاربون الإسكندنافيون يشربون الخمر في كأس من قحف جماجم أعدائهم. [المترجم]

نوع من اللياقة ربما كان يتوقّع منهما. اتكأ ليغز على الحائط الذي رافق أن كان قريباً منه، وتهدّل فكه الأسفل أكثر من المُعتاد، وجحظت عيناه إلى أقصى درجة؛ بينما تقوّس ظهر هيو تارباولن في مُحاولة لأنّ يجعل أنفه موازياً للطاولة، ومدّ ذراعيه حتى استقرتا على ركبتيه، ثم تفجّرت من حُنجرته صرخة مدوية طويلة كانت بداية لنوبة ضحك فوضوية لا بد أنها جاءت في غير أوانها المُناسب.

دون أن يستشعر أي نوعٍ من الإساءة بإزاء تلك الوقاحة بما تضمنته من إسرافٍ لا يخفى، ابتسم زعيمهم ذو القوام الطويل في سماحةٍ بالغة وقد تهلّلت أساريره للرجلين اللّذين اقتحما عليهم خلوتهم.. ثم لم يلبث أن طأطأ رأسه المُتوّج بإكليل الفرو المُزركش بالريش نحوهما بطريقة تنمّ عن شيءٍ من التهذيب.. ونهض أخيراً من مكانه وأمسك ذراعي الرجلين، وقاد كل واحد منهما إلى مقعد كان الآخرون قد وضعوهما ليجلسا. لم يرد ليغز على هذا الترحيب بأي شكل من المُقاومة، ولكنه امتثل ليس غير وجلس في المكان الذي اقتادوه إليه؛ بينما رفع هيو المغوار غطاء تابوت من مكانه عند طرف الطاولة، ونقله إلى مكان مُجاور للسيدة النحيلة المُصابة بالسل والتي تلتفّ بملاءة كالكفن، وارتمى إلى جوارها في حركة تدلّ على استعداد للفكاهة، وتناول قحفَ جمجمة فيه شيء من النبيذ الأحمر، واحتسى نخباً على شرف هذا التعارف. إلّا أنّ هذه الحركة بما تحمله من الخنوع لم تخفق في أن تُثير على وجه الرجل المُشاكس الذي يرقد في التابوت علامات حنقٍ شديد؛ ربما كان ذلك سيؤدي إلى عواقب وخيمة لولا أنّ زعيمهم تدخّل فربّت على الطاولة بهراوته مُحوّلاً انتباههم من كل الذي يجري إلى ما ينوي التصريح به:

«أصبح لزاماً علينا في هذه المناسبة السعيدة...».

«كفَّ عن هذا!» قطع عليه ليغز كلامه، وكان فيما يظهر جاداً كلّ الجد، «كفَّ عن هذا، توقف قليلاً، أقول لك، أخبرنا من أنتم بحق الشيطان، وأي عمل تقومون به هُنا، وأنتم تلبسون هذه الأشياء كأنكم شياطين بلهاء، تشفطون شراب الجن الأزرق هذا وسط الخرائب المُقفرة، ورفيقي المُخلص في المركب قام قبل ذلك بتخزينه لأيام الشتاء، إنّه ويل ويمبل الدفان!».

ردّاً على هذه الإساءات التي لا تغتفر بما فيها من سوءِ التهذيب، وثب أفراد الزّمرة جميعاً على أقدامهم، وردّدوا بصوت واحد الصرخات المسعورة ذاتها التي [152]سبق أن استفزّت النوتيّين. ولكن الزعيم كان أول من استردّ رباطة جأشه، فاستدار نحو ليغز واستأنف كلامه بصوت ينسجم مع مقامه الرفيع:

«ليس من شكٍّ في أنّنا مستعدون للترحيب التام بأي ضيفٍ مُحترم، وإن لم يكن على قائمة المدعوّين. ولكنّكم تعلمون حقّاً أنّني الملك المتوّج في هذه النواحي، ها أنا ذا أحكم إمبراطورية مُترامية الأطراف أجزاؤها لا تقبل الانفصال، أحكمها وأنا أحمل لقب الملك طاعون الأول»..

«هذه الشقة التي لا شكَّ أنّكم تُدنّسونها بافترائكم أنّها دكانٌ للسيد ويل ويمبل الدفان.. وهو رجل لا نعرفه، ولم يسبق لاسمه المُبتذل أن طرق آذاننا الملكية قبل هذه الليلة.. هذه الشقة، كما أقول لكم، هي الصالة الكبرى في قصرنا هذا، وهي مُخصّصة لعقد الاجتماعات الهامة في مملكتنا، ولمآرب مُقدسة ونبيلة أُخرى»..

«أما السيدة المُحترمة التي تجلس أمامكم فهي الملكة طاعون، القرينة السامية للملك. والأشخاص المُبجّلون الذين ترونهم كلهم من أفراد عائلتنا، تجري في عروقهم دماء ملكية ويحملون ألقاباً هي على التوالي: «نيافة الأرشيدوق طاعون إيفروس.. سمو الدوق طاعون إيلينتيال.. سمو الدوق تيم طاعون.. وصاحبة السمو الأرشيدوقة آنا طاعون».

«أما فيما يتعلق بـ ..»، استأنف الكلام، «بسؤالك عن الغرض من جلوسنا والمسألة التي جئنا نتباحث بشأنها في مجلسنا هذا، لعلك تُسامحنا في الإجابة على هذا السؤال إذا قلنا: إنّها من شؤون مملكتنا الخاصة وحدها ولا تهم بأي وجه من الوجوه شخصاً غيرنا. ولكن إذا أردنا الكلام عن حقوقكم كضيوفٍ غرباء، والتي ربّما تشعرون بأنّكم تستحقونها، يتوجّب علينا فضلاً عن هذا أن نوضح أننا هُنا، في هذه الليلة، مُنهمكون ببحثٍ عميق وفحص دقيق، أنّنا نتأمل، ونُحلل، ونريد أن نُحدّد تحديداً دقيقاً جوهر هذه المواد التي يصعب تعريفها..

خصائصها وطبيعتها البعيدة عن الاستيعاب.. هذه الكنوز التي لا تُقدّر بثمن من حيث مذاقها.. النبيذ، والجعة، وأنواع الكحول الأُخرى التي وجدناها في هذه المدينة الكريمة: وبهذا فنحن لا نُخطط لمنفعتنا الشخصية، وإنّما لمنفعة ذلك الملك غير الموجود على الأرض والذي تقشعر من ذكره الأبدان، والذي يُهيمن بسلطته علينا جميعاً، فملكه لا تحدّه حدود، واسمه.. الموت».

«واسمه ديفي جونز!» هتف تارباولن، وكان يُساعد السيدة القريبة منه فيصبّ لها الشراب في قحف الجمجمة، ثم سكب لنفسه كأساً أُخرى.

«وغدٌ مُدنس!» قال زعيمهم، وحوّل انتباهه الآن إلى هيو الشهير، «مدنسٌ ومقيت وتعيس!.. قلنا: إنّه بخصوص تلك الحقوق التي، حتى بالقياس إلى شخصكم القذر، لا نشعر بأي ميلٍ لانتهاكها، فقد تنازلنا فلم نشأ الرد على تساؤلاتك الوقحة [153]السخيفة. ولكنّا، بإزاء هذا الانتهاك الذي لا يُغتفر لحرمة مجلسنا، نعتقد أنّ من واجبنا أن نفرض عليك وعلى رفيقك غرامة وهي شرب غالون كامل من «بلاك ستراب» لكل شخصٍ.. والغرض من ذلك حفظ كرامة أفراد مملكتنا.. تشربانها جرعة واحدة.. على أن تركعا بعد ذلك على الركبتين.. ولكما مُطلق الحرية بمُتابعة طريقكما فوراً، أو البقاء إن شئتما فنحن نسمح لكما بشرف الانضمام إلى طاولتنا، حسب ما يرى أي واحد منكما».

ذلك مستحيلٌ حتماً»، أجاب ليغز الذي أثارت المُقترحات الوجيهة للملك طاعون الأول في نفسه فيما يبدو نوعاً من مشاعر التقدير، فقد نهض وتقدّم مُستنداً إلى الطاولة، وتكلّم قائلاً: «سوف يكون، ليسمح لي جلالتكم، من المُستحيل يقيناً أن يستوعب جوفي حتى ربع هذه الكمية من الشراب التي ذكرها جَلالتكم الآن. إذا لم نقل شيئاً عن المواد المخزونة في بطني منذ ما قبل الظهيرة والتي تثقل كاهلي، ولا داعي لأن نتطرق إلى أنواع الجعة والكحول التي ازدردتها في هذا المساء في خمارات ساحل البحر، فلدي في الوقت الراهن حمولة كاملة من زجاجات همنغ ستف ابتلعتها ودفعت ثمنها في الخمارة التي تحمل لافتة «جولي تار». ولهذا، أرجو من جلالتكم، أن تتعطّفوا بإعادة النظر في إرادتكم السامية بهذا الشأن.. فلا طاقة لي ولا جرأة على ازدراد قطرةٍ واحدة..

ولا قطرة على الإطلاق من هذا الشراب الذي يُشبه المياه القذرة التي تتجمّع في قعر السفينة، هذا جوابي في قاعة «بلاك ستراب».

«لا تكترث لهذا الكلام!» قاطعه تارباولن، ولم يكن مُندهشاً من طول خطبة رفيقه أكثر مما اندهش من أسلوب رفضه للمُقترح.. «لا تكترث لهذا، أيّها البدين! أقول لك، ليغز، لا شيء من ثرثرتك هذه صحيح! بدني لا يزال خفيفاً، مع أنّي أعترف بأنك نفسك تبدو ثقيلاً مُمتلئاً بعض الشيء؛ أما عن حصتك من الحمولة، فبدلاً من أن تُطلق عقيرتك بالصراخ، سوف أجد لها مكاناً في كرشي، ولكن..»

«هذا الإجراء»، تدخّل الزعيم، «لا ينسجم أبداً مع شروط الغرامة أو منطوق الحكم، وهو حكم في طبيعته نهائي، لا يقبل التغيير أو الاستئناف. الشروط التي فرضناها يجب تنفيذها حرفياً، على أن يحصل ذلك دون تأخير ولو لحظة واحدة.. أما في حالة الفشل في تنفيذ الشروط سوف نُقرر ربطكما هُنا من العنق والأعقاب معاً، وأن تغطسا بوصفكما مُتمردين في ذلك البرميل من جعة أكتوبر[7]!»

«حكم!.. حكم[8]!.. إنه حكمٌ عادلٌ حقّاً!.. مرسومٌ رائع!.. يستحقّ الفخر، حكمٌ نزيه، وإدانة سامية!» صرخ أفراد عائلة طاعون بصوت واحد. رفع الملك جبهته [154]كاشفاً عن تجاعيد لا تُحصى؛ وكان الرجل العجوز الضئيل المُصاب بالنقرس مُنتفخ الأوداج مثل فرس البحر؛ والسيدة المتلفعة بالكفن تُحرّك أنفها يميناً وشمالاً؛ وصاحب السروال يلعب بأذنيه؛ وتلك التي تلبس الكفن تنهّدت كأنها سمكة توشك أن تموت؛ وذلك الذي يرقد في التابوت تصلّبت ملامحه وزاغت عيناه.

«آخ! آخ! آخ!» قهقه تارباولن دون أن يُثير انتباه أحدٍ من الحاضرين، «آخ!

---

(7) في مسرحية شكسبير (ريتشارد الثالث) يغرق الدوق كلارنس، أخو الملك، في برميل من نبيذ مالمسي. [المترجم]

(8) يصرخ شايلوك في مسرحية (تاجر البندقية) مُطالباً بإصدار الحكم. [المترجم]

آخ! آخ!.. آخ! آخ! آخ!.. آخ! آخ! آخ!.. أريد أن أقول»، توقف ثم لم يلبث أن استأنف كلامه، «أقول، حين كان الملك طاعون يمشي مُتبختراً وينخس هُنا وهُناك بمخرز الفتيل(9)، ويدعونا إلى شرب غالونين أو ثلاثة من خمرة بلاك ستراب، فمن الخزي على بحّار صُلب مثلي أن لا يُعبّئها في كرشه.. ولكن لو تعلّق الأمر بشرب نخبٍ في صحةِ الشيطان (الذي يشاء الربُّ أن يُطهّره من الخطايا) وأن تنحني عظامي النحيلة إكراماً لجلالة ذلك المسخ البغيض هناك، والذي أعرفه حق المعرفة، كما أعرف نفسي على أنّه مُقترفٌ للخطايا، وليس هُناك أحدٌ في هذا العالم لا يعرف أنّه تيم هرليغورلي(10) المُمثل على خشبة المسارح.. عجباً! إنه نوع آخر من المسائل في ظني، شيء خارج عن نطاق استيعابي حتماً».

لم يُسمح له بأن ينهي خطبته في سلام. لدى ذكر اسم تيم هرليغورلي، وثبَ أفراد الجماعة كلهم من مقاعدهم.

«خيانة!» صاح جلالة الملك طاعون الأول.

«خيانة!» قال الرجل النحيف المصاب بداء النقرس.

«خيانة!» صرخت الأرشيدوقة آنا طاعون.

«خيانة!» غمغم الرجل المعقود الفكين.

«خيانة!» همهم المُنبطحُ في التابوت.

«خيانة! خيانة!» هتفت جلالة الملكة ذات الفم العريض؛ وأمسكت بتلابيب تارِباولن التعيس الحظ من خلف بنطلونه، وقد شرع قبل قليل بسكب الشراب لنفسه في قحف الجمجمة، فرفعته عالياً ثم تركته يسقط في غير حرج داخل البرميل الضخم المليء بجعته المُفضلة. هُنالك صار ينط ويغطس بضع ثوان، كأنه

---

(9) مخرز الفتيل: أداة حديدية مُستدقة الطرف تفصل بها طاقات الحبل بعضها عن بعض. [المترجم]

(10) هرليغورلي: اسم يُطلق على عازف الأُرْغُن المتجول في الشوارع. [المترجم]

تفاحة في طاس من خمر التودي، وأخيراً اختفى رأسه وسط دواماتٍ من الرغوة المُنبعثة من الكحول الفوّار، وقد ساعدت مُحاولاته اليائسة للخلاص في إثارتها أكثر فأكثر.

لم يتحمّل النوتيّ ذو القوام الفارع منظر رفيقه البائس. وهُنا أقدم ليغز الجسور على دفع الملك طاعون نحو فخ مفتوح، ثم أوصد الباب عليه فيما كان الأخير يُهدد ويتوعّد، وبعدها وثب إلى مُنتصف الغرفة. وهُنا قام بخلع وتمزيق الهيكل العظمي الذي كان مُعلقاً فوق الطاولة، وتناول جُزءاً من العظام في تصميم جبار وإرادة قوية، وبينما كانت آخر ومضات الضوء تخبو وتنحسر من الشقة، نجح في تحطيم رأس الرجل النحيف المُصاب بالنقرس. وبعدها اندفع بما أوتي من قوة [155]نحو البرميل الخانق المليء بجعة أكتوبر، وفي داخله جسد هيو تارباولن، فصار يُحرّكه مرة بعد مرة حتى انقلب خلال لحظة. وهُنا انفجر تيارٌ دافق من الكحول.. واستمرّ يتدفّق في طيش.. حتى غمر المكان بأكمله.. وغرقت الشقة من الجدار إلى الجدار.. وانقلبت الطاولة المُحملة بالعظام.. وتشقلبت التوابيت بألواحها على ظهورها.. وحوضُ الشراب انسكب على الموقد.. وصرخت السيدتان بأصوات هستيرية. وتبعثرت أدوات دفن الموتى هُنا وهُناك: دوارق، وأباريق، وزجاجات شراب مُختلفة الألوان اختلط بعضها مع بعض بين سيقان الحاضرين في الاشتباك، وارتطمت سلالٌ مجدولة من الأغصان بالقناني والنفايات في حركات طائشة. وغطس الرجل المذعور في مكانه.. وطفا النحيف كالعود اليابس في تابوته.. أما ليغز المغوار فقد أمسك خصر السيدة التي تلتفّ بالكفن، واندفع إلى الخارج باتّجاه الشارع، وإذا هو يسلك أقصر الطرق نحو حانة «التكليف مرفوع»، يتبعه على جناح السرعة هيو تارباولن بمنظره المُروع وقد عطس ثلاث أو أربع مرات، كان يلهث ويتنفّس في صعوبة وهو يجري في أثره، مُتأبطاً ذراع الأرشيدوقة آنا طاعون.

من طبائع الأسد

... كل من أعرفهم رحلوا قبلي

يغذّون السير على أطراف أصابعهم العشرة

في رحلة ميمونة نحو القفار المُدهشة.

بيشوب هال (مقطوعات هجائية)

[156] أنا رجلٌ عظيمُ الشأن.. أقصد القول إنّني كنت عظيماً؛ ولكني لست مؤلفَ كتبٍ «عبقرية»[(1)]، ولا رجلاً يضع قناعاً على وجهه؛ لأنّ اسمي، كما أتصور، هو روبرت جونز، وقد ولدت في مكانٍ ما من مدينة فوم فيودج.

كان أول شيء فعلته في حياتي أن أمسكت أنفي بكلتا يدي. ولما انتبهت والدتي إلى هذا، ما كان منها إلّا أن وصفتني بالعبقري؛ وكاد أبي يبكي من الفرح، وقدّم لي في ذلك الوقت هدية كانت عبارة عن بحث في «تصنيف الأمراض»[(2)]. ودرست ذلك البحث واستوعبته حتى قبل أن يربطوني بالقماط.

بدأت الآن أتلمّس طريقي في ميادين العلم، وسرعان ما صرت أفهم أنّ الإنسان، شريطة أن يكون لديه أنفٌ يلفت الأنظار بما يكفي، وأن يتبع ما يُشير إليه أنفه، ربّما يصل إلى التطبّع بطبائع الأسد. ولكن انتباهي ويقظتي لم يقتصرا

---

(1) العبقري: كان الاسم المستعار لمؤلف سلسلة من المقالات السياسية هو السر فيليب فرانسيس في مجلة «ببليك ادفرتايزر»، لندن، 1769- 1772. [المترجم]

(2) علم تصنيف الأمراض أو Nosolog هُنا يستخدم إدغار ألن بو الكناية فيعتبره علم الأنوف. [المترجم]

على النظريات وحدها. في كل صباح كنت أدرّب خرطومي بأن أسحبه عدة مرات وألتقط به ما يُمكن أن يصل إلى ستة دراهم.

لما بلغ بي العمر مرحلة النضج، طلب مني والدي ذات يوم أن أدخل معه إلى غرفة مكتبته.

«ولدي»، قال لي حين جلسنا هُناك، «ما المغزى الحقيقي لوجودك؟[3]».

«أبي»، رددت عليه، «إنه دراسة تصنيف الأمراض».

«وما هو، يا روبرت»، قال مستفسراً، «تصنيف الأمراض هذا؟».

«سيدي»، قلت، «إنه علم الأنوف».

«وهل لك أن تخبرني»، سألني، «عن معنى الأنف؟».

«الأنف، يا أبي»؛ رددت وقد أحسست بشيء من الارتياح، «يُعرّف بطرق مختلفة من آلاف المؤلفين». (وهُنا أخرجت ساعتي من جيبي). «الآن وقت الظهيرة أو نحو ذلك.. سوف يكون لدينا متسعٌ من الوقت للتطرّق إلى تلك التعريفات كلها حتى ما قبل مُنتصف الليل. إذن فلنبدأ: ... الأنف، كما يقول بارثولينوس، هو ذلك النتوء.. أو ذلك الانتفاخ الذي يصدم العين.. تلك الزيادة.. ذلك الـ..».

[157]«هذا يكفي، روبرت»، لم يدعني العجوز الطيب أكمل كلامي. «لقد صعقتني باتّساع معلوماتك.. إنّني مندهش حقّاً.. أقسم على ذلك بحياتي». (وهُنا أغمض عينيه ووضع يده على قلبه). «تعال إلى هُنا!» (وأخذني من ذراعي). «ربّما يُمكن القول: إنّ ثقافتك الآن بلغت درجة الكمال.. حان الوقت الذي عليكَ فيه أن تبحث عن حقيقة نفسك.. لا يُمكنك أن تفعل شيئاً أفضل من اتّباع ما يُمليه عليك أنفك.. إذن.. إذن.. إذن..» (وهُنا ركلني فتعثرت على درجات

(3) «ما المغزى الحقيقي لوجود الإنسان» جُملة ترد في مُستهلّ كتاب (تعاليم المسيحية المُختصرة بطريقة السؤال والجواب) لكنيسة وستمنستر، جرى تدوينها سنة 1646. [المترجم]

السلم خارج باب الغرفة).. «إذن اخرج من منزلي، وليباركك الرب!».

بينما كنت أحس في داخلي بدبيب الوحي المُقدس، فقد نظرت إلى هذه الحادثة على أنّها جاءت لحسن حظي تماماً أكثر من أن تكون على عكس ذلك. ثم صمّمت على عدم الإصغاء إلى النصائح الأبوية. وقررت اتّباع ما يُرشدني إليه أنفي. سحبت أنفي مرة أو مرتين في مكاني الذي انتهيت إليه، وكتبت ورقة بحث عن تصنيف الأمراض حالاً.

كانت أرجاء مدينة فوم فيودج كلها تعجّ بالفوضى.

«أنت عبقريٌ حقّاً!» قال مُحرّر إحدى المجلات الفصلية.

«عالمُ نفسٍ يستحق الفخر والاعتزاز!» قال رجلٌ من ويستمنستر.

«إنسانٌ ذكي!» قال رجلٌ أجنبي.

«كاتبٌ رائع!» قال رجلٌ من أدنبرة.

«مفكرٌ عميق الغور!» قال رجلٌ من دبلن.

«إنسانٌ عظيم!» قال بنتلي.

«روحٌ مقدسة!» قال فريزر.

«واحدٌ منّا!» قال بلاكوود[4].

«ترى أيُّ شيء يكون؟» قالت السيدة باسبلو.

«ترى من يكون؟» قالت الآنسة باسبلو البدينة.

«من أي مكان أتى؟» قالت الآنسة باسبلو النحيفة.. ولكني لم أعر هؤلاء أدنى اهتمام.. لم أفعل شيئاً سوى أن تقدّمت فدخلت ورشة أحد الفنانين.

كانت دوقة «ليبارك الله روحي» جالسة أمام الفنان ليرسم لها صورة؛ أمّا ماركيز «كذا وكذا» فكان يُمسك كلب الدوقة الكثيف الشعر؛ وإيرل «هذا وذاك»

(4) يُدرج إدغار ألن بو فيما سبق عناوين ومُحررين لمجلات بريطانية رائدة. [المترجم]

يُغازلها بكلمات لاذعة؛ وصاحب السمو الملكي «لا تلمسني» ينحني على مسند الكرسي.

اقتربتُ من الفنان وعرضتُ عليه أنفي.

«أوه، يا له من شيءٍ جميل!» تنهّدت سموّها.

«أوه، يا للهول!» تلعثم المركيز.

«أوه، يا له من شيءٍ صادم حقّاً!» تأوه الأيرل.

«أوه، يا له من شيءٍ شنيع المنظر!» قال صاحب السّمو الملكي مُتذمراً.

«كم تقدّرون ثمنه؟» تساءل الفنان.

«تقصد ثمن أنفه!» صاحت سموّها.

«ألف باوند»، قلت وأنا أجلس.

«ألف باوند؟» تساءل الفنان مازحاً.

[158]«ألف باوند»، قلت.

«شيءٌ رائع!» قال مبتهجاً.

«ألف باوند»، قلت.

«هل قمت بالتأمين عليه؟» سألني، وكان يُحرّك أنفي إلى اليمين.

«فعلتُ ذلك»، قلت وكنت أُطلق من الأنف نفخاتٍ لا بأس بها.

«هل هو أصلي حقّاً؟» قال مُستفسراً؛ وكان يتلمّس الأنف في تبجيل.

«همف!» قلت وأنا أدير الأنف إلى أحد الجوانب.

«ألم تعمل نسخة أُخرى منه؟» تساءل وهو يتفحّص الأنف بواسطة ميكروسكوب.

«لا توجد نسخة»، قلت وأنا أدير الأنف إلى الأعلى.

«*مثيرٌ للإعجاب!*» هتف وهو يلقي نفسه إلى الوراء دون احتراس بعد أن أذهلته روعة المُناورة.

«ألف باوند»، قلت.

«*ألف* باوند؟» قال.

«لا أكثر ولا أقلّ»، قلت.

«ألف باوند؟» قال.

«هذا هو المبلغ كاملاً»، قلت.

«سوف تحصل على المبلغ»، قال. «يا لها من تحفةٍ نادرة!» وهكذا قدّم لي شيكاً في ذلك المكان، وبدأ يرسم مُخططاً لأنفي. وشَغَلتُ بعد ذلك غرفاً في نُزلٍ يقع على شارع جيرماين، وأرسلت لصاحبة الجلالة الطبعة التاسعة والتسعين من كتاب (علم تصنيف الأمراض)، مع صورةٍ لخرطوم الفيل.. أما ذلك البائس الخليع الأعجف، أمير ويلز، فقد دعاني إلى العشاء.

كنّا جميعاً من الأسود ونخبة القوم.

هُنا رجلٌ من المؤيدين للأفلاطونية الحديثة. وكان يقتبس نتفاً من مقولات بورفايري، وإيامبليكوس، وبلوتينوس، وبوكلوس، وهيروكليس، وماكسيموس تايريوس، وسيريانوس(5).

وهُناك رجلٌ يؤمن بالكمالية الإنسانية. وكان يقتبس نتفاً من مقولات تورغوت، وبرايس، وبريستلي، وكوندورسيه، ودو ستايل، ولا سيّما من كتاب «الطالبُ الطموح العليل»(6).

---

(5) مدرسة فلسفية تشكلت في القرن الثالث للميلاد بناءً على تعاليم أفلاطون، ولكنّها تحوي من التفسيرات ما جعل الكثير من الباحثين يرونها مُختلفة عن فلسفة أفلاطون الأصلية. والفلاسفة المذكورون ازدهروا بين 150 ق.م إلى 485م. [المترجم]

(6) الكمالية في نظرية الأخلاق والقِيَم، تعرف بأنها حتمية انتصار الإرادة في الوصول إلى الصفات المِثالية روحياً وعقلياً ومادياً. وكتاب «الطالب الطموح» تأليف بولوير طبع في لندن سنة 1832. [المترجم]

وهُناك أيضاً رجلُ المُغالطات الحقيقية، سر بوزتيف بارادوكس، الذي قال: إنّ جميع المعتوهين من الفلاسفة، وإن جميع الفلاسفة معتوهون.

وهُناك أيضاً رجلُ الأخلاق والجمال، ايسثيتكوس ايثكس، الذي تكلّم عن النار، والوحدة الكونية، والذرّات؛ وتطرق أيضاً إلى وجود جانبين للروح قبل مرحلة الوجود؛ وتكلّم عن حالات الانسجام والتنافر؛ وعن الذكاء الفطري وعقيدة التجانس[7] *homöomeria*.

وهُناك أيضاً ثيولوغوس اللاهوتي الذي تكلّم عن أوسيبيوس وأريانوس؛ وعن الهرطقة ومجلس نايس؛ وعن مذهب البوسية والمُتحدانية، وعن مفهوم هوماوسيوس والهوماوسيوسيين[8].

وهُناك أيضاً فريكاسيه من روشير دو كانكيل[9]. وقد ذكر أطباق مويشن مع اللّسان الأحمر؛ القرنبيط مع حساء صفار البيض؛ لحم العجل من سانت مينهولت؛ ومُقبلات وتوابل من سانت فلورنتين؛ وهلامٌ من البرتقال في كؤوسٍ متعددة الأوان كالفسيفساء.

[159]وهناك أيضاً بيبولوس أوبمبير. وقد تطرّق إلى نبيذ لاتور وماركبرونين؛ وتطرّق إلى شراب الموسو والكامبرتن؛ وتكلّم عن ريشبورغ وسانت جورج؛ وعن هوبريون، وليونفيل، وميدوك؛ وعن باراك وبريغناك؛ وعن غريف، وساوتيرن، ولافايت، وسانت بيراي. وكان يهزّ رأسه لدى ذكر كلوس دو

---

(7) عقيدة التجانس: تتضمّن القول بأنّ العناصر الجوهرية للمواد تتألف من أجزاء كل جزء منها مُماثل للكيان الكلي. [المترجم]

(8) أوسيبيوس، أسقف نيكوميديا، توفي سنة 342؛ وكان أريوس يعتقد أنّ المسيح أقلّ مرتبة من الأب، وهذا ما رفضه مجلس نايس (نيكايا في بيثانيا) سنة 325؛ والبوسية Puseism نسبة إلى إدوارد بوفيير بوسي 1800- 1882، الذي كان على رأس الكنيسة الإنجليكانية. والمُتحدانية العقيدة القائلة بأن جسد المسيح ودمه مُتجدان بخبز القربان المُقدس وخمره. وهوماوسيوس مفهوم لاهوتي إغريقي يصف المسيح بأنه مُتجانس مع الرب. [المترجم]

(9) روشير دو كانكيل صخرة عظيمة في بريتاني. وهُناك مطعم باريسي شهير يحمل اسمها. وباقي الأسماء هي أكلات معروفة هُناك. [المترجم]

فوغيوت، وأخبرنا وهو مُغمض العينين عن الاختلاف بين نبيذي شيري وأمونتيلادو[10].

وهُناك أيضاً سيغنور تنتونتنتينو من فلورنسا. وقد أثار جدلاً عن سيمباو، وأربينو، وكارباشيو، وأرغوستينو.. وتكلم عن كآبة سارافاغيو، وعن سماحة ولطف البانو، وعن الألوان في لوحات تيتيان، وعن التصدعات في لوحات روبنز، وعن مُماحكات جان ستين[11].

وهُناك أيضاً رئيس جامعة فوم فيودج، الذي رأى أنّ القمر كان يُسمّى بينديس في منطقة ثريس، ويُسمّى بوباستيس في مصر، وديان في روما، وأرتميس في اليونان.

وهُناك أيضاً رجلٌ عظيم الشأن من إسطنبول لم يستطع أن يمنع نفسه من الاعتقاد بأن الملائكة كانت في الأصل خيولاً، وديكة، وثيراناً؛ وقال: إنّ هُناك كائناً في السماء السادسة له سبعون ألف رأسٍ؛ وإنّ الأرض تحملها بقرة بلون السماء لها من القرون الخضر ما لا يُعرف عدده.

وهُناك أيضاً دلفينوس بوليغلوت[12]، الذي أخبرنا بما حَلّ بالتراجيديات المفقودة لأسخيلوس والتي يصل عددها إلى ثلاثٍ وثمانين تراجيديا؛ وأخبرنا عن الأربع وخمسين خطبة من خطب إيزايوس؛ وعن الثلاثمائة وإحدى وتسعين خطبة أُخرى من خطب لاسياس؛ وعن مائة وثمانين بحثاً لثيوفراستوس؛ وعن الكتاب الثامن في المقاطع المخروطية لأبولونيوس؛ وعن تراتيل بيندار التي تجيش بالعواطف؛ وعن الخمس وأربعين تراجيديا لهوميروس الابن.

---

(10) هذه كلها قائمة بأسماء أنواع من الشراب أو النبيذ وحتى اسم الشخص الذي كان يسردها. [المترجم]

(11) أسماء فنانين معروفين منهم مثلاً أرغوستينو من إيطاليا الذي ازدهر فنه سنة 1525. والرسام الواقعي الهولندي جان ستين (1626- 1679) الذي قال عنه إدغار ألن بو: «لو كانت الحقيقة أسمى هدف للفن، لكان جان ستين أعظم من مايكل أنجلو» [المترجم]

(12) الاسم مأخوذ من طبعة دلفين الشهيرة للأعمال الكلاسيكية اللاتينية والتي أمر بإعدادها لويس الرابع عشر في مُحاولة لتجميع الأعمال الأدبية المفقودة. [المترجم]

وهُناك أيضاً فرديناند فيتز فوسيليوس فيلتسبار، الذي أخبرنا بكل شيء عن الحمم المُتأججة في داخل قشرة الأرض وتشكّل الجبال، والطبقات الجوية، وتكوّن المياه، والأشكال الصلبة، وحجارة الكوارتز والتراب الكلسي، وأخبرنا عن الصخور المُتبلورة وحجر التورمالين الأسود؛ وتكلم عن الجص والتراب؛ وسيلكات المغنيسيوم ومعدن الطلق؛ وكبريتيدات أُخرى ومعادن الأمفيبولايت؛ ونوع من الصخور دقيق الحبيبات قابل للانفلاق؛ والملاط الأصم؛ والسيانيد ومعدن الليبدولايت؛ ومعادن الهيماتيت والتريمولايت؛ وتكلّم عن معدن الأنتيمون والكالسيدون؛ وتكلّم عن المنغنيز وما تهوى وتشاء.

وأنا نفسي كنت هُناك. وتكلّمت عن نفسي.. عن نفسي، عن نفسي، عن نفسي.. تكلّمت عن تصنيف الأمراض.. وعن كرّاستي التي قُمت بتأليفها، وتكلّمت عن نفسي. وكنت أشمخ بأنفي عالياً، وتكلّمت عن نفسي.

«أنت رجلٌ رائعٌ وذكي!» قال الأمير.

«مُذهل!» قال الضيوف.. وفي صباح اليوم التالي قامت سموها بليس ماي سول «ليبارك الله روحي» بزيارتي.

«هل تذهب معي إلى محل ألماك[13]، أيّها المخلوق اللطيف؟» قالت، وأخذت تربّت بيدها تحت ذقني.

[160]«يشرّفني ذلك»، قلت.

«ومعك أنفك وكلّ شيء؟» سألت.

«بلحمي وشحمي»، أجبت.

«إليك إذن بطاقة دعوة، يا حياتي. هل يُمكنني القول إنك ستكون هناك؟»

«أيتها الدوقة العزيزة، من كلِّ قلبي».

(13) صالة وليم ألماك للرقص تقع على شارع كنغز في لندن، سانت جيمس، افتُتحت في سنة 1765. [المترجم]

«أفّ، كلّا!.. ولكن قُلْ من كلِّ أنفك؟».

«كلُّ جزءٍ منه، يا حبيبتي»، قلت. ثم دعكتُ أنفي مرة أو مرتين، وسلكت الطريق حتى محلّ ألماك.

كانت الغرفُ مُزدحمة إلى درجةٍ تبعث على الاختناق.

«ها قد وصل!» قال شخصٌ يقف على السلالم.

«ها قد وصل!» قال شخص يقف في مكان أعلى منه.

«ها قد وصل!» قال شخص يقف في مكان أعلى منهما.

«ها قد وصل!» هتفت الدوقة. «وصل، حبيبي الصغير!» ثم أمسكت يديّ معاً بقوة، وقبلتني ثلاث مرات على أنفي.

أثار ذلك سلسلة من التعليقات على الفور.

«يا له من شيطان *Diavolo*!»[14] صاح كونت كابريكورنوتي.

«ليحرسك الربُّ *Dios guarda*!»[15] تمتم دون ستيليتو.

«فلتتنزل علينا آلاف الصواعق *Mille tonnerres*!»[16] هتف أمير غرينويلي.

«فلينزل علينا ألفُ شيطانٍ مارق *Tousand teufel*!»[17] تذمّر ناخبٌ من بلودينوف.

كان ذلك شيئاً لا يُطاق. وتصاعدت دماءُ الغضب في عروقي. واستدرت فوراً إلى بلودينوف.

«سيدي!» قلت له، «أنت قردٌ من قردة السعدان».

(14) *Diavolo* كلمة إيطالية تعني الشيطان. [المترجم]

(15) *Dios guarda* هذه العبارة باللّغة الإسبانية. [المترجم]

(16) *Mille tonnerres* هذه العبارة باللّغة الفرنسية. [المترجم]

(17) *Tousand teufel* هذه العبارة باللّغة الألمانية. [المترجم]

«سيدي»، أجاب بعد أن توقّف لحظة. «فليوزِّع الورقَ سريعاً! *Donner und Blitzen*»[18].

هذا كلُّ ما استطاع أن يتمنّاه لي. وتبادلنا ورق اللعب فيما بيننا. وفي مزرعة شالك فارم[19]، صباح اليوم التالي، أطلقت النار على أنفه.. وبعدها صحتُ على أصدقائي.

«بهيمة!» قال الأول.

«غبيّ!» قال الثاني.

«أحمق!» قال الثالث.

«حمار!» قال الرابع.

«مغفل!» قال الخامس.

«معتوه!» قال السادس.

«اغربْ عن وجهي!» قال السابع.

طوال هذا الوقت كنت أشعر بالهلاك، وهكذا رجعت إلى والدي.

«أبي»، سألت، «ما المغزى الحقيقي لوجودنا؟».

«ولدي»، أجابني أبي، «لا يزال الهدف هو دراسة تصنيف الأمراض؛ ولكنك عندما ضربت الناخب على الأنف فقد تجاوزت حدودك. لديك أنفٌ جميل، هذا صحيح؛ ولكن السيد بلنديبوف لديه أنفٌ أيضاً. إنك ملعون، وقد استحال الرجل إلى بطلٍ مغوار اليوم. أؤكد لك، في مدينة فوم فيودج، تتناسب هيبة الأسد مع حجم الخرطوم.. ولكن، يا ربّ السماء! ليس هُناك فرصة للمُنافسة أبداً مع أسدٍ بلا خرطوم».

---

(18) هذه العبارة *Donner und Blitzen* باللّغة الألمانية وهي تعني أيضاً اسم نهر في الولايات المُتحدة على الجانب الشرقي من ولاية أوريغون. [المترجم]

(19) شالك فارم: مزرعة فيها قصر معروف تقع شمال ريجنتس بارك وقعت فيها مبارزة بين مور وجيفري أشار إليها لورد بايرون في أشعاره. [المترجم]

شيء من الغموض

عليك أن تتنحّى جانباً،

إذا كانت هذه هي حركاتك الصاعدة النازلة،

فلن أتقبّل منها شيئاً.

نيد نويلز[1]

[161]تنتمي عائلة البارون رايتزنر فون يونغ إلى أصلٍ عريقٍ شأنُها في ذلك شأن نظيراتها من العائلات الهنغارية النبيلة المحتد، فكلُّ فردٍ من أفرادها (على الأقل إذا رجعنا إلى العصور القديمة التي سجّلت وقائعها المدوّنات التي وصلت إلينا) كان على نحو أو آخر معروفاً بموهبةٍ من المواهب يمتاز بها عن غيره.. أغلب تلك المواهب الفذة لا تكاد تخلو من مُفارقاتٍ مُضحكة صوّرها تايك[2]، سليلُ العائلة نفسها، في سعةٍ من خياله مُضفياً عليها أنصع الأوصاف والتجلّيات، إن لم تكن أكثرها إبهاراً وتشويقاً. لقد بدأت معرفتي بصديقي رايتزنر في قصر شاتو يونغ الفخم، الذي شاءت الأقدار أن تلقيني إليه بعد سلسلة من المُغامرات الطريفة، لا مجال لإشهارها على الملأ، خلال شهور الصيف من عام - 18. هُنا حصلتُ على مكانةٍ جعلتني مُقرباً إليه، وهُنا، أود أن ألقي على مضضٍ شيئاً من

---

(1) هذا الاقتباس يتضمّن إشارة إلى مُبارزة بالسيف مقتبس من كلام شخصية تُدعى إدوارد نويل في مسرحية بين جونسون (كل إنسان على هواه) التي نُشرت سنة 1616. [المترجم]

(2) يوهان لودفيغ تايك (1773- 1853) شاعر رومانسي، ومسرحي، وروائي، ومُترجم، وناقد ألماني كثيراً ما يذكره إدغار ألن بو في قصصه. [المترجم]

الضوء على مُواجهة لي معه جعلتني أختبر حالته العقلية. كانت هذه البصيرة، مع تعاقُب الأيام، تتعمّق وتزداد وضوحاً، مع تعمّق أواصر المودّة التي أتاحتها لأول مرة، وبعد ثلاث سنوات من القطيعة التي وقعت بيننا، عُدنا فالتقينا في ج... ن، وكنت أعلم أنّ من الضروري طوال هذا الوقت التعرّف على أشياءٍ أكثر عن شخصية البارون رايتزنر فون يونغ.

في وسعي أن أتذكّر طنين الفضول الذي أثاره في رأسي ظهوره المُباغت في الحرم الجامعي ليلة الخامس والعشرين من حزيران. وأتذكّر أيضاً على نحو أكثر تحديداً أنّه بينما اعتُبر من الأطراف كافة لدى النظرة الأولى «أكثر الرجال تألقاً وشهرة في العالم»، فلم يُكلّف أيُّ شخص نفسه عناء تقديم تفسيرٍ لرأيه في ذلك الشأن. أن يكون الرجل مُتفرداً في طباع شخصيته، فهذا شيءٌ لا سبيل لإنكاره، بحيث أصبح من المُتعارف عليه أنّ من الوقاحة وتجاوز حدود المعقول الاستفسار عن منشأ ذلك التفرّد أو طبيعته. ولكن، من الأفضل ترك هذه المسألة في الوقت الحالي، فأنا أُحبّذ التنويه هُنا إلى أنّ الرجل منذ اللّحظة الأُولى التي وضع فيها قدميه داخل حدود الجامعة بدأ يتمرّن على مُمارساته، وعاداته، وطبائعه، التي لها وقعٌ عميق في نفوس المُحيطين حوله، ونوازعهم وما يدّخرونه في جيوبهم، فصار يكتسب تأثيراً بالغ القوة في الاستبداد، على أنّ ذلك في الوقت نفسه كان من الأمور [162]المُبهمة من الوجوه كلها وغير قابلٍ للتعليل. ولهذا شكّلت الآونة القصيرة التي أقام فيها بالجامعة عهداً مُميزاً في تاريخه، إذ اتّسمت بتجمّع أفرادٍ من طبقات المُجتمع كافة ممن ربطتهم به علاقة من نوعٍ ما أو خضعوا لما تُمليه عليهم من التزاماتٍ لأنها في نظرهم «عهدٌ استثنائي ينطوي على هيمنة البارون رايتزنر فون يونغ».

لدى دخوله ج. ن سعى إلى مُقابلتي فوراً في حجرتي. لم يكن عمره معروفاً وقتذاك على وجه الدقة، وأعني بهذا أنّ من المستحيل على المرء تخمين رأي مُحدّد فيما يتعلّق بعمره من خلال أي مُعطيات يُقدّمها هو شخصياً. ربما كان في الخامسة عشرة أو الخمسين من عمره، أو أنّه كان لا يتجاوز العشرين سنة وسبعة أشهر. لم يكن على كل حال يتمتّع بشيءٍ من الوسامة.. لعله على عكس ذلك.

السمات الأساسية لوجهه شدّة التُّحول وبروز العظام وصلابتها بعض الشيء. جبهته شامخة في خيلاءٍ تتماشى مع لطف المنظر؛ وأنفه أفطس؛ وعيناه واسعتان، داكنتان، لامعتان، خاليتان من أي إيحاءٍ يشدّ الانتباه. أما الفم فثمة أشياء كثيرة جديرة بالالتفات إليها فيه. الشفتان بارزتان في إيماءةٍ جذابة، تستقرّ إحداهما على الأخرى بحيث يكون من المُتعذّر تصوّر نوعٍ من أنواع الانسجام، حتى أكثرها تعقيداً، مع السمات البشرية، ذلك الشيء الذي يحمل على نحو مُطلق مُتفرّد فكرة السحر الأخّاذ، وجاذبية الشخصية، في وقارٍ واسترخاء.

سوف يتبيّن المرء، وليس من شك في هذا، من خلال ما قلته إلى الآن، أنّ البارون ينتمي حقّاً إلى تلك الشخصيات الشاذة الطباع التي غالباً ما يلتقي بها الإنسان، أولئك الأشخاص الذين يجعلون الغموض المُتكلّف والخروج على القياس علماً منهجياً لتجاربهم فيكون شغلهم الشاغل في الحياة. لأنّ هذا النوع من العلوم المزعومة، التي تخلق انحرافاً غريباً مُستعصياً على الفهم في العقل، قد وفر له غريزياً مثالاً يُقتدى به في التصرّف، بينما منحه مظهره الخارجي قُدراتٍ استثنائية للانتقال بطموحاته وآماله إلى موضع التنفيذ. أعتقد جازماً أنّه لا يوجد أي طالبٍ في ج. ن، إبّان تلك الحقبة الشهيرة كان يشغل نفسه بالبحث عن تسميةٍ جذابة لهيمنة البارون رايتزنر فون يونغ قد استطاع على نحو صائب استيعاب السر الغامض الذي يلقي بظلاله على شخصية الرجل. يُخيّل إليّ حقاً أنّه لم يكن هُناك شخص في الجامعة، غير المُتكلّم نفسه، كان يتلمّس لدى البارون استعداداً لروح الفكاهة، سواءً كان لفظياً أو عملياً.. لو حصل شيء من هذا القبيل، فلسوف تُلصق التهمة حتماً بكلب البلدوغ[3] العجوز الذي يحرس بوابة الحديقة.. أو ربّما تُنسب إلى شبح هيراقليطوس[4]، وإلّا تعرضنا لتوبيخ أمريتوس بروفيسور اللاهوت. واضحٌ أنّ كل تلك الأمور التي كانت تحصل، ومنها أكثرُ الحيل شناعة وما إلى ذلك من الموبقات التي لا تُغتفر ومن النادر أن يتخيّلها

---

(3) البلدوغ أو كلب الثيران: كلب قوي البنية ضخم الرأس. [المترجم]

(4) هيراقليطوس من أفيسوس، كان يُعرف بأنّه الفيلسوف الباكي، ذاع صيته حوالى سنة 500 ق. م [المترجم]

المرء، هي من نزواته وغرائب أطواره ومن أعمال التهريج التي تعوّد عليها، فإن لم تحصل مُباشرة بفعله هو، فلا بُدّ على الأقل أنّها تحصل بصورة غير مُباشرة بتدخّل جهةٍ وسيطة أو مصدرٍ يتستر عليه. إنّ جمال، إذا جاز لي التعبير، ألاعيب الغموض mystifique التي كان يُمارسها يكْمن في الهيمنة المُطلقة التي تمتاز بها شخصيته (وهي تأتي من اطّلاع غريزي على طبيعة البشر وأسرارها، ومن سيطرةٍ مُذهلة على الذات)، فلم يحدث أن أخفقت مساعيه أبداً في إعطاء تلك المشاهد الهزلية المعنى المُحدد الذي ينشده، إذ تبدو دائماً كأنها تنهض جزئياً، نتيجة لجهودٍ مُضنية يبذلها عامداً لمنعها من الظهور كلياً، وذلك [163]الغرضٍ واحدٍ لا يكاد يتبدّل هو الحرص على توطيد علاقته الحسنة مع فتاةٍ تدعى آلما ماتير وتقوية اعتزازه بنفسه بإزائها. كان الإحساس العميق، الأليم، الغامر، بالهلاك الذي يُحدق به لدى أي إخفاق في مساعيه التي تستحق الإعجاب والثناء حقاً يجتاح أسارير وجهه فلا يترك مجالاً للشك في إخلاصه لقضيته في صدور حتى أكثر رفاقه تشكّكاً. ولم يكن الدهاءُ بالشيء الأقل استحقاقاً للإعجاب هُنا، فمن خلال دهائه كان يبتكر شتى الألاعيب لتحويل الإحساس بالغرابة من «الخالق إلى المخلوق».. من شخصه هو كفنانٍ حاذق في الابتكار إلى تلك السخافات المُنافية للعقل التي يبتكرها. ولم يحصل في أي وقتٍ سابق للحالة التي أتكلّم عنها أن فهمت كيف يتمكّن من عزل الأشياء المألوفة التي يكتنفها الغموض عن النتائج التي من الطبيعي أن تعقب مُناوراته.. ذلك التنافر المُحيّر للألباب بين سخافاته وجوانب شخصيته الأُخرى بما فيها من رزانة. غير أنّ ما يطغى على شخصية صديقي أكثر من أي شيء آخر كونها مُحاطة باستمرار بجوٍ من النزوات، فلقد بدا واضحاً أنّه يعيش من أجل التّجهم للمُجتمع فحسب؛ حتى من يُشاركونه السكن فيَ الشقة، لم يتمكّنوا لحظة واحدة من بلورة انطباعاتهم عنه باستثناء صلابة ومهابة المظهر الخارجي فهي وحدها قريبة من الاقتران بأي ذكرى يحملونها عن البارون رايتزنر فون يونغ.

خلال فترة إقامته في ج. ن ظهر حقّاً أنّ «شيطان الجمال والمرح الذي لا يأتي بنفعٍ» *dolce far niente* قد جثم بظلّه البغيض كالكابوس على الحرم

الجامعي. لا شيء، على أقل تقدير، كان يُمكن أن يُفعل في حضوره خارج نطاق الأكل والشرب والمزاح. لقد تحوّلت غرف الطلاب إلى ما يُشبه الخمارات التي تُباع فيها أنواع من الجعة، ولم تكن هناك خُمارة واحدة منها جميعاً أكثر شهرة أو جذباً للرواد من تلك التي افتتحها البارون. كنا نُفرط هنا في الشراب ونمضي فترات طويلة، نمرح ونعربد وحدثت لنا في غضون ذلك كثيرٌ من الوقائع التي لا تخلو من عنصر التشويق.

في إحدى المُناسبات امتدّت بنا السهرة، وكنا جالسين هُناك، حتى انبلاج الصبح تقريباً، وقد احتسينا كمية غير اعتيادية من الخمور. وتألفت تلك الجلسة من سبعة أو ثمانية أفراد، فضلاً عن البارون وأنا نفسي. أغلب هؤلاء كانوا من الشبان الذين يتمتعون بمزايا الثراء الفاحش، وارتباطاتهم الاجتماعية رفيعة المُستوى، ممّن يتباهون بعصبية الانتماء إلى عائلاتهم العريقة، ويعيشون كلهم دون أن يُفارقهم إحساسٌ مُسرفٌ بمظاهر الشرف والسمعة. كانوا يؤمنون بأكثر الآراء تطرّفاً في الفكر الألماني، وخاصة فيما يتعلّق بقواعد المُبارزة بالسيف *duello*. أثناء تداول هذه المفاهيم الدونكيشوتية كانت مُحاوراتهم تتطرّق إلى بعض المنشورات التي تصدر في باريس، وتحمل وصفاً مُفصّلاً لثلاث أو أربع مُبارزات بائسة تنتهي بالموت؛ خلال الشطر الأخير من الليل، حصلت حول ذلك مُشاحنات كلامية ضارية بين الحاضرين.. وكان الدافع إلى هذا من أكثر الموضوعات هيمنة في ذلك الزمن. كان البارون يبدو صامتاً غارقاً في تأملاته على غير عادته إبان الساعات المُبكرة من المساء، ثم تبيّن لنا أنّه قد أفاق أخيراً من شروده، وبدأ يشارك في النقاش ويوجّه مساراته، فتطرّق إلى مزايا هذا الفن، أو على وجه التحديد المشاعر الجمالية التي يحسّ بها المرء من فهم خفايا وأسرار قواعد الإتيكيت المُتبعة حين تتشابك الأسلحة في شهامة أثناء مُبارزةٍ حامية الوطيس، ووصف أيضاً بلاغة الانطباعات المؤثرة، [164]ووجدانية السلوك والانفعالات التي تستخرج أكثر الأحاسيس حرارة في نفوس أولئك الذين يشهدون تلك المُباريات عموماً، وأذهل الجميع حتماً، بما فيهم أنا، وكنت أعرف حق المعرفة أنّه في قلبه يسخر من المسائل ذاتها التي يتجادل فيها، لا سيّما حين يتبجّح كثيراً بأنه يؤمن إيماناً صارماً بقواعد إتيكيت المُبارزة

fanfaronnade بينما هو في حقيقة الأمر يُبطن الاحتقار التام الذي يستحقّه كل ذلك في نظره.

خلال توقفات مؤقتة تخلّلت النقاش الذي كان يقوده البارون (ولعل القارئ قد خرج بفكرة طفيفة لدى قولي: إن النقاش كان على غرار أسلوب كوليردج[5] بعض الشيء في تعبيراته المُتقدة، الغنائية، الرتيبة، على اختلاط ذلك بالموسيقى التي ترافق المواعظ)، كنت انظر حولي، فأدركت في الحال وجود أعراضٍ على وجه صاحبي أكثر من مُجرّد الاهتمام العارض بقسمات وجوه الحاضرين. هذا الرجل، الذي أرى أن أدعوه هيرمان، كان من الشخصيات الفذة بكل ما للكلمة من معنى.. ربّما باستثناء ناحية مُحددة في شخصيته وهي أنّه غبيٌّ عظيمُ الشأن حقّاً. ومع ذلك استطاع في براعة قلّ نظيرها أن يُحرز، وسط ثلة من رفاقه في الجامعة، سمعة ذات ارتباط عميق بالفكر الميتافيزيقي، وإنّي لأتخيل أنّ تلك السمعة قد امتدّت لتشمل موهبة من نوع ما لعلها تحمل مسحة منطقية. وكمبارزٍ بالسيف، فقد اكتسب أيضاً شهرة عريضة، حتى في غ. ن. ولكني نسيت العدد المُحدد لضحاياه الذين سقطوا بين يديه؛ ولكنهم كثرٌ. هذا الرجل كان يتمتع أيضاً بمزية الشجاعة، ليس من شك في الأمر. ولكن الشيء الذي طالما تبجّح به بنوع خاص أكثر من سواه اطّلاعه الكامل على الإتيكيت السائد في التباري مع الخصوم، وكذلك الفخار برجاحة إحساسه الحقيقي بالشرف. هذه الأمور تُشكّل هواية من هواياته التي يُمارسها ويعشقها حتى الموت. ولكن من وجهة نظر رايتزنر، في استقصائه الدءوب عن مظاهر القبح لدى خصمه، فلا شك أنّ تصرّفاته المُستهجنة التي يتفرّد كانت تمنح فرصة نادرة طالما انتظرها لإظهار الوله بشيء من الغموض. ومع ذلك فلم أعرف شيئاً عن هذه الناحية الأخيرة؛ ومع أنّي، بصدد الحالة التي نتكلّم عنهَا، اكتشفت بوضوح أنّ شيئاً يمتّ بصلة إلى غرابة الأطوار كان مطروحاً على بساط البحث بشأن صديقي، وأنّ هيرمان كان هدفه الشخصي.

---

(5) كان كوليردج في وقت من الأوقات واعظاً مُتجوّلاً. وهُناك قصة معروفة تقول: إنه سأل شارلس لامب ذات مرة، «هل سمعت مواعظي في يوم من الأيام؟» فأجابه لامب: «لم أسمعك أبداً تفعل شيئاً آخر». [المترجم]

بينما كان رايتزنر يُتابع نقاشه في حماسٍ مُتّقدٍ، أو بالأحرى مونولوجه، أدركت حينئذ مدى انبهار هيرمان بكلامه الذي ظلّ يزداد حدة في تلك اللحظة. وفي آخر المطاف فتح هيرمان فمه وتكلّم؛ وأبدى اعتراضه على بعض النقاط التي أصرّ عليها صديقنا ر.، وأعطى أسبابه التفصيلية للاعتراض. بإزاء هذه الاعتراضات ردّ البارون بعد طول صمتٍ (وكان لا يزال حريصاً على نبرة صوت مُسرفة في وجدانيتها) واختتم كلامه، بما اعتبرته سوءَ ذوقٍ، بلهجة تنمّ عن سخريةٍ وصلف. كانت هوايته في المزاح مع هيرمان الآن تتخذ منحى العض على أسنانه. هذا ما تلمّسته من ذلك الرد الصاعق الذي أدلى به محاوره. وأتذكّر جيداً كلمات هيرمان الأخيرة: «إنّ أفكارك، اسمح لي، أيّها البارون فون يونغ، بصرف النظر عن اتّجاهها الصائب على وجه العموم، إلا أنّها من وجهة نظري المُتواضعة، تلحق الخزي بنفسك أنت شخصياً وبالجامعة التي تنتمي إليها. وفي بعض جوانبها فإنّها [165]تصرّفات لا تستحق أقلّ مُحاولة للرد عليها. وفي وسعي أن أقول أكثر من هذا، يا سيدي، لولا خشيتي من الإساءة إليك (وهُنا ابتسم المُتكلم في دماثة)، ولكني أقول: إنّ آرائك لا يُمكن توقّعها من رجلٍ مهذب».

حتى إذا أكمل هيرمان هذه الجملة المُلتبسة، اتّجهت عيون الحاضرين جميعاً إلى البارون. كان وجهه شاحباً، ثم استحال إلى أحمر غامق؛ وبعد ذلك، سقط منديله من يده وانحنى لكي يلتقطه، وما هي إلّا أن التقطت عيناي لمحة لقسمات وجهه، لم يكن الوجه مرئياً من قبل أي شخص من الجالسين إلى المنضدة. كان الوجه يشعّ بذلك التعبير المُبهم المُميّز لشخصيته، ولكن لم يسبق لي أن رأيت التعبير نفسه إلّا عندما نكون وحدنا، متى ما استرخى ولم يتحرّج من شيء. بعد لحظة اعتدل في جلسته مواجهاً هيرمان؛ وكان التبدل الذي طرأ على قسماته يمتد ليشمل الوجه كله خلال فترة وجيزة، إذ اكتسب صبغة أُخرى لم أرها يقيناً قبل ذلك. تخيّلت لحظة أنّني لا أعرف هذا الرجل، لقد تخلّص حتماً من أثر الشراب وبدا جاداً. حاول كبت غيظه وانفعالاته، وتغيّر لون وجهه إلى أبيض كأنّه أصبح جثة. بقي صامتاً وهلة، يتنازع فيما يظهر بينه وبين نفسه للسيطرة على مشاعره. وبعد أن نجح أخيراً مدّ يده إلى قارورةٍ مُزخرفة كانت بالقرب منه، وقال

وهو يُطبق قبضته عليها في ثبات: «إنّ اللّغة التي تصوّرت أنّ من المُناسب استعمالها، ياماينهر هيرمان، في مُخاطبتي تقتضي الاعتراض عليها في كثيرٍ من الجوانب، ولكن ليس لدي المزاج ولا الوقت لتحديد تلك الاعتراضات. إذا كنت ترى أنّ آرائي غير مُتوقعة من رجلٍ مُهذب، فهذا شيءٌ مسيء صراحة ولا يترك لي غير مجال واحدٍ للتصرّف. ولكن لا بدّ من اللجوء إلى شيءٍ من الكياسة تقديراً لهذه الصحبة، وتقديراً لك أنت أيضاً، في هذه اللحظة، لأنّك ضيفي. لهذا أطلب إليك أن تعذرني، نظراً لكل هذه الاعتبارات، على بعض الانحراف عن الذوق العام في حضرة رجالٍ مُهذبين في ظروف مُماثلة من المواجهة الشخصية. سوف تُسامحني على الضريبة المُتواضعة التي أفرضها هُنا فلا يتصوّرها خيالك؛ إنّني أُحاول التفكير لحظة في انعكاس صورتك على تلك المرآة فأرى فيها ماينهر هيرمان نفسه. وبعد أن أنتهي من ذلك، لن تبقى أمامي صعوبة تُذكر. سوف ألقي قارورة النبيذ هذه على صورتك في المرآة، وبهذا أكسر روح، أو بالأحرى حروف، أو كلمات الاحتقار في إساءتك، بينما أتحاشى التصرّف بعنفٍ مادي ضد شخصك الحقيقي».

بعد أن تفوّه بهذه الكلمات أسرع إلى قارورةٍ مليئة بالنبيذ، وألقاها باتّجاه المرآة التي تتعلّق مُباشرة أمام هيرمان؛ وضرب انعكاس صورته في تصميمٍ ودقة، وهُنا تبعثرت بطبيعة الحال قطعُ الزجاج إلى نتفٍ مُتناثرة. ووقف الرفاقُ جميعاً [166]على أقدامهم، باستثناء رايتزنر وأنا، واتّجهوا نحو الباب للمُغادرة. وبينما كان هيرمان يهمّ بالخروج، همس البارون في أُذني قائلاً: إنّ عليّ أن اتبعَه لكي يكلفني بمهمةٍ يرجو مني أن أؤديها. وافقتُ على ذلك؛ ولم أكن أعرف على وجه اليقِين ماذا أفعل بشأن هذه السخافة.

تقبّل المُبارز عرضي بتقديم المُساعدة له في جفاء وتكبّر، وأخذني من يدي وقادني إلى شقته. كنت أُحاول منع نفسي بصعوبة من الضحك في وجهه بينما هو مُستمر في الكلام بأقصى درجات الوقار عما اصطلح على تسميته بتلك «الاهانة المُهذبة» التي تلقّاها. بعد إلقاء مُحاضرةٍ رنانة مُملّة بطريقته التي تعوّد عليها، تناول من رفوف مكتبته عدداً من الكتب المُغبرة التي تتطرّق إلى موضوع

المُبارزة، وأمتعني مدة طويلة في الاطّلاع على مُحتوياتها؛ كان يقرأ بصوتٍ مسموع، ويُعلّق بلهجة جادة على ما يقرأ. أستطيع أن أتذكّر عناوين بعض تلك الأعمال. كان هُناك كتاب «مرسوم فيليب لو بيل في المُبارزة بين الأفراد»؛ وكتاب «مسرح الشرف»، تأليف فافيان، وبحث «في إجازة المُبارزات»، تأليف أنديغواير. وعرض علي أيضاً في حركات تتّسم كثيراً بالأبهة، كتاب برانتوم «مذكرات المُتبارزين»، الذي نُشر في كولون، 1666، مطابع إيلايزفر.. وهو نسخة نادرة ذات جلد رقيق، وعليها هوامش وحواشٍ وتولى الإشراف على تجليدها ديروم. إلّا أنّه التمس منّي أن ألقي نظرة عاجلة على شيء مُحدّد، وفعل ذلك في شيءٍ من الغموض المشوب بالحصافة، وهو كتاب مطبوع بقطع الثُّمن، مكتوب في لغة لاتينية ركيكة من قبل رجلٍ فرنسي يُدعى هيدلن، ويحمل عنواناً جذاباً، (قانون المُبارزة، سواءً كان مكتوباً أو غير مكتوب) *Duelli Lex Scripta, et non; aliterque*. من هذا الكتاب قرأ لي واحداً من أكثر الفصول طرافة وتشويقاً في العالم وهو عن «الإصابات أثناء المُمارسة والتطبيق وعلاجها وما إلى ذلك» *Injuriae per applicationem, per constructionem, et per se* وكان نصف ذلك الفصل، كما أكّد لي، ينطبق تماماً على حالته الخاصة «كرجلٍ مُهذب»، مع أني لم أفهم مقطعاً واحداً من تلك العبارات التي لم أسمع بها في حياتي. وبعد الانتهاء من قراءة الفصل، أطبق الكتاب، وطلب إليّ ما توقعت أنّه من ضروريات المهمة التي ينوي أن يوكّلها لي. وأجبته بأني على ثقةٍ تامة من إخلاص نواياه ورهافة مشاعره، وسوف أمتثل حتماً إلى كل ما يقترحه عليّ. لدى سماع هذا الجواب بدا مُتأثراً بالإطراء، وجلس يُسطر رسالة إلى البارون. وجاءت رسالته على النحو التالي:

«سيدي.. وصديقي، م. ب، يسرّني أن أبعث إليكم هذه الرسالة. أرى لزاماً عليّ أن ألتمس منكم، في أول فرصة سانحة، أن تُقدّموا لنا توضيحاً عمّا حدث في هذا المساء حين كنا حضوراً في غرفتكم. لئن رفضكم هذا الطلب، سيكون السيد ب. مُستعداً في رحابة صدرٍ لأن يُرتّب، مع أي صديق تختارونه، خطوات تمهيدية للاجتماع.

مع أخلص مشاعر الودّ والاحترام، خادمكم المُطيع،

[167]يوهان هيرمان.

مُعنونة إلى: البارون رايتزنر فون يونغ،

18 آب، سنة - 18».

بما أنّني لم أكن أعرف ما ينبغي القيام به، فقد ذهبت لزيارة رايتزنر وأنا احمل هذه الرسالة. انحنى عندما قدّمتها إليه؛ ثم أرشدني إلى مقعدٍ وكانت قسمات وجهه متجهمة. بعد أن اطّلع على الرسالة، كتب الرد التالي الذي حمّلني إياه إلى هيرمان.

«سيدي.. تلقيت عن طريق صديقنا السيد ب. رسالتك التي بعثتها في هذا المساء. لدى تأمّلها بما تستحق من اهتمامٍ أرى الاعتراف صراحة بأنها تنطوي على لياقةٍ بارعة في تفسير ما تقترحه. بعد هذا الاعتراف، ما زلت أجد صعوبة بالغة (نتيجة طبيعة خلافنا الظاهرة على ما فيها من غرابة، وكذلك للإهانة الشخصية التي وقعت من جانبي)، في صياغة كلماتٍ مُناسبة تُعبّر عن اعتذاري، وتصف جميع المُلابسات الدقيقة، وتتناول المُتغيرات كافة التي يُمكن أن تطرأ على هذه المسألة. ولكني على ثقة كبيرة، إذا تأملنا الموقف في تجرّد، من رجاحة رأيكم في أمور لها علاقة بقواعد الإتيكيت، تلك الأمور التي كنتم منذ زمن طويل تمتازون بها من غير تكلّف. لذلك أقول في ثقة تامة بعد أن تداركت الأمر: اسمحوا لي، بدلاً من التعبير عن أي مشاعر خاصة بي، أن أطلب إليكم الاطّلاع على آراء الكاتب سايور هيديلن، كما طرحت في الفقرة التاسعة من فصل «الإصابات أثناء المُمارسة والتطبيق وعلاجها وما إلى ذلك» من كتابه (قانون المُبارزة، سواءً كان مكتوباً أو غير مكتوب) إنّني على ثقة من أنّ قدرتكم المؤكدة على الفهم في ما يتّصل بكل الأمور التي تناولتها هُنا سوف تكفي لإقناعكم بالسبب الذي جعلني أُحيلكم إلى هذا النص الرائع، وهذا من شأنه أنْ يُلبّي طلبكم، كرجلٍ شريف، في تفسير موقفي.

مع خالص مشاعر الودّ والاحترام،

خادمكم المطيع،

فون يونغ.

هر يوهان هيرمان».

18 آب، - 18

عندما بدأ هيرمان قراءة هذه الرسالة كان عبوسَ الوجه، ولكنّه بعد حين استطاع أن يُبدي ابتسامة تُعبّر عن أقصى درجات التباهي بالنفس ومظاهر الصلف وهو يتطرّق إلى ذلك الهراء عن «الإصابات أثناء الممارسة والتطبيق وعلاجها وما إلى ذلك»[168]. وبعد أن انتهى من القراءة، توسّل إليّ وكان يبتسم في دماثة خلق لا نظير لها أن أجلس، وأشار إلى البحث الذي تكلم عنه. قلب الصفحات حتى وصل إلى نصٍّ مُحدّد، ثم قرأ في عناية مع نفسه، ثم أغلق الكتاب، وطلب إليّ بصفتي الصديق المؤتمن أن أنقل إلى البارون فون يونغ تأثره العميق بشهامته من جهة، وأن أؤكد له من جهة أُخرى أنّ التفسير الذي قدّمه كان مُقنعاً إقناعاً تاماً، وأنّ من دواعي الشرف واللياقة القبول به إذ أنه لا يحتاج إلى إضافة أُخرى في حقيقته.

استغربت كثيراً من هذا التغيّر المُفاجئ، ورجعت في الحال إلى البارون ومعي الرد. وتلقّى البارون رسالة هيرمان الودودة في رحابة صدر طبعاً، وبعد بضع كلمات تبادلها معي تطرّق فيها إلى أشياء عامة، ذهب إلى غرفة داخلية وأحضر ذلك البحث الشهير الخالد الذي توارثته الأجيال (قانون المُبارزة، سواءً كان مكتوباً أو غير مكتوب) وأعطاني الكتاب مُلتمساً مني الاطّلاع على جانبٍ منه. وفعلت ذلك، ولكنّي لم أفهم منه إلا النّزر اليسير، إذ عجز ذهني عن أن يستجمع أقل جزئية من المعنى. بعد ذلك تناول الكتاب بنفسه، وقرأ لي منه فصلاً بصوت جهوري. بإزاء دهشتي فقد اتّضح لي أنّ الأشياء التي قرأها هي من أقبح الكتابات التي تصف مبارزة بين اثنين من قردة السعدان. وهُنا انبرى ليشرح ذلك

اللغز؛ اتّضح لي أنّ النصّ، كما يظهر لأول وهلة *prima facie*، كتبه بأُسلوب شعري سخيف شاعرٌ يُدعى دو بارتاس؛ بمعنى آخر، كانت اللّغة قد صيغت ببراعة فائقة لتُلقي في ذهن السامع جميع الإيحاءات الظاهرية التي من السهولة فهمها، فضلاً عن بعض المعاني العميقة الغور، بينما في حقيقة الأمر لا يوجد أي أثرٍ ملموس لمعنى ذي طبيعة جادة في الكتاب. إنّ المفتاح لفهم المغزى الإجمالي للمسألة يكْمن في التغاضي عن كل كلمة ثانية وثالثة على التناوب في أي جُملة مُحددة، وإذا الأمر يتضح أنّها سلسلة من الألغاز السخيفة التي تتمحور حول نزالٍ عادي شبيه بما يُمارس في الأوقات الحاضرة.

بعد ذلك أخبرني البارون بأنّه ألقى هذا البحث عن قصدٍ بين يدي هيرمان منذ أسبوعين أو ثلاثة قبل تلك المُغامرة، وكان مُقتنعاً جدّاً، من خلال المسار العام للمُحادثة التي جرت بينهما، أن صديقه قد درس الكتاب باهتمام، وتصوّر على وجه اليقين أنّه عملٌ يستحق اهتماماً عميقاً. بإزاء هذا التلميح، لم يتردّد في إكمال القصة. وكان هيرمان يؤثر الموت ألفَ مرة على الاعتراف بعجزه عن فهم أي شيء، وكل شيء، في الكون يجده مُسطّراً في كتابٍ يتناول فنّ المُبارزة.

ليتلتون باري

حكاية أ. غوردن بايم

(رواية)

تمهيد

[169]لدى عودتي أخيراً إلى الولايات المُتحدة منذ بضعة شهورٍ خلت، على أثر سلسلة من المغامرات العجيبة التي واجهتني في بحار الجنوب وغيرها من الأصقاع، والتي يجد القارئ وصفاً مُفصلاً لها في الصفحات اللاحقة، أوقعني حظي العاثر أو شيءٌ من قبيل المُصادفة في صداقة مع ثلّةٍ من الرجال في ريتشموند، فرجينيا، كانوا يحسّون بفضولٍ شديدٍ للاطّلاع على جميع الأمور التي تتّصل بالمناطق التي زرتها، وظل هؤلاء الصحاب يُلحّون عليّ قائلين: إنّ من واجبي إعطاءهم سرداً تفصيلياً، لعلَّ الناس يطلعون عليه في وقت لاحق. على أنّي كنت مُتردداً كثيراً في تلبية طلباتهم، تمنعني من ذلك عدة أسباب، بعضُها ذات طبيعة شخصية بحتة، أو هي في اعتقادي من الأمور التي لا تخصّ من قريبٍ أو بعيدٍ أحداً غيري؛ وثمّة أسبابٌ أُخرى ليست ذات طابع شخصي. من الاعتبارات التي كانت تحول بيني وبين الإفصاح عن مُغامراتي، فضلاً عن أنّي لم أحتفظ بسجلٌ عبر حقبة من الزمن أدوّن فيه ما وقع لي أثناء فترة غيابي، إحساسي بالخوف من أنّي ربما أعجز عن الكتابة في وقتٍ من الأوقات، اعتماداً على ما تسعفني به الذاكرة، لكي أقدم سرداً موثقاً، مُفصلاً، مُترابطاً يُمكن أن يُجسّد مظهر الحقيقة التي ينطوي عليها أفضل تجسيد، على أن ألتزم في كتابتي بالمسائل الطبيعية وحدها التي لا يشوبها أي ضربٍ من الإسراف، ما لم يكن هذا الاختيار

مفروضاً ولا سبيل إلى التخلّي عنه، وهذا شيءٌ نحن جميعاً مُعرّضون إليه حين نتطرق إلى تفاصيل الحوادث التي تترك فينا أثراً يؤججُ قدراتنا الذهنية على استبطان الخيال. وهُناك سببٌ آخر، فتلك الحوادث التي أزمع سردها ذات خصائص مُشوّقة حتماً، حتى لا تكاد تدعمها شهادة أحد من الشهود، كما أؤكد بالضرورة (باستثناء شخصٍ واحد، من أصلٍ نصف هندي)، فليس لديّ إذن إلّا بصيصَ أملٍ خافت في أن تحظى حكايتي بالتصديق حتى من عائلتي، فضلاً عن أولئك الأصدقاء الذين لديهم سببٌ يدعوهم، من خلال طول المُعاشرة، للوثوق بصدقي وأمانتي.. ولكن يبقى احتمالٌ قائم في أن ينظر الجمهورُ العريض من الناس إلى ما سأُقدمه لهم على أنّه ضربٌ من المُبالغة الوقحة في الكلام أو أنّها قصة من وحي خيالي الخلاق. وهكذا ترى أنّ التشكيك في قدراتي ككاتب كانت من الأسباب الجوهرية التي منعتني من تلبية مُقترحات الناصحين لي.

من هؤلاء الذين نصحوني رجلٌ من فرجينيا عبّر عن اهتمامه بكتاباتي، وعلى وجه التحديد ما يتعلّق بذلك الجزء الذي يتناول وصف المُحيط القطبي الجنوبي، وهذا الرجل يُدعى السيد بو[1]، كان يعمل مؤخراً مُحرراً في «المراسل الأدبي للجنوب»، وهي مجلّة شهرية يُصدرها السيد توماس و. وايت في مدينة ريتشموند. لقد نصحني هذا الرجل في إصرار، فضلاً عن أشخاصٍ آخرين، أن أتهيأ على الفور لتقديم وصفٍ مُسهبٍ لما رأيته وواجهته في رحلتي، على أن اعتمد في ذلك على حصافة رأيي الشخصي وإحساسي البديهي تلبيةً لرغبات الناس، وأن أُقدم وصفاً مقبولاً في الظاهر، مهما بدا مُستهجناً، من وجهة نظر الكاتب المُجرّدة، فينبغي أن يخرج كتابي من مكْمنه، حتى لو رأى البعض في ذلك تصرّفاً أخرق، إذا جاز القول، فلا بُدّ من استغلال كلّ فرصة سانحة لجعله يَحظى بالقبول كحقيقة لا لبسَ فيها.

على الرغم من هذا العرض الاستهلالي، فلم أُقرر بعد أن أُنفّذ ما اقترحه صاحبي. وبعد مدة اقترح (حين رآني لا أُحرّك ساكناً بشأن المسألة) السماح له

---

(1) كان إدغار ألن بو يعمل في السابق مُحرراً في المجلّة التي يُصدرها وايت وتركها بتاريخ 3 كانون الثاني 1837 قبل 18 شهراً من تاريخ البدء بنشر هذه الرواية. [المترجم]

بأن يصوغ، بكلماته الخاصة، سرداً للمراحل الأُولى من مُغامراتي، اعتماداً على الوقائع التي أطلعته عليها بنفسي، على أن ينشرها في مجلّة «مراسل الجنوب» وأن يصوغها ضمن إطار قصصي. ردّاً على هذا، لم أرَ أي مجالٍ للاعتراض، وأعطيته موافقتي، ولم أشترط إلّا أن يُبقي اسمي الحقيقي مجهولاً. وصدر تباعاً عددان من [170]مجلة «المراسل» يتضمنان تلك القصة المزعومة، في شهري كانون الثاني وشباط (1837)، ومن أجل أن تُعتبر تلك المقالات من الأعمال القصصية، فقد نشر اسم السيد بو ضمن قائمة المُساهمين في المجلّة.

وأخيراً: دفعتني طريقة تلقّي الناس لهذه الخدعة لأن أتبنّى خطة مُنتظمة لجمع ونشر هذه المُغامرات التي نتحدث عنها؛ ذلك لأني، على الرغم من الطابع الخُرافي الذي يُغلّف ببراعة ذلك الجزء من كتاباتي الذي ظهر في «المراسل» (دون تبديل أو تحوير واقعةٍ منها)، وجدت الناس غير مُستعدين على نطاقٍ واسع لتلقّيها في حُلّتها الخُرافية، ولهذا أرسلت عدداً من الرسائل إلى عنوان السيد ب.، تُعبّر تعبيراً واضحاً عن قناعة بأنّ قصتي تختلف كلّ الاختلاف عن تلك الصفة المزعومة. ومن هُنا فقد استنتجت أنّ الوقائع الحقيقية لا بُد لها أن تنفي هذه الخاصية من حيث إنّها تتضمّن دليلاً كافياً على عمق مصداقيتها، وبالتالي لم تعد لدي كثيرٌ من الأشياء التي كنت أخشى منها بخصوص ما يُمكن أن تصل إليه شكوك الناس.

بعد هذا العرض، سوف يرى المرء حتماً إلى أي مدى مُباشر يُمكن اعتبار هذا السرد من كتاباتي الشخصية؛ وسوف يفهم أيضاً أنّ ليس هُناك مسألة حقيقية جرى تقديمها على خلاف ما هي عليه في الصفحات القليلة التي كتبها السيد بو. حتى بالقياس إلى أولئك القراء الذين لم يطّلعوا على ما نُشر في «المراسل»، فليس من الضروري إذن الإشارة إلى أين ينتهي الجزء الذي كتبه ذلك المؤلف وأين تبدأ قصتي التي كتبتها بنفسي؛ فالاختلاف في الأسلوب ليس من العسير إدراكه.

أ. ج. بايم

الفصل (1)

[171]اسمي آرثر غوردن بايم[1]. كان أبي تاجراً مرموقاً يعمل في مخازن البحرية في نانتوكيت، المكان الذي ولدت فيه. أمّا جدّي لأمي فكان مُحامياً ذائعَ الصيت أيضاً لم تواجهه أي مشكلاتٍ على الصعيد المادي. إذ أنّه كان من الرجال المحظوظين من النواحي كافة، وقد ضارب في البورصة وأحرز نجاحاً لا سيما في بنك إيدغارتن الجديد، كما كان يُسمّى سابقاً. من خلال هذه السّبل وما إلى ذلك تمكّنت من حيازة مبلغٍ نقدي مُحترم. لم يحرص جدّي على إقامة علاقات حميمة مع أي شخص في العالم، وإنّما كان يعيش مُنطوياً على نفسه، وتوقّعت أن أرث مُعظم مُمتلكاته بعد موته. وقد أرسلني، حين كنت في السادسة من عمري، إلى مدرسةٍ يُديرها عجوزٌ يدعى السيد ركيتس، وهو رجلٌ بذراع واحدة يتسم بطباع غريبة.. يكاد يكون معروفاً لكل من زار نيوبدفورد. ولبثت في مدرسته حتى بلغت السادسة عشرة، حينها تركته وانتقلت إلى أكاديمية السيد ي. رونالدز التي تقع على التلال. هُناك توطّدت علاقتي مع ابن السيد بارنارد، وهو قبطان بحري، وكان مُعتاداً على الإبحار بين الحين والحين في خدمة شركة لويد وفريدينبورغ.. لقد اكتسب السيد بارنارد أيضاً شهرة عريضة في نيوبدفورد، واتّسعت علاقاته إلى درجة كبيرة، وهذا شيءٌ كنت على يقين منه، في ايدغارتن. وكان لهذا الرجل ابن يدعى أوغسطوس، وهو أكبر منّي بسنتين تقريباً. وكان أوغسطوس قد سافر مؤخراً في رحلةٍ لصيد الحيتان مع أبيه في منطقة جون

(1) من حيث الإيقاع وعدد المقاطع الصوتية فإنّ اسم آرثر غوردن بايم يشبه اسم إدغار ألن بو فكلاهما من أصل اسكتلندي. [المترجم]

دونالدسون، وكثيراً ما تحدّث معي عن مغامراته في المُحيط القُطبي الجنوبي. وكثيراً ما تعوّدت الذهاب معه إلى منزلهم، فأبقى معه طول اليوم، وأحياناً أبقى الليل بأكمله. كنّا ننام على السرير نفسه، فيحرص على أن يُبقيني مُستيقظاً حتى الفجر، فيروي لي قصصاً عن السكان المحلّيين في جزيرة تينيان[2]، وأماكن أُخرى زارها في أسفاره. وفي نهاية الأمر يتركني وحدي فلا يُدغدغ النوم أجفاني لأنّي أحس وقتها بالانبهار العميق بما سمعت، وكانت تُساورني رويداً رغبة عارمة تجعلني أشتاق إلى البحر. كان لدي في ذلك الوقت زورق شراعي أطلقت عليه اسم أريل[3]، قيمته لا تتجاوز خمسة وسبعين دولاراً. وقد جهزت الزورق بنصف قمرة.. ونسيت كل شيءٍ عن مقدار ما يُمكن أن يحمله الزورق من أثقال، ولكنّه على كل حال يتحمل وزن عشرة أشخاص [172]دون أن يضطّروا للتزاحم. على متن هذا الزورق كُنا كما جرت العادة نُخطط في خيالاتنا وأحلامنا المجنونة للإبحار إلى بعض الأصقاع النائية من العالم؛ وحين أُفكر الآن في تلك الشطحات والنزوات أستغرب ألف مرةٍ من أني لا زلت على قيد الحياة حتى اليوم.

سوف أتطرّق إلى إحدى هذه المُغامرات على أمل أن تُمهّد السبيل لكتابات طويلة ربما كانت أكثر أهمية. ذات ليلة من الليالي أُقيمت حفلة في منزل السيد بارنارد، وحضرتُ مع أوغسطوس، واحتسينا الشراب حتى ثملنا مع اقتراب نهاية الحفلة. مثلما هو مُعتاد في مثل هذه المُناسبات، فقد اشتركت معه في سريره ولم أُحبذ الرجوع إلى البيت. وسرعان ما غطّ صاحبي في النوم، كما تصورت، في هدوءٍ شديد (فقد شارفت الساعة على الواحدة حين انفضّ جمعُ المدعوين)، دون أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ عن موضوعه المُفضّل. ربما مضت نصف ساعة منذ أن أوَينا إلى الفراش، وكنت على وشك الاستسلام للنوم، حين نهض فزعاً من

---

(2) جزيرة تينيان: إحدى جزر ثلاث رئيسية تابعة للكومنولث البريطاني وتُسمى جزر ماريانا الشمالية. [المترجم]

(3) أريل في «الفردوس المفقود» لملتون من الملائكة المُتمردين، وفي قصائد شيلي هو اسم زورق ينتهي نهاية مأساوية. [المترجم]

مهجعه فجأة، وأقسم بأغلظ الإيمان أنّه لن يذهب إلى النوم لإرضاء شخصٍ يُدعى آرثر بايم من كريستندوم، حين يهبّ نسيمٌ عليل يُداعب البحر من الجنوب الغربي. لم يسبق أن أصابتني رعدةٌ في حياتي كما حدث لي آنذاك، فلم أكن أعرف قصده، واعتقدت أنّ كمية النبيذ وغيره من أنواع الشراب التي ازدردها قد لعبت بعقله حتماً. ثم واصل كلامه في برود أعصاب وقال: إنّه يعرف أنّني ربما أفترض أنّه مخمور، ولكنّه أكد لي أنه لم يسبق أن كان صاحياً هكذا في حياته. وأضاف أنّه يشعر بالضجر فحسب من الرقاد كالكلب في السرير في مثل هذه الليلة الرائعة، وقرّر النهوض في الحال وارتدى ملابسه للذهاب في نزهة بالزورق. لا يُمكنني وصف المشاعر التي اجتاحتني، ولكن ما إن خرجت الكلمات من فمه حتى أحسست برعشة حملتني إلى أقصى درجات الانبهار والاستعداد للمرح، وتصوّرت أنّ فكرته المجنونة هي من أعظم الأشياء المُبهجة والعقلانية في العالم. كانت الرياح تهبّ وتكاد تنقلب إلى عاصفةٍ، والجو لا يخلو من برودةٍ مُنعشة.. فنحن في أواخر تشرين الأول. وثبتُ على عجل من الفراش مُتجاهلاً كلّ شيء، فقد استسلمت بدوري إلى نوعٍ من النشوة العميقة، وأخبرته أنني لست بأقل منه شجاعة، ومع التعب الذي يجعلني أرقد في الفراش كالكلب، فأنا مُستعد لأي نوع من النزهات والمرح شأني شأنه، أوغسطوس بارنارد من نانتوكيت.

لم نُهدر وقتاً يُذكر في ارتداء ثيابنا وأسرعنا حالاً إلى الزورق. كان زورقنا مُستقراً في الرصيف الخشبي القديم المُتهالك التابع لشركة بانكي وشركائه، وجوانبه الضخمة ترتطم بألواح الخشب الصلدة. قفز أوغسطوس إلى متن الزورق وقام على الفور بإفراغ المياه منه، لأنّ قاعه كان مُمتلئاً إلى المُنتصف تقريباً. بعد هذا، رفعنا الشراع المُثلث والآخر الرئيسي، وأنهينا الاستعدادات الأُخرى كلها، وبدأنا نشق طريقنا بشجاعة متوجهين إلى عرض البحر.

كانت الرياح، كما قلت من قبل، تهبّ رخوة من الجنوب الغربي، وسماءُ الليل صافية جدّاً ولا يخلو الجوُّ من برودة. تولى أوغسطوس إدارة الدفة، أمّا أنا فوجدت مكاناً لي قرب الصاري، فوق السطح النصفي للقمرة. ومضى بنا الزورق

[173]مُتهادياً يقطع المسافات بمُعدل سرعةٍ مُتزايدٍ تدريجياً.. لم ينطق أحدنا بكلمةٍ منذ أن فككنا الحبال عن الرصيف. ولكنّي بادرت الآن فسألت رفيقي عن المسار الذي ينوي أن يسلكه، وكذلك عن وقت رجوعنا المُتوقع. أخذ يصفّر واستمر في ذلك بضع دقائق، ثم قال وقد بدا عليه شيءٌ من السخط: «إنني ذاهب إلى البحر ..يُمكنك الرجوع إذا شئت». حين وقعت عيناي عليه أدركت حالاً، على الرغم من رباطة جأشه المزعومة، مدى اضطرابه آنذاك. كان في وسعي تمييز ملامحه بوضوحٍ على ضوء القمر.. وجهه شاحبٌ أكثر من الرخام، ويده تهتز اهتزازاً شديداً بحيث كان يجد صعوبة في إبقائها على الدّفة. أيقنت أن مكروهاً قد أصاب صديقي لا محالة، وتوجّست خيفة. في هذه الآونة كنت أعرف أشياءً قليلة عن التعامل مع الزوارق، فلم يكن لدي اختيارٌ الآن غير الاعتماد على مهارة صديقي في الملاحة. ومع هذا فقد تزايدت قوة الرياح فجأة، لأننا كنا نتوغّل مُسرعين بعيداً عن ملاذنا الآمن على الأرض.. وكنت أحسّ بالخجل فلم أشأ أن أُظهر أي علامة تدلّ على خوفي، وطوال نصف ساعةٍ تقريباً حافظتُ على هدوءٍ مطبق. ولكني لم أعد أتحمّل مدة أطول من ذلك، فتكلمت مع أوغسطوس عن ضرورة أن نستدير فنرجع. مثلما حدث من قبل، فقد مضت قرابة دقيقة قبل أن يُعطي جواباً، أو ينتبه حتى إلى مقترحي. «عما قريب»، قال أخيراً.. «هُناك متّسعٌ من الوقت.. للرجوع إلى الوطن، عما قريب». كنت أتوقّع مثل هذا الرد، ولكنّي تلمّست شيئاً ما في نبرة صوته وهو ينطق بتلك الكلمات التي غمرتني برهبة لا توصف. ونظرت مرة أُخرى إلى المُتكلّم في انشداهٍ. كانت شفتاه تشوبهما زرقة شديدة، وركبتاه ترتعشان ارتعاشاً عنيفاً وتصطكّ الواحدة منهما بالأُخرى حتى إنّه بالكاد كان قادراً على الوقوف. «بحق السماء، أوغسطوس»، صَرخت به، الآن استولى عليّ رعبٌ حقيقي من أعماق قلبي، «ما الذي دهاك؟.. ما الأمر؟.. ماذا تريد أن تفعل بنا؟»

«ما الأمر!» بدأ يتلعثم، وكان فيما يظهر مُستغرباً كثيراً، ثم لم يلبث أن ترك الدّفة في اللحظة نفسها، وترنّح إلى الأمام وإلى الخلف وكاد يسقط على قاع المركب..

«ما الأمر.. عجباً، لا شيء هناك.. ما الأمر.. الرجوع.. ألا.. ألا.. ألا ترى؟» وومضتْ حقيقة الأمر كله في ذهني. ووثبتُ إليه ورفعته عن الأرضية. كان ثملاً.. ثملاً إلى أقصى حدود الثمالة الكريهة.. لم يستطع الوقوف في اتّزانٍ، أو أن يتكلّم، أو حتى يرى شيئاً. عيناه تلمعان كأنهما تنظران من وراء لوحٍ زجاجي؛ وبينما كنت أسحب يدي عنه لأبتعد عنه من فرط قنوطي، تدحرج وسقط مثل لوحٍ خشبي وسط بركة من المياه على القاع، فرفعته منها. من الواضح، خلال ذلك المساء، أنّه قد احتسى كمية من الشراب أكثر ممّا توقّعت، وأنّ سلوكه في النهوض من الفراش هو النتيجة المُتوقعة لحالة شديدة من التخدّر بالكحول.. فهي حالة مثل الجنون، كثيراً ما تُتيح للضحية أن يتصرّف بحيث يُحاكي السلوك الظاهري لشخصٍ يسيطر على حواسه كلّ السيطرة. على أنّ برودة نسمات الليل كان لها تأثيرها [174]عليه.. إذ بدأت طاقاته العقلية تستسلم لوقع ذلك التأثير.. وساعد الإدراك المُشوّش الذي لا شكّ أنّه كان يُراوده في وضعه المُتأزم على تسريع وتيرة الكارثة. الآن أصبح فاقداً لأي نوع من أنواع الإحساس، ولم يكن هُناك أدنى احتمال لأن يسترد وعيه إلا بعد مُضي ساعاتٍ على هذه الحال.

من الصعوبة أن يُدرك المرء شدة الفزع الذي استولى عليّ. تبخّرت أنفاسي التي تفوحُ منها رائحة النبيذ الذي ازدردته مؤخراً، واستسلمتُ إلى تردّدي وجبني بقوة مُضاعفة. كنت أعلم أنّني عاجز كلّ العجز عن التحكّم بدفة المركب، وأنّ الريح العاتية والمدّ المُتراجع بعنف هي من العناصر التي تحثّ الخُطى لإلحاق الدمار بنا. وكان واضحاً أيضاً أنّ هُناك عاصفة تلملم أذيالها خلفنا؛ لم نكن نمتلك بوصلة ولا حتى ما يكفي من المؤن؛ وبدا أننا لو حافظنا على مسارنا الحالي، فسوف تختفي الأرضُ عن الأنظار قبل حلول الفجر. هذه الأفكار، مع حشودٍ أُخرى من الظنون التي لا تقل عنها شأناً في إثارة الفزع، كانت تُبرق في ذهني بسرعة مُربكة، ولبثتُ لحظات مشلولاً تحت وطأتها خارج نطاق أي احتمال لأن أبذل جهداً. ومضى الزورق يخترق المياه بمُعدل سرعة مُتهور.. يشق طريقه كأنّه يُسابق الريح.. لا يكاد المرء يرى انبعاجاً في أشرعته.. مُقدمته مُنكسة صامدة يُغطيها الزّبد من كل جانب. من العجيب ألف مرة أنّه لم ينحرف عن مساره أو يتحطّم.. بعد أن تخلّى أوغسطوس عن الدفة، كما قلت، وتردّدت أنا في تولّي

زمامها بنفسي. ولكن، لحُسن الحظ، بقي الزورق مُستقرّاً على مساره، وشيئاً فشيئاً استعدت حضور ذهني. ومع ذلك كانت الريح تزداد شراسة باستمرار يبعث على الخوف، وكلّما ارتفعنا من الغطس وتقدمنا، كان رشاشُ البحر من ورائنا يلطم وجوهنا، ويكاد يُغرقنا بدفق المياه. كنت أحس بخدرٍ يزحف على حواسي جميعاً، على أطرافي، حتى أوشكت أن أفقد وعيي. وأخيراً استجمعت ما تبقّى من شجاعتي لأتغلب على يأسي وضعفي، واندفعت نحو الشراع الرئيسي وفككته من الحبال ليسقط. وكما يُمكن للمرء أن يتوقع، فقد انثنى الشراع وطار باتّجاه مُقدمة الزورق، وبما أنّه كان مُثقلاً بالماء، فقد حمل معه الصاري الذي التوى إلى أحد الجوانب. هذا وحده أنقذني من هلاكٍ محتوم. تحت مُثلّث الشراع الصغير تكومت، وكان الزورق يمضي بنا الآن بالاتّجاه الذي تُقرّره الريح، نُبحر في لجّةِ بحرٍ ثقيل الأمواج، نواجه قدراً مجهولاً لا ندري إلى أين يمضي بنا، ولكنّي نبذتُ عني ذُعري واستبعدت فكرة الموت. أمسكت بالدفة، وبدأت أتنفّس في تحرّرٍ أكثر حين وجدتُ بارقة أملٍ لا تزال مُتاحة لأن ننجو في نهاية المطاف. بقي أوغسطوس مُمدّداً على القاع لا يشعر بشيء؛ ولأني أحسست بخطرٍ مُحدق به لأن يغرق (فالمياه وصلت إلى قدمٍ تقريباً في المكان الذي سقط فيه)، فقد تمكنت بصعوبة من رفعه جزئياً، وحاولت إبقاءه في وضع الجلوس، [175]فربطت خصره بحبل، وأدخلت الحبل في حلقة على سطح القمرة. بعد أن أنهيت كلّ شيء بما استطعت من إتقانٍ مُقاوماً شعوري بالبرد وحالتي النفسية القلقة، سلمت أمري إلى الله، وقررت تحمّل ما قد يحصل بكل ما أُوتيت من شجاعة.

ما إن اتّخذت هذا القرار، حتى سمعت على حين فجأة دمدمة عالية استمرّت طويلاً، أو كأنّها صرخة تصدر عن حناجر ألفٍ من الشياطين، بدا ذلك الهدير مُهيمناً على كل شيء في الأجواء التي حولي وأنا أغطس في الزورق. ولن أنسى ما حييت ذلك الفزع الرهيب الذي دهمني في تلك اللحظة العصيبة. انتصبت شعرات رأسي.. وتجمّدت الدماء في عروقي.. وقلبي توقف كلّياً عن الخفقان، لم أرفع عيني مرة واحدة لكي أعرف مصدر رعبي، ثم ما لبثت أن سقطتُ على رأسي فاقداً الوعي فوق جسد رفيقي.

وجدت نفسي، لمّا استعدت الوعي، أرقد في قمرة سفينةٍ ضخمةٍ لصيد

الحيتان (تُسمّى البطريق) تُبحر ضمن حدود نانتوكيت. ووجدت عدداً من الأشخاص يقفون فوق رأسي، بينما كان أوغسطوس، الذي رأيت لونه شاحباً أكثر من الموتى، مُنهمكاً بتدليك يدي. حين رآني أفتح عيني، أثارت تعبيرات الفرحة والامتنان التي طفت على وجهه ضحكات ودموع أولئك الرجال ذوي الملامح الخشنة والقلوب الصّلبة. ثم سرعان ما تكشّف لي سرُّ وجودنا هُنا. لقد ارتطم زورقنا بسفينة صيد الحيتان التي كانت مُتجهة بأقصى سرعتها إلى نانتوكيت وقد رفعت أشرعتها كافة دون استثناء، ولهذا اندفع بدنُها الهائل في زاويةٍ تكاد تكون قائمة مع مسارنا. كان عدد من الرجال يقومون بواجب الرصد من مواضعهم الأمامية، ولكنهم لم يُشاهدوا زورقنا حتى أصبح من المُتعذر تفادي الارتطام به.. أرعبتني صرخاتهم التحذيرية لدى رؤيتهم لنا فصحوت من غفوتي في ذلك الوقت. وهكذا جثمت السفينة العملاقة، كما قيل لي، فوقنا مُباشرة دون مشقة كما لو كان مركبنا ريشة في مهبِّ الريح، ولم يؤثر ذلك أقلّ تأثير على مسارها. لم تُسمع صرخة من الضحايا على الدكة.. لم يُسمع إلا صوتُ احتكاك طفيف يختلط مع دمدمة الرياح وهدير الأمواج، وراحت الألواح الخشبية الرخوة تتهشم لتبتلعها السفينة المُدمرة بعد أن تحتك لحظة بسطحها الحديدي.. هذا كلُّ ما حدث. لقد تصوّر القبطان (واسمه ي. ت. ف. بلوك من نيو لندن) أنّ زورقنا (ويتذكّر القارئ أنّه قد تجرّد من صواريه) كان بعض القواقع أو السلاحف التي تطفو على سطح المياه هُنا وهُناك، فأراد مُتابعة الإبحار دون أن يُشغل نفسه بالأمر. ولكن، لحسن الحظ، أقسم اثنان من البحّارة المُراقبين أنّهم واثقون كل الثقة من مُشاهدة شخصٍ يُمسك بالدفة، واقترحوا القيام بمُحاولة لإنقاذه. وتبع ذلك نقاشٌ مُحتدم، حينها استبد الغضب بالقبطان بلوك، وقال بعد لحظاتٍ: إنّ «ليس من واجبه أن يُراقب البحر في بحثٍ مُستمرٍّ عن قشور البيض؛ وأنّ السفينة ما [176]ينبغي أن تهدر الوقت في مثل ذلك الهراء؛ وإذا كان هُناك رجلٌ في الأسفل، فليس هذا ذنبه، وإنّما ذنب ذلك الأحمق، فليغرق غير مأسوفٍ عليه»، قال هذا، أو ربّما عبّر عن الأمر بكلمات من هذا القبيل. عندئذ تكلّم هندرسن، مُساعد الرّبان وقد تحمّس للأمر كثيراً، وكان ساخطاً شأنه في ذلك شأن بقية أفراد الطاقم، وأدلى بخطبة دعمها بحججٍ قوية انتقد فيها تلك الوحشية الصارخة التي تصرّف بها

القبطان ووصفه بأنّ له قلباً يفتقر إلى الرحمة. تكلّم هذا الرجل كلاماً صريحاً، ووجد من يُسانده، فقد اتهم القبطان بأنه يستحق الشنق فعلاً، وقال: إنّه لن يمتثل لأوامره حتى لو تعرّض للشنق نتيجة ذلك في اللحظة التي يضع فيها قدميه على الساحل. وتقدّم في خُطى ثابتة حتى وصل إلى مؤخرة السفينة، ودفع في طريقه بلوك بمنكبه جانباً (وكان هذا شاحب اللون فلم يرد عليه بشيء)، وأمسك الدفة، وأعطى أوامره بصوتٍ حازم: «استعدوا!» فاندفع الرجال كلّ إلى موقعه، وارتدّت السفينة على أعقابها وهي تمضي في رشاقة. ولم يستغرق ذلك أكثر من خمس دقائق، ولم يكن مُتوقعاً العثور على ناجين إلّا إذا حدثت مُعجزة.. لو كان يُفترض وجود شخصٍ على متن الزورق. ولكن، كما رأى القارئ، فقد نجح هؤلاء في إنقاذنا، أنا وأوغسطوس؛ وعرفنا أنّ نجاتنا تحقّقت على يد اثنين من الرجال الصالحين اللّذين ساقهما القدر إلينا، ويقيناً فالأمر يُعزى إلى تدخّل العناية الإلهية التي ألهمتهما الصواب والتقوى.

بينما توقّفت السفينة في عرض البحر، ألقى مُساعد الربان طوف النجاة وقفز إليه مع الرجلين اللّذين، كما أعتقد، كانا قد تكلّما عن مُشاهدتي مُمسكاً الدفة. فما كاد الرجال يتركون جانب السفينة (والقمر لا يزال مُشرقاً بأنواره الرقراقة) حتى انحرفت السفينة فجأة انحرافاً شديداً وتمايلت مع الريح، وفي اللحظة نفسها صرخ هندرسون من مكانه فزعاً وأشار إلى أفراد طاقمه أن ينظروا إلى المياه المُرتدّة. لم يقلْ شيئاً غير ذلك.. وتكرّرت صرخته وقد نفد صبره، «مياه مرتدّة! مياه مرتدّة!» حاول الرجال التراجع بالطوف بأقصى سرعة، ولكن في هذه الأثناء استدارت السفينة حول نفسها، ثم اندفعت إلى الأمام، مع أنّ الأيدي على سطحها كانت تُحاول جاهدة أن تلف الأشرعة. على الرغم من خطورة الموقف، تعلّق مُساعد الربان بالسلاسل الغليظة حالما أصبح على مقربة منها. ومع استمرار تأرجح السفينة العملاقة مرة بعد مرة خرجت ميمنتُها الآن من الماء حتى ظهرت رافدةُ القص[4] تقريباً، عندئذ اتّضح مصدرُ قلق الربّان وذعره بما يكفي. لقد رأى

(4) رافدة القص أو الصالب: عارضة رئيسية أو قطعة فولاذية تمتدّ على طول قعر المركب. [المترجم]

جسماً بشرياً في وضعٍ استثنائي مُثير للارتياب قرب القاع الأملس الصقيل (كانت سفينة البطريق مدعّمة بألواحٍ نحاسية)، وكان ذلك الجسم يرتطم ارتطاماً عنيفاً مع كل حركة لبدن السفينة. بعد عدة مُحاولات فاشلة، ومع استمرار ترنح السفينة، وبعد مُخاطرة كادت تؤدي إلى غرق طوف نجاتهم، تمكنوا أخيراً من انتشالي من مصيري المحتوم [177]وحملوني إلى السطح.. لأنّ ذلك الشيء، كما تبيّن لاحقاً، كان جسدي أنا. وقد اتضح أن أحد البراغي التي تُثبتُ ألواح الخشب بدأ ينفكّ من مكانه ويخرج من السطح النحاسي، وقد علقت ثيابي به ومنعني من الهبوط تحت السفينة، كنت آنذاك مُعلقاً في ذلك الوضع الغريب في قاع السفينة. لقد شق رأس البرغي ياقة سترتي الخضراء، واخترق جزءاً من خلف رقبتي، واستقرّ بين وترين تحت الأُذن اليمنى. وأخذوني مُسرعين إلى السرير.. مع أنّ أي مظهر من مظاهر الحياة لم يكن بادياً عليّ. لم يكن هُناك طبيبٌ جراح على متن السفينة. إلّا أنّ القبطان تولّى مُعالجتي بنفسه بكل اهتمام.. وكان يُجري عملياته مُحاولاً بذلك، كما أتصور، على مرأى ومسمع أفراد طاقمه، تدارك سلوكه الشنيع إبّان المرحلة السابقة من المُغامرة.

في هذه الأثناء، نزل هندرسون من جديد إلى البحر، مع أنّ الريح كانت تهبّ كالإعصار. فما كاد يغيب دقائق معدودات حتى عاد وقد عثر على بعض مُخلفات زورقنا، وبعد فترة وجيزة صرّح أحد الرجال المُرافقين له مؤكداً أنّه سمع حشرجة مُتقطعة لشخصٍ يطلب النجدة في خِضمّ تلك العاصفة المُزمجرة. وشجّع هذا بعض البحارة الأشداء على مُتابعة بحثهم أكثر من نصف ساعة أُخرى، رغم إشاراتٍ مُتكررة من القبطان بلوك لهم بأن يعودوا أدراجهم، فكل لحظة في المياه قرب حطام الزورق لا تخلو من احتمالات الهلاك. في حقيقة الأمر، من المُتعذر أن يتخيّل المرء كيف نجا طوفهم الصغير لحظة من الدمار المُحدّق. بيْد أنّ ذلك الطوف قد صُنع خصيصاً فيما يظهر لأعمال صيد الحيتان، فهو متينٌ ومُزودٌ بأكياس هوائية، وعندي من الأسباب ما يجعلني أعتقد أنّه يُشبه بعض زوارق الإنقاذ التي تُستخدم على سواحل ويلز.

بعد بحثٍ عقيم طوال الفترة التي ذكرناها، قرّر الرجال العودة إلى سفينتهم.

وما كادوا يتّخذون هذا القرار حتى سُمعت حشرجة أُخرى واهنة من شيءٍ غير واضح المعالم يطفو ويقترب منهم مسرعاً. تقدموا نحو ذلك الشيء حتى أمسكوا به. لقد اتّضح أنّ ذلك ما تبقّى من قمرة زورقنا أريل. وكان أوغسطوس يُكافح الأمواج هُناك، وقد أشرف على الغرق بعد أن عانى من آلامه الأخيرة. لدى الإمساك به وجده الرجال مقيداً بحبلٍ مربوط باللوح الطافي. هذا الحبل، كما يتذكّر القارئ، كنت قد ربطته بنفسي حول خصره، وشددته حول حلقة في مسمار، وكان الغرض منه إبقاءه جالساً، بعد كلّ الذي فعلته، اتّضح أنها كانت الوسيلة الوحيدة التي أنقذت حياته. بالكاد كانت الألواح الباقية من زورق أريل مُتماسكة معاً، حتى إذا سلك طريقه إلى قاع البحر فمن الطبيعي أن تنفصل أجزاؤه إلى قطعٍ مُتناثرة؛ كانت [178]القمرة، لعل المرء يتوقّع هذا، ترتفع وتنقلب بفعل المياه التي تتدفّق، ثم انفصلت أجزاؤها جميعاً عن الألواح الرئيسية، وظلت تطفو (إلى جانب قطع أُخرى حتماً) على السطح.. وقد طفا أوغسطوس فوقها، وبذلك نجا من موتٍ مُحقّق.

مضى أكثر من ساعة على انتشال أوغسطوس ونقله إلى سفينة البطريق، قبل أن يتمكّن من التصريح بشيءٍ عما في نفسه، أو قبل أن يستوعب طبيعة الحادث الذي وقع لزورقنا. وأخيراً عاد إلى وعيه كلياً، وأسهب في الكلام عما كان يشعر به وهو يغطس في الأعماق. في المراحل الأُولى من استعادته لدرجة من الإدراك، وجد نفسه يغرق في أعماق اليمّ، كان يدور ويدور بسرعة لا يُمكن تصوّرها، لأنّ الحبل كان ملفوفاً ثلاث أو أربع مرات بإحكام حول عنقه. خلال لحظةٍ واحدة عقب ذلك أحس بنفسه يرتفع إلى السطح بقوة، وحينها ارتطم رأسه ارتطاماً عنيفاً بشيء صلب، ومرة أُخرى استسلم للغيبوبة. فلما استعاد وعيه أحسّ بأنّه يتمتع بشيءٍ من قواه العقلية.. مع أنّ هذه الحالة من الوعي كانت مُرتبكة وضبابية إلى أقصى درجة. وهُنا أدرك أنّ حادثة ما قد وقعت، وأنّه عالقٌ وسط المياه، مع أنّ فمه بقي فوق السطح، وكان باستطاعته أن يتنفّس في حريةٍ بعض الشيء. ربّما كان لوحُ القمرة في هذه المرحلة يطفو سريعاً أمام الريح، أو تجرجره وراءها، بينما بقي صاحبنا يطفو على ظهره. بطبيعة الحال، ما دام في

وسعه البقاء على وضعه هذا، فمن المُستحيل أن يغرق. وبعد حين دفعته الأمواج وهو يعتلي ظهر القمرة، وكان يسعى لأن يُحافظ على هذا الوضع، فبدأ يصرخ من وقت إلى آخر طلباً للمُساعدة. قبل أن يكتشف أمره السيد هندرسون، اضطر لأن يُرخي قبضته من فرط الإجهاد، فسقط في البحر، وبذلك استسلم لمصيره وكان على يقين من أنّه هالكٌ لا محالة. أثناء مُكابداته للخلاص لم يتذكّر شيئاً عن زورقه أريل، ولم يُخمّن أي أمرٍ يتعلّق بمصدر الكارثة التي ألمّت به. كان ثمّة شعور غامض بالذعر واليأس يستولي على كيانه وقُدراته جميعاً. فلمّا حاول أخيراً أن يستجمع قواه، خانته قدراته العقلية؛ وكما قلت سابقاً، فقد مضت قرابة ساعة على صعودي إلى متن «البطريق» قبل أن يسترد وعيه كله ويعود إلى حالته الطبيعية. أما أنا.. فقد أفقت من حالة إغماءٍ تكاد تُشبه الموت (بعد بذل شتى المُحاولات من غير طائل طوال ثلاث ساعاتٍ ونصف) استُخدمت خلالها عمليات تدليك بقطع قماشٍ مُبلّلة بالزيت الحار.. وهو اقتراح قدّمه أوغسطوس. واتّضح أنّ الجرح الذي في رقبتي، على منظره القبيح، لم يكن خطيراً حقّاً، وسرعان ما تخلّصت من آلامي التي كنت أحسّ بها.

وصلت سفينة البطريق إلى المرفأ في حوالى الساعة التاسعة صباحاً، بعد أن [179]واجهت ضروب العواصف التي كثيراً ما تشهدها منطقة نانتوكيت. تمكنت أنا وأغسطوس من بلوغ منزل السيد بارنارد في الوقت المُناسب جدّاً لتناول الإفطار.. ولحسن الحظ، كان وقت الإفطار مُتأخراً بسبب حفلة الليلة الماضية. لاحظت أنّ جميع الجالسين إلى الطاولة كانوا يشعرون بالإنهاك بحيث لم يكترثوا لمنظرنا المزري ولعلامات الإرهاق التي بدت علينا.. طبعاً، ما كان ذلك المنظر ليخفى على عينٍ بصيرة. غير أنّ صبيان المدارس قادرون على ابتكار وسائل عجيبة للمُراوغة والخداع، ولست أعتقد حقّاً أنّ أحداً من أصدقائنا في نانتوكيت كانت تُساوره أدنى الشكوك بأن القصة العجيبة التي رواها بعضُ البحارة في البلدة عن أنّ سفينتهم الضخمة ارتطمت بزورقٍ صغير في عرض البحر فأدّى ذلك إلى غرق نحو ثلاثين أو أربعين من الشياطين الصغار على أثر ذلك.. أقول: لا أعتقد أنّهم تصوّروا أنّ هذه القصة كانت تمتّ بأي صلة سواءً إلى زورقنا

أريل، أو إلى رفيقي، أو إليّ أنا نفسي. منذ ذلك الحين، كثيراً ما كنّا نعود فنتكلّم عن تلك القصة.. ولكن ذلك نادراً ما يحصل دون ارتعاش أجسادنا. في إحدى مُحادثاتنا، اعترف أوغسطوس لي صراحة بأنه طوال حياته لم يعرف أبداً مثل ذلك الإحساس المُفزع، حين كان على متن الزورق الصغير، اكتشف لأول مرة مدى ما كان عليه من فقدانٍ للوعي بسبب الخمرة، إذ كان يشعر بنفسه غارقاً، أيَّ غرق، تحت تأثيرها المُخدّر البغيض.

الفصل (2)

في أي مسألةٍ لا تكاد تخلو من شُبهةِ الانحياز، سواءً كانت الحجج التي نسوقها مؤيدة أو مُعارضة، ليس في وسعنا الخروج باستدلالات لا لبسَ فيها، حتى اعتماداً على ابسط المعطيات. ربما جاز لنا افتراض أنّ كارثة شبيهة بالتي رويتها كانت ستؤدي فعلاً إلى تهدئة شغفي بالبحر. ولكن ما حدث هو على عكس هذا، فلم يسبق لي مطلقاً أن عرفت ذلك الاشتياق العارم للمُغامرات الهوجاء، التي لا بُدّ لها أن تحصل في حياة أي ملاحٍ، بعد أُسبوع فحسب من نجاتنا بأُعجوبة. ولقد اتّضح أنّ هذه الفترة القصيرة كانت طويلة بما يكفي لأن تمحو من ذاكرتي أي أثرٍ مُتخلفٍ من تلك الظلال القاتمة للتجربة، وأن تُلقي ضوءاً خلاباً على نقاط الإثارة كلها التي تتخلّل الرؤى الذهنية المُمتعة على اختلاف ألوانها، تلك التي ترتبط بالحادثة الأخيرة وما شابها من المخاطر. كانت مُحاوراتي مع أوغسطوس تزداد في كل يوم، وتركزت نقاشاتنا أكثر فأكثر وأصبحت مصدر مُتعة لنا. كان له أسلوبه الخاص في سرد حكاياته عن المُحيط (تلك الحكايات التي صرتُ الآن أعتبر أكثر من نصفها مُجرّد شطحاتٍ من وحي الخيال) ولكن حدث أن كان لحكاياته وقعها الفعّال على مزاجي المُلتهب حماساً وإحساسي بالكآبة والسقم فوجدت نفسي أتجاهل ما فيها من خيالاتٍ زائفة برّاقة. إنّه لشيء غريب حقّاً أن يُدرك صديقي حقيقة مشاعري إدراكاً عميقاً فلا يرى فيها إلّا جزءاً من حياة أي ملاح مُحنّك في الدنيا، حين كانت تتجسّد في خيالاته تلك اللحظات العصيبة بعينها من تجربتنا في المُعاناة واليأس. لئن نظرتُ إلى الجانب المُشرق من تلك الرؤى، لوجدت نفسي تتعاطف معها تعاطفاً محدوداً،

إذ كانت تصوراتي كافة تدور حول تحطّم السفن والمجاعة؛ إنّها صورٌ عن الموت أو الوقوع في أسر قبائل من البرابرة؛ حياةٌ أعيشها في مُكابدةٍ مع [180]الأسى والدموع، على صخرةٍ رمادية في مكانٍ مُنعزل مهجور، وسط مُحيط أجاج لم يقترب من تُخومه أحد من البشر، ولا يُعرف عنه شيء. مثل تلك الرؤى أو النزوات.. لأنّها وصلت حقّاً إلى مُستوى النزوات.. كانت من الأمور الشائعة، وقد تأكّد لي هذا منذ زمن، لدى كثيرٍ من الرجال الذين يستولي عليهم كابوس الكآبة.. في الزمن الذي أتكلّم عنه كنت أنظر إلى تصوراتي تلك على أنّها مُجرّد ومضاتٍ من النبوءة تكشفْ لي عن مصيرٍ أشعر بعض الشيء بأني مُكبل إليه ولا مجال إلا للامتثال لإرادته. وغالباً ما كان أوغسطوس يقتحم حالتي الذهنية. إنّه لشيءٌ مُحتمل أن تكون علاقتنا الوطيدة قد أسفرت عن تبادلٍ جزئي للشخصية بيني وبينه.

بعد ثمانية عشر شهراً على الحادث المأساوي الذي وقع لزورقنا أريل، تولّت شركة لويد وريدينبورغ (وكانت تشغل مكتباً مُرتبطاً بعلاقة ما مع السادة إيندرباي، كما أعتقد، من ليفربول) مشروعاً لتصليح وتهيئة سفينة غرامبوس من أجل القيام برحلةٍ لصيد الحيتان. كانت تلك السفينة الشراعية عتيقة الطراز ولا تكاد تُصلح لأي نشاطٍ بحري، ولكنهم بذلوا ما في وسعهم لإعادتها إلى الحياة. أكاد أجهل السبب الذي جعلهم يختارون تلك السفينة على وجه التحديد ويؤثرونها على غيرها من المراكب الجيدة التي تمتلكها الجهة نفسها.. ولكن هكذا شاءت الأقدار. جرى تعيين السيد بارنارد قبطاناً لقيادة السفينة، وكان أوغسطوس ينوي مرافقته في الرحلة. وبينما كانت السفينة الشراعية العتيقة تتهيأ للانطلاق، بدأ يلح عليّ كثيراً في أن أنتهز تلك الفرصة الرائعة التي توفرت الآن لتلبية رغبتي في الترحال. ولم يجدني على كل حال مُستمعاً مُتردداً.. مع أنّ هذه المسألة ما كانت لتسوّى بطريقة سهلة. لم يبدِ والدي اعتراضاً بكلمات صريحة؛ ولكن أمي هي التي رفضت رفضاً حازماً وعبّرت عن ذلك بنوبات هستيرية بإزاء نواياي لتنفيذ خطتي؛ وفضلاً عن ذلك، فقد أقسم جدي، الذي كنت أتوقع منه عوناً كثيراً، أنّه سوف يحرمني من كلِّ شيء فلا يعطيني شلناً واحداً إذا ما

طرحتُ عليه الموضوع مرة ثانية. على أنّ هذه المُعضلات كانت بعيدة كل البعد عن أن تُحبط رغبتي فيما عزمت عليه، وإنّما أضافت مزيداً من الوقود إلى اللّهب. وتوصلت أخيراً إلى قرارٍ بالرحيل مُتجاهلاً ضروب المخاطر؛ وبعد أن عبّرت لأوغسطوس عن نواياي، مضينا نُرتّب معاً لخطةٍ قابلة للتنفيذ. في تلك الأثناء امتنعتُ عن الكلام مع أي شخصٍ من أقاربي عن الرحلة، وبينما أشغلت نفسي في مثابرةٍ وإصرار بواجباتي الدراسية المُعتادة، فقد افترض أهلي أنّني تخلّيت عن تلك الفكرة. منذ ذلك الوقت، كثيراً ما كنت أتأمل سلوكي خلال هذه المرحلة الفاصلة فتستحوذ عليّ شتى مشاعر التعاسة وتعتريني الدهشة. كان الرياءُ المُضاعف الذي لجأت إليه في السعي إلى تنفيذ خطتي.. نفاقٌ يكاد يُخالط كلّ كلمة وتصرّف في حياتي عبر مدة طويلة من الزمن.. ذلك الإحساس لم يكن قابلاً للاحتمال في نفسي إلّا من خلال التوقعات العنيفة التي تتأجج في داخلي وكنت أتطلع بها إلى تنفيذ رؤاي التي لطالما أمتعت خيالي وراوغتني للسفر.

[181]في مُحاولةٍ لمُتابعة مُخططاتي في الخداع، وجدت نفسي مُضطراً لترك كثيرٍ من المسائل إلى تقديرات أوغسطوس الذي بدا مُنهمكاً في قضاء الجانب الأكبر من كل يوم على متن سفينة غرامبوس، وكان يتدبّر إنجاز بعض الترتيبات نيابة عن أبيه في المقصورة مع الموجودين هُناك من الطاقم. ولكن في الليل كنّا حريصين على عقد اجتماع معاً للتباحث في طموحاتنا وآمالنا. بعد أن مضى نحو شهرٍ على هذا المنوال، دون أن نتمكّن من التوصّل إلى خطة مُحددة نرى أنها تُصلح للنجاح، أخبرني أخيراً أنّه انتهى من حسم كل شيء ضروري للرحلة. كان أحد أقاربي يسكن في نيوبدفورد، ويُدعى السيد روس، وكنت كما جرت العادة أمضي في منزله أسبوعين أو ثلاثة بين الحين والحين. كان من المُتوقع أن تُبحر السفينة الشراعية في مُنتصف شهر حزيران تقريباً (حزيران، سنة 1827)، واتفقنا على أن يتلقّى أبي، قبل يومٍ أو يومين من موعد الإبحار، رسالة مُتعارفاً عليها من السيد روس يطلب فيها السماح لي بالمجيء لكي أقضي أسبوعين مع روبرت وايميت (وهم أبناؤه). وتولّى أوغسطوس طبعاً كتابة هذه الرسالة وإيصالها. بعد أن انطلقت، كما خطّطنا، إلى نيوبدفورد، كان عليّ

اللحاق برفيقي الذي سوف يُهيئ لي مكاناً للاختباء على ظهر سفينة غرامبوس. سوف يكون مكانُ الاختباء هذا، كما أكد لي، كافياً ومريحاً للإقامة فيه عدة أيام، وخلال ذلك ينبغي ألا يُكتشف أمري. وحين تبدأ السفينة بالانطلاقِ وتقطع مسافة طويلة بحيث تجعل أي قرارٍ بالرجوع مسألة خارج نطاق التفكير، عندئذ، هكذا قال لي، أستطيع أن أظهر نفسي على الملأ فيكون لزاماً عليهم أن يُخصصوا لي مكاناً مُناسباً في إحدى المقصورات؛ أما عن والدي، فلن يفعل شيئاً سوى أن يضحك من قلبه على تلك المزحة. وهُناك كثيرٌ من المراكب الأُخرى التي سوف تلتقي بها السفينة على الطريق فيُمكن إرسال رسالة أُخرى إلى المنزل لشرح مُلابسات تلك المُغامرة لوالدي.

وجاء منتصف حزيران أخيراً، وكنّا قد انتهينا من ترتيب كلِّ شيء على أكمل وجه. لقد كُتبت الرسالة وجرى تسليمها، وفي صباح يوم الإثنين غادرتُ المنزل مُتوجّهاً إلى أقاربي في نيوبدفورد، كما سبق الترتيب لذلك. ولكني ذهبت مُباشرة إلى أوغسطوس الذي كان ينتظرني عند ركن أحد الشوارع. كانت خطتنا الأصلية تقتضي أن أختفي عن الأنظار حتى حلول الظلام، ومن هُناك أتسلّل إلى متن السفينة؛ ولكن بسبب الضباب الكثيف الذي انتشر في ذلك الوقت، وهذا في صالحنا حتماً، اتفقنا على أن لا نضيّع أي وقتٍ في الاختباء. أرشدني أوغسطوس إلى طريق توصلني إلى الرصيف البحري، وتبعته عن كثب وقد تلفعت بعباءة سميكة يلبسها البحّارة كان قد أحضرها معه حتى لا يفتضح أي شخص أمري بسهولة. ولما استدرنا إلى شارعٍ آخر، بعد اجتياز مكتب السيد أدموند، ظهر شخصٌ ما فجأة ووقف أمامي، ثم نظر إلى وجهي مُباشرة، ولكن اتّضح أنّه العجوز سيد [182]بيترسون، جدي. «عجباً، فليبارك الله روحي، غوردن»، قال بعد صمتٍ طويل، «عجباً، عجباً.. عباءة من هذه القذرة التي تضعها عليك؟».

«سيدي!» أجبت، وقد دهمتني، ما أسعفني الإدراك، في ذلك الظرف الطارئ، نوبة من الاستغراب والإحساس بالخزي، كنت أتكلّم وقد اختلطت بصوتي أكثر النبرات فظاظة والتي لا يتصوّرها الخيال.. «سيدي! أنت مخطئ كثيراً.. اسمي، في المقام الأول، ليس غوردن من قريب أو بعيد، وأريد منك أن

تعلم شيئاً آخر، أيّها السافل، عليك ألّا تصف معطفي الجديد هذا بالقذر». طوال حياتي لاحقاً لم أكن أستطيع إلّا بصعوبة كبح نفسي عن الضحك بصوت عالٍ على الطريقة الغريبة التي تلقّى فيها الرجل العجوز هذا التوبيخ اللاذع. بدأ يتراجع خطوتين أو ثلاث، وأصبح وجهه شاحباً ثم استحال إلى أحمر قانٍ، بعدها ألقى نظارته عن عينيه، ووضعها جانباً، وهجم عليّ بأقصى سرعة وقد رفع مظلته. ولكنه توقّف لحظة وكأنّما دهمته ذكرى مُفاجئة؛ واستدار من فوره وأسرع يجري وهو يعرج على الشارع، كان جسده يرتعش من الانفعال والغضب، وشفتاه تتمتمان من بين أسنانه: «هذه لا تجدي نفعاً.. عوينات جديدة.. تصورت أنه غوردن.. ل.. ل.. لا يصلح لشيء ذلك البغيض لونغ توم».

بعد هذه المُحاولة التي نجحت بمشقة، فيما يظهر، للفرار تقدّمنا في حذرٍ شديد حتى وصلنا إلى المكان الذي قصدناه بأمان. كان هُناك رجلٌ واحد أو اثنين على متن السفينة، وهؤلاء كانوا في الجانب الأمامي منها يُفتشون عن شيءٍ. أمّا القبطان بارنارد فكنّا نعلم أنّ لديه بعض الأعمال المُهمة في شركة لويد وريدينبورغ، وسوف يبقى هُناك حتى المساء، لذلك لم يكن لدينا ما نخشى منه قدر تعلّق الأمر به. ذهب أوغسطوس في البداية إلى جانبٍ من المركب، وبعد فترة وجيزة تبعته دون أن ينتبه إليّ أحد من الرجال المُنهمكين في عملهم. ثم تقدمنا مُباشرة إلى إحدى المقصورات، ولم نجد أي شخصٍ هُناك. كان المكان مرتّباً ترتيباً مُريحاً إلى أقصى درجة.. وهو شيءٌ ربما ليس من المُتوقع أن يجده المرء في مركبٍ لصيد الحيتان. كانت هُناك أربع مقصورات فاخرة، واسعة ومريحة تطلّ على البحر. ولاحظت وجود فرنٍ كبير، وبساطٍ سميك من نوع فاخر يلفت الأنظار يغطي أرضية كل من الكابينة والمقصورات الأُخرى. أمّا السقف فيرتفع إلى سبعة أقدام فوق الرأس، باختصار فقد ظهر كلُّ شيء على هيئة فندقٍ مُريح على عكس ما كنت أتوقّع. على أن أوغسطوس لم يترك لي إلّا فرصة ضئيلة للمُراقبة والتمعّن، فقد ألحّ على ضرورة إخفاء نفسي بأقرب وقت مُمكن. وأرشدني إلى حجرته الخاصة، وكانت على الجانب الأيمن من السفينة، قرب حواجز صد المياه. لدى دخولنا، أغلق الباب في الحال بالمفتاح. تصوّرت أنني

لم أشاهد في حياتي غرفة [183]صغيرة أروع من التي وجدت نفسي فيها الآن. كان طولها عشرة أقدام تقريباً، وفيها مضجعٌ واحد فحسب، وكما قلت سابقاً، فهو واسعٌ ومُريح. في ذلك الحيّز الذي بين خزانة الملابس وبين الحاجز الفاصل يوجد فراغ مساحته أربعة أقدام مُربعة يحتوي على طاولة، وكرسي، ومجموعة رفوف مُعلّقة وضعت عليها الكتب، ومُعظمها كتبٌ عن الرحلات والأسفار. كانت هُناك كثيرٌ من وسائل الراحة الأُخرى في الغرفة، منها ما لا ينبغي لي أن أنسى الإشارة إليه، مثلاً ثمّة شيء يُشبه الخزانة أو الثلاجة، قال لي أوغسطوس: إنّها تحتوي على ما لذّ وطاب من مأكولات ومشروبات.

وهُنا أخذ أوغسطوس يُربت بقبضة يده على بقعةٍ مُحددة من البساط عند زاويةٍ من الحيز الذي أشرت إليه، وكان يريد مني أن أعرف فيما يظهر أنّ جزءاً من الأرضية، مساحتها حوالى ست عشرة بوصة، قد قطعت سابقاً في عناية ثم أرجعت إلى مكانها. وبينما كان يضغط بقدميه، ارتفع طرفٌ من تلك القطعة بما يكفي لأن يُدخل إصبعه إلى تحت. بهذه الطريقة تمكن من رفع غطاء المخبأ (الذي بقي مُثبتاً إلى البساط بمسامير صغيرة)، فوجدت الفتحة تؤدي إلى سرداب. بعد ذلك أشعل شمعة صغيرة باستخدام عود ثقاب فسفوري، ووضعها في مِشكاة ذات زجاجٍ قاتم، ثم نزل ومعه الشمعة عبر الفتحة، وطلب إليّ أن أتبعه. وفعلت ذلك، ثم أرجع الغطاء على الفتحة، وقد فعل ذلك بأن أمسك بمقبضٍ مُثبت في أسفل الغطاء.. وعاد البساط طبعاً إلى وضعه السابق كما كان على أرضية المقصورة، واختفى أيُّ أثر للفتحة.

كانت الشمعة توفّر لنا رؤية شاحبة، وواجهت صعوبة في تلمّس طريقي بين كِتلٍ ضخمة من الخشب مُبعثرة وسط المكان الذي وجدت نفسي فيه الآن. ولكن، شيئاً فشيئاً تعوّدت عيناي على العتمة، وتقدّمت في يسرٍ أكبر، وكنت أمسك أذيال معطف صديقي. وأخيراً أوصلني، بعد زحفٍ والتفافٍ عبر ممرّات ضيقة لا تُحصى، إلى صندوقٍ ذي غطاءٍ حديدي، مثل تلك الصناديق التي تستخدم أحياناً لحفظ أواني الخزف النادرة. كان ارتفاع الصندوق أربعة أقدام تقريباً، وطوله ستة أقدام، ولكنّه ضيّق جدّاً. ورأيت هُناك أيضاً برميلي زيتٍ

كبيرين فارغين مُلقيان فوق الصندوق، وفوق كل هذا كمية من القش للتغطية، كان القش مُكوماً إلى ارتفاع يكاد يصل إلى أرضية المقصورة التي فوقنا. في كلّ اتّجاه حولي وجدت أوتاداً قريبة مُثبتة هُنا وهُناك، حتى على السقف، عُلقت عليها في فوضى عارمة جميع أنواع العدد أو المُستلزمات التي يحتاجها طاقم السفينة، إلى جانب خليطٍ غير مُتجانسٍ من الأقفاص، وأدوات الصيد، والبراميل، والمظلات، حتى بدت المسألة أشبه بالمُعجزة أن نكتشف طريقنا وسط هذه الفوضى حتى وصلنا إلى الصندوق. بعد ذلك رأيت أنّ أوغسطوس قد رتّب عن قصد تكديس كلّ هذه المواد المخزونة في الحجرة على أمل أن تمنحني فرصة كاملة للاختباء، بعد أن تلقى دعماً من شخصٍ واحد ليس غير في هذه الجهود، وهو رجل لم يكن ينوي أن يرحل على متن السفينة الشراعية.

[184]أوضح لي رفيقي الآن أنّ أحد جوانب الصندوق يُمكن أن يُرفع متى ما شئت ذلك. وقام بإزاحته جانباً فانكشف الصندوق أمامي من الداخل، وأحسست وقتها بارتياح عظيم. كان هُناك فراشٌ جرى إحضاره من أحد أسرّة المقصورات يُغطي القاع تغطية تامة، ويحتوي الصندوق أيضاً على وسائل الراحة كافة التي يُمكن تجميعها في مثل ذلك الحيّز الضيق، وذلك ما يُتيح لي في الوقت نفسه فسحة كافية للاسترخاء، سواءً في وضع الجلوس، أو التمدّد إلى أقصى حدٍّ مُتاح. من الأشياء الأُخرى التي أُحضرتْ إلى هُناك وجدت بعض الكتب، وقلماً، وحبراً، وأوراقاً، وثلاث بطانيات، وإبريقاً كبيراً مُلىء بالماء، وعلبة بسكويت بحري، وثلاث أو أربع قطع كبيرة الحجم من سجق بولوغنا، وشريحة كبيرة من اللّحم، وساق ضأنٍ مُحمّصة ومُجمّدة، وست زجاجاتٍ من المشروبات. تقدّمت من فوري لأحتل حجرتي الصغيرة، وكانت تنتابني مشاعر عالية بالرضا، وكنت على ثقة من ذلك، أكثر ممّا يحس به ملكٌ يُدشن قصراً جديداً. أرشدني أوغسطوس الآن إلى طريقة تثبيت الجانب المفتوح من الصندوق، ثم أمسك الشمعة وقرّبها من أحد الأركان، وأرشدني إلى قطعة من حبلٍ رفيع أسود تتدلّى هُناك. هذا الحبلُ، كما قال لي، يمتدّ من مكان اختبائي ويسلك جميع الالتفافات الضرورية وسط ألواح الخشب لينتهي بمقبضٍ مُثبت في

غطاء الباب الأرضي للمخبأ الذي تحت مقصورته مُباشرة. بمُساعدة هذا الحبل سوف أتمكّن بسهولة من تلمّس طريقي دون أن يكون حاضراً بالضرورة ليرشدني، شريطة أن يكون قد حدث شيءٌ لم يكن في الحسبان يستدعي اتّخاذ مثل هذه الخطوة. وهُنا استعدّ رفيقي للمُغادرة، وتركني وحدي مع الشمعة، وكمية كافية من المؤن والشموع وأعواد الثقاب الفسفوري، ووعدني بأن يزورني كلما استطاع أن يبتكر حيلة للتملّص من المُراقبة. وكان ذلك في اليوم السابع عشر من حزيران.

بقيت ثلاثة أيام بلياليها (ما أسعفتني بذلك ذاكرتي) مُلتزماً البقاء في المكان الذي أختبئ فيه دون أن أخرج منه أبداً، باستثناء مرتين خرجت فيهما لجعل أطرافي تسترخي بالوقوف مُنتصباً بين قفصين أمام الفتحة الجانبية. أثناء هذه المدة كلها لم أُشاهد أوغسطوس يأتي؛ ولكن هذا لم يزعجني كثيراً، لأنّي كنت أعرف أنّ من المُتوقّع للسفينة أن تبدأ الإبحار في أي ساعة، وفي خِضَمّ تلك الفوضى لا بُدّ أنّه لم يجد فرصة مؤاتية للنزول لرؤيتي. وأخيراً انتبهت إلى بابٍ يُفتح ثم يُغلق، وهُنا سمعته ينادي بصوت مُنخفض، وسألني إن كان كل شيء على ما يرام، وإن كنت أُريد منه أي شيء. «لا شيء»، أجبته؛ «أشعر براحة لا يُمكنني الشعور بها في أي مكان آخر؛ متى تُبحر السفينة؟»

«سوف تبحر بكلِّ حمولتها خلال اقل من نصف ساعة»، أجاب. «جئت لكي أُبلغك بذلك، كنت أخشى أن تقلق لغيابي. لن تتسنى لي فرصة النزول إليك بعض [185]الوقت.. ربما تمضي ثلاثة أو أربعة أيام قبل أن أراك ثانية. كلُّ شيء على ما يرام في الخارج. بعد أن أصعد وأغلق الباب، عليك أن تزحف إلى الأمام مُباشرة مُستعيناً بالحبل الرفيع حتى تصل إلى المكان الذي ثبت فيه المِقبض. وسوف تجد ساعتي التي تركتها لك هُناك.. لعلها تفيدك، فالضوء لن يصل إليك لتعرف الوقت. أتصوّر أنّك لا تعرف المدة التي بقيت فيها مُحتجزاً.. إنّها ثلاثة أيام فحسب.. إنّه اليوم الثاني عشر من الشهر. كنت سآتي بالساعة إلى مكانٍ قريب من مخبئك، ولكني أخاف أن أضيع الطريق». قال هذا ثم انصرف.

خلال ساعة تقريباً بعد رحيله، بدأ يُساورني إحساسٌ بأنّ السفينة الشراعية كانت تنطلق في رحلتها، وأخذتُ أهنىء نفسي على أنّني تمكّنت أخيراً من

الذهاب في رحلةٍ بحرية. ولما اقتنعت بهذه الفكرة قررتُ أن أجعل ذهني يهدأ قليلاً ما استطعت ذلك، وأن أنتظر مسار الأحداث حتى يحين الوقت الذي أتمكّن فيه من الخروج من مخبأي فأنتقل إلى مكانٍ أكثر اتّساعاً، مع أنّه ربما لن يكون مُريحاً مثل مكاني هذا، في مقصورة أُخرى. كان محور اهتمامي يتلخّص الآن في الحصول على الساعة. تركت الشمعة تشتعل، وتلمّست طريقي في الظلام الدامس، تبعت الخيط الرفيع عبر ممراتٍ لا حصر لها، هُناك وجدت، بعد أن درتُ مسافة طويلة، أنّني قد عدت إلى نقطة لا تبعد أكثر من قدمٍ أو قدمين عن مكاني السابق. ولكني في نهاية الأمر وصلت إلى المِقبض، وأخذتُ الشيء الذي كنت أسعى إليه في مُحاولتي هذه، وقفلت راجعاً وقد وضعت الساعة في جيبي. الآن بدأت أقلّب الكتب التي اختاروها في عناية، وتناولت كتاب رحلات عن لويس وكلارك إلى مجاهل كولومبيا[1]. أشغلت نفسي بعض الوقت بهذا الكتاب، حتى إذا شعرت بالنعاس، أطفأت الشمعة في حرصٍ شديد، وسرعان ما رحت أغط في نومٍ عميق.

لما استيقظت كنت أحس بارتباكٍ ذهني غريب، ولكن الوقت كان يمضي سريعاً فلم أتمكّن من استعادة ذكرياتي عن تلك المُلابسات المُتشعّبة التي تكتنف وضعي الراهن. وشيئاً فشيئاً تذكرت كلَّ شيء. أشعلت عود ثقابٍ، ونظرت إلى الساعة؛ ولكنّي وجدتها لا تعمل، ولهذا لم أمتلك وسيلة أُخرى لمعرفة كم من الوقت أمضيته في النوم. كانت أطرافي مُتشنّجة، ووجدت نفسي مُضطراً لأن أُريحها بالوقوف بين قفصين. في الوقت الراهن كنت أشعر بجوعٍ شديد، فتناولت قطعة اللحم الباردة، وكنت قد أكلت جزءاً منها قبل أن أخلد إلى النوم، ووجدت طعمها شهيّاً في ذلك الوقت. ولكن كم كانت دهشتي عظيمة حين اكتشفت أنّها مُتعفنة كلياً! هذه الحالة تسبّبت لي بقلقٍ عظيم؛ لأنّي حين ربطتها مع حالة ذهني المُشوّشة التي لمستها بعد الاستيقاظ، صرت أفترض أنّني لا بُد أن أكون قد نمت فترة طويلة غير مُتوقعة. وربما كان للحيز المُغلق الذي أنا فيه تأثير بشكل أو

(1) كتاب (تاريخ رحلة استكشافية بقيادة القبطان لويس والقبطان كلارك) 2ج، فيلادلفيا، 1814. [المترجم]

بآخر على هذا، وربّما تكون للأمر، في نهاية المطاف، نتائج وخيمة على وضعي. كان رأسي يؤلمني من [186]فرط التفكير؛ وتخيّلت أنّني أُعاني صعوبة في استنشاق كل نفسٍ من أنفاسي؛ باختصار، لقد انتابتني مشاعر رهيبة بالكآبة. ومع ذلك لم أُغامر بأن أُثير أي ضجة بفتح الصندوق أو، بعد أن أطفأت الشمعة، أن أسلي نفسي بشيء لو كان في وسعي أن أفعل ذلك.

طوال أربعٍ وعشرين ساعةٍ من الملل قضيتها بعد ذلك لم يأتِ أي شخص لكي يُخفف من وطأة شعوري بالوحشة، لم يكن في وسعي إلّا أن اتّهم أوغسطوس بأقصى درجات الإهمال. الشيء الذي أرعبني أكثر هو أنّ الماء في الدورق قد تناقص إلى حوالى نصف باينت[2]، وكنت أُعاني من العطش بعد أن أكلت كمية كبيرة من سجق بولوغنا بعد انتهاء شريحة اللحم. تفاقم قلقي كثيراً، ولم أعد قادراً على تعزية نفسي بقراءة الكتب التي لدي. واستولت عليّ أيضاً رغبة في النوم، على أنّي جفلت من فكرة الاستسلام للنوم، خشية أن يحصل ما لا تُحمد عُقباه، شيءٌ مثل تأثير الفحم المُحترق، داخل الحيّز الضيّق بما فيه من ندرةٍ للهواء. في هذه الأثناء كانت حركة السفينة المُتمايلة تنبئني بأننا قطعنا مسافة بعيدة في عرض المُحيط، وكنت أسمع همهمة مكتومة تصل إلى أذني كأنها من مسافة بعيدة جدّاً، وأقنعني ذلك الصوت بأنّ عاصفة غير اعتيادية على وشك أن تهبّ. لم أتخيّل أي سبب لغياب أوغسطوس. كنّا حتماً قد قطعنا مسافة لا يُستهان بها في رحلتنا هذه تُتيح لي الخروج من مخبأي. لعل حادثة ما وقعت له.. ولكني لم أستطع التفكير بشيء يُمكن أن يُفسّر لماذا تركني أُعاني من البقاء طوال هذه المدة كسجين، باستثناء في الواقع، أنّه ربما يكون قد مات على حين فجأة أو سقط من جانب السفينة، ولدى التفكير بهذا لم أتمكّن من الصبر أكثر. من المُحتمل أن تكون رياحٌ رأسية قد دهمتنا، أو أنّنا لا نزال في مكانٍ قريب من نانتوكيت. غير أنّي اضطررت لاستبعاد هذه الفكرة؛ لو كان هذا صحيحاً، فهو يتناقض مع الوقائع لأنّ هذه ليست الرحلة الأُولى التي تقوم بها السفينة؛ ثم

(2) باينت: وحدة لقياس حجم السوائل تساوي ثُمن الغالون. [المترجم]

توصلت إلى قناعةٍ تامة، من خلال تأمل اتّجاهها الدائم إلى اليسار، بأنّها كانت تُبحر بتأثير رياحٍ مُستقرة الاتّجاه تهبّ على ميمنتها. وإلى جانب هذا، لو كنّا لا نزال قابعين ضمن مُقتربات الجزيرة، فلماذا لم يزرني أوغسطوس ويُخبرني بما طرأ من مُستجدات؟ عندما فكّرت على هذا المنوال في المتاعب التي تواجهني أثناء عزلتي وحالتي البائسة، قرّرت الانتظار أربع وعشرين ساعة أُخرى، فإذا لم يُسعفني الحظ بأي شيء يُريحني في ورطتي، سوف أخرج إلى المقصورة، ثم أُحاول إمّا أن أتباحث مع رفيقي، أو أن أحصل على أقل تقدير على فرصةٍ لاستنشاق الهواء النقي عبر الكوّة، وأتزوّد أيضاً بمؤنٍ إضافية من المياه من المقصورة. وبينما كنت مُنهمكاً بهذه الأفكار، وعلى الرغم من مُحاولاتي الجادة [187]لتغيير مسارات ذهني، استسلمت إلى نوبة عميقة من النعاس، أو بالأحرى غيبوبة. وكانت الأحلام التي رأيتها من نوعٍ مُخيف. عندئذٍ صرتُ أُفكّر في ضروبٍ من الفواجع والكوارث. وكان من المآسي التي ألمّت بي في أحلامي أنّني أوشكت على الاختناق حتى الموت وقد تكوّمت فوقي وسائدٌ ضخمة، وكانت العفاريت والشياطين تقترب مني وتريد أن تخنقني في أبشع الصور المُرعبة الضارية. والتفّت حول جسدي ثعابين هائلة الأحجام فمنعتني من التحرّك، كانت عيونها تُرسل شرراً مُخيفاً وهي تُحملق بوجهي في إصرار. ثم رأيت صحارى مُقفرة لا حدود لها، تملأ النفس بالرهبة، تمتد أمامي. ورأيت جذوع أشجار طويلة، رمادية، عارية من الأوراق، تنهض هُناك في امتداد لا نهاية له، لا تكاد العين تُبصر أولها أو آخرها. جذورها تختفي في مُستنقعات عميقة الأغوار، مياهٌ موحشة لونها أسود غامق، أعماقها تُثير الرعب فضلاً عن سطوحها. وبدت الأشجار ذات أشكال غريبة كأنها جمعٌ من البشر يدبّ فيهم نشاط جنوني، تتمايل هُنا وهُناك وتُحرّك أذرعها على هياكل عظمية، تصرخ في لجج المياه الساكنة كأنّها تطلب الرحمة، بأصوات مُرتعشة خارقة، تُعبّر عن آلامها وقنوطها. ثم تغيّر المشهد؛ وقفت عارياً وحدي وسط صحراءٍ ذات رمالٍ مُحرقة. عند قدمي يربض أسدٌ مُفترس من المناطق الاستوائية. فجأة انفتحت عيناه المُتوحشتان وجثم فوقي. ثم وثب بعيداً في حركة حاسمة واستقرّ على قدميه، وكشّر عن أنيابه المُفزعة. في لحظة أُخرى، أطلق من حنجرته الحمراء زمجرة كأنما تأتي من قبة

السماء الزرقاء، على أثر ذلك ارتميت في طيشٍ على الأرض. كان جسدي مُتشنجاً في نوبة فظيعة من الذعر، ولكني وجدت نفسي واعياً جزئياً لما يحدث حولي. لم يكن ما رأيته إذن حلماً بالمعنى الحقيقي. الآن على أقل تقدير كنت أمتلك ناصية أحاسيسي. كانت مخالبُ وحشٍ هائلٍ حقيقي تطبق بقوة على صدري.. أنفاسه المُلتهبة قريبة من أذني.. وأنيابه البيضاء المُرعبة تلمع فوق وجهي وسط العتمة.

لو أنّ ألفَ حياةٍ كانت تعتمد على حركة طرفٍ من أطرافي أو تمنحني القدرة على التفوّه بمقطعٍ من كلمة، لما استطعتُ أن أتململ أو أنطق ببنت شفة. بقي الوحشُ، مهما كانَ نوعه، في مكانه دون أن يُحاول ارتكاب عملٍ طائش، بينما بقيت مُمدداً في وضع يائس، وتخيّلت لحظة أنني سوف ألقى حتفي تحته. أحسست أنني سرعان ما تجرّدت من قدراتي الجسدية والذهنية.. باختصار، أحسست أنّني على وشك أن أهلك، يُهلكني الرعب وحده. ذهني يعوم في فراغٍ يُشعرني بالدوار.. وتزايد سقمي المُميت.. تقلّصت حدود رؤيتي.. حتى إنّ الحدقتين الساطعتين فوقي تسربت إليها العتمة. لمّا بذلت جهداً أخيراً للنطق خرج من فمي ابتهالٌ واهن إلى الله، وأيقنت أنني هالكٌ لا محالة. يبدو أنّ نبرة صوتي أثارت العنف الكامن لدى الحيوان. قذف نفسه في تهورٍ مطبقاً بثقله على جسدي؛ ولكن يا لدهشتي، إذ وجدته [188]يلعق وجهي ويدي بلسانه الطويل ويُصدر خلال ذلك صوتاً كالنحيب، يفعل ذلك في تلهّفٍ، يسعى إلى إظهار أقصى درجات العطف والغبطة! أربكني المنظر، أحسست بالضياع التام في أعماق دهشتي.. ولكني لم أستطع نسيان ذلك الأنين المُبهم الذي ألفته من كلبي الذي تركته في نيوفاوندلاند، المُسمى تايغر، وطريقته في المُداعبة التي أعرفها جيداً.. إذن فهو الكلب. شعرت بتدفّقٍ مُفاجئ للدماء يسري في عروقي.. أصابني دوارٌ مُتزامن مع إحساسٍ عنيف بالخلاص والعودة إلى الحياة. نهضتُ على عجلٍ من الفراش الذي كنت أتمدّد عليه، وألقيت نفسي على رقبة صديقي الوفي، ذلك الحيوان الذي لم يُفارقني، وتخلّصت من الثقل الجاثم على صدري بأن تركت دموعي تنهمر في تيارٍ مُثير للشجن.

كما حصل في مرحلةٍ سابقة، كانت مداركي الذهنية في حالة تشوشٍ وارتباك إلى أقصى الحدود بعد أن تركت الفراش. خلال مدةٍ طويلة رأيت أن من المُستحيل تقريباً إعادة الترابط بين أفكاري؛ ولكن، في بطء شديد، عادت لي قُدراتي على التفكير، واستردّت ذاكرتي من جديد عدة حوادث لها ارتباط بوضعي الحالي. أمّا وجود تايغر، فقد حاولت دون جدوى أن أجد له تفسيراً؛ وبعد أن انهمك ذهني بالتفكير بشتّى التخمينات التي تتعلّق به، اضطررت لأن أقنع نفسي بالإحساس بالغبطة لأنّه كان معي على كل حال ليشاركني عُزلتي الموحشة، وليبعث السلوى في نفسي بمُلاطفاته. أغلب الناس يُحبون كلابهم.. ولكن عاطفتي بإزاء تايغر تفوق التصور؛ فنادراً، هذا شيء مؤكد، ما يستحق أي مخلوق مثل تلك العاطفة حقّاً. طوال سبع سنوات كان رفيقي الذي لا يكاد ينفصل عني، وفي كثيرٍ من الحالات كان يُثبت لي أنواعاً من خصائص النبل التي نقيّم الحيوان على أساسها. لقد سبق لي أن أنقذته، حين كان جرواً صغيراً، من قبضة صبيٍّ لعين في نانتوكيت كان يجرّه وراءه، مُستخدماً حبلاً ربطه حول عنقه، وكان يسحبه إلى الماء؛ وقد كافأني الكلب عندما كبر على حُسن صنيعي، بعد قُرابة ثلاث سنوات، بأن أنقذني من أحد لصوص الشوارع الذي أراد أن يضربني بالهراوة.

بعد أن حصلت الآن على الساعة، وقرّبتها من أُذني، وجدتها لا تعمل بصورة صحيحة؛ ولكنّي لم أستغرب من هذا، لأنّي كنت واثقاً من أنّ الحالة الغريبة التي تنتاب مشاعري سببها نومي العميق، كما حصل في المرة السابقة، ولكن كم كانت تلك المدة؟ ذلك من المُتعذر معرفته. أصابتني حمّى جعلت جسمي يلتهب بالحرارة، وكان العطش الذي أشعر به لا يُطاق. تلمّست يدي جوانب الصندوق بحثاً عمّا تبقّى من ماءٍ قليل، لم يكن هُنالك بصيصٌ من الضوء بعد أن احترقت الشمعة حتى بلغت نهايتها في تجويف المشكاة، لم أعثر على عود ثقابٍ فسفوري في مُتناول يدي. ولكنّي وجدت الدورق واكتشفت أنّه فارغ.. لا شك أنّ تايغر هو الذي شرب [189]الماء كله، وكذلك التهم ما تبقّى من اللّحم، والعظم الذي وجدته ملقًى قرب فتحة الصندوق قد جُرِّد جيداً من مُحتوياته. كان في وسعي تخليص ما تبقّى من اللّحم المُتعفن، إلّا أنّ قلبي غطس

في الأعماق من فكرة عدم وجود الماء. كنت أشعر بأقصى درجات الوهن.. بحيث كانت كلّ ذرةٍ في جسدي تنتفض، كما يحدث للمُصاب بحمّى الملاريا، لدى أدنى محاولة للحركة أو بذل الجهد. إذا أضفنا إلى متاعبي أنّ السفينة كانت تتأرجح بشدة، وبراميلُ الزيت قرب مخبأي تُهدد بالسقوط فتُغلق المنفذ الوحيد للدخول أو الخروج. وشعرت أيضاً بحالة فظيعة من دوار البحر. هذه الاعتبارات جميعاً دفعتني للتفكير بالخروج، مهما كانت العواقب، من المخبأ لكي أتخلص فوراً من محنتي، قبل أن أُصبح عاجزاً على الإطلاق عن القيام بذلك. بعد أن توصلت إلى هذا القرار، بدأت يداي تنقبان من جديد عن علبة الثقاب الفسفوري والشموع. وأخيراً وجدت علبة الثقاب بعد مُحاولات عديدة؛ ولكنّي لم أجد أثراً للشموع بالسرعة التي توقعتها (لأنّي أتذكّر المكان الذي كنت قد وضعتها فيه)، فتخلّيت عن فكرة الاستمرار بالبحث عنها حالياً، وطلبت من تايغر أن يبقى هادئاً، وبدأت على الفور أتحرّك إلى خارج المخبأ.

أثناء هذه المُحاولة، كنت أشعر بأنّ ضعفي واضحٌ أكثر من أي وقت. بالكاد كنت أتمكّن من الزحف، وأطرافي تؤلمني وتنثني تحتي؛ وحين سقطت على وجهي مُباشرة، بقيت دقائق في حالة تُشبه الإغماء. ومع ذلك كافحت للنهوض والتقدم خطوات بطيئة، كنت أخشى أنّي في أي لحظة ربّما فقدت وعيي فأضيع وسط هذه المتاهات الضيّقة المُعقدة بين الأخشاب، حينها لن أتوقّع غير الموت كنتيجة محتومة. وفي آخر المطاف، لمّا اندفعت إلى الأمام بما أُوتيت من قوة، ارتطمت جبهتي بعنف بإحدى الحافات الحادة لصندوق حديدي. لم تصعقني الحادثة إلا لحظات؛ ولكنّي وجدت، مع إحساسي بكربٍ لا يوصف، أنّ التأرجح السريع والعنيف للسفينة أدّى إلى تدحرج الصندوق وسقوطه بحيث أغلق الطريق أمامي غلقاً تاماً. ثم بذلت قصارى جهدي، ولكنّي لم أتمكّن من زحزحته بوصة واحدة عن مكانه، فقد انحشر وسط الصناديق التي تُحيط بي وما إلى ذلك من أثاث مقصورات السفينة. وأصبح من الضروري إذن، على الرغم من إحساسي بالضعف، إمّا أن أتخلّى عن الخيط الرفيع الذي يُرشدني إلى الطريق فأبحث عن ممرٍّ جديد، أو أن أتسلّق فوق هذه العقبة التي تعترضني، فأعود بالتالي إلى الممر

من الجانب الآخر. بدا لي أنّ الاختيار الأول تكتنفه صعوباتٌ ومخاطر جمّة فاستبعدت التفكير فيه وقد ارتعشت أوصالي. في وضعي الراهن وحالتي المُنهكة، سواءً كان الإنهاك جسدياً أو ذهنياً، من المُحقق أن أُضيع طريقي إذا حاولت ذلك، فربّما أسقط وينتهي أمري على نحو [190]بائسٍ وسط المتاهات المُعتمة لهذا القبو اللّعين. وهكذا تقدّمت دون تردّدٍ، فاستجمعت ما تبقى من قوّتي وشجاعتي، وحاولت تسلّق الحاوية.

نهضتُ، وقد وضعت هذا الهدف نُصب عيني، ولكن سرعان ما وجدت مُحاولتي هذه أكثر صعوبة مما صوّرته لي توجّساتي السابقة. على كلّ جانبٍ من الممر الضيّق هُناك جدارٌ من ألواح الخشب الضخمة بأحجام مُختلفة، ومع أقل خطأ يُمكن أن أرتكبه سوف تسقط على رأسي؛ أو، إذا لم يحصل ذلك، فربّما ينغلق الممر فلا أتمكّن من الرجوع إلى مكاني الأول بسبب ألواح الخشب المُتساقطة، لأنّها سوف تُشكّل عقبة أمامي. كانت تلك الحاوية نفسها طويلة وحجمها هائل، ولا يستطيع المرء تثبيت قدمٍ عليها. عبثاً حاولتُ، وبذلت كلّ جهد استطعت تأمينه لكي أصل إلى قمة الحاوية على أمل أن أرفع نفسي إلى الأعلى. ولكن حتى لو تمكّنت من الوصول إلى القمة، حتماً لن تكفي قوّتي للانتقال إلى الجانب الآخر أبداً، كان من المُتوقع، في أفضل الأحوال، أن تفشل مُحاولتي. وأخيراً، في مُحاولةٍ يائسةٍ أخيرة لزحزحة الحاوية عن الأرض، أحسست باهتزازٍ شديد في جانبها القريب مني. دفعت يدي وأنا مُتلهّف لتلمّس حافات ألواح الخشب التي صنعت منها، فوجدت أحد الألواح الكبيرة غير مُستقر في مكانه. استخدمت سكين الجيب، التي بقيت لحسن الحظ في جيبي، فتمكنت بعد جهدٍ ومُثابرة من انتزاع ذلك اللوح؛ ظهرت لي فتحة اكتشفت منها، بإزاء فرحتي الغامرة، عدم وجود ألواحٍ في الجانب المُقابل.. بمعنى آخر، لم يكن هُناك سقفٌ، إذ كان ذلك هو القاع الذي دخلت منه. والآن لم تواجهني صعوبات في التقدم على المنوال نفسه حتى وصلت أخيراً إلى المقبض. وقفت وقلبي يختلج في صدري، ومددتُ يدي حتى لامستْ في رفقٍ غطاء المخبأ. لم يتزحزح الغطاء عن موضعه كما توقّعت، فصرتُ أضغط في تصميمٍ أكبر بعض

الشيء، وكنت أخشى أن يكون هُناك شخصٌ آخر غير أوغسطوس في المقصورة. وبقي الغطاءُ ثابتاً، بإزاء دهشتي البالغة، لا يتحرك، وساورني شيءٌ من القلق، لأنّي كنت أعرف أنّه لم يتطلّب في السابق إلا جُهداً لا يكاد يُذكر لإزالته. وأخذت أدفع بقوة.. ولكنه لم يتحرّك؛ ثم دفعت بقوة أكبر.. ومع ذلك لم يتحرّك؛ هُنالك أطلقت العنان لصرخةٍ تُعبّر عن غضبي، وحنقي، ويأسي.. ولكنّه كان يتحدّى أقصى مُحاولاتي؛ من الواضح، من خلال المُقاومة التي واجهتها أنّ الفتحة إمّا أن تكون قد اكتشفت وثبتت بالمسامير، أو أنّ شيئاً ثقيلاً وضع فوقها، ومن غير المُجدي التفكير في أنّها سوف تتزحزح أبداً عن مكانها.

كانت الأشياء التي أحس بها خليطاً من الفزع والإحباط البالغين أقصى [191]الحدود. حاولت من غير طائل أن أُخمّن السبب المُحتمل الذي جعلني مسجوناً هكذا. ولكنني لم أتمكّن من استخلاص سلسلة مُترابطة من الأفكار، سقطتُ على الأرض، واستسلمت نفسي دون مُقاومة لتصوراتٍ أشد كآبة، في تلك الحالة رأيت نفسي أواجه أشكالاً مُخيفة من الموت، والعطش، والجوع، والاختناق، والدفن حيّاً تحت الأنقاض التي تسقط فوقي نتيجة لكوارث ربّما واجهتها السفينة. وفي آخر المطاف استعدتُ شيئاً من حضور ذهني. نهضت، وتلمّست بأصابعي حافات شقوقٍ في الفتحة. وبعد أن وجدتها، تفحصتها جيداً لكي أتأكد ممّا إذا كان يتسرّب من خلالها أي ضوء من المقصورة؛ ولكن، لا شيء من الضوء كان مرئياً. ثم حشرتُ شفرة السكين بين الشقوق، إلى أن اصطدمت بعقبةٍ ما. أخذت أحك بالسكين في ذلك الاتّجاه، فاكتشفت أنّها قطعة صلبة من الحديد، ومن ملمسها المُتموّج لدى احتكاك السكين بها، استنتجت أنّها سلسلة معدنية. لم يبقَ أمامي الآن إلا أن أعود فأتلمّس طريقي إلى الصندوق، هُناك عليّ إما الاستسلام إلى مصيري الحزين، أو أُحاول إعادة شيءٍ من الاتّزان إلى عقلي حتى أصل إلى ابتكار خطةٍ للنجاة. وانطلقت على الفور في مُحاولاتي تلك، ونجحت بعد صعوبات لا تحصى في الوصول إلى مخبأي. وبينما كنت أغطس في فراشي، عاد لي إحساسي بالتعب المُطبق، ووجدت الكلب تايغر قد ألقى نفسه أيضاً وتمدّد إلى جانبي، وكان يبدو عليه أنّه يتوق من

خلال مُداعباته إلى مواساتي في خِضَمّ متاعبي، أو يحثني على تحمّل تلك المتاعب بروحٍ باسلة.

وأثارت غرابة تصرفاته انتباهي أخيراً. بعد أن لعق وجهي ويدي بضع دقائق، توقّف فجأة عن ذلك، وأصدر أنيناً واهناً. فلما مددت يدي باتّجاهه، وجدته مُستلقياً على ظهره في وضعٍ لا يكاد يتغير، وكانت مخالبه بارزة. هذا الوضع الذي تكرّر كثيراً بدا لي مُستهجناً، ولم أتمكّن من إعطاء تفسيرٍ له. لأنّ الكلب كان مُتضايقاً من غير شك، فاستنتجت أنّه ربّما أُصيب بجرحٍ ما؛ أمسكت مخالبه بين يدي، وتفحصتها واحداً بعد واحد، ولكني لم أجد أي علامة تدلّ على وجود جرح. ثم افترضت أنّه جائع، وأعطيته قطعة كبيرة من اللّحم، فالتهمها دون تردد.. ولكنه بعد ذلك عاد إلى مُناوراته الغريبة. تخيّلت الآن أنّه يعاني مثلي من العطش، وكنت على وشك أن أقتنع بهذا الاستنتاج وأعتبره حقيقة عندما خطرت على ذهني فكرة وهي أنّني لم أفعل شيئاً إلى الآن سوى أن تفحصت مخالبه، فلعل هُناك جرحٌ في جزءٍ ما من جسمه أو رأسه. أخذت أتلمّس الرأس مِراراً مُتوخياً أقصى درجات الحذر، فلم أجد شيئاً. وبعد أن تلمست يدي ظهره، لاحظت جزءاً قليلاً من الشعر مُنتصباً عليه. [192]فحصت ذلك الجزء بأصابعي، فاكتشفت سلكاً رفيعاً، وتعقبت السلك فوجدته يلتفّ حول الجسد كله. ثم تفحصت جسد الكلب عن كثب، فانزلقت يدي على شيءٍ صغير أحسست أنّ له ملمس ورقة الرسائل، كان السلك مربوطاً بها بحيث جعلها ثابتة تحت الكتف اليسرى للحيوان.

الفصل (3)

سرعان ما راودتني فكرة أنّ تلك الورقة كانت رسالة من أوغسطوس، وأنّ حادثة غير مُتوقعة طرأت فمنعته من المجيء لتخليصي من الزنزانة التي أقبع فيها، وقد ابتكر هذه الحيلة لكي يُطلعني على الأوضاع التي استجدّت مؤخراً. ارتعشت أوصالي من التلهّف والحيرة، وبدأت الآن أبحث من جديد عن أعواد الثقاب الفسفورية والشموع. كانت ذكرياتي مشوّشة عن الموضع الذي تركتها فيه قبل أن يُغمى عليّ؛ في حقيقة الأمر، قبل زحفي الأخير من المخبأ كنت أتذكّر جيداً البقعة المحددة التي وضعتها فيها. ولكنّي الآن حاولت من غير طائل أن أتذكّرها، وانهمكت طوال ساعة من الزمن في مُحاولات عقيمة وبحثٍ طائشٍ عن أشياء مفقودة؛ يقيناً ليس هُناك حالة مُشابهة أبداً للعذاب واللهفة، حالة مُثيرة للاستغراب مثل حالتي تلك. وأخيراً، بينما كنت أسبر أغوار تلك المتاهة، ورأسي على وشك أن ينفجر من الغيظ، في مكانٍ قريبٍ من منفذ الصندوق، في الجزء الخارجي منه، انتبهت إلى بصيصٍ خافت من الضوء يتسرب من قمرة القيادة. استغربت كثيراً، وحاولت أن أشق طريقي في ذلك الاتّجاه، فقد ظهر أنّه لا يبعد غير بضعة أقدام عن موقعي. لم أكد أتحرّك وقد وضعتُ هذا الهدف نصب عيني، حتى تلاشى كلُّ أثر لذلك الشعاع، وقبل أن تتمكّن عيناي من استرداده، اضطررت لأن أتلمّس حافات الصندوق إلى أن رجعت إلى موقعي السابق. والآن أخذت أُحرّك رأسي هُنا وهُناك في حيطةٍ شديدة، فوجدت لدى تقدّمي قليلاً في الاتجاه المُقابل للمكان الذي بدأت منه أول مرة، أنّني قادرٌ على الاقتراب رويداً من مصدر الضوء، وأن أجعله أمام عيني مُباشرة. في الوقت

الحالي وصلت إلى تلك النقطة (بعد أن تعرّجت الطريق عبر ممرّاتٍ ضيّقة لا حصر لها)، فوجدت أنّه يقترب من مكانٍ تناثرت فيه بعض أعواد الثقاب الفارغة التي أُلقيت على برميلٍ فارغ مقلوب على جانبه. تساءلت كيف جاءت تلك الأعواد إلى هذا المكان، وحينها وقعت يدي على قطعتين أو ثلاث قطع من الشمع، وكان الكلبُ دون شكّ قد عضّ عليها بأسنانه. استنتجت حالاً أنّه قد الْتهم [193]الكمية كلها من الشموع التي كانت بحوزتي، وشعرت بالقنوط لأنّي لن أتمكّن من قراءة رسالة أوغسطوس. كانت كمية قليلة باقية من الشموع تتوزّع وسط فوضى من أشياءٍ مُهملة أُخرى على البرميل، حتى شعرت باليأس من مُحاولة الإفادة منها، فتركتها في مكانها. ثم جمعت أعواد الثقاب الفسفورية التي تبقّى منها واحدٌ أو اثنان بقدر ما استطعت التخمين ورجعت بها حتى وصلت بصعوبة إلى مخبأي، وكان تايغر جاثماً هُناك طوال هذه الفترة.

ماذا يُمكن أن أفعل الآن؟ هذا ما لم أستطع معرفته. كان المكان مُظلماً أشدّ ما يكون عليه الظلام فلم أتمكّن حتى من رؤية يدي وإن قرّبتها من وجهي. بالكاد كانت قصاصة الورق البيضاء قابلة للتمييز، وإن كنت أنظر إليها مُباشرة؛ حين تحوّل الجزء الخارجي من شبكية العين باتّجاهها.. بمعنى آخر، لما نظرت إليها بطرف العين قليلاً وجدتها تكاد تكون مرئية بعض الشيء. هكذا يُمكن للمرء أن يتخيل مقدار العتمة في سجني، وبدا لي أنّ رسالة صديقي، لو كانت تلك رسالة منه حقّاً، تُلقي بي إلى هوة متاعب إضافية فحسب، وذلك بإثارة مشاعري السابقة بالانهيار والتوجّس دون أملٍ يُرتجى. عبثاً حاول ذهني التنقيب عن وسيلة مناسبة تسعفني ببصيصٍ من الضوء.. كأنّها مُحاولات إنسان في حالةٍ من التخدّر أو الغيبوبة سببها تعاطي الأفيون، من أجل غرضٍ مُماثل.. كلُّ مُحاولة منها، بل كلها، تتجلّى واحدة بعد الأُخرى أمام عينيه وهو في حلم اليقظة على أنّها أكثر التصوّرات عقلانية مع أنّ أكثرها مُخالفٌ للصواب، حين تُرفرف قُدرات العقل أو الخيال بأجنحتها على التناوب، واحدة بعد الأُخرى. وفي نهاية المطاف، خطرت لي فكرة بدت معقولة بعض الشيء ومنحتني ذريعة للتساؤل، وإنّه لشيء مُبرر حتماً، عن السبب الذي منعني من التأمل قبل ذلك. وضعتُ قصاصة الورق على

أحد الكتب، وجمعت أعواد ثقابٍ فسفورية كنت قد جلبتها من فوق البرميل، ووضعتها على الورقة. ثم أخذت أفرك تلك الأشياء براحة يدي بسرعة مرة بعد مرة، ولكن في إصرار وثبات. انبثق ضوءٌ واضح في الحال وانتشر على السطح كله؛ لو كانت هُناك أي كتابة على سطح الورقة، لما واجهت صعوبة في قراءتها، كنت واثقاً من ذلك. ولكنّي لم أعثر على مقطعٍ واحدٍ مُسّطر عليها.. لا شيء سوى فراغ مُقفر غير قابل للتفسير؛ ثم تلاشى الوميض خلال ثوانٍ معدودات، وغطس قلبي في أعماقي مع اختفاء الضوء نهائياً.

ذكرتُ قبل الآن غير مرة أن قدراتي على التفكير، قبل هذا الموقف، كانت في حالة تكاد تقترب من حدود البلادة والغباء. كان ثمّة، إذا توخّينا الدّقة، فترات عاجلة من الصحوة، وبين الحين والحين، عودة إلى شيء من الطاقة الجسدية؛ ولكنّها فترات قليلة. لا بُدّ أن يتذكّر القارئ أنّني كنت، منذ أيام كثيرة حتماً، أستنشق [194]الفسفور الذي يعتبر من المواد شبه السامّة ضمن حيّزٍ ضيق في مركبٍ لصيد الحيتان، وخلال شطر طويلٍ من ذلك الوقت لم أكن أحصل على كميةٍ كافية من الماء إلّا نادراً. في الساعات الأربع عشرة أو الخمس عشرة الماضية لم أحصل على شيءٍ يذكر من الماء.. وكذلك لم أنم طوال تلك المدة. كانت المؤن من الملح الذي هو من أسوأ الأنواع مصدر غذائي الأساسي، وفي الواقع، منذ خسارة شريحة اللحم، كان ذلك غذائي الوحيد باستثناء البسكويت البحري؛ هذه الأشياء لم تنفعني كثيراً، لأنّها جافة وصلبة بحيث لا يُمكن بلعها وأنا في حالتي التعيسة وقد تورّمت أوداجي وأصابني الجفاف. في ذلك الوقت كنت أُعاني من حمى شديدة، كنت مريضاً ولا شك في ذلك. هذا من شأنه أن يُفسر حقيقة أنّ ساعات طويلة صعبة قد انقضت وأنا على حالتي تلك من القنوط وشدة الكآبة بعد مُحاولتي الأخيرة للبحث عن أعواد الثقاب، قبل أن تفرض الفكرة نفسها فتوحي لي بأني لم أتفحّص غير جانبٍ واحد من الورقة. لن أُحاول وصف إحساسي بالسخط (أكاد أتخيّل أنّني كنت غاضباً أكثر من أي وقتٍ مضى في حياتي) عندما لاح لذهني فجأة ذلك الأمر الخطير الذي غفلت عنه. كان الخطأ الفادح في حقيقته تافهاً، لولا أنّ غبائي وتهوري أدّيا إلى جعله على عكس ذلك.. في خِضَمّ إحباطي لإخفاقي في العثور على بعض الكلمات على

القصاصة، أقدمت في تصرفٍ صبياني أخرق على تمزيقها إلى نتفٍ وألقيتها بعيداً، وكان من المُستحيل تحديد مكانها الآن.

ومع ذلك أحسست بشيءٍ من الارتياح بإزاء الجانب الأسوأ لهذه المحنة بفعل ذكاء تايغر وحده. بعد أن انتشلت قصاصة صغيرة من الرسالة، على أثر بحثٍ طويل، قرّبتها من أنف الكلب، ثم حاولت أن أجعله يفهم أنّ عليه إحضار بقية القطع. بإزاء دهشتي، (فلم يسبق أن لقنته الألاعيب المُعتادة التي يشتهر بها نظراؤه من الكلاب)، بدا أنّه قد استوعب فوراً المعنى الذي أردته، فانطلق يُنقّب هُنا وهُناك بضع دقائق، وسرعان ما وجد قطعاً أُخرى لا بأس بها من القصاصة. جاء بها إليّ، وتوقّف برهة أمامي، وأخذ يدعك أنفه على يدي؛ يبدو أنّه كان ينتظر مُكافأة على ما قام به. أخذتُ أربّت على رأسه، وبعدها أنطلق مرة أُخرى. والآن مرّت بضع دقائق قبل أن يرجع.. ولما رجع، وجدته يحمل قصاصة كبيرة، اتّضح أنّها الورقة التي كنت أفتقدها.. بعد أن تمزّقت، فيما يظهر، إلى ثلاث قطع. لحسن الحظ، لم أجد صعوبة في إيجاد ما تبقّى من أعواد الثقاب.. قادتني غريزتي المُتوثّبة إلى واحدٍ أو اثنين من الأعواد التي لا تزال قابلة للاشتعال. لقد علّمتني المصاعب التي واجهتها ضرورة الحذر، وهُنا قضيت وقتاً في التفكير المُتأني بما أردت أن أفعل. كان من المُحتمل جدّاً، كما تصوّرت، أن أجد بعض الكلمات مكتوبة على ذلك الجانب من الورقة الذي لم أُلقِ نظرة عليه في السابق.. ولكن أي جانبٍ منها؟ وضعتُ [195]القصاصات جنباً إلى جنبٍ وذلك وفّر لي إمكانية الفهم في هذا الشأن، على الرّغم من أنّ هذا أثبت لي أنّ الكلمات (لو كانت موجودة حقاً) سوف تكون كلّها مُسطرة على جانبٍ واحد، وتأتي مُترابطة وفقاً لسياق مُحدّد. رأيت ضرورة التأكد من المسألة هذه بحيث لا يَبقى أي مجالٍ للشك، لأنّ أعواد الثقاب الفسفورية الباقية لن تكفي لمُحاولةٍ ثالثة، إذا فشلت في المُحاولة التي كنت على وشك القيام بها. وضعتُ الورقة على كتابٍ أمامي، ولبثتُ جالساً بضع دقائق أُفكر وأُقلب الأمور مرة بعد مرة في ذهني. وأخيراً تصوّرت أن يكون الجانب الذي فيه كتابة غير مستوي السطح، ربما لمست ذلك بعد فحصٍ دقيق. وقررتُ أن أجري تجربة أُخرى فمررت إصبعي في عنايةٍ على الجانب الذي ظهر أمامي أول مرة. ولكنّي لم أكتشف أي خلل،

وقلبتُ الورقة، وثبتّها فوق الكتاب. وهُنا، مرة أُخرى، مرّرت سبابتي في حذرٍ عليها، عندها لاحظت وجود وميضٍ طفيفٍ جدّاً، مع أنّه مرئي، ينتشر على الورقة. كنت اعرف أنّ هذا الوميض لا بُدّ أن يصدر عن جُزيئات صغيرة جدّاً من مادة الفسفور المُتبقية التي غطّت الورقة خلال مُحاولتي السابقة. أما الجانب الآخر، أي: الجانب الأسفل من الورقة، فهو الذي عليه الكتابة إذن، لو اتّضح أنّ هُناك كتابة على كل حال. مرة أُخرى، قلبتُ الورقة ومضيت أعمل كما فعلت سابقاً. بعد أن دعكتُ بعض أعواد الثقاب الفسفورية مع بعض، نتج عن ذلك شيءٌ من البريق كالسابق.. ولكن في هذه المرة ظهرت عدة خطوط من رسالة كُتبت بخط يدٍ واضح قابل للتميز، وفيما يظهر كانت مكتوبة بحبرٍ أحمر. على أنّ هذا الوميض رغم أنّه كان ساطعاً بما يكفي، لم يدمْ طويلاً. ولولا أنّني كنت مُشوّش الفكر تماماً لأتيح لي وقتٌ لتتبع تلك الجُمل الثلاث التي تضمّنتها الرسالة التي أمامي.. فقد شاهدتُ حقّاً ثلاث جمل. ولكن وسط ذهولي ولهفتي لأن أقرأ سريعاً ما كان مكتوباً على الفور، لم أتمكّن إلا من قراءة سبع كلمات في نهايتها، وهي ..«دماء.. حياتُك تعتمد على أن تبقى مُختفياً».

تمنّيت أنّي كنت قادراً على التأكد من محتويات الرسالة كاملة.. المعنى الإجمالي للتحذير الذي حاول صديقي أن ينقله لي، ذلك التحذير، إن كان يُريد أن يكشف به خفايا كارثةٍ لم يستطع التكلم عنها، ولكن لم يكن في وسعي، أنا واثق من هذا كل الثقة، أن أشغل ذهني المُنهك ولو جزئياً بمدى الرعب المُغيظ غير المحدود الذي ألهمني إياه ذلك التحذير المُشتت الذي تلقيته. و«الدماء» أيضاً، تلك الكلمة التي تطغى على الكلمات كافة.. تحفل على مدى الأزمنة والدهور بإيحاءات عن البؤس، والمُعاناة، والذعر.. يا لها من كلمةٍ تبدو حبلى الآن بشتى الإيحاءات المُريعة!.. كم تُثيرُ مقاطعها الغامضة من رعدة وانقباضٍ في الصدر (بمعزل، كما تبدو، عن أي [196]كلماتٍ سابقة أو لاحقة من شأنها أن تجعلها واضحة المغزى)، وسط هذه العتمة المُطبقة لسجني، فتخترق أقصى ما يُمكن أن تصل إليه من مجاهلِ روحي!.

كانت لدى أوغسطوس حتماً أسبابٌ وجيهة لرغبته في أن أبقى مُتوارياً عن

الأنظار، وانبثق في ذهني ألفُ افتراض وافتراض عما يُمكن أن تكون عليه أسبابه.. ولكني لم أستطع التفكير في شيءٍ مُحدّد يُمكن أن يقودني إلى تفسيرٍ مقبولٍ لذلك اللغز. بعد أن عدتُ أدراجي من رحلتي الأخيرة إلى مخبأي بوقتٍ قصير، وقبل أن يتحوّل انتباهي باتّجاهٍ آخر نتيجة للتصرف غير المعقول الذي أبداه تايغر، وطدت عزمي على أن أجعل صوتي مسموعاً، مهما كانت العواقب، لأولئك الذين على متن المركب، أو، إذا لم أنجح في هذا، أن أحاول شق طريقي إلى الطابق الأسفل للسفينة. لم أكن أشعر بالاطمئنان من قدرتي على إنجاز أي هدفٍ من هذين الهدفين في ظل المُتغيرات الحالية التي طرأت على موقفي، وهذا منحني مزيداً من الشجاعة (لم أكن لأمتلكها في ظروفٍ أُخرى) لتحمّل الآثام التي قد تنجم عن بقائي في ذلك الوضع. على أنّ الكلمات القليلة التي استطعت قراءتها أبعدتني عن مثل هذه الموارد الذهنية التي جاءتني أخيراً، والآن للمرة الأُولى، أحسست بوطأة البؤس الذي يرتبط بمصيري. في نوبة قنوطٍ مُباغتة ألقيت نفسي من جديد على الفراش، حيث كنت أرقد آخر مرة طوال النهار والليل في شبه غيبوبة، ولم أسترد وعيي إلا على فترات مؤقتة عدتُ فيها إلى رشدي وتذكرت ما وقع.

وأخيراً، نهضت من جديد، وانهمك ذهني في استذكارٍ لما حدث من أشياء مُرعبة تطوّق كياني. لو مضت أربع وعشرون ساعة أُخرى لأصبح من المُستحيل تقريباً أن أعيش دون ماء.. ويقيناً لن أبقى على قيد الحياة لو مضت مدة أطول من ذلك. إبان المرحلة الأولى من سجني كنت قد استفدت كثيراً من قناني المشروبات التي زوّدني بها أوغسطوس، إلا أنّها لم تنفعني في شيءٍ بل ساهمت في رفع حدة الحُمى، دون أن تروي عطشي ولو قليلاً. لم يبقَ لدي الآن إلّا القليل من عصير الدرّاق المُركّز الذي لا تتقبّله معدتي. أما السجق فقد انتهى ولم يبقَ منه شيء؛ كذلك لم يبقَ من لحم الضأن إلا قطعة صغيرة تكاد تُشبه الجلد؛ وقد ألتهم تايغر قطع البسكويت كلها، ما عدا بضع نتفٍ مُتناثرة. ولكي تتفاقم متاعبي، وجدتُ الصداع في رأسي يزداد إيلاماً في كل لحظة، وتزامناً مع ذلك كانت أنواعٌ من الاضطراب والهذيان تعتريني بشكل أو بآخر منذ أن خلدتُ إلى

النوم أول مرّة. مضت ساعات عانيتُ فيها من صعوبة في التقاط أنفاسي، هُنا كانت كل مُحاولة أبذلها للتنفس يُرافقها تشنجٌ وانقباض في الصدر. ومع ذلك فما زال هُناك مصدرٌ آخر لإثارة القلق، في الواقع هو شيء يُثيرُ من الفزع المُتكرر المُذهل ما دفعني أساساً إلى النهوض وأنا في حالتي المُجهدة تلك من غيبوبتي على الفراش. كلُّ ذلك مصدرُه ما لاحظت من تغيّر طرأ على سلوك تايغر.

[197]لاحظت في البداية تغيّراً في سلوك الكلب فيما كنت أفرك الفسفور على الورقة أثناء مُحاولتي الأُولى. بينما كنت أفعل ذلك، قرّب أنفه من يدي وصدرت عنه زمجرةٌ خفيفة؛ ولكنّي لم أستغرب كثيراً آنذاك ولم ألتفت إلى الأمر. بعد ذلك بوقتٍ قصير، وكنت قد ألقيت جسدي على الفراش، كما يتذكّر القارئ، ورحت أغط في أنواعٍ من حالات الغيبوبة أو الخمول. أما الآن فقد انتبهت إلى صوت هسيسٍ غريبٍ قرب أذني، واكتشفت أنه يصدر من تايغر الذي كان يلهث ويُحدث صوتاً مثل الصفير وسط حالة لا تخفى من الاهتياج، كانت مُقلتا عينيه تُرسلان لمعاناً قوياً وسط العتمة. تحدثتُ معه، وردَّ عليّ بزمجرة واهنة، ثم خلد إلى الصمت. واستسلمت بعدها إلى غيبوبتي، ومن جديد أفقت على صوتٍ مُماثل. وتكرّر هذا ثلاث أو أربع مرات، حتى أثار ذهولي بسلوكه إلى درجة مُخيفة، بحيث عدتُ للاستيقاظ التام. هُنا رقد الكلبُ عند باب المخبأ، وكان يُكشّر عن أنيابه على نحوٍ مُثير للرهبة، مع أنّ صوته كان يأتي في نبرات خافتة، وأسنانه تصطك وكأنما اعتراها تشنجٌ قوي. لم يساورني شكٌّ في أنّ الحاجة إلى الماء أو أن الحيّز الضيق أدّيا إلى إصابته بتلك الحالة من السُّعار، وكنت في حيرةٍ من أمري فلم أعرف ما الذي ينبغي فعله. لم أتحمل فكرة أن أقدم على قتل الحيوان، إلا أنّ الأمر بدا ضرورياً من أجل سلامتي الشخصية. كان في وسعي آنذاك رؤية عينيه المُسمّرتين عليّ وقد ارتسم عليهما تعبيرٌ يوحي بالعدوانية المُهلكة، وتوقعت في أية لحظة أن ينقضّ من مكانه فيُهاجمني. وأخيراً لم أعد أتحمل وضعه الفظيع، وعزمت على أن اتّجه نحو المخبأ بصرف النظر عن العواقب، وأن أتخلّص منه لو تطلّب الأمر. من أجل الخروج، كان عليّ المرور فوق جسده، ويبدو أنّه كان يتوقّع أن أتصرّف على

ذلك النحو.. انتصب واقفاً على قائمتيه الأماميتين (وأدركت ذلك من تغيّر اتّجاه نظراته)، ثم كشّر عن أنيابه البيضاء، وكان من السهولة رؤيتها. تناولت ما تبقّى من قطعة لحم الضأن، ولم يبقَ منها شيءٌ غير الجلد، وأخذت أيضاً زجاجة الشراب، وكنت حريصاً على أن أُبقيها معي، إلى جانب سكينٍ كبيرة كان أوغسطوس قد تركها لي.. وبعد ذلك، لففت العباءة حول جسدي وشددتها بما أُوتيت من قوة، وبدأت أتحرّك إلى فتحة الصندوق. ما كدت أفعل ذلك حتى قفز الكلب، وهو يُطلق زمجرة هادرة، باتّجاه حُنجرتي. اصطدم ثقل جسده كله بكتفي اليمنى فسقطت سقوطاً عنيفاً على جنبي الأيسر، بينما عبّر الحيوان الهائج فوقي. سقطت على ركبتي، ودُفن [198]رأسي تحت البطانيات التي حمتني من هجمةٍ ضاريةٍ أُخرى، وأثناء ذلك أحسست بالأنياب الحادة تضغط في شراسة على الغطاء الصوفي الذي يُغطي عنقي.. إلا أنّها، لحسن الحظ، لم تخترق الطيّات السميكة. هُنا وجدت نفسي مُمدداً تحت الكلب، وخلال لحظات حتماً سوف تخونني قواي فأستسلم لإرادته. غير أنّ اليأس أعطاني مزيداً من القوة، فنهضت في حركةٍ لا تخلو من جُرأة، وأزحته عنّي بما تبقّى من قوّتي، وسحبتُ معي البطانيات المُلقاة على السرير. الآن ألقيت تلك البطانيات عليه، وقبل أن يتمكّن من تحرير نفسه كنت قد وصلت إلى الباب وأغلقته بإحكام لكي أحبط نواياه بمُلاحقتي. ولكن أثناء هذا الصراع، كان عليّ أن أتخلّى عن قطعة اللحم الباقية، وهُنا وجدت المؤن التي بقيت معي قد تقلّصت إلى كميةٍ قليلة من الشراب في قعر الزجاجة. بينما خطرت هذه الفكرة ببالي، أحسست بنفسي تستولي عليها نوبة من تلك النوبات التي ربما تُميّز سلوك طفلٍ مُشاكس في ظروف مُماثلة، فرفعتُ الزجاجة إلى شفتي، وأفرغت مُحتوياتها في جوفي حتى آخر قطرة، وألقيتها بانَفعال على الأرضية.

ما كاد صدى الارتطام يخمد، حتى سمعتُ اسمي يُلفظ بصوتٍ مُتلهف خامد، كان يأتي من اتّجاهٍ قريب من قمرة القيادة. لم أتوقع أبداً أن أسمع شيئاً من ذلك القبيل، وكانت دهشتي كبيرة وانفعالاتي طاغية في داخلي، حتى إنّي حاولت عبثاً الرد على ذلك الصوت. خانتني قدراتي على الكلام، وفي نوبة حزنٍ

خشية أن يحسبني صديقي ميتاً، فيعود دون أن يُحاول الوصول إلى مكاني، وقفتُ بين الأقفاص قريباً من باب المخبأ، وكنت أرتعش في تشنجاتٍ مُتعاقبة وألتقط أنفاسي بصعوبة، وبذلتُ جهداً لا يوصف كي أصل إلى المدخل. لو أنّ ألف كلمةٍ كانت قابلة لأن تُلخّص في مقطعٍ واحد، لما استطعت النطق بذلك المقطع. لاحظتُ حركة طفيفة الآن، سمعت ذلك وسط أكوام الخشب في مكانٍ ما قبالة الموضع الذي وقفت فيه. ثم اضمحلّ الصوت، وازداد خفوتاً على خفوت، واستمرّ يخفتْ ويخفتْ. هل يُمكنني أبداً أن أنسى مشاعري في هذه اللحظة؟ لقد ذهب.. صديقي، رفيق عمري، في حين كنت أتوقع منه أن يُبدي اهتماماً أكبر.. تركني ورحل.. سوف أبقى وحدي.. رحل! تركني أواجه حتفي وحدي في هذا المكان البائس، لأنتهي في أكثر الزنزاناتِ وحشة.. كانت مُجرّد كلمة، أو مقطع صغير فحسب، ستنقذني.. ولكني عجزت عن النطق بمقطعٍ واحد! أحسست، أكاد أكون واثقاً من هذا، بحالةٍ من الحزن أفظع عشرة آلاف مرة من الموت نفسه. دار ذهني في دوامة، وسقطتُ على طرفٍ من المخبأ، وأحسست بأنّي أحتضر.

تلمّست يداي بحثاً عن السكين، وجدتها تتمايل وتخرج من حزام بنطلوني، ثم سقطتْ على الأرضية وهي تصدر دمدمة. لم يسبق لأذني أن سمعت لحناً عذباً عميق المغزى مُثقلاً بالتوترات اللذيذة كالذي سمعته! كنت أصغي بأقصى درجات اللهفة والتوتر لأتأكد من وقع الضوضاء على أذني أوغسطوس.. لأنّي أعلم أنّ [199]الشخص الذي صاح باسمي لا يُمكن إلا أن يكون هو دون غيره. كل شيءٍ من حولي بقي ساكناً لحظات قليلة. وأخيراً سمعت تلك الكلمة من جديد «آرثر!» تتكرر في نبرةٍ مُنخفضة، مليئة بالتردّد. عاد الأملُ يُداعبني، فتحرّرت على الفور قُدراتي على الكلام، وأطلقت الآن صرخة بأعلى صوتي، «اوغسطوس! أوه، اوغسطوس!».

«اسكتْ! بحق السماء اسكتْ!» أجابني بصوت مُتهدّج يمتزج بغضب عارم؛ «سوف آتي إليك حالاً.. حالما أتمكّن من المرور عبر هذا المخبأ».

بقيتُ اسمع صوته وهو يتحرك مدة من الزمن عبر ممراتٍ مزدحمة بألواح

الخشب، وبدت لي كل لحظة كأنها دهر كامل. وأخيراً أحسست بيده تستقر على كتفي، وفي الوقت نفسه وضع قنينة ماءٍ على شفتي. وحدهم أولئك الذين يُعتقون فجأة من بين فكي القبر، أو الذين سبق أن عرفوا أنواعاً لا تُطاق من عذاب العطش في ظروفٍ سيئة مثل التي وجدت نفسي أُكابدها في سجني الموحش، يُمكنهم تصوّر تلك المسارات الذهنية التي لا يُمكن وصفها، عن النشوة والألم التي تفوق أسمى آيات الترف المادي عندما ازدردت تلك الجرعة الطويلة من الماء.

ارتويتُ من العطش بعض الشيء، فأخرج أوغسطوس من جيبه ثلاث أو أربع حبات بطاطا مغلية، فالتهمتها بأقصى ما أُوتيت من شراهة. وكان قد أحضر معه شمعة وضعها في ركنٍ مُظلم، ولم تمنحني أشعة الضوء الرخوة من الراحة أقل ممّا منحني إياه الطعام والشراب. ولكنّي كنت مُتلهفاً لأسمع شيئاً عن سبب غيابه الطويل، وبدأ على الفور بسرد ما وقع له على ظهر المركب خلال الفترة التي بقيتُ فيها مُحتجزاً.

الفصل (4)

بدأت السفينة الشراعية رحلتها إلى عرض البحر، كما افترضت، في غضون ساعة تقريباً بعد أن ترك الساعة معي. كان ذلك في اليوم الثاني عشر من حزيران. وحتماً يتذكّر القارئ أنّني كنت في ذلك الوقت قابعاً في مخبأي طوال ثلاثة أيام؛ أثناء هذه المدة، كنت أسمع جلبة مُستمرة على سطح المركب، هُناك أشخاص يركضون هُنا وهُناك، لا سيما في قمرة القيادة والمقصورات، ولم تتح لصديقي فرصة لزيارتي دون أن يُجازف بالكشف عن مخبأي. وأخيراً عندما أتى لزيارتي، أكدت له أنني كنت على ما يرام بشكل أو بآخر؛ ولهذا، لم يشعر خلال اليومين التاليين بقلق كبير بشأني.. ولكنه كان يترقّب فرصة أُخرى للنزول إلى مكاني. ولم تسنح له فرصة أُخرى إلا في اليوم الرابع. خلال هذه الآونة قرّر عدة مرات أن يُبلغ أباه بشأن مُغامرتنا هذه، وأن يجعلني أخرج على الفور؛ ولكنّا لم نكن نبعد غير [200]مسافة قصيرة عن نانتوكيت، وكان من المشكوك فيه، من خلال بعض التعبيرات التي أبداها القبطان بارنارد، أنّه لن يرجع مُباشرة لو اكتشف وجودي على متن المركب. إلى جانب ذلك، لدى التفكير ملياً في الأمر، لم يكن اوغسطوس يتخيّل، كما أخبرني، أنّني سوف أحتاج إليه على ذلك النحو الحرج، أو أنني سوف أتردّد آنذاك بأن أُعلن عن وجودي في مخبأي. ولذلك، فحين صار يقلب الأمر في ذهنه توصّل إلى أن يتركني هُناك حتى تسنح له فرصة مُناسبة لزيارتي دون أن يراه أحد. ولكن هذه الفرصة، كما قلت سابقاً، لم تتوفر إلى أن حلّ اليوم الرابع بعد أن جاء لي بالساعة، وهو اليوم السابع على دخولي لأول مرة في المخبأ. بعد ذلك نزل دون أن يأخذ معه ماءً ولا مؤناً، وكان ينوي في المقام الأول أن يلفت انتباهي فحسب، وأن يجعلني أخرج من الصندوق الذي

أختبئ فيه، على أن يعود إلى المقصورة لاحقاً ويجلب لي ما يستطيع أن يحمله من المؤن. لمّا نزل لهذا الغرض، وجدني نائماً، ويبدو أنّني كنت أشخر بصوت مسموع. وفقاً للتقديرات كافة التي يُمكن إجراؤها عن هذا الموضوع، لا بُدّ أن تكون هذه هي فترة الهجوع التي استسلمت لها بعد عودتي بوقت قصير من السرداب ومعي الساعة، والتي استمرّت أكثر من ثلاثة أيام وليالٍ كاملة على أقل تقدير. في وقتٍ لاحق، كان لدي من الأسباب عبر تجربتي الخاصة وتأكيدات أشخاصٍ آخرين، ما يدفعني لأن أستسلم للأثر المُخدّر للرائحة العفنة التي تنبعث من زيت السمك القديم المخزون ضمن حيّزٍ ضيّق مُغلق؛ حين كنت أُفكر في وضع المخبأ الذي أقبع فيه، والمدة الطويلة التي استخدمت فيها السفينة لأغراض صيد الحيتان، كنت أميلُ للاستغراب من أنّي استيقظت على كل حال، بعد النوم فترة قصيرة، فما بالك بالنوم بغير انقطاع طوال المدة التي أشرت إليها!.

صاح أوغسطوس لأول مرة بصوت مُنخفض دون أن يغلق فتحة السرداب.. ولكنّي لم أرد عليه. ثم أغلق الفتحة، وتكلّم معي بصوت أعلى، وأخيراً بدأ يصرخ عالياً.. ومع ذلك استمر شخيري. كان مُتحيّراً آنذاك ولم يعرف ما الذي ينبغي أن يفعل. وتطلّب الأمر بعض الوقت ليعبر بين ألواح الخشب حتى يصل إلى مخبأي، وفي تلك الأثناء كان يُمكن أن يكتشف القبطان بارنارد غيابه، وكان الرجل يُكلّفه بأداء بعض الخدمات بين لحظة ولحظة في ترتيب واستنساخ الأوراق التي تتعلّق بالرحلة. وهكذا قرّر، بعدَ قليل من التفكير أن يعود، على أن ينتظر فرصة أخرى لزيارتي. وكان ميالاً إلى ذلك القرار أكثر، نظراً لأنّ النوم الهادئ العميق الذي كنت [201]مُستغرقاً فيه بدا له طبيعياً، ولم يفترض أنّني أِواجه أي نوعٍ من المتاعب في مُعتقلي. فما كاد يتوصل إلى هذا القرار حتى لفتت انتباهه جلبة غير اعتيادية في المقصورة استمرّت فترة فيما يظهر. وثب على الفور وخرج من الفتحة بأقصى سُرعة، وأغلقها وراءه، ثم فتح باب مقصورته. فما كاد يضع قدميه على العتبة حتى وجد فوهة مُسدس تلمع أمام عينيه، وتعرّض في الوقت نفسه لضربة هراوة أطاحت به أرضاً.

رفعته يدٌ قوية من مكانه الذي سقط فيه عند باب الكابينة، وكانت يدٌ أُخرى

تطبق بقوة على حُنجرته؛ ومع ذلك كان قادراً على تمييز ما يحصل حوله. كان والده مُقيّد اليدين والقدمين، وقد تمدّد على مُدرجات الممر بين المقصورات، ورأسه على الأرض، وهُناك جرحٌ عميق في جبهته تتدفّق منه دماءٌ لا تكاد تتوقّف. لم يتفوّه الأب بكلمة، وكان فيما يظهر يحتضر. فوق رأسه وقف وكيلُ الربّان، وكان يرمقه بنظرة شيطانية ساخرة، ويُفتش جاهداً في جيوبه، حتى أخرج منها محفظة كبيرة وأداة توقيت. وهُناك سبعة رجال آخرون من أفراد الطاقم (بما فيهم الطاهي، وهو رجل زنجي) يُفتشون المقصورات في الجانب الأيسر من السفينة بحثاً عن الأسلحة، وسرعان ما تجهزوا بالبنادق والذخيرة. بالقرب من أوغسطوس والقبطان بارنارد، وقف تسعة رجال جنباً إلى جنب في المقصورة، هؤلاء من الرجال الأكثر وحشية بين طاقم السفينة. توجّه هؤلاء الأوغاد الآن إلى ظهر المركب، وأخذوا صديقي معهم بعد أن قيدوا ذراعية خلف ظهره. وتقدّموا مُباشرة إلى حجرة الدفة التي كانت مُغلقة بإحكام.. كان اثنان من المُتمردين يقفان قريباً منها وهُما يُمسكان الفؤوس.. واثنان آخران عند بابٍ يفضي إلى أسفل المركب. صاح وكيل الربّان بصوت جهوري: «هل تسمع، أنت الذي تحت؟ عليك أن تصعد على مهلٍ.. الآن، احترس.. وكفَّ عن التذمر!» مضتْ دقائق قليلة قبل أن يظهر أي واحد منهم.. وأخيراً صعد رجلٌ إنكليزي كان قد ركب معنا على أن يشتغل حمّالاً، وكان ينتحب ويئن بصوت مثير للشفقة، ويتوسل إلى وكيل الربّان بلهجة غاية في التواضع أنْ يُبقي على حياته. وكان الردُّ الذي تلقّاه ضربة على جبهته بالفأس. سقط الرجل المسكين على سطح المركب وهو يتلوى من الألم، ورفعه الطاهي الأسود بذراعيه كأنّه يحمل طفلاً، وألقى به دون أي ترددٍ في البحر. حين سمع الرجال القابعون تحت وقع الضربة وارتطام الجسد بالبحر، لم يجرؤ واحدٌ منهم على الصعود، ولم تنفع معهم التهديدات ولا الوعود، إلى أن قدّم مُقترحٌ لإجبارهم على الصعود بالدخان. على أثر ذلك حصل تدافعٌ شامل، وبدا لحظة أنّ من المُمكن استعادة السفينة. غير أنّ المُتمردين [202]تمكنوا من إغلاق الباب المؤدي إلى الأسفل قبل أن ينجح أكثر من ستة أشخاص من المُقاومين في الصعود. هؤلاء الرجال الستة وجدوا أنفسهم عاجزين عن مُقاومة أعدائهم الذين يفوقونهم في العدد والعدة، فاستسلموا بعد أن أبدوا

قليلاً من المُقاومة. أعطاهم وكيل الربّان وعداً صريحاً.. ليس من شك في أنّه كان ينوي تشجيع الباقين حتى على الاستسلام مثل أصحابهم، لأنّ هؤلاء كانوا يسمعون كل ما يُقال على ظهر المركب بسهولة. واتّضح لاحقاً صوابُ رأيه وحصافة تدابيره الشريرة. هُنا أبدى جميع الرجال الذين في الأسفل رغبتهم في الاستسلام، وصعدوا واحداً بعد واحد، عندئذ جرى تكبيلهم وألقوا على ظهورهم، جنباً إلى جنب مع الستة الآخرين.. فكانوا كلهم، أي: أفراد الطاقم الذين لم يشتركوا في العصيان، سبعة وعشرين رجلاً.

عقب ذلك وقعت مذبحةٌ هي الأكثر بشاعة. سُحب البحارة المُقيدون نحو مجازٍ مؤقت من ألواحٍ خشبية. ووقف الطاهي وقد حمل فأسه، وبدأ يضرب كلّ ضحية على الرأس بعد أن يُجبرهم بقية المُتمردين للاقتراب من جانب المركب. وبهذه الطريقة لقي اثنان وعشرون رجلاً حتفهم، واستسلم أوغسطوس لليأس من النجاة بحياته، وتوقّع في أي لحظة أن يأتي دوره. ولكن يبدو أنّ الأوغاد قد أحسّوا الآن إمّا بالضجر، أو أنّهم كرهوا بعض الشيء ذلك المشهد الدموي الذي قاموا به؛ ذلك لأن السجناء الأربعة الباقين، ومنهم صديقي الذي كان مُمدداً على الدكة قريباً منهم، قد استثنوا فيما يظهر من حكم الإعدام بينما أرسل وكيل الربّان في طلب شراب الرّم، وأقام المجرمون جميعاً حفلة مُعربدة فشربوا حتى الثمالة، واستمرّ ذلك حتى غابت الشمس. ثم بدؤوا يتنازعون فيما بينهم حول مصير الناجين الذين بقوا مُنبطحين على مبعدة أربع خطوات منهم، وكان في وسع هؤلاء التقاط كل كلمة تُقال. ويبدو أنّه كان وسط المُتمردين بعض الرجال الذين أثّرت الخمرة في عقولهم تأثيراً إيجابياً فجعلت قلوبهم ترق بعض الشيء، وهُنا تردّدت عدة أصوات تُنادي بضرورة إطلاق سراح السجناء كلهم، شريطة أن يشتركوا في حركة العصيان ويُمنحوا نصيباً من الغنائم. إلّا أنّ الطاهي الزنجي (وكان من النواحي كافة نموذجاً لشيطانٍ لا يعرف قلبُه الرحمة، ويبدو أنّه يُمارس ضغطاً على الآخرين مثله مثل وكيل الربان، إن لم يكن أكثر) رفض الإصغاء إلى أي اقتراح من ذلك القبيل، ووثب عدة مرات وكان يزمع أن يستأنف عمله على السقالة الخشبية. ولكن لحُسن الحظ تغلّب عليه الإعياء والإفراط في الشراب، أكثر مما تغلّب عليه رأي جماعته الأقل تعطشاً لسفك الدماء، ومن هؤلاء رئيسُ

بحّارة كانوا ينادونه باسم ديرك بيترز. هذا الرجل كان ابن امرأة تنتمي إلى الهنود الحمر من قبيلة أوبساروكا، وعاش مُنعزلاً في بلاك هلز، بالقرب من منابع نهر ميسوري. كان والده تاجر فروٍ، على ما أعتقد، وقد اشتغل في وقت من الأوقات، أو على الأقل ارتبطت مصالحه بطريقة ما، مع مراكز تجارية هندية على ضفاف نهر لويس[1]. كان بيترز نفسه في حقيقة الأمر من أبشع الرجال وأكثرهم ضراوة الذين صادفوني في حياتي. كان قصير [203]القامة من حيث مظهره الخارجي، فلا يتجاوز طوله أربعة أقدام وثمان بوصات، مع أنّ أطرافه هائلة الضخامة. ويداه بنوع خاص ثخينتان على نحوٍ فظيع ولا مجال لمُقارنتهما بأيدي البشر. أما ذراعاه، وكذلك ساقاه، فهي مُقوسة تقوّساً مُستهجناً، ويبدو أنّها لا تمتاز بأي شكل من أشكال المرونة. ورأسه مُشوّه المنظر على غرار أطرافه، فهو هائل في حجمه، مع فراغٍ من الشعر يتوّج القمة (مثل الصلع الذي نراه على رأس أغلب الزنوج)، أي: أنه أصلع كلّياً. ولإخفاء هذا النقص الأخير، الذي لم يحصل لتقدّمٍ في العمر، فقد اعتاد الرجل أن يضع على رأسه باروكة مصنوعة من أي شيءٍ شبيه بالشعر يُمكنه العثور عليه.. فمن الحين إلى الحين يراه الناس مثلاً قد وضع على رأسه جلد كلبٍ إسباني أو فرو دبٍّ رمادي أمريكي. أما في الزمن الذي نتكلّم عنه، فقد توّج رأسه بباروكة من فرو الدببة، وأسهم ذلك في إضفاء شيءٍ غير قليل من الضراوة المُستهجنة على مظهره الذي تغلب عليه شخصية هندي أحمر من أوبساروكا. كانت فتحة فمه تمتد تقريباً من إحدى الأُذنين إلى الأُخرى، والشفتان ضامرتان مثل الأجزاء الأُخرى من بدنه، إذ تخلوان من مرونةٍ طبيعية، بحيث لا يكاد التعبير المُهيمن عليهما يتبدل أبداً بتأثير أي عاطفة مهما كان نوعها. لعل المرء يُلاحظ هذا التعبير طاغياً لدى رؤية طول الأسنان ونتوئها الغريب، فالشفتان لا تُغطيان أسنانه أبداً ولو تغطية جزئية على كل حال. لئن لمحتَ هذا الرجل عرضياً، ربما تخيّلت أنّ وجهه يتلوى من فرط الضحك، مع أنّ النظرة الثانية من شأنها أن تُثير انطباعاً يقودك إلى الارتعاش فزعاً، فتتساءل إن

---

(1) نهر لويس: فرع من نهر سنيك «الأفعى» في منطقة وايومنغ الأمريكية ويصب في بحيرة شوشون. [المترجم]

كان هذا التعبير يدلّ على نوع من الابتهاج، مع أنّ حتى هذا الابتهاج يكون من علامات الشيطان. يتداول الناس في شأن هذا الإنسان الفريد في شخصيته كثيراً من النوادر التي تسود بين البحارة في نانتوكيت. هذه النوادر والطرائف كانت تُركّز على إثبات مدى قوته الهائلة خاصة حين يتعرّض للاستفزاز، وبعض تلك الحكايات ربّما ترقى إلى درجة الشك في سلامته العقلية. ولكن على متن غرامبوس، كان يُنظر إلى الرجل فيما يظهر، في الوقت الذي حصلت فيه حركة العصيان، على أنّه يُثير السخرية أكثر من أي شيء آخر. لقد تطرّقتُ إلى هذه الناحية من شخصية ديرك بيترز بالوصف الدقيق، لأنّ على الرغم من مظهره الذي يطفح بالقسوة، فقد اتّضح أنّه الأداة الأساسية في إنقاذ حياة أوغسطوس، وربّما أُتيحت لي فرصٌ أُخرى من الحين إلى الحين للتطرّق إلى مزايا شخصيته ضمن سياق هذا السرد.. إنّ الوصف الذي أُقدمه هُنا، اسمحوا لي بالقول، في مراحله اللاحقة سوف يكشف للقارئ حوادث تتجاوز في طبيعتها حدود التجارب الإنسانية العادية، ولهذا فليس من السهولة بمكان أن يُصدقها البشر، بحيث إنّي أمضي في السرد الآن دون أن يُراودني أي أمل في أن يُصدقني أحد من الناس، مع ثقتي التامة في أنّ الزمن وتقدّم العلم كفيلان بإثبات واقعية بعض الآراء الأهم والأبعد من غيرها عن قابلية التصديق ضمن سياق هذه الحكاية.

بعد تردّدٍ طويل، واشتباكين أو ثلاثة، توصّل الرجال أخيراً إلى أنّ جميع [204]السجناء (باستثناء أوغسطوس، الذي أصرّ بيترز إصراراً ممزوجاً بروح الفُكاهة على الإبقاء عليه كخادمٍ له) سوف يُلقى بهم في واحدٍ من أصغر الزوارق. ونزل وكيلُ الربّان إلى الكابينة ليرى إن كان القبطان بارنارد لا يزال حيّاً.. لأنّه، كما يتذكّر القارئ، قد تُرك في الأسفل لدى صعود المُتمردين. في ذَلك الوقت عاد الرجلان معاً، القبطان شاحب الوجه كأنّه ميت، إلّا أنّه استردّ شيئاً من الوعي الذي اختلّ من تأثيرات جرحه. وتكلّم مع الرجال بصوت بالكاد يبدو مسموعاً، وتوسّل إليهم أن لا يُلقوا به إلى البحر، وطلب منهم أن يعودوا إلى رُشدهم ويُمارسوا واجباتهم، ووعدهم بأن يوصلهم إلى أي مكان يختارونه، وقال: إنّه لن يتّخذ أي إجراءٍ لمُحاسبتهم على ما ارتكبوه. ولكن ذهبت كلماته أدراج الرياح. أمسك اثنان من الأوغاد المُتوحشين به من ذراعيه ودفعوه إلى

جانب السفينة وألقوا به فوق الزورق الذي أنزلوه أثناء غياب وكيل الربّان. أما الرجال الذين كانوا مُنبطحين على الدكة فجرى تقييدهم وصدرت الأوامر لهم باللّحاق بقبطانهم، وامتثلوا لذلك دون أن يُحاولوا إبداء أي مُقاومة.. وتركوا أوغسطوس في مكانه يُعاني من آلامه، على الرغم من أنّه كان يُكافح ويتضرّع من أجل أن يسمحوا له بتوديع والده. قدّمت إليهم الآن كمية قليلة من البسكويت البحري مع دورق ماء؛ ولم يكن لديهم صارية، أو شراع، أو مجذاف، أو بوصلة. وجرى سحب الزورق باتّجاه المؤخرة بضع دقائق، وأثناء ذلك كان المُتمردون يعقدون اجتماعاً آخر للتداول.. وفي نهاية المطاف قرروا قطع الحبل عن الزورق. في غضون ذلك أرخى الليل سدوله.. ولم يكن في السماء قمرٌ ولا نجوم تُرى بالعين المُجرّدة.. والبحر تعتريه أمواجٌ رخوة قبيحة المنظر تجري هُنا وهُناك، مع أنّ الرياح ليست قوية. وإن هي إلّا أن غاب الزورق عن الأنظار، ولم يعد ثمّة أمل للتعساء الذين على متنه. هذه الحادثة وقعت عند خط عرض 35 درجة 30 شمالاً، وخط طول 61 درجة 20 غرباً، وتبعاً لذلك فالموقع غير بعيد جدّاً عن جزر برمودا. وهكذا حاول أوغسطوس تعزية نفسه بفكرة أنّ الزورق ربما ينجح إمّا في الوصول إلى اليابسة، أو يُصادف مراكب أُخرى تنطلق من الساحل.

رُفعت الآن الأشرعة كلها على السفينة واستأنفت مسارها السابق نحو الجنوب الغربي.. وكان المُتمردون مُنكبّين على إعداد خطة للقيام بأعمال القرصنة، وكل ما أمكن فهمه من تلك الخطة أنّ هُناك سفينة سوف يجري اعتراضها على الطريق من جزر كيب فيرد[2] إلى بورتو ريكو. لم يُعر الرجال اهتماماً لأوغسطوس، وكان في ذلك الوقت مُقيداً ولا يستطيع التحرك إلى أي مكان على الممر بين الحجرات. وقد تعامل معه ديرك بيترز بشيء من العطف، وفي إحدى [205]المناسبات أنقذه من وحشية الطاهي. كان وضعه لا يزال مُثيراً للتوجس، لأنّ هؤلاء الرجال لا يتوقّفون عن شرب الخمرة، ولا مجال للوثوق في استمرار مزاجهم المرح أو عدم اكتراثهم

(2) كيب فيرد: مجموعة جزر تُعرف رسمياً بجمهورية كابو فيردي وتتألف من 10 جزر بركانية وسط المُحيط الهادئ على مسافة 350 ميلاً من الساحل الغربي لإفريقيا. [المترجم]

لمصيره إلى الأبد. كان شعوره بالقلق أصعب ما يُعاني منه في حالته تلك؛ في حقيقة الأمر لم يكن هُناك سببٌ يدعوني للشك في نوايا صديقي. وقد قرّر غير مرة أن يُثير انتباه المُتمردين فيجعلهم يعرفون مخبأي السري، ولكنّه أحجم عن قراره، وذلك يعود من ناحية إلى ذكرياتٍ عن أفعال وحشية رآها بنفسه، وإلى الأمل في خلاصٍ قريب من ناحية أُخرى. وكان صديقي حريصاً على تحقيق الخلاص باستمرار ويترقّب أي فرصة سانحة؛ ولكن، رغم اليقظة والحذر، فقد مرّت ثلاثة أيام بعد قطع الحبل على الزورق وتُرك لمصيره وكادت أن تتحقّق مثل تلك الفرصة. وأخيراً، في تلك الليلة من اليوم الثالث، أحسسنا بضربة عنيفة تلقتها السفينة من جهة الشرق، واستُدعي الجميع إلى السطح ليُشاركوا في إنزال الأشرعة. في خضم تلك الفوضى، تمكّن صديقي من النزول دون أن يُثير انتباه أحدٍ منهم، فدخل المقصورة. ولكن يا لمشاعر الأسى والرُّعب التي استبدت به حين اكتشف أنّ المقصورة قد تحوّلت إلى مُستودع لخزن أنواع مُختلفة من المعدات البحرية وأثاث السفينة؛ فكانت عدة أمتار من القابلوات مُكدسة تحت السلم المؤدي إلى المكان، وقد سُحبت من أجل إفساح المجال لوضع خزانة، وهي الآن مُلقاة مُباشرة فوق فتحة السرداب! وإذا أراد رفع هذه المواد دون أن يُكتشف الأمر فذلك مُستحيل، وهكذا عاد صديقي إلى السطح بأقصى سرعة. وفي أثناء صعوده، أمسك به وكيلُ الربان من رقبته وسأله عما يفعله في الأسفل، وكان على وشك أن يرميه من الجانب الأيسر للسفينة، لولا تدخّل ديرك بيترز مرة أُخرى لإنقاذ حياته. ثم وُضعت الأصفاد على يدي أوغسطوس (وكانت أزواج من الأصفاد مُتوفرة على متن السفينة بكثرة) ورُبطت قدماه معاً ربطاً شديداً. ثم نقلوه إلى قمرة القيادة وأُلقي به في فسحةٍ قريبة من السلوقية[3]، مع التأكيد عليه بأن لا يضع قدميه على ظهر السفينة مرة أُخرى «حتى يحين الوقت الذي لا تعود فيه هذه السفينة سفينة»، كما قال الطاهي الذي ألقى به في تلك الحُجرة.. ويبدو أنّ من الصعوبة تحديد المعنى الدقيق الذي كان يقصده بتلك العبارة. إلّا أنّ المسألة كلها تُبيّن أنّها جاءت لحسن حظي، كما سوف يتضحُ لاحقاً.

(3) السلوقية: الجزء الأعلى من مُقدم المركب وهو مكان يبيت فيه النوتية. [المترجم]

الفصل (5)

بعد دقائق قليلة على مُغادرة الطاهي للحُجرة، استسلم أوغسطوس كلّياً إلى [206]اليأس والإحباط، فلم يعُد يُراوده أملٌ الآن في أن يُغادر الحُجرة حيّاً. وهُنا قرّر أن يُخبر أول رجل ينزل إليه بالمكان الذي أختبئ فيه، إذ تصوّر أن من الأفضل لو ترك لي فرصة في تجريب حظي مع المُتمردين بدلاً من أن ألقى حتفي وحيداً في القبو.. لقد مضت عدة أيام منذ أن دخلت هذا السجن لأول مرة، ويقيناً لن يكفي دورق ماءٍ أربعة أيام. وبينما كان يُفكر ملياً بهذا الموضوع، خطرت له فكرة مُفاجئة، فربّما استطاع بوسيلة ما أن يتواصل معي عن طريق المُستودع الرئيسي. في ظروفٍ أُخرى، كانت الصعوبات والمخاطر التي تكتنف هذه المسألة ستمنعه حتماً من القيام بها؛ ولكن في الظرف الراهن، لديه على كل حال أملٌ ضئيل في الحياة، ولهذا فلن يخسر شيئاً، وهكذا ركز تفكيره كله على هذه المهمة.

كانت الأصفاد هي العقبة الأُولى التي ينبغي أن تؤخذ بنظر الاعتبار. في أول الأمر لم يجد طريقة مُباشرة للتخلّص منها، وأحس بالخوف من أن يواجه الفشل منذ البداية؛ ولكن لدى التأمّل في تأنٍ ورويّة اكتشف أنّ الحديد يُمكن أن ينزلق من يديه بسهولة إذا بذل القليل من الجهد وتحمّل بعض المُعاناة، بمجُرّد أن يلوي يديه.. لم يكن هذا النوع من القيود فعالاً في تكبيل الفتيان الصغار الذين تمتاز عظامهم بالمرونة وتكون قابلة الانضغاط بعض الشيء. بعد ذلك استطاع فكّ رباط ساقيه، وترك الحبل قريباً منه بحيث يسهل عليه إعادته إذا اقتحم أي شخص المكان، ومضى يتفحّص الموقع على أمل أن يبتكر وسيلة ما للاتصال مع

الكابينة القريبة. كان الحاجز الذي يفصله عنها عبارة عن لوحٍ خفيف من خشب الصنوبر سمكه بوصة، واكتشف أنه لن يواجه صعوبة كبيرة في اختراق تلك العقبة. سمع الآن صوتاً يأتي من الممشى بين المقصورات، ولم يتسن له وقتٌ كافٍ ليضع يده اليمنى في الأصفاد (كانت اليد اليسرى قد تحرّرت) أو أن يسحب الحبل ثم يعقده حول ركبته، ورأى ديرك بيترز ينزل، وكان يتبعه تايغر الذي وثب فوراً إلى الداخل واستلقى على الأرضية. كان أوغسطوس هو الذي جاء بالكلب إلى متن السفينة لأنه يعرف مدى تعلّقي بالحيوان، فقد خُيّل إليه أنّ ذلك سوف يمنحني نوعاً من المُتعة إذا رافقني في الرحلة. كان قد اتّجه إلى منزلنا مُباشرة بعد أن أوصلني أول مرة إلى مخبأي، ولكنّه لم يذكر لي شيئاً عن هذا حين جلب الساعة. منذ أن وقع التمرّد، لم يُشاهد أوغسطوس ذلك الكلب حتى ظهوره مع ديرك بيترز، وكان يتصوّر أنّه ضائعٌ في مكان ما، أو أنّ أحد الأوغاد الذين ينتمون إلى عصابة وكيل الربّان ألقى به إلى البحر. ولكن اتّضح لاحقاً أنّ الكلب زحف فاختبأ داخل تجويفٍ في أحد [207]زوارق الصيد، هُناك لم تتوفّر لديه مساحة حتى للاستدارة، أو للتخلّص من الفضلات. ثم تمكّن بيترز من إخراجه، وتعامل معه بمشاعر ودية كان صديقي يعرف جيداً كيف يُقابلها بالامتنان، والآن أتى به معه إلى السلوقية كرفيق، وترك له في الوقت نفسه كمية قليلة من اللحم المُملح والبطاطا، مع علبة ماء، ثم صعد إلى الدكة، ووعده بأن يأتي له بشيء آخر ليأكله في اليوم التالي.

حين غادر بيترز المكان، حرر أوغسطوس يديه من الأصفاد وفك رباط قدميه. وبعدها قلب الفراش الذي كان ينام عليه، واستخدم سكينه (لأن المُتوحشين لم يظنوا أنّ الأمر يستحق تفتيش جيوبه) في عملية الحفر بشدة على جانبٍ من الحاجز الخشبي، عند موضع أقرب ما يكون إلى أرضية الحُجرة. لقد اختار أن يحفر هُنا لأنّ لو دخل عليه أي شخص فجأة سوف يستطيع أن يُخفي ما كان يقوم به بأن يترك طرف الفراش يسقط في موضعه المُناسب. ولكن لم يُزعجه أحد طوال ما تبقّى من اليوم، ومع حلول الظلام تمكن من فصل جزءٍ من اللوح. لا بُدّ أن نُلاحظ هُنا أنّ لا أحد من أفراد الطاقم كان يتّخذ تلك الحُجرة مكاناً للنوم، فقد اعتادوا النوم معاً في إحدى المقصورات منذ إعلان العصيان، وكانوا

يشربون ما شاؤوا من النبيذ ويُقيمون الولائم مُعتمدين على ما وجدوه من المؤن في مخازن القبطان بارنارد، ولم يلتفتوا أكثر مما تستدعي الضرورة إلى أي مسائل تتعلّق بالملاحة وتوجيه السفينة من قريب أو بعيد. وكانت هذه المُلابسات فيما يظهر مُفيدة لي ولأوغسطوس أيضاً؛ لو جرت الأمور على عكس هذا، لوجد صعوبة في الوصول إلى مخبأي. ولكن بما أنّ الأُمور سارت هكذا، فقد مضى يعمل وهو واثق من النجاح في خطته. ومع اقتراب الفجر، كاد أن ينتهي من قطع طبقة أُخرى من اللوح (وهي تبعد حوالى قدمٍ عن الطبقة الأُولى)، وبذلك تنفتح فجوة كافية لمروره منها بسهولة حتى يصل إِلى الطابق الأسفل للسفينة. وأخيراً بعد أن تحوّل إلى الجانب الآخر، تابع طريقه دون صعوبة باتّجاه الباب الأرضي، مع أنّه اضطر للزحف فوق صفوفٍ من براميل الزيت كان بعضها مكوماً فوق بعض حتى تكاد تصل إلى الدكة العليا، ولم يجد حيّزاً يكفي لجسده إلّا بصعوبة. لدى وصوله إلى باب القبو وجد تايغر يتبعه إلى الأسفل، وكان مُنحشراً بين صفين من البراميل. ولكن الوقت قد فات الآن للوصول إلى مخبأي إذ أوشك الفجر أن يبزغ، ولأنّ الصعوبة الأساسية تتمثّل في اجتياز مخزنٍ قريب في الطابق الأسفل أيضاً. وهكذا قرّر أن يرجع وينتظر الليلة التالية. ثم تقدّم وقد وطد العزم على تنفيذ الخطة التي تقتضي أن يرخي مزلاج الباب الأرضي حتى لا يعيقه شيءٌ قدر الإمكان حين يأتي من جديد. فما كاد يفعل ذلك حتى قفز تايغر [208]مُتلهفاً باتجاه الفجوة الصغيرة، وأخذ يشم بمنخريه لحظة، ثم أصدر أنيناً طويلاً، وكان في الوقت نفسه ينبش بمخالبه مُحاولاً رفع الغطاء. لم يكن هُناك مجال للشك، من خلال مُراقبة سلوكه، أنّه اكتشف رائحتي في المخبأ، وتصور أوغسطوس أنّ من المُحتمل أن يتمكّن الكلب من إيجاد مكاني إذا تركه ينزل. والآن ابتكر وسيلة لأن يبعث لي رسالة، لأنّ من الأفضل أن لا أقوم بأي مُحاولة للخروج من مخبأي على الأقل في مثل هذه الظروف، وليس من المُحقق أنّه سوف يتمكّن من الوصول إليّ بنفسه من الغد كما كان ينوي. لقد أثبتت الأحداث المُقبلة كم كنت محظوظاً لأنّ تلك الفكرة خطرت في ذهنه؛ فلولا الرسالة التي تلقيتها، لكنت من غير شك قد تصرّفت بطريقة أُخرى بدافع اليأس، ولأنذرت أفراد الطاقم، ولتعرضت حياتي وحياته للخطر، ولكان مصيرنا الهلاك حتماً.

بعد أن توصّل إلى قرارٍ بكتابة الرسالة، كانت الصعوبة تتمثّل الآن في العثور على المواد التي يستعملها في ذلك. ولكن سرعان ما تحوّل عودُ أسنان قديم إلى قلم؛ ولم يكن الأمر مع هذا سهلاً، لأنّ الظلام في الممرّات أسفل السفينة كان حالكاً كقطع الليل البهيم. وحصل صديقي على ما يكفي من ورقٍ للكتابة حين عثر على رسالةٍ مُهملة فاستخدم الجانب الآخر منها.. وهي نسخة مُطابقة لأصل الرسالة المُزيفة التي كان يُفترض أن يُرسلها السيد روس. وهذه كانت النسخة الأصلية؛ ولأنّ خط الكتابة لم يكن من اليسير تقليده، فقد كتب أوغسطوس رسالة أُخرى، وأودع الرسالة الأُولى في جيب معطفه، ولحس الحظ اكتشف وجودها الآن. ولم يبقَ سوى الحبر، ولكنّه وجد شيئاً بديلاً بعد وخزة طفيفة بالسكين الصغيرة على الإصبع فوق الظفر.. وتدفّق الدم غزيراً كالمُعتاد من جرحٍ يُصيب تلك المنطقة. وبدأ صديقي يكتب الرسالة الآن مُتوخّياً ما استطاع من دقة مُمكنة وسط الظّلمة وفي تلك الظروف الحرجة. وحاول أن يشرح فيها بإيجاز حدوث تمرّد؛ وأنّ القبطان بارنارد ألقي في البحر؛ وأنّ عليّ أن أتوقّع الخلاص في أقرب فرصة مُتاحة على أن يمدّني بالمؤن، ولكن ينبغي أن لا أُجازف بأي حركة طائشة. وانتهت الرسالة بهذه الكلمات: «كتبتُ هذه الحروف المُخربشة بالدم.. حياتُك تعتمد على أن تبقى مُختفياً».

بعد ربط قصاصة الورق على رأس الكلب، أنزله الآن من الباب الأرضي، وبذل أوغسطوس أقصى ما في وسعه للرجوع بسلام إلى مكانه في المقصورة، ولم يجد سبباً للاعتقاد بأنّ أي أحدٍ من أفراد الطاقم قد زاره أثناء غيابه. ومن أجل إخفاء الفجوة التي صنعها في الحاجز، ثبّت سكينه على الحائط فوقها وعلّق سترته التي وجدها في المقصورة. ثم أعاد الأصفاد إلى يديه، وكذلك قام بربط الَحبل حول كاحليه.

فما كاد ينتهي من هذه الترتيبات حتى نزل إليه ديرك بيترز، وكان ثملاً جدّاً، [209]ولكنه يتمتع بمزاج رائق، وقد أحضر له نصيبه من المؤن لذلك اليوم. وكانت المؤن تتضمّن ست قطعٍ من البطاطا الإيرلندية المشوية مع إبريقٍ مملوء بالماء. وجلس الرجل بعض الوقت على صندوقٍ قريب من الباب، وأخذ

يتحدّث بحرية عن وكيل الربّان وما إلى ذلك من المشاغل التافهة للموجودين على ظهر السفينة. كان الرجل مُتقلّب الأطوار غريباً في تصرفاته على نحو مُثيرٍ للخوف. وفي لحظةٍ ما أحسّ أوغسطوس بالفزع الشديد من تصرّفاته. ولكنّه ما لبث أن تركه وصعد إلى الدكة وهو يتمتم بوعدٍ في أن يأتي لسجينه بطعامٍ جيد من الغد. ونزل في ذلك اليوم أيضاً اثنان من أفراد الطاقم (الذين يمتهنون صيد الحيتان بالرماح)، يُرافقهم الطاهي، وكان ثلاثتهم في حالة يُرثى لها من السكر. مثلهم مثل بيترز، ولم يتردّد أي واحدٍ منهم في الكلام دون تحفّظ عن خطتهم. بدا واضحاً أنّهم كانوا مُنقسمين فيما بينهم بشأن خططهم وطريقة تنفيذها بشكلها النهائي، فلم يتّفقوا على مسألةٍ واحدة، ما عدا اتّفاقهم على أمر السفينة التي يتوقّع أن تأتي من جزر كيب فيرد، وكانوا يترقّبون قدومها ساعة بعد ساعة لكي يعترضوا طريقها. وقد تأكّد لصديقي آنذاك أنّ التمرّد لم يحصل على متن السفينة بقصد الحصول على الغنائم؛ كان السبب في الواقع يتعلّق بشجارٍ حصل فأدى إلى إثارة غضب وكيل الربّان من بارناد وذلك ما شكّل الحافز الأساسي لأعمال العصيان. الآن هُناك نوعان من الانقسامات الأساسية وسط أفراد الطاقم.. انقسام يقوده وكيل الربّان، والآخر يقوده الطاهي. الطرف الأول في النزاع رأوا ضرورة الاستيلاء على أوّل سفينة ذات حجم مُناسب قد تقترب منهم لاستخدامها في أعمال النهب والقرصنة عند جزر الهند الغربية. أما الطرف الثاني، وهو الأقوى، وكان ديرك بيترز من أفراده، فكانوا يميلون إلى مُتابعة مسارهم الأصلي حتى يصلوا إلى المُحيط المُتجمد الجنوبي؛ هُناك عليهم إمّا اصطياد الحيتان، أو التصرّف على نحو مُغاير، تبعاً لما تمليه عليهم الظروف المُستجدة. وكان المُنتمون إلى جماعة بيترز الذي سبق أن زار هذه المناطق عدة مرات، يُشكلون ثقلاً لا يستهان به، لأنّ المُتمردين فيما يظهر كانوا في حالة تذبذب بين آراءٍ غير ناضجة تغريهم بالسعي للربح وأُخرى تدفعهم إلى الانغماس في الملذات. أما بيترز فكان غارقاً في نشوة الأمل بالتجديد والطموح في أن ينال ما يسعى إليه من المُتعة حين يجد نفسه وسط عددٍ لا يُحصى من جزر الباسفيك، حينها يُمكن أن يحسّ بالأمان المُطلق والتحرّر من أي نوعٍ من القيود فيأخذ حظّه ما استطاع من الاستمتاع، على وجه التحديد، في مناخ مُعتدل، ويذوق ما لذّ وطاب، وينتشي

بالجمال الأنثوي ويستسلم للشهوات. ولكن إلى الآن لم يتقرّر شيءٌ نهائي؛ وكانت صورٌ هجينة تستولي بقوة على أدمغة وخيالات البحارة المُتوقدين حماسة، وبدا من المُحتمل في كل لحظة أن تأخذ نواياه سبلها إلى التطبيق.

غادر الرجال الثلاثة في غضون ساعة تقريباً، ولم يقتحم أحد بعد ذلك المقصورة طوال اليوم. وانبطح أوغسطوس في هدوءٍ تام حتى حلول الليل. وبعد [210]ذلك حرّر نفسه من الحبل والأصفاد، وتهيأ للقيام بمُحاولته. عثر على زجاجة في إحدى المقصورات فملأها بماءٍ من الدورق الذي تركه له بيترز، وملأ جيوبه في الوقت نفسه بالبطاطا الباردة. بإزاء فرحته الغامرة أيضاً فقد عثر على مِشكاةٍ فيها قطعة صغيرة من الشحم الحيواني. كان في وسعه أن يُشعل هذه الشمعة في أي لحظة لأن في جيبه علبة أعواد ثقاب فسفورية. ما إن حلّ الظلام، حتى خرج من الفجوة التي في الحاجز الفاصل، بعد أن اتّخذ كل ما يلزم من احتياطات لترتيب ملابس النوم في المهجع لكي توحي بوجود شخصٍ نائم مُغطى بالبطانيات. فلما نجح أخيراً في الخروج، علّق سترته البحرية على السكين التي ثبتها هُناك، كما فعل من قبل، لإخفاء الفتحة.. ونجحت مناورته تلك بسهولة، لأنّه لم يُرجع القطعة التي خلعها من اللوح إلى مكانها حتى وقت آخر. والآن أصبح داخل الممر الرئيسي في أسفل السفينة، وتقدّم في طريقه كما في السابق يزحف بين السقف وبراميل الزيت مُتوجهاً نحو باب القبو. لمّا وصل إلى هذه البقعة، أشعل القطعة المُتبقية من الشمعة، ونزلِ وهو يتلمّس طريقة بصعوبة بين أكوام مُتراصّة من المواد المخزونة في ذلك المكان. خلال بضع لحظات انتبه إلى رائحة كريهة لا تُطاق في ذلك الحيز المُغلق. ولم يتخيّل أنّني أستطيع البقاء على قيد الحياة في مُعتقلي مدة طويلة وأنا أتنفّس ذلك الهواء المُتعفّن. صاح باسمي مرة بعد مرة، ولكنّي لم أُجبه، وبدا أنّ مخاوفه تأكدت في الحال. وكانت السفينة تتأرجح بعنف، ولكن ليس ثمّة أي نوع من الضوضاء نتيجة ذلك التأرجح، كان من العبث الإصغاء عسى أن يأتيه أي صوتٍ واهن، مثل الأصوات التي تنبعث عن تنفّسي أو شخيري. فتح كوة المشكاة، وبقي مُمسكاً بها وهو يرفعها عالياً قدر الإمكان، وانتظر فرصة سانحة للخلاص من ذلك الوضع بإلقاء نظرة على مكان

سقوط الضوء، فربما وجدني حياً فأدرك أنّ النجدة آتية. ولكنه لم يسمع شيئاً، وبدأ يفترض أنّني ميت، وصار الافتراض يقترب رويداً من الحقيقة المؤكدة. ولكنه عقد العزم، رغم ذلك، على أن يمضي في طريقه، لو تمكّن من ذلك، نحو مخبأي في الصندوق، على أقل تقدير لا بدّ له أن يتأكد بما لا مجال فيه للشك من حقيقة فرضياته. واندفع بضع خطوات وهو في حالة يُرثى لها من التلهّف والارتباك، حتى اعترضه أخيراً ممرٌّ مُغلق، وعرف أنّ من غير المُمكن التقدم خطوة أُخرى على المسار الذي اختار المضي فيه. وهُنا دهمته مشاعر لم يستطع المُراوغة معها، وألقى نفسه على كومةٍ من ألواح الخشب واستسلم لليأس، وصار ينتحب كالطفل. في هذه المرحلة بعينها سمع صوت ارتطام زجاجة كنت قد رميتها هُناك. وكان لحسن الحظ، في الواقع، أن يحصل ذلك.. وإن كانت تلك [211]الحادثة تافهة في ما يبدو، إلا أنّ مصيري كان يعتمد عليها. ثمّ مضت على ذلك الحادث سنوات طويلة قبل أن أُدرك هذه الحقيقة. كان الخجل الطبيعي والندم على وهن قواه والتردّد من الأمور التي منعت أوغسطوس من البوح لي على الفور بذلك السرّ الذي كانت علاقتنا الحميمة غير المُتحفظة تحفّزه للكشف عنه. لما وجد صديقي طريقه مسدودة بعقبات لا يستطيع التغلّب عليها، قرر التخلي عن مُحاولاته للوصول إلى مكاني الذي أختبئ فيه، ورأى أنّ من الأفضل الرجوع حالاً إلى المقصورة. قبل أن نتعجّل في إدانته على قراره، ينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار الظروف التي واجهته آنذاك. كان الليل يقترب سريعاً من نهايته، وربّما اكتشف الآخرون غيابه؛ في الواقع، ذلك ما سيحدث حتماً لو أنّه أخفق في الرجوع قبل بزوغ الفجر. وكانت شمعته على وشك أن تنطفئ في المِشكاة، وسوف يواجه صعوبة جسيمة في إيجاد طريقه نحو باب القبو في الظلام. لا بدّ من القول أيضاً إنّه كانت لديه أسباب وجيهة للاعتقاد بأنّي ميت؛ وفي هذه الحال فلن ينفعني إذا وصل إلى مخبأي، وسوف يواجه بنفسه صعوبات جمّة دون جدوى. وكان صاحبي يأتي مرات عديدة لي، ولكنّي لم أرد على ندائه. لقد مضى إلى الآن أحد عشر يوماً وليلة دون نصيبٍ من الماء أكثر مما يحتويه الدورق الذي تركه معي.. وهي كمية من المُحتمل جدّاً أن أكون قد شربتها في بداية سجني، لأنّه كان لدي من الأسباب ما يدفعني لأن أتوقّع الخروج من

مكاني خلال وقت قريب. ولا بدّ أن يكون الهواء في المخبأ أيضاً، كما بدا له، والذي يتسرب من الحيز المفتوح نسبياً على قمرة القيادة ذا طبيعة خانقة جدّاً، وغير قابل للاحتمال أكثر مما توهّمت أول مرة حين دخلت إلى الصندوق.. إذ كانت الأبواب المؤدية إلى الطابق السفلي حينئذ مفتوحة على الدوام منذ عدة أشهر. فإذا أضفنا إلى هذه الاعتبارات ما وقع من مشهد إراقة الدماء والرعب الذي شهده صديقي مؤخراً؛ فإنّ احتجازه، وحرمانه من الأكل والشرب، ومجالات الفرار الضيقة من الموت، فضلاً عن الضعف والأجواء المُريبة التي كان لا يزال يعيش فيها.. كلها مُلابسات جاءت بطريقة مُنسقة لتقويض أي قدرة على التفكير السليم.. ويقيناً سوف يفهم القارئ في سهولةٍ ويسر، كما فهمت أنا، أنّ فشل صديقي في الإيفاء بمُتطلبات الصداقة وفي التعبير عن عواطفه بإخلاص يعود إلى الحزن وليس إلى الحنق.

كان ارتطام الزجاجة مسموعاً على نحو قابل للتمييز، إلّا أنّ أوغسطوس لم يكن واثقاً مما إذا كان الصوت صادراً من القبو. ومع ذلك كان الشك كافياً لأن يدفعه إلى التأكد من الأمر. تسلّق حتى وصل إلى مكانٍ قريب من الدكة السفلى مُستخدماً في ذلك ما موجود من المواد المخزونة، ثم أخذ يترقّب استقرار حركة السفينة [212]المُتمايلة، وأخيراً ناداني بنبرة مُنخفضة ما استطاع ذلك، بصرف النظر في تلك اللحظة عما إذا كان هُناك شخصٌ ما يسمعه من أفراد الطاقم. لا بدّ أن يتذكّر القارئ أنّ الصوت في هذه المرة وصل إلى أُذني، ولكني كنت في حالة يُرثى لها بحيث لا تسمح لي بالرد. وهُنا تأكدت أسوأ توجسات صديقي وأصبحت تستند إلى دليلٍ قاطع، فلم يتردد في النزول، على أمل الرجوع إلى المقصورة دون إهدار المزيد من الوقت. أثناء حركته المُتعجلة في النزول تدحرجت بعض الصناديق الصغيرة، وأدّت الضوضاء التي نتجت عن ذلك إلى إيقاظي من غيبوبتي، كما ذكرتُ سابقاً. كان صديقي قد حقّق تقدّماً لا بأس به في عودته حتى سقطت السكين وجعلته يقف مُتردداً مرة أُخرى. وتقهقرت خطواته على الفور، وتسلّق الصناديق المخزونة، وصاح باسمي بصوت مُرتفع مثل السابق، بعد أن انتظر حتى تهدأ حركة السفينة. في هذه المرة أسعفني صوتي

فرددت عليه. هُنا اجتاحه حبورٌ غامر حين اكتشف أنّني ما زلت حياً، وقرر بشجاعة أن يتحدّى أي صعوباتٍ أو مخاطر للوصول إلى مكاني. وبعد أن تمكّن من تحرير نفسه بالسرعة المُمكنة من متاهة ألواح الخشب التي كان مُقيداً وسطها، اندفع نحو ثغرة تُبشّر بالخلاص، وأخيراً بعد سلسلة من المُحاولات وصل إلى المخبأ وهو في حالة فظيعة من الإعياء.

الفصل (6)

تعتمد التفاصيل البارزة التي وردت ضمن هذا السرد على ما نقله لي أوغسطوس حين كنّا على مقربة من الصندوق. لم يحصل إلا في وقت لاحق أن تطرّق إلى التفاصيل كاملة. كان يخشى أن يضلّ طريقه في أي لحظة، وأنا أتحرّق شوقاً لأن أُغادر مكاني البغيض الذي احتجزتُ فيه. وقررنا معاً أن نمضي باتّجاه الفجوة التي فتحها في الحاجز، وكان يتحتّم عليّ البقاء هُناك في الوقت الحالي، بينما أراد هو استكشاف الوضع. ولم يتحمّل أي واحد منا أن يترك تايغر في الصندوق، ولكن لم يكن أمامنا اختيارٌ آخر. بدا الكلب الآن هادئاً جدّاً، فلم نسمع آنذاك حتى أنفاسه لدى تقريب آذاننا من الصندوق. كنت على ثقة من أنّ الكلب ميت، وقرّرت فتح الباب. ووجدناه مُنبطحاً هُناك، كان في ما يبدو في حالة إغماءٍ، ولكنّه لا يزال حيّاً. ولم يكن ثمّة وقت يُهدر، مع أنّي لم أتمكّن من إقناع نفسي بترك الحيوان الذي أنقذ حياتي مرتين، دون أن أبذل مُحاولة لإنقاذه. لذلك سحبناه معنا بما استطعنا بذله من جهدٍ، وعانينا في ذلك صعوبات لا توصف؛ بما أنّ أوغسطوس، خلال ذلك الوقت، كان يضطر للتسلّق فوق العوائق التي تعترض طريقنا مُصطحباً كلباً ضخماً [213]بين ذراعيه.. وهو شيء عجزت عن القيام به لضعفي. وفي نهاية المطاف نجحنا في الوصول إلى الفجوة، وحينها دخل أوغسطوس عبرها، ودفعت إليه تايغر. واتّضح أنّ كل ما قمنا به لم يُثر الانتباه، فحمدنا الله على نجاتنا من خطرٍ مُحدق يتربّص بنا. وهُنا اتفقنا على أن أبقى بالقرب من الفجوة، ويُمكن لرفيقي بسهولة أن يزوّدني بجزء من نصيبه اليومي من الطعام والشراب، حيث تُتاح لي فرصة لتنفّس هواءٍ نقي نسبياً.

تفسيراً لبعض جوانب هذا السرد، حين تكلّمتُ عن قبو السفينة، قد يبدو الأمر مشوباً بنوع من الغموض بالنسبة إلى بعض قُرائي الذين لعلهم رأوا في حياتهم مُستودعاً نظامياً حسن الترتيب، ينبغي التأكيد هُنا على أنّ الطريقة التي أُنجز فيها مثل هذا العمل المُهم، أي تنظيم المخزن، على سفينة غرامبوس كانت غاية في الإهمال من جانب القبطان بارنارد، فهذا الرجل لم يتوَخّ أي عناية شأنه في ذلك شأن أي بحّار مُتمرّس لمسألة ذات طبيعة يُمكن أن تكون محفوفة بالمخاطر ويبدو أنّها تتطلّب بالضرورة أن يوليها المرء اهتماماً خاصّاً. لا يُمكن بأي حال خزن المواد المُهمة على ذلك النحو العشوائي، ونحن نعرف أنّ الكثير من الكوارث والمآسي، حتى ضمن تجربتي المُتواضعة، وقعت نتيجة للإهمال أو الجهل في هذا الجانب على وجه التحديد. تتعرّض كثيرٌ من المراكب الشراعية، بسبب الفوضى التي تحصل أثناء إدخال وإخراج البضائع من مخازنها، في كثير من الأحيان، إلى حوادث مؤسفة تنجم عن عدم توخّي الحيطة والحذر في خزن البضائع. تتلخّص المسألة الأساسية التي ينبغي أن تؤخذ بنظر الاعتبار هُنا في عدم السماح لاحتمال أن تُعرّض البضاعة أو أثقال الموازنة إلى التزحزح عن مواقعها حتى تزامناً مع أعنف أشكال التأرجح الذي تواجهه السفينة. بإزاء هذا الهدف، لا بُدّ أن يُبذل أقصى اهتمام، ليس من حيث كمية المواد المخزونة فحسب، وإنّما أن تؤخذ طبيعة المواد نفسها بنظر الاعتبار، وفيما إذا كان هُناك خزينٌ كامل يملأ المخزن كله أم جزئي. في جميع أنواع الشحن تتمّ عملية الخزن من خلال دحرجة المواد أو زحزحتها من مكان إلى مكان. ولهذا، في حمولةٍ من التبغ أو الطحين مثلاً، تُحرّك البضاعة كلها ويُرصف بعضها مع بعض بإحكام داخل مُستودع المركب بحيث إنّ الأكياس أو البراميل، لدى إخراجها تكتشف في حالة مُتضررة شاملة، وتحتاج إلى بعض الوقت لاسترداد شكلها الأصلي. وذلك الانبعاج عندما يعود إلى حالته الطبيعية سوف يؤدي إلى إشغال حيزٍ أكبر من السابق في المخزن؛ وفي حال وجود حمولة كاملة من البضائع كالطحين أو التبغ، ربّما لا ينشأ خطر عن تغيّر في الحجم، على أقلّ تقدير لن يؤدي ذلك إلى أي نوع من المتاعب. ولكن حصلت بعض الحالات في الواقع أدّت فيها طريقة الشحن الرديئة إلى أسوأ الكوارث، وربّما مردّها على كل حال إلى شيءٍ بعيد كل

البعد عن خطر تزحزح البضاعة من مكانها. إنّ حمولة من القطن، [214]على سبيل المثال، إذا ما حُشرت حشراً ضمن مكانٍ ضيّق وفي ظروف خزنٍ تعيسة، وهو شيء معروف على نطاق واسع، فمن خلال تمدّد حجمها يُمكن أن تؤدي لاحقاً إلى غرق السفينة في عرض البحر. وليس من شكّ أيضاً في أنّ النتيجة نفسها تحصل في حالة خزن التبغ، ضمن سياق عملية التخمّر الاعتيادية التي تطرأ عليه، فضلاً عمّا ينتج من تضاعف حجم الأكياس التي يُعبأ فيها.

ولكن الخطر يتفاقم أساساً حين تُعبأ في المخازن بضاعة لا تكفي لإشغال كل الحيز المُتوفر، حينئذ يُخشى من خطر تحول المواد المخزونة عن مواضعها، فلا بُدّ من اتّخاذ الاحتياطات دائماً للحيلولة دون حدوث عواقب وخيمة. لا يعرف هذا سوى الأشخاص الذين سبق أن واجهوا عاصفة عاتية، أو بالأحرى أولئك الذين جرّبوا تأرجح السفينة على حين فجأة ثم عودتها إلى حالتها المُستقرة الأُولى عقب العاصفة، إنّهم يحملون فكرة عن القوة المُذهلة التي تنتج عن غطس السفينة، وعن الكوارث التي تُسبّبها بضاعة غير مُثبتة في أماكنها الصحيحة في الأقبية. حينئذ تتّضح ضرورة توخّي الحذر التام في الخزن، مع وجود جزءٍ من البضائع في حالة سائبة. لدى توقّف السفينة وثباتها في مكانها (خاصة إذا كانت ذات أشرعة صغيرة مُهلهلة)، فإذا لم تكن متينة بصورة كافية في قيدومها غالباً ما تميل في حركة خطرة إلى جوانبها؛ ولعل هذا يحدث كل خمس عشرة أو عشرين دقيقة في المتوسط، إلّا أنّ الأمر قد لا يؤدي إلى نتائج خطرة دائماً، شريطة أن تكون المواد مخزونة خزناً صحيحاً. ولكن على عكس ذلك، لو كان هُناك إهمال في الخزن لدى أول تأرجحٍ شديد سوف تنقلب البضاعة المشحونة كلها إلى أحد جوانب السفينة والأقرب ما يكون إلى الماء، وذلك من شأنه أن يحول دون عودتها إلى وضعها السابق واستعادة توازنها، كما هو مُتوقّع في الحالات الطبيعية، ومن المُحقق عندئذٍ أن تمتلئ السفينة بالمياه في غضون بضع ثوان وتنزل إلى الأعماق. ليس من الإسراف القول: إن على أقلّ تقدير نصف الحوادث التي تؤدي إلى غرق السفن في ظروف العواصف ربما يُعزى سببها إلى تزحزح البضائع أو أثقال المُوازنة عن مواضعها.

لدى تحميل جزءٍ من البضائع من أي نوع على متن السفينة، ينبغي أن

تُغطى جميع الصناديق، بعد خزنها ورصفها أولاً بعضها مع بعض بشكل مُحكم قدر الإمكان، بطبقة من ألواح التحميل الخشبية المتينة التي تمتد على طول الحيّز الموجود في مخزن السفينة. وفوق هذه الألواح توضع دعامات مؤقتة تصل إلى السقف، وبذلك تضمن سلامة كل شيء وبقاءه في مكانه. أما عند خزن بضاعة من الحبوب مثلاً، أو أي شيء مُماثل، فلا بدّ من اتّباع احتياطات إضافية. فالمخزن المملوء حتى آخره بالحبوب لدى مُغادرة المرفأ سوف يكتشف المُراقبون أنّه لا يحتوي على أكثر من ثلاثة أرباع المادة لدى وصول السفينة إلى ميناء التفريغ.. هذا ما يحدث حقّاً، مع أنّ البضاعة المشحونة حين تُقاس بالمكاييل من قبل المُستلم، سوف يتجاوز حجمها بمقدار كبير (بسبب انتفاخ الحبوب) كمية البضاعة المُسجلة لدى الإرسال. يحدث هذا نتيجة لاستقرار البضاعة وركودها أثناء الرحلة، وهي نتيجة تكون ملموسة أكثر اعتماداً على حالة المناخ الذي تواجهه السفينة أثناء [215]رحلتها. إذا أُلقيت الحبوب سائبة هكذا، دون أكياسٍ في المركب، أو دون أن تُسند الأكياس بألواح خشبية أو دعامات، فمن المُرجح كثيراً أن تتناثر الحبوب من مكان إلى مكان في رحلة طويلة تقطعها السفينة وهذا ما يتسبّب في حدوث متاعب أو كوارث فظيعة. بُغية تفادي هذه الأمور، ينبغي اتّباع جميع إجراءات الأمان الضرورية قبل مُغادرة المرفأ بأن تُثبّت البضاعة المشحونة في أماكنها المُناسبة قدر الإمكان؛ ولهذا الغرض توجد كثيرٌ من الوسائل المُبتكرة، ربما نذكر منها الأوتاد التي تُثبّت أكياس الحبوب. وحتى بعد القيام بجميع هذه الإجراءات، وبذل جهود استثنائية في تأمين سلامة البضاعة وتثبيتها بالألواح، فلن يشعر أي نوتي بالأمان أبداً مع هبوب العواصف لو كانت لديه بضاعة من الحبوب على متن سفينته، والشيء نفسه يحصل في حال وجود بضَاعة تملأ المخازن جُزئياً. ومع ذلك فهُناك المئات من مراكبنا التي تجوب السواحل، ومن المُحتمل أيضاً أن توجد الكثير من الزوارق التي تُبحر يومياً من موانئ أوروبا وعلى متنها كميات مُحدّدة من البضائع، وربّما تكون من أنواع خطيرة، ولم يتبع أحد أي احتياطات أمانٍ في خزنها. العجيب أن لا حوادث تحصل أكثر من المألوف. ولكن المثال المؤسف عن هذا الإهمال حصل كما أعتقد في حالة القبطان جويل رايس ومركبه الشراعي فايرفلاي، الذي أبحر من

ريتشموند، فرجينيا، إلى ماديرا، وكان على متنه حمولة من الذُّرة، كان ذلك في سنة 1825. وقد قام القبطان برحلات عديدة دون مواجهة أي حوادث خطيرة، مع أنّه كان مُعتاداً أن لا يولي أدنى اهتمام بطريقة خزن الحمولة التي ينقلها، وإنّما يودعها في المُستودع كيفما اتّفق. ولكن لم يسبق له أبداً أن أبحر وعلى متن مركبه حمولة من الحبوب، في هذه الرحلة كانت الذُّرة مُلقاة في المُستودع دون اكتراثٍ بتثبيتها بأي وسيلة، ولم يكن حجمها يملأ أكثر من نصف سعة أقبية المركب. خلال المرحلة الأُولى من تلك الرحلة لم تواجهه غير رياح خفيفة؛ ولم يبق على وصوله إلى ماديرا سوى يوم من الإبحار، حتى هبّت عاصفة شديدة من الشمال إلى الشمال الشرقي وأجبرته على الانحراف بقوة. حاول أن يُدير المركب باتّجاه الرياح باستخدام شراع أمامي مُزدوج ليس غير، فركبت السفينة فوق الأمواج بكفاءة كما يتوقّع من أي سفينة مُماثلة لها، واستمرّت دون أن تغمرها المياه. ومع حلول الليل تلاشت حدّة العاصفة بعض الشيء، ولبثت السفينة تتدحرج على البحر بعدم توازن أكثر من قبل، إلّا أنّها ظلّت تُكافح فترة حتى تقاذفتها تيارات عنيفة وجعلت دعامات مُقدمتها تميل نحو الميمنة. سمع البحارة حينذاك أكياس الذُرة تتحرّك هُنا وهُناك، وأدّت تلك القوى المُتحركة إلى فتح أحد بوابات القبو الرئيسية. وإن هي إلّا أن اتّجهت السفينة نحو الأعماق كالرصاصة. حدث هذا على مسمع وبصر طاقم سفينة شراعية صغيرة كانت تُبحر بعيداً عن ماديرا، وتمكّنوا من انتشال رجلٍ واحد (الوحيد الذي نجا)، بينما كانوا يُبحرون في أمان وسط العاصفة، كما يفعل في الواقع أي زورق رشيق الحركة إذا أحسن القبطان إدارته وتوجيهه.

كانت البضاعة مخزونة في أقبية سفينة غرامبوس في حالة يُرثى لها، لو كان [216]هذا الاسم ينطبق على خليطٍ فوضوي من براميل الزيت مُلقى بعضه فوق بعض(*1) وما إلى ذلك من أثاث السفن. لقد تكلمت قبل قليل عن حالة المواد

(*1) تُزوّد مراكب صيد الحيتان في العادة بخزانات زيتٍ مصنوعة من الحديد.. أمّا لماذا لم يكن ذلك موجوداً في سفينة غرامبوس، فذلك شيء لم أستطع أبداً معرفته على وجه اليقين. (المؤلف)

في المخزن. على الدّكة السفلى للسفينة هُناك حيّزٌ بالكاد يكفي لجسدي (كما أشرت سابقاً) بين براميل الزيت والدّكة العُليا؛ ومجالٌ آخر متروك قُرب باب القبو الرئيسي؛ وعدة أماكن واسعة تُركت فارغة في القبو. بالقرب من الفجوة التي قطعها أوغسطوس في الحاجز هُناك مساحة تكفي لوضع برميل ضخم، في هذا المكان وجدت نفسي أجلس مُرتاحاً في الوقت الحاضر.

عندما دخل صديقي من الفجوة بأمان، أعاد أصفاده إلى يديه فضلاً عن الحبل، بعد أن أشرقت الشمس وأنارت المكان بضيائها الوهاج. لم نتمكّن من إتمام خطة هربنا في الواقع، فما كاد صديقي يُرتّب جميع الأمور، حتى نزل وكيل الربّان برفقة ديرك بيترز والطاهي. أخذوا يتحدّثون بعض الوقت عن ذلك المركب الذي سوف يأتي من كيب فيرد، وكان يبدو عليهم أنّهم مُتلهفون كثيراً لظهوره. وأخيراً اقترب الطاهي من المهجع الذي يرقد فيه أوغسطوس، وجلس قرب رأسه. كنت أستطيع أن أرى وأسمع كل شيء من مكاني الذي أختبئ فيه، لأنّ القطعة التي اقتلعت من الحاجز لم تكن قد أعيدت إلى موضعها، وتوقّعت بين لحظة ولحظة أن يتّكئ الزنجي على سترة البحر التي تتعلّق على الحائط لتخفي الفجوة، ثم يفتضح أمرنا، ويُضحّى بنا على الفور. غير أنّ الحظ حالفنا؛ مع أنّه كان يقترب فيُلامسها من الحين إلى الحين مع تمايل السفينة، إلّا أنّ جسمه لم يضغط عليها بما يكفي لافتضاح الأمر. كان بطن السترة مُثبتاً في عنايةٍ على الحاجز، بحيث لم تبرز الفتحة حتى مع الميلان إلى هذا الجانب أو ذاك. طوال هذا الوقت كان تايغر مُنبطحاً على الأرض بالقرب من المهجع، ويبدو عليه أنّه استعاد شيئاً من قُدراته، لأنّي رأيته أحياناً يفتح عينيه ويستنشق أنفاساً طويلة.

بعد بضع دقائق غادر وكيل الربّان والطاهي تاركين ديرك بيترز خلفهما، وحالما ذهبا جاء هذا فجلس في الموضع الذي كان يُشغله وكيل الربّان قبله. ثم بدأ يتحدّث في ودّية أكبر مع أوغسطوس، وكان في وسعنا الآن تلمّس علامات الثمالة واضحة عليه، لما كان الرجلان الآخران معه، كان في الواقع يُحاول خداعنا. صار يرد على أسئلة رفيقي في غير تحفّظ؛ وأخبره أنّه لا يُساوره الشك في أنّ والده [217]نجا بطريقة أو بأُخرى، إذ كانت هُناك على أقل تقدير خمسة زوارق شراعية

ضمن مدى البصر قبل غروب الشمس في اليوم الذي ألقي فيه إلى البحر؛ واستخدم لُغة مُختلفة في مواساته، وذلك ما أصابني بدهشة لا تقلّ عن البهجة التي غمرت روحي. في حقيقة الأمر، بدأت الآن أتلمّس بصيصاً من الأمل، فمن خلال مساعدة بيترز لعلنا نتمكن من استعادة السيطرة على السفينة أخيراً، وأطلعت اوغسطوس على الفكرة حالما وجدت فرصة لذلك. عندئذ خُيّل إليه أنّ الأمر مُمكن، ولكنه طلب توخّي أقصى درجات الحذر في الإقدام على هذه المُحاولة المحفوفة بالمخاطر، لأنّ تصرفات ذلك الملاح الهجين يبدو أنّها تخضع لأكثر النزوات الاعتباطية؛ في الواقع كان من الصعوبة تخمين ما إذا كان في لحظة من اللحظات لديه عقل راجح. ذهب بيترز إلى شأنه بعد ساعة تقريباً، ولم يرجع حتى الظهيرة، وجلب لأوغسطوس شريحة من لحم البقر مع صنفٍ من الحلوى. وتناولت نصيبي من هذه الوجبة، عندما تركنا وحدنا، مُستمتعاً بذلك، دون أن أعود إلى مكاني عبر الفجوة. لم يأتِ أحد إلى مقصورتنا خلال ما تبقّى من النهار، وكذلك أثناء الليل، فدخلت إلى مهجع أوغسطوس، حيث نمت نوماً هانئاً حتى اقتراب الفجر، ثم ما لبث أن أيقظني لدى سماعه جلبة على السطح، فعُدت إلى مخبأي بأقصى سرعة. مع انتصاف النهار وجدنا تايغر عاد إلى نشاطه المعهود تقريباً، ولم تبدُ عليه علامات تدلّ على إصابته بداء الكلب، فشرب الماء القليل الذي قُدّم إليه في تلهّف واضح. أثناء النهار لاحظنا أنه استردّ حماسته وشهيته. لقد نتج تصرّفه المُستهجن سابقاً فيما يظهر عن الهواء المُتعفن الذي تشبّع به القبو، ولا علاقة له بما يُسمى جنون الكلاب. لم أستطع التعبير عن فرحتي لأنّي أصررت على جلبه معي إلى خارج الصندوق. كان هذا في الثلاثين من حزيران، اليوم الثالث عشر منذ أن بدأت سفينة غرامبوس رحلتها المأساوية من نانتوكيت.

في اليوم الثاني من تموز نزل وكيل الربّان وهو ثمل كعادته، مع أنّه لم يتخلّ عن روحه الفكاهة التي صار يتحلى بها مؤخراً. فاقترب من مهجع أوغسطوس، ولطمه في رفقٍ على قفاه، ثم سأله إن كان يستطيع الوثوق بحُسن تصرّفه لو أطلق سراحه وفكّ عنه الأصفاد، وتساءل إن كان سيعطيه وعداً بأن لا يدخل القمرة مرة ثانية. بإزاء هذا طبعاً، أجاب صديقي بأنّه حتماً سوف يفعل ما يطلبه، فأطلق ذلك الشرير سراحه، بعد أن أقنعه بالشرب من قارورة الرم التي

سحبها من جيب معطفه. وهُنا خرج الاثنان معاً، ولم أُشاهد أوغسطوس طوال ثلاث ساعات. ثم نزل صديقي وهو يحمل أخباراً مُفرحة فقال: إنّهم سمحوا له بالتجوّل في أرجاء السفينة كما يشاء بل حتى في مكان قريب من الصاري الرئيسي، وكذلك طلبوا إليه أن ينام [218]في مقصورته كما في السابق. وأحضر لي أيضاً طعام عشاءٍ جيد وكمية جيدة من الماء. وظلّت السفينة تُبحر بحثاً عن المركب الذي غادر كيب فيرد، وهُنا استطاعوا رؤية شراعٍ يلوح من بعيد، وتصوروا أنّه هدفهم المنشود. ولأنّ الحوادث التي حصلت في الأيام الثمانية اللّاحقة ليس لها أهمية تذكر، ولا صلة لها بالمغزى الأساسي لهذا السرد، سوف أتجاهلها هُنا أو بالأحرى أتطرّق إليها وفقاً للصيغة التي تتبع في المجلّات، لأنّي لا أرغب في حذفها كلها.

3 تموز. زوّدني أوغسطوس بثلاث بطانيات، وتمكّنت من ترتيب فراشٍ مُريح في مخبأي. لم ينزل أحدٌ باستثناء رفيقي طوال هذا اليوم. اتّخذ تايغر موقعه في المهجع قريباً من الفجوة، وكان ينام نوماً ثقيلاً، كأنّه لم يتعافى كلياً من تأثيرات المرض الذي أصابه. ومع اقتراب الليل واجهت السفينة رياحاً عاتية قبل أن يفلح البحارة في إنزال الأشرعة، وكانت تتمايل وتكاد تنقلب. إلّا أنّ الرياح سرعان ما تلاشت، ولم تقع أضرارٌ جسيمة باستثناء تمزّق الشراع الأمامي الأعلى. وتعامل ديرك بيترز مع أوغسطوس في هذا اليوم بلطفٍ جمّ ودخل معه في مُحادثة طويلة عن المحيط الهادئ، والجزر التي زارها في تلك الأصقاع. وسأله عمّا إذا كان يحب الانضمام إلى المُتمردين في نوع من الرحلات الاستكشافية التي سوف يجدها مُمتعة حتماً، وقال: إنّ الرجال أصبحوا يميلون تدريجياً إلى وجهة نظر وكيل الربّان. ورأى أوغسطوس أنّ من الأفضل الرد عليه بإبَداء استعداده للانضمام إليهم في تلك المُغامرة، فلا شيء أمامه أفضل من هذا الادّعاء، وقال: إنّ لا شيء مُحبّذ لديه أكثر من حياة القراصنة.

4 تموز. اتّضح أنّ المركب الذي شاهدوه يلوح على الأُفق كان سفينة صغيرة قادمة من ليفربول، وسمحوا لها بالعبور دون تحرّش. أمضى أوغسطوس مُعظم الوقت في الطابق الأعلى، على أمل الحصول على ما أمكن من

المعلومات عن نوايا المُتمردين. وكانوا بين الفينة والفينة يتشاجرون فيما بينهم وربما وصل الأمر إلى العراك، وذات مرة حصل أن رموا صياد الحيتان، جيم بونر، من على متن السفينة إلى البحر. ومع الأيام اكتسبت جماعة وكيل الربّان منزلة أقوى تُتيح لها فرض الرأي عنوة. وكان جيم بونر ينتمي إلى جماعة الطاهي التي يُناصرها بيترز.

5 تموز. مع بزوغ الفجر تقريباً كانت النسائم تزداد قوة من الغرب، وعند الظهيرة دهمتنا رياحٌ عاتية، بحيث لم يعُد الرجال في السفينة قادرين على رفع أشرعتها باستثناء شراع العواصف والشراع الأمامي. لدى مُحاولة سحب الشراع الأمامي الأعلى، سقط سيمز، وهو عاملٌ بسيط ينتمي أيضاً إلى جماعة الطاهي، من على السطح وكان في حالة فظيعة من الخدر بسبب الكحول، فابتلعته الأمواج.. لم تبذل أي مُحاولة لإنقاذه. والآن أصبح العدد الكلّي للأشخاص الذين على متن السفينة ثلاثة عشر فرداً، وهم كلٌّ من: ديرك بيترز؛ سايمور الطاهي الزنجي؛ غريلي جونز، هارتمان روجرز، وليم ألن، وكلهم من جماعة الطاهي؛ فضلاً عن وكيل [219]الربّان الذي لم أعرف اسمه أبداً؛ إبسالوم هيكز، ولسون، جون هنتي ريشارد باركر، وهم جماعة وكيل الربّان.. إلى جانب أوغسطوس وأنا نفسي.

6 تموز. لم تتوقّف العاصفة هذا اليوم، وكانت تأتي في نوباتٍ مُتتالية عنيفة، يُصاحبها هطول المطر. اجتاحت السفينة كميات هائلة من المياه عبر فجوات بين حواجزها، وظلّت إحدى المضخات تعمل دون توقّف، واضطّر أوغسطوس لأن يُشاركهم في العمل. مع الغروب تقريباً مرّت بنا سفينة ضخمة، لم ينتبه إليها أحد حتى اقتربت وأصبح في وسعنا سماع أصوات مَنْ عليها. كان يفترض أن تكون هذه السفينة من الأهداف التي يسعى إليها المُتمردون. وصاح وكيل الربّان على مَنْ فيها، إلّا أنّ صوته تبدّد وسط زمجرة العاصفة. في الساعة الحادية عشرة، ارتطمت موجة جبارة على ألواح مُنتصف السفينة، ومزّقت جانباً من حواجز الميسرة، وألحقت بعض الأضرار الطفيفة. ومع اقتراب الفجر اعتدل الجو من جديد، وجاءتنا نسائم خفيفة تزامناً مع الشروق.

7 تموز. بقيت أمواجُ البحر هائجة في تثاقلٍ طوال هذا اليوم، خلال هذه الفترة كانت السفينة تمضي في مهبّ الريح كالريشة، وانفصلت كثيرٌ من المواد عن مواضعها وصارت تتدحرج في المخزن، وكان في وسعي سماع تلك الضوضاء بوضوح من مخبأي. كنت أُعاني من حالة فظيعة من دوار البحر. وتكلّم بيترز مع أوغسطوس طويلاً خلال هذا اليوم، وأخبره أنّ رجلين من جماعته، وهما غريلي وألن، قد التحقا بجماعة وكيل الربّان ووطدا العزم على اللّجوء إلى القراصنة. وألقى على أوغسطوس أسئلة عدة عن أمور لم يفهمها آنذاك فهماً دقيقاً. أثناء جانبٍ من هذا المساء حدث تسرّب خطير للمياه؛ ولم يكن هُناك شيء يُمكن أن يفعل لتدارك الموقف، لأنّ ما حدث كان بسبب الإجهاد الذي تعرّض له هيكل السفينة واجتياح المياه لشقوقٍ بين ألواحها. انفلت أحد الأشرعة من مكانه مُصدراً طنيناً عالياً، وسقط تحت حواجز في المُقدمة، وذلك ساعدنا بعض الشيء، حتى بدأنا نتغلّب على تسرّب المياه.

8 تموز. مع غروب الشمس لم يبقَ إلّا نسيم لطيف يهب من الشرق، عندها قام وكيل الربّان بتوجيه السفينة إلى الجنوب الغربي، وذلك بقصد أن يجعل بعض جزر الهند الغربية هدفاً لعمليات القرصنة. لم يعترض بيترز على تلك الخطة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الطاهي.. على أقلّ تقدير، كما يظن أوغسطوس. وتخلّى القراصنة عن فكرة الاستيلاء على السفينة القادمة من كيب فيرد. تمّت السيطرة بسهولة الآن على تسرّب المياه باستخدام إحدى المضخات التي كانت تعمل كل ثلاثة أرباع الساعة. وسُحب الشراع من مُقدمة السفينة. ومرّ بنا زورقان صغيران خلال ذلك النهار.

9 تموز. طقسٌ جميل. انشغل البحارة جميعاً بتصليح حواجز السفينة فوق السطح. وتحدّث بيترز مرة أخرى طويلاً مع أوغسطوس، تكلّم معه في صراحة [220]أكثر من السابق. قال: إن لا شيء يُمكن أن يجعله يلتقي بوكيل الربّان، حتى إنّه ألمح إلى نواياه في الاستيلاء على السفينة. وسأل صديقي إن كان يُمكنه الاعتماد عليه في تنفيذ الخطة، عندها قال أوغسطوس: «نعم»، في غير تردّد. بعد ذلك قال بيترز: إنّه سوف يُطلع جماعته على هذا، وذهب في الحال. أثناء ما تبقّى من النهار لم تتوفّر لاوغسطوس فرصة أُخرى للتحدّث معه على انفراد.

الفصل (7)

10 تموز. مرّت بنا سفينة قادمة من ريو، وكانت تتّجه إلى نورفولك. الطقس غائمٌ مصحوب بضبابٍ كثيف، مع رياحٍ لطيفة مُضطربة بعض الشيء من جهة الشرق. اليوم توفي هارتمان روجرز بعد أن أُصيب في اليوم الثامن من هذا الشهر بنوبات تقلّص عضلي على أثر جرعة مُفرطة من شراب كروغ. هذا الرجل كان من أتباع الطاهي، ومن الأشخاص الذين وضع فيهم بيترز ثقته. لقد أخبر أوغسطوس باعتقاده أنّ وكيل الربّان دسّ له السُّم، وأنّه يتوقع، أن يأتي دوره هو الآخر عاجلاً إذا لم يتوخَّ الحذر. لم يبقَ الآن من الذين ينتمون إلى جماعته سوى أنا، وجونز، والطاهي.. وفي الجانب الآخر هُناك خمسة أشخاص. وكان الرجل قد تحدّث إلى جونز حول انتزاع زمام السيطرة على السفينة من وكيل الربّان؛ غير أنّ المشروع لم يلقَ ترحيباً، لذلك أحجم عن نشره على نطاق أوسع، وصار يتردّد في قول أي شيء إلى الطاهي. كانَ من حُسن حظّه، كما حصل فعلاً، أن يتصرف باحتراس، لأنّ الطاهي في المساء عبّر عن عزمه على حسم الأمر مع وكيل الربّان، وذهب في زيارة غير ودية إلى تلك الزمرة؛ بينما انتهز جونز فرصة لأن يتشاجر مع بيترز، وألمح إلى أنّه سوف يُطلع وكيل الربّان على الخطة في سَوْرة غضبه. كان واضحاً أنّه لم يعد ثمّة وقت يُهدر، وأبدى بيترز عزمه على الاستيلاء على السفينة مهما كانت العواقب، شريطة أن يُعاونه أوغسطوس في ذلك. وهُنا أكّد له صديقي فوراً أنّه على استعداد لأن يُشارك في تنفيذ أي خطة تهدف إلى ذلك الغرض، وبما أنّه رأى فرصة مؤاتية، فقد كشف له عن وجودي على متن السفينة. عند هذا أبدى الوغد استغراباً أكثر ممّا أبدى من الفرح، لأنّه

لا يثق أبداً بجونز ولا يعتمد عليه، وسبق أن أعتبره من زمرة وكيل الربّان. ونزل الاثنان حالاً، وصاح أوغسطوس باسمي، وسرعان ما حصل التعارف بيني وبين بيترز. واتّفقنا على أن نُحاول الاستيلاء على المركب في أقرب فرصة، وأن نترك جونز ولا نُشركه في [221]اجتماعاتنا. وفي حالة النجاح، علينا أن نتوجّه بالسفينة إلى أول مرفأ، ونُسلمها هُناك. وأحسّ بيترز بالإحباط لأنّه تخلّى عن جماعته ونواياه في الذهاب إلى المحيط الهادئ.. وهي مُغامرة لا يُمكن القيام بها دون وجود طاقم، وصار يُفكر في أن يُبرئ نفسه من التهمة في المحكمة، بناءً على ادّعائه بأنّه لم يكن آنذاك يتمتع بقواه العقلية (وأقسم بأغلظ الأيمان أنّ ذلك هو السبب الذي دعاه لتقديم العون إلى العُصاة)، أو ربّما فكر في الحصول على عفو، إذا ما ثبت أنّه مذنب، من خلال شهادة أوغسطوس وشهادتي أنا. إلّا أنّ مُناقشتنا انقطعت في الوقت الحالي بعد أن سمعنا صرخة، «هيا جميعاً، لإنزال الأشرعة»، وهرع بيترز وأوغسطوس حالاً إلى فوق.

كما جرت العادة، كان أفراد الطاقم جميعاً سُكارى؛ وقبل أن ينتهوا من إنزال الأشرعة على نحو مُناسب، اصطدمت أمواجٌ عاتية بمُقدمة السفينة. ولكنّها اعتدلت وتابعت مسارها بعد أن غمرتها المياه. فما كاد البحارة يُعيدون كل شيء إلى وضعه الطبيعي حتى تعرّضوا لموجة ثانية، ثم أعقبتها أُخرى على الفور.. ولم يلحق بالسفينة أي ضرر. ولكن كل شيء كان يُنذر باقتراب إعصار، وبالفعل تحقّق ذلك بعد وقتٍ قصير، ودهمتنا الرياح في عنفوان غير مسبوق، من ناحية الشمال والغرب. وبذلنا كل ما في وسعنا، وأوقفنا المركب في مكانه بعد ثني الشراع الأمامي وخفض الصاري. ومع اقتراب الليل، اشتدّت الرياح عتوّاً، وهاج البحر وتلاطمت أمواجه على نحو ملحوظ. وهُنا دخل بيترز وأوغسطوس إلى حُجرتي، واستأنفنا النقاش.

اتفقنا على أنّ ليس هُناك فرصة أفضل لتنفيذ ما خططنا للقيام به، لأنّ هذه المُناورة لن يتوقّعها أحد في هذه اللحظة. وبينما كانت السفينة مُستقرّة في مكانٍ واحد لا تتزحزح عنه، فليس من الضروري لها أن تمضي هُنا وهُناك حتى يتحسن الجو، عندها إذا نجحنا في مُحاولتنا، ربما نتمكّن من تحرير رجلٍ أو رجلين من

البحارة لمُساعدتنا في اصطحابها إلى أحد المرافئ. وتمثّلت الصعوبة الأساسية في عدم تكافؤ القوى المُضادة. هُناك ثلاثة رجالٍ فحسب يقفون إلى جانبنا، وفي القمرة تسعة منهم. وجميع الأسلحة التي على متن المركب في حوزتهم، باستثناء مُسدسين صغيرين كان بيترز قد أخفاهما بنفسه، فضلًا عن سكينٍ كبيرة خاصة بالبحارة كان يضعها دوماً على خصره تحت البنطلون. ومن خلال بعض المؤشرات أيضاً.. على سبيل المثال، عدم وجود شيءٍ مثل فأسٍ أو هراوة متروكة في أماكنها المألوفة.. بدأنا نخشى أن يكون وكيل الربّان قد أحسّ بالأمر أو راودته الشكوك، على أقلّ تقدير فيما يتعلّق بصاحبنا بيترز، وتوقعنا أنّه لن يُضيّع فرصة للتخلّص منه. وتبيّن لنا في الواقع أنّ ما كنّا ننوي القيام به لن يُنجز خلال وقتٍ عاجل. ومع ذلك فالمخاطر التي تتربّص بنا أكثر من أن تسمح لنا بتنفيذ نوايانا دون حذر.

اقترح بيترز أن نصعد إلى الدّكة العليا، ثم نتكلّم مع الحارس (ألن)، [222]ويستطيع عندها أن يُلقي به إلى البحر دون صعوبة، على أن لا نُثير الانتباه، فكان علينا أن ننتهز فرصة مؤاتية، ثم نصعد أنا وأوغسطوس فنُحاول الحصول على بعض الأسلحة، ثم نمضي معاً لتأمين حراسة السلم الذي يؤدي إلى المقصورات قبل أن يُبدي الآخرون أي نوعٍ من المُقاومة. ولكنّي اعترضت على هذا لأنّي لم أتخيّل أن يسمح وكيل الربّان (وهو داهية في جميع الأمور مع أنّ هذا لا يمسّ ميوله إلى المُعتقدات الخرافية) لنفسه بالوقوع بهذه السهولة في الفخ. إنّ حقيقة قيامه بوضع حارسٍ على حاجز الدكّة كان دليلاً كافياً على أنّه يقظ ومُتوجسٌ لِمَا قد يحدث.. فليس من المُعتاد إلّا في السفن التي يُفرض فيها نوعٌ صارم من الانضباط أن يوضع حارسٌ هُناك حين تتوقّف السفينة ولا تُتابع تحرّكها في ظروفٍ مناخية هوجاء. والآن كما حصل أن سمحتُ لنفسي أحياناً، إن لم يكن ذلك في أحيانٍ كثيرة، بأن أشرح في شيءٍ من التفصيل بعض الأمور للقراء الذين ربّما لم يخرجوا في حياتهم إلى عرض البحر، ربّما كان من المُناسب توضيح مُلابسات الوضع الحرج لسفينةٍ تواجه مثل هذه الظروف. فالبقاء في موقعٍ ثابتٍ، وفقاً لمُصطلحات البحر، إجراءٌ يتبع لأغراض شتى، ويُطبق

بأساليب شتى أيضاً. في ظروفٍ جوّية مُعتدلة نسبياً كثيراً ما يُطبّق هذا الإجراء بقصد جعل السفينة تُحافظ على اتّزانها، أو ربّما لانتظار مركبٍ آخر أو أي شيء من هذا. إذا كانت السفينة التي تنوي البقاء في مكانٍ ثابت ترفع أشرعتها كلّها آنذاك، فهذه المُناورة تُجرى عادة بإنزال بعض الأشرعة أو القيام بطيّها، وذلك من أجل ترك الرياح تدفعها إلى الوراء حتى تستقر في مكانٍ مُحدّد. إلا أنّنا نتكلّم هُنا عن بقاء السفينة وسط حالةٍ غير طبيعية من العواصف. وهذا ما يحصل إذا كانت الرياح مواجهة لنا، وتهبّ هبوباً عنيفاً بحيث تمنع نشر الأشرعة دون التعرّض لخطر الانقلاب والغرق؛ في بعض الأحيان حتى مع وجود رياحٍ مُعتدلة أو خفيفة، تُصبح الأمواج ثقيلة الوطأة فلا يتمكّن أي مركبٍ من الصمود إذا تابع التقدم. لو أُجبرت السفينة على الانطلاق في اتّجاه مُعاكسٍ للريح في خِضَمّ بحرٍ هائج، سوف تواجه حتماً أخطاراً تؤدي إلى إلحاق أضرار غير محمودة العواقب من ضربات الأمواج المُستمرة على مُقدمتها، وأحياناً تقع كوارث بسبب تكرار الغطس ثم الارتفاع والمُضي إلى أمام. هذه المُناورة إذن نادراً ما يلجأ إليها البحارة في مثل هذه الحالات، ما لم يروا أنّها ضرورية. وحين تتسرّب المياه إلى السفينة كثيراً ما يضطرّون إلى تحدّي الرياح ومُتابعة التقدم حتى مع أعنف الأمواج؛ لأنّ الاستقرار في موضع واحد يؤدي إلى تشقّق ألواح بدن السفينة نتيجة لعنف الضربات التي تكيلها الأمواج، وهذه الأضرار سوف تتقلّص في حالة التقدّم. في كثير من الأحيان أيضاً، يكون من الضروري إجبار السفينة على التقدم، سواءً كانت ضربات الأمواج قويّة جدّاً بحيث يُمكنها تمزيق الأشرعة، على أمل جعل مُقدمتها في مواجهة الرياح، أو لسوء تصميم هيكلها أو لأسباب أُخرى، فالهدف الأساسي من التوقّف لا يتحقّق.

[223]يضطرّ البحارة إلى إيقاف مراكبهم في جوٍ من العواصف بطُرق مُختلفة، اعتماداً على شكل أو حجم المركب الذي يُميّزه عن غيره. في بعض الأحيان يكون أفضل شيءٍ الاستقرار في مكان واحد برفع الشراع الأمامي، وهذا كما أتصوّر، هو الشراع الذي يُستخدم عادة في هذه المُناورة. أمّا في السفن الضخمة ذات الأشرعة المُربعة الأضلاع، فإن فيها فضلاً عن ذلك أشرعة خاصة

لهذا الغرض تُسمى أشرعة الاتزان في العواصف. إلّا أنّ الشراع المُثلث وحده ربّما يُستخدم بين الحين والحين.. وأحياناً يستخدم هذا الشراع بمُساعدة الشراع الأمامي، أو شراع مُزدوج الطيات، ولا يلجأ إلى الأشرعة الخلفية إلا نادراً. غالباً ما يظهر أنّ الأشرعة الأمامية العليا هي التي تُلبّي الغرض بأفضل السّبل أكثر من غيرها. كانت سفينة غرامبوس على أي حال تستقرّ في مكانٍ ثابت اعتماداً على شراع أمامي مُنخفض ثنيت طياته جيّداً.

أثناء استقرار أي سفينةٍ في مكانها وسط البحر، تُدار مُقدمتها باتّجاه الرياح بما يكفي لانفتاح الشراع الذي تعتمد عليه فيما بعد في تغيير اتّجاهها، بمعنى آخر، يكون الشراع في خط مُستقيم يوازي البدن. بعد هذا الإجراء، تنحرف مُقدمة السفينة بضع درجات عن اتّجاه هبوب الرياح، وطبعاً تتلقّى ضربات الأمواج التي توجّهها الرياح. في مثل هذا الموقف تتمكّن السفينة ذات الهيكل المتين من الصمود في وجه أي عاصفة مهما كانت شدتها دون أن تتسرّب حتى مياه قليلة إلى سطوحها، ولن يتطلّب الأمر مزيداً من الاحتياطات من جانب الطاقم. فضلاً عن ذلك ربّما تثبت الدفة عادة كي لا تتحرك من مكانها، وربّما لا يكون هذا الإجراء ضرورياً على الإطلاق (باستثناء الضوضاء التي تصدر عنها حين تكون طليقة)، لأنّ الدّفة لا تأثير لها على حركة السفينة وهي في حالة مُستقرة. في حقيقة الأمر من الأفضل أن تُترك الدفة في حالة ارتخاء بدلاً من ربطها بإحكام، لأنّ لوح الدّفة ربّما تقتلعه الأمواج الثقيلة إذا لم يتوفّر مجال للدّفة لأن تتحرّك. ما دام الشراع يصمد أمام الرياح، فالسفينة ذات التصميم الجيد سوف تُحافظ على موقعها، وتتغلّب على أي موجة، كأنّها في ذلك تتبع غريزة البقاء أو أنّ ذلك من مُقدرات العقل. ولكن، إذا بلغت الرياح ذروتها بحيث توشك أن تُمزق الشراع (وهذا يحتاج إلى إعصار مثالي من الجوانب كافة ليتحقّق في ظروف غير اعتيادية)، فهُنا يكْمن الخطر الحقيقي. تبقى السفينة تتمايل وتنجرف مع الريح، ويتعرّض جانبها الذي فوق سطح الماء إلى ضرباتٍ عنيفة، وتُصبح تحت رحمة الأمواج: الإجراء الوحيد في هذه الحالة يتمثّل في توجيهها في رفق بحيث تكون مواجهة للريح، وتركها تمضي حتى يتمكّن البحارة من رفع

شراع آخر. بعض السفن تُتابع الاستقرار في مكان ثابت دون شراع من أي نوع، ولكن هذه السفن لا يُعتقد أنّها تصمد في البحر طويلاً.

ولكن من الأفضل أن نرجع إلى موضوعنا بعد كل هذا الاستطراد. لم يكن من عادة وكيل الربّان أن يُكلّف شخصاً من جماعته بواجب الحراسة على سطح السفينة أثناء الوقوف في وجه العاصفة، كانت حقيقة أنّه الآن وضع أحد الحراس، إلى جانب حادثة اختفاء الفؤوس والهراوات، قد أقنعتنا بأنّ أفراد الطاقم أخذوا حذرهم جيداً فما كان لنا أن نُداهمهم كما اقترح بيترز. ومع ذلك كان علينا أن نفعل [224]شيئاً في أسرع وقت مُمكن، فليس من شك في أنّ الهواجس إذا بدأت تحوم في وقتٍ من الأوقات حول بيترز، لسوف يضحون به في أول فرصة، ومن المُحقق أنّهم سوف يجدون فرصة أو يختلقونها اختلاقاً مع انحسار العاصفة.

هُنا اقترح أوغسطوس شيئاً فقال: إن بيترز لو استطاع بأي ذريعة أن يخلع السلسلة التي وضعت فوق المخبأ في المقصورة فربما نتمكّن من مُداهمتهم بغتة عن طريق القبو؛ ولكن بعد قليل من التأمل اقتنعنا بأنّ السفينة في ذلك الوقت كانت تترنّح وتندفع اندفاعاً عنيفاً بحيث لا تسمح لنا القيام بأي مُحاولة من ذلك القبيل.

ولحُسن الحظ خطرت على بالي فكرة في نهاية المطاف لاستغلال النواحي الخرافية والأوهام المُرعبة التي يؤمن بها وكيل الربّان وضميره المُثقل بعقدة الذنب. إنّنا نتذكّر حتماً أنّ أحد أفراد الطاقم، وهو المدعو هارتمان روجرز، قد لقي حتفه صباح ذلك اليوم، بعد أن أُصيب قبل يومين بنوبات تشنّج لازدراد كمياتٍ كبيرة من الكحول والماء. كان بيترز يرى أنّ الرجل مات مسموماً على يد وكيل الربّان، وكانت لديه أسباب تؤيد هذا الاعتقاد، هكذا قال، وهي من الأسباب التي لا تقبل الجدل، ولكنه لا يستطيع أن يشرحها لنا.. هذا الإصرار على الرفض يعود إلى جوانب أُخرى من شخصيته الفريدة. ولكن سواءً كانت لديه أسباب تدعوه إلى الشك في وكيل الربّان أكثر منا أم لا، فسرعان ما قادنا إلى تصديق شكوكه، وقرّرنا أخيراً أن نتصرّف تبعاً لنواياه.

توفي روجرز في الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم، بعد أن عانى من تشنّجات عنيفة؛ ولما عُرضت علينا الجثة بعد بضع دقائق من موته رأيت بأم عيني أكثر المناظر بشاعة وإثارة للاشمئزاز، ولا أتذكّر أنّني رأيت منظراً مثل ذلك في حياتي. كان بطنه مُنتفخاً على نحو غريب، كأنّه غرق ولبث تحت الماء عدة أسابيع. ويداه في حالة مُماثلة، بينما الوجه مُتقلّص، ذابل، أبيض مثل الطباشير، باستثناء بقعتين أو ثلاث لامعة بلون الدم مثل تلك التي تظهر على المُصاب بالحمرة[1]: إحدى تلك البقع تمتدّ عرضياً على وجهه، وتُغطي إحدى العينين كاملة كأنها شريط مخملي أحمر. في تلك الحالة المُثيرة للفزع أحضروا الجثة إلى الأعلى من الكابينة ظهراً لكي يُلقوا بها إلى البحر، وحالما ألقى وكيل الربّان نظرة عليها (لأنّه الآن يراها للمرة الأُولى)، ربّما تأثر أو أحسّ بالندم على جريمته أو صعقه الذعر من المنظر المُفزع، فأمر رجاله بأن يلُفوا الجثة في أرجوحة شبكية، وأن يقوموا بالطقوس المألوفة في دفن الموتى في البحر. بعد الانتهاء من إعطاء هذه التعليمات، نزل إلى مقصورته كأنّه أراد تفادي منظر ضحيته. بينما كانت التحضيرات تُجرى امتثالاً لأوامره، واستمرّت العاصفة في عنفها، فتخلّى الرجال [225]مؤقتاً عن تنفيذ ما كانوا يقومون به. أما الجثة، فتركوها في مكانها، ثم لم تلبث أن انجرفت إلى الميسرة مع مياه بالوعة السفينة، حيث بقيت تتخبط هُناك طوال المرحلة التي أتكلّم عنها، مع الميلان العنيف للسفينة.

بعد أن أعددنا خطتنا، انطلقنا حالاً إلى وضعها موضع التنفيذ بأقصى سرعة. صعد بيترز إلى الدّكة العليا، وكما توقع فقد اقترب منه ألن على الفور، ويبدو أنّ ألن كان حريصاً على مُراقبة المقصورات أكثر من حرصه على أي شيء آخر. إلّا أنّ مصير هذا الوغد حسم بسرعة وصمت؛ لأنّ بيترز اقترب منه بطريقة لا توحي بأي اهتمام، كأنّه كان يريد التحدث معه، ثم أمسكه من رقبته، وقبل أن يتمكّن الرجل من إطلاق صرخةٍ واحدة، قذف به من فوق الحاجز. بعد ذلك

(1) الحمرة: مرض جلدي قابل للانتشار بالعدوى. [المترجم]

صاح بنا، وسرعان ما هرعنا صاعدين. كان أول شيء حرصنا عليه أن نتلفّت هُنا وهُناك بحثاً عن شيء نتسلّح به، وأثناء ذلك تقدّمنا دون أن ينتبه إلينا أحد، لأنّ من المُستحيل الوقوف على سطح المركب لحظة دون أن نضطر للتمسّك بشيء، إذ كانت الأمواج العنيفة تضرب السفينة مع كل خطوة إلى الأمام. كان من الضروري الإسراع في تنفيذ عملنا، ففي كل دقيقة توقعنا أن يصعد وكيل الربّان لتشغيل المضخات، وكان من الواضح أنّ المياه سوف تغمر السفينة سريعاً. بعد البحث بعض الوقت، لم نجد أي شيء يُصلح كسلاح سوى عتلتين لتشغيل المضخات، إحداهما أخذها أوغسطوس، وأخذت أنا الأُخرى. وبعد أن تسلّحنا بهذه الأدوات، خلعنا قميص الرجل الميت ورمينا الجثة من السفينة. ثم نزلت مع بيترز إلى الأسفل، وتركنا أوغسطوس يُراقب على السطح، حيث اتّخذ موقعه في المكان الذي كان يقف فيه ألن سابقاً، وظهره يستند إلى الدرج المؤدي إلى الحجرات، في حال مجيء أي واحد من البحارة، سوف يفترض أنّه الحارس.

حالما نزلت حاولت التصرّف بطريقة مُماثلة لروجرز. وساعدنا القميص الذي أخذناه من الجثة في هذا، فهو فريد من نوعه في الشكل والنوعية، ومن السهولة التعرّف على شخصية صاحبه.. هو نوع من جلباب طويل كان المرحوم يرتديه فوق ملابسه الأُخرى.. قماشه قطني أزرق، مع أشرطة بيضاء عريضة تمتدّ بين جانبيه. بعد أن ارتديت هذا الثوب، تقدّمت لأضع فوق جسدي شيئاً يبدو مثل كرشٍ مُزيف، وفي ذلك كنت أُقلد منظر الجثة المُنتفخة. وسرعان ما حشرت على بطني بعض ملابس النوم. ثم حاولت أن أجعل يدي تبدوان مثل يدي الميت بأن لبست عليهما قفازين لونهما أبيض يوحي بالانتفاخ، ملأتهما بما وجدت من خِرق قديمة. وقام بيترز بتغيير منظر وجهي، بأنّ صبغه أولاً بالطباشير الأبيض، ثم [226]لطخه بالدماء التي أخذها من جرح قطعه في إصبعه. ولم ننسَ طبعاً أثر الجرح الذي قرب العين، وانتهينا من هذه العملية بأكثر المناظر بشاعة وإثارة للفزع.

الفصل (8)

نظرت إلى نفسي مُستخدماً قطعة مرآة مكسورة كانت تتعلّق في مكان ما من المقصورة، وعلى الضوء الكليل الذي تُرسله إحدى الشموع، ذهلت من منظري وأحسست بشيء من الحسرة حين تذكّرت الرجل الحقيقي بمنظره المُخيف الذي أُجسّده الآن، فدهمتني رعدة، وكان من العسير علي تمالك نفسي وإقناعها بالمُضي في أداء هذا الدور. ولكن كان من الضروري التصرّف في حزمٍ، فصعدت برفقة بيترز إلى السطح.

هُناك وجدنا كل شيء يوحي بالأمان، واقتربنا رويداً من حواجز السفينة، ثم زحفنا نحن الثلاثة إلى السلم المؤدي إلى الحجرات في الأسفل. ووجدنا الباب موارباً فحسب، فقد اتّخذت التدابير لمنع أي شخص من اقتحامه فجأة من الخارج، بأن وضعوا ألواحاً من الخشب على الدرجة العليا من السلم لتحول دون انغلاق الباب. ولم نواجه صعوبة في الحصول على منظرٍ شامل لمدخل المقصورة من خلال شقوقٍ في المفاصل. اتّضح لنا أنّه كان من حُسن حظنا عدم مُباغتتهم فجأة، لأنّهم فيما يظهر كانوا على أهبّة الاستعداد. رأينا أحدهم نائماً وقد تمدّد عند قاعدة السلم ووضع بندقية إلى جانبه. أما البقية فجلسوا على أغطيةٍ أخذوها من الأسرّة وألقوها على الأرضية. كانوا في ذلك الوقت مُنهمكين في حواراتٍ جادة؛ ومع أنّهم أفرطوا في الشرب، كما تبيّن لنا من القناني الفارغة، وبعض الأقداح المعدنية التي تناثرت هُنا وهُناك، إلّا أنّهم لم يفقدوا رشدهم كالمُعتاد. كلهم لديهم سكاكين، وواحد أو اثنان منهم لديهم مُسدسات، وهُناك عدد من البنادق مُلقاة على مهجع قريب.

بقينا نستمع إلى حديثهم بعض الوقت قبل أن نتوصّل إلى قرارٍ بشأن طريقة التصرّف، فلم نكن قد حسمنا أي شيء مُحدّد، باستثناء مُحاولة شلّ حركاتهم، حين نُقدم على مُباغتتهم بشبح روجرز الذي يظهر لهم على حين غرة. كانوا يتناقشون حول خططهم المُستقبلية في أعمال القرصنة، ولم نسمع من ذلك الكلام شيئاً قابلاً للتمييز سوى أنّهم ينوون الانضمام إلى طاقم مركب آخر يُسمى «هورنيت»، وإذا كان ذلك مُمكناً، الاستيلاء على المركب نفسه وضمه إلى مُمتلكاتهم تمهيداً لمُحاولات أُخرى أخطر شأناً، ولم يستطع واحدٌ منا في موقعنا ذاك أن يعرف تفاصيل تلك الخطة.

[227]تكلّم أحد الرجال مع بيترز، وحينها رد وكيل الربّان عليه بصوت مُنخفض لم نفهم منه شيئاً، وبعدها أضاف بنبرة أكثر حدة قائلاً: إنه «لم يفهم السبب الذي يدعوه إلى الإبقاء على الابن المُدلّل للقبطان في المقصورة طوال هذا الوقت، وأنّه يعتقد أنّ من الأفضل إلقاءه على الفور إلى البحر». لم يتلقَ على كلامه هذا أي جواب، ولكنّا أدركنا بسهولة ذلك التلميح الذي يبدو أنّه لاقى قبولاً حسناً من الحاضرين جميعاً، وعلى الأخص من جونز. عند هذه المرحلة استبدّ بي الغضب، خاصة لما رأيت أوغسطوس وبيترز مُرتبكين لا يعرفان كيف يتصرّفان. وهُنا قررت أن أُخاطر بحياتي، على أن لا أتخلّى عنها لقاء ثمن بخس ما استطعت ذلك، وأن لا أستسلم لأي إحساس بالجبن والفزع.

مع تصاعد ضوضاءٍ هائلة من دمدمة الرياح وعبثها الذي لا يكاد ينقطع في الأشرعة ومُحتويات السفينة، ومع انجراف الأمواج هُنا وهُناك على الدّكة، كان من العسير علينا أن نسمع ما يدور بينهم من الكلام إلا خلال فترات مؤقتة يسود فيها السكون. في إحدى المرات، سمعنا جميعاً ذلك الصوت المُميز لوكيل الربّان وهو يخبر أحد الرجال بأن «ينطلق ويأمر هؤلاء ال.. ال.. المُغفلين أن يأتوا حالاً إلى القمرةِ»، حيث يُمكنه إبقاء عينيه عليهم لأنّه لا يُريد أن تحصل أشياءٌ سرية على متن السفينة. كان من حُسن حظنا أن تميل السفينة في هذه اللّحظة بعنف إلى درجة تمنع من تنفيذ الأوامر في الحال. ونهض الطاهي من فراشه لكي يأتي إلينا، حينها حدث ارتجاجٌ هائل، تصوّرت أنّه سوف يقتلع الصواري، فأدّى ذلك إلى

سقوطه على رأسه على باب مقصورةٍ في الجانب الأيسر، فانفتح الباب على مصراعيه، ونتج عن ذلك ارتباكٌ وفوضى مع ارتطامه بأشياء أُخرى. لحُسن الحظ، لم يؤدِّ الأمر إلى وقوع واحد من جماعتنا أو تُزحزحه عن مكانه، وأُتيح لنا وقتٌ للتراجع في ارتباك ملحوظ إلى حُجرةٍ في المُقدمة، على أن نقوم بترتيب خطة عاجلة نتصرّف بها قبل ظهور ذلك القادم، أو بالأحرى قبل أن يضع رأسه خارج باب السلم، لأنّه لم يصعد إلى الدكّة العليا. من موقعه ذاك لم يتمكّن من الانتباه إلى غياب ألن، ولذلك صاح، كأنّه ينادي ألن، مُكرّراً أوامر وكيل الربّان. وهُنا رد عليه بيترز، «آي، آي»، قال ذلك بصوت مُفتعل، فنزل الطاهي حالاً، دون أن يُساوره أدنى شك في أنّ شيئاً ليس على ما يرام.

تقدّم رفيقاي الآن بشجاعة ونزلا إلى قمرة الدفة، وأغلق بيترز الباب وراءه كما وجده أول مرة. استقبلهما وكيل الربّان استقبالاً ودوداً في شيءٍ من التكلّف، وأخبر أوغسطوس أنّه، ما دام أبدى تصرّفاً مُهذباً في الآونة الأخيرة فيُمكنه الرجوع إلى مكانه في الحُجرة على أن يُصبح واحداً منهم في المُستقبل. ثم صبّ له نصف [228]كأس من شراب الرم، وأجبره على الشرب. طوال هذا الوقت كنت أرى وأسمع ما يحدث، لأنّي تبعت أصدقائي إلى القمرة حالما انغلق الباب، واتّخذت موقعي السابق للمُراقبة. وأحضرت معي عتلتي تشغيل المضخات، وضعت إحداهما بالقرب من السلم، لكي تكون جاهزة للاستخدام إذا تطلّب الأمر.

اقتربت الآن أكثر فأكثر لأحصل على تصوّرٍ مُناسب لما يجري في الداخل، وحاولت أن أعد نفسي للنزول وسط المُتمردين حين يعطيني بيترز الإشارة، كما اتّفقنا. في الوقت الحالي كان يسعى إلى تحويل مجرى الحديث إلى الأفعال الشنيعة التي تقترف أثناء العصيان، وشيئاً فشيئاً تمكّن من تغيير الموضوع فجعل الرجال يتحدّثون عن آلاف الخُرافات الشائعة على نطاق واسع بين البحارة. لم أستطع أن أُميز الكلام الذي كانوا يقولونه، ولكن كان في وسعي أن أرى بوضوح تأثيرات تلك الحوارات على وجوه الحاضرين. كان وكيل الربّان مُتأثراً تأثّراً لا يخفى على العين، والآن كلّما ذكر أحدهم الظهور المُرعب لجُثة روجرز،

تصوّرت أنّه على وشك أن يُغمى عليه. وهُنا سأله بيترز إن كان يرى أنّ من الأفضل إلقاء الجثة على الفور إلى البحر لأنّ منظرها مُقزّز جدّاً وهي تتخبّط عند البالوعات. عندئذ صار ذلك الوغد يلتقط أنفاسه بصعوبة، وبدأ يتلفت في بطء هُنا وهُناك وينظر إلى رفاقه، كأنه يتوسّل إليهم أن يصعد أحدهم ويقوم بتلك المُهمة. إلّا أنّ أحداً لم يجرؤ على التحرك من مكانه، وبدا أنّ الجماعة كلها وصلت إلى ذروة التحفّز العصبي. أعطاني بيترز الإشارة الآن. وفي الحال دفعت باب السلم وفتحته، ونزلت دون أن أتفوّه بكلمة، وانتصبت واقفاً وسط الحاضرين.

لم يكن ذلك التأثير الصاعق للظهور المُباغت للشبح ليُثير استغرابنا على الإطلاق لو أخذنا بنظر الاعتبار المُلابسات المُختلفة التي ترتبط بذلك. ومع ذلك في حالات مُماثلة، لا بُدّ أن يعلق في ذهن الشخص الذي ينظر إلى مثل هذا المشهد وميضٌ من الشك في مدى حقيقة ما يراه بعينيه؛ أو ربّما نوعٌ من الأمل، مهما كان ضعيفاً، في أن يكون ضحية للخداع، وأنّ الشبح لم يأت إليه زائراً من عالم مُندثر تحفّ به ظلال قاتمة. ليس من الإسراف القول: إنّ بقايا من الشك تستقرّ في القاع لدى رؤية أي شبحٍ من هذه الأشباح، وأن مشاعر الذعر التي تُراود الذهن أحياناً لا بُدّ أن تُعزى، حتى في الحالات المُشابهة للحالة التي نحن في صددها، حيث يواجه المرء أفظع أشكال المُعاناة، إلى نوعٍ من الرعب الاستباقي، خشية أن يكون الشبحُ [229]حقيقياً، أكثر مما يُعزى ذلك إلى اعتقاد راسخ بحقيقته. ولكن، في حالتنا هذه، رأينا أذهان أولئك المُتمردين تكاد تخلو من أي فسحة مهما كانت ضئيلة يُمكن على أساسها الشك في أنّ شبح روجرز في حقيقته كان انبعاثاً من الموت لجثته المُقزّزة، أو على أقلّ تقدير هي روح تِلك الجثة. إنّ المكان المُنعزل الذي وجدت فيه السفينة، واستحالة الوصول إليها بسبب العاصفة، أدّى كل ذلك لأن تقتصر الوسائل المُحتملة للخداع على حدود ضيّقة جدّاً، ولا بُدّ أنّهم تصوروا في أنفسهم القدرة على إجراء مسحٍ شامل لتلك الوسائل في لحظة. لقد مضى عليهم الآن في عرض البحر أربعة وعشرون يوماً، ولم يُجروا غير مكالمةٍ واحدة مع مركب. تجمّع أفراد الطاقم كلهم أيضاً.. على الأقل أولئك الذين لديهم أكثر الأسباب غرابة وبُعداً عن أن تخطر في الأذهان

فتدعوهم إلى الظنّ أنّ ذلك الشخص موجود على متن السفينة.. تجمّعوا في القمرة، باستثناء ألن الحارس بهيكله العملاق (قامته ستة أقدام وست بوصات) وهو الوحيد المألوف لعيونهم ولأذهانهم التي صورت لهم ولو للحظة مؤقتة أنّه الشبح الذي يقف أمامهم. ويُمكن أن نُضيف إلى هذه الاعتبارات طبيعة العاصفة المُثيرة للفزع والرهبة، وحديث بيترز، والانطباع العميق الذي تركه المنظر البغيض للجثة الحقيقية صباحاً على خيالات الرجال؛ الحذق الكامل في المُحاكاة من جانبي، واختلاط الظلال مع الضوء على وجهي الذي يرونه، لأنّ وهج الشمعة في القمرة كان يتأرجح تأرجحاً عنيفاً يميناً وشمالاً، وينعكس مُتقطعاً بحيث يُثير الريبة على الشبح الواقف أمامهم فلا يُتيح مجالاً للشك في أنّ الخداع الذي عملنا على تجسيده له تأثير يفوق التوقع. هُنا وثب وكيل الربّان من الفراش الذي كان يستلقي عليه، ودون أن يتفوّه بكلمة واحدة سقط على ظهره كالخشبة اليابسة وارتطم رأسه بالأرضية، ثم هوى جسده مع تمايل السفينة إلى أحد الجوانب. أمّا السبعة الباقون، فلم يُحافظ سوى ثلاثة منهم على درجة من حضور الذهن. جلس الرجال الأربعة بعض الوقت وقد تسمّرت عيونهم على الأرض، وكان ذلك من أكثر المشاهد إثارة للشفقة والذعر والقنوط التي رأتها عيناي. كانت مُحاولات المُقاومة الوحيدة التي واجهتنا على الإطلاق قد صدرت عن الطاهي، وجون هنت، وريشارد باركر؛ غير أنّ هؤلاء لم يبذلوا إلا جهوداً ضعيفة غير جادة للدفاع عن أنفسهم. ثم أطلق بيترز النار على الأول والثاني على الفور، وضربت أنا باركر على رأسه بعتلة المضخة التي جلبتها معي. في هذه الأثناء، أمسك أوغسطوس إحدى البنادق التي كانت مُلقاة على الأرضية وأطلق النار على أحد المُتمردين (... ولسون) في صدره. والآن بقي ثلاثة [230]منهم؛ ولكنهم في هذه المرحلة استعادوا نشاطهم وأفاقوا من خمولهم، وربما بدءوا يرون أنّ هُناك خدعة تُمارس ضدهم، فقاتلوا في تصميم وشراسة، ولولا القوة العضلية الهائلة التي يتمتّع بها بيترز ربّما تغلبوا علينا. هؤلاء الثلاثة هم.. جونز، وغريلي، وإبسالوم هيكز. وكان جونز قد ألقى أوغسطوس على الأرضية، ثم صار يكيل له الضربات في أماكن مُتفرقة من جسمه بذراعه اليمني، وكاد يقضي عليه حتماً (لأنّ بيترز وأنا لم نتمكّن على الفور من قهر خصومنا الذين اشتبكنا

معهم)، لولا مُساعدة جاءت في وقتها المُناسب من صديق لم نتوقّع أبداً أن يُسعفنا في مُهمتنا. هذا الصديق لم يكن سوى تايغر. أطلق الكلب زمجرة واطئة، ثم جاء يعدو ويقفز إلى القمرة، حتى وصل في اللحظة الحرجة بالنسبة إلى أوغسطوس، وألقى نفسه على جونز، فأزاحه جانباً وأوقعه أرضاً في لحظة. إلّا أنّ صديقي تعرّض لجروح خطرة فلم يستطع مُساعدتنا بعد ذلك، وكنت أنا مثقلاً بملابسي التنكّرية بحيث عجزت عن فعل شيء. لم يرفع الكلب مخالبه التي غرسها في حُنجرة جونز.. أما بيترز فكان ندّاً كفؤاً للرجلين الباقيين، وكاد يقضي عليهما من غير شك في وقت عاجل لولا الحيّز الضيّق الذي وجد نفسه يتحرّك فيه، فضلاً عن تأرجح السفينة في عنفٍ إلى هذا الجانب أو ذاك. في الوقت الحالي تمكّن بيترز من الإمساك بأداة ثقيلة من الأدوات المُبعثرة على الأرضية. ثم ضرب رأس غريلي بينما كان الأخير على وشك إطلاق النار عليّ من بندقية، وفي الحال تدحرج بيترز إلى الأمام مع ميلان السفينة حتى صار قريباً من هيكز، فأمسك رقبته، وصار يضغط عليها بقوة حتى خنقه فوراً. وهكذا، في وقت أقلّ ممّا كنت أتوقّع، وجدنا أنفسنا نستولي على السفينة.

كان الشخص الوحيد بين خصومنا الذي تركناه حيّاً هو ريشارد باركر. هذا الرجل، كما يتذكّر القارئ، كنت قد ضربته بعتلة المضخة في بداية الهجوم. أما الآن فكان مُمدداً بلا حراك عند بابٍ مخلوع في إحدى الحُجرات التي تبعثرت فيها الأغراض؛ ولكن عندما ركله بيترز بقدمه، تكلّم وأخذ يتوسّل طالباً الرأفة. لقد أُصيب في رأسه بجرح طفيف فحسب، وبقية أنحاء جسمه سليمة ولكنّه قبل ذلك سقط مغشياً عليه من أثر الخبطة. نهض الآن، وقيدنا يديه في الوقت الحالي خلف ظهره. وكان الكلب لا يزال يُزمجر في وجه جونز؛ ولما فحصناه وجدناه ميتاً، والدماء تنزف بغزارة من جرح عميق في حُنجرته من عضة الأنياب الحادة.

الآن كانت الساعة تُشير إلى الواحدة صباحاً، والرياح تندفع دون هوادة. لا بد [231]أنّ السفينة كانت تواجه صعوبة أكثر من المألوف في تقدّمها، وأصبح من الضروري حتماً عمل شيء على أمل السيطرة عليها بوجه من الوجوه. مع كل حركة مُتمايلة مع الريح كانت الأمواج تصعد إلى السطح وتنزل كمّيات هائلة من

المياه إلى الأسفل فتدخل القمرة في الفترة التي كنّا نتشاجر فيها، لأنّي تركت الباب الأرضي مفتوحاً لدى نزولي. وجدنا حواجز الميسرة كلها اقتُلعت وانجرفت، فضلاً عن اجتياح المياه لمطبخ السفينة، وكذلك القارب المُلحق في الخلف. كان صرير الصاري الرئيسي يدلّ على أنّه على وشك الانهيار. بغية إفساح المزيد من المجال للخزن في مؤخرة السفينة، كانت قاعدة هذا الصاري قد أُزيحت وحشرت بين سطوح السفينة (وهو إجراء مُتهوّر يستحقّ التوبيخ يلجأ إليه بين الحين والحين بعض صُناع المراكب الجهلاء)، فأصبح الصاري مُعرّضاً لخطر الانهيار من قاعدته المُتخلخلة. ولكن، فضلاً عن كل هذه الصعوبات التي واجهتنا، حين فحصنا مخزون مياه الشرب، وجدناه لا يتجاوز سبعة أقدام.

تركنا جثث أفراد الطاقم في القمرة، وانطلقنا مُباشرة لنعمل على تشغيل المضخات.. أطلقنا سراح باركر طبعاً لكي يُساعدنا في مُهمتنا. وربطنا ذراع أوغسطوس وجعلناه يرفعها إلى الأعلى ما استطاع ذلك، وبذل ما في وسعه لمشاركتنا، مع أنّه كان مُنهكاً. ومع ذلك قدّرنا أنّنا نستطيع منع التسرّب بالاستمرار بتشغيل إحدى المضخات. لم يبقَ الآن سوى أربعة رجال على السفينة، فأصبح العمل يتطلّب جُهداً مُضاعفاً؛ ولكنا حاولنا الإبقاء على حماستنا ومعنوياتنا، وتطلّعنا مُتلهّفين إلى نور الفجر، حينها ربّما نأمل في تخفيف حمولة السفينة بأن نُحرّر صاريها الرئيسي.

على هذا النحو أمضينا ليلة مشحونة بالذعر والتوجّس والتعب، ولمّا أشرق النهار أخيراً لم تكن العاصفة لتتخلّى عن عنفوانها أبداً، ولم نلحظ أي علامات على أنّ غضبها سوف يهدأ وشيكاً. هُنا جرجرنا الجثث المُبعثرة على السطح وألقيناها إلى البحر. كانت الخطوة التالية التي فكّرنا فيها وأعطيناها اهتماماً هي التخلّص من الصاري الرئيسي. بعد التحضيرات اللازمة لذلك، قطع بيترز الصاري (إذ عثر على فؤوسٍ في القمرة)، بينما وقف الباقون بالقرب من الأنشوطات والحبال التي تُثبّت الصاري. ومع ميلان السفينة جانبياً بإزاء ذهولنا، أُعطيت الأوامر بقطع الحبال القصيرة التي توجه الأشرعة في شتى الظروف المناخية، وبعد إنجاز هذا، تدلّى الصاري بكل ثقله ومُلحقاته وسقط في البحر بعيداً عن

السفينة دون أن يلحق أي ضرر مادي. الآن وجدنا السفينة لا تكاد تواجه صعوبات كما في السابق، مع أنّ موقفنا بقي مُثيراً للقلق، ومع الجهود المُذهلة التي بذلت، لم نتمكّن من التغلب على تسرّب المياه دون استعمال المضخات كلّها. لم تكن المُساعدة الضئيلة التي استطاع أوغسطوس تقديمها لنا ذات أهمية. ولا بُدّ من أن نُضيف إلى ذلك توجّساتنا [232]ومخاوفنا، والأمواج العاتية التي تُحيط بنا في ذلك البحر الهائج، واضطراب السفينة وتأرجحها أينما اتّجهت الرياح التي تزيحها إلى مسافات بعيدة عن اتّجاهها الصحيح، وقبل أن تتمكن من استعادة وضعها، تأتي موجة أُخرى لتتكسّر فوقها، فتجعلها تتأرجح في عنفٍ إلى هذا الجانب أو ذاك. كانت أثقال الموازنة تتحرّك في كتلةٍ واحدة باتّجاه الريح (المواد المخزونة يتخبّط بعضها مع بعض خبطاً عشوائياً منذ حين)، وتصورنا بعض الوقت أنّ لا شيء يُمكن أن ينقذنا من الانقلاب. ولكن السفينة اعتدلت حالياً وإن جزئياً؛ ولكنّ الأثقال لا تزال تُحافظ على أماكنها في الميسرة، ولبثنا على ذلك الوضع طويلاً بحيث كان من العبث التفكير في تشغيل المضخات، وما كنّا في الواقع قادرين على القيام بهذا على كل حال، لأنّ أيدينا مُتقرحة من العمل المُجهد الذي كنّا مُنهمكين فيه، وكانت تنزف على نحو مُريع.

على عكس نصيحة باركر، تقدّمنا الآن لنقطع الصاري الأمامي، وأخيراً نجحنا في ذلك بعد صعوبات جمّة بسبب الوضع الذي نحن فيه. ومع سقوط الصاري إلى البحر جرف حطامه جانباً من الدفل المائل، وترك لنا هيكلاً عاجزاً لا يُصلح للإبحار على الإطلاق.

ومع ذلك ظلّت لدينا بارقة أملٌ في الخلاص بزورق النجاة الذي لم يلحق به ضررٌ من الأمواج العاتية التي تجتاح السطح. ولم يتح لنا وقت كافٍ لتهنئة أنفسنا؛ فبعد أن انخلع الصاري الأمامي طبعاً أخذ الشراع معه، وكانت سفينتنا تعتمد عليه في استقرارها، وهُنا تدافعت هجمات الأمواج واحدة بعد واحدة فانقضّت على رؤوسنا، وخلال خمس دقائق غرقت الدّكة العليا كلها بالمياه من طرف إلى طرف، وتمزّقت حبال زورق النجاة وانخلعت حواجز الميمنة، وحتى مرفاع المرساة تبعثر إلى قطعٍ مُتناثرة. وأصبحنا في الواقع في وضعٍ لا نُحسد عليه.

مع حلول الظهيرة تلمّسنا مظاهر طفيفة لزوال العاصفة، إلّا أنّنا سرعان ما فقدنا الأمل واستبدّ بنا الكرب الثقيل من جديد، لأنّها فيما يظهر كانت تُلملم أذيالها بضع دقائق لكي تُعاود هبوبها في زخمٍ مُضاعف. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر تقريباً أصبح من المُستحيل لأي إنسان أن يصمد أمام ضرباتها؛ ومع اقتراب الليل تدثّرنا بستار الظلام، ولم أتلمّس في نفسي أي أملٍ يُرجى في بقاء هيكل السفينة مُتماسكاً حتى الصباح.

في مُنتصف الليل كنّا غارقين في المياه التي ارتفعت الآن حتى غمرت الدّكة السفلى من السفينة. ثم واصلت المياه تدفّقها إلى الدّفة خلال وقت قصير، وأدّت الأمواج التي اقتلعت الدّفة إلى رفع مؤخرة السفينة فأصبحت خارج الماء كلياً، وهُنا أخذ الهيكل المُتداعي يُصدر صوتاً مكتوماً في انحداره مع ارتجاجٍ عنيف كالذي يحدث أثناء الارتداد إلى الشاطئ. كنّا جميعاً نُخمّن أنّ الدفة سوف تصمد في مكانها حتى النَّفَس الأخير، لأنّها قوية وذات متانة غير اعتيادية، ولأنّ جوانبها [233]مُدعّمة بطريقة لم أُشاهد مثيلاً لها من قبل. على دعاماتها الخشبية الرئيسية تمتدّ سلسلة من القابلوات الحديدية، وهُناك قابلوات أُخرى موزّعة بالطريقة نفسها على القائم الخلفي. عبر هذه القابلوات يمتدّ عمود حديدي سميك جدّاً، إذن فالدّفة مُثبتة تثبيتاً آمناً على دعامات المؤخرة ويُمكنها أن تتحرّك في انسيابٍ حر على ذلك العمود الحديدي. غير أنّ المرء ربّما استطاع تخمين القوة الهائلة للأمواج التي اقتلعت الدّفة من خلال حقيقة أنّ قابلوات القائم الخلفي التي تخترقه في عدة أماكن، بما أنّها مُثبتة بصواميل من الداخل، فقد اقتلعت جميعاً وبذلك تشقّق الخشب الصلب.

لم يتوفّر لدينا ما يكفي من الوقت لالتقاط أنفاسنا بعد ما شاهدنا من عنف الصدمة، حين وثبت موجة هائلة لم يسبق أن رأيت مثيلاً لها علينا مُباشرة، فاكتسحت السلم الداخلي، وضربت أبواب الأرضية، وملأت مياهها الجياشة كل بوصة من المركب.

الفصل (9)

لحُسْن الحظ، قبل حلول الظلام بمُدة وجيزة، كنّا نحن الأربعة قد حشرنا أنفسنا عند ما تبقّى من مرفاع المرساة، وتمدّدنا مُنبطحين على الأرضية وخفضنا رؤوسنا إلى أقصى حدّ. هذا الإجراء وحده أنقذنا من دمارٍ مُحقّق. وبقينا على تلك الحال، وكنّا نتعرّض بشكل أو بآخر إلى ضربات الأمواج الثقيلة التي تنقضّ من فوقنا، ولم تكن لتتبدّد من على السطح حتى تتركنا وقد أنهكت قوانا. حالما تمكّنت من التقاط أنفاسي، صحْت لرفاقي بصوت مُرتفع. لم يرد عليّ أحد غير أوغسطوس، قال: «لقد انتهى أمرنا، فليرحمنا الله؟» وشيئاً فشيئاً التقط الآخرون أنفاسهم فتكلّموا، حاولوا أن يبثّوا فينا شيئاً من الشجاعة، قالوا: إنّ الأمل لا يزال موجوداً؛ فمن المُستحيل، من خلال طبيعة الحمولة التي في الأقبية، أن تتعرّض السفينة إلى الغرق، ومن المُحتمل أن تكون هُناك فرصٌ كثيرة في أن تتلاشى العاصفة وتنتهي مع الصباح. هذه الكلمات بثّت في نفسي حياة جديدة؛ مع أنّها بدت كلمات غريبة، ومع أنّه كان واضحاً أنّ أي مركبٍ مُحمّل ببضاعة من براميل الزيت الفارغة لن يتعرّض للغرق، إلّا أنّ ذهني حتى ذلك الوقت كان مُشوشاً بحيث لا يتمكّن من استيعاب تلك الاعتبارات؛ وكان الخطر الذي اعتبرته وشيكاً منذ حين أن تغرق السفينة بمن عليها. ومع تجدّد الأمل بين جوانحي، انتهزت كل فرصة للتشبّث بما تبقّى من مرفاع المرساة، ومع هذا الانشغال تكشف لي أن رفاقي كانوا مُنهمكين بأشياء أُخرى. كانت ليلة حالكة السواد إلى أقصى درجة، والضجيج [234]المُتواصل الذي أحاط بنا يجعل من العبث التطرّق إلى وصف المشهد. امتلأ سطح سفينتنا بالمياه، أو بالأحرى أصبحنا

مُحاطين بحاجزٍ من الزبد، وكانت قطعٌ من الزبد تنجرف على وجوهنا في كلّ لحظة. ليس من الإسراف القول: إن رؤوسنا لم تكن لتخرج من المياه أكثر من ثانية أو ثلاث ثوان. ومع أنّ بعضنا كان مُلتصقاً بالبعض الآخر، فلا أحد يرى الآخر، أو في الواقع لا يرى أي جزءٍ من بدن السفينة بعينها التي بقينا نتدحرج عليها هُنا وهُناك كما تشاء نزوات العاصفة. بين الحين والحين يُنادي أحدنا للآخر، في مُحاولة عقيمة لأن ينعش الآمال، أو يُقدّم شيئاً من المواساة والتشجيع لمن هم في أمسّ الحاجة إلى ذلك. وتسبّب ضعف أوغسطوس بالقلق لنا جميعاً؛ ومع ذراعه المربوطة كان يستحيل عليه أن يثبت نفسه في شيء من الصلابة، كنا نتوقّع بين لحظة ولحظة أن نراه يسقط من السفينة ويقذف إلى البحر.. إلّا أنّ مسألة تقديم المساعدة له كانت بعيدة المنال. ولكن لحُسْن الحظ، كان موقعه أكثر أماناً نسبياً من موقع أي رجل آخر؛ لأنّ القسم الأعلى من جسمه انحشر تحت جانبٍ من مرفاع المرساة المُتكسّر، والأمواج في اندفاعها عليه تتكسّر هُناك في عنف شديد. لو كان صديقي في أي موقع آخر (وجد نفسه في ذلك الموقع مُصادفة بعد أن جرفته الأمواج من مكانه المكشوف) فمن المحتوم أنّه كان سيلقى حتفه قبل الصباح. ولأنّ السفينة ظلّت تُحافظ على وضعها المُستقر بعض الشيء، لم يكن من المتوقّع أن تلقي بنا الأمواج جميعاً إلى عرض البحر إلّا إذا تغيّر الوضع إلى عكس ذلك. كانت مؤخرة السفينة، كما ذكرت سابقاً، مُتجهة إلى الميسرة، وقرابة نصف السطح غارق باستمرار تحت المياه. ولهذا كانت الأمواج التي تُهاجمنا من الميمنة تتكسّر على جوانب المركب، ولا تصل إلينا إلا نتفٌ مُبعثرة منها ونحن ننبطح على وجوهنا؛ أمّا الأمواج التي تأتي من الميسرة والتي نُسميها مُرتدة، ولا تؤثر علينا كثيراً بسبب موقعنا الذي التجأنا إليه، فلم تكن ذات قوة كافية لتسحبنا أو تُجردنا من الأشياء التي نتمسّك بها.

استمرّ هذا الوضع المُخيف حتى أشرق النهار لكي يُرينا أشكالاً أُخرى من الرعب أكثر فظاعة مما أحاط بنا. لم تعد سفينتنا سوى قطعة هائلة من الخشب تتقاذفها الأمواج، وتتأرجح إلى هذه الجهة أو تلك امتثالاً لمشيئة الأقدار التي تجري بلا أدنى رحمة؛ ولم تهدأ العاصفة من غضبها، وإنما ازدادت ضراوة، وإذا كان ثمّة شيء يُمكن أن يقال في وصفها، فهي في الواقع مثل إعصار جبار

استجمع قواه، واتّضح لنا أنّه لا سبيل أمامنا إلّا أن نطمح في نجدة تأتي من السماء فتُخلّصنا من هذه الكارثة. بقينا ساعات طويلة نتمسّك بمواضعنا في صمت، وتوقعنا مع كل لحظة أن ترتخي قبضاتنا وننجرف، أو ينجرف ما تبقّى من مرفاع المرساة من السطح، أو أنّ نوعاً من الأمواج المجنونة التي تهدر في كل اتّجاه حولنا وفوق رؤوسنا سوف تجتاح بدن السفينة وتغمره وتجرّه إلى الأعماق فنغرق قبل أن يطفو [235]أي شيء إلى السطح. ولكن برحمة من الله، ابتعدنا عن هذه المخاطر المُحدقة إلى حين، ومع انتصاف النهار انتابنا شيءٌ من البهجة لدى رؤية ضوء الشمس. بعد وقت قصير أصبح في وسعنا إدراك انحسار ضئيلٍ ملموس في شدة الرياح، عندها لأول مرة منذ الشطر الأخير من مساء يوم أمس، سمعت صوت أوغسطوس وهو يتكلّم، وكان يسأل بيترز الذي استلقى قريباً منه، عمّا إذا كان يرى أي احتمال لنجاتنا. ولأنّه لم يتلقَّ أي إجابة في بداية الأمر على سؤاله، فقد استنتجنا أن الرجل الهجين مات غرقاً في مكانه؛ ولكنّا أحسسنا بالغبطة الشديدة حين سمعناه يتكلّم، على الرّغم من صوته الواهن جدّاً، قال: إنه يُعاني من ألم مُبرح، فقد تعرّض لجرح بسبب الحبال التي ربطها على بطنه، فكان علينا إمّا إيجاد وسيلة لفك الحبال أو نتركه يموت، إذ كان من المُستحيل عليه تحمّل المزيد من المُعاناة وهو في وضعه ذاك. وتسبّب لنا هذا بقلق كبير لأنّ من العبث التفكير في مُساعدة الرجل بأي وسيلة بينما كانت الأمواج مُستمرة في اكتساح مركبنا آنذاك. وشجّعنا الرجل على تحمّل آلامه في بسالة، ووعدناه بأنّنا سوف ننتهز أقرب فرصة لتخليصه. وأجاب أنّ ذلك ربما يأتي بعد فوات الأوان؛ وأنّه سوف يقضي نحبه قبل أن نتمكّن من مُساعدته؛ ومن ثمّ، بعد أن استمرّ الأنين بضع دقائق، وجدناه صامتاً، فاستنتجنا أنّه ميت.

مع اقتراب المساء، خفتت حدّة الأمواج كثيراً حتى إنّنا نادراً ما كنّا نلحظ موجة واحدة تجتاح بدن السفينة أو تدفعها الرياح إلينا كلّ خمس دقائق، وهدأت الرياح هي الأُخرى، مع أنّ المشهد العاصف لم يُسدل عليه الستار بعد. لم أسمع واحداً من رفاقي يتكلّم منذ ساعات، والآن وجدت نفسي أُنادي على أوغسطوس. وأجابني، وإن جاء صوته مُتكسّراً واهناً، فلم أتمكّن من تمييز ما قاله لي. بعد ذلك تكلّمت مع بيترز وباركر، ولم يردّا أيضاً.

بعد هذه المرحلة بوقت قصير استسلمتُ إلى حالة تُشبه فقدان الوعي، أثناء ذلك كانت أروع الصور وأكثرها إثارة للبهجة تطفو في خيالي؛ أشجارٌ خضراء، ومروج ذرةٍ صفراء نديّة مُتموّجة، ومواكبُ فتيات يرقصن، وجنود الخيالة، وما إلى ذلك من الأوهام. الآن تذكّرت، في كل تلك الصور التي كانت تعبر أمام عينٍ في الذهن، أنّ النشاط فكرة تُهيمن عليها. لم أتخيّل على الإطلاق أي شيء ساكن، مثل منزلٍ، أو جبلٍ، أو أي شيء من ذلك؛ ولكنّي تخيّلت طواحين هواء، وسفن، وطيور هائلة، ومناطيد، وأشخاص يمتطون الخيل، وعربات تجري سريعاً في عنفوان، وأشياء مُماثلة تتحرّك، كلها تظهر في مشهدٍ مُتتابع لا يكاد ينتهي. وحين عُدت إلى وعيي من هذه الحالة، كانت الشمس، ما استطعت التخمين، ترتفع منذ ساعة تقريباً [236]فيما يظهر. كنت أواجه صعوبة في أن أستجمع شتات الذكريات عن الظروف المُختلفة التي ترتبط بوضعي الحالي، ولبثتُ بعض الوقت مُقتنعاً بقوة لا تتزعزع بأني لا زلت قابعاً في قبو السفينة، بالقرب من الصندوق، وأنّ جسد باركر لم يكن إلا جسد الكلب تايغر.

وفي نهاية المطاف عندما عاد وعيي كاملاً، وجدت الرياح العاتية تحوّلت إلى نسيمٍ خفيف، وأنّ البحر عاد إلى هدوئه قياساً إلى سابق عهده؛ حتى الأمواج كانت تُدغدِغ السفينة من وسطها فحسب. تفكّك رباط ذراعي اليسرى، وأصابني جرح خطير في المرفق؛ كنت أشعر بذراعي اليمنى مُخدّرة، ويدي مُنتفخة على نحو غير اعتيادي حتى الرسغ بسبب ضغط الحبل الذي امتدّ من الكتف إلى الأسفل. وكنت أُعاني من ألم فظيع نتيجة لضغط حبلٍ آخر يلتف حول خصري، وقد توتّر الحبل إلى درجة فظيعة بحيث ما عدت قادراً على تحمّل ذلك. نظرت حولي إلى رفاقي فرأيت بيترز لا يزال على قيد الحياة، على الرغم من الحبال السميكة التي تلَتف بقوة حول خاصرته حتى ظهر كأن جسده مقطوع إلى نصفين؛ ولما بدأت أتململ صدرت عنه حركة واهنة وأشار بيده باتّجاه الحبل. أمّا أوغسطوس فلم تبدُ عليه أي علامة تدلّ على الحياة، كان مُنحنياً انحناءة مُضاعفة على قطعة مُتهشّمة من مرفاع المرساة. وتكلّم باركر معي حين رآني أتحرّك، فسألني إن كنت أمتلك ما يكفي من القوة لتخليصه من وضعه، وطلب إليّ أن أستجمع كل ما يُمكن من

العزم فأُحاول فك الحبال عنه، فرُبما استطعنا النجاة بأنفسنا؛ وقال: إنني إذا لم أفعل ذلك فنحن هالكون. أخبرته أن يتريث قليلاً ويتحلّى برباطة جأشه، وسوف أُحاول تحريره في أقرب فرصة. بحثت في جيب بنطلوني وأخرجت السكين الصغيرة، وبعد مُحاولات فاشلة نجحت أخيراً في فتحها. ثم تمكّنت باستعمال يدي اليسرى من فك الرباطات عن يدي اليمنى، وبعد ذلك قطعت الحبال الأُخرى التي تُقيدني. ولكنّي حين حاولت الانتقال من مكاني وجدت ساقيّ عاجزتين عن حملي، فلم أتمكّن من النهوض؛ كذلك لم أستطع تحريك ذراعي اليمنى في أي اتّجاه. لما ذكرتُ هذا لباركر نصحني بأن أبقى مُستلقياً بضع دقائق، على أن أمسك مرفاع المرساة بيدي اليسرى، فأنتظر حتى يعود الدم للدوران. بعد أن فعلت هذا، بدأ الإحساس بالخدر يزول تدريجياً حتى استطعت أولاً تحريك إحدى ساقيّ، ثم تحركت الأُخرى، وبعد وقت قصير استعدت قُدرتي على تحريك ذراعي اليسرى جزئياً. وهُنا زحفتُ في حذر شديد باتّجاه باركر، دون أن أنهض على ساقي، وسرعان ما قطعتُ الحبال التي حول جسده، وبعد فترة قصيرة استردّ هو الآخر قدرة جزئية على تحريك أطرافه. والآن لم نُهدر وقتاً في النهوض وتخليص بيترز من الحبال. كانت الحبال [237]قد ألحقت جرحاً عميقاً بخاصرته فوق حزامه الصوفي، واخترقت قميصين يلبسهما، وشقّت طريقها نحو فخذه، والدماء كانت تسيل غزيرة حين أزلنا الحبال. لم نكد نُحرّره حتى بدأ يتكلّم وظهر أنه تلمس شيئاً من الراحة فوراً.. ثم استطاع أن يتحرّك بسهولة قياساً إلى باركر أو أنا نفسي.. ولا شك أن هذا يعود إلى خروج الدماء.

كانت لدينا آمالٌ ضئيلة في إنقاذ أوغسطوس، لأنّه لم يُظهر أي علامة تدلّ على الحياة؛ ولدى الاقتراب منه اكتشفنا أنّه مغشي عليه فحسب بعد أن فقد كمية كبيرة من الدم، وكانت الضمادات التي سبق أن وضعناها حول ذراعه المُصابة قد تمزّقت بتأثير المياه؛ ولكن الحبال التي قيّدته إلى مرفاع المرساة غير مشدودة بما يكفي لتتسبب له بالموت. بعد أن حرّرناه من قيوده وأبعدناه عن حطام الخشب الذي تناثر حول مرفاع المرساة، وضعناه في مكانٍ جاف باتّجاه الريح، وكان رأسه مُتدلياً أوطأ قليلاً من جسده، وانشغل ثلاثتنا في تدليك أطرافه. في غضون

نصف ساعة تقريباً استعاد وعيه، مع أنّه لم يتمكّن من التعرف على أحد منّا أو يستجمع ما يكفي من قوّة للكلام حتى صباح اليوم التالي. أثناء هذا عملنا على التخلّص من الحبال حتى حلول الظلام، وبدأت السماء تتلبّد بالغيوم، ومرة أُخرى عادت إلينا هواجسنا خشية أن يتحوّل ذلك إلى عاصفةٍ جديدة، في هذه الحال لن ينقذنا شيءٌ من الهلاك، بعد أن تبددت قوانا من الإعياء. ولكن الرياح لحُسْن الحظ كانت تهبّ بسرعة مُعتدلة طوال الليل، والبحر يزداد خمولاً بمرور اللحظات، ومنحنا هذا آمالاً عظيمة في عودة الهدوء أخيراً. كان نسيمٌ رخو يهبّ باستمرار من جهة الشمال الغربي، على أنّ الجو لم يكتسب أي برودة. وضعنا أوغسطوس في مكانٍ آمن باتجاه الريح بحيث لا ينزلق ويتدحرج مع تمايل المركب إلى هذه الجهة أو تلك، إذ كان في حالة من الضعف لا تُمكّنه من التعلّق بشيء. أما نحن، فلم نكن في حاجة إلى ذلك. جلس بعضنا قريباً من البعض الآخر، وكان أحدنا يُساعد صاحبه في التمسك بالحبال المُتقطعة لمرفاع المرساة، وبقينا نُفكر في طرقٍ شتى للخلاص من وضعنا المُخيف. واستشعرنا راحة كبيرة بعد خلع ملابسنا وتجفيفها من الماء. وعدنا فلبسناها بعد ذلك، فوجدناها دافئة جدّاً وتبعث على الراحة، وبثّ ذلك فينا قليلاً من الانتعاش. ثم ساعدنا أوغسطوس فخلعنا ملابسه، وجففناها، فأحسّ بارتياح هو كذلك.

أصبح همّنا الأساسي الآن يتمثّل في تحمّل الجوع والعطش، حتى إذا تطلّعنا إلى الوسائل التي يُمكن أن تُخلّصنا من مُعاناتنا، وجدنا قلوبنا تغطس في الأعماق، [238]وشعرنا بالحسرة لأننا نجونا من أخطار الغرق في البحر وهي أقل رعباً من المُعاناة التي تنتظرنا. ومع ذلك حاولنا أن نُعزي أنفسنا بالأمل في أن تنتشلنا سريعاً سفينة ما وصار بعضنا يُشجّع بعضاً على تحمّل الأمر بشجاعة وتقبّل الشرور التي ربّما لا تزال تلاحقنا.

وأخيراً: بزغ فجر اليوم الرابع عشر، وبقي الجو مُشرقاً لا يُعكّر صفوه شيء، مع نسيم مُنعش يأتينا باستمرار من الشمال الغربي. أصبحت حالة البحر هادئة الآن، ولسببٍ لم نتمكّن من تحديد كنهه، لم تكن السفينة مُستقرة في وضع أفقي كما كانت في السابق، وسطحها جاف قياساً إلى الفترة الماضية، ومع ذلك

كنّا نتحرّك هُنا وهُناك في شيءٍ من الأمان والحرية. مضت علينا أكثر من ثلاثة أيام وليال كاملة دون أن نأكل أو نشرب شيئاً، وأصبح لزاماً علينا أن نُحاول الحصول على شيءٍ من تحت السطح. ولأنّ السفينة كانت مغمورة كلياً بالمياه، فقد انطلقنا إلى هذا العمل ونحن نشعر باليأس والاكتئاب، ولم نتوقّع العثور على أشياء كثيرة. صنعنا شيئاً يُشبه السلم بأن ثبتنا بعض المسامير التي انتزعناها من بقايا مزلاج الباب الأرضي على لوحين من الخشب. ربطنا هذين اللوحين معاً، وشددناهما بحبلٍ، وألقيناهما داخل القمرة، وأخذنا نسحب إلى الأمام والخلف، وكان لدينا أمل ضئيل في أن يعلق شيءٌ يُصلح للأكل، أو على أقلّ تقدير شيء يُساعدنا في هذا المسعى. أمضينا الجانب الأكبر من الصباح في هذا العمل المُضني دون أي بارقة أمل، لم نُخرج شيئاً سوى ثياب نوم علقت بالمسامير. في واقع الأمر، كانت مُحاولاتنا هذه تبدو خرقاء بحيث لم نتوقّع أي نجاح بارز في هذا الشأن.

عُدنا إلى مُقدمة السفينة، ولكن عبثاً حاولنا الحصول على شيء أفضل، وأصبحنا على حافة القنوط، ثم لم يلبث بيترز أن اقترح علينا أن نربط حبلاً على جسده، ثم نتركه يُحاول العثور على شيء بعد أن ينزل إلى القمرة. هذا الاقتراح لقي ترحيباً منّا وبعث الأمل من جديد في نفوسنا. وعلى الفور تقدّم الرجل فخلع ثيابه ما عدا بنطلونه؛ وبعد ذلك شددنا حبلاً حول خصره في عناية، ومررناه فوق كتفيه بحيث لا ينزلق تحت الماء. كانت العملية غاية في الصعوبة ولا تخلو من مُجازفة؛ فلم نتوقّع العثور على شيءٍ كثير، لو عثرنا على أي شيءٍ من المؤن في القمرة بعينها، وكان من اللّازم على الغطاس، بعد إنزاله إلى الأسفل، أن يلتفتَ إلى اليمين، ثم يتقدّم إلى تحت فيقطع عشرة أقدام أو اثني عشر قدماً، في مسارٍ ضيّق مُتجهاً إلى القبو، ثم يعود أدراجه دون أن يتنفّس.

[239]بعد أن أصبح كل شيء جاهزاً، نزل بيترز إلى القمرة، فاتّجه على الفور إلى السلم الأرضي حتى وصل الماء إلى ذقنه. ثم غطس إلى الداخل على رأسه، واستدار إلى جهة اليمين وهو يسبح مُحاولاً مُتابعة طريقه إلى القبو. ولكن لدى أول مُحاولة للسباحة فشلت مساعيه. خلال أقلّ من نصف دقيقة بعد نزوله

شعرنا بالحبل يُسحب بقوة (وهي الإشارة التي اتفقنا على أن يُعطيها متى ما أراد الصعود). لذلك سحبناه في الحال، إلّا أنّ الأمر حصل بطريقة خرقاء أدّت إلى إصابته بخدوش كثيرة نتيجة لارتطامه بالسلم. لم يجلب معه أي شيء، وكان فيما يظهر عاجزاً عن اختراق الدهاليز فلم يتقدّم غير مسافة قصيرة، وبسبب الجهد الذي كان من الضروري عليه بذله من أجل أن يمنع جسده من أن يطفو فيرتطم بالسقف الداخلي. خرج وهو يحسّ بالإنهاك الشديد، وكان عليه أن يرتاح ليلتقط أنفاسه طوال خمس عشرة دقيقة قبل أن يتمكّن من النزول ثانية.

وواجه في مُحاولته الثانية فشلاً أسوأ ممّا واجهه أول مرة؛ لأنّه بقي مدة أطول تحت الماء دون أن يُعطي إشارة، وانتابنا القلق عليه، فاضطررنا لأن نسحبه مُتخلّين عن الإشارة التي اتفقنا عليها، فوجدناه في الرمق الأخير، وقال إنّه جذب الحبل مرات عدة دون أن يتلقَّ منّا أي رد. ربّما حصل هذا لأنّ جزءاً من الحبل كان قد علق بالدرابزين عند قاعدة السلم. وكان هذا الدرابزين في الواقع يُعيق المرء عند الصعود والهبوط حتى قرّرنا إزالته، لو أمكن ذلك، قبل استئناف خطتنا. ولأنّنا لا نمتلك وسيلة لرفعه إلا بقوة مُضاعفة، فقد نزلنا جميعاً إلى الماء ما استطعنا ذلك على السلم، وأخذنا نسحب وندفع معاً حتى اقتلعناه أخيراً.

وفشلت المُحاولة الثالثة كما حصل في المُحاولتين السابقتين، وأصبح واضحاً الآن أنّ لا شيء يُمكن أن يفعل دون نوع من الأثقال التي يثبت بها الغطاس نفسه، من أجل أن يبقى قريباً من أرضية القمرة أثناء عملية البحث. بقينا فترة طويلة نفتش عبثاً عن شيءٍ يُمكن أن يُلبّي هذا الغرض؛ ولكننا أخيراً، بإزاء فرحتنا الغامرة، اكتشفنا أنّ إحدى سلاسل الصواري الأمامية كانت في حالة من التخلخل بحيث لم يتطلّب الأمر صعوبة في خلعها من مكانها. بعد أن ربطنا هذه السلسلة ربطاً آمناً على أحد كاحليه، استعدّ بيترز الآن للنزول في مُحاولته الرابعة، وفي هذه المرة يبدو أنه نجح في المضي حتى وصل إلى باب غرفة الخدم. ولكنه واجه إحباطاً لا يوصف حين وجد الباب مُقفلاً، فاضطر للرجوع دون أن يُحاول اقتحام المدخل، [240]وكان في حالة شديدة من الإنهاك فلم

يتمكّن من البقاء تحت الماء دقيقة إضافية على أقلّ تقدير. وهُنا تبيّن لنا أنّ موقفنا يخلو من أي بارقة أمل، فلم يتمكّن أوغسطوس ولا تمكّنت أنا نفسي من منع أنفسنا من ذرف الدموع حين فكّرنا في الصعوبات التي تواجهنا، وفي انعدام أدنى فرصة للنجاة من هذا المأزق. ومع ذلك لم يستمر ضعف الموقف طويلاً. جثونا عندئذ على ركبنا وابتهلنا إلى الله أن يمدّنا بالعون ويُخلّصنا من هذه المخاطر التي تحدق بنا؛ ثم نهضنا وقد تجدّد الأمل والحزم للتفكير بما نستطيع القيام به حتى لو تطلّب الأمر وسائل مُهلكة تصل بنا إلى بر الأمان.

الفصل (10)

بعد وقتٍ قصير وقعت حادثة أرى نفسي مُضطراً لأن أعتبرها من الأشياء التي تهزّ الوجدان، لأنّها مُتخمة بمشاعر مُسرفة في البهجة أولاً، والرعب ثانياً، وهي تفوق كل مُصادفة من آلاف المُصادفات التي ألمّت بي خلال تسع سنواتٍ طويلة، تزاحمت مُختلطة بحوادث ذات طبيعة مُذهلة لا نظير لها، وفي كثير من الأحيان، هي أشياء من المُستحيل إدراك كُنهها أو مغزاها. كنّا مُنبطحين على السطح بالقرب من السلم نتناقش في إمكانية النزول إلى القبو، حتى إذا نظرت باتّجاه أوغسطوس الذي رقد أمامي لاحظت أنّ لون وجهه كان شاحباً شحوب الموتى، ورأيت شفتيه ترتعشان ارتعاشاً غريباً لا تفسير له. صدمني ذلك المنظر كثيراً فتكلّمت معه، ولكنّه لم يرد، وبدأت أُفكر بأنه أصيب بمرض مفاجئ، استنتجت ذلك عندما أمعنت النظر في عينيه اللتين تلمعان بوضوحٍ وتتّجهان إلى شيء خلفي. أدرت رأسي، ولن أنسى ما حييت ذلك الفرح أو تلك النشوة التي استولت على كل ذرةٍ من كياني حين شاهدت سفينة ضخمة تدنو منا، ولا تبعد أكثر من ميلين عن موقعنا. قفزت حالاً على قدمي وكأن رصاصة بندقية أصابتني فجأة في القلب؛ ومددت ذراعي وأخذت أُلوّح باتّجاه تلك السفينة، ولبثت في ذلك الوضع، دون أن أتزحزح عن مكاني، عاجزاً عن النطق بمقطع من كلمة واحدة. أما بيترز وباركر، فلم يختلفا عني في الاندهاش، مع أنّهما عبرا عن ذلك بطرق مُختلفة. كان الأول يرقص هُنا وهُنا على سطح المركب كالمجنون، ويتلفّظ بأكثر العبارات تفاهة وغرابة، ممزوجة مع الصراخ واللّعنات، بينما كان الثاني يذرف الدموع في نوباتٍ مجنونة من الفرح، وبقي عدة دقائق يبكي مثل الطفل.

كانت السفينة التي رأيناها شراعية خنثى[1]، هولندية الصنع، مطلية باللون [241]الأسود، في قيدومها رأسٌ مُزيّن بزخارف ذهبية. كان من الواضح أنّها كابدت الكثير من تقلّبات الجو، وافترضنا أنّها عانت من شدّة العاصفة التي عرفنا عنفوانها بأنفسنا؛ لاحظنا اختفاء صاريها الأمامي الأعلى، وبعض الحواجز من جهة الميمنة. حين رأيناها أول مرة، بدت لنا، كما قلت سابقاً، على مسافة ميلين باتّجاه الريح، وكانت تتّجه نحونا مُباشرة. كانت النسائم لطيفة رخوة، والشيء الذي أذهلنا أساساً أنّها لم ترفع أشرعتها الأُخرى باستثناء شراعٍ على الصاري الرئيسي الأمامي، مع شراع آخر مُثلث الشكل يُرفرف في مُقدمتها.. طبعاً اتّجهت السفينة إلينا ولكن في بطء، وكنّا على وشك أن نفقد الصبر ونُصاب بالجنون. كانت الطريقة البلهاء التي تتحرّك فيها أيضاً قد لفتت انتباهنا جميعاً، رغم حالة الهياج التي كنّا فيها. ثم انحرفت السفينة عن مسارها إلى هذا الاتّجاه أو ذاك في حركة تُثير الريبة، حتى تصوّرنا مرة أو مرتين أنّ من المُستحيل على بحارتها رؤيتنا، أو تخيلنا أنّهم بعد أن رأونا واكتشفوا عدم وجود شخصٍ على مركبنا فضّلوا الاستدارة والابتعاد في اتّجاه آخر. كل واحدٍ من هذه الاحتمالات دفعنا إلى الصراخ بأعلى أصواتنا، وحينها بدا أنّ السفينة الغريبة تُغيّر اتّجاهها لحظة، ومرة أُخرى ظلّت تسعى للاتّجاه إلينا.. هذا التصرّف المُستهجن تكرّر مرتين أو ثلاث مرات، حتى لم نستطع التفكير في طريقة للاستجابة إلى ذلك غير افتراض أن يكون المسؤول عن دفتها مخموراً.

لم نُشاهد على متن تلك السفينة أي شخصٍ حتى اقتربت فصارت على بُعد ربع ميل تقريباً منّا. عندئذ رأينا ثلاثة من البحارة على متنها، ومن طريقة ملبسهم ظننّا أنّهم من الهولنديين. اثنان منهم كانا مُستلقيين على شراع قديم بالقرب من السَلوقية، أما الثالث، الذي يبدو أنّه كان ينظر إلينا في تلهفٍ شديد، فكان ينحني على حاجزٍ مُقوس في جانب الميمنة بالقرب من الدفل المائل. هذا الشخص الأخير كان متيناً وطويل القامة، وبشرته داكنة. كان يبدو عليه من طريقة تصرّفه

---

(1) سفينة خنثى: مركب شراعي ذو صاريين مُختلفي الطراز. [المترجم]

أنّه يحثّنا على التحلّي بالصبر، وكان يومئ برأسه إلينا إيماءات ودّية على غرابتها، ويبتسم باستمرار، من أجل إظهار طقمٍ من الأسنان البيضاء اللامعة لمعاناً مُبهراً. حين اقتربت السفينة أكثر فأكثر وعلى متنها ذلك الرجل، لمحنا قلنسوة حمراء من قماش خفيف يضعها على رأسه، ولكنّها سقطت في الماء؛ ومع ذلك لم يحفل الرجل بهذا، ولم ينتبه إلى ذلك إطلاقاً، وإنما استمرّ في ابتسامته وإيماءاته الغريبة. إنّني أُصرّ على أن أروي هذه الأشياء والمُلابسات بأُسلوب دقيق، واستمرّ في التأكيد على تفاصيلها، ينبغي الانتباه إلى هذا، أرويها كما كانت تتبدّى لنا.

اقتربت السفينة منّا في بطء، وهُنا كانت تتحرّك في ثبات أكثر من السابق، و.. أجد نفسي عاجزاً عن الكلام في هدوءٍ عن هذه الحادثة.. وثبت قلوبنا وغطست بوحشية في صدورنا، وكادت أرواحنا تزهق مع صرخاتنا وصلوات شكرنا إلى الله تعالى على نجاتنا المُذهلة غير المُتوقعة أخيراً والتي أصبحت قاب قوسين أو أدنى [242]منّا. ولكن على حين فجأة، ودون سابق إنذار، طافت فوق المحيط، من تلك السفينة الغريبة (التي أصبحت الآن قريبة جدّاً منّا) رائحة عفنة، تلك الرائحة التي لا تسمية مألوفة لها في العالم كلّه.. من غير استثناء.. رائحة الجحيم.. تُزكم الأنوف.. رائحة لا تطاق، لا سبيل لإدراك ماهيتها. وصرت أسعى لالتقاط أنفاسي بصعوبة، واستدرت إلى رفاقي فرأيتهم أكثر شحوباً وتيبساً وذهولاً منّي. إلّا أنّ الوقت لم يُسعفنا الآن للتساؤل أو الظنون.. اقتربت السفينة إلى خمسين قدماً منا، وظهر أنّها تنوي الالتصاق بأعقابنا، فربّما يكون في وسعنا الانتقال إليها دون الاستعانة بأي زورق. ثم هرعنا إلى المؤخرة، ولكنّا فوجئنا بانحرافٍ يطرأ على مسارها ويبعدها خمس أو ست درجات عن الاتّجاه الذي كانت تسلكه، وحين عبرت بالقرب من مؤخرة سفينتنا بمسافة حوالى عشرين قدماً، أُتيحت لنا فرصة النظر إلى سطوحها. هل يُمكنني أبداً أن أنسى تلك الدهشة التي اعترتني لدى رؤية ذلك المشهد؟ خمسٌ وعشرون أو ثلاثون جثة بشرية، بينها عدّة إناث، مُبعثرة هُنا وهُناك بين الحواجز والمطبخ، في أبشع حالات التعفّن التي تُثير الفزع. رأينا بوضوحٍ عدم وجود أي كائن حي على تلك السفينة المنكوبة! إلّا أنّنا لم نتمالك أنفسنا عن الصراخ على الموتى طلباً للنجدة!

نعم، صحنا بأصوات عالية وتوسلنا، في تلك اللحظة المأساوية، مُستنجدين بتلك الأشباح الصامتة المُقززة أن تبقى من أجلنا، أن لا تتركنا نصبح مثلها، أن تستقبلنا معها كرفيق لطيف! هكذا كُنا نهذي مرعوبين يائسين.. مجانين من فرط إحباطنا المُثير للشجن.

ومع استمرار صيحاتنا الفزعة وارتدادها من الفراغ، سمعنا صدى يأتينا من مصدرٍ ما، من مكان قريب من الدفل المائل للسفينة الغريبة، كان صوتاً يُشبه حشرجة مُروعة لإنسان حي لا تغفل عنها الأُذن المُرهفة. عند هذه اللحظة تمايلت السفينة فجأة مرة أُخرى ممّا أتاح لنا رؤية جانبٍ من مُقدمتها لحظة، وعلى الفور اكتشفنا مصدر الصوت. هُناك رأينا شخصاً بديناً لا يزال ينحني على الحاجز، رأسه يتمايل إلى الأمام والخلف، إلّا أنّ وجهه الآن كان مخفيّاً عنا فلم نتمكّن من رؤيته. ذراعاه ممدودتان على قضبان الحديد، وراحتا يديه مُتدليتان. الرجل يُثني ركبتيه على حبلٍ غليظ مربوط بقوة بين أعقاب الدفل المائل ومرفاع المرساة. على ظهره، وقد بدا قميصه مُمزقاً، تاركاً ذلك الجزء عارياً، استقرّ نورس بحري ضخم، وكان يلتهم اللحم البشري بطريقة مُفزعة، بينما انغرس منقاره ومخالبه عميقاً، وتلطّخ ريشه الأبيض كلّه بالدماء. واستمرّت السفينة الغريبة بالالتفاف الذي جعلها بمُستوى قريبٍ نتمكّن فيه من الرؤية، عندها رفع الطير، في تلكؤٍ واضح، رأسه القرمزي، وبعد أن رمقنا لحظة ظهر فيها مذهولاً مُخدراً، نهض مُتكاسلاً عن الجسد الذي كان [243]جاثماً عليه ينهشه، وحلّق مُباشرة فوق رؤوسنا، ولبث يحوم هُناك فترة قصيرة وهو يحمل في منقاره قطعة لحمٍ مُلطخة بالدماء كأنّها الكبد. ولم تلبث تلك القطعة البشعة أن سقطت مصحوبةً برشاشٍ مِكتوم عند قدمي باركر. فليُسامحني الله، الآن ولأول مرة خطرت على بالي فكرة لن أجرؤ أن أذكرها، وأحسست بنفسي أتقدّم خطوة نحو البقعة الحمراء. نظرت إلى الأعلى، والتقت عينا أوغسطوس بعينيّ مع ما تحملانه من معاني الغضب الذي أعادني إلى رشدي. قفزت إلى الأمام سريعاً، وفي ارتعاشٍ عميق رميت قطعة اللحم المقيتة إلى البحر.

كان الجسد الذي انتُزعت منه تلك القطعة لا يزال يستند إلى حبلٍ غليظ،

ثم صار يتمايل إلى الأمام والخلف بعد أن تركه الطائر النهم المُتوحش، وهذه الحركة هي التي دفعتنا في البداية إلى الإحساس بالراحة لأنّنا أيقنّا أنّه كان حيّاً. بعد أن تخلّص الرجل من ثقل النورس الذي كان جاثماً عليه، صار يتلفّت حوله ولم يلبث أن جثا على ركبتيه جزئياً، فأصبح وجهه مرئياً كلّياً. حتماً لم يسبق أن رأينا شيئاً بهذا المنظر المُفزع المُثير للإشفاق! العينان اقتلعتا من محجريهما، واللحم الذي يحيط بالفم تساقط أيضاً، وتُركت الأسنان مُجرّدة من اللّحم. هذه إذن هي الابتسامة التي كانت تبعث البهجة والأمل في نفوسنا! هذه.. ولكن من الأفضل الإحجام عن هذا. مرّت السفينة، كما قلت، من المؤخرة، وتابعت طريقها في بطءٍ وثباتٍ مع اتّجاه الريح. ومعها، مع طاقمها المُرعب ذهبت آمالنا المُبهجة في الخلاص. وبينما كانت تمضي في طريقها، كنّا نُفكّر فعلاً في أنّه كان في وسعنا إيجاد وسيلة للصعود على متنها، لولا خيبة أمالنا المُفاجئة والمنظر البغيض للاكتشاف الذي تزامن مع هذا فعطّل أي مُحاولة ذهنية أو جسدية لدينا. لقد رأينا وأحسسنا ببشاعة ذلك المنظر، ولكنا لم نتمكّن من التفكير أو التصرّف، حتى فات الأوان، على كثير من الأسف! إلى أي مدى تعطّلت قُدراتنا العقلية من تأثير هذه الحادثة، ربّما يُمكن تقدير هذا من حقيقة أنّ السفينة لما ابتعدت إلى مسافة لم نعد نتمكّن فيها من رؤية أكثر من نصف بدنها، عندها فقط أخذنا نُفكر تفكيراً جدّياً في مُحاولة الاستيلاء عليها وذلك بأن نلحق بها سباحة!.

منذ هذه الفترة الأخيرة، كنت أُحاول عبثاً التوصل إلى خيطٍ رفيع من شأنه أن يحلّ اللّغز المُحيّر الذي يكتنف مصير تلك السفينة الغريبة. كان بناؤها ومظهرها على وجه الإجمال، كما ذكرت سابقاً، يقودنا إلى الاعتقاد بأنّها سفينة تجارية هولندية، وثيابُ طاقمها أيضاً تؤكد هذه الفكرة. ربّما كان من اليسير أن نرى اسمها منقوشاً على المؤخرة، في الواقع، إذا أخذنا بنظر الاعتبار مسائل أُخرى، حتماً [244]سوف يقودنا ذلك إلى حقيقة أمرها؛ ولكن الانبهار المهول الذي استولى علينا في تلك اللحظة أعمى عيوننا عن كل شيء يخص طبيعتها. من اللون الذي يُشبه الزعفران لتلك الجثث التي لم تتعفّن كلّياً، استنتجنا أنّ كل مَنْ على متنها قد لقوا حتفهم بسبب الحمى الصفراء، أو بسبب مرض فتّاك آخر. إذا

كانت هذه هي الحقيقة (ولا أعرف أو أتخيّل تفسيراً آخر)، حتماً يكون الموت الأسود، إذا استنتجنا ذلك من الأوضاع التي اتّخذتها الجثث، قد دهمها بطريقة مُباغتة، بشعة، بعيدة كل البعد عمّا يُميّز أكثر الأوبئة فتكاً التي تعرفها البشرية عامة. أو يُمكن أن يكون السبب في الواقع نوعاً من السموم التي تسرّبت مُصادفة إلى مؤنهم، وذلك ما أدّى إلى هذه المأساة، أو أنّهم ربما تناولوا نوعاً ساماً غير معروف من أنواع السمك، أو أي حيوان بحري آخر، أو طائرٍ من طيور المُحيط، فحدث لهم ما حدث.. ولكن يبدو من العبث إجراء تخميناتٍ من هذا القبيل حين تكون جميع الاحتمالات مطروحة للنقاش، ولا شك أنّها تبقى إلى الأبد احتمالات قائمة، تخفي وراءها سرّاً مُريعاً لا تُسبر أغواره.

الفصل (11)

أمضينا ما تبقّى من اليوم في حالة يُرثى لها من الخمول الغبي، نُحملق في المركب المُتقهقر حتى حلّ علينا الظلام، فاختفى عن أنظارنا، وأعادنا بعض الشيء إلى رشدنا. وعادت إلينا الهواجس التي تنخسنا فتذكرنا الجوع والعطش، فاستولى ذلك على تفكيرنا ولم نعُد نحفل بأي اعتبارات أُخرى. ولكن لا شيء يُمكن أن يفعل حتى أشرق الصباح، عند ذلك حاولنا أن نؤمن لأنفسنا مكاناً آمناً ما استطعنا ذلك، وحاولنا أخذ قسط من الراحة أو النوم. وفي هذا نجحت أنا شخصيّاً وكان النوم خارج توقعاتي، حتى أيقظني رفاقي، الذين لم يُحالفهم الحظ مثلي، مع انبلاج الصبح لكي نُعاود مُحاولاتنا في الحصول على شيءٍ من المؤن من القبو.

كان الهدوء مُطبقاً الآن كأننا في مقبرة، والبحر وديع كعهدنا به، والجو دافئ يبعث على الانتعاش. وتوارت السفينة عن الأنظار. ورجعنا إلى مُحاولاتنا السابقة لأن ننتزع في شيء من الصعوبة إحدى السلاسل في المُقدمة؛ بعد أن ربطنا قدمي بيترز معاً، عاد إلى مُحاولة الوصول إلى باب القبو، وكان يعتقد أنّه يستطيع خلع الباب وفتحه عنوة، شريطة أن يصل إليه في الوقت المُناسب؛ وتمنّى أن ينجح في هذا، لأنّ السفينة كانت مُستقرّة أكثر من السابق.

وصل بيترز سريعاً إلى الباب، حتى إذا أرخى إحدى السلاسل عن كاحله صار يبذل جهداً مُضاعفاً للمُضي في طريقه، ولكن يبدو أنّه كان من العبث [245]الاستمرار في ذلك الجهد، إذ وجد باب الغرفة أقوى بكثير من المُتوقع. كان يحسّ بالإنهاك الشديد لبقائه فترة طويلة تحت الماء، وأصبح من الضروري

أن يحلّ شخص آخر منّا محلّه. تطوّع باركر لهذه المُهمة حالاً؛ ولكن بعد ثلاث مُحاولات عقيمة، اكتشف أنّه لن يتمكّن أبداً حتى من الوصول إلى مكانٍ قريب من الباب. كانت ذراع أوغسطوس المجروحة تجعله عاجزاً عن النزول، لأنّه لن يتمكّن من اقتحام الغرفة حتى إذا وصل إليها، ولذلك تحتّم عليّ الآن أن أقحم نفسي مُحاولاً إيجاد سبيل للخلاص من محنتنا.

لقد ترك بيترز إحدى السلاسل في الممر السفلي، ووجدت لدى التشبث بها أنّ توازني يختلّ بصورة غير كافية لبقائي ثابتاً تحت الماء. لذلك قرّرت ألّا أكرر التجربة ثانية، وفي مُحاولتي الأُولى لم أفعل شيئاً سوى استرداد السلسلة الأُخرى. حين كنت أتلمّس حائط الممر سعياً لهذا الغرض، أحسست بشيء صلب، وعندئذ أمسكت به على الفور، ولم يكن لديّ وقت للتأكد من حقيقته، ولكنّي صعدت حالاً إلى السطح. ثم اتّضح أنّ الجائزة التي حصلت عليها هي زجاجة، وربما يُمكن تصور مدى فرحتنا عندما أقول: إنّنا وجدناها مليئة بنوع من النبيذ المعروف في الموانئ. حمدنا الله على هذه المعونة التي جاءت في وقتها لتبعث فينا البهجة، وانتزعنا السدادة في الحال بسكيني الخاصة، وأخذ كل واحد منّا رشفة خفيفة، وما إن فعلنا ذلك حتى أحسسنا براحة لا يُمكن أن توصف وبحالة غريبة من الدفء، والانتعاش، والقوة، وروح معنوية عالية أضفتها علينا تلك الرشفات اليسيرة. ثم أعدنا السدادة إلى مكانها في عناية، وشددناها بمنديل يدوي وعلّقناها في مكان آمن بحيث ليس هُناك أي احتمال لأن تقع فتنكسر.

أخذت قسطاً من الراحة على أثر هذا الاكتشاف المُذهل، ثم بدأت أتهيأ للنزول، وهُنا استعدت السلسلة التي صعدت بمُساعدتها في مُحاولتي الأُولى. وربطتها على خصري ونزلت للمرة الثالثة، ولما اقتنعت كل الاقتناع من عدم جدوى بذل أي جهود، في وضعي الراهن، من شأنها أن تنفع في اقتلاع باب القبو، رجعت أدراجي واليأس يكاد يقضي عليّ.

هُنا بدا لنا أنّنا فقدنا أي فسحةٍ للأمل في وضعنا الراهن، كان في وسعي تلمّس ذلك الإحساس في وجوه رفاقي الذين رأيتُ في أذهانهم استسلاماً للموت. لقد بعث النبيذ حتماً في أجسادهم نوعاً من الاضطراب، ولعلّي كنت بعيداً عن

ذلك الإحساس نفسه بسبب عمليات الغطس المُتكرّرة التي قمت بها منذ أن احتسيت شيئاً من ذلك الشراب. كانوا يتحدّثون عن أشياء غير مُترابطة، وتفوّهوا بكلمات لا علاقة لها بوضعنا، وأعاد بيترز مِراراً سؤاله لي عن نانتوكيت. أمّا أوغسطوس، فهو أيضاً، على ما أتذكّر، كان يتوسّل إليّ بلهجة جادة، طالباً منّي أن أُعيره مشطي [246]الصغير، لأنّ شعره مليء بقشور السمك، ويريد إزالتها قبل الوصول إلى الشاطئ. وبدا باركر أقلّ تأثراً بعض الشيء، وحثني على الغطس والبحث عن أي شيءٍ في المقصورات، وأن أجلب أي شيء تقع عليه يدي. وافقت على ذلك، وفي مُحاولتي الأُولى، بعد دقيقة كاملة تحت المياه، عثرتُ على حقيبة جلدية صغيرة تعود إلى القبطان بارنارد. وفتحنا الحقيبة على أمل ضعيف في أن نجد فيها شيئاً للأكل أو للشرب. ولم نجد شيئاً، باستثناء علبة أمواس حلاقة وقميصين من الكتان. وهُنا غطست مرة ثانية، وعدت دون أن أُحقق نجاحاً. ولما خرج رأسي من الماء سمعت خبطاً على سطح المركب، وما إن صعدت حتى رأيت رفاقي قد انتهزوا فرصة غيابي وتصرّفوا بنذالة فشربوا ما تبقّى من النبيذ، وتركوا الزجاجة تسقط من بين أيديهم أثناء مُحاولتهم لإعادتها إلى مكانها قبل أن أراهم. بدأت أتجادل معهم وألومهم على تصرّفهم الدنيء، وعندئذ انفجر أوغسطوس باكياً. وحاول الآخران الضحك وقالا: إنها مُجرّد مزحة، ولكنّي كرهت أن أُشاهد مثل ذلك النوع من الهزل: كانت حالة الاضطراب واضحة للعيان على ملامحهم في منظر مُخيف جدّاً. في الواقع يبدو أنّ حافز خواء المعدة قد استولى عليهم بعنف، وأنهم كانوا جميعاً سكارى فاقدين لوعيهم. دفعتهم في صعوبةٍ بالغة إلى الاستلقاء، وسرعان ما غطوا في نوم عميق رافقه شخيرٌ مُزعج بأصوات عالية.

وجدت نفسي الآن وحيداً لا أحد يؤنس وحشتي في السفينة، وكانت أفكاري، كي أكون مُنصفاً، ذات طبيعة هي الأشد سوداوية وإثارة للفزع. لم يخطر على بالي أي أملٍ في الخلاص، ولكن الموت جوعاً كان الشيء الذي لا يُفارقني، أو في أحسن الأحوال الموت حين تداهمنا أول عاصفة، لأنّنا في وضعنا الحالي وقد أنهكت قوانا لن تُسعفنا بارقة أمل في النّجاة إذا واجهنا عاصفة أُخرى.

كانت مخالب الجوع القاسية التي أحسست بها الآن تكاد تنهش أمعائي ولم أعد قادراً على التحمّل، وشعرت بالعجز عن مُداراتها ولو إلى حين. استخدمت سكيني الصغيرة فقطعت جزءاً من الحقيبة الجلدية، وحاولت التهامها، ولكني وجدت من المُستحيل بلع لقمة منها، مع أنّي تخيّلت أنّ جانباً من مُعاناتي قد خفّ بعد أن مضغت قطعاً صغيرة منها ثم ما لبثت أن لفظتها. ومع اقتراب الليل أفاق رفاقي، واحداً بعد الآخر، وكان كل واحد منهم في حالة لا توصف من الضعف والفزع، سببها النبيذ الذي كانت رائحته فوّاحة الآن. كانوا يرتعشون كأنهم أُصيبوا بالملاريا [247]الشديدة، وصرخاتهم تبعث الأسى وهم يطلبون الماء. أثّرت بي حالتهم إلى أقصى درجة، وفي الوقت نفسه جعلتني أبتهج من مجريات الحوادث التي منعتني من الانجرار إلى شرب النبيذ بإفراط، وتبعاً لذلك فلم أشترك معهم في أحاسيسهم السوداوية. إلا أنّ وضعهم أضفى عليّ قلقاً جسيماً دفعني إلى توخّي الحذر؛ لأنّ من الواضح، ما لم يحصل تغيّر لصالحي، أنّهم لن يقدّموا أي نوع من المُساعدة في تأمين سلامتنا. لم أتخيّل أبداً أن أتمكّن من العثور على شيءٍ من الأسفل؛ غير أنّ المُحاولة لا يمكن أن تستأنف حتى يتمالك أحدهم نفسه بما يكفي لمُساعدتي في الإمساك بطرف الحبل حين أنزل. بدا أنّ باركر الأكثر سيطرة على نفسه من الآخرين، وحاولت بكل وسيلة أن أجعله ينهض على قدميه. وتصورت أنّه إذا غطس في مياه البحر ربما يكون لذلك تأثيرٌ مُنعش عليه، وربطت طرف حبلٍ بجسده، ثم قدته إلى السلم (طوال الوقت بقي مُستسلماً)، ودفعته إلى الأسفل، ثم سحبته على الفور. كان لديّ من الأسباب ما دفعني إلى تهنئة نفسي على هذه التجربة؛ لأنّه انتعش كثيراً وعاد إليه نشاَطه، ولدى خروجه سألني بلهجة عقلانية عن السبب الذي دفعني إلى ما فعلت معه. بعد أن شرحت له غرضي، عبّر عن امتنانه لي، وقال: إنه يشعر بالتحسن بعد هذا الغطس، وأخذنا نتكلم ونفكّر في وضعنا. وقرّرنا أخيراً أن نتعامل مع أوغسطوس وبيترز بالطريقة نفسها، ونفذنا ذلك على الفور فوجدناهما يشعران بتحسنٍ ملموس من أثر الصدمة. كانت فكرة الغطس المُباغت هذه قد خطرت على بالي عندما تذكّرت ما قرأته في بعض الكتب الطبية عن التأثير المُفيد

للاستحمام في حالة المريض الذي يُعاني من نوبة من الكآبة *mania a potu* سببها تعاطي الكحول بإفراط.

بعد أن وجدت نفسي قادراً الآن أن أثق برفاقي إذا أمسكوا الطرف الآخر من الحبل، نزلت من جديد ثلاث أو أربع مرات إلى المقصورات، مع أنّها كانت مُظلمة الآن، وهُناك تيارٌ خفيف يتدفّق ويستمر طويلاً من جهة الشمال يجعل المركب غير مُستقرٌ بعض الشيء. ضمن هذه المُحاولات تمكّنت أخيراً من جلب سكينين في غمديهما، وإبريق يتسع لثلاثة غالونات، وبطانية، ولم أعثر على شيء يُصلح للأكل. واستمرّت جهودي بعد إخراج هذه المواد، حتى استولى عليّ التعب، ولم أنجح في العثور على شيء آخر. أثناء الليل انشغل باركر وبيترز على التناوب في المساعي ذاتها؛ ولكن دون جدوى، وهُنا قررنا التخلّي عن هذه المُحاولات بعد أن أصابنا الإحباط، واستنتجنا أننا نُبدّد قوانا سُدى.

أمضينا ما تبقّى من هذه الليلة ونحن في حالة لا يُمكن تصوّرها من الإنهاك الذهني والجسدي. [248]وبزغ فجر اليوم السادس عشر أخيراً، وأخذنا نتطلّع إلى الأُفق مُتلهّفين بحثاً عن بارقة أمل، ولكن من غير طائل. كان البحر لا يزال رقيقاً هادئاً، مع تيارات طويلة فحسب تعترض سكونه مُتجهة شمالاً، مثلما حصل بالأمس. كان هذا اليوم السادس منذ أن تذوقنا آخر شيءٍ من الطعام أو الشراب، باستثناء زجاجة النبيذ، وكان واضحاً أنّنا لن نتمكّن من الصمود إلا فترة قصيرة جدّاً ما لم نحصل على شيء يسدّ رمقنا فيُنقذنا من الموت. لم يسبق أبداً أن رأيت، أو أردت أن أرى مرة أُخرى، أشخاصاً مثل بيترز وأوغسطوس وقد أصابهما الهزال. لو أنّي رأيتهما على الشاطئ وهُما على حالتهما الراهنة، لساورني الشك حتماً في أنّي أعرفهما. لقد تبدّلت قسماتهما كل التبدّل في هيئتها، إلى درجة أنّني لم أستطع إقناع نفسي بأنهما الشخصين نفسيهما اللذين كانا يرافقانني منذ بضعة أيام. مع أنّ حجم باركر تقلّص على نحو مُحزن، فأصبح ضعيفاً بحيث لا يتمكّن من رفع رأسه عن صدره، إلّا أنّ حالته لم تتدهور على غرار ما حصل للآخرين. كان يتحمّل مُعاناته في صبرٍ وجلد، ولا تصدر عنه أي شكوى، وتخيلت أنّه يُحاول أن يدفعنا إلى الأمل بكل وسيلة يستطيع ابتكارها. أمّا بالنسبة لي، مع أنّي كنت في مُستهلّ الرحلة أعاني من اعتلالٍ في الصحة،

وكنت في معظم الأحيان ضعيف البنية بعض الشيء، إلّا أنّي واجهت صعوبات أقلّ من أي واحد من الآخرين، فلم يعترني الهزال الذي أصابهم، وكنت أحتفظ بقدراتي العقلية بشكل مُثير للاستغراب، في الوقت الذي اضطربت فيه أفكار الباقين، وكان يبدو عليهم أنّهم ارتدّوا إلى طفولة أُخرى، إذ كانوا يبتسمون على الدوام ابتسامات بلهاء وتعابيرهم مُتكلّفة، وتصدر عنهم أكثر العبارات تفاهة وبذاءة. إلّا أنّهم كانوا بين الحين والحين يظهرون وقد استردّوا شيئاً من حيويتهم فجأة، وكأنّ نوعاً من الإلهام يدفعهم إلى إدراك حقيقة حالتهم، عندها يثبون على أقدامهم في سورةٍ مُباغتة من الحماس، ويتكلّمون قليلاً عن طموحاتهم بلهجة تكاد تكون عقلانية، مع أنّها مُشبعة بأقصى ألوان اليأس عمقاً. ولكن ربّما كانت لدى رفاقي فكرة عن حالتهم على غرار فكرتي عن حالتي، وربّما كنت مُذنباً بلا قصد بالإسراف في مظاهر البلاهة نفسها مثلهم.. هذه مسألة لا يُمكن تقريرها.

عند الظهيرة تقريباً قال باركر: إنّه رأى اليابسة باتّجاه اليسار، وواجهت صعوبة في منعه عن القفز إلى البحر على أمل السباحة إلى هُناك. أما بيترز وأوغسطوس فلم يباليا إلا قليلاً بما قال، لأنهما فيما يظهر كانا مُستغرقين في تأملاتٍ مُختلفة أُخرى. حين نظرت في الاتجاه الذي أشار إليه لم أستطع تمييز أي منظر [249]مهما كان طفيفاً للساحل.. في الواقع، كنت أُدرك تمام الإدراك أنّنا بعيدون كثيراً عن أي أرضٍ لكي نُفكّر في أملٍ خادع من ذلك النوع. ولكن مضت فترة طويلة قبل أن أتمكّن أخيراً من إقناع باركر بخطئه. ثم لم يلبث أن أجهش بالبكاء، وكان يذرف الدموع مثل الطفل، مع نشيجٍ مسموع وتنهدات، واستمر ذلك ساعتين أو ثلاث، حتى أحسّ بالتعب، وخلد إلى النوم.

حاول بيترز وأوغسطوس الآن بذل جهود عقيمة لابتلاع قطعٍ من جلد الحقيبة. ونصحتهما بمضغ الجلد ثم لفظه؛ ولكنّهما كانا مُضطربين فلم يتبعا نصيحتي. ومضيتُ أمضغ قطعاً من الجلد بين الحين والحين، حتى أحسست بشيء من الارتياح؛ كان كلّ اهتمامي مُركزاً على الماء، ولم يمنعني من شرب جرعةٍ من ماء البحر إلا ذكريات عن النتائج المُرعبة التي حصلت لأشخاص آخرين كانوا يواجهون وضعاً مُماثلاً لوضعنا نحن.

انقضى النهار على هذا المنوال، ثم اكتشفت فجأة وجود شراعٍ يلوح إلى جهة الشرق، على ميسرتنا. تراءى لي أنّها سفينة كبيرة تسلك اتجاهاً مُنحرفاً عنّا، ربّما على بعد اثني عشر أو خمسة عشر ميلاً. لم ينتبه أي واحد من رفاقي إلى وجودها حتى ذلك الوقت، وأحجمت عن إخبارهم بأمرها حالياً، خشية أن تُصيبهم خيبة الأمل في الخلاص. وأخيراً لما اقتربت السفينة أكثر، رأيت بوضوح أنّها تتّجه إلينا مُباشرة، وقد نشرت أشرعتها الخفيفة. لم أستطع الآن كبح نفسي، وأشرت إلى رفاقي في المُعاناة أن ينظروا باتّجاهها. وما كان منهم إلا أن وثبوا على أقدامهم فوراً، ومرة أُخرى أظهروا من علامات الفرح ما يتجاوز العقلانية، بدؤوا ينتحبون، ويضحكون في بلاهة، ويقفزون، ويخبطون بأقدامهم على سطح المركب، وينتفون شعر رؤوسهم، ويبتهلون ويلعنون في وقتٍ واحد. كنت مُتأثراً أشد التأثر بمنظرهم وتصرفاتهم، فضلاً عن تأثري بما اعتبرته فرصة مؤكدة للنجاة من محنتنا، حتى إنّي لم أمتنع عن الانضمام إليهم في جنونهم، وتركت نفسي تُعبّر عن نوازع الامتنان والأسى بأن انبطحتُ على الأرضية وصرت أتقلّب، وأصفق بيدي، وأصرخ، وما إلى ذلك من الحركات المُماثلة، حتى عدت إلى صوابي، أو عدت إلى أقصى حالات البؤس البشري وما يُرافقه من القنوط، حين رأيت السفينة تُغيّر اتّجاهها على حين فجأة تغييراً تامّاً فتحولت مؤخرتها نحونا، وكانت تتحرّك في الاتجاه المُعاكس تقريباً للاتّجاه الذي رأيتها تتّخذه أول مرة.

مضى بعض الوقت قبل أن أتمكّن من إقناع رفاقي المساكين بأنّ هذا التغيّر المؤسف في طموحاتنا وقع فعلياً. وأجابوا على تأكيداتي بنظرات وإيماءات توحي [250]بأنّهم لن ينخدعوا بمثل هذه التصوّرات الزائفة. كان تصرّف أوغسطوس خاصة قد أثّر بي تأثيراً عميقاً. على الرغم من كل شيء كان في وسعي قوله أو القيام به لإثبات العكس، إلّا أنّه أصرّ على القول: إنّ السفينة تقترب سريعاً منّا، وظل يُجري التحضيرات للانتقال إلى متنها. كانت هُناك بعض كتل الأعشاب البحرية تطفو قريباً من السفينة، فألحّ على أنّها زورق أرسل من السفينة، وحاول أن يُلقي نفسه عليها، وكان يولول ويصرخ بصوت يفطر القلب لما منعته من إلقاء نفسه إلى البحر.

بعد أن استرددنا شيئاً من هدوئنا، استمر بعضنا بمُراقبة السفينة وهي تبتعد إلى أن غابت عن الأنظار، وأصبح الجو ضبابياً غائماً، مع نسيم خفيف يتصاعد إلى الأعلى. ما إن تلاشت السفينة حتى التفت باركر إليّ فجأة وقد بدا على قسماته تعبير جعلني أرتعش من الرهبة. ظهرت عليه علامات رباطة جأش لم أُلاحظها سابقاً، وقبل أن يفتح شفتيه ليتكلّم أخبرني قلبي بما كان سيقوله. لقد اقترح بكلمات مُختصرة أن يموت واحدٌ منا للإبقاء على حياة الآخرين.

الفصل (12)

منذ بعض الوقت كنت أُفكر في احتمال أن نلجأ إلى هذا الاختيار الرهيب، وتوصّلت في نفسي إلى قناعة بأن أتحمّل الموت بأي وجه من الوجوه وتحت أي ظرف بدلاً من اللّجوء إلى هذا التصرّف. ولم يضعف عزمي مع تسلّط الجوع حالياً بهذه الشدة التي أُعاني منها. لم يسمع بيترز أو أوغسطوس بذلك الاقتراح. ولذلك أخذت باركر جانباً؛ وناشدت الله في سري أن يُلهمني القدرة على إقناعه بالعدول عن القرار الشنيع الذي ينوي تنفيذه، وتجادلت معه طويلاً، وتضرّعت إليه بأكثر السبل إثارة للشفقة، وتوسلت إليه وأقسمت عليه باسم أي شيء مُقدس لديه، وألححت في مُحاولاتي لإقناعه مُستخدماً جميع أنواع الحجج التي يفرضها هذا الموقف الحرج، وطالبته أن يتخلّى عن تلك الفكرة، وأن لا يذكر شيئاً عنها أمام الرجلين الباقيين.

استمع إلى كل ما قلته دون أن يُحاول تغيير اتّجاه مُناقشاتي، وبدأت آمل في أنّه سوف يمتثل لرغبتي. ولكنني عندما توقفت عن الكلام، قال: إنه يعرف جيداً أنّ كل ما قلته صحيح، وأنّ اللّجوء إلى هذا الاختيار من أفظع البدائل التي يُمكن أن تخطر على بال الإنسان؛ ولكنّه كما قال يتمسك بما تُمليه عليه الطبيعة البشرية؛ [251]فليس من الضروري أن نموت جميعاً، في الوقت الذي يكون فيه مُمكناً، أو حتى مُحتملاً، أن ننقذ حياة الباقين حتى يصلوا إلى بر الأمان؛ وأضاف قائلاً لي: إنّني أستطيع أن أوفر على نفسي عناء إقناعه بالعدول عن موقفه، لأنّ عقله توصّل إلى قرار قاطع بشأن الموضوع حتى قبل ظهور السفينة، وأنّ رؤيته لها فحسب منعته من ذكر نواياه في وقت مُبكر.

وهُنا بدأت أتوسل إليه، فإذا كان يرفض التخلّي عن نواياه، على الأقل عليه أن يؤجل الأمر يوماً آخر، عسى أن تأتي سفينة ما لإنقاذنا؛ ومرة أُخرى اتّبعت في ذلك كل وسيلة في المُجادلة يُمكنني ابتكارها، وعرضت عليه كل فكرة رأيت أنّها من الجائز أن تؤثر في طبيعته المُتصلبة. قال رداً عليّ: إنّه لم يتكلّم حتى آخر لحظة صار فيها عاجزاً عن تحمّل العيش دون عونٍ من نوع ما، ولهذا فإنّ يوماً آخر يؤجل فيه اقتراحه يعني فوات الأوان، فيما يتعلّق به هو على الأقل.

بعد أن وجدته لا يتزحزح عن قراره بأي شيءٍ يُمكن أن أقوله بلهجة لطيفة، حاولت الآن اتّباع أسلوب مُختلف، فأخبرته بأن عليه أن يُدرك أنّني عانيت أقلّ من أي واحدٍ منّا من الكوارث؛ وأنّ صحتي وقوّتي أفضل في تلك اللحظة منه، أو هي أفضل من حالة بيترز أو أوغسطوس؛ باختصار، أنّني في وضعٍ يسمح لي باللجوء إلى القوة إذا رأيت ذلك ضرورياً؛ فإذا حاول إخبار الآخرين بخطته الدموية، لن أتردّد في إلقائه إلى البحر. لدى سماع هذا أمسكني حالاً من رقبتي، وسحب سكيناً، وقام بمُحاولات فاشلة لأن يطعنني في البطن؛ كان تصرّفاً شنيعاً لم يمنعه من تنفيذه إلا ضعفه الجسدي وحده. في غضون ذلك، بما أنّي بلغت ذروة الغضب، دفعته بقوة إلى جانب المركب، وكنت أنوي عامداً أن ألقي به من السطح. ولكنّه نجا من مصيره المحتوم بتدخل بيترز الذي اقترب منّا وفصل أحدنا عن الآخر، وتساءل عن سبب المُشادة. وأخبره باركر بكل شيء قبل أن أمنعه بطريقة ما.

كان تأثيرُ كلماته أفظع مما توقّعت. بدا أن كلّاً من أوغسطوس وبيترز كانا منذ وقتٍ طويل يُفكران سرّاً في الخطة المخيفة نفسها، التي اقترحها باركر أول مرةَ، وكانا يؤيدانه في نواياه ويُصران على وضعها موضع التنفيذ فوراً. كنت أتصوّر أنّ واحداً منهما على الأقل لا يزال يمتلك من قوة العقل ما يكفي للوقوف إلى جانبي في [252] مُقاومة أي مُحاولة لتنفيذ ذلك العمل الشنيع، وبمُساعدة أي واحدٍ منهما لن أشعر بالخوف من قدرتي على منع ذلك. وبعد أن خاب ظني في تلك التوقعات، أصبح لزاماً عليّ أن أهتم بسلامتي الشخصية، لأنّ أي مقاومة من جانبي ربما فسّرها الرجال في حالتهم المُفزعة على أنّها ذريعة

كافية ليرفضوا مُحاولاتي في اللعب على أوتار هذه التراجيدية التي أعرف أنّ مشاهدها سوف تنفذ بعد حين.

وهُنا أخبرتهم بأنّي على استعداد للخضوع لإرادتهم وتقبّل المُقترح، ولكنّي لا أطلب أكثر من فترة تأجيلٍ ربما لن تستغرق أكثر من ساعة، عسى أن ينقشع الضباب الذي يتجمّع حولنا، ولعل السفينة التي سبق أن رأيناها تظهر من جديد. وبعد مُحاولات صعبة حصلت على وعدٍ منهم بالانتظار هذه المدة؛ وكما توقعت (فقد هبّ نسيم بعد وقتٍ قصير)، وانقشع الضباب قبل أن تنقضي الساعة، ولكن لم يظهر أي مركب، وتهيأنا للاقتراع.

من الصعوبة أن أجرؤ على وصف المشهد الرهيب الذي أعقب ذلك؛ إنه مشهدٌ، بكل ما يحمل من تفاصيل دقيقة، لا يُمكن لأي حادثة لاحقة أن تمحوه أبداً من ذاكرتي، ولسوف تبقى ذكراه القاسية تُلقي ظلالها المريرة على كل لحظةٍ مُستقبلية من حياتي. دعوني أمرُّ سريعاً على هذه المرحلة من قصتي ما استطعت إلى ذلك سبيلاً وما سمحت لي طبيعة الحوادث التي أُريد التطرق إليها. كانت الوسيلة الوحيدة التي استطعنا ابتكارها للاقتراع المُذهل، وكان على كل واحد منّا أن يُجرّب حظه العاثر في هذا الشأن، هي سحب أعوادٍ من الخشب. وجئنا بالأعواد الرفيعة التي تلبي غايتنا، واتفقنا على أن أمسك الوعاء بنفسي. والتجأت إلى ركنٍ من المركب، بينما اتّخذ رفاقي المساكين أماكنهم في الطرف الآخر وظهورهم نحوي. كانت أكثر الانفعالات مرارة التي كابدتها في أقسى مرحلة من هذه الدراما الرهيبة عندما انشغلت بترتيب أعواد الخشب. هناك حالات قليلة ربّما يواجهها الإنسان لا يشعر خلالها بأدنى اهتمام أو حرصٍ على حياته؛ ولكن الاهتمام باستمرار الوجود يزداد لحظة بعد لحظة مع ضعف الأمل في الإبقاء على حياته. والآن، مع تفاقم جدّية اللحظة الصامتة المُخيفة للموقف الذي وجدت نفسي فيه (موقفٌ مُختلف كل الاختلاف عن المخاطر الشديدة لأي عاصفة أو المظاهر المُفزعة للمجاعة التي تقترب رويداً) أُتيحت لي فرصة للتفكير في فرصٍ قليلة ربما أُتيحت لي للتملص من أكثر ضروب الموت رعباً- موت يتحقّق لأكثر الأغراض رعباً- فكل جزءٍ من تلك الطاقة التي رفعت معنوياتي تبددّت وتركتني

في مهبّ الريح، تركتني فريسة لا [253]حول لها ولا قوّة أمام حالة من حالات الفزع الأشد قنوطاً وإثارة للإشفاق. لم أتمكّن أول مرة حتى من لملمة ما يكفي من رباطة الجأش ولبثت عاجزاً عن عزل وترتيب بعض أعواد الخشب الرفيعة مع بعضها، كانت أصابعي ترتعش وترفض كلّياً أداء وظيفتها، وركبتاي تصطدمان معاً في عنف. ومرت بذهني سريعاً آلاف الخطط العشوائية التي من شأنها أن تجعلني أتفادى الاشتراك في تلك المؤامرة الشنيعة. وفكرت في أن أجثو على ركبتيّ وأسترضي رفاقي، وأتوسّل إليهم أن يتركوني وشأني فلا يفرضوا عليّ هذا القرار؛ فكرت في أن أهجم عليهم، فأقتل واحداً منهم، وبذلك يُصبح الاختيار بالقرعة لا جدوى منه.. باختصار، طلبتُ إليهم القيام بأي شيء باستثناء المسألة التي طُرحت عليّ. وأخيراً، بعد ضياع وقتٍ طويل في هذه المساعي البلهاء، أعادني إلى رشدي صوتُ باركر الذي ألحّ عليّ بأن أُخلّصهم من تلهّفهم المُريع الذي يتحمّلونه. حتى ذلك الوقت لم أستطع إقناع نفسي بترتيب الأعواد في موضعها، ولكنّي فكرت بأنواع الألاعيب التي من شأنها أن تُتيح لي خداع أحد رفاقي في المُعاناة فتُغريه ليسحب العود القصير، فقد اتّفقنا على أنّ أي شخص يسحب أقصر الأعواد الأربعة من يدي يجب أن يُضحي بحياته للإبقاء على حياة الآخرين. قبل أن يحتجّ عليّ أي شخص رافضاً هذا التصرف المُستنكر، فليحل محلّي ويواجه موقفاً مُماثلاً لموقفي.

وفي نهاية المطاف لم يعد في وسعي المُماطلة أكثر، وبقلب يكاد يتفطّر داخل صدري، تقدّمت إلى السلوقية، حيث كان رفاقي ينتظرونني. ومددت يدي التي تحمل أعواد الخشب، وعلى الفور سحب بيترز واحداً منها. وقد نجا.. لم يكن العود الذي سحبه، على الأقل، هو الأقصر؛ وكانت هُناك الآن فرصة أُخرى تحول دون نجاتي من المأزق. استجمعت كل ما أُوتيت من قوة، ومددت حزمة الأعواد إلى أوغسطوس. وما كان منه إلّا أن سحب على الفور، وقد أفلت هو الآخر؛ وهُنا، سواءً قدّر لي أن أعيش أو أموت، فالفرص أمامي مُتعادلة جدّاً. في هذه اللّحظة استولت على كياني شجاعة لا يُمكن مُقارنتها إلا بشجاعة النمر، ومددت يدي باتّجاه رفيقي المسكين الآخر، باركر، وكنت أحس نحوه

بأعمق المظاهر الشيطانية خبثاً ودهاء. غير أنّ إحساسي هذا لم يدم طويلاً. وأخيراً، في رعشةٍ مُتشنّجة والعيون مُغلقة، مددت له العودين المُتبقيين. وانقضت خمس دقائق كاملة قبل أن يستجمع رأيه فيُقرر أن يسحب، وأثناء تلك الفترة من الترقّب الفاجع لم أفتح عيني مرة واحدة. والآن وجدت أحد العودين يُسحب سريعاً من يدي. إذن لقد حُسم الأمر، ولكنّي لم أعلم إن كانت النتيجة لصالحي أم ضدي. لم يتفوّه أحدهم بكلمة، ولم أجرؤ في ذلك الوقت على إرضاء فضولي بأن انظر إلى العود الذي ما زلت مُمسكاً به. [254]وأخيراً أمسكني بيترز من يدي، وأجبرت نفسي على النظر، حينها رأيت مُباشرة على وجه باركر إيحاءً بأنّي نجوت، وأنّه في الواقع هو الذي قدّر عليه أن يواجه ذلك المصير. تنفست الصعداء، وسقطت دون وعي على الأرضية.

استعدت وعيي على أثر الإغماء الذي أصابني في الوقت المُناسب لكي أُتابع تنفيذ ما تبقّى من تراجيديا موت الشخص نفسه الذي اقترح ذلك في المقام الأول. لم يظهر مُقاومة تُذكر، وأقدم بيترز على طعنه بسكين في الظهر، وسقط ميتاً في الحال. وما ينبغي عليّ هُنا أن أتطرّق إلى التفاصيل التي تتعلّق بالمأدبة الرهيبة التي أعقبت ذلك. إنّها من الأشياء التي في وسع المرء تخيّلها، مع أنّ الكلمات لا قُدرة لها على تزويد الذهن بمعاني الرعب التي تنطوي على حقيقتها. يكفي القول: إنّنا بعد أن روينا ظمئنا بعض الشيء بشرب دماء الضحية، وبعد أن اتفقنا جميعاً على تقطيع اليدين، والقدمين، والرأس، وألقيناها كلها مع الأحشاء إلى البحر، بادرنا إلى التهام ما تبقّى من الجسد، على وجبات مُتباعدة، خلال أربعة أيام لا تُمحى ذكرياتها، أي: السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرين من الشهر.

في اليوم التاسع عشر هطلت زخات مطر خفيفة لم تدم أكثر من خمس عشرة أو عشرين دقيقة، وتمكنّا خلال ذلك من جمع قليل من الماء بواسطة صفيحة كنا قد التقطناها من القمرة أثناء عمليات البحث التي أعقبت العاصفة. ولكن كمية المياه لم تتجاوز نصف غالون؛ ورغم قلّة هذه الكمية إلا أنّها زودتنا بالقوة والأمل بالقياس إلى سابق عهدنا.

في اليوم الحادي والعشرين، عدنا مرة أُخرى إلى الإحساس بالعطش كما حصل في السابق. بقي الجو دافئاً مُنعشاً، مع سدم عرضية من الضباب ونسماتٍ خفيفة تأتينا على الأغلب من الشمال إلى الغرب.

في اليوم الثاني والعشرين، كنّا جالسين مُتجاورين نقلب في أذهاننا الكئيبة حالتنا المُزرية، وإذا بفكرة تخطر على بالي فوراً لتلهمني شيئاً من الأمل. تذكّرت أن بيترز عندما قطعنا الصاري الأمامي، وبينما كان يتمسّك بالحبال التي توجّه الأشرعة باتّجاه الرياح، وضع في يدي فأساً وطلب إليّ أن أضعها، لو أمكن ذلك، في مكانٍ آمن، وقبل أن تُداهمنا أمواج البحر الأخيرة ببضع دقائق وتغمر المركب أخذت هذه الفأس إلى السلوقية ووضعتها على مهجعٍ في الجانب الأيسر. والآن تصوّرت أنّ من المُمكن، بالحصول على تلك الفأس، قطع جزء من ألواح سطح السفينة فوق القبو، وبذلك نؤمن لأنفسنا ما يكفي من المؤن.

لما أخبرت رفاقي بهذا المُقترح، أطلقوا صيحة ابتهاجٍ واهنة، وتقدمنا جميعاً في الحال إلى السلوقية. كانت الصعوبة التي تواجهنا تتمثّل في أنّ عملية النزول هُنا [255]أصعب بالقياس إلى نزولنا سابقاً إلى المقصورات، فالفتحة أصغر كثيراً، ولا بُدّ أن يتذكّر القارئ أنّ هيكل الدرابزين كله الذي حول درج السفينة وغطاؤه أيضاً قد اقتلعا، في الوقت الذي كان فيه الممر الذي شققناه إلى أسفل السلوقية ضيقاً، فهي فتحة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ثلاثة أقدام. إلا أنّي لم أتردّد في مُحاولة النزول؛ وهُنا قاموا بربط حبلٍ حول جسدي كما حصل في السابق، ودفعت نفسي في بسالةٍ إلى الداخل، وأنزلت قدميّ أولاً، وسرعان ما مضيت في طريقي على عجلٍ نحو المهجع، وفي أول مُحاولة نجحت في جلب الفأسِ. ولقيت مُحاولتي ترحيباً حاراً وصيحات فرح وابتهاج بالنصر، واعتبرت السهولة التي تحقّق بها ذلك الإنجاز بُشرى بقرب خلاصنا النهائي.

وهُنا بدأنا على الفور بتقطيع ألواح سطح المركب مُستخدمين في ذلك كل الطاقة التي أمدّنا بها الأمل المُتجدّد في نفوسنا، وكنت أتناوب مع بيترز في استعمال الفأس، فذراع أوغسطوس الجريحة لم تسمح له بمُساعدتنا. ولأنّنا كنّا في ذلك الوقت ضعفاء جسدياً بالكاد نتمكّن من الوقوف على أقدامنا دون إسناد،

ولا يُمكننا العمل أكثر من دقيقة أو دقيقتين دون أخذ قسطٍ من الراحة، فسرعان ما اتّضح لنا أنّ الأمر سوف يتطلّب ساعات طويلة حتى ننتهي من عملنا.. أي قطع فتحة كافية للوصول في سلام إلى القبو. إلّا أنّ هذا لم يثبط عزيمتنا؛ وبقينا نعمل طول الليل على ضوء القمر، حتى نجحنا في تحقيق غرضنا الذي كنا نسعى إليه مع انبلاج الصبح من اليوم الثالث والعشرين.

وهُنا تطوع بيترز للنزول؛ وبعد أن أجرينا جميع الترتيبات اللازمة كما في السابق، نزل على الفور، ولم يمضِ وقت طويل حتى عاد وبرفقته جرة صغيرة اتضح لنا، بإزاء فرحتنا الغامرة، أنّها مليئة بالزيتون. تشاركنا معاً بهذه المؤن، والتهمناها في شراهة عظيمة، ومضينا نُشجعه على النزول ثانية. في هذه المرة لم نتوقع حقاً أن يأتينا بشريحة كبيرة من اللحم مع قنينة نبيذ ماديرا. أخذ كل واحد منّا رشفة بسيطة من القنينة، إذ تعلّمنا من التجربة السابقة النتائج الوخيمة لشرب كمية لا معقولة من النبيذ. أما قطعة اللحم فلم تكن في حالة تسمح لنا بأكلها، باستثناء جزءٍ منها يزن رطلين تقريباً قرب العظم، فقد أفسدتها المياه المالحة. وجرى تقسيم الجزء السليم فيما بيننا. ولم يتمكن بيترز واوغسطوس من كبح شهيتهما المفرطة فابتلعا نصيبيهما في الحال؛ ولكني كنت أكثر حذراً منهما، ولم أتناول إلا جزءاً صغيراً من قطعتي، فكنت أخشى من العطش الذي سوف يعقب ذلك. وبعدها استرخينا قليلاً وأزحنا بعض متاعبنا التي لا تحتمل.

مع حلول الظهيرة، شعرنا بشيء من النشاط والانتعاش، ومرة أخرى عدنا إلى محاولاتنا المتكررة للحصول على المؤن، ونزلت أنا وبيترز على التناوب، وكنا [256]دائماً نحرز نجاحاً على نحو أو آخر، إلى أن غربت الشمس. أثناء هذه الفترات المتعاقبة حالفنا الحظ بالحصول على أربع جرار صغيرة مملوءة بالزيتون، وقطعة لحم أخرى، وزجاجة كبيرة تحتوي على قرابة ثلاثة غالونات من نبيذ كيب ماديرا اللذيذ، ولكن ما بعث في نفوسنا البهجة أكثر من أي شيء أننا اصطدنا سلحفاة صغيرة من فصيلة غاليباغو، وكان القبطان بارنارد قد حمل عدداً منها عندما كانت سفينة غرامبوس على وشك مغادرة المرفأ، وأخذها من زورق ماري بيتز الذي كان قد عاد حالاً من رحلة صيد في المحيط الهادئ.

في مرحلة لاحقة من هذا السرد ربما أُتيحت لي فرص أُخرى للتطرّق إلى هذا النوع من السلاحف. يُكثر هذا النوع أساساً، ولعل أغلب القراء يعرفون، في مجموعة جزر تُسمى غاليباغوس، والتي تستمد اسمها في الواقع من هذا الحيوان.. كلمة غاليباغو من اللّغة الإسبانية ومعناها سلحفاة المياه العذبة. من خلال غرابة شكلها وسلوكها كان يُطلق عليها أحياناً السلحفاة الفيل. وهي غالباً ما توجد بأحجام هائلة. وقد رأيت بنفسي عدة سلاحف من هذا النوع يتراوح وزنها من ألف ومائتي إلى ألفٍ وخمسمائة رطل، مع أنّي لا أتذكّر أنّ أي بحار سبق له أن تكلّم عن مُشاهدة سلحفاة تزن أكثر من ثمانمائة رطل. منظر هذه السلاحف فريد حقّاً ومُثير للاشمئزاز. فخطواتها بطيئة جدّاً، مُتأنية، ثقيلة، وجسمها يرتفع عن الأرض بمقدار قدم تقريباً. وعُنقها طويل، ونحيف على نحوٍ مُستغرب، يتراوح طوله من ثمان عشرة بوصة إلى قدمين في المتوسط، وقد قتلت بنفسي واحدة منها، وكانت المسافة من الكتف إلى طرف الرأس لا تقل عن ثلاثة أقدام وعشر بوصات، ورأسها مُخيفٌ يشبه رأس الأفعى. يستطيع هذا النوع من السلاحف العيش بلا طعام فترة لا يُمكن تصوّرها، وهُناك حوادث تُروى عن سلاحف ألقيت في مُستودع إحدى السفن وظلّت حية سنتين كاملتين دون أي نوع من الغذاء.. كانت سلحفاة سمينة، من النواحي كافة، واكتشفوا أنّها تتمتع بالحيوية بعد انقضاء تلك المدة كما كانت في اليوم الذي وضعت فيه. إحدى صفات هذه الحيوانات الغريبة الأطوار أنّها تُشبه الجمل الذي له سنام واحد، أو جمل الصحراء. في جرابٍ يقع عند نهاية العنق تحمل هذه السلاحف كمية لا تنقص أبداً من الماء. وفي بعض الحالات، لدى قتل بعضٍ منها بعد سنة حُرمت خلالها من أي نوع من الغذاء، وجدت في داخل ذلك الجراب كمية تصل إلى ثلاثة غالونات تقريباً من الماء العذب. يتألف مصدر غذائها أساساً من البقدونس البري والكرفس، مع عشب الرجلة[1]، وعشب البحر الأسمر، والتين الشوكي أو الإجاص؛ على هذه الحشائش والخضروات تقتات السلاحف بصورة رائعة، إذ

(1) عشب الرجلة: بقلة عشبية يُطهى ورقها. [المترجم]

تُكثر كميات منها على سفوح التلال بالقرب من الساحل أينما تمّ العثور على هذا الحيوان. [257]تُعتبر هذه السلاحف من مصادر الغذاء ذات الفوائد المُمتازة، ولا شكّ أنّها كانت من الوسائل التي تُساعد في إنقاذ حياة آلاف البحارة الذين يخرجون في رحلات طويلة لاصطياد الحيتان أو غيرها من المُهمات في المُحيط الهادئ.

لم تكن السلحفاة التي حالفنا الحظ في إخراجها من القبو هائلة الحجم، ربّما لا يتجاوز وزنها خمسة وستين أو سبعين رطلاً. وهي سلحفاة أُنثى في حالة جيدة لأنّها سمينة وحتماً تحمل أكثر من ربع غالون من الماء العذب الرائق في جرابها. وهذا يُعتبر كنزاً في الواقع؛ وجثونا على ركبنا في حركة واحدة، وشكرنا الله في حماسٍ على هذه الهبة التي جاءت في أوانها.

ولكن واجهتنا صعوبة في إخراج الحيوان من الفتحة التي شققناها، إذ كانت السلحفاة تُكافح في قوّة وعناد. كانت على وشك أن تنزلق وتفلت من قبضة بيترز فتعود إلى الماء، ولكن أوغسطوس ألقى حبلاً في طرفه أنشوطة وأدخله في رقبتها، ثم أمسكه على هذا النحو إلى أن قفزتُ إلى داخل الفتحة ووقفتُ إلى جوار بيترز وساعدته في رفعها.

سحبنا الماء في حرصٍ شديد من جراب السلحفاة إلى دورق؛ ويتذكّر القارئ أنّنا سبق أن استخرجنا الدورق من القمرة. وبعد الانتهاء من هذا العمل، كسرنا عُنق إحدى الزجاجات لكي نصنع بمُساعدة السدادة الفلّينية نوعاً من الأقداح التي لا تحمل أكثر من نصف جل[2]. ثم شرب كلٌّ واحد منّا نصيبه المُحدّد كاملاً، وقرّرنا الالتزام بهذه الكمية في كل يومٍ يمرّ علينا حتى تنفد.

خلال اليومين أو الثلاثة أيام الأخيرة، كان الجو جافاً مُنعشاً، والأغطية التي حصلنا عليها من القمرة، فضلاً عن ملابسنا، أصبحت جافة، بحيث أمضينا هذه الليلة (أي: الثالثة عشرة) ونحن نشعر بالراحة نسبياً، مُستمتعين بنومٍ هادئ

(2) الجل: مقياس للسوائل مقداره ربع باينت «ثمن الغالون». [المترجم]

بعد أن تناولنا عشاءً وافراً من الزيتون واللحم، مع حصّةٍ لا بأس بها من النبيذ. ولأنّنا كنّا نخْشى من فقدان تجهيزاتنا التي ربما تسقط من المركب ليلاً، في حالة هبوب الرياح، فقد وضعناها في مكانٍ آمن ما استطعنا ذلك وربطناها بالحبال التي تبقّت من مرفاع المرساة. أما سلحفاتنا التي كنا نحرص على بقائها حية، فألقيناها على ظهرها وربطناها في عنايةٍ بوسائل أُخرى.

الفصل (13)

24 تموز. شهد صباح هذا اليوم تحسّناً رائعاً في معنوياتنا وقوانا البدنية. وعلى الرّغم من الوضع المحفوف بالمخاطر الذي ما زلنا فيه، حاولنا تجاهل ذلك، ومع أنّه كانت تفصلنا حتماً عن اليابسة مسافة شاسعة، ومع افتقارنا إلى طعامٍ يكفينا [258]أكثر من أسبوعين حتى مع توخّي أقصى درجات الحرص، ومع عدم وجود ماءٍ للشرب تقريباً، ومع استمرارنا في الطفو مُستسلمين إلى رحمة كلّ ريحٍ هوجاء وموجةٍ عارمة، مُتشبّثين بأكثر الحطام بؤساً في العالم، دفعتنا مصادر تعاستنا المشؤومة والمخاطر التي واجهناها مؤخراً، والتي ساعدتنا العناية الإلهية وحدها على تفاديها الآن، إلى النظر إلى كل ما عانيناه على أنّه لا يختلف إلا قليلاً عن الآثام الاعتيادية.. إذا نظرنا إلى ما نتوقّع من مصيرٍ مجهول، مُفرحاً كان أم تعيساً.

مع شروق الشمس تهيأنا لاستئناف جهودنا للحصول على شيءٍ ما من القبو، حين انتبهنا إلى رذاذٍ خفيف يلفح وجوهنا، مع برقٍ مُفاجئ يلوح في السماء، فتحوّل اهتمامنا إلى تجميع قليلٍ من الماء باستخدام الصفيحة التي استخدمناها سابقاً لهذا الغرض. لم نكن نمتلك وسيلة أُخرى لجمع مياه المطر غير أن نضع الصفيحة على الأرضية وفي قعرها جزءٌ من سلسلة حديدية. وهكذا فإنّ الماء الذي يتجمّع فيها يُصبُّ في دورقنا. فما كاد الدورق يمتلئ بهذه الطريقة، حتى اضطرتنا ريحٌ هوجاء من جهة الشمال إلى التوقف، حينها بدأ حطام المركب يرتجّ مرة أُخرى ارتجاجاً عنيفاً فلم تستقر أقدامنا في مواضعها. هُنالك اتّجهنا إلى المُقدمة، وربطنا أجسادنا جيداً على ما تبقّى من حبال مرفاع

المرساة كما فعلنا في السابق، وانتظرنا في هدوءٍ أكثر من المُتوقع، أو أكثر ممّا تخيّلنا أنّنا قادرون عليه في تلك الظروف. مع الظهيرة تحوّلت الرياح إلى نسيمٍ خفيف لا يكاد يثني الشراع، ولكنها مع حلول الليل عادت إلى عصفٍ شديدٍ تُرافقه أمواج هائلة. غير أنّنا تعلّمنا من التجربة أفضل الطرق لربط أنفسنا، وأمضينا هذه الليلة المُريعة في حالة أمانٍ نسبي لا يُعكّر صفوه شيء، مع أنّ مياه البحر كانت تغمرنا في كل لحظة تقريباً، وكنّا نتوجّس من أنّ الأمواج سوف تجرفنا في الحال. ولكن لحسن الحظ كان الجو دافئاً إلى درجة تجعل الماء لطيفاً بدلاً من أي شيء آخر.

25 تموز. في صباح هذا اليوم تلاشت العاصفة ولم يعد لها أي أثر غير نسيم لا تتخطّى سرعته عشر عقد، وانحسرت موجاتُ البحر معها إلى درجة ملحوظة بحيث أصبحنا قادرين على أن نُجفف أنفسنا على سطح المركب. ولكن مع حزننا العميق، وجدنا جرّتين من الزيتون الذي جمعناه، فضلاً عن قطعة اللحم التي أخرجناها من القبو، قد انجرفت كلها وسقطت مع أنّنا ربطناها جيداً. وهُنا قررنا تحاشي قتل السلحفاة، واكتفينا في الوقت الراهن بإفطارٍ لا تزيد مُكوناته على بضع حبّاتٍ من الزيتون، وكمية قليلة من الماء التي مُزجت بالتساوي مع النبيذ، وأحسسنا بارتياحٍ شديد وانتعشت قوانا بعد أن شربنا ذلك المزيج، دون أي إحساسٍ بالخدر [259]الذي عرفناه سابقاً من شرب نبيذ الموانئ. وبقيت حالة البحر ساكنة مدة طويلة تكفي لاستئناف مُحاولاتنا في الحصول على المؤن من القبو. كانت موادُّ مُختلفة لا أهمية لها في وضعنا الذي كنا فيه تطفو فتصل على مقربة من الفتحة طوال النهار، ولا تلبث أن تنجرف فتسقط من سطح المركب. ولاحظنا الآن أنّ بدن المركب غير مُستقر بالقياس إلى السابقَ، بحيث لم نستطع الوقوف لحظة واحدة دون ربط أجسادنا. ولهذا أمضينا نهاراً كئيباً كلّ ما فيه مُثير للسقم. وعند الظهيرة كانت أشعة الشمس فيما يظهر تسقط عمودية على رؤوسنا، ولم تساورنا الشكوك في أننا كنا نساق مع تيارات بحرية لا تكاد تتوقف تُثيرها رياحٌ شمالية إلى شمالية غربية مُتجهين إلى مكان ما بالقرب من خط الاستواء. ومع حلول المساء لاحت لنا بعض أسماك القرش،

وشعرنا بشيء من التحفّز والوجل لأنّ إحداها اقتربت بهيكلها الضخم من مركبنا في تهوّر. في لحظة كانت تندفع موجة لتجعل المركب يغطس عميقاً تحت الماء، فيسبح ذلك الوحش حتى يقترب منّا، ويبقى يتخبّط بضع دقائق فوق فتحة السلم، ووصل الأمر أن خبطت سمكة القرش بيترز خبطة عنيفة بذيلها. وأخيراً بسبب الأمواج القوية تراجعت سمكة القرش وسقطت عن السطح، واستشعرنا راحة حين رأينا ذلك. في جوٍّ معتدلٍ ربما تمكّنا بسهولة من الإمساك بإحدى أسماك القرش.

26 تموز. في صباح هذا اليوم خفتت شدة الرياح كثيراً، ولم تكن أمواج البحر شديدة أيضاً، وهُنا قرّرنا المضي في مُحاولاتنا للنزول إلى القبو. وبعد جهود مُضنية استمرت طوال النهار، اكتشفنا أنّ ليس ثمّة شيء يُمكن استخراجه من هُناك، إذ كانت حواجز الحُجرة قد اقتُلعت أثناء الليل، فانجرفت مُحتوياتها التي في الداخل. هذا الاكتشاف، كما هو مُتوقع، ملأ نفوسنا بالإحباط.

27 تموز. البحرُ هادئ تقريباً، مع نسمات خفيفة لا تزال تهب من الشمال والغرب. وشمسُ ما بعد الظهيرة تُلقي أشعتها الحارة علينا، وانشغلنا آنذاك بتجفيف ثيابنا. ولم نشعر حينئذ بالظمأ، فقد وجدنا راحة كبيرة بالسباحة في البحر؛ ومع ذلك كنا مُجبرين على توخّي الحذر، كنّا نخاف أسماك القرش، فقد رأينا أعداداً منها تحوم حول المركب خلال النهار.

28 تموز. بقي الجو مُعتدلاً. مع أنّ المركب بدأ يتمايل الآن على نحو ينذر بالخطر وكنا نخشى أن يؤدي ذلك إلى انقلابه رأساً على عقب في نهاية المطاف. وهيأنا أنفسنا إلى هذا الاحتمال، وربطنا سلحفاتنا، ودورق الماء، وجرّتين باقيتين فيهما زيتون في مكان أبعد ما يكون عن اتّجاه الريح، وأخفينا كل ذلك خارج البدن المُتداعي للمركب تحت سلاسل غليظة. وظلّت أمواج البحر على سكونها، مع ريحٍ خفيفة لا تكاد تُحرّك شيئاً.

29 تموز. استمرّ الجو على هذا المنوال. وبدأت تظهر الآن على ذراع [260]أوغسطوس الجريحة أعراضُ التسمم. كان يشتكي من الخدر والنعاس

والظمأ الشديد، مع أنّه لا يتألم. لم نستطع أن نفعل له شيئاً باستثناء تدليك جروحه بالقليل من الخل الذي أخذناه من الزيتون، ولم ينفعه ذلك. وجرّبنا كل شيء مُمكن، وأعطيناه حصة مُضاعفة من الماء.

30 تموز. يومٌ قائظ، لم تهبّ علينا فيه نسمة من الرياح. بقيت إحدى أسماك القرش الهائلة تحوم قريباً من مركبنا أثناء الظهيرة. وقُمنا بمُحاولات غير ناجحة للإمساك بالقرش بواسطة أنشوطة. وازدادت حالة أوغسطوس سوءاً، وكانت حالته فيما يظهر تتدهور بسبب الحاجة إلى التغذية الكافية بقدر ما تتدهور بسبب تقيّح جروحه. لم يكف عن التضرّع إلى الله للتخفيف من مُعاناته، ولم يكن يرغب في شيء أكثر من الموت. مساء هذا اليوم أكلنا ما تبقّى من حبات الزيتون، واكتشفنا أنّ الماء الذي في دورقنا أصبح كريه الطعم بحيث لم نستطع أن نشربه دون إضافة النبيذ. وهُنا توصلنا إلى قرارٍ بقتل السلحفاة صباحاً.

31 تموز. بعد ليلة كاملة من التلهّف والتعب، بسبب حالة المركب، انطلقنا على الفور لقتل السلحفاة وتقطيع أوصالها. واتّضح لنا أنّها كانت أصغر مما توقعنا، مع أنّها بحالة جيدة.. فلم يتجاوز وزن كل اللّحم الذي وجدناه في جسمها عشرة أرطال. وعلى أمل الاحتفاظ بجزء من اللحم لأطول مدة، فقد قطعناها إلى حصص صغيرة، وملأنا بها جرار الزيتون الثلاث الباقية فضلاً عن زجاجة النبيذ (احتفظنا بها دون أن نمسسها)، وسكبنا عليها الخل الذي عصرناه من الزيتون. بهذه الطريقة احتفظنا بثلاثة أرطال تقريباً من لحم السلحفاة، وقررنا عدم المساس بها حتى نستنفد ما لدينا. وقررنا أيضاً التقيد بحصة لا تتجاوز أربع أونصات[1] تقريباً من اللحم في كل يوم؛ وهكذا سوف تكفينا كل الكمية ثلاثة عشر يوماً. وهُنا سقط على وجوهنا رذاذ خفيف سريع، وسمعنا أصوات رعدٍ وبرقٍ عند الغسق، إلّا أنّ الأمر لم يدم إلّا وقتاً قصيراً تمكّنا خلاله فقط من تجميع نصف باينت من الماء. واتّفقنا جميعاً على إعطاء الكمية كلّها إلى أوغسطوس الذي بدا الآن وكأنّه يحتضر. شرب الماء من الصفيحة التي أمسكناها

(1) الآونس أو الأونص وحدة وزن تساوي 35، 28 غراماً. [المترجم]

(كنّا نحملها فوق رأسه وهو راقد ونُقرّبها من فمه ونسكب الماء)، فلم نمتلك الآن أي شيء نحمل فيه الماء، إلّا إذا اخترنا تفريغ نبيذنا من الزجاجة، أو تفريغ الماء القذر من الدورق. وكنّا سنلجأ إلى هذين الوعاءين على كل حال لو استمر رذاذ المطر مدة أطول.

ولكن يبدو أنّ مريضنا لم ينتفع من جرعات الماء القليلة التي شربها. [261]أصبحت ذراعه سوداء كلّياً من الرسغ حتى الكتف، وقدماه تُشبهان الجليد. توقّعنا في كل لحظة أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. كان جسمه هزيلاً على نحو مُخيف؛ حدث له ذلك، بعد أن كان يزن مائة وسبعة وعشرين رطلاً لدى مُغادرته نانتوكيت، فلا يزيد وزنه الآن على أربعين أو خمسين رطلاً على أقلّ تقدير. وغارت عيناه في رأسه، ولم يعد لهما أثر واضح إلا نادراً، وجلد خديه يتدلّى ويكاد يمنعه من أكل أي شيء، أو حتى ابتلاع أي سائل إلا بصعوبة.

1 آب. استمرّ الجو الهادئ نفسه، مع شمسٍ حارة لا تُحتمل. عانينا من العطش كثيراً، وصار الماء المُتبقي في الدورق فاسداً يعجّ بالطفيليات. ومع ذلك كافحنا لازدراد شيء منه بعد مزجه بالنبيذ؛ إلّا أنّ الإحساس بالعطش لم يتبدّد إلا قليلاً. ووجدنا راحة في السباحة في البحر، مع أنّنا لم نسمح لأنفسنا بمُمارسة هذه الرياضة إلا على فترات مُتباعدة لوجود أسماك القرش باستمرار. والآن رأينا أنّ ليس في وسعنا إنقاذ أوغسطوس؛ كنّا نراه يحتضر أمام عيوننا. لم نتمكّن من عمل شيء للتخفيف من مُعاناته التي بدت لا تُطاق. في حوالى الساعة الثانية عشرة لفظ أنفاسه الأخيرة في تشنّجات قوية، دون أن ينطق بكلمة منذ ساعات. وملأ موته صدورنا بالانقباض المرير، وكان له تأثيرٌ شديد على حالتنا المعنوية بحيث جلسنا بالقرب من الجثمان طوال اليوم، ولم يتكلّم أحدنا مع الآخر إلا همساً. ولم يحصل إلا بعد حلول الظلام ببعض الوقت أن تشجعنا فنهضنا لنرمي الجثة إلى البحر. كانت جثته آنذاك في حالة شنيعة من التحلّل تتجاوز الوصف، فهي مُتعفّنة إلى درجة أن بيترز عندما حاول رفعها انخلعت ساقٌ كاملة تحت قبضته. وفيما كانت كتلة الجثة الفاسدة تسقط من جانب المركب في طريقها إلى الماء، أتاح لنا الوهج الفسفوري الذي يُغلفها أن نرى بوضوح سبع

أو ثمان سمكات قرشٍ ضخمة، التي سرعان ما أطبقت بأسنانها المُرعبة على فريستها فمزّقتها إلى نتفٍ مُوزعة فيما بينها وهي تُصدر من الأصوات ما كان يُسمع ربّما من مسافة ميل. وغطسنا عميقاً في كآبتنا ونحن نشعر بأقصى حالات الذعر من تلك الأصوات.

2 آب. الجو الهادئ الحار نفسه الذي يُثير في نفوسنا القلق. وأشرق علينا ضياء الفجر ونحن في حالة يُرثى لها من وهن العزيمة فضلاً عن الإعياء الجسدي. أصبح الماء الذي في الدورق عديم النفع، فاستحال إلى خليطٍ هُلامي كثيف؛ كان مُجرّد وحلٍ تطفو عليه ديدان مُخيفة المنظر. فاضطررنا للتخلّص منه، وغسلنا الدورق جيداً بماء البحر، وبعد ذلك سكبنا قليلاً من الخلّ فيه من الزجاجات التي مُلئت بلحم السلحفاة. لم يكن في وسعنا الآن تحمّل العطش إلّا في مشقةٍ وعناء، فحاولنا عبثاً التخفيف من وطأته بالنبيذ، ولكن ذلك لم يؤد إلّا إلى إضافة الزيت على اللهب، فأثار فينا شعوراً بالخدر إلى حدٍّ بعيد. ثم حاولنا مزج النبيذ بماء البحر؛ إلّا [262]أنّ هذا أدّى في الحال إلى رغبةٍ شديدة في التقيؤ، ولم نُحاول إعادة التجربة. أثناء النهار كله كنّا نتطلّع مُتلهّفين إلى فرصةٍ للسباحة، ولكن دون جدوى؛ لأنّ بدن المركب أصبح مُحاصراً من الجوانب كافة بأسماك القرش.. ليس من شك في أنّها تنتمي إلى الوحوش الضارية نفسها التي التهمت رفيقنا المسكين في المساء الفائت، وفيما يظهر كانت تترقّب بين لحظة ولحظة وليمة مُشابهة أُخرى. هذا الوضع ألحق بنا الأسى العميق وملأ صدورنا بالهواجس الأكثر إحباطاً ومأساوية. كنّا سابقاً نشعر براحة لا يُمكن تصورها في مُمارسة السباحة، وبعد حرماننا بهذه الطريقة المُريعة، وجدنا أنفسنا في وضعٍ يفوق قدرتنا على التحمل. في الواقع لم نتخلص أبداً من الإحساس بالتوجس من الخطر َالمُحدق بنا، لأنّ أي تمايلٍ طفيف أو حركة طائشة كان من شأنها أن تُلقي بنا فوراً ضمن متناول تلك الأسماك المُتوحشة التي غالباً ما كانت تندفع مُباشرة للارتطام بمركبنا الذي تتقاذفه الأمواج. لم تنفع صرخاتنا أو تهديداتنا في إبعادها عنّا. حتى عندما خبط بيترز واحدة من أضخم أسماك القرش بالفأس فتعرّضت إلى جرحٍ شديد، وجدناها تُتابع مُحاولاتها للهجوم باتّجاهنا. وأخيراً زحفت نحونا سحابة مع اقتراب الغسق، ولكنها مرّت بإزاء غضبنا الجامح من

فوقنا دون أن تُلقي حمولتها. إنّه لمن المُستحيل تصوّر مدى مُعاناتنا من العطش في هذه المرحلة. وأمضينا ليلة لم نذق فيها طعم النوم، بسبب الإحساس بالعطش والخوف من أسماك القرش.

3 آب. لا أمل نتطلّع إليه في النجاة، المركب لا يزال يتمايل بعدم استقرار أكثر فأكثر، بحيث لم نتمكّن الآن من تثبيت أقدامنا على السطح مُطلقاً. وانشغلنا في تأمين سلامة النبيذ ولحم السلحفاة، حتى لا نفقدها في حالة انقلاب المركب. حصلنا على مسمارين كبيرين من بقايا السلاسل التي اقتلعت عند المُقدمة، وباستخدام الفأس ثبتناهما في البدن باتّجاه الريح على بُعد قدمين من سطح الماء، ولم تكن تبعد كثيراً عن عارضة القاع، لأنّ مركبنا مائل جانبياً ويكاد ينقلب. ثم ربطنا ما تبقّى من المؤن على هذه المسامير، في وضع أكثر أماناً من موقعها السابق تحت السلاسل. وكنّا آنذاك نُعاني من شدة العطش طوال النهار.. فلم تسنح لنا فرصة للسباحة بسبب أسماك القرش التي لم تتركنا لحظة. وكان من المُستحيل علينا النوم.

4 آب. قبل شروق الشمس بقليل اكتشفنا أنّ المركب كان يغطس من جهة المؤخرة، وانتفضنا على أثر ذلك مُحاولين أن نمنع أنفسنا من السقوط بفعل أي حركة طائشة. في بداية الأمر كان الميلان بطيئاً وتدريجياً، وكافحنا من أجل التسلّق إلى موضعٍ باتّجاه الريح، بعد أن أخذنا احتياطاتنا بربط حبالٍ بمسامير كنّا قد [263]ثبّتناها لتعليق المؤن. ولكنّا لم نقدّر بما يكفي التسارع الذي يحصل نتيجة لزخم حركتنا؛ لأنّ مؤخرة المركب في الوقت الراهن كانت ترتّج في عنف لا يسمح لنا بالبقاء عليها؛ وقبل أن يعرف أي واحد منا ما الذي يحدث، وجدنا أنفسنا نسقط إلى البحر، ولبثنا نكافح مصيرنا على بعد قامات تحت السطح، والبدن الهائل المُتهالك للمركب فوقنا مُباشرة.

لدى سقوطي في مياه البحر وجدت نفسي مُضطراً للتخلّي عن الحبل؛ واكتشفت أنّني أقبع تحت المركب، وبينما خارت قواي واستولى عليّ التعب، لم أتمكّن من بذل جهدٍ للنجاة بحياتي، واستسلمت خلال ثوانٍ لفكرة الموت. ولكن، هُنا مرة أُخرى، لم أكن مُصيباً في حدسي، فلم آخذ بنظر الحسبان رد

الفعل الطبيعي للمركب بعد الغطس. ودفعتني دوامة مياهٍ صاعدة بعد انقلاب المركب وتدحرجه جزئياً إلى الخلف، وأدّت بي إلى الخروج إلى السطح في حركة أعنف من الحركة التي ألقتني إلى الأسفل. لدى صعودي وجدت نفسي على بُعد عشرين ياردة تقريباً من المركب، ما استطعت تقدير ذلك. كان قعر المركب متّجهاً إلى الأعلى، يتمايل في عنفوان من جانب إلى جانب، وأمواج البحر تحيط به من جميع الجهات ولا تكف عن التلاعب به، تتخلّلها دوامات مُستبدة. لم أتمكّن من رؤية بيترز. كان هُناك برميل زيت يطفو على بُعد بضعة أقدام منّي، مع أشياء مُختلفة خرجت من المركب تتبعثر هُنا وهُناك.

كان مصدر رعبي الأساسي الآن يتمثّل في تهديد أسماك القرش، وكنت أعرف أنّها تحوم في مكان قريب. لغرض منع هذه الوحوش، لو أنّ ذلك كان شيئاً مُمكناً، من الاقتراب مني، لجأت إلى الخبط على الماء بيدي وقدمي معاً بينما كنت أسبح باتّجاه المركب، وساعدني ذلك على خلق دوامة من الزبد. لم تُساورني الظنون في نجاح هذه المُحاولة، على بساطتها، وشعرت بأنّي مدين لمن علّمني إياها في إنقاذ حياتي؛ كانت مياه البحر حول المركب قبل انقلابه تعجّ بهذه الوحوش، حتماً رأيتها بنفسي، لا شك في هذا، وهي في حالة تواصل فعلي فيما بينها أثناء هبوطي. ولكن الحظ حالفني فوصلت إلى جانب المركب بسلام، مع أنّي كنت أحس بالضعف الشديد بعد الجهود العنيفة التي بذلتها بحيث عجزت عن الصعود لولا مُساعدة بيترز التي جاءت في أوانها، والذي ظهر الآن، بإزاء فرحتي العظيمة (بعد أن تسلّق إلى عارضة المركب من الجانب المُعاكس)، وألقى لي طرف حبل من تلك الحبال التي ربطناها بالمسامير.

بعد أن نجونا من هذا الخطر، توجّه انتباهنا الآن إلى خطر مُحدقٍ آخر لا يقلّ شأَناً عن الأول.. وهو الموت جوعاً. لقد انجرفت كل مؤونتنا وسقطت من المركب [264]على الرغم من توخّي العناية التامة في تأمينها؛ وبذلك لم تعد لدينا فرصة في الحصول على المزيد منها، واجتاح صدورنا القنوط، وصرنا ننتحب بأصوات عالية كالأطفال، ولم يُحاول أي واحد منّا تعزية الآخر. مثل هذا الهوان الذي أصابنا من المُستحيل وصفه، وبالنسبة إلى أولئك الذين لم يواجهوا

موقفاً مُماثلاً، لا شكّ في أنّه يبدو تصرّفاً غريباً؛ ولكن علينا أن نتذكّر أنّ قُدراتنا العقلية لم تكن في حالة طبيعية بسبب طول المُدة التي حُرمنا فيها من الطعام، فضلاً عن الرّعب الذي عانينا منه، بحيث لا يبدو من الإنصاف أن يُنظر إلينا، في تلك الفترة، على ضوء اعتبارات عقلانية. في مراحل مُقبلة من حياتي واجهت كثيراً من المخاطر، تكاد تُماثل في أهميتها ما واجهته هُنا، إن لم تتخطّاها، وكنت أتحمّل بشجاعة وأصمد أمام أنواع التحديات التي تكتنف الموقف، وكان بيترز، كما سنرى، قد اثبت أنّه يؤمن بفلسفة رواقية يكاد يكون من المُتعذّر التصديق بأنّها تنسجم مع تصرّفاته الصبيانية حالياً في تهورها ونزقها وغبائها.. هذا الوضع الذهني هو ما يُجسّد الفارق.

لم يكن تداعي المركب مع ما يترتّب على ذلك من فقدان النبيذ والسلحفاة، في الواقع ليجعل موقفنا باعثاً للأسى أكثر من السابق، ربما باستثناء اختفاء الأغطية التي كانت تُتيح لنا إلى الآن تجميع مياه المطر، وكذلك الدورق الذي نضع فيه الماء بعد تجميعه؛ لأنّنا وجدنا قعر المركب، على بعد قدمين أو ثلاثة من الجوانب المُنحنية وصولاً إلى العارضة الخشبية الرئيسية، والعارضة نفسها أيضاً، كلها مُغطاة بالأصداف البحرية الكثيفة، واتّضح أنّ هذه تُصلح كمادة غذائية مُمتازة. وهكذا كانت تلك الحادثة التي بثت في نفوسنا الذعر، كما تبيّن لنا لاحقاً، قد نفعتنا من ناحيتين أساسيتين بدلاً من أن تضرنا؛ إذ فتحت لنا مجالاً للتزوّد بالمؤن التي ما كان لنا أن نستنفدها، إذا استخدمناها في اعتدالٍ، خلال شهر كامل؛ فضلاً عن إسهامها إلى درجةٍ كبيرة في التخفيف من وطأة مُعاناتنا فيما يتعلّق بوضعنا الذي كنا فيه، إذ أصبحنا في وضع أكثر ارتياحاً، وأقّل عرضة للأخطار من السابق.

إلّا أنّ صعوبة الحصول على الماء أعمت بصيرتنا الآن عن كل هذه الفوائد التي جنيناها من التغيّر الذي طرأ على ظروفنا. ولكي نكون على استعداد للاستفادة ما استطعنا من أي رذاذ ربما يسقط، خلعنا قمصاننا لنستخدمها مثل الملاءات.. ولم نكن نطمح طبعاً لأن نحصل على شيءٍ أفضل بهذه الطريقة، حتى في أكثر الظروف الإيجابية ربّما لا يتجاوز الماء الذي نجمعه نصف مكيالٍ

في أي وقت. لم تلح لنا سحابة في الأُفق طوال النهار، وتفاقمت مُعاناتنا من شدة العطش حتى بلغت حدّاً لا يُمكن تحمّله. وفي الليل حصل بيترز على قُرابة ساعةٍ من النوم المُضطرب، إلّا أنّ حالتي العصيبة من المُعاناة والأرق لم تسمح لي بإطباق جفنيّ ولو لحظة واحدة.

5 آب. اليوم هبّت علينا نسمات لطيفة دفعتنا رويداً إلى منطقة وجدنا فيها كمية لا بأس بها من الطحالب البحرية، وكنّا محظوظين لأنّنا عثرنا فيها على أحد عشر سرطاناً بحرياً صغيراً، ووفّرت لنا هذه السرطانات وجبات شهية.[265] كانت قواقعها رخوة، فأكلناها كلها، ووجدناها لا تُثير العطش مثل غيرها من الأصداف. ولأنّنا لم نرَ أثراً لأسماك القرش في وسط الطحالب، فقد تجرأنا على السباحة، ومكثنا في الماء أربع أو خمس ساعات، وفي غضون ذلك أحسسنا بشيء من الانتعاش وتخلّصنا قليلاً من العطش. وارتاحت أبداننا، وأمضينا الليل ونحن نشعر براحة أكبر من السابق، وأخذ كلٌّ واحد منّا قسطاً من النوم.

6 آب. في هذا اليوم حالفنا الحظ بأن هطل علينا وابلٌ من المطر استمرّ من الظهيرة تقريباً حتى ما بعد الظلام. وشعرنا بالأسف الآن على فقدان دورقنا وزجاجتنا الكبيرة؛ فعلى الرغم من الوسائل القليلة التي لدينا لتجميع مياه المطر، ربما كان في وسعنا أن نملأ وعاءً منهما، أو الاثنين معاً. ولكن في حالتنا تلك، حاولنا ابتكار وسيلةٍ ما للتخفيف من شدة العطش، بأن ننقع القمصان، ثم نلفّها ونعصرها لكي نسمح للسائل المُبارك بالترشح إلى أفواهنا. على هذا النحو من الانشغالات، أمضينا اليوم بأسره.

7 آب. عند الفجر اكتشفنا جميعاً، في اللحظة نفسها، وجود شراع يلوح في جهَة الشرق، وكان واضحاً أنّه يتجه إلى ناحيتنا! فأخذنا نصرخ مُهلّلين من الفرح بذلك المنظر، وظلّت أصواتنا تتردّد زمناً طويلاً مع أنّها لا تتعدّى أن تكون صرخات واهنة تؤججها النشوة؛ وبدأنا حالاً نبذل ما في وسعنا لإعطاء أي إشارة تُتيحها قُدراتنا، بأن نلوّح بقمصاننا في الهواء، ونقفز عالياً ما سمحت لنا حالتنا الضعيفة، وحتى بالصفير وإطلاق ما في صدورنا من هواءٍ بقوة، مع أنّ المركب الذي رأيناه كان يبعد عنّا مسافة لا تقل عن خمسة عشر ميلاً. واستمرّ المركب

بالاقتراب، وأحسسنا بأنه لو حافظ على مساره الحالي فحتماً سوف يكون على مسافة كافية لاكتشافنا. بعد ساعة تقريباً من رؤيتنا للمركب استطعنا تمييز أشخاص واضحي المعالم على متنه. إنّها سفينة طويلة، ذات هيكل مُنخفض، تبدو أنيقة في مظهرها الذي يوحي بالسرعة، ترفع أشرعتها عالياً، مع شيءٍ يُشبه كرة سوداء على شراعها الأمامي الأعلى، وفيما يظهر كان على متنها طاقمٌ كامل من البحارة. وهُنا بدأنا نتوجس وتنتفض قلوبنا، لأنّنا لم نتصوّر عدم مُشاهدتهم لنا، وخفنا أنّ الأشخاص الذين على السفينة يريدون تركنا لنموت في مكاننا.. وذلك حتماً عمل بربري فظيع ربما لا يُمكن تصديقه، إلّا أنّه غالباً ما يتكرّر في البحار، في ظروف مُماثلة لما نحن فيه، قد يفعل ذلك أشخاص يفترض أنّهم ينتمون إلى الجنس [266]البشري(*2). ولكن في حالتنا، وبرحمة من الله، كان مُقدّراً أن

(*2) قضية السفينة بولي من بوسطن لها مغزى كبير هُنا، وكان مصيرها، في كثير من الجوانب، مُشابهاً على نحو بارز للمصير الذي انتهينا إليه نحن، بحيث لا أستطيع منع نفسي من التلميح إلى ذلك هُنا. هذه السفينة، التي تبلغ حمولتها مائة وثلاثين طناً، كانت قد أبحرت من بوسطن، وهي تحمل في مُستودعاتها حمولة من الخشب والمؤن الأخرى، مُتجهة إلى سانتا كروا، في اليوم الثاني عشر من ديسمبر/ كانون الأول، 1811، بقيادة القبطان كاسنو. وكان على متنها ثمانية أشخاص فضلاً عن القبطان.. مُساعد القبطان، وأربعة بحارة، والطاهي، إلى جانب رجل يُدعى السيد هنت، وفتاة زنجية مُرافقة له. في اليوم الخامس عشر، بعد أن ابتعدت عن السواحل الضحلة لجورجز، حدث فيها تسرّب للمياه بعد مواجهتها لعاصفة عاتية من الجنوب الشرقي، وفي نهاية المطاف انقلبت؛ ولكن صواريها ظلت تتمايل على السطح، وما لبثت أن اعتدلت. وبقي البحارة في هذا الوضع، دون أن يوقدوا ناراً، ولديهم من المؤن ما لا يكاد يسد رمقهم، وانقضت عليهم مائة وواحد وتسعون يوماً (من الخامس عشر من كانون الأول إلى العشرين من حزيران)، عندما انتُشل القبطان كاسنو وصموئيل بادجر، وهم الناجون الوحيدون، من الحطام على أيدي طاقم سفينة فيم من هول، وكان يقودها القبطان فيذرستون، وهي في طريقها إلى الديار من ريو جانيرو. لمّا تمّ إنقاذهم، كانوا على خط عرض 28 درجة شمالاً، وعلى خط طول 13 درجة غرباً، ذلك يعني أنّهم انجرفوا بعيداً مسافة ألف ميل! وفي اليوم التاسع من تموز، التقت سفينة فيم بمركب دروميرو، وعلى متنه القبطان بيركنز، الذي تولّى نقل الناجين إلى كينيبيك. إنّ الحكاية التي أخذنا منها هذه التفاصيل تنتهي بالكلمات التالية: «إنّه لشيء طبيعي أن يتساءل المرء عن قابلية انجراف مركبٍ بمن عليه إلى كل هذه المسافة الشاسعة، =

تكون ظنون السوء بعيدة كل البعد عن الصواب؛ لأنّنا تلمسنا حالياً حركة مُفاجئة على متن السفينة الغريبة، والتي سرعان ما رأيناها ترفع علماً بريطانياً، وأخذت تتسابق مع الريح وتجري نحونا مُباشرة. وخلال نصف ساعة وجدنا أنفسنا في قمرتها. واتّضح لنا أنّها سفينة جين غاي، من ليفربول، قبطانها يُدعى غاي وكان في رحلة تجارية إلى البحار الجنوبية والمحيط الهادئ.

= على منطقة من المحيط الأطلسي تعجّ بالسفن، فلا يكتشف أمره طوال هذا الوقت. لقد مرّت عليهم عشرات الأشرعة، وكان أحد المراكب قريباً جدّاً منهم إلى درجة أنّهم استطاعوا رؤية الناس على سطحه وعند جوانبه وهم ينظرون إليهم؛ ولكن مع خيبة الأمل التي لا توصف للرجال الذين كادوا يموتون جوعاً وتجمّداً، فقد تجرّد هؤلاء من أي بادرة للتعاطف، ورفعوا الأشرعة، وتركوهم في قسوة بالغة ليلقوا مصيرهم». (المؤلف)

الفصل (14)

كان منظر سفينة «جين غاي» رائعاً حقّاً، أشرعتها تُرفرف عالياً على صواريها وتصل حمولتها إلى مائة وثمانين طناً. جوانبها المائلة قوية البنيان، ولدى مواجهتها للريح، في الأجواء المُعتدلة، تُبحر أسرع من أي سفينة شراعية رأيتها في حياتي. إلّا أنّ مزاياها كمركب شراعي، لا تخلو من بعض المثالب، فلا تتناسب قُدرتها على مُقاومة الأمواج مع مهامها كسفينة تجارية. من أجل القيام بهذه المهمة على وجه التحديد، يتطلّب الأمر سفينة أضخم حجماً ذات قدرة استثنائية في التخلّص من الأمواج تُناسب حجمها.. لنقل مثلاً سفينة حمولتها تتراوح من ثلاثمائة إلى ثلاثمائة وخمسين طناً. ينبغي لمثل هذه السفينة أن تكون ثلاثية الصواري، ومن جوانب أُخرى ذات تركيبة تختلف عن السفن المُنتشرة عادة في البحار الجنوبية. من الضروري جدّاً أن تكون تلك السفن مزوّدة بوسائل حماية تكفل لها الإبحار الآمن. أن يكون فيها على سبيل المثال عشرة أو اثنا عشر من مدافع كاروني القديمة القصيرة السبطانة التي تزن اثنا عشر باوند، واثنان أو ثلاثة من المدافع طويلة [267]السبطانة من الوزن نفسه، مع بعض البنادق الراعدة النحاسية، ودروع مُصفحة تمنع تسرّب المياه في كل طرف منها. ينبغي أن تكون مراسيها وسلاسلها أكثر متانة ممّا هو مطلوب في أي نوع آخر من السفن التجارية، وفوق هذا وذاك، لا بُدّ أن يكون أفراد طاقمها كثيرين ويتمتعون بالكفاءة.. على أن لا يقلّ عددهم، في مثل هذه السفن التي وصفتها، عن خمسين أو ستين من الرجال ذوي العضلات المفتولة. كان على متن سفينة جين غاي طاقمٌ من خمسة وثلاثين رجلاً، جميعهم من البحارة الأشداء، مع القبطان

ومُعاونه، إلّا أنّ السفينة لم تكن بأي حال مُسلّحة جيداً ولا مُجهّزة بما يضمن لها السلامة كما ينبغي أن تكون السفن التجارية التي تواجه الأهوال والمخاطر.

كان القبطان غاي من الرجال المُهذبين الذين يمتازون بالكياسة والتحضّر، وله خبرة لا بأس بها في طرق البحار الجنوبية، وقد كرّس شطراً طويلاً من حياته وهو يجوب تلك الأصقاع. إلّا أنّه رجل يفتقر إلى الحزم ويُعاني من نقصٍ في طاقته البدنية، وليس من شك في أنّ هذه من الأمور الضرورية التي لها تأثير على إنجاز المهام التي تُلقى على عاتقه كقبطان. كان الرجل يمتلك حصة في المركب الذي يُبحر فيه، وأُعطي حرية تامة في التصرف والإبحار إلى البحار الجنوبية لنقل أي بضاعة ربّما تُتاح له فرصة للتعاقد عليها. وكان يحمل معه على متن السفينة، كما هو مُعتاد في مثل هذه الرحلات: مسبحة للصلاة، ومنظار مُقرّب، وأحجار صوّان للقدح، وفؤوس، وبلطات، ومناشير، وقدوم، ومسحاج، وأزميل، ومظفار، ومثقاب، ومبرد، ومسحج التسنيم، ومبشرة، ومطرقة، ومسامير، وسكاكين، ومقصّات، وشفرات حلاقة، وإبر خياطة، وخيوط، وأدوات مطبخ، وقطع قماش قطني، وما إلى ذلك من الأشياء الصغيرة التافهة.

أبحرت تلك السفينة الشراعية من ليفربول في العاشر من تموز، واجتازت مدار السرطان في اليوم الخامس والعشرين، على خط طول عشرين درجة غرباً، حتى وصلت إلى سال، إحدى جزر كيب فيرد، في اليوم التاسع والعشرين، حيث جرى تزويدها بالملح وما إلى ذلك من مُستلزمات الرحلة. وفي الثالث من آب، غادرت السفينة كيب فيرد متجهة جنوباً، وكانت تمضي بأقصى سرعتها إلى سواحل البرازيل، حتى عبرت خط الاستواء بين خطوط الطول ثمانية وعشرين إلى ثِلاثين غرباً. كان هذا المسار هو الذي تسلكه السفن في العادة في طريقها من أوروبا إلى رأس الرجاء الصالح، أو بالأحرى الممر الذي يؤدي إلى الهند الشرقية. وبذلك كانوا يحرصون على تجنّب تياراتٍ بحرية مُعاكسة، سواءً كانت هادئة أو قوية، تسود باستمرار على سواحل غينيا، إذ اتّضح في نهاية الأمر أنّه أقصر الطرق، لأنّ الرياح الغربية هُناك تهبّ دائماً من الخلف وبمُساعدتها يُمكن الوصول في سهولةٍ ويسر إلى رأس الرجاء الصالح. كان القبطان غاي يزمع أن

يجعل نقطة توقفه الأُولى على ساحل كيرغويلن.. ولا أعرف السبب الذي دعاه إلى ذلك. في اليوم الذي انتشلنا فيه الطاقم كانت السفينة في مكان بعيد عن كيب سانت روك، على خط طول إحدى وثلاثين درجة غرباً؛ ووجدنا أنّنا ربّما انجرفنا، من الشمال إلى الجنوب، بمقدار لا يقل عن خمسٍ وعشرين درجة!.

[268]على متن سفينة جين غاي جرى التعامل معنا بما يتطلّبه وضعنا المُزري من اللطف والاحترام. وطوال أسبوعين تقريباً بقيت سفينتنا مُتجهة نحو الجنوب الشرقي، ورافقت الرحلة نسمات لطيفة وجو رائع، وتخلصنا أنا وبيترز، من تأثيرات حرماننا من الطعام ومُعاناتنا الرهيبة، وبدأنا نتذكّر الأشياء التي مرّت بنا كأنها كابوس مقيت أفقنا منه أخيراً لحُسْن الحظ، بدلاً من أن تكون أشياءً وقعت لنا في اليقظة أو في الواقع الذي لا لُبْس فيه. منذ ذلك الحين كنت أنظر عادة إلى هذه الحالة من اللاوعي الجزئي على أنّها نتيجة للانتقال المُفاجئ، من الفرح إلى الحزن، أو من الحزن إلى الفرح.. إذ تعتمد القدرة على النسيان على مدى التباين في الانتقال. ولهذا، في حالتي الخاصة، كنت أشعر الآن بأن من المُستحيل استيعاب ما كابدته من شدة البؤس خلال الأيام التي أمضيتها على المركب. ما زلت أتذكّر تلك الحوادث، إلا أنّي لا أتذكّر المشاعر التي أثارتها في نفسي وقت حدوثها. لا أعرف شيئاً غير أن تلك الحوادث عندما وقعت كنت أتخيل في ذلك الوقت أنّ الطبيعة البشرية ليس في قدرتها أن تتحمّل مزيداً من الآلام.

استمرت رحلتنا بضعة أسابيع دون أن تُعكّرها أي حادثة ذات أهمية باستثناء الالتقاء بين الحين والحين بسفن صيد الحيتان، وفي كثير من الأحيان كنا نُصادف أيضاً حوتاً أسود اللون أو «حوت اليمين»، هذا هو اسمه الذي يُميزه عن حوت العنبر. غير أنّ هذا النوع من الحيتان يوجد أساساً في مناطق تقع إلى الجنوب بمُوازاة خط خمسة وعشرين. في اليوم السادس عشر من أيلول، وكنّا قريبين من رأس الرجاء الصالح، واجه مركبنا أول عاصفة يشوبها شيء من العنف منذ مُغادرة ليفربول. في هذه المناطق، وكذلك إلى الجنوب والشرق من الجرف الصخري الناتئ في البحر (كنا مُتجهين غرباً)، كثيراً ما تصادف البحارة عواصفٌ تأتي من الشمال تُعيق طريقهم بقوتها الجبارة. هذه العواصف كثيراً ما تصطحب

معها الأمواج العاتية التي من خصائصها الأشد خطورة قدرتها على تحطيم أي شيء يعترض طريقها حالاً بمُؤازرة الرياح، وهذه من الوقائع المؤكدة الحدوث أثناء ذروة العاصفة. في لحظة من اللحظات يهبّ من الشمال أو الشمال الشرقي إعصارٌ لا نظير له يُصاحبه رعدٌ وبرق، وفي اللحظة التالية يتوقّف كل شيء فلا يرى المرء أثراً للرياح في ذلك الاتّجاه، ولكن من جهة الجنوب الغربي تفاجئ المرء بغتة رياحٌ عاتية أُخرى لا يُمكن تخيّل سرعتها. هُنا لا بد من وجود بقعة من الضوء الساطع في جهة الجنوب تُنذر البحارة بحصول ذلك التغيير قبل وقوعه، ولذلك فأصحاب المراكب يُمكنهم عندئذ اتّخاذ ما يلزم من الاحتياطات.

كانت الساعة تُشير إلى حوالى السادسة صباحاً حين بدأت العاصفة تصطدم بنا بألسنتها البيضاء، وكما هو مُعتاد، كان هبوبها من الشمال. ومع حلول الساعة [269]الثامنة ازدادت قوتها، ورافقتها أشد الأمواج التي سبق لي أن رأيتها في حياتي. كل شيء على متن السفينة كان قد صُنع بحيث يكون قادراً على الصمود أمام أقوى العواصف، إلّا أنّ سفينتنا الآن كانت تُكافح قوى لا عهد لها بها، وقد أسفرت عن جوانبها الرديئة أكثر ممّا تُسفر عن جوانبها الجيدة كوسيلة للإبحار، كانت مُقدمتها تغطس تحت كلّ موجة ثم ترتفع في صعوبة شديدة قبل أن تعود لتدفن تحت أكوام أُخرى من الموج. وقبيل غروب الشمس لاحت لنا تلك البقعة الساطعة التي كُنّا نترّقب ظهورها في الجنوب الغربي، وفي غضون ساعة كُنّا نرى جزءاً ضئيلاً من الشراع الأمامي يُرفرف في فتور على الصاري الذي يحمله. وبعد دقيقتين، على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتّخذت، وجدنا السفينة تنبطح على دعاماتها الجانبية، كأن ذلك حدث بفعل قوى سحرية، وغطتنا فِي مكاننا الذي انبطحنا فيه طبقة هائلة من الزبد مع الأمواج التي اخترقت سطح السفينة دون أي عائق. إلّا أنّ تلك الهجمة التي جاءت من ناحية الجنوب الغربي، لحُسْن الحظ، اتّضح أنّها ليست أكثر من عاصفة وقتية، وقدّر للسفينة أن تعتدل دون أن تفقد أحد صواريها. واجهنا البحر طوال ساعات على هذا المنوال بأمواج ثقيلة يصعب قهرها، ومع تباشير الصباح وجدنا أنفسنا في حالة جيدة بعض الشيء كما كنا قبل العاصفة. وصرّح القبطان غاي قائلاً: إننا نجونا بأُعجوبة.

في الثالث عشر من تشرين الأول لمحنا أخيراً جزيرة برنس إدوارد، على خط عرض 46 درجة 53 جنوباً، وخط طول 37 درجة 46 غرباً. وبعد يومين وجدنا أنفسنا بالقرب من جزيرة بوسيشن، وفي ذلك الوقت عبرنا جزر كروزيت التي تقع على خط عرض 42 درجة 59 جنوباً، وخط طول 48 درجة غرباً. وفي اليوم الثامن عشر وصلنا إلى جزيرة كيرغويلن أو ديسوليشن، على المُحيط الهندي الجنوبي، وألقينا مراسينا في ميناء كريسماس، على عمق أربع قامات.

هذه الجزيرة، أو بالأحرى مجموعة الجزر، تقع إلى الجنوب الشرقي من رأس الرجاء الصالح، وتبعد عنه مسافة تصل تقريباً إلى ثمانمائة فرسخ. وقد اكتشفها لأول مرة في سنة 1772 بارون دو كيرغولن، أو كيرغويلن، وهو رجل فرنسي، وكان يعتقد أنّ هذه الأرض جزء من قارة جنوبية مُترامية الأطراف، ونقل هذه المعلومات إلى الوطن ممّا أدّى إلى ردود فعل ومُجادلات مُثيرة في ذلك الوقت. وبالتالي تبنّت الحكومة الأمر، فقامت بإرسال البارون مرة أُخرى في السَّنة المُقبلة بغية التأكد جيداً من اكتشافه الجديد وإخضاعه للتمحيص، وحينها عرف الخطأ. وفي سنة 1777، وصل القبطان كوك إلى الأرخبيل ذاته، وأعطى اكبر جزيرة اسم ديسوليشن، أي: الخراب، وربّما كانت تستحق هذا الاسم. لدى الاقتراب من اليابسة، قد يجد البحّار نفسه مُضطراً لافتراض شيءٍ مُعاكس لهذا المعنى، لأنّ سفوح أغلب التلال، من أيلول إلى آذار، تكتسي بأشكال رائعة التباين من الاخضرار. هذا [270]المظهر المُخادع مردّه إلى نباتات ضئيلة تُشبه كاسر الحجر[1]، توجد هُناك بكثرة، وتنمو في تكتلاتٍ كبيرة على أنواع مُتداعية من الطحالب. إلى جانب هذه النباتات نادراً ما يلمس المرء أي علامة على الخضرة في الجزيرة، إذا استثنينا بعض الأصناف الخشنة من الأعشاب التي تنمو قرب المرفأ، وبعض الأشنات، والشجيرات التي يخرج من بذورها ما يُشبه الملفوف، أو القرنبيط، الذي له مذاقٌ مرٌّ لاذع.

(1) كاسر الحجر: جنسٌ من الزهور من فصيلة كاسرات الحجر تنمو بين تصدّعات الصخور. [المترجم]

إنّ الصفة الغالبة على هذه البلاد كثرة تلالها، مع أنّه لا يُمكن القول: إنّ أحد تلك التلال مُرتفع. وتتغطّى القمم في مُعظم الأحيان بالثلوج. وهُناك عددٌ من الموانئ، منها ميناء كريسماس الذي يُفضله البحارة أكثر من غيره. إنّه أولُ مرفأ يواجهونه على الجانب الشمالي الشرقي من الجزيرة بعد اجتياز كيب فرانسوا، أي: الساحل الشمالي، ومن منظره الغريب على نحوٍ مُميز يستعين به البحارة في التعرّف على المرفأ. تبدأ أكثر حافات الجزيرة بروزاً بصخرة شامخة فيها تجويفٌ هائل على شكل قوسٍ طبيعي. مدخل الجزيرة يقع على خط عرض 48 درجة 40 جنوباً، وخط طول 69 درجة 6 شرقاً. لدى عبور المراكب من هُنا، ربّما يجد البحارة موقعاً مُناسباً لإلقاء مراسيهم بين أكناف جزر صغيرة مُتعدّدة، إذ تُعتبر الجزر عُنصر حماية كاف أمام الرياح الشرقية بمُختلف أنواعها. فإذا تقدّمت إلى الشرق من هذا الموقع الذي ألقيت فيه المرساة، يُصادفك خليج واسب، عند أحد أطراف المرفأ. وهُناك حوض صغير مُغلق تُحيط به الأرض من كلّ جانب، يُمكن الدخول إليه فعُمقه حوالى أربع قامات، وفيه يُمكن إيجاد مرسى فوق قيعان طينية صلبة يتراوح عمقها من ثلاث إلى عشر قامات. ربما تستطيع أي سفينة أن ترسو هُنا وقد أنزلت مرساة جؤجؤها فتبقى بما تحمله من متاعٍ ثمين عاماً كاملاً دون أي مُخاطرة. إلى الغرب، عند رأس خليج واسب، يتدفّق جدولٌ صغير تترقرق مياهه، ويسهل على المرء التزود بالمياه من هُناك.

وجدنا في ذلك الوقت بضع فقمات من ذوات الفراء وما إلى ذلك من الحيوانات ذوات الشعر على جزيرة كيرغويلن، فضلاً عن عدد كبير من فيلة البحر. أمّا أصناف الطيور فكثيرة هُناك. والبطريق كثير الأعداد أيضاً، وتوجد أربعة أنواع مختلفة من هذا الحيوان، نوع يسمى البطريق الملكي، وسُمّي بهذا الاسم بسبب حجمه وريشه الجميل المنظر، وهو الأكبر حجماً من غيره. الجزء الأعلى من جسم هذا البطريق رمادي اللون عادة، وفي بعض الأحيان يميل إلى أن يكون بلون الليلك؛ أما أسفله فناصعُ البياض بشكل لا يُمكن تخيّله. ورأس البطريق أسودٌ يُرسل لمعاناً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى القدمين. إلّا أنّ الشيء الأجمل في هذه الطيور وجود خطين عريضين بلون ذهبي، يمتدّان من الرأس

حتى الصدر. والمنقارُ طويل، قرنفلي أو بنفسجي فاتح. تمشي هذه الطيور على رجليها وهي مُنتصبة القامة؛ وتوحي حركاتها بالمهابة. ترفع رؤوسها عالياً وتتدلّى أجنحتها كأنّها الأذرع، وتبرز ذيولها من أجسامها في خط مُتواز مع الساقين، فتُحاكي مشية البشر على نحو مذهل، ويُمكن أن ينخدع الناظر إليها عرضياً أو في عتمة الغسق فيظنها من البشر. كانت البطاريق الملكية التي صادفناها على أرض كيرغويلن أكبر حجماً من الإوز [271]قليلاً. وهُناك أنواع أخرى من البطريق يُسمونها ماركوني، والمُغفل، والمُحتال. هذه الأنواع أصغر حجماً، وريشها أقلّ جمالاً، وتختلف عن غيرها في أشياء أُخرى.

إلى جانب البطريق، توجد هُنا أنواع أُخرى كثيرة من الطيور، ربّما نذكر منها دجاج البحر، وطائر النّوء الأزرق، والبط النهري الصغير، والبط البري، ودجاج بورت إيغمونت، وطائر الغاق، وحمام كيب، والفلمار أو الطائر المُخنّث، وسنونو البحر، والخرشنة، ونوارس البحر، ودجاج موثر كاري، وإوز موثر كاري، أو النوء العملاق، وأخيراً القطرس.

يمتاز طائر النوء بالضخامة مثل القطرس العادي، وهو من الطيور الآكلة للّحوم. وفي كثير من الأحيان يُسمّى كاسر العظام، أو الصقر الآكل للسمك. هذه الطيور لا تنفر من البشر أبداً، وحين تُطهى جيداً فلحمها مُستساغ جدّاً. لدى طيرانها تحوم في بعض الأحيان قريباً من سطح الماء، وتفرش أجنحتها، من غير أن يبدو عليها أنّها تُحركها على الإطلاق، أو أنّها تبذل جهداً في توجيهها.

أما القطرس فهو من أضخم وأشرس أنواع الطيور في بحر الجنوب. إنّه من فصيلة النوارس، ويأخذ فريسته التي يصطادها وهو يطير بجناحيه، ولا يحط على الأرض أبداً لغرض التناسل. بين هذا الطائر والبطريق علاقة صداقة فريدة من نوعها، حيث يبنيان أعشاشهما في تماثلٍ زائع وفقاً لخطة مُنسقة فيما بينهما.. يبني القطرس عشه على مُربعٍ صغير يتكون من تقارب أربعة أعشاش للبطريق. وقد اتّفق البحارة على أن يُطلقوا على مثل هذا التجمع المُزدحم للأعشاش «المغدفة»[2].

---

(2) المغدفة: موضع تتوالد فيه الغدفان أو غيرها من الطير. [المترجم]

هذه الأماكن كثيراً ما وصفها الرّحالة، ولأنّ بعض قُرائي ربّما لم يسبق لهم أن اطّلعوا على هذه الكتابات، قد تُتاح لي فرصة لاحقاً للتطرّق إليها لدى الكلام على البطريق والقطرس، ولا بأس هُنا من ذكر شيء عن أنماط أعشاشها التي تبنيها وأسلوب حياتها.

مع حلول موسم الحضانة، تتجمّع هذه الطيور في أعداد كبيرة، وتبقى طوال أيام مُنهمكة بالمهمة التي تنوي أن تقوم بها. وفي نهاية المطاف تنطلق لتنفيذ خطتها. تختار الطيور بقعة مُستوية من الأرض ذات أبعاد مُناسبة، وهي في العادة ثلاثة أو أربعة أكرات، قريبة من البحر ما أمكن ذلك، ولكنّها بعيدة عن الأمواج. يتمّ اختيار تلك البقعة بحيث يؤخذ بنظر الاعتبار استواء سطحها، ويُفضل أن تكون على الأقل خالية من الصخور التي تُعيق الحركة. وبعد الانتهاء من هذا، تمضي الطيور إلى شأن آخر، في حركة مُنسقة واحدة، ويبدو أنّها تستجيب لحافز فطري واحد، تمضي في تصميم وبناء الأعشاش في دقة رياضية، بحيث تتّخذ شكل مربع أو مُتوازي الأضلاع، وفقاً لطبيعة الأرض، وبحجم يكفي لأن يستوعب بسهولة جميع الطيور، ولا يبقى منه مكانٌ شاغر لغيرها.. هذا الترتيب المُحدد يبدو أنّه يهدف إلى منع [272]نشوب أي نزاعات مُستقبلية مع غيرها من الطيور الشاردة المُتلكئة التي لم تُشاركها في الأعمال المُجهدة أثناء تشييد المُعسكر. وهكذا يمتد أحد جوانب المكان المُهيأ على هذا النحو بموازاة حافة المياه، ويترك هذا الجانب مفتوحاً للدخول والخروج.

بعد إرساء حدود المغدفة، يبدأ أفراد المُستعمرة بتنظيفها من أنواع النفايات والشوائب، وتلتقط الحجارة واحدة بعد واحدة، وتُحمل إلى خارج تلك الحدود، ولكنّها تبقى قريبة لتشكّل جداراً عازلاً من ثلاث جهات. داخل هذا الجدار هناك ممشى مُسطح خال من أي عقبات، يتراوح عرضه من ستة إلى ثمانية أقدام، يُحيط بالمعسكر.. يُستخدم لأغراض التنزّه أو ما شابه ذلك.

ويتضمّن الإجراء اللّاحق تقسيم المنطقة بأكملها إلى مُربعاتٍ صغيرة مُتساوية في مساحتها، وذلك بعمل ممراتٍ ضيقة، مُستوية جدّاً، يتقاطع بعضها مع بعض في زوايا قائمة، ويشمل هذا نطاق المغدفة كلها. عند كل تقاطعٍ لهذه

الممرات يوجد عشٌ من أعشاش القطرس، ويحتل عشُّ البطريق مركز كل مربع.. وهكذا فإنّ كل طائر بطريق تُحيط به أربعة من طيور القطرس، وكل قطرس يُحيط به عدد مُماثل من البطاريق. ويتألف عشُّ البطريق من فتحة تُحفر في الأرض، غير عميقة، لا تكفي إلا لبيضة واحدة تمنعها من التدحرج. أما عشُّ القطرس، فهو أبسط في الترتيب، يقوم على رابيةٍ صغيرة قطرها قدم أو قدمان. هذا العش يُصنع من التراب، والعشب البحري، والأصداف. وعلى قمة الرابية تبني إناثُ القطرس أعشاشها.

تحرص الطيور بطريقة استثنائية على عدم مُغادرة أعشاشها ولو لحظة أثناء فترة حضانة البيض، أو في الواقع، حتى تُصبح صغارها قوية بما يكفي للعناية بأنفسها. بينما يغيب الذكر في البحر باحثاً عن الطعام، تبقى الأنثى للحراسة، ولا تُغامر أبداً في الخروج إلا لدى عودة شريكها. لا يُترك البيض دون حراسة مُطلقاً.. في الوقت الذي يترك فيه الطير عشه يكون الطير الآخر جالساً قريباً منه. هذا الإجراء في توخّي الحذر يُعتبر ضرورياً لوجود نزعات للسرقة تسود في المغدفة، إذ لا يتورّع بعض ساكني المنطقة عن اختلاس البيض من البعض الآخر في أي فرصة سانحة.

مع أنّ بعض المُستوطنات تسكنها طيور البطريق والقطرس وحدها، إلّا أنّ المرء يلتقي في أغلبها بأنواعٍ أُخرى من طيور المُحيطات، فهي تتمتع أيضاً بمزايا المواطنة، وتتناثر أعشاشها هُنا وهُناك، أينما وجدت فسحة من المكان، ولكنّها لا تتدخّل في شؤون الأنواع الأكبر حجماً من الطيور. يتّسم منظر هذه التجمّعات، حين يُشاهدها المرء من مسافة بعيدة، بتفرّد يلفت الأنظار. ويبدو المشهد من أعلى [273]المُستوطنة أسود اللون بسبب الأعداد الهائلة من القطرس (مُختلطاً مع الأنواع الأقل عدداً) فهذه الطيور تحوم حول المكان باستمرار، في تنقّلاتها إلى المحيط أو العودة إلى أعشاشها. وفي الوقت نفسه، لا بُدّ أن يُلاحظ الناظر حشداً من البطاريق، بعضها تعبر جيئة وذهاباً في الممرّات الضيقة، وبعضها تمضي في مشيتها العسكرية التي تنفرد بها، حول ممرّات التنزّه التي تُحيط بالمُستوطنة. باختصار، إذا شئنا أن نجري تقييماً هُنا، لن يكون هُناك شيء

أكثر إبهاراً من التخطيط المُذهل الذي تبديه هذه الكائنات ذوات الريش، ولا شيء حتماً يفوق هذه الحسابات الدقيقة التي تُبرهن على عمق التفكير الذي يكاد يُضاهي الفكر البشري المُنظم.

في صباح اليوم الذي وصلنا فيه إلى مرفأ كريسماس، أخذ مُساعد القبطان، السيد باتيرسون، الزوارق (مع أنّ الوقت كان مُبكراً بعض الشيء أثناء هذا الموسم) وذهب في رحلة بحثٍ عن الفقمة، تاركاً القبطان وأحد أقاربه الشبان على بقعة جرداء تقع إلى الغرب، وكان لديهما شغل يؤديانه هُناك لم أعرف عنه شيئاً، في مكانٍ ما داخل الجزيرة. حمل القبطان غاي معه زجاجة مُغلقة في داخلها رسالة، ومضى في طريقه من النقطة التي غادر فيها الشاطئ باتّجاه القمم العالية. من المُحتمل أنّه كان ينوي ترك الرسالة على مكانٍ مُرتفع هُناك من أجل تلقّيها من مركب يُتوقع مجيئه لاحقاً. حالما اختفى عن أنظارنا تقدمنا (أنا وبيترز وكُنا في زورق مُساعد القبطان) لنُتابع جولتنا حول الساحل باحثين عن الفقمة. وانشغلنا في هذا قرابة ثلاثة أسابيع، كنّا خلالها نتفحص باهتمام كل زاوية من المنطقة، ليس على أرض كيرغويلن وحدها، ولكن رحلاتنا امتدّت إلى عدة جزر صغيرة تقع على مقربة منّا. إلّا أنّ جهودنا لم تُكلّل بأي نجاح مُهم. رأينا أعداداً كبيرة من فقمات الفراء، إلّا أنّها كانت وجلة إلى درجة بالغة، وبعد جهودٍ مُضنية لاصطيادها، تمكنّا من الحصول على ثلاثمائة وخمسين جلداً على وجه الإجمال. أما فيلة البحر، فرأينا منها الكثير، لا سيما على الساحل الغربي من الجزيرة الكبيرة، ولكننا لم نصطد منها إلا عشرين فقط، بعد جهدٍ وعناء. على الجزر الأصغر اكتشفنا وجود أعدادٍ لا بأس بها من الفقمات ذوات الشعر، ولكنّنا لم نتحرّشِ بها. ثم رجعنا إلى الزورق في الساعة الحادية عشرة، حيث وجدنا القبطان غاي وابن أخيه، وقد سرد الأخير على أسماعنا وصفاً عجيباً للمناطق الداخلية من الجزيرة، واعتبرها واحدة من أكثر البلدان الموحشة والقاحلة في العالم. وأمضيا ليلتين على الجزيرة، إذ حصل سوءُ فهم من جانب مُساعد الربّان الذي لم يُرسل قارباً لأخذهما من هُناك.

الفصل (15)

في اليوم الثاني عشر أبحرنا من مرفأ كريسماس سالكين طريقنا السابق [274]غرباً، تاركين جزيرة ماريسون وراءنا، وهي إحدى جزر أرخبيل كروزيت، إلى جهة اليسار. بعد ذلك مررنا بجزيرة برنس إدوارد، وكانت أيضاً إلى يسارنا، ثم اتّجهنا شمالاً مُحافظين على المسار نفسه حتى وصلنا، بعد خمسة عشر يوماً، إلى جزر ترستان دو آكونا، على خط عرض 37 درجة 8 جنوباً، وخط طول 12 درجة 8 غرباً.

هذا الأرخبيل، وهو الآن معروف جدّاً، الذي يتألف من ثلاث جزر مُدورة، اكتشفه البرتغاليون لأول مرة، وزاره فيما بعد الهولنديون عام 1643، وكذلك فعل الفرنسيون عام 1767. تُشكّل الجزر الثلاث مُربعاً، وكل جزيرة تبعد عن الأُخرى عشرة أميال، وهُناك ممرّات واسعة مفتوحة بينها. الأرض في هذه الجزر مُرتفعة جدّاً، وخاصة أرض جزيرة ترستان دو آكونا، وهو سبب تسميتها بهذا الاسم. هذه الجزيرة هي الأكبر في الأرخبيل، لأنّ محيطها خمسة عشر ميلاً، وأرضها مُرتفعة إلى درجة أنّه يُمكن رؤيتها في الأجواء الصحوة من مسافة ثمانين أو تسعين ميلاً. يرتفع جزءٌ من أرض الجزيرة باتّجاه الشمال أكثر من ألف قدم عن البحر. وهُناك سهلٌ واسع وراء هذه المُرتفعات يمتد مُلتفاً حول مركز الجزيرة، ومن هذا النجد يمتد مُرتفع مخروطي يُسمّى تينرايف. تُغطي النصف الأسفل من هذا المخروط أشجار ضخمة، إلّا أنّ المنطقة العليا تتألف من صخور جرداء، تختفي في العادة بين الغيوم، وتُكلّلها الثلوج خلال معظم أيام السَّنة. لا توجد مياه ضحلة أو غيرها من المخاطر في الجزيرة، فالمناطق

الساحلية وعرة على نحو مُميز والمياه عميقة. على الساحل الشمالي الغربي هُناك خليجٌ صغير، ساحله من الرمال السوداء يسهل إرساء الزوارق عليه، شريطة وجود رياح جنوبية. هُنا يُمكن للمرء التزوّد بمياه عذبة في سهولةٍ ويسر؛ وكذلك ربّما يُمكن صيد أسماك القد وغيرها بالخيط والصنارة.

الجزيرة التالية من حيث الحجم، وتقع في أقصى الغرب من الأرخبيل، تُسمّى أناكسيسابل «العصية». هذه الجزيرة على خط عرض 37 درجة 17 جنوباً، وخط طول 12 درجة 24 غرباً. ومُحيطها سبعة أو ثمانية أميال، وتتّصف جميع جوانبها بشدة الانحدار وصعوبة الوصول إليها. أعلى مكانٍ في الجزيرة يكاد يكون مُنبسطاً كلياً، والمنطقة بأكملها جرداء قاحلة لا ينمو فيها شيءٌ ما عدا بضع أجمات هزيلة.

وهُناك جزيرة نايتنغيل، وهي الأصغر وتقع إلى أقصى الجنوب، على خط [275]عرض 37 درجة 26 جنوباً، وخط طول 12 درجة 12 غرباً. على طرفها الجنوبي جرفٌ صخري مُرتفع من جزرٍ صغيرة؛ وهُناك بضع جزرٍ صغيرة أُخرى ذات مظهر مُماثل يُمكن مُشاهدتها إلى الشمال الشرقي. أرض هذه الجزيرة وعرة وقاحلة، وهُناك وادٍ عميق يفصل جزئياً بين جانبين منها.

تُكثر على سواحل هذه الجزر، في الموسم المُناسب، أسودُ البحر، وفيلة البحر، وفقمات ذوات شعر وفراء، فضلاً عن أنواع كثيرة من طيور المحيطات. وكذلك تُكثر الحيتان بالقرب من هذه المناطق. بسبب سهولة اصطياد هذه الأنواع من الحيوانات التي أشرنا إليها، شهدت مجموعة الجزر زيارات مُكررة منذ اكتشافها. كثيراً ما كان الهولنديون والفرنسيون يتردّدون عليها منذ فترات مُبكرة جدّاً. في سنة 1790، زار القبطان باتين على متن سفينة اندصتري من فيلادلفيا، جزيرة ترستان دو آكونا، حيث بقي سبعة أشهر (من آب1790 إلى نيسان 1791) وكان الغرض من تلك الرحلة الحصول على جلود الفقمة. خلال هذه المدة تمكّن من جمع ما لا يقلّ عن خمسة آلاف وستمائة قطعة من الجلود، وكان يقول: إنّه لن يواجه أي صعوبة في تحميل سفينة ضخمة بالزيت خلال ثلاثة أسابيع. لدى وصوله لم يجد أي حيوانات من ذوات الأربع قوائم، باستثناء قليل من الماعز

البري؛ بينما تعجّ الجزيرة في الوقت الحالي بأنواع الحيوانات الداجنة النافعة التي نعرفها، والتي أدخلها إلى الجزيرة ملّاحون مُتعاقبون.

أعتقد أنه لم تمضِ مدة طويلة على زيارة القبطان باتين حتى جاء القبطان كولكوهون، على متن سفينة بيتسي الأمريكية، ونزل على سواحل أكبر جزيرة من هذه الجزر، وكان الغرض من رحلته مُجرّد الاصطياف. هُناك قام بزرع البصل، والبطاطا، والقرنبيط، وما إلى ذلك من أنواع الخضار، وجميعها تتوفّر الآن بكثرة ويُمكن الحصول عليها بسهولة.

في سنة 1811، زار قبطان يدعى هايوود، على متن سفينة «نيريوز» جزيرة ترستان. ووجد هُناك ثلاثة من الأمريكيين يسكنون الجزيرة ويعملون على صيد الفقمات من أجل جلودها وزيوتها. واحد من هؤلاء الرجال اسمه جوناثان لامبيرت، وكان يُلقّب نفسه عاهل البلاد. لقد استصلح هذا الرجل وحرث حوالى ستين دونماً من الأرض، ثم تحوّل اهتمامه إلى زراعة أشجار القهوة وقصب السكر، وساعده في ذلك السفير الأمريكي في ريو دوجانيرو. غير أنّ هذه المُستعمرة هُجرت لاحقاً، وفي سنة 1817 استولت الحكومة البريطانية على الجزر، وتمّ إرسال كتيبة من الجنود لاحتلالها انطلاقاً من رأس الرجاء الصالح. إلّا أنّهم لم يحتفظوا بها طويلاً؛ ولكن لدى إخلاء البلاد من سكّانها الأصليين واعتبارها من الأملاك البريطانية، استقرت عائلتان أو ثلاث من البريطانيين هُناك وعاشت بصورة مُستقلة عن الحكومة. في الخامس والعشرين من آذار، 1824، وصلت سفينة تُدعى بيرويك يقودها القبطان جيفري من لندن إلى جزيرة فان دايمان، وقام القبطان بزيارة ذلك المكان، حيث وجد رجلاً إنكليزياً يحمل اسم عائلة غلاس، كان فيما مضى نائب [276]عريف في سلاح المدفعية البريطاني. ادّعى هذا الشخص أنّه الحاكم السامي للجزر، وكان تحت إمرته واحد وعشرون رجلاً وثلاث نساء. وقد أعطى وصفاً مُفصّلاً مليئاً بالمُصطلحات العلمية عن المناخ وإنتاجية التربة. كان سكان الجزيرة يشتغلون أساساً بجمع جلود الفقمات وزيت فيلة البحر، ويُتاجرون بهذه المواد فيشحنونها إلى رأس الرجاء الصالح، وكان غلاس يمتلك قارباً صغيراً. إبّان الفترة التي وصلنا فيها كان الحاكم لا يزال

مُقيماً هُناك، غير أنّ جماعته الصغيرة تضاعفت، فأصبح عددهم ستة وخمسين شخصاً على جزيرة ترستان وحدها، إلى جانب مُستوطنة أصغر فيها سبعة أشخاص على جزيرة نايتنغيل. لم تواجهنا صعوبة تذكر في الحصول على أغلب ما نحتاج إليه من مواد غذائية.. الخراف، والخنازير، وثيران صغيرة، وأرانب، ودجاج، وماعز، وسمك مُختلف الأنواع، وخضروات، كل هذه المواد كانت موجودة بوفرة. بعد أن ألقينا المرساة في مكانٍ قريب من الجزيرة الكبيرة، على عمق ثمان عشرة قامة، نقلنا ما احتجنا إليه من المؤن إلى متن السفينة دون صعوبة. واشترى القبطان غاي أيضاً من غلاس خمسمائة جلد فقمة وبعض قطع العاج. بقينا هُنا أُسبوعاً، أثناء ذلك كانت الرياح السائدة تهبّ من الشمال والغرب، والجو ضبابي غائم بعض الشيء. وفي الخامس من تشرين الثاني أبحرنا باتّجاه الجنوب الغربي، وكان مقصدنا البحث عن مجموعة من الجزر تُسمى أورواس والتي أُثيرت حول وجودها اختلافات شديدة في الآراء.

هذه الجزر يُقال: إنها اكتشفت في وقت يعود إلى سنة 1762، من قبل قائد سفينة اورورا. وفي سنة 1790، أبحر القبطان مانويل دو أويارفيدو على متن سفينة برنسيس التي تملكها شركة رويال الفلبينية، كما يؤكد ذلك بنفسه، وكان ينوي الاتّجاه مُباشرة إلى تلك الجزر. وفي سنة 1794، انطلقت السفينة الحربية الإسبانية أترفيدا بقصد تحديد موقع تلك الجزر على وجه الدقة، وفي بحث نشرته الجمعية الملكية لعلوم البحار والمُحيطات في مدريد سنة 1809، وردت الكلمات التالية في وصف مجريات هذه الرحلة الاستكشافية: «قامت السفينة الحربية أترفيدا، حالما وصلت إلى منطقة قريبة من الجزر، ابتداءً من اليوم الحادي والعشرين إلى السابع والعشرين، بإنجاز جميع الإجراءات الضرورية في المُراقبة، واستخدمت الأدوات الدقيقة في قياس التباين في خطوط الطول بين هذه الجزر وميناء سوليداد في جزر مانيلاس. يتألف هذا الأرخبيل من ثلاث جزر، تقع على خط الطول نفسه؛ الجزيرة الوسطى منها مُنخفضة المُستوى بعض الشيء، والجزيرتان الباقيتان ربّما يُمكن رؤيتهما من مسافة تسعة فراسخ». وتمخّضت عمليات المُراقبة التي جرت على متن سفينة أترفيدا عن النتائج التالية

بشأن الوضع الحقيقي لكل جزيرة. الجزيرة التي تقع إلى أقصى الشمال على خط عرض 52 درجة 37، 24 جنوباً، وخط طول 47 درجة 43، 15 غرباً؛ والوسطى تقع على خط عرض 53 درجة 2، 40 جنوباً، وخط طول 47 درجة 55، 15 غرباً؛ والتي إلى أقصى الجنوب تقع على خط عرض 53 درجة 15، 22 جنوباً، وخط عرض 47 درجة 57، 15 غرباً.

[277]في السابع والعشرين من كانون الثاني سنة 1820، أبحر القبطان جيمس ويدل، على متن سفينة تابعة للأسطول البريطاني من ستاتين لاند أيضاً في رحلة استكشافية لجزر آورورراس. يذكر هذا القبطان أنّه بعد بحثٍ جدّي طويل، وصل إلى مناطق تتجاوز تلك التي حددها قائد سفينة أترفيدا، وتجوّل في كل اتّجاه على مناطق مُجاورة، ولكنّه لم يكتشف وجود أي أرض. هذه التصريحات المُتضاربة أدّت إلى تحفيز بحّارة آخرين للبحث عن الجزر؛ ومن الغريب القول: إنّه في الوقت الذي أبحر فيه بعضهم وجابوا كلّ بوصة من البحر يفترض أن تقع عليها الجزر المفقودة، إلّا أنّهم لم يعثروا عليها، بينما صرّح آخرون في ثقة تامة بأنهم رأوها؛ حتى إنّهم كانوا قريبين من سواحلها. وكان القبطان غاي ينوي أن يبذل كلّ جهد مُمكن لحسم هذه المسألة التي شغلت الناس وتضاربت حولها الآراء(*3).

بقينا مُحافظين على مسارنا، بين الجنوب والغرب، مع تغيراتٍ طفيفة تطرأ من الحين إلى الحين على المناخ، حتى وجدنا أنفسنا في اليوم العشرين من الشهر على البقعة المُثيرة للجدل، عند خط عرض 53 درجة 15 جنوباً، وخط طول 47 درجة 58 غرباً.. بمعنى آخر، كنا تقريباً على البقعة التي تمّ تحديدها على أنّها موقع الجزيرة الأكثر انحرافاً إلى الجنوب من بقية جزر الأرخبيل. لم نُميّز أي علامة تدل على وجود أرضٍ فمضينا في الاتّجاه غرباً على مُوازاة خط

(*3) من السفن التي يُعتقد في كثير من الأحيان أنّها التقت بسفينة آورورراس ربّما نذكر هُنا سفينة سان ميغيل، وحدث ذلك في سنة 1769؛ وكذلك سفينة آورورا في سنة 1774؛ ومركب بيرل في سنة 1779؛ وسفينة دولوريس في سنة 1790. وجميع بحارة تلك السفن يتفقون على إعطاء مُتوسط خط عرض ثلاث وخمسين درجة جنوباً. (المؤلف)

ثلاث وخمسين درجة جنوباً، حتى وصلنا إلى خط عرض خمسين درجة غرباً. وبعد ذلك تحوّلنا إلى الشمال مُحافظين على مسارٍ يوازي اثنتين وخمسين درجة جنوباً، ثم تحوّلنا شرقاً، وبقينا على موازاة مُضاعفة مع الارتفاع الزاوي للأجرام السماوية فوق الأُفق، مُلتزمين صباحاً ومساءً بمؤشرات ارتفاع دائرة خط الزوال التي تُرشدنا إليها الكواكب والقمر. وبعد أن قطعنا كلّ هذه المسافة شرقاً باتّجاه زاوية السمت أو دائرة خط الزوال التي يقع عليها الساحل الغربي لجورجيا، حافظنا على ذلك المسار إلى أن وصلنا إلى خط العرض الذي انطلقنا منه أول مرة. ثم سلكنا مسارات قطرية في أنحاء مُتفرقة من المنطقة البحرية المُحددة كلها، مُستمرين بمُراقبتنا من أعلى الصاري، وكُنّا نُعيد التفحّص مرة بعد مرة بأقصى درجات الحرص طوال ثلاثة أسابيع، وكان الجو في أثناء ذلك مُعتدلاً لطيفاً جدّاً، لا تُعكّر صفوه سدم الضباب أو الغيوم. بطبيعة الحال كُنّا مُقتنعين كل الاقتناع من أنّ أي جزر ربّما كانت موجودة في هذه المنطقة في وقت من الأوقات، ليس من أثرٍ لها اليوم. ومنذ عودتي إلى الوطن، كنت أجد المنطقة نفسها يجري استكشافها مرات مُتعددة، في حرصٍ مُماثل، [278]فمثلاً في سنة 1822 حاول ذلك القبطان جونسون على سفينة شراعية أمريكية تُسمى هنري، وكذلك فعل القبطان موريل على متن السفينة الشراعية الأمريكية واسب.. وفي الحالتين لم تختلف النتائج عما توصّلنا إليه.

الفصل (16)

كان القبطان غاي ينوي في المقام الأول، بعد التوصّل إلى رأي يقنع به نفسه بشأن جزر آوروراس، أن يمضي مُباشرة نحو مضيق ماجلان، ثم الاتّجاه إلى الساحل الغربي لباتاغونيا؛ إلّا أنّ المعلومات التي وصلت من ترستان دو آكونا دفعته إلى الاتّجاه جنوباً على أمل إيجاد بعض الجزر الصغيرة التي يقال: إنها تقع بمُوازاة خط عرض 60 درجة جنوباً، وخط طول 41 درجة 20 غرباً. وفي حالة عدم اكتشاف هذه الأراضي، كما كان يُخطط، وإذا ما سمحت حالة الطقس، سوف يندفع باتّجاه القطب. تبعاً لهذه الخطة، في الثاني عشر من كانون الأول، أبحرنا بذلك الاتّجاه. وفي اليوم الثامن عشر وجدنا أنفسنا عند النقطة التي حدّدها غلاس تماماً، ومضينا بعد ذلك نُبحر ثلاثة أيام مُتواصلة في المناطق المُجاورة دون العثور على أثر للجزر التي ذكرها. في اليوم الحادي والعشرين، وكان الجو رائعاً كالعادة، انطلقنا من جديد باتّجاه الجنوب، وكان القرار أن نخترق طريقنا في ذلك الاتجاه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. قبل أن أستمر في سرد هذا الجزء من حكايتي، ربّما كان من المُناسب، إذا أخذنا بنظر الاعتبار معلومات أولئك القراء الذين ربّما لم يهتموا كثيراً بالاستكشافات التي جرت في هذه الأماكن، أن أُقدم وصفاً موجزاً للمُحاولات القليلة التي كانت تهدف للوصول إلى القطب الجنوبي والتي قام بها المُستكشفون في الماضي وحتى هذا الوقت.

كانت مُحاولة القبطان كوك الأولى من نوعها التي كُتب عنها وصفٌ مُفصل. في سنة 1772، أبحر الرجل في رحلته جنوباً على سفينة ريسوليوشن، يُرافقه المُلازم فورنو على سفينة أدفينجر. وفي شهر كانون الأول وصل إلى مسافة بعيدة

بمُوازاة خط عرض ثمانية وخمسين جنوباً، وخط طول 26 درجة 57 شرقاً. هُنا التقى بحقول ضيقة من الجليد، يصل سمكها إلى ثمان أو عشر بوصات تقريباً، وكانت تتحرّك إلى الشمال الغربي والجنوب الشرقي. هذا الحقل الجليدي كان يتألّف من كُتل ضخمة، بعضها مُنحشر قرب بعض في العادة بحيث يصعب على أي مركب اجتيازها والاستمرار في طريقه. في هذه المرحلة من الرحلة افترض الكابتن كوك، بعد مُشاهدة عدد هائل من الطيور وما إلى ذلك من العلامات، أنّه وصل آنذاك إلى مكانٍ قريبٍ من الأرض المنشودة. وتابع مساره جنوباً، وكان الجو يزداد برودة، حتى وصل إلى خط يوازي أربعاً وستين درجة، وخط طول 38 درجة 14 غرباً. وهُنا لمس جوّاً مُعتدلاً، مع نسمات لطيفة، واستمرّ ذلك الجو خمسة أيام، [279]وكان الثرمومتر يُشير إلى قراءة مقدارها ستٌّ وثلاثون. في كانون الثاني، سنة 1773، عبرت السفن دائرة القطب الجنوبي، إلّا أنّها لم تنجح في التقدم إلى مسافات أبعد من ذلك؛ لدى الوصول إلى خط عرض 67 درجة 15 وجدوا أي تقدم إضافي مُستحيلاً لوجود كتلٍ هائلة من الجليد على امتداد الأُفق الجنوبي بمقدار ما يُمكن للعين أن تراه. هذه الكتل الجليدية كانت مُختلفة الأنواع.. بعض الكتل الضخمة الطافية تصل مساحتها إلى أميالٍ وتُشكل عائقاً طبيعياً مُتماسكاً، وترتفع إلى ثمانية عشر أو عشرين قدماً فوق المياه. وكان وقتاً مُتأخراً من الموسم، ولا أمل في الالتفاف حول هذه العقبات، وهُنا استدار الكابتن كوك على مضضٍ واتّجه شمالاً.

في تشرين الثاني من السَّنة المُقبلة أعاد الكابتن كوك مُحاولات الاستكشاف في القطب الجنوبي. على خط عرض 59 درجة 40 صادفته تيارات جنوبية عنيفة. وفي كانون الأول، حين كانت المراكب على خط عرض 67 درجة 31، وخط طول 142 درجة 54 غرباً، كان البرد قارصاً إلى درجة لا تُحتمل، مع عواصف جليدية وضباب. هُنا أيضاً كانت الطيور موجودة بكثرة؛ وخاصة القطرس، والبطريق، وطائر النوء. على خط عرض 70 درجة 23 وجد بعض الجزر الكبيرة من كتل الجليد، وبعد وقت قصير شوهدت غيومٌ في الناحية الجنوبية بيضاء كالثلج، وذلك يُشير إلى الاقتراب من حقول الجليد. على خط عرض 71 درجة

10، وخط طول 106 درجة 54 غرباً، توقّف البحارة، كما حصل في السابق، بعد أن واجهوا كُتلاً هائلة من الجليد تُغطي المنطقة كلها وصولاً إلى الأُفق الجنوبي. وكانت الحافة الشمالية لهذا الامتداد الشاسع مُسننة ومُتكسرة، وينحشر بعضها مع بعض بحيث ليس من السهل اختراقها، وتمتد إلى ميل تقريباً باتّجاه الجنوب. خلف هذه البقعة كان السطح المُتجمد أملس مُقارنة بغيره حتى مسافة قصيرة، ثم يتوقّف ذلك في الخلفية البعيدة بكتل جليدية عملاقة كالجبال في ارتفاعها، الواحدة منها تجثم فوق الأُخرى. واستنتج الكابتن كوك أنّ هذا الحقل الشاسع لا بُدّ أن يصل إلى القطب الجنوبي أو أنّه يتصل مع قارة من القارات. لقد نجح السيد ج. ن. رينولدز بعد جهود جبارة وإصرار لا يلين أخيراً في وضع قدميه على هذه الأرض في رحلة استكشاف مُمولة وطنياً، كانت تهدف جزئياً لاستكشاف هذه الأرجاء من القارة، وتكلّم عن المُحاولة التي قام بها على سفينة ريسوليوشن قائلاً: «إننا لا نشعر بالاستغراب من عدم نجاح الكابتن كوك في تجاوز خط 71 درجة 10، ولكننا نندهش لأنه لم يتمكّن من الوصول إلى تلك النقطة من دائرة خط الطول 106 درجة 54 غرباً. تقع بالمر لاند إلى الجنوب من شيتلاند، على خط عرض أربع وستين درجة، وتمتد إلى الجنوب والغرب مسافة أبعد ممّا استطاع أي ملاح الوصول إليه حتى الآن. كان كوك على وشك أن يبلغ هذه الأرض حين توقف بسبب الجليد؛ ونخشى أن تكون هذه هي النتيجة دائماً حين يصل المرء إلى تلك النقطة، في وقت مُبكر من الموسم مثل السادس من كانون الثاني.. وعلينا أن لا نشعر بالاستغراب لو أنّ جزءاً من جبال الجليد التي وصفناها كانت مُرتبطة بالكيان الأساسي لبالمر لاند، أو ببعض الأجزاء من أرض أُخرى تقع بعيداً إلى الجنوب والغرب».

في عام 1803، تمّ إرسال قبطانين هما كروتزنسترن وليسياوسكي بأمر من [280]الكسندر قيصر روسيا للإبحار حول الكرة الأرضية. لدى مُحاولة الاتّجاه جنوباً، لم يتمكّنا من التوغل إلى أبعد من 59 درجة 58، خط طول 70 درجة 15 غرباً. هُنا جابهتهما تيارات قوية تندفع باتّجاه الشرق. كانت الحيتان كثيرة هُناك، إلّا أنّهما لم يريا مناطق جليدية. فيما يتعلّق بهذه الرحلة، يُلاحظ السيد رينولدز أنّ كروتزنسترن لو وصل إلى ذلك المكان في وقت مُبكر من الموسم،

لكان قد واجه الجليد.. حدث ذلك في آذار عندما وصل إلى خط العرض المُشار إليه. وكانت الرياح السائدة، كما جرت العادة في ذلك الأوان، تهبّ من الجنوب والغرب، وتدفع الكتل الجليدية، بمُساعدة التيارات البحرية، نحو المناطق الجليدية التي تُحاذي جورجيا من الشمال، ومن الشرق تحدها ساندويج لاند وساوث أوركنايز، ومن الغرب تحدّها جزر ساوث شيتلاند.

في عام 1822، قام القبطان جيمس ويدل، من البحرية البريطانية، بمُرافقة مركبين صغيرين جدّاً، برحلة اخترق فيها مساحات واسعة باتّجاه الجنوب أكثر ممّا فعل أي ملّاح سابق، وتحقّق هذا أيضاً دون صعوبات استثنائية. ويؤكد هذا البحار، مع أنّه كان في كثير من الأحيان مُحاطاً بالجليد قبل وصوله إلى خط عرض اثنين وسبعين، إلّا أنّه لدى الوصول إلى النقطة المُحددة لم يكتشف أي كتل جليدية وإن كانت صغيرة، وعند الوصول إلى خط عرض 74 درجة 15، لم يكتشف حقولاً للجليد، وإنّما مُجرّد ثلاث جزر جليدية هُناك. من المُثير للاهتمام بعض الشيء، على الرغم من مُشاهدة أسرابٍ من الطيور، وما إلى ذلك من العلامات الاعتيادية الأُخرى، ووجود سواحل مجهولة إلى الجنوب من شيتلاند، رأوها من أعلى الصاري باتّجاه الجنوب، إلّا أنّ ويدل لا يؤيد فكرة وجود أرض في القطب الجنوبي.

في 11 كانون الثاني 1823، أبحر القبطان بنجامين موريل على متن سفينة شراعية أمريكية تحمل اسم «واسب» من كيرغويلن على أمل أن يمضي إلى أقصى مسافة يستطيع الوصول إليها باتجاه الجنوب. في اليوم الأول من شباط وجد نفسه على خط عرض 64 درجة 52 جنوباً، وخط طول 118 درجة 27 شرقاً. وهذه الكتاباتِ مُقتبسة من رحلته التي قام بها في ذلك التاريخ: «سرعان ما هدأت الرياح وانخفضت حدّتها حتى أصبحت نسيماً لا تتجاوز سرعته إحدى عشرة عقدة، وانتهزنا هذه الفرصة للاتّجاه غرباً؛ ولأنّنا اقتنعنا أنّنا كلّما توغلنا جنوباً خارج نطاق خط عرض أربع وستين درجة، تقلّصت احتمالات وجود الجليد الذي نخشى منه، وهكذا ركّزنا قليلاً في الاتّجاه إلى الجنوب، حتى عبرنا أخيراً دائرة القطب الجنوبي، فأصبحنا عند تخوم خط عرض 69 درجة 15 غرباً. عند

هذه النقطة لم يُصادفنا حقلٌ جليدي، وإنّما رأينا بعض الجزر الصغيرة من الجليد فحسب».

في قطعة أُخرى كتبت بتاريخ الرابع عشر من آذار وجدت أيضاً ما يلي: «كان البحر الآن يخلو كلّياً من أي حقول جليدية، وليس هُناك أكثر من اثنتي عشرة [281]جزيرة من الجليد يُمكن رؤيتها. في الوقت نفسه كانت درجة حرارة الهواء والمياه على الأقل ثلاث عشرة درجة أعلى (أي: أكثر اعتدالاً) ممّا وجدناه في أي وقت سابق بين خطوط العرض ستين إلى اثنين وستين جنوباً. الآن كُنّا قد وصلنا إلى خط عرض 70 درجة 14 جنوباً، وكانت درجة حرارة الجو سبعاً وأربعين، ودرجة حرارة المياه أربعاً وأربعين. في هذا الموضع لاحظت تبايناً مقداره 14 درجة 27 شرقاً، لكل زاوية سمت... لقد عبرت عدة مرات ضمن نطاق دائرة القطب الجنوبي، على خطوط طول مُختلفة، ووجدت درجة الحرارة، للهواء والماء، مُعتدلة أكثر فأكثر باستمرار كلّما توغلت إلى ما وراء خمس وستين درجة من خط العرض الجنوبي، وكان التناقص يحدث بالمعدل نفسه. بينما إلى الشمال من خط العرض هذا، لنقل بين ستين وخمس وستين جنوباً، غالباً ما كُنّا نواجه صعوبة جسيمة في العثور على ممر آمن للسفينة وسط جزر جليدية هائلة لا تُعد ولا تُحصى، فبعض هذه الجزر يصل مُحيطها إلى ميل أو ميلين، وهي تطفو على سطح مياه عمقها أكثر من خمسمائة قدم».

بما أنّنا كُنّا نواجه نقصاً في الوقود والماء، وكذلك نفتقر إلى المعدات اللّازمة، إذ كان الوقت مُتأخراً في الموسم، اضطر القبطان موريل لأن يتّخذ قراراً بالرجوع، دون أن يُحاول التقدّم مسافة أبعد نحو الغرب، مع أنّ ذلك الاتجاه كان مفتوحاً على مصراعيه، والبحر أمامه يكاد يخلو من العوائق. وصرّح بهذه الفكرة التي توصّل إليها قائلاً: إنّه لولا أنّ هذه الاعتبارات سيطرت على ذهنه فأجبرته على التراجع، لكان قد تابع طريقه، إن لم يكن باتّجاه القطب نفسه، فعلى الأقل نحو خط عرض خمسة وثمانين. لقد تطرّقت هُنا إلى أفكاره بشأن هذه المسائل في شيء من الإسهاب لكي تُتاح للقارئ فرصة لأن يرى إلى أي مدى كان لهذه الأفكار تأثير على تجربتي اللاحقة.

في سنة 1831، أبحر القبطان بريسكو في رحلة على حساب شركة ميسيور أندرباي، على متن سفينةٍ لصيد الحيتان تسمى «لايفلي» من لندن باتّجاه البحار الجنوبية، وكانت تُرافقه سفينة أُخرى تقطع الجليد تُسمى «تولا». في الثامن والعشرين من شباط، على خط عرض 66 درجة 30 جنوباً، وخط طول 47 درجة 31 شرقاً، رأى أثراً للأرض، و«اكتشف ذلك بوضوح من خلال الثلوج التي تُكلّل القمم الداكنة لسلسلة من الجبال تمتد من الشرق إلى الجنوب الشرقي». وبقي القبطان في المناطق المُجاورة لهذه الأرض طوال الشهر اللّاحق، إلّا أنّه كان عاجزاً عن الاقتراب من الساحل أكثر من عشرة فراسخ، بسبب الحالة الصاخبة للمناخ. بعد أن رأى استحالة القيام بمزيدٍ من الاكتشافات أثناء هذا الموسم، عاد القبطان إلى الشمال ليمضي الشتاء في أراضي فان دايمن.

في بداية سنة 1832، عاد القبطان من جديد في رحلة تقدّم بها جنوباً، وفي الرابع من شباط رآه بعض الناس يتّجه نحو الجنوب الشرقي على خط عرض 67 [282]درجة 15 وخط طول 69 درجة 29 غرباً. وسُرعان ما اتّضح له أنّ هُناك جزيرة قرب حدود هذه البلاد وكان أول من اكتشفها. في الحادي والعشرين من الشهر نجح القبطان في أن يحط رحاله على تلك الجزيرة، وأعلن أنّه مالكها الشرعي نيابة عن وليم الرابع، وأطلق عليها اسم جزيرة أديلايد، تكريماً للملكة الإنكليزية. ولما انتشرت تفاصيلُ هذه الرحلة وعلمت بها الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، توصّل مجلسها إلى الاستنتاج التالي: «توجد مساحاتٌ شاسعة من الأراضي تمتد من خط طول 47 درجة 30 شرقاً حتى خط طول 69 درجة 29 غرباً، وتقع بمُوازاة خط عرض ستة وستين إلى سبعة وستين درجة جنوباً». فيما يتعلّق بهذا، يُلاحظ السيد رينولدز ما يلي: «إننا لا نوافق على هذا الاستنتاج بأي حال من الأحوال؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى اكتشافات بريسكو فهي لا تمنعنا من اتّخاذ موقف اللّامبالاة هذا. ضمن هذا الإطار تقدم ويدل جنوباً على خط عرض يقع إلى الشرق من جورجيا، ساندويش لاند، وجزر أوركني الجنوبية وجزر شيتلاند». أمّا فيما يتعلق بتجربتي الشخصية، فسوف نرى أنّها تثبت مُباشرة زيف الاستنتاج الذي توصلت إليه الجمعية.

هذه هي المُحاولات الرئيسية التي جرت لاختراق المسافات وصولاً إلى خطوط عرضٍ جنوبية في مناطق نائية، وسوف نرى أنّ هُناك، قبل رحلة سفينة جين، مسافة تُقارب ثلاثمائة درجة من خطوط الطول الباقية لم يتمّ تجاوزها على الإطلاق وصولاً إلى قارة القطب الجنوبي. بطبيعة الحال هُناك حقل جليدي ينبسط أمامنا يحتاج إلى استكشاف، وتلقّيت في فضولٍ غامر ما قاله القبطان غاي وهو يُعبّر عن قراره الشجاع للاندفاع جنوباً.

الفصل (17)

تابعنا مسارنا باتّجاه الجنوب طوال أربعة أيام بعد أن تخلّينا عن فكرة البحث عن جزر غلاس، دون أن تُصادفنا أي قطع من الجليد. في اليوم السادس والعشرين، عند الظهيرة، أصبحنا على خط عرض 63 درجة 23 جنوباً، وخط طول 41 درجة 25 غرباً. الآن فقط رأينا عدة جزر جليدية ضخمة، مع قطعٍ جليدية طافية، ولكنّها ليست هائلة الحجم. كانت الرياح تهب في أغلب الأحيانَ من الجنوب الشرقي، أو من الشمال الشرقي، مع أنّها خفيفة جدّاً. كلّما هبّت علينا رياح غربية، على ندرة ذلك، تُرافقها على نحو لا يكاد يتغير زخاتٌ من المطر. في كل يوم تقريباً كان الثلج يتساقط. واستقرّ مقياس درجات الحرارة، في اليوم السابع والعشرين، عند درجة خمس وثلاثين.

1 كانون الثاني، 1828. في هذا اليوم وجدنا أنفسنا مُحاصرين من جميع الجوانب بالجليد، ولم تكن فرص النجاة أمامنا تدعو إلى الطمأنينة حقّاً. ثم هبّت عاصفة قوية استمرت طوال فترة ما بعد الظهيرة، كانت تأتي من الشمال الشرقي [283]وتحمل معها كُتلاً كبيرة من الجليد المنجرف لترتطم بالدفة والحواجز بعنف جعلنا نرتجف خوفاً من عواقب ذلك. ومع حلول المساء، ظلّت العاصفة تُدوّي بغضب، وانتبهنا إلى انفصال حقلٍ واسع من الجليد أمامنا، عندئذ تمكّنا بعد أن ضغطت الرياح على أشرعتنا من شقّ طريقٍ عبر رقاقات أصغر حجماً فعبرنا إلى مجال مفتوح من المياه البعيدة. ولما اقتربنا من هذا الحقل المفتوح أنزلنا الأشرعة تدريجياً، حتى تخلّصنا أخيراً من مُحاصرة الجليد، وما لبثنا أن توقّفنا بعد أن طوينا أحد الأشرعة الأمامية.

2 كانون الثاني. الأجواء مُعتدلة الآن وتبعث على الاطمئنان. عند الظهيرة وجدنا أنفسنا على خط عرض 69 درجة 10 جنوباً، وخط طول 42 درجة 20 غرباً، وبذلك يُمكن القول: إنّنا دخلنا حدود القطب الجنوبي. كنا نرى قطعاً صغيرة فحسب من الجليد باتّجاه الجنوب، مع أنّ حقولاً واسعة من الجليد كانت خلفنا. في هذا اليوم هيأنا بعض المعدات لسبْر الأعماق واستخدمنا في ذلك قدراً حديدية كبيرة تسع عشرين غالوناً، وحبلاً طوله مائتا قامة. وجدنا التيارات تجري نحو الشمال، بسرعة تُقارب ميلاً في الساعة. كانت حرارة الجو ثلاثاً وثلاثين درجة تقريباً. هُنا لمسنا تغيراً في الاتجاه بمقدار 14 درجة 28 شرقاً، لكل خط سمت.

5 كانون الثاني. حافظنا على الاتّجاه جنوباً دون أن تعيق طريقنا عقبات كبيرة. إلا أنّنا في هذا الصباح، وكُنّا على خط عرض 73 درجة 15 شرقاً، وخط طول 42 درجة 10 غرباً، عدنا من جديد للتوقّف بعد أن اعترضت طريقنا كتلة صلدة هائلة من الجليد. ومع ذلك رأينا أمامنا مجالاً واسعاً مفتوحاً من المياه باتّجاه الجنوب، ولم يُساورنا الشك في القدرة على الوصول إلى هُناك في النهاية. وقفنا في مكانٍ ما إلى الشرق من حافة الجليد الطافي، وأخيراً عثرنا على ممرٍّ عرضه ميل تقريباً، ومضينا لاختراق ذلك الممر مع غروب الشمس. كان البحر الذي يكتنفنا مُغطى الآن بكثافة بجزرٍ من الجليد، ولكن لا توجد حقول جليدية شاسعة، وكُنا نندفع بروحٍ باسلة كما فعلنا في السابق. لم يبدُ لنا أنّ البرد يزداد ضراوة، مع أنّ الثلج كان يتساقط بغزارة في كثير من الأحيان، ومن الحين إلى الحين كانت زخّات البَرَد تُداهمنا بعنف شديد. حلّقت أسرابٌ هائلة من طيور القطرس فوق السفينة الشراعية في هذا اليوم، وكانت تتّجه من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي.

7 كانون الثاني. بقي البحر مُنفتحاً أمامنا دون أي عوائق، بحيث لم تواجهنا صعوبة في الإبقاء على مسارنا. في جهة الغرب لمحنا بعض جبال الجليد الهائلة تطفو على السطح، وفي فترة ما بعد الظهيرة مررنا بالقرب من أحد تلك الجبال، ولم يكن ارتفاع قمته أقلّ من أربعمائة قامة عن سطح المُحيط. ربّما كان مُحيط ذلك الجبل الجليدي، عند قاعدته، ثلاثة أرباع فرسخ، وكانت تياراتٌ من

المياه تتدفّق من شقوقه وتصدعاته التي على الجوانب. بقينا على مرمى البصر من هذه الجزيرة يومين، وبعد ذلك لم نعد نراه بسبب الضباب.

10 كانون الثاني. في وقتٍ مبكر من هذا الصباح كان من سوء حظنا أن [284]فقدنا رجلاً سقط من على متن السفينة. كان الرجل أمريكياً يُدعى بيتر ريندنبرغ، من سكان نيويورك، ولا بُدّ من الاعتراف بأنّه كان من أكثر العاملين المُثابرين على سطح السفينة. بينما كان يمشي في مُقدمة السفينة زلّت قدمه فسقط بين كتلتين من الجليد، ولم يصعد إلى السطح أبداً. في ظهيرة هذا اليوم كنّا نُبحر على خط عرض 78 درجة 30، وخط طول 40 درجة 15 غرباً. أصبح البرد الآن قاسياً، وكانت تهطل على رؤوسنا باستمرار نتفٌ من البرد تأتي من اتّجاهات شمالية وشرقية. بهذا الاتّجاه أيضاً رأينا عدة جبال جليدية هائلة الأحجام، وكان الأُفق كله إلى الشرق يبدو مُحاطاً بحقولٍ من الجليد، ترتفع في صفوفٍ مُتتالية، الواحدة منها تتكدّس فوق الأُخرى. وكانت بعض قطع الخشب تطفو قريباً منا في ذلك المساء، مع أعداد كبيرة من الطيور تُحلّق فوقنا، منها طائر النوء، والطائر المخنث والقطرس، وطير كبير له ريش أزرق مُتألق. إن تنوّع مظاهر الطبيعة هُنا مع كل خطٍّ للسمت أقلّ مما كان عليه قبل مرورنا بدائرة القطب الجنوبي.

12 كانون الثاني. مرة أُخرى بدت رحلتنا إلى الجنوب مشكوكاً بأمرها، فلم يكن ثمّة شيء نراه باتّجاه القطب سوى كتلة جليدية لا حدود لها في ما يبدو، تدعمها جبالٌ مُترامية الأطراف من الجليد المُسنن، ويرتفع جرفٌ منها فوق الآخر في تجهّم وعبوس. توقّفنا في مكان ما يقع شرقاً حتى اليوم الرابع عشر على أمل العثور على مدخل.

14 كانون الثاني. في هذا الصباح وصلنا إلى الطرف الغربي من حقل الجليد الذي وقف عائقاً أمامنا، ولما احتككنا به وجدنا سبيلاً للوصول إلى بحرٍ مفتوح دون عوائق من الجليد. لدى سبرنا لعمق البحر وجدناه يصل إلى مائتي قامة، وهُنا رافقنا تيار يتّجه جنوباً بمعدل نصف ميلٍ في الساعة. كانت درجة حرارة الجو سبعاً وأربعين، وحرارة الماء أربعاً وثلاثين. والآن أبحرنا جنوباً دون أن نُلاقي أي عقبة ذات تأثير كبير حتى اليوم السادس عشر، وفي ظهيرة ذلك اليوم

أصبحنا على خط عرض 81 درجة 21، وخط طول 42 درجة غرباً. هُنا توقّفنا مرة أُخرى، ووجدنا تياراً لا يزال يتدفّق باتّجاه الجنوب، بمُعدل سرعة يبلغ ثلاثة أرباع الميل في الساعة. اختفى التباين بين خطوط السمت، ودرجة الحرارة كانت مُعتدلة وتبعث على الانتعاش، وبدأ الثرمومتر يُشير إلى درجة عالية تصل إلى إحدى وخمسين. في هذه المرحلة لم نكتشف أي قطعة ولو كانت صغيرة من الجليد. كان جميع من على متن السفينة الآن يشعرون بأنهم وصلوا حتماً إلى القطب.

١٧ كانون الثاني. هذا اليوم كان زاخراً بالأحداث. رأينا أعداداً لا تُحصى من الطيور تُحلّق فوق رؤوسنا قادمة من الجنوب، واصطدنا عدداً منها من مكاننا على الدّكة؛ واحدٌ منها نوع من البجع اتّضح أنّ طعمه شهي حين أكلناه. في مُنتصف النهار تقريباً شاهدنا من رأس الصاري قطعاً صغيرة من الجليد تطفو وتقترب من جانب الميسرة، وعلى تلك القطع الطافية ظهر لنا حيوانٌ ضخم. ولأنّ الجو [285]كان لطيفاً ويكاد يخلو من التقلّبات، أمر القبطان غاي بإنزال زورقين للتحقق من ذلك الحيوان. رافقتُ مُساعد الربّان، مع ديرك بيترز، على متن الزورق الأكبر حجماً. ومع اقترابنا من قطعة الجليد الطافية، اتّضح لنا أنّ الحيوان الذي تربّع عليها كان من المخلوقات العملاقة، فهو نوعٌ من أنواع دببة القطب الشمالي، غير أنّ حجمه يفوق حجم أضخم هذه الحيوانات. ولأنّه بطبيعة الحال مُزوّد بأسلحة فتاكة، فلم نظهر أي علامة على الرغبة في مُهاجمته على الفور. جرى إطلاق عدة رصاصات في تتابع سريع، أغلبها إصابته فيما يظهر، في الرأس وأنحاءٍ أُخرى من الجسد. ولكن لا شيء كان يثبط عزيمة ذلك الوحش الذي وثب إلى خارج الجليد، ثم سبح وهو يفتح فكيه، واتّجه مُباشرة نحو الزورق الذي كنت فيه مع بيترز. وبسبب الإرباك الذي أعقب هذا التحوّل غير المُتوقع في سياق المُغامرة، لم يكن أي شخصَ على استعداد لأن يُطلق النار مرة أُخرى، ونجح الدب فعلاً في إلقاء نصف جسده الثقيل على حافة مركبنا، وأمسك أحد الرجال من مُستدق ظهره، قبل أن تُبذل أيّ مُحاولة فعالة لتخليصه. إلى هذا الحدّ من الاشتباك لم يُنقذنا من الهلاك سوى سرعة بديهة بيترز وخفة حركته. فقد وثب على ظهر ذلك الحيوان الهائل، واستلّ سكيناً حادة وطعنه خلف رقبته، فوصلت الضربة إلى النخاع الشوكي. وتشقْلب الوحش وسقط في البحر هامداً، دون مُقاومة، وتدحرج فوق

بيترز وهو يسقط. وسرعان ما خلّص بيترز نفسه، إذ القينا إليه حبلاً فربط جثة الحيوان قبل أن يصعد إلى الزورق. ثم عُدنا مُنتصرين إلى السفينة ونحن نجرجر غنيمتنا خلفنا. اكتشفنا لاحقاً أنّ هذا الدب، بعد أن تفحصناه جيداً، طوله خمسة عشر قدماً بالتمام والكمال. وكان فروه ناصع البياض، خشناً، غليظاً، مُتماسكاً في التفافاته. أمّا عيناه، فكانتا بلون الدم، وتفوقان في حجمهما عيون دببة القطب الشمالي، والخطم أكثر استدارة يُشبه بعض الشيء خطم كلب البلدوغ. وكان لحم الدب طريّاً، وشهي المذاق كأنّه لحم السمك، والتهمه الرجال في شراهة وعلقوا قائلين: إنّهم تناولوا وجبة لا مثيل لها.

لم نكد نتمتع بغنيمتنا معاً، حتى سمعنا الرجل الذي يُراقب من أعلى الصاري يصرخ في ابتهاج: «ارضٌ على الميمنة!» فتحفز الجميع الآن ووقفوا على أهبة الاستعداد، وهبّ علينا نسيمٌ عليل حينئذ من الشمال والشرق في آن واحد، وسرعان ما اقتربنا من الساحل. واتّضح لنا أنّها مُجرّد جزيرة صخرية صغيرة، مُحيطها يُقارب فرسخاً واحداً، وهي خالية من أي نوع من الخضرة عموماً، إذا استثنينا نوعاً من الكمثرى أو التين الشوكي. لدى الاقتراب أكثر من الجزيرة من ناحية الشمال، رأينا حافة صخرية غريبة الشكل تبرز حتى تتوغل في البحر، وتُشبه كثيراً بالات القطن الملفوفة. حول هذا النتوء الصخري، إلى الغرب، هُناك خليج صغير، فبادرنا بزوارقنا إلى الإرساء على قاعه دون أي صعوبة.

[286]لم يتطلّب الأمر منّا وقتاً طويلاً لاستكشاف كل بقعةٍ من الجزيرة، ربّما باستثناء مكان وجدناه لا يستحق التأمل. على الطرف الجنوبي، بالقرب من الساحل، التقطنا كومة من الحجارة المُفتتة كانت شبه مدفونة، وقطعة خشب فيما يظهر كانت جزءاً من قارب صغير. من الواضح أنّ أحدهم حاول الحفر على تلك الخشبة، وتصوّر القبطان غاي أنّ عليها خطوطاً على هيئة سلحفاة، غير أنّ الشبه لم يذهلني كثيراً. إلى جانب تلك الخشبة، إن كانت كذلك، لم نكتشف علامات أُخرى تدل على وجود كائن حي من المُحتمل أن يعيش هُنا. حول الساحل رأينا قطعاً من الجليد تطفو هُنا وهُناك.. إلا أنّها قليلة جدّاً. هذه الجزيرة الصغيرة (التي أعطاها القبطان غاي اسم جزيرة بينيت الصغيرة، تكريماً لشريكه في السفينة

الشراعية) تقع على وجه التحديد على خط عرض 82 درجة 50، وخط طول 42 درجة 20 غرباً.

والآن تقدمنا جنوباً وتوغلنا أكثر من ثمان درجات أبعد ممّا قام به أي ملّاحٍ سابق، وكان البحر مُنفتحاً أمامنا. ووجدنا التباين يتناقص أيضاً في انتظام كلّما تقدّمنا، ولكن ما أثار استغربنا حقّاً أنّ حرارة الجو، وفيما بعد حرارة المياه، أصبحت أشد اعتدالاً. وربّما يُمكن القول أيضاً عن المناخ: إنّه مُعتدل، وكان يهبّ علينا دائماً نسيمٌ لطيفٌ من جهة الشمال كما عرفنا من مؤشر البوصلة. والسماء كانت صافية عادة، ومن وقت إلى وقت تلوح لنا طبقة خفيفة من البخار على الأفق الجنوبي.. إلّا أنّ هذا المظهر لم يدم طويلاً. لم يُصادفنا الآن غير نوعين من الصعوبات؛ الوقود بدأ يتناقص شيئاً فشيئاً، وظهرت أعراض الإسقربوط على عدد من أفراد طاقمنا. هذه الاعتبارات بدأت تلح بثقلها على القبطان غاي وتجعله يُفكر في العودة، وتحدّث عن هذا الأمر بصراحة. بالنسبة لي، كنت واثقاً أنّنا سوف نصل إلى أرضٍ مهما كان وصفها إذا تابعنا المسار الذي كُنّا نسلكه، ولديّ جميع الأسباب التي تدفعني للاعتقاد، من خلال المظاهر الحالية، أنّنا لن نجدها أرضاً مُجدبة كتلك التي رأيناها على خطوط الطول البعيدة من القطب الشمالي، وكنت ألحّ كثيراً على القبطان لأن نمضي، على الأقل بضعة أيام أُخرى، في الاتّجاه الذي نسلكه الآن. هذه الفرصة النادرة التي من شأنها حل معضلة خطيرة تتعلّق بوجود قارة في القطب الجنوبي لم يسبق أن أُتيحت أبداً لرجل من قبل، وأعترف هُنا بأنّي كنت أحس في نفسي بشيءٍ من الامتعاض بإزاء تلك المُقترحات الجبانة التي تأتي في غير أوانها من قائد رحلتنا. وأعتقد في الواقع أنّ التصريحات التي لم أستطع كتمانها في هذا الاتّجاه كان لها تأثيرٌ عظيم في إقناعه بالمضي في المسار نفسه. في الوقت نفسه، [287]ليس في وسعي إلّا أنّ أُلقي اللوم على نفسي لما أدّت إليه نصيحتي لاحقاً من حوادث دموية مؤسفة، ولكن لا مجال أمامي إلا الشعور بشيء من الفخر لأنّ آرائي كانت مُفيدة كما اتّضح لاحقاً، ولكن إذا ذهبنا إلى أبعد من هذا، لدى انفتاح بصيرة المرء على آفاق العلم وفوائده سوف ننظر إلى هذا على أنّه أحد الأسرار الأكثر إثارة التي شغلت ألباب العلماء وحفّزت خيالاتهم.

الفصل (18)

18 كانون الثاني. في صباح هذا اليوم(*4) تابعت سفينتنا طريقها جنوباً، وكان الجو لطيفاً كالمُعتاد. والبحر أيضاً كأنّه صفحة ملساء لا تُعكّر صفوه الأمواج، والجو دافئ في اعتدال، مع ريح تهب رخوة من الشمال الشرقي، ودرجة حرارة لا تتجاوز ثلاثاً وخمسين. هُنا مرة أُخرى استخدمنا معدات سبر الأعماق فوجدنا العمق مائة وخمسين قامة، ولاحظنا تياراً يتّجه نحو القطب بمُعدل سرعة يصل إلى ميلٍ في الساعة. هذا الاتّجاه المُستمر جنوباً، سواءً للرياح أو التيارات المائية، أثار فينا شيئاً من التوجّس، وجعلنا نتحفّز، فتوزعنا في أماكن مُختلفة من السفينة، ورأيت أنّ ليس هُناك أي انطباع مُميّز على وجه القبطان غاي يدل على ما يدور في ذهنه. كان الرجل حساساً إلى درجة الإسراف في عدم تقبل روح الدعابة، ولكنّي نجحت أخيراً في جعله يضحك ويخرج من مزاجه الكئيب الذي تُهيمن عليه المخاوف. كان التباين في مظاهر الطبيعة الآن

(*4) ينبغي أن لا تُفهم مُصطلحات «صباح» و«مساء» التي استخدمتها لتجنّب الارتباك الذي ربّما حصل أثناء مُتابعة حكايتي، على قدر الإمكان، بمعناها الاعتيادي طبعاً. منذ زمنٍ طويل لم يعد للّيل وجود على الإطلاق، كان النهار سرمدياً. أما التواريخ التي وردت في أنحاء مُتفرقة من الحكاية، فهي تتوافق مع التوقيتات البحرية، والاتّجاهات لا بدّ أن تفهم انسجاماً مع ما تُشير إليه البوصلة. أودّ الإشارة أيضاً في هذا الصدد إلى أنّه ليس في وسعي، فيما يتعلّق بالقسم الأول من السرد المكتوب هُنا، أن أدّعي الدقة التامة فيما يتعلّق بالتواريخ، أو بخطوط العرض والطول، فلم أحتفظ بمجلّة مُنتظمة الصدور إلا بعد انتهاء الفترة التي يتناولها هذا القسم. في كثيرٍ من الحالات كنت أعتمد تماماً على ما تُسعفني به الذاكرة. (المؤلف)

يسيراً لا يلفت الأنظار. خلال النهار رأينا عدداً من الحيتان الضخمة، وكانت أسراب لا تُحصى من القطرس تُحلّق فوق السفينة. ولاحظنا وجود بعض الشجيرات، مُحمّلة بالتوت الأحمر، على غرار تلك الشجيرات التي تنبت الزعرور البري بوفرة، ورأينا أيضاً جثة حيوان بري غريب المنظر. كان طوله ثلاثة أقدام، مع أنّ ارتفاعه لا يتجاوز ست بوصات، وله أربعة سيقان قصيرة جدّاً، وكل قدم مُدعّمة بمخالب طويلة ذات لون قرمزي لامع، مادّتها تُشبه المرجان. جسد ذلك الحيوان مُغطى بشعر حريري غير مُجعّد، لونه أبيض ناصع. أما ذيله فمُدبّب كأنّه ذيل الجرذ، طوله قدم ونصف تقريباً؛ ورأسه يُشبه رأس القطة، باستثناء [288]الأذنين.. فهما مقلوبتان إلى الوراء مثل أذني الكلب؛ والأسنان باللّون القرمزي نفسه اللامع للمخالب.

19 كانون الثاني.. اليوم، بما أنّنا كنا على خط عرض 83 درجة 20، وخط طول 43 درجة 5 غرباً (والبحر أزرق على نحو استثنائي)، رأينا مرة أُخرى من أعلى الصاري، وبعد التفحص عن قرب، ما تبيّن أنّه واحدة من مجموعة جزر كبيرة. كان ساحل الجزيرة شديد الانحدار، والأجزاء الداخلية منها تُغطيها أشجارٌ كثيفة، وذلك ما أثار فينا بهجة غامرة. بعد حوالى أربع ساعات من اكتشافنا للأرض لأول مرة وصلنا إليها، وألقينا المرساة على عمق عشر قامات، على قاعٍ رملي، يبعد فرسخاً عن ساحلٍ تتكسّر عليه أمواجٌ عنيفة مع تيارات مُترقرقة تتدافع هُنا وهُناك، وبذلك أصبح من السهل علينا الاقتراب أكثر فأكثر من تحقيق هدفنا في استكشافٍ كنّا نشكّ فيه. صدرت الأوامر الآن لأكبر زورقين لدينا بالخروج، وتقدّمت جماعة مُسلّحة جيداً (منهم بيترز وأنا)، للبحث عن مدخلٍ في الجرف الصخري الذي ظهر أنّه يُحيط بالجزيرة من كل جانب. بعد البحث بعض الوقت، اكتشفنا مدخلاً، حتى إذا تقدمنا من هُناك رأينا أربعة زوارق كبيرة ذات مجاذيف بعيداً عن الساحل، وكانت مملوءة بالرجال الذين بدا لنا أنّهم مُسلحون. انتظرنا حتى يقتربوا، وبينما كانوا يتحرّكون بسرعة، سقط عليهم وابلٌ من البرد. هُنا أمسك القبطان غاي بمنديل أبيض وشدّه على ساق المجذاف، فتوقّف الغرباء، وبدؤوا يُغمغمون بأصوات عالية تُخالطها صيحات من

الحين إلى الحين، استطعنا أن نُميز منها كلمات مثل «أنامو.. مو!» و «لاما.. لاما!» واستمروا على ذلك المنوال نصف ساعة على أقلّ تقدير، وخلال ذلك أُتيحت لنا فرصة لمُراقبة مظهرهم جيداً.

على أربعة زوارق، ربّما كان طول الواحد منها خمسة وخمسين قدماً، كان هُناك مائة وعشرة من المُتوحشين بالتمام والكمال. يُشبهون الأوروبيين في سيمائهم الاعتيادية بعض الشيء، إلّا أنّهم ذوي عضلات مفتولة وأقوياء البنية. أما بشرتهم فسوداء كالفحم، مع شعر كثٌ طويل مثل الصوف. كانوا يلبسون جلوداً سوداء لحيوانات غير معروفة، بعضها خشن والآخر ناعم، صُنعت لتُناسب الأجساد بدرجة بالغة من المهارة، فالشعر لا يظهر للعيان إلا حين يلتف حول العنق، والمعصمين، والكاحلين. كانوا يحملون بأذرعهم هراوات يبدو أنها من خشب صلد جداً. غير أنّنا رأينا البعض منهم لديهم رماح في رؤوسها حجارة مُدببة من الصوّان، والبعض الآخر يحملون مقلاعاً. وكانت قيعان تلك الزوارق مليئة بحجارة سوداء حجم الواحدة منها مُقارب لحجم بيضة كبيرة.

لما انتهوا من هتافاتهم التي يتخلّلها هرج ومرج (واضحٌ أنّهم أرادوا من غمغمتهم التعبير عن شيء)، وقف أحدهم، وكان يبدو عليه أنّه زعيم الجماعة على زورقه، وأخذ يُعطي إشارات لنا لأن نأتي بزوارقنا إلى مكان قريب منه. تظاهرنا أنّنا لا نفهم هذه العلامة، إذ تصورنا أنّ من الصواب البقاء في أماكننا ما استطعنا [289]، والاحتفاظ بمسافة تفصلنا عنهم، لأنّ عددهم يفوق عددنا بأربعة أضعاف. ولما رأى زعيمهم أنّنا لا نتحرك، أشار إلى ثلاثة زوارق بالتراجع، بينما تقدم بنفسه باتجاهنا. وما إن اقترب منّا حتى وثب إلى أكبر زوارقنا، وجلس إلى جوار القبطان غاي، وكان يُشير في الوقت نفسه إلى سفينتنا الشراعية، ويُكرر كلمة «أنامو.. مو!» و «لاما.. لاما!» وهنا رجعنا إلى السفينة، وتبعتنا أربعة زوارق من مسافة قريبة.

حين صعد معنا، أبدى الزعيم دهشة وفرح شديدين، وكان يُصفق بيديه، ويضرب على فخذيه وصدره، ويضحك بجموح. وانضمّ إليه رفاقه الذين في الخلف في نزواته، واستمرّ الضجيج عالياً بضع دقائق حتى انقطع نهائياً. فلما عاد

الصمت أخيراً، أمر القبطان غاي برفع الزورقين كإجراء احتياطي، وأعطى إشارة إلى الزعيم (الذي عرفنا بعد قليل أنّ اسمه توو- وت) لكي يفهم أنّنا لن نسمح لأكثر من عشرين فرداً من رجاله بالركوب في كل مرة. بهذا الترتيب، بدا مُقتنعاً جدّاً، وأعطى التوجيهات إلى زوارقه، حين اقترب واحدٌ منها، وبقي الآخرون على بعد خمسين ياردة تقريباً. وهُنا صعد عشرون شخصاً من المُتوحشين إلى سفينتنا، ومضوا على الفور يتجوّلون على كل جانب من الدّكة، ويتجمّعون على الحافات، ويتصرّفون كأنهم ليسوا بالغرباء، ويستكشفون كل ما يجدونه هُناك في اندهاشٍ وفضول.

كان واضحاً أنّهم لم يروا قبل ذلك رجلاً من جنس أبيض.. فانكمشوا على أنفسهم بإزاء سحنة رجالٍ من البيض. وتخيلوا أنّ سفينة جين كائنٌ حي، وأظهروا خوفاً من اصطيادها برماحهم، فكانوا يديرونها إلى الأعلى في حذر. أحسّ طاقم سفينتنا بكثير من الحبور وهم يُراقبون تصرّفات توو- وت في حالته تلك. كان الطاهي يقطع بعض الأخشاب بالقرب من مطبخ السفينة، ورافق أن ارتطمت الفأس بالسطح الخشبي، فأدّت الضربة إلى حُفرة عميقة. عندها هرع الزعيم، ودفع الطاهي جانباً في شيءٍ من الخشونة، وأطلق صيحة نصفها نحيب، ونصفها ولولة تدلّ على التأثر بما اعتبره مُعاناة السفينة، وصار يربّت على الشقّ ويتلمّسه بيده في رفق، ثم غسله بماء البحر الذي أخذه من سطل كان هُناك. كانت هذه بالنسبة إلينا درجة فائقة من الجهل لم نكن مُستعدين لتقبّلها، ومن جانبي تصوّرت أنّها تركت نوعاً من التأثير في نفوسنا.

حين أشبع الزائرون فضولهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً في الجانب الأعلى من سفينتنا، سُمح لهم بالنزول إلى الأسفل، وحينئذ تجاوز ذهولهم كل الحدود. بدت [290]دهشتهم الآن أعمق بكثير مما يُمكن للكلمات أن تُعبّر عنه، لأنّهم بدؤوا يجوبون المكان في صمتٍ مُطبق، ولا تقطع ذلك إلّا غمغمة مُنخفضة. ومنحتهم الأسلحة مادة لا يُستهان بها للتأمّل، فاضطروا لأن يحملوها ويتفحّصوها طويلاً في انبهار. لم أعتقد أنّ أدنى الشكوك كانت تُساورهم في حقيقتها أو في فائدتها كسلاحٍ فتّاك، مع أنّهم اعتبروها كالدّمى أو الأوثان التي

تُعبد، وهم يرون مدى عنايتنا بها، والاهتمام الذي نُبديه في مُراقبة حركاتهم وسكناتهم ونحن نُمسك بها. أما البنادق الكبيرة، فكان استغرابهم منها مُضاعفاً. إذ اقتربوا منها، وبدت على وجوههم آيات التبجيل والرهبة، ولكنهم أحجموا عن تفحصها في دقة. وكان ثمّة مرآتان كبيرتان في القمرة، وهُنا وصلت دهشتهم إلى ذروتها. كان توو- وت أول من اقترب منهما، حيث دخل إلى وسط القمرة وجعل وجهه أمام إحدى المرآتين وظهره إلى الأُخرى، كل ذلك قبل أن يُدرك وجودهما. وعندما رفع عينية ورأى صورته المُنعكسة على الزجاج، ظننت أن ذلك الإنسان البدائي سوف يفقد صوابه؛ ولكن، بعد أن استدار قليلاً ليتراجع، وبعد أن ألقى على صورته نظرة ثانية في الاتجاه المُعاكس، خشيت أنّه سوف يلقى حتفه في مكانه. لم يكن هُناك سبيل لإقناعه بأن ينظر مرة أُخرى؛ رمى نفسه على الأرضية، ووجهه مُغطّى بين يديه، وبقي على تلك الحال حتى جرجرناه إلى فوق.

وهكذا سمحنا لأولئك المُتوحشين جميعاً بالصعود إلى السفينة، كنّا نأخذ عشرين منهم في كل مرة، واضطر توو- وت للبقاء في مكانه طوال تلك المدة. لم نرَ منهم أي نزوعٍ للسرقة، ولم نفقد أي مادة بعد رحيلهم. طوال زيارتهم كانوا يظهرون أكثر السلوكيات ودّية. ومع ذلك وجدنا في أساليبهم بعض النقاط التي يستحيل فهمها؛ على سبيل المثال، لم نتمكّن من إقناعهم بالاقتراب من عدة أشياء لا تُلحق الأذى.. مثل أشرعة السفينة، والبيض، وكتاب مفتوح، أو قدر تحتوي على الطحين. حاولنا التأكد ممّا إذا كانوا يمتلكون أي نوعٍ من هذه المواد التي ربما يكونوا قد حصلوا عليها عن طريق المُبادلة، ولكنّنا وجدنا صعوبة في نقل فكرتنا إليهم. ومع ذلك توصلنا إلى فهم شيء أدهشنا كثيراً، أنّ الجزر تكثر فيها سلاحف ضخمة من نوع غاليباغو، ورأينا واحدة منها فعلاً على زورق توت- وت. وكذلك رأينا بعض رخويات «تبن البحر» *biche de mer* في يدي أحد المُتوحشين، وكان يلتهمها في شراهةٍ وهي في حالتها الطبيعية. هذه التصرّفات الشاذة.. لأنّها حتماً كذلك حين يُنظر إليها بالقياس إلى تلك البقعة من خط العرض.. دفعت القبطان غاي [291]للرغبة في استكشاف شاملٍ للبلاد، على أمل التوصل إلى نتائج مُفيدة من رحلتنا المحفوفة بالمخاطر. أما من ناحيتي، فكنت

مُتلهّفاً دائماً لمعرفة أشياء كثيرة عن هذه الجزر، وكنت أميل وأحرص على إتمام الرحلة إلى الجنوب دون أي تأخير. كانت الأجواء الآن رائعة، ولكن لا سبيل أمامنا لتوقّع المدة التي سوف تستمر عليها هذه الحال؛ وبما أنّنا كُنا حالياً على خط عرض أربعة وثمانين، والبحر مُنفتح أمامنا، وهُناك تيار قوي يندفع نحو الجنوب، والرياح مُعتدلة، فلم أستطع الصبر على اقتراح أن لا نتوقف أطول ممّا هو ضروري حتماً ريثما تتحسّن صحة أفراد الطاقم ونتزوّد بمقدار كافٍ من الوقود والمواد الغذائية الطازجة وننقلها إلى السفينة. وعبّرت للقبطان عن رأيي في أنّه يُمكننا أن نعرّج على هذا الأرخبيل في طريق العودة، وقضاء الشتاء هُنا في حالة احتجزنا الجليد. وفي نهاية المطاف وافقني على وجهة نظري (لأنّي بطريقة أو بأخرى، لا أعرف لماذا، تمكّنت من التأثير عليه)، وتقرر أخيراً، حتى إذا عثرنا على «تبن البحر»، فيجب ألّا نبقى هُنا أكثر من أُسبوع لإعادة الاستعداد، ومن ثمّ علينا المضي جنوباً ما دمنا نستطيع ذلك. وهكذا أنهينا جميع الإجراءات، وتحت إرشاد توو- وت، أدخلنا سفينة جين إلى موضعٍ من الجرف الصخري بأمان، ووصلنا إلى مكان نُلقي فيه المرساة على بعد ميلٍ من الساحل، على خليج رائع المنظر تُحيط به الأرض من كل جانب في الساحل الجنوبي الشرقي من الجزيرة الكبرى، وكان عمق المياه عشر قامات من القاع الرملي الأسود. في الجهة الأمامية من هذا الخليج هُناك ثلاثة ينابيع خلّابة (كما قيل لنا) تتدفّق منها مياه عذبة، ورأينا غابات كثيفة على مقربة منّا. وتبعتنا الزوارق الأربعة إلى داخل الخليج، مع أنّها حافظت على مسافة لا بأس بها في الابتعاد عنا. وبقي توو- وت على متن السفينة، ثم دعانا إلى مُرافقته إلى الساحل وزيارة قريته في أعماق الجزيرة. ورحب القبطان غاي بهذه الدعوة؛ وتركنا عشرة رجال من المُتوحشين على السفينة كرهائن، وكانت جماعة منّا عددهم اثنا عشرة رجلاً على أهبة الاستعداد لمُرافقة موكب الزعيم. أخذنا حذرنا فتسلّحنا جيداً، من غير أن نُثير سوء الظن. وأخرجت مدافع السفينة من مكامنها، ورفعنا شباكها إلى السطح، واتّخذت الاحتياطات كافة للاحتراس من أي مُفاجأة. وأُعطيت التعليمات إلى مُساعد الربّان بأن لا يسمح لأي شخص بالصعود إلى السفينة خلال غيابنا، وفي

حالة عدم ظهورنا خلال اثنتي عشرة ساعة، فعليه أن يُرسل زورقاً سريعاً للقيام بدوريات حول الجزيرة للبحث عنّا.

مع كل خطوة توغّلنا بها داخل الجزيرة، كنّا نزداد قناعة بأنّنا نجوب بلاداً تختلف عن أي بلاد سبق أن زارها رجالٌ مُتحضّرون إلى الآن. لم نُشاهد أي شيء معروف لدينا من قبل أو كنّا مُطّلعين عليه. الأشجار لا تُشبه أي نباتات تنمو في [292]المناطق الحارة، أو المُعتدلة، أو الشمالية المُتجمدة، فكل شيء مُغاير لنباتات خطوط العرض الجنوبية التي مررنا بها. والصخور بعينها غريبة في تكتلاتها، وفي ألوانها، وطبقاتها؛ والجداول أيضاً، في انبثاقها المُفاجئ العجيب، لا تمتّ بصلة إلى الأجواء السائدة في مناطق أُخرى، حتى انتابتنا الوساوس فلم نذق مياهها، في الواقع كان يصعب علينا الاعتقاد أنّ نوعية المياه هي من جنس الطبيعة التي نألفها. قرب جدولٍ صغير اعترض طريقنا (أوّل جدول وصلنا إليه) توقف توو- وت ورفاقه ليشرب. وبسبب غرابة المياه، رفضنا تذوّقها، وافترضنا أنّها ملوثة؛ ولم نُدرك إلا بعد بعض الوقت أنّ ذلك المظهر هو السائد في الجداول المُنبثة في أنحاء المكان. أكاد أعجز عن إعطاء فكرة واضحة عن ماهية هذا السائل، دون الاستعانة بثروة من الكلمات. مع أنّ مياه الجدول تتدفّق بسرعة نحو كلِّ مُنحدر من المُعتاد أن تسلكه، إلّا أنّي لم ألحظ ذلك أبداً، إلّا إذا كانت مياه أحد الشلالات، فيكون لها عندئذ خاصّية الشفافية الرائقة. كانت المياه، رغم كل شيء، شفافة جدّاً في حقيقة الأمر مثل أي مياه في الطبيعة تجري على حجارة كلسية، ولكن الفرق يكْمن في المظهر فحسب. من النظرة الأُولى، ولا سيّما في الحالات التي يوجد فيها منحدرٌ ضئيل، تُشبه المياه في كثافتها خليطاً من الصمغ العربي الذي يمتزج بماءٍ عادي. غير أنّ هذا أقل الأمور أهمية في الخصائص الغريبة لتلك المياه .لم تكن المياه عديمة اللون، ولا هي تحمل أي لونٍ من الألوان المُتعارف عليها.. إنّها تترك على العين، مع استمرار تدفقها، كل ظلّ مُمكن من ظلال الأرجوان كأنها تدرجات الحرير المُتقلّب الألوان. هذا التباين بين الظل والضوء كان يحصل بطريقة أثارت في أذهان فريقنا أعمق مشاعر الاستغراب مثلما سبق أن فعلت المرآة في نفس توو-

وت. بعد أن ملأنا سطلاً من تلك المياه، وتركناه يستقر أخيراً، أدركنا أنّ كتلة السائل كلّها مُركبة من عدد من العروق البارزة مثل عروق الرخام، كل واحد منها له لونٌ مُختلف؛ والسبب الذي يمنع هذه العروق من أن يختلط بعضها مع بعض لأن تماسك جزيئاتها قوي ضمن العرق الواحد، وليس قويّاً فيما يتّصل بالعروق المُجاورة. لو قام المرء بتمرير شفرة سكين بين تلك العروق، لانغلق الماء فوقها على الفور، مثلما حدث معنا، وكذلك حين تُسحب السكين، فكل أثر لمرور السكين سوف يُمحى في الحال. ولكن إذا مررت السكين إلى الأسفل في دقة بين عرقين من تلك العروق، عندئذ يحدث انفصال تام، لا سبيل للقدرة على التماسك أن تُعالجه مباشرة. هذه الظاهرة التي تمتاز بها المياه شكلت أول حلقة ضمن سلسلة طويلة من المُعجزات الجلية التي قدّر لها أن تكتنف رحلتنا في نهاية المطاف.

الفصل (19)

كانت تفصلنا مسيرة ثلاث ساعات تقريباً عن القرية، فهي تقع على بعد أكثر [293]من تسعة أميال في وسط البلاد، والطريق المؤدية لها تمرّ عبر تضاريس وعرة. وأثناء مسيرتنا على الطريق، كانت جماعة توو- وت (وعددهم مائة وعشرة من المُتوحشين الذين جاؤوا من الزوارق) تُعزّز حالاً بفصائل أصغر تتراوح أعدادها من اثنين إلى ستة أو سبعة أشخاص، انضموا إلينا في رحلتنا، وكأن ذلك يحدث مُصادفة، على مراحل مُختلفة. جرى ذلك في ما يبدو وفق منهج فيه كثير من الانتظام بحيث لم أتمكّن من كتمان شعوري بالريبة، فتكلّمت مع القبطان غاي بشأن مخاوفي. ولكن كان قد فات الأوان على التراجع، فقررنا أنّ أفضل فرصة للأمان لنا تكمن في الوثوق بالنوايا الحسنة للزعيم توو- وت. ولذلك مضينا في طريقنا، ونحن نُراقب بعيون حذرة مُناورات المُتوحشين، فلا نسمح لهم بتجزئتنا بأن حرصنا على الاندفاع بين صفوفهم. ثم مررنا عبر وادٍ شديد الانحدار، حتى وصلنا أخيراً إلى المكان الذي قيل لنا إنّه المُستوطنة الوحيدة للسكان على الجزيرة. حين رأونا، أطلق الزعيم صرخة، وأخذ يُردد مرة بعد أُخرى كلمة «كلوك.. كلوك»، والتي ظننا أنّها اسم القرية، أو لعلها اسم هذه القرى عموماً.

كانت المساكن من أكثر المناظر البائسة التي يُمكن أن يتخيّلها إنسان، على عكس مساكن حتى أدنى مراتب المُتوحشين الذين يعرفهم بنو البشر، فهي مُبعثرة هُنا وهُناك على غير نظام. بعض المساكن (التي عرفنا أنّها تعود إلى وامبو أو يامبو، وهم عظماء هذه الأرض) مُشيدة على شجرة مقطوعة طولها حوالى أربعة

أقدام من جذرها، مع جلد أسود عريض مُلقى فوقها، تتدلّى طياته السائبة على الأرض. تحت هذه المظلة يعيش الإنسان البدائي. وهُناك مساكن أُخرى تُستخدم فيها جذوع الأشجار الضخمة، وتُلقى فوقها أوراق النباتات الذابلة، بحيث تنحني في زاوية خمس وأربعين درجة على ساتر ترابي يتكوّم دون أن يتخذ شكلاً مُنتظماً، ربّما يصل ارتفاعها إلى خمسة أو ستة أقدام. ومساكن أُخرى هي مُجرّد جحور محفورة عمودياً في الأرض، مُغطّاة بأغصان مُماثلة، وهذه الطبقة من الأغصان تُرفع حين يكون الساكن على وشك الدخول، ثم تُعاد إلى وضعها السابق بعد دخوله. وبعض المساكن مُشيّدة على أغصان الأشجار المُتشابكة كلّما كانت مُنتصبة إلى الأعلى، فالأغصان الأكثر ارتفاعاً تُقطع جزئياً، ثم تنحني فوق غيرها من الأغصان الأكثر انخفاضاً، وبذلك يتشكّل ملجأ سميك الجوانب يقي صاحبه من تقلّبات المناخ. إلّا أنّ العدد الأكبر من تلك المساكن يتمثّل في كهوفٍ صغيرة غير عميقة، مُبعثرة [294]قبالة حافة شديدة الانحدار من صخور صماء كالحة، تكاد تُشبه تراب القصار[1]، تُحيط بها ثلاثة جوانب للقرية. على مدخل كلّ كهفٍ من هذه الكهوف البدائية هُناك صخرة صغيرة الحجم، يضعها الساكن في عنايةٍ أمام مدخل مسكنه قبل مُغادرته، ولم أعرف على وجه التأكيد الغرض من ذلك، لأنّ الصخرة لا تكفي لغلق أكثر من ثلث المدخل.

هذه القرية، إن كانت تستحق فعلاً هذه التسمية، تقع على وادٍ عميق بعض الشيء، ولا يُمكن الاقتراب منها إلا من ناحية الجنوب، فالحافة الصخرية المنحدرة التي تكلّمت عنها لا تسمح بالمرور من الاتّجاهات الأُخرى. في مُنتصف الوادي يجري جدولٌ هادر يحمل المياه نفسها السحرية التي وصفتها. رأينا هُناك عدة حيوانات ذات أشكال غريبة بالقرب من المساكن، كلها تبدو أليفة جداً. أكبر هذه المخلوقات يُشبه الكلب العادي في جسده وخطمه؛ إلّا أنّ الذيل سميك كثّ الشعر، والساقان نحيفتان مثل ساقي الظبي. وحركات ذلك الحيوان تبدو خرقاء في إسراف وغير مُتزنة، ولم نره أبداً يُحاول الركض. ولاحظنا أيضاً

(1) تراب القصار: مادة كانت تُستخدم قديماً لإزالة البقع الدهنية. [المترجم]

أنواعاً كثيرة من الحيوانات المُماثلة في مظهرها، أجسادها أضخم، تُغطيها طبقة كثيفة من الصوف الأسود. وهُناك أنواع أُخرى من الطيور الداجنة تجري هُنا وهُناك، وهذه الدواجن يبدو أنها كانت تُشكّل مصدر الغذاء الأساسي لسكان الجزيرة. بإزاء دهشتنا العظيمة لاح لنا قطرس أسود اللون وسط هذه الطيور يتصرف مثل الدواجن، ويذهب إلى البحر بين الحين والآخر لتناول الطعام، ولكنّه يعود دائماً إلى القرية كموطنٍ له، وكان يستخدم الساحل الجنوبي القريب كمكانٍ للتفريخ. وينضم إلى القطرس أصدقاؤه من البجع كالمُعتاد، إلّا أنّ هذه الأخيرة لا تتبع القطرس أبداً إلى أماكن سكنى المُتوحشين. من الأنواع الأُخرى من الطيور الداجنة يوجد البط، وهو يختلف قليلاً عن البط القنبي الظهر المعروف في بلادنا، وكذلك الأطيش[2]، وطير ضخم آخر لا يختلف عن الصقر في مظهره، ولكنّه غير آكل للّحوم. أما الأسماك، فيبدو أنّها مُتوفرة بكثرة في أعدادها وأنواعها. رأينا خلال زيارتنا كميات من السلمون المُجفف، وسمك القد الذي يعيش بين الصخور، ودلافين زرقاء اللون، والأسقمري، والتوتوغ الأسود، والورنك المُفلطح، وأنقليس القنجر، والسمك الفيلي، والبوري، وسمك موسى، والسمك الببغائي، والسلاحف جلدية الظهر، والغرنار، والنازلي، والسمك المُفلطح، والباراكودا، وأنواع أُخرى لا تُحصى. ولاحظنا أيضاً أن أغلب هذه الأسماك مُشابهة للسمك الذي ينتشر قرب جزر لورد أوكلاند، على خطوط عرض تصل إلى إحدى وخمسين درجة جنوباً. وكانت سلحفاة غاليباغو موجودة هُنا بأعداد كثيرة. ولم نرَ غير عدد قليل من الحيوانات المُتوحشة، وتلك التي رأيناها لم [295]يكن حجمها كبيراً، أو هي من الأنواع التي اعتدنا رؤيتها. وحدث أن مرّت بنا واحدة أو اثنتان من الأفاعي الكريهة المنظر على الطريق، إلّا أنّ سكان القرية لم يكترثوا كثيراً بها، فاستنتجنا أنّها غير سامة.

مع اقترابنا من القرية برفقة توو- وت وجماعته، خرج حشدٌ غفير من الناس وتدافعوا للقائنا، وهم يُطلقون صرخات عالية، لم نُميّز منها إلا العبارات التي

(2) الأطيش: طائر بحري آكل للسمك. [المترجم]

تتكرر، «آناموو- مووا!» و «لاما- لاما!» وكنّا نشعر بالاستغراب كثيراً حين وجدنا هؤلاء القادمين الجُدد عُراة كلياً، باستثناء واحدٍ منهم أو اثنين، فالجلود لا يلبسها فيما يظهر سوى رجال الزوارق. وجميع الأسلحة المُتوفرة في هذه البلاد تبدو أيضاً في حوزة تلك الجماعة، لأنّنا لم نلحظ شيئاً منها لدى القرويين. ورأينا عدداً كبيراً من النساء والأطفال، ولم تكن نساؤهم يفتقرن أبداً إلى ما يصطلح عليه بالجمال الأنثوي. إنّهن فارعات الطول، متينات البنية، مع إشراق في المنظر وتحرّر من الأعباء ربّما لا نجده في مُجتمع مُتحضّر. إلّا أنّ شفاههن، مثل شفاه الرجال، سميكة وبليدة، ومتى يضحكن فأسنانهن لا تنكشف أبداً. أما شعرهن، فناعم أكثر من شعر الذكور. بين هؤلاء القرويين العُراة لعلك تجد عشرة أو اثنا عشر شخصاً يرتدون الثياب، مثل جماعة توو- وت، وهم مُسلحون برماح وهراوات ثقيلة. هؤلاء يبدو أنّ لهم تأثيراً عظيماً على الباقين، والآخرون دائماً يُخاطبونهم بلقب «وامبو». وهؤلاء يسكنون أيضاً في الأماكن المُغطاة بالجلود السوداء. ويقع مسكن توو- وت في مركز القرية، وهو أكبر كثيراً وأفضل بعض الشيء في بنائه من المساكن الأُخرى التي من النوع نفسه. لقد قطعت الشجرة التي تدعم المسكن من على بعد اثني عشر قدماً أو ما يُقارب ذلك من جذرها، وهُناك عدة أغصان تُركت تحت موضع القطع، وهذه تُفيد في تثبيت امتدادات الغطاء، وتمنعه من التدلي على جذع الشجرة. ويتألف الغطاء من أربع قطع كبيرة من الجلد يربط بعضها مع بعض بأسياخ خشبية، والقاع مُثبّت بأوتاد تدق في الأرض. أما الأرضية فهي مفروشة بكمية من أوراق النباتات الجافة التي تُشكّل بساطاً.

تلقّينا دعوة بالدخول إلى هذا الكوخ في شيءٍ من الوقار، وتجمّع عددٌ كبير من سكان القرية ورافقونا إلى الداخل ما سمحت بذلك سعة المكان. جلس توو- وت نفسه على الأوراق اليابسة، وكان يُعطينا إشارات يُريد فيها منّا أن نفهم إن علينا أن نحذو حذوه. وهذا ما فعلناه، ووجدنا أنفسنا الآن في وضعٍ غير مريح، إن لم يكن مُحرجاً. كنا نجلس على الأرضية، وعددنا اثنا عشر، جنْباً إلى جنب مع المُتوحشين، وهم أربعون، جلسوا على أفخاذهم بالقرب منا، حتى إذا حصل

أي شغب لوجدنا من [296]المُستحيل علينا استخدام أذرعنا، أو النهوض على أقدامنا. لم يكن مصدر الضغط مُسلطاً علينا من داخل الخيمة فحسب، وإنّما من الخارج أيضاً، إذ ربّما تجمع كلُّ فرد من سكان الجزيرة كلّها، ولم يمنع الحشد أن يدوسوا علينا فيخنقوننا حتى الموت إلا جهود توو- وت المُتواصلة وهُتافاته المُهددة. كان مصدر الأمان الأساسي يتمثّل في وجود توو- وت نفسه معنا، فالتصقنا به كأفضل وسيلة لتخليص أنفسنا من الورطة، وكنّا على استعداد للتضحية به حالاً إذا ظهرت لنا أي علامة عدوانية.

بعد شيءٍ من العناء، عاد إلى المكان نوع من الهدوء الحذر، عندها تكلّم الزعيم معنا وأسهب في ذلك، وكانت خطبته تُماثل بعض الشيء تلك الخطبة التي أدلى بها على الزوارق، باستثناء أنّه كان يؤكد بشدة على عبارات «اناموو-مو!» أكثر من تأكيده على عبارات «لاما- لاما!» وأصغينا في صمتٍ مُطبق حتى انتهت الخطبة، وحينها ردّ القبطان غاي بأن أكّد للزعيم على عمق صداقته الأبدية وتمنياته له بالخير، واختتم ما توجّب عليه قوله آنذاك بأن قدّم هدية كانت عبارة عن عدّة مسبحات من الخرز الأزرق وسكين. حين تلقّى الملك تلك المسبحات، بإزاء دهشتنا، أدار أنفه في شيءٍ من الامتعاض، ولكن يبدو أنه اقتنع بلا حدود بالسكين، وأمر على الفور بتحضير الغداء. وأحضر الطعام إلى داخل الخيمة ومُرّر فوق رؤوس الحاضرين، وكان يتألف من أحشاءٍ تترجرج على طبقٍ يبدو أنّها لحيوان غير معروف، ربّما كان من الخنازير ذات السيقان النحيفة التي رأيناها لدى اقترابنا من القرية. لما رآنا الزعيم في حالتنا المُرتبكة، لا نعرف من أين نبدأ، بدأ يتصرّف أمامنا كمرشد، فالتهم ياردة بعد ياردة من ذلك الطعام المُغري، حتى لم نعد نتحمّل مُشاهدة المزيد من ذلك، وظهرت علينا علامات الاشمئزاز وأحس كلّ منّا بالغثيان وهو ينظر إلى صاحب الجلالة بدرجة من الاندهاش ربما لا يقل عن اندهاشه هو نفسه عندما نظر إلى المرآة في وقت سابق. ورفضنا مُشاركتهم في تذوّق الطعام الشهي الذي وُضع أمامنا، وحاولنا أن يفهم أنّنا لا شهية لنا لتناول أي شيءٍ، بعد أن تناولنا إفطاراً دسماً.

انتهى العاهل من الْتهام وجبته، فبادرنا إلى طرح سلسلة من الأسئلة بما

استطعنا من طرقٍ عبقرية مُبتكرة على أمل أن نعرف ما هي أهم مُنتجات بلادهم، وإن كان أي نوع منها يُصلح لجني الأرباح. وأخيراً ظهر لنا أنّ الزعيم استوعب فكرة ما عن مرادنا، وعرض علينا أن يُرافقنا إلى جانب من الساحل حيث أكّد لنا أنّ تبن البحر (وأشار إلى جنسٍ من ذلك الحيوان) يتوفّر هُناك بكثرة. وفرحنا لهذه الفرصة التي جاءت في أوانها للهرب من ضغط الغوغاء، وعبّرنا عن تلهّفنا للمضي. [297]وهُنا تركنا الخيمة، وسرنا بمُرافقة جمعٍ غفير من سكان القرية، وتبعنا الزعيم مُتجهين إلى الطرف الجنوبي الشرقي من الجزيرة، غير بعيد عن المرفأ الذي ترسو فيه سفينتنا. انتظرنا هُناك قرابة ساعة، حتى جلب بعض المُتوحشين أربعة زوارق إلى مكاننا. ثم صعدت جماعتنا إلى أحد الزوارق، وأخذوا يجذفون على حافة الجرف الصخري الذي ذكرته سابقاً، ووصلنا إلى جرف آخر بعيد، ورأينا هُنا كميات من رخويات تبن البحر ربما أكثر ممّا سبق أن رآه كبار البحارة في تلك المجاميع من الجزر على خطوط العرض الجنوبية التي تشتهر بهذا المضمار من التجارة. بقينا على مقرّبة من هذه المُنحدرات الصخرية لكي نُقنع أنفسنا بأننا سوف نتمكّن بسهولة من نقل حمولة عشرة مراكب من هذه الرخويات إذا اقتضى الأمر، وحينها أخذونا بالقوارب إلى جانب السفينة، وافترقنا عن توو- وت، بعد أن وعدنا بأنّه سوف يجلب لنا، خلال أربع وعشرين ساعة، كل ما يستطيع أن يأتي به على زورقه من البط القنّبي الظهر وسلاحف غاليباغو. في مراحل مُختلفة من هذه المُغامرة لم نلحظ أي تصرّف من السكان المحلّيين من شأنه أن يُثير الريبة، مع استثناء بسيط وهو تزايد أعدادهم بصورة مُنتظمة أثناء مسيرتنا من السفينة إلى القرية.

الفصل (20)

التزم الزعيم بوعده حقّاً، وسرعان ما جهزنا بكمياتٍ من المؤن والمواد الغذائية الطازجة. ووجدنا السلاحف في حالة جيدة كما توقّعنا ذلك، والبط يفوق حجمه أفضل أنواع البط البري في موطننا، فلحمه طري، كثير العُصارة، وشهي المذاق. إلى جانب هذه المواد، جلب المُتوحشون لنا، حين جعلناهم يفهمون رغباتنا، كمية كبيرة من الكرفس وحشيش الملعقية، مع حمولة زورقٍ من السمك الطازج وبعض الأسماك المُجففة. كان الكرفس يُصلح في الواقع كعلاج، وحشيش الملعقية اتّضح أنّ له فائدة لا تُقدّر بثمن في علاج الرجال الذين ظهرت عليهم أعراض المرض. خلال مدة قصيرة جدّاً لم يبقَ شخص واحد على لائحة المرضى. وتوفّرت لدينا أيضاً كمية وفيرة من أنواع المواد الغذائية الطرية، ربما نذكر منها نوعاً من القواقع أو الأسماك الصدفية البحرية التي تُشبه الرخويات في شكلها، إلّا أنّ طعمها يُشبه المحار. وكان القريدس والجمبري وفيراً لدينا، فضلاً عن بيض القطرس وغيره من أنواع الطيور ذات قشور داكنة. وتجهّزنا أيضاً بمخزونٍ من لحم الخنزير [298]الطازج الذي سبق أن ذكرته. وجد معظم الرجال هذا اللحم مُستساغاً شهياً، إلّا أنّي تصوّرت أنّ فيه «زناخة» مثل لحم السمك، ولولا هذا لكان طيب المذاق. في مُقابل هذه الأشياء الطيبة قدّمنا للسكان المحلّيين بعض الهدايا وهي مسبحات ذات خرز أزرق، وحُلي نُحاسية، ومسامير، وسكاكين، وقطع من القماش الأحمر، وكانوا يشعرون بالابتهاج لهذه المُبادلة. لقد عملنا نوعاً من السوق على الشاطئ، مع أنّ المدافع على السفينة كانت على استعداد لأن تحمينا، وكُنا نُجري عمليات المُقايضة بكل مظاهر النوايا

الطيبة، مع درجةٍ من الحرص على النظام، إذ لم تجعلنا تصرّفاتهم في قرية «كلوك- كلوك» نتوقع ذلك من أُناس بدائيين.

وسارت الأمور على هذا المنوال من الودية الرتيبة عدة أيام، وفي أثناء ذلك كثيراً ما كانت جماعات من السكان المحلّيين يختلفون إلى السفينة الشراعية، وجماعات منّا أيضاً تذهب إلى الساحل، وكنّا نقوم بجولات استكشافية نتوغّل خلالها في المناطق الداخلية، فلا نتعرّض إلى مُضايقات من أي نوع. بعد أن وجد القبطان غاي سهولة تحميل المركب برخويات تبن البحر، وذلك للطباع الودية لسكان الجزيرة واستعدادهم الدائم لمُساعدتنا في اصطيادها، قرّر التفاوض مع توو- وت مُبدياً استعداده لتقديم خدماته في تشييد بيوتٍ مُناسبة لمُعالجة هذه الرخويات، وبمُساعدة أفراد من القبيلة أيضاً لتجميع أكبر عدد مُمكن منها، في الوقت الذي يجري فيه استعداداته للانطلاق مُستغلاً المناخ الرائع لإتمام رحلته إلى الجنوب. عندما تطرّق إلى هذا المشروع أمام الزعيم بدا الأخير على استعداد تام للتوصل إلى اتّفاق. وهكذا تمّت الصفقة، وكانت بنودها مقبولة من الطرفين، وفيها تمّ الاتفاق على أنّه، بعد إجراء التحضيرات المُناسبة، مثل وضع الأسس، ونصب جزء من المباني، وبعض الأعمال الأُخرى التي تتطلّب اشتراك أفراد طاقمنا جميعاً، يُمكن للسفينة المُضي في مسارها، على أن نترك ثلاثة من رجالنا على الجزيرة للإشراف على إكمال المشروع، ولتعليم سكان القرية على طرق تجفيف جلود رخويات تبن البحر. فيما يتعلق بتنفيذ تلك البنود، فالأمر يعتمد على جهود البدائيين خلال فترة غيابنا. كان عليهم استلام كمية مُحدّدة من الخرز الأزرق، والسكاكين، والقماش الأحمر، وما إلى ذلك، لقاء كل بيكول[1] من لحوم تبن البحر ينبغي أن يكون جاهزاً لَدى عودتنا.

ربما يُلقى هذا البند المهم من بنود التجارة، وطريقة تنفيذه، شيئاً من اهتمام القراء، وليس في وسعي إيجاد مُناسبة أفضل من هذه لشرح العملية. إنّ

(1) بيكول: وحدة وزن صينية. [المترجم]

المعلومات المُفصّلة التي نُقدّمها أدناه في هذا الشأن مُقتبسة من تاريخ حديث لرحلة إلى البحار الجنوبية[2].

«تُعرف تلك «الرخويات» التي مصدرها من بحار الهند في عالم التجارة [299]بالاسم الفرنسي *bouche de mer* (لقمة سائغة من البحر). وإذا لم أكن مُخطئاً، كان العالم الشهير كوفيير هو الذي أطلق عليها الاسم اللاتيني «تبن البحر» *gasteropeda pulmonifera*. هذا الحيوان يُجمع بكثرة على سواحل الجزر في المحيط الهادئ، على وجه الخصوص لكي يُباع في أسواق الصين، حيث تُدفع فيه أثمان باهظة، وربما كانوا يدفعون فيه مبالغ مُماثلة لما يُدفع لشراء أعشاش طيورهم التي طالما يتحدّثون عنها وعن طيب مذاقها في الأكل، إذ يحتوي على مادة جيلاتينية تلتقطها أنواعٌ من طيور السنونو من أجساد هذه الرخويات. وهي خالية من القشور، ولا سيقان لها، ولا أي أجزاء ناتئة، ما عدا أعضاء مُتقابلة للهضم والإفراز، ولكنها بواسطة أجنحتها المرنة، مثل اليرقات أو الديدان، تستطيع الزحف في المياه الضحلة، حيث يُمكن رؤيتها حين ينخفض مُستوى الماء فيلتقطها نوع من طيور السنونو، والذي يدس منقاره المُدبّب داخل جسد الحيوان الرخو، ويمتصّ مادة صمغية خيطية، ولدى تجفيف هذه المادة يُمكن استعمالها في بناء الجدران الصلبة لأعشاش السنونو. ومن هُنا جاء اسم *gasteropeda pulmonifera*.

«هذه الرخويات مُستطيلة الشكل، وأحجامها مُختلفة، تتراوح من ثلاث إلى ثمان عشرة بوصة في طولها؛ وقد رأيت بضعاً منها لا يقلّ طولها عن قدمين. وكانت هذه الأنواع مُستديرة تقريباً، وسمينة قليلاً عند أحد جوانبها، أي: الجانب الذي يكون أقرب إلى قاع البحر؛ ويتراوح سمكها من بوصة واحدة إلى ثمان بوصات. إنّها تزحف عادة باتّجاه المياه الضحلة في مواسم مُحددة من السَّنة، ربّما لغرض التزاوج، لأنّنا غالباً ما نجدها في أزواج. وحين تُسلط

(2) يقصد هُنا كتاب (حكاية أربع رحلات) للرحالة الأمريكي بنجامين موريل 1795-1839 الذي قام برحلات إلى البحار الجنوبية وجزر المحيط الهادئ. [المترجم]

الشمس أقصى حرارتها على المياه، يجعلها ذلك فاترة الهمّة، بحيث تندفع للاقتراب من الساحل؛ وكثيراً ما تذهب إلى أماكن ضحلة جدّاً، حتى إنّ المد حين يتراجع تترك هُناك لتجف، إذ تتعرّض للفحات الشمس الحارة. غير أنّ هذه الرخويات لا تجلب معها صغارها إلى المياه الضحلة، لأنّنا لم نرَ على الإطلاق أثراً للصغار التي من جنسها، أما الكبار فكنّا نراها دائماً تسبح إلى خارج المياه العميقة. وتتغذّى هذه الكائنات أساساً على صنفٍ من المربجيات[3] التي تنتج الشعاب المرجانية.

«تؤخذ رخويات تبن البحر على العموم من المياه الضحلة إلى الساحل حين يصل طولها إلى ثلاثة أو أربعة أقدام؛ وبعد ذلك تُقطع إحدى نهاياتها بالسكين، ويكون عمق الشق بوصة أو أكثر، تبعاً لحجم الحيوان الرخوي. ومن هذه الفتحة تُستخرج الأحشاء الداخلية بالضغط عليها، وهي تُشبه كثيراً أحشاء أي كائن صغير من الرخويات الأُخرى التي تعيش في الأعماق. ثم يُغسل الحيوان الرخوي، ويُغلى إلى درجة حرارة ينبغي أن لا تتجاوز الحد المسموح به أو تقلّ عنه. بعد ذلك تُدفن تحت الأرض أربع ساعات، ومن ثمّ تُغلى من جديد مدة قصيرة، وبعدها تُجفف إما بالنار أو تحت أشعة الشمس. تلك الرخويات التي تُعالج بأشعة الشمس ثمنها أعلى من غيرها؛ ولكن في الوقت الذي يُمكن فيه مُعالجة بيكول واحد (133 وثلث ليبرة) [300]بتلك الطريقة، يُمكنني شخصياً أن أُعالج ثلاثين ضعفاً بالنار. حين تُعالج هذه المواد بصورة جيدة منذ البداية، فيُمكن حفظها في مكانٍ جاف مدة سنتين أو ثلاث سنوات دون أي مُجازفة؛ ولكن يتوجب فحصها مرة كل بضعة أشهر، ولنقل أربع مرات في السَّنة، لرؤية إن كان أي نوع من العفن قد أصابها.

«الصينيون، كما ذكرنا من قبل، يعتبرون رخويات تبن البحر هذه من الأكلات المُترفة جدّاً، فهم يعتقدون أنّها تُقوّي وتُنعش الجسم على نحو رائع،

(3) المربجيات: حيوان نباتي، من حيوانات لافقارية مُتعددة كالمرجان وشقيق البحر والإسفنج تبدو أشبه بالنبات من حيث الشكل وطريقة النمو. [المترجم]

وكذلك فهي تُجدّد القدرة الجنسية المُنهكة. تُباع النوعية المُمتازة من هذه الرخويات بثمن باهظٍ في كانتون، فهي تُساوي تسعين دولاراً لكل بيكول؛ والنوعية الثانية تُباع بخمسة وسبعين دولاراً؛ والثالثة بخمسين؛ والرابعة بثلاثين؛ والخامسة بعشرين؛ والسادسة باثني عشر؛ والسابعة بثمانية؛ والثامنة بأربعة دولارات؛ وغالباً ما تُنقل شحنات صغيرة منها إلى مانيلا، وسنغافورة، وباتافيا فتُباع هُناك بأثمان أعلى».

بعد أن أُبرم الاتفاق ودخل حيز التنفيذ، مضينا حالاً بنقل كل ما نحتاج إليه من المُستلزمات لبناء المساكن وتسوية الأرض. واخترنا مساحة كبيرة مُنبسطة من الأرض بالقرب من الساحل الشرقي للخليج، حيث تتوفّر كميات كبيرة من الأخشاب والمياه، بعيداً قليلاً عن الأجراف الصخرية الرئيسية التي نستخرج منها رخويات تبن البحر. وأصبح كل شيء جاهزاً الآن لبدء العمل في مُثابرة، وسرعان ما قمنا، بإزاء الدهشة العظيمة التي أصابت البدائيين، بقطع عدد كاف من جذوع الأشجار التي تُصلح لأغراضنا، وقمنا بترتيبها بسرعة من أجل نصب هياكل البيوت، والتي قطعنا فيها شوطاً جيداً خلال يومين أو ثلاثة بحيث كان في وسعنا أن نترك ما تبقّى من العمل للرجال الذين أردنا أن يبقوا لإنجازه دون أن نقلق عليهم. هؤلاء الرجال هم: جون كارسون، وألفريد هاريس، و... بيترسون (وهم جميعاً من سكان لندن، كما أتصور)، وقد تطوعوا بتقديم خدماتهم في هذا الشأن.

مع اقتراب نهاية الشهر أصبح كل شيء جاهزاً للرحيل. ولكنّنا اتفقنا على القيام بزيارة توديع رسمية إلى القرية، وأصر توو- وت في عنادٍ لا يلين على أن نفي بوعدنا الذي قطعناه على أنفسنا سابقاً، حتى لم نتصور أنّ من الصواب المُخاطرة بمُضايقته برفضنا القاطع. أعتقد أنه لا أحد منا في هذا الوقت كانت تُساوره أدنى الشكوك في النوايا الحسنة لأولئك البدائيين. كانوا يتصرّفون على الدوام بأقصى حدود اللياقة، ويُساعدوننا بإخلاص في أعمالنا، ويُقدمون لنا المأوى والطعام، وأحياناً دون ثمن، ولم يحدث مرة أن اختلسوا منّا مادة واحدة، مع إعجابهم الشديد بتلك المواد التي لدينا، وكان ذلك بادياً على

تعبيرات وجوههم المُسرفة في [301]الفرح الذي كثيراً ما يظهر لنا عندما نُعطيهم هدية. وكانت النساء خاصة يشعرن بالامتنان البالغ لأي شيء يُقدم لهنّ؛ وعلى وجه الإجمال ما كان لنا أن نشكّ فيهم إذ لم تُساورنا فكرة الخيانة من جانب الناس الذين تعاملوا معنا بتلك الأخلاق الحميدة. ولكن لم تمضِ فترة وجيزة حتى اتّضح لنا أنّ هذا اللطف الصريح في السلوك لم يكن إلا جزءاً من خطة سبق أن وضعت في تصميم عميق لإلحاق الدمار بنا، وأنّ سكان الجزيرة الذين بادلناهم تلك المشاعر المُتطرفة في الود والاحترام، كانوا في الواقع من أبشع البرابرة، والماكرين، والأوغاد التعساء المُتعطشين للدماء، أولئك الذين يلوّثون بوجودهم سطح الأرض.

في اليوم الأول من شباط ذهبنا إلى الساحل لزيارة القرية. مع أنّنا، كما قُلت سابقاً، لم تُساورنا الشكوك، إلا أننا لم ننسَ اتّخاذ أعلى درجات الحذر. فتركنا ستة رجال على ظهر السفينة، وأعطيناهم تعليمات صريحة بأن لا يسمحوا لأي واحد من أولئك البدائيين بالاقتراب من المركب أثناء غيابنا، تحت أي ذريعة كانت، وأن يبقوا باستمرار على الدكة. ورُفعت الأشرعة وهُيِّئت معدات الإقلاع، وجُهّزت المدافع بالقذائف ووضعت علب الذخيرة قربها، وألقمت البنادق المُزدوجة السبطانة بالرصاص ووضعت على حمالاتها. وبقيت السفينة راسية وقد رُفعت مرساتها، على بعد ميلٍ تقريباً عن الساحل، ولا يُمكن لأي زورق الاقتراب منها من أي اتّجاه دون أن يُشاهده الرجال بوضوح ويكون مُعرضاً للنيران المُباشرة من أسلحتنا التي وُضعت على محاملها المُتحركة.

لأنّ ستة رجال بقوا على متن السفينة، فقد تألفت جماعتنا التي ستذهب في رحلة على الساحل من اثنين وثلاثين شخصاً. كنا مُسلحين تسليحاً كاملاً، فقد حملنا بنادقنا، ومُسدساتنا، وخناجرنا؛ وإلى جانب ذلك، كلّ واحد منا حمل نوعاً من البلطات التي يستخدمها البحارة، وهي تُشبه بعض الشيء السكين المعقوفة التي يستخدمها الآن كثيرٌ من الناس في بلادنا الغربية والجنوبية. التقى بنا مائة من المُحاربين ذوي سحنة سوداء عندما نزلنا من السفينة لمُرافقتنا على الطريق. إلا أنّنا لاحظنا في شيءٍ من الاستغراب أنّهم لا يحملون الآن أي

سلاح؛ ولدى سؤال تور- وت عن هذا، لم يردّ علينا إلا بهذه الكلمات... *Mattee non we pa pa si* وهي تعني أنّ ليس هُناك حاجة للسلاح فالكلّ إخوة. وتقبّلنا هذا بحُسْن نية، ومضينا في طريقنا.

بعد أن اجتزنا الينبوع والجدول اللذين تكلّمت عنهما من قبل، توغّلنا داخل مجازٍ ضيّق يخترق سلسلة من التلال التي تكسوها حجارة ملساء، وتقع القرية على سفوحها. كان هذا ممرّاً وعراً مُلتوياً، إلى درجة أنّنا واجهنا سابقاً صعوبة كبيرة في اجتيازه بخطوات مُتعثرة لدى زيارتنا الأُولى إلى قرية كلوك- كلوك. ربما كان الطول الكلي للوادي العميق ميلاً ونصف، أو ميلين. ويتلوّى الممرّ في كل اتّجاه بين التلال (كان فيما يبدو، في حقبةٍ سحيقة من الزمن، حوضاً لتيار جارف من المياه)، [302]ولا يستمر في الاستواء في أي موضعٍ فيه لأكثر من عشرين ياردة دون التفاف مُفاجئ. وترتفع جوانب الوادي الضيق، أكاد أكون واثقاً من هذا، إلى سبعين أو ثمانين قدماً في أرجاء امتداداتها، وفي بعض الأجزاء ترتفع إلى درجة مُذهلة لا يُمكن تصوّرها، وتطلّ بظلالها القاتمة على الممر الضيق فتُغطيه تماماً حتى لا يكاد يخترقه إلا جزءٌ ضئيل من ضوء النهار. ويصل عرض الممر كله إلى أربعين قدماً تقريباً، ومن الحين إلى الحين تتقلّص مساحته فلا يسمح بمرور أكثر من خمسة أو ستة أشخاص جنباً إلى جنب. باختصار، لا مكان آخر في العالم يُصلح لعمل كمين أفضل من هذا، وكان من الطبيعي لنا أن نتوخّى الحذر ونتأكّد أين نضع أذرعنا خلال دخولنا إلى ذلك المكان. حين أُفكر الآن في حماقتنا الفاضحة، يبدو لي أنّ ما يُثير الذهول أساساً أنّنا أقدمنا على مُغامرة ما كان لنا أن نُقدم عليها مُطلقاً، تحت أي ظرف، فنضع مصيرنا بين أيدي هؤلاء المُتوحشين الذين لا نعرف عنهم شيئاً فنسمح لهم بالإحاطة بنا من الأمام ومن الخلف أثناء تقدّمنا عبر هذا الوادي العميق. إلّا أنّ هذا ما حصل فاستسلمنا دون وعي لخطتهم، واثقين في غباء بأنّنا نمتلك قوة في جمعنا، بإزاء زعيمهم تور- وت ورجاله غير المُسلحين، متّكلين على قوةٍ مؤكدة لأسلحتنا النارية (لا يزال تأثيرها سرّاً من الأسرار بالنسبة للسكان المحلّيين)، والأدهى من هذا وذاك، أنّنا انخدعنا بادّعاءات الصداقة التي طالما أغوانا بها هؤلاء الأشرار.

كان خمسة أو ستة رجال منهم يتقدّموننا، وكأنّهم يُرشدوننا إلى الطريق، ويتظاهرون بأنّهم مُنهمكين بإزاحة الصخور الكبيرة والأحراش عن الطريق، وبعدهم تسير جماعتنا. كنا نمشي مُتجاورين ونحرص كل الحرص على أن لا يبتعد بعضنا عن بعض. وخلفنا الموكب الرئيسي للبدائيين، وهم يحرصون على مُراقبة أي خلل في النظام أو سوءٍ للتصرف.

كان ديرك بيترز، ورجل يُدعى ولسون ألن، وأنا نفسي، نسير على الجانب الأيمن من رفاقنا، وكنا أثناء ذلك نتفحّص الطبقات الصخرية العجيبة للهاوية التي فوق رؤوسنا. أثار اهتمامنا صدع صخري ضيق عرضه بالكاد يكفي لمرور شخص دون أن ينحشر هُناك، ويمتد ذلك الصدع نحو التل مسافة ثمانية عشر أو عشرين قدماً في مسارٍ مُستقيم، ثم ينحرف إلى اليسار. كان علو الفتحة، بمقدار ما استطعنا رؤية ذلك من الممر الرئيسي، ربما يصل إلى ستين أو سبعين قدماً. ورأينا شجيرة أو شجيرتين شوكيتين ناتئتين من الشقوق، تحملان ما يُشبه البندق الشوكي، فأحسست برغبة في تفحّصهما، واندفعت على عجل لأفعل ذلك، وجمعت خمس أو ست حبيبات منها في قبضة واحدة، ثم أسرعت للرجوع. وبينما كنت أتلفّت، وجدت بيترز وألن يتبعاني. وطلبت منهما الرجوع، فليس هُناك فسحة تكفي لتحرّك [303]شخصين أو عبورهما، وقلت: إنّ عليهما أن يأخذا بعض الحبيبات التي التقطتها. وهكذا قفلا راجعين، وكانا يهرولان، وأصبح ألن قريباً من نهاية الشق، وحينها أدركت فجأة حصول اضطراب لا يُشبهه أي شيء رأيته من قبل، دفعتني إلى ذلك تصوّرات غريبة، لو أنّي كنت في ذلك الوقت أُفكر بأي شيء، حتى ظننت أنّ الأسس الصلبة للأرض تهاوت جميعاً، وأنّ يوم الحساب قد أزف أوانه.

الفصل (21)

ما إن تمكّنت أخيراً من استجماع أحاسيسي المُشوشة، حتى أدركت أنّني أشرف على الاختناق، كنت أزحف وسط ظلامٍ دامس على أرضٍ رخوة، والتراب يتساقط عليّ بكثافة من كل ناحية، ويُهدد بدفني تماماً. صعقتني هذه الفكرة الرهيبة، فكافحت لتحريك قدمي، وأخيراً نجحت. بقيت هُناك دون حراك بضع لحظات، كنت أُحاول أن أفهم ما الذي حدث لي، وأن أعرف أين كنت. وهُنا تخيّلت أنّني أسمع أنيناً عميقاً بالقرب من أُذني، وبعد ذلك سمعت صوتاً مخنوقاً يصدر عن بيترز الذي كان يستنجد بي باسم الرب. زحفت خطوة أو خطوتين إلى الأمام، وعند ذلك سقطت مُباشرة على رأس وكتفي صديقي، الذي سرعان ما عرفته، وكان نصفه مدفوناً تحت كتلةٍ من التراب، ويُكافح يائساً لتخليص نفسه من الأنقاض. أزحت التراب عنه بكل الطاقة التي استطعت لملمتها، حتى تمكّنت من إخراجه.

عندما عاد إلينا وعينا جزئياً وتخلّصنا من هول المُفاجأة بحيث كنا قادرين على النطق في شيء من العقلانية، توصّل كلّ منّا إلى استنتاج، وهو أنّ جدران هذه المفازة التي جازفنا بدخولها، تقوّضت بفعل اهتزاز طبيعي، أو ربّما لثقل الرجال، فوق رؤوسنا، وأنّنا لذلك ضائعون هُنا إلى الأبد، فلا شك أنّنا سوف نُدفن ونحن أحياء. استسلمنا طويلاً وقد استلقينا على الظهر لأبشع نوبات الحزن والقنوط، لهذه المشاعر التي لا يُمكن أن يتخيّلها بما يكفي أولئك الذين لم يواجهوا موقفاً مُماثلاً. تصوّرت أنّ لا حالة يُمكن أن تحصل في أي وقت ضمن مسار الحوادث التي تقع للبشر تُصلح أكثر لإثارة أقصى درجات الأسى ذهنياً

وجسدياً من الحالة التي مرّت بنا، حالتنا ونحن ندفن أحياء. إنّ شدة الظلام التي تحيط بالضحية، والاختناق المُرعب في الرئتين، وروائح الأبخرة الخانقة من الأرض الرطبة، إلى جانب تصوّرات شاحبة تعبر أذهاننا بأننا خارج أي حدود بعيدة للأمل، وأن هذا هو [304]المصير المقدور على الموتى مواجهته، والذي يحمل إلى قلب البشر درجة من الحسرة ومن الرّعب الفظيع لا يُمكن تحمّلها.. ولا يُمكن تصوّرها أبداً.

وأخيراً اقترح بيترز أنّ علينا بذل مُحاولة لتقدير مدى الكارثة التي ألمّت بنا، وأن نتلمّس طريقنا إلى خارج موضعنا هذا؛ ولاحظنا أنّ هُناك احتمالاً ضئيلاً في أن نعثر على منفذٍ ما يزال مُتاحاً لنا للخلاص. وتمسّكت مُتلهفاً بهذا الأمل، وحاولت النهوض في صعوبة بالغة، وأن أزحف بقوة على الأرض الرخوة. ولم أتقدم خطوة إلى الأمام حتى أبصرت وهج ضوءٍ يكاد يكون كافياً لإقناعي بأنّنا في كل الأحوال سوف نلقى حتفنا بسبب نقص الهواء. وهُنا تحلينا بشيءٍ من رباطة الجأش، وحاول أحدنا أن يُشجع الآخر على توقّع الأفضل. بعد أن زحفنا على ربوة من الأنقاض التي تمنعنا من المضي باتّجاه مصدر الضوء، لم نجد بُدّاً من الاستمرار وأحسسنا بشيء من الارتياح من انقباض الصدر وصعوبة التنفّس التي كانت تُسبّب لنا الألم والعذاب. وألقينا نظرة على الأشياء من حولنا، فاكتشفنا أنّنا قريبون من الطرف المُستقيم للممرّ المُتصدع، حيث تبدأ استدارة إلى اليسار. بعد بضع مُحاولات أُخرى، وصلنا إلى مُنحدرٍ، وشعرنا بفرح لا يوصف حين ظهر لنا مُنعطفٌ أو شقّ مُتصدّع يمتدّ إلى الأعلى مسافة هائلة، ويتّخذ زاوية خمس وأربعين درجة، مع أنّه أحياناً أشد انحداراً. لم نستطع رؤية شيء على امتداد هذه الفتحة؛ ولكن لأنّ مقداراً لا بأس به من الضوء يتسرّب منها، كان لدينا بصيصٌ من الأمل في أن نعثر عند قمتها (لو تمكّنا بأي وسيلة من الوصول إليها) على مسلكٍ مفتوح يوصلنا إلى الهواء الطلق.

والآن تذكّرت أنّ ثلاثة أشخاص منّا دخلوا إلى هذه المفازة من الممرّ الرئيسي، وأنّ رفيقنا ألن لا يزال مفقوداً؛ وقرّرنا فوراً الرجوع للبحث عنه. وبعد بحثٍ طويل ومواجهة خطر أن تتهاوى الحجارة فوقنا، ناداني بيترز أخيراً وقال

إنّه تمكّن من الإمساك بقدم رفيقنا، وكان جسمه كله مدفوناً تحت طبقةٍ من الأنقاض تجعل من المُستحيل انتشاله. سرعان ما اكتشفت حقيقة ما قاله، وبطبيعة الحال لا بُدّ أن يكون صاحبنا قد لفظ أنفاسه من مدة طويلة. وهكذا تركنا، بقلوب يملؤها الحزن والأسى جثة صديقناً إلى مصيرها، ومرة أُخرى سلكنا طريقنا إلى المُنحنى.

كان عرض الشق المُتصدع بالكاد يكفي لمرورنا، وبعد مُحاولة أو مُحاولتين فاشلتين للنهوض، عدنا مرة أُخرى إلى اليأس. لقد ذكرت سابقاً أنّ سلسلة التلال التي [305]يخترقها ذلك الممر الرئيسي الضيق تتألف من صخور صابونية ملساء. كانت جوانب التصدّعات التي حاولنا الآن تسلّقها من المادة نفسها، فأيدينا تنزلق عليها إلى درجة كبيرة، وهي رطبة الملمس، فكان من العسير علينا تثبيت أقدامنا حتى في أقلّ الأماكن انحداراً؛ وفي بعض الأماكن التي يكون فيها الانحدار عمودياً، فالصعوبة تتفاقم طبعاً؛ في الواقع بقينا بعض الوقت نظن أنّها من الصخور التي لن تُقهر. ومع ذلك كان اليأس يبعث فينا الشجاعة، ومع كل كسرةٍ نقطعها من الحجارة الملساء ونضع أقدامنا عليها، ومع كل تعلّق وتأرجح نُجازف فيه بحياتنا، لكي نصل إلى مواضع صغيرة ناتئة على أنواع صلبة من الصخور الكلسية المالحة التي تظهر لنا بين الحين والآخر من بين الكتل الكبيرة الأُخرى، تمكّنا أخيراً من الوصول إلى مُسطّحٍ طبيعي رأينا من خلاله بقعة من السماء الصافية الزرقاء على طرفٍ بعيد من احد الوديان التي تُكثر فيها الأشجار. هُنا التفتنا إلى الوراء، وشعرنا بشيء من الارتياح، فرأينا الممشى الذي قطعناه إلى الآن، وأدركنا بوضوح من المظهر الذي بدت عليه جوانبه أنه تشكل منذ زمن ليس بالبعيد، واستنتجنا أنّ الانهيار الذي وقع، أيّاً كان سببه، والذي طمرنا بالتراب بهذا الشكل غير المُتوقع، أدى في اللحظة نفسها إلى فتح هذا الممر للنّجاة. بما أنّنا كنا مُنهكين من المجهود الذي قمنا به، وكنّا في الواقع نشعر بالإنهاك إلى درجة لم نعد فيها قادرين على الوقوف أو حتى أن ننطق بكلمة، هُنا اقترح بيترز أن نحاول جذب انتباه رفاقنا إلى ممر النجاة بأن نُطلق رصاصات من المُسدسات التي ما زالت في أنطقتنا.. فالبنادق وكذلك الخناجر سقطت في قاع

الهاوية. ولكن أثبتت لنا وقائعٌ لاحقة أننا لو كُنّا قد أطلقنا النار، لندمنا على ذلك أشد الندم، ولكن لحُسْن الحظ ساورني في هذا الوقت شيءٌ من الشكّ في نجاح مثل تلك اللّعبة الغبية، وأحجمنا عن أن ندع أولئك الهمجيين يعرفون مكاننا.

بعد أن اضطجعنا قرابة ساعة، انطلقنا في بطءٍ لنصعد الوادي، ولم نقطع مسافة كبيرة من الطريق حتى سمعنا صُراخاً مُتعاقباً بأصوات عالية. وأخيراً وصلنا إلى ما يُمكن أن يُسمى سطح الأرض؛ لأنّ المسار الذي كنا نتبعه حتى ذلك الوقت، مُنذ تركنا البقعة المُسطحة، يقع تحت قوسٍ من الصخور العالية وأوراق الأشجار، على ارتفاع بعيدٍ فوق رؤوسنا. انحدرنا في حذر شديد إلى فجوةٍ ضيقة، وتُمكّنا من النظر بوضوح إلى المناطق المُحيطة بنا، فاتّضح لنا من مُجرّد نظرة ذلك السر المُرعب للانهيار الذي وقع في لحظة واحدة.

لم تكن البقعة التي اختلسنا منها النظر تبعد كثيراً عن قمة أعلى تلٍّ ضمن سلسلة التلال ذات الحجارة الملساء. كان الممر الضيّق الذي دخل إليه اثنان وثلاثون رجلاً من جماعتنا على مسافة خمسين قدماً إلى اليسار من موضعنا. ولكن، على بعد مائة ياردة على الأقل كانت قناة أو حوض هذا الممر مملوءة بكاملها بالأنقاض على [306]نحو فوضوي، وربما تجاوز وزن تلك الأنقاض مليون طن من التراب والحجارة التي تقوضت. أما الوسيلة التي سقطت بها تلك الكتلة الهائلة من التراب والأنقاض فلم يكن من الصعب معرفتها لأنها واضحة، ولأنّ آثاراً مؤكدة على الفعل الإجرامي لم تزل موجودة. في مواضع مُختلفة على امتدادٍ مُرتفع من الجانب الشرقي للممرّ الضيّق (كنّا الآن على الجانب الغربي) يرى المرء أوتاداً من الخشب مغروسة في الأرض. في هذه المواضع لم تكن أجزاءٌ من التربة قد انهارت، ولكن على جبهة المُنحدر الذي سبق أن سقطت منه تلك الكتلة الهائلة من الأنقاض، كان ظاهراً من خلال علاماتٍ على التربة تُشبه تلك التي تصنعها حفارة تفجير الصخور، وجود حفر لأوتادٍ مُشابهة لتلك التي رأيناها لا تزال باقية في أماكنها، بعضها لا يبعد أكثر من ياردة عن البعض الآخر، وتمتدّ ربما إلى مسافة ثلاثمائة قدم، حتى تصل إلى عشرة أقدام تقريباً وراء حافة الخليج. وهُنالك حبالٌ قوية مجدولة من أغصان كروم العنب ربطت

إلى الأوتاد لا تزال باقية على التلّ، وفيما يظهر فإنّ هذه الحبال قد ربطت أيضاً إلى كلِّ وتد من الأوتاد الأُخرى. لقد تكلّمت فيما سبق عن الطبيعة الغريبة لهذه التلال من الصخور الصابونية وعن طبقاتها؛ ولا بُدّ أنّ الوصف الذي قدمناه عن الممرّ الضيّق العميق الذي استطعنا الهرب عبره من كارثة أوشكنا فيها أن نُدفن ونحن أحياء يُعطي فكرة عن طبيعته. حدث الأمر هكذا، حتى إنّ أي ارتجاجٍ طبيعي من المحتوم أن يؤدي إلى تمزّق التربة إلى طبقاتٍ أو حافات يمتد بعضها في موازاة البعض الآخر، ومع قليلٍ من البراعة يتحقّق الغرض نفسه. لقد أفاد هؤلاء المُتوحشون أنفسهم من هذه الطبقات المُتعامدة لتحقيق مآربهم الإجرامية. ليس من شك في هذا، إذ يتضح الأمر من الخط المُتسلسل للأوتاد، وبالتالي حدث تصدع جزئي في التربة على عمق ربما يصل إلى قدم أو قدمين، وحينها سحب المُتوحشون أطراف الحبال (فهي مربوطة بأعلى الأوتاد، وتمتد حتى تعود إلى حافة الجرف الصخري)، فتحقّقت بذلك قوة هدّامة قادرة على تقويض جبهة التلّ كلها، ولدى إعطاء إشارة مُتفّق عليها، اندفعت الأنقاض إلى قاع الهاوية. لم يعُد مصير رفاقنا المساكين يقبل الشك. لقد نجونا وحدنا من الانهيار ومن ذلك الدمار الشامل. وبقينا وحدنا أحياء، رجُلان من جنسٍ أبيض، على الجزيرة.

الفصل (22)

لم يكن الوضع الذي وجدنا أنفسنا فيه، كما اتّضح لنا الآن، أقلّ رُعباً من [307]الوضع الذي تخيّلنا أنفسنا فيه مدفونين ونحن أحياء إلى الأبد. لم نُبصر أي بارقة توحي بالأمل في النجاة إلّا أنّ نموت على أيدي المُتوحشين، أو الانجرار إلى حياة بائسة في الأسر لديهم. ربما استطعنا، إذا توخينا الدّقة، أن نختفي أنفسنا مدة من الزمن بعيداً عن أنظارهم بين مفاوز التلال، وكإجراءٍ احتياطي أخير ربّما نلجأ إلى الهاوية التي خرجنا منها توّاً؛ ولكننا حتماً سوف نلقى حتفنا خلال الشتاء القطبي الطويل بعد أن نُعاني من البرد والجوع، أو يُكتشف أمرنا في نهاية المطاف أثناء مساعينا للحصول على ما يُقيم أودنا.

كانت المناطق كلّها التي حولنا في ما يبدو تعجّ بالبدائيين، رأينا حشوداً منهم تتدفّق الآن من الجزر التي تقع إلى الجنوب على أطوافٍ مُسطحة، فلا شك أنّهم كانوا يطمحون إلى تقديم العون لرفاقهم في الاستحواذ على سفينة جين ونهبها. كانت السفينة ما تزال راسية في أمانٍ هُناك في الخليج، وأولئك الرجال الذين على متنها يبدو أنّهم يجهلون أي شيء عن الخطر الداهم. كم كنّا نتشوّق في تلك اللحظة لأن نكون معهم! فإمّا أن نُساعدهم على الهرب، أو نموت معهم أثناء مُحاولات الدفاع. لم نرَ أي فرصة تسمح الآن بتحذيرهم من الخطر الذي يقترب منهم دون أن نُلحق الدمار بأنفسنا مُباشرة، ولن يكون هُناك إلا أمل ضعيف في أن نُفيدهم بشيء. ربّما تكفي إطلاقة واحدة من مُسدّس لتنبيههم إلى أنّ مكروهاً قد حدث؛ غير أنّ هذا لن يجعلهم يفهمون أنّ أملهم الوحيد في النجاة يكْمن في مُغادرة المرفأ على الفور.. لن ينفعهم الآن الحرص على مبادئ

شرفٍ يتمسّكون بها، فهم لا يعلمون على كل حال أنّ رفاقهم لم يعودوا من الأحياء. لدى سماعهم صوت الإطلاقة لعلهم لا يكونون مهيأين تماماً لمُلاقاة العدو الذي يُجري الآن استعداداته للهجوم، أكثر ممّا كانوا عليه في السابق، أو في أي وقت. إذن فلا فائدة تُرجى، ولعل ضرراً غير معروف العواقب يقع من إطلاق النار، وبعد تأمّلٍ جاد، تغاضينا عن ذلك القرار.

الفكرة التالية التي خطرت لنا هي مُحاولة الاندفاع باتّجاه السفينة، وأن نستولي على أحد الزوارق الأربعة التي تستقرّ في الجهة الأمامية للخليج، ثمّ مُحاولة الفرار على متن الزورق. ولكن سرعان ما تبيّن لنا أنّ من المُستحيل نجاح هذا المسعى. كانت المنطقة كلها، كما قلت سابقاً، تعجّ فعلاً بسكان القرية الذين يتوارون بين الأجمات ومفاوز التلال كي لا يراهم أحد من الموجودين على متن السفينة. وكانوا موجودين على مقربة منا بصفة خاصة، ويغلقون الممر الوحيد الذي نطمح في الوصول منه إلى الساحل، وهُناك عصبة كاملة من المُحاربين السود يتمركزون في تلك النقطة على وجه التحديد، وعلى رأسهم توو- وت نفسه، وفيما يظهر فإنهم [308]ينتظرون بعض التعزيزات فحسب لشن الهجوم على سفينة جين. وكانت الزوارق أيضاً، التي ترسو عند الخليج، مُحمّلة بالمُتوحشين، صحيحٌ أنّهم غير مُسلحين، ولكن لا شك في أنّ السلاح في مُتناول أيديهم. وهكذا وجدنا أنفسنا مُضطرين، شئنا ذلك أم أبينا، للبقاء في مكاننا الذي نختبئ فيه، لنكون مُجرّد شهود عيان على الصراع الذي يوشك أن يقع.

في غضون نصف ساعة تقريباً رأينا نحو ستين أو سبعين من الأطواف الخشبية التي تخلو من الصواري والأشرعة، عليها جمعٌ من أولئك المُتوحشين، تأتي من الشرم الجنوبي للمرفأ. بدا لنا أنّهم غير مُسلحين إلّا بهراوات قصيرة، والحجارة التي تكدست في قيعان الأطواف. عقب ذلك مُباشرة ظهرت كتيبة أُخرى أكبر عدداً من الاتّجاه المُعاكس، وكانوا يحملون معهم أسلحة مُماثلة. حُمّلت الزوارق الأربعة الآن بسرعة بالسكان المحلّيين وانطلقت من الأجمات التي عند جبهة الخليج، ومضت للانضمام على عجل إلى الجماعات الأُخرى. وهكذا خلال مُدة أقلّ من المُتوقّع، وكما لو أنّ الأمر حدث بقُدرة سحرية

عجيبة، رأى الموجودون على متن سفينة جين أنفسهم مُحاصرين بأعداد هائلة من المُجرمين المُتهورين الذين بدا أنّهم مُصممون على الاستيلاء عليها مهما كلّف الأمر.

ومع ذلك؛ كان نجاحهم في الاستحواذ على السفينة مشكوكاً به في تلك اللحظة. كان الرجال الستة الذين بقوا على متنها، بصرف النظر عن مدى بسالتهم في الدفاع عنها، غير كافين مُطلقاً في إدارة المدافع بالشكل الصحيح، أو في أي شأن من شؤون النّزال في مثل تلك الظروف العصيبة. لم يكن في وسعي تخيّل أنّهم سوف يُبدون أي نوع من المُقاومة، ولكن يبدو أنّ تصوراتي كانت خاطئة؛ لأنّي رأيتهم الآن وقد دبّ فيهم النشاط يُغيّرون اتّجاه السفينة بحيث صارت مدافع ميمنتها في مواجهة الزوارق التي كانت في هذا الوقت ضمن مرمى مُسدّساتهم، أما الأطواف فهي قريبة ولا تبعد أكثر من ربع ميل وتتسابق مع الريح. ولكن لسبب غير معروف، وأظن أنّ ذلك يعود إلى اضطراب أصدقائنا المساكين حين وجدوا أنفسهم في مثل ذلك الوضع اليائس، كانت إطلاقاتهم طائشة فلم تُحقق أهدافها. ولم يُصب أي زورق أو أحد من هؤلاء البدائيين بأذى، فالإطلاقات كانت تسقط قبل أن تصل إليهم وتصدر أزيزاً فوق رؤوسهم. إنّ التأثير الوحيد الذي لحق بهم اندهاشهم الشديد من ذلك التصرّف غير المُتوقّع ومن الدخان الذي خيّم عليهم بكثافة بضع لحظات حتى ظننت أنّهم سوف يتخلّون عن خطتهم كلها ويعودون أدراجهم إلى الساحل. وكان من المُتوقّع أن يفعلوا ذلك لو استمرّ الرجال من جانبهم في إطلاق النار من أسلحتهم الخفيفة، لا سيّما وأنّ الزوارق كانت قريبة جدّاً من مرمى الأسلحة، وما كانوا ليُخطئوا في تحقيق بعض الإصابات التي تكفي على الأقل لجعل هذه الجماعة تلوذ بالفرار ولا تحرز أي تقدم إضافي، حتى يتمكّنوا لاحقاً من توجيه نيران مدافعهم إلى الأطواف. ولكن، عوضاً عن هذا، فقد تركوا العصبة التي كانت [309]على الزوارق تلتقط أنفاسها بعد ما أصابها من الذعر، ولما صاروا يتلفتون حولهم، لم يروا أي ضرر لحق بهم، فاتّجهوا إلى الجانب الأيسر من السفينة لكي يستعدّوا لاستقبال الأطواف.

لقد أدّى الاندفاع نحو الميسرة إلى تأثير مُذْهل حقّاً. كانت الإطلاقات

المُتعاقبة التي تناثرت على الرؤوس كالنجوم من المدافع الضخمة قد قطعت أوصال سبعة أو ثمانية من الأطواف، ولعلها قتلت ثلاثين أو أربعين من أولئك المُتوحشين في الحال، بينما ألقى مائة منهم على الأقل أنفسهم في الماء، وأغلبهم أُصيبوا بجروح بالغة. أمّا من تبقّى منهم، وكانوا مرعوبين وفاقدين لصوابهم، فبدؤوا على الفور بالانسحاب في تهوّرٍ، ولم ينتظروا حتى لانتشال رفاقهم الجرحى الذين كانوا يسبحون هُنا وهُناك في كلّ اتّجاه وهم يصيحون ويصرخون طلباً للنجدة. إلّا أنّ هذا النجاح الساحق جاء مُتأخراً جدّاً ولم ينفع في إنقاذ أصحابنا المُدافعين بإخلاص. كانت الجماعة المُهاجمة بالزوارق في ذلك الوقت تعتلي سطح السفينة ووصل عددهم إلى أكثر من مائة وخمسين رجلاً، مُعظمهم تسلّقوا السلاسل والحبال حتى قبل أن يوضع الثقاب على قداحات مدافع الميسرة. والآن لم يعُد ثمّة شيء يكبح نزعاتهم الوحشية. وانكسر رجالنا على الفور، غمرهم سيلٌ عارم، سقطوا أرضاً وداستهم الأقدام، وحتماً جرى تقطيع أوصالهم في لحظة.

رأى المُتوحشون الذين كانوا على الأطواف ما جرى فتخلّصوا من مخاوفهم، وهرعوا زرافات ووحداناً إلى الغنيمة. خلال خمس دقائق دار على سفينة جين مشهدٌ مأساوي يُرثى له حقّاً من الدمار وأعمال العنف الجنونية. اقتلعوا ألواح سطوح السفينة ومزّقوها؛ ونهبوا الحبال، والأشرعة، وكل شيء قابل للحركة على الدّكة تعرّض للدمار كما لو أنّ ذلك حدث بإرادة سحرية، بينما أخذوا يدفعون السفينة بعنف من المؤخرة، وربطوها بزوارقهم، وسحبوها من جوانبها، وكانوا يسبحون بالآلاف حولها، حتى تمكّن الأوغاد أخيراً من إجبارها للإرساء على الساحل (بعد أن انزلقت الحبال)، حتى أوصلوها إلى مُتناول يد توو- وت في مكانه الأمن، وكان أثناء المعركة كلها رابضاً في مكْمنه، مثل أي جنرال مُحنّك، يستطلع الموقف من فوق التلال، إلّا أنّ النصر تحقّق الآن على نحو مقبول، فتكرّم لينزل وهو يعدو ليُشارك ذوي جلدته في الغنائم.

كان نزول توو- وت فرصة مؤاتية لنا لأن نُغادر مكان اختبائنا ونذهب لاستطلاع التل في مُحاذاة الهاوية. على بُعد خمسين ياردة تقريباً من فتحة الهاوية

رأينا ينبوعاً صغيراً، فأطفأنا ظمئنا الذي كاد أن يقضي علينا بمياهه العذبة. وغير بعيدٍ عن الينبوع اكتشفنا عدة أجمات مُحمّلة بالبندق مثل التي ذكرتها من قبل. لدى [310]تذوّقنا للبندق البرّي وجدناه مُستساغ الطعم، ويكاد يُشبه كثيراً البندق الإنكليزي العادي. ملأنا قبعاتنا في الحال، ووضعناها في مكانٍ ما من الوادي، وعدنا لنجمع مزيداً منه. وبينما كُنا مُنهمكين على هذا النحو، انتبهنا إلى خشخشة بين الشجيرات، وكنّا على وشك الرجوع خلسة إلى مخبئنا السري، حين حلّق طيرُ واق[1] أسود اللون كان يُكافح في بطءٍ لتخليص نفسه من الشجيرات الشوكية. انتفضتُ من الذعر حتى لم أتمكّن من فعل شيء، ولكن بيترز كان لديه من حضور الذهن ما يكفي ليهرع نحو الطير قبل أن يتمكّن من الإفلات، فامسك به من الرقبة. وأخذ الطير ينتفض ويصيح ويبذل مُحاولات مُذهلة للخلاص، حتى فكّرنا في أن نتخلّى عنه، خشية أن يُحذر المُتوحشين الذين ربّما لا يزالون يحومون في الجوار. وأخيراً طعنّا الطير بالسكين الصغيرة، فسقط وسحبناه إلى الوادي، وهنأنا أنفسنا لأنّنا على كل حال حصلنا على كمية من الطعام تكفينا أُسبوعاً على الأقل.

عدنا الآن إلى استطلاع ما يُحيط بنا، وغامرنا بالذهاب إلى مسافة لا بأس بها أسفل المُنحدر الجنوبي للتل، ولكنّنا لم نجد شيئاً يُفيدنا كطعام. ولذلك جمعنا كمية من الخشب الجاف وعدنا أدراجنا، ورأينا فرداً أو فردين من السكان المحلّيين كانوا في طريقهم إلى القرية مُحمّلين بما نهبوه من السفينة، وتوجّسنا أن يكتشفوا أمرنا لدى مُرورنا بأسفل التل.

الأمر التالي الذي انشغلنا فيه هو أن نجعل مكان اختبائنا آمناً ما استطعنا، ولتنفيذ ذلك، قمنا بوضع بعض الأغصان فوق الفتحة التي سبق أن تكلّمت عنها وقلت: إنّنا تمكّنا منها من رؤية السماء الزرقاء، عند وصولنا إلى مكانٍ مُسطّح من مدخل الهاوية. لم نترك غير فتحة صغيرة جدّاً تسمح لنا برؤية الخليج، دون مُجازفة بأن يُكتشف أمرنا من تحت. بعد ذلك هنأنا أنفسنا على هذا المكان

(1) الواق: طائر شبيه بمالك الحزين. [المترجم]

الآمن؛ لأنّنا أصبحنا بعيدين الآن عن عيون المُتلصّصين، طالما اخترنا البقاء ضمن نطاق الوادي نفسه، ولم نُغامر بالخروج إلى التل. لم يكن في وسعنا رؤية آثار لأولئك الهمجيين في هذا التجويف؛ ولكن في الواقع، حين فكرنا في احتمال أنّ التصدّع الذي أدّى إلى حصولنا على هذا الموقع لم يقع إلا منذ زمن قليل نتيجة تداعي الجرف الصخري المُقابل، وأنّه لا يوجد سبيل آخر للوصول إلى هذا المكان، لم نعُد نشعر بالفرح لأنّنا أصبحنا بمأمن من المُتلصّصين بقدر ما كنّا نخاف من عدم وجود وسيلة لنا للنزول. عند ذلك قرّرنا استكشاف قمة التل بصورة دقيقة، إذا ما سنحت لنا فرصة. وفي غضون ذلك بقينا نُراقب حركات المُتوحشين من المزغل.

لقد نهبوا في ذلك الوقت مُحتويات السفينة وأحالوها إلى حطام، والآن [311]انهمكوا بالتحضير لإشعال النار فيها. وبعد فترة وجيزة شاهدنا ألسنة الدخان تتصاعد في كتلٍ هائلة من باب عنبرها الرئيسي، ثم ما لبث أن تفجّرت كتلة كثيفة من اللهب وتصاعدت من السلوقية. وعلى الفور أمسكت النيران بحبال الأشرعة والصواري وما تبقّى من الأشرعة، وانتشر الحريق سريعاً إلى جميع الطوابق. ومع ذلك بقي عددٌ كبير من المُتوحشين في أماكنهم على السفينة، وكانوا يضربون بالحجارة الكبيرة، وبالفؤوس، وبقذائف المدافع، فيكسرون الأقفال وما إلى ذلك من أدوات الحديد والنحاس. أما على الساحل، وعلى الزوارق والأطواف، فكان هُناك ما لا يقلّ عن عشرة آلاف من سكان القرية على مقربة من السفينة، إلى جانب قطعانٍ منهم مُحمّلين بالأسلاب ويتّجهون بها إلى المناطق الداخلية والجزر المُجاورة. الآن كنّا نتوقّع كارثة، ولم يخب ظنّنا في ذلك. قبل أي شيء جاءت صدمة حادة (أحسسنا بها بوضوح من مكاننا الذي نختبئ فيه وكأنما صُعقنا بتيار كهربائي)، لكن لم تُصاحبها علامات انفجار. أُصيب المُتوحشون حتماً بالذهول، ولبثوا في أماكنهم لحظة وانشغلوا عما كانوا يقومون به من الأعمال وتوقّف الصراخ. كانوا على وشك استئناف نشاطاتهم، حين اندفع سيلٌ من الدخان من ظهر السفينة، يُشبه أن يكون سحابة رعدية سوداء ثقيلة.. وبعد ذلك، تصاعد تيارٌ طويل عنيف من النيران كأنه يخرج من بطن

السحابة، ووصل في ما يبدو إلى ارتفاع ربع ميل.. ومن ثمّ حصل انتفاخ مُفاجئ في كتلة اللّهب اتّخذ شكلاً دائرياً.. ثم تفجّرت الأجواء وكأنّما بقوة سحرية وعمّت فوضى عارمة في لحظة واحدة، وازدحم المكان بقطع الخشب، والمعدن، وأعضاء بشرية، وتتوّج ذلك أخيراً بصيحة بلغت ذروة العنفوان، جعلتنا نثب على أقدامنا في طيش، بينما رددت التلال صدى الصرخة الجبارة مرة بعد مرة، وتساقط فوق الرؤوس وابلٌ من الشظايا الصغيرة التي نتجت عن الدمار من كل اتّجاه حولنا.

تجاوزت الفوضى التي وقعت وسط المُتوحشين الحدود القصوى لتوقعاتنا، وكانوا الآن يحصدون في الواقع ثمار ما اقترفوه من خيانةٍ وغدر. ربّما قضى ألفٌ منهم نحبهم نتيجة للانفجار، بينما تعرّض عددٌ مُماثل منهم على الأقل للإعاقة والتشويه على نحو ميؤوس منه. وتناثرت على سطح الخليج أجسادُ الجرحى الذين يئنّون، والغرقى، وعلى الساحل كانت الأمور أسوأ. لقد صُعقوا فيما يظهر من هول الصدمة وجسامة الكارثة فلم يبذل بعضهم أي جهدٍ لمُساعدة البعض الآخر. وأخيراً، رأينا تغيّراً مُذهلاً في تصرّفاتهم. من ذلك الذهول المُطلق، بدا أنّهم أفاقوا على الفور وانطلقوا ليتصرّفوا بأقصى درجات الجنون، فصاروا يتراكضون بوحشية هُنا [312]وهُناك، يروحون ويأتون من نقطة مُحددة على الشاطئ، وتمتزج التعبيرات الأشد غرابة على وجوههم بالرعب، والغضب، والتلهّف، والصراخ بأعلى أصواتهم: «تكيلي- لي! تكيلي- لي!».

رأينا في ذلك الوقت جماعة كبيرة منهم تنطلق نحو التلال، ثم سرعان ما عادوا وهم يحملون أوتاداً من الخشب. أحضروا هذا الحطب إلى الموقع الذي كانت فيه حشود الناس على أشدّها، ثم انفصلت الحشود الآن فأتاح لنا ذلك أن ننظر إلى مصدر كل ذلك الهرج والمرج. شاهدنا شيئاً أبيض اللون ممدّداً على الأرض، مع أنّنا لم نتمكّن من تمييز ماهيته على الفور. وفي النهاية رأينا جثة الحيوان الغريب ذي الأسنان والمخالب القرمزية الذي انتشلناه من البحر وحملناه إلى السفينة في الثامن عشر من كانون الثاني. كان القبطان غاي قد حرص على حفظ جسد الحيوان من أجل أن يحشو الجلد ويأخذه إلى إنكلترا. أتذكّر أنّه

أعطى تعليمات بشأن ذلك قبل نزولنا إلى الجزيرة، وأحضر الحيوان إلى المقصورة وأخفاه عن الأنظار في إحدى الخزانات. والآن أُلقي الحيوان على الساحل بسبب الانفجار؛ ولكن لماذا أحدث كل هذا الاهتمام واللّغط وسط المُتوحشين بصورة أكبر ممّا يُمكننا استيعابه. مع أنّهم تجمهروا حول الجثة على مسافة قريبة، إلّا أنّ أحداً لم يبدِ استعداداً للاقتراب منه. وشيئاً فشيئاً تشكّلت حلقة حول ذلك الحيوان من رجالٍ يحملون الأوتاد، فما كادوا يكملون هذا الترتيب حتى اندفع الجمع الحاشد كله إلى داخل الجزيرة، وهم يصيحون بأصواتهم العالية: «تكيلي- لي! تكيلي- لي!».

الفصل (23)

خلال الأيام الستة أو السبعة التي أعقبت ذلك بقينا في مخبئنا على التل، لم نكن نخرج إلا نادراً، وفي أثناء ذلك كنا نتوخّى أقصى درجات الحذر، من أجل التزود بالماء والبندق البري. وصنعنا نوعاً من السقيفة على سفح التل، وجهزناها بسريرٍ من الأغصان الجافة، ووضعنا فيها ثلاث صخور كبيرة مُسطحة، لنستفيد منها كموقد ومنضدة في آن واحد. وتوصّلنا إلى طريقة لإشعال النار دون صعوبة بأن نفرك قطعتين من الخشب الجاف معاً، إحداهما: رقيقة، والأخرى: صلبة. أما الطائر الذي اصطدناه في ضربة حظ، فاتّضح أنّ لحمه رائع عند الأكل، مع أنّه غير طري بعض الشيء. لم يكن ذلك من طيور المُحيط، ولكنّه نوع من أنواع الواق، وله ريش فاحم السواد ورمادي، وأجنحته مُتناهية الصغر قياساً إلى حجمه الهائل. بعد ذلك رأينا ثلاثة طيور من النوع نفسه على مقربة من الوادي العميق، وكانت فيما [313]يبدو تبحث عن الطير الذي أمسكنا به؛ ولكن لأنّ تلك الطيور لم تحط على الأرض، فلم تدع لنا فرصة لاصطيادها.

لم نُعاني من أي شيءٍ في موقعنا الذي كنّا فيه طالما بقي هذا الطير معنا، ولكن اللحم كاد أن ينتهي الآن، وأصبح لزاماً علينا البحث عما نقتات به. لم تكن حبات البندق البري لتشبع جوعنا، بل تسببت لنا بتقلصات في الأمعاء، وفي حالة إكثارنا منها كانت تؤدي إلى صداعٍ عنيف. ورأينا عدة سلاحف ضخمة تتجوّل بالقرب من الساحل إلى الشرق من التل، وتخيّلنا أنّنا ربّما استطعنا بسهولة الإمساك بها، لو خرجنا دون أن يُلاحظنا أحد من السكان. وهكذا توصّلنا إلى قرار بالنزول ومُحاولة القيام بذلك.

بدأنا ننزل من المُنحدر الجنوبي، الذي بدا أنّه يواجهنا بأقل الصعوبات، ولكن لم نتقدّم إلا مائة ياردة (مثلما توقّعنا من منظر قمة التل) حتى أعيق تقدّمنا لوجود فرعٍ من الهاوية التي لقي فيها أصحابنا حتفهم. وهُنا عبرنا حافة هذا الممر الضيق وسرنا ربع ميل تقريباً، ومرة أُخرى توقفنا حين واجهنا جرفاً هائل العمق، ولم نتمكّن من المضي في طريقنا على حافته، فاضطررنا للرجوع مُتعقبين مواضع أقدامنا على الوادي الكبير.

والآن اندفعنا نحو الشرق، ولكن الحظ لم يُحالفنا أيضاً. وبعد تجوال مُتعثّر استمرّ ساعة، وجازفنا أثناء ذلك بحياتنا، اكتشفنا أنّنا لم نفعل شيئاً سوى أن هبطنا إلى تجويفٍ صخري واسع من الجرانيت الأسود، قاعه مُغطّى بالتراب الناعم، عندها كان المنفذ الوحيد من ذلك المكان هو الممر الوعر الذي نزلنا منه. التففنا مرة أُخرى على هذا الممر، وحاولنا تجربة الطرف الشمالي للتل. وهُنا وجدنا أنفسنا مضطرين لتوخّي أقصى درجات الحذر في مناوراتنا، لأنّ أقلّ حركة طائشة سوف تُعرّضنا لخطر أن يرانا المُتوحشون من سكان القرية. ولذلك زحفنا على أيدينا وركبنا إلى الأمام، وكنّا بين الفينة والفينة نضطر لأن نُلقي أنفسنا على الأرض وننبطح عليها، ونُجرجر أجسادنا ونتقدّم مُستعينين في ذلك بالأحراش. على هذا النمط من الحذر لم نتقدّم إلا مسافة قصيرة على الطريق، وعندها وصلنا إلى هاويةٍ أعمق من أي شيء رأيناه من قبل، تؤدي مُباشرة إلى الممر الرئيسي الضيق. وبهذا تأكدت مخاوفنا، ووجدنا أنفسنا مُحاصرين فلا نتمكّن من الوصول إلى العالم الذي [314]تحت. بما أنّنا كنّا مُنهكين غاية الإنهاك بعد الجهود التي بُذلت، قرّرنا الرجوع إلى مصطبتنا، فألقينا أنفسنا على سرير الأوراق، ونمنا نوماً عميقاً بعض الساعات.

انشغلنا عدة أيام بعد هذا البحث العقيم باستكشاف كلّ جزء من قمة التل، وكان هدفنا أن نتعرّف على الموارد الموجودة هُناك. لم نجد شيئاً يؤمن لنا الغذاء باستثناء البندق الذي كان يضرّ بنا، مع نوعٍ من أعشاب حشيشة الملاعق التي تنمو على رقعة صغيرة لا تتعدّى مساحتها أربع قصبات مُربعة[1] ولا بُدّ أنّها

سوف تستهلك خلال وقتٍ قصير. في الخامس عشر من شباط، إذا لم تخنّي الذاكرة، لم يبقَ من هذه الأعشاب شيءٌ يذكر، وأصبح البندق البري نادراً؛ وهكذا كان موقفنا يدعو إلى الرثاء أكثر من أي شيء[*5] وفي اليوم السادس عشر عُدنا من جديد إلى مُحاولة الخلاص من جدران هذا السجن الذي وقعنا فيه، على أمل العثور على منفذٍ للخروج؛ ولكن دون جدوى. وكذلك نزلنا إلى الهاوية التي غمرتنا فيها الأنقاض قبل ذلك، وكنّا نطمح لأن نكتشف عبر هذا النفق فجوة ربّما تقودنا إلى الوادي الكبير. وهُنا أيضاً أُصبنا بخيبة الأمل، مع أنّنا عثرنا على بندقية وجلبناها معنا.

في اليوم السابع عشر انطلقنا وقد وطدنا العزم على أن نُلقي نظرة فاحصة على هاوية صخور الجرانيت السوداء التي سبق أن اجتزناها في مُحاولة البحث الأُولى. وتذكرنا أننا لم نتفحص جيداً أحد التصدعات في جوانب هذه المفازة، وكنّا مُتلهّفين لاستكشاف المكان، مع أنّنا لم نتوقّع أن نجد هُنا أي منفذٍ للخروج.

لم تواجهنا صعوبة تُذكر في الوصول إلى قاع الهاوية كما حصل في السابق، وشعرنا الآن بما يكفي من الاسترخاء الذي يُتيح لنا إجراء المسح في شيءٍ من التأنّي. كان ذلك في الواقع واحداً من الأماكن الأكثر غرابة التي يُمكن أن يتخيّلها الإنسان، ووجدنا صعوبة في إقناع أنفسنا بأنه من عمل الطبيعة وحدها. ذلك التجويف، ابتداء من طرفه الشرقي إلى طرفه الغربي، يمتدّ إلى ما يُقارب خمسمائة ياردة، وكل التفافاته وتعرّجاته مُسنّنة؛ والمسافة من الشرق إلى الغرب في خطٍّ مستقيم لا تتجاوز (عليّ هُنا الافتراض، فلا وسيلة دقيقة لدي للتأكد) أربعون أو خمسون ياردة. لدى نزولنا لأول مرة إلى تلك الهاوية، بمعنى آخر، حين قطعنا مائة قدم نزولاً من قمة التل، كانت جوانب الهاوية مُتشابهة قليلاً فلا يختلف بعضها عن بعض، وفي ما يبدو لم تكن في أي موضع مُتصلة معاً، فالسطح الواحد من حجارة صابونية، والآخر من التراب الكلسي، يمتزج

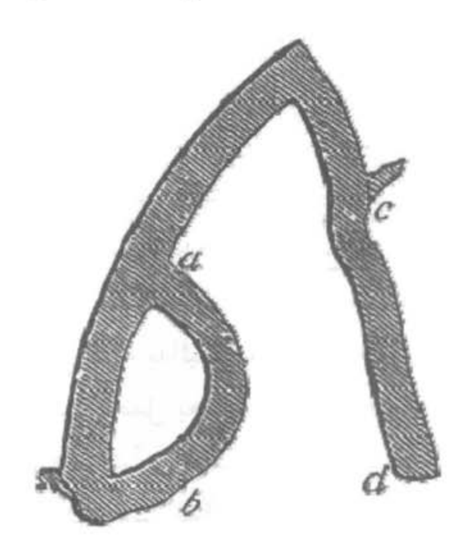
(*5) هذا اليوم يُعتبر من الأيام المُميزة لأنّنا لاحظنا في الجنوب عدة كتل هائلة من البخار الذي يميل لونه إلى الرمادي، وقد تكلمت عن ذلك. (المؤلف)

مع حُبيبات من مواد معدنية. ربما كان مُعدّل المسافة التي تفصل بين سطحين مُنحدرين ستين قدماً، ولكن ليس هُناك [315]في ما يبدو أي انتظام في الشكل. ولكن إذا اجتاز المرء إلى خارج النطاق الذي نتحدّث به، فسرعان ما تتقلّص المسافة، وتبدأ الجوانب بأن تُصبح مُتوازية، على الرغم من أنّها لمسافةٍ مُعينة أبعد من ذلك تبقى مُختلفة في مادتها عما موجود على السطح. لدى الوصول إلى مسافة خمسين قدماً من القاع، يبدأ نوع بارز من الانتظام. كانت جوانب الهاوية الآن مُنتظمة تماماً في موادها التي تتكوّن منها، وفي لونها، وفي الاتّجاه الجانبي لها، فالمادة سوداء جدّاً من الجرانيت الصقيل، والمسافة بين الجانبين، في جميع النقاط التي يواجه بعضها بعضاً، عشرون ياردة. من المُمكن أن يفهم المرء التكوين الدقيق لصخور الهاوية على أفضل صورة من خلال رسم مُخططات عامة لتلك البقعة بعينها؛ وكان معي، لحُسْن الحظ، دفتر جيب وقلم رصاص، احتفظت بهما في عناية بالغة عبر سلسلة طويلة من المُغامرات اللّاحقة، وأشعر أنّني مُمتنّ لهما لأنّي استطعت تدوين كثيرٍ من الموضوعات التي لولا ذلك كانت ستضيع من ذاكرتي.



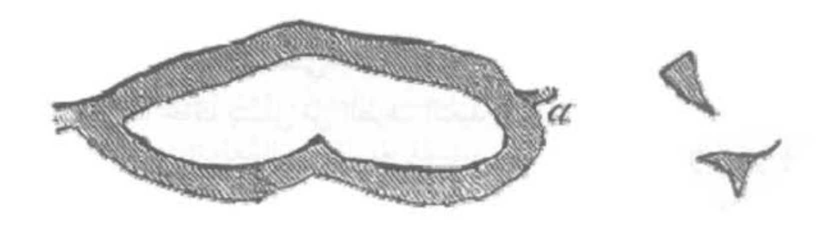
(الشكل 1)

هذا الشكل (انظر الشكل 1) يُعطي فكرة عامة عن تركيبة الهاوية، دون أن نُشير فيه إلى التجاويف الثانوية التي على جوانبها، وهي كثيرة، فكل تجويفٍ منها يُقابله انتفاخ مُعاكس ينطبق عليه. أما قاع الخليج، فهو مُغطّى على عمق أربع بوصات بمسحوقٍ من مادة ناعمة الملمس تكاد تكون غير محسوسة، وتحت هذه الطبقة وجدنا استمرارية لصخور الجرانيت السوداء. إلى جهة اليمين، عند الطرف الأدنى للهاوية، يُلاحظ وجود فتحة صغيرة؛ وهي تُمثل التصدع الذي أشرنا إليه أعلاه، وكان هدفنا من جولتنا الثانية أن نستكشف المكان بتمحيصٍ أكبر مما فعلنا قبل ذلك. والآن انطلقنا يحدونا الحماس، وقطعنا كمية من الشجيرات الشائكة التي تعيق حركتنا، ورفعنا كومة هائلة من أحجار الصوان الحادة التي تُشبه بعض الشيء [316]رؤوس السهام في تدبّبها. ولكن الشيء الذي أمدنا بالشجاعة على المُثابرة والمضي أنّنا لاحظنا ضوءاً خافتاً يتسلّل من الطرف البعيد للهاوية. وأخيراً انحرفت بنا الطريق إلى ثلاثين قدماً تقريباً، ووجدنا الفتحة عبارة عن قوسٍ واطئ يتّخذ شكلاً مُنتظماً، قاعه مغطّى بالمسحوق نفسه غير المحسوس الذي رأيناه في الهاوية الكبرى. انطلق الآن شعاعُ ضوءٍ قوي من فوقنا، حتى إذا استدرنا إلى مُنعطفٍ قريب، وجدنا أنفسنا داخل تجويفٍ مُرتفع آخر، مثل التجويف الذي تركناه في كل شيء عدا أنه يتّخذ شكلاً طولياً. ويجد القارئ هيئته العامة في الشكل التالي (انظر الشكل 2)



(الشكل 2)

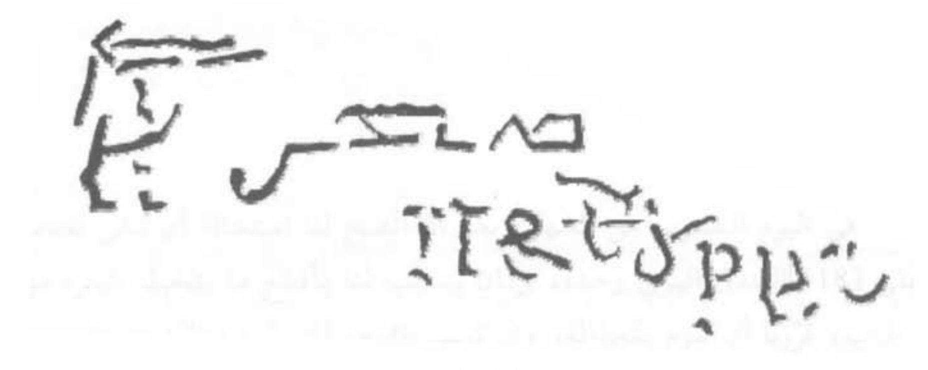
كان الطول الإجمالي لهذه الهاوية، ابتداءً من الفتحة a والتفافاً حول الانحناء b ثم وصولاً إلى الطرف d، خمسمائة وخمسين ياردة. عند النقطة c اكتشفنا فتحة صغيرة مُشابهة للفتحة التي انطلقنا منها من الهاوية الأُخرى، وهي مسدودة بالطريقة نفسها بشجيراتٍ شائكة وبكميةٍ من حجارة الصوان ذات حافات مُدبّبة بيضاء. ولكنّنا اخترقناها في إصرار، ووجدنا ارتفاعها أربعين قدماً تقريباً، وخرجنا بعد ذلك إلى هاوية ثالثة. وكانت مُماثلة للأُولى في كل شيء إلّا في طولها، وتتّخذ الشكل التالي: (انظر الشكل 3)



(الشكل 3)

وجدنا الطول الإجمالي للهاوية الثالثة يبلغ ثلاثمائة وعشرين ياردة. عند النقطة a هُناك فتحة عرضها ستة أقدام تقريباً، تمتدّ إلى مسافة خمسة عشر قدماً في [317]قلب الصخور، وتنتهي بحوضٍ من التراب، وما وراء ذلك لا توجد هاوية أُخرى، كما توقّعنا. كنّا على وشك ترك هذه المغارة التي لا تسمح بدخول الضوء إلا نادراً، فصاح بيترز لكي يُلفت انتباهي إلى رموزٍ غريبة على سطح التربة الكلسية تُمثّل نهاية الممر المسدود *cul-de-sac*. مع قليلٍ من إنعام النظر والخيال، لاحظنَا أنّ الجزء الأيسر، أي: الذي إلى أقصى الشمال من هذه الرموز ربّما يُفسّر على أنّه تصوير، مع كونه بدائياً، يجسد إنساناً واقفاً وهو يمدّ ذراعيه. أما بقية الرموز، فكانت أيضاً تحمل بعضِ الشبه بحروف أبجديةٍ ما، وكان بيترز مُستعداً على كل حال لأن يتبنّى الفكرة البلهاء في أنّها حقّاً حروف أبجدية. وأخيراً أقنعته بخطئه، بأن لفتت انتباهه إلى أرضية المغارة، حيث التقطنا من المسحوق الذي يُغطيها، قطعة بعد أُخرى، عدة رقاقات كبيرة من تلك المادة

الكلسية، التي كانت فيما يبدو قد تكسّرت بفعل انهيار السطح الذي وجدنا عنده الرموز، وهي ذات حافات ناتئة يمكن أن تنطبق تماماً على أماكن تلك الرموز؛ وبذلك ثبت لنا أنّها أشياء من صنع الطبيعة. يُقدم الشكل (4) نسخة دقيقة لكل شيء.



(الشكل 4)

بعد أن أقنعنا أنفسنا بأنّ هذه المغارات لا توفّر لنا أي سبيل للفرار من مُعتقلنا، رجعنا، وكنّا مُنهارين مُحبطين، إلى قمة التل. وليس هُناك شيء يستحق أن أذكره هُنا عن وقائع الأربع وعشرين ساعة اللاحقة، باستثناء أنّنا لدى تفحّصنا للأرض إلى الشرق من الهاوية الثالثة، وجدنا فجوتين عميقتين جدّاً على شكل مُثلث، جوانبهما من صخور الجرانيت السوداء. لم نرَ أنّهما تستحقّان مُحاولة الاقتحام، لأنّ منظرهما يوحي بأنّهما من صُنع ينابيع طبيعية فحسب، ويكاد المكان يخلو من أي مخرج. كان مُحيط إحداهما عشرين ياردة تقريباً، وشكلهما، فضلاً عن بُعدهما النسبي عن الهاوية الثالثة، موضح في الشكل (4) أعلاه.

الفصل (24)

في اليوم العشرين من الشهر، بعد أن اتّضح لنا استحالة أن نبقى نقتات على [318]البندق البري وحده، وكان يتسبب لنا بأفظع ما يتخيله المرء من العذاب، قرّرنا أن نقوم بمُحاولة، وإن كانت يائسة، للنزول من المُنحدر الجنوبي للتلّ. كانت جبهة الجرف هُنا تتشكّل من أكثر أنواع الصخور الصابونية الملساء خطورة، مع أنّها تكاد تكون عمودية في امتداداتها كلها (إلى عمق مائة وخمسين قدماً على الأقل)، وفي كثيرٍ من الأماكن تبدو مُقوسة بإفراط. بعد عناءٍ طويل اكتشفنا نتوءاً ضيقاً على بُعد حوالى عشرين قدماً تحت حافة الخليج؛ وهُنا حاول بيترز أن يقفز، وحاولت بدوري مُساعدته ما استطعت بأن ربطت سكينتي الجيب الموجودتين لدينا معاً. في شيءٍ من الصعوبة تمكّنت من النزول أيضاً؛ ثم رأينا أنّ في وسعنا النزول على الطريق كله من خلال الوسيلة التي تسلقنا بها الهاوية عندما دُفنّا تحت الأنقاض التي انهارت علينا من التلال.. بأن نحفر مواضع لخطواتنا على الصخور الملساء باستعمال السكين. لا يُمكن تصور مدى المُخاطرة الجسيمة التي تنطوي على هذه المُحاولة؛ ولكن، بما أنّه لا توجد وسائل أُخرى، قرّرنا الإقدام على ذلك.

على الحافة التي وقفنا عليها كانت تنمو بعض شجيرات البندق البري؛ وسُرعان ما ربطنا بها طرفاً من الحبل الذي صنعناه من مناديلنا. أما الطرف الآخر، فكان مربوطاً حول خصر بيترز، وهُنا ساعدته على النزول من حافة المُنحدر إلى أن أصبحت المناديل مشدودة شدّاً مُحكماً. وتقدّم بيترز الآن ليحفر

شقّاً عميقاً في الصخور الصابونية (بعمق ثمان إلى عشر بوصات)، وكان يُسوّي الصخور التي فوقه على ارتفاع قدم أو نحو ذلك لكي يسمح لنفسه بالانزلاق، ويستعمل عقب المُسدس في تثبيت وتدٍ قوي على السطح الأملس. بعد ذلك سحبته أربعة أقدام تقريباً إلى الأعلى، وعندها قام بعمل ثقبٍ مُماثل للثقب الذي تحت، وثبت وتداً كما فعل في السابق، وبهذا حصل على موضعٍ لتثبيت القدم واليدين. والآن فككت المناديل عن الأجمة، وألقيت إليه طرفَ الحبل، فربطه على الوتد في أعلى ثقبٍ من الثقوب، وترك نفسه يتدلّى في رفقٍ إلى موضع على بُعد ثلاثة أقدام أوطأ من الموضع الذي كان فيه آنذاك، أي: إلى أقصى مدى يسمح به حبل المناديل. وهُنا قام بحفر ثقب آخر، وأدخل فيه وتداً. ثم سحب نفسه إلى الأعلى، ليضع قدميه في الثقب الذي حفره [319]توّاً، وأمسكت يداه بالوتد في الثقب الأعلى. كان من الضروري الآن فك المناديل عن الوتد الأعلى، على أمل ربطها بالوتد الثاني؛ وهُنا اكتشفنا وجود خطأ حين حفرنا بعض الثقوب على مسافات مُتباعدة كثيراً عن بعض. ولكن بعد مُحاولتين فاشلتين خطيرتين للوصول إلى العقدة (حيث اضطر صاحبي لأن يتمسك بيده اليسرى بينما كان يُكافح ليفك العقدة بيده اليمنى)، حتى تمكّن أخيراً من قطع الحبل، وترك ست بوصات منه مثبّتة على الوتد. بعد أن ربط المناديل الآن على الوتد الثاني، نزل إلى موضعٍ تحت الوتد الثالث، وكان يتصرّف في حذر كي لا يهبط أكثر ممّا ينبغي. بهذه الطريقة (وما كان لي أن أُفكر فيها وحدي، وإنّما كنت أشعر بالامتنان كلّياً إلى عبقرية بيترز وحزمه في هذا الشأن) استطاع رفيقي أخيراً، بمُساعدة بين الفينة والفينة من نُتوءات في المُنحدر، أن يصل إلى القاع دون أي حادث.

بعد وقت قصير تمكّنت من استجماع شجاعة كافية لأنّ الحق به؛ ثم أقدمت على المُحاولة أخيراً. كان بيترز قد نزع قميصه قبل النزول، واستعملت هذا القميص مع قميصي أنا كحبل للقيام بالمُغامرة. بعد أن ألقيت البندقية التي وجدناها في الهاوية، ربطت هذا الحبل على الشجيرات، وتركت نفسي أنزلق بسرعة إلى الأسفل، وكنت أحاول بحركات حماسية أن أتغاضى عن مشاعر

الخوف التي كان من الصعب استبعادها بأي وسيلة. وكان هذا العزم كافياً خلال الخطوات الأربع أو الخمس الأُولى التي قمت بها؛ ولكنّي بعد ذلك وجدت خيالي مُضطرباً من الرعب الذي أثارته الأفكار عن الأعماق السحيقة التي توجب عليّ الآن النزول إليها، والطبيعة الخطرة للأوتاد والثقوب التي في الصخور الملساء التي تشكل مصدر الإسناد الوحيد لي. كان من العبث مُحاولة إبعاد هذه التصورات عن ذهني، وأن أُبقي عيني ثابتتين في انحنائهما على السطح الأملس للمنحدر الذي أمامي. كلّما كنت أُكافح جاهداً كي لا أُفكر، ازدادت تصوراتي كثافة وحيوية، وأصبحت أكثر إثارة للرعب في وضوحها. وفي نهاية المطاف وصلت إلى ذرى الأزمة التي تُثيرها الأوهام، شيءٌ من الخوف لا بُدّ أن يحلّ على المرء في جميع الحالات المُماثلة، أزمة بدأنا نتوقع فيها ضرباً من جنون المشاعر التي تراودنا حين نسقط.. فصرنا نتخيل أنفسنا نشعر بالغثيان، والدوار، في نزاعنا الأخير، ونشوة الإغماء غير المُكتمل، والمرارة الأخيرة للاندفاع والسقوط على الرأس. الآن وجدت هذه الخيالات تولد حقائقها الخاصة، وكل ما تخيّلته من ضروب الرعب تزحف في الواقع لتستولي عليّ. أحسست بركبتي تصطكان معاً بعنف، بينما كانت أصابعي تسترخي تدريجياً ولكن على نحو مؤكد وتتخلّى عن الإمساك بالصخر. كان هُناك رنين في أذني، وقلت لنفسي، «هذه إشارة على اقتراب أجلي!» هُنا دهمتني رغبة لا سبيل لمُقاومتها لأن أنظر إلى الأسفل. لا أستطيع، لن أفعل ذلك، لن تقتصر نظراتي [320]على المُنحدر الصخري؛ وبحركة عنيفة غير قابلة للتعليل، نصفها يُعزى إلى الذعر، والنصف الآخر مردّه إلى مُحاولةٍ للتخلّص من اضطهاد الأفكار، ألقيت نظرة إلى مكانٍ بعيد من الهاوية التي تحتي. في لحظة كانت أصابعي مُمسكة على موضعها وهي مُتشنجة، بينما أتاحت لي الحركة التي قمت بها أبسط فكرة مُمكنة عن المجال النهائي للخلاص، كأنّها ظلّ مُبهم مرّ بخاطري.. وفي اللحظة التالية اجتاحت روحي رغبة جامحة واشتياق للسقوط؛ رغبة، اشتياق، عاطفة لا سبيل للسيطرة عليها بتاتاً. وفي الحال تخلت قبضتي عن الموضع الذي تتشبث فيه على الوتد، واستدرت نصفياً بعكس اتجاه المنحدر الشاهق، وبقيت متدلياً لحظة بإزاء جبهة

الهاوية الصخرية الجرداء. إلّا أنّ ذهني خضع الآن لدوامة من الأحاسيس؛ ضجيجُ أصوات حادة بينها صوت كالسراب يصرخ قرب أُذني؛ شبحُ شخصٍ مُتلفّع بظلال الغسق، شيطاني الملامح، تلفّه غشاوة غامضة كان مُنتصباً تحتي مُباشرة؛ كان يتنهّد، فغطس قلبي في الأعماق، وغطستُ أنا بين ذراعيه.

كنت مُغمّى علي، وأمسك بي بيترز عندما سقطت. لقد انتبه إلى ما كنت أقوم به من موضعه عند قاع المُنحدر؛ وتخيّل الخطر الذي كنت على وشك مُلاقاته، فحاول أن يبث بي روح الشجاعة بأي وسيلة يستطيع ابتكارها؛ مع أنّ ارتباكي الذهني كان شديداً بصورة كافية ليحول بيني وبين أن أسمع ما يقول، فلم أكن على وعي من أنّه كان يتكلّم معي على الإطلاق. وأخيراً، بعد أن رآني أتدلّى، أسرع للصعود لنجدتي، ووصل في الوقت المُناسب تماماً لإنقاذ حياتي. لو سقطت بثقل جسدي كله، لكان حبل الكتان الذي يشدني حتماً قد انقطع، ولانحدرت فوراً إلى الهاوية؛ ولكن هذا ما حدث، إذ استطاع أن يُساعدني على الهبوط بلطف، لكي أبقى مُعلّقاً دون أن أواجه أي خطر حتى أسترد وعيي. وكان ذلك بعد انقضاء خمس عشرة دقيقة تقريباً. لما عدت إلى الوعي، تلاشت أحاسيسي بالذعر؛ وشعرت بأني كائنٌ مُختلف، وبمُساعدة بسيطة من رفيقي وصلنا إلى القاع في أمان.

هُنا وجدنا أنفسنا غير بعيدين عن الوادي الذي اتّضح لنا أنّه كان مقبرة لأصدقائنا، إلى الجنوب من تلك البقعة التي هوت علينا فيها الأنقاض من التل. كان المكان من القفار الموحشة الفريدة حقّاً، فكل ناحية فيه تُذكرني بالوصف الذي يقدمه الرحالة عادة عن الأصقاع الموحشة التي يقطنها سكان بابل الأوائل. إذا تجاهلنا الكلام عن الخرائب والأنقاض في الجرف المُتهاوي الذي يُشكّل حاجزاً فوضوياً للبراري التي تقع شمالاً، فإنّ سطح الأرض في كل اتجاه تتراكم عليه أكوامٌ هائلة من التراب، وهي في ما يبدو من نتائج انهيارات هائلة تكوّنت بعدها تراكيب ربما فيها شيء من براعة الفن؛ مع أنّها في تفاصيلها الدقيقة لا تتضمّن أي شبه بالفن الحقيقي يُمكن للمرء اكتشافه. هُناك وفرة في مُخلّفات الحمم البركانية، وكتل ضخمة [321]لا شكل لها من الجرانيت الأسود، تختلط

برواسب كلسية أُخرى(*6) كلها ممزوجة بحُبيبات من معادن شتّى. أما النباتات التي تنمو هُناك، فلا أثر لها من أي نوعٍ في أرجاء المنطقة الجرداء على امتداد البصر. ورأينا عدة عقارب كبيرة الحجم، وأنواعاً من الزواحف التي لا توجد في مناطق أُخرى على خطوط عرضٍ بعيدة عن خط الاستواء.

ولأنّ البحث عن الطعام كان غايتنا العاجلة، قرّرنا أن نمضي في طريقنا نحو ساحل البحر، الذي لا يبعد أكثر من نصف ميل، على أمل اصطياد سلحفاة ما، فالكثير منها شاهدناها من مكاننا الذي نختبئ فيه على التل. لم نتقدّم أكثر من بضع مئات الياردات، وكنّا نسلك الطريق في حذر بين الصخور الضخمة وركام مُخلفات البراكين، حتى رأينا حين استدرنا من إحدى الزوايا، خمسة من أولئك المُتوحشين يظهرون فجأة وينقضّون علينا من إحدى المغارات الصغيرة، فأسقطوا بيترز أرضاً بضربة هراوة. وما إن سقط حتى اندفعت الجماعة كلها لتكبيل ضحيتهم، ولم يتركوا لي وقتاً لألتقط أنفاسي من هول الدهشة. كنت أحمل البندقية معي، إلّا أنّ سبطانتها تعرضت لضرر بالغ حين رميناها من المُنحدر الشاهق بحيث ألقيتها عني واعتبرتها عديمة النفع، وفضلت عندئذ الاعتماد على مُسدسي الذي حافظت عليه جيداً فبقي صالحاً للاستعمال. وهكذا تقدّمت نحو المهاجمين وأطلقت النار عليهم واحداً بعد الآخر في تعاقب سريع. سقط اثنان منهم على الأرض، ووثب أحدهم على قدميه، وكان على وشك أن يطعن بيترز برمح، لكنه لم يحقق غايته. وبما أنّ رفيقي تحرر من الاشتباك معهم، فلم تواجهنا صعوبة أُخرى. كان لدى بيترز مُسدسه أيضاً، ولكنّه كان دائماً يرفض استعماله ويرى التريّث والفطنة، فهو يفضل الاعتماد على قوته البدنية التي تفوق كثيراً قوة أي شخص عرفته في حياتي. انتزع بيترز هراوة أحد المُتوحشين بعد أن سقط، ثم حطّم رؤوس الثلاثة الباقين، وقتل كل واحد منهم بضربة واحدة في آن معاً بسلاحه، وهكذا بقينا نحن أسياد الموقف.

(*6) كان لون التراب أيضاً يميل إلى السواد؛ في الواقع لاحظنا عدم وجود مواد ذات لون فاتح من أي نوع على ارض الجزيرة. (المؤلف)

حدثت تلك المُلابسات بسرعة مُذهلة، بحيث لم نُصدق أنّها حقيقية، وكنّا نقف مُفتخرين بالنصر فوق أجساد القتلى ونتأمّلها في شيءٍ من البلادة، حينها عدنا إلى رشدنا بعد أن انتبهنا إلى صرخات تأتي من بعيد. كان واضحاً أن المُتوحشين انتبهوا إلى إطلاق النار، وأنّ لدينا فرصة ضئيلة في التملّص منهم. من أجل الرجوع إلى الجرف الصخري سيكون من الضروري التقدم باتّجاه المصدر الذي جاءت منه الصرخات، وحتى لو نجحنا في الوصول إلى قاعدة الجرف، فلن نفلح أبداً في التسلّق دون أن يرونا. كان الموقف الذي وجدنا أنفسنا فيه حرجاً ومحفوفاً بأشد المخاطر، وتردّدنا ولم نعرف إلى أي طريق نبدأ بالهرب، عندئذ وثب أمامنا واحد من المُتوحشين وكنت أحسب أنني أطلقت النار عليه، وافترضناه ميتاً، ووقف بسرعة على قدميه، وحاول الفرار. ولكننا داهمناه قبل أن يتقدّم نحونا خطوات، [322]وكنّا على وشك أن نقتله، إلّا أنّ بيترز اقترح أنّنا ربما استفدنا منه في أن يرشدنا في مُحاولتنا للهرب. ولهذا سحبناه، وجعلناه يفهم أنّنا لن نتردّد في إطلاق النار عليه إذا ما أبدى أي مُقاومة. في غضون بضع دقائق خضع لنا تماماً، وكان يُهرول معنا أثناء تقدمنا بين الصخور، في طريقنا إلى الساحل.

حتى ذلك الوقت كانت الطبيعة الوعرة للأرض التي نخترقها تحجب البحر عنا، إلا حين يلوح لأبصارنا من الحين إلى الحين، حتى إذا لمحناه على نحو غير واضح ربّما كان على مسافة مائتي ياردة. ومع ظهورنا على الساحل المُنفتح أمامنا رأينا، بإزاء إحباطنا العميق، حشداً هائلاً من سكان الجزيرة، جاؤوا في ما يبدو من كل الأصقاع القريبة، وكانوا يتّجهون إلينا مُباشرة وهم يقومون بإيماءات تدلّ على الغضب الشديد، ويصرخون كالوحوش الضارية. كنّا على وشك أن نولي الأدبار، ونؤمن لأنفسنا انسحاباً وسط الامتدادات الشاسعة للأرض الأكثر وعورة، حين اكتشفتُ زورقين يبرزان من خلف صخرةٍ ضخمة غاطسة في الماء. وهُنا ركضنا باتّجاه هذين الزورقين بما أمكننا من سرعة، ولما وصلنا لم نجد فيهما أي حرّاس، وليس فيهما أي حمولة غير ثلاث من سلاحف غاليباغو والأغراض المُعتادة من المجاذيف لستة أشخاص. وعلى الفور استولينا

على أحد الزورقين وأجبرنا رهينتنا على الصعود معنا، واندفعنا نحو البحر بما استطعنا من قوة.

إلا أنّنا لم نقطع أكثر من خمسين ياردة بعيداً عن الساحل حتى هدأنا بما يكفي لإدراك حقيقة الذنب الذي فعلناه في ترك الزورق الآخر ليستولي عليه المُتوحشون الذين لم يكونوا، في هذا الوقت، بعيدين عن الساحل أكثر من ضُعف المسافة التي نبعد فيها نحن، وكانوا يتقدّمون سريعاً لمُلاحقتنا. لم يعُد هُناك من وقتٍ نهدره الآن. كان الأمل الذي نطمح إليه، في أحسن الأحوال، يبدو ضعيفاً، ولكن ما من أملٍ غيره. كان من المشكوك فيه، حتى لو بذلنا أقصى الجهود، أن نتمكّن من الرجوع في الوقت المُناسب لنستبقهم في الاستيلاء على الزورق؛ ومع ذلك كانت هُناك فرصة. ربّما استطعنا أن ننقذ أنفسنا لو نجحنا، ولكن عدم بذل أي مُحاولة يعني أن نُسلّم أنفسنا إلى الذبح المحتوم.

كان زورقنا في وضعٍ نموذجي بمُقدمته ومؤخرته المُقوستين، وبدلاً من أن نُديره إلى الاتّجاه المعاكس، غيّرنا موقعنا في التجذيف فحسب. وحالما رأى المُتوحشون هذا، تضاعفت صرخاتهم، وزادوا سرعتهم، وصاروا يقتربون بسُرعة لا تصدق. ولكنّنا اندفعنا بكل الطاقة التي نستمدّها من اليأس، ووصلنا إلى النقطة المُتنازع عليها قبل أن يصل إليها أكثر من شخصٍ واحدٍ من سكان الجزيرة. ودفع [323]هذا الرجل ثمناً باهظاً لقاء بسالته، إذ أطلق بيترز عليه النار من المُسدس لدى اقترابه من الساحل. وربما كان المُهاجمون الأكثر قرباً يبعدون نحو عشرين أو ثلاثين خطوة عنّا حين استولينا على الزورق. وحاولنا في البداية سحب الزورق إلى المياه العميقة، ليُصبح خارج مُتناول المُتوحشين، إلا أنّنا وجدناه عالقاً بالقاع فلا يتزحزح من مكانه، ولم يكن ثمّة وقت للانتظار، وهُنا استطاع بيترز بضربة أو ضربتين ثقيلتين من عقب البندقية أن يُحطّم جزءاً كبيراً من أحد جوانب الزورق؛ ثم انطلقنا. وتمكّن اثنان من سكان الجزيرة خلال هذا الوقت من الوصول إلى زورقنا، ورفضوا في إصرار وعناد التخلّي عنه، حتى اضطررنا للتخلّص منهما بالسكاكين. وابتعدنا الآن ونحن نشق طريقنا إلى عرض البحر. أما غالبية المُتوحشين، فحين وصلوا إلى الزورق المُحطّم، سمعناهم يُطلقون صرخات

غضب وإحباطٍ مُدوية. في حقيقة الأمر، من خلال ما لمسته من تصرّفات هؤلاء الأشرار، اتّضح لي أنّهم من أكثر الناس على الأرض خسة، ورياءً، وحبّاً للانتقام، وتعطّشاً لسفك الدماء. واضحٌ أنّنا لم نكن لنتوقّع منهم أي رحمة لو وقعنا في أيديهم. وقاموا بمُحاولة مجنونة لمُلاحقتنا في الزورق المُحطم، لكنّهم وجدوا ذلك عديم الجدوى، وعبروا مرة أُخرى عن حنقهم في سلسلة من الصرخات الخبيثة، ثم تقهقروا نحو التلال.

هكذا تخلّصنا من خطر داهم، غير أنّ موقفنا بقي غامضاً. كنّا نعلم أنّ هُناك أربعة زوارق مُماثلة لزورقنا موجود لدى المُتوحشين، ولم ندرك (بعد ذلك تأكدنا من الرهينة) حقيقة أنّ اثنين منهما قد نسفا وتحولا إلى قطع مُتناثرة مع انفجار سفينة جين غاي. لذلك توقّعنا أن يستمروا بمُلاحقتنا حالما يتمكن الأعداء من الاستدارة والوصول إلى الخليج (وهو لا يبعد أكثر من ثلاثة أميال) حيث تكون الزوارق راسية هُناك عادة. وبما أنّنا كنّا نخشى هذا، فبذلنا كل جهد مُمكن لأن نترك الجزيرة وراء ظهورنا، ومضينا نخترق المياه سريعاً، وأجبرنا رهينتنا على مُساعدتنا في التجذيف. بعد قرابة نصف ساعة، حين قطعنا مسافة ربما وصلت إلى خمسة أو ستة أميال نحو الجنوب، لمحنا أسطولاً من الزوارق أو الأطواف مُسطّحة القيعان تخرج من الخليج وتهدف في ما يبدو للّحاق بنا. ولكنهم ما لبثوا أن تراجعوا بعد أن تبيّنوا العجز عن مُلاحقتنا.

الفصل (25)

وجدنا أنفسنا الآن في عرض المُحيط القطبي الجنوبي الأجرد، على خط عرض يتخطّى أربعاً وثمانين درجة، على زورقٍ مُتداعٍ، دون مؤن باستثناء [324]ثلاث سلاحف. ولا يُمكن اعتبار الشتاء القطبي الطويل بعيداً عنّا، وأصبح من الضروري مُتابعة المسار الذي نسلكه دون إبطاء. كان هُناك ست أو سبع جزر تلوح لنا تنتمي إلى الأرخبيل نفسه، يبعد بعضها عن بعض حوالى خمسة أو ستة فراسخ؛ ولكن لم تكن لدينا نية للمُغامرة في التوقّف عندها. لدى مجيئنا من الاتّجاه الشمالي على متن سفينة جين غاي، كنّا قد تركنا وراءنا تدريجياً أكثر المناطق ازدحاماً بالجليد.. هذه حقيقة، على بساطتها، وبما ينسجم مع التصوّرات المعروفة بصفة عامة عن القطب الجنوبي.. لا تُتيح لنا التجربة أن نتغاضى عنها. لو حاولنا الرجوع فذلك من الغباء.. خاصة في هذا الوقت المُتأخر من الموسم. لم يكن أمامنا سبيل آخر في ما يبدو للأمل. وقرّرنا الاتّجاه بشجاعة إلى الجنوب، حيث لا تتوفر على الأقل فرصة لاكتشاف جزر أُخرى فحسب، وإنّما هُناك احتمال كبير في وجود مناخ لا يزال مُعتدلاً.

حتى ذلك الوقت وجدنا القطب الجنوبي، مثل المُحيط القطبي الشمالي، خالياً على وجه التحديد من العواصف العنيفة أو الأمواج العاتية غير المألوفة؛ ولكن زورقنا في أفضل الأحوال كان ذا تركيبة هشّة، رغم أنّه ضخم، فانطلقنا على عجل للعمل على أمل جعل الزورق آمناً بقدر ما تُتيح لنا الوسائل اليسيرة التي لدينا. لم يكن بدن الزورق مصنوعاً من مواد أفضل من لحاء الشجر.. نوع من الشجر غير معروف لدينا. أما الجوانب والأضلاع فهي من فروع الصفصاف

الخشنة، مُحورّة جيداً لتلائم الغرض الذي تستخدم فيه. وأُتيح لنا مجال للحركة من خمسين قدماً من طرفٍ إلى طرف، عرضه يتراوح من أربعة إلى ستة أقدام، وعمقه قرابة أربعة أقدام ونصف.. ولذلك كانت الزوارق مُختلفة كثيراً في شكلها عن أي زوارق أُخرى يمتلكها سكان المُحيط الجنوبي الذين تعرفهم الأُمم المُتحضّرة. لم نُصدّق أبداً أنّ هذه الزوارق هي من صنع سكان الجزر الجهلاء الذين يمتلكونها؛ وبعد أيامٍ مرّت على هذه الفترة اكتشفنا، بعد استنطاق رهينتنا، أنّ الزوارق في الواقع صنعها سكانٌ محلّيون من الجزر التي تقع إلى الجنوب من البلاد التي وجدنا تلك الزوارق فيها، وقد وقعت عرضاً بأيدي هؤلاء البرابرة الذين عرفناهم. لم يكن في وسعنا حقّاً أن نفعل شيئاً لضمان سلامة زورقنا. اكتشفنا عدة تشقّقات عميقة على طرفيه، وحاولنا [325]إغلاقها بقطع قماش من سترة صوفية. وبالاستعانة بالمجاذيف الزائدة، التي يوجد منها الكثير، عملنا على نصب نوع من الهيكل الخشبي فوق المُقدمة، بقصد تكسير قوة أي أمواجٍ ربما تُهدّد بإغراقنا في تلك الأصقاع. وكذلك وضعنا لوحين من المجاذيف ليؤديا وظيفة الصواري، الواحدة منهما في مواجهة الأُخرى، على جوانب المركب، واستغنينا عن المساحة التي كانت مُتوفرة لنا. على هذه الصواري ربطنا شراعاً من قمصاننا.. وفعلنا ذلك في شيءٍ من الصعوبة، لأنّنا هُنا لم نتمكّن من أن نطلب إلى سجيننا أي نوع من المُساعدة، مع أنّه كان على استعداد للمُساهمة في العمليات الأُخرى كلها. بدا منظر قماش الكتان مؤثراً فيه جدّاً. لم يكن في وسعنا منعه من لمس الكتان أو الاقتراب منه، وكان يرتعش حين نُحاول إجباره على الابتعاد، ويصرخ: «تيكيلي- لي!».

بعد إنهاء الترتيبات لضمان سلامة الزورق، أبحرنا متّجهين نحو الجنوب ــ الجنوب الشرقي في الوقت الحالي، على أمل الوصول إلى الجزيرة التي تقع إلى أقصى الجنوب من الأرخبيل على مرمى البصر. بعد أن وضعنا هذا الهدف نصب أعيننا، حوّلنا اتّجاه الزورق نحو الجنوب تماماً. لم يكن الجو مُعتدلاً على كل حال. وكنّا نتلمّس نسمات لطيفة من جهة الشمال، والبحر ساكن، وضوء النهار مُشرق على الدوام. لم نرَ أي أثرٍ للجليد؛ لم أُشاهد قطعة من الجليد مُنذ مُغادرة

خط العرض الذي تقع عليه جزيرة بينيت الصغيرة. في الواقع، كانت درجة حرارة المياه هُنا دافئة جدّاً بحيث لا تسمح بوجود الجليد بأي كمية كانت. بعد أن قتلنا السلحفاة الضخمة التي لدينا، وحصلنا منها على الطعام ومقدار وفير من الماء، تابعنا طريقنا دون أي حادثٍ مهم، واستمرّ الوضع على هذا المنوال ربما سبعة أو ثمانية أيام، أثناء هذه الفترة كان من المُحقق أنّنا قطعنا مسافة شاسعة باتّجاه الجنوب، لأنّ الرياح كانت تهب باستمرار في الاتجاه الذي نسلكه، وهُناك تيار قوي جدّاً استمر في التدفق في ذلك الاتّجاه أيضاً.

1 آذار[*7]. لمسنا الآن كثيراً من الظواهر غير الاعتيادية.. تُشير إلى أنّنا كُنا نقترب من منطقة جديدة مليئة بالمُفاجآت والأعاجيب. امتدّ شريط ضوئي رمادي يلفّه بخارٌ لا يتبدّد من بقعة مُرتفعة على الأفق الجنوبي، وكان يتوهّج على نحو يخطف الأبصار من الحين إلى الحين ويُطلق ومضات إلى ارتفاعات عالية، والآن انطلق الطيف كالرمح الثاقب من الشرق إلى الغرب، ثم من الغرب إلى الشرق، ومرة أُخرى عاد ليشكل مُستوى مُنتظماً من القمم.. باختصار، فقد حمل جميع التقلّبات الوحشية للشفق القطبي *Aurora Borealis*. كان مُعدل ارتفاع هذا [326]الشريط من البخار الضوئي، كما يبدو من موقعنا الذي كنّا فيه، قرابة خمس وعشرين درجة. وظهر لنا أن درجة حرارة مياه البحر كانت في ازدياد بين لحظة وأُخرى، وتلمسنا تغيراً طفيفاً في ألوانه.

2 آذار. اليوم، بعد استنطاق رهينتنا عدة مرات، توصلنا إلى معرفة كثيرٍ من الجزئيات فيما يتعلّق بالجزيرة التي وقعت فيها المذبحة، والناس الذين يقيمون فيها، وعاداتهم.. ولكن كيف يُمكنني الآن أن أُربك ذهن القارئ بهذه المعلومات؟ ربما أقول، رغم كل شيء، أننا عرفنا أنّ هُناك ثمان جزر ضمن الأرخبيل.. وأنّها تخضع لحكم ملك واحد مُتفق عليه، يُدعى ساليمون أو

(*7) لأسباب لا تخفى على احد، لا يُمكن أن أدّعي التزام الدّقة التامة بشأن هذه التواريخ. إنّها تُقدم أساساً لكي تُضيف شيئاً من الإثارة على السرد، كما سطّرتها بقلم الرصاص في مُفكرتي. (المؤلف)

ساليماون، وكان يسكن واحدة من أصغر الجزر؛ وعرفنا أيضاً أنّ الجلود السوداء التي يلبسها المُحاربون تؤخذ من حيوان هائل الحجم لا يعيش إلا في أحد الوديان بالقرب من قصر الملك.. وأنّ سكان الجزيرة لا يصنعون أي زوارق غير الأطواف ذات القيعان المُسطحة؛ وأنّ الزوارق الأربعة كلها التي كانت لديهم قد وقعت بين أيديهم بمحض الصدفة، وأنّها جُلبت من إحدى الجزر الكبيرة التي تقع في ناحيةٍ ما من الجنوب الغربي.. وأنّ اسم الرهينة هو نو- نو.. وأنّه لا يعرف أي شيء عن جزيرة بينيت الصغيرة.. وأنّ اسم الجزيرة التي تركناها هو سالال. كان يتلفّظ بدايات كلمات ساليمون وسالال بصوت مصحوب بهسيس طويل، حتى إنّنا وجدنا صعوبة في محاكاته، بعد مُحاولات مُتكررة، وكان ذلك مُشابهاً لصوت طائر الواق الأسود الذي أكلناه على قمة التل.

3 آذار. أصبحت حرارة المياه الآن ملموسة حقّاً، ومن حيث اللون طرأ عليها تغيرٌ سريع، فلم تعُد شفافة، ولكنها كانت مثل الحليب في تماسكه وتدرّج ألوانه. على مقربة منا مُباشرة، كان الماء رقراقاً، ليس بالخشونة التي يُمكن أن تُعرّض زورقنا للخطر.. مع أنّنا من الحين إلى الحين كنّا نستغرب عندما نرى، إلى اليمين وإلى اليسار، على مسافات مُتباعدة، دوامات مُباغتة مُضطربة تعتري سطح المياه؛ هذه التقلّبات، كما لاحظنا لاحقاً، يسبقها دائماً خفقانٌ عنيف في نطاق الضباب إلى الجنوب.

4 آذار. اليوم، كنا نأمل بتوسيع نطاق رحلتنا، كان النسيم الذي يهب من ناحية الشمال يتلاشى على نحو محسوس، وأخرجتُ من جيب معطفي منديلاً أبيض. كان نو- نو جالساً قريباً من مرفقي، فحدث أن لامس الكتان وجهه مُصادفة، وهُنا تشنجت عضلات وجهه بعنف. وأعقب هذه التأثرات علامات غيبوبة ونعاس، وأصدر تمتمة واطئة: «تيكيلي- لي! تيكيلي- لي!».

5 آذار. توقفت الرياح كلّياً، لكن بدا واضحاً أنّنا كنّا مُستمرين في الاتّجاه جنوباً بتأثير تيارٍ قوي. والآن.. في الواقع، كان يبدو شيئاً معقولاً أن نتوجّس [327]ونُحذّر من الاتّجاه الذي تتخذّه الأحداث.. غير أنّنا لم نحسّ بشيء. لم

تدلّ ملامح بيترز على شيءٍ من هذا، مع أنّ وجهه كان في بعض الأحيان يحمل تعبيراً لم يكن باستطاعتي أن أفهمه. بدا لنا أنّ الشتاء القطبي آت لا محالة.. إلّا أنّه يأتي دون أن يُرافقه ما يُرافقه من الرعب. أحسست بخدرٍ في جسدي وفي ذهني.. حالة من الغموض تُشبه الأحلام تنتاب أحاسيسي، هذا كل شيء.

6 آذار. ارتفعت طبقة البخار الرمادية الآن عدة درجات إضافية فوق الأُفق، والبخار الكالح كان يفقد ألوانه تدريجياً. وبلغت حرارة المياه ذروة ارتفاعها، حتى أصبح ملمسها لا يُطاق، وتحوّلت تدرّجات لون الحليب إلى ألوانٍ أكثر وضوحاً من السابق. اليوم حدث انقلابٌ عنيف في شكل المياه عند مكانٍ قريب جدّاً من الزورق. ورافق ذلك كالعادة وهجٌ يخطف الأبصار ينبعث من البخار عند ذروته، مع انفصامٍ مؤقت عن قاعدته. وكان ثمّة مسحوق أبيض ناعم الملمس، مثل الرماد، لكنه ليس رماداً، يتساقط فوق الزورق ويتناثر على مساحاتٍ واسعة من المياه، فيما بهت الوميض المُتذبذب واختفى وسط البخار، وغارت دواماته المُتلاطمة في البحر. واستلقى نو- نو على بطنه في قاع الزورق مخفياً وجهه، ولم تفلح جهودنا في إقناعه بالنهوض.

7 آذار. في هذا اليوم استجوبنا نو- نو وسألناه عن دوافع سكان قريته من قتل رفاقنا؛ ولكنه بدا مُستسلماً لمشاعر الفزع فلم يُعطنا جواباً منطقياً. بقي مُستلقياً في عناد في القاع؛ ولدى مُحاولتنا إعادة الأسئلة عن الدوافع، لم نتلقّ غير إيماءات بلهاء، مثال ذلك أنّه رفع سبابته إلى شفته العليا، وكشف عن الأسنان التي وراءها. وكانت هذه الأسنان سوداء؛ لم يسبق لنا أن رأينا أسنان أحدٍ من سكان قرية سالال.

8 آذار. اليوم طفا بالقرب منّا حيوانٌ أبيض اللون كان منظره على ساحل سالال قد تسبّب باضطرابٍ عنيف في أوساط المُتوحشين. كنت أنوي انتشاله، ولكني تكاسلت فلم أفعل ذلك. وظلت حرارة المياه في تزايد، ولم نعد نتحمّل أن نضع أيدينا فيها. لم يتكلّم بيترز إلا نادراً، وكنت أعرف ما يُفكر فيه ويجعله فاتر الهمة. وكان نو- نو يتنفّس بصوت مسموع، هذا كل شيء.

9 آذار. استمرّت المادة التي تُشبه الرماد بالتساقط الآن حولنا بكميات كبيرة. وتصاعد البخار إلى الجنوب بصورة غير اعتيادية وغلّف الأفق، وبدأ يكتسب وضوحاً أكبر في شكله. ليس في وسعي أن أعزو ذلك إلى شيء ما عدا وجود شلال لا حدود له في مكانٍ ما، يتدفّق في صمتٍ باتّجاه البحر من إحدى الروابي [328]السماوية الهائلة النائية. تلك الستارة العملاقة تمتدّ فتشمل نطاق الأفق الجنوبي كله. لم يصدر عني أيُّ صوت.

21 آذار. خيّم الآن ظلامٌ مُكفهر مُثير للارتياب فوق رؤوسنا.. لكن، من أعماق المُحيط التي بلون الحليب انطلق وهجٌ براق راح يُرفرف على جوانب المركب. أصبحنا مغمورين من كل جانب تقريباً بالرذاذ الرمادي الأبيض الذي استقرّ فوق رؤوسنا وفوق الزورق، إلّا أنّه سرعان ما ذاب في المياه مع سقوطه. ثم ضاعت قمة الشلال وسط العتمة والمسافات. إلّا أنّنا كنّا نقترب بشكل لا لُبس فيه من القمة بسرعة مُخيفة. بين الحين والحين تتّضح لنا فيها تصدّعات عريضة، وثغرات مفتوحة، مع أنّها سرعان ما تزول، ومن هذه الشقوق التي تصدر ضوضاءً وتوحي بتصورات غامضة مُتذبذبة، يخرج سيلٌ قوي من الرياح، دون أي صوت، يُمزق في طريقه صفحة المُحيط الهائج.

22 آذار. تفاقمت شدة الظلام فعلاً، ولم يُخفف من شدته إلا انعكاسات الضوء البرّاقة على المياه تلقيها إلى الوراء الستارة البيضاء التي أمامنا. استمرّت في التحليق الآن أعداد كثيرة من الطيور البيضاء بمناظرها الشاحبة من خلف الحجاب، وكأنّما كانت صرخاتها تأتي من الأزل وهي تصيح: «تيكيلي- لي!» وما لبثت أن تقهقرت فلم نعد نراها. هُنا انتفض نو- نو من قاع الزورق؛ ولكنّنا لمّا تلمّسنا جسده وجدناه قد فارق الحياة. ثم اندفعنا لنُعانق الشلال، ووجدنا هاوية سحيقة تمتدّ لتُعانقنا. ولكن في طريقنا إلى الهاوية انتفض أمامنا شبح بشري ملفوف، أضخم في أبعاده من أي رجل من سكان الجزر. ألوان بشرته بيضاء ناصعة كالثلج.

تنويه

كانت مُلابسات الموت المُفاجئ المؤسف للسيد بايم مؤخراً قد أصبحت معروفة مُسبقاً لدى عامة الناس بعد أن نشرتها الصحف اليومية. نخشى أن تكون الفصول القليلة المُتبقية التي من شأنها أن تكمل حكايته قد ضاعت، بعد أن ارتأى الرجل الاحتفاظ بها لنفسه، في الوقت الذي كانت فيه الفصول التي وردت أعلاه في طريقها إلى النشر بعد إجراء مُراجعة مُناسبة عليها، وفيما يظهر لا يوجد أي أمل في استرداد الأوراق المفقودة على أثر الحادث الذي لقي فيه الرجل مصرعه. ولعلّ هذا يُفسر وجود شيء من التناقض في الأحداث؛ وإنّ الأوراق، إذا ما عُثر عليها في النهاية سوف تُنشر على الملأ.

لم نترك وسيلة دون أن نُجرّبها لتلافي هذا النقص. ربّما كان السيد الذي ورد اسمه في التمهيد، من خلال التصريح الذي أدلى به هُناك، قادراً على ملء الفراغ، إلّا أنّه رفض قطعاً القيام بهذه المهمة.. فالأمر، ولأسباب ربّما تكون مُقنعة، يعود إلى عدم دقة التفاصيل عموماً التي قُدّمت إليه، فضلاً عن عدم اقتناعه بواقعية الأجزاء الأخيرة للحكاية كلها. أما بيترز، الذي ربّما كنّا نتوقّع منه أن يُقدم بعض المعلومات، فهو ما زال على قيد الحياة، ويسكن في ولاية إلينويز، ولكن لا سبيل [329]للقاء به حالياً. ربّما تمّ العثور عليه في وقتٍ لاحق، وليس من شكّ في أنّه سوف يُدلي بشهادته عمّا انتهت إليه حوادث رواية بايم.

إنّ ضياع فصلين أو ثلاثة فصول أخيرة (فلم يبقَ غير فصلين أو ثلاثة منها) أمر يدعو إلى الأسف العميق، فلا شكّ أنّ تلك الفصول تتضمن مادة ذات علاقة بالقطب ذاته، أو على الأقل بالمناطق المُجاورة له؛ وذلك يعود أيضاً إلى أنّ أقوال المؤلف فيما يتصل بهذه الأقاليم ربما يُمكن التحقق منها خلال وقت قصير أو تفنيدها بأدلة تعتمد على استكشافات جهاتٍ حكومية يجري التحضير لها الآن للذهاب إلى المحيط الجنوبي.

بخصوص جانبٍ مُحدّد من الحكاية ربما يُمكن تقديم بعض التعليقات؛

وهذا يمنح كاتب هذا المُلحق شيئاً من الرضا عن النفس إذا وجد هُنا نزعة إلى النقد والتمحيص، بأي درجة كانت، في تناول الصفحات التي تمّ نشرها حتى الآن. إنّنا نلمح هُنا بصفة خاصة إلى الهاويات التي وجدت على جزيرة سالال، وإلى الأشكال كلها التي أُشير إليها في الصفحات السابقة.

لقد تطرّق السيد بايم إلى أشكال الهاوية المُختلفة دون أن يُعلّق على ذلك، وكان يتكلّم في ثقة تامة عن الشقوق والتصدّعات التي وجدت عند الطرف الذي يقع إلى أقصى الشرق من هذه الهاوية بمُختلف أشكالها على أنّه يحمل شبهاً من وحي الخيال بحروف أبجديةٍ ما، وهو، باختصار، ليس كذلك قطعاً. هذا الرأي المؤكد يُقدّم بطريقة مُبسّطة جدّاً، ويُدعم بنوع من العرض الحاسم (بمعنى آخر، هُناك تطابق بين نتوءات الشظايا التي تمّ العثور عليها وسط التراب والتصدعات التي على الجدار)، حتى إنّنا نجد أنفسنا مُضطرين لتصديق الكاتب في آرائه الجادة؛ وما من قارئ عاقل يُمكن أن يفترض عكس هذا. ولكن لأنّ الحقائق التي تتّصل بكل هذه الأشكال هي أشياء فريدة في غرابتها (لا سيّما حين تقارن مع الأقوال التي وردت في متن الحكاية)، ربّما يجدر بنا أيضاً أن نقول كلمة أو نحو ذلك عن كل هذه الأمور، لا سيّما وأنّ الحقائق المطروحة هُنا، ولا شكّ في هذا، قد غفل عنها السيد بو.

إذن فالأشكال (1)، (2)، (3) على التوالي، وكذلك الشكل (5)، إذا ما ربطت معاً وفقاً لسياقٍ دقيق ينسجم مع طبيعة الهاوية نفسها بمُختلف أشكالها، بحيث تجرّد من الفروع الجانبية الصغيرة أو الأقواس (وهي، كما نتذكر حتماً، غرضها الوحيد أن تؤدي وظيفة الاتصال بين الحُجرات الرئيسية، ولها طبيعة مُمَيزة تماماً)، سوف تشكل جذراً لفظياً في اللّغة الأثيوبية.. والجذر هو «أن يكون الشيء مغموراً بالظّلال»، إذ تختلط هُنا معاني الظل أو الظلام جميعاً.

أما بصدد «التصدعات التي إلى اليسار أو التي إلى أقصى الشمال» في الشكل (4)، فالشيء المُحتمل أكثر من غيره أنّ رأي بيترز كان صحيحاً، وأنّ مظهرها الذي يُماثل الحروف الهيروغليفية حقّاً هو من الأشياء التي تدلّ على البراعة في الفن؛ في حقيقة الأمر لا بُدّ أن يكون هذا تصويراً لمخلوق من البشر.

إنّ الرسم على كل حال معروضٌ على القارئ، ولعلّه يرى، أو لا يرى، وجه الشّبه الذي نفترضه؛ إلّا أنّ بقية التصدعات تُعزّز بقوة فكرة بيترز. لا شكّ أنّ النقوش العليا تتضمّن الجذر اللفظي في اللّغة العربية، ومعناه «أن يكون الشيء ابيض اللون»، حيث تتزاحم كافة معاني التألّق والبياض. أما سلسلة النقوش السّفلى، فليست ذات معانٍ واضحة مُباشرة. بعض الحروف هُنا مُنفصلة عن بعض على نحو ما ومُتكسّرة؛ ولكن لا مجال للشك في أنّها، في حالتها الكاملة، تُشكّل كلمة مصرية كاملة تدل على معنى «المنطقة التي تقع جنوباً». ينبغي أن نُلاحظ أنّ هذه التفسيرات تدعم رأي بيترز فيما يتعلّق بـ «الشيء الذي إلى أقصى الشمال» في تلك الأشكال. فهُناك ذراعٌ ممدودة باتّجاه الجنوب.

لا بُدّ أنّ استنتاجات من هذا القبيل تفتح المجال واسعاً للتخمين المُثير للاهتمام. ربّما يتوجّب النظر إلى هذه الأشكال آخذين بنظر الاعتبار بعض الحوادث التي تمّ التطرّق إليها سريعاً في الحكاية؛ مع أنّ هذا الارتباط مع سلسلة الحوادث التي في الحكاية لن يكون كاملاً بأي شكل واضح. هُناك مثلاً صرخة «تيكيلي- لي!» التي أطلقها السكان الخائفون في قرية سالال لدى اكتشاف جثة الحيوان الأبيض الذي التُقط من البحر. وهذا أيضاً ما عبّروا عنه في القرية وهم يرتجفون عندما اكتشفوا كومة من الأشياء البيضاء لدى السيد بايم. وهُناك أيضاً الصرخة التي أطلقتها الطيور الهائلة البيضاء التي حلّقت سريعاً وسمعناها من وراء ستارة البخار الأبيض في الجنوب. لا شيء أبيض اللون له وجود في سالال، ولا شيء على [330]عكس هذا اللّون له أثر خلال الرحلة اللاحقة إلى المنطقة التي وراءها. ليس من المُستحيل أن يتمّ العثور على كلمة «سالال»، وهي تسمية جزيرة الهاويات، لدى التمحيص الدقيق في فقه اللّغة، لنكتشف أنّ للاسم نوعاً من الارتباط مع الهاويات نفسها، أو أنّ هُناك نوعاً من الإشارة إلى حروف أثيوبية مكتوبة بخطٍّ غامض في حركاتها المُلتوية.

«حفرتها وسط التلال، وإنّ ثأري من التراب مكتوب بين الصخور».

مقال إلى بلاكوود

«باسم النبي... أيّها التافهون!!»

صراخ بائع خردوات تركي مُتجوّل[1]

يُخيّل إليّ أنّ جميع الناس قد سمعوا بخبري. اسمي سغنورا سايك زنوبيا. هذا [331]شيءٌ أعرفه حقَّ المعرفة. لا أحد غير أعدائي يجرؤ أن يُسميني سوكي سنوبز. لقد تأكّد لي أنّ سوكي ما هو إلا اسم مُحرّف تحريفاً فاسداً في اللّغة الدارجة لاسم سايك.. الذي هو اسمٌ إغريقي عريق، ويعني «الروح» (أي: أنا نفسي، فأنا شخصية أحمل روحاً وثّابة جُملة وتفصيلاً) في بعض الأحيان ربما أكون «فراشة»، وهذه التسمية الأخيرة لا شك أنّها تنطوي على تلميحٍ إلى مظهري وقد ارتديت حُلّتي الجديدة من الساتان القرمزي، مع عباءةٍ عربية بزرقة السماء، مُزركشة بإبزيمات زينة خضراء، وسبع حواشٍ وأهداب من زهرة الربيع الأذينية بلون البرتقال. أما عن اسم سنوبز.. فأي شخص ينظر لي من المُحقق أن يُدرك حالاً أنّ اسمي لم يكن سنوبز في أي وقتٍ مضى. لقد روّجت الآنسة تابيثا تورنب لذلك الاسم المُنتحل بدافع الغيرة والحسد فحسب. تابيثا تورنب هي التي فعلت ذلك حقّاً! أوه، يا لها من شابةٍ وضيعة تعيسة! ولكن ماذا يُمكن أن نتوقّع من الشلغم[2]؟ أتساءل إن كانت تتذكر القول المأثور القديم عن «الدماء التي

---

(1) من خطبة تُنسب إلى الدكتور جونسون في كتاب (خطب ممنوعة أو المسرح الشعري الجديد) *The New Theatrum Poetarum* وهو من الكتب التي نالت شعبية واسعة في زمن إدغار ألن بو، قام بتحريره هوراس سميث ونشر سنة 1812. [المترجم]

(2) الشلغم turnip إشارة إلى اسم الفتاة التي ترد في القصة (تابيثا تورنب). [المترجم]

تخرج من الشلغم»، الخ..؟ [مُلاحظة. عليّ أن أذكّرها بها في أول فرصة]. [ملاحظة أُخرى.. اسحب أنفها كي لا تتدخّل في شؤوني]. أين وصلنا؟ آه! لقد تأكّد لي أن سنوبز ما هو إلا تحوير سخيف لاسم زنوبيا، وأنّ زنوبيا هي إحدى الملكات[3].. (وأنا كذلك ملكة. كان الدكتور مونيبيني دائماً يُلقبني بملكة القلوب).. وزنوبيا، فضلاً عن سايك، هما من أسماء شخصيات إغريقية عريقة، وأبي كان «إغريقياً»، ولهذا لدي كلُّ الحق في الانتماء إلى لقب عائلتنا، الذي هو زنوبيا وليس إلى سنوبز على كل حال. لا أحد غير تابيثا تورنب يدعوني باسم سوكي سنوبز. أنا سنغورا سايك زنوبيا.

كما أسلفت، فالجميع لا بُدّ أن يكونوا قد سمعوا بخبري. إنّني الشخصية التي يُسمونها على وجه التحديد سنغورا سايك زنوبيا، ولقد حقّقت شهرة عن جدارة في العمل كمراسلة صحفية لجمعية «جمعية فيلادلفيا للثقافة الإنسانية والمكتبات والأدب الرفيع للشباب والأعمال التجريبية الشاملة وتصريف العملة واستراحة لشرب الشاي مفتوحة بانتظام». لقد صاغ الدكتور مونيبيني بنفسه هذا العنوان لنا، ويقول: إنّه [332]اختاره لأنّه يُشبه كثيراً برميلاً فارغاً من شراب الرّم. (رجلٌ سوقيٌّ أحياناً.. ولكنه عميق الغور). كنّا جميعاً نكتب الحروف الأُولى التي يتألف منها اسم الجمعية بعد توقيع أسمائنا، على غرار «ج. م. ف.»، الجمعية الملكية للفنون.. أو «ج. ن. م. ن.»، جمعية نشر المعارف النافعة، *Society for the Diffusion of Useful Knowledge* وما إلى ذلك.. ويقول الدكتور مونيبيني إنّ الحرف S مثلاً في اسم هذه الجمعية الأخيرة هو مُختصر لكلمة *stale* «بول البعير»، وإنّ الحروف .D. U. K يُمكن أن تُقرأ duck «بطة»، (ولكنها ليست كذلك حتماً)، وقال أيضاً: إنّ الحروف كلها .S. D. U. K هي مُختصر لعبارة «بطة فاسدة» وليس لجمعية اللورد بروغهام[4].. عندئذ لا بُدّ من الاعتراف بأنّ

(3) زنوبيا: ملكة جميلة كانت تقود الجيوش وتتناقش في مسائل فلسفية مثل أي مُفكر وقائد شجاع. لدى موت زوجها أوديناثوس حاكم بالميرا سنة 269 م استعادت معظم أجزاء سوريا من الفرس وألحقتها بالإمبراطورية الرومانية. [المترجم]

(4) هنري بيتر بروغهام (1778- 1868) خبير في العلاقات العامة ومُساهم في =

الدكتور مونيبيني كان رجلاً غريب الأطوار إلى درجة أنّني لست مُتأكدة على الإطلاق إن كان في أي وقت من الأوقات يقول الحقيقة أم لا. على كل حال فنحن اعتدنا دائماً أن نُضيف أسماءنا إلى الحروف الاستهلالية[5] P. R. E. T. T. Y. B. L. U. E. B. A. T. C. H. . . (رقعة زرقاء من الفسيفساء الجميلة) بمعنى آخر: جمعية فيلادلفيا للثقافة الإنسانية والمكتبات والأدب الرفيع للشباب والأعمال التجريبية الشاملة وتصريف العملة واستراحة لشرب الشاي مفتوحة بانتظام.. فكل حرفٍ من تلك الحروف يعوّض عن كلمة، وهكذا يطرأ تعديلٌ حاسم على الصيغة التي وضعها اللورد بروغهام. يقيناً فإنّ الدكتور مونيبيني يرى أنّ هذه الحروف الاستهلالية التي نستخدمها ترمز إلى شخصيتنا الحقيقية.. ولكني طوال حياتي لم أستطع أن أفهم ما يقصده الرجل.

على أنّ الخدمات الجليلة التي قدّمها الدكتور، والجهود المُضنية التي أسهمت بها الجمعية من أجل أن تشدّ انتباه الناس إليها لم تُكلّل بنجاح كبير إلى أن قيّض لي الانضمام إليها. الحقُّ أنّ أعضاء الجمعية كانوا مُنغمسين في نوعٍ من الأساليب الوقحة التي يستخدمونها في نقاشاتهم. كانت الصحف التي تُقرأ مساء كل سبت لا تتّصف بأدنى ما يُمكن توقّعه من العمق فحسب، وإنّما هي خليط من التهريج. كلّها سيلٌ من الفقاقيع والانتقادات اللاذعة المُتعجلة. ليس هُناك استقصاء للدوافع الأساسية لمجريات الأمور، أو أي التزام بالمبادئ النزيهة للمهنة. لم يحصل أي تحقيق مُتجرّد عن الدوافع في أي شيء بتاتاً. ليس هُناك اهتمام بتلك النقطة، «اللياقة في طرح الأمور»[6]. باختصار، لا وجود لنوع من الكتابة الرائعة كهذه التي أكتبها. كلها أشياء وضيعة المُستوى.. جدّاً! كتابات تفتقر

= مجلّة (مُراجعة إدنبرة) منذ عددها الأول، ومؤسس جمعية نشر المعارف النافعة سنة 1825 ومُناصر لقضايا اجتماعية. له كتاب (مُجادلات في اللاهوت الطبيعي). [المترجم]

(5) هذه الحروف الاستهلالية لاسم الجمعية المُشار إليها وهو «Philadelphia, Regular, Exchange, Tea, Total, Young, Belles, Lettres, Universal, Experimental, Bibliographical, Association, To, Civilize, Humanit». [المترجم]

(6) لياقة الأشياء: عبارة وردت في رواية فيلدنغ (توم جونز) ج4 وهي من العناصر الأساسية لفلسفة الأخلاق لدى صموئيل كلارك (1675- 1729). [المترجم]

إلى العمق والمصداقية، وإلى قراءة الموقف، وإلى الميتافيزيقيا.. لا شيء ممّا يدعوه المُتعلمون «الروحية»، وما يرتئي غير المُتعلمين تسميته بالرياء *cant*. [يقول الدكتور إنّ عليّ نطق كلمة «*cant*» بحيث أجعل الحرف الأول منها *K* . . ولكني أعرف أفضل][7].

لدى انضمامي إلى الجمعية كنت أنوي اقتراح أسلوبٍ أفضل في التفكير والكتابة، وكل من في العالم يعرف كيف حقّقت في هذا الصدد نجاحاً باهراً. لقد نهضنا الآن كصحفٍ جيدة في جمعية (رقعة زرقاء من الفسيفساء الجميلة) مثل أي صحيفة يجدها المرء، حتى في بلاكوود. أقول، بلاكوود، إذ تأكد لي أنّ أفضل أنواع الكتابة، في أي موضوع كان، لا بُدّ من أن يجدها المرء مُسطّرة على صفحات تلك المجلّة الشهيرة عن جدارة[8]. والآن أصبحنا نعتبر المجلّة نموذجاً يُقتدى به في كافة الموضوعات، وبدأت الأنظار تُسلط علينا سريعاً بعد ذلك. على كل حال، فليس من العسير أن يكتب المرء مقالاً على غرار أُسلوب بلاكوود الفريد في نوعه، لو شاء المضي في هذا على نحوٍ صائب. بطبيعة الحال لست أتكلّم عن المقالات السياسية. [333]الجميع يعرف كيف تسير أمورها، لأنّ الدكتور مونيبيني سبق أن شرح الأمر كله. كان لدى السيد بلاكوود زوج من مقصّات الخياطين، وثلاثة عمال مُتدربين يقفون إلى جانبه على أهبة الاستعداد مُنتظرين الأوامر. أحدهم يعطيه صحيفة «التايمز»، وآخر يُقدم له صحيفة «ايكزامنر» وثالث يُناوله نسخة من قاموس كولي (الخلاصة الوافية الجديدة للعبارات اللّاذعة *slang-whang* باللّهجة الدّارجة). فما يكون من السيد ب. إلّا أن يقطع ويرصّع. وسرعان ما ينتهي كل شيء.. ولا شيء هُناك غير كلمات مُبعثرة: «إيكزامنر» و«كلمات عامية بذيئة» و«تايمز».. ومن ثم «تايمز»، «كلمات عامية بذَيئة» و«إيكزامنر».. ومن ثم «تايمز»، «إيكزامنر» و«كلمات عامية بذيئة».

---

(7) كثيراً ما كان إدغار البن بو يسخر من الفيلسوف عمانويل كانت. ربما قرأ مقالاً بعنوان (كانت في مقالاته المُتنوعة) في عدد مجلة بلاكوود لشهر آب 1830. [المترجم]

(8) بلاكوود: اسم مجلة *Blackwood's Edinburgh Magazine* كان إدغار ألن بو دون شك يقرأها كثيراً منذ فترة الصبا وقد صدرت سنة 1817 وهي تنشر القصص القصيرة والقصائد. [المترجم]

إلّا أنّ المزية الأساسية للمجلّة تكْمن في تنوّع مقالاتها؛ وأفضل ما في هذه المقالات يأتي تحت عنوان يصطلح الدكتور مونيبيني على تسميته «العجائب والغرائب» (مهما كان معنى ذلك) وما يُسميه الجميع «تهافت على الشطط». هذا نوع من الكتابة كنت منذ زمنٍ بعيد أُتقن مُمارسته، مع أنّه لم يحصل إلّا بعد زيارتي الأخيرة إلى السيد بلاكوود (المُفوّض لدى الجمعية) أن توصلت إلى إدراك المنهج الدقيق لكتابة هذا النوع من الإنشاء. هذا المنهج بسيط غاية البساطة، ولكنّه ليس ببساطة السياسة. لدى زيارة منزل السيد ب.، واطّلاعه على رغبات الجمعية، استقبلني الرجل بتهذيبٍ عظيم، واصطحبني إلى مكتبه، وقدّم لي شرحاً تفصيلياً بكلمات واضحة للعملية كلها.

«سيدتي العزيزة»، قال، وقد صُعق فيما يظهر بمظهري المهيب، لأنّي كنت ألبس ثوباً من الساتان القرمزي، مع إبزيمات خضراء، مُزركشاً بأزهار الربيع البرتقالية. «سيدتي العزيزة»، قال، «تفضلي بالجلوس. المسألة على النحو التالي: في المقام الأول الكاتب الذي يعمل لديكم يميل إلى الإفراط في كل شيء وحتماً يستخدم حبراً غامق السواد، وقلم رصاص كبير، وريشة كتابة مثلومة. عليك أن تُلاحظي، يا آنسة سايك زنوبيا!» تابع الرجل كلامه، بعد أن توقّف لحظات، بنبرة مُعبّرة بأقصى ما يمتلك من طاقة وفي شيءٍ من الوقار، «لاحظي ما أقول!.. ذلك القلم.. يجب ألّا.. يُبرى أبداً! وهُنا، مدام، يكْمن السر، الروح، في الشطط. أتصوّر أنّه يتوجّب عليّ القول، إنّه ليس هُناك شخص، مهما حاز على عبقريةٍ عظيمة ويستعمل قلماً من نوعية مُمتازة.. افهميني، .. فكتب به مقالاً جيداً في أي وقت. ربّما عليك أن تعتبريه أمراً لا جدال فيه أنّ المخطوطة متى قُرئشت فإنّها لا تستحق القراءة البتة. هذا مبدأ جوهري من وجهة نظرنا، فإذا كنت لا توافقيني عليه في سهولةٍ ويسر، فاجتماعنا قد انتهى».

توقّفَ عن الكلام. ولكن، بطبيعة الحال، لأنّي لم أكن أرغب في وضع نهاية فورية للاجتماع، فقد أبديت موافقتي على مُقترحٍ لا لبس فيه أبداً، وذلك ما أدركت حقيقته أيضاً طوال الوقت بصورة كافية. وظهر الرجل مُبتهجاً، واستمر بإعطاء توجيهاته.

«لعل أسلوبي يبدو وقحاً، آنسة سايك زنوبيا، بأن أُحيلك إلى أي مقال، أو إلى مجموعة مقالات، في سبيل أن تعتبريها نموذجاً أو تنكبّي على دراستها، ولكن [334]ربّما ألفت انتباهك إلى بضع حالات. دعيني أرى. هُناك مقال (المدفون حيّاً)[9]، وهو عملٌ عبقري!.. فيه تسجيلٌ لأحاسيس الإنسان حين يُدفن قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.. شيءٌ له نكهة لذيذة، ويزخر بالرعب، والوجدان، والميتافيزيقيا، وسعة الاطّلاع. يُمكنك أن تُقسمي على أن الكاتب حُمل وأُدخل إلى النعش. ثم لدينا مقال (اعترافات مدمن الأفيون)[10].. حسنٌ، حسنٌ جدّاً!.. خيالٌ مُذهل، فلسفة عميقة، آفاق واسعة من التوقعات الحاذقة.. كثيرٌ من شُعل النار المُتقدة والغضب، ومقدارٌ لا بأس به من التوابل تُضاف إلى أشياء غير قابلة للفهم على وجه اليقين. تلك قطعة مُمتازة من الهراء، نزلت إلى حلوق الناس فاستمتعوا بها. وكانوا يؤثرون لو أنّ كوليردج هو الذي كتب تلك الأوراق.. ولكن ذلك لم يحدث. إنّها مقطوعة من تأليف قِردي المُدلل من فصيلة البابون، جونيبر، كتبها بينما كان يحتسي كأساً مُترعة من نبيذ هولاندز مع والماء، «حار، من غير سكر». (ما كنت لأصدق هذا الخبر لولا أنّ السيد بلاكوود هو الذي نقل لي الخبر مؤكداً صدقه وليس غيره). ثم هُناك قصة (المُجرِّب رغم أنفه)، وتدور كلها حول رجل تعرّض لتجربة أن يُشوى داخل فرنٍ، وخرج منه حيّاً دون أن يُصبه أذى، مع أنّه طُهي طهياً مُمتازاً.. ثمّ هُناك (مُذكرات طبيب راحل)[11]، وميزتها تكْمن في جعجعة لُغتها الفارغة من العواطف، وفيها شخصيات من الإغريق لا تقدم ولا تؤخر.. كل واحدة من الصفتين تستميل العامة من الناس. ثم هُناك (الرجل الذي أقحم رأسه داخل الجرس)، وهي بالمناسبة، يا آنسة زنوبيا، من الأوراق التي لا يُمكنني أن أنصحك بقراءتها بما يكفي من الاقتناع. إنّها تتطرّق إلى تاريخ شخصٍ في مُقتبل العمر ينام تحت لسان جرس إحدى الكنائس، ويفيقُ

---

(9) هذا المقال من تأليف أ. هـ. كوين وقد نشر في مجلّة فريزر، نيسان 1834. [المترجم]

(10) ظهر هذا المقال في «مجلة لندن» ابتداء من تشرين الأول 1821 ثم نشر في كتاب سنة 1822. وهو من تأليف توماس دوكنزي. [المترجم]

(11) «مذكرات طبيب راحل» كتبها صموئيل وارين ونُشرت مُتسلسلة في مجلة بلاكوود ابتداء من آب 1830 ثم صدرت في كتاب. [المترجم]

بعد أن يُقرع الجرس لأداء مراسم جنازة. يتسبّب له الرنين الهائل بالجنون، ولهذا يُخرج أوراقه، ويبدأ بتسجيل أحاسيسه. الانفعالات أشياءُ عظيمة على كل حال. إذا ما تعرّضت لحادث غرق في أي وقت أو واجهت الشنق، فاحرصي على أن تدوّني ملاحظات عن انفعالاتك.. فكل ورقة سوف تدرّ عليك عشرة من الجنيهات. لو اضطررت للكتابة، آنسة زنوبيا، عليك أن تولي عناية دقيقة للأحاسيس».

«ذلك ما سوف أحرص عليه حتماً، سيد بلاكوود»، قلت.

«جيد!» أجاب. «أرى أنّك طالبة تستجيب لما يهواه قلبي. ولكن عليّ أن أُطلعك على جوهر الأشياء *au fait*، على التفاصيل الضرورية في تأليف ما يُمكن أن يرقى إلى مُستوى مقالٍ أصيل يليق بصحيفة بلاكوود التي تهتم في المقام الأول بتصوير الانفعالات.. ذلك النوع من المُعالجة يُمكن أن تستوعبيه عندما أقول: إنني أعتبره يصلح لجميع الأغراض.

«أولُ شيء من المُتطلبات أن تعرّضي نفسك إلى عملية صقل لم يسبق لأي احد أن قام بها. الفرن، على سبيل المثال.. ينطوي على تلميحٍ جميل. ولكن إذا كنت لا تملكين فرناً أو جرساً ضخماً، وإذا كنت لا تستطيعين التشقلب على نحو مُناسب من منطاد، أو تبتلع جسدك هزة أرضية، أو تحشري جسدك سريعاً في إحدى [335]المداخن، عليك أن تقنعي نفسك ببساطة بتخيل كارثةٍ مُشابهة. ولكنّي أحبذ لو أنك نظرت إلى التجربة كأمرٍ واقع تتعرضين إليه. لا شيء يؤازر الخيال بهذه الصورة المُثلى مثل المعرفة التجريبية للأشياء التي نواجهها. (الحقيقة شيءٌ غريب)، كما تعلمين، (بل هي أغرب من الخيال).. إلى جانب الالتزام أكثر من أي شيءٍ آخر بالغرض الذي نطمح إليه».

هُنا أكّدت له أنّني امتلك زوجاً من أربطة الجوارب المُمتازة، وسوف أذهب وأشنق نفسي في الحال.

«جيد!» ردّ عليّ، «افعلي ذلك؛ مع أنّ الشنق حالة مُبتذلة بعض الشيء لكثرة الاستعمال. ربّما استطعت تجربة شيءٍ أفضل. خذي جرعة مُضاعفة من

حبوب براندريث، ثم انقلي لنا أحاسيسك. لكن توجيهاتي التي أُقدّمها تنطبق على نحو مُماثل على أي نوعٍ من الكوارث، وفي طريقك إلى البيت ربّما تعرّضت بسهولة إلى خبطة على رأسك، أو دهستك حافلة، أو عضك كلبٌ مسعور، أو غرقت في بالوعة. ولكن لنستمر..

«بعد أن تتّخذي قراراً في اختيار موضوعك، عليك كخطوة تالية أن تتأمّلي صيغة مُعالجة الموضوع، أو الأُسلوب الذي تكتبين فيه السرد. هُناك صيغ تعليمية، وأُخرى حماسية، وأُخرى طبيعية.. كلُّ ذلك من الأشياء المألوفة بما يكفي.. ولكن إلى هذا كله هُناك أُسلوب الاقتضاب، أو الإيجاز، الذي أصبح رائج الاستعمال في الآونة الأخيرة. إنّه يتضمّن باختصار جُملاً قصيرة. مُختصرة بعض الشيء. لا يُمكن أن تكون أكثر اختصاراً ممّا هي عليه. ولا يُمكن أن تكون أكثر فظاظة في الإسهاب. دائماً هُناك نقاط توقف. ولا فقرات تبدأ من رأس السطر بتاتاً.

«ثمّ هُناك نغمة التعالي، أو التشتت المُبهم، والاندهاش المُقحم. البعض من أفضل الروائيين يتحمّسون لها. لا بُدّ للكلمات كلها أن تدور في دوامة، كأنها في ذروة الهمهمة، وتُثير ضوضاء مُشابهة كثيراً لهذا، وتجيب على التساؤلات على نحو مُمتاز دون أن تُصرّح بالمعنى. هذا أفضل أسلوب من جميع الأساليب المُمكنة حيث لا يكون الكاتب في عجلة من أمره بحيث ينشغل بالتفكير..

«ونغمة الميتافيزيقيا لا غبار عليها أيضاً. إذا عرفت أي نوعٍ من الكلمات الفخمة فهي فرصتك في استعمالها. تكلّمي عن المدرسة الأيونية والمدرسة الألياتية.. عن أركيتاس، وجورجياس، والكمايون[12]. اذكري شيئاً عن الموضوعية والذاتية. كوني واثقة من نفسك واشتمي رجلاً يُدعى جون لوك. ارفعي أنفك في شموخ وترفع عن الأشياء بوجه عام، وإذا تركت أي شيء عبثي وإن كان تافهاً جدّاً ينزلق على الورق، فلا داعي لأن تتكبّدي عناء إزاحته، ولكن عليك أن تضيفي

(12) أركيتاس من الفلاسفة الفيثاغوريين ومعاصر لأفلاطون. وجورجياس من سفسطائيي أثينا وكتب (عن الطبيعة أو العدم) أما الكمايون فهو أحد تلامذة فيثاغورس. [المترجم]

حاشية تقولين فيها: إنّك مُمتنّة فيما يتعلق بالرأي العميق الذي ورد أعلاه إلى (نقد العقل المُجرّد) «*Kritik der reinem Vernunft*» أو إلى (الأسس الميتافيزيقية للعلم الطبيعي) «*Metaphysithe Anfongsgrunde der Noturwissenchaft*»[13]. هذا من شأنه أن يدل على اتساع الاطلاع و.. و.. والصراحة.

«وهُناك نغمات أُخرى مُتنوعة تحظى بشهرة مُماثلة، ولكني لن أذكر منها إلا اثنين فحسب.. الاستشراف وتجانس العناصر المُتغايرة. الأُولى تتجلّى ميزتها في [336]سبر أغوار طبيعة الأشياء أكثر مما يتمكّن أي شخصٍ أن يفعل ذلك. وهذه البصيرة الثانية فعالة جدّاً إذا وُظفت على النحو الصحيح. إن قراءة عاجلة لكتاب (القرص أو الوجه البشري)[14]ستجعلك تطورين أُسلوبك إلى درجة عظيمة. عليك أن تتجنّبي، في هذه الحال، الكلمات الفخمة؛ اجعليها كلمات بسيطة ما استطعت ذلك، واكتبيها بحيث تبدو مقلوبة رأساً على عقب. اطّلعي على قصائد تشاننغ[15] واقتبسي منها خاصة ما يقوله عن «رجل بدين قصير مُخادع يؤدي استعراضاً كأنه علبة سردين» على أن تضعيها ضمن إطار من الوحدانية السماوية. لا تقولي مقطعاً واحداً عن الثنائية الشيطانية. فضلاً عن كل شيء، عليك دراسة أُسلوب الغمز واللمز. ألمحي إلى كلِّ شيء تلميحاً.. لا تجعلي أي شيء مؤكداً. إذا شعرت بميلٍ لأن تقولي «خبز وزبد»، فلا تقوليها على الإطلاق بطريقة مُباشرة. ربّما عليك أن تقولي أي شيء وكلّ شيء مُقارب لـ «خبز وزبد». ربّما تُلمّحي إلى فطيرة الحنطة السوداء، أو لعلك تماديت أيضاً بحيث تدسّي كلاماً عن عصيدة الشوفان، ولكن إذا كان الخبز والزبد هو ما تقصدين من معنى حقيقي، فكوني على حذر، عزيزتي الآنسة سايك، بأن لا تقولي بأي حال «خبز وزبد!»

(13) هذان الكتابان من تأليف الفيلسوف الشهير عمانويل كانت. الأول نشر في سنة 1781، والثاني 1786. [المترجم]

(14) هذا الكتاب الذي ألّف بين سنتي 1840- 1844 كان يُشكل العمود الأساسي لفلسفة الاستشراف أو التسامي، تتابع على تحريره مارغريت فولر وإمرسون. [المترجم]

(15) الشاعر وليم إيلري تشاننغ صدرت مجموعة قصائده سنة 1842. وكتب عنها إدغار ألن بو مراجعة في مجلّة (غراهام) عدد آب 1843. [المترجم]

وأكّدت له أنّني لن أقول ذلك مُطلقاً مرة أُخرى ما دمت حيّة. وقبّلني وتابع كلامه:

«أما فيما يتعلّق بنغمة تجانس المُتنافرات أو تغاير الخواص، فهي مُجرّد خليط حاذق، في نسبٍ ومقادير مُتساوية، بين كافة النغمات الأُخرى المُتداولة في العالم، ولذلك فهي توليفة من كل شيءٍ عميق، فخم، عجيب، فاتن، وثيق الصلة بالموضوع، وظريف..

«لنفترض أنّك الآن حسمت أمرك بصدد الوقائع التي أردت التطرّق إليها ونغمة الأسلوب. فإنّ الجانب الأكثر أهمية.. في حقيقة الأمر، يتمثل في روح العملية كلها، وهو ما ينبغي الاهتمام به.. إنّني أُلمّح إلى مسألة الرتوش وملء الفراغ. لا يتوقع الناس من سيدة جميلة، أو حتى من رجلٍ أنيق، أن تفني حياتها مثل دودة الكتب. على أنّه بصرف النظر عن جميع الأشياء الأُخرى فمن الضروري أن يتضمّن مقالك إيحاءً بسعة الاطّلاع، أو على الأقل يُعطي برهاناً على اعتماده على قراءات عامة مُكثفة. والآن سوف أضع قدميك على الطريق لتحقيق هذه الغاية. انظري هُنا!» (وسحب ثلاثة أو أربعة مُجلدات تبدو عادية، وفتحها عشوائياً). «بعد أن تُلقي نظرة على أي صفحة تقريباً من أي كتابٍ في العالم، سوف تُدركين فوراً وجود كمية من المُقتطفات الصغيرة المُتناثرة التي تدلّ إما على ثقافة واسعة أو موهبة فذّة *bel-esprit-ism*، وهُنا يكْمن جوهر الإثارة في أي مقال من مقالات بلاكوود. ربّما كان عليك أيضاً تأمّل بضعٍ منها حين أقرأها عليك. سوف أميّز بين نوعين منها؛ أولاً: حقائق حِرفيّة في صناعة التشبيه، وثانياً: تعبيرات حِرفيّة تقحم في الكلام حسبما تقتضي المُناسبة. والآن أكتبي!»..

وكتبت ما كان يُمليه عليّ.

«حقائق حِرفيّة في صناعة التشبيه. (كانت هُناك في الأصل ثلاثُ ربّات للفنون[16] فحسب، وهن: ميليت، ونيمي، وأودي.. وهن يرمزن إلى التأمل،

---

(16) ربات الفنون أو Muses الموزية: إحدى الإلهات التسع الشقيقات اللواتي زعم الإغريق أنّهن يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم. [المترجم]

والذاكرة، والغناء. يُمكنك أن تجني فوائد جمّة من تلك الحقيقة البسيطة إذا ما استخدمتها على [337]نحو صحيح. أنت ترين أنّها ليست من الحقائق المعروفة على نطاق واسع، وتبدو نادرة الوجود *recherché*. عليك أن تحذري وتعبّري عن الأمر بصيغة شرطية مُباشرة.

«مرة أُخرى. (نهر ألفيوس[17] يمر من تحت البحر، ثم يبرز من الناحية الأُخرى دون أن تُعكّر نقاء مياهه أي شائبة). ذلك شيءٌ مُبتذل مثل بول البعير بعض الشيء، تأكدي من ذلك، لكن لو ألبسناه ثوباً مُناسباً ونقيناه من الشوائب، لسوف يبدو نقياً طاهراً كما نشاء.

«إليك شيئاً أفضل. (يرى بعض الأشخاص أنّ زهرة إيريس الفارسية يفوح منها عطر حلو بالغ التأثير، في حين يرى آخرون أنّ لا عطر لها أبداً). ذلك رائع، فيه رهافة حسٍّ مُذهلة! حوّلي الأمر إلى جهة أُخرى قليلاً، وسوف تتجلّى لك العجائب. لنأخذ شيئاً آخر ضمن مملكة النبات. لا شيء ينسجم على نحو أفضل، لا سيّما بمُساعدة قليلٍ من اللاتينية. أكتبي!.

«تحمل نبتة إيبدينيدروم *epidendrum flos aeris*، من جاوا، زهرة غاية في الجمال، وهي تعيش حتى لو اقتلعت من جذورها. يقوم السكان المحليّون هُناك بتعليقها بخيط يتدلّى من السقف، ويستمتعون بأريجها الفواح سنوات». ذلك من الأشياء الجوهرية! ويكفي كمثالٍ على التشبيه. والآن لنتطرّق إلى التعبيرات الحرفية.

«التعبيرات الحِرفيّة. (المثال عليها رواية صينية جليلة القدر بعنوان (يو كياو لي) *Ju-Kiao-Li*[18]. هذا رائع! بهذه الكلمات القليلة الحاذقة تتمكّنين من إقناع معارفك المُقرّبين بمكانة اللّغة والأدب في الصين. وبمُساعدة هذا ربّما استطعت

(17) نهر ألفيوس هو أطول نهر في بيلوبونيس، اليونان. طوله 110كم. تقول إحدى الأساطير: إنّ النهر نفسه يظهر مرة أُخرى في صقلية عند نافورة أريثوسا. [المترجم]

(18) الرواية الصينية (يو كياو لي أو أبناء العم الطيبون) صدرت في لندن سنة 1827 ترجمها إلى الفرنسية م. أبيل ريموسات. [المترجم]

المضي أيضاً دون ضرورة لتعلم العربية، أو السنسكريتية، أو لُغة الهنود الحمر من قبائل شيكاسو. ولكن لا شيء يفي بالغرض المطلوب أفضل من الإسبانية، والإيطالية، والألمانية، واللاتينية، والإغريقية. يجب أن أبحث لك عن عيّنة بسيطة من كل نوع. أيُّ قصاصة سوف تفي بالغرض، لأنّ عليك الاعتماد على براعتك الخاصة لكي تجعليها تلائم مقالك. والآن أكتبي!.

«هذه الجملة *Aussi tendre que Zaire*. . ناعمة في انسيابها مثل نهر زائير.. إنّها فرنسية. فيها تلميحٌ إلى تكرارٍ مألوف لعبارة «مياه زائير الرقراقة» *la tendre Zaire* في التراجيدية الفرنسية التي تحمل الاسم نفسه[19]. إذا استخدمتها بصورة صحيحة، فلن تتجلّى سعة معرفتك للّغة فحسب، وإنما قراءاتك العامة وفطنتك. يُمكنك القول، على سبيل المثال، إنّ الدجاجة التي كنت تأكلينها (أكتبي مقالاً عن اختناق المرء حتى الموت وهو يغصّ بعظم دجاجة) لم تكن بأي حال ناعمة الملمس أو رقراقة مثل مياه نهر زائير.. أكتبي!.

«Van muerte tan escondida,
Que no te sienta venir,
Porque el plazer del morir,
No mestorne a dar la vida».

«إنّها بالإسبانية... مُقتبسة من ميغيل دو سرفانتس. (فلتأتِ على عجلٍ، أوه أيّها الموت! ولكن كن واثق الخطوات، فلا تدعني أراك وأنت تأتي، خشية أن [338]البهجة التي سوف أشعر بها لدى ظهورك يُمكن أن تُعيدني، لسوء حظي، إلى الحياة». يُمكنك تسطير هذا في تعليق مُختصر يأتي في مكانه تماماً *à propos* وأنت تنازعين في معمعة آلامك الأخيرة مع عظم الدجاج. أكتبي!.

(19) إشارة إلى مسرحية تراجيدية لفولتير بعنوان (زائير) ولا ارتباط لها بنهر زائير. [المترجم]

'Il pover 'huomo che non se'n era accorto, Andava combattendo, e era morto.'

«إنها من الإيطالية، وأحسبك تدركين هذا.. اقتباس من أريوستو[20].. (يُحكى أنّه كان هُناك بطلٌ عظيم، وهو في معمعة النزال لم يُدرك أنّه تعرّض لطعنة قاتلة، واستمرّ يُقاتل في بسالة، يقاتل وهو ميت). المجال الذي يُمكنك أن تطبقي فيه هذه المقولة على حالتك الخاصة واضح.. لأنّي على ثقة من أنّك، آنسة سايك، لن تفشلي في الاستمرار في الركل على أقلّ تقدير ساعة ونصف بعد أن تختنقي حتى الموت بعظم الدجاج. أرجوك أكتبي!.

'Und sterb'ich doch, no sterb'ich denn

Durch sie-durch sie!'

«إنها من الألمانية.. اقتباس من شيلر. (فإذا قضيتُ نحبي، فأنا على الأقل أموت.. من أجلك.. أنت!) واضحٌ هُنا أنّك تُناجين العلة في الكارثة التي حلّت بك، وهي الدجاجة. في حقيقة الأمر، أيُّ رجل منّا (أو حتى سيدة) يتحلّى بالحسّ المُرهف، لن يُحبذ الموت، وددت لو تقولي لي، من أجل ديك سمين من فصيلة مولوكا الأصيلة، وقد حُشي بالمُخللات والفطر، يقدم إليك مع صحنٍ من السلطة، وحلوى الجيلي البرتقالية أو مُتعددة الألوان *en mosaiques*. أكتبي! (يُمكنك الحصول عليها بتلك الطريقة في مطعم تورتوني).. أكتبي! لو سمحت!.

«إليك عبارة لاتينية مُختصرة جميلة، وهي نادرة أيضاً، (لا يُمكن للمرء أن يعثر على عبارة مُنتقاة جيداً *recherché* أو ذات قيمة في ما يعرفه من اللاتينية، تكاد تكون مألوفة جدّاً).. مُغالطة الاستنتاج بعيد الصلة بالموضوع[21] ignoratio elenchi. لقد

---

(20) لودفيغو أريوستو: شاعر إيطالي 1474- 1533 عُرف بأنه مؤلف ملحمة شعرية رومانسية بعنوان (أورلاندو فوريوسو). [المترجم]

(21) مُغالطة الاستنتاج بعيد الصلة بالموضوع، يسعى الشخص الذي يُجادل هُنا إلى =

لجأ الرجل إلى مُغالطة الاستنتاج بعيد الصلة بالموضوع.. بمعنى آخر، فهم الكلمات التي ترد في مقطوعتك الإنشائية، ولكنّه لم يستوعب الفكرة. الرجل كان غبياً، كما ترين. إنّه واحد من المساكين الذين تخاطبينهم وأنت تختنقين بعظم الدجاج، فهو لم يستوعب استيعاباً دقيقاً ما كنت تتكلّين عنه. عليك أن تُلقي عبارة (مُغالطة الاستنتاج بعيد الصلة بالموضوع) بين شدقيه، وبذلك تقضين عليه قضاءً مُبرماً. فإذا كانت لديه شجاعة على الرد، يُمكنك أن تقتبسي له شيئاً من لوكان(22) (وإليك هذا) إذ يقول: إن الألفاظ الكلامية هي مُجرّد باقة من شقائق النُّعمان *anemonae verborum*، الكلمات شقائق النُّعمان. في إشراقها الفخم الذي لا نظير له هي شقائق النعمان، مع أنّها عديمة الرائحة. أو، إذا بدأ بالعربدة والجعجعة، يُمكنك أن تنقضّي عليه بعبارة «أحلام يقظة جوبيتر» *insomnia Jovis*. . التي يستعملها سيليوس إيتاليكوس(23) (انظري هُنا!) في التعبير عن الأفكار التي تتّسم بالأُبهة والفخامة. هذا شيءٌ من المُحقق أن ينجح ويطعنه في الصميم. لن يستطيع أن يفعل شيئاً سوى أن يتشقلب حتى يموت. هلّا تفضلت فتكتبي؟

«من الإغريقية علينا أن نقتبس قولاً جميلاً.. إنّه من أقوال ديموسثينيس، على سبيل المثال: *Ανηρ ο φευγω kαι παλιν μαχησεται*

[339]هُناك ترجمة جيدة مقبولة لها بعض الشيء وردت في هوديبراس(24):

«لأنّ الذي يهرب ربما يعود ليقاتل،

وذلك ما لن يفعله أبداً من تعرّض للذبح».

= تحقيق غرضه من خلال تحويل الانتباه إلى شيء دخيل أو غريب.. انظر: جون ستيوارت مل (منظومة المنطق) ج5، ص7. [المترجم]

(22) لوكان: ماركوس أنايوس لوكانوس شاعر روماني 39- 65م يُعتبر رغم قصر حياته واحداً من أبرز الشخصيات الأدبية في عصره. [المترجم]

(23) سيليوس إيتاليكوس (28- 103م) خطيب روماني وعضو مجلس الشيوخ، وشاعر ملحمي من القرن الأول الميلادي. [المترجم]

(24) هوديبراس: قصيدة إنكليزية بطولية بأسلوب هزلي تعود إلى القرن السابع عشر كتبها صموئيل بتلر. [المترجم]

«في مقالٍ من مقالات بلاكوود لا شيء يخلق تأثيراً استعراضياً جميلاً مثل الكلمات الإغريقية التي ترصعينها هُنا وهُناك. الحروف نفسها تُضفي العمق على الكلمات. عليك أن تُلاحظي فقط، مدام، المظهر الحاذق للحرف إبسيلون *E*! وذلك الحرف فاي *Phi* حتماً يُشبه أحد الأساقفة! هل هُناك شيءٌ على الإطلاق أكثر إيحاءاً بالذكاء من الحرف أوميكرون *O*؟ عليك أن تُلاحظي فقط ذلك الحرف تاو *T*. باختصار، لا شيء يُضاهي الإغريقية في فائدتها لكتابة ورقة انفعالات فريدة من نوعها. في الحالة التي نتكلم عنها، استعمالك لها أكبرُ دليل على النجاح في العالم. اخفقي الجملة خفقاً، وأنت تقسمين بأغلظ الأيمان، كأنما تُعطين إنذاراً نهائياً *ultimatum* لذلك الوغد ذي الرأس الأجوف الذي لم يستوعب لغتك الإنكليزية السلسة فيما يتعلق بعظم الدجاج. سوف يكتفي بالتلميح ويرحل، كوني واثقة من هذا».

كانت هذه جميع التوجيهات التي استطاع السيد ب. أن يُقدّمها لي عن الموضوع المطروح للنقاش، ولكني شعرت أنّها تكفي تماماً. وتمكّنت في نهاية المطاف من كتابة مقالٍ فريد إلى بلاكوود، إذ قررت البدء في ذلك حالاً. لدى توديعي، اقترح عليّ السيد ب. شراء المقال بعد أن أنتهي من كتابته؛ لكن لأنّه لم يعرض عليّ أكثر من خمسين جنيهاً لكل صفحة، تصورت أنّ من الأفضل أن تحصل عليه جمعيتنا، بدلاً من التضحية به لقاء مبلغ زهيد كهذا. على الرغم من هذا التصرف الذي يدلّ على البخل، إلّا أنّ الرجل أبدى تقديره لي بكل الاعتبارات الأُخرى، وفي حقيقة الأمر كان يتعامل معي بتهذيبٍ عظيم. وتركت كلماته التي قالها أثناء الوداع في قلبي انطباعاً عميقاً، وآمل أن أتذكر دائماً تلك الكلمات التي تغمرني بالامتنان.

«عزيزتي الآنسة زنوبيا»، قال، والدموع تترقرق في عينيه، «هل هُناك أي شيء أستطيع أن أقوم به لمؤازرتك كي تنجحي في مهمتك التي تستحق التبجيل حقّاً؟ دعيني أُفكر! من المُحتمل أنك لن تتمكّني، في وقتٍ قريب مُلائم، أن.. أن.. تُغرقي نفسك، أو.. أن تختنقي بعظم دجاج، أو.. أو أن تشنقي نفسك.. أو.. يعضك.. ولكن انتظري! الآن اعتقد أنّني وجدتها، هُناك زوجٌ من الكلاب الرائعة

من فصيلة البلدوغ في الباحة.. إنّها حيوانات وادعة، أؤكد لك.. مُتوحشة، وكل شيء، في الواقع هي التي تستحق أن تدفعي فيها نقودك.. سوف تعضّك وتلتهمك التهاماً، تلتهم الأُذنين *auriculas* وكل شيء، في أقلّ من خمس دقائق (وهذه ساعتي!).. ومن ثمّ عليك ألا تُفكّري في شيء غير الأحاسيس! انظري! هيا.. توم!.. بيتر!.. دك، أيها الأوغاد!.. اتركوا تلك الـ..» ولكني كنت حقّاً في عجلة من أمري، وليس لدي لحظة [340]أُضيّعها، فاضطررت للمُغادرة، فاستأذنت وانصرفت حالاً.. حدث ذلك بسرعة، أعترف بذلك، أكبر مما تسمح به دواعي اللياقة في ظروفٍ أُخرى.

كان هدفي الأول بعد أن تركت السيد بلاكوود أن أُواجه بعض المواقف الصعبة مُباشرة، على أثر نصيحته التي أتحفني بها، وعلى ضوء هذا أمضيت جزءاً كبيراً من اليوم أتجوّل في أنحاء أدنبرة بحثاً عن مُغامراتٍ يائسة.. يُمكن أن تكفي لتجسيد عُمق مشاعري، وتصلح لتصوير المعاني الهائلة التي يتضمّنها المقال الذي كنت أزمع كتابته. ورافقني في رحلتي رجلٌ زنجي.. خادم، اسمه بومباي، وكلبتي الصغيرة المُدللة، ديانا، التي جلبتها من فيلادلفيا. ولم يحصل إلا في وقتٍ مُتأخر من العصر أن نجحت في مهمتي الشاقة. وقعت عندئذ حادثة مُهمّة كان من نتائجها كتابة مادة مقال بلاكوود التالي، على نغمة الخواص المُتنافرة.

مأزق مُحرج

أيُّ فرصةٍ، يا سيدتي الطيبة،

حُرِمت منها وأنتِ على هذه الحال؟

ملتون: كوموس، البيت 277

كان السكون يُخيّم بظلّه القاتم على فترة ما بعد الظهر حين تمشّيت وحدي [341]على الطريق، وراحت خطواتي تتقدّم على الشوارع الأنيقة لمدينة أدينا[1]. زحمة وهرجٌ في الشوارع، شيءٌ لا يُطاق. رجالٌ يثرثرون. ونساءٌ يتصايحن. وأطفالٌ يغصّون ويكادون يختنقون. وخنازير تُطلق صفيراً. وعربات تُقعقع. وثيران وأبقار تُصدر خواراً. وأحصنة تصهل. وقطط تموء. وكلاب ترقص. ترقص! هل هذا شيءٌ مُمكن؟ ترقص! واحسرتاه، مع أنّي أنا نفسي، أيام رقصي انتهت! هكذا انقضى عهدي بها! أيُّ حشدٍ من ذكرياتٍ كئيبة تنتفض من وقتٍ لآخر في ذهنِ عبقري يُبحر في شطحاته الخيالية، لا سيّما ذلك العبقري الذي حلّت عليه لعنة أبدية منذ الأزل، لعنة لا تكاد تنقطع، كما يُقال، متواصلة.. نعم، إنه لشيءٌ مرير، مُستمرٌّ لا يتوقّف، مُرهق، مزعج، وإذا سمحتم لي بهذا التعبير، فهو ذلك التأثير الذي يكاد يكون مُزعجاً لسمو العبقرية، وترفّعها، ورقيّها، وقداستها، أو ما يُمكن أن يُصطلح عليه بحق أنّه أكثر الأشياء مدعاة لحسد الحاسدين، أكثر الأشياء استحقاقاً للحسد حقّاً.. كلا! بل إنّه أكثر الأشياء جمالاً وحنوّاً ورأفة، أكثر الأشياء السامية لذة، وكما هي الحال فعلاً، فهو من أكثر الأشياء (إذا جاز

---

(1) مدينة أدينا: أدنبرة. [المترجم]

أن أستعمل هذا التعبير الجسور) سحراً وجاذبية (اعذرني، أيّها القارئ اللطيف!) في العالم كله.. ولكن كثيراً ما تحملني مشاعري بعيداً. في مثل هذا الذهن، أعود فأكرر، أيُّ حشدٍ من الذكريات يُثيرها الشطط العابث! الكلاب ترقص! وأنا.. عاجزة عن ذلك! تلهو وتمرح.. وأنا أنتحب. تنطّ في حماقة.. وأنا أنتحب بصوت مسموع. يا لها من مُفارقاتٍ مؤثرة في النفس! لا يُمكن إلّا أن تُذكّر القارئ الكلاسيكي بتلك القطعة الفريدة فيما يتعلّق بلباقة الأشياء، والتي يُمكن قراءتها في الجزء الثالث من الرواية الصينية التي تستحقّ الثناء والإعجاب (أن تمضي في بطء) *Jo-Go-Slow*.

في نزهتي وحدي، أمشي عبر شوارع المدينة، لم يُرافقني إلا اثنان من الرّفاق البسطاء، ولكنهم من المُخلصين. ديانا، كلبتي التي من فصيلة البودل! وهي من أحبّ المخلوقات إلى قلبي! كان شعر الكلبة كثيفاً ينحدر فوق إحدى عينيها، وعلى رقبتها شريط أزرق مربوط في أناقة عصرية. لم تكن قامة ديانا تتجاوز [342]خمس بوصات، مع أنّ رأسها أضخمُ بعض الشيء من جسمها، أمّا ذيلها فمبتورٌ من مكانٍ قريب جدّاً من مؤخرتها، وذلك ما يُضفي على الحيوان المحبوب مسحة من البراءة الجريحة التي تجعل الجميع يُحبونها.

وكان معي أيضاً بومباي، خادمي الزنجي!.. يا لبومباي الوديع! كيف يتسنّى لي نسيانك أبداً؟ كنت أمسك ذراع بومباي.. طوله ثلاثة أقدام (أُحب أن أكون دقيقاً) وعمره يُقارب السبعين، أو ربّما الثمانين. ساقاه مُقوّستان كالعيدان وبدنُهُ مُكتنز. أما فمه، فلا يصُحّ أن نعتبره صغيراً، ولا أن نقول عن أذنيه: إنهما قصيرتان. في حين أنّ أسنانه مثل اللؤلؤ، وعيناه واسعتان كل الاتّساع يشوبهما بياضٌ مُثير للبهجة. لم تُسبغ عليه الطبيعة نعمة أن تكون له رقبة، بل جعلت كاحليه (كما هو معتاد لدى ذلك العنصر من البشر) في منتصف الجزء الأعلى من القدمين. ثيابُه بسيطة بشكل مُذهل، فلباسه يتألّف من لفاعٍ يُطوّق عنقه بطول تسع بوصات، ومعطفٍ قذر يبدو جديداً كان في السابق يستعمله رجلٌ طويل، مهيب المنظر، شهير هو الدكتور مونيبيني. إنّه معطف من نوعٍ فاخر. وتصميمه رائع. وهو مُتقن الصنع. يكاد يبدو جديداً. وكان بومباي يرفعه بعيداً عن الوحل بيديه معاً.

تألفت مجموعتنا من ثلاثة أشخاص، وأشرنا سابقاً إلى اثنين منهم على إنّهما محور التركيز في هذا الشأن. وهُناك شخص ثالث.. هو أنا. سنغورا سايك زنوبيا. ولست بأي حال سوكي سنوبز. مُظهري مميزٌ يلفت الأنظار. في تلك المُناسبة التي لا تُنسى التي أتكلّم عنها، كنت أرتدي ثوب ساتان قرمزي، وعباءة عربية قصيرة زرقاء بلون السماء. وللثوبِ حواشٍ مُزركشة بإبزيمات خضر، مع سبعة أهداب جميلة مُزينة بزهرة الربيع البرتقالية. هكذا كنتُ الفرد الثالث ضمن المجموعة. وهُناك كلبة البودل. وبومباي. وأنا نفسي. كنا ثلاثة. ولهذا يُقال: إنّ ثمّة في الأصل ثلاث صور للغضب.. ميلتي، نيمي، وهيتي.. التأمل، والذاكرة، والتفاهة.

اتكأت على ذراع بومباي المُتأنق، وشهدتُ رقصة مُحتشمة كانت تؤديها ديانا، ثم مضيتُ أسير على أحد الشوارع المُنارة جيداً والمُكتظة بالمارة في أدينا التي غدت مهجورة الآن. على حين فجأة، انبسط أمامي منظرُ إحدى الكنائس.. كاتدرائية كاثوليكية.. هيكلها ضخم يوحي بالأبهة والفخامة، ولها برجٌ شاهق يشمخ في امتداده نحو السماء. أيُّ نوعٍ من الجنون استبدّ بي؟ لماذا اندفعت في تهوّر إلى مصيري؟ دهمتني رغبة لا سبيل لمنعها لأصعد البرج الذي أصابني منظرُه بالدوار، ومن ثم يُمكنني أن ألقي نظرة على ذلك الامتداد الشاسع للمدينة. كانت بوابة الكاتدرائية مفتوحة أمامي وتُغريني بالدخول. قدري يُهيمن على كل شيء. دخلت الرواق الذي يُنذر بالسوء. أين إذن ملاكي الحارس؟.. إذا كان لمثل هذه الملائكة [343]وجودٌ حقّاً .إذاً! يا له من مقطعٍ أحادي مليء بالغم والكدر! أيُّ عالمٍ مشحون بالألغاز المُبهمة، والمعاني، والشكوك، وفقدان اليقين يتضمّنه مُجرّد حرفين! دخلت الرواق المشؤوم! دخلت؛ دون أن يلحق أي أذى بأزهار الربيع البرتقالية على ثوبي، ودلفت من تحت الإطار المُقوس للباب، وخرجت من الناحية الأُخرى إلى الدهليز. هكذا يُقال: إن نهر الفريد[2] الواسع يعبر دون أن يُصب بأذى، أو يتعرّض للبلل، من تحت البحر.

(2) نهر الفريد: في منطقة تاسمان في نيوزيلندا ينبع من جبال سبنسر. [المترجم]

ظننت أنّ السلالم لن تقودني إلى شيء قط. مُستديرة! نعم، تدور مُتجهة إلى الأعلى، وتعود للالتفاف والدوران، حتى لم أستطع منع نفسي من التخمين، بينما كان بومباي الحصيف، الذي توكأت على ذراعه التي تسندني وأستمدُّ منها كل الثقة التي تعود إلى عواطف مُبكرة ..لم أستطع منع نفسي من الظن أنّ الطرف الأعلى للسلم الحلزوني الذي لا يكاد ينتهي كان مرفوعاً مُصادفة، أو لغايةٍ مقصودة. توقفت لألتقط أنفاسي؛ وفي غضون ذلك، وقع حادثٌ على جانبٍ كبير من الأهمية في طبيعته من الناحية الأخلاقية، وكذلك من الناحية الميتافيزيقية، لا يُمكن المرور عليه مرور الكرام. ظهر لي.. في حقيقة الأمر أنّني كنت واثقة تماماً من تلك الحقيقة.. لا يُمكن أن أكون على خطأ.. كلّا! كنت، منذ دقائق معدودة، أُلاحظ في عنايةٍ وتلهّف حركات كلبتي ديانا.. أؤكد إنّني لا يُمكن أن أكون على خطأ ..لقد شمّت ديانا رائحة جرذ! وعلى الفور انتبه بومباي إلى الأمر، و.. واتّفق معي في حدسي. لم يعد هُناك مجال للشك في هذا. رائحة الجرذ اكتُشفت.. فعلت ذلك ديانا. يا إلهي! هل أنسى أبداً الإثارة المُكثفة لتلك اللحظة؟ الجرذ!.. كان هُناك.. بمعنى آخر، في مكانٍ ما. ديانا التقطت رائحة الجرذ. وأنا ..أنا لم أتمكّن من ذلك! ولهذا يقال: إن إيزيس البروسية يفوح منها، على رأي بعضهم، عطرٌ ساحرٌ جدّاً، في حين أنّ غيرهم لا يشمون ذلك بتاتاً.

وأخيراً تغلّبنا على السلم وكدنا نصل إلى نهايته، ولم تبقَ الآن إلا ثلاث أو أربع درجات مُلتوية إلى الأعلى تفصلنا عن القمة. كنّا مُستمرين في الصعود، والآن لم تبقَ إلا درجة واحدة. درجة واحدة! درجة واحدة ضئيلة.. ضئيلة! على هذه الدرجة الواحدة الضئيلة من سلم الحياة الرفيع يعتمد كمٌّ هائل من سعادة البِشرية أو شقائها! فكّرت في نفسي، ثم فكّرت في بومباي، ثم فكّرت في المصير الغامض الذي لا يقبل التفسير الذي يكتنفنا. فكّرت في بومباي!.. واحسرتاه، فكّرت في الحب! فكّرت في الكثير من الخطوات الرعناء التي أقدمت عليها، وربما سأُقدم عليها من جديد. وقرّرت أن أكون أكثر حذراً، وأكثر تحفّظاً. وتخلّيت عن ذراع بومباي، دون مُساعدة منها صعدت إلى الدرجة الوحيدة المُتبقّية، ووصلت إلى حجرة برج الناقوس. وسرعان ما لحقت بي كلبة البودل.

أما بومباي، فبقي وحده وراءنا. وقفت عند رأس السلم، وشجّعته أن يصعد. مدّ يده إلى الأمام باتّجاهي، ولكن لسوء الحظ [344]فيما كان يفعل ذلك وجد نفسه مُضطراً لأن يُرخي قبضته المُمسكة في إحكامٍ على المعطف. ألا يُمكن للآلهة أن تتوقّف أبداً عن اضطهادها؟ سقط المعطف، وداس بومباي بإحدى قدميه على ذيل المعطف الطويل. وتعثّر وسقط.. إنّها نتيجة محتومة. سقط إلى الأمام، وارتطم رأسه اللعين بي مُباشرة.. على صدري، تمايل فوقي وارتطم بي برأسه فسقطنا معاً على الأرضية الصلبة، الحقيرة، القذرة، لحجرة البرج. لكن انتقامي كان سريعاً، مُباغتاً، شاملاً. أمسكته، وقد استبدّ بي الغضب، من شعره الصوفي بكلتا يدي، فانتزعتُ كمية هائلة من الشعر الأسود، المُجعّد، الملفوف، وألقيتها بعيداً عنّي وبدت على وجي مظاهر الامتعاض. وسقطت تلك الكمية من الشعر وسط الحبال المُكوّمة في البرج وبقيت هُناك. نهض بومباي، ولم ينطق بشيء. إلّا أنه رمقني في إشفاقٍ بعينيه الواسعتين و.. تنهّد. يا الله.. يا لتلك التنهيدة! غاصت في أعماق قلبي. أما الشعر.. الصوف! لو كنت أستطيع الوصول إلى ذلك الصوف لأمطرته بدموعي، وتلك آية الندم. ولكن واحسرتاه! ذلك الشعر الآن بعيدٌ عن مُتناول قبضتي. لأنّه تعلّق بحبال الجرس، فتخيّلته ينبض بالحياة. كأنّما رأيت الشعر ينتصب على أطرافه في دلالةٍ على الاحتقار. ولهذا فالرجل الغندور يحمل زهرة جميلة تُسمّى فلوس أيرس في جاوا، كما يُقال، والتي تعيش حتى إذا اقتُلعت من جذورها. السكان المحلّيون يُعلقونها بخيطٍ من السقف ويستمتعون بأريجها سنوات.

وصلت رحلتنا الصعبة الآن إلى نهايتها، وبحثنا حولنا في الحجرة عن فتحةٍ نتمكن عبرها من إلقاء نظرة شاملة على مدينة أدينا. لم نجد أي نوافذ. كان الضوء الوحيد الذي تسنّى له الدخول إلى الحُجرة الكئيبة يأتي من فتحةٍ مُربعة، قطرها قدم تقريباً ترتفع سبعة أقدام عن الأرضية. لكن هل من شيء لا يستطيع عبقري حقيقي تحقيقه؟ قرّرت التسلّق نحو تلك الفتحة. وكانت هُناك كمية من الدواليب، والريش، ومواد أُخرى غير معروفة.. تبدو كأنها عتلات وآلات مُكدسة فوق الفتحة، أو قريباً منها؛ ويخترق الفتحة عمودٌ حديدي مُتشعبٌ من تلك الآلة. بين

الدواليب والحائط، حيث الفتحة، لا مجال للعبور إلا ما يكفي لجسدي.. ومع أنّي كنت يائسة، قرّرت المُثابرة. وصحتُ لبومباي لكي يقف إلى جانبي.

«أنت ترى تلك الفتحة، بومباي. أُريد اختلاس النظر منها. عليك الوقوف هُنا تماماً تحت الثقب.. إذن. والآن، مدّ إحدى يديك، بومباي، لأصعد عليها.. هكذا. والآن، مدّ اليد الأُخرى، بومباي، وبذلك يُمكنني الصعود على كتفيك».

وفعل الرجل ما طلبت منه، ولما صعدت وجدت نفسي أستطيع أن أدخل رأسي ورقبتي من الفتحة. كان المنظر رائعاً. لا شيء أكثر روعة من ذلك.[345] وبقيت هادئة لحظة لأجعل ديانا تهدأ فلا تسيء التصرف، ولكي أؤكد لبومباي أنّني حريصة على أن أكون خفيفة الوزن ما أمكن ذلك فوق كتفيه. أخبرته أنّني سأكون رفيقة بمشاعره المُرهفة فأعتبرها مثل لحم البقر. . *ossi tender que beefsteak*. وبعد أن توخّيت ما يتوجّب من الإنصاف بإزاء صديقي الوفي، دفعت نفسي إلى الأعلى في شجاعةٍ وحماس بالغين لأستمتع بالنظر إلى المشهد المُنبسط أمام عيني كأنّه يُرحّب بي.

عن هذا الموضوع لن أتردّد في الكلام بإسهاب. لن أصف مدينة أدنبرة. فالجميع لا بُدّ أن يكونوا قد زاروا أدنبرة. كلّ شخص حتماً سبق أن زار أدنبرة.. وخاصة مدينة أدينا الكلاسيكية. سأقتصر على ذكر التفاصيل المُهمّة لمُغامرتي الخائبة. بعد أن أشبعت فضولي بعض الشيء فيما يتعلّق بالامتداد الشاسع للمدينة، وموقعها، ومظهرها العام، كان لديّ وقت كافٍ لاستطلاع هذه الكنيسة التي وجدت نفسي فيها، وتأمل النواحي المعمارية الدقيقة لبروجها. لاحظت أنّ الفتحة التي دسستُ فيها رأسي هي مُجرّد ثقبٍ في قرص مُدرّج بالأرقام لساعة عَملاقة تطلّ على الشارع، كأنّها ثقب مُفتاح كبير، مثل تلك التي نراها في واجهات الساعات الفرنسية. لا شكّ أنّ الغرض الحقيقي من تلك الفتحة هو السماح لمرور ذراع الرجل الذي يتولّى تشغيلها، لكي يُعدّل عند الضرورة عقارب الساعة من مكانه في الداخل. ولاحظت أيضاً، وكنت مُستغربة أشد الاستغراب، الحجم الهائل لهذه العقارب، فأكبر واحد فيها لا يقلّ طوله عن عشرة أقدام، وعرضه ثمان أو تسع بوصات في أوسع جزءٍ منه. كانت العقارب مصنوعة من

أقوى أنواع الفولاذ فيما أظن، ولها حافات تبدو حادة جدّاً. بعد أن لاحظت هذه التفاصيل، وبعض أشياء أُخرى، حولت عيني من جديد إلى المنظر البهي الذي تحتي، وسرعان ما غرقتُ في تأملاتي.

أيقظني من هذه التأملات، بعد بضع دقائق، صوتُ بومباي، الذي أعلن أنّه لم يعد يستطيع الوقوف ثابتاً أكثر من ذلك، وتوسّل إليّ أن أعطف عليه فأنزل. كان هذا الطلب غير معقول، وأخبرته بذلك في خطبة مُسهبة بعض الشيء. وأجابني، ولكن في سوء فهم واضح لأفكاري بشأن الموضوع. لذلك استبدّ بي الغضب، وأخبرته بكلماتٍ لا لبس فيها أنّه غبي، وقد ارتكب خطأً غبياً لا يُغتفر في طرفة عين، وأن أفكاره لا تختلف كثيراً عن أحلام جوبيتر وخيالاته المُسهّدة، وأنّ كلماته أفضل بقليلٍ من أي كلامٍ مُحبط للهمم يتفوّه به الأعداء. وبدا مُقتنعاً بهذا، وما لبث أن عدتُ إلى تأملاتي.

ربّما مضى نصفُ ساعة على هذه المُشاجرة، وأثناء استغراقي العميق في تأمّل المنظر السماوي المُبهج للنفس تحتي، انتبهت فجأة إلى شيءٍ بارد كان [346]يُلامسُ في رفقٍ مؤخرة عنقي. لا داعي للقول إنّني أحسست بذعرٍ لا يُوصف. كنت أعرف أنّ بومباي تحت قدمي، وأنّ ديانا جالسة، تنفيذاً لأوامري الواضحة، على قوائمها الخلفية، في أبعد ركنٍ من الغرفة. ماذا عسى أن يكون ذلك؟ يا للأسف! لم يمضِ وقت طويل حتى اكتشفت الأمر. أدرت رأسي قليلاً إلى أحد الجوانب، فأدركت، مع دهشتي البالغة، أنّ عقرب الدقائق الضخم، اللامع، الذي يُشبه سيفاً معقوفاً قد نزل، بطبيعة الحال نتيجة دورانه دورة كاملة في كل ساعة، على رقبتي. لم تكن أمامي، كنت أعرف هذا، ثانية واحدة لأضيعها. تراجعت على الفور.. ولكن بعد فوات الأوان. لم تكن هُناك فرصة لإخراج رأسي من الفخ المُرعب الذي وقعت فيه فأطبق عليّ تماماً، ذلك الفخ الذي كان يزداد ضيقاً أكثر فأكثر بسرعة مُرعبة لا يُمكن تصوّرها. لم يكن الألم الذي أحسست به في تلك اللحظة قابلاً للتخيّل. كنت ألوّحُ بيدي وأُحاول، بما أُوتيت من قوة، أن أرفع العمود الحديدي فأبعده عني. ربّما كنت أسعى أيضاً إلى رفع الكاتدرائية بأسرها. واستمرّ العمود يزحف ويزحف إلى الأسفل، إلى

الأسفل، إلى الأسفل، مُقترباً مني أكثر فأكثر. وصرخت بأعلى صوتي على بومباي وطلبت منه مُساعدتي؛ لكنه قال: إنّني سبق أن آذيت مشاعره بأن نعتّه بـ «العجوز المُخرّف الأحول». وصرخت على ديانا؛ لكنّها لم ترد بشيء سوى أن نبحت: «بو- وو- وو»، وعرفتُ أنّني سبق أن أخبرتها «عليك مهما كانت الأسباب أن لا تتحركي من ذلك الركن». لهذا لم أتوقّع أي عونٍ من رفاقي.

في تلك الأثناء لم يتوقف منجل الزمن الرهيب (ذلك أنّي الآن فقط اكتشفت المغزى الحِرفي لتلك العبارة الكلاسيكية)، ولم يكن من المُتوقع أن يتوقف عن أداء مهمته. استمرّ بالنزول. في ذلك الوقت انغرست حافته الحادة عميقاً في لحمي، وازدادت أحاسيسي ضعفاً وغموضاً. في لحظة تخيّلت نفسي في فيلادلفيا برفقة الدكتور مونيبيني بطلعته البهية، وفي لحظة أُخرى رأيتني في الردهة الخلفية لمنزل السيد بلاكوود، أتلقّى توجيهاته التي لا تُقدّر بثمن. ومرة أُخرى ترددت في ذهني ذكريات جميلة عن أوقات ماضية أفضل من هذه، وفكّرت في مرحلة سعيدة من العمر لم يكن فيها العالم صحراء قاحلة، ولم يكن فيها بومباي قاسياً.

كانت دقات الآلة تُمتع قلبي. تمتعني، أقول هذا، لأنّ أحاسيسي الآن تركزت حول سعادة مثالية، وأكثر الظروف تفاهة تمنحني البهجة. وكان الرنينُ الأبدي للساعة ..كلك.. كلاك.. كلك.. كلاك.. كلك.. كلاك.. مثل أكثر نغمات الموسيقى رخامة في أُذني، يذكرني بين الحين والحين حتى بمُحاضرات لبقة، رنانة، مليئة بالمواعظ كان يُلقيها الدكتور أولابود[3]. وتلك الأرقام الهائلة في حجمها على لوح الساعة.. كم كانت تبدو مشحونة بالفكر والذكاء! الآن بدتْ كأنّها تؤدي رقصة [347]المازوركا، وخيّل إليّ أنّ الحرف *V* يبذل ما في وسعه لكي يرضيني. كان يتجلّى لي مثل سيدة كريمة من محتدٍ عريق. لا من المتبجّحين أمثالكم، فلا شيء غير مُحتشم أبداً في حركاتها. لم تكن تدور على أطراف

(3) دكتور أولابود: شخصية في مسرحية هزلية بعنوان (الرجل المسكين) لجورج كولمان الأصغر. كان يؤدي هذا الدور أحياناً وليم برتون. [المترجم]

أصابعها من أجل أن تحظى بالإعجاب.. وإنّما تدور على رأسها. وحاولت أن أُناولها كرسياً، لأنّي رأيتها مُنهكة مع الجهود التي كانت تبذلها.. ولم أُدرك موقفي الذي يستحق الرثاء إلا بعد حين. كان موقفاً يُرثى له حقّاً! عقرب الساعة انغرس بوصتين في رقبتي. وتفاقمت مُعاناتي فتحوّلت إلى ألمٍ فريد من نوعه. وتوسّلت إلى الله أن يرحمني بالموت، وكنت في لجّة صراعٍ مرير مع الألم فلا أستطيع منع نفسي من تكرار الأبيات الرائعة للشاعر ميغيل دو سرفانتس:

«إنّهم يذهبون إلى حتفهم المُحقق،

في مكانٍ مجهول، وذلك لا يقتضي منك المجيء،

لأنّ ملك الموت،

لن يرجع ليمنحني الحياة»

وكشّر وحشٌ مرعبٌ من جديد الآن عن أنيابه، كان حقّاً من جنسٍ يكفي لاقتلاع أقوى الأعصاب من جذورها. وبدأت عيناي، من الضغط القاسي للآلة، تخرجان من محجريهما. بينما كنت أتساءل كيف سأتدبّر أمري دونهما، تدلّت إحداهما في حقيقة الأمر خارج رأسي، وتدحرجتْ إلى الأسفل على جانبٍ شديد الانحدار من برج الكنيسة، واستقرّت في ميزاب الأمطار الذي يمتد على الحافات البارزة للمبنى الرئيسي. لم يكن فقدان العين شيئاً خطيراً بالقياس إلى النظرة الوقحة التي تنمّ عن التشفّي والاحتقار التي بقيت ترمقني بها حتى بعد خروجها من رأسي. هُنالك استقرت في الميزاب تحت أنفي مُباشرة، والنظرات التي ظلّت تُعبّر عنها كنت سأعتبرها سخيفة لولا أنّها أثارت اشمئزازي. مثل ذلك الغمز واللمز لم أرَ شيئاً شبيهاً له من قبل. هذا التصرّف من عيني التي في الميزاب ليس مُستفزاً إلى جانب التغطرس الظاهر والجحود المُخزي فحسب، وإنّما كان مُزعجاً كثيراً بسبب التعاطف الذي يوجد دائماً بين عينين على الرأس نفسه، مهما كانتا بعيدتين. وجدتُ نفسي مُجبرة بطريقة ما للغمز واللمز، شئت ذلك أم أبيت، في تناغمٍ مثالي مع ذلك الشيء الحقير الذي يستقر تماماً تحت

أنفي. لكنّي أحسست في الوقت الراهن بالارتياح بعض الشيء حين تخلّصت من العين الأُخرى فأسقطتها. وحين سقطتْ اتّخذت الاتجاه نفسه(ربما كانت مؤامرة مُنسّقة) الذي سلكته أختها. تدحرجت العينان معاً إلى خارج الميزاب، وفي الواقع شعرتُ بالسعادة لأنّي تخلّصت منهما.

انغرس عقرب الساعة الآن إلى عمق أربع بوصات ونصف في رقبتي، ولم تبقَ غير قطعة ضئيلة من الجلد ليخترقها. لم تكن أحاسيسي تبتعد كثيراً عن السعادة [348]القصوى، لأنّي أحسست في غضون بضع دقائق، على أقصى تقدير، أنّ عليّ التحرّر من وضعي المُزعج. ولم تخدعني توقعاتي في هذا أبداً. في الساعة الخامسة وخمسٍ وعشرين دقيقة مساء، بكلّ دقة، قطع عقربُ الدقائق الضخم مسافة كافية في دورانه المُرعب ليُنهي ما تبقّى من رقبتي. لم أشعر بالأسف وأنا أرى الرأس الذي سبّب لي الإحراج ينفصل نهائياً عن جسدي. تدحرج رأسي في بداية الأمر على جانب البرج، ثم استقرّ، بعد ثوانٍ، في الميزاب، ثم ظلّ يغطس حتى سقط في مُنتصف الشارع.

أعترف الآن صراحة بأنّ مشاعري كانت فريدة في نوعها بالقياس إلى أي شيء.. كلّا، إنّما هي مشاعر ذات طبيعة مُحيّرة وغير قابلة للاستيعاب أكثر من أي شيء. أحاسيسي موجودة هُنا وهُناك في لحظةٍ واحدة، في ذات اللحظة. وتخيّلت، بواسطة رأسي، في وقتٍ ما، أنّني، أي: الرأس، سغنورا سايك زنوبيا الحقيقية.. وفي وقت آخر، اقتنعت بأني أنا نفسي، أي: الجسد، أحمل الهوية التي تُمثلني حقّاً. بغية توضيح أفكاري في هذا الشأن مددتُ يدي إلى جيبي بحثاً عن علبة السعوط، ولكني حين وجدتها وحاولت أن أضع مقداراً قليلاً من محتوياتها اللذيذة كما جرت العادة، أدركت على الفور فشلي الغريب، ورميت العلبة حالاً إلى الأسفل فسقطت على رأسي. تناول الرأسُ كمية من السعوط في اقتناعٍ شديد، وابتسم لي مُمتنّاً. بعد وقتٍ قصير ألقى الرأسُ خطبة، وكنت أسمع ذلك على نحو مشوّش دون الاستعانة بالأذنين. ولكني لملمتُ من الكلمات ما استطعت حتى عرفت أنّ الرأس يبدي استغرابه من رغبتي في البقاء على قيد الحياة في مثل هذه الظروف. وفي الجُملة الختامية، اقتبس الرأسُ كلمات نبيلة

من أريوستو.. «الرجل المسكين بمنظره الذي يدعو للأسى حقّاً، لم يكن يعرف أنّه مذبوح، ظل يُقاتل..»

Il pover hommy che non sera corty

And have a combat tenty erry morty;

هكذا يُقارنْ بيني وبين البطل الذي لم يُدرك، وسط احتدام المعارك، أنّه كان ميتاً، واستمرّ في خوض النزال في بسالةٍ لا تهمد. لم يمنعني شيءٌ الآن من النزول من مكاني المُرتفع، وفعلت ذلك. ما رآه بومباي أمراً غريباً مُستهجناً جدّاً في منظري لم أتمكّن إلى الآن من معرفته. فغر المسكينُ فاه من الأُذن إلى الأُذن، وأغمض عينيه وكأنّما كان يسعى إلى كسر حباتٍ من البندق بين شفتيه. وأخيراً، ألقى معطفه، وقام بوثبة واحدة باتّجاه السلم ثم اختفى. هرعت أجري خلف الوغد وأنا أردّد هذه الكلمات الحازمة من ديموسثينيس..

أندرو أوفليغثون، أنت حقّاً تستعجل الهرب،

ثم تحوّلتُ إلى حبيبة قلبي، تلك التي لها عينٌ واحدة! إلى ديانا ذات [349]الشعر الأشعث. يا للأسف! يا له من منظرٍ مُرعب يتجلّى أمام عيني؟ هل كان ذلك الذي رأيته جُرذاً يتسلّل فيتوارى في جحره؟ هل هذه العظام المُجرّدة من اللحم تعود لملاكي الصغير الذي التهمه الوحش اللعين بقسوة؟ يا الله! ما الذي أراه.. هل تلك هي الروح الراحلة، الظل، شبح كلبتي الصغيرة المحبوبة، أراها جالسة تلك الجلسة الجميلة الحزينة، عند الركن؟ اسمعوا! لأنّها تتكلّم، يا الله! إنّها كلمات من الألمانية، من شيلر..

"Unt stubby duk, so stubby dun

Duk she! duk she!"

واحسرتاه! أليست كلماتها صادقة كلَّ الصدق؟

«وإذا قضيتُ نحبي، على الأقل فأنا

أموت من أجلك.. من أجلك أنت».

يا للمخلوقة الجميلة! لقد ضحّت هي الأُخرى بنفسها بدلاً عني. لا كلاب، لا زنوج، لا رؤوس، ما الذي يبقى الآن لسغنورا سايك زنوبيا التعيسة؟ يا للأسف ..لا شيء! انتهى أمري.

لايجـــيا

.. والإرادة التي تكْمن هُنا شيءٌ لا يموت. مَنْ يعرف أسرار الإرادة، بما فيها من [350]عنفوان؟ فإنّ الله تعالى ليس إلّا إرادة عظيمة تُهيمن على مصير الأشياء من خلال طبيعة مقاصده. الإنسان لن يستسلم لشيء ولا حتى للملائكة، ولا إلى الموت نفسه، ما لم يتسلّل الوهن إلى إرادته ويفقد الإيمان بها...

جوزيف غلانفيل.

ليس في وسعي، وحقّ الروح التي تسكن جوانحي، أن أتذكّر كيف، ولا متى، ولا حتى أين على وجه التحديد تعرّفت للمرة الأُولى على السيدة لايجيا. ها قد انصرمت سنواتٌ طويلة منذ ذلك الوقت.. وذاكرتي وهنتْ من فرط مُعاناتي. لعلّي لا أستطيع الآن أن أستحضر في ذهني مثل هذه الأشياء، لأنّ شخصية حبيبتي، في حقيقة الأمر، ومُستوى تعليمها الرفيع وثقافتها النادرة، ومسحة جمالها الوادع الأخاذ، والفصاحة الفتانة في لغتها الموسيقية ونبرات صوتها الخفيضة، كل تلك الأشياء تنسلّ مُباشرة إلى قلبي في ثبات وإصرار، وتمضي خلسة بحيث لا ينتبه إليها أحد أو تُكتشف أسرارها. أعتقد جازماً أنّني التقيت بها في البدء، على الأغلب، في إحدى المدن الكبيرة، القديمة، المُتداعية على ضفاف نهر الراين. أمّا عن عائلتها.. فيقيناً سمعتها تتكلّم عنها. حدث ذلك من غير شكّ منذ زمنٍ بعيد جدّاً.. لايجيا! لايجيا! حين أُحاول تقصّي خفايا طبيعتها في سعي يتناغم أشد التناغم مع خيالات باهتة أو انطباعات إنسانٍ مُحتضر عن العالم الخارجي، فمن خلال تلك الكلمة الجميلة وحدها.. لايجيا.. يُمكنني أن أستحضر أمام عيني من عالمِ الخيال صورةً لها لم تعُد موجودة. والآن، في

الوقت الذي أكتب فيه ما أكتب، تضطّرم في داخلي ذكرى غريبة، أنّني لم أعرف أبداً اسمها العائلي، تلك التي كانت صديقتي وخطيبتي، والتي أصبحت شريكتي في قراءاتي، وفي نهاية المطاف، زوجتي التي أحتضنها على صدري. هل كانت نزوة عابثة من جانب حبيبتي لايجيا؟ أم أنّها اختبارٌ لمدى شغفي بها، لن أستمر طويلاً في إثارة التساؤلات عن هذه المسألة؟ أم تراه كان طيشاً عابراً من جانبي.. أم إنّها هبة رومانسية بدائية على مذبح الوفاء تقديساً لعاطفة هي الأشدُّ إخلاصاً؟ ولكنّي أتذكّر في غموضٍ واقعة بعينها.. فأيُّ عجبٍ إذن في أن أنسى كل شيء عن ظروفٍ أحدثتها أو تزامنت معها؟ إذا كانت تلك الروح تُسمّى حقّاً روح العشق العُذري.. إذا كانت تلك الروح الشاحبة المُتسربلة بالظلالِ ذات الأجنحة السديمية، روح أشتوفيت[1] من مصر الوثنية، في وقتٍ من الأوقات، تفرض سطوتها، كما يقولون، على مصير الزيجات التي تنتهي نهاية مشؤومة، إذن فمن المُحقق أنّها تدخلت في مصير زواجي.

على أنّ هُناك موضوعاً أثيراً إلى قلبي، لن تخذلني فيه ذاكرتي. تلك هي [351]شخصية لايجيا نفسها. من ناحية القوام فهي فارعة الطول، ونحيفة بعض الشيء، مع أنّها في أيامها الأخيرة أصبح جسمها يميل إلى الهُزال. ربّما يبدو من العبث أن يُحاول المرء وصف تلك المهابة المُستكينة والهدوء المُطمئِن في هيئتها وسلوكها، أو أن يُجسد مظاهر الرقة والرشاقة التي ليس من اليسير فهم معانيها إذ ترافقُ خطواتها. تأتي وتذهب مثل الظل. لم يسبق أن تنبّهت إلى دخولها عليّ بينما يكون باب غرفة مكتبي مُغلقاً إلّا حين يُدغدغ أُذني اللحن الحنون لصوتها الواطئ العذب، وهي تضع يدها الرخامية على كتفي. في جمال الوجه لا تُضاهيها امرأة قط. الوجه مُتألقٌ بأحلامٍ لذيذة كتلك التي يُثيرها الأفيون في مُتعاطيه.. يوحي برؤى وهمية تجعل الروح تسبح في بحور الخيال، وجهها أكثر قداسة وبدائية من أحلام اليقظة التي تُرفرف فيها الأرواح الناعسة لبنات

(1) أشتوفيت: في موسوعة *Rees's Cclopaedia* هي إحدى آلهات الفينيقيين في صيدا، لبنان القديمة. وهي آلهة الخصب في مصر، وفي الأساطير هي نظيرة الإلهة عشتار (سفر الملوك: 23: 13). [المترجم]

ديلوس[2]. على أنّ صفاتها لم تكن تنتمي إلى ذلك النمط الاعتيادي الذي تعلّمنا تقديسه على غير استحقاق في الجهود الكلاسيكية للوثنيين. «ليس هُناك جمال نادر»، يقول لورد فيرولام بيكون[3]، وهو يتكلّم بحقٍّ عن شتى أجناس الجمال، «يخلو من بعض الغرابة المُستنكرة في النسبة والتناسب». ولكنّي أرى أنّ صفات لايجيا لا تمتّ بصلة إلى أي ضربٍ من التناسق الكلاسيكي.. مع إدراكي أنّ كونها محبوبة إلى النفس في حقيقة الأمر شيء «نادر»، ومع إحساسي بوجود كثيرٍ من «الغرابة» التي تُهيمن عليها، إلّا أنّي كنت أُحاول، ربما عبثاً، أن أتقصّى طبيعة الخلل وأتحرّى في تصوّراتي عن ذلك الشيء «النادر الغريب». كم من مرة تفحّصت مُنحنيات جبهتها الشاحبة المُتغطرسة.. لم أجد فيها مثلبة.. كم تبدو تلك المُفردة عاجزة في برودها حقّاً لو أردنا لها أن تصف شيئاً بمثل تلك القداسة!.. والبشرة التي تتحدّى في صفائها أنقى أنواع العاج.. امتدادٌ يُهيمن في استرخاءٍ وانسياب، بروزٌ خفيف يوحي بالفراسة كأنّه حارسٌ للمعابد؛ ومن ثمّ خصلات الشعر التي بلون الغراب الأسحم، في تهدّلها المُترف وتعقّصها الطبيعي، تطلق من طيّاتها القوة السحرية الكامنة في الوصف الهوميري لزهرة المكحلة الياقوتية «*hyacinthine!*»[4]، ونظرتُ إلى الملامح المُموجة المُرهفة لفمها.. لم أجد ما يُماثلها في الكمال، في أي مكان، غير نقوشٍ بارزة رشيقة ترصّع الميداليات التي يصنعها العبريون. البضاضة المُترفة نفسها للسطح الأملس الصقيل، الاشتياق نفسه الذي بالكاد تُدركه العين للتشبّه بالعُقاب، المنخرين المعقوفين نفسيهما في حركة التحدّي التي تُحاكي الروح في انطلاقها بلا قيود. نظرتُ إلى فمها ورحيقه العذب. هُنا رأيت تجسيداً حقيقياً لزهو المُنتصرين الأكثر سموّاً من كل الأشياء السامية.. استدارة رائعة لشفةٍ عُليا قصيرة.. وهجوع رقيق مُثير للشهوة في شفة سفلى.. غمّازات الخد تلهو، واللون ينطق.. الأسنان تنزوي إلى الوراء، في

---

(2) ديلوس: جزيرة يونانية تقع بالقرب من وسط أرخبيل سيكلاديس، وتُعتبر أحد المواقع المُهمة المذكورة في الميثولوجيات والتواريخ الإغريقية. [المترجم]

(3) فرانسيس بيكون (مقالات في الجمال.. المقال رقم 43). [المترجم]

(4) كتب هوميروس في (الأوديسة) «... من شعر رأسه صُنعت خصلات كأنها زهرة المكحلة الياقوتية». [المترجم]

لمعانٍ يأسر الألباب، كلّ حزمة من الضوء القدسي تنعكس عليها تُبدي أكثر الابتسامات رونقاً وصفاءً، تشع [352]فيها أكثر الأضواء مجداً وتهليلاً. أمعنت النظر في استدارة حنكها.. هُنا أيضاً وجدتُ رقة الاتّساع، ورهافة السمو، وكمال الروحانية التي نتلمّسها لدى الإغريق.. مُنحنيات قسماتٍ لم يكشف عنها أبولو إلّا في الأحلام، كشف عنها إلى كليومينس(5)، ابن الأثينية.. ثم أمعنت النظر إلى عيني لايجيا الواسعتين.

العينان لا يُناظرهما شيءٌ من النماذج التي عرفناها في الموروثات القديمة للعصور الغابرة. ربما جاز لي القول أيضاً إنّ في عيني حبيبتي هاتين يكمن ذلك السر الذي يلمّح إليه اللورد فيرولام. لا بُدّ من الاعتراف بأنّهما أوسع من أي زوج عيون اعتيادية لبني جنسنا من البشر. إنّهما واسعتان أكثر حتى من عيون الغزلان التي نجدها في قبيلة وادي نورجاهاد(6). على أنّ ذلك لم يكن ليحدث إلّا على فترات مُتقطعة.. في لحظات انفعالٍ قصوى.. أن تُصبح الغرابة هذه أكثر من مُجرّد شيء مُستغرب لدى لايجيا. في مثل هذه اللحظات يتجلّى جمالها.. لخيالي المحموم.. جمال مخلوقات إمّا أنّها تعيش على الأرض أو بعيداً عنها.. جمال تركية حوراء من أصلٍ خُرافي. يتغاير طيفُ ألوان الحدقتين وصولاً إلى أكثر السواد إبهاراً، وفوق الحدقتين تتدلّى رموشٌ سوداء طويلة. أما الحواجب، وهي غير مُستوية بعض الشيء في مُنحنياتها، فتحمل المسحة اللونية نفسها. إلّا أنّ «غرابة» العينين لا تختلف في طبيعتها عن شكل، أو لون، أو تألق القسمات، وينبغي أن ترجع، على كل حال، إلى معنى التعبير. آه، يا لها من كلمةٍ بلا معنى! خلف اتّساع رقعة الرنين في صوتها المُتجرّد نخفي جهلنا للكثير من المعاني الروحانية. ذلك المعنى العميق يتغلغل في عيني لايجيا! كم من ساعاتٍ

(5) كليومينس: ملك إسبارطة، توفي سنة 489 ق.م كتب سيرته بلوتارخ في تأريخه. [المترجم]

(6) نورجاهاد: ملك فارسي. هُنا إشارة إلى كتاب (تاريخ نورجاهاد) تأليف سدني بيدولف. طبعة دبلن، 1767 حيث ورد فيه «كل أجزاء الأرض سوف تستكشف بحثاً عن أجمل امرأة في العالم». [المترجم]

طوال استغرقت مُفكراً في هذا المعنى! كم كنتُ، في ليلةٍ من ليالي مُنتصف الصيف، أُكافح لأسبر أغواره! ماذا يُمكن أن يكون ذلك.. الشيء الأكثر عمقاً من ينبوع ديموقريطس(7).. يستقر في بؤبؤ عيني حبيبتي؟ ماذا تراه يكون؟ استبد بي هاجسٌ مسعور لاكتشاف ذلك. تينك العينان! كراتٌ ذات تألّقٍ مُقدس! أصبحتا بالنسبة إلي نجمتي ليدا(8) التوأم، وأصبحتُ بالنسبة إليهما أكثر علماء التنجيم تقوى وإخلاصاً.

ما من مسألةٍ، في كثيرٍ من نواحي الشذوذ التي من العسير استيعابها في علم الدماغ، أكثر إثارة للفزع من حقيقة.. لم أكن أعتقد أبداً، ولم ألحظ خلال أيام الدراسة.. أنّنا في مُحاولاتنا لأن نستعيد إلى الذاكرة شيئاً طواه النسيان منذ زمن بعيد، غالباً ما نجد أنفسنا على الحافة تماماً من التذكر، دون أن نكون قادرين، في نهاية الأمر، أن نتذكر. كم من الأوقات مرّت، في بحثي الدؤوب في عيني لايجيا، شعرت فيها بأنّي أكاد أقترب من المعرفة التامة لما تعبّران عنه.. أحسست بأن ذلك المعنى يزداد قُرباً.. ولكنه لا يُصبح ملكاً لي.. هكذا يبتعد عني كل البعد في نهاية الأمر! ووجدت (يا له من شيءٍ غريب، أوه، إنّما هو أغرب من الأسرار جميعاً!) [353]وسط أكثر الأشياء المألوفة في الكون، حلقة من المُتماثلات الأُخرى لذلك التعبير. أقصد القول، بعد أن انتقل جمال لايجيا في رحلته مُختَرِقاً روحي، واستقر هُناك كأنّه ضريح مُقدّس، كنت أستمد من الكثير من الموجودات المادية في العالم حاسة وجدانية مثل تلك التي اكتشفتها دائماً في داخلي بإزاء محجري عينيها الواسعتين المُتألقتين. على أنّي لم أعد قادراً في وقتٍ لاحق أن أحدد ماهية تلك الحاسة، أو أحلل، أو حتى أن أنظر إليها نظرة مُتبصّرة. كنت أدرك وجودها، دعوني أكرر، في بعض الأحيان كما أُدرك النمو السريع لنباتٍ مُتسلّق حين أجري مسحاً له.. أو كما أدرك سياق تحوّل العثة،

(7) ديموقريطس: ويُسمى الفيلسوف الضاحك، قال: إنّ الكون عبارة عن فراغ غير محدود من الذرات وهو يُشبه الينبوع وفي أعماق هذا الينبوع توجد الحقيقة. [المترجم]

(8) نجمتا ليدا في الأساطير الإغريقية هما كاستور وبولوكس، أمهما ليدا. كاستور ابن ملك إسبارطة وبولوكس ابن زيوس الذي أغوى ليدا في شكل إوزة. [المترجم]

الفراشة، الشرنقة، أو كما أدرك هدير شلالٍ مُتدفق. كنت أحسّ بذلك وأنا أنظر إلى المُحيط؛ أو حين أُراقب سقوط نيزك. كنت أحس بذلك في نظرات الناس الذين بلغوا أرذل العمر. نجمة أو نجمتان في السماء.. (واحدة منهما خاصة، تأتي في المرتبة السادسة في لمعانها، حجمها مُضاعف ومُتغيّرة دائماً، بالقرب من النجمة الكبيرة في برج ألفا لايرا) من خلال مسحٍ تلسكوبي أدرك حقيقة مشاعري نحوها. غمرتني تلك النجمة بأصوات سيمفونية آلاتٍ وترية، وليس من النادر أن تغمرني بمُقتطفاتٍ مُختارة من هذا الكتاب أو ذاك. من الحالات التي لا تُعد ولا تُحصى، أتذكّر جيداً شيئاً قرأته في كتاب لجوزيف غلانفيل[9]، لم يفشل أبداً (ربّما لجاذبيته فحسب.. من يدري؟) في أن يُلهمني الإحساس بالتعاطف؛ «.. والإرادة التي تكْمن هُنا شيءٌ لا يموت. من يعرف أسرار الإرادة، بما فيها من عنفوان؟ فإن الله تعالى ليس إلا إرادة عظيمة تُهيمن على مصير الأشياء من خلال طبيعة مقاصده. الإنسان لن يستسلم لشيء ولا حتى للملائكة، ولا إلى الموت نفسه، ما لم يتسلل الوهن إلى إرادته ويفقد الإيمان بها».

أتاح لي طولُ السنين، والتأمل اللاحق، أن أتلمّس، في حقيقة الأمر، بعض نقاط التماثل بين هذا النصّ الذي يأتي بما يتّفق مع الأخلاقية الإنكليزية وبين جانبٍ من شخصية لايجيا. قد يكون هُناك زخمٌ كثيف في جوانب الفكر، والإنجاز العملي، والكلام، كأشياء ظاهرة للعيان في شخصيتها، كنتيجة أو على اقلّ تقدير، كدليل على تلك الإرادة الجبّارة التي كانت مع ذلك تفشل، أثناء أحاديثنا المُطولة، في أن تفصح بوسيلة مُباشرة عن وجودها. من بين جميع النساء اللّواتي عرفتهن في أي وقت، تبدو لايجيا وادعة من الخارج، واثقة من نفسها كل الثقة، في الوقت الذي تفترس روحها نسور الأهواء المُشاغبة. عن طبيعة وأسرار هذه الأهواء لم أستطع رسم وإن صورة تخمينية، إلّا إذا تتبّعت الاتّساع الأسطوري لتينك العينين اللتين تمتعاني وتُرعباني في آن واحد.. وأنا

---

(9) جوزيف غلانفيل: (1636- 1680) كاتب وفيلسوف وكاهن إنكليزي، لم يكن من العلماء لكنه توقّع إمكانية توصل العلم إلى طريقة للاتصال عبر الأثير مع الجانب الآخر من الأرض. [المترجم]

أسمع اللحن السحري الشجي، المُتهدّج، الفصيح، الرزين لصوتها المُنخفض جدّاً.. وأنا أتلمّس الطاقة الفوّارة (التي تكتسب زخماً مُضاعفاً بالقياس إلى طريقتها في النطق) لكلماتها ذات القدرة الخارقة على التأثير التي كانت تتفوّه بها في العادة.

لقد تطرّقت إلى الناحية التي تتعلّق بثقافة وتعليم حبيبتي لايجيا: فمُستوى [354]تعليمها كان راقياً.. مثلما لم أعهده لدى امرأة. في اللّغات الكلاسيكية، هي مُتبحّرة عميقاً.. ومع معرفتي المُتواضعة باللهجات الحديثة في أوروبا، لم أكتشف أنّها ارتكبت خطأ قط. في الواقع، في أي موضوع لا بُدّ أن تنال أكبر قدرٍ من الإعجاب والثناء، وذلك لاتّساع اطّلاعها على أكثر المسائل التي تتباهى بها الأكاديمية.. هل وجدت لايجيا تُخطىء يوماً؟ يا له من تفوّقٍ خارق للمألوف.. مُثير للانبهار في طبيعة زوجتي، كان يتجلّى في هذه الفترة المُتأخرة، ويشد انتباهي شدّاً لا سبيل للتغاضي عنه! قلتُ: إنّ معرفتها من نوعٍ لم يسبق أن عرفته لدى امرأة.. ليس هذا فحسب، وإنّما وجدتها تقتحم شتى المجالات الواسعة التي يتفوّق فيها الرجل وتتخطّى مُختلف الصعاب في العلوم الأخلاقية، والمادية، والرياضية؟ لم أكن أرى آنذاك ما أراه الآن رؤية لا لبس فيها، فالمعلومات التي اكتسبتها لايجيا بلغت ذروة الكمال المُذهل؛ كنت أُدرك تفوّقها غير المحدود بما يكفي من اقتناع لكي أسلم زمام نفسي إليها، في انقيادٍ صبياني، لترشدني عبر مسارات الاستقصاء الميتافيزيقي الفوضوي الذي كنت مُنشغلاً فيه أكثر من أي شيء إبّان السّنوات المُبكرة لزواجنا. كم كنت أشعر بالزهو.. كم كانت بهجتي غامرة.. كم راودني من أملٍ أثيري.. وأنا اشعر بها تنحني فوقي في تأملاتٍ نادراً ما تُسبر أغوارها.. ومن النادر أكثر أن تُعرف اتّجاهاتها.. تستقصي ذلك المنظر الخيالي المُبهج، على درجات بطيئة يتوسّع نطاقه أمامي، تتبع نظراتها درباً طويلاً، فائق الجمال، لم تطأه قدمٌ من قبل، ينتظرني لعلّي أمضي أخيراً باتّجاه الهدف الذي يتمثّل في حكمة مُقدسة، غاية في القيمة والأصالة بحيث لا تمتنع عمن يسعى إليها!.

كم كان مُفجعاً إذن ذلك الأسى الذي انتابني، بعد سنوات، وأنا أرى

آمالي التي شيّدتها على أُسس متينة تتّخذ أجنحة وهمية فتحلّق بعيداً! بعد أن تركتني لايجيا أصبحتُ مُجرّد طفل يتلمّس خطواته في الظلام. كان وجودها، قراءاتها وحدها، تُلقي أضواءً ساطعة نابضة بالحياة على كثيرٍ من أسرار فلسفة التسامي التي كنا مُنغمسين فيها. بعد أن افتقدت بريق عينيها المُتوهّجتين بالإشراق، أصبحت رسائلها الحنونة ذات البريق الذهبي أكثر عتمة من رصاص زحل. الآن صار وهجُ تينك العينين يخبو تدريجياً على الصفحات التي انكبّ عليها. وتفاقم مرض لايجيا. بدت العينان كأنّما تضطرمان بسطوعٍ وهاج.. وهاج جدّاً؛ والأصابع الشاحبة تكسوها مسحة شفافة كأنّها شموع أخرجت في التو من القبر، والأوردة الزرقاء على الجبهة الغائرة تنتفخ وتغطس في طيشٍ مع تذبذب الأحاسيس المُرهفة. رأيتها ميتة لا محالة.. وتصدّتْ روحي البائسة لإصرار عزرائيل الذي لا يلين بمظهره المُتجهّم. وكان صراعُ الزوجة بين يأسها وبين تشبّثها بالحياة يتجلّى في انفعالات تُدهشني حقّاً لأنّها أقوى من صراعي ومُحاولاتي. هُناك أشياءُ كثيرة في طبيعتها الحازمة تُذهلني وتجعلني أعتقد أنّ الموت بالنسبة إليها سيأتي دون أن يحمل معه الرعب الذي [355]نتخيّله؛ ولكن كانت تلك تصوّرات زائفة. الكلمات تعجز أن تنقل فكرة كافية عن ضراوة صراعها مع ظلال الموت. وكنت أرزح تحت وطأة مُعاناتي النفسية وأنا أرى ذلك المنظر المُثير للإشفاق. كان في وسعي أن أُهوّن عليها.. أن أبتكر تبريراً منطقياً للمواساة؛ في ذروة تشبّثها بالحياة.. رغبتها في الحياة ..لولا إرادة الحياة.. لكانت المواساة والتفكير المنطقي من أحمق الحماقات. ولم يحدث إلا في اللحظة الأخيرة، مع أقسى تقلصات الألم لروحها الأبية بإزاء عذابها، أن اهتزّت رباطة الجأش الظاهرية فيها. أصبح صوتها أكثر تهدّجاً.. أكثر استكانة.. على أنّي لن أرغب في أن أتقصّى حرفياً المعنى الموحش للكلمات التي نطقتها في رفق. كان ذهني يترنّح مُختلّاً وأنا أصغي مُحاولاً أن أفهم، أصغي إلى لحنٍ أكثر من أن يكون لحن الفناء.. أصغي إلى إيقاع رؤى وإلهامات لم يعرف الفناءُ طريقها أبداً.

كانت تحبني، ذلك ما لن أشك فيه أبداً؛ ربّما أدركت بسهولة أنّ الحب الذي يسكن صدرها ليس عاطفة عادية. ولكن في مواجهة الموت وحده، كنت

مُعجباً أشد الإعجاب بقوة مشاعرها. خلال ساعاتٍ طويلة، تحتضن فيها يدي، وتسكب على صدري مكنونات قلبٍ تكاد انفعالاته الجياشة الوفية تسمو إلى حد المروق الوثني. هل كنت أستحق مُباركتها لي بتلك الاعترافات؟.. كم كنت أستحق اللعنة بالتخلّي عن حبيبتي ساعة اعترافها. ولكنّي في هذا الموضوع لا أتحمّل الإسهاب. دعوني أقول فحسب، إنّني من خلال تكريس لايجيا روحها للحب، ويا للأسف! ذلك الحب الذي كرّسته لمن لا يستحق، وهبته كله بلا ثمن، أدركت أخيراً مغزى اشتياقها ورغبتها الجادّة في الحياة التي تفرّ الآن منها سريعاً. هذا الاشتياق المحموم.. هذه الرّغبة الصارخة في الحياة ..لولا إرادة الحياة.. تلك أشياءٌ لا قُدرة لي على تصويرها.. فلا كلمات قادرة على التعبير.

في تلك الظهيرة الصيفية التي سبقت ليلة رحيلها، أومأت لي في حركةٍ حازمة أن أقترب منها، وطلبت إليّ أن أكرر بعض الأبيات التي نظمتْها منذ أيامٍ قليلة. وامتثلتُ لإرادتها.. كانت هذه الأبيات:

انظر! إنها ليلة الوداع

في سنواتِ الوحشة الأخيرة!

يُرفرفُ ملاكٌ بجناحين مُزركشين،

من خلفِ الحُجب، تنهمر الدموع من مآقيه،

اجلسْ في مسرحٍ، وشاهد

مسرحية الآمال والمخاوف،

بينما تعزف الأوركسترا لحناً شجياً مُتقطعاً

والموسيقى تتردّد في السماوات.

[356]

مُهرّجون، يُقلّدون حركات الآلهة، يصيحون عالياً،

يُدمدمون، يُهمهمون، يهمسون،

يتقافزون هُنا وهُناك كالقردة؛
مُجرّد دُمى، تأتي وتذهب
تمتثل لأوامر مُخرجين كبار من وراء الستارة
يُجرون تغييرات على المشهد مرة بعد مرة،
تُرفرف أرواحهم على المسرح بأجنحة النسور وتنطلق
حسرةٌ من شفاه غير مرئية!

تلك الفوضى من حركاتٍ مسرحية!..
أوه، كُن على ثقة أنّها لن تُنسى!
وسرابها الذي يبقى إلى الأبد،
يُطارده حشدٌ من الموهومين فلا يمسكون به،
في حلقة مُفرغة لا تنتهي
تعود بهم إلى نقطة البداية،
كلُّ هذا الجنون، كل هذه الخطايا
كلُّ هذا الرعب الذي يكتنف حبكتها.

ولكن، انظر، وسط رعاع المُقلدين،
يقتحم المكان شبحٌ يزحف!
شيءٌ لونه لون الدم يتلوّى خارجاً
من رحم العزلة في المشهد!
يتلوّى!.. يتلوّى!.. من الألم القاتل

يلتهم المُهرّجين،
وينشج الملاك الحارس مُكشراً عن أنيابه البشعة
مُشبعة بالدم البشري.

فلتُطفأ.. فلتُطفأ الأضواء.. كل الأضواء!
وعلى كل شيء يرتعش رعباً،
تُسدل الستارة، يُلقى دثارٌ جنائزي،
تُسدل الستارة مع اندفاع العاصفة،
والملائكة، كلهم شاحبون من السقم،
ينهضون، يكشفون الغطاء، يُصرّحون مؤكدين
أنّ المسرحية هي تراجيديا، «الإنسان»،
بطلها الدود الذي انتصر.

«أوه، يا إلهي!» قالت لايجيا وهي تنتفض فجأة، وقفزت على أقدامها ومدّت ذراعيها في حركةٍ مُتشنجة، بينما كنت أُنهي هذه الأبيات.. «أوه، يا إلهي! أيّها الأب المُقدّس!.. هل تبقى هذه الأشياء هكذا فلا تتغير؟.. ألا يُهزم هذا المُنتصر ولو مرة واحدة؟ ألسنا جُزءاً لا يتجزأ منك؟ مَنْ.. مَنْ ذا الذي يعرف أسرار الإرادة بكل ما فيها من عنفوان؟ الإنسان لن يستسلم لشيء ولا حتى للملائكة، ولا إلى الموت نفسه، ما لم يتسلّل الوهن إلى إرادته ويفقد الإيمان بها..».

والآن، كأنما أُنهكت قواها من الانفعال، بقيت تُنازع لتمنع ذراعيها الشاحبتين من السقوط، ثم عادت في مهابةٍ إلى سرير الاحتضار. وبينما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، امتزجت تلك الأنفاس مع تمتمةٍ واطئة خرجت من بين شفتيها. انحنيت على الشفتين وقرّبت منهما أُذني لكي أُميز، مرة أُخرى، تلك

الكلمات الأخيرة من القطعة التي وردت في كتاب غلانفيل ..«الإنسان لن يستسلم لشيء ولا حتى للملائكة، ولا إلى الموت نفسه، ما لم يتسلّل الوهن إلى إرادته ويفقد الإيمان بها..».

وماتت؛ وألقيت نفسي على التراب نفسه والأسى يعتصرني، ولم أعد قادراً [357]بعد ذلك على تحمّل عُزلتي الحزينة في المدينة الكئيبة المُتداعية على ضفاف نهر الراين. لم أكن أفتقر إلى ما يُسمّونه الثروة في هذا العالم. كانت لايجيا قد وفّرت لي أكثر ممّا يخطر على البال من فرص السقوط الدنيوي في الخطايا. وبعد بضعة أشهر من التنقل المُضجر على غير هُدى، اشتريتُ ديراً، وأدخلت عليه بعض التصليحات، ولن أذكر اسم ذلك الدير، في إحدى المناطق الجرداء التي لا يختلف إليها الناس إلا نادراً من إنكلترا الجميلة. كان جمال مبنى الدير يتمثّل في ظلمته القاتمة، أو في المظهر الموحش للمنطقة بأسرها التي يقع فيها، وفي كثيرٍ من الذكريات السوداوية التي بقيت خالدة بمرور الزمن؛ ذكريات ترتبط ببناء الدير وبالمنطقة، فضلاً عن مشاعر تتناغم مع حالة الانعزال المُطبق دفعتني إلى اختيار بقعةٍ نائية من البلاد لا أختلط فيها كثيراً مع المُجتمع. ومع أنّ الدير، بجُدرانه المُتداعية التي يكتنفها الاخضرار من الخارج، لم يتغيّر إلّا قليلاً عن سابق عهده، فقد سمحتُ لنفسي، في نزوة صبيانية، ولعل ذلك كان أملاً ضعيفاً في التخفيف من أحزاني، أن أُضفي على جوانبه الداخلية مظهراً مُترفاً من الأُبّهة والفخامة.. فمثل هذه الحماقات، حتى في عهدٍ مُبكر من حياتي، كانت تتماشى مع ذوقي، وها هي تعود الآن كأنّما استغلت الخرف الذهني الذي عجّلته الأحزان. يا للحسرة.. أتلمّس الكمَّ الهائل من مظاهر أولية للهوس المجنون ربّما اكتشِفها المرء حتى في الستائر الفاخرة المُزخرفة برسومات خُرافية، في منحوتات ذات مظهر مهيب على النمط المصري، في أفاريز موحشة، في الأثاث، في نقوش بيدلام(10) الفوضوية للسجاد تُحيط بها عناقيدٌ من الذهب! لقد تحوّلتُ إلى عبدٍ مُكبل بأغلال الأفيون، واتّخذت كل مُحاولاتي وتوجّهاتي مسحة تتلوّن بأحلامي وأوهامي. ولكن ينبغي ألّا أتوقّف تفصيلياً عند هذه التُرّهات. دعوني

(10) بيدلام: قرية في شمال يوركشاير، إنكلترا. [المترجم]

أتكلّم فحسب عن تلك الحجرة الملعونة على وجه التحديد، والتي ستبقى ملعونة أبداً، بعد أن انتقلت إليها في لحظة شرودٍ عقلي، قادتني إليها قدماي بعد أن عدتُ من مذبح الكنيسة مُصطحباً عروستي.. وريثة عرش لايجيا التي لا تُنسى.. السيدة ذات الشعر الأشقر والعيون الزرق، روينا تريفانيون من تريماين.

ما من مُفردةٍ من مُفردات العمارة والديكور في حُجرة العرس تلك غائبة عن بصري الآن. أين كان أفراد عائلة العروس المُتغطرسون، متى سمحوا لأنفسهم، من خلال تعطّشهم للذهب، لأن يجتازوا عتبة شقة مُزخرفة بهذا البهاء، ليروا هيفاء بهذا الجمال، وابنة محبوبة كل هذا الحب؟ قُلت: إنّني أتذكّر التفاصيل الدقيقة للحُجرة.. مع أنّني أنسى على نحو مُثير للأسى كل شيءٍ عن مسائل عميقة.. هُنا يفتقر الأمر إلى المنهج، فلا تطابق ولا انسجام، فيما يتعلّق بالاستعراض الخيالي المُذهل، يجعله يُعلّق في الذاكرة. تقع الغرفة في برجٍ شاهق من الدير الذي بُني على هيئة القلاع، شكلها خماسي الأضلاع، وهي فسيحة جدّاً. في الغرفة نافذة واحدة [358]تحتل الواجهة الجنوبية بأسرها من الخماسي.. عليها صفيحة هائلة من الزجاج غير المُتقطع جُلبت من فينيسيا.. لوحٌ يحمل تدرجات ألوان الرصاص الكئيب، حتى إنّ أشعة الشمس أو القمر وهي تخترقها ترسل لمعاناً مُروعاً على الأشياء التي في الداخل. على الجانب الأعلى من هذه النافذة العملاقة تمتدّ تعريشة تتشابك عليها نباتات مُتسلّقة مُعمّرة، تتسلّق في تثاقلٍ على الجدران الشامخة للبرج. أما السقف، فمن خشب السنديان، منظره كئيب، شديد الارتفاع، تقطعُه قناطر، ومُزخرف في إسراف بأفظع رسومات النباتات والحيوانات وأغربها في تصاميم شبه قوطية، شبه درويدية[11]. من مُنتصف هذه القنطرة ذات المنظر الكئيب تتدلّى سلسلة ذهبية وحيدة ذات مشابك طويلة، في نهايتها مبخرة هائلة من المعدن نفسه، ساراسينية[12] في طرازها، تتخلّلها ثقوب

---

(11) درويدية: طبقة المُتعلّمين في المُجتمع الإيرلندي من شعراء وقانونيين وأطباء وغيرهم، رغم أنّ المُصطلح كان يُطبق على رجال الدّين بصفة خاصة. [المترجم]

(12) ساراسين: مُصطلح يعني المُسلمين كان شائعاً في أوروبا خلال حقبة القرون الوسطى. [المترجم]

محفورة بطريقة مُبتكرة بحيث يتلّوى في داخلها وخارجها تيارٌ مُستمرّ من اللهب مُتعدّد الألوان فتبدو كأنما تحيط بها أفعى تتلظى.

هُناك بعض الأرائك التركية وشمعدانات مُذهّبة، مُطرّزة بنقوشٍ شرقية، في مواقعَ مُختلفة من المكان.. والسرير أيضاً.. سرير الزواج.. على طرازٍ هندي، مُنخفض القوائم، منحوت من الأبنوس الصلب، تُكلّله مظلة كأنها غطاء النعش. في كلّ طرفٍ من الحجرة أُقيم ناووس هائلٌ من الجرانيت الأسود، كأنه من قبور الملوك في الأقصر، عليها أغطيتها العتيقة المُزدانة بزخارف وصور تذكارية ومنحوتات. يا للحسرة! على الستائر المخملية الطويلة التي تتدلّى في الحُجرة، يكْمن مصدر الأوهام. على الجدران السامقة في ارتفاعها الذي لا يكاد يتناسب مع أي شيء.. تتدلّى الستائر من القمة إلى الأرضية، في طياتٍ ضخمة، تُزينها رسومٌ وزخارف هائلة تصدم الناظر.. عليها نقوشٌ وتشكيلات لونية يرى المرء أنّها مُماثلة لما يجده على سجادةٍ مفروشة على الأرض، وفراش الأرائك التركية وسرير الأبنوس، والمظلة التي تُكلّل السرير، تتوزّع في أطرٍ حلزونية فائقة الجمال تُحيط بالستائر التي تحجب النافذة جزئياً. المواد التي صُنعت منها الستائر هي أغلى أنواع القماش المُرصّع بخيوط الذهب. القماشُ مُبقّع في كافة أرجائه، على مسافاتٍ غير مُنتظمة، بأجناس من الأرابيسك، قطرها قدم تقريباً، ومُطرّز بأصنافٍ من الكهرمان الأسود الأشد قتامة من أي شيء. هذه الأشكال تُسهم في إضفاء اللّمسة الحقيقية للأرابيسك حين يُنظر إليها من زاوية مُحدّدة. ومن خلال ابتكارٍ بارع أصبح الآن مألوفاً، يُمكن تعقّب أصله إلى مرحلة زمنية موغلة في القدم، تتغاير تلك الأشكال في تجلياتها. بالنسبة إلى شخصٍ يدخل الغرفة للمرة الأُولى يرى أنّها تجسيدٌ لحيوانات مُشوهة الخلقة ببساطة؛ ولكن مع التقدّم أكثر، يَتلاشى هذا الإيحاء تدريجياً؛ وخطوة بعد خطوة، مع تبديل الزائر لموضعه في الحجرة، يرى نفسه مُحاطاً بسلسلة لا تكاد تنتهي من الصور المُرعبة التي تذكره بخرافات النورمانديين، أو تلك الكوابيس التي [359]تُراود الهاجعين في سباتٍ تُقلقه الذنوب في الصومعة. ويتفاقم التأثير الفنطازي كثيراً بوسيلة مُبتكرة تسمح بتدفّق تيارٍ قوي مُستمر من الهواء من خلف الأقمشة.. يُضفي حيوية مُثيرة للارتياب على المكان كله.

في صالاتٍ كهذه.. في حُجرة عرسٍ كهذه.. كنت أقضي مع ليدي تريماين الساعات المُدنّسة للشهر الأول من زواجنا.. أمضي وقتي في شيءٍ من الانزعاج والندم. كنت أخشى أن تفزع زوجتي من مزاجي المُتقلّب النكد.. كنت أخشى أن تتحاشاني أو أن لا تبادلني من الحب إلّا قليلاً.. لم أتمالك نفسي التي حمّلتني وزر تلك التصوّرات؛ مع أنّ التصورات كانت تمنحني شيئاً من المُتعة وليس عكس ذلك. كنت أحس بالاشمئزاز وأتعامل معها في كراهية تكاد تكون قريبة إلى روح الشيطان أكثر من انتمائها إلى أحاسيس البشر. وتطوف ذاكرتي فترجع بي إلى الماضي، (أوه، يا لها من قسوةٍ تورثها وخزة الندم!) فأعود إلى لايجيا، حبيبتي المهيبة، الجميلة التي ترقد في قبرها. ذكرياتي تُعربد في تخوم كيانها النقي، وحكمتها، وعمق أفكارها، وطبيعتها الأثيرية، تنغمس في نشوة حبها وانفعالاته المارقة. والآن، إذن، هل تحترق روحي وتفنى تماماً وتتحرّر من عبوديتها بشيء أكبر من نيران هواها. في لُجّة أحلامي المُترعة بأبخرة الأفيون (لأنّي كنتُ مُكبلاً بقيود ذلك المُخدّر) كنت أصرخ بصوت مسموع مُنادياً باسمها، أثناء سكون الليل، أو بين ثنايا الوديان المُنزوية في الظلال نهاراً، يدفعني إلى ذلك اشتياقٌ وحشي، عاطفة خجولة، ويتأجج في كياني شوقٌ مجنون إلى حبيبتي الراحلة؛ أيُمكنني أن أُعيدها إلى الدرب الذي هجرته.. آه، أيُمكن أن تكون رحلتْ إلى الأبد؟.. عن الأرض.

مع ابتداء الشهر الثاني تقريباً للزواج، تعرّضت ليدي روينا إلى مرضٍ مُباغت، ولكنّها كانت تتماثل للشفاء في بطء. لقد أنهكت الحمّى قواها فصارت تمضي لياليها مُسهّدة قلقة؛ في حالتها المُشوشة التي جعلتها تعيش في شبه غيبوبة كانت تتخيّل أنّها تسمع الأصوات، وتحسّ بحركات، داخل حجرة البرج المُعتمة وفي أرجائها، وعرفتُ أنّ تلك أشياء لا حقيقة لها إلا في خيالها المريض، أو ربّما كان ذلك بسبب تأثيرات وهمية للحجرة نفسها. ثم تماثلتْ للشفاء أخيراً.. وعادت إليها حيويتها. ولكن لم تمضِ غير فترة قصيرة حتى حدث اعتلالٌ ثانٍ أكثر شراسة جعلها ترتمي من جديد على سرير المرض والمُعاناة؛ ولم تعدْ بعد أن هاجمها هذا المرض إلى طبيعتها الأُولى؛ كانت في مُعظم الأحيان تبدو واهنة

مُستنفدة القوى، ولم تبرأ أبداً في هذه المرة. كانت نوبات المرض التي عانت منها، خلال هذه الفترة، ذات طبيعة تُنذر بالخطر، فهي تتكرّر على نحو مُقلق، ولم تُفلح الخبرات والجهود الجبارة التي بذلها أطباؤها. ومع تفاقم المرض العضال الذي أحكم قبضته عليها آنذاك، فيما يبدو، وتأثيره الجسيم على بنيتها بحيث لم يعُد من سبيل لأن يُستأصل بوسائل بشرية، لم أخفق في أن ألاحظ تفاقماً مُماثلاً في عصبية مزاجها الذي تدهور [360]تزامناً مع المرض، وتنبّهت إلى سرعة اهتياجها وغضبها وخوفها لأكثر الأسبابِ تفاهة. وعاودت الحديث الآن على نحوٍ مُتكرّر أكثر من السابق وبصورة أكثر إلحاحاً، عن الأصوات.. أصواتٌ لا تكاد تُسمع.. وحركات غير اعتيادية لأشياء تراها خلف الستائر المُزخرفة، وما إلى ذلك من الأمور التي ألمحتُ إليها.

ذات ليلة، في أواخر أيلول تقريباً، ألحّت في كلامها عن هذا الموضوع المُزعج في تأكيدٍ أكثر مما جرت به العادة وفي مُحاولةٍ صارمة لإثارة انتباهي. أفاقت قبل مدة قصيرة من إغفاءة قلقة، وكنت مُنهمكاً بمُراقبتها، ومشاعري تتوزع بين التلهف، والذعر الغامض، وتأمّل وجهها النحيل. جلستُ بجانب سرير الأبنوس الذي ترقد عليه، على إحدى الأرائك الهندية. حاولتْ النهوض جزئياً، وتكلمتْ، في همساتٍ مُنخفضة جادة، عن الأصوات التي كانت تسمعها آنذاك، والتي لم أتمكّن أنا من سماعها.. وتكلّمتْ عن حركات أشياءٍ رأتها آنذاك، ولم أتمكّن أنا من اكتشافها. كانت الرياح تندفع في طيشٍ من خلف الستائر، ورغبتُ أن أريها (أريها ماذا، لأعترف بالأمر، فأنا لم أصدق كل شيء) أنّ تلك الأنفاس لا تُعبّر عن شيء، وأن تلك التغيرات الطفيفة على نقوش الحائط، ليست إلّا تأثيرات طبيعية لهبوب الرياح الذي لا غرابة فيه. لكن شحوبها الذي يُحاكي شحوب الموتى، وقد انتشر على وجهها، أثبت لي أنّ مُحاولاتي لإعادة الطمأنينة إليها ستكون عقيمة. بدت كأنما أغمي عليها، ولم يكن قربي من أحدٍ أناديه ليهتم بها. وتذكّرت أين وضعنا قنينة نبيذٍ خفيف طلب أطبّاؤها إحضاره، وسارعت مُجتازاً الحجرة كي أحضرها. وبينما كنت أخطو تحت ضوء المبخرة، حدث شيئان لهما طبيعة مُرعبة جذبا انتباهي. كنت أحس بشيءٍ ملموس رغم أنّه غير

منظور يعبر في خفةٍ ورشاقة أمامي؛ ورأيتُ ظلّاً مُستلقياً على السجادة المُذهّبة، وسط الأضواء المُترفة التي تُرسلها المبخرة.. ظلٌ خافت، مُبهم، ملائكي الأوصاف.. مثل الظل الذي نتخيّله لشيءٍ يُحجب عن الشمس. ولكنّي كنت مُتخبّطاً في حالة من الارتباك بعد أن تناولتُ جرعة مُفرطة من الأفيون، فلم أعر هذه الأشياء انتباهاً، ولم أتحدّث بها إلى روينا. بعد أن وجدتُ قارورة النبيذ عدت لاجتياز الحجرة، وسكبتُ لها كمية في القدح، وقرّبته من شفتي المرأة الغائبة عن الوعي. الآن استعادت وعيها جزئياً، وأمسكتْ الكأس بنفسها، بينما غطستُ أنا على أريكة قريبة مني، وكانت عيناي مُسمّرتين على شخصها. في تلك الأثناء انتبهت إلى أنّي كنت أسمع بوضوح وقع أقدام خفيفة على السجادة، بالقرب من الأريكة؛ وخلال ثانيةٍ واحدة، بينما رفعت روينا كأس النبيذ إلى شفتيها، رأيت، أو ربما حلمتُ أنّني أرى، ثلاث أو أربع قطرات كبيرة من سائلٍ لامع [361]ياقوتي اللون تسقط في الكأس، كأنّها سقطت من مصدرٍ مجهول في أعلى الغرفة. إذا كان هذا ما رأيته.. ولم تره روينا. ازدردتْ هي النبيذ بلا تردّد، أما أنا فتردّدت أن أتكلّم إليها عن مُلابساتٍ كنتُ على كل حال أعتبرها من وحي خيالٍ محموم، بعد أن اكتسبتْ حيوية خبيثة من الذعر الذي اجتاح كيان السيدة، ومن الأفيون، ومن الساعة المُتأخرة.

لا أستطيع أن أمحو ذلك من ذاكرتي، فبعد وقتٍ قصير من تساقط قطرات الياقوت، تدهورت حالة زوجتي سريعاً، وفي الليلة الثالثة التي أعقبت ذلك، كانت وصيفاتها يُجرين الترتيبات لوضعها في القبر، وفي الليلة الرابعة، جلستُ وحدي، وكان جسدها ملفوفاً بالكفن قربي، في حجرة الأوهام التي احتضنتها كعروس.. كانت الخيالات التي يُثيرها الأفيون تُرفرف أمام عيني كالظلال. كنت أُحملق بعينين قلقتين في التابوت، في الملائكة التي تحرس الغرفة، في الأشكال المُتغيرة للمفارش، في الأضواء مُتعددة الألوان، في المبخرة التي فوق رأسي. ووقعت نظراتي، في ذلك الوقت، بينما كنت أستدعي إلى ذهني مُلابسات اللّيلة الماضية، على بقعةٍ تحت وهج المبخرة حيث رأيت الآثار الخافتة للظل المُتحرك. لكن الظلّ لم يعُد موجوداً هُناك؛ وتنفّست الصعداء، وتحوّلت نظراتي

إلى الجثة الشاحبة المُتصلبة الأطراف على السرير. واندفعتْ في ذهني آلافُ الذكريات عن لايجيا.. ثم عادت إلى قلبي، في عنفٍ جياش كالطوفان، تلك الحسرات التي لم أتمكّن من إطلاقها حين نظرت إليها وهي ملفوفة بالكفن. واضمحلّ الليل؛ ومع ذلك، كان صدري مشحوناً بالأفكار المريرة عن حبيبتي الوحيدة التي تستحقّ الحب السامي، وبقيت أُحملق طويلاً بجسد روينا.

ربّما حدث ذلك في مُنتصف الليل، أو قبل ذلك، أو بعد ذلك، لأنّي لم أعر اهتماماً للوقت، حين أذهلني النشيج، سمعته مُنخفضاً، رخيماً، ولكنه واضح النبرات جدّاً، وانتفضتُ من حلم يقظتي ..أحسست أنّ الصوت يأتي من سرير الأبنوس.. سرير الموت. وأصغيت في نوبةٍ مُفاجئة من الرّعب الخرافي.. لكن الصوت لم يتكرّر. حاولت جاهداً أن أُركّز نظري لتعقّب أي حركة ربّما تظهر على الجثة.. ولكنّها لم تبدُ أقل حركة يُمكن إدراكها. لا يُمكن أن أكون مخدوعاً. لقد سمعت الضوضاء، وإن كانت مُنخفضة، وكانت روحي مُتحفّزة في داخلي. ولبثتُ على تصميمي ومُثابرتي في تركيز نظري على الجسد. ومرّت دقائق طويلة قبل أن يطرأ أي تغيّر من شأنه أن يُلقي ضوءاً على السر. وأخيراً كان واضحاً أنّ هُناك مسحة خفيفة جدّاً وباهتة من اللون الذي لا يكاد يُلاحظه المرء إلا بصعوبة يطفو على [362]الوجنتين، ويسري على الأوردة الدقيقة الغائرة للأجفان. وفي نوعٍ من الذعر الحزين العصيّ على الوصف، الذعر الذي لا تمتلك لُغة الموتى وسيلة فعالة للتعبير عنه، أحسست بقلبي يتوقّف عن الخفقان، وبأطرافي تتجمّد في المكان الذي جلستُ فيه. غير أنّ الإحساس بالواجب دفعني لاسترداد رباطة جأشي. لم يعُد يُساورني الشك في أنّنا تهوّرنا كثيراً في تحضيراتنا للدفن.. وأنّ روينا لا تزال حيّة تُرزق. كان من الضروري أن يُتخذ إجراء عاجل؛ إلّا أنّ البرج بَعيدٌ جدّاً عن ذلك الجزء من الدير الذي يسكن فيه الخدم.. لم يكن أحدٌ منهم ليسمع النداء.. ولا توجد وسيلة لجمعهم لكي يُقدموا المُساعدة لي دون أن أترك الغرفة دقائق عديدة.. وهذا ما لم أكن مُستعداً للمُغامرة فيه. لذا بقيتُ أكافح وحدي في مُحاولةٍ لمُناجاة الروح الموبوءة التي تحوم حولي. خلال فترة قصيرة كان من المحتوم أن تحدث انتكاسة؛ اختفى اللّون عن الجفون والخدين تاركاً

شحوباً أشد من شحوب الرخام؛ والشفتان أصبحتا ذاويتين مُتقلّصتين أكثر في تعبيرٍ رهيب عن الموت؛ سرتْ رعدةٌ لزجة باردة مُثيرة للاشمئزاز سريعاً على الجثة؛ وكلّ مظاهر المرض العادية القاسية اختفت على الفور. سقطتُ إلى الوراء وقد انتابتني رعشة على الأريكة التي نهضت منها مذعوراً، ومرة أُخرى استسلمت نفسي إلى الرؤى المجنونة التي أعقبت رحيل لايجيا.

مرّت ساعة على هذا الوضع فانتبهت مرة ثانية (أيُمكن هذا؟) إلى صوتٍ غامض يأتي من ناحية السرير. بقيتُ أصغي.. وبلغتُ ذروة الفزع. وجاء الصوت مرة أُخرى.. فكان يُشبه التنهد. يمضي مصدر الصوت باتّجاه الجثة، رأيت.. رأيت بشكل لا لبسَ فيه.. رعشة خفيفة على الشفتين. بعد دقيقة تراخت الشفتان، وانكشفتا عن خطٍّ مُشرق لأسنان كأنها اللؤلؤ. الآن تصارع الذهول في صدري مع حسراتِ حزنٍ عميقة كانت حتى الآن تستقر وحدها هُناك. ازدادت رؤيتي عتمة، وعقلي كان يجوب على غير هدى؛ لم أتمكّن إلا بجهدٍ عنيف أن أستفز نفسي لتؤدي الواجب الذي ألحّ عليّ من جديد. الآن يستقرّ مُجرد وهج جزئي على الجبهة، والخد، والحُنجرة؛ تلمّست دفئاً يجتاح الجسد كله؛ هُناك نبضٌ خفيف في القلب. المرأة كانت حية؛ وبنشاطٍ مُضاعف ألزمتُ نفسي بمُحاولة إعادتها إلى الحياة. بدأتُ أفرك وأمسح الذراعين واليدين، واستخدمت كل الحزم الذي أمدتني به الخبرة، لم أدّخر معلومة بسيطة قرأتها في الكتب الطبية. ولكن لا فائدة. وعلى حين فجأة، بَهَتَ لونُها، وتوقّف النبض، وعادت الشفتان إلى التعبير عن الموت، وفي لحظةٍ لاحقة، [363]اكتسب الجسد كله برودة الجليد، وأصبح شاحباً، أزرق اللون، مُتصلباً تصلّباً عميقاً، وغارت الملامح، أضحت تحمل كل الخصائص المُقززة التي كانت، طوال أيام كثيرة، من خصائص سكان القبور.

مرة أُخرى وجدت نفسي أغرق في أوهامي عن لايجيا.. مرة أُخرى، (أيّ أعجوبة في أن أرتجف وأنا أكتب!) مرة أُخرى التقطتْ أُذني نحيباً مُنخفضاً يأتي من سرير الأبنوس. ولكن لماذا أحرص على أن أروي كل التفاصيل الدقيقة للرعب الذي لا يوصف الذي اجتاح كياني في تلك الليلة؟ لماذا أتوقف لكي أروي، مرة بعد مرة، حتى اقتراب الفجر الرمادي، كيف تكرّرت هذه الدراما

الشنيعة للموت والحياة؛ كيف كانت كل انتكاسةٍ مُروعة لا تفضي إلّا إلى موتٍ أكثر قسوة أو، في ما يبدو، موت لا يُمكن إنهاؤه؛ كيف أنّ كل نوبةٍ مُباغتة من الألم تحمل صفة الصراع مع عدوٍّ وهمي؛ وكيف أنّ كلّ صراع ينتهي إلى تغيّر عنيف لا أعرف عنه شيئاً في مظهر الجثة؟ فلأُسرع إلى إنهاء هذا.

لقد ولّى الشطر الأكبر من الليلة الرهيبة، وتلك التي ماتت، تملْملتْ من جديد.. الآن بوحشية أكبر من أي وقتٍ مضى، مع أنّها كانت تنتفض من حالةِ انهيار أكثر إثارة للرعب من عجزها المُطبق. توقّفت مُحاولاتي اليائسة منذ مدة طويلة، وبقيتُ جالساً لا أتزحزح عن مكاني على الأريكة التركية، صرتُ فريسة عاجزة يقهرها سيلٌ من الانفعالات الجيّاشة، ربّما كانت حسراتي الحزينة هي الأقل فظاعة، والأقل فتكاً بالنفس. تملْملت الجثة، أكرر، الآن كان تملْملها أكثر شراسة من قبل. كانت درجات ألوان الحياة تتناوب في طاقةٍ غير معهودة على قسمات الوجه.. وتراخت الأطراف.. لولا أنّ الجفون بقيت مُطبقة بثقلها، لولا أنّ أربطة كفن القبر لا زالت تُضفي على الجثة علامات الموت، ربّما حلمتُ أنّ جسد روينا كان ينتفض حقّاً لكي تزيح عنها أغلال الموت. ولكن إذا كانت هذه الفكرة بعيدة عن الصدق في جوانبها كافة، فحتى عندئذ لم أكن أشك على الأقل في شخصية الراقدة على السرير وهي تنهض وتترنّح في خطواتٍ ضعيفة، بينما كانت عيناها مُنغلقتين، ويعتريها الاضطراب الذي يشهده المرء في الأحلام، لم أشك في أنّ الشيء الذي كان ملفوفاً بالكفن هو الذي يتقدّم في رباطة جأشٍ مُتجهاً إلى مُنتصف الحجرة.

لم أحسّ برعدة.. لم أتزحزح من مكاني.. لأنّ حشداً من خيالاتٍ لا توصف تعصف بها الرياح، يُحيط بالقامة المُنتصبة أمامي، يموج مع تحرّكات ذلك الشبح، يندفع على استعجالٍ من خلال ذهني الموبوء، كلّ شيء أصابه الشلل.. تجمّدت أوصالي وتحوّلتُ إلى حجر. لم أتحرّك.. كنت أُحملق في الشبح. ارتباك مجنون في أفكاري.. ثورة لا تهدأ. أيُمكن حقّاً أن تكون تلك روينا، لا تزال حية، هي التي تواجهني؟ أيُمكن أن تكون روينا حقّاً.. ذات الشعر الأشقر، والعينين الزرق، ليدي روينا تريفانيون من تريماين؟ لماذا، لماذا

يُساورني الشك في الأمر؟ اللفافة [364]تستقر هُناك في تثاقلٍ على الفم.. ألا يُمكن أن يكون الفم الذي يتنفس هو فم ليدي تريماين؟ الوجنتان.. بل الورود التي تزامنت مع مُقتبل حياتها.. نعم، ربّما كانت هاتان الوجنتان الوردية هُما وجنتا ليدي تريماين التي لا تزال حيّة. والحنك بغمازاته، في حالته النضرة، أيُمكن ألّا يكون حنكها؟ ..هل زاد طول قامتها إذن منذ أن مرضت؟ أيُّ جنونٍ لا يوصف استولى عليّ حين خطرت لي تلك الفكرة؟ في وثبةٍ واحدة وصلت إلى موضع قدميها! ارتجفتُ حين لمستها، وتركتُ الكفن اللعين المفكوك يسقط عن جانب رأسها بعد أن كان معقوداً عليه، وصار يُرفرف مع تيار الهواء المُندفع إلى الحجرة، وتحرّكت خصلات الشعر الأشقر الطويل في فوضوية؛ كان الشعر أكثر سواداً من أجنحة الغراب الأسحم في مُنتصف الليل! الآن انفتحت في بطء عينا الشبح الذي وقف أمامي. «هنا، إذن، على الأقل»، صرختُ بصوتٍ مسموع، «أيُمكن أن أكون.. أيُمكن أن أكون مُخطئاً أيضاً؟ هذه العيون الواسعة، السوداء، المُتوحشة.. لحبيبتي الضائعة.. عيون ليدي.. عيون ليدي لايجيا».

انهيار صرح أوشير

القلبُ عودٌ يتدلّى في الهواء؛
حالما تُلامسه يستجيب إليك.

دو بيرانغير[1]

طوال نهارٍ كامل، من تلك الأيام التي يلفّها الضجر، نهارٌ كالح يشوبه [365]السكون، من أيام خريف تلك السَّنة، وكانت الغيوم تتدلّى من السماء فتصلُ إلى مُستوى مُنخفض حتى لتكاد تُطبق على صدورنا، كنت أجتاز وحدي، على صهوة الحصان، مُخترقاً درباً موحشاً في تلك الأصقاع؛ حتى وجدت نفسي أخيراً، مع الزحف البطيء لظلال المساء، على مرمى البصر من منزل أوشير بمنظره الموحش الذي يوحي بالسقم. لا أعرف السبب في ذلك.. ولكن، من النظرة الأُولى التي ألقيتها على ذلك الصرح، انتاب روحي إحساسٌ لا يطاق بالغمِّ الثقيل. نعم، شيءٌ لا يُطاق؛ لأنّ ذلك الإحساس لم يكن ليزول بأي شيء من الطيش المرح الذي يترسّب في الوجدان، فالمسألة تكاد تُشبه الإلهام الشعري، إذ يتلقّى العقل في العادة أكثر الإيحاءات صلابة عن أشياء ذات طبيعة مُخيفة. نظرتُ إلى المشهد الذي تجلّى أمامي.. نظرتُ إلى الصرح المُنعزل، إلى سمات البساطة الطبيعية للمنطقة.. نظرتُ إلى الجدران الكئيبة.. إلى النوافذ المُقفرة التي كأنها عيون مُتلصّصة.. إلى بضع أجماتٍ من قصب البردي.. إلى جذوع

(1) النصّ الأصلي بالفرنسية من قصيدة للشاعر بيير جان دو بيرانغير (1780- 1857) يُخاطب بها الجنرال غاليغانيني ويرفض مُكافأة على خدماته في ثورة 1830. [المترجم]

أشجارٍ مُتداعية باهتة الألوان.. لم يكن في وسعي أن أعزو ذلك الإحساس الذي أطبق على روحي إلى أي معنى معروف على الأرض، وإنّما من الحق مُقارنة ذلك مع الرؤى الخيالية والأوهام التي تتمثّل لمدمنٍ على الأفيون حين يقصف ويُعربد.. إنّه ذلك الإيحاء بالانغماس المرير في رتابة الحياة اليومية.. السقوط المُخزي للأقنعة. هُناك تجمّد، غطس، غثيان في القلب.. هُناك وحشة لا سبيل للتجرّد منها في الفكر، ولا سبيل لأي مهمازٍ للخيال المُعذب أن يُحيلها إلى نوعٍ من السمو. ما الذي كان يحدث لي.. وقفت أُفكر طويلاً.. ما الذي كان يفقدني أعصابي ويُوهن عزيمتي ويدفعني إلى تأمل منزل أوشير؟ ذلك سرٌّ من الأسرار المُستعصية التي لم أفهمها؛ لم أكن قادراً على مُلاحقة ظلال الأوهام التي تتزاحم في داخلي وأنا أسبح في التأملات. وجدت نفسي مُضطراً للّجوء إلى استنتاج فطري غير مُقنع؛ في الوقت الذي توجد فيه، ولا شك في هذا، ضروبٌ من الأمور الطبيعية البسيطة التي لها قدرة التأثير بنا على هذا النحو، إلّا أنّ تحليل هذه القدرة [366]وفهمها كما ينبغي يكْمن ضمن اعتبارات تتجاوز عمق تفكيرنا. من المُمكن، كما قدّرت، أن يكون ثمّة اختلاف في ترتيب تفصيلات المشهد، أو ملامح الصورة، بحيث يكون كافياً لتعديل، أو ربّما لتشتيت قدرتها على إثارة ذلك الانطباع المُحزن؛ أثناء انشغالي بتحليل هذه الفكرة جذبتُ لجام حصاني وتوقفنا عند جرفٍ شديد الانحدار لبحيرة جبلية مياهها قاتمة مُمتقعة اللون على مقربة من الصرح المُتألق في سكونه البهي، وراحت نظراتي تُقلّب المنظر الذي تحتي.. ولكن اعترتني رعدة مُثيرة للفزع أكثر من قبل.. تأملتُ قصب البردي الرمادي بصورته المقلوبة التي أُعيد تشكيلها، وسيقان الأشجار المروعة، والنوافذ المهجورة التي كأنها عيون تتلصص.

ولكن في هذا المنزل الذي تلفّه سُحُب الكآبة من كل جانب كان عليّ أن أُقيم مؤقتاً أسابيع قليلة. مالكه الأصلي، رودريك أوشير، من رفاقي الأعزاء على قلبي منذ فترة الصبا؛ غير أنّ سنوات كثيرة انصرمت منذ أن التقينا آخر مرة. لقد وصلتني مؤخراً رسالة من مكان بعيد عن البلاد.. رسالة منه.. لم تكن في طبيعتها التي يعتريها إلحاحٌ شديد لتسمح إلا باستجابة فعلية عاجلة مني. أعطتني الرسالة

دليلاً لا لبس فيه على حالة من القلق العصبي. تكلّم فيها مُرسلها عن مرضٍ عضوي مُزمن.. اختلالٍ ذهني يُعاني منه ويؤرقه.. ورغبةٍ محمومة لرؤيتي، بما أنّي كنت من أعز أصدقائه، أو في الواقع، صديقه الوحيد، على أمل أن تُساعد روح المرح التي أتمتّع بها أثناء مُرافقتي له في التخفيف من أحزانه. الطريقة التي حدث بها هذا، بل أكثر من ذلك، كلماته التي قالها ..قلبي المُرهف الذي حثني على تلبية طلبه.. كلّها لم تترك لي فرصة للتردّد؛ وهكذا امتثلت فوراً لأمرٍ لا زلت أعتبره من أكثر اللقاءات غرابة.

مع أنّنا كنّا في فترة الصبا رفيقين حميمين، غير أنّي لا أعرف عن صديقي إلا النّزر اليسير من المعلومات. كان شديد التكتم دائماً بالفطرة. ولكنّي كنت أعرف أنّ عائلته عريقة الأصل ومعروفة، منذ زمن لا يدركه العقل، بحساسية مُفرطة تُهيمن على طبائع أفرادها، وقد عبّر بعض أفراد العائلة عن تلك النزعة وجسّدوها، منذ عصورٍ سحيقة، في أعمال فنية رفيعة الشأن، وتجلّى ذلك في أوقات مُتأخرة أيضاً من خلال أعمال خيرية شبه دائمة كانت تمتاز بالسخاء مع حرصٍ شديد على التكتم، علاوة على الالتزام بمظاهر اللياقة والتدقيق في خفايا الأمور، ربما أكثر من الحرص على الجماليات التقليدية التي من اليسير تلمّسها في علم الموسيقى. كنت أعرف أيضاً حقيقة مُهمة جدّاً، وهي أنّ شجرة نسب عائلة أوشير، التي عرفتْ كل مناحي الشرف التي خلدها الزمن، لم ينبتْ منها في أي حقبةٍ من الزمن فرعٌ صمد لعوادي الدهر؛ بمعنى آخر فإنّ ما تبقّى من سلالة العائلة جميعاً يقع ضمن الخط الأساسي للنسب، وكانت دائماً، باستثناء تغيّرات تافهة وقتية جدّاً، تُعاني من هذا الوضع المُتأزم. هذه المثلبة، كما نظرت إليها، بينما كانت أفكاري مُشتتة حول [367]الهوس المثالي في الإبقاء على طبيعة المكان والشخصية التي منحها الزمن للناس المُقيمين فيه، وبينما كنت أتأمل التأثير المُحتمل الذي ربما مارسه أحد هذين العنصرين، على مدى قرون طويلة، على العنصر الآخر.. ربّما بدت هذه المثلبة ذات أهمية جانبية، والانتقال اللاحق الذي لا يكاد يتغيّر، من الآباء إلى الأبناء، لميراث الاسم، جعل في نهاية المطاف هذين العنصرين للهوية يصوغان العنوان الأصلي للمُمتلكات في

تسميةٍ جذابة مُلغزة هي «صرح أوشير».. التي يبدو أنّها صارت تتضمّن، في أذهان القرويين الذين كانوا يستخدمونها، إشارة إلى كلّ من العائلة ومنزلها.

قلتُ: إنّ الأثر الوحيد لتجربتي الصبيانية في جذورها بعض الشيء.. أي: النظر باتّجاه البحيرة الجبلية.. تجلّى في تعميق الانطباع الأولي الفريد في نوعه. لا يُمكن أن يكون ثمّة شك في أنّ الوعي بالتصاعد السريع لإيماني بالخُرافة.. ولماذا لا أسميها هكذا؟.. قد أسهم أساساً في تسريع وتيرة الاعتقاد الصريح نفسه. هذا ما كنت أعرفه منذ زمن بعيد، هذا القانون الذي يوهم بالتناقض وينطبق على كافة الأحاسيس الوجدانية التي أساسها الرّعب. ربّما لهذا السبب وحده، عندما رفعتُ عيني من جديد لأختلس النظر إلى هيكل الصرح نفسه، وصورته التي انعكست على البحيرة، تصاعَدَ في ذهني خيالٌ غريب.. خيالٌ اعتبرته في حقيقة الأمر سخيفاً إلى درجة أنّني أذكره هُنا لمُجرّد أن أظهر القوة الخارقة للمشاعر التي استولت على كياني. كنت أحاول جاهداً في خيالي من أجل أن أقنع نفسي حقّاً بأنّه يوجد ضمن نطاق المنزل كله والمنطقة بأسرها طيفٌ غريب يُغلّف الأجواء، يحوم حول الناس ويُحيط بهم مُباشرة.. شيءٌ لا علاقة له بالسماء وهوائها، لكنها أنفاسٌ تعبق بروائح الأشجار المُتداعية، والجدران الكالحة، والبحيرة الجبلية الصامتة.. ذلك الجو المشحون بأبخرة موبوءة، ضباب غامض، ثقيل، مُلبّد، لا يُدرك المرء وجوده، له لون الرصاص.

أزحت عن كاهلي ما لا بُدّ أن يكون حُلماً من الأحلام، وظلّت عيناي تتفحّصان عن قرب الجوانب التي تبدو حقيقية أكثر من غيرها للصرح. تبدّى لي أنّ السمة المُهيمنة على ذلك البناء بأسره تتمثّل في الإيغال في القدم. لقد تبدّدت الألوان كثيراً مع تعاقُب العصور. وانتشرت طبقة من الفطريات الخضراء الناعمة في أرجاء المدخل، وكانت تتدلّى مجاميع منها في شبكة مُحبكة على الحافات الناتئة للسطوح. ولكن كلّ هذه المظاهر كانت بعيدة عن أن توحي بأعراضٍ استثنائية لحالة التدهور. لم يتصدّع أي جزءٍ من المنزل أو يسقط إلى الأرض؛ بل لقد ظهرت حالة تضاربٍ همجية بين أجزائه التي بقيت مُتماسكة في انسجام تام وبين تفتّت حجارته المُنفردة. بإزاء هذا الوضع الذي تجسّد أمامي، كانت أشياء

كثيرة تذكرني بالوحدة المُتماسكة ظاهرياً لألواح الخشب القديمة التي تعفّنت منذ سنوات طويلة في بعض الأقبية المهجورة التي لا تُعكّر سباتها أنفاسٌ من الهواء الخارجي. ولكن بعيداً عن أي إيحاءٍ بانهيار وشيك، كان البناء عموماً يُعطي علامات تكاد تكون خادعة على [368]دوام الاستقرار. ربما اكتشفت عين المُراقب المُدقّق في التفاصيل تصدّعاً من العسير إدراكه، يمتدّ من سقف المبنى عند الواجهة، ويمضي نازلاً في اتّجاه مُتعرّج، حتى يضيع في مياه البحيرة التي يوحي منظرها بالسقم.

بعد أن انتهيتُ من مُراقبة هذه الأشياء، امتطيت الحصان ومضيتُ على درب مُتعرّج يرتفع تدريجياً إلى مسافة قصيرة عبر المُستنقعات في طريقي إلى المنزل. وجدت خادماً ينتظرني هُناك فأمسك اللّجام، ثم مررت تحت قوسٍ قوطي الطراز يُكلّل الصالة. ثم قادني أحد خواص الخدم وكان يختلس خطواته في صمتٍ فاجتزنا ممرّات مُظلمة مُلتوية في طريقنا إلى استوديو سيده. كانت الكثير من الأشياء التي رافق أن رأيتها في طريقي تؤدي، لا أدري كيف، إلى تفاقم الأحاسيس الغامضة في نفسي والتي سبق أن تكلّمت عنها. بينما كانت الأشياء التي رأيتها حولي.. نقوشٌ منحوتة على السقوف، ورسوم كئيبة على الجدران، وبلاط الأرضية الأبنوسية الداكنة، ونُصب تذكارية فنطازية وتماثيل تحمل أسلحة تُخشخش وأنا أمرّ بالقرب منها، هذه من الأشياء التي تعوّدت عليها، أو على أمثالها، منذ طفولتي.. لم أتردّد بالاعتراف بواقعية كل هذا.. ومع ذلك كنت أتلفّت حولي لأكتشف مصدر غرابة التصورات الوهمية التي تُثيرها صورٌ عادية. على إحدى درجات السلالم التقيتُ طبيب العائلة. كانت ملامحه، كما ظهر لي، فيها مزيجٌ من الدهاء أو الخبث وشيء يبدو مُحيّراً غامضاً. استقبلني الرجل بتحية عاجلة فيها بعض الخوف وتابع طريقه. وفتح الخادم الآن باباً وأرشدني إلى مكان سيده.

كانت الغرفة التي وجدت نفسي فيها فسيحة جدّاً ومُرتفعة السقف. نوافذها طويلة، ضيقة، مثلثة من الأعلى، وتبعد مسافة عن الأرضية البلوطية السوداء بحيث يصعب الوصول إليها على من في الداخل. كانت حزمٌ واهنة من الضوء

القرمزي تتسلّل من خلف تعريشة الألواح الزجاجية، وتُسهم في توضيح معالم الأشياء الأكثر سطوة على المكان؛ إلّا أنّ العين تُحاول عبثاً اختراق الأركان الأكثر بُعداً للحجرة، أو مُتابعة امتدادات السقف الذي تقطعه قناطر مُزخرفة. تتدلّى هُنا وهُناك ستائر داكنة تُغطي الجدران. أما الأثاث بوجه عام، فكان كثيراً، لا يبعث منظره على الارتياح، فهو عتيق الطراز، مُمزق. تبعثرت في أنحاء الغرفة كتبٌ وآلات موسيقية، لكنها تفشل في إضفاء أي نوع من النضارة والرونق على المشهد. أحسست أنّني أستنشق هواء الأسى والأحزان. الهواء هُنا يمتزج بكآبة صارمة، عميقة الغور، مُتأصّلة لا يُمكن تبديدها، تُهيمن على كل شيء.

لدى دخولي، نهض أوشير عن الأريكة التي كان يتمدد عليها، ورحّب بي في حرارة دافقة، كما خيّل إليّ أول مرة، فيها شيء من الإسراف في المودة.. في جهد يبذله رجلٌ مهموم *ennuyé* يملؤه الضجر من هذا العالم. إلّا أنّ نظرة واحدة إلى قسمات وجهه كانت كافية لإقناعي بإخلاصه التام. جلسنا؛ ومرت لحظات لم ينطق [369]خلالها بشيء، وكنت أنظر إليه وقد انتابني شعورٌ نصفه إشفاق، ونصفه دهشة. من المؤكد أنّ أي إنسان لا يُمكن أن يتغيّر على هذا النحو الفظيع خلال فترة قصيرة كما تغيّر رودريك أوشير! كم كان صعباً أن أقنع نفسي بأنّ الرجل الذي أمامي هو رفيقي منذ أيام الصبا. غير أن ملامح وجهه بقيت حتى هذا الوقت مُميزة كما عهدتها. وجدت أمامي جثة رجلٍ شديد النحول؛ عيناه جاحظتان، مائعتان، الضوء فيهما لا يُقاس مع أي شيء؛ الشفتان ذابلتان بعض الشيء يشوبهما شحوبٌ ثقيل، ومع ذلك تلوح جاذبية مُستغربة في انحنائهما؛ والفم على نمطٍ عبري دقيق، مع منخرين عريضين بصورة غير مُعتادة في نماذج مُماثلة؛ والذقن يتّخذ قالباً مُحبّباً إلى النفس، يوحي في بروزٍ طفيف برغبة الإفصاح عن طاقة معنوية؛ والشعر رقيق برقة نسيج العنكبوت؛ هذه السمات، مع اتّساعٍ مُغالى فيه لجوانب أُخرى تحفّ بالهيكل تصوغ انطباعاً ليس من اليسير نسيانه. والآن في ذلك التجلّي المُفرط للمحة طاغية على هذه السمات، وفي الانطباع الذي تعوّدتْ أن تنقله، يكمن جوهر التغيّر الذي جعلني أشك في شخصية الرجل الذي كنت أتكلّم معه. امتقاع البشرة المُفزع الذي أراه الآن،

ورونق العينين العجيب الذي لمسته الآن، هي التي أذهلتني أكثر من غيرها وملأت نفسي رهبة. والشعر الناعم كالحرير الذي تُرك ينمو في إهمال، فيما كان نسيجه العنكبوتي الوحشي يطوف بدلاً من أن يسقط على الوجه، جعلني عاجزاً، مهما بذلتُ من جهد، أن أربط بين إيحاء الأرابيسك فيه وبين أي فكرة عن انتماء وإن كان بسيطاً للجنس البشري.

الشيء الذي أذهلني في الحال تمثّل في أعراض اختلالٍ عصبي في سلوك صديقي.. أو تضارب إن صحّ التعبير؛ وسرعان ما وجدت هذا الانطباع يتّضح أكثر في أثناء مُحاولات واهنة عقيمة كان يسعى من خلالها للتغلب على قشعريرة عرضية.. أو توتّر مُباغت. كنت أتوقّع طبعاً أن أرى شيئاً من هذه الأعراض ووجدت نفسي على استعداد لمواجهتها، ليس بسبب رسالته، وإنّما لما تبقّى عالقاً في ذاكرتي عن بعض تصرفاته الصبيانية، واستنتاجات من صفاته البدنية ومزاجه الشخصي. كان سلوكه يتذبذب في الواقع بين الحيوية والبلادة. ونبرات صوته تتباين سريعاً بين ارتباكٍ وجل (حين تتوقف النزعة الحيوانية لدى الإنسان عن أداء دورها) وبين نوعٍ من الحزم المشحون بالطاقة.. لفتت انتباهي تلك الألفاظ المُفاجئة، الثقيلة، المُتأنية، الجوفاء.. رأيت حشرجة، بطيئة، سقيمة، مُتوازنة، مُتناغمة تماماً، ربّما كانت تلك أهم الأشياء التي تشد الانتباه في منظر أيِّ سكير فاقد لوعيه، مُتعاطٍ للأفيون لا أمل في استرداد رشده، أثناء فترات نشوته الأكثر عمقاً.

تكلّم عن موضوع زيارتي، ورغبته المحمومة في رؤيتي، والمواساة التي [370]يتوقع أن أسعفه بها. وتطرّق مطولاً بعض الشيء إلى ما يتصوّر أنّها علة مرضه. ذلك، كما قال، عرفٌ من الأعراف والشرور التي ألفتها العائلة، ولا أمل في علاجٍ لها.. إنها مُجرّد حساسية عصبية مُفرطة، أضاف مُباشرة، لا شكّ أنّها عارض سريع الزوال. ذلك العارض تمثّل في سلسلة انفعالاتٍ غير طبيعية، بعضها، كما شرح لي تفصيلياً، أثارت اهتمامي وحيرتني؛ مع أنّ المُفردات والأسلوب العام للوصف ربما كان ذا وقعٍ مُملّ. كان الرجل يُعاني من اعتلال الحواس؛ الأطعمة التي بلا مذاق ولا نكهة وحدها كان يُسمح له بتناولها؛

لا يُمكن له أن يلبس إلا ثياباً من نسيجٍ مُحدّد؛ تُزعجه روائحُ الأزهار بمُختلف أنواعها؛ تؤثر على عينيه أكثر الأضواء خفوتاً؛ ليس هُناك غير أصوات قليلة، لآلات وترية، لا تبعث الذعر في نفسه.

وجدت أمامي مسكيناً مُكبّلاً بأنواع شاذة من العذابات الرهيبة التي لا يتحمّلها إنسان. «سوف أقضي نحبي»، قال، «لا بد أن أقضي نحبي في هذا الوضع الأخرق والجو المُحزن. هكذا.. هكذا، وليس بطريقة أُخرى، سوف ينتهي أمري. إنّني أخاف من أشياءَ مُستقبلية، لا تُخيفني في ذاتها، ولكن في نتائجها. أرتعش خوفاً من فكرة وقوع أي مكروه، حتى أكثر الأشياء تفاهة، من شأنها استغلال هذا الاضطراب الذي لا يُطاق للروح. إنّني لا أمتعض في الواقع من الخطر، ولكني أخشى تأثيره النهائي.. الذي يتمثّل في شبحٍ مُرعب. وسط هذا الوضع من خمود العزيمة.. هذه الحالة التي تستحق الإشفاق.. أشعر بأنّ الساعة آتية عاجلاً أم آجلاً فيكون عليّ التخلّي عن التشبث بحياتي وعقلي معاً، فأنا في صراعٍ دائم مع أشباح الوهم ذات الوجوه القبيحة، ومع المخاوف».

علمتُ، إلى جانب هذا، على فترات مُتعاقبة، في تلميحاتٍ مُتقطّعة مُلتبسة المعاني، بأمر سمة أُخرى مُميزة لحالته العقلية. كان مُكبّلاً إلى بعض الخرافات المُرتبطة بهذا الصرح الذي يقيم فيه، ومنذ سنوات طويلة، لم يسبق أن غامر على الإطلاق بالتفكير في الانتقال منه.. الأمر يتعلّق بطيفٍ ذي قوة خُرافية ينتقل في تجلياتٍ مُبهمة من الظلال التي يُرسلها هُنا وهُناك بطريقة يستحيل وصفها.. طيفٌ أو انطباع ترتبط تجلّياته الأشد غرابة مع المظهر الخارجي وجوهر منزل عائلته، ومن خلال طول المُعاناة، كما قال، كان الطيفُ يكتسب سطوة رهيبة على روحه.. وتأثيراً يمتدّ عبر العناصر المادية للجدران الكالحة والأبراج، وانعكاساتٍ على البحيرة الجبلية المُعتمة التي يطل المنزل عليها، فلا يستثني في نهاية المطاف العناصر الروحية لكيانه.

ولكنّه اعترف، وإن جاء اعترافه بلهجة وجلةٍ مُتردّدة، بأنّ مظاهر الكآبة التي ألمّت به أخيراً يُمكن أن تُعزى في كثير من جوانبها إلى علّة طبيعية وأنّ أصلها ماديٌّ ملموس أكثر من أي شيء.. وذلك حتماً مردّه إلى الاعتلال المرير الذي

أصابه مؤخراً واستمرّ طويلاً.. في الواقع ذلك الاعتلال على وجه التحديد سببه حادث حصل قريباً، فيما يظهر، وهو رحيل أخته.. التي يُحبها من أعماق قلبه.. رفيقته الوحيدة منذ سنوات.. وآخر من تبقّى له من صلة الرحم على وجه [371] الأرض. «إن موتها»، قال، وفي صوته مرارة لا يُمكنني نسيانها أبداً، «سوف يحرمه (وهو العاجز الذي أوهنه المرض) من آخر الباقين من سلالة أوشير». وبينما كان يتكلّم، مرّت السيدة مادلين (هكذا كانوا يدعونها) وهي تتحرّك في بطءٍ على جانب بعيد من الشقة، ودون أن تُلاحظ وجودي، عادت للاختفاء. كنت أنظر إليها في اندهاشٍ تام لا يخلو من الفزع.. ومع ذلك وجدتُ من المُستحيل تعليل مشاعري هذه. اجتاح كياني الذهول، بينما ظلّت عيناي تُتابعان خطواتها المُتقهقرة. حين انغلق باب أخيراً وراءها، بدأتْ نظراتي تبحث غريزياً في شوقٍ لاستكشاف ملامح أخيها.. ولكنه غطّى وجهه بيديه، فلم أستطع أن أرى إلّا شحوباً غير اعتيادي على أصابعه النحيلة التي تقطر عليها دموع الأسى.

لقد حيّر مرضُ السيدة مادلين أطباءها الماهرين منذ مدة طويلة. في بعض التشخيصات الغريبة التي أدلوا بها، قال بعضهم: إنّها تعاني من فتورٍ مزمن في القُدرات الحسية، أو فقدان تدريجي للوعي بالهوية، أو أعراض مُتكرّرة ربما تكون عابرة لبلادة جزئية في الإحساس بالشخصية كما يحدث أثناء التنويم المغناطيسي. حتى ذلك الوقت كانت تصمد في ثباتٍ وتُقاوم ضغط التوترات التي تُعاني منها في مرضها، ولم تستسلم للمرض فتبقى طريحة الفراش؛ ولكن، في مساء اليوم الذي وصلتُ فيه إلى المنزل، كانت قد خضعت كلّياً (كما قال لي أخوها ليلاً في قلقٍ لا يوصف) إلى نوبة شديدة من نوبات المرض الذي دمّرها وتركها مُنهكة القوى؛ وعلمتُ أنّ اللمحة التي حصلت عليها لشخصها ربّما تكون الأخيرة .. وأنّ السيدة، على الأقل ما دامت حية، لن أراها بعد الآن.

بعد أيامٍ على ذلك، لم يعُد اسمها يُذكر سواء من قبل أوشير أو منّي: وأثناء هذه الفترة انشغلتُ في مُحاولاتٍ جادة للتخفيف من كآبة صديقي. كنّا نرسم ونقرأ معاً؛ أو نُصغي، كأننا نحلم، إلى مقطوعات موسيقية مُرتجلة مؤثرة جدّاً يعزفها على الغيتار. هكذا أتاح لي القرب منه أكثر سبيلاً إلى توطيد عُرى علاقة حميمة

كانت تسمح لي تدريجياً من غير تحفّظ للوصول إلى مُقتربات روحه، صرت أُدرك في مرارة عدم جدوى أي مُحاولة لإدخال البهجة والسرور إلى ذهنٍ ينسكبُ منه سيلٌ من الظلام[2]، كأنه من نبعٍ مُتأصل فيه فعلاً، على كل الأشياء في الكون الروحي والمادي، في إشعاعٍ واحد لا يتوقّف من التعاسة.

سأظل أحمل ذكرى كثيرٍ من ساعات التفكير المُضني التي قضيتها على هذا المنوال، وحدي مع سيد منزل أوشير. إلّا أنّي ربّما أفشل لو حاولت نقل أي فكرة [372]عن طبيعة المُجادلات، أو الهموم، التي أشركني فيها، أو قادني إليها. هُناك نزعة نموذجية مُبهرة في طبائعه، ممجوجة تماماً، تُلقي بريقاً شبه فسفوري على كل شيء حوله. سوف تبقى ترنيماته الجنائزية المُرتجلة ترنّ إلى الأبد في أذني. من جُملة أمور أُخرى، علقتْ في ذهني بألم نسخة فريدة مُحرّفة على نحو مُبالغ فيه لنغمات الفالس الأخير لفون ويبر[3]. ومن اللوحات التي كان يرسمها ويستمد منها خياله الواسع جذوره، والتي نمت تجلّياتها، لمسة بعد لمسة، حتى تحوّلت إلى كيان غامضٍ مُخيف كنت أرتعد منه في أقصى درجات الخوف، دون أن أعرف سبب خوفي.. من هذه اللوحات (التي تنبض بالحياة مثل ذكراها التي تتجسد الآن أمامي) كنت أُحاول عبثاً استخلاص شيءٍ مفهوم أكثر من جزء صغير ربما يقع ضمن نطاق قدرة الكلمات المكتوبة على التعبير المُجرّد. كان يلتقط في بساطةٍ تامة، في تجرّد عجيب تصاميمه من الأقنعة، ويجد اهتماماً يُثير رهبة ومبالغ فيها. لو كان أي إنسان ميت قادراً أن يرسم فكرة، فذلك هو رودريك أوشير. في رأيي على الأقل.. في الظروف التي كانت تحيط بي آنذاك.. تظهر الأفكار من التجريدات البحتة التي كان ذلك الرجل الموسوس يُحاول إلقاءها على القنب، فيتجسّد عُمق الرهبة التي لا تُطاق، فلا أحس بأي ظل من

(2) اقتباس من (الفردوس المفقود) 1: 63 «لا ضوء هُناك، بل الظلام هو الشيء المرئي فقط» [المترجم]

(3) كارل ماريا فون ويبر (1786- 1826) موسيقار ألماني وأحد الفنانين المُهمّين المُنتمين للمدرسة الرومانسية. [المترجم]

ظلالها أبداً مهما أمعنت التأمل في أحلام اليقظة التي تتألّق حتماً مع أنّها من تخيلات فوسيلي[4].

من الأوهام والتخيّلات التي جسّدها صديقي في لوحاته، رغم أنّها لا تسهم في الإفصاح عن روح التجريد الغامض على نحو ثابت، والتي ربما ألقيت الضوء عليها هُنا، وإن كان ضوءاً واهناً، من خلال الكلمات.. هُناك لوحة صغيرة الأبعاد معروضة في مدخل قبو أو دهليز مُستطيل طويل جدّاً، جدرانه مُنخفضة، ملساء، بيضاء، خالية من أي عوائق أو موجودات. بعض جوانب التصميم الثانوية للمكان تُعطي فكرة أنّ هذا القبو الأثري يقع على عُمق كبير تحت الأرض. لا يُلاحظ المرء أي مَخرج على أي جانب لامتداده الواسع، لا يوجد مصباح كاشف، أو وسيلة اصطناعية أُخرى للإنارة؛ إلّا أنّ دفقاً من أشعة الضوء الكثيف يتسلّل هُنا وهُناك، ويغمر المكان كله بانعكاس شنيع لا يتناسب مع طبيعته.

تكلّمت قبل قليل عن الاعتلال الفظيع في العصب السمعي الذي يجعل الإنسان الذي يُعاني منه لا يُطيق سماع كافة ضروب الموسيقى، ربما باستثناء أصوات بعض الآلات الوترية. كان النطاق الضيّق للأصوات التي يسمح لنفسه بالاستماع إليها وهي تُعزف على الغيتار قد بلْور الكثير من سمات الطبيعة الخيالية للمقطوعات التي كان يؤديها. ومع ذلك ليس في وسع المرء تفسير الحماس المُتّقد والعفوية في هذه المقطوعات المُرتجلة. لا بُدّ أنّها في نغماتها، فضلاً عن كلماتها المُستمدة من أوهامه الفنطازية الوحشية حقّاً (لأنّه لم يلزم نفسه في كثير من الأحيان بارتجالات لفظية تجري على إيقاع القوافي)، كانت نتيجة ذلك التحشيد المذهل [373]للقدرات والتركيز العقلي الذي ألمحت إليه سابقاً على أنه لا يُلاحظ إلّا في حالات مُحدّدة من ذروة التوتر المُفتعل. إنّني أتذكر بسهولة كلمات إحدى هذه القصائد الحماسية. وربّما تأثرت بها كثيراً، بالطريقة التي عبّر عنها، في الدفق الصوفي لمعناها، تخيّلت أنّني تلمّست، للمرة الأُولى، وعياً

(4) هنري فوسيلي (1741- 1825) رسام إنكليزي من أصل سويسري، كان وليم بليك مُعجباً به، فهو من عشاق الموضوعات الغامضة. [المترجم]

كاملاً من جانب أوشير، إذ يتأرجح عقله المُتغطرس على عرشها. كانت الأبيات التي تحمل عنوان «قصر الأشباح»[5]، تكاد تكون كالتالي، إن لم تكن بشكلها الدقيق تماماً:

(1)

في ودياننا الوادعة الخضر،
التي تسكُنها ملائكة كرامٌ حانية،
كان في قديم الزمان قصرٌ جميلٌ مهيب..
يشعّ بالأضواء.. تكاد الأضواء تجعله يتقهقر.
على قصر الملك تُهيمن سُحب الأفكار..
تجثم هُناك غمامة الظلام!
لم ينشر ساروفيم[6] ريش جناحيه
يُكلل طيفاً بمثل هذا الجمال.

(2)

رايات صفر، يُزينها الزهو، مُذهّبة،
تُرفرف وتُهفهف على السقف؛
(هذا.. كل هذا.. كان في الأيام الخوالي
تلك الأيام ولّت بلا رجعة)

---

(5) «قصر الأشباح» قصيدة لإدغار ألن بو نُشرت لأول مرة في مجلّة (المتحف الأمريكي للعلوم والآداب والفنون) في بالتيمور، نيسان 1839. [المترجم]

(6) ساروفيم: أحد ملائكة الطبقة الأولى الحارسين عرض الرب في المُعتقد اليهودي القديم. [المترجم]

كل نسمة هواء خفيفة داعبتنا،
في ذلك اليوم اللطيف،
على الروابي المُنبسطة الشاحبة،
تُرسل معها أريجاً مُجنحاً.

(3)

من يتجوّل في الوادي السعيد
يرى من كوتين نورانيتين
أرواحاً ترقص على إيقاع الموسيقى
على أنغام العود الموزونة،
تطوّف حول العرش، حيث يجلس
تحفّ به فراشات بروفيروغين!
في زهوٍ ملكي غير مُستغرب،
سلطانُ المملكة لا تُخفى عنه خافية.

(4)

كل شيء مزدانٌ باللؤلؤ والياقوت
وهكذا هي بوابة القصر الجميل،
يتدفّق من خلالها.. يتدفق.. يتدفق،
ويبرق أكثر فأكثر،
جيشٌ من الأصداء مهمتها أن تغنّي،
تصدح بأصواتها العذبة

[374]أصوات ذات سحر أخّاذ،

تتغنّى بدهاء وحكمة ملكهم.

(5)

غير أنّ أشياء شريرة، في ثياب الحزن،

تغير على عرش الملكة الرفيعة؛

(آه، فلننتحب، لننوح إلى الأبد

ألا يبزغ الفجر عليه، وهو حزين مهجور!)

حول صرحه، تلوح هالة من المجد

يكاد يحمرّ من الخجل، ويتورّد نضارة

ليس إلا قصة يتذكرها الناسُ في كآبة

قصة الأيام الخوالي التي قبرت.

(6)

أصبح الرحالة الآن داخل ذلك الوادي،

من النوافذ التي تُرسل ضوءاً أحمر، يرون

أشكالاً هائلة ترفل بحركات رائعة

على لحنٍ مُتنافر؛

بينما، مثل نهر يجري على نحو مروع،

عبر البوابة الشاحبة،

يتدافع حشدٌ مفزوع من البشر خارجين إلى الأبد،

يضحكون.. لكنهم الآن لم يعودوا يبتسمون.

أتذكّر جيداً أنّ الإيحاءات التي واكبت هذا البالاد قادتنا معاً إلى سياقٍ مُتسلسل من الأفكار التي اتّضح من خلالها رأي من آراء أوشير لن أتطرّق إليه لكونه مُبتكراً، (فهُناك رجال آخرون(*) فكروا على هذا المنوال)، والعناد الذي أصرّ فيه عليه. هذا الرأي، في شكله العام، يتعلّق بالحساسية المُفرطة بإزاء كل شيء نباتي. لكن، في خياله المُضطرب، اكتسبت الفكرة خاصية أكثر جسارة، وتطفّلت في ظروف مُعينة، على حدود مملكة الاعتلال ككل. أحس أنّني أفتقر إلى كلمات تُعبر عن المسألة بكافة أبعادها، أو بالأحرى تُعبر عن عجزي بصراحة عن إقناعه ببطلان أوهامه. إلّا أنّ هذا الوسواس لا بُدّ أنّه كان يرتبط (كما ألمحت إلى ذلك آنفاً) بالحجارة الرمادية لصرح أجداده. كانت شروط التحسس هُنا، كما تصوّر هو نفسه، تتحقّق وتؤدي دورها بسبب طريقة تنسيق هذه الحجارة.. وفقاً للنظام الذي رُتّبت عليه، فضلاً عن أوضاع كثير من نباتات الفطر *fungi* التي تنتشر حولها، وتوزيع الأشجار الذاوية المُتهالكة التي تنتشر حولها.. وقبل هذا وذلك، في بقاء كل تلك [375]الأشياء في أماكنها طويلاً وهي تُحافظ على هذا الترتيب دون أن يُعكّر رتابتها طارئ، وإعادة استنساخ صورها على المياه الراكدة للبحيرة الجبلية. والدليل على ذلك.. دليل التحسّس المرضي.. يُمكن رؤيته، كما قال، (وهُنا أصابني الذهول وهو يتكلّم)، في كثافة مُضجرة تدريجية، تكاد تكون ملموسة على نحو مؤكد لأجواء تنتمي إلى خصوصية المكان تشمل المياه والجدران. ونتيجة ذلك قابلة للاكتشاف، أضاف يقول، من خلال ذلك التأثير الصامت، المُضجر، الفظيع الذي كان له دور منذ قرون في تحديد مصائر عائلته، وأدّى به هو إلى ما انتهي إليه من الحالة التي أراها ماثلة أمامي الآن.. وبالتالي جعله ما هو عليه. أعتقد أنّ هذه الآراء لا تحتاج إلى تعليق، ولن أُدلي بأي تعليق.

تلك الكتب التي كنّا نقرأها.. الكتب التي شكّلت منذ سنوات جُزءاً لا يُستهان به من التجربة العقلية للإنسان العاجز.. كانت كما يفترض، إذا توخّينا

(*) واطسون، دكتور برسيفال، بالانزاني، وخاصة أسقف لانداف.. انظر: «مقالات في الكيمياء»، الجزء 5. (المؤلف)

الدقة على انسجام تام مع هذه الطبيعة للأوهام. كنّا نستغرق معاً في قراءة مثل هذه الأعمال، مثل ديوان (الببغاء فيرت فيرت) لغريسيه، ورواية قصيرة بعنوان (الشيطان بيلفيغور) لمكيافيللي، وكتاب (السماء والجحيم) لسويدنبورغ، و(رحلة نيكولاس كليم تحت الأرض) لهولبيرغ، وكتب قراءة الكف لروبرت فلود، وجان دواندغاين، ودو لاشامبر، وكتاب (رحلة إلى المجاهل الزرقاء) تأليف تايك، وكتاب (مدينة الشمس) لكامبانيلا. وكان من بين كتبنا المُفضلة كتابٌ صغير مطبوع بقطع الثمن عن السحر والشعوذة عنوانه (دليل الباحث *Directorium Inquisitorium*) للراهب الدومنيكاني إيميرك دو جيرون؛ وهُناك مقطوعات أدبية من بومبونيوس ميلا[7]، عن آلهة الغابات الإفريقية والكائن الخرافي اوغيبان الذي له شكل المعزة وذيل السمكة، وكان أوشير يجلس ويستمع إليها طوال ساعات وهو يحلم. إلّا أنّ مصدر بهجته الأساسي كان يتمثّل في مُتابعة كتاب نادر جدّاً ومُثير مكتوب بخط قوطي.. وهو كُتيّب أصدرته إحدى الكنائس المنسية.. عنوانه (ليالي السهر على الموتى وفقاً لطقوس كنيسة ماينز) *Vigiliae Mortuorum secundum Chorum Ecclesiae Maguntinae*.

لم أكن قادراً على منع نفسي من التفكير في الطقوس الغريبة لهذا الكتاب، وفي تأثيره المُحتمل على حالة الوسواس، بعد أن أخبرني فجأة ذات مساء أنّ ليدي مادلين فارقت الحياة، وعبّر عن عزمه على إبقاء جثتها أسبوعين (قبل مواراتها الثرى)، في أحد الأقبية المحفورة في جدران المبنى. ولكن يبدو أنّ السبب المُباشر الذي يُعلّل هذا التصرف المُستهجن يتعلّق بشيء لا أشعر بالحرية في الخوض فيه. لقد وجد الأخ نفسه يذعن في قراره (هكذا أخبرني) لاعتبارات تتعلّق بالطبيعة الاستثنائية لمرض الراحلة، وربّما يعود ذلك أيضاً إلى نوع من التطفل والتساؤلات المُلحفة من جانبها هي وأطبائها، وإلى الموقع البعيد المكشوف لمقبرة العائلة. لا أنكر أنّني حين استدعيت في ذهني مظاهر الشؤم التي ارتبطت بالشخص الذي التقيت به على السلالم، يوم وصلت إلى المنزل، لم

(7) بومبونيوس ميلا: جغرافي لاتيني من القرن الأول الميلادي. [المترجم]

تكن لديّ رغبة في مُعارضة ما اعتبرته في أفضل الأحوال إجراءً احترازياً لا يتسبّب بأي نوع من الأذى، بل هو طبيعي حتماً.

نزولاً عند رغبة أوشير، ساعدته شخصياً في التحضيرات اللازمة [376]للدفن المؤقت. كانت الجثة مُكفّنة، وحملناها معاً وحدنا إلى مثواها. القبو الذي وضعناها فيه (وكان مُغلقاً منذ زمن طويل، حتى إنّ مشاعلنا التي كادت تنطفئ وسط أجوائه المكتومة لم تمنحنا غير فرصة ضئيلة للتقصي) كان صغيراً، رطباً، ويخلو تماماً من أي منفذ لدخول الضوء؛ على عمق كبير، مُباشرة تحت ذلك الجزء من المبنى، تقع الحجرة التي كنت أنام فيها. كان القبو يُستخدم، فيما يبدو، منذ أزمان الإقطاع الغابرة، لأسوأ الأغراض كبرجٍ داخلي *donjon*، وفي أيام لاحقة، جرى استخدامه كمخزن للبارود، أو بعض المواد الأُخرى السريعة الاشتعال، لأنّ جزءاً من أرضيته، والمدخل المُقوّس الطويل الذي يوصلنا إليه، كان مكسوّاً بصفائح النحاس في عناية. أما الباب الحديدي الضخم، فكان أيضاً مدعّماً على نحو مُماثل. كان ثقله الهائل يُرسل صريراً حاداً غريباً مع حركته على مفاصله.

بعد أن وضعنا حِملاً ثقيلاً مُثيراً للأحزان على مسندٍ في هذا المكان المُرعب، استدرنا جزئياً إلى جانب الغطاء الذي لم يفتح بعد للتابوت، ونظرنا إلى وجه الفقيدة التي ترقد فيه. أثار انتباهي الآن ذلك التماثل المذهل بين الأخ والأخت؛ وتمتم أوشير، بعد أن تكهّن بأفكاري، ببضع كلمات عرفت منها أنّ الفقيدة وهو توأمان، وأن هُناك تعاطف لا تكاد تفهم طبيعته دائماً بينهما. لم تستقرّ نظراتنا طويلاً على الميتة.. لأنّنا لم نتحمّل النظر إليها من فرط الحزن. كان المرض الذي أودى بحياة السيدة في أوج شبابها، قد ترك.. مثل كل الأمراض ذات الخصائص المُحددة للإغماء التخشبي، وهذا شيء ربما يدعو إلى التهكّم، مسحة خافتة من تورّد الخجل على الصدر والوجه، وتلك الابتسامة المُريبة التي تطفو على الشفة غارقة في رهبة الموت. رفعنا غطاء النعش وأنزلناه، وبعد غلق الباب الحديدي، مضينا في ممرٍّ يلتفّ بنا نحو حجرات في الجزء العلوي من المنزل لم تكن أقل عتمة.

والآن بعد بضعة أيامٍ من الحزن المرير، انتبهت إلى تغيّر يطرأ على تجليات الاختلال العصبي لصديقي. اختفى أسلوبه الاعتيادي في التصرّف. وأهمل انشغالاته الاعتيادية أو تناساها. وكان يدور من حُجرة إلى حُجرة في خطوات مُستعجلة، غير مُتّزنة، لا هدف واضح منها. واكتسب شحوبُ ملامحه، إذا جاز التعبير، درجات [377]لونية أكثر إثارة للفزع.. إلّا أنّ بريق عينيه اختفى نهائياً. لم تعد تُسمع نبرة الصوت الأجش كما كانت في السابق؛ ولا ذلك التهدّج المُرتجف، كأنّه من أعراض رعبٍ بالغ، والذي كان يُميّز ألفاظه كما جرت العادة. هُناك أوقات في الواقع فكّرت خلالها أن عقله المُستثار باستمرار كان يرزح تحت وطأة سرّ ثقيل، يُكافح للبوح به ولكنّه يفتقر إلى الشجاعة اللازمة. في بعض الأوقات، مرة أُخرى، كنت مُضطراً لأن أعزو ذلك إلى نزواتٍ جنونية غير قابلة للتفسير، لأنّي حينها أراه يُحملق في الفراغ ساعات طويلة، في وضعٍ يُركز فيه أقصى وأعمق الانتباه، كأنّما يُصغي إلى نوع من الأصوات الوهمية. ليس من العجب أنّ حالته المُرعبة.. قد أثرت بي. أحسست بأن التأثيرات العنيفة لخُرافاته تزحف عليّ، في درجات بطيئة إلّا أنها مؤكدة، وإن كانت لا تخلو من جاذبية.

حدث أن انتبهت، لا سيّما في الأوقات التي كنت أذهب فيها إلى الفراش ليلاً بعد سبعة أو ثمانية أيام على وضع السيدة مادلين داخل القبو، إلى سطوة مثل هذه المشاعر. لم يكن سلطان الكرى ليزورني أو يدنو من سريري.. بينما كانت الساعات تمضي في تثاقل ووحشة. كنت أُكافح لأن أُبعد عن عقلي الحالة العصبية التي استولت عليّ. حاولت إقناع نفسي بأنّ الكثير ممّا أحسّ به، إن لم يكل كل ما أحسست به، مردّه إلى التأثير المُشوش لأثاث الغرفة الذي يبعث منظره على الكآبة.. أو ربّما يُعزى إلى قماش الستائر الداكن المُمزّق كالخرق، والذي كان يتحرّك مع تصاعد أنفاس العاصفة، ويتمايل في نوباتٍ مُتقطّعة إلى الأمام وإلى الخلف على الجدران، ويصدر خشخشة مُرهقة للأعصاب مع ارتطامه بديكورات السرير. إلّا أنّ جهودي ذهبت أدراج الرياح. استولت قشعريرة لا سبيل للتغلّب عليها تدريجياً على بدني؛ وأخيراً، جثم على صدري كابوسٌ يُنذر بخطر لا تعليل له أبداً. حاولت أن أبعد هذه الهواجس وأنا ألهث لالتقاط أنفاسي،

فنهضتُ وجثمت على الوسائد، وصرت أُحدق في نظرات جادّة مُنهكة مُستكشفاً خفايا الظلام الكثيف في الحُجرة المُعتمة.. لا أعرف لماذا، باستثناء أنّ روحاً غريزية دفعتني.. باتّجاه بعض الأصوات المُنخفضة غير المؤكدة التي جاءت، مع توقف العاصفة من الحين إلى الحين، على فترات مُتقطّعة طويلة، لا أعرف من أين. تحفزت قواي بإحساس عميق بالذعر، لا أعرف له سبباً، مع أنّه ذعر لا يُحتمل، ولبستُ ملابسي على عجل (لأنّي أحسست بأن لا ينبغي عليّ النوم أبداً في تلك الليلة)، وحاولت التخلص بأي شكل من حالتي البائسة فصرتُ أجري جيئة وذهاباً بسرعة في أرجاء الحُجرة.

كنت قد أكملت بضع دورات على هذا النسق، حين شدّت انتباهي خطوة خفيفة على سلّم مُجاور. تأكدت لي الآن حقيقة ذلك الصوت وعرفت أنّه أوشير. في لحظة أعقبت ذلك أخذ يطرق، في لمساتٍ خفيفة، على باب حُجرتي، ثم دخل وهو يحمل مصباحاً. كان منظره شاحباً كالمُعتاد مثل جثة.. ولكن، علاوة على ذلك، ثمّة [378]نوع من الجذل الجنوني يلوحُ في عينيه.. أو هستيريا مكبوتة على نحوٍ واضح تعتري مزاجه كلّياً. أرعبني مظهره.. ولكنّي كنت أُحبذ أي شيء يُبعدني عن عزلتي التي تحمّلتها طويلاً، فرحّبت بحضورهِ الذي بعث في نفسي الارتياح.

«أنت لم ترها؟» قال فجأة، بعد أن نظر حوله بضع دقائق في صمت.. «لم ترها؟.. ولكن، تمهّل! لسوف ترى». بعد أن قال هذا، وأطفأ مصباحه في عناية، أسرع إلى إحدى النوافذ، وفتحها على مصراعيها في وجه الريح.

كاد الطيش المُباغت للريح التي اقتحمت الحُجرة أن يطيح بنا على أقدامنا. كان ذلك في الواقع دفقاً عاصفاً مع أنّها ليلة جميلة بكل معنى الكلمة، فريدة في رعبها الوحشي وجمالها. كانت دوامة الرياح تلملم قواها فيما يبدو على مقربة من مكاننا؛ لأننا لمسنا تغيرات مُكررة عنيفة في اتّجاه الريح؛ وفي التكاثف المُتزايد للغيوم (التي تدلّت إلى مُستوى مُنخفض جدّاً لتضغط على أبراج الصرح) الذي لم يمنعنا من إدراك سرعتها الجنونية وهي تتحرك وتطوف وتأتي من جميع الجهات ويتصادم بعضها مع بعض، دون أن تبتعد إلى مسافات نائية. أقول، حتى كثافة

الغيوم المُتراكمة على نحو مُتزايد لم تمنعنا من إدراك هذا.. إلّا أنّنا لم نلمح القمر أو النجوم.. ولا أي وميضٍ للبرق. غير أنّ السطوح الدنيا لكتل الغبار العالية الهائجة، فضلاً عن كل الأشياء الدنيوية التي تُحيط بنا مُباشرة، كانت تتألّق بالضوء غير الطبيعي لزفيرٍ غازي وضاء في خفوت يتّخذ شكلاً مُميزاً يتدلّى هُنا وهُناك، ويكفن المنزل.

«عليك أن لا.. لن أتركك ترى هذا!» قلت، وكنت أرتعد فرَقاً، موجّهاً كلامي إلى أوشير، بينما قدته، في شيء من العنف، من النافذة إلى أحد المقاعد. «هذه المظاهر، التي تُحيّرك، مُجرّد ظاهرة كهربائية غير مُستغربة.. أو لعل مصدرها المُثير للخوف يتمثّل في المياه الراكدة ذات الروائح العفنة التي تنبعث من البحيرة الجبلية. دعنا نُغلق هذه النافذة؛ فالهواء بارد وغير مُناسب لبدنك. هذه إحدى الروايات الرومانسية المُفضلة لديك. سوف أقرأ، وأنت تصغي؛ هكذا سوف نمضي هذه الليلة المُرعبة معاً».

كان الكتاب القديم الذي تناولته هو (تريست المجنونة) تأليف سر لاونسيلوت كاننغ؛ ولكنّي كنت قد أسميته «كتاب أوشير المُفضل» في مزحةٍ ممجوجة وليس في جدّية صارمة؛ لأنّ هُناك في حقيقة الأمر بعض الجوانب في أُسلوب الكتاب المُمل وإطنابه ممّا لا يُمكن تصوّره ربما كان يهيج مثالية الروح المُتغطرسة لصديقي. ولكنه الكتاب الوحيد الذي كان في مُتناول اليد مُباشرة؛ وكنت أصبو إلى أملٍ [379]غامض في أنّ الانبهار الذي كان يتململ الآن في نفس ذلك الممسوس، ربما يؤدي إلى شيءٍ من الارتياح (لأنّ تاريخ الاختلال العقلي مليء بحالات شذوذ مُماثلة) حتى ضمن مُبالغات الكتاب وأسلوبه الأحمق الذي كان عليّ قراءته. أيُمكن أن أكون قرّرت هذا، في الواقع، نتيجة تأثيرِ التوتر الوحشي والحماس المُسرف الذي كان يُصغي فيه، أو يبدو أنه يُصغي، لكلمات الحكاية، ربّما كنت سأهُنّئ نفسي على نجاح خطتي.

كنت قد وصلت إلى ذلك الجزء الشهير من القصة حين يتقدّم إثيلريد[8]،

---

(8) إثيلريد: اسم شخصية في رواية سر والتر سكوت (إيفانهو). [المترجم]

بطل تريست، بعد أن سعى من غير جدوى لأن يُسمح له بالدخول في سلام إلى منزل الناسك، يتقدّم ليقتحم المنزل عنوة. وهُنا، لا بُدّ أن نتذكّر، تأتي كلمات الحكاية هكذا:

«وتقدم إثيلريد، الذي كان في جوانحه قلبٌ شجاع لا يهاب شيئاً، وهو الآن فوق هذا وذاك قوي الشكيمة بسبب تأثير النبيذ الذي شربه من قبل، فلم ينتظر طويلاً لكي يتباحث مع الناسك الذي كانت لديه، لو أردنا التلطف في القول، ميولٌ شريرة تدفعه إلى المُكابرة والحقد، ولكن بعد أن أحسّ بقطرات المطر تسقط على أكتافه، وخاف أن تتصاعد قوة العاصفة، رفع عصاه على الفور، وبضربات عنيفة أفسح لنفسه مجالاً على عجل في ألواح الباب فأدخل يده الملفوفة بالقفاز؛ وصار يسحب بعد ذلك مُباشرة بشدة، ويشق، وينتزع، ويُمزق ويُباعد كل الألواح، وكانت ضوضاء الخشب الجاف الأجوف تتردّد أصداؤها وتُنذر بسوء العاقبة في أرجاء الغابة».

لدى انتهاء هذه الجملة جفلت، وتوقفتُ لحظة؛ لأنّه تبيّن لي (مع أنّني استنتجت على الفور أنّ خيالي المُتهيّج يخدعني).. ظهر لي، عبر جزءٍ بعيد جدّاً من الصرح، أنّ ثمّة صدى يتردد، غير واضح النبرات، يصل إلى أذني، ربما كان مظهره مُشابهاً تماماً (لكنه صدى مكتوم بليد حتماً) لتلك الضربات في التمزيق والتشقّق التي وصفها السر لأونسيلوت وصفاً دقيقاً. كان الصوت، من غير شك، تجسيداً للواقعة التي أثارت انتباهي وحدها؛ لأنّه وسط خشخشة ألواح النوافذ على مفاصلها، ووسط الفوضى العادية التي يختلط بعضها مع بعض للعاصفة التي لا تزال تتزايد شدتها، لم يكن الصوت بعينه يحمل ما ينبغي أن يُثير اهتمامي أو يُعكّر ذهني. وأكملتُ قراءة القصة:

«لكن البطل الطيب القلب إثيلريد، وهو يدخل الآن من الباب، كان ساخطاً ومذهولاً بحيث لا يرى أي دليل على وجود الناسك الحقود؛ ولكنّه بدلاً من ذلك رأى تنّيناً عملاقاً قرمزي الحراشف، له لسانٌ من لهب، يقبع لحراسة قصر من الذهب، أرضيته من الفضة؛ وفوق الجدار يتعلّق ترسٌ من نحاس كتبت عليه هذه الكلمات [380]الأسطورية..

من يدخل هُنا، هو المنتصر؛

من يقتل التنين، يفوز بالترس؛

ورفع إثيلريد صولجانه، وهوى به على هامة التنين، وسقط هذا أمامه، ولفظ أنفاسه الموبوءة وهو يُطلق صرخة مُرعبة حادّة، ومن ناحية أُخرى كانت الصرخة خارقة، حتى إن إثيلريد اضطر لأن يغلق أُذنيه بيديه كي لا يسمع الضوضاء المُخيفة التي أعقبتها، ولم تُسمع من قبل أبداً صرخة مماثلة».

هُنا، مرة أُخرى، توقفتُ فجأة، وكان يعتريني إحساسٌ عنيف بالذهول.. فلا يُمكن أن يكون ثمّة شك مهما كان نوعه، في هذه اللحظة، في أنّني سمعت حقّاً (وإن كان من المُستحيل عليّ تحديد الاتّجاه الذي جاء منه الصوت) صراخاً مُنخفض النبرات وبعيداً فيما يبدو، لكنّه حاد، امتدّ طويلاً، ولم يكن عادياً، ربما كان صوت احتكاك أحجار.. وذلك يُناقض تماماً ما صوّرته لي أوهامي قبل ذلك عن صرخة التنين غير الطبيعية كما وصفها صديقي الرومانسي.

بما أنّي كنت خاضعاً لتأثير المُفاجأة المُدهشة، وحتماً كنت كذلك، لدى حدوث هذه المُصادفة الثانية غير الطبيعية، وقد باغتتني آلاف الأحاسيس المُتضاربة، تُهيمن عليها الدهشة والرعب البالغ، إلّا أنّني حافظت على حضورٍ ذهني يكفي لتفادي أن تطيش الدهشة بصوابي، من خلال أي نوع من المُشاهدات، والابتعاد عن العصبية الحساسة لرفيقي. لم أكن بأي حال واثقاً من أنّه تنبّه إلى الأصوات التي كنت أتحدث عنها؛ مع أنّه حدث حتماً تغيرٌ غريب، أثناء الدقائق القليلة الأخيرة، على هيئته. من موقع يواجهني مُباشرة، نقل كرسيه في بطء، لكي يجلس بحيث اتّجه وجهه إلى باب الحُجرة؛ وبهذا لم أكن أستطيع إلا جزئياً أن أنظر إلى ملامحه، مع أنّي رأيت شفتيه ترتعشان كأنّما يُتمتم هامساً. انحنى رأسه على صدره.. كنت أعرف أنّه ليس نائماً، من خلال الانفتاح الواسع والثابت للعين التي لمحتها جانبياً. كانت حركة جسده أيضاً تنفي هذه الفكرة.. لأنّه كان يتمايل كالسعفة من جانبٍ إلى جانب في تأرجح خفيف مع أنه ثابت

ومُنتظم. بعد أن لاحظت بسرعة كل هذا، استأنفت قراءة قصة السر لاونسيلوت، التي جاءت على النحو التالي:

«والآن، بعد أن تمكّن البطل من الفرار من غضب التنين، انشغل بالتفكير في الترس النحاسي، وفكّر أيضاً في إبطال مفعول السحر الذي يكْمن فيه، فرفع الجثة عن الطريق التي أمامه، واقترب في بأسٍ من الرصيف الفضي للقلعة التي كان [381]الترس مُعلّقاً على جدارها؛ في حقيقة الأمر لم ينتظِر الترسُ منه الاقتراب كثيراً، وإنّما سقط عند قدميه على الأرض الفضية، وصدر عنه رنينٌ جبار مريع».

فما كادت هذه المقاطع تخرج من شفتي، حتى.. كأنّما سقط ترسٌ من النحاس في الواقع، في تلك اللحظة، على أرضية فضية.. وسمعتُ صوتاً مدوّياً، أجوف، معدني، مثل صلصلة مكتومة فيما يبدو. وهنتْ عزيمتي تماماً، فوثبت على قدمي؛ لكن الاهتزاز الموزون لحركة أوشير لم يتوقّف. اندفعتُ إلى الكرسي الذي جلس عليه. كانت نظراته مُسمّرة على بقعة أمامه، وبدتْ على وجهه صلابة حجرية. وبينما وضعت يدي على كتفه، انتفض جسده بقوة؛ وطافت ابتسامة شاحبة على شفتيه؛ وجدته يُغمغم بصوت مُنخفض، مُتسارع، كأنّه يهذي ويثرثر، كأنّه غير واع لوجودي. انحنيت مُقترباً منه، وأخيراً غمرتني كلماته الشنيعة.

«لم تسمع الآن؟.. نعم، أنا أسمع ذلك، وكنت أسمع. منذ دقائق طويلة.. طويلة.. طويلة، منذ ساعات كثيرة.. كثيرة، كنت أسمع.. ولكني لم أجرؤ.. أوه، تعساً لي، أنا التعيس البائس!.. لم أجرؤ ..لم أجرؤ حتى على الكلام! وضعناها وهي حية في القبر! ألم أقل: إن حواسي حادة؟ والآن أؤكد لك أنّني سمعت الحركات الواهنة منذ اللحظة الأُولى في النعش الأجوف. سمعتها.. منذ أيام كثيرة، كثيرة.. ولكني لم أجرؤ ..لم أجرؤ حتى على الكلام! والآن.. الليلة.. إثيلريد.. هاه!.. هاه!.. انفتاح باب الناسك، وصرخة التنين الميت، وصلصلة الترس!.. أو بالأحرى، انتزاع غطاء تابوتها، وخشخشة المفاصل الحديدية للسجن الذي تقبع فيه، وصراعها مع القوس المرصوف بالنحاس في القبو! أوه، إلى أين أهرب؟ ألن تأتي إلى هُنا عما قريب؟ ألن تُسرع لتعاتبني على استعجالي؟ ألم أسمع وقع خطواتها على السلالم؟ ألا أستطيع تمييز ذلك النقر الثقيل

المُخيف لضربات قلبها؟ أيّها المجنون!».. وهُنا قفز في حركة حانقة ووقف على قدميه، وصرخ بمقاطع كلماته، كأنّه يُحاول انتزاع روحه من الأعماق .. «أيها المجنون! أقول لك إنّها الآن تقف خارج الباب!».

حدث ذلك كأنّما هُناك طاقة خارقة لنواميس الطبيعة واكبت عباراته التي نطق بها فوجدت قوّتها السحرية تتحقق.. تحرّكت الألواح العتيقة الضخمة التي أشار إليها عندما كان يتكلم، تقهقرت في بطء، في اللحظة نفسها، تحرّك الأبنوس الثقيل على مفاصله. حدث ذلك بتأثير العاصفة وهي تندفع.. ولكن، في ذلك الوقت، خارج تلك الأبواب وقف بالفعل الشبح المهيب المُتلفع بالكفن لليدي مادلين أوشير. رأينا الدماء تُلطّخ رداءها الأبيض، ممّا أعطى دليلاً واضحاً على نوعٍ من الصراع [382]المرير على كل جانب من جسدها الهزيل. بقيتْ لحظة ترتعش وتترنح إلى الأمام والخلف على العتبة.. ثم، أطلقتْ أنيناً خافتاً، وسقطتْ في تثاقل على جسد أخيها، ووسط خلجات ونزاعات الموت الأخيرة الآن، أسقطته على الأرض جثة هامدة، وضحية لمظاهر الرعب التي كان يتوقعها.

بعيداً عن تلك الحُجرة، وعن المنزل كله، ولّيتُ الأدبار فزعاً مرعوباً. في الخارج كانت العاصفة على عنفوانها وغضبها حين وجدتُ نفسي أعبر الجسر القديم. وفجأة رأيتُ وميض ضوءٍ وهاج ينطلق من الدهليز، واستدرت لأرى مصدر الوهج غير الاعتيادي الذي جاء منه؛ لأنّ الصرح المهيب وظلاله وحدها هي التي كانت خلفي. كان الشعاع ينطلق من البدر المُكتمل، وهو يسلك طريقه ليختفي بأنواره الدموية، الآن أشرق البدر في حيوية وأطلق نوره من التصدّع الذي لم يكن ليراه المرء إلا بصعوبة ذات مرة، ذلك الذي تكلّمت عنه من قبل وقلت: إنّه يمتدّ من سقف المبنى، في اتّجاه مُتعرّج، حتى القاعدة. وبينما كنت أنظر، كان هذا التصدع يتوسّع سريعاً.. ثم اخترقه سيل دافق من دوامة الرياح.. وانفجر طوقُ القمر كله في الحال مُنهمراً بأنواره على المكان الذي كنت أنظر إليه.. تأرجح دماغي وأنا أرى الجدران الضخمة تتصدّع ويتباعد بعضها عن بعض.. صرخات طويلة صاخبة كأنها آلاف الشلالات.. والأرض الغائرة الرطبة للبحيرة الجبلية عند قدمي تنغلق في تجهّمٍ وصمت على بقايا «صرح أوشير».

الرجل المُسْتنفد

حكاية عن حملة بوغابو وكيكابو الأخيرة[1]

انتحبي، انتحبي، أيتها العين!

فليس الوقتُ وقت الفرح،

لأنّ نصف جسدي قد دفن النصفَ الآخر.

كورنيلي[2]

ليس في وسعي الآن أن أتذكّر متى أو أين تعرّفت لأول مرة على ذلك [383] الرجل الظريف، الخفيف الظل حقّاً، الجنرال الفخري جون أ. ب. س. سميث. لا بُدّ أنّ أحدهم قام بالفعل بتقديمي إلى الرجل، أنا واثقٌ من هذا.. في اجتماعٍ عام، اعرف ذلك جيداً.. كان يُعقد لشأنٍ عظيم، لا شك.. في مكانٍ أو آخر، أنا واثق من هذا.. ثم نسيت اسمه ولا تفسير لذلك. الحقُّ أنّ.. أنّ التعارف رافقه، من جانبي، شيءٌ غير قليل من الإحراج الذي يعتريه الفضول كنت أسعى

---

(1) كان الهنود الحمر من قبائل كيكابو يخوضون حروباً في فلوريدا وقت نشر هذه القصة، وقد أسماها المؤلف «حرب السكة الحديدية» في مقال نشره في مجلّة *Alexander's Weekl Messenger* بتاريخ 18 آذار 1840. [المترجم]

(2) الاقتباس باللّغة الفرنسية بالاصل وهو من تراجيديا للكاتب المسرحي الفرنسي بيير كورنيلي بعنوان «اللورد» Le Cid عرضت في باريس سنة 1637. [المترجم]

من خلاله إلى إزاحة أي انطباعات مُسبّقة يفرضها الوقت أو المكان. فأنا عصبي المزاج بالفطرة.. وهذه، فيما يتعلّق بشخصيتي، من العيوب العائلية التي لا يُمكن الخلاص منها. وبالأخص، فإنّ أدنى مظهرٍ من مظاهر الغموض.. مهما بلغت درجته، لا أستطيع استيعابه بدقّة.. من شأنه أن يؤدي بي على الفور إلى حالة من الإرباك العصبي تدعو للإشفاق.

هُناك شيءٌ، كما أظن، خليق بالانتباه.. نعم، شيء مُذهل خليق بالانتباه، مع أنّ هذا مُصطلحٌ عاجز عن التعبير عن مقصدي تماماً.. في الشخصية الفريدة بكل جوانبها للرجل الذي أتحدّث عنه. ربّما لم تكن قامته تتجاوز ستة أقدام، وله حضورٌ يفرضُ الهيبة على نحو خاص. هُناك مسحة ساحرة من التميّز *air distingué* تطغى على صفاته على وجه الإجمال، تُنبئ بأصالة المُحتد والنسب الكريم. حول هذا الموضوع.. المظهر الشخصي لسميث.. أشعر باقتناع لا يخلو من الأسف أنّني دقيق في تقييمي. تسريحة الشعر على رأس هذا الرجل من شأنها أن تُضفي مظاهر الشرف والرفعة على بروتوس[3] نفسه؛ لا شيء يُضاهي شعره في غزارته وانسداله غير المكبوح، مع لمعانٍ أكثر إشراقاً. شعرٌ فاحم السواد.. وذلك هو أيضاً لون، أو بالأحرى لا لون شاربيه اللذين لا يُمكن تصوّر وجود مثيل لهما. لا بُدّ أنّك تُدرك استحالة أن أتكلّم عن هذين الشاربين دون شيءٍ من الحماس؛ ليس من الإسراف [384]القول إنّهما أكثر زوج من الشوارب نضارة تحت الشمس. على كل حال، فهما يُحيطان، وفي بعض الأحيان يحجبان جزئياً، فجوة الفم الذي لا نظير له إطلاقاً. ثم تأتي الأسنان الأكثر مثالية في انتظامها، والأكثر بياضاً ونصاعة من أي أسنان سبق أن رأيناها. من بين هذه الأسنان، في كلِّ فرصةٍ سانحة، يخرج صوتٌ يمتاز بفصاحة خارقة للمألوف. أما العينان، فرَفيقي الذي تعرّفت عليه مؤخراً لديه زوجٌ من العيون لم يُخلق لها مثيل. كل عينٍ وُهبَ إياها تستحق عن جدارة تلك العدسات البصرية المُنتشرة في تلك الأيام. عينان بلون البندق الغامق، واسعتان براقتان على نحو استثنائي؛ يحسّ المرء حين

(3) رغم أنّ الرومان كانوا يضربون المثل في سينسيناتوس لشعره الجميل، فربّما كان بروتوس لدى شكسبير هو المثل الأعلى في هذا الشأن. [المترجم]

ينظر إليهما، دائماً وأبداً، بذلك الازورار الخلاب الذي لا يتوقّف عن البوح بشتى الإيحاءات.

أما صدر الجنرال، فهو بلا مُنازع أروع صدر رأيته في حياتي. طوال حياة المرء لا يُمكن أن يجد عيباً يُعكّر ذلك التناسق الرائع. هذا التفرّد النادر للصدر يواكبه زوجٌ من الأكتاف من شأنها أن تُثير في وجه أبولو الرخامي احمرار الخجل من عقدة النقص. ولطالما أحسست بالإعجاب بالأكتاف الجميلة، وربما أقول إنني لم أشاهد من قبل مثل هذه الأكتاف في كمالها. والذراعان معاً نموذجٌ مُثير للإعجاب. وكذلك الأطراف السفلى فليس فيها عيبٌ يجعلها أقل روعة. هذه، في الواقع، هي أعلى درجات الكمال *ne plus ultra* التي يُمكن أن تكون عليها السيقان الجميلة. أي خبيرٌ في مثل هذه الأمور لا بُدّ أن يُذعن ويُقرّ بجمال السيقان. لم يكن عليهما كثيرٌ من اللحم، ولا القليل منه أيضاً.. لا فظاظة ولا هشاشة. ليس في وسعي أن أتخيّل مُنحنيات أكثر رشاقة من عظم الفخذ *os femoris*، وذلك البروز الخفيف في مكانه الصحيح تماماً من مؤخرة المشبك يمتدّ مُشكلاً بطن ساق مُتناسقة أي تناسق. أتمنى على الله أن يرى صديقي الشاب الموهوب جيبونشيبينو، ذلك النحات، ساقي الجنرال الفخري جون أ. ب. س. سميث.

مع أنّ الناس الذين يتحلّون بهذه الشمائل الرائعة للجمال المادي المُطلق لا يتوفّرون بكثرة كما نتوقّع أن تتوفّر الخصائص العقلية لدى غيرهم أو كما يتوفّر التوت البري، فلم أتمكّن أن أقنع نفسي بأن ذلك الشيء المُذهل المُثير للاهتمام الذي أُلمّح إليه الآن.. أو أنّ السمة الغريبة في أي وقت كان *je ne sais quoi* التي تُعتبر جُزءاً لا يتجزأ من شخصية الرجل الذي تعرّفت عليه مؤخراً.. تكْمن على وجه الإجمال، في جوانبها بأكملها حقّاً، في تفوّق مؤهلاته الجسمانية. ربما يُمكن تعقّب آثار تلك المؤهلات لنكتشف أنّها تشمل نمط السلوك الشخصي؛ لكن هُنا أيضاً لا يُمكن الادّعاء بأنّي واثق من حكمي. كان هُناك نوع من التزمّت، ولا نقول الصلابة، في قوامه.. مقدار محسوب، إذا صحّ التعبير، من الدّقة في استطالة القوام، تواكب كل حركة من حركاته، وهي صفة إذا ما

شوهدت لدى شخص أصغر حجماً، لكانت على أقلّ تقدير تترك انطباعاً مستساغاً بعض الشيء لدى العالم، مذاق التكلّف، الأبهة، أو الانزواء، لكنها إذا ما وجدت لدى رجل على مواصفاته التي لا [385]لبس فيها، سوف تُفسر على الفور بوصفها نوعاً من العجرفة *hauteur* . . وهي صفة جديرة بالثناء، باختصار، لأنّها من مُستلزمات الكبرياء بقياساتها المُفرطة.

كان الصديق الودود الذي قدّمني إلى الجنرال سميث قد همس في أذني بعض كلمات الإطراء على الرجل. قال: إنّه من الشخصيات التي تستحق التقدير.. إنّه رجلٌ مُثير للاهتمام حقّاً.. في الواقع هو واحد من أكثر الرجال إثارة للاهتمام في ذلك العصر. كان يحظى بمنزلة خاصة، أيضاً، لدى السيدات.. وذلك يعود أساساً إلى سمعته التي لا غبار عليها في الشجاعة والإقدام.

«من تلك الناحية لا يوجد من يُنافسه.. في حقيقة الأمر هو مثالٌ للقاتل المُحترف، البائس، المُتهور .. مشعوذ يتظاهر بالتهام النار مُباشرة على الملأ، ولا يرتكب أدنى الأخطاء»، قال صديقي، وهُنا خفض صوته كثيراً لكي يشدّني إلى السر الذي يختفي وراء نبرة صوته.

«ملتهمٌ للنار بمعنى الكلمة، لا يقترف أدنى الأخطاء. وقد أثبت كفاءته، لا سبيل إلا أن يعترف المرء بهذا، لغرضٍ أو لآخر، في معارك المُستنقعات المُذهلة التي دارت مؤخراً هُناك في الجنوب، مع هنود بوغابو وكيكابو». (وهُنا فتح صديقي عينيه في انبهار بعض الشيء). «فليبارك الله روحي!.. دماءٌ ورعدٌ وبرق صاعق يختلط كل ذلك في السماء، كل ذلك! ..أعجوبة في الشجاعة!.. سمعتَ به طبعاً؟.. لا بُدّ أنك تعرفُ البطل...».

«الرجل لا يزال على قيد الحياة، كيف حالك؟ مرحى، كيف حالك؟ أنا مسرور جدّاً لرؤيتك، في الواقع!» هُنا قاطعنا الجنرال نفسه، وأمسك رفيقي من يده بينما هو يقترب أكثر، وينحني في ثباتٍ وإصرار، ولكن في حركة تدلّ على عمق التفكير، فيما كان يجري تقديمي إليه. تصورت آنذاك، (ولا زلت أتصور)، أنّني لم أسمع صوتاً أكثر فصاحة في نبراته ولا أقوى حُجة، وأنّني لم أشاهد

طقم أسنان أبهى؛ ولكن عليّ القول: إنني كنت أشعر بالأسف على مُقاطعتي في تلك اللحظة على وجه التحديد، لأنّ الشائعات والافتراءات التي أشرتُ إليها آنفاً، زادت اهتمامي كثيراً ببطل حملة بوغابو وكيكابو.

ولكن سرعان ما تبدّد الغمّ والكدر بعد الحديث الشيّق الراقي الذي تبادلته مع الجنرال الفخري جون أ. ب. س. سميث. ثم ما لبث صديقي أن تركنا على الفور، وواصلنا دردشتنا الطويلة، ولم أكن أشعر بالمُتعة فحسب، وإنّما شعرت حقّاً.. أنّني كنت أنهل من ينبوع معرفته. لم أستمع من قبل إلى مُتحدّثٍ طليق اللسان، أو رجلاً يمتلك رصيداً لا ينضب من المعلومات العامة أكثر منه. وبما أنّه كان يتحلّى بروح التواضع والكياسة فقد امتنع عن التطرق إلى الموضوع الذي كان يدور في خلدي آنذاك.. أعني المُلابسات الغامضة التي واكبت حرب بوغابو.. من جانبي أنا، اعتبرته تصرّفاً سليماً ومن مُتطلّبات اللياقة أن أتجنّب الموضوع؛ مع أنّي، في الواقع، كنت أشعر بإغراء شديد يدفعني للقيام بذلك. تصورت أيضاً أنّ الجندي المغوار كان يُحبّذ التطرّق إلى موضوعات ذات طبيعة فلسفية، وأنّه يحس بالمتعة خصوصاً لدى التعليق على التقدم السريع الذي تحرزه الاختراعات الميكانيكية. في [386]حقيقة الأمر، أردت أن أقوده إلى الجهة التي أرتأيها، فكان يعود إلى هذه النقطة مرة بعد أُخرى.

«إنّها أشياء مُذهلة لا مثيل لها حقّاً»، كان يقول؛ «نحن أُناس رائعون، نعيش عصر المُعجزات. المظلات والسكك الحديدية.. مصائد المُغفلين والبنادق التي تعمل بالنوابض! مراكبنا البخارية تجوب البحار، ومشروع منطاد ناساو على وشك أن يبدأ رحلات مُنتظمة (وتسعيرة الذهاب والإياب لا تتجاوز عشرين جنيهاً إسترلينياً) بين لندن وتبماكتو. من يستطيع أن يُخمّن التأثير الهائل لكل هذا على الحياة الاجتماعية.. على الفنون.. على التجارة.. على الأدب.. الذي هو نتيجة مُباشرة لمبادئ المغناطيسية الكهربائية! لا، هذا ليس كل شيء، أؤكد لك! ليس هُناك نهاية لتطور الاختراع. هذا الرجل الرائع تماماً.. العبقري.. دعني أضيف، سيد.. سيد.. تومبسون، كما أتصوّر، هو اسمك.. دعني أضيف، أقول، إنّ أكثر الأشياء فائدة.. هذه الابتكارات الميكانيكية الأكثر فائدة حقّاً، هذه الاختراعات

التي تظهر يومياً مثل نبات الفطر، إذا جاز التعبير، أو، على نحو مجازي، مثل.. آه.. الجنادب.. مثل الجنادب، سيد تومبسون.. في كل مكانٍ قريب منا، آه.. آه.. آه.. حولنا!».

في حقيقة الأمر، لم يكن اسمي تومبسون؛ ولكن لا حاجة للقول إنّني تركت الجنرال سميث وقد اعتراني فضولٌ تدريجي للتعرّف أكثر على شخصية الرجل، واستولى عليّ إعجابٌ به وبقدراته الكلامية، وإحساس عميق بالمزايا القيمة التي نتمتّع بها ونحن نعيش عصر الاختراعات الميكانيكية هذا. إلّا أنّ فضولي لم يُشبع تماماً، وقررت حالاً القيام ببحثٍ واسع وسط معارفي للتعرّف أكثر على شخصية الجنرال الفخري نفسه، وعلى وجه التحديد فيما يتعلّق بالوقائع المُذهلة «التي كان جزءاً عظيماً منها» *quorum pars magna fuit*[(4)]، تلك التي جرت إبان حملة بوغابو وكيكابو.

جاءت أول فرصة أُتيحت لي، والتي أكاد أرتعش وأنا أذكرها *horresco referens*، ولم أتردد مُطلقاً في اقتناصها في كنيسة الدكتور المُبجّل درمموب، حيث وجدت نفسي هُناك، في يومٍ من أيام الآحاد، في وقت إلقاء الموعظة على وجه الدّقة، فجلستُ ليس على مقعد خشبي فحسب، وإنما إلى جوار صديقتي النحيفة الثرثارة المُثيرة للاهتمام، الآنسة تابيثا وبما أنّي جلست في ذلك المكان المُميّز، فقد هنأت نفسي، في شيءٍ من التعقل، على هذه الصلة الحميمة التي تستحق الإطراء. لو كان أي شخص يعرف شيئاً عن الجنرال الفخري جون أ. ب. س. سميث، فذلك الشخص، من الواضح جدّاً بالنسبة لي، لا بُدّ أن يكون الآنسة تابيثا وتبادلنا بضع إشارات، ثم بدأنا نتجاذب أطراف الحديث في نغمة منخفضة *soto voce*، وفي ثرثرة عاجلة.

«سميث!» قالت، ردّاً على سؤالي الذي طرحته بلهجة جادة جدّاً؛ «سميث!.. [387]عجباً، ليس الجنرال جون أ. ب. س.؟ فليباركني الله، تصوّرت أنّك كنت تعرف كلَّ شيء عنه! هذا عصرُ الاختراعات الرائعة! تلك مسألة

---

(4) اقتباس لاتيني من (الإنيادة) لفيرجل 2: 6. [المترجم]

شنيعة!.. يا لها من زمرةٍ من التعساء، أولئك الكيكابو!.. كان يُقاتل كبطل.. وله مآثر في البسالة.. لقد أحرز شهرة خالدة. سميث!.. الجنرال الفخري جون أ. ب. س.! عجباً، لا بُدّ أنّك تعرف ذلك البَطل»..

«ذلك البَطل»، هُنا تدخّل الدكتور درمموب فصاح بأعلى صوته، وخبّط على منبر الوعظ خبطات كادت تصمّ آذاننا؛ «الرجل الذي ولدته امرأة بائسة لم تعش غير مدة قصيرة؛ إنّه من نسلٍ مُنقطع مثل زهرة اقتلعت من جذورها!» ثمّ ذهبتُ إلى طرف المقاعد الخشبية، وأدركت من النظرات المُفعمة بالحيوية للكاهن المُوقّر أنّ الغضب الذي كاد يُطيح بالمنبر أثارته الهمسات المُتبادلة بيني وبين السيدة. ولم يكن من سبيلٍ للاستمرار؛ فاستسلمتُ عن طيب خاطر، وأصغيت في صمتٍ واتّزان وبما ينسجم مع المكان المُقدّس لتلك المُحاضرة المهُمةّ جدّاً.

في مساء اليوم التالي وجدتني أزور في وقتٍ مُتأخر بعض الشيء مسرح رانتيبول، حيث أحسست بأني واثقٌ من إشباع فضولي هُناك مُباشرة، وبمُجرّد الدخول إلى مقصورة من تلك المقصورات التي تُضفي شيئاً من الألفة وتوفر قدرة لا بأس بها للاطلاع، وجدت الآنسات أرابيلا وميراندا كوغنوسينتي. وكان ذلك المُمثل التراجيدي الرائع كلايماكس يؤدي دور إياغو(5) أمام جمهور عريض من النظارة، ولم تواجهني صعوبة كبيرة في التعبير عن رغباتي؛ خاصة لأنّ مقصورتنا كانت مُجاورة للممرّات، وتطل تماماً على خشبة المسرح.

«سميث؟» قالت الآنسة أرابيلا، حين استوعبت أخيراً مغزى سؤالي؛ «سميث؟.. عجباً، ليس الجنرال جون أ. ب. س.؟».

«سميث؟» تساءلت ميراندا، وهي مُستغرقة في التأمل. «ليباركني الرب، هل سبق أن رأيت شخصية أكثر روعة؟».

«أبداً، مدام، ولكن أرجوك أن تخبريني»..

(5) إياغو: شخصية خيالية في مسرحية شكسبير (عطيل). [المترجم]

«أم سبق أن رأيت سماحة خلقٍ لا تُضاهى؟».

«أبداً، أقسم على ذلك!.. لكنّي أتوسّل إليك أن تخبريني..».

«أم سبق أن رأيت مثل هذا التقدير للمؤثرات المسرحية؟».

«مدام!».

«أو هذا الحسّ المُرهف بإزاء مظاهر الجمال الحقيقي لدى شكسبير؟ فلتتكرمي وتنظري إلى تلك الساق!».

«يا للشيطان!» واستدرتُ مرة أُخرى نحو أختها.

«سميث؟» قالت، «عجباً، ليس الجنرال جون أ. ب. س.؟ تلك مسألة فظيعة، أليس كذلك؟.. يا لهم من أوغادٍ تعساء، أولئك البوغابو.. متوحشون وما إلى ذلك.. ولكنّنا نعيش عصر اختراعاتٍ مُذهل!.. سميث!.. أوه، نعم! يا له من رجل عظيم!.. مُتهور مثالي.. سيبقى ذائع الصيت إلى الأبد.. يا له من مفخرة في البسالة! لم أسمع أبداً بمثله!» (قالت هذا وهي تكاد تصرخ). «ليبارك الله روحي! إنّه حقّاً [388] بطل..».

«.. اليبروح[6]

كلُّ أنواع الشراب المُنعش في العالم

لن تفيدك أبداً لتزيل آثار النعاس اللذيذ

بعد ما نمت يوم أمس!»[7].

وهُنا زمجر صديقنا كلايماكس بشيءٍ قرب أُذني، وكان يلوّح بقبضته أمام وجهي طوال الوقت، فعل ذلك بطريقة لم أستطع أن أفهم مغزاها، ولن أفهم.

(6) اليبروح أو اللفاح: نبات عشبي من الفصيلة الباذنجانية. [المترجم]

(7) اقتباس من مسرحية (عطيل)، 3، 3، 330- 333. [المترجم]

تركتُ الآنسات كوغنوسينتي حالاً، وذهبت وراء الكواليس على الفور، ووجهت للنذل البخيل ضربة أعتقد أنّه سيتذكرها حتى يوم مماته.

في الحفلة الساهرة التي أقامتها الأرملة الجميلة، السيدة كاثلين أوترمب، كنت واثقاً أنّني لن أواجه إحباطاً مُماثلاً. ولهذا، جلست إلى طاولة لعب الورق، مع مُضيفتي الحسناء وجهاً لوجه، وسرعان ما طرحتُ الأسئلة التي أصبحت الإجابة عليها من المسائل المُهمة التي تُحقق السلام لروحي.

«سميث؟» قالت شريكتي، «عجباً، ليس الجنرال جون أ. ب. س.؟ تلك مسألة فظيعة، أليس كذلك؟.. الألماس هو السبب، هل قلت ذلك؟.. أولئك التعساء المساكين من الكيكابو!.. نحن نلعب الورق، اسكتْ، لو سمحت، سيد تاتل.. ولكن، هذا عصر الاختراع، حتماً هو كذلك، في وسع المرء أن يقول.. عصر التفوق .. *par excellence* هل تتحدّث الفرنسية؟.. أوه، يا له من بطل.. مُتهور مثالي! ..لا قلوب، سيد تاتل؟ لا أصدق الأمر!.. سيبقى شهيراً خالداً إلى الأبد، وكل ذلك!.. أعجوبة الأعاجيب في البسالة! لم أسمع بشيء مثل ذلك!!.. عجباً، ليباركني الله، إنّه بطل...».

«مان؟ ..الكابتن مان؟» هُنا صاحت امرأة شابة كانت تتطفل من أقصى طرفٍ في الغرفة. «هل تتحدّثون عن الكابتن مان والمُبارزة؟.. أوه، يجب أن أسمع.. أرجوك أخبريني.. تابعي حديثك، سيدة أوترمب!.. أرجوك أن تستمري الآن!» وهكذا تابعت السيدة أوترمب كلامها.. وقالت كل شيء عن رجلٍ يُدعى الكابتن مان، الذي إمّا أن يكون تعرّض للقتل بالرصاص أو شُنق، أو ربما قتل برصاصة ثم شنق. نعم! السيدة أوترمب، تابعت الكلام، وأنا.. أنا غادرت المكان. لم تكن ثمّة فرصة للاستماع إلى شيء آخر في ذلك المساء فيما يتعلاّق بالجنرال الفخري جون أ. ب. س. سميث.

ومع ذلك عزّيت نفسي قائلاً: إن الحظ العاثر لن يقف في طريقي إلى الأبد، وعقدتُ العزم على القيام بمُحاولة جريئة للحصول على معلومات في حفلة تلك المرأة الشابة ذات الجمال الملائكي السمح، السيدة برويت.

«سميث؟» قالت السيدة ب. بينما كنّا ندور معاً في رقصة باليه تُحاكي النسيم العليل *pas de zephyr*، عجباً، لست تقصد الجنرال جون أ. ب. س.؟ تلك مسألة شنيعة، ما حدث مع بوغابو، أليس كذلك؟.. يا لهم من مخلوقات مُرعبة، هؤلاء الهنود! ..أرجوك أن تلفّ على أطراف أصابعك! أشعر حقّاً بالخجل منك.. رجلٌ [389]يتحلّى بالجسارة العظيمة، ويا له من بائس!.. ولكن هذا عصرٌ رائع للاختراعات.. أوه، يا إلهي، أكاد لا أتمكّن من التقاط أنفاسي.. يا له من مُتهور.. مُعجزة في الشجاعة والإقدام ..لم أسمع بمثله أبداً!!.. لا أصدق.. عليّ أن أنوّر بصيرتك.. سميث! عجباً، إنه بطل...».

«*مانفريد*، أقول لك!» هُنا صاحت الآنسة باس بلو، بينما كنت أرشد السيدة برويت إلى أحد المقاعد. «هل سمع أي شخص شيئاً من هذا؟ إنّه مانفريد، أقول، وليس مانفرايدي بأي حال من الأحوال». وهُنا أومأت لي الآنسة باسبلو في إشارة قاطعة؛ وكنت مُضطراً، شئت أم أبيت، أن أترك السيدة ب لتحسم مُجادلة بشأن عنوان مسرحية شعرية للورد بايرون. مع أنّي أوضحت، في صرامة بالغة، أنّ اللقب الحقيقي هو مان فرايدي، وليس بأي وسيلة مانفريد، ولكن حين عدت للبحث عن السيدة برويت لم أتمكّن من رؤيتها في أي مكان، وتركت المنزل وكنت أحس بالانزعاج المرير وروحي تُضمر الكراهية لكل من يحمل لقب باس بلو.

وصلت الأمور الآن إلى ذروتها، وقرّرت زيارة صديق مُحدّد في الحال، السيد ثيودور سينيفيت؛ لأنّي كنت أعلم أنّني هُنا على الأقل لا بُدّ أن أحصل على شيء يكاد يكون من المعلومات الموثقة.

«سميث؟» قال على طريقته المُعتادة في التشديد على مقاطع الكلام؛

«سميث؟.. عجباً، إنّك لا تقصد الجنرال جون أ. ب. س.؟ تلك المذبحة الوحشية التي حصلت لقبائل كيكابووو، أليس كذلك؟ انظر! ألا تتّفق معي في هذا؟.. متهـ...ور مثالي.. يدعو للإشفاق، أقسم بشرفي!.. إنه عصر الاختراعات الرائعة!.. مف...خرة في البسالة! ولكن بالمناسبة، هل سمعت أبداً عن الكابتن ماااان؟»..

«كابتن مان ما...ت!» قلت؛ «أرجوك أن تُتابع سرد قصتك».

«إحم!.. أوه حسناً!.. الأمر سيّان تماماً *la même cho-o-ose*، كما نقول في فرنسا. سميث، إيه؟ الجنرال جون أ. ب. س.؟ أقول...» (وهُنا تصوّر السيد س. أنّ من المُناسب أن يضع إصبعه على جانب فمه)... «أقول، لست تقصد أن تنكر الآن، حقّاً وصدقاً، وفي ضميرٍ حي، فتقول إنّك لا تعرف أي شيء عن تلك القضية التي تنسب إلى سميث، مثلما أنكر أنا، إيه؟ سميث؟ جون أ. ب. س؟ عجباً، ليباركني الله، إنه البط.. ط.. طل..»،

«سيد سينيفيت»، قلتُ مُتوسلاً، «هل هو رجل يختفي وراء قناع؟»،

«لاااا!» قال، وكان يبدو حكيماً، «ولا هو رجل من الق..م.. م.. مر».

اعتبرت هذا الرد إهانة مقصودة فعلاً، ولهذا غادرت المنزل في الحال وأنا في حالةٍ شديدة من الحنق، وقرّرت في صراحة أن أُحاسب صديقي السيد سينيفيت على تسرّعه وتصرّفه غير المهذّب وسوء أخلاقه.

لكن في هذه الأثناء، لم أكن أتصوّر أنّني كنت أبتعد كثيراً عن مسار [390]المعلومات التي رغبتُ في الحصول عليها. لم يبقَ لدي غير مصدر واحد الآن. سوف أذهب مُباشرة إلى الرأس المُدبّر. سوف أزور حالاً الجنرال نفسه، وأطلب إليه بكلمات واضحة أن يُقدم حلّاً لهذا اللغز البغيض. هُنا، على الأقل، لن يكون ثمّة مجال للمواربة. سأكون واضحاً، حازماً، كالسيف القاطع.. مُختصراً خفيفاً مثل قشرة الفطيرة *pie-crust* . . دقيقاً مثل تاكيتوس أو مونتسكيو.

كان الوقتُ مُبكراً حين ذهبت لزيارته، وكان الجنرال يستعد للخروج؛ ولكنّي توسلت قائلاً إنّ لدي مسألة عاجلة، واصطحبني فوراً إلى غرفةِ نومه خادمٌ زنجي عجوز، وبقي الخادم واقفاً أثناء زيارتي. لمّا دخلت الغرفة، نظرت حولي طبعاً، باحثاً عن الرجل الذي يُقيم هُنا، لكنّي لم أره مُباشرة. كانت هُناك كومة غريبة الشكل من شيءٍ لا أعرفه قرب قدمي على الأرضية، ولم يكن مزاجي رائقاً على الإطلاق، فركلت الكومة لأزيحها عن الطريق.

«إحم! إحم! ذلك سلوك مُهذب تماماً، لا بُدّ لي من القول!».

سمعتُ صوتاً من الكومة، من أخفض الأصوات وأكثرها إثارة للضحك، بين الصرير والصفير، لم أسمع مثله في حياتي.

«إحم! إنّها حركة مُهذبة، ينبغي ألا أنكر ذلك».

كدتُ أصرخ مذعوراً، وابتعدت نحو ركنٍ في أقصى الغرفة.

«ليباركني الله! يا رفيقي العزيز»، هُنا سمعتُ مرة أُخرى صوت صفير من الكومة، «ماذا.. ماذا.. ماذا.. لماذا، ما الأمر؟ أعتقد أنك لا تعرفني إطلاقاً».

ما الذي كان يُمكنني أن أقول ردّاً على كل هذا ..ماذا يُمكنني..؟ تقهقرتُ نحو كرسي ذي مساند، وعيناي تُحملقان وفمي فاغر، مُنتظراً حلّاً للأحجية العجيبة.

«غريبٌ أنّك لا تعرفني رغم كل شيء، أليس كذلك؟» الآن سمعت اصطكاك أسنان الرجل الغامض الذي أدركت أنّه الآن كان يؤدي، على أرضية الغرفة، بعض الحركات التي لم أعرف مغزاها، كأنه كان يسحب جورباً أو شيئاً من ذلك. لم تظهر إلا ساق واحدة.

«غريبٌ أنّك لا تعرفني، رغم كل شيء، أليس كذلك؟ بومباي، أحضر لي تلك الساق!» هُنا ناوله بومباي رزمة، فيها ساقٌ ضخمة من الفلّين، كانت تتكوّم عليها الثياب من قبل، وهي تُلفّ وتُربط بحبل؛ ثم رفعها أمام عيني.

«*كان* ذلك عملاً وحشياً»، تابع ذلك الشيء كلامه، كأنّه يُناجي نفسه؛ «حينئذ لا ينبغي للمرء أن يُقاتل البوغابو والكيكابو ويعتقد أنّه سوف يخرج وقد أُصيبَ بخدوش فقط. بومباي، سأكون مُمتناً لك الآن لو ناولتني تلك الذراع. توماس..» [391](واستدار لي) «من الأفضل لي حتماً أن أضع ساقاً من الفلين؛ إذا أردت ذراعاً في أي وقت، يا صديقي العزيز، عليك أن تسمح لي بإرشادك إلى محل بيشوب». وهُنا ثبّت له بومباي الذراع.

«على المرء أن يبذل جهداً مُضنياً، يُمكنك أن تقول هذا. والآن، أيّها الحقير، ناولني أكتافي والصدر! في محل بواتيه تُصنع أفضل الأكتاف، ولكن فيما يتعلّق بالصدر عليك الذهاب إلى محل دمرو».

«الصدر!» قلت.

«بومباي، ألن تهيئ تلك الباروكة؟ سلخ فروة الرأس عملية قاسية على أي حال؛ ولكن عندئذ يُمكنك شراء مثل هذه الشعيرات الشائكة من محل دولورميه».

«الشائكة!».

«والآن، أيّها الزنجي، ناولني أسناني! لأنّ من أراد طقماً مُمتازاً من هذه الأسنان ينبغي أن يذهب إلى محل بارلمي حالاً؛ أسعارهم مُرتفعة، ولكن عملهم مُمتاز. لقد ابتلعت بعض القطع الكبيرة، رغم ذلك، حين ضربني رجل ضخم من البوغابو بعقب بندقيته».

«عقب البندقية! أسقطك أرضاً!! عيني!!».

«أوه، نعم، بالمُناسبة، عيني.. إليك، بومباي، أيّها الوغد، لفها وأدخلها! أولئك الكيكابو لا يتورّعون حتى عن اقتلاع العيون؛ لكنّه كان مُخيباً للآمال، ذلك الدكتور وليمز، على كل حال؛ لا تتخيّل كيف أرى بالعيون التي صنعها لي».

بدأتُ الآن أُدرك بوضوح أنّ الشيء الذي أمامي لم يكن أكثر ولا أقلّ من الرجل الذي تعرّفت عليه مؤخراً، الجنرال الفخري جون أ. ب. س. سميث. لقد خلقت ألاعيب بومباي، عليّ أن أعترف، فارقاً مُذهلاً جدّاً في مظهره الشخصي. أما الصوت، فلا يزال لغزاً مُستعصياً بالنسبة لي؛ ولكن حتى هذا السر فيما يبدو كان يتفكّك سريعاً.

«بومباي، أنت أيّها النذل الأسود الوضيع»، أطلق الجنرال صريراً، «أعتقد حقّاً أنّك تتركني أذهب دون سقف حلقي».

وفي الحال، غمغم الزنجي مُعتذراً، وذهب إلى سيده، وفتح فمه وقد بدت عليه علامات درايةٍ يمتاز بها الحوذي، ووضع هُناك آلة غريبة المنظر بعض الشيء، بطريقة تدل على مهارة فائقة، لم أتمكّن أبداً من فهم مغزاها. إلّا أنّ التغير الذي طرأ على ملامح الجنرال كان فورياً على وجه العموم ومُثيراً

للاستغراب. عندما بدأ يتكلّم من جديد، استعاد صوته ثراءً في الشجن والقوة التي سبق أن لاحظتها لدى تعارفنا أول مرة.

«اللـعـ..نة على أولئك الصعاليك!» قال، وكانت نبرة صوته واضحة إلى درجة أنّني ذهلت فعلاً من التغير، «اللعـ.. نة على أولئك الصعاليك! لم يقتلعوا سقف حلقي فحسب، وإنّما تكبّدوا عناء قطع على الأقل سبعة أثمان لساني. ولكن لا [392]يوجد ما يُماثل الأشياء الموجودة في محل بونفانتيل، حتى في أمريكا، من الأدوات المُتقنة الصنع حقاً بمثل هذه المواصفات. يُمكنني أن أُوصيه بك خيراً في كل ثقة»، (هُنا انحنى الجنرال)، «أؤكد لك أنّني أجد متعة قصوى في هذا».

أعربتُ له عن امتناني على سماحة أخلاقه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، واستأذنت بالانصراف حالاً، وفهمت القضية الحقيقية تماماً.. واستوعبت كل الاستيعاب خفايا السر الذي طالما أزعجني. كان الأمر جلياً، والقضية واضحة الجوانب. الجنرال الفخري جون أ. ب. س. سميث هو البطل ..البطل الذي استُفد عن آخره.

محاورة أيروس وشارميون[1]

[393]سوف آتي اليك بالنار.

يوربيديس.. أندروماخ

أيروس : لماذا تُخاطبيني باسم أيروس؟

شارميون : من الآن سوف تحملين دائماً هذا الاسم، أيروس. عليك أن تنسي أيضاً اسمي الدنيوي، وتُخاطبيني على أنّي شارميون.

أيروس : هذا ليس حلماً من الأحلام حقّاً!.

شارميون : الأحلام لم تعُد تُراودنا الآن؛.. إلّا أنّ كلّ هذه الأسرار سوف تتكشّف عما قريب. إنّني مُبتهجة لأني أراك على حيويتك وحضور بديهتك. لقد أُزيحت الغشاوة الآن عن عينيك. فليكن قلبك جسوراً ولا تخشي شيئاً. أيام غيبوبتك انتهتْ، وغداً سوف أرشدك بنفسي إلى مباهج وأعاجيب حياتك الجديدة.

أيروس : صحيحٌ.. فأنا لم أعد أشعر بالغشاوة.. لا شيء من ذلك إطلاقاً. لم أعد أُعاني من المرض الفظيع والظلام المُرعب، لم أعد أسمع الآن ذلك الصوت المجنون، المُتهور، المُفزع، كأنّه «هدير الشلالات». لكن أحاسيسي لا تزال مُشوّشة، شارميون، من فرط إدراكها للوجود الجديد.

---

(1) شارميون وأيروس: اسمان لخادمتين في مسرحية شكسبير (أنطونيو وكليوباترا) ومسرحية درايدن (كل شيء من أجل الحب). [المترجم]

شارميون : لن تمضي إلا أيام قلائل ويزول كل هذا؛.. لكنّي أفهمك تماماً، وأشعر بما [394]تُعانين منه. الآن مضت عشرُ سنواتٍ أرضية منذ أن واجهتُ بنفسي ما تواجهينه أنت.. ولا تزال ذكرى ذلك ماثلة أمامي. لكنك تُعانين الآن من ألوان العذاب التي سوف ترينها في عدن.

أيروس : في عدن؟

شارميون : في عدن.

أيروس : يا إلهي!.. الرحمة، شارميون!.. لقد كابدتُ ما كابدت من هول الأشياء التي حدثت.. من المجهول الذي أصبح معروفاً الآن.. من المُستقبل المشكوك فيه الذي يختلط مع الحاضر المُتجسد في أُبهةٍ وجلاء.

شارميون : لا تهذري الآن بهذه الأفكار. غداً نتكلّم في هذا. لا تهذري الآن بهذه الأفكار. غداً سوف نتكلم في هذا. ذهنك مُرتبك، ولسوف تجدي راحة من هذا الاختلال العارض في بعض الذكريات. لا تنظري حولك، ولا إلى الأمام.. بل انظري إلى الوراء. إنّني أتحرّق شوقاً لسماع تفاصيل ذلك الحادث الذي جاء بك إلينا. أخبريني عنه. دعينا نتحاور في بعض الأشياء المألوفة، ونستعمل في هذا اللّغة القديمة التي تنتمي إلى العالم الذي انقرض على هذا النحو المُخيف.

أيروس : كم كان ذلك شيئاً مُخيفاً، مُخيفاً!.. هذا ليس حلماً من الأحلام حتماً.

شارميون : الأحلام لم يعد لها وجود الآن. هل انتحبوا عليّ كثيراً، يا صديقتي أيروس؟

أيروس : تقولين انتحبوا، شارميون؟ .. أوه، نحيباً عميقاً. حتى الساعة الأخيرة، بعد أن [395]انتهى كل شيء، كانت سحابة توحي بالكرب العظيم والحزن الذي يُخالطه الورع تجثم على منزلك.

شارميون : تلك الساعة الأخيرة.. حدثيني عنها. تذكّري، بصرف النظر عن حقيقة الكارثة نفسها، فأنا لا أعرف شيئاً آخر. لدى رحيلي عن بني البشر، مررتُ تحت جنح الليل في ظلمة القبر.. أثناء تلك المرحلة، إن كنتُ أتذكّر جيداً، لم تكن الفاجعة التي ألمّت بك مُتوقعة أبداً. ولكنّي، في حقيقة الأمر، أعرف القليل من فلسفة التأمل لهذا العصر.

ايروس : لم تكن الفاجعة مُتوقّعة على المُستوى الفردي أبداً، كما تقولين تماماً؛ إلّا أنّ أشياءً من قبيل سوء الطالع كانت منذ زمنٍ بعيد موضوعاً لنقاش الفلكيين. أكاد أواجه صعوبة في أن أُخبرك، يا صديقتي، بأنك حين تركتنا، كان لدى الناس رأيٌ مُتفق عليه في تفسير تلك القطع التي وردت في مُعظم الكتب المُقدسة، تلك النصوص التي تتحدّث عن الخراب النهائي لكل الأشياء بالحريق، على أنّ لذلك علاقة مع مدار الأرض وحده. ولكن فيما يتعلّق بالمصدر المُباشر للخراب، وقعت أخطاءٌ في توقّع الموعد المُحدد ضمن المعارف الفلكية التي تُرسلُ فيها المذنبات مصادر الذعر من اللهب الحارق. إنّ الكثافة المُتوازنة لمكوّنات هذه الأجسام هي من الأمور المعروفة جيداً. وقد لاحظ المُختصون أنّها تمرّ بين أقمار جوبيتر، دون أن يحصل أي تغيّر محسوس سواءً في كتل أو مدارات هذه الكواكب الثانوية. كنّا منذ فترة طويلة نعتبر هذه الأجسام الجوّالة مخلوقات خفيفة قوامها الأبخرة التي لا تُلحق ضرراً يُمكن تخيّله، وأنّها جميعاً غير قادرة أن تُلحق أي دمار مادي بكوكبنا الأرض، حتى في حالة التلامس المُباشر. على كل حال لم يكن الاصطدام يُشكّل مصدراً مُباشراً للخوف؛ لأنّ العناصر التي تتكوّن منها جميع المُذنبات معروفة بدقة. كانت ضرورة البحث في ذلك الوسط عن مصدر الدمار المُخيف تُعتبر، منذ سنوات طويلة، من الأفكار غير المسموح بتداولها. إلّا أنّ الأوهام الخُرافية عن الأعاجيب الخارقة لنواميس الطبيعة كانت في الأيام الغابرة مُنتشرة انتشاراً غريباً وسط

البشر؛ وعلى الرّغم من أنّ توجّسات حقيقية كانت سائدة في أوساط بعض الجاهلين ليس إلّا، فلدى إعلان الفلكيين عن اقتراب مذنبٍ جديد، تلقى الناس هذا التصريح على وجه الإجمال بشيء لا أعرف له نظيراً من القلق وسوء الظن.

لقد جرى حساب تأثيراتٍ مُحتملة لمدار الجسم الغريب على الفور، وحصل [396]إجماع فوري لدى جميع المُراقبين، على أنّ مساره باتّجاه الحضيض الشمسي من شأنه أن يؤدي به للاقتراب كثيراً من الأرض. وكان ثمّة اثنان أو ثلاثة من عُلماء الفلك، لا يحظون بالشهرة، أكّدوا رأيهم في أنّ الاصطدام واقعٌ لا محالة. لا أستطيع أن أصف لك وقع هذا الخبر على الناس. خلال أيام قليلة لم يصدق أحد هذا الخبر المؤكد الذي كانت عقولهم منذ زمن بعيد مُنشغلة عنه في اهتماماتٍ دنيوية، فلم يستوعبوه بأي شكل. ولكن سرعان ما جاءت حقيقة ذات أهمية حاسمة فاقتحمت مدارك أكثر الأشخاص تجبّراً وعناداً فقوّضتها على عروشها. وأخيراً رأى الناس جميعاً استحالة أن يحتمل الخبر الفلكي أي نوع من الكذب، وانتظروا على مضضٍ مجيء المذنب. لم يكن اقترابه سريعاً في بداية الأمر، فيما يظهر؛ ولا كان مظهره يتضمّن أي طبيعة غير اعتيادية. كان يُجرجر وراءه قافلة من الضوء الكالح الأحمر بالكاد يُمكن رؤيتها. طوال سبعة أو ثمانية أيام لم نكن نرى أي زيادة مادية في قطره الواضح للعيان، ولكن طرأ تغيرٌ تدريجي على لونه. في تلك الأثناء، تخلّى الناس عن مُزاولة أعمالهم اليومية وتركّزت كل الاهتمامات حول جدلٍ مُحتدم يُثيره المُتفلسفون فيما يتعلّق بطبيعة المُذنب. حتى أولئك الذين عُرفوا بالبلادة والجهالة تخلّوا عن كسلهم وفتور همّتهم ليتناولوا مثل تلك المسائل. صار المُتعلمون الآن يُقدمون آراءهم الفكرية.. يجودون بأرواحهم.. ولكنّهم لا يُقدّمونها في سبيل التخفيف من فزع الناس، أو لمُناصرة نظرية تفاؤلية لا تؤدي إلى تفاقم الإحباط. كانوا يسعون.. لاهثين لطرح وجهات نظر عقلانية. كانوا يرزحون تحت وطأة البحث عن معارف مثالية. وتجلّت الحقيقة ناصعة في صفائها ووضوح حجتها وجلالها المهيب، وانحنى الحكماء إجلالاً وقد طاش صوابهم.

صار الرأي القائل بأنّ الضرر المادي الذي سوف يلحق بكوكبنا الأرض أو بسكانها ناشئ عن الاصطدام المشؤوم الذي يُخشى منه يفقد أهميته بين ساعة وأُخرى وسط عقلاء القوم؛ وتصرّف هؤلاء الحكماء الآن على هواهم في التحكّم بعقول وأخيلة عموم الناس. ثمّ اتّضح أنّ كثافة نواة المُذنب أقلّ بكثير من نواة أكثر الغازات ندرة التي نعرفها؛ وجرى التأكيد بقوة على إمكانية العبور الآمن لأي مذنبٍ مُماثل بالقرب من أقمار جوبيتر، وساهمت هذه النقطة كثيراً في تخفيف حدة الذعر. وكان اللاهوتيون في نزعتهم التي لا تعرف الهزل نتيجة الخوف يلجؤون إلى تنبؤات من الإنجيل، فأخذوا يبسطونها على الملأ في حواراتٍ مُباشرة مُبسّطة يذكرون فيها أشياءً مجهولة لم يسبق أن وقعت. وانتشر رأيٌ مفاده أنّ الدمار النهائي للأرض لا بدّ أن يأتي بحريقٍ هائل، وفُرض هذا الرأي بروح جبارة تسعى إلى إقناع الناس به [397]في كل مكان؛ وقيل: إنّ المُذنبات ليست دائماً ذات طبيعة نارية (مثلما يعرف الجميع الآن) وهي حقيقة ساعدت في التخفيف من هواجس الناس إلى درجة كبيرة، وتخليصهم من فكرة الفاجعة العظيمة التي سبق التنبؤ بها. من الجدير بالانتباه أنّ الآراء المُنحازة لدى الجماهير والأخطاء المُنتشرة على نطاق واسع في أوساط العامة فيما يتعلّق بالأوبئة والحروب.. وهي من الأوهام التي من المُعتاد أن تسود لدى ظهور أيّ مذنب.. لم تكن معروفة الآن على الإطلاق. وكما لو أنّ الأمر حصل في طيشٍ مُفاجئ، فقد سارع العقل فوراً إلى نبذ الخُرافة وإسقاطها من عروشها، فاستمدّت أضعف العقول البسالة والإقدام من رصانة التفكير.

كانت أي شرورٍ عارضة قد تنشأ عن وقع الاصطدام من المسائل التي تخضع لنقاشات وتساؤلات موسّعة. وتحدّث المُتعلمون عن تقلباتٍ جيولوجية طفيفة، وعن تغيرات في المناخ من شأنها أن تؤثر حتى على النباتات، ولها ردود فعل مغناطيسية وكهربائية مُحتملة. وأصرّ كثيرٌ من الأشخاص على عدم وجود أي تأثير منظور قابل للإدراك يُمكن أن يحصل بأي وجه من الوجوه. وفي الوقت الذي كانت فيه مثل هذه النقاشات تمضي على قدمٍ وساق، كان مصدر إثارتها الحقيقي يزداد اقتراباً، ويتضاعف قطرُه المرئي، وتُصبح مظاهره أكثر تجلياً.

وصار البشر أكثر شحوباً بمرور الأيام كلّما اقترب. وتعطّلت النشاطات البشرية من غير استثناء.

ثم جاءت مرحلة تغيّر فيها مزاجُ الناس حين اكتسب المُذنب في نهاية المطاف حجماً تخطّى حجم أي زائر سبق أن تمّ تدوين معلومات عنه. وتجرّد الناس الآن من كلّ بارقة للأمل في قلوبهم بأن يُخطئ الفلكيون، وجرّبوا كل ما عسى أن يمنحهم اليقين من الأفكار عن الشر المُحقق. تلاشت الطبيعة الوهمية للرعب الذي أصابهم. وبدأت القلوب الأكثر بسالة وقوة في عنصرنا البشري تختلج اختلاجاً عنيفاً في الصدور. وكانت بضعة أيام كافية لأن تمزج هذه المشاعر مع تخيّلات غير قابلة للتصديق. لم نعد نُطبّق على المدار الغريب أي نظريات أو آراء مُسبقة. تلاشت خصائصه التاريخية. صار يقمع أفكارنا بنمطٍ جديد من التحركات الشنيعة. لم نعُد ننظر إليه كظاهرة فلكية في السماء، ولكن بدأنا نعتبره كابوساً أبدياً جاثماً على قلوبنا، وظلّاً قاتماً على أدمغتنا. اكتسب في زخمٍ سريع لا يُمكن تصوّره هيئة سحابة هائلة لا مثيل لها من اللهب، تمتد من الأُفقِ إلى الأُفق.

وجاء يومٌ تنفّس فيه الناسُ الصعداء في حرية أكبر. كان ممّا لا شكّ فيه أنّنا أصبحنا الآن خاضعين للتأثير الماحق للمُذنب؛ لكنّنا عشنا. كنّا نحس أيضاً بمُرونة غير عادية في أبداننا وحيوية في عقولنا. كان التحوّل المُتزايد لمصدر ذعرنا يبدو واضحاً أكثر فأكثر؛ لأنّ الأجرام السماوية كلها كانت تعكس أشعته. في هذه الأثناء، تغيّر الغطاء الأخضر من النباتات على نحو ملموس؛ وتضاعفت ثقتنا، عبر هذه المُلابسات التي أصبحت مُتوقعة، في بصيرة الحكماء. وظهر تباينٌ مُفرط في غرابته، غير معروف من قبل، على أوراق النباتات وكل شيء أخضر.

وجاء يومٌ آخر.. ولم يلحق بنا الدمارُ بعد. ظهر لنا الآن أنّ بؤرة الشر سوف تصل إلينا قبل كل شيء. [398]تقلبت أمزجة الناس على نحو مُريع؛ كان أول إحساس بالألم يُعطي علامة فاضحة على قرب النواح الشامل والكرب المُريع. هذا الإحساس الأولي بالألم تجلّى في انقباضٍ حارقٍ في الصدر والرئتين، وجفاف لا يُطاق في الجلد. لم يعُد في وسع أحد إنكار ظاهرة تلوث

أجواء الأرض تلوّثاً شاملاً؛ أصبحت مواجهة هذه الأجواء وتقلّباتها الوشيكة التي تحدث الآن موضوعات ثابتة للنقاش. وكانت نتيجة الاستقصاءات تبعث رعدة كهربائية أبشع من ضروب الفزع التي عهدتها قلوب الناس.

كنّا نعرف منذ زمنٍ طويل أنّ الغلاف الجوي الذي يُحيط بنا هو مزيجٌ من غازات الأوكسجين والنتروجين، بنسبة واحد وعشرين بالمائة من الأوكسجين، إلى تسعة وسبعين بالمائة من النتروجين ضمن مُجمل مُكونات الغلاف الجوي. ويُشكل الأوكسجين المصدر الأساسي للاحتراق، والوسط الناقل للحرارة، ويُعتبر ضرورياً حتماً لديمومة حياة الكائنات الحية، والعنصر الأكثر حيوية في الطبيعة. أما النتروجين، على عكس هذا، فهو يكاد يكون عديم النفع لحياة الكائنات الحية أو في توليد اللهب. إنّ أي زيادة غير طبيعية في الأوكسجين من شأنها أن تؤدي، كما تحقّق فعلاً، إلى مثل هذا التصاعد في الروح الحيوانية كما سبق أن جربنا مؤخراً. هذه الرعونة التي صرنا نُمارسها، إذا توسعنا في الفكرة، هي التي عرضتنا لمخاطر الفجيعة. ما النتيجة التي تترتّب على تقلّصٍ هائل في حجم النتروجين؟ احتراق لا سبيل لمُقاومته، حرائق تلتهم الأخضر واليابس، تُهيمن على كل شيء وتُنذر بالشؤم؛.. وبذلك تتحقق ضروبُ الدمار، في تفاصيلها المُرعبة ومظاهرها المُخيفة، وبذلك تتحقّق نبوءات الكتاب المُقدس.

هل احتاج يا شارميون إلى تصوير المارد المجنون وقد تحرّر من قيوده وجاء ليُدمّر البشرية الآن؟ ذلك التحول الذي أصاب المُذنب الذي طالما كان يُلهمنا الأمل في العهود الغابرة، أصبح الآن مصدراً مريراً للشؤم والقنوط. في طبيعته الغازية التي لا تُدركها الأبصار كنا نرى اقتراب القدر المحتوم. ثم جاء يومٌ جديد.. يحمل آخر بارقة للأمل. كنّا نلهث لالتقاط أنفاسنا وسط التحوّل المُريع في طبيعة الهواء. كادت الدماء تتفجّر لتخرج من أوعيتها. استولى على الناس اضطرابٌ وعمّ الهذيان؛ وامتدّت الأذرع في مُثابرةٍ وإخلاص نحو سماواتٍ مُهددة مُتوعدة، وكان الناس يرتجفون ويصرخون عالياً. لكن بؤرة المُذنب المُدمر جثمت الآن فوق رؤوسنا.. حتى هُنا في عدن تريني أرتعش أثناء كلامي. دعيني أوجز.. أختصر مثل الدمار المُختصر الذي أحدق بكل شيء. في لحظةٍ من

الزمن، بزغ ضوءٌ وهاج كالنار ليس إلّا، اخترق كل شيء. ثم.. دعينا نحني رؤوسنا إجلالاً، شارميون، أمام [399]جلال الرب العظيم!.. ثم، جاء عويلٌ وصراخ تغلغل في القلوب، كأنّه آتٍ من فمه جلّ جلاله؛ بينما تفجّرت كتلة الأثير التي تطوق وجودنا على الفور وتناثرت قطعٌ كثيفة من اللهب، لا أحد يعرف وصفاً لتألّقها واتّقاد حرارتها، حتى الملائكة في السماوات العلى.. وهكذا انتهى كل شيء.

وليم ولسون

ما رأيك بهذا؟ ماذا تقول عن الضمير المُتجهّم،

ذلك الطيف الذي يعترض طريقي؟

تشامبرلين (فارونيدا)

دعوني أُسمّي نفسي، في الوقت الراهن، وليم ولسون. الصفحة الناصعة [400]البياض التي تنبسط أمامي الآن ليست في حاجة لأن يُلطخها اسمي الحقيقي. قبل الآن كان هذا مبعثاً لما يكفي من الاستهزاء.. مصدراً للفزع.. للكراهية ضد بني جنسي. إلى أقاصي الأرض ألم تحمل رياحُ السخط عاراً لا يُضاهى؟ أوه، أنت يا منبوذ المنبوذين الذي هجره الناس دون غيره!.. في التراب، ألم تقبر أحلامك إلى الأبد؟ ألم ترجع إلى سموّ هذه الأرض، وتستنشق رحيق أزهارها، وتتلذذ بأنفاسها الذهبية؟.. وسحابة كثيفة تقبض الصدور، لا حدود لها، ألا تتعلّق إلى الأبد بين آمالك والسماء؟

لن أُسجّل، ما استطعت، هُنا، أو اليوم، بياناً عن سنواتي الأخيرة التي عانيت فيها بؤساً لا يُمكنني البوح بأسراره، واقترفتُ فيها جريمة لا تغتفر. هذه المرحلة.. تلك السنوات الأخيرة.. اكتسبت في ذاتها تصاعداً فوضوياً في فساد أخلاقي، ويتحتّم عليّ وحدي تحديد كُنهه. الناس عادة يتقلّبون في الوضاعة على درجات. في لحظةٍ من اللحظات أُزيحتْ عني كل الفضائل مثل العباءة. من الرذائل التافهة نسبياً كنت أعبر، في خطواتٍ عملاقة، إلى أشياء أكثر فظاعة ممّا

اقترفته يد إيلاه غابالوس[1]. أي قدر.. أي حادثة شنيعة جاءت بهذا الشرّ الماحق، وجعلته يُرافقني كظلي أثناء سردي لهذه الحكاية. الموتُ يقترب؛ والظلُّ الذي يعدو أمامه يُلقي تأثيراً ملطفاً على روحي. كم أشعر بالاشتياق، وأنا أجتاز الوادي المُعتم، إلى من يتعاطف معي!.. كنت على وشك أن أقول، إلى الإشفاق.. من أشخاصٍ يعيشون معي. أشعر بالغبطة لأن أجعلهم يعتقدون أنّني أضحيت أشبه بالعبد لصروفِ القدر والنائبات التي تفوق طاقات البشر. أودّ منهم التقصّي عني، بين ثنايا التفاصيل التي على وشك أن تُسرد، فهي واحة صغيرة تركها القضاء المحتوم وسط قفار الخطايا. أود منهم أن يروا.. ما لا يستطيعون الإحجام عن رؤيته.. أنّ الإنسان، على الرغم من الإغواء الذي يُداعب خياله الآن، لم يسبق له أبداً أن تعرّض للإغواء هكذا على الأقل.. يقيناً، لم [401]يسبق له أن سقط هكذا. ولهذا فهو لم يعرف مثيلاً لهذه المُعاناة؟ هل كنت أعيش حلماً في الواقع؟ ألست الآن ألقى حتفي ضحية للذعر وللسرّ الأكثر عنفاً من الرؤى الدنيوية قاطبة؟

أنتمي إلى عنصرٍ من البشر طبعُه الإيغال في متاهات الخيال ومزاجه الذي من اليسير تعكيره يجعل في كل الأوقات تلك الأوهام من الأشياء المُميّزة لشخصيتي؛ منذ مراحل طفولتي المُبكرة، أثبتّ أنني ورثت عن جدارة طبعَ العائلة. وحين تقدّمت بي سنوات العمر تطوّر ذلك المزاج واكتسب قوة أكبر؛ وبعود ذلك إلى كثير من الأسباب، حتى صرتُ أثير توجساتٍ خطيرة لدى أصدقائي، وكنتُ غرضاً للأذى الفعلي لنفسي. كنت بمرور الزمن أتشبث برأيي الذي لا يقبل الجدال، أدمنُ أعنف النزوات، أصبحت فريسة لانفعالات لا تخضع مُطلقاً للسيطرة. عقلي ضعيف، تُزعجني قلاقلُ شاذة ترتبط بشخصيتي، ولم يكن والدي يعمل إلا الشيء القليل للتقصّي عن حقيقة تلك النزوات الشريرة التي عُرفت عني. وأسفرتْ بعض الجهود الضعيفة غير الموجهة توجيهاً صحيحاً عن فشلٍ مُريع من جانبهم، وبطبيعة الحال، أدّت إلى نصر مؤزر لي. منذ ذلك

الوقت كان صوتي في المنزل قانوناً لا يقبل المُناقشة؛ وفي السن التي توضع فيها على الأطفال قيودٌ توجّههم، تركتُ أنا لترشدني إرادتي الخاصة، وأصبحت، في كل شيءٍ باستثناء اسمي، سيداً لتصرفاتي.

ترتبط ذكرياتي المُبكرة عن حياة الدراسة بقصر فخمٍ مُثقل بالأحزان، بُني على الطراز الإليزابيثي، يقع في إحدى القرى الهائمة في ضباب إنكلترا، حيث هُناك غابة أشجار عملاقة مُتشابكة الأغصان، والمنازل كلّها موغلة في القدم. في حقيقة الأمر، كان المكان بطبيعته يُشبه ما نراه في الأحلام، والقرية القديمة الوقورة تُهدئ النفوس الحزينة الحائرة. حتى هذه اللحظة، في خيالاتي أشعر بوخزة بردٍ مُنعشة تسري في جسدي وأنا أتذكّر المشي على ممرّاتها المغمورة بالظلال حتى الأعماق، أستنشق أريج الآلاف من شجيراتها، وتغمرني من جديد رعشة حبور لا توصف، حين أسمع النغم العميق الأجوف لجرس الكنيسة وهو يدقّ في كل ساعة مُخترقاً السكون بدمدمة مُتجهمة مُباغتة، فيُبدد السكون المُخيم على أكاليل الغسق، تلك التي تتوّج البرج القوطي المُزخرف وتدثره في غفوته.

ربّما منحني ذلك كثيراً من المُتعة بمقدار ما يُمكنني الآن الإحساس به على نحو أو آخر أن أحاول استرجاع ذكرياتٍ مُحددة عن أيام المدرسة وما إلى ذلك. بما أنّي أغرق في البؤس.. البؤس، يا للحسرة! بؤسٌ حقيقي ليس إلّا.. سوف يعذرني المُتلقي حين أسعى إلى شيءٍ من الراحة، مهما كان طفيفاً ومؤقتاً، من خلال تلمّس بعض التفاصيل التي تطوف واهنة في ذهني. على أنّ هذه التفاصيل، وإن كانت تافهة، أو سخيفة بعينها، تكتسب في مُخيلتي أهمية طارئة، لأنّها ترتبط مع حقبة من الزمن ومكانٍ أدركت فيه أول إحساسٍ باطني مُبهم كان من الكثافة والعمق أن غمرتني ظلاله كلياً فيما بعد. دعوني إذن أسرح في الذكريات.

المنزل، كما قلت، قديمٌ مُستهجن المنظر. الأسس التي يقوم عليها هائلة [402]ومُستهجنة أيضاً في ضخامتها، ويرتفع جدارٌ شاهق من القرميد الصلب، تعلوه منصة مدفع وزجاج مكسور على نوافذ تطوّق المنزل كله. هذا المنزل كأنّه سجن حصين يؤشر حدود منطقتنا؛ وراء تلك الحدود لم نكن لنخرج إلا ثلاث مرات في كل أُسبوع.. مرة بعد ظهيرة يوم السبت، حينها يرافقنا اثنان من الخدم،

فيُسمح لنا بالتجوال مسافات قصيرة في عربة عبر الحقول المُجاورة.. ومرتين خلال أيام الآحاد، حيث يمضي موكبنا الطريقة الرسمية نفسها لأداء طقوس الصباح والمساء في إحدى كنائس القرية. أحد قساوسة هذه الكنيسة هو مدير مدرستنا. كنت مُعتاداً أن أنظر إليه بروح تطفح بالدهشة من مقعدنا الخشبي البعيد في بهو الكنيسة، بينما هو يمضي بخطواته الوقورة البطيئة، ليرتقي المنبر! هذا الرجل المُبجل، بقسماته التي توحي بالرأفة مع رزانةٍ واحتشام، في ثوبه الكهنوتي الناعم الذي يترقرق في عذوبة، في باروكته التي عليها مسحوقٌ دقيق، كم هو ثابت الخطوة في حركات جسده الهائل.. أيُمكن أن يكون هو، بطلعته البغيضة، وثيابه التي تعبق بالنشوق، وعصا التأديب في يده، الذي قدّم في وقتٍ سابق قوانين دراكونيان للأكاديمية[2]؟ أوه، يا له من تناقضٍ هائل، شيء فظيع يأبى الحل!.

عند ركن من الجدار هُناك بوابة عبوسة منظرها أكثر إثارة للضجر. تتوزّع على واجهتها رتاجات مُثبتة بمسامير حديدية كبيرة، تُعزّزها قضبان حديدية مُحزّزة. أي إيحاءات من الأسى العميق تُثير في النفس! لم تكن البوابة لتفتح إلا في ثلاث مُناسبات للدخول والخروج، تلك التي ذكرتها سابقاً؛ في تلك الأوقات، بالتزامن مع صرير مفاصلها الضخمة، كنا نكتشف وفرة من الأسرار.. نكتشف عالماً ومادة تُصلح للتداول، أو للتأمل الوقور.

لم تكن الأجزاء الداخلية للمبنى مُنتظمة في أشكالها، ففيها تعرّجات وارتدادات ومساحات فارغة واسعة. تتشكّل من هذه المساحات، ثلاث أو أربع قطعاً كبيرة منها، ساحة للعب. أرض الساحة مُستوية تُغطيها طبقة خفيفة من الحصى الصلب. أتذكّر جيداً أنّها كانت خالية من الأشجار، ومن المصاطب الخشبية، ومن أي شيء مُماثل يُجاورها. تقع الساحة طبعاً خلف المنزل. وتواجهها حديقة ذات ممرّاتٍ مُتشعّبة تفصل بينها أحواضٌ زُرعت فيها شجيرات

(2) دراكونيان: نسبة إلى دراكو الأثيني، 624 ق. م، اشتهر بفرض عقوبات قاسية للتأديب تصل إلى الموت. [المترجم]

وما إلى ذلك؛ لم يكن يُسمح لنا باجتياز هذا الحاجز إلا في مُناسبات نادرة.. على سبيل المثال في أول يوم نلتحق فيه بالمدرسة أو اليوم الأخير لمُغادرتنا لها، أو ربّما، حين يصيح لنا أحد أبوينا أو صديق، حينها نسلك طريقنا في مرحٍ إلى المنزل للاحتفال بعيد الميلاد أو عطلة مُنتصف الصيف.

ولكن ماذا عن المنزل!.. يا لهذا المبنى الساحر الموغل في القدم!.. كم يبدو في نظري قصراً تُحيط به هالة من السحر! لا نهاية لممرّاته المُلتوية.. أو لأجزائه الفرعية المُبهمة. كان من العسير، في أي وقت من الأوقات، أن يعرف المرء على [403]وجه اليقين في أي طابق من طابقيه يجد نفسه. ابتداءً من أي غرفة إلى غرفة أخرى من المؤكد أن يجد المرء ثلاث أو أربع درجات صاعدة أو نازلة. وهُناك تفرّعات جانبية لا تُعد ولا تُحصى.. لا تُعرف لها بداية ولا نهاية.. تلف وتدور حول نفسها، بحيث لا تختلف أي أفكار مؤكدة عن مسالك المنزل كثيراً عن فكرتنا بشأن لامحدودية الكون. خلال خمس سنوات أقمت فيها هُنا، لم أتمكّن مُطلقاً من التوصّل إلى حكمٍ دقيق، في أي موقعٍ من المواقع النائية توجد الحُجرة التي أنام فيها مع قرابة ثمانية عشر أو عشرين من الطلاب الآخرين.

غرفة الدرس هي الأوسع في القصر.. وكنت أظنها أوسع غرفة في العالم. إنّها طويلة جدّاً، وضيقة، وسقفها منخفض على نحو يقبض الصدر، نوافذها مُثلثة من الأعلى على الطراز القوطي وسقفها من خشب السنديان. في ركن بعيدٍ مُثير للرعب يوجد تجويفٌ مُربع مساحته ثمانية أو عشرة أقدام يُمثل الحرم، أو المكان الشخصي الذي يقضي فيه مدير مدرستنا، الدكتور المُوقر برانسبي، «فترات الفرص» بين ساعات الدرس. ذلك الحيز صلبُ البناء، له باب ضخم، فإذا ما حدث أن فتح احدٌ الباب في غياب «السلطان» عندئذ نتعرّض جميعاً إلى عقوبات شديدة قاسية *peine forte et dure* في الحال. في أطرافٍ أُخرى هُناك حجرات مُشابهة، أقلّ هيبة بكثير، في الواقع، ومع ذلك فهي تُشكّل موضوعات عظيمة للحسرة. في أحد هذه الأماكن يقبع منبر المُرشد الذي يُدرّس «الآداب الكلاسيكية»، وآخر لصاحب دروس «الإنكليزي والرياضيات». وتتوزّع في أرجاء

الغرفة، تعبرها وتُعيد عبورها على غير انتظام مصاطب لا تُعد ولا تُحصى وطاولات سوداء قديمة أخذ منها الدهر كلّ مأخذ، تتكدّس عليها في شكلٍ يبعث الأسى كميات هائلة من الكتب، أغلفتها مُزخرفة بحروفٍ من أوائل الكلمات، وبأسماء كاملة، وأشكال ضخمة، وغير ذلك من جهود فنية مُكثّفة من عمل الإزميل، بحيث إنها فقدتْ ما تبقّى من صورها الأصلية التي كانت عليها في العهود الغابرة. وهُناك سطل مملوء بالماء في طرفٍ من الغرفة، وساعة ذات أبعاد عجيبة في الطرف الآخر.

بين أكناف الجدران الهائلة لهذه الأكاديمية المُهيبة أمضيتُ خمس سنوات من حياتي بعد أن بلغت العاشرة، ولم تمضِ كلّها في حالةٍ من الاشمئزاز أو الضجر. لا يتطلّب العقل الصاخب للطفولة عالماً خارجياً صاخباً بالحوادث ليُشغله أو يُبهجه؛ والرتابة الكئيبة للمدرسة كانت فيما يبدو مُتخمة بالإثارة المُكثفة على نحو أكبر ممّا يستمدّه شبابي اليافع من الترف، أو تستمدّه رجولتي من الهوس بالجريمة. ولكن لا بُدّ من الاعتراف بأنّ أُولى تطورات عقلي كان يشوبها كثيرٌ من الأشياء غير المألوفة.. بل حتى كثير من الشذوذ. من النادر أن تترك حوادث الحياة المُبكرة على البشر عموماً حين يصلون إلى سن النضج أي انطباع ثابت. كلّ شيء يغدو كالظل [404]الكالح.. وتتبقّى ذكرى باهتة غير مُستقرّة.. أو إعادة تجميعٍ مُبهم للمباهج الواهنة والآلام الفنطازية. قدر تعلّق الأمر بي فهذا غير صحيح. في طفولتي كنت أحس حتماً بالطاقة التي يستشعرها أي رجلٌ ناضج، ما أجده الآن مطبوعاً على ذاكرتي خطوط تُماثل في حيويتها، وعمقها، ومتانتها ميداليات قرطاجة في تألقها وانبعاثاتها.

لكن في حقيقة الأمر.. أو بمُقتضى الحقيقة الماثلة في نظر العالم.. كم هي قليلة تلك الأشياء التي تبقى للذكرى! الاستيقاظ صباحاً، التجمع ليلاً للذهاب إلى السرير؛ استظهار الواجبات عن ظهر قلب، التلاوات؛ عطل نصف السَّنة، النزهات على الأقدام؛ ساحة اللعب، بما يحصل فيها من مُشاجرات، وتسليات، ومكائد.. كل هذه الأشياء، من خلال شعوذة أو خُرافة عقلية طواها النسيان منذ زمن بعيد، شاء لها القدر أن تتضمّن خواءً في الأحاسيس، تنطوي على عالم زاخرٍ

بالحوادث، كيان من العواطف المُتباينة، انبهار وإثارة لانفعالات الروح .«أوه، كم كان زمناً جميلاً، عصر الحديد!»[3] Oh, le bon temps, que ce siecle de fer.

في حقيقة الأمر، كلّ الأحاسيس الجياشة، والحماس، وغليان طبعي ونزواتي، سرعان ما أضفت عليّ شخصية مُختلفة تماماً وسط زملائي في الدراسة، وشيئاً فشيئاً، على درجات طبيعية، مُنحني ذلك تفوّقاً على كافة رفاقي الذين ليسوا أكبر كثيراً منّي في السن؛ تفوّقتُ على الجميع باستثناء واحدٍ منهم. هذا الاستثناء تمثّل في أحد الدارسين، مع أنّه لا تربطني به أي علاقة قُربى، إلّا أنّه يحمل اسمي الأول نفسه واللقب؛ وتلك من المُفارقات، في الواقع، التي قد لا تُثير الاهتمام؛ لأنّ، بصرف النظر عن الانتماء إلى أصلٍ نبيل، فإنّ اسمي من الأسماء المُتداولة يومياً ويبدو أنّها صارت، من خلال حقٍّ مُكتسب، منذ حقبٍ لا يتذكرها العقل، من المُمتلكات المألوفة للغوغاء. وهكذا اتفقنا، في هذا السرد الذي أُقدمه، على أنّ اسمي وليم ولسون.. وهو اسمٌ ربّما كان مُستمداً من وحي خيالي القصصي ولا يمتّ إلى الحقيقة بأدنى صلة؛ فالشخص الذي يحمل اسمي، من بين هؤلاء الذين نُسميهم في مُفردات لُغة المدارس أحد أفراد «جماعتنا»، يفترض أنّه كان يتنافس معي دون غيره في النشاطات الصفية.. وفي الألعاب الرياضية وفي المُشاحنات التي تدور في ساحة اللعب.. ويرفض دائماً الاعتقاد الضمني في قناعاتي، والخضوع إلى إرادتي.. في الواقع، كان يتدخّل في إملاءاتي الاعتباطية في أي شأن. إذا كان على الأرض حكمٌ استبدادي يمارس سطوته عن غير جدارة، فهو حكم عقلٍ مُتفوّق، السيد وحده، لشخصٍ ما زال في مرحلة الصبا، وهو يُمارس تجبره على النفوس الضعيفة الأقل جدارة لرفاقه.

كان تمرّد ولسون بالنسبة لي مصدراً لأقصى درجات الإحراج؛ بل الأمر يتجاوز ذلك، لأنّ على الرغم من الشجاعة الزائفة التي كنت أحاول التعبير بها عن نفسي أثناء تعاملي مع افتراءاته، إلا أنّني نادراً ما كنت أحس بالخوف منه، ولم أستطع منع نفسي من التفكير في أنّ التماثل المُطلق الذي يحرص على

(3) الاقتباس من أحد أعمال فولتير (الاجتماعي) Le Mondain [المترجم]

إظهاره ويبديه بسهولة بإزاء شخصيتي، هو دليل على تفوّقه الحقيقي.. حتى هذا التماثل.. لم يكن ليعترف به أحد غيري؛ يبدو أنّ زملاءنا، في حالةٍ من العمى غير المُبرر، لم [405]يكونوا يشكون بأمره. في الواقع، كانت مُنافسته لي، مُقاومته، وتدخّلاته الوقحة في عنادٍ وإصرار في شؤوني على وجه التحديد، لا تمتاز بالصلافة الحادة إلا من حيث توجهها نحو الأمور الشخصية. ويبدو كذلك أنّه كان يفتقر على السواء إلى وسائل تحقيق الطموح الذي يُلح عليه، وإلى طاقة الانفعال الذهني التي جعلتني أتغلب عليه. في تنافسه معي ربما افترض الآخرون أنّ صديقي تدفعه نزوة مزاجية ليس إلا لمُعارضتي وإثارة دهشتي، أو حتى قتلي؛ على الرغم من أنّ هُناك أوقاتاً لم أفشل فيها بأن ألاحظ، في مشاعر تغمرها الدهشة، والاحتقار، والاستياء، أنّه كان يمزج في ضروب الأذى التي يلحقها بي، وإهاناته، أو تناقضاته، نوعاً غير مُناسب، وغير مُرحّب به حتماً، من التعاطف الوجداني الحاني في السلوك. كان في وسعي فقط أن أتلمّس هذا السلوك الغريب وهو يظهر نتيجة لمُحاولة طاغية لخداع الذات تكتسب مظاهر مُصطنعة لتقديم يد العون والحماية.

ربما كانت هذه النزعة الأخيرة في تصرّفات ولسون، إلى جانب التشابه في أسمائنا، والمُصادفة الفريدة لانتمائنا إلى المدرسة نفسها والتحاقنا بها في اليوم نفسه، هي التي دفعت إحدى أفكاري لتطفو على السطح وهي أنّنا ربّما كنّا أخوين، وندرس في الصفوف المُتقدمة للأكاديمية. فهؤلاء الطلاب لا يحفلون كثيراً بأمور غيرهم ممّن هم في الصفوف الدنيا. لقد قلت قبل الآن، أو كان ينبغي أن أقول، إن ولسون لم يكن، على أقل تقدير، مُرتبطاً مع عائلتي بأي رابطة قُربى مهما كانت بعيدة. ولكن من المؤكد أنّنا لو كنّا أخوين فلا بُدّ أنّنا توأم؛ لأنّي بعد أن غادرت منزل الدكتور برانسبي، علمت مُصادفة أنّ شريكي في الاسم ولد في اليوم التاسع عشر من كانون الثاني، 1813.. وهذه مُصادفة جديرة بالاهتمام إلى حدٍّ ما؛ لأنّ هذا هو تاريخ ميلادي نفسه.

ربّما كان يبدو غريباً، على الرغم من المُضايقات المُستمرة التي سبّبها تنافس ولسون معي، وروح التناقض التي لا تُطاق مع شخصيتي، أنّني لم أتمكّن

من دفع نفسي إلى كراهيته على الإطلاق. كان لنا، إذا توخينا الدقّة، تقريباً في كلّ يوم شجار يُسفر عن تغلّبي عليه على الملأ، فيجعلني بوجه من الوجوه أشعر بأنّه هو الذي يستحق النصر؛ ولكن يبقى إحساس بالافتخار من جانبي، وإحساس بالكرامة الحقيقية من جانبه، تجعلنا دائماً نحافظ على ما يُسمى «شروط اللياقة في تبادل التحية»، في الوقت الذي تعمل فيه كثيرٌ من نقاط التقارب القوي في طباعنا على أن توقظ في نفسي عاطفة تجذبني إليه، كان موقفنا المُتناقض وحده، ربّما، يمنعها من النضج حتى تتحوّل إلى صداقة. من الصعوبة بمكان، في الواقع، تعريف، أو حتى وصف، مشاعري الحقيقية تجاهه. تلك المشاعر خليط غير مُتجانس الخواص؛ هناك نوع من العداء المُستفحل، لم يصل بعد إلى مُستوى الكراهية، نوع من التقدير، وشيء أكثر قليلاً من الاحترام، وشيء كثير من الخوف، وعالم من الفضول لا يُستهان به. بالنسبة إلى من يهتم بالأمور الأخلاقية، فمن نافلة القول فضلاً عن هذا، إنّ ولسون وأنا كنّا أكثر من صديقين لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر.

[406] لا شكّ أنّ العلاقة الشاذة التي سادت بيننا، والتي حوّلت كل هجماتي عليه، (وهي كثيرة، سواءً صريحة أو مُبطّنة) إلى مصدرٍ للتهريج أو المزاح الفعلي (فكانت تلحق الأذى الذي يختلط بالمرح ليس إلّا) بدلاً من أن تكون عدوانية أشدّ شراسة. إلّا أنّ مناوراتي في هذا الاتّجاه لم تكن ناجحة بانتظام، حتى عندما أضع خططي بأقصى من يُمكن من الدهاء؛ لأنّ شريكي في الاسم كان في شخصيته الكثير من التّزمت الصامت المُتواضع، غير الرادع، وفي الوقت الذي كان يستمتع فيه بالنكات المُكدرة، فليس لديه كعب أخيل[4] بعينه، وحتماً كان يأبى أن يُصبح موضعاً للسخرية. كان في وسعي، في الواقع، إيجاد نقطة ضعفٍ واحدة فقط، وهي تكْمن في خاصية غريبة على المُستوى الشخصي،

(4) كعب أخيل: في الميثولوجيا الإغريقية قامت ثايتيس بغطس ابنها أخيل في نهر ستايكس لكي تجعله من الخالدين، وحملته من رجل واحدة. ولم تكن تلك الرجل محمية عندما لم يمسها الماء. وقتله باريس في حرب طروادة بأن رماه بسهم فأصاب كاحله. [المترجم]

ربما نشأت عن مرضٍ عضوي، كان يُمكن أن تبقى خافية على أي خصمٍ أقل حكمة مني؛ كان لمُنافسي نقطة ضعف في النطق أو الحلقوم، وذلك يحولُ بينه وبين أن يرفع صوته في أي وقت ليتخطّى الهمس المُنخفض جدّاً. ولم أفشل في استغلال هذا العيب بكل ما أُتيح لي من قُدرات مهما كانت ضعيفة.

كانت علاقات ولسون واسعة ومُتشعبة؛ هناك شكلٌ واحد من مظاهر حكمته المزعومة أزعجني إلى أقصى الحدود. كيف اكتشفت فطنته لأول مرة، ذلك الشيء الجميل البغيض الذي يُزعجني ويُثيرني، تلك مسألة لن أتمكّن من حلّها؛ ولكن بعد اكتشافها، صار يُمارس مُضايقاته معي على نحو مألوف. كنت أحس دائماً بالبغض الشديد لشريكي في الاسم الكامل، الذي يتصرّف دون لياقة، بما في ذلك اسمي الأول الشائع جدّاً، إن لم يكن مُبتذلاً. كانت الكلمات ترنّ في أُذني ومذاقها كالعلقم؛ في يوم وصولي نفسه، وصل شخصٌ آخر يُدعى وليم ولسون أيضاً إلى الأكاديمية، عندها أحسست بالغضب منه لأنّه يحمل الاسم نفسه، وكرهت الاسم كرهاً مُضاعفاً لأنّ شخصاً غريباً كان يُدعى به، ذلك سوف يكون سبباً لتكرار الاسم مرتين، وذلك التكرار يكون في حضوري، كذلك فإنّ اهتماماته ضمن روتين الحياة العادية في المدرسة، بسبب تلك المُصادفة الشنيعة، سوف تتشابك حتماً مع اهتماماتي.

هذا الشعور بالانزعاج نشأ لهذه الأسباب، وكان يزداد ضراوة مع كل ظرفٍ يؤدي إلى إظهار التماثل بجلاء، سواءً كان ظرفاً معنوياً أو مادياً، بين خصمي وبيني. لم أكتشف آنذاك حقيقة ناصعة أُخرى وهي أنّنا مُتماثلان حتى في السن؛ لكنني رأيت فضلاً عن هذا تماثلاً في طول القامة، وأدركتُ أيضاً كنّا مُتماثلين على نحو فريد في الخطوط العامة للشخصية وفي الملامح الجسمانية. ودهشت أيضاً حين سمعت شائعات تتطرّق إلى وجود علاقة نسب تربط بيننا تجعل صداقتنا تنمو لتصل [407]إلى ذروتها. باختصار، لم يزعجني شيء أكثر جدية (رغم أنّي كنت أسعى في ارتياب لمداراة هذا الانزعاج)، من أي إشارة ضمنية إلى التشابه في العقل، والشخصية، أو أي مُلابسات أُخرى تربط بيننا. لكن، في حقيقة الأمر، لم يكن لدي من سبب يدعوني للاعتقاد (باستثناء مسألة علاقة

النسب، وفي حالة ولسون نفسه)، بأن هذا التماثل يُمكن أن يغدو في أي وقت موضوعاً للتعليقات، أو حتى أن ينتبه إليه زملاؤنا في الدراسة على الإطلاق. أن يكون هو قد لاحظ الأمر في كل اتّجاهاته، مثلما لاحظتُ دائماً، ذلك أمر لا لبس فيه؛ لكن أن يستطيع اكتشاف في مثل تلك الظروف، مجالاً يُصلح لإثارة الإزعاج، فهو شيء يُمكن فقط أن يُعزى، كما قلت سابقاً، إلى قدرة استيعابه الأكثر من خارقة للمألوف.

طريقته التي يُمارسها في التمثيل، أن يُحاكي شخصيتي مُحاكاة حاذقة، تكْمن في جوهر الكلمات وفي الأفعال على السواء؛ والشيء الأكثر إثارة للإعجاب أنّه كان يؤدي دوره أداءً مثالياً. طريقة ملبسي مسألة سهلة المُحاكاة؛ أسلوبي في المشي وسلوكي العام، لا يجد فيها صعوبة تُذكر، فمن السهل عليه إتقانها؛ على الرغم من عقدة النقص الأساسية التي لديه، حتى صوتي لم يكن يفوته. نبراتُ صوتي العالية، طبعاً، لا يحاول الاقتراب منها، لكن هُنا يكْمن اللّغز، كان صوته مُطابقاً لصوتي، وهمساته الفريدة صدى حرفياً لهمساتي.

إلى أي مدى كان هذا الجهد في التمثيل المُبتكر الذي يسعى فيه لتقليد صورتي يضايقني، (لأنه لا يُمكن تسمية ذلك على نحو صائب بالكاريكاتور)، لن أغامر الآن في وصف هذا. لكنّي توصلت إلى استنتاجٍ واحدٍ ليس غير من شأنه أن يُعزيني.. من خلال حقيقة أنّ المُحاكاة، فيما يظهر، لم يكن ينتبه إليها أحد سواي، فليس عليّ تحمّل غير الابتسامات الهازئة التي يوحي بها شريكي في الاسم بأنّه خبير بكل شيء. بعد أن اقتنع بأنه خلق في صدري التأثير الذي يرجوه، بدا أنه كان يضحك في سرّه ضحكات خافتة لوخزة الألم التي ألحقها بي، وكان ممّا يُميّز تصرّفاته استخفافه بالاستحسان الذي ربّما أثاره نجاحه في مساعيه الماكرة بسهولة. لم يكن أي أحدٍ في المدرسة، في الواقع، لينتبه إلى نواياه، أو يُدرك ما يُحقّقه من إنجاز، بل كانوا يُشاركونه في السخرية التي يُثيرها، وهذا من الألغاز التي عجزت خلال أشهر طويلة أن أتوصل إلى حلّه. ربّما لم تكن المراحل المُتدرجة لمُحاكاته تجعل الأمر محسوساً مُباشرة؛ أو، من المُحتمل أكثر، أنّني كنت مديناً براحة روحي إلى البراعة التي يمتاز بها سيد

المُحاكاة، الذي يزدري التعبير عن المعنى الحرفي، (إذ يستطيع أي بليدٍ في الرسم أن يراه)، فلا يُقدّم غير جوهر نسخته الأصلية لكي أتأملها وحدي فتكدّرني أي تكدير.

لقد تكلّمت حتى الآن أكثر من مرة عن الروح المُستبدة التي تتّخذ شكل وصايةٍ مُقرفة يفترضها عليّ، عن التدخّل الفضولي المُتكرر في إرادتي. هذا التدخّل غالباً ما يكون صفة مذمومة لإنسان غليظ الطباع يُحاول فرض النصائح؛ ومع ذلك فهي نصائح لا تقدّم على نحو صريح، وإنما يُلمح إليها تلميحاً بطريقة لبقة. كنت أتلقاها في اشمئزازٍ وكراهية تزداد قوة كلّما تقدمتُ في السن. ولكن، في هذا اليوم [408]البعيد، دعوني أنصفه قليلاً بالاعتراف بأنّني لا أتذكّر أي مُناسبة كانت فيها توجيهات خصمي تؤيد جانب تلك الأخطاء أو الحماقات التي ربّما كان لها أن تُناسب عقله غير الناضج في تلك الفترة من العمر وقلّة خبرته الواضحة؛ أعترف أنّ حسّه الأخلاقي، على أقل تقدير، وليس مواهبه عامة وحكمته الدنيوية، أكثر حدة من حكمتي؛ وأنّني ربّما، اليوم، كنت أفضل حالاً، وأكثر الرجال سعادة، لأنّي كنت أرفض بين الحين والحين النصائح التي تجسّدت في تلك الهمسات ذات المغزى والتي كنت أمقتها آنذاك في لباقة ودماثة خلق وأزدريها بمرارة بالغة.

لكن الشيء الذي حصل أن تفاقم ضجري وتململي حتى وصل إلى ذروته أخيراً تحت تأثير إشرافه المُثير للاشمئزاز، ويوماً بعد يوم أصبحت أعبّر عن احتقاري أكثر فأكثر وبصورة علنية لما اعتبره تغطرساً لا يحتمل. قلت: إنني، في السنوات الأُولى لارتباطنا بعلاقة الزمالة، ربّما تحوّلت مشاعري نحوه بسهولة إلى صِداقة: لكن، خلال الأشهر اللاحقة لإقامتي في الأكاديمية، مع أنّ طريقته المألوفة في التطفل، من غير شك، خفتت بعض الشيء، غير أنّ انفعالاتي في نسبة مُماثلة تقريباً أسهمت كثيراً في إثارة ضغينة فعلية. في إحدى المُناسبات لاحظ هذا، كما أعتقد، وفيما بعد صار يتجنّبني، أو يتظاهر بأنه يتجنّبني.

حدث في الفترة نفسه، إن كنت أتذكّر جيداً، في مُشاجرةٍ حادة معه سقط فيها على الأرض أكثر ممّا كان يحصل له في العادة، وكان يتكلّم ويتصرّف أثناء

ذلك في مزاجٍ مُنفتح صريح يبدو مُستغرباً على طبيعته، اكتشفت، أو تخيّلت أنّني اكتشفت، في لهجته، وفي ملامحه، وفي مظهره العام، شيئاً أذهلني في بداية الأمر، ومن ثمّ أثار فضولي بعمق، بأن جلب إلى ذهني رؤى كالحة عن أيام طفولتي المُبكرة.. ذكريات قاسية، مُرتبكة يتزاحم بعضها مع بعض عن زمنٍ لم تكن الذاكرة قد خلقت فيه بعد. لست بقادر على وصف الإحساس الذي استولى عليّ بأكثر من أن أقول: إنني كنت بصعوبة أُحاول أن أبعد عن مُخيلتي الاعتقاد في أنّني تعرّفت على هذا الكائن الذي يقف أمامي، في فترة بعيدة جداً من الزمن الماضي.. نقطة من الزمن الماضي تكاد تكون بلا حدود. لكن الوهم تلاشى سريعاً مثلما جاء؛ وأنا أتطرق إليه الآن لمُجرّد تحديد اليوم الذي حدثت فيه آخر مُحاورة أجريتها هُناك مع شريكي الفريد في الاسم.

المنزل القديم الضخم، بتفرّعاته التي لا تُعد ولا تُحصى، فيه عدة حُجرات فسيحة يتصل بعضها مع بعض، حيث ينام العدد الأكبر من الطلاب. ولكن كان هُناك، (مثلما يحصل بالضرورة في مبنى مُصمم بذلك النمط الأخرق)، كثيرٌ من الزوايا الصغيرة أو الدهاليز، تفرعات مُتفرقة للبناء؛ هذه المُبتكرات البارعة في الاقتصاد بالمكان التي من عمل الدكتور برانسبي كانت أيضاً تُستخدم كغرفٍ للنوم؛ [409]على الرغم من أنّها تكاد تكون خزانات ضيقة، إلّا أنّها تكفي لإيواء فرد واحد على الأقل. إحدى هذه الحُجرات الضيقة يشغلها ولسون.

ذات ليلة، تقريباً مع انتهاء السَّنة الخامسة لي في المدرسة، ومُباشرة بعد المُشاجرة التي ذكرتها قبل قليل، بعد أن وجدت كلّ شخص يغط في النوم، نهضت من سريري، وأمسكت مصباحاً بيدي، وتسلّلتُ خلسة سالكاً الممرات الموحشة الضيقة التي تبدأ من غرفة نومي حتى مهجع خصمي. كنت منذ زمن أخطط لإحدى المُناورات الحاذقة ذات الطبيعة المُحرجة التي أُمارسها ضده والتي إلى الآن فشلت في تنفيذها بنجاح. كنت أنوي الآن أن أضع خطتي موضع التنفيذ، وقرّرت أن أجعله يشعر بكل ما أحمله في صدري من الضغينة التي أرهقت كاهلي. بعد أن وصلت إلى حجرته، دخلت دون أن أُثير أي نوع من الضوضاء، وتركت المصباح في الخارج وقد وضعت عليه شيئاً يخفي ضوءه.

تقدّمت خطوة، وأصغيت إلى صوت تنفّسه الهادئ. تأكّدت أنّه غارق في النوم، فتناولت المصباح، واقتربت على ضوئه مرة أُخرى من السرير. كانت الستائر قريبة من السرير أو تُحيط به، وتنفيذاً لخطتي سحبت الستائر في بطء وهدوء، وسقطتْ شعاعات من الضوء الساطع على جسد النائم، وكانت عيناي في اللحظة نفسها تُحملقان في قسمات وجهه. نظرت.. واستولى إحساس بالخدر، بالانجماد على جسدي في الحال. كان صدري يُطلق تنهّدات، وركبتاي تترنّحان، وروحي كلها استسلمت لذعرٍ مجهول لا يُطاق. كنت ألهث لالتقاط أنفاسي، أنزلت المصباح وقرّبته من الوجه. هل كانت هذه ..هذه أسارير وليم ولسون؟ رأيتُ، في الواقع، أنّها أساريره، ولكني كنت أرتعش كأنما دهمتني نوبة قشعريرة فظننت أنّها ليست أساريره. ما الذي وجدته حتى يتشوّش ذهني هكذا؟ كنت أُحملق.. بينما ذهني يدور وراء حشدٍ من الأفكار المُشوشة. لم يكن يبدو هكذا من قبل.. يقيناً ليس هكذا.. في ذروة نشاطه وحيويته خلال الساعات التي يفيق فيها من النوم. الاسم نفسه! ملامح الشخصية نفسها! يوم الوصول إلى الأكاديمية نفسها! ومن ثم طريقته العنيدة التي لا معنى لها في مُحاكاة مشيتي، وصوتي، وعاداتي، وتصرفاتي! هل كان، في حقيقة الأمر، ضمن تصوّرات البشر، أنّ ما أراه الآن كان نتيجة، مُجرّد نتيجة، للاعتياد على مُمارسة هذه المُحاكاة التهكمية؟ تغلّب عليّ حزنٌ لا يُطاق، وزحفت رعدة إلى جسدي، فأطفأتُ المصباح، وخرجتُ في صمت من الحجرة، وتركت ردهات تلك الأكاديمية القديمة فوراً، وقرّرت أن لا أدخلها من جديد.

بعد شهور قليلة، أمضيتها في منزلي في عبثٍ تام، وجدت نفسي ألتحق كطالبٍ في إيتون. كانت تلك الفترة الوجيزة المُستقطعة تكفي لتبديد ذكرى الحوادث [410]التي جرت في مدرسة الدكتور برانسبي، أو على الأقل لحصول تَغيّرٍ فعلي في المشاعر التي تُرافق ذكراها. لم تعد حقيقة.. التراجيدية.. الدراما موجودة. كان في وسعي الآن رؤية مجال للشك في الدليل الذي تُقدمه لي حواسي؛ ونادراً ما كنت أستدعي الموضوع إلا ويعتريني الاستغراب من سذاجة البشر، وتطفو ابتسامة ساخرة من القدرة الجبارة للخيال الذي ورثته عن أسلافي فاستولى عليّ. لم يكن من المُحتمل أن يتقلّص هذا النوع من الوساوس من خلال

نمط الحياة الذي عرفته في إيتون. كانت دوامة الحماقات الطائشة التي وجدت نفسي عالقاً فيها هُناك مُباشرة تجرف كل شيء ما عدا زبد ساعاتي الأخيرة الماضية، وتغمر على الفور كل انطباع جامد خطير الشأن، فلا تترك للذاكرة غير خفايا تافهة من وجود سابق.

ولكنّي لا أرغب في تعقّب سياق إسرافي وبؤسي هُنا.. تهتّك يتحدّى القوانين، بينما هو يسعى للتملّص من مُراقبة المؤسسة. ثلاث سنوات من الحماقة مرّت دون أن تُثمر شيئاً، لم تفعل شيئاً سوى أن منحتني عادات مُتأصلة في الضغينة، وأضافت إلى كياني المادي جموداً، على درجات غير اعتيادية بعض الشيء، وبعد أسبوع من الخمول المُضجر، قمت بدعوة جماعة صغيرة من أكثر الطلاب إسرافاً في الانغماس بالملذّات إلى حفلة شرابٍ سرية في حجرتي. التقينا في ساعة مُتأخرة من الليل؛ لأنّ حفلتنا الفاجرة كانت ستستمر في تفانٍ حتى الصباح. كان النبيذ يتدفّق في غير حرج، ولم نكن لنفتقر إلى شيء من الإغراءات المحظورة؛ حتى انبلج الفجر الرمادي في خفوتٍ من الشرق، بينما وصل إسرافنا الجنوني إلى ذروته. كان وجهي مُتورماً في استهجان من لعب الورق وتعاطي الكحول، وكنت أُصرّ على شرب نخب تلو آخر في صلافةٍ غير مُعتادة، عندما شدّ انتباهي فجأة صوتٌ عنيف لباب الشقة وهو يفتح، وإن كان جزئياً، ثم سمعت صوتاً مُتلهفاً لخادمٍ من الخارج. قال: إنّ هُناك شخصاً، يظهر أنّه على عجلة من أمره، يطلب التحدّث معي في الصالة.

كان النبيذ يدفعني إلى تلهّفٍ وحشي، فالشيء الذي اقتحم علينا خلوتنا ليس مُتوقعاً، ولم أشعر وقتها بالاستغراب كما شعرت بالبهجة. تقدمتُ مُترنحاً على الفور، وبعد بضع خطوات وجدت نفسي في دهليز الشقة. في هذا الحيز الضيق المُنخفض لم يكن هُناك مصباح؛ لم يتسلّل أي شعاع ضوئي على الإطلاق، باستثناء شعاع الفجر الواهن الذي يخترق النافذة شبه الدائرية. حين وضعت قدمي على العتبة، رأيت شاباً يُماثلني في القامة، يرتدي ثوب نوم كشميري أبيض اللون، على الطراز الحديث مثل الذي كنت ألبسه تماماً في تلك اللحظة. أتاح لي الضوءُ الخافت [411]مُلاحظة ذلك؛ غير أنّني لم أتمكّن من

تمييز ملامح وجهه. لدى اقترابي منه سارع إليّ، وأمسكني من ذراعي في حركةٍ تدل على نفاد صبر ومُشاكسة، وهمس بكلمات في أُذني «وليم ولسون!».

في لحظة تبدّد تأثير الخمرة من رأسي وصحوت تماماً.

من خلال تصرّف ذلك الرجل الغريب، واهتزاز إصبعه المرفوع في وجهي، وهو يضعه بين عيني وبين الضوء، امتلأت نفسي بذهولٍ لا حدود له؛ لكن لم يكن لهذا تأثيرٌ بالغ عليّ بحيث يهزني من الأعماق. ذلك الرنينُ المُفعم بالعتاب الوقور في صوته المُستهجن، الهادئ، الذي يُشبه الهسيس؛ وفوق هذا وذاك، طبيعة، نبرة، مفتاح، تلك المقاطع القليلة، البسيطة، المألوفة، لكن الهامسة، التي جاءت مُحمّلة بآلاف الذكريات عن أيام ماضية، هبطت على روحي كأنما تعرضتُ لصعقة كهربائية من بطارية. قبل أن أسترد وعيي كان قد اختفى ولم يعُد له من أثر.

مع أنّ هذه الحادثة لم تفشل في أن تترك تأثيرها الحاد على خيالي المُشوش، إلّا أنّ أهميتها سرعان ما تلاشت. طوال عدة أسابيع، في الواقع، شغلت نفسي في بحثٍ جاد كانت تُغلّفه سحابة من التوجّسات الموبوءة الخبيثة. لم أتظاهر بعدم إدراكي لهوية الغريب الذي تدخل بهذا الشكل المُزعج في شؤوني، إذ كان يواظب باستمرار على مُضايقتي بنصائحه المُتطفلة. لكن من هو ولسون هذا وما حقيقته؟.. من أين جاء؟.. وما هي نواياه؟ عن أي تساؤل من هذه التساؤلات لم أتوصّل إلى إجابة مقبولة؛ استطعت فقط أن أؤكد لنفسي، فيما يتصل به، أنّ حادثة مُفاجئة وقعت لعائلته وأدّت إلى طرده من أكاديمية الدكتور برانسبي في ظهيرة اليوم بعينه الذي هربت فيه أنا من هُناك. لكن بعد فترة وجيزة توقفتُ عن التفكير في الموضوع؛ كان اهتمامي مُنصباً على رحلتي التي أزمع القيام بها إلى أوكسفورد. وسرعان ما ذهبتُ فعلاً إلى هُناك؛ كان غرور والديَ غير المحسوب العواقب يمدّني بما أحتاج إليه من مُستلزمات مادية تكفيني للإقامة السّنوية، وسوف يُتيح لي ذلك الانغماس على هواي في مظاهر اللهو والترف التي كنت أشتاق إليها الآن من قلبي.. وأن أتنافس في غزارة الإنفاق مع أكثر المُتغطرسين من ورثة العائلات الغنية ذوي الألقاب الرفيعة في بريطانيا العظمى.

أثارني هذا الاستعداد للرذيلة، وتحفّزت طبائعي البدنية والذهنية في حماسٍ مُضاعف، وصرتُ أستخف حتى بالقيود العادية للياقة في نوبات جنونية تدفعني للافتتان بالقصف والعربدة. ولكن من العبث التوقّف عند تفاصيل إسرافي في اللهو. أظن أنّه يكفي القول: إنّ إسرافي بلغ حداً يفوق ما كان يُمارسه هيرود، وإنّ الإشارة إلى مقدار تلك الحماقات لن تُضيف مُلحقاً جديداً إلى قائمة الرذائل الطويلة التي كانت شائعة آنذاك في أكثر الجامعات شهرة في الفجور في أوروبا.

على أنّه ربّما يكون جديراً بالذكر أنّني، حتى في هذا المكان، بعد أن سقطت [412]سقوطاً مُريعاً في مهاوي الرذيلة ونسيت كل شيء عن طبيعتي المُهذبة، لم أكن أسعى فقط للتعرف على ألوان الغش الأكثر دناءة وخسة التي يُمارسها أي مُقامر كمهنة، بل أصبحت خبيراً في هذا النوع من الألاعيب الرخيصة التي كنت أُمارسها بين فترة وأُخرى كوسيلة لزيادة دخلي الهائل في ذلك الوقت على حساب السُّذّج من زملائي. هذه، رغم كل شيء، هي الحقيقة بعينها. ثم اتّضح أنّ جسامة هذا الانتهاك والعدوان ضد كل مشاعر الشهامة والشرف، من غير شك، كان السبب الأساسي، إن لم يكن الوحيد للثقة بحتمية الإفلات من العقوبة التي كنت أشعر بها وأنا أرتكب ذلك. من ذا الذي، من بين رفاقي الأكثر تجرّداً لم يكن في الواقع يرتئي التغاضي عن أوضح الأدلة التي توفّرها له حواسه، ويُفضل الشك في مُمارسات هذا الغندور، الشاذ، الصلف، المُبذر وليم ولسون.. أكثر الرجال نُبلاً وتهتّكاً بين عامة القوم في أوكسفورد.. الذي لم تكن حماقاته (كما يقول المُتملقون إليه) غير حماقات شباب لا يكبح شيء حدود خيالهم.. الذي ليست أخطاؤه غير نزواتٍ لا نظير لها.. الذي ليست رذائله الأكثر قتامة إلا اندفاعاً مُسرفاً في الطيش واللامبالاة؟

مضت الآن سنتان نجحت خلالهما في إشغال نفسي على هذا المنوال، ثم جاء إلى الجامعة شابٌّ نبيل حديث العهد بالدراسة parvenu، يدعى غليندننغ.. كان من الأثرياء، كما ذكرت التقارير، مثل هيرودس إتيكوس[5].. وكسب ثروته

---

(5) هيرودس إتيكوس: كان أعظم الخطباء في القرن الثاني الميلادي. حصل على =

أيضاً بطرق سهلة. وسرعان ما وجدته من الساذجين، وبطبيعة الحال، يُصلح نموذجياً ليكون موضعاً لاختبار مهارتي. كثيراً ما كنت أنهمك معه في اللعب، واستطعت بالسبل البارعة التي يتبعها المُقامر عادة أن أتركه يربح كمياتٍ لا بأس بها من النقود، وبذلك تمكّنت من الإيقاع به شباكي. وأخيراً، بعد أن نضجت خططي، التقيت به (وقرّرت أن يكون هذا اللقاء نهائياً وحاسماً) في حجرة أحد زملائي من عامة القوم، (السيد بريستون)، وكانت تربطه علاقة حميمة بنا معاً، ولكن إذا شئنا الإنصاف، لم تكن تعتريه أدنى الشكوك في خطتي. ومن أجل أن أُضفي على الأمر مزيداً من الإتقان، دعوتُ جماعة تتألف من ثمانية أو عشرة أشخاص، وكنت حريصاً كل الحرص على أن يبدو اقتراح لعب الورق عرضياً، وأن يأتي الاقتراح من صديقي المُغفل الذي كنت أفكر فيه نفسه. لكي أختصر الكلام حول مسألة بهذه الدناءة، أقول: إنني لم أتجاهل أي شأن من الشؤون الدقيقة التي من المُعتاد أن تتبع في مُناسبات مُماثلة بحيث إنّ من المعقول التساؤل كيف لا يزال أحد المُغفلين يقع ضحية لها.

امتدت الجلسة وقتاً طويلاً من الليل، وأقدمتُ أخيراً على تنفيذ مُناورتي في أن أجعل غليندننغ خصمي الوحيد. كانت اللعبة أيضاً من النوع المُنفرد ***ecarte*** [413]المفضل لدي! واستمتع بقية الحاضرين بمُتابعة لعبنا، وتركوا أوراقهم الخاصة، ووقفوا حولنا يُراقبون. كان الطالب المُستجد، الذي حفزته مهاراتي في اللعب، في وقت سابق من المساء، لأن يسرف في الشراب، يخلط الورق الآن، ويوزع، أو يلعب في عصبية بالغة مردّها إلى تأثير الكحول، كما خمنت، ربما جزئياً وليس كلياً. خلال مدة قصيرة جدّاً كنت مديوناً له بمبلغ كبير من المال، وبعد أن ازدرد جُرعة مُفرطة من الشراب، ارتكب ما كنت أتوقع منه في برودة أعصاب.. اقترح مضاعفة الرهان الذي كان قبل ذلك كبيراً جدّاً. وتظاهرتُ بالتردّد، لم أُوافق إلا بعد أن كررتُ رفضي لأدفعه لأن يتلفّظ بعض الكلمات الحادة التي أثرت بي وساهمت في إظهار حرج موقفي المُذعن، وأخيراً امتثلت

= ثروته بسهولة لأنّ والده اكتشف كنزاً. أصبح صديقاً للإمبراطور هادريان وقام بمشاريع عمرانية في مدن يونانية. [المترجم]

لإرادته. لم تثبت النتيجة طبعاً إلّا كيف أن ضحيتي كان مُستمراً بأن يعلق في شباكي المُلتوية؛ في غضون أقلّ من ساعة تضاعف مبلغ الدَّين أربع مرات. واستمرت ملامح وجهه تفقد الصبغة الوردية التي أضفاها عليها النبيذ؛ ولكن هُنا، بإزاء دهشتي البالغة، أدركت أنّ لونه صار شاحباً على نحو يُثير الرهبة حقّاً. أقول: إنّني كنت مُندهشاً. كان غليندننغ يُمثل لمساعيي المُتشوقة مصدراً لا يُمكن قياسه للثراء الفاحش؛ والمبالغ التي خسرها إلى الآن، مع أنّها هائلة، لا يُمكن، كما قدرت، أن تؤثر عليه تأثيراً خطيراً، قلَّ ذلك أو كثر. أن يكون الرجل تغلّبتْ عليه الخمرة التي ازدردها قبل الآن، تلك فكرة فرضت نفسها على عجل؛ وبهدف الإبقاء على رباطة جأشي أمام عيون أصدقائي المُحملقة، بدلاً من الحرص على أي حافزٍ أقل إثارة لاهتمامي، كنت على وشك الإعلان في لهجة قاطعة عن نيتي للتوقّف عن اللعب، حين جاءتني بعض الإشارات على مرفقي من جماعتي، وسمعت همهمات تُعبّر عن يأسٍ مُطبق من جانب غليندننغ، ممّا جعلني أعرف أنّني ألحقت به دماراً كاملاً في تلك الظروف، حتى صار موضعاً للإشفاق من الجميع، وكان ينبغي أن يحميه ذلك من التشفي المازح حتى من صديق.

من الصعوبة الآن تحديد موقفي. كانت حالة صديقي المُغفل التي تستحق الرثاء تُلقي بظلال الإحراج والكآبة على الحاضرين؛ خلال لحظات، ساد صمتٌ عميق، أثناء ذلك كنت أحس بعظام فكيّ تطقطق في وخزٍ خفيف وأنا أتلقّى النظرات الحارقة التي تُعبّر عن الاحتقار أو التأنيب من الأشخاص الأقل تحيّزاً في جماعتي. كنت أعزو ذلك العذاب الذي لا يُطاق الذي تفرضه اللهفة وقد أزيح خلال لحظة عن كاهلي إلى حادثٍ غير مُتوقع جاء بعد ذلك. فجأة سمعنا الأبواب الضخمة الثقيلة المُغلقة للشقة تنفتح على مصارعها، وسُمع صوتٌ طائشٌ عاصف أدّى إلى انطفاء [414]كل شمعةٍ في الغرفة كأنّما بتأثير سحري. لكن ضوء الشموع، وهو يخبو، أتاح لنا رؤية شخص غريب يدخل، طوله مُقارب لطولي، ويلتفّ بعباءة ضيّقة. ثم ساد الظلام الآن؛ ولم يكن في وسعنا إلّا الإحساس بأنّه واقف وسطنا. قبل أن يتمكّن أي شخصٍ منّا من استعادة أنفاسه من أثر الدهشة التي سبّبها لنا هذا الاقتحام الفظ، سمعنا صوته.

«أيها السادة»، قال بصوت مُتحشرج، مُميز النبرات، كأنّه يهمس بشيء لا يُنسى أدى إلى سريان رعدة في لبِّ عظامنا، «أيها السادة، لن أعتذر عن هذا السلوك، لأنّي بهذا أؤدي واجبي فحسب. أنتم جميعاً، من غير شك، لا تعرفون شيئاً عن حقيقة الشخص الذي فاز الليلة بلعبة الورق المُنفرد بمبلغ طائل من المال من اللورد غليندننغ. سوف أطلعكم سريعاً على معلومات ضرورية جدّاً. أرجو منكم لو سمحتم أن تتفحّصوا على مهل البطانة الداخلية لأكمام ذراعه اليسرى، والأشياء الصغيرة المُخبأة التي ربّما تعثرون عليها في تلك الجيوب الواسعة في جبته الصباحية المُزركشة».

وبينما كان يتكلّم، ساد صمتٌ مُطلق حتى ليكاد المرء يسمع دبوساً إذا سقط على الأرضية. وبعدها توقف عن الكلام وغادر سريعاً مثلما دخل علينا. هل يُمكنني.. أو هل أجرؤ أن أصف الأحاسيس التي انتابتني؟.. هل أقول: إنّي أحسست بأنواعٍ من الذعر التي تُثير الازدراء؟ من المؤكد، لم يكن لديّ وقتٌ للتأمل. كانت الأيدي تُمسكُ بي بخشونة وتُثبتني في مكاني، وعادت الأضواء تُسلط عليّ. وفتشوا كل شيء. في طيّات أكمامي وجدوا أوراق اللعب الأساسية كلها، أوراق الشرف، التي يجري تداولها في اللعب المُنفرد، وفي جيوب قفطاني وجدوا حزم أوراقٍ أُخرى مُطابقة لتلك التي تُستخدم في جلستنا، مع استثناءٍ واحد وهو أنّ أوراقي كانت من النوعِ الذي يُسمى، من الناحية الفنية، المُستديرة *arrondees*؛ أوراق شرفٍ مثنية قليلاً من أطرافها، والأوراق الأقل أهمية مثنية من جوانبها. في هذا الموقف، كان لا بُدّ للمُغفل الذي يقطع، كما جرت العادة، أن يجد نفسه، في آخر حزمة الورق، يُعطي خصمه ورقة شرف؛ بينماِ المُقامر، وهو يقطع من المُنتصف، حتماً لن يُعطي ضحيته أي شيء يُحتسب ضمن نقاط اللعبة.

كان من شأنِ أي تهورٍ، أو مُحاولة للانتقام على أثر هذا الاكتشاف المُذل أن تؤثر بي أقل ممّا أثّر بي الاحتقار الصامت، أو الرزانة الساخرة التي قوبلت بها.

«سيد ولسون»، قال مُضيفنا، وتوقف لكي يرفع من تحت قدميه عباءة فرو غالية الثمن، «سيد ولسون، هذه من مُمتلكاتك الشخصية». (كان الجو بارداً؛

وحين غادرتُ غرفتي ألقيت عباءة فوق قفطاني، وخلعتها لدى وصولي إلى صالة [415]اللعب). «أتصور أنّ من المُبالغة البحث هُنا (وكان يلحظ طيات الرداء وقد ارتسمت على فمه ابتسامة مريرة) عن أي دليل إضافي على براعتك. في الواقع، حصلنا على ما يكفي. سوف ترى أنّ من الأفضل لك، كما آمل، أن تترك اوكسفورد.. في كل الأحوال، سوف تُغادر هذا المكان فوراً».

كم أحسست آنذاك بالإذلال والمهانة كأنما تلطّخ رأسي بالوحل! وكان من المُحتمل لي أن أرد على هذه اللّغة المُثيرة للسخط بتصرّف مُباشر عنيف، لولا أنّ كل اهتمامي في تلك اللحظة حاصرته فكرة ما بشأن تلك الشخصية المُذهلة. العباءة التي كنت أرتديها هي من نوعٍ نادر من الفراء يصعب وصفه؛ كم هو نادر، كم هو باهظ الثمن بإسراف.. لن أُغامر بقول شيء عن هذا. كذلك بالنسبة إلى طريقة خياطتها، فهي من ابتكارات خيالي المجنون؛ كنت موسوساً ويصعب إرضاء ذوقي إلى درجة مُنافية للمعقول بشأن الثياب التي تجعلني أتباهى بنفسي، خصوصاً في مثل هذه المسائل الطائشة. لهذا، حين مدّ لي السيد بريستون تلك العباءة بعد أن التقطها من الأرض، وكنّا قريبين من الأبواب المغلقة للشقة، أدركت في اندهاش يكاد يكون ذعراً، أنّ عباءتي تتدلّى في ذلك الوقت على ذراعي، (لم يُساورني شكٌّ في أنّني وضعتها هُناك بلا قصد)، وأنّ العباءة التي أُعطيت لي ليست إلا نسخة مُطابقة لها في كل شيء، حتى في أصغر التفاصيل. الشخص الغريب الذي كشف أمري على ذلك النحو الكارثي، كان يتلفع، على ما أتذكّر، بعباءة؛ ولم يكن أيٌّ من جماعتنا يرتدي عباءة غيري. بعد أن استرددت شيئاً من حضور ذهني، تناولت العباءة التي قدّمها لي بريستون؛ ووضعتها دون أن ينتبه إلي أحد على عباءتي؛ وتركتُ الشقة وقد ارتسم على وجهي تعبيرٌ مُقطّب ينمّ عن التحدّي؛ وفي صباح اليوم التالي، قبل الفجر، بدأت رحلة عاجلة من أوكسفورد إلى أوروبا، وكان الأسى يعتصر قلبي من الذعر والخزي.

كان من العبث أن أهرب. بقي شبحُ مصيري الشرير يُطاردني كأنّه يبتهج لما لحق بي، واتّضح في الواقع أنّ سطوته الغامضة كانت قد بدأت ليس غير. ما كادت قدمي تطأ باريس حتى حصلتُ على دليل جديد على الاهتمام البغيض

الذي يُبديه ولسون هذا في كل ما يتّصل بأموري. كانت السنوات تمضي، فلا أعرف طعماً للراحة!.. في روما، كم من مرة رأيت طيفه رؤية مؤكدة، في أوقات غير مُناسبة، يتطفّل عليّ، ويحول بيني وبين طموحاتي! وفي ڤيينا أيضاً.. وبرلين.. وموسكو! في أي مكان، في حقيقة الأمر، ألم يكن لدي ما يدفعني لأن ألعنه في مرارة قلبي؟ وهربت أخيراً من جبروته المُبهم، وكان يُداهمني الذعر، كما لو أنّني مُصاب بالطاعون؛ إلى أي مكان في أقصى أطراف الأرض، كان من العبث أن أهرب.

ومرة أُخرى، وأُخرى، في قدّاس أرتّله مع روحي، هل كنت أحتاج إلى طرح [416]الأسئلة: «من هو؟.. من أين أتى؟.. ما هي أغراضه؟» لكن ما من جواب يُسعفني. ثم صرتُ أتفحّص عن كثب، أنشغل في تأملٍ عميق، أحلل أشكال وطرق ونزعاتٍ أساسية تتّخذها مُراقبته الوقحة. لكن حتى هُنا لم أحصل إلّا على أشياء قليلة تُفيدني لكي أستنتج شيئاً. من المُلاحظ، في الواقع، أنّه في أكثر من حالةٍ من الحالات التي يعترض فيها طريقي مؤخراً، كان يفعل ذلك لمُجرّد أن يحبط مُخططاتي، أو لكي يحول دون تلك النزوات التي لو نُفذت بكاملها، ربّما أدت إلى كارثة خطيرة. هذا تبريرٌ ضعيف حقّاً للتدخل بذلك النمط الاستبدادي! انتهاك حقوقي الطبيعية شيء مرفوض قطعاً لأنّه يُلحق الخزي بي!.

وجدت نفسي مُضطراً لأن ألاحظ أنّ معذبي، منذ مدة طويلة، (بينما كان يمارس خدعة عجيبة مُعجزة في شكل يُثير المخاوف والشكوك للإبقاء على تماثل يوازي شخصيتي)، قد نجح في تدخله المُتنوع الأشكال في مسارات إرادتي، بحيث لم أكتشف، في أي لحظة، الملامح الحقيقية لوجهه. إذا كان ولسون هو تلك الشخصية التي يُجسّدها، فهذا على الأقل أقصى غايات التصنع، أو التفاهة. أيُمكن له، في لحظة من اللحظات، كما افترض، حين يؤنبني في إيتون.. وحين يدمّر كرامتي وشرفي في أوكسفورد.. وحين يحبط طموحاتي في روما، وينتقم مني في باريس، ويقضي على حبي العارم في نابلس، أو ما يُسميه زيفاً وبهتاناً جشعي في مصر.. بهذه الأساليب، يتمكّن من جعل الشيطان بصفته عدواً للجنس البشري، والعبقري الشرير في نفسي، يفشل في التعرّف على وليم ولسون الذي

عرفته في أيام الدراسة وفترة الصبا.. شريكي في الاسم، رفيقي، ومُنافسي.. الخصم اللّدود في أكاديمية الدكتور برانسبي؟ مُستحيل! لكن دعوني أسرع لأصف آخر مشهدٍ مُشوق من الدراما.

حتى هذه المرحلة، كنت خاضعاً ذليلاً مُنبطحاً بإزاء هذه الهيمنة المُستبدة. كانت مشاعر الرهبة التي تعوّدت أن أنظر بها إلى تلك الشخصية المترفعة، إلى حكمتها المُهيبة، إلى النفوذ الواضح الذي يُمارسه ولسون في كل مكانٍ وبلا حدود، فضلاً عن الرعب الذي تُثيره نزعات أُخرى في طبيعته وافتراضاته، كل ذلك كان يؤدي، حتى الوقت الراهن، إلى استغرابي من ضعفي المُطلق وعجزي عن فعل شيء، ويؤدي أيضاً إلى الإيحاء بخنوعٍ ضمني، أو استسلام سقيم مُتردد لإرادته الاعتباطية. لكنّي، في الأيام الأخيرة، جعلت نفسي تستسلم تماماً لسطوة النبيذ؛ وخضعت لتأثيره الذي يدفعني إلى تخوم الجنون والتمرد على مزاجي الموروث فلم أعد أصبر كثيراً أو أتمالك نفسي. بدأتُ أتذمّر.. أتردّد.. أُقاوم. هل كان وهماً يدفعني لأن أصدق، مع تزايد تصميمي الذي لا يلين، أنّ مُعذبي يُعاني من نقطة ضعف مُماثلة نسبياً لضعفي؟ لكن بما أنّ المقادير جرت على هذا النحو، بدأتُ الآن أشعر [417]بإلهامٍ مبعثه الأمل المُتأجج، وفي نهاية المطاف تمكّنت بأفكاري السرية من إنضاج قرار صارمٍ ويائس في آن واحد وهو عدم الخضوع بعد الآن، فلن أكون عبداً.

في روما، أثناء كرنفال سنة - 18، حضرتُ حفلة تنكّرية أُقيمت في قصر الدوق دي بروغليو من نابولي. كنت قد انغمست أكثر من المُعتاد دون رادع في نزواتي وتناولت كمية مُفرطة من الشراب على الطاولة المُهيأة لهذا الغرض؛ هُنا كانت الأجواء الخانقة للغرف المُزدحمة بالحضور تُثير في نفسي من المشاعر ما لا أتمكّن من تحمّله. وواجهتُ أيضاً صعوبة في شق طريقي عبر متاهاتٍ من الأفراد الذين لم يُقصّروا في تعكير مزاجي؛ لأني كنت أسعى مُتلهفاً، (ولا أقول يدفعني إلى ذلك حافزٌ لا يستحق التنويه إليه) لمُلاحقة الزوجة الجميلة، الشابة، ذات التصرّفات الشاذة للدوق المُسن الشغوف المُتصابي دي بروغليو. لقد أفشت لي السيدة في ثقة وجدانية سرّاً يتعلّق بالثوب الذي سوف تلبسه، والآن بعد أن

لمحتها، كنت أُسارع للوصول إلى المكان الذي تقف فيه.. في هذه اللحظة أحسست بيد خفيفة تستقر على كتفي، وسمعت تلك الهمسة المُنخفضة اللعينة التي ما فتأت ترنّ في ذاكرتي، سمعتها قرب أُذني.

في نوبة غضب مسعور، استدرت حالاً للشخص الذي قطع عليّ طريقي، وأمسكته بعنف من ياقته. كان مكسوّاً، كما توقعت، بثوبٍ مُشابه كثيراً لثيابي؛ كان يتلفّع بعباءة إسبانية من المُخمل الأزرق، ويتمنطق من الخصر تقريباً بحزام قرمزي ويحمل سيفاً ذا حدين. ويُغطي وجهه كله قناع من الحرير الأسود.

«أيها الوغد!» قلت بصوتٍ مشحون بالغضب، وكل مقطع أنطق به يبدو كأنّه يُيف وقوداً إلى غضبي المُتأجج، «أيّها الوغد! المُحتال! الحقير الملعون! أنت لن ..لن تبقى تُلاحقني حتى الموت! اتبعني، وإلا سوف أطعنك في المكان الذي تقف فيه!».. واندفعت من صالة الحفلة نحو حجرة صغيرة مُجاورة.. وسحبته ورائي دون أن يُبدي مُقاومة حتى دخلت.

لدى دخولي، دفعته في حركة غاضبة بعيداً عني. ترنّح وهو يرتطم بالحائط، بينما أغلقت الباب وأنا أقسم وأتوعّد، وأمرته أن يستلّ سيفه. تردّد لحظة؛ وبعد ذلك، أطلق حسرة واهنة، وسحب سيفه وهو صامت، واتّخذ موقف الدفاع.

كان النزال قصيراً في الواقع. كنت مسعوراً في التعبير عن أي نوع من التوتر الوحشي، وأحسست بذراعي التي تمسّك السيف مشحونة بكل الطاقة والقدرة المُضاعفة. خلال بضع ثوان أجبرت خصمي بما أُوتيت من قوة على التراجع إلى الحائط الخشبي، وبذلك جعلته تحت رحمتي، ثم غرست سيفي، في ضراوة ووحشية، عدة مرات في صدره.

في تلك اللحظة حاول شخصٌ إزاحة مزلاج الباب، سارعت فوراً إلى منع [418]أي مُتطفّل من الدخول، ثم عدت مُباشرة إلى خصمي الذي كان يحتضر. أيُّ نوعٍ من اللّغة البشرية يكفي لوصف ذلك الذهول، ذلك الرعب الذي استولى عليّ حين رأيت المشهد الذي أمامي؟ اللحظة القصيرة التي حوّلت فيها عيني كانت تكفي، فيما يظهر، لاكتشاف تغيرٍ مادي في وضع الأطراف النائية من

الغرفة. هُناك مرآة كبيرة.. هكذا تبدّت لي في خِضمّ ارتباكي.. الآن تنتصب في مكانٍ لم أشاهدها فيه من قبل؛ وبينما تقدمتُ نحوها في ذروة الذعر، رأيت صورتي، ملامحي كلها شاحبة ومُلطخة بالدم، رأيتني أتقدّم في خطواتٍ ضعيفة مُتعثّرة.

هكذا بدا الأمر، أقول، لكنّه لم يكن هكذا فعلاً. كان خصمي.. ولسون، يقف أمامي ويُعاني من آلام هزيمته المُنكرة. قناعُه، وعباءته في المكان الذي تركهما فيه، على الأرض. ما من خيطٍ في هذه الثياب المُزركشة.. ما من خطٍّ في القسمات الفريدة لوجهه، في أقصى درجات التماثل، لا تعود لي!

إنّه ولسون؛ لكنه لم يعدْ يتكلّم هامساً، كان في وسعي تخيّل أنّني أنا الذي يتكلّم حين قال:

«لقد انتصرتْ، وأنا أستسلم، لكن من الآن أنت ميت.. ميتٌ في نظر العالم، في نظر السماء والأمل في الحياة! كنت موجوداً فيّ أنا.. وفي موتي، انظر إلى هذه الصورة، هي صورتك، ترى كيف أقدمتَ على الانتحار».

شيطان برج الناقوس

ما الوقت الذي تُشير إليه الساعة؟

(مثلٌ قديم)

الجميع يعرف، على وجه العموم، أنّ أجمل مكان في العالم هو.. أو، يا للأسف، كان.. مقاطعة هولندية تحمل اسم فوندرفوتايمتس. ولكن لأنّ [419] تلك المُقاطعة تقع على مسافةٍ بعيدة جدّاً عن أي طرق رئيسية، إذ هي في منأى بعض الشيء عن أي مسلكٍ يؤدي إليها مُباشرة، ربّما هُناك عددٌ قليل من القراء فحسب قاموا بزيارة المكان. من أجل هؤلاء الذين لم يسبق أن زاروا المكان، من المُناسب أن أُقدم هُنا وصفاً تفصيلياً لها. ربّما كان هذا في الواقع من الأمور التي لا غنى عنها، على أمل إثارة شيءٍ من التعاطف بين جمهور القراء بالنيابة عن السكان المحلّيين، أرغب هُنا في تقديم تاريخٍ مُختصر لبعض النكبات التي حدثت مؤخراً في الجوار. لا أحد من الذين يعرفونني حق المعرفة قد يُساوره الشك في أنّ الواجب الذي يفرضه عليّ ضميري سوف يُنجز من قبلي بأفضل ما يُمكنني من قدرة، في كل تجرّد لا يُحيد عن جادة الصواب، وكل ما يُمكن من تمحيصٍ مُتأنٍ في الحقائق، والتنسيق الجاد بين مصادر المعلومات، وهذا ما ينبغي أن يُميز في الواقع الشخص الذي يصبو لأن يحمل لقب المؤرخ.

إذا رجعنا إلى مُكتشفات تاريخية، من ميداليّات، ومخطوطات، وكتابات ونقوش، يُمكنني القول في ثقة تامة إنّ مقاطعة فوندرفوتايمتس كانت موجودة وباقية، منذ أيام نشأتها الأُولى، على الوضع نفسه الذي حافظت عليه حتى الوقت الحاضر. ولكن فيما يتعلّق بتاريخ نشأتها تلك، من المؤسف أنّني لا

أستطيع الكلام إلّا مُستخدماً ذلك النوع من أُسلوب التأكيد المُبهم الذي يضطر علماء الرياضيات أحياناً إلى تطبيقه في بعض معادلات الجبر. لهذا يمكنني القول عن تاريخ أصلها القديم إنّه لا يُمكن بأي حال أن يكون أقل من أي امتداد زمني ربّما يخطر على البال، أيّاً كان ذلك.

أما فيما يتّصل باشتقاق اسم فوندرفوتايمتس، فأنا أعترف شخصياً، على شيء من الأسف، بأنّنا نرتكب خطأً مُماثلاً. من بين عدد هائلٍ من الآراء حول هذه النقطة الحساسة.. بعضها من الآراء الحاذقة، وبعضها ينطوي على معلومات قيّمة، وبعضها على العكس من ذلك تماماً.. فلا يُمكنني اختيار شيءٍ مقبول. ربّما كانت فكرة كروغزويغ.. وهي تكاد تكون مُتزامنة مع فكرة كراوتابلينتي.. من الأشياء [420]التي تحظى بالتأييد في شيء من الحذر.. وهي على النحو التالي[1] *Vondervotteimittis-Vonder, lege Donder-Votteimittis, quasi und Bleitziz-Bleitziz obsol:-pro Blitzen* هذا الاشتقاق، في حقيقة الأمر، لا يزال يتوافق في بعض آثاره مع وميض التيار الكهربائي الواضح على قمة برج المجلس البلدي. لكنّي لا أرتأي تكريس اهتمامي بموضوع على هذه الدرجة من الأهمية، وينبغي أن أحيل القارئ الذي يرغب في الاستزادة من المعلومات إلى «*Oratiunculae de Rebus Praeter-Veteris*» تأليف دندرغتز. انظر أيضاً: «الاشتقاقات» *De Derivationibus* من تأيف بلندربوزارد، الصفحات من 27 إلى 5010، وهو كتاب من القطع الكبير، طبعة قوطية. حروف حمراء وسوداء، كلمات دالة في نهاية الصفحات ولا توجد حروف رمزية مُتشابكة؛ وهُنا أرجع أيضاً لو شئت إلى الهوامش في مخطوطة ستفوندبف، مع تعليقات فرعية كتبها غرونتندغوزيل.

على الرغم من الغموض الذي يكتنف تاريخ فوندرفورتايمتس، واشتقاق اسمها، فليس من شكّ، كما قلتُ سابقاً، في أنّها كانت موجودة وباقية دائماً بالصورة التي وجدناها عليها منذ تلك الحقبة البعيدة من الزمن. إنّ أكبر الرجال

---

(1) «الرعد والبرق» صيغة قسم في اللّغة الألمانية القديمة؛ (حكايات وصور) توماس أوليفر مابوت، مطبعة جامعة إلينوي، ص 375، ج1. [المترجم]

سنّاً في المقاطعة يستطيع أن يتذكّر، ليس أدنى اختلاف في مظهر أي جزء منها فقط؛ بل، في الواقع، فإنّ مُجرّد التلميح بهذا الاحتمال يُعتبر إهانة. تقع القرية في أحد الوديان المُلتوية تماماً، ويصل مُحيط الوادي إلى ربع ميلٍ تقريباً، وهو مُحاط من جميع الجوانب بتلالٍ غير شاهقة؛ فوق ذرى التلال لم يسبق للناس أبداً أن جازفوا في العبور. لهذا السبب أقنعتهم عقولهم الساذجة بعدم وجود أي شيء في الجانب الآخر.

حول ضواحي الوادي (التي تقع على مُستوى غير مُتعرّج، ومُبلّطة في كل جوانبها ببلاطات مُسطحة)، يمتدّ صفٌ طويل من المنازل يصل عددها إلى ستين منزلاً. هذه المنازل ظهورها تواجه التلال، ولا بُدّ أنّها تبدو أيضاً مواجهة لمركز السهل الذي لا يبعد أكثر من ستين ياردة عن الباب الأمامي لكل منزل. كلُّ منزل أمامه حديقة صغيرة، شكلها يُشبه الممر الدائري، كأنّها ساعة شمسية تقسمها أربع وعشرون ثمرة قرنبيط. المباني نفسها تكاد تكون مُتشابهة في كل شيء، حتى لا يكاد المرء يستطيع أن يُميّز أحدها عن الآخر. بسبب إيغال المنازل في القِدم، فإنّ أسلوب العمارة يبدو غريباً بعض الشيء، لكن هذا لا يجعل منظرها أقل روعة وإثارة. إنّها مُشيدة من قرميد صغير حُرق جيداً، أطرافه مُسودّة، بحيث تبدو الجدران مثل رقعة الشطرنج من بعيد. أما الجملونات فهي مُنحرفة على الواجهة الأمامية، وهُناك أفاريز كبيرة بحجم بقية أجزاء المنزل، تُغطي حافات السطح وفوق الأبواب الرئيسية. النوافذ ضيقة وغائرة، ألواحها قصيرة جدّاً وعليها كثيرٌ من الأُطر والزنانير. وتُغطي السقوف كمية هائلة من البلاطات ذات أطراف طويلة منبعجة. [421]الأجزاء الخشبية في كلّ منزل ذات تدرجات لونية قاتمة فيها نقوشٌ محفورة، على نمط عفا عليه الزمن، إذ لم يكن النقاشون في فوندرفورتايمتس قادرين على حفر أكثر من شيئين.. آلة لقياس الزمن وثمرة قرنبيط. هذه الأشياء يتقنون صنعها لتؤدي الغرض المنشود، فهي تتوزع هُنا وهُناك وترصّع قطع الخشب، وتدل على مهارة فائقة، وتُحفر في أي موضعٍ شاغر يُصلح لاستعمال الأزميل.

المنازل كلها مُتشابهة من الداخل أيضاً كما هي مُتشابهة من الخارج،

والأثاث كله جرى اختياره وترتيبه على نسقٍ واحد. الأرضيات مرصوفة ببلاطات مُربعة، والكراسي والمناضد من خشبٍ أسود مع سيقان نحيفة معقوفة وأقدام كأقدام الجراء. المواقد عريضة وعالية، وليس فيها ساعات وثمرات قرنبيط محفورة على الواجهة فحسب، وإنما عليها ساعة حقيقية تصدر دقات غير عادية، على رف الموقد في المُنتصف، مع سندان للأزهار يحوي قرنبيطاً على كل طرف كأنّه فارس يمتطي صهوة جواد. بين كل قرنبيطة وأُخرى، وبين كل مزولة وأُخرى هُناك تمثال لرجل صيني نحيف له كرشٌ ضخم فيه ثقبٌ دائري كبير، يرى المرء من ذلك الثقب قرص المزولة.

المدافىء ضخمة وعميقة الجوف، فيها جذوع أشجار معقوفة قاسية. من هُناك تتصاعد النيران دائماً، وقدر ضخمة فوق النار، مملوءة بالكراوت[2] ولحم الخنزير، وتنشغل ربة البيت الصالحة دائماً بمُراقبتها. إنّها عجوز سمينة ضئيلة، زرقاء العينين، وجهها مُتورد، تلبس قلنسوة هائلة كأنّها خبز السكر، مُزينة أطرافها بأشرطة أرجوانية وصفراء. ثوبها برتقالي اللون من قماش كتّان وصوفٍ خشن، طويل جدّاً من الخلف وقصير جدّاً عند الخصر.. في الواقع هو يُعتبر قصيراً جدّاً في جوانب أُخرى، لا يكاد يصل إلى مُنتصف ساقها. هذه الساق ثخينة بعض الشيء، وهكذا هي حال كاحليها، مع أنّ لديها زوجاً رائعاً من الجوارب الخضراء لتغطيهما. حذاؤها.. من جلدٍ قرنفلي.. رُبطت كل فردة بأشرطة صفراء معقودة للأعلى على شكل قرنبيط. وعلى معصم يدها اليسرى ساعة صغيرة هولندية تبدو ثقيلة؛ وبيدها اليمنى مغرفة تحرّك بها حساءَ اللهانة المُتبّلة واللحم. وإلى جانبها تجثو هرّة رمادية سمينة، رُبطت على ذيلها بشريط ذهبي دمية تُردد الأصوات كالساعة، ربطها «الصبيان» هُناك في سبيل أن يختبر بعضهم بعضاً عن مكانها.

أمّا الصبيان أنفسهم، وهم ثلاثة، فكانوا في الحديقة يرعون الخنزير. لا يتجاوز طول أحدهم القدمين. على رؤوسهم قبعات ثلاثية الأطراف كعُرف

(2) الكراوت: كرنب مفروم يُملّح ويُخمّر. [المترجم]

الديك، وصدريات أرجوانية تصل إلى أسفل أفخاذهم، وبنطلون قصير من جلد الغزال يصل إلى الركبة، وجوارب حمراء، وأحذية ثقيلة ذات إبزيمات فضية كبيرة، ومعاطف طويلة مُثيرة للانتباه ذات أزرار ضخمة مصنوعة من عرق اللؤلؤ[3]. كلٌّ منهم أيضاً لديه غليون في فمه، وساعة صغيرة ثقيلة على يده اليمنى. يأخذ الواحد منهم نفثة من الدخان وينظر، ثم ينظر وينفخ. الصبي الكبير.. الذي يتسم بالبدانة والبلادة.. مُنشغلٌ الآن في ما يبدو بالتقاط الأوراق المُتساقطة عرضاً من القرنبيط، [422]والآن يركل الدمية الذهبية التي تُردّد الأصوات، والتي كان الأشقياء ربطوها إلى ذيله أيضاً لكي يبدو بمثل وسامة القطة.

على عتبة الباب الأمامي مباشرة، على كرسيٍ مُرتفع المُسند مُبطّن بالجلد ذي ذراعين، جلس الرجل العجوز نفسه الذي يسكن المنزل؛ ساقاه المعقوفتان تُشبهان ساقي جروٍ سمين أو سيقان المُنضدة التي أشرنا إليها. كان يبدو طاعناً في السن، سميناً، ضئيلاً، عيناه كبيرتان مُستديرتان وذقنه هائل على نحو استثنائي. الثوب الذي يلبسه مثل ثياب الصبيان.. ولست في حاجة لأن أقول أكثر عن هذا. كلّ الاختلاف الذي يُميزه أنّ غليونه أكبر بعض الشيء من غليوناتهم وكان في وسعه أن ينفخ دخاناً أكثر. مثله مثلهم، لديه ساعة، لكنه يحملها في جيبه. إذا شئنا قول الحق، فلديه شيء يهتم به أكثر من الساعة.. وهذا ما سوف أتطرّق إليه بعد قليل. يجلس الرجل وقد وضع ساقه اليمنى فوق ركبته اليسرى، ويرتسم على قسماته تعبيرٌ صارم، وكان يُبقي إحدى عينيه دائماً، على الأقل، وقد انحنى في تصميمٍ وعزم، على شيء بارز يلوح في مُنتصف السهل.

هذا الشيء كان موجوداً في برج المجلس البلدي. أعضاء المجلس البلدي هم مجموعة أقزام صغار جدّاً، مُكورين، مُتأنقون، أذكياء، عيونهم واسعة كصحن الفنجان وذقونهم سمينة بإفراط، ومعاطفهم طويلة جدّاً وأربطة أحذيتهم أكبر حجماً من المعهود لدى سكان فوندرفورتايمتس العاديين. منذ اليوم الذي

(3) عرق اللؤلؤ: أو أم اللآلىء مادة صلبة ناعمة تُشكّل بطانة بعض الأصداف وتُصنع منها الأزرار والحُلي. [المترجم]

بدأتْ فيه إقامتي المؤقتة في المُقاطعة، عقدوا عدة اجتماعات خاصة فيما بينهم، وتوصلوا إلى هذه القرارات المُهمة الثلاثة:

«من الخطأ تغيير السياق القديم الذي تسير عليه الأمور جيداً حتى الآن».

«ليس هُناك شيء يُمكن توقّع العثور عليه خارج نطاق فوندرفورتايمتس».

«ينبغي علينا الالتزام بما تُمليه علينا ساعاتنا وقرنابيطنا».

فوق غرفة الاجتماعات في المجلس البلدي هُناك برجٌ، وفي البرج ناقوس، يجثم في المكان الذي يوجد فيه، والذي وُجد عليه منذ أزمنة لا يُحصيها العقل، إنّه مصدرُ فخر وإعجاب القرية.. وفيه الساعة العملاقة لمُقاطعة فوندرفورتايمتس. ذلك ما كانت عينا الرجل العجوز تُحملقان فيه وهو جالس على الكرسي ذي المساند المُبطن بالجلد.

للساعة العظيمة سبعة وجوه.. واحدٌ على كل جانب من الجوانب السبعة للبرج.. بحيث يُمكن رؤيتها بسهولة من أي جهة. وجوه الساعة كبيرة وبيضاء، وعقاربها ثقيلة سوداء. هُناك رجلٌ مُكلّف بالعمل في برج الناقوس مُهمته الوحيدة الاعتناء بها وإدامتها؛ إلّا أنّ هذا الواجب هو البطالة بعينها.. لأنّ الساعة.. لا أحد يعرف أبداً ما في داخلها. حتى وقتٍ قريب، كان أي افتراضٍ عن ذلك يُعتبر نوعاً من الهرطقة. منذ زمنٍ موغل في القدم يُشير إليه أرشيف القرية، كان الجرس الكبير [423]يدق بانتظام مُعلناً انقضاء الساعات. في الواقع، هذه هي الحال مع كل الساعات الأخرى في المُقاطعة أو تلك التي يحملها الناس. لم يسبق أن وجد مكان للحرص على ضبط الوقت الصحيح مثل هذا. عندما رأى لسان الجرس الكبير أنّ من المُناسب أن يُعلن «الساعة الثانية عشرة!» فتح كل تابعيه المُطيعين حناجرهم في وقتٍ واحد، واستجابوا للصدى نفسه. باختصار، كان المواطنون الطيبون مُغرمين بحسائهم، غير أنهم أشد هياماً بساعاتهم.

كلُّ الناس الذين يشغلون الوظائف هم في الواقع عاطلون عن العمل ويُعاملون باحترام على وجه من الوجوه، ولأنّ رجل الناقوس في فوندرفورتايمتس يشغل المنصب المثالي في البطالة، فهو أكثر الناس استحقاقاً للاحترام من أي

رجلٍ في العالم. إنّه من أكثر الشخصيات وجاهة في المُقاطعة، حتى الخنازير تتوقّف وتنظر إليه في إحساس بالتبجيل. أذيال معطفه أطول جدّاً من غيره.. وغليونه، وحذاؤه.. وإبزيمه، وعيناه، وبطنه، كلها أكبر جدّاً في قياساتها.. من نظيراتها لدى الرجال المُسنين الآخرين في القرية؛ أما فيما يتعلّق بذقنه، فهو ليس ضعف ذقونهم فحسب، وإنّما أضخم ثلاث مرات.

هكذا أكون قد رسمت صورة لمقاطعة فوندرفورتايمتس السعيدة: لكن، يا للأسف، تلك الصورة الجميلة لا تخلو من شيءٍ يجعلها على النقيض من ذلك!.

كان هُناك، منذ زمنٍ سحيق، مثلٌ شعبي مُتداول وسط الناس الحكماء، يقول: «لا يُمكن لأي خيرٍ أن يأتي من وراء التلال»؛ وبدا حقّاً أنّ الكلمات كانت تحمل بين ثناياها شيئاً من روح النبوّة. لم يتطلّب الأمر أكثر من خمس دقائق بعد ظهيرة أمس الأول، حتى ظهر شيءٌ غريب المنظر على ذرى الحافة الصخرية إلى جهة الشرق. مثل هذه الظاهرة طبعاً جذبت انتباه الجميع، فحوّل كلُّ رجلٍ مُسنٍّ ضئيل كان يجلس على كرسيٍ ذي مسندين مُبطن بالجلد إحدى عينيه وأخذ يُحملق في فزعٍ صوب تلك الظاهرة، ومع ذلك تبقى العين الأُخرى على ساعة البرج.

لكن الوقت الذي تطلّبته تلك الظاهرة لم يتجاوز ثلاث دقائق من الظهيرة، حتى اتّضحت معالم ذلك الشيء المُضحك الذي نتكلّم عنه، إنّه شاب ضئيلٌ غريب المنظر. انحدر الفتى على التلال سريعاً، حتى تمكّن الجميع من النظر إليه جيداً. كان حقّاً من أكثر الشخصيات الخرقاء الصغيرة التي سبق رؤيتها في فوندرفورتايمتس. ملامحه قاتمة مثل فتيلة شمعة مُحترقة، وأنفه طويل معقوف، وعينان مثل البازلاء الخضراء، وفمه واسع، وأسنانه صقيلة رائعة، ويبدو أنّه كان يحرص على إظهار أسنانه، فيما هو يُكشر عنها فيفتح فمه من الأُذن إلى الأُذن. أما الشارب وشعرات اللحية، فلا تظهر وراءها بقية أجزاء وجهه. كان رأسه عارياً، وعلى شعره قصاصاتُ ورقٍ مُزيتة لتصفيفه. والثوب الذي يلبسه ضيق، فهو مُجرّد [424]معطف أسود اللون ينتهي بذيلٍ مثل ذيل السنونو (من أحد جيوبه يتدلّى منديلٌ أبيض طويل جدّاً)، وبنطلون كشميري قصير أسود يصل إلى

الركبتين، وجوارب سوداء، وحذاء خفيف مُنتفخ، مع حزمةٍ من أشرطة الساتان الأسود في مُقدمته. تحت إحدى ذراعيه برنيطة كبيرة، وتحت الذراع الأُخرى آلة كمان تكاد تكون أكبر من حجمه بخمس مرات. في يده اليسرى علبة سعوط ذهبية، يأخذ منها كميات دون توقّف وهو ينحدر مُتراقصاً في مرحٍ إلى أسفل التل ويقطع خطوات هائلة، وقد بدت عليه أقصى درجات الاقتناع بنفسه. رحماك يا الله!.. إنّه حقّاً مثالٌ لمواطن شريف من فوندرفورتايمتس!.

إذا شئنا الصراحة، في وجه ذلك الشخص، على الرغم من ابتسامته العريضة، ما يدلّ على الحقارة والفساد؛ وبينما كان ينحدر باتّجاه القرية، أثار منظر حذائه القديم المُنتفخ الكثير من الهواجس والشكوك؛ ولا بُدّ أنّ كثيراً من المواطنين الذين شاهدوه في ذلك اليوم سخروا من طلعته بمنديله الأبيض من الكتان الناعم الذي يتدلّى في تطفلٍ من جيب معطفٍ ينتهي بذيل كذيل السنونو. لكن الشيء الذي أثار أساساً ما يستحقه ذلك المغرور من الامتعاض أنّه، فيما كان يرقص في تبجّح هُنا، ويدور وهُناك، لم تكن لديه أدنى فكرة في العالم عن ضرورة توقيت خطواته.

لكن نادراً ما أُتيحت للسكان الطيبين لتلك المُقاطعة فرصة لفتح عيونهم، فالأمر لم يتطلّب أكثر من نصف دقيقة من الظهيرة، حتى نطّ ذلك الوغد، كما أقول، فاستقرّ وسطهم؛ ثم راح يرقص، فيترنّح *chassez* هُنا ويتوازن *balancez* هناك؛ وبعد أن دار على قدمٍ واحدة وأكمل التفافة واحدة، استقرّ كراقص الباليه على عقبيه *a pas-de-zephyr* ثم ما لبث أن طار كالحمامة حتى وصل إلى برج المجلس البلدي، حيث كان رجل الناقوس الذي أذهلته الصدمة جالساً يُدخّن غليونه وهو في حالةٍ من المهابة والفزع. لكن القزم أمسكه فوراً من الأنف؛ وصار يلوي ويسحب؛ ثم لطمه على رأسه بالبرنيطة الكبيرة؛ وخبطه أيضاً على عينيه وفمه؛ ثم رفع الكمان الضخم، وأخذ يكيل له الضربات في مُثابرةٍ وإصرار مُحدثاً ضجة، ولأنّ رجل الناقوس كان بديناً، والكمان أجوف، فالمرءُ في وسعه أن يُقسم على أنّ كتيبة من المُنشدين بأصوات جهورية كانوا يضربون في آنٍ واحد على وشم الشيطان القابع في برج ناقوس فوندرفورتايمتس.

لا أحد كان يعرف سبباً ربّما يُبرّر ذلك التصرّف الأهوج، والانتقام المُحبط، هذا الهجوم المُستنكر، باستثناء حقيقة مُهمة وهي أنّ الأمر لم يتطلّب الآن أكثر من نصف ثانية فقط من الظهيرة. كان الناقوس على وشك أن يرن، وإنّها لمسألة [425]عاجلة أن ينظر كلّ شخصٍ إلى ساعته. لكن اتّضح في هذه اللحظة أنّ ذلك الشخص كان يفعل شيئاً ليس من شأنه أبداً القيام به في برج الساعة. وبينما بدأت الساعة الآن بالرنين، لم يحفل أي شخص بحركاته، إذ كان عليهم جميعاً أن يُحصوا دقات الجرس.

«واحدة!» دقّت الساعة.

«فون!» ردّد الصدى كلّ عجوز جالس على كرسي ذي مساند مُبطن بالجلد في فوندرفورتايمتس. «فون!» أعلنت ساعته اليدوية أيضاً؛ «فون!» دقّت ساعة رفيقته *vrow*؛ و«فون!» أعلنت ساعات الصبيان، وكذلك ردّدت الأجراس الذهبية الصغيرة المربوطة على ذيل القطة والخنزير.

«اثنتان!» استمرّ الجرس الكبير بالرنين؛ و..

«دوو!» هتف جمعُ المردّدين.

«ثلاث! أربع! خمس! ست! سبع! ثمان! تسع! عشر!» رن الجرس.

«دري! فاور! فايب! ساكس! سيبن! آيت! نوين! دين!» رد الآخرون.

«إحدى عشرة!» دقّ الجرس الضخم.

«ايليبن!» ردّدت الأجراس الصغيرة موافقة.

«اثنتا عشرة!» دقّ الجرس.

«دفيلف!» أجابوا وهم مُقتنعون تماماً، وكانت أصواتهم مُنخفضة جدّاً من فرط التعب.

«والآن الساعة هي الثانية عشرة! *und dvelf it is* قال الرجال المُسنّون الصغار، وكانوا يضبطون ساعاتهم. لكن الجرس الكبير لم ينته من دقاته بعد.

«ثلاث عشرة!»[4] قال.

«إنه الشيطان!» *Der Teufel* قال الأقزام المُسنّون وهم يلهثون، وقد شحبت وجوههم، وأسقط كل واحد منهم غليونه، وأنزلوا سيقانهم اليمنى من على ركبهم اليسرى.

«الشيطان!» استمروا يئنون، «الثالثة عشرة! الثالثة عشرة!!.. يا إلهي، إنّها الساعة الثالثة عشرة!!».

ولكن لماذا نُحاول وصف المشهد الفظيع الذي أعقب ذلك؟ كل من كان في فوندرفورتايمتس صار يهذر ويضج في حالة يُرثى لها من الفزع.

«ما الذي يحصل لمعدتي؟» *Vot is cum'd to mein pelly* ضجّ كل واحد من الصبيان.. «إنها تُثير غضبي في هذه الساعة!».

«ما الذي حدث للكُرنب المفروم الذي طبخته؟» *Vot is com'd to mein kraut* صاحت كل واحدة من النسوة، «كاد يتحوّل إلى شيء مُقرف في هذه الساعة!».

«ما الذي حدث لغليوني؟» *Vot is cum'd to mein pipe* أقسم كل الأقزام المُسنّين، «قسماً بالرعد وبالبرق؛ كان الغليون مُعبئاً بالتبغ قبل هذه الساعة!».. وعبأ كل واحد منهم غليونه من جديد في حنقٍ شديد، وغطسوا ثانية في كراسيهم ذات المساند، وأخذوا ينفثون الدخان في سرعة وضراوة حتى امتلأ الوادي كله بدخانٍ لا تخترقه الأبصار.

في هذه الأثناء تحوّل لون القرنبيط كله إلى أحمر قانٍ في وجوههم، وبدا [426]كما لو أنّ العجوز نك[5] نفسه قد استحوذ على كل شيء يتّخذ شكل آلة

(4) تدقّ الساعة ثلاث عشرة مرة في مُناسبات نادرة، وهي ظاهرة غريبة كعلامة على الموت أو الحظ السيئ جدّاً. انظر: إليوت أودونيل (ظاهرة الأشباح) 1910، ص 33، 161. [المترجم]

(5) في الرسالة الثالثة له من (رسائل عن الشياطين) 1830، كتب سر والتر سكوت: «العجوز نك معروف في إنكلترا أنّه من نسل إله البحار الشمالية نيكسا أو نيكساس». [المترجم]

لقياس الزمن. ثم راحت الساعات المحفورة على الأثاث الخشبي تتراقص كأنّما مسّتها روح سحرية، بينما لم تتمالك الساعات التي على المواقد أنفسها عن الانفعال والغضب، وظلّت مُستمرّة في رناتها الثلاث عشرة، وكان تراقص ودوران رقاصاتها شيئاً مُذهلاً حقّاً أن يراه المرء. لكن الأسوأ من هذا وذاك أنّ القطط والخنازير ما عادت تتحمّل رنين الأجراس الصغيرة المربوطة في ذيولها، وقاومت ذلك ورفضته رفضاً مُنكراً بأن راحت تجري هُنا وهُناك في أرجاء المكان وهي تُخربش وتحفر بأظافرها، وتُصرّ على أسنانها وتصرخ مذعورة، وتموء وتثغو، وتقفز لتُخربش الوجوه، ثم تجري لتختبىء تحت المعاطف القصيرة للناس، وتُثير أنواع الضجيج المُربك الفظيع التي لا يُمكن للإنسان العاقل أن يتصورها. وممّا زاد الطين بلّة، أنّ ذلك القزم الوغد القابع في برج الناقوس كان فيما يظهر يُكافح ويبذل أقصى ما في وسعه. وبين الفينة والأُخرى ربّما استطاع المرء أن يلمح شكل ذلك الوغد من خلال الدخان. كان هُناك في البرج يجثم على رجل الناقوس، والأخير مُنبطح على ظهره. بين أسنانه يُمسك ذلك الوغد بالحبل المربوط بالجرس، ويستمر في جذبه هُنا وهُناك برأسه، وأثار ضجيجاً يجعل أذني تطنّان الآن لمُجرّد التفكير في ذلك. على حضنه وضع الكمان الضخم، وكان ينقر عليه، فتخرج نغمات ناشزة خارج نطاق الزمن، مُستخدماً كلتا يديه، كأنّه في استعراضٍ عظيم، يا للمُغفل! كان يعزف أغنية «جودي أوفلاناغان وبادي أورافيرتي».

وجدت الأمور بائسة على هذا المنوال، فتركتُ المكان وأنا أشعر بالغثيان، والآن ألتمس العون من كل مُحبي التوقيت الصحيح للزمن وحساء الكُرنب اللذيذ. دعونا نهبّ هبّة رجلٍ واحد ونمضي إلى تلك المُقاطعة لكي نسترد النظام القديم الذي كان سائداً في فوندرفورتايمتس بأن نُلقي ذلك القزم من أعلى برج الناقوس.

رجل الأعمال

«المنهج روح النجاح في الأعمال..».

مثل شعبي قديم.

أنا من رجال الأعمال.. رجلٌ منهجي بطبعي. على كل حال، أن يتّبع المرء [427]منهجاً أو لا يتبع، تلك هي المسألة. ولكن ليس هُناك أُناسٌ أحتقرهم من صميم قلبي أكثر من أولئك الأغبياء المُنحرفين من أمثالكم الذين يُثرثرون عن المنهج من غير أن يفهموا منه شيئاً؛ فهم يتمسّكون تمسّكاً صارماً بالمعنى الحرفي للكلمة، ويسيئون إلى روحها. هؤلاء كثيراً ما يفعلون أكثر الأشياء بُعداً عن الموضوع فيما يزعمون أنّه أسلوب منهجي. هُنا، كما أتصوّر تكْمن مُغالطة حقيقية. المنهج الحقيقي ينبغي أن يتماشى مع الشيء الاعتيادي والواضح وحده، ولا يُمكن تطبيقه على الأمور الغريبة والشاذة. فأي فكرة مُحدّدة يُمكن للمرء أن يربطها إلى تعبيرات من قبيل «المنهجي جاك الغندور»، أو «النظامي ويل الهزيل»؟

ربما لن تبدو مفاهيمي في هذا الاتّجاه واضحة كما ينبغي، لولا حادثة جاءت لحُسْن حظي وقعت لي حين كنت صغيراً.. صغيراً جدّاً. حملتني إحدى المُمرضات الإيرلنديات الطيّبات القلب (لن أنساها ما حييت) ذات يوم وهي تمسك بي من الأعقاب، بعد أن أحدثتُ ضجة أكثر ممّا ينبغي، وهزّتني مرتين أو ضربت رأسي على عمود السرير فصار مثل قبعة معقوفة. هذه الحادثة، كما قلت، غيّرت مجرى حياتي، وحدّدت مصيري. بعد ذلك ظهر فوراً انتفاخٌ على الهامة، واتّضح لاحقاً أنّ تلك أصبحت علامة مُميزة لإنسان مُغرم بالنظام لا تُخفى على المرء في نهار صيفي. من هُنا نشأت لديّ رغبة جامحة حقيقية في اتباع المنهج

والنظام جعلتني بالتالي رجلاً مرموقاً في ميدان الأعمال والتجارة على النحو الذي ترونه.

لو أنّ هُناك شيئاً على الأرض أمقته أكثر من سواه، فهو الشخص العبقري. العباقرة الذين تعرفونهم كلهم حمْقى مُتشرّدون.. كلّما كان الرجل عبقرياً أصبح حماراً وأكثر غباءً.. ولا استثناءٌ عن هذه القاعدة. على وجه التحديد لا يُمكن أن يُصبح العبقري رجل أعمال، مثلما لا تستطيع أن تنتزع المال من يهودي، أو تستخرج جوز الطيب من عروق الصنوبر. الناس دائماً ينحرفون إلى مسارٍ خارج عن المألوف من المُمارسات العجيبة في اختيار العمل المُناسب، أو يدفعهم إلى ذلك [428]حدسٌ سخيف، على نحو مُغاير تماماً «لما تقتضيه الأمور»، فلا تحصل على أي عملٍ يُمكن اعتباره مُربحاً على الإطلاق. لهذا يُمكنك أن تُميّز الأشخاص حالاً من طبيعة عملهم. إذا رأيت تاجراً أو صانعاً ماهراً، أو رجلاً يعمل في تجارة القطن أو التبغ، أو أي واحدة من تلك المهن الغريبة؛ أو في تجارة المواد الغذائية الجافة، أو في معامل الصابون، أو أي شيء من ذلك؛ أو يتظاهر بأنّه يعمل مُحامياً، أو حداداً، أو طبيباً.. أو أي شيءٍ خارج السياق الاعتيادي.. ربّما تضعه على الفور ضمن فئة العباقرة، ومن ثمّ، وفقاً للقانون فهو من الصنف الثالث، أي: أنّه حمار.

الآن، أنا لست على كل حال من العباقرة، لكنّي رجل أعمال بسيط. سجلّ أعمالي اليومي ودفتر الأستاذ الذي يتضمّن جميع حساباتي سوف يبرهنان على هذا في لحظة. هذه السجّلات تُدام وتُراجع باستمرار، مع أنّي من يقول هذا وليس غيري؛ ومن عاداتي المألوفة على وجه العموم في توخّي الدّقة والحرص على التفاصيل، أنّني حريص على أن لا أدع الزمن ينتصر عليّ. فضلاً عن هذا، فإنّ انشغالاتي كانت دائماً تنسجم ولا تتعارض أبداً مع عادات رفاقي في العمل. هذا لا يعني أنّني أشعر بأقل دينٍ، على ما وصلت إليه، إلى والديّ المُختلّين عقلياً، اللذين من غير شك كانا ليجعلا مني عبقرياً مُتشرداً على أقل تقدير، لولا أن جاء ملاكي الحارس في الوقت المُناسب لإنقاذي. في كتابة السيرة، تُعتبر الحقيقة كل شيء، أما في السيرة الذاتية فهذه الحقيقة لا جدال فيها.. إلا أنّي

نادراً ما أطمح لأن يصدقني أحد حين أؤكد، وإن كنت جاداً غاية الجد، على أنّ أبي الفقير أدخلني، حينما كنت في الخامسة عشرة تقريباً من عمري، إلى دار للمُحاسبة يملكها شخص يُسمونه «تاجر خردوات وقومسيون مُحترم يُزاول أعمالاً تجارية مُمتازة!» تلك الأنواع من الهراء التي يُسمونها عملاً تجارياً مُمتازاً! لكن، كان من نتائج هذا الهراء، بعد يومين أو ثلاثة، أن اضطروا لإرسالي إلى عائلتي الفقيرة المُنكسرة وأنا أعاني من حمّى فظيعة، ومن الآم شديدة خطيرة في هامتي، كل عضو في جسدي لم يكن يعمل كما ينبغي. تكاد تلك تكون من الحالات العابرة آنذاك .. وظلت الحمى تنتابني وتُبارحني طوال ستة أسابيع.. والأطباء أعطوني كل أنواع الأدوية. لكن، على الرغم من مُعاناتي الأليمة، فلم أكن صبياً مُتذمراً في الأساس. وتخلّصت من مصيرٍ كان سيقودني لأن أُصبح «تاجر خردوات وقومسيون مُحترم يُزاول عملاً مُربحاً»، وأحسست بالامتنان إلى الورم الذي كان وسيلة خلاصي، فضلاً عن الامتنان إلى الأنثى ذات القلب الرحوم التي وضعت تلك الوسيلة في الأصل تحت تصرفي.

مُعظم الصبيان كانوا يهربون من منازلهم وهم في العاشرة أو الثانية عشرة، لكنّي انتظرت حتى بلغت السادسة عشرة. لم أكن أعرف أنّه كان ينبغي عليّ أن أرحل قبل ذلك الوقت، لولا أن حدث فسمعت أمي العجوز تتحدّث عن إرسالي لألتقط رزقي اعتماداً على نفسي في مجال البقالة. مجال البقالة!.. عليك أن تُفكر في هذا! وقرّرت الرحيل فوراً، وأن أُجرب أن أؤسس لنفسي مكانة مرموقة في مهنة [429]ما، دون أن أعتمد بعد الآن على تدخّلات ونزوات هؤلاء العجائز الغريبات الأطوار، والتي كان يُمكن أن تُعرّضني إلى خطر أن أصبح عبقرياً في نهاية الأمر. وتكلّل مشروعي بالنجاح، أيّ نجاح، منذ جهودي الأُولى التي قمت بها، وبمرور الزمن وصلت إلى الثامنة عشرة تقريباً، فوجدت نفسي أُحقق إنجازات رائعة كثيرة كنت أجني منها الأرباح في مجال الدعاية المُتنقلة لمؤسسة تيلور.

تمكّنت على نحو أو آخر من التغلب على الصعوبات التي تكتنف هذه المهنة الشاقة، وتحقّق لي ذلك بالالتزام الصارم بقواعد النظام الذي فرضته على نفسي وصار بمثابة الخاصية الأساسية لعقلي. كان ثمّة منهج يتّسم بالوسوسة وكثرة

الهواجس يُميز تصرفاتي وحساباتي. من وجهة نظري الشخصية فإنّ المنهج.. وليس النقود.. هو ما يصنع الرجال: على أقل تقدير فذلك المجد لم يصنعه الخياط الذي كنت أعمل لديه. في الساعة التاسعة من كل صباح، كنت أزور ذلك الرجل لاختيار الملابس التي أرتديها في يومي. وفي الساعة العاشرة أجد نفسي أتجوّل في مُتنزهٍ جميل أو مكانٍ عام آخر للترفيه. كان الانتظام الدقيق لحركاتي الرشيقة وأنا أتحرّك في حلّتي الأنيقة هُنا وهُناك، لكي أجعل كل جزء من السترة التي على متني يُرى على التوالي، يحظى بإعجاب كلّ رجل صاحب خبرة في هذه المهنة. لم تكن الظهيرة لتمضي دون أن أجلب معي زبوناً إلى محل عملي، محل السادة كات وكوماغين[1]. أقول هذا وأنا فخور، مع أنّ الدموع تترقرق في عيني.. لأنّ أصحاب الشركة كانوا من الجاحدين. المبلغ القليل الذي تنازعنا بشأنه، وأدّى إلى افتراقنا أخيراً، لا يُمكن أن يعتبره الخبراء الحقيقيون في الأعمال التجارية باهظاً في أي بند من بنوده. لكنني أشعر بشيء من الفخر والاقتناع هُنا في أن أُتيح للقارىء الحصيف الحكم بنفسه. قائمة الثمن التي قدمتها إليهم كانت على النحو التالي:

السادة كات وكوماغين، لتجارة الأقمشة والخياطة.

إلى بيتر بروفت، وكيل إعلانات مُتجوّل ..حساب المدين.

10 تموز.. ثمن التجوال كالمُعتاد وجلب الزبون إلى المحل -0025 دولار

11 تموز.. ثمن فعل كذا.. وكذا.. وكذا..- 25

12 تموز.. ثمن كذبة واحدة من الصنف الثاني؛ ثوب أسود مُستعمل مُباع على أنّ لونه أخضر غير مرئي- 25

13 تموز.. ثمن كذبة واحدة من الصنف الأول؛ غطاء، نوعية فاخرة وحجم مُمتاز؛ منسوج فاخر يُنصح به من مصانع الساتان- 75

---

(1) هناك شخصية الدكتور كاتانكوماغين وهو طبيب روسي في رواية ديكنز (أوراق مدفوغ) 1838. [المترجم]

20 تموز.. ثمن شراء ورق مُقوّى رمادي جديد من أجل ياقة قميص أو صدرية، نوع بيترشام - 02

15 آب.. ثمن ارتداء عباءة مُزدوجة البطانة قصيرة الذيل (درجة الحرارة في الترمومتر 106 في الظل) - 25

[430]16 آب.. ثمن الوقوف على قدمٍ واحدة ثلاث ساعات، لعرض سراويل من نوع جديد بسعر 5، 12 سنت لكلّ ساق ولكل ساعة وقوف- 5، 37

17 آب... ثمن الذهاب إلى حفلة راقصة كالمُعتاد، وجلب زبون ضخم (رجل سمين)- 50

18 آب... ثمن فعل كذا.. وكذا (رجل متوسط الحجم)- 25

19 آب.. ثمن فعل كذا.. وكذا (رجل صغير ودفع سيئ)- 06

المجموع الكلي: 2 دولار و 5، 95 سنتاً..

البند الأساسي الذي أثار الخلاف بشأن قائمة الحساب هذه مبلغٌ زهيد هو بنسان للصدرية. أقسم بشرفي، لم يكن هذا السعر مُبالغاً فيه لتلك الصدرية. إنّها من أنظف وأجمل الصدريات التي رأيتها في حياتي؛ وعندي من الأسباب ما يجعلني أعتقد أنّها أدّت بي إلى بيع ثلاثٍ غيرها من نوع بيترشام. لكن الشريك الأكبر سنّاً في الشركة لم يقبل أن يُعطني أكثر من بنسٍ واحد ثمناً لها، وأخذ عهداً على نفسه أن يُثبت بأي وسيلة أنّه يستطيع استخراج أربع ياقات من الحجم نفسه من ورقة فولسكاب. لا داعي للقول: إنّني أصررت على المبدأ في هذا الشأن. العمل هو العمل، ويتوجّب أن يتم بطريقة مهنية. لم يكن هُناك وجه حق في اختلاس بنسٍ واحد منّي.. إنّها خدعة تُكلّف خمسين بالمائة.. لا يوجد منهج في الأمر إطلاقاً. وعلى الفور تركتُ العمل لدى شركة السادة كات وكوماغين، وانطلقت أعمل وحدي ضمن خط «الترويج للعقارات ذات الأشكال والتصاميم الغريبة المؤذية للعين» *Eye- Sore*.. وهو من المهن الاعتيادية الأكثر جلباً للربح، والاحترام، والتي توفّر نوعاً من الاستقلال.

وهُنا تجلت مرة أُخرى عاداتي الصارمة في النشاط الاقتصادي على أكمل وجه. وجدتُ نفسي أُدير تجارة مُزدهرة، وسرعان ما أصبحتُ رجلاً يُشار إليه بالبنان في ميدان تشانج. الحقيقة أنّني لم يسبق أبداً أن عملتُ في أمور بمثل هذه الجاذبية، ولكنّي عدتُ ألعب على وتر الروتين القديم في المُناداة للترويج لبضاعتي.. تلك المُناداة التي كانت من غير شك ستبقى شغلي الشاغل حتى الساعة الحالية، لولا حادثة صغيرة وقعتْ لي أثناء أداء إحدى العمليات العادية التي تقتضيها المهنة. كلّما فكر عجوزٌ سمين أو وريث مُترف مُبذّر أو صاحب مؤسسة أشهرت إفلاسها بتشييد قصر، فليس هُناك شيء في العالم يُمكن أن يمنع أي أحد منهم من القيام بذلك، ويعرف كل شخص ذكي هذا جيداً. الحقيقة التي نتكلّم عنها في الواقع تُشكّل قوام تجارة العقارات «ذات المنظر المُزعج المؤذي للعين». ولهذا، حالما يبدأ مشروع البناء إلى حدٍّ ما بالدخول إلى حيّز التنفيذ لصالح احد هذه الأطراف، فنحن المُقاولون [431]نحرص كل الحرص على أن نوفر ركناً لطيفاً هادئاً ضمن المشروع الذي نفكّر فيه، أو موقعاً صغيراً في الجوار، أو مكاناً يقع في الواجهة تماماً. فإذا فعلنا ذلك، نبقى ننتظر حتى يكون القصر قد وصل إلى مُنتصف مراحل البناء، ومن ثم ندفع أُجرة مُناسبة إلى معماري له ذوق رفيع لكي يُجري أعمال الزخرفة بالجص على ذلك الكوخ الصغير، تماماً في الواجهة؛ أو نبني معبداً شرقياً مُتعدد الأدوار أو شرفة هولندية، أو زريبة خنازير، أو قطعة فنّية صغيرة من وحي الخيال العبقري، سواءً كانت على طراز الأسكيمو، أو قبائل الكيكابو من الهنود الحمر في أمريكا، أو قبائل هوتينتوت في جنوب أفريقيا.

بطبيعة الحال لن نتمكّن من تشويه منظر هذه التركيبات المعمارية مُقابل علاوةٍ قيمتها خمسمائة بالمائة من الكلفة الأصلية لقطعة الأرض وأعمال الزخرفة بالجص. هل يُمكننا ذلك؟ أنا أطرح هذا السؤال. أطرحه على لسان رجلٍ من رجال الأعمال. سوف يكون من غير المنطقي افتراض أنّنا نستطيع ذلك. ومع هذا طلبتْ مني مؤسسة يديرها بعض الأوغاد الأغبياء القيام بهذا على وجه التحديد.. هذا الشيء بعينه! لم أرد على مُقترحهم العابث، طبعاً؛ ولكنّي أحسست بأنّ

واجبي يُحتم عليّ الذهاب في تلك الليلة ذاتها، وأن أُسوّد وجه قصرهم اللّعين كله. بسبب هذا العمل المُتهور زجّ بي الأوغاد في السجن؛ والرجل الذي يعمل في تجارة العقارات الغريبة المنظر لم يتردّد في قطع أي علاقة تربطني به حالما خرجتُ من السجن.

كانت تجارة «التعرض للضرب المُبرّح والجرح لغرض الابتزاز» *Assault-and-Battery* التي أجبرتُ نفسي الآن على تجربتها لأكسب رزقي لا تنسجم بعض الشيء مع الطبيعة النزقة لمزاجي؛ لكنّي ذهبتُ للعمل فيها عن طيبِ قلب، ووجدتُ قيمتي الحقيقية هُنا، كما وجدتها في أماكن سابقة حتى الآن، من خلال تلك العادات الصارمة لاتّباع الدقة المنهجية التي اقتحمت رأسي نتيجة لضربة تلك المُمرضة العجوز المرحة.. سوف أكون في الواقع من أحقر الجاحدين إذا لم أتذكّرها جيداً بمحض إرادتي. من خلال الالتزام، كما قلت، بالنظام الأشد صرامة في كل تعاملاتي، والاحتفاظ بمجموعة سجلات أُراجعها باستمرار، تمكّنت من التغلّب على كثيرٍ من الصعوبات، وفي نهاية الأمر، استطعت أن أؤسس لنفسي مكانة لائقة جدّاً في هذه المهنة. في حقيقة الأمر، هُناك بضعة أفراد، في أي مجالٍ مهني، يتفوّقون عليّ قليلاً في هذا الشأن. سوف أقتبس فحسب نسخة من صفحة أو نحو ذلك من السجل اليومي؛ وهذا من شأنه أن يوفّر عليّ النفخ في البوق للترويج لنفسي.. وهي مُمارسة حقيرة لن يعتبر أيُّ رجلٍ رشيد مذنباً بسببها. والآن، السجل اليومي لا يُمكن أن يخذل صاحبه.

«1 كانون الثاني.. عيد رأس السَّنة. التقيت «سناب» في الشارع، كان سكراناً حتى الثمالة. مُلاحظة.. سوف يفي بالغرض. التقيتُ غروف بعد مدة قصيرة، كان سكراناً أيضاً حتى الثمالة. مُلاحظة.. سوف يُلبي غرضي. أدخلت كلا الرجلين في دفتري، وفتحتُ لكل واحدٍ منهما حساباً جارياً.

«2 كانون الثاني.. رأيت «سناب» في محل الصيرفة، وذهبتُ باتّجاهه ودست على إصبع قدمه. لملم قبضته وضربني فأسقطني أرضاً. هذا جيد!.. نهضتُ من جديد. واجهت بعض الصعوبات مع باغ، المحامي الذي وكّلته. كنت أُريد تعويض الأضرار بألف، لكنه قال: إن مُقابل خبطة بسيطة مثل هذه لا يُمكننا

مُطالبتهم بأكثر من خمسمائة. مُلاحظة.. ينبغي التخلّص من باغ ..لا منهج لديه على الإطلاق.

«3 كانون الثاني.. ذهبتُ إلى المسرح، كنت أبحث عن غروف. رأيته جالساً [432]في مقصورة جانبية، الصف الثاني من المدرّج، بين سيدةٍ بدينة وأُخرى نحيفة. أمعنت النظر إليهم جميعاً من خلال نظارة الأوبرا، حتى رأيت السيدة البدينة يتورّد خدها من الخجل وهي تهمس في أُذن غ. التففتُ حتى وصلت إلى المقصورة، وقرّبت أنفي من مُتناول يده. ألن تسحبه.. كلّا اذهبْ. نفختُ هواءً من أنفي، وحاولت مرة أُخرى.. كلّا اذهبْ. جلستُ إذن، وغمزت للسيدة النحيفة، وأخيراً توصّلتُ إلى اقتناعٍ تام بتحقق غرضي بأن وجدته يرفعني عالياً من مؤخرة عنقي، ثم ألقى بي إلى الجزء الخلفي من المسرح. تزحزحتْ رقبتي من موضعها، وكُسرت ساقي اليمنى كسراً مُضاعفاً. عدتُ إلى البيت وأنا أحس بنشوة غامرة، وشربتُ زجاجة شمبانيا كاملة وطالبتُ الشاب بدفع خمسمائة. يقول باغ: إن المبلغ يكفي.

«15 شباط.. توصلنا إلى تسويةٍ بشأن قضية السيد سناب. وأدرج المبلغُ في السجل.. خمسون سنتاً.. كما ترى.

«16 شباط.. تلقيتُ دفعة من ذلك الشرير غروف، الذي قدّم لي هدية بمبلغ خمسة دولارات. كلفة السترة، أربعة دولارات وخمسة وعشرون سنتاً. الربح الصافي.. انظر السجل.. خمسة وسبعون سنتاً».

الآن، هذا ربحٌ لا غبار عليه، تحقّق في مدة قصيرة جدّاً، لا يقلّ عن دولار وخمسة وعشرين سنتاً.. في حالتي سناب وغروف فقط؛ وأؤكد جازماً للقارئ أنّ هذه المُقتبسات أُخذت عشوائياً من دفتري اليومي.

هُناك مثلٌ شعبي قديم، وهو يُعبّر عن شيءٍ حقيقي، يقال: إنّ النقود لا تُساوي شيئاً بالقياس إلى العافية. لقد واجهتني متاعبُ مهنية كثيرة لا تُطيقها حالة جسدي المُرهق؛ ولما اكتشفت أخيراً أنّ جسمي تعرّض إلى ضرب قاسٍ في كل ناحية حتى كاد يفقد شكله الأصلي، لم أعد أعرف على وجه الدقة ما الذي

يُمكنني عمله لمُعالجة الأمر، حتى أصدقائي، حين قابلوني في الشارع، لم يتمكّنوا من معرفة أنّني بيتر بروفت مُطلقاً، فظهر لي أنّ أفضل وسيلة يُمكن اتّباعها أن أُغير خط عملي. وهكذا تحوّل اهتمامي إلى «رشّ الوحل على الناس»، ورحتُ أُزاول هذه المهنة لسنوات.

الشيء الأكثر سوءاً في هذه المهنة أنّ الكثير من الناس مولعون بها، وبهذا تكون المُنافسة على أشدها. كل شخصٍ خامل الذكر لا يمتلك ما يكفي من النشاط الذهني ليشقّ طريقه في العمل كوكيل إعلانات مُتجوّل، أو كمقاول عقارات مُشوهة المنظر، أو كخبازٍ مُلوث دائماً بالملح والعجين سوف يُفكر، طبعاً، بأن من الأفضل له أن يلجأ لرش الناس بالوحل. لكن لا يمكن أن تكون هُناك فكرة تُراود الذهن أكثر خطأً من تلك الفكرة التي يُقال فيها: إن رش الوحل لا يحتاج إلى شيء من الذكاء. هُنا خصوصاً، لا شيء يُنجز بهذه الطريقة دون منهج. كنت أقوم بالبيع بالتجزئة فحسب بنفسي، إلّا أنّ عاداتي في الحرص على اتّباع المنهج صارت تجرفني هُنا وهُناك. [433]لقد اخترت تقاطعَ الطرق الذي سوف أعمل فيه، في المقام الأول، وتوخّيت في ذلك أقصى درجات التأني، ولم أكن أبداً لأضع مكنستي في أي جزءٍ من البلدة غير ذلك المكان. كنت أحرص كل الحرص أيضاً على أن تكون هُناك حفرة صغيرة رائعة في مُتناول يدي، يُمكنني الوصول إليها خلال دقيقة. بهذه الوسائل أصبحت معروفاً جدّاً كرجل خليق بالثقة؛ لكن هذا ليس إلا نصف المعركة، دعوني أُخبركم بما في جعبتي عن هذا النوع من التجارة. لم يكن أي شخصٍ يُلقي لي قطعة نقدية نحاسية لينجح أبداً في عبور التقاطع الذي أعمل فيه ببنطلونٍ نظيف. ولأنّ عاداتي في العمل ضمن هذا المجال قد فُهمت بما فيه الكفاية، فلم تواجهني أي صعوبة في فرض رأيي بتاتاً. وما كنت لأرضى، لو واجهتني. لم أفرض نفسي على أحد، ولم أواجه شخصاً يُحاول أن يتظاهر بالجهل وعدم الاكتراث بي. أولئك المُخادعون الذين يعملون في البنوك، طبعاً كنت عاجزاً عن استهدافهم. تسبّب لي احتراسهم بإزعاج مُدمّر. لكن هؤلاء لم يكونوا أفراداً، وإنّما مؤسسات؛ والمؤسسات كما هو معروف جيداً لا أجسام لها لكي تُركل ولا أرواح لكي تُلعن.

وبقيت أجني الأرباح من هذا العمل، حتى حصل في لحظة ملعونةٍ أن اضطررت لأخلط هذا العمل مع رشّ الوحل باستعمال كلبٍ لئيم.. وهي مهنة مُماثلة بعض الشيء لكنّها لا تحظى بالاحترام أبداً. كان الموقع الذي أعمل فيه، إذا توخّينا الدقّة، موقعاً مُمتازاً، في وسط البلد، وفيه كثير من القذارة وكثير من فرش المسح. وكلبي الصغير أيضاً كان سميناً ومُستعداً لاكتشاف كل أنواع السعوط بأنفه. كان يعمل معي في هذه المهنة منذ زمن طويل، وربما جاز القول إنّه قد استوعب أسرارها. روتين عملنا اليومي على النحو التالي: .. بومبي، بعد أن يُمرّغ نفسه جيداً في الوحل، يجلس في ركنٍ على عتبة أحد المحلات، حتى يُلاحظ غندوراً يتبختر مُقترباً بحذائه اللامع. ثم يمضي لمواجهته، ويفرك شعره على حذاءٍ فاخر من نوع ويلنغتونز مرة أو مرتين. وبعد ذلك يُقسم ذلك المُتأنق مُهدداً مُتوعداً، ويبحث حوله عن مُلمّع أحذية. وهُنا يأتي دوري، على مرمى البصر، بصبغي الأسود وفرشاتي. ولا يتطلّب الأمر أكثر من دقيقة عمل، ثم تُدفع لي قطعة من ستة بنسات.. في الواقع، لست بالإنسان الجشع، ولكن كلبي هو الجشع. كنت أسمح له بأن يأخذ ثلث المكسب، لكنّهم نصحوه بالإصرار على أخذ النصف. وهذا ما لم أستطع تحمّله.. فتشاجرنا وانفصلنا.

بعدها جرّبت أن أشغل نفسي في التكسب «بعزف الأرغن» فترة من الزمن، وربّما يُمكنني القول: إنّني حقّقت نجاحاً لا بأس به في هذا المجال. إنّه عمل سهلٌ، ومُباشر لا تعقيدات فيه، ولا يتطلّب أي مهارات على وجه التحديد. في وسعك أن تحصل على آلة موسيقية من أي شيء، تُساعدك في الغناء، ولكي نُعبّر عن الأمر بصيغة منهجية، ليس عليك إلّا أن تفتتح أعمالك، وتضرب على برميل فارغ مثلاً ثلاث أو أربع دقات خفيفة بالمطرقة. ذلك من شأنه أن يُعدل النغمات التي تصدرها الآلة تدريجياً، لأغراض عملية، أكثر ممّا تتخيّل. بعد أن تفعل هذا، ليس عليك سوى أن تتمشّى على الطريق، وقد وضعت الآلة على ظهرك، إلى أن ترى ضرورة [434]تجربة لحاء الدباغين على الشارع، ومدقّ بابٍ ملفوف بجلد الغزال، فتتوقّف وتعزف؛ ويجب أن يبدو كأنّك تريد العزف في ذلك المكان الذي تقف فيه إلى يوم القيامة. والآن تُفتح إحدى النوافذ، ويُلقي إليك

شخصٌ ما ستة بنسات، راجياً منك أن «تخرس وترحل بعيداً»، إلخ.. إنّني أدرك أنّ هُناك بعض العازفين يُطلب منهم فعلاً «الرحيل» لقاء هذا المبلغ؛ ولكن من جانبي أنا، فقد وجدت نفقات رأس المال جسيمة بحيث لا تسمح بـ «الرحيل» لقاء شلن.

في هذه المهنة، حققتُ نجاحاً مُنقطع النظير؛ ولكني، بوجه من الوجوه، لم أقتنع بما حقّقته، وتركتها أخيراً. الحقُّ أنّي كنت أُعاني من نقصٍ في مُتطلباتها الأساسية وهو عدم وجود قردٍ معي.. والشوارع الأمريكية موحلة جدّاً إلى درجة فظيعة، وحشودُ الناس الذين يطالبون بالديمقراطية كانت تُعيق طريقي باستمرار، والشوارع مُزدحمة بالصبيان الصغار المُزعجين.

أصبحتُ عاطلاً عن العمل مرة أخرى بضعة أشهر، ولكنّي أخيراً نجحت بعد كثيرٍ من المُثابرة في الحصول على وظيفة في مكتب بريد مُزيف. الواجبات هُنا بسيطة، ولا تخلو من فرص للربح. على سبيل المثال: .. في ساعةٍ مُبكرة من الصباح عليّ إعداد حزمتي الخاصة من الرسائل المُزيفة. في داخل كل رسالة أُخربش بضعة سطور عن أي موضوع يخطر على بالي بحيث يبدو غامضاً بما يكفي.. وأوقع اسم المرسل: توم دوبسون، أو بوبي تومبكنز، أو أي شيء من ذلك. وبعد أن أطوي الرسائل وأضعها داخل مُغلفات، وأدفعها بأختام العلامات البريدية للمكتب المُزيف.. نيواورليانز، بينغال، بوتاني بأي، أو أي مكان آخر يكون بعيداً بمسافة.. أنطلق في الحال في رحلتي اليومية، وأتظاهر بأنّي على عجلة من أمري. كنت دائماً أزور المنازل الفخمة لتسليم الرسائل، وتسلم بريدهم. لم يكن أحد ليتردّد لحظة في أن يدفع لي أُجرة توصيل الرسائل.. وبخاصة دفع قيمة مُضاعفة.. الناس أغبياء حقّاً.. ولم يكن من العسير الانعطاف فوراً إلى ركنٍ من الشارع قبل أن يُتاح وقتٌ يكفي لفتح الرسالة ومعرفة المُرسلين. الشيء الأكثر سوءاً في هذه المهنة، كان يتحتّم المشي مسافات طويلة وبسرعة؛ وفي كثير من الأحيان ينبغي تغيير مساراتي. إلى جانب هذا، كنت أحس بوخزاتٍ من تأنيب الضمير. لا يُمكنني تحمّل سماع أشخاص أبرياء وهم يُعبّرون عن استيائهم.. والطريقة التي تلعن فيها البلدة كلها أسماء توم دوبسون وبوبي تومبكنز كانت مُرعبة حقّاً حين يسمعها المرء. وغسلتُ يدي عن هذه المسألة واعتراني الاشمئزاز.

المهنة الثامنة والأخيرة التي فكّرت فيها تعتمد على منهج تربية القطط. وجدتها من أكثر الأعمال مُتعة ومكسباً، وتكاد تخلو من المتاعب. البلد، كما هو معروف جيداً، غزته القطط.. هكذا هي الحال منذ مدة، بحيث صار الناس يلتمسون الخلاص منها، فوقّعوا على التماسات عديدة قُدّمت إلى السلطات بطريقة مُهذبة، وعُرضت على أنظار المجلس التشريعي في دورته الأخيرة الشهيرة. كان المجلس، في هذه المرحلة، كما جرت العادة مطّلعاً تمام الاطّلاع على القضية، وبعد أن أصدر عدة تشريعات حكيمة ناجعة، توّج ذلك بتشريع قانون القطط. في شكله [435]الأصلي، هذا القانون أجاز منح مُكافأة لمن يأتي برؤوس القطط (أربع بنساتٍ لكل رأس)، مع أنّ مجلس الشيوخ نجح في إدخال تعديلٍ على البند الأساسي، بحيث يتم استبدال كلمة «ذيول» بـ «رؤوس». هذا التعديل جاء فيما يظهر في مكانه المُناسب، بحيث تمكّن المجلس من خلال ذلك من قهر المعارضين له *nemine contradicente*.

ما إن وقّع الحاكم على تلك الوثيقة، حتى عملت على استثمار مُمتلكاتي كلها في شراء قطتين: تومز وتابيز. في أول الأمر لم يكن في وسعي إلّا أن أطعمها الفئران (هي أرخص ثمناً)، ولكنهما أدّياً الوصايا المُقدسة[2] بمُعدل إنجاز مذهل، بحيث رأيت أخيراً أن أفضل السياسات التي يُمكنني اتباعها أن أكون ليبرالياً، وهكذا دللتهما بتوفير المحّار والسلاحف. كانت ذيولهما، لقاء السعر الذي حدّدته الهيئة القضائية، توفر لي الآن مدخلات جيدة؛ لأنّي اكتشفت طريقة، باستعمال دهن ماكاسار، يُمكنني بها تحقيق ثلاث ولادات في السّنة. كان ممّا يبعث البهجة في نفسي أنّ الحيوانات سرعان ما اعتادت الأمر، وكانت تفضل قطع الذيول بدلاً من العكس. لذا اعتبر نفسي رجلاً عصامياً، وأنا أُحاول الآن أن أجري صفقة للحصول على مقعدٍ في المجلس البلدي الذي يقع على نهر هدسون.

---

(2) يقصد بو بالوصايا المُقدسة ما جاء في سفر التكوين 1: 22 «لكي تكون غزير الإنتاج ويتضاعف نسلك». [المترجم]

فلسفة الأثاث

إذا أخذ المرءُ بنظر الاعتبار ما يتعلّق بالديكور الداخلي، وليس أُسلوب [436]العمارة الخارجية لمساكنهم، يعتبر الإنكليز مُتفوّقين في هذا الجانب. أما الإيطاليون، فلديهم قليلٌ من التعاطف خارج نطاق الرخام والألوان. في فرنسا يُقال «من اجل أن تحصل على الأفضل، عليك أن تتبع الاسوأ»[1] *meliora probant deteriora sequuntur* . . الناسُ في سباق لا يكاد يتوقّف، يتسكّعون ويلهثون هُنا وهُناك حرصاً على اقتناء المواد التي تحمل خصائص تتناسب مع منازلهم، تلك التي يُقدّرونها في الواقع حق قدرها بذوقهم المُرهف، أو على الأقل يُقدرون العناصر ذات المغزى الذي يتوخّونه فيها. والصينيون، ومُعظم الأعراق الشرقية الأخرى، لديهم خيالٌ واسع يتّسم بالدفء الحميم على غرابته. والاسكتلنديون فقراء في اهتمامهم بالديكور. والهولنديون ربّما كانت لديهم فكرة مُبهمة وهي أنّ الستارة لا تُشبه القرنبيط. وفي إسبانيا تنتشر الستائر في كل مكان.. إنّها أمة الجلادين. والروس لا يؤثثون منازلهم. وقبائل الهنود الحمر من الهوتينتوت والكيكابو عباقرة على طريقتهم الخاصة. واليانكي وحدهم مُخالفون للصواب.

كيف يحصل هذا! ليس من الصعب أن نعرف الأمر. لا توجد لدينا إرستقراطية موروثة، ولهذا فمن الطبيعي، وفي الواقع كشيء محتوم، أن نؤسس لأنفسنا أرستقراطية بالدولارات، هُنا يحلّ استعراض الثروة محلّ الأرستقراطية ويؤدي وظيفة الزعامة المُتوارثة في البلدان ذات النظام الملكي. من خلال تحوّل

---

(1) الاقتباس باللاتينية من أشعار أوفيد «مسخ الكائنات»، القسم 7؛ البيت 20- 21. [المترجم]

من السهولة فهمه، وربّما كان من السهولة أيضاً التنبؤ به، وصلنا إلى وضعٍ يجعلنا ننغمس في استعراضٍ تافه لمفاهيمنا عن الذوق ذاته.

من أجل أن نتكلّم بأسلوب أقل تجريداً. في انكلترا، على سبيل المثال، ليس هُناك استعراض للمظاهر والامتيازات المُكلّفة ربّما نتوقع رؤيته يحدث فعلاً، بل كل ذلك يجري لخلق انطباع مُذهلٍ عن الناحية الجمالية فيما يتعلّق بالامتيازات بعينها.. أو انطباع عن الذوق الرفيع فيما يتعلّق بصاحب الامتياز.. يحصل هذا لأسباب، أولاً، الثروة في إنكلترا ليست أسمى ما يصبو إليه الإنسان من مراتب الرفعة والنبالة؛ وثانياً، النبالة الحقيقية المُتوارثة بالدم مُقتصرة هُناك في ذاتها ضمن حدود ضيقة وصارمة يفرضها الذوق المقبول تقليدياً، وهي تعمل على تفادي، وليس فرض ظهور أو تجلّي تلك المظاهر المُكلفة المُجردة التي ربّما يقوم فيها مُنافس حديث العهد بالنعمة *parvenu* في أي وقت فينجح في مُمارستها. لن يتوقف الناس عن مُحاكاة النبلاء، وتتمثّل النتيجة في تشتّت فوضوي شامل في الإحساس الذي يتناسب مع اللحظة. لكن في أمريكا، بما أن طوفان العملات النقدية هو السلاح الوحيد الذي تمتلكه الأرستقراطية، فإنّ استعراضهم لمظاهر الثراء، ربّما جاز القول [437]بصفة عامة، يكون بمثابة الوسيلة الوحيدة لإظهار التمايز الأرستقراطي؛ والجماهير في تطلّعها دائماً إلى النموذج، تميل دون وعي منها إلى الخلط المشوش بين فكرتين مُنفصلتين تماماً عن المهابة والجمال. باختصار، فإنّ تكلفة مادة واحدة من الأثاث، كما اتّضح مؤخراً لنا، تكاد تُشكّل الاختبار الوحيد لمدى جدواها من منظور يتعلّق بالديكور.. وهذا الاختبار، حين نبدأ بوضعه موضع التطبيق، سوف يُرشدنا إلى كثير من الأخطاء المُماثلة التي نقع فيها، والتي يُمكن بسهولة إرجاع أصولها إلى حماقة بدائية.

لا يُمكن أن يكون ثمّة شيء أكثر إساءة للذوق السليم ويصدم عين الفنان مُباشرة من الجوانب الداخلية لما يُصطلح على تسميته في الولايات المتحدة.. بمعنى آخر، في أبالاشيا[2].. شقة جيدة التأثيث. النقص العادي فيها أكثر من

(2) أبالاشيا: إقليم ثقافي في شرق الولايات المُتحدة يمتد من جنوب نيويورك إلى شمال الاباما، المسيسيبي وجورجيا. [المترجم]

غيره هو الافتقار إلى الترتيب. نحن نتكلّم هُنا عن ترتيب الغرفة فضلاً عن توزيع اللوحات.. لأنّ اللّوحة والغرفة كلاهما سهل الانقياد إلى تلك المبادئ الثابتة التي لا تقبل الانحراف وتنظم أصناف الفن المُتنوعة؛ وتكاد تنسجم أيضاً مع القوانين نفسها التي تُحدّد المزايا الراقية للّوحة، والتي تكفي لإصدار قرار بشأن تعليقها على الجدار.

الخلل في التنسيق يُسهّل على المرء مُلاحظته أحياناً من طبيعة انتشار قطع الأثاث المُختلفة، لكن عموماً يتجسد ذلك الخلل في ألوانها أو أنماط تكيّف العين التي تتأذى في كثير من الأحيان من ترتيبها الذي يفتقر إلى الذوق الفني. ربّما تكون الخطوط المُستقيمة شائعة أيضاً.. وتكون مُستمرة فلا يعترضها شيء.. أو تعترضها على نحو أخرق زوايا قائمة. إذا ظهرت خطوط مُنحنية، فهي تتكرّر في تنافرٍ غير مُمتع لمن يراها. من خلال توخّي دقة مُفرطة، يبدو منظر الكثير من الشقق الجميلة صادماً كلياً.

الستائر نادراً ما تُختار بعناية، أو يجري اختيارها وفق انسجامها مع جوانب أُخرى من الديكور. بالنسبة إلى أثاث المكاتب الرسمية، فالستائر كثيراً ما تكون في غير مكانها المُناسب؛ هُناك كثافة مُفرطة في الأنسجة من أي نوع، تحت أي ظرف كان، لا تتماشى مع الذوق الرفيع.. الكمية المُناسبة، فضلاً عن التنسيق، يعتمد على طبيعة التأثير العام الذي نتوخاه منها.

أمّا السجاد، فيُفهم المغزى منه جيداً إذا كان يعود إلى أزمنة قريبة وليس إلى الأيام الخوالي، لكنّنا لا نزال نرتكب الأخطاء في اختيار أنماطها وألوانها. روح الشقة تكّمن في السجادة. نحن لا نستخلص من منظر السجادة التدرّج اللوني فحسب، وإنّما نستخلص كل الأشياء التي تُلازم ذلك. أيُّ قاضٍ في القانون العام ربّما يكون رجلاً عادياً؛ لكن القاضي الذي لديه سجادة أصيلة لا بُدّ أن يكون عبقرياً. إلّا أنّنا سمعنا مُحاورة عن السجاد، يسود فيها كلام كأنّه من «أحلام الخراف» *d'un mouton qui reve* بين أشخاص لا ينبغي ولا يُمكن أن يُستأمنوا على ترتيب شواربهم. كلُّ شخص لا بُدّ أن يعرف أنّ الأرضية الفسيحة ربّما يُصلح أن تُغطى بأشكال عريضة، وأنّ الأرضية المحدودة يجب أن تُغطى

بقطعٍ سجاد صغيرة.. لكن [438]هذا ليس كل ما موجود من المعرفة في العالم. فيما يتعلّق بالنسيج، فالنوع الساكسوني وحده مسموحٌ به. أما نسيج بروكسل فهو مثالي للموضة، والتركي له نكهة مُميزة في توتّراته الخابية. أما إذا تطرّقنا إلى نمط الزخارف.. فالسجاد لا ينبغي أن يكون مُزيّناً بغير ذوق مثلما نجده لدى الهنود الحمر من أريكاريا.. كله طباشير أحمر، ومُغرة صفراء، وريش الديك. باختصار.. خلفيات صارخة، وأشكال حيوية دائرية ومُنحنيات كالحراشف، ليس لها معنى، هُنا كلها تُمثل قوانين بلاد فارس الوثنية «ميديا». هُناك من يبغض الأزهار ويتجنّبها، أو من يُصوّر أشياء تافهة معروفة جيداً من أي نوع، ينبغي إلا تسود هذه النزعة ضمن حدود الثقافة المسيحية «كريستندوم». في الواقع، سواءً كان ذلك على السجاد، أو الستائر، أو الأنسجة المُزخرفة، أو تغطية الأرائك العثمانية، كل أنواع التنجيد من هذه الطبيعة ينبغي أن تكون مُستمدة من الأرابيسك حصراً. أما فِراش الأرضية التي على الطراز القديم والتي لا تزال تُشاهد بين الحين والحين في مساكن كثير من الناس.. ملابس من أقمشة فضفاضة، مُنتفخة ومُمتدة عرضياً ومُشعّة بالألوان البرّاقة، وموشّاة بالأشرطة، ومُتألقة بأنواع الصور والزخارف، وسطها لا تُدرك العين أثراً للأرضية.. هذه ليس إلا من اختراع عنصر من الناس مُذلين مُهانين للزمن وعبيد للمال.. أطفال بعل وعابدو «مامون» إله الجشع.. أولئك الذي يؤمنون بمبادئ بينثام[3]، والذين في سبيل تهميش الفكر والاقتصاد في الخيال، قاموا لأول مرة باختراع المشكال[4] وفرضوه بقوة، ثم أسّسوا شركات مُساهمة لكي يبرموه بالبخار.

الوهج الساطع خطأ أساسيٌ في فلسفة ديكور المنزل الأمريكي.. وهو خطأ من اليسِير معرفته، إذ يُستدل عليه من فساد الذوق الذي أشرنا إليه قبل قليل.. لأنّنا مُتيمون بعنف بمصابيح الغاز والزجاج. فالأولى ينبغي أن لا يُسمح لها إطلاقاً

(3) جيرمي بينثام (1748- 1832) الفيلسوف القائل بمذهب المنفعة. [المترجم]

(4) المشكال kaleidoscope: أداة تحتوي على قطع مُتحركة من الزجاج المُلوّن ما إن تتغيّر أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المُختلفة الألوان، اخترعه سر ديفيد بروستر، وهو عالم فيزياء اسكتلندي سنة 1816. [المترجم]

بدخول الأبواب. فضوءها القاسي غير المُستقر يؤذي العيون. لا أحد لديه عقلٌ سليم وعيون تُبصر يستخدمها الآن. أما الضوء الخافت، أو ما يُسميه الفنانون الضوء البارد، بما ينتج عنه من ظلالٍ دافئة، فهو يصنع الأعاجيب حتى في شقةٍ رديئة التأثيث. ليس هُناك فكرة جميلة مُحببة إلى النفس أكثر من القنديل النجمي. نحن نقصد طبعاً قنديلاً نجمياً بعينه.. مصباح أرغاند[5]، بظلّه الأصلي الرخو الذي يُرسله الزجاج على الأرضية، وأشعته الهادئة المُتناسقة التي كأنّها ضوء القمر. والظل الذي يُرسله الزجاج المُقطّع اختراعٌ هزيل من عمل المناوئين الذين يُريدون بنا الضرر. الحماس الذي تبنّينا به هذا الاختراع يعود جزئياً إلى وهجه الساطع، لكن السبب الحقيقي ما يوفره من ارتياح زائف أكبر من غيره، ربّما يعتبر هذا تعليقاً جيداً يُبرر الاقتراح الذي بدأنا به. ليس من الإسراف القول: إنّ من يتقصد توظيف ظل الزجاج المُقطّع عاجزٌ مُفرط في الذوق، أو أنّه يلهث عشوائياً وراء نزوات الموضة. الضوء الذي يتسلّل من هذه الأشياء المقيتة يتكسّر بصورة غير مُتساوية ويؤذي العيون. إنّه وحده يكفي لإفساد الانطباع عن جودة قطع الأثاث التي تخضع [439]لتأثيره. الجمال الأنثوي على وجه التحديد يتلاشى أكثر من نصف سحره الخلاب تحت تأثير تلك العيون الاصطناعية الشريرة.

فيما يتعّلق باختيار الزجاج على نحو الإجمال نحن نتبع مبادئ زائفة. الخاصية الأساسية فيه هي اللمعان.. وفي تلك الكلمة وحدها كم من المعاني المقيتة يُمكن التعبير عنها! خفقان الضوء، الأضواء غير المُريحة للعين، وأحياناً السرور المُصطنع الذي تحسّه النفس .. بالنسبة للأطفال والأغبياء الأمر سيّان هُنا.. لكن زخارف الغرفة ينبغي تجنّبها لذوي الوسواس. في حقيقة الأمر، حتى الأضواء المُبهرة الجامدة غير مسموح بها. الثريات الزجاجية الضخمة لا معنى لها، تلك المُرصّعة بالموشور، تُضاء بألغاز، تفتقر إلى الظل، تتدلّى في غرف الاستقبال الأكثر أناقة ربما كانت جوهر النفاق أو كل شيء لامعقول في حماقته.

---

(5) أيمي أرغاند عالم سويسري اخترع المصباح المُسمى باسمه سنة 1784، وكان شائع الاستخدام في أمريكا. [المترجم]

الحمى الهوجاء التي تجتاحنا بحثاً عن الألق المُبهر.. لأنّ فكرته أصبحت كما أشرنا مُربكة في معناها وتختلط مع روعة التجريد.. أدّت بنا، فضلاً عن كل شيء، إلى الاستخدام المُسرف للمرايا. نحن نُخطط مساكننا بألواح زجاجية كبيرة نأتي بها من بريطانيا، ثم نتخيّل أنّنا فعلنا شيئاً رائعاً. الآن اقل فكرة تكفي لإقناع أي شخص لديه عينٌ تُبصر على الأقل، بالأثر البغيض للمرايا المُتعددة، وخصوصاً المرايا الكبيرة. إذا تجاهلنا انعكاساتها، فالمرآة تُقدّم لنا سطحاً غير مُنقطع، مُستوياً، يخلو من الألوان، لا يُخفف من حدّته شيء.. ودائماً ما يفتقر ذلك إلى الإحساس الفطري بالبهجة. إذا نظرنا إلى المرآة كسطح عاكس، فهي ذات كفاءة عالية في خلق تنافر كريه؛ مكْمن الشر هُنا يتضاعف بشكل مُبالغ فيه، ليس في تناسبٍ مُباشر مع تضخّم مصادر أضوائها المُنعكسة فقط، وإنما في نسبةٍ تتزايد باستمرار. في حقيقة الأمر، أي غرفة فيها أربع أو خمس مرايا تتوزّع لا على التعيين، تُعتبر في جميع الأحوال معرضاً فنّياً، أو غرفة عديمة الملامح. فإذا أضفنا إلى هذا الشر التألق المُصاحب، تألّق فوق تألّق، يكون لدينا مزيجٌ من التأثيرات المُتنافرة المُزعجة. أي ريفي ساذج، إذا دخل شقة مُزخرفة بهذا الشكل الوضيع الذي يفتقر للذوق، لا بدّ أن يُدرك في الحال وجود خطأ، رغم أنّه ربما يعجز تماماً عن التفكير في سبب مُحدّد لعدم اقتناعه. ولكن دعوا الشخص نفسه يذهب إلى غرفة مؤثثة في ذوق رفيع، هُنا سوف يعتريه الذهول من البهجة والمُفاجأة.

ذلك نوع من الشرور التي تنشأ عن مؤسساتنا الجمهورية، بحيث يُمكن أن نجد هُنا رجلاً لديه محفظة مُكتنزة مادياً، ولكنها تفتقر عادة إلى الروح. إنّ فساد الذوق جزءٌ لا يتجزأ من صناعة الدولار، فهو كالقلادة التي تتعلّق على صدورنا. كلّما مضينا في التطور بوصة، تُغطي أفكارنا طبقة من الصدأ. لهذا، ليس من ارستقراطيتنا أن نبحث (إذا ما أردنا البحث أبداً، وإن كان ذلك في جبال أبالاشيا)، عن روحانية تسود في مخدع سيدة بريطانية. لكنّنا حتماً رأينا شققاً في مُقاطعات أمريكية ذات أنماط مُتواضعة، ربّما تنافس، في جوانبها السلبية على الأقل، أي [440]واحدة من مقصورات أصدقائنا الذين يعيشون فيما وراء البحار.

حتى الآن، تتجسّد بإزاء العين في أذهاننا حجرة صغيرة تخلو من مظاهر مُتباهية، لا يعتري ديكورها أي خطل يُمكن للمرء إيجاده. صاحبها يتمدّد على أريكة.. فالجو مُنعش.. والوقت يكاد يكون مُنتصف الليل؛ سوف ننتهز الفرصة فنحصل على مُخططٍ للغرفة أثناء رقاده.

إنّها غرفة مُستطيلة.. طولها ثلاثون قدماً تقريباً وعرضها خمسة وعشرون قدماً.. حيزٌ يمنح أفضل الفرص «الاعتيادية» لترتيب الأثاث. ليس فيها غير بابٍ واحد.. ليس عريضاً على كل حال.. يقع على طرف مُتوازي الأضلاع، ونافذتان فحسب، في الطرف الآخر. هاتان النافذتان واسعتان، ربّما تُلامسان الأرضية.. تمتدّان في عمق الجدار.. مفتوحتان على شرفة إيطالية الطراز. ألواحهما من زجاجٍ تميل ألوانه إلى قرمزي داكن، تُحيط بهما إطارات من خشب الورد، أحجامها أضخم من المعتاد. وستائر على النافذتين تُغطي تجاويفهما المُتقهقرة إلى الداخل، من نسيجٍ فضيّ سميك يتلاءم مع هيكل النافذة، وتتدلّى الستائر مُتراخية في تناسقٍ فريد مع أحجامها الضئيلة. خارج تجاويف النافذة ستائرٌ من حرير قرمزي ثمين، حافاتها مُزركشة بشبكة سميكة من نسيجٍ مُذهّب تتخلّلها خطوط من الفضة، المادة التي صُنع منها الجزء الخارجي المُغلق. لا توجد أفاريز؛ غير أنّ طيات النسيج كلها (حادة بدلاً من أن تكون مُترهّلة ولها مظهر يبدو وهمياً)، تبرز من تحت السطح العلوي الواسع للزخارف الذهبية التي تُحيط بالغرفة في موضع ارتباط السقف بالجدران. الأنسجة المُزخرفة مفتوحة، أو مُغلقة بحبلٍ سميك من الذهب يُحيط بها دون أن يضغط عليها، وينتهي في يسر بعقدة؛ لم تكن أي مشابك أو غير ذلك من الوسائل تبدو للعيان. ألوان الستائر وحواشيها.. تتباين من الأحمر الداكن إلى الذهبي.. تبدو في كلّ مكان في غزارة جلية، فهي التي تُحدد شخصية الغرفة. أما السجادة.. وهي منسوجة من مواد ساكسونية.. فسمكها نصف إنجٍ كامل، من لون الأرضية القرمزي نفسه، مُحاطة في مظهرها البسيط بخيطٍ ذهبي (مثل الخيط الذي يربط الستائر) يمتد قليلاً فوق سطح الأرض، ومُلقّى جزءٌ منه على السجادة بطريقة مُميزة بحيث يُشكل سلسلة مُنحنيات قصيرة غير مُنتظمة.. الواحد منها يُغطي الآخر عرضياً. الجدران كلّها مُغطاة بورقٍ أملس رمادي فضي،

ومرقّطة بزخارف من الأرابيسك ذات ألوان أكثر خفوتاً من القرمزي القاتم السائد. الكثير من اللّوحات تقطع امتدادات الورق. هذه اللوحات أساساً لمناظر طبيعية تعبيرية من وحي الخيال.. مثل لوحة «مغارات أسطورية» التي رسمها ستانفيلد(6)، أو لوحة «مُستنقع الكآبة» لجابمان(7). لكن هُناك أيضاً ثلاثة أو أربعة وجوه أنثوية، صورٌ شخصية ذات جمال أثيري على غرار أُسلوب سولي(8). السمة المُهيمنة على كلّ صورة تتمثّل في دفء العواطف، [441]وسط مُحيطٍ من الظلام. لا يُمكن تلمّس أي «تأثير للألق». الخمول يتكلّم وحده فيها جميعاً. لا توجد صورة واحدة صغيرة الحجم. اللوحات الضئيلة تُعطي ذلك الإيحاء المُبقع في الغرفة، وهو من عيوب كثير من الأعمال الفنية الرائعة التي نتلمّسها. إطارات اللوحات ضخمة، لكنها غير عميقة، ومزينة في ثراء بنقوش محفورة، دون أن تكون مصدراً للإحساس بالبلادة أو الكآبة في تخريماتها. تشيع في النفوس كل نشوة اللمعان التي يُثيرها الذهب الوهاج. تقبع هُنا مُسترخية على الجدران، لا تتدلّى بخيوط. التصاميم نفسها غالباً ما يراها المرء تُضيف مزايا أفضل في هذا الموقع الأخير، بيْد أنّ المظهر الكلي للحُجرة لا يخلو من انطباع مؤذٍ. ومع ذلك فمرآة واحدة.. ليست بالكبيرة.. تلوح للأبصار. في شكلها الخارجي تكاد تبدو مُدورة.. تتعلّق على نحو مُعيّن بحيث أنّ انعكاساً لأي شخص لا يُمكن أن يلمح من احد أماكن الجلوس الاعتيادية في الغرفة. وهُناك أريكتان واطئتان كبيرتان من خشب الورد مبطّنتان بالحرير القرمزي، ومزينتان بأزهار ذهبية اللون، تُشكلان الأماكن الوحيدة للجلوس، باستثناء كرسيين خفيفين يُجلس عليهما أثناء الدردشة، هُما أيضاً من خشب الورد. وهُناك بيانو (من خشب الورد أيضاً)، من غير غطاء، وهو مفتوح دائماً. وطاولة ثمانية الأضلاع، مصنوعة كل أجزائها من أغلى أنواع المرمر المُزين بخطوط من الذهب، وضعت بالقرب من إحدى الأرائك. هذه

(6) وليم كلاركسون ستانفيلد (1793- 1867) رسام إنكليزي ينتمي للمدرسة الرومانسية اشتهر برسم البحار. [المترجم]

(7) جون غادسبي جابمان (1808- 1889) رسام أمريكي من فرجينيا. [المترجم]

(8) روبرت سولي أحد أصدقاء إدغار ألن بو في مدرسة ريتشموند، وهو رسام قال بو عن لوحاته: أنّها واحدة من أجمل الأشياء في العالم. [المترجم]

الطاولة أيضاً من غير غطاء.. كان يُعتقد أنّ قماش الستائر المُزينة يكفي للتغطية.. وهُناك أربع مزهريات رائعة الجمال من طراز سيفرز، تحتضن كمياتٍ من الأزهار النضرة الساحرة في منظرها، تُشغل الزوايا التي تبدو مُستديرة للغرفة. وشمعدان طويل، يحمل قنديلاً صغيراً قديماً يوقد بزيت عبق الرائحة إلى درجة عالية، ينتصب بالقرب من رأس صديقي النائم، يُلقي شيئاً من الضوء على رفوف أنيقة مُعلقة، ذات حافات ذهبية وأشرطة من حرير قرمزي ذات شراشب ذهبية، تحمل مائتين أو ثلاثمائة من الكتب المُجلدة تجليداً رائعاً. وراء كل هذه الأشياء، لا يوجد أي نوع من الأثاث، إذا استثنينا قنديل أرغاند، الذي يُلقي ظلّاً يميل إلى القرمزي على الأرضية من زجاجته، ويتدلّى من قنطرة عالية من السقف بسلسلة ذهبية رفيعة، ويُلقي شعاعاً سحرياً ساكناً على كل شيء.

رجل الزحام

«ذلك الشر الجبار، يخاف أن يبقى وحده!».

لابروييه[1]

[442]هُناك قولٌ شائع جميل يتطرّق إلى وصف أحد الكتب الألمانية بأنّه *er lasst sich nicht lesen* . . أي: ليس من اليسير على المرء قراءته. بعض الأسرار لا نسمح حتى لأنفسنا أن نعلم شيئاً عنها. بعض الناس يموتون وهم نيام على فراشهم ليلاً، يتلوون بين أيادي أشباح تنتزع منهم الاعتراف وهي تنظر إليهم نظرات إشفاق.. يموتون واليأس يعصر قلوبهم والغصة تطبق على حُلوقهم، كل ذلك لشناعة الأسرار التي لا تستطيع أنفسهم الكشف عنها. من وقتٍ لآخر، ويا للأسف، على ضمير الإنسان أن يتحمّل عبئاً ثقيلاً مُرعباً لا يُمكن أن يؤدي به إلّا إلى القبر. لذلك يبقى جوهر كلّ جريمة سرّاً من الأسرار.

منذ زمن ليس بالبعيد، ذات مساءٍ خريفي، جلستُ قرب نافذة عريضة في مقهى د. في لندن. منذ بضعة أشهر كنت أُعاني من وعكة صحية، لكنّي الآن في مرحلة النقاهة، ومع شيء من القوة التي استرددتها وجدتُ نفسي في مزاجٍ يتناقض كلّياً مع الضجر.. تشوبه أقصى حالات النّشوة، حين «تزاح الغشاوة التي كانت تثقل يوماً على الذهن»[2] αχλυς ος πριυ επηευ .. الـ .. ويجتاز

(1) جان دو لابروييه (1645- 1696) كاتب فرنسي وفيلسوف أخلاقي. [المترجم]

(2) هذه العبارة الاغريقية مُقتبسة من (الإلياذة) حيث تزيح الإلهة أثينا الغشاوة عن عيون المُقاتلين من ديوميديس لتُتيح لهم التعرّف على الآلهة في المعارك. [المترجم]

العقل، وقد استمدّ شحنة من الطاقة، في عنفوان حالته اليومية، كما هو شأن العقل المُتفتح الصريح لليبنتز[3]، الخطيب المُفوه البارع في البلاغة والبيان، المجنون، السيئ الطباع من جورجياس. مُجرّد تنفّس هواءٍ نقي يُشكّل مصدراً للمُتعة؛ تلقيت طاقة إيجابية مُبهجة حتى من المصادر المألوفة للألم. كنت أشعر باهتمامٍ يُخالطه هدوءٌ وفضول بإزاء أي شيء وكلّ شيء. السيجار في فمي والجريدة على حُضني، حاولت أن أُمتع نفسي إبان الشطر الأكبر من العصر بالاستغراق في قراءة الإعلانات تارة، ومُراقبة خليطٍ من البشر الذين يتجمّعون في المقهى تارة أُخرى، ثم أُحملق في الخارج فيخترق نظري الألواح الزجاجية التي يُلوثها الدخان، باتّجاه الشارع.

هذا الشارع من الطرق الرئيسية في المدينة، يعجّ طوال النهار بالمارة. ولكن، مع اقتراب الليل يزداد الزحام لحظة بعد لحظة؛ وفي الوقت الذي أُضيئت فيه المصابيح وأرسلت أشعتها الخلابة، اندفع تياران كثيفان من البشر عبر الباب. في [443]هذه الفترة من المساء على وجه التحديد لم يسبق أن رأيت شيئاً مُماثلاً، إذ غمرني بعنف تيارٌ من رؤوس البشر يتدافعون من فوقي، فاجتاحتني نشوة من نوع جديد. وتخلّيت أخيراً عن اهتمامي بكل شيء كنت أتامّله داخل المقهى، ورحت أتأمل المشهد في الخارج.

في بداية الأمر أتخذت مُراقبتي تحوّلاً تجريدياً شاملاً. نظرتُ إلى حشود المارة والكتل التي يُشكلونها، وفكّرت في العلاقات التي تربط بين تجمّعاتهم. لكنّي سرعان ما تحوّلت إلى التفاصيل، وكنت أُمعن في النظر باهتمام في الاختلافات التي لا تُحصى للأشكال، والثياب، والطباع، وطريقة المشي، والوجوه، والتعبيرات التي ترتسم على الوجوه.

شيئاً فشيئاً كان مُعظم أولئك الذين يمرّون يوحون لي بأنهم مُنشغلون باهتماماتٍ عملية تبدو مقبولة لهم، وبدا أنّهم لا يُفكّرون في شيءٍ إلا بأن يمضوا

---

(3) كان بو يتّهم الفيلسوف ليبنتز باقتراف جُملة من الأخطاء بخصوص قدرة الذاكرة، صرّح عن ذلك في مجلّة المُراسل الأدبي للجنوب، تموز 1836. [المترجم]

في طريقهم يدفعهم سيلٌ من البشر. جباههم مُقطبة، وعيونهم تدور سريعاً؛ يتدافعون جنباً إلى جنب مع عابري السبيل، لم يظهر عليهم أي عرضٍ للسأم، يعدلون ثيابهم ثم يمضون مُسرعين. وهُناك آخرون، فئة هائلة الأعداد أيضاً، يتململون في حركاتهم، وجوههم مُتورّدة، يتحدّثون ويومىء بعضهم إلى بعض، كأنّهم يحسون بالوحشة والانعزال لكثافة المُحيطين بهم. حين يعيق تقدمهم شيءٌ ما، يتوقّف هؤلاء عن التمتمة فجأة، بيد أنّ إيماءاتهم تضاعفت الآن، كانوا ينتظرون وشفاههم تعلوها ابتساماتٌ تائهة مُنهكة، حتى يمضي الأشخاص الذين اعترضوا طريقهم. إذا تعرّضوا للدفع بالمناكب، ينحنون انحناءات مُسرفة في الاحتشام بإزاء من يدفعهم، كأنما يغمرهم الارتباك.. لم يكن ثمّة شيءٌ مميّز بشأن هاتين الطائفتين العريضتين من الناس خارج نطاق ما أشرت إليه. ثيابُهم من ذلك النمط الذي يوصف بصورة دقيقة بالاحتشام. بعضهم كانوا من طبقة النبلاء، ليس في ذلك شك، ومن التجار، والمحامين، ورجال الأعمال، أو من المُضاربين بالبورصة.. أو من طبقة البتريد[4]، وآخرون ينتمون إلى الطبقات الدنيا من المُجتمع.. رجال مُترفون ينهمكون بنشاطات تخصّهم وحدهم.. يديرون أعمالهم على مَسؤوليتهم الخاصة. أولئك لم يُثيروا اهتمامي كثيراً.

أما طائفة الموظفين، فإنّهم يُشكّلون ظاهرة واضحة للعيان، وقد أدركت هُنا وجود قسمين بارزين منهم. هُناك صغار الموظفين الذين يفتخرون بأنّهم يسكنون في مناطق راقية.. من الشبان الذين يلبسون معاطف ضيقة، وأحذية لامعة، وشعرهم مدهون بالزيت جيداً، وشفاههم توحي بالكبرياء. في طريقة مشيهم نوع من خفة الحركة والرشاقة، والتي ربّما توصف بأنّها سلوكيات مكتبية لعدم وجود كلمة أفضل، هؤلاء كما يبدو لي نسخة مُطابقة لما كان من مثاليات الذوق الرفيع *bon ton* قبل اثني عشر أو ثمانية عشر شهراً ماضية. يلبسون أفضل ما توفّره لهم نعمة [444]الانتماء إلى الطبقة العليا؛ وهذا، كما أعتقد، أفضل تعريف لطائفتهم.

أما كبار الموظفين الذين يعملون في شركات راسخة ذات سُمعة عريقة، أولئك الذين ينتمون إلى «الرفاق القدامى الصالحين»، فليس يُمكن أن يُخطئهم المرء. هؤلاء يُعرفون من معاطفهم وبناطيلهم بلونيها الأسود والبني، والتي جرى تصميمها بحيث تُناسبهم وتُريحهم، مع أربطة عنقٍ وصدريات بيضاء، وأحذية عريضة تبدو ذات مظهر متين، وجوارب سميكة وواقيات يلبسونها فوق الأحذية. رؤوسهم جميعاً صلعاء بعض الشيء، وآذانهم اليُمنى، بعد طول استخدام لحمل الأقلام، اعتادت البقاء مُنتصبة على أطرافها في منظرٍ مُستهجن. لاحظتُ أنّهم كانوا دائماً يرفعون أو ينزلون قبعاتهم بكلتا اليدين، وعلى معاصمهم ساعات، ذات سلاسل ذهبية قصيرة من ماركات أصيلة قديمة. منظرهم يُعطي انطباعاً بأنّهم خليقون بالاحترام مع شيءٍ من التكلف.. إذا كان التكلّف في الواقع مُشرفاً إلى هذا الحد.

هُناك الكثيرُ من الأفراد مظهرهم يصدم النظر، وأدركت بسهولة أنّهم ينتمون إلى عنصر النشّالين المغرورين بأنفسهم ممّن ينتشرون في كل المدن الكبرى. أخذت أراقب هؤلاء في حبٍّ استطلاع شديد، ووجدت صعوبة في تخيّل كيف ينبغي للرجال المُهذبين أن يُخطئوا فيتصورونهم رجالاً مُهذبين. إنّ ضخامة ياقة القميص أو سوار المعصم، أقول في شيءٍ من الصراحة أو الوقاحة، ينبغي أن تكشف أمرهم في الحال.

أما المُقامرون، الذين رأيت منهم عدداً ليس بالقليل، فلا يزالون أكثر سهولة في تمييز أشكالهم. كانوا يلبسون كل صنفٍ من أصناف الثياب التي تنبىء بما يحترفونه من أعمال الغش والخداع، أو كحراسٍ للعاهرات؛ ربّما رأيت عليهم صدرية من القطيفة، ولفاعاً للخيلاء، وسلاسل ذهبية، وأزراراً مُخرّمة مُزركشة، إلى لباس الكهنة المُزخرف المُثير للوساوس، لا شيء أكثر من ذلك يُمكن أن يُثير الوساوس والشكوك. ومع هذا فالجميع كانوا مُميزين بأشكالهم البلهاء وبشرتهم الداكنة؛ العيون عليها غشاوة من العتمة، والشفاه شاحبة مُنكمشة. فضلاً عن ذلك هُناك مزيتان كنت قادراً من خلالهما دائماً على اكتشاف أمرهم.. هدوءٌ مُحترس في نبرة الصوت أثناء نقاشاتهم، وامتدادٌ أكثر من المألوف

للإبهام في زاوية قائمة مع الأصابع.. في كثيرٍ من الأحيان، بمُرافقة هؤلاء المُحتالين والنصابين، كنا أُشاهد جمعاً من الرجال يختلفون بعض الشيء في تصرّفاتهم، مع أنّهم من الطيور التي تقع على أشكالها. ربّما كانوا من الأشخاص المهذبين الذين يكسبون رزقهم من دهائهم. يبدو أنّهم يعتاشون على العامة من الفريقين.. فريقُ المُتأنقين الغنادرة وفريق الجلاوزة من الصقور. في الطائفة الأُولى، الخاصية الأساسية هي خصلات الشعر الطويلة والابتسامات؛ وفي الطائفة الثانية المعاطف ذوات الحزام، فضلاً عن العبوس والتجهّم.

نزلتُ في حركة يُمكن وصفها بالأرستقراطية، فوجدت أشياءَ أكثر قتامة وعمقاً تستحق التأمل. رأيت باعة مُتجولين من اليهود، عيونهم كعيون الصقور تبرق على ملامح كل سمةٍ من سماتها تحمل تعبيراً بالإذلال الممزوج بالخسّة؛ ورأيت شحاذي شوارع غلاظ مُحترفين يُقطبون بوجوه مُتسولين آخرين يبدون في [445]وضعٍ أفضل منهم، بعد أن ساقهم القنوط وحده للخروج ليلاً طلباً لشيء من الإحسان؛ ورأيت مرضى، ومُعاقين، وناحلين منظرهم مُروّع، ألقى الموت على أكتافهم يده الغليظة القاسية، يمشون ويتعثّرون مُحاولين الابتعاد عن الغوغاء، ينظرون إلى وجه كل شخص يصادفونه ويتوسلون، كأنهم يبحثون عن العزاء، أو عن بعض الأمل؛ ورأيت فتيات مُحتشمات في ريعان الصبا عائدات من عملهن الطويل المُرهق في وقتٍ مُتأخر من الليل إلى منزل لا يجدن فيه المسرّة، أجسادهن مُنكمشة على نحو يستدرّ الدموع أكثر مما يُثير السخط، يتحاشين نظرات وحوش بشرية ما كان في وسعهن تجنب الاحتكاك بها؛ رأيت نساء البلدة من كل الأصناف والأعمار.. الجمال الصارخ في أوجّ النضج الأنثوي، يُذكّر المرء بتمثال لوشيان[5]، على منصةٍ من العاج، والمدخل مليء بالقذارة.. المنبوذ، المُقرف، الضائع، والمتلفع بالأسمال البالية.. والعجوز الشمطاء، المُتغضنة، المُتصابية، المُرصّعة بالجواهر، المطلية بالمساحيق.. تبذل مُحاولة أخيرة يائسة لاستعادة الشباب.. الطفولة في مرحلة ما قبل النضج، نتيجة

---

(5) لوشيان من ساموساتا (125- 180م) خطيب اشتهر بأُسلوبه الهجائي، كان يكتب باللّغة الإغريقية. [المترجم]

للاختلاط طويلاً بهذه الأجواء، أضحت خبيرة في مغازلات بغيضة تُمارس فيها تجارتها، تحترق شوقاً في طموح سريع لتعبّر عن مُستوى مُماثل للواتي هن أكبر منها في الرذيلة؛ سكارى لا تحصى أعدادهم، لا يوصف منظرهم.. بعضهم في أسمال بالية، يترنّحون، لا ينطقون ببنت شفة، وجوههم مُزرقّة من الكدمات وعيونهم تفتقر إلى الحياة.. والبعض الآخر منهم عليه ثياب فضفاضة تكاد تستره على سعتها وقذارتها، يتبخترون في رزانة غير مُستقرّة، شفاههم غليظة، وجوههم مُتوردة تطفح بالبهجة.. وآخرون عليهم ثياب كانت ذات يوم جميلة، وإلى الآن يستمرون بتنظيفها بالفرشاة في وسوسة.. الرجال يمشون في خطوات أكثر من أن تكون طبيعية في ثباتها وقفزاتها، مع أن قسماتهم شاحبة شحوباً مُخيفاً، عيونهم تبدو مُتوحشة شنيعة في احمرارها، يقبضون بأصابع مُرتعشة، فيما يخطرون عبر الحشود، على أي شيء في مُتناول أيديهم؛ إلى جانب هؤلاء، يوجد باعة الفطائر، وحمّالون، وناقلو الفحم، وكناسون؛ ثم عازفو الأرغن، ومرقّصو القرود، وشعراء مدّاحون يتعاملون مع أولئك المُغنين؛ وفنانون شعرهم أشعث، ثيابهم رثة، وعمال مُنهكون من كل الأجناس، كل أولئك يملأون الجو صخباً وجموحاً حتى ترتجّ الأُذن من الإيقاع المُتنافر، ويُثار إحساس مؤلم في العيون.

مع إيغال الليل في العتمة تعمّق اهتمامي كثيراً بالمشهد؛ لأنّ شخصية الحشد عموماً لم تتغيّر مادياً فحسب (سماتها الأكثر رقة تنكفىء مع الانسحاب التدريجي للأشخاص الأكثر تقدّماً في العمر من بين الناس، أمّا الذين هم أكثر حيوية وصلابة فخرجوا إلى مساحات تؤمّن لهم مزيداً من الجسارة، ومع اقتراب الساعة الأخيرة من الليل خرجت ضروبٌ من الأفعال الشائنة من مكامنها)، غير أنّ أشعة المصابيح الغازية، وكانت واهنة في أول الأمر في نزاعها مع بقايا النهار المُحتضر، اكتسبت الآن شيئاً من سطوتها، وراحت تلقي على كل شيءٍ دثاراً من الرونق المُبهرج [446]المُتقطّع. كلُّ شيء قاتم مع أنّه مُبهر.. مثل الأبنوس الذي على غرار أسلوب تيرتوليان[6].

(6) تيرتوليان (160- 230م) كاتب مسيحي من قرطاجة عاش خلال فترة احتلال الرومان لإفريقيا، كان غزير الإنتاج. [المترجم]

أبهرتني مؤثرات الضوء الساطع ودفعتني لأن أتفحّص وجوهاً بعينها؛ رغم السرعة التي كان ينتقل فيها عالم الأضواء أمام النافذة التي منعتني من إلقاء أكثر من نظرة على الوجوه، إلّا أنّه بدا لي، وأنا في حالتي الذهنية الغريبة آنذاك، أنّني أستطيع أن أقرأ في كثير من الأحيان، حتى إبان تلك الفترة المؤقتة القصيرة من النظر، تاريخ سنوات طويلة..

قرّبتُ جبهتي من الزجاج، وانشغلت على هذا النحو في تأملات دقيقة للغوغاء، وحينها لمحت فجأة وجهاً من الوجوه (وجه رجل هَرِم، في الخامسة والستين أو السبعين من عمره تقريباً)، استولى فوراً على اهتمامي ومنعني من التحوّل إلى غيره، وذلك لغرابة التعابير على وجهه. أيُّ شيء يُماثل ذلك الإيحاء من قريب أو بعيد لم يسبق أن رأيته من قبل. أتذكّر جيداً أنّ أول فكرة تشكّلت في ذهني، حين رأيت ذلك الوجه، هي فكرة ريتزش[7]، لو رأى ذلك الوجه، لكان يُفضّله حتماً على صوره الخاصة التي يُجسّد بها الشيطان. لدى مُحاولتي، خلال دقيقة واحدة من تفحّصي الأولي، أن أقوم بنوعٍ من التحليل للمعنى الذي تدل عليه تلك الملامح المُعبّرة، برزت في ذهني على نحو مُثير للارتباك والتناقض أفكار عن القدرة العقلية الجبارة، واليقظة، والعوز، والجشع، والبلادة، والمكر، والتعطش للدماء، والزهو، والمرح، والرعب، والقنوط بأقصى درجاتها. أحسست بتحفزٍ غريب، وذهول، وانبهار. «يا لوحشية التاريخ»، قلت مُكلّماً نفسي، «الذي كُتبت أسراره في ذلك الصدر!» ثم شعرتُ برغبة جامحة لأن أبقي الرجل تحت بصري.. لكي أعرف أشياء أكثر عنه. وأسرعت فلبستُ المعطف، وأمسكت قُبعتي وعصاي، وانطلقت إلى الشارع، واخترقت الحشود في الاتّجاه الذي رأيت الرجل يذهب إليه؛ لأنّه الآن توارى عن الأنظار. وصلتُ بصعوبة أخيراً إلى موضعٍ كنت أراه منه، واقتربتُ أكثر، وتبعته عن كثب، وكنت أتوخّى أقصى درجات الحذر، كي لا ألفت انتباهه.

(7) فريدريك أوغست ريتزش (1779- 1857) رسام ألماني ونحّات، اشتهر بصورة خاصة بلوحاته عن شخصية فاوست في مسرحية غوته. [المترجم]

والآن حظيت بفرصة جيدة لتفحّص ذلك الشخص. كان قصير القامة في هيئته، وفيما يبدو ضعيف البنية. ملابسه عموماً قذرة وبالية؛ لكنّه حين كان يقترب من الحين إلى الحين من الوهج القوي للمصباح، أدركت أن قماش الكتان لملابسه، على قذارته، لم يكن يخلو من مسحة جمال؛ وربّما خدعتني رؤيتي أول مرة.. ومن وراء عباءة نصفية تصل إلى الركبتين *roquelaire* مشدودة الأزرار جيداً وتبدو قديمة كانت تُغطي جسده، لمحت ماسِة وخنجراً. هذه المُلاحظات جعلت فضولي يتفاقم، وقرّرتُ تعقّب خطوات الرجل الغريب إلى أي مكان ربّما يذهب إليه.

والآن حلّ الظلام تماماً، وتعلّقت طبقة ضباب كثيف رطب فوق المدينة، [447]وسرعان ما أسفر ذلك عن هطول وابلٍ من المطر. هذا التغير في الجو كان له وقعٌ غريب على الناس، فصاروا على الفور يتّخذون نوعاً مُختلفاً من الحركة، إذ غطت المظلات رؤوسهم في عالمهم الجديد. وازداد تردّدهم، وتذبذبهم، وتدافعوا بالمناكب، وتذمّروا أضعافاً مُضاعفة. أمّا أنا، فلم أعبأ كثيراً بتيارهم الدافق.. كانت بقايا حمى كامنة في ذهني تجعل الرطوبة ربما خطرة أو غير مُحببة بالنسبة لي بعض الشيء. ربطتُ منديلاً على فمي، ومضيت كيما أُلاحقه. طوال نصف ساعة تقريباً كان الرجل العجوز يمضي في طريقه في صعوبةٍ على الشارع العام؛ وهُنا كنت أمشي قريباً من مرفقه خشية أن أفقد أثره. لم يحدث مرة واحدة أن استدار رأسه لينظر للوراء، لذلك لم ينتبه لي. وشيئاً فشيئاً دلف إلى شارع جانبي، ورغم أنّ الشارع كان يعج بالمارة، إلّا أنّه غير مُزدحمٍ مثل الشارع الرئيسي الذي خرج منه. هُنا طرأ تبدّل على سلوكه. كان يمشي ببطء أكبر وبتصميم أقل من السابق.. كان يبدو مُتردداً أكثر من السابق. صار يعبر الطريق مرة بعد مرة دون أي هدف؛ وكان الزحام شديداً، ومع كل حركةٍ من تلك الحركات وجدت نفسي مُضطراً لمُلاحقته عن كثب. كان الشارع ضيقاً وطويلاً، وبقي على ذلك المنوال ضمن حدود الشارع ساعة تقريباً، أثناء ذلك كان العابرون يتقلّصون تدريجياً حتى وصلت أعدادهم إلى حالة اعتيادية يُمكن أن يراها المرء وقت الظهيرة في برودواي بالقرب من البارك.. وهو اختلافٌ شاسع بين سكان لندن

وسكان أكثر المدن الأمريكية اكتظاظاً. ثم قادنا انعطافٌ آخر في الطريق إلى أحد الميادين، وكانت الأضواء فيه ساطعة، ويعجّ بالحياة. وتكرّر السلوك السابق للغريب. تهدّل ذقنه على صدره، بينما كانت عيناه تدوران بوحشية تحت جبينه المُقطّب في كل الاتّجاهات وتستقر على أولئك المُحيطين به. اندفع على طريقه في ثباتٍ ومُثابرة. لكنني استغربت حين رأيته، بعد أن أكمل دورة كاملة حول الميدان، يعود بخطواته إلى المسار السابق. وزادت حيرتي أكثر حين رأيته يُتابع المسيرة نفسها عدة مرات.. وكاد ذات مرة يلحظني لمّا اقترب مني في حركة مُفاجئة.

ضمن هذه المُناورات أمضى الرجل ساعة أُخرى، وفي النهاية التقينا معاً في موضعٍ لا يعترضنا فيه إلا قليلٌ من المارّة، أقل من السابق. كان المطر يتساقط بغزارة؛ والجو أكثر برودة؛ والناس يعودون إلى منازلهم. وفي إيماءة تدل على نفاد الصبر، دلف المُتجوّل إلى أحد الأزقة المهجورة نسبياً. عبر هذا الزقاق، الذي يصل طوله إلى نحو ربع ميل، اندفع في حيوية مُتجدّدة لم أتوقّعها من ذلك الرجل المُسن، [448]وجعلني ألهث وأنا أتعقّب أثره. وبعد دقائق، وصلنا إلى سوق كبيرة مُكتظة بالناس، وبدا على الغريب أنّه يعرف جيداً سكان تلك المنطقة، هُنالك استعاد طبيعته الأصلية بوضوح، فيما كان يمضي في طريقه جيئة وذهاباً، دون هدفٍ مُحدّد، وسط المُتبضعين والباعة.

وبعد ساعة ونصف، أو ما يقرب من ذلك، مرّت عليّ في هذا المكان، كان الأمر يتطلّب الكثير من الحذر من جانبي لإبقائه ضمن نطاق بصري دون أن أُثير انتباهه. ولحُسْن الحظ كنت ألبس واقية على حذائي وكان في وسعي أن أتحرّك في صمتٍ تام. لم يحصل في أي لحظة أن رآني أُراقبه. ثم ما لبث أن دخل محلاً ثم آخر، ولم يشتر شيئاً، ولم ينطق بكلمة، وكان يُلقي نظرة غريبة فارغة من أي معنى على كل الأشياء. كنت الآن مذهولاً من سلوكه، وعقدت العزم على أن لا نفترق حتى أقنع نفسي بشيء مُحدّد فيما يتعلّق بتصرّفاته.

دقّت ساعة ذات رنينٍ صاخب مُعلنة الحادية عشرة، وكان جمعٌ غفير من الناس يُغادرون السوق سريعاً. هُنا دفع أحد أصحاب المحلّات الرجل العجوز

بمنكبه، وفي لحظة رأيت رعشة قوية تسري على هيكله. أسرع الخطى باتّجاه الشارع، وكان ينظر حوله مُتلهّفاً، ثم هرول بسرعة عجيبة عبر ممرات مُتعرجة خالية من الناس، حتى عدنا إلى الشارع الذي انطلقنا منه.. شارع فندق د. غير أنّ الشارع في ذلك الوقت كان قد تجرّد من سماته السابقة.. مع أنّه لا يزال مُتألقاً بمصابيح الغاز؛ والمطرُ مُستمرٌ ويتساقط بغزارة، وهناك قليلٌ من الأشخاص يُمكن رؤيتهم. ازداد وجه الغريب شحوباً. كان يتبختر في مشيته على الدرب الذي كان قبل ذلك مُزدحماً، ثم يستدير وهو يتنهّد بتثاقل باتّجاه النهر، ثم اختفى عن الأنظار في مُراوغاتٍ شتى، وأخيراً خرج ورأيته بالقرب من أحد المسارح الكبرى. كان المسرحُ على وشك أن يُغلق أبوابه، والجمهور يندفع إلى الخارج. رأيت الرجل العجوز يلهث ويلتقط أنفاسه بصعوبة فيما ألقى نفسه وسط الحشود؛ لكنّي تخيلت أنّ آلامه ومُعاناته الشديدة التي بدت واضحة على وجهه تلاشت بعض الشيء. سقط رأسه مرة أُخرى على صدره؛ كأنّه عاد إلى حالته التي رأيته عليها أول مرة. لاحظتُ أنّه يسلك الآن المسار نفسه مع الأعداد الغفيرة من الجمهور.. ولكنّي، على وجه الإجمال، أحسست بالضياع فلم أفهم سر مُثابرته على تصرّفاته تلك.

وبينما كان يتقدّم، تبعثر جمعُ الناس أكثر فأكثر، وعاد إلى قلقه وتردده السابقين. كان يسير أحياناً خلف حشدٍ من رواد المسرح المُعربدين، عشرة أو اثنا عشر شخصاً تقريباً؛ وما لبث أن نقص منهم شخصٌ ثم آخر، حتى بقي ثلاثة [449]أشخاص فقط يمشون معاً على دربٍ ضيق مُعتم. توقّف الغريب، وبدا لحظة أنّه شارد الذهن؛ ومن ثم تابع طريقه بكل تصميمٍ طائش، ومضى سريعاً على دربٍ أوصلنا معاً إلى تخوم المدينة، وسط مناطق تختلف كثيراً عن تلك التي كنا نجوبها إلى الآن. كانت هذه من أكثر مناطق لندن ضوضاء، كل شيء يوحي بأسوأ الانطباعات عن الفقر المُثير للأسى، والجرائم الأكثر بؤساً. على الضوء الباهت لمصباح عمودٍ طويل، قديم، مُهترىء رافق أن كان هُناك، رأيتُ مُساكن خشبية مُتهالكة تمتد في اتجاهاتٍ عشوائية نادراً ما يجد المرءُ ممراً بينها. وكانت حجارة الطريق مُتناثرة هُنا وهُناك، وقد أُزيحت عن مواضعها بالعشب

النامي تحتها. والجوّ يعبق برائحة عفنة فظيعة من البالوعات المسدودة. وكلُّ شيء موحش. وبينما كنّا نتقدّم، كانت أصوات الحياة البشرية تنتعش في إيحاءات لا لبس فيها، وأخيراً رأينا جماعاتٍ من أكثر سكان لندن عزلة يجوبون المكان. وعادت روحُ الرجلِ العجوز للانتعاش، كأنّه شعلة مصباح على وشك أن تبلغ ساعة موتها. ومرة أُخرى راح يمشي على عجل في خطوات مرنة. وفجأة استدار إلى ركنٍ من المكان وبرز شعاعُ ضوء مُسلّط علينا، ووقفنا أمام معبدٍ من معابد ضواحي المدينة الكبرى، معبد الإدمان.. أحد مساكن الجن.

اقترب الصبحُ الآن؛ غير أنّ عدداً من السكارى التعساء كانوا لا يزالون يدخلون ويخرجون من المدخل الزاهي بالأضواء. وفي صرخة مرحة، شق الرجل العجوز طريقه إلى الداخل، وقد استردّ فوراً طبيعته الأُولى، وترنّح إلى الخلف وإلى الأمام، دون أن يبدو عليه أنّه يسعى إلى هدفٍ مُحدّد، وغطس وسط الزحام. ولم يمضِ عليه زمنٌ طويل أثناء انشغاله هُناك، حتى حصل تدافعٌ نحو الأبواب وكان ذلك علامة على أنّ صاحب المكان أراد الإغلاق في تلك الليلة. كان ما لاحظته على قسمات الغريب الذي كنت أراقبه بإلحاح أشد وطأة من اليأس. لم يتردّد في مسعاه، وإنّما استمدّ طاقة جنونية، وعادت خطواته في الحال تمضي نحو قلب لندن الجبارة. كأنّه أراد الهرب إلى مكانٍ بعيد في خطوات سريعة، بينما تعقبتُ أثره وأنا في أشد حالات الذهول، مُصمّماً على عدم التخلّي عن مُلاحقتي التي كنت أشعر الآن أنّها تشغل كل حواسي. ارتفعت الشمس ونحن نمضي، وحين وصلنا مرة أُخرى إلى سوق تزدحم بالناس في البلدة، على شارع فندق د، ظهر لنا مشهدُ حشدٍ بشري ليس أقل كثافة ممّا رأيته في المساء السابق. هُنا تابعتُ مُلاحقتي الطويلة للغريب وسط [450]ارتباكي المُتفاقم. لكنّه كالمعتاد راح يمشي جيئة وذهاباً، وطوال النهار لم يخرج من ذلك الشارع الهائج المائج. وبينما ألقى مساء اليوم الثاني ظلاله علينا، استبدّ بي الضجر والإنهاك حتى الموت، وتوقفتُ أمام ذلك الجوّال الذي لا يكلّ ولا يهدأ، وحملقتُ فيه بنظرات ثابتة تركزت على وجهه. لم ينتبه إليّ، وإنّما أستأنف مشيته الوقورة، بينما توقفت أنا عن مُلاحقته، وبقيت مُستغرقاً في تأملاتي. «هذا الرجل العجوز»، قلتُ

أخيراً، «نموذجٌ لعبقرية الجريمة التي لا تسبر اغوارها. يرفض أن يبقى وحده. إنّه رجل الزحام. من العبث مُلاحقته؛ لأنّي لن أعرف عنه شيئاً، ولا عن أفعاله. أسوأ قلبٍ في العالم كتابٌ أضخم من (الحديقة الصغيرة للروح) *Hortulus Animæ*(*) وربّما كانت هذه من رحمة الله أن ليس من اليسير [451]على المرء قراءته..

(*) The «*Hortulus Animæ cum Oratiunculis Aliquibus Superadditis*» of Grünninger.
كتاب (الحديقة الصغيرة للروح) من الأعمال المكتوبة باللغة اللاتينية طبع سنة 1500 في ستراسبورغ تأليف يوهان رينهارت غرونينغر وهو كاتب ألماني (1483- 1531) وهو من كتب الأدعية والصلوات. [المترجم]

لماذا يلفّ الفرنسي يده بعصابة؟[1]

نعم، نعم، إنّها على بطاقات الدعوة الموجّهة لي، هذا شيءٌ مؤكد بما يكفي (وكلها من ورقٍ قرنفلي صقيلٍ مُعطّر) حتى إنّ أي رجل يبسطها أمامه متى ما شاء ذلك سوف يلمح كلماتها واضحة للعيان وتُثير في نفسه ما تُثيره من الشجن، «سر باتريك أوغراندسون بارونيت، 39 قطاع ساوثامبتون، ميدان رسل، أبرشية بلومزبري». ولئن شئت يا صديقي أن تعرف من يكون ذلك الرجل المحظوظ الذي وجهت إليه تلك الكلمات المُعطّرة بماء الورد، ومن يكون قائد الصحبة الميامين في المدينة كلها، لندن.. عجباً، ذلك هو أنا، نفسي وليس من أحدٍ غيري. ولا عجب في هذا إطلاقاً.. (إذن أرجوك أن تتوقّف عن زجّ أنفك في هذه الأمور الشخصية الصغيرة التي لا تعنيك)، لأنّي كنت طوال الأسابيع الستة الماضية أتصرّف كرجلٍ مُهذّب وحصلت على وعدٍ بالزواج من البارونة الجميلة.. إنّه باتريك الذي يعيش كأنّه إمبراطور عظيم، وحظي بكل النعم التي أسبغها عليه حظه السعيد بعد أن تلقّى علامات الرضا منها. أوه! ألا يكون من الأشياء اللطيفة من أجل معنوياتك وراحة نفسك لو استطعت أن تغمض عينيك الصغيرتين المُحملقتين في ضغينةٍ فقط، وتتغاضى ولو قليلاً عن سر باتريك أوغرادسون بارونيت، حين يكون قد حزم أمره وارتدى حلته الجديدة استعداداً للمُضي في طريقه إلى هدفه المنشود، زحفاً أو قفزاً أو هرولة على الأقدام فيستقل التاكسي

(1) ربما كانت هذه أقصر قصة كتبها إدغار ألن بو، لكنّه كتبها بأسلوب يُمكن أن نُسميه «رطانة» على لسان رجل إيرلندي يتكلّم مع رجل فرنسي، في لهجتها العامية تحذف حروفٌ وتختلط الكلمات ومن الصعب جداً قراءتها فما بالك بترجمتها.. وهذا ما قاله النقّاد عنها.. فالتمس العذر من القارئ إذا وجد بعض الغموض الذي سيعذرني عليه لو رجع فقط إلى النصّ الأصلي. [المترجم]

لكي يُقلّه إلى حديقة هايد بارك. كم هو سعيد ذلك الرجل الأنيق الذي، لهذا السبب وحده جعل أجمل النساء قاطبة يقعن في غرامه. لا تغرّنك سترتي القصيرة الآن، قامتي ستة أقدام وثلاث بوصات.. ولا جواربي، إنني أتفوّق عليهم جميعاً في كل المُناسبات؟ أما هو نادراً ما يتجاوز طول قامته ثلاثة أقدام وقليل هُنا، على كل حال، ذلك الفرنسي العجوز الغريب الذي يسكن في مكانٍ ما على الطريق، والذي يغمز ويلمز لها طوال النهار، (يا له من رجلٍ تعيس!) مُحاولاً كسب ودّ السيدة تراكل الجميلة الفطنة التي تُقيم في شقة مُجاورة لشقتي، (ليباركها الله!) أليست صديقة مُميزة لي ومن معارفي وحدي؟ يُمكنك إذن أن تتخيّل ذلك الفرنسي القزم الحقير المُتبجح وهو يُطلق اللعنات من فمه العريض، ويضع يده اليسرى في عصابة، ولذلك الشيء نفسه، من أجل الحب الذي أكنّه لها، سوف أعطيكم السبب الحقيقي لذلك.

الحقيقة كلها بسيطة؛ منذ اليوم الأول تماماً الذي جئت فيه من كوناخت، وأوصدت على نفسي باب غرفتي، كان يتلصّص عليّ من النافذة، لكن ألا يعرف أن [452]المسألة مُنتهية كلياً وقد حسمت السيدة الجميلة تراكل أمر قلبها؟ ها أنت تدرك ذلك، ولا بد أنّه أدرك أيضاً، الأمر كما ترى مُباشرة، وما من التباسٍ في المسألة، تلك هي الحقيقة وربّي. في بداية الأمر حدث كل شيءٍ عبر تبادلٍ سريع للنظرات من النافذتين وانتهى الأمرُ في لحظة، ثم فتحت درفات نافذتها على مصراعيها، ثم صارت تستعمل منظاراً مُقرّباً ذهبي اللون كانت تتمسك به بقوة وليحرقني الشيطان إذا لم أكن أتكلم الحق فكانت تتكلم معي من بعيدٍ في همساتٍ لا لبس فيها، ثم قالت لي يوماً تلك الكلمات من وراء المنظار: «مرحى! صباح الخير لك، سر باتريك أوغراندسون بارونيت، صباح الخير؛ يا لك من رجلٍ أنيق ومُهذب، حتماً أنت كذلك، وأنا نفسي وقد بلغت الأربعين من العمر سوف أكون في خدمتك ورهن إشارتك، يا عزيزي، إذا ما احتجت إلى أي شيءٍ في أي وقت من النهار أو الليل.. في أي وقتٍ شئت ما عليك إلا أن تطلب فقط». ومن ناحيتي سوف تتوقع منّي دائماً أن أتصرف معها بأدبٍ جم؛ لذلك انحنيت إلى تلك التي سوف تفطر قلبك إذا نظرت إليها، وبعد ذلك رفعت قبّعتي

وأنا نشوان فرحاً، ثم غمزت لها بكلتا عيني، كأنما أردتُ أن أقول لها، «حقاً كم أنت.. كم أنت مخلوقة لطيفة جميلة، سيدة تراكل، أنت يا حبيبتي، وكم أرغب وأتمنّى لو غرقتُ ومتّ في مُستنقع لولا أنّني سر باتريك أوغراندسون بارونيت، لأني سوف أغمرك بالحب غمراً، وكنت أغمز بعيني كأني صبي عامل لوندري.

وفي صباح اليوم التالي، حتماً كنت قد وطدت عزمي وتساءلت إن كان من دواعي الآداب واللياقة أن أُرسل رسالة صغيرة إلى السيدة كعربونٍ للحب، حين جاء عامل البريد ببطاقة وأخبرني أنّ الاسم مُدوّن عليها (لأنّي أبداً لم أتمكّن من قراءة الحروف المطبوعة الصحيحة لأني أعسر) هذا كل شيء عن مسيو الكونت، تلك الإوزة، انظر.. كم هو سهل، مايتر دي داونز، وكل ما في تلك الرطانة اللعينة في تهجئة الاسم الطويل لرجلٍ فرنسي يبدو كالقزم يُقيم في الجوار.

والتقيت بذلك الوغد مصادفة، وانحنى لي عندذاك، ثم قال: إنّه فقط قد أخذ راحته في أن منحني الشرف لأن يزورني، وبعد ذلك ذهب في المُبالغة إلى درجة كبيرة، وليلعنني الشيطان لو أنّني كنت أفهم ماذا كان يُريد أن يُخبرني به إطلاقاً، باستثناء أنّه قال «يا لك من إنسانٍ ساذج»، وأخبرني، من جُملة الأكاذيب، يا لتعاسة حظّه، أنّه كان طائشاً لأن يغرم مثلي بالسيدة تراكل، وأنّ سيدتي الجميلة السيدة تراكل تميل إليه هو.

عندما سمعتُ منه هذا الكلام، ربّما يُمكنك أن تقسم، أنّني كنت مجنوناً مثل الجراد، لكنّي تذكرت أنّني سر باتريك أو غراندسون بارونيت، وأنّ ليس من اللطافة أبداً أن أدع الغضب يستولي على عقلي فيُجرّدني من السلوك المُهذب الذي [453]يليق بالفرسان، لذلك استهنت بالأمر وبقيت كئيباً، وصرتُ أكثر ودّية مع الرفيق الضئيل، وبعد هُنيهة لم يفعل شيئاً سوى أن طلب مني أن أرافقه إلى بيت السيدة، قائلاً: إنّه سوف يُقدمني إليها رسمياً.

«ها أنت ذا؟» قلت بعد ذلك لنفسي، «حقّاً، بالنسبة إليك، يا باتريك، فأنت أكثر الناس حظّاً في هذه الحياة. سرعان ما ترى الآن إن كنت أنت

الجميل، أو ذلك القبيح النحيف مسيو مايتر، أم أنّ تلك السيدة تُصغي إليك وتغرم بك».

وهكذا انطلقنا إلى بيت السيدة، القريب من مكاننا، وربما يُمكنك القول: إنّه قصر فخم؛ هكذا كان.. السجاد الفاخر في كل مكان على الأرض، وفي إحدى الزوايا قيثارة.. والشيطان يعرف ماذا هناك غير هذه الأشياء، وفي زاويةٍ أُخرى أريكة، وأجمل ملاك في الطبيعة على الأريكة، بالتأكيد، هُناك ملاك صغير جميل، السيدة تراكل.

«أجمل صباح أتمناه لك»، قلت، «سيدة تراكل»، ثم جلستُ وعبرت لها عن خنوعي المهذّب لها وكنت مُرتبكاً.

«مرحى، مرحى، هذا البدين المُتمرغ في الوحل»، قال الأجنبي الفرنسي الصغير، «حتماً يا سيدة تراكل»، قال، نعم فعل ذلك، «أليس هذا الرجل الذي هُنا هو المُبجّل سر باتريك أوغراندسون بارونيت، أقرب الأصدقاء لي ومن معارفي الأكثر إخلاصاً في العالم؟»

ونهضت من الأريكة، وكانت تتصرّف بأعذب ما تقتضيه سلوكيات اللياقة التي رأيتها؛ كانت جالسة مثل الملاك؛ ثم فرض نفسه عليها عُنوة، ذلك الحقير مسيو مايتر ذلك الضفدع الحقير نفسه جلس إلى يمينها. يا للهول! أحسستُ أنّ عيني تقتلعان من رأسي، وجنّ جنوني! ومع ذلك «انتظر!» قلت بعد مدة قصيرة. «هل أنت هُنا، مسيو مايتر؟» وجلستُ على الجانب الأيسر منها، لكي أكون في موقفٍ لا يُنافسني فيه ذلك الوغد الأحمق. إنّها أخوية كما تعرف! الأمر سيسعد قلبك إذا نظرت إلى الغمزة المُزدوجة التي غمزتها لها في ذلك الوقت بكلتا عيني.

غير أنّ العجوز الفرنسي الوضيع لم يشك بشيء إطلاقاً، وكم بذل من جهدٍ للتودّد إليها. «عليك اللعنة»، قال، «تباً لك.. وأنت كالضفدع الذي يتمرّغ في الوحل».

أفكر؛ [454]وكنت أتكلّم بإصرار وبسرعة ما وسعني ذلك، رغم أنّني كنت طوال الوقت، أثير اهتمامها، في رجاحة عقلي أثناء مُحادثتي معها عن مُغامراتي في كوناخت. وشيئاً فشيئاً أسبغت عليّ أروع الابتسامات وأعذبها، من طرف فمها الجميل، بحيث جعلتني شجاعاً كالخنزير، ولم أفعل شيئاً غير أن أمسكت طرف إصبعها الصغير بأرق ما يُمكن ما تتحمّل طبيعتها الرقيقة، وكنت أنظر إلى وجهها طوال الوقت وأتحرّق شوقاً من أعماق قلبي.

وبعد ذلك عليك فقط أن تتصوّر مدى لطف ورهافة إحساس الملاك الجميل، إذ سرعان ما لاحظت أنّني كنت أفرك إصبعها، دون أن تنتبه إلى ذلك لحظة، ثم سحبت يدها وراء ظهرها، وما كان منها إلّا أن قالت، «الآن، سر باتريك أوغراندسون، هُناك فرصة جيدة مُتاحة إليك للمُناورة، لأن الوقت ليس مُناسباً أبداً لشخص مُهذب مثلك لأن يلوي إصبعي بأقصى قوته في حضور ذلك الفرنسي الأجنبي، مسيو مايتر».

وبهذا الكلام غمزتُ لها غمزة واضحة، فقط لكي أقول، «دعوا سر باتريك وحده لتلك الحيل والألاعيب»، ثم مضيت على رسلي، وكنت ستموت شوقاً لأن تُشاهد كيف وضعت ذراعي اليُمنى في براعة بين ظهر الأريكة، وظهر سيدتي، وهُناك بالتأكيد وجدت تلك اليد الصغيرة تنتظرني، بينما كان يقول، «أجمل صباح لك يا صديقي سر باتريك اوغراندسون بارونيت». ألم أكن أنا نفسي حتماً قبل لحظات أضغط بأقصى ما أستطيع، كل ذلك من دواعي اللياقة، لكي لا أكون فظّاً في حضرة سيدتي الجميلة؟ ويا للهول، يا إخوتي، ألم تكن تلك أرقّ وأعذب القرصات التي حصلت عليها في المُقابل؟ «أقسم بالدم وبالرعد، سر باتريك، يا لها من مُناورة»، فكرت بيني وبين نفسي، «انظر كيف تتصرف معك كما تتصرف الأم مع ولدها، ولا أحد آخر أبداً.. أبداً. أكثر منك أناقة وحظّاً سبق أن جاء من كوناخت!» وبذلك أعطيت الوغد قرصة أُخرى، وكم كانت قاسية، بكل ما أُوتيت من قوة، وما كان من السيدة إلّا أن ردت عليّ بمثلها. سوف تنشق جوانب فمك من الضحك، في ذلك الوقت مُباشرة، من تصرفه المُربك. يا لها من مَضحكة تلك الثرثرة والغمغمة والابتسامات المُتكلفة،

فيما بدأ يُناجي السيدة، لا أعرف لها مثيلاً على الأرض؛ وليحرقني الشيطان إن لم تكن عيناي رأته يغمز لها من طرف عينه. سُحقاً! كنت مجنوناً في ذلك الوقت مثل قطّ وأردت أن أعرف من يكون!.

«دعني أخبرك، مسيو مايتر»، قلت، وكم كنت مؤدباً، «إنّه تصرّف لا يليق [455]بك بأي حال أن تغمز وتلمز للسيدة بتلك الطريقة»، وقرصت إصبعها مرة أُخرى، وقلت لها، «أليس سر باتريك الآن، يا جوهرتي هو القادر أن يحميك، يا حبيبتي؟» ثم جاءت قرصة أُخرى بالمُقابل، لكي ترد على السؤال. «صحيحٌ ما تقول، سر باتريك»، قالت وكانت كلماتها واضحة مثلما تُعبر أوضح قرصة في العالم، «صحيح ما تقول، سر باتريك، ويا لها من مُناورة في ألاعيبك، ويا لك من رجل مُهذّب أنيق.. تلك حقيقة وربي»، وبتلك الكلمات فتحت عينيها الجُميلتين حتى اعتقدت أنّهما سوف تخرجان من محجريهما على الرأس، وبدت كأنها مجنونة من مسيو ضفدع، ثم كانت تبتسم من غير قيود في وجهي.

«إذن»، قال ذلك الوغد، «سُحقاً! سُحقاً!»، ثم هزّ كتفيه وتدلّى رأسه الشيطاني الصغير.. وزمّ شفتيه، وكم كنت مُعجباً بمنظره الذي يستحقّ السخرية.

صدقيني، يا جوهرتي، ذلك هو سر باتريك الذي جنّ جنونه في ذلك الوقت، والأكثر من ذلك سوءاً أنّ الفرنسي استمر في الغمز للسيدة؛ واستمرت تلوي إصبعي، ثم قالت، «لا تبالي به مرة أخرى، سر باتريك وبمناوراته»؛ لذلك أطلقت قسمي العظيم وشتائمي وقلت:

«أنت أيّها الضفدع الحقير.. أنت حقّاً تُشبه اسمك الحقير!».. والآن ماذا تتصوّر أنّه حدث للسيدة؟ قفزت من الأريكة كما لو أنّها صُعقت، وهرعت إلى الباب، بينما أدرت رأسي إليها أتتبع حركتها، وقد استبدّ بي الارتباك والانزعاج، وتبعتها نظراتي. أنت تُدرك أنّ لدي سبباً خاصّاً بي لأن أعرف أنّها لن تتمكّن من إبعاد نظراتها كلياً؛ لأنّي أعرف جيداً أنّني كنت أمسك يدها، فليلعنني الشيطان إذا تركت يدها. وقلت: «أليس من الخطأ ما تقترفينه، يا سيدتي؟ تعالي الآن، يا حبيبتي وسوف أترك أصابعك». لكنها نزلت السلالم مثل إطلاقه، ثم تلفتّ حولي

نحو الفرنسي الغريب. اللعنة عليّ إن لم أكن أمسك يده.. لماذا.. لماذا لم يكن.. وهذا كل شيء.

ربّما كنت سأموت أنا نفسي من الضحك لأن أرى المسكين يكتشف أنّه لم [456]يكن يُمسك يد السيدة أبداً.. أبداً طوال الوقت، ولكنّه كان يُمسك يد سر باتريك أوغراندسون. الشيطان نفسه لن يستطيع النظر إلى ذلك الوجه المُمتقع! أمّا سر باتريك أوغراندسون بارونيت، فليس من شأنه أن يلتفت إلى خطأ تافهٍ مثل هذا. ربما يُمكنك القول، رغم كل شيء (لأنّها والله حقيقة)، إنّني قبل أن أترك يدها وأصابعها النحيفة (لم يحدث ذلك حتى طردنا معاً خادمُ السيدة الذي ألقانا على السلالم)، فقد لويتها بشدة حتى جعلتها كأنها مربى التوت.

«سُحقاً لك»، قال، «عليك اللعنة»، قال.. «عليك اللعنة!».

تلك هي حقيقة السبب الذي جعله يضع يده في عصابة.

السقوط إلى هاوية مايلستروم

أساليب الربّ في الطبيعة، ما تراه العناية الإلهية، ليست بأي حال مثل أساليبنا؛ ولا مفاهيمنا يُمكن قياسها إلى مدى سعة، وعمق إرادته في أعماله التي لا سبيل للتكهّن بخفاياها على حقيقتها، فتلك المعاني أعمق حتى من نبع ديموقريطس[1].

جوزيف غلانفيل

كنّا قد وصلنا الآن إلى قمة أعلى جبل من الجبال الشامخة. منذ بضع دقائق [457]كان الرجل العجوز مُنهكاً جدّاً فلا يستطيع الكلام.

«منذ عهدٍ غير بعيد»، قال أخيراً، «كان في وسعي أن أقودكم على هذا الدرب وكذلك يفعل أصغر أبنائي؛ ولكن، منذ ثلاث سنوات، وقع حادث لم يسبق أن عرفه إنسان في هذه الدنيا.. أو على الأقل لم يحصل أن نجا منه إنسان ليروي القصة.. كانت ستّ ساعات من الرعب المهول تحمّلتها في ذلك الوقت قد حطّمت جسدي فضلاً عن روحي. أنتم تتصوّرون أنّني رجلٌ طاعن في السن.. لكنّي لست كذلك. لم يتطلّب الأمر أكثر من يوم واحد ليتغيّر هذا الشعر الذي على رأسي من أسود فاحم إلى أبيض، وتضعف أطرافي، وتتراخى أعصابي، بحيث صرت أرتعش مع أي جهد بسيط، وأرتعد خوفاً من الظلال. هل تعرفون أنّني لا أتمكّن من النظر من فوق هذا المُنحدر الصخري الصغير دون أن أُصاب بالدوار؟».

---

(1) الاقتباس هُنا من كتاب جوزيف غلانفيل (مقالات عن عدّة موضوعات مُهمة)، لندن، 1676، ص 15. من مقال بعنوان «ضد مبدأ الثقة في الفلسفة وقضايا أُخرى تستحق التأمل». [المترجم]

كان المُنحدر الصخري الصغير الذي ألقى جسده على حافّته بلا اهتمام لكي يأخذ قسطاً من الراحة بحيث تدلّى الجزء الأكبر من جسده عليه، ولم يمنعه من السقوط غير التشبث بمرفقه بحافته البعيدة الملساء.. هذا المُنحدر الصخري الصغير كان ينهض، كهاوية شديدة الانحدار لا تُعيقها الصخور السوداء الصقيلة، على ارتفاع نحو ألفٍ وخمسمائة أو ألف وستمائة قدم عن عالم الصخور الشامخة الذي تحتنا. ما من شيء كان يُمكن أن يُغريني لأن أقترب إلى مسافة ست ياردات من الحافة. في حقيقة الأمر كان ينتابني إحساسٌ عميق بجسامة الخطر الذي يتعرّض له رفيقي، حتى إنّي هويت على الأرض بثقل جسمي كله، وتشبثتُ بالشجيرات التي حولي، ولم أجرؤ أن أنظر حتى إلى السماء.. بينما كنت أُكافح بلا جدوى لأُخلّص نفسي من فكرة أنّ الأُسس التي يقوم عليها الجبل مُعرّضة لخطر مصدره غضبُ الرياح. ومضى وقتٌ طويل قبل أن تتقبّل نفسي التفكير بشجاعة كافية، فجلستُ وأخذت أنظر إلى الأعماق السحيقة.

«عليكم التخلص من هذه الأوهام»، قال دليلنا، «لأني أتيت بكم إلى هُنا حتى [458]تتمكّنوا من الحصول على أفضل فرصة مُمكنة للنظر إلى المشهد الذي وقعتْ فيه الحادثة التي ذكرتها.. وأن أقص عليكم الحكاية كاملة بينما تكون البقعة التي حدثت فيها أمام عيونكم».

«نحن الآن»، تابع كلامه بتلك الطريقة المُحدّدة المُلتزمة بالتفاصيل الدقيقة التي يمتاز بها.. «نحن الآن قريبون من الساحل النرويجي.. على خط عرض ثمانية وستين.. في المنطقة الشاسعة نورلاند.. والإقليم الموحش وفودين. والجبل الذي نجلس على قمته هو جبل هلسيغن، أو جبل السحاب. والآن ارفع نفسك قليلاً.. وتمسّك بالعشب إذا كنت تشعر بالدوار.. هكذا.. وانظر، إلى ما وراء حزام الضباب الذي تحتنا، باتّجاه البحر».

نظرت بعينين زائغتين فرأيت مُحيطاً هائجاً متلاطماً، مياهه تحمل تدرّجات ألوان الحبر الأزرق تُذكّرني حالاً بكتابات الجغرافي النوبي الذي كتب (بحر الظلال)[2]

---

(2) اعتمد بو في هذا على كتابه المُفضل (أساطير قديمة) تأليف جاكوب بريانت، ط 3، 1807، [المترجم]

Mare Tenebrarum. إنّها بانوراما تنأى عن أن يسبر أغوارها أي خيالٍ بشري فلا يُدركها الخيال. إلى اليمين وإلى اليسار، بقدر ما تستطيع العين أن تصل إليه، هُناك امتداد، كأنّها سواتر العالم، لجرفٍ من خطوط الظلال السوداء المُرعبة الزاحفة كالخنافس السوداء، منظرها المُختلط بالعتمة يتجلّى بقوة أكبر من خلال الأمواج المُتكسرة التي تصل إلى ارتفاعات عالية جدّاً بإزاء ذراها البيضاء الشاحبة، أمواج تعوي وتزأر إلى الأبد. وأمام الجرف الناتئ في عرض البحر الذي جلسنا على قمته، وعلى مسافة خمسة أو ستة أميالٍ من البحر، كنّا نرى جزيرة صغيرة تبدو مُقفرة؛ أو على نحو أدق، كان موقعها مميزاً من بين دوامات الأمواج المُتوحشة المُتكسرة التي تُحيط بها. على بعد حوالى ميلين بالقرب من تلك الجزيرة، تبرز جزيرة أُخرى أصغر حجماً، أرضها صخرية قفراء شنيعة المنظر، مُحاطة من جوانبها كافة بكتل الصخور الداكنة.

كان منظر المُحيط، في الحيز الذي بين الجزيرة الأبعد والساحل، يكتنفه شيء غير مُعتاد أبداً. على الرغم من هبوب عاصفة قوية آنذاك باتّجاه تلك الأرض بحيث رأينا سفينة راسية في مكان بعيد من عرض البحر ترفع شراع العواصف المُزدوج، كانت تغطس باستمرار ويختفي بدنها الهائل عن الأنظار، ومع ذلك لم يكن ما رأيناه شيئاً من حركة الأمواج المُعتادة التي نعرفها، ولكنّه اندفاعٌ مُقتضب، سريع، جيّاش، جانبي للمياه يمضي في كلّ اتّجاه، فضلاً عن رياحٍ تنشب أنيابها في الاتّجاهات الأُخرى. لم نرَ من الزّبد إلا القليل باستثناء ما رأيناه في مكان قريب جدّاً من الصخور.

«الجزيرة البعيدة التي هُناك»، عاد الرجل العجوز يتكلّم، «يُسمّيها النرويجيون فورغ. والتي في مُنتصف الطريق اسمها موسكوي. وتلك التي تبعد ميلاً واحداً إلى جهة الشمال اسمها أمبارين. وهُناك كما ترون جزر أُخرى هي إيفليسن، وهويهولم، وكيلدهولم، وسوارفين، وبوكهولم. وغيرها تقع أبعد منها.. بين موسكوي وفورغ.. [459]جزر أوتيرهولم، فلايمين، ساندفليسن، وسكارهولم. هذه هي الأسماء الحقيقية للأماكن.. ولكن لماذا كان الناس يعتقدون أنّ من الضروري إعطاء أسماء لهذه الجزر، ذلك شيء لا يُمكن لك أن تفهمه

وكذلك أنا. هل تسمع أي شيء؟ هل ترى أي تغيّر في المياه؟».

لقد مضى علينا الآن حوالى عشر دقائق على قمة جبل هلسيغن، الذي صعدنا إليه من الجوانب الداخلية من لوفودن، بحيث لم نلمح أي أثر للبحر حتى ظهر منظره لنا فجأة من القمة. وبينما كان الرجل العجوز يتكلّم، سمعت صوتاً عالياً يتصاعد تدريجياً، كأنّه أنين قطيع هائل من الجواميس على البراري الأمريكية؛ وفي اللّحظة نفسها أدركت ما يسمّيه البحارة الطبيعة الشرسة قطعاً للمُحيط الذي تحتنا، إذ كان يتبدل سريعاً فيتّخذ شكل تيار ينطلق شرقاً. وحتى عندما كنت أنظر مشدوهاً إلى ذلك المشهد، اكتسب هذا التيار سرعة وحشية. كلّ لحظة تضيف زخماً إلى سرعته.. إلى طيشه وتقلّباته. خلال خمس دقائق كان البحر كله، وصولاً إلى فورغ، يندفع في سخطٍ لا سبيل للسيطرة عليه؛ ولكن بين موسكوي والساحل كان الهيجان الأساسي يندفع هُناك. أما هُنا، فكان حوض المياه الهائل، مُغطى بالبخار ومُرقّطاً بآلاف القنوات المُتضاربة، يندفع فجأة في تشنّجاتٍ مسعورة.. يرتفع، يغلي، يُدمدم.. يدور ويدور في دوامات هائلة لا حصر لها، وكل شيء يدور ويستمر في الاندفاع شرقاً بسرعة لا يُمكن أن تبلغها المياه أبداً في أي مكان باستثناء أجراف شديدة الانحدار.

في غضون دقائق قليلة، طرأ على المشهد تغيّر مذهل آخر. ازداد سطح المياه عموماً نعومة بعض الشيء، واختفت الدوامات المُتموّجة، واحدة بعد واحدة، بينما اتضحت أكثر من السابق امتداداتٌ غير عادية من الزبد في أماكن لم نرها من قبل. خيوط الزبد هذه راحت تنتشر أخيراً إلى مسافات بعيدة، ثم تجمع بعضها فوق بعض فتألّفت منها مجموعة، واتّخذت حركة مغزلية حلّت محلّ الدوامات التي خمدت، وبدا أنّها تُشكّل نواة لدوامة أُخرى أكثر هولاً. وفجأة.. في حركةٍ مُباغتة مُضاعفة.. اكتسبت هذه الظاهرة كياناً مُحدّداً، في هيئة دائرة قطرها أكثر من ميل. كانت حافة الدوامة تتمثّل في حِزامٍ عريض من الرذاذ والوميض؛ ولكن لا تنزلق أي جزيئة من هذا الخليط إلى جوف القمع الرهيب، وكان الجزءُ الداخلي منه، بقدر ما تتمكّن العين من سبر الأغوار، أملس، لامعاً، وفاحم السواد كجدارٍ من المياه القاتمة، يميل للارتفاع نحو الأُفق في زاوية

خمس وأربعين درجة تقريباً، ويتسارع صعوده في دوران يخطف الأبصار حول نفسه مرة بعد مرة في حركة ساحقة ماحقة، ويبعث مع هبوب الرياح هديراً مُريعاً، يُشبه الصراخ، يُشبه العويل، صوت يفوق [460]حتى هدير شلالات نياغارا، يتصاعد في عنفوان إلى عنان السماء.

كان الجبل إلى الأسفل منّا يرتعش من قاعدته، والصخور تتمايل. ألقيت نفسي على وجهي، وتشبّثت بالعشب الشحيح في سورةٍ من الانهيار العصبي.

«هذا»، قلت أخيراً للرجل العجوز.. «هذا لا يُمكن أن يكون إلا دوّامة مايلستروم الجبارة».

«هكذا يُسمونها أحياناً»، قال. «نحن النرويجيون ندعوها موسكويستروم، على اسم جزيرة موسكوي التي في الوسط».

لم تكن الأشياء العادية التي سمعتها عن هذه الدوامة تهيىء ذهني أبداً لتقبل ما أراه أمامي مُباشرة. فمثلاً ذلك الكتاب الذي من تأليف جوناس راماس، والذي ربّما يكون أكثر الكتب إحاطة بالقرائن، لم يكن ليطرح أدنى مفهوم واضح سواءً عن مدى روعة، أو رعب المشهد.. أو يعطي صورة عن الهيجان المُحير للألباب ضمن هذا المشهد العجيب الذي يصعق من يُشاهده. لست مُتاكداً من أي زاوية يُمكن للكاتب أن يتناول هذا المشهد الذي نتكلّم عنه، أو في أي وقت من الأوقات؛ لكنه لا يُمكن أن يتناوله بالوصف حتماً من قمة جبل هلسيغن، ولا أثناء العاصفة. هُناك بعض القطع الرائعة في الوصف جاءت في كتابه ربّما يُمكن اقتباسها لكثرة تفاصيلها، مع أنّ تأثيرها ضعيف جداً في نقل أي انطباع عن المشهد.

«بين جزيرتي لوفودن وموسكوي»، قال، «يتراوح عمق المياه بين ست وثلاثين إلى أربعين قامة؛ ولكن في الجانب الآخر، باتّجاه جزيرة فير (فورغ) يزداد هذا العمق كثيراً بحيث لا يسمح بعبور آمن لأي مركب، دون مُخاطرة الاصطدام بالصخور، وهذا ما يحصل حتى في أكثر الأجواء هُدوءاً. فإذا جاء المدّ، يندفع التيار إلى المناطق التي بين جزيرتي لوفودن وموسكوي في سرعة

هائجة صاخبة؛ على أن هدير انسحابه الطائش باتّجاه البحر قلّما تُضاهيه أعتى الشلالات المُرعبة؛ فالضوضاء تُسمع من مسافة فراسخ من المكان، والدوامات أو الحفر الهائلة تبلغ ذروتها في الاتساع والعمق، بحيث إنّ أي سفينة تأتي قريباً من مصدر الانجذاب، سوف تغطس حتماً وتختفي نحو القاع، وهُناك تتحطّم إلى قطع مُتناثرة على الصخور؛ وحين تسترخي المياه الجبارة، تطفو أشلاء السفن هُنا وهُناك. غير أنّ هذه الفترات المُتعاقبة بين الهيجان والسكون لا تحدث إلا مع تحوّلات المد والجزر، وفي أجواء هادئة، ولا تدوم أكثر من ربع ساعة، ثم ما يلبث عنفوان المياه أن يعود تدريجياً. وحين يكون التيار في أوج هيجانه، ويتصاعد غضبه مع الجو العاصف، فمن المُجازفة الاقتراب مسافة ميل نرويجي من المكان. كانت الزوارق، واليخوت، والسفن تنجرف بعيداً لأنّ أصحابها لا يتوخّون الحذر قبل أن تقع ضمن مُقتربات التيار. ويحدث الشيء نفسه مراراً وتكراراً، فتقترب الحيتان كثيراً من التيار، فتقع [461]في الأسر؛ ويكون من المُستحيل على المرء وصف عويلها وولولتها في صراعها العقيم للفكاك من أسرها. وحدث ذات مرة أن حاول دبُّ السباحة من لوفودن إلى موسكوي، فعلِق وسط التيار وغطس إلى الأعماق، بينما كان يجأر بصوت فظيع، بحيث يُسمع صوته من الساحل. كانت الصخور الضخمة التي تنمو عليها أشجار التنوب والصنوبر، بعد أن تسقط ويغمرها التيار، ترتفع مرة أُخرى وقد تكسّرت وتمزقت إلى درجة أن المرء يراها مثل شعيرات من الشظايا. هذا يدل بوضوح على أنّ قاع الهاوية يتألّف من صخور مُسنّنة، إذ تبقى الأشجار تدور وتدور هُنا وهُناك فيما بينها. هذا النوع من الدوّامات تُحدد اتّجاهاته تيارات البحر المُتناوبة بين مدّ وجزر.. فترتفع باستمرار ثم تنخفض كل ست ساعات على التوالي. في سنة 1645، وفي وقت مُبكر من صباح الأحد الثاني قبل الصوم الكبير، اندفعت تياراتٌ جياشة تُصاحبها ضوضاء عارمة بحيث إنّ كل حجر من حجارة المنازل التي على الساحل سقطت إلى الأرض».

فيما يتعلّق بعمق المياه، لم يكن في وسعي أن أعرف كيف يُمكن التأكد من هذا الأمر على كل حال في مكانٍ قريب مُباشرة من الدوّامة. لا بد أنّ

«الأربعين قامة» لها علاقة فقط بأجزاء من القناة القريبة من شاطئ إما جزيرة موسكوي أو جزيرة لوفودن. إنّ العمق في مُنتصف موسكويستروم لا بُدّ أن يكون هائلاً بشكل لا يُمكن قياسه؛ ولا يحتاج المرء إلى دليل أفضل على هذه الحقيقة من نظرة عابرة إلى أعماق هاوية الدوامة ربّما يُلقيها المرء من أعلى قمة جبل هلسيغن. نظرتُ إلى الأسفل من هذا الهرم الشامخ نحو هاوية فليغيثون[3] بما يجتاحها من العواء تحتي، فلم أتمكّن من منع نفسي من الابتسام بإزاء البساطة التي سجّل بها الرجل المُحترم جوناس راماس انطباعاته، عن مسألة من الصعوبة بمكان بحيث لا يُمكن تصديقها، عن حكايات نادرة بشأن الحيتان والدببة؛ ذلك لأنّه ظهر لي، في الواقع، كشيء بديهي، أن أُضخم السفن التي تعمل على خط الملاحة هُنا، حين تقترب من نطاق تأثير الجذب القاتل، لا تُبدي من المُقاومة إلا كما تُبديه ريشة وسط الإعصار، وحتماً سوف تختفي مادياً على الفور.

يبدو لي أنّ مُحاولات وصف ما يحصل ضمن هذه الظاهرة.. وبعض هذه المُحاولات كما أتذكّر معقولة بما يكفي في سياقاتها.. أما الآن فتكتنفها أشياء مُختلفة جدّاً غير قابلة للتصديق. ذلك يختلف عن الفكرة الأولية التي يتلقاها الناس على وجه العموم وهي أنّ هذه الدوامة، فضلاً عن ثلاث دوامات أخرى أصغر منها تسود وسط جزر فايروي[4]، «ليس هناك سببٌ آخر وراءها غير تصادم الأمواج التي ترتفع وتنخفض، مع تناوب حركة المد والجزر، وترتطم بحافّات الصخور والأجراف الصخرية، والتي تُقيد حركة المياه بحيث تجعلها تتساقط كأنها الشلال؛ لهذا كلما كان الطوفان أعلى وأشد، ازداد عمق الشلال، والنتيجة الطبيعية لكل هذا تُشكّل دوامة أو ما يُعرف بدوّارة المياه، حيث تكون حالة الامتصاص الاستثنائي لها معروفة على نحو كاف إذا ما أُجريت تجارب بسيطة»... هذه هي الكلمات بعينها التي وردت في الموسوعة البريطانية. يتصوّر كيرشر وآخرون أنّ في مركز قناة المياه في مايلستروم هاوية تخترق أعماق

(3) فليغيثون: نهر من نار في الجحيم «هاديس» ورد في (الفردوس المفقود) 2، 580. [المترجم]

(4) جزر فايروي تقع بين أيسلندا وشمال اسكتلندا. [المترجم]

الأرض، تتشكّل في بعض أجزائها [462]البعيدة.. وتُسمى في بعض الأحيان على نحو مؤكد خليج بوثنيا. هذا الرأي نفسه، على عفويته، هو الذي صوّره لي خيالي بينما كنت أطيل النظر وتقبّلته نفسي سريعاً؛ ولما ذكرته على مسمعٍ من دليلنا، استغربتُ عندما سمعته يقول: إنه، على الرغم من أنّ وجهة النظر هذه مُنتشرة على نطاق واسع بخصوص الموضوع بين النرويجيين، إلّا أنّها ليست ما يؤمن به شخصياً. أما فيما يتعلّق بالفكرة السابقة فقد اعترف الرجل بعدم قُدرته على استيعابها؛ وهُنا وجدت نفسي أتفق معه.. لأنّ، رغم أنّ الفكرة تبدو مُقنعة على الورق، إلا أنّها غير مفهومة كلياً، بل حتى عبثية، وسط هدير ودمدمة شلالات الهاوية.

«نظرتَ بنفسك جيداً إلى الدوامة الآن»، قال الرجل العجوز، «واذا زحفت حول هذه الصخرة الشامخة، بحيث تصل إلى مخبأ من مخابئها، وبذلك تهدأ شدة الضوضاء التي تصدرها المياه، سأُخبرك بقصة تقنعك بالتعرف على شيء عن موسكويستروم».

وقصدتُ ذلك المكان الذي أرشدني إليه، واستأنف كلامه:

«أنا واثنان من إخوتي كان لدينا ذات مرة مركبٌ شراعي صغير من نوع يسمى «السنبوق» وزنه سبعون طناً تقريباً، وقد اعتدنا أن نذهب لصيد السمك وسط الجزر التي تقع وراء موسكوي، حتى نكاد نصل إلى جزيرة فورغ. في حالة وجود دوامات عنيفة تكتنف البحر يُكثر الصيد، في مُناسبات جيدة، إذا تحلّى المرء فقط بالشجاعة ليُحاول ذلك؛ ولكن من بين كل سكان سواحل لوفودن، كنّا نحن الثلاثة فقط نجرؤ فنقوم برحلات مُنتظمة إلى تلك الجزر، كما قلتُ لك. المناطق التي من المُعتاد أن نذهب إليها تبعد مسافة كبيرة باتّجاه الجنوب. هُناك يُمكن اصطياد السمك في أي ساعة، دون مُخاطرة، ولهذا كانت هذه الأماكن مُفضلة لدينا. لكن البقع التي اخترناها دون غيرها تقع هُنا وسط الصخور فلا توفر أجود أنواع السمك فحسب، وإنما فيها كميات وفيرة جدّاً من السمك لا تتوفّر في غيرها؛ بحيث أننا غالباً ما كنّا نصطاد في يومٍ واحد ما لا يحصل عليه رجلٌ جبان يمتهن هذا العمل في أُسبوع. في الواقع، كانت المسألة بالنسبة إلينا مثل

المُضاربة في البورصة.. فقليلٌ من المُخاطرة بالحياة تُعوّض عن الجهد الطويل العقيم، والشجاعة رأسُ مالنا.

«كنّا نُلقي زورقنا في خليجٍ صغير على مبعدة خمسة أميال من هذا الساحل؛ واعتدنا في الأجواء الصحوة أن نستغلّ الفترة المؤقتة التي يتراخى فيها المدّ لمدة خمس عشرة دقيقة للاندفاع عبر القناة الرئيسية لموسكويستروم، حتى نصل إلى ما وراء البحيرة، ومن ثمّ نُلقي مرساتنا في مكانٍ ما بالقرب من أوتيرهولم، أو ساندفليسن، حيث لا تكون التيارات المُعاكسة بمثل عنفوانها في الأماكن الأُخرى. هُنا كان من المُعتاد أن نبقى حتى اقتراب فترة الاسترخاء الثانية، حينها نرفع المرساة ونعود أدراجنا. لم يحدث قط أن انطلقنا في مثل هذه الرحلات دون أن تؤازرنا رياحٌ جانبية مُستقرّة في الذهاب والإياب.. وهي رياح كنا نحس بالثقة في [463]أنّها لن تخذلنا قبل موعد رجوعنا.. ونادراً ما كنّا نخطىء في تقديراتنا في هذه المسألة. وحصل خلال مرتين، طوال ست سنوات، أن اضطررنا للبقاء الليل كله راسين بسبب خوفنا من الهدوء المُطبق، وهو شيءٌ نادر الوقوع في الواقع في هذا المكان؛ وذات مرة تحتّم علينا البقاء على الأرض مدة أُسبوع تقريباً، وكنا نتضوّر جوعاً، بسبب عاصفة كانت تهب بعد وصولنا بفترة قصيرة، وجعلت القناة صاخبة بحيث لا يمكن التفكير في اجتيازها. في تلك الرحلة لا بدّ أنّنا انجرفنا إلى عرض البحر رغم كل احتياطاتنا، (لأنّ الدوامات كانت تجعلنا ندور وندور بعنف، حتى إن مرساتنا كانت تقتلع وتجرجر على القاع) أو أنّنا انجرفنا إلى واحد من التيارات الجانبية التي لا تُحصى.. وهي تيارات تكون موجودة اليوم هُنا ثم تختفي غداً.. كانت تسوقنا من خلف وقاء جبل فليمن، ولحسن الحظ ساقتنا إلى ذلك المكان.

«لم أخبرك بعشر الصعوبات التي واجهناها على الأرض.. إنها من أسوأ البقاع التي يمكن للمرء أن يجد نفسه فيها، حتى في الأجواء الجيدة.. ولكنّنا كنّا دائماً نقبل تحدّي موسكويستروم نفسه دون وقوع أي حادث؛ على الرغم من أنّ قلبي في بعض الأحيان كان يصل إلى حلقي حين يُرافق أن نكون لمدة ثانية أو نحو ذلك خلف أو أمام التيار المُنحسر. لم تكن الرياح في بعض الأحيان بمثل

قوتها المألوفة التي نحسبها لدى انطلاقنا في الرحلة، ومن ثم كنّا نشق طريقنا في وتيرة أقل ممّا نتمنّى، بينما كان التيار يجعل زورقنا الشراعي يخرج عن سيطرتنا. كان لأخي الأكبر ابن يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وأنا نفسي لدي اثنان من الأبناء الأشداء. هؤلاء الشباب كانوا مُفيدين لنا كثيراً في مثل هذه الأوقات العصيبة، وذلك في استعمال المجاذيف الطويلة، فضلاً عن مُساعدتهم لاحقاً في الصيد.. ولكن، حدث بطريقة ما، مع أنّنا كنا نُخاطر بأنفسنا، فلم نجرؤ أن نترك الشباب يتعرّضون للخطر.. لأنّ، بعد أن قلت كل هذا وفعلت ما فعلت، فالخطر كان جسيماً، وهذه هي الحقيقة.

«لقد مضت الآن ثلاث سنوات وأيام قليلة منذ أن وقع الحادث الذي سوف أُخبرك به. كان ذلك في اليوم العاشر من تموز، سنة ـ 18، وهو يوم لن ينساه الناس في هذا الجانب من العالم أبداً.. لأنه اليوم الذي هبّت فيه أعتى الأعاصير التي أرسلتها السماء. ومع ذلك، طوال الصباح، أو في الواقع حتى وقتٍ مُتأخر من العصر، لم يكن هُناك غير نسيم عليل يأتي باستمرار من الجنوب الغربي، بينما كانت الشمس تشرق بأضوائها البراقة، ولم يتوقّع أكبرُ بحارٍ فينا ماذا يُمكن أن يعقب ذلك.

«كان ثلاثة أشخاصٍ منّا.. أخواي وأنا.. قد اجتزنا المسافة كلها باتّجاه الجزر حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، وكنّا على وشك تحميل الزورق بحمولة جيدة من السمك الذي كنّا نراه مُتوفراً بكميات كبيرة بقدر ما استطعنا اصطياده في ذلك اليوم، أكثر ممّا حصل لنا في أي يوم سابق. حينها لم تتجاوز الساعة السابعة، عرفت ذلك [464]من ساعتي اليدوية، فرفعنا المرساة وبدأنا رحلة العودة، لكي نستغل بقدر الإمكان انحسار المياه عن ستروم، وكنّا نعرف أنّ هذا يحدث في الساعة الثامنة.

«وانطلقنا تدفعنا رياحٌ لطيفة ترتطم بالزورق من الميمنة، وفي أحيان أُخرى تلطمنا بمُعدل سرعة أعظم، ولكنها لا تنذر أبداً بالخطر، في حقيقة الأمر لم نُفكّر بأي سبب أياً كان يجعلنا نخاف منها. وعلى حين فجأة، قذفنا إلى الوراء نسيمٌ قادم من هلسيغن. لم يكن هذا مُعتاداً على الإطلاق.. لم يسبق أن حدث لنا

من قبل.. وبدأت أشعر بالقلق، دون أن أعرف على وجه التحديد لماذا. وصار مركبنا يواجه الرياح، ولكن لم نتمكن من المضي في مسارنا بسبب التيارات المُعاكسة، وكنت على وشك أن اقترح العودة، ونظرتُ إلى المؤخرة، فرأينا الأُفق كله مُلبداً بسحابة فريدة المنظر كأنها طبقة من النحاس ظهرت بسرعة مُذهلة.

«في هذه الأثناء اختفت النسائم التي كانت تتّجه نحونا، وأحاط بنا هدوءٌ سقيم مُرعب، وكنا ننجرف في كل اتّجاه. إلا هذه الحالة التي شابت الأجواء لم تستمر مدة كافية بحيث تمنحنا فرصة للتفكير فيها. خلال أقل من دقيقة جثمت العاصفة فوق رؤوسنا.. وخلال أقل من دقيقتين تلبّدت السماء بالغيوم المُعتمة.. ورافق هذه الغيوم ما رافقها من رذاذ المطر الذي تجرفه الرياح، وأصبحت السماء مُعتمة على حين فجأة ولم نعد قادرين على رؤية شيءٍ في زورقنا.

«هبّ علينا آنذاك إعصار لم نرَ مثيلاً له حتى لتغدو أي مُحاولة لوصفه ضرباً من الغباء. لم يسبق لأكبر بحار في النرويج أن رأى شيئاً من ذلك القبيل. لقد أنزلنا أشرعتنا التي طارت في مهب الريح قبل أن تُطيح بنا؛ لكن مع أول هبوب للرياح اقتلعتْ صوارينا وسقطت على الجانب كأنّها قطعت بمنشار.. وأخذ الصاري الرئيسي معه أخي الأصغر الذي ربط نفسه به للأمان.

«أصبح زورقنا الآن مثل ريشةٍ خفيفة تطفو على المياه. وغمرت المياه الدكة تماماً، ولم تبقَ إلا ثغرة صغيرة بالقرب من المُقدمة، وهذه كان من المُعتاد أن نسدّها بإحكام حين نوشك على اجتياز ستروم، وهو مسلكٌ محفوف بالمخاطر تعترضه الأمواج القاطعة. ولكن في هذا الظرف الاستثنائي كنّا سنغرق على الفور.. فالمياه تُغطينا من كل جانب وتكاد تدفننا تحتها لمدة دقائق. كيف استطاع أخي الأكبر النجاة من الدمار، لا يُمكن معرفة ذلك، لأنّي لم أحظ بفرصة للتأكد على الإطلاق. أما من جانبي، فما إن تركت الشراع الأمامي يسقط من يدي، حتى ألقيت نفسي وانبطحت على الدكة، بينما ارتطمت قدماي بحافة المُقدمة، وتشبّثت يداي بحلقة معدنية بالقرب من قاعدة الصاري المخلوع. الغريزة وحدها هي التي دفعتني إلى هذا.. ومن غير شك كان ذلك أفضل ما استطعت القيام به.. مع ذهني المُضطرب الذي عجز عن التفكير.

«طوال بضع دقائق غرقنا تحت الطوفان، كما أقول لك، وفي هذا الوقت كله [465]كنت أحبس أنفاسي وأتعلّق بالحلقة. وحين لم أعد أتحمّل البقاء زمناً أطول رفعت نفسي على ركبتي، وبقيت ممسكاً بكلتا يدي، وأخرجت رأسي من الماء. هُنا كان زورقنا الصغير يهتز وينتفض، كما يفعل الكلب حين يخرج من المياه، وبهذا يتحرّر بعض الشيء من الأمواج. حاولتُ الآن الخلاص من الغيبوبة التي توشك أن تلمّ بي، وأن أستجمع حواسي كي أرى ما الذي يُمكن عمله، حينها أحسست بشخص يُمسك ذراعي. كان ذلك أخي الأكبر، ووثب قلبي في صدري من الفرح، لأنّي كنت أحسب أنه سقط من الزورق.. وفي اللحظة التالية تحوّل كل الفرح إلى ذعر.. لأنه وضع فمه قريباً من أُذني، وصرخ، «موسكويستروم!».

«لن يعرف أي إنسان حقيقة مشاعري في تلك اللحظة. كنت أنتفض من قمة رأسي حتى أخمص قدمي وكأنما انتابتني أعنف نوبات الملاريا. كنت أعلم ما الذي يقصده بتلك الكلمة وحدها بما فيه الكفاية.. كنت أعلم ما الذي أراده منّي. مع وجود الرياح التي كانت تدفعنا الآن بلا توقف، عرفت أنّنا مُقيّدون إلى قناة ستروم، ولا شيء يُمكن أن ينقذنا!.

«أنت ترى حين كنّا نعبر قناة ستروم، فنحن دائماً نقطع مسافة طويلة جدّاً بعيداً عن الدوّامة، حتى في أكثر الأجواء هدوءاً، ومن ثم علينا أن ننتظر ونترقّب في حذرٍ انحسار المد.. لكنّنا الآن كنّا ننجرف فوق البركة نفسها، وفي ظل إعصار مثل هذا! «من المؤكد»، هكذا فكّرت، «أننا سوف نصل إلى هُناك مع انحسار المد تماماً.. وهُناك شيء من الأمل في أن نتمكّن من ذلك..» لكنّي في اللحظة التالية لعنتُ نفسي على تصرّفي الغبي بحيث حلمت لحظة في وجود أملٍ ما. كنت أُدرك جيداً أننا حُكم علينا بالهلاك، فالعاصفة التي تواجهنا كأنها عشر سفنٍ تطلق النار من تسعين مدفع.

«في هذا الوقت كاد أول زخمٍ للعاصفة الغاضبة أن ينتهي أمره، أو لعلّنا لم نكن نشعر به بهذه الشدة، حين كنّا ننجرف أمامه، ولكن في الأحوال كافة كانت الأمواج، في بداية الأمر انخفضت لهبوب الرياح، وبقيت مُنبطحة ترغو وتزبد،

والآن نهضت من كبوتها فتحوّلت إلى جبال شاهقة. وطرأ تغيرٌ غريب أيضاً على السماء. في كل اتّجاه حولنا كانت السماء لا تزال سوداء مثل رقعة ثوبٍ أسود، وفوق رؤوسنا تقريباً انفتحت فجوة مُباغتة، صدعٌ دائري من السماء الصافية.. شيءٌ صافٍ لم أره في حياتي.. أزرق اللون، عميق الإشراق.. في مُنتصفه يشرقُ البدر بكامل حلّته ويرسل بريقاً لم أعهده من قبل. لقد أنار البدر كل شيء حولنا فجعله غاية في الصفاء.. ولكن، يا إلهي، يا للمنظر الذي تُسلط عليه الأضواء!.

«الآن حاولت مرة أو مرتين التكلّم مع أخي.. لكن بطريقة ما لم أفهمها، تصاعد الضجيج فلم أسمع كلمةٍ واحدة مما كان يقوله لي، على الرغم من أنّني كنت [466]أصرخ بأعلى صوتي في إذنه. وهُنا هزّ رأسه، وكان يبدو شاحباً كالميت، ورفع أحد أصابعه، كأنه أراد أن يقول، «اسمع!».

«في بداية الأمر لم أفهم ما قاله لي.. ولكن سرعان ما برقت في ذهني فكرة بشعة. سحبتُ ساعتي من مخبأها. وكانت مُتوقفة. وأخذت أنظر إلى سطحها على ضوء القمر، ثم أجهشت بالبكاء وأنا ألقيها بعيداً نحو المحيط. كانت مُتوقّفة عند الساعة السابعة! لقد تأخرنا عن وقت انحسار المد، وكانت دوامة ستروم على أشدها!.

«إذا كان لدينا زورقٌ متين الصنع، جوانبه يُمكنها الصمود، وغير مُحمّل من العمق إلى الحافات، فالأمواج التي تتدافع أثناء عاصفة قوية، وتتصاعد حدتها، تبدو دائماً كأنّها تنزلق من تحت الزورق.. وربما يبدو هذا شيئاً غريباً جدّاً في نظر من لا يركبون البحر.. هذا ما يُسمى ركوب الأمواج، في مُصطلحات البحر.

«حسناً، إلى الآن تمكّنا من النجاة من الأمواج في دهاءٍ وحكمة؛ ولكن في الوقت الراهن واجهتنا أمواج عملاقة حدث أن جرفتنا تحت دكة الزورق، وأخذت تنقضّ علينا في ضربات مُتواصلة وهي تعلو وتهبط.. وتحملنا عالياً.. عالياً.. كأنّما تحملنا إلى السماء. لم أكن لأصدق أنّ أي موجة قادرة على أن

ترتفع إلى ذلك العلو. ثم سقطنا واكتسحنا التيار، وانزلقنا، وغطسنا، وذلك ما جعلني أشعر بالغثيان والدوار، كأني كنت أسقط من قمة جبل شاهق في الحلم. ولكن بينما كنّا في الأعلى ألقيت نظرة سريعة حولي.. وتلك النظرة وحدها كانت كافية تماماً. رأيت موقعنا الذي كنّا فيه على وجه التحديد في لحظة. كانت دوامة موسكويستروم على بُعد ربع ميل أمامنا مُباشرة.. ولكنّها ليست دوامة اعتيادية كالتي نراها كل يومٍ أو مثل الدوامة التي تراها بعينيك الآن، إنّها مثل ريش الطاحونة. لو لم أكنْ أعرف المكان الذي نحن فيه، وما نتوقّع أن يحدث، لما عرفت موقعنا آنذاك أبداً. ولكن بما أنّ ذلك هو الذي حصل، فقد أغلقت عيني دون إرادتي وانتابني الذعر. أطبقت عيني معاً وكأني في غيبوبة.

«لم تمضِ أكثر من دقيقتين بعد ذلك حتى أحسست فجأة بالأمواج تغور وتخمد وقد غطّتها طبقة من الزبد. كان الزورق يدور نصف دورة حادة نحو الميسرة، ثم ينطلق كالصاعقة باتّجاهه الجديد. وفي اللحظة نفسها كانت الضجة المُدمدمة التي تنبعث عن المياه تتلاشى وتخمد ثم تنطلق في نوع من الصراخ الحاد.. ذلك الصوت ربّما يُمكنك أن تتخيّله يصدر عن أنابيب شفط القاذورات لآلاف من العجلات التي تعمل بطاقة البخار وهي تُطلق بخارها في آن معاً. كنّا الآن ضمن نطاق الجرف الذي تتكسّر عليه الأمواج والذي يُحيط دائماً بالدوامة؛ وأخذت أُفكر طبعاً في أننا ربما سقطنا في اللحظة التالية نحو الهاوية.. التي لا نستطيع أن نرى منها شيئاً إلا رؤية شبحية بسبب السرعة المُذهلة التي حملتنا فيها التيارات. لم يكن يبدو أنّ الزورق غاطس في المياه أبداً، ولكنه كان يطفو بخفة مثل فقاعة هواء على [467]سطح الأمواج الجياشة. كانت الميمنة قريبة جدّاً من الدوامة، أما الميسرة فنهضت من عالم المحيط الذي تركناه. وكانت تنتصب مثل جدار هائل يتلوّى بيننا وبين الأفق.

«لعل الأمر يبدو غريباً، لكن الآن، حين كنّا نتشقلب بين فكي الخليج، أحسست بحالةٍ من الهدوء بالقياس إلى ما كنّا عليه حين اقترابنا منه. بعد أن قررتُ في ذهني عدم وجود أي أمل، تخلّصت في تلك اللحظة من مقدار الذعر الذي أصابني في البداية. أعتقد أنّ اليأس هو الذي أدى إلى توتر أعصابي.

«لعل الأمر يبدو كما لو أنّني مُتبجح هُنا.. لكن ما أقوله لك هو الحقيقة.. بدأتُ أُفكّر في مدى روعة أن يموت الإنسان في هذا الطريقة، وكيف أنّ من الغباء التفكير في دناءة بحيث لا أُفكّر إلا في حياتي الشخصية، على ضوء هذا العرض الرائع لقدرة الجبّار. أعتقد فعلاً أنّ وجهي كان مُتورداً من الخجل حين خطرت هذه الفكرة في ذهني. بعد لحظات استولى عليّ فضولٌ حاد بخصوص الدوامة نفسها. شعرتُ فعلاً برغبة لاستكشاف أعماقها، حتى مع التضحية التي سوف أُقدم عليها؛ الشيء الوحيد الذي يبعث على الحزن أنّني لن أتمكّن من إخبار رفاقي القدامى عن الأسرار العجيبة التي رأيتها. هذه الأسرار، لا شك في هذا، هي من الخيالات الفريدة في نوعها بحيث تشغل فكر الإنسان إلى أقصى الحدود.. حتى إنّي كثيراً ما فكّرت منذ ذلك الوقت في أن دوران الزورق حول الدوامة ربّما جعلني أتخلّص من الهموم.

«كانت هُناك مسألة أُخرى تستولي على مُدركاتي وتمنع سيطرتي على نفسي؛ أنّ الرياح توقفت، ولم تكن تصل إلينا في موقعنا الحالي.. لأنّ، كما رأيت بنفسك، كان نطاق الأمواج المُتكسّرة قد انحسر إلى حد أبعد من حوض المُحيط، وهذا الحوض أصبح الآن فوق رؤوسنا، كأنّه سفوح جبالٍ شاهقة سوداء. إن لم يسبق لك أن أتيت إلى البحر في ظروف عاصفة عاتية، فلن تكون لديك أدنى فكرة عن الاضطراب الذهني الذي تُحدثه الرياح ورشاش الماء معاً. إنها تجعلك تصاب بالعمى، وبالصمم، وتكاد تخنقك خنقاً، وتسلب منك كل قدرة على التصرّف أو التفكير. ولكنّنا كنّا الآن قد تخلّصنا من هذه المُضايقات إلى حدٍ بعيد.. مثل السجناء المحكوم عليهم بالإعدام حين يُسمح لهم بالانغماس في بعض الملذات، ثم يمنعون منها بينما يكون موعد إنزال الحكم النهائي بهم مؤجلاً.

«كم من مرة كنا نلتفّ وندور حول نطاق الدوامة، من المُستحيل معرفة ذلك. كنّا مُستمرين في الدوران بذلك الوضع، مرة بعد مرة، طوال ساعة تقريباً، نُحلق بدلاً من أن نطفو، ننجرف تدريجياً أكثر فأكثر نحو مركزها الهائج، ثم نقترب أكثر فأكثر نحو حافتها الداخلية المُرعبة. طوال هذا الوقت لم أترك أبداً

الحلقة التي كنت مُتشبثاً بها. وكان أخي في مؤخرة الزورق يُمسك برميل ماءٍ صغير فارغ كان [468]مربوطاً بأمان في موضع ضيق تحت الدكة، وذلك هو الشيء الوحيد الذي لم ينجرف ويسقط حين دهمتنا العاصفة لأول مرة. وبينما كنّا نقترب رويداً من حافة الهاوية رفع يده التي تُمسك بهذا الموضع وحاول الوصول إلى الحلقة التي أمسك بها، وسط صراعه العنيف وذعره، رفع يدي عنوة، لأنّ الحلقة لم تكن كافية لتؤمّن لنا معاً مسكة آمنة. لم يسبق أن شعرتُ بالأسى العميق كما شعرت حين رأيته يُحاول ذلك.. مع أني أيقنت أنّه سيكون مجنوناً حتماً وهو يفعل ما يفعل.. ذلك النوع من الجنون المسعور الذي ينتاب الإنسان من الخوف الفظيع. ولكنّي لم أعبأ لأن أتنازع معه على تلك القبضة. كنت أعرف أنّ ذلك سيّان سواء أمسك هو أم أنا بها؛ ولذلك تركته يأخذ الحلقة، واتّجهت إلى المؤخرة حيث البرميل. ولم أواجه صعوبة في الوصول إلى هدفي؛ لأنّ الزورق كان يدور باستمرار وثبات بما يكفي، ولكن سطحه مُتوازن لا يتمايل.. فقط يتأرجح إلى الأمام والخلف وتجتاحه تيارات وموجات هائلة من الدوامة. ما كدت أؤمن نفسي في موضعي الجديد، حتى بدأ الزورق بالميلان الشديد نحو الميمنة، وانقلب على رأسه متجهاً إلى الهاوية. تمتمتُ بصلوات سريعة إلى الله، واعتقدت أن كل شيء انتهى.

«وبينما كنت أحس بوطأة الانحدار التي تُثير الغثيان، ازداد تشبّثي بالبرميل غريزياً، وأغلقت عيني. وخلال ثوانٍ قليلة لم أجرؤ على فتحهما.. وتوقعت الدمار في أي لحظة، وتساءلت إن كنت في ذلك الوقت أحتضر أثناء صراعي مع الأمواج. لكن اللحظات مرّت واحدة بعد واحدة. وكنت حيّاً. ثم انقطع مشهد السقوط؛ وبدا أنّ حركة الزورق عادت إلى سابق عهدها، وكان يُحيط به نطاقٌ من الزبد، باستثناء أنّه كان مُستقرّاً الآن على قاعدته. لملمت ما تبقّى من شجاعتي، وألقيت نظرة أُخرى على ذلك المشهد.

«مهما نسيت فلن أنسى تلك الأحاسيس المُتضاربة بالفجيعة، والرعب، والانبهار التي كانت تنتابني وأنا انظر حولي. بدا الزورقُ كأنّه جسر مُعلّق، وكأنّما ذلك يحصل بتأثيرٍ سحري، في مُنتصف الطريق إلى الأسفل، فوق السطح

الداخلي لنفقٍ عريض في محيطه، غير عادي في عُمقه، جوانبه الملساء ربّما يُخطىء المرء فيحسبها غابة من أشجار الأبنوس، ولكن بسبب التعجيل المُربك الذي تدور فيه، والإشعاع المُتألّق المُروع الذي ينطلق منها، والذي يُماثل أشعة البدر، من ذلك الصدع الدائري، وسط الغيوم التي سبق أن وصفتها، انبثق طوفانٌ من الوهج الذهبي يخطف الأبصار مُرتطماً بالجدران السوداء، وامتدّ إلى مسافة بعيدة باتّجاه المساحات الأعمق للهاوية.

«في بداية الأمر كنت مُشوّش الذهن فلم أنتبه إلى أي شيءٍ أو أحس به بدقة. كان الاندفاع الشامل للألق المُذهل كل ما استطعت مُشاهدته. ولكن حين استرددت شيئاً من قُدراتي الذهنية اتّجهت نظراتي غريزياً إلى الأسفل. في هذا الاتّجاه حصلت على رؤية لا يُعيقها عائق، لأنّ الزورق كان مُعلّقاً على حافةٍ مائلة للحوض. لقد [469]استقرّ الزورق تماماً على قاعدته ولم ينقلب.. بعبارة أُخرى، دكته في وضع موازٍ لسطح المياه.. إلّا أنّ هذا المُستوى الأخير كان ينحدر في زاوية مقدارها أكثر من خمسٍ وأربعين درجة، بحيث بدا أنّنا نستقرّ على طرفي الدعامة. لم أستطع منع نفسي من النظر واستغربتُ لأنّي لم أُواجه صعوبة كبيرة في إبقاء يدي وقدمي ثابتة في هذا الوضع، كما لو كنّا في وضعٍ ساكن؛ وهذا كما أتصوّر يعود إلى سرعة دوراننا.

«كان يبدو لنا أنّ أشعة القمر تكشف قاع الخليج العميق؛ ومع ذلك لم أتمكّن من تمييز شيء لوجود طبقةٍ كثيفة من الضباب تُغلف كل شيء، ويتدلّى منها قوسُ قزح رائع المنظر، كأنّه ذلك الجسر الضيق المُتمايل الذي يقول المسلمون إنّه البرزخ بين الدنيا والآخرة. هذه السدم الضبابية، أو رذاذ الماء، لا شك كان يُحدثها تصادم جدران ضخمة تُحيط بالنفق، وتلتقي معاً عند القاع.. لكن الصرخة التي تصاعدت إلى عنان السماء من بين سدم الضباب تلك، لن أجرؤ على وصفها.

كان انحدارنا الأول نحو الهاوية بعينها، من نطاق الزبد فوق الرؤوس، قد حملنا إلى مسافة عظيمة أسفل المُنحدر؛ غير أنّ انحدارنا لاحقاً لا يتناسب مع هذا أبداً. بقينا ندور وندور حول أنفسنا.. ليس في نوعٍ من حركة مُنتظمة.. لكن

في تأرجح واهتزاز، ترسلنا في بعض الأحيان إلى بضع مئات من الياردات.. وفي أحيان أُخرى نكاد ندور دورة كاملة مع الدوامة. كان تقدّمنا إلى الأسفل في كل دورة بطيئاً، ولكنه محسوس جدّاً.

«نظرت حولي إلى الخراب الشامل لغابة الأبنوس السائل التي حملتنا أشجارها هكذا، فأدركت أنّ زورقنا ليس الوحيد الذي تُعانقه الدوامة. سواءً نظرنا إلى الأعلى أو إلى الأسفل كنّا نرى حطام زوارق أُخرى، وكتلاً ضخمة من أخشاب البناء وجذوع الأشجار، مع كثيرٍ من المواد الأصغر حجماً، مثل قطع أثاث منزلية، وصناديق مُكسّرة، وبراميل وعصي. لقد وصفتُ من قبل هذا الفضول غير الطبيعي الذي حلّ محلّ مصادر رعبي الأُولى. بدا ذلك الفضول يتضاعف في داخلي مع اقترابي أكثر فأكثر من مصيري المحتوم. والآن بدأتُ أُراقب في اهتمام مُستغرب الأشياء الهائلة التي كانت تطفو مُصاحبة لنا. لا بُدّ أنّني كنت مُنفعلاً حقّاً.. لأنّي صرتُ أبحث وقد انتابني استمتاعٌ مُتوجّس مُتأملاً حركات تلك الأشياء السريعة نسبياً وأشكال انحدارها باتّجاه بؤرة الزبد في الأسفل. «هذه شجرة تنوب»، وجدت [470]لنفسي أقول مرة، «وهي حتماً الشيء التالي الذي سوف يغطس غطسة مهولة ثم يختفي».. ثم خاب ظني حين رأيت الدمار يلحق أولاً بسفينة تجارية هولندية اجتاحها الطوفان بوحشية فأرسلها إلى الأعماق قبل تلك الشجرة. وأخيراً، بعد تخميناتٍ عدة على هذا المنوال، خدعتني ظنوني جميعاً.. ودفعتني هذه الحقيقة.. حقيقة خطأ حساباتي التي لا تكاد تُصدق.. إلى تيار من التأملات جعلتْ أطرافي ترتعش من جديد، وعاد قلبي ينتفض بقوة.

«لم يكن ذلك نوعاً جديداً من الرعب الذي ألمّ بي، ولكنه فجّر أملاً أكثر إشراقاً. هذا الأمل بزغ فجرُه جزئياً من الذاكرة، من نظراتي حالياً. استدعيتُ إلى ذهني طيفاً من المباهج التي كانت تنتشر على ساحل لوفودن، بعد أن استوعبها ذهني ثم ألقاها على جوانب موسكوستروم. وكانت أكثر الأشياء مُبعثرة بأكثر الأساليب غرابة.. بعضُها يحتكّ ببعض على خلفية وعرة لها مظهر تبدو فيه مُحمّلة بالشظايا في كل جوانبها.. لكنّي في ذلك الوقت تذكرت بوضوح أنّ بعضها غير

مُشوّه المنظر مُطلقاً. هُنا لم يكن في وسعي تعليل هذا الاختلاف باستثناء افتراض أنّ الجزيئات الخشنة منها وحدها تبتلع كلّياً.. وأنّ الأجزاء الأُخرى تدخل بين ثنايا الدوامة خلال مرحلة مُتأخّرة من المد العارم، أو، ربما لسببٍ ما، فهي تنزل في بطء شديد بعد الدخول في الدوامة، بحيث لا تبلغ القاع قبل انحسار المد، أو تُحوّل المد إلى جزر، ربّما كان هذا ما يحدث. تخيّلت أنّ من المُمكن، في أي حالة من الحالتين، أن تبقى الأشياء تدور هكذا مرة بعد مرة حتى تصعد إلى سطح المُحيط، دون أن تتعرّض إلى مصير تلك الأشياء نفسها التي كانت تنجرف في مرحلة مُبكرة، أو تغطس بسرعة أكبر. ولاحظتُ ثلاث ظواهر مُهمة أيضاً. الأُولى، كقاعدة عامة، كلّما كانت الأجسام أكبر وأضخم، فإن سرعة نزولها تكون أكبر.. والثانية، بين كتلتين مُتساويتين في الحجم، واحدة منهما كروية الشكل، والأُخرى لها أي شكل آخر، فإنّ تسارع وتيرة النزول يكون في الجانب الكروي.. والثالثة، بين كتلتين مُتشابهتين في الحجم، واحدة منهما أسطوانية والأُخرى لها أي شكل آخر، فالأسطوانة تغطس في بطء أكبر. منذ أن نجوت، أجريت مُراقبات عدة بشأن هذا الموضوع برفقة أستاذ مدرسةٍ عجوز من المنطقة؛ ومنه تعلّمت استخدام كلمة «اسطوانة» و«كرة». وشرح لي.. مع أنّي نسيت الشرح.. كيف أنّ الظواهر التي كنت أُراقبها، في الواقع، هي من النتائج الطبيعية للأشكال التي تتّخذها الجزيئات الطافية.. وعرض عليّ كيف يحصل أنّ الأسطوانة، إذا غطست في دوامة المياه، تُبدي مُقاومة أكبر بإزاء تأثير الامتصاص للدوامة، وتنسحب إلى الأسفل بصعوبة [471]أكبر بالقياس إلى جسم يُماثلها في الحجم، مهما كان شكله(*).

«هناك واقعة مُذهلة أدّت كثيراً إلى تعزيز هذه المُلاحظات المُستمدة من المُراقبة، وجعلتني مُتلهّفاً لتحويلها إلى صالحي، وهي أنّنا مع كل دورة يمرّ بنا شيءٌ يُشبه البرميل، أو عارضة شراع أو صارية سفينة، بينما الكثير من هذه الأشياء التي كانت موازية لمُستوانا حين فتحت عيني أول مرة على عجائب

(*) انظر: أرخميدس، (سقوط الأجسام في السوائل) *De Incidentibus in Fluido* الكتاب 2. (المؤلف)

الدوامة، الآن تنتقل إلى مُستوى مُرتفع فوق رؤوسنا، وتبدو كأنّها لم تتحرّك إلّا قليلاً عن موضعها الأصلي.

«لم أتردد بعد ذلك فيما عزمت على القيام به. قررتُ أن أربط نفسي بإحكام على برميل الماء الذي كنت أتعلّق به الآن، وأن أفصله عن الدكة، ثم أُلقي نفسي باتّجاه المياه. أثرت انتباه أخي بأن أعطيته إشارات، وأومأت إلى البراميل الطافية التي اقتربت منّي، وفعلت كل ما في وسعي لأجعله يفهم ما كنت على وشك القيام به. وتصورت في نهاية الأمر أنّه فهم مرادي.. ولكن، سواء كان هذا ما حصل أم لا، فقد هزّ رأسه جزعاً، ورفض أن يتزحزح عن موقعه ويتخلّى عن الحلقة. كان من المُستحيل الوصول إليه؛ ولم يكن الظرف الحرج الذي وجدتُ نفسي فيه يسمح بالتأخير؛ وهكذا، في نوبة صراعٍ مرير، تركته إلى مصيره، وربطتُ جسمي بالبرميل باستخدام حبالٍ كانت تربطه إلى الدكة، وقذفتُ نفسي معه إلى البحر، دون أن أتردّد لحظة أُخرى.

«وكانت النتيجة كما توقّعتها تماماً. ولأنّي أقص عليك الآن هذه الحكاية بنفسي.. فكما ترى لقد نجوت فعلاً.. ولأنّك تعرف الآن الطريقة التي تحققت بها نجاتي، فلا بُدّ لك أن تتوقع كل الأشياء التي بقيت لديّ لأقولها.. سوف أصل سريعاً إلى نهاية قصتي. ربّما مضت ساعة، أو نحو ذلك، على قفزتي من الزورق، حينئذ نزلتُ مسافة شاسعة نحو الأعماق التي تحتي، ثم نزل الزورق وهو يلف ثلاث أو أربع مرات مُتوالية سريعة على محوره، وكان يحمل أخي العزيز معه، وكان يغطس على رأسه، غطسة واحدة وإلى الأبد، باتّجاه فوضى الزبد التي في الأسفل. ثم غطس البرميل الذي كنت مربوطاً به إلى مسافة أبعد قليلاً من نصف المسافة التي بين قاع الخليج والبقعة التي وثبتُ فيها من الزورق، قبل أن يحدث تغيّر جسيم على طبيعة مسارات الدوامة. أصبحت جوانب القمع الهائل في لحظة أقل حدة تدريجياً. وتضاءل زخم دورانها أكثر فأكثر من حيث العنف. وعلى درجاتٍ مُتتالية تناقصت الرغوة واختفى قوسُ قزح، وبدا قاع الخليج يظهر في بطء. كانت السماء صافية، والرياح اختفت، والبدرُ يُرسل إشعاعاته في جهة الغرب، حتى وجدت نفسي [472]أطفو على سطح المحيط،

وكنت أرى شواطىء لوفودن رؤية واضحة، فوق البقعة التي كانت عليها بركة موسكويستروم. ولم تمضِ أكثر من ساعة حتى انحسر المد.. ورأيتُ البحر تعلوه جبالٌ من الأمواج من تأثيرات الإعصار. كان جسدي محمولاً بعنف إلى داخل قناة ستروم، وفي غضون دقائق قليلة انجرفت إلى الساحل على «أراضي» الصيادين. والتقطني مركبٌ شراعي.. وكنت مغشيّاً عليّ من الإنهاك.. و (الآن بعد أن زال الخطر) لم أعد أتمكّن من النطق من هول ذكرياتي عن أشكال الرعب التي واجهتها. هؤلاء الأشخاص الذين سحبوني إلى متن زورقهم كانوا من زملائي القدامى وأصدقائي الذين أراهم يومياً.. لكنّهم لم يتعرّفوا عليّ وظنوا أنّني مُسافر من أرض الأشباح. لقد ابيضّ شعر رأسي، وكان أسود اللون مثل ريشِ الغراب الأسحم قبل يومٍ واحد من الحادث، كما تراه الآن. يقولون أيضاً إنّ كلّ ملامحي تغيّرت. وأخبرتهم بحكايتي.. ولم يصدقوا شيئاً منها. والآن أقصها عليك.. ولست أتوقّع منك أن تصدق شيئاً مثل صيادي لوفودن الجذلين».

جرائم على جادّة مورغ

أيُّ أغنية تنشدها الحوريات، أو أيُّ اسم اتّخذه أخيل حين أخفى نفسه وسط النساء، مع أنّها تساؤلات مُحيّرة، لكنها ليست بمنأى عن الحدس.

سر توماس براون[1].

هُناك سماتٌ للعقلِ العبقري يحتدم حولها الجدل تتمثّل في قدرته على تحليل [473]الأمور واستنباط الحلول مع أنّها بعينها، أي: تلك القدرة، نادراً ما تقبل التحليل والتعليل. نحن نُعجب بها ونُضفي عليها قيمة من حيث تأثيراتها وتجلّياتها فحسب. نحن نعرف عنها، من جملة أشياء أُخرى، أنّها دائماً بالقياس إلى الشخص الذي تستولي على ذهنه، ويكون استحواذ هذه الهواجس جامحاً واستثنائياً، أقول: تكون مصدراً لأقصى حالات اللذة والانتعاش. مثلما يحسّ الرياضي المفتول العضلات بالبهجة وهو يمارس تمارينه التي تُقوّي قُدراته البدنية، ويبتهج لمثل هذه التمارين لأنّها تجعل النشاط يدبّ في عضلاته، كذلك يحس المُحلل النفسي بالزهو والسموّ الروحي في مُمارسة ذلك النشاط العقلي الذي يتضمن تفكيك العقد. فهو يستمد المُتعة حتى من أكثر المسائل تفاهة لأنّها تجعل مواهبه موضعَ الاختبار. مثل هذا الشخص مغرمٌ بالأسرار والألغاز، والرموز الهيروغليفية؛ ويطرح حلوله لكل مسألةٍ مُعقّدة مُستخدماً في ذلك درجة من الفطنة تبدو للإنسان ذي الاستيعاب العادي خارقة لنواميس الطبيعة. إنّ النتائج

---

(1) من كتابه (الدفن في الجرة) وهُنا إشارة إلى الأسئلة الصعبة التي كان الإمبراطور تايبيريوس يمتحن بها الأدباء في عصره. [المترجم]

التي يُقدمها، وهي تستخلص من جوهر المنهج الذي يتبعه، في حقيقة الأمر، تمثل ما يشتمل عليه الحدس الفطري من الإلهام.

ربّما تنشط القدرة على تقديم حلولٍ وقرارات لبعض المعضلات كنتيجة لدراسات رياضية، وخاصة دراسة ذلك الفرع المُعقّد من علم الرياضيات، الذي كان يُسمى، بعيداً عن الإنصاف، وبسبب النكوص الذي رافق عملياته، بالتحليل، كما لو كان ذلك امتيازاً له *par excellence*. ولكن أي عملية حسابية لن تُعتبر بالضرورة تحليلاً في ذاتها. إنّ لاعب الشطرنج، على سبيل المثال، يقوم بعملية حسابية للنقلات دون أن يبذل جهداً في التحليل. يقتضي ذلك أنّ لُعبة الشطرنج، في علاقتها وتأثيراتها على الناحية العقلية، يُساء فهمها كثيراً. إنّني لا أكتب بحثاً هُنا، ولكنّي ببساطة أُمهد لسردٍ مُعقّد التركيبة بعض الشيء من خلال مُلاحظات ربّما تبدو عشوائية في كثيرٍ من جوانبها؛ ولهذا سوف أنتهز الفرصة للتأكيد على أنّ القُدرات العالية للذكاء الانعكاسي تتجلّى حتماً على نحو أكثر تصميماً وإيجابية في لعبة الداما التي لا يُرافقها التباهي باستعراض الذكاء من تجلّيها في كل مظاهر التعقيدات الطائشة الموسعة للشطرنج. في هذه اللّعبة الأخيرة، حيث تكون للقطع [474]حركات مُختلفة وشاذة أحياناً، وذات قِيَم مُتنوعة مُتغيرة، يتّضح لنا أنّ الشيء المُعقّد فقط هو الذي يُساء فهمه (خطأً شائع) فيتصوّره الناس غاية في العُمق. الانتباه هُنا عنصر ضروري بقوة مؤكدة في اللعب. فإذا تراخى الحذرُ لحظة، عندئذ يحصل الخطأ الذي قد يؤدي إلى ضرر أو خسارة. بما أنّ النقلات المسموح بها في الشطرنج ليست مُتشعّبة فحسب، وإنّما هي ذات طبيعة مُلتوية ومُعقّدة، فالفرص في ارتكاب هذه الأخطاء التي تنتج عن الغفلة تتضاعف؛ في تسع حالاتٍ من عشر فإنّ اللاعب الأكثر تركيزاً وليس اللاعب الأكثر ذكاء هو الذي تكون له الغلبة. أمّا في لعبة الداما، فالأمر على العكس من هذا، إذ تكون النقلات ذات خاصية موحدة ولا تتضمّن مُتغيّرات كثيرة، وتتقلّص احتمالات الإهمال غير المقصود، والحذر لا يكون فاعلاً نسبياً، وأي نقاط تفوق يحرزها أي طرف تتحقّق من خلال التفوّق في الفطنة. لكي نبتعد عن التجريد.. دعونا نفترض أنّ هُناك لُعبة داما تتقلّص القطع فيها إلى أربعة

ملوك، وبطبيعة الحال، لا يتوقّع المرء وجود خطأ بسبب الغفلة. من الواضح هُنا أنّ النصر يُمكن أن يكون محسوماً (فاللاعبون مُتعادلون في كل شيء) فقط من خلال بعض النقلات المُنتقاة بعناية *recherchæ*، تأتي نتيجة للجهد الذهني الحاد. إذا جُرّد المُحلّل النفسي من موارده الاعتيادية، فهو يُحاول اقتحام روح خصمه، والتوحّد معه، وليس من النادر في لحظة من اللحظات أن يرى السُّبل الوحيدة (في بعض الأحيان في الواقع تكون هذه المناهج بسيطة وعابثة) التي من خلالها يتمكّن من إغرائه ودفعه للوقوع في الخطأ أو التسرّع في سوء التقدير.

منذ زمن ليس بالبعيد كان يُعرف أن لعبة الورق التي تُسمّى «هويست» لها تأثير بارز على ما يُسمّى حُسن التقدير؛ والأشخاص الذين يتمتعون بأعلى درجات الذكاء يبدو أنّهم يستمدون مُتعة لا يُمكن وصفها فيها، بينما يتجنّبون مُمارسة الشطرنج ويعتبرونها لُعبة تافهة. ليس من شك في أنّه لا يوجد شيء مُماثل في طبيعته للعبة الشطرنج في قُدرتها على صقل الكفاءة في التحليل. ربّما كان أفضل لاعب شطرنج في كرستندوم أفضل مُستوى بقليل من أفضل لاعب شطرنج في أي مكان؛ إلّا أنّ البراعة في لُعبة الورق «هويست» تتضمّن إمكانية النجاح في كل تلك النشاطات المُهمة التي يتصارع فيها عقلٌ مع عقل آخر. حين أقول براعة، فأنا أقصد بلوغ مُستوى الكمال في اللعبة وينطوي ذلك على استيعاب كافة الموارد التي يتحقّق من خلالها التفوق المنطقي. ليس هُناك حالة تشعبٍ فحسب، وإنّما تعدّد للأشكال، ويكْمن ذلك في كثير من الأحيان وسط امتدادات الفكر التي لا يُمكن للإنسان ذي الفهم العادي استيعابها. المُراقبة بانتباه وحذر تعني تذكر الأشياء بصورة مُميزة؛ وحتى الآن فإنّ لاعب الشطرنج الذي يُمعن في التركيز سوف ينجح في لعبة الهويست؛ بينما تكون قوانين هويل[2] (وهي نفسها تعتمد على مُجرّد آلية اللعبة) قابلة للاستيعاب بما يكفي عموماً. لهذا فمسألة أن يكون للمرء ذاكرة احتفاظية قوية، وأن يمضي كما يُشير إليه «الكتاب المنهجي»، كلها نقاط يُنظر إليها عادة على أنّها إجمالي ما تنطوي [475]عليه

---

(2) إدموند هويل (1672- 1769) كتب مجموعة كتب أساسية في لعب الورق بقيت مُتداولة ويُعاد نشرها بعد قرنين من وفاته. [المترجم]

المهارة في اللعب. ولكن هُناك بعض الأمور تتخطّى حدود القانون وحده، وهي التي تُبرهن على مهارة المُحلل. إنّه يُجري في صمتٍ وروية مجموعة من المُلاحظات والاستنتاجات. وربّما هذا ما يفعله رفاقه أيضاً؛ هُنا الاختلاف في المعلومات التي يتمّ الحصول عليها لا يكْمن كثيراً في صحة الاستنتاج مثلما يكْمن في نوعية المُلاحظات. ما ينبغي معرفته هو حقيقة الشيء الذي نُراقبه. إنّ لاعبنا لا يُقيد نفسه بشيء أبداً؛ ولا يرفض استنتاجات من خارج نطاق اللعبة، لأنّ اللعبة هي الهدف. إنّه يتفحّص ملامح وجه شريكه في اللعب، ويُقارنها جيداً مع ملامح كلّ خصم على انفراد. ويتأمل طريقة توزيع الورق في كلّ يد؛ وغالباً ما يحسب ورقة رابحة بعد ورقة، ونقطة تفوّق بعد أُخرى، من النظرات التي يُلقيها أصحابها على كل واحدة منها. ويُلاحظ أي تغيّر على الوجوه مع تقدّم اللعب، ويجمع حصيلة من الأفكار عن الاختلاف في التعبيرات التي تدل على الثقة، على الاستغراب، على الزهو، أو على الانزعاج. ومن خلال خطة مُخادعة يُقرّر ما إذا كان الشخص الذي يتلقاها يُمكن أن يتحمّل نقلة أُخرى في هذا الصدد. إنّه ينظر إلى الأوراق التي تلعب نظرة مُخادعة، من خلال الطريقة التي تُلقى بها على الطاولة. أي كلمة تُقال عرضاً أو على نحو غير مقصود؛ الطريقة العرضية التي تُلقى بها ورقة أو تُقلب، بما يُرافقها من تلهّف أو لامُبالاة في الكشف عنها؛ إنّها عملية حساب للخدع، مع نمط ترتيبها؛ الإحراج، التردّد، التلهّف أو الفزع.. كل هذه الأمور تُعطي إلى إدراكه الفطري فيما يظهر إشارات عن الحالة الحقيقية للأمور. بعد أن تُلعب أولُ جولتين أو ثلاث، يكون اللاعب في حالة سيطرة تامّة على مُحتويات كل يد أمامه، وابتداء من هُنا فهو يُلقي ورقه وقد عقد العزم في ذهنه على الوصول إلى شيء كما لو أنّ بقية اللاعبين قد كشفوا ورقهم إليه.

ينبغي عدم الخلط بين القدرة على تحليل الأمور وبين العبقرية الفذة؛ في الوقت الذي يكون فيه من يُمارس التحليل بالضرورة عبقرياً، فالإنسان العبقري غالباً ما يُلاحظ أنّه عاجز عن التحليل. إنّ القدرة على تركيب العناصر أو التوحيد فيما بينها والتي تمتاز بها العبقرية عادة، والتي خصها علماء الفراسة (مرتكبين في ذلك خطأً كما اعتقد) بعضوٍ مُستقلّ في الدماغ، على افتراض أنّها موهبة غريزية،

كانت في كثير من الأحيان تُشاهد لدى أولئك الأشخاص الذين تصل عقولهم إلى درجة البلاهة، بحيث تلفت الانتباه على وجه العموم وسط الكتّاب الذين يتناولون السلوكيات الأخلاقية. بين العبقرية والقدرة التحليلية هُناك اختلاف بعيد كل البعد، في الواقع، مثل الاختلاف بين الوهم والخيال، مع أنّ هذا الاختلاف في طبيعته [476]مُتماثل تماثلاً صريحاً. سوف يجد المرء، في حقيقة الأمر، أنّ العبقري دائماً يقع في الوهم، والإنسان الخيالي حقّاً لا يختلف عن التحليلي في شيء.

ربّما كان السرد الذي نحن على وشك أن نبدأ به يبدو واضحاً للقارئ إلى حد ما على ضوء الافتراضات التي قدمناها.

بعد أن أقمت في باريس خلال الربيع وشطراً من صيف عام ـ 18، تعرّفت هُناك على مسيو س. أوغست دوبن. هذا الشاب من محتدٍ نبيل.. في الواقع كان ينتمي إلى عائلة مرموقة، ولكن، بسبب أنواعٍ من الحوادث المؤسفة، انتهى به الأمر إلى مستوى من الفقر إلى حد أنّ طاقاته التي تُميّز شخصيته دُفنت تحت تأثير ذلك، وتوقف عن إظهار نفسه في المُجتمع، وترك أي محاولة لاسترداد ثروته. وبسبب لطف ومجاملات دائنيه، بقي يمتلك مقداراً ضئيلاً ممّا تبقّى له من ميراث عائلته؛ ومع ازدياد دخله نتيجة لهذا، تمكّن بوسائل قاسية في الاقتصاد بالنفقات من توفير مُستلزمات الحياة، دون أن يشغل نفسه بالتفاهات. كانت الكتب، في الواقع، هي وسائل الترف الوحيدة في حياته، وفي باريس من السهولة أن يحصل المرء على هذه الأشياء.

كان لقائي الأول به في مكتبة مُنزوية في مكانٍ ما على جادة مونتمارتر، حيث رافق أن كنّا نبحث معاً عن كتاب نادر ومعروف جدّاً، وجعلنا ذلك اللقاء نوطد عُرى صداقة حميمة. وبدأ أحدنا يرى الآخر مرة بعد مرة. كنت أشعر باهتمام عميق بتاريخ عائلته الصغيرة التي اعتاد أن يقصّ علي تفاصيلها بكل الصراحة التي يبديها أي رجل فرنسي ما دام الموضوع الذي يتكلم عنه يدور حول الذات. كنت أشعر بالاندهاش أيضاً من نطاق قراءاته الواسعة جدّاً؛ وفضلاً عن هذا، كنت أشعر بأن روحي تتحرق شوقاً في داخلي، وأتلمّس نضارة وحيوية

خياله. كنت أبحث في باريس عن أشياء أثارت فضولي آنذاك، ووجدت العزلة التي يعيش فيها هذا الرجل كنزاً لا يُقدّر بثمن؛ هذا الإحساس نقلته إليه بصراحة. وفي نهاية المطاف قرّرنا العيش معاً أثناء إقامتي في المدينة؛ ولأنّ أوضاعي المعيشية كانت أقل إحراجاً بعض الشيء من أوضاعه، فقد سمح لي بأن أعيش معه على أن أدفع نصيبي من الإيجار، وأن أؤثث بأسلوب يتلاءم مع الكآبة الخيالية لمزاجنا المُشترك، ذلك المنزل الغريب الذي تآكل بمرور السنين، والذي هجره من كان يسكن فيه سابقاً بسبب خُرافات لم نتحقّق منها، وكان يزحف رويداً نحو نهايته المحتومة في بقعة نائية مهجورة من ضاحية فاوبورغ سانت جرمان.

لو أنّ روتين حياتنا اليومية في هذا المكان كان معروفاً للعالم، لاعتبرنا الناس حقّاً من المجانين.. على أنّنا ربّما كنا من المجانين الذين ليس من طبيعتهم إلحاق الأذى بالآخرين. العزلة التي نعيش فيها كانت مُطلقة. لم نسمح لأحد بزيارتنا. [477]في الواقع حرصنا على أن يبقى الموقع الذي انزوينا فيه سراً من الأسرار حتى عن معارفي السابقين؛ وقد مضت سنواتٌ طويلة منذ أن توقف دوبن عن الاتصال بأحد من معارفه في باريس. كنا نعيش وحدنا لا يؤنس وحشتنا أحد.

كان من شطحات الخيال التي اعتاد عليها صديقي (فما عسى أن أسميها؟) أن يُفتتن بالليل البهيم لكونه ليلاً؛ وفي هذه النزوة الصوفية الغريبة *bizarrerie* كما في نزواته الأُخرى، وجدتني مُتيماً؛ واستسلمتْ نفسي إلى غرابة طريقته في الحياة في تجرّد تام. لم تكن الرهبنة القاتمة لتقيم معنا دائماً؛ ولكنّنا كنّا نتمكّن من الزوغان من حضورها؛ مع أول شعاعٍ للفجر نغلق كلّ مصراع نافذةٍ مُهلهل في منزلنا القديم؛ ولا نشعل أكثر من شمعتين تُرسلان مع أنوارها الشاحبة رائحة عبقة قوية. بمُساعدة هاتين الشمعتين كنّا في تلك الأوقات نشغل أنفسنا بالأحلام.. نقرأ، نكتب، أو نتحاور، حتى تنبّهنا الساعة إلى دنو الظلام الحقيقي. عندها ننطلق إلى الشوارع، يداً بيد، ونُتابع الحديث في الموضوعات التي تناولناها أثناء النهار، أو نتجوّل فنصل إلى أماكن بعيدة ونبقى حتى ساعة مُتأخرة، باحثين على هدى الأضواء الساطعة وظلال المدينة المُكتظة بسكانها،

عن نشوةٍ عقلية لا تحدّها حدود يُمكن للنظرات المُنقبة الهادئة أن توفرها لنا.

في أوقات مثل هذه، لم أكن قادراً على منع نفسي من إبداء رأي أو التعبير عن الانبهار (مع أنّي من خلال مثاليته الغنية كنت مُهيّأ لتوقع الرد) بشأن قدرة التحليل المُذهلة لدى دوبن. كان يبدو لي أيضاً أنّه يبتهج في شيءٍ من الانفعال المُتحمس لمُمارسة تلك القدرة.. إن لم يكن يجد مُتعة بالغة في استعراضها.. ولم يتردّد في الاعتراف بالمُتعة التي يستمدّها من ذلك. كان يفتخر أمامي، ويُطلق ضحكة مخنوقة خافتة، ويقول: إن أغلب الناس برأيه، لديهم نوافذ في صدورهم، وكان ميالاً إلى تتبّع مثل هذه الآراء المؤكدة من خلال براهين مُباشرة مُثيرة للذهول عن معرفته الخالصة بما يتّصل بنوافذ صدري. كان أسلوبه في هذه اللحظات قاسياً وتجريدياً؛ عيناه تبدوان خاليتين من أي تعبير؛ بينما يرتفع صوته، وهو في الأحوال الاعتيادية غني بالإيحاءات، حتى يصل إلى طبقات مُضاعفة يُمكن أن تبدو مُشاكسة لولا الاحتراس والوضوح الكامل في النطق. حين كنت أُراقبه وهو يُمارس هذه الأنماط من التصرّفات، غالباً ما أتذكر وأتأمل الفلسفة القديمة للروح الثنائية في جوانبها، وكنت ألهو مع نفسي وأتخيّل دوبن مُزدوج الشخصية.. دوبن الفنان الخلّاق المُرهف ودوبن ذو العزيمة الصلبة.

ولكن ينبغي ألّا نفترض، من خلال ما قلته الآن، أنّني أكشف خفايا سر من الأسرار، أو أكتب قصة رومانسية مشحونة بالحب المُفرط. الأشياء التي وصفتها في الرجل الفرنسي، لم تكن إلا نتيجة ذكاءٍ مُتّقد، أو ربّما كان ذلك ذكاءً مريضاً. ولكن عن طبيعة ملاحظاته التي كان يبديها في تلك الفترة التي نتكلم عنها، ربّما نقدم [478]مثالاً من شأنه أن ينقل الفكرة بأفضل صورة.

كنّا نتمشّى ذات ليلة على شارعٍ طويل مليء بالنفايات بالقرب من بالاس رويال. وبما أنّنا كنّا مُنشغلين معاً فيما يظهر بالتفكير، فلم ينطق أحدنا بمقطعٍ واحد خلال خمس عشرة دقيقة على أقل تقدير. وفجأة قال دوبن هذه الكلمات:

«إنّه شخصٌ نحيف جدّاً، ذلك شيء حقيقي، يُصلح للعمل في مسرح المنوعات *Thæ ætre des Variætæs*».

«لا شكّ في ذلك»، ردّدت دون أن أقصد شيئاً مُحدداً، ولم أكن في بداية الأمر مُنتبهاً (كنت مُستغرقاً بالتفكير) إلى الطريقة الغريبة التي تناغمت فيها تأملاتي مع تأملاته. في لحظة بعد ذلك عدت إلى رشدي، وكم كانت دهشتي عميقة.

«دوبن»، قلت، بصوت جاد، «هذا خارج نطاق قدرتي على الاستيعاب. لا أتردّد في القول: إنني منذهل، ولا أكاد أصدق حواسي. كيف استطعت أن تعرف ما الذي كنت أفكر فيه...؟» هُنا توقفتُ عن المشي، لكي أتأكد بما لا مجال فيه للشك فيما إذا كان حقاً يعرف الشخص الذي كنت أُفكر فيه.

«.. كنت تفكر في شانتلي»، قال، «لماذا وقفت؟ كنت تقول في نفسك إنّ جسمه الضئيل لا يجعله يصلح لأداء دورٍ تراجيدي».

هذا على وجه الدقة ما تبلور في ذهني عن موضوع تأملاتي. كان الشخص المدعو شانتلي يعمل إسكافيّاً، في محلٍّ يقع على جادة سانت دينس، وكان معروفاً عنه أنّه مُغرم حتى الجنون بالمسرح، وحاول مرة أداء دور زيركزيس في تراجيديا كريبلون[3] التي سُميت باسم ذلك الدور، وقد تعرّض للهجاء المُقذع على تظاهره المُزيف بالآلام حتى صار أشهر من نار على علم».

«اخبرني، بحق السماء»، هتفت، «عن الطريقة.. إذا كانت هُناك طريقة.. التي استطعت بها أن تسبر أغوار روحي في هذا الشأن». في حقيقة الأمر كنت أشعر أيضاً بالذهول أكثر ممّا أنا على استعداد للبوح به.

«كان ذلك بائع الفاكهة»، أجاب صديقي، «هو الذي دفعك إلى استنتاج أنّ مُصلح الأحذية البالية لا يُصلح بقامته تلك لأداء دور زيركزيس «وكل تلك الأشياء *et id genus omne*»[4].

«بائع الفاكهة!.. أنت تدهشني.. لا أعرف عن أي بائع فاكهة تتكلم».

---

(3) بروسبير جوليوت دو كريبلون: (1674- 1762) شاعر وكاتب مسرحي تراجيدي فرنسي. [المترجم]

(4) «مصلح الأحذية البالية.. وكل تلك الأشياء» اقتباس من مسرحية (يوليوس قيصر) لشكسبير. [المترجم]

«الرجل الذي كان يركض واصطدم بك حين دخلنا الشارع.. ربّما حصل ذلك قبل خمس عشرة دقيقة».

والآن تذكرت ما حدث، في حقيقة الأمر، كان هُناك بائع فاكهة يحمل على رأسه سلة كبيرة فيها تفاح، اصطدم بي وكاد يُلقي بي على الأرض، بلا قصد منه، أثناء مروره من جادة س.. مُتجهاً نحو الطريق حيث كنّا نقف؛ ولكن ما علاقة هذا بشانتلي، لم أتمكّن من الفهم.

لم يكن ثمّة جزئية من الشعوذة *charlætanerie* في شخصية دوبن. «سوف [479]اشرح لك»، قال، «حتى تستوعب كل شيء بوضوح، في البداية سوف نعيد تعقب سياق تأملاتك، ابتداءً من اللحظة التي تكلّمت فيها معك حتى لحظة التصادم مع بائع الفاكهة الذي نتكلّم عنه. الحلقات الأكثر أهمية ضمن هذه السلسلة مُرتبة على النحو التالي.. شانتلي، أوريون، دكتور نيكولاوس(5)، إبيقور، تقطيع حجارة الشارع، بائع الفاكهة».

هُناك عدد قليل جدّاً من الأشخاص لم يسبق لهم، في مرحلة ما من حياتهم، أن عرفوا بأنفسهم المُتعة التي تتحقّق من تعقّب الخطوات التي من خلالها تتوصل عقولهم إلى استنتاجات مُحددة. هذه المسألة التي ينشغل فيها الذهن غالباً ما تكون مشحونة بالإثارة وحين يُجربها المرء لأول مرة سوف يندهش من البون الشاسع الذي لا تحدّه حدود فيما يظهر وكذلك من عدم الترابط بين نقطة البداية وبين الهدف المقصود. إذن، إلى أي مدى وصلتْ إليه دهشتي وأنا اسمع الرجل الفرنسي يتفوّه بما تكلّم به قبل قليل، حينئذ لم أستطع منع نفسي من الاعتراف بأنّه كان ينطق بالحقيقة. ثم تابع كلامه:

«كنّا نتكلّم عن الخيل، إذا كنت أتذكّر جيداً، قبل مغادرتنا جادة س.. بمدة قصيرة. كان هذا آخر موضوع تطرقنا إليه في نقاشاتنا. وبينما كنّا نعبر باتّجاه هذا الشارع، ظهر بائعُ فاكهة يحمل سلة كبيرة على رأسه، واندفع بسرعة بالقرب منا،

(5) جون برنغل نيكول: (1804- 1859) أستاذ الفلك في جامعة غلاسكو، نشر سنة 1837 «وجهات نظر عن عمارة السماء من خلال سلسلة من الرسائل إلى سيدة». [المترجم]

ودفعك على كومةٍ من حجارة الرصيف مُكدسة على بقعة يُجرون عليها بعض التصليحات. لقد دستَ بنفسك على إحدى قطع الحجارة المُتكسّرة، وانزلقت، وتأذى كاحلك قليلاً، وظهر أنّك مُغتاظ أو مُتجهّم، وتمتمت ببضع كلمات، ثم استدرت لتنظر إلى الكومة، وتابعت طريقك في صمت. أما أنا فلم أكن مُنتبهاً على وجه التحديد إلى ما فعلته؛ إلّا أنّ الانتباه أصبح لدي في الآونة الأخيرة من المسائل الضرورية».

«كانت عيناك تتّجهان إلى الأرض.. تحدق، وظهر على وجهك تعبيرٌ مشاكس، كنت تنظر إلى الفتحات والأخاديد على الرصيف، (بحيث رأيتك لا تزال تفكر في الحجارة)، حتى وصلنا إلى دربٍ ضيق يُسمى لامارتين، كان مُبلطاً تبليطاً أولياً بكتل من الحجارة يتداخل بعضها مع بعض. هُنا أشرقت ملامح وجهك، ورأيت شفتيك تتحرّكان، ولم يُساورني الشك في أنّك كنت تتمتم بكلمة «*stereotomy*» (تقطيع الحجارة الصلبة)، وهو مُصطلح يُستخدم في تكلفٍ في هذه الأنواع من أعمال تبليط الأرصفة. كنت أعلم أنك لا تستطيع أن تنطق هذه الكلمة دون أن تُفكر في الذرات، وبهذا فأنت تُفكر في نظريات إبيقور، وما دمنا كنا نتناقش في هذا الموضوع منذ مدة ليست طويلة جدّاً، فقد ذكرت لك كيف كان أمراً غريباً، ولم ننتبه إليه إلا قليلاً، كيف أنّ التخمينات الغامضة لذلك الإغريقي النبيل كانت تتوافق حتماً مع المعلومات التي اكتشفت مؤخراً عن نشأة الكون السديمية، وأحسست أنّك لن تتمكّن من تفادي توجيه عينيك باتّجاه السديم العظيم أوريون[6]، وحتماً توقعتُ منك أن [480]تفعل ذلك. كنت تنظر إلى الأعلى؛ وأنا الآن على ثقة من أنّني كنت أتبع خطواتك بصورة صحيحة. ولكن فيما يتصل بتلك الخطبة المقيتة المُسهبة عن شانتلي، التي ظهرت في عدد أمس من صحيفة «ميوسيه» كان الأسلوب الهجائي للكاتب، وهو يُعطي بعض التلميحات الشائنة عن تغير اسم الإسكافي وفي سبيل أن يُحقق غرضه المُتغطرس

(6) سديم أوريون اكتُشف سنة 1610 وأصبح ذلك الاكتشاف بمثابة نقطة البداية سنة 1774 لعملية مسح مُميزة للكون قام بها وليم هيرشيل وابنه جون. [المترجم]

في السخرية من صاحب الجزمة النصفية أقتبس بيتاً باللاتينية كثيراً ما تناقشنا فيه. أقصد هذا البيت[7]:

Perdidit antiquum litera sonum».

«لقد أخبرتك أنّ في هذا إشارة إلى أوريون Orion، وكانت في السابق تكتب Urion؛ ومن خلال بعض التعليقات اللاذعة التي لها علاقة بهذا التفسير، أدركت أنّك لا يُمكن أن تكون قد نسيت الأمر. لذلك كان من الواضح أنّك لن تفشل في ربط الفكرتين عن أوريون وشانتلي. فأنت عندما ربطت بين الفكرتين عرفتُ ذلك من الابتسامة التي عبرت شفتيك. كنت تُفكر في الإسكافي المسكين والتضحية به مثل كبش الفداء. إلى هذا الحد، كنت تتقهقر في مشيتك؛ ولكنّي الآن رأيتك تسحب نفسك إلى الأعلى وتعتدل قامتك. ثم تأكد لي أنّك كنت تفكّر في جسد شانتلي الضعيف. عند هذه النقطة قطعت عليك تأملاتك لكي أعلق فأقول إنّه، في حقيقة الأمر، شخص نحيف جدّاً.. ذلك الرجل شانتلي.. من الأفضل له أن يكون في مسرح المنوعات».

ولم يمضِ وقت طويل على هذا، حتى كنّا ننظر إلى الطبعة المسائية لصحيفة «غازيت دي تريبوانو»، حينها شدّت انتباهنا الفقرات التالية:

«جرائم فظيعة.. هذا الصباح، حوالى الساعة الثالثة، سكان حي سانت روش نهضوا من نومهم فزعين بعد أن سمعوا صرخات مُرعبة مُتتالية، كانت تأتي فيما يظهر من الطابق الرابع لبناية على جادة مورغ، من المعروف أنّه لا يسكن هُناك غير سيدة تُدعى مدام ليسباناي، وابنتها مدموزيل كاميلي ليسباناي. بعد بعض التأخير، نتج عن مُحاولة فاشلة لاقتحام المكان بالطريقة الاعتيادية، تمّ خلع الباب باستعمال عتلة حديدية، ودخل ثمانية أو عشرة من الجيران يُرافقهم اثنان من الجندرمة. في غضون ذلك توقف الصراخ؛ ولكن، فيما كانت تلك

(7) البيت من أشعار أوفيد ومعناه «الحرف الأول فقد صوته الأصلي». [المترجم]

الجماعة تندفع في أول مرحلة من السلالم، سمعوا بوضوح صوتاً أو صوتين خشنين بدا أنّها تأتي من أعلى البناية. وحين وصلوا إلى المرحلة الثانية من السلالم، انقطعت هذه الأصوات أيضاً وبقي كل شيء ساكناً. تحركوا بسرعة وبدؤوا يُفتشون غرفة بعد أُخرى. ولدى وصولهم إلى حجرة خلفية كبيرة في الطابق الرابع، (وجدوا بابها موصداً، والمفتاح في الداخل، فكسروا القفل) عندئذ ظهر لهم مشهدٌ أذهل كل شخصٍ كان موجوداً فتسمّر الجميع من الرعب».

«كانت الشقة تعج بأشكال فظيعة من الفوضى.. قطع الأثاث مُحطمة ومُلقاة [481]في كل اتّجاه. ولم يكن هُناك إلّا تخت نومٍ واحد؛ ومن هذا التخت أزيح الفراش، وألقي في مُنتصف الأرضية. على أحدِ الكراسي وجدوا شفرة حلاقة مُلطخة بالدم. وعلى المدفأة خصلتان أو ثلاث طويلة من شعر بشري رمادي اللون، تُلطخها الدماء أيضاً، ويبدو أنّها اقتلعت من جذورها. وعلى الأرضية وجدوا أربع قطع ذهبية نابليونية، قرط أُذن من حجر التوباز، ثلاث ملاعق فضية كبيرة، ثلاث ملاعق صغيرة من صنع جزائري *mætal d'Alger*، وحقيبتين فيهما أربعة آلاف فرنك من الذهب تقريباً. كانت أدراج مكتبٍ في إحدى الزوايا مفتوحة، ويبدو أنّ محتوياتها نهبت، مع أنّ الكثير من الأشياء ما زالت باقية فيها. اكتشفنا خزانة حديدية تحت السرير (وليس تحت التخت). كانت الخزانة مفتوحة، ومفتاحها لا يزال في بابها. لم نرّ بداخلها أي شيء غير بضع رسائل قديمة، وأوراقاً أُخرى لا قيمة لها».

«أما مدام ليسبانايي فلم يجدوا لها أثراً؛ لكن كانت هُناك كمية غير اعتيادية من السخام في الموقد، ثم جرت عملية بحثٍ في المدخنة، ويا له من منظر (مِنظر مُرعب لا يُمكن التطرّق إليه!) كانت جثة الفتاة، رأسها إلى الأسفل، محشورة هُناك، ثم سُحبت من ذلك المكان؛ لقد أجبرت الفتاة على الدخول إلى التجويف الضيّق للمدخنة حتى مسافة لا بأس بها. وكان جسدها دافئاً. لدى التفحّص، شوهدت كثيرٌ من الخدوش، وليس من شك في أنّها نتجت عن استعمال العنف في حشرها في المدخنة ومن ثمّ التخلّي عنها. على الوجه كانت هُناك كثيرٌ من التشقّقات الخطرة، وعلى الحُنجرة أيضاً، فضلاً عن كدمات زرقاء

داكنة، وجروح عميقة نتجت عن اقتلاع أظافر الأصابع، كما لو أنّ المتوفية خنقت حتى الموت».

«بعد فحصٍ دقيق لكل جزء من المنزل، لم يكتشف أي شيء إضافي، فقصدت الجماعة باحة صغيرة خلف البناية، هُناك وجدوا جثة السيدة العجوز، وقد قطعت حنجرتها تماماً بحيث إنّهم عندما حاولوا رفعها سقط الرأس عنها. كان الجسد، والرأس كذلك، مُشوهاً على نحو مُخيف.. فالجسد لا يكاد في حالته تلك يحمل أي شبهٍ بأي شخص من بني البشر».

«بإزاء هذا اللغز الفظيع لم يتوفر إلى الآن، كما نعتقد، أي دليل مؤكد مهما كان ضئيلاً».

وفي اليوم التالي، حملت إحدى الصحف هذه التفاصيل الإضافية:

«تراجيديا على جادة مورغ. التحقيق مع الكثير من الأفراد فيما يتصل بهذه المسألة الرهيبة غير العادية. (لم تكن كلمة 'مسألة' في ذلك الوقت قد اكتسبت، في فرنسا، ذلك الإيحاء الخفي الذي تحمله اليوم)، «لكن لم يترشّح شيء يُلقي الضوء عليها. نُقدم أدناه كل المعلومات الموثقة التي استنبطت من إفادات الشهود:

«باولين دوبورغ، عاملة غسل ملابس، قالت في شهادتها إنّها كانت تعرف [482]المرأتين المُتوفيتين منذ ثلاث سنوات، كانت تغسل لهن الملابس خلال تلك المدة. السيدة العجوز وابنتها يبدو أنهن على وفاق معاً.. فكل واحدة تُحبّ الأُخرى. وهن يدفعن لها جيداً. لم تستطع الشاهدة أن تتكلّم عن نمط حياتهن أو وسائل عيشهن. وتعتقد أن مدام ل. كانت تتكلّم أحياناً عن ثروة تعيش منها. هي معروفة بأن لديها نقود كثيرة تحتفظ بها. ولم تُقابل الشاهدة أي أشخاص في المنزل حين كانت تأتي بالملابس أو تأخذها من المنزل. وكانت على ثقة من أن ليس لديهما خدم. ويبدو أنّ ليس هُناك أي نوع من الأثاث في أي جزء من المبنى ما عدا الطابق الرابع.

«بيير مورو، بائع تبغ، قال في شهادته إنّه كان مُعتاداً على بيع كميات قليلة

من التبغ والسعوط إلى مدام ليسباناي منذ قرابة أربع سنوات. لقد ولد الرجل في مناطق مُجاورة، وكان دائماً يعيش هُناك. كانت المُتوفية وابنتها تسكنان الشقة التي وجدت فيها الجثتان، منذ أكثر من ست سنوات. وفي السابق كان يسكن الشقة رجل يبيع المُجوهرات، وقام بتأجير غرف الطابق الأعلى إلى أشخاص مُتفرقين. كان المنزل من مُمتلكات مدام ل. وفيما بعد ضاقت ذرعاً بالمُستأجر، وانتقلت إلى تلك الغرف، ورفضت تأجير أي جزءٍ من المنزل. كانت السيدة العجوز ذات تصرّفات صبيانية ومُتقلّبة المزاج. رأى الشاهد ابنتها خمس أو ست مرات خلال السنوات الست. كانت المرأتان تعيشان حياة مُنعزلة تماماً.. واشتهرتا بأنّهما تملكان ثروة. وسمع الرجل ما كان يتردّد وسط الجيران من أنّ مدام ل. تقول: إنّ لديها ثروات طائلة.. ولم يصدق ذلك. ولم يسبق للشاهد أن رأى أي شخص يدخل الباب غير السيدة العجوز وابنتها، والبواب مرة أو مرتين، والطبيب ثمان أو عشر مرات.

«وأكد أشخاص آخرون كثيرون، من الجيران، في شهاداتهم على المضمون نفسه. لم يتحدّث أي واحدٍ منهم عن شخصٍ يتردّد أكثر من غيره على الشقة. لم يُعرف ما إذا كانت هُناك أي خلافات بين مدام ل. وابنتها. كان من النادر أن تفتح مصاريع النوافذ الأمامية. أما النوافذ الخلفية فهي دائماً ما تكون مُغلقة، باستثناء الغرفة الواسعة الخلفية، في الطابق الرابع. كان المنزل في حالة جيدة.. فهو ليس بالقديم جدّاً.

«إيزيدور موسيه.. من الجندرمة، قال في شهادته إنّه استُدعي إلى المنزل في الساعة الثالثة تقريباً من الصباح، ووجد هُناك نحو عشرين أو ثلاثين شخصاً عند البوابة، كانوا يُحاولون إيجاد وسيلة للدخول. ثم قام بكسر الباب أخيراً باستعمال حربة بندقية.. وليس بعتلة حديدية. ولم يواجه صعوبة في خلع الباب بصورة عامة. حالما كسروا الباب ودخلوا، أغلقوا الباب ثانية، لمنع الناس من الاقتحام بعد أن تجمعوا سريعاً، على الرغم من أنّها ساعة مُتأخرة. كان الصوتُ الثاقب، كما تصوّر الشاهد، صوت رجلٍ إيطالي. وهو واثق أنّه ليس فرنسياً. لم يستطع التأكيد على أنّه صوت رجل. ربما كان صوت امرأة. هو لا يعرف اللّغة الإيطالية. لم

يُميز الكلمات، ولكنه مُقتنع من النغمة أنّ المُتكلم إيطالي. كان يعرف مدام ل. وابنتها. وسبق أن تحدّث معهما مراراً. وكان واثقاً أنّ الصرخة الحادة لا تعود إلى واحدة من الفقيدتين.

«.. أودنهايمر، صاحبُ مطعم. هذا الشاهد تطوّع لأداء شهادته. بما أنّه لم يكن يتكلّم الفرنسية، فقد استجوب عن طريق مُترجم. هو من السكان الأصليين في أمستردام. وكان ماراً مُصادفة بالمنزل في الوقت الذي تصاعد فيه الصراخ. قال: إنّ الصراخ استمرّ عدة دقائق.. ربما عشر دقائق. ثم سمع صرخات طويلة عالية.. كانت مُرعبة جدّاً وتقبض الصدر. كان من الذين دخلوا المبنى. وتوافقت شهادته مع أقوال سابقة في كل شيء باستثناء شيء واحد. كان الرجلُ واثقاً أنّ الصوت الحاد هو صوت رجالي.. يعود لرجل فرنسي. لم يتمكّن من تمييز الكلمات التي نُطقت. كانت كلمات عالية النبرة وسريعة.. غير مُتماثلة.. نُطقت فيما يظهر بصوتٍ خائف، وكذلك يدل على الحنق. كان الصوت خشناً.. ليس حادّاً ثاقباً بمقدار ما هو خشن. لم يقبل الرجل أن يُسميه صوتاً حاداً. الصوت الأجش كان يُردّد عدة مرات كلمة 'ملعون' *sacræ* 'شيطان *diable* ' وقال مرة 'يا إلهي *mon Dieu*'.

«يوليس ميغناود، موظفٌ في مصرف، يعمل في شركة ميغناود آي فليس، على جادة ديلورين. كان الشخص الأكبر ضمن عائلة ميغناود. قال: إن مدام ليسباناي [484]تمتلك بعض الثروة. وقد فتحت لها حساباً في محل الصيرفة لديه في ربيع سنة.. (قبل ثمان سنوات). وكانت تودع بعض النقود بين الحين والحين على دفعات قليلة. ولم تكن تأتي لتتأكد من الحساب حتى قبل وفاتها بثلاثة أيام، حينها سحبت بنفسها مبلغ 4000 فرنك. هذا المبلغ دُفع لها بالذهب، وأرسل إليها بيد أحد الموظفين.

«أدولف لو بون، موظّف يعمل في مؤسسة ميغناود آي فيلس، قال في شهادته: إنه في اليوم الذي وقع فيه الحادث، تقريباً وقت الظهر، رافق مدام ليسباناي إلى مسكنها وبصحبته مبلغ 4000 فرنك، وضعها في حقيبتين. ووجدا الباب مفتوحاً، وظهرت مدموزيل ل. وأخذت من يديه إحدى الحقيبتين، بينما

تناولت السيدة العجوز الحقيبة الثانية منه. ثم انحنى وانصرف. لم يُشاهد أي شخصٍ في الشارع آنذاك. فهو شارع فرعي.. مُنعزل جدّاً.

«وليم بيرد، خياط، قال في شهادته: إنّه كان من الأشخاص الذين دخلوا المنزل. وهو رجل إنكليزي. عاش في باريس سنتين. كان أول شخص صعد السلالم. وسمع أصوات الشجار. قال: إنّ الصوت الأجش لرجل فرنسي. واستطاع تمييز بضع كلمات، ولكنّه لا يستطيع الآن أن يتذكّرها كلها. سمع على نحو واضح كلمة 'شيطان' *sacræ* 'يا إلهي *mon Dieu*'. وسمع أصواتاً أُخرى في تلك اللحظة كأنّ هُناك أشخاص عدة يتعاركون.. وسمع خبطات وجلبة. الصوت الحاد كان عالياً جدّاً.. أعلى من الصوت الأجش. من المؤكد أنّه ليس صوت رجل إنكليزي. يبدو أنه صوت ألماني. ربما كان صوت امرأة. هو لا يعرف الألمانية.

«كان أربعة من الشهود الذين أشرنا إلى أسمائهم أعلاه، بعد أن أُعيد استدعاؤهم، قالوا في شهاداتهم: إنّ باب الحجرة التي وجدوا فيها جثة مدموزيل ل. كان مُغلقاً من الداخل حين وصلت الجماعة إليه. كان كل شيء يُطبق عليه صمتٌ تام.. فلا أنين ولا ضوضاء من أي نوع. ولدى كسر الباب لم يروا أي شخص. كانت النوافذ الخلفية والأمامية كلها مُغلقة ومُثبّتة برتاجات من الداخل. وهُناك بابٌ بين الغرفتين مُغلق أيضاً، لكنه غير مُقفل. والباب الذي يؤدي من الغرفة الأمامية إلى الممر مُغلق، والمفتاح في الثقب من الداخل. والغرفة الصغيرة التي في واجهة المنزل، على الطابق الرابع، في طرف الممر مفتوحة، وبابها أيضاً مفتوح جزئياً. هذه الغرفة كانت تعجّ بأسرّة قديمة، وصناديق، وما إلى ذلك. هذه المواد أُزيحت بلا عناية وتعرضت للنبش. ليس هُناك بوصة في أي جانب من المنزل لم تنبش في تهور. المكانس أقحمت داخل المدخنة وحركت إلى الأعلى والأسفل. كان المنزل يتألف من أربعة طوابق، مع حُجرات تحت السقف المُنحني (سقيفة) *mansarde*. وهُناك باب سري في السقف مُغلق بالمسامير غلقاً مُحكماً.. لم يبدُ أنه قد فتح منذ [485]سنين. الوقت الفاصل بين سماع أصوات الشجار وكسر باب الغرفة، ذكره الشهود بأشكال مُختلفة. بعضهم جعلوه قصيراً

فقالوا: إنّه ثلاث دقائق.. والبعض الآخر جعله طويلاً ربّما يصل إلى خمس دقائق. وقد واجهوا صعوبة في فتح الباب.

«ألفونسو غارسيو، دفان، قال في شهادته: إنّه يسكن على جادّة مورغ. وهو في الأصل من إسبانيا. كان من ضمن الجماعة التي اقتحمت المنزل. لم يصعد حتى نهاية السلالم. كان منفعلاً وعصبي المزاج، ويخشى من نتائج وخيمة تعرّضه لمزيد من الانفعال. سمع أصوات الشجار. الصوت الأجش لرجل فرنسي. لم يُميز ما قاله. أما الصوت الحاد فكان لرجل إنكليزي.. هو مُتأكد من هذا. لا يعرف اللّغة الإنكليزية، ولكنّه استطاع تمييزه من اللكنة.

«ألبرتو مونتاني، صاحب محل حلويات، قال في شهادته إنّه كان من أول الأشخاص الذين صعدوا السلالم. وسمع الأصوات التي يجري التساؤل عنها. الصوت الأجش لرجل فرنسي. استطاع تمييز عدة كلمات. يبدو أنّ المُتكلّم كان يتجادل في عنف. لم يعرف الكلمات التي جاءت بصوت حاد. كان الشخص يتكلّم سريعاً وكلماته مُتقطعة. يعتقد أنّ الصوت لشخص روسي. جاءت شهادته مُنسجمة مع غيره على وجه العموم. هو رجل إيطالي. لم يسبق أن تكلّم مع شخص من أصل روسي.

«الكثير من الشهود الذين تمّ استدعاؤهم من جديد أكدوا أنّ المداخن في جميع الغرف في الطابق الرابع كانت ضيقة جدّاً بحيث لا تسمح بمرور جسد بشري. كانوا يقصدون بكلمة ’مكانس‘ فرش المسح الإسطوانية، مثل تلك التي يستخدمها أولئك الذين ينظفون المداخن. هذه الفرش أدخلت في كل مدخنة في المنزل وحركت إلى الأعلى والأسفل. لا يوجد أي ممر خلفي من خلاله يتمكّن المرء من النزول في الوقت الذي صعدت فيه الجماعة على السلالم. كانت جثة مدموزيل ليسباناي محشورة بإحكام في المدخنة بحيث لا يُمكن أن تنزل حتى تعاون في ذلك أربعة أو خمسة منهم لإخراجها.

«بول دوماس، طبيب، قال في إفادته إنه استدعي لمُعاينة الجثث مع الفجر تقريباً. كانت الجثتان مُمددتين على بطانة التخت في الحُجرة التي وجدت فيها

مدموزيل ل. رأى جثة الفتاة الشابة مُصابة بكثيرٍ من الكدمات والخدوش. وحقيقة أنّها حشرت إلى أعلى المدخنة من شأنها أن تُفسّر هذه المظاهر بما يكفي. كان جلد رقبتها قد تعرّض إلى جروح بالغة. وهُناك خدوش عميقة تحت الحنك، إلى جانب سلسلة من البقع المزرقّة الشاحبة التي هي فيما يظهر من أثر خربشة بالأصابع. لقد تغيّر لون الوجه بحيث صار يبعث على الرهبة، وحدقتا العينين ناتئتان من محجريهما. واللّسان فيه جرحٌ قاطع جزئي. واكتشف كدمة واسعة على البطن، [486]نتجت فيما يظهر من ضغط ركبة عليها. كان م. دوماس يرى أنّ مدموزيل ليسباناي تعرّضت للخنق حتى الموت من شخص أو أشخاص غير معروفين. أما جثة الأم فوجدت في حالة مشوهة فظيعة. العظام كافة في الساق اليمني والذراع مُهشّمة بشكل أو بآخر. والعظم الأكبر للساق اليسرى مكسورٌ إلى شظايا، فضلاً عن جميع الأضلاع في الجانب الأيسر. الجسد كله مليء بالكدمات والخدوش بشكل مُريع وتغيّر لونه إلى أزرق. لم يكن بالإمكان معرفة كيف حدثت تلك الجروح. ربّما تمّ استخدام هراوة ثقيلة من الخشب، أو قضيب حديدي كبير.. كرسي.. أو أي سلاح كبير، ثقيل، صلب يؤدي إلى مثل هذه النتائج، إذا كان في يدي رجلٍ قوي البنية جدّاً. لا يُمكن لامرأة أن توجّه هذه الضربات بأي سلاح. أما رأس الضحية، حين عاينه الشاهد، فكان مُنفصلاً كلياً عن الجسد، ويكاد يكون مُهشّماً. والرقبة تعرّضت فيما يظهر لقطع بأداة حادة جدّاً.. ربّما باستخدام شفرة حلاقة طويلة.

«ألكسندر إيتاين، جرّاح، تمّ استدعاؤه مع م. دوماس لمُعاينة الجثتين. توافقت شهادته مع آراء م. دوماس.

«لا شيء مُهم جرى استنباطه، مع أنّ عدة أشخاص آخرين قد استجوبوا. لم يسبق أن اقترفت جريمة بهذا الغموض، وبهذا الإرباك في تفاصيلها، في باريس من قبل.. لو حدثت هناك أية جريمة في الواقع. كان رجال الشرطة يتخبّطون عشوائياً في أخطائهم.. هذا شيءٌ مُستغرب في مسائل ذات طبيعة مماثلة. ولكن لم تكن ثمّة بارقة أمل تلوح في الأفق لحل اللغز».

واستمرّت الطبعة المسائية للصحيفة المحلية في تأكيدها على حالة الهيجان

التي بلغت أقصى حدودها في ميدان سانت روش.. الفرضيات كافة التي طرحت في هذا الصدد خضعت للبحث والاستقصاء مراراً، والاستجوابات المُتتالية للشهود ظلّت تجري على قدم وساق، ولكن بلا هدف. ومع ذلك ورد في مُلحق إحدى الصحف أن أدولف لو بون اعتُقل وزُج في السجن.. مع أنّ شيئاً لم يتّضح يكفي لإدانته، خارج نطاق الحقائق الذي ذكرناها بالتفصيل.

كان دوبن يبدو مُهتماً على نحو غريب في سياق تقدم هذه القضية.. على الأقل هكذا كنت أُخمن من خلال سلوكه، لأنّه لم يقدم أي تعليق. ولكن بعد الإعلان بأن لو بون اعتقل، سألني عن رأيي فيما يتصل بالجرائم.

لم يكن في وسعي إلّا أن أتفق مع سكان باريس على اعتبار تلك الجرائم من الألغاز التي لا تقبل الحل. لم أرَ أي وسيلة يُمكن بها تعقّب المجرم للإيقاع به.

«علينا ألّا نحكم على وسائل الحل»، قال دوبن، «من خلال هذه القشور التي يُسمونها الاستجواب. الشرطة في باريس، التي تشتهر بالحنكة، تضم رجالاً [487]يمتازون بالدهاء، ولكن هذا كل شيء. ليس هُناك منهج في سياق عملهم، خارج نطاق ما تُمليه عليهم اللحظة. إنّهم يُقدمون استعراضاً مُبهراً للإجراءات؛ ولكن ليس من الغريب أن يحدث ذلك ويتكرّر، وهذه الإجراءات لا تنسجم انسجاماً مقبولاً مع الأهداف المُفترضة، بحيث تذكرنا بمسيو جورداين وهو يطلب بجامته[8] «ليستمع بشكل أفضل لموسيقى الحُجرة» *pour mieux entendre la musique*.. هذه النتائج التي توصّلوا لها ليس من الغريب أن يتوصّل إليها أي شخص، لأنّها في غالبيتها، تستخلص بعد جهد ونشاط بسيطين. حين تكون هذه القدرات عقيمة، فالخطط التي تُبنى عليها تُمنى بالفشل. كان فيدوك[9]، على سبيل المثال، شخصاً يستطيع التنبؤ جيداً وكان مواظباً على عمله هذا. ولكن، دون أن يتمتع بفكر مُثقف، كان كثيراً ما يرتكب الأخطاء باستمرار بسبب كثافة

(8) إشارة إلى مسرحية موليير «البرجوازي النبيل» 1670 [المترجم]

(9) فرانسوا يوجين فيدوك: (1775- 1857) رئيس جهاز التحريات في حكومة نابليون الأول، تُنسب إليه الكثير من القصص البوليسية. [المترجم]

وعمق تحقيقاته بعينها. لقد أفسد الرؤية التي يتمتّع بها وذلك بأن يقرّب هدفه أكثر ممّا يلزم. ربّما رأى نقطة أو نقطتين في وضوح غير طبيعي، ولكنّه حين يفعل ذلك، بالضرورة سوف يفقد الرؤية فيما يتعلق بالمسألة ككل. لهذا لا بُدّ من رؤية عميقة جدّاً. الحقيقة لا تكْمن دائماً في قاع البئر. في الواقع فيما يتصل بالمعرفة الأكثر أهمية اعتقد أنّها معرفة مصطنعة بشكل لا يتغيّر. العمق يكْمن في الوديان التي نبحث فيها عن المعرفة، وليس فوق قمم الجبال سوف نعثر عليها. إنّ أنماط ومصادر هذا النوع من الأخطاء تتمثّل جيداً من خلال تأمل الأجرام السماوية. إذا نظرت إلى نجمٍ نظرات عاجلة.. إذا نظرت إليه بطرف العين، بأن تُحوّل نحوه الأجزاء الخارجية من شبكية العين (وهي الأجزاء الحساسة أكثر للانطباعات الواهنة للضوء أكثر من الأجزاء الداخلية)، فذلك يعني رؤية النجم في وضوح.. وذلك يعني التوصّل إلى تقييمٍ أفضل لوهجه الساطع.. هذا اللمعان يصبح باهتاً أكثر فأكثر قياساً إلى تحوّل اتّجاه رؤيتنا مُباشرة نحوه. إنّ الكثير من أشعة الضوء تسقط فعلاً على العين في الحالة الأخيرة، بينما في الحالة الأُولى هُناك قدرة أكثر صفاءً على الاستيعاب. من خلال توخّي عمقٍ لا ضرورة له نعرض أنفسنا إلى التشويش الفكري الذي يُضعف قدراتنا؛ من المُمكن أن نجعل فينوس نفسه يختفي من القبة الزرقاء بالتمحيص الدقيق الذي نحرص عليه، والتركيز المُفرط، أو المُباشر أكثر ممّا يلزم.

«أمّا عن هذه الجرائم، دعنا نقوم ببعض التأملات بأنفسنا، قبل أن نكوّن رأياً عنها. من شأن البحث أن يوفر لنا متعة»، (تصوّرت هذا مُصطلحاً غريباً، إذا استخدم في هذا الموضع، ولكنّي لم أتفوّه بشيء) «وإلى جانب هذا، كان لو بون ذات مرة قد قدم لي خدمة لست جاحداً لها أبداً. سوف نذهب لرؤية المكان عن قَرب بأعيننا. إنني أعرف ج..، مدير الشرطة، ولن نواجه أي صعوبة في الحصول على الإذن المطلوب».

وحصلنا على موافقة، ومضينا في الحال باتّجاه جادة مورغ. كانت هذه من [488]الشوارع البائسة التي تتداخل بين جادة ريشيلو وجادة سانت روش. وكانت ساعة مُتأخرة من العصر حين وصلنا إلى المكان؛ لأنّ الميدان يبعد مسافة كبيرة

عن محل إقامتنا. وإن هي إلّا أن وجدنا المنزل؛ لأن كان ما يزال هُناك كثيرٌ من الأشخاص يُحملقون في النوافذ المُغلقة، ينظرون في فضولٍ طائش، من الجانب المُقابل للشارع. كان منزلاً باريسياً عادياً، له بوابة حديدية، على جانب منها لوحُ مُراقبة مُغطّى بالزجاج، مع ستارٍ مُنزلق على نافذة مقصورة البواب. قبل أن ندخل تجولنا قليلاً على الشارع، ثم تحوّلنا إلى دربٍ جانبي، وعدنا فاستدرنا ومررنا من خلف المبنى.. وكان دوبن في هذه الأثناء يتفحّص المنازل المُجاورة جميعاً، فضلاً عن المنزل نفسه، في اهتمامٍ دقيق لم أرَ له مبرراً.

عادت خطواتنا إلى الطريق نفسها، واقتربنا ثانية من واجهة المسكن، ضربنا الجرس، وأظهرنا أوراقنا الرسمية، وسمح لنا بالدخول حراسٌ كانوا مُكلّفين بواجبهم هُناك. صعدنا السلالم.. واتّجهنا إلى الحُجرة التي وجدوا فيها جسد مدموزيل ليسباناي، والتي ما زالت فيها جثتا الفقيدتين. كانت حالة الفوضى التي تعج فيها الغرفة، تدل كالمعتاد على مُعاناة فظيعة وصراع للبقاء. لم أُشاهد شيئاً خارج نطاق ما ذكرته صحيفة «غازيت دي تريبوانو». أخذ دوبن يتفحّص كل شيء عن كثب.. فلا يستثني جثتي الضحيتين. ثم دخلنا الغرف الأُخرى، واتّجهنا إلى الباحة الخلفية؛ وكان أحد أفراد الجندرمة يُرافقنا طوال الوقت. وانشغلنا بالفحص والتدقيق حتى حلّ الظلام، فخرجنا. في طريقنا إلى منزلنا توقف رفيقي لحظة ودخل مكتب إحدى الصحف اليومية.

قلتُ: إن نزوات صديقي كانت مُتشعّبة في جوانبها، وكنت بدوري «امزح معه في شيءٍ من الحذر» *Je les mænagais*.. لأنّ هذه العبارة لا يوجد ما يُماثلها في الإنكليزية. كان مزاجه الآن يمنعه من التطرق إلى أي شيء عن موضوع الجريمة، حتى جاءت ظهيرة اليوم التالي. عندها سألني فجأة إن كنت قد لاحظت أي شيء غير عادي في ذلك المشهد المُفجع.

شيءٌ ما في طريقة تأكيده على عبارة «غير عادي»، جعلني أرتجف، دون أن اعرف السبب.

«كلا، لا شيء غريب»، قلت؛ «لا شيء، على الأقل، غير ما ذكرناه معاً للصحيفة».

«صحيفة غازيت»، أجاب، «لم تتطرّق، أخشى أن يكون ذلك حقيقة، إلى وصف مظاهر الرعب غير الاعتيادية التي رافقت الحادث. عليك أن تتجاهل الآراء التافهة لهذه الصحيفة. يبدو لي أنّ هذا السر لا يقبل الحل، وذلك يعود إلى السبب نفسه الذي ينبغي أن يجعله سهل الحل.. أقصد ذلك يعود إلى الخصائص الخارجة عن طبيعته. رجال الشرطة مُرتبكون بإزاء غياب الدافع في ما يبدو.. ليس للجريمة [489]نفسها.. ولكن لوحشية الجريمة. إنّهم مُتحيّرون أيضاً أمام استحالة التوصل إلى تفسير للأصوات التي سُمعت أثناء الشجار، مع حقيقة أن لا أحد اكتشف بعد صعود السلالم غير الضحيتين مدموزيل ومدام ليسباناي، وأن ليس هُناك وسيلة للخروج دون أن يلاحظ ذلك أحد من الجماعة الذين صعدوا. الفوضى العارمة في الغرفة، انحشار جثة في المدخنة، والرأس إلى الأسفل؛ التشوّه الفظيع لجسد السيدة العجوز؛ كل هذه الاعتبارات، مع الأشياء التي سبق ذكرها، وأشياء أُخرى لست في حاجة لأن أتطرّق إليها، كانت كافية لشلّ القدرات الفكرية، وذلك بأن تقوّض تماماً كل أثر للفطنة التي يتبجّحون بها، أقصد وكلاء التحقيق التابعين للحكومة. لقد اقترفوا الخطأ الفادح المألوف في الخلط بين الشيء الخارج عن المألوف وبين الشيء المُبهم. ولكن من خلال هذه الانحرافات عن مُستوى الشيء المألوف، فالعقل يتلمس طريقه، وليس عن طريق آخر، في بحثه عن الحقيقة. في التحقيقات التي تُماثل هذا التحقيق الذي نقوم به الآن، لا ينبغي أن نتساءل «عما حدث»، بل «عما حدث ولم يحدث من قبل أبداً». في حقيقة الأمر، السهولة التي سوف أصل بها، أو وصلت بها، إلى حل هذا اللغز، تكْمن في المظهر المُباشر لعدم قابليته للحل ظاهرياً في نظر الشرطة».

كنت أُحملق في وجه المُتكلّم في ذهولٍ مكتوم.

«إنّني الآن انتظر»، واصل كلامه، وكان ينظر باتّجاه باب حجرتنا.. «أنا الآن أنتظر مجيء شخص، مع أنّه ربّما ليس مُرتكب هذه الأعمال الوحشية فعلاً، إلّا أنّ له علاقة من نوع ما بالتحضير لها. عن الجانب الأسوأ في الجرائم التي اقترفت، من المُحتمل أن يكون الرجل بريئاً. أطمح أن أكون مُصيباً في هذا الافتراض؛ لأنّي على هذا الأساس أُؤسس توقّعاتي في قراءة اللّغز كله. إنّني

أتطلّع لرؤية الرجل هُنا.. في هذه الغرفة.. في أي لحظة. صحيحٌ أنّه ربّما لن يأتي؛ ولكن الاحتمال الأكبر أنّه سيأتي. إذا جاء، سيكون من الضروري اعتقاله. هُنا توجد مُسدسات؛ وكلانا يعرف كيف يستخدمها إذا تطلب الأمر».

تناولت المسدسين وأنا لا أكاد أعرف ما الذي فعلته، ولم تُصدّق أذناي ما سمعت، بينما استمر دوبن، يتكلّم كأنّه يُناجي نفسه. لقد ذكرتُ سابقاً شيئاً عن تصرّفاته المُبهمة في مثل هذه الظروف. كان كلامه موجّهاً لي؛ لكن صوته، مع أنّه لم يكن عالياً أبداً، يحمل تلك النبرة التي يلجأ إليها في العادة لدى الكلام مع شخصٍ من مسافة بعيدة. وعيناه تخلوان من أي تعبير، فيما كان ينظر إلى الحائط فحسب.

«إذا كانت الأصوات التي سُمعت أثناء الشجار»، قال، «من الجماعة الذين صعدوا السلالم، ليست أصوات النسوة أنفسهن، فهذا شيء اتّضح تماماً من شهادات الشهود. هذا من شأنه أن يُزيح عن كاهلنا أيّ شك في مسألة ما إذا كانت السيدة [490]العجوز قتلت البنت أولاً ثم انتحرت. إنّني أتحدّث عن هذه النقطة أساساً بغية التركيز على المنهج؛ ذلك لأن قوة مدام ليسباناي لم تكن لتكون كافية لإنجاز مهمة حشر جثة ابنتها إلى أعلى المدخنة كما وجدناها هُناك؛ وطبيعة الجروح التي على جسدها تستبعد فكرة أنّها هي التي قامت بذلك. إذن الجريمة اقترفها طرف ثالث؛ والأصوات التي سُمعت من هذا الطرف هي التي سمعت أثناء الشجار. دعني الآن ألفت انتباهك.. ليس إلى الشهادات كلها التي تتعلق بهذه الأصوات.. وإنّما إلى ما كان مُستغرباً في تلك الشهادات. هل لاحظت أي شيء مُستغرب فيها؟».

ذكرت له أنّه فيما كان جميع الشهود اتفقوا على اعتبار الصوت الأجش هو صوت رجل فرنسي، إلّا أنّ هُناك عدم اتفاق كبير فيما يتعلّق بالصوت الثاقب النبرة، أو كما سمّاه أحد الأشخاص، الصوت الحاد.

«ذلك هو الدليل نفسه»، قال دوبن، «ولكن ليس غرابة الدليل. أنت لم تنتبه إلى شيء مُحدّد. ولكن ليس هُناك شيءٌ لتنتبه إليه. لقد اتّفق جميع الشهود، كما

لاحظت، على ما يتعلّق بالصوت الأجش؛ كانوا هُنا مُجمعين على رأيٍ واحد. ولكن فيما يتعلّق بالصوت الحاد، الغريب.. ليس الأمر أنّهم لم يتفقوا.. ولكن، فيما حاولوا وصف صوت رجلٍ إيطالي، وإنكليزي، وإسباني، وهولندي، وفرنسي، فكل واحد منهم قال: إنه صوتٌ أجنبي. كل واحد منهم كان واثقاً أنّه ليس صوت رجل من سكان بلاده. كل واحد منهم يُشبهه.. ليس بصوت فردٍ من أفراد أي أمة من الأمم التي يتكلّم لغتها.. ولكن على العكس من ذلك. الفرنسي يعتقد أنّه صوتٌ إسباني، «وربما استطاع تمييز بعض الكلمات لو كان يعرف الإسبانية». والهولندي يؤكد أنّه صوت رجل فرنسي؛ ولكنا نرى هنا تأكيداً «بما أنّه لا يفهم الفرنسية فهذا الشاهد قد استجوب عن طريق مُترجم». أما الشاهد الإنكليزي فهو يعتقد أنّه صوت ألماني، بما أنّه «لا يفهم الألمانية». والشاهد الإسباني «واثق» أنّه صوت رجل إنكليزي، لكنه «يُمكنه أن يحكم من خلال النبرة فحسب» ..«لأنّه لا يعرف الإنكليزية». والشاهد الإيطالي يعتقد أنّ الصوت روسي، لكنّه «لم يسبق أن تحدّث مع أحد من مواطني روسيا». ورجل فرنسي آخر، رغم كل شيء، يختلف مع الأول، وهو مُتأكد من أنّ الصوت إيطالي؛ ولكنّه غير مطّلع على تلك اللّغة، وهو مثل الشاهد الإسباني «مُقتنع من خلال اللكنة». والآن، يا له من شيءٍ غريب واستثنائي ذلك الصوتُ حقّاً الذي تباينت فيه إفادات الشهود على هذا النحو الذي يُمكن لنا استنتاجه! ..بأي نبرة، حتى [491]أولئك الذين يُقيمون في خمسة من البلدان الكبرى في أوروبا ليسوا قادرين على تمييز شيء مألوف! سوف تقول: إنّه ربّما كان صوتاً آسيوياً.. صوت شخص أفريقي. الآسيويون والأفارقة لا يكثرون في باريس؛ ولكن دون أن ننكر الاستدلال، سوف ألفت انتباهك الآن فقط إلى ثلاث نقاط. وصف أحد الشهود الصوت بأنّه «خشن أجش وليس حاداً ثاقب النبرات». ووصفه اثنان من الشهود الآخرين بأنه «سريع وغير مُتماثل الإيقاع». لا توجد فيه كلمات.. لا أصوات تعبر عن كلمات.. ذكرها أيّ شاهد من الشهود فقال: إنّها قابلة للتمييز.

«لا أعرف»، تابع دوبن كلامه، «أيّ انطباع ربّما يتشكّل في ذهنك من كلامي، حتى الآن، على طريقة فهمك؛ ولكنّي لا أتردّد في القول: إنّ ثمّة

استنتاجات منطقية حتى من خلال هذا الجزء من الشهادة.. الجزء الذي يتعلّق بالأصوات الحادة والجشة.. يكفي بعينه لكي يولد الريبة التي ينبغي أن توجّه كل تقدم إضافي في سياق التحقيق بشأن هذا اللغز. قلت «استنتاجات منطقية»؛ غير أنّ المعنى الذي أقصده لا يتجلّى هُنا كاملاً. أقصد أن ألمّح إلى أنّ الاستنتاجات وحدها صحيحة، وأنّ الشك يظهر لا محالة من تلك الاستنتاجات على أنّه النتيجة الوحيدة. أما مغزى الشك، فلن أقول عنه شيئاً الآن. أُريد منك فقط أن تتذكّر معي أنّه كان من الأمور القسرية بما يكفي إعطاء شكل مُحدّد.. أو اتّجاه مُحدّد.. لتساؤلاتي التي أثرتها في الحجرة.

«دعنا الآن ننتقل معاً، على أجنحة الخيال، إلى هذه الحُجرة. ما الذي نبحث عنه في البداية هُنا؟ وسيلة الخروج التي استخدمها المُجرمون. ليس من المُبالغة القول: إنّ لا أحد منّا يعتقد في الحوادث الخارقة لنواميس الطبيعة. مدام ومدموزيل ليسباناي قتلتهما أرواحٌ شريرة! من اقترف هذه الأفعال له جسدٌ مادي، وقد هرب عن طريق مادي. إذن كيف؟ لحُسْن الحظ، هُناك فقط طريقة واحدة للتفكير في هذه المسألة، وتلك الطريقة يجب أن تقودنا إلى قرار مُحدّد.. دعنا نتأمل، واحدة بعد واحدة، الوسائل المُمكنة للخروج. من الواضح أنّ المُجرمين كانوا في الغرفة التي وجدت فيها مدموزيل ليسباناي، أو على الأقل في الغرفة المُجاورة، عندما صعدت الجماعة إلى السلالم. إذن من هاتين الحُجرتين علينا أن نبدأ البحث عن حلول. رجال الشرطة بحثوا في الأرضيات، والسقوف، وفي حجارة الجدران، في كل اتّجاه. لم يكن يُمكن أن تُخفى على فطنتهم أي مسائل غامضة. ولكنّي لم أثق في قدرة عيونهم على الرؤية، فتفحصت بعيني أنا. لم تكن هُناك إذن أي مسائل غامضة غير مُكتشفة. البابان اللذان يؤديان من الغرف إلى المجاز كانت مُقفلة بإحكام، والمفاتيح في الداخل. دعنا ننتقل إلى المداخن. هذه، على الرغم من اتّساعها إلى [492]نحو ثمانية أو عشرة أقدام فوق الموقد، إلّا أنّها لن تسمح، على امتدادها، بخروج حتى قطة كبيرة. إنّ استحالة الخروج، من خلال الوسائل التي تطرّقت إليها، تكون هكذا مُطلقة، فعلينا أن نعود إذن إلى النوافذ. من خلال تلك النوافذ في الغرفة الأمامية لن يتمكّن أي إنسان من الهرب

دون أن ينتبه إليه الناس المُتجمهرين وقتها في الشارع. المُجرمون لا بُدّ أن يكونوا قد هربوا إذن من نوافذ الغرفة الخلفية. والآن، إذا وصلنا إلى هذا الاستنتاج بطريقة واضحة كما ترى، ينبغي علينا من جانبنا كمُحلّلين أن نرفض هذا الأمر بسبب استحالته البينة. يبقى لدينا شيء واحد يثبت أنّ هذه «الأشياء المُستحيلة» بوضوح هي، في الواقع، ليست مستحيلة.

«هُناك نافذتان في الحُجرة؛ إحداهما: تكاد تكون خالية من الأثاث الذي يُعيق التقدّم نحوها، وكل أجزائها قابلة للرؤية. الجانب الأسفل من النافذة الأُخرى مخفي عن الأنظار من خلال رأس تخت نوم غير مُستعمل محشور قريباً منها. النافذة الأولى وجدت مُغلقة بإحكام من الداخل. وكان من الصعب عليهم فتحها حتى باستعمال القوة من قبل الأشخاص الذين حاولوا ذلك. هُناك ثُقب تمّ حفره بمِثقاب يخترق هيكلها من جهة اليسار، ووجد مسمارٌ متين جدّاً مُثبّت هُناك، تقريباً يدخل حتى نهايته. لدى تفحّص النافذة الأُخرى، شوهد مسمارٌ مُماثل مُثبّتاً عليها؛ وفشلت أعنف المُحاولات لرفع هذا المسمار أيضاً. كان رجال الشرطة مُقتنعين الآن كل الاقتناع أنّ الهرب لم يحصل من هذه الاتجاهات. ولهذا، كان يُعتقد أنّها مسألة غير مطروحة أن ترفع المسامير وتفتح النوافذ.

«كان تفحصي الدقيق مُحدّد الاتجاه بعض الشيء، وذلك للسبب الذي ذكرته توّاً.. لأنّ هُنا تكمْن، كما عرفت، كل الأشياء المُستحيلة ظاهرياً والتي ينبغي أن لا تُعتبر مُستحيلة في واقع الأمر.

«وتقدّمت في تفكيري على هذا النحو الاستدلالي *æ posteriori*. المجرمون هَربوا فعلاً من إحدى هذه النوافذ. وبما أنّ هذا لم يحدث، فلا يُمكن أن يكونوا قد أعادوا تثبيت الرتاجات من الداخل، مثلما وجدناها.. الشيء الذي وضع حدّاً، من خلال وضوحه، لتحريات الشرطة في هذا الصدد. ولكن الرتاجات كانت مُثبتة فعلاً. فلا بُدّ إذن أنّ هُناك قدرة على جعلها تُثبت نفسها. لم يكن هُناك مجال للتغاضي عن هذا الاستنتاج. تقدّمت نحو النافذة التي لا يُعيق الطريق إليها أي نوع من العقبات، سحبتُ المسمار في شيء من الصعوبة وحاولت رفع

الرتاج. أبى أن ينفتح بإزاء الجهود التي بذلتها، كما توقعت. لا بُدّ أن يكون هُناك نابض مخفي في مكان ما، عرفتُ ذلك الآن؛ وهذا الدليل الذي عزّز فكرتي أقنعني أنّ فرضياتي على أقل تقدير كانت صحيحة، وإن بقيت أشياء غامضة فيما يتعلّق بالمسامير. بعد بحثٍ مُتأن سرعان ما أُلقي الضوء على النابض المخفي. ضغطتُ على النابض، وكنت مُقتنعاً بالاكتشاف، فامتنع عن رفع الرتاج.

«والآن أعدت المسمار إلى مكانه وصرت أنظر إليه باهتمام. ربّما كان هُناك [493]شخصٌ يمر بهذه النافذة قد أعاد غلقها، والنابض سوف يعلق هُناك.. لكن المسمار لا يُمكن أن يكون قد استبدل. كان الاستنتاج واضحاً، ومرة أُخرى يؤدي إلى تضييق نطاق تحقيقاتي. لا بُدّ أنّ المُجرمين هربوا عبر النافذة الأُخرى. إذا فرضنا إذن أنّ النوابض في كل رتاجٍ هي نفسها، كما متوقع، فلا بد من وجود اختلاف في شكل المسامير، أو علِى الأقل في أنماط تثبيتها. صعدتُ فوق أكياس التخت، ونظرت مُتفحصاً اللوح الرأسي بدقة للنافذة الثانية. مررت يدي إلى خلف اللوح، فاكتشفت في الحال النابض الذي يفترض أن يكون مُماثلاً في طبيعته للأول وضغطت عليه. ونظرت الآن إلى المسمار. كان متيناً مثل المسمار الآخر، ويظهر مُثبتاً بالطريقة نفسها.. يكاد يكون محشوراً إلى الرأس.

«سوف تقول: إنّني أصابني الإرباك؛ ولكن، إذا كنت تتصور ذلك، فأنت لم تفهم طبيعة الاستقراء. إذا استخدمنا عبارة من عالم الرياضة، فأنا لم أكن مرة واحدة ‘على خطأ‘. لم أفقد أبداً الرائحة التي تقودني إلى الهدف. لم يكن هُناك أي خلل في أي حلقة من السلسلة. كنت أتعقّب خطوط السر الغامض حتى أصل إلى النتيجة النهائية.. والنتيجة هي المسمار. المسمار في كل جانب من جوانبه يحمل مظهراً مُماثلاً لنظيره في النافذة الأُخرى؛ إلّا أنّ هذه الحقيقة تنطوي على بطلانٍ مُطلق (رغم أنّها توصلنا ظاهرياً إلى استنتاج قاطع) حين تُقارن مع اعتبار آخر وهو أنّنا هُنا، في هذه المرحلة، توصّلنا إلى مفتاح حل اللغز‘. يجب أن يكون هُناك خطأ‘، قلت، ‘بشأن المسمار‘ ثم لمسته؛ عندها انخلع الرأس، حوالى ربع بوصة من ساق المسمار، خرجتْ مع أصابعي. وما تبقّى من الساق ظل في الثقب والمكان الذي انكسر فيه. كان الكسرُ قديماً (لأنّ حافاته مُغطاة

بالصدأ)، وقد حدث فيما يظهر بفعل ضربة مطرقة، أدّت جزئياً إلى غرس الجزء الأعلى من المسمار في وسط الرتاج. والآن قمتُ بعناية بإعادة الجزء الأعلى إلى الفراغ الذي انتزعته منه، وكان الشّبه بأي مسمار غير مكسور كاملاً.. لم يكن الكسر ليراه المرء. ضغطتُ على النابض، ثم رفعت في رفق الرتاج إلى بوصات قليلة؛ فصعد رأس المسمار معه، وبقي ثابتاً في موضعه. أغلقت النافذة، وكان تشابُه المسمار تاماً مرة أُخرى.

«إلى الآن تمكنّا من حلّ اللغز. لقد هرب المُجرم من النافذة التي فوق السرير. وهي تنغلق من تلقاء نفسها لدى خروجه (أو ربّما أغلقت عن قصد)، وبقيت مُثبتة بالنابض؛ وكان بقاء هذا النابض في مكانه هو الذي جعل رجال [494]الشرطة يُخطئون فيخلطون بينه وبين بقاء المسمار مُثبتاً في مكانه.. إذن لم تعد ثمّة حاجة إلى المزيد من التقصّي.

«السؤال التالي ينبغي أن يدور حول طريقة النزول. عند هذه النقطة توصلت إلى قناعة عندما مشيتُ وإياك حول المبنى. على بعد حوالى خمسة أقدام ونصف من النافذة التي نحن بصددها كان هُناك عمودٌ مانع للصواعق. من هذا العمود يكون من المُستحيل لأي شخص الوصول إلى النافذة نفسها، إذا لم نقل شيئاً عن الدخول منها. لكنّي لاحظت أنّ مصاريع النوافذ في الطابق الرابع كانت من نوعية فريدة يُسميها النجارون الباريسيون 'فرندات'. . وهو نوعٌ نادر الاستعمال اليوم، مع أنّه يُشاهد من الحين إلى الحين في المنازل القديمة جدّاً في ليونز وبوردو. إنّها تتّخذ شكل بابٍ اعتيادي، (له لوحٌ واحد وليس لوحين مُزدوجين) باستثناء أنّ النصف الأسفل يكون مُشبكاً أو ينفتح على تعريشة.. وبهذا يمنح فرصة رائعة للمرء أن يتمسّك به. في الحالة التي نتحدّث عنها، هذه المصاريع عرضها يصل إلى ثلاثة أقدام ونصف بالتمام والكمال. عندما رأيناها من الباحة في مؤخرة المنزل، كانت شبه مفتوحة.. بمعنى آخر، كانت تتّخذ زوايا قائمة مع الحائط. من المُحتمل أن يكون رجال الشرطة أيضاً، مثلي تماماً، قد تفحصوا الجانب الخلفي من المسكن؛ ولكن، إذا حصل ذلك، فهم حين نظروا إلى هذه الفرندات التي تمتد عرضياً (ولا بدّ أنّهم فعلوا ذلك) لم ينتبهوا إلى هذا المجال الواسع نفسه،

أو في الأحوال كافة، فشلوا في أن يأخذوه بنظر الاعتبار. في حقيقة الأمر، بعد أن أقنعوا أنفسهم ذات مرة بأنه لا يوجد مخرج في هذا الشأن، كان من الطبيعي أن لا يولوا هذا الجانب غير اهتمام هامشي. كان من الواضح بالنسبة لي، أنّ مصاريع النافذة التي فوق السرير، إذا فتحت كاملة وأرجعت إلى الوراء نحو الحائط، سوف تقترب مسافة قدمين من عمود منع الصواعق. كان واضحاً أيضاً، من خلال جهدٍ استثنائي جدّاً في الحركة والشجاعة، أنّ الدخول إلى النافذة من العمود تحقّق بهذه الوسيلة.. من خلال مدّ اليدين إلى قدمين ونصف (نحن الآن نفترض أن النافذة مفتوحة على مصراعيها) فأي سارق ربّما يتمكّن من التّشبث بالتعريشة. ثم يتخلّى عن الإمساك بالعمود، ويضع قدميه في أمان على الحائط، فيقفز عندئذ قفزة جريئة من هُناك، وربّما حرّك المصاريع هُنا وهُناك لكي يُغلقها، وإذا تخيّلنا أنّ النافذة كانت مفتوحة في ذلك الوقت، ربّما تدلّى حتى دخل الغرفة.

«أتمنّى أن تأخذ بنظر الاعتبار بصفة خاصة أنّني تكلّمتُ عن درجة غير اعتيادية جدّاً من حيوية الحركة التي يتطلّبها النجاح في مثل هذا العمل الصعب المحفوف بالمخاطرة. إنّني أنوي أن أُبين لك أولاً أن هذا الشيء ربّما يُمكن أن [495]يتحقّق.. لكن الأمر الثاني والأساسي أن أجعلك تفهم الطبيعة الاستثنائية جدّاً.. والخارقة لخفة الحركة التي حصل بها الأمر.

«لا شكّ أنّك سوف تقول: إذا استعملنا لغة رجال القانون، من أجل 'التوصل إلى حلٍ للقضية التي أعمل عليها'، فإنّي أُفضل أن أقلل من شأن، بدلاً من التأكيد على، تقييم شامل للقوة المطلوبة في إنجاز هذا الأمر. ربما كان هذا من السياقات المألوفة في القانون، ولكن هذا ليس من سياقات العقل. إنّ هدفي النهائي يتمثّل في الوصول إلى الحقيقة فحسب. غرضي المُباشر أن أقودك إلى شيء تقريبي، ذلك النشاط غير العادي نفسه الذي تكلّمت عنه قبل قليل وتلك الصرخة العجيبة جدّاً في حدتها (أو الصوت الأجش) والصوت غير المُتماثل في نبراته، الذي اختلف في جنسيته الشهود فلم يتّفق اثنان منهم على ذلك، والذي في نطقه لم نجد أي مقاطع مفهومة».

عند هذه الكلمات تلمّستُ طيفاً يكاد يتشكّل في ذهني عن المعاني التي يقصدها دوبن. يبدو أنّني كنت على وشك أن أستوعب دون أن تكون لدي قدرة الاستيعاب.. أنّ الناس، في بعض الأحيان، يجدون أنفسهم على وشك أن يتذكّروا، دون أن تكون لديهم قُدرة في النهاية على التذكّر. واستمرّ صديقي في حواره.

«سوف ترى»، قال، «أنّني غيّرت السؤال من طريقة الخروج إلى طريقة الدخول. كنت أنوي أن أنقل فكرة أنّ كلا الطريقتين حصلتا على نحو مُماثل، وفي الوقت نفسه. دعنا الآن نعود إلى الجزء الداخلي من الغرفة. دعنا نجري مسحاً لمظاهرها هُنا. كانت أدراج المكتب، كما يقال، قد نهبت، مع أن الكثير من أدوات الزينة بقيت على حالها. الاستنتاج هنا سخيف ومنافٍ للعقل. إنه مجرد تخمين.. وهو تخمين سخيف جداً.. لا شيء اقل من ذلك. كيف لنا أن نعرف أن المواد التي وجدت هناك في كل هذه الأدراج هي نفسها التي كانت موجودة منذ البداية؟ كانت مدام ليسباناي وابنتها تعيشان حياة مُنعزلة تمام الانعزال.. ولم تكونا تلتقيان أي صديقات.. ونادراً ما تخرجان.. ولا تكترثان كثيراً لتغيّرات وتقلّبات موضة الملابس. تلك المواد التي وجدت على أقل تقدير كانت من نوعية راقية بحيث من غير المحتمل أن تقتنيها هاتان السيدتان. إذا كان أي لصّ قد أخذ أي مواد منها، فلماذا لم يأخذ أفضل الأنواع.. لماذا لم يأخذها كلها؟ باختصار، لماذا ترك أربعة آلاف فرنك من الذهب لكي يشغل نفسه بحزمة قماش؟ لقد ترك الذهب. ربّما نصف الكمية التي ذكرها مسيو ميغناود، الصرّاف، اكتشفت في حقائبها على الأرضية. لذلك أودّ منك أن تستبعد عن ذهنك الفكرة البلهاء عن الدافع، والتي تتولّد في أذهان الشرطة من خلال ذلك الجزء من الدليل الذي يتناول النقود التي تمّ توصيلها إلى [496]باب المسكن. هُناك مُصادفات أكثر وضوحاً عشر مرات من هذه (توصيل النقود، والجريمة التي ترتكب خلال ثلاثة أيام بحق من يتسلمها)، تحدث لنا جميعاً في كل ساعة من حياتنا، دون أن تلفت الانتباه ولو لحظة. المُصادفات، بصورة عامة، عقبات كبيرة في طريق تلك الفئة من المُفكرين الذين تعلموا إلّا يعرفوا شيئاً عن نظرية الاحتمالات.. تلك

النظرية التي تُعزى إليها أروع الإنجازات في توضيح مجالات رائعة للبحث البشري. والآن، لو أنّ الذهب اختفى، فإنّ حقيقة توصيله قبل ثلاثة أيام كانت ستُشكل أكثر من مُصادفة. تلك الحادثة ستُعزز فكرة الدافع هذه. ولكن، في الظروف الواقعية للقضية، إذا افترضنا أنّ الدافع هو الذهب لهذا الهجوم الجنوني، علينا أيضاً أن نتخيّل الجاني شخصاً غبياً مُتردداً بحيث يترك كل هذا الذهب ويتخلّى عن دافعه كلياً.

«علينا الآن أن نأخذ بنظر الاعتبار باستمرار النقاط التي أردتُ منك الانتباه إليها.. ذلك الصوت الغريب، تلك القدرة غير العادية في خفة الحركة، وذلك الغياب المُذهل لأي دافع في جريمةٍ شنيعة على هذا النحو الفريد في نوعه.. دعنا نُلقي نظرة عاجلة على الأعمال الوحشية بعينها التي ارتكبت. هُناك امرأة خنقت حتى الموت بقوة يدوية، وحُشرت حشراً داخل مدخنة، ورأسها يتدلّى إلى الأسفل. المُجرمون العاديون لا يستخدمون مثل هذه الأساليب في جريمةٍ مثل هذه. على الأقل هم لا يتخلّصون من الضحية بهذا الشكل. في طريقة حشر الجثة إلى أعلى المدخنة، لا بدّ لك من الاعتراف بأن هُناك شيئاً خارجاً تماماً عن المألوف *excessively outræ* . . إنّه شيء لا ينسجم بتاتاً مع التصورات الاعتيادية للتصرّف البشري، حتى عندما نفترض أن مُقترفي الجريمة هم أكثر الأشخاص انحرافاً وفساداً في الأخلاق. عليك أن تُفكّر أيضاً بمقدار القوة الهائلة التي تحتاج إليها لتدفع الجسد إلى الأعلى عبر فتحة ضيقة في قوة وعنف بحيث لا تتمكّن قوة عدة أشخاص لسحبه إلى الأسفل!.

«لنتحول الآن إلى العلامات الأخرى التي تدلّ على جسارة غريبة. على الموقد وجدت خصلات شعر غليظة.. خصلات شعر غليظة جدّاً.. من الشعر البشري الأشيب. هذه الخصلات كانت قد اقتُلعت من جذورها. أنت تدرك القوة الجبارة التي تلزم لتمزيق خصلة من عشرين أو ثلاثين شعرة معاً. لقد رأيت بنفسك الخصلات التي نتكلّم عنها ورأيتها أنا كذلك. كانت جذورها (منظرٌ مُثير للفزع!) مُلطّخة بنتفٍ من اللحم اقتلعت من فروة الرأس.. حتماً استخدمت قوة جبارة لاقتلاع الشعر من جذوره وربما اقتلعت نصف مليون شعرة في مرة واحدة.

لم تكن حُنجرة السيدة العجوز مقطوعة فحسب، وإنما الرأس أيضاً محزوز ويكاد ينفصل عن بقية الجسم: والأداة التي استخدمت في ذلك مُجرّد شفرة حلاقة. أتمنّى أن تنظر ملياً في القسوة الوحشية التي نفذت فيها هذه الأفعال. أمّا عن الخدوش والكدمات التي [497]اكتُشفت على جسد مدام ليسباناي فلن أذكر شيئاً. كان مسيو دوماس، ومُساعده الذي يستحق الاحترام، مسيو إيتاين، قد عبرا عن رأيهما في أنّ تلك الجروح حصلت باستعمال أداة غير حادة من نوع ما؛ وإلى الآن يُعتبر رأي هذين السيدين صحيحاً جدّاً. الأداة غير الحادة كانت بكل وضوح هي حجارة الرصيف في الباحة، وعلى تلك الحجارة سقطت الضحية من النافذة التي فوق السرير. إلّا أنّ هذه الفكرة مهما بدت لنا بسيطة الآن يظهر أنّها غابت عن رجال الشرطة للسبب نفسه الذي غاب فيه عنهم عرض مصاريع النافذة.. فمن خلال وجود المسامير، كانت مُدركاتهم مُحكمة الإغلاق ضد أي احتمال أن تكون النوافذ فتحت على الإطلاق.

«إذا فكرت الآن، إضافة إلى هذه الأشياء، بالفوضى الغريبة التي عمّت الحُجرة، نكون قد قطعنا شوطاً كبيراً في ربط الأفكار المُتعلقة بخفة الحركة المُذهلة، وهي قوة تفوق قُدرات البشر، شراسة ووحشية، مجزرة لا دافع لها، وانغماس مُذهل في الرعب حقّاً يتنافى مع الإنسانية، وصوتٌ أجنبي يرن في آذان أشخاص من أمم مُتباينة، يخلو من أي مقاطع مفهومة. ما النتيجة إذن التي يُمكن استخلاصها؟ ما الانطباع الذي تركته كلماتي على خيالك؟».

أحسست بدبيب قشعريرة في لحمي بينما كان دوبن يطرح السؤال. «هُناك رجلٌ مجنون»، قلت، «هو الذي ارتكب هذا العمل.. رجلٌ مسعور من الذئاب البشرية، هرب من مأوى مجانين مُجاور».

«في وجه من الوجوه»، أجاب، «فكرتك لا تخلو من الصواب. مع أنّ أصوات المجانين، حتى في ذروة هلوساتهم الوحشية، لا تتطابق مع ذلك الصوت الغريب الذي سُمع عندما كان الناس يصعدون السلالم. المجانين ينتمون إلى بلد من البلدان، ومهما كانت لُغتهم غير مُتماسكة في كلماتها، فهي تمتاز دائماً بتماسك مقاطعها. فضلاً عن ذلك فإنّ شعر المجنون لا يُشبه الشعر الذي

في يدي الآن. أخذتُ هذه الخصلة الصغيرة من بين أصابع مدام ليسباناي المُمسكة بها بإحكام. أخبرني ماذا تستنتج من ذلك».

«دوبن!» قلت، وقد وهنتْ عزيمتي تماماً؛ «هذا الشعر غير اعتيادي.. هذا ليس من شعر البشر».

«لم أقل: إنّه من شعر البشر»، قال؛ «ولكن قبل أن نُقرر شيئاً عن هذه المسألة، أتمنى عليك أن تُلقي نظرة على المُخطط الذي وضعته هُنا على هذه الورقة. إنّها نسخة مُطابقة للأصل لما وصف في جزءٍ من إفادة أحد الشهود عن «كدمات غامقة، وخدوش عميقة من أظافر الأصابع»، على حُنجرة مدموزيل ليسباناي، وفي إفادة أُخرى (أدلى بها السيدان دوماس وإيتاين)، فوصفاها على أنها «سلسلة من البقع المزرقة، يظهر أنها من اثر الأصابع».

«سوف تُدرك»، تابع صديقي كلامه، وفتح أمامي ورقة على الطاولة التي [498]أمامنا، «أن هذا الرسم يُعطي فكرة عن قبضة قوية ثابتة. لا يوجد انزلاق واضح. كل أصبع من الأصابع بقي.. ربما حتى موت الضحية.. يُمسك في شكل مُخيف ويُحافظ على المسكة التي من خلالها يُدافع عن نفسه أيضاً. حاول الآن أن تضع كل أصابعك، في الوقت نفسه، وفقاً للأوضاع المُتتالية التي تراها».

وحاولت دون جدوى.

«ربما لم نمنح هذه المسألة ما تستحق من اهتمام»، قال. «الورقة هذه مفتوحة على سطحٍ مُستوٍ؛ إلّا أنّ الحنجرة البشرية شكلها أسطواني. هذا عمود من الخشب، مُحيطه مُقارب لمُحيط الحنجرة. عليك الآن أن تلف الورقة حوله، وحاول أن تُجرّب ثانية».

وفعلتُ ذلك؛ لكن الصعوبة تجلّت بوضوح أكبر من السابق. «هذه»، قلت، «علامة لا تتركها يدٌ بشرية».

«اقرأ الآن» أجاب دوبن، «هذا النص من كوفيير[10]».

---

(10) جورج كوفيير (1769- 1832) عالم تاريخ طبيعي فرنسي شهير. [المترجم]

كان ذلك وصفاً تشريحياً مُفصلاً على وجه العموم لحيوان ضخم من الضواري يُسمى «أورانغ أوتانغ» من فصيلة القردة يعيش في جزر الهند الشرقية. الشكل الهائل، والقوة الخارقة، والحيوية الفائقة، والضراوة الوحشية، والنزوع إلى المُحاكاة التي تتمتّع بها هذه الثدييات من الأشياء المعروفة بما يكفي للجميع. وفهمت أشكال الرعب كلها التي ارتكبت في الجريمة حالاً.

«وصف الأصابع»، قلت، وأنا أنهي القراءة، «ينسجم تماماً مع هذا المُخطط. أرى أنّه لا يوجد أي حيوان ما عدا قرد أورانغ أوتانغ من بين الأنواع التي ورد ذكرها هُنا، يُمكن أن يترك تلك العلامات التي اكتشفتها. هذه الخصلة من الشعر الأصفر المُغبر أيضاً تماثل في طبيعتها شعر الوحش الذي وصفه كوفيير. ولكني لا أفهم أبداً تفاصيل هذا السر المُرعب. وإلى جانب ذلك، كان هُناك صوتان سُمعا أثناء الشجار، واحد منهما كان من غير شك صوت رجل فرنسي».

«صحيح؛ ولا بُدّ أنّك تتذكّر وجود تعبير يُعزى باتفاق الجميع، من خلال الشهود، إلى هذا الصوت.. التعبير هو، «يا إلهي!» هذا التعبير، في ظل هذه الظروف، وصفه أحد الشهود (مونتاني، صاحب متجر الحلويات)، على أنّه يدلّ على الرفض والاحتجاج. على أساس هاتين الكلمتين إذن بنيتُ آمالي الكبيرة في التوصل إلى حلٍّ كامل للّغز. هُناك رجل فرنسي مُطلع على الجريمة. قد يكون.. في الواقع شيئاً خارج نطاق الاحتمال.. إنّه بريء من الاشتراك في أي عمل من [499]الأعمال الدموية التي ارتكبت. ربما هرب حيوان أورانغ أوتانغ منه. وربما تعقّبه حتى وصل إلى الحجرة؛ ولكن، في الظروف المُربكة التي حدثت بعد ذَلك، لم يتمكّن من الإمساك به. وما زال الحيوان طليقاً. لن أمضي بعيداً في هذه التخمينات.. فلا أمتلك الحق في أن أسميها أكثر من تخمينات.. لأنّها تستند إلى ظلالٍ من التأملات التي نادراً ما تكون ذات عمق لكي يتقبّلها عقلي أنا نفسي، وما دمتُ لا أستطيع الادعاء بأني قادر أن أجعلها واضحة وقابلة للاستيعاب من شخص آخر. علينا أن نُسميها تخمينات إذن، وأن نتحدّث عنها على أنّها تخمينات. إذا كان الرجل الفرنسي الذي نتساءل عنه في الواقع، وكما أتصور،

بريئاً من هذا العمل الشنيع، فهذا الإعلان الذي تركته في الليلة الماضية، لدى عودتنا إلى المنزل، في مكتب جريدة «اللوموند»، (وهي صحيفة تُكرّس اهتماماً خاصّاً لتجارة الشحن بالسفن، وكثيرٌ من البحارة يتداولونها)، سوف يجعله يأتي إلى مسكننا».

أعطاني صحيفة، وقرأتُ النصّ التالي:

.. تمّ الإمساك بالحيوان الشارد.. في منزل بوا دو بولون، باكراً من صباح يوم.. (اليوم الذي ارتكبت فيه الجريمة)، حيوانٌ ضخم جدّاً، أصفر اللون أسمر أورانغ أوتانغ من فصيلة بورنيسية. مالكُ الحيوان، (الذي من المُحقق أنّه يعمل بحّاراً، يعمل في مركب مالطي)، يستطيع أن يستردّ الحيوان، إذا تعرّف عليه بما يكفي، على أن يدفع بعض النفقات التي صرفت على الإمساك به والاحتفاظ به. على من يعنيهم الأمر المجيء إلى منزل رقم..، جادة.. فاوبورغ سانت جرمان.. الطابق الثالث *au troisiæme*.

«كيف أمكن»، سألت، «أنك تعرف أنّ الرجل بحّار، ويشتغل على مركب مالطي؟»

«أنا لا أعرف ذلك»، قال دوبن. «لست واثقاً بعد. لكن خذ هذه القطعة الصغيرة من شريط، يبدو من شكله ومن منظره الملوث بالدهن، أنّه استّخدم فيما يظهر في ربط واحدة من تلك العقصات الخلفية للشعر المُسترسل *queues* التي يُغرم بها البحارة. علاوة على ذلك، هذه العقدة لا يستطيع ربطها إلّا قليل من الأشخاص غير البحارة، وهي من الأشياء المعروفة لدى المالطيين دون غيرهم. التقطتُ الشريط من قاعدة عمود منع الصواعق. ولا يُمكن أن تكون لواحدة من الضحيتين. والآن على كل حال إذا حدث أن كنت على خطأ في استقرائي من هذا الشريط، في أنّ الرجل الفرنسي كان بحاراً يعمل على مركب مالطي، فلا يُمكن أن أكون تسبّبت بأي ضرر حين قلت ما قلت في الإعلان. لو كنت مُخطئاً، سوف يفترض فقط بأني تعرضت للتضليل بسبب بعض المُلابسات التي لن يكبد نفسه عناء الاستفسار عنها. ولكن إذا حصل أن كنت مُصيباً، سوف

نُحقق مكسباً عظيماً. مع أنّه مُطّلع على الجريمة فهو بريء، فمن الطبيعي أن يتردّد الرجل الفرنسي في الاستجابة للإعلان.. بشأن المُطالبة بحيوان أورانغ أوتانغ. سوف يُفكر على النحو التالي: .. أنا بريء؛ أنا رجل فقير؛ حيواني له قيمة كبيرة.. بالقياس إلى شخصٍ [500]يُعاني من ظروف تعيسة مثل التي أُعانيها.. لماذا ينبغي عليّ أن أخسره بسبب توجّسات تافهة من وجود الخطر؟ ها هو ذا في مُتناول قبضتي. لقد عثروا عليه في بوا دو بولوغن.. على مسافة بعيدة عن مسرح المجزرة الشنيعة. كيف يُمكن أن يشك إنسانٌ في أن حيواناً مُتوحشاً اقترف تلك الفعلة؟ رجال الشرطة مُخطئون.. لقد أخفقوا في التوصل إلى أدنى خيطٍ لحل اللغز. هل يُمكنهم حتى أن يتعقّبوا الحيوان، من المُستحيل إثبات أنّني مُطلعٌ على الجريمة، أو أن يوجّهوا الإدانة لي بتُهمة الاطلاع عليها. ولكنّي لا أنكر أنّني مُطّلع. الشخص الذي نشر الإعلان يصفني بأني مالك الحيوان. لست واثقاً إلى أي مدى تمتدُ معرفته. هل ينبغي لي أن أتجنّب الكشف عن ملكية تعود لي وهي غالية الثمن، ومن المعروف أنّها تعود لي، سوف أجعل الحيوان على الأقل عُرضة للشك والاتّهام. ليس من الصواب أن ألفت الانتباه سواءً إلى نفسي أو إلى الحيوان. سوف أرد على الإعلان، يُمكنكم أن تأخذوا أورانغ أوتانغ، والاحتفاظ به معكم حتى ينتهي كل هذا».

في هذه اللحظة سمعنا وقع خطى على السلالم.

«استعد»، قال دوبن، «وحضّر مسدسك، لكن لا تستخدمه ولا تظهره حتى تأتيك إشارة منّي».

كنّا قد تركنا الباب الأمامي للمنزل مفتوحاً، فدخل الزائر، دون أن يرنّ الجَرس، وتقدّم عدة خطوات على السلالم. لكنّه بدا مُتردّداً. سمعناه الآن ينزل. وتحرّك دوبن سريعاً إلى الباب، وسمعناه مرة أُخرى يصعد. لم يستدر لكي يرجع ثانية، لكنّه تقدّم صاعداً في تصميم، وخبط على باب حُجرتنا.

«ادخل»، قال دوبن بصوت مرحّب وبنبرة حميمة.

دخل علينا رجلٌ. كان بحّاراً، فيما يظهر.. طويلاً، متين البنيان، مفتول

العضلات، على وجهه ملامحُ شيطانٍ جسور، لا يخلو من جاذبية. وجهه وقد لفحته الشمس تماماً تُخفي أكثر من نصفه لحية وشوارب. كان يحمل هراوة ضخمة من شجر البلوط، وغير ذلك لم يكن مُسلحاً. انحنى لنا في حركةٍ فظّة، وقال: «مساء الخير»، في لكنة فرنسية مع أنّها تبدو من أرياف نوفشاتيل بعض الشيء، إلّا أنّها تكفي لتدل على أنّه من أصلٍ باريسي.

«تفضّل بالجلوس، يا صديقي»، قال دوبن. «أتصوّر أنّك جئت بشأن الحيوان.. ثق أنّني أكاد أحسدك على امتلاك هذا الحيوان؛ إنّه شيء رائع مُميز، ولا شكّ أنّه حيوان ثمين. كم عمره كما تعتقد؟».

أخذ البحار نفساً عميقاً، وبدا عليه أنّه تخلّص من بعض الأعباء التي تثقل صدره، ثم أجاب، في نبرة واثقة:

«لا أعرف.. ولكن عمره لا يتجاوز أربع أو خمس سنوات. هل تحتفظون به [501]هُنا؟».

«أوه، كلّا، لا نمتلك وسيلة للاحتفاظ به هُنا. إنه في إصطبل الخيول في جادة دوبورغ، في مكانٍ قريب من هُنا. يُمكنك الحصول عليه في الصباح. طبعاً أنت على استعداد للتعرّف عليه كي نتأكد أنه يعود لك؟».

«طبعاً، يا سيدي».

«يؤسفني أن أتخلّى عنه»، قال دوبن.

«لم أكن أقصد أن أتسبب لك بهذه المتاعب التي تكبّدتها بلا مُقابل، يا سيدي»، قال الرجل. «لم أكن أتوقّع ذلك. وأنا على استعداد لأن أدفع لك مُكافأة على عثورك على الحيوان.. أقصد، أدفع أي شيء ضمن حدود المعقول».

«حسناً»، أجاب صديقي، «ذلك من الإنصاف حقّاً، إذا شئنا الدقة. دعني أُفكر!.. ماذا ينبغي أن آخذ في المُقابل؟ أوه! سوف أخبرك. سوف تكون مُكافأتي هي.. سوف تُعطي كافة المعلومات التي تستطيع تقديمها عن هذه الجرائم التي حدثت في جادة مورغ».

نطق دوبن الكلمات الأخيرة بنبرة مُنخفضة، في هدوءٍ شديد. وتمشى في هدوء مُماثل أيضاً باتجاه الباب، ثم أوصده ووضع المفتاح في جيبه. بعد ذلك سحب مُسدساً من صدره ووضعه، دون أدنى اضطراب، على الطاولة.

احمرّ وجه البحّار كأنّما كان يكافح لالتقاط الأنفاس. صار يُحملق في قدميه والتقط هراوته، لكنّه في اللّحظة التالية سقط إلى الوراء على كرسيه، كان يرتعش ارتعاشاً عنيفاً، وبدت عليه علامات الموت بعينها. لم ينطق بكلمة. وأحسست بالإشفاق عليه من قلبي.

«يا صديقي»، قال دوبن في صوت عطوف، «أنت تُربك نفسك بلا ضرورة.. تفعل هذا حقّاً. لسنا نقصد أن نلحق بك أي أذى. أُقسم لك بشرفي كرجل مُهذب، وكفرنسي، أنّنا لا ننوي التسبّب لك بالأذى. أنا واثق أنك بريء من الأفعال الشنيعة التي ارتُكبت في جادة مورغ. ولكن لن يجدي نفعاً إذا أنكرت أنك مُتورط بوجه من الوجوه فيها. ومن خلال ما قلته لك الآن، عليك أن تعلم أنّني حصلت على معلومات عن هذه القضية.. بوسائل ما كنت ستحلم بها أبداً. والآن المسألة على النحو التالي. أنت لم تفعل شيئاً كان في وسعك أن تتفادى وقوعه.. لا شيء، يقيناً، لا شيء يجعلك تتعرّض للمسائلة. لست مُذنباً حتى بجريمة السرقة، حين كان في وسعك أن تسرق وتفلت من العقوبة. لا شيء لديك لتهرب منه. ليس لديك سبب للاختباء. ومن ناحية أُخرى، عليك أن تلتزم بميثاق شرفٍ بأن تعترف بكل ما تعرفه. هُناك إنسان بريء [502]الآن يقبع في السجن، وهو مُتهم بارتكاب تلك الجريمة التي تعرف من ارتكبها».

استعاد البحّار حضور ذهنه بعض الشيء، بينما تفوّه دوبن بهذه الكلمات؛ غَير أن تصميمه الأولي على التحمل قد تلاشى.

«فليسامحني الله»، قال، بعد فترة صمت قِصيرة، «سوف أقص عليك كل ما أعرف عن هذه القضية؛ مع أنّي لا أتوقّع منك أن تصدق نصف ما أقول.. سوف أكون من المُغفلين في الواقع لو اعتقدت ذلك. ومع هذا، فأنا بريء، وسوف يبقى قلبي عامراً بالإيمان إذا متّ وأنا أحمل أوزاري».

الأشياء التي قصّها علينا، في جوهرها، هي: كان مؤخراً يقوم برحلة إلى أرخبيل الجزر الهندية، ضمن مجموعة من الأفراد، ونزلوا إلى بورنيو، وعبروا نحو الأجزاء الداخلية وهم في ذروة النشوة والمرح. كان هو ورفيق له قد أمسكوا حيوان أورانغ أوتانغ. وبعد أن مات رفيقه هذا، أصبح الحيوان ملكاً له وحده. وبعد متاعب جسيمة، بسبب الضراوة الشديدة للحيوان الأسير أثناء رحلة العودة إلى الوطن، نجح أخيراً في وضعه بأمان في مسكنه في باريس، حيث لا يُثير فضول جيرانه إليه ويتسبب له بالإزعاج، وبقي يحتفظ به ويهتم بأمره في مكانٍ مُنعزل، حتى يحين الوقت الذي يتعافى فيه من جرح في قدمه، نتج عن شظية زجاج عندما كانوا على متن السفينة. كانت خُطته النهائية تقتضي أن يبيعه.

أثناء رجوعه إلى المنزل من حفلة سمر مع البحارة ليلاً، أو بالأحرى صباح يوم الجريمة وجدت الحيوان المُتوحش يحتل مكانه على السرير في الغرفة، وكان قد اقتحم الغرفة من خزانة مُجاورة كان مُحتجزاً فيها بأمان كما يعتقد البحار. وكان بين يدي الحيوان شفرة حلاقة وقد لطّخ نفسه تماماً برغوة الصابون، كان يجلس أمام المرآة، ويُحاول القيام بالحلاقة التي لا شك أنّه شاهد سيده يُمارسها وهو ينظر من ثقب المفتاح في الخزانة. ارتعب البحار كثيراً من منظر السلاح الخطير الذي بين يدي حيوان ضار، وهو قادر فيما يظهر على استخدامه جيداً، وبقي بضع لحظات حائراً لا يعرف ماذا يفعل. ولكنّه كان مُعتاداً أن يعمل على تهدئة ذلك المخلوق حتى في ذروة مزاجه العنيف بأن يستخدم سوطاً، وذهب في الحال ليقوم بذلك. لدى رؤية ذلك، قفز القرد فوراً من باب الحُجرة، واتّجه إلى السلالم، ومن هُناك اخترق إحدى النوافذ، التي كانت لسوء الحظ مفتوحة، إلى الشارع.

وتبعه الرجل الفرنسي وهو في حالةٍ من اليأس؛ وكان القرد يقف، بين فترة وأُخرى، والموس في يده، ويلتفت إلى الوراء ويومىء إلى الرجل الذي يُلاحقه، إلى أن اقترب الأخير منه. ثم انطلق الحيوان من جديد. وهكذا استمرت المُطاردة مدة طويلة. كانت الشوارع هادئة هدوءاً عميقاً، لأنّ الساعة تكاد تقترب من الثالثة صباحاً. ولدى العبور من أحد الأزقة خلف جادة مورغ، جذب انتباه الحيوان

الشارد [503]ضوءٌ يسطع من نافذة مفتوحة في حجرة مدام ليسباناي، في الطابق الرابع من المنزل. فاندفع باتّجاه البناية، وشاهد عمود منع الصواعق، فتساق إلى الأعلى في حركة خفيفة لا تُصدّق، وتشبّث بمصراع النافذة الذي كان مفتوحاً ويرتد إلى الوراء بإزاء الحائط، وعن طريق ذلك، تعلّق جسده مُباشرة ثم قفز حتى استقر على اللوح الرأسي للسرير. لم تستغرق المُناورة كلها أكثر من دقيقة. وركل القردُ مصراع النافذة ففتحه مرة أُخرى وهو يقتحم الغرفة.

كان يبدو على البحار، في تلك الأثناء، نوعٌ من الابتهاج المُختلط بالارتباك. كانت تساوره آمالٌ قوية الآن في استرداد الحيوان المُتوحش، لأنّه ما كان ليهرب من الفخ الذي وقع فيه، إلا باللجوء إلى العمود وحينها سوف يعترض طريقه إذا نزل. من جهة أُخرى، هُناك كثير من الأسباب تدعوه للتساؤل عما يُمكن أن يفعله القرد في المنزل. هذا الشعور دفع الرجل إلى مُلاحقة الحيوان الشارد. كان قادراً على الصعود بواسطة عمود منع الصواعق دون صعوبة تُذكر، ولا سيّما إذا فعلها بحار؛ ولكنه حين صعد حتى وصل إلى النافذة التي تقع بعيداً إلى الجهة اليسرى، توقف ولم يتابع مُهمته؛ كان أقصى ما يريد عمله أن يصل إلى مكان يُتيح له إلقاء نظرة على الغرفة. ومن خلال هذه النظرة كاد يسقط من مكانه لما أصابه من الذعر. الآن كانت تتصاعد تلك الصرخات المُرعبة فتخرق سكون الليل، والتي أذهلت سكان جادة مورغ وأيقظتهم من النوم. كانت مدام ليسباناي وابنتها ترتديان ملابس النوم، وكانتا فيما يظهر مُنشغلتين بترتيب بعض الأوراق في الخزانة الحديدية التي ذكرت سابقاً، والتي عملتا على تحريكها على عجلاتها إلى مُنتصف الغرفة. كانت الخزانة مفتوحة، ومُحتوياتها مُبعثرة على الأرِضية إلى جوارها. لا بُدّ أنّ الضحيتين كانتا جالستين وظهريهما باتّجاه النافذة؛ ومن خلال الوقت الذي انقضى بين دخول الحيوان وسماع الصرخات، يبدو من المُحتمل أنّهما لم تُشاهداه في الحال. ولا بُدّ أن تُحرّك مصاريع النافذة قد نُسب طبيعياً إلى الرياح.

بينما كان البحار يختلس النظر إلى الداخل، رأى الحيوان الضخم يُمسك مدام ليسباناي من شعرها، (وكان الشعر مُنسدلاً، لأنّها مُنشغلة آنذاك بتمشيطه)،

وراح يحرّك الموس أمام وجهها، ويُحاكي في ذلك حركات الحلاق. وكانت ابنتها مُنبطحة على وجهها بلا حراك؛ لقد أُغمي عليها. وكان للصرخات وصراع السيدة العجوز (أثناء ذلك كان الشعر يتمزّق ويقتلع من رأسها) تأثير في تغيير النوايا التي ربّما كانت مُسالمة للحيوان. فتحوّل إلى ذلك المخلوق الهائج. في حركة سريعة حازمة من ذراعه ذات العضلات القوية أصابها بجرح في عنقها كاد يقطع الرأس عن الجسد. وأدّى منظر الدماء إلى تأجّج غضبه أكثر فتحوّل إلى سُعار. كان يصرّ [504]بأسنانه، وينطلق الشرر من عينيه، فقفز فوق جسد الفتاة، وغرس مخالبه المُخيفة في حُنجرتها، وبقي على تلك الحال حتى انقطعت أنفاسها. كانت حركاته الطائشة ونظراته المسعورة تتّجه في هذه اللحظة إلى أعلى السرير، إذ كان وجه سيّده يطلّ من هُناك، مُتصلباً من الذعر، كما يراه. وسرعان ما تحوّل هياج الوحش، ولا شكّ أنّه في ذلك الوقت تذكر السوط المُخيف، تحوّل في الحال إلى فزع. كان يُدرك أنه ارتكب ما يستحق العقاب، وأراد أن يُخفي أفعاله الدموية، فصار يقفز هُنا وهُناك في الحُجرة في نوبة صراعٍ عنيف مع القلق العصبي؛ وراح يُبعثر الأثاث ويُحطمه أثناء حركاته، ثم سحب الفراش عن التخت. وفي نهاية الأمر، أمسك أولاً جثة البنت، وحشرها إلى أعلى المدخنة، على النحو الذي وجدت فيه؛ ثم اتّجه إلى جثة السيدة العجوز، التي سرعان ما هوت من النافذة على رأسها.

وفيما اقترب القردُ من النافذة وهو يحمل الجثة المُشوهة، ارتعش جسد البحار المُتشبث بالعمود، وكان ينزلق بدلاً من أن ينزل في روية، أسرع فوراً فدخل المنزل.. وصار ينظر إلى آثار المجزرة التي ارتُكبت، وترك وسط حالة الفزع التي أصابته، كل اهتمام بمصير حيوان... كانت الكلمات التي سمعتها الجماعة على السلالم هي هُتافات الرجل الفرنسي وهو يُعبّر فيها عن رعبه لهول ما رآه، مُختلطة مع الغمغمات الشيطانية للحيوان المسعور.

لا شيء آخر لديّ لأُضيفه. القردُ لا بُدّ أن يكون قد هرب من الحُجرة، بواسطة العمود، قبل أن يُكسر الباب بوقت قصير. وهو حتماً الذي أغلق النافذة حين قفز منها. وتمّ الإمساك بالحيوان من قبل صاحبه نفسه لاحقاً، الذي أحضر

له كمية كبيرة من الطعام من حديقة النباتات *Jardin des Plantes*. وأطلق سراح لو دون مُباشرة، بعد أن روينا مُلابسات ما حدث (مع بعض التعليقات التي أدلى بها دوبن) في مكتب مدير الشرطة. إلّا أنّ هذا الرجل، وكان معجباً بصديقي، لم يستطع أن يُخفي انزعاجه من التحول الذي طرأ على القضية، وأحسّ بمُتعة في أن يُبدي مُحاولة أو مُحاولتين ساخرتين ذكر فيها أنّ من دواعي اللياقة أن يهتم كلّ إنسان بشؤونه الخاصة.

«دعه يتكلّم»، قال دوبن، الذي لم يعتقد أنّ من الضروري الرد. «دعه يتجادل؛ ذلك سوف يُخفف من الأعباء التي تُثقل ضميره، إنّني مقتنع بأني هزمته في عقر داره. ومع ذلك، فإذا كان قد فشل في التوصل إلى حلّ لهذا اللغز، فتلك ليست بالمسألة التي تُثير الاستغراب كما يتصوّرها؛ لأنّ، في حقيقة الأمر، صديقنا مدير الشرطة يتمتع بدهاءٍ لا يُتيح له التعمق في خفايا الأمور. في عقله الحكيم لا يوجد مكانٌ لحبوب اللقاح. كل شيء موجود في الرأس المقطوع عن الجسد، مثل صور [505]الآلهة لافيرنا[11].. أو على الأقل لا شيء غير الرأس والكتفين، مثل سمكة القد. ومع ذلك فهو إنسان طيّب القلب على كل حال. إنّني مُعجب به خاصة بعد ضربةٍ قاصمة منه تدلّ على معدن النفاق أحرز من خلالها شهرة في البراعة. أقصد الطريقة التي كان بها «ينكر الموجود، وينهمك بتفسير غير الموجود» *de nier ce qui est, et d'expliquer ce qui n'est pas*[*].

---

(11) لافيرنا: إلهة اللصوص عند الرومان ويجري تصويرها كرأس دون جسد كما ذكرها هوراس. [المترجم]

(*) روسو: «جولي أو ايلواز الجديدة» Nouvelle Heloise. (المؤلف)

جزيرة الجنّي

أيّها العلم، أنت حقاً من بنات الماضي،

يتغيّر كل الأشياء بنظرة من عينيك!

لماذا تفترس قلب الشاعر،

أيّها العقاب الذي تكْمن تحت أجنحته كل الحقائق الحزينة؟

كيف تراه يحبك، من قضيت عليك بالحكمة..

من لا يتخلّى عنك في جولاته في بحور الخيال،

يبحث عن كنزٍ مدفون في سماواتٍ مُرصعة بالجواهر،

وإن كان يُحلّق من غير جناح فلا يهاب شيئاً؟

ألم تُجرجر ديانا وأسقطتها من عربتها؟

وسحبت هامادرياد من أعماق الغابة؟

ألم تفسد حكاية كل نجمة؟

ألم يتمزّق على يديك الطوفان؟

واقتلعت العفريت من الأرض المُعشوْشبة؟

.. وذلك الجني اللّطيف،

الساحرة، والعفريت، والجني.. أين هم؟

شاعر مجهول

«الموسيقى»، كما يقول مارمونتيل، في *Contes Moraux*(*1) التي في كل [506]الترجمات التي نعرفها نؤكد على تسميتها «حكايات ذات مغزى أخلاقي»، وكأنّما في شيءٍ من السخرية من روحها ..«من بين أنواع الفنون كافة يحسّ الإنسان فيها بالمتعة لذاتها، أما الفنون الأُخرى فتحتاج إلى شهود». إنّه هُنا يخلط بين المُتعة التي تستمد من الإصغاء المُرهف للألحان العذبة وبين القدرة على خلقها. الأمر لا يحدث في أي موهبةٍ أُخرى، كما يحدث في الموسيقى التي تُدغدغ المشاعر باللذة المثالية، حيث لا يوجد طرفٌ آخر يقيم الأداء. وحدها الموسيقى لها أواصر مُشتركة مع غيرها من المواهب بحيث تؤدي إلى خلق تأثيراتٍ ربما يتلذّذ المرء بها في أوقات العزلة مع نفسه. الفكرة التي إمّا أن يفشل راوي الحكايات في نقلها بوضوح بحيث تؤدي إلى الإمتاع والمؤانسة، أو يُضحي في التعبير عنها بحبه لأسلوب محلّي في تناول المسألة عن طريق التلميح، لا شكّ أنّها الفكرة الوحيدة التي يُمكن الدفاع عنها بالقول: إنّ النظام الراقي للموسيقى يُفهم فهماً كاملاً ويُقيم أحس تقييم حين نكون مُنعزلين وحدنا حصراً. هذه الفرضية، بصيغتها الحالية، يُمكن الإقرار بها في الحال من أولئك الذين يعشقون القيثارة من أجل القيثارة وليس لشيء آخر، يعشقونها لما تتضمّنه من مكنونات روحية. لكن تبقى مُتعة أُخرى في مُتناول الفانين من أمثالنا [507]الذين كتب عليهم السقوط المادي ولعلها المُتعة الوحيدة.. تدين في مصدرها أكثر من الموسيقى إلى الإحساس الوجداني بالانعزال. أقصد تلك السعادة التي نستمدها من تأملّ منظر طبيعي. في حقيقة الأمر، فالإنسان إذا ألقى نظرة فيها إنصاف على تجليات مجد الله في الأرض لا بُدّ له وهو في حالةٍ من الانعزال والتجرّد أن يرى ذلك المجد بأم عينيه. بالنسبة لي، على الأقل، فإنّ الحَضور.. ليس حضور الحياة البشرية وحدها، وإنّما الحياة نفسها وهي تتجلّى بأي شكل من أشكال المخلوقات التي تنمو على التربة الخضراء ولا تصدر صوتاً.. هي وصمة عارٍ على جبهة المنظر الطبيعي.. أو حالة تنافرٍ صارخ مع

(*1) كلمة Moraux أي: «ذات مغزى أخلاقي» مُستمدة هُنا من maeurs ومعناها «على الطراز السائد حالياً»، أو على نحو أدق «ما يتفق مع حسن التهذيب. (المؤلف)

عبقرية المشهد. إنني أعشق، في الواقع، النظر إلى الوديان المُعتمة، والصخور الرمادية، والمياه التي تتدفّق كأنّها تبتسم على استحياء في صمتٍ، والغابات التي تُرسل التنهدات من سباتها القلق، والجبال الشامخة التي تطلّ برؤوسها الشامخة علينا كأنّما تُراقب حركاتنا وسكناتنا.. كم أعشق النظر إلى هذه الأشياء في ذاتها، إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأعداد الهائلة من العناصر التي يشملها كيانٌ واحد هائل مُفعم بالحيوية والإحساس.. كيانٌ يتّخذ في شكله «المُستدير» أقصى ما يُمكن من المثالية والكمال؛ يتّخذ مساراً بين الكواكب التي تُرافقه في رحلته الأبدية؛ وصيفتُه الوديعة القمر، وعاهله الوسيط الشمس؛ حياته تمضي إلى الأبد، وفكره مُستمدٌ من الإلوهية؛ مُتعته الوحيدة التي يسعى إليها حثيثاً هي المعرفة؛ أقداره تضيع في كونٍ لا حدود له.. يستمد وعيه لما في نفوسنا من الطفيليات التي تسكن عقولنا.. كيانٌ ننظر إليه بوصفه يفتقر إلى الحياة مع أنّه مصدر الوعي في تلك الطفيليات.

إن تلسكوباتنا واستقصاءاتنا الرياضية تؤكد لنا من الجوانب كافة.. على الرّغم من تبجّح الجاهلين في سلك الكهنوت.. أنّ الفضاء الذي يُحيط بنا، في حجمه الهائل الذي يتّخذه، شيءٌ غاية في الأهمية ضمن بصيرة العلي القدير. الأفلاك التي تدور فيها النجوم تتبع أفضل المسارات انسجاماً مع حركتها، دون أي احتمالٍ لأن يتصادم بعضها مع بعض، ضمن منظومة من أكبر الأعداد التي نتخيّلها للأجرام السماوية. وتمتاز أشكال تلك الأجرام بدرجة عالية من الدقة والانتظام، ضمن سطحٍ مُحدّد، بحيث تتضمّن أكبر كمية مُمكنة من المادة؛ فيما تتشكّل السطوح نفسها بطريقة ما لتستوعب أكبر الأعداد من الموجودات التي عليها فلا تستوعبها هذه السطوح لو كانت مُرتبة بطريقة مُختلفة. ولا شكّ أنّ وراء الحجم الهائل حكمة إلهية، ولأنّ الفضاء نفسه غير محدود، فهُناك مواد لا نهاية لها تشغل كل فراغ. وما دمنا نرى بوضوح ذلك الحرص على أن يمتلئ الكون بمادة الحياة، وهذا هو المبدأ.. في الواقع، بقدر ما يُمكن لتقديراتنا أن تمتد، فذلك هو المبدأ المُهيمن على إرادة السماء.. وليس من المنطق تخيّل أن يقتصر عمل هذا المبدأ على مناطق محدودة، تتعقّبها أنظارنا كل يوم، فلا يمتد ليشمل

المناطق الشاسعة التي لا نراها. وبينما نجد [508]مداراً يتداخل ضمن مدار وإلى ما لا نهاية.. وكل الأفلاك تدور حول مركزٍ واحد بعيدٍ يتمثّل في الإرادة السامية، فنحن ربما لا نفترض وجود نوعٍ من التماثل على النحو نفسه، حياة ضمن حياة، الأصغر ضمن الأكبر، والكل خاضع للذات المُقدسة؟ باختصار، نحن نخطىء في تصوراتنا الجنونية، من خلال تقييمنا الذاتي لأنفسنا، حين نعتقد أن الإنسان، في مصائره الدنيوية الزائلة أو المُستقبلية، له أهمية في الكون أكبر من تلك «اللطخة الشاسعة في جنبات الوادي»[1] تلك التي يفلحها ويزدريها، وينكر عليها الروح ليس لشيءٍ من الحكمة العميقة، وإنّما لأنّه لا يرى لها روحاً تؤدي وظيفتها[*2].

هذه التخيّلات، وغيرها كثيرٌ، كانت دائماً ترفد تأمّلاتي التي أُزجي فيها أوقات الفراغ وأنا أتجوّل بين الجبال والغابات، بالقرب من الأنهار والمُحيط، وتُضفي عليها مسحة لونية لم يفت الأشخاص العاديون أن يُسموه خيالاً. كثيراً ما كنت أقوم بجولاتي هذه، ساعياً فيها للبحث عن أشياء كثيرة بعيدة عن الخيال، وغالباً ما أكون وحدي؛ وكان الاهتمام الذي أُبديه في البقاء وسط الوديان الموحشة ذات الأغوار العميقة، أو أُحملق في السماء التي تنعكس ألوانها على صفحة بحيرة رقراقة، يمتد في جذوره عميقاً في الفكر إلى درجة أنّني كنت أنسى نفسي وأهيم على وجهي وأُحملق مُنعزلاً. أيّ فرنسي[*3] ثرثار ذلك الذي قال في تلميحٍ إلى العمل المعروف جدّاً الذي كتبه زيمرمان[2]، «العزلة جميلة حقّاً، ولكن هل من الضروري أن يقول لكم شخصٌ ما: إن العزلة شيء جميل؟» هذه سخرية، غاية في الإتقان، لا تُخفى على ذوي الألباب؛ لكن الضرورة التي يتكلّم عنها لا وجود لها.

---

(1) اقتباس من سفر يعقوب 21: 33. [المترجم]

(*2) لدى الكلام عن تيارات المد، يقول بومبونيوس ميلا، في بحثه *De Situ Orbis*: «العالم إمّا أن يكون حيواناً كبيراً، أو.. إلخ». (المؤلف*

(*3) بلزاك.. من حيث الجوهر.. لا أتذكر الكلمات بصيغتها الدقيقة. (المؤلف)

(2) جوناثان جورج رايتر فون زيمرمان: (1728- 1795) فيلسوف سويسري من أصل فرنسي، إضافة إلى ذلك فهو عالم طبيعة وفيزياء. [المترجم]

حدث في إحدى جولاتي التي كنت أقوم بها وحدي، أن توغّلت إلى منطقة بعيدة من الجبال التي تطلّ على جبال، واجتزت أنهاراً تلفّها الكآبة والحزن، وبُحيرات كئيبة تتلوّى أو تغفو بين هذا الجبل أو ذاك.. رافق أن رأيت جدولاً وجزيرة في مكانٍ ما. وصلت إلى ذلك المكان فجأة في يوم من أيام حزيران التي تورق فيها الأشجار، وألقيت نفسي على الضفة المكسوّة بالأعشاب، تحت أغصان أجمة من شجيرات عطرية لا أعرف ما هي، فربّما أخذت إغفاءة أثناء تأملاتي للمشهد. أحسست بأنّ هذا الوضع وحده هو الذي يؤمّن لي رؤية مُناسبة لما حولي.. فتلك هي طبيعة الأوهام التي يتشكّل منها المشهد.

على كلّ جانبٍ.. باستثناء الغرب، حيث الشمس على وشك أن تغطس تحت الأُفق.. تنهض جدرانُ الغابة الخضراء. والنهر الصغير يلتفّ التفافاً حادّاً في مساره، فيضيع مُباشرة ويختفي عن الأنظار، كأنّما لا سبيل له للخروج من مُعتقله، غير أن تستوعبه أوراق الأشجار الخضراء التي تتوغّل عميقاً إلى الشرق.. بينما في الطرف المُقابل (هكذا بدا لي وأنا أرقد أخيراً وأُحملق إلى الأعلى) يسكب مياهه في [509]سكون وبلا توقف في جوف الوادي، هُناك يتساقط شلالٌ ذهبي قرمزي من النافورات التي يُلقيها الغروب على السماء.

تقريباً في مُنتصف المشهد القصير الذي صوّرته لي رؤاي الحالمة، هُناك جزيرة دائرية صغيرة يُغطيها الاخضرار بغزارة، تضطجع على صدر الجدول.

الضفاف تختلط هُناك مع الظلال.

بحيث يبدو كلُّ شيء كأنّه مُعلّق في الهواء..

الماءُ شفافٌ مثل صفحة المرآة، فكان من العسير القول في أي نقطة من الجرف الزمردي تبدأ حدوده الكريستالية.

أتاح لي موقعي آنذاك أن أصل في نظرة واحدة إلى الأطراف الشرقية والغربية للجزيرة الصغيرة معاً؛ وكنت أُلاحظ تبايناً غريباً في جنباتها. الحافات الشرقية كلّها تشكل حرماً يتألّق بالإشعاع من جماليات الحدائق. يتوهج ويتورّد في خجلٍ تحت ضوء الشمس المائل، ويضحك وهو يُغازل الزهور. سيقان العشب

قصيرة، تنبض بالحيوية، تعبق بأريجٍ عذب، موشاة بزنابق البرواق. والأشجار رشيقة، لدنة، مرحة، شامخة، برّاقة، نحيفة، جميلة.. تُجسّد في ذلك منظر الجانب الشرقي وأوراق النباتات ولحاء الشجر، في لوحةٍ برّاقة، ملساء، مُتعدّدة الألوان. يبدو أنّ هُناك إحساساً عميقاً بالحيوية والبهجة في كل شيء؛ ومع أنّه ما من نسيمات تهبّ على صفحة السماء، بيد أن كلّ شيء كان مُفعماً بالحركة ويدلّ على ذلك مروق رشيق لفراشات لا تُحصى، والتي رُبما يخطىء المرء فيظنها خُزامى ذات أجنحة(*4).

الطرف الآخر أو الناحية الشرقية من الجزيرة الصغيرة تلفّه أحلك الظلال. كأنما غمامة قاتمة كئيبة، على جمالها ووداعتها، تُخيّم على كل الأشياء. الأشجار تتلون بألوان غامقة، أشكالها وأوضاعها توحي بأنها تنتحب، يتلوّى بعضُها فوق بعضٍ في طيف حزين، وقور، مُحمّل بأفكار ثقيلة عن همٍّ قاتل، عن الموت. وكان العشب يحمل صبغة عميقة من لون الصفصاف، ورؤوس سيقانه تتدلّى في ذبول، وهُنا وهُناك تنتشر بين جنباته كثيرٌ من الروابي والهضاب الضئيلة القبيحة المنظر، مُنخفضة، ضيّقة، ليست طويلة جدّاً، كأنها تحمل خصائص القبور، لكنها ليست بالقبور؛ على الرغم من أزهار السّذاب وإكليل الجبل التي تحفّ بها من كل جانب وتتسلّقها. وكانت ظلال الأشجار تتساقط بكل ثقلها على المياه، كأنها تدفن نفسها هُناك، فتُلقح أعماق ذلك العنصر بالظلام. تخيّلت كلّ ظلٍّ من الظلال، بينما الشمس تنحدر وتنحدر، يعزل نفسه وهو مُقطب الجبين عن الجذع الذي ينتأ منه، [510]وبذلك يستهلكه التيار؛ بينما تبزغ ظلالٌ أُخرى في تلك اللحظة من الأشجار، فتحلّ محلّ سابقاتها التي دُفنت على هذا النحو.

هذه الفكرة، بعد أن استولت على خيالي ذات مرة، جعلته عرضة للتهيج، وهكذا فقدت وعيي ورحتُ أغط في حلم اليقظة حالاً. «لو أن هُناك جزيرة مسحورة»، قلت لنفسي، «فهي هذه. هذه الجزيرة يسكنها نفرٌ من الجن الذين بقوا

(*4) «*Florem putares nare per liquidum æthera*» ب. كومبير. «الفراشة تطير وتسبح مثل الزهرة في هواءٍ مثل الماء». (المؤلف)

سالمين بعد انقراض بني جنسهم. هل هذه القبور الخضراء قبورهم؟.. أم هل يتخلّون عن حياتهم الجميلة كما يفعل البشر؟ لدى الموت، ألا يختفون على نحو مُثير للشجن، يستسلمون إلى مشيئة الرب، شيئاً فشيئاً، ويُمحون عن الوجود، شأنهم في ذلك شأن هذه الأشجار وهي تتخلّى عن ظلالها واحداً بعد واحد[3]، وتستنفد جوهرها فتذوب؟ ما تُقدّمه الشجرة الذاوية للمياه التي تمتصّ ظلالها، وبذلك تغدو أكثر سواداً من خلال ما تفترسه، ألا تقدم حياة الجني قرباناً للموت الذي يبتلعها؟».

وبينما كنت مُستغرقاً في تأملاتي هذه، وعيناي شبه مُغلقتين، والشمس تغطس سريعاً لتهجع وراء الأفق، وتياراتُ المياه المُتدفقة تمضي في دورانها حول الجزيرة، وهي تحمل على صدرها قشوراً هائلة الأعداد، براقة بيضاء تُبهر العيون من لحاء الجميز، في مواقع مُتعدّدة الصور على المياه، ربّما تحوّل في ذلك طيفٌ سريع إلى أي شيء كما يشاء، أقول بينما كنت مُنشغلاً في هذا، ظهر لي شبحٌ من أولئك الجن الذين كنت أتأملهم، وكان يقترب رويداً نحو بقعة الظلام خارجاً من بقعة الضوء عند الطرف الغربي من الجزيرة. انتصب الجني واقفاً على قاربٍ صغير مُتموج على نحو غريب، كان يدفعه مُستخدماً مجذافاً كأنّه سراب. على ضوء أشعة الشمس المُتكسرة، كان يبدو لي أنّ وضع الجني يدلّ على شيء من المرح.. إلّا أنّ الحزن لم يلبث أن غيّر ملامحه فيما كان ينتقل باتّجاه الظل. انزلق في بطء، وأخيراً استدار حول الجزيرة الصغيرة وعاد للدخول في بقعة الضوء. «الاستدارة التي قام بها الجني فجأة»، تابعتُ حديثي مع نفسي وكنت مُستغرقاً في تأملاتي المبهجة، «تشكل دورة أمدها سنة من حياته القصيرة. لقد طاف عبرها خلال الشتاء والصيف من حياته. إنّها سنة تقرّبه من الموت؛ لأنّي لم أفشل في أن أرى، والجنيُّ يقترب من بقعة الظل، أنّ ظله كان يمتد من جسده، حتى تبتلعه المياه الداكنة، فيجعل لونها الأسود أكثر سواداً».

---

(3) هنا ترديد صدى لما جاء على لسان القديس ماثيو 22: 21 «فلتسلم إلى الله الأشياء التي تعود لله». [المترجم]

ومرة أُخرى رأيت القارب وعليه الجني، لكن مظهر الجني كان يدلّ على الحذر والريبة أكثر من دلالته على المرح والعفوية. وطاف الجني ثانية خارجاً من بقعة الضوء إلى الظلام القاتم الكئيب (الذي تعمّق في هذا اللحظة) ومرة أُخرى سقط ظلّه على المياه الأبنوسية، والْتهمه السواد. ومرة أُخرى، ومرة أُخرى، قام بدورته [511]حول الجزيرة، (والشمس تمضي في طريقها لتهجع)، وفي كلّ انتقاله باتّجاه الضوء كان الحزن والأسى يزداد وضوحاً على ملامحه، وهو يزداد وهناً وخفوتاً ويُصبح غير قابلٍ للتمييز، وفي كلّ مسار نحو العتمة يتساقط ظلٌّ أشد قتامة، ثم يغمره ظلٌّ آخر أشد سواداً. لكن في نهاية المطاف، حين اختفت الشمس كلّياً، أصبح الجني الآن مُجرّد شبح يُجسّد ذاته السابقة، ولم يلبث أن رحل مغموماً بقاربه فدخل طوفان الأبنوس، إن كان سيظهر من جديد، لا أعرف ذلك، لأنّ الظلام غطّى كل شيء ولم أعد قادراً على رؤية هيئته السحرية.

مُحاورة مونوس وأونا

«هذه؛ أشياء سوف تقع في المستقبل».

سوفوكليس.. أنتيغون

[512]أونا: هل ولدتُ من جديد؟

مونوس: نعم، أيتها المحبوبة الأجمل، «لقد ولدتِ من جديد». هذه هي الكلمات التي كنت مُستغرقاً في تأمّل معناها الصوفي منذ زمن، ورفضتُ في ذلك مُختلف التفسيرات التي يُقدمها رجال الكهنوت، حتى حلَّ الموتُ نفسه لي السر.

أونا: الموت!.

مونوس: يا للغرابة، أونا المحبوبة، أنت تُردّدين كلماتي! أُلاحظ أيضاً رعشة في خطواتك.. وحيرة مُبهجة في عينيك. أنت مُرتبكة ويُقلقك هذا النوع الجديد من الحياة الأبدية المُبهرة. نعم، ذلك هو الموت الذي أتكلّم عنه. هُنا يا للرنين الفريد الذي يُرافق الكلمة التي كانت منذ الأزمان القديمة تميل إلى بث الذعر في القلوب.. وتُلقي رذاذاً من العفن على نضارة الحياة!.

أونا: آه، الموت، ذلك الشبح الذي يتطفّل على كل المآدب! كم من مرةٍ ومرة، مونوس، فقدنا أنفسنا في تأمّل طبيعته! يا لغرابة تصرّفه في قطع أوصال السعادة البشرية.. سأكتفي بأن أقول عنه هذا، ولن أُضيف شيئاً!» ذلك الحب المُتبادل المُخلص، حبيبي مونوس، الذي يتلظّى بين جوانحنا، عبثاً نُطري على أنفسنا لأنّنا نُحب، ونشعر بالسعادة في تلمّس أُولى انبثاقاته، ونتمنّى أن تتعزّز سعادتنا وتزداد قوة على قوة! ولكن يا للحسرة! فالحب مع ازدياده، يُثير الخوف

في قلوبنا من تلك الساعة الشريرة التي تسرع الخطوات لتفصلنا عن بعضنا إلى الأبد! وهكذا، بمرور الزمن، يُصبح من المؤلم أن نُحب. سوف تكون الكراهية رحمة إذن.

مونوس: لا تتكلّمي عن هذه المآسي، عزيزتي أونا.. أنت الآن حبيبتي، حبيبتي، إلى الأبد!.

أونا: ولكن ماذا عن ذكرى الأحزان الماضية.. «أليست بهجة الحاضر»[1]؟ لدي كثيرٌ من الأشياء في صدري لأقولها عن حالاتي الماضية. قبل كل شيء، أتحرّق شوقاً لأعرف حادث رحلتك أنت عبر الوادي المُظلم ومملكة الظلال.

مونوس: ومتى حصل أن طلبتْ أونا التي تشعّ بهاءً شيئاً من حبيبها أونوس [513]فلا يُلبّي طلبها؟ سوف أكون دقيقاً في سرد كل شيء.. ولكن من أين ينبغي أن يبدأ هذا السرد المشؤوم؟

أونا: من أين يبدأ؟

مونوس: أنت قلت ذلك.

أونا: مونوس، إنّني أفهمك. لدى موتنا تعلّمنا أنا وإياك قابلية الإنسان على تعريف ما لا يعرّف. لن أقول إذن: إن عليك أن تبدأ باللحظة التي توقفتْ فيها الحياة.. ولكن ابدأ بتلك اللحظة البائسة، اللّحظة الحزينة التي بارحتك فيها الحمى فغطست في إغماءة لم تكن تتنفّس فيها أو تتحرّك، وكشفت جفون عينيك الشاحبة بأصابعي المُرتعشة بانفعالات الهيام.

مونوس: أقول كلمة واحدة أولاً، عزيزتي أونا، عن حالة الإنسان بعامة وهو يواجه هذه المرحلة. تتذكّرين أنّ واحداً أو اثنين من الحكماء من آبائنا وأجدادنا.. هم حكماءٌ في حقيقة الأمر، مع أنّهم لا يُعتبرون كذلك في نظر العالم.. كانوا قد جازفوا في الشك في لياقة مُصطلح «تطور» كما يُطبق ضمن سياق التقدّم الذي تشهده حضارتنا. هُناك فترات في كل خمسة أو ستة قرون تسبق

---

(1) اقتباس من «الانيادة» لفيرجل 1: 203: *Haec olim meminisse iuvabit.* [المترجم]

نهايتنا مُباشرة، حيث يظهر مُفكرٌ ناشط، يُفند في بسالة نادرة تلك المبادئ التي تبدو حقيقية في الوقت الحاضر، هكذا تبدو لعقولنا القاصرة، واضحة كل الوضوح.. مبادئ ينبغي أن تعلم أبناء جنسنا الخضوع لإملاءات القوانين الطبيعية، بدلاً من مُحاولة التحكم فيها وتوجيهها. بين حقبة وحقبة من الزمن الطويل تظهر عقولٌ جبارة، تنظر إلى كل تقدّم يتحقّق في العلوم التطبيقية بوصفه تراجعاً للمنفعة الحقيقية للبشر. وبين الحين والحين تنتفض عبقرية شعرية.. تلك القُدرة الفكرية التي نرى جميعاً أنّها تتربّع على أعلى درجات المجد.. لأنّ الحقائق التي يبدو لنا أنّها تتضمّن أقصى ما يُمكن من الأهمية الباقية لا يُمكن التوصّل إليها إلا عن طريق ذلك القياس الحدسي الذي يُعبّر عن نفسه بأساليب وبراهين لا تقبل الشك ويوجّه خطابه إلى الخيال وحده، وهو بالنسبة إلى العقل العاجز ليس له قيمة.. بين الحين والحين تتقدّم الموهبة الشعرية خطوة إضافية كي تتبلْور الفكرة الغامضة التي لا بُدّ أنّها تنتمي إلى حقول الفلسفة، فتجد في الرمز الصوفي معنى يُخبرنا عن شجرة المعرفة، وعن فاكهتها المحظورة التي تؤدي إلى الموت، نجد إشارة واضحة إلى أنّ المعرفة لم تكن لتتحقّق للإنسان في مرحلة الطفولة المُبكرة لروحه. ويبقى هؤلاء الرجال.. الشعراء.. يعيشون ويموتون ويُعانون من سخرية «المنفعيين»[2].. من المُتحذلقين الأجلاف، الذين يتبجحون فينسبون لأنفسهم من الألقاب ما يصحّ أن ينسب فقط إلى الناس الذين يستحقّون السخرية.. هؤلاء الرجال، أي: الشعراء، يُفكرون عادة بطريقة تافهة في التواءاتها، مع أنّها لا تخلو من الحكمة، في الأيام الخوالي حين كانت حاجاتنا لا تتجاوز في بساطتها المتع البسيطة التي نغرم بها.. الأيام التي كان فيها السرور [514]كلمة غير معروفة المعنى، والسعادة ذات نبرة ناشزة غامضة.. أيامٌ لا تخلو من السمو الروحي، والورع البليغ والهناء، حين كانت الأنهار الزرقاء تجري دون أن تكبح جماحها السدود، تشقّ مجراها بين التلال، مُتّجهة نحو عزلة الغابات، إلى مجاهلها البدائية الفواحة التي لم تستكشف بعد.

---

(2) نادراً ما كان بو يضيع فرصة للسخرية من أصحاب نظرية المنفعة مثل بينثام، مل، وإتباعهم. [المترجم]

هذه الاستثناءات النبيلة عن حكم الفوضى ساهمت فحسب في تقوية الفوضى من خلال حكم المُعارضة. يا للأسف! لقد انحدرنا نحو مصدر الشر الأكثر شناعة في أيامنا الشريرة هذه. واستمرت «الحركة» العظيمة.. ذلك المُصطلح الذي يمتاز بالرياء.. وكان هُناك اعتلال مرضي، معنوياً ومادياً. إنّ الفن.. أو الفنون.. تسعى لتحقيق أسمى الغايات، وحين تتوّج بهذه الغاية السامية، ترفع عن الفكر تلك الأغلال التي يفرضها الفكر عُنوة لكي يتسلّط. ولأنّ الإنسان ليس أمامه إلا الاعتراف بجلال الطبيعة وسُلطانها، فهو يتهاوى إلى حالة من الجذل الطفولي بإزاء ما يكتسبه من سلطة مُتزايدة على عناصرها. حتى عندما يغرس إلهاً في خياله، فإنّ ثمّة حماقة طفولية تتسلّط عليه. كما يُفترض من أصل العلة التي تلحق بالإنسان، فهو يتأثّر بالنظام، وبالميل للتجريد، ويلفّ نفسه بالعموميات. من بين الأفكار الغريبة الأُخرى، فكرة المُساواة الكونية التي فرضت نفسها؛ كل ذلك بإزاء وجهات نظر مُماثلة عن القياس وعن الإلوهية.. وغضت الطرف عن الصوت المُحذر الهادر لقوانين التدرج التي تتغلْغل بجلاء في صميم الأشياء جميعاً على الأرض والسماء.. وجرت مُحاولات محمومة لتحقيق ديمقراطية مُطلقة تُهيمن على كل شيء. لكن هذا الشر نشأ بالضرورة عن المصدر الأساسي لكل الشرور، المعرفة. الإنسان لا يستطيع أن يعرف ويخضع في آن معاً. في هذه الأثناء ظهرت إلى الوجود مدنٌ هائلة يُغطي سماءها الدخان، مدنٌ لا حصر لها. وأصبحت الأوراق الخضراء تنكمش في مواجهة الهواء الساخن. وتعرّض الوجه الجميل للطبيعة إلى التشوّه كما لو أنّه أُصيب بمرض خبيث مُقزز. وإنّي لأعتقد، أيّتها الجميلة أونا، أنّ إحساسنا المُخدّر الغافي ربما فرض علينا البقاء ضمن هذا الإطار الضيّق الذي يصعب تجاوزه. والآن يبدو أنّنا تسبّبنا في دمارنا من خلال فساد أذواقنا، أو بالأحرى في الإهمال الأعمى للثقافة التي ينبغي أن تنسجم مع الذوق وتسود في المدارس. لأنّ، في حقيقة الأمر، عندما حلّت هذه الكارثة فالذوق وحده.. تلك الموهبة التي تحتل موقعاً وسطاً بين الفكر المحض والحسّ الأخلاقي، ما كان ينبغي أبداً أن يُستخف بها دون أن يلحق بنا أي ضرر.. ما يحصل الآن أنّ الذوق وحده يُمكن أن يقودنا ثانية إلى مملكة الجمال، إلى الطبيعة، وإلى الحياة. ولكن، واحسرتاه على روح أفلاطون في

تأملاتها المُعمقة وجلال بديهتها! واحسرتاه على *μουσικη* أو ما اعتبرها بإنصاف ثقافة وافية من جميع النواحي للروح! واحسرتاه عليه وعليها!.. فنحن نحتاج إليهما معاً [515]ونحسّ بالقنوط بعد أن تعرضا للنسيان أو للاستخفاف(*1).

كان باسكال فيلسوفاً نكنّ له جميعاً كل الحب والتقدير، فهو يقول، ويا لصدق كلماته!.. «حتى في تفكير عقولنا نحن نضطر لأن نفسح الطريق لمشاعرنا الفطرية» *que tout notre raisonnement se rèduit à céder au sentiment* وليس من المُستحيل أن يقود الشغف بالشيء الطبيعي، لو أتاح الزمن فرصة، إلى استرداد سطوته القديمة فيتفوّق على التفكير الرياضي المُزعج الذي يسود في المدارس. إلّا أنّ هذا الأمر لم يكن ليتحقّق. بعد أن تأثرنا قبل الأوان بسطوة المعرفة وإسرافها، اقترب فجر العالم القديم. هذه الكتلة الهائلة من البشر لم تكن لتُرى، لأنّها تعيش النشوة مع أنّها لا تعرف السعادة، لم تتأثر إلى درجة كافية حتى ترى. لكن بالنسبة لي أنا، فقد تعلّمت من مدوّنات الأرض أن أنظر إلى أعلى درجات الخراب باعتباره ثمناً لأعلى مراتب الارتقاء الحضاري. وتلمّست بصيرتي مصيرنا الذي سوف نؤول إليه من مُقارنة وضع الصين التي تصرّ على البقاء وهي تُحافظ على بساطتها، وبلاد آشور في عمرانها، ومصر وعلمها في التنجيم، وبلاد

(*1) «سوف يكون من الصعوبة بمكان اكتشاف طريقة أفضل [أو منهج للتعليم] غير ذلك الذي ثبت من خلال التجربة منذ سنوات طويلة حتى الآن؛ وهذا المنهج ربّما يُلخّص على أنّه يتألف من جمناستيك البدن، وموسيقى الروح». الجمهورية، 2. «ولهذا السبب فالثقافة الموسيقية تُعتبر ذات أهمية جوهرية؛ وذلك لأنّها تخلق الإيقاع والانسجام الذي يخترق بعيداً إلى أعماق الروح السحيقة، ويأخذ بزمام السيطرة بقوة عليها، ويملأها بالجمال ويجعل الإنسان صاحب عقلٍ جميل... فالإنسان سوف يعرف قيمة الشيء الجميل ويُعجب به؛ وسوف يتلقّى الجمال في شعور بالمُتعة، وسوف يتغذّى على الجمال، ويذوب فيه». المصدر السابق، 3. ومع هذا فإنّ للموسيقى (*μουσικη*)، وسط الأثينيين، أهمّية مؤثرة على الاستيعاب والتعلّم أكثر بكثير ممّا نعرفه نحن. لم تكن الموسيقى تتضمّن إيقاعات الزمن وإيقاعات النغم فحسب، وإنّما تتضمّن الأسلوب الشعري الفصيح، والعاطفة، والإبداع، وكل عنصر من هذه العناصر يتجلّى في أوسع معانيه. كانت دراسة الموسيقى لديهم، في الواقع، تعني التهذيب الشامل للذوق.. الذوق الذي يتعرّف على الجمال.. في مُقابل ما يدركه العقل الذي يتعامل فقط مع الحقائق. (المؤلف)

النوبة، الأكثر براعة من الاثنين، الأم المُتمردة لجميع الفنون[3]. في تاريخ[*2] هذه المناطق واجهتني حزمٌ من الأشعة آتية من المُستقبل. كانت مظاهر الذكاء الفردي المُصطنع للعناصر الثلاثة الأخيرة تُشكّل الأمراض المحلّية للأرض، ومن خلال هزائمها الفردية رأينا إصلاحات محلّية يجري تطبيقها؛ ولكن بالنسبة إلى العالم الذي أصيب بالعدوى بصفة عامة لم يكن في وسعي أن أتوقّع أي نوع من الانبعاث الجديد إلّا من خلال الموت. الإنسان كجنس من الأجناس لا ينبغي أن يواجه الانقراض، رأيت أنّه يجب أن «يولد من جديد».

والآن الشيء الذي حدث، أيتها الجميلة العزيزة، أنّنا صرنا نُغلف أرواحنا يومياً بالأحلام. الآن حدث أنّنا، مع الغسق، صرنا نتحدّث عن الأيام التي سوف تأتي، بينما سطح الأرض الذي تنتشر عليه آياتُ الفن والجمال، بعد أن مر بتلك المرحلة من التطهير[*3] التي وحدها يُمكن أن تمحو جوانب فحشه المُتمدد، ينبغي أن تلبس من جديد رداء الاخضرار الذي يُزين المُنحدرات الجبلية والمياه الرقراقة البهيجة للفردوس، وبذلك تصبح في نهاية المطاف مكاناً يُصلح للسكنى للإنسان.. الإنسان الذي تطهّر بالموت.. الإنسان الذي أضحى عقله المُستنير الآن لا يتقبل أن [516] يكون سجيناً ضمن مُعتقل المعرفة بعد الآن.. الإنسان الذي أعتق من الأغلال، الذي ولد من جديد، الإنسان الذي عرف السعادة، وأصبح خالداً الآن، ومع ذلك فهو إنسان مادي.

أونا: أتذكّر جيداً هذه المُحاورات، يا عزيزي مونوس؛ لكن عصر الانقلاب العنيف لم يكن قريباً جدّاً كما تصورنا، وكما كان الفساد الذي تُشير إليه حتماً يُحذرنا في تصوّر ذلك. كان الناس يعيشون؛ ويموتون أفراداً. أنت نفسك تعرضت للمرض، وتوارى جسدك في الثرى؛ وإلى هُناك سرعان ما تبعتك

---

(3) كان الكثير من العلماء في زمن بو يعتقدون أنّ ثقافة النوبة وأثيوبيا أقدم من ثقافة مصر. [المترجم]

(*2) كلمة «تاريخ» مُستمدة من الإغريقية *ιστορειν*، وتعني «يتأمل». (المؤلف)

(*3) يبدو أنّ كلمة «تطهير» هُنا تُستخدم بالإشارة إلى جذرها في الإغريقية *πυρ*، وتعني «النار». (المؤلف)

حبيبتك إلى الأبد أونا. مع أنّ قرناً من الزمن انصرم منذ ذلك اليوم، وبعد انتهاء القرن أتينا هكذا معاً فاجتمعنا مرة أُخرى، ومع أنّ أحاسيسنا الهاجعة لم تتعذّب بأي ملل من طول المدة، عزيزي مونوس، فهو قرنٌ على كل حال.

مونوس: بل قولي نقطة ضمن سياق الأبدية الغامضة. ليس من شكٍّ في أني على هذه الأرض المُخرفة أعتبر ميتاً. وكنت مُكدر القلب من القلق والانفعالات التي ترجع إلى حالة الاضطراب الشامل والانهيار، وأُصبت أخيراً بالحمى القاسية. بعد أيام قليلة قضيتها مع الألم، وكثير من الأحلام والهذيان المُتخم بالنشوة، كنت تظنين أنّ الأعراض التي تبدو عليّ من الألم، في الوقت الذي كنت أشتاق فيه ولكنّي عاجز عن مُصارحتك بحقيقتها.. بعد بضعة أيام دهمتني حالة من السبات، كما قلتِ أنت، ولم أكن أتنفّس أو أتحرّك؛ وقالوا: إنه الموت، هؤلاء الذين وقفوا حولي.

الكلمات أشياء غامضة. لم تمنعني حالتي من الإحساس بما يجري حولي. اتّضح لي أن حالتي لا تختلف كثيراً عن الخمود المُطلق الذي يمرّ به شخص راح يغط في سباتٍ عميق لمدة طويلة، وكان يرقد بلا حراك مُنهك القوى تماماً في ظهيرة يومٍ من أيام مُنتصف الصيف، ثم بدأ يختلس النظر في بطء ويسترد وعيه شيئاً فشيئاً، بعد أن اكتفى من نومه، دون أن يوقظه الضجيج في الخارج.

لم أعد أتنفّس. كانت نبضات قلبي ساكنة. توقف القلب عن الخفقان. لم تخذلني إرادة الحياة، لكني كنت عاجزاً. كانت الأحاسيس فعّالة على نحو غير مألوف، رغم شذوذها.. وكل حاسة غالباً ما تسترد وظيفتها عشوائياً. كانت حاستا التذوق والشم في حالة ارتباك وتشوش لا سبيل للفكاك منها، وأصبحتا حاسة واحدة، خارقة للمألوف في شدتها. وكان ماء الورد الذي رطبت فيه أصابعك الرقيقة شفتي حتى اللحظة الأخيرة قد أثر بي فجعلني أتخيّل صوراً جميلة عن الأزهار.. أزهار وهمية أكثر بهاءً وروعة من أي أزهار تعود إلى الأرض القديمة، مع أنّ نماذج منها لدينا هُنا تُزهر من حولنا. ولم تكن الجفون التي صارت شفافة وقد خلت من دمائها، تُعيق الرؤية إعاقة كاملة. لأنّ الإرادة كانت مُعطلة مؤقتاً، فلم تستطع حدقتا العينين الدوران في محجريهما، لكن كل الأشياء التي تقع

ضمن نصف الدائرة [517]البصرية كانت تُشاهد في جلاء بوجه من الوجوه؛ والأشعة التي تسقط على الشبكية الخارجية، أو على زاوية العين، تؤدي إلى تأثير أكثر حيوية من تلك الأشعة التي تصطدم بالواجهة أو بالسطح الداخلي. غير أنّ هذا التأثير، في الحالة الأولى، كان شاذاً إلى درجة أنّني أُدرك وجوده فحسب كشيء مُرهف.. رقيق في عذوبته أو مُتنافر لأنّ الأشياء التي تطرح نفسها على الجانبين تتناوب بين الضوء والظلام .. سواءً كان مُنحنياً أو مُتعرجاً في زوايا في خطوطه العريضة. أما حاسة السمع، في الوقت نفسه، مع أنّها حادّة في رهافتها، فلم تتّسم بالشذوذ في نشاطها.. فهي ذات قدرة على إدراك الأصوات الحقيقية في دقة مُفرطة، لا تقلّ عن قدرة الإحساس. وحاسة اللمس تعرّضت لشيءٍ من التعديل على وظائفها التي أصبحت أكثر غرابة. كانت الانطباعات التي تُرسلها إلى الذهن تُستلم في تلكؤ، ولكن ثمّة إصراراً لا يلين على استعادتها، وكان ذلك يؤدي دائماً إلى لذة مادية قصوى. وهكذا كانت لمسة أصابعك الرقيقة على جفوني، في البداية كنت أُدركها فقط من خلال الرؤية، وفي نهاية الأمر، بعد وقتٍ طويل على رفع أصابعك، كان الإحساس يأتيني فيغمر كياني كله ببهجة حسية غامرة لا حدود لإبعادها. أقول: إنني كنت أشعر بالبهجة، وكل إدراكاتي كانت حسية بحتة. لم تكن الأشياء المادية التي تُشغل الذهن البليد الإحساس على الأقل تتّخذ شكلاً من الفهم الذي تجرّد من الحياة. عن الألم هُناك إحساس ضئيل؛ عن المُتعة، هُناك شيء كثير؛ أما الألم الروحي أو المُتعة الروحية فلا شيء إطلاقاً. هكذا كان نحيبك يطفو حتى يصل إلى أُذني بكل ما يحمله من إيقاع حزين، وكانت تلك الأصوات تُدرك على تباينها في الانتقال من نغمة حزينة إلى أُخرى؛ لكنها تأتي في موسيقى رقيقة، لا شيء غير الموسيقى؛ لا تنقل إلى العقل المدرك أي تلميح عن الأحزان التي تسببت في ولادتها؛ في الوقت الذي كانت فيه قطرات من الدموع تسقط باستمرار على وجهي، وتنبئ الواقفين حولي عن قلبٍ مُتفطر، وتُثير في كل ذرة من بدني النشوة وحدها. هذا في حقيقة الأمر هو الموت الذي يتكلّم عنه هؤلاء المُتفرجون في وقار، في همسات مُنخفضة النبرة.. وأنت، أيتها الجميلة أونا، تبكين وتلهثين وتطلقين صيحاتٍ عالية.

وألبسوني الكفن واستعدّوا لوضعي في التابوت.. كان ثلاثة أو أربعة أشخاص غامضين يتنقلون جيئة وذهاباً. وبينما عبر هؤلاء الخط المُباشر لرؤيتي اتّضح لي أنّهم مُجرّد أشباح؛ لكنّهم عندما عبروا جانبياً أثارت صورهم في نفسي فكرة الصراخ، والأنين، وغيرها من التعبيرات الكئيبة التي تدلّ على الرعب.. الرعب، أو الحسرة. أنت وحدك كنت تلبسين ثوباً أبيض، تعبرين في الاتّجاهات كلها، تبعثين الموسيقى في كياني.

وانتهى النهار؛ وبينما كان ضياؤه يخبو، استولى على كياني قلقٌ مُبهم المصدر.. تلهّف مثل الذي يحس به النائم حين تلتقط أذنه أصواتاً حقيقية حزينة باستمرار.. نغمات ذات جرسٍ بعيد، مُنخفضة، وقورة، تأتي على فتراتٍ مُتعاقبة طويلة، تختلط بها أحلام سوداوية. وجاء الليل؛ ومع ظلاله القاتمة بعث في نفسي [518]الغمّ الثقيل. كان الظلام يُقيد أوصالي في نوع من الضغط البغيض. وكنت أسمع صوتاً يئن أيضاً، لا يختلف كثيراً عن دوي الأمواج المُتكسّرة الذي يأتي من بعيد، ولكنّه يستمر مدة أطول، وقد بدأ منذ أول ضوء للفجر الكاذب، وازداد قوة مع تزايد الظلام. وفجأة اقتحمت الأضواء الحُجرة، وتقاطع هذا الدوي على الفور مع ضربات الصوت نفسه، ولكنّها أقل إثارة للخوف وأقل تمييزاً. وخفّ الثقل المُضجر الذي كان يُطبق على صدري؛ وانبثقت مع شعلة كل مصباحٍ منير، (فالمصابيح كثيرة هُناك)، سلسلة مُتواصلة من اللحن الرتيب الشجي تنسابُ إلى أُذني. والآن، يا عزيزتي أونا، حين اقتربتِ من السرير الذي كنتُ ممدداً عليه، جلستِ في حركة رقيقة إلى جانبي، وكان يتردّد الشذى الفواح من أنفاسك التي تخرج من شفتيك العذبتين، وأنت تضغطين بهما على صدغي، هُناك انبثق من صدري المُرتعش شيء يمتزج بالأحاسيس المادية المُجرّدة التي أثارتها تلك الظروف، شيء مُشابه لعاطفة الحب نفسها.. إحساس نصفه امتنان، ونصفه استجابة لحبك المُخلص وللأحزان؛ هذا الشعور لا يستمد جذوره من القلب الذي توقّف عن الخفقان، ذلك يبدو في الواقع مثل ظلّ من الظلال أكثر من أن يكون حقيقة مُجرّدة، ثم سرعان ما اختفى، سكن أولاً مع باقي السكون المُطبق، وتلاشى مع اختفاء أي أثر للنشوة الحسية كما في السابق.

هُنا، من خراب وفوضى الحواس العادية، يبدو أنّه انبثقت في داخلي حاسة سادسة، كل شيء فيها مثالي. ولدى تجربتي لها، وجدتُ متعة شديدة.. مع أنّها لا تزال مادية، بقدر ابتعادها عن الفهم الذي لا دور له فيها. توقّفت الحركة عن الجسد الحيواني تماماً. لم تعُد أي عضلة ترتعش؛ ولا ينتفض عصبٌ؛ ولا شريان ينبض. لكن شيئاً يبدو أنّه وثب إلى الذهن فجأة، شيء لا كلمات قادرة على وصفه أو أن تنقل حتى فكرة غامضة عنه إلى العقل البشري. دعوني أسميه الخفقان المُتذبذب للعقل. كان ذلك تجسيداً معنوياً لفكرة الإنسان المُبهمة عن الزمن. من خلال الاتزان المُطلق لهذه الحركة.. أو ما يُشبه هذا.. فإنّ المسارات الدائرية للأفلاك السماوية نفسها تنظم حركاتها. بمُساعدة ذلك استطعت إدراك التذبذب غير المُنتظم لحركة عقارب الساعة التي على رف الموقد، وتذبذب ساعات الحاضرين. دقات تلك الساعات تُرسل طنيناً رتيباً إلى أُذني. أدنى انحرافٍ عن الوقت الحقيقي.. كل هذه الانحرافات عن الزمن في هيمنتها المُطلقة.. تؤثّر في نفسي فتُشكّل انتهاكات للحقيقة المُجرّدة في نزوعها المادي للتأثير في الحس المعنوي. على الرغم من عدم وجود أداتين لقياس الزمن في الغرفة تدقان الثواني المُفردة في تزامن، إلّا أنّ ذهني لم [519]يواجه صعوبة التمسّك بالنغمات، وفي اكتشاف أخطاء مُتعاقبة بين لحظة ولحظة لكل واحدة. هذا.. هذا الإحساس الحاد، الشامل، الذاتي الوجود بدوران الزمن.. هذا الوجدان موجود (لأنّ الإنسان لا يُمكن أن يُدرك وجوده) بمعزل عن أي تتابعٍ لسياق الحوادث.. هذه الفكرة.. هذه الحاسة السادسة، التي تبرز من رماد كل شيءٍ آخر، تمثّل أول خطوة مؤكدة تخطوها الروح في خلودها على عتبة الأبدية.

كان ذلك في مُنتصف الليل؛ وأنت ما زلتِ جالسة قُربي. والآخرون جميعاً تركوا قبو الموت بعد أن وضعوا جسدي في التابوت. والمصابيح تشتعل وترسل ومضات مُتقطعة؛ هذا ما عرفته من الارتجاف الرتيب لأشعة الضوء. وفجأة تقلصت هذه الأشعة على نحو مُميز في حجمها. وأخيراً توقفت. كانت الرائحة التي تأتي إلى منخري قد اختفت أيضاً، ولم يعُد للأشكال من أثر في رؤيتي. ورفع ضغط الظلام ثقله عن صدري. واعترت بدني رعشة مقيتة كأنّها من مصدر

كهربائي، وأعقبها فقدانٌ لفكرة التواصل. واختلط ما يُسميه الإنسان الحس في وعي مُجرّد عن أي شيء بالوجود، مُجرّد إحساس خانع بمرور الزمن. وصعقت الجسد الفاني أخيراً يد الفناء والعفن.

لكن كل أنواع الأحاسيس لم تبرح جسدي بعد؛ بقي الوعي والوجدان يؤديان بعض الوظائف من خلال غريزةٍ خاملة. كنت أُدرك التغير المُريع الذي طرأ الآن على الجسد المادي، وكما يكون الحالم أحياناً واعياً إلى الحضور المادي لشخصٍ ينحني فوقه، هكذا كنت، أيتها الجميلة أونا، أحسّ بك إحساساً بليداً وأنت جالسة قربي. وهكذا أيضاً، في ظهيرة اليوم الثاني، لم أكن فاقداً للوعي بإزاء تلك الحركات التي أزاحتك وأبعدتك عنّي، والتي كانت تُقيدني داخل التابوت، ونقلتني إلى عربة الموتى، وحملتني إلى القبر، وأدخلتني إليه، وأهالت عليّ التراب الثقيل، وتركتني وحدي، للظلام والفساد، تركتني لسباتي الحزين الجليل مع الديدان.

هُنا، «في هذا المُعتقل الذي لا يبوح بأسراره»[4]، مرت أيام وأسابيع وشهور؛ والروح تراقب كل ثانية تنقضي في تباطؤ، وتُسجل من غير عناء مرور الثواني.. من غير عناء أو هدف.

ومرّت سنة كاملة. وكان الوعي بالوجود يزداد غموضاً في كل ساعة، واستوعب الوعي بالمكان، إلى درجة كبيرة، موقعه الحالي. واختلطت الفكرة عن الوجود بتلك الفكرة عن المكان. والحيز الضيق الذي يُحيط مُباشرة بما كان جسداً [520] أصبح الآن هو الجسد نفسه. وفي نهاية الأمر، مثلما يحدث كثيراً للنائم (في النوم وعالم الأحلام فقط يُمكن تخيّل الموت).. أخيراً، مثلما يحدث أحياناً على الأرض للغافي والنائم نوماً عميقاً، حين يخطف ضوء سريع فيوشك أن يفزعه ويجعله يستيقظ، ولكن يتركه مُحاطاً جزئياً بالأحلام.. هكذا حصل لي، في العناق الصارم مع الظل جاء ذلك الضوء الذي ربّما كانت له وحده القدرة على إثارة الفزع.. ضوءُ الحب الذي لا يزول. تجمّع الرجال عند القبر الذي أرقد

(4) اقتباس من (هاملت) 1، 5، 14. [المترجم]

فيه ويلفُني الظلام. كانوا يلقون عنهم التراب الرطب. وعلى عظامي البالية هبط تابوت أونا.

والآن، مرة أُخرى، كل شيء كان خاوياً. الضوء الغائم انطفأ. تلك الرعشة الواهنة انتفضت ثم لاذت بالصمت. عقودٌ كثيرة من الزمن ولّت. وعاد التراب إلى التراب. ولم يعد للديدان ما تتغذّى عليه. المشهد الختامي للوجود انسدل عليه الستار، وهيمن بدلاً من ذلك.. بدلاً من كل الأشياء.. في سطوة أبدية.. الحاكمان المُطلقان للمكان والزمان. على مملكة لم يعُد لها وجود.. عديمة الشكل.. لا تُفكر.. لا تعي.. لا روح فيها، مع أنّها مملكة لا تُشكّل المادة جزءاً منها.. رغم هذا العدم، هذا الخلود، فالقبر يبقى منزلاً، والساعات يأكلها صدأ الزمن، رفاقٌ يؤنسون الوحشة.

لا تستأمن الشيطان على رأسك

حكاية لا تخلو من موعظة

يقول دون توماس دو لا توريس، «ما دامت عادات المؤلف في الكتابة [521] تمتاز بالإخلاص وعفة النفس والنقاء، فليس يهمّ كثيراً إذا افتقرت أعماله إلى زخرف اللفظ والتأنق الصارم»[1]، جاء ذلك في مُقدمة مجموعته «قصائد غرامية».. وهو يقصد بذلك، في لغةٍ إنكليزية مُبسطة، أنّه ما لم تكن أخلاقيات المؤلف مُعبرة عن شخصية مُجرّدة، فهي لن تُعبر عن شيء يمت بصلة إلى أخلاقيات كتاباته. إننا نفترض هُنا أن دون توماس الآن يمر بمرحلة المُطهّر على وجه التأكيد. سوف يكون من المعقول أيضاً، من أجل العدالة الشعرية، أن يبقى الرجل هُناك حتى تنفد النسخ المنشورة من «قصائده الغرامية»، أو تبقى إلى أمد غير مُحدّد على رفوف المكتبات بسبب نقص القراء. كل قصة ينبغي أن تكون ذات موعظة؛ والأكثر من هذا والأقرب إلى غرضنا، أن يكتشف النقاد أنّ لكل قصة غرضاً أخلاقياً. لقد كتب ميلانشتون، منذ زمن تعليقاً على «معركة الضفادع والفئران»[2] *Batrachomyomachia*، وأثبت أن غرض الشاعر كان تحريضياً يسعى

---

(1) هذا الاقتباس جاء باللّغة الإسبانية في الأصل *con tal que las costumbres de un.. autor, sean puras castas, importo mu poco que no sean igualmente severas sus obras* [المترجم]

(2) «معركة الضفادع والفئران» ملحمة هزلية تسخر من «الإلياذة» نسبها الرومان إلى هوميروس، لكن بعض الباحثين ينسبونها إلى شاعر مجهول من زمن الإسكندر العظيم. [المترجم]

فيه إلى إثارة الاشمئزاز. أما بيرر لاساين، فمضى خطوة أبعد من ذلك، إذ حاول أن يوضّح أنّ الهدف الأساسي كان يتمثّل في تشجيع الشباب على الاعتدال في الأكل والشرب. وكذلك فعل جاكوبس هوغو الذي أقنع نفسه أنّ هوميروس، من خلال شخصية أوينس كان يقصد تدنيس سمعة جون كالفن؛ ومن خلال شخصية أنطونيوس أراد تدنيس سمعة مارتن لوثر؛ ومن خلال شخصية لوتوفاغي حاول تدنيس البروتستانت على العموم؛ ومن خلال شخصية هاربيز أراد تدنيس الهولنديين جُملة وتفصيلاً. يمتاز مُفكرونا الأكثر حداثة الذين قاموا بالشرح والتعليق على النصوص القديمة بشيءٍ مُماثل من الحذق. هؤلاء أرادوا أن يظهروا معنى خفياً في «ما قبل الطوفان أو عالم الظلام»[3]. وفي حكاية رمزية وردت في كتاب عن البوهاتان من سكان فرجينيا الأصليين، وآراء جديدة في كتاب لأغاني الأطفال «من قتل كوك روبن؟»، وفي آراء المُتعالين في «أقفز واستقر على الإبهام» من مجموعة حكايات تشارلس بيراولت. باختصار، لقد اتّضح أن ليس ثمّة إنسان يجلس ليكتب دون أن تكون لديه خطة يُفكر فيها عميقاً. ولذلك بالنسبة إلى المؤلفين عامة يؤدي هذا إلى اختزال الوقت والجهد. فالروائي مثلاً لا يحتاج لأن يهتم بالمغزى الأخلاقي الذي يُنشده. المغزى موجود حتماً.. بمعنى آخر، في مكان ما.. والنقاد يُمكنهم مُعالجة الأمر [522]بأنفسهم. حين يأتي الوقت المُناسب، فكل الناس الذين يقصدهم الكاتب، والذين لم يقصدهم، سوف يُسلّط عليهم الضوء، سواءً كان ذلك في «المزولة» أو في «داون إيستر»[4]، إلى جانب كل الذين كان ينبغي أن يقصدهم، وبقية الذين كان واضحاً أنّه يقصدهم؛.. بحيث يأتي كل شيء في النهاية مُباشرة.

إذن؛ لا أساس للتهمة التي وجّهها إلي بعضُ الجاهلين.. الذين قالوا: إنّني

---

(3) (ما قبل الطوفان) *The Antediluvians* قصيدة نثرية في عشرة كتب، لندن، 1839 فيلادلفيا، كتبها دكتور جيمس مكهنري (1785- 1845) وهو شاعر وروائي وناقد أدبي. [المترجم]

(4) جماعة المزولة تأسست في سنة 1840 وكانت تضم أصحاب فلسفة التسامي مثل أمرسون ومارغريت فولر. أما «داون إيستر» فهي رواية لجون نيل، 1833. [المترجم]

لم أكتب في حياتي حكاية ذات مغزى أخلاقي، أو بعبارة أكثر دقة، حكاية تتضمّن موعظة. لكن هؤلاء ليسوا النقاد الذين قدر لهم أن يكتشفوا حقيقة كتاباتي، وأن يطوّروا أخلاقياتي.. تلك هي المسألة. وبمرور الزمن، جعلتهم مجلّة «الطبل الرنان» التي تصدر فصلياً في أمريكا الشمالية يشعرون بالخجل من غبائهم. في هذه الأثناء، في مُحاولةٍ طائشة لإرجاء الحكم.. أو التخفيف من حدة الاتّهامات الموجّهة إليّ.. سوف أُقدّم نبذة تاريخية عن حكايةٍ حزينة مُرفقة مع هذا السرد.. وهو تاريخ لا يُمكن لأحد أن يشك في مغزاه الأخلاقي الواضح، لأنّ الشخص الذي في عجلة من أمره يُمكنه أن يكتفي بقراءة الحروف التي تُشكّل عنوان الحكاية. وينبغي أن أستحق الإطراء على هذا الترتيب.. فأنا أكثر حكمة من لافونتين وغيره، الذين يحتفظون بالموعظة التي يراد نقلها حتى اللحظة الأخيرة، ويقحمونها خلسة في نهاية حكاياتهم بعد أن ينهكوا القراء.

كان ما يُسمّى *Defuncti injuria ne afficiantur* «دعوا الموتى راقدين بسلام» قانوناً للحكماء الرومان الاثني عشر، أما قولهم *De mortuis nil nisi bonum*: «لا يُرتجى خيرٌ إلا من الموتى»[5]، فهو أمرٌ رائع حقّاً.. حتى لو كان الميت الذي نتكلم عنه مُجرّد دبٌ صغير. ليس في نيتي هُنا إذن أن أُلوّث سمعة صديقي الراحل توبي داميت. لقد كان كلباً بائساً، هذا صحيح، ومات ميتة الكلاب؛ لكنه هو نفسه لا يُمكن توجيه اللوم إليه على الرذائل التي اقترفها. فتلك الرذائل نشأت من عيبٍ شخصي ورثه عن أمه. كانت تفعل ما في وسعها لتجلده وهو لا يزال طفلاً صغيراً.. لأنّ واجبات التربية بالنسبة إلى عقلها السوي كانت دائماً مصدراً للمتعة، والأطفال، مثل شرائح اللحم الطرية، أو أشجار الزيتون في اليونان اليوم، يُصلحون في أي وقت للضرب.. لكن، يا للمرأة المسكينة! إذ كان من سوء حظها أن تعتمد على يدها اليسرى دائماً، والطفل الذي يضرب بالسياط بيد يسرى من الأفضل لو تُرك دون أن يضرب. الأرض تدور من اليمين إلى اليسار. فلن يُجدي نفعاً أن يُضرب الطفل من اليسار إلى اليمين. لو أنّ كل ضربة تأتي في

(5) هذا القول ينسب إلى الفيلسوف الإغريقي شيلو، وقد سجّله دايوجينس لايرتيس في (حياة الفلاسفة). [المترجم]

الاتّجاه الصحيح لتُعبّر عن نزعة شريرة، يقتضي ذلك أن كل ضربة مكتومة في الاتّجاه المُعاكس سوف تؤدي إلى حصة من الفساد. كنت في كثيرٍ من الأحيان شاهداً على مُعاقبة توبي، حتى من خلال الطريقة التي كان يُضرب فيها، كنت أُدرك أنّه يُصبح أسوأ حالاً يوماً بعد يوم. وأخيراً رأيتُ، والدموع تترقرق في عيني، أن لا أمل في الوغد أبداً، وذات يوم حين كان يتعرّض إلى سيلٍ من الصفعات حتى أصبح وجهه أسود اللّون ويكاد المرء يظنّه صبياً أفريقياً، ولم يؤدِ ذلك إلى أي تأثير غير أنّه كان يتلوّى [523]هُنا وهُناك، لم أعد أتحمّل مزيداً من ذلك، فجثوت على ركبتي حالاً، ورفعتُ صوتي، وتنبأت له بمصير مشؤوم.

الحقُّ أنّ انغماسه بالرذيلة جاء مُبكراً وكان فظيعاً. عندما كان عمره خمسة شهور فقط اعتاد الانغماس في مثل هذه المُشاغبات التي لم يكن قادراً على التعبير عنها. وفي عمر ستة شهور، اكتشفته يقضم علبة ورق اللعب. وفي عمر سبعة شهور لم تكن تُفارقه عادة الإمساك بدمى أنثوية يقبّلها. وفي عمر ثمانية شهور كان يرفض رفضاً قاطعاً أن يضع توقيعه على التعهد بالاعتدال وضبط النفس. وهكذا استمر على نحو مُطرد في ارتكاب الآثام، شهراً بعد شهر، ومع نهاية السَّنة الأُولى من عمره، لم يكن يُصرّ على وضع شوارب زائفة فحسب، وإنّما ابتكر وسيلة للتعبير عن نوازعه بإطلاق سيل من اللعنات والشتائم، وتأكيد إصراره على آرائه عن طريق المُراهنة.

من خلال هذه المُمارسة الأخيرة غير المُهذبة، كان الخراب الذي توقعت أن يحلّ بصديقي توبي داميت قد وقع فعلاً. تصرفاته «كبرت مع كبر سنه وزادت قوة مع ازدياد قوّته»[6]، بحيث إنّه عندما صار رجلاً، كان بالكاد يتمكّن من لفظ جُملة دون أن يُرفقها باقتراحٍ للمُراهنة. ليس أنه في الواقع كان يطرح أشياءً للرهان.. كلّا. سوف أحرص على إنصاف صديقي فأقول: إنّه كان يتصرّف كالدجاجة التي تمتنع عن وضع البيض. بالنسبة إليه فالأمر مُجرّد توليفة.. لا أكثر ولا أقل. لم يكن لتعبيراته في هذا الصدد أي معنى عميق يرتبط بها. كانت

(6) اقتباس من قصيدة ألكسندر بوب المُطوّلة (مقال عن الإنسان) 2، 136. [المترجم]

تعبيرات بسيطة إن لم تكن كلّها عبارة عن كلمات بريئة لسد الفراغ.. عبارات خيالية يهدف منها إلى تزويق جُملة من الجُمل. حين قال مثلاً: «سوف أتراهن معك على هذا الشيء أو ذاك»، لم يُفكّر أي شخص في أن يأخذ ما يقصده على محمل الجد أبداً؛ ومع ذلك لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنّ واجبي يقتضي الإيقاع به. كانت عادته غير أخلاقية، وهذا ما قلته له. كانت من الأشياء السوقية.. ورجوته أن يُصدّق ذلك. إنّها من الأشياء التي يرفضها المُجتمع.. هُنا لم أقل غير الحقيقة. وكانت من الأشياء التي تمنعها قوانين الكونغرس.. هُنا لم يكن لدي أدنى نية للكذب. وشجبت واحتججت.. ولكن بلا جدوى. وشرحت.. ولكن عبثاً. وتوسلت.. وكان يبتسم. وناشدته.. وكان يضحك. ونصحت.. وهو يهزأ. وهددت.. وهو يُقسم ويتوعّد. وضربته.. واستدعى الشرطة. وأمسكت أنفه وسحبته.. وأفرغ ما في أنفه في وجهي، وعرض أن يراهن مع الشيطان على رأسه وأقسم أنّه لن يتركني أُغامر فأحاول أن أُكرر ما فعلته ثانية.

وكان الفقرُ رذيلة أُخرى ألحقتها عقدة النقص الغريبة لأم داميت في ابنها. كان صاحبي فقيراً إلى درجة فظيعة، ولا شك أن هذا هو السبب في أنّ تعبيراته الفارغة عن المُراهنة، نادراً ما كانت تتّخذ منحًى مادياً. لا بُدّ من أن أقول: إنّني لم أسمعه يوماً يستخدم كلمة تدل على عمله نقدية في كلامه مثل «أُراهنك بدولار». كان [524] يقول عادة «أُراهنك بأي شيء كما تشاء»، أو «أُراهنك بأي شيء تجرؤ أن تراهن به»، أو «أُراهنك على كعكة»، أو أي شيء آخر أكثر أهمية من هذا، «أُراهن الشيطان على رأسي».

يبدو أن هذا الشكل الأخير من المراهنات كان يُرضيه أكثر.. ربّما لأنّه ينطوي على أقل مقدار من المُجازفة؛ لأنّ داميت أصبح شديد البخل. لو قام أي شخص برفع جسده، لوجد رأسه صغيراً جدّاً، ولذلك فإن خسارته سوف تكون قليلة أيضاً. غير أنّ هذه ليست سوى تصوراتي الخاصة ولست أرى أنّ من الإنصاف حقّاً أن أنسبها إليه. على كل حال فالعبارة التي نتكلم عنها صارت تنمو يوماً بعد يوم وتلقى استحساناً، على الرغم من قلّة احتشام الرجل الذي يُراهن بدماغه كما لو كان أوراقاً نقدية.. ولكن هذه من المسائل التي لا تُتيح أخلاق

صديقي الفاسدة له أن يفهمها. في نهاية الأمر، ترك كل الأشكال الأُخرى للمُراهنة واستسلم كلّياً إلى «أُراهن الشيطان على رأسي»، كان يقولها في تزمتٍ لا يلين ويكرّس نفسه لها دون سواها وذلك ما كان يُزعجني بقدر ما كان يُثير دهشتي. وأنا إنسان كثيراً ما تُزعجني المُلابسات التي لا أجد لها تفسيراً. الأسرار تُجبر الإنسان على التفكير، وبهذا فهي تُلحق الضرر بصحته. الحقيقة أنّ هُناك شيئاً في طريقة تعبير السيد داميت عن نزعاته العدوانية.. شيءٌ له علاقة بأسلوبه في التعبير اللفظي.. كان في البداية يُثير اهتمامي، وبعد ذلك جعلني أشعر بالقلق البالغ.. شيءٌ، بسبب افتقاري إلى مُصطلح أكثر تحديداً حالياً، عليكم أن تسمحوا لي أن أسميه شذوذاً؛ لكن السيد كوليردج يُسميه «صوفياً»، والسيد إيمانويل كانت يُسميه «وحدة الوجود»، والسيد كارليل يسميه «الجنون»، والسيد إمرسون يُسميه «شيئاً مُثيراً للضحك بإفراط». وبدأتُ أشعر بأنّ الأمر لا يروق لي إطلاقاً. كانت روح السيد داميت تواجه حالة خطيرة. وقرّرت الاستعانة بما لدي من فصاحة لاستخدامها في إنقاذ روحه. وأقسمت أن أُقدم له المُساعدة مهما كلفني ذلك مثلما قيل: إنّ القديس باتريك، في المدونات التاريخية الإيرلندية قام بمُساعدة ضفدع الطين.. بعبارة أُخرى، «أوقظه من سباته لكي يشعر بالوضع الذي هو فيه». وهيأت نفسي لتنفيذ الواجب في الحال. ومرة أُخرى أخذت عهداً على نفسي بأن أحتجّ وأُعارض. ومرة أُخرى جمعت طاقاتي كلها للقيام بمحاولة أخيرة في المُجادلة.

لما انتهيتُ من إلقاء مُحاضرتي، انغمس السيد داميت في نوعٍ من التصرف المُستغرب جدّاً. بقي بضع لحظات صامتاً، لم يفعل شيئاً غير أن ينظُر إلى وجهي نظرات فضولية. ولكنه ما لبث أن أدار رأسه الآن جانبياً، ورفع حواجبه إلى أقصى حدّ. ثم فتح راحتي يديه وهزّ كتفيه استهجاناً. ثم غمز بالعين اليمنى. ثم أعاد العملية بالعين اليسرى. ثم أطبق عينيه إطباقة تامة. ثم فتحهما معاً إلى أقصى مدى بحيث جعلني أجفل وأتوجس خوفاً من عواقب ذلك. ثم أدخل إبهامه في أنفه، وفكّر أن من [525]المُناسب القيام بحركة لا توصف مع بقية أصابعه. وأخيراً، وضع ذراعه على خاصرته، وتنازل في الرد.

يُمكنني أن أتذكّر نتفاً فقط من حديثه. قال: إنّه سوف يكون شاكراً لي إذا ما أمسكت لساني ولم أنطق. وإنّه لا يرغب في شيء من نصائحي. وإنّه يمقت جميع مواعظي. وإنّه ناضج بما يكفي للاهتمام بنفسه. هل ما زلت أعتقد أنّه ذلك الطفل داميت؟ هل أقصد أن أقول أي شيءٍ ضد شخصيته؟ هل أنوي إهانته؟ هل كنت مُغفلاً؟ هل كانت أمي تُدرك، باختصار، غيابي عن المسكن؟ كان سيطرح هذا السؤال الأخير عليّ كرجل يتمتع بالمصداقية، وكان سيغمض عينيه كي لا يمتثل لإجابتي. ومرة أُخرى كان سيطلب ضمناً أن يعرف إن كانت أمي تعرف أنّني خرجت. وقال: إنّ ارتباكي فضحني، وكان على استعداد لأن يتراهن مع الشيطان على رأسه أنّها لا تعرف.

لم يتوقّف السيد داميت لحظة لكي يرد عليّ. استدار على أعقابه، وتركني في اندفاعٍ مُتهور بعيد عن اللياقة. وكان من حسن حظه أن فعل ذلك. لقد جرحت كرامتي. وتصاعدت حدة غضبي. كنت في هذه المرة سأحمله إلى الأعلى جزاء على رهانه المُهين. كنت سأربح رأس عدوي اللدود الضئيل السيد داميت.. فالحقيقة أنّ أمي كانت تعرف جيداً عن غيابي المؤقت عن المنزل.

ولكن *Khoda shefa midêhed* . . «السماء تفرّج كروبنا».. كما يقول المسلمون حين تدوس على أطراف أصابعهم. كنت أؤدي واجبي فتعرضت للإهانة، وتحمّلت الإساءة مثلما يفعل أي رجل مُهذّب. ولكن بدا لي الآن أنّني فعلت كل ما يُمكن أن يطلب مني، في حالة هذا الشخص التعيس، وقرّرت ألّا أزعجه بعد الآن بنصائحي، ولكن أتركه إلى ضميره وإلى نفسه. ولكن على الرغم من أنّني توقّفت عن التدخل من خلال نصائحي، فلم أستطع أن أمنع نفسي من الابتعاد عن صحبته أبداً. حتى إنّي مضيت بعيداً وتماديت في السخرية من نزعاته التي تستحق التوبيخ؛ وكان ثمّة أوقات وجدت نفسي فيها أثني على نكاته الحقيرة، كما يُثني من يمتاز بالشراهة على الخردل، والدموع تترقرق في عيني.. كم كان يُحزنني حقّاً أن أستمع إلى حديثه المُنمق الشرير!.

وذات يومٍ جميل، بعد أن تمشينا معاً، يداً بيد، قادتنا الطريق باتّجاه النهر. كان هُناك جسر، وقررنا أن نعبر. كان الجسر مُقوساً وعليه شيءٌ مثل السقف

للحماية من الأجواء الماطرة، وفي قوس الجسر بضع فتحات صغيرة فكان بهذا الشكل مُظلماً على نحو مُثير للقلق. وحين دخلنا الممر، أدّى التباين بين الوهج الساطع في الخارج والعتمة الخانقة في الداخل إلى إحداث صدمة شديدة في أعماقنا. [526]لم تكن صدمة داميت التعيس مثل صدمتي، فقد عرض المُراهنة مع الشيطان على رأسه بأنني كنت خائفاً وأشعر بالقلق. وكان يبدو في حالة غير اعتيادية من روح الفكاهة. كان مُنتشياً مُفعماً بالحيوية.. بحيث تصوّرت أنّه لا يعرف شيئاً عن القلق الذي يُزعجني. ليس من المُستحيل أن يكون قد تأثر بأفكار أصحاب الفلسفة المُتعالية. لست ضليعاً بما يكفي لتشخيص هذا المرض لأتكلّم في ثقة ودقة عن هذه المسألة؛ ولحس الحظ لا أحد من «شلة» أصدقائي كان حاضراً. لكنني أعتقد أنّ مصدر الفكرة بسيط وفيه شيءٌ من روح التهريج لدى أندرو جاكسون[7]، ذلك ما كان في ما يبدو يُزعج صديقي المسكين ويجعله يتصرّف كأنّه مُهرّج مُغفّل. لا شيء كان سيُنقذه من التلوي والقفز هُنا وهُناك، تحت أو فوق أي شيء يُصادفه في طريقه؛ الآن كان يصرخ، وبعد ذلك يتلعثم، يؤدي كل تصرّف صبياني غريب ويتلفّظ بكل كلمة عظيمة الشأن، ومع ذلك يُحافظ وجهه على أقسى تعبيرات الصرامة المعروفة في العالم في كل الأوقات. لم أستطع حقّاً أن أُقرر إن كنت سأركله أم أشفق عليه. وأخيراً، بعد أن اجتزنا الجسر تقريباً، اقتربنا من نهاية الممشى، حينها أعاقت تقدمنا بوابة مرتفعة إلى حدٍّ ما. واستطعت أن أمضي في طريقي في هدوء عبر هذه البوابة، دفعتها حتى استدارت كالمعتاد. ولكن هذه الاستدارة ما كانت لترضي السيد داميت. لقد أصرّ على الوثب فوق الحاجز، وقال: إنّه يستطيع أن يقطع جناح حمامة تُحلّق فوقه. والآن بعد أن سمعت هذا، وأتكلّم عن وعيٍ ودراية، لم أتصور أنّه يستطيع أن يفعلِ ذلك. لم يكن صديقي السيد كارليل نفسه ليستطيع أن يقطع جناح حمامة من أي صنف، كنت على يقين من أنّه عاجز عن القيام بذلك، ولن أصدق أن توبي داميت قادر أن يفعل هذا. لذلك أخبرته، في كلمات كثيرة، بأنه ثرثار مُتبجّح، ولن يستطيع أن ينفذ ما يقول. وكان لدي سبب لهذا التحدي الذي ندمت عليه

---

(7) أندرو جاكسون (1767- 1845) الرئيس السابع للولايات المتحدة. [المترجم]

لاحقاً؛ لأنّه تقدم على الفور وعرض عليّ المُراهنة مع الشيطان على رأسه بأنه يستطيع أن يفعل ذلك.

كنت على وشك أن أرد، رغم تاكيداتي السابقة بشيءٍ يتعارض مع نواياه، حين سمعت سعالاً مُنخفضاً بالقرب من مرفقي، كان الصوتُ شبيهاً جدّاً بالتنحنح «إحم!» وذهلت، ونظرت حولي في استغراب. ووقع نظري أخيراً على ركنٍ مُنعزل من هيكل الجسر.. وقع على رجل عجوز ضعيف أعرج وقور. لا شيء يُمكن أن يكون أكثر مهابة من مظهره؛ لم يكن يلبس بدلة كاملة سوداء فحسب، وإنّما كان قميصه ناصع البياض والياقة مُلتوية في أناقة بالغة إلى الأسفل على ربطة عنقٍ بيضاء، بينما كان شعره مفروقاً على جبهته مثل شعر الفتيات. يداه مُطبقتان فوق بطنه وهو مُستغرق في التفكير، وعيناه تتدحرجان في حذرٍ على رأسه وهو ينظر [527]عالياً.

لما رأيته عن قرب أكثر، أدركت أنّه يتلفّع بمئزر حريري أسود فوق ملابسه الأُخرى؛ وكان هذا شيئاً تصوّرت أنّه غريب جدّاً. قبل أن يُتاح لي وقت لإبداء أي تعليق على ذلك المظهر المُستهجن، بادرني بنحنحة أُخرى «إحم!»

بإزاء هذا التصرف لم أكن على استعداد للرد فوراً. الحقيقة أنّ تعليقات من هذه الطبيعة المُقتضبة تكون غير قابلة للردّ. لقد قرأت مؤخراً مقالاً في مجلّة «كوارترلي ريفيو» حيّرني فيه حقّاً كل ذلك الهراء!. ولهذا لا أشعر بالخجل حين أقول: إنني لجأت إلى السيد داميت طلباً للعون.

«داميت»، قلت، «ما رأيك؟ ألا تسمع؟.. الرجل يقول إحم!» ونظرت في صرامة إلى صديقي بينما كنت أُخاطبه بتلك الكلمات؛ لأنّني، أقول الحق، أحسست بالارتباك على وجه التحديد، وحين يحسّ الرجل بالارتباك عليه أن يبدو مُقطّب الجبين وتظهر عليه علامات الصرامة، وإلا فمن المؤكد أنّه سوف يبدو مُغفّلاً.

«داميت»، هتفت وقد تنبّهت إلى شيءٍ أفزعني.. مع أنّ صوتي هُنا كان يُشبه التهديد والوعيد، بدلاً من أن يُعبّر عن أفكاري.. «داميت»، قلت.. «الرجلُ يقول: إحم!».

لا أنوي أن أدافع عن رأيي فأعتبره عميقاً؛ فأنا نفسي لا أعتقد أنّه رأي يمتاز بالعمق؛ لكنّي لاحظت أنّ تأثير مُحادثتنا لا يتناسب دائماً مع أهميتها في نظرنا نحن؛ لو كنت أطلقت على السيد د. قنبلة بايكزهان[8] مرة بعد مرة، أو ضربته على رأسه بكتاب «الشعراء والشعر في أمريكا»[9]، لما كان سينزعج أكثر من الوقت الذي خاطبته فيه بتلك الكلمات البسيطة: «داميت، ما رأيك؟.. الرجل يقول إحم!».

«لا تقل هذا؟» قال أخيراً وهو يلهث، بعد أن تحوّل لون وجهه أكثر مما يحدث لوجه قرصان تُطارده سفينة حربية. «هل أنت واثق كل الثقة أنه قال ذلك؟ حسناً، على كل حال سوف أُسوي الأمر الآن، وربّما أتعامل أيضاً بشجاعة. إليك إذن ..إحم!».

عند هذه النقطة بدا الرجل العجوز النحيف راضياً.. الله وحده يعرف السبب. ترك موضعه في الركن المُنعزل من الجسر، وقفز إلى الأمام في حركة أنيقة، وأمسك داميت من يده وهزها في مودّة، وكان ينظر طوال الوقت إلى وجهه نظرة حنونة صافية من المُستحيل على الإنسان أن يتخيّلها.

«أنا واثق كل الثقة أنّني سوف أربح، داميت»، قال الرجل وكان يبتسم ابتسامة هي الأكثر إيحاءً بالجدية والصراحة، «ولكنك مُضطر لتجرّب حظك، كما [528]تعلم، من أجل الشكليات فقط».

«إحم!» ردّ صديقي، ونزع معطفه، وتنهّد بصوت عميق، وربط منديل جيبٍ حول خصره، وتبدّلت ملامح وجهه على نحو لا تفسير له بأن زاغت عيناه وتهدّلت زوايا فمه.. «إحم!» ثم «إحم!» قال مرة بعد أُخرى، بعد أن صمت لَحظة؛ ولم ينطق بكلمة أُخرى غير «إحم!» لم أسمعه ينطق غيرها بعد ذلك.

(8) الجنرال هنري جوزيف بايكزهان (1783- 1854) اخترع نوعاً من القنابل التي تُستخدم في مدافع الميدان أثناء الحروب النابليونية. [المترجم]

(9) هذا الكتاب الشهير من تأليف ر. و. غريسولد ظهر سنة 1842. وكان يُعرف بالكتاب الكبير. [المترجم]

«آها!» فكّرت دون أن أعبّر عما في نفسي بصوت مسموع.. «هذا صمتٌ جدير بالانتباه حقّاً من جانب توبي داميت، لا شك أنّه من نتائج ثرثرته في مُناسبة سابقة. علامة تعجّب تُثير أُخرى. أتساءل إن كان نسي الكثير من الأسئلة التي لا إجابة لها تلك التي طرحها عليّ في طلاقة لسان في اليوم الذي ألقيت عليه فيه آخر مُحاضراتي؟ على كل حال، لقد شُفي وتخلّص من أفكاره المُتعالية».

«إحم!» هُنا ردّ توبي، كما لو أنّه كان يقرأ أفكاري، وكان يبدو عليه أنّه مثل خروفٍ مُسنّ يهيم في أحلام اليقظة.

أمسكه الرجل العجوز الآن من ذراعه، وقاده إلى مكانٍ قريب من الظل على الجسر.. على بُعد خطواتٍ من الباب المُنزلق. «يا رفيقي العزيز»، قال: «إنّها مسألة ضمير بالنسبة لي أن أسمح لك بهذا الشوط. انتظر لحظة، لأتّخذ مكاني عند السياج، حتى أتمكّن من أن أعرف أن كنت ستعبر فوقه برشاقة، وبحركة مُتسامية، وأنّك لن تهمل نتف ريشةٍ مُزهرة من جناح الحمامة. إنّها مُجرد شكليات، كما تعلم. سوف أقول: واحد، اثنان، ثلاثة، ثم تنطلق. أودّ أن أُنبهك، عليك أن تبدأ عند كلمة «انطلق». وهُنا اتّخذ موقعه كما لو أنّه مُستغرق في التفكير، ثم نظر عالياً، وتصورت أنّه يبتسم ابتسامة باهتة جدّاً، ثم ربط مئزره، ثم نظر نظرة طويلة إلى داميت، وأخيراً نطق بالكلمات التي اتّفق عليها..

واحد.. اثنان.. ثلاثة.. و.. انطلق!.

لدى سماع كلمة «انطلق»، وثب صديقي المسكين في الحال بقوة. لم يكن السياج عالياً جدّاً، مثل سياج السيد لورد[10].. ولا هو مُنخفض جدّاً، مثل مُراجعات السيد لورد، ولكنّي على الإجمال كنت واثقاً أنّه سوف يزيحه. ثم، ما الذي يحدث إن أخفق في ذلك؟.. آه، تلك هي المسألة.. ما الذي يحدث لو فشل؟ «كيف يحق»، قلت، «للرجل العجوز أن يجعل أي رجلٍ يقفز؟ ذلك العجوز النحيل الذي يعرج وهو يمشي! من يكون؟ لو طلب مني أن أقفز، فلن

---

(10) يُشير بو هُنا في سخرية إلى «قصائد» شاعر أمريكي هو وليم و. لورد نشرت في مجلّة برودواي سنة 1845. [المترجم]

أمتثل له، ذلك المُغفّل، ولست أُبالي لو كان الشيطان نفسه». كان الجسر، كما قلت، مُقوساً ومُسقفاً بطريقة سخيفة جدّاً، [529]ويسمع المرء دائماً أصداء صوته تتردد بشكل مُزعج حوله في الأوقات كافة.. صدى لم أنتبه إليه أبداً من قبل بهذا الوضوح كما انتبهت حين نطقت الكلمات الأربع في هتافي الأخير.

ولكن ما قلته، أو ما فكّرت فيه، أو ما سمعته، لم يستغرق أكثر من لحظة. خلال أقل من خمس ثوانٍ من نقطة البداية، كان صديقي المسكين قد قفز. رأيته يركض برشاقة، ويقفز بمهابة من أرضية الجسر، وهو يقطع المسافات المُرعبة بساقيه ثم يرتفع. رأيته يرتفع عالياً في الهواء، يُحلّق بجناحي حمامة بشكل مُثير للإعجاب تماماً فوق السياج؛ وطبعاً تصوّرت أنّ من الغريب أن لا يستمر في الطيران. لكن القفزة كلها لم تستغرق أكثر من لحظة، وقبل أن تتسنّى لي فرصة للتأملات العميقة، هبط السيد داميت مُنبطحاً على ظهره، على الجانب نفسه من السياج الذي انطلق منه. في اللحظة نفسها رأيت الرجل العجوز يجري وهو يعرج بأقصى سرعته، وكان يُمسك ويخفي تحت مئزره شيئاً سبق أن سقط بقوة في جنح الظلام الذي يلف قوس الجسر فوق الباب المُنزلق. استغربت لكل هذا الذي يحدث؛ لكن لم يكن لدي وقتٌ كاف للتفكير، لأنّ داميت كان لا يزال مُمدّداً ولا يتحرّك، واستنتجت أنّ معنوياته تحطّمت، وأنّه في وضع يحتاج فيه إلى مُساعدتي. أسرعت إليه ووجدته مُصاباً بما يُمكن أن يُسمى جرحاً خطيراً. الحقيقة أنّه كان مقطوع الرأس، وبعد بحثٍ طويل لم أعثر على رأسه في أي مكان؛ لهذا قرّرت أن آخذه إلى البيت وأرسل خبراً إلى «المُعالجين المثليين»[11]. في هذه الأثناء خطرت في ذهني فكرة، وفي الحال فتحت نافذة مُجاورة في هيكل الجَسر، حين تجلّت لي الحقيقة الصادمة الحزينة. على بعد خمسة أقدام تقريباً فوق قمة الباب الدوار، وعبر قوس الممشى هُناك سلك حديدي يُشكل جزءاً من دعامة، يمتدّ إلى مسافة بعيدة أُفقياً وهو واحد من سلسلة أسلاك تُستخدم في

(11) المُعالجة المثلية: مُعالجة الداء بإعطاء المُصاب جرعات صغيرة جدّاً من دواء لو أُعطي لشخص سليم لأحدث عنده مثل أعراض المرض المُعالج. [المترجم]

تقوية هيكل الجسر على امتداده. على حافّة هذه الركيزة بدا واضحاً أنّ عنق صديقي البائس ارتطم وانقطع رأسه.

لم يعش طويلاً بعد هذا الحادث الفظيع الذي أدّى إلى خسارة حياته. لم يُعطه المُعالجون المثليون ما يكفي من الأشياء القليلة التي يُعطونها كعلاج، وكان يتردّد في أخذ الشيء القليل الذي أعطوه إياه. لذلك، في نهاية الأمر تدهورت حالته، وأخيراً مات، وأعطى بذلك درساً لكل المُستهترين بحياتهم. كنت أبلّل قبره بدموعي، وعملتُ له شاهد قبرٍ يحمل شعار النبالة الخاص بعائلته، أما فيما يتعلق بالنفقات العامة لجنازته، فقد أرسلت قائمة ثمن مُتواضعة جدّاً إلى أصحاب الأفكار المُتعالية. [530]ورفض الأوغاد تسديدها، لذلك لجأت إلى نبش قبر السيد داميت فوراً، وبعت جسده كلحمٍ للكلاب.

إليونورا

«في ظل حماية من نوعٍ ما، تبقى الروح آمنة».

ريموند لولي[1]

أنتمي إلى عرقٍ معروف بالإيغال الوحشي في الأوهام وحماسة الانفعال المُلتهب. الناس يقولون عني: إنّني مجنون؛ لكن المسألة لم تُحسم بعد، سواءً كان الجنون هو الذكاء بعينه في أقصى حالاته تطرّفاً أم لا.. سواءً كان ذلك مبعثاً لزهو كثير.. سواءً كان عمقاً في الأحاسيس.. لا ينشأ عن مرض الأفكار.. من أنماط ذهنية مُتطرّفة على حساب التفكير السوي. أولئك الذين يحلمون في النهار يُدركون أشياء كثيرة تفلت من أولئك الذين يحلمون ليلاً. ضمن رؤاهم الرمادية الغامضة يلتقطون لمحاتٍ عن الأبدية، وينتفضون حين يفيقون، ليجدوا أنفسهم على حافة اكتشاف سرٍّ عظيم. في فتراتٍ كلمح البصر، يتعلّمون شيئاً من الحكمة عن جانب الخير، ويكتسبون معرفة بحتة أكثر من ذلك عن جانب الشر. إلّا أنّهم يخترقون في رحلتهم على زورقٍ بلا دفة، بلا بوصلة، المُحيط الشاسع لـ «ضوءٍ يفوق الوصف»[2]، ومرة أُخرى، مثلما يحدث في مُغامرات الجغرافي النوبي[3]..

(1) الاقتباس باللّغة اللاتينية في الأصل أخذه بو من رواية فيكتور هوغو «أحدب نوتردام» كما يُشير النقاد. [المترجم]

(2) اقتباس من «الفردوس المفقود» 5، 734. [المترجم]

(3) الجغرافي النوبي اسم يتكرّر في قصص بو وهو مؤلف كتاب تُرجم إلى اللاتينية بعنوان *Geographia Nubiensis* صدر في باريس، 1619، أي: كتاب الإدريسي (نزهة المُشتاق). [المترجم]

«واقتربوا من بحر الظلمات، ليكتشفوا أسراره..» *agressi sunt mare tenebrarum, quid in eo esset exploraturi*.

سوف نُسلّم جدلاً إذن أنّني مجنون. ولكنّي أؤكد على الأقل أنّ هُناك حالتين واضحتي المعالم من حالات وجودي العقلي.. التفكير العقلي المُشرق، وهي حالة لا جدال عليها، وتنتمي إليها ذكرياتي عن الحوادث التي شكّلت المرحلة الأُولى من حياتي.. وحالة الظلال والشك، وتتعلّق بالحاضر، وبذكريات عما يُشكّل المرحلة المُهمة الثانية لوجودي. ولذلك، فالأشياء التي سوف أرويها عن المرحلة الأُولى، عليكم التصديق بها؛ أما الأشياء التي ربّما أرويها عن الزمن اللاحق، فليس عليكم أن تمنحوها أكثر من الثقة التي ربّما تستحقها، أو ربّما عليكم أن تشكّوا فيها جُملة وتفصيلاً، وإن كُنتم لا تستطيعون الشك، إذن عليكم أن تستخدموا في حلِّ ألغازها عقدة أوديب.

تلك المرأة التي أحببتها في شبابي، والتي أسطر عنها الآن في هدوء ووضوح هذه الذكريات، كانت الابنة الوحيدة للأخت الوحيدة لأُمي التي رحلت عن الدنيا منذ زمن بعيد. اسم ابنة خالتي إليونورا. كنّا دائماً نعيش معاً، تحت شمسٍ استوائية، في أحد الوديان الذي يُسمى «وادي العشب مُتعدّد الألوان». ما من خطوات [531] ضالّة كانت تقتحم علينا خلوتنا على تلك الوهاد؛ لأنّ الوادي يمتدّ بعيداً مُخترقاً سلسلة من التلال العملاقة التي ترتفع وتزحف وتتلوّى هُنا وهُناك حوله، وبذلك فهي تحجب ضوء الشمس عن تعرّجاته الخلابة. ما من ممرّ سبق أن وطأته الأقدام في القرب؛ وللوصول إلى مسكننا السعيد، يكون من الضروري إزاحة الأغصان المُتشابكة بقوة لآلافٍ من أشجار الغابة، وسحق حتى المِمات العناقيد البهية لملايين الأزهار ذات الأريج الفواح. هكذا كنّا نعيش مُنعزلين، لا نعرف شيئاً عن العالم خارج نطاق الوادي.. أنا، وابنة خالتي، وأمها.

من المناطق التي تلفّها الظلمة، من وراء الجبال التي على الطرف الأعلى لمنطقتنا التي تحيطها أسوار طبيعية، يتسلّل نهرٌ ضيق عميق الغور، لونه أكثر إشراقاً من كل شيء باستثناء عيني إليونورا؛ يتلّوى النهر خلسة هُنا وهُناك في

مسارٍ أفعواني، ومن ثم يعبر من خلال ممرّ ضيق قاتم، وسط التلال يُصبح أكثر قتامة ممّا كان عليه عند المنبع. لقد اعتدنا أن نُسميه «نهر الصمت»[4]؛ لأن يبدو أنّ ثمّة تأثيراً يجعل من يراه يصمت أثناء تدفّقه. ما من دمدمة تظهر عليه في حوضه، وهو يتجوّل في رقة وعذوبة ويشق طريقه، بحيث كنّا نحب رؤية حصى مثل اللؤلؤ تحت مياهه، في مكان عميق على قيعانه، لا تتملْمل من أماكنها على الإطلاق، لكنها تستقر هُناك في وضعٍ ساكن، كل واحدة منها تبقى في موقعها القديم، تُرسل لمعاناً مُبهراً إلى الأبد.

حافة النهر، وحافات كثير من الجداول التي تُبهر العين وهي تنزلق في مُراوغة نحو القناة التي تصبّ فيها، فضلاً عن الفضاءات التي تمتد من الحافات وصولاً إلى أعماق الجداول حتى تصل إلى الحوض المُغطى بالحصى في القاع.. هذه البقع، التي تنتشر على سطح الوادي كله، ابتداء من النهر إلى الجبال التي تطوّقه كالحزام، كانت مفروشة ببساط من الأعشاب الخضراء الناعمة، أعشاب سميكة، قصيرة، مُستوية جدّاً، عطرها عطر الفانيلا، مع أنّها مُرقّطة في أرجائها بأزهار الحوذان الصفراء، وزهور الربيع البيضاء كاللؤلؤ، والبنفسج الأرجواني، والبرواق الحمراء كالياقوت، وجمالها الفائق الخلاب يُناجي قلوبنا بنغمات عالية، يتكلّم عن الحب ومجد الله.

هُنا وهُناك، في أخاديد بين هذه الأعشاب، كما في براري الأحلام، تبرز شجيرات رائعة كأنما تخلقها الأوهام، جذوعها طويلة نحيفة لا تمتد في استقامة إلى الأعلى، لكنها تنحرف في حركاتٍ رشيقة باتّجاه الضوء الذي يتسلّل عند الظهيرة مُخترقاً طريقه إلى مُنتصف الوادي. منظر الأشجار مُرقّط في تدرّج لوني مُتألق حيوي يتباين بين ألوان الأبنوس والفضة، وهي أكثر رقة من كلّ شيء اللّهم إلا خدي إليونورا؛ هي الأكثر رقة، باستثناء الاخضرار الرائع للأوراق الضخمة التي تنتشر على قمم الأشجار في خطوط طويلة، مُرتجفة، تتلاعب مع

---

(4) نهر الصمت يرمز إلى السر العميق الذي يُحيط بالحياة ويُسميه الشاعر كوليردج نهر «ألف» الذي يجري بحركة مُتموّجة في قصيدته قبلاي خان. [المترجم]

زفيروس[5]، حتى ربما يخالها المرء ثعابين سوريا العملاقة وهي تؤدي طقوس الولاء لمولاتها الشمس.

يداً بيد كنّا نجوب الوادي، طوال خمسة عشر عاماً، أنا وإليونورا قبل أن [532]يُداعب الحب قلبينا. وكان ذات مساء، بعد أن بلغت الخامسة عشرة من عمرها، وكنت أنا في العشرين، حدث أن جلسنا، وعانق أحدنا الآخر عناقاً حارّاً، تحت ظلال الأشجار الأفعوانية، ونظرنا إلى مياه نهر الصمت، إلى صورنا التي تنعكس عليها. لم ننطق بأي كلمة خلال ما تبقّى من ذلك اليوم الجميل، وكانت كلماتنا حتى في اليوم اللاحق مُتهدّجة قليلة. سحبنا إله الحب إيروس معه إلى تلك الموجة الهوجاء، والآن أحسسنا بأرواح أسلافنا الغابرين تضرم النار في جوانحنا. نيرانُ العواطف التي انطفأت وخمدت منذ قرون عن بني جنسنا تتأجّج بخيالاتهم جميعاً، تنفث البهجة على وادي الأعشاب مُتعدّدة الألوان. طرأ تغير على الأشياء كلها. الأزهار الغريبة المُتألقة، التي تُشبه النجوم المُشتعلة على الأشجار لم تكن تلك الأزهار التي كنّا نعرفها. ألوان البساط الأخضر المُتباينة ازدادت عمقاً؛ وحين انكمشت أزهار اللؤلؤ البيضاء وتلاشت واحدة بعد واحدة، ظهرت مكانها عشرة ثم عشرة من أزهار البرواق الياقوتية. وانبعثت الحياة في ممرّاتنا المألوفة؛ لأنّ طائر الغواص الطويل، وكان حتى ذلك الوقت مُختفياً عن الأنظار، مع أنواع الطيور المُبهجة بألوانها البراقة، راح يُرفرف ويزهو بريشه القرمزي أمام عيوننا. وكانت الأسماك الذهبية والفضية تغزو النهر، ومن الأحضان التي تنطلق منها، شيئاً فشيئاً، تصدر دمدمة تتحول أخيراً إلى لحن هدهدة أكثر قداسة من قيثارة إله الريح إيولوس.. أعذب من كل شيء باستثناء صوت إليونورا. والآن أيضاً، طافت سحابة هائلة، كنا منذ زمنٍ طويل نُراقبها مع نجمة المساء هيسبيروس، فوق رؤوسنا آتية من ذلك المكان، كل شيء فيها رائع الجمال مُزين بلون قرمزي وذهبي، واستقرّت بسلام فوقنا، وكانت تغطس، يوماً بعد يوم، وتنخفض أكثر فأكثر، حتى جثمت حافاتها على قمم الجبال، فتحوّلت عتمتها إلى

(5) زفيروس: إله الدبابير أو الريح الغربية عند اليونانيين القدماء. [المترجم]

منظر خلّاب، وأغلقت علينا كل الجوانب، كما لو إلى الأبد، ضمن مُعتقلٍ سحري من البهاء والمجد.

كان جمال إليونورا الفتان يُضاهي جمال الملائكة؛ إلا أنّها عذراء ساذجة بريئة مثل الحياة القصيرة التي عاشتها بين الأزهار. لم تكن تضع قناعاً من المكر لتخفي وهج الحب الذي في قلبها، وكانت تُعبّر لي عن فضاءاته العميقة ونحن نمشي معاً عبر وادي الأعشاب ذات الألوان المُتعددة، وتتحدّث عن التغيرات العظيمة التي وقعت في قلبها مؤخراً.

وأخيراً، بعد أن تكلّمنا ذات يوم، أو تكلّمت دموعنا، عن التغير الحزين الأخير الذي لا بُدّ أن يحلّ بالإنسانية، صارت منذ ذلك الوقت تُكرّر كلامها عن هذا الموضوع المُحزن فلا تتطرّق إلى غيره، وتقحمه في جميع أحاديثنا، كما يحصل في [533]أغاني شاعر شيراز[6]، الصور نفسها تأتي وتتكرّر، مرة بعد مرة، في كل تباينٍ مؤثر يطرأ على العبارة.

كانت ترى أنّ أصابع الموت تجثم بثقلها على صدرها.. وأنّها، مثل حشرة لا تعيش أكثر من يومٍ واحد في مرحلة النضج، بعد أن أبلت بلاءً حسناً في الغرام ليس لشيء إلا لكي تموت؛ إلّا أنّ مصادر الرعب من القبر الذي يجثم هُنا قريباً منها تجلّت لها وحدها في رؤيا لم تبح بها لأحد غيري، ذات مساءٍ مع الغروب، على ضفاف «نهر الصمت». كانت تشعر بالغمّ لأنّها تُفكّر، بعد أن أواريها الثرى في وادي الأعشاب المُلونة، سوف أترك إلى الأبد التأمل في فضاءاته السعيدة، وانتقل من الحب الذي كان حتى الآن مُكرّساً لها وحدها بهذا الإخلاص إلى امرأة أُخرى من العالم الخارجي المُبتذل. وكنت آنذاك ألقي نفسي بين الحين والحين على قدمي إليونورا، وأهتف بها وأقسم لها بحياتها وبالسماء، على أنني أبداً لن أسمح لنفسي بالزواج من أي فتاة على الأرض.. أقسمت لها

(6) شمس الدين حافظ الشيرازي سُمي كذلك لحفظه القرآن الكريم عن ظهر قلب وكان في خمرياته وغزله يُعبّر عن فلسفته الخاصة في العشق الصوفي، توفي سنة 1389. [المترجم]

أنني لن أثبت أنّني خائن بأي شكل من الأشكال لذكراها العزيزة على قلبي، أو خائناً لذكرى الحب المُخلص الذي باركتني به. ودعوتُ العلي القدير المُهيمن على الكون أن يكون شاهداً على صدق وتقوى قسمي. وكانت اللعنة التي طلبت من الله تعالى ومنها هي، قدّيسة الجنة، أن يُنزلها إذا أثبتت حنثي بذلك القسم، تتضمّن عقوبة تتخطّى كل أنواع الرّعب العظيمة التي لن أسمح لنفسي هُنا بالتطرّق إليها. وازدادت عينا إليونورا المُشرقتين تألقاً بعد كلماتي؛ وتنهّدت كما لو أنّ ثقلاً قاتلاً أُزيح عن صدرها؛ وارتعشت أوصالها وأخذت تنتحب بمرارة شديدة؛ لكنها تقبّلت العهد، (فما هي إلّا طفلة؟) وجعل هذا الأمر سهلاً عليها تقبّل الموت على سريرها. وقالت لي، بعد أيامٍ ليست كثيرة، وهي تواجه سكرات الموت، إنّها بسبب ما فعلته أنا من أجل راحة روحها سوف تحرسني بتلك الروح حين ترحل عن الدنيا، وإذا حصل أن سُمح لها بالعودة إليّ بصورتها الحالية فهي سوف تحرسني ليلاً؛ ولكن إذا كان هذا الشيء خارج قدرة الأرواح في الفردوس، فهي على الأقل ستُعطيني علامات مُتكررة على حضورها، أن تتنهّد فوقي مع هبوب نسمات المساء، أو تملأ الهواء الذي أتنفّسه بالعطر الذي تأخذه من مبخرات الملائكة. بهذه الكلمات على شفتيها، أسلمت روحها البريئة وانتهت فصول حياتها، ووضعت نهاية للمشهد الأول من حياتي.

إلى هذا الحد، لم أقل إلا الصدق. ولكن بينما كنت أجتاز حواجز الزمن، وأبدأ المسار الذي تشكل بموت حبيبتي، وبينما كنت أمضي في الطور الثاني من وجودي، كنت أشعر بأن هُناك ظلّاً يتجمّع في ذهني، وصارت الشكوك تُساورني في مدى صدق الحوادث. ولكن دعوني أُكمل.. كانت السنوات تُجرجر أذيالها وتمضي في تثاقل، ومع ذلك بقيت أسكن ضمن أكناف وادي الأعشاب مُتعدّدة الألوانَ؛ ولكن حدث تغير ثانٍ على الأشياء كلها. انكمشت الأزهار التي تتّخذ شكل النجوم وغارت [534]بين جذوع الأشجار، ولم تظهر بعد ذلك. وألوان البساط الأخضر بهتت؛ وأزهار البرواق الياقوتية ذبلت، واحدة بعد واحدة وتلاشى أثرها؛ وظهرت مكانها عشرة ثم عشرة من زهرات البنفسج القاتمة كأنّها العيون العمياء، كانت تتلوّى وتضطرب ومُثقلة بالندى على الدوام. واختفت

الحياة عن الممرّات التي كنّا نتجوّل عليها؛ لأنّ طائر البشروس الطويل الساقين لم يعُد يرفل مزهوّاً بريشه القرمزي أمامنا، ولكنه كان يُحلّق في حركةً حزينة من الوادي الصغير نحو التلال، مع كل الطيور المُبتهجة الزاهية الألوان التي وصلت معه. ولم تعُد الأسماك الذهبية والفضية تسبح عبر الممر الضيق على الطرف الأدنى من حقولنا وتزين النهر الجميل. واللحن المُهدهد الذي كان أعذب من قيثارة الريح التي يعزف عليها إيولوس، وأكثر قداسة من كل شيء باستثناء صوت إليونورا، تبددت أصداؤه شيئاً فشيئاً حتى اختفت، وتحولت إلى دمدمات مُنخفضة أكثر فأكثر، ثم عاد الجدول بصورة نهائية إلى سكونه ووقاره وصمته القديم. وبعد ذلك ارتفعت سحابة هائلة، تركت قمم الجبال الشاهقة وعادت إلى قتامتها الماضية، وسقطت ظلالها من جديد على مناطق هيسبيروس، وانتزعت كل أسباب المجد الذهبي والتألّق المُتشعّب الانعكاسات من وادي الأعشاب مُتعددة الألوان.

إلّا أنّ الوعود التي أُعطيت إلى إليونورا لم يطوها النسيان؛ لأنّي كنت أسمع أصوات تأرجح البخور الذي ترسله الملائكة؛ وأتلمّس تيارات من الأريج المُقدس تطفو مرة بعد مرة إلى الأبد حول الوادي؛ في ساعات العزلة، حين يخفق قلبي بقوة، كانت الريح التي تُداعب جبهتي تأتي مُحمّلة بتنهدات رقيقة؛ وتمتمات غامضة تملأ جوف الليل في كثير من الأحيان، وذات مرة.. أوه، لكنّها مرة واحدة! استيقظت من نومي العميق، كأنّها كانت إغفاءة الموت، لأسمع ضغط شفتين روحانيتين تلثمان شفتي.

لكن الفراغ الذي ملأ قلبي كان يأبى، وأنا في تلك الحالة، يأبى أن يملأه شيء. كنت أشتاق إلى الحب الذي كان يملأ قلبي حتى يغمره. وأخيراً أصبح الوادي يُسبب لي الألم من الذكريات التي يبثها عن إليونورا، فتركته إلى الأبد ولجأت إلى أماكن أُخرى من العالم تزهو وتتبجّح بالغرور.

* * *

وجدت نفسي في مدينةٍ غريبة، كل شيء فيها ربما يُسهم في تلويث

الذكريات عن الأحلام العذبة التي رأيتها منذ زمن بعيد في وادي الأعشاب مُتعدّدة الألوان. المواكب والمهرجانات المليئة بالأُبهة الفارغة وهي تجوب الميادين الفخمة، وصلصلة الأسلحة التي تُثير الجنون، وجمال وبهاء النساء اللواتي يرفلن بالبهجة، تُربكني وتُخدّر عقلي. ومع ذلك أثبتت روحي ولاءها إلى العهد الذي قطعته، ولم [535]تزل علامات على حضور إليونورا تراودني خلال ساعات الصمت ليلاً. وفجأة توقّفت هذه التجليات، وتسربل العالم بالظلام أمام عيني، ووقفت شاحباً بإزاء الأفكار المُتأججة التي استولت على خيالي، والإغراءات المُرعبة التي أقضّت مضجعي؛ فقد جاءت من أرض بعيدة، بعيدة جدّاً غير معروفة، إلى قصر الملك الحبور الذي أخدم عنده، سيدة سرعان ما استسلم قلبي الخائن لجمالها الأخّاذ الذي أسرني في الحال.. ووجدت نفسي أجثو عند قدميها وهي تجلس على كرسيها دون مُقاومة، وأعبر في أقصى اشتياق، في أقصى خسّة عن الولاء للحب. أي شيء كانت عاطفتي لفتاة الوادي بالقياس إلى هذه اللهفة، والهذيان، والنشوة التي تجعل الروح تنتفض من فرط الهيام، وأنا أسكب فيها روحي مع الدموع عند قدمي أرمينغارد الأثيرية؟.. أوه، كم كان مُشرقاً ملاكي الحارس أرمينغارد! ومن خلال تلك الحقيقة لم يكن في قلبي مكانٌ لغيرها.. أوه، كم كانت ملاكاً مُقدساً أرمينغارد! وبينما كنت أنظر إلى أعماق عينيها اللتين توقظان الذكريات، لم أكن أُفكر في شيء إلا بهما.. وبها هي.

وتزوجنا.. ولم أكن أخشى اللّعنة التي أثرتها؛ تلك اللّعنة التي لم أذق مرارتها بعد. وذات مرة.. لكنّها، مرة أُخرى، في سكون الليل؛ اقتربت من شعرية نافذتي أصوات تنهدات رقيقة كانت قد هجرتني؛ وامتزجت بهمس مألوف عذب، وهيَ تقول:

«أرقد بسلام!.. لأنّ روح الحب هي التي تحكم، وحين أخذتها إلى قلبك المُرهف، تلك التي تُسمّى أرمينغارد، فذنبك مغفور، لأسباب سوف يُكشف الستار عنها لك في السماء، عن تعهداتك لاليونورا».

ثلاثة أيام أحد في أُسبوع

«أيها العجوز المُتحجّر الرأس، المُتعجرف، الصلف، العنيد، الطائش، [536] المُتعفن، المُتخلف، المُتوحش!» قلت في أوهامي، عصر يومٍ من الأيام، موجّهاً كلامي إلى عمي العجوز رمغودجيون.. وكنت ألوح بقبضتي فيٍ وجهه.. في الخيال.

.. في الخيال فحسب. الحقُّ أنّ بعض سوء التفاهم حول أشياء تافهة كان يفصل ما بيننا فعلاً، في ذلك الوقت تماماً، يفصل بين ما قلته وبين ما لم أملك الشجاعة على قوله.. بين ما فعلته وما لم أدرك تمام الإدراك أنّني فعلته.

كان خنزير البحر العجوز، حين فتحت باب غرفة الاستقبال، يجلس وقد وضع قدميه على رفّ الموقد، وبين براثنه كأساً مُترعة بالنبيذ، وكان فيما يبدو يبذل جهداً مُضنياً لإكمال أُغنية قصيرة. «إملأ كأسك الفارغة من جديد.. وافرغ كأسك الملآنة».

Remplis ton verre vide!

Vide ton verre plein!

«عمي العزيز»، قلت، وأنا أغلق الباب في لطف، وأدنو منه وقد ارتسمت على فمي أكثر الابتسامات دماثة، «كنت دائماً حنوناً جدّاً ومُراعياً حريصاً على مشاعري، وقد أظهرت إحسانك لي بشتّى الطرق.. بطرق كثيرة جدّاً.. بحيث.. بحيث أشعر بما يكفي من الجرأة لأن.. فقط أن أطرح عليك هذه المسألة الصغيرة مرة أُخرى لكي أتأكد من مدى تقبلك لها».

«هم..م!» قال، «أنت ولدٌ طيب! تابع كلامك!».

«إنني على ثقة، يا عمي العزيز (أيّها النذل العجوز المُختل!)، أنّك لا تنوي حقّاً، بجدية، أن تُعارض زواجي من كيت. هذه مُجرّد مزحة منك، أعرف ذلك.. ها! ها! ها!.. كم أنت مُمتع جدّاً في بعض الأحيان!».

«ها! ها! ها!» قال، «عليك اللعنة! نعم!».

«إذا أردت الصدق.. طبعاً! كنت أعرف أنك تمزح. والآن، يا عم، كل ما ترغب فيه كيت وأنا نفسي حالياً، أن تمنّ علينا بنصيحتك في.. فيما يتعلّق بالوقت ..كما تعلم، يا عماه.. باختصار، متى يكون أفضل وقت مُناسب بالنسبة إليك، أن يتحدّد موعد الزفاف.. أن ننهي هذه المسألة، كما تعلم؟».

«تنهي، أيها الوغد!.. ماذا تقصد بذلك؟.. عليك أن تنتظر حتى تبدأ أولاً».

«ها! ها! ها!.. هيه! هيه! هيه!.. هاي! هاي! هاي!.. هوه! هوه! هوه!.. هو! [537]هو! هو!.. ذلك جيد!.. أوه شيء رائع ..يا لها من لمحة ذكية! ولكن كل ما نريده منك الآن، كما تعلم، يا عم، أن تتلطف بتحديد الموعد بدقة».

«آه! بدقة؟».

«نعم، يا عم.. أي، إذا كان الأمر مُناسباً لك».

«ألا يُلبي طلبك، بوبي، أنّني تركت ذلك إلى أجل غير مُسمّى.. ربّما سنة أو نحو ذلك، مثلاً؟ ..هل ينبغي عليّ تحديد الموعد بدقة؟».

«*إذا* سمحت، يا عم.. بدقة».

«حسناً، إذن، بوبي، يا ولدي.. أنت إنسان طيّب، أليس كذلك؟.. ما دمت تُريد أن تعرف الموعد بدقة، سوف.. ولكني، أطلب منك شيئاً واحداً».

«عمي العزيز!»

«صه، سيدي!» (هُنا اختفى صوتي).. «أطلب منك شيئاً. سوف تحصل على موافقتي ..ومبلغ الميراث، يجب ألّا ننسى الميراث.. دعنا نرى! متى يكون

الموعد المُناسب؟ اليوم هو الأحد.. أليس كذلك؟ حسناً، إذن، سوف تتزوّج على وجه التحديد ..بدقة، والآن انتبه! ..حين تأتي ثلاثة أيام آحاد معاً في أُسبوع! هل تسمعني، يا سيد! لماذا تفتح فمك؟ أقول، سوف تحصل على كيت وميراثها عندما يأتي ثلاثة آحاد معاً في الأسبوع.. ولكن ليس قبل ذلك.. أنت أيّها الوغد الصغير ..ليس قبل ذلك، ولو على جثتي. أنت تعرفني ..أنا رجل ألتزم بكلمتي.. والآن أغرب عن وجهي!» وهُنا ازدرد جرعات كبيرة من النبيذ، بينما اندفعت من الغرفة واليأس يعصر قلبي.

كان عمي رمغودجيون «إنكليزياً عجوزاً رائعاً جدّاً»، ولكن على عكس نظيره في الأغاني، كانت له نقاط ضعفه. كان قصير النفس بعض الشيء لبدانته، منظره يتّسم بالأبهة، سريع الغضب، مُفلطح البنية، فمه أحمر اللون، وجمجمته سميكة، يزم شفتيه حتى ليبدو فمه مثل جزدانٍ طويل، ولديه إحساسٌ قوي بأهميته. في صدره أفضلُ قلبٍ في العالم، واستطاع من خلال نزوة مُهيمنة من التناقض، أن يكسب لنفسه، وسط أولئك الذين كانوا يعرفونه سطحياً، شخصية العجوز ذي الطبع الحاد. مثل غيره من الناس الرائعين الكثيرين، يبدو أنّه كانت تسكن ضميره روح تعذيب المُقابل له ومشاكسته، وربما كان من السهولة أن يُخطئ المرء، في نظرة عابرة، فيظنها حقداً. ردّاً على أي طلب، تأتي كلمة «لا!» بصورة مؤكدة جازمة كردٍّ مباشر منه، ولكن في النهاية.. على الأمد البعيد، البعيد.. تبقى قليل جدّاً من الطلبات التي يرفضها. ردّاً على كل الهجمات على جزدان نقوده كان يُبدي أكثر أنواع الدفاع ثباتاً؛ ولكن مقدار الأموال التي تغتصب منه، في النهاية، تستحقّ على كل حال المدة [538]التي استغرقتها المُثابرة على الحصار والمُقاومة. في أعمال البر والإحسان، لا أحد يجود أكثر منه بروحٍ سمحة أو رحمة يُحاول كبتها على مضض.

فيما يتعلّق بالفنون والآداب، وخاصة كتابة الرسائل، كان يضمر لها احتقاراً عميقاً. في هذا الشأن كان يستلْهم كاسيمير بيرير[1]، الذي كثيراً ما اعتاد

---

(1) كاسيمير بيرير: (1777- 1832) سياسي فرنسي ورئيس وزراء 1832 في فترة حكم لويس فيليب. [المترجم]

أن يقتبس سؤاله القصير بلسان سليط: «لأي شيء مُفيد يصلح الشاعر؟»A quoi un poete est il bon? كثيراً ما اعتاد أن يقتبسه ويستشهد به، ويتلقّظه بطريقة مُضحكة جدّاً، على أنّه الحكمة المنطقية التي لا تُضاهيها حكمة. لذلك أثار تلميحي الخاص إلى ربات الفنون امتعاضه الشديد. وأكّد لي ذات يوم، حين سألته عن نسخة جديدة من أعمال هوراس، أنّ ترجمة عبارة «الشاعر يُولد، ولا يُصنع» *Poeta nascitur non fit* تُعبّر عن «شاعر بذيء لا يُصلح لشيء».. وهي مُلاحظة نظرتُ إليها في شيءٍ من الحنق. لقد تفاقم اشمئزازه من «الإنسانيات» أيضاً في الآونة الأخيرة، بسبب تحيّز عرضي لما أعتبره حقل العلوم الطبيعية. شخصٌ ما التقى به مُصادفة على الطريق، وظنّ خطأ أنّه لا يقلّ مكانة عن الدكتور دبل ل. دي، المُحاضر في فيزياء الشعوذة. هذه المُصادفة دعته فوراً إلى انحراف جذري؛ وفي الفترة التي حدثت فيها هذه القصة.. فمن الأفضل أن تكون هذه قصة على كل حال.. كان عمّي رمغودجيون يتّسم بسهولة الانقياد والسلاسة بشأن الأمور التي تحدث بما يتوافق مع تداعيات الموجة التي يركبها. أثناء ما تبقّى من الوقت، وجدته يضحك مُحرّكاً ذراعيه وساقيه، وكانت العلامات التي من السهولة فهمها على مزاجه هي العناد الذي لا يلين. كان يعتقد، مثله مثل هورسلي[2]، أنّ «الناس لا علاقة لهم من قريبٍ أو بعيد بالقوانين سوى أن يمتثلوا لها».

كنت أعيش مع الرجل العجوز طوال حياتي. كان والداي قبل أن يتوفيا قد أوصيا بأن أبقى معه كوديعة غالية، وكنت أتصوّر أنّ الوغد العجوز يحبني كطفل له.. تقريباً، إن لم يكن كما يحب ابنته كيت تماماً.. ولكنّه كان يُعاملني مثلما يُعامِل الكلب، على كل حال. منذ أن كان عمري سنة واحدة حتى بلغت الخامسة، اعتاد أن يجلدني بالسوط على وجبات مُنتظمة. ومن الخامسة إلى الخامسة عشرة، كان يُهددني، من ساعة إلى ساعة، بأن يرسلني إلى دار

---

(2) صموئيل هورسلي: (1733- 1806) أسقف روشيستر في ذلك الوقت أبدى مُلاحظته المُشار إليها في مجلس اللوردات سنة 1795 لدى مُناقشة قانون الإجراءات بشأن أنواع من الخيانة. [المترجم]

الإصلاح. ومن الخامسة عشرة إلى العشرين، لم يمضِ يومٌ لم يتوعدني فيه بأن يقطع عني كل شلنٍ من مصروفي. كنت مثل كلبٍ بائس، هذا صحيح.. ولكن في ذلك الوقت كان الأمر جزءاً لا يتجزّأ من طبيعتي.. هذه مسألة لا بُدّ من الاعتراف بها. أما كيت، فقد عقدتُ معها صداقة قوية، كنت أعرف أنّها صديقتي التي تقف إلى جانبي. إنّها فتاة طيبة، وأخبرتني بصوتها العذب أنّني يُمكن أن أحصل عليها (ميراثها وكل شيء) إذا ما نجحت في إقناع عمي رمغودجيون وأصررت عليه حتى يُعطي موافقته الضرورية. يا لها من فتاة مسكينة!.. بالكاد بلغت الخامسة عشرة، ودون هذه الموافقة، فإنّ نصيبها الضئيل في الثروة لن يكون مُتاحاً حتى تمضي خمسة فصول صيفٍ لا نهاية لها «تُجرجر أذيالها الطويلة البطيئة». ما الذي أفعله إذن؟ سواءً كانت في الخامسة عشرة، أو حتى في الحادية والعشرين (لأنّي تجاوزت الآن أولمبيادي[3] الخامس) فخمس سنوات مُنتظرة مدة طويلة جدّاً كأنّها خمسمائة سنة. وحاولنا عبثاً التوسل إلى الرجل [539]العجوز بشتى الذرائع والحجج. هُنا كان يبدي بعض قطع المُقاومة (مثلما يُسميها السيد أودي والسيدة كارمي[4] بما يتناسب مع خياله المُنحرف. من شأن ذلك أن يُثير سخط جوبيتر نفسه، أن يرى المرء كم كان ذلك الجرذ العجوز يتصرّف معنا في خبثٍ نحن الفأرين الصغيرين المسكينين. لم يكن في أعماق قلبه يرغب في شيءٍ ويتحمّس إليه أكثر من ارتباطنا. وكان قد وطّد عزمه على هذا منذ زمن بعيد. في حقيقة الأمر، كان سيُعطي عشرة آلاف باوند من جيبه الخاص (فثروة كيت لها وحدها) لو استطاع ابتكار أي ذريعة تتماشى مع تحقيق رغباتنا الطبيعية جدّاً. ولكن في ذلك الوقت رأينا أنّ من الحماقة اقتراح الموضوع بأنفسنا. أن لا يُعارض الأمر في مثل هذه الظروف، أعتقد مُخلصاً، فذلك ليس في قدرته.

---

(3) الأولمبياد فترة أربع سنوات تفصل ما بين مهرجان من مهرجانات الألعاب الأولمبية وآخر عند الإغريق. [المترجم]

(4) لويس أوستاش أودي وماري أنطوان كارمي من الكتّاب الفرنسيين الذين اشتهروا بتأليف كتب الطبخ الذائعة الصيت في زمن بو. [المترجم]

قلتُ قبل الآن إنّ لدى الرجل نقاط ضعفه؛ ولكن إذا تكلّمنا عن هذه النقاط، يجب ألا يُفهم أنّني أُشير إلى عناده: فهذا من نقاط قوته، «بالتأكيد ليست تلك نقطة ضعفه». . assurement ce n' etait pas sa foible وحين أتطرّق إلى ضعفه فأنا ألمح إلى إيمانه بخرافة من الخرافات السخيفة للنساء العجائز طالما كانت تُزعجه. كان رجلاً خبيراً بالأحلام، والأيمان بالمُعجزات، وكل تلك الأشياء. . *et id genus omne of rigmarole* . كان موسوساً أيضاً فيما يتعلّق بنقاط صغيرة عن الشرف، وبطريقته الخاصة، كان رجلاً يلتزم بكلمته، لا شكّ في ذلك. هذه في الواقع إحدى هواياته. من حيث روح وعوده التي يُعطيها، لم يبذل مُحاولة للتشكيك فيها أو تفنيدها، ولكن المعنى الحرفي رباط لا ينتهك. والآن هذه النزعة الغريبة الأخيرة في طباعه، هي التي استغلتها كيت ببراعة وتمكّنا في أحد الأيام المُشرقة، ولم يمضِ وقتٌ طويل على مُقابلتنا في غرفة الطعام، أن نستفيد منها بشكل غير مُتوقّع، ولهذا تصرفنا على غرار كل الشعراء والخطباء المُحدثين، وهم مُنهمكون في مُقدّماتهم النقدية، طوال الوقت تحت سيطرتي، ويكاد يكون كل الوقت ملكاً لي، هُنا سوف ألخّص في بضع كلمات ما يُشكّل لب القصة كلها.

حدث في ذلك الوقت.. هكذا شاءت الأقدار.. أن كان من بين معارف خطيبتي الذين يشتغلون في البحرية، رجلان قد نزلا منذ وقت قريب على سواحل إنكلترا، بعد غياب سنة كاملة، كان كلّ منهما خلالها في رحلة إلى بلاد أجنبية. برفقة هذين الرجلين، قمنا أنا وابنة عمي بزيارة سبق التنسيق لها إلى العم رمغودجيون عصر يوم أحد، في العاشر من تشرين الأول.. بعد ثلاثة أسابيع من القرار التاريخي الذي أحبط آمالنا. لمدة تقرب من نصف ساعة من الحوار الذي تطرّقنا فيه إلى مواضيع عادية، أخيراً تمكّنّا بصورة طبيعية جدّاً من إجراء التحوّل التالي:

الكابتن برات: «حسناً، كنتُ غائباً لمدة سنة كاملة.. سنة مضت حتى هذا [540]اليوم الذي نحن فيه.. دعوني أرى! نعم!.. هذا اليوم العاشر من تشرين الأول. تتذكّر سيد رمغودجيون أنّني زرتك في هذا اليوم من السّنة الماضية لكي

أودّعك. بالمُناسبة، كما لو كانت فعلاً مُصادفة، ألا.. أليس صديقنا الكابتن سميثرتون هُنا كان غائباً منذ سنة أيضاً.. سنة مضت حتى الآن!»

سميثرتون: «نعم! إنها سنة وقليل. لا بُدّ أنّك تتذكّر، سيد رمغودجيون، أنّني زرتك مع الكابتن براتول في هذا اليوم تحديداً من السَّنة الماضية، لكي أودعك بما يقتضي من واجب الاحترام».

العم: «نعم، نعم، نعم.. أتذكّر ذلك جيداً.. يا له من أمر غريب حقّاً! كلاكما رحل قبل سنة تماماً، يا لها من مُصادفة غريبة، حقّاً! كما يُسميها الدكتور دبل ل. دي بأنّها تزامن غير عادي للحوادث. الدكتور دبل..».

كيت (تقاطعه): «من المؤكد، بابا، أنّه شيء غريب؛ لكن في ذلك الوقت الكابتن برات والكابتن سميثرتون لم يذهبا معاً إلى الجهة نفسها، وذلك يشكل فرقاً، كما تعلم».

العم: «لا أعرف شيئاً عن ذلك، يا للغرابة! وكيف لي أن أعرف؟ أعتقد أنّ هذا يجعل الأمر عجيباً أكثر، الدكتور دبل ل. دي..».

كيت: «عجباً، بابا، الكابتن برات ذهب حول كيب هورن، والكابتن سميثرتون دار حول رأس الرجاء الصالح مرتين».

العم: «ذلك ما حدث بدقة!.. أحدهما ذهب شرقاً والآخر غرباً، أيتها المهرة الهزيلة، وكلاهما يكون قد دار حول العالم. بالمناسبة، الدكتور دبل ل. دي..».

أنا (قاطعته سريعاً): «كابتن برات، يجب أن تأتي لتمضي المساء معنا غداً.. أنت وسميثرتون.. في وسعك أن تُخبرنا عن رحلتك، ويُمكن أن نلعب ورق الشدّة و..».

برات: «ورق الشدّة، يا رفيقي العزيز.. لقد نسيت. غداً يوم الأحد. ربّما في مساء يوم آخر..».

كيت: «أوه، لا، يا للعار!.. روبرت الأمر ليس سيئاً إلى هذا الحد. اليوم هو الأحد».

العم: «إذا أردتم الدقة.. إذا أردتم الدقة!».

برات: «أرجو المعذرة.. ولكن لا يُمكن أن أكون مُخطئاً إلى هذا الحد. أعرف أن غداً هو الأحد، لأن..».

سميثرتون: (مُستغرباً جدّاً) «ما الذي تُفكّرون به جميعاً؟ ألم يكن يوم أمس هو الأحد، أريد أن أعرف؟».

قلنا جميعاً: «الأمس حقّاً! أنت خاسر!».

العم: «اليوم هو الأحد، أقول ذلك.. ألا أعرف الأيام؟».

برات: «أوه، كلا!.. غداً هو الأحد».

سميثرتون: «أنتم جميعاً مجانين.. كل واحد منكم. أنا مُتأكد أنّ الأمس كان يوم الأحد مثلما أنا مُتأكد من أنّي أجلس على هذا الكرسي». [541]

كيت (قفزت في حماس): «لقد فهمت الأمر.. فهمت الأمر كله. بابا، هذا حكمٌ عليك، عن.. عن الشيء الذي تعرفه.. دعني وشأني، وسوف أشرح لك الأمر كله في لحظة. إنّه شيء بسيط جدّاً حقّاً. الكابتن سميثرتون يقول: إن أمس كان يوم الأحد: وهو كذلك؛ هو محقّ. وابن عمي بوبي، والعم وأنا نقول: إن اليوم هو الأحد؛ وهو كذلك؛ نحن على حق. والكابتن برات يؤكد أنّ غداً سيكون يوم الأحد: وهو كذلك؛ هو محقّ أيضاً. الحقيقة هي، نحن جميعاً على حقّ، وهكذا تأتي ثلاثة آحاد معاً في أسبوع واحد».

سميثرتون: (بعد صمت) «بالمناسبة، برات، كيت تغلبت علينا تماماً. يا لنا من أغبياء نحن الاثنين! سيد رمغودجيون، المسألة أصبحت على النحو الأتي: الأرض، كما تعلم، مُحيطها أربعة وعشرون ألف ميل. والآن هذه الكرة الأرضية تدور حول محورها.. تدور مثل المغزل.. تدور وتدور.. وهذه الأربعة وعشرون ألف ميل من الامتداد، من الغرب إلى الشرق، تستغرق بدقة أربعاً وعشرين ساعة. أتفهّم، سيد رمغودجيون؟..».

العم: «إذا شئنا الصدق.. إذا شئنا الصدق.. الدكتور دوب..»

سميثرتون: (كتم صوته) «حسناً، يا سيدي؛ ذلك يحصل بمُعدّل سرعة يُقدّر بألف ميل في الساعة. والآن، لنفرض أنّني أبحرت من هذا الموقع مسافة ألف ميل إلى الشرق. طبعاً أتوقّع أن تُشرق الشمس هُنا في لندن خلال ساعة واحدة. إنّني أرى الشمس تُشرق قبل ساعة منكم. فإذا تقدمنا، في الاتجاه نفسه، مسافة ألف ميل أُخرى، عندها أتوقّع الشروق خلال ساعتين.. ثم ألف أُخرى، وأتوقّع ذلك خلال ثلاث ساعات، وهكذا، إلى أن أذهب في دورة كاملة حول الأرض، ثم أعود إلى هذه النقطة، بعد أن قطعت أربعاً وعشرين ألف ميل شرقاً، أتوقّع شروق الشمس في لندن خلال مدة لا تقلّ عن أربع وعشرين ساعة؛ بمعنى آخر، أكون قد تقدّمت على زمنكم بيوم. أتفهم، ها؟».

العم: «لكن دوبل ل. دي..».

سميثرتون: (وكان يتكلّم بصوت مُرتفع) «كابتن برات، على العكس من هذا، حينما أبحر مسافة ألف ميل إلى الغرب من موقعنا هذا، كان زمنه مُتاخراً بساعة، وعندما أبحر مسافة أربعة وعشرين ميلاً إلى الغرب، كان مُتاخراً لمدة أربع وعشرين ساعة، أي يوم واحد، عن الزمن في لندن. ولذلك، بالنسبة لي، يوم أمس كان الأحد.. ولذلك، بالنسبة إليك، اليوم هو الأحد.. ولذلك، بالنسبة إلى برات، غداً يكون الأحد. وعلاوة على هذا، سيد رمغودجيون، من الواضح جدّاً أنّنا جميعاً على حق؛ فلا [542] يوجد أي سبب فلسفي يمنع أن تكون فكرة أحد منا لها أرجحية على فكرة الآخر».

العم: «عيني تؤلمني!.. حسناً، كيت.. حسناً، بوبي!.. هذا حكمٌ عليّ، كما تقولون. لكنّي رجلٌ ألتزم بكلمتي.. انتبهوا إلى هذا! سوف تحصل عليها، يا ولد، (الميراث وكل شيء)، متى شئت. انتهى الأمر، وحق جوبيتر! ثلاثة أيام آحاد تصطفّ واحداً بعد واحد! سوف أذهب، وأستطلع رأي دوبل ل. دي في الأمر».

السر الغامض لمقتل ماري روجيه

ملحق «جرائم على جادة مورغ»(*1)

«السياق المثالي للحوادث كما نتخيله في أذهاننا يسير جنباً إلى جنب مع سياق الحوادث [543] في حقيقتها المُجرّدة. مسارات هذه الحوادث نادراً ما تكون مُتزامنة. الناس، والظروف عموماً، يجرون تعديلات على السياق المثالي للحوادث، بحيث

(*1) لدى نشر قصة «ماري روجيه» لأول مرّة، لم تكن التعليقات التي نُدرجها الآن تبدو ضرورية؛ إلّا أنّ انقضاء سنوات عدة منذ حدوث التراجيديا التي تستند إليها الحكاية، يجعل من المُناسب إدراج هذه التعليقات؛ كذلك لا بُدّ من قول بضع كلمات في تفسير خطتنا بصفة عامة. كانت فتاة شابّة تُدعى ماري سيسيليا روجرز قد قتلت في مكانٍ على مقربة من نيويورك؛ وعلى الرغم من أنّ موتها أثار اهتماماً مُكثّفاً استمرّ فترة طويلة، إلّا أنّ اللغز الذي رافق الجريمة بقي بلا حلّ حتى الفترة التي كتبت فيها الأوراق الحالية ونشرت (تشرين الثاني، 1842) من هُنا، وبذريعة سرد المُلابسات التي تتعلّق بالمصير المأساوي لعاملة باريسية شابة، تتبّع المؤلف في حرص شديد نقاط التشابه، فضلاً عن الحقائق الأساسية للجريمة التي ارتُكبت بحق ماري روجرز. لذا، فإنّ مجمل الكلام الذي يقوم على التصورات يُمكن أن يُطابق الحقيقة: والاستقصاء عن الحقيقة كان الشغل الشاغل.

إنّ حكاية «السر الغامض لجريمة ماري روجيه» كُتبت في مكان يقع على مسافة بعيدة عن مسرح جريمة الاعتداء الوحشي، ولم تستخدم وسائل تحقيق غير ما وفّرته الصحافة. لهذا غابت عن الكاتب كثير من الأشياء التي كان سيستفيد منها لو كان موجوداً قرب مسرح الجريمة، أو زار موقعها. لكن ربّما ليس من المُناسب أن نذكر هُنا أنّ اعترافات شخصين، (أحدهما مدام دولوك التي ذكرت في السرد) والتي قدمت في فترات مُختلفة، بعد فترة طويلة أعقبت النشر، تؤكد تماماً، ليس على الاستنتاج العام فحسب، وإنما تدعم كافة الافتراضات الأساسية التي من خلالها تمّ التوصّل إلى ذلك الاستنتاج. (المؤلف)

يجعلونها تبدو بعيدة عن المثالية، ونتائج كل ذلك تأتي على النقيض من المثالية تماماً. هذا ما حدث إبان حركة الإصلاح؛ بدلاً من البروتستانتية جاءت اللوثرية».

نوفاليس(*2)

قليلٌ من الأشخاص، حتى بعض المُفكّرين الذين يتّسمون بالهدوء ورصانة التفكير، لم يذهلهم من الحين إلى الحين واقعٌ غامض يُثير الدهشة يدفعهم إلى التصديق وإن جزئياً بأشياء خارقة لنواميس الطبيعة، من خلال مُلابساتٍ ربّما كانت [544] ذات طبيعة عجيبة بحيث يعجز العقل عن تلقّيها أو تقبّلها إلّا كمُصادفات عابرة تحدث أحياناً. مثل هذه المشاعر.. لأنّ التصديق الجزئي الذي أتكلّم عنه لا يمتلك على الإطلاق الحجة الكاملة للفكر.. مثل هذه المشاعر نادراً ما تخمد إلا بالرجوع إلى عقيدة المُصادفة، أو كما يُسمّونها فنّياً، حساب التفاضل والتكامل للاحتمالات. الآن هذا الحساب، في جوهره، رياضيٌّ بحت في طبيعته؛ لدينا هُنا خروجٌ على القياس وعن أكثر أشكال الدقة في العلم بما يتطابق مع ظلال روحانية لمسائل غير ملموسة مادياً ومناهج التفكير.

سوف يرى القارئ أنّ التفاصيل الغريبة التي أنا على وشك أن أرويها هُنا على الملأ، ضمن سياق تسلسلها الزمني، تُشكّل جزءاً أساسياً من مُصادفات يصعب فهمها، وسوف يتعرّف أغلب القراء على فرعها الثانوي أو الختامي من خلال الجريمة الأخيرة التي ارتكبت وكانت ضحيّتها فتاة تُدعى ماري سيسيلا روجرز، من نيويورك.

حين حاولتُ، في مقالٍ سابق يحمل عنوان «جرائم على جادة مورغ»، كتبته منذ قرابة سنة، أن أُصوّر بعض السّمات المُثيرة جدّاً التي تُميّز ذهنية صديقي، الفارس س. أوغست دوبن، لم يدرْ في خلدي يوماً أنّني سأعود إلى الموضوع. كان تصوير هذه الشخصية هدفي الأول؛ وهذا الهدف تحقّق بشكل كامل في

(*2) اسم الشهرة لفون هاردنبورغ. (المؤلف)

سياق المُلابسات العنيفة التي برهنت على تفرّد ذهنية دوبن. ربّما جاز لي أن أُقدم أمثلة أُخرى، ولكنّي لن أثبت بهذا شيئاً إضافياً. إلّا أنّ بعض الحوادث التي وقعت مؤخراً، وتطوّرها المُذهل، دفعتني إلى اكتشاف المزيد من التفاصيل، والتي من شأنها أن تحمل صيغة الاعتراف القسري ببراعة الرجل. بعد أن سمعت ما سمعته مؤخراً، سوف يكون من الغريب حقّاً أن أبقى صامتاً مدة طويلة.

لدى انتهاء فصول التراجيديا التي تضمّنت موت مدام ليسباناي وابنتها، توقّف بذلك اهتمام الفارس بالقضية فوراً، وعاد إلى عاداته القديمة في الاستغراق في أحلام اليقظة. وهي أحلام، في كثير من الأوقات، تميل إلى التجريدية والأوهام، وكنت أُشاركه في دعاباته المرحة؛ وتابعنا العيش معاً في شقتنا في فاوبورغ سانت جيرمان، وكان المُستقبل بالنسبة إلينا هباءً تعصف به الرياح، وكُنا نهجع مُخدّرين في الحاضر، وننسج صوراً للعالم المُضجر من حولنا ونصوغ منه أحلاماً.

لكن حتى هذه الأحلام لم تكن لتخلو أبداً من مُنغصات تقطعها بين الحين والحين. ربّما يفترض المرء أنّ الدور الذي لعبه صديقي في الدراما التي وقعت على جادة مورغ سوف يُلقي ظلاله على مُخيّلة رجال شرطة باريس. عن طريق وكلائهم السرّيين، أصبح اسم دوبن مُتداولاً في المنازل. لم تتكشّف الخيوط البسيطة [545]التي أدّت من خلالها هذه الاستقراءات إلى تفكيك طلاسم اللغز أبداً لمدير الشرطة، أو لأي فرد غيري أنا، طبعاً ليس من المُستغرب أن ينظر إلى المسألة على أنّها تكاد تكون مْعجزة، أو أن تكون قُدرات الفارس على التحليل أضفت عليه موهبة خارقة في الحدس البديهي. كانت صراحته تقوده أحياناً إلى درجة الإساءة إلى أي شخص حاول الاستفهام منه واتّسم أسلوبه في أحيان أُخرى بمثل ذلك الانحياز؛ إلّا أنّ روح الدعابة واللّامبالاة حالت دون التطرق إلى ذلك الموضوع المُثير لاحقاً بعد أن توقّف اهتمام صاحبي به منذ مدة. هكذا حدث أن وجد نفسه محطّ أنظار نخبة من السياسيين؛ ولم تكن ثمّة قضايا قليلة تُبذل فيها مُحاولات للاستفادة من خدماته من قبل سلطات الشرطة. لكن أبرز

الأمثلة التي يُمكن التطرق إليها تلك الجريمة التي أزهقت روح فتاة شابة تُدعى ماري روجيه.

هذه الحادثة وقعت بعد سنتين تقريباً من الأعمال الشنيعة التي شهدتها جادة مورغ. كانت ماري، ومن شأن اسمها المسيحي واسم عائلتها أن يُثيرا الانتباه في الحال بسبب التّشابه مع اسم الفتاة التعيسة الحظ التي يُسمّونها «فتاة السيجار» وهي الابنة الوحيدة للأرملة إيستل روجيه. توفّي الأب أثناء طفولة الفتاة، ومنذ مماته، حتى قرابة ثمانية عشر شهراً من حادث الاغتيال الذي يُشكّل محور قصتنا، كانت الأم والبنت تسكنان معاً على جادة بافيه سانت أندريه(*3)؛ وكانت السيدة تستلم راتباً تقاعدياً، وتُساعدها ماري من أجور عملها. استمرّت الأمور على هذا المنوال حتى وصلت الفتاة إلى الثانية والعشرين من عمرها، حينها بدأ جمالها الأخّاذ يجذب الآخرين كأنّه عطر سحري، ومنهم شابٌ يشغل أحد المحلات في طابقٍ تحت الأرض من بالاس رويال، زبائنه يتألّفون أساساً من المُغامرين والمُشرّدين الذين يجوبون الشوارع المُجاورة. لم يكن مسيو لو بلانك(*4) غافلاً عن المكاسب التي يُمكن أن تتحقّق من وجود ماري الجميلة في محل بيع العطور الذي يعمل فيه؛ ولقيت مُغازلاته الجريئة قبولاً حارّاً من الفتاة، مع أنّه كان يواجه بالنفور من السيدة.

وسرعان ما تحقّقت طموحات صاحب المحل، واشتهر محلّه بعد ذلك بسرعة من خلال مصادر الفتنة التي تُشيعها تلك الحسناء. وظلّت الفتاة تشتغل معه لمدة سنة تقريباً، حيث أُصيب معجبوها بحالة من الذهول لاختفائها المُفاجئ عن المحلّ. وعجز مسيو لو بلانك عن تفسير غيابها، وكانت مدام روجيه تبدو شاردة الذهن في أكثر الأحيان من القلق عليها والذعر. وتناولت الصّحف المحلّية الموضوع على [546]الفور، وكان رجال الشرطة على وشك إجراء تحقيقات جادة، ولكن في صباح أحد الأيام، بعد أُسبوع، حدث أن عادت ماري، وكانت

(*3) شارع ناساو. (المؤلف)
(*4) اندرسون. (المؤلف)

في حالة جيدة، مع أنّ الحزن كان بادياً عليها بعض الشيء، فرآها الناس في مكانها المألوف عند الطاولة في محل بيع العطور. طبعاً توقّفت أنواع التساؤلات على الفور، باستثناء تلك التي تحمل طبيعة شخصية. وادّعى مسيو لو بلانك بالجهل بخصوص أي شيء، كما فعل في السابق. أما ماري والمدام فأجابتا عن التساؤلات، قالتا: إنّهما أمضيتا الأسبوع الفائت في منزل إحدى قريباتهما في الأرياف. ولذلك توقّف الاهتمام بالمسألة تدريجياً، وسرعان ما طواه النسيان بصورة عامة؛ ومن أجل أن تُخلّص الفتاة نفسها ظاهرياً من وقاحة الفضوليين وتساؤلاتهم، فقد تركت العمل في محلّ العطور بعد فترة وجيزة، وبقيت مُعتكفة في منزل أمّها على جادة بافيه سانت أندريه.

بعد خمسة شهور تقريباً على عودتها إلى منزلها، تلقّى أصدقاؤها نبأ اختفائها المُفاجئ مرة أُخرى. ومرّت ثلاثة أيام، ولم يسمع الناس شيئاً عنها. وفي اليوم الرابع تمّ العثور على جثتها طافية على نهر السين[*5]، في مكانٍ قريب من الساحل مُقابل ميدان سانت أندريه، عند نقطة لا تبعد كثيراً عن محلة باريار دو رولي المُنعزلة[*6].

لقد ساهمت شناعة هذه الجريمة، (فلا بُدّ من الاعتراف على الفور أنّ هُناك جريمة ارتُكبت)، وشباب، وجمال الضحية، وفوق هذا وذاك، شهرتها التي تحقّقت سابقاً في إثارة اهتمام الباريسيين ذوي الحس المُفرط. لا أستطيع أن أستدعي إلى ذهني أي حادثٍ مُماثل كان له مثل ذلك التأثير الشامل. طوال أسابيع، خلال تداول هذه المسألة التي شغلت الأذهان، نسي الناس كل شيء حتى الموضوعات السياسية العاجلة للساعة. وبذل مدير الشرطة جهوداً غير اعتيادية؛ وجُنّدت طاقات شرطة باريس طبعاً حتى وصلت إلى ذروتها.

لدى اكتشاف الجثة لأول مرة، لم يعتقد أحد أنّ المُجرم سيكون قادراً على الإفلات لأكثر من مدة قصيرة بعد التحرّيات التي انطلقت مُباشرة على قدم

(*5) هدسون. (المؤلف)

(*6) ويكهاوكن. (المؤلف)

وساق. ولم يحصل إلا بعد أُسبوع أن رأوا ضرورة عرض مُكافأة لمن يُدلي بمعلومات عن الجريمة؛ وحتى في ذلك الوقت لم يتجاوز مبلغ المُكافأة ألف فرنك. في غضون ذلك استمرّ التحقيق دون كلل، إن لم يكن في شيءٍ من الحزم، واستجوب عددٌ كبير من الأفراد دون الوصول إلى نتيجة مُحدّدة؛ وذلك لعدم وجود دليل يقود إلى حل اللغز، وازداد التوتر الشعبي إلى درجة عظيمة. وفي نهاية اليوم العاشر تصوّر المسؤولون أنّ من الصواب مُضاعفة مبلغ المُكافأة الأصلي؛ وأخيراً، انقضى الأُسبوع الثاني [547] دون التوصّل إلى اكتشاف جديد، وازدادت النقمة التي دائماً ما تحصل في باريس ضد الشرطة وصار يجري التعبير عن ذلك من خلال أعمال احتجاج ومُشاغبات *æmeutes* خطيرة، وتعهّد مدير الشرطة أن يُعطي عشرين ألف فرنك لمن يُقدّم دليلاً يُساعد في «إدانة المجرم»، أو إذا اتّضح أنّ هُناك أكثر من شخصٍ مُتورط في الجريمة، «لإدانة أي واحد من المُجرمين». وفي إعلانات الصحف عن هذه المُكافأة، أُعطي تعهّد بالعفو التام عن أي شريك يُدلي بشهادته ضد رفيق له؛ إضافة إلى هذا، كان جمعٌ من المواطنين يُعلقون لافتات أينما وجدوا مكاناً ملائماً، يعرضون فيها جائزة مقدارها عشرة آلاف فرنك، علاوة على المبلغ الذي وضعته السلطات المحلّية. لذلك تجاوزت قيمة المُكافأة الإجمالية ثلاثين ألف فرنك، ولا بُدّ أنّ ذلك كان مبلغاً استثنائياً حين ننظر إلى الحالة المُتواضعة للفتاة، وإلى مدى انتشار الجرائم التي تُشبه هذه الجريمة التي نتكلم عنها في مدن كبيرة.

لم يشكّ احدٌ الآن في أنّ لغز هذه الجريمة سرعان ما تسلّط عليه الأضواء. ورغم ذلك، في حالة أو حالتين، جرى اعتقال بعض الأشخاص وكان من المُتوقّع أن يتّضح اللغز، لكن لم يستخلص شيء من شأنه أن يُدين الأطراف المشكوكَ بأمرها؛ وأطلق سراحهم فوراً. كان الأمر يبدو غريباً حقّاً، إذ انقضى الأسبوع الثالث منذ اكتشاف الجثة، دون بصيصٍ يُسلّط على الموضوع، قبل أن تتسرّب إشاعة عن تلك الحوادث التي أثارت الرأي العام، فتصل إلى أُذني دوبن وأسمع بها أنا نفسي. كنا مُنشغلين آنذاك في قضايا تستولي على اهتمامنا، وكان قد مضى شهر تقريباً منذ أن خرج أحدنا من المنزل آخر مرة، أو منذ أن استقبلنا

آخر زائر، أو منذ أن ألقينا نظرة على عناوين المقالات السياسية المُهمة في إحدى الصحف اليومية. كان أول نبأ وصلنا عن الجريمة نقله إلينا ج. شخصياً. لقد زارنا الرجل في وقتٍ مُبكر من عصر الثالث عشر من تموز، سنة ــ 18، وبقي معنا حتى وقتٍ مُتأخر من الليل. كان يبدو مُستاءاً من فشل كل مُحاولات القبض على المجرمين. وأضحت سمعته.. كما قال بلكنة باريسية مُميزة.. على المحكّ. حتى إنّ شرفه تلوّث. كانت عيون الناس مشدودة إليه باستمرار؛ وليس ثمّة تضحية لن يبدي استعداداً لتقديمها للكشف عن هذا اللغز. واختتم كلامه المُثير للضحك بعض الشيء بإطراء على ما كان يحب [548]أن يُسميه براعة دوبن، وقدّم عرضاً مُباشراً، يدلّ حتماً على مدى ليبراليته، لست أشعر في نفسي، من طبيعته المُحددة، بحرية البوح به، لكنه لا يمت بصلة لموضوع حكايتنا.

ردّ صديقي على الإطراء بأفضل ما استطاع، إلا أنه تقبّل العرض في الحال، مع أنّ المزايا التي تضمّنها مشروطة تماماً. وبعد أن حُسم الأمر، راح مدير الشرطة يوضّح على الفور وجهات نظره الخاصة، وأورد فيها تعليقات مطوّلة على الأدلة؛ تلك التي لم نطّلع عليها بعد. تحدّث الرجل مُطوّلاً وكان مطّلعاً، لا شك في ذلك، على أشياء كثيرة؛ بينما غامرت أنا بتقديم اقتراح عرضي للتأجيل مع اقتراب الليل من نهايته وشعورنا بالنعاس. كان دوبن يجلس في ثبات على أريكته المُعتادة، ويُبدي من الاهتمام والاحترام الشيء الكثير. كان يضع نظارته على عينيه طوال المُقابلة؛ وبين فترة وفترة يُعطي إشارة عابرة من تحت زجاجهما الأخضر تكفي لإقناعي بأنّه لم يسبق له أن نام من قبل بمثل هذا العمق، بسبب الصمت الذي ساد طوال سبع أو ثمان ساعات كانت تمضي ثقيلة قبل مُغادرة مدير الشرطة.

في الصباح، جلبتُ من مكتب مدير الشرطة تقريراً كاملاً عن الأدلة التي تكشّفت، واشتريت من محلات بيع الصحف نسخاً مُتفرقة من كلّ صحيفة نشرت، منذ البداية إلى النهاية، أي معلومات مؤكدة تتعلّق بهذه القضية. إذا جرّدنا الأمور من كل الأشياء التي تقبل الدحض والتفنيد حتماً، فهذه المعلومات تتلخّص بالشكل التالي:

غادرت ماري روجيه مسكن أمها، على جادة بافيه سانت أندريه، تقريباً في الساعة التاسعة صباحاً من يوم الأحد، الثاني والعشرين من حزيران، - 18. لدى خروجها أخبرت مسيو جاك سانت أوستاش(*7) وحده عن نيتها لأن تمضي اليوم مع عمةٍ لها تسكن على جادة درامية. هذه الجادة قصيرة وضيقة، لكنّها تعجّ بالسكان، وهي غير بعيدة عن ضفاف النهر، على مسافة نحو ميلين، ضمن أقصر مسار يؤدي مُباشرة إلى بنسيون مدام روجيه. وسانت أوستاش هو خطيب ماري، ويسكن، ويتناول وجباته أيضاً، في البنسيون. كان من المُزمع أن يذهب إلى خطيبته عند الغروب، ويُرافقها في عودتها إلى المنزل. ولكن في العصر حدث أن كانت السماء تُمطر بغزارة؛ وبما أنه افترض أنّها سوف تبقى طوال الليل في منزل عمتها، (لأنّها اعتادت أن تفعل ذلك في ظروف مُماثلة من قبل)، لم يتصوّر أنّ الأمر يستدعي الالتزام بوعده. ومع اقتراب الليل، سمع الناس مدام روجيه (وهي سيدة عجوز مُتقلبة المزاج في السبعين من عمرها)، تُعبّر عن خشيتها «من أنها لن ترى ماري مرة أخرى»؛ إلّا أنّ قولها هذا لم يلفت انتباه أحد آنذاك.

في يوم الإثنين، تأكّد أنّ الفتاة لم تذهب إلى جادة درامية؛ ولما انقضى النهار [549] دون أي أخبار عنها، بدأ الناس بعملية بحث في وقت مُتأخّر في عدة أماكن من المدينة وضواحيها. ولكن لم يحدث حتى اليوم الرابع على اختفائها أن تكشف أي شيء مهم فيما يتعلّق بها. في هذا اليوم، (الأربعاء، الخامس والعشرون من حزيران) كان رجل يُدعى مسيو بوفيه(*8) يبحث عن ماري برفقة صديق له بالقرب من بارير دو رولي، على ساحل نهر السين مُقابل جادة بافيه سانت أندريه، أبلغ عن وجود جثة كان بعض الصيادين قد سحبوها إلى الشاطئ، بعد أن وجدوها طافية في النهر. لدى مُعاينة الجثة، تعرف عليها بوفيه بعد شيءٍ مَن التردد فقال: إنّها فتاة العطور. أما صديقه فتعرّف عليها حالاً.

كان الوجه مُلطّخاً بدماء قاتمة، خرجت فيما يظهر من الفم. لم يُلاحظ

(*7) باين. (المؤلف)

(*8) كروميلن. (المؤلف)

وجود زبدٍ، كما يحصل في حالات الغرق. ولم يتغيّر لون النسيج الخلوي. على الرقبة كدمات وخدوش أصابع. الذراعان معقودتان على الصدر ومُتصلّبتان. أصابع اليد اليمنى مقبوضة؛ وراحة اليد اليسرى مبسوطة جزئياً. على الرسغ الأيسر أثران دائريان للكشط، من تأثير الربط بالحبال، أو حبلٍ واحد ربط أكثر من مرة. جزء من الرسغ الأيمن محكوك، فضلاً عن الظهر على امتداده، لكن هذا لوحظ بخاصة عند لوحي الأكتاف. قبل إخراج الجثة إلى الساحل، كان الصيادون قد ربطوها بحبل؛ ولكن لا شيء من تلك الكدمات نتج عن هذا. كان لحم الرقبة مُتورّماً. لم تكن ثمّة جروح ظاهرة للعيان، أو رضوضٌ يبدو أنّها من تأثير الضربات. تمّ العثور على شريطٍ مربوط حول الرقبة ربطاً مُحكماً يكاد يختفي عن الأنظار؛ وقد انغرس الشريط في اللّحم، وعليه عقدة تحت الأذن اليسرى مُباشرة. هذا وحده كان كافياً للتسبّب بالموت. وجاء في شهادة الأطباء الذين عاينوا الجثة تأكيد على عفة الفتاة الميتة، مع أنّها خضعت، كما قالوا، إلى درجة وحشية من العنف. وكانت الجثة في حالة ليس من الصعوبة التعرّف عليها من الأصدقاء.

كان ثوبها مُمزّقاً وفي حالة فوضى. وفي ردائها الخارجي شقٌّ عرضه قدم تقريباً، يمتدّ إلى الأعلى من حاشيته إلى الخصر، لكن القطعة المُمزّقة لم تُخلع؛ [550]كانت ملفوفة حول الخصر ثلاث مرات، ومُثبّتة بنوع من الشداد إلى الظهر. الثوب الذي تحت السترة من الموسلين الناعم؛ وعلى هذا الثوب شقٌّ عرضه ثمان عشرة بوصة مُمزّق تماماً.. فهو مشقوق بشكل مُستقيم وبعناية تامة. وجدوا ذلك الشريط مربوطاً حول عنقها ربطاً مُتراخياً وينتهي بعقدة متينة. فوق هذا الشق في الموسلين، ربطت أشرطة قبعة نسائية؛ والقبعة مُعلّقة عليها. لم تكن العقدة التي ربطت بها أشرطة القبعة بالشيء الذي تستطيع سيدة أن تعملها، وإنّما هي عقدة مُنزلقة من عمل رجلٍ بحّار.

بعد التعرّف على الجثة، لم تؤخذ كالمُعتاد إلى المشرحة، (فهذه شكليات غير ضرورية) لكنّها سرعان ما دُفنت في مكان غير بعيد عن البقعة التي وجدت فيها على الساحل. من خلال الجهود التي بذلها بوفيه، حاول التكتّم على القضية وإسكات الناس قدر الإمكان؛ وانقضت عدة أيام قبل أن يبدأ الرأي العام

بالتحرك. وقامت صحيفة أسبوعية(*9)، أخيراً بتبنّي الموضوع؛ فتمّ إخراج الجثة، وأُعيد فحصها؛ لكن لم يستنبط أي شيء خارج نطاق ما جرى مُلاحظته سابقاً. وسُلّمت الملابس الآن إلى أم وأصدقاء الفقيدة، وتعرف الجميع عليها كونها الملابس التي كانت ترتديها الفتاة قبل مُغادرة المنزل.

في غضون ذلك تصاعد الاهتمام بالقضية من ساعة إلى ساعة. وجرى اعتقال عدة أشخاص وأُطلق سراحهم. واتّجهت الشكوك بخاصة إلى سانت أوستاش؛ وأخفق في البداية في توضيح الأماكن التي تردّد عليها يوم الأحد وهو اليوم الذي تركت فيه ماري المنزل. لكنه قدم لاحقاً إلى مسيو ج. شهادة خطّية تُفسّر على نحو مُقنع كل ساعة من اليوم المذكور. ومع مرور الوقت لم يُكتشف شيء آخر، وكان الناس يتداولون آلاف الأقاويل المُتناقضة، وانشغل الصحفيون في تقديم افتراضاتهم. من الشائعات التي أثارت اهتماماً أكثر فكرة أنّ ماري روجيه لا تزال حية.. وأنّ الجثة التي عُثر عليها في نهر السين تعود لفتاة أُخرى تعيسة الحظ. سوف يكون من المُناسب أن أُقدّم إلى القارئ بعض النصوص المنشورة والتي تُعبّر عن الافتراض الذي أشرنا إليه. هذه النصوص مُترجمة حرفياً من صحيفة لويتوال(*10)، وهي من الصحف التي يُديرها مُحرّرون أكفّاء.

«غادرت مدموزيل روجيه منزل والدتها صباح يوم الأحد، الثاني والعشرين [551] من حزيران، - 18، وفي نيتها ظاهرياً أن تزور عمتها، أو ربّما قريبة أُخرى، على جادة درامية. منذ تلك الساعة لم يتّضح أن أحداً رآها. لا يوجد أي أثر أو أنباء عنها أبداً.. ولم يتقدّم أيُّ شخص، أيّا كان، حتى الآن، ليقول: إنّه رآها في ذلك اليوم بعد مُغادرتها منزل والدتها.. هُنا، مع أنّنا لا نملك أي دليل على أنّ ماري روجيه كانت من الأحياء بعد الساعة التاسعة من يوم الأحد، الثاني والعشرين من حزيران، فلدينا دليلٌ، حتى تلك الساعة، على أنّها كانت حية. في ظهيرة الأربعاء، الساعة الثانية عشرة، تمّ اكتشاف جثة أُنثى تطفو على

(*9) «ميركوري» نيويورك. (المؤلف)

(*10) «الأخ جوناثان» نيويورك، تحرير هـ. هاستنغز ويلد المحترم. (المؤلف)

ساحل منطقة بارير دو رولي. حتى إذا افترضنا أنّ ماري روجيه أُلقيت في النهر خلال ثلاث ساعات بعد مُغادرتها منزل والدتها، ثلاثة أيام فقط على مُغادرتها منزلها.. ثلاثة أيام إلا ساعة. لكن من الغباء افتراض أنّ الجريمة، لو أنّ هُناك جريمة اقتُرفت ضدها، يُمكن أن تكون حصلت في وقت قصير يكفي لتمكين المُجرمين من إلقاء الجثة إلى النهر قبل منتصف الليل. أولئك المُذنبون بارتكاب مثل هذه الجرائم الشنيعة يختارون الظلام بدلاً من الضياء.. لهذا نرى، إذا كانت الجثة التي وجدت في النهر هي جثة ماري روجيه، فلا بُدّ أنّها كانت في المياه قبل يومين ونصف، أو بقيت ثلاثة أيام في الخارج. لقد أظهرت التجارب أنّ الأجساد التي تغرق، أو التي تُلقى إلى المياه مُباشرة بعد الموت باستعمال العنف، تتطلّب أكثر من ستة إلى عشرة أيام حتى تتحلّل بشكل يجعلها تطفو على سطح المياه. حتى إذا رُميت الجثة بإطلاقة مدفع، فارتفعت قبل على الأقل خمسة أو ستة أيام من الغطس، فهي ستعود لتغطس إذا ما تُركت وحدها. والآن، نتساءل ما الذي يوجد في هذه الحالة ليتسبّب بالانحراف عن السياق الاعتيادي للطبيعة؟.. إذا كانت الجثة قد بقيت في حالتها المُشوّهة على الساحل حتى ليلة الثلاثاء، فلا بُدّ من وجود أثر ما على الساحل يتركه المُجرمون. إنّه لشيء مشكوك فيه أيضاً فيما إذا كانت الجثة ستطفو سريعاً، حتى لو أُلقيت بعد أن توفيت الفتاة قبل يومين. علاوة على ذلك، فمن غير المُحتمل على الإطلاق أنّ أي واحد من الأوغاد الذين ارتكبوا مثل هذه الجريمة بالشكل المُفترض هُنا، قد ألقى الجثة إلى الماء من غير ثقل يُثبتها فيه لكي تغطس، حين يكون مثل هذا الإجراء من السهولة اتخاذه».

ويمضي المُحرّر هُنا في المُناقشة قائلاً: إنّ الجثة لا بُدّ أنّها كانت في المياه «ليس منذ ثلاثة أيام فحسب، وإنّما على أقل تقدير منذ «خمسة أضعاف» ثلاثة أيام»، لأنّها كانت مُتحلّلة إلى درجة أن بوفيه واجه صعوبة بالغة في التعرّف عليها. لكن [552]هذه النقطة الأخيرة اتّضح بطلانها تماماً. وهُنا أستمرُّ في الترجمة:

«ما هي إذن الحقائق التي على أساسها يقول السيد بوفيه إنّه لا يشكّ في أنّ

الجثة تعود لماري روجيه؟ لقد قام برفع كم الروب، ويقول: إنّه وجد علامات جعلته يقتنع من هويتها. الناس عامة يعتقدون أنّ تلك العلامات تتلخّص في بعض الندب. ولما فرك الذراع وجد بعض الشعر عليها.. وهذا شيء غير مؤكد، كما نعتقد، أو أنّ المرء يُمكن أن ينخدع بسهولة فيه.. فهو دليل ضعيف يفتقر إلى الحسم يقوم على مُجرّد وجود ذراع داخل الكم. لم يرجع السيد بوفيه في تلك الليلة، ولكنه أرسل من يُخبر مدام روجيه، في الساعة السابعة، من مساء الأربعاء، بأنّ هناك بحث ما يزال جارياً عن ابنتها. إذا قلنا: إنّ مدام روجيه، بسبب عمرها وحزنها، لم تستطع الذهاب، (وهذا شيء وارد كثيراً) فلا بُدّ من وجود شخص ما يُفكر في أنّ من الضروري الذهاب وحضور عمليات التحقيق والبحث الجارية، لو كانوا يعتقدون أنّ الجثة تعود لماري. لكن لم يذهب أحد. لم يقل أحد أو يسمع شيئاً عن الأمر على جادة بافيه سانت أندريه، ولم يصل أي خبر حتى إلى ساكني البناية نفسها. قال السيد سانت أوستاش في شهادته، وهو عشيق وزوج ماري المُزمع، وكان يتردّد على منزل والدتها، إنّه لم يسمع عن اكتشاف جثة خطيبته حتى صباح اليوم التالي، حين جاء السيد بوفيه إلى غرفته وأخبره عنها. فيما يخصّ خبر مثل هذا، ممّا يُثير فينا الاستغراب أنّه قوبل ببرود شديد».

على هذا النحو حاولت الصحيفة خلق انطباع بوجود لامبالاة من جانب أقرباء ماري، وهذا لا ينسجم مع افتراض أن هؤلاء الأقارب كانوا يعتقدون أنّ الجثة هي جثتها. كان الانطباع الذي تُلمّح إليه الصحيفة بصورة غير مُباشرة: .. أنّ ماري، مع ازدياد تغاضي أصدقائها عنها، حاولت الغياب عن المدينة لأسباب تتعلّق باتهامها في عفتها؛ وأن هؤلاء الأصدقاء، لدى اكتشاف جثة في نهر السين، تُشبه بعض الشيء تلك الفتاة، انتهزوا الفرصة لإقناع الناس بخبر موتها. إلّا أنّ صحيفة لويتوال مرة أُخرى كانت مُتعجّلة في إصدار حكمها. لقد اتّضح بشكل لا لبس فيه أنّه ليس هُناك فتور في المشاعر، كما كان يتصور؛ وأن السيدة العجوز كانت في غاية الضعف من المرض، وكانت حزينة جدّاً بحيث لا تتمكّن من حضور أي واجب، وأنّ سانت أوستاش، كان بعيداً كل البعد عن تلقّي الخبر ببرود، وأن الحزن كان يملأ صدره، وكان يُعاني من الألم صراحة، حتى إنّ السيد بوفيه

طلب من أحد الأصدقاء والأقارب أن يهتم به، فيمنعه من حضور نبش الجثة. فضلاً عن ذلك، مع [553]أنّ صحيفة لويتوال ذكرت أنّ الجثة استُخرجت مرة أُخرى على النفقة العامة.. وأنّ عرضاً سخيّاً لصُنع منحوتة شخصية رفضته العائلة بإصرار.. وأنّه لم يحضر فردٌ من العائلة مراسم الدفن.. أقول، على الرغم من كلّ هذه الأمور التي أكّدتها صحيفة لويتوال لمُضاعفة الانطباع الذي كانت تنوي إشاعته. . إلّا أنّ كلّ هذه الأشياء اتّضح بطلانها بما يكفي. في عدد لاحق من الصحيفة، حصلت مُحاولة لإلقاء الشكوك على بوفيه نفسه. يقول المحرر:

«والآن، إذن، هُناك شُبهة تحوم في هذه القضية. قيل لنا في إحدى المناسبات: إنه بينما كانت إحدى السيدات وهي تُدعى ب.. موجودة في بيت مدام روجيه، جاء السيد بوفيه فاخبرها بأنّ أحد رجال الجندرمة يُتوقّع وصوله إلى هُناك، وهي، أي السيدة ب. عليها ألا تقول أي شيء للرجل حتى يعود، وأن تترك المسالة له وحده.. في المرحلة الحالية التي تسير عليها الأمور، يبدو أن السيد بوفيه أراد أن يُبقي القضية كلها في رأسه. فلا تتّخذ خطوة واحدة دون علم السيد بوفيه؛ أينما توجّه المرء لا بُدّ أن يرتطم به.. ولسبب ما، قرّر الرجل أن لا أحد ينبغي أن يحصل على معلومات تتعلّق بمجريات القضية غيره هو، وأزاح الأقارب الذكور عن الطريق، بمُختلف صفاتهم، بطريقة غريبة. ويبدو أنّه كان يُعارض السماح للأقارب برؤية الجثّة».

من خلال هذه الحقيقة، اتّجهت بعض الشكوك إلى بوفيه. كان أحد الأشخاص الذين زاروه في مكتبه، قبل بضعة أيام من اختفاء الفتاة، أثناء غياب صاحب المكتب، لاحظ وردة مدسوسة في ثقب مفتاح الباب، وكان اسم «ماري» مكتوباً على لوح مُعلّق يسهل النظر إليه.

الانطباع العام، الذي استطعنا إلى الآن استخلاصه ممّا نشرته الصحافة، يُشير إلى أنّ ماري ربّما كانت ضحية زمرة من المُجرمين المُستهترين.. وأنّ هؤلاء حملوها إلى النهر، بعد سوء مُعاملتها وقتلها. إلّا أنّ صحيفة كوميرشيال[*11]

(*11) «مجلة التجارة»، نيويورك. (المؤلف)

الواسعة الانتشار، كانت جادة في رفض هذه الإشاعة. وهُنا اقتبس قطعة أو قطعتين من أعمدتها:

«نحن مُقتنعون أنّ القضية الآن اتّخذت مُنعطفات زائفة، ما دامت الأنظار تتوجّه إلى بارير دو رولي. من المُستحيل أنّ شابة معروفة جدّاً من آلاف الناس تسير مسافة تقطع بها ثلاث قطاعات من البنايات دون أن يراها أحد؛ وأي شخص [554]يراها سوف يتذكّرها، لأنّها تُثير اهتمام كل من يعرفها. خرجت الفتاة في وقت كانت فيه الشوارع مُكتظّة بالناس.. فمن المُستحيل أن تكون قد ذهبت إلى بارير دو رولي، أو إلى جادة درامية، دون أن يتعرّف عليها عشرة من الأشخاص على الأقل؛ لكن لم يتقدّم أحد ليقول: إنّه شاهدها خارج باب منزل والدتها، وليس هُناك دليل، باستثناء الشهادة التي تتعلّق بنواياها التي صرّحت بها، يثبت أنّها خرجت من بيتها على الإطلاق. كان ثوبها مُمزّقاً، وملفوفاً حول جسدها، ومربوطاً؛ وعلى ذلك الروب حملت الجثة كأنّها حزمة. لو كانت الجريمة ارتُكبت في منطقة بارير دو رولي، لما وجدت حاجة إلى مثل هذا الإجراء. حقيقة أنّ الجثة عثر عليها طافية بالقرب من بارير ليست دليلاً على المكان الذي أُلقيت فيه إلى النهر.. كانت قطعة من التنورة الداخلية للفتاة المسكينة، طولها قدمان وعرضها قدم، وجدت مُمزّقة ومربوطة تحت حنكها حتى مؤخرة رأسها، ربّما لمنعها من الصراخ. وقام بهذا العمل أشخاصٌ لا يملكون منديل جيب».

لكن قبل يوم أو يومين من زيارة مُدير الشرطة لنا، وصلت بعض المعلومات المُهمة إلى الشرطة، يبدو أنّها تدحض على الأقل الجزء الأساسي من كلام صحيفة لوكوميرشيال. كان اثنان من الصبيان، أبناء سيدة تُدعى دولوك، أثناء تجولهم في الغابات بالقرب من بارير دو رولي، اخترقا أجمة كثيفة، وجدا فيها ثلاثة أو أربعة صخور كبيرة، تُشكّل نوعاً من مكانٍ للجلوس، لها مسند ظهر وموضع للقدمين. على الصخرة العليا تنورة نسائية بيضاء؛ وعلى الصخرة الثانية وشاح حريري. وكذلك تمّ العثور على شمسية، وقفازات، ومنديل جيب. كان المنديل يحمل اسم «ماري روجيه». واكتشفت قطع مُمزّقة أُخرى من الثياب على

الشجيرات الشائكة هُنا وهُناك. والأرض عليها آثار أقدام داستها مرات مُتعدّدة، وأغصان الشجيرات مقطوعة، وكل الأدلة تشير إلى حدوث شجار. بين الأجمة والنهر السياجات مخلوعة، وعلى الأرض آثار تُشير إلى جرجرة حملٍ من هُناك.

وعلّقت إحدى الصحف الأُسبوعية، لوسوليل(*12)، على هذا الاكتشاف.. وكانت تعليقاتها مُجرّد ترديد لصدى تعاطف الصحافة الباريسية بمُجملها:

«واضحٌ جدّاً أنّ تلك الأشياء حصلت على الأقل قبل ثلاثة أو أربعة أسابيع؛ وكل الآثار اختفت تماماً مع المطر وأصابها العفن واختلطت بعضها ببعض. كان [555]العشب ينمو حول بعضٍ منها. القماش الحريري على الشمسية قوي، لكن اسلاكها كانت مُنبعجة من الداخل. الجزء الأعلى منها، حيث القماش سميك ومثني، كله مُتعفّن ومُهترىء، وتمزّق لدى فتحه.. وتمزقت قطعٌ من معطفها الطويل على الشجيرات الشائكة بعرض ثلاث بوصات وطول ست بوصات تقريباً. إحدى القطع كانت من حاشية المعطف وسبق أن صُلحت؛ والأُخرى عبارة عن جزء من التنورة، وليس من حاشيتها. تلك القطع كانت تبدو مثل أشرطة مُمزّقة، وقد علقت على شجيرة شوكية، على بُعد قدم تقريباً من الأرض.. فلا شكّ إذن في اكتشاف البقعة التي حصل عليها الاعتداء الآثم».

بعد هذا الاكتشاف، ظهر دليلٌ جديد. شهدت مدام دولوك وقالت: إنّها صاحبة نزل يقع على جانب الطريق، غير بعيدٍ عن ضفة النهر، في مواجهة بارير دو رولي. المنطقة مُنعزلة عن غيرها.. مُنعزلة بصورة تامة. وهذا البنسيون يلجأ إليه بعض الأشرار عادة يوم الأحد ويأتون من المدينة، حيث يعبرون النهر في قوارب. حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم الأحد موضع البحث، جاءت فتاة شابة إلى النزل، يُرافقها شابٌّ ذو سحنة داكنة. وبقي الاثنان هُنا بعض الوقت. ولدى مُغادرتهما، سلكا الطريق إلى بعض الغابات الكثيفة المُجاورة. لقد شدّ انتباه مدام دولوك الثوب الذي تلبسه الفتاة، لأنّه مُشابه لثياب قريبة لها مُتوفية. ولاحظت على وجه التحديد الوشاح. بعد وقتٍ قصير من مُغادرة الشابين،

(*12) صحيفة «ساتردي إيفننغ بوست»، فيلادلفيا. تحرير س. أ. بيترسون المحترم. (المؤلف)

دخلت زمرة من الأوغاد الذين كانوا يتصرفون بصخب، فأكلوا وشربوا ولم يدفعوا شيئاً، ثم انطلقوا مُتعقبين أثر الشاب والفتاة، وعادوا إلى البنسيون مع حلول الظلام، وعبروا النهر مرة أُخرى وهم على عجلة من أمرهم.

بعد الغروب بقليل، في المساء نفسه، سمعت مدام دولوك وابنها الأكبر، صرخات أُنثى تأتي من مكان قريب من النزل. كانت الصرخات عنيفة مع أنّها قصيرة. ولم تتعرّف مدام دولوك على الوشاح الذي وجد في الأجمة فحسب، وإنّما تعرفت أيضاً على الثوب الذي وجد على الجثة. وشهد سائقُ حافة عمومية، يُدعى فالينس(*13)، أيضاً فقال: إنّه رأى ماري روجيه تركب عبّارة على نهر السين، يوم الأحد نفسه، وهي برفقة أحد الشباب الذي له سحنة داكنة. كان فالينس يعرف ماري، ولا يُمكن له أن يخطئ في التعرف على هويتها. والمواد التي تمّ العثور عليها في الأجمات تمّ التعرّف عليها كلياً من قبل أقارب ماري.

وهكذا توصلتُ بنفسي إلى الأدلة والمعلومات، من خلال الاطّلاع على [556]الصحف، وبتوجيهٍ من دوبن، وكانت هذه تركز على نقطة واحدة.. لكنّها تبدو ذات أهمية كبيرة. من الواضح أنّه مُباشرة بعد اكتشاف الملابس بالطريقة التي وصفت أعلاه، كان جسد سانت أوستاش، خطيب ماري، قد وجد وهو فاقد للحياة، أو يكاد يكون كذلك، في مكان قريب ممّا اعتبره الجميع الآن مسرح جريمة الاعتداء. وتمّ العثور بالقرب منه على زجاجة عليها علامة «لودونوم مُستحضر أفيوني» وهي فارغة. كانت طريقة تنفّسه تُثبت أنّه تناول السم. ثم ما لبث أن مات دون أن يتكلّم. بالقرب من جسده وجدوا رسالة كتب فيها بشكل مُختصر مُعبراً عن حبه لماري، مع نيته للانتحار.

«لا َأحتاج لأن أُخبرك»، قال دوبن، بينما كان ينهي مُتابعة مُلاحظاتي، «أن القضية مُعقّدة أكثر من تلك الجريمة التي حدثت على جادة مورغ؛ فهي تختلف عنها في شيءٍ مهم. نحن أمام جريمة عادية، رغم أنّها شنيعة. ليس هُناك شيء استثنائي بشأنها. لا بُدّ أنّك تُلاحظ، لهذا السبب، أنّ اللغز قد اعتُبر سهلاً، بينما

(*13) آدم. (المؤلف)

لهذا السبب أيضاً ينبغي أن يعتبر صعب الحل. لهذا؛ في البدء، كان يُعتقد أنّ من غير الضروري تقديم مُكافأة. كان أولئك «المرمطون» الذين يعملون مع ج.. قادرين مُباشرة أن يستوعبوا كيف ولماذا يُمكن أن يقترف مثل هذا العمل البشع. كان في وسعهم أن يصوّروا لمُخيلاتهم نمطاً.. أو عدة أنماط.. وحافزاً.. أو عدة حوافز؛ لم يكن من المُستحيل أن يكون أي واحد من هذه الأنماط والحوافز المُتعددة هو الحقيقي، فقد أخذوه على محمل الجد. لكن المسألة التي جرى التفكير فيها بهذه الأوهام المُتغيرة، والمصداقية ذاتها التي اكتسبتها الأوهام، كان ينبغي أن تفهم على أنّها تدل على الصعوبة وليس السهولة التي لا بُدّ أن تكتنف التحليل. لذلك لاحظت من قبل، من خلال ظهور بعض الأشياء فوق المُستوى المألوف، فالعقل يتمكّن من تلمّس طريقه، إذا استطاع ذلك، بحثاً عن الشيء الحقيقي، والسؤال الصحيح في مثل هذه الحالات، لا ينبغي أن يكون: 'ما الذي حدث؟' ولكن «ما الذي حدث ولم يحدث أبداً من قبل؟» في التحريات التي أُجريت في منزل مدام ليسباناي[*14]،ز وكلاء السيد ج.. خابت ظنونهم وأربكتهم تلك الناحية بعينها من اللامألوف التي كان من شأنها، بالنسبة إلى عقلٍ منهجي سليم، أن تضمن أقصى درجات الاطمئنان في حتمية النجاح؛ في الوقت الذي ربّما كان فيه هذا العقل نفسه مُكبّلاً باليأس بإزاء الطبيعة [557]الاعتيادية لكل شيء وقعت عليه العين في قضية فتاة العطور، ومع ذلك لم يكن العقل يُخبرنا بأي شيء سوى سهولة انتصار رجال الشرطة.

«في قضية مدام لويسباناي وابنتها لم يكن هُناك، منذ بداية تحقيقاتنا، أي شك في وقوع تلك الجريمة. لقد استُبعدت فكرة الانتحار على الفور. هُنا أيضاً نحن بعيدون، منذ المُستهل، عن أي افتراض الانتحار. الجثة التي وجدت في بارير دو رولي تمّ العثور عليها في ظروفٍ من شأنها أن لا تترك لنا مجالاً للشك في هذه النقطة المُهمة. لكن قيل أيضاً: إن الجثة التي اكتُشفت ليست جثة ماري روجيه بحيث يكفي ذلك لإدانة المُجرم، أو المُجرمين، وهُناك مُكافأة عُرضت،

(*14) انظر قصة: «جرائم على جادة مورغ». (المؤلف)

وتتعلّق وحدها باتفاقنا مع مدير الشرطة. كلانا يعرف هذا الرجل جيداً. فلن ينفعنا إذا وثقنا فيه كثيراً. إذا عدنا إلى تحقيقاتنا منذ العثور على الجثة، وتعقّبنا أثر المُجرم، سوف نكتشف مع ذلك فكرة أنّ هذه الجثة ليست جثة ماري، وإنّما تعود لشخصٍ آخر؛ أو إذا بدأنا مع ماري وهي حية، سوف نجدها.. لم تقتل.. في الحالتين تضيع جهودنا سدى؛ لأنّ مسيو ج.. هو الشخص الذي علينا التعامل معه. إذن من أجل تحقيق هدفنا، إن لم يكن هدف العدالة، مما لا غنى عنه أن تكون أُولى خطواتنا التعرّف على الجثة وما إذا كانت جثة ماري روجيه المفقودة.

«مع تصاعد اهتمام الرأي العام بتصريحات صحيفة لويتوال التي اكتسبت زخماً وتأثيراً؛ والصحيفة نفسها كانت مُقتنعة بأهمية تصريحاتها، من خلال الطريقة التي تبدأ فيها إحدى مقالاتها عن الموضوع'. . تتحدث عدة صحف صباحية اليوم'، هكذا تقول، 'عن المقال الحاسم في أهميته الذي نُشر في عدد يوم الاثنين من لويتوال.' بالنسبة لي يبدو هذا المقال حاسم الأهمية حقّاً بحيث لا تتعدّى أهميته مُجرّد الحماس الذي كتبه به المُحرر والإثارة التي كان يبتغيها. ينبغي لنا أن نتذكر بصورة عامة أن الغرض الذي تتوخّاه صحفنا هو خلق الإثارة.. إنّها تُركز على نقطة ما.. بدلاً من تركيزها على جوهر الحقيقة. لا يمكن الوصول إلى العلة النهائية إلّا حين تتوافق مع غرضها الأول. الصحافة التي لا تفعل شيئاً غير الانجراف وراء اهتمامات الرأي العام (بصرف النظر عما إذا كان هذا الرأي يقوم على أُسس جيدة) لا تحقّق لنفسها سمعة طيبة بين الناس. غالبية الناس يعتبرون الشخص ذا نظرة ثاقبة فقط إذا طرح تناقضات لاذعة عن الفكرة العامة. في الاستقصاء المنطقي، وكذلك في الأدب، المُفارقة هي التي تحظى بالتقييم والأهِمية على نطاق واسع. وفي الحالتين، تلك أدنى درجة من الاستحقاق.

«ما أقصد قوله ذلك المزج بين المُفارقة والميلودراما في الفكرة، ماري [558]روجيه لا تزال حية، بدلاً من أي عقلانية حقيقية في هذه الفكرة، ذلك الأسلوب الذي اتّبعته صحيفة لويتوال، وحقّق لها انتشاراً رائعاً لدى الرأي العام. دعنا نتأمل العناوين الرئيسية لمُناظرات هذه الصحيفة؛ مُحاولين تجنّب عدم الترابط الذي رافقها في الأصل.

«الهدف الأول الذي توخّاه الكاتب هو أن يُظهر، من خلال الفترة القصيرة الفاصلة بين اختفاء ماري والعثور على جثتها طافية، أنّ هذه الجثة لا يُمكن أن تكون جثة ماري. لدى اختزال المدة إلى أدنى حد مُمكن، يُصبح هذا فوراً الهدف الذي يسعى إليه العقل بالحجة والمنطق. وسط الاندفاع الطائش نحو هذا الهدف، يندفع الكاتب مُباشرة نحو مُجرّد افتراض منذ البداية. من الغباء الافتراض'، كما يقول، 'أن تكون الجريمة، لو كانت هناك جريمة ارتكبت فعلاً على جثتها، تمّت في وقت قصير بحيث يتيح للمجرمين الذين قتلوها إلقاء الجثة إلى النهر قبل منتصف الليل'. نحن نتساءل على الفور، وهذا بديهي جدّاً، لماذا؟.. لماذا من الغباء افتراض أن ترتكب الجريمة بعد خمس دقائق من مُغادرة الفتاة منزل والدتها؟ لماذا من الغباء القول: إن الجريمة ارتُكبت في أي فترة من اليوم؟ هُناك جرائم تحدث في كل ساعة. لكن، لو حدثت الجريمة في أي لحظة بين الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد، أو قبل ربع ساعة من مُنتصف الليل، لكان هُناك وقتٌ كاف 'لإلقاء الجثة في النهر قبل مُنتصف الليل'. الافتراض إذن يصل إلى هذا الحد.. الجريمة لم تُرتكب يوم الأحد.. وإذا سمحنا لصحيفة لويتوال بافتراض هذا، ربّما نسمح لها بحرية أن تقول أي شيء. الفقرة التي تبدأ بـ 'من الغباء افتراض أن الجريمة، إلخ'.. أو بأي شكل ظهرت عليه على صحيفة لويتوال، يُمكن أن نتخيّل أنّها وردت حقّاً هكذا في ذهن كاتبها' ..من الغباء افتراض أن تكون الجريمة، لو كانت هُناك جريمة ارتكبت فعلاً على جثتها، تمت في وقت قصير بحيث يتيح للمجرمين الذين قتلوها إلقاء الجثة إلى النهر قبل مُنتصف الليل'؛ من الغباء، نحن نقول، أن يفترض المرء كل هذا، وأن يفترض في الوقت نفسه، 'لأننا قررنا الافتراض' أن الجثة لم ترم إلى النهر حتى ما بعد مُنتصف الليل.. إنّها جملة تأتي في غير سياقها المُناسب، مع أنها لا تخالف الصواب كثيراً مثل الجملة المنشورة.

'لو كان هدفي'، تابع دوبن كلامه، «مُجرّد أن أثير مُجادلة عقيمة ضد هذا النص الذي ورد ضمن مُناقشات صحيفة لويتوال، ربما كان من الأفضل أن أتركه كما هو. لكننا لسنا معنيين بما ينشر على صفحات لويتوال، وإنّما نحن معنيون

[559]بالحقيقة. الجملة التي نتكلّم عنها ليس لها غير معنىً واحد، بالشكل الذي هي عليه؛ وهذا المعنى توصلت إليه بسهولة: لكن من الضروري تجاوز الكلمات الغامضة، لأنّ هُناك فكرة واضحة يقصد بها من هذه الكلمات، وتفشل في نقلها. الصحفي كان يُريد أن يقول، في أي فترة من النهار أو الليل من يوم الأحد ارتُكبت الجريمة، من غير المُحتمل أن يكون المُجرمون غامروا بحمل الجثة إلى النهر قبل مُنتصف الليل. وهُنا تكمن حقيقة الافتراض الذي نتجادل فيه. من المؤكد أنّ الجريمة ارتُكبت في ذلك الموقع، وفي ظروفٍ تحتم نقلها إلى النهر. والآن ربما حصلت الجريمة على ضفاف النهر، أو على النهر ذاته؛ لذلك، فإنّ رمي الجثة في المياه كان لا بُدّ من اللجوء إليه، في أي فترة من النهار أو الليل، على أنّه أكثر الأنماط وضوحاً للتخلّص من الجثة مُباشرة. لا بُدّ أنّك تفهم أنّني لا ألمّح إلى شيء هُنا فأعتبره أمراً مُحتملاً، أو يتوافق مع رأيي. خطتي حتى الآن لا علاقة لها بحقائق هذه القضية. أرغب فقط في تحذيرك ضد الطريقة كلها التي جاء بها افتراض صحيفة لويتوال، بأن أُوجه انتباهك إلى أنه جاء من طرفٍ واحد *ex parte* منذ البداية.

«بعد أن كتبتْ هذه الأشياء بما يتناسب مع مفاهيمها التي سبق أن حدّدتها عن قصد؛ وبعد أن توصّلتْ إلى أنّه إذا كانت هذه جثة ماري، فلا بُدّ أنّها بقيت في المياه لمدة قصيرة جدّاً؛ تمضي الصحيفة في القول:

'لقد ثبت لنا جميعاً من خلال التجربة أنّ الأجساد الغارقة، أو التي تُلقى في المياه مُباشرة بعد الموت باستخدام العنف، تحتاج إلى ستة إلى عشرة أيام لكي تتحلّل بما يكفي لتصعد إلى سطح المياه. حتى لو أطلق مدفع على الجثة، فهي ترتفع قبل على الأقل خمسة أو ستة أيام من الغطس، ثم تعود لتغطس إذا تركت حرة'.

«هذه التأكيدات لقيت قبولاً ضُمنياً من كل الصحف التي تصدر في باريس، ما عدا صحيفة لومونيتور[*15]. فقد حاولت الصحيفة الأخيرة دحض ذلك الجزء

(*15) مجلّة «الإعلانات التجارية» *Commercial Advertiser* نيويورك. تحرير كولونيل ستون. (المؤلف)

من الفقرة الذي يتعلّق بـ 'الأجسام الغارقة' من خلال إعطاء خمسة إلى ستة أمثلة عن أجساد بعض الأفراد الذين غرقوا ثم عُثر عليهم طافين بعد فترة أقل من التي تُصرّ عليها صحيفة لويتوال. لكن هُناك شيئاً بعيداً عن المنطق الفلسفي تماماً في مُحاولة صحيفة لومونيتور لتفنيد ما طرحته صحيفة لويتوال في تأكيداتها عموماً، وذلك من [560]خلال التركيز على أمثلة مُحدّدة من شأنها أن تُعارض ذلك التأكيد. لو كان من الممكن تقديم خمسين مثالاً بدلاً من خمسة عن الأجساد التي وجدت طافية بعد يومين أو ثلاثة أيام، فهذه الأمثلة الخمسون يُمكن اعتبارها مُجرّد استثناءات عن القاعدة التي وضعتها صحيفة لويتوال، حتى يأتي وقت تدحض فيه هذه القاعدة. من خلال الاعتراف بجدوى تلك القاعدة (وهذا شيء لا تنكره صحيفة لومونيتور، فهي تؤكد فقط على الاستثناءات عن القاعدة)، فقد قدر لمُناقشات صحيفة لويتوال أن تبقى تحمل قوة تامة؛ لأنّ هذه المُناقشات لا تدّعي أنّها تتضمّن أكثر من تساؤل عن احتمال ارتفاع الجثة إلى السطح في أقل من ثلاثة أيام؛ وهذا الاحتمال من شأنه أن يكون لصالح موقف لويتوال حتى تكون الأمثلة التي ضربت بطريقة صبيانية كافية من حيث العدد لتأسيس قاعدة تتعارض مع ثوابتها.

«لا بُدّ أنّك ترى فوراً أنّ الجدل بهذا الاتجاه ينبغي أن يُثار ضد القاعدة نفسها، وليس في اتجاه آخر؛ من أجل هذه الغاية، علينا أن نتفحّص العلة المنطقية التي وراء القاعدة. والآن، الجسد البشري، بصورة عامة، ليس أخف كثيراً ولا أثقل من مياه نهر السين؛ بمعنى آخر، الثقل المُحدّد للجسد البشري، في حالته الطبيعية، يكاد يكون مساوياً لكتلة الماء التي يُزيحها. الأشخاص البدينون المُكتنزون باللحم، بعظامهم النحيفة، والنساء بصورة عامة، يكونون أخف من الرجال النحيفين ذوي العظام الصلبة؛ والجاذبية المُحدّدة لماء النهر تتأثّر إلى حدٍّ ما بالمد الذي يأتي من البحر. لكن إذا تغاضينا عن المد، نقول: إنّ القليل جدّاً من الأجساد البشرية سوف تغطس، حتى في المياه العذبة، أي: تغطس من تلقاء نفسها. أي شخص، يسقط في النهر، سوف يتمكّن من الطفو حالاً، إذا قاوم الجاذبية المُحدّدة للماء بعض الشيء بالقياس إلى جاذبيته هو..

بعبارة أُخرى، إذا لم يغطس جسده كله، مع وجود استثناءات قليلة. الوضع المُناسب للشخص الذي لا يُجيد السباحة، أن يبقى مُعتدلاً مثل الذي يمشي على الأرض، وأن يكون رأسه مُرتدّاً إلى الخلف، حتى لو غمرته المياه؛ والفم والمنخران وحدها خارج السطح. في هذا الوضع سوف نجد أنفسنا نطفو دون أي صعوبة أو جهد. لكن الواضح أنّ جاذبية الجسد، وكتلة الماء المزاح، تكون في حالة اتّزانٍ جيد، وأي شيء مهما كان تافهاً يُمكن أن يتسبب لواحدٍ منهما بالرجحان على الآخر. فالذراع، على سبيل المثال، إذا رفعت عن الماء سوف تحرم الجسد من الإسناد، وتُشكّل بذلك ثقلاً مُضافاً يكفي لغمر الرأس كله، بينما إذا توفّرت [561]مُساعدة عارضة من أصغر قطعة خشب سوف نتمكّن من رفع الرأس والنظر من حولنا. والآن، في صراع الشخص الذي لا يُجيد السباحة، يرفع الذراعين دائماً، بينما يبذل مُحاولة لإبقاء الرأس في وضعه العمودي العادي. والنتيجة هي أن يغطس الفم والمنخران، ودخول الماء أثناء مُحاولات التنفس تحت السطح إلى الرئتين. والكثير من الماء يدخل أيضاً إلى المعدة، ويُصبح الجسم أثقل بسبب التباين بين وزن الهواء الموجود أصلاً في هذه التجاويف، وبين وزن السائل الذي صار الآن يملأُها. هذا التباين يكفي لجعل الجسد يغطس، وهذه قاعدة عامة؛ إلّا أنّ ذلك لا يكفي في حالات الأفراد الذين تكون عظامهم صغيرة ولديهم كمية استثنائية من الترهّل أو الشحوم. مثل هؤلاء الأفراد يطفون حتى بعد الغرق.

«الجثة التي يفترض أن تستقرّ في قاع النهر، سوف تبقى هُناك، بوسيلة ما، حتى تُصبح جاذبيتها المُحددة أقل من جاذبية كتلة الماء التي تُزيحها. هذا التأثير يحصل بسببِ التحلل، أو لأسباب أُخرى. ونتيجة التحلل ينشأ الغاز، فتنتفخ الأنسجة الخلوية والتجاويف، وتُعطي منظر انتفاخ الجثة البشع. عندما يحصل هذا الانتفاخ ويتطور إلى درجة تزداد فيها كتلة الجثة مادياً دون زيادة مُماثلة في الكتلة أو الوزن، يُصبح ثقلها أقل من ثقل الماء المزاح، فهي تظهر مباشرة على السطح. غير أنّ تحلّل الجثة يخضع لظروفٍ لا تُحصى.. فهو يزداد أو يتناقص بتأثيرات مُتنوعة؛ على سبيل المثال، حرارة أو برودة الموسم، والتشبع بالمعادن

أو نقاوة المياه، ومكانها العميق أو الضحل، وتحرّكها أو ركودها، وشكل الجسد، وإصابتها بالمرض قبل الموت أو عدم وجود مرض. لذلك من الواضح أنّنا لا نستطيع أن نُحدّد أي مدة، في شيءٍ من الدقة، يُمكن أن تطفو فيها الجثة بفعل التحلّل. في بعض الحالات يحصل هذا بعد ساعة؛ وفي ظروفٍ أُخرى ربّما لا تطفو الجثة أبداً. هُناك بعض المواد الكيماوية التي تحفظ الجسد الحيواني من التعفّن إلى الأبد؛ من هذه المواد ما يُسمّى ثنائي كلوريد الزئبق. لكن بعيداً عن التحلّل، ربّما هُناك، وهذا شيء معروف جدّاً، تولّد للغاز داخل المعدة، نتيجة تخمّر حوامض مواد من أصل نباتي (أو داخل أي تجويف آخر لأسباب أُخرى) وهذا التخمّر يكفي لإحداث انتفاخ يؤدي إلى صعود الجثة إلى السطح. إنّ التأثير الذي ينتج عن انفجار كأنّه إطلاقة مدفع يتمثل في ارتجاجٍ بسيط. وهذا ربّما يؤدي إلى ارتخاء الجثة وتحرّرها من الوحل غير الكثيف [562] الذي يُحيط بها أو يؤدي إلى ترشح طبقة الوحل الذي يطمرها، وبذلك يُتيح لها الصعود حين تُساهم عوامل أُخرى سابقة في حدوث الأمر؛ أو ربّما يتفكّك تماسك بعض الأجزاء المُتعفّنة من الأنسجة الخلوية؛ ممّا يُتيح للتجاويف الانتفاخ تحت تأثير الغاز.

«بعد أن عرفنا الآن مُجمل الفلسفة التي وراء هذا الموضوع، يمكننا بسهولة إخضاعها للاختبار ومُقارنتها بتأكيدات صحيفة لويتوال. إن ’كل التجارب‘، كما تقول هذه الصحيفة، ’لا تثبت أنّ الأجسام الغارقة، أو الأجسام التي تُلقى في الماء مُباشرة بعد الموت باستعمال العنف، تحتاج من ستة إلى عشرة أيام من أجل أن يحدث تحلّل يكفي لجعلها تطفو على سطح الماء. حتى إذا أُطلق مدفع على جثة، فهي ترتفع قبل على الأقل خمسة أو ستة أيام من الغطس، ثم تعود لتغطس إذا تركت حرة‘.

«هذه الفقرة كلها لا بُدّ أن تبدو الآن كأنّها خليط من التناقض والخروج عن السياق المنطقي. التجارب كافة لا تثبت أنّ ’الأجسام الغارقة‘ تحتاج إلى فترة من ستة إلى عشرة أيام لكي يحصل التحلّل الكافي لجعلها تصعد إلى السطح. العلم والتجربة يظهران أنّ فترة صعود الأجساد، وهي بالضرورة هكذا، لا يُمكن تحديدها. فضلاً عن هذا إذا ارتفع جسدٌ إلى السطح من إطلاقه مدفع، فهو لن

'يعود للغطس إذا تُرك حرّاً'، حتى تمضي عملية التحلّل شوطاً بعيداً بحيث تُتيح لتسرّب الغازات المُتولّدة فيه. لكنّي أودّ أن أُلفت انتباهك إلى التباين الذي يحصل بين 'الأجساد الغاطسة'، و'الأجساد التي تغرق في المياه فوراً بعد موتها المصحوب بالعنف'. على الرغم من أن الكاتب يعترف بهذا التباين، إلّا أنّه يدرج كل شيء ضمن الصنف نفسه. لقد أوضحت كيف أنّ جسد الغريق يُصبح أثقل من كتلة الماء التي يُزيحها، وأنّه لن يغطس أبداً، إلّا إذا صار يُكافح من أجل رفع ذراعيه فوق السطح، ونتيجة لتلهفه للتنفس أثناء وجوده تحت الماء.. فهذه المُحاولات تؤدي إلى دخول جرعات كبيرة من المياه فتحلّ محلّ الهواء الموجود سابقاً في الرئتين. هذا الصراع وهذه التشنجات لن تحصل للجسد الذي 'يُلقى في الماء مُباشرة بعد الموت باستعمال العنف'. لذلك، في المثال الأخير، لن يغطس الجسد، كمبدأ عام، على الإطلاق.. وهي حقيقة تتجاهلها صحيفة لويتوال بشكل واضح. فعندما يحصل التحلل حتى يبلغ حدّاً كبيراً.. ويتساقط اللحم عن العظام.. عندئذ، في الواقع، وليس قبل ذلك، لن نرى الجثة.

«والآن ما الذي يمكن أن نستخلصه من هذه المُناقشة، الجثة التي تمّ العثور عليها يُمكن ألا تكون جثة ماري روجيه، فلم تمضِ سوى ثلاثة أيام، هذه الجثة هل [563]وجدت طافية؟ إذا كانت هُناك امرأة غرقت، لما غطست جثتها أبداً؛ أو إذا غطست فربّما تعود إلى الظهور خلال أربع وعشرين ساعة، أو أقل. ولكن لا أحد يفترض أنّها غرقت؛ وإذا حدثت الوفاة قبل أن تُلقى الجثة إلى النهر، ربّما عثر عليها تطفو في أي فترة لاحقة أياً كان أمدها.

«لكن تقول صحيفة لويتوال، 'لو أن الجثة بقيت في حالتها المُشوهة على الساحل حتى ليلة الثلاثاء، لعثر الناس على أثر للمجرمين على الساحل'. هُنا يبدو في البداية من الصعب إدراك قصد المحلل. إنه يقصد أن يتوقع ما يتخيّل أنّه الهدف من نظريته.. والتي تتّخذ الشكل التالي: الجثة بقيت على الساحل مدة يومين، وتعرّضت بذلك إلى تحلّل سريع ..أسرع ممّا يحصل لو أنّها غمرت بالماء. إنّه يفترض، لو كان هذا ما حصل، ربّما ظهرت الجثة على السطح يوم الأربعاء، ويعتقد أنّه في مثل هذه الظروف فقط يُمكن أن تظهر. لذلك فهو على

عجلة من أمره ليثبت أنّ الجثة لم تلقَ على الساحل؛ فلو كان ذلك ما حدث، ’لا بُدّ من العثور على بعض الأثر على الساحل يتركه المُجرمون‘. أرى أنّك تبتسم ساخراً من هذا الاستنتاج المنطقي. لا سبيل لإقناعك أو لا سبيل لأن ترى كيف أنّ المدة المُحدّدة التي بقيت فيها الجثة على الساحل يمكن أن تؤدي إلى مُضاعفة آثار المجرمين. وكذلك الأمر بالنسبة لي.

«’.. وفضلاً عن هذا، فذلك شيء بعيدٌ عن التصور تماماً‘، تمضي صحيفتنا، ’أن يكون أي واحد من الأوغاد الذين ارتكبوا هذه الجريمة بالطريقة التي نفترضها هُنا، سيُلقي الجثة دون أن يربطها بثقل لكي تغطس، في الوقت الذي من شأن هذا الإجراء أن يُنجز بسهولة‘. لاحظ هُنا الارتباك المُثير للضحك الذي أصاب التفكير! لا أحد.. ولا حتى صحيفة لويتوال.. يتحدّث عن الجريمة التي اقترفت ضد صاحبة الجثة التي تمّ العثور عليها. إنّ علامات العنف واضحة وضوحاً تاماً. الهدف الذي يسعى إليه مُفكرنا كان مُجرّد أن يظهر أنّ هذه الجثة ليست جثة ماري. إنّه يرغب في إثبات أنّ ماري لم تُقتل.. وليس أن الجثة لم تكن جثتها. إلّا أنّ مُلاحظته لا تُثبت غير تلك النقطة الأخيرة. هُنا توجد جثة لم يربط بها ثقل لكي تغرق. المجرمون حين يتخلّصون من الجثة لن يفشلوا في ربطها بثقل وإلقائها في النهر. لذلك فالجثة لم يلقها مجرمون. هذا كل شيء يراد إثباته، إذا كان ثمّة شيء فعلاً. لم يتطرّق أحد إلى هوية الجثة، ومُحرّر صحيفة لويتوال كان يشعر بالألم العميق بحيث ذكر الآن واعترف منذ لحظات ليس إلا’ ..نحن مُقتنعون تماماً‘، تقول الصحيفة، ’إن الجثة التي تمّ العثور عليها هي لامرأة تعرضت للقتل‘.

«وهذا ليس المثال الوحيد، ضمن هذا الجزء من الموضوع، الذي نرى فيه مُفكرنا يُفكّر بلا قصد باتّجاهات تجعله يعترف بالحقيقة التي تُناقض ما يؤمن به في قرارة نفسه. كان هدفه الواضح، كما قلت آنفاً، هو تقليص الفترة الفاصلة بين [564]اختفاء ماري والعثور على الجثة. إلا أنّنا نجده يُلح على أنّه لا يوجد شخص رأى الفتاة من لحظة مُغادرتها لمنزل والدتها. ’نحن لا نمتلك دليلاً‘، يقول، ’على أنّ ماري روجيه كانت موجودة في المنطقة التي تسكن فيها بعد

الساعة التاسعة من يوم الأحد، الثاني والعشرين من حزيران'. ولأنّ كلامه من الواضح أنّه من طرف واحد، كان ينبغي عليه على الأقل أن يترك هذه المسألة فلا يلتفت إليها؛ لو قال أي شخص: إنّه رأى ماري، مثلاً يوم الإثنين، أو الثلاثاء، فإنّ الفترة الفاصلة التي نتكلّم عنها ستختزل كثيراً، ومن خلال طريقته المنطقية في تحليل الأمور، فإنّ احتمال أن تكون الجثة تعود إلى الفتاة الفرنسية الشابة سوف يتلاشى. لكن يبدو أنّ من المُثير للانتباه إصرار صحيفة لويتوال على رأيها لاعتقادها التام بأن ذلك ينسجم مع اتّجاهها العام في المُناقشة.

«والآن إذا قرأنا بإمعان ذلك الجزء من المُناقشة الذي يتعلق بتعرّف بوفيه على الجثة، فيما يتعلّق بالشعر الذي على الذراع. كانت صحيفة لويتوال غير مُنصفة في هذا الشأن بوضوح. بما أنّ م. بوفيه ليس بالغبي، فلا يُمكن أن يقول، لدى تعرّفه على الجثة، إنّه رأى شعراً على ذراعها ببساطة. فلا توجد ذراع خالية من الشعر. الصيغة العامة للتعبير الذي جاء في صحيفة لويتوال مُجرّد تحريف لطريقة تعبير الشاهد. لا بُدّ أنّه تكلّم عن بعض الأشياء الغريبة المنظر التي رآها على الشعر.. ربّما كان يعني غرابة اللون، والكمية، والطول، أو الموقع.

«. .'كانت قدمها'، تقول الصحيفة، 'صغيرة.. وهكذا هي حال آلاف الأقدام. ورباط جوربها ليس دليلاً أياً كان.. ولا حتى الحذاء.. فمثل ذلك الحذاء وأربطة الجوارب تُباع في المحلات في رزم. والشيء نفسه ربما يُقال عن أزهار قبعتها. هُناك شيء وحيد يؤكد عليه م. بوفيه بقوة، وهو أنّ المشبك الذي وجد على رباط الجورب، كان في غير مكانه المُناسب. وهذا لا يعني شيئاً؛ لأنّ معظم النساء يرين أنّ من الأفضل أن يأخذن أربطة الجوارب إلى المنزل لقياسها على حجم الأعضاء التي يردن الإحاطة بها، بدلاً من قياسها في المحل الذي يشترين منه. وهُنا يصعب تصديق افتراض المُحلّل جدّياً. لو كان م. بوفيه، في بحثه عن جثة ماري، اكتشف جثة تشبه في حجمها ومظهرها جثة الفتاة المفقودة، لوجد مُبرراً (دون الرجوع إلى مسألة الملابس أبداً) للرأي بأن بحثه كان ناجحاً. وإضافة إلى حجم الجسم والملامح الخارجية، إذا وجد على الذراع مظهراً غريباً للشعر الذي لاحظه على ذراع ماري وهي حية، فإن فكرته ربما تُعزز بما يكفي

من المبررات القوية؛ وأنّ زيادة ايجابية أو واقعية ربّما تحصل في نسبة الغرابة، أو في الخروج عن المألوف، فيما يتعلّق بوجود الشعر. إذا كانت قدما ماري صغيرتين، فقدما الجثة أيضاً صغيرتان، [565]والاحتمال الكبير في أنّ الجثة تعود لماري لن يعني زيادة نسبة حسابية بحتة، لكنها زيادة هندسية، أو تراكمية إلى درجة كبيرة. فإذا أضفنا إلى كل هذا الحذاء الذي من المعروف أنّها كانت تلبسه في يوم اختفائها، رغم أن مثل هذا الحذاء ربما 'يُباع في رزم'، فأنت تُضاعف الاحتمال إلى ذروة اليقين. الشيء الذي في ذاته ليس دليلاً على الهوية، يُصبح من خلال موقعه المُدعّم، دليلاً مؤكداً على ذلك. إذا أعطيتنا الآن أزهار قُبعة تتماشى مع تلك الأزهار التي كانت تضعها الفتاة المفقودة، ولن نبحث عن شيء إضافي. حتى لو زهرة واحدة، ولن نبحث عن شيء آخر.. ماذا إذن لو حصلت على اثنتين أو ثلاث، أو أكثر؟ كل زهرة تعثر عليها بعد الأُخرى دليلٌ مُضاعف.. برهان لا يُضاف إلى برهان، لكنه يتضاعف بالمئات أو بالآلاف. دعنا الآن نبحث، على جسد الفقيدة، عن أربطة جوارب مثل التي كانت تستعملها وهي حية؛ أليس من الغباء المضي في هذا؟ إلّا أنّ هذه الأربطة وجدت مشدودة، من خلال المشبك، بطريقة مُماثلة تماماً لما كانت تفعله ماري، قبل أن تُغادر منزلها بفترة قصيرة. الآن من الجنون أو الغباء أن يشك المرء في الأمر. ما تقوله صحيفة لويتوال فيما يتعلّق بهذا التقلص في الرباط وأنّه ظاهرة عادية، لا يدل على شيء خارج نطاق تشبثها بالخطأ. إنّ الطبيعة المرنة للرباط ذي المشبك دليل ذاتي على غرابة القول بوجود نوع من التقلّص. الشيء الذي صنع لكي يُعدّل نفسه بنفسه، بالضرورة لا يحتاج إلى تدخّل خارجي إلا نادراً. لا بُدّ أنّ الأمر حدث مُصادفة، بالمعنى الدقيق للكلمة، أن كانت هذه الأربطة التي تضعها ماري تحتاج إلى عملية الشد التي وصفت. إنّها وحدها من شأنها أن تُحدّد هوية الفتاة على نحو قاطع. ليس المهم أنّ الجثة وجدت وفيها أربطة جوارب الفتاة المفقودة، أو وجدوا حذاءها، أو قبّعتها، أو الأزهار على قبعتها، أو قدميها، أو أي علامة غريبة على الذراع، أو حجمها ومظهرها على وجه الإجمال.. بل المهم أنّ الجثة تحمل كل واحدة من تلك العلامات، كلها معاً. فإذا ثبت أنّ مُحرّر لويتوال يُساوره الشك حقّاً، في هذه الظروف، فليس من المُستغرب أن تكون ثمّة

حاجة إلى لجنة للتحقيق في سلامته العقلية *a commission de lunatico inquirendo*. لقد تصوّر أنّ من الحصافة ترديد الكلام الفارغ الذي يقوله المُحامون، الذين في الغالب يُقنعون أنفسهم بترديد الخطب المُسهبة التي تقال في المحاكم. إنني أُلاحظ هُنا أنّ الكثير جدّاً ممّا يرفض القبول به كدليل من قبل المحكمة هو أفضل دليل يقبله العقل الرشيد. بالنسبة إلى المحكمة، التي تُلزم نفسها بالمبادئ العامة للأدلة.. المبادئ المُعترف بها والمُحددة مُسبقاً.. فهي تنفر من الانحراف عن مسارها لدى مواجهة حالات مُحددة. [566]هذا التمسك الراسخ بالمبدأ، مع التغاضي الصارم عن أي حالة استثنائية تتضارب مع ثوابتهم، هو نمط مؤكد من أنماط التوصل إلى أقصى درجات الحقيقة التي يُمكن التوصل إليها، ضمن أي سياق زمني طويل الأمد. هذه المُمارسة، في مُجملها، إذن تتسم بطابع فلسفي؛ مع أنّ من المؤكد أنّها تُنذر بخطر الوقوع في خطأ فردي جسيم(16*).

«فيما يتعلق بالتلميحات التي جاءت في كلام بوفيه، فهي يُمكن أن تستبعد في لحظة. لقد فهمت الشخصية الحقيقية لهذا الرجل الطيب. إنّه شخصٌ فضولي مُتطفّل، مع كثير من الرومانسية وقليل من الفطنة. أيّ شخص بهذه التركيبة على استعداد لأن يتصرّف، في مُناسبات تُثير دهشة حقيقية، بحيث يجعل نفسه عرضة للشكوك بالنسبة إلى شخص حاذق، أو آخر سيئ الطبع. لقد أجرى م. بوفيه (كما يبدو من مُلاحظاتك) مُقابلات شخصية مع مُحرّر صحيفة لويتوال، وأساء التصرّف بأن جازف بطرح رأي في أنّ الجثة، على الرغم من النظرية التي يتبناها المُحرر، كانت وفقاً لحقائق واقعية، هي جثة ماري'. إنه يُصرّ'، كما تقول الصحيفة،

(16*) «نظرية تقوم على خصائص شيء مُعيّن، من شأنها أن تحول دون الكشف عن أسراره التي ينطوي عليها؛ والشخص الذي يقوم بترتيب الموضوعات تبعاً لأسبابها لن يتوصّل إلى تقييمها تبعاً لنتائجها. لذا، فإن النظام القضائي لكل أمة من الأمم سوف يظهر، حين يُصبح القانون علماً ونظاماً، أنّه لا يُمثّل العدالة. الأخطاء التي نقع بها نتيجة التمسّك الأعمى بمبادئ تصنيف الأشياء أدت بالقانون العادي، وهذا يتّضح من مُلاحظة كيف أنّ المُشرع أصبح لزاماً عليه السعي لاسترداد العدالة التي ضاعت من منهج القانون».. لاندور. (المؤلف)

'على رأيه في أن الجثة هي جثة ماري، مع أنّه لا يستطيع أبداً أن يُقدّم دليلاً، إضافة إلى تلك الأدلة التي علقنا عليها، يجعل الآخرين يُصدقون رأيه'. والآن، دون الإشارة مرة أُخرى إلى حقيقة عدم وجود دليل قوي 'يجعل الآخرين يُصدقون'، بالإمكان تقديمه، نُلاحظ أنّ المرء يُمكن في كثيرٍ من الأحيان أن يقنعنا بأنه يصدق في داخله بشيء ما، في قضية من هذا النوع، دون القدرة على تقديم سببٍ واحد يجعل طرفاً آخر يصدق ما يؤمن به. لا شيء أكثر غموضاً من انطباعات عن الهوية الفردية. كل إنسان يتعرّف على جاره الذين يسكن في مكان قريب، ولكن هُناك أمثلة يكون المرء فيها مُستعداً لتقديم سبب لهذه المعرفة. مُحرّر صحيفة لويتوال لم يكن لديه حق في الإساءة إلى م. بوفيه لأن الرجل لديه اعتقاد غير مُقنع بالنسبة إليه.

«الظروف المُثيرة للشكوك التي تُحيط به نجدها تنسجم كثيراً مع فرضيتي عن الشخصية الرومانسية الفضولية، أكثر من انسجامها مع الافتراض العقلي عن الخطيئة. إذا تبنينا التأويل الأكثر ميلاً إلى حسن الظن، لن تواجهنا صعوبة في استيعاب وجود الوردة في ثقب المفتاح؛ ووجود 'ماري' على اللوح؛ و'إبعاد الأقرباء [567]من الذكور عن الطريق'؛ و'رفض السماح لهم برؤية الجثة'؛ و'التحذير الذي أُعطي إلى مدام ب..، بان عليها ألّا تجري مُحادثة مع الجندرمة حتى عودته' أي: بوفيه؛ وأخيراً، تصميمه الواضح على 'عدم تدخل أي شخص بأي شيء يتعلّق بمجريات القضية غيره'. يبدو لي ممّا لا لبس فيه أن بوفيه كان من خطاب ماري؛ وأنها كانت تُغازله؛ وكان يطمح لأن يقنع الناس بأنه يحظى بحبها وثقتها. لن أقول شيئاً أكثر عن هذه المسألة؛ لأنّ الدليل يُفنّد تماماً تأكيدات صحيفة لويتوال، فيما يتعلّق بلامبالاة الأم وغيرها من الأقارب.. وهي لامبالاة تتناقض مع افتراض أنّهم يعتقدون بأن الجثة تعود إلى فتاة العطور.. سوف نمضي الآن وكأنما حُسمت مسألة الهوية بما ينسجم مع قناعتنا التامة».

«وما رأيك»، هُنا تساءلتُ، «في آراء صحيفة لوكوميرشيال؟».

«رأيي من حيث الجوهر أنّها آراء تستحق الانتباه أكثر من أي شيء نشر حول الموضوع. الاستنتاجات التي استُخلصت من فرضيات ذات طابع فلسفي هي

أشياء حاذقة؛ إلّا أنّ الفرضيات، في مثالين مُحدّدين، على أقل تقدير، تستند إلى مُلاحظات لا تستوفي شروطها. تُريد صحيفة لوكوميرشيال التلميح إلى أنّ ماري اختطفتها زمرة من الأوغاد في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن باب منزل والدتها. 'من المُستحيل'، كما تؤكد الصحيفة، 'أن يمر شخصٌ يعرفه آلاف الناس مثل هذه الشابة، فيجتاز ثلاثة قطاعات من المباني دون أن يراه أحد'. هذه فكرة رجل يسكن منذ مدة طويلة في باريس.. رجل من عامة الناس.. يمشي جيئة وذهاباً في المدينة، ولا يبتعد في أغلب الأحيان عن الأماكن العامة.. يُدرك أنّه نادراً ما يجتاز عشرة قطاعات من المباني بعيداً عن مكتبه الخاص، دون أن يتعرّف عليه الناس فيقتربون منه ويتكلّمون معه. ولأنّه يُدرك أيضاً اتّساع معرفته الشخصية بالآخرين، ومعرفة الآخرين به، فهو يُقارن شهرته بشهرة فتاة العطور، ولا يرى أي اختلاف بين الأمرين، ويتوصل فوراً إلى استنتاج وهو أنّها، أثناء سيرها، لا بُدّ أن يتعرّف عليها بعض الأشخاص كما يتعرّفون عليه. هذه يُمكن أن تكون الحالة التي وقعت أثناء جولاتها التي تتّخذ طبيعة لا تكاد تتبدّل، ومنهجية ثابتة، وضمن نوع المنطقة المحددة نفسها مثل جولاته. إنّه يتمشّى جيئة وذهاباً، على فترات مُنتظمة، في مُحيط ضيق، وميدان يعجّ بالناس الذين تقودهم خطواتهم للتعرّف عليه من خلال اهتمامهم بأشياء مُماثلة يجدونها فيه. إلّا أنّ جولات ماري ربّما كانت بصفة عامة ذات طبيعة استطرادية بعض الشيء. فيما يتعلّق بهذه النقطة تحديداً، سوف تُفهم على أنّها من [568] الأشياء المُحتملة أكثر، أنّها كانت تتردّد على الطريق في تنوّع أكثر من المُعدّل يختلف عن الطرق التي اعتادت أن تسلكها. التماثل الذي نتخيّل وجوده في عقل مُحرر لوكوميرشيال من شأنه أن يبقى قائماً فقط في حالة وجود شخصين يتنقلان في أرجاء المدينة كلها. في هذه الحالة، إذا افترضنا أنّ عدد المعارف الشخصيين متساوٍ، فالفرص أيضاً تكون مُتساوية في أن يقع عدد مُماثل من المواجهات الشخصية. من جانبي الشخصي لا أرى أن من المُمكن فحسب، ولكنه شيء أكثر من المُحتمل، أن تسير ماري في أي فترة مُحددة، عبر أي واحد من المسالك المُتعددة التي تفصل بين مكان سكناها ومكان سكن عمتها، دون أن تلتقي بفرد واحد تعرفه، أو تلتقي بشخص يعرفها. لدى تأمل المسألة بكل خفاياها، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار دائماً عدم

التناسب بين الأشخاص الذين يعرفهم أكثر شخص شهرة في باريس، وعدد السكان الكلي في باريس نفسها.

«لكن أي حجة قوية تبقى لافتراض صحيفة كوميرشيال سوف تتقوّض حينما نأخذ بعين الاعتبار الساعة التي خرجت فيها الفتاة من المنزل. 'كانت الشوارع تعجّ بالمارة'، تقول لوكوميرشيال، 'عندما خرجت الفتاة'. لكن هذا ليس صحيحاً. كان ذلك في التاسعة صباحاً. والآن في الساعة التاسعة من صباح كل يوم من الأُسبوع، باستثناء يوم الأحد، تكون شوارع المدينة، لا شك في هذا، تعجّ بالناس. لكن في الساعة التاسعة من يوم الأحد، يكون مُعظم الناس أساساً داخل بيوتهم يتهيأون للذهاب إلى الكنيسة. لا يُمكن لأي شخصٍ له نظر أن يخفق في الانتباه إلى غرابة الأجواء المهجورة في البلدة، من حوالى الساعة الثامنة إلى العاشرة صباحاً من كل سبت. بين العاشرة والحادية عشرة تكون الشوارع مُكتظة، ولكن ليس في وقت مبكر مثل ذلك الذي أشرنا إليه.

«هُناك مسألة أُخرى يبدو أنّها تنطوي على إهمالٍ شديد في المُلاحظة من جانب صحيفة لوكوميرشيال. 'هناك قطعة'، تقول الصحيفة، 'من تنورة الفتاة التعيسة الحظ، طولها قدمان، وعرضها قدم، مُمزّقة ومربوطة تحت حنكها، وحول مؤخرة الرأس، لعلها تهدف إلى كتم صرخاتها. وقد فعل هذا أشخاصٌ ليس لديهم مناديل جيب'. سواءٌ كانت هذه الفكرة تقوم على أسس رصينة أم لا، سوف نُحاول أن نتبيّن هذا لاحقاً؛ ولكن من خلال عبارة 'أشخاص ليس لديهم مناديل جيب' يقصد المُحرر القول: إنهم ينتمون إلى أوطأ مرتبة من الأوغاد. مع أنّ هذا الوصف نفسه ينطبق أيضاً على الناس الذين دائماً ما نكتشف لديهم مناديل جيب حتى عندما لا يكون لديهم قمصان أو أي شيء. لا بُدّ أنك رأيت ذات مرة كيف أصبح شيئاً لا يستغنى عنه، [569] خلال السنوات الأخيرة، بالنسبة للمجرمين الأوغاد أن يحملوا معهم مناديل جيب».

«وماذا نستنتج»، سألت، «من مقال صحيفة لوسوليل؟».

«أنّه أمر يدعو للأسف كثيراً أنّ كاتبها ليس ببغاء.. في هذه الحال سوف

يكون أكثر ببغاء شهرة في العالم. لم يفعل الرجل شيئاً سوى أن كرّر الفقرات ذاتها التي وردت في مقالات منشورة سابقاً؛ قام بتجميعها، في حرفية جديرة بالثناء، من هذه الصحيفة وتلك. 'كل الأشياء كانت واضحة للعيان'، يقول، 'على الأقل بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع، ولن يبقى أي شك في أن تكتشف البقعة التي وقع فيها هذا الاعتداء الغاشم'. الحقائق هُنا يُعاد سردها من صحيفة لوسوليل، في الواقع هي بعيدة كل البعد عن أن تُزيل الشكوك التي تراودني شخصياً في هذا الشأن، وسوف نتفحصها بالتفصيل لاحقاً من ناحية ارتباطها بقسم آخر من الموضوع..

«في الوقت الحالي علينا أن ننشغل بتحرياتٍ أُخرى. لا بُدّ أنّك انتبهت إلى الإهمال الشديد في فحص الجثة. إذا توخينا الدقة فإنّ مسألة الهوية حُدّدت على عجل، أو كان ينبغي أن تُحدّد؛ لكن هُناك نقاطاً أُخرى ينبغي التأكد منها. ماذا لو كانت الجثة سُرقت بأي طريقة؟ ماذا لو كانت المُتوفاة تحمل أي مُجوهرات حين غادرت المنزل؟ إذا كان الأمر كذلك، هل كانت تضع شيئاً من ذلك لما تمّ العثور عليها؟ هذه تساؤلات مُهمّة لم يتطرّق إليها أبداً أثناء سير التحقيق؛ وهناك نقاط أُخرى لا تقل أهمية عن هذه، لم تكن قد أثارت أي اهتمام. علينا أن نُحاول إقناع أنفسنا في هذا الشأن بالجهود الشخصية في التقصّي. إن قضية سانت أوستاش ينبغي أن يُعاد مُراجعتها. ليس لدي أي شك في هذا الشخص؛ ولكن دعنا نمضي بطريقة منهجية. سوف نتأكد بما لا يقبل الشك من مصداقية إفادات الشهود فيما يتعلق بأماكن وجوده يوم الأحد. إفادات الشهود في طبيعتها من المسائل التي رُتّبت على عجل لغرض الإقناع. لكن إذا لم نكتشف أي خلل هُنا، سوف نستبعد سانت أوستاش من تحرّياتنا. وإن كان انتحاره سيزيل التهمة، فلا بُدّ من العثور على نوع من التضليل في الإفادات، وحتى من غير هذا التضليل، بأي حال من الأحوال هُناك ظرفٌ لا تفسير له، سوف يؤدي بنا إلى الانحراف عن مسار التحليل الاعتيادي.

«في الظرف الحالي، علينا أن نتغاضى عن المسائل الداخلية لهذه التراجيديا، ونُركّز اهتمامنا على النواحي الخارجية. الخطأ الذي لم يكن اعتيادياً

في مثل هذه التحريات يتمثل في تقييد البحث بالمسائل المُباشرة، مع إهمالٍ تام للحوادث العرضية المُصاحبة. من المُمارسات الخاطئة للمحاكم أن تقتصر الأدلة والمُناقشات على حدود علاقتها الضيقة بالقضية. إلّا أنّ التجربة أثبتت، والفلسفة الحقيقية سوف [570] تظهر دائماً، أنّ هُناك جزءاً كبيراً من الحقيقة ينهض من الأمور التي تبدو في ظاهرها عديمة الأهمية. من خلال جوهر هذا المبدأ، إن لم يكن في معناه الحرفي تحديداً، توصّل العلم الحديث إلى نتيجة حسابية تقوم على الشيء غير المُتوقّع. ولكنّك ربّما لا تستوعب ما أقول. لقد اتّضح من تاريخ المعرفة البشرية بما لا يقبل الشك أنّنا مدينون إلى حوادث مُصاحبة، أو عرضية، أو تحدث بلا قصد بإزاء الاكتشافات المُتنوعة والأكثر أهمية، بحيث أصبح في نهاية المطاف من الضروري، وفقاً لأي منظور يفرض تعديلاً على مجريات الأمور، أن تُتاح لنا فرص كبيرة للابتكار، بل ذلك يُتيح لنا أقصى الابتكارات التي تظهر ربّما مُصادفة، خارج نطاق التوقّعات المألوفة تماماً. لم يعد للأمر أي علاقة بفلسفة أن نؤسس رؤية، بناءً على ما كان، وإنّما على ما يكون. المُصادفة شيء مسموح بأن يؤخذ بنظر الاعتبار كجزء من بنية ثانوية. نحن ننظر إلى المُصادفة كتخمينات مُطلقة، ونُخضع معايير المسألة المستعصية إلى معايير الشيء الذي لا يُمكن تخيّله، نخضعها إلى مُعادلات رياضية تُدرّس في المدارس.

«أعود فأقول، لا شيء غير الوقائع يُمكن أن تقود إلى الجانب الأكبر من الحقيقة كلها من خلال تقصّي الأمور الجانبية المُصاحبة لها؛ وبما ينسجم مع روح المبدأ السائد ضمن هذه الوقائع، أرغب في تحويل مجرى الاستقصاء، في القضية الحالية، من الطرق التي سبق أن جُرّبت ولم تثبت جدواها إلى الآن عن الحادثة نفسها، إلى مُلابسات مُعاصرة تُحيط بما حدث. في الوقت الذي تُحاول فيه أنت التأكد من موثوقية الإفادات، سوف أتولّى مُراجعة الصحف الصادرة في شيء من العمومية أكثر مما فعلت حتى الآن. هُنا نكون قد استكشفنا مُجمل ميدان التحريات؛ لكن سوف يكون من المُستغرب حقّاً أن لا يُرشدنا أي مسح شامل، مثل الذي أنوي القيام به للصحافة العامة، إلى بعض النقاط المُهمة التي من شأنها أن تؤسس اتجاهاً للتحريات».

تنفيذاً لمُقترح دوبن أُجريت مُراجعة دقيقة لإفادات الشهود. وكانت النتيجة أن توصلّت إلى قناعة تامة بمصداقيتها، ولذلك ثبتت لي براءة سانت أوستاش. في هذه الأثناء انشغل صديقي بما كان يبدو لي استقصاءً دقيقاً لا مغزى له، فكان يتفحص ملفات صحف مُختلفة. وبعد أسبوع وضع أمامي الخلاصة التالية:

«منذ ثلاث سنوات ونصف تقريباً، حدثت فوضى مُماثلة لما يحدث حالياً، سببها اختفاء هذه الفتاة نفسها، ماري روجيه، من محل بيع العطور الذي يملكه مسيو لوبلانك في بالاس رويال. لكن بعد أسبوع، عادت للظهور وهي في حالتها الطبيعية الاعتيادية، كانت في صحة جيدة كعادتها، باستثناء شحوبٍ ضئيل لم يكن [571] مألوفاً عليها من قبل. وفسّر ذلك مسيو لوبلانك ووالدتها أيضاً، فقالا: إنها كانت في زيارة ليس إلا لإحدى صديقاتها في الأرياف؛ وسرعان ما نسي الناس هذه المسألة ولم يعودا للكلام عنها. ربما نفترض أن الاختفاء الحالي للفتاة خدعة مُماثلة، وبعد أُسبوع، أو ربما شهر، نراها وسطنا من جديد». صحيفة إيفننغ.. الإثنين 23 حزيران[*17].

«وتشير إحدى الصحف المسائية التي صدرت يوم أمس إلى حادث اختفاء غامض وقع في السابق لمدموزيل روجيه. من المعروف جداً، أثناء الأسبوع الذي اختفت فيه عن محل لو بلانك للعطور، أنها كانت برفقة شاب يعمل ضابطاً في البحرية، وهو معروف بسوء الخلق والفجور. لقد حدث شجار بينهما، كما يُفترض، فأدى بها، بفضل العناية الإلهية، لأن تعود إلى المنزل. لدينا شخص آخر يُدعى لوثاريو مطروح أمامنا، وهو يعيش حالياً في باريس، لكن لأسباب واضحة نمتنع عن إعلان الاسم على الملأ». لوميركوري.. الثلاثاء صباحاً، 24 حزيران[*18].

«وقع اعتداء فظيع بالقرب من هذه المدينة أمس الأول. كان هُناك رجل وزوجته وابنتهما، اعتدى عليهم، عند الغروب تقريباً، ستة من الشباب كانوا

(*17) نيويورك «اكسبريس». (المؤلف)

(*18) نيويورك «هيرالد». (المؤلف)

يتجوّلون على قارب دون هدف على ضفاف السين، فعرضوا عليه نقلهم إلى الضفة الأُخرى للنهر. لدى وصولهم إلى الطرف المُقابل، نزل الركاب الثلاثة، وساروا بعيداً بحيث اختفوا عن أنظار الرجال في القارب، حينها اكتشفت البنت أنّها تركت شمسيتها في القارب. فعادت لكي تستردها، فأمسكتها العصابة، وحملتها بالقارب إلى النهر، وكمّموا فمها، وعاملوها بوحشية، وأخيراً أخذوها إلى الساحل عند نقطة لا تبعُد كثيراً عن المكان الذي ركبت فيه القارب مع والديها. وهرب الأوغاد مؤقتاً، غير أنّ الشرطة تعقّبت آثارهم، وبعضهم سوف يقع بيد العدالة قريباً». صحيفة مورننغ.. 25 حزيران[*19].

«تلقّينا اتصالاً أو اتصالين، من شأنهما حل لغز الجريمة الشنيعة التي وقعت مؤخراً في مينايس[*20]؛ ولكن لأنّ هذا الرجل ثبتت براءته تماماً بعد تحقيقٍ نزيه، ولأنّ تصريحات مُراسلينا يبدو أنّه كان يشوبها الحماس أكثر من العمق، فلا نتصور أنّ من الحكمة إعلانها على الملأ». صحيفة مورننغ.. 28 حزيران[*21].

«تلقّينا عدة رسائل يبدو أنّها كتبت قسرياً، واضحٌ أنّها من مصادر مُختلفة، [572]وهي تذهب بعيداً في التأكيد على أن الفتاة التعيسة الحظ ماري روجيه كانت ضحية إحدى الزمر من الخارجين على القانون التي تُمارس نشاطاتها بالقرب من المدينة يوم الأحد. نحن نتبنى وجهة نظر مؤكدة حول هذا الافتراض. سوف نُحاول التطرّق إلى هذه المسائل بتفصيل أكبر لاحقاً». صحيفة مسائية.. الثلاثاء، 31 حزيران[*22].

«يوم الإثنين، رأى رجلٌ يعمل على مركب لنقل البضائع، له علاقة بخدمات الضريبة، قارباً فارغاً يطفو على نهر السين. كانت أشرعة القارب ملفوفة

(*19) نيويورك «كورير أند إنكوايرر». (المؤلف)

(*20) كان مينايس أحد الأطراف التي توجّهت إليها الشكوك في الأصل، وتمّ اعتقاله، لكن أُطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة. (المؤلف)

(*21) نيويورك «كورير أند إنكوايرر». (المؤلف)

(*22) نيويورك «إيفننغ بوست». (المؤلف)

ومُلقاة على القاع. قام الرجل بقطْر القارب ونقله إلى مكتب الشركة التي يعمل فيها. في صباح اليوم التالي، نُقل القارب من هُناك دون معرفة أي موظف في الشركة. لا تزال دفة القارب الآن في مكتب نقل البضائع». صحيفة لوديليجينس.. الخميس، 26 حزيران.

لدى قراءة هذه المُقتطفات المُختلفة، لن تبدو لي غير مُترابطة أو عديمة الأهمية فحسب، ولكنّي لا أستطيع التفكير بأي طريقة يجري من خلالها الربط بين أي واحدة منها مع القضية التي بين أيدينا. وانتظرتُ تفسيراً من دوبن.

«لا أريد الآن»، قال، «مناقشة النص الأول والثاني من هذه المقتطفات. لقد قمت باستنساخها أساساً لكي أظهر لك مدى الإهمال البالغ من جانب رجال الشرطة، الذين حتى الآن، بقدر ما يُمكنني أن أفهم من مديرهم، لم يتجشّموا عناء أن يُحققوا في أقوال الضابط البحري الذي أشرنا إليه. من الغباء القول: إنّه بين الاختفاء الأول والاختفاء الثاني لماري، لا توجد علاقة مُفترضة. دعنا نعترف أنّ الفرار الأول كان نتيجة شجار بين العاشقين، وعودة إلى المنزل للعشيقة التي تعرّضت للخيانة. نحن الآن على استعداد للنظر إلى الفرار الثاني (إذا كنا نعرف أنّ هُناك فراراً حدث مرة أُخرى) على أنّه يُشير إلى تجدّد وتمادي الخائن في تصرّفاته، بدلاً من أن يكون نتيجة تقدم شخص آخر من جديد لخطبتها.. نحن على استعداد للنظر إلى الأمر على أنّه 'عملية إصلاح' للعلاقة الغرامية القديمة، بدلاً من أن يكون بداية علاقة جديدة. الفرص نسبتها واحد إلى عشرة في أنّ الشخص الذي كان ذات مرة قد فرّ مع ماري، سوف يقترح مرة أُخرى مُحاولة الفرار، بدلاً من أن تكون هي نفسها تلقّت مُقترحات الفرار من قبل شخصٍ ما، كانت تُريد أن تجعل مُقترحات الفرار تُقدّم لها من شخص آخر. وهُنا دعني ألفت انتباهك إلى حقيقة مُعينة، أنّ الوقت الذي انقضى ما بين الفرار الأول المؤكد، والفرار الثاني المُفترض، أكثر ببضع شهور عن الفترة التي تستغرقها جولات السفن الحربية. لو كان العاشق يحس بالحرج خلال فعلته [573]الأُولى من ضرورة الرحيل إلى البحر، فانتهز أول فرصة مُناسبة بعد عودته لتجديد خططه الدنيئة التي لم تكتمل.. أو التي لم يُكملها هو؟ هذه أشياء مجهولة بالنسبة إلينا.

«لكنّك ربما تقول، إنّه في المُحاولة الثانية لم يكن هُناك فرار كما نتصوّر. يقيناً الأمر ليس كذلك.. نحن على استعداد للقول إنّه لم تكن هُناك خطة مُحبطة؟ بعيداً عن سانت أوستاش، وربّما بوفيه، لا نجد أي خطاب مُخلصين، أو شرفاء لماري. هل سمعت أي شيء يقال عن خطيب آخر؟ من هو العاشق الغامض إذن، الذي لا يعرف عنه الأقرباء أي شيء (على الأقل أغلبهم)، وكانت تلتقي به ماري صباح يوم الأحد، والذي حاز على ثقتها بهذا العمق، بحيث لا تتردّد في البقاء معه حتى تحلّ ظلال المساء، وسط الأخاديد المُنعزلة في باريز دو رولي؟ من يكون ذلك الحبيب الغامض، أنا أتساءل، الذي لا يعرف عنه أغلب الأقرباء على الأقل شيئاً يُذكر؟ وماذا تعني توجّسات مدام روجيه في الصباح الذي رحلت فيه ماري؟. . 'أخشى أنّني لن أرى ماري بعد ذلك'.

«لكن إذا كنّا لا نستطيع أن نتخيّل معرفة مدام روجيه بخطة الفرار، ألا نستطيع على الأقل افتراض أنّ الفتاة كانت تُفكّر بهذه الخطة؟ لدى مُغادرة المنزل، حاولت أن تجعل الآخرين يفهمون أنّها تنوي زيارة عمتها في جادة درامية وطلبت من سانت أوستاش المجيء إليها عندما يحلّ الظلام. الآن للوهلة الأُولى، هذه الحقيقة تناقض افتراضاتي؛ لكن دعنا نتأمل، الفتاة التقت برفيقٍ لها، واستمرت تمشي معه حتى عبرت النهر، ثم وصلت إلى باريز دو رولي في ساعة مُتأخرة مثل الثالثة عصراً، هذا شيءٌ لا غُبار عليه. لكن إذا قبلنا بهذا، وأنّها كانت برفقة هذا الشخص، (لأي غرض كان.. معروفاً لوأدتها أو غير معروف) لا بُدّ أنّها فكّرت في نواياها التي صرّحت بها حين غادرت المنزل، وفكرت أيضاً في الدهشة والشك الذي تثيره في نفس خطيبها سانت أوستاش، حين يأتي إليها في ساعة مُحدّدة في جادة درامية، فيكتشف أنّها لم تكن هُناك، وكذلك حين يعود إلى البنسيون الذي يقيم فيه وهو يحمل هذا الخبر المُفزع، لا بُدّ أنه سوف يعرف عن غيابها المُستمر عن المنزل. لا بُدّ أنّها فكرت بهذه الأشياء، أؤكد هذا. لا بُدّ أنّها توقّعت انزعاج سانت أوستاش، وتوقعت الشكوك التي سوف تساور الجميع. لا يُمكن أن تُفكّر بالرجوع إلى المنزل لتواجه كل هذه الشكوك بشجاعة؛ إلّا أنّ الشك يكون مسألة تافهة بالنسبة إليها، إذا افترضنا أنّها لم تقرر الرجوع.

«قد نتصوّر أنّها فكّرت على هذا النحو.. (عليّ أن ألتقي بشخص مُحدّد [574]لغرض الفرار، أو لأغراض أُخرى لا يعرفها أحدٌ غيري. من الضروري أن لا تكون هُناك فرصة لأن يعترض أحدٌ طريقي.. لا بُدّ من توفّر وقت كافٍ لنا للتملّص من المُلاحقة.. سوف أجعلهم يفهمون أنّني سوف أزور عمتي وأقضي معها النهار في جادة درامية.. سوف أخبر سانت أوستاش أن لا يأتي لي إلا بعد حلول الظلام.. بهذه الطريقة، فغيابي عن المنزل لأطول مدة مُمكنة، من غير أن يتسبّب في إثارة الشكوك أو المخاوف، يكون مبرراً، وسوف اكسب مزيداً من الوقت أكثر ممّا يحصل بطريقة أُخرى. إذا طلبت من سانت أوستاش أن يأتي مع حلول الظلام، سوف يحرص على عدم المجيء قبل ذلك؛ ولكن إذا أهملت كلياً أن اطلب منه المجيء، سوف يتقلّص الزمن الذي أحتاجه للفرار، لأنّهم يتوقّعون عودتي في وقت مُبكر، وسرعان ما يُثير غيابي الريبة. والآن إذا كنت أنوي الرجوع على الإطلاق.. إذا كنت أُفكر في مُجرّد نزهة مع شخصٍ مُحدّد.. فلن أُفكر في الطلب من سانت أوستاش المجيء؛ لأنّه إذا أتى سوف يعرف حتماً أنّني خدعته.. وهي حقيقة ربما أستطيع إخفاءها عنه إلى الأبد، بأن أترك المنزل دون أن اخبره عن نواياي، وبالرجوع قبل الظلام، ثم بالقول إنني كنت في زيارة لعمتي في جادة درامية. ولكن، لأنّ خطتي لا تقتضي الرجوع أبداً.. أو على الأقل إلا بعد أسابيع قليلة.. أو ليس قبل أن تحدث بعض التغيرات.. فإنّ كسب الوقت هو النقطة الوحيدة التي أحتاج للاهتمام بها).

«لا بُدّ أنّك تُدرك، من خلال مُلاحظاتك التي كتبتها، أنّ الفكرة الأساسية فيما يتعلّق بهذه القضية المُحزنة، وهي موجودة منذ البداية، أنّ الفتاة كانت ضحية لزِمرة من الأوغاد. والآن، الفكرة المُناسبة في ظروف مُحدّدة ينبغي عدم الاستخفاف بها. حين تظهر هذه الفكرة من تلقاء نفسها.. حين تطرح بطريقة تلقائية بحتة.. يتوجّب علينا النظر إليها باعتبارها مُماثلة لذلك الحدس البديهي الذي هو من الخصائص الفردية لإنسانٍ عبقري. في تسعٍ وتسعين حالة من مائة فأنا مُلتزم بهذا الرأي. لكن من الأهمية أن نجد آثاراً ملموسة على أرض الواقع للافتراض. الفكرة يجب أن تكون فكرة الرأي العام بصراحة؛ والفرق غالباً ما يكون من

العسير إدراكه والتأكيد عليه. في الحالة التي بين أيدينا، يبدو لي أنّ 'فكرة الرأي العام' هذه فيما يتعلّق بوجود زمرة، لقيت رواجاً من خلال الحادثة الأُخرى المُتزامنة التي تُروى تفاصيلها في القطعة الثالثة من المُقتطفات. كل سكان باريس أحسوا بالهيجان عندما تمّ اكتشاف جثة ماري، وهي فتاة شابة، وجميلة ومعروفة على الملأ. هذه الجثة وجدت، وهي تحمل آثار العنف، وتطفو على النهر. لكن الآن أصبح معروفاً، في [575]تلك الفترة نفسها أو تقريباً في الفترة التي يُفترض أن تكون الفتاة تعرضت فيها للقتل، أنّ اعتداءاً مُشابهاً في طبيعته للاعتداء الذي وقع للفقيدة، مع أنّه أقل جسامة، ارتكبته زمرة من الشبان الأوغاد ضد الشابة الثانية. أليس من العجيب أنّ الوحشية التي تكشفت هُنا ينبغي أن تؤثر على حكم الناس جذرياً فيما يتعلّق بالوحشية الأُخرى التي لم يُكتشف أمرها؟ هذا الحكم يحتاج إلى توجيه، والاعتداء المعروف يبدو أنّه وقع في توقيتٍ مُناسب ليُعطي ذلك التأثير! ماري أيضاً عثر عليها في النهر؛ على هذا النهر نفسه وقع الاعتداء المعروف. الرابطة بين الحادثتين يكتنفها كثيرٌ من أوجه الشبه الملموسة، بحيث إنّ من العجيب حقّاً كيف يفشل الناس في الانتباه إلى كلّ هذا. لكن في حقيقة الأمر، فالاعتداء الذي عُرف أنّه ارتُكب فعلاً يُشكّل دليلاً، وليس أي شيء آخر، على أنّ الاعتداء الآخر الذي ارتُكب في زمن يكاد يكون مُتزامناً، لم يُرتكب على هذا النحو. إنّها تكاد تكون مُعجزة حقّاً، في الوقت الذي كان فيه الأوغاد يرتكبون جريمتهم الشنيعة التي لم يسمع بمثلها أحد من قبل في أي مكان، فلا بد من وجود زمرة أُخرى، في مكانٍ مُماثل من المدينة نفسها، في الظروف نفسها، وباستعمال الوسائل والحيل نفسها، ارتكبت عملاً شنيعاً يمتاز بدقة مُماثلة من كل الجوانب، وفي التوقيت نفسه! تُرى بأي طريقة، إن لم يكن بمثل هذا التسلسل المُذهل للمُصادفات، تجعلنا فكرة المُصادفة التي افترضناها لدى الجماهير نُصدق بها؟

«قبل الاستمرار دعنا نتأمل المشهد المُفترض للجريمة التي وقعت في أدغال بارير دو رولي. هذه الأدغال على كثافتها، قريبة جدّاً من الشارع العام. وهُناك في داخلها وجدوا ثلاث أو أربع صخور ضخمة تُشكّل نوعاً من المجلس مع ظهر

ومسند للقدمين. على الصخرة العليا تنورة بيضاء؛ وعلى الثانية وشاح حريري. ووجدوا شمسية، وقفازات، ومنديل جيبٍ أيضاً. المنديل يحمل اسم ماري روجيه. وكذلك تمّ مشاهدة قطع من الثوب على فروع الأشجار هُنا وهُناك. والأرض عليها آثار أقدام وطأتها، والشجيرات مُتكسّرة، أي: هُناك أدلّة على نزاعٍ عنيف.

«على الرغم من تهليل الصحافة لدى اكتشاف هذه الأدلة في الأجمة، وكذلك الإجماع على أنّها يفترض أن تُشير إلى المشهد الحقيقي للاعتداء، لا بُدّ من الاعتراف بوجود سبب يدعو إلى الشك. الجريمة وقعت هُناك، ربما أصدق أو لا أصدق هذا.. لكن يوجد سبب حقيقي يدعو للشكّ. لو أنّ المشهد الحقيقي للجريمة، كما افترضت صحيفة لوكوميرشيال، وقع في منطقة مُجاورة لجادة بافيه سانت [576]أندريه، فإن مُرتكبي الجريمة، على افتراض أنّهم ما زالوا يسكنون في باريس، من الطبيعي أن يُصابوا بالذعر حين يروا اهتمام الناس متّجهاً بهذا الاتّجاه الصحيح؛ بالنسبة إلى عقول بعض الناس، سيظهر إحساس بالحاجة إلى تحويل الاهتمام إلى اتّجاه آخر. ولكن بعد أن اتّجهت الأنظار والشكوك إلى أدغال بارير دو رولي، برزت فكرة بقاء المواد في المكان الذي وجدت فيه، وكان من الطبيعي التفكير بهذا. لا يوجد دليلٌ حقيقي، رغم أنّ صحيفة لوسوليل تفترض هذا، على أنّ المواد التي اكتشفت كانت منذ بضعة أيامٍ في الأدغال؛ بينما هناك كثيرٌ من الأدلة والبراهين المدعومة بالقرائن على أنها لا يمكن أن تكون بقيت هناك دون أن تلفت الانتباه، خلال عشرين يوماً مضت بين الأحد المشئوم وعصر ذلك اليوم الذي عثر فيه الأولاد عليها. 'كلها كانت في حالة تعفن شديدة'، تقول صحيفة لوسوليل وهي تتبنّى آراء غيرها من الصحف، 'من أثر المَطر، وبعضها ملتصق ببعضٍ من التعفن. والعشب ينمو حولها وفوق بعضٍ منها. مع أن قماش الشمسية كان قوياً، إلا أن أشرطته مُختلطة معاً ومُنبعجة إلى الداخل. والجزء الأعلى، في الموضع الذي كان فيه القماش مطوياً، كله مُتعفّن ومُهترىء، وتمزّق لما حاولوا فتحه'. فيما يتعلّق بالأعشاب التي كانت 'تنمو حول وفوق بعضٍ منها'، من الواضح أنّها حقيقة يمكن فقط تقريرها من خلال

الكلمات، وهذا يعتمد على ما يتذكّره اثنان من الصبيان الصغار؛ لأنّهما رفعا المواد وأخذاها إلى البيت قبل أن يراهما طرفٌ ثالث. لكن الأعشاب سوف تنمو، وخاصة في جو دافئ ورطب، 'مثل الجو السائد وقت حدوث الجريمة' حتى يصل إلى بوصتين أو ثلاث في يومٍ واحد. الشمسية التي تُلقى على أرضٍ داستها الأقدام منذ مدة قصيرة، ربّما تختفي عن الأنظار تماماً بعد أُسبوع بسبب الأعشاب النامية. فإذا أردنا التطرّق إلى حالة العفن تلك التي يُصرّ عليها مُحرّر صحيفة لوسوليل في عناد، والتي استخدم في وصفها هذه الكلمة ليس أقل من ثلاث مرات ضمن فقرة مُختصرة اقتبسناها قبل قليل، فهل يُدرك حقاً طبيعة هذا التعفّن؟ ألا ينبغي أن يعلم أن هذه واحدة من الحالات الكثيرة للفطريات، والتي من سماتها المألوفة ظهور تحلل مُفاجئ خلال أربع وعشرين ساعة؟

«وهكذا نرى في لمحة أنّ ما يُعتبر أدلة مؤكدة توصّل إليها أصحابها وتفاخروا بها كثيراً لأنّها تدعم فكرة أنّ المواد التي عثروا عليها وقالوا: إنّها كانت (على الأقل منذ ثلاثة أو أربعة أسابيع) في الأدغال، هي في الواقع من أشد الأدلة بطلاناً في القضية. من جهة أُخرى، يصعب التصديق بأن هذه المواد بقيت في [577]الأدغال لأكثر من أُسبوع.. أي: أطول من الفترة من يوم الأحد إلى الأحد التالي. أولئك الأشخاص الذين يعرفون أي شيء عن المناطق المُجاورة لباريس يفهمون مدى صعوبة إيجاد مكان مُنعزل إلا على مسافة كبيرة عن ضواحيها. هذا المكان الذي يبقى غير مكتشف، أو حتى لا يمر به أحد بين فترة وأُخرى، وسط غاباتها وبساتينها، لا يبدو لنا أنّ من السهولة تصوره. فما بالك بشخصٍ هو في قلبه عاشق للطبيعة، مُرتبط بحكم الواجب إلى تراب وأجواء هذه الحاضرة العظيمة.. ليُحاول مثل هذا الشخص، حتى أثناء أيام الأسبوع، أن يُطفئ ظمأه للعزلة وسط مناظر الطبيعة الخلابة التي تُحيط بنا مُباشرة. مع كل خطوة سوف يلمس السحر المُتصاعد من كل ناحية يتبدد ربما بصوتٍ مُتطفل لأحد الأنذال أو السفلة المُفرطين في الخمر. سوف يسعى إلى الخلوة وسط أشد الغابات كثافة، ولكن بلا جدوى. هُنا أكثر البقاع عزلة التي يختلف إليها أشخاصٌ من الطبقات الدنيا للمُجتمع.. هُنا أكثر المعابد التي تتقبّل التدنيس. بقلبٍ مُفعم

بالأحزان يهرب المُتجوّل ويرجع إلى باريس الملوثة، إلى حوض الفساد الأقل كراهية لأنّه الأقل تنافُراً. ولكن إذا كانت المناطق القريبة من المدينة مُكتظة بالناس أثناء أيام العمل من الأسبوع، فكيف هي الحال في يوم السبت! المدينة الآن بصورة خاصة، بعد أن تنفض غبار العمل، أو تُحرم من الفرص الاعتيادية التي يُمكن أن تُقترف فيها الجريمة، يسعى أوغادها إلى ضواحيها وتخومها، ليس حباً بالأرياف التي تمتعض قلوبهم منها، وإنّما لأنّها وسيلة للهرب من قيود وأعراف المُجتمع. مثل هؤلاء لا يتوقون لاستنشاق الهواء العليل أو النظر إلى الأشجار الخضراء، بل يرغبون في التحرّر المُطلق الذي توفّره لهم الأرياف. هُنا، في خمارةٍ على جانب الطريق، أو تحت ظلال أشجار الغابة، يستمتع من أراد الاستمتاع، من غير أن تلمحه عينٌ مُتلصّصة ما عدا عيون ندمائه ورفاقه، يستمتع بكل الجنون والمرح الزائف.. الانطلاق الذي تُتيحه الحرية وشراب الرّم. لن أقول شيئاً أكثر مما ينبغي أن يكون واضحاً لكل مُراقبٍ مُتجرّد عن الأهواء، ولكنّي أكرر القول: إنّ الظروف التي وجدت فيها المواد التي نتكلّم عنها ظلّت غامضة، مدة أطول.. أكثر من المدة بين يوم أحدٍ وآخر، في أي أجمة قريبة مباشرة من باريس، ينبغي اعتبار هذا شبه مُعجزة.

«ولكن نحن لا نفتقر إلى أسباب أُخرى تدعونا إلى الشكّ في أنّ تلك المواد قد وضعت في الأجمة بهدف تحويل الانتباه من المشهد الحقيقي لجريمة الاعتداء. هُنا في البداية دعني ألفت انتباهك إلى تاريخ اكتشاف المواد. عليك أن تربط هذا مع التاريخ الذي ورد في المُقتطف الخامس الذي أخذته أنا من الصحف. سوف ترى أنّ الاكتشاف جاء مُباشرة تقريباً بعد المعلومات العاجلة التي أُرسلت إلى الصحيفة [578]المسائية. هذه المعلومات على تباينها، وفيما يظهر أنها جاءت من مصادر مُختلفة، كانت كلها تميل إلى الاتجاه نفسه.. أي توجيه الانتباه إلى زمرةٍ من المُجرمين الذين ارتكبوا عملية الاعتداء، وإلى أنّ المنطقة المُجاورة لباريز دو رولي هي مسرح الجريمة. والآن انظر هُنا، بطبيعة الحال، الشكوك ليست، على أثر هذه المعلومات، أو على أثر اهتمام الرأي العام الذي اتّجه نحوها، بخصوص المواد التي وجدها الأولاد؛ وإنّما لعل

الشكّ، أو ينبغي للشك أن يمضي بهذا الاتّجاه.. أنّ المواد لم يعثر عليها الأولاد قبل ذلك الوقت، لأنّ المواد لم تكن موجودة في الأصل قبل ذلك في الأدغال؛ لقد وضعت هُناك بعد ذلك التاريخ، أو قبل وقت قصير من إرسال المعلومات إلى هؤلاء المُحررين الذين أذنبوا في إنكار الحقيقة أنفسهم.

«هذه الأدغال فريدة في نوعها.. فهي تختلف عن سواها اختلافاً تاماً. إنّها كثيفة بصورة غير اعتيادية. ضمن نطاق جدرانها الطبيعية هُناك ثلاث صخور غريبة إلى درجة استثنائية، بحيث تُشكّل مكاناً للجلوس ومسند ظهر وموطئ قدمين. هذه الأدغال التي تزخر بمظاهر الجمال الطبيعي تقع في مكان قريب على مرمى حجرٍ من مسكن مدام دولوك، وكان من عادة أولادها أن يتجوّلوا بين الأجمات التي حولهم بحثاً عن ثمار شجر الساسفراس. تُرى هل تلك مُراهنة طائشة إذا قبلنا بها.. مُراهنة بواحد إلى ألف إلى واحد ..أنّ يوماً لن يمر على هؤلاء الصبية دون أن يعثروا، على الأقل واحدٌ منهم، على تلك الأشياء في ذلك المكان المُنغلق الذي تُظلّله الأشجار ويتوجّه عرش الطبيعة من كل جانب؟ أولئك الذين يتردّدون في قبول مثل هذا الرهان، إمّا أنّهم لم يكونوا أولاداً صغاراً بأنفسهم، أو أنّهم نسوا طبيعة الأولاد. أقول مرة ثانية، إنّ من الصعب جدّاً علينا أن نستوعب كيف تبقى تلك المواد في هذه الأدغال من غير أن يُكتشف أمرها، لأكثر من يوم أو يومين؛ هُناك أساس جيد يدعونا إلى الشك، على الرغم من الجهل الدوغماتي الذي أصاب مُحرّر صحيفة لوسوليل، الذي يقول: إنها، في تاريخ مُتأخر نسبياً، وضعت في المكان الذي وجدت فيه.

«ولكن لا تزال ثمّة أسباب أُخرى أقوى من هذه تدفعنا للاعتقاد بأن تلك المواد وضعت بهذه الطريقة، غير الأسباب التي أثرتها الآن. دعني ألتمس منك أن تنتبه إلى مسألة الترتيب المُفتعل لتلك المواد. على الصخرة العالية تنورة بيضاء؛ وعلى الصخرة الثانية وشاحٌ حريري؛ وتبعثرت هُنا وهُناك أجزاء الشمسية، وقفازات، ومنديل جيب يحمل اسم ماري روجيه. هذا هو الترتيب الطبيعي الذي يختاره شخصٌ حاذق يرغب في أن يُوزع المواد بصورة طبيعية. ولكنّه ليس ترتيباً طبيعياً أو حقيقياً بأي حال من الأحوال. كنت أتوقّع رؤية

الأشياء كلها مُلقاة على الأرض وقد داستها الأقدام وبعثرتها. ضمن الحدود الضيقة لذلك المكان الذي يُظلّله الشجر، يكاد يبدو من المُستحيل أن تبقى التنورة والوشاح في موقعها الثابت على [579]الصخور، حين ننظر إلى تدافع كثير من الأشخاص هُنا وهُناك وهم يتعاركون. 'كان هناك دليل'، كما قيل، 'على حدوث شجار؛ والتربة تعكّرت بالأقدام، وأغصان الشجيرات تكسرت'.. إلّا أنّ التنورة والوشاح وجدتا هُناك كأنّما وضعتا على رف. 'أما قطع السترة التي تمزّقت بسبب الشجيرات فعرضها ثلاث بوصات وطولها ست بوصات. جزءٌ منها حاشية السترة وسبق أن خضع للرتق. بدت تلك القطع مثل أشرطة مُمزّقة'. هُنا، بلا قصدٍ منها، استخدمت صحيفة لوسوليل عبارة مُثيرة للريبة إلى حد بعيد. قطع السترة، كما وصفت، في الواقع 'مثل أشرطة مُمزّقة'؛ لكنّها تمزّقت بتعمّد وباستعمال اليد. إنّها من الحوادث النادرة جدّاً أن 'تتمزق' قطعة من أي نوع من الثياب مثل التي نتكلّم عنها الآن، بالأشواك. من طبيعة مثل هذه الأنسجة أنّ الشوكة، أو المسمار، لا بُدّ أن تعلق بها، وتمزّقها بخط مُستطيل.. أو تنقسم إلى جُزأين طوليين، على زوايا قائمة مع بعضها، ويلتقي الشق عند الطرف الذي تدخل منه الشوكة.. ولكن من النادر أن نتصوّر قطعة 'مُمزّقة' تنفصل عن غيرها. لم يسبق أن شاهدت شيئاً من هذا، ولا أنت حتماً. لتمزيق قطعة وخلعها من هذا النسيج يتطلّب الأمر، في كل حالة من الحالات تقريباً، استخدام قوتين تعملان في اتجاهين مُختلفين. إذا كان للنسيج حافتان.. إذا، على سبيل المثال، كان ذلك منديل جيب، ويُراد تمزيق قطعة منه، عندئذ فقط تكفي قوة واحدة لهذا الغرض. لكن في الحالة التي بين أيدينا، المسألة التي نتكلّم عنها ثوب له حافة واحدة. لتمزِيق قطعة من الجزء الداخلي، حيث لا توجد حافة ظاهرة، يُمكن أن يحصل هذا فقط بمُعجزة إذا قلنا: إن الأشواك مزّقتها، فما من شوكة يُمكنها أن تُحقّق ذلك. وحتى مع وجود حافة ظاهرة، يحتاج الأمر إلى شوكتين، تعملان معاً باتّجاهين مُختلفين تماماً. هذا على افتراض أنّ الحاشية غير مطوية. أما والحاشية مطوية فالمسألة خارج الاحتمال. وهكذا نرى العقبات الكثيرة التي تمنع أن تكون تلك القطع 'تمزّقت' بتأثير 'أشواك' بسيطة؛ إلا أنّه لا يفترض بنا تصديق أن قطعة واحدة فقط وإنما كثير من القطع تمزّقت بهذه الطريقة. وأن 'جزءاً' منها أيضاً

’حاشية السترة!‘ وقطعة أُخرى ’جزء من التنورة، وليس من حاشيتها..‘ بمعنى آخر، تمزّقت كلياً وانفصلت بسبب الأشواك، عن الجزء الداخلي المخلوع من الثوب! هذه الأشياء، كما أرى، يجد المرء عُذراً عندما لا يُصدقها؛ لكن، إذا أخذناها كلها بنظر الاعتبار، فهي [580]ربّما تُشكّل أقل ما يُمكن من الأساس الذي يدعونا للشك، أكثر من المُلابسات المُذهلة التي ترتبط بتلك المواد التي تركها في الأدغال أحد المُجرمين الذين كان لديهم ما يكفي من الانشغالات التي تدعوهم للتفكير بنقل الجثة. ولكنّك لن تفهمني بالشكل الصحيح إذا افترضت أنّني أنوي إنكار أنّ هذه الأدغال هي مسرح الجريمة. ربما كان هناك خطأ، أو احتمال أكبر، في وقوع حادثٍ في منزل مدام دولوك. في حقيقة الأمر، هذه مسألة ذات أهمية ثانوية. نحن لا نُحاول هُنا اكتشاف مسرح الجريمة، بل نهتم بالكشف عن الأشخاص الذين ارتكبوا الجريمة. الأشياء التي قدّمتها أعلاه، رغم طابع الدقة الذي قدمتها فيه، الهدف منها أولاً أن أُبين مدى غباء التصريحات التي قدّمتها صحيفة لوسوليل بعبارات مؤكدة صريحة، والشيء الثاني والأساسي أن أجعلك، من خلال طرق منطقية، تبادر إلى المزيد من التأمل الذي يدعو إلى الشك فيما إذا كانت الجريمة، أو لم تكن، من عمل زمرة من الأشرار.

«سوف نُلخص هذه المسألة من خلال مُجرّد تلميح إلى التفاصيل المُنفّرة للطبيب الجرّاح الذي قام بفحص الجثة بعد استجوابه. من الضروري فقط القول: إن استنتاجاته المنشورة، فيما يتعلّق بعدد هؤلاء الأشرار، واجهت السخرية التي تستحقها واعتبرت مُجحفة ولا أساس لها مُطلقاً، من كل خبراء التشريح المُحترمين في باريس. ليس لأنّ المسألة ربما كانت مناقضة لما جرى استنتاجه، لكن لأنّ الاستنتاج لا يقوم على أي أساس.. ألم يكن ثمّة مجال لاستنتاج آخر؟

«لنتأمل الآن ’آثاراً تدل على وقوع شجار‘؛ دعني أتساءل عن ماهية هذه الآثار والأشياء التي يفترض أن تدل عليها. هُناك زمرة. لكن أليس من الأجدر أن تدل الآثار على غياب زمرة وليس على وجودها؟ ما نوع العراك الذي يُمكن أن يحدث.. أي صراعٍ عنيف يستغرق مدة طويلة بحيث يخلف ’آثاراً‘ فيما بعد في كل الاتّجاهات.. نتخيّل أنّه يحصل بين فتاة ضعيفة لا حول لها ولا قوة وزمرة

من المُتوحشين؟ تشابُك صامت بين بضع أذرع خشنة، وكل شيء ينتهي في لحظة. لا بُدّ أنّ الضحية كانت مُستسلمة تماماً لإرادتهم. تتذكّر هُنا أنّ المُجادلات التي أُثيرت ضد أن تكون الأدغال هي مسرح الجريمة، يُمكن أن تكون صحيحة في جانبها الأساسي إذا قلنا: إنّها في الضد من اعتبار الأدغال كمسرح للاعتداء الذي ارتُكب بتدخّل أكثر من فردٍ واحد. إذا تخيّلنا وجود مُجرم واحد، يُمكننا أن نتصوّر، وهذا مُجرّد تصوّر، وجود شجار ذي طبيعة عنيفة وعنيدة من شأنه أن يُخلف 'آثاراً' واضحة.

«مرة أُخرى. لقد ذكرت الآن الشك الذي تُثيره حقيقة أن تلك الأشياء التي نتساءل عنها بقيت جميعاً في الأدغال في المكان الذي اكتُشفت فيه. يبدو من [581]المُستحيل تقريباً أنّ أدلة الإدانة هذه تركت بلا قصد في مكانها الذي وجدت فيه. لا بُدّ من حضورٍ ذهني (كما يفترض) يدفع إلى رفع الجثة؛ ومع ذلك نجد أدلة أكثر أهمية من الجثة نفسها (من المؤكد أن تكون علاماتها طمست بسُرعة بسبب التعفّن)، سُمح لها أن تبقى ظاهرة للعيان في مسرح الجريمة.. إنّني ألمّح هُنا إلى المنديل الذي يحمل اسم الفقيدة. إذا كان هذا قد وقع مُصادفة، فهي ليست مُصادفة تحدث مع زمرة من الأوغاد. يُمكننا أن نتخيّل أنّها مُصادفة تقع لفردٍ واحد. دعنا نرى. هُناك شخص ارتكب الجريمة. بقي وحده مع شبح الفقيدة. وكان يشعر بالذعر أمام الجثة التي أُلقيت بلا حركة أمامه. انتهت سورة انفعالاته، وهُناك وقت كاف بالنسبة إليه لكي يحس قلبه بالحزن لما اقترفته يداه. إنّه يفتقر إلى الثقة التي يوفرها حتماً وجود أعداد من الأشخاص. وحده مع الميتة. يرتعش خوفاً وذهنه مُرتبك. وهُناك ضرورة للتخلّص من الجثة. يحملها إلى النهر، لكنه يترك وراءه أدلة إدانته؛ من الصعب، إن لم يكن من المُستحيل أن ينقل الحمل فوراً، ومن السهل أن يعود لينقل الأشياء التي تركها. لكن في رحلته الشاقة إلى النهر تتضاعف مخاوفه في صدره. يسمع أصوات أحياء يُحيطون به. وعشرات المرات يتخيّل أنّه يسمع خطوات شخص يقترب ويُراقبه. حتى الأضواء التي تتسلّل من المدينة تربكه طبعاً. وبمرور الوقت يُتابع التوقف نتيجة للأسى العميق الذي يشعر به، حتى يصل إلى ضفة النهر، ويتخلّص من حمله المُرعب..

ربّما يضعه في قارب. لكن الآن أي كنز يُخبئه العالم.. أي تهديد بالانتقام قد يتمخّض.. من شأنه أن يدفع ذلك المجرم وحده للعودة إلى ذلك الممر المُتشابك المحفوف بالخطر، إلى الأدغال وذكرياتها التي تجمد الدماء في العروق؟ لكنّه لا يعود، وليحدث ما يحدث. ما كان ليستطع العودة لو أراد ذلك. الفكرة الوحيدة التي تُراود ذهنه أن يهرب فوراً. يُدير ظهره وإلى الأبد إلى هذه الأدغال المُرعبة ويولي الأدبار كأنّما يهرب من غضبٍ متوقّع[1].

«لكن ماذا لو كان من اقترف الجريمة زمرةٌ من الأوغاد؟ كان عددهم سيلهمهم الثقة؛ لو أنّ صدور هؤلاء الأوغاد المُشرّدين تحتاج إلى الثقة حقّاً؛ ولا شك أنّه من هؤلاء المُشردين الأوغاد وحدهم تتألف العصابات الإجرامية في أي وقت. عددهم، كما أقول، سيمنعهم من الارتباك والذهول الذي تخيّلت أنّه يشل حركة فردٍ واحد. إذا افترضنا وجود غفلة وشرود ذهنٍ لدى واحد، أو اثنين، أو ثلاثة منهم، فهذه الغفلة يتداركها الرابع. لن يتركوا وراءهم أي شيء؛ لأنّ عددهم يُمكنهم من حمل أي شيء في الحال. لن تكون ثمّة حاجة للعودة.

«والآن تأمّل المُلابسات التي تتعلّق بالثوب الخارجي الذي كان على الجثة [582]حين عُثر عليها، 'هُناك شق عرضه قدم تقريباً تمزق من أعلى حاشية الخصر ويلتفّ ثلاث مرات، ومُثبّت بعقدة عند الظهر'. حصل هذا بدافعٍ واضح وهو عمل موضع للإمساك بالجثة لغرض حملها. هل كان أي عدد من الرجال يُفكرون باللجوء إلى هذه الوسيلة؟ بالنسبة إلى ثلاثة أو أربعة أشخاص، فإنّ أطراف الجثة لن تمنحهم مسكة كافية فحسب، وإنّما توفّر لهم أفضل مسكة مُمكنة. تلك الوسيلة من صُنع فردٍ واحد؛ وهذا ما يجعلنا نقترب من حقيقة أنّ (بين الأدغال والنهر، وجدت الأسيجة مخلوعة، والأرض عليها آثارٌ تدلّ على جرجرة حملٍ ثقيل!) تُرى هل تكبّد عددٌ من الرجال ذلك العناء غير الضروري في خلع سياج، لغرض سحب جثة وتمريرها من هُناك في الوقت الذي كان في

---

(1) جاء في إنجيل ماثيو ولوقا 3: 7 «أوه يا جيل الأفاعي، مَنْ الذي حذّركم من الغضب الآتي؟». [المترجم]

وسعهم حملها فوق أي سياج في لحظة؟ هل يُمكن أن يقوم عددٌ من الرجال بسحب جثة بحيث يُخلّفوا آثاراً واضحة لعملية السحب؟

«وهُنا علينا الرجوع إلى مُلاحظة أوردتها صحيفة لوكوميرشيال؛ وكنت قد علقت عليها من قبل في شيءٍ من التفصيل. 'هناك قطعة'، تقول الصحيفة، 'من تنورة الفتاة المسكينة مُمزّقة ومخلوعة ومربوطة تحت حنكها، وحول مؤخرة رأسها، وربما كان ذلك لكتم صرخاتها. لقد فعل هذا أشخاصٌ ليس لديهم مناديل جيب'.

«قلتُ من قبل؛ إنّ أي وغدٍ مُحترف في عمله لا يخرج أبداً من غير أن يكون في جيبه منديلاً. ولكنّي لا أُشير الآن إلى هذه الحقيقة بوجه خاص. لم يحصل نتيجة عدم وجود منديل للغرض الذي تخيّلته مجلّة لوكوميرشيال أن استخدم هذا الرباط، وذلك واضح من خلال المنديل الذي تُرك في الأدغال؛ فالغرض لم يكن 'لمنع الصرخات' كما يبدو، وكذلك من خلال الرباط الذي استخدم بدلاً من شيء آخر أفضل كان سيلبي الغرض نفسه. إلّا أن اللغة التي طرح بها الدليل تتكلّم عن الرباط الذي نحن بصدده فتقول إنه 'يلتف حول الرقبة، ومربوط بإحكام، وينتهي بعقدة متينة'. هذه الكلمات تبدو غامضة بما يكفي، وهي تختلف فعلاً عن الكلمات التي استخدمتها مجلّة لوكوميرشيال. كان عرض الرباط ثمان عشرة بوصة، ورغم أنّه من قماش الموسلين، فهو مُفيد في تكوين حزمة قوية إذا طوي أو تجعد طولياً. وبهذه الصورة تم العثور عليه، كان مُجعّداً. الاستنتاج الذي توصّلت إليه: المُجرم الذي كان وحيداً، بعد أن حمل الجثة إلى مسافة (سواءً من الأدغال أو من أي مكان آخر) واستخدم في ذلك رباطاً مشدوداً حِول خصرها، وجد الحمل ثقيلاً جداً بحيث لا طاقة [583]له بالاستمرار. هُنا قرّر أن يجرجر الحمل.. الأدلة تمضي لتظهر لنا أن الجثة سُحبت. وبعد أن وضع هذا الهدف نصب عينه، أصبح من الضروري ربط شيء مثل الحبل في أحد أطراف الجثة. وكان أفضل مكان لربط الحبل هو الرقبة، حيث إنّ الرأس سوف يمنع الحبل من الانزلاق والخروج. والآن فكّر المُجرم حتماً بالشريط الذي حول الخاصرة. وكان سيستخدم هذا الشريط، لولا التفافه حول الجثة، والعقدة التي

تُعيقه وتُربكه، وأنّ الرباط لم 'يتمزق' وينفصل عن الثوب. كان من الأسهل قطع شريطٍ آخر من التنورة. وهكذا فعل، وكان التمزيق أسرع وأسهل من مكان الرقبة، ثم جرجر ضحيته حتى وصل إلى ضفة النهر. أن يكون ذلك 'الشريط'، لا يُمكن الحصول عليه إلا بعد مشقة وتأخير، رغم أنّه لا يُلبّي الغرض إلا جزئياً.. أن يكون هذا الشريط قد استخدم على الإطلاق، فالأمر يدل على أن الحاجة إليه برزت بعد أن استجدّت ظروفٌ أُخرى لم يكن فيها المنديل مُتوفراً.. بمعنى آخر، حصل ذلك، كما تخيّلنا، بعد مُغادرة الأدغال (إذا كانت هُناك أدغال) وعلى الطريق بين الأدغال والنهر.

«إلّا أنّ الدليل، ربّما ستقول، الذي أوردته مدام دولوك،(!) يُشير بصفة خاصة إلى وجود زمرة، على مقربة من الأدغال، أو في وقت مُقارب لوقت وقوع الجريمة. هذا شيء مؤكد. أشكّ في أنّه لم يكن هُناك اثنا عشر من أفراد الزّمرة، مثلما وصفت ذلك مدام دولوك، في المكان أو على مقربة من بارير دو رولي أو خلال فترة مُقاربة للوقت الذي حدثت فيه هذه التراجيديا. إلّا أنّ الزمرة التي ألحقت الانتقاد اللاذع والغضب، رغم الدليل المُتأخّر والمُثير للشكوك بعض الشيء لمدام دولوك، هي الزمرة الوحيدة التي ذكرت السيدة العجوز الطيبة الموسوسة أنّهم التهموا فطائرها واحتسوا البراندي الذي قدّمته لهم، من غير أن يتعبوا أنفسهم بالتفكير بأن يدفعوا لها. *Et hinc illæ iræ* ومن هُنا جاء غضبها.

«لكن ما هو الدليل المؤكد الذي تُقدمه مدام دولوك؟ (زمرة من الأوغاد يظهرون فجأة، ويتصرّفون في صخب، ويأكلون ويشربون دون أن يدفعوا الحساب، ثم يسلكون الدرب الذي سار عليه الشاب والفتاة، ويعودون إلى الحانة عند الغسق تقريباً، ثم يعبرون النهر ثانية وكأنّهم في عجلة من أمرهم).

«الآن هذه العبارة (في عجلة من أمرهم) ربّما تبدو على أنّها استعجال بالغ في عيني مدام دولوك وحدها، لأنّها لا تعرف شيئاً سوى التباطؤ والنحيب على ضياع فطائرها وجعتها.. الفطائر والجعة التي ربما لا تزال تطمح في أمل ضعيف باسترداد ثمنها. لماذا لا يحصل ذلك، فالوقت كان عند الغسق تقريباً، إذ نجدها تُعلّق [584]على الأمر فتقول: إنّه استعجال عظيم؟ لا يُثير استغرابنا أنّ الأشرار

يستعجلون في الوصول إلى المنزل، حين يكون هُناك نهر عريض ليعبرونه في قوارب صغيرة، مع اختفاء العاصفة، واقتراب الليل.

«أقول يقترب الليل؛ لأنّ الليل لم يكن قد أرخى سدوله بعد. كان ذلك عند الغسق تقريباً أن علقت فكرة الاستعجال غير اللائق لهؤلاء الفاسقين بعيني مدام دولوك اليقظتين. لكن قيل لنا: إنّه في هذه الأمسية ذاتها حدث أنّ مدام دولوك، وابنها الأكبر، (سمعا صرخات أُنثى على مقرّبة من الحانة). وبأي كلمات أُخرى عسى مدام دولوك أن تصف الفترة من المساء التي سمعت فيها هذه الصرخات؟ 'بعد الظلام بقليل'، كما تقول. ولكن 'بعد الظلام بقليل'، تعني على الأقل الظلام؛ وعبارة 'عند الغسق تقريباً' تعني حتماً ضوء النهار. لهذا، من الواضح تماماً أنّ الزّمرة غادرت بارير دو رولي قبل أن تسمع مدام دولوك الصرخات أعلاه(؟). وعلى الرّغم من أنّه، في كل التقارير عن الأدلة، كانت التعبيرات ذات العلاقة النسبية بالحادث الذي نتكلّم عنه استعملت بوضوح وعلى نحو لا يكاد يتبدل كما استخدمتها في هذه المحادثة معك شخصياً، ولم تنتبه إحدى الصحف المحلّية إلى التناقض الهائل حتى الآن، أو لم ينتبه أحد من مرمطونات الشرطة.

«لن أُضيف غير شيءٍ واحد إلى الأقاويل التي تنفي وجود زمرة؛ لكن هذا الشيء، بحسب فهمي الشخصي على الأقل، يُشكّل ثقلاً لا يُستهان به. في ظروفٍ رافقت عرض مُكافأة كبيرة، وتقديم العفو عمن يُدلي بشهادة واعتباره شاهد ملك، لن نتخيّل لحظة أن فرداً من زمرة الأوغاد المُنحطّين، أو من أي مجموعة من الرجال، لم تسوّل له نفسه يوماً أن يخدع شركاءه.. أو أنّ أي فرد من زمرةٍ في وضع مُماثل لن يكون طماعاً جدّاً بالمُكافأة، أو يتلهّف للهرب، لأنّه يخاف أن يتعرّض للخداع. سوف يُمارس الخداع في لهفة وفي وقت مُبكر حتى لا ينخدع هو نفسه. أما لماذا لم يُكشف السر، فهذا أفضل دليل على أنّه في حقيقة الأمر بقي سرّاً. مظاهر الرعب التي رافقت هذا العمل الغامض لم يعرفها إلا شخص واحد، أو اثنان، من الأشخاص الأحياء، ويعلم بها الله طبعاً.

«دعنا نُلخّص الآن النتائج الهزيلة، مع أنّها أشياء مؤكدة، بعد هذا التحليل الطويل الذي أجريناه. توصّلنا إلى رأي يتعلّق إما بوقوع حادث قتل تحت سقف

منزل مدام دولوك، أو جريمة ارتكبت في أدغال بارير دو رولي، قام بها عاشقٌ، أو على الأقل رفيقٌ عزيز مجهول لا يعرفه أحد غير الفقيدة. هذا الصديق ذو بشرة داكنة. هذه البشرة الداكنة، و'عقدة البحار'، التي ربط بها شريط القبعة، كلّها أدلة تُشير إلى أنّه بحّار. علاقته مع الفقيدة، وهي فتاة شابة تعشق المرح، لكنها ليست [585]فاسدة الأخلاق، تجعله في مرتبة أعلى من مُجرّد بحار عادي. هُنا جاءت المعلومات التي ذكرتها الصحف بصورة عاجلة بحيث تدعمها الحجج والبراهين. مُلابسات حادث الفرار الأول، ذكرتها صحيفة ميركوري، وتميل إلى الربط بين هذا البحار مع الفكرة عن ذلك (الضابط البحري) الذي عرفنا أول مرة أنّه قاد الفتاة تعيسة الحظ إلى مسرح الجريمة.

«هُنا لا بُدّ أن يُذكر شيءٌ في وقته المُناسب، أي: أن يؤخذ بنظر الاعتبار الغياب المُستمر للشخص صاحب السحنة الداكنة. دعني أتوقف قليلاً لأُبدي مُلاحظة وهي أن سحنة هذا الرجل داكنة وسمراء؛ لم تكن بشرته السمراء العادية تُشكل وجه الشبه الوحيد، سواءً فيما يتعلّق بفالينس أو مدام دولوك. ولكن لماذا هذا الرجل غائب؟ هل قتلته عصابة؟ إذا كان هذا ما حدث، فلماذا هُناك فقط آثار على مقتل الفتاة وحدها؟ من الطبيعي أن يكون مسرح الجريمتين مُتماثلاً. وأين جثته؟ من المُحتمل أن يكون المُجرمون تخلّصوا من الجثتين بالطريقة نفسها. ويُمكن القول: إنّ هذا الرجل لا يزال حياً، ويمتنع عن إظهار نفسه حتى لا يتعرف الناس عليه، وذلك بسبب الخوف من أن يتّهم بارتكاب الجريمة. هذا الرأي ربّما نفترض أنه ينطبق عليه الآن.. في هذه المرحلة المتأخرة.. إذ ورد في الأدلة أنّه شوهد مع ماري.. غير أنّ هذا الدليل لم تكن له أهمية قوية في فترة ارتكاب الجريمة. إنّ ردة الفعل الأولى التي تصدر عن رجلٍ بريء أن يكشف عن جريمة الاعتداء التي ربما كان يعرف شيئاً عنها، ويُساعد الآخرين في التعرف على الأوغاد. هذه تصرّفات مُفترضة. لقد شوهد الرجل مع الفتاة. كان قد عبر النهر معها على متن عبّارة مكشوفة. اتّهام المُجرمين كان سيبدو، حتى في نظر إنسان غبي، الوسيلة المؤكدة الوحيدة لتخليص نفسه من دائرة الشكوك. نحن لا نستطيع أن نفترض، على ضوء ما حدث في ذلك الأحد المشؤوم، أنه بريء

وغير مُطّلع على الاعتداء الذي حصل. لكن في ظروفٍ مُماثلة فقط من المُمكن تخيّل أنّه سيفشل، لو كان حيّاً، في إدانة المُجرمين.

«ما هي الوسائل التي لدينا الآن للتوصل إلى الحقيقة؟ سوف نرى أنّ هذه الوسائل تتضاعف وتكتسب وضوحاً مع تقدمنا في البحث. دعنا نُغربل المُعطيات وصولاً إلى أصغر الذرّات في هذه المسألة التي تتعلّق بالفرار الأول. دعنا نطلع على التاريخ الكامل لـ (الضابط)، وظروفه الحالية، والأماكن التي تردد عليها أثناء الفترة المُحدّدة التي وقعت فيها الجريمة. دعنا نُقارن بعناية المعلومات المُختلفة التي أرسلت إلى الصحيفة المسائية، وكان الغرض منها إدانة زمرة من المُجرمين. بعد أن نفعل كل هذا، دعنا نُقارن هذه المعلومات، سواءً فيما يتعلّق بالأسلوب أو الرسائل، مع تلك المعلومات التي أُرسلت إلى الصحيفة الصباحية، في فترةٍ سابقة، [586] فنؤكد بحزم على إدانة مينايس. بعد هذا، دعنا مرة أُخرى نُقارن هذه المعلومات المُختلفة مع الرسائل المعروفة للضابط. لنُحاول التأكيد، من خلال استجوابات مُتكررة لمدام دولوك وأولادها، فضلاً عن استجواب سائق الحافلة العمومية فالينس، على شيء أكثر من مُجرّد المظهر الشخصي والصفة التي عُرف بها (الرجل ذو السحنة الداكنة). إنّ الاستقصاءات، إذا ما وجّهت بمهارة، لن تفشل في أن توصلنا، من خلال ارتباط بعض الأطراف، إلى معلومات عن هذه النقطة المُحدّدة (أو عن نقاط أُخرى).. وهي معلومات ربّما لا تكون الأطراف المعنية نفسها واعية لها. دعنا نتتبع الآن القارب الذي أخذه الرجل الذي يعمل في نقل البضائع صباح يوم الإثنين، الثالث والعشرين من حزيران، والذي جرى نقله من مكتب نقل البضائع، دون علم الضابط المُناوب هُناك، ودون أن يكون مُزوداً بالدفة، في وقتٍ ما قبل اكتشاف الجثة. مع شيء من الرويّة والمُثابرة لا يُمكن أن نُخطئ في تعقّب هذا القارب؛ لأنّ ليس عامل نقل البضائع الذي أخذ القارب يستطيع التعرّف عليه فحسب، وإنّما الدفة موجودة هُناك. لا يُمكن أن تُترك دفة القارب الشراعي دون أن يُسأل أحدٌ عن السبب، يتخلّى عنها شخصٌ بلا دافع يحثّه على ذلك. هُنا دعني أتوقّف فأطرح المسألة بطريقة غير مُباشرة. لم يُعلن عن العثور على هذا القارب. لقد أخذ في صمت

وسرية إلى مكتب نقل البضائع، مثلما أخذ في البداية في صمت. ولكن صاحب القارب أو المشغل.. كيف حصل أن يعلم في وقت مُبكر من صباح الثلاثاء، دون إعلانٍ عن العثور على القارب، بموقعه الذي سُحب إليه يوم الإثنين، إلّا إذا تصوّرنا وجود رابطة من نوع مُعيّن مع أُسطول البحرية.. أو من خلال نوع من العلاقة الشخصية الثابتة التي تقود للاطّلاع على موقعه في كل لحظة.. من خلال شبكة مُراسلات خاصة؟

«إذا عدنا للكلام على المُجرم الذي نفّذ جريمته وحده وهو يُجرجر الجثة إلى الساحل، لقد ألمحت سابقاً إلى احتمال أن يكون حصل على قارب. والآن علينا أن نفهم أن ماري روجيه أُلقيت جثتها من قارب. من الطبيعي أن يكون هذا ما حصل. الجثة لا يمكن أن تكون ألقيت على المياه الضحلة للساحل. والعلامات البارزة التي على ظهر وأكتاف الضحية تدلّ على احتكاكها بأضلاع قاع المركب. أن تكون الجثة وجدت من غير ثقل يربطها هو دليل يعزز هذه الفكرة. لو كانت الجثة أُلقيت من الساحل فلا بُدّ من ثقلٍ يربط بها. ليس في وسعنا إلا أن نُفسر عدم وجود ثقل مربوط بافتراض أنّ المُجرم أهمل هذا الإجراء في توخّي الحذر بأن يأخذ معه ثقلاً قبل الانطلاق لتنفيذ غايته. لدى عملية رمي الجثة إلى المياه، كان بلا جدال قد اكتُشف إهماله؛ لكن في ذلك الوقت لم يكن ثمّة مجال لتلافي هذا الخطأ ولا شيء مُتوفر لديه آنذاك. إن تحمل المُخاطرة في هذا المجال أفضل من الرجوع إلى ذلك الساحل الملعون. بعد أن خلص نفسه من حمله الثقيل المُرعب، أسرع المُجرم عائداً إلى [587]المدينة. وهُناك، على رصيفٍ مجهول، قفز إلى الأرض. لكن ماذا عن القارب.. هل تأكد من ربطه؟ كان في عجلة من أمره فلا يُمكن أن يلتفت إلى مثل هذه الأمور بأن يربط القارب. علاوة على هذا، فإذا ربطه على الرصيف، لأحس بأنّه سوف يترك دليل إدانته. لا بُدّ أنّ الفكرة الطبيعية التي مرّت بذهنه أن يبعد عنه، بعيداً ما أمكن ذلك، كل شيء يربطه بالجريمة التي ارتكبها. ما كان ليهرب من الرصيف فحسب، وإنّما يترك القارب سائباً يطوف هُنا وهُناك. فلنُتابع تخيّلاتنا.. في الصباح، يُصاب الرجل التعيس بصدمة مُريعة لا توصف حين يكتشف أن القارب

التقط وجلب إلى موقع كان في العادة يتردّد عليه يومياً.. موقع لعل واجبه يقتضي منه التردد عليه. وفي الليلة اللاحقة، دون أن يجرؤ على السؤال عن الدفة أو يطلبها، يقوم برفعها. والآن أين ذهب ذلك القارب الذي بلا دفة؟ فليكُن هذا أول هدف نُحاول اكتشافه. لأول وهلة نصل إلى هذا الهدف، عندها يبدأ فجر نجاحنا بالإشراق. هذا القارب سوف يقودنا بسرعة مُذهلة حتى بالنسبة إلينا، إلى الشخص الذي استخدمه في مُنتصف الليل من يوم السبت المشؤوم. الأدلة تتوالى في الظهور واحداً بعد الآخر، والمجرم يُقتفى أثره».

[لأسباب لن نتطرّق إليها تفصيلياً، لكنها تبدو بالنسبة إلى كثير من القراء واضحة، فقد تصرّفنا بحرّية في أن حذفنا هُنا، من الرسائل التي وقعت بأيدينا، بعض الأجزاء التي تتضمّن تفاصيل قليلة تتعلّق بالدليل الذي يبدو أن دوبن حصل عليه. إنّنا نشعر أنّ من الأفضل أنّ نذكر باختصار فقط أنّ النتائج التي نطمح إليها وجدت طريقها إلى التطبيق؛ وأنّ مدير الشرطة نفّذ تماماً، مع أنّ ذلك حصل على مضض، بشروط التزامه مع شيفاليه. ينتهي مقال السيد بو بالكلمات التالية.. إلى مُحرري صحيفة..][*23].

واضحٌ أنّني أتكلم هُنا عن مُصادفات، وليس أكثر من ذلك. الأشياء التي قلتها سابقاً عن هذا الموضوع تكفي حتماً. في أعماق قلبي لا يوجد شيء اسمه إيمان بما وراء الطبيعة. الطبيعة وخالقها أمران مُختلفان، وما من إنسانٍ عاقل ينكر ذلك. وإنّ الله خالق الطبيعة المُهيمن عليها يُمكنه متى شاء أن يُعدّل نواميسها؛ هذا أمرٌ غير قابل للجدل. أقول/ «متى شاء»؛ لأنّها مسألة إرادة، وليس كما تفترض بلاهة المنطق، مسألة قدرة. ليس الأمر أنّ الخالق يعجز عن تعديل نواميسه في الكون، لكن [588] لأنّنا نرتكب المعصية في تخيّل ضرورة للتعديل. في أصل هذه النواميس أنّها مُصممة لتشمل كل الاحتمالات عما يُمكن أن يحصل في المُستقبل. بالنسبة إلى الخالق فكل شيء يحدث الآن.

أعود فأقول إذن: إنني أتحدّث عن هذه الأمور بوصفها مُجرّد مُصادفات.

(*23) نيويورك «ستاندارد». (المؤلف)

وأقول أكثر من هذا: فيما أسرده عليك سوف ترى أن بين مصير ماري سيسيليا روجرز التعيسة الحظ، وحتى الآن مصيرها مجهول، ومصير فتاة أُخرى تُدعى ماري روجيه في مرحلة مُعيّنة من حياتها، كان ثمّة نوع من التماثل المذهل الذي يحتار العقل في تأويله. ولكن كل هذا سوف يتجلّى واضحاً.. ولا ينبغي لحظة واحدة أن يفترض المرء، من خلال استمرار هذا السرد المُحزن لقصة ماري منذ الفترة التي ذكرناها قبل الآن، ومن تعقّب الحكاية وصولاً إلى الكشف عن خفايا السرّ الذي يلفّها، أنّ لديّ خطة مُبهمة في التلميح إلى اتّساع رقعة التماثل، أو حتى افتراض أنّ السياقات المُتبعة في باريس لاكتشاف المجرم الذي قتل الفتاة، أو السياقات التي تتبع في أي تحليل منطقي أو فلسفي مُماثل، من شأنها أن تؤدي إلى نتيجة مُماثلة.

فيما يتعلّق بالجانب الأخير من الافتراض، ينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار أنّ أي تغير بسيط في الحقائق بشأن الحالتين ربما يؤدي إلى سوء تقديرات بالغة الأهمية، وذلك بانحراف مساري الأحداث؛ تغيرٌ بالغ يحصل كما في علم الحساب مؤدياً إلى خطأ في طبيعته الفريدة، ربما لا يكون محسوساً، لكنه يؤدي أخيراً في تراكمٍ تدريجي في كل مراحل العملية إلى نتيجة تختلف جذرياً عن الحقيقة. أما فيما يتعلّق بالجانب الأول، علينا ألا نتجاهل حساب التفاضل والتكامل في الاحتمالات التي أشرت إليها، والذي يقصي أي فكرة لامتداد التماثل.. يبعدها بواقعية وبما يتناسب مع هذا التماثل الواسع المُحقّق. هذا أحد الافتراضات الشاذة، التي يبدو أنّها تتوافق مع فكرة بعيدة كلياً عن الناحية الرياضية، ومع ذلك فهو افتراضٌ يستطيع علماء الرياضيات وحدهم استيعابه. لا شيء، على سبيل المثال، أكثر صعوبة لإقناع القارئ العادي، من حقيقة إلقاء «رقم ستة» في النرد مرّتين على التوالي من قبل لاعب النرد، وهو سبب كافٍ للرهان بأغرب الأشياء على أنّ رقم ستة لن يظهر في المُحاولة الثالثة. إنّ اقتراح هذا التأثير يرفضه العقل مُباشرة في العادة. لا يبدو أنّ الرميتين السابقتين اللتين تقعان الآن بصورة مُطلقة في الماضي، يُمكن أن يكون لهما تأثير على الرمية التي تنتمي إلى المُستقبل. يبدو أنّ فرصة ظهور رقم ستة على نحو دقيق تبقى مثلما

تكون عليه في أي وقت آخر.. بعبارة أُخرى، فهي تخضع [589]فقط لتأثير رمياتٍ مُختلفة أُخرى ربّما تُجرى بالنرد. هذا النوع من التفكير يبدو واضحاً تماماً بحيث أنّ مُحاولات مُعارضته تُقابل في أحيان كثيرة بابتسامة استهزاء بدلاً من أي شيء من قبيل الانتباه الذي يدلّ على الاحترام. الخطأ الموجود هُنا.. وهو شيءٌ يبعث على الأسى.. لا أستطيع أن أدّعي بأني قادر على كشف أسراره ضمن حدود المساحة المُتيسّرة لي حالياً؛ رغم أنّه من الناحية الفلسفية لا يحتاج للكشف. ربّما يكفي هُنا القول: إنه يُشكّل حلقة في سلسلة لا نهاية لها من الأخطاء التي تظهر ضمن مسارات العقل في نزوعه للبحث عن الحقيقة جُملة وتفصيلاً[*24].

(*24) عن المجلّة التي نُشر فيها المقال أساساً. (المؤلف)

الحفرة والبندول

«هُنا قام الغوغاء الأوغاد، وقد عُميت بصائرهم وساقتهم الكراهية، بالإيغال في الدماء طويلاً. والآن بعد أن أنقذنا أرض أجدادنا، ودمّرنا مغارة الشيطان؛ بدلاً من الموت البغيض، نبتت أقحوانات الحياة»(1).

وجدتُ نفسي سقيماً.. عليلاً حتى إنّي كدت أموت من الألم المُبرح؛ وعندما [590]فكّوا وثاقي أخيراً، وسمحوا لي بالجلوس، أدركتُ أنّ حواسي تتخلّى عنّي. كان الحكم.. الحكم الرهيب بالإعدام.. آخر تشكيلة من الأصوات الواضحة التي وصلت إلى أُذني. بعد ذلك، بدت لي أصوات الاستجواب مُختلطة بهمهمة كأنّها تأتي من عالم الأحلام. نقل ذلك الصوت إلى روحي فكرة عن الدوران.. ربّما بسبب ارتباطها في الخيال مع الحافات الخشنة لريشات طاحونة دوارة. غير أنّ هذا لم يدم إلا فترة وجيزة؛ لأنّي بعد ذلك لم أسمع شيئاً. ومع ذلك، خلال لحظة، رأيت؛ ولكن بأي إسراف مُرعب في الخيال! رأيت شفاه القُضاة المُتلفّعين بأرواب حمراء. تجلّوا لي كأنّهم يلبسون أكفاناً بيضاء.. بل هي أكثر بياضاً من صفحة الورق التي أسطّر عليها هذه الكلمات.. كانوا ناحلين بشكل غريب ربّما يُثير الضحك؛ نحافتهم مُستهجنة بالقياس إلى عمق التعبير الذي يرتسم على الشفاه ويوحي بالصلابة.. تعبير عن قرارٍ لن يتزحزح.. الامتعاض الصلد بإزاء العذاب البشري. وجدت الأحكام القضائية عما كان بالنسبة لي المصير المحتوم، لا تزال تصدر عن تلك الشفاه. رأيتُ الشفاه تتلوّى امتعاضاً

(1) هذا المقطع ورد في الأصل باللّغة اللاتينية وقد اقتبسه إدغار ألن بو في قصيدته «بيناكيديا». [المترجم]

وهي تنطق تلك العبارة القاتلة. رأيتها تصوغ مقاطع اسمي؛ فارتعشت أوصالي لأنّي لم أسمع صوتاً يعقبها. رأيتُ أيضاً، في بضع لحظات من الفزع والانفعال، ترجرجاً ليّناً لا يكاد يكون محسوساً للستائر القاتمة التي تُغلّف جدران القاعة. ثم سقطت نظراتي على سبع شمعاتٍ طوال تستقرّ على الطاولة. في البداية كانت أضواؤها تحمل إيحاءاً بالرحمة، وتبدو مثل ملائكة شاحبة نحيلة جاءت لتنقذني؛ وبعد ذلك، على حين فجأة، اعترى روحي غثيانٌ فظيع، وشعرت بكل عرقٍ في جسدي يختلج وكأنّما لامستُ سلك بطارية، فيما أصبحت [591]أشكال الملائكة أطيافاً لا معنى لها، رؤوسها من لهب، ورأيتها لن تُساعدني في شيء. ثم تسلّلت إلى خيالي، مثل نغمٍ موسيقي غني بالإيحاءات، فكرة عن الراحة العذبة التي يمكن أن أجدها في القَبر. تسلّلت الفكرة خلسة على نحو رقيق، وبدا لي أنّ ذهني كان منذ مدة طويلة قد استوعبها تماماً؛ لكن في الوقت الذي وصلت فيه روحي أخيراً إلى الشعور الحقيقي بها والإبقاء عليها، تلاشت أشباحُ القضاة، كأنّما بقوّة سحرية، ولم أعد أراها أمامي؛ وغطست الشموع في العدم؛ وخفت لهيبها كلّياً؛ وأعقب ذلك ظلام؛ كأنّما غارت كل الأحاسيس في هوة سحيقة تدفعني باستمرار لانحدار جنوني سريع، كأنها الروح تهوي إلى مجاهل الجحيم. ثم حلّ الصمت، والسكون، وظلام الليل محلّ كل شيء في الكون.

لقد أُغمي عليّ؛ ومع هذا فلا أقول: إن الوعي تلاشى. ما تبقّى من وعيي لن أحاول تحديده، أو حتى وصفه؛ لم أفقد وعيي كله. في غيبوبةٍ عميقة جداً.. كلّا! في الهذيان.. كلّا! في الإغماءة.. كلّا! في الموت.. كلّا! حتى في القبر لا يضيع كل شيء. في مكانٍ غير هذا لا وجود للأبدية. نحن ننهض من أعمق حالِات النوم، ونُمزّق خيوط العنكبوت التي ينسجها حلمٌ من الأحلام. لكن بعد ثانية، (مهما كان هشاً ذلك النسيج) فلا نتذكّر أنّنا كنّا في حلم. خلال العودة إلى الحياة من الإغفاءة هُناك مرحلتان؛ أولاً، مرحلة الإحساس الذهني أو الروحي؛ ثانياً، مرحلة الإحساس بالوجود المادي. يبدو من المُحتمل أنّنا لدى وصولنا إلى المرحلة الثانية نستطيع أن نتذكّر انطباعات مُبهمة عن المرحلة الأُولى، وينبغي أن نجد هذه الانطباعات تفصح عن ذكريات البرزخ الذي وراءها. وما ذلك البرزخ..

ما هو؟ كيف يُمكننا على الأقلّ أن نُميّز ظلاله عن ظلال القبر؟ إذا كانت الانطباعات عما أسميته المرحلة الأُولى لا يُمكن استردادها متى نشاء، مع هذا، بعد فترة فاصلة طويلة، ألا تظهر دون أن ندعوها، ونتساءل ونندهش بشأن المصدر الذي جاءت منه؟ من لم يسبق له أبداً أن أُغمي عليه، ألا يجد أماكن غريبة ووجوهاً مألوفة عجيبة على الفحم المُتوهج؛ ألا يلمح الرؤى الحزينة تطفو في الهواء وربّما لا يراها كثيرون؛ ألا يُفكر في أريج زهرة مُتفتحة.. ألا يرتبك ذهنه بإزاء معنى إيقاعٍ موسيقي لم يشدّ انتباهه من قبل.

في خِضَمّ مُحاولات مُتكرّرة عميقة للتذكر؛ وسط صراعات مُضنية لإعادة تجميع بعض الرموز عن حالة تُشبه العدم تسلّلت إليها روحي، هُناك لحظات كنت أحلم فيها بالنجاح في الخلاص؛ فترات وجيزة، وجيزة جدّاً كنت أستعيد فيها ذكريات كان التفكير الرائق لمرحلة لاحقة يؤكد لي أن لها علاقة بتلك الحالة التي تُشبه [592]اللّاوعي. ظلال الذاكرة هذه تُنبئ بوضوح عن أشكال طويلة ترفعني عن الأرض وتحملني في صمت إلى الأسفل.. الأسفل.. تستمرّ في إنزالي حتى استبدّ بي دوارٌ شنيع من مُجرّد فكرة الهبوط الذي لا نهاية له. وتُخبرني أيضاً عن رعب غامض في قلبي،عن خمود غير طبيعي يعتري ذلك القلب. ثم جاء مشهدٌ آخر تنعدم فيه الحركة فجأة ويشمل ذلك جميع الأشياء التي حولي؛ كما لو أنّ هؤلاء الذين حملوني (يا له من موكبٍ مُروّع!) تخطّوا في هبوطهم حدود اللّامحدود، وتوقّفوا بعد أن أصابهم الإرهاق في دورانهم. بعد هذا استُدعي إلى ذهني مسطحٌ آسنٌ رطب؛ كل ذلك جنون.. جنون ذاكرة مُنهمكة بالفحش.

على حين فجأة عادت روحي تتلمّس حركة وصوتاً.. اضطرابٌ في القلب، وفي أُذني، والصوت صوت ضرباته. ثم حدث توقف أصبح فيه كل شيء فارغاً. ومرة أُخرى جاء الصوت، والحركة، واللمسة.. إحساس مُدغدغ ينتاب جسدي. ثم وعي مُجرّد بالوجود، دون أي فكرة.. حالة استمرّت طويلاً. ثم، فكرة مُفاجئة، ورعب مُختلج، ومُحاولة جادة لاستيعاب حالتي الحقيقية. ثم رغبة قوية للانزلاق إلى فقدان الوعي. ثم انتعاش عاجل للروح وجهد ناجح في الحركة. والآن ذكرى كاملة عن المُحاكمة، والقضاة، والستائر القاتمة، والحُكم،

والغثيان، والإغماء. ثم نسيان كامل لكل شيء؛ بين هذا وذاك يومٌ أخير ومُحاولة أكثر جدّية أتاحت لي أن أتذكّر الأشياء في غموض.

حتى الآن، لم أفتح عيني. أحسست أنّني مُنبطح على ظهري، وقد تحرّرت من قيودي. امتدت يدي، فوقعت في ثقلها على شيءٍ رطب صلب. حاولت أن أُبقيها بضع دقائق، بينما جاهدت مع نفسي لأتخيّل من أين جاء، وماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء. كنت أشتاق، ومع ذلك لا أجرؤ، لأن استخدم نظري. كنت أخاف من النظرة الأُولى للأشياء التي حولي. ليس لأنّي أخشى النظر إلى أشياء مُرعبة، وإنّما لأنّي كنت مذعوراً خشية أن لا أجد شيئاً أراه. وأخيراً، في شيءٍ من اليأس القاتل في قلبي، سارعت لفتح عيني. عندها تأكدت أسوأ ظنوني. كان يُحيط بي ظلام ليلٍ أبدي دامس. كافحت لأتنفّس. بدت شدّة الظلام تضغط عليّ وتخنقني. كان الجو الذي يكتنفني مُغلقاً على نحو لا يُحتمل. ما زلت مُمدّداً في هدوء، وبذلت جهداً لأستعمل عقلي. عادت إلى ذهني مجريات الاستجواب والتحقيق، وحاولت من تلك النقطة أن أستنتج حقيقة وضعي. لقد صدر حكم الإعدام؛ وظهر لي أنّ فترة طويلة جدّاً مرّت. [593]ولكنّي لم أتصوّر نفسي لحظة ميتاً حقّاً. مثل هذا التصوّر، رغم ما نقرأه في القصص، لا صلة له من قريبٍ أو بعيد بالواقع؛ ولكن أين أنا، وما هي حالتي؟ المحكوم عليه بالإعدام، كنت أعرف ذلك، لا بُدّ أن يهلك، يُحرق مثلاً كما كانوا يفعلون عادة مع الهراطقة عقاباً على كفرهم *autos-da-fe*[2]، إحدى هذه العقوبات نُفّذت ليلة مُحاكمتي. هل أعادوني إلى زنزانتي، في انتظار موعد التضحية الأخرى، والتي لن تحصل قبل عدة شهور؟ اكتشفت أنّ هذا لا يُمكن أن يحدث. الضحايا يُطلبون مُباشرة. وفضلاً عن هذا، فزنزانتي وزنزانات المُدانين جميعاً في توليدو، أرضيتها من الحجارة، ولم يكن الضوء ليمنع من التسلّل إليها.

زحفت إلى ذهني الآن فكرة مُخيفة جعلت تيارات الدم تهرع إلى قلبي،

(2) الجملة باللّغة الاسبانية وتعني قانون عقوبة المُلحدين، أو الجرائم التي لها علاقة بالإيمان. [المترجم]

وخلال فترة وجيزة، عدت إلى اللّاوعي. وعندما استعدت الوعي، نهضت فوراً على قدمي، وكانت كل ذرّة في بدني ترتعش. امتدّت ذراعي بعنف وتلمّست ما فوقي وما حولي في جميع الاتّجاهات. لم أحس بوجود شيء؛ إلّا أنّي خفت أن أتحرّك خطوة واحدة، خشية أن تواجهني جدران القبر. تدفّق العرق من المسامات، وتجمّد في قطرات باردة فوق جبهتي. تفاقم التوجّس وأصبح لا يُحتمل، وتحركتُ في حذر إلى الأمام، ذراعاي ممدودتان، وعيناي تكادان تقتلعان من محجريهما، على أمل أن أجد بصيصاً من الضوء. تقدمتُ خطوات؛ لكن بقي كل شيء على ظلامه وخوائه. وتحرّرت أنفاسي بعض الشيء. بدا أنّ مصيري لم يكن على الأقل هو الأكثر بشاعة.

الآن، بينما كانت خطواتي تتقدّم في حذر، احتشدت في ذاكرتي آلاف الشائعات المُبهمة عن أشكال الرعب في توليدو. كانت تُروى عن الزنزانات التي هُناك أشياء غريبة.. حكايات خُرافية لطالما صدّقتها.. مع أنّي وجدتها غريبة، مُرعبة بحيث لا أُريد أن أتذكّرها الآن، ما لم يكن ذلك همساً. هل تُركت لأقضي نحبي من الجوع والعطش في هذا العالم السفلي المُظلم؛ أيُّ مصير لعله أكثر رعباً ينتظرني؟ ربّما كان مصيري الموت ممزوجاً بمرارة أكثر من اعتيادية، فأنا أعرف أحكامي علم اليقين. طريقة الموت وساعته كل ما يُشغلني ويُربكني.

وأخيراً اصطدمت يداي بعائقٍ صلب. إنّه حائط، فيما أظن، من الحجارة.. ناعم الملمس، لزج، بارد. وتتبّعت الحائط؛ كنت أخطو بكل الارتياب الذي ألهمتني إياه بعض حكايات قديمة. مع أنّ هذا لم يمنحني وسيلة للتأكد من أبعاد زنزانتي؛ [594]ربّما كنت أدور مع التفاف أبعادها، ثم أعود إلى النقطة التي بدأت منها، دون أن أدرك أي حقيقة؛ بدا الجدارُ غير مُنتظم بتاتاً. لذلك بحثت عن السكين التي كانت في جيبي حين قادوني إلى حجرة الاستجواب؛ لكنّها اختفت؛ لقد بدّلوا ملابسي فحلّ محلّها دثارٌ صوفي خشن. كنت أُفكر في أن أدسّ شفرة السكين في شقٍّ ضئيل في الجدار، لكي أتعرّف على النقطة التي أنطلق منها. لم يكن الأمر صعباً؛ رغم أنّ خيالي المريض أوهمني لأول وهلة أنّه شيءٌ مُستحيل. قطعتُ جزءاً من حاشية الثوب ووضعت خرقة القماش طولياً على

الأرض، في زاوية قائمة مع الجدار. أثناء تلمّس طريقي في السجن، لم أفشل في العثور على هذا الشريط بعد إكمال الدوران. هكذا فكّرت على الأقل: لكني لم أقدّر مساحة الزنزانة، ولم أقدّر ضعفي. كانت الأرضية رطبة وزلقة. ترنحتُ إلى الأمام بعض الوقت، ثم تعثّرت وسقطت. ودفعني إرهاقي الشديد للبقاء مُنبطحاً؛ وسرعان ما استولى عليّ النوم في مكاني.

لما استيقظت، وامتدّت ذراعي إلى الأمام، وجدت قُربي رغيف خبز وإبريق ماء. كنت مُنهكاً جدّاً بحيث لا يُمكنني التفكير في مصدر ذلك، لكنّي أكلت وشربت في شراهة. وبعد وقت قصير، استأنفت رحلتي في سبر المُعتقل، وبعد عدة التفافات وصلت أخيراً إلى قطعة القماش. ابتداءً من الفترة التي سقطتُ فيها كنت قد أحصيت اثنتين وخمسين خطوة، وعندما عدت للمشي أحصيت ثمان وأربعين خطوة أُخرى.. عندها وصلت إلى الخرقة. هُناك إذن مائة خطوة؛ فإذا قلنا: إنّ كل خطوتين تُشكلان ياردة واحدة، فأتصوّر أنّ مُحيط الزنزانة الدائرية خمسون ياردة. ولكنّي صادفت كثيراً من الزوايا على الجدار، لذا ليس في وسعي تخمين شكل القبو؛ لأنّي عاجز عن افتراض أنّني في مكانٍ آخر غير قبو.

كان لدي أملٌ ضعيف في أن يتحقّق هدفي.. حتماً لا أمل.. في هذه الاستكشافات؛ إلّا أنّ فضولاً مُبهماً حفزني للاستمرار. ابتعدتُ عن الجدار، وقرّرت عبور المنطقة المُحيطة بي. في بداية الأمر تقدّمت في حذرٍ شديد على الأرضية، ومع أنّها كانت تبدو من مادة صلبة، إلا أنّها موحلة. وأخيراً لم أتردّد في المضي عدة خطوات ثابتة؛ حاولت العبور في خط مُستقيم قدر الإمكان. تقدّمت نحو عشر أو اثنتي عشرة خطوة على هذا النحو، عندما تعلّقت بقايا الحاشية المُمزقة لثوبي بين ساقي. ودستُ عليها، وسقطت بعنف على وجهي.

خلال الاضطراب الذي واكبَ تعثّري وسقوطي، لم أتبيّن وجود أي شيء غريب، لكن بعد ثوانٍ، وبينما كنت مُنبطحاً، أثار انتباهي.. أنّ حنكي استقرّ على [595]أرضية المُعتقل، مع أن شفتي والجزء الأعلى من رأسي، وهي كما يفترض مُنخفضة أقل من الحنك، لم تُلامس شيئاً. في الوقت نفسه، يبدو أن جبهتي كان يُغطيها بخارٌ لزج، والرائحة الخانقة لفطر مُتعفن تعبق في منخري. مددت ذراعي،

وارتعشت أوصالي حين وجدت أنّني سقطت على حافة حفرة دائرية تماماً، امتدادها طبعاً لم تكن لديّ وسيلة لمعرفته في تلك اللحظة. تلمّست طابوق الجدار أسفل الحافة، ونجحت في إزاحة قطع صغيرة، وتركتها تسقط نحو الهاوية. طوال ثوان أصغيت لاهتزازاتها وهي تندفع وترتطم بجوانب الهاوية أثناء نزولها؛ وأخيراً سمعت صوت ارتطام مكتوم بسطح الماء، أعقبته ضوضاء عالية. في اللحظة نفسها جاءني صوت كأنّما يصدر من باب يُفتح ثمّ يُغلق سريعاً فوق رأسي، بينما انطلق شعاع ضوء خافت فجأة مُخترقاً العتمة، ثم سُرعان ما اختفى مثلما جاء فجأة.

رأيت بوضوح المصير المشئوم الذي كان مُهيأ لي، وهنّأت نفسي على هذه الحادثة التي أنقذتني في الوقت المُناسب. لو كنت تقدّمت خطوة أُخرى قبل سقوطي، لما رآني أحدٌ في العالم بعد ذلك. الموت الذي نجوت منه قبل لحظة مُشابه في طبيعته لما تصوّرته موتاً خُرافياً طائشاً في الحكايات التي تذكرتها عقب الاستجواب. بالنسبة إلى ضحايا الطغيان، هُناك فرصة للموت بكل ما ينطوي عليه من آلام جسدية فظيعة، أو الموت بكل ما ينطوي عليه من أشكال الرعب الذهني الشنيع. لقد اختاروا لي الموت الأخير. بعد سيلٍ من المُعاناة أصبحت أعصابي مُتراخية، حتى كنت أرتعش فزعاً عندما أسمع صوتي، وأصبحت في كل النواحي جسداً خاضعاً لأنواع العذاب التي تنتظرني.

كل أطرافي كانت ترتجف، وتلمّست طريقي رجوعاً إلى الجدار؛ قرّرت هُناك أن أموت بدلاً من أن أُخاطر بتجريب أنواع الرعب في البئر، الذي صوّر لي خيالي الآن أنه ليس الوحيد في هذه الزنزانة. في حالات ذهنية أُخرى ربّما كنت أمتلك شجاعة لوضع نهاية لبؤسي بأن أندفع فأغطس في إحدى هذه الهاويات؛ لكنّي الآن كنت من أجبن الجبناء. لم أتمكّن من نسيان ما قرأته عن هذه الحفر.. انطفاء الحياة المُفاجئ لا يُشكّل جزءاً من تصميمها المُرعب.

انتفضت الروح بين جوانحي فبقيت مُستيقظاً ساعات طويلة؛ لكني في نهاية الأمر رحت أغط في النوم من جديد. ثم استيقظت، فوجدت قُربي، كما في السابق، رغيف خبز ودورق ماء. استبدّ بي عطش حارق، فأفرغت الوعاء في

جوفي في جرعة واحدة. لا بُدّ أن يكون الماء ممزوجاً بنوع من المُخدّر؛ لأنّي ما كدت أشرب، حتى أصبحت رؤيتي مُضبّبة وأصابني خدرٌ لا يُقاوم. غرقت في نوم عميق هبط [596]عليّ.. كأنّما هو سبات الموت. كم من الزمن استمرّ، بطبيعة الحال لا أعرف؛ لكنّي عندما فتحت عيني مرة أُخرى كانت الأشياء التي حولي مرئية. تمكّنت بواسطة لمعان ضوء فسفوري لم أستطع تحديد مصدره أولّ مرّة، من رؤية امتداد وشكل المُعتقل.

من حيث الحجم، كنت في السابق قد وقعت في خطأ جسيم في تقديره. لم تكن دائرة جُدرانه كلّها تتجاوز خمس وعشرين ياردة. تسبّبت لي هذه الحقيقة لدقائق معدودة بكمٍّ هائل من المتاعب العابثة؛ إنّها عابثة حقّاً! فأي شيء يُمكن أن يكون تافه الأهمّية، في ظروفٍ مُريعة مثل هذه التي تُحيط بي، أكثر من أبعاد زنزانتي؟ لكن روحي كانت تهتمّ بالتفاهات، وأشغلت نفسي في مُحاولات لتعليل الخطأ الذي ارتكبته في قياساتي. وأخيراً برقت الحقيقة في ذهني. في مُحاولتي الأُولى للاستكشاف، كنت قد أحصيت اثنتين وخمسين خطوة، لغاية الفترة التي سقطتُ فيها؛ لا بُدّ أني إذن كنت على بُعد خطوة أو خطوتين من خرقة القماش؛ في حقيقة الأمر، فقد أوشكت أن أُكمل دورة داخل القبو. بعد ذلك نمت، ثم أفقت، وعدت فتعقّبت أثر خطواتي.. وهكذا تصوّرت أنّ الدائرة تكاد تكون ضعف ما هي عليه فعلاً. منعني اضطرابٌ ذهني من الانتباه إلى أنّني كنت قد بدأت رحلتي مع الجدار الذي في جهة اليسار، وأنهيتها مع الجدار الذي إلى اليمين.

خدعني أيضاً شكل القبو. لدى تلمّسي طريقي واجهت الكثير من الزوايا، لهذا استنتجت فكرة عن عدم الانتظام؛ كم كان تأثير الظلام الدامس فعالاً على شخص ينهض من حالة فقدان الوعي أو النوم! الزوايا ببساطة هي بضع انخفاضات أو حفر ضئيلة تفصل بينها فراغات غير مُنتظمة. الشكل العام للمُعتقل مُربّع. ما تصوّرت أنّه طابوق بناء اتّضح الآن أنّه حديد، أو مادة أُخرى، ألواح هائلة، كانت غرزاتها أو نقاط اتصالها تُعطي انطباعاً بالانخفاض. السطح كله لهذا القبو المعدني مكسو بالألواح بكل الأساليب البدائية الخرقاء المُثيرة

للاشمئزاز والتي جعلت خُرافات الرهبان عن حفظ أجساد الموتى تنهض في داخلي. صور شياطين تُهدد وتتوّعد بمُختلف الأشكال، وهياكل عظميّة، وغير ذلك من الصور المُخيفة، تنتشر وتُشوّه منظر الجدران. لاحظت ملامح هذه الوحوش مُميزة على نحو كاف، مع أنّ ألوانها تبدو باهتة مُعكّرة، كأنّما ذلك من أثر الأجواء الرطبة. ولاحظت الآن أنّ الأرضية مرصوفة بالحجارة. في مُنتصف القبو ينفتح ثغر الحفرة الدائرية مُتثائباً، تلك التي نجوت من فكيها؛ الحفرة الوحيدة في الزنزانة.

كل هذا لم أره بوضوح، وإنّما بجهد شديد. لأنّ حالتي الذهنية كانت تتبدّل [597]أثناء النوم. الآن كنت أستلقي على ظهري، وأمد أطرافي إلى نهايتها، على هيكل خشبي واطئ. على هذا الهيكل ربطوني ربطاً مُحكماً بحزام طويل يشبه اللجام. الحزام يمرّ في التواءات مُتعدّدة حول أطرافي وجسدي، تاركاً رأسي فقط يتحرّك، وكذلك ذراعي اليسرى إلى درجة أنّني لم أتمكّن إلا بعناء، أن أحصل على الطعام من طبق كان يوضع على الأرض ويُلقى إلى جانبي على الأرضية. رأيت وقد استبدّ بي الذعر أنّ الدورق اختفى. أقول: أصابني الذعر لأنّي كنت أحسّ بعطش لا يُطاق. هذا العطش يبدو جزءاً من خطة السجّان لتعذّيبي، لأنّ الطعام الذي في الطبق كان دائماً لحماً مُتبّلاً بالكثير من التوابل.

رفعت رأسي ونظرت، وتعقّبت سقف مُعتقلي.. على بعد ثلاثين أو أربعين قدماً فوق رأسي، بدا السقف مشابهاً تماماً للجدران الجانبية. في أحد ألواح السقف أثار انتباهي شيء غريب. كان شكلاً يرمز للزمن، كما يُصوّره الناس في العادة، باستثناء أنّه بدلاً من أن يكون منجلاً، تصوّرت في لمحة عرضية أنّه بندول هائل الحجم مثل ذلك الذي نراه على ساعات أثرية. في مظهر هذه الآلة التي بقيتُ أراقبها باهتمام شديد.. بينما كنت أُحملق إلى الأعلى (لأنّ موقعها فوقي مُباشرة) خُيّل إليّ أنّني لمست نوعاً من الحركة. وفي لحظة تأكدت ظنوني. كانت حركتها المنحرفة خفيفة، وطبعاً بطيئة. بقيت أُراقبها بضع دقائق، كنت خائفاً بعض الشيء، مع أنّ ذهولي تجاوز خوفي. ضجرت بعد ذلك من الحركة الرتيبة، وحوّلت عيني إلى أشياء أُخرى في الزنزانة.

تنبّهت إلى ضوضاء خفيفة، ونظرتُ إلى الأرضية فرأيت عدة جرذان ضخمة تجوب أرجائها. لقد خرجت الجرذان من الحُفرة التي تقع على مرمى بصري. حتى ذلك الوقت، بينما كنت أنظر، كانت الجرذان تخرج وتصعد في مجاميع، وتجري مُسرعة، في عيونها ألق من ضراوة الجوع، وقد استفزّتها رائحة اللحم. لكي أُبعدها عن هذا اللّحم كان الأمر يتطلّب الكثير من الجهد والحرص.

ربّما كان ذلك بعد نصف ساعة، أو حتى ساعة، (لم يكن في وسعي التأكد من الوقت إلا في تخمينات غير صائبة) أن نظرت مرة أُخرى إلى الأعلى. الشيء الذي رأيته عندئذ حيّرني وأذهلني. تزايدت حركة البندول حتى وصلت إلى ياردة تقريباً. كنتيجة طبيعية لهذه الحركة، فقد ازدادت سرعته أيضاً. لكن الشيء الذي ضايقني أساساً هو فكرة أنّه كان ينزل على نحوٍ محسوس لا يُمكن الخطأ في إدراكه. الآن لاحظت.. بأي رعب، لا حاجة لأن أقول.. أنّ طرفي البندول المعقوفين مثل الهلال مصنوعين من مادة فولاذية لامعة، طول الواحد منهما قدم [598]تقريباً من طرف إلى طرف كالقرنين؛ القرنان يتّجهان إلى أعلى، والحافة السفلى واضح أنّها حادة مثل شفرة الحلاقة. ومثل السكين الحادة أيضاً، بدت ضخمة وثقيلة، تتناقص من الحافة حتى تنتهي بتركيبة صلبة عريضة في الأعلى. كانت مربوطة بقضيب ثقيل من النحاس، وكلها تصدر صوت هسيس وهي تتدلّى وترتطم بالهواء.

لم يعُد يُساورني شكٌّ في المصير الذي تهيأ لي بعبقرية شيطانية في سُبُل التعذيب. أصبح إدراكي للحُفرة معروفاً لوكلاء التحقيق ..الحُفرة التي كان مصدر الرعب فيها مُقدّراً أن يكون من نصيب مُتمرّدٍ شجاع مثلي ..الحُفرة، كأنّها نموذج للجَحيم، تقول عنها شائعات إنّها مثل حدٌّ مُطلق في عذاباتها عند أبعد طرفٍ من العالم المعروف *the Ultima Thule* . أعرف أنّ السقوط في هذه الحفرة شيء تمكّنت من تجنّبه بمحض الصُّدفة، أعرف تلك المُعجزة المُفاجئة، أو الوقوع في مصيدة العذاب، أعرف أن كلّ ذلك يُشكّل جانباً مُهماً من الأنواع الشنيعة لسراديب الموت هذه. بعد أن فشلت في السقوط، لم يكن من خطة الشيطان دفعي عنوة إلى الهاوية؛ وبهذا (لم يكن هُناك بديل) ينتظرني نوع مُختلف من

الدمار، أخف وطأة. أخف وطأة! أكاد أبتسم من الشجن المؤلم وأنا أُفكّر في هذا التعبير.

أي شيء يفوق هذا التعبير في وصف ساعات الرعب الطويلة، الطويلة، الأطول من الأبدية التي كنت أُحصي خلالها الاهتزازات السريعة للفولاذ! بوصة بعد بوصة.. خطّاً بعد خطّ.. في نزولٍ لا يُدرك إلّا على فترات مُتباعدة تبدو كأنها الدهور.. بقي البندول ينزل، وينزل، إلى الأسفل في إصرار وتحدٍّ! ومرّت أيام.. ربّما هي أيامٌ وأيام.. قبل أن ينسحب فيُصبح قريباً من رأسي كأنّه مروحة تُرفرف بريشاتها العريضة القاطعة. كانت رائحة الفولاذ الحادّة تقتحم منخري. وبدأت أُصلّي.. حتى ضجرت السماء من صلواتي فلم يحدث شيءٌ سوى أن تسارع الهبوط. وأصابني جنونٌ مسعور، وكافحت كي أرفع جسدي فأرتطم بالسيف المعقوف المُخيف الذي فوق رأسي. ثم رجعت فجأة إلى الهدوء، واستلقيتُ وأنا أبتسم في وجه الموت المُكشّر عن أنيابه اللامعة، كأنّني طفل يبتسم للُعبة نادرة.

وجاءت فترة فاصلة أُخرى مشحونة باللّامبالاة؛ إنّها لحظات قصيرة؛ لأنّي عندما عاد لي الإحساس بالحياة من جديد لم يكن هُناك أي أثر لنزول البندول. لعلها كانت مُدّة طويلة؛ لأنّي كنت أعرف أنّ هُناك بعض الشياطين التي تراقب حالات الإغماء التي تنتابني، ويمكن أن تكون كبحت الاهتزاز لتستمتع بعذابي. ولما استعدت وعيي أحسستُ مرة أُخرى بالغثيان الشديد.. أوه، غثيان ووهن لا سبيل لوصفهما، كما لو أنّ ذلك حدث من الجوع الطويل. حتى وسط الآلام التي عانيت منها في تلك الفترة، كانت الطبيعة البشرية تلهث من أجل الطعام. وبجهدٍ مؤلم مددت ذراعي اليسرى بعيداً ما سمحت بذلك قيودي، واستوليت على ما تبقّى من طعامٍ هزيل تركته الجرذان. وبينما كنت أضع جزءاً من الطعام بين شفتي، اندفعت إلى ذهني فكرة لم تكتمل في شكلها النهائي، تُعبّر عن الفرح.. أو الأمل. لكن أي [599]شأنٍ لي أنا مع الأمل؟ كانت، كما قلت، فكرة غير مُكتملة بعد.. فالإنسان ربّما تُراوده كثيرٌ من هذه الأفكار التي لن تكتمل أبداً. أحسست أنّها فكرة عن الفرح.. عن الأمل؛ ومع ذلك فالفكرة ماتت وهي

في طور التكوين. عبثاً حاولت استكمالها.. استردادها. فالمُعاناة الطويلة بدّدت كل قُدراتي الذهنية. أصبحت معتوهاً.. أبله.

مصدر اهتزاز البندول يقع على زاوية قائمة مع جسدي المُمدّد. رأيتُ الهلال صُمّم بحيث يخترق المنطقة فوق قلبي. سوف يُمزّق ثوبي.. ويعود ليُكرّر التمزيق.. مرة بعد مرة.. رغم الاكتساح المُخيف لحركة البندول (على امتداد نحو ثلاثين قُدماً أو أكثر) والعنفوان المصحوب بالهسيس لانحداره الذي يكفي لتقطيع هذه الجدران الفولاذية إرباً إرباً، إلا أنّ تمزيق ثوبي هو كل ما سيحدث خلال دقائق. توقفتُ عند هذه الفكرة. لم أجرؤ أن أتجاوز نطاق هذا التفكير. تشبثتُ بها بصلابة واهتمام.. كأني في إصراري على التفكير على ذلك النحو أستطيع أن أمنع هُنا نزول الفولاذ. أجبرت نفسي على التفكير في صوت نزول البندول وهو يخترق الثوب.. فكّرت في الإحساس المُثير للقشعريرة الذي يُحدثه احتكاك الثوب على الأعصاب. فكرت في كل هذا الطيش حتى اصطكّت أسناني.

إلى الأسفل.. زحفٌ ثابت إلى الأسفل. أحسست بمُتعة جنونية في مُقارنة حركته النازلة مع سرعته الجانبية. إلى اليمين.. إلى اليسار.. شيءٌ بعيد عني وعريض.. يُطلق صرخة روح ملعونة؛ يتّجه إلى قلبي بخطوات نمر يتسلّل خلسة! كنت أضحك وأولول مع تناوب فكرة وفكرة وهيمنتها على الأُخرى.

إلى الأسفل.. حتماً، إلى الأسفل بلا هوادة! كان يهتزّ على بُعد ثلاث بوصات عن صدري! وكافحتُ بعنف، بضراوة، لكي أخلص ذراعي اليسرى. وكانت هذه الذراع قد تحرّرت فقط من المرفق إلى راحة اليد. كنت أستطيع الوصول بيدي تلك إلى الطبق الذي بجواري، ومن ثمّ إلى فمي، في جهد بالغ، ولكَن ليس إلى أبعد من ذلك. لو استطعت أن أُحطّم قيودي عند المرفق، لأمسكت البندول ولحاولت كبح جماحه. وربّما حاولت أيضاً منع انهيار الصخور!.

إلى الأسفل.. لا يزال البندول ينزل وينزل بلا توقّف.. إلى الأسفل ينزل حتماً! كنت ألهث وأُكافح مع كلّ اهتزاز. انكمشتُ على نفسي في تشنّجٍ مع كلّ

حركة كاسحة من حركاته. عيناي تتعقّبان دوراته المُتّجهة إلى الخارج أو إلى الأعلى وأنا أحس بالتلهّف تبعثه أقصى درجات اليأس الخاوي من المعنى؛ دوراته تنكمش في تشنّجٍ مع الهبوط، مع أنّ الموت يعني الراحة، أوه! يا له من أمر لا يُمكن التعبير عنه! ومع ذلك فكل أعصابي ترتعش خوفاً لدى التفكير في أنّ الغطس [600]الضئيل للآلة كان يُقرّب تلك الفأس الحادة اللامعة من صدري. الأمل الذي يدفع الأعصاب للارتعاش.. والجسد ينكمش. الأمل.. الأمل الذي يقهر الألم.. يهمس للمحكوم بالموت في أحقر زنزانات الاستجواب.

خمّنت أن نحو عشرة اهتزازات أو اثني عشر اهتزازاً لا بُدّ أنّها سوف تأتي بالفولاذ فتجعله يُلامس ثوبي فعلاً، وتزامنت هذه المُلاحظة فجأة مع الهدوء الذي حلّ على روحي منذ فترة، هدوءُ اليأس. للمرة الأُولى خلال ساعات.. أو ربّما أيام ..كنت أُفكر. والآن اتّضح لي أنّ الرباط، أو الحزام، الذي يُحيط بي، كان غريب المنظر. كنت مربوطاً بحبلٍ متين. أول ضربة من السيف المعقوف الحاد من شأنها أن تطيح بجزءٍ من يدي اليسرى. كم كان مُخيفاً، في تلك الحال، منظر اقتراب الفولاذ! وأقل مُحاولة للخلاص، كم هي قاتلة! هل كان من المُحتمل أنّ لم ينتبه الوكلاء الذين يعملون لدى معذبي لهذا الاحتمال! هل كان من المحتمل أن الرباط الذي يعبر فوق صدري يقع على مسار البندول؟ أصابتني رهبة أن أجد أملي الضعيف الأخير، فيما يظهر، يُحبط، فرفعت رأسي الآن لكي أحظى برؤية مُميزة لصدري. كان الحزام الذي يُحيط بأطرافي وجسدي يضغط في كافة الاتّجاهات ..باستثناء ارتخاءٍ على مسار السيف المعقوف القاتل.

ما كدت أسقط رأسي إلى الوراء ليعود إلى وضعه الأصلي، حتى برقت في ذهني فكرة لا أستطيع أن أصفها على نحو أفضل من القول: إنها كانت ذلك الجزء غير المُكتمل من فكرة الخلاص التي سبق أن ألمحت إليها، وبقي جزء منها يطفو بلا هدف في دماغي حين رفعت الطعام إلى شفتي المُحترقتين. الفكرة الآن حاضرة.. واهنة، تكاد تبدو معقولة، تكاد تبدو مُحدّدة.. ومع ذلك فهي كاملة. تقدمتُ في الحال، تدفعني طاقة عصبية لليأس، كي أُحاول تنفيذها.

منذ ساعات كان السرير المُتداعي القريب من الأرض الذي أستلقي عليه

يعجّ بالجرذان. هذه مخلوقات مُتوحشة لا تهاب شيئاً، تزداد ضراوتها من الجوع؛ عيونها الحمراء تلمع فوقي وكأنما تنتظر شيئاً واحداً، أن تتوقّف حركتي لتفترسني.

«أي نوع من الطعام»، فكرت، «تعوّدت عليه في البئر؟».

التهمت الجرذان، رغم جهودي لمنعها، كل شيء ما عدا بقايا ضئيلة من مُحتويات الطبق. كنت أُبعدها باستمرار في حركة كالأرجوحة، أو بتمرير يدي على الطبق: وأخيراً، جرّدها انتظام حركتي اللاواعية من الخوف. في حركاتها النهمة [601]كثيراً ما كانت الحيوانات الطفيلية تُطبق أنيابها الحادة على أصابعي. استعملتُ بقايا الزيت ونتف الطعام المُتبل بالبهارات التي بقيت الآن ففركت بها الأجزاء التي استطعت الوصول إليها من الحزام؛ ثم رفعت يدي عن الأرض، وبقيتُ ساكناً فلم أتنفّس.

في بداية الأمر بدت الحيوانات الشرهة مذهولة مرعوبة من ذلك التغير، من توقّف الحركة. انكمشت على نفسها في حذر وتراجعت؛ واتّجهت أعداد منها إلى البئر. كان هذا شيئاً مؤقتاً. كنت أُعوّل على شراهتها. لاحظت الحيوانات أنّني بقيت ساكناً، فوثب واحد أو اثنان من أجسر الجرذان على السرير، وأخذا يشمان الحزام. بدا أنّ هذه كانت إشارة لاندفاع شامل. خرجت من البئر حشود جديدة. تعلّقت بألواح الخشب.. ثم تجاوزتها، وصارت تثب بالمئات على جسدي. لم تكن الحركات المحسوبة للبندول لتعكّرها أبداً. كانت تتفادى ضرباته وتنهمك بقرض الحزام المدهون بالزيت. كانت تضغط.. تتجمع فوقي في وثبات ويتراكم بعضها فوق بعض. كانت تتلوّى فوق حنجرتي؛ شفاهها الباردة تبحث عن شفتي؛ كدت أختنق من تزاحمها فوقي؛ شيء مُقرف، لا تسمية له في العالم، انتفخَ صدري، وأحسست بالبرودة، بسكون ثقيل في قلبي. وبعد دقيقة، أحسست أنّ الصراع يوشك أن ينتهي. كنت ألمس ارتخاء الحزام. عرفت أنّه في أكثر من موضعٍ كان يتمزّق. وبقيت مُستلقياً في سكون يدفعني تصميمٌ يفوق طاقة البشر.

ولم تخطئ تقديراتي.. لم أتحمّل الآلام عبثاً. أخيراً أحسست أنّني تحرّرت. كان الحزام يتدلّى من جسدي. لكن البندول ارتطم بصدري. شقّ نسيج الثوب.

وقطع القماش القطني الخفيف الذي تحت الثوب. مرتين بعد ذلك عبر فوقي، واضطرم إحساسٌ حاد بالألم في كل عصب من أعصابي. غير أنّ لحظة الخلاص حانت. بحركة واحدة من يدي أسرعت المخلوقات التي حررتني للابتعاد وهي تتدافع. وبحركة ثابتة.. حذرة، مُنحرفة، مُتشنّجة، بطيئة.. انزلقتُ من القيود التي تُعانقني وأصبحت خارج مُتناول السيف المعقوف. كنت في هذه اللحظة، على الأقل، حرّاً.

حرّاً!.. ولكنّي ما زلت في حجرة الاستجواب! ما كدت أخطو في فزعٍ بعيداً عن السرير الخشبي على حجارة السجن، حتى توقّفت الآلة الجهنمية عن الحركة ورأيتها تنسحب، سحبتها قوة غير مرئية، من السقف. كان هذا درساً تلقّاه قلبي في يأس. كل حركة من حركاتي كانت لا شكّ تخضع للمُراقبة. حرّاً!.. لم أفعل شيئاً [602]سوى أن هربت من الموت وكابدت في ذلك شكلاً من أشكال العذاب، لكي أنتقل إلى نوع آخر من العذاب ربّما كان أسوأ من الموت. حين راودتني تلك الفكرة دارت عيناي في عصبية فاستقرتا على حواجز الحديد التي تُحيط بي. شيءٌ غير اعتيادي.. نوع من التغيير الذي لم أستطع في البداية تمييزه بوضوح.. كان واضحاً أن شيئاً ما يحدث في الحجرة. طوال دقائق طويلة كنت ذاهلاً في أحلامي المُرتعشة من الخوف، كنت أشغل نفسي بتخمينات غير مُترابطة. أثناء هذه المدة، أصبحت واعياً، لأول مرة، بحيث عرفت أصل الضوء الفسفوري الذي أضاء الزنزانة. كان ينبثق من تصدّع، عرضه قرابة نصف بوصة، يمتدّ تماماً حول السجن عند قاعدة الجدران، والتي تبدو مُنفصلة عن الأرضية. حاولتُ، لكن دون جدوى طبعاً، أن أنظر عبر الفتحة.

فلما نهضت بعد مُحاولتي اليائسة، تجلّى لي سرُّ التغير الذي طرأ على الحُجرة في الحال ففهمت الأمر. لاحظتُ، على الرغم من أنّ الخطوط العريضة لأشكال الجدران كانت واضحة بما يكفي، إلّا أنّ الألوان تبدو مُشوشة وغير مُحددة. هذه الألوان اكتسبت الآن، وكانت تكتسب بين لحظة وأُخرى، لمعاناً مُذهلاً مُكثّفاً أكثر من السابق، وتضفي على التصاوير والمنحوتات الطيفية الشيطانية سمة ربّما تقتلع أقوى الأعصاب من جذورها، فما بالك بأعصابي!

عيون الشياطين، عيون وحش مُرعب تتلظّى، تتوهّج فوقي، تأتي من ألف اتجاهٍ واتّجاه، ولم يكن أي اتّجاه منها مرئياً قبل ذلك، تومض في نشوة رهيبة مبعثها النيران التي لم أستطع منع خيالي من أن يعتبرها وهماً.

وهمٌ من الأوهام!.. حتى حين كنت أتنفّس تأتي إلى منخري رائحة بخار ينطلق من حديد مُحمّى! رائحة خانقة تُهيمن على السجن! وهجٌ عميق يستقرّ كل لحظة في بؤر العيون التي تُراقب عذاباتي! لونٌ أكثر عمقاً يميل إلى الأحمر الداكن ينتشر فوق صور مُرعبة دامية! كنت ألهث! أسعى لالتقاط أنفاسي! لا يُمكن أن يكون ثمّة شك في نوايا المُعذّبين.. أوه! إنهم لا يعرفون الرحمة! أوه! إنّهم أكثر الرجال همجية! انزويتُ عن المعدن المُتوهّج إلى وسط الزنزانة. من فكرة الدمار الذي يُهدّدني، جاءتني فكرة عن برودة البئر واستولت على روحي كالبلسم. انطلقتُ إلى حافة البئر المُهلكة. ألقيت نظرة مُتوتّرة إلى تحت. كان الوهجُ المُنبعث من السقف يُضيء أبعد الأركان في البئر. لكن روحي رفضت في تلك اللحظة الجنونية أن تستوعب معنًى لما رأيت. وأخيراً استسلمت روحي.. اقتحم اللهبُ طريقه إلى روحي.. فاحترقت على أكناف عقلي الوجل.. أوه! ما من صوت أتكلّم به!.. أوه! يا للرعب!.. أوه! يُمكنني تقبّل أي رعب باستثناء هذا! في صرخة، اندفعت من الحافة، ودفنت وجهي في يدي.. كنت أنتحب بمرارة.

تصاعدت حدة الحرارة سريعاً، ومرة أُخرى نظرتُ إلى الأعلى، كنت [603]أرتعش كأنما أصابتني حمى الملاريا. حدث تغيّر آخر في الزنزانة.. الآن كان التغيّر واضحاً من حيث الشكل. كما في السابق، عبثاً حاولت في البداية أن أُخمن أو أفهم ماذا يحدث. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى تبدّد الشكّ. جاء انتقام المُحقّقين سريعاً ردّاً على مُحاولة هربي مرتين؛ لم يعد ثمة مجال للمزاح مع ملك الرعب. كانت الغرفة مُربّعة الشكل. رأيت زاويتين من زواياها الحديدية الآن تتّخذان شكلاً حاداً.. زاويتان، على التوالي، بليدتان.. وازداد التباينُ المُخيف وضوحاً حين سمعت دمدمة مُنخفضة أو صوتاً كالأنين. في لحظة تحوّل شكل الحجرة فأصبحت كالمُعين. ولم يتوقّف التغيّر عند هذا.. ولم أطمح أو أرغب في أن يتوقّف. كان في وسعي معانقة الجدران الحمراء فأُطبق بصدري عليها فأندسّ

فيها كما لو أنها راية للسلام الأبدي. «الموت»، قلت، «أيُّ شيء ينتظرني غير الموت في هذه الحفرة!» يا لي من غبي! أما كان لي أن أعرف أنّ في تلك الحفرة يكْمن ذلك الشيء من الحديد المحمّى الذي يُطاردني؟ ترى هل يُمكنني مُقاومة الوهج المُنبعث؟ أو، إذا صحّ ذلك، هل أتحمّل الضغط الذي يُسلط عليّ؟ والآن، زاد شكل المُعين تسطّحاً أكثر فأكثر، في سرعة لم تترك لي مجالاً للتأمل. اقترب مركزه، وبطبيعة الحال جانبه العريض، من الحُفرة المفتوحة. انكمشتُ على نفسي وتراجعت.. غير أنّ الجدران الزاحفة ظلّت تضغط عليّ بلا هوادة. وأخيراً لم تبق لجسدي الملتوي الذي تلفحه الحرارة بوصة كي أضع قدمي على أرضية السجن الصلبة. توقفتُ عن مُحاولة النجاة، مع أنّ عذاب روحي وجد له مُتنفساً في صرخة أخيرة مُدوية تُعبّر عن اليأس. أحسست أنّني كنت أتمايل على الحافة.. وغيّرت اتّجاه عيني..

سمعت همهمة مُتنافرة لأصوات بشرية! سمعت صخب الأبواق! سمعت أزيز الرعود! اندفعت الجدران الحارقة إلى الوراء! وامتدت ذراعٌ فأمسكتني حين سقطت، وقد غبت عن الوعي، على شفا الهاوية. كانت يد الجنرال لاسال[3]. لقد دخل الجيش الفرنسي إلى توليدو. وسقط المُعتقل بين يدي الأعداء.

---

(3) اقتحم جيش الجنرال أنطوان شيفاليه لويس كولبيرت لاسال سجن توليدو أثناء حرب بينينسيولر «شبه الجزيرة» سنة 1808. [المترجم]

قناع الموت الأحمر

«شبح الموت الأحمر» كان يجوب البلاد منذ مدة طويلة. ما من وباءٍ [604] رأيناه من قبلُ بمثل هذا الفتك، بمثل هذه البشاعة. الدماء رمزٌ له وعنوان.. اللون الأحمر للدماء بما يُثيره في النفوس من رهبة راح ينتشر في كل مكان. وكانت الآلام الحادّة، والشعور بالدوار والغثيان فجأة، ثمّ نزيف غزير من مسامات الجلد، حتى يتصفّى الدم من الأمور الشائعة. البقع القرمزية التي تنتشر على الجسد، وخصوصاً على وجه الضحية، هي علامات مُميّزة على الإصابة بالوباء، عندئذ تُغلق الأبواب ويُحرم المُصاب من مُساعدة ومواساة رفاقه. نوبات المرض، وتطورها ثم انتهاؤه بالموت، حوادث تتكرّر في كل نصف ساعة.

لكن يبدو أنّ الأمير بروسبيرو[1] كان في حالٍ أفضل، لم يُفارقه الهدوء ولا السعادة، فالرجل لا يهاب شيئاً. فلما أوشكت أراضيه أن تخلو من سكانها، استدعى إلى مجلسه نحو ألفٍ من أصدقائه الأصحاء الذين لا يفتقرون إلى روح الدعابة، من الفرسان وسيدات القصر، ولجأ مع هذه الجماعة إلى مكانٍ مُنعزل بعيد، واحتمى بأحد الأديرة التي تُشبه القلاع. كان منظر هذا البناء الشامخ رائعاً حقّاً، وهو من مُبتكرات عبقرية الأمير نفسه في ذوقه الرفيع وغرابة أطواره. هُناك سورٌ شاهق يُحيط بالدير، وله بوابات حديدية. وبعد أن دخل الأمير وحاشيته إلى القصر، أوقدوا الأفران واستعملوا مطارق ضخمة في غلق رتاجات البوابات. وقرّروا ألا يتركوا وسيلة للدخول أو الخروج لأي سبب كان، سواءً تعلّق الأمر بيأسٍ مُفاجئ أو بمسٍّ من الجنون. وجهزوا الدير بمؤن كافية. وكانوا يأملون أن

---

(1) الأمير بروسبيرو، مثل نظيره الذي يحمل الاسم نفسه في مسرحية «العاصفة» لشكسبير كان يسعى للهرب من العالم. [المترجم]

تكفي هذه الإجراءات الاحتياطية لمنع تسلّل العدوى.. وتركوا العالم الخارجي يلقى مصيره. في مثل هذه الظروف كان من الغباء أن ينتاب المرء الحزن، أو حتى أن يُفكر بالوباء. وكذلك فقد حرص الأمير على توفير كل مُستلزمات اللهو والترف والمتعة. كان هُناك مُهرّجون، وشعراء يُلقون قصائد مُرتجلة وراقصات الباليه، وعازفو الموسيقى، وكواعب حسان، وخمرٌ من كل الألوان والأصناف. كل هذه الأشياء توفّرت في الداخل فضلاً عن الأمان. أما في الخارج، فشبح «الموت الأحمر» وحده.

حدث مع نهاية الشهر الخامس أو السادس لهذه العُزلة، وبينما كان الوباء المسعور يفتك بالناس بلا هوادة خارج الأسوار، أن انشغل الأمير بروسبيرو ذات يوم بالاستعداد لإقامة حفلة تنكّرية أراد منها الترويح عن ألفٍ من الأصدقاء، وقرّر أن لا شيء ينبغي أن يُضاهي حفلته تلك في روعتها وغرابتها.

وشهدت الحفلة التنكرية التي لم يسبق لها مثيل مُلابسات استثنائية في القصف والعربدة والنزوع إلى إثارة الشهوات. لكن قبل هذا دعوني أُخبركم بشيءٍ عن الحجرات التي أُقيمت فيها الحفلة. [605]هُناك سبع غرف.. تُشكّل بمُجملها الجناح الملكي. في كثير من الأماكن تكون مثل هذه الشقق طويلة وتمتدّ باستقامة لا يُعيقها شيء، فيما ترتدّ الأبواب القابلة للطي إلى الوراء وتكاد تلتصق بالجدران في الاتّجاهين، بحيث نادراً ما يعيق المشهد عائق أمام الناظر. هُنا يختلف الأمر اختلافاً واضحاً؛ مثلما يتوقّع المرء من عشاق التطرف في الشذوذ. فالحُجرات مُشيدة بطريقة غير مألوفة بحيث لا يرى الناظر أكثر من حُجرةٍ واحدة في كل مرة. فالمرء يجد استدارة عند كل عشرين أو ثلاثين ياردة، وكل استدارة تخلق تأثيراً مُتبايناً. إلى اليمين واليسار، في مُنتصف كل جدار، نافذة ضيقة على الطراز القوطي تطلّ على رواق مُغلق يمضي في مواكبة لالتواءات الجناح الملكي. هذه النوافذ عليها قطعٌ من الزجاج تتباين ألوانها بما يتماشى مع تدرّجات الألوان الغالبة على ديكورات الحُجرة التي تنفتح عليها. فالطرف الشرقي تتعلّق عليه ستائر زرقاء، على سبيل المثال، ونوافذه ذات زجاج أزرق مُبهر في حيويته. والحُجرة الأُخرى أرجوانية في زينتها وستائرها، وهُنا ألواح الزجاج أُرجوانية. والحُجرة

الثالثة خضراء في كل شيء، وهكذا هي نوافذها. والرابعة مؤثثة ومُضاءة بالبرتقالي.. والخامسة بالأبيض.. والسادسة بالبنفسجي. أما الحُجرة السابعة فكل ركن منها مُغلّف بستائر مُخملية سوداء تتدلّى ابتداءً من السقف إلى أسفل الجدران، وتسقط طياتها الثقيلة على سجادة من المادة واللون نفسيهما[2]. في هذه الحُجرة وحدها، كان لون زجاج النوافذ يفشل في الانسجام مع الديكورات. ألواحُ الزجاج هُنا قرمزية.. بلون الدم الأحمر القاني. لا يُلاحظ المرء، في إحدى الحُجرات السبع، أي مصباح أو شمعدان، وسط وفرة لا تُخفى على العين في مظاهر الزينة النضرة المُنبثة هُنا وهُناك أو التي تتدلّى من السقف. ليس هُناك ضوء من أي نوع يصدر من مصباحٍ أو شمعة ضمن جناح الحُجرات. لكن في الأروقة التي تتوزّع بينها، هُناك مرجلٌ ثلاثي القوائم يحمل منقل فحمٍ مُتوهج بالنيران التي تُرسل أشعتها عبر الزجاج المُلوّن وتُنير الغرفة بالضوء الساطع. وهكذا ينتج عن ذلك خليط من الأشكال الخيالية المُبهرة. لكن في الحُجرة الغربية أو الحُجرة التي يلفّها السواد كان تأثير ضوء النار الذي ينعكس على الستائر القاتمة من خلال ألواح الزجاج المُلوّنة بالدم، يبلغ أقصى مداه في إثارة الرهبة في النفوس، ويؤدي إلى خلق انطباع مُرعب على قسمات أولئك الذين يدخلون، بحيث كان عددٌ قليل فقط من الصحاب يجرؤون على وضع أقدامهم في مُقتربات تلك المنطقة في أي وقت.

في هذه الحُجرة يُشخص على الجدار الغربي هيكلُ ساعة عملاقة ذات إطار من الأبنوس. يتحرّك بندولها جيئة وذهاباً في قعقعة رتيبة ثقيلة تبعث الملل؛ وحين [606]يُكمل عقرب الدقائق دورة كاملة على واجهة الساعة، ويدق مُعلناً انقضاء ساعة من الزمن، يخرج من الجوف النحاسي صوتُ موسيقى صاخبة إلى أقصى الحدود، في نغمة غريبة مُستنكرة وتركيز قوي، بحيث يضطرّ، مع كلّ ساعة، موسيقيو الأوركسترا إلى التوقّف عن عزفهم مؤقتاً، في أثناء أدائهم، لكي ينصتوا

(2) الحُجرات وألوانها هُنا ترمز إلى معان شعرية، فالأزرق مثلاً يرمز إلى الصباح والأسود إلى الليل، وكلّها تدلّ على عدم قدرة الإنسان على رؤية المُستقبل أو استعادة الماضي. [المترجم]

إلى الصوت؛ ويتوقف راقصو الفالس أيضاً بحكم الضرورة عن دورانهم؛ ويحصل ارتباكٌ مؤقت وفوضى في حركة المجاميع المرحة؛ وفي الوقت الذي ترنّ فيه أجراس الساعة، يلاحظ أن أكثر الأشخاص استهتاراً يمتقع لون وجوههم، والأكثر تقدماً في السن ورزانة يمررون أياديهم فوق جباههم كأنّهم يحسون بالارتباك من أحلام اليقظة أو من التأمل. لكن ما إن تتوقف الأصداء كلياً حتى تتسلّل ضحكات خفيفة في الحال على شفاه الحاضرين؛ وينظر بعض الموسيقيين إلى بعض ويبتسمون كما لو أنّهم، في لجة عصبيتهم وغبائهم، وفي لعناتهم التي يُطلقونها همساً، الواحد منهم للآخر، يتخيّلون أنّ رنين الأجراس لن يؤدي بهم لاحقاً إلى انفعال مُماثل؛ وبعد ستين دقيقة، (ثلاثة آلاف وستمائة ثانية من الزمن) تدقّ الساعة من جديد، ويحدث الارتباك المفزع نفسه والارتعاش والتأمل كما في السابق.

على الرغم من هذه الأشياء لم يكن الأمر ليتناقض مع كونه مصدراً للبهجة والمرح. كان ذوق الدوق عجيباً حقّاً. عيناه حاذقتان في اختيار الألوان وتوقّع تأثيراتها. كان يتجاهل الأعراف السائدة في هذه الأمور. فالأشياء التي يُخطّط لها تكون جريئة وصادمة، وإشعاعات أفكاره تختلط في رونق من الوهج البربري. هُناك من يعتقد أنّه مجنون. لكن أتباعه المُقربين ينكرون ذلك. كان من الضروري أن يسمعه المرء، ويراه، ويلمسه ليتأكد أنّه ليس مجنوناً.

لقد أشرف الأمير بنفسه، في جانبٍ كبير من ذلك، على توزيع مظاهر الزينة في الحُجرات السبع استعداداً لهذا المهرجان العظيم؛ وكان ذوقه هو الذي يتحكّم في اختيار الشخصيات التي تُشارك في الحفلة التنكرية وتؤدي الأدوار المُختلفة. وقد حرص على أن تكون الشخصيات ذات مظهر مُخيف وتدل على غرابة الأطوار. يُحيط بها وهجٌ يخطف الأبصار، تألق، فتنة، خيالات وهمية.. الكثير من الأشياء التي شوهدت منذ ذلك في مسرحية «هيرناني»[3]؛ شخصيات

(3) هيرناني مسرحية لفيكتور هوغو (1830) تحوّلت فيما بعد إلى أوبرا على يد فرداي. [المترجم]

بأزياء عربية ذات أطراف لا تُناسب حجمها تؤدي أدواراً غريبة. وأُخرى كالأشباح تتحرّك في طيشٍ وترتدي أزياء المجانين. هُناك وفرة من الأشياء الجميلة، الداعرة، وحالات الشذوذ، وشيء من الرعب، وغير قليل من أسباب الاشمئزاز. وهُنا وهُناك، في أرجاء [607]الحُجرات السّبع، «تقتفي آثارهم زمرٌ من الأحلام»[4]. هذه.. هذه الأحلام.. كانت تتلوّى غيظاً وتدخل وتخرج، تستمد من الغرف مسحات ألوانها، والموسيقى الوحشية للأوركسترا تبدو كصدى لخطواتها. ومن وقت لآخر تُسمع دقاتُ ساعة الأبنوس من الصالة المُخملية. عندها، في لحظة، يصمت كل شيء، ويعمّ السكون باستثناء رنين الساعة. وتتجمّد الأحلام في أماكنها. ثم تتلاشى أصداء الساعة.. فلا يبقى رنينها أكثر من لحظات.. وتطفو ضحكاتٌ على الشفاه، تكاد تبدو باهتة بعد تلك الدقات كأنّما تودّعها وهي ترحل. والآن مرة أُخرى تعود الموسيقى لتعزف، وتنتعش الأحلام، ويعود التأرجح إلى الأمام وإلى الخلف في مرحٍ أكثر مما مضى، يستمد نشوته من ألوان زجاج النوافذ المُتعدّدة التي تعبر منها تياراتٌ من الأشعة من مراجل ثلاثية القوائم. لكن الحُجرة التي تقع إلى أقصى الغرب من بين الحُجرات السّبع ليس فيها الآن شخصيات تضع الأقنعة وتُغامر بالبقاء؛ لأنّ الليل أوشك أن ينجلي؛ هُناك يتدفق ضوءٌ ضارب إلى الحمرة من ألواح الزجاج الدموية؛ والسواد القاتم للستائر بمنظره المُخيف؛ من تراه يجرؤ أن يضع قدميه على السجاد القاتم! من مكانٍ قريب من ساعة الأبنوس تأتي جلجلة مكتومة أكثر مهابة من أي صوت يخترق آذان أولئك المُنغمسين في ملذاتٍ تفوق في رعونتها ما يجري في الحجرات الأُخرى.

غير أنّ الحُجرات الأُخرى كانت مُكتظّة بالحاضرين، قلوبهم تنبض بالحياة في رعونة وقصفٍ وعربدة. واستمرّت روح العربدة تدور كالدوامة، حتى جاء أخيراً إعلانُ الساعة بانتصاف الليل. وتوقّفت الموسيقى، كما سبق؛ وهدأت الحركات اللولبية لراقصي الفالس؛ وطرأ توقفٌ قلق على كلّ شيء كما في

---

(4) اقتباس من مسرحية «العاصفة» لشكسبير.. [المترجم]

السابق. لكن الآن سُمعت اثنتا عشرة دقة تتردّد أصداؤها في الحجرة مع جرس الساعة؛ هذا ما حدث، بحيث زحفت الوساوس، مع مرور الوقت، إلى عقول الراقصين المُعربدين السادرين في تأمّلاتهم. هكذا حدث الأمر، قبل أن يتلاشى آخرُ صدى للدقات ليغطس في السكون نهائياً، إذ وجد كثيرٌ من الحاضرين وقتاً للانتباه إلى شخصٍ مُتنكّر لم يلفت انتباه أحد من قبل. وانتشر لغط عن هذا القادم الجديد في همساتٍ تنتقل هُنا وهُناك، وأخيراً انتشر تذمر وطنين، أو تمتمات، يُعبّر فيها أصحابها عن الاستنكار والمُفاجأة.. ثم صاروا يُعبّرون عن الذعر، والرعب، والامتعاض.

في أجواءٍ تعجّ بالأوهام كما وصفتها، ربّما يفترض المرء أن لا يؤدي ظهور شيءٍ اعتيادي كهذا إلى كل ذلك التوجّس. في حقيقة الأمر لم تكن الحفلة التنكرية محددة بمهلة زمنية من الليل؛ إلّا أنّ ظهور الشخص الذي نتكلّم عنه فاق هيرود في هيروديته، وتجاوز حدود المعقول وقهر حتى اللباقة غير المُحدودة التي تميّز بها [608]الأمير. هُناك أوتار في قلوب حتى أكثر الناس جرأة وتهوراً لا يُمكن مُلامستها دون أن تستفز أرهف عواطفها. حتى مع الضائعين الذين يعتبرون الحياة والموت مسألة مزاح، هُناك أمور لا يُمكن المزاح فيها. بدأت الجماعة كلها الآن تشعر أنّ في هيئة ذلك الغريب لا شيء يدلّ على المزاح ولا حتى على الاحتشام. كان طويلاً هزيلاً ملفوفاً من الرأس إلى أخمص القدم بالأكفان كأنما قد خرج من القبر فوراً. القناع الذي على وجهه يكاد يخفي جثة مُتخشّبة لا يكتشف المرء زيفها بأقصى درجات التمحيص. ومع ذلك ربما كان الناظر يتحمّل هذا لو تقبّله المُعربدون المجانين حوله. ثم سرعان ما انتشر الهمسُ واللّغط إلى أبعد من ذلك، فقالوا: إنّه نموذجٌ للموت الأحمر. ثوبه كله مُلطّخ بالدماء.. وجبهته العريضة، بكل ما يحمله الوجه من انطباعات، يعلوها رذاذٌ من الرعب القرمزي.

حين وقعت عينا الأمير بروسبيرو على هذا الطيف (وكان يتنقل بخطوات بطيئة وقورة، كأنّه عازم بصرف النظر عن أي شيء على إكمال دوره، بين صفوف راقصي الفالس) رآه الحاضرون يترنّح في اللحظة الأُولى وتعتريه رعشة قوية من الذعر أو من الاشمئزاز؛ وفي اللحظة التالية، اصطبغت جبهته باحمرار الغضب.

«من يجرؤ؟» هتف بصوت أجشّ في وجوه حاشيته من الواقفين بالقرب منه.. «من يجرؤ على إهانتنا بهذه المهزلة السافرة؟ أمسكوا به وانزعوا عنه القناع.. لنعرف من نشنق مع الشروق، ثم نُلقي به من سور القلعة!».

في الحُجرة الشرقية، أو الحُجرة الزرقاء وقف الأمير بروسبيرو بعد أن نطق بتلك الكلمات. وكانت الكلمات ترنّ الآن في أرجاء الغرف السبع عالياً وبوضوح.. لأنّ الأمير كان رجلاً جلداً لا يهاب شيئاً، والموسيقى توقّفت بإشارة من يده.

في الغرفة الزرقاء وقف الأمير شامخاً، مع ثلّةٍ من الحاشية إلى جواره، وكانت الوجوه شاحبة. في البداية، عندما تكلّم، حدث نوعٌ من التدافع بين جماعته باتّجاه الشخص الذي اقتحم عليهم عزلتهم، والذي كان في تلك اللحظة قريباً من متناول أيديهم، أما الآن فكان يتقدّم خطوات واثقة حتى اقترب من المُتكلّم.. ولكن في رهبة لا توصف أثارتها خيالات مجنونة بعد الكلمات التي تمتم بها وتركت أثرها في نفوس الحاضرين، لم يجرؤ أحدٌ أن يمدّ يده فيمسكه؛ وهكذا لم يقطع عليه طريقه عائق، فتقدّم مسافة ياردة من الأمير نفسه؛ في الوقت الذي انكمشت فيه الجماعة كأنّما بحافزٍ واحد وابتعدت عن مُنتصف الحُجرات إلى الجدران، كان يمضي في [609]طريقه دون وجلٍ أو تردّد، وبخطوات جادة محسوبة كالسابق، وظلّ ينتقل من الحجرة الزرقاء إلى الأرجوانية.. ومن الأرجوانية إلى الخضراء.. ومن الخضراء إلى البرتقالية.. ومن هذه إلى الحُجرة البيضاء.. ومن هُناك أيضاً إلى الحُجرة البنفسجية، قبل أن تأتي حركة حازمة لاعتقاله. في ذلك الوقت تصاعد غضبٌ جنوني في صدر الأمير بروسبيرو وخجل الرجل من شعوره المؤقت بالجبن، فاندفع مُخترقاً الحُجرات الستّ، ولم يتبعه أحدٌ من المرعوبين الذين تجمّدوا في أماكنهم كالموتى. ثم استلّ خنجراً ورفعه عالياً، وتقدّم سريعاً دون أن يهاب شيئاً، في طيشٍ وتهوّر، حتى أصبح على بُعد ثلاثة أو أربعة أقدام من المُقتحم المُتقهقر، وعندما وصل هذا إلى طرف الحُجرة المخملية، استدار فجأة ووقف وجهاً لوجه أمام الرجل الذي يطارده. وسُمعت صرخة حادّة.. وسقط الخنجر يرنّ ويلمع على السجادة القاتمة، وإن هي إلا لحظة

حتى سقط الأمير بروسبيرو مُضرجاً بدمائه. واستجمع حشدُ المُعربدين شجاعتهم فاندفعوا إلى الحُجرة السوداء، وسمع تمتماتهم الرجل الطويل الذي وقف دون أن يُبدي حراكاً تحت ساعة الأبنوس، وكان يلهث في رعب لا يُمكن الإفصاح عنه حين انتزع منه القناع الذي يُشبه وجه ميتٍ خرج من قبره في حركة عنيفة فظة، ذلك القناع الذي لم يحمل أي شكل مفهوم.

الآن أُعلن عن وصول الموت الأحمر. جاء كالسارق ليلاً. وواحداً فواحداً سقط المُعربدون في الصالات الندية بالدماء التي كانوا يقصفون عليها، ومات كل واحد منهم مُتخذاً وضع اليأس الذي كان عليه أثناء سقوطه. واستمرّ نبضُ الحياة في ساعة الأبنوس يرنّ تزامناً مع آخر لحظات المرح. وتلاشى اللهب من المشاعل الثلاثية. وهيمن الظلام والفناء والموت الأحمر هيمنة مُطلقة على كلّ شيء.

اللوحة البيضوية

كان القصر الذي غامر خادمي في الدخول إليه عنوة، بدلاً من أن يتركني [610]أمضي الليل في العراء، وأنا في حالتي البائسة تلك بعد الجرح الذي أُصبت به، واحداً من الكتل المعمارية التي تُشكّل مزيجاً من القتامة والتألّق والتي بقيت منذ مدة طويلة تعبس في وجه المرء وسط جبال أبينيني[1]؛ لا تقلّ صورتها في الواقع عما كان يدور في خيال السيدة رادكليف[2]. من كل النواحي كان يبدو أنّ المبنى قد هجره أهله مؤقتاً، منذ زمن ليس بالبعيد. وانتهى بنا المقام إلى إحدى الحُجرات الصغيرة التي كانت مؤثثة بأقل قدر من السخاء. كانت غُرفة في أحد الأبراج البعيدة للمبنى، تزخر بالزخارف والديكورات، إلّا أنّها أشياء قديمة بالية. تتدلّى على جُدرانها الستائر وتزين أركانها تماثيل وأسلحة مُتعددة الأنواع، إلى جانب عدد غير اعتيادي من اللوحات المُلهمة على الطراز الحديث مُحاطة بأطر من الأرابيسك وموشّاة بالذهب. في هذه اللّوحات التي كانت مُعلّقة على الجدران، ليس على واجهاتها الرئيسية فحسب، وإنّما هي موجودة في كثير من الزوايا التي وفرها بالضرورة التصميم العمراني الغريب لأرجاء القصر.. هذه اللوحات، ربما جعلني اضطرابي الذهني نتيجة الحمى أُطيل النظر إليها في اهتمام عميق؛ حتى إنّي طلبت من بيدرو أن يُغلق الدرفات الثقيلة لنوافذ الغرفة.. لأنّ اللّيل أطبق علينا.. وأن يضيء الشمعدان الطويل الذي ينتصب على قائمة السرير.. وأن يفتح الستائر المخملية السوداء ذات الحواشي العريضة التي تحيط

---

(1) جبال أبينيني هي سلسلة جبلية تمتد لمسافة تُقدّر بألف كيلومتر في إيطاليا من الشمال إلى الجنوب على طول الساحل الشرقي وتُشكّل العمود الفقري للبلاد. [المترجم]

(2) هي الكاتبة آن وارد رادكليف ويُشير إدغار هُنا إلى روايتها (أسرار أدولفو) 1794، التي تتناول مُغامرات مُرعبة في قلعة قديمة على جبال أبينيني في إيطاليا. [المترجم]

بالسرير نفسه، يفتحها كلها. كنت أُريد أن يفعل هذا حتى أُكرس نفسي، ما دام النوم لا يُدغدغ أجفاني، على الأقل أن أشغل نفسي بشيء من التأمل في هذه الصور، وربما أقرأ كتاباً صغيراً وجدته على الوسادة يتضمّن فيما يظهر نقداً ووصفاً لها.

بقيتُ أقرأ طويلاً.. طويلاً وكرّست اهتمامي كله للقراءة، في جدية وصدق كنت أُحملق في الكلمات. وانسلّت الساعات بسُرعة مُذهلة حتى انتصف الليل. كان موضع الشمعدان يُضايقني، فمددت يدي بصعوبة، وبدلاً من أن أُقلق راحة خادمي النائم، غيّرت موضع الشمعدان بحيث صار يُلقي أشعته أكثر على الكتاب.

إلّا أنّ العمل الذي قمت به أدّى إلى تأثير لم يكن متوقعاً أبداً. كانت الأشعة [611]التي تُرسلها شموع مُتعدّدة (لأنّ هُناك كثير من الشموع) تسقط الآن على كوّة في الحائط كانت قبل ذلك مُغلّفة بظلام دامس خلف إحدى قوائم السرير. وهكذا رأيت على الضوء الساطع لوحة لم أرها من قبل. إنّها صورة فتاة شابّة تكاد تكون في مرحلة النّضج الأُنثوي. نظرتُ عميقاً إلى اللوحة على استعجال، ثم أطبقت عيني. لماذا فعلت ذلك؟ هذا ما لم أدركه في بداية الأمر. ولكن فيما كانت أجفاني لا تزال مُطبقة، قلبت في ذهني السبب الذي دفعني لإطباقها.. تلك حركة لاإرادية من اجل كسب وقتٍ للتفكير.. لكي أتأكد أنّ بصري لم يخدعني.. لكي أسترد هدوئي وأُخضع تصوراتي الخيالية إلى تمحيص بصري أكثر تعقّلاً وتحديداً. بعد لحظات استأنفت النظر في تدقيق ثابت إلى اللوحة.

ما رأيته الآن كان شيئاً لا مجال للشك في حقيقته، لن أجرؤ في الواقع على الشك في حقيقته؛ لأنّ أُولى انعكاسات الضوء التي أرسلتها الشموع على قمَاش القنب يبدو أنّها بدّدت الذهول الحالم الذي تسلّل إلى أحاسيسي، وجعلتني أنتفض فوراً وأرجع إلى حياة اليقظة.

كانت اللّوحة، كما قلت سابقاً، تصور فتاة شابة. في اللّوحة مُجرّد رأس وكتفين، وهي مُنجزة وفق أسلوب فني يُصطلح على تسميته صورة نصفية؛ كثيرٌ من سمات الأسلوب في تجسيد الرؤوس التي يُتقنها روبرت سولي. هُناك تداخلٌ

للذراعين، والصدر، وحتى أطراف الشعر التي تنعكس عليها الأضواء بشكل لا يُدركه الحس مع ظلال غامضة لكنها عميقة تُشكّل خلفية للّوحة كلها. إطار اللّوحة بيضوي موشّى بالذهب ومُخرّم بزخارف مُترفة على طراز موريسكي[3]. كلمسةٍ من لمسات الفن، لا شيء أكثر إثارة للانبهار من اللّوحة بعينها. لكن لا يُمكن أن يكون العمل الفني، ولا الجمال الأبدي لقسمات الفتاة ما حفّزني على ذلك النحو المُباغت واستولى على كياني. هذا أقلّ ما يُمكن أن يقال.. هل كان ذلك من وحي خيالي، الذي أفاق من شبه غيبوبة، ما أوحى لي بأن الرأس رأس إنسانة حية؟ لقد رأيت في الحال أنّ تفاصيل التصميم، والنقوش، والإطار، لا بُدّ أن تستبعد في الحال هذه الفكرة.. لا بُدّ أن تمنعني من إطالة النظر إليها آنياً والاستمتاع بها. أخذت أفكّر تفكيراً جاداً في هذه المسائل، وبقيت ربّما ساعة بين الجلوس والاستلقاء ونظري مُسمّر على اللّوحة. وأخيراً اقتنعت بالسرّ الحقيقي لتأثيرها الذي خلفته في نفسي، فرجعت أستلقي على السرير. وجدت اللمسة السحرية للصورة تُعبّر تعبيراً مُطلقاً عن نبض الحياة، وكان التعبيرُ صاعقاً منذ البداية، ثم أربكني وحيّرني وأرعبني وقهرني بسطوته. أحسست برهبة عميقة وحزنٍ بإزاء ذلك المنظر المُبجّل فغيّرت موضع الشمعدان وأعدته إلى ما كان عليه سابقاً. كان السبب في الإثارة البالغة التي [612]شعرت بها خافياً عن ذهني، ورحتُ أسعى مُتلهّفاً إلى الكتاب الذي يشرح الرسومات وتواريخها. فتحتُ الكتاب عند صفحةٍ مُحدّدة تتكلّم عن اللوحة البيضوية، وقرأت كلمات ذات سحر غريب:

«كانت عذراءً ذات جمال نادر الوجود، فلا شيء يفوق فتنتها إلا روحها المُفعمة بالمرح. وكان الشر يتربّص بها في الساعة التي رأت فيها، وأحبّت، وتزوّجت الرسام. كان رجلاً مُتقلّب المزاج سريع الغضب، يُكرّس حياته لعمله ودراساته، وكان صارماً لا يحب المرح، وسبق أن اتّخذ من فنه عروساً له؛ وهي عذراء ذات جمال نادر الوجود، لا يفوق فتنتها إلا روحها المرحة؛ حياتها كلها مرح وابتسامات، ترفل في حبور مثل أي شابة بريئة؛ تحب وتعشق كل الأشياء؛

(3) مورسكيون: هم المسلمون الذين بقوا في إسبانيا تحت الحكم المسيحي بعد سقوط المملكة الإسلامية وخُيّروا بين اعتناق المسيحية أو ترك البلاد. [المترجم]

ولا تكره إلا الفن الذي أصبح غريمها؛ لا ترتعد فرائصها من شيء كما ترتعد من اللّوح الخشبي الذي تُخلط عليه الألوان، وفرش الرسم وغيرها من الأدوات اللعينة التي تحرمها من تأمل وجه حبيبها. لهذا كان شيئاً مُرعباً لهذه السيدة أن تسمع الرسام يتكلّم عن رغبته في تصوير عروسه الشابة. إلّا أنّها ببساطتها وإذعانها جلست مُستكينة أسابيع طويلة في الحُجرة المُظلمة للبرج العالي حيث كان الضوء يُقطر على القنب الشاحب من فوق رأسها. لكن الرسام يشعر بالزهو من عمله الذي يتقدم ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم. كان رجلاً سريع الغضب، متوحّشاً، مُتقلب الأهواء، ضائعاً مع مرور الوقت في أحلام اليقظة؛ لم يكن يرى في حالته تلك أنّ الضوء الذي يسقط بتلك الهيئة الشنيعة في الحُجرة المُنعزلة الموحشة من البرج كان يؤدي إلى ذوبان نضارة وحيوية وروح عروسه، تلك التي كانت تذبل في عيون الجميع بوضوح باستثناء عينيه. إلّا أنّها لا تكفّ عن الابتسام، ولا تشتكي من شيء، لأنّها ترى الرسام (الذي يتمتع بالشهرة) يستمد نشوة حارقة من عمله، وكان يسعى ليلاً ونهاراً لتصويرها وهي تذوب في حبّه، مع أنّها كانت تذبل يوماً بعد يوم وتفقد نضارتها وصحتها. وتكهّن البعض ممّن رأوا اللوحة بمصيرها مُحاولين التخفيف من المأساة فقالوا في كلماتٍ هامسة: إنّها أُعجوبة نادرة، ودليل لا يقلّ أهمية على براعة الرسام يستمدّها من هيامه بالإنسانة التي صوّرها بذلك الإعجاز. وأخيراً، بينما كان العمل المُضني يقترب من نهايته، لم يُسمح لأحد بالدخول إلى البرج؛ لأنّ الرسام كاد يفقد صوابه ويجنّ جنونه من الحماس لعمله، وعيناه تتحوّلان من قماش القنب فلا يعود ينظر إليه، وإنّما صار ينظر إلى ملامح زوجته فحسب. ولم يكن يرى تدرّجات الألوان التي نشرها على القنب مُستمدة من خدي الإنسانة التي تجلس إلى جواره. وبعد أسابِيع لم يبقَ إلّا القليل لإنجازه، ما عدا لمسة فرشاة أخيرة على الفم وضربة لونية على العين، بينما كانت روح السيدة الجميلة تُرفرف سابحة إلى السماء مثل شعلة اللهب في مِشكاة المصباح. ثم تحرّكت الفرشاة، فوضعت اللمسة اللونية؛ [613]وخلال لحظة، وقف الرسام مُبتهجاً أمام العمل الذي أنجزه؛ وفي اللحظة التالية، بينما هو ينظر، راح يرتجف وشحب لونه، واستبدّ به الذعر، وصرخ بصوت أجشّ، «هذه هي الحياة بعينها حقّاً!» واستدار فجأة لينظر إلى حبيبته.. فوجدها فارقت الحياة!.

الخنفساء الذهبية

«ما الذي يحصل يا هذا! رفيقنا يرقص بجنون!

لقد قرصته العنكبوت تارانتولا..»

(كل شيء ليس على ما يرام)[1]

منذ سنوات ربطتني علاقة ودية مع السيد وليم ليغراند. كان ينتمي إلى عائلة [614]هوغينوت العريقة، وكان من الأثرياء في يوم من الأيام؛ إلّا أنّ سلسلة من النكبات جعلته مُعوزاً. من أجل تجنّب أن يؤدي به سوء حظه إلى الموت كمداً على أثر المصائب التي ألمّت به، فقد غادر نيواورليانز، المدينة التي عاش فيها آباؤه وأجداده، حتى استقرّ به المقام أخيراً في جزيرة سوليفان، بالقرب من شارلستون، ساوث كارولينا.

هذه الجزيرة فريدة في نوعها حقّاً. لا يكاد يرى المرء فيها شيئاً غير رمال البحر، طولها قرابة ثلاثة أميال، وعرضها لا يتجاوز في أي مكان ربع ميل. الجزيرة مُنعزلة أساساً عن الأرض بواسطة جدول ليس من السهولة أن تُدركه الأبصار، ينبع ويشق مساره عبر البراري التي يُغطيها القصب ويكتنفها الوحل، وهو ملجأ مُفضل لدجاج المُستنقعات. أما النباتات، كما يفترض المرء، فهي شحيحة، أو على الأقل تنمو كالأقزام. لا يرى المرء هُناك أي نوع من الأشجار الضخمة ذات القامات السامقة. بالقرب من الطرف الغربي للجزيرة، حيث يجثم

(1) الأبيات من مسرحية كوميدية (كل شيء ليس على ما يرام) تعود إلى سنة 1761 تأليف آرثر مورفي. [المترجم]

حصن فورت مولتراي، وحيث توجد بعض الهياكل لمساكن بائسة، يسكنها في فترة الصيف الهاربون من الغبار والقيظ، ربّما يرى المرء أشجار نخيل البلميط القصيرة الشائكة ذات السعف الذي يشبه المراوح؛ إلّا أنّ الجزيرة بمُجملها، فيما عدا هذه المنطقة الغربية، وخط وعر أبيض اللون على ساحل البحر، مُغطاة بشبكة كثيفة من الأدغال وخاصة نبات الآس الجميل الذي يعرف قيمته البستانيون وهواة الزهور في إنكلترا. غالباً ما يصل ارتفاع الأدغال والشجيرات هُنا إلى خمسة عشر أو عشرين قدماً، وهي تكاد تُشكّل غابة صغيرة غير قابلة للاختراق، تملأ الهواء بأريجها.

في الأجزاء الداخلية لهذه الغابة، ليس بعيداً عن الطرف الشرقي أو الطرف الأقصى من الجزيرة، كان ليغراند قد بنى لنفسه كوخاً صغيراً يسكن فيه حين تعرّفت عليه أول مرة، بمحض الصدفة. وسرعان ما توطّدت علاقتنا وتحوّلت إلى صداقة قوية.. في مثل ذلك المكان المُنعزل هُناك الكثير من الأشياء التي تستحق الاهتمام. وجدته رجلاً على مُستوى جيد من الثقافة، ويتمتع بقُدرات ذهنية غير [615]عادية، مع أنّه يُعاني من بعض النفور من البشر، ويخضع لأنماط مُنحرفة من المزاج المُتذبذب بين المرح الدافق والسوداوية. كان يحتفظ في مسكنه بالكثير من الكتب، رغم أنّه نادراً ما يرجع إليها. كانت مصادر مُتعته الوحيدة تتمثّل في صيد الطيور باستعمال البندقية وصيد السمك في النهر، أو أن يمشي الهوينى على الشاطئ أو يجوب منطقة شجيرات الآس بحثاً عن القواقع أو يجمع عينات من الحشرات.. ربّما كانت مجموعته التي يحتفظ بها من الحشرات يحسده عليها أي خبير في هذا المجال. في هذه الجولات كان يصحبه في العادة رجلٌ زنجي عجوز، يُدعى جوبيتر، كان قد أعتق من قبل العائلة، ولكنّه ما كان ليقتنع بالتهديدات ولا بالوعود لأن يتخلّى عمّا يعتبره الحق في السير على خُطى سيده الشاب الذي يُسميه «ماسا ويل». ليس من المُستغرب أن يُحاول أقارب ليغراند، وهم يتصوّرون أنّه مُصاب بلوثة عقلية، وينجحوا في غرس روح العناد هذه في نفس جوبيتر، على أمل أن يبقى الأخير حارساً يُراقب تصرّفات سيده المُغامر.

نادراً ما تكون فصول الشتاء، على خط العرض الذي تقع عليه جزيرة سوليفان، شديدة البرودة، وفي الخريف من السّنة من النادر حقّاً أن يضطر المرء لإشعال النار. لكن في مُنتصف تشرين الأول تقريباً، من سنة شهر - 18، شهد الناس يوماً شديد البرودة على نحو استثنائي. قبل غروب الشمس بوقت قصير، كنت أشق طريقي مُخترقاً نباتات دائمة الخضرة إلى كوخ صديقي، الذي لم أزره منذ أسابيع.. كان مسكني، في ذلك الوقت، في شارلستون، يقع على بُعد تسعة أميال عن الجزيرة، في الوقت الذي كانت فيه وسائل التنقل بدائية كثيراً بالقياس إلى ما يُناظرها اليوم. لدى وصولي إلى الكوخ خبطت على الباب، كما جرت العادة، ولمّا لم أتلقّ أي رد، بحثت عن المفتاح الذي أعرف مكانه السري، وفتحته ودخلت. رأيت ناراً لطيفة المنظر تتوهّج في المدفأة. لم يكن ذلك شيئاً مألوفاً، وشعرت بالامتنان لما فعله. خلعت معطفي، وأخذت كرسياً من زند الخشب الذي يُطقطق، وانتظرت مُتحلّياً بالصبر وصول مضيفي.

بعد هبوط الظلام بوقت قصير، وصل صاحبا الكوخ، ورحبا بي في ودٍّ ومحبة. وكانت ابتسامة جوبيتر تمتد من إذن إلى إذن، وتحرك في همّة ونشاط كيما يحضّر بعض دجاجات المُستنقعات لوجبة العشاء. أما ليغراند فكان يُعاني من إحدى نوباته.. فكيف لي أن أسميها بغير هذا؟.. نوبات الحماس والهوس. لقد عثر على نوع غير معروف من حيوان ذي صمامين من فصيلة جديدة، والأكثر من هذا، كان قد اصطاد خنفساء من نوع سكارابايوس[2] وربطها بمُساعد جوبيتر، وكان يعتقد أنّه شيء جديد من نوعه تماماً، لكنه كان يرغب في معرفة رأيي بشأنه من الغد.

«ولماذا ليس الليلة؟» سألت، بينما كنت أفرك يدي فوق اللهب، وأتمنّى أن تذهب كل فصيلة الخنافس إلى الجحيم.

«آه، لو كنت أعلم أنك هُنا!» قال ليغراند، «ولكن مضى زمنٌ طويل منذ أن

(2) سكارابايوس: اسم يُطلق على خنفساء من العالم القديم كانت تُعتبر مُقدّسة لدى قدماء المصريين. [المترجم]

[616]رأيتك؛ وكيف يتسنّى لي توقّع أن تأتي لزيارتي في هذه الليلة دون غيرها؟ بينما كنت في طريقي إلى البيت التقيت بالملازم ج..، من القلعة فأعطيته الحشرة مؤقتاً، وكان ذلك غباءً مني؛ لذا فمن المُستحيل بالنسبة إليك رؤيتها حتى الصباح. عليك البقاء هنا الليلة، وسوف أبعث جواب لكي يأتي بها مع شروق الشمس. إنّها من أكثر المخلوقات روعة حقاً!».

«ماذا؟.. مع الشروق؟».

«هراء! كلّا!.. الحشرة. لونها ذهبي لامع.. إنّها بحجم جوزة قارية كبيرة.. ولها جناحان سود قرب أطراف الظهر، وجناحٌ ثالث، كبير بعض الشيء، عند الطرف الآخر. اللوامس موجودة.. ».

«لا شيء من *هذا فيها*، ماسا ويل، أقول لك مرة بعد مرة»، هُنا قاطعه جوبيتر؛ «الحشرة لونها ذهبي، كل شيء فيها ذهبي، من الداخل والخارج، فيما عدا الجناح.. لم أر مثل هذه الحشرة في حياتي، كم أنا فرح بها!».

«حسناً، لنفترض أنّها كذلك، جوب»، أجاب ليغراند، في لهجة حازمة بعض الشيء، كما بدت لي، بل أكثر جدّية ممّا تتطلّب المسألة، «فهل هُناك أي سبب يجعلك تترك الطيور تحترق؟ اللون».. هُنا تحوّل إلى ناحيتي.. «يكاد يكون كافياً ليُثير في جوبيتر تلك الفكرة. لا شكّ أنّك لم تُشاهد في حياتك تألّقاً مُبهراً من تدرّجات الألوان التي تُرسلها.. لكن عن هذا لا يُمكنك أن تحكم إلا غداً. في هذه الأثناء يُمكنني أن أُعطيك فكرة عن شكلها». قال هذا وجلس بالقرب من طاولة صغيرة، عليها قلم ومحبرة، دون أن يوجد ورق. أخذ يبحث عن بعض الأوراق في أحد الأدراج، لكنه لم يجد شيئاً.

«لا تُبالي»، قال أخيراً، «هذا سوف يُلبي الغرض»؛ وأخرج من جيب صدريته قصاصة ورق رأيتها بالية وقذرة جداً، ورسم عليها في رعونة شيئاً بقلم الحبر. بينما كان يفعل هذا، بقيت جالساً على كرسيي بالقرب من النار، لأنّي كنت وقتها أشعر بالبرد. لما انتهى من الرسم، ناولني قصاصة الورق دون أن أنهض من مكاني. أخذتها منه، وفي الوقت نفسه سمعنا ضجة، تبعتها ضربات

حادة على الباب. قام جوبيتر لفتح الباب، فاندفع رجلٌ ضخم من سكان نيوفاوند لاند، وهو من معارف ليغراند، إلى الداخل، ووثب على أكتافي، وأمطرني بقبلاته ومُداعباته؛ ذلك أنّي كنت قد أبديت اهتماماً به أثناء زياراتي السابقة. حين انتهى من مُداعباته، نظرت إلى القصاصة، وأقول الحق فقد وجدت نفسي مُتحيّراً أشد الحيرة أمام ما رسمه صديقي.

«حسناً!» قلتُ بعد أن تأمّلت قصاصة الورق عدة دقائق، «هذه خنفساء غريبة، لا بُدّ من الاعتراف بذلك؛ إنّها جديدة بالنسبة لي؛ لم أرَ مثلها من قبل.. رغم أنّها تبدو مثل جُمجمة، أو رأس ميت.. وهذا أقرب شيء تُشبهه من أي شيءٍ صادف أن رأيته».

«رأس ميت!» ردّد ليغراند ما قلت.. «أوه.. نعم.. حسناً، إنّها تحمل بعض [617]الشبه للصورة التي رسمتها على الورقة، لا شكّ في هذا. البقعتان السود اللتان في الأعلى تبدوان مثل العينين، ها؟ أما البقعة الأطول منهما والتي في الأسفل فهي تُشبه الفم.. لذا يبدو شكلها كله بيضوياً».

«ربما كان ذلك»، قلت؛ «ولكن، ليغراند، أخشى أن تكون رساماً فاشلاً. عليّ أن أنتظر حتى أرى الخنفسة نفسها، إذا أردت أن أكوّن فكرة عن مظهرها».

«حسناً، لا أدري»، قال، وبدا مُغضباً قليلاً، «أنا أرسم على قدر إمكاناتي أشياء ربّما كانت مُعبّرة ..عليّ أن أفعل هذا على الأقل.. وكان لي أساتذة جيدون، ولا بُدّ لي من الإطراء على نفسي لأني لست غبياً تماماً».

«لكن، يا صديقي العزيز، أنت تمزح إذن»، قلت، «فهذه جُمجمة في حالة جيدة.. في الواقع، ربّما جاز القول: إنّها جُمجمة رائعة، وفقاً للمفاهيم الهمجية عن مثل هذه الأنواع من الفسيولوجي.. والخنفساء التي وجدتها لا بُدّ أنها من أغرب الخنافس في العالم لو كانت تُشبهها. عجباً، ربّما نحصل على قطعة مُدهشة جداً من الخرافات عن هذه المسألة التي نلمّح إليها. أتصوّر أنّك سوف

تُسمي الحشرة *scarabæus* caput hominis، أو شيئاً من ذلك القبيل.. هُناك الكثير من الأسماء المُماثلة في كتب التاريخ الطبيعي. ولكن أين اللوامس التي تكلّمت عنها؟»

«*اللوامس!*» قال ليغراند، وكان يُظهر تحمّساً غير مُبرّر للموضوع؛ «إنّني مُتأكد أنّك ترى أحد اللوامس. لقد رسمتها بصورة واضحة كما هي في الحشرة الأصلية، وأتصوّر أنّ ذلك يكفي».

«حسناً، حسناً»، قلت، «ربما فعلت ذلك.. ومع هذا فأنا لا أراها»؛ وأعطيته الورقة دون المزيد من التعليق، فلم أرغب في تعكير مزاجه؛ ولكني كنت مُندهشاً كثيراً من التحوّل الذي طرأ على مجريات الأمور؛ إذ حيرني مزاجه النكد.. أما فيما يتعلّق برسم الخنفساء، لم تكن هُناك فعلاً أي لوامس يُمكن مُشاهدتها، والرسم كلّه كان قريب الشّبه بخربشة عادية لرأس رجل ميت.

تلقّى منّي الورقة وكان يبدو على وجهه شيءٌ من النكد، وكان على وشك أن يجعدها ثم يرميها فيما يظهر في النار، حين ألقى نظرة عارضة على المُخطط يبدو أنّها أدّت إلى إثارة انتباهه الشديد. خلال لحظة اصطبغ وجهه بلون أحمر يوحي بالعنف.. وفي اللحظة التالية تحول إلى شحوبٍ بالغ. بقي لحظات يُطيل التأمل في الرسم في دقة مُتناهية وكان جالساً في مكانه. وأخيراً نهض، وتناول شمعة من الطاولة، وتقدّم ليجلس على كرسي بحارة في الطرف البعيد من الحجرة. هُنا، مرة أُخرى، كان يتفحّص الورقة مُتلهّفاً؛ وراح يُقلّبها في كل الاتجاهات. لم يتفوّه بشيء، وأثار تصرفه استغرابي إلى درجة كبيرة؛ لكنّي اعتقدت أنّ من رجاحة العقل ألّا أتسبّب في تفاقم مزاجه المُشاكس بأي نوع من التعلَيقات. والآن أخرج من جيب معطفه محفظة جلدية، ووضع الورقة في عناية بداخلها، وأدخلهما معاً في درج [618]مكتب ثم أغلقه. والآن صار هادئاً أكثر من السابق؛ غير أن حماسته الأُولى اختفت تماماً. لم يبدُ عليه التجهّم بقدر ما كان شارد الذهن. ومع انقضاء المساء أصبح غارقاً أكثر فأكثر في لُجة أحلامه، ولم تفلح مُداعباتي في إخراجه منها. كنت أنوي أن أمضي الليلة في الكوخ، مثلما تعوّدت في كثير من الأحيان سابقاً، لكنّي بعد أن رأيت مضيفي في هذه

الحالة العصبية، فضّلت الرحيل. ولم يلح عليّ في البقاء، لكن قبل أن أُغادر صافحني بحرارة أكبر ممّا اعتاد عليه.

بعد شهر تقريباً (وأثناء تلك الفترة لم أُشاهد ليغراند أبداً) زارني في شارلستون خادمه جوبيتر. لم يسبق أن رأيت الزنجي العجوز بمثل تلك الحالة الحزينة، وخشيت أن تكون كارثة حلّت بصديقي.

«حسناً، جوب»، قلت، «ما الأمر الآن؟.. كيف حال سيدك؟».

«عجباً، إذا أردت الحق، سيدي ليس في حالة طيبة كما ينبغي أن يكون».

«ليس في حالة طيبة! إنّني آسف حقّاً لأن أسمع هذا الخبر. ما الذي يشكو منه؟».

«لا شيء! هذا كل شيء!.. هو لا يشكو من شيء مُحدّد.. لكنه مريض جدّاً بسبب كل ذلك».

«مريض جدّاً، جوبيتر!.. لماذا لم تقل ذلك فوراً؟ هل هو طريح الفراش؟».

«لا، ليس كذلك!.. لا يُمكن العثور عليه في أي مكان.. لأنّه لا يبقى في مكان.. عقلي مشغول بشأن المسكين ماسا ويل».

«جوبيتر، أُريد أن أفهم ما الذي تتكلّم عنه. تقول سيدك مريض. هل أُخبرك من أي شيء يعاني؟».

«شيء عجيب! يا سيدي، إنّها مسألة تافهة ولا تستحق.. ماسا ويل يقول: لا شيء يُعاني منه.. لكن ما الذي يجعله يبحث هنا وهناك، بينما رأسه يتّجه إلى الأرض وأكتافه للأعلى، وشكله شاحب مثل الشبح؟ ويبقى يحملق في تلك الحشرة كل الوقت..».

«يفعل ماذا، جوبيتر؟».

«يبقي عينيه على تلك الحشرة التي وضعها على الطاولة كل الوقت.. إنّها أغرب شيء رأيته في حياتي. كلّما رأيتها أشعر بالرّعب ويقشعرّ بدني، أقول لك..

كنت حريصاً أن أُراقب حركاته. في ذلك اليوم خرج مع شروق الشمس وغاب كل النهار.. وعندي عصا غليظة فكنت على وشك أن أضربه بها عندما أتى.. لكنّي [619]مُغفّل ولم يُطاوعني قلبي.. فهو يبدو مسكيناً على كل حال».

«آهاً؟.. ماذا؟.. آه، نعم.. على كل حال، أعتقد أنّ عليك أن لا تقسو على الرجل المسكين.. لا تُعذبه، يا جوبيتر.. فهو لا يتحمّل كثيراً.. لكن ألا تستطيع أن تُكوّن فكرة عمّا تسبّب له بالمرض، أو بالأحرى هذا التغيّر في التصرفات؟ هل وقع مكروه منذ أن رأيتك؟».

«لا، يا سيدي، لم يحصل أي مكروه منذ ذلك الوقت.. لهذا فأنا خائف.. كان ذلك في اليوم نفسه الذي أتيت فيه».

«كيف؟ ماذا تقصد؟»

«شيء عجيب، يا سيدي، أقصد تلك الحشرة.. التي هُناك الآن».

«ماذا؟».

«الخنفساء.. أنا مُتأكد تماماً أنّ ماسا ويل عضته الخنفساء في مكان ما من الرأس.. تلك الحشرة الذهبية».

«وأي سبب يدعوك، جوبيتر، لمثل هذا الاعتقاد؟».

«لها مخالب حادة كثيرة، ماسا، وفم أيضاً. لم أُشاهد أبداً مثل هذه الحشرة اللعينة.. إنّها تضرب وتعض أي شيء يقترب منها. كان ماسا ويل يُمسكها ويُقرّبها من وجهه، لكنّه يضطر لأن يتركها بسرعة.. أقول لك هذا.. ثم جاء وقت لا بُدّ أنّها عضّته. لم أكن أُحب منظر فم الحشرة بنفسي، على الإطلاق، لذا لم أكَن أمسكها بأصابعي، كنت امسكها بأي قطعة ورق أجدها قُربي. كنت ألفّها بالورقة وأدس جزءاً من الورقة في فمها.. هكذا كنت أتعامل معها».

«وهل تعتقد إذن أنّ سيدك عضّته الخنفساء حقّاً، وجعلته تلك العضة مريضاً؟».

«لا أعتقد بشيء من ذلك.. أنا أشم ذلك. ما الذي يجعله يحلم بالذهب إلى

هذا الحد، إذا لم يكن بسبب عضة الخنفساء الذهبية؟ لقد سمعت عن هذه الخنافس الذهبية من قبل».

«لكن كيف عرفت أنه يحلم بالذهب؟».

«كيف عرفت؟ عجيب! لأنّه يتكلّم عن هذه الأشياء أثناء النوم.. هكذا عرفت».

«حسناً، جوب، ربّما كنت على حق؛ لكن إلى أي ظرف تعيس أعزو زيارتك اليوم؟».

«ما الأمر، سيدي؟».

«هل جئت بأي رسالة من السيد ليغراند؟».

«لا، يا سيدي، أحضرت هذه الرزمة»؛ وهُنا سلمني جوبيتر ورقة، وفيها وجدت الرسالة التالية:

عزيزي..

لماذا لم أرك منذ مدة؟ آمل أنّك لست غبياً بما يكفي حتى تغضب من وقاحتي التافهة؛ أبداً، ذلك غير مُتوقع منك. منذ أن رأيتك آخر مرة كانت لدي أسباب كثيرة تدعو للقلق. لدي ما أُخبرك به، مع أن من الصعب أن أعرف كيف [620]أُخبرك به، أو إن كان عليّ أن أُخبرك بشيء على الإطلاق.

لم أشعر بالراحة أبداً منذ أيام، والعجوز جوب المسكين يضايقني، أصبح الوضع معه لا يُطاق، من خلال اهتمامه بي بإخلاص. هل تُصدّق؟.. لقد أحضر عصا غليظة في أحد الأيام لكي يُعاقبني بها لأنّي أتجاهل نصائحه؛ صرت أمضي النهار، وحيداً، بين التلال على الأراضي المُرتفعة. أعتقد فعلاً أنّ منظري الذي يوحي بالمرض وحده أنقذني من السياط.

لم أجر أي تعديلات على حجرتي منذ لقائنا الأخير.

إذا كنت تستطيع، بأي طريقة تراها مُناسبة، تعال مع جوبيتر. تعال أرجوك.

أتمنى أن أراك الليلة، لأتكلم معك حول شيء مهم. أؤكد لك أنّها مسألة ذات أهمية قصوى.

صديقك المُخلص دائماً،

وليم ليغراند.

شيء ما في نبرة الرسالة جعلني أقلق كثيراً. كان أسلوبها على وجه الخصوص يختلف جوهرياً عما اعتاد عليه ليغراند. ما الذي يُمكن أن يحلم به الرجل؟ أي نغمة جديدة تشغل ذهنه السريع الهياج؟ أي «مسألة ذات أهمية قصوى» يُريد أن ينقلها لي؟ الكلام الذي قاله عنه جوبيتر لا يُبشّر بالخير. خشيت أن يكون سوء حظه المُستمر أدّى أخيراً إلى إصابة صديقي بلوثة عقلية. دون أن أتردّد لحظة، هيأت نفسي لمُرافقة الزنجي.

عندما وصلت إلى الرصيف، لاحظت وجود منجل وثلاثة معاول، كلها في ما يبدو جديدة، مُلقاة في قاع القارب الذي كان علينا الذهاب فيه.

«ما معنى كل هذا، يا جوب؟» تساءلت.

«هذا منجل، ماسا، ومسحاة».

«صحيح جداً؛ ولكن ماذا تفعله هذه الأشياء هنا؟».

«المنجل والمسحاة طلب مني ماسا ويل أن أشتريها له من البلدة، وقد دفعت مبلغاً كبيراً من النقود لأحصل عليهما».

«ولكن ماذا، بحق كل شيء لعين، ماذا يريد أن يفعل سيدك ويل بهذا المنجل والمعاول؟».

«لا أعرف، وعليّ اللعنة من الشيطان إذا لم أكن أعتقد أنّه هو أيضاً لا يعرف. لكن هذا كله يتعلّق بالحشرة».

بعد أن لم أرَ جدوى من النقاش مع جوبيتر، الذي كان ذهنه مُنشغلاً كما

يبدو [621]بـ «الحشرة»، قفزت الآن إلى القارب وانطلقنا. كانت الرياح لطيفة تارة، وقوية تارة أُخرى، وسرعان ما دخلنا إلى خليج صغير يقع شمال حصن مولتراي، وقطعنا أميالاً قليلة سيراً على الأقدام حتى وصلنا الكوخ. كانت الساعة تُشير إلى الثالثة عصراً تقريباً. وكان ليغراند في انتظارنا ويتوقّع وصولنا مُتلهفاً. أمسك يدي في حركة مُتشنّجة جعلتني أجفل وحفزت شكوكي التي ساورتني قبل ذلك. كانت ملامحه شاحبة إلى درجة مُفزعة، وعيناه الغائرتان تلمعان ببريق غير طبيعي. بعد بعض الاستفسارات عن صحته، سألته وأنا لا أعرف شيئاً أقوله، عما إذا كان قد استردّ الخنفساء من الملازم ج..

«أوه، نعم»، أجابني، واتّخذ وجهه تعبيرات صارمة، «أخذتها منه في صباح اليوم التالي. لا شيء يُمكن أن يغريني بالتخلي عن تلك الخنفساء. هل تعرف أنّ رأي جوبيتر صحيح بشأنها؟».

«وكيف ذلك؟» سألت، وكانت الهواجس تعتصر قلبي.

«في قوله: إنّها حشرة من ذهب حقيقي». قال هذا في شيء من الصرامة العميقة، وأحسست بصدمة لا تفسير لها.

«هذه الحشرة سوف تمنحني الثروة»، تابع كلامه، وظهرت على وجهه ابتسامة زهوٍ، «سوف تُعيد لي مكانتي وأملاك عائلتي. هل هُناك شيء مُثير للاستغراب إذن في أنّني أهتمّ بها بما تستحق؟ ما دام الحظ اقتضى أن يمنحني الثروة عن طريقها، فما عليّ إلّا أنّ أستخدمها بالصورة الصحيحة وسوف أصل إلى الذهب الذي تُرشدني إليه. جوبيتر؛ أحضر لي الخنفساء!».

«ماذا! الحشرة، سيدي؟ أفضل ألّا أُزعج تلك الحشرة.. عليك أن تُحضرها بنفسك». وهنا نهض ليغراند، وبدت على سيمائه جدية ومهابة، وأحضر لي الخنفساء من حاوية زجاجية كان قد وضعها فيها. كانت خنفساء جميلة، وفي ذلك الوقت، هي من جنس غير معروف لعلماء الطبيعة.. طبعاً فهي يُمكن أن تُعتبر جائزة عظيمة من وجهة نظر علمية. هُناك بقعتان سود مدورتان بالقرب من نهاية الظهر، وبقعة طويلة في الطرف الآخر. كانت قشرتها صلبة ولامعة، ولها

مظهر الذهب الصقيل. أما وزن الحشرة فهو مُستغرب جدّاً، وإذا أخذنا كل هذه الأشياء بنظر الاعتبار، لم يكن في وسعي أن أُلقي اللوم على جوبيتر في رأيه بها؛ لكن ما سبب تمسّك ليغراند بتلك الفكرة، ذلك ما لا يُمكن أن أعرفه في حياتي.

«لقد أرسلت إليك»، قال في نبرة فصيحة مُترفّعة، بعد أن انتهيت من تفحص الخنفساء، «أرسلت إليك، عسى أن أجد لديك رأياً ومُساعدة في إلقاء الضوء على مسألة الحظ الذي يرتبط بهذه الحشرة..».

«عزيزي ليغراند»، هتفت به، ولم أدعه يكمل كلامه، «أنت حتماً لست في [622]حالة جيدة، ومن الأفضل لك أن تتوخّى قليلاً من الحذر. سوف تذهب إلى الفراش، وسأبقى معك بضعة أيام، حتى تتخلّص من هذا. أنت مُصاب بالحمى و..».

«افحص نبضي»، قال.

وفحصت نبضه، وأقول الحق: إنّني لم أكتشف أي علامة على الإصابة بالحمى.

«لكنك ربما كنت مُريضاً ومع ذلك فلا تشعر بالحمى. اسمح لي في هذه المرة أن أُعطيك وصفة. في المقام الأول عليك الذهاب إلى الفراش. ومن ثمّ..».

«أنت مُتوهّم»، قاطعني، «أنا في حالة صحية جيدة كما أتصوّر رغم الاضطراب الذي أُعاني منه. إذا كنت حقّاً تتمنّى لي أن أتعافى، عليك أن تُخفّف من اضطرابي».

«وكيف افعل هذا؟».

«الأمر سهل جدّاً. سوف أذهب مع جوبيتر في رحلةٍ إلى التلال، إلى البرية، وفي هذه الرحلة نحتاج إلى مُساعدة شخص يُمكننا الوثوق به. أنت الوحيد الذي يُمكننا الاعتماد عليه. سواءً نجحنا أو فشلنا، فالاضطراب الذي تراه الآن سوف يزول».

«أنا على استعداد لأن أُساعدك بأي وسيلة»، أجبت؛ «لكن هل تعني القول: إنّ هذه الخنفساء الشيطانية لها علاقة برحلتك إلى التلال؟».

«لها علاقة».

«إذن، ليغراند، لا يُمكنني أن أُشارك في مثل هذه المهزلة».

«أنا آسف.. آسف جدّاً.. إذن علينا أن نسرع بالقيام بها بأنفسنا».

«جرب القيام بالرحلة وحدك! الرجل أُصيب بلوثة عقلية!.. لكن مهلاً!.. كم من الوقت تنوي أن تغيب؟».

«ربما طوال الليل. سوف ننطلق في الحال، ثم نعود على كل حال مع شروق الشمس».

«وهل تعطيني وعداً بشرفك، عندما تنتهي مهزلتك هذه، وتحسم مسألة الحشرة (يا إلهي!) وتتوصّل إلى قناعة بشأنها فسوف تعود إلى البيت وتتبع نصيحتي بحذافيرها، كما تتبع نصيحة طبيبك؟».

«نعم؛ أعدك؛ والآن دعنا ننطلق، فلا وقت لدينا لإهداره».

بقلب مُترعٍ بالأسى رافقت صديقي. انطلقنا في حوالى الساعة الرابعة.. ليغراند، جوبيتر، الكلب، وأنا. كان جوبيتر يحمل المنجل والمعاول.. وقد أصرّ على حمل كل ذلك وحده.. بدافع الخوف، كما ظهر لي، من إيداع أي شيء من تلك الأدوات لدى سيده، ولم يكن الدافع إلى ذلك الإسراف في الحرص أو اللياقة. كانت [623]طريقته في التعبير عن ذلك مُشاكسة عنيدة إلى أقصى مدى، «تلك الحشرة الملعونة» هي الكلمات الوحيدة التي تسلّلت من بين شفتيه خلال الرحلة. أما من جانبي، فقد تولّيت زمام بعض المشاعل السوداء، بينما اقتنع ليغراند بحمل الخنفساء، وكان يربطها بطرف شريط؛ ويؤرجحها هُنا وهُناك، وبدت على وجهه علامة الحاوي وهو يمشي. لمّا لاحظت هذا التصرّف، وهو دليلٌ واضح على اختلال ألمّ بعقل صديقي، لم أستطع كبح دموعي. لكني رأيت أنّ من الأفضل التخفيف من حدة مزاجه بشيء من المرح، على الأقل في الوقت

الحالي، أو حتى أتمكّن من ابتكار بعض الوسائل الفعالة التي توفّر فرصة للنجاح. في هذه الأثناء حاولت، لكن دون جدوى، أن أُعيده إلى رشده بصدد الهدف من الرحلة. بعد أن نجح في إقناعي بمُرافقته، بدا غير راغب في أي حوار عن موضوع آخر، ولم يكن يرد على أسئلتي بأكثر من «سوف نرى!».

عبرنا الجدول الذي على طرف الجزيرة بأحد القوارب؛ وصعدنا إلى الهضاب بعد أن اجتزنا البراري، ثم مضينا باتّجاهِ شمال غربي، مُخترقين أراضٍ وعرة مُنعزلة لم تطأها أقدامُ بشرٍ من قبل. كان ليغراند يتقدمنا على الطريق ويحث الخُطى في عزم لا يلين؛ لم يتوقف إلا لحظات هُنا وهُناك لكي يستشيرنا في ما يظهر أنّه علامات مُحدّدة على صواب خطته التي سبق أن وضعها.

على هذا النحو استغرقت رحلتنا ساعتين تقريباً، وكانت الشمس على وشك الغروب عندما دخلنا منطقة موحشة أكثر ممّا رأيناه حتى الآن. كانت تُشكّل نوعاً من منصة طبيعية بالقرب من قمة تل يصعب الوصول إليها، وتُغطيها غابات كثيفة من القاعدة حتى أعاليها، وتنتشر عليها صخور شامخة لا تكاد تستقر على التربة بثبات، وفي كثير من الأماكن لا يمنعها من السقوط باتّجاه الوديان إلّا بعض الأشجار التي تستند عليها. كانت الوهاد والوديان، في سائر الاتّجاهات، تُلقي على المنظر مسحة إضافية من التجهّم.

على المنصة الطبيعية التي صعدنا إليها تنمو شجيرات شائكة كثيفة، وسُرعان ما اكتشفنا أنّ من المُستحيل الاستمرار في طريقنا إلّا إذا استعملنا المنجل؛ وتقدّم جوبيتر بتوجيهٍ من سيده، ليفتح لنا الطريق مُباشرة إلى شجرة خُزامى عالية مع نحو ثمان أو عشر شجرات بلوط تنتصب على خطٍّ مُستقيم، وكانت شجَرة الخُزامى تفوق الأشجار الباقية، بل تفوق أي أشجار سبق أن رأيتها، في جمال [624]أوراقها، وشكلها، واتّساع أغصانها العريضة، ومهابة مظهرها بوجه عام. وحين وصلنا إلى هذه الشجرة، استدار ليغراند إلى جوبيتر، وسأله إن كان يستطيع تسلّقها. بدا الرجل العجوز مُندهشاً قليلاً من السؤال، ولبث بضع دقائق صامتاً لا يرد بشيء. وأخيراً اقترب من الجذع الضخم، وتمشّى في بطء حوله، وتفحّصه باهتمام شديد. وحين انتهى من هذا، قال باختصار:

«نعم، سيدي، جوب سوف يتسلّق أي شجرة يراها في حياته».

«إذن اصعد حالاً قدر المُستطاع، لأنّ الظلام سوف يحلّ قريباً فلا نرى ما حولنا».

«كم عليّ الصعود، سيدي؟» استفسر جوبيتر.

«اصعد إلى الجذع الرئيسي، وبعد ذلك سأُخبرك إلى أين تتّجه.. انتبه هُنا.. توقّف! خُذ هذه الخنفساء معك».

«الحشرة، ماسا ويل!.. الحشرة الذهبية!» صاح الزنجي، وانسحب مُحبطاً.. «لماذا آخذ الحشرة إلى أعلى الشجرة؟.. اللعنة عليّ إذا فعلت ذلك!».

«إذا كان زنجي عظيم مثلك، جوب، يخاف أن يحمل خنفساء ميتة صغيرة لا تضر ولا تنفع.. إذن يُمكنك أن تحملها بهذا الخيط.. لكن، إذا لم تأخذها معك إلى الأعلى بطريقة ما، سوف أضطر إلى تهشيم رأسك بهذه المسحاة».

«ما الأمر الآن، ماسا؟» قال جوب، وبدا واضحاً أنّه خجل من نفسه وأذعن للأوامر»؛ دائماً تريد إثارة المشاكل مع زنجي عجوز. كنت أمزح فقط على كل حال. أنا أخاف الحشرة! لماذا أكترث للحشرة! هُنا أمسك في حذرٍ طرف الخيط، وجعل الحشرة بعيدة عنه ما سمحت الظروف بذلك، وتهيأ لصعود الشجرة.

في مراحل نضجها المُبكرة، فإنّ شجرة الخُزامى أو ما تُسمّى علمياً *Liriodendron Tulipferum*، تُعتبر من أكثر أشجار الغابات الأمريكية روعة، فلها جذع أملس على نحو مُميّز، وغالباً ما تنمو إلى ارتفاع كبير دون أن تتفرّع منها أي أغصان جانبية؛ ولكن في مرحلة لاحقة من النّضج، يُصبح لحاؤها كثير العقد وغير مُنتظم، بينما تظهر كثيرٌ من الأطراف والأغصان القصيرة على الجذع. لذا تكْمن صعوبة التسلّق، في الحالة الراهنة، أكثر من أي شيء في المظهر الخارجي للشجرة أكثر مما توحي به حقيقتها. احتضن جوبيتر الأسطوانة الضخمة، مُقترباً منها ما استطاع ذلك، مُطبقاً عليها ذراعيه وركبتيه، وقد أمسك بيديه بعض النتوءات، وثبت أطراف أصابعه العارية على نتوءاتٍ أُخرى، وبعد أن تفادى

السقوط مرة أو مرتين، التوى أخيراً حول الكماشة العظيمة الأولى، وبدا كأنّه كان يعتبر المهمة بأكملها أنجزت فعلاً. إلّا أن مصدر المُخاطرة في هذا الإنجاز، في حقيقة الأمر، انتهى الآن، مع أنّ المُتسلّق كان على بعد نحو ستين أو سبعين قدماً عن الأرض.

«إلى أين اذهب الآن، ماسا ويل؟» تساءل.

«استمر في الصعود إلى الفرع الأكبر.. على هذا الجانب»، قال ليغراند. [625]وامتثل الزنجي لأمره حالاً، وكان فيما يظهر يواجه القليل من المصاعب؛ وأخذ يصعد إلى مكانٍ أعلى، فأعلى، حتى لم نعُد نرى له أثراً لكثافة الأغصان والأوراق التي أحاطت به. والآن سمعنا صوته وهو يصرخ.

«إلى أين اصعد بعد هذا؟».

«أين وصلت؟» سأل ليغراند.

«إلى مكان بعيد جدّاً»، ردّ الزنجي؛ «أستطيع رؤية السماء من أعلى الشجرة».

«لا تنظر إلى السماء، عليك الانتباه إلى ما أقول. انظر إلى أسفل الجذع واحسب عدد الفروع التي تحت على هذا الجانب. كم فرعاً عبرت؟».

«واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة.. عبرت خمسة فروع، ماسا، على هذا الجانب».

«إذن اصعد إلى فرعٍ آخر».

في غضون بضع دقائق سُمع الصوت مرة أُخرى، مُعلناً أنه وصل إلى الفرع السابع.

«والآن، جوب»، صاح ليغراند، وكان واضحاً عليه التلهّف الشديد، «أريدك أن تمضي على ذلك الفرع قدر استطاعتك. إذا رأيت أي شيءٍ غريب، أخبرني بذلك».

في هذه الأثناء لم يبق لديّ أدنى شكّ في رجاحة عقل صديقي المسكين، واستقر رأيي عند هذا. لم يكن هُناك من بديل غير الاستنتاج أنّه مُصاب بلوثة عقلية، وكنت أسعى جدّياً إلى إرجاعه إلى البيت، وبينما كنت أقلّب هذه الأمور في ذهني وأُفكر في أفضل السبل للقيام بذلك، سمعتُ صوت جوبيتر مرة أُخرى.

«أنا خائف جدّاً من الانتقال إلى هذا الفرع.. هذا الفرع الميت يمتد إلى مسافة بعيدة».

«هل تقول: إنّه فرع ميت، جوبيتر؟» صاح ليغراند بصوت مُتهدّج.

«نعم، ماسا، هو فرع ميت ومُغلق كما يُغلق الباب بالمسامير.. مُغلق بالتأكيد.. لقد فارق الحياة هُنا».

«ماذا افعل بحق السماء؟» سأل ليغراند، وبدا أنّه في أشدّ حالات الضّيق.

«تفعل؟» قلت، وفرحت للفرصة التي أُتيحت لي لقول كلمة، «عليك أن ترجع إلى البيت وتذهب إلى الفراش. تعال الآن!.. يا لك من رفيق طيب. الوقت مُتأخر، وإلى جانب هذا، فأنت لا شكّ تتذكّر وعدك».

«جوبيتر»، صاح، دون أن يلتفت إليّ أبداً، «هل تسمعني؟».

«نعم، ماسا ويل، أسمعك بوضوح».

[626]«حاول أن تشق الخشب إذن بسكينك، وانظر إن كان مُتعفّناً جدّاً».

«إنّه مُتعفّن، ماسا، حتماً مُتعفّن»، رد الزنجي بعد لحظات، «لكنه ليس مُتعفّناً كما ينبغي. عليّ أن أُغامر فأتقدّم قليلاً على الغصن بنفسي، عليّ ذلك حتماً».

«بنفسك!.. ماذا تعني؟».

«عجباً، أعني الحشرة. هذه الحشرة ثقيلة جدّاً. ربّما ألقيتها أولاً، ثمّ أتسلّق فلا ينكسر الغصن حين يصعد عليه زنجي وحده».

«أيّها الوغد الملعون!» صاح ليغراند، وكان من الواضح أنّه استعاد الأمل،

«ماذا تعني بأن تُخبرني بمثل هذا الهراء؟ إذا أسقطت تلك الخنفساء فسوف أكسر عنقك. انظر هُنا، جوبيتر، هل تسمعني؟».

«نعم، ماسا، لا حاجة لأن تصرخ على زنجي مسكين هكذا».

«حسناً! الآن اسمع!.. إذا غامرت فتقدّمت على الغصن بقدر ما تستطيع وكان ذلك آمناً، على أن لا تسقط الخنفساء، سوف أُعطيك هدية دولاراً فضّياً حالما تنزل».

«سوف أذهب، ماسا ويل..في الواقع أنا أتقدّم»"، رد الزنجي حالاً.. «كدت أصل إلى النهاية الآن».

«إلى النهاية!» هُنا صرخ ليغراند، «تقول إنّك وصلت إلى نهاية الغصن؟».

«بعد قليل أصل إلى نهايته، ماسا.. آه، آه.. آه! رحماك يا إلهي! ما هذا الذي أراه هُنا على الشجرة؟».

«حسناً!» صاح ليغراند، وكان مُبتهجاً كثيراً، «ماذا هناك؟».

«عجباً! لا شيء سوى جُمجمة.. شخصٌ ما ترك رأسه في أعلى الشجرة، والغربان التهمت كل قطعة من اللحم».

«جُمجمة، تقول!.. حسناً جداً!.. هل هي مُثبتة بالغصن؟.. ما الذي يُبقيها هُناك؟».

«طبعاً، ماسا؛ يجب أن أنظر. عجيب، هذا عجيب، أقسم بشرفي.. هُناك مسمار كبير في الجُمجمة، وهو الذي يُثبّتها على الشجرة».

«حسناً الآن، جوبيتر، افعل ما أُخبرك به.. هل تسمع؟».

«نعم، ماسا».

«انتبه إذن!.. عليك أن تجد العين اليسرى في الجُمجمة».

«إحم! يا للهول! لا بأس بذلك! ولكن لا توجد عين يسرى أبداً».

«اللعنة على غبائك! هل تعرف أن تُميّز يدك اليمنى عن اليسرى؟».

«نعم، أعرف ذلك.. أعرف كل شيء عن ذلك.. هذه يدي اليسرى التي أقطع بها الخشب».

«إذا قلنا الحق، فأنت أعسر! وعينك اليسرى تقع على الجانب نفسه الذي تقع [627]عليه يدك اليسرى. والآن، أعتقد أنّك تستطيع العثور على العين اليسرى للجُمجمة، أي: المكان الذي كانت فيه العين اليسرى. هل وجدتها؟».

هُنا ساد صمتٌ طويل. وأخيراً تساءل الزنجي:

«هل العين اليسرى للجمجمة تقع على الجانب نفسه الذي تقع فيه اليد اليسرى للجُمجمة أيضاً؟.. لأنّ الجمجمة ليس فيها يد أبداً.. لكن لا بأس! لقد وجدت العين اليسرى الآن.. ها هاي العين اليسرى! ماذا أفعل بها؟».

«أسقط الخنفساء داخلها، إلى المسافة التي يصل إليها الخيط.. لكن كُن حذراً ولا تترك الخيط يفلت من يدك».

«فعلت كل هذا، ماسا ويل؛ شيء سهل جدّاً أن أضع الحشرة في الفتحة.. أنا أنظر إليها الآن هُناك تحتي!».

في أثناء هذه المُحاورة لم نرَ أي جزءٍ من جسم جوبيتر؛ لكن الخنفساء التي كافح من أجل أن يُنزلها، كانت الآن مرئية وتلمع كأنها كرة ذهبية صقيلة، وهي تعكس آخر الأشعة التي تُرسلها الشمس الغاربة، ولم تزل بعض تلك الأشعة تُنير في خفوت الربوة التي كُنّا واقفين عليها. تدلّت الخنفساء بوضوح بعيداً عن الأغصان، ولو سمح لها بالسقوط لسقطت عند قدمينا. تناول ليغراند المنجل فوراً، وأخذ يُسوّي به فسحة دائرية، قطرها ثلاث أو أربع ياردات، تحت الحشرة مُباشرة، وبعد أن انتهى من هذا، أمر جوبيتر بأن يترك الخيط وينزل عن الشجرة.

ثم دقّ وتداً في حرص شديد بالأرض، في موضع سقوط الخنفساء، وأخرج صديقي الآن من جيبه شريطاً يقيس به. ربط إحدى نهايات هذا الشريط في تلك البقعة من جذع الشجرة الأقرب إلى الوتد، ثم فكّه حتى وصل إلى الوتد، وبعدها فكّه أكثر، وذهب بالاتّجاه المُحدّد مُسبقاً من خلال نقطتي الشجرة

والوتد، إلى مسافة خمسين قدماً.. وكان جوبيتر يزيح الشجيرات الشائكة عن الطريق بالمنجل. في البقعة التي تمّ تحديدها على هذا النحو دقّ وتداً آخر، وحول هذا الوتد الذي كان بمثابة المركز، رسم دائرة غير مُنتظمة قطرها أربعة أقدام تقريباً. أخذ الآن مسحاة وأعطى الثانية لجوبيتر والثالثة لي، وطلب منا البدء بالحفر بأقصى سرعة مُمكنة.

إذا أردنا الصدق، لم أكُن على استعداد لتقبّل مثل هذه المزحة السخيفة في أي وقت، وفي تلك اللحظة تحديداً، كنت سأرفض تقبّلها؛ لأنّ الليل أرخى سدوله، وكنت أشعر بالتعب كثيراً من النشاط الذي بذلته سابقاً؛ لكنّي لم أجد سبيلاً للهرب، وخشيت أن أُعكّر مزاج صديقي المسكين بالرفض. لو اعتمدت في الواقع على مُساعدة من جوبيتر، لما تردّدت في إجبار ذلك المخبول على العودة إلى بيته؛ لكني كنت واثقاً [628]من مزاج الزنجي العجوز، فلا أمل في أن يُقدم لي يد العون، تحت أي ظرف كان، في نزاع شخصي مع سيده. لم يُساورني شكٌّ في أنّ الأخير كان مُتأثّراً بأنواع من خُرافات الجنوب حول الكنوز المدفونة تحت الأرض، وأنّ أوهامه تلقّت تأكيدات بعد العثور على الخنفساء، أو ربّما من صلابة دماغ جوبيتر في الإصرار على أنّها «حشرة من ذهب حقيقي». فالعقل الذي يُسلم زمام الأمور إلى الجنون يُقاد بسهولة إلى مثل هذه الافتراضات.. وخصوصاً إذا رنت بعض الأفكار التي سبق أن تغلغلت فيه.. ثم استدعيت إلى ذهني كلام الرجل المسكين عن أن الخنفساء «مرشد يقود إلى ثروته». على وجه الإجمال، كنت حانقاً، حزيناً، مُرتبكاً، ولكنّي أخيراً توصّلت إلى قرار الخضوع للأمر الواقع.. أن أحفر بنوايا طيبة، حتى يحين الوقت الذي يقتنع فيه بالأوهام، ويثبت ذلكِ أمام عينيه، ويتضح زيف الآراء التي يُصر عليها.

كانت الشموع مُضاءة، وانهمكنا في العمل مُتحمّسين لسبب كان ينبغي أن يكون أكثر عقلانية؛ وبينما سقط الوهج الساطع علينا وعلى أدواتنا، لم أستطع منع نفسي من التفكير في روعة منظرنا، وكيف تبدو أعمالنا غريبة ومُثيرة للشكوك في نظر أي شخص يقتحم المكان مُصادفة ويكتشف أمرنا.

بقينا نحفر دون توقّف لمدة ساعتين. لم ننطق بشيءٍ إلا نادراً؛ وكان مصدر

الإزعاج الأساسي لنا هو نباح الكلب الذي تحفّز لما نقوم به. وفي نهاية الأمر أصبح الكلب مسعوراً بحيث بدأنا نخاف أن يُنبّه بعض المُشردين في هذه الأرجاء.. أو بالأحرى كان هذا مصدر تخوّف ليغراند نفسه.. لأنّي كنت سأفرح إذا حصل أي اقتحام من شأنه أن يُتيح لي إرجاع الرجل الذي فقد صوابه إلى بيته. وأخيراً تمكّن جوبيتر فعلاً من إسكات نباح الكلب، بعد أن خرج من الحفرة وهو عاقد العزم، فربط فم الكلب المُتوحش بحمالة بنطاله، ثم رجع وهو يضحك في خُفوت إلى عمله.

لما انقضت الفترة التي أشرت إليها، كنّا قد وصلنا إلى عمق خمسة أقدام، ومع ذلك لم تظهر علامة تدل على وجود أي كنز. تبع ذلك صمتٌ مُطبق، وبدأ الأمل يُراودني في أن تكون المهزلة وصلت إلى نهايتها. لكن ليغراند، مع انزعاجه الواضح، أخذ يفرك جبهته مُفكّراً، ثم عاد إلى العمل. لقد حفرنا دائرة كاملة قطرها أربعة أقدام، والآن عملنا على توسعة حدودها قليلاً، واتّجهنا إلى عمق قدمين أكثر من ذلك. لكن لم يظهر أي شيء. وأخيراً خرج الباحث عن الذهب الذي يستحق [629]الرثاء من الحُفرة، وبدا على قسماته أشد أنواع الإحباط مرارة، وتقدّم ببطء وتثاقل لكي يلبس معطفه الذي نزعه قبل أن يبدأ عمله في البداية. لم أعلق بشيء. أما جوبيتر، فتلقّى إشارة من سيده، وبدأ يُلملم أدواته. بعد الانتهاء من هذا، وبعد أن فكّ كاتم الصوت عن الكلب، استدار في صمتٍ عميق إلى الطريق إلى المنزل.

ربّما قطعنا اثنتي عشرة خطوة في هذا الاتّجاه، عندما وثب ليغراند على جوبيتر وهو يُطلق الشتائم بصوت مُرتفع، وأمسكه من ياقته. فتح الزنجي المذعور عينيه وفمه إلى أقصى مدى، وأسقط المعاول، ووقع على ركبتيه.

«أيّها الوغد»، قال ليغراند وهو يلفظ مقاطع كلمات كالهسيس من بين أسنانه المُطبقة.. «أيها الحقير الشيطاني الأسود!.. تكلّم، أقول لك!.. أجبني حالاً، دون مُراوغة!.. أي واحدة.. أي واحدة هي عينك اليسرى؟».

«أوه، يا إلهي، ماسا ويل! أليست هذه عيني اليسرى حتماً؟» زمجر جوبيتر

المذعور، وكان يضع يده على عينه اليمنى، ويُبقيها هُناك في إصرار يائس كأنّما يخاف من مُحاولة سيده أن يقتلعها فوراً.

«لقد توقعت ذلك!.. كنت أعرف! مرحى!» دمدم ليغراند، وترك الزنجي يذهب، وقام بسلسلة من القفزات والرقصات أمام خادمه المذهول، الذي نهض على ركبتيه، وأخذ ينظر صامتاً إلى سيده ولي أنا، ثم عاد لينظر إلى سيده.

«تعال! علينا أن نرجع»، قال ليغراند، «اللعبة لم تحسم بعد»؛ ومرة أُخرى تقدّم أمامنا على الطريق إلى الشجرة.

«جوبيتر»، قال لما وصلنا إلى قاعدتها، «تعال هُنا! هل كانت الجمجمة مُثبّتة بالمسمار على الغصن الذي يتّجه إلى الخارج، أم الذي يتجه إلى الشجرة؟».

«الغصن الذي يتّجه إلى الخارج، حتى إنّ الغربان استطاعت الوصول إلى العينين جيداً، دون صعوبة».

«حسناً إذن، هل كانت هذه العين أم تلك التي أدخلت فيها الخنفساء؟.. هنا لمس ليغراند عيني جوبيتر واحدة فواحدة».

«هذه العين، ماسا.. العين اليسرى.. تماماً كما قلت لي»، وهُنا كان الزنجي يُشير إلى عينه اليمنى.

«هذا يكفي.. سأُجرب مرة أُخرى».

هُنا قام صديقي، الذي رأيت من جنونه الآن، أو تخيّلت أنّني أرى، علامات مؤكدة تدل على التصميم المُمنهج.. هُنا قام برفع الوتد الذي يؤشر إلى البقعة التي سقطت عليها الخنفساء، ونقله إلى نقطة تبعد ثلاث بوصات إلى الغرب َمن الموضع [630]السابق. وأخذ شريط القياس من أقرب نقطة إلى جذع الشجرة بأتجاه الوتد، كما فعل في السابق، واستمر يمشي في خط مُستقيم إلى مسافة خمسين قدماً حتى وصل إلى البقعة المُحدّدة ورفع الوتد ونقله إلى عدة ياردات عن البقعة التي كنا نحفر فيها.

حول الموضع الجديد حُدّدت الآن دائرة أوسع قليلاً من الأُولى، وبدأنا

مرة أُخرى نعمل بأدوات الحفر. كنت أحس بالقلق المُرعب، لكنّي لم أفهم التغيّر الذي طرأ على أفكاري، إذ لم أعد أتلمّس ذلك الانزعاج من العمل الذي فُرض علي قسراً. أصبحت الآن أهتم أكثر دون أن أعرف لذلك سبباً.. كلا، بل وجدت نفسي مُتحمّساً. ربّما كان هُناك شيء وراء هذه التصرفات المخبولة التي يقوم بها ليغراند.. أو خطة مُدبّرة، أو العزم الذي لا يلين، يدفعني إلى التصديق. كنت أحفر بنشاط وهمة، ومن وقت إلى آخر كنت في الواقع أبحث في سعي يكاد يكون أقرب إلى التوقع، عن الكنز الوهمي الذي كانت رؤيته ذهبت بعقل رفيقي البائس. في الفترات التي كانت فيها مثل هذه النزوات التي تعتري الفكر فتستولي عليّ، وعندما كنّا مُنهمكين في العمل ربما طوال ساعة ونصف، كنا نسمع مرة أُخرى النباح العنيف للكلب. كان الاضطراب الذي أصابه، في المرة الأُولى، كما ظننّا ليس إلّا نتيجة واضحة لهوسٍ أو نزوةٍ عابرة، لكنه الآن ازداد حدة واتّخذ نبرة خطرة. وحين حاول جوبيتر من جديد أن يُكمّم فمه، أبدى مُقاومة ضارية، ووثب إلى داخل الحُفرة، وصار ينبش جوانبها بمخالبه مسعوراً. خلال بضع ثوانٍ أزاح التراب عن كتلةٍ من العظام البشرية، واتّضح أنّها تُشكّل هيكلين لجثتين كاملتين، عليهما أزرار معدنية، وما اتّضح أنّه بقايا قماشٍ صوفي مُمزّق مُغطّى التراب. بضربة أو ضربتين من المسحاة، ظهرت لنا شفرة سكين إسبانية كبيرة، ولما حفرنا أكثر، خرجت ثلاث أو أربع قطع نقود ذهبية وفضية.

حين نظر جوبيتر إلى هذه القطع لم يتمالك نفسه من الفرح، مع أنّ قسمات وجه سيده عكست إحباطاً بالغاً. ومع ذلك طلب منا الاستمرار في العمل، وما كاد يقول تلك الكلمات حتى تعثّرتُ وسقطت على جبهتي، بعد أن علّق طرف جزمتي بحلقة حديدية مدفونة في الأرض الرخوة.

بقينا نعمل بجدٍّ ومُثابرة، ولم يسبق أن عرفت عشر دقائق من قبل مشحونة بمثل هذه الحالة العجيبة من الإثارة والترقّب. خلال هذه الفترة اكتشفنا تحت التراب صندوقاً خشبياً مُستطيلاً، كان رغم طريقة حفظه المثالية وصلابته قد أصابه قليلٌ [631]من التآكل.. ربّما سببها ثاني أوكسيد الزئبق. هذا الصندوق طوله ثلاثة أقدام ونصف، وعرضه ثلاثة أقدام، وعمقه قدمان ونصف. كانت له

قبضات متينة من الحديد الصلب، ومزين بمسامير وبراشيم، في نوعٍ من التعريشة فوق السطح. على جانبي الصندوق، قرب الغطاء، ثلاث حلقات من حديد.. ستة في مُجملها.. يُمكن لستة أشخاص أن يحملوا الصندوق بواسطتها. لم تفلح جهودنا المُشتركة إلا في زحزحة الصندوق المتين قليلاً عن مكانه. ثم رأينا أنّ من المُستحيل رفع هذا الثقل الفظيع. لكن لحُسْن الحظ، كانت الرتاجات الوحيدة التي على الغطاء عبارة عن مزلاجين مُنزلقين. وقُمنا على الفور بتحريك هذه.. كنّا نرتجف ونلهث من التعب والتلهّف. وفي لحظة، ظهر لنا كنزٌ لا يُقدّر بثمن يتألّق أمام عيوننا. وبينما كان ضوء الشموع يتسلّل إلى داخل الحُفرة، انطلق وهجٌ يخطف الأبصار من كومةٍ يختلط فيها الذهب بالجواهر.

لن أدّعي أنّني قادر على وصف مشاعري بينما كنت أنظر مُنبهراً. لقد أخذ منّي الذهول طبعاً كل مأخذ. وكان ليغراند مُنهاراً من الصدمة، فلم ينطق إلا كلمات قليلة. وطفا على وجه جوبيتر خلال دقائق امتقاعٌ مُخيف قدر ما تستطيع سحنة رجلٍ زنجي أن تحمل في طبيعتها. وظهر مشدوهاً كالأبله.. كأنّما أصابته صاعقة. والآن جثا على ركبتيه في الحُفرة، ودفن ذراعيه العاريتين إلى المرفقين بالذهب، وتركهما هناك، كما لو أنّه أراد الاستمتاع بلذة الاستحمام المُترف. وأخيراً، تنهّد من أعماق صدره، وصاح كأنّه يناجي نفسه:

«كل هذا من الخنفساء الذهبية! الخنفساء الذهبية الجميلة! الخنفساء الذهبية الصغيرة المسكينة التي كنت أُعاملها بوحشية! ألا تخجل من نفسك، أيّها الزنجي؟.. أجبني على ذلك!».

وكان من الضروري أن أرفع كلاً من السيد وخادمه لنخرج الكنز. وبُما أنّ الوقت كان مُتأخراً، تحتّم علينا أن نبذل جهوداً استثنائية حتى نتمكّن من انتشال كل شيء وحمله قبل الفجر. كان يصعب معرفة ما ينبغي القيام به، وأضعنا الوقت الطويل في هذا.. فأفكارنا كانت مُضطربة. وأخيراً قررنا التخفيف من حمولة الصندوق بأن نخرج ثلثي محتوياته، حتى استطعنا في شيءٍ من الصعوبة إخراجه من الحفرة. وضعنا المواد التي أخرجناها بين الشجيرات الشائكة، وتركنا الكلب يحرسها، بعد أن أعطاه جوبيتر أوامر صارمة بأن لا يُغادر تلك البقعة مهما كانت

الذرائع، وأن لا يفتح فمه حتى عودتنا. ثم أسرعنا عائدين إلى البيت مع الصندوق؛ ووصلنا إلى الكوخ بأمان، بعد جهود مُضنية، عند الساعة الواحدة صباحاً. كنا مُنهكين من الجهود التي بذلناها، والتي ليس من طبيعة البشر القيام بها على هذا [632]النحو المُتواصل. استرحنا حتى الساعة الثانية، وتناولنا العشاء، وانطلقنا إلى التلال من جديد، وأخذنا ثلاثة أكياس متينة كانت لحُسْن الحظ موجودة في مكان قريب. قبل الساعة الرابعة بقليل وصلنا إلى الحُفرة، وقسمنا ما تبقّى من الغنائم بالتساوي ما استطعنا ذلك فيما بيننا، وتركنا الحُفرة دون أن نُغطيها بالتّراب وانطلقنا مُتّجهين إلى الكوخ للمرة الثانية، وألقينا حمولتنا من الذهب عندما كانت أُولى تباشير الفجر تنعكس على قمم الأشجار الشرقية.

كنّا الآن نشعر الآن بالإعياء الشديد؛ لكن الاهتياج الذي وصل ذروته منعنا من النوم. بعد إغفاءة بسيطة قلقة دامت ثلاث أو أربع ساعات، نهضنا فزعين، وكأنّما باتفاق مُسبق، لنتفحّص كنزنا.

كان الصندوق مليئاً إلى حافته، وأمضينا النهار بأكمله وشطراً من الليلة التالية في فحص مُحتوياته. لم يكن في عملنا شيءٌ من النظام أو الترتيب. كنا نكوّم كل شيء بعضه فوق بعض في فوضى. وبعد أن رتّبنا كل شيء لاحقاً بعناية، وجدنا أنفسنا نمتلك ثروة أكبر ممّا تصوّرنا في بداية الأمر. فيما يتعلّق بالعملات النقدية، وجدنا أكثر من أربعمائة وخمسين ألف دولار.. وهي قيمة تقديرية للقطع النقدية، قدر ما استطعنا تخمينها، اعتماداً على أسعار العملة في تلك الفترة. ولم نعثر على قطعة واحدة من الفضة. كل شيء كان من الذهب الذي يعود إلى حقبٍ قديمة وهو مُتنوع الأشكال والأجناس.. نقود فرنسية، وإسبانية، وألمانية، مع بضعة جنيهات إنكليزية قديمة، وبعض فيشات القمار التي لم نُشاهد ما يُماثلها من قبل. وهُناك أنواع أُخرى من النقود العريضة الثقيلة، وهي في حالة تالفة فلم نتعرّف على نقوشها. لم تكن هُناك عملات أمريكية. ووجدنا صعوبة اكبر في تخمين قيمة المُجوهرات. هُناك قطع من الألماس.. وبعضها كبيرة جدّاً ومُذهلة المنظر.. مجموعها مائة وعشر قطع، ليست صغيرة في حجمها؛ ووجدنا ثمان عشرة قطعة من الياقوت ذات لمعان مُبهر؛ وثلاثمائة وعشر قطع زمرد، كلها

جميلة جدّاً؛ وإحدى وعشرين ياقوتة زرقاء، وكذلك قطعة من حجر الأوبال أو عين الشمس. هذه الأحجار الكريمة جميعها كانت مخلوعة من أماكنها ومُلقاة بشكل سائب في الصندوق. وحاوياتها نفسها التي أخرجناها من كومة الذهب يبدو أنّها تعرضت لضربات بالفؤوس، كأنّما كان يُراد عدم التعرف عليها. إلى جانب هذا، هُناك كمية هائلة من الحُلي والمصوغات الذهبية الصلبة.. يكاد يبلغ عددها مائتين من المحابس والأقراط الثقيلة.. وسلاسل ثمينة.. يصل عددها إلى ثلاثين منها، إن كنت أتذكّر جيداً.. وثلاث وثمانون صليباً كبيراً ثقيلاً جدّاً.. وخمس مباخر ذهبية ذات قيمة عالية.. فضلاً عن قدحٍ ذهبي مُثقّب غير مألوف الشكل، ومُزيّن في ثراء بزخارف نباتية مُتتابعة فيها تصوير لاحتفالات [633]باخوس الرومانية؛ مع مقبضي سيوف مزينة بنقوش نافرة، وأشياء أُخرى اصغر حجماً لا أستطيع أن أتذكّرها. كان وزن هذه الأشياء الثمينة يتخطّى ثلاثمائة وخمسين رطلاً في ميزان أفواردوبوا[3]؛ وفي هذا الرقم التخميني لم أدخل مائة وسبع وتسعين من الساعات الذهبية الرائعة؛ وثلاث ساعات من هذه قيمة كل منها خمسمائة دولار؛ وكثيرٌ من تلك الساعات قديمة جدّاً، ولا تُقدّر بثمن في كفاءتها لقياس الوقت؛ تلك الأدوات كانت تالفة بوجه أو بآخر.. لكنّها كلها موشاة بالجواهر الثمينة وبعضها ذات قيمة عالية. وقدّرنا القيمة الإجمالية لمُحتويات الصندوق، في تلك الليلة، فوصلت إلى مليون ونصف من الدولارات؛ وعندما قمنا لاحقاً ببيع الحلي والمجوهرات (بعد أن احتفظنا ببعض منها لاستعمالنا الشخصي)، رأينا أنّنا قدّرنا قيمة الكنز بمبلغ أقل بكثير.

وعندما انتهينا أخيراً من عملية الفحص والتقييم، تقلّصت حدة التأثر في ذلكِ الوقت إلى حدٍّ ما، ثم رأى ليغراند أنّني كنت أتحرّق شوقاً وأكاد لا أصبر على معرفة الإجابة على هذه الأُحجية المُستعصية، فشرع يتكلّم في إسهاب عن الظروف التي أحاطت بذلك.

---

(3) نظام وزن أفواردوبوا: نظام موازين يُستخدم في بريطانيا وأمريكا لوزن جميع السلع الثمينة وخاصة الأدوية والمعادن الثمينة والحجارة الكريمة وفيه الرطل الإنكليزي يُساوي 16 أونصة، [المترجم]

«لا بُدّ أنك تتذكر»؛ قال، «تلك الليلة التي أعطيتك فيها المُخطط الأولي الذي رسمته عن الخنفساء. وتتذكّر أيضاً أنّني تضايقت من إصرارك على أنّ ما رسمته يُشبه رأس رجل ميت. حين أبديت هذه المُلاحظة أول مرة ظننت أنّك تمزح؛ ولكنّي بعد ذلك استدعيت إلى ذهني البقع الغريبة التي على ظهر الحشرة، واعترفتُ في نفسي أنّ مُلاحظتك تقوم على بعض الأسس في الواقع. ومع ذلك كانت السخرية من قدراتي في الرسم تُضايقني.. لأنّي أعتبر نفسي فناناً لا بأس به.. ولذلك، عندما أعطيتني قصاصة الورق كنت على وشك أن أُمزقها وأُلقيها، وسط حالة الغضب التي عصفت بي، في النار».

«تعني قصاصة الورق»، قلت.

«كلّا؛ كان منظرها يوحي كثيراً بأنها ورقة، وفي البداية كنت أتصوّرها كذلك، لكني حين بدأت أرسم عليها اكتشفت حالاً أنها قطعة من الرق. كانت قذرة تماماً، كما تتذكّر. حسناً، بينما كنت على وشك أن أطويها وأمزقها، وقع نظري على المُخطط الذي كنت تنظر إليه، ولعلك تتخيّل مدى دهشتي حين رأيت الشكل الذي يشبه رأس رجلٍ ميت في المكان الذي بدا لي أنّني كنت أرسم الخنفساء عليه. كنت في تلك اللحظة مذهولاً بحيث لم أستطع التفكير على نحو صائب. كنت أعرف أنّ المُخطط الذي رسمته مُختلف جدّاً في تفاصيله عن هذا.. على الرغم من وجود نوع من التشابه في الخطوط العامة. في ذلك الوقت أخذت شمعة، وجلستُ في الطرف الآخر من الغرفة، ورحت أتأمل المخطوطة عن كثب. لمّا قلّبتها مرة بعد أُخرى، [634]رأيتُ المُخطط الذي رسمته مقلوباً، ليس كما وضعته. والآن كانت أول فكرة خطرت لي شدة الاستغراب من التشابه المُذهل حقّاً في الخطوط العامة.. استغربت من المُصادفة، ومن حقيقةٍ كانت غير معروفة بالنسبة لي وهي أنّ هُناك جُمجمة على الجانب الآخر من المخطوطة، مُباشرة تحت صورة الخنفساء، وأنّ هذه الجُمجمة، ليس في شكلها العام فحسب، ولكن في حجمها تُشبه رسمي. أقول، ذلك الشيء في هذه المُصادفة الغريبة كاد يفقدني صوابي فترة من الزمن. وهذا هو الشأن المُعتاد لمثل هذه المصادفات. الذهن يكافح لإيجاد علاقة ما.. علاقة السبب والنتيجة.. ولأنّي كنت

عاجزاً آنذاك، فقد واجهت نوعاً من الشلل الذهني المؤقت. ولما استعدت وعيي من هذا الإغماء، أحسست بقناعة تدريجية تُذهلني أكثر من وقع المُصادفة. بدأت أتذكر بوضوح، وفي عقلانية أنه لم يكن هُناك أي رسم على المخطوطة عندما وضعتُ عليها مخطط الخنفساء. كنت واثقاً من هذا؛ لأنّي تذكرت أنّي كنت أقلب جانباً منها بعد الآخر، باحثاً عن أنظف بقعة فيها. لو أنّ الجُمجمة كانت موجودة هُناك، لما أخفقت طبعاً في الانتباه إليها. هُنا يكْمن السر الذي أحسست أنّ من المُستحيل تفسيره؛ ولكن حتى في تلك اللحظات المُبكرة، كان وميضٌ خافت ينبض في خفوت في بقعة نائية من حجرات سرية في رأسي، يسري كالدودة في عقلي الذي أوحى لي بتلك الحقيقة عن مُغامرة الليلة الماضية التي تمخّض عنها ذلك الاكتشاف الرائع. نهضتُ فوراً ووضعت المخطوطة في مكانٍ آمن، واستبعدت عن ذهني أي أفكار أُخرى وقرّرت أن أختلي بنفسي.

«لدى رحيلك، وحين كان جوبيتر يغط في النوم بعد وقت قصير، تولّيت بنفسي إجراء فحص أكثر منهجية للمسألة كلها. في المقام الأول صرت أُفكر في الطريقة التي وقعت فيها المخطوطة بين يدي. كانت البقعة التي وجدنا فيها الخنفساء تقع على ساحلٍ قريب من الهضاب، على مسافة ميلٍ تقريباً شرقي الجزيرة، ولا تبعد غير مسافة قصيرة عن العلامة البحرية التي تُشير إلى ارتفاع المياه. عندما وقعت يدي عليها، عضتني عضة حادة، جعلتني أسقطها. أما جوبيتر، فتصرّف بطريقته الحذرة التي اعتاد عليها، وقبل أن يمسك الحشرة التي طارت باتّجاهه، التفت حوله باحثاً عن ورقة، أو أي شيء من ذلك القبيل، لكي يمسكها بها. في هذه اللحظة وقعت عيناه، وعيناي أيضاً، على قصاصة من المخطوطِة، والتي تصورت آنذاك أنّها ورقة. كانت شبه مطمورة في الرمال، وطرفها بارز. بالقرب من البقعة التي وجدناها فيها، لاحظتُ بقايا هيكل يبدو أنه جزء من قارب طويل أو سفينة. يبدو [635]أن حطام السفينة كان موجوداً هناك منذ مدة طويلة جدّاً؛ لأنّ من الصعوبة القول: إنّه خشب قارب في ذلك الوقت.

«حسناً، التقط جوبيتر قصاصة المخطوطة ولفّ الخنفساء بها، وأعطاني إياها. وبعد قليل عُدنا إلى الكوخ، وفي طريقنا التقينا بالملازم ج.. فعرضتُ عليه الحشرة،

وتوسّل إليّ أن أسمح له بأخذها إلى الحصن. فوافقت على ذلك ودسّها على الفور في جيب معطفه، دون أن يأخذ قصاصة المخطوطة التي كانت تُغطيها، والتي بقيتُ أحتفظ بها في يدي أثناء تفحّصه للحشرة. ربّما كان يخشى أن أُغيّر رأيي وتصوّر أنّ من الأفضل له التأكد من الحصول على الجائزة مُباشرة.. أنت تعرف كيف يتحمّس ذلك الرجل لكل الموضوعات التي لها علاقة بالتاريخ الطبيعي. في الوقت نفسه، دون أن أُدرك ذلك، لا بُدّ أنّني دسستُ القصاصة في جيبي.

«تتذكّر أنّني عندما اتّجهتُ إلى الطاولة لكي ارسم مُخططاً للخنفساء، لم أعثر على ورق في المكان الذي يوضع فيه عادة. بحثت في الدرج، ولم أجد شيئاً. وبحثت في جيوبي على أمل العثور على رسالة قديمة، ثم وقعت يدي على قصاصة المخطوطة. إنّني هُنا أسرد بالتفصيل الدقيق الطريقة التي حصلتُ فيها على القصاصة؛ لأنّ هُناك ظروفاً غير عادية تلح عليّ بقوة..

«لا شك أنّك تظنني أُبالغ بعض الشيء في تخيلاتي.. لكني استنبطت قبل ذلك نوعاً من العلاقة. وضعتُ جنباً إلى جنب حلقتين من سلسلة واحدة تُشكّل لغزاً. هُناك قاربٌ مدفون على ساحل البحر، وفي مكانٍ لا يبعد كثيراً عن القارب وجدت قصاصة مخطوطة.. ليست ورقة.. وعليها رسم جُمجمة. سوف تسأل طبعاً، أين هي العلاقة؟ وأُجيبك فأقول: إنّ الجُمجمة، أو رأس الميت، هي رمز معروف للقراصنة. ويرفع علم فيه رأس ميت خلال كل الاشتباكات..

«قلتُ: إنّ القصاصة كانت من مخطوطة، وليست ورقة. المخطوطة تتحمّل عاديات الزمن.. تكاد تكون غير قابلة للتلف. والأمور التافهة نادراً ما تُسجل على مخطوطة؛ الأغراض العادية للرسم أو الكتابة لا يستخدم فيها مثل هذا الورق. هذه الفكرة أوحت لي بشيء من المعنى.. أو العلاقة.. فيما يتعلّق برأس الميت. لم أفشل في مُلاحظة شكل قصاصة المخطوطة أيضاً. على الرغم من أنّ أحد أطرافها كان مُشوهاً لسبب ما، لكن في وسع المرء أن يرى أنّ الشكل الأصلي كان مُستطيلاً. القطعة الباقية منها في الواقع مُجرّد قصاصة ربّما اختيرت لكتابة مُذكرة.. أو لتدوين شيءٍ لكي يبقى يتذكّره الإنسان مدة طويلة ويحتفظ به في حالة جيدة».

«لكن»، هُنا تدخّلت، «أنت تقول: إنّ الجُمجمة لم تكن على القصاصة حين [636]رسمتَ الخنفساء. كيف إذن تزعم بوجود علاقة بين القارب والجُمجمة.. ما دام هذا الشيء الأخير، باعترافك أنت، لا بُدّ أن يكون قد وضع (الله وحده يعرف كيف، ومن الذي وضعه) في فترةٍ لاحقة للفترة التي رسمت فيها الخنفساء؟».

«آه، هُنا يكْمن السر؛ على الرغم من أنّني أواجه شيئاً من الصعوبة نسبياً، في هذه المرحلة، في تفكيكه. كانت خطواتي واثقة، ولا يُمكن إلّا أن تتمخّض عن نتيجة واحدة. كنت أُفكر هكذا، على سبيل المثال: بينما كنت أرسم الخنفساء، لم تكن هُناك جُمجمة على المخطوطة. ولما أكملت الرسم أعطيته لك، وكنت أنظر إليك جانبياً حتى أعدته إليّ .أنت إذن لم ترسم الجُمجمة، ولم يكن أحدٌ حاضراً لكي يفعل ذلك. إذن فالرسم لم يضعه أحدٌ من البشر. ومع ذلك فهو موجود..

«في هذه المرحلة من تأملاتي حاولتُ أن أتذكّر، وتذكّرت فعلاً، بوضوح تام، كل حادثةٍ وقعت خلال الفترة التي نتكلّم عنها. كان الجو مُنعشاً (يا له من شيءٍ نادر ومُبهج في ذلك الوقت!)، والنار تضطرم في الموقد. ودبّت في نفسي حيوية محمومة وجلستُ إلى الطاولة. أما أنت فسحبت كرسياً إلى مكانٍ قريب من المدخنة. وعندما وضعت المخطوطة في يدك، وتفحّصتها عن كثب، دخل وولف من نيوفاوند لاند، ووثب على كتفيك. وكنت تُداعبه بيدك اليسرى وتُحاول أن تُبعده، بينما حملت بيدك اليمنى المخطوطة التي تركتها تسقط بلا مُبالاة بين ركبتيك، سقطت في مكانٍ قريب من النار. وفي لحظة تصوّرت أنّها احترقت، وكنتَ على وشك أن أُحذّرك، لكن قبل أن أتمكّن من الكلام، التقطتها وانهمكت في فحصها من جديد. ولمّا فكّرت في كل هذه التفصيلات، لم يُساورني الشكُّ لحظة في أنّ الحرارة هي التي أدّت إلى الكشف عن صورة الجمجمة التي رأيتها مرسومة على المخطوطة. أنت تعرف طبعاً المحاليل الكيمياوية، التي كانت موجودة منذ زمنٍ لا يُدركه العقل، وعن طريق هذه الأشياء يُمكن الكتابة سواءً على الورق أو الجلد، بحيث لا تكون الحروف مرئية

إلا إذا أخضعت إلى تأثير الحرارة. تُستخدم مادة الزعفران التي تذاب في الماء الملكي وتُخفّف بأربعة أضعاف وزنها من الماء، في بعض الأحيان لهذا الغرض؛ وينتج عن ذلك لونٌ أخضر. وتُستخدم أيضاً كتل فلزية غير نقية من خبث معدن الكوبالت، مذابة في حامض النتريك لتُعطي لوناً أحمر. هذه الألوان تختفي خلال فترات تطول أو تقصر بعد كتابة المواد على سطحٍ بارد، ثم تعود لتُصبح مرئية لدى تعريضها للحرارة.

«والآن أخذتُ أتفحّص رأس الميت في عناية. كانت حافاته الخارجية.. [637]حافات الرسم الأقرب إلى طرف قطعة الجلد.. أكثر وضوحاً من غيرها. يبدو أنّ التعرّض للحرارة لم يكن تاماً أو مُتساوياً. وقمت على الفور بإشعال النار، وقرّبت كل جزء من قطعة المخطوطة إلى حرارة مُتوهجة. في بداية الأمر، كان التأثير الوحيد يتمثّل في تقوية الخطوط الباهتة للجُمجمة؛ ولكن بعد استمرار التجربة، أصبح واضحاً عند زاوية القصاصة، على خطٍ مُستقيم مُعاكس للبُقعة التي رُسم فيها رأس الميت، اتّضح شكلٌ ظننت لأول وهلة أنّه معزة. وبعد أن ألقيت نظرة أكثر دقة اقتنعت أنه تصوير طفل».

«ها! ها!» قلت، «الحقُّ أنّني لا يجب أن أضحك.. فمبلغ مليون ونصف من المال مسألة خطيرة لا تستوجب المزاح.. لكنك لا تنوي أن تؤسس علاقة ثالثة ضمن سلسلة أفكارك.. لن تجد أي علاقة بين قراصنتك والمعزة.. القراصنة كما تعلم لا شأن لهم بالماعز؛ إنّها مسألة من اختصاص الفلاحين».

«لكني قلت منذ قليل: إنّ الشكل لم يكن شكل معزة».

«حسناً، إنّه طفل إذن.. هذا الشيء نفسه».

«الشيء نفسه تقريباً، وليس الشيء نفسه»، قال ليغراند. «ربّما سمعت بشخص يُدعى الكابتن كد. لقد نظرت مرة إلى شكل الحشرة واعتبرتها نوعاً من الاستعارة الرمزية أو بصمة هيروغليفية. أقول بصمة أو توقيع؛ لأنّ موقعها على قطعة الجلد توحي بهذه الفكرة. ورأس الميت على امتداد خطٍّ مُستعرض إلى الزاوية المُقابلة يحمل صورة طابعٍ أو ختم. لكني كنت مُرتبكاً بصفة خاصة لفقدان

جوانب كثيرة من الرسم.. الجسم الذي تصوّرته في خيالي.. والنصّ الذي ينبني عليه السياق».

«أعتقد أنّك كنت تتوقّع أن تجد رسالة بين الطابع والختم».

«شيءٌ من ذلك. الحقيقة أنّني أحسست بدافع لا يُقاوم يلحّ عليّ بوعي مُسبق بأنّي سوف أحصل خلال وقت وشيك على ثروة طائلة. ولا أكاد أعرف السبب. ربّما، على كل حال، كانت تلك مُجرّد رغبة أكثر من أن تكون اعتقاداً فعلياً؛ لكن هل تعرف أنّ كلمات جوبيتر السخيفة عن الحشرة التي قال: إنّها من الذهب الحقيقي، كان لها تأثير بارز على خيالي؟ ثم جاءت سلسلة من الحوادث والمُلابسات.. وكانت هذه من الأشياء الاستثنائية جدّاً. هل تُلاحظ كيف جاءت كل هذه الحوادث بمحض الصدفة في يومٍ واحد من السَّنة صادف أن كان، أو ربّما يكون، بارداً بما يكفي لإشعال النارَ، ولولا وجود النار، أو لولا تدخّل الزائر اللّعين في اللحظة المُناسبة، لما اكتشفت رأس الميت، ولما أصبحت صاحب الكنز؟»

«عليك أن تكمل.. أكاد أفقد صبري وأنا أُصغي».

«حسناً؛ لا بُدّ أنّك سمعت طبعاً الكثير من القصص المُتداولة.. والآلاف من [638]الشائعات الغامضة التي يتناقلها الناس عن كنوزٍ مدفونة، في أماكن هُنا وهُناك على سواحل الأطلسي، طمرها الكابتن كد وأصحابه. هذه الشائعات حتماً لها أساس ما. والشائعات موجودة منذ زمن طويل واستمرت حتى يومنا هذا، وربما كانت وراء ذلك، كما يبدو لي، حكاية كنز ما زال مطموراً. لو كان الكابتن كد قد أخفى الأموال التي سرقها في وقت ما، وقام لاحقاً باستردادها، لما وَصلت الشائعات إلينا في صورتها الحالية. سوف تُلاحظ أنّ القصص كلها تُروى عن الباحثين عن النقود، وليس عن الذين يعثرون على النقود. لو كان القرصان استعاد نقوده، لانتهى الأمر وما عاد الناس يتكلّمون عنه.. يبدو لي أنّ حادثة ما وقعت.. مثلاً ضياع رسالة تُشير إلى موقع الكنز.. فحرمته من الوسيلة التي يتمكّن بها من استعادته، وهذه الحادثة أصبحت معروفة لرفاقه، ولولا ذلك

لما سمعوا بأنّ الكنز قد أُخفي، وكانوا سيبدّدون جهودهم سدى في مُحاولات رعناء للبحث عن الكنز، تلك المُحاولات التي أدّت في بداية الأمر إلى انتشار أقاويل اكتسبت فيما بعد انتشاراً على نطاق واسع وصارت مُتداولة الآن. هل سمعت بأي كنزٍ مُهم اكتشف أمره على طول الساحل؟».

«أبداً».

« لكن الأقاويل التي يتداولها الناس عن كنز كابتن كد كثيرة جدّاً.. هذا شيء معروف. لذلك كنت واثقاً أنّ الأرض لا تزال تحتفظ بها؛ ولن تستغرب إذا قلت لك: إنّني أحسست بالأمل يُداعب خيالي، ويكاد يصل إلى درجة اليقين، في أنّ الرقعة التي عثرت عليها بتلك المُصادفة الغريبة، تتضمّن تقريراً ضائعاً عن المكان الذي طمر فيه الكنز».

«وكيف تابعت البحث؟».

«أمسكت الرقعة مرة أُخرى وقرّبتها من النار، بعد أن زدت حرارتها؛ لكن لم يتّضح شيء. وتصوّرت أنّ من المُمكن أن يكون للغبار تأثير على إخفاء الكتابة وفشلي في رؤيتها؛ لذا أخذت أمسح الرقعة في حذر وعناية بالماء الدافىء؛ وبعد ذلك وضعتها في قدر معدني، بحيث كانت الجُمجمة للأسفل، ووضعت القدر على فرن فيه حطبٌ مُتوهج. خلال بضع دقائق، أصبح الماءُ حارّاً، فرفعت الغطاء، ورأيت بإزاء فرحتي التي لا توصف.. وجدتها مُرقطة في أماكن مُتعددة بما بدا لي مثل الأصابع المُرتبة في صفوف. ومرة أُخرى وضعتها في القدر، وصبرتُ عليها [639]حتى تبقى دقيقة أُخرى. ثم أخرجتها، وظهر لي ما تراه الآن».

هنا بعد أن أعاد ليغراند تسخين الرقعة، عرضها عليّ لأراها. كانت عليها الحروف التالية التي كتبت بخط غير واضح بحبر أحمر، بين رأس الميت والمعزة:

«53æææ305))6;4826)4æ)4æ);806*;48æ8æ60))85;1æ);:æ*

8æ83(88)5*æ;46(;88*96*?;8)*æ(;485);5*æ2:*æ(;4956

2(5–4)8æ8*;4069285);)6æ8)4ææ;1(æ9;48081;8:8æ1;4*

*8æ85;4)485æ528806*81(æ9;48;(88;4(æ?34;48)4æ;161;: 188;æ?;»*

«لكن»، قلت وأنا أُعيد إليه القصاصة، «لا زلتُ لا أفهم شيئاً. هل كانت كل مجوهرات غولكوندا[4] تنتظرني بعد حل هذه الأُحجية، أنا واثق أنّني سأعجز عن الوصول إليها».

«مع ذلك»، قال ليغراند، «فالحل ليس صعباً على الإطلاق كما قد يُصوّر لك خيالك من أول نظرة على الحروف. هذه الحروف، ربّما يُخمن أي شخص على الفور، تشكل شيفرة.. بمعنى آخر، تُعبّر عن معنى؛ لكن، من خلال الأشياء التي نعرفها عن الكابتن كد، لا يسعني أن أتصوّر أنّه قادر على كتابة أي شيء من قبيل رسالة غامضة بالشيفرة. لقد توصّل ذهني في الحال إلى أنّ هذه الرسالة من نوعٍ بسيط.. ومع ذلك فهي تبدو في ذهن أي بحّار فضّ مُستعصية على الحل دون مفتاحٍ لتفكيك الشيفرة».

«وتوصلت إلى الحل حقاً؟».

«على الفور؛ لقد تمكّنت من حلّ ألغاز عويصة أُخرى تفوق هذا اللغز بألف مرة. قادتني الظروف وشيء من الميول العقلية للاهتمام بمثل هذه الأحاجي، وربّما يشكّ المرء فيما إذا كانت البراعة البشرية قادرة أن تبتكر أُحجية من نوع لا تحلّها عبقرية البشر بمنهج منطقي صحيح. في حقيقة الأمر حين توضع حروف قابلة للقراءة يترابط بعضها مع بعض، نادراً ما أُبالي بالصعوبة في معرفة معانيها».

«في المسألة التي بين أيدينا.. في الواقع، في جميع الكتابة السرية.. السؤال الأول يتعلّق باللّغة التي كُتبت فيها الشيفرة؛ إنّ مبادئ الحل، حتى الآن، خاصة إذا تعلّق الأمر بالشيفرة الأكثر بساطة، تعتمد على، وتتغير بتغيّر، مدى عبقرية

(4) غولكوندا مدينة قديمة في الهند تشتهر بكنوزها من الألماس خاصة والتي تقع في خرائب على بعد سبعة أميال شمال حيدر آباد. [المترجم]

مُفردة مُحدّدة. بصورة عامة، ليس هُناك بديل عن تجربة (توجّهها الاحتمالات) كل لُغةٍ معروفة لدى الشخص الذي يُحاول أن يكتشف الحل، حتى يأتي الوقت الذي يتوصل فيه إلى حل حقيقي. لكن بإزاء الشيفرة التي تنبسط الآن أمامنا، كانت كل الصعوبات قد اختفت من خلال الختم أو التوقيع. الكناية الموجودة في كلمة «كد» لا يفهم مغزاها [640]في أي لُغة أُخرى غير الإنكليزية. ولكن في هذا الشأن كان عليّ أن أبدأ مُحاولاتي مع الإسبانية والفرنسية، لأنّها اللّغات التي تكتب فيها مثل هذه الأسرار على نحو طبيعي من قبل أي بحار من أصول إسبانية. وكما اتّضح لاحقاً، أعتقد أنّ الكتابة السرية كانت بالإنكليزية.

«أنت تُلاحظ عدم وجود فواصل بين الكلمات. لو كانت هُناك فواصل، لأصبحت المهمة سهلة نسبياً. في هذه الحالة كان علي أن أبدأ بترتيب وتحليل الكلمات الأقصر، فإذا ظهرت كلمة من حرفٍ واحد، كما هو مُتوقع عادة، (حرف a أو I، على سبيل المثال) لاعتبرت الحل مضموناً. لكن، بما أنّه لا توجد فواصل، فأوّل خطوة كان عليّ اتّباعها التأكد من الحروف المُتكرّرة أكثر من سواها، فضلاً عن الحروف الأقل تكرّراً. وأحصيت كل هذا، وعملت جدولاً، على النحو الآتي:

رقم 8 . . 33 مرة.

علامة ؛ . . *26*.

رقم *4* . . 19.

علامة (. . æ 16.

علامة * . . *13*.

رقم *5* . . 12.

رقم *6* . . 11.

علامة 1 æ . . 8.

رقم *0* . . 6.

رقم 2 9. . 5.

رقم 3 :. . 4.

علامة ? . . 3.

علامة æ . . 2.

علامة .-. . 1.

«والآن، في الإنكليزية، الحرف الذي يتكرّر أكثر من غيره هو e. بعد ذلك يكون السياق على النحو الآتي. . *a o i d h n r s t u y c f g l m w b k p q x z* نرى حرف *E* يُهيمن على السياق كله بصورة واضحة بحيث إنّ أي جُملة مُنفردة ذات طول مُعيّن نادراً ما يجدها المرء خالية من هذا الحرف.

«هنا، إذن، ننتقل منذ البداية من مرحلة تشييد الأسس إلى شيء أكثر من مُجرد التخمين. الشيء العام الذي يُمكن الاستفادة منه من خلال الجدول واضح جدّاً.. لكن، في هذه الشيفرة المُحدّدة، نحتاج جزئياً إلى مُساعدته. باعتبار أنّ الرقم المُهيمن لدينا هو 8، سوف نبدأ بافتراض أنّه يرمز إلى حرف e من الأبجدية العادية. من أجل أن نتأكّد من مصداقية الافتراض، دعنا نرى ما إذا كان رقم 8 يُمكن أن يأتي أزواجاً في أحيان كثيرة.. لأن حرف e يتكرر في وتيرة مُضاعفة في [641]اللغة الإنكليزية.. في كلمات مثل: 'meet'، 'fleet'، 'speed'، 'seen'، 'been'، 'agree' وما إلى ذلك. في المثال الذي بين أيدينا نرى الحرف يتكرر ليس أقل من خمس مرات، مع أنّ الرسالة السرية مُختصرة.

«لنفترض أنّ رقم 8 إذن يرمز إلى حرف e. والآن من بين كل الكلمات في اللغة، فإنّ كلمة 'the' هي الأكثر انتشاراً؛ لهذا، دعنا نرى إن كان يوجد تكرار لأي ثلاثة حروف، في الترتيب نفسه، ويكون الرقم الأخير هو 8. إذا اكتشفنا أي تكرار في هذه الحروف، بحسب ترتيبها هذا، فهي في أكثر الأحيان ترمز إلى كلمة 'the'. بعد تفحصٍ دقيق وجدنا ما لا يقل عن سبعٍ من هذه المجموعات المُرتبة، وكانت الحروف تُشكل مجموعة 48; لذلك نفترض أنّ الرمز ؛ يُمثل

حرف t، ورقم 4 يُمثل حرف h، ورقم 8 يُمثل .. e والاستنتاج الأخير أصبح الآن مؤكداً بصورة جيدة. لهذا نكون قد قطعنا خطوة عظيمة إلى الآن.

«وبعد التوصل إلى كلمةٍ واحدة، في وسعنا حسم مسألة على جانب كبير من الأهمية؛ بمعنى آخر، بدايات ونهايات الكثير من الكلمات. دعنا مثلاً نُشير إلى المثال الأخير، الذي تظهر فيه صيغة 48؛ .. في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن نهاية الشيفرة. نعرف أن مجموعة the؛ تأتي مباشرة قبل كلمة معينة، ومن بين الحروف الستة التي تأتي بعد هذه الكلمة the، سنعرف ما لا يقل من خمس كلمات. دعنا نرتب هذه الرموز، من خلال الحروف التي نعرف أنها تمثلها، تاركين مجالاً لما لا نعرفه..

t... teeth.

«هُنا يُمكن في الحال أن نستبعد th، باعتبارها لا تشكل جزءاً من الكلمة التي تبدأ بحرف t الأول؛ لأنّ من خلال اختبار الأبجدية كلها بحثاً عن حرف يصلح لسد الفراغ، نُدرك أنّه لا توجد كلمة يُمكن أن يكون جُزءاً منها هذه الـ th. لهذا يضيق المجال أمامنا على النحو الآتي..

t... ee,

«فإذا رجعنا إلى الأبجدية، إذا دعت إلى ذلك الضرورة، كما حصل في السابق، نتوصل إلى كلمة tree باعتبارها القراءة الوحيدة المُمكنة. ولهذا نحصل على حرف آخر هو r، الذي يشير إليه الرمز)، ويتمثل في كلمة 'the tree' إذا وضعنا رموزها جنباً إلى جنب.

«فإذا نظرنا إلى أبعد من هذه الكلمات قليلاً، نرى مرة أُخرى المجموعة 48; ونستخدمها على أنّها نهاية لما يسبقها مُباشرة. وبهذا نحصل على هذا الترتيب:

the tree;4(æ?34 the,

«وإذا بدّلنا الحروف الطبيعية، التي تعرّفنا عليها، فالجملة تُقرأ هكذا:

the tree thræ?3h the.

[642]«والآن إذا تركنا فراغات مكان الحروف غير المعروفة، أو بدّلنا النقاط، فالعبارة تُقرأ:

the tree thr...h the,

«حيث تتّضح كلمة '*through*' على الفور. غير أنّ هذا الاكتشاف يُعطينا ثلاث حروف جديدة، هي *o, u, g* يُمثلها الرمز æ? ورقم 3.

«والآن إذا نظرنا عن قرب أكثر، من خلال مجموعات الرموز التي نعرفها، نجد غير بعيد عن نقطة البداية هذه التشكيلة،

83(88, or egree,

«والتي من الواضح أنّها تمثل نهاية لكلمة 'degree' وتقودنا إلى حرف آخر هو d يتمثل في الرمز æ.

«هُناك أربعة حروف وراء كلمة 'degree,' وبذلك نتوصّل إلى مجموعة،

;46 (;88*

«إذا قمنا بترجمة الحروف المعروفة لدينا، وبدّلنا الحروف غير المعروفة بالنقاط، كما فعلنا في السابق، نقرأ ما يلي:

th rtee.

وهي مجموعة مُرتّبة توحي على الفور بكلمة 'thirteen'، ومرة أُخرى تُعطينا حرفين جديدين، هما i و n، يمثلهما رقم 6 و *.

«فإذا عدنا الآن إلى بداية الرسالة السرية، نجد هذه المجموعة،

53ææ.

«وتُترجم، كما في السابق، نحصل على،

good,

«والتي تؤكد لنا أن الحرف الأول هو A، وأنّ أول كلمة هي، 'A good'

«والآن حان الوقت الذي نعمل فيه على ترتيب مُفتاح اللغز الذي توصّلنا إليه، أو ترتيب ما اكتشفناه حتى الآن في جدول، لكي نتفادى الإرباك. سيكون ذلك على النحو التالي:

5 ترمز إلى a

æ ترمز إلى d

8 ترمز إلى e

3 ترمز إلى g

4 ترمز إلى h

6 ترمز إلى I

* ترمز إلى n

æ ترمز إلى o

) ترمز إلى r

؛ ترمز إلى t

؟ ترمز إلى u

«لهذا لدينا ما لا يقل عن عشرة من الحروف الأكثر أهمية التي تُشير إليها [643]الرموز، وسوف يكون من غير الضروري المُضي في سرد التفصيلات عن الحل. لقد قلت ما يكفي لإقناعك بأن شيفرات من هذا النوع من السهولة حلها، ومن شأنها أن تمنحك بصيرة تسمح لك بالتفكير المنطقي في تطويرها. غير أنّه أكّد لي أنّ العينة التي أمامنا تنطبق على نوع بسيط جدّاً من الرسائل السرية. يبقى الآن أن أُعطي الترجمة الكاملة للرموز التي على الرقعة، كما فسّرها. وهي كما يلي:

«عدسة ممتازة في نزل الأسقف على مقعد الشيطان.. إحدى وأربعون درجة وثلاث عشرة دقيقة.. إلى الشمال الشرقي نحو الشمال.. الفرع الرئيسي للغصن السابع على الجانب الشرقي.. أُطلق من العين اليسرى لرأس الميت.. خطّاً للنحل من الشجرة من خلال الطلقة على بعد خمسين قدماً إلى الخارج»».

«لكن»، قلت، «يبدو أنّ الأُحجية لا تزال غامضة كما كانت. كيف يُمكن استخلاص معنى كل هذه الرطانة عن.. مقاعد الشيطان، رؤوس الموتى، وفنادق الأسقف؟».

«أعترف»، رد ليغراند، «أنّ المسألة لا زالت تُثير الغموض حقّاً، إذا نظرنا إليها نظرة عارضة. كانت أُولى مُحاولاتي تتمثّل في تجزئة الجملة إلى أقسام طبيعية كان يهدف إليها من كتب الرسالة السرية».

«تقصد أن تضع عليها علامات تنقيط؟».

«شيء من ذلك القبيل».

«لكن كيف استطعت أن تفعل هذا؟».

«فكرت في أنّ الغرض الذي كان يُريده الكاتب أن يُدوّن كلماته من غير فواصل، وذلك لكي يُضاعف صعوبة الحل. والآن الشخص غير الحاذق، لدى مُتابعته مثل هذا الموضوع سوف يُدرك المُبالغة في المسألة. لما وصل ضمن سياق الرسالة إلى نهاية فكرة ما في موضوعه تتطلّب فاصلة، أو نقطة، فمن المرجّح أن يجعل بعض رموزه في هذا المكان أكثر اقتراباً عادة من بعضها. إذا لاحظت الرسالة، في شكلها الحالي، سوف تكتشف بسهولة خمس حالات

مُماثلة من الالتصاق غير المألوف. وقمت بتحليل هذه الفكرة، وجعلت الفاصلة على النحو [644]التالي:

«عدسة مُمتازة في نزل الأسقف على مقعد الشيطان.. إحدى وأربعون درجة وثلاث عشرة دقيقة.. إلى الشمال الشرقي نحو الشمال.. الفرع الرئيسي للغصن السابع على الجانب الشرقي.. أطلق من العين اليسرى لرأس الميت.. خطّاً للنحل من الشجرة من خلال الطلقة على بُعد خمسين قدماً إلى الخارج»».

«حتى مع هذه الفواصل»، قلت، «لا يزال الأمر غامضاً لي».

«وكان غامضاً بالنسبة لي أيضاً»، أجاب ليغراند، «واستمرّ الوضع بضعة أيام؛ وأثناء ذلك كنت أجري بحثاً مُضنياً، في أماكن مجاورة من جزيرة سوليفان، عن أي مبنى يُمكن أن يحمل اسم ‘نزل الأسقف‘؛ لأنّي بطبيعة الحال تجاهلت الكلمة المُحدّدة التي وردت في النص hostel. ولم أحصل على أي معلومات حول الموضوع، وكنت على وشك أن أُقرّر توسيع نطاق البحث، والتقدم فيه بمنهجية أكبر، عندما حدث في صباح أحد الأيام أن خطر على بالي فجأة أنّ عبارة *'Bishop's Hostel'* هذه ربما لها علاقة بعائلة عريقة، تحمل اسم ‘بيسوب‘، يعود تاريخها إلى حقبة موغلة في القدم، كانت تمتلك عزبة قديمة على بُعد أربعة أميالٍ إلى الشمال من الجزيرة. وهكذا ذهبتُ إلى العزبة، واستأنفت التقصّي والبحث وسط الزنوج المُسنين الذين يقطنون المكان. وفي نهاية المطاف قالت لي إحدى العجائز إنّها سمعت بمثل هذا المكان الذي يسمونه ‘قلعة بيسوب‘، وهي تعتقد أنّ باستطاعتها إرشادي إليه، مع أنّها ذكرت أنّ المكان ليس قلعة ولا حانة، بل هو مُجرّد صخرة عالية.

«عرضتُ عليها أن أدفع مبلغاً جيداً لقاء تكبّدها هذه المشقة، وبعد شيءٍ من الاعتراض، وافقت على مُرافقتي. ووجدنا المكان دون صعوبة، وتركتها تغادر، ومضيت في طريقي لكي أتفحص المكان. كانت ‘القلعة‘ تتكوّن من خليطٍ غير مُتناسق من النتوءات الصخرية والحجارة.. إحدى تلك الصخور كانت تشدّ الانتباه أكثر لارتفاعها ومظهرها المُنعزل الذي يبدو غير طبيعي، فتسلّقت إلى

قمتها، ثم أحسست بأنّي في حيرة من أمري ولا أعرف ماذا أفعل بعد ذلك.

«وبينما كنت غارقاً في تأملاتي، وقعت عيني على نتوءٍ بارز ضيّق في الجبل في الناحية الشرقية للصخرة، ربّما على بُعد ياردة تحت القمة التي وصلت إليها. هذه الحافة كانت ناتئة إلى مسافة ثمان عشرة بوصة تقريباً، ولا يتجاوز عرضها أكثر من قدم، بينما توجد كوة في المُنحدر الصخري فوقها تماماً تُضفي عليها مظهراً شبيهاً بعض الشيء بالكراسي ذات المساند الغائرة التي كان يستخدمها أسلافنا. لم يُساورني الشك في أنّ هذا هو 'مقعد الشيطان' الذي ألمحت إليه الرّسالة.. والآن تبدّى لي أنّني توصلت إلى حلٍّ كاملٍ للغز.

«كنت أعرف أن عبارة 'عدسة مُمتازة' لا تُشير إلى شيء غير التلسكوب؛ لأنّ كلمة 'عدسة' نادراً ما يستعملها البحارة في التعبير عن أي معنى آخر. وهُنا [645]رأيت في الحال تلسكوباً صالحاً للاستعمال، ونقطة مُحدّدة للنظر إليها، لا تسمح بأي انحراف عن النقطة التي نوجّهه إليها. ولم أتردّد في تصوّر أنّ عبارات 'إحدى وأربعون درجة وثلاث عشرة دقيقة'، و 'إلى الشمال الشرقي وإلى الشمال'، تُشير إلى اتّجاهات تعديل العدسة. وانتابني الحماس لهذه الاكتشافات، فسارعت للرجوع إلى البيت، واشتريتُ منظاراً، وعدت إلى الصخرة.

«نزلت إلى الحافة الصخرية، ورأيتُ استحالة الحصول على موطئ قدم هُناك باستثناء موضع مُحدّد. هذه الحقيقة أكّدت فكرتي التي سبق أن خطرت على بالي. تقدمتُ لكي أستخدم المنظار. طبعاً فإنّ عبارة 'إحدى وأربعين درجة وثلاث عشرة دقيقة' لا يُمكن أن تعني شيئاً غير الارتفاع فوق الأفق المرئي، لأنّ الاتّجاه الأُفقي كان واضحاً في الكلمات 'الشمال الشرقي وإلى الشمال' هذا الاتّجاه الأخير توصلت إليه في الحال باستعمال بوصلة جيب؛ ثم وجّهت عدسة المنظار تقريباً في زاوية ارتفاع إحدى وأربعين درجة ما استطعت تخمين ذلك، وصرت أُحركها في حذر إلى الأعلى أو الأسفل، حتى شدّ انتباهي شقٌّ أو فتحة بين الأوراق المُتشابكة لشجرة كبيرة أعلى من غيرها من الأشجار في ذلك المكان البعيد. في مُنتصف هذا الشق رأيتُ بقعة بيضاء، لكني لم أتمكّن في البداية من تمييز ماهيتها. ولما عدلت بؤرة المنظار، ونظرت من جديد، رأيت جُمجمة بشرية.

«كنت مُندهشاً بإزاء هذا الاكتشاف حتى احمرّ وجهي واعتبرتُ المعضلة قد حُسمت؛ لأنّ عبارة 'فرع رئيسي، على الغصن السابع، الناحية الشرقية'، لا يُمكن أن تُشير إلى شيءٍ غير موقع الجُمجمة على الشجرة، بينما عبارة 'أطلق من العين اليسرى لرأس الميت'، لا تحتمل أكثر من تفسيرٍ واحد، فيما يتعلّق بالبحث عن كنز مدفون. أدركت أنّ الخطة التي ينبغي القيام بها تتمثّل في تمرير رصاصة من العين اليسرى للجُمجمة، وأنّ خط النحل، أو بعبارة أُخرى، خطّاً مُستقيماً، يرسم من أقرب نقطة إلى الجذع عبر 'الطلقة'، أو نقطة سقوط الرصاصة، ومن هُناك يمتد مسافة خمسين قدماً، يُشير إلى نقطة مُحدّدة.. وتحت هذه النقطة اعتقدت أنّ من المُمكن العثور على كنز مدفون»».

«كل هذا»، قلت، «يبدو واضحاً جدّاً، وعلى الرغم من أنّه عملٌ عبقري، إلّا أنّه بسيط ولا لبس فيه. عندما تركت نزل الأسقف، ماذا حدث بعد ذلك؟».

««حسناً، بعد أن حدّدت اتّجاه الشجرة بدقة توجّهت إلى البيت. لكن في اللحظة التي غادرتُ فيها 'مقعد الشيطان'، اختفى الصدع المُستدير؛ ولم أتمكّن من رؤيته بعد ذلك، بغض النظر عن الاتّجاه الذي كنت أنظر إليه. الشيء الذي كان يبدو لي [646]عملاً عبقرياً في المسألة كلّها ما هو إلا حقيقة (لأنّ التجربة المُتكرّرة أقنعتني أنّها حقيقة) أنّ الفتحة الدائرية التي نتساءل عنها لن تكون مرئية من أي زاوية نظر مُمكنة غير الحافة الضيقة على واجهة الصخرة.

«في رحلتي الاستكشافية هذه إلى 'نزل الأسقف' كان يُرافقني جوبيتر، الذي لا شكّ أنّه كان يُلاحظ منذ بضعة أسابيع شرود ذهني ومزاجي الكئيب، وكان يتولّى الاهتمام بي فلا يتركني وحدي. لكنّي في اليوم اللاحق نهضتُ في وقتٍ مُبكر جدّاً، وتسلّلت بعيداً عنه، فذهبت نحو التلال بحثاً عن الشجرة. وبعد كثير من الالتفافات وجدتها. وحين رجعت إلى البيت ليلاً ارتأى خادمي أن يوبخني بشدة. وأتصوّر أنّك تعرف ما تبقّى من المُغامرة كما أعرفها بنفسي»».

«أعتقد»، قلت، «أنّك أضعت المكان، في المُحاولة الأُولى للحفر، وبسبب غباء جوبيتر في ترك الحشرة تسقط من العين اليُمنى بدلاً من اليُسرى للجُمجمة».

«هذا ما حدث تماماً. هذا الخطأ شكّل اختلافاً مقداره بوصتان ونصف عن البقعة المُحددة .. بمعنى آخر، في موقع الوتد الأقرب إلى الشجرة؛ لو كان الكنز موجوداً تحت «نقطة سقوط الرصاصة»، لكان الخطأ قليل الأهمية؛ لكن تلك النقطة إلى جانب أقرب نقطة إلى الشجرة، تُشكّلان نقطتين لتحديد الاتّجاه؛ بطبيعة الحال مهما كان الخطأ تافهاً في البداية، فهو يتزايد تدريجياً، ومع الوقت نكون قد ابتعدنا خمسين قدماً عن الأثر المُحدّد. لولا ثقتي العميقة بوجود الكنز مدفوناً هُنا ربّما ضاعت كل جهودنا سدى».

«من طريقتك الحاذقة في التصرّف، وقيامك بإنزال الخنفساء.. ويا له من شيء غريب! كنت واثقاً أنّك رجل مجنون. ولماذا كنت تُصر على ترك الحشرة تسقط، بدلاً من الرصاصة، من الجُمجمة؟».

«لماذا، كي أكون صريحاً، كنت أحس بالانزعاج بعض الشيء من شكوكك في سلامة حالتي العقلية، وقرّرت مُعاقبتك في طريقة هادئة، بأُسلوبي الخاص، وذلك في شيء قليل من الغموض الذي يدل على التعقل. لهذا السبب قمت بتعليق الخنفساء، ولهذا السبب أيضاً تركتها تسقط من الشجرة. إنّ ملاحظتك بشأن وزنها الكبير هي التي أوحت لي بهذه الفكرة الأخيرة».

«نعم، فهمت؛ والآن هُناك نقطة واحدة لا تزال تُحيّرني. ماذا عن الهياكل العظميّة التي وجدت في الحُفرة؟».

«تلك مسألة لا يُمكنني الإجابة عنها أكثر منك. يبدو أنّ هُناك طريقة منطقية واحدة فقط لتفسير وجودها.. ومع ذلك من المُريع أن يُصدّق المرء مثل هذه البشاعة [647]التي يُصوّرها لي خيالي. من الواضح أنّ الكابتن كد.. إذا كان كد في الواقع هو الذي أخفى هذا الكنز، وهذا ما أشك فيه.. من الواضح أنّه قد حصل على مُساعدة في عمله. وعندما انتهى هذا العمل ربّما فكّر أنّ من الأفضل التخلّص من المُشاركين له في السر. ضربتان بالمعول تكفيان لهذا الغرض، في غفلةٍ من رفاقه أثناء نزولهم إلى الحفرة؛ أو ربّما تطلّب الأمر اثنتا عشرة ضربة.. من يدري؟».

القط الأسود

لا أتوقّع من قارئ حكايتي هذه، على ما فيها من غرابة، وبساطة، وعفوية، [648]وأنا على وشك أن أُسطّر تفاصيلها، أن يُصدّق منها شيئاً ولا أطلب منه في الواقع أن يُصدّقها. لسوف أكون مجنوناً حقّاً لو توقّعت منه ذلك، في الوقت الذي ترفض فيه كل حواسي أن تُصدّق ما شهدته. لكنّي لست بالمجنون.. ومن المُحقّق أنّني لا أحلم. لكنّي غداً أموت، واليوم لا بُدّ لي أن أُحرّر روحي من عنائها. غرضي المُباشر الذي أسعى إليه أن أضع أمام العالم، في بساطة، وبأسلوبٍ صريح ما استطعت ذلك، ومن غير تعليق شخصي، سلسلة من الحوادث التي وقعت مؤخراً في منزلي. لقد أذهلتني هذه الحوادث، في النتائج التي تمخّضت عنها.. وعذّبتني.. وحطّمتني. ومع هذا فلن أُحاول تقديم أي تفسير لها. بالنسبة لي، لا أجد فيها غير الرعب.. وسوف تبدو للآخرين نوعاً من الخيال الغرائبي *barroques*. من هُنا ربّما يلتمس المرءُ في نفسه شيئاً من التعقل الذي من شأنه أن يُعيد أوهامي إلى حالتها الطبيعية.. ربّما وجد في عقلانية أكبر، في هدوء أكبر، في منطق أكبر، بعيداً عن حالتي المُتوترة، ما يؤهّله لأن يرى أمراً مُختلفاً، ضمن المُلابسات التي أسرد تفاصيلها والحسرات تستبد بي، أو لا يرى أكثر من تتابعٍ اعتيادي لأسباب ونتائج طبيعية جدّاً.

منذ طفولتي المُبكرة عُرفت بالخنوع وسهولة الانقياد والحنو في طبيعتي. بلغت رقة قلبي في تجلّيها درجة تُثير الانزعاج لدى رفاقي. كنت بصفة خاصة مولعاً بالحيوانات، ووفّر لي والداي كطفلٍ مُدلل عدداً من الحيوانات الأليفة

مُختلفة الأنواع. مع هذه الحيوانات كنت أمضي مُعظم أوقاتي، ولم أكن أشعر بالسعادة أبداً مثلما أشعر حين أُطعمها وأُداعبها. هذه النزعة الغريبة في شخصيتي تطوّرت مع تقدّمي في العمر، وفي مرحلة الرجولة، كنت أستمد منها أقصى درجات اللذة. بالنسبة إلى أولئك الذين جربوا في نفوسهم نوعاً من العاطفة نحو كلبٍ وفيّ يمتاز بالفطنة والذكاء، لست في حاجة لأن أتكبّد عناء توضيح طبيعة الأمر أو أُبين شدة الامتنان الذي نلمسه في المقابل. في مثل هذا النوع من الحب المُتجرّد من الأنانية، ومن خلال الاستعداد لبذل النفس لدى الحيوان، فذلك الإحساس يمضي مُباشرة إلى قلب الإنسان الذي تتوفّر له فرصٌ مُتعدّدة لاختبار صداقة دنيئة وإخلاص متملق واهن مثل خيوط العنكبوت لدى بني البشر عامة.

تزوجتُ في وقتٍ مُبكر من حياتي، وكنت سعيداً لأن أجد لدى زوجتي مزاجاً [649]لا يتناقض مع مزاجي الشخصي. لاحظت زوجتي منذ البدء انحيازي إلى الحيوانات الأليفة، فلم تُضيّع فرصة في شراء أي حيوانٍ مُحبب إلى النفس. فأصبح لدينا طيور، وأسماك ذهبية، وكلب جميل، وأرانب، وقرد صغير، وقط.

هذا الحيوان الأخير كان ضخم الحجم على نحو مُثير للانتباه ويبدو جميلاً ووديعاً، فهو أسود اللون كلّياً، وذكي إلى درجة مُذهلة. أثناء كلامها عن ذكاء القط، كانت زوجتي، التي لا تؤمن في قلبها من قريب أو بعيد بالخُرافات، تُلمّح في أحيان كثيرة إلى خُرافة شعبية قديمة، والتي تعتبر كل القطط السوداء ساحرات يختفين وراء قناع. ليس لأنّها كانت جادّة دائماً في هذه المسألة.. فأنا أذكر المسألة هُنا ليس لسبب، الآن تحديداً، إلا لأنّي تذكرتها.

بلوتو[1].. هذا هو اسم القط.. حيواني المُدلل ورفيقي في اللعب. وحدي كنت من يُقدّم له الطعام، ويُرافقني أينما ذهبت أو تجوّلت في المنزل. حتى إنّي كنت أُواجه صعوبة في منعه من تتبّع خطواتي وأنا أسير في الشوارع.

استمرّت صداقتنا على هذا المنوال عدة سنوات، في أثناء ذلك كان مزاجي

---

(1) بلوتو اسم يرمز إلى حارس مملكة الجحيم. [المترجم]

العام وطبائع شخصيتي.. وبمُساعدة الإفراط الشيطاني في شرب الخمر.. (أكاد أخجل من الاعتراف بالأمر) هذه الأشياء كانت تؤدي إلى تبدّل جذري في تصرّفاتي نحو الأسوأ. ازداد مزاجي تقلّباً يوماً بعد يوم، وأصبحتُ عرضة للانفعال، واللامبالاة بمشاعر الآخرين. كنت أفرض على نفسي استخدام لُغة غير لائقة في مُخاطبة زوجتي. وأخيراً وصلت إلى درجة أنني كنت أُمارس ضدها نوعاً من العنف. طبعاً كانت حيواناتي المُدللة تتلمّس التغيّر الذي طرأ على مزاجي. لم أكن أهملها فحسب، وإنّما كنت أُسيء مُعاملتها. لكن الأمر مع بلوتو كان مُختلفاً، إذ كنت أحتفظ نحوه بما يكفي من الاحترام الذي يمنعني من الإساءة إليه، فلم أكن أُبدي له ولو مقداراً ضئيلاً من سوء المُعاملة مثلما كنت أفعل مع الأرانب، والقردة، أو حتى مع الكلاب حين يعترضوا طريقي أو يقتربوا مني سعياً للمُلاطفة. غير أنّ الاعتلال المرضي الذي كنت أعاني منه تفاقم شيئاً فشيئاً.. فأيُّ مرض يُشبه الإدمان على الكحول!.. وفي نهاية المطاف حتى بلوتو، الذي أصبح الآن قطّاً عجوزاً، وبالتالي كان يزداد مُشاكسة وسوء خلقٍ بعض الشيء.. حتى بلوتو بدأ يتعرّض لتأثيرات مزاجي المُتقلب.

في ليلةٍ من الليالي، عدت إلى المنزل وكنت مخموراً حتى الثمالة، من إحدى جولاتي في البلدة، وتخيّلت أنّ القط كان يتفادى وجودي. أمسكته؛ وحين ارتعب من تصرّفي الطائش، أصابني بجرحٍ طفيف في يدي بأسنانه. وسرعان ما استبدّ بي غضبٌ شيطاني على الفور. لم أعد أعرف من أكون. كانت روحي الأصلية تبدو، في تلك اللحظة، كما لو أنّها اتّخذت طريقها للفرار من جسدي وكانت أوصالي وكل ذرة في جسدي ترتعد بشيء أكثر من انفعال شيطاني يؤججه الشراب الكحولي الذي جعلني مجنوناً. أخرجت من جيب معطفي سكيناً صغيرة، فتحتها، وأمسكت الحيوان المسكين من حُنجرته، وفقأت في تصميم مؤكد إحدى عينيه وأخرجتها من المِحجر! أشعر الآن بالخجل، بشيء يحترق في داخلي، أرتجف، وأنا أكتب عن هذا العمل [650]الوحشي اللّعين.

لما استرددت رشدي في الصباح.. وبعد أن أزاح النوم أبخرة الليلة الشنيعة.. صرت أحسّ بشيء نصفه رعب، ونصفه ندم على الجريمة التي اقترفتها؛

إلّا أنّه كان في أفضل الأحوال شعوراً واهناً غامضاً يصعب التعبير عنه، ولبثت الروح دون أن يمسّها شيء من ذلك. ومرة أُخرى انغمست في ملذاتي المُسرفة، وسرعان ما غرقت في النبيذ كل ذكرى عمّا فعلته.

في هذه الأثناء تماثل القط للشفاء. صحيح أنّ منظر محجر العين المفقودة كان يوحي بتعبير مخيف، لكن لم يعُد يبدو عليه أنّه يُعاني من الألم. كان الحيوان يأتي ويذهب في المنزل كالمُعتاد، ولكن كما كان مُتوقعاً فهو يهرب في ذعر بالغ كلّما اقتربت منه. لم يعُد في قلبي ذلك الإحساس القديم، فأكون أول من يتألّم ويحزن بإزاء هذا الامتعاض الواضح من جانب مخلوقٍ كان ذات مرة يُحبني كثيراً. غير أنّ هذا الإحساس سُرعان ما تلاشى وحل محلّه شيءٌ من الانفعال السريع. وكنت أحسّ بعد ذلك بشيء جديد، كأنه جاء تتويجاً للانقلاب النهائي الذي من المُتعذّر تغييره، أو ما يُسمّى جوهر الانحراف الخلقي. عن هذه الروح، لم يُسجّل في الفلسفة شيء. غير أني لم أعد واثقاً أن روحي ما زالت في صدري، وإنّما كنت واثقاً أنّني صرت ذلك الشرير الأسير لأكثر دوافع القلب البشري بدائية.. إحدى القدرات الأساسية التي لا تتجزّأ، أو العواطف، التي توجّه شخصية الإنسان. من ذا الذي لم يجد نفسه، مئات المرات، يقترف خطيئة أو فعلاً سخيفاً، لسبب آخر غير السبب الذي يعرف أنّه لا ينبغي أن يدعوه لاقتراف ما يقترف؟ أليس لدينا ميول دائمية، في أعماق عقولنا التي تُحسن التقدير، لأن نخرق ذلك الشيء الذي يُسمونه القانون، لمُجرّد أنّنا نعرف أنّه قانون؟ هذه الروح التي تدعو للانحراف نحو الفساد، أقول، جاءت لتحقّق هزيمتي النهائية. هذا الاشتياق الذي لا تسبر أغواره للروح التي تُشاكس نفسها.. لأن تعرض العنف على طبيعتها.. لأن تقترف الخطأ من أجل الخطأ فحسب.. هي التَي دفعتني للاستمرار في الخطأ الذي أدّى أخيراً إلى إلحاق ذلك الأذى الذي ألحقته بالحيوان غير المؤذي. في صباح أحد الأيام، وبدم بارد، وضعت أنشوطة في رقبة القط وعلقته على غصن شجرة؛.. شنقته بينما كانت الدموع تتدفّق من عيني، وكان نوع شديد المرارة من الحزن يعتصر قلبي؛.. شنقته لأنّي كنت أعرف أنّه يُحبني، ولأنّي كنت أشعر أنه لم يمنحني أي سبب يجعلني أعتقد أنّه أساء

إليّ.. شنقته لأنّي كنت أعرف أنّي بهذا العمل ارتكب خطيئة.. خطيئة قاتلة من شأنها أن تُعرّض روحي إلى الأبد للخطر بحيث تضعها.. إذا جاز القول.. خارج مُتناول الرحمة اللامحدودة للرحمن الرحيم الإله القدير شديد العقاب.

في تلك الليلة من اليوم الذي ارتُكبت فيه هذه الجريمة الشنيعة، نهضت من منامي فزعاً حين سمعت صرخات تُعلن عن نشوب حريق. كانت الستائر القريبة من سريري تحترق بألسنة اللّهب. المنزل كله كان يحترق. وفي صعوبة كبيرة [651]تمكّنت زوجتي، وأحد الخدم، وأنا نفسي من الهرب من الحريق الهائل. كان الدمار كاملاً. ثروتي التي جمعتها طوال حياتي احترقت وتحوّلت إلى رماد، واستسلمتُ منذ ذلك الوقت لليأس.

لست ضعيفاً إلى درجة أن أبحث هُنا عن علاقة بين السبب والنتيجة، بين اليأس والكارثة. لكنّي أسرد تفاصيل سلسلة من الوقائع.. ولست أرغب في أن أترك أي حلقة منها ناقصة. في اليوم الذي أعقب الحريق، زرتُ الأنقاض. كانت كل الجدران، باستثناء جدار واحد، قد سقطت. هذا الاستثناء وجدته في جدار إحدى الغرف، لم يكن سميكاً جدّاً، كان ينتصب تقريباً في مُنتصف المنزل، وعليه يستند رأس سريري. الجصّ هُنا أبدى مُقاومة كبيرة لتأثير النيران.. وهي حقيقة عزوّتها إلى أنّي كنت في الفترة الأخيرة فقط قد جددت طلاء الجصّ. حول هذا الجدار تجمّع حشدٌ من الناس، ورأيت الكثير من الأشخاص يتفحّصون جزءاً مُحدداً في عناية بالغة واهتمام يشوبه الحماس. سمعت كلمات «غريب!»، «عجيب!» وغيرها من التعبيرات المُماثلة التي أثارت فضولي. فاقتربت ورأيت، كأنّما خرجت من القبر الغائر على السطح الأبيض، صورة قط عملاق. ذلك الانطباع علق في ذهني في دقة عجيبة حقّاً. لم يكن هُناك حبل حول عنق الحيوان.

حين رأيت هذا الشبح لأول مرة.. لأنّي لم أنظر إليه أكثر من مرة.. بلغت دهشتي ورعبي الذروة. ولكن خطرت في ذهني أخيراً فكرة يبدو أنّها جاءت لمُساعدتي. القط، كما أتذكّر، كان مشنوقاً في حديقة مُجاورة للمنزل. ولدى سماع الصرخات المُفزعة التي تُحذّر من الحريق، امتلئت هذه الحديقة حالاً

بالناس المُتجمهرين.. وقام أحدهم بقطع الحبل عن الشجرة وألقى القط عبر نافذة مفتوحة، إلى حُجرتي. ربّما حصل هذا على أمل أن يجعلني أنهض من النوم. وأدّى سقوط جدران أُخرى بضحية جريمتي الشنيعة لأن تلتصق بمادة الجص التي وضعت حديثاً؛ وهكذا اشترك مزيج الكلس، واللهب، والنشادر الذي تطاير من الجثة في صنع تلك الصورة التي رأيتها.

على الرغم من أنّني فسرت ذلك السبب بسرعة اعتماداً على عقلي، إن لم يكن ضميري هو الذي أوحى لي بالحقيقة المُذهلة كما وصفتها قبل قليل، فلم يسلم الأمر من أن تترك تلك الحقيقة انطباعاً عميقاً على خيالي. بقيت شهوراً لا أتمكّن من تخليص نفسي من شبح القط؛ وفي أثناء هذه الفترة، كان يُدغدغ روحي إحساس شبيه بالتعاطف، يكاد يبدو، لكنّه ليس كذلك، شيئاً قريباً من الندم. وبلغت بي الأحاسيس حدّاً أنّني صرت أشعر بالندم أخيراً على فقدان الحيوان، وبدأتُ أنظر حولي باحثاً وسط خرائب روحي الدنيئة التي صرت أتردّد عليها، عن حيوان مُدلّل آخر من النوع نفسه، له مظهر مُماثل بعض الشيء، كيما يحلّ محلّه.

ذات ليلة، كنت جالساً، وأنا شارد الذهن جزئياً أنظر إلى وكر الحيوان [652]وأشعر بشيء من العار، جذب انتباهي فجأة شيء أسود اللون، يضطجع على غطاء أحد البراميل الضخمة التي يُخزن فيها شراب الجن، أو الرم، والتي كانت تشغل الحيز الأكبر من القبو. كنت أنظر في ثبات إلى غطاء هذا البرميل بضع دقائق، وما أثار استغرابي الآن حقيقة أنّني عرفت ماهية الشيء الذي يجثم فوقه في تلك اللحظة. اقتربت من ذلك الشيء، ولمسته بيدي. كان ذلك قط أسود.. ضخم جدّاً.. سمين مثل بلوتو، يكاد يُشبهه في كل ناحية باستثناء شيءٍ واحد. بلوتو لم يكن له شعر ابيض على أي جزء من جسده؛ لكن هذا القط مُرقّط ببقع كبيرة، غير مُحدّدة في مكانٍ واحد بالشعر الأبيضِ، تغطي تقريباً كل منطقة الصدر.

عندما لمست القط، انتفض فوراً، وأخذ يموء بصوت مُرتفع، وفرك جسمه على يدي، وبدا فرحاً لأنّي انتبهت إليه. هذا، إذن، هو المخلوق نفسه الذي

كنت أبحث عنه. وعرضت حالاً أن أشتريه من صاحبه؛ لكن الرجل قال: إنّه ليس صاحب القط.. ولا يعرف أي شيء عنه.. ولم يره من قبل.

وواظبت على مُداعباتي، وعندما أردت الذهاب إلى بيتي، أظهر الحيوان رغبة في مُرافقتي. وتركته يفعل ذلك؛ وكنت أتوقّف بين فترة وأُخرى لأُربّت عليه ثم أمضي. ولما وصلنا إلى المنزل دخل معي كأنه ليس غريباً على المكان، وأصبح مُباشرة من حيوانات زوجتي المُفضلة.

من جانبي، سرعان ما وجدت سبباً يجعلني أمتعض منه في داخلي. هذا الشعور كان مُعاكساً لما توقّعت؛ لكنّي.. لا أعرف كيف أو لماذا يحصل ذلك.. كان حبّه الواضح لي يُضايقني ويُشعرني بالاشمئزاز. وشيئاً فشيئاً، تفاقمت هذه المشاعر بالامتعاض حتى تحوّلت إلى كراهية مريرة. كنت أتجنّب الاقتراب من المخلوق؛ نوعٌ من الإحساس بالخزي، وذكرى فعلتي الدنيئة السابقة، تمنعني من الإساءة مادياً إليه. لم أكن، طوال أسابيع، أضربه، أو أُسيء إليه بعنف بشكل آخر؛ لكنّي تدريجياً.. على نحو بطيء جدّاً.. بدأت أنظر إليه نظرة مُقرفة لا أستطيع وصفها، وكنت أهرب في صمتٍ من وجوده المكروه، كأنّما أهرب من أنفاس شخصٍ مُصاب بالطاعون.

الشيء الذي لا شكّ أنّه زاد من كراهيتي للحيوان أنّني اكتشفت في صباح اليوم التالي على مجيئي به إلى المنزل، أنّه مثل بلوتو أيضاً كان فاقداً لإحدى عينيه. إلا أنّ هذه الواقعة لم تؤدِّ لشيء إلا أن جعلته مُحبباً أكثر إلى زوجتي، التي كما سبق أن قلت كانت تمتلك، إلى درجة عالية، تلك النزعة الإنسانية التي كانت ذات مرة من ميزاتي الشخصية، وطالما كانت مصدر بهجتي الساذجة.

لكن مع ازدياد كراهيتي لهذا القط، يبدو أنّ حبه لي كان يزداد أيضاً. كان [653]يتبع خطواتي بإصرار إلى درجة أنّ من العسير أن أجعل القارئ يفهم الأمر. أينما جلست، كان يجثم تحت كرسيي، أو يقفز إلى ركبتي، ويغمرني بمُلاطفاته المُقرفة. وإذا نهضت من مكاني لأتمشى ينحشر بين قدمي ويكاد يجعلني أتعثّر وأسقط، أو ينشب مخالبه الطويلة الحادة في ثيابي، ويتسلّق بهذه الطريقة حتى

يصل إلى صدري. في مثل هذه الأوقات، كنت أتمنّى أن أُحطّمه بضربة واحدة، لكنّي أُحجم عن ذلك، ويعود الأمر جزئياً إلى ذكرياتي عن جريمتي السابقة، مع أنّ السبب الأساسي.. لأعترف بالأمر.. يعود إلى خوفٍ مُطلق من الحيوان.

هذا الخوف، على نحو أكثر دقة، ليس خوفاً من شرٍّ مادي.. ومع ذلك فأنا في حيرة من أمري إذا أردت أن أُحدد كنهه. أكاد أشعر بالخزي من نفسي لأن أعترف.. نعم، حتى في زنزانة المُجرمين هذه، أكاد أشعر بالخزي لأن أعترف.. بأن حالة الهلع والرعب التي ألحقها بي الحيوان، تفاقمت من خلال أكثر الأوهام تجريداً التي من المُستحيل أن يتصوّرها العقل. لقد لفتت زوجتي انتباهي، أكثر من مرة، إلى علامة الشعر الأبيض التي سبق أن تكلّمت عنها، والتي تعتبر الاختلاف الوحيد المرئي بين الحيوان الغريب والآخر الذي قتلته. لا بُدّ للقارىء أن يتذكّر أنّ هذه العلامة، مع أنّها كبيرة، لم تكن في الأصل واضحة؛ ولكن، على درجات بطيئة.. تكاد تكون غير قابلة للإدراك، كان عقلي يسعى جاهداً منذ زمن بعيد إلى رفضها ويعتبرها من وحي الخيال.. أخيراً، تكتسب وضوحاً في خطوطها. الآن صارت شيئاً ترتعش أوصالي لتسميته.. لهذا كنت رغم كل شيء أشعر بالاشمئزاز والفزع، وأتشوّق إلى تخليص نفسي من الوحش لو أسعفتني الشجاعة.. أقول الآن تمثّلت لي صورة بشعة.. شيء رهيب.. مثل المشنقة!.. أوه، يا لها من ماكنة رهيبة للرعب والجريمة.. للحزن والموت!.

الآن كم كنت أحس بأنّي إنسان تعيس تجاوز في تعاسته ما تتحمّله الإنسانية بأسرها! هُناك حيوان مُتوحش.. قتلت رفيقه بلا رحمة ..حيوان مُتوحش يُنزل بي هذا البلاء.. أنا كإنسانٍ خُلق على صورة العلي القدير.. يا لها من حسرة لا تُطاق! يا للحسرة! لم أكن أعرف، نهاراً أو ليلاً طعماً للراحة! في النهار لا يتركني ذلك المخلوق لحظة وحدي؛ وفي الليل، أفيق مذعوراً، ساعة بعد ساعة، من كوابيس مُفزعة لا يُمكن وصفها، كي أجد الأنفاس اللاهبة لذلك الشيء فوق وجهي، واجد ثقله الهائل.. كابوسٌ ثقيل لا قُدرة لي على زحزحته عني.. يجثم إلى الأبد على قلبي!.

تحت ثقل أشكالٍ من العذاب مثل هذه، خضع ما تبقّى من الخير الضعيف

[654]الذي في داخلي. أصبحت الأفكار الشريرة وحدها تُرافقني فلا تتخلّى عني.. أشد أشكال الظلام وأكثر الأفكار الشريرة. تصاعد مزاجي النكد العادي فتحوّل إلى كراهية لكل الأشياء ولكل البشر؛ وفي نوبات الغضب المُفاجئة المُتكرّرة التي لا قُدرة لي للسيطرة عليها تركت نفسي الآن تستسلم بلا إرادة، وكانت زوجتي، يا للأسف! هي الضحية الأُولى التي كان عليها أن تُعاني وتصبر.

ذات يوم رافقتني في جولة لجلب بعض الأدوات المنزلية، إلى سرداب البناية القديمة التي أجبرنا فقرنا على السكن فيها. ولحقنا القط إلى الأسفل على درجات السلم الحادة، وكاد يسقطني على رأسي، فاستبدّ بي الحنق إلى حدّ الجنون. رفعت فأساً، ونسيت في ذروة غضبي الخوف الصبياني الذي كان حتى الآن يُكبّل يدي، وهويت بضربة على الحيوان، وكانت الضربة ستكون قاتلة طبعاً لو أنّها سقطت على الموضع الذي أردته. غير أن يد زوجتي تصدّت للضربة. أغضبني ذلك التدخل ودفعني إلى جنون أكثر من أن يكون شيطانياً، وسحبت ذراعي من قبضة زوجتي ووجّهت الفأس إلى دماغها. وسقطت في مكانها، دون أن يصدر عنها أي أنين.

بعد هذه الجريمة الشنيعة انطلقت حالاً وقد وطدت العزم على إتمام مهمة إخفاء الجثة. كنت أعرف أنّني لن أتمكّن من رفعها وإخراجها من المنزل، سواءً في النهار أو في الليل، دون أن يُلاحظني أحدٌ من الجيران. وخطرت كثيرٌ من الأشياء في ذهني. في فترة ما فكّرت بتقطيع الجثة إلى أوصال، ثم أحرقها بالنار. وفي مرة أُخرى قرّرت أن أحفر قبراً لها في أرضية السرداب. ومرة أُخرى، فكّرت جاداً في التخلّص منها بأن أُلقيها في البئر التي في الباحة.. وفكّرت في تعبئتها في صندوق، كأنّما هي بضاعة، وأن أتبع بعض الترتيبات الاعتيادية، ثم أُنادي على حمال يأخذها من المنزل. وأخيراً، خطرت على بالي فكرة اعتبرتها أفضل شيء بالقياس إلى كل هذه الخطط البارعة. قررت أن أدفنها في فجوة بجدار السرداب.. مثلما يفعل الرهبان في العصور الوسطى مع ضحاياهم.

لغرض مثل هذا؛ فالسرداب يصلح تماماً. كانت جدرانه غير مُحكمة البناء، وفي الفترة الأخيرة طُلي بالجصّ الخشن في سائر أركانه، ورطوبة الهواء منعته أن

يجف فيكتسب صلابة. فضلاً عن ذلك، في أحد الجدران، هُناك نتوء نتج عن وجود ما يُشبه المدخنة، أو الموقد، قد ملىء بمواد البناء، بحيث صار يُشبه مدخنة في السرداب. لم يُساورني الشك في أنّني سأتمكّن بسهولة من إزاحة القرميد في هذه النقطة، ثم أضع الجثة فيها، وأعيد بناء الجدار كما كان في السابق، بحيث لا تستطيع [655]العين اكتشاف أي شيءٍ مُثير للريبة.

ولم تخدعني حساباتي هذه. استخدمت عتلة حديدية في إزاحة القرميد بسهولة، وبعد أن وضعت الجثة في عناية بإزاء الجدار الداخلي، حشرتها في ذلك الوضع ولم أُواجه صعوبة بالغة، ثم أعدت البناء كله إلى وضعه الأصلي. بعد أن اشتريت هاوناً، ورملاً، ووبراً، في أقصى درجات الحرص، هيأت الجصّ الذي لا يختلف عن القديم، وانطلقت في حذر لأُنهي البناء الجديد. ولما انتهيت، أحسست بالاقتناع من أنّ كل شيء كان مُتقناً. لم تظهر على الجدار أي علامة تدلّ على أنّه أزيل في موضعٍ منه أبداً. ورفعت الأنقاض عن الأرض في أقصى درجات الحرص. ونظرت حولي في زهو المُنتصر، وقلت لنفسي.. «هُنا على الأقل، إذن، لم يُحبط عملي».

الخطوة التالية التي أردت القيام بها أن أبحث عن الحيوان الذي كان السبب في كل هذه التعاسة؛ لأنّي قرّرت أخيراً أن أضع حدّاً لحياته. لو تمكّنت من العثور عليه، في تلك اللحظة، فليس من شكّ في أنّني سأقضي عليه؛ لكن ظهر أنّ الحيوان الماكر قد تنبّه إلى العنف الذي مارسته في نوبة غضبي السابقة، وأحجم عن الظهور أمامي وأنا في حالتي الحالية. من المُستحيل أن أصف، أو أن أتخيّل عمق النشوة المُبهجة التي ترافقت مع إحساسي بالراحة لغياب ذلك المخلوق البغيض. لم يظهر الحيوان مرة أُخرى أثناء الليل.. وطوال ليلة واحدة على الأقل، منذ اقتحامه للمنزل، تمكّنت من النوم في هدوء وسكينة؛ نعم، نمت رغم ثقل الجريمة الذي يجثم على روحي!.

وجاء اليوم الثاني والثالث، ومع ذلك لم يظهر مُعذبي. ومرة أُخرى أحسست بأنّي أتنفّس مثل أي إنسان حرّ. لقد هرب الوحش مذعوراً من هذا المكان وإلى الأبد! لا ينبغي لعيني أن تقع عليه بعد الآن! كانت سعادتي غامرة!

ولم يكن الشعور بالندم على فعلتي الشنعاء يُضايقني إلا فيما ندر. وسألت عنه هُنا وهُناك، لكن الأجوبة كانت معروفة سلفاً. حتى إنّي فتّشت عنه.. ولكن بطبيعة الحال لم أجد له أثراً. واعتبرت سعادتي المُستقبلية مضمونة.

وفي اليوم الرابع على الجريمة، زارتني زمرةٌ من رجال الشرطة، ولم يكن ذلك مُتوقعاً، في بيتي، وبدؤوا يجرون التحريات من جديد ويُفتشون أرجاء المكان. لكنّي كنت أشعر بالأمان والثقة في صعوبة أن يكتشفوا الموضع الذي خبّأت فيه ضحيتي، ولم أكن مُحرجاً على الإطلاق. طلب مني رجال الشرطة مُرافقتهم في جولة البحث. ولم يتركوا ركناً أو زاوية دون أن ينقبوا فيها. وفي نهاية الأمر، للمرة الثالثة أو الرابعة، نزلوا إلى السرداب. لم ترتعش في جسدي عضلة واحدة. كان [656]قلبي يخفق بهدوء كقلب أي إنسان بريء. مشيتُ معهم من طرفٍ إلى طرف. وكنت أبسط ذراعي على صدري، وأجوب أرجاء المكان هُنا وهُناك. ثم اقتنع رجال الشرطة وتهيأوا للمُغادرة. وكانت البهجة تغمر قلبي بقوة لا يكبح جماحها. كنت أتحرّق شوقاً لأن أقول كلمة واحدة، تعبيراً عن النصر، ولكي أؤكد لهم في ثقة لا تقبل الشك على دليل براءتي.

«أيها السادة»، قلت أخيراً، «بينما كانوا ينزلون الدرجات، إنني مسرور لأنّي أزحت شكوككم. أتمنّى لكم كلكم أن تتمتعوا بالصحة، وشيء من التوفيق. وداعاً، أيها السادة، هذا.. هذا منزل بُني على أسس جيدة». [أثناء رغبتي المحمومة في قول أي شيء بطريقة سهلة، بالكاد كنت أعرف ما الذي نطقت به].. «ربّما أقول لكم: إنّه منزل مُشيّد على أُسس مُمتازة. هذه الجدران.. هل أنتم ذاهبون، أيّها السادة؟.. هذه الجدران مرصوفة بعضها مع بعض بصلابة»؛ وهُنا، في استعراضٍ مجنون لمظاهر الشجاعة، صرت أربّت بضربات ثقيلة، مُستخدماً عصاً كنت أمسكها بيدي، على ذلك الجزء من القرميد الذي أخفيت وراءه جثة زوجتي وحبيبة قلبي.

ولكن فليحرسني الرب ويُخلصني من أنياب الشيطان! ما كاد دوي ضرباتي يهدأ ويحل الصمت، حتى أجاب صوتٌ من داخل القبر!.. جاءت صرخة، كانت في أول الأمر مكتومة ومُتقطعة، كأنّما هي نحيب طفل، ثم تضخّمت وتحوّلت

إلى صراخ طويل مُستمر، حتماً كان صراخ شيء غير بشري.. أشبه بالعواء.. نعيق أو عويل، نصفه مشحون بالرعب والنصف الآخر بالزهو، كما لو أنّها صرخة تأتي من الجحيم، اشتركت فيها حناجر كل الملعونين في بؤسهم أو الشياطين التي تتهلّل فرحاً في ذلك المكان اللّعين.

عن أفكاري، من الغباء أن أتكلّم. كنت مُخدّراً، أترنّح حتى ارتطمتُ بالحائط المُقابل. خلال لحظة بقي رجال الشرطة الذين على السلم في أماكنهم لا يتحرّكون، رغم الذعر والفاجعة. وفي لحظة أُخرى امتدت عشرات الأذرع المتينة لتُخربش وتُفتش في الحائط. ثم هوت الأذرع في جسارة شيطانية. كانت الجثة الآن قد تعفّنت إلى درجة كبيرة وتلطخت بالدم المُتخثر، انتصبت بمنظرها البشع أمام عيون الناظرين. وجثم على رأسها، وكان فمه الأحمر ممدوداً وعينٌ واحدة تنظر كأنها شعلة من النار، ذلك الحيوان الخبيث الذي أغواني ودفعني إلى ارتكاب جريمتي.. كان صوته هو الذي كشف أمري وسلمني إلى يد الجلاد. لقد دفنت الحيوان وراء جدران القبر!.

القلب الواشي

هذا صحيح!.. أنا عصبي المزاج.. كنت عصبي المزاج إلى حدّ فظيع جدّاً.. [657]جدّاً، ولا زلت؛ ولكن لماذا تقولون: إنّني مجنون؟ لقد أدّى المرضُ الذي أصابني إلى جعل حواسي أكثر حدّة.. لم يُدمرها.. لم يجعلها كليلة. وأهمّ ما في حواسي حدّة السمع. كنت أسمع كل الأشياء في السماء وفي الأرض. وأسمع الكثير من الأشياء في الجحيم. كيف، إذن تنعتوني بالجنون؟ اسمعوا! وانظروا كيف أتمتع بالصحة.. كيف أتمكّن في هدوء من إخباركم بالقصة كاملة.

من المُستحيل القول في البداية كيف اقتحمت الفكرة رأسي؛ لكن ما إن أدركت تلك الفكرة، حتى صارت تُطاردني ليلاً ونهاراً. لا غرض لي من ذلك. ولا أي نوع من الميول العاطفية. كنت أحب الرجل العجوز. لم يسبق أن أساء إليّ. لم أشعر أبداً أنّه أهانني شخصياً. وبالنسبة إلى الذهب الذي يملكه، لم أشعر بأي رغبة. أعتقد أنّ السبب في ذلك يكْمن في عينه! نعم، هذا هو السبب! كانت له عين النسر.. عين زرقاء فيها شحوب، مع غشاوة رقيقة تُغطيها. كلّما نظرت إليّ تلك العين، تتجمّد الدماء في جسدي؛ وهكذا قرّرت على مراحل.. تدريجياً.. قرّرت أن أسلب حياة الرجل العجوز، فأُخلّص نفسي من العين إلى الأبد.

الآن هذه هي المسألة. أنتم تتصوّرون أنّني مجنون. المجانين لا يفقهون شيئاً. كان ينبغي عليكم أن تُشاهدوني. كان ينبغي عليكم أن تروا كيف أتصرّف بحكمة.. بأي حذر وروية.. بأي بصيرة حادة.. بأي رياءٍ أنطلق لتنفيذ عملي! لم يسبق لي أن عرفت هذا العطف نحو الرجل العجوز كما أحسست به خلال أُسبوع كامل قبل أن أقتله. كل ليلة، في مُنتصف الليل تقريباً، كنت أُدير مزلاج بابه وأفتحه.. أوه، أفتحه برفق! ومن ثمّ، حين ينفتح الباب بما يكفي لإدخال

رأسي، أدخل وقد أطفأت الشمعة، كل شيء دامس، دامس، فلا ضوء يُبدد ظلمة المكان، ثم أدسّ رأسي إلى الداخل. أوه، سوف تضحكون عليّ لو رأيتموني كيف أتصرّف بمثل ذلك الدهاء وأنا أدسّ رأسي هُناك! كنت أتحرّك في بطء.. بطء شديد جدّاً، جدّاً، حتى لا أُعكر سبات الرجل العجوز. وكان الأمر يتطلّب مني ساعة كاملة كي أدخل رأسي من الفتحة بحيث أتمكّن من رؤيته وهو يتمدّد على سريره. ها! هل يتصرف مجنونٌ بمثل هذه الحكمة؟ ومن ثمّ، حين يُصبح رأسي كله داخل حيز الغرفة، كنت أرفع الغطاء عن مِشكاة الشمعة في حذرٍ شديد (لأنّ مفاصلها تصرّ).. أفتح غطاءها بحيث لا تسقط [658]غير حزمة ضئيلة من أشعة الضوء على عين النسر. وفعلت هذا طوال سبع ليال مُتتالية طويلة.. كل ليلة، تماماً في مُنتصف الليل.. لكنّي كنت دائماً أجد العين مُغلقة؛ لذا كان من المُستحيل إنجاز العمل؛ فلم يكن الرجل العجوز هو الذي يُضايقني، وإنما عينه الشريرة. في كل صباح، مع انبلاج الصّبح، أذهب بشجاعة إلى الحجرة، وأتكلم معه دون وجلٍ أو تردّد، وأدعوه باسمه في نبرة نابعة من القلب، وأسأله كيف أمضى الليلة. لذلك أنتم ترون كيف أنّه، ولا شك في هذا، كان رجلاً عجوزاً بعيد النظر، ومع ذلك لن يُساوره في الواقع أدنى شكّ في أنّني كنت كل ليلة، في الساعة الثانية عشرة، أنظر إليه وهو يغط في النوم.

في الليلة الثامنة، كنت حذراً أكثر من المُعتاد وأنا أفتح الباب. كان عقرب الدقائق في الساعة هُناك يتحرّك بسرعة أكثر من عقرب ساعتي. لم يسبق أن حدث قبل تلك الليلة أن أحسست بمدى قُدراتي.. أو برجاحة ذهني. لم أتمالك نفسي إلا بصعوبة ولم أتمكّن من كبح مشاعر الزهو حين فكّرت بأني كنت موجوداً هُناك، أفتح الباب، شيئاً فشيئاً، وهو لا يحلم حتى بأفعالي أو بأفكاري السرية. ضَحكتُ بصوت خافت من الفكرة؛ وربّما سمعني الرجل؛ لأنّه تحرّك على السرير فجأة، كأنّما أفزعه شيء. الآن ربما تتصوّرون أنّني تراجعت.. لكن لا. هذه الغرفة سوداء يلفّها ظلامٌ دامس (لأنّ مصاريعها مُغلقة بإحكام، خوفاً من اللصوص)، وهكذا أيقنت أنّه لن يتمكّن من رؤية الباب وهو يُفتح، وواصلت دفعه في ثبات، في ثبات.

أدخلت رأسي، وكنت على وشك أن أفتح كوة المِشكاة، حينما انزلق إبهامي فارتطم بالغطاء المعدني، وقفز الرجل العجوز من سريره، وكان يصرخ.. «من هُناك؟».

بقيتُ ساكناً دون أن أنطق بشيء. طوال ساعة كاملة لم تتحرّك في جسدي عضلة، وفي غضون ذلك لم أسمعه يعود ليستلقي. كان جالساً في سكون أيضاً على السرير، يصغي.. مثلما كنت أفعل، ليلة بعد ليلة، يصغي إلى دقات الموت التي تُرسلها ساعة الحائط.

في تلك الأثناء سمعت أنيناً خافتاً، وكنت أعرف أنّه أنين الرعب القاتل. لم يكن ذلك الأنين من الألم أو من الحزن.. أوه، كلّا!.. كان ذلك الصوت المخنوق يصدر من قيعان الروح حين تستبد بها شحنة مُفرطة من الأسى. كنت أعرف الصوت جيداً. فكثيرة هي الليالي، في مُنتصف الليل، حين ينام العالم، التي يأتيني فيها ذلك الصوت خارجاً من صدري، ويزداد عمقاً، ويتردّد صداه المُخيف، فتزداد تجليات الذعر التي تجعلني شارد الذهن. أقول: كنت أعرف الصوت جيداً. أعرف ما يشعر به الرجل العجوز، وأشفق عليه، على الرغم من أنّ قلبي يكاد يختنق. كنت أعرف أنّه كان مُنبطحاً، لكنه مُستيقظ منذ أن سمع أول صوتٍ طفيف للضوضاء. كانت مخاوفه منذ ذلك الحين تتصاعد في داخله. كان يُحاول أن يتخيّل أنّ لا مُبرّر [659]لمخاوفه، لكنه لم يتمكّن من ذلك. كان يقول لنفسه.. «لا شيء غير الريح في المدخنة.. لا شيء، ربما هو جرذ يعبر الأرضية»، أو «مُجرّد صرصار أطلق صفيراً». نعم، كان يُحاول أن يُهدئ من روعه بهذه الافتراضات؛ لكنّه وجد كل هذه الافتراضات عقيمة. كلّها ذهبت أدراج الرياح؛ لأنّ الموت، وهو يدنو منه جثم بظله الصارم كالوتد أمامه، فغطّى ضحيته من كل جانب. والأثر الذي يستحقّ الرثاء للظلّ غير المرئي هو الذي جعله يشعر.. على الرغم من أنّه لم يرَ أو يسمع ..يشعر بوجود رأسي داخل الغرفة.

بعد انتظارٍ طويل، في صبر طويل، دون أن أسمعه يعود إلى الرقاد، قرّرت أن أفتح مجالاً ضئيلاً للضوء.. مجالاً ضيّقاً جدّاً.. جداً للضوء كي يتسلّل من

المِشكاة. وهكذا فتحتها.. ولا يُمكن لكم أن تتصوّروا كيف تسلّل الضوء خلسة، تسلّل خلسة.. حتى سقطت أخيراً حزمة كالحة بسيطة كأنّها خيط من نسيج العنكبوت، كأنّها رصاصة، خرجت من الكوّة وسقطت على عين النسر.

وكانت العين مفتوحة.. على اتّساعها، مفتوحة فتحة واسعة.. وتصاعد الغضبُ في نفسي وأنا أُحملق فيها. رأيتها رؤية واضحة لا لبس فيها.. كلها بلون أزرق كئيب، تحيط بها غشاوة شنيعة من الشرّ بعثت القشعريرة في نخاع عظامي؛ غير أنّي لم أتمكّن من رؤية شيءٍ آخر من وجه الرجل العجوز أو من جسده: لأنّي وجهت حزمة الضوء، كأنّما غريزياً، على «تلك النقطة الملعونة وحدها»[1].

ألم أُخبركم أنّ ما تتصوّرونه جنوناً ليس إلا حدة مُفرطة في الإحساس؟.. والآن، أقول، تسلّل إلى أُذني صوتٌ مُنخفض، بليد، سريع، مثل صوت يأتي من ساعة تُغطيها طبقة سميكة من القماش. كنت أعرف ذلك الصوت جيداً، أيضاً. هل كان نبض قلب الرجل العجوز. وأدّى ذلك إلى زيادة غضبي أكثر، كأنّني أسمع ضربات طبل تُثير أعصاب جندي فتدفعه إلى القتال بشجاعة.

حتى في ذلك الوقت كنت مُتردداً وبقيت ساكناً. ونادراً ما كنت أتنفّس. أمسكت المِشكاة دون أن أتحرّك. ثم حاولت أن أبقي حزمة الضوء ثابتة على العين. في هذه الأثناء ازداد خفقان قلبي كأنّه يصدر من أعماق الجحيم. كان قلبي ينبض سريعاً ويتزايد أكثر، ويُصبح أعلى فأعلى مع كل لحظة. لا بُدّ أن ذعر الرجل العجوز بلغ ذروته! أقول إن رعبه كان يتصاعد، أكثر فأكثر مع كل لحظة!.. هل انتبهتم إليّ جيداً وأنا أُخبركم بأني عصبي المزاج؛ هكذا أنا. والآن في الساعة الأخيرة من الليل، وسط السكون المُخيف في ذلك المنزل القديم، أثارتني هذه الضوضاء المُستهجنة وسلّمتني إلى رعبٍ لا مجال للتحكم فيه. لكنّي بقيت بضع دقائق مُتردّداً وساكناً. مع أنّ النبض كان يتضاعف ويُصبح أعلى، أعلى! ظننت أنّ القلب سوف يتفجّر. والآن تملّكني قلقٌ من جديد.. ربما سمع

(1) النقطة الملعونة: اقتباس من (ماكبيث) 5، 1، 39. [المترجم]

الجيران الصوت! لقد حانت ساعة الرجل العجوز! بصرخة عالية، فتحت كوّة المِشكاة ووثبت إلى داخل [660]الحُجرة. أطلق صرخة واحدة.. واحدة فقط. وفي لحظة جرجرته إلى الأرضية، وسحبتُ الفراش الثقيل فوضعته فوقه. ومن ثمّ ابتسمت مُبتهجاً، حين أدركت أنّ العمل انتهى الآن. لكن القلب استمرّ، دقائق طويلة، يخفق بصوت مكتوم. غير أنّ هذا لم يزعجني؛ الصوت لن يُسمع من خلف الجدران. وأخيراً توقّف النبض. مات الرجل العجوز. أزحت الفراش وأخذت أتفحّص الجثة. نعم، كان مُتخشباً كالحجر، مات وانتهى أمره. وضعت يدي على القلب وأبقيتها هُناك دقائق طويلة. لم أتلمّس أي نبض. كان مُتصلّباً كالحجر. وعينه لن تزعجني بعد الآن.

إذا كنتم تظنون أنّني مجنون، فلن تُفكّروا على هذا النحو إذا وصفت لكم الإجراءات التي اتّخذتها لإخفاء الجثة. كاد الليل أن ينتهي، وبدأت أعمل سريعاً. قبل كل شيء قطعت الجثة إلى عدة أجزاء. قطعت الرأس والذراعين والساقين.

وبعد ذلك قمت بخلع ثلاثة ألواح خشبية من أرضية الحجرة، ودفنت كل شيء تحت قطع الخشب. ثم أعدت الألواح كما كانت في السابق بطريقة تدل على الذكاء، تدلّ على الدهاء، بحيث لا يُمكن لأي عينٍ بشرية.. ولا حتى عينه هو.. أن تكتشف أي خلل في الأمر. لم يبقَ شيء يحتاج للتنظيف.. ما من بقعة من أي نوع.. ولا لطخة دمٍ مهما كانت. كنت حذراً غاية الحذر في ذلك. حوض غسل الملابس تكفّل بإزالة كل شيء.. ها! ها!.

فلمّا انتهيت من هذه الأعمال، كانت الساعة تُشير إلى الرابعة.. والظلام لا يزال كما كان في مُنتصف الليل. وحين رنّ جرس الساعة، سمعت طرقات على الباب السري. ذهبت لكي أفتح الباب وقلبي خال من الهموم.. فماذا لديّ الآن لأخشى منه؟ دخل ثلاثة رجال، وقدّموا أنفسهم في دماثة خلقٍ على أنّهم من رجال الشرطة. لقد سمع الجيران صرخة في الليل؛ وأثار ذلك الشكوك؛ وجرى تقديم بلاغ إلى الشرطة، وكلّفوا (رجال الشرطة) بإجراء التحريات في الجوار.

ابتسمت.. فماذا لدي لأخشى منه؟ رحبت بالرجال. قلت: إنّ الصرخة

كانت صرختي أنا عندما كنت أحلم. كان الرجل العجوز، كما أخبرتهم، غائباً في الأرياف. واصطحبت ضيوفي في جولة في أرجاء المنزل. وطلبت منهم أن يُفتشوا.. يُفتشوا جيّداً. وسرت أمامهم أخيراً نحو حُجرته. سمحت لهم بأن يُشاهدوا ما كان يُخبّئه من الأموال، وكانت في مكانها آمنة لم تُمسّ بسوء. خلال الحماس الذي انتابني لإظهار ثقتي بنفسي، جلبت لهم الكراسي ليجلسوا في الغرفة، ورجوتهم أن يرتاحوا هُنا من عناء جولتهم، بينما انشغلت أنا في ذروة تهوّري من زهو الانتصار التام، فوضعت كرسيي تماماً على البقعة التي ترقد تحتها جثة الضحية.

واقتنع رجال الشرطة بكلامي. لقد نجح أُسلوبي في خداعهم. كنت أحس [661]بالثقة المُفرطة. جلسوا، وبينما كنت أردّ على أسئلتهم برحابة صدر، تحدّثوا معي عن أشياء مألوفة. لكن لم يمضِ وقتٌ طويل حتى أحسست بنفسي مُتوجساً وأرغب في رحيلهم. كان الصداع في رأسي يؤلمني، وتخيّلت أنّني أسمع طنيناً في أذني: ومع ذلك ظلوا جالسين وهم يُثرثرون. أصبح الطنين أكثر وضوحاً.. استمرّ دون توقّف وأصبح أكثر وضوحاً؛ وكنت أتحدّث في حرية أكبر لكي أتخلّص من ذلك الإحساس؛ لكن الطنين استمرّ دون أن يتوقف واكتسب حدّة أشد.. إلى أن، في النهاية، اكتشفت أنّ الضوضاء لا تأتي من داخل أُذني.

لا شكّ أن وجهي الآن كان شاحباً جداً.. لكني بقيت أتكلّم في صراحة أكبر، وكان صوتي يعلو ويعلو. ومع ذلك ازداد الصوت شدة.. وماذا كان في وسعي أن أفعل؟ همسٌ مُنخفض النغمات، بليد، سريع.. يُشبه دقات ساعة تُغطيها قطعة قماش. كنت ألهث لالتقاط أنفاسي.. ولم يسمع رجال الشرطة شيئاً. تكلّمت معهم بسرعة.. وبلهجة حازمة؛ والضوضاء مُستمرة في ثباتٍ وإصرار. نهضتُ وتكلّمت عن أمور تافهة على سبيل المزاح معهم، وكان صوتي عالياً وأنا أُومىء بيدي هُنا وهُناك؛ لكن الضوضاء تفاقمت وزادت شدة وثباتاً. لماذا لم يذهبوا؟ كنت أذرع الأرضية جيئة وذهاباً بخطوات ثقيلة، كأنّما استبدّ بي غضب من نظرات الرجال.. لكن الضوضاء لم تتوقّف. أوه، يا إلهي! ماذا يُمكنني أن أفعل؟ كنت أرغي وأزبد.. أهذي غاضباً.. ألعن وأشتم! ورفعت الكرسي الذي

كنت أجلس عليه، وخبطته على ألواح الخشب، لكن الضوضاء طغت على كل شيء. تصاعدت شدّتها أعلى.. فأعلى ..فأعلى! ومع ذلك لبث الرجال في أماكنهم يُثرثرون وهم مُبتهجون، وكانوا يبتسمون. أيُمكن القول: إنّهم لم يسمعوا شيئاً؟ يا إلهي القدير!.. كلّا، كلّا! لقد سمعوا!.. شكّوا في الأمر! ..عرفوا!.. كانوا يسخرون من ذعري!.. هذا ما تصوّرته، وهذا ما فكّرت فيه. أي شيء آخر أفضل من هذا العذاب! أي شيء أتقبّله غير هذه السخرية! لم أعد أتحمّل ابتساماتهم المرائية! أحسست بأنّ عليّ أن أصرخ أو أموت! والآن.. مرة أُخرى!.. أسمع! أعلى! أعلى! أعلى! أعلى!.

«أيّها الأوغاد!» صرخت، «لا تستمروا في النفاق الآن! أنا أعترف بالجريمة!.. ارفعوا ألواح خشب الأرضية! هُنا، هُنا!.. إنه نبض قلبه البغيض!».

من فنون الاحتيال

هيّا، تأرجحي تأرجحي

أيّتها القطة على عزف الكمان..

«الإوزة إلام»[1]

منذ فجر التاريخ عرفنا شخصين يحملان اسم جيريمي. أحدهما كتب [662]«الجرمياد» عن الربا، وكان يُدعى جيريمي بينثام. هذا الرجل حظي بالكثير من الإعجاب والتبجيل خصوصاً من السيد جون نيل[2]، وكان حقّاً عظيماً على نحوٍ مُتواضع. أما الآخر فهو الذي أعطى ذلك الاسم إلى أكثر العلوم الصرفة أهمية، وكان عظيماً هو الآخر على نحو استثنائي.. أو ربّما جاز القول، في الواقع.. كان عظيماً على نحوٍ عظيم.

الاحتيال.. أو الفكرة المُجرّدة التي يُعبّر عنها الفعل «يحتال».. من اليسير فهمها بما يكفي. إلّا أنّ حقيقة الفكرة، أو معنى الفعل، أو هذا الشيء الذي يسمى الاحتيال من الصعب بعض الشيء معرفتها. لكن ربّما توصّلنا إلى مفهومٍ واضح عن المسألة التي نحن بصددها، من خلال تعريف.. ليس الشيء نفسه، عملية الاحتيال بعينها.. ولكن تعريف الإنسان، كحيوانٍ يمارس الاحتيال. لو أنّ

(1) الاسم المُستعار لمؤلف مجموعة من قصص الأطفال الخيالية التي كانت شائعة في إنكلترا القرن السابع عشر. [المترجم]

(2) كان جون نيل يعمل مُحرراً مع إدغار ألن بو وهو من أصدقاء فيلسوف مذهب المنفعة جيريمي بينثام (1748- 1832). [المترجم]

أفلاطون فقط تطرّق إلى هذا الموضوع، لكان قد وفّر علينا عناء نتف ريش الدجاج.

كان يتوجّب على أفلاطون، وهذا شيءٌ ضروري، أن يُقدم تفسيراً مقبولاً للأمر: لماذا يكون الإنسان مثل دجاجة منتوفة الريش، أو كما قال بوضوح: «حيوان لديه قدمان من غير ريش[3]»؟ ولكن ينبغي أن لا أشغل نفسي بتساؤلات من هذا القبيل. الإنسان على كلّ حال حيوان يُمارس النصب والاحتيال، وليس من حيوان آخر يُمارس الاحتيال غير الإنسان. سوف يتطلّب الأمر قفصاً كاملاً من الدجاج لتجاوز هذه المسألة.

ما يُشكّل جوهر، أو صُلب، أو أصل مبدأ الاحتيال في حقيقة الأمر شيءٌ طارىء على جنس مخلوقاتٍ مثلنا تلبس المعاطف والبنطلونات. الغراب يقوم بالسرقة؛ والثعلب يغش؛ وابن عرس يتفوّق عليهما في الدهاء؛ أما الإنسان فهو يُمارس النصب والاحتيال. الإنسان مُقدرٌ عليه أن يُمارس الاحتيال. «الإنسان خُلق من أجل أن ينتحب»، يقول أحد الشعراء[4]. لكن هذا ليس صحيحاً.. الإنسان خُلق من أجل أن يكون مُحتالاً. هذا هو الهدف من وجوده.. والغرض الذي يسعى إليه ..ونهايته المحتومة. ولهذا حين يُمارس الإنسان الاحتيال نقول: إنّه «انتهى».

إذا أردنا النظر إلى الاحتيال نظرة صائبة نقول: إنّه عمل مُركّب، عناصره التي يتألف منها: هي الدقة، والحرص، والمُثابرة، والبراعة، والجسارة، ورباطة الجأش، والأصالة، والوقاحة، والتكشيرة العريضة.

الدقة.. الشخص الذي يُمارس الاحتيال معك يكون دقيقاً غاية الدقة في عمله. [663]تجري عملياته على نطاق ضيّق محدود. يقوم بعمله وفقاً لنظام

---

(3) هذا التعريف للإنسان يُنسب إلى أفلاطون، وقيل: إنّ ديوجينيس لايرتيوس أحضر دجاجة منتوفة الريش إلى المُحاضرة وقال: «هذا هو إنسان أفلاطون» وبعدها أُضيفت هذه العبارة للتعريف «لديه أظافر عريضة». [المترجم]

(4) الشاعر هو روبرت بمز. [المترجم]

التجزئة، سواءً كان التعامل بالنقد، أو بوثيقة رسمية مُعترف بها. فإذا حدث أن أغري إلى المضاربة بالبورصة، عندئذ وعلى الفور يفقد خصائصه المُميزة ويُصبح ما نصطلح عليه باسم «خبير مالي محنّك». وهذه الكلمة الأخيرة تنقل فكرة الاحتيال في كل جوانبها باستثناء حجم التعاملات التي يُجريها. فالمُحتال يُمكن اعتباره بهذا المعنى صيرفياً مُصغّراً.. و«العملية المالية» ينظر إليها كما ينظر إلى عملية رياء في بروبدنغناغ[5]. الواحد في مُقابل الآخر، هوميروس و«فلاكوس»[6].. والماموث والفأرة، ، وذيل المذنّب مع ذيل الخنزير.

الحرص.. المُحتال الذي نتكلّم عنه يدفعه دائماً حافزٌ ذاتي. إنّه يمتعض من مسألة أن يُمارس الاحتيال من أجل الاحتيال ليس إلّا. هذا الشخص لديه هدفٌ يضعه نصب عينيه.. وهو جيبه.. وجيبك أيضاً. إنّه ينتظر الفرصة المؤاتية. يتطلّع إلى أن يُصبح الرقم واحد. وأنت رقم اثنين، فعليك أن تحذر وتنتبه لنفسك.

المُثابرة.. المُحتال الذي نتكلّم عنه لا يتوقّف عن السعي والمُثابرة. فلا تحبط همّته بسهولة. حتى إذا أفلست البنوك، فهو لا يبالي بشأنها. إنّه يُتابع عمله بمُثابرة حتى يصل إلى غايته، «مثله مثل الكلب الذي لا يتخلّى عن قطعة جلدٍ ملطخة بالشحم»[7] Ut canis a corio nunquam absterrebitur uncto، فلا يترك مُمارسة لعبته هذه أبداً.

البراعة.. المُحتال الذي نتكلّم عنه يُعد من العباقرة. إنّه يتمتّع بروح الإبداع والابتكار كثيراً. يعرف كيف يُحيك المؤامرات، وكيف يُحبطها. إذا لم يكن الإسكندر، فسوف يكون ديوجينيس[8]. إذا لم يكن نصّاباً، فهو صاحب براءة اختراع مصائد الفئران، أو صنارة صيد السلمون.

الجسارة.. المُحتال الذي نتكلّم عنه شخصٌ جسور.. إنّه شجاع وعلى

---

(5) بروبدنغناغ: أرض العمالقة في رواية جوناثان سويفت (رحلات غلفر). [المترجم]

(6) فلاكوس اسم مُستعار للكاتب توماس وارد (1807- 1873). [المترجم]

(7) الاقتباس من هوراس (الهجائيات) 2، 5، 83. [المترجم]

(8) من أقوال الإسكندر (لو لم أكن الإسكندر لفضّلت أن أكون ديوجينيس). [المترجم]

استعداد لأن ينقل ميدان الحرب إلى أفريقيا[9]. وينتصر على كل من يُعاديه بالصولة. لن يهاب من خناجر المُجرمين المُستهترين من أمثال فري هيرن. في قليلٍ من الفطنة كان ديك توربن[10] يُصلح أن يكون مُحتالاً عبقرياً؛ وفي قليلٍ من المُداهنة يكون بمنزلة دانييل أوكونيل[11]؛ ومع بضع جنيهاتٍ في جيبه، أو كان يمتلك دماغين سوف يُصبح تشارلس الثاني عشر[12].

رباطة الجأش ..المُحتال الذي نتكلّم عنه يمتاز برباطة الجأش. إنّه لا يكون عصبي المزاج أبداً. فهو لا أعصاب لديه. ولا يُمكن أن يُستفز حتى يستبد به الغضب. ولا يخرج أبداً عن طباعه.. حتى إذا طرد من الباب. هو بارد الأعصاب.. بارد مثل الخيار. وهو هادىء الطباع.. «هادىء مثل ابتسامة الليدي بري»[13]. وهو سهل الانقياد.. طيع مثل القفاز القديم أو مثل آنسات باياي في نابلس القديمة.

الأصالة.. المُحتال الذي نتكلّم عنه يتمتّع بروح الأصالة.. وضميره حيٌّ دائماً. أفكاره نابعة من شخصيته. يمتعض من اللجوء إلى أفكار الآخرين. ويكره استخدام الألاعيب الحقيرة. يُبدي استعداداً لأن يُعيد أي محفظة، أنا واثق من هذا، إذا اكتشف أنّه حصل عليها بمواربة غير مُبتكرة.

[664]*الوقاحة*.. المُحتال الذي نتكلّم عنه شخصٌ وقح. يتبختر في مشيته. ويمدّ ذراعية في خيلاء. يدسّ يديه في جيوب بنطلونه. يُكشر في وجهك. يدوس على قدميك. يأكل طعامك، ويشرب نبيذك، ويقترض نقودك، ويقرص أنفك، ويركل كلبك، ويُقبل زوجتك.

---

(9) تمكّن سيسيبيو من هزيمة هانيبال (202 ق.م) بأن نقل ميدان الحرب إلى أفريقيا. [المترجم]

(10) ديك توربن قاطع طريق انكليزي شهير أُعدم سنة 1739 لسرقة الجياد أصبح بطلاً أسطورياً. [المترجم]

(11) دانييل أوكونيل (1775- 1847) من الأبطال الوطنيين في إيرلندا. [المترجم]

(12) تشارلس الثاني عشر ملك السويد من 1697 إلى 1718 كان يمتاز بالطيش والتهوّر في المعارك. [المترجم]

(13) الليدي شارلوت سوزان ماريا بري (1775- 1861) روائية إنكليزية. [المترجم]

التكشيرة العريضة.. المُحتال الحقيقي الذي نتكلم عنه يُسوّي أموره كلها في ابتسامةٍ عريضة. لكن أحداً لا يرى هذا غيره. يُكشّر فرحاً حين يُنجز عمله اليومي.. وحين ينتهي من أعماله المُكلف بها.. مع هبوط الظلام، في مأواه الخاص، يرى أنّها تحسم لمصلحته الشخصية حصراً. يذهب إلى المنزل. يُغلق بابه. يخلع ثيابه. يُطفىء شمعته. ويأوي إلى السرير. يضع رأسه على الوسادة. وبعد أن ينتهي من كل هذا، تظهر تكشيرة الدجل على وجهه. هذه ليست مُجرّد فرضيات. إنّها مسألة تستحقّ الاهتمام طبعاً. إنني أُفكر هُنا بطريقة بديهية، المُحتال لن يكون مُحتالاً أصيلاً من غير هذه التكشيرة.

يعود أصلُ النصب والاحتيال إلى مرحلةٍ مُبكرة من حياة الجنس البشري. ربّما كان أول شاهد على ذلك هو آدم. على كل حال، يُمكننا أن نتتبّع هذا العلم رجوعاً إلى الزمن القديم. لكن المؤرخين تناولوا الأمر بمثالية لم يحلم بها الأقدمون ذوي المخيلات البليدة، دون أن يتوقّفوا للكلام عن المُحتالين القُدامى؛ يجدر بي إذن أن أقتنع بوصفٍ مُختصر من خلال التطرّق إلى بعض الأمثلة من العصر الحديث.

ربّما تجلّى النموذج المثالي للمُحتال في هذا المثال. تحتاج ربة منزل مثلاً إلى أريكة، فتذهب وتتجوّل في عدة محلات لبيع الأثاث. وأخيراً تصل إلى محلٍّ تتوفّر فيه أنواع جميلة من الأرائك. يقترب منها شخصٌ مؤدب معسول اللسان يقف عند الباب فيُرحب بها ويدعوها للدخول. تجد المرأة أريكة تتناسب جيداً مع مُتطلّباتها، وبعد الاستفسار عن السعر، تُبدي استغرابها ورغبتها في أن تسمع عرضاً أفضل ربّما يقلّ عما توقّعته بنسبة عشرين بالمائة. وبعد موافقةٍ غير مُتوقعة تُسارع المرأة للشراء، وتدفع الثمن وتستلم إيصالاً بالمبلغ، وتترك عنوانها على أن تُرسل المواد إلى منزلها بأسرع وقت، وتتراجع وسط تحيات وانحناءات صاحب المحلّ. ويأتي الليل ولا تصل أريكتها. تُرسل أحد الخدم للاستفسار عن سبب التأخير. ويُنكر صاحب المحل أي شيءٍ عن الصفقة. لم يبع أي أريكة.. ولم يستلم أي نقود.. عدا أنّ هُناك مُحتالاً لعب دور صاحب المحلّ مؤقتاً.

محلّات بيع الأثاث المنزلي التي نتكلّم عنها كثيراً ما تفتقر إلى الرقابة

الصارمة، فهي توفّر الفرص لمُمارسة لُعبة قذرة من هذا النوع. الزبائن يدخلون، ينظرون إلى الأثاث، ويُغادرون دون أن يلتفت إليهم أحد أو يراهم. إذا أراد أي شخص الشراء، أو السؤال عن سعر شيءٍ من الأشياء، فهُناك جرس في مُتناول اليد، وهذا إجراء كاف جدّاً.

مرة أُخرى، هذا نصّابٌ مُحترم.. يدخل شخصٌ يرتدي ثياباً أنيقة إلى أحد [665]المحلات، ويشتري شيئاً بدولار مثلاً؛ ثم يكتشف وقد استبدّ به الغضب، أنّه ترك محفظته في جيب معطف آخر؛ لذلك يقول لصاحب المحلّ..

«سيدي العزيز، لا تكترث للأمر؛ أريدك أن تسدي لي معروفاً، أرجوك أن تُرسل الرزمة إلى المنزل؟ لكن انتظر! أعتقد أن ليس لدي حتى ورقة أقلّ من خمسة دولارات. ومع ذلك، يُمكنك أن تُرسل الدولارات الأربعة الباقية مع الرزمة، لا بُدّ أنّك تعرف هذه الأمور».

«لا بأس، يا سيدي»، يردّ صاحب المحلّ، الذي تتكوّن في رأسه فوراً فكرة لا غُبار عليها عن مُستوى تفكير زبونه. «إنّني أعرف الناس»، يقول لنفسه، «الذين يضعون البضاعة تحت أذرعهم، ويمشون ويعطون وعداً بأن يدفعوا دولاراً حين يمرون على المحلّ عصراً».

ويُرسل صبّي المحلّ ومعه الرزمة والفكة. وعلى الطريق، بمحض الصدفة، يلتقي بالمُشتري، الذي يهتف به:

«آه! هذه رزمتي، أرى أنّك.. تصورتُ أنّك حملتها إلى المنزل منذ مدة. حسناً، اذهب! زوجتي، السيدة تروتر، سوف تُعطيك الدولارات الخمسة.. لقد أبلغتها بذلك. ربّما أعطيتني الباقي.. سوف أحتاج إلى بعض القطع الفضية في مكتب البريد. لا بأس بهذا! واحد، اثنان، هل هذا ربع دولار جيد؟.. ثلاثة، أربعة.. صحيح تماماً! قل للسيدة تروتر: إنّك التقيت بي، والآن عليك ألّا تتسكّع في الطرقات».

وما كان للصبي أن يتسكّع.. لكنه يمضي وقتاً قبل أن يرجع من جولته.. إذ لم يعثر على سيدة تحمل اسم تروتر على وجه التحديد. ويُعزّي نفسه فيقول: إنّه ليس

غبياً بحيث يترك البضاعة تضيع دون أن يُحصّل النقود، ويعود إلى المحلّ وهو يحس بالرضا عن نفسه، ثم يُفاجأ بالأذى والنقمة حين يسأله سيده عن مصير الفكة.

هذا مثالٌ بسيط جدّاً في الواقع على عملية نصب. وهُناك مثال آخر عن قبطان سفينة على وشك أن تنطلق في رحلة، يتقدم إليه شخصٌ يبدو أنّه يُشغل منصباً رسمياً ويُعطيه قائمة ثمن فيها مبالغ مُتواضعة غير مُعتادة لنفقات قضاء الوقت في المدينة. يحس القبطان بالسعادة لأنّه يتخلّص من مأزقٍ مُحرج بهذه السهولة، بينما يكون مُنشغلاً بمئات الواجبات التي عليه إنجازها حالاً، فلا يستفسر عن صدق ذلك الادّعاء مُباشرة. وفي غضون خمس عشرة دقيقة، تأتيه قائمة أُخرى بمبلغ غير معقول من شخصٍ سرعان ما يوضّح له أن المُحصل الأول كان نصّاباً، والمبلغ الذي سُلب منه سابقاً كان نصباً واحتيالاً.

وإليك أيضاً حالة مُماثلة بعض الشيء. هُناك قارب بخاري يوشك أن ينطلق من الرصيف. يرى الناس أحد المُسافرين يحمل حقيبة سفر ويركض باتّجاه الرصيف بأقصى سرعة. وفجأة، يقف مُتردّداً، وينحني، ويلتقط شيئاً من الأرض [666]بطريقة توحي بأنّه مُنزعج. إنّها محفظة، و.. «هل فقد أي شخص محفظة؟» يصيح. ولا أحد يقول: إنّه فقد محفظة؛ لكن يُسمع لغط كبير، إذ يتّضح أنّ في المحفظة مبلغ كبير. لكن القارب يجب أن لا يتأخر.

«الزمن والمدّ لا ينتظران أي إنسان»، يقول القبطان.

«بحقِّ السماء، انتظر بضع دقائق»، يقول الرجل الذي وجد المحفظة.. «صاحبها الحقيقي سوف يظهر حالاً».

«لا يُمكن الانتظار!» يرد القبطان؛ «ابتعد من هُنا، هل تسمع؟».

«وماذا عليّ أن أفعل بها الآن؟» يتساءل الرجل الذي عثر على المحفظة، ويبدو عليه أنّه في حيرة من أمره. «أنا على وشك أن أُغادر البلاد لسنوات، ولا يسمح لي ضميري بالاحتفاظ بهذا المبلغ الكبير. أرجو المعذرة، يا سيدي»، [هنا يخاطب رجلاً يقف على الساحل]، «يبدو أنّك إنسانٌ مؤتمن. هلّا تفضّلت وقدّمت لي خدمة بأن تتحمل مسؤولية هذه المحفظة ..أعرف أنني أستطيع الوثوق

بك.. وأن تتولّى الإعلان عنها؟ الأوراق النقدية، كما ترى، قيمتها كبيرة جدّاً. لا شكّ أنّ صاحبها سوف يحرص على إعطائك مُكافأة على تعبك.. ».

«أنا!.. كلّا، أنت!.. أنت الذي وجدت المحفظة».

«حسناً، إذا كنت ترى ذلك ..سوف آخذ مُكافأة قليلة.. فقط لكي أرضيك. دعنا نرى.. عجباً، هذه الأوراق النقدية كلها من فئة المئات.. ليُبارك الله روحي! مائة دولار مبلغ كبير لا يجب أن آخذه كله.. خمسون ستكون كافية جدّاً، أنا واثق من هذا..».

«ابتعد من هُنا!» يقول القبطان.

«لكن عندئذ ليس لدي فكة مائة، على كل حال، من الأفضل لك أن..».

«ابتعد من هُنا!» يقول القبطان.

«لا بأس!» يصيح الرجل الواقف على الساحل، وكان يُفتش في جيوبه خلال الدقيقة الأخيرة أو نحو ذلك.. «لا بأس! يُمكنني تدبّر الأمر.. هذه ورقة من فئة خمسين صادرة من بنك شمال أمريكا.. إرم المحفظة».

ويأخذ صاحب الضمير الحي خمسين دولاراً في شيءٍ من التردّد الواضح، ويرمي المحفظة إلى الرجل، كما أراد ذلك، بينما كان المُحرّك يهدر ويصدر أزيزاً وهو يجرّ القارب إلى عرض البحر. بعد نحو نصف ساعة من الرحيل، يكتشف أنّ «المبلغ الكبير» هو مُجرّد «أوراق نقدية مزورة»، وأنّ المسألة كلّها لا تعدو أن تكون عملية نصب كبرى.

والنصب الجريء يتّخذ الشكل الآتي. هُناك اجتماعٌ في أحد المخيمات، أو شيءَ من هذا القبيل، يعقد على بقعة مُحدّدة يمكن الوصول إليها فقط من خلال جسر مفتوح. يقف المُحتال على هذا الجسر، ويقوم بإبلاغ كل شخص يُريد العبور بطريقة مهذبة بخبر قانون جديد أصدره المجلس البلدي، والذي يفرض ضريبة مقدارها [667]سنت واحد على كل عابر على القدمين، وسنتان على الخيل والحمير، إلخ.. إلخ.. بعض الناس كانوا يتذمّرون لكنهم يمتثلون للأوامر،

ويذهب النصاب إلى بيته وهو يحمل معه ثروة تبلغ نحو خمسين أو ستين دولاراً اكتسبها عن جدارة. هذه الضرائب التي تؤخذ من الناس في حقيقة الأمر هي من الأعمال المُجهدة التي تُثير الانزعاج كثيراً.

وعملية الاحتيال التي تتّسم بالأناقة تكون على هذا النحو. أحد الأصدقاء يحصل على وعد من النصاب بأن يدفع قيمة إيصال يكتبه ويوقّعه بطريقة رسمية، ويملأ الحقول الاعتيادية الفارغة بكلمات يكتبها بالحبر الأحمر ويُحدد موعد استحقاق المبلغ. يشتري النصاب عشرة أو عشرين من هذه الاستمارات الفارغة، وفي كل يوم يغطس واحدة منها في الصابون، ويجعل كلبه يدوس عليها، وأخيراً يُعطيها إليه ليشمّها جيداً. وحين يأتي موعد استيفاء مبلغ الاستمارة، ويصل النصاب وكلبه، يزور ذلك الصديق، ويفتح موضوع الوعد الذي أعطاه بالدفع. يخرج الصديق الورقة من مكتبه، ويوشك أن يُقدمها إلى النصاب، عندها يقفز الكلب ويلتهمها على الفور. لا يُبدي النصاب استغرابه فحسب، وإنّما يتضايق أيضاً وتثور ثائرته من السلوك الطائش للكلب، ويُعبّر عن استعداده التام للالتزام بالصفقة في أي لحظة، على أن يُقدّم الدليل على وجودها طبعاً.

المُحتال الوضيع جدّاً يتصرّف على النحو الآتي. تتعرّض إحدى السيدات إلى تحرّش في الشارع من قبل شخص شريك له. يُسارع ذلك النصاب بنفسه إلى نجدتها، وبعد أن يوجه لكمة جيدة لصديقه، يُصرّ على مُرافقة السيدة إلى باب منزلها. ثم ينحني، ويضع يده على قلبه، ويستأذن منها بالانصراف في سلوكٍ غاية في التهذيب. وتتوسّل إليه، كحارسٍ أمين لها، أن يدخل كي تُقدّمه إلى أخيها الأكبر وأبيها. ويرفض وهو يتنهّد. «هل من طريقة إذن يا سيدي»، تتمتم، «يمكنني بها التعبير عن امتناني؟».

«حسناً، نعم، مدام، هناك طريقة. هلّا تتلطّفين وتقرضيني بعض الشلنات؟».

للوهلة الأُولى تشعر السيدة بالاستغراب وتكاد تسقط مغشياً عليها في الحال. لكنّها في اللحظة التالية تفتح محفظتها وتخرج قطعاً معدنية. الآن، هذا التصرّف، كما أعتقد، يدلّ على وضاعة شديدة في عملية النصب.. لأنّ جزءاً من

المبلغ الذي يؤخذ يكون من نصيب الرجل الذي تحرّش بالسيدة، والذي كان عليه آنذاك أن يقف مكتوف الأيدي ويتحمّل اللّكمة التي توجّه إليه.

رغم أنّ هذه عملية نصب صغيرة لكنها تتّسم بطابعِ علمي مدروس. النصاب يقترب من منضدة الشرب في خمارة، ويطلب لفافتين من التبغ. تُقدم إليه طلباته هذه، وبعد أن يتفحّصها، يقول:

«لا أُحب هذا النوع من التبغ. خذ، أرجعها، وأعطني كأساً من البراندي مع الماء بدلاً عنها». ويؤتى له بالبراندي والماء على الفور، ويتّجه النصاب إلى [668]الباب. لكن صوت صاحب الحانة يجعله يقف.

«أعتقد، يا سيدي، أنّك نسيت أن تدفع ثمن البراندي والماء».

«أدفع ثمن البراندي والماء!.. ألم أعطك التبغ بدلاً عن البراندي والماء؟ ماذا تريد أكثر من ذلك؟».

«لكن، يا سيدي، لو سمحت، لا أتذكّر أنّك دفعت لي ثمن التبغ».

«ماذا تعني بذلك، أيّها الوغد؟.. ألم أرجع إليك تبغك؟ أليس ذلك هو تبغك الذي هُناك؟ هل تتوقّع مني أن أدفع ثمن شيءٍ لم آخذه؟».

«لكن، يا سيدي»، يقول صاحب الحانة، والآن كان يشعر بالضياع فلا يعرف ماذا يقول، «لكن، يا سيدي...».

«لا تردّد.. لكن.. ولكن، سيدي»، يُقاطعه النصّاب، وكان في ما يبدو في حالة حنقٍ بالغ، ويصفق الباب وراءه، وهو في طريقه للفرار.. «لا تردّد لكن ولكن، سيدي، ولا تُمارس ألاعيبك هذه على الزبائن».

هُنا، مرة أُخرى، لدينا عملية نصب واحتيال بارعة جدّاً، لا تعتبر في بساطتها أقلّ شأناً. هُناك محفظة، أو جزدان ضائع حقّاً، وينشر صاحبه إعلاناً في إحدى الصحف اليومية التي تصدر في مدينة كبيرة يصف فيها الشيء الذي ضاع منه وصفاً دقيقاً.

وينقل النصّاب المعلومات التي تردّ في هذا الإعلان، مع تغيير طفيف على

النقاط الرئيسية، وصياغة جديدة للألفاظ والعنوان. فإذا كان الإعلان الأصلي مثلاً طويلاً ويأتي تحت عنوان «محفظة ضائعة!» ويطلب ممّن يعثُر عليها أن يُرسلها إلى منزل رقم 1 شارع توم. هُنا تكون نسخة الإعلان الآخر مُختصرة، ويوضع لها عنوان مُبهم «شيء ضائع» فقط، ويُشير إلى أنّ المنزل رقم 2 شارع ديك، أو منزل رقم 3 شارع هاري، على أنّه مسكن صاحب الشيء المفقود. فضلاً عن ذلك، ينشر الإعلان في ما لا يقلّ عن خمس إلى ست من الصحف اليومية الواسعة الانتشار، بينما إذا حسبنا الوقت الكلي فهي لا تظهر إلا خلال بضع ساعات من نشر الإعلان الأصلي. فإذا قرأها صاحب المحفظة المفقودة، لن يُساوره الشك في أنّ لها علاقة بالشيء الذي ضاع منه. طبعاً يكون معدل الفرص واحد إلى خمس أو ست في أنّ من يعثر على المحفظة سوف يتّجه إلى العنوان الذي قدّمه المُحتال، بدلاً من العنوان الذي أشار إليه صاحبها الحقيقي. وتُدفع المُكافأة، ويحصل المُحتال على النقود ويرحل دون أن ينتبه إليه أحد.

وإليك عملية نصبٍ أُخرى تكاد تكون مُماثلة: سيدة أنيقة يسقط منها في مكانٍ ما خاتمٌ من الألماس قيمته غير عادية. من أجل استعادة خاتمها تعرض مُكافأة مقدارها أربعون أو خمسون ألف دولار.. وتُعطي في الإعلان وصفاً دقيقاً جدّاً [669]للمجوهرات وإطارها، وتُعلن أنّه في حال العثور على الخاتم يجب تسليمه على عنوان منزل رقم كذا وكذا، في شارع كذا وكذا، وسوف تمنح المُكافأة في التو واللحظة، دون أن يوجه أي سؤال إلى الشخص الذي يعثر عليه. أثناء غياب السيدة عن المنزل، بعد يومٍ أو يومين من الحادث، يطرق شخصٌ باب المنزل رقم كذا وكذا، في شارع كذا وكذا؛ ويخرج خادم؛ ويسأل الطارق عن سيدة المنزل ويُقال له: إنّها ليست موجودة، وبإزاء هذه المعلومات المُذهلة، يُعبّر الزائر عن أسفه الشديد. ويقول: إنّ الشأن الذي جاء به على جانب كبير من الأهمية ويخص السيدة نفسها. في حقيقة الأمر، فهو يحمل خبراً سعيداً عن العثور على خاتم الألماس المفقود. ولكن ربّما من الأفضل له أن يأتي في وقتٍ آخر. «لا سبيل إلى ذلك!» يقول الخادم؛ «لا سبيل إلى ذلك!» تقول أخت سيدة المنزل وكذلك أخت زوجها، اللتان تحضران على الفور. يتمّ التعرّف على الخاتم وسط صيحات الإعجاب، وتُعطى المُكافأة، ويُغادر الشخص الذي عثر عليه.

لكن السيدة تعود وتُعبّر عن سخطها لأختها وأخت زوجها، لأنّهن دفعن أربعين أو خمسين دولاراً مُقابل نسخة مُزيفة من خاتم الألماس..

ليس هناك في واقع الأمر حدٌّ لفنون النصب والاحتيال، لذلك فما من نهاية مُحتملة لما يُمكن طرحه في هذا المقال الذي ربّما ألمحت فيه إلى نصف مُتغيرات وتصاريف هذا الفن. لكن عليّ بحكم الضرورة أن أضع خاتمة لهذا البحث، وهُنا لا يُمكنني إيجاد شيءٍ أفضل من خُلاصة لعملية نصبٍ واحتيال على مُستوى عالٍ من الرقي، وامتدت تأثيراتها على نطاق واسع، كان مسرح أحداثها مدينتنا؛ حصل ذلك منذ مدة ليست بعيدة جدّاً، وتكرّرت عدة مرات بنجاح في أماكن أُخرى يتّسم سكانها بشيء من السذاجة في هذه البلاد. يصل رجلٌ في مُنتصف العمر إلى البلدة من مكانٍ مجهول. هذا الرجل مظهره العام يوحي بالرزانة، والحذر، والاحتراس في حركاته على نحو مُثير للانتباه. يرتدي ثياباً أنيقة لا تُثير الشكوك على بساطتها وخلوّها من المُباهاة. على قميصه ربطة عُنق بيضاء، وسترته عريضة مصنوعة بحيث توفّر له الراحة؛ حذاؤه سميك النعل شكله جميل وصقيل، وبنطاله من غير حمالات. على الإجمال منظره يوحي بأنّه «رجل أعمال» مرفّه، رزين، دقيق، مُحترم، من أصلٍ كريم .. يبدو من الأشخاص الجادين المُتزمتين من الخارج، ومُرهفي الحس من الداخل، أولئك الذين نراهم صامتين في الكوميديات التي تُرسل فيها تعليقات ساخرة صاخبة.. أولئك الذين لا يرسلون تعليقاتهم بلا قيود، ويمتازون بالسخاء في بذل الجنيهات في أعمال البر والإحسان بإحدى اليدين، بينما نجدهم على سبيل إجراء صفقة، ينتزعون أقصى ما يُمكنهم انتزاعه وإن كان ربع بنسٍ باليد الأُخرى.

يُثير الرجل الكثير من الضجة قبل أن يبدي اقتناعه بالغرفة التي تُعطى له في البنسيون.[670] إنّه لا يُحب الأطفال. لقد اعتاد على الهدوء. عاداته منهجية صارمة.. ومن ثم فهو يفضل العيش ضمن عائلة صغيرة مُحترمة، ربّما لها ميولٌ دينية وتحرص على التقوى والورع. الشروط الأُخرى لا تهمّ.. ويصرّ النزيل على تسوية قائمة الحساب في اليوم الأول من كل شهر، (اليوم هو الثاني من الشهر)

ويتوسّل إلى صاحبة البنسيون، فربّما لا يتسنّى له هو أن يتذكّر، أن لا تنسى بأي شكل من الأشكال تعليماته بصدد هذه النقطة.. عليها أن تُرسل قائمة الحساب، وإيصالاً بالاستلام، في الساعة العاشرة تماماً، من أول يوم في كل شهر، ومهما كانت الظروف، عليها عدم تأجيل ذلك إلى اليوم الثاني.

بعد تسوية هذه الإجراءات، يؤجر رجل الأعمال مكتباً في ميدانٍ هادىء مُحترم بدلاً من أن يكون ذلك في الأماكن الحديثة في البلدة. لا شيء يكرهه أكثر من مظاهر المُباهاة. «حين يكون هُناك كثيرٌ من الاستعراض»، يقول، «نادراً ما توجد جدية في المضمون».. وهي مُلاحظة تُثير إعجاب صاحبة البنسيون إلى درجة كبيرة، بحيث تأخذ قلم رصاص وتدوّنها في مُفكّرتها على الفور، وهي إنجيل عائلتها، على هامش عريض كُتبت فيه أمثال سليمان.

وكانت الخطوة التالية أن يُنشر إعلان، في تصرّفٍ ينمّ عن اللياقة التي اتّبعت حتى الآن، في الصحيفة الرئيسية للمدينة والتي تُباع بست بنسات.. وربّما كانت في نظر ذلك المُحتال من الصحف غير المُحترمة لأنّها تُطالب بدفع قيمة الإعلانات مُقدماً. فصاحبنا رجل الأعمال يعتبرها مسألة مبدأ أنّك لا ينبغي أن تدفع أجور العمل ما لم ينجز أولاً.

«مطلوب موظفين.. المُعلنون على وشك البدء بنشاطات تجارية واسعة في هذه المدينة، سوف يحتاجون إلى خدمات ثلاثة أو أربعة من الموظفين الأذكياء والأكفاء، على أن تدفع لهم رواتب مُجزية. المؤهلات المُتوقعة من هؤلاء الموظفين، ربّما لا تتعلق كثيراً بالقدرات بقدر ما تتعلّق بالإخلاص والتفاني. في الواقع، لأنّ الواجبات التي يقومون بها تنطوي على مسؤوليات جسيمة، إذ أنّهم سوف يتعاملون بمبالغ نقدية كبيرة مع الوكلاء، من اللّازم على من يتقدّم إلى العمل أن يقوم بإيداع مبلغ خمسين دولاراً لكل فرد. لا داعي إذن لأن يتقدّم أي شخص ما لم يكن مُستعداً لأن يودع هذا المبلغ في خزنة المُعلنين، وما لم يكن مُستعدّاً للالتزام بأخلاقيات المهنة. يُفضّل أن يتقدّم لهذا العمل موظفون من الشباب الصالح. تُقدّم الطلبات من الساعة العاشرة إلى الحادية عشرة صباحاً، ومن الساعة الرابعة إلى الخامسة مساء..

عن السادة..

بوغز، هوغز لوغز، فروغز وشركاؤهم..

110 شارع دوغ».

حتى اليوم الحادي والثلاثين من الشهر، جلب هذا الإعلان إلى مكتب السادة [671]بوغز، هوغز، لوغز، فروغز وشركائهم، نحو خمسة عشر أو عشرين من الشبان الصالحين. إلّا أنّ رجل الأعمال ليس في عجلة من أمره للتوصل إلى إبرام عقدٍ مع أي منهم.. على رجل الأعمال ألّا يتهوّر.. ليس قبل أن تُستكمل كافة المُقابلات والتحقّق من مدى تقوى وورع الشباب وميولهم الأخلاقية، ويستمرّ وكلاؤه في تلقّي الخمسين دولاراً، من باب الاحتياط اللازم اتّخاذه ليس إلّا من جانب الشركة المُحترمة التي يملكها بوغز، هوغز، لوغز، فروغز وشركاؤهم. في صباح اليوم الأول من الشهر اللاحق، لا تُقدم صاحبة النزل قائمة حسابها، حسب الاتفاق الذي وعدت به.. وفي هذا شيءٌ من الإهمال الذي كان النزيل المهم في البنسيون مُستعدّاً لتأنيبها عليه بشدة لو أنّ الظروف كانت تسمح له بالبقاء في البلدة ليومٍ أو يومين لذلك الغرض.

وهكذا حدث أن واجه رجال الشرطة أوقاتاً عصيبة فصاروا يتراكضون هُنا وهُناك، وكل ما كانوا يستطيعون القيام به أن يُطلقوا على رجل الأعمال تسمية «دجاجة يصل طولها إلى الركبة».. وتخيّل بعض الأشخاص في الواقع أن ذلك يعني صعوبة إلقاء القبض على الرجل.. أو هكذا يفترض أن تفهم العبارة الكلاسيكية «لا يُمكن العثور عليه»(14) *non est inventus*. وفي أثناء ذلك كان الشباب يُهرولون، زرافات ووحداناً، وقد صاروا أقل اهتماماً بالتّقى والصلاح من قَبل؛ بينما تشتري صاحبة البنسيون ممحاة هندية بشلنٍ واحد، وتقوم بمسح الكلمات التي خطّها بقلم الرصاص أحد الأغبياء في إنجيل عائلتها، على هامشٍ عريض ضمن حقل «أمثال سليمان».

---

(14) هذه العبارة باللّغة اللاتينية وقد استُخدمت في الجزء الثاني من (هجائيات دو كنزي عن الجريمة) 1839. [المترجم]

خدعة المنطاد

[جاءت أخبار مُذهلة بالبريد السريع، عن طريق نورفولك!.. لقد تمكّن الإنسان [672]من عبور المُحيط الأطلسي أخيراً في ثلاثة أيام! ذلك هو النصر الذي حقّقته الآلة الطائرة التي صنعها السيد مونك ماسون!.. ووصل إلى جزيرة سوليفان، بالقرب من شارلستون، سي. أس، كل من السيد ماسون، والسيد روبرت هولاند، والسيد هينسون، والسيد هاريسون إينزورث، وأربعة أشخاص آخرين، على متن منطاد موجه، يحمل اسم «فكتوريا»، بعد رحلة استمرّت خمساً وسبعين ساعة من طرفٍ إلى آخر من الأرض! وإليكم التفاصيل الكاملة للرحلة!.

انتشرت فرحة غامرة شملت جميع الناس *jeu d'esprit* لدى قراءة تلك العناوين مكتوبة بحروفٍ عريضة جميلة، امتزجت بتعليقات تُعبّر عن الانبهار، بعد أن نُشر الخبر في الأصل في صحيفة «نيويورك صن» اليومية، وبهذا فقد أفادت تماماً في خلق حالة عسر هضمٍ لدى الأفاقين المُثرثرين خلال الساعات القليلة التي أعقبت وصول بضع رسائل إلى شارلستون. كان اندفاع الناس للحصول على «الصحيفة الوحيدة التي نشرت الخبر» خارج نطاق المألوف؛ في الواقع، (كما أكد البعض) إذا كان منطاد «فكتوريا» لم يُنجز الرحلة المُسجلة، سيكون من الصعب حقّاً تحديد السبب الذي حال دون ذلك الإنجاز].

المعضلة الكبرى حُسمت أخيراً! الغلاف الجوي، الأرض والمُحيط، قهرها العلم، وسوف يُصبح كل ذلك طريقاً مُمهّداً يسلكه البشر. لقد تمّ عبور المُحيط الأطلسي حقّاً على متن منطاد! حدث الأمر دون صعوبة تذكر.. دون مواجهة أي خطر واضح.. في سيطرة تامة على الآلة.. وخلال فترة وجيزة لا يُمكن تصوّرها لا تتجاوز خمس وسبعين ساعة من الساحل إلى الساحل! كل ذلك تحقق بفضل شخصٍ من شارلستون، ساوث كارولينا، استطعنا أن نكون أول من يوفّر

للجماهير هذه الرحلة الاستثنائية، التي تمّت بين يوم السبت، الدقيقة 6 الساعة 11 صباحاً، إلى الساعة 2 ظهراً، من يوم الثلاثاء، الدقيقة 9، وقام بها سر إيفرارد برنغهرست؛ والسيد أوزبورن، وهو ابن أخت اللورد بينتنغ؛ والسيد مونك ماسون والسيد روبرت هولاند، الطيار المعروف؛ والسيد هاريسون آينزورث، مؤلف كتاب «جاك شيبارد»، إلخ.. والسيد هينسون، مُخترع آلة الطيران التي لم تنجح.. مع اثنين من البحارة القادمين من وولوتش.. أي: ما مجموعه ثمانية أشخاص. والتفاصيل التي سوف تُذكر في أدناه تستند إلى مصادر موثوقة ودقيقة في كل نواحيها، باستثناء شيءٍ واحد، أنّها مُستنسخة حرفياً من مُذكرات مُشتركة كتبها كل من السيد مونك ماسون والسيد هاريسون آينزورث، إذ يُدين مندوبنا إلى لطف وكرم هذين السيدين في الاستفادة من [673]المعلومات الحقيقية فيما يتعلّق بالمنطاد نفسه، وتركيبته، وأمور أُخرى ذات أهمية. التغيير الوحيد على الرسالة التي تمّ استلامها أجري لإضفاء نوعٍ الترابط المفهوم على كتابات مندوبنا السيد فورسايث.

«المنطاد»..

«أجريت مؤخراً تجربتان فشلتا فشلاً ذريعاً.. من قبل السيد هينسون وسر جورج كايلي[1].. فأدى ذلك إلى إضعاف اهتمام الناس بموضوع الملاحة الجوية. تعتمد خطة السيد هينسون (التي رأى حتى العلماء منذ البداية أنّها من السهل جدّاً أن تتحقّق) على مبدأ السطح المُنحني، ينطلق إلى علو شاهق بتأثير قوة خارجية، تُسلطها باستمرار ريش مُدمجة دوارة، في شكلها وعددها تُشبه ريش طواحين الهواء. لكن، في كل التجارب التي أُجريت على نماذج مُماثلة في معرض إديلايد، اتّضح أنّ هذه المراوح لم تفشل في أن تدير الآلة فحسب، بل كانت في الواقع تُعيق طيرانها. كانت القوة الدافعة الوحيدة التي أظهرتها المراوح تتمثّل فقط في الزخم المُكتسب من انحدار السطح المائل؛ وهذا الزخم كان يحمل

(1) سر جورج كايلي (1773- 1857) عالم بريطاني يُسمى الآن أب علم الملاحة الجوية. [المترجم]

الآلة إلى مسافة أبعد حين تكون المراوح ساكنة، وليس وهي في حالة حركة.. وتلك حقيقة كافية لإثبات عدم جدواها؛ وفي حال غياب قوة الدفع، وقدرة التوازن أيضاً، فالتركيبة كلها بالضرورة تستمر بالانحدار. هذه الاعتبارات قادت سر جورج كايلي للتفكير في تحوير مروحة داسرة تُركّب على نوعٍ من الآلات التي تتضمّن في ذاتها قوة إسناد مستقلة.. بعبارة أُخرى، تركيبها على منطاد؛ كانت هذه فكرة جديدة تماماً، ومبتكرة، وهي من بنات أفكار سر جورج، قدر تعلّق الأمر بتطبيقها ووضعها موضع التجربة. وقام الرجل بعرض نموذجٍ أولي لاختراعه في مؤسسة بوليتيكنك. كان مبدأ الدفع، أو القدرة الدافعة، يُطبق هُنا أيضاً على سطوح مُنفصلة، أو مراوح، تكون في حالة دوران. هذه المراوح عددها أربع، لكنه وجدها غير مُجدية لتحريك المنطاد، أو تفعيل قدرته على الصعود. وبهذا كان مصير المشروع كله الفشل الذريع».

«في هذه المرحلة الحاسمة جاءت فكرة السيد مونك ماسون (الذي أحدثت رحلته من ميناء دوفر إلى ويلبورغ على متن منطاد ناسو إثارة كبيرة سنة 1837) وتضمّنت استخدام مبدأ لولب أرخميدس للحصول على قوة دفع مصدرها الهواء.. وهُنا يكْمن السبب الحقيقي لفشل خطة السيد هينسون، وكذلك سر جورج كايلي، في [674]تقاطع السطح مع مراوح مُستقلة. وأجريت أول تجربة علنية في ويليس رومز، لكنه بعد ذلك قام بنقل نموذجه إلى معرض إديلايد».

«مثل منطاد سر جورج كايلي، كان منطاده هذا مُجسماً للقطع الناقص. لقد بلغ طول المنطاد ثلاثة عشر قدماً وست بوصات.. وارتفاعه ستة أقدام وثمان بوصات. وكان يحتوي على نحو ثلاثمائة وعشرين قدماً مُكعباً من الغاز، فإذا كان ذلك من الهيدروجين النقي من شأنها أن ترفع ما يصل وزنه إلى واحد وعشرين رطلاً من أول مُحاولة اشتعال، قبل أن يكون لدى الغاز وقتٌ كاف للتبدد أو التسرب. كان الوزن الإجمالي للجهاز سبعة عشر رطلاً.. وهُناك أربعة أرطال احتياطية تقريباً. تحت الجزء الأوسط للمنطاد يوجد هيكل من الخشب الخفيف، طوله نحو تسعة أقدام، ويرتبط بالمنطاد نفسه بواسطة شبكة وفق النمط المُتعارف عليه. من هذا الهيكل تتدلّى سلة أو عربة صُنعت من الأغصان المجدولة».

«اللولب يتألّف من محور على شكل أنبوب نحاسي أجوف، طوله ثمان عشرة بوصة، تمرّ من خلاله في حركة شبه لولبية مُنحرفة بمقدار خمس عشرة درجة، سلسلة من الأسلاك الفولاذية على شكل أذرع نصف قطرية، طولها قدمان، وبهذا فهي تنتأ إلى الخارج بمقدار قدم على كل جانب. هذه الأذرع مُرتبطة في نهاياتها الخارجية بوصلتين من الأسلاك المُستوية.. وبهذه الطريقة يكون الشكل الكلي للهيكل شبيهاً باللولب، ويكمل ذلك غطاءٌ من قماش حريري مدهون مُقطّع إلى أجزاء تُشبه القرون، ومربوط بطريقة تجعله يُشكّل سطحاً مُنتظماً. في كل طرف من محوره، يدعم هذا اللولب بأعمدة جوفاء من النحاس تنزل من الأنشوطة. أما في الأطراف السّفلى لهذه الأنابيب فهُناك فتحات تتحرّك فيها التروس الدوّارة للمحور. من طرف المحور المُجاور لعربة المنطاد يمتد قضيبٌ من الفولاذ، يربط اللولب مع نتوء في قطعة نابض حلزوني مُتحرّك مُثبّت في العربة. من خلال تدوير هذا النابض الحلزوني، فذلك يؤدي إلى دوران بسرعة عالية، وتنتقل حركة مُستمرة إلى الماكنة ككل. وبواسطة الدفة، تُدار الماكنة بسهولة في أي اتّجاه. يمتاز النابض الحلزوني بالمتانة الشديدة، بالقياس إلى أبعاده، فهو قادر أن يحمل ما يبلغ وزنه خمسة وأربعين رطلاً على برميل قطره أربع بوصات، وبعد الدورة الأُولى، تزداد قدرته تدريجياً مع ازدياد الدوران. يزن النابض ثمانية أرطال وست أونصات تماماً. أما الدفة، فهي عبارة عن إطار خفيف من القصب مُغطى بالقماش، وتتّخذ شكل باب مُنزلق بعض الشيء، وطولها تقريباً ثلاثة أقدام، وتمتد إلى قدمٍ واحد في أعرض مكان فيها. ووزنها حوالى أونصتين. يُمكن للدفة أن تدار عرضياً، وتوجّه إلى الأعلى أو الأسفل، فضلاً عن إمكانية توجيهها إلى اليمين واليسار؛ وبهذا فهي تُتيح للطيار أن ينقل مُقاومة الهواء، التي لا بُدّ أنّها تتولّد أثناء مرور الهواء على سطحٍ مائل، إلى أي جانب يشاء الاتّجاه إليه؛ وبذلك يُحدد مسار المنطاد ضمن الاتّجاه المعاكس».

«هذا النموذج (بسبب ضيق الوقت ربّما وصفناه باختصار) كان قد وضع [675]موضع العمل في معرض إديلايد، حيث حقّق سرعة خمسة أميال في

الساعة؛ مع أنّه، وهذا شيء من الغريب قوله، أثار القليل جدّاً من الاهتمام بالقياس إلى الماكنة المُعقدة السابقة للسيد هينسون.. إذ كان العالم قد حزم أمره على احتقار أي شيء يحمل طابع البساطة. من أجل أن تتحقّق أُمنية الملاحة الجوية، كان يفترض عموماً التوصل إلى صنع وسيلة مُعقّدة جدّاً تعتمد استثنائياً على مبدأ مُربك من مبادئ الديناميكا».

«لكن السيد ماسون كان مُقتنعاً بالنجاح النهائي لاختراعه، بحيث قرّر أن يصنع منطاداً على الفور، إذا استطاع ذلك، له قدرة تكفي لحسم المسألة من خلال رحلة ذات نطاق مُحدّد.. وكانت الخطة الأصلية تقتضي عبور القنال الإنكليزي، كما حدث في السابق، على متن منطاد ناسو. بغية تنفيذ طموحاته، التمس الحصول على رعاية سر إيفرارد برنغهرست والسيد أوزبورن، وهما رجلان معروفان جدّاً بتشجيع الاختراعات العلمية، وخاصة بسبب الحماس الذي أبدياه بشأن تقدّم الرحلات الجوية، وبالفعل حصل على تلك المُساعدة. نزولاً عند رغبة السيد أوزبورن، بقي المشروع طي الكتمان ولم يُعلن عنه شيء على الملأ.. كان الأشخاص الوحيدون الذين استؤمنوا للاطلاع على الخطة أولئك الذين كانوا في الواقع مُشتركين في صنع هذه الماكنة التي بنيت (تحت إشراف السيد ماسون، والسيد هولاند، وسر إيفرارد برنغهرست، والسيد أوزبورن)، في مقرّ إقامة الرجل الأخير بالقرب من بينستروثال، مُقاطعة ويلز. لقد سمح للسيد هينسون، يُرافقه صديقه السيد آينزورث، بإلقاء نظرة عن قرب على المنطاد، وكان ذلك في يوم السبت الماضي.. حين أدخل الرجلان التعديلات الأخيرة على خطة هذه المُغامرة. إنّنا لا نعلم لأي سبب كان على اثنين من البحارة الانضمام أيضاً إلى فريق الرحلة.. لكن، بعد يوم أو يومين، ربّما نُطلع قراءنا على أدق التفاصيل فيما يتعلّق بهذه الرحلة الغريبة».

«لقد صُنع هيكل المنطاد من القماش، الذي طُلي بطبقة من الغراء السائل المطاط؛ وقياساته هائلة، إذ يحتوي على أكثر من 40 ألف قدم مكعّب من الغاز؛ ولأنّ غاز الفحم استخدم بدلاً من الهيدروجين الأغلى ثمناً والذي لا يُناسب هذا الغرض، فإنّ قوة دفع الماكنة، حين تمتلىء بالغاز إلى أقصى حد،

مُباشرة بعد النفخ، تتجاوز حوالى 2500 رطل. إنّ غاز الفحم ليس أقلّ كلفة فحسب، بل من السهولة إيجاده واستعماله».

«نحن مدينون في مجال إدخال الغاز للاستعمال الاعتيادي لنفخ المناطيد إلى [676]السيد شارلس غرين. قبل اكتشافه هذا، لم تكن عملية نفخ المناطيد مُكلفة جدّاً فحسب، بل غير مضمونة النتائج. كان يضيع يومان، وحتى ثلاثة أيام في كثير من الأحيان في محاولات عقيمة لشراء ما يكفي من الهيدروجين لملء أحد المناطيد، وكان من السهولة جدّاً أن يتسرّب الغاز من المنطاد لخفته البالغة وسهولة اختلاطه بالهواء الجوي الذي يُحيط به. في أيّ منطاد مصنوع بمتانة كافية للاحتفاظ بمُحتوياته من غاز الفحم دون حدوث أي تغيير، سواءً في النوعية أو الكمية، لمدة ستة أشهر، فإنّ كمية مُماثلة من الهيدروجين لا يُمكن الاحتفاظ بها بالنقاء نفسه لمدة ستة أسابيع».

«تقدّر القدرة الدافعة للمنطاد بـ 2500 رطل، ومُجمل أوزان الأشخاص الذين يحملهم لا تتعدّى 1200، إذن يبقى فائضٌ يصل إلى 1300، من هذا الفائض تستقطع أثقال الموازنة التي تقدر بـ 1200 رطل أُخرى، وهي مُرتّبة في أكياس مُختلفة الأحجام، مع علامات دالة على أوزانها مؤشرة عليها.. إضافة إلى الحبال، والبارومترات، والتلسكوبات، وبراميل تحتوي على مؤنٍ تكفي لمدة أُسبوعين، وحاويات مياه، وأغطية، ورزم من البُسط، ومواد أُخرى لا يُستغنى عنها، منها غلاية قهوة، وذلك للاستغناء كلياً عن النار، إذا كان من الصواب اللجوء إلى النار. كل هذه المواد، باستثناء أثقال الموازنة، وبعض الأشياء التافهة الأُخرى، كانت تتدلّى من أنشوطة فوق الرأس. وعربة المنطاد أصغر وأخف وزناً نسبياً من تلك العربة التي ألحقت بالنموذج التجريبي للمنطاد. إنّها تتألف من سلة خفيفة من الأغصان المجدولة، وهي قوية بشكل مُمتاز، بالقياس إلى ماكنة تبدو مُتداعية. وحافة السلة عمقها تقريباً أربعة أقدام. أما الدفة، فهي أضخم من دفة النموذج الأولي؛ واللولب أصغر حجماً على نحو مُميّز. وقد زوّد المنطاد إلى جانب ذلك بمرساة، مع حبلٍ للتوجيه؛ وهذا الحبل له أهمية كبيرة بحيث لا يُمكن الاستغناء عنه. من شأن بضع كلمات تُقال هُنا في وصف هذه المسألة

أن تكون مُفيدة لأولئك القرّاء الذين ليس لديهم اطّلاع على تفاصيل الرحلات الجوية».

«حالما يرتفع المنطاد عن الأرض، يُصبح خاضعاً لتأثير عدة عوامل تميل إلى خلق اختلالٍ في وزنه؛ فهي تضاعف أو تُقلص قدرته على الارتفاع. على سبيل المثال، ربّما يحصل تراكم للندى فوق القماش إلى درجة يصل فيها وزنه إلى عدة مئات من الأرطال؛ عندئذ ينبغي إلقاء أثقال موازنة، وإلّا فإنّ الماكنة ربّما تهبط. فإذا ألقيت أثقال الموازنة هذه، وأدّت أشعة الشمس الصافية إلى تبخير الندى، وفي الوقت نفسه يتمدّد الغاز في القماش، سوف يستعيد المنطاد سرعته في الصعود. من أجل التأكد من الصعود، فالإجراء الوحيد هُنا، (أو بالأحرى كان إلى أن اخترع السيد غرين حبل التوجيه)، يتمثّل في السماح لتسرّب الغاز من الصمام؛ ولكن في [677]حالة فقدان الغاز فهذا يعني خسارة مُماثلة في القدرة الإجمالية على الصعود؛ إذن، خلال فترة وجيزة نسبياً، لا بُدّ لأي منطاد حتى لو صُنع بأفضل الطّرق أن يستنفد كل موارده، ويهبط إلى الأرض. وهذه عقبة خطيرة كانت تواجه الرحلات الجوية منذ فترة طويلة».

«يؤدي وجود حبل التوجيه إلى معالجة هذه المشكلة بأبسط الطّرق التي يُمكن تخيّلها. إنّه مجرّد حبلٍ طويل جدّاً يتدلّى من عربة المنطاد، والغرض منه أن يمنع المنطاد من تغيير مُستوى ارتفاعه إلى درجة ملموسة. إذا، على سبيل المثال، حدث تراكم للرطوبة على القماش، وبدأت الماكنة بالهبوط نتيجة ذلك، فلن تكون ثمّة ضرورة للتخلّص من أثقال موازنة لتدارك زيادة الوزن، لأنّ المسألة تكون قد حُسمت، في نسبة كبيرة منها، وذلك بأن يُرمى إلى الأرض جزءٌ كبير من الحبل بحسب الضرورة. أما إذا اقتضت الظروف من ناحية أُخرى حدوث خفة غير مُلائمة تؤدي إلى زيادة الصعود، فهذه الحالة تواجه على الفور من خلال الوزن الإضافي للحبل الذي يُرفع عن الأرض. وبذلك، لا يُمكن للمنطاد أن يصعد أو يهبط إلّا ضمن حدودٍ ضيقة، وتبقى موارده من الغاز أو أثقال الموازنة في حالة ثابتة نسبياً. لدى المرور فوق مساحات واسعة من المياه، يكون من

الضروري استخدام كل براميل النحاس أو الخشب الصغيرة التي تُملأ عادة بسائل أخف من الماء في طبيعته لتكون بمثابة أثقال موازنة. هذه البراميل تطفو، وتفيد جميعها كحبل يتدلّى على الأرض. وهُناك وظيفة مهمة أُخرى لحبل التوجيه، وهي أنّه يُحدّد اتّجاه المنطاد. يتدلّى الحبل، على الأرض أو على البحر، بينما يكون المنطاد طليقاً؛ فيكون المنطاد دائماً في حالة تقدّم، حين يتحقّق أي تقدّم مهما كان مقداره: فإذا أُجريت مُقارنة بواسطة البوصلة بين المواقع النسبية للمنطاد والحبل فإنّها تُشير دائماً إلى مسار المنطاد. وبالطريقة نفسها، فإنّ الزاوية التي تتشكّل من الحبل مع المحور العمودي للماكنة، تُشير إلى السرعة. وعندما لا توجد زاوية.. بمعنى آخر، إذا كان الحبل يتدلّى بصورة مُتعامدة، فالجهاز كله يكون في حالة استقرار؛ لكن كلّما كانت الزاوية أكبر، بعبارة أُخرى، كلما كان المنطاد يبتعد عن طرف الحبل، تزداد السرعة؛ والعكس بالعكس».

«لأنّ الخطة الأصلية كانت تقتضي عبور القنال البريطانية، والاقتراب قدر الإمكان من باريس، كان المُسافرون قد أخذوا احتياطاتهم وهيأوا أنفسهم فاصطحبوا معهم جوازاتهم التي تسمح لهم بزيارة كل أجزاء أوروبا، وتلك من المزايا التي حدّدت طبيعة الرحلة الاستكشافية، كما حصل في رحلة ناسو، فذلك يؤهل المغامرين للاستثناء من الإجراءات المكتبية الرسمية؛ إلّا أنّ بعض الحوادث غير المُتوقعة جعلت هذه الجوازات عديمة النفع.

«ابتدأت عملية نفخ المنطاد في هدوءٍ تام عند الفجر، صباح يوم السبت، [678]الساعة السادسة، في ساحة منزل ويلفور، وهو موقع إقامة السيد أوزبورن، على بُعد ميل تقريباً عن بنستروثال، شمال ويلز؛ وفي الساعة 11 و 7 دقائق، أصِبح كل شيء جاهزاً للانطلاق، وتحرّر المنطاد، فارتفع ارتفاعاً خفيفاً، لكن في ثبات، متجهاً إلى الجنوب؛ لم يلجأ، خلال نصف الساعة الأُولى، إلى استعمال اللولب أو الدفة. نحن نتابع الرحلة الآن كما وردت في دفتر اليوميات، وكما وصفها السيد فورسايث من خلال الرسائل المُشتركة التي بعثها كل من السيد مونك ماسون، والسيد آينزورث. لقد وردت الكتابات كلها في دفتر اليوميات بخط يد السيد ماسون، وهُناك خاتمة مُرفقة كمُلحق؛ في كل يوم كان

السيد آينزورث، الذي يبدو أنّه قد استعدّ لذلك، يدوّن مُشاهداته الدقيقة التي سوف نقدّمها عما قريب، ولا شكّ أنّها تُشكّل وصفاً مُثيراً وعجيباً بعض الشيء لمجريات الرحلة».

دفتر اليوميات

«السبت، 6 نيسان.. اتُّخذت كافة الإجراءات التي كان من المُحتمل أن تُسبب لنا بعض المتاعب، أثناء الليل، ثم انطلقنا إلى نفخ المنطاد في صباح هذا اليوم مع بزوغ الفجر؛ ولكن بسبب الضباب الكثيف، الذي أدّى إلى انبعاج طيات القماش وجعلها غير طيّعة، فلم ننطلق في رحلتنا إلا بعد الساعة الحادية عشرة. ومن ثمّ قطعنا الحبال التي تُقيدنا إلى الأرض، وكنّا وقتذاك نتمتع بروح معنوية عالية، واخذ المنطاد يرتفع بنا بسرعة هينة، لكن في ثبات، وكان يُداعب وجوهنا نسيمٌ عليل من الشمال، حملنا باتّجاه القنال الإنكليزي. رأينا أنّ قُدرتنا على الارتفاع كانت أكبر ممّا توقّعنا؛ ومع استمرار الصعود استطعنا رؤية منظر واضح للمُرتفعات الصخرية، وتلمّسنا أشعة الشمس وهي تلفح وجوهنا، وأصبح صعودنا أسرع شيئاً فشيئاً. لكنّي لم أكن أرغب في أن أفقد كمية من الغاز في هذه المرحلة المُبكرة من المُغامرة، لذلك قرّرت الاستمرار في الصعود حالياً فحسب. وسرعان ما أنزلنا حبل التوجيه وتركناه يتدلّى؛ وحتى عندما رفعناه عن الأرض، استمرّ صعودنا بسرعة كبيرة. كان المنطاد مُستقرّاً على نحو غير اعتيادي، ويبدو منظره لطيفاً. بعد حوالى عشر دقائق من الرحلة، كان البارومتر يُشير إلى ارتفاع 15،000 قدم. والجو رائع بصورة مُميزة، ومنظر البلاد المُجاورة.. يا له من منظرٍ رومانسي يُمكن أن يراه المرء من أي نقطة.. الآن كان كل شيء فائق الروعة بصفة خاصة. أظهرت لنا الأخاديد المُتعدّدة العميقة ما يُشبه بحيرات، بسبب الأبخرة الكثيفة التي تكتنفها، والهضاب والصخور الشامخة التي رأيناها إلى الجنوب الشرقي تتكوّم في فوضى عارمة، فلا تُشبه أي شيء بقدر شبهها بالمدن العملاقة في حكايات الشرق الخُرافية. كنّا نقترب رويداً من جبالٍ في الجنوب؛ إلّا أنّ ارتفاعنا كان أكثر من كاف ليُتيح لنا [679]المرور فوقها بأمان. في غضون

بضع دقائق كنا نُحلّق فوق الجبال في انسياب رائع؛ واستغرب السيد آينزورث، وكذلك البحارة، من الاستمرار الواضح في الارتفاع حين ينظر إليه المرء من العربة، فمن الأشياء المعروفة إذا تحقّق ارتفاع هائل في المنطاد أن يقلّ الاختلال في السطح التحتي حتى يكاد ينعدم. في الساعة الحادية عشرة ونصف، كنّا مُستمرين في التقدّم جنوباً، حتى تمكنّا أخيراً من رؤية قناة بريستول لأوّل مرة؛ وبعد خمس عشرة دقيقة، ظهرت لنا خطوط تتكسّر عليها الأمواج على الساحل تحتنا مُباشرة، ثم لم نلبث أن انطلقنا فوق البحر في سهولة. وهُنا قرّرنا التخلّي عن كمية من الغاز من اجل أن نرفع حبل التوجيه، والطوافات مُثبتة عليه، بحيث يُصبح فوق الماء. وأنجزنا هذا على الفور، وبدأ المنطاد يهبط تدريجياً. في غضون عشرين دقيقة تقريباً أسقطنا أول طوافة، ومع سقوط الطوافة الثانية بعدها بقليل، بقينا ثابتين في مكاننا على ذلك الارتفاع. كنّا جميعاً مُتلهّفين الآن لاختبار مدى فعالية الدفة واللولب، فشغلناهما حالاً، وذلك لغرض تغيير اتّجاهنا أكثر نحو الشرق، والبقاء على مسار يقودنا إلى باريس. بواسطة الدفة أجرينا في الحال التغيّر الضروري على الاتّجاه، وأصبح مسارنا يتّخذ زوايا قائمة مع اتّجاه الريح؛ عندما حركنا نابض اللولب، ذهلنا حين وجدناه يدور في سهولة كما كنّا نرغب. عندها أطلقنا نحن التسعة صيحات فرح من قلوبنا، وأسقطنا إلى البحر قنينة فيها رسالة مخطوطة كتبنا فيها وصفاً لمبدأ هذا الاختراع الذي توصّلنا إليه. ولكن ما كدنا ننتهي من صيحات الفرح، حتى وقعت حادثة غير مُتوقعة أحبطت هممنا إلى درجة كبيرة. لقد انخلع العمود الفولاذي الذي يربط النابض مع المروحة فجأة من مكانه، في طرف عربة المنطاد (حدث ذلك بعد أن تمايلت العربة نتيجة تحرك أحد البحارة الذين اصطحبناهم معنا أو اثنين منهم) وخلال لحظة صار يتدلّى بعيداً عن مُتناول أيدينا، من محور اللولب. وبينما كنّا نُحاول استعادته، جذب انتباهنا شيءٌ آخر، إذ غمرتنا رياحٌ تأتي من جهة الشرق، وحملتنا بقوة تتزايد سرعتها باستمرار، باتّجاه المُحيط الأطلسي. ولم يمضِ وقتٌ طويل، إلا وجدنا أنفسنا ننجرف نحو البحر في معدل سرعة لا يقلّ حتماً عن خمسين أو ستين ميلاً في الساعة، بحيث وصلنا إلى كيب كلير، على بُعد نحو أربعين ميلاً إلى الشمال، قبل أن نتمكّن من تثبيت العمود في مكانه، وقبل أن نحصل على وقت

لنفكّر في الاتّجاه الذي كنّا نسلكه. وهُنا تقدم السيد آينزورث باقتراحٍ غريب، لكنّه كما تصوّرت لم يكن بعيداً عن المنطق أو خيالياً، ثم جاء اقتراح آخر من السيد هولاند.. وهو كالتالي، ينبغي علينا أن ننتهز فرصة الرياح العاتية التي تحملنا الآن، وبدلاً من الرجوع أدراجنا إلى باريس، فمن المُمكن أن نُحاول الوصول [680]إلى ساحل شمال أمريكا. بعد قليلٍ من التأمل أبديت موافقتي على هذا الاقتراح الجريء، الذي (ومن الغريب أن نقول هذا) لقي مُعارضة من البحارة فقط. ولكن بما أنّنا كنّا نُمثل الطرف الأقوى، فقد تجاهلنا مخاوفهم، ومضينا على مسارنا في إصرار. واتّجهنا إلى الغرب؛ ولكن لأنّ الطوافات التي نُجرجرها كانت من الناحية الفعلية تُعيق تقدّمنا، ولأنّنا كنت مُسيطرين تماماً على حركة المنطاد، سواءً في الصعود أو الهبوط، فقد ألقينا في البداية خمسين رطلاً من أثقال الموازنة، ثم لففنا الحبل (باستعمال مرفاع المرساة) حتى أصبح خارج مياه البحر. وتلمّسنا تأثير هذه المُناورة على الفور من خلال زيادة كبيرة في مُعدل التقدّم؛ وبينما خفتت حدة العاصفة، كنا نُحلّق بسرعة تكاد تكون غير قابلة للتصوّر؛ وكان حبل التوجيه يتدلّى وراء عربة المنطاد، كأنّه خط من الدخان ينبعث من مركب بُخاري. لا داعي للقول: إنّ مدة قصيرة جدّاً من الزمن كانت تكفي لأن يختفي الساحل عن أبصارنا. وعبرنا فوق أعداد لا تُحصى من السفن من كل الأنواع، بعضها كانت تُحاول اللحاق بنا، لكن أغلبها تقهقرت وراءنا. وأحس كل من كان على متن المنطاد بأقصى درجات المتعة والإثارة، وهي متعة أحسسنا بمذاقها الحلو في أعماقنا، وأحس بها خاصة هذان الرجلان اللذان كانا الآن خاضعين لتأثير شراب جنيف، وبدا أنّهما قررا التخلّي عن كل الوساوس، أو المخاوف، وتسليم أمرهما للريح. وأطلقت عدة مراكب شعل إشاراتٍ من بنادقها؛ وكنّا نتلقّى الترحاب من كل مركب صادفنا مع هتافات عالية (نسمعها في وضوح مُثير للاستغراب) وكانوا يلوّحون لنا بالقبعات والمناديل. وبقينا على هذا النمط من الطيران طوال النهار، فلم يقع حادث يُذكر، ومع دنو ظلال الليل، توصلنا إلى تخمين تقريبي للمسافة التي قطعناها. لم تكن بأي حال أقل من خمسمائة ميل، وربّما أكثر. كانت المروحة تعمل باستمرار، ولا شكّ أنّها ساعدت فعلاً على قطع تلك المسافة. ومع غياب الشمس تحوّلت العاصفة إلى

إعصار أهوج، والمُحيط المُمتد تحتنا كان مرئياً بسبب الأنوار الفسفورية التي تنعكس عليه. وبقيت الريح تهبّ من الشرق طوال الليل، ومنحتنا كل بشارة للأمل المُشرق في نجاحنا. عانينا غير قليل من البرد، ورطوبة الجو الخانقة؛ إلّا أنّ الحيز الفسيح في عربة المنطاد أتاح لنا أن نستلقي، وباستخدام العباءات وبعض الأغطية، تدبرنا أمرنا لكي نحصل على قسطٍ من الراحة.

«خاتمة. (كتبها السيد آينزورث) كانت الساعات التسع الأخيرة هي أكثر الأوقات نشوة وإثارة في حياتي بلا مُنازع. لا يُمكنني تصوّر شيء أكثر سموّاً من الخطر المُميز والابتكار في مُغامرة مثل هذه. نتمنّى على الله أن ننجح في مساعينا! لست أنشد النجاح من أجل السلامة لنفسي فحسب، بل من أجل المعرفة البشرية و.. [681]من أجل روعة الانتصار. ومع ذلك فالنجاح لا يُمكن أن يتحقّق بأسهل من هذا فيما يظهر بحيث أتساءل عن السبب الذي يجعل الناس يتوجسون من الإقدام عليه سابقاً. إنّ عاصفة وحيدة مثل هذه التي شاهدناها الآن عملت على تقوية عرى الصداقة فيما بيننا.. فلتندفع العاصفة إلى الأمام أربع أو خمس ساعات (فهذه العواصف غالباً ما تستمر طويلاً) وسوف تحمل الرحالة بسهولة، في تلك الأثناء، من ساحلٍ إلى ساحل. على ضوء هذه العاصفة يُصبح الأطلسي الشاسع الأبعاد مُجرّد بحيرة. اشعر بالذهول، الآن فحسب، بإزاء الصمت المُطبق الذي يُهيمن على البحر من تحتنا، على الرغم من هيجانه، أكثر من اندهاشي لأي ظاهرة أُخرى تتجلّى لنا. كانت المياه تصدر صوتاً كأنّما تُنادي السماء. والمُحيط الشاسع المُضطرب يتلوّى ويتعذّب دون أن يشكو. والجبال في تموّجها وجيشانها توحي بفكرة عن شياطين عملاقة خرساء لا تُحصى تُكافح في آلامِها التي تعجز عن الإفصاح عنها. في ليلةٍ مثل هذه بالنسبة لي، الإنسان يعيش.. يعيش قرناً كاملاً من حياة اعتيادية.. ولن أتخلّى عن نشوة الطرب هذه مُقابل قرنٍ كامل من الوجود[2].

---

(2) اقتباس من أبيات شهيرة للسر والتر سكوت «ساعة واحدة من حياة مُترعة بالمجد.. تُساوي عمراً كاملاً من غير عنوان» قصيدة الموت الغابر. [المترجم]

«الأحد، اليوم السابع. (رسالة السيد ماسون) في هذا الصباح اختفت العاصفة، بعد أن بلغت سرعتها 10 عقدة، حتى وصلت إلى ثمان أو تسع عقد.. تحوّلت إلى نسيم، (بالنسبة إلى أي مركب يجوب البحر) وكانت تدفعنا، ربّما، بمعدل ثلاثين ميلاً في الساعة، أو أكثر. طرأ عليها تحول مُميّز جدّاً مع ذلك في جهة الشمال؛ والآن، مع غروب الشمس، كنّا نُحافظ على مسارنا باتّجاه الغرب اعتماداً أساساً على اللولب والدفة، اللتين كانتا تؤديان أغراضهما بصورة مُثيرة للانبهار. إنّني اعتبر المشروع ناجحاً تماماً، فالملاحة الجوية السهلة في أي اتّجاه (ليس تحت قبضة العاصفة) لم تعُد مصحوبة بأي نوع من المشاكل. لم يكن باستطاعتنا تحقيق تقدمٍ ملموس ضد الريح القوية يوم أمس؛ لكن من خلال الصعود ربّما كان في وسعنا التخلص من تأثيرها، إذا كان ذلك ضرورياً. مع هبوب نسيمٍ لطيف ثابت، أشعر بالاقتناع، أنّنا نستطيع أن نكمل طريقنا بمُساعدة المروحة. ومع مُنتصف نهار اليوم، ارتفعنا إلى 25،000 قدم تقريباً، بعد أن تخلّصنا من أثقال موازنة. فعلنا ذلك بغية البحث عن تيار مُباشر أقوى، لكنّنا لم نواجه تياراً لطيفاً أفضل من ذلك الذي كان يدفعنا الآن. كان لدينا أيضاً مخزون وفير من الغاز يُمكن أن يحملنا لنعبُر هذه البحيرة الصغيرة، حتى لو استمرّت الرحلة ثلاثة أسابيع. لم يساورني أدنى شكّ في النتيجة. لقد بالغنا على نحو غريب في تقدير الصعوبة التي تعترض طريقنا ولم نكن صائبين في استيعابها. يُمكنني الآن أن أختار التيار الذي أريد، فإذا وجدت كل التيارات تهب في الضد من إرادتي، علي إجراء أي تغيير مرغوب بواسطة المروحة. لم تقع أي حوادث تستحق الذكر. وكان الليل يُبشر بآمال عريضة».

خاتمة. [كتبها السيد آينزورث] لديّ شيءٌ قليل لأُسجله، باستثناء حقيقة (تُثير الاستغراب في رأيي)، أنّني عند ارتفاع مُماثل لارتفاع جبل كوتوباكسي في الانديز، [682]لم أحس بالبرد الشديد، ولا عانيت من صداعٍ في الرأس، ولا واجهت صعوبة في التنفّس؛ كذلك لم أجد السيد ماسون، ولا السيد هولاند، ولا سر إيفرارد، ولا السيد أوزبورن يشكون من انقباض في الصدر.. غير أن هذا سرعان ما تغير. كنا نطير بمعدل سرعة عظيم خلال النهار، ولا بد أننا وصلنا إلى

أكثر من نصف المسافة عبر الأطلسي. مررنا بأكثر من عشرين أو ثلاثين سفينة من أنواع مُختلفة، وكل من رأيناهم عليها كان يبدو عليهم الاندهاش والفرح. ليس عبور المُحيط في منطاد بالمُغامرة الصعبة على كل حال. «كلّ شيء مجهول يعتقد الناس أنّه صعب المنال»[3] *Omne ignotum pro magnifico*. ملاحظة: عندما وصلنا إلى ارتفاع 25،000 قدم بدت لنا السماء شبه سوداء، ورأينا النجوم واضحة للعيان؛ بينما لم يكن البحر مُحدباً (كما يفترض المرء) لكنه بدا مُقعراً تماماً بصورة لا لبس فيها[*].

«الإثنين، اليوم الثامن. [رسالة السيد ماسون] في صباح هذا اليوم واجهتنا مرة أُخرى صعوبة بسيطة مع عمود المروحة، الذي كان لا بُدّ من تبديله كله، خشية وقوع حادث خطير.. أعني العمود الفولاذي.. وليس الريش نفسها. فالريش لا يُمكن عمل شيء لتحسين أدائها. كانت الرياح تهب بثبات وقوة من الشمال الشرقي طوال النهار ويبدو أنّ الحظ كان حتى الآن يمضي لصالحنا. قبل يوم فقط، انتبهنا جميعاً إلى ضوضاء غريبة بعض الشيء وإلى ارتجاج في المنطاد، وترافق ذلك مع خمودٍ سريع واضح في حركة الماكنة كلها. هذه الظواهر حصلت نتيجة تمدّد الغاز، من خلال زيادة حرارة الجو، وما نتج عن تراكم الجزيئات

---

(3) الاقتباس باللاتينية من تاكيتوس (أغريكولا)، 30. [المترجم]

(*) مُلاحظة.. لم يُحاول السيد آينزورث أن يُقدم تفسيراً لهذه الظاهرة، والتي من المشكوك أيضاً أنّها تقبل التفسير. هُناك خط ينحدر من ارتفاع 25,000 قدم عمودياً على سطح الأرض (أو البحر)، ويُشكّل وتراً لمثلث قائم الزاوية تمتد قاعدته من الزاوية القائمة وصولاً إلى الأُفق، ويمتدّ وتر المُثلث من الأُفق إلى المنطاد. لكن ارتفاع 25,000 قدم ليس بالمقدار الكبير ولا يعد شيئاً بالقياس إلى اتّساع الأفق. بعبارة أُخرى، فالمسافة بين قاعدة المُثلث ووتره المُفترض سوف تكون طويلة إذا ما قورنت مع الخط العمودي، بحيث إنّ القاعدة والوتر ربّما كانا مُتوازيين تقريباً. على هذا النحو فإنّ الأُفق الذي يراه الملاح يبدو على مُستوى واحد مع عربة المنطاد، لأن النقطة التي تحته مُباشرة تبدو، وهي فعلاً كذلك، على مسافة كبيرة تحته، وكما يظهر طبعاً، فهي أيضاً على مسافة كبيرة تحت الأُفق. ومن هُنا يأتي الانطباع بالتحدّب؛ وهذا الانطباع لا بُدّ أن يبقى، حتى يصل الارتفاع إلى مدى كبير بالقياس إلى المدى المنظور، وحتى يختفي التوازي الظاهري للقاعدة والوتر.. ويُصبح تحدّب الأرض الحقيقي واضحاً. (المؤلف)

الدقيقة للجليد التي أصبحت تُغطي المنظومة أثناء الليل. ألقينا عدة زجاجات إلى المراكب التي في الأسفل، ورأينا أفراداً على إحدى السفن الكبيرة يلتقطون بعضاً منها.. كانت في ما يبدو [683]إحدى السفن التجارية التي تعمل على خط نيويورك. حاولت أن ألتقط اسمها، لكنّي لم أتأكد منه جيداً. وبواسطة منظار السيد أوزبورن عرفنا أن اسمها شيء من قبيل «اطلنطا». الآن تُشير الساعة إلى 12 ليلاً، ولا زلنا نتّجه إلى الغرب تقريباً، بمعدلٍ سريع. البحر يرسل أنواره الفسفورية بأشكال غريبة».

«خاتمة. [كتبها السيد إينزورث]. الآن الساعة 2 صباحاً، والجو هادىء تقريباً، ما استطعت تخمين ذلك.. من الصعب جداً تحديد هذه المسألة، لأنّنا نتحرك مع اتجاه الريح. لم أنم منذ أن غادرنا ويلفور، لكنّي لم أعد أتحمّل المزيد، وعليّ أن أخلد للنوم. لا يُمكن أن نكون بعيدين الآن عن الساحل الأمريكي».

«الثلاثاء، اليوم التاسع. [رسالة السيد آينزورث]. الساعة الواحدة بعد الظهر. كنا نرى الساحل المُنخفض لجنوب كاليفورنيا. المعضلة الكبرى انتهت. لقد عبرنا الأطلسي.. بنجاح وسهولة عبرناه بمنطاد! الحمد لله! من الذي يقول: إنّ هُناك شيئاً مُستحيلاً بعد الآن؟»!.

دفتر المذكرات يتوقف هُنا. بعض تفاصيل عملية الهبوط رغم ذلك نقلها السيد إينزورث إلى السيد فورسايث. كان الجو هادئاً جدّاً حين رأى الرحالة الساحل لأول مرة، وسرعان ما عرفه البحارة وكذلك السيد أوزبورن. ولأنّ هذا الرجل لديه معارف في فورت مولتراي(4)، تقرّر على الفور الهبوط على مقربة من المكان. تمّ توجيه المنطاد إلى الساحل (إذ انحسر المد، والرمال صلبة، ملساء، وتصلح على نحو مذهل للهبوط) وألقيت المرساة التي علقت على الفور في

---

(4) حصن مولتراي يقع على جزيرة سوليفان بالقرب من ميناء شارلستون، حيث كان إدغار ألن بو جندياً هُناك في سنة 1827. [المترجم]

مكانها. وخرج سكان الجزيرة، والحصن طبعاً، لرؤية المنطاد؛ وكان من الصعوبة أن يصدق أحدٌ بأمر هذه الرحلة العجيبة.. عبور الأطلسي. ألقيت المرساة عند الساعة 2 صباحاً، على وجه الدقة؛ وبهذا وصلت الرحلة إلى نهايتها خلال خمس وسبعين ساعة؛ أو بالأحرى أقل من ذلك، إذا حسبنا الوقت من الساحل إلى الساحل. لم تقع أي حادثة خطيرة. ولم يكن ثمّة خطر حقيقي يُخشى منه في أي وقت. جرى إفراغ المنطاد من الغاز وثُبّت في مكانه دون متاعب؛ وحين كتبت الرسالة التي أخذنا منها هذا السرد أرسلت من شارلستون، وبقيت الجماعة في فورت مولتراي. لم تُعرف على وجه التحديد نواياهم اللاحقة؛ ولكن يُمكننا أن نُعطي وعداً مؤكداً لقرائنا بتوفير معلومات إضافية يوم الإثنين أو في سياق اليوم التالي، على أقصى تقدير.

هذه بلا جدال أكثر مُغامرة عجيبة، أكثرها إثارة للاهتمام، وأكثرها أهمية، التي سبق أن أنجزها أحد أو حتى حاول أن يقوم بها إنسان. أمّا عن نتائجها العجيبة، فمن العبث التكهّن بها الآن.[684]

الرسالة المسروقة

«لا شيء يُكره لدى الإنسان الحكيم أكثر من شدة الدهاء».

سينيكا[1]

في باريس، بعد حلول الظلام مُباشرة، ذات مساءٍ عاصفٍ من يومٍ خريفي، سنة 18ـــ[684]، كنت أستمتع بلذة مُزدوجة في التأمل وتدخين الغليون، برفقة صديقي س. أوغسطوس دوبن، كنّا جالسين في مكتبته الصغيرة الخلفية، أو خزانة الكتب au troisième كما يُسميها، المنزل رقم 33، جادة دونوت، ضاحية فاوبورغ سانت جيرمان. طوال ساعة على الأقل راح يُخيم علينا صمتٌ مُطبق؛ وربّما بدا كل واحد منّا، في نظر أي مُراقب يمرّ عرضاً، مُنهمكاً في جدّية بمُتابعة شيءٍ واحد لا يتعدّاه إلى غيره، دوامات الدخان المُلتفة التي تُعكّر جو الغرفة. لكن قدر تعلّق الأمر بي، كنت أقلب في ذهني بعض الموضوعات التي شكّلت محور أحاديثنا في فترة سابقة من المساء؛ أقصد ما حدث على جادة مورغ، والسر الغامض الذي رافق جريمة قتل ماري روجيه. كنت أنظر إلى تلك القضية على أنّها مُصادفة ليس إلّا، حين انفتح باب شقتنا على مصراعيه ودخل علينا أحد معارفنا القُدامى، مسيو ج. مدير شرطة باريس.

استقبلناه في ودٍّ بالغ؛ مع أنّ هُناك ما نُخفيه وراء ذلك المظهر المُخادع من احتقارٍ للرجل الذي لم نره منذ عدة سنوات. جلسنا في الغرفة المُظلمة، ونهض دوبن الآن من أجل أن يُضيء إحدى الشموع، لكنه عاد فجلس، دون أن يفعل

---

(1) الاقتباس في الأصل باللاتينية *Nil sapientiae odiosius acumine nimio.* [المترجم]

ذلك، عندما قال ج. إنّه جاء لكي يستشيرنا، أو بالأحرى لكي يستأنس برأي صديقي، عن بعض القضايا الرسمية التي أحدثت الكثير من اللغط.

«إذا كانت المسألة تحتاج إلى تفكير»، قال دوبن، وقد أحجم عن إشعال فتيل الشمعة، «فمن الأفضل أن ننظر في الأمر ونحن في الظلام».

«إنها فكرة أُخرى من أفكارك العجيبة»، قال مدير الشرطة، الذي اعتاد أن يُسمي كل شيء «عجيباً» إذا كان خارج نطاق قدرته على الاستيعاب، ولهذا كان يعيش وسط فيلقٍ كامل من «العجائب».

«صحيح جدّاً»، قال دوبن، وأعطى ضيفه غليوناً، ودفع إليه كرسياً مريحاً.

[685]«وما الشيء المُعقد الآن؟» تساءلتُ، «لم تحدث جريمة قتلٍ، آمل ذلك؟».

«أوه، كلّا؛ لا شيء من ذلك. الحقيقة أنّ الأمر بسيط جدّاً، ولست أشكّ في أنّنا نستطيع التوصل إلى حلٍّ مقنع بأنفسنا؛ لكني رأيت أن دوبن ربّما يرغب أن يسمع تفاصيلها، لأنّها غاية في الغرابة».

«بسيطة وغريبة!»، قال دوبن.

«حسناً، نعم؛ وليس هذا فحسب. الحقيقة أننا بقينا مُحتارين ومُرتبكين لأنّ القضية بسيطة، ومع ذلك فهي عصيّة على الحل بالنسبة إلينا أيضاً».

«ربما كانت بساطتها البالغة هي التي تجعلك تقع في الخطأ»، قال صديقي.

«أيّ نوع من الهراء هذا الذي تقول!» رد المدير، وكان يضحك من أعماق قلبه.

«ربما كان اللغز بسيطاً أكثر ممّا ينبغي»، قال دوبن.

«أوه، يا إلهي! من منكم سمع بمثل هذه الفكرة؟».

«شيء بديهي جدّاً».

«هاه! هاه! هاه!.. ها! ها! ها!.. هوه! هوه! هوه!» دمدم زائرنا، وبدا عليه الابتهاج، «أوه، دوبن، سوف تتسبب بموتي!».

«وما هي القضية التي لديك على أي حال؟» سألت.

«حسناً، سوف أخبركما»، أجاب المدير، بينما كان ينفخ الدخان طويلاً من غليونه ويتأمل، ويتكئ على كرسيه في ارتياح. «سوف أُخبركما في بضع كلمات؛ لكن قبل أن أبدأ، دعوني أُحذركما من أن هذه القضية تحتاج إلى أقصى درجات السرية والتكتم، وربّما أفقد منصبي الذي أشغله الآن، إذا حصل أن علموا بأني أفشيت سرها إلى أي شخص».

«استمر»، قلت.

«أو لا تستمر»، قال دوبن.

«حسناً، إذن؛ وصلتني معلومات شخصية، من مصدر رفيع جدّاً، أنّ وثيقة ما على جانب كبير من الأهمية، سُرقت من المقصورات الملكية. الشخص الذي قام بسرقتها انكشف أمره؛ هذا شيءٌ لا يقبل الشك؛ شوهد وهو يأخذها. ومن المعروف أيضاً أنّها لا تزال لديه».

«كيف يكون هذا الأمر معروفاً؟» سأل دوبن.

«إنّه استدلال واضح»، رد المدير، «من خلال طبيعة الوثيقة، وعدم ظهور نتائج مُحدّدة من شأنها أن تتحقّق فوراً بسبب انتقالها من حوزة السارق؛ بمعنى آخر، استخدامه لها كما كان يُخطط في النهاية لاستخدامها».

«كن واضحاً أكثر»، قلت.

[686]«حسناً، ربّما أُغامر أكثر ممّا ينبغي فأقول: إنّ الورقة تمنح حاملها قدرة ما في ميدان تكون فيه مثل هذه القدرة شيئاً لا يُقدّر بثمن». كان مدير الشرطة مغرماً بأسلوب النفاق الدبلوماسي.

«ومع ذلك لا أفهم تماماً»، قال دوبن.

«لا تفهم؟ حسناً؛ الكشف عن مُحتويات الوثيقة لطرف ثالث، والذي سوف يبقى بلا اسم، يؤدي إلى الإساءة إلى شرف إحدى الشخصيات التي تحتل مكانة مرموقة؛ هذه الحقيقة تُعطي من يحمل الوثيقة مكسباً بإزاء تلك الشخصية التي تتعرّض سمعتها وأمنها للخطر».

«لكن هذا المكسب»، هُنا تدخلت، «يعتمد على معرفة السارق بأن من فقد الرسالة يعرف حقيقته. من يجرؤ..».

«السارق»، قال ج. «هو ذلك الوزير د. الذي لا يتورّع عن فعل أي شيء، الأشياء التي تليق والتي لا تليق بسمعة الإنسان. الطريقة التي اتّبعها السارق كانت عبقرية بقدر ما هي شجاعة. الوثيقة التي نتكلّم عنها.. وهي رسالة، كي أكون صريحاً.. وصلت إلى تلك الشخصية التي ذكرتها ثم سُرقت منها وحدها دون غيرها في الجناح الملكي. أثناء قراءتها لها قاطعها فجأة دخول ذلك الشخص صاحب المقام الرفيع وكانت على وشك أن تخفي الرسالة خصوصاً عنه. بعد مُحاولة فاشلة لدفع الرسالة في أحد الأدراج، وجدت نفسها مضطرة لأن تضعها وتفتحها كما هي على الطاولة. إلّا أنّ عنوان الرسالة كان في الأعلى، ومُحتوياته غير مكشوفة، فلم تكشف مُحتويات الرسالة. عند هذه النقطة يدخل الوزير د. وتلمح عينه التي مثل عين الوشق الرسالة على الفور، ويعرف الخط الذي كتب به العنوان، وينتبه إلى ارتباك الشخص الذي وجهت إليه، ويكتشف السر الذي تُخفيه. بعد أن أنهى بعض المُعاملات، أسرع بطريقته الاعتيادية، وأخرج رسالة مُماثلة بعض الشيء للرسالة التي نتكلّم عنها، وفتحها، وتظاهر بأنّه يقرأها، ثمّ وضعها على مقربة من الأُخرى. ومرة أُخرى أخذ يتحدّث، لمدة خمس عشرة دقيقة، عن أمور عامة. وأخيراً، قبل أن ينصرف، أخذ من الطاولة الرسالة التي ليست موجّهة إليه. أما صاحبتها الحقيقية، فرأت ذلك طبعاً، ولكنّها لم تجرؤ أن تُثير ضجة في حضور شخص ثالث كان يقف قرب مرفقها. خرج الوزير؛ وترك رسالته هو.. وهي لا أهمية لها.. على الطاولة».

«هُنا، إذن»، قال لي دوبن، «لديك بدقة ما تُريد أن تجعله هيمنة مُطلقة.. معرفة السارق بأنّ من فقد الرسالة يعرف حقيقة من سرقها».

«نعم»، أجاب مدير الشرطة؛ «والقدرة المُكتسبة على التأثير بهذه الصورة، [687]منذ شهورٍ ماضية، كان يُمكن أن تستغل لأغراض سياسية دنيئة خطيرة جدّاً. الشخصية التي تعرّضت للسرقة صارت مُقتنعة، يوماً بعد يوم، بضرورة استرداد الرسالة. لكن هذا، طبعاً، لن يتمّ علانية. ودفعها اليأس إلى تسليم الأمر لي».

«ومن غيرك»، قال دوبن، وسط دوامةٍ من الدخان، «ليس في وسعها أن تجد شخصاً أكثر ذكاء، كما أعتقد، أو حتى أن تتخيّل وجوده».

«أنت تُطري عليّ»، أجاب مدير الشرطة؛ «لكنها ربّما فكرت بشيءٍ من هذا».

«واضحٌ»، قلت، «كما ترى، أنّ الرسالة لا تزال لدى الوزير؛ لأنّ هذه الحيازة بعينها، وليس أي استخدام آخر للرسالة، هو الذي يمنح القدرة على التأثير. فالاستخدام يؤدي إلى تلاشي القدرة».

«صحيحٌ»، قال ج. «ومن هذه القناعة انطلقت، فكان أول شيء أردت الاهتمام به هو القيام بتفتيشٍ شامل للفندق الذي يُقيم فيه الوزير؛ هُنا كان يكْمن مصدر الإحراج الأساسي بالنسبة لي في ضرورة إجراء التحريات دون معرفته. وبصرف النظر عن أي شيء، فقد تلقيت تحذيراً من الخطر الذي ربّما نشأ عن إعطائه ذريعة للشك في نوايانا».

«لكنكم»، قلت، «على فكرة مُعتادون *au fait* على مثل هذه التحريات. الشرطة الباريسية سبق أن قامت بهذا مراراً من قبل».

«أوه، نعم؛ لهذا لم اشعر باليأس. كذلك أعطتني عادات الوزير مكسباً كبيراً. فهو كثيراً ما يغيب عن محلّ إقامته طوال الليل. وخدمه ليسوا كثيرين على كل حال. إنّهم ينامون في مكانٍ بعيد عن شقة الوزير، لأنّهم أساساً من نابولي، فمن السهولة جعلهم يشربون حتى الثمالة. لدي مفاتيح، كما تعلمون، أستطيع بها فتح أي حجرة أو مقصورة في باريس. طوال ثلاثة أشهر لم تمرّ ليلة واحدة دون أن أنشغل خلال الجزء الأكبر منها، شخصياً، بالتنقيب في الفندق الذي يسكنه د.

إنّه من دواعي الشرف لي أن أُفشي لكما سرّاً خطيراً، فالجائزة التي أعلنتُ عنها هائلة. لذلك لم أترك البحث إلى أن اقتنعت تماماً بأن اللّص ماهر أكثر منّي. أتصور أنني لم أترك زاغوراً ولا ركناً دون أن أنقب فيه ضمن المُقتربات التي يُمكن أن تُخفى فيها الرسالة».

«لكن ليس من المُمكن»، قلت، «مع أنّ الرسالة ربّما كانت لدى الوزير، وهي لا بُدّ أن تكون كذلك بلا جدال، أن يُخفيها في مكانٍ غير قريب منه؟».

«هذا ليس مُمكناً»، قال دوبن. «الحالة الراهنة للأمور في القصر، وبخاصة تلك الأمور السرية التي من المعروف أن د. مُتورط فيها، سوف تجعل العثور فوراً [688]على الوثيقة.. أو بالأحرى الشك في أنّها يُمكن أن تظهر عند الطلب.. مسألة ذات أهمية مُماثلة لأهمية الحصول عليها».

«الشك في أن تظهر؟» قلت.

«بعبارة أُخرى، أنّها يُمكن أن تمزّق»، قال دوبن.

«صحيح»، قلت؛ «شيءٌ واضح أن تكون الورقة في مكانٍ قريب. أما وجودها لدى الوزير نفسه، ربّما كان خارج نطاق المعقول».

«تماماً»، قال مدير الشرطة. «لقد تعرّض للمُلاحقة مرّتين، كنّا نتعقّبه خطوة فخطوة، ومنزله تعرّض للتفتيش تحت إشرافي الشخصي».

«ربما كان عليك أن توفّر هذا العناء على نفسك»، قال دوبن. «أعتقد أن د. ليس مُغفلاً إلى هذه الدرجة، فإذا سلّمنا بذلك، لا بُدّ أنّه توقّع هذه المُلاحقات، وكان يعتبرها شيئاً طبيعياً».

«إنّه ليس من المُغفلين أبداً»، قال ج. «لكنه مع ذلك من الشعراء، وهذا ما اعتبره مُجرّد نقلة تبعده عن المغفلين»[2].

(2) اقتباس من مسرحية شكسبير (حلم منتصف ليلة صيف): «المجنون، العاشق، الشاعر.. كلهم في الخيال سواء». [المترجم]

«صحيح»، قال دوبن، بعد أن سحب نفساً عميقاً من غليونه، «مع أنّني كنت مُذنباً شخصياً بتسطير نوع من الشعر السخيف الركيك».

«ربما توضّح لنا»، قلت، «تفاصيل تحرياتك».

«الحقيقة أنّنا كنّا نتصرّف على مهلٍ، وفتشنا في كل مكان. لديّ باعٌ طويل في هذه القضايا. فتّشت البناية كلها، غرفة بعد غرفة؛ وكرّست ليالي أُسبوعٍ كامل لكل واحدة منها. لقد تفحصنا في البداية أثاث كل حجرة. فتحنا كلَّ درج مُمكن؛ وأتصوّر أنّك تعرف، بالنسبة إلى أي شرطي مُحنّك، فإنّ وجود شيءٍ من قبيل درجٍ سرّي شيء مُستحيل. أي رجل سوف يُعتبر من الأغبياء إذا أفلت منه درج «سري» في بحثٍ من هذا النوع. كان الأمر يسيراً جدّاً. هُناك مقدارٌ هائل من الأشياء.. من المساحة.. التي ينبغي تفتيشها في كل خزانة. ثم إنّ لدينا قواعد صارمة. لم يكن من المُمكن تجاهل تفتيش أي جزءٍ في خزانة أو غيرها وإن كانت تتألف من خمسين خانة. وبعد الخزانات انتقلنا إلى الكراسي. والمخدات غرسنا فيها أدقّ الإبر الطويلة التي رأيتني أستعملها. ورفعنا سطوح المناضد».

«ولماذا فعلتم ذلك؟»،

«في بعض الأحيان يُمكن رفع السطح الأعلى للمنضدة، أو أي قطعة مُماثلة من الأثاث، من قبل شخص ربّما يرغب في إخفاء شيء؛ ثم يعمل فتحة في الساق لكي يضع فيها شيئاً، ثم يُعيد السطح. وتستخدم قواعد وسطوح أعمدة الأسرة بالطريقة نفسها».

«لكن ألا يُمكن اكتشاف وجود تجويفٍ بالنقر؟» سألت.

«على الإطلاق، عندما يوضع الشيء الذي يُراد إخفاؤه تدسّ معه كمية كافية من القطن حوله. وإلى جانب هذا، في الحالة التي نحن بصددها، كنّا مُضطرين لأن نمضي في عملنا دون أن نُصدر صوتاً».

«لكنكم حتماً لم تتمكّنوا من رفع.. لا بُدّ أنّكم لم تتمكنوا من تقطيع أوصال كلّ [689]الأثاث الذي تتصوّرون أن من المُمكن أن يُخبأ فيه شيءٌ بالطريقة التي تُشير إليها. إنّ أي رسالة يُمكن أن تُطوى على شكل لفافة رقيقة، فلا تختلف

كثيراً عن إبرة خياطة كبيرة، وبهذا ربّما توضع في ساق كرسي، على سبيل المثال. أنتم لم تقطعوا كل الكراسي؟».

«حتماً لا؛ لكنّنا فعلنا أفضل من هذا.. تفحّصنا حشوات كل الكراسي التي في الفندق، في الواقع تفحّصنا النقاط المفصلية في أنواع الأثاث، وذلك بمُساعدة منظار مُكبّر فائق القدرة. لو كانت هُناك أي آثار تدلّ على عبثٍ جرى مؤخراً لما أخفقنا في اكتشاف الأمر في الحال. أي ذرة غبار سوف تبدو واضحة مثل التفاحة. أي تلاعب في الغراء.. أي ثغرات غير اعتيادية في مواضع الاتصال.. كانت ستكتشف حتماً».

«أتصوّر أنّكم نظرتم حتى خلف المرايا، واللوحات وتحت المواعين، وقلبتم الأسرّة ونثرتم الأغطية والمفارش، فضلاً عن الستائر والسجاد».

«فعلنا كل ذلك طبعاً؛ ولما انتهينا تماماً من فحص كل قطعة من الأثاث بهذه الطريقة، مضينا إلى تفتيش المنزل نفسه. قسّمنا المساحة الإجمالية إلى قطاعات، وأعطيناها أرقاماً، كي لا يفوتنا شيءٌ منها؛ وقمنا بفحصٍ دقيق لكل بوصةٍ مُربعة على انفراد في أرجاء المكان، بما في ذلك تفتيش المنزلين المُجاورين مُباشرة، وكان ذلك فحصاً مجهرياً، كما في السابق».

«المنزلان المُجاوران!» هتفتُ؛ «لا بُدّ أنّكم واجهتم صعوبات جسيمة».

«واجهتنا صعوبات؛ لكن الجائزة التي عرضناها ليست عادية!».

«وهل امتدّ تفتيشكم إلى الأراضي التي تُحيط بالمنزل؟».

«كلّ الأراضي كانت مرصوفة بالحجارة. وواجهتنا متاعب قليلة نسبياً. قمنا بفحص الطحالب التي تنمو بين الصخور، ووجدناها سليمة لم تمسّها يدٌ عابثة».

«وبحثتم في أوراق السيد د.، بطبيعة الحال، وفي الكتب التي في المكتبة؟».

«طبعاً؛ فتحنا كلّ مُغلّفٍ ورزمة؛ لم نفتح فقط كل كتابٍ من الكتب، لكنّنا قلبنا كل ورقة في أي كتاب، فلم نقتنع بمُجرّد أن نهزّ الكتاب هزّاً، كما يفعل

بعض رجال الشرطة من جماعتنا. كذلك قمنا بقياس سماكة كل غلاف للكتب، واستخدمنا في ذلك أدقّ أجهزة القياس المُتوفرة، واتّبعنا في فحص أي غلافٍ من الأغلفة أقصى ما يوفره المجهر من دقة لا تقدر بثمن. لو كان أي غلافٍ جرى التلاعب به مؤخراً، [690]لكان من المُستحيل تماماً ألا نكتشف حقيقة الأمر أو يفلت ذلك من الفحص. وجدنا نحو خمسة أو ستة كتب، كانت قد استلمت مباشرة من يد المُجلد، فغرسنا فيها الإبر بعناية طولياً».

«واستكشفتم الأرضيات تحت السجاد؟».

«من غير شك. رفعنا كل سجادة، وفحصنا بلاطات الأرضية بالمجهر».

«وورق الجدران؟».

«نعم».

«وفتّشتم الأقبية؟».

«فعلنا ذلك».

«إذن»، قلت، «لم تنجح مساعيكم؛ كانت حساباتكم خاطئة، والرسالة غير موجودة في الجوار، كما تصوّرتم».

«أخشى أن تكون على حق»، قال مدير الشرطة. «والآن، دوبن، بماذا تنصحني أن أفعل؟».

«عليك إعادة تفتيش.. الأماكن المُجاورة».

«لا ضرورة لذلك أبداً»، أجاب ج. «إنّني واثقٌ أنّ الرسالة ليست في الفندق مثلما أثق في أنّني أتنفّس الآن».

«ليس لدي نصيحة أفضل أُقدمها إليك»، قال دوبن، «أنت تعرف طبعاً المواصفات الدقيقة للرسالة؟».

«أوه، نعم!».. وهُنا أخرج مدير الشرطة مُفكّرة صغيرة وبدأ يقرأ بصوت مسموع وصفاً دقيقاً لفحوى الوثيقة المفقودة، وخصوصاً المظهر الخارجي لها.

بعد أن أنهى قراءة هذا الوصف بوقت قصير، استأذن للانصراف، وكان يبدو عليه الإحباط التام أكثر من أي وقت شاهدته فيه.

بعد حوالى شهر من ذلك زارنا مرة أُخرى، ووجدنا مُنشغلين كما في المرة السابقة تقريباً. تناول غليوناً وسحب كرسياً وانهمك في حوارٍ عادي. وأخيراً قلت له:

«حسناً، سيد ج. ماذا عن الرسالة المسروقة؟ أظن أنّك اقتنعت أخيراً بأن لا سبيل للتغلب على ذكاء الوزير؟».

«لا سبيل لقهره، أقول.. نعم؛ أعدت تحرياتي، مثلما اقترح دوبن.. لكن كل الجهود ذهبت سدى، كنت أعرف ذلك».

«وكم كان مبلغ الجائزة التي عرضتها، هلّا ذكرت ذلك؟» تساءل دوبن.

«طبعاً، إنّها جائزة قيمة جدّاً.. جائزة سخية.. لا أحب أن أقول شيئاً عن مقدارها، على وجه التحديد؛ لكنّي سأقول شيئاً واحداً، لن أُمانع في إعطاء الشيك الذي لديّ ومقداره خمسون ألف فرنك إلى أي شخص يتمكن من الحصول على [691]الرسالة. الحقيقة أنّ القضية أصبحت تحظى باهتمام كبير يوماً بعد يوم؛ وتضاعف مقدار الجائزة مؤخراً. لكن حتى إذا تضاعفت إلى ثلاث مرات فلن أتمكّن من عمل شيء أكثر مما فعلت حتى الآن».

«طبعاً.. نعم»، قال دوبن، وكان يتشدّق في الكلام، ويُرسل دوامات من دخان غليونه، «أتصور حقّاً.. ج.، أنّك لم ترهق نفسك.. لم تبذل قصارى جهدك في هذه القضية.. عليك أن تبذل جهداً أكبر، كما أعتقد، ها..؟».

«كيف؟.. بأي وسيلة؟».

«طبعاً.. أف، أف.. ربّما تستطيع أن.. أف، أف.. تجعل المجلس يتدخّل في الأمر، ها؟.. أف.. أف، أف. هل تتذكر القصة التي يروونها عن إبيرنثي[3]؟»

(3) جون إبيرنثي (1764- 1831) جراح بريطاني شهير كان معروفاً بالبخل وفظاظة الطبع. [المترجم]

«لا ؛ كم أتمنى أن يُشنق ايبرنثي!».

««إذا شئت الحق، فليُشنق، ومرحباً بذلك!. لكن، ذات مرة، كان هُناك رجل غني بخيل فكّر بخطة للاحتيال على إيبرنثي هذا من أجل استشارة طبية. وانطلق لهذا الغرض، وبعد مُحادثة عادية دون أن يكون معهما أحد، طرح قضيته على الطبيب، على أنّها تعود لشخصٍ آخر من وحي الخيال..

'سوف نفترض'، قال البخيل، 'أنّ الأعراض التي يُعاني منها صاحبي هي كذا وكذا؛ والآن، دكتور، ماذا كنت ستنصحه أنت أن يتناول؟'.

'يتناول!' قال إيبرنثي، 'طبعاً، عليه أن يسمع النصيحة، بالأحرى'»».

«لكن»، قال مدير الشرطة، وبدا مُغتاظاً قليلاً، «أنا على استعداد تام لتقبل النصيحة، وأن أدفع ثمنها. سوف أُعطي حقّاً خمسين ألفاً من الفرنكات لأي شخص يخلصني من هذه القضية».

«في هذه الحال»، أجاب دوبن، وفتح درجاً وأخرج دفتر شيكات، «ربما عليك أن تكتب لي شيكاً بالمبلغ المذكور. وحالما توقعه، سوف أعطيك الرسالة».

كنت مذهولاً. أما مدير الشرطة فكأنّما وقعت عليه صاعقة. بقينا بضع دقائق صامتين لا نتحرّك، ننظر في ريبة إلى صديقي، الفم فاغر، والعيون تكاد تخرج من محاجرها؛ ثم بدا عليه أنّه استرد وعيه إلى حد ما، أمسك قلماً، وبعد عدة توقفات ونظرات تائهة، كتب الشيك أخيراً ووقعه بمبلغ خمسين ألف فرنك، وسلّمه عبر الطاولة إلى دوبن. أخذ الأخير الشيك وراح يتأمله بعناية ثم وضعه في جيبه؛ وبعد ذلك، فتح دُرج مكتبٍ مزود برف *escritoire*، وأخرج منه رسالة وأعطاها إلى مدير الشرطة. أمسكها المدير وقد بدا عليه الحزن من شدة الفرح، ثم فتحها بيد مُرتعشة، وألقى نظرة سريعة على مُحتواها، ثم اتّجه بخطوات مُتعثّرة ثقيلة إلى الباب، واندفع دون أن يُعقّب على شيء إلى خارج الغرفة، وغادر المنزل ولم ينطق [692]بكلمة واحدة منذ أن طلب منه دوبن أن يُحرّر الشيك.

عندما ذهب، بدأ صديقي يُفسّر الأمر.

«رجال شرطة باريس»، قال، «قادرون جيداً على أداء عملهم بطريقتهم الخاصة. إنهم يمتازون بالحرص، والعبقرية، والدهاء، والاطّلاع التام على المعلومات التي يبدو أنّ واجباتهم تتطلّبها. لهذا، لما ذكر لنا السيد ج. تفصيلياً أسلوب التفتيش الذي قام به للأماكن القريبة من فندق د.، أحسست بثقة بالغة في أنّه قام بتفتيشٍ لا غبار عليه.. بقدر ما امتدّت إليه جهوده».

«بقدر ما امتدّت إليه جهوده؟» قلت.

«نعم»، قال دوبن. «الإجراءات التي اتّبعت لم تكن هي الأفضل في نوعها فحسب، وإنّما تمّت بإتقان مثالي. لو كانت الرسالة موجودة ضمن نطاق تحرياتهم، فهؤلاء الأشخاص، من غير شكّ، كانوا سيعثرون عليها».

ضحكتُ فحسب.. لكنه كان يبدو جادّاً كل الجد في ما قاله.

«الإجراءات، إذن»، تابع الكلام، «كانت من نوعٍ ممتاز، ونفذت بطريقة رائعة؛ لكن الخلل الذي يشوبها يكْمن في أنّها لا تصلح للتطبيق على هذه القضية، وعلى الرجل المقصود. إنّ الموارد المُمتازة المُتاحة لمدير الشرطة، هي نوعٌ من «سرير بروكرستيان»[4]، يفرضه بالقوة على خططه ويُحاول إقحامها فيه. لكن المشكلة أنّه يرتكب الأخطاء باستمرار لأنّه إمّا أن يتعمق كثيراً أو يكون سطحياً كثيراً، خصوصاً في القضية التي بين يديه؛ كثيراً ما يكون أي طالب مدرسة أفضل في التفكير منه. كنت أعرف صبياً في الثامنة تقريباً من عمره، كان نجاحه في التوصل إلى قرارات في لعبة «مُتشابهة وغير مُتشابهة *even and odd*» يُثير الإعجاب حقّاً. هذه اللّعبة بسيطة جدّاً، وهي تلعب بخرز الرخام. يمسك أحد اللاعبين بيده عدداً من هذه الخرز، ويطلب من اللاعب الآخر أن يخبره ما إذا كانت مُتشابهة أم لا. إذا كان تخمينه صحيحاً، يفوز اللاعب الذي أعطى الجواب الصحيح؛ أمّا إذا كان التخمين خاطئاً، فهو يخسر الجولة. الصبي الذي أشير إليه

---

(4) بروكرستيان: في علم الإحصاء نوع من التحليل لتوزيع مجموعة من الأشكال. يعود المُصطلح إلى الإغريق ويُشير إلى قصة قاطع طرق في الأساطير الإغريقية كان يُجبر ضحاياه أن يناموا على سرير قصير بأن يمدّ أطرافهم بالقوة أو يقطعها. [المترجم]

كان يربح كل الخرز التي في المدرسة. بطبيعة الحال كان يلجأ إلى بعض المبادئ الحاذقة في التخمين؛ وهذا يكْمن في مُراقبة واختبار مدى مهارة خصمه ليس إلّا. على سبيل المثال، إذا كان خصمه غبياً شارد الذهن ويرفع يده المسدودة، ويسأل، هل هي مُتشابهة أم لا؟ يرد صبي المدرسة مثلاً فيقول، غير مُتشابهة، ويخسر؛ لكنه في المُحاولة الثانية يربح، لأنّه عندئذ يقول لنفسه، الغبي كانت لديه خرز مُتشابهة في المُحاولة الأُولى، ومقدار دهائه يكفي لأن يجعلها غير مُتشابهة في المُحاولة الثانية؛ لهذا سوف أُخمن فأقول: إنّها غير مُتشابهة.. ويُخمن فيقول: إنّها غير مُتشابهة، ويربح. والآن، إذا افترضنا أنّ هُناك صبياً آخر بدرجة غباء تفوق غباء الأول، سوف يُفكر صاحبنا بهذا الشكل: [693]هذا الشخص يرى أنّني في المُحاولة الأُولى خُمنت بأنّها خرز غير مُتشابهة، وفي المُحاولة الثانية، سوف يفترض في نفسه لأول وهلة وجود تبدل مُتوقع بسيط في الإجابة من خرز مُتشابهة إلى غير مُتشابهة، كما فعل الغبي الأول؛ عندئذ إذا ما دقّق في الأمر مرة أُخرى سوف يرى أنّ هذا مُجرّد تغيير لا يُعوّل عليه، وأخيراً سوف يُقرّر أنّها مُتشابهة كما في السابق. سوف أُخمن إذن فأقول: إنّها خرز مُتشابهة.. ويُخمن فيقول: إنّها مُتشابهة، ويربح. والآن وفقاً لهذا النمط من التفكير في حالة صبي المدرسة، الذي يُسميه زملاؤه.. المحظوظ.. ما الذي يصل إليه في تحليله الأخير؟».

«إنّه مُجرّد»، قلت، «تطابق بين طريقة تفكير الإنسان العاقل وطريقة تفكير خصمه».

«إنّه كذلك»، قال دوبن؛ «وعندما نسأل على أي أساس نجح في الوصول إلى تطابق تام على هذا النحو، نتلقّى هذا الجواب: عندما أرغب في معرفة مدى حكمة، أو غباء، أو طيبة، أو حقارة أي شخص، أو أُريد أن أعرف ما هي الأفكار التي تُراود ذهنه في تلك اللحظة، أجعل تعبيرات وجهي، بقدر ما يُمكنني من دقة، تتطابق مع التعبيرات التي على وجهه، ثم أنتظر لأرى ما هي الأفكار أو الانفعالات التي تخطر في ذهني أو قلبي، كأنّني أُريد لها أن تتوافق أو تتطابق مع تلك التعبيرات.. هذا الجواب الذي يُقدمه صبي المدرسة يكْمن في صميم كل

أنواع التفكير الزائف الذي يُنسب إلى روشفوكود[5]، أو بوغايف، مكيافيللي، وكامبانيلا».

«وتطابق»، قلت، «طريقة تفكير الإنسان العاقل مع طريقة تفكير خصمه، يعتمد، إذا كنت أفهمك بصورة صحيحة، على مدى دقة قياس عقل الخصم أثناء عمله».

«لأنّ قيمة القياس الفعلية تعتمد على هذا»، أجاب دوبن؛ «ومدير الشرطة وحاشيته فشلوا في أحيانٍ كثيرة، أولاً، من خلال الخطأ في الوصول إلى تطابق، وثانياً، من خلال القياس السيئ، أو بالأحرى عدم القياس، في أسلوب التفكير الذي يُمارسونه. إنّهم لا يولون أهمية لشيءٍ غير أفكارهم الخاصة التي يتصوّرون أنّها عبقرية؛ وفي بحثهم عن أي شيءٍ يختفي عن الأنظار، لا يلتفتون إلى شيء غير الطريقة التي اختفت بها تلك الأشياء. إنّهم كثيراً ما يكونون على حق في اتّباع هذا الأسلوب.. براعتهم محض مُحاكاة مُتقنة لبراعة جمهور الناس؛ لكن حين يُصادفهم دهاءٌ شيطاني لأحد المُجرمين يختلف في طبيعته عن دهائهم، فالمُجرم يُحبط أعمالهم طبعاً. هذا ما يحدث دائماً إذا كان الدهاء يفوق دهاءهم، ويحدث أيضاً إذا كان الدهاء تحت مُستوى دهائهم. إنّهم لا يملكون القدرة على تغيير مبدأ تحرياتهم؛ في أحسن الأحوال، حين تلحّ عليهم بعض الظروف الحرجة غير الاعتيادية.. أو وجود مُكافأة استثنائية.. يعملون على توسيع أو المُبالغة في أنماط مُمارستهم القديمة، دون أن يفعلوا شيئاً بشأن مبادئهم. ماذا فعلوا، على سبيل المثال، في قضية د. هذه، [694]لتغيير مبدأ التصرف؟ ما كل هذا.. غرس الإبر، والنقر، والفحص الدقيق بالمجهر، وتقسيم سطح البناية إلى بوصات مُربّعة مُحدّدة.. ما كل هذه المُبالغة في تطبيق مبدأ واحد أو مجموعة مبادئ في البحث تستند إلى فكرةٍ واحدة أو مجموعة أفكار فيما يتعلّق بالبراعة البشرية، تلك التي اعتاد عليها مدير الشرطة طوال روتين حياته المهنية؟ ألا ترى

(5) فرانسوا روشفوكود (1613- 1680) كاتب فرنسي اشتهر بكتابة الحكم والأمثال والمذكرات. [المترجم]

أنّه يعتبرها مسألة لا تقبل الجدل أنّ كل الناس يلجؤون إلى إخفاء رسالة.. ليس على وجه التحديد في ثقبٍ محفور في ساق كرسي.. لكن، على الأقل، في حفرة ما أو ركن بعيد عن الطريق وهذا ما يوحي به سياق الأفكار نفسه التي تدفع الإنسان إلى إخفاء رسالة في ثقب محفور في ساق كرسي؟ وألّا ترى أيضاً، أنّ هذه الأماكن الشاذة التي يبحثون فيها عن شيءٍ مُخبأ تُصلح فقط في ظروف عادية، ويلجأ إليها أشخاص يُفكرون بشكل عادي؛ لأنّ، في كل الحالات التي يُراد فيها إخفاء شيء، أو التخلّص من شيء يُراد إخفاؤه.. أي: التخلّص منه مع توقّع هذا الأسلوب من البحث.. هي منذ اللحظة الأُولى، قابلة للافتراض ومُفترضة مُسبقاً؛ لهذا فاكتشافها لا يعتمد في الأحوال كافة على الفطنة، وإنّما يعتمد كلّياً على الدقة المُجرّدة، والصبر، ومدى تصميم الشخص الذي يبحث؛ فإذا كانت القضية ذات أهمية.. أو، أنّها ترقى إلى المستوى نفسه من منظور الشرطة، وحين تكون هُناك جائزة قيمة.. فالقدرات المطروحة في هذا الصدد لم يسبق أبداً أن أخفقت. سوف تفهم الآن ما أعنيه في افتراض أنّ الرسالة المفقودة لو كانت مُخبأة في أي مكان يقع ضمن نطاق تحريات مدير الشرطة.. بعبارة أُخرى، لو أنّ مبدأ إخفائها كان مُدرجاً على لائحة مبادئ مدير الشرطة.. لكان العثور عليها خارج نطاق التفكير المُمكن تماماً. غير أنّ هذا الرجل بحكم وظيفته كان مُضطرباً على نحو مُبهم؛ والمصدر غير المُباشر لفشله يكْمن في افتراض أنّ الوزير رجل غبي، لأنّه اكتسب شهرته كشاعر. كل الأغبياء شعراء؛ هذا ما كان يشعر به مدير الشرطة؛ وقد ارتكب خطأ فاضحاً في مُغالطة تعميم صفة من الصفات على وسطٍ بعينه ***a non distributio medii*** في إشارته تلك إلى أنّ كل الشعراء أغبياء».

«هل هكذا يكون الشاعر حقّاً؟» سألت. «كنت أعرف أخوين؛ كلاهما حقق شهرة في عالم الأدب. الوزير، كما أعتقد، كان يكتب أشياء تدلّ على ثقافته في التفاضل والتكامل. إنّه مُختصّ بالرياضيات، وليس شاعراً».

«أنت مُخطئ؛ أنا أعرفه جيداً؛ إنّه شاعر ومُختص بالرياضيات. كشاعر ومُختص أيضاً بالرياضيات، يستطيع التفكير جيداً؛ وكمختص بالرياضيات فقط،

لا يستطيع التفكير أبداً، ولهذا فهو يقع تحت رحمة مدير الشرطة».

«إنّك تُفاجئني»، قلت، «بهذه الآراء التي تتناقض مع ما يسود في العالم. لست [695]تنوي أن تُفنّد مجموعة الأفكار المُتعارف عليها منذ قرون. التفكير الرياضي كان منذ زمنٍ طويل من خصائص النخبة من الأذكياء».

«من السهل أن يتبجّح المرء»، *Il y a à pariėr* أجاب دوبن، مُقتبساً من كامفورت[6]، «فيقول: إنّ أي فكرة تأتي في سياق مثلٍ شعبي، أو في تقليد واسع الانتشار، هي شيء من الغباء لأنّها لقيت القبول في نظر الأغلبية» *que toute idée publiquetoute convention reçue est une sottise, car elle a convenue au plus grand nombre*. علماء الرياضيات، أؤكد لك، فعلوا ما في وسعهم لتوسيع نطاق الخطأ الشائع الذي تلمح إليه، والذي لا يقل شاناً عن كونه خطأ لا يُغتفر يتوسّع فيكاد يُصبح حقيقة. أمّا في حالة الفن الذي يستحقّ مُعالجة أفضل، على سبيل المثال، فقد استخدموا مُصطلح «تحليل» وطبّقوه على الجبر. والفرنسيون أنفسهم خلقوا هذا الزيف؛ لكن إذا كان هُناك مُصطلح له أهمية.. إذا كانت الكلمات تستمد قيمتها من التطبيق.. إذن فكلمة «تحليل» تنقل معنى «الجبر» بالطريقة نفسها التي تنقل فيها كلمات لاتينية مثل «*ambitus*» معنى «الطموح»، وكلمة «*religio*»: معنى الدِّين، أو «homines honesti» معنى جماعة من النبلاء».

«تكاد تشن حرباً كما أرى»، قلت، «على بعض علماء الجبر في باريس؛ تابع كلامك أرجوك».

«أنا أُناقش مدى سهولة، وكذلك قيمة، ذلك النمط من التفكير الذي يترعرع عبر أي شكل من الأشكال غير المنطق البحت. أُناقش على وجه التحديد طَريقة التفكير التي تستنتج من دراسة الرياضيات. الرياضيات علم يتناول الشكل والكمية؛ والتفكير الرياضي مُجرّد منطق يُطبّق على مُراقبة الشكل والكمية. الخطأ

---

(6) يقتبس إدغار ألن بو هُنا من الشاعر الهزلي الفرنسي سيباستيان روك نيكولاس المُسمى كامفورت (1740- 1794) من كتابه عن الحكم والأمثال. *Maximes et Pensées* [المترجم]

الجسيم يكْمن في افتراض أنّ حتى الحقائق المُتعلّقة بما يُسمى الجبر البحت، هي حقائق مُجرّدة أو عامّة. وهذا الخطأ يكون ذا صيغة فاضحة إلى درجة أنّني مذهول من القبول الشامل الذي يتلقّاه به الناس. البديهيات الرياضية ليست بديهيات عن حقائق عامة مُجرّدة. الشيء الذي يُعتبر صحيحاً ضمن علاقة معينة.. علاقة الشكل والكمية.. غالباً ما يكون زائفاً تماماً في الأخلاقيات، على سبيل المثال. في هذا العلم الأخير، ليس من الصحيح أبداً أن تكون الأجزاء المُتفرقة مُساوية للكل. في الكيمياء تُعتبر هذه البديهية زائفة أيضاً. إذا أخذنا بنظر الاعتبار الدافع، فهي نظرية خاطئة؛ لأنّ إذا كان لدينا دافعان، كل واحد منهما له قيمة مُختلفة، فليس بالضرورة إذا جمعنا قيمتيهما معاً، أن تكون النتيجة مُساوية للقِيَم المُستقلّة. هُناك حقائق رياضية كثيرة أُخرى لا يُمكن أن تُعتبر من الحقائق إلا ضمن حدود العلاقة التي تربط فيما بينها. غير أنّ عالم الرياضيات يُجادل مُنتقلاً من حقائقه المُحدّدة من خلال ما اعتاد عليه، كما لو كانت قابلة للتطبيق بصفة عامة.. أو كما يتخيّلها العالم في الواقع. يذكر جاكوب بايرانت في كتابه القيم جدّاً (الميثولوجيات)، مثالاً مُشابهاً للوقوع في الخطأ، حيث يقول: 'مع أنّ أحداً لا يصدق خُرافات الوثنيين، غير أننا ننسى أنفسنا [696]باستمرار، ونستمد منها استدلالات بوصفها حقائق مُقررة'. لكن في حالة علماء الجبر، الذين يُشبهون الوثنيين أنفسهم، إذ يصدقون خُرافات الوثنيين، ويخرجون باستدلالات، ليس لفقدان الذاكرة، بقدر ما هي حالات لا تُحصى من فساد العقول. باختصار، لم يسبق أن واجهت حتى الآن عالم رياضيات واحد يُمكن الوثوق به لأنّه يتبع هذه الأصول، أو لا يعتبرها في الخفاء مسألة لا تقبل الشك لديه أنّ x^2+px تُساوي دون قيد أو شرط q. عليك فقط أن تقول لأحد هؤلاء السادة، على سبيل الاختبار، أرجوك، إنّك تعتقد أن ثمّة حالات ربّما لا تكون فيها x^2+px مُساوية على الإطلاق لـ q، وبعد أن تجعله يفهم قصدك، عليك الابتعاد عن مُتناول يده بأقصى ما يُمكنك من سرعة، لأنّه من غير شك سوف يُحاول أن يطيح بك.

«اقصد القول»، استمرّ دوبن في الكلام، بينما كنت أضحك ليس إلّا من مُلاحظته الأخيرة، «إذا كان الوزير مُجرّد مُختص بالرياضيات، لم يكن مدير

الشرطة مُضطراً لأن يُعطني الشيك. لكني أعرفه جيداً، فهو مُختصّ بالرياضيات وشاعر، وكانت الإجراءات التي اتّبعتها تنسجم مع قُدرته على الاستيعاب، وتتوافق مع الظروف التي تحيط به. كنت أعرفه أيضاً بصفته من حاشية الملك، وكمُتملّقٍ شجاع. مثل هذا الرجل، كما تصوّرت، لا يُمكن أن يفشل في إدراك الأنماط الاعتيادية لتصرّفات رجال الشرطة. لن يفشل في أن يتوقّع.. وأثبتت الأحداث أنّه لم يفشل في أن يتوقّع.. تلك المُلاحقات التي أخضع إليها. لا بُدّ أنّه توقّع، كما تصوّرت، التحريات السرية التي أجريت في الأماكن القريبة التي يتردّد عليها. كان غيابه المُستمر عن منزله ليلاً، والذي استغلّه مُدير الشرطة في تحقيق مساعيه، اعتبرته مُجرّد خدعة تُعطي فرصة للقيام ببحث شامل من قبل الشرطة، وبهذا سرعان ما فرض عليهم القناعة التي وصل إليها ج. وأخيراً، اقتنعوا بأنّ الرسالة لم تكن موجودة في مكان قريب. وأحسست أيضاً أنّ سلسلة الأفكار كلها، التي واجهتُ صعوبة بعض الشيء في تفصيلها لك قبل قليل، فيما يتعلّق بمبدأ عمل رجال الشرطة الذي لا يكاد يتبدّل في البحث والتقصّي عن مواد مخفية.. أحسست أنّ سلسلة الأفكار هذه من شأنها بالضرورة أن تخطر في ذهن الوزير. إنّها سوف تقوده حتماً للابتعاد عن الأماكن العادية التي يُمكن أن يُخفي فيها بعض الأشياء. لا يُمكن له أن يكون، كما أتصوّر، ضعيف الذهن بحيث لا يرى أن أبعد الأماكن وأكثرها انزواءً في الفندق الذي يُقيم فيه سوف تكون مفتوحة مثلها مثل خزاناته التي سرعان ما تكتشفها العيون، وسوف تخضع للتفتيش والتنقيب بالإبر، والمثاقب، والمجاهر [697]التي يستعملها مدير الشرطة. رأيت رؤية لا لبس فيها أنّه سوف يلجأ، كمسألة طبيعية إلى مبدأ البساطة، إن لم يلجأ عن قصدٍ مُسبق إلى ذلك الاختيار. لا بُدّ أنّك تتذكّر، ربما، كيفَ كان مدير الشرطة يُقهقه عندما قلت له، في لقائنا الأول، أنّ هذا اللغز المُحير ربّما يزعجه كثيراً لأنه واضح جدّاً بعينه».

«نعم»، قلت، «أتذكّر مدى فرحته جيداً. تصوّرت حقّاً أنه أُصيب بنوبات من الضحك المُتشنج».

«عالمنا المادي الذي نعيش فيه»، تابع دوبن كلامه، «مليءٌ بمُتماثلات

صارخة مع أشياء أُخرى غير مادّية؛ لهذا أُضفيت بعض ألوان الحقيقة على البلاغة لتزيدها تعقيداً، بحيث ربّما صارت أساليب المجاز، أو التشبيه، تُستخدم لتقوية الحجة في الجدل، فضلاً عن زخرف الوصف. إنّ مبدأ القصور الذاتي *vis inertiæ*، على سبيل المثال، يبدو مُتماثلاً في الفيزياء والميتافيزيقيا. ليس صحيحاً في الفيزياء، أكثر ممّا هو صحيح في الميتافيزيقيا، أنّ جسماً كبيراً يُمكن أن يندفع إلى حالة حركة على نحو أصعب من جسم أصغر، وأنّ عزمه لاحقاً يتناسب مع هذه الصعوبة، وكذلك الأمر في الميتافيزيقيا، أنّ قُدرات المُفكرين من العباقرة، فيما تكون شديدة القوة، والثبات، وأكثر تأثيراً في نشاطاتها من أولئك الذين تكون قُدراتهم أقل شأناً، ويتحفّزون بسرعة أقلّ، ويشعرون بالإحراج أكثر ويملؤهم التردّد بعد بضع خطوات يُحقّقونها. مرة أُخرى، هل لاحظت في أي وقت علامة ضوئية في الشارع، أو تلك التي فوق المحلّات، تجذب الانتباه أكثر من غيرها؟».

«لم يسبق لي أبداً أن أوليت هذا الأمر أهمية»، قلت.

«هُناك لعبة يُمارس فيها التلاعب بالألغاز»، استأنف كلامه، «وهي تلعب على خريطة. يطلب أحد الأطراف من الطرف الآخر أن يجد كلمة ما.. اسم بلدة، نهر، دولة، أو إمبراطورية.. أي كلمة، باختصار، يجدها على سطح الخريطة الذي تختلط فيه الكلمات على نحو مُحيّر. ويبدأ أيُّ لاعب مُستجد على اللعبة عموماً بالبحث ساعياً إلى إحراج خصومه وذلك بإعطائهم أسماءً مكتوبة بخط مُتناهي الصغر؛ إلّا أنّ اللّاعب الماهر سوف يختار تلك الكلمات الواضحة، المكتوبة بحروف كبيرة، التي يجدها على الخريطة من طرف إلى طرف آخر. هذه الكلمات، مثل العلامات واللافتات العريضة التي نراها في الشارع رُبما لا يُلاحظها المرء لكونها واضحة جدّاً؛ هُنا تتماثل البصيرة المادية تماماً مع الغفلة المعنوية في الإدراك والتي من خلالها يُعاني العقل صعوبة شديدة فلا ينتبه إلى تلك الاعتبارات البديهية التي لا لبس فيها على نحو مُستغرب. هذه المسألة، كما يبدو، كانت تقع فوق أو تحت مُستوى إدراك مدير الشرطة. فلم يسبق له مرة أن تصوّر أنّ من المُحتمل، أو من المُمكن، أن يكون الوزير قد وضع الرسالة

في مكان يقع مُباشرة تحت مرأى وبصر العالم، في سبيل أن يمنع أي شخص في العالم من الانتباه إليها.

«لكنّي كلّما فكّرت في تلك البراعة، والجرأة، والاندفاع، والقُدرة على حُسْن [698]التمييز التي يتمتع بها د.، وفي الحقيقة أن الوثيقة لا بُدّ أنّها كانت دائماً في مُتناول اليد، إذا كان ينوي استخدامها لغرضٍ صالح؛ وفي الدليل الحاسم الذي توصل إليه مدير الشرطة، وأنّ الوثيقة لم تكن مُخبأة ضمن دائرة بحث ذلك الرجل الرفيع الشأن.. توصّلت إلى قناعة أكبر أنّ الوزير من أجل أن يُخفي الرسالة لجأ إلى حيلة ذكية، وهي أنّ لا يُحاول إخفاءها أبداً.

«بعد أن اقتنعت بهذه الأفكار، هيأت لنفسي نظّارات خضراء العدسات، وذهبت في صباح أحد الأيام الجميلة، كأنّما حدث ذلك مُصادفة، إلى الفندق الذي يُقيم فيه الوزير. هُناك وجدت د. يتمدّد على أريكة ويتثاءب في تكاسل، ويضيع الوقت كالمُعتاد، ويتظاهر بأنّه في أقصى حالات الملل. ربّما كان يبدو في نظري أكثر البشر نشاطاً.. لكن ذلك ما يحدث حين لا يراه أحد.

«لكي أكون صريحاً معه، شكوت له من ضعف بصري، وتأسف لحالي لأنّي أضطر لأن أضع النظارات، التي كنت أراقب من ورائها في حذر وروية كل ما يجري في الشقة، بينما كنت أتظاهر بالإصغاء إلى حديث مضيفي.

«كنت أُولي اهتماماً خاصّاً إلى طاولة كتابة كان يجلس بالقرب منها، عليها بعض الرسائل المُتفرقة المُتناثرة في اضطراب وأوراق أُخرى، مع آلة موسيقية وبضعة كتب وأشياء أُخرى. لكنّي هُنا، بعد تفحّصٍ دقيق جدّاً، لم أرَ شيئاً يستدعي الشك على وجه التحديد.

«وأخيراً وقعت عيناي، بعد أن كانتا تحومان حول الغرفة، على علبة فيها حزمة من ورق اللعب يتدلّى منها شريط قذر من حلقة نُحاسية صغيرة كانت على رفّ الموقد. هذه العُلبة مُقسّمة إلى ثلاث أو أربع خانات، وفيها خمس أو ست بطاقات دعوة ورسالة. هذه الرسالة كانت مُلوّثة ومُجعّدة؛ تكاد تكون مُمزّقة إلى جزأين من المُنتصف.. كما لو أنّ شخصاً أراد منذ البداية تمزيقها واعتبارها

عديمة الأهمية، لكن القرار تبدل، أو تأجّل، في اللّحظة التالية. على الرسالة ختم كبير أسود، يحمل رمز د. بشكل بارز جدّاً، وهي مُعنونة بخط يد نسائي إلى د.، الوزير نفسه. كانت الرسالة مُلقاة بإهمال، في حركة تدلّ على الامتعاض، في أحد الأقسام العليا للرف..

«ما إن لمحت هذه الرسالة، حتى استنتجت أنّها هي التي كنت أبحث عنها. على وجه الدقة كانت في كل مظاهرها مُختلفة كلّياً عن الرسالة التي كان مُدير الشرطة قد قرأ علينا وصفاً دقيقاً لها. هُنا الختم كبير وأسود اللون، ويحمل رمز د.؛ وهُناك الرسالة صغيرة وحمراء وتحمل حرف س. الذي يرمز إلى شعار عائلة الدوق.[699] وهُنا مرة أُخرى، عنوان الوزير مكتوب بخط نسائي وبحروف صغيرة؛ وهُناك عنوان مكتوب في الأعلى لإحدى شخصيات البلاط الملكي، كان غامقاً وبخط يدل على الثقة بالنفس؛ الحجم وحده يُشكّل نقطة الاختلاف في الرسالتين. عندئذ كانت هذه الاختلافات الجذرية واضحة للعيان؛ القذارة، بقع التراب، وتمزّق الورق، وعدم الانسجام مع العادات المنهجية الحقيقية المعروفة عن د.، كلها تُشكّل دليلاً واضحاً على نية لتضليل الناظر بحيث توحي له بعدم أهمية الوثيقة؛ إلى جانب الوضع المكشوف لهذه الوثيقة، التي لا بُدّ أن يراها أي زائر لأول وهلة، هذه الأمور كلّها تتوافق مع الاستنتاجات التي توصلت إليها سابقاً؛ هذه الأشياء مُجتمعة تُثير الشكوك لدى أي إنسان يدخل وفي نيته أن يشك في الأمر..

«جعلت زيارتي تطول بقدر الإمكان، بينما حرصتُ على استمرار حديث شيّقٍ مع الوزير حول موضوع كنت أعرف جيداً أنّه لن يفشل في إثارة اهتمامه، بينما بقيت عيني مُسمّرتين على الرسالة. أثناء هذا كرّست قُدراتي على حفظ وتسجيل المظهر الخارجي للوثيقة وطريقة وضعها على الرف؛ كذلك توصّلت إلى اكتشاف أزاح عنّي أنواع الشكوك التافهة التي كانت تُساورني. لدى تفحّص حافات الورقة، لاحظت أنّها كانت محكوكة أكثر ممّا يبدو ضرورياً. شكلها كان مُبعجاً مثل أي ورقة سميكة، بعد أن تُطوى وتوضع داخل ملف، فهي تُطوى مرة أُخرى في اتّجاه مُعاكس، بالطيات نفسها أو الحافات التي كانت تشكل وضعها الأصلي. هذا الاكتشاف كان كافياً بالنسبة لي. كان من الواضح في نظري أنّ

الرسالة قُلبت، مثلما يُقلب القفاز، فأصبح داخلها خارجها، وأُعيد ترتيبها، وأُعيد ختمها. واستأذنت بالانصراف من الوزير بعد أن تمنّيت له نهاراً سعيداً، وخرجتُ في الحال، وتركت علبة السعوط الذهبية على الطاولة.

«في صباح اليوم التالي ذهبت لاسترداد علبة السعوط، وحينها استأنفنا حوارنا الشيّق الذي دار بيننا في اليوم السابق. وبينما كنا مُنهمكين بالكلام، سمعنا خبطاً عالياً، كما لو أنّه إطلاق رصاص، يأتي مُباشرة من تحت نوافذ الفندق، وبعد ذلك جاءت سلسلة صرخات مُخيفة، وصياح حشد من الناس المرعوبين. اندفع د. فوراً إلى إحدى النوافذ، وفتحها على مصراعيها، ونظر إلى الخارج. في هذه الأثناء، تقدّمت إلى علبة البطاقات، وأخذت الرسالة، ووضعتها في جيبي، ووضعت مكانها نسخة مُصوّرة، (قدر تعلّق الأمر بالأمور الخارجية) سبق أن هيأتها بعناية [700]عندما كنت في المنزل.. وقلدت فيها ختم د. بمهارة فائقة باستعمال ختم صنعته من عجينة خبز..

«كانت الضجة التي حدثت في الشارع سببها تصرّف أهوج لرجل كان يحمل بندقية. لقد أطلق النار وسط جمعٍ من النسوة والأطفال. لكن اتّضح لاحقاً أنّ الرصاصات كانت من نوع الخلب، فاضطر الرجل لأن يمضي في طريقه بعد أن رأى الناس أنّه إما أن يكون مجنوناً أو مخموراً. وعندما رحل الرجل، جاء د. من النافذة، وكنت قد تبعته مُباشرة بعد أن أمّنت وضع الشيء بحيث يكون مرئياً. بعد ذلك بقليل ودّعته. وكان الرجل الذي تظاهر بالجنون من أصحابي ودفعت له أجره»».

«لكن ما الغرض الذي أردته»، سألت، «من تبديل الرسالة بنسخة مُطابقة للأصل؟ ألم يكن من الأفضل، في الزيارة الأُولى، لو أخذتها صراحة، ورحلت؟».

«إن د.» أجاب دوبن، رجل يائس، وعصبي المزاج. ومنزله أيضاً لا يخلو من المُرافقين الذين يخدمونه ويلبّون طلباته. لو أنّني أقدمت على المُحاولة التي تلمح إليها، لما غادرت الموقع الرئاسي حيّاً. الناس الطيبون في باريس ربّما ما كانوا ليسمعوا بخبري بعد ذلك. لكن كان لدي هدف بعيد عن هذه الاعتبارات.

أنت تعلم توجهاتي السياسية. في هذه المسألة، أنا أتصرّف كرجل يُناصر السيدة المعنية. منذ ثمانية عشر شهراً كان الوزير مُسيطراً عليها بنفوذه. والآن جاء دورها لتسيطر عليه.. وإذا عرف أن الرسالة لم تعُد موجودة لديه، سوف يستمر في ابتزازه لها كما لو كان يحتفظ بالرسالة. ولهذا فهو يُكرّس نفسه لتصفياته السياسية. كذلك فإنّ سقوط نجمه لن يأتي سريعاً، بقدر ما يكون سقوطاً أخرق. من الجميل الكلام عن «الانحطاط إلى أسفل دركٍ في الجحيم»[7] *facilis descensus Averni*؛ لكن في جميع أنواع التسلّق إلى ذرى المجد، كما قالت كاتالاني[8] عن الغناء، فالصعود أسهل من النزول. في المثال الحالي لم أكن اشعر بالتعاطف.. على الأقل لم أشعر بالشفقة.. على الذي يسقط. إنه ذلك الوحش المُرعب *monstrum horrendum*، العبقري المْتحجر القلب الذي لا يحمل أي مبادئ. لكني أعترف بأني أحب أن أعرف الطبيعة المُحدّدة لأفكاره، حين تتحدّاه تلك المرأة التي يُسميها مدير الشرطة «شخصية ما» فهو يلجأ إلى فتح الرسالة التي تركتها له في علبة البطاقات.

«وكيف ذلك؟ هل وضعت أي شيء محدد فيها؟»

«طبعاً.. لم يكن يبدو من المُناسب أن تترك الرسالة فارغة.. ذلك نوعٌ من الإهانة. لقد فعل د.، في فيينا معي ذات مرة، شيئاً شريراً، وأخبرته حينذاك مازحاً أنّني سوف أتذكّر ذلك دائماً. لذا، بحسب معرفتي له، سوف يشعر بشيء من [701]الفضول فيما يتعلّق بهوية الشخص الذي تفوّق عليه في الدهاء، لقد تصوّرت أنّ من الخطأ عدم إعطائه مُفتاح اللغز. إنّه مطّلع جيداً على رسالتي، وكتبت في مُنتصف الصفحة الفارغة هذه الكلمات.. «إنّها خطة شيطانية، إن لم تكن تليق باتريوس، فهي تليق بثايستيس»[9] وهي كلمات يُمكن العثور عليها في كتاب كريبليون.

---

(7) الاقتباس من (الإنيادة) لفيرجل: 6، 126. [المترجم]

(8) أنجليكا كاتالاني (1779- 1849) نجمة الأوبرا الإيطالية ومدرستها. [المترجم]

(9) الاقتباس مأخوذ من كتاب *Atrée et Theste* 1707 تأليف بروسبير جوليوت دو كريبليون (1674- 1762). [المترجم]

من إلهامات التنويم المغناطيسي

أيُّ هاجسٍ من الشك ربّما لا يزال يُراود ذهنك فيما يتعلّق بحقيقة التنويم [702]المغناطيسي، فلا بُدّ من القول: إنّ الحقائق المُذهلة لهذا الموضوع أصبحت الآن من المسائل المُعترف بها على نطاق واسع في العالم؛ وسط هؤلاء الذين يُساورهم الشك، هُناك أناس يتّخذون الشك مهنة لهم.. وهم فئة فاشلة لا تستحق الاحترام. ليس ثمّة طريقة لتضييع الوقت في أيامنا هذه أكثر من مُحاولة إثبات أنّ الإنسان من خلال مُمارسة قوة إرادته يستطيع أن يؤثر على صاحبه، بأن يُدخله في حالة غيبوبة غير عادية، حيث تُشبه هذه الظاهرة الموت في كثير من جوانبها، أو على الأقل فهي لا تُشبه أي ظاهرة أُخرى ضمن نطاق إدراكنا؛ حتى إنّ الشخص الذي يُمارس هذه التجربة لن يُستخدم في جهد بالغ إلّا الأعضاء الخارجية للإحساس وهو في حالةٍ من الإنهاك، لكنه يتوصّل من خلال وسائل إدراكية حادة، ومن خلال قنوات غير معروفة المصدر، إلى أشياء خارج نطاق الحس المادي؛ وفضلاً عن هذا، فإن قدراته الفكرية تكون بدرجة استثنائية مُتفوقة في نشاطها عما هي عليه في الأحوال الاعتيادية؛ وتكون استجابته للشخص الذي يتحكّم بإرادته قوية، وأخيراً، فإنّ تقبّله للخضوع يزداد عمقاً مع تكرار التجربة، بينما في المعدل نفسه، تكون الظواهر الغريبة التي تُستنبط أكثر اتّساعاً وظهوراً.

أقول.. إنّ قوانين التنويم المغناطيسي هذه في خصائصها العامة.. ربّما كانت من الأشياء التي تُثقل كاهل القارئ إذا ما شئت أن أبيّنها له؛ لذلك لن أفرض على القراء مثل هذا البيان الذي لا ضرورة له؛ اليوم، الغرض الذي أنشده حالياً شيء مُختلف في الواقع. لكنّي أرى نفسي مُضطراً، حتى وأنا بين شدقي عالمٍ من الجحود، أن أُوضّح تفصيلياً دون تدخلٍ شخصي جوهر ما يدور من مُحاورة غرائبية بين شخصٍ خاضع للتنويم المغناطيسي وبيني أنا.

كنت منذ زمن طويل مُعتاداً على تنويم الرجل الذي نتكلّم عنه (السيد فانكيرك)، وكان يستجيب لإرشاداتي جيداً ممّا أدى للتخفيف من مُعاناته. منذ عدة أشهر كان يُعاني من السل الرئوي، ولكن اختفت أكثر أعراض هذا المرض خطورة بفعل تدخّلاتي المُباشرة؛ وفي ليلة الأربعاء، بعد مُنتصف الليل بربع ساعة، جاءني [703]من يدعوني لزيارته وهو على فراشه.

كان المريضُ يُعاني من ألمٍ حاد في الصدر، وكان يتنفّس بصعوبة، وتبدو عليه كل الأعراض الاعتيادية لنوبةٍ من الربو. في نوباتٍ مثل هذه كان يجد راحة في العادة عندما يدهن بزيت الخردل المناطق التي تتركّز فيها مراكز الأعصاب، لكن في تلك الليلة، لم يكن هذا الإجراء يُجدي نفعاً.

حين دخلت غرفته رحب بي بابتسامة مرحة، وعلى الرغم من أنّه كان يُعاني من آلام مُبرحة، إلّا أنّه بدا من الناحية العقلية سليماً من كافة النواحي.

«أرسلتُ إليك الليلة»، قال، «لا لتفحص حالتي المُزمنة، بقدر ما أردت أن ترضي فضولي فيما يتعلّق بهاجس كان في الأيام الأخيرة يتسبّب لي بكثير من القلق والحيرة. لست في حاجة لإخبارك بمدى الشكوك التي تُعذّبني حتى الآن حول موضوع الروح وخلودها. ليس في وسعي إنكار وجود شيءٍ غامض لا يُدرك وجوده، كما لو أنّه مُتعلّق بالروح بعينها التي كنت أشكّك بها. غير أنّ هذا الإدراك الجزئي لم يبلغ في أي وقتٍ حد القناعة. وليس لعقلي شأنٌ في هذا.

كل مُحاولات الاستقصاء المنطقي لم تسفر، في الواقع عن شيءٍ سوى أن جعلتني أكثر تشكّكاً من قبل. ونصحني البعض بأن أقرأ كاوزن[1]. وبالفعل درست أعماله فضلاً عن تلك الأعمال التي صدرت في أوروبا وأمريكا وتردّد صدى أفكاره. لقد وقع بين يدي كتاب (تشارلس إيلوود) للسيد براونسون[2]، على سبيل المثال، وقرأته باهتمام عميق. في كثير من أجزائه وجدته منطقياً، لكن الأقسام

(1) فيكتور كاوزن (1792- 1867) فيلسوف فرنسي ومترجم أعمال أفلاطون. [المترجم]

(2) اوريستيس أ. براونسون (1803- 1876) كاتب انكليزي من الليبراليين كتب سيرته الذاتية بعنوان «تشارلس ايلوود». [المترجم]

التي لم تكن منطقية بحتة هي مُجرّد مناقشات سوداوية ليست ذات أهمية يتداولها البطل المُلحد الذي يتكلّم عنه الكتاب. خلاصة الكتاب واضحة بالنسبة لي وهي أنّ الإنسان الحائر لم ينجح حتى في إقناع نفسه. في نهاية الكتاب ينسى المؤلف كلّياً ما بدأ به، مثل حكومة ترينكولو[3]. باختصار، لم يمضِ وقت طويل حتى أدركت أنّ الإنسان إذا لم يقتنع بخلوده من تلقاء نفسه، فلن يقتنع أبداً بالاطلاع على أفكار تجريدية كانت منذ زمنٍ طويل من المُمارسات المألوفة لدى فلاسفة الأخلاق في إنكلترا، وفرنسا، وألمانيا. وهي مُماحكات ربّما تمتعنا وتجهدنا في الوقت نفسه، لكنها لا تبقى طويلاً عالقة في الذهن. هُنا، على الأرض، على الأقلّ، فإنّ الفلسفة، وأنا مُقتنع بهذا، من العبث دائماً أن تدعونا للنظر إلى الخصائص بوصفها من الأشياء. الإرادة ربما تُرضي.. الروح.. أما الفكر، فلا.

«أقول مرة أُخرى، إذن، إنّني كنت أُدرك هذا إدراكاً جزئياً، لكنّي لم أكن مؤمناً من الناحية الفكرية مُطلقاً.. لكن في الفترة الأخيرة، حدث تغيّر في تعميق الفكرة، حتى صارت تُمثّل تقبّلاً عقلياً، بحيث وجدت من الصعوبة التمييز بين الأمرين. ورحت أتعقّب هذا التأثير حتى توصّلت إلى أنّ مصدره يكْمن في التنويم [704]المغناطيسي. إنّني لا أستطيع شرح المعنى الذي أقصده بشكل أفضل من اللجوء إلى فرضية أنّ حالة السمو التي تحصل أثناء التنويم تُتيح لي أن أتصوّر قطاراً من القدرات الذهنية يخترق هذا الوجود الشاذ عن الطبيعة الاعتيادية، ويجعلني ذلك أقتنع بأنّ تلك القُدرات في حالة انسجام تام مع ظواهر التنويم المغناطيسي، ويمتدّ تأثيرها ليُلامس حالتي الاعتيادية. في حالة النائم، التفكير العقلي وما ينتج عنه.. السبب ونتيجته.. مُتزامنة معاً. وفي حالتي الطبيعية، يختفي السبب، ويبقى التأثير وحده، وربّما كان ذلك جزئياً فقط..

«هذه الاعتبارات قادتني لأن أتصوّر أنّ بعض النتائج المُفيدة ربما تتحقّق من خلال سلسلة من الأسئلة الموجهة بطريقة جيدة ربّما تطرح عليّ وأنا في حالة تنويم مغناطيسي. لا بُدّ أنّك كثيراً ما لاحظت حالة الإدراك الذاتي العميق الذي

(3) ورد ذكرها في مسرحية (العاصفة) لشكسبير. [المترجم]

يُبديه النائم.. من خلال المعرفة المُكثفة التي يُظهرها بكل النقاط التي تُطرح أثناء خضوعه للتنويم المغناطيسي نفسه؛ ومن هذا الإدراك ربّما تستنتج تلميحات عن التصرّف الصحيح تُشبه ما يستنتج من طريقة الاستجواب التي يلقّنون فيها تعاليم الديانة المسيحية».

وافقت طبعاً على إجراء هذه التجربة. وكانت بضع خطوات كافية لإدخال السيد فانكيرك في حالة نوم مغناطيسي. أصبح تنفسه في الحال أكثر سهولة، وبدا أنّه لا يُعاني من أي متاعب جسدية. ثم جاءت المُحاورة التالية وفيها يُشير حرف ف. في الحوار إلى المريض، وحرف ب. إليّ أنا..

ب. هل أنت نائم؟

ف. كلا، كنت أُحبذ أن أنام نوماً عميقاً أكثر.

ب. [بعد بضع خطوات أُخرى] هل أنت نائم الآن؟

ف. نعم.

ب. ما رأيك بنتيجة مرضك الحالي؟

ف. [بعد تردّد طويل وكلمات مُرهقة] لا بُدّ أنّني سأموت.

ب. هل تُقلقك فكرة الموت؟

ف. [بسرعة جدّاً] كلّا.. كلّا!.

ب. هل أنت مُبتهج من الفكرة؟

ف. لو كنت مُستيقظاً لأحببت الموت، أما الآن فالأمر غير مُهم. حالة التنويم تُقرّبني من الموت بحيث ترضيني.

ب. أتمنّى أن تشرح ما تقصده، سيد فانكيرك.

ف. أنا على استعداد لتقبّل ذلك، لكن الأمر يتطلّب جهداً أكثر ممّا أشعر بأني قادر على القيام به. أنت لا تستجوبني كما ينبغي.

ب. ماذا عليّ إذن أن أسأل؟

ف. عليك أن تبدأ بالبداية.

ب. البداية! ولكن أين هي البداية؟

ف. أنت تعرف أن البداية هي الخالق. [قال هذا بصوت هامس مُتهدّج، وهو يُطلق حسرة تُعبّر عن أقصى درجات الحزن].

[705]ب. ما هو الخالق في رأيك؟

ف. [تردّد دقائق كثيرة قبل الإجابة] لا أعرف.

ب. أليس الخالق روحاً[4]؟

ف. عندما كنت مُستيقظاً عرفت ما الذي تقصد بـ «الروح»، أما الآن فهي تبدو مُجرّد كلمة.. مثلها مثل الحقيقة، الجمال.. أقصد أنّها قيمة.

ب. أليس الخالق كياناً غير مادي؟

ف. لا يوجد شيء غير مادي.. إنّها مُجرّد كلمة تُقال. ما ليس بمادة، فهو ليس بشيء.. إلّا إذا كانت القيم من الأشياء.

ب. هل الخالق إذن مادة؟

ف. لا. [هذا الرد أذهلني كثيراً].

ب. ما هو إذن؟

ف. [بعد صمتٍ طويل قال مُتمتماً] مهلاً.. لكنّه شيء يصعب تحديده. [صمتٌ طويل آخر]. إنّه ليس روحاً، لأنّه موجود. ولا هو مادة، كما نفهمها. هُناك درجات للمادة لا يعرف الإنسان شيئاً عنها؛ الشيء الكبير يُهيمن على الصغير، والصغير يتغلغل في الكبير. الهواء الجوي، على سبيل المثال، يفرض وجود مبدأ الكهربائية، بينما مبدأ الكهربائية يتغلغل في الهواء. هذه التدرّجات للمادة تزداد في ندرتها أو صغرها، حتى نصل إلى مادة لا تتجزأ.. مادة من غير

(4) إنجيل يوحنا 4: 24. «الرب روح...». [المترجم]

جُزيئات.. غير مرئية ..واحدة.. وهُنا يتعدّل قانون الهيمنة والاختراق. المادة النهائية، أو المادة التي لا تتجزّأ، لا تتغلغل فقط في كل الأشياء لكنّها تتسلّط على كل الأشياء.. فهي تتضمّن كل الأشياء في ذاتها. هنا يكْمن وجود الخالق. ما يُحاول الناس تجسيده في كلمة «فكرة»، هي هذه المادة في حالة حركة.

ب. الميتافيزيقيون يؤكدون أنّ أي فعل قابل للاختزال إلى حركة وتفكير، وأنّ الشيء الأخير هو أصل للأول.

ف. نعم؛ وأنا الآن أُدرك الخلل في الفكرة. الحركة هي من أفعال العقل.. وليس من نتائج التفكير. المادة التي لا تتجزّأ، أو الخالق، عندما تكون في حالة سكون (بقدر ما يُمكننا إدراك ذلك) يُسميها الناس العقل. والقُدرة على الحركة الذاتية (وهي مُعادلة في تأثيرها للإرادة البشرية) هي، في المادة التي لا تتجزّأ، نتيجة وحدتها وهيمنتها المُطلقة؛ وكيف لا أعرف، وأنا الآن أرى ذلك بوضوح، ذلك ما لا أعرفه أبداً. غير أن المادة التي لا تتجزّأ، إذا انطلقت للحركة بحسب قانونٍ مُعيّن، أو قيمة مُعينة تتغلغل في ذاتها، هي التفكير.

ب. ألا تستطيع أن تُعطي فكرة أكثر وأدق عما تُسميه المادة التي لا تتجزّأ؟

ف. الأشياء التي يُدرك وجودها الإنسان، تلك التي تغيب عن إدراك الحواس بالتدريج. لدينا، على سبيل المثال، قطعة من المعدن، قطعة خشب، قطرة ماء، [706]الهواء الجوي، الغاز، الحرارة، الكهرباء، الأثير الناقل للضوء. نحن نُسمّي كل هذه الأشياء مادة، وندرج كل أنواع المواد ضمن تعريفٍ عام؛ ولكن على الرغم من هذا، فلا يُمكن أن توجد فكرتان أكثر اختلافاً عن بعضهما أساساً من تلك الفكرة التي لدينا عن قطعة معدنية، والفكرة التي لدينا عن الأثير الناقل للضوء.. حين نصل إلى الفكرة الأخيرة، نشعر في أنفسنا برغبة لا تُقاوم لتصنيفها ضمن الروح، أو العدم. السبب الوحيد الذي يُقيدنا هو إدراكنا لتركيبها الذري؛ وهُنا أيضاً علينا الاستعانة بفكرتنا عن الذرة، بوصفها شيئاً يمتاز بالصغر المُتناهي، والصلابة، والإحساس بوجودها، والوزن. إذا استبعدنا فكرة التركيب الذري لن نتمكّن بعد ذلك أن ننظر إلى الأثير على أنه كيان، أو على الأقلّ

كمادة. لأنّنا نفتقر إلى كلمة أفضل ربّما نسمي ذلك الشيء «الروح». عليك الآن أن تنتقل خطوة إلى خارج نطاق الأثير الناقل للضوء.. تصوّر أنّ هُناك مادة أكثر ندرة من الأثير، لأنّ الأثير أكثر ندرة من المعدن، حتى نصل مُباشرة (بصرف النظر عن كل النظريات التي يلقّنوننا إياها في المدارس) إلى كتلة موحدة.. مادة لا تتجزّأ. مع أنّنا ربّما نُقر بصغرٍ غير محدود في الذرات نفسها، إلّا أنّ لامحدودية صغر المسافات بينها شيء تافه. لا بُدّ من وجود نقطة.. درجة من الندرة، عندها، إذا كانت الذرات كثيرة بما يكفي، فإنّ المسافات الفاصلة بينها تتلاشى، ويحصل اندماج نهائي في الكتلة. غير أنّنا إذا استبعدنا الآن مسألة التركيب الذري، فإنّ طبيعة الكتلة تتّجه حتماً إلى ما نتصوّر أنّه الروح. واضحٌ أنّ ذلك ربّما يقودنا للاعتقاد كما في السابق أنّها من المواد. الحقيقة أنّ من المُستحيل معرفة أي شيء عن الروح، لأنّ من المُستحيل تخيّل ما هي ليست عليه. حين نُطري على أنفسنا فنتخيل أنّنا توصّلنا إلى فكرة مُحدّدة عنها، تخدعنا تصوراتنا عن مدى لامحدودية المادة النادرة.

ب. يبدو لي أنّ هُناك اعتراضاً لا يُقاوم على فكرة الاندماج المُطلق.. وذلك يتمثّل في المُقاومة الضئيلة جدّاً التي تواجهها الأجرام السماوية في دورانها في الفضاء.. وهي مُقاومة أصبحت الآن مؤكدة الوجود، هذا صحيح، لأنّها موجودة بدرجة ما، لكنّها طفيفة بحيث لا تلمس آثارها أبداً حتى لعقل حصيف مثل عقل نيوتن. إنّنا نعرف أنّ مُقاومة الأجسام تتناسب في الأساس مع كثافتها. الاندماج المُطلق يعني الكثافة المُطلقة. فإذا لم تكن هُناك مسافات فاصلة، فلا يمكن أن يحصل تأثر أو خضوع. إنّ الأثير، وهو كثيف على نحو مُطلق، يعمل على وضع حدّ مؤثر غير محدود لتقدّم أي نجم من النجوم أكثر من تأثير حجر صلب أو قطعة حديد.

ف. الاعتراض الذي ذكرته يُمكن الإجابة عليه بسهولة تكاد تتناسب مع [707]صعوبة الإجابة عليه ظاهرياً.. فيما يتعلّق بحركة النجم، فلا فرق إذا كان النجم يخترق الأثير أو أن الأثير يخترقه. ليس هُناك خطأ فلكي لا يُمكن تفسيره أكثر من ذلك الخطأ الذي يربط بين تقهقر المُذنبات مع فكرة مرورها عبر الأثير:

لأنّ، مهما كنّا نفترض ندرة هذا الأثير، فلا بُدّ أنه يكبح حركة دورانية للأفلاك والنجوم خلال فترة أقصر بكثير ممّا يُصرّح به هؤلاء الفلكيون الذين حاولوا الالتفاف على مسألة وجدوا من المُستحيل عليهم استيعابها. إنّ الارتداد الذي يحصل في الواقع يرتبط، من ناحية أُخرى، بذلك التأثير الذي ربّما يكون مُتوقعاً من الاحتكاك بالأثير أثناء المرور السريع على المدار. في إحدى الحالات، تكون قوة الارتداد آنية ومُتكاملة في ذاتها.. وفي الحالة الأخرى تكون تراكمية إلى ما لا نهاية.

ب. في كل هذا.. هذا الربط بين المادة المُجرّدة وبين الخالق.. ألا يوجد شيء يتنافى مع مبدأ القداسة؟ [كنت مُضطراً لإعادة السؤال قبل أن يستوعب النائم المعنى تماماً].

ف. هل تستطيع أن تُخبرني لماذا ينبغي أن تكون المادة أقلّ قداسة من العقل؟ لكنّك تنسى أنّ المادة التي أتكلّم عنها، في كل الجوانب، هي «العقل» نفسه أو «الروح» التي يُدرّسونها لنا في المدارس، بقدر تعلّق الأمر بالقدرات الفائقة، وهي فضلاً عن هذا «المادة» التي ندرسها أيضاً. إنّ الخالق، بكل القُدرات التي تُنسب للروح، ليس إلا مثالية المادة.

ب. أنت تؤكد إذن على أنّ المادة التي لا تتجزّأ، إذا كانت في حالة حركة، هي الفكر؟

ف. بصفة عامة هذه الحركة تُمثل الفكر الكلي الوجود للعقل المُطلق. هذا الفكر يُمارس عملية الخلق. كل الأشياء المخلوقة من أفكار الخالق.

ب. تقول، «بصفة عامة».

ف. نعم. العقل المُطلق هو الخالق. بالنسبة إلى الخصائص الفردية الجديدة، تُعتبر المادة أساسية.

ب. لكنّك تتحدّث الآن عن «العقل» وعن «المادة» مثلما يتحدّث الميتافيزيقيون.

ف. نعم.. لتلافي الإرباك. حين أقول: «عقل»، أعني المادة التي لا تتجزّأ أو المادة النهائية؛ وإذا قلت: «مادة» أعني كل شيء آخر.

ب. كنت تقول إنّ «بالنسبة إلى الخصائص الفردية الجديدة تُعتبر المادة أساسية».

ف. نعم؛ لأنّ العقل، وهو موجود دون اندماج، ما هو إلا صورة من صور الخالق. من أجل خلق الفرد، الكائنات العاقلة التي تفكّر، كان من الضروري تجسيم أجزاء من العقل المُقدّس. لهذا لدى الفرد خصائصه الفردية بعد أن خلع كساء الاندماج، إنّه بذلك صورة من صور الخالق. والآن، الحركة المُحدّدة للأجزاء [708]المُجسّمة من المادة التي لا تتجزّأ هي فكر الإنسان؛ لأنّ حركة الكل هي حركة الخالق.

ب. تقول: إنّ الإنسان إذا تخلّص من الجسد فهو صورة للخالق؟

ف. [بعد تردّدٍ طويل] لا يُمكن أن أكون قد قلت هذا؛ إنّه من العبث.

ب. [يلمّح إلى مُلاحظاتي] أنت قلت فعلاً إن «إذا تخلص من الجسد فهو صورة للخالق».

ف. هذا صحيح. الإنسان الذي يسلك هذا الاتّجاه في التجرد سوف يكون تجسيداً للخالق.. سوف يحمل خصائصه الفردية. لكنّه لن يتمكّن أبداً من الوصول إلى هذا التجرّد.. على الأقل لن يصل أبداً إلى ذلك.. وإلّا علينا أن نتخيّل فعلاً من أفعال الخالق يرتد على ذاته.. فعل عقيم بلا هدف. الإنسان مخلوق. والمخلوقات هي من أفكار الخالق. إنّها طبيعة الفكر أن يكون من المُتعذّر تغييره.

ب. لا أفهم. تقول: إنّ الإنسان لا يتخلّى أبداً عن الجسد؟

ف. أقول: لن يكون أبداً بلا جسد.

ب. هلّا شرحت الأمر.

ف. هُناك نوعان من الأجساد.. الجسد البدائي المُتخلّف والجسد الكامل؛

وهذا يتماشى مع حالتي الشرنقة والفراشة[5]. ما نُسميه «الموت»، ليس إلّا المخاض العسير. وتستمر أشكال تجسداتنا الحالية في التغيّر، وهي أشكال تمهيدية، مؤقتة. ومُستقبلنا يتحسّن تدريجياً حتى نصل إلى مرحلة الكمال المُطلق والخلود. الحياة المُطلقة هي الغاية النهائية.

ب. لكنّنا نُدرك شيئاً لا بأس به عن تحوّل الدودة.

ف. .نحن، يقيناً.. وليس الدودة. المادة التي يتكوّن منها جسدنا البدائي تقع ضمن نطاق إدراك أعضاء ذلك الجسد؛ أو على نحو أكثر دقة، فإنّ أعضاءنا البدائية تتكيّف مع المادة التي يتألّف منها جسدنا البدائي؛ ولا تتكيّف مع المادة التي يتألف منها الجسد النهائي الكامل. لهذا يفلت الجسد النهائي من إدراك حواسنا البدائية، ولا ندرك سوى القشرة التي تسقط، بعد أن ذبلت، من الشكل الداخلي؛ ليس ذلك الشكل الداخلي بعينه؛ لكن هذا الشكل الداخلي، فضلاً عن القشرة، قابل للإدراك من أولئك الذين سبق أن وصلوا إلى الحياة النهائية أو الآخرة.

ب. كثيراً ما كنت تقول: إنّ حالة التنويم المغناطيسي تُشبه إلى درجة كبيرة الموت. كيف ذلك؟

ف. حين أقول: إنّها تُشبه الموت، أعني أنّها تُشبه الحياة الآخرة؛ لأنّي عندما أدخل في هذه الحالة تكون حواس حياتي البدائية متوقفة مؤقتاً، وأدرك وجود أشياء خارجية مُباشرة، دون أعضاء، من خلال وسط سوف أستخدمه في الحياة الآخرة [709]، التي لا تخضع لهذا النظام.

ب. لا تخضع لهذا النظام؟

ف. نعم؛ الأعضاء مُبتكرات يتمكّن بها الفرد من تكوين علاقة حسية مع أصناف وأشكال المادة، بحيث تُستثنى أصنافٌ وأشكال أُخرى. أعضاء الإنسان

(5) رسالة القديس بولص إلى أهالي كورنثيا، 15: 44، «هُناك جسد طبيعي، وهُناك جسد روحي». [المترجم]

تتكيف مع وضعه البدائي، مع ذلك الوضع فقط؛ أما وضعه النهائي، لأنّه غير مُنتظم، فله قدرة غير مُحدودة على استيعاب كل المسائل باستثناء شيء واحد.. طبيعة إرادة الخالق.. بمعنى آخر، حركة المادة التي لا تتجزّأ. سوف تكون لديك فكرة واضحة عن الجسد النهائي إذا تخيّلته مثل دماغٍ كامل. هذا ليس صحيحاً؛ إلّا أن تصوّر هذه الطبيعة من شأنه أن يقربك من استيعاب ماهيته. الجسم المُشع يُرسل ذبذبات إلى الأثير الباعث للضوء. والذبذبات تولّد ذبذبات مُماثلة ضمن شبكية العين؛ وهذه أيضاً تُرسل ذبذبات مُماثلة إلى العصب البصري. والعصب ينقل ذبذبات مُماثلة إلى الدماغ؛ والدماغ يُرسل ذبذبات مُماثلة إلى المادة التي لا تتجزّأ التي تخترقه. إنّ حركة هذه المادة الأخيرة هي الفكر، وإدراك الفكر هو الموجة الأُولى. هذا هو السياق الذي يتواصل به العقل في الحياة البدائية مع العالم الخارجي؛ وهذا العالم الخارجي، بالنسبة إلى الحياة البدائية محدود في خصوصية أعضائه. لكن في الآخرة التي لا تخضع لهذا النظام، لا يتواصل العالم الخارجي مع الجسد الكامل، (الذي يتألف من مادة جوهرية ذات صلة بالدماغ، كما قلت) بأي وسيلة للتدخّل غير الأثير الأكثر ندرة ولامحدودية حتى من الضوء الساطع؛ ومع هذا الأثير.. في تناسقٍ معه.. يتذبذب الجسد الكامل، ويبعث الحركة في المادة التي لا تتجزّأ التي تتغلغل فيه. إلى غياب أعضاء ذات خصوصية فريدة إذن علينا أن ننسب الإدراك الذي يكاد يكون غير محدود للحياة الآخرة. وبالنسبة إلى الكائنات البدائية المُتخلفة، فالأعضاء أقفاص ضرورية لتقيدها حتى ينبت ريشها.

ب. تتكلّم عن «كائنات» بدائية. هل هُناك كائنات بدائية أُخرى غير الإنسان؟

ف. ذلك الخليط مُتعدّد العناصر من المواد النادرة التي تُشكّل السدم والغمام، والكواكب، والشموس، وأجرام أُخرى ليست سديمية، ولا هي شموس، ولا كواكب، الغرض الوحيد من ذلك توفير القوت المُناسب لخصوصية الأعضاء لكائنات بدائية لا نهاية لها. لكن لضروريات الكائنات البدائية، قبل الحياة النهائية، لا توجد أجساد مثل هذه. كل واحد من هذه مُزود بأنواع مُميزة من المخلوقات المُفكرة العضوية، البدائية. في كل ذلك، تختلف الأعضاء من

ناحية سمات المكان الذي تتوفّر فيه. عند [710]الموت، أو التحوّل، هذه المخلوقات، وهي تعيش حياة نهائية.. الخلود.. وتدرك كل الأسرار باستثناء السر الواحد، تؤدي كل الأدوار وتنتقل إلى أي مكان بمحض الإرادة.. تسكن، ليس في النجوم التي تبدو لنا من المحسوسات الوحيدة، والتي لسكنها نتصوّر خطأً أنّ هُناك فضاءً مخلوقاً.. لكنها تسكن ذلك الفضاء بعينه.. ذلك الفضاء اللامتناهي الذي في اتّساعه الحقيقي يبتلع ظلال النجوم.. يمحوها كأنّما لا كينونة لها عن إدراك الملائكة.

ب. تقول: «لولا ضرورة الحياة البدائية» لما كانت نجوم. ولكن لماذا هذه الضرورة؟

ف. في الحياة غير العضوية، فضلاً عن المادة غير العضوية على وجه العموم، ليس هُناك ما يُعيق تطبيق قانون بسيط فريد.. الإرادة المُقدسة. على أمل إيجاد نوع من الضوابط أو الكبح، تمّ ابتكار الحياة والمادة العضوية، (وهي مُعقدة، وجوهرية، ومُثقلة بالقوانين).

ب. لكن، مرة أُخرى.. لماذا قضت الحاجة بوجود هذه الإعاقة؟

ف. نتيجة عدم انتهاك القانون هي الكمال.. الحق.. السعادة السلبية. ونتيجة انتهاك القانون النقص، الخطأ، والألم الإيجابي. من خلال إعاقات تأتي بأعداد مُعينة، وبدرجات من التعقيد، وأساسية ضمن قوانين الحياة والمادة العضوية، فانتهاك القانون يُصبح مُمكناً إلى حدّ مُعيّن. فهذا الألم، الذي يكون في الحياة غير العضوية مُستحيلاً، يُصبح مُمكناً في الحياة العضوية.

ب. لكن لأي غاية يكون الألم مُمكناً؟

ف. كل الأشياء إمّا أن تكون جيدة أو رديئة من خلال المُقارنة. التحليل الكافي سوف يظهر لنا أن المتعة، في كافة الأحيان، ليست إلا نقيض الألم. المتعة الإيجابية مُجرّد فكرة. أن نكون سعداء في أي مرحلة من المراحل علينا أن نعاني في الوقت نفسه. عدم المُعاناة أبداً تعني عدم معرفة النعمة. لكن ظهر لنا، في الحياة غير العضوية، أنّ الألم لا يُمكن أن يعتبر من ضرورات الحياة

العضوية. الألم في الحياة الدنيا على الأرض هو الأساس الوحيد للسعادة في الحياة الآخرة في السماء.

ب. مع ذلك، في بعض تعبيراتك ما يستحيل استيعابه.. «الاتساع الجوهري للامحدودية».

ف. ربّما لأنّ ليس لديك تصوّر عام لمُصطلح «الجوهر» بعينه. علينا ألا ننظر إليه كقيمة، بل كإحساس.. إنّه إدراك الكائنات المُفكرة لمدى تكيف المادة مع نظام تلك الكائنات. هُناك كثيرٌ من الأشياء على الأرض تُعتبر عدماً بالنسبة لسكان [711]فينوس.. والكثير من الأشياء المرئية والملموسة في فينوس لا يُمكن اعتبارها موجودة مُطلقاً. لكن بالنسبة إلى الكائنات غير العضوية.. الملائكة.. فكل المادة التي لا تتجزّأ هي من الجوهر.. بمعنى آخر، كل ما نصطلح عليه بكلمة «فضاء» بالنسبة إليهم هو جوهر حقيقي؛ النجوم، هُنا، من خلال ما نعتبره ماديتها، تخرج من نطاق المعنى الملائكي، تماماً بالقياس إلى الطريقة التي تخرج بها المادة التي لا تتجزّأ، من خلال ما نعتبره لامادّيتها، تخرج من المعنى المادي.

وفيما كان النائم يتفوّه بالكلمات الأخيرة بصوتٍ واهن، لاحظتُ على قسماته شيئاً غريباً أثار خوفي بعض الشيء، ودفعني إلى إيقاظه في الحال. وما إن فعلت هذا حتى لاحت ابتسامة مُشرقة على وجهه، وسقط ميتاً على وسادته. في أقلّ من دقيقة رأيت جثته مُتحجّرة. وجبينه بارد كالثلج. هكذا، كالمُعتاد، تحدث الأمور، بعد أن جثمت عليه يد عزرائيل طويلاً. هل كان النائم، أثناء الجزء الأخير من حوارنا، يُخاطبني من خلف ظلال الموت؟

الدفن قبل الأوان

هُناك موضوعات يستحوذ الاهتمام بها على عقل الإنسان من كلّ جانب، مع [712]أنّها من الأشياء البغيضة فلا تكاد تُصلح لأغراض قصةٍ يُراد تصديقها. هذه الأشياء على الإنسان الرومانسي أن يتحاشاها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، إذا أراد عدم الإساءة أو إثارة النفور. إنها ذات خصوصية لا سبيل لتجاوزها ما لم تؤيدها وتُبرّرها حقيقة ذات قدسية. نحن نشعر بالذهول، على سبيل المثال، ونتململ من «نشوة الألم» إذا سمعنا وصفاً يتطرّق إلى ما حدث على نهر بيريسينا[1]، أو الهزة الأرضية في لشبونة، أو طاعون لندن، أو مذبحة سانت بارثولوميو، أو خنق مائة وثلاثة وعشرين سجيناً في بلاك هول في كلكتا. في هذه الكتابات ما يُثير مشاعرنا هو الحقيقة.. بل الواقع.. بل التاريخ. كأشياء مأساوية عجيبة، علينا أن ننظر إليها بقليلٍ من النفور.

ذكرتُ قبل قليل أمثلة عن بعض النكبات ذات الأثر المُروّع من سجلّات التاريخ؛ لكن في هذه النكبات، فإنّ مقدار الدمار الذي تُحدثه، فضلاً عن طبيعة الكارثة نفسها، ما يُحفّز الخيال بهذه الدرجة من الحيوية. لست في حاجة لأن أذكّر القارئ، من خلال الاطّلاع على كتالوغٍ طويل من المآسي البشرية، أنّني اخترت بعض الأمثلة عن المُعاناة الفردية التي تفوق أي كارثة من تلك الكوارث بعامة. البؤس الحقيقي، في الواقع.. البلاء اللّامحدود.. مُحددٌ هُنا بفرد واحد، وليس مُنتشراً على نطاق واسع. بحيث إن المديات المُروعة للألم يتحمّلها الإنسان وحده، وليس الإنسان ضمن جماعة.. من أجل هذا علينا أن نحمد الله تعالى!.

---

(1) خسر نابليون 20 ألف رجل عندما عبر جيشه نهر بيريسينا في مينسك، روسيا بين يومي 26 إلى 29 تشرين الثاني 1812. [المترجم]

أن يُدفن الإنسان حيّاً، من غير شك، ربما كان أبشع المآسي التي تلحق بالإنسان لأنّها أقسى من الموت. ولكن مثل هذه المسائل كثيراً ما تحصل، وهذا شيء لا ينكره العقل. الحدّ الفاصل بين الحياة والموت في أفضل الأحوال مُجرّد وهم. من يستطيع أن يُحدّد أين ينتهي طرفٌ، وأين يبدأ الطرف الآخر؟ نحن نعلم أنّ هُناك بعض الأمراض ربّما يحصل خلالها توقف في كل وظائف الحياة، ومع هذا [713]فالأمر مؤقت فحسب، هذا أحسنُ وصف للمسألة. إنّها مُجرّد توقفات مؤقتة تتّخذ آلية لا نستوعبها. وتمضي فترة، وينطلق مبدأ غامض يؤدي دوره ويبدأ التأثير فيُحرك القوادم والريش السحرية وينتفض الطائر. لم يكن الوتر الفضي قد انقطع، ولا تهشّم الطاس الذهبي بحيث لا يُمكن إصلاحه. ولكن أين كانت الروح أثناء ذلك؟

بعيداً عن أي استنتاج مؤكد أو بديهية، ثمّة أسباب لا بُدّ أن تؤدي إلى هذه التأثيرات.. الظاهرة المعروفة جدّاً في مثل هذه الحالات من توقّف الحياة مؤقتاً لا بُدّ أن تكون طبيعية، ومن وقتٍ إلى آخر، ربّما تقود إلى دفن الإنسان قبل الأوان.. وبعيداً عن هذه الاعتبارات، لدينا شهادات طبّية صريحة ورصيد من الخبرة الاعتيادية تكفي لإثبات أنّ عدداً كبيراً من حالات الدفن هذه وقعت فعلاً. ربّما يُمكنني الإشارة فوراً، إذا اقتضت الضرورة، إلى مائة حالة من الحالات الموثقة. هُناك رجل من الشخصيات المرموقة جدّاً، ربّما كانت المُلابسات التي وقت له لا تزال نشطة في ذاكرة بعض الذين يقرؤون هذا، حدثت منذ زمن ليس بالبعيد، في مدينة مُجاورة هي بالتيمور، وأثارت اهتماماً واسعاً بين الناس. تعرّضت زوجة أحد المواطنين المُحترمين.. وهو محامٍ صاحب نفوذ وعضو في الكونغرس.. أقول: تعرضت المرأة إلى مرض مُفاجئ لَم يُعرف له تفسير، وعجز الأطباء تماماً عن علاجها رغم مهارتهم. بعد كثير من المُعاناة ماتت المرأة، أو افترضوا أنّها ميتة. لم يشكّ أحد في الواقع، أو كان لديه سبب للشكّ، في أنّها ليست ميتة. كانت تظهر عليها كل العلامات الاعتيادية للموت. الوجه كان شاحباً وعليه خطوط غائرة. والشفتان امتقع لونهما فأصبحتا كالرخام في ذبولهما الغريب. والعينان فقدتا كل الألق. لم يكن ثمّة دفء في الجسد. والنبض توقّف. وبقيت

الجثة ثلاثة أيام مُمدّدة دون أن تُدفن، وأثناء هذه المُدة تصلّبت كالحجارة. باختصار اضطروا بعد ذلك إلى الإسراع في مراسم الجنازة بسبب الاقتراب السريع لما يُفترض أنّه التحلل.

وضعت السيدة أخيراً في قبو عائلتها الذي بقي ثلاث سنوات مُغلقاً بعد ذلك لا يُعكّره شيء. فلما انقضت هذه المدة فتحوا القبو لاستقبال تابوت جديد؛ ولكن، يا للأسف! يا لها من صدمة مُرعبة كانت تنتظر الزوج الذي فتح الباب بنفسه! بينما كانت الألواح الحديدية للباب تنفتح إلى الوراء، سقط شيء ملفوف بقماش أبيض يُطقطق بين ذراعيه. كان ذلك الهيكل العظمي لزوجته وهي في كفنها الذي لم يتآكل بعد.

تبيّن بعد فحص متأنٍّ أنّها قد استردّت وعيها خلال يومين من دفنها؛ وأنّ صراعها مع التابوت أدّى به لأن يسقط من الحافة، أو الرفّ إلى الأرضية، حيث تُكسر وأتاح لها الخروج. كان هناك مصباح تُرك في المكان عرضاً، مليء بالزيت، [714]داخل القبو، وجدوه فارغاً؛ ربّما كان الزيت قد تبخّر. على الدرجة البعيدة من درجات السلم الذي يؤدي إلى الحُجرة المُرعبة وجدوا قطعة مكسورة من التابوت وقد حاولت في ما يبدو استخدامها لجذب الانتباه بأن تضرب بها على الباب الحديدي. وبينما كانت مُنهمكة بهذا، ربّما أُغمي عليها، أو ماتت من الرّعب؛ وعندما سقطت مغشياً عليها تعلّق كفنها ببروز داخلي في الحديد.. وهكذا بقيت، وهكذا تعفّنت، وهي مُنتصبة.

في سنة 1810، وقعت حادثة مُماثلة لدفن إنسان حي في فرنسا، رافقتها مُلابسات غريبة كان من شأنها حقّاً أن تؤكد صواب فرضية أنّ الحقيقة أغرب من الخيال. بطلة القصة مدموزيل فكتوراين لافوركيد، وهي فتاة شابّة تنتمي إلى عائلة مرموقة على جانب من الثراء، وذات جمال أخّاذ. من بين الرجال العديدين الذين تقدموا لخطبتها رجل يُسمّى جولين بوسويت، وهو أديب فقير الحال، أو صُحفي مُقيم في باريس. أتاحت له مواهبه وشخصيته الودودة أن ينتبه إلى الوريثة الجميلة التي يبدو أنّه أغرم بها؛ بيد أنّ كبرياءها حالت دون ذلك، وقرّرت رفضه، وفضّلت أن تزفّ إلى مسيو رينيل، وهو مصرفي ودبلوماسي على شيء من النفوذ.

لكن بعد الزواج راح هذا الرجل يُهملها، وربّما يُسيء مُعاملتها في أحيان كثيرة. وبعد أن قضت معه بضع سنواتٍ تعيسة، ماتت.. أو على الأقلّ كانت حالتها في ذلك الوقت لا تختلف عن الموت بحيث خدعت كل الذين ألقوا عليها نظرة. ودُفنت.. ليس في قبوٍ، بل في قبر اعتيادي في القرية التي ولدت فيها. وامتلأ قلب الزوج العاشق كمداً وحسرة، فلم يتمكّن من تحمّل ذكريات حبه الذي لا يُنسى، ورحل من العاصمة إلى منطقة نائية قريبة من تلك القرية؛ وكان يُداعب خياله أملٌ رومانسي مجنون في أن ينبش الجثة، ويشم عطر ظفائرها. وذهب إلى القبر فعلاً في مُنتصف الليل فأخرج التابوت، وفتحه، وكان على وشك أن يأخذ شيئاً من شعرها، لكنه فوجىء بعيني حبيبته تنظران إليه. في الواقع، لقد دفنوها وهي حية. لم تكن قد فقدت مقومات الحياة كلياً، ونهضت على أثر ملاطفات حبيبها من غيبوبتها التي ظنوا أنّها الموت. وحملها وقد طاش صوابه إلى مسكنه في القرية. واستخدم بعض المراهم التي تُساعد في إعادة الوعي مُعتمداً على خبرة طبّية سابقة. واستعادت عافيتها وشكلها الجميل. وتعرّفت على مُنقذها. وبقيت معه حتى يومنا هذا بعد أن شفيت تدريجياً. لم يكن قلبها قد تحجّر من أثر الكارثة، وكان درس الحب كافياً ليعود كما كان. ومنحت قلبها [715]إلى بوسويت. ولم تعُد إلى زوجها، بل أخفت عنه نبأ نجاتها من الموت، وهربت مع حبيبها إلى أمريكا. وبعد عشرين سنة، عادا إلى فرنسا، بعد أن اقتنعا بأنّ الزمن غيّر كثيراً من ملامح السيدة بحيث لا يُمكن أن يتعرّف عليها أصدقاؤها. لكنّهما كانا على خطأ، فمن أول لقاء، تمكّن مسيو رونيل من التعرّف عليها وراح يُطالب بزوجته. ورفضت هي الطلب، وأيّد رأيها حكمٌ قضائي، وقرّر القاضي أنّ الظروف الاستثنائية، مع انقضاء سنوات طويلة، قد أنهت بحسب قواعد العدالة والشرعية أي سلطة للزوج عليها.

لقد سجّلت مجلة «الجراحة» التي تصدر في لايبزج.. وهي دورية تحظى بالانتشار والسمعة الطيبة، وكان بعض باعة الكتب الأمريكان يُترجمونها ويُعيدون نشرها، سجّلت في عددٍ صدر مؤخراً تفاصيل حادثة مُحزنة وقعت للشخصية التي سوف نتكلّم عنها.

أحد ضباط المدفعية، وهو رجل ضخم عملاق ويتمتع بصحة رائعة، بعد أن سقط من حصانه في حركةٍ طائشة، تلقّى ضربة قوية جدّاً على رأسه، جعلته يفقد الوعي حالاً؛ أُصيب الرجل بكسر طفيف في الجمجمة، لكن لم يكن ثمّة خطر مُباشر يخشى أن يؤدي إلى عواقب وخيمة. وتمّ إجراء عملية جراحية له بنجاح. كان ينزف، واتّبعت الإجراءات الاعتيادية الأُخرى للتخفيف من مُعاناته. لكن حالته سرعان ما تدهْورت على نحو ميؤوس منه وسقط في غيبوبة، وظنوا أنّه فارق الحياة.

كان الجو حارّاً، ودُفن الرجل على وجه السرعة في إحدى المقابر العامة. وجرت مراسم جنازته في يوم الخميس. وفي يوم الأحد الذي أعقب ذلك، كانت المقبرة كالعادة تعجّ بالزائرين، وعند الظهيرة تقريباً انتشرت فوضى وقيل: إنّ أحد القرويين، أثناء جلوسه على قبر ذلك الضابط، أحس بشيء كأنّه يتحرّك تحت الأرض. في بداية الأمر لم يُعر الناس أهمية لكلام الرجل؛ إلّا أنّ الرعب الذي ارتسم على وجهه، والإصرار الذي لا يلين وهو يروي حكايته، تركا أثرهما الطبيعي على حشود الناس. وسرعان ما أحضروا المجارف، ونبشوا القبر الذي لم يكن عميقاً على نحو مُخجل، ولم تمضِ أكثر من بضع دقائق حتى فتح القبر وظهر رأس الرجل. كان في ذلك الوقت يبدو ميتاً؛ ثم ما لبث أن جلس في تابوته، بعد أن أزاح الغطاء جزئياً في ذروة صراعاته الغاضبة.

ونقلوا الرجل في الحال إلى أقرب مُستشفى، وهُناك تأكد أنّه لا يزال حيّاً، مع أنّه كان في حالة غيبوبة تامة. بعد ساعاتٍ قليلة استعاد رشده وعافيته، وتعرّف على [716]الأفراد القريبين منه، ونطق بكلمات مُتقطّعة مُعبّراً عن مُعاناته المؤلمة التي كابدها في القبر.

من خلال الأشياء التي سردها، اتّضح أنّه كان واعياً لأكثر من ساعة، بعد أن أهالوا عليه التراب، ثم غاب عن الوعي ولم يعد يُحسّ بشيء. كان القبر قد طمر بطبقة غير سميكة من التراب تتخلّلها بطبيعة الحال مسامات؛ ولهذا كان بعض الهواء يتسلل إليه. لقد سمع وقع خطواتِ الناس المُتجمعين فوقه، وحاول أن يُثير ضجة كي يسمعوه بدورهم. يبدو أنّ الاضطراب الذي حصل على أرض

المقبرة، كما قال، هو الذي أيقظه من سباته العميق، ولكنّه ما إن أفاق حتى فوجىء تماماً بصوَر الرّعب التي تُحيط به.

هذا المريض، كما سجّلت الوقائع اللاحقة، تغلّب على أزمته وبدا أنّه كان يستردّ عافيته على نحو جيد، لكنّه حتماً كان ضحية الاستعجال في الفحوصات الطبية. البطارية الغلفانية توقفت عن الشحن فجأة في أحد تلك الأجهزة الطبية التي يفترض أن تُساعد في إعادة الحياة إلى المريض.

بمُناسبة التطرّق إلى تعطّل البطارية الكهربائية، يُذكّرني هذا بإحدى الحالات الغريبة جدّاً في هذا الصدد، حيث ثبت من ناحية أُخرى أنّ عمل البطارية كان سبباً في إعادة الحياة إلى محامٍ شاب من لندن، كان قد دفن يومين كاملين. حدث هذا في سنة 1831، وأثار الحادث في ذلك الوقت لغطاً شديداً، وبقي مثار جدلٍ طويل.

المريض، السيد إدوارد ستابلتون، مات في ما يبدو بعد إصابته بحمى التيفوئيد، رافقتها أعراضٌ غريبة أثارت دهشة الأطباء الذين أشرفوا على حالته. لدى معاينة حالته المرضية، طلب أصدقاؤه من الأطباء إجراء فحصٍ عليه بعد وفاته، لكن هؤلاء رفضوا القيام بذلك. مثلما يحصل في كثير من الأحيان، حين يتلقّون رفضاً من هذا النوع، قرّر بعض المُتدربين على المهنة نبش القبر وإخراج الجثة وتشريحها على مهل، بصورة سرية. اتخذت الترتيبات بسرعة بالاستعانة ببعض الأشخاص الذين يمتهنون نبش القبور وإخراج الجثث، والذين يكثرون في لندن؛ وفي الليلة الثالثة بعد الجنازة، أخرجت الجثة موضوع البحث من قبر يصل عمقه إلى ثمانية أقدام، ووضعت في حجرة خاصة في إحدى المُستشفيات.

قاموا بفتح جرحٍ في بطنه بعناية، حيث لم يظهر على الفور أي مظهر يدل على وجود تعفن مما أوحى بضرورة تجربة البطارية. وأجروا تجربة بعد أُخرى، وتلاحقت التأثيرات الجانبية، ولم يكن من شيء يُميزها في هذا الشأن، باستثناء مرة أو مرتين، تلمس درجة أكثر من اعتيادية لمظاهر الحياة بشكل تشنجات.

كان الوقت مُتأخراً. والفجر على وشك أن يبزغ؛ وظنوا أخيراً أنّ من

الحكمة [717]البدء بالتشريح فوراً. لكن كان من بينهم طالبٌ رغب أكثر في اختبار نظرية من بنات أفكاره، وأصرّ على استخدام بطارية على إحدى عضلات الصدر. وشقوا جرحاً آخر، وأدخلوا فيه سلكاً بسرعة وشغّلوا البطارية، وحينها نهض المريض في حركة مُباغتة لا تعتريها أي تشنجات، من المنضدة، وتقدم إلى مُنتصف الحجرة، وكان يُحملق حوله بقلق لمدة بضع ثوان، ومن ثمّ.. تكلّم. ما قاله لم يكن مفهوماً، لكن الكلمات خرجت من فمه على كل حال؛ لم تكن مقاطعها واضحة. وبعد أن تكلّم، سقط على الأرضية.

طوال بعض الوقت ظلّ الجميع مشلولين عن الحركة وقد صعقتهم المُفاجأة.. لكن سرعان ما دفعتهم حراجة الموقف لأن يستردّوا حضور الذهن. لاحظوا أنّ السيد ستامبلتون كان حيّاً يرزق، مع أنّه كان مغشيّاً عليه. لدى تقريب جهاز الأوكسجين منه استعاد وعيه وعادت إليه عافيته، وانتبه إلى الحاضرين من أصدقائه.. ومع ذلك لن يعرف أي واحد غير هؤلاء شيئاً عن نجاته من الموت، حتى تمضي فترة يستبعد فيها أي خوف من انتكاس صحته مرة أُخرى. كانت دهشتهم.. استغرابهم الفظيع.. من الأشياء التي لا توصف.

غير أنّ أغرب ما في هذه الحادثة يتمثّل في ما يؤكد عليه السيد س. نفسه. قال: إنّه لم يكن فاقداً وعيه تماماً في أي فترة.. وكان يُدرك إدراكاً مُبهماً كل شيء حدث له، منذ اللحظة التي أعلن فيها الأطباء الذين كانوا يُشرفون عليه أنّه ميت، حتى سقط مغشيّاً عليه على أرضية المُستشفى. «إنّني حي»، هذه آخر الكلمات المُبهمة التي حاول أن ينطقها لدى التعرف على مكانه في غرفة التشريح.

من السهل علينا أن نتطرّق إلى عددٍ من مثل هذه الحكايات من سجلات التاريخ.. لكني أحجم عن ذلك.. فلا حاجة في الواقع لأنّ يُقرر المرء حقيقة أن الدفن قبل الموت يحدث باستمرار. حين نُفكّر كيف أنّ من النادر جدّاً، من خلال طبيعة المسألة، أن نتمكن من اكتشاف هذه الحالات، علينا الاعتراف بأنّها ربّما تحدث وتتكرّر فلا يدري بها أحد. نادراً ما يحصل، إذا اختلست النظر، لأي سببٍ كان، أن لا تجد هياكل عظميّة تتّخذ أكثر الأوضاع إثارة للفزع والشكوك.

الشك مروعٌ يثير الخوف.. لكن الأكثر إثارة للخوف ذلك المصير نفسه!.. ربما نؤكد، بلا أي تردد، أنه لا توجد حادثة تتخذ هذا الشكل المفزع بحيث تثير أعلى درجات القلق مادياً وعقلياً، مثل الدفن قبل الموت؛ انقباض لا يطاق في [718]الرئتين.. روائح خانقة تنبعث من الأرض الرطبة.. تعلق بأكفان الموت.. معانقة زوايا صلبة لجدران حيز ضيق.. سوادُ ليلٍ بهيم.. صمتٌ كصمت البحر يطبق على كل شيء.. حضورٌ غير مرئي محسوس للدود المنتصر[2].. كل هذه الأشياء، إلى جانب الأفكار عن الهواء والعشب الذي فوق، مع ذكرى أصدقاء أعزاء سوف يهرعون لنجدتنا لو أنهم فقط عرفوا بمصيرنا، مع الإدراك أنهم لا يمكن أن يطلعوا أبداً على هذا المصير.. الجانب الذي يثير فينا اليأس أكثر هو الموت الذي سيتحقق لا محالة.. هذه الاعتبارات، أقول، تحمل إلى القلب، الذي لا يزال ينتفض، دفقاً من الرعب الذي لا يطاق بحيث ينزوي منه الخيال الجسور. لا نعرف شيئاً آخر بمثل هذه الشناعة على الأرض.. لا يمكن أن نتخيل شيئاً بنصف هذه الشناعة حتى في ممالك الجحيم تحت الأرض. لهذا، فكل ما يمكن أن يقال من السرد هنا حول هذا الموضوع لا بد أن يثير اهتمام الناس بعمق؛ وهو اهتمام، رغم كل شيء، من خلال الاسى المقدس الذي يرافق الموضوع نفسه، يعتمد على نحو صائب وغريب جداً على قناعتنا بحقيقة ما نتطرق إليه. لدي الآن ما أخبركم به، وهو مستمد من تجربتي الخاصة.

منذ عدة سنوات كنت أتعرض لنوبات غريبة من الاضطراب النفسي التي اتفق الأطباء على تسميتها الصرع الذي يؤدي إلى إغماءٍ تخشبي، بعد أن افتقروا إلى مصطلح أكثر تحديداً. مع أن الأسباب المباشرة وغير المباشرة، وحتى التشخيص الحقيقي لهذا المرض لا تزال غامضة، إلا أن طبيعته الواضحة للعيان كانت قابلة للفهم بما يكفي. يبدو أن حالتي لم تكن لتختلف أساساً إلا في درجتها. في بعض الأحيان يرقد المريض يوماً كاملاً، أو مدة اقصر، وهو في حالة فقدانٍ تام للوعي. مع أنّه يحس بالأشياء التي حوله، لكن يظهر كل شيء فيه

---

(2) عبارة «الدود المنتصر» مُقتبسة من رواية سبنسر والاس كون «الاداي الفخورة» نيويورك، 1840. [المترجم]

ساكن من الخارج؛ ويبقى نبض القلب قابلاً للإدراك في خفوت؛ وتبقى بعض آثار الدفء؛ ويطفو لونٌ باهت على صفحة الخد؛ ولدى تقريب عدسة مُكبّرة من الشفتين، يمكننا تلمس ارتعاشات طفيفة مُضطربة، مُتذبذبة من نشاط الرئتين. وربّما استغرقت الغشاوة أسابيعاً.. وشهوراً؛ بينما لدى الفحص الدقيق، وتطبيق أشد الاختبارات الطبية صرامة، يفشل المرء في تمييز أي فرق مادي بين حالة الشخص الذي يُعاني من ذلك وبين ما نظن أنّه موتٌ مؤكد. في كثيرٍ من الأحيان، لا ينقذ ذلك الشخص من الدفن حياً إلا معرفة أصدقائه أنه واجه حالة الإغماء التخشبي سابقاً، والشكوك التي تُثار بعد ذلك، وفوق هذا وذاك، عدم وجود رائحة عفنة للموت. ولكن تكون خطوات المرض، لحُسْن الحظ، بطيئة في تدرّجها. أُولى تلك العلامات، مع أنّها مؤشرة، تبدو غامضة بحيث يسهل تمييزها. هُنا تزداد نوبات الإغماء وتتابع وتيرتها [719]وتُصبح أكثر وضوحاً، وتستمر كل نوبة مدة أطول من سابقتها. وهُنا أيضاً يكمن مصدر الأمان من الدفن حياً. التعيس الذي تستمر نوبته الأُولى طويلاً وتكون ذات طبيعة مُتأزمة بين فترة وأُخرى، لا بُدّ أن يُحمل إلى القبر إلى الأبد.

لم تكن حالتي الخاصة تختلف في أي جزئية عن الحالات تلك التي تذكرها الكتب الطبّية. في بعض الأحيان، دون سببٍ واضح، كنت أغطس شيئاً فشيئاً في شبه غيبوبة؛ وفي أثناء ذلك، دون أي شعورٍ بالألم، أو قُدرة على الحركة، أو بعبارة أكثر دقة، دون قُدرة على التفكير، لكن بوعي خامل بالحياة وبوجود أولئك الذين يُحيطون بسريري، كنت أبقى، إلى أن أخرج جزئياً من الأزمة فجأة وأعود إلى الوعي. وفي أوقاتٍ أُخرى أرتدّ إلى الغيبوبة بسرعة وتهور. ثم لم تلبث حالتي أن ازدادت تدهوراً، وخمولاً، وقشعريرة، وغثياناً، وكنت أسقط مغشيّاً عليّ مُباشرة. منذ أسابيع، كل شيء في نظري كان يبدو أجوف، أسود، صامتاً؛ أصبح اللّاشيء كل شيء في الكون. لا يُمكن أن يتصوّر المرء خواءً شاملاً أكثر من ذلك. لكنّي من هذه النوبات كنت أصحو على مراحل بطيئة تتناسب مع سرعة مُداهمة النوبة التي تستولي عليّ. مثلما يشرق النهار على شحاذٍ لا أنيس له في وحشته ولا منزل بعد أن كان يهيم في الشوارع طوال ليل شتائي موحش.. على ذلك النحو البطيء.. المُنهك.. المُبهج.. يعود إليّ ضوء الروح.

بعيداً عن الإغماء الوشيك، تبدو صحتي جيدة؛ دون أن أُدرك أنّ هذا الكيان المُتماسك ظاهرياً كان يُهيمن عليه مرض واحد.. إلّا إذا كانت خصوصية حالات رقادي العادية ربّما ينظر إليها على أنّها من مُسببات ذلك. حينما كنت أفيق من إغفاءتي، لم يكن في وسعي أن أسترد سيطرتي التامة على حواسي، فأبقى دقائق طويلة أُعاني من تشوشٍ وارتباك؛ قدراتي الذهنية بصفة عامة، وخصوصاً الذاكرة، تكون في حالة تعطلٍ مؤقت.

كل أشكال مُعاناتي كانت غير مادية في طبيعتها، لكنّي عرفت مقداراً غير محدودٍ من الألم النفسي. خيالي يستمد أوهامه من مملكة الموتى وأماكن حفظ الجثث، كنت أهذي بكلامٍ عن «الديدان، والقبور، ونقوش الأضرحة»[3]. كنت ضائعاً في لُجة أحلامي الخيالية عن الموت، وفكرة أن أدفن وأنا حي تستولي على عقلي. ذلك هو الخطر الذي كان يُحيط بي من كل جانب ويُطاردني ليل نهار. في النهار يكون عذاب الفكر شديداً.. وفي الليل، عذابٌ لا يُطاق. وحين تتسربل الأرض بالظلام، في ذلك الوقت، كنت أرتعش بإزاء كل ما هو مُخيف من الأفكار.. أهتز كما يهتزّ السعف على عربات الموتى. حين لا تستطيع طبيعتي أن تتحمل اليقظة، [720]كنت أكافح لكي أخلد إلى النوم.. لأنّي أرتجف خوفاً، من أنّني إذا استيقظت، ربّما وجدت نفسي من سكنة القبور. وحين أغطس في النوم أخيراً، أقتحم مُباشرة عالم الخيال الذي تحوم فوقه، على جناح يُرفرف فكرة واحدة قاتمة، عن القبر[4].

من بين الصّور التي لا تُحصى عن الكآبة التي كانت تضطهدني في أحلامي، يُمكنني اختيار صورة واحدة لتسجيلها هُنا. كنت أعتقد أنّني مُستغرق في حالة إغماء تخشّبي من تلك الحالات التي تدوم وقتاً أطول من المألوف وتكون أكثر عمقاً. وفجأة أحسست بيدٍ باردة كالثلج تلمسني على جبهتي، وهمس صوتٌ مزعج نافد الصبر في أُذني: «انهض!».

---

(3) اقتباس من مسرحية (ريتشارد الثاني) 3، 2، 145. [المترجم]

(4) اقتباس بتصرف من (الفردوس المفقود) 2، 962. [المترجم]

انتفضتُ فزعاً وجلست. كان الظلام يطبق عليّ من كل جانب. ولم يكن في وسعي رؤية الشخص الذي أيقظني. لم أتذكر المدة التي بقيت فيها مغشياً عليّ، ولا المكان الذي كنت مُمدداً فيه. وبينما كنت ساكناً لا أتحرّك، حاولت أن أستجمع أفكاري، فأمسكتني اليد الباردة بقوة من المعصم، وهزّتني مرة بعد مرة، بينما عاد الصوت يُثرثر:

«انهض! ألم اطلب منك النهوض؟».

«ومن»، سألت، «أنت؟»

«إنّني لا أحمل اسماً في المناطق التي أحلّ فيها»، رد الصوت، وكأنه ينتحب؛ «كنت آدمياً، لكنّي أصبحت من الشياطين. كنت بلا رحمة، لكنّي أصبحت رحيماً. أنت تحسّ بأنّي أرتعش.. أسناني تصطك وأنا أتكلّم، لكن هذا لا يحصل من برودة الليل.. الليل الذي لا ينتهي. غير أن هذا الألم لا يُطاق. كيف يُمكنك أن تنام بهدوء؟ لا يُمكنني الإحساس بالراحة من صرخات العذاب. هذه التنهدات أكثر مما يُمكنني تحمّله. انهض! تعال نخرج إلى الليل، دعني أكشف لك عن أسرار القبور. أليس هذا من المناظر التي تُثير الشجن؟.. انظر!».

ونظرت؛ وبدأ الشبح، الذي بقي يُمسك يدي من الرسغ، يفتح قبور البشر، ومن كل قبرٍ ينطلق شعاع فسفوري خافت مُشبع برائحة الفناء، بحيث استطعت رؤية أعمق تجاويف القبور، ورأيت جثثاً مُكفّنة تغطّ في سُباتها الحزين جنباً إلى جنب مع الديدان. يا للحسرة! النِّيام الحقيقيون قلّة، أعدادهم تصل إلى عدّة ملايين، بالقياس إلى غير النائمين؛ ولمستُ شيئاً من التوجّس؛ واضطراب كئيب؛ ومن أعماق الحفر التي لا تُعد ولا تُحصى سمعت خشخشة أكفان المدفونين. وأولئك الذين كان يبدو عليهم أنّهم مُضطجعون في سكون، رأيت عدداً منهم يُغيّرون مواضعهم [721]الدائمة القلقة الذي كانوا يرقدون عليها في الأصل. وجاء الصوت مرة أُخرى بينما كنت أنظر:

«أليس.. أوه! أليس هذا منظراً يُثير الإشفاق؟».. وقبل أن أتمكّن من العثور على كلمات للرد، تخلّى الشبح عن معصمي، واختفت الأضواء، وانغلقت القبور

بعنف مُباغت، بينما سمعت ضجة وصرخات مُحبطة، تنادي مرة أُخرى: «أليس.. أوه، يا الله، أليس المنظر مُثيراً للإشفاق؟».

خيالات مثل هذه كثيراً ما تراودني ليلاً، ويمتد تأثيرها المُخيف حتى ساعات يقظتي. اختلّت أعصابي تماماً، وأصبحتُ فريسة ذعرٍ مُقيم. تردّدت في الركض، أو في المشي، أو في الإقدام على أي مُحاولة من شأنها أن تحملني بعيداً عن المنزل. في حقيقة الأمر، لم أعد أجرؤ على الوثوق بنفسي كيما أبتعد مُباشرة عن هؤلاء الذين يعرفون كثرة تعرّضي لنوباتٍ من الإغماء التخشبي، خشية أن أسقط في إحدى نوباتي الاعتيادية، فأدفن حيّاً قبل أن يتمّ التأكّد من حقيقة حالتي. كنت أشكّ في مدى اهتمام، أو حتى في إخلاص أقرب أصدقائي. كنت أخاف حين يُغشى عليّ فترة أكثر من المألوف، أنّهم ربّما تطرّفوا في ظنونهم فقرّروا أنّني لن أفيق. حتى مضيت بعيداً بإسرافي في الخوف، وكنت أُعاني من متاعب كثيرة، ففكّرت في أنّهم سوف يكونون سعداء لاعتبار أي نوبةٍ طويلة ذريعة كافية للتخلّص منّي نهائياً. كان من العبث أن يُحاولوا إعادة الثقة إلى نفسي من خلال وعودهم الصادقة. وأقسمت بأغلظ الإيمان أنّ عليهم، تحت أي ظرفٍ، أن لا يدفنوني حتى تبدأ مظاهر التحلل والعفن فعلاً بالظهور على جسدي فتجعل أي أمل في عودتي إلى الحياة مُستحيلاً. وحتى بعد ذلك، كانت مصادر رعبي القاتلة لا تُصغي إلى أي منطق.. ولا تتقبّل أي تعزية. اتخذتُ سلسلة من تحوطات الأمان. من بين أشياء أُخرى، أعدت ترتيب مدفن العائلة بحيث يكون قابلًا للفتح من الداخل. كان من شأن أي ضغط خفيف على عتلة طويلة تمتد إلى مسافة بعيدة داخل القبر أن يجعل الباب الحديدي يرتد سريعاً إلى الوراء. وأجريت ترتيبات أُخرى أيضاً للسماح بدخول هواءٍ نقي وكذلك الضوء، والتزود بكميات مُناسبة من الطعام والماء، وضعت في مكان قريب من التابوت لكي تكون في مُتناول يدي. هذا التابوت كان مُبطناً بقماش ناعم الملمس يبعث الدفء، وكان مُزوداً بغطاء، يقع مُباشرة فوق الجزء الرئيسي من مدخل القبر، وأُضيفت إليه نوابض بطريقة مُبتكرة مع أقل حركةٍ للجسد تكفي لإزاحته عن مكانه بسهولة. إلى [722]جانب كل هذا، علّقت بسقف القبر جرساً كبيراً ربط بحبل يمتد عبر ثقبٍ

في التابوت، حتى يصل إلى إحدى يدي الجثة. لكن، يا للحسرة؟ أيّ فائدة تُرتجى للفرار من المصير المحتوم؟ حتى هذه الابتكارات العبقرية لن تكفي لإنقاذ الإنسان من أقسى الآلام التي يُكابدها إذا دُفن حياً، فالتعيس من قضى عليه مصيره بتجربة هذه الآلام مُسبقاً!.

حدث في إحدى الفترات.. مثلما كان يحدث من قبل.. أن وجدت نفسي أخرج من حالة اللاوعي التام إلى الإحساس الأولي الواهن المُبهم بالوجود. كان الفجرُ الرمادي الباهت يقترب رويداً.. يقترب بخطوات سُلحفاة، ليأتي النهار بهمومه وعذاباته النفسية؛ قلق الأحاسيس البليدة، ومُعاناة لامبالية بالألم المُضجر. لا شيء من الحذر يُجدي نفعاً.. لا أمل يبقى.. لا جهد يُبذل. ثم، بعد فترة فاصلة، طنينٌ في الأذنين؛ ثم، بعد فترة أطول، نخسٌ بالأشواك أو إحساس بالدغدغة يصل إلى ذروته؛ ثم فترة مثل الأبدية يتخلّلها سكون مُمتع، أثناء ذلك تُكافح الأحاسيس وهي تستفيق وتمضي إلى تشكيل الأفكار؛ ثم غطسٌ جديد قصير في اللاكينونة؛ ثم استعادة الوعي فجأة. وأخيراً ارتعاش خفيف للأجفان، وبعد ذلك، على الفور صدمة كهربائية يُرافقها ذعرٌ قاتل من مصدر مجهول، تُرسل الدماء في تيارات من الجسد إلى القلب. والآن يأتي أولُ نشاط فعلي للتفكير. والآن تأتي أولُ مُحاولة للتذكّر. والآن يتحقّق نجاحٌ جزئي سريع الزوال. والآن تسترد الذاكرة هيمنتها بعض الشيء، بحيث أُدرك حقيقة حالتي بعض الشيء. أشعر الآن أنّني لا أستيقظ من نومٍ اعتيادي. أتذكّر أنّني كنت في إحدى نوبات الإغماء التخشبي. والآن، أخيراً، كأنّما تتدافع حولي أمواج المُحيط، وتنتفض روحي من الأعماق، ويغمرها خطرٌ قاتم.. تُهيمن عليها فكرة طيفية مرة واحدة وإلى الأبد.

منذ دقائق بعد أن استولى عليّ هذا الوهم، بقيت ساكناً لا أتحرّك. ولماذا؟ لم أتمكن من لملمة شجاعة تكفي للحركة. لم أجرؤ أن أبذل جهداً يُمكن أن يقنعني بالمصير الذي انتهيت إليه.. ومع ذلك، شيءٌ في قلبي يهمس لي بأنّ تلك هي الحقيقة. اليأس.. ليس كأي نوع آخر من التعاسة يزور كياني.. اليأس وحده يدفعني، بعد ترددٍ طويل، لأن أرفع جفون عيني الثقيلة. ورفعتها. الظلام دامس..

كلّ شيء أسود. كنت أعرف أنّ نوبة الإغماء انتهت. كنت أعرف أنّ أزمة كياني المُضطرب انتهت منذ مدة. كنت أعرف أنّني أسترد الآن كلياً قُدرتي على استخدام بصري.. ومع هذا فالظلام يُحيط بي.. كل شيء مُظلم.. لا وجود لطبقات الليل، بل طبقة واحدة كثيفة مُطبقة تستمر إلى الأبد.

حاولت أن أصرخ؛ وتحرّكت شفتاي ولساني المُتيبس بتشنّج معاً في تلك المُحاولة.. وما من صوت يخرج من الرئتين، بل كهفين خاويين يثقلان[723] عليّ كما لو أنّهما جبلٌ صلد، يُطبقان ويخنقان القلب في كل حركة ونزاع لالتقاط الأنفاس.

أظهرت حركة الفكين، بعد الجهد المُضني الذي حاولت فيه الصراخ عالياً، أنّهما كانا مُقيدين، كما يحدث عادة أثناء الموت. أحسست أيضاً أنّني مُستلقٍ على مادة خشنة، وشيء مُشابه يضغط على جنبي بثقلٍ عن قُرب. حتى الآن لم أُغامر بتحريك أطرافي.. لكنّي ألقيت ذراعي إلى الأعلى بعُنف، وكانتا ممدودتين إلى الجانبين والرسغين مُتقاطعين. ارتطمت الذراعان بمادة خشبية صلدة تمتد فوقي على ارتفاع لا يزيد على ست بوصات عن وجهي. لم يكن في وسعي أن أشك أخيراً في أنّني كنت أضطجع في تابوت.

والآن، وسط كل مظاهر تعاستي التي لا تنتهي، جاءني ملاكُ رحمة وأملٍ جميل.. لأنّي فكرت في الاحتياطات التي سبق أن اتّخذتها. تلوّيت في مكاني، وبذلتُ جهوداً شديدة لكي أفتح الغطاء عُنوة، فلم يتحرّك. تلمّست برسغي الحبل الذي عليه جرس، فلم أجده. والآن هرب ملاكي المواسي إلى الأبد، وحلّ محلّه يأسٌ أكثر صرامة لم يعُد مزهوّاً بالانتصار؛ لأنّي لم أستطع منع نفسي من إدراك غياب البطانات التي كنت قد حضّرتها بعناية.. ثم حدث أيضاً أن تسلّلت إلى منخري فجأة رائحة قوية غريبة، رائحة الأرض الرطبة. وكان الاستنتاج شديداً لا يُقاوم. ألم أكن داخل القبر؟ لقد سقطت مغشياً عليّ بينما كنت خارج المنزل.. وسط جمعٍ من الغرباء.. متى، أو كيف، لا أتذكّر ذلك.. هؤلاء دفنوني مثل أيِّ كلب.. أحضروا لي تابوتاً عادياً ودقوه بالمسامير.. ودفعوه عميقاً، عميقاً، وإلى الأبد، في قبرٍ عادي لا يحمل اسماً.

وبينما فرضتْ هذه القناعة المُفزعة نفسها هكذا على أعماق روحي، مرة أُخرى رحت أُكافح لأصرخ بصوت جنوني. ونجحت المُحاولة الثانية. خرجت من فمي صرخة طويلة، عنيفة، مُستمرة، من الألم، ظلّت تتردّد أصداؤها في مملكة الليل تحت الأرض.

«هلو! هلو!، هل من أحد!» هتف صوتٌ أجشّ ردّاً عليّ.

«ما الأمر بحق الشيطان، ماذا يحدث الآن!» قال صوتٌ آخر.

«أخرج من ذلك المكان!» قال ثالث.

«ماذا تعني بصياحك بذلك الشكل، كأنّك قط مُتوحش؟» قال رابع؛ وهُنا اجتاحتني دهشة مُباغتة هزّتني من أعماقي بلا رحمة، وبقيتُ مشدوهاً عدة دقائق، يفزعني منظر ثلّة من الأفراد قسماتهم بشعة. لم يوقظوني من سُباتي.. لأنّي كنت مُستيقظاً وأنا أصرخ.. لكنهم أعادوني إلى ذكرياتي.

هذه المُغامرة حدثت بالقرب من ريشموند، فرجينيا. رافقني فيها صديقٌ [724]تعرّفت عليه في رحلة صيد، على بُعد أميال من ضفاف نهر جيمس. اقترب الليل، وباغتتنا عاصفة. فلجأنا إلى كابينة زورق صغير يرسو على ضفاف النهر وكان مُحمّلاً بسماد الحدائق، ولم يكن لنا من ملجأ غيره. وحاولنا الاستفادة من المكان، وأمضينا الليلة على متن الزورق. نمت على أحد المهجعين الموجودين في الزورق.. ولست في حاجة إلى وصف مهجع على زورق وزنه ستون أو عشرون طناً. المهجع الذي نمت عليه لم يكن عليه فراش من أي نوع. كان أقصى عرضه ثمان عشرة بوصة. والمسافة بين قاعدته وأعلى الدكة المقدار نفسه تقريباً. وجدت صعوبة في تحريك جسمي في ذلك الحيز. ومع ذلك نمت نوماً هادئاً، وكل ما استطعت رؤيته.. فلم يكن ذلك حلماً، ولا كابوساً.. كان ينشأ بصورة طبيعية من المُلابسات التي أحاطت بموقفي.. من الانحراف العادي للفكر.. من الصعوبة، التي أشرت إليها، في تجميع حواسي، وبخاصة في استعادة ذاكرتي، بعد وقتٍ طويل من الاستيقاظ من النوم. الرجال الذين هزّوني كانوا من طاقم الزورق، وكان بعض العمال مُنشغلين بتفريغ حمولته. من الحمولة ذاتها خرجت

رائحة الأرض. كانت الرباطات التي حول الفكين من منديلٍ حريري ربطت به رأسي، بدلاً من عصابة الرأس العادية.

أنواع العذاب التي تحمّلتها كانت ممّا لا شك فيه مُشابهة آنذاك لتلك الآلام الحقيقية للدفن. إنّها أشياء مُخيفة.. أشياء فظيعة لا يُمكن لبشر أن يتصوّرها؛ لكن الخير يخرج من رحم الشر؛ لأنّ اختلاطهما خلق في روحي إحساساً لا يقاوم بالنفور. اكتسبت روحي قدرة غير معهودة على التعبير.. استعادت طبيعتها الأولى. خرجتُ من ذلك المكان. بذلت جهدي. تنفّست الهواء النقي تحت السماء. فكّرت في أشياء أُخرى غير الموت. تخلّصت من كتبي الطبية. حرقت «بوشان»[5]. لم اقرأ «أفكار الليل»[6].. لم أعد أسمع كلمات طنانة عن باحات الكنائس.. ولا حكايات عن قبائل البوغابو ..مثل هذه. باختصار، أصبحت رجلاً جديداً، وعشت حياة شجاعة مثل غيري من الرجال. منذ تلك الليلة التي لا تُنسى، استبعدت إلى الأبد توجّساتي من أن أدفن حياً، ومعها اختفى القلق من الإغماء التخشبي، إذ كانت تلك التوجّسات من النتائج أكثر من كونها أسباباً.

هُناك لحظات، حتى بالنسبة إلى العقل الواعي، ربّما يكون فيها وضعنا الإنساني أكثر عذاباً من الجحيم بعينه.. إلّا أنّ خيال الإنسان ليس مُطهّراً لكي [725]نستكشف في دقة ثاقبة كل زواياه المُظلمة. يا للأسف! لا يُمكن اعتبار جيوش الظلام المُتجهم من أشباح القبر المرعب خيالية أبداً.. لكنها كالشياطين التي رافقت رحلة أفراسياب إلى نهر أوكسوس[7]، وعليها أن تنام، وإلا سوف تلتهمنا.. عليها أن تُجبر على النوم، وإلّا انتهى أمرنا.

---

(5) وليم بوشان (1729- 1805) كتب «الطب المنزلي أو طبيب العائلة» نشر سنة 1769 ونال شهرة واسعة. [المترجم]

(6) كتاب للدكتور إدوارد يونغ بعنوان «أفكار ليلية عن الموت والزمن والخلود» 1742. [المترجم]

(7) أفراسياب: من ملوك بلاد فارس حاكم توران ورد ذكره في «الشاهنامة» ونهر أوكسوس هو نهر آموداريا في إيران. [المترجم]

طريقة الدكتور تار والبروفيسور فيثر

في خريف سنة - 18، وبينما كنت في رحلةٍ زرتُ فيها مناطق تقع إلى [726]أقصى الجنوب من فرنسا، وجدتُ طريقي يقودني إلى مكانٍ لا يبعد أكثر من بضعة أميال من صرحٍ بعينه يُسمّى «مأوى المجانين»، كنت قد سمعت عنه من أصدقائي الأطباء في باريس. ولأنّي لم يسبق أبداً أن زرت مكاناً مثل هذا، فكّرت في أنّها ربّما تكون فرصة رائعة ليس من الصواب إضاعتها؛ وهكذا اقترحتُ على رفيقي في السفر (وهو رجل تعرّفت عليه عرضاً منذ أيام قليلة) أن ننحرف بحصانينا جانباً ونُغيّر وجهتنا، على أن نقضي ساعة أو نحو ذلك، ونُلقي نظرة على تلك المؤسسة. فما كان منه إلا أن رفض.. وأصرّ على ضرورة الإسراع في طريقنا في المقام الأول، وفي اللحظة التالية قال: إنّ منظر المجانين لا يخلو من إثارة للفزع على نحو استثنائي. لكنّه رجاني أن لا أدع دواعي المُجاملة تحول بيني وبين الاستجابة لفضولي، وقال: إنّه سوف يُتابع ركوب حصانه ويمضي على مهل، حتى أتمكّن من اللحاق به في وقتٍ آخر من النهار، أو نلتقي على كل حال في اليوم التالي. وحالما ودّعني وهو يهمّ بالرحيل فكّرت في أنّني ربّما أُواجه صعوبة في الاقتراب من تخوم المنطقة أو الدخول إليها، وأطلعته على مخاوفي في هذا الشأن. وردّ عليّ قائلاً بصراحة: إنّني ما لم تكن لدي معرفة شخصية بالمشرف على المصحة، مسيو مايلارد، أو أحمل تخويلاً في رسالة مثلاً، فلا بُدّ أن تعترضني صعوبة، لأنّ التعليمات المُتبعة في المصحات الخاصة بالمجانين هذه تتّسم بالصرامة أكثر من قوانين المُستشفيات العامة. أما فيما يتعلّق به، كما أضاف، فكان منذ سنوات على علاقة طيبة مع مايلارد، وهو مُستعد لأن يُساعدني ويوصلني إلى باب المصحة ويُقدمني إليهم؛ لكن توجّساته من موضوع الجنون لن تسمح له بدخول المبنى.

شكرته واستدرنا عن الطريق الرئيسي، ثمّ ما لبثنا أن دخلنا إلى دربٍ جانبي تنمو عليه الأعشاب بكثافة، وخلال نصف ساعة كادت معالم الدرب تضيع بين أكناف غابة كثيفة تُغطي سفح أحد الجبال. عبر هذه الغابة الكئيبة ورطوبتها الشديدة مضينا مسافة ميلين تقريباً، حتى لاح لنا أخيراً مأوى المجانين. كان عبارة عن قصر مهيب كأنّه من نسج الخيال، أركانه مُتداعية كثيراً، وفي الواقع نادراً ما يبدو [727]صالحاً للسكن بسبب الإيغال في القدم والإهمال. منظر المبنى بثّ في نفسي خوفاً لا يُستهان به، وتلمّستُ حصاني، وكدت أُقرر أن أعود أدراجي. لكنّي سرعان ما شعرت بالخجل من ضعفي، وتقدّمت.

حالما اقتربنا من البوابة، حتى رأيتها تفتح جزئياً، ولمحتُ رجلاً يسترق النظر. بعد لحظات خرج واقترب من رفيقي وبادره بالكلام، وصافحه في حماسٍ ومودّة، ورجاه أن يترجّل. كان ذلك مسيو مايلارد نفسه. كان رجلاً مهيباً، ملامحه لطيفة يعرفه صديقي من أيام الدراسة، وكان يتصرّف بدماثة خلق، مع شيءٍ من الوقار، والاعتزاز بالكرامة، ومهابة السلطة التي بدت واضحة عليه.

بعد أن قدّمني إليه صديقي ذكر له رغبتي في إلقاء نظرة على المؤسسة، وأبدى مسيو مايلارد استعداده وقال: إنّه سوف يهتم شخصياً بتنفيذ رغبتي، ثم استأذن صديقي للانصراف ولم أره بعد ذلك.

حالما ذهب، قادني المُشرف إلى ردهةٍ صغيرة أنيقة في كل جوانبها، تحتوي، من بين علامات أُخرى تدل على الذوق الرفيع، على كثير من الكتب، واللوحات، وأحواض الزهور، والآلات الموسيقية. كان هُناك موقدٌ تضطرم في جوفه نار تبعث على البهجة. ورأيت شابة جميلة جدّاً جالسة إلى البيانو، تعزف مقطوعة من بيلليني[1]، ولما رأتني أدخل توقفت عن العزف، واستقبلتني بمُجاملات لطيفة. كانت نبرات صوتها مُتهدّجة، وكل حركاتها موزونة في بطء. تصورت أيضاً أنّني كنت ألمح على قسماتها بعض علامات الأسى، أو شحوباً

(1) فنسينزو بيلليني (1801- 1835) موسيقار إيطالي ومؤلف أوبرا «لا سونامبولا»، و«نورما». [المترجم]

شديداً، مع أنّ ذلك بدا في نظري لا يخلو من المتعة. كانت الشابة مُستغرقة في تأمّلٍ عميق كأنّه النشيج، فأثارت في نفسي شعوراً يمتزج بالاحترام، والفضول، والإعجاب.

كنت قد علمت، في باريس، أنّ مؤسسة مسيو مايلارد تُدار وفقاً لما يُسمّى في اللّغة الدارجة «نظام المواساة».. كل أنواع العقوبات ممنوعة.. حتى الحبس نادراً ما يُلجأ إليه.. والمرضى، فيما يخضعون لمُراقبة سرية، تترك لهم الحرية التامة التي لا يُقيدها شيء، ومُعظمهم يُسمح لهم بالتجول في أرجاء المصحة والأراضي المُحيطة بها ويكون ذلك عادة بمُرافقة أشخاصٍ يتمتعون برجاحة العقل.

وضعتُ هذه الاعتبارات نُصب عيني، وكنت أشعر بضرورة الحذر من انطباعي السابق عن تلك الشابة؛ فلا يُمكن أن أكون واثقاً تماماً من سلامة عقلها؛ في الواقع كان ثمّة إشراقٌ قلق يلوح على عينيها يقودني لأن أتخيّل أنّها ربّما كانت مجنونة. لذلك اقتصرت تعليقاتي على قضايا عامة، وتصوّرت أنّ تلك التعليقات لن تكون مُزعجة أو مُثيرة للغضب حتى لإنسان مجنون. وكانت ترد بطريقة عقلانية جدّاً على كلّ ما قلت؛ وحتى كلماتها أساساً كانت تتّسم بأعمق الأحاسيس الواعية [728]التي لا تشوبها شائبة، إلّا أنّ اطّلاعي الطويل على ميتافيزيقيا الاختلال العقلي علّمني أن لا أضع ثقتي بمثل هذه الدلائل التي قد تبدو واضحة أكثر ممّا ينبغي على التعقّل، وبقيت طوال المُقابلة مُحترساً كما في بدايتها.

بعد ذلك جاء حارسٌ يرتدي بزّة رسمية وكان يحمل صينية فيها فاكهة، ونبيذ، وغير ذلك من المُقبلات، وتناولت شيئاً من ذلك، ولكن سرعان ما تركت السيدة الغرفة. وما إن ذهبت حتى حوّلت عينيّ في نظرة تدل على التساؤل باتّجاه مضيفي.

«كلّا»، قال، «أوه، كلّا.. إنّها فرد من أفراد عائلتي.. ابنة أخي، وهي امرأة على جانب كبير من الذكاء».

«أرجو أن تُسامحني ألف مرة على الشك»، أجبت، «لكن طبعاً لا بد أنّك تعذرني. الطريقة الرائعة التي تُدير بها شؤونك هُنا معروفة جيداً في باريس، وكنت أتصوّر أنّ من المُمكن، تعرف هذا..».

«نعم، نعم.. لا ضرورة لأن تقول المزيد.. بالأحرى فأنا نفسي عليّ أن أشكرك على الكياسة التي تستحقّ الإعجاب التي أظهرتها. نحن نادراً ما نلمس حرصاً للتدبر في عواقب الأمور لدى الشباب؛ وفي أكثر من مرة، تحصل بعض الحوادث المؤسفة نتيجة عدم التدبر من جانب الزائرين الذين يأتون إلينا. بينما في النظام الذي سبق أن كان مُطبقاً، وهو يسمح لمرضاي بامتياز التجول هُنا وهُناك بحرية، كثيراً ما يتعرّضون إلى استفزاز يجعلهم في حالة مسعورة خطرة من أشخاصٍ حمْقى يأتون لإلقاء نظرة على المصحة. من هُنا وجدت نفسي مُضطراً لفرض نظام صارم في العزل؛ فلا يُسمح لأحد بالخروج إذا كنت لا أثق بقُدراته العقلية».

«النظام الذي سبق أن كان مُطبقاً!» قلت، وكررت كلماته.. «إذا كنت أفهمك جيداً فأنت تقصد أنّ «نظام المواساة» الذي سمعت عنه كثيراً لم يعُد مُطبّقاً الآن؟».

«مضت الآن»، أجاب، «عدة أسابيع منذ أن قرّرنا إلغاء ذلك النظام إلى الأبد».

«حقّاً! أنت تُثير استغرابي!».

«رأينا، يا سيدي»، قال وهو يتنهّد، «أن من الضروري حقاً الرجوع إلى الإجراءات القديمة. كان الخطر الذي حصل بسبب نظام المواساة، في كل الأحوال، شيئاً مُرعباً؛ أما المزايا التي رافقته فهُناك مُبالغة في تقدير أهميتها. أعتقد، يا سيدي، أننا أجرينا في هذه المصحة اختباراً مُنصفاً لمدى قابلية تطبيق ذلك النظام، إذا ما كان قد أخضع للاختبار في أي مكان. فعلنا كل شيء تقتضيه إنسانية التعامل. أنا آسف لأنّك لم تزرنا في فترة سابقة، حتى تتمكّن من الحكم بنفسك. لكنّي أفترض أنّك خبيرٌ بطرق المواساة.. بتفاصيلها».

«ليس تماماً. الأشياء التي سمعت عنها ربّما كانت قديمة جدّاً».

«ربّما أطلعتك إذن على التفاصيل العامة، مثل الحالة التي نجعل فيها [729]المرضى يُعبّرون عن شيء من روح الدعابة. نحن لا نتصرّف بحيث نُناقض الأوهام التي دخلت من قبل في أدمغة المجانين. على العكس من هذا، نحن لا نرعى تلك الأوهام فحسب، بل نُشجعها؛ والكثير من أساليب العلاج التي نتبعها على نحو مُستمر تعتمد على هذه الناحية. ليس هُناك أُسلوب حوار يُلامسُ العقل الواهن للمجنون مثل المُناظرة العبثانية *argumentum ad absurdum*. كان لدينا أشخاصٌ، على سبيل المثال، يتخيّلون أنفسهم من فصيلة الدجاج. وكنّا نؤكد في أسلوب العلاج على هذا بوصفه حقيقة لا تقبل الجدل.. من العبث أن نلجأ إلى اتّهام المريض بالغباء من خلال عدم تصوّر ذلك على أنّه حقيقة بما يكفي من المصداقية.. وبهذا كنّا نحرم المريض من أي وجبة طعام لمدة أُسبوع غير تلك التي تقدم عادة إلى الدجاج. بهذه الطريقة فإنّ شيئاً من حبوب الذرة والحصى سوف تعمل العجائب».

«لكن هل ينال هذا النوع من العلاج تقبّلاً أبداً؟».

«بكل تأكيد. إنّنا نعتمد إضافة إلى هذا على وسائل تسلية من نوع بسيط، مثل الموسيقى، والرقص، وتمارين الجمناستك عموماً، ولعب الورق، وقراءة بعض الكتب، وما إلى ذلك. وتوصّلنا إلى طريقة نتعامل بها مع كل حالة فردية كما لو كانت نوعاً من الاعتلال البدني العادي، وكلمة «جنون» لا نستخدم أبداً هُنا. المسألة ذات الأهمية الكبرى أنّنا نجعل كل مجنون يُراقب الآخرين. من أجل أن نُعزّز الثقة في القدرة الاستيعابية أو مدى رجاحة عقل أي مجنون، أن نجعله يستردّ جسده وروحه معاً. بهذه الطريقة استطعنا الاستغناء عن خدمات عددٍ كبير من الحراس».

«ولم تضطروا لفرض عقوبات من أي نوع؟».

«مُطلقاً».

«ولم تضطروا لحبس مرضاكم؟».

«نادراً ما يحصل ذلك. من الحين إلى الحين، ربما تزداد وتيرة جنون أحد الأفراد إلى درجة التأزم، أو تتّخذ منحى غاضباً يميل إلى العنف، فننقله إلى زنزانة سرية، خشية أن يؤثر الاضطراب على الباقين، وهُناك يبقى حتى نتمكّن من إعادته إلى أصدقائه.. في حالة مجنون هائج ليس لدينا ما يُمكن أن نفعله. فهو يُنقل عادة إلى المُستشفيات العامة».

«والآن غيّرتم كل هذا.. وتعتقدون أنّه للأفضل؟».

«بكل تأكيد. النظام له سلبياته، بل حتى مخاطره. الآن، لحُسْن الحظ انتشر نظامنا على نطاق واسع إلى كل بيوت المجانين في فرنسا».

«إنّني مُستغربٌ جدّاً»، قلت، «ممّا تُحدّثني به؛ لأنّي على ثقة، في هذه اللحظة، من أنّه لا توجد طريقة في علاج الجنون تُطبّق بنجاح في أي جزءٍ من البلاد».

«أنت لا تزال شابّاً، يا صديقي»، أجاب مضيفي، «لكن الوقت سوف يأتي [730]فتتعلم كيف تحكم بنفسك على ما يُجرّب في العالم، دون أن تثق كثيراً بثرثرة الآخرين. لا تؤمن بشيء تسمعه، ولا تُصدق إلا نصف ما تراه بأمّ عينيك. والآن فيما يتعلّق بمأوى المجانين هذا، واضحٌ أنّ بعض الأشخاص المجهولين قد أضلّوك. لكن بعد العشاء، حين تكون قد تخلّصت بما يكفي من الإرهاق الذي تعاني منه، يُسعدني أن أصطحبك في جولة استكشافية في أرجاء المصحة، وأطلعك بنفسي على النظام، الذي هو من وجهة نظري، ومن وجهة نظر كل شخص جرّب تطبيقه، لا يُمكن مُقارنته بغيره وهو أكثر نظام ناجح ابتكر حتى الآن».

«هو من ابتكارك؟» استفسرت.. «واحدٌ من اختراعاتك الخاصة؟».

«أشعر بالفخر»، أجاب، «بأن أعترف أنه كذلك.. على الأقل في بعض جوانبه».

على هذا النحو دار الحديث بيني وبين مسيو مايلارد لمدة ساعة أو ساعتين، أثناء ذلك سُمح لي بالاطّلاع على الحدائق والبيوت الزجاجية للنباتات التي تنتشر في المكان.

«لا أستطيع أن أدعك ترى مرضاي»، قال، «في الوقت الحاضر على الأقل. بالنسبة إلى عقلٍ مُرهف هُناك دائماً، على نحو أو آخر، شيءٌ من الصدمة التي من المُتوقع أن تُصيب المرء بإزاء مثل هذه المناظر؛ ولست أرغب في أن أفسد عليك شهيتك خلال وجبة العشاء. سوف نتعشّى معاً. ويُمكنني أن أُقدم لك بعض قطع لحم العجل مع حساء مينيهولت، وقرنبيطاً بصفار البيض، وبعدها نشرب كأساً من نبيذ كلوس دو فوغيوت.. ومن ثمّ تكون أعصابك قوية بما يكفي».

في الساعة السادسة، أُعلن عن تقديم وجبة العشاء؛ وقادني مضيفي إلى غرفة طعام *salle à manger* فسيحة، حيث وجدنا جمعاً حاشداً من الأشخاص هُناك.. خمسة وعشرون أو ثلاثون شخصاً. كانوا فيما يبدو من الشخصيات المرموقة ذوي الأصول النبيلة حتماً.. لأنّ ثيابهم، كما تصوّرت، كانت غاية في الثراء، تُحاكي كثيراً الأزياء المُبهرجة التي تُلبس في القصور القديمة. لاحظت أنّ على الأقل ثُلثي هؤلاء الضيوف من السيدات؛ بعضهن لم تكن ثيابهن أبداً تتماشى مع ما يعتبره أي باريسي من علامات الذوق الرفيع في يومنا هذا. الكثير من الإناث، على سبيل المثال، اللواتي لا تقلّ أعمارهن عن سبعين سنة يتزينّ بمقدار وافر من الحُلي والمُجوهرات، مثل المحابس، والأساور، والأقراط، ويتركن صدورهن وأذرعهن عارية بشكل مُخجل. ولاحظت أيضاً أنّ القليل جدّاً من الثياب جيدة الصنع والتفصيل.. أو على الأقلّ فالقليل منها تليق بمن يرتديها. ولمّا نظرت حولي، رأيت الفتاة المُثيرة للاهتمام التي قدّمها لي مسيو مايلارد في الردهة الصغيرة؛ ولكن دهشتي كانت بالغة حين رأيت تنورة تُطوّق خصرها، مع حذاء ذي كعبين عاليين، وقلنسوة بالية يتدلّى منها شريط، تبدو عريضة جدّاً ولا تتناسب مع جسمها وتُضفي على وجهها تعبيراً بالضالة المُضحكة. حين رأيتها لأول مرة، كانت [731]ملابسها أنيقة، مع أنّها كانت في حالة من الحزن العميق. كان ثمّة شيء من الغرابة، باختصار، في أزياء الحاضرين قاطبة، جعلني منذ البداية أعود إلى فكرتي الأصلية عن «نظام المواساة»، وتخيّلت أن مسيو مايلارد كان يخدعني حتى لا أشعر بالانزعاج اثناء وجبة الطعام، حين أجد نفسي

أتناول عشائي مع جمعٍ من المجانين؛ لكنّي تذكرت أنّني علمت في باريس، أنّ سكان المُقاطعات الجنوبية كانوا يتميّزون بطباع غريبة، ولا يزالون يتمسّكون بالكثير من تقاليدهم البالية؛ وبعد أن تكلّمت مع عدد من الحاضرين، لم تلبث توجّساتي أن اختفت ولم يبقَ لها أثر.

غرفة الطعام نفسها، على الرغم من أنّها ربّما كانت مُريحة إلى درجة كافية وذات أبعاد جيدة، إلّا أنّها تفتقر كثيراً إلى الأناقة. على سبيل المثال، فالأرضية لا يُغطيها أي نوع من السجاد؛ في فرنسا غالباً ما يستغني الناس عن السجاد. أمّا النوافذ، فهي خالية من الستائر أيضاً؛ ومصاريعها مُغلقة بإحكام بقضبان حديدية، مُتوازية طولياً على غرار مصاريع محلّاتنا الاعتيادية. لاحظتُ أن الحُجرة بعينها تُشكّل جناحاً من القصر، ولهذا فالنوافذ موزعة على ثلاثة جوانب من مُتوازي الأضلاع، والباب يقع على الجانب الآخر. وهُناك ما لا يقلّ عن عشر نوافذ على وجه الإجمال.

كانت طاولة الطعام مُرتبة بطريقة رائعة؛ إذ تنتشر على كل ركنٍ منها شتى الأطباق المُحملة بما لذّ وطاب. تلك الوفرة في الأطعمة بدت مُستهجنة تماماً. رأيتُ على المائدة أصنافاً من اللحوم تكفي لإطعام قبيلة من هنود أناكيم. لم يسبق في حياتي أن شاهدت مثل هذا الإسراف والتبديد في مُلذات الحياة. لكنّي لاحظت القليل من الذوق في الترتيب؛ بعد أن تعوّدت عيناي على الأضواء الهادئة، تضايقتُ من الوهج الساطع للشموع الكثيرة التي تحملها شمعدانات فضية على الطاولة، وفي أرجاء الغرفة، وأينما وجد مكانٌ لوضعها فيه. وكان يُشرف عددٌ من الخدم النشطين على المائدة؛ وهُناك طاولة أُخرى كبيرة، في الرَكن الأقصى من الحُجرة، جلس إليها سبعة أو ثمانية أشخاص يحملون الكمان، والناي، والترمبون، والطبل. هؤلاء الأشخاص أزعجوني كثيراً، بين فترة وفترة، أثناء وجبة الطعام، إذ كانوا يعزفون مقطوعات غريبة أقرب إلى الضوضاء، يُفترض أنّها من الموسيقى، مع أنّها كانت تُثير استمتاع الحاضرين جميعاً، باستثناء المُتكلّم.

على الإجمال، لم أتمكّن من التغاضي عن كثير من مظاهر الشذوذ في كل

الأشياء التي رأيتها.. لكن العالم في ذلك الوقت لم يكن يخلو على كل حال من الشواذ [732]، بمُختلف أنماط تفكيرهم، وعاداتهم التقليدية. لقد سافرت إلى الكثير من الأماكن، بحيث أصبحت «لا أستغرب من شيء»[2] *nil admirari*؛ لذلك جلست على المقعد المُخصّص لي في برود شديد إلى اليمين من مضيفي، ولأنّي كنت أتمتع بشهية لا بأس بها، فقد أبليت بلاءً حسناً في تذوّق أصناف المأكولات التي وضعت أمامي.

الحديث الذي دار بيننا في هذه الأثناء بروحٍ حماسية كان يتّخذ منحى عاماً. وكانت السيدات كالعادة يتحدّثن أكثر من غيرهن. وسرعان ما اكتشفت أنّ معظم الحاضرين على جانب كبير من الثقافة؛ وكان مضيفي وحده يُشكل عالماً من النوادر المرحة. بدا على استعداد تام للكلام عن موقعه كمُشرف على مأوى المجانين؛ وفي واقع الأمر كان موضوع الجنون، وهذا ما أثار استغرابي حقّاً، من الموضوعات المُفضلة لدى الحاضرين جميعاً. سمعت الكثير من القصص المُمتعة التي رويت، ولها علاقة بنزوات المرضى.

«كان معنا هُنا شخصٌ ذات مرة»، قال رجل سمين ضخم الجثة، كان يجلس إلى يميني.. «يتخيّل نفسه إبريق شاي؛ وبالمُناسبة، أليس من المُستغرب جدّاً أن يقتحم مثل هذا الوهم دماغ المجنون في كثير من الأحيان؟ نادراً ما يكون هُناك ملجأ للمجانين في فرنسا لا يخلو من إبريق شاي بشري. هذا الرجل الذي نتحدّث عنه كان قدر شاي مصنوع في بريطانيا، وكان يحرص على تلميع نفسه كل صباح بقطعٍ من جلد الغزال وأدوات التنظيف».

«وفي ذلك الوقت»، قال رجلٌ طويل القامة كان جالساً أمامي مباشرة، «كان معنا هُنا، منذ زمنٍ ليس بالبعيد، شخصٌ أدخل في رأسه فكرة أنّه حمار.. وهذا، إذا تكلّمنا مجازاً، في وسع المرء أن يقول، كان شيئاً ملموساً تماماً. كان من المرضى الذين يُثيرون المشاكل؛ وكثيراً ما كنّا نواجه الفوضى والمتاعب في إبقائه ضمن حدود ضيقة. طوال مدة طويلة لم يكن يتناول أي شيء من الطعام

---

(2) العبارة لاتينية مُقتبسة من هوراس «الرسالة الإنجيلية»: 1، 6، 1. [المترجم]

غير الأشواك؛ لكن هذه الفكرة سرعان ما عالجناه منها بالإصرار على أن لا يأكل شيئاً غير ذلك. ثم صار يركل باستمرار بأعقابه.. هكذا.. هكذا..».

«سيد دو كوك[3]! أرجوك أن تنتبه إلى تصرّفاتك!» هُنا تدخّلت سيدة عجوز، كانت تجلس بجوار المُتكلّم. «أرجوك أن تُحافظ على حركة قدميك لنفسك! لقد أفسدت فستاني! هل من الضروري، أتوسّل إليك، أن توضّح مُلاحظتك بأسلوب عملي؟ صديقنا هُنا حتماً يستطيع أن يفهم قصدك دون حاجة إلى كل هذا. أقسم لك، أنت تكاد تكون نفسك حماراً لا يختلف عن ذلك الحمار المسكين الذي يتخيّل نفسه حماراً. تصرّفك طبيعي جدّاً، لم أر مثله في حياتي».

«اعذريني ألف مرة! مدموزيل!» رد مسيو دو كوك، هكذا كانوا يُخاطبونه.. «عذراً ألف مرة! لم يكن في نيتي الإساءة، مدموزيل لابلاس.. مسيو دو كوك سوف يكون له الشرف أن يشرب كأس نبيذ في صحتك».

وهُنا انحنى مسيو دو كوك إلى أقصى مدى، وقبّل يدها في كياسة بالغة، [733]واحتسى النبيذ مع مدموزيل لابلاس.

«اسمح لي، يا عزيزي»، الآن قال مسيو مايلارد، وكان يُخاطبني، «اسمح لي أن أعطيك قطعة من لحم العجل هذا مع شراب سانت مينهولت.. سوف تجدها رائعة المذاق حقاً».

في هذه اللحظة نجح ثلاثة من الخدم الأشداء في أن يضعوا على الطاولة بأمان طبقاً هائل الحجم، أو صينية كبيرة تحتوي على ما افترضت أنّه «وحشٌ ضخم مُرعب مُشوّه الخلقة ليس في وجهه أي نورٍ للحياة»[4] *monstrum horrendum informe, ingens, cui lumen ademptum.* إلّا أنّ نظرة عن قُرب

---

(3) بول دو كوك (1794- 1871) روائي شعبي فرنسي كتب عن الحياة في باريس. [المترجم]

(4) العبارة مُقتبسة من (الإنيادة) يصف فيها فيرجل وحش السيكلوب الذي فقأ يوليسيس عينه. [المترجم]

أكّدت لي أنّه كان مُجرّد عجل صغير مشوي، وقد ركّز على ركبتيه، مع تفاحة محشورة في فمه، على الطريقة الإنكليزية في تزيين الأرنب البري.

«أشكرك، كلا»، رددت؛ «أقول الحق، فأنا لا يمكن أن أكون محايداً خصوصاً فيما يتعلق بلحم العجل الممزوج مع شراب سانت.. ما هذا؟.. لا أراه يتوافق مع ذوقي أبداً. لكني سوف أبدل طبقي، وأجرب قطعة من الأرنب».

كانت هُناك عدة أطباق ثانوية على المائدة، تحتوي في ما يبدو أنّه أرنب فرنسي عادي.. وطبق صغير شهي جدّاً، استمتعت بمذاقه.

«بيير»، صاح المضيف، «عليك أن تُبدّل طبق الرجل، وأعطه قطعة جانبية من هذا الأرنب بحساء القطط».

«ما هذا؟» قلت.

«هذا أرنب بحساء القطط».

«حسناً، أشكرك.. بعد أن فكّرت في الأمر، كلا.. سوف أكتفي بتناول شيء من لحم الخنزير».

لا يُمكن للمرء أن يعرف حقيقة ما يأكل، فكّرت في نفسي، على موائد سكان هذه المُقاطعة. لن أتناول شيئاً من أرنبهم هذا.. ومن أجل ذلك، لن أتناول شيئاً من قططهم بالأرانب أيضاً.

«إذن»، قال رجلٌ يبدو كأنّه جثة، كان جالساً على طرف المائدة، وقد التقط خيط الحديث بينما يوشك على الانقطاع.. «ومن ثمّ، وسط أشياء غريبة أُخرى، كان لدينا أحد المرضى، ذات مرة، كان يؤكد على رأيه بصلابة لا تلين ويقول: إنّه قطعة جبن كوردوفا، واستمرّ طويلاً في ذلك الهراء، وكان دائماً يحمل سكّيناً في يده ويتجوّل، ويحث أصدقاءه على تذوق شريحة من ركبته».

«كم كان غبيّاً عظيماً! لا شكّ في ذلك»، تدخّل أحد الأشخاص، «لكن ذلك لا شيء بالقياس إلى فردٍ آخر نعرفه جميعاً، غير هذا الرجل الغريب. أقصد

الرجل الذي كان يتصوّر نفسه زجاجة شمبانيا، وكان دائماً يمشي ويُصدر قعقعة فتح الزجاجة وصوت فقاعاتها، هكذا..».

هُنا وضع المُتكلّم، بطريقة خرقاء، كما تصوّرت، إبهامه الأيمن على خدّه الايسر، ثم سحبه وهو يُصدر صوتاً يُشبه فرقعة سدادة الفلين، ثم قام بحركة حاذقة [734]بلسانه على الأسنان، وأصدر هسيساً وأزيزاً بنبرة حادة، استمر دقائق، وهو يُحاكي في ذلك صوت فتح زجاجة الشمبانيا. هذا السلوك، وقد رأيته بوضوح لا لبس فيه، كان مدعاة لسرور مسيو مايلارد؛ غير أنّ الرجل لم يقلّ شيئاً، واستأنف الحوار رجلٌ نحيف جدّاً يضع على رأسه باروكة كبيرة الحجم.

«وفي ذلك الوقت كان هُناك شخص مجهول»، قال، «كان يتخيّل نفسه ضفدعة، وبالمُناسبة فهو يُشبه الضفدعة في جوانب غير قليلة من هيئته. كنت أتمنّى لو أنّك رأيته، يا سيدي»،.. هُنا وجّه المُتكلّم حديثه لي.. «لكان شيئاً مُبهجاً لقلبك أن ترى الحركات الطبيعية التي يؤديها. سيدي، لو لم يكن ذلك الرجل ضفدعة، لشعرت بالأسف لأنّه ليس كذلك. كان نقيقه يأتي هكذا.. أووووغ.. أووووغ! وهي أروع نغمة في العالم..؛ وحين يضع مرفقيه على الطاولة هكذا.. بعد كأس أو كأسين من النبيذ.. وينفخ من فمه، هكذا، ويجعل عينيه تدوران، هكذا، ويرمش بهما بسرعة بالغة، هكذا، حسناً يا سيدي، أقسم أنّك ستفقد صوابك إعجاباً بعبقرية الرجل».

«لا يُساورني شكٌّ في الأمر»، قلت.

«وفي ذلك الوقت أيضاً»، قال شخصٌ آخر، «كان معنا غايلارد الصغير، الذي يتخيّل نفسه قبضة من السعوط، وكان يتضايق حقّاً لأنّه لا يستطيع أن يحمل نفسه بين إصبعه والإبهام».

«وفي ذلك الوقت كان معنا جوليس دي سولاي[5]، وكان عبقرياً فذّاً حقّاً،

---

(5) كلمة سولاي *soulier* بالفرنسية تعني الحذاء. [المترجم]

وكان يجنّ جنونه من فكرة أنّه يقطينة. وكان يضطهد الطباخ ويجبره أن يصنع منه الفطائر.. وهذا ما كان يرفضه الطاهي باحتقار. أما بالنسبة لي، فلست واثقاً أنّ فطيرة بلحم الأحذية سوف تكون طبقاً فاخراً يُصلح للأكل!».

«إنّك تُدهشني!» قلت؛ ونظرت بفضول إلى مسيو مايلارد.

«ها! ها! ها!» قهقه ذلك الرجل.. «هيه! هيه! هيه!.. هاي! هاي! هاي!.. هو! هو! هو!.. هوه! هوه! هوه!.. جيد جدّاً في الواقع! لا ينبغي لك أن تندهش، يا حبيبي؛ إنّ صديقنا هُنا داهية ..مُغفلٌ مُثير للسخرية.. لا ينبغي لك أن تُحاول فهم ما يقوله حرفياً».

«وفي ذلك الوقت»، قال شخصٌ آخر من الحاضرين، «في ذلك الوقت كان معنا بوفون[6] العظيم.. وهو من الشخصيات غريبة الأطوار بطريقته الخاصة. أصبح مخبولاً بسبب الحب، وكان يتخيّل نفسه برأسين. واحد منهما يُصرّ على أنّه رأس شيشرو؛ والآخر تخيّل أنّه رأس مُركّب، فهو رأس ديموسثينيس من قمة الجبهة إلى [735]الفم، ورأس لورد بروغهام من الفم إلى الذقن. من المُستحيل أن يكون الرجل مُخطئاً؛ لكنه سوف يقنعك بأنه على حقّ؛ لأنّه فصيح اللسان. كان مولعاً بالخطابة، ولم يتردّد في استعراض مواهبه دائماً. على سبيل المثال، اعتاد أن يقفز فوق طاولة الطعام هكذا، و.. و..».

هُنا وضع أحد الأصدقاء، وكان جالساً إلى جوار المُتكلّم، يداً على كتفه وهمس بضع كلمات في أُذنه، وعندها توقّف الرجل عن الكلام في حركة مُباغتة مُذهلة، وغطس في كرسيه.

«وفي ذلك الوقت»، قال الصديق الذي همس سابقاً، «كان معنا بولارد، المُسمّى خذروف الحظّ[7]. وأنا أدعوه خذروف الحظّ لأنّ، في حقيقة الأمر،

---

(6) جورج لويس لوكليرك دو بوفون (1707- 1788) كان عالم طبيعة كبير، وكلمة بوفون تعني مهرج. [المترجم[

(7) خذروف الحظ: خذروف ذو جوانب أربعة كل منها موسوم بحرف مُختلف يُدار بالأصابع في لعبة من لعب الحظّ القديمة. [المترجم]

كانت تُداهمه نوبة مُثيرة للضحك لكنها ليست علامة على عدم التعقّل مُطلقاً، أي: أنّه كان يتحوّل إلى خذروف الحظّ. لا بُدّ أنّك كنت ستنفجر من الضحك لو رأيته كيف يدور حول نفسه كالمغزل. كان يدور على كعب قدمٍ واحدة ويبقى لمدة ساعة، على هذا النحو.. هكذا..».

هُنا راح الصديق، الذي قاطع كلامنا قبل قليل بالهمس، يؤدي شيئاً مُشابهاً لما وصفه بنفسه.

«لكن في ذلك الوقت»، صاحت سيدة عجوز بأعلى صوتها، «صاحبكم مسيو بولارد كان مجنوناً، وهو معتوه سخيف جدّاً في أفضل الأحوال؛ فمن ذا الذي، اسمحوا لي أن أسألكم، يُمكن أن يكون قد سمع بخذروفٍ بشري؟ هذا شيء عبثي. كانت مدام جويوس أكثر تعقّلاً، كما تعلمون. لديها آلة موسيقية غريبة كالمحجل، لكن غريزتها كانت بديهية، وبإمكانها أن تمتع الجميع الذي نالوا شرف التعرّف عليها. لكنّها اكتشفت في بصيرة ثاقبة، أنّها تحوّلت بفعل حادثٍ ما إلى ديك؛ ومع ذلك، في حالتها تلك، كانت تتصرّف باحتشام. كانت تخفق بجناحيها فتظهر تأثيراً استثنائياً.. هكذا.. هكذا.. وأما وهي تُحاكي الغراب، فكان التأثير لذيذاً!».

«كـووك.. آ.. دوودل.. دوو!.. كـووك.. آ.. دوودل.. دوو!.. دووك.. آ.. دوودل.. دو.. دوو.. دووو.. دوووووو!».

«مدام جويوس، سوف أكون مُمتنّاً لك لو تصرفت في شيء من التهذيب!» هُنا قاطعها مضيفنا، وبدا غاضباً جدّاً. «يُمكنك إما أن تكوني مُهذبة السلوك فتتصرّفي كأي سيدة مُحترمة، أو أن تتركي المائدة فوراً.. عليك أن تختاري».

فما كان من السيدة (التي استغربتُ كثيراً من مُخاطبتها باسم مدام جويوس بعد العرض الذي قدّمته تواً) إلّا أن خفضت حاجبيها خجلاً، وبدت مُحرجة تماماً من التوبيخ. انخفض رأسها، ولم تتفوه بكلمة ردّاً على ذلك. لكن سيدة أُخرى أصغر منها في السن استأنفت الكلام عن الموضوع. كانت تلك فتاتي الجميلة التي رأيتها في الردهة الصغيرة.

«أوه، مدام جويوس كانت حقّاً معتوهة!» هتفت، «مع شيء من التعقل، على كل حال، في الرأي الذي أدلى به يوجين سالسافيت. إنّها امرأة جميلة جدّاً وسيدة [736]مُهذبة مع أنّ حالتها يُرثى لها، وكانت تتصوّر أنّ الطريقة الاعتيادية في الملبس غير لائقة، وترغب في أن تلبس دائماً، من خلال الخروج من ملابسها بدلاً من الدخول فيها. من السهولة جدّاً أن نفعل ذلك، على كل حال. ما عليك إلا أن تفعل كذا.. ثم تفعل كذا.. هكذا.. هكذا.. ثم هكذا.. هكذا.. هكذا.. ثم هكذا.. وهكذا.. ثم..».

«يا إلهي! مدموزيل سالسافيت!» هُنا صاح اثنا عشر صوتاً في الحال. «ما الذي تفعلينه؟.. توقّفي!.. هذا يكفي!.. نحن نفهم بوضوح كيف ينبغي عمل ذلك!.. توقّفي! توقّفي!» وقفز عدة أشخاصٍ الآن من مقاعدهم للإمساك بمدموزيل سالسافيت ومنعها من أن تُجرّد نفسها من كل شيء مثل تمثال ربة الجمال فينوس دو مديشي، حتى حقّقوا ما أرادوا بنجاح تام ومُباغتة بعد سلسلة من الهتافات العالية، أو الصياح، من جانب بعض الموجودين في القصر.

كانت أعصابي مُتوترة جدّاً في الواقع من هذه الصيحات؛ غير أنّي كنت أرى باقي الشلة في حالة يُرثى لها. لم أُشاهد من قبل مجموعة من العاقلين مرعوبين هكذا في حياتي. كانوا شاحبين كأنهم موتى، ومُنكمشين على أنفسهم داخل مقاعدهم، يرتعشون ويُثرثرون في ذعر، ويصغون إلى ذلك الصوت. وجاء الصوت من جديد.. أعلى وأعلى.. وفيما يظهر كان يقترب أكثر.. ثم جاء مرة ثالثة.. أعلى، ثم جاء مرة رابعة في ضراوة أكبر وبعدها كاد يختفي. بعد الاختفاء الواضح للضوضاء، استرد الحاضرون رباطة جأشهم حالاً، وامتلأوا حيوية وعادوا يروون نوادرهم كالسابق. وتجرأت الآن للاستفسار عن أسباب تلك الضجة.

«إنها مُجرّد تفاهات»، قال مسيو مايلارد. «نحن مُعتادون على هذه الأشياء، ولا نحفل بها إلا قليلاً. المجانين، من الحين إلى الحين، يولولون جميعاً كأنهم جوقة موسيقية؛ الواحد منهم يُشجع الآخر على البدء بذلك، مثلما يحصل في بعض الأحيان مع قطيعٍ من الكلاب التي تعوي ليلاً. لكن أحياناً يحصل أنّ

صرخات الكونشيرتو هذه تتبعها مُحاولات آنية للتحرّر من القيود، عندها طبعاً تكون ثمّة خشية من بعض الخطر».

«وكم لديكم من الحراس؟».

«في الوقت الحاضر ليس لدينا أكثر من عشرة على الإجمال».

«معظمهم من الإناث، كما أفترض؟».

«أوه، كلّا.. كلهم من الرجال، ومن الأشخاص الأشداء أيضاً، يُمكنني أن أؤكد لك».

«حقاً! كنت أتصوّر أنّ غالبية المجانين من الجنس اللطيف».

«هذا صحيح بصورة عامة، لكن ليس دائماً. منذ بعض الوقت، كان هُناك نحو سبعة وعشرين من المرضى هُنا؛ ومن بين ذلك العدد، ليس أقلّ من ثمانية عشر فرداً كانوا من النساء؛ ولكن مؤخراً، تغيّرت الأمور كثيراً، كما ترى».

«نعم.. تغيّرت كثيراً، كما ترى»، هُنا قاطعه الرجل الذي ركل مدموزيل لابلاس.[737]

«نعم.. تغيرت الأمور كثيراً، كما ترى!» ردّد جمعُ الحاضرين في الحال.

«توقفوا عن الكلام، ليصمت كل واحد منكم!» قال مُضيفي، وقد استبدّ به غضب شديد. عندها لاذت الجماعة كلها بالصمت الذي استمر دقيقة تقريباً. أما إحدى السيدات، فقد امتثلت لأوامر مسيو مايلارد حرفياً، ومدّت لسانها، الذي بدا طويلاً على نحو مُستغرب، وأبقته ممدوداً خارج فمها، وأمسكته بكلتا يديها، حتى نهاية العرض المُبهج.

«وهذه المرأة اللطيفة»، قلت موجّهاً الكلام إلى مسيو مايلارد، وانحنيت وهمستُ له.. «هذه السيدة الطيبة التي تكلّمت قبل قليل، والتي تُقدّم لنا عرضاً عن تصرفات الديك.. كوووك.. آدودل.. دوووو.. إنها، كما أظن، لا تتسبّب بأي ضرر.. إنّها غير مؤذية، ها؟».

«غير مؤذية!» هتف الرجل، وقد فوجئ تماماً، «حسناً.. حسناً، ماذا تعني؟».

«لقد تأثرت بذلك قليلاً فحسب؟» قلت، ووضعت يدي على رأسه. «لا أشكّ أنّها، على وجه التحديد، ليست مُتأثرة بالشخصية التي تؤديها بشكل ينذر بالخطر، ها..؟».

«يا إلهي! بماذا تُفكر؟ هذه السيدة، صديقتي المُقرّبة العجوز مدام جويوس، إنّها عاقلة مثلي تماماً. لها بعض تصرفاتها الشاذة، كي أكون دقيقاً.. لكن، على نحو أو آخر، كما تعلم، كل العجائز ..كل العجائز على وجه التحديد.. هنّ غريبات الأطوار!».

«إذا توخّينا الدقة»، قلت.. «إذا توخّينا الدقة.. فإنّ باقي هؤلاء السيدات والسادة..».

«هم أصدقائي وحراسي»، قاطعني مسيو مايلارد، وسحب نفسه إلى الأعلى في شيءٍ من الخيلاء، «أصدقائي الطيبون والمُساعدون لي».

«ماذا! كلهم؟» سألت، «النساء وكل شيء؟».

«يقيناً»، قال.. «لا يُمكن أن نفعل شيئاً من دون النساء؛ إنّهن أفضل مُمرضات للمجانين في العالم؛ لديهن طرقهن الخاصة، كما تعلم؛ عيونهن الساحرة لها تأثير عجيب؛ مثل سحر الأفعى، كما تعلم».

«إذا توخينا الدقة»، قلت.. «إذا توخّينا الدقة! إنّهن يتصرّفن بطريقة غريبة بعض الشيء، ها؟.. إنّهن غريبات قليلاً، ها؟.. ألا تعتقد ذلك؟».

«غريبة!.. شاذة!.. حسناً، هل تعتقد هذا حقّاً؟ نحن لسنا مُحافظين جدّاً، إذا شئت الدقة، هُنا في الجنوب.. نفعل ما نشاء.. نستمتع بالحياة، وكل تلك الأشياء التي [738]تعرفها..».

«إذا توخّينا الدقة»، قلت.. «إذا توخّينا الدقة».

«وفي ذلك الوقت، ربّما، كان هذا الـ ..كلوس دو فوغيوت قوياً بعض الشيء، كما تعلم.. إنّه قوي قليلاً.. هل تفهم، ها؟».

«إذا توخّينا الدقة»، قلت.. «إذا توخّينا الدقة. بالمُناسبة، مسيو، هل فهمتك جيداً عندما قلت: إنّ النظام الذي تُطبقه، بدلاً من نظام المواساة الشهير، يمتاز بصرامة شديدة جدّاً؟».

«مُطلقاً. موقع الحبس الذي لدينا قريب بالضرورة؛ غير أنّ العلاج.. العلاج الطبي، أعني.. ينسجم مع حالات المرضى أكثر من أي شيء آخر».

«والنظام الجديد من ابتكارك الشخصي؟».

«ليس تماماً. بعض جوانبه مُستمدّة من بروفيسور تار، الذي لا بُدّ أن تكون قد سمعت به؛ وهُناك أيضاً تعديلات على خطتي التي أشعر بالسعادة للاعتراف أنّها تعود في حقيقة الأمر إلى فيثر الشهير، وإذا لم أكن مُخطئاً، فأنت تشرفت بمعرفته عن قرب».

«أشعر بالخجل لأن أعترف»، أجبت، «أنّني لم أسمع أبداً بأسماء هذين الرجلين من قبل».

«يا إلهي!» هتف مضيفي، وسحب كرسيه إلى الوراء فجأة، ورفع يديه. «أنا مُتأكد أنّني لم أسمعك جيداً! لم تقصد القول، ها؟ لم يسبق أن سمعت أبداً باسم العالم الدكتور تار، أو باسم البروفيسور الشهير فيثر؟».

«أنا مُضطر للاعتراف بجهلي»، أجبت؛ «لكن الحقيقة ينبغي أن تعلو على كل الأشياء. ومع ذلك أشعر بالتواضع المُخجل لأنّي لم أتعرف بعد على أعمال هؤلاء الرجال الذين لا شكّ أنّهم غير عاديين. سوف أسعى للبحث عن كتاباتهم على الفور، وأدرسها بعناية فائقة. مسيو مايلارد، أنت حقّاً.. علي الاعتراف.. أنت حقّاً.. جعلتني أخجل من نفسي!».

وتلك هي الحقيقة.

«لا تقل المزيد، يا صديقي الشاب الطيب»، قال بعطف، وضغط على يدي.. «تعال الآن لنشرب كأساً من نبيذ ساوتيرن».

وشربنا. وحذت جماعة الحاضرين حذْونا في غير تقصير. كانوا يُثرثرون.. يمزحون.. يضحكون.. يرتكبون آلاف الحماقات.. وصدحت أصوات الكمان.. ودمدم الطبل.. وصاح الترمبون كأنّه قطيع من ثيران فالاريس النحاسية.. وتصاعد الهرج والمرج في المشهد تدريجياً فتدهورت الحال أكثر فأكثر، ومع ازدياد هيمنة الخمر، أصبح ذلك نوعاً من حفلة جنونية صاخبة. في هذه الأثناء، كان مسيو مايلارد وأنا نفسي، وقد وضعت قناني الساوتيرن والفوغيوت فيما بيننا، نستمر في [739]النقاش بأعلى أصواتنا. لم تعُد أي كلمة تُقال بنبرة عادية تحظى بفرصة لأن تسمع أكثر مما يُمكن أن يُسمع صوت سمكة من قاع شلالات نياغارا.

«ويا سيدي»، قلت، وكنت أصرخ قريباً من أُذنه، «لقد ذكرت شيئاً قبل العشاء عن المخاطر التي ترتبت على نظام المواساة القديم. كيف كان ذلك؟».

«نعم»، أجاب، «لقد أحسسْنا، بين فترة وفترة، بخطر عظيم في الواقع. لا يُمكن للمرء تفسير نزوات المجانين؛ وفي رأيي فضلاً عن رأي الدكتور تار والبروفيسور فيثر، ليس من السليم أبداً السماح لهم بالتجوال على هواهم دون مُراقبة. المجنون ربما «يسترضى»، كما يقولون، لوقت ما، ولكن، في النهاية، يكون مُعرضاً في كثير من الأحيان لأن يُصبح جموحاً هائجاً. إنّ دهاء المجنون مضربٌ للأمثال. إذا كان لديه هدف مُحدّد في ذهنه، فهو يُخفي نواياه بحكمة مُذهلة؛ والبراعة التي يتمكّن بها من الخداع والتظاهر بالتعقل، تثبت للميتافيزيقي، إحدى المشكلات الأكثر غرابة في دراسة العقل. حين يبدو لك المجنون عاقلاً تماماً، فذلك هو الوقت الذي ينبغي عليك فيه أن تلبسه سترة ضيقة تكبّل حركته».

«لكن فيما يتعلّق بالخطر، يا سيدي العزيز، الذي كنت تتكلّم عنه، بحسب تجربتك الشخصية.. أثناء فترة إدارتك للمصحة.. هل كان لديك سبب عملي للتفكير في أنّ الحرية تُشكّل خطراً في حالة المجنون؟».

«هُنا؟.. من مُنطلق تجربتي الخاصة؟.. حسناً، ربّما يُمكنني القول، نعم. على سبيل المثال.. منذ فترة ليست بعيدة جدّاً، ظهرت حالة فريدة من نوعها في هذه المصحة. نظام المواساة، كما تعلم، كان قيد التطبيق آنذاك، وكان عدد المرضى كبيراً.. كانوا يتصرّفون بصورة جيدة.. خصوصاً في ذلك الوقت، وأي شخصٍ يتمتع بالحسّ السليم كان سيُدرك أن هُناك خطة شيطانية وراء تلك الحقيقة المخفية، أنّ هؤلاء كانوا يتصرّفون بحذر خبيث. وفي صباح أحد الأيام الجميلة وجد الحراس أنفسهم مُقيّدين من الأيدي والأقدام، وأُلقي بهم إلى الزنزانات، وكان المجانين أنفسهم الذين اعتدوا على الحراس هم الذين يتولّون مُراقبتهم، كما لو أنّ هؤلاء كانوا من المجانين».

«لا تقل لي ذلك! لم أسمع بشيءٍ عبثي مثل هذا في حياتي!».

«الواقع.. كل شيء حدث بتحريض شخص غبي.. مجنون.. تمكّن بوسيلة ما أن يدخل في رأسه فكرة أنّه ابتكر نظاماً للحكم أفضل من أي شيء سمع به الناس من قبل.. حكومة أفرادها من المجانين، اقصد. كان يرغب في أن يُجرب اكتشافه، كما أتصوّر، لذلك أقنع الباقين من المرضى للانضمام إليه في مؤامرة للإطاحة [740]بالسلطات الحاكمة».

«وهل نجح فعلاً؟»

«لا شكّ في ذلك. الحراس والمرضى سرعان ما تبادلوا الأماكن. وليس ذلك كل ما حدث.. لأنّ المجانين أصبحوا أحراراً، والحراس كانوا محبوسين في الزنزانات في الحال، وكانوا يعاملون، أنا آسف لأن أقول، بطريقة مُتعجرفة جدّاً».

«لكني أتصوّر أنّه حدثت ثورة مُضادة بعد وقتٍ قصير. هذه الحال ما كان لها أن تستمر طويلاً. سكان الأرياف من المناطق المُجاورة.. الزائرون الذين يأتون لرؤية المؤسسة.. كانوا سيطلقون الإنذار».

«هذا ما حدث. كان زعيم التمرّد داهية وقد استعد للأمر. لم يسمح لأي زائر بالدخول أبداً.. باستثناء، ذات يوم من الأيام، أنّه سمح بدخول رجلٍ شاب

يبدو غبيّاً جدّاً لم يكن لديه سبب للخوف منه. سمح له بالدخول لرؤية المكان.. فقط من باب الفضول.. لكي يستمتع بالحديث معه. وحالما أشبع فضوله بما يكفي، تركه يخرج، تركه يذهب لشأنه».

«وكم استمر إذن حكم المجانين؟»

«أوه، استمرّ مدة طويلة، في الواقع.. حتماً استمرّ شهراً.. أو أطول من ذلك، لا أستطيع القول بدقة. في غضون ذلك، استغلّ المجانين الوضع فانتشر الصخب والمرح.. في وسعك أن تُقسم على ذلك. ورفعوا ملابسهم الرثة كالرايات، وصاروا يتصرّفون على هواهم بخزانات الثياب والمُجوهرات التي تعود لإدارة المصحة. كانت أقبية القصر مليئة بمخزونٍ من النبيذ؛ وهؤلاء المجانين عرفوا كالشياطين كيف يستولون عليها ويشربوها. كانوا يعيشون مُترفين، أؤكد لك».

«وماذا عن العلاج.. أي نوعٍ من العلاج على وجه التحديد كان قائد المُتمردين يعمل على تطبيقه؟»

«حسناً، فيما يتعلّق بذلك، فالمجنون ليس بالضرورة إنساناً غبياً، كما قلت سابقاً؛ في رأيي المُتواضع فإنّ أسلوب العلاج الذي كان يُطبقه أفضل كثيراً من السابق. كان نظاماً بالغ الأهمية في الواقع.. بسيطاً.. أنيقاً.. لا مشاكل على الإطلاق.. في حقيقة الأمر كان الأمر مُمتعاً».

هُنا قطعت ملاحظات مضيفي سلسلة أُخرى من الصرخات، ذات طبيعة مُشابهة لتلك التي أزعجتنا سابقاً. لكن في هذه المرة بدت الصرخات كأنّها تصدر عن شخصٍ كان يقترب بخطوات سريعة.

«يا رب السماوات!» هتفت.. «لا شكّ أنّ المجانين تحرّروا من قيودهم».

«أخشى أن يكون هذا ما يحدث»، أجاب مسيو مايلارد، والآن أصبح وجهه شاحباً. وما كاد يُنهي جُملته حتى سُمعت صرخات هادرة ولعنات من تحت [741]النوافذ؛ وعلى الفور اتّضح أنّ بعض الأشخاص في الخارج كانوا يُحاولون اقتحام الغرفة. وكان الباب يتعرّض للخبط بمطرقة ثقيلة، واهتزّت ثمّ اقتلعت مصاريع النوافذ بعنف.

تبع ذلك مشهدٌ فوضوي أشد رعباً. وألقى مسيو مايلارد نفسه، بإزاء دهشتي البالغة، تحت طاولة جانبية. كنت أتوقّع منه بأساً أشد وأنا في حضرته. أما أفراد الأوركسترا الذين كانوا طوال الخمس عشرة دقيقة الماضية في ما يبدو مخمورين حتى الثمالة فلا يفقهون شيئاً عن واجبهم، الآن وثبوا وثبة رجلٍ واحد على أقدامهم وهم يُمسكون بآلاتهم، واندفعوا مُتعثرين بطاولتهم، وخرجوا معاً ليعزفوا النشيد الوطني «يانكي دودل» الذي كانوا قد بدأوا فيه، فإن لم يكن نشيدهم يتوافق مع النغم، على الأقل كان يُعبّر عن شيء فوق طاقة البشر، في خِضَمّ تلك الفوضى.

في هذه الأثناء، على طاولة الطعام الرئيسية، وسط القناني والكؤوس المُبعثرة، وثب الرجل الذي تردّد في الوثوب من قبل، في صعوبة بالغة. وحالما استقرّ هُناك، شرع في إلقاء خطبة، كانت دون شك من الخطب العصماء، لو أنّها كانت مسموعة فقط. وفي اللحظة نفسها، انطلق الرجل الذي كان يصدر سابقاً أصوات فرقعة زُجاجات الشمبانيا، فصار يلف ويدور حول الشقة، في حيوية عجيبة، بينما كانت ذراعاه ممدودتين في زوايا قائمة مع جسده؛ بحيث كان يُشبه الزجاجة في كل شيء.. وكان يكيل الضرب لكل من يعترض طريقه. والآن سُمعت فرقعة قناني الشمبانيا، فاكتشفت أخيراً، أنّ تلك الأصوات كانت تأتي من الشخص الذي يؤدي دور زجاجة الشراب اللذيذ التي شربناها أثناء العشاء. ومن ثمّ، مرة أُخرى، أطلق الرجل الضفدع صوت نقيق كما لو أنّ خلاص روحه يعتمد على كل نغمة من تلك النغمات التي كان يؤديها. وفي خِضَمّ كل هذا، سمعنا نهيقاً مُتتالياً يعلو على كل الأصوات. أما صديقتي القديمة، مدام جويوس، فكنت على وشك أن أبكي لحالتها التعيسة، فقد بدت مُرتبكة إلى درجة فظيعة. لكن كل ما كانت تقوم به أن وقفت في إحدى الزوايا، بالقرب من الموقد، وكانت تطلق عقيرتها بالغناء بلا توقف، «كوووك.. آآآ..دووودل..دوو.. دووووو!».

والآن جاءت ذروة المشهد.. الكارثة التي غيّرت مسار الدراما. لأنّ مع انعدام أي شكل من أشكال المُقاومة، خارج نطاق الهتاف وصياح الديكة ونقيق الضفادع تواجه المُتلصّصين في الخارج، سرعان ما اقتلعت النوافذ العشر، في وقتٍ واحد تقريباً. ولكنّي إن أنسى فلن أنسى أبداً مشاعر الرّعب التي استبدّت بي

وأنا أنظر إليهم وهم يقفزون من هذه النوافذ، ويقعون بيننا، ويتعاركون، ويخبطون، [742]ويُخربشون بأظافرهم، ويُصرخون.. هُنالك اندفع جيشٌ كامل ممّا ظننت أنّها قرود الشمبانزي، وأورانغ أوتانغ، أو البابون السوداء من رأس الرجاء الصالح.

تلقّيت ضربة عنيفة.. وتدحرجت حتى اختبأت أخيراً تحت إحدى الأرائك وبقيت ساكناً لا أبدي أي حركة. وبعد أن بقيت هُناك نحو خمس عشرة دقيقة، أثناء ذلك كنت أصغي بما تُتيح لي أُذني من دقة إلى ما يجري في الغرفة، توصّلت إلى التفسير المنطقي لهذه التراجيديا. مسيو مايلارد، فيما يظهر، حين سرد على مسمعي بعض الوصف للمجنون الذي أثار رفاقه فجعلهم يتمرّدون، كان يعني بذلك أعماله البطولية هو. هذا الرجل كان في الواقع قبل سنتين أو ثلاث، هو المُشرف على المصحة، لكنه ازداد جنوناً هو نفسه، ثم ما لبث أن أضحى مريضاً لا يُرجى شفاؤه. هذه الحقيقة لم تكن معروفة لصديقي في السفر الذي عرّفني عليه. أما الحرّاس، وعددهم عشرة، فبعد أن أُطيح بهم فجأة، كانوا أول من واجه عقوبة التلطيخ بالقطران، ومن ثمّ.. ألصقوا عليهم الريش، وحبسوا في زنزاناتٍ تحت الأرض. وبقوا في سجنهم أكثر من شهر، أثناء ذلك سمح لهم مسيو مايلارد عن طيب خاطر، ليس بإبقاء الريش والقطران على أجسادهم فحسب (وذلك يُشكّل جزءاً من «نظامه»)، ولكنّه كان يُعطيهم بعض الخبز وكمياتٍ جيدة من الماء. كان الماء يُضخ عليهم يومياً. وأخيراً، تمكّن أحدهم من الفرار عبر إحدى البالوعات، وحرر بقية السجناء.

كان «نظام المواساة»، مع التعديلات التي أُدخلت عليه، قد أُعيد تطبيقه في المأوى؛ مع أنّني لا أتفق مع مسيو مايلارد في أنّ طريقة العلاج التي يتبعها كانت ناجحة جدّاً في كل جوانبها. مثلما ألمحتُ قبل قليل، فهي طريقة بسيطة.. أنيقة.. ولا تخلق أي نوعٍ من المتاعب إطلاقاً..

أرى لزاماً عليّ أن أُضيف فأقول: إنه على الرغم من أنّني بحثت في كل مكتبات في أوروبا عن أعمال الدكتور تار والبروفيسور فيثر، إلّا أنّي فشلت إلى اليوم في أن أعثر على نسخةٍ منها.

الحياة الأدبية للسيد ثنغوم بوب

أنا الآن رجلٌ عجوز، و.. لأنّي أرى أنّ شكسبير والسيد آيمونز[1] قد فارقا [743]الحياة.. فليس من المُستبعد أن أموت أنا الآخر. ورأيت، لهذا السبب، أنّ من الأفضل لي اعتزال ميدان الأدب وأن أسترخي لما تبقّى من حياتي على أكاليل الغار التي توجّت بها رحلتي الطويلة. لكني كإنسانٍ طموح فكرت في أن أترك أثراً على التخلّي عن صولجان الأدب يكون إرثاً خالداً للذين يأتون من بعدي؛ وربّما، ليس في وسعي أن أفعل شيئاً أفضل من تسطير كلماتٍ عن أيام إبداعاتي وتجاربي الأولى. اسمي، في الواقع، كان منذ زمنٍ بعيد، واستمرّ في أن يكون، محطّ أنظار عامة الناس، وأظنني لستُ على استعداد لأن أكتفي بما أثاره اسمي من إعجاب في كلّ مكان، لكنّي أرى أنّ من الضروري أيضاً أن أشبع فضول المعجبين باسمي. الأمر لا يتعدّى أن يكون من واجب الإنسان الذي يصل إلى مراتب عظيمة أن يترك خلفه، إذا أراد مُراجعة الماضي، مثل هذا الأثر الذي ربما قاد الآخرين لأن يحذوا حذوه ويُصبحوا من العظماء[2]. لذلك أتصوّر أنّني في الورقة التي أكتبها حالياً (والتي خطر على بالي أن أسميها «مذكرة في خدمة التاريخ الأدبي لأمريكا») كنت أنوي إعطاء بعض التفاصيل عن الخطوات الأولى المهمة من رحلتي، مع أنّها كانت خطوات واهنة ومُتعثرة، والتي تمكّنت من خلالها أخيراً من الوصول إلى طريق الشهرة والمجد وسط بني البشر.

عن الآباء والأجداد، ليس من الضروري للمرء أن يقول الشيء الكثير.

---

(1) ريتشارد آيمونز شاعر أمريكي ولد في ماساشوسيتس 1788. [المترجم]

(2) في مسرحية (الليلة الثانية عشرة): «البعض يولدون عظماء، والبعض يُحققون منزلة عظيمة بجهودهم، والبعض الآخر تهبط عليهم العظمة بلا إرادة منهم». [المترجم]

أبي، توماس بوب، كان يتربّع منذ سنوات على قمة الشهرة في المهنة التي يُزاولها، إذ كان حلّاقاً معروفاً في مدينة سموغ. المحلّ الذي يملكه كان ملجأً للنُخبة من الشخصيات في المنطقة، وبخاصة أولئك الذين يعملون مُحرّرين في الصحف.. وهو جمعٌ يُلهم كل من حوله بكرم الأخلاق وعمق الثقافة. أما من جانبي، فكنت أنظر إليهم على أنّهم من الآلهة، وكنت أستوعب بحماسٍ مُذهل كلامهم الذي يدل على الحكمة والدهاء الذي لا يتوقّف عن التدفق من أفواههم المهيبة أثناء قيامي بوضع «رغوة الصابون» على ذقونهم. لا بُدّ أنّ أوّل لحظة شعرت فيها بالإلهام الحقيقي [744]تعود إلى تلك الفترة التي لا يُمكنني أن أنساها، حين كان رئيس التحرير المُتألّق لمجلّة «ذبابة الماشية» بين فترة وفترة أثناء عملية رغوة الصابون التي أشرت إليها، يتلو على مسامعنا بصوت جهوري، على جمعٍ من الهُواة المُتجمعين، قصيدة لا نظير لها يُطري فيها على «زيت بوب» النقي الوحيد (هكذا كانوا يُسمّون اختراع أبي الموهوب)، وبسبب انتشار القصيدة فقد كوفىء مُحرّر مجلّة «ذبابة الماشية» في ليبرالية وسخاء من قبل شركة توماس بوب وشركائه، للحلاقة والتجارة.

كانت المقاطع العبقرية لقصيدة «زيت بوب» هي التي أمدّتني بنفحة، كما أتصوّر، من العطر المُقدس. وقررتُ على الفور أن أكون رجلاً عظيماً، على أن أبدأ المشوار بأن أُصبح شاعراً عظيماً. في تلك الأمسية بعينها جثوت على ركبتي عند قدمي أبي.

«أبي»، قلت له، «أرجوك أن تُسامحني!.. لكن روحي تسمو على رغوة الصابون. إنّني أنوي بإصرار أن أترك المحل. سوف أعمل مُحرراً.. سوف أكون شاعراً.. سوف أسطّر بعض المقاطع الشعرية على غرار «زيت بوب». اعذرني وساعدني أن أكون عظيماً!».

«عزيزي ثنغوم»، رد عليّ أبي، (وكانوا قد أعطوني اسماً تعميدياً هو ثنغوم على اسم أحد أقاربنا الأغنياء الذي يحمل ذلك اللقب)، «عزيزي ثنغوم»، قال ذلك وكان يرفعني من الأُذنين.. «ثنغوم، يا ولدي، أنت ورقة رابحة، لأنّك ورثت همتك العالية من أبيك. رأسك ضخمٌ أيضاً، ولا بُدّ أنه يحمل الكثير من الذكاء.

هذا ما لمسته منذ زمنٍ طويل، لذلك أرى أنّ لديك من الأفكار ما يؤهلك لأن تُصبح مُحامياً. لكن مهنة المُحاماة تحوّلت إلى شيءٍ بغيض وأعمال السياسي اليوم لا يُرتجى منها الربح. على كل حال فأنت تُقدّر الأمور حق قدرها.. وأظن أنّ مهنة المُحرر الصحفي هي الأفضل لك.. إذا استطعت أن تكون شاعراً في الوقت نفسه.. كما نرى مُعظم المُحررين يفعلون، بالمُناسبة.. ولمَ لا، فأنت تصطاد عصفورين بحجرٍ واحد. ولكي أُشجعك في بداية الأمر، سوف أُخصص لك حجرة صغيرة، وقلم حبر، ومحبرة، وورقاً، وقاموس القوافي؛ وبعض نسخ مجلّة «ذبابة الماشية». أتصوّر أنّك نادراً ما تحتاج إلى أكثر من هذا».

هُنا أجبت في حماس: «سوف أكون نذلاً جاحداً لو قلت: إنّني احتاج إلى شيءٍ آخر. كرمُ أخلاقك لا حدود له. سوف أرد لك الجميل بأن أجعلك أباً لشاعرٍ عبقري».

وهكذا انتهى المؤتمر الذي عُقد مع أفضل الرجال، وبعد انتهائه مُباشرة انطلقت في حماسة إلى مُزاولة نشاطاتي الشعرية؛ لأنّي وجدت هذه الأمور أساساً ترتبط بآمالي في الارتقاء النهائي إلى كرسي رئاسة التحرير.

في أُولى مُحاولاتي للتأليف وجدتُ المقاطع الأولى من قصيدة «زيت بوب» تفتقر إلى الكمال المنشود فلا يُمكن لها أن تفيدني في شيء. إذ إنّ تألّقها المُبهر سبّب لي إرباكاً بدلاً من أن يُنير طريقي. كان التأمل في براعتها يميل لأن يحبط همتي بالقياس إلى تجاربي السابقة في الفشل؛ وهكذا، بعد طول عناءٍ كنت ألهث على غير [745]هدى. وأخيراً خطرت في رأسي إحدى تلك الأفكار العجيبة التي لا بُدّ أن تطرق من الحين إلى الحين دماغ الإنسان العبقري. هذه الفكرة هي.. أو بالأحرى، هكذا دخلت إلى حيز التطبيق. من بين ركام كتب قديمة مُكدّسة في أحد مخازن بيع الكتب، يقع في مكان بعيد جدّاً من البلدة، حصلتُ على عدة مُجلّدات عتيقة غير معروفة أو منسية. اشتريت من صاحب المحلّ تلك المُجلدات لقاء أغنية غنيتها له. من أحد هذه الكتب، ويزعم مؤلفه أنّه ترجمة لكتاب دانتي (الجحيم)، استنسخت في حرصٍ بالغ مقاطع طويلة عن رجل يُدعى أوغولينو، كان لديه مجموعة من الأولاد المُزعجين. ومن كتاب آخر، يتضمّن الكثير من

المسرحيات القديمة من تأليف شخص نسيت اسمه، تصرفت بالطريقة نفسها، وبالدرجة نفسها من العناية، فأخذتُ عدداً كبيراً من الأبيات عن «الملائكة» و«الكهنة الذين يتلون الصلوات»، و«العفاريت الملعونين»، وأشياء من ذلك القبيل. ومن كتابٍ ثالث، من تأليف رجل أعمى أو كاتب إغريقي مجهول أو شخص من هنود جوكتاو.. لا أتذكّر كل هذه التفاهات بسهولة.. أخذت نحو خمسين بيتاً تبدأ بعبارة «.. غضب أخيل»، وغير ذلك. ومن كتابٍ رابع، أتذكّر أنّه أيضاً من أعمال أحد العميان، اخترت صفحة أو صفحتين عن «البَرَد» و«الضوء المقدس»؛ وعلى الرغم من أن أي رجل أعمى لا شأن له بالكتابة عن الضوء، كانت الأبيات جيّدة بما فيه الكفاية بطريقتها الخاصة.

بعد أن عملت نسخاً لا بأس بها من هذه القصائد، وضعت توقيعي على كل واحدة منها واسماً مُستعاراً هو «أوبوديلدوك»[3] (اسم له رنينٌ رائع)، وطويت كل واحدة منها في عناية ووضعتها برفق في مُغلّفٍ مُنفصل، ثم أرسلت كل واحدةٍ منها إلى أربع مجلات معروفة في البلد، وأرفقت معها طلباً بضرورة الإسراع في نشرها ودفع مُستحقاتها. وكانت نتيجة هذه الخطة المحبوكة جيداً مُخيبة للآمال (وكان نجاحها من شأنه أن ينقذني من متاعب كثيرة في حياتي الآخرة)، إذ أقنعني ذلك بأن بعض مُحرّري المجلات لا يُمكن أن ينخدعوا بسهولة، فيطلقوا رصاصة الرحمة *coup-de-grace* (كما يقولون في فرنسا) على طموحاتي الفتية (كما يقولون في مدينة أصحاب النفوس المُتعالية).

الحقيقة أنّ كل واحدة من المجلّات التي نتكلّم عنها كانت تمنح السيد أوبوديلدوك تقييماً أو تقريعاً على طريقتها الخاصة في زاوية «البريد الشهري». وهذا ما كتبته عنه مثلاً مجلة «الطبل الرنان» من تزكية جاءت على هذا المنوال:

«لقد أرسل إلينا السيد أوبوديلدوك (كائناً من كان) قصيدة عصماء تُنسب إلى رجلٍ مخبول يُسميه أوغولينو، لديه أطفال يستحقّون جميعاً الجلد بالسياط وأن

(3) أوبوديلدوك: مادة قديمة هي خليط من الصابون، والكحول، والكافور، وبعض الزيوت كان يستخدمها الحلاقون والأطباء البيطريون وغيرهم. [المترجم]

يرسلوا إلى فراشهم دون أن يُسمح لهم بتناول العشاء. الكتابة التي أرسلت لا تستحق [746]القراءة.. إن لم نقل شيئاً عن تفاهتها. السيد أوبوديلدوك (كائناً من كان) يفتقر حتماً إلى سعة الخيال.. والخيال، من وجهة نظرنا المتواضعة، ليس روح الموهبة الشعرية فحسب، وإنّما جوهرها أيضاً. السيد أوبوديلدوك (كائناً من كان) يمتاز بالوقاحة بحيث يطلب منا، من أجل تفاهاته تلك، «أن نسرع في النشر وندفع له مُستحقاته». فنحن لا ننشر ولا نتعامل بأي نوع من هذا الهراء. لكن لا شكّ أنّه يستطيع أن يبيع هذا الكلام الفارغ الذي ينسبه إلى نفسه إلى مكتب مجلّة من هذه المجلات: «الغوغاء»، أو «المصاصة»، أو «الإوزة النقاقة».

كل هذا الكلام، لا بُدّ من الاعتراف، كان قاسياً على السيد أوبوديلدوك، لكن الجرح الأكثر إيلاماً الذي أصابه في الصميم أن عبارة «الموهبة الشعرية» كُتبت بحروف صغيرة. تلك الحروف ذات المقام الرفيع، أي مرارةٍ لن تجدها فيها!.

لكن السيد أوبوديلدوك تعرّض أيضاً لصدمة مماثلة في شدتها من مجلّة «الغوغاء» التي تكلّمت عنه على النحو الآتي:

«لقد تلقّينا رسالة هي الأغرب والأكثر غطرسة من أحد الأشخاص (كائناً من يكون) وقعها باسم اوبوديلدوك، وبهذا فهو يُدنّس مظاهر العظمة للإمبراطور الروماني الشهير الذي كان يُعرف بهذا الاسم. وضمن رسالة أوبوديلدوك (كائناً من يكون) وجدنا بضعة أبيات ركيكة مُتضاربة المعنى تنتمي إلى النوع الأكثر إثارة للاشمئزاز من النظم المُنمق، تتكلّم عن «الملائكة ورسل الرحمة».. كلامٌ تافه لا يُقدم على كتابته إلا مجنون مثل نات لي[4]، أو أوبوديلدوك نفسه. وعلى كلّ هذه التفاهات يطلب منا مُتواضعاً أن «ندفع مُستحقاته بسرعة». كلّا، يا سيدي.. كلّا! نحن لا ندفع شيئاً على ذلك النوع من الهراء. عليك إرسالها إلى «الطبل الرنان»، أو «المصاصة»، أو إلى «الإوزة النقاقة».. هذه الدوريات لا شكّ أنّها سوف تتقبّل منك فضلاتٍ من هذا النوع ربّما تُرسلها إليهم.. وقد تدفع لك ثمنها».

(4) ناثانيل لي (1653- 1692) كاتب تراجيديات غريبة الأسلوب، مات مجنوناً. [المترجم]

كان لهذا الردّ وقعٌ مرير على المسكين أوبوديلدوك طبعاً؛ ولكن في هذا الموقف على وجه التحديد، كان ثقل التقريع يقع على عاتق مجلّات «الطبل الرنان»، «المصاصة»، «الإوزة النقاقة»، التي وصفت بتلميحٍ لاذع بأنّها «دوريات».. وجاء ذلك الوصف بخطّ مائلٍ أيضاً.. ولا بُدّ أنّه سبّب لَهم جرحاً في الصميم.

ولم يكن أقل وحشية من ذلك هجوم مجلّة «المصاصة..» الذي أتى ردّاً على رسالتي التي بعثتها إليهم:

««بعض الأشخاص، الذين يبدو أنّهم يفرحون بتسمية أوبوديلدوك (إلى أي مدى أصبحت أسماء الموتى من الرجال العظماء تستخدم بطريقة مُنحطة في كثير من الأحيان!) أرسل لنا نحو خمسين إلى ستين بيتاً من الشعر تبدأ هكذا:

«غضب أخيل العظيم، كان لليونان ينبوع أحزان..

ويا لها من أحزان لا تُعدّ ولا تُحصى! إلخ.. إلخ.. إلخ..»»

«ليعلم السيد أوبوديلدوك.. (كائناً من يكون) مع جلّ الاحترام، أنّه ما من [747]شيطانٍ من شياطين النشر في مكاتبنا لا يطلّع يومياً على أشياء مثل هذه الأبيات فيعرف حتماً كيف يكتب أفضل منها. تلك الأبيات التي كتبها أوبوديلدوك لا تستحقّ حتى أن نُفكّر فيها. السيد أوبوديلدوك عليه أن يتعلّم كيف يكتب بصورة جيدة. لكن لماذا يظن الرجل أنّ علينا نحن (من بين الآخرين، نحن!) تلطيخ صفحات مجلّتنا بمثل هذا الهراء الذي يفوق أي وصف، ذلك خارج نطاق الاسِتيعاب تماماً. عجباً، هذا الكلام السخيف نادراً ما يصلح حتى للنشر في مجلّات «الطبل الرنان»، أو «الغوغاء»، أو حتى «الإوزة النقاقة»، إذا نظرنا إلى الأشياء التي تنشر عادة في مجلّة «الإوزة» بوصفها من القصائد الغنائية التي يكتبها الصبيان. والسيد أوبوديلدوك (كائناً من يكون) يتجرّأ بوقاحة فيطلب منا أن ندفع له ثمن هذا اللّغو الفارغ. هل يعلم أوبوديلدوك (كائناً من يكون).. هل يُدرك أنّنا لا نقبل أن يدفع لنا هو شخصياً مُقابل أن ننشرها؟».

فلما كنت أُتابع هذا الكلام أحسست بنفسي تزداد ضآلة تدريجياً فصرت اصغر فأصغر، وحين وصلتُ إلى النقطة التي كان المُحرّر يسخر فيها من القصيدة وأبياتها، لم يبقَ مني أكثر من أونصة. أما بالنسبة إلى اسم أوبوديلدوك، فبدأت أحس بالتعاطف مع الرجل المسكين. لكن مجلّة «الإوزة النقاقة» أظهرت، لو كان ذلك صحيحاً، من الرفق والرحمة أقلّ مما أظهرته «المصاصة». كانت مجلّة «الإوزة النقاقة..» هي التي وصفتني فقالت:

««ذلك الشويعر التعيس، الذي يكتب باسم مُستعار هو أوبوديلدوك، ومن السخافة بمكانٍ أن يتخيّل المرء أنّنا نقوم بنشر أو ندفع ثمن هذا الكلام المُفبرك المُفكّك الذي يعجّ بالأغلاط النحوية الذي أرسله إلينا، والذي يبدأ بهذا البيت غير المفهوم..

«أيّها البَرَد، أنت أيها الشعاعُ المُقدس، أنت من نسل السماء، وأول شيء يولد»».

««نقول: هذه أشياء غير مفهومة، يا سيد أوبوديلدوك (كائناً من يكون) هلّا تكرمت فأخبرتنا كيف يُمكن للبَرَد أن يكون ضوءاً مُقدساً. إنّنا دائماً ننظر إلى البَرَد بأنه مطرٌ مُتجمّد. هلّا تُخبرنا أيضاً كيف يُمكن للمطر المُتجمّد، في وقتٍ واحد، أن يكون ضوءاً مُقدّساً هل يستطيع (كائناً من يكون) أن يوضح لنا كيف يُصبح في الوقت نفسه نسلاً وذرية؟.. أيّ مُصطلح من هذين المُصطلحين (إذا كنا نفهم أي شيء من اللّغة الإنكليزية) يُمكن أن يُستخدم وحده، في مكانه الصحيح، بالإشارة إلى أطفال صغار لا تتجاوز أعمارهم ستة أسابيع. لكن من العبث أن نُشغل أنفسنا بمثل هذه السخافة.. مع أنّ أوبوديلدوك (كائناً من يكون) لديه وقاحة لا يُضاهيها شيء بحيث يفترض أنّنا لن، «ننشر» كلماته المجنونة الغبية فقط، بل سوف ندفع (حتماً) استحقاقاته عنها؟

«الآن هذا شيء جيد.. كم هو رائع حقّاً!.. لو كان لدينا نصف عقل لكان كافياً لمُعاقبة هذا الشاب الذي كتب هذه الحروف المُخربشة، على غروره وأنانيته بأن [748]ننشر فعلاً هذا الدفق من هراء الكلام *verbatim et literatim*، تماماً

كما كتبه. لا يُمكن أن نُنزل عقوبة أكثر قسوة، ولسوف نُنزلها به، لولا الضجر الذي سوف يلحق قراءنا إذا أقدمنا على هذا العمل.

«ليرسل أوبوديلدوك (كائناً من يكون) أيّ كتابات ذات طبيعة مُماثلة إلى مجلّة 'الطبل الرنان'، أو إلى 'المصاصة' أو إلى 'الغوغاء'؛ وسوف تُنشر هُناك. إنّهم ينشرون كل شهر مثل هذه البضاعة التافهة. أرسلها إليهم. أما نحن فلن نقبل أبداً أن نُلحق الإهانة بأنفسنا أو أن ننحط إلى هذا المُستوى الوضيع»».

وهذه كانت نهاية أحلامي، أما بالنسبة إلى 'الطبل الرنان'، أو 'الغوغاء'، أو 'المصاصة'، فلا يُمكنني أن أستوعب كيف تحمّلوا الأمر. لقد جاءت أسماؤها بأصغر حروف الطباعة المُمكنة (دلالة على الاستهانة بها.. والسّخرية من مكانتها) بينما كتبوا كلمة «نحن» WE بحروفٍ عملاقة! أوه، كم كان ذلك مريراً جدّاً!.. مريراً كالعلقم.. إنّها وقاحة ما بعدها وقاحة. لو أنّني كنت أعمل في إحدى هذه المجلّات لما ادّخرت جهداً في مُحاكمة مجلّة «الإوزة النقاقة». وربّما تمّ ذلك باللجوء على الأقل إلى قانون «الرفق بالحيوان». أما عن أوبوديلدوك، (كائناً من يكون)، في هذه الأثناء فقدت كل صبري مع هذا الشخص، ولم أعد أتعاطف معه بتاتاً. إنّه رجل معتوه، لا شكّ في ذلك، (كائناً من يكون)، وكانت الركلة التي تلقّاها أقل من استحقاقه.

وأقنعتني نتيجة تجاربي السابقة مع الكتب القديمة في المقام الأول أنّ «النزاهة أفضل سياسة يُمكن أن يتبعها الإنسان»، ومن جهة ثانية، فإذا لم أتمكّن من الكتابة بشكلٍ أفضل من السيد دانتي، والرجلين الآخرين البصيرين، وأفضل من بقية الشلة القديمة، فعلى الأقل سوف يكون من المُستحيل أن أكتب أسوأ منهم. لذلك قرّرت في رباطة جأشٍ كتابة «مُعلقة» (كما يقولون على أغلفة المجلّات)، مُقابل أيّ تكلفة مُحتملة أو متاعب. ومرة أُخرى وضعت نصب عيني كنموذج، المقاطع الرائعة لقصيدة «زيت بوب» التي كتبها مُحرر مجلّة «ذبابة الماشية» وقرّرت أن أكتب قصيدة غنائية عن الموضوع نفسه الرفيع الشأن، مُتحدّياً ورافضاً كل تجاربي السابقة.

ولم تواجهني صعوبة تُذكر في تسطير البيت الأول، الذي جاء على النحو التالي:

«سوف نكتب قصيدة غنائية عن زيت بوب».

لكنّي بعد أن بحثت طويلاً عن مُفرداتٍ مُناسبة تنسجم في السجع مع كلمة «بوب»، وجدت من المُستحيل التقدّم خطوات أكثر. بإزاء هذه المُعضلة كان عليّ اللجوء إلى مُساعدة من أبي؛ وبعد ساعاتٍ من التفكير المُجهد، توصلتُ مع أبي إلى [749]هذه القصيدة:

«.. إذا أردت أن تكتب زيت بوب

فلا بُدّ لك أن تتحلّى بصبر أيوب..

(التوقيع) سنوب».

إذا توخّينا الصدق فهذه قصيدة ليست طويلة جدّاً.. لكن يبدو أنّني «لم أتعلّم بعد»، كما يقولون في مجلّة «أدنبرة ريفيو»، أنّ قيمة العمل الأدبي لا علاقة لها بالحجم أبداً. أما مجلّة «كوارتيرلي» فلم أفهم شيئاً عن «المثابرة» التي يتكلّمون عنها. على كل حال كنت مُقتنعاً بنجاح مُحاولتي الجديدة، والآن السؤال الوحيد يتعلّق بكيفية نشرها. وهُنا اقترح أبي أنّ إرسالها إلى مجلّة «ذبابة الماشية».. لكن منعني من ذلك سببان؛ كنت أخاف من حسد الحاسدين وخصوصاً رئيس التحرير؛ كنت واثقاً أنّه لن يدفع لي شيئاً من المُستحقات كما فعل في السابق؛ وبعد طول تأملٍ وتفكير، قرّرت أن أرسلها إلى مجلّة «المصاصة»، فصفحاتها أكثر احتراماً من غيرها، وبقيت أنتظر ما يُمكن أن يستجدّ مُتلهّفاً، واثقاً من نفسي.

في العدد التالي الذي صدر مُباشرة شعرت بالفخر لرؤية قصيدتي تُنشر أخيراً على الصفحة الأُولى، وكانت مُذيّلة بتعليق بارز، كُتب بحروف مائلة بين معقوفين:

[نودّ أن نُلفت انتباه قرائنا الكرام إلى المُلحق الذي يستحق الإعجاب حقّاً، وهو يتضمّن قصيدة «زيت بوب». لا نحتاج لأن نقول شيئاً عن سموّ كلمات هذه

القصيدة أو عن تأثيرها العاطفي الذي يأسر الألباب.. من المُستحيل أن يُتابع المرء مقاطعها دون أن يذرف الدموع. أولئك الذين أُصيبوا بالغثيان من تجربة مريرة سابقة تناولت الموضوع العظيم نفسه والتي كتبها بريشة الإوز رئيس تحرير «ذبابة الماشية» يجدر بهم المُقارنة بين القصيدتين.

خاتمة.. نحن نتحرّق شوقاً لمعرفة السرّ الغامض الذي يُحيط بالاسم الذي يبدو مُستعاراً «سنوب». فهل نطمح في أن نتشرّف بإجراء مُقابلة شخصية معه؟].

كل هذا الكلام لم يكن أكثر من إحقاق للحقّ، لكنّي اعترف أنّه أكثر ممّا توقّعت.. أُقرّ بهذا، فقد أثار في نفسي شعوراً وطنياً بأنّي جلبت العار على بلدي وتسبّبت بالخزي للإنسانية. وهكذا لم أهدر وقتاً فذهبت في الحال لزيارة رئيس تحرير مجلّة «المصاصة» وحالفني الحظ بأن وجدته في منزله. رحّب بي الرجل بطريقة تدلّ على احترام عميق مُختلطاً بإعجاب ورعاية أبوية، وكانت طباعه الحميدة، لا شكّ في ذلك، قد أثارها منظري الساذج وشبابي الغض وقلّة خبرتي. [750]توسل إلي أن اجلس، وتطرّق فوراً إلى قصيدتي؛ غير أنّ التواضع يمنعني الآن أن أُعيد آلاف عبارات الإطراء التي أسبغها عليّ. ولم يكن كلام السيد كراب (هذا هو اسم رئيس التحرير) مُرسلاً على عواهنه أو يخلو من مغزى أو بذيئاً أبداً. لقد حلّل قصيدتي في تجرّد يُشهد له وقدرة نقدية عالية.. ولم يتردّد لحظة في الإشارة إلى بضعة أخطاء تافهة.. وذلك ما جعله يندفع فلا يبخل عليّ بالنصح والثناء.. وكان ذلك سبباً زاد من احترامي له. وكان من الطبيعي أن يُطرح في النقاش موضوع «ذبابة الماشية»، وأتمنّى أن لا أُواجه في حياتي نقداً لاذعاً بمثل تلك الشراسة، أو توبيخات بمثل تلك الصراحة كالتي أصدرها السيد كراب بإزاء تلك الظاهرة الفريدة من الثرثرة الشعرية والكلام الفارغ المُلفّق البائس. كنت قد اعتدت النظر إلى مُحرّر «ذبابة الماشية» على أنّه ظاهرة خارقة لنواميس البشر؛ إلّا أنّ السيد كراب سرعان ما صحح فكرتي عنه. لقد وضع تلك الشخصية بصفاتها الأدبية والخاصة لـ «الذبابة» (هكذا كان السيد ك. يُسمي المُحرر المُنافس في تهكّم) في مكانها المُناسب. إنّه مُجرّد ذبابة، وهذا وصف أفضل قليلاً ممّا

ينبغي أن يكون عليه. لقد كتب الكثير من الأشياء المُشينة. إنّه مُهرّج وقرد.. ومن الأوغاد. وقام بتأليف تراجيديا جعلت البلاد كلها تكاد تختنق من الضحك، وكتب كوميديا جعلت العالم كله يختنق بالدموع. إلى جانب هذا، كان من الصلافة بحيث كتب أشياء يقصد بها السخرية منه (أي: من السيد كراب)، وبلغ به التهوّر أن يُسميه «حماراً». فإذا أردت في أي وقت التعبير عن رأيي الشخصي بالسيد ذبابة، فإنّ صفحات مجلة «المصاصة»، هكذا أكد لي السيد كراب، مفتوحة لي على مصراعيها. في هذه الأثناء، لأنّ كان من المؤكد أن أتعرّض للهجوم على صفحات «ذبابة الماشية» بسبب مُحاولتي تأليف قصيدة هجائية عن زيت بوب، فقد تعهّد (السيد كراب) أن يُساند بكل إصرار آرائي الشخصية. فإذا لم أثبت له أنّني رجل يُعتمد عليه عند الضرورة، فلن يكون ذلك خطأه هو (السيد كراب).

بعد أن توقّف السيد كراب الآن عن الكلام (الجزء الأخير من خطابه وجدت صعوبة في استيعابه)، تلمست نوعاً من الجُرأة في نفسي باقتراح شيء يتعلق بالمكافأة التي ظننت أنني سوف أستلمها على قصيدتي، وذلك بأن أشرت إلى الإعلان الذي جاء على غلاف «المصاصة» وقالت فيه: إنّها «أصرّت على مبدأ دفع مُكافآت جيدة لكل المُساهمات سواءً تلك التي تقبلها أو التي لا تقبلها، وفي كثير من الأحيان فهي تعطي أموالاً على قصيدة مُختصرة تفوق ما تصرفه سنوياً مجلّات «الطبل الرنان»، أو «الغوغاء»، أو «الإوزة النقاقة» مُجتمعة..

وما إن تفوّهت بكلمة «مكافأة»، حتى فتح السيد كراب عينيه أولاً، ثم فتح فمه، ويا له من فم واسع! فكان يُشبه بطة عجوز ساخطة تبطبط؛ وبقي هكذا (يضغط [751]مراراً وتكراراً بيديه بقوة على جبهته، كأنّه صُعق من الصدمة) إلى أن وضعت حدّاً لما كنت أُريد قوله. فلما اختتمت كلامي، غطس في كرسيه بغتة، وترك ذراعيه تتدلّيان على جانبيه كأنّه فارق الحياة، لكن فمه بقي مفتوحاً بإصرار، على غرار فم البطة. وكنت مُندهشاً من سلوكه المُستغرب الذي ينذر بالخطر فلم أقل شيئاً.

وفجأة وثب على قدميه واندفع إلى جرسٍ مشدود بالحبل؛ وما إن وصل

إلى هُناك حتى بدا أنّه قد عدل عن نيّته، أياً كانت، لأنّه غطس تحت طاولةٍ ثم خرج وهو يحمل هراوة. وكان على وشك أن يرفع تلك الهراوة (لأي غرض، كنت حائراً فلا أستطيع أن أتخيّل)، ولكن لاحت على حين غرة ابتسامة رؤوفة على قسمات وجهه، واسترخى مرة أُخرى على كرسيه.

«سيد بوب»، قال، (لأنّي سبق أن أرسلت بطاقتي إليه بنفسي قبل صعودي)، «سيد بوب، أنت رجلٌ شاب مهذّب، كما أتصوّر.. في ريعان شبابك؟».

وأبديت موافقتي على ذلك؛ وأضفت قائلاً: إنّني لم أتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمري.

«آه!» أجاب، «جيد جدّاً! يُمكنني أن أرى ذلك.. لا تقل أكثر من هذا! إذا أردنا أن نتطرّق إلى مسألة التعويضات، فما تُطالب به شيء مُنصف تماماً.. في حقيقة الأمر إنّه لمن الإنصاف أن يحصل ذلك. لكن، آه.. آه.. إنّها مُساهمتك الأُولى.. ليس من المُمارسات المُعتادة أبداً للمجلة أن تدفع على.. أنت تفهم، ها؟ الحقيقة أن.. أننا، نحن الذين نأخذ تعويضات عادة في مثل هذه الحالة». [ابتسم السيد كراب دون دماثة فيما كان يؤكد على كلمة «تعويضات»]، «في أغلب الأحيان، يدفع لنا الشاعر نفسه لقاء نشر مُحاولته الأُولى.. خصوصاً في مجال الشعر. من جهة أُخرى، سيد بوب، فإنّ سياسة المجلّة لا تُحتم دفع أي شيء، أو ما نُسميه في فرنسا الدفع نقداً *argent comptant*؛ لا شك أنّك تفهم. ربّما بعد مضي ربع أو نصف سنة على نشر المقال.. أو خلال سنة أو سنتين.. لن نعترض على منحك اشتراكاً لمدة تسعة أشهر؛ ولكن دائماً على شرط أن نتمكّن من ترتيب أمورنا. آمل حقّاً، يا سيد بوب، أن يكون هذا التوضيح مقبولاً». هُنا أنهىَ السيد كراب كلامه، وكانت الدموع تترقرق في عينيه.

أحسست بالحزن والأسى من أعماق قلبي لأنّي تسبّبت بلا قصد بالألم لهذا الرجل المُحترم المُرهف الإحساس، فسارعت للاعتذار، وأعدت التأكيد له، بأن عبّرت عن تأييدي التام لوجهات نظره، فضلاً عن تقييمي لحرج موقفه. وبعد أن أنهيت كلامي المُنمق، تركته وذهبت.

ذات صباح جميل، بعد مُدة قصيرة من ذلك، «نهضت من النوم فإذا بي أجد [752]نفسي شاعراً ذائع الصيت»[5]. يُمكن للمرء تقدير مدى الشهرة التي وصلت إليها بالرجوع إلى آراء هيئات تحرير مجلّات مُختلفة تصدر في يومنا الحاضر. هذه الآراء، كما نرى، تجسّدت من خلال إشارات نقدية إلى ذلك العدد من مجلّة «المصاصة» الذي نشرت فيه قصيدتي، وكانت الآراء متطابقة تماماً، وحاسمة، وواضحة باستثناء ربّما الإشارة إلى العلامات الهيروغليفية، 15 أيلول - ينشر للمرة الأولى، التي أرفقت مع كل مقال نقدي.

لقد تكلمت مجلّة «البومة» وهي من المجلّات العريقة المعروفة بمصداقيتها الجادة في قراراتها الأدبية «..البومة» أقول تكلمت على النحو التالي:

««في 'المصاصة'! عدد تشرين الأول من هذه المجلّة والذي تضمّن الكثير من الموضوعات الشيقة التي تجاوزت في أهميتها مقالاتها السابقة، كانت فعلاً تتحدّى غيرها من المجلّات المُنافسة.. في رونق طباعتها وورقها المُمتاز.. وفي صورها الرائعة.. فضلاً عن القيمة الأدبية لمُساهماتها.. هُنا يُمكن مُقارنة 'المصاصة' في خطواتها البطيئة المدروسة مع مُنافسين آخرين مثل صراع العملاق هايبريون مع وحش الساطير في الميثولوجيا الإغريقية. إنّ مجلّات 'الطبل الرنان'، و'الغوغاء'، و'الإوزة النقاقة' حتماً تتفوّق عليها في أُشياء أخرى، هذا صحيح، إنّها تتفوّق عليها في التبجح والرياء، ولكن في كل القضايا الأُخرى، تضرب لنا 'المصاصة' المثل الأعلى، كيف أنّ مجلّة رصينة المكانة يُمكن أن تتحمّل كل هذه النفقات الباهضة بوضوح، إنّه حقّاً شيء أكثر مما تستطيع عقولنا استيعابه. إذا شئنا الدقة، كانت المجلة توزع مائة ألف نسخة وقائمة المُشتركين فيها زادت إلى الربع خلال الشهر الأخير؛ ولكن، من ناحية أُخرى، فكميات النقود التي تدفعها باستمرار على هذه المساهمات خيالية. يقال: إنّ السيد سلاياس استلم ما لا يقلّ عن سبعة وثلاثين سنتاً ونصف السنت على مقاله الذي ليس له مثيل عن 'الخنازير' من السيد كراب، رئيس تحريرها، ومع وجود أسماء مرموقة على قائمة

---

(5) الاقتباس من بايرون (مُذكرات)، 1812. [المترجم]

المساهمين في المجلّة مثل سنوبز وسلاياس، فلا توجد كلمة 'فشل' في قاموس 'المصاصة'. عليك أن تذهب وتشترك في الحال»». 15 أيلول ـ ينشر للمرة الأُولى.

عليّ القول هُنا إنني أشعر بالامتنان لهذا الرأي المُحترم الذي أبدته صحيفة مُحترمة مثل «البومة». إنّ وضع اسمي.. بمعنى آخر اسمي المُستعار، في ذلك الموقع المرموق إلى جانب اسم رجل عظيم الشأن مثل سلاياس، كان بمثابة إطراء ما بعده إطراء، وقد غمرني بالسعادة طبعاً حين اطّلعت عليه.

ثم أثارت انتباهي لاحقاً هذه الفقرات التي جاءت في «ضفدع الطين..» وهي مجلّة مرموقة جدّاً وتشتهر باستقامتها واستقلاليتها.. وابتعادها عن التملّق والتبعية لمن يقيمون الولائم:

«العدد الذي صدر مؤخراً من مجلّة «المصاصة» في تشرين الأول مُتقدم على [753]كل الأعداد التي صدرت تزامناً معه لمجلّات أُخرى، وهو يتفوّق عليها طبعاً في روعة إخراجه الفني، علاوة على تفوّقه في ثراء مُحتوياته. إن مجلّات الطبل الرنان» و«الغوغاء» و«الإوزة النقاقة» تتفوّق، نحن نقرّ بهذا، في التبجح والرياء، ولكن في كل النقاط الأُخرى، فلا مُنافس لـ «المصاصة». كيف استطاعت هذه المجلّة الواسعة الانتشار تحمّل نفقاتها الهائلة الواضحة بهذه الكفاءة، ذلك يتجاوز قدرتنا المُتواضعة على الفهم. إذا توخينا الدقة، فهي توزع 200 ألف نسخة، وزادت قائمة المُشتركين بها إلى الثلث خلال الأُسبوعين الأخيرين، لكن من ناحية أُخرى، فالمبالغ التي تدفعها شهرياً للمُساهمين كبيرة بشكل مُخيف. نعلم مثلاً أنّ السيد مومبلثمب استلم ما لا يقلّ عن خمسين سنتاً علَى مقاله الأخير «أنشودة في الوحل»».

ومن بين المُساهمين الأصليين في العدد الحالي (إلى جانب المُحرر البارز، السيد كراب)، نُلاحظ هناك شخصيات مُهمة أُخرى مثل سنوب، وسلاياس، ومومبلثمب. بعيداً عن المقال الافتتاحي لرئيس التحرير، فالموضوع الأكثر أهمّية، كما نعتقد، كان قصيدة تُعتبر بمثابة جوهرة أو تُحفة شعرية كتبها سنوب،

عن زيت بوب.. غير أنّ قراءنا ينبغي أن لا يفترضوا، من عنوان هذه الجوهرة التي لا نظير لها، أنّها تُشبه ذلك الهراء الذي كتب حول الموضوع نفسه والعنوان نفسه، فالذي كتبه شخصٌ يستحق الاحتقار حقّاً ولا يستحق أن يذكر اسمه فيطرق أي أذن مُحترمة. القصيدة الحالية «زيت بوب»، أثارت اهتماماً واسعاً وتساؤلات عن حقيقة صاحبها الذي يحمل اسماً مستعاراً كما يبدو، «سنوب..» وذلك ما يسرّنا، لحُسْن الحظ، الاستجابة إليه. سنوب هو الاسم المُستعار للسيد ثنغوم بوب، وهو رجل يعيش في هذه المدينة، ومن أقرباء السيد العظيم ثنغوم، (الذي يحمل اسمه)، وهو من ناحية أُخرى يرتبط بعلاقة مع عائلات معروفة في الولاية. أبوه، توماس بوب المُحترم، تاجر ذائع الصيت في سموغ. 15 أيلول ـ ينشر للمرة الأُولى.

هذا الإطراء الكريم لامس شغاف قلبي.. خصوصاً أنّه جاء من مصدر موثوق.. مُعترف به ومضرب الأمثال في العفة والنقاء مثل مجلّة «ضفدع الطين». لقد رأيت أن كلمة «هراء»، التي وصفت بها قصيدة «زيت بوب» والتي جاءت على لسان مُحرّر مجلّة «ذبابة الماشية»، كانت لاذعة مع أنّها في مكانها المُناسب. أما كلمات «جوهرة» و«تحفة» بالإشارة إلى كتاباتي، فقد أذهلتني حقّاً، إلى درجة ما، لأنّها ضعيفة بعض الشيء. كانت الكلمات تبدو في نظري عاجزة في قدرتها على التعبير. إنّها ليست من الكلمات الرنانة *prononcés* بما يكفي (كما نُعبّر عن الأمر في فرنسا).

ما كدت أنتهي من قراءة مجلّة «ضفدع الطين» حتى وضع أحد الأصدقاء بين يدي نسخة من «الجاسوس»، وهي جريدة يومية، تحظى بشهرة عالية لجديتها في التقصّي عن حقائق الأمور بصورة عامة وتحليلاتها المُعمقة، وتعرف أيضاً بأُسلوب مُحرريها المُنفتح، النزيه، الذي يسمو على التفاهات. لقد تكلّمت صحيفة «الجاسوس» عما جاء في «المصاصة» بالشكل التالي:

««تسلمنا قبل قليل العدد الأخير من مجلّة 'المصاصة' لشهر تشرين الأول، ولا [754]بُدّ من القول إنّه لم يسبق لنا الاطّلاع على أي دورية قدّمت لنا مثل هذه المتعة الراقية. نحن نتكلّم هُنا عن درايةٍ وخبرة. أما مجلّات 'الطبل الرنان'،

و'الغوغاء'، و'الإوزة النقاقة..' فعليها أن تبحث أين تضع أكاليل الغار. هذه المطبوعات، من غير شكّ، تتفوّق على غيرها في التزييف والرياء، ولكن في كل المسائل الأُخرى عليك بـ «المصاصة»! كيف استطاعت هذه المجلّة العريقة أن تُحافظ على استمرارية نفقاتها الهائلة بوضوح، ذلك شيء أكثر ممّا نستطيع استيعابه. إذا أردنا الدقة، فهي توزّع 300 ألف نسخة؛ وقائمة المُشتركين بها ازدادت إلى النصف خلال الأسبوع الفائت، ولكن عندئذ فالمبالغ التي تُدفع للمُساهمات شهرياً مُذهلة. نقول على مسؤوليتنا إنّ السيد فاتكواك، على سبيل المثال، استلم ما لا يقلّ عن اثنين وستين سنتاً ونصف السنت على قصته الأخيرة 'خرقة غسل الصحون'.

«المساهمون في العدد قبل الأخير هم على التوالي: السيد كراب (رئيس التحرير البارز)، وسنوب، وممبلثمب، وفاتكواك، وآخرون؛ لكن، على غرار ما اعتدنا عليه من كتابات رئيس التحرير التي لا نظير لها، فنحن نُفضل تلك 'الماسة..' إذ صاغتها ريشة فنان عبقري.. يا لذلك الدّفق من المشاعر الجياشة الذي يتفتّق من قلم شاعر ناشئ يكتب تحت توقيع 'سنوب'!.. وهو اسم مُستعار حتماً، نتوقع في يوم من الأيام أن يبلغ ما بلغه اسم ديكنز المُستعار 'بوز..' سنوب، كما نعلم هو السيد ثنغوم بوب المُحترم الوريث الوحيد لتاجر غني من المدينة، توماس بوب المُحترم، ومن الأقرباء المُقرّبين للرجل المرموق السيد ثنغوم. العنوان الذي أعطاه السيد ب. لقصيدته العصماء هو 'زيت بوب..' وهو اسم غير موفّق إلى حدّ ما، بالمُناسبة، لأنّ هُناك صعلوكاً يستحق الازدراء يرتبط بدار نشر بيني سبق أن أثار امتعاض الناس في البلدة بكمٍّ هائل من الهراء عن الموضوع نفسه. لكن الفارق كبير، وليس ثمّة خطر من الخلط بين القصيدتين. 15 أيلول ــ يُنشر للمرة الأولى»».

الاستحسان الكبير الذي جاء من صحيفة واضحة التوجّهات مثل «الجاسوس» استولى على روحي وغمرها بالبهجة. الاعتراض الوحيد الذي ظهر لي أنّ عبارات «صعلوك يستحقّ الازدراء» ربما كانت ستُكتب بصورة أفضل، هكذا «صعلوك كريه مُتشرّد حقير، وغد من الأوغاد». قد تكون هذه العبارة أفضل

وأكثر مُلائمة، كما أتصوّر. كذلك فإنّ كلمة «ماسة»، نادراً ما تكفي، لا بُدّ من الاعتراف بهذا، في شدتها للتعبير عما تُفكر فيه صحيفة «الجاسوس» بخصوص مدى روعة قصيدة «زيت بوب».

عصر اليوم نفسه الذي رأيت فيه تلك التعليقات في مجلّات «البومة»، «ضفدع [755]الطين»، «الجاسوس» وافق أن اطّلعت على نسخة من مجلة «الحصّاد»، وهي دورية شهيرة ومعروفة بحسن تقييمها للأمور. جاء في مقال «الحصّاد» ما يلي:

«ها قد صدر العدد الأخير من «المصاصة» لشهر تشرين الأول! هذه المجلّة الراقية أصبحت في مُتناول الناس أخيراً. لا بُدّ بالاعتراف بالتفوّق الذي تُحرزه، من الآن سيكون من العبث لمجلّات «الطبل الرنان»، «الغوغاء»، أو «الاوزة النقاقة» أن تبذل أي مُحاولات للتنافس. هذه المجلّات قد تتفوّق على «المصاصة» في ضجيجها، لكن في كل النواحي الأخرى، عليك بـ «المصاصة»! كيف استطاعت هذه المجلة الشهيرة تحمّل نفقاتها الهائلة، هذا خارج نطاق الاستيعاب حقّاً. إذا أردنا الدقة فهي توزّع نصف مليون نسخة، وقائمة المُشتركين فيها زادت بنسبة خمسة وسبعين خلال اليومين الأخيرين، مع أنّ المبالغ التي تدفعها شهرياً للمُساهمين لا تكاد تصدق؛ نحن نُدرك حقيقة أنّ مدموزيل كريباليتل استلمت ما لا يقلّ عن سبعة وثمانين سنتاً ونصف السنت على مقالها القيم الأخير، الذي جاء تحت عنوان «يوركتاون فعلتها، وبنكر هل لم تفعلها»».

«من المقالات القيّمة التي نشرت في العدد الحالي طبعاً المقال الذي كتبه رئيس التحرير (الرجل الكفوء السيد كراب)، لكن هُناك الكثير من المُساهمات الرائعة التي تحمل أسماء مثل سنوب، مدموزيل كريباليتل، سلاياس، السيدة فيباليتل، ممبلثمب، السيدة سكويباليتل، وأخيراً وليس آخراً، فاتكواك. ربما لم يواجه العالم تحدّياً لإنتاج مثل هذه التشكيلة من العباقرة..».

«القصيدة التي تحمل توقيع «سنوب»، كما نرى، تستحقّ إطراء العالم، ولا بدّ لنا من القول: إنّها تستحق من الثناء ما يفوق ما نالته حتى الآن. «زيت بوب»

هو عنوان هذه التحفة الأدبية من الأسلوب النادر البليغ والفن الفصيح. واحد أو اثنان من القراء ربّما يتذكرون شيئاً يحمل فكرة خافتة، رغم أنّها مُقرفة بما يكفي عن قصيدة (؟) ذات عنوان مُماثل، كتبها صعلوك تعيس كان يعمل خادماً في مكتبة البلدة؛ نحن نعتقد، مع وجود واحدة من المطبوعات غير اللائقة في ضواحي المدينة، نرجو منهم، بحق الله، ألّا يخلطوا بين القصيدتين. إنّ مؤلف قصيدة «زيت بوب»، كما سمعنا، اسمه ثنغوم بوب المُحترم، وهو رجل يتمتع بعبقرية فذة، ومن المُثقفين. إنّ 'سنوب' هو مُجرّد اسم مُستعار. 15 أيلول ـ ينشر للمرة الأُولى..».

لم يكن في وسعي إخفاء امتعاضي الشديد بينما كنت أطّلع بإمعان على [756]الفقرات الختامية لهذا الهجوم اللّاذع. كان من الواضح بالنسبة لي أنّ أسلوب الأخذ والرد.. ولا نقول لطافة الأسلوب.. والتمنع الإيجابي، الذي تكلّم فيه مقال 'الحصّاد' عن ذلك الخنزير، مُحرّر مجلّة «ذبابة الماشية..» كان واضحاً بالنسبة لي، أو قُل: إنّ هذه اللطافة في الكلام لا يُمكن أن تستمد من شيءٍ آخر غير الانحياز إلى «الذبابة» الذي كان واضحاً من خلال نوايا «الحصّاد» أن يصعده إلى مراتب الشهرة على حسابي. إنّ أي شخص، في الواقع، ربّما يُدرك، حتى بنصف عين، أن لو كانت نوايا «الحصّاد» ما تتظاهر به حقّاً، كانت ستُعبّر عن نفسها بأسلوبٍ مُباشر أكثر، أو بطريقة أكثر حدة، وأكثر التزاماً بالهدف تماماً. إنّ كلمات من قبيل «صعلوك، خادم، مُبتذل» كانت من النعوت المُلتبسة عن قصد، بحيث لا شيء أسوأ منها حين تطبق على مؤلف أسوأ المقاطع التي يُمكن أن تُنسب إلى كاتبٍ ينتمي إلى الجنس البشري. نحن نعلم جميعاً ماذا يقصد بـ «الشتم من خلال المديح المبهم»، من جهة أُخرى، من ذا الذي يُمكن أن يخفق في رؤية الغرض الذي تُخفيه «الحصّاد»، من وراء التهليل في إساءة مقصودة؟

لكن ما اختارت مجلّة «الحصّاد» أن تقوله عن «ذبابة الماشية» لا علاقة له بي من قريب أو بعيد. ما قيل عنّي أنا كان هو المهم. على غرار الأُسلوب النبيل الذي عبّرت به مجلّات «البومة»، «ضفدع الطين»، «الجاسوس» عن أنفسهم فيما يتعلّق بقدراتي، كان من البرود الشديد أن تتكلّم عنه «الحصاد»، كونه «رجل

يتمتع بدرجة عالية من العبقرية والأكاديمية». إنّه رجل مُهذب حقّاً! لقد قررت في الحال إما أن أكتب اعتذاراً من 'الحصّاد'، أو أتغاضى عن الأمر كلّه.

وشغل هذا الهدف جلّ اهتماماتي، ونظرتُ حولي بحثاً عن صديق يُمكنني الوثوق به لكي أبعث معه رسالة إلى صاحبة الجلالة 'الحصّاد'، كما أعطاني مُحرّر «المصاصة» إرشاداته سابقاً وأبدى إعجابه بي واستعداده لخدمتي، قرّرت الاستعانة به في هذا الشأن.

لم أكن قادراً أبداً على فهم التعبيرات الشاذة التي ارتسمت على وجه السيد كراب وهو يصغي إليّ، وأنا أشرح له تفاصيل خطتي. ومرة أُخرى لاح لي مشهد حبل الجرس والهراوة والبطة. في فترة ما فكرت أنّه حقّاً سوف يُبطبط. إلّا أنّ نوبته انتهت كما في السابق، وبدأ يتصرّف بعقلانية. لكنه رفض الاتفاق معي، وفي حقيقة الأمر، حاول جاهداً أنّ يثنيني عن تكليفه بتلك المهمة؛ لكنه كان صريحاً بما يكفي للاعتراف أنّ 'الحصّاد' ارتكبت خطأ مُشيناً.. وبخاصّة فيما يتعلّق بالاستهانة [757]بـ «رجلٍ مهذب ومن المُثقفين».

ومع اقتراب نهاية المُقابلة مع السيد كراب الذي أبدى اهتماماً أبوياً بقضيّتي، اقترح أن أتصرف كرجلٍ مُهذب، وفي الوقت نفسه، أن أعمل على توطيد شهرتي، بأن ألعب بين فترة وفترة دور توماس هوك مع 'المصاصة'.

فتوسلت إلى السيد كراب أن يخبرني بمن يكون السيد توماس هوك، وكيف يتوقع منّي أن ألعب دوره.

فما كان من السيد كراب إلّا أن فتح عينيه مُندهشاً مرة أُخرى (كما نقول في ألمانيا)، لكنه أخيراً، استعاد حالته الطبيعية من الدهشة المُباغتة التي ألمّت به، وأكّد لي أنّه استخدم اسم «توماس هوك» لكي يتجنب الكلمة الدارجة، تومي، التي تعتبر من اللّغة الهابطة.. والفكرة الحقيقية أنّ تومي هوك.. أو توماهوك، فأس الهنود الحمر.. وقد نصحني بأن «ألعب لعبة توماهوك» مُشيراً إلى سلخ فروة الرأس، وضرب الهامة، وغير ذلك من الاستعمالات.. على غرار ما يفعله قطيعُ المؤلفين الشياطين الذين هُم في الواقع من المساكين.

أكدت للرجل ولي نعمتي، وكان هذا كل شيء، أنّني عاقد العزم تماماً على لعب دور توماس هوك. وهُنا أراد السيد كراب منّي السخرية من مُحرّر «ذبابة الماشية» دون أي تردّد، وبأقسى أسلوب مُمكن، كبرهان على قُدراتي. وفعلت ما طلب مني في التو واللحظة، وعدت إلى النسخة الأصلية من قصيدة «زيت بوب» وتطلّب ذلك ستاً وثلاثين صفحة من «المصاصة». ووجدت تقليد دور توماس هوك في الواقع مُمارسة شاقة أكثر من نظم الشعر؛ لأنّي اضطررت لتغيير منهجي كلّياً، وبذلك كان من السهولة أن أُنجز العمل بإتقان. والطريقة التي اتّبعتها أنّني اشتريت من المزاد نسخاً (رخيصة) من «خطابات لورد بروغهام»، و«أعمال كوبيت الكاملة»، و«مقاطع عامية جديدة»، و«الوافي في التوبيخ»، و«بائعة السمك» (طبعة ورقية)، و«كتاب لويس ج. كلارك في اللّغة». هذه الأعمال عملت على تقطيع أوصالها بعناية، ثم ألقيت القصاصات في منخل، وحشرتها حشراً جيداً وفكّرت أنّ من اللائق (هذه مُجرّد تفاهة حقّاً)؛ الاحتفاظ بالعبارات اللائقة، وألقيتها في علبة كبيرة ذات ثقوب طولية، بحيث تخرج لي جُملة كاملة من الثقوب دون أي ضرر يلحق بها. وكان المزيجُ جاهزاً للاستعمال. حين تهيأتُ لأداء دور توماس هوك، دهنت صفحة فولسكاب ببيض ذكر الإوز؛ ومن ثمّ مزّقت تلك الأشياء كي تخضع لمُراجعة نهائية كما فعلت في السابق، وتنفصل كل كلمة عن الأُخرى.. وخلطت القصاصات الأخيرة مع الأُولى، وشددت غطاء العلبة.. وهززتها هزّاً قوياً، ثم نثرتُ المزيج على الصفحة المدهونة بالبيض؛ وهُناك التصقت. كانت النتيجة رائعة [758]حقّاً.. يا له من منظر يأسر الألباب! في الواقع، النتائج التي خرجتُ بها من هذا الابتكار لم يسبق لأحد أن رآها، فهي من عجائب الدنيا. في البداية، أحسستُ بشيءٍ من الخجل.. لقلة خبرتي.. واعتراني بعض القلق.. نظرت إلى التركيبة كلّها على أنّها مُستغربة *bizarre* (كما نقول في فرنسا)، فوجدت العبارات لا تُناسب الموقف *fit* (كما نقول في الأنغلوساكسونية). الكثير منها بعيدة عن معانيها. وبعضها أيضاً مقلوبة رأساً على عقب؛ ولم تكن واحدة منها بأي قياس غير جارحة، من خلال هذه القطع الأخيرة.. باستثناء فقرات السيد لويس كلاركس، التي كانت قاسية جدّاً وعلى الإجمال قوية، بحيث إنها ليست مُترابطة في التعبير عن موقف مُتطرّف فحسب، لكنها تبدو أيضاً

مُقنعة، سواءً وقعت على رؤوسها أو على أعقابها.

ما حدث لمُحرّر «ذبابة الماشية» بعد نشر مقالي النقدي عن «زيت بوب»، من الصعب تحديد ذلك. الاستنتاج الأكثر عقلانية أنّه راح ينتحب مع نفسه حتى الموت. على كل حال فقد اختفى في الحال عن وجه الأرض، ولم يرَ إنسانٌ خياله منذ ذلك الوقت.

بعد أن حُسمت المسألة كما ينبغي، هدأت أعصابي وأصبحتُ فوراً على وفاق تام مع السيد كراب. صار يثق بي وثوقاً أعمى، وأعطاني منصباً ثابتاً ومكانة بمثل مكانة توماس هوك من «المصاصة»؛ أما حالياً، فلم يكن في وسع الرجل أن يُخصص لي راتباً، لكنه سمح لي بالاستفادة، في حرّية تصرّف، من نصائحه.

«عزيزي ثنغوم»، قال لي ذات يوم بعد الغداء، «إنّني أحترم قدراتك وأحبك وأعتبرك مثل ولدي. سوف تكون وريثي في المنصب. عندما أموت سوف أوصي لك برئاسة تحرير «المصاصة». في هذه الأثناء سوف أجعل منك رجلاً.. سأفعل ذلك.. بشرط أن تتبع إرشاداتي دائماً. أول شيء عليك القيام به أن تتخلّص من ذلك الخنزير العجوز المخرّف».

«الخنزير؟» قلت مُستفسراً.. «خنزير، ها؟ خنزير بري *aper* (كما نقول باللاتينية).. من؟ أين؟».

«أبوك»، قال.

«صحيح»، أجبت.. «خنزير».

«لديك مهمة عليك تحقيقها، ثنغوم»، استأنف السيد كراب كلامه، «وذلك الرجل يتحكّم بمصيرك، هو عبء ثقيل يلتف حول عنقك. عليك التخلص منه في الحال». [هُنا أخرجت سكيني]. «علينا أن نقطعه»، تابع السيد كراب، «ونتخلص منه مرة واحدة وإلى الأبد. إنّه لن يُفيدنا في شيء. إذا فكّرت في الأمر ملياً، فمن [759]الأفضل لك أن تركله ركلاً، أو تجلده بالعصا، أو تفعل شيئاً من ذلك القبيل».

«ماذا تقترح؟»، قلتُ في تواضع، «أن أركله وأتخلّص منه، وأجلده بالعصا بعد ذلك، وألوي عنقه وأقرص انفه؟».

نظر السيد كراب إليّ مُستمتعاً بضع لحظات، ثم أجاب:

«أعتقد، يا سيد بوب، أنّ ما تقترحه من شأنه أن يُجيب على السؤال بما يكفي.. في الواقع ذلك يردّ على سؤالك على نحو رائع.. بمعنى آخر، مهما بلغت خطورة الأمر.. إلّا أنّ الحلاقين من الصعب جدّاً أن يُقطعوا، وأنا أتصوّر، على الإجمال، بعد أن أدّيت دورك عن توماس بوب بشأن الإجراءات التي تقترحها، فمن الأفضل لك أن تسوّد بقبضتيك عينيه معاً، بصورة مُتأنية وشاملة، لكي تمنعه إلى الأبد من رؤيتك ثانية في حفلات الرقص. بعد هذا، لا أظن أنّ في وسعك أن تفعل شيئاً آخر. لكن.. ربّما كان من الأفضل أيضاً أن تُدحرجه مرة أو مرتين في البالوعة، ثم تشتكي عليه لدى الشرطة. في أي وقت من صباح اليوم التالي يُمكنك الذهاب إلى مركز الشرطة وتُقسم على تعرّضك للضرب».

كنت مُتأثراً بعمق مشاعره الشخصية تجاهي، والتي تجلّت في هذه النصيحة الرائعة من السيد كراب، ولم أتردّد في الاستفادة منها على الفور. وكانت النتيجة أن ابتعدت عن الخنزير العجوز وبدأت أشعر بشيءٍ من الاستقلال وكأنّما أصبحت إنساناً جديداً. لكن حاجتي إلى النقود طوال أسابيع كانت مصدراً للإزعاج؛ لكنّي أخيراً عرفت كيف أستخدم عيني، وكنت أراقب كيف تجري الأمور أمام أنفي، فأدركت كيف يُمكن لهذا الشيء أن ينجح. أقول «شيء».. لاحظ ذلك.. لأنّهم يقولون لي باللاتينية: إنّها «النقود» *rem*. بمناسبة الحديث عن اللاتينية، هل يستطيع أي شخص أن يُخبرني بمعنى *quocunque*[(6)].. أو ما هو معنى *modo*؟

كانت خطّتي بسيطة جدّاً. اشتريت، من أجل الأغنية التي كنت أنوي كتابتها ستة عشر عدداً من مجلّة «السلحفاة».. هذا كل ما في الأمر ..وانتهت الحكاية..

(6) الاقتباس هُنا من (الرسائل الإنجيلية) هوراس *rem facias... quocumque modo* وتعني «اكسب النقود بأي وسيلة». [المترجم]

وصرت أضع النقود في محفظتي. كانت هُناك بعض الترتيبات التافهة التي أُجريت لاحقاً، إذا أردنا الدقة، إلّا أنّها لم تُشكّل جُزءاً من الخطّة. كانت من النتائج.. نتيجة. على سبيل المثال، اشتريت قلم حبر، ومحبرة، وورقاً، ووضعت خطّتي موضع التنفيذ في الحال. بعد أن أكملت كتابة المقال للمجلّة، أعطيته عنوان، «فول لول.. كتبه مؤلف زيت بوب»، ووضعته داخل مُغلّف وأرسلته إلى مجلّة «الاوزة». إلّا أنّ المجلّة اعتبرته «تافهاً» ضمن حقل «البريد الشهري»، فإرساله إلى صحيفة «الدجّال» [760]التي يصدرها السيد ثنغوم بوب المُحترم، مؤلف القصيدة الغنائية الذائعة الصيت «زيت بوب»، ورئيس تحرير «السلحفاة المُجلجلة». بعد هذا التعديل أعدت تغليف المقال وأرسلته إلى «الإوزة»، وبينما كنت أنتظر الرد، نشرت يومياً في «السلحفاة» ستة أعمدة مما يُمكنك أن تُسميه بحثاً فلسفياً بأسلوب تحليلي للمزايا الأدبية لمجلّة «الإوزة»، إضافة إلى نقدٍ شخصي لمُحررها. وفي نهاية الأُسبوع اكتشفت مجلّة «الاوزة» أنّها وقعت في خطأ غريب حين خلطت بين مقال غبي، تحت عنوان «هيا نُمارس النصب» من تأليف شخصٍ مجهول، مع تُحفة أدبية مُتألقة بعنوان مُشابه، من أعمال ثنغوم بوب المُحترم، المؤلف ذائع الصيت لـ «زيت بوب». كانت «الاوزة» قد ندمت أشد الندم على هذه الغلطة الطبيعية جدّاً، ووعدت علاوة على ذلك بأن تنشر المقال الفريد في العدد اللّاحق من المجلّة نفسها.

الحقيقة، كما تصوّرت.. أو كنت أتصوّر ..أُفكر الآن حقّاً في هذه الحقيقة.. أُفكّر إذن.. ولا سبب يدعوني للتفكير على نحو آخر الآن.. أنّ «الإوزة النقاقة» فعلاً ارتكبت خطأ. مع أفضل النوايا في العالم، لم أكن أتصوّر أي شيء ربّما يؤدي إلى ارتكاب هذه الأخطاء الغريبة الكثيرة التي وقعت فيها «الإوزة». منذ ذلك اليوم أحسست بحب «الإوزة» وسرعان ما اكتشفت أعمق مزاياها الأدبية، ولم أفشل في الاستفادة منها، في «السلحفاة»، كلما سنحت فرصة للقيام بذلك. ومن المُصادفات الغريبة جدّاً.. إحدى تلك المُصادفات المُميزة فعلاً التي تجبر الإنسان على التفكير الجاد.. أن يُغيّر رأيه كلّياً في هذه الفوضى والمُضايقات *bouleversement* . (كما نقول بالفرنسية).. من خلال همجية

(إذا سمحتم لي باستعمال مُصطلح مُقحم تماماً من لُغة قبائل هنود جوكتاو)، كما حدث بالفعل، من قبل ومن بعد، بيني من جهة، وبين «الإوزة» من جهة أُخرى، وحدث مرة أُخرى، خلال فترة قصيرة أعقبت ذلك، ضمن الملابسات نفسها تقريباً، في حالتي أنا وفي حالة «الغوغاء»، وفي حالتي أنا وفي حالة «الطبل الرنان».

هكذا حدث، في ضربة معلّم عبقري، أن تحققت انتصاراتي أخيراً «وصرت أضع النقود في محفظتي»[7]، وبهذا يُمكن القول حقّاً وبإنصاف إنّني بدأت أُزاول تلك المهنة الرائعة والمُشوقة التي جعلتني ذائع الصيت، والتي تُتيح لي الآن القول مع شاتوبريان[8]: «لقد صنعت التاريخ»، *J'ai fait l'histoire*.

تمكّنت فعلاً من «صنع التاريخ». ابتداءً من الفترة المُشرقة التي أُسجلها الآن، أفعالي.. أعمالي.. أصبحت من تراث الإنسانية. إنّها معروفة للعالم. إذن لا [761]حاجة لي أن أسترسل، عليّ أن أمر مرور الكرام، فأذكر كيف أصبحت وريثاً لمجلّة «المصاصة..» كيف دمجت هذه المجلّة في «الطبل الرنان..» كيف مرة أخرى اشتريت مجلّة «الغوغاء»، وبذلك دمجت ثلاث دوريات معاً.. وكيف، أخيراً، تمكّنت من عقد صفقة مع المُنافس الوحيد المُتبقّي، وجمعت كل اتّجاهات الأدب في البلد في مجلّة واحدة معروفة للقاصي والداني مثلما كانت..

«الغوغاء»، «المصاصة»، «الطبل الرنان»، و «الإوزة النقاقة».

نعم، صنعت التاريخ. شهرتي بلغت الأفاق، تمتدّ إلى أقصى أصقاع الأرض. ليس في وسع المرء أن يتناول صحيفة عادية ولا يرى فيها نوعاً من التلميح إلى ثنغوم بوب الخالد. السيد ثنغوم بوب هو الذي قال، والسيد ثنغوم بوب هو الذي كتب، والسيد ثنغوم بوب هو الذي فعل. لكنّي مسكين وسينتهي

---

(7) هذه نصيحة إياغو الصريحة في مسرحية (عطيل).. «ضع النقود في محفظتك». [المترجم]

(8) فرانسوا رينيه دو شاتوبريان (1768- 1848) كاتب وسياسي ومؤرخ فرنسي. [المترجم]

أمري بسبب تواضعي وقلبي الضعيف. على كل حال، ما الأمر؟.. هذا الشيء الذي لا يوصف ويُصرّ الناس على تسميته «عبقرية»؟ اتّفق مع بوفون.. ومع هوغارث أنّ الحياة جدٌّ واجتهاد.

انظروا إليّ!.. كيف كافحت.. كيف كنت ألفّ وأدور.. كيف كنت أكتب! يا إلهي، ألم أكتب؟ لم أذق طعم الراحة. في النهار لا أترك مكتبي، وفي الليل، كأنّي تلميذ شاحب، استهلك زيت الإضاءة حتى مُنتصف الليل. لو رأيتموني فقط ..أنحني ذات اليمين وذات اليسار. أنحني وأنا جالس إلى الأمام، ثمّ إلى الخلف. أجلس جانبياً *tête baissée* (كما يقول هنود الكيكابو)، مُنكبّاً على الورق. أكتب رغم كل شيء. في الفرح والحزن، أكتب. في الجوع والعطش، أكتب. عن الأخبار الجيدة والسيئة، أكتب. آناء الليل وأطراف النهار، أكتب. ما أكتبه ليس من الضروري ذكره. الأسلوب!.. هو المهم. لقد أخذته من فاتكواكوز!.. وز!.. فز!.. وها أنا ذا أعطيكم نسخة منه.

عفريت الحماقة

إنّها ظهيرة باردة من تشرين الثاني. قبل وقتٍ قصير انتهيت من تناول [762]غداء شهي على غير العادة، لم يكن نبات الفطر المُسبّب لعسر الهضم المادة الأقل أهمية فيه، كنت جالساً وحدي في غرفة الطعام، بينما وضعت قدمي على الحاجز الواقي للموقد، وبالقُرب من مرفقي طاولة صغيرة قرّبتها من الموقد، عليها بعض الاعتذارات عن تناول الحلوى، مع بعض قناني النبيذ، ومشروبات أُخرى. في الصباح كنت أقرأ بعض الكتب المُملّة منها كتاب غلوفر (ليونيداس)، وكتاب ويلكي (إيبيغونياد)، وكتاب لامارتين (رحلة الحج)، وكتاب بارلو (كولومبياد)، وكتاب توكيرمان (صقلية)، وكتاب غريسولد (مباهج الأدب)؛ إنّني على استعداد للاعتراف إذن بشيء من التشوش الذهني والغباء. حاولت النهوض من مكاني بمُساعدة لافايت[1]، لكن فشلت، وقررت إلقاء نظرة على الصحيفة على غير هدى. بعد أن تابعت بعناية عمود «بيوت للإيجار»، وعمود «كلاب مفقودة»، ثم عمودي «زوجات وخادمات هاربات»، تضايقتُ كثيراً من أسلوب التحرير، وقرأت ذلك من البداية إلى النهاية دون أن أفهم أي مقطع، تخيّلت أن تكون الكتابة باللّغة الصينية، وهكذا أعدت القراءة من النهاية إلى البداية، ولم أخرج بنتيجة مقبولة أكثر من السابق. كنت على وشك أن ألقي الصحيفة في اشمئزاز،

«هذه حزمة من أربع صفحاتٍ، يفرحون بهذا العمل..

حتى النقاد لا ينتقدونها»،

(1) لافايت: يُشير المؤلف هُنا إلى رواية بعنوان (لافايت، قرصان الخليج) وهي من الروايات الشعبية في تلك الأيام كتب عنها مراجعة بنفسه في آب 1836 بأُسلوب تهكّمي. [المترجم]

عندها أحسست أنّ شيئاً يُثير اهتمامي في فقرة جاءت على النحو التالي:

«الأسباب التي تؤدي إلى الموت، كم هي كثيرة وغريبة! لقد ذكرت إحدى صحف لندن موت شخص لسبب غريب. كان يُمارس لعبة «نفخ الرمح»، التي تُستخدم فيها إبرة طويلة مثل تلك التي تُستخدم في غزل الصوف، وتنفخ على هدفٍ مُعيّن من خلال أنبوبة معدنية. لقد وضع الإبرة في الطرف غير الصحيح من الأنبوب، وأخذ نفساً عميقاً لكي ينفخ الرمح الصغير بقوة، فدخلت الإبرة في بلعومه. ثم اتّجهت مُباشرة إلى الرئتين، وبعد بضعة أيام قتلته».

لدى قراءة هذا الخبر استبدّ بي غضبٌ شديد، دون أن أعرف السبب. «هذا»، [763]قلت لنفسي، «افتراء يستحقّ الاحتقار.. إنّها خدعة بائسة.. تفاهة من ابتكار شخصٍ أفّاق مُثير للإشفاق.. أو تعيس يُلفّق الحوادث من كوكين[2]. هؤلاء خُبراء بمدى سذاجة هذا العصر، ينطلقون إلى مُمارسة ألاعيبهم الذكية التي هي من وحي الخيال والتي لا يُمكن تصديقها.. إنّها حوادث أغرب من الخيال، كما يُسمونها؛ ولكن بالنسبة إلى العقل المُفكّر (مثل عقلي، أضفت، بين هلالين، ووضعت سبابتي بلا وعي على جانب أنفي)، بالنسبة إلى شخص يُطيل التأمل من أجل أن يفهم، مثل العقل الذي في رأسي، يبدو واضحاً في الحال أنّ الزيادة المُذهلة مؤخراً في نسبة هذه «الحوادث الغريبة» تتخطّى أغرب الظواهر على الإطلاق. بالنسبة لي، لا أنوي الاعتقاد بشيء من الآن فيما يتعلّق بعُنصر «الغرابة» فيها».

«يا إلهي، إذن، كم أنت مُغفل!» أجاب صوتٌ من أكثر الأصوات غرابة التي سبق أن سمعتها. في البداية اعتبرته طنيناً في أُذني.. مثل ذلك الذي يسمعه المرء أحياناً حين يحتسي الخمر حتى الثمالة.. لكن، بعد إعادة التفكير، رأيت أنّه يُشبه صوت برميل فارغ تضرب عليه بعصا كبيرة؛ في الواقع، كان ينبغي أن أستنتج هذا، لولا طريقة نطق المقاطع والكلمات. ليس من طبعي عادة أن أكون

---

(2) كوكين Cocaigne اسم تهكّمي يُطلق على لندن، موطن السكان الذين يُسمون كوكني. [المترجم]

عصبي المزاج، والكؤوس القليلة من لافايت التي احتسيتها لم تنفع في إعطائي شيئاً من الجسارة، حتى إنّي لم أحسّ بالوجل، لكنّي رفعت عيني بحركة مُسترخية، ونظرت في أرجاء الغرفة بحثاً عمن اقتحم خلوتي. ولم أرَ أي شخص.

«همف!» عاد الصوت، وكنت مُنشغلاً بمسح الغرفة، «لا بُدّ أنّك ثمل جدّاً مثل الخنزير، فلا تراني أجلس هُنا إلى جوارك».

هُنا خطر لي أن أنظر على الفور أمام أنفي مُباشرة، ومرة أُخرى كنت واثقاً أنّني رأيته يواجهني على الطاولة، شخص غير مُميّز الملامح يجلس، مع أنّ ليس من الصعب وصفه. جسده مثل برميل الجعة، أو أي شيء يحمل تلك السمات، وكان حقّاً يُشبه شخصية فالستاف[3]. على أطرافه السفلى وضع برميلين، يبدو إنّهما يلبّيان كل أغراض السيقان. أمّا عن الذراعين فتتدلّيان من الجزء الأعلى للجثة زجاجتان تبدوان طويلتين، عنقاهما إلى الأمام مثل اليدين. كل ما رأيته من رأس ذلك المسخ واحدة من تلك العُلب التي تُشبه عُلبة سعوط ذات فتحة في مُنتصف الغطاء. هذه [764]العُلبة (مع شيء يُشبه القمع على قمتها، كأنّها خوذة فارس تتدلّى على عينيه) كأنّها برميل جعة مفتوح باتّجاهي؛ عبر هذه الفتحة، التي بدت مُجعّدة كأنّها فم سيدة طاعنة في السن، كان ذلك المخلوق يُصدر دمدمة يُعبّر فيها عن شيءٍ غير مفهوم.

«أقول»، قال، «لا بُدّ أنّك خنزير ثمل، لأنّك لم تجرؤ على النظر لي وأنا أجلس هُنا؛ وأقول أيضاً، لا بُدّ أنّك مُغفل كبير مثل أوزة، لأنّك لا تؤمن بما هو واضح. هذا هو الدليل.. هذا هو.. كل كلمة يُمكن التعبير بها عنه».

«من أنت، أتوسّل إليك؟» قلت، في إحساس قوي بالكرامة، مع أنّني كنت مُرتبكاً بعض الشيء؛ «كيف دخلت إلى هُنا؟ وما الذي تتحدث عنه؟».

«أما كيف أتيت إلى هُنا»، أجاب ذلك الشخص، «ذلك ليس من شأنك؛

(3) سر جون فالستاف شخصية قصصية تظهر في مسرحيات شكسبير وغيرها يمتاز بالسُّمنة المُفرطة. [المترجم]

وأما عن مغزى كلامي، فأنا أتكلّم عمّا أظن أنّه الصواب؛ وأمّا عن شخصي، فهذا هو الأمر الذي جئت إلى هُنا كي أدعك تعرفه بنفسك».

«إنك صعلوك سكران»، قلت، «وسوف أرن الجرس وآمر خادمي بأن يركلك ويطردك إلى الشارع».

«هيه! هيه! هيه!» قال الشخص، «هوه! هوه! هوه! لن تستطيع أن تفعل ذلك».

«لا أستطيع!» قلت، «ماذا تقصد؟.. لا أستطيع أن افعل ماذا؟».

«ترن الجرس»؛ أجاب، وكان يُحاول التكشير بفمه الصغير الذي يوحي بمدى حقارته.

عند ذلك حاولت النهوض من مكاني، لكي أضع تهديداتي موضع التنفيذ؛ إلّا أنّ الوغد انحنى على الطاولة وقد عقد العزم على الهجوم، ولطمني بسدادة إحدى القناني الطويلة على جبهتي، وأرجعني للوراء على الكرسي الذي كدت أنهض منه. ذهلت من هذا التصرف أي ذهول، في تلك اللحظة، وكنت حائراً لا أعرف كيف أتصرّف. في هذه الأثناء، تابع كلامه:

«ها أنت ترى»، قال، «من الأفضل لك أن تجلس وتهدأ؛ والآن سوف تعرف من أكون. انظر لي! ألا ترى! أنا عفريت الحماقة».

«وأنت أحمق بما يكفي أيضاً»، غامرت فقلت ذلك؛ «لكني كنت دائماً أتصوّر أنّ العفاريت لها أجنحة».

«جناح!» صاح، وقد استشاط غضباً، «وماذا أفعل بالجناح؟ يا إلهي! هل تحسبني دجاجة؟».

«كلّا.. كلّا، كلّا» أجبت مُستغرباً، وتوجست منه، «لست دجاجة.. حتماً لا».

«حسناً، إذن، اجلس وكن مُهذباً، وإلّا ضربتك مرة أُخرى. الدجاجة لها

أجنحة، والبومة لها أجنحة. رؤساء عفاريت الحماقة ليس لها أجنحة، وأنا زعيم الحمقى من العفاريت».

«ما الذي تريده مني حالياً هو.. هو..».

«ما أُريد!» هتف ذلك الشيء، «أنت جرو حقير حتى تسأل رجلاً مُهذّباً [765]وعفريتاً عما يريد!».

هذه اللغة كانت أكثر مما يُمكنني تحمّلها، حتى من عفريت؛ لذلك استجمعت شجاعتي، وأمسكت مملحة قريبة مني، ورميتها باتّجاه رأس المُقتحم. لكنّه تفاداها بسرعة أو كانت رميتي طائشة؛ لأنّ كل ما حقّقته هو تحطيم لوح الكريستال الذي يحمي الساعة على رف الموقد. أما العفريت، فردّ على هجومي بأن سدّد لي ضربتين أو ثلاث ضربات مُتعاقبة على جبهتي كالسابق. هذه الضربات أخضعتني لإرادته حالاً، وأكاد أشعر بالخجل للاعتراف، بسبب الألم أو الحنق، بأنّ قطرات من الدموع سقطت من عيني.

«يا إلهي!» قال عفريت الحماقة، وكان فيما يظهر قد رقّ لحالتي البائسة؛ «يا إلهي، الرجل إما ثمل أو يشعر بالندم. ينبغي ألا تشرب هذه الأشياء القوية.. عليك أن تمزجها بالماء. إليك، اشرب هذا، تصرّف مثل ولد طيب، ولا تبكي الآن.. لا تفعل ذلك!».

هُنا صبّ عفريت الحماقة في كأسي (وكانت مملوءة إلى الثلث تقريباً بنبيذ بورت) نوعاً من سائل عديم اللون أفرغه من إحدى زجاجاته التي تقوم مقام اليدين. لاحظت أنّ هذه القناني عليها علامات على أعناقها، تحمل هذه الحروف «كيرشنواسر»(4).

ساهمت رقة كلمات العفريت في تهدئة أعصابي إلى حدٍّ غير قليل؛ وخفّف الماءُ الذي أضفته مراراً من حدة نبيذ بورت، وأخيراً تمكّنت من استعادة أعصابي بما يكفي للإصغاء إلى حواره الأحمق. ولا أدعي أنّني أتذكّر كل ما أخبرني به،

(4) كيرشنواسر نوع من البراندي يصنع في مدينة شيندام في هولندا. [المترجم]

لكني فهمت من خلال ما قاله أنّه العفريت العبقري الذي يُهيمن على مزاج بني البشر، والذي يتمثّل عمله في خلق الحوادث الحمقاء الغريبة التي تُثير دائماً استغراب المُشككين. في مرة أو مرتين، تجرأت في التعبير عن شكوكي بادعاءاته، فاستبدّ به غضب شديد، حتى رأيت أنّ من الحكمة عدم قول شيء إطلاقاً، وتركته يُعبّر عن نفسه على طريقته. وهكذا استمرّ الحديث، في استرسال وإطناب، بينما بقيت مُسترخياً على الكرسي وقد أغمضت عيني، وأشغلت نفسي بمضغ الزبيب ونثر البذور في الغرفة. لكن، شيئاً فشيئاً، فسّر العفريت تصرّفي هذا على أنّه احتقار. [766]فنهض في حركة انفعالية مُرعبة، وأنزل القمع على عينيه، وأقسم بأغلظ الأيمان، وتلفّظ من حنجرته بشيء لم أفهمه، وأخيراً انحنى انحناءة بسيطة ورحل، وتمنّى لي، في لُغة رئيس أساقفة غيل بلاس «الكثير من السعادة وشيئاً أكثر من ذلك بقليل من الفطنة» . *beaucoup de bonheur et un peu plus de bon sens* .

منحني رحيله شيئاً من الراحة. كانت الكؤوس القليلة التي شربتها من نبيذ لافيت قد أصابتني بالخدر، وشعرت برغبة في أن أنام خمس عشرة أو عشرين دقيقة، كما هي عادتي بعد الغداء. عند الساعة السادسة كان لديّ موعدٌ مهم لا بُدّ من الالتزام به. لقد انتهى موعد بوليصة التأمين على مسكني قبل يوم؛ وأُثير بعض الجدل بشأنها، واتفقنا على أن ألتقي في الساعة السادسة مع مجلس مدراء الشركة لتسوية شروط تجديدها. ألقيت نظرة سريعة على الساعة التي فوق رف الموقد، (كنت أحس بالخدر فلم أنظر إلى ساعتي)، فوجدت لديّ بإزاء فرحتي خمساً وعشرين دقيقة باقية. كانت الساعة تُشير إلى الخامسة والنصف؛ يُمكنني بسهولة أن أمشي إلى مكتب التأمين فأصل إلى هُناك خلال خمس دقائق؛ ولم تكن قيلولتي الاعتيادية لتتجاوز خمساً وعشرين دقيقة في أكثر الأحيان. أحسست بالأمان، واتّخذت وضع الرقاد على الفور.

بعد أن اقتنعت بهذا، نظرتُ مرة أُخرى إلى رف الموقد، وكنت فعلاً أتوجّس من حدوث أشياء غريبة فرأيت، بدلاً من انقضاء ربع أو ثلث ساعة الاعتيادية، غفوت لمدة ثلاث دقائق فقط؛ لا يزال على الموعد المُحدّد سبع وعشرون دقيقة. وقرّرت مرة أُخرى أن أغفو، ومرة ثانية استيقظت، وكنت

مُندهشاً، هُناك سبع وعشرون دقيقة باقية قبل السادسة. قفزت لأتأكّد من الساعة، فوجدت عقاربها لا تتحرّك. كانت ساعتي تُشير إلى السابعة والنصف؛ وبطبيعة الحال، بعد أن نمت ساعتين، تأخّرت عن موعدي. «لا بأس»، قلت لنفسي: «يُمكنني الذهاب إلى المكتب صباحاً وأعتذر؛ ولكن ماذا حصل للساعة؟» لدى تفحّصي لها اكتشفت أنّ إحدى حبات الزبيب التي كنت أنثرها في الغرفة أثناء الحديث مع العفريت الأحمق، قد دخلت عبر لوح الكريستال المُتكسّر، واستقرّت في وضع غريب في ثقب مُفتاح التشغيل، ونهايتها تبرز إلى الخارج، وبهذا أعاقت حركة عقرب الدقائق.

«آه!»، قلت، «عرفت ما الذي حدث. هذا واضح بما يكفي. إنّها حادثة طبيعية، تحصل الآن وفي أي وقت!».

لم أحفل بالأمر ولم أُعطه أي اهتمام، وفي الوقت المُحدّد ذهبت لأنام. هُنا، [767]بعد أن وضعت شمعة على طاولة للقراءة قريباً من رأسي، حاولت مُتابعة بعض الصفحات من كتاب «الألوهية كلية الوجود»(5)، لكن لسوء حظي استسلمت للنوم في غضون أقل من عشرين ثانية، تاركاً الشمعة تحترق في موضعها.

كانت الأحلام التي رأيتها تشوّش تصوّراتي عن العفريت الأحمق على نحو مُخيف. تخيّلت أنّه لا يزال واقفاً عند طرف الأريكة، ثم يقوم بسحب الستائر جانباً، ومن خلال نبراته الجوفاء التي تستحق الاحتقار هدّدني بالانتقام على الازدراء الذي عاملته به. واختتم تهديداته بخطبة طويلة بعد أن خلع قُبّعته التي كأنّها القمع، ووضع الخرطوم قريباً من حُنجرتي، وبهذا غمرني بتيار دافق من شراب كيرشنواسر، كان ينسكب عليّ، في طوفانٍ مُستمر من زجاجة طويلة العنق وضعها بدلاً من الذراع. ووصل عذابي أخيراً حدّاً لا يُطاق، ونهضت من النوم في اللحظة المُناسبة لكي أُدرك أنّ جرذاً كان يركض وقد أخذ الشمعة المُشتعلة من محملها، وفي تلك اللحظة لم تكن لديّ فرصة لمنعه من الهرب بالشمعة عبر فجوةٍ في الجدار. بعد وقت قصير جدّاً، أحسست برائحة خانقة تقتحم منخري؛

(5) كتاب روبرت مونتغومري، لندن، 1828. [المترجم]

المنزل، كما أدركت بوضوح، كان يحترق. في غضون بضع دقائق انتشر وهج النيران في عُنف مُضاعف، وخلال فترة لا تُصدّق كانت البناية كلها مُحاطة بألسنة النيران. كل منفذٍ للخروج من حُجرتي، باستثناء النافذة، كان مسدوداً. وسرعان ما تجمّع الناس وأحضروا سلّماً طويلاً. ونزلت على هذا السلم بسرعة ونجوت من الموت، ثم رأيت خنزيراً ضخماً، بطنه المُستديرة، أو في الواقع مظهره ككل، يُذكّرني بالعفريت الأحمق.. هذا الخنزير، الذي كان نائماً بهدوء في الوحل، خطر له فجأة أنّ كتفه الأيسر يحتاج إلى الحك، ولم يجد عموداً مُلائماً يُصلح للحك غير قاعدة السلم. وفي لحظةٍ أدى ذلك إلى سقوطي، ولسوء الحظ كسرت ذراعي.

هذا الحادث، بما ترتّب عليه من خسارة بوليصة التأمين، والخسارة الأكثر أهمّية لشعر رأسي، الذي لفحت النار جزءاً لا بأس منه، أسلمني إلى حالةٍ غريبة من اليأس، حتى قررت أخيراً أن أتّخذ لي زوجة. كانت هُناك أرملة ثرية تعيش حالة من الكرب والحزن بعد فقدان زوجها السابع، وأخذت على نفسي عهداً أن أكون البلسم الشافي لروحها الكسيرة. وما لبث أن منحت موافقتها في شيءٍ من التردّد أمام توسلاتي. جثوتُ عند قدميها في امتنان وتبجيل. وكان وجهها مُحمّراً من الخجل وتدلّت خصلات شعرها الفواحة بعطر مُترف قريباً مني حتى لامس رأسي مؤقتاً تسريحة غراندوجان[6]. لا أعرف كيف حدث التلامس، لكنه حدث على كل [768]حال. نهضت بعد أن سقط طقم أسنانها وباروكتها؛ وفي ازدرائها وغضبها، أخفت وجهها في شعرها الأشعث. وهكذا انتهت آمالي في الأرملة بسبب حادثةٍ غير مُتوقعة، إذا أردنا قول الحق، مع أنّ السياق الطبيعي للحوادث أدى إلى وقوعها.

دون أن يعتريني اليأس سيطرتُ على قلبي الذي لا يعرف الحقد. وأتاحت لي الأقدار فرصة أُخرى؛ ومرة أُخرى تدخّلت في الأمر حادثة تافهة. التقيت بخطيبتي في زقاقٍ يعجّ بنخبة القوم في المدينة، وأسرعت للترحيب بها وانحنيت

(6) صالون أوغست غراندوجان في شارع باركلي، نيويورك. [المترجم]

لها بأفضل ما استطعت، ولكن عندها دخل شيءٌ صغير في عيني، جعلني في تلك اللحظة أُصاب بالعمى تماماً. وقبل أن أسترد بصري، اختفت سيدة الغرام.. بعد أن أحسّت بإهانة يتعذّر التسامح معها بإزاء ما اعتبرته وقاحة في تجاهلها دون أن أُحيّيها. وبينما كنت واقفاً مُرتبكاً من مُباغتة هذه الحادثة، (التي ربّما حدثت لأي شخص تحت أشعة الشمس)، وبينما بقيت عاجزاً عن الرؤية، اقترب منّي العفريت الأحمق، وعرض عليّ مُساعدته في كياسة لم يكن لديّ سبب لتقبّلها منه. راح ينظر إلى عيني المُرتبكة في خبثٍ شديد، وأخبرني أنّ فيها شعرة (أياً كانت الشعرة) وأخرجها، مما جعلني أشعر بالارتياح.

رأيت الآن أنّ الوقت مُناسبٌ جدّاً للموت، (لأنّ الحظ قرّر مُلاحقتي واضطهادي)، لهذا سلكت طريقي إلى أقرب نهر. هُنا، جرّدت نفسي من ملابسي، (فلا سبب يدعونا للموت بغير الطريقة التي ولدنا فيها)، وألقيت نفسي على الرأس نحو التيار؛ كان الشاهد الوحيد على مصيري غراباً وحيداً وافق أن كان يأكل وجبة من خبر الذرة المنقوع بالبراندي، لهذا كان يترنّح بعيداً عن رفاقه. ما إن دخل جسمي في الماء، حتى رأى هذا الطير أنّ من الأفضل الاستحواذ على ملابسي التي لا يُمكنني الاستغناء عنها. لذلك فكرت حالياً بضرورة تأجيل خطتي في الانتحار، فما كان منّي إلّا أن أدخلت يدي في أكمام معطفي، وقررت مُلاحقة المُجرم بكل ما أُوتيت من قوة تسمح بها الظروف. غير أنّ حظي التعيس لم يتخلّ عني. بينما كنت أجري بأقصى سرعة، وأنفي مُتجه عالياً نحو السماء، وقد وطدت عزمي على مُلاحقة سارق مُمتلكاتي، فجأة أدركت أن قدميّ غير مُستقرتين على الأرض الصلبدة؛ الحقيقة أنّني كنت قد ألقيت نفسي على مُنحدر حاد، وكنت سأتمزّق حتماً إلى قطع صغيرة لولا حُسْن حظي بأن تمسّكت بطرف حبل طويل يتدلّى من منطاد [769]وافق أن كان مارّاً من هُناك.

حالما استعدت وعيي بما يكفي لإدراك المأزق الذي وقعت فيه، استخدمت كل طاقتي في التنفّس لكي أجعل مأزقي معروفاً للملاح الذي على المنطاد فوق رأسي. وبذلت جهداً لمدة طويلة دون فائدة. إمّا أن المُغفل لم يفهم، أو أنّه وغد لا يُريد أن يفهمني. في هذه الأثناء كانت الماكنة تطوف عالياً وبسرعة، بينما

خارت قواي أكثر. وسرعان ما أصبحت على حافة الاستسلام لمصيري البائس، وسقطت في هدوء في البحر، لكن معنوياتي نشطت فجأة لما سمعت صوتاً أجوف يأتي من فوقي، بدا لي كأنّه عزف أوبرالي أو دمدمة كسولة. نظرت إلى الأعلى فرأيت العفريت الأحمق. كان ينحني ويضع ذراعيه على حافة عربة المنطاد؛ في فمه غليون، ينفث منه الدخان في استرخاء، وكان راضياً عن نفسه وعن العالم. كنت مُنهكاً فلم أتمكّن من الكلام، وبقيتُ أنظر إليه مُتوسلاً.

مضت عدة دقائق، مع أنّه كان ينظر لي في الوجه مُباشرة، لكنّه لم يقل شيئاً. وأخيراً مطّ لسانه من يمين إلى يسار فمه، وتعطّف بالكلام.

«من أنت»، سألني، «وماذا تريد أن تفعل بحق الشيطان؟».

ردّاً على هذه الوقاحة، والقسوة، والتصنّع، لم أتمكّن من النطق بشيء غير كلمة واحدة «النجدة!».

«النج... دة!» ردّد الوغد.. «لست أنا. خذ هذه الزجاجة.. ساعد نفسك، ولا تكن جباناً!».

بعد أن قال هذه الكلمات أسقط زجاجة من شراب كيرشنواسر، وقعت مُباشرة على رأسي، فظننت أنّ دماغي تهشّم تماماً. تأثرتُ بهذا، فكنت على وشك أن أتخلّى عن المكان الذي أتشبث به وأُعطي الشبح ردّاً جيداً على إحسانه، عندها أوقفتني صرخة العفريت وهو يطلب مني الاستمرار بالتمسك.

«تمسك!» قال؛ «لا تتسرّع.. لا تفعل. هل تُريد أن أضربك بزجاجةٍ أُخرى، أم هل صحوت واستعدت وعيك؟».

هُنا أسرعت فطأطأت رأسي مرتين.. مرة تعبيراً عن النفي، وبذلك كنت أقصد أنّني أفضل عدم تلقي الزجاجة الأُخرى.. ومرة بالإيجاب، وكنت أنوي التعبير عن أنّني كنت صاحياً وقد استعدت أحاسيسي. وبهذا جعلت العفريت يهدأ بعض الشيء.

«أنت تؤمن، إذن»، قال مُستفسراً، «أخيرا؟ تؤمن إذن بإمكانية وجود عفريت [770]الحماقة؟».

مرة أخرى طأطأت رأسي مؤيداً.

«وأنت آمنت بي، كعفريت للحماقة؟».

هززت رأسي من جديد.

«وأنت تعترف بأنّك ثمل حتى العمى وأنّك مُغفل؟».

هززت رأسي مرة أُخرى.

«ضع يدك اليمنى في الجيب الأيسر لبنطلونك إذن، تعبيراً عن الخضوع التام لعفريت الحماقة».

ولأسباب واضحة جدّاً وجدت هذا مُستحيلاً. كانت ذراعي اليسرى في المقام الأول مكسورة بعد سقوطي من السلم، فإذا تخليت عن الإمساك بيدي اليمنى، لما بقي شيء يسندني أبداً. ومن ناحية أُخرى، ألم أفقد البنطلون الذي سرقه الغراب؟ كنت مُضطراً إذن، على شيء من الأسف، أن أهز رأسي بالنفي.. وقصدتُ بذلك أن أجعل العفريت يفهم أنّني رأيت الوضع غير مُلائم في تلك اللحظة لأن أُلبي طلبه المعقول جدّاً! ولكن ما إن توقّفت عن هز رأسي حتى..

«فلتذهب إلى الشيطان، إذن!» زمجر العفريت.

وبعد أن قال هذه الكلمات، استلّ سكيناً حادة وقطع الحبل الذي كنت مُعلقاً به، وحدث أن كنّا في ذلك الوقت نُحلّق فوق منزلي، (الذي أُعيد بناؤه بشكل جميل أثناء جولاتي)، وسقطت على رأسي فوق المدخنة التي تشتعل فيها النار في موقد غرفة الطعام.

حين عادت إليّ حواسي، (لأنّ السقطة أفقدتني وعيي تماماً)، وجدت الساعة لا تزال تُشير إلى حوالى الرابعة صباحاً. تمدّدتُ في المكان الذي سقطت فيه من المنطاد. كان رأسي مُمرغاً برماد الموقد، بينما استقرت قدماي على حُطام منضدة صغيرة مقلوبة وسط بقايا حلوياتٍ مُتفرقة، مُختلطة مع الجرائد، وبعض الزجاج المُكسّر والقناني المُبعثرة، ودورق فارغ من شراب شيدام كيرشنواسر. وبهذا نال [771]العفريت ثأره منّي.

مرحى أيها البطل!

سوف أؤدي الآن دور أوديب[1] مع لغز راتلبورو. سوف أكشف لكم.. لأنّي [771]الوحيد الذي يستطيع ذلك.. سرّ الآلية التي حدثت بها معجزة راتلبورو.. تلك المعجزة الحقيقية التي لا تقبل الشكّ، فلا جدال بشأنها، إذ وضعت نهاية للشك والريبة في قلوب سكان راتلبورو الذين كانوا سابقاً من زمرة المُشكّكين.

هذه الحادثة.. التي أشعر بالأسف للتطرّق إليها في شيءٍ من الاستهتار الذي لا يليق بها.. وقعت في صيف سنة - 18. السيد بارناباس شاتلورثي.. من المواطنين المُحترمين الأكثر شهرة وغنًى في المنطقة.. كان مفقوداً منذ عدة أيام في ظروفٍ غامضة أثارت الشكوك بوجود مؤامرة قذرة. لقد انطلق السيد شاتلورثي من راتلبورو في وقتٍ مُبكر من صباح السبت، على ظهر جواده، وقبل ذلك أعرب عن نيّته بأن يذهب إلى مدينة...، التي تبعد مسافة خمسة عشر ميلاً، على أن يعود ليلاً من اليوم نفسه. وبعد أن مضت ساعتان على رحيله، عاد حصانه وحيداً، من غير حقائب السرج التي كانت مربوطة على ظهره عندما انطلق في الرحلة. وكان الحيوان مُصاباً بجروح أيضاً ومُلطّخاً بالوحل. هذه المُلابسات كان من الطبيعي أن تؤدي إلى إثارة الريبة والوساوس في نفوس أصدقاء الرجل المفقود؛ ولما اكتشفوا، صباح يوم الأحد، أن لم يظهر له أثر، تجمّع سكان المنطقة وذهبوا عن بكرة أبيهم في دوريات للبحث عنه أو عن جثته.

كان أول شخصٍ أبدى حماساً أكثر من غيره للبدء بعملية البحث هو الصديق المُقرب للسيد شاتلورثي.. ويُدعى سيد شارلس غودفيلو، أو كما يُسميه

(1) أوديب هو الذي استطاع حل الأُحجية التي طرحها عليه أبو الهول. [المترجم]

الجميع، «شارلي غودفيلو»، أو «العجوز شارلي غودفيلو»[2]. والآن، سواءً كان ذلك مُصادفة غريبة، أو أنّ الاسم نفسه له تأثيرٌ لا يقبل التفسير على الشخصية، لا يمكنني تأكيد الأمر حتى الآن؛ إلّا أنّ ثمّة حقيقة لا تقبل الجدل، وهي أنّه لا يوجد حتى الآن شخصٌ آخر يحمل اسم شارلس غيره يتمتع بكل تلك الصفات مُجتمعة من الأريحية، والشجاعة، والإخلاص، وطيب الشمائل، والقلب الرؤوف، والصوت الجهوري الواضح النبرات الذي يُسعدك أن تسمعه، وعين تنظر إليك دائماً مُباشرة [772]في الوجه، كأنّها تقول: «ضميري مُرتاح، لا أخاف أي إنسان، ولا يُمكن أن أقترف عملاً شائناً». وهكذا كان كل «العابرين» ذوي القلوب الرهيفة، اللّامبالين، على مسرح الحياة يقيناً يحملون اسم شارلس.

والآن، مع أنّ «شارلي غودفيلو العجوز»، كان يعيش في راتلبورو منذ مدة لا تزيد عن ستة شهور أو نحو ذلك، ومع أنّ أحداً لم يعرف عنه شيئاً قبل أن يأتي ليستقر في الجوار، غير أنه لم يواجه صعوبة في تكوين معارف له من الناس المُحترمين في المنطقة. لم يكن أي رجلٍ منهم يُبدّل كلمة منه بألف من الكلمات في أي وقت؛ أما النساء، فلا شيء يُمكن أن يصف مُحاولاتهن لإرضائه وكسب وده. كل هذا لأنّه مسيحي اسمه شارلس، ولأنّه صاحب الوجه الملائكي البريء الذي صار مُضرباً للأمثال وكان «أفضل تزكية له».

قلت: إنّ السيد شاتلورثي كان من أكثر الرجال المُحترمين، ولا شكّ أنّه كان أغنى رجلٍ في راتلبورو، بينما كان «العجوز شارلي غودفيلو» على علاقة طيبة مُستمرة به وكأنّما هو أخ له لم تلده أمه. كان الرجلان العجوزان يسكنان منزلين مُتجاورين، وعلى الرغم من أنّ السيد شاتلورثي نادراً ما كان يزور «العجوز شارَلي»، ولم يُعرف عنه أن تناول وجبة واحدة في منزله، لكن هذا لم يمنع الصديقين من تبادل مشاعر المودة البالغة، كما أسلفت؛ لأنّ «العجوز شارلي» لم يكن ليدع يوماً يمضي دون أن يأتي ثلاث أو أربع مرات على الأقل ليطمئن على

---

(2) في بعض الحكايات الخُرافية القديمة هُناك عفريت يُسمى روبن غودفيلو يقوم بإرشاد الرحالة إلى الطريق غير الصحيح فتكون النتيجة أن يضيعوا في متاهات. [المترجم]

جاره، وكثيراً ما كان يبقى لتناول طعام الإفطار أو يشرب الشاي، وكان دائماً يتناول العشاء معه، ثم يحتسي شيئاً من النبيذ الذي كان يجلبه النديمان على التناوب إلى المجلس، ذلك شيء مُعتاد حقّاً. وكان الشراب الذي يُفضله «العجوز شارلي» هو شاتو مارغو، ويبدو أنّه كان ممّا يبهج قلب السيد شاتلورثي أن يرى العجوز الآخر يزدرده في استمتاع، كما اعتاد أن يفعل، جُرعة بعد جُرعة؛ بحيث، في يومٍ من الأيام، حين كان النبيذ يُشرب بإسراف والعقل يذهب كنتيجة طبيعية، قال لنديمه وهو يضربه على ظهره.. «سوف أُخبرك، أيها العجوز شارلي عن حقيقتك، بصرف النظر عن أي شيء، أنت أكثر رفاقي القدماء إخلاصاً طوال حياتي؛ وما دمت تحب النبيذ هكذا، فلتحل عليّ اللعنة إن لم أُقدم إليك كهدية صندوقاً كاملاً من شراب شاتو مارغو. نعم، فلتحل عليّ اللعنة»، (كان السيد شاتلورثي مُعتاداً أن يقسم بأغلظ الإيمان، رغم أنّه نادراً ما كان يمضي إلى ما وراء هذه العبارات: «فلتحل علي [773]اللعنة»، أو «قسماً بالله»، أو «أقسم بهذا الشيء أو ذاك»).. «لتحل عليّ لعنة الله»، أردف قائلاً، «إذا لم أرسل طلباً إلى البلدة عصر هذا اليوم ليحضروا صندوقاً من أفضل الأنواع الموجودة، وأُعطيها هدية لك، سوف أفعل!.. لا حاجة بك لأن تقول كلمة الآن ..سوف أفعل، أقول لك، انتهى الأمر؛ ولكن عليك أن تحذر.. سوف يصل ذلك إلى يديك في يومٍ من هذه الأيام الجميلة، عندما لا تتوقّع ذلك إطلاقاً!» إنّني أتطرّق إلى هذه المسألة البسيطة من سماحة أخلاق السيد شاتلورثي، فقط لكي أوضّح لكم كيف كانت علاقة الود والتفاهم وطيدة جدّاً بين الصديقين.

حسناً، صباح يوم الأحد الذي نتكلّم عنه، حين صار معروفاً أنّ السيد شاتلورثي واجه نوعاً من الخيانة، لم أشاهد أبداً شخصاً تأثر بعمق مثل «العجوز شارلي غودفيلو». حين سمع لأول مرة بأن الحصان عاد إلى المنزل من غير راكبه، ومن غير حقائب سيده التي على السرج، وكان الحصان مُضرجاً بالدماء من إطلاقة مُسدّس اخترقت صدر الحيوان المسكين دون أن تقتله؛ حين سمع هذا، امتقع لونه كما لو كان الرجل المفقود أخاً عزيزاً أو أباً، وصار يرتعش وتنتفض أوصاله كأنّه مُصاب بنوبة ملاريا.

في البداية استولى عليه الحزن وشُلّت حركته فلم يتمكّن من عمل شيء، ولم يُفكر في خطة مُحدّدة؛ وبقي مدة طويلة يُحاول أن يثبط عزم أصدقاء السيد شاتلورثي الآخرين ويمنعهم من إثارة المسألة، ظنّاً منه أنّ أفضل ما يُمكن القيام به أن ينتظروا قليلاً.. أُسبوعاً أو أُسبوعين.. شهراً أو شهرين.. حتى يروا إن كان سيحدث شيء، أو ربّما ظهر السيد شاتلورثي بطريقة طبيعية، فيشرح أسباب اختفائه ورجوع حصانه قبله. أقول: إنّكم ربّما رأيتم ما يُشبه هذا المزاج في كثير من الأحيان يطغى على الناس الذين يرزحون تحت وطأة صدمة مؤلمة. إنّ قُدراتهم الذهنية تبدو مُتبلّدة، بحيث يرتعبون خوفاً من أي شيء ولا يُقدمون على عمل شيء، ولا يُحبون أي شيء في العالم كما يُحبون الاستلقاء في هدوء على السرير «ومُداراة أحزانهم» مثلما تُعبّر عن هذا النساء العجائز.. بعبارة أُخرى، اجترار الأحزان والمتاعب.

كانت لدى سكان راتلبورو في الواقع فكرة عالية عن حكمة وحصافة رأي «العجوز شارلي»، حتى إنّ غالبيتهم كانوا يميلون إلى موافقته على رأيه، وفضّلوا عدم القيام بأي شيء «حتى يتبين لهم شيءٌ ما»، كما عبّر عن ذلك الرجل العجوز؛ وأعتقد، أنّ هذا هو القرار الذي كان سيتوصل إليه الجميع، لولا أن تدخل شخص مُتشكّك جدّاً هو ابن أخ السيد شاتلورثي، وهو شاب فاسق مُنغمس في الملذات، فضلاً عن أنّه ذو شخصية سيئة. ابن الأخ هذا، الذي يُدعى بينفثر، لم يكن ليُصغي [774]لأي شيءٍ يمت بصلة إلى التعقل والمنطق وضرورة «الانتظار في هدوء»، لكنه أصرّ على القيام بعملية بحث حالاً عن «جثة القتيل».. هذا هو التعبير الذي استخدمه؛ وعلّق السيد غودفيلو في حذق آنذاك، قائلاً: إنّه «تعبير مُستهجن، لا أكثر من هذا». هذا التعليق من «شارلي العجوز» كان له أيضاً تأثيرَ على الناس؛ وسمعوا أحد الأشخاص يسأل، بصوت مؤثر جدّاً، «كيف يتسنّى لشابٍ مثل السيد بينفثر وهو يعرف كل هذه الأشياء التي ترتبط باختفاء عمه الثري، ويشعر بأنّه مُخوّل للقول في ثقة تامة، على نحو لا لبس فيه، إنّ عمه «رجل قتيل». هُنا طفت على السطح بعض التعليقات الساخرة بين عدد من الناس، وبخاصة بين العجوز شارلي والسيد بينفثر.. على الرغم من أنّ المُشاحنات الأخيرة لم تكن في الواقع جديدة، فلم تكن العلاقة طيبة بين هذه

الأطراف خلال الأشهر الثلاثة أو الأربعة الأخيرة؛ وبلغت الأمور ذروتها بحيث وجّه السيد بينفثر لكمة إلى صديق عمه فأسقطه أرضاً بسبب ما ادّعى أنّه تدخُل سافر في شؤون بيت عمه، وكان ابن الأخ وقتها يسكن هُناك. بعد هذا الحادث، بدأ العجوز شارلي كما يُقال يتصرف باعتدال مثالي وفقاً لسماحة الأخلاق المسيحية. لقد نهض الرجل بعد أن تلقّى اللكمة، وعدل ملابسه، ولم يبدِ محاولة للردّ بتاتاً.. بل اكتفى بأن تمتم بضع كلمات عن «أخذ الثأر في أول فرصة».. وهو تعبير طبيعي ومُبرّر جدّاً في حالات الغضب، لكنّه لم يقصد به أي شيء، ولا شكّ أنّه ما إن نفّس عن كربه بتلك الطريقة حتى نسي الأمر.

مهما كانت الأمور (التي لا علاقة لها بالمسألة التي نتكلّم عنها الآن)، فمن المؤكد أنّ الناس في راتلبورو، خصوصاً بعد أن أقنعهم السيد بينفثر، توصلوا أخيراً إلى قرار أن ينتشروا في المناطق المُجاورة بحثاً عن السيد شاتلورثي. أقول مؤكداً: إنّهم توصّلوا إلى قرار في المقام الأول. وبعد أن تقرّر نهائياً البدء بعملية البحث، رأوا من الطبيعي أن ينتشر الأشخاص الذين تطوّعوا للقيام بالبحث.. بعبارة أُخرى، يتوزّعوا إلى جماعات.. من أجل الفحص الدقيق لأرجاء المنطقة. لكني نسيت حقّاً كيف استطاع العجوز شارلي ببراعة أن يقنع الجماعة بأنّ هذه أكثر الخطط حماقة التي يُمكن أن تُطبّق. غير أنّه أقنعهم على كل حال.. جميعاً باستثناء السيد [775]بينفثر، وفي نهاية المطاف، توصلوا إلى حل أن يبدأ البحث، بعناية وحذر، من قبل السكان المحلّيين عن بكرة أبيهم *burghers en masse*، على أن يتولّى العجوز شارلي قيادتهم على الطريق.

في هذا الشأن طبعاً لا يوجد مرشدٌ أفضل من العجوز شارلي، الذي كان كل شخصٍ يعرف أنّ له عين الوشق؛ مع أنّه كان يقودهم عبر المفاوز والزوايا البعيدة عن الطريق، عبر ممرّات لم يتوقع أحد منهم وجودها في الجوار، ومع أنّ البحث استمرّ بلا توقّف نهاراً وليلاً لمدة أُسبوعٍ كامل تقريباً، فلم يعثر على أثر للسيد شاتلورثي. لكنّي إذا قلت: لا أثر، فلا ينبغي أن يفهم القارئ كلامي بمعناه الحرفي، لأنّ الأثر، إلى حدٍّ ما، كان موجوداً. لقد تعقّبوا أثر الرجل المسكين اعتماداً على حوافر حصانه (وكانت ذات طبيعة غريبة)، حتى وصلوا إلى بقعة

على بعد حوالى ثلاثة أميال شرق المنطقة، على الطريق الرئيسي الذي يؤدي إلى المدينة. هنا اختفى الأثر وأخذ اتّجاهاً آخر نحو ممرّ جانبي يخترق جانباً من الغابة.. ثم ظهر الأثر من جديد مُقترباً من الطريق، ثم انقطع على بُعد نحو نصف ميل عن المسار الاعتيادي. وبعد أن تعقّبوا الحوافر على هذا الممر، وصلت الجماعة أخيراً إلى بركة ذات مياه راكدة، تكاد تختفي عن الأنظار لكثرة الشجيرات الشائكة، إلى يمين الممر، وفي الجهة المُقابلة للبركة يختفي كل أثر للحوافر. لكنهم اكتشفوا وجود آثار تدلّ على نوع من الصراع ربّما كان قد حصل هُناك، وفيما يبدو فإنّ جثة ضخمة ثقيلة، أكبر وأثقل من جثة الرجل، سُحبت من الممر الجانبي إلى البركة. هذه الجثة جرجرت بعناية، لكنهم لم يجدوا شيئاً؛ وكانوا على وشك الرحيل، بعد أن أصابهم اليأس من التوصّل إلى أي نتيجة، حين أوحت العناية الإلهية إلى السيد غودفيلو فكرة بارعة في تجفيف المياه. هذا المُقترح لقي سيلاً من الضحكات والاستهزاء، وكثيراً من الثناء أيضاً على العجوز شارلي وحصافة رأيه وحسن تقديره للأمور. ولأنّ الكثير من الأشخاص كانوا قد جلبوا معهم المعاول، على افتراض أنّهم ربّما احتاجوا إلى نبش الأرض بحثاً عن جثة، فقد أنجزت عملية تجفيف البركة بسهولة؛ وسرعان ما صار بالإمكان رؤية القاع، فاكتشفوا في الحال، وسط الوحل المُتبقّي، صدرية سوداء من القطيفة، سرعان ما تعرّف كل الحاضرين عليها فقالوا: إنها تعود إلى السيد بينفثر. هذه الصدرية كانت مُمزّقة ومُلطّخة بالدماء، وتذكّر عدة أشخاص ضمن الجماعة بوضوح أنّ صاحبها لبسها في صباح اليوم نفسه الذي رحل فيه [776]السيد شاتلورثي عن المدينة؛ بينما كان آخرون على استعداد لأن يُقسموا، إذا استدعى الأمر، أنّ السيد ب. لم يكن يرتدي تلك الصدرية في أي وقت خلالَ ما تبقّى من ذلك اليوم المنحوس، ولم يكن من بينهم شخصٌ قال: إنّه رآها على جسد السيد ب. في أي وقت لاحق لاختفاء السيد شاتلورثي.

الآن صارت الأمور تنطوي على أهمية خاصة بالنسبة إلى السيد بينفثر، ولاحظ الناس، تأكيداً للشكوك التي أُثيرت ضده، أنّ وجهه قد ازداد شحوباً، ولما سألوه عما لديه ليقوله دفاعاً عن نفسه، لم يكن قادراً على التفوّه بكلمة.

وهُنا لاحظ بعض أصدقائه أنّ نمط شخصيته المعهودة في إثارة المزاح قد تخلّى عنه فتحوّل فوراً إلى رجل آخر، فاندفع المبغضون له خاصة من أعداء الأمس إلى استغلال الفرصة للثأر والإسراع في اعتقاله. ولكن من ناحية أُخرى تجلّت شهامة السيد غودفيلو بأبهى صورها آنذاك بالقياس إلى الظروف التي تُحيط به، إذ راح يُدافع بحرارة وفصاحة عن السيد بينفثر، وألمح أكثر من مرة إلى إيمانه الشخصي ببراءة ذلك الشاب المُتهوّر.. «وريث ثروة السيد شاتلورثي الغني».. لأنّ تلك الإساءة التي كان (الرجل الشاب)، دون شك وهو في ذروة الانفعال، تصوّر أن من المُناسب إلحاقها به (سيد غودفيلو). «قد سامحه عليها»، كما قال، «من صميم قلبه؛ وبالنسبة إليه (سيد غودفيلو)، بعيداً عن كافة التهديدات التي تثير الريبة إلى أقصى الحدود، والتي كان نادماً على قولها، حقّاً قد استغلّت ضد السيد بينفثر، فهو (سيد غودفيلو) سوف يبذل ما في وسعه، ويستخدم كل ما لديه من فصاحة لكي.. لكي.. لكي.. يُخفف، بقدر ما يتمتّع به من إخلاص الضمير، الجوانب السيئة في هذه المسألة المُربكة كثيراً».

راح السيد غودفيلو لمدة تُقارب نصف ساعة يتكلّم على هذا المنوال، بما يُرضي ضميره وقلبه؛ إلّا أنّ الناس ذوي القلوب الرحيمة الذين نعرفهم نادراً ما يخطئون في تقديراتهم.. إنّهم يقعون بمُختلف الأخطاء، لهذا السبب أو ذاك من تقلّب المزاج، ومن خلال حماستهم الزائدة وصفاء قلوبهم لخدمة أحد الأصدقاء.. وهكذا، في كثير من الأحيان يكون الأمر نابعاً من أخلص النوايا على الأرض، وربّما يقترفون ظلماً في الانحياز إلى هذا الجانب أو ذاك.

إذن، بخصوص الحالة التي نتكلّم عنها، بصرف النظر عما أُوتي العجوز شارلي من فصاحة؛ ومع أنّه كافح بجدٍّ دفاعاً عن المُتهم، غير أنّه حدث، بشكل أو [777]بآخر، أنّ كل مقطع تلفّظ به، بلا قصد لتحقيق المجد للمُتكلّم في نظر جمهوره، كان لها تأثير في تعميق الشكوك التي كانت تدور الآن حول الشخص الذي بقي يُدافع عن قضيته، بل كان ذلك مما زاد في غضب الناس.

من الأخطاء التي لا تفسير لها التي ارتكبها الخطيب مثلاً تلميحه إلى قول المُشتبه به إنّه «وريث العجوز الثري السيد شاتلورثي». ولم يكن الناس يُفكرون

في هذا إطلاقاً من قبل. لقد تذكّروا بعض التهديدات بالحرمان من الميراث قالها العم قبل سنة أو سنتين (لم يبقَ له من الأقرباء الأحياء أحد غير ابن أخيه)، ولهذا كانوا ينظرون دائماً إلى هذا الحرمان من الميراث كمسألة محسومة.. كم كان سكان راتلبورو ساذجين! غير أنّ مُلاحظة العجوز شارلي جعلتهم يُفكرون في هذه النقطة الآن، وبهذا رأوا أنّ التهديدات مُجرّد كلام فارغ. وهُنا، على الفور، أُثير سؤال طبيعي: ما الغرض من ذلك *cui bono*؟ وهو سؤال أثير مُباشرة بعد العثور على الصدرية ليضيق الخناق أكثر على الشاب واتّهامه بارتكاب الجريمة. وهُنا، خشية أن يُساء فهمي، أسمح لنفسي بالاستطراد قليلاً لكي أُوضّح أنّ العبارة اللاتينية المُختصرة والبسيطة التي استخدمتها، كثيراً ما يُساء ترجمتها فلا تُفهم بدقة. إنّ عبارة *Cui bono* في كل الروايات الساخرة وغيرها.. تلك التي من تأليف السيدة غور[3]، على سبيل المثال، (مؤلفة رواية «سيسل») وهي سيدة تقتبس من جميع اللّغات والأعراق ابتداء من الكلدانيين إلى الشيكاسو، وذلك ما ساعدها على التعلّم، «كلّما دعت الحاجة»، وفقاً لخطة منهجية أعدها السيد بيكفورد.. في مجال الروايات الساخرة، أقول، ابتداءً من روايات بولوير وديكنز إلى روايات بولور وديكنز إلى روايات تورنابيني وآينزورث، الكلمتان الصغيرتان من اللاتينية يقصد بهما «لأي غرض؟» أو، (كما لو كانت هكذا *quo bono*)، «لأي فائدة تُرجى؟». لكن معناها الحقيقي هو «لصالح من؟». كلمة *cui* تعني لمن؛ و *bono* تعني منفعة. إنّها عبارة قانونية بامتياز، وهي قابلة للتطبيق في حالات مثل الحالة التي نُناقشها الآن، حيث يرتبط قيام الفاعل بعمل مُعيّن بالفائدة المُحتملة التي تتحقّق لهذا الشخص نتيجة ذلك العمل. والآن في المثال الذي بين أيدينا، السؤال هو: ما المنفعة؟ والسؤال يتعلّق على وجه التحديد بالسيد بينفثر. كان عمه يُهدّده، بعد أن كتب وصية تحقّق له المنفعة، بأن يحرمه من الميراث. لكن التهديد لم ينفذ في الواقع؛ الوصية الأصلية، كما يبدو، لم تتبدّل. لو كانت قد تبدّلت، فالدافع الوحيد القابل للافتراض وراء الجريمة من جانب المُتّهم هو الدافع الاعتيادي للانتقام؛ وحتى هذا الدافع يقبل

(3) السيدة كاثرين غور (1799- 1861) نشرت روايتها «سيسيل» سنة 1841. [المترجم]

[778]الدحض من خلال الأمل في أن يعود العم إلى رشده يوماً. ولأنّ الوصية لم تتبدّل، والتهديد بتبديلها بقي مؤجلاً مثل سيفٍ مُسلّط على رقبة ابن الأخ، فكان يبدو أنّ هُناك دافعاً قوياً كامناً لارتكاب عمل طائش، هكذا استنتج، بعد تفكيرٍ عقلاني حصيف، السكان الطيبون لمُقاطعة راتل.

ولهذا اعتُقل السيد بينفثر في المكان نفسه، وعاد الناس بعد أن قاموا بتفتيش إضافي لبعض الوقت إلى ديارهم وهم يصطحبون المُعتقل. لكن على طريق العودة، وقعت حادثة أُخرى يبدو أنّها تؤكد الشكوك التي أُثيرت. لاحظوا أنّ السيد غودفيلو، الذي قادته حماسته دائماً لأن يتقدم على البقية، يركض فجأة إلى الأمام بضع خطوات، ثم توقّف، وبعد ذلك بدا عليه أنّه التقط شيئاً صغيراً من الأعشاب. بعد أن تفحّصه سريعاً، شاهدوه يقوم بمُحاولة أراد بها إخفاء ذلك في جيب معطفه؛ غير أنّهم انتبهوا إليه، كما قلت، ومنعوه من إخفاء ذلك الشيء، ولما أخذوه منه وجدوه سكيناً إسبانية سرعان ما عرف عشرة من الأشخاص فوراً أنّها تعود إلى السيد بينفثر. فضلاً عن هذا، كانت أوائل الحروف من اسمه محفورة على مقبض السكين. وكانت شفرة السكين مفتوحة ومُلطّخة بالدماء.

لم يعُد هُناك أي شك الآن في إدانة ابن الأخ بالجرم، وفي الحال لدى وصولهم إلى راتلبورو أخذوه إلى القاضي للتحقيق معه.

هُنا، أخذت الأمور اتّجاهاً خطيراً ليس في صالحه. بعد أن جرى استجواب السجين وسؤاله عن مكان وجوده في صباح اليوم الذي اختفى فيه السيد شاتلورثي، كان من النباهة وسُرعة البديهة أن اعترف بأنه في صباح ذلك اليوم كان قد خرج في رحلة صيد بالبندقية، في منطقة مُجاورة للبركة التي اكتشفت فيها الصدرية المُلطّخة بالدماء بفضل ذكاء السيد غودفيلو.

وهُنا تقدّم هذا الرجل، والدموع تترقرق في عينيه، وطلب السماح له أن يُدلي بشهادته. فقال: إنّ أحساساً بالواجب تجاه خالقه، لا يقلّ عن إحساسه تجاه رفاقه، لن يتيح له بعد الآن أن يبقى صامتاً. حتى الآن، كان الشعور المُخلص نحو الشاب (على الرغم من سوء تعامل الأخير معه، أي: مع السيد غودفيلو) دفعه لأن يُجرّب

كل فرضية يوحي بها الخيال، في مُحاولةٍ للتوصل إلى تفسير لما يبدو مُحيراً ضمن المُلابسات التي أُثيرت بهذه الدرجة من الخطورة وأدّت إلى اتّهام السيد بينفثر، رغم أنّ هذه المُلابسات تبدو الآن كلها مُقنعة جدّاً.. ومن شأنها أن تؤدي إلى إدانة مؤكدة، فلن يتردّد بعد الآن.. وقرّر أن يقول كل ما يعرف، مع أنّ قلبه (السيد [779]غودفيلو) يتفطّر من الحزن في هذا الصدد. لقد حدث عصر اليوم السابق لرحيل السيد شاتلورثي عن المدينة، أنّ ذلك الرجل العجوز الثري أخبر ابن أخيه، كما جاء في شهادته (شهادة السيد غودفيلو)، بأنّ غرضه من الذهاب إلى البلدة في الصباح هو أن يودع مبلغاً كبيراً غير عادي من المال في «بنك المُزارعين والميكانيكيين»، وأنّه، من وقتٍ إلى آخر، أي: السيد شاتلورثي أعلن بوضوح لابن أخيه عن عزمه الذي لا يلين لإلغاء الوصية الأصلية، وعن حرمانه من أي شلن. وهنا طلب (الشاهد) في وقار من المُتّهم أن يُحدّد ما إذا كان ما ذكره (الشاهد) قبل قليل حقيقة أم لا في كل جُزئية صغيرة من جُزئياته. فدهش الحاضرون جميعاً، عندما اعترف السيد بينفثر بصراحة أنّ ذلك حقيقة.

الآن رأى القاضي أنّ من واجبه أن يُرسل اثنان من رجال الشرطة لتفتيش حُجرة المُتهم في منزل عمه. ولم يسفر التفتيش عن اكتشاف شيءٍ يُذكر أثار اهتمامهم غير محفظة جلدية صغيرة ذات حافات معدنية غلافها خمري اللون كان الرجل العجوز مُعتاداً أن يحملها منذ سنوات. إلّا أنّ محتوياتها كانت مُجرّد أشياء تافهة، وعبثاً حاول القاضي أن ينتزع من السجين اعترافاً عن مدى قيمة محتويات المحفظة الحقيقية أو مكان إخفائها. في الواقع، كان المُتهم ينكر بإصرار معرفته بالأمر، واكتشف رجال الشرطة أيضاً، في مكان بين السرير وفراش الرجل التعيس، قميصاً وربطة عنق كلاهما يحمل الحروف الأُولى لاسمه، وكانا مُلطخين بدم الضحية.

عند هذه النقطة، أعلن أنّ حصان الرجل المقتول قد نفق في الإصطبل بسبب الجروح التي أُصيب بها، واقترح السيد غودفيلو إجراء تشريحٍ للحيوان على الفور، على أمل، إذا كان ذلك مُمكناً، اكتشاف العلة. وتمّ هذا؛ وكما لو أنّ السيد غودفيلو أراد أن يُبعد الشكوك عن المُتهم، بعد بحثٍ مُكثّف في تجويف

الصدر تمكّن من استخراج رصاصة كان حجمها غريباً جدّاً، ولدى فحصها بإمعان، وجد أنّها من عيار بندقية السيد بينفثر نفسه، وهي كبيرة جدّاً فلا نلاءم بندقية أي شخص آخر في المنطقة أو ضواحيها. ولكن للتأكد أكثر، فهذه الرصاصة اكتُشف أنّها تحمل صدعاً أو تجعّداً في زوايا قائمة مع الجرح الاعتيادي، ولدى إجراء المزيد من الفحص، وجد هذا التجعد يتطابق تماماً مع حافة عرضية أو بروز في زوج من القوالب اعترف المُتهم نفسه بأنّها تعود له شخصياً. بعد العثور على هذه الرصاصة، رفض [780]القاضي الذي أجرى الفحص الإصغاء إلى أي شهادة أُخرى، وعلى الفور قرّر تقديم السجين للمُحاكمة رافضاً بإصرار أي كفالة في القضية، على الرغم من أن السيد غودفيلو، بإزاء هذه القسوة احتجّ كثيراً وأبدى استعداده لدفع أي مبلغ يُطلب للكفالة. هذا الكرم من جانب شارلي العجوز كان ينسجم طبعاً مع سلوكه الودود وشهامته التي أبداها طوال مدة إقامته المؤقتة في راتل. عند هذه المرحلة كان الرجل الثري يجرفه تعاطفه البالغ ودفء عواطفه، بحيث بدا أنّه نسي تماماً، عندما كان يُبدي استعداده لدفع الكفالة لصديقه الشاب، أنّه نفسه (السيد غودفيلو) لم يكن يملك دولاراً واحداً من الثروة على وجه الأرض.

ربّما جاء الحكم بالسجن مُتوقعاً. وسط لعناتٍ صاخبة من جميع أهالي راتلبورو، جيء به إلى المحكمة في الجلسات اللاحقة، إذ أنّ سلسلة القرائن والاستنتاجات (التي تعزّزت بحقائق إضافية تكفي للإدانة كان السيد غودفيلو في حساسية ضميره المُفرطة قد منعه من إخفائها عن المحكمة) اعتبرت مُترابطة ويُعزّز بعضها بعضاً كأدلة حاسمة، بحيث إن هيئة المُحلفين، دون أن يتركوا مقاعدهم، سلموا فوراً قرارهم بـ «إدانته بجريمة من الدرجة الأُولى». وبعدها بوقتٍ قليل تلقّى الرجل التعيس حكماً بالإعدام، وأودع في سجن البلدة في انتظار تنفيذ حكم القانون الذي لا يرحم.

في هذه الأثناء، كان التصرّف النبيل من جانب شارلي غودفيلو العجوز، قد جعل كل سكان المنطقة الطيبين يحبونه أكثر. أصبح يلقى حظوة عظيمة أكثر من أي وقت، وكنتيجة طبيعية للكرم الذي تعامل به في كل مكان، فقد تخلّص، كما

حدث بالفعل، وبالضرورة، من عادات البخل الشديد التي فرضها عليه فقره المُدقع حتى الآن وكان يجبر نفسه على التمسّك بها سابقاً وفي كثير من الأحيان يمتنع عن استقبال الناس في منزله، حينها أتاحت له حكمته الممزوجة بروح الدعابة أن ينسى طبعاً المصير الكئيب الذي حلّ بابن أخ الراحل الصديق الروحي للمضيف الكريم.

[781]ذات يوم جميل، فوجئ الرجل العجوز الشهم بتلقي رسالة لم يكن يتوقعها:

«شارلس غودفيلو، المحترم»،

راتلبورو

من هـ. ف. ب. وشركاؤهم.

شات، آذار. أ ــ رقم 1 (ستة قناني.. رزمة واحدة).

«السيد شارلس غودفيلو المُحترم...».

سيدي العزيز.. تنفيذاً لطلبٍ قُدّم إلى شركتنا منذ شهرين تقريباً، من قبل زبوننا الموقر، السيد بارنابوس شاتلورثي، يُشرّفنا أن نُرسل إليكم هذا الصباح على عنوانكم المُسجّل، شحنة مزدوجة من نبيذ شاتو مارغو ماركة الظبي، ختم بنفسجي. الصندوق مُرقّم ومؤشر كما في الهامش.

مع اعتزازنا بكم، سيدي،

خادمكم المُطيع،

هوغز، فروغز، بوغز، وشركاؤهم..

مدينة.. 21حزيران، سنة ــ 18.

«مُلاحظة: الصندوق سوف يصل إليكم بالعربة، اليوم بعد أن تتلقّوا هذه الرسالة مُباشرة. مع احترامنا للسيد شاتلورثي».

هـ.، ف.، ب.، وشركاؤهم..

في حقيقة الأمر كان السيد غودفيلو، منذ وفاة السيد شاتلورثي، قد تخلّى عن أي توقعات لأن يستلم ما وعد به سابقاً من نبيذ شاتو مارغو؛ لذلك صار ينظر إلى الأمر الآن على أنّه نوع من التعويض تُقدمه إليه العناية الإلهية نيابة عن الراحل. لقد فرح كثيراً طبعاً، وفي خِضَمّ نشوته العارمة دعا جمعاً من الأصدقاء إلى وليمة مُتواضعة في الصباح، وذلك لغرض فتح هدية العجوز الطيب السيد شاتلورثي. ولم يذكر شيئاً عن «العجوز الطيب السيد شاتلورثي» عندما دعاهم إلى ذلك. الحقيقة أنه فكر وقرر أن لا يتفوه بشيء إطلاقاً. لم يذكر لأي شخص.. إن كنت أتذكّر جيداً.. أنّه تلقّى هدية من نبيذ شاتو مارغو. لقد طلب من أصدقائه فقط المجيء ومُشاركته في نوعٍ من النبيذ الفاخر الذي سبق أن طلبه من المدينة منذ بضعة شهور وسوف يصل إِليه صباحاً. كنت منذ زمنٍ أُحاول في نفسي تخيّل السبب الذي جعل شارلي العجوز يصل إلى قرار بأن لا يذكر شيئاً عن هدية صندوق النبيذ التي وعده بها صديقه القديم، لكنّي لم أفهم سبب ذلك التكتم، ربّما كان لديه سبب وجيه، لا شكّ في ذلك.

وجاء الموعد المُقرر من صباح ذلك اليوم أخيراً، ووصلت ثلة من الرجال المُحترمين إلى منزل السيد غودفيلو. في الواقع، لقد حضر نصف سكان البلدة تقريباً.. وأنا بنفسي كنت حاضراً معهم.. لكن المضيف انزعج كثيراً عندما لم تصل إرسالية نبيذ شاتو مارغو حتى ساعة مُتأخرة، وحين قدّم طعام العشاء[782] على مأدبة عامرة بما لذ وطاب من قبل العجوز شارلي ساهم ذلك في ترضية النفوس كثيراً. ووصلت الهدية أخيراً، وكانت عبارة عن صندوق ضخم؛ وأحس الضيوف جميعاً بابتهاج غامر، وتقرّر بالإجماع (*nemine contradicente*) حمل الصندوق ووضْعه على طاولة حتى يُفتح وتُستخرج محتوياته على الفور.

وما إن قالوا ذلك حتى نُفّذ الأمر. وساعدتهم بنفسي؛ وفي لحظة وضعنا الصندوق على الطاولة، وسط القناني والكؤوس، التي تهشم كثيرٌ منها في خِضَمّ الفوضى. كان العجوز شارلي ثملاً، ووجهه مُمتقع، الآن جلس على كرسيه في وقار مُثير للسخرية، على رأس الطاولة، وراح ينقر في حنق بقنينة فارغة، ويدعو الجماعة إلى التزام النظام «أثناء طقوس إماطة اللثام عن الكنز».

بعد احتجاجات، عاد الهدوء أخيراً، وكما يحدث في حالات مُماثلة، ساد صمتٌ عميق مُثير للاستغراب. وبما أنّهم طلبوا منّي شخصياً فتح الغطاء عنوة، استجبت لذلك طبعاً، «في بهجة لا حدود لها». ووضعت إزميلاً على الغطاء، وسلطت عليه بضع ضربات خفيفة بمطرقة، وسرعان ما انخلع غطاء الصندوق، ويا لهول المفاجأة!.. في الوقت نفسه خرجت فجأة من هُناك، واتّخذت موضع الجلوس مباشرة في مواجهة المضيف، جثة مُزرّقة مُلطّخة بالدماء، تكاد تكون متعفنة للقتيل السيد شاتلورثي نفسه. كانت عيناه الذاويتان تُحملقان فينا بضع ثوان بنظرة ثابتة حزينة، وقد فقدتا بريقهما، تُحملقان مُباشرة في وجه السيد غودفيلو؛ ونطقت الشفتان بشيء في بطء، لكن الصوت كان واضح النبرات، مؤثراً في النفوس، هذه الكلمات.. «أنت البطل حقّاً!» ثم سقطت الجثة على جانب الصندوق كأنّما اقتنع الرجل بما قاله، واسترخت أطرافه وهي ترتعش على الطاولة.

هذا المشهد الذي حدث آنذاك لا بُدّ أن يكون من المُستحيل وصفه جُملة وتفصيلاً. حصل تدافعٌ رهيب نحو الأبواب والشبابيك، وبعض الرجال الأشداء الذين في الغرفة أُغمي عليهم حالاً من فرط الرعب. لكن بعد تلقّي الصدمة الأُولى، انطلقت صرخات الذعر، وكل العيون اتّجهت صوب السيد غودفيلو. لو أنّني عشت ألف سنة، فلن أستطيع أن أنسى الأسى الذي يتسبّب بأكثر من الموت يلوح على ذلك الوجه الشاحب، بعد أن كان قبل لحظاتٍ يطفح بالزهو والنضارة من أثر النبيذ. طوال دقائق بقي الرجل جالساً مثل تمثال من العاج؛ العينان في نظراتهما المُركّزة على الفراغ تتحوّلان إلى الداخل وتستغرقان في تأملاتٍ لروحه التعيسة التي تكشفت أسرار جريمتها. وأخيراً بدأ يلوح على العينين بريقٌ مُفاجئ وهما تعودان إلى العالم الخارجي، وفي وثبة سريعة قفز من كرسيه، وسقط بثقل جسده ورأسه وكتفيه على [783]الطاولة، واصطدم بالجثة، وانطلق سيلٌ من كلمات الاعتراف السريع الهائج حول تفاصيل الجريمة البشعة التي كان السيد بينفثر قد سُجن بسببها وحُكم عليه بالموت.

وهذه هي التفاصيل التي ذكرها في جوهرها.. لقد تبع ضحيته إلى مكانٍ قريب من البركة؛ وهُناك أطلق النار على حصانه بمُسدّس؛ وقتل ضحيته بعقب

المُسدّس؛ واستولى على كتاب الجيب، وبما أنّه افترض موت الحصان، فقد سحب القتيل بصعوبة إلى الشجيرات الشائكة التي تُحيط بالبركة. وقام بربط جثة السيد شاتلورثي على حصانه، وهكذا حملها إلى مكانٍ آمن ليخفيها هُناك على مسافة بعيدة في الأدغال.

وترك الصدرية، والسكين، والكتاب الصغير، والرصاصة في المكان الذي وجدت فيه، على أمل الانتقام لنفسه من السيد بينفثر. واختلق أيضاً حكاية اكتشاف المنديل والقميص المُلطّخين بالدماء.

باتّجاه نهاية هذا الاعتراف المُضمّخ بالدماء، ازدادت كلمات المُذنب التعيس ارتعاشاً وأصبحت رنانة جوفاء. وحين انتهى من حكايته، نهض، وترنّح إلى الوراء بعيداً عن الطاولة ..وسقط جثة هامدة.

الوسائل التي انتزع بها هذا الاعتراف الذي جاء في أوانه المُناسب، رغم كفاءتها، بسيطة في الواقع. كانت مبالغة السيد غودفيلو في صراحته تُضايقني، وبالتالي أثارت شكوكي منذ البداية. كنت حاضراً عندما وجّه إليه السيد بينفثر لكمة أسقطته أرضاً، والتعابير الشيطانية التي ارتسمت على وجهه، رغم سُرعة زوالها، أكّدت لي أنّ تهديده بالانتقام، إذا كان ذلك مُمكناً، سوف تتحقّق لا محالة. وهكذا صرت أنظر إلى مُناورات العجوز شارلي على ضوء مُختلف جدّاً عن مواطني راتلبورو الطيبين. رأيت في الحال أنّ كل الأدلة الإجرامية كانت تحوم، سواءً بصورة مُباشرة أو غير مُباشرة، حوله هو. لكن الحقيقة التي فتحت عيني بوضوح على القضية الحالية، هي مسألة الرصاصة التي وجدها السيد ج في جثة الحصان. لم أنسَ، كما نسي سكان راتلبورو، وجود ثقبٍ في المكان الذي دخلت منه الرصاصة في جسد الحصان، وثقب آخر خرجت منه. إذا ما وجدت رصاصة إذن في جثة الحيوان، فلا بُدّ أن يكون من وضعها هو الشخص نفسه الذي عثر عليها. القميص المُلطّخ بالدماء والمنديل يؤكدان الفكرة التي توحي بها الرصاصة؛ لأنّ الدم بعد أن جرى فحصه ثبت أنّه مُجرّد نبيذ أحمر داكن وليس أكثر من ذلك. فلما بدأت [784]أفكر بهذه الأشياء، وكذلك بالتصرفات المُتحرّرة

أكثر والنفقات التي تُبذل من جانب السيد غودفيلو، ساورتني شكوك لا يُستهان بها، لكنّي احتفظت بها لنفسي.

في هذه الأثناء، قمت شخصياً بالبحث عن جثة السيد شاتلورثي، ولسبب جيد، كنت أبحث في أماكن مُختلفة قدر الإمكان بعيداً عن الأماكن التي كان السيد غودفيلو يُرشد جماعته إليها. وكانت النتيجة، بعد أيام، أن اكتشفت بئراً مهجورة كانت فتحته شبه مخفية عن الأنظار بين الشجيرات الشائكة؛ وهُنا، في قاع البئر وجدت ضالتي التي كنت أبحث عنها.

وحدث مُصادفة أنّني سمعت الحوار الذي دار بين النديمين، عندما ابتكر السيد غودفيلو حيلة التزلف إلى مضيفه وجعله يُعطيه وعداً بهدية وهي صندوق من نبيذ شاتو مارغو. على أساس هذا التلميح تصرّفت. اشتريت قطعة صلبة من عظم فك الحوت، وأدخلتها في حُنجرة الجثة، وأودعت الأخيرة في صندوق قديم للنبيذ. بهذه الطريقة كان عليّ أن أضغط بقوة على الغطاء لكي أثبته بالمسامير؛ وكنت أتوقّع طبعاً أنّه حالما ترفع المسامير سوف ينفتح الغطاء وتقفز الجثة.

بعد أن رتبت الصندوق على هذا النحو، وضعتُ عليه علامات، وأرقام، وعنوان كما قلت سابقاً؛ ثم كتبت رسالة باسم تُجّار النبيذ الذين كان السيد شاتلورثي يتعامل معهم، وأعطيت تعليمات إلى خادمي أن ينقل الصندوق بالعربة اليدوية إلى باب منزل السيد غودفيلو، بإشارة مني. بالنسبة إلى الكلمات التي أردت للجثة أن تنطق بها، فقد اعتمدت اعتماداً تاماً على قُدراتي في التكلّم من البطن؛ وكان تأثيرها قوياً على ضمير المُجرم التعيس.

أعتقد أنّه لا يوجد شيء آخر يحتاج للتفسير. السيد بينفثر أطلق سراحه في الحال، وورث ثروة عمه، واستفاد كثيراً من التجربة، وقلب صفحة جديدة، وعاش في سعادة لما تبقّى من حياته.

حكاية الجبال الوعرة

أثناء خريف سنة 1827، وبينما كنت مُقيماً بالقرب من بلدة شارلوتسفيل، [785]فرجينيا، كنت قد تعرّفت مُصادفة على السيد أوغسطوس بيدلو. هذا الرجل الشاب كان مُميّزاً في كل ناحية من نواحي شخصيته، وقد أثار في نفسي اهتماماً عميقاً وفضولاً لا يُستهان بهما. كنت أرى أنّ من المُستحيل عليّ فهمه سواء في علاقاته الأخلاقية أو المادية. أما بشأن عائلته، فلم أتمكّن من الحصول على أي معلومات تُرضي فضولي. من أين جاء؟ لا أعرف شيئاً مؤكداً عن ذلك. حتى فيما يتعلّق بعمره.. رغم أنّي أقول عنه: إنّه شاب.. هُناك شيء يُحيّرني إلى درجة غير قليلة. كان يبدو حتماً شاباً.. وكثيراً ما كان يتكلّم عن شبابه.. غير أنّ هُناك لحظات لم أجد فيها صعوبة في تخيّل أن عمره ربّما كان مائة سنة. لكن غرابته لم تكن لتتجلّى في مسألة أُخرى أكثر من تجلّيها في مظهره الشخصي. كان طويل القامة ونحيفاً على نحو مُستغرب. ظهره شديد التقوّس. وأطرافه غاية في الطول والهزال. وجبهته عريضة ومُنخفضة، وقسمات وجهه تكاد تخلو من الدم. وفمه واسعٌ مرن، وأسنانه غير مُستوية ومُتنافرة جدّاً، رغم أنّها سليمة أكثر من أي أسنان رأيتها في رأس بشري. لكن التعبير الذي تُرسله ابتسامته لم يكن بأي حال بغيضاً، كما قد يتصوّر المرء؛ مع أنّه تعبير لا يكاد يتبدل أبداً. ذلك التعبير يوحي بكآبة عميقة الغور.. حزنٌ قاتم يمتد إلى زمنٍ سحيق، ولا يتوقف. عيناه واسعتان بشكل غير اعتيادي ومُستديرتان كعيني القطة. والبؤبؤان يتوسّعان ويُضيقان بحسب زيادة أو نقص الضوء، مثلما نرى ذلك لدى فصيلة القطط. في لحظات الانفعال الشديد تزداد الحدقتان لمعاناً إلى درجةٍ بعيدة عن التصور؛ فتبدوان كأنما تُرسلان شرراً وهاجاً، ليس من انعكاس الضوء، بل من وميضٍ كامن فيهما، مثل الشمعة أو الشمس؛ إلّا أنّ وضع العينين في الأحوال الاعتيادية هو البرود المُطبق،

وتغطيهما غشاوة كامدة بحيث توحيان بفكرة عن جثةٍ مضى عليها وقتٌ طويل في القبر.

هذه المُلابسات الغريبة لشخصية صديقي يبدو أنّها كانت تُسبّب له الكثير من الانزعاج، وكان باستمرار يلمّح إليها أمامي بنوع من العبارات التي تُحاول أن [786]تشرح، أو تُبدي اعتذارها المُتوتر، حتى إنّي عندما سمعتها لأول مرة وجدتها تؤثر بي كثيراً وتؤلمني. ولكني سرعان ما تعوّدت الأمر، واختفى قلقي تدريجياً. كان يبدو لي أنّه أراد التعبير بطريقة لبقة بدلاً من الإصرار المباشر عن أنّه من الناحية المادية لم يكن دائماً على ما هو عليه.. هُناك سلسلة من النوبات العصبية أخذته بعيداً عن جمال شخصيته المألوفة، إلى الحالة التي كنت أراها. منذ سنوات طويلة كان يشرف على علاج حالته طبيبٌ مُختصّ يُدعى تمبلتون.. وهو رجل عجوز، ربّما كان في السبعين من عمره.. وقد تعرّف عليه لأول مرة في ساراتوغا[1]، ومن خلال عنايته به، حين كان مُقيماً هُناك، تحسنت حالته كثيراً، أو تخيل أنّها تحسنت. النتيجة أن بيدلو الذي كان ثرياً، توصّل إلى ترتيب مع الدكتور تمبلتون، وافق بموجبه الأخير، لقاء مبلغ جيد من المال يُدفع له سنوياً، أن يُكرّس وقته وخبرته الطبية حصراً للعناية بالمريض.

وكان الدكتور تمبلتون رجلاً يُحب السفر في أيام شبابه، وفي باريس كان قد اعتنق أفكاراً عن التنويم المغناطيسي مُستمدّة من ميسمير[2]. ونجح من خلال وسائل العلاج بالتنويم المغناطيسي في تخفيف الآلام الحادة التي يعاني منها مرضاه؛ وكان من الطبيعي جدّاً أن يُلهم هذا النجاح الدكتور إلى درجة معينة شيئاً من الثقة بالآراء التي استنتج منها طرق العلاج. لكن الدكتور، مثل كل المُتحمسين، كان يُكافح جاهداً لأن يُجري تحوّلاً على حالة تلميذه، وأخيراً تحقّق غرضه بحيث دفع المريض للخضوع إلى تجارب مُتعدّدة. بعد تكرار هذه

---

(1) ساراتوغا: مُنتجع طبّي في نيويورك يشتهر بينابيعه ومياهه المعدنية منذ 1820. [المترجم]

(2) فرانز أنتون ميسمير (1733- 1815) طبيب سويسري من أصل ألماني ابتكر طريقة في علاج المرضى بالتنويم المغناطيسي. [المترجم]

التجارب، ظهرت نتيجة صارت في الأيام الأخيرة شائعة بحيث اجتذبت بعض الاهتمام، لكنها في الفترة التي أكتب عنها، قلّما كانت معروفة في أمريكا. أعني القول هُنا إنّ العلاقة توطّدت بين الدكتور تمبلتون وبيدلو شيئاً فشيئاً وأصبحت قوية جدّاً، أو فلنقل إنّها آصرة مغناطيسية. لكنّي على استعداد للقول: إنّ هذه العلاقة امتدت لتتجاوز حدود القدرة البسيطة على التأثير التي يتمثّل في النوم، غير أنّ هذه القُدرة نفسها اكتسبت بُعداً أعمق. في أول مُحاولة للتنويم المغناطيسي فشل المنوم تماماً في أحداث التأثير المطلوب. وفي المُحاولة الخامسة أو السادسة نجح جزئياً، وبعد فترة واصل جهوده. ولم يتحقّق النصر الكامل إلّا في المُحاولة الثانية عشرة. بعد هذا خضعت إرادة المريض بسرعة لإرادة الطبيب، بحيث إنّني عندما تعرّفت على الرجلين لأول مرة، [787]كان النوم يتحقّق تقريباً على الفور بمحض اختيار الطبيب، حتى عندما لا يعلم المريض بوجوده. الآن فقط، في سنة 1845، حينما يشهد الآلاف من الناس مُعجزات مُماثلة يومياً، أجد في نفسي جرأة لأن أُسجل هذا العمل الذي ربّما كان يبدو مُستحيلاً على أنّه حقيقة لها شأن خطير.

كان مزاج بيدلو في ذروة الحساسية والعنفوان، فهو قابل للإثارة بسهولة، ومُتحفّز دائماً. وكانت قُدراته الذهنية نشطة وخلّاقة؛ ولا شكّ أنّها تستمد قوة إضافية من تعاطي المورفين بين وقت وآخر، وكان يزدرد المورفين في كميات كبيرة، فمن غير المورفين كان يجد من المُستحيل بالنسبة إليه أن يستمر في العيش. ومن عادته أيضاً أنّه كان يأخذ جرعة كبيرة جداً من المورفين مُباشرة بعد الإفطار كل صباح.. أو بالأحرى بعد أن يشرب كوباً من القهوة المُركّزة، لأنّه لا يأكل شيئاً عادة قبل الظهر.. ثم ينطلق وحده، أو يُرافقه كلب فقط، في جولة طويلة إلى التلال المُقفرة التي تقع إلى جهة الغرب والجنوب من شارلوتسفيل، والتي تحمل اسم «الجبال الوعرة».

في يوم قاتم، دافئ، ضبابي، مع نهاية تشرين الثاني، وأثناء انقطاع المواسم التي تُعرف في أمريكا بالصيف الهندي، خرج السيد بيدلو كالمُعتاد مُتوجهاً إلى التلال. وانقضى النهار، ومع ذلك لم يرجع الرجل من جولته.

في الساعة الثامنة تقريباً من تلك الليلة، وبعد أن أحسسنا بخطورة الموقف بإزاء غيابه الطويل، كنّا على وشك أن ننطلق للبحث عنه، عندما ظهر على نحوٍ غير مُتوقع، وكان سليماً مُعافى كعادته، بل كان يتمتع بروح معنوية أكثر من اعتيادية. القصة التي رواها لنا عن رحلته، وعن الحوادث التي وقعت له، كانت فريدة في نوعها حقّاً.

«لا بُدّ أنّكم تتذكّرون»، قال، «كانت الساعة التاسعة تقريباً صباحاً عندما غادرت شارلوتسفيل. كانت خطواتي تتجه مباشرة إلى الجبال، ومع حلول العاشرة تقريباً، دخلت مفازة لم يسبق أن رأيتها في حياتي من قبل. وتتبعت الممرات المتعرجة وقد انتابني فضولٌ شديد. كان المنظر الذي تجلى لي من كل جانب، رغم أنه لا يمكن القول عنه إلا إنه جميل، يحتوي في مضمونه شيئاً لا يوصف، بالنسبة لي كان شيئاً مشوقاً وسط العزلة المخيفة. بدت العزلة مطبقة تماماً لا يدنسها شيء كأنها امرأة عذراء. لم يكن في وسعي أن اصدق أن تلك التربة الخضراء والصخور الرمادية التي كنت أخطو عليها سبق أن داستها من قبل أقدام البشر. كانت نقية بسبب عزلتها، وفي الواقع لم يكن من السهولة الوصول إلى ذلك المكان إلا بعد أن يتعرض المرء إلى سلسلة من العقبات في مدخل تلك الوهاد، بحيث يبدو من المستحيل ألا أكون حقاً أول مغامر يدخل المغارة.. أو الشخص الوحيد الذي غامر باختراق ممراتها في أي وقت.

«الضباب الكثيف والسدم الغريبة المنظر، أو الدخان، الذي يميز الصيف [788]الهندي، كان الآن يخترق كل الأشياء، إذ ساهم ولا شك، في تعميق الانطباعات الغامضة التي خلقتها هذه الأشياء في نفسي. كم كان كثيفاً هذا الضَباب المبهج، حتى إني لم أتمكن في أي وقت من رؤيةٍ شيء لمسافة تتجاوز اثنتي عشرة ياردة من الممر الذي أمامي. هذا الممر كان متعرجاً، ولأن ضوء الشمس غير موجود، سرعان ما فقدت كل فكرة عن الاتجاه الذي كنت اسلكه. في تلك الأثناء كان تأثير المورفين المعتاد يمارس دوره.. يغلف كل الأشياء في العالم الخارجي بطبقة سحرية كثيفة تثير الفضول. في ارتعاشة ورقة من الأوراق.. في لون ساقٍ من العشب.. في شكل البرسيم.. في طنين نحلة.. في ومضة قطرة

ندى.. في تنفّس الرياح.. في الروائح الخافتة التي تأتي من الغابة.. يتشكّل كونٌ من الإيحاءات.. سلسلة رائعة مُبهجة من الأفكار السامية غير الممنهجة.

«وبينما كنت مُنشغلاً في هذا، أمشي ساعات طويلة، أثناء ذلك كان الضباب يزداد كثافة حولي إلى درجة أنّني أخيراً صرت أتلمّس طريقي على غير هُدى. والآن استولى عليّ قلقٌ لا يوصف.. نوعٌ من التردّد والارتعاش العصبي. خشيت أن أتقدّم، فأتعثر وأسقط في الهاوية. تذكرت أيضاً حكايات قديمة سمعت بها عن هذه التلال الوعرة، وعن أعراق مُتوحشة من البشر الذين يسكنون مغاراتها وكهوفها. دهمتني آلاف الخيالات والأوهام الغامضة ولم تترك لي مجالاً للتفكير السليم.. خيالات غاية في الإزعاج لأنّها غامضة. وفجأة شد انتباهي وقع ضربات صاخبة على طبل.

«الذهول الذي أصابني كان شديداً طبعاً. طبولٌ في هذه التلال ليس بالشيء المألوف. لم أكن لأكون أشد استغراباً لو سمعت بوق إسرافيل. لكن برز في داخلي مصدرٌ جديد للفضول والارتباك أكثر إثارة للاستغراب. سمعت خشخشة سريعة، كأنها تصدر من حزمة مفاتيح كبيرة، وفي اللحظة نفسها ظهر رجلٌ يكاد يبدو عارياً من مكانٍ تلفه عتمة الغسق ومرّ بالقرب مني وهو يصرخ. اقترب منّي كثيراً بحيث أحسست بأنفاسه الحارة تلفح وجهي. كان يحمل في إحدى يديه أداة من حلقات فولاذية، يهزها بعنف وهو يركض. ما كاد يختفي في الضباب الذي أمامي، حتى رأيت وحشاً ضخماً يلهث وراءه، وفمه مفتوح وعيناه تتوهّجان. لم أخفق في التعرّف عليه، كان ضبعاً.

«دفعني منظر هذا الحيوان المُتوحش للشعور بشيءٍ من الارتياح بدلاً من أن يملأني بالذعر.. لأنّي الآن تأكدت أنني كنت أحلم، وبذلتُ جهداً للنهوض واسترداد وعيي. تقدّمت في شجاعة بخطوات سريعة. وفركت عيني. وصرخت بصوت عال. [789]وقرصتُ أطرافي. ثم ظهر أمام عيني نبعُ ماء صغير، وهُنا انحنيت وغسلت يدي ورأسي ورقبتي. ويبدو أنّ ذلك ساعد في تبديد أحاسيسي المُشوّشة التي كانت حتى الآن تُضايقني. ونهضت ورأيت نفسي، كما تصورت، إنساناً جديداً، ومضيت في ثباتٍ وإصرار على طريقي الذي لا أعرف إلى أين يقودني.

«وفي نهاية الأمر، شعرت بالإنهاك لكثافة الهواء المُحيط بي، فجلستُ تحت إحدى الأشجار. في ذلك الوقت كان يأتيني شعاعٌ ضعيف من الشمس، وظلال أوراق الشجرة تتساقط في خفوت، في غير مكانٍ مُحدّد، على العشب. بقيت أنظر إلى هذه الظلال طويلاً. وكان منظرها يُربكني ويدهشني. ونظرتُ إلى الأعلى؛ كانت هذه شجرة نخيل.

«الآن وثبتُ على قدمي في الحال، واجتاحتني نوبة من الانفعال الشديد.. فالخيال الذي رأيته في أحلامي لن يسعفني الآن. رأيت.. أحسست أنني أُسيطر تماماً على حواسي.. هذه الحواس تجسّدت في روحي عالماً جديداً فريداً في نوعه. أصبحت حرارة الجو على حين غرة شيئاً لا يطاق. رائحة غريبة يحملها النسيم. تسلّلت إلى أُذني همهمة مُنخفضة مُستمرة، كأنما تأتي من نهر فياض، يجري بلطف، واختلطت بالهمهمة الغريبة أصوات بشرية لا تُحصى.

«وبينما كنت أصغي وأنا في ذروة الاندهاش الذي لا أرى حاجة لأن أصفه، تبدّد الضباب فجأة بتيار من رياح قوية حملته كأنها صولجان ساحر.

«وجدت نفسي على سفحِ جبلٍ شاهق، يُطلّ على سهل فسيح يتلوّى على قاعه نهرٌ عظيم بهي المنظر. على ضفاف هذا النهر رأيت مدينة تبدو شرقية في كل سماتها، مثل المدن التي نقرأ عنها في الحكايات العربية، لكن طبيعتها أكثر غرابة من أي شيء سبق أن وصفوه في الكتب. من موقعي، فوق مُستوى المدينة بكثير، كنت استطيع رؤية كل زاوية وركن فيها كما لو أنّها مُجسّدة على خارطة. الشوارع كثيرة لا تُحصى، بعضها يتقاطع مع بعض بلا انتظام في كل الاتّجاهات، مع ممرّات طويلة مُلتوية أكثر من الشوارع، ويقيناً كانت تعج بالمارة. المنازل رائعة المنظر. على كل جانب ترى الشرفات، والمنارات، وأبراج الكنائس، ومنارات ناتئة مُزخرفة بشكل مُذهل. والأسواق كثيرة؛ في هذه الأسواق تعرض أنواعُ الأدوات والأغراض الثمينة في مُنتهى الوفرة والتنوع.. وأقمشة الحرير، والموسلين، وأدوات منزلية براقة، وجواهر وأحجار كريمة رائعة. إلى جانب هذه الأشياء، كنت أرى، على كل جانب، الكثير من الرايات ونقالات تحمل سيدات نبيلات مُحجّبات، وفيلة عليها أغطية مُزركشة، وأصنام

منحوتة ببراعة، وطبول، وأجراس، ورماح، [790]وعصي فضية وأُخرى مطلية بالذهب. وسط تلك الحشود المُتلاطمة، والصخب والضجيج والفوضى.. وسط مليونٍ من الناس، سوداً وصفراً، يضعون العمامات ويلبسون القفطان، ذوي لحًى طويلة، كانت تهدر أعداد لا تُحصى من الثيران المعصوبة العيون، بينما حشود من القردة القذرة رغم أنها مُقدّسة لديهم تتسلّق، وتُثرثر وتصرخ، هُنا وهُناك حول باحات المساجد، أو تتعلّق على المنارات والشرفات. من الشوارع المُكتظة إلى ضفاف النهر، تنحدر درجات لا تُحصى تؤدي إلى أماكن للسباحة، بينما النهر نفسه يبدو كأنما يشق طريقه في صعوبة عبر أسطول هائل من السفن المُحمّلة بالبضائع التي تفوق طاقتها. على أطراف المدينة، تنتشر في مجاميع مُتناثرة أشجار النخيل وجوز الهند، وأُخرى عملاقة عجيبة موغلة في القدم، وربما رأى المرء حقلاً يزرع فيه الرز، أو كوخاً بسقفٍ من القش لأحد الفلاحين، أو خزاناً، أو سقيفة من القش، أو مُخيّماً للغجر، أو فتاة مليحة تسلك طريقها وحدها وقد حملت إبريقاً على رأسها، تتّجه إلى ضفاف النهر الجميل.

«سوف تقول الآن، طبعاً، إنّني كنت أحلم؛ لكن الأمر ليس كذلك. ما رأيته.. ما سمعته.. ما أحسست به.. ما فكرت فيه.. لا علاقة له من قريبٍ أو بعيد بخصائص الأحلام التي نعرفها. كل شيء كان قائماً بذاته على نحو مُتماسك. في البداية، كنت أشكّ في أنّني كنت مُستيقظاً حقّاً، وأخضعت نفسي إلى سلسلة من الاختبارات، التي سرعان ما أقنعتني بأني كنت مُستيقظاً. الآن، عندما يحلم الإنسان، وأثناء الحلم نفسه يشكّ في أنّه يحلم، والشك أبداً لن يتأكد، والنائم يستيقظ في الحال. ولهذا لا يخطئ نوفاليس في قوله: إنّنا (نكاد نستيقظ حين نحلم بأنّنا نحلم). لو أنّ الرؤية تجلت لي كما وصفتها، دون أن أشك بأنّها حلم، عندئذ ربما كانت حُلماً مؤكداً، لكن بما أنّها تجلّت بالطريقة تلك، وكنت أشكّ فيها وأختبرها كما هي، أجد نفسي مُجبراً لأن أضعها ضمن ظواهر أُخرى»[3].

(3) الاقتباس من نوفاليس (1772- 1801) وجده بو في كتاب (مختارات من النثر الألماني) تأليف ساره ت. اوستن. نيويورك، 1841. [المترجم]

«في هذه الحال لست واثقاً أنّك على خطأ»، قال الدكتور تمبلتون، «لكن تابع كلامك. قلت: إنّك نهضت وتقدّمت نحو المدينة».

«نهضت»، تابع بيدلو كلامه، وكان يرمق الدكتور بنظرة تدل على اندهاش عميق، «نهضت، كما تقول، ونزلت مُتجهاً إلى المدينة. وعلى الطريق واجهت حشوداً كثيفة من البشر، يتجّمعون في كل الطرقات، كلّهم يسلكون اتّجاهاً واحداً، ويبدو عليهم في كل تصرفاتهم أقصى الاهتمام. وفجأة، استبدّ بي حافز لا أُدرك حقيقته، أصبحت مُهتماً كثيراً أنا أيضاً بما يجري حولي. يبدو أنّني كنت اشعر أنّ لي [791]دوراً مهماً أقوم به، من غير أن أفهم طبيعة ذلك الدور. لكني أمام حشود الناس الذين يُحيطون بي كنت أحس نحوهم بكراهية بالغة. انزويت عنهم، وبسرعة سلكتُ درباً مُلتوياً يوصلني إلى المدينة. هُنا كل شيء كان في أشد حالات الفوضى والشجار. رأيت جماعة من الرجال، يلبسون جلابيب شبه هندية، وشبه أوروبية، ويرافقهم رجالٌ آخرون يلبسون بدلات نظامية تكاد تكون بريطانية، وكانوا مُنهمكين، وذلك مما أثار استغرابي، في تنظيم صفوف الغوغاء الذين يجتاحون الدروب والمُنعطفات. وجدت نفسي أنضم إلى الجماعة الأكثر ضعفاً، وتسلّحت بسلاح ضابطٍ سقط أرضاً، وقاتلت أشخاصاً لا أعرفهم في ضراوة عصبية ناتجة عن اليأس. وسرعان ما خسرنا الجولة بعد أن تغلّب علينا الآخرون في العدد، وانسحبنا باحثين عن مكانٍ آمن في كشكٍ على الشارع. هُنا تحصنّا، وكنا آمنين بعض الشيء. ومن فتحة بالقرب من سقف الكشك، كنت أرى عدداً هائلاً من الأشخاص، استولى عليهم الغضب والاهتياج، يُحيطون بقصرٍ مهيب على الضفة العالية للنهر ويُحاولون الهجوم عليه. والآن، من النافذة العليا لهذا القصر، نزل شخصٌ يبدو مُخنثاً، مُتدلياً من حبلٍ صنع من عمامات الحاضرين. كان هُناك قارب يقف بالانتظار، وتمكّن من الفرار به باتّجاه الجانب الآخر للنهر».

«وهُنا هيمنت على روحي فكرة جديدة. قلتُ بعض الكلمات الحماسية لرفاقي، وبعد أن نجحت في استمالة القليل منهم إلى جانبي هجمت مسعوراً إلى خارج الكشك. اندفعنا وسط الغوغاء المُحيطين بنا. وتراجعوا في أول الأمر من

أمامنا. كانوا يركضون، ويُقاتلون بجنون، ثم تراجعوا من جديد. في هذه الأثناء وجدنا أنفسنا نبتعد رغماً عنا بعيداً عن الكشك، وأصابنا الارتباك بعد أن حاصرونا وسط الشوارع الضيقة التي تُحيط بها بنايات طويلة تُطل علينا من فوق، وانسحبنا أخيراً نحو ممرّات لم يسبق لضوء الشمس أن سقط عليها. وضغطت علينا الحشود بلا هوادة، وكانوا يُهددونا بالرماح، وتكتنفنا رشقات السهام. هذه السهام كانت مُميزة جدّاً في أشكالها، وتُشبه في بعض نواحيها الخنجر المعقوف في مالي. كانت مصنوعة لكي تحاكي جسم الأفعى الزاحفة، فهي طويلة وسوداء، مع نصلٍ مسموم. أصابني واحدٌ منها على كتفي الأيمن. وترنحتُ وسقطت على الأرض. واستولى عليّ غثيان مُريع. ورحت أتلوى من الألم.. وألتقط أنفاسي بصعوبة.. ثم قضيتُ نحبي».

«لن تتمكّن من الإصرار الآن»، قلت وأنا ابتسم، «على أنّ مُغامرتك كلها لم تكن حلماً. لن تستطيع القول: إنّك ميت؟»

عندما قلت هذه الكلمات، كنت أتوقع طبعاً بعض الاحتجاج من بيدلو، لكن بإزاء دهشتي، رأيته يتردّد، ويرتعش، وأصبح لونه شاحباً مُخيفاً كالأموات، وبقي [792]صامتاً. ونظرتُ إلى تمبلتون. كان يجلس ثابتاً في كرسيه.. أسنانه تصطك، وعيناه توشكان على الخروج من محجريهما. «استمر!» قال أخيراً بصوتٍ أجشّ موجّهاً كلامه إلى بيدلو.

«خلال دقائق»، تابع الأخير كلامه، «كان الإحساس الوحيد لدي.. هو سطوة الظلام والعدم، مع وعيٍ مُتزايد بالموت. وأخيراً بدا لي أنّ رعشة عنيفة تسري بصورة مُفاجئة في روحي، كما لو أنّها صدمة كهربائية. ومعها جاء إحساسٌ بالمرونة والضوء. هذا الضوء أحسست به.. لم أره. وفي لحظة تخيّلت أنّني أرتفع عن الأرض. لكن لم يكن هُناك حضور جسدي، مرئي، مسموع، أو محسوس. تلاشت جموع الناس. والضجيج توقّف. المدينة صارت في حالة رقاد نسبي. تحتي ترقد جثتي، والسهم في صدري، ورأسي مُنتفخ ومُشوّه. كل هذه الأشياء كنت أحسّ بها.. لم أرها. لم أكن أُولي أي شيء اهتماماً يذكر. حتى جثتي بدت شيئاً لا يعنيني. الإرادة، لم يبقَ منها شيء، لكن يبدو أنّني كنت مدفوعاً إلى

الحركة، كنت أطير بخفة كأنّي أعوم متّجهاً إلى خارج المدينة، وعدت أسلك الممر المُتعرّج السابق الذي دخلت منه. ولما وصلت إلى تلك النقطة من الوادي في الجبال التي واجهتُ الضبع فيها، مرة أُخرى شعرت بصعقة كهربائية، إحساس بالتثاقل، بحرية الاختيار، بشيء يُطبق على صدري، ورجعت. عدتُ إلى طبيعتي الأصلية، واتّجهت خطواتي في تلهّف إلى المنزل.. لكن الماضي تلاشت حيويته الحقيقية.. ولا أستطيع الآن، ولو لحظة، أن أدفع نفسي إلى النظر إليه كحلم».

«لم يكن حلماً»، قال تمبلتون، وكان يبدو عليه وقارٌ جليل، «لكن من الصعب ألّا نُسمّيه حلماً. دعنا نفترض فقط أنّ الإنسان اليوم على حافة الوصول إلى اكتشافات نفسية مُذهلة. دعنا نقتنع بهذا الافتراض. أما باقي المسألة فلديّ نوع من التفسير. هذه لوحة رُسمت بألوان مائية، كان ينبغي أن أعرضها عليك من قبل، وكان إحساسٌ لا تفسير له يُخيفني ويمنعني حتى الآن أن أدعك تراها».

نظرنا معاً إلى اللوحة التي عرضها. لم أرَ فيها شيئاً استثنائياً، غير أن التأثير الذي تركته على نفس بيدلو كان مُذهلاً. كاد يُغمى عليه وهو ينظر إليها بعمق. ومع ذلك لم تكن اللوحة أكثر من صورة أو تحفة فنية مُصغّرة.. مرسومة بحذق، إذا شئنا الصدق.. صورته هو بسماته المُميزة نفسها. على الأقل كان هذا رأيي فيها.

«سوف ترى»، قال تمبلتون، «تاريخ هذه اللوحة.. إنّه هُنا، لا يكاد يبدو واضحاً، في هذه الزاوية.. 1780. في هذه السَّنة أخذت الصورة. إنّها تُشبه صورة صديقٍ ميت.. اسمه السيد أولديب.. وقد ربطتني معه علاقة قوية جدّاً في كلكتا، [793]أثناء إدارة الحاكم وارين هاستنغز. لم يكن عمري في ذلك الوقت قد تجاَوز العشرين. حين رأيتك لأول مرّة، سيد بيدلو، في ساراتوغا، كان الشّبه عجيباً بينك وبين الصورة التي جعلتني أتقرّب منك وأُكلّمك، وأسعى إلى صداقتك، وأن أرتب تلك الإجراءات التي أدّت إلى أن أكون رفيقك الدائم. بعد أن تحقّق هذا، دفعتني جزئياً، وربّما كلياً، ذكرى حزينة عن الفقيد، ولكن دفعني جزئياً أيضاً فضولٌ قلق، لا يخلو من الرعب، يتعلّق بشخصك.

«في روايتك عن الحلم الذي رأيت فيه نفسك وسط التلال، وصفت بدقة مُتناهية مدينة هندية تُسمّى بيناريس[4]، تقع على ضفاف النهر المُقدّس. كانت أعمال الشغب، والمعركة، والمذبحة، كلها من الحوادث الواقعية التي ترتبط بالعصيان المُسلّح الذي قام به شيتي سينغ[5] سنة 1780، حين كانت حياة هاستنغز مُعرّضة لخطر مُباشر بالموت. والرجل الذي هرب مُستخدماً حبلاً من العمامات كان شيتي سينغ نفسه. والجماعة التي اختبأت في الكشك كانوا من السباهي[6] ومن الضباط البريطانيين، يقودهم هاستنغز. من بين هذه الجماعة كنت أنا نفسي، وفعلت كل ما في وسعي لمنع الغوغاء من الهجوم على الضابط الذي سقط، في الدروب المُزدحمة، بعد أن أُصيب بالسهم المسموم الذي أطلقه عليه أحد البنغاليين. ذلك الضابط كان صديقي العزيز.. اسمه أولديب. سوف تفهم من هذه المخطوطات»، (وهنا أخرج دفتراً كانت العديد من صفحاته تبدو كأنّها كُتبت مؤخراً)، «في الفترة نفسها التي تخيّلت فيها هذه الأشياء وسط التلال، كنت أنا مُنشغلاً بتدوينها على الورق الذي تراه هُنا في البيت».

بعد أسبوعٍ تقريباً على هذه المُحادثة، ظهرت الفقرات التالية في إحدى الصحف التي تصدر في شارلوتسفيل:

«من دواعي أسفنا أن نعلن وفاة السيد أوغسطوس بيدلو، وهو رجل ذو أخلاق حميدة وله كثير من الفضائل والأيادي البيضاء التي لا يُنكرها سكان شارلوتسفيل..».

«كان السيد ب. منذ سنوات، قد تعرّض لمرض الألم العصبي الذي كان يُهدد حياته؛ إلّا أنّ هذا يُمكن أن يعتبر فقط السبب الثانوي لمرضه. السبب المُباشر ذو طبيعة فريدة. في رحلة قام بها إلى الجبال الشاهقة، قبل أيام قليلة،

---

(4) المسجد الكبير في بيناريس بناه الإمبراطور المنغولي أورونغزيب لكي يُهين الهندوس في أقدس مُدنهم. [المترجم]

(5) شيتي سينغ كان راجا بيناريس دفعه إلى العصيان هاستنغز من أجل المال لدعم سلطة الإنكليز في الهند، وقعت هذه الحادثة فعلاً سنة 1780. [المترجم]

(6) السباهي هندي مُجنّد في الجيش البريطاني سابقاً. [المترجم]

أصيب بالبرد وبحمّى طفيفة، لكن حالته تدهورت، وصاحبها نقصٌ في كمية الدماء التي تصل إلى الدماغ. من أجل التخفيف من هذه الحالة، لجأ الدكتور تمبلتون إلى عمل نزيف موضعي. وأجريت عمليات جراحية في الصدر. وبعد فترة قصيرة توفي المريض، [794]حين اتّضح أن القارورة التي تحوي هذه المادة كان فيها مُصادفة علقات سامة توجد من وقت إلى آخر في البحيرات المُجاورة. هذا المخلوق تعلّق في أحد الشرايين الصغيرة للجزء الأيمن من الصدر. كان الشبه الكبير بالعلقة الطبية قد تسبب في خطأ لم يكن بالإمكان تفاديه حتى وقت مُتأخر».

«ملاحظة. المادة السامة التي في علقة في شارلوتسفيل ربّما تختلف دائماً عن العلقة الطبية في لونها الأسود، وخصوصاً حركتها المُلتوية أو الدودية، والتي تُشبه كثيراً حركة الأفعى».

كنت أتكلّم مع مُحرّر الصحيفة التي ذكرتها، حول موضوع هذه الحادثة الغريبة، حين خطر لي أن أسأل كيف حدث أنّ اسم المُتوفى أُعلن أنّه بيدلو.

«أتصوّر»، قلت، «أنّ لديك بعض الحق في هذا، لكني دائماً كنت أفترض أنّ الاسم يكتب وفي نهايته حرف e ».

«حق؟.. كلاّ»، أجاب. «إنّه مُجرّد خطأ في الطباعة. الاسم هو بيدلو وفيه حرف e، كل العالم يكتبه هكذا، ولم أعرف أبداً أنه يُلفظ بشكل آخر في حياتي».

«إذن»، قلت مُتمتماً، وأنا أرتد على أعقابي، «إذن فالحقيقة هُنا أغرب من الخيال[7].. لأنّ بيدلو، دون حرف e، ليس سوى أولديب معكوساً! وهذا الرجل يقول لي: إنّه مُجرّد خطأ في الطباعة».

(7) «الحقيقة أغرب من الخيال» اقتباس من بايرون (دون جوان). [المترجم]

النظارات

منذ سنواتٍ بعيدة، كان من عادة الناس السخرية من فكرة «الحب من أول [795]نظرة»؛ لكن أولئك الذين يُفكّرون بعقولهم، أو بالأحرى الذين لديهم إحساسٌ مُرهف، يؤيدون وجود هذا النوع من الحب. الاكتشافات الحديثة، في الواقع، في مجال ما يعرف بالمغناطيسية الأخلاقية أو الجمالية، تجعل الأمل يبدو طبيعياً جدّاً، لهذا فإنّ أصدق وأعمق المشاعر الإنسانية هي التي تنبع من القلب كأنّما بتأثير كهربائي.. في عبارةٍ مُختصرة، فإنّ أكثر الروابط النفسية صدقاً وإشراقاً وقوة تلك التي تنشأ في لحظة. الاعتراف الذي سوف أُدلي به من شأنه أن يُعطي مثالاً آخر عن التجارب السابقة التي لا حصر لها حول حقيقة هذا الموقف.

قصتي تتطلّب أن أكون دقيقاً بعض الشيء. لا زلتُ شاباً على كل حال.. لم أبلغ الثانية والعشرين من عمري بعد. اسمي، في الوقت الحالي، من الأسماء الشائعة جدّاً وقد يكون مُبتذلاً.. سمبسون. أقول «في الوقت الحالي»؛ فلم يمضِ وقتٌ طويل منذ أن أطلق عليّ هذا الاسم.. فقد اكتسبت شرعياً هذا الاسم خلال السَّنة الأخيرة لكي أستلم ميراثاً كبيراً تركه لي أحد أقاربي من بعيد، وهو أدولفوس سمبسون المُحترم. كانت الوصية التي تركها قريبي تتضمن شرطاً ينصّ على أن أتّخذ اسم الموصي.. اسم العائلة، وليس اسم التعميد؛ اسمي بالنصرانية نابليون بونابرت.. أو، بالأحرى، فهما اسمان الأول والثاني.

اتّخذت اسم سمبسون بعد شيءٍ من التردّد، لأنّي في الواقع أنتمي إلى نسبٍ كريم، من عائلة فرواسارت، وكنت أحس بفخر بالغ يعذرني عليه الناس.. مُعتقداً أنّني استطيع تعقّب الأسماء وصولاً إلى المؤلف الخالد لكتاب

«الحوليات». في حين أنّني إذا تعقّبت موضوع الأسماء، خطوة فخطوة، ربّما ذكرت حادثة فريدة ذات أهمية ترتبط بأسماء بعض أسلافي القريبين. كان والدي يُدعى مسيو فرواسارت من باريس. زوجته.. أمي، التي تزوّجها وهي في الخامسة عشرة من عمرها.. مدموزيل كرواسارت، الابنة الكبيرة لكرواسارت المصرفي، والذي زوجته، مرة أُخرى كانت في الخامسة عشرة حين تزوجت، هي الابنة الكبيرة لرجل يُدعى فكتور [796]فواسارت. مسيو فواسارت، من الغريب جدّاً أنّه تزوّج سيدة تحمل الاسم نفسه.. مدموزيل مواسارت. وهذه أيضاً كانت في مُقتبل العمر عندما تزوجت؛ ووالدتها أيضاً، مدام مواسارت لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة حين اقتيدت إلى المذبح. هذه الزيجات المُبكرة كانت من المسائل العادية في فرنسا. ولكن هُنا لدينا مواسارت، فواسارت، كرواسارت، فرواسارت، كلهم في خط نسبٍ مُباشر ينحدر من أصلٍ واحد. أما اسمي، كما أقول، فقد أصبح سمبسون، بقرار قضائي، في كثير من الامتعاض من جانبي، بحيث إنّني في فترة ما، كنت مُتردّداً في الواقع بشأن استلام الإرث الذي يُرافقه الشرط التافه المُسبّب للإزعاج.

أما فيما يتعلّق بالمؤهلات الشخصية، فلست بأي حال قاصراً في هذا الشأن. على العكس من ذلك، أعتقد أنّ هيئتي لا بأس بها، وأمتلك ما يُسميه تسعة من عشرة من العالم وجهاً وسيماً. من ناحية طول القامة فطولي خمسة أقدام وإحدى عشرة بوصة. وشعري أسود مُجعّد. وأنفي جميل بما يكفي. وعيناي واسعتان رماديتان؛ وعلى الرغم من هذا، فهما في الواقع ضعيفتا البصر إلى درجة كبيرة جدّاً، ومع ذلك فلا خلل في هذا الصدد يُمكن اكتشافه من منظرهما. لكنِ الضعف نفسه كان دائماً مصدر إزعاج لي، ولجأت إلى كل وسيلة ممكنة للعلاج.. باستثناء لبس نظارات. بما أنّني كنت يافعاً ومنظري وسيم، فكان من الطبيعي أن أمقت هذه النظارات، ورفضتُ رفضاً قاطعاً استخدامها. لم أكن أعرف في الواقع شيئاً يُمكن أن يشوّه ملامح رجلٍ شاب، أو يُضفي عليه سمة من الرزانة الزائفة، إن لم يكن مظهراً للنفاق والتظاهر بالتقدم في السن أكثر من النظارات. ومن جهة أُخرى، تُضفي النظارات على صاحبها سمة مقيتة من النفاق

الصريح. لقد تمكّنت حتى الآن من العيش دون اللجوء إلى أي من هاتين الوسيلتين. ولكن ربّما كان هُناك شيءٌ من المُبالغة في هذه التفاصيل الشخصية، وهي على كل حال، تفاصيل قليلة الأهمية. سوف أكتفي بالقول، إضافة إلى ذلك، إنّ مزاجي الشخصي يتّسم بالدموية، والاندفاع، والطيش، والحماس.. وطوال حياتي كنت شغوفاً بالنساء.

ذات ليلة في الشتاء الفائت دخلت مقصورة في مسرح ب.، برفقة أحد الأصدقاء، السيد تالبوت. كانت تعرض في تلك الليلة أوبرا، وكانت أسعار التذاكر نادراً ما تجتذب إلا القليل من الجمهور، ومع ذلك كانت الصالة مُكتظّة جدّاً. لكن أُتيح لنا الحصول على مقاعد أمامية سبق أن حجزت لنا، ومضينا إلى مقاعدنا في شيء من الصعوبة.

طوال ساعتين، ظل رفيقي الذي كان شغوفاً بالموسيقى، يُركّز انتباهه على خشبة المسرح فلا يكترث لشيء آخر؛ وفي هذه الأثناء، كنت أجد مُتعة بمُراقبة جمهور الحاضرين، الذي كان يتألف، في الجانب الكبير منه، من نخبة الشخصيات في المدينة. بعد أن اكتفيت بهذا، كنت على وشك أن أحوّل عيني إلى خشبة المسرح، حينما شد انتباهي وتسمّرت عيناي على شخصية جالسة في إحدى المقصورات الخاصة لم أنتبه إليها من قبل.

لو عشت ألف سنة، فلن أنسى أبداً ذلك الإحساس الذي اجتاحني وأنا أنظر [797]إلى تلك الشخصية. إنّها أجمل سيدة رأيتها في حياتي. وجّهها مُتّجه كلّياً إلى المسرح بحيث إنّني طوال دقائق لم أستطع الحصول على نظرة منها.. مع أنّ شكلها كان بمُنتهى الروعة والقدسية؛ لا توجد كلمة أُخرى تكفي للتعبير عن تناسق قسماته المُذهل.. وحتى كلمة «قدسية» تبدو سخيفة وأنا أكتبها.

سحرُ الكيان الملائكي المُتجسّد في شخصية امرأة.. روح الجمال الأنثوي.. طالما كان يُمثّل قوة من المُستحيل مُقاومتها، هُنا كل الجمال يتجسّد في كيانٍ واحد؛ مثالٌ صارخ للجمال يشغل مُخيلتي الجامحة. تلك المرأة، بقدر ما أتاح لي شكل المقصورة رؤيتها، ذات قوام ممشوق، تكاد تقترب من الكمال. امتلاء

جسدها وثناياه مبعث للنشوة. الرأس لم يظهر منه غير مؤخرته، يتحدّى في خطوطه العريضة إبداعات روح الإغريق، يظهر بدلاً من أن يختفي وراء قُبّعة أنيقة، جعلت ذهني يتذكّر لوحات أبوليوس. الذراع اليمنى تتدلى من فوق درابزين المقصورة، تبعث الرعشة في كل عصبٍ من بدني في تناسقها. الجزء الأعلى منها مُغطّى بكمٍّ فضفاض من النوع السائد في هذه الأيام. هذا الكم يمتد قليلاً تحت المُرفق. تلبس السيدة قميصاً من نسيجٍ خفيف ضيق ينتهي بكشكش مُزخرف، يسقط في أناقة مُثيرة على اليد كاشفاً فقط عن أصابع نحيفة، يلمع على واحدٍ منها محبس من الألماس، رأيت أنّ له قيمة استثنائية. الاستدارة العجيبة للرسغ يزيدها جمالاً سوارٌ يُحيط بها، والسوار مُزين بالجواهر، يشي بما لا يقبل الشك بثروة وذوق رفيع لمن ترتديه.

بقيت أُحملق بهذا الطيف الملائكي على الأقل نصف ساعة، كما لو أنّني تحوّلت فجأة إلى حجر؛ وأثناء هذه الفترة، كنت أحس بحقيقة ما قيل أو أنشد في تلك الأغاني عن «الحب من أول نظرة». كانت مشاعري تختلف تماماً عن أي شيء سبق أن عرفته، في حضور أكثر النماذج صدقاً للجمال اللاأنثوي. تعاطف لا تعليل [798]له، وما أجد نفسي مُضطراً لاعتباره تناغماً سحرياً، بين الروح والروح، يبدو أنّه لم يكن يجعل نظراتي تتسمرّ فحسب، وإنما يشل قُدرتي على التفكير ومشاعري تتبلد. رأيت.. أحسست.. عرفت أنّني وقعت في الغرام بعمق، بجنون، ولن ينقذني شيء.. حتى قبل أن أرى وجه المحبوبة. كان ذلك الشعور مُهيمناً بحيث استولى على كياني، وكنت أتصوّر أنّه لن يتغيّر ولو قليلاً أو يُلغى حتى إذا كانت الملامح، التي لم أرها، عادية؛ يا له من شيءٍ شاذ، هذا الحب الحقيقي!.. الحب من أول نظرة.. كم هو مُستقلّ عن أي ظروف خارجية يبدو لنا أنّها تُسيطر عليه في الأوهام.

بينما كنت غارقاً بتيار الانبهار بهذه الرؤية، انتبهت فجأة إلى فوضى وسط الجمهور جعلتها تدير رأسها جزئياً باتّجاهي، بحيث تمكّنت من رؤية جانب الوجه كله. لقد تجاوز جمالها كل توقّعاتي.. ومع ذلك خابت ظنوني لسبب لم أتمكّن من تحديد كنهه. قلت «خابت ظنوني»، مع أنّ هذه ليست العبارة المُناسبة.

هدأت سورة مشاعري فوراً. هذه الحالة من تبدّل المشاعر ربّما جاءت نتيجة للانطباع الذي تكون عن الوجه الذي يُشبه وجهاً أُمومياً يطفح بالحنان؛ ومع ذلك فهمت على الفور أنّ ذلك الشعور لا يُمكن أن ينشأ كلّياً على هذا النحو. هُناك شيء ما.. سر لم يكتشف بعد.. نوع من التعبير في ملامحها يُضايقني قليلاً في الوقت الذي تصاعد فيه هيامي بها. في حقيقة الأمر، كنت أُواجه حالة ذهنية من شأنها أن تدفع أي شاب للإقدام على تصرّفٍ طائش قد يندم عليه. لو كانت وحدها، لا شكّ أنّني كنت سأدخل مقصورتها وأُبادرها بالكلام مهما كلّف الأمر؛ لكن، لسوء الحظ، كان معها شخصان.. رجل، وامرأة هي أيضاً في مُنتهى الجمال، تبدو أصغر منها ببضع سنوات.

خطرت في ذهني ألف فكرة وفكرة ربّما أتمكّن بها من التعرّف بعد ذلك على السيدة الكبيرة، أو في الوقت الحالي، على كل حال، أن أنظر بشكل تفصيلي أكثر إلى جمالها. كنت أنوي أن أُغيّر مكاني فأذهب إلى مقعدٍ آخر أقرب إليها، لكن حالة المسرح المُزدحمة حالت دون ذلك؛ كانت مُتطلّبات اللياقة الصارمة مؤخراً تحظر استعمال منظار الأوبرا في حالة مثل هذه، حتى لو قدّر لي حُسْن الحظ أن أحصل على منظار.. ولكن أنّى لي ذلك!.. لهذا اكتفيت باليأس.

ثم فكّرت في استغلال رفيقي.

[799]«تالبوت»، قلت، «لديك منظار أوبرا.. أعطني إياه».

«منظار.. أوبرا!.. لا!.. ما الذي تنوي أن تفعل بمنظار أوبرا؟» وهُنا استدار في نزقٍ باتّجاه المسرح.

«لكن، تالبوت»، تابعتُ مُحاولتي، وسحبته من كتفه، «أصغ إلي، هلّا فعلت ذلك؟ هل تُشاهد تلك المقصورة.. قُرب المسرح؟.. هُناك!.. كلّا، التي بعدها.. هل رأيت سابقاً امرأة بمثل هذا الجمال؟».

«إنّها جميلة حقّاً، لا شك»، قال.

«أتساءل من تكون؟».

«عجباً، باسم كل الملائكة، ألا تعرف مَنْ هي؟ أن لا تعرفها فذلك يعني أنّك غير معروف[1]. إنها مدام لالاند الشهيرة.. أجمل امرأة في يومنا هذا بلا مُنازع، وموضع حديث البلدة كلها. وهي ثرية جدّاً أيضاً.. أرملة، يتنافس عليها الرجال.. لقد وصلت حالاً من باريس».

«هل تعرفها؟».

«نعم؛ حظيت بذلك الشرف».

«هلّا تُقدّمني إليها؟».

«حتماً، بكل سرور؛ متى تريد ذلك؟».

«غداً، في الساعة الواحدة، سوف أزورك في منزل ب».

«جيد جدّاً؛ والآن هل تمسك لسانك، لو سمحت».

في هذا الشأن كنت مُضطراً للامتثال لنصيحة تالبوت؛ لأنّه بقي يتجاهل بإصرار أي سؤال إضافي أو اقتراح، وانشغل تماماً بما كان يُعرض على خشبة المسرح لما تبقّى من الأمسية.

في هذه الأثناء بقيت عيناي مسمّرتين على مدام لالاند، وأخيراً حظيت بفرصة جيدة لرؤية الجانب الأمامي من وجهها. كان وجهاً جميلاً لا يُضاهيه شيء.. هذا، طبعاً، ما أخبرني به قلبي، ولم يقنعني تالبوت بشأن هذه المسألة.. مع أنّ ذلك الشيء غير المفهوم بقي يُزعجني. وفي نهاية المطاف استنتجت أن حواسي تأثرت بنوعٍ من الجاذبية، أو الحزن، أو بالأحرى الضجر، الذي يسلب شيئاً من نضارة وطراوة القسمات، فقط لكي يُضفي عليها عذوبة وجلالة ملائكية، وهذا طبعاً ضاعف حماسي ومزاجي الرومانسي عشرة أضعاف.

بينما كانت عيناي مُثبتتين عليها رأيت أخيراً، بإزاء ذعري الشديد، في حركة لا تُكاد تدرك من جانب السيدة، أنّها تنبهت فجأة إلى نظراتي. ومع ذلك،

---

(1) اقتباس بتصرف من (الفردوس المفقود)، 4، 830. [المترجم]

كنت مُنبهراً فلم أستطع رفع عيني عنها، ولو لحظة واحدة. أشاحت وجهها جانباً، ومرة [800]أُخرى رأيت الجانب الخلفي من رأسها الذي كأنّه تمثال منحوت. بعد دقائق، كما لو أن الفضول دفعها لتتأكّد إن كنت لا زلت أنظر، حوّلت وجهها تدريجياً من جديد وواجهت نظراتي الحارقة. أغمضت عينيها الواسعتين الداكنتين في الحال وقد غطّى وجنتيها الخجل. وكم كانت دهشتي عظيمة لأن أرى أنّها لم تُغيّر وضع يدها للمرة الثانية، بل أخرجت من محزمها نظارات.. ورفعتها.. ثم ثبتتها على عينيها.. ثم راحت تنظر لي من ورائها، راحت تنظر في تصميم عدة دقائق.

لو أنّ صاعقة سقطت عند قدمي لما دهشت أكثر في تلك اللحظة.. صُعقت في مكاني فحسب.. لم أتضايق أو أمتعض على الإطلاق؛ مع أنّ التصرف سيكون جريئاً لو فعلته معي امرأة أُخرى ولأثار امتعاضي. لكن الأمر كله تمّ في هدوء.. في رباطة جأش.. في حركة مُسترخية.. في إيماءة تدلّ على ذوقٍ رفيع، باختصار.. لم ألمس أي وقاحة، والشعور الوحيد الذي طغى على كل شيء هو الإعجاب والمُفاجأة.

لاحظتُ، لدى حركتها الأُولى التي رفعت فيها النظارات، أنّها بدت مُقتنعة بفحص عاجل لشخصي، وكانت على وشك أن تسحب تلك الأداة، لكن كأنّما خطرت لها فكرة أُخرى، فأعادتها إلى مكانها، واستمرت ترمقني باهتمام ثابت خلال دقائق أُخرى.. ربّما خمس دقائق على الأقل، بل أنا واثق من هذا.

هذا التصرّف، غير المألوف في مسرحٍ أمريكي، أثار انتباه الجمهور كثيراً، وجعلهم يتململون ويبدون حركات عشوائية، أو يتذمّرون، وذلك ما جعلني أرتبك للحظة، ولكنّي لم ألمح أي تأثر ملحوظ على سيماء مدام لالاند.

بعد أن أرضت فضولها.. إن كان ذلك فضولاً.. أنزلت النظارات، وعادت تنتبه في هدوء إلى المسرح؛ كنت أرى صورتها الجانبية الآن، كما في السابق. وتابعت العرض دون أن يقطع علي ذلك شيء، مع أنّني كنت أُدرك مدى وقاحتي في ذلك. ثم رأيت الرأس يتحوّل ببطء قليلاً ويتغيّر موقعه؛ وسرعان ما اقتنعت أن السيدة، في الوقت الذي كانت تتظاهر فيه بالنظر إلى المسرح، إلّا أنّها في

الواقع كانت تنظر إليّ باهتمام. لا حاجة لوصف تأثير هذا عليّ، من جانب امرأة بمثل تلك الجاذبية، على عقلي المُنفعل.

بعد أن تفحصتني ربّما لمُدة ربع ساعة، التفتت تلك الجميلة التي أثارت جنوني نحو الرجل الذي كان يُرافقها، وبينما كانت تتكلم معه، رأيت بوضوح من [801]خلال نظراتهما أنّ للمُحادثة علاقة بي.

فلما انتهى حوارهما، استدارت مدام لالاند من جديد نحو المسرح، وبدت خلال دقائق قليلة، مُستغرقة في تأمل العرض. ولكن بعد انقضاء هذه المدة، استولى عليّ حنق شديد حين رأيتها تفتح للمرة الثانية نظارتها التي ألقتها جانباً، وراحت تنظر إليّ نظرة مُتحدّية كما في السابق، وتجاهلت كل شيء في خِضَمّ الضجيج المُتجدّد للجمهور، وأطالت النظر لي، من الرأس إلى القدم، بالنظرات نفسها الملائكية التي بعثت في البهجة وأربكت روحي.

كان سلوكها غريباً جعلني أكاد أُصاب بالحمى من فرط التأثر.. وأضطرب هائجاً من تأثير الغرام، لكنه بثّ في نفسي الشجاعة بدلاً من أن يزعجني. في سَورة جنونية، نسيت كل شيء باستثناء النظرات الملائكية التي التقت بنظراتي. ترقّبت فرصة مؤاتية، حين تصوّرت أنّ الجمهور كان مُنشغلاً كلياً بمُشاهدة الأوبرا، وأخيراً التقت عيناي بعيني مدام لالاند، وفي لحظة، أحنيت رأسي انحناءة طفيفة لا يُمكن أن تُخطئها العين.

احمرّ وجهها من الخجل بعمق.. ثم حوّلت عينيها إلى اتّجاه آخر.. ثمّ نظرت حولها ببطء وانشداه، فيما يبدو كانت تُريد أن ترى إن كان عملي المُتهوّر أثار انتباه أحد.. ثم انحنت نحو الرجل الذي كان يجلس إلى جوارها.

والآن أحسست بمدى فداحة الخطأ الذي ارتكبته، ولم أتوقّع شيئاً أقل من أن يكشف أمري في الحال؛ بينما طافت في خيالي فوهات بنادق مُصوّبة إلى وجهي صباحاً. ولكنّي سرعان ما أحسست بالارتياح حين رأيت السيدة تُعطي الرجل دليل المسرح، دون أن تنطق بشيء، لكن القارئ ربّما يُدرك من خلال دهشتي.. وذهولي العميق.. مدى الارتباك في قلبي وروحي.. عندما، بعد ذلك

فوراً، نظرت مرة أخرى خفية حولها، تركت نظراتها تسقط في ثبات على عيني، وبعد ذلك، في ابتسامةٍ خافتة، كشفت عن صف أسنانٍ براقة تُشبه اللؤلؤ، وانحنى رأسها مرّتين، عن قصدٍ، وصراحة، وتأكيد.

ربّما كان من غير المُجدي التطرّق إلى فرحتي.. وتغيّر حالتي.. ومدى نشوة قلبي غير المحدودة. إذا حصل أن أُصيب إنسان بالجنون من فرط السعادة، فذلك هو أنا نفسي في تلك اللحظة. لقد وقعتُ في الحب. وكان ذلك حُبّي الأول.. هكذا [802]أحسست به.. حبّاً سامياً.. لا يُمكن وصفه. «حب من أول نظرة»؛ من أول نظرة عرفت الحب وعدت إليه.

نعم، عدت إليه. كيف ولماذا، لن أشكّ في هذا لحظة. أيُّ تفسير آخر يُمكن أن أنسبه لمثل هذا التصرف، من جانب سيدةٍ مهيبة بهذا الجمال.. غنية بمثل ذلك الغنى.. واضح أنّها مُهذّبة.. ومن محتدٍ كريم.. ولها مكانة مرموقة في المُجتمع.. في كل شأنٍ هي مُحترمة مثلما أحسست في ثقة بإزاء مدام لالاند؟ نعم، كانت تُبادلني الحب.. ردت على لهفة قلبي بمثلها، بلهفة خالية من التفكير، عمياء.. لا تعرف المساومة.. غير محسوبة العواقب.. مُتجرّدة.. مُتحرّرة من أي قيود كلهفتي! غير أن هذه التخيلات والتأملات اللذيذة قطعها الآن نزول الستارة. ونهض الجمهور؛ وبدأت الفوضى العادية في مثل هذه المواقف مُباشرة. وتركتُ رفيقي تالبوت حالاً، وسعيت لأن أشق طريقي حتى أصل إلى مكانٍ قريب من مدام لالاند ما استطعت ذلك. ولكنّي أخفقت بسبب الزحام، ثم تخلّيت عن المُطاردة أخيراً، واتّجهت إلى المنزل؛ واكتفيت بالإحباط الذي انتابني في عجزي حتى عن لمس حاشية ثوبها، وأخذت أُفكر في أنّ تالبوت يجب أن يُعرّفني عليها، رسمياً، صباح يوم غد.

وجاء الصباح، بمعنى آخر، جاء فجرُ يومٍ جديد بعد ليلة مُسهّدة كم تخلّلها من الضجر؛ ثم توالت الساعات حتى زحفت «الواحدة» مُتثاقلة كأنّما تشدّها مسامير، مع كوابيس مُخيفة، لا تُعد ولا تُحصى. لكن لا بُدّ لكل شيء من نهاية، وجاءت النهاية لكل هذا الضجر. ودقت الساعة. ولما تبدّد آخر صدًى لها، قفزت واتجهت إلى منزل ب. وسألت عن تالبوت.

«في الخارج»، قال الخادم.

«في الخارج!» ردّدت، وكنت أترنّح إلى الوراء ربّما ست خطوات.. «دعني أُخبرك، يا عزيزي، أنّ هذا مُستحيل تماماً وغير منطقي؛ السيد تالبوت لم يخرج؛ ماذا تعني؟».

«لا شيء، يا سيدي؛ السيد تالبوت ليس في المنزل فحسب، هذا كل ما في الأمر. لقد ركب فرسه مُتجهاً إلى س. مُباشرة بعد الإفطار، وترك خبراً بأنّه لن يرجع إلى البلدة قبل أُسبوع».

وقفت هُناك يعتريني الذعر والغضب. حاولت أن أرد، لكن لساني انعقد ورفض أن يؤدي وظيفته. وأخيراً رجعت على أعقابي، يملأ قلبي السخط، وكنت أتخيل أنّ قبيلة تالبوت كلها تعيش في مجاهل الجحيم. كان واضحاً أنّ صديقي المُخلص نسي كل شيء عن موعده معي.. بل نسي الوعد حالماً أعطاه لي. لم يكن في أي وقت من الأوقات رجلاً حريصاً على كلمته. لكن لا فائدة تُرجى الآن؛ وحاولتُ تهدئة غضبي بقدر استطاعتي، وتمشيت يُصاحبني مزاجي النكد على [803]الشارع، كنت أجترّ تأملاتي وتساؤلاتي العقيمة عن مدام لالاند وكنت أُصرّح بها لأي شخص من معارفي. ومن خلال ما سمعته، كانت شخصية معروفة، كما اكتشفت، من قبل الجميع.. من قبل الكثير الذي رأوها.. لكنّها لم تأت إلى البلدة إلا منذ بضعة أسابيع، وهُناك عدد قليل جدّاً من الأشخاص الذين قالوا: إنّهم يعرفونها شخصياً. هؤلاء القلة، بما أنّهم غرباء نسبياً، لم يستطيعوا، أو لم يرغبوا، في التطوع لتقديمي إليها في زيارة صباحية رسمية. وبينما كنت يائساً هكذا أتحدّث مع ثلاثة من الأصدقاء حول الموضوع الذي شغل ذهني وسَلب لُبّي، تطرّق الأصدقاء مُصادفة إلى الموضوع نفسه.

«طوال حياتي التي عشتها بقي شكلها الجميل كما هو ولم يتغيّر!» هتف أحدهم.

«جمالها من نوعٍ عجيب!» هتف آخر.

«إنّها ملاك يمشي على الأرض!» قال ثالث.

نظرت؛ وفي عربة مكشوفة كانت تقترب منا، مرّت ببطء على الشارع، جلست السيدة الساحرة التي رأيتها في الأوبرا في رفقة سيدة أُخرى أصغر سنّاً كانت تشغل مقعداً في مقصورتها.

«رفيقتها التي ترتدي ملابس فاخرة»، قال أحد أصدقائي الثلاثة الذي تكلّم أول مرّة.

«شيءٌ مُذهل»، قال الثاني؛ «لا تزال رائعة الجمال، لكن الفن يصنع الأعاجيب. على مسؤوليتي، إنّها تبدو أجمل ممّا كانت عليه في باريس منذ خمس سنوات. لا تزال جميلة.. ألا تعتقد ذلك، فرواسار؟.. سمبسون، أقصد».

«لا تزال!» قلت، «ولماذا لا تكون جميلة؟ لكن مُقارنة مع صديقتها فهي صاعقة.. تُضفي تألقاً على نجمة المساء.. وهجاً نورانياً.. نجمة أنتاريس».

«هاه! هاه! هاه!.. عجيب، سمبسون، لديك براعة مُذهلة في الاكتشاف.. أشياء أصيلة، أقصد». وهُنا افترقنا، بينما بدأ واحدٌ من الثلاثة يهمهم بأغنية مرحة، لم ألتقط منها غير هذه الأبيات..

نينون، نينون، نينون، فلتسقطي..
لتسقط نينون دو لونغلوز!»[2].

لكن أثناء هذا المشهد القصير، حدث شيءٌ أدى إلى تعزيتي، مع أنّه زاد في اضطرام العاطفة التي كانت تحرقني. بينما كانت عربة مدام لالاند تتدحرج بالقرب منّا، ربما لاحظتُ أنّها تعرفت علي؛ بل الأكثر من ذلك أنّها حيّتني بأكثر الابتسامات سحراً التي يتخيّلها المرء، دون أن تُبدي أي علامة واضحة على أنّها تعرّفت عليّ.

أما فيما يتعلّق بمسألة التعارف، فكنت مُضطراً للتخلي عن أي أمل في هذا

---

(2) نينون: غانية من القرن السابع عشر اشتهرت بالحكمة والدهاء والجمال حتى عندما كانت عجوزاً، قيل: إنّ الرجال كانوا يعشقونها وهي في التسعين. [المترجم]

الشأن حتى يحين الوقت الذي يتصوّر فيه تالبوت أنّ من المُناسب الرجوع إلى البلد. في هذه الأثناء حرصت على التردد إلى أي مكان معروف يوفّر المتعة العامة؛ [804]وأخيراً، ذهبت إلى المسرح الذي رأيتها فيه لأول مرة، وكنت أتوقّع أن ألتقي بها، ونتبادل النظرات مرة أُخرى. لكن هذا لم يحصل، حتى انقضى أسبوعان. وفي كل يوم، خلال هذه الفترة، كنت أسأل عن تالبوت في الفندق الذي يُقيم فيه، وفي كل يوم كان يعتريني الغضب بعد أن أسمع العبارة التي لا تكاد تتغير «لم يرجع بعد» من خادمه.

وهكذا، في المساء الذي نتكلّم عنه، كنت في حالةٍ قريبة من الجنون. مدام لالاند، كما قيل لي، امرأة باريسية.. وصلت مؤخراً من باريس.. ألا يُمكن أن ترحل فجأة؟.. ترحل قبل أن يظهر تالبوت.. ربما تضيع منّي وإلى الأبد؟ الفكرة كانت مُرعبة ولا يُمكن تحمّلها. ولأنّ سعادتي المُستقبلية مُرتبطة بهذه المسألة، قرّرت التصرّف بحزم ورجولة. بعبارة مُختصرة، بعد تلك المسرحية تتبّعت السيدة إلى مكان إقامتها، وعرفت العنوان، وفي صباح اليوم التالي أرسلت إليها رسالة مطولة، سكبت فيها مكنونات قلبي.

تكلمتُ بشجاعة، بحرية.. باختصار، عن العواطف التي تسكن صدري. لم أخفِ شيئاً عنها.. لا شيء حتى ضعفي. وألمحت إلى الظروف الرومانسية للقائنا الأول.. وأشرت إلى النظرات التي تبادلناها. ومضيت بعيداً إلى درجة أن قلت لها: إنني أحسست بالثقة من حبها لي؛ بينما عبّرت عن هذه الثقة، وعن شدة إخلاصي لها، وأنّها من الأعذار التي تُبرّر تصرّفي الأهوج. وكعذر آخر، تكلّمت عن خوفي من أنّها ربّما تترك المدينة قبل أن أنال فرصة للتعارف رسمياً. واختتمتُ أكثر الرسائل شوقاً التي يُمكن أن يُسطّرها القلم، بتصريحٍ واضح عن ظروفي المادية.. وصفت فيه وضعي الحالي ومكانتي في هذا العالم.. وتقدّمت لها من قلبي بعرضٍ للزواج.

وبقيت0أنتظر والألم يعصر قلبي الرد. ومرت فترة تكاد تبدو قرناً، وجاءني الرد.

نعم، جاء الرد فعلاً. ردٌّ رومانسي مثلما يتوقّع المرء من كل هذا.. تلقّيت رسالة من مدام لالاند.. الجميلة، الثرية، المحبوبة مدام لالاند. عيناها.. عيناها الجميلتان لم تُخيّبا آمال قلبها النبيل. مثل أي امرأة فرنسية حقيقية امتثلت لما يُمليه عليها العقل.. النبض الكريم لطبيعتها.. يستخف بمظاهر الحشمة التقليدية للعالم. لم تسخر من مُقترحاتي. لم تخفِ نفسها وراء الصمت. لم ترجع رسالتي دون أن تفتحها. أرسلت ردّاً على رسالتي كتبته بأناملها الرقيقة. وكان الرد:

«مسيو سمبسون سوف تعذرني على عدم الكلام بلهجة بلادك الجميلة كما [805]تتوقّع. لم أصل إلا في وقتٍ مُتأخر، ولم تتسن لي فرصة للرد.. إلا بعد دراسة رسالتك».

«بعد هذا الاعتذار، سوف أقول، يا للأسف!.. مسيو سمبسون إنّك خمّنت فأصبت. فهل أحتاج لأن أقول أكثر؟ يا للأسف! لا أستطيع التصريح بأكثر من هذا!».

يوجين لالاند

هذه الرسالة النبيلة.. المُفعمة بالروح قبّلتها مليون مرة، ولا شك أنّني ارتكبت آلاف الحماقات الأُخرى التي هربت من ذاكرتي الآن. ومع ذلك لم يرجع تالبوت. يا للأسف! أيُمكن أن يكون قد خطرت له أي فكرة عن المُعاناة التي سببها غيابه لصديقه، ألا يُمكن أن تدفعه طبيعته المُتعاطفة فيأتي لنجدتي؟ ومع ذلك لم يأت. وكتبت له. وأجابني. كان مُرتبطاً بعملٍ مُهم.. سوف يعود عما قريب. وتوسّل إليّ ألّا أفقد صبري.. وأن أعتدل في تصرفاتي.. وأن أقرأ كتباً تسلّي عنّي.. وأن لا أشرب شيئاً أقوى من نبيذ الراين هوك.. وأن ألجأ إلى التفكير المنطقي لمساعدتي. يا له من غبي! إذا كان لا يستطيع المجيء بنفسه، عجيب، باسم كل شيء منطقي، ألم يكن باستطاعته أن يرفق لي رسالة تُساعدني في التعرّف عليها؟ وكتبت له مرة أُخرى، رجوته أن يُرسل ورقة تعارف على

الفور. وعادت رسالتي بيد ذلك الخادم، وكتب عليها التخويل التالي بقلم رصاص. الوغد انضمّ إلى سيده في البلد:

«غادر س. يوم أمس، إلى مكانٍ مجهول.. لم يقل إلى أين.. أو متى يعود.. لذا تصوّرت أنّ من الأفضل إرجاع الرسالة، بعد أن عرفت خط يدك، أعرف أنّك دائماً، على نحو أو آخر، في عجلةٍ من أمرك.

صديقك المُخلص،

ستبز».

بعد هذا، لا حاجة للقول إنّني شتمت السيد وخادمه الخاص بأقذع الألفاظ.. لكن لا فائدة تُرجى من الغضب، ولا تعزية من الشكوى.

ومع ذلك بقي لديّ ملجأ آخر يتمثّل في تهوّري المعروف عنّي. حتى الآن خدمني ذلك كثيراً، والآن عقدتُ عزمي على أن أستغلّ الأمر حتى النهاية. بعد المُراسلات التي تبادلناها، فأيّ عملٍ طائش لن تعتبره مدام لالاند غير مُهذّب؟ منذ أن أرسلت الرسالة كنت مُعتاداً أن أُراقب منزلها، وهكذا اكتشفت، عند الغسق [806]تقريباً، أنّ من عادتها التنزه لا تُصاحبها سوى خادمة زنجية بزيّها المُميّز، في ساحة تطل عليها نوافذ المنزل. هُنا، بين الحدائق المُترفة التي تُحيط بها الظلال، في العتمة الرمادية لمساء أحد أيام مُنتصف الصيف الجميلة، فكرت في أنّها فرصتي التي لا بُدّ أن أنتهزها.

كان من الأفضل أن اخدع الخادمة التي تُرافقها، وفعلت هذا وكانت نفسي مملوءة بالثقة من التعارف القديم. بحضور ذهن امرأة باريسية حقيقية، فهمت الأمر حالاً، ولكي ترحّب بي مدّت يديها الفاتنتين النحيفتين. وسقط المُخمل فوراً إلى المؤخرة.. والآن، بقلبين يطفحان بالشوق، تحدثنا طويلاً وبلا تحفّظ عن حبّنا.

ولأنّ مدام لالاند كانت تتحدّث الانكليزية بطلاقة أقل من كتابتها لها، كانت مُحادثتنا بالفرنسية بالضرورة. بهذه اللّغة العذبة، التي تُلائم موضوع الحوار

العاطفي، وأطلقتُ العنان للطيش الذي هو من طبيعتي، وبطلاقة لسانٍ لم يعُد بإمكاني السيطرة عليها، طلبتُ يدها للزواج فوراً.

ردّاً على هذا التسرّع ابتسمت. وأثارت حكاية قديمة عن مُتطلبات اللياقة.. ذلك البعبع الذي يمنع الناس من التمتع بمباهج الحياة حتى تضيع الفرصة من أيديهم إلى الأبد. كنت قد اطّلعتُ أصدقائي بحماقتي المعهودة، كما لاحظت هي، على رغبتي في التعرّف عليها.. هكذا حتى لو لم يتحقّق ذلك.. هكذا، مرة أُخرى، بحيث لا يوجد احتمال لإخفاء تاريخ تعرّفنا الأول. ثم أشارت، وهي خجلة، إلى قرب هذا التاريخ. إذا تزوّجنا مُباشرة فهذا ليس مُناسباً.. لن يكون لائقاً.. بل غريباً. قالت كلّ هذا في سذاجة ساحرة أبهجتني وأحزنتني وأقنعتني في وقتٍ واحد. حتى إنّها تمادت إلى درجة أن اتّهمتني، وهي تضحك، بالتهور.. بالحماقة. وطلبت منّي أن أتذكّر أنّني في الواقع لا أكاد أعرف من تكون.. وما طموحاتها، وعلاقاتها، ومكانتها في المُجتمع. وتوسلت إليّ، وكانت تتنهّد، أن أُعيد النظر في مُقترحي، وقالت: إنّ حبي لها مُجرّد افتتان مؤقت أو نزوة عابرة أو خيال أو وهم وليد اللحظة.. إنّه شيء من وحي خيال مُتذبذب لا أساس له وغير نابعٍ من القلب. هذا ما عبّرت عنه بينما كانت ظلالُ الغسق الجميلة تتجمّع وتزداد ظلمة على ظلمة حولنا.. ثم، في لمسةٍ لطيفة من يدها الساحرة، هدّمت في لحظة كل الحجج المنطقية التي ساقتها.

ورددت عليها بأفضل ما استطعت ابتكاره من السبل.. مثلما يُمكن لعاشقٍ حقيقي أن يفعل. وتكلمتُ مطولاً، وبمُثابرة عن إخلاصي، عن عواطفي.. عن [807]جمالها الأخّاذ، عن إعجابي المُتهوّر. وبالنتيجة، تطرّقت في حماسٍ مُقنع، إلى المخاطر التي تُحيط بهذا الغرام.. مثل هذا النوع من الحب الحقيقي لا يُمكن أبداً له أن يجري بسلاسة دون عقبات.. وهكذا استنتجت الخطر الواضح من جعل المدة تطول من غير ضرورة.

هذا السياق في النقاش أدّى أخيراً إلى التخفيف من تصميمها. فأذعنت؛ مع أنّه تبقى صعوبة أُخرى، كما قالت، وكانت تحس بأنّها مُتأكدة أنّني لم آخذها بنظر الاعتبار. وهي مسألة حساسة.. تحس المرأة خاصة بالإحراج لأن تذكرها،

ولكن كان عليها أن تُضحّي بمشاعرها الأنثوية؛ ومع ذلك فأي تضحية من أجلي ينبغي أن تُنجز. لقد ألمحت إلى موضوع الاختلاف في السن. هل كنت أدرك.. هل كنت أدرك الاختلاف بيننا في هذا الشأن؟ عمر الزوج، ينبغي أن يكون أكبر ببضع سنين.. أو حتى بخمس عشرة أو عشرين سنة.. عن عمر الزوجة، وهذا شيء ينظر إليه العالم على أنّه من المعقول، أو في الواقع، هو شيء صحيح، لكنّها دائماً كانت تعتقد أنّ سنوات عمر الزوجة لا ينبغي أبداً أن تتجاوز عمر الزوج. هذا الاختلاف غير الطبيعي سوف يؤدي، في أحيان كثيرة، ويا للأسف! إلى حياة تعيسة. الآن هي تعرف أنّ عمري لم يتجاوز اثنتين وعشرين سنة؛ وأنا، على العكس من ذلك، لم أكن أعرف أن عمر حبيبتي يوجين تجاوز ذلك كثيراً.

في كل هذا الكلام وجدت سمّواً في الروح.. كرامة وصراحة.. أبهجتني.. سحرتني.. جعلتني أنجذب إليها أكثر. لم يكن في وسعي كبح عواطفي الجياشة التي كبّلتني.

«حبيبتي الغالية يوجين»، هتفت، «ما هذا الذي تتكلّمين عنه؟ سنوات عمرك تتعدّى قليلاً سنوات عمري. وماذا في ذلك؟ عادات العالم مُجرّد تفاهات تقليدية. بالنسبة إلى المُحبين مثلنا، بأي شيء تختلف السَّنة عن الساعة؟ عمري اثنتان وعشرون سنة، كما تقولين، وأنت واثقة؛ في الواقع يُمكنك القول: إنّ عمري ثلاث وعشرون في الحال. والآن بالنسبة إليك، يا عزيزتي يوجين، يمكنك أن تعدي ليس أكثر من.. يُمكنك أن تعدّي ليس أكثر من.. ليس أكثر من.. من.. من..».

هُنا توقفتُ لحظة، مُتوقعاً من مدام لالاند أن تُقاطعني وتذكر عمرها. غير أنّ السيدة الفرنسية نادراً ما تجيب عن، بل دائماً، سؤالٍ مُحرج بطريقة مُباشرة، وتُفضّل أن تردّ بجوابٍ عملي من ابتكارها الشخصي. في الحالة هذه، بقيت يوجين صامتة بضع لحظات بدت خلالها كأنّها تبحث عن شيء في صدرها، وأخيراً سقطت منها على العشب ميدالية صغيرة تحمل صورة، وسرعان ما التقطتها فوراً وأعطتها لها.

«احتفظ بها!» قالت وهي تبتسم على طريقتها الفاتنة. «احتفظ بها من أجلي.. [808]من اجل المرأة الجميلة التي تظهر في الصورة. إلى جانب هذا، على ظهر الحلية ربّما ترى المعلومات التي يبدو أنّك ترغب في معرفتها. والآن، إذا شئت الصدق، الدنيا تزداد ظلاماً.. ولكن يُمكنك رؤيتها في وقت فراغك صباحاً. في هذه الأثناء، سوف تُرافقني إلى البيت الليلة. أصدقائي ينوون إقامة حفلة موسيقية بسيطة على شرفي. أستطيع أن أعدك أيضاً بأنّك سوف تسمع شيئاً من الغناء الشجي. نحن الفرنسيون لا نُدقّق في الرسميات كثيراً مثلكم أنتم الأمريكان، ولن أواجه صعوبة في تهريبك، بصفتك أحد أصدقائي القدامى».

بعد أن قالت هذا، أمسكت ذراعي، ورافقتها إلى المنزل. كان منزلها جميلاً حقّاً، وأتصوّر أنّه مؤثث بذوق رفيع. إلّا أنّ هذه النقطة الأخيرة نادراً ما أجد نفسي مؤهلاً للحكم عليها بكفاءة؛ في أي منزل أمريكي من النوع الراقي، لا يجد المرء الأضواء قوية عادة في حرارة الصيف اللاهب، خلال هذه الفترة من المساء. بعد ساعة تقريباً من وصولي، بقي مصباح نفطي مُظلّل مُضاءاً في غرفة الجلوس الرئيسية؛ هذه الشقة، كان في وسعي رؤية ذلك، مُرتّبة بأثاث جميل يُضفي عليها إشراقاً وأناقة، وهُناك غرفتان غير التي ذكرتها، تجمّع فيهما الحاضرون أساساً، بقيتا طوال المساء، تُحيط بهما ظلال مُحببة إلى النفس. هذه من العادات التي من السهل إدراك مغزاها، فهي تمنح الموجودين على الأقل حرية الاختيار بين الضوء أو الظلال، وليس في وسع أصدقاؤنا فيما وراء البحار إلا اتباع هذا التقليد مُباشرة.

وهكذا قضينا مساءً كان من غير شك من أروع الأوقات في حياتي. لم تُبالغ مدام لالاند في وصف المواهب الموسيقية لأصدقائها؛ وكان الغناء الذي سمعته هُنا يفوق ما سمعته في صالات فيينا الخاصة. كان العازفون على الآلات كثيرين ويتمتّعون بمواهب فائقة. والمُنشدون أغلبهم من النساء، وليس من أغنية فردية أقل جودة من الأُخرى. وأخيراً، تمّ استدعاء مدام لالاند على عجل، فنهضت فوراً، دون أن تُبدي اعتراضاً، من الأريكة التي كانت تجلس عليها بجانبي، ورافقها رجلٌ أو رجلان وصديقتها التي رأيتها في الأوبرا، واتّجهت إلى

البيانو في غرفة الاستقبال الرئيسية. وكنت سأُرافقها بنفسي، لولا أنّني أحسست، في تلك الظروف التي تزامنت مع دخولي إلى المنزل، أنّ من الأفضل لي البقاء في مكاني. ولهذا حُرمت من متعة أن أرى، وليس أن أسمع، غناءها.

بدا الانطباع الذي تركته في نفوس الحاضرين كأنّه صعقة كهربائية مع أنّ [809]تأثيرها عليّ كان يفوق ذلك. لا أعرف كيف أصف الأمر بما يكفي. نهضتُ من مكاني جزئياً، لا شكّ في هذا، من فرط الهيام الذي اجتاحني بجمالها؛ لكن ذلك أساساً بدافع من قناعتي بعبقرية غنائها. كان خارج قدرة الفن الدنيوي التعبير بتلك الصورة المثالية التي قدمتها.. تلفظها لمقاطع من مُناجاة عطيل الرومانسية.. النغمة التي نطقت بها الكلمات لا تزال ترن في ذاكرتي حتى اليوم. نبرات صوتها في التونات المُنخفضة إعجازية حقّاً. صوتها يصل إلى ثلاث جمل موسيقية كاملة تمتد من الكونترالدو الثالث إلى السوبرانو العالي، ورغم قوّته بما يكفي لأن يملأ قاعة سان كارلوس في نابولي، نفذته بأقصى دقة، وتغلبت على كل صعوبة في التركيب الصوتي.. وكان صوتها يعلو ويهبط من أعلى درجات السلم الموسيقي حتى أدناه. وفي نهاية أغنية السومنامبولا، أحدثت أقصى تأثير للكلمات التي أجادت في أدائها..

هُنا، في مُحاكاة لمالبوران، عدّلت العبارة الأصلية لبليني، كيما تترك صوتها ينخفض إلى طبقة مُتوسطة، حينها في انتقالة سريعة، وصلت فجأة إلى ذروة الإتقان بشكل لا يُمكن أن يؤديه غيرها.

لدى نهوضها من البيانو بعد هذه المُعجزات في الأداء الموسيقي، عادت إلى كرسيها لتجلس بجانبي؛ وعبّرتُ لها في حماسٍ عميق عن مدى بهجتي وإعجابي بأدائها. لم أقل شيئاً لكي أصف دهشتي، رغم أنّي كنت مُندهشاً بلا تكلّف؛ لأنّ نوعاً من الضعف، أو بالأحرى التهدّج الصوتي في كلامها العادي معي، جعلني أتوقّع أنّها لن تتمكّن من أداء ذلك الغناء القوي الذي سمعته منها.

الآن امتدت مُحادثتنا طويلاً، كانت جادة، غير مُنقطعة، ومن غير تكلّف إطلاقاً. دفعني الاسترسال في الكلام معها لأن أروي لها الكثير من الحوادث

المُبكرة التي حدثت في حياتي، وكنت أصغي باهتمام فلا أكاد أتنفّس إلى كل كلمة من حديثها. ولم أخف عنها شيئاً.. وأحسست أن لدي الحق في أن لا أخفي أي شيء.. عن التي أثق في تعاطفها. وشجعتني صراحتها بخصوص نقطة حساسة تتعلّق بالعمر، ودخلت بصراحة تامة، ليس في تفاصيل مُملّة عن الكثير من الرذائل التافهة التي قمت بها فحسب، لكنّي قدّمت اعترافاً كاملاً عن المسائل الأخلاقية وحتى المادية غير المؤكدة، والتي كان الكشف عنها يتطلّب درجة عالية من الجرأة في سبيل تقديم دليل أكثر تأكيداً على الحب. وتطرقتُ إلى حماقاتي في أيام الكلية.. وإلى [810]تبذيري.. وإلى إفراطي في الشرب.. وإلى ديوني.. وإلى مُغازلاتي. وتماديت إلى درجة أنّني تكلّمت عن حمى صاحبها سعالٌ طفيف ربّما كانت من السل الرئوي، أُصبت بها ذات مرة.. وعن روماتزمٍ مُزمن.. وعن وخزات نقرس وراثي تنتابني أحياناً.. و.. بالتالي أخبرتها عن ضعف بصري المُزعج بالنسبة لي، مع أنّه بقي حتى الآن مخفياً عن الآخرين.

«بشأن هذه النقطة الأخيرة»، قالت مدام لالاند وهي تضحك، «كنت حتماً إنساناً أحمق لأن تعترف بها؛ لولا هذا الاعتراف، فأنا واثقة أن احداً ما كان ليتّهمك بشيء. وبالمُناسبة»، تابعت كلامها، «هل تتذكّر..» وهُنا تخيّلت توردأ من الخجل، رغم العتمة في الشقة، يكاد يبدو واضحاً على خدها.. «هل تتذكّر، يا حبيبي هذه الوسيلة البصرية المُساعدة التي تتدلّى الآن من عنقي؟»".

وأثناء كلامها كانت أصابعها تمسك عدسة النظارات التي غمرتني بالارتباك في قاعة الأوبرا.

«أتذكّر جيداً.. ويا للأسف! أتذكّرها»، هتفت، وكنت أضغط في رفق على اليد الرقيقة التي قدّمت لي النظارات لأتفحّصها. كانت مثل لعبة رائعة موشاة ومُخرمة بزخارف غنية، وعليها جواهر لامعة، حتى في الضوء الكليل، كنت أستطيع تخمين قيمتها العالية.

«حسناً، يا صديقي العزيز!» قالت في خيلاء أذهلتني.. «حسناً يا صديقي العزيز! لقد طلبت مني شيئاً، وكنت مسروراً لأن تعتبره بلا ثمن. طلبت يدي في

الصباح. إذا أذعنت إلى توسلاتك.. ربّما أُضيف، إذا أذعنت إلى توسلات قلبي.. ألّا يُعطيني ذلك الحق في أن أطلب منك شيئاً صغيراً.. صغيراً جدّاً بالمُقابل؟».

«قولي ذلك!» هتفتُ بحماس كاد يُثير انتباه الحاضرين، وأحجمت بسبب وجودهم وحده عن أن ألقي بنفسي في طيش عند قدميها. «قولي ذلك، يا حبيبتي، يوجين، يا أعز من حياتي!.. قولي لي!.. لكن، يا للأسف! طلبك مُستجاب حتى قبل أن تسميه».

«سوف تتغلّب، إذن، يا حبيبي»، قالت، «من أجل يوجين التي تعشقها، على نقطة الضعف التافهة هذه التي اعترفت بها على الأقل.. هذا الضعف معنوي أكثر منه مادي.. وهو، دعني أؤكد لك، غير لائق بنبل طبيعتك الحقيقية.. ولا ينسجم أبداً مع شخصيتك بصراحة.. إن لم تتغلّب عليه حتماً سوف يورطك، عاجلاً أو آجلاً، [811]فيجعلك في وضع لا تُحسد عليه. لكنك سوف تتغلّب من أجلي على هذا الشعور الذي يقودك، كما اعترفت أنت بنفسك، إلى الإنكار الصريح أو الضمني لضعف بصرك. لأنّك تُنكر هذا من خلال رفضك أن تستخدم الوسائل العادية للتخلّص من مشكلتك. سوف تفهمني إذن عندما أقول: إنّني أريدك أن تضع النظارات.. آه، اسكت!.. وافقت قبل الآن عليها، من أجلي. سوف تقبل هذه اللعبة الصغيرة التي أمسكها الآن بيدي، مع أنّها تنال الإعجاب كوسيلة لتحسين النظر، فإنّ مجوهراتها ليست ذات قيمة عالية. أنت تدرك، من خلال تعديلٍ بسيط هكذا.. أو هكذا.. يُمكن لها أن تُناسب عينيك، أو ربّما تضعها في جيب سترتك. إلّا أنّها في الطريقة الأُولى أفضل، يُمكنك أن تضعها على عينيك من الحين إلى الحين، وافق على لبسها من أجلي».

هذا الطلب.. يتوجّب أن أعترف.. أصابني بارتباكٍ غير قليل. لكن مع الإلحاح الذي رافقه كان التردّد خارج نطاق التفكير.

«اتفقنا!» قلت بكل الحماس الذي كان في وسعي استجماعه في تلك اللحظة. «اتفقنا.. لقد انتهى الأمر على نحو جيد. سوف أُضحي بمشاعري لأجلك. الليلة ألبس النظارات، وأفعل هذا من قلبي؛ لكن مع بواكير الفجر الذي

يمنحني السعادة حين تُصبحين زوجتي، سوف أضعها على.. على أنفي.. وهُناك سأبقى أحملها بعد ذلك، في رومانسية أقل، وأقل انسجاماً مع الموضة، لكنها حتماً أكثر الطرق عملية، بالقياس إلى الطريقة التي تحبينها».

وهُنا تحوّل حديثنا إلى الترتيبات التي سوف نُجريها غداً. أما تالبوت، فقد علمت من خطيبتي أنّه وصل قبل مدة قصيرة إلى البلدة. وذهبت على الفور لرؤيته، واستأجرت عربة. لم تكن الحفلة الساهرة لتنفضّ قبل الساعة الثانية؛ وفي هذه الساعة كانت العربة تقف عند الباب، وفي خِضَمّ الفوضى التي رافقت انفضاض جمع الحاضرين، كان في وسع مدام ل. أن تدخل بسهولة دون أن ينتبه إليها أحد. كان علينا بعد ذلك الذهاب إلى منزل أحد الكهنة الذي كان ينتظرنا؛ وهُناك تم عقد الزواج، ونزل تالبوت في الطريق، ومضينا في رحلة قصيرة إلى الشرق، تاركين العالم ومن فيه يتداولون أي تعليقات شاؤوا حول المسألة.

بعد أن خطّطنا لكل هذا، استأذنتُ على الفور، وذهبت أبحث عن تالبوت، على الطريق، لم أستطع منع نفسي من دخول أحد الفنادق، وذلك لإلقاء نظرة على اللوحات؛ وفعلت هذا بمُساعدة نظاراتي. كان الانطباع جميلاً جدّاً! تلك العيون الواسعة المُتألقة!.. والأنف الإغريقي الشامخ!.. والتجعدات المُترفة الداكنة!.. [812]«آه!» قلت، في جذلٍ لنفسي، «هذه حقّاً صورة ناطقة لحبيبتي!» قلبت اللوحة، واكتشفت الكلمات.. «يوجين لالاند.. عمرها سبع وعشرون سنة وسبعة أشهر».

وجدت تالبوت في المنزل، وتقدّمت مُباشرة لأطْلعه على الأخبار السعيدة التي لدي. وعبّر الرجل عن استغرابه الشديد طبعاً، لكنه هنأني من قلبه، وأبدى استعداده لتقديم أي مُساعدة مُمكنة. باختصار، مضينا في وضع ترتيباتنا حرفياً، وفي الساعة الثانية صباحاً، بعد عشر دقائق من اللقاء، وجدت نفسي في عربة صغيرة مع مدام لالاند.. السيدة سمبسون، كان يتوجّب عليّ أن أقول هذا.. ننطلق مسرعين تاركين البلدة، باتّجاه الشمال الشرقي.

كان تالبوت هو الذي خطط لرحلتنا، بما أننا سوف نبقى مُستيقظين طوال الليل، فعلينا أن نتوقّف أول مرة في قرية س..، على بُعد حوالى عشرين ميلاً عن

المدينة، وهُناك نتناول الإفطار في وقت مُبكر ونأخذ قسطاً من الراحة، قبل الانطلاق من جديد على الطريق. وفي الساعة الرابعة تماماً، اقتربت العربة من باب نزلٍ كبير. رافقت زوجتي الحبيبة وطلبت إحضار الإفطار على الفور. في هذه الأثناء اتجهنا إلى ردهةٍ صغيرة، وجلسنا هُناك.

كان الوقت مُبكراً، لم تشرق الشمس بعد؛ وبينما كنت أنظر وأنا في أقصى حالات الهيام إلى الملاك الجالس قُربي، خطرت لي فكرة غريبة، على حين فجأة، وتصورتُ أنّها كانت أول لحظة منذ أن تعرّفت على محبوبتي الشهيرة مدام لالاند، أن أحظى بفرصة لرؤيتها في ضوء النهار.

«الآن، يا حبيبي»، قالت وهي تمسك يدي، وتقطع سلسلة أفكاري، «الآن، يا حبيبي الغالي، ما دمنا أصبحنا شخصاً واحداً.. ما دمتُ قد أذعنت إلى توسلاتك، وأدّيت الجانب المُتعلّق بي من الاتفاق.. أتصوّر أنّك لم تنسَ وعدك لي بذلك الشيء البسيط.. الوعد كنت تنوي أن تفي به. آه! دعني أرى! دعني أتذكّر! نعم؛ أتذكّر بدقة وعدك الذي أعطيته إلى يوجين في الليلة الماضية. اسمع! قلت هذا الكلام: (انتهى الأمر!.. اتفقنا برحابة صدر! إنني على استعداد للتضحية بكل مشاعري من أجلك. الليلة سوف أضع هذه النظارة العزيزة على عيني، وعلى قلبي؛ مع أول شعاع للفجر الذي يمنحني شرف أن تكوني زوجتي، سوف أضعها على.. على أنفي.. [813]وهُناك سوف تبقى دائماً، في رومانسية أقل، وأقل مواكبة للموضة، لكنها حتماً الطريقة الأكثر فائدة التي ترغبين فيها). هذه كانت كلماتك نفسها، يا زوجي العزيز، أليس كذلك؟»

«إنّها فعلاً»، قلت؛ «ذاكرتك رائعة؛ وبالتأكيد، يا جميلتي يوجين، ليس لديَّ أي نية للتملّص من الوعد البسيط الذي قطعته لك. انظري! شاهدي! إنّها مُلائمة.. إلى حدٍّ ما.. أليس كذلك؟» وبعد أن وضعت النظارات بالشكل الاعتيادي، عدّلتها في حذر شديد حتى تتّخذ موقعها الصحيح؛ بينما كانت مدام سمبسون تعدل قبعتها، ثم طوت ذراعيها، وجلست وهي ساكنة عن الحركة أمامي في كرسيها، واتّخذت هيئة صلبة مُتزمّتة، أو في الواقع، اتّخذت وضعاً غير لائق بعض الشيء.

«يا إلهي!» صحتُ في اللّحظة نفسها تقريباً التي استقرّت فيها حافة النظارات على أنفي.. «يا إلهي!.. عجيب، ما بال هذه النظارات؟» وانتزعتها بسرعة في الحال، وفركتها بعناية بمنديل حريري، ووضعتها ثانية.

لكن إذا كان هُناك من شيء أثار دهشتي أول مرّة، فهذه الدهشة تصاعدت الآن؛ وكانت الدهشة عميقة.. بلغت ذروتها.. في حقيقة الأمر ربّما أقول: تحولت الدهشة إلى ذعر. ماذا، باسم كل شيء بغيض، ماذا يعني هذا؟ هل يمكنني أن أصدّق ما تراه عيناي؟ ..هل يُمكن؟.. تلك هي المسألة. هل كان ذلك.. ذلك.. احمرار الخدين؟ وهل تلك.. هل تلك.. هل تلك التجاعيد، على وجه يوجين لالاند؟ و.. أوه! بحق جوبيتر، وكل الآلهة والآلهات، الصغار والكبار! ماذا.. ماذا.. ماذا ..ماذا حلّ بأسنانها؟ رميت النظارات بقوة على الأرض، ووثبت على قدمي، وقفت ثابتاً على الأرضية، مواجهاً السيدة سمبسون، وكانت ذراعاي مطويتين، كنت أرغي وأزبد، لكن، في الوقت نفسه، لا أنطق بشيء من هول الرّعب والغضب.

سبق أن قلت: إن مدام يوجين لالاند.. بمعنى آخر، سمبسون.. كانت تتكلّم الإنكليزية، لكنها تكتبها بشكل أفضل قليلاً، ولهذا السبب لم تُحاول أبداً الكلام بهذه اللّغة في مُناسبات اعتيادية. غير أنّ حدة الغضب من شأنها أن تحمل أي سيدة إلى أقصى مديات التهور؛ وفي هذه الحالة حملت سيدة سمبسون إلى تصرّف استثنائي جدّاً بأن حاولت الكلام بلغة لم تكن هي نفسها تفهمها.

«حسناً، مسيو»، قالت بعد أن تفحّصتني في استغراب بضع لحظات.. «حسناً، [814]مسيو؟.. ماذا بعد؟.. ما الأمر الآن؟ هل تُفكّر في رقصة القديس؟ إذا لم يكن شكلي يُعجبك، ماذا لو اشتريت الخنزير الذي...؟».

«أيتها التعيسة!» قلت وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة.. «أنت.. أنت.. أنت أيّتها العجوز الشمطاء الحقيرة!».

«آخ! عجوز؟.. لستُ كبيرة في السن إلى هذا الحد، على كل حال! عمري لم يتجاوز اثنتين وثمانين سنة إلا بيوم واحد».

«اثنتان وثمانون!» صرخت، وترنّحت باتّجاه الحائط.. «اثنتان وثمانون مائة ألف قرد! اللوحة تقول: سبعة وعشرون سنة وسبعة أشهر!».

«إذا شئت الحق.. هذا صحيح!.. صحيح جدّاً! لكن الصورة التقطت منذ خمسة وخمسين سنة. عندما ذهبت لأتزوج زوجي الثاني، مسيو لالاند، في ذلك الوقت أخذت لي الصورة ابنتي من زوجي الأول، مسيو مواسارت!».

«مواسارت!» قلت.

«نعم، مواسارت»، قالت وهي تُقلّد ألفاظي، وكان ذلك، إذا قلنا الحق، تمثيلاً لا شيء أفضل منه.. «وماذا أنت فاعل؟ ماذا تعرف عن مواسارت؟».

«لا شيء، أيّتها العجوز المُخيفة!.. لا أعرف أي شيء عنه؛ فقط كان أحد أسلافي يحمل ذلك الاسم، في وقتٍ ما».

«ذلك الاسم! ماذا تقول عن ذلك الاسم؟ هذا اسم جيد؛ وكذلك اسم فواسارت.. اسم جيد أيضاً. ابنتي، مدموزيل مواسارت، تزوجت مسيو فواسارت.. والاسم لرجل مُحترم».

«مواسارت؟» صرخت، «وفواسارت! عجباً، ماذا تقصدين؟»

«ماذا أقصد؟.. أقصد مواسارت وفواسارت؛ ولهذا الغرض، أقصد كرواسارت وفرواسارت أيضاً، كنت فقط أقصد ذلك. وابنة ابنتي، مدموزيل فواسارت تزوجت مسيو كرواسارت، ومرة أُخرى، حفيدة ابنتي، مدموزيل كرواسارت تزوجت مسيو فرواسارت؛ وأتصوّر أنّك ستقول هذا الاسم ليس مُحترماً جدّاً..».

«فرواسارت!» قلت وكنت على وشك أن يُغمى عليّ، «عجباً، بالتأكيد لا تقصدين مواسارت، وفواسارت، وكرواسارت، وفرواسارت؟».

«نعم»، أجابت، وهي تتكئ على كرسيها، وتمدّ أطرافها السفلى إلى أقصى مدى؛ «نعم، مواسارت، وفواسارت، وكرواسارت، وفرواسارت. ولكن مسيو فرواسارت كان رجلاً يُمكن أن نقول عنه: إنه مُغفّل كبير.. كان من الحمقى مثلك

تماماً.. لأنّه ترك فرنسا الجميلة وجاء إلى أمريكا الغبية هذه.. ثم راح يتنقل هُنا وهُناك في هذه المناطق الغبية، يا له من ولدٍ غبي، هكذا سمعت عنه، رغم [815]أنّني لم أحظَ بشرف أن ألتقي به بعد.. لا أنا ولا رفيقتي مدام ستيفان لالاند. اسمه نابليون بونابرت فرواسارت، وأتصوّر أنّك ستقول: إنّ ذلك أيضاً ليس اسماً مُحترماً».

كان لهذا الخطاب الطويل أثره في إثارة السيدة سمبسون وتغيير مزاجها؛ وبينما كانت تنهي كلامها، في جهد بالغ، نهضت من كرسيها كأنّما مسّها نوعٌ من الجنون، وأصدرت على الأرضية ضجيجاً وجلبة وهي تجري. حين وقفت على قدميها، كانت تمضغ العلكة بأسنانها، وتلوّح بذراعيها، وتطوي أكمامها، وتهزّ قبضتها في وجهي، وأنهت ذلك الأداء بأن نزعت القبعة من رأسها، وأثناء ذلك سقطت باروكة كبيرة من أثمن أنواع الشعر الجميل الأسود، وارتطمت بالأرض وأطلقت صرخة، وهُناك راحت تقفز وترقص رقصة إسبانية حول الباروكة في نشوة وغضب مجنون.

في غضون ذلك غطستُ مذعوراً في الكرسي الذي تركته هي «مواسارت وفواسارت!» صرت أُكرر الأسماء مُتفكّراً، بينما كانت تقتلع الريش من جناح حمامتها، و.. «كرواسارت وفرواسارت!» وهي تكمل نتف الجناح الآخر.. «مواسارت وفواسارت وكرواسارت ونابليون بونابرت فرواسارت! عجباً، أيّتها الأفعى العجوز التي لا وصف لها، ذلك أنا.. ذلك أنا.. هل تسمعين؟ ذلك أنا».. وهُنا صرخت بأعلى صوتي.. «ذلك أنا!!!!! أنا نابليون بونابرت فرواسارت! أذا لم أكن قد تزوجت جدة جدتي، سأبقى ملعوناً إلى الأبد!»

مدام يوجين لالاند، ومن الناحية القانونية سمبسون.. وسابقاً مواسارت.. كانت في الحقيقة والواقع جدة جدتي. في شبابها كانت جميلة، وحتى في سن الثانية والثمانين، بقيت قامتها شامخة، وبقيت تُحافظ على قسمات وجهها الجميل، والعينين الجميلتين والأنف الإغريقي طوال فترة صباها. بفضل هذه الأشياء، مسحوق اللؤلؤ، واللون الأحمر، والشعر الزائف، والأسنان الزائفة، فضلاً عن ألاعيب التجميل الباريسية البارعة، تمكّنت أن تحتل مكانة مرموقة

وسط جميلات الحاضرة الفرنسية. في هذا الشأن، في الواقع، ربّما كانوا يعتبرونها أقل بقليل في الشهرة من نينون دو لونغلوز.

وكانت ثرية جدّاً، ولأنّها تركت مرتين أرملة بلا أطفال من زوجيها السابقين، فكّرت في استغلال وجودي في أمريكا، لكي تجعلني وريثها، زارت الولايات المُتحدة، برفقة إحدى قريبات زوجها الثاني من بعيد وكانت سيدة جميلة محبوبة.. تُدعى مدام ستيفن لالاند.

في قاعة الأوبرا، جذب انتباه جدة جدتي اهتمامي بها؛ ولمّا راحت تراقبني [816]من وراء نظاراتها، أذهلها نوع من التشابه مع فرد من عائلتها. وهكذا اهتمت بي، وكانت تعرف أنّ الوريث الذي تسعى إليه موجود في المدينة، وقامت بتحرّيات من جانبها عني. والرجل الذي رافقها كان يعرفني شخصياً، وأخبرها بمن أكون. وبعد أن حصلت على هذه المعلومات دفعتها إلى تجديد تفحصها لي؛ وهذا ما شجعني كثيراً فرحت أتصرف على ذلك النحو العابث الذي شرحته. لكنها ردت على انحناءتي، دفعها إلى ذلك انطباعٌ غريب أنّني ربّما عرفت هويتها. حين خدعني ضعف بصري، وبراعة المكياج، فيما يتعلق بعمر وسحر السيدة الأجنبية، طلبت من تالبوت في حماس أن يُعرّفني عليها، وأستنتج أنّني كنت أقصد السيدة الأصغر سنّاً، هذا شيء طبيعي، وأخبرني في صدقٍ تام، أنّها «الأرملة المعروفة مدام لالاند».

على الشارع، صباح اليوم التالي، قابلتْ جدة جدتي صديقي تالبوت، وهو من معارفها القُدامى في باريس؛ وتحوّل الحديث بشكل طبيعي إلى شخصي أنا. لقد شرح لها حالة ضعف بصري في ذلك الوقت؛ لأنّ هذه النقطة كانت معروفة جدّاً عنّي، على الرغم من أنّني كنت أجهل ذلك، وكشف لها قريبي الطيب القديم، بإزاء انزعاجها الشديد، أنّها كانت مُنخدعة في افتراضها أني أعرف هويتها، وكنت مُجرّد مُغفّل في الأعراب عن حبي صراحة في المسرح إلى سيدة عجوز لا أعرفها. وأرادت أن تُعاقبني على هذه الوقاحة، فرتّبت خطة مع تالبوت. لقد أبعدني مُتعمّداً أن أتعرّف عليها. كانت استفساراتي في الشارع عن «الأرملة الجميلة، مدام لالاند»، يفترض أنّها تُشير طبعاً إلى السيدة الأصغر، ولهذا

فالمُحادثة مع ثلاثة رجال التقيت بهم بعد وقت قصير من مُغادرة الفندق الذي يُقيم فيه تالبوت سوف تتّضح حقيقتها بسهولة، وكذلك تلميحهم إلى نينون دو لونغلوز. لم تسنح لي فرصة لرؤية مدام لالاند عن قُرب في ضوء النهار؛ وفي حفلتها الموسيقية، منعني ضعف بصري السخيف ورفض النظارات من اكتشاف حقيقة عمرها. ولما استدعيت «مدام لالاند» للغناء، كانت تلك السيدة الصغيرة هي التي غنت؛ وهي التي نهضت استجابة للطلب؛ ونهضت جدة جدتي لزيادة الخداع في اللّحظة نفسها ورافقتها إلى البيانو في [817]غرفة الاستقبال الرئيسية. لو كنت قرّرت مُرافقتها إلى هُناك، كانت خُطتها تقتضي الإلحاح بأن أبقى في مكاني؛ لكنّي بفراستي اعتبرت الأمر غير ضروري. كانت الأغاني التي أعجبتني كثيراً، والتي عزّزت الانطباع لديّ بشباب سيدتي، قد أدّتها مدام ستيفاني لالاند. وقدّمت النظارات في سبيل إضافة المزيد من الحبكة على الخدعة.. لمسة إضافية من السخرية على الخدعة كلها. لقد منحني ذلك فرصة لإلقاء محاضرة عن عواطفي الجارفة. من غير الضروري القول: إنّ النظارات التي قدّمت، والتي لبستها السيدة العجوز قد استبدلت بأخرى تُناسب سنوات عمري. وهي في الواقع لم تخطىء في اكتشاف ضعف بصري منذ البداية.

والكاهن الذي تظاهر ليس إلّا بأنّه كان يُبرم عقد الزواج اللّعين، هو مُجرّد رفيق لصديقي تالبوت، ولم يكن بكاهن حقيقي أبداً. لكنّه أدّى دوره ببراعة في اللّعبة؛ وبعد أن خلع عنه ثوب الكاهن لكي يلبس ثوباً آخر، قاد العربة التي نقلت العريسين السعيدين إلى خارج البلدة. وكان تالبوت يجلس إلى جانبه. وبهذا كان الوغدان يُحضّران لحفلة الموت، ومن نافذة شبه مفتوحة تطلّ على الردهة الخلفية للنزل، كانا يُمتعان نفسيهما بمُشاهدة الفصل الأخير للمسرحية. أعتقد أنّني سوف أُعاقبهما معاً.

ومع ذلك، فأنا لست زوج جدة جدتي؛ هذه الفكرة من شأنها أن تمنحني راحة لا حدود لها.. لكني زوج مدام لالاند.. أو مدام ستيفاني لالاند.. التي رتّب قريبي العجوز الطيب القلب مسألة زواجي منها إلى جانب أن أكون وريثها الوحيد إذا ماتت.. إذا حصل أن ماتت يوماً.. خلاصة القول، انتهت علاقتي إلى الأبد مع رسائل الغرام ولن يراني أحدٌ أبداً من غير نظّارات.

الصندوق المُستطيل

منذ سنوات ليست بعيدة ذهبت في رحلة من شارلستون إلى مدينة نيويورك، [818]على متن سفينة صغيرة تُسمّى «الاستقلال»، يقودها القبطان هاردي. كان من المُتوقّع أن نبحر في الخامس عشر من الشهر (حزيران)، إذا ما سمحت الأجواء بذلك؛ ولما حلّ يوم الرابع عشر، صعدتُ على متن السفينة لترتيب بعض الأمور في المقصورة التي حُجزت لي.

اكتشفت أنّ السفينة تحمل عدداً كبيراً من الرّكاب، ومنهم عددٌ لا بأس به من السيدات. على قائمة الرّكاب وجدت عدة أشخاص أعرفهم، وأحسست بالفرح لأن أرى السيد كورنيليوس يات من بينهم، وهو فنانٌ شاب، كانت تربطني به صداقة قوية قديمة. كان من زملائي في جامعة ك.، حيث أمضينا معاً أوقاتاً لا تُنسى. هذا الشاب يكاد يكون من جنس العباقرة، فهو مزيجٌ فريد في نفوره من الغرباء، وحساسيته المُفرطة، وتعصّبه لأفكاره. وإلى جانب هذه الخصال كان يجمع أصدق المشاعر القلبية التي يُمكن أن يضمّها صدر بشري.

لاحظتُ أنّ اسمه كان مُدرجاً على القائمة إلى جانب ثلاث مقصورات فاخرة؛ ولدى الرجوع مرة أُخرى إلى قائمة الرّكاب، رأيت أنه قد حجز مكاناً لنفسه، وزوجته، واثنتين من أخواته.. كانت المقصورات كافيه في اتّساعها، وكل واحدة فيها سريران، واحد فوق الآخر. لكن هذه الأسرّة، إذا توخينا الدقة، ضيقة كثيراً بحيث لا تكاد تتسع لأكثر من شخصٍ واحد؛ ومع هذا، لم أفهم السبب الذي جعلهم يحجزون ثلاث مقصورات لأربعة أشخاص. كنت في تلك الفترة على وجه التحديد في حالة ذهنية تجعلني أهتم بالتفاهات على غير عادتي؛ وأعترف وأنا أشعر بالخجل أنّني قضيتُ كثيراً من وقتي في تخمينات سخيفة وغير

معقولة حول هذه المسألة، لماذا ذلك العدد الفائض من الغرف؟ لم يكن ذلك من شأني، في واقع الأمر، لكنّي أصررت في عناد لا يلين على إيجاد حلٍّ للمعضلة. وأخيراً توصلت إلى استنتاج جعلني أتساءل لماذا لم أصل إليه من قبل. «إنّها للخادم طبعاً»، قلت؛ «يا لي من أحمق، كيف لم تخطر على بالي هذه الفكرة التي من الواضح أنّها تحسم الأمر!» ثمّ [819]عدت إلى القائمة مرة أخرى.. لكنّي هُنا لم أجد فيها أي خادم يُرافقهم، على الرغم من أنّ الخطة الأصلية كانت تقتضي جلب خادم.. لأنّ كلمات «مع خادم» كانت مكتوبة أولاً ثم حُذفت. «أوه، ربّما تكون أمتعة إضافية، إذا شئنا توخّي الدقة»، قلت الآن لنفسي.. «أو أي شيءٍ أراد أن يأتي به معه كحمولة.. شيء كان يريد إبقاءه تحت بصره.. آه، وجدتها.. لوحة أو ما شابه ذلك.. هذا ما كان يُساوم عليه مع نيكولينو، اليهودي الإيطالي». واقتنعت بهذه الفكرة، وتجاهلت فضولي نهائياً.

كنت أعرف أُخْتَي يات جيداً، فهما من الفتيات المحبوبات وتتمتعان بالذكاء. أما المرأة التي تزوّجها قبل مدة قصيرة، فلم يسبق أن رأيتها. لكنّه غالباً ما كان يتكلّم عنها في حضوري، بطريقته الحماسية المعهودة. وكان يصفها بأنّها ذات جمال خارق، وتتمتّع بالحكمة والدهاء، والاكتمال في كلّ الصفات. ولهذا كنت أشعر بالتلهّف للتعرّف عليها.

في اليوم الذي صعدتُ فيه إلى السفينة (اليوم الرابع عشر)، كان يات وجماعته موجودين هُناك.. هكذا أخبرني القبطان.. وانتظرت على سطح السفينة مدة ساعة أكثر ممّا كان مُقرّراً، على أمل أن أتعرف على العروس، لكن بعد ذلك جاءني اعتذار. «السيدة ي. ليست في حالة صحية جيدة، وهي ترفض الصعود حتى يوم غد، مع ساعة الإبحار».

وجاء يوم الغد.. وكنت خارجاً من الفندق الذي أُقيم فيه مُتوجّهاً إلى المرفأ، عندما التقى بي القبطان هاردي وقال، «بسبب بعض الظروف الطارئة» (وهي عبارة بلهاء مع أنّها تلائم الوضع)، «أتصوّر أنّ سفينة الاستقلال لن تُبحر إلا بعد يوم أو يومين، وعندما يكون كل شيء جاهزاً، سوف أُرسل من يُخبرك بذلك». كنت أعتقد أنّ هذا أمر غريب، لأنّ هُناك ريحاً جنوبية قوية؛ ولأن

«الظروف» على العكس كانت مؤاتية، ومع أنّني كنت أنتظر في مُثابرة، فلم يكن لديّ ما أفعله غير العودة للمنزل واجترار السأم.

لم يصلني خبرٌ كما توقعت من القبطان خلال أُسبوع. وقرّرت أخيراً الذهاب مُباشرة إلى السفينة؛ كانت وقتها مُزدحمة بالرّكاب، وكان كل شيء يدلّ على الاستعداد للإبحار. ووصلت عائلة يات في غضون عشر دقائق بعد ذلك. رأيت الأختين، والعروس، والفنان.. وكان في إحدى نوباته المزاجية الاعتيادية في النفور من البشر. لكنّي كنت مُعتاداً على حالاته هذه، فلم أكترث لأمره. ولم يكترث هو أيضاً ليقدمني إلى زوجته.. إلّا أنّ أُخته ماريان تلافت الأمر في كياسة، وهي فتاة لطيفة جدّاً، وعرّفتنا على بعض في بضع كلمات عاجلة.

كانت السيدة يات تضع حجاباً يكاد يلفّ وجهها كلّه؛ وعندما أزاحت الحجاب [820]جُزئياً، ردّاً على تحيتي، لا بُدّ من الاعتراف أنّي وجدت نفسي مُندهشاً تماماً. وكنت سأندهش أكثر، لولا أنّ التجربة الطويلة علّمتني أن لا أثق كثيراً بما وصفه لي صديقي الفنان المُتحمّس، حين كان يُدلي بآرائه عن جمال المرأة. إذا كان الجمال هو المسألة، فأنا أعرف جيداً بأي منطق يتكلّم عن الجمال.

الحق أنّني لم يكن في وسعي تفادي النظر إلى السيدة يات كأمرأة عادية الجمال. إن لم تكن قبيحة المنظر، على الأقلّ كما أعتقد شخصياً، فهي بعيدة كل البعد عن الجمال. لكن ملابسها كانت تدل على ذوق رفيع.. عندئذ لم يساورني شكّ في أنّها أسرت قلب صديقي بأخلاقها السمحة أو رجاحة عقلها أو جمال روحها. لم تقل غير كلمات قليلة، وعبرت فوراً إلى مقصورتها برفقة زوجها.

وعدت الآن إلى فضولي القديم. لا يوجد خادم ..تلك مسألة محسومة. ولهذا أخذت أنظر باحثاً عن أمتعة إضافية. وبعد شيء من التأخير، وصلت عربة إلى المرفأ، وكانت مُحمّلة بصندوق مستطيل من خشب الصنوبر؛ بدا لي أن ذلك ما كنت أتوقعه. وعلى الفور، لدى وصول الصندوق، أبحرت السفينة، وخلال فترة قصيرة خرجنا ونحن نشعر بالأمان على سطح السفينة متكئين على الحاجز نُراقب البحر.

الصندوق الذي تكلّمت عنه كان مُستطيل الشكل؛ طوله ستة أقدام تقريباً، وعرضه قدمان ونصف؛ بقيت أراقبه باهتمام، وأحببت أن أكون دقيقاً في وصفه. الآن هذا يبدو غريباً؛ ما إن وقع نظري عليه، حتى عاهدت نفسي على توخّي الدّقة في تخمين مُحتوياته. وتوصّلت إلى استنتاج، كما يتذكّر القارئ، أنّ الأمتعة الإضافية لصديقي الفنان لا بُدّ أن تكون لوحات، أو على الأقل لوحة واحدة؛ لأنّي كنت أعرف أنّه كان منذ عدة أسابيع يجتمع مع نيكولينو.. الآن لدينا صندوق، ومن شكله، يُمكن أن لا يحتوي على شيء مُحدّد في العالم غير نسخة من لوحة ليوناردو «العشاء الأخير»؛ كنت أعرف منذ زمن أن نسخة من هذه اللوحة من عمل روبيني[1]، من فلورنسا، موجودة لدى نيكولينو. لذلك اعتبرت المسألة محسومة بما فيه الكفاية. وضحكت كثيراً عندما فكّرت في مدى فطنتي. كانت المرة الأُولى التي عرفت فيها أنّ يات يخفي عنّي سرّاً من أسراره الفنية؛ لكن هُنا من الواضح أنّه كان يهدف إلى تحقيق تفوّق عليّ، وأن يهرّب لوحة جميلة إلى نيويورك، تحت سمعي وبصري؛ ويتوقّع منّي أن لا أعرف شيئاً عن الأمر. وقررت اختبار نواياه جيداً، من الآن فصاعداً.

بقي شيءٌ واحد يُزعجني. الصندوق لم يدخل في المقصورة الإضافية. لقد [821]وضع في مقصورة يات نفسه، وبقي هُناك أيضاً، وبذلك احتلّ كل الأرضية تقريباً.. لا شكّ أنّ الأمر خلق إزعاجاً للفنان وزوجته؛ خاصة أنّ القطران أو الدهان الذي خُطّ به جانبٌ من الصندوق في حروف كبيرة كان يبعث رائحة قوية مُزعجة، وأتخيّل أنّها مُقترفة. على الغطاء كتبت كلمات ..«السيدة أديلايد كرتس، الباني، نيويورك. شحنة خاصة بكورنيليوس يات، المُحترم. هذا الجانب إلى الأعلى. يُحمل بعناية».

كنت أعرف أنّ السيدة أديلايد كرتس، من الباني، هي أم زوجة الفنان.. لكني في ذلك الوقت نظرت إلى العنوان كله فلم أفهم شيئاً، الغرض منه مُثير للغموض بالنسبة لي. وقررت طبعاً أنّ الصندوق ومُحتوياته لن يذهب إلى مكانٍ

(1) جيوفاني باتيستا روبيني (1794- 1854) رسام إيطالي عظيم. [المترجم]

أبعد من استوديو صديقي الناقم على البشر، في شارع تشامبرز، نيويورك.

خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة الأُولى من الرحلة كان الجو لطيفاً، مع أنّ الرياح كانت ساكنة أمامنا؛ وبعد أن مضينا في اتجاهنا شمالاً، اختفى الساحل عن الأنظار. كان الرّكاب تبعاً لهذا يتمتعون بروح معنوية عالية ويميلون لأن يتعرّف بعضهم على بعض. لكن عليّ أن أستثني يات وأختيه، الذين تصرفوا بشيء من الجفاء، ولا مجال إلّا للقول: إنّهم كانوا يفتقرون إلى المُجاملة مع بقية الرّكاب. لم يُعجبني تصرّف يات كثيراً. كان يبدو كئيباً، أكثر من عادته.. في الواقع، كان نكد المزاج.. لكنني كنت أتوقّع منه هذا الشذوذ. أما عن أختيه، فلم يكن في وسعي إيجاد أي عذر لهما. كانتا تنعزلان في مقصورتيهما أثناء الجانب الأكبر من الرحلة، وبالتأكيد ترفضان، مع أنّني كنت ألح عليهما مراراً، اللقاء مع أي شخص على متن السفينة.

أما السيدة يات نفسها فكانت أكثر حبّاً للاختلاط. بمعنى آخر، كانت تُحب الثرثرة؛ والثرثرة ليست بالنصيحة القليلة الشأن لمن يجوب البحر. أصبحت تُقيم أواصر صداقة مع أغلب السيدات؛ وبإزاء دهشتي العميقة، كانت تتودّد إلى الرجال أيضاً في ألفاظ تحمل أكثر من معنى. كانت تُمتعنا جميعاً إلى درجة كبيرة. أقول: «تمتعنا».. ولا أكاد أعرف كيف أفسّر ما أقول. الحق أنّني سُرعان ما وجدت السيدة يات في أحيان كثيرة تثير الضحك على نفسها أكثر ممّا تضحك معنا. لم يكن الرجال يقولون أشياء كثيرة عنها؛ لكن السيدات، بعد فترة قصيرة، وصفنها بأنّها «مخلوقة خفيفة الظل، تبدو لا مُبالية قليلاً، غير مُثقّفة كلياً، وسوقية حتماً». لكن الشيء العجيب، كيف استطاع يات أن يقع في حبائل مثل هذه المرأة التي لا تُناسب شخصيته. الثروة يُمكن أن تكون مُفتاح اللغز.. لكنّي أعرف أنّ الثروة ليست هي المسألة إطلاقاً؛ لأنّ يات أخبرني أنّها لم تجلب له دولاراً ولا يتوقع منها أي مصدر للثروة مهما كان. «لقد تزوّجها»، كما قال، «بدافع الحب، ومن أجل الحب [822]وحده؛ وكانت عروسه تستحق أكثر من حبه». حين تأملت هذه التعبيرات، من جانب صديقي، لا بُدّ من الاعتراف بأنّي أحسست بالحيرة التي لا أعرف لها أي تفسير. أيُمكن أن يكون الفنان قد أخذ

إجازة من أحاسيسه؟ أي شيء آخر ربّما يدور في ذهني؟ هو، ذلك الفنان المُرهف الإحساس، المُفكّر، النزق، الذي يتمتع بمواهب فذة، الذي يعرف قيمة الجمال بدقّة! إذا توخّينا الدّقة، فالسيدة كانت تبدو مُغرمة به ..وخصوصاً في غيابه.. حين تجعل من نفسها موضع سُخرية من خلال اقتباسات مُتكرّرة ممّا كان يقوله «زوجها المحبوب، السيد يات». كانت كلمة «الزوج» تبدو دائماً.. مُفضّلة بالنسبة إليها في تعبيراتها المُرهفة.. دائماً «على طرف لسانها». في هذه الأثناء، كنّا نُلاحظ جميعاً أثناء وجودنا على سطح المُركب، أنّه كان يتفاداها بأكثر السّبل حدة، وفي مُعظم الأحيان كان يعتكف وحده في مقصورته، حيث كما يقال، يقضي وقته تاركاً زوجته حُرّة في أن تُمتّع نفسها كما تشاء، مُختلطة مع الناس في القاعة الرئيسية.

كان الاستنتاج الذي توصّلت إليه، من خلال ما رأيت وسمعت، أنّ الفنان، في نزوة غير مُبرّرة شاءها له القدر، أو ربّما نوبة طائشة وعاطفة وهمية، وجد نفسه مُضطراً للارتباط بامرأة ليست من مُستواه، وكانت النتيجة الطبيعية ذلك الإحساس العاجل بالاشمئزاز. كنت أحس بأني أرثي لحاله من أعماق قلبي.. مع أنّي لم أستطع، لذلك السبب نفسه، أن أُسامحه على أن يُخفي عنّي أمر لوحة «العشاء الأخير». لذا قرّرت الانتقام منه.

في يوم من الأيام صعد إلى الدّكة، وأمسكت ذراعه كعادتي، ورحنا نتمشّى جيئة وذهاباً. لكن حالته الكئيبة (التي اعتبرتها طبيعية تماماً في تلك الظروف)، بدت غير قابلة لأن تزول. لم يتكلّم كثيراً، وكانت الكلمات القليلة التي قالها كئيبة وتخرج بعناء واضح. وتجرأت أن أُمازحه مرة أو مرتين، لكنّه بذل مُحاولة عقيمة لأن يبتسم. يا للمسكين!.. ولمّا فكرت في زوجته، لم أستغرب أن تكون له روحٌ مُستعدّة للمرح. وقرّرت أن أبدأ بسلسلة من التلميحات إلى الصندوق المُستطيل.. فقط لكي أجعله يُدرك تدريجياً أنّني لست مُغفّلاً أو ضحية لتكتمه في إخفاء سر بسيط بطريقة غير مقبولة. كانت أُولى مُلاحظاتي فيها إشارة مُباشرة إلى المدفع المُخبأ عن العدو. قلت شيئاً عن «الشكل الغريب لذلك الصندوق..»، وبينما كنت أنطق تلك الكلمات، ابتسمت كمن يعرف كل شيء، وغمزت، ولمسته بلطف بسبابتي على أضلاعه.

[823]أقنعتني الطريقة التي تلقّى بها يات هذا المزاح البريء على الفور بأنّه مجنون حقّاً. في البداية بقي يُحملق بي كأنّما رأى أنّ من المُستحيل عليه أن يفهم فحوى تعليقاتي؛ لكن لأنّ مقصدي بدأ ببطء يتسلّل إلى عقله، كادت عيناه في الوقت نفسه تخرجان من محجريهما. ثم اصطبغ وجهه بالاحمرار.. ثم شحب لونه بشكل يوحي بالخوف.. ثمّ، كأنّه بدأ يستوعب ما ألمحت إليه، فأطلق ضحكة مدوية، بإزاء دهشتي، استمرت طويلاً وتصاعدت وتيرتها تدريجياً، وظلّت تدوي عشر دقائق أو أكثر. وأخيراً، سقط وانبطح على سطح المركب. وحين هرعتُ لرفعه، بدا كأنه رجل ميت بكل معنى الكلمة.

صرختُ طلباً للمُساعدة، وفي صعوبة بالغة نقلناه إلى مقصورته حتى استعاد وعيه. ولما أفاق من الغيبوبة تكلّم بأشياء غير مُترابطة مدة من الوقت. وأخيراً طلبنا منه أن يسكت وتركناه على الفراش. وفي صباح اليوم التالي بدا أنّه استردّ عافيته تماماً، وكان وضعه الصحي على ما يُرام. ولن أتكلّم عن حالته العقلية طبعاً. وبقيتُ أتحاشاه طوال ما تبقّى من الرحلة، استجابة لنصيحة القبطان، الذي ظهر أنه كان يتفق معي في وجهات نظري عن اختلاله العقلي، لكنّه حذرني من أن أقول أي شيء بهذا الاتّجاه إلى أي شخصٍ على السفينة.

وحصلت عدة مُلابسات مُباشرة بعد هذه النوبة التي أصابت يات لتُساهم في مُفاقمة الفضول الذي استولى علي قبل ذلك. من بين أشياء أخرى صرت عصبي المزاج.. وكنت أشرب الشاي الأخضر القوي بإفراط، وأبقى مؤرقاً في الليل.. في حقيقة الأمر، طوال ليلتين لم أتمكّن من النوم كما ينبغي إطلاقاً. وكان لمقصورتي باب ينفتح على الصالة الرئيسية، أو غرفة الطعام، مثل بقية المقصورات المُخصصة لشخص واحد. أما المقصورات الثلاث التي حجزها يات فتقع في المؤخرة، وهي مُنفصلة عن الصالة بباب صغير مُنزلق، وهذا الباب لا يُغلق حتى في الليل. وكانت السفينة تمضي بنا مع الريح، والنسائم لم تكن شديدة؛ وكلّما كان جانب ميمنتها باتّجاه الريح، ينفتح الباب المُنزلق بين المقصورات، ويبقى هكذا، ولا يكترث أحد للنهوض لكي يُغلقه. كان مهجعي في وضع مُحرج بحيث أنّ ذلك الباب عندما ينفتح، (وكان باب مقصورتي دائماً

مفتوحاً بسبب الحرارة)، يتسنّى لي رؤية كل شيء في المقصورة الخلفية بوضوح، وفي ذلك الحيز أيضاً تقع مقصورات السيد يات. حسناً، خلال ليلتين (غير مُتعاقبتين) وبينما كنت مُستلقياً دون أن أغطّ في النوم، كنت أرى السيدة يات، تقريباً في الساعة الحادية عشرة كل ليلة، تتسلّل خلسة إلى خارج مقصورة السيد يات، وتدخل المقصورة الإضافية، حيث تبقى حتى [824]شروق الفجر، عندها يُناديها زوجها فترجع. ربّما يكون الزوجان مُنفصلين فعلياً، هذا واضح. لقد حجزا مقصورتين مُنفصلتين.. لا شكّ أنّهما يُفكران في طلاق يحسم الأمر؛ وهُنا، كما تصوّرت يكمن سر المقصورة الإضافية.

وهُناك شيء آخر أيضاً، أثار اهتمامي كثيراً. أثناء الليلتين المُسهدتين اللتين تحدثت عنهما، بعد اختفاء السيدة يات مُباشرة داخل المقصورة الإضافية، لاحظت بعض الأصوات والحركات المكتومة تأتي من مقصورة زوجها. وأصغيت إلى ذلك قليلاً، في شيء من الانتباه والتأني، ثم تمكّنت أخيراً من تمييز مغزاها. كانت أصواتاً أحدثها الفنان أثناء مُحاولته خلع غطاء الصندوق المُستطيل، باستعمال إزميل ومطرقة.. وكان صوت المطرقة مكتوماً فيما يبدو أو يكاد يبدو مُنعدماً، بواسطة قطعة قماش تُغلّف رأسها.

وهكذا تخيلت أنّني أستطيع تمييز اللحظة التي انفصل فيها الغطاء.. وكان في وسعي أيضاً تحديد متى رفعه كله، ومتى قام بوضعه على السرير السفلي؛ عرفت هذه المسألة، على سبيل المثال، من خبطاتٍ خفيفة نتيجة ارتطام الغطاء بالحافات الخشبية للسرير، بينما كان يُحاول وضعه هُناك برفق وحذر.. فلم تكن ثمّة مساحة تكفي له على الأرضية. بعد ذلك يسود صمتٌ ثقيل، فلا أسمع شيئاً، في الليلَتين معاً حتى الفجر تقريباً؛ إلا إذا ذكرت أنني كنت أسمع نحيباً مُنخفضاً، أو تمتمة مكتومة لا تكاد تسمع.. إن لم تكن هذه الضوضاء الأخيرة من تخيلاتي، أقول، يبدو أنّ ذلك كان يُشبه النحيب أو التنهّد.. لكن، طبعاً، لا يُمكن أن يكون الأمر كذلك. أعتقد أنّه كان طنيناً في أُذني. لا شكّ أنّ السيد يات كما جرت العادة كان يُطلق العنان لإحدى نزواته.. فينغمس في نوبات جنونه كفنان. لقد قام بفتح صندوقه المُستطيل، من أجل أن يُمتّع عينيه بكنز اللوحات التي

بداخله. لم يكن في الصندوق شيءٌ يُمكن أن يجعله ينتحب. أعود فأقول، إذن، الأمر ببساطة من نسج خيالي، وزادني الشاي الأخضر الذي قدّمه لي القبطان هاردي اضطراباً. قبيل الفجر، في كل ليلة من الليلتين المُسهدتين اللتين تكلمت عنهما، كنت أسمع صوت السيد يات وهو يُعيد الغطاء على الصندوق المُستطيل، ويدقّ المسامير في أماكنها القديمة باستعمال مطرقة مكتومة. وبعد أن ينتهي من هذا، يخرج من مقصورته، وقد لبس كامل ثيابه، ويمضي لينادي السيدة يات من مقصورتها.

بقينا في البحر سبعة أيام، ووصلنا الآن إلى مكان بعيد عن كيب هاتيراس، [825]عندها ضربتنا أمواج هائلة من الجنوب الغربي. كنّا إلى حد ما مُستعدّين لهذا، لأن المناخ قبل ذلك كان يُنذر بتهديدات منذ بعض الوقت.

على هذا المنوال أبحرنا بأمان ثمان وأربعين ساعة.. وأثبتت السفينة جدارتها كقاهرة للأمواج في كثير من النواحي، ولم تنتج أي عواقب وخيمة. لكن في نهاية هذه الفترة، تحوّلت الرياح إلى إعصار، وتمزق الشراع الخلفي لسفينتنا إلى نتفٍ، وجعلنا ذلك في مواجهة أمواج عاتية صارت تجتاح السطح، واحدة بعد الأُخرى. بسبب هذا فقدنا ثلاثة رجال سقطوا من السطح، مع سقيفة المطبخ التي في المؤخرة، وتقريباً كل متاريس الميسرة تقوّضت. ولم نكد نستعيد حواسنا، حتى انخلع الشراع الأمامي الأعلى، وتمزّق إلى نتف، ثم ما لبثت حالة البحر أن هدأت وسكنت العاصفة بعض الشيء، والتقطنا أنفاسنا بعد أن استوت السفينة وصارت تجري باتّزان.

لكن العاصفة ظلت مُمسكة بتلابيبنا، ولم نلمس أي علامة على زوالها. وتخلخلت متاريس السفينة وحافاتها؛ وفي اليوم الثالث على العاصفة، تقريباً في الساعة الخامسة عصراً، اقتلع الصاري القريب من مؤخرة السفينة من أثر التمايل مع الريح، وانجرف من السطح. طوال ساعة أو أكثر، حاولنا عبثاً التخلص منه، لأنّه كان يتدحرج بعنف على متن السفينة؛ وقبل أن نتمكّن من ذلك، جاء النجارُ مُسرعاً وأعلن عن وجود أربعة أقدام من الماء في المُستودع. وممّا زاد الأمر سوءاً أنّنا وجدنا المضخات مُعطّلة ولا فائدة منها.

عمّ الارتباك والفوضى واليأس كل شيء الآن.. ومع ذلك بذلنا جهوداً للتخفيف من حمل السفينة بأنّ ألقينا من على متنها ما وصلنا إليه من البضائع، وكذلك قطعنا الصاريتين الباقيتين. على الأقل أنجزنا هذا.. لكنّنا كنّا عاجزين عن عمل شيء مع المضخات؛ وفي أثناء ذلك كان التسرب يزداد لحظة بعد لحظة.

ومع غروب الشمس، لمسنا شيئاً من الانكفاء للعاصفة، وغارت الأمواج تزامناً معها، وساورتنا أحلام خافتة في إنقاذ أنفسنا بالزوارق. عند الساعة الثامنة مساءً، ابتعدت السحب مع اتّجاه الريح، ولاح البدرُ بإشراقه الأخّاذ.. شِيءٌ من الحظ الحسن دفعنا للابتهاج فتجدّدت الآمال في النفوس.

بعد جهودٍ لا تُصدّق نجحنا في إنزال زورق الإنقاذ من الجانب دون [826]وقوع أي حادث، وتجمّعنا داخله، الطاقم بأكمله، واغلب المسافرين. وانطلق الركاب على الفور، وبعد جهد ومُعاناة وصلوا في أمان إلى خليج أوكراكوك، في اليوم الثالث بعد تحطّم السفينة.

بقي أربعة عشر راكباً، مع القبطان، على متن السفينة، وقرروا أن يضعوا ثقتهم بالقدر وأن ينجوا بزورق مطاطي مربوط عند المؤخرة. أنزلنا الزورق دون صعوبة، مع أنّنا تمكّنا بمُعجزة من منعه من الانجراف حالما لامس المياه. وكان هذا الزورق يستوعب، حين ينفخ ويطفو، القبطان وزوجته، السيد يات وجماعته، ضابط مكسيكي، وزوجته وأربعة أطفال، وأنا ومعي خادم زنجي.

لم يكن ثمّة مُتّسع طبعاً لأي شيء آخر باستثناء بعض الأدوات الضرورية حتماً، وبعض المؤن، والملابس التي نحملها على ظهورنا. لم يُفكّر أي شخص حتي بمُحاولة إنقاذ شيء آخر. ويا للدهشة التي أصابت الجميع في ذلك الوقت، بعدما تقدّمنا بضع ياردات مُبتعدين عن السفينة، إذ رأينا السيد يات يقف قُرب المؤخرة، ويطلب ببرود من القبطان هاردي أن يرجع من أجل أخذ صندوقه المُستطيل!.

«اجلس، سيد يات»، أجابه القبطان في شيء من الصرامة، «سوف تقلب القارب بنا إذا لم تجلس ساكنا. سفينتنا غطست الآن تقريباً في البحر».

«الصندوق!» صاح السيد يات، وكان لا يزال واقفاً.. «الصندوق، أقول! كابتن هاردي، لا يُمكنك، لن ترفض طلبي. وزنه لن يُشكّل شيئاً يُذكر.. لا شيء.. لا شيء أبداً. أُناشدك باسم الأم التي حملتك.. بحق السماء.. بالأمل في الخلاص، أتوسّل إليك أن ترجع من أجل الصندوق!».

بدا أنّ القبطان قد تأثّر لحظة بالتوسلات الجادة للفنان، لكنّه سرعان ما استردّ صرامته، وقال باقتضاب:

«سيد يات، أنت مجنون. لا يُمكنني الإصغاء إلى كلامك. اجلس، أقول لك، وإلا سوف تقلب الزورق. ابق هُنا.. أمسكوا به.. قيدوه!.. إنّه على وشك أن يقفز من الزورق! انظروا.. كنت أعرف.. ها هو يقفز!».

عندما قال القبطان هذا، كان السيد يات في الواقع قد وثب من الزورق، وبينما كنا لا نزال قريبين من مؤخرة الحطام، نجح في جهد جبار في الوصول إلى حبل كان يتدلى من سلاسل المقدمة. وفي اللحظة التالية أصبح على المتن، واندفع مسعوراً إلى الأسفل نحو المقصورة.

في هذه الأثناء، كانت المياه تجرفنا بعيداً عن السفينة، حتى ابتعدنا عن جوانبها، وكنّا تحت رحمة الأمواج في البحر الهائج، في مهبّ الريح. حاولنا [827]الرجوع لكن دون جدوى لأنّ زورقنا كان مثل ريشة تتقاذفها العاصفة. ورأينا في لحظة المصير المشؤوم لصاحبنا الفنان التعيس.

كانت المسافة التي تفصلنا عن الحطام تزداد سريعاً، والرجل المجنون (ماذا يُمكننا أن نُسمّيه غير ذلك؟) رأيناه يظهر بالقرب من سلم المقصورات.. وكان يبذل جهداً هائلاً وهو يُجرجر في بسالة الصندوق المُستطيل. وفيما كنّا ننظر إليه والاندهاش يبلغ فينا أقصى مداه، راح يلفّ بسرعة، عدة لفّات، الحبل الذي سمكه ثلاث بوصات، أولاً حول الصندوق ومن ثمّ حول جسده. وفي لحظة أُخرى أصبح الرجل والصندوق في البحر.. واختفيا فجأة، إلى الأبد.

بقينا ننظر في حزن ونحن نُمسك مجاذيفنا، وعيوننا مُسمّرة على البقعة التي

سقط فيها. وأخيراً اضطررنا للانسحاب. وبقي الصمت يُهيمن علينا دون أن يكسره أحد مدة ساعة. وأخيراً، غامرتُ فقلت:

«هل لاحظت، كابتن، كيف غطسا بسرعة؟ ألم يكن ذلك غريباً حقّاً؟ أعترف أنني أحسست بأمل ضعيف في خلاصه حين رأيته يربط نفسه على الصندوق، ويرمي نفسه إلى البحر».

«لقد غطسا طبعاً»، أجاب القبطان، «مثل قذيفة مدفع. وسوف يطفوان ثانية، لكن.. حتى يذوب الملح».

«الملح!» صحتُ مُستغرباً.

«صه!» قال القبطان، وكان يُشير إلى زوجة وأُختي الفقيد. «علينا أن نتكلّم عن هذه الأشياء في الوقت المُناسب».

وعانينا ما عانينا، وتمكّنا من النجاة بأُعجوبة، لكن الحظ حالفنا أخيراً، فضلاً عن رفاقنا الذين كانوا على الزورق الطويل. وانتهى بنا المطاف إلى اليابسة، سالمين، رغم أنّنا كنّا أشبه بالأموات منا إلى الأحياء، بعد أربعة أيام من الشقاء، ورسونا على الساحل المُقابل لجزيرة روانوكي. وبقينا هُنا أسبوعاً، وعاملنا بمودة أولئك الذين يبحثون عن السفن الغارقة، ثم وجدنا من يُقلنا إلى نيويورك.

بعد شهر على غرق سفينة «الاستقلال»، حدث أن التقيت القبطان هاردي في برودواي. وسرعان ما تحوّل الحوار بيننا بصورة طبيعية إلى الكارثة، وبخاصة إلى مصير المسكين يات. وهكذا علمت التفاصيل التالية:

كَان الفنان قد رتّب رحلة له شخصياً، وزوجته، وأختيه وخادم. كانت زوجته في الواقع، كما عرفتها، امرأة محبوبة ومُهذبة جدّاً. في صباح يوم الرابع عشر من حزيران (اليوم الذي ذهبت فيه إلى السفينة أول مرة)، أُصيبت السيدة بمرض مُفاجئ وماتت. وبقي الزوج حزيناً مهموماً لا يعرف ماذا يفعل.. لكن الظروف منعته [828]من تغيير موعد الرحلة إلى نيويورك. كان من الضروري أخذ جثة زوجته المحبوبة إلى أمها، ومن جهة أُخرى، منعه حرصه المعهود من

الإفصاح عن مهمته. كان تسعة أعشار الركاب سيتركون السفينة بدلاً من السفر مع جثة امرأة.

أمام هذه المعضلة، رأى القبطان هاردي أن تُحنّط الجثة أولاً جُزئياً، وتُغطى بكمية كبيرة من الملح، ثم توضع في صندوق مُناسب الأبعاد، وتنقل إلى متن السفينة كأي بضاعة. وكان عليهم ألا يقولوا شيئاً عن موت السيدة؛ ولأنّه كان معروفاً جيداً أنّ السيد يات قد حجز في رحلة مع زوجته، أصبح من الضروري أن يؤدي شخصٌ ما دورها أثناء الرحلة. وقامت خادمة الميتة بأداء الدور. كانت المقصورة الإضافية في الأصل قد حُجزت لهذه الفتاة خلال حياة السيدة، والآن احتفظوا بها فحسب. في هذه المقصورة كانت تنام الزوجة المزيفة طبعاً كل ليلة. وفي النهار كانت تؤدي بأقصى ما تستطيع من قدرة دور سيدتها.. والتي كان من المؤكد أن لا أحد من ركاب السفينة يعرف شخصيتها الحقيقية.

كان الخطأ الذي وقعت فيه بصورة طبيعية بسبب عدم التروّي والفضول الزائد والتصرّف بإلحاح. لكنّي مؤخراً نادراً ما كنت أنام نوماً هانئاً في الليل. كثيراً ما تُطاردني أشباح الذكريات، وتبقى تُطاردني أينما اتّجهت.. وضحكات هستيرية ترنّ في أُذني إلى الأبد.

حقائق عن قضية م. فلاديمير

لن أدّعي أنّني أعتبرها أعجوبة خارقة أن تُثير القضية الغريبة التي تخص م. [829]فلاديمير هذا القدر من الجدل. سوف يكون من المُعجزات حقّاً أن لا تُثير هذه القضية النقاش خصوصاً في مثل تلك الظروف. من خلال رغبة من يعنيهم الأمر في إبقاء المسألة سرّاً بعيداً عن مُتناول الرأي العام، على الأقل للوقت الحالي، أو إلى أن تُتاح فرص أفضل للمزيد من التحرّي.. فنحن نُحاول هُنا.. من خلال هذا السرد المُحرّف بعض الشيء أو المُبالغ فيه أن ننقل الحقيقة إلى الناس، وربّما أصبح السرد أيضاً مصدراً للكثير من سوء التفسير الممجوج، أو عدم التصديق.

الآن من الضروري أن أُقدم بعض الحقائق.. بقدر ما أرى أنّني أفهمها بنفسي. إنّها تأتي باختصار على النحو الآتي:

كنت أنوي، في السنوات الثلاث الأخيرة التركيز على دراسة التنويم المغناطيسي؛ ومنذ تسعة أشهر ظهر لي، بصورة مفاجئة تماماً، أنّه ضمن سلسلة التجارب التي أُجريت حتى الآن في هذا الميدان، كان هُناك إهمال لأشياء بارزة بشكل غير مُبرّر إطلاقاً.. لا يوجد شخصٌ حتى الآن تعرّض للتنويم المغناطيسي وهو في حالة احتضار. يبقى على المرء أن يرى، أولاً ما إذا كان في مثل هذه الحالة، يوجد لدى المريض تقبّل لتأثير التنويم المغناطيسي؛ وثانياً، إذا ما كان هُناك أي تأثير، فهو يتلاشى أم يزداد مع طبيعة الحالة؛ ثالثاً، إلى أي مدى، أو إلى أي فترة زمنية، يُمكن كبح الموت من خلال هذه العملية. هُناك نقاط أُخرى ينبغي التأكد منها، لكن هذه النقاط على وجه التحديد هي التي أثارت اهتمامي.. النقطة الأخيرة خاصة، من خلال أهمية النتائج التي تتمخّض عنها.

حين نظرت حولي بحثاً عن هدف مُناسب أستطيع به اختبار هذه التفاصيل، رحت أفكر في صديقي، م. أرنست فلاديمير، المؤلف الشهير لـ (حياة مشاهير فلورنسا)، ومؤلف آخر (تحت اسم الشهرة إيساغار ماركس) للنسخة البولندية من كتابي (والينشتاين) و(غارغانتوا). السيد م. فلاديمير، الذي استقرّ أساساً [830] في حي هارلم، نيويورك، منذ عام 1839، شخصٌ معروف على وجه التحديد (أو كان معروفاً) بنحافته الشديدة.. فأطرافه السفلى تُشبه إلى درجة كبيرة أطراف جون راندولف؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى شاربه الأبيض، في تناقضٍ صارخ مع سواد شعره.. في كثير من الأحيان يُخطئ المرء فيتصوّر أنّ الرجل يضع باروكة على رأسه. أما مزاجه الشخصي، فهو عصبي جدّاً، وهذا ما جعله دائماً هدفاً يُصلح للتنويم المغناطيسي. في مرتين أو ثلاث كنت قد أخضعته لتجاربي وجعلته ينام في شيءٍ من الصعوبة، لكنّه خيّب ظني في نتائج أُخرى لطبيعة شخصيته الفريدة التي قادتني قبل الأوان إلى توقع تلك النتائج. لم تكن إرادته في أي وقت إيجابية، أو يحرص على أن يُكرّس نفسه للتجربة تحت سيطرتي، وفيما يتعلّق بالاطّلاع على الغيب، لم يكن في وسعي أن أُحقق شيئاً مُفيداً في هذا الشأن. كنت دائماً أعزو فشلي هُنا إلى اضطراب صحته. منذ أشهر قليلة قبل التعرف عليه، صرح أطباؤه بإصابته بمرض السّل الرئوي. وكان من عادته في الواقع الكلام بهدوء عن اقترابه من الموت، كما لو أنّها مسألة لا يُمكن تجنبها أو الأسف عليها.

حين خطرت لي الأفكار التي ألمحت إليها، كان من الطبيعي جدّاً أن أُفكر بالسيد م. فلاديمير. كنت أعلم الفلسفة الثابتة التي يؤمن بها بما يكفي لكي أبعد أي هِواجس ربّما تساوره عني؛ ولم يكن له أي أقارب في أمريكا يُمكن أن يتدخّلوا في الأمر. تكلّمت معه بصراحة عن الموضوع؛ وبإزاء دهشتي الشديدة، بدا لي أنّ لديه اهتماماً شديداً بالموضوع. أقول بإزاء دهشتي، مع أنّه كان دائماً يرضخ دون تردّد لرغبتي في إجراء التجارب، إلّا أنّه لم يسبق أنْ أعطاني أي إشارات واضحة تدلّ على التعاطف مع ما كنت أقوم به. كان المرض الذي أصابه من ذلك النوع الذي يتيح إجراء تخمين دقيق فيما يتعلّق بفترة انتهائه

بالموت؛ وأخيراً انتهينا من الترتيبات فيما بيننا بحيث وعد بأن يرسل لي خبراً قبل أربع وعشرين ساعة من الفترة التي توقعها الأطباء لاستفحال مرضه وانتهاء أجله.

ومرّت الآن أكثر من سبعة أشهر قبل أن أتلقّى من م. فلاديمير الرسالة المُرفقة طيّاً:

عزيزي ب.

ربّما يُمكنك أن تأتي \الآن. الطبيبان د. و ف. اتفقا على أنّني لا يُمكن أن أصمد إلى ما بعد الغد في مُنتصف الليل؛ وأعتقد أنّهما حددا الوقت بدقة بالغة.

فلاديمير.

استلمت هذه الرسالة بعد أن كتبها صاحبها بنصف ساعة، وخلال خمس [831]عشرة دقيقة أُخرى كنت في حُجرة الرجل المُحتضر. لم أكن قد رأيته منذ عشرة أيام، وأرعبني التغيّر المخيف الذي حصل له خلال هذه المدة القصيرة. كان وجهه بلون الرصاص الثقيل؛ والعينان تخلوان من أي ألق تماماً؛ والتحول ظاهر عليه بحيث إن الجلد لا يكاد يخفي عظام الخدين. كانت نوبات سعاله المصحوبة بالتقيؤ شديدة. أما النبض فبالكاد يحس به المرء. لكنه بقي مُحافظاً على حالة ذهنية تُثير الذهول، فضلاً عن شيء من القوة الجسدية. تكلّم معي بوضوح.. وتناول أنواعاً من الأدوية المُسكّنة دون مُساعدة.. عندما دخلت الغرفة وجدته مُنهمكاً بتدوين شيءٍ ما في مُفكرة. كان يُسند ظهره بالمخدّات على السرير. وكان الدكتور د. والدكتور ف. حاضرين.

بعد أن لمست يد فلاديمير، أخذت هذين السيدين جانباً، وحصلت منهما على معلومات دقيقة عن حالة المريض. كانت الرئة اليسرى منذ ثمانية عشر شهراً في حالة شبه غضروفية، وبالطبع لا تؤدي أي غرض للحياة. أما الرئة اليمنى، في جُزئها الأعلى، فكانت أيضاً متصلبة، بينما الجزء الأسفل منها مُجرّد كتلة مُتقيّحة مُتهرئة بعضها مُتداخل مع البعض الآخر. وهُناك العديد من الثقوب فيها؛ وفي

نقطة مُحدّدة، هُناك التصاق بالإضلاع. هذه المظاهر في الرئة اليُمنى حدثت في وقت مُتأخر نسبياً. وقد تقدّمت أعراض المرض في سرعة غير اعتيادية؛ فلم تكتشف أي علامة دالّة على ذلك قبل شهر، والغضاريف المُتصلّبة اكتشفت خلال الأيام الثلاثة الماضية. بصرف النظر عن حالة السل الرئوي، فالمريض يشكّ في أنّه يُعاني من تمدّد الأوعية الدموية؛ لكن بشأن هذه النقطة كانت أعراض تصلّب الشرايين وكثرة الغضاريف تجعل التشخيص الدقيق مُستحيلاً. كان من رأي الطبيبين أنّ م. فلاديمير سوف يموت في مُنتصف الليل من الغد (الأحد). وكنّا في ذلك الوقت في الساعة السابعة من مساء السبت.

عندما تركتُ سرير المريض لكي أُفكّر بيني وبين نفسي، كان الدكتور د. والدكتور ف. قد ودّعاه الوداع الأخير. لم يكونا ينويان العودة؛ ولكن، بطلب مني، وافقا على زيارة المريض حوالى الساعة العاشرة في الليلة التالية.

فلما غادرا، تكلّمت بحرية مع م. فلاديمير عن موضوع موته القريب، وعن التجربة الموعودة. كان لا يزال يمتلك زمام وعيه، وأراد القيام بها مُتلهّفاً، وطلب [832]منّي البدء بها على الفور. كان هُناك اثنان من المُمرضين حاضرين معنا، رجل وامرأة؛ لكنّي لم أشعر بالارتياح لكي أفصح عن تجربة من هذا النوع لأشخاص لا أعرفهم، فربّما حدث مكروه مُفاجئ. لذلك أرجأت العمل حتى الساعة الثامنة تقريباً من الليلة التالية، مع وصول طالب الطب الذي تعرّفت عليه مؤخراً، (السيد ثيودور ل. آي)، والذي خلّصني من الإحراج. كنت أنوي في الأصل أن أنتظر الطبيبين؛ لكنّي وجدت نفسي مُتحفّزاً للبدء بالتجربة، أولاً بسبب توسلات م. فلاديمير اللحوحة، وثانياً لقناعتي بأنّي لا ينبغي أن أُضيع لحظة، لأنّ من الواضح أنّه كان يُغشى عليه سريعاً.

كان السيد ل. لطيفاً معي بحيث أذعن لرغبتي في أن يُدوّن ملاحظات عما يحدث، ومن خلال الأشياء التي كتبها في مُفكّرته فأنا الآن أقتبس ما أسرده، في الجزء الأكبر منه، سواءً بصورة مُختصرة أو مُستنسخاً حرفياً.

ثم مرّت خمس دقائق بعد الثامنة عندما تناولت يد المريض، وتوسّلت إليه

أن يُعبّر، بقدر ما يستطيع من الدّقة، للسيد ل..أ، فيما إذا كان (م. فلاديمير) راغباً بأن أجري تجربة التنويم المغناطيسي في حالته تلك.

فأجاب بصوت واهن، لكنّه مسموع، «نعم، ارغب في ذلك. أخشى أن يكون تنويمك المغناطيسي».. أضاف مُباشرة بعد ذلك، «تأخر كثيراً».

وبينما كان يقول ذلك، بدأتُ الخطوات التي كنت مُسبقاً وجدتها فعالة في إخضاعه للتجربة. كان من الواضح أنّه استجاب لأول خطوة حين وضعت يدي على جبهته؛ لكن على الرّغم من أنني سلطت كل طاقاتي، فلم المس أي شيء قابل للإدراك حتى انقضت بضع دقائق أُخرى بعد الساعة العاشرة، حينها جاء الطبيبان د. و ف.، في الموعد المُقرّر. وشرحت لهما باختصار ما كنت أزمع القيام به، ولأنّهما لم يُبديا أي اعتراض، إذ قالا إنّ المريض الآن يُعاني من سكرات الموت، فقد تابعت تجربتي دون تردّد.. لكنّي غيّرت الخطوات الجانبية إلى أُخرى تُناسب الوضع أكثر، ووجّهت نظراتي كلياً إلى العين اليمنى للمُحتضر.

في هذه الأثناء كان نبضه لا يكاد يُحس وتنفسه يبدو كالشخير، في فترات مُتعاقبة، ربّما كل نصف دقيقة.

هذه الحالة لم تتغيّر تقريباً طوال ربع ساعة. ولكن بعد انتهاء هذه المدة، خرج من صدر الرجل المُحتضر تنهّد عميق جدّاً، وتوقّف الشخير.. بمعنى آخر، لم يعُد واضحاً؛ وكانت الفترات المُتقطّعة بين شخير وشخير طويلة جدّاً. وكانت [833]أطراف المريض باردة كالثلج.

قبل الساعة الحادية عشرة بخمس دقائق، لاحظتُ علامات صريحة على نجاح التنويم المغناطيسي. تغيّر التكوير الزجاجي للعين إلى ذلك التعبير الداخلي المُقلق الذي لا يُرى إلا في حالات الاستيقاظ من النوم، والذي من المُستحيل أن تُخطئه العين. كانت الجفون ترتعش، كما في المراحل الأُولى للنوم، وبعد بضع ارتعاشات أغلقهما معاً. لكنّي لم أقتنع بهذا، وتابعتُ مُحاولاتي المحمومة، ومع طاقة من الإرادة، حتى راحت أطراف النائم تتصلّب وتتّخذ وضعاً مُريحاً. كانت الساقان مُمتدّتين على طولهما؛ والذراعان تقريباً تتّخذان الوضع نفسه،

وتستقرّان على السرير بالقرب من الخاصرة. أما الرأس فكان مرفوعاً قليلاً.

لما انتهيت من هذا كانت الساعة تُشير إلى مُنتصف الليل تماماً، وطلبت من السيدين الموجودين فحص حالة م. فلاديمير. وبعد بعض الفحوصات، اعترفا بأنّ الرجل في حالة غيبوبة غير اعتيادية من أثر التنويم المغناطيسي. كان تلهّف الطبيبين قد بلغ أقصى الحدود. قرّر الدكتور د. فوراً البقاء مع المريض طوال الليل، بينما استأذن الدكتور ف. بالانصراف ووعد أن يأتي عند الفجر. وبقي السيد ل..أ والمُمرضان.

تركنا م. فلاديمير على حالته دون أن نفعل شيئاً حتى الساعة الثالثة صباحاً، حينها اقتربتُ منه فوجدته في وضعه السابق نفسه عند مُغادرة الدكتور ف.. بعبارة أُخرى.. بقي مُمدّداً ولم يُغيّر وضعه؛ لم يكن نبضه محسوساً؛ والتنفس ضعيف (بالكاد يحس به المرء، ما لم يضع عدسة مُكبّرة على شفتيه)؛ والعينان مُغلقتان على نحو طبيعي؛ والأطراف مُتصلّبة وباردة كأنها العاج. ومع ذلك، فمظهره العام حتماً لا يدلّ على أنّه ميت.

اقتربت من م. فلاديمير وبذلتُ جهداً يسيراً للتأثير على ذراعه اليمنى لكي تتبع حركة ذراعي، وكنت أمرر الأخيرة برفق يميناً وشمالاً فوق وجهه. في مثل هذه التجارب مع هذا المريض، لم يسبق أن نجحت من قبل، ويقيناً كان لديّ أملٌ ضعيف في النجاح؛ لكن بإزاء دهشتي، رفع المريض ذراعه بثبات، لكن بوهنٍ، وتتّبع كل اتّجاهٍ تحرّكت إليه ذراعي. وقرّرت المُخاطرة ببضع كلمات للتحدّث معه.

«م. فلاديمير»، قلت، «هل أنت نائم؟» فلم يعطِ جواباً، لكنّي أحسست برعشة على شفتيه، وأعدت السؤال، مرة بعد مرة. وعند المُحاولة الثالثة، اهتزّ بدنه [834]كله اهتزازاً طفيفاً؛ وكانت الأجفان مُطبقة كما في السابق بحيث يظهر الخط الأبيض للحدقة؛ وتحركت الشفتان في تكاسل، ومن بينهما خرجت همسة لا تكاد تسمع:

«نعم.. أنا أنام الآن. لا توقظوني! دعوني أموت هكذا!».

هُنا لمستُ أطرافه فوجدتها مُتصلّبة كما كانت. الذراع اليمنى، مثل السابق، امتثلت لاتّجاه حركة يدي. وسألتُ النائم من جديد:

«هل لا تزال تشعر بالألم في الصدر، م. فلاديمير؟».

وجاء الجواب فوراً، لكنّه كان أقل وضوحاً من قبل:

«لا يوجد أي ألم.. أنا أموت».

لم أتصوّر أنّ من الصواب تعكير راحته أكثر في ذلك الوقت؛ ولم ينطق بشيء أو يفعل أي شيء حتى وصل الدكتور ف.، قبل شروق الشمس بقليل، وعبّر عن اندهاشه اللّامحدود عندما وجد المريض حيّاً. بعد أن فحص نبضه وقرّب مكبرة من شفتيه، طلب منّي أن أتكلّم مع النائم مرة أُخرى. وفعلتُ ذلك، قلت:

«م. فلاديمير، هل أنت نائم الآن؟».

وكما في السابق، مرت دقائق قبل أن يأتي الرد؛ وأثناء تلك الفترة بدا لي أنّ المُحتضر كان يستجمع قواه لكي يتكلّم. وعند مُحاولتي الرابعة لطرح السؤال، تكلّم بصوتٍ خافت جدّاً، لا يكاد يُسمع:

«نعم؛ إنني نائم.. أحتضر».

كان من رأي الطبيبين الآن، أو بالأحرى رغبتهما، أن يبقى م. فلاديمير على وضعه الحالي الهادئ فلا يُزعجه أحد، إلى أن يأتيه الموت.. وهذا ما اتفقنا عليه على وجه الإجمال، فالموت لا بُدّ أن يأتي الآن خلال دقائق معدودة. لكنّي قرّرت مُخاطبته مرة أُخرى، وأعدت سؤالي السابق ليس إلا.

وبينما كنت أتكلّم، لاحظت تغيراً على قسمات وجهه. كانت عيناه تتقلّبان ببطء ثم تنفتحان، واختفى البؤبؤان وقد اتّجها إلى الأعلى؛ أما البشرة فاكتسبت لون جثة هامدة، لا تُشبه ورق الرقوق بقدر ما تشبه الورق الأبيض؛ والبقع المُتوردة على الخدّين التي كانت حتى الآن مُميزة وتُحدّد مركز كل خد، اختفت في الحال. إنّني أستخدم هذا التعبير لأنّ الحزن الذي أصابني لاختفاء تلك العلامات لم يُذكّرني بشيء غير انطفاء شمعة بنفخة أنفاسٍ واهنة. والشفة العليا

في الوقت نفسه ذبلت وانزوت بعيداً عن الأسنان التي كانت تُغطيها سابقاً؛ بينما تهدّل الفك الأسفل في [835]نخعة سُمع لها صوت، تاركاً الفم مفتوحاً على اتّساعه، وكاشفاً اللسان المُنتفخ المسودّ. أتصوّر أن لا أحد من الحاضرين لم يكن مُعتاداً على منظر الذعر هذا الذي يُرافق الاحتضار؛ كم كان مُفزعاً ذلك التعبير الذي ظهر على وجه م. فلاديمير في هذه اللحظة!.. بحيث ارتدّ الجميع إلى الوراء، وحصل تقهقر شامل بعيداً عن السرير.

أشعر الآن أنّني وصلت إلى مرحلة من هذا السرد لا بُدّ أن تُذهل القارئ فلا يُصدق أي شيء أقوله. لكنّي ببساطة أُتابع.

لم تُعد تظهر بعد ذلك علامة مهما كانت طفيفة تدلّ على الحياة لدى م. فلاديمير؛ واستنتجنا أنّه فارق الحياة، وأردنا أن نوكّل أمره إلى المُمرضين، حين انتبهنا إلى اهتزاز قوي على اللّسان.. ربما استمر دقيقة. فلما انتهت هذه المدة، صدر عن الفكين الهامدين أنين.. ولسوف يكون من الجنون بالنسبة لي أن أُحاول وصفه. هُناك في الواقع بضع كلمات يُمكن أن تُقال في وصفه وتنطبق عليه جزئياً؛ ربما أقول، على سبيل المثال: إنّ الصوت كان خشناً، ومُتقطّعاً أجوف؛ إلّا أنّ مصدر الفزع كله لا يُمكن أن يوصف، لسبب بسيط وهو أنّه لم يكن هُناك من صوتٍ مُماثل سبق أن اخترق أُذناً بشرية. هُناك نقطتان تصوّرت آنذاك، وما زلت أتصوّر، ربّما يُمكن التطرق إليهما لأنهما من خصائص تلك النبرة.. علاوة على أنّهما تنقلان فكرة ما عن غرابة الصوت غير الدنيوي. في المقام الأول، بدا لي أنّ الصوت كان يصل إلى آذاننا.. أو على الأقل إلى أُذني.. آتياً من مسافة نائية، أو من كهف عميق الغور تحت الأرض. والشيء الآخر الذي أذهلني (أخشى أن يكون من المُستحيل التعبير عما أُريد قوله) أنّ الصوت كان كشيء هُلامي غروي يُثير حاسة اللمس.

لقد تكلّمت عن «الرنين» وعن «الصوت».. أقصد القول: إنّ الصوت كان ذا مقاطع مُميزة.. تُثير رعشة في البدن. تكلّم م. فلاديمير.. فيما يبدو ردّاً على السؤال الذي وجّهته إليه قبل بضع دقائق. كنت قد سألته، كما نتذكّر، إن كان لا يزال نائماً. والآن قال:

«نعم.. كلا ..كنت نائماً.. والآن.. الآن.. أنا ميت».

لم يجرؤ أحدٌ من الحاضرين حتى أن ينكر، أو يُحاول أن ينكر، ذلك الفزع الذي لا يوصف الذي جعلنا نرتجف بعدما أثارته فينا هذه الكلمات القليلة، بالشكل الذي نطقت فيه، وبالمعنى الذي كان مُقدّراً لها أن تنقله. هُنا أُغمي على السيد ل..أ (الطالب). وغادر المُمرضان الحجرة على الفور، ولم تجد أي مُحاولة لإقناعهما [836]بالعودة. أما عن انطباعاتي، فلن أدّعي أنّني قادر على توضيحها للقارئ. طوال ساعة تقريباً، انشغلنا في صمت.. دون أن ننطق بكلمة.. في مُحاولات لإعادة السيد ل..أ. إلى رشده. وحينما عاد إليه وعيه، مضينا من جديد بتفحّص حالة م. فلاديمير.

على كل حال، بقي الرجل كما وصفته، باستثناء أنّ العدسة المُكبّرة لم تعُد تُعطي دليلاً على التنفس. وفشلت مُحاولة سحب الدم من الذراع. وفاتني أن أذكر أيضا أنّ هذه الذراع لم تعُد تستجيب إلى أشارتي. عبثاً حاولت أن أجعلها تتبع اتّجاه يدي. العلامة الوحيدة، في الواقع، على تأثير التنويم المغناطيسي الآن وجدتها في حركة مُتذبذبة للسان كلّما خاطبت م. فلاديمير ووجهت إليه سؤالاً. بدا لي أنّه كان يبذل جُهداً للرد، لكنّه لا يمتلك الإرادة الكافية. لم يكن يُدرك أي شيء عن الأسئلة التي يوجهها له شخص غيري.. مع أنّني حاولت أن أشرك كل الحاضرين معي لمساعدتي في التنويم. اعتقد أنني الآن سردت كل ما هو ضروري لاستيعاب حالة النائم في هذه المرحلة. ثم استدعينا اثنتين من المُمرضات؛ وعند الساعة العاشرة غادرتُ المنزل برفقة الطبيبين والسيد ل..أ.

استُدعينا عصراً لرؤية المريض. لم تكن حالته قد تغيّرت عن السابق. وتناقشنا الآن حول مدى صواب أن نوقظه؛ وواجهنا شيئاً من الصعوبة في الاتفاق على جدوى هذا العمل. كان واضحاً، حتى الآن، أنّ الموت (وإلا فما هو المُصطلح الذي يُستخدم هُنا عادة) لا يكبحه شيء غير تأثير التنويم. وبدا جلياً لنا جميعاً أن إيقاظ م. فلاديمير من شأنه فقط أن يؤدي موته حالاً، أو على الأقل خلال وقت قريب.

منذ هذه الفترة حتى انتهاء الأُسبوع الأخير ..وهي فترة تكاد تكون سبعة أشهر.. كنا مُستمرّين يومياً في الذهاب إلى منزل م. فلاديمير، يُرافقنا من حين إلى آخر، بعض الأطباء وأصدقاء آخرون. خلال هذا الوقت بقي النائم تماماً كما وصفته آخر مرة. واستمرت المُمرضتان تعتنيان به.

وجاء يوم الجمعة، وقررنا أخيراً إجراء تجربة لإيقاظه أو مُحاولة إيقاظه؛ وكانت نتيجة هذه التجربة سيئة (ربّما) وأثارت الكثير من اللغط في أوساط مُقرّبة.. فأدّت إلى الكثير ممّا لا استطيع منع نفسي أن أسميه شعوراً عاماً بعدم المسؤولية.

بغية إخراج م. فلاديمير من غيبوبة التنويم المغناطيسي التي يعيش فيها، [837]لجأت إلى الخطوات المُعتادة في هذا الشأن. وهذه الخطوات، لم تنجح لبعض الوقت. تجلّت أول علامة على الاستيقاظ في انحدار جزئي لقزحية العين. ولاحظتُ علامة مُميّزة أُخرى وهي أنّ انحدار البؤبؤ رافقه انتشار لونٍ دم ضارب إلى الصفرة (من تحت الجفون) له رائحة مُقرفة جدّاً.

كان يفترض أن أُحاول التأثير على ذراع المريض التي ظلت ساكنة حتى الآن. وفعلت ذلك لكنّي فشلت. وعبّر الدكتور ف. عندها عن رغبته في أن أُوجّه سؤالاً. وكان هذا السؤال:

«م. فلاديمير، هل يُمكن أن توضّح لنا مشاعرك أو رغباتك الآن؟».

وجاءت استجابة فورية من الدوائر المحمومة للخدين؛ وارتعش اللسان، أو بالأحرى راح يدور في أرجاء الفم (مع أنّ الفكين والشفتين كانت مُتصلّبة كالِسابق)؛ وأخيراً سمعنا ذلك الصوت المُخيف الذي سبق أن وصفته، سمعناه يقول:

«بحق الله!.. أسرع!.. أسرع!.. اجعلني أنام.. أو، أسرع!.. أيقظني!.. أسرع! ..أقول لك: إنّني ميت!».

لم أفقد أعصابي بتاتاً، لكنّي بقيت لحظة لا أعرف ماذا أفعل. في البداية قمت بمُحاولة لاستئناف الحوار مع المريض؛ وبعد أن فشلت في هذا بسبب

تلاشي إرادته تماماً، عُدت إلى خطواتي السابقة وكافحتُ بجد لإيقاظه. وفي مُحاولتي هذه سرعان ما رأيت أنني لا بُدّ أن أنجح.. أو على الأقل تصوّرت أنّ نجاحي سوف يكتمل.. وكنت واثقاً من أنّ كل من في الغرفة مهيأ لرؤية المريض وهو يستيقظ.

لكن ما حدث من المُستحيل أن يتوقّعه إنسان.

بينما كنت أجري خطوات التنويم، وفي خِضَمّ الصرخات «ميت! ميت!» التي كانت تصدر حتماً من اللسان وليس من بين شفتي المريض، انتفض بدنه كله في الحال.. خلال دقيقة واحدة، أو أقلّ من ذلك.. وكان مُتغضّناً ..ذابلاً تماماً حين لمسته يدي. على السرير، أمام أنظار الحاضرين، لم نجد غير كتلة تكاد تكون سائلة من مادة مُقرفة.. مُتعفّنة كريهة المنظر.

الحكاية الثانية بعد الألف لشهرزاد

«الحقيقة أغرب من الخيال».

مَثَل قديم

بعد أن حظيت بفرصة نادرة مؤخراً، ضمن سياق بعض البحوث التي كنت [838]أقوم بها في الآداب الشرقية، للاطّلاع على كتاب «أخبرني الآن أليس الأمر كذلك أم لا» *Tellmenow Isitsoornot*، وهو عمل (لا يختلف عن كتاب «زوهار» للحاخام سميون بن جوشاي[1] لا يكاد يعرف عنه أحد شيئاً، حتى في أوروبا؛ ولم يسبق أن اقتبس منه شيء، بحسب معرفتي، الكُتّاب الأمريكيون.. إذا استثنينا، ربّما، مؤلف كتاب «المستظرف من الأدب الأمريكي»[2]؛ تسنّت لي الفرصة، أقول، أن أُقلّب صفحات هذا العمل الرائع الذي أشرت إليه، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما اكتشفت أنّ العارفين بالأدب حتى الآن، وهذا مُثير للاستغراب حقّاً، قد وقعوا في خطأ مهم فيما يتعلّق بمصير ابنة الوزير، شهرزاد، كما جرى تصويرها في «ألف ليلة وليلة»؛ وأنّ الجزء الأخير من الحكاية الذي قرأناه هُناك، إن لم يكن غير دقيق جُملة وتفصيلاً، في التفاصيل التي يرويها، فهو على الأقل يستحق الانتقاد لعدم إكمال الحكاية حتى نهايتها.

---

(1) «كتاب زوهار» من كُتب اليهود السرية وهو مصدر لمذهب القبلانية Kabbala. [المترجم]

(2) هذا الكتاب من تأليف إسحٰق دزرائيلي بعنوان *Curiosities of Literature* صدر سنة 1844، وكان إدغار ألن بو مُعجباً به كثيراً. [المترجم]

بغية الحصول على معلومات كاملة عن هذا الموضوع الشيّق، ينبغي أن أُحيل القارئ الحصيف إلى كتاب (أليس كذلك أم لا) نفسه، لكنّي حالياً ألتمس العذر منكم للسماح لي بإعطاء خُلاصة لما اكتشفته.

لا بُدّ أنّنا نتذكّر، في النسخة المُتداولة من الحكايات، أنّ ملكاً من الملوك في الأزمنة الغابرة كان لديه من الأسباب ما يدعوه للشعور بالغيرة على زوجته الملكة، ولم يدفعه ذلك إلى الحكم عليها بالموت فحسب، بل أقسم وهو يُمسك لحيته، أقسم بحق النبي، أن يتزوج كل ليلة إحدى أجمل النساء في مملكته، وفي صباح اليوم التالي يُسلمها إلى الجلاد.

وقد أوفى الملك بيمينه طوال سنوات كثيرة لاحقة والتزم حرفيّاً بعهده الذي قطعه على نفسه، ونُفذ ذلك بدقة نابعة من إيمانه الدّيني واتّبع منهجاً جعل الناس لا يشكون في صدق نواياه كرجلٍ مُخلص رقيق الأحاسيس.. وحدث أن قطع عليه خلوته ذات مساء (لا شك أنّه كان يُصلّي في ذلك الوقت) كبير وزرائه، الذي كانت لدى ابنته الجميلة فيما يبدو فكرة خطرت لها.

كان اسمها شهرزاد، وفكّرت في أنّها إمّا أن تُخلّص الأرض من ضريبة قتل [839]الجميلات، أو تلقى مصير البطلات السابقات نفسه في هذه المحاولة.

وهكذا، على الرغم من أنّنا لا نرى أنّها كانت سنة كبيسة (ممّا يجعل التضحية أكثر استحقاقاً)، تناقشت شهرزاد مع والدها، كبير الوزراء، في أن يُقدّم عرضاً للملك بأن يتزوّجها. فما كان من الملك إلا أن تقبّل العرض بكل سرور ومن غير تردّد بل بفرح غامر.. (كان ينوي أن يتزوجها على كل حال، ولكنّه كان يؤجِل الأمر يوماً بعد آخر، فقط خوفاً من الوزير)، لكن بعد القبول بالعرض الآن، أراد الملك لجميع الأطراف أن يفهموا أن كبير الوزراء أو أي وزير آخر، لن يجعله يتزحزح مثقال ذرة عن قسمه أو المزايا التي يتمتّع بها. وأصرّت شهرزاد الجميلة على مسألة الزواج من الملك، وتزوجته فعلاً على الرغم من النصائح الرائعة التي قدّمها لها أبوها بأن لا تُقدم على شيءٍ من ذلك القبيل.. لقد قرّرت أخيراً وفعلت ذلك وتزوجت الملك، بعد أن كانت تُفكّر.. أفعل، أم لا أفعل،

تلك التساؤلات كانت تبدو واضحة في عينيها السوداوين الواسعتين المفتوحتين ما شاءت لهما الطبيعة أن تنفتحا.

لكن يبدو أنّ الفتاة الذكية (التي كانت تقرأ مكيافيلي، لا شكّ في هذا) كانت تُفكّر في خطة صغيرة بارعة تُراود عقلها. في ليلة الزفاف، ابتكرت حيلة، نسيت بأي ذريعة، أن تجعل أختها تنام على فراشٍ آخر بالقرب من السرير الملكي الذي ينام عليه الزوج وزوجته لكي تسمح بإجراء حوار من فراش إلى فراش بينها وبين أختها قبل صياح الديك، واتّخذت إجراءاتها في أن توقظ الملك الطيب، زوجها (الذي لم يُبادلها الحب ولم يعترض على خطتها لأنّه كان ينوي أن يلوي عنقها من الغد).. وتمكّنت من إيقاظه، أقول، (رغم أن ذلك حدث بفعل ضميره الحي ومعدته الخفيفة، لأنّه كان يغطّ في نومٍ عميق) وأبدى اهتماماً بالقصة (وكانت عن جرذٍ وقطة سوداء، كما أتصوّر) التي كانت تسردها شهرزاد (في نبرة مُنخفضة طبعاً) على مسمع أختها. وعندما أشرق الصباح، حدث أنّ هذه القصة لم تكتمل، وكانت شهرزاد قد قرّرت بطبيعة الحال ألا تنهيها آنذاك، لأنّ الوقت قد حان بالنسبة إليها لأن تنهض ويُلوى عنقها.. وهو شيء أكثر متعة قليلاً من الشنق، بل أكثر تهذيباً.

غير أن فُضول الملك هيْمن على كل أحاسيسه، وأشعر بالأسف لأن أقول، حتى على مبادئه الدِّينية الرصينة، فدفعه إلى تأجيل تنفيذ قسمه حتى الصباح، على أمل أن يسمع في تلك الليلة تكملة ما حدث للقطة السوداء (قطة سوداء، أتصوّر أنّها كذلك) والجرذ.

لكن في تلك الليلة لم تضع السيدة شهرزاد اللمسة الختامية على قصة القطة [840]السوداء والجرذ (كان جرذاً أزرق اللون) ولكنّها قبل أن تعرف ماذا تفعل وجدت نفسها تتوغل في تعقيدات الحكاية، فأشارت (إن لم أكن مُخطئاً) إلى حصانٍ قرمزي اللون (له أجنحة خضراء) كان يدور بعنفوان ويتحرّك باتّجاه عقرب الساعة، ويُلوى عنقه بمفتاحٍ نيلي. حين سمع الملك هذه الحكاية استولى عليه اهتمام أعمق من ذي قبل.. ولما انبلج الصباح قبل أن تنهي شهرزاد حكايتها كالعادة (على الرغم من مُحاولات الملكة لإقناعها بأن تنهيها في الوقت المُحدّد

للخنق) لم يكن من سبيل آخر غير تأجيل تلك الشعيرة كما حدث في السابق، إلى أربع وعشرين ساعة. وفي الليلة التالية حدث شيءٌ مُماثل والنتيجة كانت مُماثلة؛ وفي الليلة التي بعدها.. والتي بعدها؛ بحيث، في النهاية، بعد أن حُرم الملك الطيّب من أي فرصة للوفاء بعهده وكان مُجبراً على ذلك، طوال ما لا يقلّ عن ألف ليلة وليلة، وسواءً نسي الأمر كلّياً مع انقضاء تلك المدة، أو تغاضى عنه بطريقة اعتيادية، أو (وهذا مُحتمل أكثر) تخلّى عنه كلياً، وكذلك فعل آباؤه. على كل حال، فقد ورثت شهرزاد، لأنّها تنحدر مُباشرة من نسل حواء، السلال السبع المُعبّأة بالكلام، التي كانت السيدة الأخيرة، كما نعلم جميعاً، قد التقطتها من تحت أشجار جنة عدن.. شهرزاد، أقول، انتصرت أخيراً، وأُلغيت الضريبة التي فرضت على الجميلات من بنات جنسها.

والآن، هذه النهاية (نهاية الحكاية كما جاءت في الكتب)، لا شكّ في أنّها صحيحة إلى درجة معقولة ومُمتعة للقراء.. لكن يا للأسف! مثل كثير من الأشياء المُمتعة، فهي أكثر إمتاعاً من أن تكون حقيقية، وأنا مدين إلى كتاب (أليس كذلك أم لا) في تصحيح الخطأ. هُناك مثل فرنسي يقول: «العمل الأفضل من الخير هو عدوٌّ للخير» *Le mieux, est l'ennemi du bien*، وحين نذكر أنّ شهرزاد كانت قد ورثت سبع سلالٍ من الكلام، ينبغي أن أضيف فأقول: إنّها وضعتها في البنك فحصلت على فائدة مُركّبة حتى تضاعفت وأصبحت سبعاً وسبعين سلة.

«أختي العزيزة»، قالت في الليلة الثانية بعد الألف، (هُنا أقتبس من لُغة كتاب «أليس كذلك أم لا» هذا حرفياً) «أختي العزيزة»، قالت، «الآن انتهت مشكلة الموت خنقاً، تلك الضريبة المقيتة أبطلت لحسن الحظ، اشعر أنني كنت مُذنبة باقتراف شيء من الحماقة في منعك أنت والملك (الذي أنا آسفة للقول يُصدر شخيراً أثناء النوم.. لا يفعله رجل آخر) من الاطّلاع على الاستنتاج النهائي الذي توصّل إليه السندباد البحري. هذا الرحّالة قام بمُغامرات أُخرى لا حصر لها أكثر إثارة [841]من تلك التي تطرّقت إليها؛ لكن الحقيقة أنّني كنت أشعر بالنعاس في تلك الليلة التي سردت فيها حكايته، واضطررت إلى التوقّف عن

الكلام وعدم أكمالها.. وهو تصرف أخرق يدعو للأسف، لكني لا أتصوّر إلّا أنّ الله سوف يُسامحني. لكن حتى الآن فالوقت ليس مُتأخراً لتلافي إهمالي الشديد.. وهكذا، حالما قرصت الملك مرة أو مرتين من أجل أن يستيقظ ويتوقف عن إصدار ذلك الشخير المُزعج، سوف أُمتعك في الحال (وأُمتعه هو أيضاً إذا أراد) بتكملة حلقات هذه الحكاية الغريبة جداً».

هُنا لم تُعبّر أخت شهرزاد، كما أسموها في كتاب (أليس كذلك أم لا)، عن أي شعور بالامتنان؛ إلّا أنّ الملك، بعد أن تعرّض للقرص بما يكفي، توقّف أخيراً عن الشخير، وقال، «إحم!» ثم قال، «هووا!» وحين فهمت الملكة هذه الكلمات (التي كانت من العربية حتماً) وتدلّ على أنّه كان يُصغي إليها، وسوف يبذل جهده كي لا يشخر بعد الآن.. أقول، بعد أن رتّبت الملكة هذه الأمور كما ينبغي، استأنفت فوراً سرد حكاية السندباد البحري:

««وأخيراً، عندما صرت عجوزاً، [هذه كلمات السندباد نفسه، كما روتها شهرزاد].. أخيراً، في شيخوختي، وبعد الاستمتاع عدة سنوات بالسكينة والاطمئنان في البيت، راودتني من جديد رغبة عارمة لزيارة بلدان أجنبية؛ وذات يوم، دون أن أبلغ أي فرد من عائلتي عن خطتي، حزمت بعض الأمتعة، ما خفّ وزنه وغلى ثمنه، وأجّرت حمالاً ليحملها عنّي، وذهبت معه إلى ساحل البحر، وانتظرت وصول أي مركب ربّما ينقلني إلى خارج المملكة باتجاه مناطق لم أستكشفها بعد.

«.. بعد أن وضعنا الأمتعة على الرمل، جلسنا تحت بعض الأشجار، وأخذنا ننظر إلى البحر على أمل أن نرى سفينة، لكن خلال عدة ساعات لم تأتِ أي سفينة أبداً. وأخيراً تخيّلت أنّني أسمع أزيزاً غريباً أو دمدمة؛ وقال الحمّال، بعد أن أصغى قليلاً، إنّه يرى سفينة. والآن أصبح الصوت مُميزاً، واستمرّ في شدته، بحيث استطعنا رؤية ذلك الشيء يقترب منّا. وأخيراً، على حافة الأفق، لمحنا بقعة سوداء، كانت تزداد في حجمها حتى اكتشفنا أنّها وحش هائل يسبح جزءٌ كبير من جسده فوق سطح البحر. اقترب منا في سرعة لا يُمكن تصوّرها، وكان يقذف الأمواج الهائلة المُغطاة بالزبد من حول صدره، ويُضيء ذلك الجانب

من البحر الذي يعبر فوقه، مُخلّفاً خطّاً طويلاً من اللّهب يمتدّ إلى مسافة بعيدة[3].

«.. وبينما كان ذلك الشيء يقترب منا رأيناه بوضوح. كان طوله يُعادل [842]طول ثلاثة من أطول جذوع الأشجار التي تنمو على الأرض، وعرضه مثل أوسع صالة احتفال في قصرك، أيها الخليفة المُبجّل الكريم. وجسده، الذي لا يُشبه أي سمكة اعتيادية، كان صلباً كأنّه صخرة صمّاء، ولونه أسود كالقطران في الجزء الطافي فوق الماء، باستثناء شريط ضيق بلون الدم يُحيط به كالخزان. أما البطن، التي تطفو قريباً من السطح، والتي لم نلمح منها بين الحين والحين إلّا جُزءاً ضئيلاً أثناء ارتفاع وسقوط الوحش مع ترجرج الأمواج، فكانت مُغطّاة بأصداف معدنية لامعة مثل لون القمر في الجو الضبابي. ظهر الوحش كان مُسطّحاً أو يكاد يكون بيضوياً، وعليه تمتد إلى الأعلى ست زعانف، طول الواحدة منها بطول الجسم كله تقريباً.

«.. هذا المخلوق المُرعب ليس له فم يُمكننا رؤيته، ولكنه، كما لو أنّ ذلك لتلافي النقص، كان مُزوّداً على الأقل بأربعة شقوق للعيون، تنتأ من محاجرها كأنها عيون خضراء للتنّين الطائر، تتوزّع في أماكن مُتفرّقة من الجسم في صفين، أحدهما فوق الآخر، موازية للشريط الأحمر الدموي الذي يبدو أنّه يؤدي غرض حاجب العين. اثنتان أو ثلاث من هذه العيون المُخيفة أكبر كثيراً من الباقيات، ولها مظهر الذهب الصلب.

«.. على الرغم من اقتراب هذا الوحش منا، كما أسلفت، بأقصى سرعة، فلا بُدّ أنّه كان يتحرّك بقدرة سحرية.. لم تكن لديه زعانف مثل السمكة أو أقدام عريضة مثل البطة، ولا أجنحة مثل القواقع يُمكن أن تنفتح مثل مجاذيف المَركب؛ وكذلك فلم يكن يتلوّى إلى الأمام مثلما يفعل سمك الأنقليس. كان رأسه وذيله يتّخذان شكلاً مُشابهاً تماماً، لا يختلف كثيراً عن الأنقليس، حيث

---

(3) الوحش الذي يوصف هُنا هو سفينة حربية تُسمّى (برنستون) تعمل بالبخار وعلى متنها بخّارة وهي أول سفينة بُخارية ذات مروحة داسرة في الأسطول الأمريكي دخلت الخدمة سنة 1844. [المترجم]

يوجد ثقبان صغيران يستخدمان كمنخرين، ومن هذين المنخرين ينفث الوحش أنفاسه الثقيلة بعنف، ويطلق صرخات عالية تصم الآذان.

«.. الرعب الذي أصابنا ونحن نشاهد هذا المخلوق لا يوصف، ولكن ما زاد من دهشتنا، أنه عندما اقترب أكثر ورأيناه بوضوح، لمحنا على ظهره عدداً هائلاً من الحيوانات التي تكاد في حجمها وشكلها تشبه البشر، بل إنها تشبههم في كل شيء، ما عدا أنهم لا يلبسون ثياباً (مثل البشر)، وإنما جهزوا (من الطبيعة، لا شك في هذا) بغطاء قبيح غير مريح المنظر، عريض جداً، يلتصق بالجلد بحيث يجعل أولئك المساكين يبدون كالحمقى، وذلك يسبب لهم ألماً قاسياً. على رأس كل واحدٍ [843]منهم صندوق يبدو مربعاً، تصورت في بداية الأمر أنه ربما كان كالعمامة، لكني اكتشفت أنه ثقيل ومتين جداً؛ وجدت تلك الأشياء مصنوعة بذكاء من خلال وزنها لإبقاء رؤوس الحيوانات ثابتة وأمينة على أكتافها. حول أعناق تلك الكائنات ربطت ما يشبه ياقات سوداء، (لا شك أنها علامات العبودية) مثل تلك القيود التي نضعها على أعناق كلابنا، لكنها أوسع واصلب إلى درجة غير محدودة، بحيث كان من المستحيل على هؤلاء الضحايا أن يحركوا رؤوسهم في أي اتجاه دون تحريك الجسد في نفس الوقت؛ وبهذا كان مقدوراً عليهم أن ينظروا دائماً إلى أنوفهم.. وكل انفٍ فيها أفطس بشكل عجيب، ومنظرها مثير للرعب.

«.. عندما وصل الوحش تقريباً إلى الساحل الذي كنا نقف عليه، اندفعت فجأة إحدى عيونه إلى مسافة قريبة، وانطلق منها وهج من النار، مع سحابة دخان كثيفة، وضوضاء لا يمكن مقارنتها بأي شيء غير الرعد. ولما تبدد الدخان، رأينا احد تلك الكائنات التي نصفها إنسان ونصفها حيوان يقف بالقرب من رأس الوحش الهائل وبيده بوق، وراح ينفخ فيه (بعد أن وضعه على فمه) مخاطباً إيانا بصراخٍ حاد بغيض النبرات، ربما ظنناه لغة ما، لولا أن تلك الأصوات جاءت كلها من الأنف.

«.. وبعد أن تكلّم معنا فيما يبدو، كنت أشعر بالضياع فلا أعرف كيف أردّ عليه، لأنّي ما كان لي أن أفهم ما قاله؛ واستدرت وأنا في حالتي تلك إلى

الحمّال الذي أوشك أن يُغمى عليه من الخوف، وسألته عن رأيه في ذلك الوحش، وعما يريد، وأي نوع من المخلوقات تركب على ظهره. وردّ الحمّال على هذه التساؤلات، بما استطاع أن يردّ رغم الذعر، قال: إنّه سبق أن سمع عن هذا الوحش البحري؛ وأنّه من الشياطين المُتوحشة، وفي أحشائه كبريتٌ ودماء من النار، وقد خلقه جنيٌّ شرير بهدف إلحاق الأذى بالبشر؛ وأنّ الأشياء التي على ظهره هي حيوانات طفيلية مثل تلك التي تُزعج القطط والكلاب أحياناً، لكنها أصغر حجماً وأكثر وحشية؛ وأن لهذه الطفيليات فائدتها، مع أنّها شريرة.. من خلال العذاب الذي تلحقه بالوحش في قرصاتها ووخزاتها، حتى تجعله مهاميزها التي تغرسها في ظهره يندفع في غضب جنوني إلى إطلاق صرخات مُزمجرة ويجن جنونه، وهكذا يقترف ما تُمليه عليه إرادة الانتقام التي يضمرها ذلك الجني الشرير.

«.. هذا الكلام دفعني لأن أرتد على أعقابي، دون أن ألتفت مرة لأنظر إلى الوراء، وركضت بأقصى سرعتي باتّجاه التلال، بينما كان الحمّال يركض أيضاً [844]بسرعة، على الرغم من أنّه هرب إلى الاتّجاه المُعاكس، وبهذه الوسيلة استطاع الهرب أخيراً وقد أخذ معه أمتعتي التي لم يساورني شكٌّ في أنّه سوف يعتني بها عناية تامة.. مع أنّ هذا شيء لا أستطيع أن أُقرّره، لأنّي لا أتذكّر أنّني رأيته بعد ذلك مرة أُخرى.

«.. بالنسبة لي، كان جمعٌ من تلك الكائنات الطفيلية يُلاحقني بضراوة (وقد نزلوا إلى الساحل في قوارب) حتى داهموني بعد وقتٍ قصير، وربطوني من اليدين والقدمين، ونقلوني إلى ظهر الوحش، وسرعان ما سبح الوحش راجعاً إلى عرض البحر.

«.. الآن أحسستُ بمرارة الندم على حماقتي في ترك منزلي الآمن المُريح وتعريض حياتي لمخاطر هذه المُغامرة؛ ولأنّ لا فائدة تُرجى من الندم، حاولتُ الترويح عن نفسي، وبذلت جهدي لكي أنال ثقة الكائن الخُرافي الذي يحمل البوق، والذي بدا أنه يمارس سلطة على رفاقه. ونجحت بعض الشيء في مُحاولتي هذه، وفي غضون بضعة أيام، أعطاني ذلك المخلوق عدة علامات على

استحسانه لتصرفاتي، وفي النهاية تكبّد عناء أن يُعلمني مبادئ تلك الأصوات التي ربّما كان من العبث تسميتها لُغتهم؛ وأخيراً تمكّنت من التحدّث إليه بسهولة، وجعلته يفهم رغبتي المحمومة في رؤية العالم.

'وشوش.. طرطش.. انفخ وأطلق صريراً، يا سندباد، هيا.. دلدل رجليك، .. زمجر، انخر، همهم، هسهس، وسوس، هرهر'.. قال لي ذات يوم بعد العشاء.. ولكنّي ألتمس منكم المعذرة ألف مرة، فقد نسيت أنّ جلالتكم لا تعرفون لهجة الديكة التي تصهل من الكوكنيين (هكذا كان أنصاف البشر يُسمون أنفسهم؛ لأنّ لُغتهم كما تصوّر تشكّل الرابطة بين لُغة الحصان ولُغة الديك). وأطلب السماح لي في أن أُترجم وشوشتهم وطرطشتهم، وما إلى ذلك.. بعبارة أُخرى، «إنّني سعيد لأن أجد، يا عزيزي سندباد، أنّك شخص رائع حقّاً؛ نحن الآن على وشك الذهاب في رحلة ندور فيها حول الأرض؛ وما دمت جادّاً في رغبتك لرؤية العالم، سوف أحرص على أن أمنحك فرصة الحصول على رحلة مجّانية على ظهر الوحش».

فلما وصلت شهرزاد إلى هذا الحد من حكايتها، كما ورد في كتاب (أليس كذلك أم لا)، استدار الملك من جانبه الأيسر إلى الأيمن، وقال:

«حقّاً ذلك شيء عجيب تماماً، يا عزيزتي الملكة، أن لا تتطرّقي حتى الآن إلى هذه الحكاية الأخيرة عن رحلات السندباد. هل تعلمين أنّني أعتبرها حكاية طريفة وغريبة جدّاً؟».

وبعد أن عبّر الملك عن رأيه بهذه الكلمات، كما قيل لنا، استأنفت شهرزاد [845]الجميلة سرد حكايتها فقالت:

«.. وهكذا تابع السندباد سرد حكايته للخليفة.. «وقدّمت الشكر إلى الرجل المسخ على عطفه، وسرعان ما وجدت نفسي مُرتاحاً على ظهر الوحش، وكان يسبح في سرعة هائلة عبر المُحيط؛ على الرغم من أنّ سطح المياه في ذلك الجزء من العالم، لم يكن مُنبسطاً، بل كان مثل ثمر الرمان، بحيث كنا نجري.. إذا جاز القول.. إمّا إلى الأعلى أو إلى الأسفل على تلال من الموج طوال الوقت»».

«أتصور أن ذلك شيء غريب حقّاً»، قطع عليها الملك حديثها.

«ومع ذلك، فإنّها الحقيقة»، أجابت شهرزاد.

«أخشى أن.. »، عاد الملك للكلام؛ «لكن، أرجوك، هلّا مضيت في سرد الحكاية».

«سوف أفعل»، قالت الملكة. ««..الوحش»، أكمل السندباد حكايته، «كان يسبح كما قلت، على تلال من الموج حتى وصلنا أخيراً إلى جزيرة مساحتها مئات الأميال، وجدنا عليها في عرض البحر مُستعمرة من أشياء صغيرة كأنها اليرقات..»»(*1).

«احم!» قال الملك.

«.. وبعد أن تركنا هذه الجزيرة»، قال السندباد.. (لأنّ شهرزاد، كما نعلم، لم تُلاحظ على زوجها ذلك التعبير الذي يدل على الملل) «بعد أن تركنا هذه الجزيرة، وصلنا إلى جزيرة أُخرى تُكثر فيها غابات من الصخور الصماء، وكانت الصخور قاسية بحيث تقطع الفؤوس الحادة إلى قطع مُتناثرة لدى مُحاولة [846]تقطيعها..»(*2).

(*1) جزر مرجانية. (المؤلف)

(*2) «من المناظر الطبيعية المبهجة أكثر من أي شيء في تكساس غابة مُتحجّرة، بالقرب من منابع نهر باسيغنو. تتألف الغابة من مئات الأشجار التي تتّخذ وضعاً قائماً، وكلّها تحوّلت إلى حجارة. بعض الأشجار التي تنمو الآن مُتحجّرة جُزئياً. هذه حقيقة مُذهلة في رأي الفلاسفة الطبيعيين، وينبغي أن تجعلهم يعدلون نظريتهم الحالية عن التحجّر».. كينيدي.

هذه المقولة التي رفض الناس تصديقها في بداية الأمر، تعزّزت على أثر اكتشاف غابة مُتحجّرة كلياً، بالقرب من منبع نهر شيان، الذي يتدفّق من التلال السوداء «بلاك هلز» لسلسلة جبال صخرية.

ربّما كان من النادر العثور على أي منظرٍ مُماثل على سطح الأرض أكثر إثارة للذهول، سواءً من منظور جيولوجي أكثر من منظر تلك الغابة المُتحجّرة التي تقع بالقرب من القاهرة. بعد أن يجتاز الرحالة قبور النبلاء، مُباشرة وراء بوابات المدينة، يمضي في طريقه نحو الجنوب، تقريباً في زوايا قائمة مع الطريق الذي يخترق =

«أحم!» قال الملك مرة أُخرى؛ لكن شهرزاد لم تُعره أي اهتمام، وتابعت حكايتها على لسان السندباد..

«.. عبرنا هذه الجزيرة الأخيرة، حتى وصلنا إلى بلاد فيها كهفٌ يمتد إلى ثلاثين أو أربعين ميلاً في جوف الأرض، وكانت تحتوي على عدد كبير من القصور الفخمة الفسيحة أكثر جمالاً حتى من القصور التي نجدها في دمشق وبغداد. ومن سقوف هذه القصور تتدلّى آلاف الجواهر، مثل الألماس والزمرد، لكنها أكبر حجماً من الرجال؛ ووسط الشوارع التي تخترق الأبراج والأهرامات والمعابد، تجري أنهار عظيمة سوداء كالعاج، وتعجّ بالأسماك التي ليس لها عيون..»(*3).

«إحم!» قال الملك.

= صحراء السويس، وبعد أن يقطع نحو عشرة أميال مُتّجهاً إلى الوادي الأجرد، الذي تُغطيه الرمال وقواقع بحرية يجدها طرية كما لو أنّ المد قد انسحب عنها بالأمس، يُعبّر سلسلة مُنخفضة من التلال الرملية التي تمتد إلى مسافات بعيدة في موازاة الممر الذي يسلكه. هذا المشهد يراه في الواقع خارج نطاق التصوّر فهو فريدٌ في هذا المكان المُنعزل. هُناك كتلة من بقايا الأشجار، كلها تحوّلت إلى حجارة، وعندما تطأها حوافر حصانه تصدر رنيناً واضحاً كأنّها من الحديد، يراها تمتدّ إلى أميالٍ وأميال حوله من كل جانب، مُتخذة شكل غابة مُتداعية تكاد مكوناتها تنبطح على الأرض. الخشب الذي تتكوّن منه أشجار الغابة له لونٌ بني غامق بمُختلف تدرّجاته، لكنه يُحافظ على شكله الكامل، وكل أنواع الأشجار يتراوح طولها من قدم إلى خمسة عشر قدماً، وسمكها يتراوح من نصف قدم إلى ثلاثة أقدام، وهي مُتناثرةٌ قريباً من بعضها، بقدر ما يمكن للعين الوصول إليه، بحيث إن أي حمارٍ مصري بالكاد يُمكنه أن يشقّ طريقه عبرها؛ وهذا شيء طبيعي لو كانت في اسكتلندا أو إيرلندا، فربما مرّ الإنسان دون أن يُلاحظه أحدٌ على مُستنقعٍ جاف هائل، تخرج منه الأشجار الميتة وتتعفّن تحت الشمس. جذورُ وفروع الأشجار في كثيرٍ من الحالات تكاد تكون مُكتملة النمو، وفي بعض الفجوات التي أحدثتها الديدان تحت اللحاء تُلاحظ حالتها الطبيعية بسهولة. السائل الرقيق الذي في أوعية النباتات، والأجزاء الأُخرى الدقيقة من جوهر الخشب، باقٍ على حالته الأصلية تماماً، لكن ينبغي أن يُفحص بأدق المُكبّرات. المنظر كله جامد كأنّه كشط في زجاجٍ صقيل.. مجلّة أتلانتك. (المؤلف)

(*3) كهفُ الماموث في كينتوكي. (المؤلف)

«.. ثم سبحنا إلى منطقة في البحر وجدنا فيها جبلاً شاهق الارتفاع، على سفوحه تسيل تياراتٌ من معدن سائل، بعضها بعرض اثني عشر ميلاً وطولها ستون ميلاً(*4)؛ بينما رأينا هاوية فوق القمة، تندفع منها كميات هائلة من الرماد تحجب الشمس في كبد السماء، فكان الظلام أشد من مُنتصف الليل؛ بحيث كنّا حتى على بُعد مائة وخمسين ميلاً عن الجبل، يستحيل علينا أن نرى شيئاً وإن كان ناصع البياض، أو قريباً من عيوننا..»(*5).

«إحم!» قال الملك.

«.. وبعد أن تركنا الساحل، استمرّ الوحش في رحلته حتى صادفتنا أرضٌ [847]وجدنا طبيعة الأشياء فيها تبدو مُعاكسة.. هُنا رأينا بحيرة عظيمة، قاعها عرضه أكثر من مائة قدم تحت سطح المياه، وعلى القاع تنمو غابة من الأشجار الطويلة المُثمرة ذات أوراق خضراء عريضة..»(*6).

«هوو!» قال الملك.

«.. وعلى بُعد مائة ميلٍ من ذلك وصلنا إلى منطقة ذات هواء ثقيل خانق

(*4) في أيسلندا، 1783. (المؤلف)

(*5) «أثناء انفجار بركان هيكلا، سنة 1766، شكّلت سحبٌ من هذا النوع غطاءً من الظلام، في غلاومبا، على ارتفاع أكثر من خمسين فرسخاً عن الجبل، وكان في وسع الناس أن يمشوا فقط وهم يتلمّسون طريقهم كالعميان. وأثناء انفجار بركان فيسوفيوس، سنة 1794، في كاسيرتا، على بُعد أربعة فراسخ، كان الناس يمشون على ضوء الشعل والمصابيح الكاشفة. في اليوم الأول من أيار 1812، غطّت سحابة من الرماد البركاني والرمال، خرجت من بركان في جزيرة سانت فنسنت، المنطقة كلها لجزر باربادوس، وانتشرت فوقها وعمّ الظلام الدامس حتى في مُنتصف النهار خارج البيوت، ولم يتمكّن الناس حتى من رؤية الأشجار أو أي أشياء أُخرى بالقُرب منهم، أو حتى رؤية منديل أبيض على بُعد ست بوصات عن العين». مجلّة موراي، ص 215، طبعة فيلادلفيا.

(*6) «في سنة 1790، في كاراكاس أثناء هزة أرضية غطس جانبٌ من التربة الغرانيتية مُخلّفاً بُحيرة قطرها ثمانمائة ياردة، وعمقها يتراوح من ثمانين إلى مائة قدم. كانت في السابق جُزءاً من غابة أريابو التي غطست، وبقيت الأشجار خضراء عدة أشهر تحت الماء».. موراي، ص 221. (المؤلف)

إلى درجة أنّه يحمل الحديد أو الفولاذ، مثلما يحمل هواؤنا ريش الطيور..»(*7)

«شيءٌ ناشز..» قال الملك.

«.. ولما مضينا في الاتجاه نفسه، وصلنا بعد ذلك إلى منطقة أكثر جمالاً من غيرها في العالم كلّه. عبر هذه المنطقة يجري نهرٌ رائع عدة آلاف من الأميال. هذا النهر لا يُمكن وصف مدى عُمقه، وشفافية مياهه أصفى من الكهرمان. كان يمتد إلى عرضٍ يتراوح من ثلاثة إلى ستة أميال؛ وضفافه التي ترتفع كالسواتر على الجانبين تصل إلى اثني عشر مائة قدم في ارتفاع مُتعامد، حيث تتوّجها أشجارٌ دائمة الخضرة وأزهار ذات روائح زكية، تجعل المنطقة بأسرها مثل جنةٍ مُترامية الأطراف؛ لكن اسم هذه الأرض المُترفة بالجمال ويا للأسف هو مملكة الرّعب، وإذا دخلها المرء فإنّ الموت مصيره المحتوم..»(*8).

«همف!» قال الملك.

«.. وتركنا هذه المملكة على استعجال، وبعد أيام وصلنا إلى أرض أُخرى، وكم دهشنا لرؤية آلاف من الحيوانات المُتوحشة الضخمة قرونها تُشبه المناجل على رؤوسها. هذه الوحوش المُرعبة كانت تحفر لنفسها مغارات واسعة في الأرض، تتّخذ شكل القمع، وترصف جوانبها بالصخور، وتتكدّس الصخور بعضها فوق بعض حتى تكاد تتهاوى بسهولة، وحين تدوس عليها الحيوانات الأُخرى، يندفع إليها الوحش ليسحبها إلى عرينه، فيمتص دماءها في الحال، وبعد ذلك تُلقى جثثها [848]المتعفنة إلى الخارج على مسافة بعيدة عن «مغارات الموت..» »(*9).

«بووه!» قال الملك.

(*7) أقوى أنواع الفولاذ التي تُصنع بطريقة النفخ الأنبوبي ربّما تتفتّت إلى مسحوقٍ غير ملموس يتطاير في الهواء الجوّي. (المؤلف)

(*8) منطقة النيجر. انظر: سيمونا (مجلّة سكان المُستعمرات). (المؤلف)

(*9) النملة الأسد مارميليون. كلمة «وحش» ربّما تُستخدم أيضاً للدلالة على أشياء صغيرة أو كبيرة بصورة غير اعتيادية، بينما بعض الصفات مثل «واسع» هي مُجرّد صفات للمُقارنة. كهف النمل كان واسعاً مُقارنة بالفتحة التي يعملها النمل الأحمر العادي. إنّ حبة من حجر الصوّان ربّما تكون بحجم صخرة أيضاً. (المؤلف)

«.. وتابعنا رحلتنا، فرأينا منطقة يكثر فيها نوع من الخضروات لا ينمو على أي تربة، وإنّما ينمو في الهواء(*10). وهُناك أنواع أُخرى من النباتات تبرز من صلب خضروات أُخرى(*11)؛ وأنواع أُخرى تستمدّ مادّتها من أجساد حيوانات حيّة(*12)؛ ومرة أُخرى، هُناك أنواع أُخرى تضطرم نار هائلة في كل جوانبها(*13)؛ وأُخرى تنتقل من مكانٍ إلى مكان كيفما تشاء(*14)، والأكثر غرابة أنّنا اكتشفنا أزهاراً تتنفس وتُحرّك أطرافها أينما تشاء، وفضلاً عن هذا، لها نزعة مقيتة مثل البشر في استعباد المخلوقات الأُخرى، وتقييدها في سجون مُنعزلة مُرعبة حتى تؤدي لها مهمات محددة..»(*15).

(*10) نبتة خُصي الثعلب *Epidendron* من عائلة السحلبيات تنمو جُذورها السطحية مُلتصقة على شجرة أو أي شيء آخر، ولا تستمدّ منها أي نوع من التغذية.. فهي تعيش كُلياً على الهواء. (المؤلف)

(*11) هذه تُسمى الطفيليات مثل نبتة الرافليزي الرائعة *Rafflesia Arnaldii*. (المؤلف)

(*12) يؤيد شاو وجود صنفٍ من النباتات التي تنمو على جلود الحيوانات.. منها ما يُسمى بلانتاي إيبيزوا. من هذه الفصيلة نباتات طحلب الصخور والأشنات.
قدم السيد ج. ب. وليمز، من ساليم، ماساشوسيتش، إلى «المعهد الوطني» حشرة أحضرها من نيوزيلندا ووصفها على النحو التالي: «حشرة تُسمى هوتي، وهي نوع من اليرقات بكل تأكيد، أو دودة، وجدت تتشبث بجذر شجرة روتا، بينما هُناك نبات ينمو خارجاً من رأسها. هذه الحشرة الغريبة جدّاً تتنقل بين أشجار روتا وفيريري، وتخترق جذوعها من الأعلى، وتحفر لها طريقاً، وتخرم جذع الأشجار حتى تصل إلى الجذور، ثم تموت، أو تبقى في حالة سُبات، والنبات يخرج من رأسها؛ ويبقى البدن سليماً، من مادة صلبة أكثر ممّا لو كان حيّاً. من هذه الحشرة يصنع السكان المحلّيون أصباغاً مُلونة يستخدمونها في الوشم. (المؤلف)

(*13) في المناجم والكهوف الطبيعية نجد أنواعاً من الصنوبريات تُسمّى سرو اليابان تبثّ مادة فسفورية كثيفة. (المؤلف)

(*14) السَّحلب، والإسكبيوزة أو زهرة الجرب. (المؤلف)

(*15) تويج هذه الزهرة الذي يُسمى علمياً أريستولوكيا كليماتيس، أنبوبي الشكل، ينتهي من الأعلى بطرفٍ مثل اللسان، يكون مُنتفخاً عند قاعدته كأنّه الكرة. الجزء الأنبوبي فيه شُعيرات من الداخل تكون صلبة، مُدبّبة تتّجه إلى الأسفل. والجزء المُكوّر يحتوي على عضو التأنيث أو المدقة، يتألّف مُجرّد من الميسم، إلى جانب السداة التي تحيط به. لكن السداة، بما أنّها أقصر من الميسم، فهي غير قادرة على أن تُلقي بذور اللقاح على الميسم، لأنّ الأزهار تكون دائماً في وضع مُستقيم إلى أن تتمّ عملية التلقيح. =

«أفٍ!» قال الملك.

«.. وتركنا هذه الأرض، وسُرعان ما وصلنا إلى أرض أُخرى كان [849]النحل والطيور فيها علماء رياضيات في تلك الأماكن وهي على درجة عالية من العبقرية وسعة الاطّلاع، وتُلقي مُحاضرات يومية في علم الهندسة للحكماء في الإمبراطورية. وبعد أن عرض ملك البلاد مُكافأة لمن يُعطي حلّاً لمسألتين معقّدتين جدّاً، توصلت إلى حلّها في الحال.. الأُولى: حلها النحل.. والثانية: حلتها الطيور؛ لكن الملك أبقى حلولها سرّاً، وبعد بحوثٍ وعناء، وكتابة ما لا يُحصى من الكتب، خلال سنوات طويلة، توصّل علماء الرياضيات من البشر أخيراً إلى حلول مُماثلة لتلك التي قُدمت مُباشرة من النحل والطيور»(*16).

= ومن هُنا، من غير مُساعدة أُخرى، فإن بذور اللقاح لا بُدّ أن تسقط إلى قاع الزهرة. والآن، وسيلة المُساعدة التي وفّرتها الطبيعة في هذه الحالة تتمثّل في حشرة صغيرة تُسمّى تيبوتا بينكورنيس تدخّل أُنبوب الأوراق التويجية للزهرة بحثاً عن العسل، ثم تنزل إلى القاع، وتُنقّب هُناك إلى أن تتغطّى كلياً بحبوب اللقاح، ولأنّها عاجزة عن الخروج مرة أُخرى بسبب الشعيرات المُتجّهة للأسفل التي تُغطي نقطة الخروج كأنّها أسلاك مصيدة الفئران، ولأنّ الحشرة تُصاب بالذعر والضجر بعض الشيء وتأخذ بالتقلّب إلى الخلف والى الأمام، وتُجرّب كل زاوية من الميسم وتغطيه بحبوب اللقاح الكافية لعملية التلقيح، ونتيجة لهذا سُرعان ما تبدأ الشجرة بالذبول، وتتقلّص الشعيرات وتنحرف إلى جوانب الأنبوب، ممّا يخلق ممراً سهلاً للحشرة لكي تهرب». ب. كيث (النظام الفسيولوجي للنبات). (المؤلف)

(*16) النحل.. منذ أن وجد النحل على الأرض.. كان يُشيّد جوانب خلاياه بهذا الشكل، وبمثل هذا العدد، وبمثل هذه الاتجاهات، (في دقة تتضمن أعمق المبادئ الرياضية) بحيث تمنح جوانب الخلية، وأعدادها، وزواياها لتلك المخلوقات أفضل مساحة مُتوفرة ذات تماسك قوي.

في أواخر القرن الماضي أُثيرت مسألة وسط علماء الرياضيات.. «من أجل تحديد أفضل شكلٍ يُمكن أن يُعطى لطاحونة الرياح، تبعاً للمسافات المُتباينة بين الريش الدوارة، وكذلك مراكز الدوران». كانت هذه من المُشكلات العويصة، لأنّها بعبارة أُخرى تعني التوصل إلى أفضلِ موقع مُمكن ضمن عددٍ لا يُحصى من المسافات المُتباينة والنقاط على الذراع. لقد أُجريت آلاف المُحاولات العقيمة للإجابة على السؤال من جانب أبرع وأشهر علماء الرياضيات، ولم يكتشف أي حل، واعترفوا بعجزهم، إلى أن وجد الناس أنّ جناحي أحد الطيور يلهمهم الحل الدقيق منذ أن قطع الهواء أول طير. (المؤلف)

«يا إلهي!» قال الملك.

«.. لم نكد نبتعد عن هذه الإمبراطورية حتى وجدنا أنفسنا قريبين من إمبراطورية أُخرى، من شطآنها تُحلّق فوق رؤوسنا أسرابٌ من الطيور يصل عرضها إلى ميلٍ تقريباً، وطولها مائتان وأربعون ميلاً؛ ومع أنّ الطيور كانت تقطع ميلاً في الدقيقة، إلّا أنّ الأمر تطلّب ما لا يقل عن أربع ساعات للأسراب كلها حتى تعبر فوقنا.. وفي هذا الوقت كانت تُحلّق ملايين الملايين من الطيور..»[*17].

«يا للهول!» قال الملك.

«.. ولم يمضِ وقتٌ طويل بعد أن ذهبت هذه الطيور التي سبّبت لنا حرجاً [850]كبيراً، حتى أرعبتنا طيورٌ من نوع آخر، حجمها لا يُقارن بتلك الطيور، بل هي أكبر من الصخور التي رأيتها في رحلاتي السابقة؛ لأنّها أكبر من قباب قصرك الفخم، أوه، أيها الخليفة المُبجّل. هذه الطيور عديمة الرؤوس، لكنها مُكوّنة من كرش ضخم مُكوّر، من مادة هُلامية ملساء تلمع ومُخططة بمختلف الألوان. في مخالب الوحش كان يحمل إلى وكره فوق الجبل الذي يعلو الغيوم، منزلاً اقتلع سقفه، وفي داخل المنزل رأينا كائنات من البشر، لا شكّ في هذا، كانوا في حالة لا توصف من الذعر والقنوط من المصير الذي ينتظرهم. أخذنا نصرخ بما أوتينا من قوة، على أمل أن نجعل الطير يتخلّى عن فريسته، لكنه أطلق صيحة أو نفخة تُعبّر عن الغضب ثم ترك كيساً ثقيلاً يسقط فوق رؤوسنا اتّضح أنّه كان مليئاً بالرمال!»[4].

«هراء!» قال الملك.

«.. بعد هذه المُغامرة مُباشرة مررنا بقارةٍ هائلة تمتد على مساحة هائلة وذات صلابة متينة، مع أنّها كانت تستقرّ على ظهر بقرة زرقاء بلون السماء لها ما لا يقلّ عن أربعمائة قرن..»[*18].

---

(4) الطير هُنا في الواقع منطاد مع عربته كان يُطلق ألعاباً نارية. [المترجم]

(*17) رأى سرباً من الحمام يعبر سماء فرانكفورت والمنطقة الهندية، بعرض لا يقلّ عن ميلٍ واحد؛ لقد تطلّب الأمر أربع ساعات لعبور السرب الذي كان يطير بمُعدّل ميلٍ =

«الآن أعتقد»، قال الملك، «أنّني قرأت شيئاً من هذا القبيل من قبل، في أحد الكتب».

«.. وبعد ذلك عبرنا تحت هذه القارة، (سبحنا بين سيقان البقرة) وبعد ساعات قليلة وجدنا أنفسنا في بلاد جميلة حقّاً، ثم قال لي ذلك الكائن المسخ إنّها موطنه الأصلي، وتسكنها كائنات من جنسه. هذا الأمر جعل ذلك المسخ يعلو في نظري، وفي الواقع، بدأت الآن أشعر بالخجل من نفسي لأنّي كنت أنظر إليه باحتقار؛ وجدت تلك المخلوقات التي نصفها إنسان ونصفها حيوان بصفة عامة تنتمي إلى أمة من السحرة ذوي قدرات عجيبة، كانوا يعيشون والديدان تسكن رؤوسهم[*19]، ولا شكّ أنّها تجعلهم يُعانون من آلام حادة ويتلوّون ويتشقلبون في جهود جبارة تُثير الاستغراب!».

«هراء!» قال الملك.

«.. وسط أمة السحرة تلك تعيش عدة حيوانات غريبة الأجناس؛ على سبيل المثال، هُناك حصان هائل الحجم عظامه من الحديد ودمه من ماء يغلي.[851] وبدلاً من الحدوة لديه حجارة سوداء تلتصق عادة على حوافره؛ ولكن على الرغم من أنه يتبع حمية قاسية، إلّا أنّه كان قوياً وسريع الحركة بحيث يستطيع أن يُجرجر حملاً أكبر من أضخم معبدٍ في المدينة، في سرعة تتجاوز قوة أسراب الطيور..»[*20].

«هراء!» قال الملك.

= واحد في الدقيقة، وكان طول السرب يمتد إلى 240 ميلاً؛ لنفرض أنّ هُناك ثلاث حمامات في كلّ ياردة مُربّعة، فهذا يعني أن أعدادها تصل إلى 2,230,272,000 حمامة.. «رحلات في كندا والولايات المتحدة»، تأليف الملازم ف. هال. (المؤلف)

(*18) «الأرض تحملها بقرة زرقاء اللون، لها من القرون أربعمائة قرن». قرآن سيلز. (المؤلف)

(*19) «تُسمى الديدان المعوية، أو إينتوزوا، كان يُلاحظ وجودها دائماً في العضلات، وفي مخ الرجال».. انظر: «فسيولوجيا يات»، ص 143. (المؤلف)

(*20) على خط السكك الغربية الكبرى، بين لندن وأيكستر، كانت سُرعة 71 ميلاً في الساعة من السهل الوصول إليها. القطار الذي يزن 90 طناً ينتقل من بادنغتون إلى ديدكوت (53 ميلاً) في 51 دقيقة. (المؤلف)

«.. ورأيت أيضاً، وسط هؤلاء الناس دجاجة من غير ريش، لكنّها أكبر من الجمل؛ وبدلاً عن اللحم والعظم لها هيكل من الحديد والحجارة؛ ودمها مثل دم الحصان، (الذي ترتبط معه برابطة قرابة) من الماء المغلي؛ ومثل الحصان لم تكن تأكل شيئاً غير الخشب أو الحجارة السوداء. هذه الدجاجة تلد من وقت إلى آخر مائة من الصيصان في كلّ يوم؛ وبعد الولادة، تتّخذ الصيصان أماكن لها لأسابيع عديدة داخل بطن أمها..»[*21].

«عجباً!» قال الملك.

«.. استطاعت إحدى هذه الأمم من السحرة الأقوياء خلق إنسان من العشب والخشب، ومن الجلد، ومنحته قدرات عجيبة تُمكّنه من التغلّب في لعبة الشطرنج على كل البشر، باستثناء طبعاً الخليفة العظيم هارون الرشيد[*22]. وهُناك ساحر آخر من هؤلاء ابتُكر (من مادة مُشابهة) مخلوقاً جلب العار حتى على العبقري الذي خلقه؛ لأنّ قُدراته العقلية كانت جبّارة بحيث إنّه كان يستطيع في لحظة أن يجري حسابات بالغة التعقيد ربما تتطلب جهد خمسين ألفاً من الرجال الأقوياء لمدة سنة[*23]. ومع ذلك فهُناك مُخترع عبقري صنع لنفسه شيئاً قوياً ليس بالإنسان ولا بالحيوان، لكن له دماغ من الرصاص، ممزوج مع مادة سوداء كأنّها الزفت، وله أصابع يستخدمها في سرعة مُذهلة وبراعة بحيث لا يواجه صعوبة في كتابة عشرين ألف نسخة من القرآن في ساعةٍ واحدة، وهذا يحصل في دقة مُذهلة، بحيث إنّه في كلّ النسخ لا ينبغي لك أن تجد نسخة تختلف عن الأُخرى في القياسات بمقدار شعرة. هذا المخلوق كان ذا قوة عظيمة، بحيث إنّه يُمكن أن يُشيد أو يهدم أقوى الإمبراطوريات في نفخة من أنفاسه، إلّا أنّ قدراته العظيمة تتوزّع بالتساوي بين الشر والخير..»[5].

(*21) معكرونة إسكالوبيني. (المؤلف)

(*22) مايزل: «الشطرنج الآلي». (المؤلف)

(*23) آلة حسابية اخترعها كابيج. (المؤلف)

(5) الشيء الذي يتكلّم عنه المؤلف هُنا هو ماكنة الطباعة التي تطوّرت سريعاً في مُنتصف القرن الثامن عشر. [المترجم]

[852]«شيء سخيف!» قال الملك.

«.. ووسط هذه الأمة من السحرة والعرّافات هُناك أيضاً ساحرٌ آخر يجري في شرايينه دم السمندل؛ لأنّه لم يكن يُعاني من أي ألم وهو يجلس لكي يُدخن الغليون على أرضٍ حمراء من شدة الحرارة ويشوي طعامه عليها(*24). وحيوانٌ آخر لديه موهبة تحويل المعادن الدنيئة إلى ذهب، من غير حتى أن ينظر إليها أثناء هذه العملية(*25). وآخرٌ لديه حاسة تذوّق ولمس شديدة الحساسية بحيث كان يصنع سلكاً رفيعاً لا يُرى بالعين المجرّدة(*26). وآخر سريع جدّاً في المُلاحظة بحيث يتمكّن أن يُحصي كل حركة مُستقلة يتحركّها جسم بلاستيكي لدن، في الوقت الذي يتذبذب فيه ذلك الشيء بمُعدل تسعمائة مليون مرة في الثانية..»(*27).

«هراء!» قال الملك.

«.. وساحرٌ آخر من هؤلاء، بواسطة سائل لم يسبق أن رآه احدٌ من قبل، كان يستطيع أن يجعل اثنين من أصدقائه يُحركان أذرعهما، ويركلان بسيقانهما، أو حتى ينهضان ليرقصا كما يشاء(*28). وآخرٌ لديه حاسة سمع مُذهلة إلى درجة أنّه يستطيع أن يُسمع صوته من طرف العالم إلى الطرف الآخر(*29). وآخرٌ ذراعه طويلة جدّاً بحيث يستطيع أن يجلس في دمشق ويكتب رسالة في بغداد.. أو في الواقع على أي مسافة مهما كانت بعيدة(*30). وآخرٌ يأمر البرق بأن ينزل من

(*24) شايبرت، ومنذ زمنه، هُناك مئات آخرون. (المؤلف)
(*25) الطباعة الآلية. (المؤلف)
(*26) صنع وولاستون من مادة البلاتين للمُراقبة تلسكوباً سمك عدسته ثمانية آلاف جزء من البوصة. ولم يكن يُرى إلا بواسطة المجهر. (المؤلف)
(*27) أظهر نيوتن أن شبكية العين تحت تأثير الأشعة البنفسجية للطيف الشمسي، تتذبذب 900,000,000 مرة في الثانية.
(*28) حزمة فولتية. (المؤلف)
(*29) جهاز طباعة التلغراف الكهربائي. (المؤلف)
(*30) التلغراف الكهربائي يُرسل معلومات فورية.. على الأقل فيما يتعلّق بأي مسافة على سطح الأرض. (المؤلف)

السماء، فينزل البرق [853]بأمره؛ فيلعب معه كما يشاء. وآخرٌ يأخذ صوتين عاليين فيصنع منهما الصمت. وآخرٌ يصنع الظلام الدامس من ضوئين لامعين(*31). وآخرٌ يصنع الثلج في فرن مُتوهّج(*32). وآخرٌ يوجه الشمس كيفما يشاء لكي يرسم بها لوحة، والشمس تمتثل له(*33). وآخرٌ يأخذ هذا النجم أو ذاك والقمر والكواكب، وبعد أن يزنها بدقة بالغة، يسبر أغوارها ويُحدّد مدى صلابة المادة التي صُنعت منها. لكن الأمة كلها، في الواقع، كانت ذات قدرة عجيبة في فنون السحر، فلا أطفالها، ولا قططها ولا كلابها الأليفة تُعاني من صعوبة في رؤية أشياءٍ لا وجود لها، أو تلك الأشياء التي كانت منذ عشرين مليون سنة قبل ولادة هذه الأمة نفسها قد حجبت عن وجه الخليقة..»(*34).

(*31) في التجارب العادية للفلسفة الطبيعية إذا أُدخلت حزمتين من الأشعة الحمراء من مصدرين للضوء في حُجرة مُظلمة بحيث تسقطان على سطح أبيض، وتختلفان في الطول بنسبة 0,0000258 من البوصة، تتضاعف كثافتهما. إذا كان الاختلاف في الطول أي رقم صحيح من مُضاعفات ذلك الكسر، يتضاعف بمقدار 2,25 إلى 3,25، إلخ،، ويُعطي كثافة تُعادل حزمة واحدة فقط؛ لكن إذا تضاعف بمقدار 2,50 إلى 3,50 إلخ.. تكون النتيجة ظلاماً دامساً. في حالة الأشعة البنفسجية تظهر تأثيرات مُماثلة عندما يكون الاختلاف في الطول 0,000157 من البوصة؛ ومع كل موجات الأشعة الأُخرى تكون النتائج نفسها.. الاختلاف يتباين في زيادة مُنتظمة من البنفسجي إلى الأحمر.

«تجارب مُماثلة فيما يتعلّق بالصوت تؤدي إلى نتائج مُماثلة». (المؤلف)

(*32) ضع بوتقة من البلاتين فوق مصباح غازي، حتى تجعلها الحرارة تحمّر؛ اسكب شيئاً من حامض الكبريت، ومع أنّه سريع التبخر أكثر من بقية المواد بدرجة حرارة اعتيادية، سوف تجده يلتصق بالبوتقة الحارّة، ولا تتبخر قطرة منه.. ويحاط بجوٍّ من مادته، ولا يُلامس جوانبها. والآن تُضاف بضع قطرات من الماء، حينها يلتصق الحامض فوراً بالَجوانب الساخنة للبوتقة، ويتطاير مُرسلاً بُخاراً من حامض الكبريت، ويكون التفاعل سريعاً جدّاً، بحيث إنّ حرارة الماء تتلاشى، وتسقط كتلة من الثلج إلى القاع؛ وفي تلك اللحظة قبل أن يتاح لها الذوبان ربما ترى كتلة الثلج داخل وعاءٍ محمّر من شدة الحرارة. (المؤلف)

(*33) طريقة تصوير ضوئي قديمة تُسمّى الدغرية. (المؤلف)

(*34) على الرغم من أنّ الضوء ينتقل بسرعة 167,000 ميلٍ في الثانية، إلّا أنّ بعد النجم سايغني 61 (النجم الوحيد الذي مسافته مؤكدة) تعتبر كبيرة بشكل غير قابل للتصور، بحيث تحتاج أشعته إلى أكثر من عشر سنوات لكي تصل إلى الأرض. أما بالنسبة =

«هرطقة!» قال الملك.

«وزوجات وبنات هؤلاء السحرة العظماء الحكماء الذي لا يُناظرهم شيء»، تابعت شهرزاد الكلام، دون أن تُعكّر كلامها هذه الاعتراضات المُتكرّرة غير المُهذّبة من جانب زوجها.. «زوجات وبنات هؤلاء السحرة نماذج مُثلى للأخلاق وحُسْن التهذيب؛ وفي شخصياتهن يتجسّد كل شيء مُمتع وجميل، لولا وجود نقص ضئيل يُضايقهن، فلا قُدرات أزواجهن وآبائهن الخارقة تكفي حتى الآن لإنقاذهن منه. بعض المآسي والمُنغّصات تأتي في أشكال محددة، وبعضها تتّخذ أشكالاً [854]أُخرى.. لكن هذه المأساة التي أتكلّم عنها جاءت في شكل نزوة طائشة..».

«ماذا؟» قال الملك.

«نزوة»، قالت شهرزاد. «من عمل جنيّ شرير، من الجن الذين يقفون بالمرصاد ليلحقوا الأذى، ادخل في رؤوس هؤلاء السيدات المهذّبات أنّ ما نعتبره مثالاً خارقاً للجمال ينبغي أن يُرمز إليه من خلال انتفاخٍ في منطقة ليست بعيدة عن مُنتصف الظهر.. مُنتهى الجمال، كما يقولون، يكْمن في اكتناز تلك الكتلة. بعد أن استولت عليهن هذه الفكرة طويلاً، وبما أنّ الوسائد كانت رخيصة في البلاد، فالأيام كانت تمضي دون أن يستطيع المرء تمييز المرأة عن الجمل ذي السنام..».

«كفى!» قال الملك.. «لم أعد أتحمّل المزيد، ولن أتحمّل. لقد تسبّبت لي حتى الآن بصداع شديد بكل أكاذيبك هذه. وأتصوّر أنّ النهار بدأ يشرق. كم مضى على زواجنا؟.. ضميري يثقل عليّ من جديد.. وهُناك ذلك الجمل ذو

= إلى نجوم وراء ذلك، فتحتاج إلى 20 أو حتى 1000 سنة.. في أقلّ التقديرات. ولهذا، إذا كانت هذه النجوم قد اختفت منذ 20 أو 1000 سنة، ربّما لا نزال نراها اليوم من الضوء الذي انطلق منها قبل 20 أو 1000 سنة ماضية. والكثير من النجوم التي نراها يوميّاً في الواقع يُمكن أن تكون همدت وانقرضت، هذا ليس بالمُستحيل.. ولا من غير المُحتمل. (المؤلف)

السنام.. هل تظنينني مُغفّلاً؟ على كل حال، يُمكنك النهوض لكي تلقي مصيرك».

هذه الكلمات، كما قرأت في كتاب (أليس كذلك أم لا) أحزنت وأدهشت شهرزاد في وقتٍ واحد؛ ولأنّها تعلم أنّ الملك كثير الوساوس، ومن غير المُحتمل أن يغير رأيه، فقد استسلمت لمصيرها في خنوع. لكنها استمدّت عزاءً عظيماً، (أثناء شدّ الحبل حول عنقها) عندما فكّرت في أنّ الكثير والكثير من الحكايات لا تزال غير محكيّة، وأنّ سوء طباع زوجها المُتهوّر أنزلت به العقاب الذي يستحق، بأنّ حرمته من سماع المزيد من المُغامرات التي لا يتصوّرها العقل.

هوس الانحراف

إذا تأملنا بعض القُدرات والدوافع.. أو لنقل تلك المُحفّزات الأساسية التي [855]تؤثر في النفس البشرية، نرى أصحاب الفراسة والذكاء قد فشلوا في تخصيص جانبٍ من اهتمامهم إلى نزعة مُحدّدة، مع أنّها تتمثّل بوضوح في عاطفة مُتطرّفة، بدائية، لا تقبل النكران، وطالما تجاهلها حتى عُلماء الأخلاق الذين سبقوهم. في غطرسة للعقل المُجرّد، كنّا جميعاً بالأحرى نتجاهل هذه النزعة. كنّا نُعاني من تسلّل وجودها إلى خارج منطقة حواسنا، لمُجرّد ضعف الاعتقاد بقدراتنا.. أو الإيمان.. سواءً كان الإيمان بالإلهام، أو الإيمان بعقيدة كابالا[1]. فكرة هذه النزعة لا تتجلّى لعقولنا أبداً، ببساطة لأنّها من البديهيات. لم نكن نرى في أنفسنا أي حاجة للتحقق من طبيعة ذلك المُحفّز الأساسي.. أو لنقل النزعة. كنّا عاجزين عن إدراك أهميتها. لم نكن نفهم، أو بعبارة أُخرى، ما كان لنا أن نفهم، حتى لو اقتحمت فكرة المُحفّز الأساسي تلك وجودنا بالقوة؛ ما كان لنا أن نفهم بأي طريقة ذلك الدور الذي تؤديه مثل تلك الأشياء في حياتنا الإنسانية، مؤقتاً أو إلى الأبد. لا يُمكن إنكار أنّ علم الفراسة، وكل الميتافيزيقيا تقريباً لا تخلوان من تلفيقات جوفاء بشأن هذه البديهة. الإنسان المُفكّر أو المُتشبّث بالمنطق، وليس العارف الذي على بصيرة من أمره، يمضي ليضع لنفسه خططاً من وحي الخيال.. كأنّما يريد أن يُملي نواياه على الإرادة الإلهية. وهكذا بعد سبر أغوار الفكر، والاقتناع بها، فيما يتعلّق بنوايا يهوا، من هذه النوايا يبني أنظمة لا تُعد ولا تُحصى للعقل. عن طريق الفراسة، على سبيل المثال، توصلنا نحن البشر

(1) كابالا: أو القبلانية عقيدة صوفية يهودية تقتصر على فئة قليلة من الحكماء وتستند إلى الكتابات المُقدسة والتلمود تطوّرت خلال فترة العصور الوسطى. [المترجم]

إلى قرار، طبيعي بما يكفي، أنّ من خطط العناية الإلهية أن ينبغي للإنسان أن يأكل. ثم خصصنا للإنسان عضواً خاصاً للتغذية، هذا الذي يُمثّل سوط العذاب الذي به تُعاقب العناية الإلهية الإنسان، هل آكل.. لن آكل، آكل هذا الشيء أم ذاك. وبعد ذلك قرّرنا أن لا بُدّ أن تقتضي إرادة السماء أن يحرص الإنسان على بقاء بني جنسه، فاكتشفنا على الفور عضواً آخر مُكرّساً للحب. وهكذا سرنا على طريق الروح التي تدفعنا تارة إلى القتال، وأُخرى إلى المثالية، والسببية، وتشييد الصروح، وما إلى ذلك.. هكذا، باختصار، فكل عضو له وظيفته، سواءً كان يُمثّل خاصية، أو عاطفة أخلاقية، أو موهبة من مواهب العقل المُجرّد. في هذه الترتيبات التي تقوم على أساس الفعل البشري، فإنّ اتباع آراء سبرزهايم[2]، سواء [856]كانت صحيحة أم خاطئة، جزئياً أو كلّياً، فنحن نقتفي اثر أسلافنا: نستنتج كل شيء من مصير الإنسان المُقرر سلفاً، على أرضية من أهداف الخالق.

ربّما كان أكثر حكمة، وأكثر أماناً، تأويل الأمر (إذا كان علينا ذلك) على أساس ما يفعله الإنسان عادة بين الحين والحين، أو كان دائماً يفعله، بدلاً من أن يتم ذلك على أساس ما نؤمن بأن العناية الإلهية تريد له أن يفعل. إذا كنّا لا نستطيع أن نفهم مقاصد العناية الإلهية من خلال أعمالها التي نراها، كيف لنا إذن أن نفهم أفكارها التي لا نُدركها، تلك الأفكار التي تتجسّد بها مقاصدها إلى حيز الوجود؟ إذا كنّا لا نستطيع أن نفهم العناية الإلهية في مخلوقاتها المادّية، فكيف لنا نفهم مزاجها الحقيقي ومراحل الخلق؟

من البديهي أن يؤدي الاستقراء أن يجعل الفراسة تعترف، كمبدأ من مبادئ السليقة والفطرة للفعل البشري، بشيءٍ مُتناقض مُحيّر للألباب، ربّما نُسمّيه الحماقة، إذ لا يوجد مُصطلح أكثر ملائمة. بالمعنى الذي أقصده في الواقع، أي حركة تخلو من دافع منطقي، أو هو دافع لا مُبرّر له. بتحريضٍ من ذلك الدافع نحن نتصرّف دون أن يكون لدينا أي هدف مفهوم؛ أو، إذا كان هذا يفهم على

(2) دكتور يوهان غاسبر سبرزهايم عالم ألماني مُختصّ بفراسة الدماغ وتحليل قوى الإنسان العقلية الخفية وتفكيك الشيفرات. جاء إلى الولايات المُتحدة ومات في بوسطن سنة 1832. [المترجم]

أنّه تناقض في المُفردات، ربّما نُعدّل الافتراض فنقول، من خلال تحريضاته نتصرّف، بدافع كان ينبغي أن يحول بيننا وبين ذلك التصرف. من حيث النظرية، فلا سبب أكثر عبثية وراء ذلك، ولكن، في حقيقة الأمر، فليس من سبب أكثر قوة. في بعض العقول، تحت ظروفٍ مُحدّدة، من المُستحيل مُقاومة ذلك الهاجس بتاتاً. لست مُتأكداً من شيء أكثر من ثقتي بأنني أتنفّس، أو أكثر من ثقتي بخطأ أو صواب أي فعل غالباً ما تدفعنا إليه قوة لا تُقهر تحثنا وحدها إلى تنفيذه. هذه النزعة المُهيمنة لاقتراف الخطأ من أجل الخطأ وحده لا تقبل التحليل المنطقي، أو اللجوء إلى عناصر خفيّة أُخرى. إنّها هاجس بدائي مُتطرّف. سوف يُقال، أعرف ذلك، إنّنا عندما نُصرّ على القيام بأفعال نشعر أن لا ينبغي أن نُصرّ عليها، فإنّ تصرّفنا ليس إلا تعديل على تلك النزعة التي تنشأ عن صراع فراسة الدماغ مع ما يُناقضها. لكن إذا ألقيت نظرة عاجلة على الأمر سيظهر لك زيف هذه الفكرة. صراع الميول في جوهره ينطوي على ضرورة الدفاع عن الذات. إنّه حصننا الحصين ضد وقوع الضرر لنا. والمبدأ الأساسي وراء ذلك تحقيق سعادتنا؛ ولهذا فرغبة البقاء في حالة من السعادة توجد بالتزامن مع تطوّر الميول من حالة إلى أُخرى. يقتضي ذلك، أنّ الرغبة في أن نكون في حالة سعيدة لا بُدّ أن تُثار بالتزامن مع أي مبدأ يكون مجرد تعديل على روح التنافس ضمن صراع الميول، ولكن في حال ما نُسميه الانحراف أو الحماقة، فالرغبة لأن نكون سعداء سالمين لن تنطلق من سباتها فحسب، وإنما سوف تكون بشكل نزعة عدوانية قوية.

على كل حال فإنّ الاحتكام إلى قلب المرء أفضل رد على السفسطة التي [857]أوردناها قبل قليل. لا أحد يستشير قلبه واثقاً ويستجوب روحه بعمق سوف يميل إلى إنكار مدى تطرّف النزعة التي نتكلم عنها. هذه النزعة غير قابلة لأن نستوعبها على وضوحها. ليس هُناك إنسان في فترة ما لم يُعاني، على سبيل المثال، من رغبة صريحة في أن يُشاكس من يتكلّم معه بأسلوب اللف والدوران في الكلام. المُتكلّم يُدرك أنّه يُزعج الآخرين؛ ولديه كل النوايا لأن يُرضيهم، فيتكلّم عادة باقتضاب، بدقة، بوضوح، في لغة يغلب عليها الإيجاز والاستنارة، يُكافح لكي ينتقي ألفاظاً من لغته هو، لكن الصعوبة تكمن في كبح نفسه عن

الانسياق وراء اللّغو؛ إنّه يخشى غضب واستنكار المُخاطب؛ لكن، الفكرة تُداهمه، من خلال بعض المناورات والاعتراضات، بأنّه قادر على إثارة الغضب في نفس الآخرين. فكرة واحدة تكفي. ذلك الهاجس يزداد ضراوة ويتحوّل إلى رغبة، والرغبة تتحوّل إلى اشتياق غير مُسيطر عليه، والاشتياق (بإزاء ندم ومقت المُتكلّم، وفي تحدٍّ لكل النتائج) يتحوّل إلى انغماس في نشوة التعذيب.

فلنفرض أنّ لدينا مهمة ينبغي الإسراع بالقيام بها؛ ونعرف أن تأخيرها يُلحق الدمار بأنفسنا. أو ربّما كانت من الأزمات الأكثر أهمية في حياتنا تلحّ علينا، بلسان صارخ من الأبواق، بأن نشرع في العمل فوراً بهمة ونشاط. نتحرّق شوقاً، يأخذ منا التلهّف كل مأخذ، من أجل أن نبدأ بالعمل، مُتوقعين النتائج التي تتحرّق أرواحنا إليها. يجب أن ينجز الأمر اليوم، ومع ذلك فنحن نؤجله إلى الغد، لماذا؟ لا يوجد جواب، باستثناء أنّنا نشعر بضرورة التمرّد والانحراف عن جادّة الصواب، نحن نستعمل الكلمة دون أن نستوعب المبدأ. ويأتي الغد، ويأتي معه حماسٌ مُتجدّد لإنجاز مهمتنا، لكن مع ازدياد هذا الحماس، يأتي أيضاً اشتياق لا نعرف كيف نصفه، لكنّه حتماً مُخيف، عميق لا تسبر أغواره، للتأخير. هذا التلهف يستجمع اقتداراً مع مُضي اللحظات. وتأتي الساعة الأخيرة لإنجاز العمل. ونرتجف من عمق مشاعرنا ووعينا بالصراع الذي في داخلنا.. بين المفهوم وغير المفهوم.. بين الجوهر والظل. فإذا وصل الصراع إلى هذه الذروة، الظل هو الذي ينتصر.. نكافح بلا هدف. وتدقّ الساعة صباحاً، وتُعلن إشارة انتهاء وقت الراحة. وفي الوقت نفسه، يصيح الديك.. ونُلاحظ الشبح الذي كان منذ مدة طويلة يرهبنا.. يُحلّق.. يختفي.. أصبحنا أحراراً[3]. وتعود إلينا طاقتنا القديمة. نُكافح الآن. لكن، يا للأسف.. فات الأوان!.

نقف على حافة مُنحدرٍ. نُحملق في الهاوية.. ينتابنا الدوار والغثيان. أول حافز نحسّ به أن ننكمش من توقّع خطر داهم. لكن، لسوء الحظ، نبقى، وعلى

---

(3) «الكثير من الأشباح عليها أن تعود إلى قبورها مع صياح الديكة والغربان قبل الفجر» هاملت، 1، 1. ص 147. [المترجم]

[858]درجات بطيئة يختلط دوارنا وغثياننا وذعرنا معاً في سحابة من الأحاسيس التي لا يوجد تعريف لها. وبالتدريج، يبقى الأمر غامضاً لا نُدرك كُنهه، هذه السحابة تتّخذ شكلاً مُميّزاً، كما يحدث للبخار الذي يخرج من قارورة قبل أن يظهر المارد في ألف ليلة وليلة. من هذه السحابة، على حافة الجرف المحفوف بالمخاطر، نرى شيئاً واضحاً ملموساً، له شكل مُرعب أكثر من أي مارد أو شيطان سمعنا عنه في الحكايات، ومع ذلك فهي مُجرّد فكرة، مع أنّها مُخيفة، تجعل القشعريرة تسري في الأبدان، في عظامنا من شدة البهجة التي تستخلص من مصدر الرّعب فيها. إنّها مُجرّد فكرة عن طبيعة أحاسيسنا أثناء التعثر والسقوط من ذلك المُنحدر الشاهق. هذا السقوط.. هذا الاندفاع نحو الفناء.. لأنّه يتضمّن صورة بشعة تُثير الاشمئزاز أكثر من كل صور الموت والمُعاناة التي يُصورها لنا خيالنا.. لهذا السبب تُساورنا الآن رغبة جامحة في رؤية تلك الصورة. ولأنّ عقولنا ترفض بعنف وتمنعنا من الاقتراب من الهاوية، لذلك نبذل ما في وسعنا للانجرار إليها في طيش وتهوّر. لا توجد عاطفة في الطبيعة مثل هذه الرغبة الشيطانية التي لا تكبح، رغبة الإنسان الذي، مع أنّه يرتجف خوفاً من الاقتراب من حافة الهاوية، فهو يُفكّر في القفز. إذا انغمس المرء لحظة في مُحاولة للتفكير، سوف يُقضى عليه حتماً بالفناء؛ لأنّ التفكير يدفعنا لأن نتراجع، وبسبب التفكير نفسه، لا نستطيع التراجع. إذا لم تمتد يدُ صديق لتنقذنا وتُعيدنا إلى جادة الصواب، إذا فشلنا في حركة مُباغتة للتقهقر بعيداً عن الهاوية، سوف نسقط، ويتحقّق بذلك دمارنا.

تأمّل أفعالاً مُماثلة كما تشاء، سوف تجدها تنتج على وجه التحديد من روح الحماقة، نحن نقترف هذه الأفعال أساساً لأنّنا نشعر أنّنا ينبغي أن لا نقترفها. وراء هذا لا يوجد مبدأ مفهوم؛ نحن ربّما ننظر إلى كل هذه الحماقات بوصفها تحريضاً مُباشراً من الشيطان، الذي لا نعرف عنه في العادة أنّه يعمل الخير.

لقد قلتُ ما قلت حتى الآن، وكنت أنوي على نحو ما الإجابة على سؤالك، أو لأشرح لك سبب وجودي هُنا، أو لأعطيك شيئاً ربما يحمل على

الأقل تلميحاً واهناً إلى سبب هذه الأغلال على يدي، وسبب إقامتي في هذه الزنزانة اللّعينة. لماذا أتكلّم بهذا الإسهاب المُمل؟ ربّما أسأت فهمي، أو تخيّلت، كما تخيّل الغوغاء، أنّني مجنون. على كل حال، سوف تُدرك في الحال أنّني من بين الضحايا الكثيرين لعفريت الحماقة.

كان من المُستحيل أن يُنجز أي عمل بمثل هذا الحرص الشديد. منذ [859]أسابيع، بل منذ أشهر، كنت أُطيل التأمل بوسائل الجريمة. رفضت آلاف الخطط لأنّ إنجازها يتضمن فرصة طفيفة لأن يكتشف أمرها. وفي نهاية الأمر، لدى قراءة بعض كتب المُذكرات الفرنسية، عثرت على نصٍّ يتضمّن وصفاً لحالة مرضية ميؤوس منها تقريباً بخصوص مدام بيلاو، والتي أصيبت بالمرض نتيجة شمعة مُسمّمة عرضياً. اقتحمت الفكرة خيالي على الفور. كنت أعرف عادات ضحيتي في القراءة على السرير. كنت أعرف أيضاً أنّ شقته ضيقة وسيئة التهوية. لكني لست في حاجة لأن أُزعجك بتفاصيل خارجة عن الموضوع. لست في حاجة لأن أصف الخطط البارعة التي تمكّنت بها من تبديل بعض الشموع في غرفة نومه بأُخرى صنعتها بنفسي. في صباح اليوم التالي عثروا على جثته فوق السرير، وجاء قرار القاضي مُباشرة.. «الموت جاء قضاءاً وقدراً».

بعد أن ورثت الأملاك، قضيت سنوات من عمري أعيش في ترفٍ وسعادة. لم تخطر على بالي فكرة أن يُكتشف أمري. أما بقايا الشمع القاتل فتخلّصت منها بنفسي. لم أترك دليلاً مهما كان تافهاً يكفي لإدانتي، أو حتى للشكّ في اقترافي لتلك الجريمة. إنّه شيء لا يُمكن تصوّره كيف يظهر شعور بالطمأنينة في صدري فيما كنت أفكر في نجاتي التامة من الاتّهام. منذ زمن طويل اعتدت التلذذ بهذه العاطفة. كانت تمنحني متعة حقيقية أكثر من كل المكاسب الدنيوية التي تحقّقت من خطيئتي. لكن جاءت حقبة من الزمن رافقها إحساس لذيذ تسلّل إلى نفسي على درجات بطيئة بالكاد تبدو محسوسة، حتى تحوّل إلى فكرة مُزعجة تقضّ مضجعي. بدأت تلك الفكرة تُضايقني لأنّها تحولت إلى هاجس لا يبارحني. لم أكن قادراً على التخلّص منها لحظة. إنّه شيء مألوف أن ينزعج المرء هكذا من طنين يرن في الأُذنين، أو بالأحرى من ذكرياتنا، أو نتضايق من أغنية رتيبة، أو

من وصلات غير مؤثرة في الأوبرا. ولا يكون العذاب بأقل من ذلك إذا كانت الأُغنية نفسها جيدة، أو كانت أجواء الأوبرا عموماً تستحق المُشاهدة. على هذا النحو، أخيراً، وجدت نفسي أطيل التفكير باستمرار في فرص نجاتي، وأردّد بنبرة مُنخفضة عبارة، «إنّني بأمان».

وفي يوم من الأيام، بينما كنت أتسكّع في الشوارع، اكتشفت فجأة أنّني كنت أُثرثر، بصوت يكاد يكون عالياً، بهذه المقاطع من الكلمات المألوفة. في نوبة من المُشاكسة مع النفس، أعدت صياغة الكلمات هكذا؛ «إنّني بأمان.. بأمان.. نعم.. إذا لم أكن مُغفّلاً بما يكفي للتقدّم باعتراف صريح!».

ما كدت أتلفّظ هذه الكلمات حتى أحسست بقشعريرة باردة تزحف إلى قلبي. كانت لي بعض الخبرة بمثل هذه النوبات من الحماقة، (التي أُعاني من صعوبة في [860]شرح طبيعتها) وتذكّرت جيداً أنّني لم يسبق أن نجحت مرة في مُقاومة هجماتها. والآن الإيحاء الذاتي العرضي الذي يلحّ عليّ أنّني ربّما أكون مُغفّلاً بما يكفي للاعتراف بالجريمة التي أذنبت بارتكابها، هذا الإيحاء كان يلح عليّ ويتحدّاني، كما لو أنّه شبح الضحية نفسها التي قتلتها.. ويقودني إلى حتفي.

في بداية الأمر بذلت جهداً لكي أزيح عن كاهلي هذا الكابوس الذي يُعذّب روحي. مشيت سريعاً والغضب يستبدّ بي.. أسرع.. أسرع.. ثم رحت أركض. أحسست برغبة مجنونة في أن أصرخ عالياً. كل موجة مُتعاقبة من الأفكار تغمرني بنوع جديد من الرعب، لأنّي، يا للحسرة! كنت أفهم، أفهم جيداً أنّ التفكير، في حالتي هذه، يعني الضياع. ومع ذلك كانت خُطواتي تتسارع. كنت أرتطم كالمجنون بالمارة على الطرقات. وأخيراً، انتبه إليّ الناس وأحسوا بالخطر، ولاحقوني. أحسست في ذلك الوقت باقتراب أجلي. لو كان في وسعي أن أقطع لساني لفعلت، لكن صوتاً خشناً راح يرنّ في أُذني.. وأحسست بقبضة قوية تُمسكني من كتفي. استدرت.. كنت ألهث لالتقاط أنفاسي. للحظة عانيت من غصص الاختناق؛ تحوّلت إلى أعمى، وأطرش، وأصابني الدوار؛ ثم لطمني شيطانٌ لم أره براحة يده العريضة على الظهر. واندفع السرّ الذي بقي طويلاً طي الكتمان، خارجاً من روحي.

يقولون إنّني كنت أتكلّم بلهجة فصيحة، في تركيز واضح واستعجال مؤثر، كما لو أنّني خشيت أن يُقاطعني أحدٌ قبل أن أنهي خطبتي الموجزة، لكن الجُمل الحبلى أسلمتني إلى الجلاد وإلى الجحيم.

بعد أن سردتُّ كل ما هو ضروري ليحقق أقصى درجات القناعة، سقطت وقد أُنهكت قواي في غيبوبة.

لكن لماذا أتطرّق إلى المزيد في هذا الشأن؟ اليوم كبّلوني بهذه الأغلال، وها أنا ذا! غداً سوف تُرفع عنّي الأغلال!.. لكن أين؟

قوة الكلمات

أوينوس: عذراً، اغاثوس، على وهن الروح التي نبت عليها ريش الأبدية توّاً!.

أغاثوس. لم تقل شيئاً، حبيبي أوينوس، يستحق أن تطلب مني أن أُسامحك [861]عليه. حتى في هذا المكان فالمعرفة ليست حدساً بديهياً. أما عن الحكمة، فاسأل الملائكة دون حرج، عسى أن تهبها لك!.

أوينوس. لكن في مرحلة الوجود هذه، كنت أتمنّى أن أفهم في الحال كل الأشياء، ولهذا أشعر بالسعادة مُباشرة لإدراكي كل شيء.

أغاثوس: آه، السعادة لا تكْمن في المعرفة، بل في تحصيل المعرفة! حين نبقى نتعلم إلى الأبد، نبقى إلى الأبد مُباركين؛ لكن أن يعرف الإنسان كل شيء فهي لعنة من الشيطان.

أوينوس: لكن ألا يعلم الخالق كل شيء؟

أغاثوس: لا بُدّ أنّ ذلك (لأنّه ربُّ الخير كله) هو الشيء الوحيد الذي يحرص أن يبقى غير معروف حتى بالنسبة إليه.

أوينوس: لكن، ما دُمنا نتقدّم ساعة بعد ساعة في المعرفة، ألا يُصبح كل شيء معروفاً في النهاية؟

أغاثوس: انظر باتّجاه تلك المسافات التي لا تحدّها حدود!.. حاول أن تجبر نفسك على النظر إلى النجوم التي لا تُحصى، ونحن نندفع ببطء في هذا البحر المُتلاطم من النجوم هكذا.. وهكذا.. وهكذا! حتى الرؤى الروحانية محدودة دائماً ضمن جدران الكون الذهبية؟.. آلاف الأجسام المُشعة التي يبدو أنّ

إعدادها المُجرّدة تمتزج وتتناغم في وحدة مُطلقة؟

أوينوس: أرى بوضوح أنّ لامحدودية المادة ليست حلماً من الأحلام.

أغاثوس: لا وجود للأحلام في جنة عدن.. هُنا تتردّد همسات يُقال فيها: إنّ هذه اللامحدودية للمادة، الهدف الوحيد منها إيجاد ينابيع للمعرفة التي لا تحدّها حدود، فيها ربما تروي الروح ظمأها للمعرفة، مع أنّ هذا الظمأ لا يُمكن أن يرتوي.. ما دام ذلك يعني انطفاء شعلة الروح أيضاً. اسألني إذن، أوينوس، كما تشاء، دون خوف أو وجلٍ عن أي شيء. تعال! سوف نُغادر ونترك إلى يسارنا [862]الثريا التي تُنشد الألحان، ونندفع خارج العرش باتّجاه المروج المُشعة بأضواء النجوم، فيما وراء الجوزاء، حيث نرى بدلاً من أزهار الثالوث والبنفسج سطوح الشموس بألوانها الثلاثية.

أوينوس: والآن، أغاثوس، ونحن نمشي، أخبرني!.. تكلم معي باللّغة المألوفة لأهل الأرض.. لا أفهم ما ألمحت إليه في كلامك معي قبل قليل عن أوضاع الخليقة وأنماط الخلق، ذلك الشيء الذي كنّا نُسميه نشأة ما قبل الموت. هل تقصد القول: إنّ الله لم يخلقنا حين كنا في دار الفناء؟

أغاثوس: أقصد القول إن الإلوهية لا تخلق.

أوينوس: فسّر الأمر.

أغاثوس: في البداية خلق الله المخلوقات التي تراها، ومنها نحن، والتي تبقى في أرجاء الكون في حالة نشوء وتطوّر إلى الأبد، والتي بالإمكان فقط اعتبارها نتائج وسطية أو غير مُباشرة، وليس نتائج مُباشرة أو فورية لقدرة الخالق.

أوينوس: بالنسبة للناس، يا عزيزي أغاثوس، هذه الفكرة تُعتبر ضرباً من الهرطقة في أشد حالاتها.

أغاثوس: لكنّها بالنسبة للملائكة، يا عزيزي أوينوس، حقيقة لا لبس فيها.

أوينوس: يُمكنني أن أفهمك حتى الآن.. وأنت تقول: إن بعض الأعمال التي تنشأ عما يُسمى الطبيعة، أو القوانين الطبيعية، في ظروفٍ مُحدّدة، تؤدي إلى

مُختلف تجلّيات أو مظاهر الخلق. باختصار قبل الدمار الأخير الذي لحق بالأرض، كانت هُناك، كما أتذكّر، الكثير من التجارب الناجحة التي أُجريت حول ما كان بعض الفلاسفة المُتزمّتين يرفضون تسميته خلق جسيمات مجهرية.

أغاثوس: الحالات التي تتكلّم عنها، في حقيقة الأمر، من الأمثلة على خلق ثانوي.. إنّها تتعلّق فقط بذلك النوع من الخلق الذي كان شائعاً منذ الأزل، منذ أن جاءت أوّل كلمة تُعبّر عن القانون الأول للوجود.

أوينوس: ألا تتفجّر عوالم النجوم، من هاوية العدم، في كل ساعة في السماوات.. أليست هذه النجوم، أغاثوس، من صنع مُباشر للعلي القدير؟

أغاثوس: دعني أحاول، عزيزي أوينوس، أن أُرشدك خطوة فخطوة إلى المعنى الذي أقصده. أنت تُدرك جيداً، فالفكر لا يُمكن أن يفنى، أن لا يوجد أي فعل من غير نتيجة مُطلقة. نحن نُحرّك أيدينا، على سبيل المثال، حين كنّا من سكان الأرض، وهذا العمل يؤدي إلى اهتزاز الهواء الذي يُحيط باليدين. هذا الاهتزاز يتوسّع بلا حدود، يُعطي نبضاً إلى كل جُزيئة من الهواء المُحيط بالأرض، الذي يبقى من تلك اللحظة وإلى الأبد، يتأثر بفعل حركة واحدة لليد. هذه الحقيقة يعرفها علماء الرياضيات لدينا على الأرض جيداً. لقد راقبوا تأثيرات خاصة في الواقع [863]عملوها في تجارب على السوائل من خلال نبضات مُحدّدة، واستنتجوا حسابات دقيقة.. بحيث أصبح من السهل معرفة في أي فترة تمتدّ النبضة إلى المدى الذي تُحيط فيه بالأرض، وتؤثر (إلى الأبد) على كلّ ذرة من الغلاف الجوي المحيط بالأرض. ولدى تكرار التجربة، لم يجدوا صعوبة، من خلال أي تأثير مُحدّد، وفي ظروف مُحدّدة، في تحديد قيمة النبضة الأصلية. والآن علماء الرياضيات الذين رأوا أنّ نتائج أي نبضة كانت لانهائية تماماً.. واكتشفوا أنّ جانباً من هذه النتائج كانت قابلة للقياس بدقة بالاستعانة بالتحليل الجبري.. والذين رأوا أيضاً سهولة الارتداد العكسي.. هؤلاء الرجال رأوا، في الوقت نفسه، أنّ هذا النوع من التحليل، يتضمّن في ذاته إمكانات تطوّر لا حدود لها.. إذ لا توجد حدود منظورة للتقدم وإمكانات التطبيق في هذا الشأن، إلّا ضمن إطار فكر العلة التي تطوّر وتطبّق. عند هذه النقطة توقف علماء الرياضيات.

أوينوس: ولماذا، أغاثوس، كان عليهم أن يستمروا؟

أغاثوس: هُناك بعض الاعتبارات تبقى تستحقّ الاهتمام العميق. من الأمور التي يُمكن استنتاجها من معرفتهم، ضمن أطر لا حدود لها من الفهم.. لم تكشف عنها أعلى التطورات في التحليل الرياضي بل تقف عاجزة أمامها.. لا يُمكن أن توجد صعوبة في تعقّب كل نبضة تخترق الهواء.. والاثير فيما وراء الهواء.. وصولاً إلى أقصى النتائج في أي مرحلة بعيدة من الزمن اللامحدود. في الواقع من الأمور التي كان بالإمكان إظهارها أنّ كل نبضة من هذه النبضات في الهواء، لا بُدّ لها في النهاية أن تؤثر على كل فرد في الكون.. على الكائن ذي الفهم اللّامحدود.. الكائن الذي نتخيّله.. الذي يتعقّب التموّجات البعيدة للنبضة.. يتعقّبها إلى الأعلى وإلى الأمام في تأثيراتها على جُزيئات المادة.. إلى الأعلى وإلى الأمام وإلى الأبد في تغيراتها واختلافها عن الأشكال القديمة ..أو، بعبارة أُخرى، في خلقها الجديد.. حتى يجدها تنعكس.. فلا تعود مؤثرة بعد ذلك.. وترتد من سقف العرش. إنّها لا تفعل هذا فحسب، ولكن في أي مرحلة من المسار، فلا بُدّ من نتائج.. إذا خضعت أي واحدة من هذه الموجات التي لا تُحصى، على سبيل المثال، للفحص والاختبار.. فلن نواجه صعوبة في أن نعرف، من خلال تحليل الارتداد، إلى أي نبضة أصلية تعود. هذه القدرة في الارتداد من حيث كمالها وإتقانها.. هذه القابلية الفذّة على إعادة، في كل الفترات، كل التأثيرات إلى مُسبباتها كلها.. هي طبعاً من امتيازات [864]الخالق وحده.. لكن أي اختلاف في الدرجة، أو تقصير عن الكمال المُطلق، يرجع إلى القدرة المحدودة التي تتمتع بها زمرٌ من الملائكة التي تفعل ما تُؤمر به.

أوينوس: لكنك تتكلّم عن مُجرّد عن نبضات في الهواء.

أغاثوس: في الكلام عن الهواء، أشرت فقط إلى الأرض؛ لكن الافتراض العام هُنا له علاقة مع النبضات في الأثير.. فما دامت تنتشر وحدها في الفضاء كله، فهي تشكل الوسط العظيم للخلق.

أوينوس: إذن فأي حركة، أياً كانت طبيعتها، هي عملية خلق؟

أغاثوس: لا بُدّ أنّها كذلك؛ لكن الفلسفة الحقيقية علّمتنا منذ زمنٍ طويل أنّ مصدر كل حركة هو الفكر.. وأنّ مصدر الفكر كله هو..

أوينوس: الله.

أغاثوس: لقد تكلّمت معك، أوينوس، كما أتكلّم مع طفل على أرضنا الجميلة التي مرّت مؤخراً.. عن النبضات التي تخترق الهواء الجوي للأرض.

أوينوس: نعم فعلت ذلك.

أغاثوس: وبينما كنت أتكلّم، ألم تخطر في ذهنك بعض الأفكار عن القوة المادية للكلمات؟ أليست كل كلمة هي نبضة في الهواء؟

أوينوس: لكن، أغاثوس، لماذا تبكي.. لماذا تتهدّل أجنحتك ونحن نحوم فوق هذه النجمة الجميلة.. الأكثر اخضراراً من غيرها ومع ذلك فهي الأكثر إثارة للذعر من سائر النجوم التي عبرناها أثناء طيراننا؟ تبدو أزهارها البراقة كأنها حلم خيالي.. وبراكينها العنيفة كأنها انفعالات قلب مُتمرّد.

أغاثوس: إنّها كذلك!.. إنّها كذلك! هذه النجمة هل تراها في مكانها الموحش.. والأزهار تُكلّلها من كل جانب، مضى عليها الآن خمسة قرون، والأيادي مقبوضة، والعيون تتدفّق بالدمع.. إنّها حبيبتي، وأنا أجثو عند قدميها.. لقد تكلمت معها.. قلت بضع جُملٍ عن الهيام.. عن ولادة جديدة. أزهارها المُتألقة من أعذب الأحلام التي لم تتحقق، وبراكينها الغاضبة أحاسيس القلوب المُتمردة الحزينة التي لا تتوقّف عن الحب.

بضع كلمات مع مومياء

سهرة المساء الماضي لم تكن تخلو من إثارة للأعصاب. لقد أصابتني [865]بصداع فظيع، وأحسست بالدوار والغثيان. بدلاً من الخروج من البيت لأقضي بعض الوقت كما كنت أعتقد، اتّضح لي أنّني لا يُمكن أن أقوم بشيء أكثر عقلانية من تناول بضع لقيمات أثناء العشاء ثم أذهب فوراً إلى السرير.

العشاء الخفيف أفضل طبعاً. إنّني مُغرم كثيراً بالأرنب الويليزي. لكن تناول أكثر من رطل في وقتٍ واحد ربّما لا ينصح به على كل حال. ومع ذلك، فلا اعتراض على تناول رطلين. بين رطلين وثلاثة فرق طفيف. ربّما غامرت حتى يصل الأمر إلى أربعة أرطال. زوجتي سوف تجعلها خمسة.. واضحٌ أنّها خلطت بين أمرين مُختلفين. العدد كان خمسة، اعترف بهذا؛ لكن الأمر حتماً له علاقة بزجاجات براون ستاوت، مع إضافة البهارات، فالأرنب الويلزي من السهل أن يمضغ.

بعد أن انتهيت من هذه الوجبة الخفيفة، وضعت قلنسوة النوم على رأسي، على أمل التمتع بالنوم الهانئ حتى ظهر اليوم التالي، وضعت رأسي على الوسادة، وبضمير مُرتاح، خلدت إلى النوم على الفور بعمق.

لكن متى تحقّقت كل طموحات الكائن البشري؟ ما كدت أكمل ثالث شخير حتى سمعت رنيناً مسعوراً على جرس الباب الخارجي، ثم جاءت ضربات مُنفعلة على الباب، ممّا جعلني أستيقظ حالاً. بعد لحظات، وبينما كنت أفرك عيني، دفعت زوجتي في وجهي رسالة، كانت من صديقي القديم الدكتور بونونير.. جاء فيها:

«تعال فوراً، مهما كلّف الأمر، يا صديقي العزيز، حالما تتلقّى هذه

الرسالة. تعال لتُساعدنا وتُشاركنا فرحتنا. أخيراً، بعد مُثابرة ودبلوماسية طويلة، حصلت على موافقة مُدراء متحف المدينة على إجراء فحص للمومياء.. أنت تعرف طبعاً المومياء التي أقصدها. لدى الآن إذن لفك لفافاتها [866]وفتحها، إذا رغبنا في ذلك. بعض الأصدقاء يحضرون هُنا فقط.. أنت طبعاً مدعو للحضور. المومياء الآن في منزلي، سوف نبدأ بفكها في الساعة الحادية عشرة الليلة..

صديقك المخلص،

بونونير

عندما وصلت إلى اسم «بونونير»، أذهلني أنّني كنت مُستيقظاً كما ينبغي أن أكون. قفزتُ من السرير في نشوة عارمة، وأزحت كل شيء عن طريقي؛ ولبست ملابسي بسرعة مذهلة؛ وانطلقت، بأقصى سُرعتي إلى منزل الدكتور.

هُناك وجدت جماعة مُتلهّفة غاية التلهف. كانوا ينتظرونني في صبر يكاد ينفد؛ والمومياء مُمدّدة على طاولة الطعام؛ وفي اللحظة التي دخلت فيها بدأت عملية الفحص.

كانت المومياء واحدة من اثنتين جلبهما، منذ سنوات ماضية، الكابتن آرثر سابرتاش، ابن عم بونونير، من مقبرة بالقرب من إيليثياس[1]، في جبال ليبيا، على مسافة بعيدة من طيبة على نهر النيل. كانت المغارات في هذه الفترة، على الرغم من أنّها أقل روعة من القبور في طيبة، تُثير اهتماماً شديداً، لأنّها توفّر معلومات نادرة عن الحياة الخاصة للمصريين. يقال إن الحُجرة التي أخذت منها المومياء كانت غنية بمثل هذه التصاوير؛ فالجدران مُغاطاة برسوم ولوحات جدارية وتعاويذ جنائزية، بينما هُناك تماثيل، وجرار، وأعمال موزاييك بأنماط زخرفية رائعة، تُشير إلى الثروة الهائلة التي كانت لدى الميت.

هذا الكنز كان مودعاً في المتحف بالحالة التي وجدها عليه الكابتن

(1) هذه المدينة يُسميها المصريون القدماء نوبن، وهي الآن تُسمى الكاب. [المترجم]

سابرتاش تماماً؛ بمعنى آخر، النعش لم يتغيّر ولم تمسّه أيادي العابثين. منذ ثمان سنوات بقي على تلك الحال، لم يتعرّض لتأثير خارجي غير نظرات الناس الذين كانوا يتفحّصونه باهتمام. لهذا، فنحن الآن أمام مومياء كاملة بمُتناول أيدينا؛ وبالنسبة إلى أولئك الذين يعرفون كم هي نادرة جدّاً مثل هذه اللّقى الأثرية المنهوبة التي تصل إلى سواحلنا، سوف يكون واضحاً، على الفور أنّ لدينا كل الأسباب لأن نُهنئ أنفسنا على حظنا السعيد.

اقتربت من الطاولة ورأيت عليها صندوقاً كبيراً، أو حاوية، يكاد يبلغ طولها سبعة أقدام، وربّما عرضها ثلاثة أقدام، وعمقها قدمان ونصف.. وهي مُستطيلة الشكل.. ليست مثل النعش. أما المادة التي صُنعت منها فقد افترضت لأوّل وهلة أنّها من خشب الجميز (*platanus*)، لكن، عندما قطعنا شقّاً فيها، وجدناها من الورق المُقوّى، أو على نحو أدق، *papier mache*، أي ورق البردي. كانت [867]الحاوية مُزخرفة بكثافة برسوم مشاهد جنائزية، وموضوعات أُخرى تُعبّر عن مظاهر الحزن.. وفيها أيضاً، في مواضع مُتفرّقة، سلسلة من الكتابات الهيروغليفية، تهدف ولا شكّ للتعبير عن اسم الفقيد. ولحُسْن الحظ كان الدكتور غليدون أحد أعضاء فريقنا؛ ولم يواجه صعوبة تُذكر في ترجمة الحروف، وكانت ببساطة تُعبّر عن أصوات، وترمز إلى كلمة «أميستاكيو».

لكن واجهتنا صعوبة في فتح هذه الحاوية من غير أن نلحق بها الضرر؛ وأخيراً تمكّنا من إنجاز هذه المهمة، فرأينا حاوية أُخرى مثل التابوت لكنها أقل في الحجم كثيراً من الحاوية الخارجية، مع أنّها تُشبهها في كل النواحي. كان الحيز بين الحاويتين قد ملىء بمادة صمغية، أدّت إلى تغيير ألوان الصندوق الخارجي بعض الشيء.

عندما فتحنا هذا الصندوق (بسهولة تامة)، وصلنا إلى حاوية ثالثة مُماثلة للتابوت أيضاً، لكنها لا تختلف عن الثانية في شيء مُحدّد اللّهم إلا في مادتها التي كانت من شجر الأرز، ومع ذلك كانت تُرسل رائحة مُميّزة لذلك الخشب. بين الحاوية الثانية والثالثة لم نجد أي فراغ.. فالواحدة منهما تتداخل مع الأُخرى بإحكام.

بعد أن رفعنا الحاوية الثالثة، وجدنا الجثة ورفعناها على الفور. كنا نتوقّع أن نراها كالعادة مُغلّفة بلفافات، أو ضمادات من الكتان؛ ولكن، بدلاً من هذه وجدنا نوعاً من غلاف البردي، مُغطّى بطبقة من الصمغ، ومطليّاً بالذهب وعليه رسوم. كانت الرسوم تُجسّد موضوعات لها علاقة بطقوس روحية مُختلفة، مُكرّسة لآلهة مُختلفة، مع أشكال بشرية عديدة مُتشابهة، ربّما تهدف لتصوير أشخاصاً مُحنّطين. ابتداء من الرأس إلى القدم هُناك عمود من الكتابات بحروف صوتية هيروغليفية، تذكر مرة أُخرى اسم الميت وألقابه، وأسماء وألقاب أقاربه.

حول الرقبة المُغلّفة بتلك الطريقة، وجدنا قلادة من حبات زجاجية أسطوانية، مُتشعّبة الألوان، ومُرتّبة بحيث تُجسّد صوراً للآلهة، وخنافس مُقدّسة، إلخ.. مع كرة ذات جناحين. وحول الخصر الصغير وجدنا قلادة مُماثلة أو حزاماً.

فتحنا لفافات البردي، فوجدنا اللّحم في حالة جيدة نتيجة التحنيط المُمتاز، فلم نلمس أي رائحة مُميزة. أما اللّون فكان يميل إلى الأحمر. والجلد كان قاسياً، أملس، ويكاد يبدو برّاقاً. والأسنان والشعر في حالة جيدة. أما العينان (كما يبدو) فقد اقتُلعتا، واستُبدلتا بكرات زجاجية، وكانتا جميلتين وتبدوان نابضتين بالحياة، باستثناء [868]نظرة غريبة فيها إصرارٌ بعض الشيء. والأصابع والأظافر مطلية بالذهب اللامع جدّاً.

رأى السيد غليدون، من خلال احمرار البشرة، أن عملية التحنيط تمّت باستخدام مادة الإسفلت؛ لكن لدى كشط السطح بأداة فولاذية، ورميها في النار ظهر مسحوق مثل الكافور أو مادة صمغية أُخرى ذات رائحة طيبة.

فحصنا الجثة بعناية بحثاً عن فجوات مُعتادة أُخرجت منها الأحشاء، لكنّنا دهشنا عندما لم نكتشف أي شيء من ذلك. لم يكن أي واحدٍ من فريقنا في تلك الفترة يتوقّع أن يرى مومياوات كاملة في حالة سليمة. كان من المُعتاد أن يُستخرج الدماغ عبر الأنف؛ والأمعاء تُستخرج من شقٍّ في الخاصرة؛ ثم يُحلق الجسد، ويُغسّل، ويُملّح؛ ثم يُترك عدة أسابيع، عندها تبدأ عملية التحنيط.

لأنّنا لم نر أي فتحة في الجسم، فقد هيأ الدكتور بونونير أدواته للتشريح،

حينها لاحظت أنّ الساعة تجاوزت الثانية. لذلك اتّفقنا على تأجيل الفحص الداخلي إلى صباح اليوم التالي؛ وكنّا على وشك المُغادرة، عندما اقترح أحدهم إجراء تجربة أو تجربتين باستخدام الفولتية الكهربائية.

إنّ فكرة تسليط تيار كهربائي على مومياء مُحنّطة منذ ثلاثة أو أربعة آلاف سنة على الأقل، إن لم تكن حكيمة جدّاً، فهي مُبتكرة بما فيه الكفاية، وأيّدنا ذلك المُقترح على الفور. مضينا لنُنفّذ هذه الفكرة، وكان حوالى عشر جهودنا يأتي في جدية صارمة بينما تسعة أعشار أُخرى نابعة من طيش المُغامرة، وأحضرنا بطارية إلى مكتب الدكتور، ونقلنا المومياء المصرية إلى هُناك.

بعد عناءٍ كبير نجحنا أخيراً في الكشف عن أجزاء من النسيج العضلي الذي بدا أقلّ تصلّباً من بقية أجزاء البدن، لكن كما توقعنا طبعاً وجدناه لا يُعطي أي علامة للاستجابة إلى شحنة البطارية الكلفانية عندما وصلنا السلك. لقد ظهر هذا من التجربة الأُولى في الواقع شيئاً مؤكداً، فانطلقت ضحكات من الأعماق في سخرية واضحة من سخافة مُحاولاتنا، وتبادلنا التحيّة استعداداً للرحيل في تلك الليلة، لكن حدث أن وقعت عيناي على عيني المومياء، فتسمّرتا مُباشرة من الذهول. كانت نظرتي القصيرة في الواقع كافية لتؤكد لي أنّ الحدقتين اللتين ظننّا إنّهما من الزجاج واللّتين كان من الواضح في الأصل أنّ عليهما نظرة مُتوحشة، تبدوان الآن كأنما تُغطيهما الجفون، وأنّ جزءاً صغيراً فقط من غشاء القزحية بقي واضحاً.

انطلقت من فمي صيحة لكي أُثير انتباه الآخرين إلى حقيقة تجسّدت لنا جميعاً على الفور.

لا أستطيع القول إنّني كنت خائفاً من تلك الظاهرة، لأنّ كلمة «خائف» على [869]كل حال ليست الكلمة المطلوبة بدقة. لكن من المُمكن القول، لولا نبيذ براون ستاوت، لكنت عصبياً بعض الشيء. أمّا بقية زملائي، فلم يُحاول أي واحدٍ منهم أن يُخفي الرعب الذي استولى عليه. كان الدكتور بونونير في حالة تستحق الإشفاق حقّاً. وحاول السيد غليدون، بوسيلة ما أن يُخفي نفسه. أما

السيد سيلك بكنغهام، كما توقّعت، فكان من النادر أن يُبدي شجاعة لأنّه شقّ طريقه على أطرافه الأربعة إلى أسفل الطاولة.

بعد الصدمة الأُولى قرّرنا بطبيعة الحال مُتابعة تجربتنا على الفور. وكانت العمليات التي أجريناها الآن موجّهة إلى إبهام القدم اليمنى. فتحنا شقّاً على الجزء الخارجي من أسفل عضلة قدم المومياء. أعدنا توصيل سلك البطارية، والآن وضعنا السائل على الأعصاب المُنقسمة إلى شطرين.. عندئذ، في حركةٍ واضحة كأنّها تدلّ على الحياة، سُحبت المومياء ركبتها اليمنى أولاً كأنها تُريد أن تُقربها إلى البطن، ثم استوى ذلك الطرف في قوة لا يُمكن تصوّرها، ووجّه ركلة إلى الدكتور بونونير أدّت إلى تقهقره، كأنّه سهمٌ أُطلق من منجنيق، فسقط من النافذة إلى الشارع.

اندفعنا إلى الخارج جميعاً لكي نجلب ما تبقّى من الضحية، لكنّا فوجئنا به على السلالم، وكان يصعد على استعجال لا مُبرّر له، وظننا أن وراء ذلك فكرة خطيرة يتحمّس لها، وكان يبدو عليه أكثر من السابق أنّه يُريد استئناف تجربتنا في قوة وإصرار.

واستجبنا لنصيحته ففتحنا على الفور شقاً عميقاً في طرف أنف المومياء، بينما وضع الدكتور يديه بقوة هُناك، وسحبه حتى أتصل مع السلك.

كان تأثير الكهرباء واضحاً، مادياً ومعنوياً.. تخمينياً وفعلياً.. في المرة الأُولى انفتحت عينا الجثة ورمشتا بسرعة لمدة دقائق، مثلما كان يفعل السيد بارنز[2] في حركاته الإيمائية، وفي الحركة الثانية عطست المومياء؛ وفي الثالثة جلستِ؛ وفي الرابعة هزّت قبضتها في وجه الدكتور بونونير؛ وفي الخامسة استدارت إلى السيدين غليدون وبكنغهام، وخاطبتهما بلغة إنكليزية واضحة:

«لا بُدّ من القول، أيّها السادة، إنّني مُستغرب ومرعوب من تصرّفكم. لم يكن [870]مُتوقعاً من الدكتور بونونير شيءٌ أفضل. إنّه رجل مسكين غبي لا

(2) جون بارنز ممثل كوميدي شهير في مسرح بارك في نيويورك منذ على الأقل 25 سنة قبل 1841. [المترجم]

يعرف شيئاً أفضل يقوم به. إنّني أُشفق عليه وأغفر له. لكن أنت، سيد غليدون، وأنت، سيلك.. أنت الذي سافرت كثيراً وسكنت في مصر حتى ليكاد المرء يتصوّر أنّك ولدت هُناك.. أنت، أقول الذي قضيت وقتاً طويلاً معنا حتى صرت تتحدث المصرية بإتقان، كما أتصوّر، كما تكتب في لغتك الأصلية.. أنت، الذي كنتُ دائماً أعتبرك صديقاً للمومياوات.. كنتُ أتوقّع منك تصرّفاً أكثر لطفاً. ما عساي أن أُفكر وأنت تقف بهدوء هكذا وتنظر إليّ وأنا أتعرّض للإساءة؟ ما عساي أنأافترض بك وأنت تترك توم، وديك، وهاري يُمزقون كفني، وينزعون ثيابي، في هذا الجو البارد التعيس؟ على أي ضوء (إذا أردنا أن نعرف المغزى) يتوجّب عليّ أن أنظر إلى مُساعدك وإطاعة أوامر ذلك الوغد البائس، دكتور بونونير، في أن تسحب أنفي؟».

لا بُدّ أنّه ممّا لا لبس فيه أنّنا عندما سمعنا هذا الكلام في تلك الظروف، هرعنا جميعاً باتّجاه الباب، أو سقط البعض منا في حركات هستيرية عنيفة، أو أُغمي على البعض الآخر. واحدٌ من هذه الأشياء الثلاثة، أقول، كان مُتوقعاً أن يحدث. في الواقع، فكل واحدٍ من هذه الأشياء التي حدثت، أو كلها، ربّما لن تُثير الاستغراب لو أنّها حدثت. وأقسم بشرفي، أنّني كنت شارد الذهن لا أعرف كيف أو لماذا لم نفعل هذا الشيء أو ذاك. لكن، ربّما كان السبب الحقيقي يعود إلى روح العصر الذي نعيش فيه، الذي يمضي وفقاً لقانون المُتناقضات كلّياً، والآن ربما نعترف أنّ تفسير كل شيء يجري عادة بطريقة التناقض ومبدأ المُستحيل. أو، ربما، على كل حال، كانت طريقة المومياء الطبيعية جدّاً في الكلام والتي لا يشوبها أي غموض هي التي سلبت من كلماتها أي رعبٍ مُتوقع. ومع ذلك ربّما كانت الحقائق واضحة للعيان، وأنّ أحداً من أعضاء فريقنا لم يُحاول التملّص من إحساسٍ مُحدّد بالذعر، أو كان ينظر إلى أي شيء على أنّه مُستغرب بصفة خاصة.

أما من جانبي، فكنت مُقتنعاً أنّ كل شيء يجري على ما يُرام، ولم أتردّد في أن أنزوي بعيداً عن مُتناول قبضة المصري. ثم دفع الدكتور بونونير يديه في جيوب سترته، وراح ينظر إلى المومياء، وازداد وجهه احمراراً. وأخذ السيد

غلايدون يربّت على لحيته وسحب ياقة قميصه. وطأطأ السيد بكنغهام رأسه، ووضع إبهام يده اليمنى على الزاوية اليسرى لفمه.

كان المصري يرمقه بنظرة قاسية بضع دقائق وأخيراً، في تكشيرة ازدراء، قال:

«لماذا لا تتكلّم، سيد بكنغهام؟ هل سمعت سؤالي أم لا؟ هلّا رفعت إبهامك [871]عن فمك!».

هُنا بدأ السيد بكنغهام يتململ، وأبعد إبهامه الأيمن عن زاوية فمه اليسرى، وعلى سبيل التعويض عن ذلك أدخل إبهام يده اليسرى في الزاوية اليمنى للفتحة المذكورة أعلاه.

بما أنّ المومياء لم تتمكّن من الحصول على جواب من السيد ب.، التفتت بحنق إلى السيد غلايدون، وبنبرة حازمة، طلبت منه إيضاح ما كنا نقوم به.

هُنا أجاب السيد غلايدون بعد تلكؤ طويل؛ ولولا عجز مكاتب الطباعة الأمريكية عن طبع الرموز الهيروغليفية، لمنحني الأمر متعة ما بعدها متعة لأن أُسجل هُنا في النسخة الأصلية كل ما قاله من كلام رائع.

لكن ربّما انتهزت هذه الفرصة لأن أبدي تعليقاً، فأقول: إنّ المُحاورة اللاحقة التي شاركت فيها المومياء، جرت باللغة المصرية القديمة، عبر وساطة (قدر تعلّق الأمر بي وبالأعضاء الآخرين غير المُطّلعين من فريقنا).. أقول مرة أُخرى، عبر وساطة السيدين غلايدون وبكنغهام، كمُترجمين. هذان السيدان كانا يعرفان لغة المومياء ويُجيدانها بطلاقة لا نظير لها؛ لكن لم يكن في وسعي إلّا أن أُلاحظ-(لا شك أنّ ذلك بسبب تقديم تصوّرات ومفاهيم حديثة تماماً للغريب) أنّ هذين الرجلين قد بذلا جُهداً استثنائياً، بين الحين والحين، لتقريب المعنى إلى درجة معقولة. لم يكن السيد غلايدون، في فترة من الفترات، على سبيل المثال، يستطيع أن يجعل المصري يفهم مُصطلح «سياسة»، إلى أن رسم على الجدار، مُستخدماً قطعة من الفحم رجلاً نحيفاً مُتورّم الأنف، قصير الذراعين، يقف على جذع شجرة، ساقه اليسرى مُتراجعة، وذراعه اليمنى ممدودة للأمام، وقبضته

مقبوضة، وعيناه مُصوبتان إلى السماء، والفم مفتوح في زاوية تسعين درجة. وفي الوقت أخفق السيد بكنغهام في أن يُعبّر عن فكرة حديثة كلياً بشأن «الباروكة»، إلى أنّ (استجابة إلى مقترح الدكتور بونونير) اصطبغ وجهه بشحوب الموتى، ووافق على خلع باروكته.

لا بُدّ أن نفهم بسهولة أنّ حديث السيد غلايدون تحوّل أساساً إلى موضوع الفوائد الكبيرة التي تحقّقت بفضل العلم من تفكيك ونزع أحشاء المومياوات؛ أعتذر على هذا الكلام الذي ربّما فيه شيء من السخرية الموجهة إليه تحديداً، أقصد الرجل المومياء الذي يُسمّى الأميستاكيو؛ واختتم كلامه بالتلميح (فلا مجال لأن يكون ذلك غير تلميح) إلى أنّ هذه الأمور الصغيرة بعد شرحت بما يكفي، ربّما كان [872]من الأفضل المضي في الفحوصات المُزمع إجراؤها. وهنا قام الدكتور بونونير بتحضير أدواته.

فيما يتعلّق بالمُقترحات الأخيرة التي تكلّم عنها الرجل، يبدو أنّ الأميستاكيو كانت تُراوده شكوك بشأنها، لم أعرف حقيقتها؛ لكنه عبّر عن نفسه وهو مُقتنع مع بعض الاعتذارات، ونزل من الطاولة، وتصافح مع أعضاء فريقنا جميعاً.

فلمّا انتهى هذا الطقس، انشغلنا على الفور في تصليح الأضرار التي لحقت بالمومياء نتيجة استعمال المشرط. وقمنا بخياطة الجرح في بدنه، وربطنا قدمه بالضماد، ووضعنا لاصقة طبية سوداء عرضها بوصة مُربّعة على طرف أنفه.

لاحظنا الآن أنّ الكونت (فهذا هو لقب الأميستاكيو فيما يبدو) انتابته رعشة خفيفة.. لا شكّ أنّها جاءت بسبب البرد. وعلى الفور عالج الدكتور الأمر بأن ذهب إلى خزانة الملابس، وسرعان ما جاء بمعطف أسود، مصنوع في محلّات جيننغز على أفضل طراز، مع بنطلون أزرق فاتح له حمالات، وقميص قطني قرنفلي اللون، وصدرية مُطرزة خفيفة، ومعطف أبيض، وعصا للمشي معقوفة الطرف، وقُبّعة من غير حافة، وحذاء جلدي مُمتاز، وقفازات بلون القش، ونظارات، وزوج من الشوارب، وربطة عنق. وبسبب الاختلاف في الحجم بين الكونت والدكتور (نسبة الاختلاف تكاد تكون اثنين إلى واحد)، واجهنا صعوبة بعض الشيء في وضع هذه الملابس على جسد المصري؛ لكن عندما انتهينا من

هذا الأمر، ربما جاز لنا القول: إنّه أصبح كامل الأناقة. لذلك مدّ له السيد غلايدون ذراعه، وقاده إلى كرسيٍ مريح بالقرب من المدفأة، بينما رن الدكتور الجرس حالاً وأمر بإحضار كمية من السيجار والنبيذ.

وسرعان ما اكتسبت المُحادثة حيوية. كان الكثير من الفضول طبعاً يتعلّق بمسألة بقاء الأميستاكيو على قيد الحياة.

«أتصور»، قال السيد بكنغهام، «أنّك كنت ميتاً منذ زمن طويل».

«عجباً!»، أجاب الكونت، وكان مُندهشاً كثيراً، «عمري أكثر من سبعمائة سنة! أبي عاش ألف سنة، ولم يكن مُخرّفاً على كل حال عندما مات».

هُنا طُرحت سلسلة من التساؤلات والتخمينات، اتّضح من خلالها أنّ عمر المومياء قد أُسيء تقديره كثيراً. كان عمرها الحقيقي خمسة آلاف وخمسين سنة وبضعة أشهر منذ أن أُودعت في سراديب دفن الموتى في إيليثياس.

«لكن سؤالي»، عاد السيد بكنغهام للكلام، «لا علاقة له بعمرك في فترة [873]الدفن (إنني على استعداد للقول في ثقة: إنّك لا تزال شاباً)، كنت أُلمح إلى المدة الطويلة التي قضيتها وأنت مُشبّع بمادة الإسفلتوم».

«ماذا؟» قال الكونت.

«إسفلتوم»، كرّر السيد ب.

«آه، نعم؛ لديّ فكرة طفيفة عما تقصد؛ ربّما استطعت الإجابة، حتماً.. في زماننا لم نكن نستخدم شيئاً غير ثاني كلوريد الزئبق».

«الشيء الذي نواجه صعوبة بالغة في أن نفهمه»، قال الدكتور بونونير، «كيف حصل، بعد أن متّ ودُفنت في مصر منذ خمسة آلاف سنة، أنت هُنا اليوم على قيد الحياة وتبدو في حالة مرحة».

«لو كنت، كما تقول، ميتاً»، رد الكونت، «ومن المُحتمل أنّني ميت الآن؛ لأنّي أعرف إنّكم لا زلتم تتخيّلون ما توحيه لكم البطارية الكلفانية، ولا يُمكن أن تحقّقوا بذلك ما كان شائعاً لدينا في الأيام الغابرة. الحقيقة أنّني كنت أُعاني من

حالة تصلّب تُشبه التنويم المغناطيسي، ورأى بعض أصدقائي المُقرّبين أنّني كنت إما ميتاً أو ينبغي أن أموت؛ وهكذا حنّطوني على الفور.. وأتصوّر إنّكم تعرفون المبدأ الأساسي لعملية التحنيط؟»

«ليس تماماً».

«حسناً، أتصوّر.. أنّها مسألة جهل تدعو للأسف! حسناً، لا يُمكنني أن أدخل في التفاصيل الآن؛ لكن من الضروري توضيح أنّ التحنيط (إذا تكلّمنا بدقة) في مصر كان يتضمّن إيقاف كل الوظائف الحيوية للشخص الذي يخضع للعملية. إنّني أستعمل هُنا كلمة «حيوية» بمعناها الواسع، على أنّها تتضمّن المعنى المادي أكثر من المعنوي بخصوص الكائن الحي. أقول مرة أُخرى: إنّ المبدأ الحاكم في التحنيط يتضمّن، بالنسبة إلينا، التعطيل الدائم لكل الوظائف الحيوية لمن يخضع للتجربة. باختصار، في أي ظرف كان، يُصبح الفرد في مرحلة التحنيط في الحالة التي سوف يبقى عليها لمدة غير مُحدّدة من الزمن. الآن، من حسن حظي أنّ دمّي من فصيلة دم الخنفساء المُقدسة، وجرى تحنيطي وأنا حي، كما ترون حالياً».

«دم الخنفساء المُقدسة!» صاح الدكتور بونونير.

«نعم. الخنفساء المُقدسة شعار النبالة أو «سلاح» عائلة رومانية شهيرة جدّاً ونادرة الوجود. أن يكون الدم من فصيلة «الخنفساء المقدسة»، يعني أنّ المرء ينتمي إلى تلك العائلة النبيلة التي تحمل هذا الشعار. إنّني أتحدّث مجازياً».

«لكن ما علاقة هذا بكونك لا تزال حيّاً؟»

«حسناً، إنها من عادات العامة في مصر أن يُجردوا الجثة، قبل التحنيط من [874]الأحشاء والدماغ؛ أما الشخص الذي دمه من فصيلة الخنفساء المُقدسة وحده لا يخضع لتلك الشعيرة. لو لم يكن دمي دم خنفساء مُقدسة، لاستخرجوا منّي الأحشاء والدماغ؛ ومن غير ذلك لا يُمكن العيش».

«أدرك ذلك»، قال السيد بكنغهام، «وأتصوّر أنّ سائر المومياوات التي تقع بين أيدينا دماؤها من عنصر الخنفساء المُقدّسة».

«لا مجال للشك في هذا».

«كنت أعتقد»، قال السيد غلايدون، بصوت ضعيف مُستكين، «أن الخنافس المُقدسة هي إحدى آلهة المصريين».

«إحدى ماذا؟» صاحت المومياء، ووثبت على القدمين.

«الآلهة!» كرّر الرحّالة.

«سيد غلايدون، إنّني حقّاً مُندهش لأن أسمعك تتكلّم بهذا الأسلوب»، قال الكونت، وعاد إلى كرسيه. «لا توجد أمة على وجه الأرض اعترفت بوجود أكثر من إلهٍ واحد. الخنافس المُقدسة، وغيرها.. كانت معنا دائماً (مثل غيرها من المخلوقات الصغيرة لدى الآخرين) هي رموز، أو وسائط، من خلالها نعبد الخالق العظيم في جبروته الذي لا يُعبد مُباشرة».

هُنا ساد الصمت. وأخيراً استأنف المُحاورة الدكتور بونونير.

«من غير المُحتمل، إذن، من خلال ما أوضحته لنا»، قال، «أن توجد وسط سراديب المقابر التي قُرب النيل مومياوات أُخرى تنتمي إلى فصيلة الخنافس المُقدسة في حالة حيّة؟».

«لا مجال للشك في هذا»، رد الكونت؛ «جميع الخنافس المُقدسة جرى تحنيطها عرضاً عندما كانت حية، وهي حية الآن. حتى بعض تلك التي كانت مُحنطة لغرضٍ مقصود، ربّما خضعت لفحص القائمين عليها، ولا تزال في المقابر».

«هلا تكرّمت وأوضحت أكثر»، قلت، «ماذا تقصد بعبارة «محنّطة لغرضٍ مقصود»؟».

«بكل سرور!» أجابت المومياء، بعد أن تفحّصتني عن كثب من وراء النظارات.. فتلك أول مرة غامرت فيها بتوجيه كلامي إليها في سؤال مُباشر».

«بكل سرور»، قالت المومياء. «الفترة الاعتيادية لحياة الإنسان في زماننا نحن كانت تستغرق حوالى ثمانمائة سنة. بعض الأشخاص كانوا يموتون، بسبب

حوادث استثنائية، قبل سن ستمائة سنة؛ والبعض عاشوا أكثر من عقد من القرون؛ لكن ثمانمائة سنة تُعتبر مدة طبيعية. بعد اكتشاف مبدأ التحنيط، كما شرحته لكم، [875]رأى فلاسفتنا أنّ الفضول ربّما كان محموداً، وفي الوقت نفسه، فإنّ اهتمامات العلم تقدمت كثيراً، من خلال عيش هذا الشوط الطبيعي من العمر على مراحل. عبر مراحل التاريخ أظهرت التجارب أنّ شيئاً من هذا النوع لا غنى عنه. المؤرخ، على سبيل المثال، بعد أن يصل إلى سن خمسمائة سنة، يُمكن أن يؤلف كتاباً في جهد بالغ ثم يسمح لهم بتحنيط جسده بعناية؛ تاركاً وصية إلى مُنفذي العملية أنّ عليهم أن يُعيدوه إلى الحياة بعد مدة مُحدّدة.. لنقل خمسمائة أو ستمائة سنة. فيسترد حياته مع انتهاء هذه المدة، فيجد عمله العظيم تحوّل إلى دفتر مُلاحظات لا أهمية له.. بمعنى آخر، إلى نوع من حلبة للصراع الأدبي وتضارب التخمينات، والأحاجي، والآراء الشخصية التافهة التي يتداولها قطعانٌ من المُفسرين الساخطين. هذه التخمينات، وما إلى ذلك، التي كانت تنتقل تحت عنوان شروحات، أو تنقيحات، وجد أنّها كلها تُغلف، تُشوّه، وتُهيمن على النصّ، بحيث كان على المؤلف أن يحمل شمعة لكي يكتشف كتابه الذي وضعه[3]. وحين يكتشفه، يكون لا يستحقّ عناء التعب في البحث. أثناء إعادة كتابة العمل التاريخي، يُنظر إلى واجب المؤرخ أن يعمل مُباشرة، اعتماداً على معرفته الخاصة وخبرته، على تصحيح التقاليد السائدة في الحقبة التي يعيش فيها في الأصل. والآن هذه العملية في إعادة النسخ والتنقيح التي يُجريها الحكماء من وقت إلى آخر، كان لها تأثير في الحفاظ على تاريخنا من الانحطاط إلى مُجرّد حكايات خرافية».

«أرجو المعذرة»، قال الدكتور بونونير عند هذه النقطة، وكان يضع يده برفق على ذراع المصري.. «أرجو المعذرة، يا سيدي، هل تسمح لي بأن أُقاطعك لحظة؟».

(3) هُنا تلميح إلى قصة الحكيم دايوجينيس لايرتس الذي كان يجوب طرقات أثينا نهاراً ومعه شمعة بحثاً عن رجل يستحق أن يُسمى بهذا الاسم. [المترجم]

«بكل سرور، سيدي»، أجاب الكونت، وهو يؤجّل خطابه.

«كنت أوّد فقط أن أسألك سؤالاً»، قال الدكتور. «لقد ذكرت ما قام به المؤرخ من جهود شخصية لتصحيح التقاليد السائدة في عصره. أرجوك، يا سيدي، على وجه الإجمال أن تُخبرني ما هي نسبة هذه الكابالا التي تكون عادة صحيحة؟».

«الكابالا، كما تُسميها على نحو صائب، يا سيدي، بصفة عامة اكتُشف أنّها على النقيض من الحقائق المُسجّلة في الكتب التاريخية نفسها التي لم تحصل مُراجعتها؛ بمعنى آخر، لا يوجد مِثقال ذرة منها، في أي ظرف، لم يكتشف أنّه كان خطأً تامّاً».

«لكن إذا كان من الواضح تماماً»، عاد الدكتور للكلام، «أنّ على الأقل خمسة [876]آلاف سنة مضت منذ أن جرى تحنيطك، فأنا مُتأكّد أن تواريخكم لتلك الحقبة، إن لم يكن تقاليدكم كلها كانت دقيقة بما يكفي بشأن ذلك الموضوع الذي يحظى باهتمام شامل، أعني الخلق، الذي حصل، وأتصور أنك تُدرك، فقط قبل حوالى عشرة قرون».

«سيدي!» قال الكونت الأميستاكيو.

وأعاد الدكتور كلامه، لكن بعد توضيحات إضافية استطاع الغريب أن يستوعب ذلك الكلام. وقال أخيراً بتردّد:

«الأفكار التي ذكرتها، أعترف أنّها جديدة تماماً. طوال حياتي لم أعرف شخصاً يراود خياله أنّ الكون (أو هذا العالم إذا كنتم تُسمّونه هكذا) له بداية على الإطلاق. أتذكّر مرة، مرة واحدة فقط، أنّني سمعت شيئاً يُلمح إليه من بعيد، من قبل رجل تراوده الكثير من الشكوك والوساوس، فيما يتعلّق بأصل العنصر البشري؛ هذا الشخص، كان يستعمل تلك الكلمة آدم (أو التراب الأحمر)، التي تعرفونها. كان يستخدمها مع ذلك في معناها العام، في إشارة إلى النشوء التلقائي من التراب (كما تنشأ آلاف من الأجناس الدنيا من المخلوقات)..

النشوء التلقائي، أقول، لخمس قبائل من البشر تتوزّع تلقائياً إلى خمسة أقسام مُميزة تكاد تكون مُتشابهة على الأرض».

هُنا هزّ الحاضرون بعامة أكتافهم، ولمس واحد أو اثنان منّا جباههم في إيماءة ذات مغزى. نظر السيد سيلك بكنغهام أولاً نظرة سريعة مؤخرة رأس، ثم إلى مقدمة رأس الأميستاكيو، وتكلّم:

«الفترة الطويلة للحياة البشرية في زمانكم، إلى جانب أنّه كان من الأمور العادية أن تعيشوا تلك المدة، مثلما أوضحت، على فترات مُتعاقبة، لا بُدّ في حقيقة الأمر أن يكون لها تأثير قوي على التطور العام وتراكم المعرفة. لهذا أتصوّر أنّنا ينبغي أن ننسب الضعف الملحوظ لدى المصريين القدماء في كل مجالات العلم، حين يُقارن بما موجود في العصر الحديث، وخصوصاً لدى اليانكيين، كل ذلك يُنسب إلى الصلابة الفائقة لجمجمة الإنسان المصري».

«أعترف مرة أُخرى»، أجاب الكونت، في دماثة خلق بالغة، «أنّني مشوّش الذهن بعض الشيء فلا أتمكّن من استيعاب كلامك؛ أرجوك، إلى أي مجالات علمية تلمّح؟».

هُنا بادر الحاضرون فوراً، في صوت مُشترك، إلى تقديم شرحٍ تفصيلي لافتراضات عن علم فراسة الدماغ وأعاجيب المغناطيسية وتطبيقاتها على الكائنات الحية.

بعد أن سمعنا إلى النهاية، مضى الكونت يسرد بعض الحكايات النادرة التي جعلت من الواضح أنّ نماذج مُستمدّة من آراء غال وسبرزهايم عن فراسة الدماغ قد [877]ازدهرت واختفت في مصر منذ حقبٍ سحيقة حتى كادت تُنسى، وأن مناورات ميسمير كانت حقّاً مُجرّد ألاعيب حقيرة إذا ما قورنت مع الأعاجيب الفعلية لحكماء طيبة، الذين درسوا القمل وكثيراً من الأشياء المُماثلة الأُخرى.

وسألت الكونت إن كان الناس في زمانه قادرين على حساب فترات الكسوف والخسوف. فابتسم بامتعاض بعض الشيء، وقال إنّهم كانوا يفعلون ذلك.

هذا ما جعلني خارج مضمار اللّعبة، لكنّي بدأت بتساؤلات أُخرى تتعلّق بمعرفته في علوم الفلك، حين همس في أُذني فردٌ من جماعتنا لم يفتح فمه حتى الآن، قائلاً إنّ معلومات بهذا الاتّجاه ينبغي أن أستشير بها بطليموس[4] (أياً كان بطليموس هذا)، فضلاً عن رجل يدّعي بلوتارخ كتب بحثاً (عن وجه القمر) *de facie lunae*.

وبعد ذلك سألت المومياء عن العدسات الحارقة وغيرها؛ بصورة عامة سألته عن صناعة الزجاج؛ لكنّي ما كدت أنتهي من تساؤلاتي حتى لمسني ذلك الشخص الذي كان صامتاً مرة أُخرى على مرفقي، وتوسّل إليّ بحق الله أن أضع المؤرخ الإغريقي ديودروس سيكولوس في اعتباري. أما الكونت، فما فعل شيئاً سوى أن سألني، بطريقة الجواب، إن كنّا نحن الذي نعيش في العصر الحديث نملك أي ميكروسكوبات تُتيح لنا نقطع الأحجار الكريمة على طريقة المصريين. وبينما كنت أفكر في كيفية الجواب على هذا السؤال، تدخل الدكتور بونونير مُتكفّلاً بالجواب بطريقة غريبة جداً.

«انظر إلى أسلوب عمارتنا!» هتف بلطف بإزاء احتقار الرجلين اللذين جعلا لون وجهه يتحوّل إلى أسود وأزرق بلا مغزى.

«انظر»، صاح بحماس، «إلى نافورة بولنغ غرين في نيويورك! أو إذا كان هذا المكان يحتاج إلى تأملٍ أكثر مما ينبغي، تأمل لحظة بناية الكابيتول في واشنطن!».. وراح الطبيب الطيب القلب يسرد التفاصيل في دقة بالغة، والنسب والتراكيب التي كان يُشير إليها. وأوضح أنّ رواق البناية وحده مُزيّن بما لا يقلّ عن أربعة وعشرين عموداً، قطر كل واحد منها خمسة أقدام، والمسافة بين كل عمودٍ وآخر عشرة أقدام.

قال الكونت: إنّه يأسف على عدم القدرة على التذكر، في تلك اللّحظة على وجه التحديد، الأبعاد الحقيقية لأي بناية رئيسية من بنايات مدينة أزناك،

---

(4) كلوديوس بطليموس جغرافي وفلكي (القرن الثاني قبل الميلاد) ولد في مصر ودرس هُناك. [المترجم]

التي نصبت نافوراتها في حقبة مُظلمة من الزمن، لكن خرائبها لا تزال قائمة، في الوقت الذي جرى فيه تحنيطه، على هضبة شاسعة في الجانب الغربي من طيبة. لكنه قال: إنّه يتذكّر (وكان يتحدّث عن أروقة المعابد)، أنّ واحداً منها كان مُثبتاً على مدخل أحد القصور في ضاحية تُسمى الكرنك، يتألف من مائة وأربعة وأربعين عموداً، ومُحيطها سبعة وثلاثون قدماً، والمسافة بين عمود وآخر خمسة وعشرون قدماً. [878]كانت المُقتربات إلى هذا المعبد، من نهر النيل، تتّخذ شكل ممرّ طوله ميلان، ومؤلف من تماثيل أبي الهول وأعمدة شاهقة ارتفاعها عشرون، وستون، ومائة قدم. والقصر نفسه (بقدر ما استطاع أن يتذكر) في أحد الاتجاهات، طوله ميلان، وربّما كان مُحيطه سبعة أميال تماماً. والجدران مُزينة برسوم في كافة أرجائها، من الداخل والخارج، مع كتابات هيروغليفية. لم يكن يتظاهر بأنّه يؤكد على أنّ خمسين أو ستين من بنايات مجلس الشيوخ التي ذكرها الدكتور ربّما تدخل ضمن هذه الجدران، لكنّه كان واثقاً أنّ مائتين أو ثلاثمائة منها يُمكن أن تُقحم هُناك دون صعوبة. ذلك القصر في الكرنك بناية صغيرة تافهة على كل حال. لكنّه (أي: الكونت) لم يكن في وسع ضميره أن يرفض الاعتراف بمدى عبقرية، وروعة، وتفوّق بناء النافورة في بولنغ غرين، كما وصفها الدكتور. لا شيء يُماثلها، كما اضطر للاعتراف، رآه في مصر أو في أي مكان آخر.

هُنا سألت الكونت عما لديه بشأن سكك قطاراتنا.

«لا شيء»، أجاب، «على وجه التحديد». إنّها في نظره أشياء هزيلة، وسيئة التخطيط، ومكدس بعضها مع بعضها بشكل أخرق. لا يُمكن أن تُقارن طبعاً مع الطّرق والممرات الشاسعة، المُمهدة، المُباشرة، المُزودة بأخاديد حديدية والتي كان المصريون القدماء ينقلون عليها معابد ومسلات كاملة يصل ارتفاعها إلى مائة وخمسين قدماً.

وتكلّمت عن القوى والوسائل الميكانيكية الهائلة التي نمتلكها.

ووافق على أنّنا نعرف شيئاً عن تلك الأمور، لكنه تساءل إن كنّا نستطيع أن نرفع تلك الأعمدة الضخمة على قواعدها وعتباتها حتى لأصغر قصور الكرنك.

وقرّرت التغاضي عن هذا السؤال، وسألته إن كانت لديه فكرة عن الآبار الأرتوازية؛ لكنّه ببساطة رفع حواجبه؛ وبينما كان السيد غلايدون يغمز لي في حركة تلفت النظر قال بصوت هامس إنّ أحد تلك الأشياء اكتشفها مؤخراً مهندسون استُخدموا للتنقيب عن الماء في الواحة الكبرى.

ثم تطرّق إلى أعمال الفولاذ التي تشتهر بها بلادنا؛ لكن الغريب رفع أنفه، وسألني إن كان فولاذنا كفوءاً في تنفيذ العمل المنحوت بدقة الذي نراه على أعمدة المعابد، والذي بُني كله من بالات بسيطة من النحاس.

كل هذا جعلنا نشعر بالارتباك إلى درجة كبيرة حتى رأينا أنّ من الصواب تغيير اتّجاه الهجوم وتحويله إلى الميتافيزيقيا. فأرسلنا في طلب نسخة من كتاب بعنوان «المزولة»، وقرأنا منه فصلاً أو فصلين عن شيء كان يبدو غامضاً جدّاً، مع أنّ سكان بوسطن يُسمّونه حركة التقدّم الكبرى.

فما كان من الكونت إلّا أن قال: إنّ حركات التقدم الكبرى كانت من الأمور الشائعة في أيامه، وهكذا الأمر بالنسبة إلى حركة التقدّم الأخيرة، إذ كانت في وقت [879]من الأوقات مصدراً للإزعاج، لكنّها لم تُحقّق أي تقدّم.

ثم تكلّمنا عن مدى روعة وأهمية الديمقراطية، وكنا نواجه صعوبة كبيرة في أن نشرح للكونت شيئاً عن استحقاق هذه الكلمة والمزايا التي نتمتع بها في العيش في بلد يمنحنا حق التصويت، مع عدم وجود ملك يحكمنا.

واستمع إلينا في اهتمام؛ في حقيقة الأمر كان يبدو عليه بعض الانزعاج. ولمّا انتهينا من الكلام، قال، منذ زمن طويل، كان لديهم شيء مُماثل جدّاً. هناك ثلاث عشرة مُقاطعة مصرية قرّرت أن تتمتّع بالاستقلال المُباشر، لكي تكون نموذجاً رائعاً تقتدي به البشرية كلها. جمعوا حكماءهم، ولفّقوا دستوراً من أكثر الدساتير ابتكاراً التي يمكنكم تخيلها. وتمكّنوا لفترة من النجاح والعيش بسلام؛ لولا أنّ عاداتهم في التبجّح كانت أكثر ممّا ينبغي. وانتهى اتّحاد الدويلات الثلاث عشرة، إلى جانب نحو خمس عشرة أو عشرين دولة أُخرى، إلى أن تُعاني من أكثر الأنظمة الاستبدادية التي لا تُطاق والتي لم يسمع بها أحد على وجه الأرض.

وتساءلت عن اسم الطاغية الذي اغتصب السلطة.

وبقدر ما استطاع الكونت أن يتذكّر، كان اسمه موب.

لم أعرف ماذا يُمكنني أن أقول بإزاء هذا، فرفعت صوتي واستنكرت جهل المصري وافتقاره إلى اللياقة.

نظر الكونت إليّ باستغراب، لكنه لم يرد. لكن الرجل الصامت لكزني بعنف في أضلاعي بمرفقه.. وأخبرني أنّني عبرت عن نفسي بما يكفي.. وسألني إن كنت حقّاً مُغفّلاً فلا أعرف أن المُحرّك البخاري الحديث مُستمد من هيرو، من خلال سولومون دو كاوس[5].

كنا الآن نواجه خطراً وشيكاً من التعرض لموقف مُحرج، ولكن كما شاء لنا الحظ، بعد أن بقي الدكتور بونونير شارد الذهن، عاد لنجدتنا أخيراً، وتساءل إن كان الناس في مصر يتظاهرون حقّاً بأنّهم يُنافسون الناس في العصر الحديث في كل.. التفاصيل المُهمة للملابس.

فنظر الكونت عند هذا إلى الأسفل نحو أشرطة بنطلونه، ثم أمسك بذيل معطفه، وقرّبه من عيون الحاضرين بضع دقائق. وتركه يسقط، ومط فمه تدريجياً من الأذن إلى الأذن؛ لكنّي لا أتذكّر أنّه قال أي شيءٍ ردّاً على السؤال.

هُنا عدنا إلى حالتنا المرحة، واقترب الدكتور من المومياء في وقار شديد، وأراد أن يقول شيئاً صريحاً، وأقسم بشرفه كرجلٍ مُهذّب، إن كان المصريون قد [880]عرفوا، في أي مرحلة من الزمن، حبوب بونونير أو حبوب براندريث.

وانتظرنا في لهفة أن نسمع جواباً.. لكن عبثاً. لم يأتِ الجواب. يبدو أنّ المصري أحس بالخجل وأنزل رأسه. لم يتجلّى النصر في أي وقت بمثل تلك الهيمنة؛ ولم تتقبّل الهزيمة بمثل تلك السماحة. في الواقع، لم يكن في وسعي أن

(5) سولومون دو كاوس صمّم المُحرك في سنة 1615، وسبقه في ذلك جيامباتيستا ديلا بورتا سنة 1601. [المترجم]

أتحمّل منظر الرجل المومياء المسكين وهو يُهزم. مددت يدي إلى القُبّعة، وانحنيت إليه في احترام، وتهيأت للرحيل.

في طريقي إلى المنزل وجدت الساعة تجاوزت الرابعة، فاتّجهت فوراً إلى السرير. الآن الساعة العاشرة، وكنت منذ السابعة جالساً أكتب هذه المُذكرات من أجل أن تُفيد عائلتي من البشر. المومياء لن أراها بعد الآن.. زوجتي سليطة اللسان. الحقيقة أنّ قلبي سأم من هذه الحياة، بل سأم من القرن التاسع عشر كله. لقد اقتنعت أنّ كل شيء يسير على غير هدى. فضلاً عن أنّني كنت مُتلهّفاً لأعرف من سيكون الرئيس في سنة 2045. لذلك، حالما أحلق ذقني وأحتسي فنجاناً من القهوة، سوف اتّجه إلى منزل بونونير وأجعله يُحنطني بضعة مئاتٍ من السنين.

برميل الأمونتيلادو

الجراح الألف التي ألحقها بي فورتناتو تحمّلتها بأقصى ما يُمكنُني من قدرة [881]على الصّبر؛ لكنّه جازف بإهانتي، فأقسمتُ على الانتقام. أنتم تعرفون حق المعرفة طبيعة روحي، فلا تتصوّروا أنّني قُلت شيئاً عن التهديد. وأخيراً سوف أنال ثأري؛ هذه مسألة حُسمت حتماً.. مع أنّ الطريقة الحازمة التي حُسمت فيها، استبعدت أي نوع من المُجازفة. لم يكن عليّ الانتقام فحسب، لكن أن أُعاقب وأفلت من العقوبة. أيّ مجال للخطأ غير وارد في حساباتي. من غير الإنصاف أن يفشل المُنتقم في أن يُقنع نفسه بأن لا يشعر بالندم على ما اقترفته يداه.

علينا أن نفهم، ليس بالكلمة ولا بالفعل أنّني أعطيت فورتناتو سبباً للشك في حسن نواياي. كنت أستمر، كما جرت العادة، في الابتسام بوجهه، وهو لا يُدرك أنّ ابتسامتي الآن تسخر من القربان الذي سوف يُقدمه.

إنّه يُعاني من نقطة ضعف.. فورتناتو هذا.. مع أنّه من جوانب أُخرى يستحقّ الاحترام، بل ربّما كان مهيب الجانب. إنّه يفتخر بنفسه فيقول: إنّه خبير بأنواع النبيذ. بعض الإيطاليين لديهم ذوق فنّي رفيع. في أغلب الأحيان يتناسب حماسهم مع الزمن والفرص.. بحيث يُمارسون الدجل على أصحاب الملايين في بريطانيا والنمسا. في فنون الرسم والمُجوهرات، كان فورتناتو مثل غيره من مواطني بلده، مُشعوذاً ماهراً.. لكن بخصوص أنواع النبيذ القديمة كان مُخلصاً حقّاً. في هذا الشأن لا أختلف عنه كثيراً من الناحية الفعلية؛ فأنا نفسي خبيرٌ في الكروم الإيطالية، وكنت أبتاع كميات كبيرة منها كلّما استطعت ذلك.

حدث ذلك مع مغيب الشمس تقريباً، ذات مساء، أثناء ذروة موسم الكرنفالات الجنونية، أن التقيت بصديقي. تلقّاني برحابة صدر، لأنّه كان قبل

ذلك مخموراً. كان يرتدي خليطاً غريباً من الثياب. عليه بدلة سميكة مُخطّطة، وعلى رأسه قلنسوة مخروطية ذات أجراس. وفرحت للقائه طبعاً، وفكّرت أنّه لا ينبغي أن يفلت من قبضتي.

قلت له.. «عزيزي فورتناتو، أنت محظوظ لأنّك التقيت بي. كم تبدو رائعاً [882]اليوم! لكنّي استلمت شحنة نبيذ يُسمّونه الأمونتيلادو، وتُساورني بعض الشكوك».

«كيف؟» قال. «أمونتيلادو؟ برميلاً كاملاً؟ مُستحيل! في مُنتصف الكرنفال!».

«لديّ بعض الشكوك»، أجبت؛ «كنت غبيّاً لأنّي دفعت الثمن الكامل للأمونتيلادو دون أن أستشيرك بالأمر. أنت غير مُتوفر في الفترة الأخيرة، وكنت أخاف أن أفقد الصفقة».

«أمونتيلادو!».

«تُساورني بعض الشكوك».

«أمونتيلادو!».

«يجب أن أحسم أمر هذه الشكوك».

«أمونتيلادو!».

«لكنك تبدو مُنشغلاً، وأنا في طريقي إلى لوشيستي. إذا كان من شخصٍ لديه حسٌّ نقدي، فهو هذا الرجل. سوف يُخبرني..».

«لوشيستي لن يُميّز الأمونتيلادو عن الشيري».

«ومع ذلك فبعض المُغفّلين يقولون: إنّ ذوقه يُنافس ذوقك».

«تعال، فلنذهب».

«إلى أين؟».

«إلى أقبيتك».

«يا صديقي، لا؛ لن أستغل طيبة قلبك. أظن أن لديك موعداً. لوشيستي..».

«ليس لديّ أي موعد.. تعال».

«يا صديقي، لا.. الأمر لا يتعلّق بالموعد، لكن البرد شديد وأظن أنّك مُصاب بالحمى. الأقبية رطبة بشكل لا يُطاق. إنّها مُحاطة بطبقة من الأملاح».

«لنذهب، رغم كل شيء. البرد ليس شديداً. امونتلادو! ربّما خدعوك. أما لوشيستي، فهو لن يُميّز الشيري عن الأمونتيلادو».

وبينما كنا نتكلّم أمسك فورتناتو ذراعي. ولبس عباءة حريرية سوداء، واقترب منّي أكثر، وشعرت به يُحثني على الذهاب إلى منزلي.

لم يكن هُناك أحدٌ في المنزل؛ لقد فروا جميعاً للاستمتاع بمُشاهدة الكرنفال. كنت قد أخبرتهم أنّني لن أرجع حتى الصباح، وأعطيتهم أوامر واضحة بأن لا يتحرّكوا من المنزل. هذه الأوامر كانت كافية، أعرف هذا، لضمان اختفائهم فوراً، كل واحدٍ منهم، حالما أدير ظهري.

أخذت شعلتين من الرف، وأعطيت واحدة إلى فورتناتو، وأخذته في جولة إلى مواقع مُختلفة من المنزل والغرف ثم إلى السلم الذي يقود إلى الأقبية. نزلت قبله [883]مسافة على السلم المُلتوي، وطلبت منه أن يتوخّى الحذر وهو يتعقّب خطواتي. وأخيراً وصلنا إلى أرضية السرداب، ووقفنا معاً على الأرضية الرطبة لسرداب آل مونتريسور.

كانت خطوات صديقي مُرتعشة، وأجراس قُبّعته تُجلجل وهو يتقدم.

«البرميل»، قال.

«ما يزال بعيداً»، قلت؛ «لاحظ شبكة العنكبوت البيضاء التي تلمع على جدران القبو هذه».

واستدار نحوي، ونظر إلى عيني بحدقتين تُغطيهما غشاوة تترشّح عليها دموعٌ من شدة الكحول.

«رطوبة؟» تساءل أخيراً.

«رطوبة»، أجبت. «منذ متى كنت تسعل هكذا؟».

«آتش! آتش! آتش!.. آتش! آتش! آتش! آتش!.. آتش! آتش! آتش! آتش!.. آتش! آتش! آتش!.. آتش! آتش! آتش! آتش!».

وجد صديقي المسكين أنّ من المُستحيل عليه الرد طوال دقائق.

«إنّها لا شيء»، قال أخيراً.

«تعال»، قلتُ في تصميم، «سوف نرجع؛ صحتك غالية عليّ. أنت رجل غني، مُحترم، تحظى بالإعجاب، أنت محبوب؛ أنت رجل سعيد، مثلما كنتُ أنا ذات مرة. أنت رجل يفتقدك الآخرون. أما أنا فلا يهتم أحدٌ بأمري. سوف نرجع؛ سوف تمرض، ولا يُمكن أن أتحمّل المسؤولية. فضلاً عن هذا، هُناك لوشيستي..»

«كفى»، قال؛ «السعال لا شيء؛ لن يتسبّب بقتلي. لن أموت من السعال».

«صحيح.. صحيح»، أجبت؛ «في الواقع، لم أكن أنوي تخويفك دون ضرورة.. لكن كان ينبغي أن تتّخذ احتياطات مُناسبة. جرعة من شراب الميدوك سوف تحمينا من الرطوبة».

هُنا فتح عُنق الزجاجة التي سحبتها من صفٍّ طويل من الزجاجات التي وضعت على رف.

«اشرب»، قلتُ وأنا أُقدم له النبيذ.

رفعها إلى شفتيه وهو ينظر شزراً. ثم توقّف وهزّ رأسه لي في مودة، بينما كانت أجراس قُبّعته تُجلجل.

«سأشرب»، قال، «في صحة الموتى الذين يرقدون حولنا».

«وفي صحة حياتك الطويلة».

مرة أُخرى أمسك ذراعي، وتقدمنا.

«هذه الأقبية»، قال، «هائلة».

«عائلة آل مونتريسورس»، أجبت، «عريقة وكبيرة».

«لقد نسيت شعار عائلتكم».

«قدمٌ بشرية هائلة في حقل لازوردي؛ القدم تسحق ثُعباناً هائجاً أنيابه مغروسة في العقب».

[884]«والشعار؟».

«لا أحد يستفزّني وينجو من العقاب» Nemo me impune lacessit

«جيد!» قال.

وكان النبيذ يُرسل لمعاناً في عينيه والأجراس تُجلجل. وأصبح خيالي دافئاً من أثر الميدوك. وعبرنا بين صفوف من العظام المُكومة، مع خليطٍ من براميل وألواح خشبية، مُتّجهين نحو الأجزاء الداخلية من السراديب. وتوقفتُ مرة أُخرى، وفي هذه المرة تجرأت فأمسكت فوتورناتو من ذراعه فوق المرفق.

«رطوبة!» قلت. «أرى أنّها تزداد. إنّها تحوم مثل الطحالب فوق الأقبية. نحن الآن تحت حوض النهر. قطرات الرطوبة تسيل وسط العظام. تعال، سوف نرجع قبل فوات الأوان. سعالك..».

«لا يهم»، قال؛ «دعنا نُتابع. لكن أولاً، دعني أتناول جرعة أُخرى من الميدوك».

تقدمتُ وأخذت قنينة كبيرة من شراب دوغرافيه. وأفرغها في جوفه في جرعة واحدة. والتمعت عيناه بألق عنيف. وضحك ورمى الزجاجة إلى الأعلى في إيماءة لم أفهمها.

نظرت إليه مُستغرباً. وأعاد الحركة.. وكانت حركة فخمة.

«أنت لا تفهم؟» قال.

«لست أنا الذي لا يفهم»، أجبت. «إذن أنت لست من أعضاء الأخوية».

«كيف؟».

«لست من الماسونيين؟».

«نعم، نعم»، قلت، «نعم، نعم».

«أنت؟ مستحيل! ماسوني؟».

«ماسوني»، أجبت.

«أعطني علامة»، قال.

«هذه»، أجبت وأنا أخرج مالجاً من تحت أكوام الحجارة والعظام.

«أنت تمزح»، صاح وهو يتقهقر بضع خطوات. «لكن دعنا نمضي إلى الأمونيتلادو».

«فليكن»، قلت عدت المالج تحت العباءة، ومرة أُخرى مددت له ذراعي. اتكأ عليها في تثاقل. ومضينا على ذلك الممر باحثين عن الأمونتيلادو. وعبرنا من تحت سلسلة من الأقواس المُنخفضة، ونزلنا، ومضينا، ثم نزلنا من جديد حتى وصلنا أخيراً إلى قبو كانت الروائح العفنة فيه تجعل شعلة المصباح تخبو بدلاً من أن تتوهّج.

في أقصى طرف للقبو وجدنا مكاناً آخر أضيق من الأول. بعض جُدرانه فيها حفر تحتوي على بقايا عظام بشرية، مُكوّمة تكاد تصل إلى سقف السرداب، على غرار ما موجود في مقابر العظماء في باريس. هُناك ثلاثة جوانب من هذا القبو [885]الداخلي لا تزال مُزينة بهذه الطريقة. ومن الجانب الرابع كانت العظام تسقط إلى الأسفل وتستقرّ مُختلطة على الأرض وتُشكّل كومة هائلة. داخل الحائط المكشوف الذي خرجت منه العظام، رأينا امتداداً آخر إلى الداخل، عمقه حوالى أربعة أقدام، وعرضه ثلاثة، وارتفاعه ستة أو سبعة. كان يبدو مبنياً لغرض خاص في ذاته، مع أنّه يشكل مُجرّد نقطة فاصلة بين عمودين كبيرين يدعمان سقف المقبرة، وينتهي بجدار دائري من الغرانيت الصلب.

عبثاً حاول فورتناتو وهو يرفع مصباحه بضوئه الكليل أن يُحملق في أعماق هذه الزوايا. فلم نرَ نهاية لهذا الامتداد على الضوء الواهن.

«تقدم»، قلت؛ «هُنا ستجد الأمونتيلادو. أمّا عن لوشيستي..»

«إنّه لا يفقه شيئاً»، قاطعني صديقي، وكان يتقدم على غير هدى، بينما تبعته مُباشرة. وفي لحظة وصل إلى نهاية القبو، ووجد نفسه يقف عند صخرة، مُرتبكاً حائراً. وبعد لحظة دفعته حتى التصق بالغرانيت. على سطح الغرانيت هُناك حلقتان من الحديد، تبعد الواحدة منهما أفقياً عن الأُخرى حوالى قدمين. على إحدى الحلقتين تتدلّى سلسلة قصيرة، ومن الأُخرى يتدلّى قفل. ألقيت السلسلة على خصره، ولم يتطلّب الأمر أكثر من بضع ثوان لربطه. صُعق الرجل فلم يُقاوم أبداً. ووضعت القفل على السلسلة وتراجعت بعيداً عنه.

«أخرج يدك»، قلت، «مدّها على الجدار؛ لا يُمكنك أن تتجنب الشعور بالرطوبة الشديدة. في الواقع المكان رطب جدّاً. مرة أُخرى دعني أطلب منك الرجوع. كلّا؟ إذن عليّ حتماً أن أتركك. لكن عليّ أولاً أن أُوليك كل الاهتمام ما استطعت ذلك».

«الأمونتيلادو!» صاح صديقي، ولم يكن قد أفاق من دهشته.

«صحيح»، أجبت؛ «الأمونتيلادو».

وبينما قلت هذه الكلمات كنت أُنقّب وسط كومة العظام التي تكلّمت عنها. ألقيتها جانباً. وسرعان ما انكشفت كمية من حجارة البناء وهاون. بهذه المواد وبمُساعدة المالج الذي لدي، بدأت مسعوراً ببناء جدار يسدّ تلك الكوّة.

وما كدت أضع أول حجر بناء حتى اكتشفت أنّ حالة السكر لدى فورتناتو قد تبدّدت. كانت آخر علامة لاحظتها عليه مُجرّد أنين خافت يأتي من أعماق ذلك [886]التجويف. لم تكن صرخة رجل مخمور. ثم ساد صمتٌ طويل عنيد. وضعت قطعة الحجر الثانية، والثالثة، والرابعة؛ وبعد ذلك سمعت اهتزازات عنيفة للسلسلة. ظلّت الضوضاء مُستمرّة عدة دقائق، وفي أثناء ذلك ربّما كنت أُصغي في شيء من الاقتناع، ثم توقّفت عن العمل وجلست على كومة العظام.

تلاشت الصلصلة أخيراً وعدت إلى أدواتي، وانتهيت دون أن يقطع عملي شيء من وضع الحجر الخامس، والسادس، والسابع. أصبح الجدار الآن تقريباً بمُستوى صدري. وتوقّفت عن العمل مرة أُخرى، وأمسكت الشعلة وقرّبتها من الجدار الذي بنيته، فسقطت الأشعة على وجه الشخص الذي في الداخل.

انطلقت فجأة سلسلة صرخات عالية مرتعشة من حُنجرة الرجل المُكبّل، وبدا أنّها أدّت بي إلى التراجع بعنف. بقيت متردّداً لحظات قصيرة.. كنت أرتعش. ثم امتشقت سيفي، وبدأت أتلمس طريقي في أرجاء المكان؛ إلّا أنّ فكرة عاجلة خطرت لي. وضعت يدي على الحائط الصلب للمقبرة، وأحسست بالاقتناع. وعدّت فاقتربت من الجدار. استجبت لصرخات ذلك الذي كان يُصدر الضجيج. رددتُ الصدى.. ساعدته في الصراخ.. وتفوّقت صرخاتي على صرخاته في النبرة والقوة. فعلت هذا، وتفاقم الضجيج أكثر.

انتصف الليلُ الآن، وكاد عملي يقترب من نهايته. وضعت الحجر الثامن، والتاسع، والعاشر. وأنهيت جزءاً من البلاطة الحادية عشرة والأخيرة؛ لم تبقَ غير بلاطة واحدة توضع في مكانها وتُلصق بالملاط. وحاولت رفعها بجهد لأنها ثقيلة؛ ووضعتها جزئياً في موقعها المُقرّر. لكن الآن جاء من كوة القبو ضحكٌ واطئ كالبكاء جعل شعر رأسي ينتصب. ثم أعقبه أنين حزين، واجهت صعوبة في التعرّف عليه والتأكد من أنّه صوت النبيل فورتناتو. قال الصوت..

«هاه! هاه! هاه!.. هيه! هيه!.. يا لها من مزحة حقّاً.. إنّه مزاحٌ رائع. سوف نضحك كثيراً من هذا في القصر.. هيه! هيه! هيه!.. ونحن نحتسي النبيذ.. هيه! هيه! هيه!».

«أمونتيلادو!» قلت.

«هيه! هيه! هيه!.. هيه! هيه! هيه!.. نعم، أمونتيلادو. ولكن ألم نتأخّر؟ أليسوا ينتظروننا في القصر، ليدي فورتناتو والباقون؟ دعنا نذهب».

«نعم»، قلت، «دعنا ننتهي من هذا».

«حباً في الله، مونتريسور!».

«نعم»، قلت، «حبّاً في الله!».

لكنّي لم أتوقّع أن أسمع ردّاً على هذه الكلمات. تفاقم ضجري. وصرخت عالياً..

«فورتناتو!».

[887]وما من جواب. وصرخت مرة أُخرى..

«فورتناتو!».

لا جواب أيضاً. وسلّطت ضوء الشّعلة على الفتحة الباقية هُناك. وسمعت بعد ذلك جلجلة الأجراس. وأحسست بالامتعاض في قلبي.. بسبب الرطوبة الخانقة للأقبية. وأسرعت لوضع نهاية لعملي الشاق. ودسستُ البلاطة الأخيرة في موضعها؛ لصقتها بالملاط. على الجدار الذي بُني حديثاً أعدت كومة العظام القديمة. منذ نصف قرنٍ لم يُعكّرها بشر. أرقدي بسلام.

العنقاء

في أثناء تلك الفترة التي هيمن فيها شبح الكوليرا المقيت على نيويورك، كنت [888]قد تلقّيت دعوة من قريبٍ لي لقضاء أُسبوعين في كوخه الذي يقع على ضفاف نهر هدسون. هُناك تتوفّر حولنا كل الوسائل الاعتيادية التي من شأنها أن تُتيح لنا قضاء عطلة صيفية مُمتعة؛ وكنّا نمضي أوقاتنا في التجوّل وسط الغابات، نتمتّع بالمناظر الخلابة، ونركب القوارب، ونُمارس الصيد، ونسبح، ونستمع إلى الموسيقى، ونقرأ الكتب؛ كل ذلك كان مصدر بهجة لا حدود لها، لولا أن كانت تأتينا الأخبار المُحزنة كل صباح من المدينة المُزدحمة بسكانها. لم يكن يمضي يومٌ دون أن يأتي خبرٌ جديد عن موت بعض من نعرفهم. ثم تفاقم عدد الوفيات، وتعلّمنا كيف نتوقّع يومياً فقدان صديقٍ عزيز. وأخيراً أصبحنا نرتجف من اقتراب أي قادم. الجو نفسه في الجنوب بدا مضرّجاً بالدماء. تلك الفكرة جعلتني أرتجف حقّاً وقد هيمنت على روحي. لم يكن في وسعي أن أتكلّم، أو أفكّر، أو حتى أن أحلم بشيء آخر. كان مزاج مضيفي أكثر هدوءاً، مع أنّه يُحس بالاكتئاب في داخله، إلّا أنّه حاول جاهداً الإبقاء على رباطة جأشه. لم يتأثّر عقله المُشبع بالفلسفة في أي وقت بمسائل بعيدة عن الواقع. بإزاء مظاهر الرّعب كان يبدو مُحافظاً على حيويته بما يكفي، رغم أنّه لا يمتلك أي تفسير عقلاني لما تُلقيه علينا ظلالها.

كان يُبدي مُحاولات جادة لينتشلني من الكآبة الغريبة التي انجررت إليها، لكنه فشل في ذلك دائماً، والسبب يعود إلى بعض الكتب التي وجدتها في مكتبته. هذه الكتب كان من طبيعتها أن تنبت في العقل أي نوع من بذور الخُرافة التي ورثتها وظلّت كامنة في صدري. كنت مُنكبّاً على قراءة هذه الكتب دون أن

يعرف ذلك، ولهذا غالباً ما كان حائراً لا يعرف تفسيراً للانطباعات القوية التي تتركها على خيالي.

كان من الموضوعات المُفضّلة لديّ ذلك الاعتقاد الشائع بالكهانة والخُرافة.. وهو اعتقاد، في هذه الفترة من حياتي، كنت أميل أشد الميل إلى الدفاع عنه. عن هذا الموضوع طالما دارت بيننا نقاشات حادّة.. كان من جانبه يُصرّ على عدم وجود أي [889]أساس للإيمان بمثل هذه الأمور.. وأنا مُقتنع بأن مشاعر الناس العاديين عن هذا الأمر تنشأ في عفوية تامة.. بمعنى آخر، من غير أي أثر لإيحاءات الآخرين.. وهي مشاعر تتضمّن في بواطنها عناصر للحقيقة لا يُمكن تجاهلها، وتستحق منّا الاحترام لكونها من بديهيات وخصوصيات الفرد الذي يتمتع بالعبقرية.

الحقيقة أنّني، بعد وقتٍ قصير من وصولي إلى الكوخ، حدثت لي حادثة غير قابلة للتفسير إطلاقاً، في كثير من جوانبها تنذر بالشؤم، حتى إنّني ربّما أكون معذوراً لأن أنظر إليها بوصفها من سوء الطالع. أرعبتني تلك الحادثة، وفي الوقت نفسه حيّرتني في مُلابساتها، بحيث إن أياماً كثيرة مرت قبل أن أُقرر البوح بها إلى أي صديق لي.

في نهاية أحد الأيام الشديدة الحرارة، كنت جالساً والكتاب في يدي، بالقرب من نافذة مفتوحة، أتأمل من مكاني ذلك المنظر الطبيعي لضفاف النهر، والتلال البعيدة التي كان جانبها الأقرب إلى موقعي مُغطى بالأشجار. ظلّت أفكاري تتنقل طويلاً بين صفحات الكتاب الذي أمامي وبين ذلك المشهد الكئيب والمكان المُنعزل من المدينة المجاورة. ورفعت عيني عن الصفحة، ثم نظرت إلى خارج النافذة، ودقّقت النظر فرأيت شيئاً.. وقعت عيناي على وحشٍ مُرعب كان يمضي في طريقه مُنتقلاً بسرعة من قمم التلال إلى الأسفل، ثم يختفي أخيراً في الغابة الكثيفة التي في المُنحدر. عندما رأيتُ هذا المخلوق أول مرة، ساورتني الشكوك في سلامة عقلي.. أو على الأقل في مدى دقة بصري؛ ومرّت دقائق قبل أن أنجح في إقناع نفسي بأني لست مجنوناً وأنّني لا أحلم. لكني حين أصف لكم

شكل الوحش (الذي رأيته رؤية لا تشوبها شائبة، وكنت أُتابع ذلك بهدوء أعصاب طوال الفترة التي استغرقها انتقاله)، أيّها القراء، أخشى أن أُواجه صعوبة في إقناعكم بهذه المسائل أكثر ممّا اقتنعت بها بنفسي.

إذا نظرنا إلى حجم ذلك المخلوق بالقياس إلى قطر الأشجار الضخمة التي كان قريباً منها.. ربّما كان مُشابهاً لبعض الأشجار العملاقة في الغابة والتي نجت من ذلك المُنحدر المُهلك.. يُمكنني القول: إنّه أكبر من أي سفينة تُبحر على خط ملاحي سبق أن رأيتها في حياتي. أقول سفينة على خط ملاحي، لأن شكل الوحش كان يوحي بمثل هذه الفكرة لخيالي.. ربّما كان بدن إحدى سفننا التي يبلغ طولها أربعة وسبعين قدماً يُعطي فكرة معقولة جدّاً عن شكله بصورة عامة. فم الحيوان يقع على طرف خرطومٍ يصل طوله إلى نحو ستين أو سبعين قدماً، وعرضه يكاد يكون بمثل ضخامة فيلٍ اعتيادي. بالقرب من النهاية الأُخرى للخرطوم هُناك كمية كبيرة من الشعر الأسود الخشن.. كميته أكبر ممّا يُمكن رؤيته على جلد قطيعٍ من الجواميس؛ ومن ذلك الشعر تتدلّى إلى الجانبين أنياب لامعة تُشبه أنياب خنزير [890]بري، لكنّها ذات أبعاد أكثر إثارة للعجب. وتمتدّ إلى الأمام، في موازاة الخرطوم، على الجانبين، أشياءٌ مثل عصي غليظة هائلة، طولها ثلاثون أو أربعون قدماً، فيما يبدو من مادة كريستالية صافية تتّخذ شكلاً موشورياً كاملاً.. تنعكس عليها على نحوٍ مُبهر أشعة الشمس الغاربة. الخرطوم يبدو مثل إسفينٍ حافته باتّجاه الأرض. ومن الخرطوم يتفرّع جناحان.. كل جناحٍ يكاد يبلغ طوله مائة ياردة.. وهُناك جناحان فوق الجناحين الآخرين، كلها مُغطاة بحراشف معدنية كثيفة؛ كلّ حرشفة فيما يبدو قطرها عشرة أقدام أو اثنا عشر قدماً. ولاحظتُ أيضاً أنّ الصفوف العليا للأجنحة مربوطة بسلسلة قوية. ولكن الشيء الأكثر غرابة في هذا المخلوق المُرعب أنّ رأسه مُجرّد جمجمة تكاد تُغطي سطح صدره كله، عليها انعكاسات خطوط بيضاء، على البدن الداكن، كما لو أنّها من تصميم فنان حاذق. وبينما كنت أُراقب ذلك الحيوان المُخيف، وخصوصاً المظهر الخارجي لصدره، وقد انتابتني مشاعر الذعر والأسى.. مُتوجساً من شرٍّ مُحدق من المُستحيل التغلّب عليه بأي جهد عقلي، رأيتُ الفكين الهائلين

اللذين على طرف الخرطوم ينفتحان فجأة، وخرج منهما صوتٌ جبار مُعبّر عن اليأس والحزن بحيث ضرب على أعصابي كأنّه قرع ناقوس الموت بينما كان الوحش يختفي عن الأنظار عند سفح التل، وأحسست أنّي قد أُغمي عليّ، وسقطتُ على الأرض.

فلمّا استعدت وعيي، كان أول شيء فكّرت فيه طبعاً أن أخبر صديقي عما رأيت وسمعت.. ولا أكاد أستطيع أن أصف مشاعر الاشمئزاز التي منعتني في النهاية من البوح بذلك السر.

وأخيراً، ذات مساء، بعد ثلاثة أو أربعة أيام من الحادث، كنا نجلس في الغرفة التي رأيت منها ذلك الشبح المُرعب.. وكنت جالساً على الكرسي نفسه قبالة النافذة نفسها، وهو يجلس على أريكة قريبة. شجعني المكان والزمان على أن أتطرّق إلى تلك الظاهرة. وسمع ما قلته إلى النهاية.. وضحك من قلبه.. ثم بدت عليه كآبة طاغية، كما لو أنّ الجنون الذي أصابني لا يقبل الشك. في هذه اللحظة رأيت الوحش مرة أُخرى بوضوح.. وحين رأيته انطلقت منّي صرخة مُدوّية من الذعر الذي استولى عليّ، والآن لفتّ انتباهه إليه. ونظر متلهفاً.. لكنّه أصرّ على أنّه لم يرَ شيئاً.. مع أنّي حدّدت له اتّجاه حركة ذلك المخلوق، بينما كان يتّجه نحو التلال الجرداء.

شعرت الآن بخوف لا يوصف، لأنّي اعتبرت تلك الرؤية إما أن تكون [891]نذير شؤم بموتي، أو الأسوأ من ذلك، كمُقدمة جنون يباغتني. تراجعتُ في ذروة الانفعال على كرسي وغطيت وجهي بيدي. ولما كشفتُ الغطاء عن عيني مرة أُخرى وجدت الشبح قد اختفى.

لكن مضيفي استعاد هدوء أعصابه بعض الشيء، واستفسر منّي مُتلهّفاً عن أي معلومات عن المخلوق الغامض. ولما قلتُ له كل ما أعرفه عن الموضوع، تنهّد بعمق كأنّما تخلّص من همٍّ ثقيل، وراح يُحدّثني بما تصوّرت أنّه هدوءٌ يختلط بالعنف، عن مسائل تتعلّق بفلسفة من وحي الخيال، كانت كما تصوّر الآن من مقومات موضوع النقاش. أتذكّر أنّه كان يلحّ بصفة خاصة (من بين أشياء

أُخرى) على فكرة أنّ المصدر الأساسي للخطأ الذي يقع فيه سائر البشر في تصوّراتهم يكْمن في قابلية الفهم التي تُقلّل من أهمية شيء أحياناً أو تُبالغ في أهمية شيء من خلال سوء تقدير العلاقة بين الأشياء. «من أجل أن نجري تقييماً صائباً، على سبيل المثال»، قال، «للتأثيرات الواسعة النطاق التي تخضع لها البشرية على ضوء الإنتشار الشامل للديموقراطية في عصرنا، فالمسافة الزمنية التي يمتد إليها انتشار الديمقراطية ينبغي أن تشكل عنصراً من عناصر التقييم. هل يُمكنك أن تُخبرني عن كاتبٍ تناول مسألة الحكومة قد فكّر في هذا الجانب من الموضوع الذي يستحق النقاش؟».

هُنا توقف صديقي لحظة، واتّجه إلى خزانة الكتب، وتناول كتاباً عادياً صغيراً عن التاريخ الطبيعي. طلب مني عندئذ أن نتبادل الكراسي، حتى يتمكّن من رؤية الخط جيداً، وأخذ كرسيي قريباً من النافذة، وفتح الكتاب، وعاد إلى كلامه بالنبرة السابقة نفسها تقريباً.

«لولا دقة كلامك»، قال، «في وصف ذلك الوحش، ربّما ليس في وسعي أن أُبين لك ماهية الأمر. في المقام الأول، دعني أقرأ لك وصفاً من كتابٍ مدرسي لعبقرية العنقاء، التي تنتمي إلى سُلالة كريبوسكولاريا ليبيدوتيرا، من فئة أنسيكتا.. أي: الحشرات. يقول الكاتب في النصّ:

«أربعة أجنحة من غشاء نسيجي تُغطيها حراشف صغيرة مُلوّنة ذات مظهر معدني؛ الفم يُشبه خُرطوماً ملفوفاً، يخرج من استطالة الفكين، على جانبيه بقايا بدائية لفكٍّ سُفلي ولوامس؛ الأجنحة الثانوية تلتصق بالأجنحة الرئيسية بشعر قوي؛ اللوامس تتّخذ شكل هراوات طويلة، موشورية، مُستدقّة تميل للالتصاق بأسفل [892]الصدر؛ العنقاء التي تُنذر بالشؤم هذه ذات الجمجمة المُخيفة كانت تتسبّب بالكثير من الذعر للقرويين، في الأوقات التي تظهر فيها، من خلال صرخة الحزن التي تُطلقها، ومن شعار الموت الذي على خصرها».

هُنا أغلق الكتاب وانحنى إلى الأمام على الكرسي، واتّخذ وضعاً شبيهاً تماماً للوضع الذي كنت عليه في اللحظة التي رأيت فيها الوحش.

«آهاً، ها هو ذا»، صاح حالاً.. «إنّه يعود إلى تسلّق سفح التل، يا له من مخلوق رائع، أعترف بهذا.. ومع ذلك، فهو ليس ضخماً أو بعيداً كما تتخيّل.. فالحقيقة أنّه وهو يسلك طريقه على هذا الخيط الذي نسجه العنكبوت على مشبك النافذة، وجدت أقصى ما يصل إليه طوله حوالي ستة عشر جُزءاً من البوصة، ويبعد حوالى ستة عشر جُزءاً من البوصة عن بؤبؤ عيني».

جنة أرنهايم[1]

[893]الحديقة تغفو كأنها غادة حسناء،

أو وردة في نشوة أحلامها،

ترنو إلى السماوات المفتوحة وتُغلق عينيها،

والحقول اللازوردية للجنة تُشبهها حقّاً،

في أرجائها الفسيحة، تتناثر زهور من الضوء.

السوسن، ووميض قطرات الندى،

تتدلّى على أوراقها اللازوردية،

كأنّها نجوم ترمش في أمسية زرقاء.

غايلز فليتشر[2]

من المهدِ إلى اللّحد كان صديقي أليسونِ يعيش في بحبوحة من الترف. ولا أستعمل كلمة الترف هُنا بمعناها الدنيوي فحسب، إنّني أقصد استعمالها كمرادفٍ للسعادة الروحية. الشخص الذي أتكلّم عنه يبدو أنّه قد ولد من أجل هدفٍ واحد وهو أن يُجسد أصدق تجسيد أفكار تورغوت، وبرايس، وبريستلي، وكوندورسيه.. أن يكون نموذجاً فردياً لما قُدّر عليه أن يكون من أوهام التكامليين.

---

(1) أرنهايم هو اسم الموطن الأسطوري لبطلة رواية سر والتر سكوت (آن غيرشتاين)، 1829، التي تمتهن عائلتها أعمال السحر والشعوذة. [المترجم]

(2) من قصيدة فليتشر بعنوان (انتصار المسيح على الأرض)، 1610. [المترجم]

خلال الفترة القصيرة التي قضاها أليسون على هذه الأرض أتصوّر أنّني رأيته دائماً وأبداً يدحض فكرة أنّ في طبيعة الإنسان ذاته يكْمن ما يتناقض مع مبدأ السعادة. في تفحّصٍ دقيق لسيرته يتّضح أنّ تعاسة البشر تتحقّق من خلال انتهاكهم لبعض القوانين البسيطة للحياة الإنسانية.. وإنّنا كنوعٍ من المخلوقات نمتلك حتى الآن مقومات غير ناضجة للقناعة والرضا لم تُمارس دورها بعد.. وحتى الآن، رغم جيوش الظلام والجنون التي تكتنف كل رأيٍ سديد عن المشكلة الأزلية للوضع الاجتماعي، ليس من المُستحيل على الإنسان، في ظروفٍ مؤاتية من الحظ، أن يعيش سعيداً.

بمثل هذه الأفكار المثالية كان يؤمن صديقي الشاب إيماناً قاطعاً، ولهذا فإنّ [894] أمره يستحق النظر، بحيث إنّ لذة السعادة الدائمة التي ميّزت حياته جاءت، إلى درجة كبيرة، نتيجة منهج صارم سبق أن حدّده لنفسه. من الواضح في الواقع أنّ وراء ذلك شيئاً من الفلسفة الغريزية التي تغني، من وقتٍ إلى آخر، عن مُعاناة التجارب المريرة. ومع ذلك كان السيد أليسون يرى نفسه يُقذف في طيشٍ، من خلال النجاح الاستثنائي الذي عرفه في حياته، إلى دوامةٍ من التعاسة تفتح شدقيها للموهوبين. لكن ليس في نيتي أن أكتب هُنا مقالاً عن السعادة. الأفكار التي كانت تُراود ذهن صديقي ربّما يُمكن تلخيصها بكلماتٍ مُختصرة. كان يعترف فقط بأربعة مبادئ أساسية، أو بالأحرى، شروط للسعادة. المبدأ الذي يعتبره من أهمها (كم يبدو هذا غريباً!) بسيط ومادي في طبيعته ويتمثّل في مُمارسة الرياضة يومياً في الهواء الطلق. «الصحة»، قال، «يُمكن أن تتحقّق بوسائل أُخرى نادراً ما تستحق النظر». وذكر مثالاً عن صيادي الثعالب، وأشار إلى فلاحي الأرض، هؤلاء الناس وحدهم، كطبقة مُميّزة عن غيرهم، يُمكن حقّاً اعتبارهم أكثر سعادة من الآخرين. والشرط الثاني الذي ذكره هو عشق النساء. والثالث، والأكثر صعوبة في أن يفهم، احتقارُ الطموح. والرابع هو السعي والمثابرة دون توقف؛ وكان يؤكد على، إذا بقيت الأشياء الأُخرى ثابتة، أنّ مدى ما يتحقّق من السعادة يجب أن يتناسب مع روحانية هذا الهدف.

كان أليسون معروفاً بكثرة النِّعم والهبات التي أغدقتها عليه الحياة باستمرار لحسن حظه. من جهة سماحة النّفس وجمال الشخصية كان يبزّ الرجال طرّاً. عقله يتبع نظاماً يرى أنّ اكتساب المعرفة يتحقّق بأقل جهدٍ للبديهة. وعائلته من أشهر عائلات الإمبراطورية. وعروسه من أجمل وأرقّ النساء وأكثرهن إخلاصاً. أما

مُمتلكاته فلا حدود لها؛ لكن في طريقة حصوله على تلك الثروة، اكتشف أنّ ألاعيب القدر مارست دورها بدلاً عنه بشكل أثار ذهول الناس الذين سمعوا بالأمر، وغيّرت جذرياً أفكارهم ومزاجهم الأخلاقي.

حدث قبل ما يقرب من مائة سنة من بلوغ السيد أليسون سن النضج، أن مات في منطقة نائية رجلٌ يُدعى السيد سيبرايت أليسون. هذا الرجل كان قد جمع ثروة طائلة، وبما أنّه لا أقرباء له، فقد ابتكر خُطة لجعل ثروته تتراكم وتتضاعف لمدة قرنٍ بعد موته. لقد قام بحرصٍ شديد وحكمةٍ نادرة بالاشتراك في جميع أنواع الاستثمارات، وأوصى أن تنتقل أمواله المُتراكمة إلى أقرب الناس إليه في النسب، والذي يحمل اسم أليسون، يكون حيّاً مع نهاية القرن. وبُذلت كثيرٌ من المُحاولات [895]للتملّص من هذا الشرط الغريب؛ وكانت تلك المُحاولات تعتمد على بطلان الأثر الرجعي للقانون ممّا جعلها تفشل؛ لكن الأمر دفع الحكومة، التي كانت تطمع بالثروة، إلى تشريع قانونٍ جديد يمنع أي نوعٍ مُماثل من تراكم الثروة. إلّا أنّ القانون لم يحرم الشاب أليسون من الحصول على الثروة في نهاية الأمر، إذا وصل إلى سن الحادية والعشرين، بصفته وريثاً شرعياً وحيداً لجده سيبرايت، تلك الثروة التي كانت تُقدّر بأربعمائة وخمسين مليون دولار(*).

فلما صار معروفاً للقاصي والداني أنّ الشاب المحظوظ ورث هذه الثروة الطائلة، أُثيرت طبعاً الكثير من التساؤلات عن كيفية صرفها. كانت ضخامة

(*) هُناك حادثة مُماثلة في خطوطها العامة للحادثة التي نتصوّرها هُنا، وقعت في إنكلترا منذ زمنٍ ليس بالبعيد. كان اسم الوريث المحظوظ «ثيلوسون». أول مرة رأيت فيها كتابات عن هذه المسألة في (رحلة الأمير بوكلر موسكاو)، الذي ذكر أنّ مبلغ الميراث كان تسعين مليون باون، ولاحظ بما لا يقبل الشك أن مُجرّد «التأمل في هذا المبلغ الكبير جدّاً، والمجالات التي يُمكن أن يُنفق فيها، لا بُد أنّ يُحقّق السمو والرفعة لصاحبه». بغية التحقق من وجهات النظر التي وردت في هذا المقال تتبّعت جيداً ما قاله الأمير، مع أنّها لا تخلو من مُبالغة.. فاكتشفت أنّ ما يعتري المقال الحالي من نقصٍ في الواقع منذ المُستهل يعود إلى أنّه قد نُشر منذ سنوات طويلة.. قبل العدد الأول من المجلّة الرائعة التي يُصدرها سو (الملاح التائه)، وربّما خطرت له الفكرة اعتماداً على مقال موسكاو. (المؤلف)

وسهولة الحصول على المبلغ تُربك جميع من فكّر في الأمر. ربّما تخيّل الناس أنّ من يملك هذا المبلغ الهائل سوف يفعل ألف شيءٍ وشيء. بهذه الثروة التي تفوق ما يملكه أي مواطن، من السهولة أن يفترض الناس أنّه سوف ينغمس في مظاهر الترف والملذات الشائعة في زمانه.. أو يشغل نفسه بمسائل سياسية.. أو يطمح إلى مناصب وزارية، أو يحصل على ألقاب النبالة.. أو يجمع بعض اللوحات والتّحف الفنية التي لا تُقدّر بثمن من المتاحف الراقية.. أو يُمارس دوراً في الأوساط الأدبية، أو العلمية، أو الفنية.. أو يمنح اسمه لمؤسسات خيرية مُختلفة. لكن بالقياس إلى الثروة الخيالية التي أصبحت مُلكاً للوريث الشاب، فكلّ هذه الأشياء وأشياء عادية أُخرى في مجالات الإنفاق ربّما كانت تمنح مجالاً محدوداً للمتعة الشخصية وتكفي للإرباك ليس إلّا. ورأى الناس، حتى إذا أخذنا نسبة ثلاثة بالمائة من العائدات السنوية للثروة، فالدخل السنوي للإرث لن يقل عن ثلاثة عشر مليون وخمسمائة ألف دولار؛ أي: مليون ومائة وخمسة وعشرون ألف دولار كل شهر؛ أي: أنّه ستة وثلاثون ألف وتسعمائة وستة وثمانون دولاراً كل يوم؛ أي: ألف وخمسمائة وواحد وأربعون دولاراً كل ساعة؛ أي: ستة وعشرون دولاراً في كل دقيقة تمضي. وهكذا فالمسار الاعتيادي للافتراض يتجاوز كل التوقعات. لم يعرف الناس ماذا يُمكنهم [896]التفكير فيه. هُناك البعض منهم تصوروا أيضاً أنّ السيد أليسون سوف يتخلّى عن نصف ثروته على الأقل، وهو مبلغٌ حتماً يفيض عن حاجته.. ومن شأنه أن يجعل جيشاً كاملاً من أقاربه أغنياءَ بعد أن يُوزّع عليهم تلك الوفرة. وقد فعل الرجل هذا في الواقع مع أقرب الناس إليه، إذ تخلّى عن الثروة الكبيرة التي كان يملكها قبل أن يحصل على الميراث.

لكنّي لم أستغرب حقّاً حين عرفت أنّه منذ مدة طويلة توصّل إلى قرار حول مسألة كانت تُثير الكثير من الجدل بين أصدقائه. كذلك لم أندهش من طبيعة قراره. فيما يتعلّق بأعمال الخير الفردية فقد أرضى ضميره حقّاً. أمّا احتمال أن يقوم بشيء للإنسانية جمعاء، فلم يكن يؤمن (أنا آسف للاعتراف) بذلك إلّا قليلاً. على كل حال، سواءً كان الرجل سعيداً أو تعيساً، فقد بدأ الآن ينطوي على نفسه.

من حيث المعنى الواسع للكلمة ونبل المشاعر، يُمكن القول: إن أليسون

كان شاعراً. فضلاً عن هذا كان يستوعب في شخصيته الحقيقية الأهداف النبيلة، والفخامة الفائقة وكرامة الإحساس الشعري. كان يشعر غريزياً أنّ الاستجابة التامة، إن لم تكن وحدها الصائبة لهذه العاطفة تكْمن في ابتكار صورٍ جديدة للجمال. بعض المُلابسات الغريبة، سواءً في تعليمه المُبكر، أو في طبيعة أفكاره، كان يشوبها ما يصطلح عليه بالنزعة المادية التي اختلطت بتوجّساته الأخلاقية؛ هذا الشطط ربّما قاده للاعتقاد أنّ الميدان الوحيد الذي من شأنه أن يحقق المتعة من الممارسة الشعرية على الأقل، يكمن في خلق أنماطٍ جديدة من الجمال الطبيعي النقي. لهذا لم يصبح موسيقاراً أو حتى شاعراً.. إذا استخدمنا المُصطلح الأخير في المجال الذي يُستخدم فيه اليوم. ربما حدث أن أهمل أي شيء من ذلك، لمُجرّد أنّه أراد تطبيق فكرته في أنّ احتقار الطموح لا بُدّ أن يكون أحد المبادئ الأساسية للسعادة على الأرض. أليس من المُمكن حقّاً، في الوقت الذي تكون فيه العبقرية الخارقة طموحاً بالضرورة، أن لا يكون من المُستحيل تصوّر نوعٍ من العبقرية فوق مُستوى الطموح؟ ألا يحدث أيضاً أنّ الكثير من الأشخاص غير ملتون ظلوا مُقتنعين بالبقاء «صامتين ومغمورين؟» أعتقد أنّ العالم لم يسبق أن رأى.. إلا من خلال سلسلة من الحوادث التي تنخس أرقى أنظمة العقل وتدفعها إلى عناءٍ مُثير للاشمئزاز، وأن العالم لن يرى أبداً.. ذلك المُستوى المثالي من تطبيق نظريات الجمال، في مجالات الفن الأكثر ثراءً، التي تكون الطبيعة البشرية قادرة عليها.

لم يُصبح أليسون موسيقاراً ولا شاعراً؛ رغم أنّه ما من إنسان عاش مثله مُتيماً بعمق بالموسيقى والشعر. في ظروفٍ أُخرى غير الظروف التي أحاطت به، [897]لم لكن من المُستحيل أن يُصبح رساماً مثلاً. أما النحت، على الرغم أنّه في طبيعته مُمارسة شعرية بامتياز فكان يعتبره محدود النطاق في مداه ونتائجه، لأن يشغل اهتمامه في أي وقت. لقد ذكرت الآن كل المجالات التي يمكن أن يهتم بها عادة كل من يمتلك الوجدان الشعري من خلال خبرة العارفين في هذا المجال. غير أن أليسون كان يُصرّ على أنّ المجال الأكثر ثراءً، والأكثر صدقاً، والأكثر عفوية، إن لم يكن دائماً الأكثر عمقاً، قد تعرّض للإهمال بلا مُبرّر. لم

يتطرق احد من قبل لما يقوم به بستاني الحدائق من عملٍ لا يكاد يختلف عن كتابة الشعر؛ يبدو أنّ صديقي كان يؤمن بأن عملية الإبداع لدى البستاني توفّر لربة الإلهام ما لا يُمكن للعقل تصوّره من الفرص الرائعة. هُنا، في الواقع، يتجلى أجملُ ميدان لاستعراض الخيال ضمن أشكال لا تنتهي من الجمال المُتجدّد؛ العناصر تتداخل في كيان مُترابط، في تفوّق شاسع النطاق، أكثر الأشياء بهاءً التي يُمكن للأرض أن توفّرها. من خلال الأشكال التي لا تنتهي للأزهار والأشجار وألوانها المُتعدّدة، نتعرّف على الجهود المُباشرة للطبيعة في حيويتها، وفي جمالها المادي. وفي اتّجاه وتركيز هذا الجهد الفني.. أو على نحو أكثر دقة، في ملائمته للعيون التي ترنو إلى الأرض الخضراء.. كان يتصوّر أنّ عليه أن يستخدم أفضل الوسائل.. وأن يبذل أقصى ما يستطيع من إخلاص.. في سبيل تحقيق، ليس مجده الشخصي كشاعر فحسب، وإنما أن يصل إلى أسمى الغايات التي من أجلها غرست العناية الإلهية موهبة الشعر في كيانه الإنساني.

«في ملائمته للعيون التي ترنو إلى الأرض الخضراء». في تفسيره لهذه الصياغة اللفظية، كان السيد أليسون يبذل ما في وسعه باتّجاه حلّ ما كان يبدو لي شخصياً معضلة مُستعصية دائماً: أقصد حقيقة (لا يُجادل فيها غير الجاهلين) أنّ الترابط بين مشهدٍ من المشاهد الخلابة في الطبيعة وآخر في غير الطبيعة لا يتحقّق كما يتحقق على يد رسامٍ عبقري. لا يُمكن إيجاد مثل هذه الجنان في الواقع مثل تلك التي تزدان بها لوحات القنب التي أبدعتها ريشة كلود. ضمن أكثر المناظر الطبيعية سحراً، دائماً ما يكتشف المرء نقصاً أو مُبالغة.. الكثير من المُبالغة والنقص. بينما المكونات ربّما تتحدّى على انفراد أعلى درجات مهارة الفنان، فترتيبات هذه المكونات تخضع دائماً للتعديل. باختصار، لا توجد بقعة على سطح الأرض الشاسع والطبيعة الغناء، إذا نظرنا إليها نظرة ثاقبة، لن تُشكّل موضوعاً للإساءة فيما يُسمّى «توليفة» المنظر. ومع ذلك فكم هو غامض هذا الأمر! في كل الأمور الأُخرى تعلّمنا أن ننظر إلى الطبيعة على أنّها سامية لا تقبل التدنيس. فيما يتعلّق بتفاصيلها نحن [898]نحجم عن مُنافستها. سوف نفترض أنّنا نُحاول مُحاكاة ألوان الخُزامى، أو أن نعدّل النسبة والتناسب لزنابق الوادي؟

الناقد الذي يقول، عن النحت أو الرسم، إنّ الطبيعة هُنا تبلغ مُستوى المجد أو الكمال فلا مجال لمُحاكاتها، يقع في الخطأ. لا تفعل مجاميع من الخطوط والمُنحنيات في الرسم أو النحت للتعبير عن الجمال الإنساني أكثر من الاقتراب إلى الجمال الحي الذي يتنفّس. في الطبيعة وحدها يكون مبدأ النقد صحيحاً؛ بعد أن كان يحسّ بحقيقته هُنا، فإنّ روح التهور في التعميم وحدها هي التي قادته إلى اعتبار الأمر حقيقياً أيضاً في مجالات الفن. أقول بعد أن أحس بحقيقته هُنا؛ لأنّ ذلك الإحساس ليس مُصطنعاً أو خيالياً. لا تُقدّم الرياضيات مثلاً غير أدلة مُطلقة أكثر عمومية من انفعالات الفنان التي يستخلصها من فنّه. إنّه لا يؤمن فحسب، بل يعرف مؤكداً، أنّ هذا الشيء أو ذاك من التنسيق الاعتباطي الواضح للمادة يشكّل بطريقة أو بأُخرى الجمال الحقيقي. إلّا أنّ مساراته العقلية يبدو أنّها لم تنضج بعد حتى تبلغ مرحلة القدرة التامة على التعبير. الأمر يتطلّب تحليلاً أكثر عمقاً ممّا هو مُتوفّر في العالم الآن، تحليلاً قادراً على التقصّي عن تلك الأسرار والتعبير عنها. ولكنه كان مُقتنعاً بآرائه الفطرية يؤيده في ذلك سائر أصحابه في هذا المجال. لتكن التوليفة قاصرة؛ ربّما يُصاغ التعديل شكلياً فحسب؛ ليخضع هذا التعديل لإرادة أي فنانٍ في هذا العالم؛ فكل إرادة سوف تعترف بضرورة ذلك. والأكثر من هذا.. في مُعالجة تركيبية قاصرة، كل فرد مستقل من أفراد هذه الأخوية لا بُدّ أن يطرح التعديل المُماثل.

أعود فأقول، في تشكيلات المنظر الطبيعي وحده تكْمن الطبيعة المحسوسة مادياً للتعديل، لهذا فإنّ إمكانية إدخال تعديلات على المنظر في هذه المرحلة كانت من الأسرار التي عجزتُ عن حلّها. أفكاري في هذا الشأن تعتمد على أنّ الهدف البدائي للطبيعة جعل سطح الأرض المُنسّق بهذه الطريقة يُحقّق كل ما يحس به الإنسان فيما يتعلّق بالجمال المثالي، أو الحالة السامية، أو ما تثيره في النفس من صور ذهنية؛ لكن الهدف البدائي أُحبط بسبب التقلّبات الجيولوجية التي حصلت عبر التاريخ.. تقلبات واضطرابات في الشكل واللون.. تتجمّع شيئاً فشيئاً، وفي تعديلاتها أو تهدئة اضطرابها تكْمن روح الفن. لكن قوة هذه الفكرة ضعفت كثيراً من خلال الضرورة التي تضمّنتها في تأمل التقلّبات الشاذة التي لا

تتكيف مع أي هدف. كان أليسون هو الذي اقترح أنّ ذلك نذير شؤم بالموت. وفسّر الأمر على النحو الآتي: «..علينا الاعتراف بأنّ الخلود الدنيوي للإنسان كان الهدف الأسمى. ثم لدينا التنسيق البدائي لطبيعة سطح الأرض بما يتلاءم مع حالته السعيدة، ليس موجوداً وإنّما [899]مُصمماً لغاية. والتقلبات التي تحصل ما هي إلا تحضيرات لحالة الموت المُتخيّلة لاحقاً».

«والآن»، قال صديقي، «ما نعتبره مجداً في الطبيعة ربّما يكون كذلك، فقط من منظور أخلاقي أو إنساني. كل تغيير في المشهد الطبيعي ربّما يخلق عيباً يُضاف إلى الصورة، إذا استطعنا افتراض أنّ هذه الصورة يُنظر إليها أخيراً.. بكل تفاصيلها.. من نقطةٍ بعيدة جداً عن سطح الأرض، مع أنّها لا تقع خارج نطاق غلافها الجوي. من السهولة أن يُدرك الإنسان أنّ ما يحسّ به بإزاء أي جُزيئة دقيقة من المنظر الذي يُثير الإعجاب، ربّما يكون له في الوقت نفسه تأثيرٌ سلبي شامل يُدرك من مكانٍ بعيد. ربما يكون هُناك صنفٌ من الكائنات، كانت من البشر ذات مرة، لكنّها الآن لم تعُد مرئية بالنسبة إلينا من مسافة بعيدة، ربّما تبدو الفوضى التي نعيش فيها بمثابة نظام.. ويبدو القبح جمالاً؛ باختصار أولئك هم ملائكة الأرض، لأنّ دقة مُلاحظتهم تكون أكبر بالقياس إلينا خاصة، وتقييم هؤلاء للجمال المُتجرّد من ظلال الفناء ربما كان خاضعاً لنظام من صنع الخالق الذي يُهيمن على هذه الجنان الفسيحة للأرض والسماوات».

في سياق حديثنا، اقتبس صديقي بعض المقطوعات من أحد الكتب عن تنسيق الحدائق يفترض أنّه عالج الموضوع مُعالجة جيدة:

«ليس هُناك غير طريقتين لتنسيق الحدائق، الطريقة الطبيعية والأُخرى المُصَطنعة. يسعى الإنسان إلى استعادة الجمال الأصيل للأرياف، من خلال تكييف وسائله لتتلاءم مع المشهد المُحيط بها، ويُشذّب الأشجار بما يتناغم مع التلال أو السهول في الأراضي المجاورة؛ وبهذا يبحث ويوظف ضمن مجالات عمله تلك العلاقة الرائعة من حيث الحجم، والتناسق، والألوان، التي تختفي عن نظر المُراقب العادي، فهي تتكشّف في كلّ مكان للباحث المُتمرس عن جمال الطبيعة. والنتيجة التي تتمخّض عن الأسلوب الطبيعي لتنسيق الحدائق

يُمكن رؤيتها بالأحرى من اختفاء أي نوعٍ من النقص والتنافر.. وفي هيمنة تناغمٍ حيوي وسيادة الانتظام.. أو بالأحرى في ابتكار نوع من الأعاجيب الخاصة أو المُعجزات. أما الأسلوب المُصطنع فيختلف في كثير من جوانبه بحسب الأذواق المختلفة التي تستجيب إليه وتُقيّمه. لهذا الأسلوب علاقة عامة بالأساليب المُتنوعة للعمارة. هُناك مثلاً ممراتٌ فخمة وفسحات للجلوس والاستراحة في حدائق قصر فرساي؛ وهناك المصاطب الإيطالية؛ وهُناك الأسلوب الإنكليزي القديم الذي هو مزيجٌ من أساليب شتى، والذي يتضمّن نوعاً من العلاقة مع أساليب العمارة القوطية المحلّية أو الإليزابيثية الإنكليزية. أي شيء ربّما يُقال عن طرق الإساءة في تنسيق الحدائق اصطناعياً، فإنّ مزيح من نقاء الفن في مشهد الحديقة لا بُدّ أن يُضيف إليها قدراً عظيماً من الجمال. هذا المشهد يوفّر متعة للناظرين، في استعراض مظاهر النظام وحُسن التنسيق من ناحية، والإيحاء الأخلاقي من ناحية أُخرى. أي مصطبة ذات درابزونٍ قديم تُغطّيه الطحالب تستدعي إلى العين فوراً الأشكال الجميلة التي سبق أن مرّت من هُناك في الأيام الخوالي. أي استعراض طفيف للفن دليل واضح على مدى العناية [900]والاهتمام من جانب البشر».

«من خلال ما لاحظته مؤخراً»، قال أليسون، «سوف تفهم أنّني أرفض الفكرة التي نُعبّر عنها هُنا والتي تتمثّل في استعادة الجمال الأصيل للأرياف. الجمال الأصيل لن يكون على الإطلاق عظيماً مثل الجمال الذي ربّما نأتي به من الخارج ونُضيفه قسراً. بطبيعة الحال، كل شيء يعتمد على اختيار بقعة ذات خصوصيات مُميّزة. الأشياء التي تُقال عن اكتشاف وتطبيق علاقات جميلة في الحجم، والنسبة، واللون، هي من غموض الكلام الذي يُفيد في تلافي عدم دقة الفكر. العبارة المُقتبسة ربّما تعني أي شيء، أو لا شيء، ولا تُرشدنا إلى أي شيء. أن تكون النتيجة الحقيقية للأسلوب الطبيعي في تنسيق الحدائق قابلة للرؤية من خلال غياب كل العيوب والمُتنافرات بدلاً من أن يكون ذلك في خلق أعاجيب أو معجزات خاصة، هو افتراض مُناسب أكثر لطريقة استيعاب قطيعٍ من الهمجيين بدلاً من تجسيد الأحلام المُتقدة للإنسان العبقري. الحقيقة أنّ الملاحظة السلبية التي تُطرح هُنا سببها ذلك النوع القاصر من النقد، الذي في مجال

الآداب يُمكن أن يرفع من شأن أليسون إلى الألوهية. في حقيقة الأمر، في الوقت الذي تتجلى فيه تلك الفضيلة في تجنّب الإساءة للذوق وتقترب مُباشرة من الفهم، ويُمكنها بهذا أن تُحدّد بقانون، فإنّ الفضيلة الأبعد عن الفهم، والتي تتجلى في عملية الخلق، يُمكن أن تفهم في نتائجها فقط. القانون لا يسري إلّا على مزايا سلبية.. على البراعة في الامتناع عن السلبيات. خارج نطاق هذه الأشياء، ليس على فن النقد إلّا الإيحاء. ربّما نتعلّم كيف نكتب نشيداً درامياً، ولكن من العبث أن يُعلمنا أحدٌ كيف نتصوّر بارثينون أو جحيم دانتي». لكن الشيء الذي نُريده ينجز؛ والمعجزة تتحقق؛ والقدرة على الفهم تكون شاملة. السفسطائيون الذين ينتمون إلى المدرسة السلبية، من خلال عجزهم عن الخلق، الآن ينالون أعلى أصوات التصفيق والاستحسان. الشيء الذي، في حالة شرنقة من المبدأ، يتحدّى تفكيرهم المُحتشم، لن يخفق، في مرحلة نضج الإنجاز، في انتزاع الإعجاب من غريزة عشق الجمال الكامنة فيهم.

«كانت مُلاحظات المؤلف عن الأسلوب المُصطنع»، تابع أليسون كلامه، «أقل إثارة للاعتراض. إنّ مزيج الفن النقي من الشوائب في مشهد الحديقة يُضيف إليهاً جمالاً على جمال. هذا شيءٌ حقيقي؛ وكذلك الإشارة إلى معنى الاهتمام البشري بالجمال. المبدأ الذي ربّما نُعبّر عنه هُنا غير قابل للجدل.. ولكن ربّما وجدت أشياءٌ أُخرى وراءه. ربما يكون ثمّة هدف من وراء الالتزام بالمبدأ.. هدف لا يتحقّق بوسائل يملكها الأفراد عادة، إلّا أنّها من الوسائل التي إذا توفّرت سوف تُضفي سحراً على حديقة طبيعية يفوق كثيراً ذلك الإحساس الذي يمنحه مُجرّد الاهتمام البشري. بما أنّ الشاعر يمتلك موارد استثنائية جدّاً، فهو ربّما، في الوقت الذي يحمل الفكرة [901]الضرورية للفن أو الثقافة، أو كما يُعبّر مؤلفنا عن الأمر، فكرة الاهتمام، أقول الشاعر يصوغ تصميماته مباشرة من آفاق الجمال المُبتكرة، بحيث ينقل الإحساس بالامتزاج الروحي. سوف نرى، من هذه النتيجة، أنّ الشاعر يُحقّق كل مزايا الاهتمام أو التصميم، بينما يُشذّب عمله من الخشونة أو من المُصطلحات الفنية للفن الدنيوي المُبتذل. في البراري والقفار الوعرة.. في مشاهد الطبيعة البكر الأكثر بدائية.. هُناك تتجلّى عبقرية الفنان

المُبدع؛ غير أنّ هذا الفن من الواضح أنّه مُجرّد انعكاس؛ فلا مجال أبداً لأن يكون له تأثيرٌ واضح على المشاعر. والآن دعنا نفترض أنّ هذا المعنى للإرادة الإلهية يُمثّل خطوة مكبوحة واحدة.. سوف تتحوّل إلى شيءٍ من قبيل التناغم أو التناسق مع مفهوم الفن البشري.. فتُشكّل وسطاً فاصلاً بين أمرين: دعنا نتخيّل، على سبيل المثال، منظراً طبيعياً يمتاز باتساع الرقعة ودقّة التفاصيل.. والجمال الموحّد، والروعة، والغرابة، سوف ينقل هذا المنظر فكرة الاهتمام، أو الثقافة، أو دقّة المُلاحظة، من جانب كائنات متفوّقة على البشر، لكنها مُشابهة لهم.. إذن فالإحساس بالاهتمام موجود، بينما الفن المُبتكر الذي نتكلّم عنه يُصاغ بحيث يكتسب طبيعة وسطية أو ثانوية.. طبيعة ليس لها علاقة بالخالق، ولا هي إلهامٌ من الخالق، لكنّها تبقى طبيعية بمعنى أنّها يُمكن أن تكون من صنع الملائكة التي تحوم بين الإنسان والخالق».

من خلال تكريس ثروته الطائلة لتجسيد رؤية كهذه مادياً.. في تجربةٍ حرّة في الهواء الطلق بعد أن طبّقها ضمن مُخطّطاته السابقة.. في ضوء الهدف الثابت الذي تكشف عنها.. في روحانيةٍ عالية من الحرص على الهدف.. في احتقار الطموح الذي أتاح له حقّاً أن يشعر.. في فصول الربيع الدائمة التي تبعث البهجة، دون أي احتمال لأن يتحقّق الإشباع، حدث أن داعبت خياله عاطفة سامية عظيمة الشأن، الظمأ للجمال، هي قبل وبعد كل شيء العاطفة نحو امرأة، تلك التي جمالها وحبها يُهيمنان على كيانه تحت الظلال الأرجوانية للفردوس، وكان اليسون يتصوّر أنّه سوف يجد، وقد وجد فعلاً، ما يُخلّصه من الاهتمامات الدنيوية للبشر، ويوفّر له سعادة حقيقية أكبر ممّا توحيه أحلام اليقظة الطروب.

أكاد أعجز أن أنقل إلى القارئ مفهوماً واضحاً عن الأعاجيب التي استطاع صديقي أن يُحققها. أودّ لو استطعت أن أصف ذلك، لكنّي أعجز بإزاء صعوبة الوصف، وأجد نفسي مُتردّداً بين التفصيل والتعميم. ولعل أفضل شيء أفعله أن أربط طرفي هاتين المعضلتين.

الخطوة الأولى التي قام بها السيد أليسون تأخذ بنظر الاعتبار طبعاً أفضلية المحلية، وما كاد يبدأ التفكير بهذه المسألة حتى جذبت انتباهه الطبيعة [902]

المُترفة لجزر المُحيط الهادئ. في حقيقة الأمر، لقد وطّد عزمه على القيام برحلة إلى البحار الجنوبية، حتى دفعه حافزٌ غامض للتخلّي عن الفكرة. «لو كنت كارهاً للبشر»، قال، «فهذا المكان سوف يُناسبني. إنّ عزلته المُطبقة، وصعوبة الدخول والخروج فيه، من شأنها في هذه الحال أن تجعله قدس الأقداس؛ لكنّي الآن لست تيمون[3]. إنّني أرغب في الهدوء وليس في ثقل العزلة. لا بُدّ أن يبقى في نفسي شيء من السيطرة على مديات الاستجمام والاستغراق في الراحة. ستكون هُناك ساعات أحتاج فيها إلى المشاعر الشعرية والتأملات فيما فعلته. لأسعى إذن إلى بقعة غير بعيدة عن مدينة آهلة بالناس.. فقُربها يُتيح لي أن أُنفذ مُخططاتي».

أثناء بحثه عن مكانٍ مُناسبٍ قريب، راح أليسون يتنقل من مكانٍ إلى مكان عدة سنوات، وسمح لي بمرافقته. ورفض اختيار آلاف الأماكن التي أعجبتني بلا تردّد، وكان ذلك لأسباب اقتنعتُ بها في نهاية الأمر، وقلت لنفسي إنّه كان على حقّ. ووصلنا في نهاية المطاف إلى هضبة ذات جمال نادر تمتاز بالخصوبة، منظرها بانورامي، ورأى أليسون، وكنت أتفق معه، أنّ منظرها يفوق جمال أي منظر من أعالي الجبال في جوانب الطبيعة الخلابة.

«إنني أُدرك»، قال صديقي الرحّالة، وكان يتنهد بعمقٍ بعد أن نظر ملياً إلى هذا المشهد، والبهجة واضحة عليه طوال ساعة، «أعرف، في الظرف الذي نحن فيه، أنّ تسعة أعشار الرجال الذين يصعب إرضاؤهم سوف يقتنعون بهذا المكان. هذه بانوراما مُدهشة حقّاً، سوف أستمتع بها لولا عنصر المُبالغة في مجدها. إنّ أذواق المعماريين جميعاً الذين سبق أن عرفتهم تقودهم، من أجل جمال «المنظر الطبيعي»، إلى تشييد أبنية على قمم التلال.. لكن الخطأ واضح. روعة المنظر لا بُدّ أن تُرضي أي مزاج، وخاصة عنصر الامتداد، شيء مذهل، مُثير للاهتمام.. لكنه سُرعان ما يبعث على الضجر والاكتئاب. بالنسبة إلى أي مشهدٍ عارض لا شيء أفضل.. أما المنظر الثابت، فما يُثير الاعتراض أكثر في روعة المنظر هو

---

(3) بعد أن كان يحس بمرارة الجحود، انطلق تيمون الأثيني في مسرحية شكسبير ليعيش وحده في أحد الكهوف. [المترجم]

ذلك الامتداد؛ وأسوأ ما فيه المسافات اللامتناهية. إنّها تتصارع مع الوجدان ومع الإحساس بالعزلة.. الوجدان والإحساس الذي نسعى في شيء من السخرية للتعويض عنه في «اللجوء إلى الأرياف». حين ننظر من قمة جبلٍ لا يُمكننا تجنّب الشعور بأنّنا ابتعدنا عن العالم. من يشعر بالمرض في قلبه يتجنّب المناظر البعيدة كأنما هي طاعون».

لم يحصل إلا بعد انقضاء السنّة الرابعة على رحلة بحثنا أن وجدنا مكاناً توقع [903]أليسون أنّه يُرضي ذوقه. وبطبيعة الحال لا حاجة لذكر موقع ذلك المكان. ولكن الحادث المُفاجئ الذي مات فيه صديقي جعل المكان الذي كان يعيش فيه مفتوحاً لطبقاتٍ مُعينة من الزائرين، وأضفى على أرنهايم نوعاً غامضاً من الأسرار، وشهرة خافتة لا تخلو من الوقار، شبيهة في نوعها، مع أنها مُتفوقة بلا حدود، للشهرة التي امتازت بها طويلاً فونتهل[4].

عندما تقترب من أرنهايم عليك أن تعبر نهراً. الزائر لهذا المكان يترك المدينة في الصباح الباكر. وفي أثناء الظهيرة يَعْبر السواحل التي تحفّ بها السكينة وجمال المكان، عليها ترعى خرافٌ لا تُعد ولا تُحصى، البقع البيضاء لأصوافها تُرقط المروج الخضراء وسفوح التلال. وشيئاً فشيئاً تخمد فكرة الاحتشام وتتحوّل إلى اهتماماتٍ رعوية. يختلط هذا ببطء في إحساس بالراحة.. ومرة أُخرى يختلط في وعي العزلة. فإذا اقترب المساء، تضيق القناة أكثر، والضفاف تُصبح شديدة الانحدار؛ وهذه الضفاف تتغطّى بدثارٍ كثيف من أوراق النباتات المعتمة. وتزداد شفافية المياه. ويسلك الجدول آلاف التعرجات، فما من لحظةٍ يُرى فيها سطحه المُتألق بالضوء لمسافة أكثر من نصف ميل. في كل لحظة يبدو القارب مُكبّلاً بدوامةٍ من السحر، تُحيط به جدرانٌ لا تُقهر، ولا تخترق من أوراق الشجر، وسقفٌ من حرير لازوردي، لا يُرى له قاع.. ويتوازن سطح القارب في دقة عجيبة على سطحٍ وهمي من لحاء الشجر الذي بفعل حادثةٍ ما يبدو مقلوباً رأساً على

(4) دير فونتهل في ولتشاير يُعتبر مثالاً رائعاً للعمارة القوطية الرومانسية بُني سنة 1790 وليم بيكفورد. [المترجم]

عقب، ويطفو في رفقة مُستمرّة مع السطح الثابت من أجل الإبقاء عليه مُستقرّاً. القناة الآن تُصبح مثل حلقومٍ ضيق.. مع أنّ المُصطلح لا يُصلح هُنا، لكنّي أستخدمه لأنّ اللّغة تفتقر إلى كلمة أفضل تُعبّر عن صفة مُذهلة.. وليس صفة مُحدّدة للمشهد. طبيعة ذلك المضيق تتلمّسها في ارتفاع وتوازي السواحل؛ طبيعته تضيع كلياً في صفاته الأُخرى. وجدرانُ الوادي الضيّق (يعبر منها الماء الصافي في سكينةٍ دائمة) يصل ارتفاعها إلى مائة، وأحياناً إلى مائة وخمسين قدماً، وينحدر بعضها بحدة باتّجاه البعض الآخر، بأقصى درجات الانحدار، حتى يختفي ضوءُ النهار؛ والطحالب طويلة كأنّها ريش تتدلّى بكثافة من شجيراتٍ مُتشابكة فوق الرؤوس تُعطي ذلك المنظر السحري بأسره مسحة من الكآبة الجنائزية. وتُصبح الالتفافات أكثر تعقيداً، وتنتشر كأنما تعود فترتد على أعقابها، بحيث يفقد الزائر أي فكرة عن الاتجاه الذي [904]كان يسلكه. فضلاً عن هذا، يُحاط بإحساسٍ عجيب من الغربة. وتبقى فكرة غامضة عن الطبيعة، يبدو أنّها تخضع للتعديل، فثمة نوع غريب من التطابق، من عدم الانتظام الرهيب، خاصية سحرية في أعمالها هذه. ما من غصنٍ ميت.. ما من ورقةٍ ذابلة.. ما من حصاة ضالّة.. ما من بقعةٍ من الأرض السمراء تراها في أي مكان. المياه الكريستالية تتدفّق وترتطم بالغرانيت الصقيل، أو بالطحالب الخضراء التي لا تشوبها شائبة، في حدّةٍ واتّساق، في بهجة تربك العيون.

بعد أن وطأت العتمة متاهات هذا الجدول طوال ساعات، راحتْ تزداد عتمة مع كل لحظة، وحدث أن واجه القارب مُنعطفاً حادّاً غير مُتوقّع، كأنّه سقط فجأة من السماء، فاستقرّ في حوضٍ دائري شاسع الأبعاد بالقياس إلى عرض الحلِقوم. قطر الحوض حوالى مائتي ياردة وتطوّقه من كل جانبٍ باستثناء جانب واحد.. مواجهٍ للقارب الذي كان يقترب منه رويداً.. تلالٌ مُماثلة في ارتفاعها لجُدران الهاوية مع أنّها مُختلفة تماماً في طبيعتها. كانت جوانب الجدران تنحدر عن حافة المياه في زاوية تصل إلى خمسٍ وأربعين درجة، وهي مُغطّاة من قواعدها إلى قممها.. دون أن تُستثنى من ذلك نقطة مرئية واحدة.. بغطاء من الأزهار المُتفتحة الرائعة الجمال؛ فلا تكاد ترى ورقة خضراء وسط ذلك البحر

المُتلاطم من الألوان والروائح العبقة المُتلألئة. هذا الحوض عميق الغور جدّاً، لكن مياهه شفافة إلى درجة أن القاع يبدو أنّه يتألف من كتلةٍ سميكة من حصوات صغيرة مُدورة من المرمر، تراها بوضوح في لمحاتٍ سريعة.. بمعنى آخر، ما استطاعت العين الرؤية، إلى مسافةٍ بعيدة عن الجنة المقلوبة.. رؤية الاخضرار المُضاعف للتلال. على هذه التلال لا وجود للأشجار، ولا شجيرات من أي نوع. الانطباعات التي يتركها المنظر لدى الناظر تتلخّص في الثراء، والدفء، والألوان، والسكينة، والتناسق، وإثارة الشهوات البريئة، ونطاق عجيب من الثقافة التي توحي بالأحلام عن عنصرٍ من الجن.. مُجهدون، ذوي إحساس مرهف، يثيرون الرهبة، نزقون؛ وبينما العين تتعقب مُتّجهة إلى أعلى المنحدر المزين بآلاف الألوان، ابتداءً من ارتباطه الحاد مع المياه حتى توقفه في مكانٍ غامض وسط طيات السحاب المتعلق فوق الرؤوس، فمن الصعوبة أن لا يتخيّل المرء وجود شلالٍ بانورامي من الياقوت، والمرجان، والعقيق اليماني الذهبي، تتدحرج مياهه في صمتٍ وتتساقط من السماء.

يقتحم الزائر فجأة هذا الخليج خارجاً من عتمة الوادي، فيحسّ بالبهجة والانتعاش مع أنّه مندهش من الطوق الكامل الذي سلكته الشمس الغاربة، ويفترض أنّها غرقت الآن تحت الأفق، لكنها تواجهه مُباشرة، وتشكّل النهاية الوحيدة للمنظر [905]اللامتناهي الذي يتجلّى في مُنحدر صخري آخر كأنّه غورٌ سحيق.

لكن الرحّالة يترك القارب الذي حمله إلى هذا المكان البعيد، وينزل إلى زورق خفيف بمجذاف من العاج؛ الزورق مُزخرف بنقوش عربية قرمزية جذّابة، من الداخل والخارج. يرتفع طرفا الزورق من الأمام والخلف خارج المياه، وينتهيان بحافّتين مدبّبتين، بحيث يكون الشكل العام للزورق مثل هلالٍ غير مُنتظم يستقرّ على سطح الخليج في شموخ البجع. على قاعه المبطن بالفرو يستقرّ مجذاف واحد مُغطّى بالريش من خشب صقيل؛ لا يرى عليه من يجذف أو أي شخص آخر. يُطلب من الضيف أن يسترخي.. فالأقدار هي التي تتولّى أمره. ثمّ يختفي القارب الكبير، ويُترك الضيف وحده في الزورق الذي يطفو فيما يبدو بلا

حركة وسط البحيرة. وبينما كان يُفكر فيما يحدث، يتلمّس حركة طفيفة في البُحيرة الجبلية المسحورة. وتبدأ البُحيرة تدور وتدور ببطء كالمغزل حول نفسها حتى تتجه مُقدمة القارب باتّجاه الشمس. ويتقدّم بسرعة رخوة وتتسارع حركته تدريجياً، بينما تتكسر التموّجات الطفيفة التي يُثيرها على الضفاف العاجية فتُرسل أقدس الألحان.. يبدو أنّها تُعطي التفسير الوحيد لتلك الموسيقى الحزينة المجهولة التي كان الرحالة الضائع يبحث عن مصدرها بلا جدوى.

ويتقدّم القارب بثبات مُقترباً من البوابة الصخرية بحيث يرى أعماقها أكثر وضوحاً. إلى اليمين تنهض سلسلة من التلال الشاهقة المُرقّطة بغابات مُتشابكة كثيفة. لكن يُلاحظ الناظر أن مسحة الأناقة الغريبة للمكان الذي تغطس فيه الضفاف بالنهر لا تزال سائدة. لم تكن ثمّة علامة على وجود أي أنقاض اعتيادية قرب النهر. والى اليسار تبدو طبيعة المشهد أكثر رقّة، إنّها مُصطنعة، لا شكّ في ذلك. هُنا تنحدر الضفة بعيداً عن الجدول في صعود سلس، ويتشكّل مرجٌ واسع من العشب لا يُشبه في نسيجه شيئاً آخر غير قطيفة مخملية، يلمع بالاخضرار مثل أنقى أنواع الزّمرد. يتباين هذا النجد في اتّساعه من ألفٍ إلى ثلاثمائة ياردة؛ يمتد من ضفة النهر إلى جدارٍ يرتفع إلى خمسين قدماً في مُنحنيات لا نهاية لها، لكنه يتبع الاتّجاه العام للنهر، إلى أن يضيع في المسافات باتّجاه الغرب. هذا جدار من إحدى الصخور قد تشكّل من قطعٍ عمودي حدث في المُنحدر الوعر لضفة الجدول الجنوبية، لكن ما من أثر باقٍ يدلّ على ما حدث. الصخرة محفورة كأنّما بإزميل تحمل تدرجات ألوان العصور الغابرة، تكاد تتدلّى فوق الرؤوس على اتّساع ما تحمله من اللبلاب، وصريمة الجدي، والنسرين، وغيرها من النباتات المُتسلّقة. يتقطع انتظام قمة وقاع [906]الجدار ببقع عرضية من أشجار ذات ارتفاعات هائلة، تنمو مُنفردة أو في مجاميع صغيرة، على طول النجد أو في الأرجاء الأُخرى خلف الجدار، لكنّها تنتشر على مقربة منه؛ بحيث تمتد أطرافها (خصوصاً أطراف أشجار الحور السوداء) إلى مسافات حتى تغطس أغصانها المُتدلية في المياه. خلف تلك الحقول تنقطع الرؤية بستارةٍ لا يُمكن اختراقها من النباتات.

كل هذه الأشياء كان بالإمكان رؤيتها أثناء رحلة القارب البطيئة إلى ما أسميته بوابة المشهد البانورامي. لكن لدى الاقتراب أكثر من المنظر، تتلاشى الهاوية؛ ويكتشف المرء منفذاً جديداً للخليج إلى جهة اليسار.. في هذا الاتّجاه أيضاً يُلاحظ أنّ الجدار ينحدر، ويستمر في تعقب مجرى النهر. على هذا المنفذ لا تستطيع العين الاختراق لترى إلى مسافة بعيدة؛ لأنّ الجدول، يُرافقه الجدار، يميلان إلى اليسار حتى تبتلعهما معاً أوراق النباتات المُتشابكة.

لكن القارب يُتابع الانزلاق برشاقة سحرية عبر القناة المُلتوية؛ هُنا يُرى الشاطئ المُقابل للجدار على نحو مُماثل للمنظر السابق مُباشرة؛ تلالٌ شاهقة ترتفع بين فترة وأُخرى مُتعامدة مع الجبال، تُغطّيها نباتاتٌ خضراء من ثراء البرية، لكنها بعيدة عن صورة المشهد.

ويبقى الرحالة يطوف بزورقه في تقدّمٍ سلس، وبسُرعة تتضاعف قليلاً، بعد أن قطع مُنحنيات قصيرة، ويجد طريقه فيما يبدو مُنغلقاً ببوابة عملاقة من الذهب الصقيل، منحوتة ومُزخرفة بنقوش كثيفة تعكس الأشعة المُباشرة للشمس التي تُسارع الآن إلى الهبوط في سطوعٍ يُكلّل الغابة المُحيطة كلها بألسنة اللهب. هذه البوابة مُقحمة داخل الجدار الشاهق؛ الذي يبدو أنّه يعبر النهر في زوايا قائمة. لكن خلال بضعِ لحظات تتجلّى الصورة الكاملة للمياه التي لا تزال تجري في مُنحنى رقيق فسيح إلى اليسار، والجدار يتبعها كما في السابق، بينما يتفرع جدولٌ هائلٌ آخر من الجدول الرئيسي، يشقّ طريقه مُرسلاً دمدمة طفيفة، ويمرّ من تحت الباب، ولكنّه مخفي عن الأنظار. ينحدر القارب باتّجاه الجدول الأصغر مُقترباً من البوابة. أجنحتها الثقيلة تتوسّع ببطء وتُرسل موسيقى شجية. وينزلق القارب بينها، ويبدأ انحداره السريع نحو مُدرّجاتٍ تُحيط بها من كل جانب جبالٌ أرجوانية، يجتاح قواعدها نهرٌ مُتألّق المياه في كل جانب من دائرتها السحرية. في هذه الأثناء تتجلّى فجأة جنة أرنهايم بكل بهائها ليراها من يراها. وسمعنا تفجّر لحنٍ يقتحم المكان؛ وإحساسٌ ثقيل الوطأة برائحة زكية غريبة.. مزيجٌ كأنّه الأحلام تراه العين من أشجار لا شرقية ولا غربية، طويلة، نحيفة.. وشجيرات ظليلة.. وأسراب طيور [907]ذهبية وقرمزية.. وبُحيرات تحفّ بها الزنابق.. ومروج

من البنفسج، والخُزامى، والزنابق الياقوتية.. خطوط مُتشابكة من نهيرات فضية.. وتبرز بارتباك وسط كل هذا كتلة من البناء، نصفها قوطية، ونصفها إسلامية تشمخ كأنّما بمُعجزة نحو السماء، تلمع مع ضوء الشمس الأحمر وتتألق على جنباتها مئاتُ الشرفات، والمنارات، والأبراج؛ كأنّها سراب من صنع يدوي، في مزيجٍ غريب من الأرواح، والجن، والعفاريت، والأقزام الشريرة..

فون كمبلين واكتشافه

بعد البحث المُفصّل الدقيق الذي كتبه آراغو، إذا لم نقل شيئاً عن [908]خلاصة البحث التي جاءت في مجلّة «سليمان»، فضلاً عن الخطاب الشامل الذي أدلى به مؤخراً الملازم موري، لن يفترض المرء بطبيعة الحال أنّني، من خلال بضع إشارات عابرة فيما يتعلّق باكتشاف فون كمبلين، لديّ نية للنظر إلى الموضوع من منظور علمي. الهدف الذي أسعى إليه ببساطة، في المقام الأول، أن أقول كلمات قليلة عن فون كمبلين نفسه (الذي كان لي الشرف أن أتعرّف عليه شخصياً منذ سنوات قليلة)، لأنّ أي شيء يمتّ إليه بصلة الآن، في هذه اللحظة، لا بُدّ أن يُعتبر مُهماً؛ وفي المقام الثاني، إذا نظرنا للأمر نظرة عامة، وفكرنا ملياً، لا بُدّ أن تتضح النتائج التي تمخّضت عن الاكتشاف عاجلاً أم آجلاً.

لكن ربّما كان من الأفضل قبل طرح المُلاحظات الخاطفة التي أجد نفسي مُضطراً لطرحها أن أستبعد بكل تأكيد ما يبدو انطباعاً عاماً (يستخلص كما جرت العادة في حالات من هذا القبيل من الصحف)، أقول، إنّ هذا الاكتشاف المُذهل، ولا شكّ أنّه كذلك، لم يكن مُتوقعاً بأي حال من الأحوال.

بالإشارة إلى «مذكرات سر همفري ديفي» (الناشر كوتل أند مونرو، لندن، ص 150)، نرى على الصفحات 53 و 82 أنّ عالم الكيمياء الشهير هذا لم يتوصّل فقط إلى الفكرة التي نحن بصددها هُنا، ولكنه في الواقع حقّق تقدّماً لا يُستهان به، من الناحية التجريبية، في تحليلاتٍ مُماثلة لتلك التي تحقّقت بها شهرة فون كمبلين الذي مع أنّه لا يلمّح إليه أدنى تلميح، فلا شك أنّه (أقول بلا أي تردّد، وفي وسعي إثبات ذلك إذا تطلب الأمر)، يدين إلى «المذكرات» على الأقل بخصوص التلميح الأول إلى موضوع تجاربه.

الفقرة المُقتبسة من مجلّة «كورير أند أنكوايرر»، وهي الآن محطّ أنظار [909]الصحافة، والتي تدعم القول إنّ الاختراع يعود إلى رجل يُدعى السيد كيسام، من كرونسويك، ماين، تبدو لي، اعترف بهذا، مشكوكاً بأمرها بعض الشيء، لأسباب عديدة؛ على الرغم من عدم وجود شيء مُستحيل أو غير مُحتمل في الرأي المذكور. ولكن لا حاجة للخوض في التفاصيل. أرى أنّ تلك الفقرة تقوم أساساً على أسلوبها. إنّها لا تبدو حقيقية. الأشخاص الذين يسردون الحقائق نادراً ما يكونون دقيقين مثل السيد كيسام، بشأن اليوم والتاريخ والموقع المُحدّد. إلى جانب ذلك، إذا كان السيد كيسام قد توصل فعلاً إلى الاكتشاف الذي يتكلّم عنه، في الفترة التي أشار إليها.. منذ قرابة ثمان سنوات.. فكيف حدث أن لم يتخذ أي خطوات جادة، في تلك اللحظة، لأن يجني الثمار المهولة التي لا بُدّ لأي إنسان ساذج أن يعرف أنّها تكون من نصيبه هو شخصياً، إن لم تتحقّق للعالم بصفة عامة، من الاكتشاف؟ يبدو لي ممّا لا يُمكن أن يُصدّق أن يكتشف أي إنسان يتمتع بالحس السليم ما يقول السيد كيسام إنّه اكتشفه، ومع هذا فهو في وقت لاحق يتصرّف مثل الأطفال.. أو مثل البومة.. كما يعترف السيد كيسام بنفسه. بالمناسبة، من يكون السيد كيسام؟ أليست الفقرة بأكملها التي جاءت في صحيفة «كورير أند أنكوايرر» مُجرّد تلفيق يهدف إلى «إثارة اللغط»؟ لا بُدّ من الاعتراف بأنّها كانت خدعة كبيرة. لا يُمكن الوثوق إلّا قليلاً بذلك، من وجهة نظري الُمتواضعة؛ وإذا لم أكن نبيهاً بما يكفي، من خلال التجربة، فكم من السهل القول: إنّ تصرّفات العلماء يكتنفها الغموض، بشأن مسائل تقع ضمن نطاق انشغالاتهم الاعتيادية، فكيف لا أستغرب كثيراً حين أجد عالم كيمياء بارز مثل البروفيسور درابر، يُناقش نظريات السيد كيسام (أم هل كانت تلك نظريات السيد كويزم؟) التي يدّعي أنّها من الاكتشافات العبقرية، بأسلوب غاية في الجد؟

إذا عُدنا إلى «مذكرات» سر همفري ديفي. هذه الكرّاسة لم يكن الغرض منها أن يطّلع عليها عامة الناس، حتى بعد موت الكاتب، لأنّ أي شخص خبير بالتأليف ربّما يقتنع بنفسه مُباشرة بعد أقل تفحّص للأسلوب. في الصفحة 13، على سبيل المثال، في منتصف الصفحة نقرأ إشارة إلى بحوثه عن أول أوكسيد الآزوت،

«خلال أقل من نصف دقيقة كان التنفس مُستمرّاً، ثم تقلّص تدريجياً وتبعته أشياءُ مُماثلة بعد ضغطٍ خفيف على كل العضلات». إذا لم يكن التنفس «مُتقلّصاً»، فهذا ليس واضحاً فحسب من خلال السياق اللاحق، لكنه يتّضح باستعمال صيغة الجمع «أشياء». فالجُملة من غير شكّ تعني: «في أقل من نصف دقيقة، لأنّ التنفس [كان مُستمراً، فهذه المشاعر..] تقلّصت تدريجياً، وتبعها [إحساسٌ] مُماثل استجابة للضغط الخفيف على كل العضلات». وهُناك مئات الأمثلة المُماثلة التي تُظهر أنّ [910]الرسالة التي نشرت بلا روية كانت مُجرّد قصاصة من دفتر مُلاحظات سيىء الترتيب، الغرض منه فقط أن يراه الكاتب بعينه، إلّا أنّ نظرة فاحصة على الكراسة من شأنها أنّ تقنع أي شخص مفكر بحقيقة افتراضي. الحقيقة أنّ سر همفري ديفي يكاد يكون آخر رجل في العالم يُكرّس نفسه لموضوعات ذات طابع علمي. فهو لا يمتعض في الأحوال الاعتيادية من الشعوذة فحسب، لكنّه دائماً يخاف خوفاً شديداً من أن يبدو دجالاً عديم الثقافة؛ إذن مهما كان مُقتنعاً تماماً بأنّه على المسار الصحيح بشأن المسألة المطروحة الآن على بساط البحث، ما كان سيتكلّم حتى يكون كل شيء جاهزاً للعرض العملي. أعتقد جازماً أنّ لحظاته الأخيرة كانت ستكون تعيسة، إذا ما ساوره الشك في أن أُمنياته فيما يتعلّق بإحراق هذه «المذكرات» (المليئة بالتوقعات الخرقاء) كانت ستهمل فلا تتحقّق؛ مثلما حصل فيما يبدو. أقول «أُمنياته»، لأنّه كان ينوي أن يضع دفتر مُلاحظاته ضمن الأوراق المُتفرّقة التي سوف يشملها «الحرق» مُباشرة، وليس من شك في هذا الأمر بأي حال من الأحوال. سواءً كانت تلك الأوراق نجت من اللّهب لحُسْن الحظ أو لسوء الحظ، ذلك شيء غير معروف الآن. المقاطع المُقتبسة أعلاه، مع مقاطع مُماثلة أُخرى أشرنا إليها، أعطت فون كمبلين التلميح الذي لا يقبل الشك؛ لكني أكرّر، يبقى من غير المعروف فيما إذا كان هذا الاكتشاف المُهم جدّاً (في أي ظرف كان هو اكتشاف مهم) سوف يكون في خدمة الإنسانية أو في تعاستها في نهاية الأمر. إذا كان فون كمبلين وأصدقاؤه المُقرّبون سوف يجنون أي ثمار ذات قيمة كبيرة، من الغباء الشك في هذا لحظة. من النادر أن يكونوا ضعفاء العقل فلا «يدركون» في الوقت المُناسب، من خلال شراء العقارات، وغيرها من الثروات ذات القيمة العالية.

في الوصف المُختصر الذي قدّمه فون كمبلين وظهر في مجلّة «المنزل»، وتمّ استنساخه عدة مرات، يبدو أنّ العديد من التفسيرات الخاطئة للنسخة الألمانية الأصلية هي من عمل المُترجم، الذي اعترف بأنّه أخذ القطعة من عدد قديم من مجلّة تصدر في برسبورغ[1] هي (شنيلبوست). من الواضح أنه قد أسيء فهم كلمة *Viele* الألمانية التي تعني «كثيراً» (وكثيراً ما يحصل هذا)، وما كان يعنيه المُترجم بـ «الأحزان» أو «المُعاناة»، ربما عبّر عنه بالكلمة الهولندية ***lieden*** «الناس»، مما يُعطي تفسيراً مُختلفاً تماماً للنصّ كله؛ لكن بطبيعة الحال الكثير من هذا الذي يُقال هُنا مُجرّد تخمينات من جانبي.

ومع ذلك فإنّ فون كمبلين لا يُمكن أن يكون «عدواً للبشر»، في مظهره على الأقل، مهما كانت حقيقة أمره. معرفتي به كانت سطحية بكل معنى الكلمة؛ ولا أتوجّس من القول إنّني كنت أعرفه حق المعرفة إطلاقاً؛ لكن أن ترى وتتحدّث مع [911]رجل يتمتع بشهرة عريضة كتلك التي حققها، ليس بالمسألة الهينة، هذا شيء أصبح واضحاً مع مرور الزمن.

تتكلّم عنه مجلّة «العالم الأدبي» في ثقة مبالغة، فتقول إنّه مواطن من سكان برسبورغ (وربما جاء ذلك التضليل بسبب الكتابات التي نشرتها مجلّة «المنزل») لكنّي أشعر بالفرح لأنّي قادر أن أُؤكد بإصرار، لأنّي سمعت ذلك من شفتيه، أنّه ولد في أوتيكا، في ولاية نيويورك، على الرغم من أن والديه، كما أتصوّر، ينحدران في الأصل من بريسبورغ. العائلة مرتبطة، بطريقة ما، مع مايلزيل، الذي له ذاكرة لاعب شطرنج. من ناحية المظهر الشخصي، فهو قصير القامة وقوي البنية، وعيناه واسعتان لونهما أزرق، وشعره وشاربه رملي اللون، وفمه عريض لكنه جميل، وأسنانه صقيلة، وأعتقد أنّ أنفه روماني. هُناك عيبٌ في إحدى قدميه. كلامه فيه لباقة وصراحة، وتصرّفاته على الإجمال تدلّ على دماثة خلق. على كل حال، فالرجل كما يبدو، يتكلّم، ويتصرّف بعض الشيء مثل عدوٍ للبشر لا يختلف في ذلك عن أي شخص رأيته في حياتي. كنا شركاء في الإقامة المؤقتة

(1) برسبورغ الآن تُسمّى براتسلافا، تشيكوسلوفاكيا، كانت تشتهر بأنها موطن للسحر. [المترجم]

طوال أُسبوع منذ نحو ست سنوات، في فندق أيرل، في بروفنس، جزيرة رودي؛ وأتصوّر أنّني كنت أتجاذب معه أطراف الحديث في أوقات مُختلفة لمدة ثلاث أو أربع ساعات. لم تكن الموضوعات الأساسية تبتعد كثيراً عن حوادث الساعة، ولا شيء ممّا يتسلّل من شفتيه كان يوحي بإنجازاته العلمية. ثم ما لبث أن ترك الفندق قبلي، وكان ينوي الذهاب إلى نيويورك، ومن هُناك إلى بريمن؛ في تلك المدينة على وجه التحديد حصل الإعلان عن اكتشافه العظيم للمرة الأُولى على الملأ؛ أو بالأحرى هُناك صار الناس يشكّون في أنّه توصّل إلى ذلك الاكتشاف. هذا تقريباً كل ما أعرفه شخصياً عن الرجل الذي أصبح خالداً في ضمائر الناس الآن، فون كمبلين؛ لكنّي أتصوّر أنّ حتى هذه التفاصيل لا بُدّ أن تُثير اهتمام الناس.

لا شكّ أنّ مُعظم الأقاويل العجيبة التي أُثيرت هُنا وهُناك حول هذه المسألة هي مُجرّد تلفيقات، فلها من المصداقية مثل ما لقصة مصباح علاء الدِّين؛ لكن في حالة من هذا النوع، كما في حالة الاكتشافات في كاليفورنيا، من الواضح أنّ الحقيقة ربّما كانت أغرب من الخيال. هذه الحكاية النادرة على الأقل موثّقة جيداً، وربّما لا نتردّد في تصديقها ضمناً.

لم يكن فون كمبلين مُرتاحاً أثناء إقامته في بريمن؛ وفي كثير من الأحيان، كان معروفاً عنه أنّه يخضع لتغيرات مُتطرّفة في المهن التي يُزاولها من أجل أن يجني كميات تافهة من النقود. عندما أُثيرت تلك القضية التي أثارت اهتماماً عظيماً حول عملية التزوير في منزل غتسموث وشركاه، توجّهت الشكوك والاتهامات إلى فون كمبلين، وذلك لأنّه كان قد اشترى عقارات كثيرة في غاسبيرتش لاين، وبسبب رفضه وقت الاستجواب أن يُفسّر كيف استطاع الحصول على الأموال التي اشترى [912]بها كل ذلك. وأخيراً جرى اعتقاله، لكن لم يكتشف أي شيء مُهم ضده، وفي النهاية أطلق سراحه. لكن رجال الشرطة ظلوا يُراقبونه جيداً ويتتبّعون حركاته، وهكذا اكتشفوا أنّه كان يُغادر منزله في كثيرٍ من الأحيان، ويسلك دائماً الطريق نفسه، وكان باستمرار يضيع عن عيون المُراقبين له في المناطق المُجاورة في متاهة من الطرقات الضيقة المُتعرجة التي كانت تعرف بذلك الاسم الخاطف «دوندرغات». وأخيراً، مع المواظبة على

تعقّب خطواته، وصلوا معه إلى علّية في منزل قديم من سبعة طوابق، يقع على جادة تُسمى فلاتزبالاتز.. وباغتوه فجأة فوجدوه كما توقعوا يُزاول عمليات التزوير. كان غضبه شديداً بحيث إنّ رجال الشرطة لم يُساورهم الشك في إدانته. وبعد تقييده بالأصفاد، فتّشوا غرفته، أو بالأحرى الغرف، لأن يبدو أنّه كان يُشغل الطابق الأعلى للمنزل كله.

في الحُجرة التي أمسكوه فيها، وجدوا خزانة أبعادها عشرة إلى ثمانية أقدام، فيها بعض المواد الكيمياوية التي لم يعرفوا الغرض منها. وفي إحدى زوايا الخزانة وجدوا فرناً صغيراً والنار تلتهب فيه، وعليه بوتقة مُزدوجة.. بوتقتان مربوطتان بأنبوب. إحدى هاتين البوتقتين كانت تقريباً مملوءة بالرصاص الذائب، لكنه لا يصل إلى حافة الأُنبوب، بل كان قريباً من الحافة. والبوتقة الأُخرى فيها سائل ما، كان يبدو عندما دخل رجال الشرطة أنّه يغلي ويتصاعد منه البخار. وقال هؤلاء، عندما شاهدوه مصعوقاً من المُفاجأة، أن كمبلين أمسك البوتقتين بكلتا يديه (وكانتا داخل قفازات اتّضح لاحقاً أنّها من مادة خشنة)، وألقى مُحتوياتها على بلاطات الأرضية. في ذلك الوقت كبّلوه بالأصفاد؛ وقبل المضي لتفتيش المكان، فتّشوه هو شخصياً، لكنهم لم يعثروا على شيءٍ لديه، باستثناء رزمة ملفوفة بالورق في جيب معطفه تضمّنت ما اتّضح لاحقاً أنّه مزيج من الأنتيمون ومادة أُخرى غير معروفة، مُختلطة في نسبٍ تكاد تكون مُتساوية. لقد فشلت كل المُحاولات لتحليل المادة غير المعروفة حتى الآن، لكن التوصل إلى كُنهها لا بُدّ أن تكون مسألة وقت ليس إلّا.

بعد أن خرج رجال الشرطة من تلك الحُجرة برفقة سجينهم، دخلوا حُجرة سرية صغيرةٍ لم يجدوا فيها أي مواد أُخرى، ثم وصلوا إلى الغرفة التي ينام فيها الكيمياوي. هُنا بحثوا في بعض الأدراج والصناديق، لكنهم لم يكتشفوا غير بضع أوراق لا أهمّية لها، وبعض العملات النقدية في حالة جيدة، من الفضة والذهب. وأخيراً، نظروا تحت السرير فوجدوا صندوقاً كبيراً عادياً، بلا مفاصل، أو [913]سقاطات، أو أقفال، وكان غطاؤه مُلقى بإهمال في الأسفل. لدى مُحاولة سحب هذا الصندوق من تحت السرير، لم يتمكّنوا جميعاً بقوتهم

المُشتركة (كانوا ثلاثة رجال، كلهم أقوياء)، «لم يتمكّنوا من زحزحته إلى بوصة واحدة». فاندهشوا لذلك غاية الاندهاش، وزحف أحدهم تحت السرير، ونظر إلى داخل الصندوق، وقال:

«لا غرابة في أنّنا لم نتمكّن من زحزحته.. إنّه مليء إلى حافته بقطعٍ قديمة من النحاس!».

وضع أحد رجال الشرطة قدميه الآن بإزاء الجدار لكي يُسند جسده، وراح يدفع بكل قوة، بينما كان رفاقه الآخرون يسحبون الصندوق بكل قواهم في صعوبة بالغة إلى أن خرج شيئاً فشيئاً من تحت السرير، وتفحّصوا مُحتوياته. كان النحاس الذي افترضوا أنّه موجود فيه عبارة عن قطع صغيرة، ملساء، تتباين في أحجامها من حجم البازلاء إلى حجم الدولار؛ إلّا أنّ القطع مُختلفة في أشكالها، مع أنّها على الإجمال، «تبدو مثل الرصاص إذا ألقيت على الأرض في حالة الانصهار، وهُناك تبقى تغلي حتى تبرد». الآن، لم يشكّ أي واحد من رجال الشرطة لحظة في أنّ هذا المعدن لا يُمكن أن يكون إلّا نُحاساً. لم تخطر على بالهم فكرة أن يكون ذهباً بطبيعة الحال؛ كيف يُمكن لمثل هذا الخيال الغريب أن يُراود أذهانهم؟ ربّما كان استغرابهم مُبرّراً، إذ انتشر الخبر في اليوم اللاحق في أرجاء بريمن، أنّ «كمية كبيرة من النحاس» التي نقلت بلا اهتمام إلى مكتب الشرطة، دون أن يُكلّفوا أنفسهم عناء تعبئة القطع المُفتّتة الصغيرة في أكياس، لم تكن ذهباً فحسب.. ذلك الذهب الحقيقي.. لكنه ذهب من أنقى الأنواع التي يستخدمها الصاغة، في الحقيقة، كان ذهباً نقياً حتماً، من غير أن تشوبه شوائب تُذكر.

أجد نفسي الآن في حاجة لأن أتطرق إلى تفاصيل اعتراف فون كمبلين (حسب المعلومات التي وردت فيه) وأن أكشف عنها، لأنّها أصبحت من الأشياء المألوفة لدى الناس. أن يكون قد كشف عن السر حقاً، في جوهره وتأثيراته، إن لم يكن حرفياً.. ذلك الوهم القديم المُرتبط بحجر الفلاسفة، فليس من شخصٍ عاقل يشك في الأمر. إنّ آراء أراغو بطبيعة الحال تستحق أقصى درجات الاهتمام؛ مع أنّه ليس بالضرورة مُحقاً في كل شيء؛ وما يقوله عن معدن

البزموت، في تقريره للأكاديمية، يعني أنّه «مُختلط بحُبيبات من الملح» *cum grano salis*. الحقيقة البسيطة، لغاية هذه المرحلة فشلت كل مُحاولات تحليل تلك المادة؛ وحتى عندما اختار فون كمبلين أن يسمح لنا بمعرفة مفتاح اللغز الغامض الذي نشره، فمن المُحتمل أن تبقى المسألة لسنوات على وضعها الراهن. كل ما قيل تقريباً إنه كان معروفاً، «أن الذهب النقي يُمكن أن يُصنع متى ما شاء المرء، وبسهولة تامة، من الرصاص الممزوج بمواد أُخرى، ولكن نوعها، ونسبها، غير معروفة».

لقد تضاربت الآراء والتوقعات طبعاً عن النتائج المُباشرة والنهائية لهذا [914]الاكتشاف.. وهو اكتشاف سوف يتردد القليل من الأشخاص في اعتبار أنّه إشارة إلى اهتمام مُتزايد في مسألة الذهب بصفة عامة، من خلال التطورات الأخيرة التي حصلت في كاليفورنيا؛ هذه الفكرة لا بُدّ أن تقودنا إلى شيء آخر.. التحليل الذي توصّل إليه فون كمبلين في غير أوانه. إذا كان الكثيرون قد منعوا من المُغامرة بالذهاب إلى كاليفورنيا، لمُجرّد التخوّف من أنّ الذهب ربّما تتقلّص قيمته مادياً إذا توفّرت كمياتٌ كبيرة منه في المناجم هُناك، بحيث يُصبح البحث عنه مسألة مشكوكاً فيها.. فأي انطباع يتشكّل الآن، في عقول أولئك الذين على وشك الهجرة، وخصوصاً في عقول أولئك الذين هم فعلاً في منطقة المناجم، بالإعلان عن هذا الاكتشاف المُذهل الذي توصّل إليه فون كمبلين؟ وهو اكتشاف يعلن، في كلماتٍ مُختصرة، أنّ الذهب بعيداً عن قيمته الفعلية لأغراض التصنيع (أياً كانت هذه القيمة)، فإنّه الآن، أو على الأقل سرعان ما يُصبح (فلا يُمكن افتراض أن فون كمبلين سوف يحتفظ بسره طويلاً طي الكتمان)، أكثر قيمة من الرصاص، أو ذا قيمة أقل بكثير من الفضة. في الواقع، من الصعب التفكير بصورة سوية بنتائج هذاَ الاكتشاف، لكن ربّما كان هُناك شيء مؤكد فعلاً.. كان للإعلان عن هذا الاكتشاف منذ ستة أشهر صدى حقيقي فيما يتعلّق بالاستقرار في كاليفورنيا.

في أوروبا، حتى الآن، كانت النتائج الأكثر وضوحاً تتمثّل في زيادة وصلت إلى نسبة مائتين بالمائة في سعر الرصاص، وحوالى خمسة وعشرين بالمائة في سعر الفضة.

ميلونتا تاوتا[1]

والآن يا صديقي العزيز.. الآن، بسبب خطاياك، عليك أن تُعاني من البلاء [915]بعد أن كتبت رسالة طويلة هي مُجرّد ثرثرة فارغة. أقول لك بوضوح إنّني سوف أُعاقبك على ما ارتكبته من وقاحة بأن كنت مُملاً، مُسرفاً في الكلام، تقول أشياء غير مُترابطة لا يقتنع بها أحد غيرك. فضلاً عن هذا، ها أنا ذا، محبوس في منطاد قذر، مع نحو مائة أو مائتين من الأوباش، كلهم مُسجلّون في رحلة للمتعة الرخيصة، (يا لها من فكرة سخيفة لدى بعض الناس عن المتعة!) وليس لديّ أمل في أنّ الأمس اليابسة على الأقل لمدة شهر. لا أحد أتحدّث إليه. لا شيء أفعله. حين لا يكون لدى المرء ما يقوم به، فالوقت مُناسب لمُراسلة بعض الأصدقاء. أنتم تُدركون إذن السبب الذي دفعني لأن أكتب لكم هذه الرسالة.. إنّها تأتي ردّاً على الضجر الذي أُعاني منه، وعلى خطاياكم.

عليكم أن تحضروا نظاراتكم وتحزموا أمركم وتستعدّوا للإحساس بالانزعاج. أقصد أن أكتب إليكم كل يوم إبان هذه الرحلة البغيضة.

واأسفاه!.. متى يحين الوقت فيتحقّق ما يتمنّاه البشر من اختراعات؟ هل كتب علينا القدر أن نُعاني إلى الأبد من إزعاجات المنطاد؟ ألا يتمكّن أحدٌ من ابتكار وسيلة أسرع للتنقّل؟ هذه الحركة البطيئة المُملّة، في نظري، لا تختلف بتاتاً عن خطوات السلحفاة. أقول لكم بكل تأكيد نحن لم نقطع أكثر من مائة ميل منذ الساعة التي تركنا فيها الوطن! الطيور نفسها تتغلّب علينا.. على الأقل البعض منها. أُؤكد لكم أنّني لست أُبالغ أبداً. حركتنا من غير شك تبدو أبطأ ممّا هي عليه في الواقع.. وهذا لعدم وجود أي أشياء حولنا نتمكّن بها من قياس سرعتنا،

---

(1) العنوان يعني «هذه الأشياء تحدث في المُستقبل». [المترجم]

ولأنّنا نمضي مع الريح. إذا شئنا الدقة، فكلّما صادفنا منطادٌ تُتاح لنا فرصة تقدير مُعدّل سرعتنا، ومن ثمّ، أقرّ بهذا، فالأمور لا تبدو سيئة جداً. بعد أن اعتدت على هذا النمط من الرحلات، ليس في وسعي التغلّب على نوعٍ من الإحساس بالدوار كلّما مرّ بنا منطاد [916]يدفعه التيار مُباشرة فوق رؤوسنا. كثيراً ما يبدو لي أنّه مثل طير مُفترس هائل على وشك أن ينقضّ علينا ويحملنا بمخالبه. هذا الصباح مرّ بنا أحد المناطيد مع شروق الشمس تقريباً، وكان فوق رؤوسنا بحيث إنّ الحبل المُتدلّي منه كان يُلامس شبكة الحبال التي تتعلّق بها عربة منطادنا، وجعلنا ذلك نشعر بالتوجس الشديد. قال قبطاننا: إنّه لو لم تكن المادة التي صُنع منها كيس المنطاد من «الحرير» المطلي الذي يعود إلى خمسمائة أو ألف سنة، لتعرضنا إلى الضرر لا محالة. هذا النوع من الحرير، كما شرح لي، من نسيجٍ يؤخذ من أحشاء نوع من أنواع دودة الأرض. تتغذّى هذه الدودة بعناية فائقة على التوت.. وهو نوع من الفاكهة يُشبه البطيخ.. وعندما تُصبح سمينة بصورة كافية، تُطحن في مجرشة. والمعجون الذي ينتج عن هذه العملية يُسمى «البردي» في حالته الأولية، ثمّ يمر بعمليات مُتنوعة أُخرى إلى أن يُصبح «حريراً». من الغريب أنّ هذه المادة كانت تلقى إعجاب الناس لأنّها تُستخدم في صناعة الثياب النسائية! وكانت المناطيد أيضاً بصفة عامة تُصنع منها. هُناك مادة أفضل، كما يبدو، وجدت لاحقاً في المناطق المجاورة تستخلص من بذور نبتة يُسميها سكان الأرياف «الفريبون» وهي نوعٌ من الصبّار، وفي ذلك الوقت كان يسميها علماء النبات «عشبة الحليب». هذا النوع الأخير من الحرير يوصف بأنه «حرير بكنغهام»، لمتانته الفائقة، وكان في العادة يُحضّر للاستعمال بأن يُطلى بمحلول من الصمغ المطاط.. وهي مادة في بعض صفاتها تُشبه «الغاتابرشا» التي تُشبه المطاط التي يجري استعمالها حالياً. هذا النوع من المطاط يُسميه بعض الناس أحياناً المطاط الهندي أو المجدول، ولا شكّ أنّه يؤخذ من أنواع الفطر المُتعددة. فلا تقل لي الآن: إنّني لست خبيراً في هذه الأمور.

إذا تحدّثنا عن حبال السحب.. فالحبل الذي لدينا، كما يبدو، كان في هذه اللحظة قد خبط رجلاً فأسقطه من إحدى السفن ذات المُحركات البخارية التي تُكثر

في المُحيط الذي تحتنا.. وهو مركب حمولته حوالى ستة آلاف طن، وفي كل جوانبه يبدو مُزدحماً بالركاب بشكل مُخجل. هذه السفن الشراعية الصغيرة ينبغي أن تمنع من حمل أكثر من عدد مُحدّد من الركاب. ولم يسمح للرجل طبعاً بالصعود مرة أُخرى، وسرعان ما اختفى عن الأنظار، هو وصدرية النجاة. إنّني مُبتهج، يا صديقي العزيز، لأنّنا نعيش في زمن التنوير بحيث لا يسمح بوجود شيء اسمه الفرد. الجماهير وحدها هي التي تكترث لها البشرية حقاً. بمُناسبة الكلام عن البشرية، هل تعلم أنّ مُفكّرنا الخالد ويغنز[2] لم يكن أصيلاً في آرائه عن الوضع الاجتماعي وما إلى ذلك، كما يميل مُعاصروه الآخرون للافتراض؟ يؤكد لي بنديت [917]أنّ الأفكار نفسها تتخذ المنهج نفسه، منذ قرابة ألفٍ من السنين، الذي وضعه فيلسوف إيرلندي يُدعى فورير[3]، لأنّه كان يُدير محلاً لبيع الدواجن، والقطط وغيرها من أنواع الفراء. بنديت يعرف هذا، كما تعلم؛ لا يُمكن أن يكون ثمّة خطأ في الأمر. كم هو رائع أن نراه يتحقّق كل يوم، (وهُنا اقتبس بنديت من أرسطو).. «وهكذا علينا القول، ليس مرة أو مرتين، أو بضع مرات، لكننا نقول مرات غير محدودة: إن الآراء نفسها تدور وتدور في أوساط الرجال».

2 نيسان.. تكلّم معي اليوم عامل التحكم في قطع التيار المغناطيسي المسؤول عن القسم الأوسط من منظومة أسلاك التلغراف الطافية.. علمت منه أنّه عندما شغلت هذه الأنواع من أسلاك التلغراف في البداية من قبل مؤسسة هورس[4]، كان من المُستحيل نقل الأسلاك فوق البحر، لكنّنا الآن لا نعرف أين تكْمن الصعوبة! هكذا يضحك علينا العالم ملء شدقيه. «الزمن يتغير ونحن نتغير معه» *tempora mutantur* .. أعذرني على الاقتباس من أيستروكان. ماذا يُمكن أن نفعل من غير تلغراف الأطلسي؟ (يقول بنديت: إن «الأطلسي» هي الصفة القديمة التي كانت تطلق عليه). بقينا بضع دقائق لنسأل العامل بعض الأسئلة، وعلمنا من

(2) ويغنز فيلسوف من وحي خيال إدغار ألن بو ربما يأتي في المستقبل. [المترجم]

(3) فرانسوا ماري جارلس فورير عالم اجتماع فرنسي، هُنا يقول عنه المؤلف: إنه إيرلندي استهزاء. [المترجم]

(4) يقصد المؤلف هُنا صموئيل مورس مُخترع التلغراف (1791- 1872). [المترجم]

بين أخبار أُخرى مُذهلة، أنّ الحرب الأهلية مُشتعلة في أفريقيا، بينما يُحقق الطاعون تقدّماً رائعاً هُناك في أوروبا وآسيا. أليس من المُذهل حقاً، بإزاء الضوء الرائع الذي أُلقي على الفلسفة، أنّ العالم كان مُعتاداً على النظر إلى الحروب والطاعون بأنّها من الكوارث؟ هل تعلم أنّ الصلوات كانت تُقدم في المعابد القديمة بهدف منع هذه الشرور (!) أن تحلّ بالبشرية؟ ليس من الصعب حقّاً استيعاب المبدأ الذي كان أسلافنا يتصرّفون بناءً عليه؟ هل كانوا على درجة من العمى بحيث لا يدركون أنّ دمار آلافٍ من الأفراد ليس إلا مصدر فائدة لبقية البشر!.

3 نيسان.. من المُمتع جداً صعود سلم الحبال الذي يؤدي إلى قمة المنطاد، من هُناك يُمكن استطلاع العالم الذي يُحيط بنا. من عربة المنطاد التي تحت تُدرك أنّك لا يُمكن أن تستوعب كل ما يجري حولك.. لا يُمكنك رؤية إلّا القليل. لكن بما أنّني كنت جالساً هُنا (أكتب هذه الكلمات) على الشرفة المفتوحة المريحة في القمة، في وسع المرء رؤية ما يجري في كل الاتّجاهات. الآن أُشاهد حشداً من المناطيد، منظرها بهيّ في حركتها المُتمايلة، فيما يُردد الهواء أصداء همهمة ملايين الأصوات البشرية. سمعت الناس يؤكدون أنّه عندما استطاع رجلٌ من الجنس الأصفر أو (بنديت لديه الخبر اليقين) البنفسجي، يفترض أنّه كان أول ملاح، أن يقطع الأجواء بنجاح في كل الاتجاهات، بمُجرّد أن يصعد أو يهبط إلى أن يأتي تيارٌ مُناسب، ونادراً ما كان يولي أُذناً صاغية إلى مُعاصريه الذين كانوا ينظرون إليه [918]على أنّه مُجرّد عبقري مجنون، لأنّ فلاسفة (!) اليوم صرّحوا بأن ذلك مُستحيل. الآن في حقيقة الأمر يبدو لي ممّا لا تفسير له إطلاقاً كيف يُمكن أن يفلت شيءٌ سهل التحقق من رجاحة عقول الحكماء القدامى. لكن في كل العصور كانت العقبات العظيمة التي تُعرقل التقدّم في مجالات الفنون يُعارضها من يسمون أنفسهم رجال العلم. إذا شئنا الحق، فرجال العلم الذين نعرفهم ليسوا مُتعصبين كثيراً مثل القدماء.. أوه، يبدو أن لدي شيئاً غريباً جداً أُخبركم به عن هذا الموضوع. هل تعلمون أنّه لم يمضِ أكثر من ألف سنة منذ أن اقتنع الميتافيزيقيون بتخليص الناس من الأوهام الغريبة عن وجود طريقين مُحتملين فقط للوصول إلى الحقيقة! صدّق هذا أو لا تصدّق! يبدو لي أنّه منذ زمن طويل، طويل، من ظلام الزمن، كان يعيش فيلسوف تركي (أو ربّما

هندوسي) يُسمّى أريس توتل. هذا الشخص ابتكر، أو على الأقل روّج لما صار يُسمى الطريقة الاستدلالية أو البديهية للتقصّي. لقد بدأ بما كان يؤكد على تسميته حقائق مُقررة «قائمة بذاتها»، ومن ثمّ راح ينتقل «منطقياً» إلى النتائج. وكان من المؤيدين له رجلٌ يُدعى نوكلد، وآخر يُدعى كانت. حسناً، لقد حقق أريس توتل هذا شهرة واسعة حتى جاء رجلٌ آخر يُدعى هوغ، ويحمل لقب «الراعي إيتريك»، كان ينادي بنظام مُختلف يُسميه الاستقراء. وكانت خطته تعتمد كلياً على الإحساس. وراح يُراقب، ويُحلّل، ويُصنّف الحقائق البديهية الطبيعية، بطريقة مُفتعلة بعيدة عن الواقعية، ويُحيلها إلى قوانين عامة. كانت طريقة أريس توتل، بكلمة مُختصرة، تستند إلى ما يسمى «النومن» أو الشيء المفهوم في ذاته كما يبدو للعقل المُجرّد؛ أمّا طريقة هوغ فتستند إلى الظواهر. حسناً، كم كان الاندهاش الذي أثاره هذا النظام الأخير عظيماً، إلى درجة أنّه عندما طرحه على الناس لأول مرة، تلطّخت سمعة أريس توتل بالوحل؛ لكنّه في النهاية استردّ توازنه وسمح له بتقسيم مملكة الحقيقة بينه وبين مُنافسه الأكثر حداثة. الحكماء الآن يؤكدون على أنّ أساليب أرسطو وبيكون هي المسالك الوحيدة المُمكنة للوصول إلى المعرفة. الطريقة «البيكونية»، علينا أن نعرف هذا، كانت من الصفات التي ابتكرت كمعادلٍ للطريقة الهوغية وهي صفة مُستساغة ومُحترمة أكثر.

والآن يا صديقي العزيز، أؤكد لك بكل ثقة أنّني مؤمن بهذا حقّاً، اعتماداً على أُسس رصينة وفي وسعك بسهولة أن تفهم كيف أنّ مفهوماً عبثياً جدّاً في ظاهره لا بُدّ أنّه عمل على إعاقة تقدم المعرفة الحقيقية.. المعرفة التي تُحقّق تقدمها دائماً من خلال عوامل غريزية. الفكرة القديمة جعلت البحوث تقتصر على الزحف البطيء؛ منذ مئات السنين كان الافتتان بهوغ عظيماً بصفة خاصة، بحيث وضعت أفكاره [919]نهاية فعلية لكل أنواع التفكير، التي نُسميها بحق تفكيراً. لم يجرؤ أحدٌ على التعبير عن الحقيقة التي كان يحسّ هو نفسه أنّه مدين لها بروحه. لم يكن يهم إن كانت الحقيقة في تجلياتها الظاهرية حقيقة، لأنّ الحكماء ذوي الرؤوس المُتحجرة في ذلك العصر كانوا ينظرون فقط إلى الوسائل التي استطاع بها التوصل إليها. لم ينظروا حتى إلى نهاية الطريق. «فلننظر إلى الوسائل»، كانوا يقولون

بحماس، «الوسائل!» إذا ما وجد، لدى فحص الوسائل، أنّ الأمور لا تقع ضمن تصنيف أريس (بمعنى آخر رام) أو تصنيف هوغ، إذن لماذا لم يمضِ الحكماء إلى أبعد من هذا فيُصرّحوا أنّ «صاحب النظرية» معتوه، ولا علاقة لهم به وبحقيقته.

والآن لا يُمكن التأكيد حتى من خلال طريقة الزحف على أنّ مقداراً عظيماً من الحقيقة يُمكن الوصول إليه على مدى العصور الطويلة، لأنّ القمع الذي فرض على الخيال كان شرّاً مُستطيراً لا يُمكن التعويض عنه بأي وسيلة لليقين الفائق في أنماط التحقيق القديمة. إنّ الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الألمان، وهؤلاء الفرنسيون، وهؤلاء الإنكليز، وهؤلاء الأمريكان (الآخرون، بالمُناسبة، هم مؤسسو دولتنا الحديثة)، كان مُماثلاً تماماً لخطأ ذلك المُتفلسف المغرور الذي يتصوّر أن لا بُدّ له بالضرورة أن يرى الشيء بصورة أفضل لو قرّبه من عينيه بقدر الإمكان. هؤلاء الناس يشغلون أنفسهم بالتفاصيل حتى يُصيبهم العمى. عندما يتّبعون طريقة هوغ، لا تبقى «حقائقهم» حقائق أبداً.. إنّها قضية تافهة لولا الافتراض أنّها حقائق ولا بُدّ أن تكون حقائق لأنّها تبدو هكذا. وعندما يتبعون طريقة رام، فمن النادر أن يكون مسارهم مُستقيماً مثل استقامة قرون الكبش، لأنّهم لا يملكون بديهيات أو حقائق مُقرّرة. لا بُدّ أنّهم فقدوا بصيرتهم فلا يرون هذا، حتى في الزمن الذي عاشوا فيه؛ لأنّ حتى في أيامهم كانت الكثير من الحكم «الراسخة» تتعرّض للرفض. على سبيل المثال.. «من العدم لا يُخلق إلّا العدم»[5] *Ex nihilo nihil fit*، «الجسد لا يتحرك إذا لم يكن موجوداً»؛ «لا وجود للمُتناقضات»؛ «الظلام لا يخرج من النور».. كل هذه، وغيرها عشرات من الافتراضات المُماثلة، التي كانت سابقاً مُعترفاً بها من غير تردّد كحكم راسخة، حتى الفترةِ التي نتكلّم عنها، ينظر إليها على أنّها عديمة الأساس. كم يكون من العبث بالنسبة إلى هؤلاء الناس إذن أن يصرّوا على الإيمان بهذه «الحكم» ويعتبرونها من أسس الحقيقية الثابتة! لكن حتى من أفواه مُفكرين عقلانيين جدّاً من السهل إثبات تفاهة وبطلان أحكامهم بعامة. من كان أعقل عالم فيهم من

---

(5) هذه من الأفكار القديمة جدّاً لفلاسفة الإغريق وهي أساس الفيزياء الأبيقورية التي تمّ التعبير عنها حوالى 595 ق.م [المترجم]

علماء المنطق؟ لنرى! سوف أذهب لأسأل بنديت وأرجع بعد لحظات.. آه، لقد وجدها! هذا كتابٌ تمّ تأليفه منذ قرابة ألف سنة وقد تُرجم مؤخراً من الإنكليزية.. وبالمُناسبة يبدو أنّه من مبادئ الأمريكان. يقول بنديت: إنّه أكثر عمل عبقري قديم في موضوعه، وهو المنطق. المؤلف (الذي كان موضع حديث الناس في عصره) كان [920]رجلاً يُدعى ميلر، أو مل؛ ووجدنا مُسجلاً عنه، كمسألة من المسائل المُهمة بعض الشيء، أنّ لديه طاحونة يُسمونها بينثام. لكن دعونا نلقي نظرة على البحث!.

آه!.. «القدرة أو عدم القدرة على الإدراك»، يقول السيد مل، بأسلوب صريح، «لا يُمكن أن تعتبر بأي حال معياراً للحقيقة البديهية». أي شخص في العصر الحديث بما يمتلك من أحاسيس يُمكن أن يُجادل في هذه البديهية؟ الشيء الوحيد المُثير للاستغراب بالنسبة إلينا، كيف يحصل أنّ السيد مل يرى من الضروري التلميح إلى شيء بهذا الوضوح. حتى الآن هذا جيد.. لكن دعنا نقلب صفحة أُخرى. ماذا لدينا هُنا؟.. «المُتناقضات لا يُمكن أن تكون كلّها حقيقية.. بمعنى آخر، لا يُمكن أن تتعايش في الطبيعة». هُنا يقصد السيد مل، على سبيل المثال، أنّ الشجرة يجب أن تكون إما شجرة أو لا تكون شجرة.. أي: أنّها لا يُمكن أن تكون شجرة وغير شجرة في الوقت نفسه. حسناً جدّاً؛ لكنّي أسأله لماذا؟ والرد الذي يُعطيه هو هذا.. ولا يدّعي أبداً أنّ الأمر خلاف هذا.. «لأنّ من المُستحيل تصوّر أنّ المُتناقضات كلها حقيقية». لكن هذا ليس جواباً إطلاقاً، من خلال ما يظهر من كلامه.. ألم يعترف قبل قليل كحقيقة مُقرّرة بأن «القدرة أو عدم القدرة على الإدراك لا ينبغي بأي حال اعتبارها معياراً لحقيقة بديهية».

والآن أنا لا أتذمّر من هؤلاء القدماء لأنّ منطقهم، من خلال ما أظهروه، لا أساس له إطلاقاً، أو أنّه عديم القيمة وخيالي معاً، بقدر ما يتعلّق ذلك باستبعادهم في تبجح وعنجهية وغباء لكل السّبل الأُخرى التي تقود إلى الحقيقة، وكل الوسائل الأُخرى التي تؤدي إليها غير المسلكين البعيدين عن الصواب.. الزحف والتسلق.. إذ وصلت بهم الجرأة لأن يحرموا الروح التي تعشق من أي شيء مثل التحليق بالخيال.

بالمُناسبة يا صديقي العزيز، ألا تعتقد أنّ ممّا يُحيّر هؤلاء الدوغماتيين القدماء أن يُحددوا أي واحد من السبيلين اللذين أشاروا إليهما بوصفه الأكثر أهمية والأكثر رفعة والذي تتجسّد به فعلاً كل حقائقهم التي يدعونها؟ أقصد حقيقة الجاذبية. كان نيوتن قد استمدّها من كبلر، وكبلر اعترف أنّ قوانينه الثلاثة جعلته يُخمّن.. هذه القوانين الثلاثة التي وراء كل القوانين التي قادت عالم الرياضيات الإنكليزي العظيم للتوصّل إلى مبدأه، وهو الأساس لكل مبدأ مادي.. أنّنا إذا أردنا تجاوزها علينا الدخول إلى مملكة الميتافيزيقيا. لقد خمّن كبلر.. بمعنى أنّه تخيّل. كان بالضرورة «صاحب نظرية».. وهذا الوصف الآن يحظى بالتبجيل، بعد أن كان سابقاً وصفاً يُثير الاحتقار. ألا يُمكن أن يكون ممّا حيّر هؤلاء المُغفلين القدماء أيضاً، أن يفسروا بأي واحد من «المسارين» يتمكّن مُحلل الشفرات والكتابات السرية من حلّ رسالة سرية ذات صعوبة أكثر من الاعتيادية، أو بأي واحد من المسارين أرشد شامبليون البشرية إلى تلك الحقائق الثابتة التي لا تُحصى والتي أسفرت عن فكّ شيفرة [921]الكتابات الهيروغليفية.

سأقول كلمة واحدة عن هذا الموضوع وأنتهي من إزعاجكم. أليس من الغريب، في ثرثرتهم الأبدية عن مسارات الوصول إلى الحقيقة، أنّ هؤلاء المُتعصبين أضاعوا ما نعرف الآن بوضوح أنّه الطريق المُباشر والسريع.. ذلك هو مبدأ التناسق؟ ألا يبدو من الغريب كيف أنّهم أخفقوا في أن يستنتجوا من كلمات الخالق تلك الحقيقة الكبرى وهي أنّ التماسك التام لا بُدّ أن يكون حقيقة مُطلقة! كم كان مسارنا واضحاً منذ التصريح الأخير بهذه الفرضية! لقد سُلب التحقيق في الأمر من المُكابرين وأعطي، كواجب، إلى المُفكرين الحقيقيين الوحيدين، رجال الخيال المُتوهّج. هؤلاء الذين يضعون النظريات. ألا يُمكنك أن تتخيّل صرخات الاحتقار التي يرد بها أسلافنا على كلماتي لو كان فقط بإمكانهم الآن أن يطلوا من فوق كتفي؟ هؤلاء الرجال، أقول من المنظرين؛ ونظرياتهم ببساطة صحيحة، مُختزلة، ومنهجية.. جرى تنقيتها، شيئاً فشيئاً، مما علق بها من نفايات التناقض.. حتى صارت أخيراً تمتاز بالتماسك التام الواضح الذي يعترف أكثر المُتشددين بأنّه حقيقة مُطلقة لا مجال للتشكيك فيها.

4 نيسان.. الغاز الجديد يصنع العجائب حقّاً، انسجاماً مع التعديل الذي أدخل مؤخراً على مادة الغاتابرشا المطاطية. كم هو آمن، فسيح، سهل التحكم، ومن كل النواحي يُصلح لكل أنواع مناطيدنا الحديثة! ها هو منطادٌ هائل يقترب منا بسُرعة لا تقلّ عن مائة وخمسين ميلاً في الساعة. يبدو أنّه مُزدحمٌ بالناس.. ربّما يوجد على متنه أربعمائة من الركاب.. ومع ذلك فهو يُحلّق على ارتفاع حوالى ميل، وينظرون إلينا نحن الفقراء في احتقار شديد. ومع ذلك فإنّ مائة أو حتى مائتي ميل في الساعة هي سرعة بطيئة على كل حال. هل تتذكّرون رحلة طيراننا فوق سكة الحديد عبر قارة كاناداو؟.. كانت السرعة ثلاثمائة ميل في الساعة بالتمام والكمال ..تلك هي السرعة المثالية للسفر فعلاً. مع أنّنا لم نتمكّن من رؤية شيء.. ولا شيء نشغل به أوقاتنا غير الغمز واللمز، والأكل والشرب والرقص كما في صالونات الأغنياء. هل تتذكرون ذلك الإحساس الغريب الذي راودنا، لمّا حدث مُصادفة، أن لمحنا أشياءً خارجية بينما كانت المناطيد تُحلّق بأقصى سرعة؟ كل شيء كان يبدو فريداً.. في كتلة واحدة. من جانبي، لا يُمكنني القول سوى إنّني كنت أُحبّذ السفر بالقطار البطيء بسرعة مائة ميل في الساعة. هُنا تُتاح لنا نوافذ ذات زجاج ننظر منها.. ونفتحها.. فنلمح الأرياف البعيدة.. يقول بنديت إنّ مسار سكة حديد كانادوا العظيم [922]لا بُدّ أن يكون قد جرى تخطيطه منذ تسعمائة سنة! في الواقع فهو يمضي إلى أبعد من ذلك ليؤكد أن الآثار الحقيقية التي تدل على وجود هذا الطريق ما تزال واضحة للعيان.. وهي آثار لا بُدّ أن تعود إلى حقبة بعيدة مثل التي ذكرتها. المسار فيما يبدو كان مُزدوجاً؛ أمّا مسارنا، كما تعلم، فله اثنا عشر ممرّاً؛ وثلاثة أو أربعة ممرات جديدة يجري التحضير لها. كانت سكك الحديد القديمة هزيلة وقليلة جداً، وهي مرصوفة قريبة من بعضها، بحيث تكون وفقاً للمفاهيم الحديثة، طائشة تماماً، إن لم تكن محفوفة بالمخاطر على أقصى التقديرات. العرض الحالي للمسار.. وهو خمسون قدماً.. نادراً ما يكون آمناً في الواقع بصورة كافية. من جانبي، لا يساورني الشك في وجود مسار كان هُنا منذ الأزمنة البعيدة جداً، كما يؤكد بنديت؛ فلا شيء يمكن أن يكون أوضح، بالنسبة إلى عقلي، من أنّه في فترة ما.. لا تقل عن سبعة قرون حتماً.. كانت قارة كاناداو الشمالية والأُخرى الجنوبية

مُتصلتين معاً؛ وأن الكاناداويين، آنذاك، كانوا يتنقلون بالضرورة على سكة حديد عظيمة تعبر القارة.

5 نيسان.. يكاد يقتلني الضجر. بنديت هو الشخص الوحيد الذي يُمكن التحدّث معه هُنا؛ وهو، يا للمسكين! لا يستطيع الكلام عن شيءٍ غير الأنتيكات. لقد أمضى النهار كله في مُحاولة لأن يُقنعني بأن الأمريكيين القدماء كانوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم!.. هل سمع أي شخصٍ بمثل هذا الهراء؟.. وأنّهم كانوا يعيشون في نوع من الكونفدرالية التي يفعل فيها كل إنسان ما يشاء، على غرار «كلاب البراري» التي نقرأ عنها في الحكايات الخُرافية. يقول: إنّهم بدأوا بأغرب ما يخطر على البال من الأفكار وهي أنّ كل إنسان يولد حراً ومساوياً للغير.. وهذا يقع في صلب قوانين التدرج التي تؤثر في كل الأشياء سواءً في كياناتها المادية أو المعنوية. فكل إنسان له حق «التصويت»، كما يُسمون ذلك.. بعبارة أُخرى له شأن لا يُستهان به في الأمور العامة.. إلى أن حدث أخيراً أن اكتشفوا أن ما يخصّ كل إنسان ليس من شأن أي إنسان، وأن «الجمهورية» (يا له من اسمٍ تافه!) أصبحت بلا حكومة إطلاقاً. لكن يُقال: إنّ الظرف الأول الذي عكّر صفو.. هذا ما حدث على وجه التحديد، إعجاب الفلاسفة بأنفسهم، هؤلاء الذين ابتكروا هذه «الجمهورية» كان اكتشافاً مُذهلاً بحيث إن حق التصويت العام أعطى المُحتالين والنصابين فرصة استطاعوا من خلالها الحصول على أي عددٍ مرغوب فيه من الأصوات في أي وقت، دون احتمال أن يواجهوا من يمنعهم أو يكشف أمرهم، ذلك ما يقوم به أيّ حزبٍ يكون أعضاؤه مُجرّد زمرة من المُنافقين الأوغاد الذين لا يخجلون من التزوير. إنّ قليلاً من التأمل في هذا الاكتشاف يكفي لأن يوضِح النتائج التي جعلت الخسّة والنذالة هي التي يجب أن تسود.. باختصار، أن حكومة جمهورية لا يُمكن أبداً أن تكون أي شيء سوى زمرة خسيسة. وبينما كان الفلاسفة منشغلين في [923]استمراء غبائهم في تجاهل هذه الشرور المحتومة، وقد عقدوا العزم على ابتكار نظريات جديدة، خضعت المسألة فجأة لمسار جديد من قبل شخص يحمل اسم موب، والذي أمسك بتقاليد الأمور بين يديه وراح يُمارس حُكماً استبدادياً، بحيث كان حكم الخُرافيين من أمثال

زيرو وهليوغابالوس[6] من الأشياء المُحترمة المُستساغة. إنّ موب هذا (وهو رجلٌ غريب بالمُناسبة)، يقال: إنّه كان مكروهاً أكثر من كل الناس الذي عاشوا على الأرض. كان في شكله العام عملاقاً.. مُتغطرساً، جشعاً، دنيئاً، له وقاحة ذكر الثيران وقلب الضبع وعقل الطاووس. ومات أخيراً بسبب إفراطه في الملذات التي استنفدت طاقاته. ومع ذلك كانت له إنجازاته المُفيدة، مثل أي وغدٍ سافل، فقد علم الإنسانية درساً بقي حتى هذا اليوم لا ينسى.. لا ينبغي أن تركض مُباشرة بعكس اتّجاه الظواهر الطبيعية. أما بالنسبة إلى الجمهوريين، فلا يوجد شيءٌ مُماثل يُمكن العثور عليه على وجه الأرض.. إلّا إذا استثنينا «كلاب البراري»، وهذا الاستثناء يبدو أنه يوضح، إن وضّح أي شيء، أنّ الديمقراطية شكل مُثير للإعجاب من أشكال الحكومة.. في نظر الكلاب.

6 نيسان.. في الليلة الماضية رأيتُ طيفاً جميلاً لألفا لايراي أو نجم فيغا، الذي كان شكله الأسطواني، من خلال منظار قبطاننا، يتّخذ زاوية نصف درجة، يبدو مُشابهاً كثيراً لشمسنا بإزاء العين المُجرّدة في يومٍ ضبابي. على الرغم من أن ألفا لايراي يبدو أكبر كثيراً من شمسنا، ولكن شيئاً فشيئاً، فهو يُشبهها كثيراً فيما يتعلّق بالبقع التي عليها، والأجواء المحيطة بها، وفي جوانب أُخرى كثيرة. في القرن الماضي فقط، كما قال لي بنديت، بدأت العلاقة الثنائية بين المدارين تُثير الشكوك. كانت الحركة الواضحة لنظامنا الشمسي في السماء (غريب أن نقول هذا؟) تُشير إلى وجود مدار حول نجمٍ هائل الحجم يقع في مركز المجرّة. حول هذا النجم، أو على كل حال حول مركز الجاذبية المعروف لكل كواكب درب التبانة ويُفترض أنّه بالقرب من نجم الكيون في مجرّة بلياديس، كل واحد من هذه الكواكب أعلن أنّه يدور، وتكتمل الدورة وفقاً لحساباتنا خلال فترة 170,000,000 من السنوات! نحن، بأجهزة الرصد الضوئي الحالية التي لدينا، والتعديلات الواسعة التي أُجريت على تلسكوباتنا، وما إلى ذلك، بطبيعة الحال نجد من الصعوبة استيعاب أساس فكرة مثل هذه. كان أول من أيّد الفكرة عالم

(6) زيرو هُنا يقصد به نيرون، وهليوغابالوس هو إيلاغابالوس إمبراطور روماني. [المترجم]

الفلك مودلر. ودفعه إلى هذه الفرضية الغريبة، كما نتصوّر، مُجرّد التماثل في الحالة الأُولى؛ لكن، بما أنّ هذه هي الحال، علينا على الأقل التمسك بالتماثل في تطوره. كان وجود المدار المركزي العظيم في حقيقة الأمر مُفترضاً؛ إلى هذا الحد كان رأي مودلر صائباً. لكن هذا المدار المركزي لا بُدّ أن يكون أكبر دراماتيكياً من كل ما يُحيط به من مدارات [924]مُجتمعة. وهُنا يأتي السؤال.. «لماذا لا نرى ذلك المدار؟».. خصوصاً نحن نحتل المنطقة الوسطى من مجموعة الكواكب.. وهو الموقع المُحدّد الذي على الأقل يقع بالقرب منه هذا النجم المركزي الذي لا يُرى. ربّما لجأ عالم الفلك عند هذه النقطة إلى فرضية عدم السطوع؛ وهُنا تسقط نظرية التماثل فجأة. ولكن حتى إذا اعترفنا بأن المدار المركزي غير ساطع، فكيف يُمكن تفسير أن لا يكون مرئياً من خلال الأعداد التي لا تُحصى من الشموس المُشعة التي تسطع حوله في كل الاتجاهات؟ لا شكّ أنّ ما أكّد عليه أخيراً كان مُجرّد مركز الجاذبية المعروف لكل المدارات.. ولكن هُنا، مرة أُخرى لا بُدّ أن تسقط فكرة التماثل. إن نظامنا الشمسي، كما هو مؤكد، يدور حول مركز جاذبية واحد مألوف، ولكن ذلك يحصل بالترابط مع ونتيجة لوجود شمس موجودة مادياً كتلتها أكبر من قادرة على مُعادلة التوازن لباقي أجزاء المنظومة. إنّ الدائرة الرياضية هي مُنحنى يتألف من خطوط مُستقيمة لا حدود لها؛ لكن هذه الفكرة عن الدائرة.. هذه الفكرة عنها، في كل نظريات الهندسة المعروفة على الأرض، نعتبرها مُجرّد أشياء رياضية، تمييزاً لها عن الفكرة العملية.. وهي، في الحقيقة المُتجسّدة للعيان، المفهوم العملي الذي هو وحده لدينا الحق في التمسك به بخصوص تلك الدوائر الجبارة التي علينا التعامل معها، على الأقل في مُخيلاتنا، عندما نفترض أنّ نظامنا، مع كل المُرافقين له، يدور حول نقطة تقع في مركزَ المجرّة. فلتُحاول أقوى المُخيلات البشرية أن تتّخذ خطوة واحدة باتّجاه استيعاب وجود دائرة لا يُمكن وصفها! لن أكون مُتناقضاً أو غامضاً حين أقول: إنّ وميضاً من البرق ينتقل إلى الأبد حول مُحيط هذه الدائرة التي لا يستوعبها الخيال، ويبقى مُستمراً إلى الأبد في خطٍّ مُستقيم.. وإنّ مسار شمسنا يخترق هذا المُحيط.. اتّجاه منظومتنا في هذا المدار.. بالنسبة إلى قدرة إدراك أي إنسان، سوف ينحرف بأقل درجة عن الخط المُستقيم خلال مليون من السنوات، هو مُجرّد افتراض

لا يُمكن تأكيده؛ مع أنّ هؤلاء الفلكيين القدماء كانوا حقاً مُتزلفين، كما يبدو، وذلك ما دفعهم للاعتقاد بوجود ميلان قاطع أصبح واضحاً أثناء الفترة القصيرة من تاريخهم الفلكي.. في هذه النقطة فحسب.. أثناء فترة العدم المُطلق التي دامت ألفي سنة أو ثلاثة آلاف سنة! يا له من شيء غير قابل للتصديق أنّ اعتبارات مثل هذه لم تجعلهم يفهمون مُباشرة الوضع الحقيقي للأمور.. الدوران المزدوج لشمسنا وكوكب ألفا لايراي حول مركز جاذبية واحد!.

7 نيسان.. تابعنا في الليلة الماضية الاستمتاع بمُراقباتنا الفلكية. وحصلنا على منظر رائع لخمسة كويكبات تدور حول نبتون، وراقبنا باهتمام شديد نصب [925]عمود ضخم على عتبتين من المعبد الجديد في دافنيس على القمر. كان من المبهج حقاً التفكير في أنّ مخلوقات صغيرة جداً من سكان القمر، التي تحمل بعض بالبشر، إلّا أنّها اخترعت ببراعة عبقرية تلك الآليات الميكانيكية التي تفوق مُبتكراتنا. يجد المرء الأمر صعوبة أيضاً في أن يتصوّر تلك التكتلات الهائلة من هؤلاء كيف يتعاملون بسهولة ويكون الأمر يسيراً لديهم كما تؤكد لنا عقولنا.

8 نيسان.. أوريكا! بنديت يعيش أفضل حالات الزهو بالانتصار. تكلم معنا راكبو منطاد من كاناداو اليوم ورموا إلينا عدة نسخ من الصحف القديمة؛ كانت تتضمّن بعض الأخبار المُثيرة فيما يتعلّق بالكاناديين أو بالأحرى التحف الأمريكية القديمة. كما تعلمون أتصوّر أنّ العمال كانوا منذ عدة أشهر مُنهمكين في تحضير الأُسس المُناسبة لإقامة نافورة جديدة في بارادايس، حديقة الإمبراطور الرئيسية ومصدر بهجته. يبدو أنّ بارادايس كانت، بالمعنى الحرفي، جزيرة منذ زمنٍ سحيق.. بمعنى آخر، فحدودها الشمالية كانت دائماً (كما مسجّل في المُدونات التاريخية) عبارة عن جدول، أو بالأحرى ذراع ضيقة جداً تمتد في البحر. هذه الذراع توسعت تدريجياً حتى وصلت إلى عرضها الحالي.. وهو ميل تقريباً. يبلغ الطول الإجمالي للجزيرة تسعة أميال؛ وعرضها يختلف من مكانٍ إلى آخر. كانت المنطقة بأسرها (هكذا يقول بنديت)، منذ حوالى ثمانمائة سنة ماضية، تعجّ بالبنايات، وبعضها عالية يصل عدد طوابقها إلى عشرين طابقاً؛ أما الأرض (لسببٍ غير معروف) فهي غالية الثمن في هذه المنطقة على وجه التحديد. إلّا أن

الهزة الأرضية المهولة التي حدثت سنة 2050، اقتلعت البلدة تماماً من أساساتها (لأنّها أكبر من أن تُسمى قرية) بحيث إنّ أغلب علماء الآثار لدينا، الذين لا يُمكن أن يُصيبهم الوهن بسهولة، لم يتمكّنوا من العثور في أي موقع على بيانات كافية (فيما يتعلّق بأشكال العملة، والميداليات أو النقوش والكتابات) يستطيعون من خلالها تشكيل ولو صورة وهمية عن السلوكيات، والعادات، إلخ، إلخ، إلخ.. للسكان الأصليين القدماء. يكاد يكون كل ما نعرفه حالياً عن هؤلاء السكان أنّهم كانوا جُزءاً من قبيلة كنكربوكر من البرابرة الذين غزوا القارة عند اكتشافها لأول مرّة من قبل ريكوردر رايكر[7]، وهو من فرسان الخراف ذات الصوف الذهبي. لكن هؤلاء الناس لم يكونوا على كل حال غير مُتحضّرين، لكنهم طوروا فنوناً وعلوماً مُتحضّرة على طريقتهم الخاصة. ويقال عنهم: إنهم كانوا حاذقين في الكثير من المجالات، مع أنّهم مُصابون بهاجس جنوني لبناء ما كان يُسمى في اللّغة الأمريكية القديمة «الكنائس» وهي نوعٌ من هياكل الهنود تخصص لعبادة صنمين يحملان عادة رموز الثروة والموضة. في نهاية الأمر، كما يقال، أصبحت الجزيرة، أو تسعة أعشارها، كنيسة. ويبدو أنّ النساء أيضاً كن يُعانين من [926]تشوّهات خلقية طبيعية بشكل تورّم في المنطقة التي تقع مُباشرة تحت الظهر.. على الرغم من أنّ هذا شيء لا تفسير له، إلّا أنّ التشوّه كان ينظر إليه كلياً في ضوء وجهة نظر جمالية. هُناك صورة أو صورتان لهؤلاء النسوة الغريبات المنظر، في الواقع، قد حفظت بمُعجزة. إنّهن يبدون غريبات جدّاً.. كأنّهن مخلوق بين الديك الرومي والجمل الذي له سنام واحد.

حسناً، هذه تفاصيل قليلة تكاد تكون كل ما وصل إلينا عن الكنكربوكر القدماء. ولكن يبدو أنّه بينما كانت تجرى عمليات التنقيب في وسط حديقة الأباطرة، (التي تعلمون أنّها تُغطي الجزيرة كلها) استخرج بعض العمال كتلة مكعّبة من الغرانيت منحوتة بالأزميل، تزن عدة مئات من الأرطال. كانت في حالة جيدة ولم تصبْ فيما يبدو بأضرار جسيمة من أثر الانهيارات التي طمرتها. على

---

(7) يُشير المؤلف إلى ريتشارد رايكر (1773- 1842) وهو سياسي من نيويورك اتّهم بالفساد وسرقة الذهب. [المترجم]

أحد سطوحها وجدوا (فقط فكّروا في الأمر!) كتابات.. كتابات مقروءة. وكاد بنديت يطير من فرط النشوة. لدى انتزاع اللوح الذي عليه الكتابة ظهر تجويف كان يحتوي على صندوق من مادة الرصاص مملوء بعملات معدنية مُتنوّعة الأصناف، ولفافة طويلة عليها أسماء، وعدة وثائق يبدو أنّها مُشابهة للصحف، تُشير إلى أمورٍ ذات أهمية بالغة عن الأنتيكات! لا يُمكن أن يكون ثمّة شك في أنّ كل هذه الذخائر الأمريكية الفريدة في نوعها تعود إلى قبيلة تُدعى كنكربوكر. الصحف التي أُلقيت على منطادنا كانت مليئة بنسخ مُماثلة من العملات المعدنية، والرسائل، ومطبوعات أُخرى، إلخ.. إلخ.. ومن أجل أن أُمتعكم أُرفق لكم نسخة من كتابات المُتوحشين من قبيلة كنكربروكر على لوح الرخام..

هذا حجر الزاوية لنصبٍ تذكاري

للراحل جورج واشنطن

شُيّد تزامناً مع مراسم خاصة تليق بالمُناسبة

في 19 تشرين الأول 1847

الذكرى السنوية لاستسلام اللورد كورنواليس

للجنرال واشنطن في يوركتاون سنة 1781م

وضع برعاية جمعية واشنطن للنصب التذكارية لمدينة نيويورك

هذه، كما ذكرت، ترجمة حرفية قام بها بنديت نفسه، لذلك فلا يُمكن أن يكون هُناك أي خطأ بشأنها. ومن الكلمات القليلة التي حفظت بتلك الطريقة، نكاد نلمح عدة نقاط مُهمة من المعلومات، ليس الأقل إثارة للاهتمام من بينها حقيقة أنّه قبل ألف سنة كانت نصبٌ تذكارية حقيقية قد سقطت بسبب الإهمال.. إضافة إلى كل الرموز.. واكتفى الناس، مثلنا الآن، بمُجرّد إشارة إلى التصميم على إقامة [927]نصب تذكاري في فترة من المُستقبل؛ حجر زاوية يوضع بعناية

وحذر «في مكان منعزل وحده» (اعذروني على الاقتباس من الشاعر الأمريكي العظيم بينتون![8])، كضمان على نوايا الشهامة. نحن واثقون أيضاً، بصورة لا غُبار عليها، من خلال هذه الكتابات التي تُثير الإعجاب، من الطريقة التي وقع فيها الاستسلام العظيم الذي نتساءل عنه، فضلاً عن المكان والأُسلوب. أما عن المكان، فهو في يوركتاون (أينما كانت)، وأما عمّا حدث، فكان الجنرال كورنواليس (لا شكّ أنّه كان من تجّار الحبوب الأثرياء) هو الذي استسلم. الكتابات تُسجّل ذكرى استسلام.. ماذا؟ لماذا؟، «اللورد كورنواليس». السؤال الوحيد: لماذا كان هؤلاء المتوحشون يرغبون في استسلامه؟ لكن عندما نتذكّر أنّ هؤلاء كانوا من غير شكّ من آكلي لحوم البشر، نستنتج أنّهم أرادوا أن يجعلوا منه سجقاً. أما عن كيفية الاستسلام، فلا توجد لغة أكثر وضوحاً.. استسلم اللورد كورنواليس (ليُصبح سجقاً) «تحت رعاية جمعية واشنطن التذكارية».. لا شكّ أنّها مؤسسة خيرية لوضع حجر الأساس لنصب تذكارية.. لكن، فلتُباركني السماء! ما الأمر؟ آه، فهمت.. المنطاد يسقط، وسوف نرتطم بالبحر. لذلك، فلا وقت لدي لأن أُضيف فأقول: إنّه من خلال تفحص سريع للنسخ المُصوّرة من الصحف، إلخ.. إلخ.. أجد صوراً للرجال العظماء في تلك الأيام من الأمريكيين، ومنهم رجل يُدعى جون، كان حداداً، وآخر اسمه زاكاري[9]، كان خياطاً.

وداعاً، وإلى أن نلتقي من جديد. وسواءً وجدتم هذه الرسالة أم لا فهذه مسألة لا أهمية لها، لأنّي أكتب لمُجرّد مُتعتي الخاصة. لكنّي سوف أضع الرسالة في قنينة، وألقيها في البحر.

صديقكم إلى الأبد،

بنديتا.

---

(8) توماس هارت بينتون (1782- 1858) سيناتور من ميسوري كان يكتب الشعر. [المترجم]

(9) الإشارة هُنا إلى الرئيس زاكاري تايلور، الذي انتُخب في الوقت الذي كتب فيه إدغار ألن بو قصته، وكلمة تايلور تعني خياطاً. [المترجم]

هوب فروغ

لم يسبق أن عرفت شخصاً يحب المزاح ويتلقّاه برحابة صدر مثل [928]الملك. يبدو أنّ الرجل كان يعيش من أجل المزاح فحسب. أن نحكي حكاية هزلية، وأن نحكيها بطريقة مُمتعة، فذلك أقصر الطرق لكسب ودّه. هكذا كانت تجري الأمور، بحيث إن سبعة من وزرائه كانوا معروفين ببراعتهم كمُهرجين. هؤلاء جميعاً كانوا يُشبهون الملك، في ضخامة أبدانهم، واكتنازهم بالشحوم، فضلاً عن أنّهم مُهرّجون لا نظير لهم. سواءً كان الناس يكتسبون السّمنة من كثرة الضحك، أو يوجد في السّمنة نفسها ما يفترض أن يُثير الضحك، لا أستطيع تحديد ذلك؛ لكن من المُحقّق أنّ المهرج النحيل «من الطيور النادرة في العالم» *rara avis in terris*.

عن خفّة الظل، أو كما يسمّونها «روح» الفطنة، لم يكن الملك ليشغل نفسه بهذا إلا قليلاً. كان مُعجباً بصفة خاصة بالتوسع في النكتة، وكثيراً ما كان يمضي بعيداً فيها إلى حد الإسراف، من أجل الضحك وحده. المُبالغة في خفة الظل تُزعجه. كان يُفضل (غارغانتوا) لرابا ليه على (زاديغ) لفولتير؛ وعلى الإجمال، فالنكات التمثيلية تُناسب ذوقه أفضل من اللفظية.

في الوقت الذي جرت فيه حوادث حكايتنا، لم يكن المهرجون المُحترفون قد أصبحوا بعد موضة زائلة في القصور. كانت عدة «دول» عظمى في أوروبا لا تزال تحتفظ بـ «مُهرجيها» الذين يرتدون ملابس مُبهرجة غريبة، من قبعاتٍ وأجراس، ويتوقّع منهم دائماً أن يكونوا على استعداد لإطلاق سيلٍ من نكاتهم اللاذعة، فوراً وعند الطلب، بما يتماشى مع فتات الخبز التي تتساقط من موائد النبلاء.

كان عاهلنا، بطبيعة الحال، يحتفظ بـ «مهرّجه الخاص». الحقيقة أنّه كان يُطالب دائماً بشيءٍ المرح.. إذا كان من شأن ذلك أن يتوازن مع الحكمة الثقيلة للحكماء السبعة من وزرائه.. ولا حاجة لأن نذكره هو نفسه.

لكن مهرجه، أو نديمه المُحترف، لم يكن مُغفلاً فحسب. كانت أهميته في عيني الملك مُضاعفة، بسبب حقيقة أنّه قزم أعرج. كان الأقزام من الأشياء المألوفة في القصر، في تلك الأيام، ويعتبرون من المعتوهين؛ والكثير من الملوك يجدون صعوبة في قضاء أوقاتهم (فالأيام تطول أكثر في القصور منها في أي مكان آخر) [929]من غير أن يوجد لديهم مُهرّج يضحكون عليه. ولكن، كما سبق أن لاحظت، فالمُهرّج الذي لديك، في تسعٍ وتسعين حالة من مائة، لا بُدّ أن يكون سميناً، مكوّراً، ثقيل البدن.. لذلك فهو ليس مصدراً قليلاً لإرضاء الذات بالنسبة إلى عاهلنا المُبجّل، بحيث، في حالة ذلك «الضفدع النطاط» هوب فروغ (وهو اسم ذلك المسكين)، يمكن القول: إنّه يمتلك ثلاث صفات في شخصٍ واحد.

أتصوّر أنّ اسم هوب فروغ لم يُمنح للقزم من قبل القائمين على تعميده، ولكنه وهب إليه كمنحة بالإجماع من عدة وزراء، وذلك يعود إلى عجز القزم عن المشي مثل سائر البشر. في حقيقة الأمر، كان باستطاعة هوب فروغ أن يتدبّر أمره في مشية تثير الاستغراب.. شيء يتراوح بين القفز والتمعج.. وهي حركة كانت تُثير متعة غير محدودة، وبطبيعة الحال، توفّر عزاءً للملك، (مع انتفاخ بطنه وشعور بالغثيان مُستمر في رأسه) فالملك، وحاشيته جميعاً، كانوا يعدّونه من الشخصيات النادرة.

مع أنّ هوب فروغ، في ارتباك ساقيه، لم يكن يستطيع أن يتحرّك إلا بألم شديد وبصعوبة على الدرب أو على الأرضية، فإن القوة العضلية الهائلة التي يبدو أنّ الطبيعة وهبتها لذراعيه، كتعويض عن قصور الأطراف السفلى، أتاحت له أن يؤدي الكثير من الحيل البارعة الرائعة، سواءً على الأشجار أو الحبال، أو أي شيء يتسلقه. في هذه التمارين كان يُشبه السنجاب أو القرد الصغير أكثر مما يُشبه الضفدع.

ليس في وسعي القول بدقة، من أي بلد جاء هوب فروغ. لكنه حتماً ينتمي إلى نوع من البرابرة الذين لم يسمع بهم أحدٌ من قبل.. يسكنون منطقة تقع على مسافة بعيدة جدّاً من قصر ملكنا. كان هوب فروغ وفتاة شابة قزمة أيضاً بدرجة أقل منه (على الرغم من تناسق جسمها، وهي راقصة ماهرة) قد حُملا بالقوة من بيوتهم المُتجاورة التي تقع في مُقاطعات مُجاورة، وأرسلا كهديتين للملك من قبل أحد جنرالاته المُظفرين.

في هذه الظروف، ليس من المُستغرب أن تنشأ علاقة حب بين الأسيرين الصغيرين. في الواقع سرعان ما أصبحا صديقين لا يفترقان. هوب فروغ، الذي على الرغم من أنّه كان يبذل جهداً استثنائياً في الاستعراضات، لم يكن معروفاً، فلم يكن في قدرته أن يُقدّم إلى صديقته «تربيتا» الكثير من الخدمات؛ لكنّها لسماحة أخلاقها وجمالها الفتان (مع أنّها من الأقزام)، كانت تلقى الإعجاب وتُثير الانبهار؛ لذلك كان تأثيرها على الآخرين كبيراً؛ ولم تفشل مرة في استغلال ذلك، كلما استطاعت، من أجل هوب فروغ.

في إحدى المُناسبات المُهمة في القصر.. وقد نسيت ما هي المُناسبة.. قرّر [930]الملك إقامة حفلة تنكّرية، وكلّما تقام حفلة تنكّرية أو أي شيءٍ من ذلك، في قصرنا الذي نتكلّم عنه، لا بُدّ أن تكون مواهب كل من هوب فروغ وتربيتا مطلوبة حتماً. كان هوب فروغ بصفة خاصة بارعاً في ابتكار أساليب اللعب عن طريق تقليد القرويين، وابتكار شخصيات جديدة، وتصميم الأزياء، خصوصاً في الحفلات التنكرية، بحيث لا يُمكن عمل شيء في ما يبدو دون مُساعدته.

وجاءت ليلة الحفلة الموعودة. وكانت إحدى القاعات المهيبة قد أُعدت للأمر، تحت إشراف تربيتا، وزينت بكل وسيلة من شأنها أن توفّر النجاح للحفلة التنكرية. وكانت حاشية القصر كلها في شغلٍ شاغل وفي حركة محمومة تدفعهم شتى التوقّعات. أما عن الأزياء والشخصيات، فربّما يفترض المرء أنّ الجميع توصلوا إلى قرار حول هذه المسائل. لقد وطّد الكثيرُ منهم العزم (بشأن الأدوار التي سوف يؤدونها) منذ أُسبوع، أو حتى شهر؛ وفي حقيقة الأمر، ما من جزئية

لم يتّخذ قرار بشأنها في أي مكان.. باستثناء الملك نفسه ووزرائه السبعة. لماذا! كانوا! مُترددين؟ لا يُمكنني تحديد هذا، إلّا إذا كانوا يفعلون ما يفعلون على سبيل المزاح. الشيء الأكثر قبولاً أنّهم وجدوا من الصعب، بسبب ضخامة جثثهم، أن يحزموا أمرهم. على كل حال، كان الوقت يمر؛ وكقرار أخير أرسلوا في طلب تربيتا وهوب فروغ.

لما حضر الصديقان استجابة لطلب الملك، وجداه جالساً إلى طاولة النبيذ مع سبعة أفراد من كابينته الوزارية؛ لكن ظهر لهما أنّ الملك كان في مزاج سيىء. كان يعرف أن هوب فروغ لا يحب النبيذ، لأن ذلك يُثير القزم الأعرج المسكين ويجعله شبه مجنون؛ والجنون ليس بالإحساس المريح. إلّا أنّ الملك كان يعشق نكاته التي يُمثلها عملياً، وكان يستمتع في إجبار هوب فروغ على الشرب و.. (كما يُسميه الملك) «أن يروّح عن نفسه».

«تعال إلى هُنا، هوب فروغ»، قال الملك، بينما دخل المُهرج وصديقته إلى الحُجرة؛ «اشرب هذه الكأس في صحة أصدقائك الغائبين»، (هُنا تنهّد هوب فروغ)، «ثم دعنا نستمتع بإبداعاتك. نريد منك شخصيات ..شخصيات، أيها الرجل.. شيئاً جديداً.. خارج نطاق المألوف. لقد ضجرنا من هذه الأشياء المُتكرّرة دائماً. تعال، واشرب! النبيذ سوف يُنشط مواهبك».

وهُنا حاول هوب فروغ، كما جرت العادة، أن يبتكر مزحة ردّاً على هذه المُقدمات من الملك؛ لكن ذلك كان أكثر من قُدرته. حدث ذلك في يوم ميلاد القزم المسكين على وجه التحديد، وأمره الملك أن يشرب نخب «أصدقائه الغائبين» مما جعل دموعه تنهمر غزيرة من عينيه. سقطت قطرات.. غزيرة من الدموَع على الكأس وهو يتناولها بتواضع، من يد الطاغية.

«هاه! هاه! هاه!» زمجر الأخير، بينما كان القزم يفرغ النبيذ في جوفه.. «انظر ماذا يفعل كأسٌ من النبيذ! عجيب، عيناك تلمعان الآن!»

يا للقزم المسكين! كانت عيناه الواسعتان تُرسلان شرراً بدلاً من اللمعان؛ [931]لأنّ تأثير النبيذ على ذهنه المُرهق جعله عاجزاً عن التفكير في شيء أو

الاستجابة لشيء. وضع الكأس في عصبية على الطاولة، وراح ينظر إلى جمع الحاضرين من طرف عينه.. نظرات طائشة. بدوا جميعاً مُستمتعين كثيراً من نجاح مزحة الملك.

«والآن هيّا إلى العمل»، قال رئيس الوزراء، وكان رجلاً سميناً جدّاً.

«نعم»، قال الملك؛ «تعال وساعدنا. شخصيات، يا رفيقي العزيز؛ نحن في حاجة إلى شخصيات.. نحن جميعاً.. هاه! هاه! هاه!» ولأنّ هذا كان يُقال في سبيل المزاح، فقد ردّد ضحكته سبعة من الرجال.

وضحك هوب فروغ أيضاً رغم أنّ ضحكاته كانت واهنة وفارغة من أي معنى.

«تعال، تعال»، قال الملك، وكاد صبره أن ينفد، «أليس لديك شيء تبتكره؟».

«أحاول التفكير بشيء جديد»، أجاب القزم، وكان شارد الذهن، لأنّه كان مُحتاراً مُرتبكاً من أثر النبيذ.

«تُحاول!» صرخ الطاغية بعنف؛ «ماذا تعني بذلك؟ آه، عرفت. أنت خبيث، وتريد المزيد من النبيذ. خذ، اشرب هذا!» وصبّ كأساً أُخرى مُترعة وعرضها على القزم الأعرج الذي راح يُحملق فيها، وكان يلهث لالتقاط أنفاسه.

«اشرب، أقول لك!» صاح الوحش، «وإلا بحق الشياطين..».

وتردّد القزم. وصار لون وجه الملك قرمزياً من الغضب. وكان أفراد الحاشية يتكلّفون الابتسام. أمّا تربيتا، وكان لونها شاحباً كالجثة، فتقدّمت نحو مجلس الملك، وجثت على ركبتيها أمامه، وتوسّلت إليه أن يعفو عن صديقها.

نظر إليها الطاغية بعض الوقت في استغراب من وقاحتها. بدا ضائعاً تماماً فلا يعرف ماذا يفعل أو يقول.. أو كيف يُعبّر عن امتعاضه. وأخيراً، دون أن ينطق كلمة، ركلها بعنف بعيداً عنه، وألقى مُحتويات الكأس المُترعة على وجهها.

نهضت الفتاة المسكينة بما وسعها من قوة، ولم تجرؤ حتى أن تتنهّد، وذهبت إلى مكانها عند ركن الطاولة.

ساد صمتٌ مُطبق مدة نصف دقيقة تقريباً، أثناء ذلك ربما كان صوت ورقة ساقطة، أو ريشة بالإمكان أن يسمع. وقطع ذلك الصمت صوتٌ مُنخفض، لكنّه حاد وطويل، صوتُ صرير.. بدا أنّه يأتي من كل أركان الحُجرة.

«لماذا.. لماذا ..لماذا تصدر تلك الضوضاء؟» صاح الملك، واستدار بضراوة نحو القزم.[932]

بدا الأخير كأنّما استعاد رشده وتخلّص من مفعول الشراب، وكان ينظر بثبات لكن بهدوء إلى وجه الطاغية، لكنّه اكتفى بالقول:

«أنا.. أنا؟ لا يُمكن أن أكون أنا؟».

«يبدو أنّ الصوت جاء من الخارج»، صرّح أحد أفراد الحاشية. «أتصوّر أنّها تلك الببغاء التي عند النافذة، وهي تحكّ منقارها على أسلاك القفص».

«هذا صحيح»، أجاب الملك، كما لو أنّه أحس بالارتياح من هذا الرأي؛ «لكني أقسم بشرفي كفارس، أنّ الصوت جاء من صرير أسنان هذا الصعلوك».

هُنا ضحك القزم (وكان الملك من المازحين الذين لا يُمكنهم الاعتراض على أن يضحك المرء في حضرته)، وقام بأداء مجموعة عروضٍ قوية وكان يُصدر أصواتاً مُثيرة للاشمئزاز من بين أسنانه. فضلاً عن هذا، أبدى استعداده لأن يشرب أي كمية من النبيذ. وانبسطت أسارير الملك؛ وبعد أن أفرغ كأساً أُخرى في جوفه دون أن يكون لها أثر واضح عليه، شرع هوب فروغ فوراً، في حيوية بالغة، في تنفيذ الخطط التي أعدّها للحفلة التنكرية.

«لا يُمكنني التصرّف الآن بعقلانية وأفكاري ليست مُترابطة»، قال بهدوء شديد، وكأنه لم يذق طعم النبيذ في حياته، «ولكن بعد أن ركل جلالتكم الفتاة ورميتم النبيذ على وجهها ..بعد أن فعل جلالتكم هذا، وبينما كانت الببغاء تصدر تلك الضوضاء من خارج النافذة، خطر في ذهني تحوّل أساسي أُجريه على

خطتي.. واحد من الأشياء المرحة التي اعتدنا أن نقوم بها في بلادنا.. وكثيراً ما كنّا نُمارس ذلك فيما بيننا في حفلاتنا التنكرية؛ لكن هُنا يختلف الأمر كلياً. لسوء الحظ الأمر يتطلّب فريقاً من ثمانية أشخاص و..».

«ها نحن موجودون!» صاح الملك، وكان يضحك من اكتشافه الحاذق للمُصادفة؛ «ثمانية وكسر.. أنا ووزرائي السبعة. تعال! ما هي خطتك؟».

«نحن نُسميها»، أجاب الأعرج، «قرود أورانغ أوتانغ المُكبّلة الثمانية، وهي حقاً لُعبة رائعة إذا أُديت كما ينبغي».

«سوف نؤدّيها»، علّق الملك، وحاول أن ينهض، وانخفضت أجفانه.

«جمال اللعبة»، تابع هوب فروغ كلامه، «يكْمن في الفزع الذي تُثيره بين النساء».

«شيءٌ رائع!» زمجر كورس الملك ووزرائه.

«سوف أجعلكم تلعبون دور قرود أورانغ أوتانغ»، تابع القزم؛ «اتركوا الأمر لي. الشّبه سوف يكون مُذهلاً، بحيث إن الحاضرين في الحفلة سوف يعتبرونكم وحوشاً حقيقية.. وبطبيعة الحال، سوف يخافون ويندهشون».

«أوه، يا له من شيء استثنائي!» هتف الملك. «هوب فروغ! سوف أكون من [933]رجالك الذين تفتخر بهم».

«السلاسل تزيد حدة التوتر من خلال خشخشتها. يفترض أن تكونوا قد هربتم من الأقفاص، جميعاً، من حراسكم. جلالتكم لا يُمكن أن تتصوّروا التأثير الذي سوف ينتج، أثناء حفلة تنكرية، من ثمانية قرود مُكبّلة بالسلاسل، يتخيّلها أغلب الحاضرين قروداً حقيقية؛ وهي تتدافع في صرخاتٍ وحشية، وسط الحشود المُبتهجة من الرجال والنساء. هذا نوعٌ من التمثيل لا نظير له!».

«لا بُدّ أن يكون كذلك»، قال الملك؛ وانفضّ المجلس على عجل (فالوقت كان مُتأخراً)، لوضع خطة هوب فروغ موضع التنفيذ.

كانت طريقة تجهيز جماعة القرود بالملابس اللازمة بسيطة جداً، لكنها

فعالة لأداء الغرض المطلوب. الحيوانات التي نتكلّم عنها، في الفترة التي حدثت فيها قصتي، كانت نادراً ما تُشاهد في أي جزءٍ من العالم المُتحضّر؛ ولأن وسائل المُحاكاة التي أجراها القزم كانت تكفي لجعل المُمثلين يبدون مثل القرود بل كانت أكثر من كافية لإضفاء مظاهر الرعب، فإنّ عناصر الشّبه بالحقيقة تحقّقت كما تصوّر الجميع.

لبس الملك والوزراء في بداية الأمر بعض القمصان والسراويل التحتية الخفيفة. وبعد ذلك طُليت أجسادهم بالقطران. في هذه المرحلة، اقترح أحد الحاضرين أن يُلصق عليهم الريش؛ إلّا أنّ المقترح رفض فوراً من قبل القزم، الذي توصّل إلى إقناع الأشخاص الثمانية، من خلال عرض بصري، أن شعر حيوانٍ مُتوحش مثل قرد أورانغ أوتانغ يكفي لأن يحلّ محلّه شيء من الفرو. وعلى الفور لصقت الأجساد بهذه المادة فوق طلاء القار. ثم أحضرت الآن سلاسل طويلة. وجرى تمريرها أولاً حول خصر الملك، وربطت، ثم حوّلت إلى فرد آخر من الجماعة، وكذلك ربطت؛ وبعد ذلك ربطت السلسلة حول أعناق الباقين على التوالي بالطريقة نفسها. لما انتهت عملية التكبيل بالسلاسل، ووقف المُمثلون كل واحد منهم بعيداً عن الآخر بما يكفي، قاموا بتشكيل دائرة؛ ومن أجل أن يجعل كل شيء يبدو طبيعياً، مرّر هوب فروغ ما تبقى من السلسلة بشكل مُتقاطع في زوايا قائمة عبر الدائرة، على غرار ما يحصل في أيامنا هذه من قبل أولئك الذين يمسكون بالشمبانزي، أو أي قرود أُخرى في بورنيو.

كانت القاعة الفخمة التي أُعدّت لإقامة الحفلة التنكرية فسيحة ودائرية الشكل، وعالية السقف جدّاً، وتتلقّى ضوء الشمس فقط من كوةٍ واحدة في القمة. في الليل (وهذا ما جعل القاعة تتّخذ ذلك التصميم خاصة) كانت تُضاء أساساً بشمعدان ضخم، يتدلّى بسلسلة من مُنتصف السقف العالي، وينخفض، أو يرتفع، [934]بواسطة حبلٍ طويل؛ لكن (من أجل ألا يبدو المنظر مُستهجناً) كان هذا الحبل يُمرر من خارج القبة فوق السقف.

لقد تُرك أمر ترتيب القاعة إلى إشراف تربيتا ومُراقبتها؛ لكن، بخصوص بعض الجزئيات، كما يبدو، كان يُساعدها في ذلك صديقها القزم الذي كان

يُعطيها بعض التوجيهات بهدوئه المُعتاد. وتنفيذاً لاقتراحه، في هذه المناسبة، تمّ رفع الشمعدان. كانت قطرات الشموع تتساقط منه (في ذلك الجو الحار، كان من المُستحيل تجنّب الأمر) فكانت تلحق ضرراً جسيماً بملابس الضيوف الأثرياء، وبسبب الازدحام في الصالة، لا يتوقّع منهم جميعاً الابتعاد عن مُنتصف الصالة؛ بمعنى آخر، من تحت الشمعدان. ووضعت حاملات مصابيح جدارية في أماكن مُتفرقة من الصالة، بعيداً عن الناس، مع مبخرة تبعث روائح زكية، وضعت في الزاوية اليمنى من تماثيل أنثوية تقوم مقام الأعمدة التي تنتصب عند الحائط.. نحو خمسين أو ستين منها.

كانت قرود أورانغ أوتانغ الثمانية، تنفيذاً لتوجيهات هوب فروغ، تنتظر بنفاد صبر حلول الليل (حين تمتلئ الصالة تماماً بالمدعوين إلى الحفلة التنكرية) قبل أن يظهروا هُناك. لكن ما إن توقفت الساعة عن الرنين حتى اندفعت، أو بالأحرى تدحرجت جميعاً.. لأنّ السلاسل التي كانت تعيق حركاتهم جعلت مُعظم الجماعة يتساقطون، وكانوا يتعثّرون عندما دخلوا.

كانت الإثارة التي خلقها هذا المشهد وسط المشاركين في الحفلة التنكّرية شيئاً مُذهلاً، وامتلأ قلبُ الملك بالبهجة. لأنّه كان يتوقّع، وجود عدد غير قليل من الضيوف الذين يفترضون أنّ تلك المخلوقات ذات المنظر المُخيف من الوحوش الحقيقية من نوع ما، إن لم تكن حقّاً من قرود أورانغ أوتانغ. أُغمي على كثيرٍ من النساء من شدة الذعر؛ ولولا أنّ الملك اتّخذ بعض التدابير لمنع دخول أي أسلحة إلى الصالة، ربّما عبّر حاشيته عن غضبهم بأفعال طائشة. لكن هكذا جرت الأمور، حصل تدافعٌ شامل باتّجاه الأبواب؛ غير أنّ الملك أمر بأن يحتجزوا فوراً لدى دخوله؛ وبتوجيه من القزم، أودعت المفاتيح لديه.

وبينما كانت الفوضى على أشدها، وكل من جاء إلى الحفلة التنكرية لا يكترث إلا لسلامته الخاصة (في الواقع كان ثمّة خطر حقيقي من تدافع الجمهور)، ربّما رأى الناس أنّ السلسلة التي يتعلّق منها الشمعدان الضخم بصورة اعتيادية، والتي سحبت إلى الأعلى قبل ذلك، كانت تنزل تدريجياً، إلى أن وصلت نهايتها المربوطة على بعد ثلاثة أقدام من الأرضية.

بعد هذا بقليل، لمّا تدحرج الملك وأصدقاؤه السبعة في أرجاء الصالة في [935]كل الاتّجاهات، وجدوا أنفسهم أخيراً يقفون في المُنتصف، وبطبيعة الحال في اتّصال مُباشر مع السلسلة. وبينما كانوا في موقعهم ذاك، حثّهم القزم الذي كان يتعقّبهم دون أن يُثير الانتباه على أن يستمروا في إثارة الضجيج، وأمسك السلسلة التي قيّدهم بها عند نقطة الاتصال بين جزأين منها يقطعان الدائرة عرضياً في زوايا قائمة. وهُنا، في سرعة بديهة، وضع الخطاف الذي يتعلق به الشمعدان، وفي لحظةٍ واحدة، بمُساعدة رفيقٍ له يختفي وراء ستار، سُحبت سلسلة الشمعدان إلى الأعلى بحيث ابتعد الخطاف عن مُتناول اليد، ونتيجة محتومة لذلك، سُحبت القرود معاً.. مُتلاصقين، مُتقابلين وجهاً لوجه.

أفاق المدعوون للحفلة التنكرية الآن من هول المُفاجأة، وبدؤوا ينظرون إلى الأمر كله على أنّه لعبة مُمتعة مُبتكرة، وأطلقوا صيحاتٍ عالية وضحكات من المأزق الذي وقع فيه القرود.

«اتركوهم لي!» الآن صاح القزم، وكان صوته الحاد يُسمع بسهولة في أرجاء الصالة. «اتركوهم لي. أتصوّر أنّني أعرفهم واحداً واحداً. لو استطعت فقط أن أنظر إليهم، يُمكنني أن أُخبركم من هم».

هُنا، اندفع فوق رؤوس الحاضرين، وتمكّن من الوصول إلى الحائط؛ عندها أمسك مشعلاً من إحدى الحمالات، ثم عاد إلى مُنتصف الصالة وهو يعرج بنشاط مثل القرد، وداس على رأس الملك وحاشيته، ومن هُناك تسلّق السلسلة إلى بضعة أقدام؛ وأمسك الشعلة لكي يتفحّص مجموعة القرود، وكان لا يزال يصرخ: «سرعان ما اكتشفهم!».

والآن، بينما كانت الجماعة كلّها (ومنهم القرود) يكادون يختنقون من الضحك، أطلق المهرج فجأة صفيراً حادّاً؛ وحين ارتفعت السلسلة بعنف إلى نحو ثلاثين قدماً.. وسحبت معها القرود البائسة الهائجة، وتركتهم مُعلّقين في مُنتصف الطريق بين السماء والأرض. تعلّق هوب فروغ بالسلسلة وهي ترتفع، وحافظ على موضعه نسبياً بعيداً عن المُمثلين المُتنكرين الثمانية، ومع ذلك (كما

لو أنّ الأمر لا يعنيه) استمرّ في إلقاء ضوء شعلته باتّجاههم، كأنّما كان يُحاول الكشف عن شخصياتهم.

واستبدّت الدهشة المُطلقة على الجماعة من هذا الصعود، بحيث ساد صمتٌ مُطبق خلال دقائق. وكسر الصمت صوتٌ مُنخفض، حادّ، مُقتضب مثل الصوت الذي سبق أن جذب انتباه الملك وحاشيته عندما ألقى النبيذ في وجه تربيتا. [936]لكن، في الوقت الحالي، لم يكن هُناك مجال للشك في مصدر الصوت. لقد جاء من بين الأسنان التي كأنها الأنياب في فم القزم الذي كان يجعلها تصطكّ وهو يصرخ ويطلق الزبد من فمه، وكانت عيناه تطلقان شرراً في تعبير عن الغضب المجنون، على وجه الملك المقلوب ورفاقه السبعة.

«آه، آه!» قال المهرج الساخط أخيراً. «آه، آه! بدأت أرى من يكون هؤلاء الأشخاص الآن!» وهُنا، تظاهر بأنه يتفحص وجه الملك عن قرب أكبر، أمسك الشعلة وقرّبها من معطف الفرو الذي كان يُحيط به، والذي سرعان ما تحوّل إلى كتلة من اللهب. في غضون أقل من نصف دقيقة كانت القرود الثمانية جميعاً تحترق بضراوة، وسط فوضى من صرخات الحاضرين الذين كانوا يُحملقون فيهم من تحت، وقد اعتراهم الذعر، دون أن تكون لديهم قدرة على تقديم أقل مُساعدة.

وأخيراً أجبرته ألسنة اللهب التي تزايدت فجأة مُنذرة بالخطر أن يتسلّق عالياً، حتى صار بعيداً عن مُتناول اليد؛ وبينما كان يقوم بهذه الحركة، لاذ الحاضرون من جديد بالصمت لفترة وجيزة. وهُنا انتهر القزم فرصته، وتكلّم على الفور:

«أرى الآن بوضوح». قال، «حقيقة هؤلاء الذين يلبسون الأقنعة. إنّه ملكٌ عظيم ومُستشاروه السبعة.. ملكٌ لا يتورّع عن ضرب فتاة لا حول لها ولا قوة وسبعة وزراء يُحرّضونه على الاعتداء. أما بالنسبة لي، فأنا مُجرّد هوب فروغ، المُهرج.. وهذه آخر لُعبة أُؤديها».

وبسبب شدة اشتعال الفرو المطلي بالشمع والقطران، ما كاد القزم يختتم

خطابه الموجز حتى تحقّق انتقامه بالشكل التام. وتعلّقت الجثث السبع على سلاسلها، بهيئتها الكريهة، المُتفحّمة، البشعة، كتلة غير مُميزة المعالم. وألقى الأعرج شعلته عليهم، وتسلّق ببطء إلى الأعلى، واختفى عبر فتحة في السقف.

من المُفترض أن تربيتا التي اتّخذت موقعها عند سقف الصالة، كانت شريكة لصديقها في خطة انتقامه المُرعب، وأنّهما تمكّنا من الهرب إلى بلدهما؛ لأنّ أحداً لم يرهما مرة أُخرى.

كوخ لاندور

أثناء رحلة قمت بها سيراً على الأقدام في الصيف الفائت، عبر بعض [937]المناطق التي تقع على ضفاف النهر في نيويورك، وجدت نفسي، بينما كانت الشمس توشك على الغروب، في وضع مُحرج بعض الشيء بشأن الدرب الذي علي اجتيازه. كانت الأرض مُتموجة غير مُستوية؛ والدرب الذي قطعته منذ ساعة كان يتلّوى هُنا وهُناك على نحو مُربك، في مسعى للبقاء ضمن أكناف الوديان، بحيث لم أعد أعرف في أي اتّجاه تقع القرية الجميلة ب. التي أردت التوقف فيها لقضاء الليل. لم تكن الشمس مرئية.. إذا شئنا الدقة.. طوال النهار، الذي كان دافئاً بشكل مُضجر. كانت غمامة من الدخان، تُشبه ما يحصل أثناء الصيف الهندي، تُغلف كل شيء، وبطبيعة الحال، تُضيف إلى هواجسي وشكوكي. ليس الأمر يعود إلى أنّني كنت أكترث كثيراً لهذه المسألة. إذا لم أصل إلى القرية قبل الغروب، أو حتى قبل الظلام، فمن المُحتمل أن أعثر على كوخٍ هولندي، أو شيء من هذا، خلال وقت قصير.. مع أنّ هذه الأماكن (ربّما لأنّها خلابة أكثر ممّا هي خصبة) لا تكاد تكون مأهولة. على كل حال، بوجود حقيبة السفر التي على ظهري يُمكنني أن أستخدمها كوسادة، وكلب الصيد كحارس، فمُخيمٌ في العراء شيءٌ يُسعدني أن أفعله. وهكذا رحت أمشي الهوينى دون أن أحس بالقلق.. وتولّى بونتو حمايتي، وبندقيتي في يدي.. حتى، حين كنت على وشك أن أبدأ بالتفكير فيما إذا كانت تلك الفسحات الصغيرة التي تنتشر هُنا وهناك يمكن أن تكون من الممرات، فقد قادني واحدٌ منها إلى درب للعربات لا مجال للشك فيه. كانت آثار عجلات خفيفة تبدو واضحة؛ وعلى الرغم من وجود شُجيرات عالية مُتشابكة تلتقي فوق الرؤوس، فما من عائقٍ في الأسفل، حتى لمرور عربة جبلية من فرجينيا.. وهي العربة الأكثر إلهاماً بالنسبة لي. إلّا أنّ

الطريق، عدا أنّه كان مفتوحاً أثناء اختراق الغابة.. إن لم تكن كلمة غابة اسماً ثقيلاً لمثل هذا [938]التجمع من الأشجار الخفيفة.. وباستثناء ما يتعلّق بتفاصيل آثار العجلات الواضحة.. لم يكن يحمل أي شبه مع أي دربٍ رأيته من قبل. الآثار التي أتكلّم عنها بالكاد تبدو مرئية.. بعد أن انضغطت على التربة الصلبة التي تبدو رطبة لمنظرها الجميل.. كأنّها بساط مخملي أخضر من جنوة أكثر من أي شيء آخر. العشبُ يُغطيها من كل مكان.. نادراً ما نرى مثله خارج إنكلترا.. قصير جدّاً، كثيف، مستو، ونضر في ألوانه. ما من عقبة تُعكّر مرور العجلات على طريقها.. ولا حتى كسرة حجر أو شظية غصن يابس. الحجارة التي أعاقت طريقي مرة كانت مرصوفة في أماكنها بمهارة.. غير مُلقاة على جانبي الطريق، تؤشر حدوده في دقة لا تخلو من عشوائية طبيعية تجعل المنظر خلّاباً. وهُناك تكتّلات أزهار برية تنمو في كل مكان بوفرة، بين فواصل الحجارة.

ما الذي يُمكن أن يستنتجه المرء من كل هذا، لا علم لي بهذا. هُنا، يتجسّد الفن بأبهى الصور، لا شكّ في هذا.. ولم يثر استغرابي.. كل الطرقات، بالمعنى الاعتيادي، كل الأعمال الفنية؛ لا أستطيع القول: إنّ ثمّة الكثير من الأشياء التي تُثير دهشتي في تجلّيات الفن المُجرّدة؛ كل ما يُمكن أن يُنجز، ربّما أُنجز هُنا.. في إبداعات طبيعية مُتناهية (كما يقولون في الكتب عن تنسيق الحدائق الطبيعية).. في أدنى جهد وأقل النفقات. كلّا؛ لم يكن المقدار أو المساحة وإنّما السمات الفنية هي التي جعلتني أتّخذ مقعداً على إحدى الأحجار التي تُحيط بها الزهور ورحت أنظر إلى الأعلى وإلى الأسفل نحو هذا الممر الملتوي الذي يُشبه الجنيات الراقصة لمدة نصف ساعة أو أكثر في انبهار وحيرة. هُناك شيءٌ يتضح أكثر فأكثر كلّما أطلّت النظر؛ أي فنان عبقري لديه عين موسوسة فاحصة تنقب عن الشكل تولي الإشراف على كل هذه الأعمال المُنسّقة؟ توخي أقصى درجات العناية في الإبداع بغية الإبقاء على توازنٍ مُناسب بين الأناقة والجمال من جهة، وبين تنوّع الألوان بالمعنى الحقيقي للمُصطلح كما ينظر إليه الإيطاليون، من جهة أُخرى.. هُناك خطوط مُستقيمة قليلة، وانعدام لخطوط طويلة غير مُتقطعة. التأثير نفسه للتقوس، أو تأثير الألوان يظهر مرتين، لكنه لا يظهر في كثيرٍ من الأحيان،

في أي زاوية للنظر. أينما اتّجهت العين ترى تنوّعاً في العشوائية. إنّها توليفة يعجز عن تفسيرها الذوق النقدي الأكثر رفعة، بالكاد يفترض احتمال إدخال أي تعديل.

كنت قد استدرت إلى اليمين حين دخلت هذا الطريق، والآن نهضت وأكملت مشواري في الاتجاه نفسه. الممر الذي سلكته كان يتلوّى كالأفعى، بحيث إنّني في أي لحظة لم أتمكّن من مُتابعة السير لأكثر من خطوتين أو ثلاث سلفاً. لم تواجه طبيعة هذا الطريق الأصلية أي تغيّر مادي أبداً.

الآن اخترقت دمدمة المياه أُذني كأنّها الهمس.. في غضون لحظاتٍ قليلة، بينما تحوّلت خطواتي مع الدرب بشكل مُفاجئ بعض الشيء أكثر ممّا حصل حتى [939]الآن، رأيت كوخاً من نوعٍ ما عند قاعدة مُنحدر يقع مُباشرة أمام عيني. لم يكن في وسعي رؤية شيء آخر بسبب الضباب الذي يكتنف الوادي الصغير من تحتي. الآن كان يهب نسيمٌ لطيف بينما كانت الشمس على وشك الهبوط؛ وبقيتُ واقفاً على حافة المُنحدر، وأصبح الضباب تدريجياً أكاليل زهور تطوف فوق المشهد.

لمّا تجلّى أمامي كله المشهد ..على نحوٍ تدريجي كما وصفته.. قطعة بعد أُخرى، لمحت شجرة، وهُناك وجدتُ نهراً، وهُنا مرة أُخرى رأيتُ قمة مدخنة، بالكاد كان في وسعي منع نفسي من أن أتخيّل كل ذلك جزءاً من الأوهام العبقرية التي تظهر أحياناً كأنها صورٌ مُتلاشية.

في الوقت الذي تلاشى فيه الضباب، كانت الشمس تنزل رويداً لتختفي وراء التلال المُنخفضة، ومن هُناك، كأنّما يدفعها نسيمٌ خفيف باتّجاه الجنوب، خرجت من جديد بكل تألقها، وراحت ترسلُ حزمها البنفسجية عبر هاوية لتخترق الوادي من الغرب. وبعد ذلك، على حين فجأة.. كما لو أنّ ذلك حدث بقوى سحرية.. تجلّى هذا الوادي وكلّ ما فيه بأبهى صورة.

أولُ نظرة خاطفة *coup d'oeil*، والشمس تنزلقُ إلى الموقع الذي وصفناه، أذهلتني كثيراً بمثل ذهولي الذي عرفته وأنا صبي، حين كنت أرى المشهد الختامي لعرضٍ مسرحي أو ميلودراما نرتّبها عفوياً أثناء اللعب. المشهد لا يفتقر

إلى تنوّع الألوان؛ لأنّ ضوء الشمس وهو يخرج من الهاوية، يتراوح بين البرتقالي والأُرجواني؛ بينما ينعكس لونُ العشب باخضراره النضر في أرجاء الوادي بشكل أو بآخر على ستارة البخار التي لا تزال تتعلّق فوق الرأس، كأنّما تكره أن ترحل نهائياً فتترك مشهداً ساحراً بهذا الجمال.

الوادي الصغير الذي كنت أطلّ عليه من تحت مظلّة الضباب لا يُمكن أن يتجاوز طوله أكثر من أربعمائة ياردة؛ بينما يتراوح عرضه من خمسين إلى مائة ياردة، وفي أماكن أُخرى ربّما من خمسين إلى مائتي ياردة. لم يكن الوادي ضيّقاً من طرفه الشمالي، بل ينفتح أكثر مع امتداده جنوباً، لكن ذلك لا يحصل في انتظام ثابت. الجانب الأعرض منه يقع على بعد ثمانين ياردة عن الطرف الجنوبي. أما المُنحدرات التي تُحيط بالوادي فلا يُمكن تسميتها بالتلال إلّا في جهتها الشمالية. هُنا تنهض حافة صخرية حادة من الغرانيت إلى ارتفاع نحو تسعين قدماً؛ وكما ذكرت سابقاً، فالوادي في هذه النقطة لا يتجاوز عرضه أكثر من خمسين قدماً؛ لكن مع تقدّم الزائر لهذا المكان إلى الجنوب بعيداً عن المنحدر، يجد على يمينه ويساره مُباشرة مُنحدرات أقل ارتفاعاً، وأقل انحداراً، وأقل خشونة. كل شيء، بكلمة [940]مُختصرة، ينحدر وتخف حدّته كلّما اتّجهنا إلى الجنوب؛ ومع ذلك فالوادي كله مُطوق بقمم ونتوءات عالية، على نحو أو آخر، إلا في نقطتين. إحدى هاتين النقطتين سبق أن ذكرتها. إنّها تقع إلى الشمال الغربي، حيث الشمس الغاربة تشق طريقها، كما أسلفت، نحو الوادي المُتدرّج، عبر ساترٍ طبيعي من الغرانيت بمقاطعه الحادة؛ هذا الصدع ربّما كان عرضه عشر ياردات في أوسع نقطة منه، بقدر ما تستطيع العين تعقّب امتداداته. إنّه يبدو وكأنّه يقفز، يقفز عالياً مثل جسر مُعلّق طبيعي، مُتجهاً صوب الجبال والغابات غير المُستكشفة. والفتحة الأُخرى تقع مُباشرة على الطرف الجنوبي للوادي. هُنا، بصفة عامة، ليست المُنحدرات أكثر من سطوحٍ مائلة قليلاً تمتد من الشرق إلى الغرب إلى حوالى مائة وخمسين ياردة. في مُنتصف هذا الامتداد يوجد انخفاض بمُستوى القيعان الاعتيادية للوادي. أما فيما يتعلّق بالاخضرار، فضلاً عن أي شيء آخر، فالمشهد كأنّه يترقرق وينحدر إلى الجنوب. والى الشمال.. حيث يلتقي

بالجرف الصخري.. على بُعد خطواتٍ من الحافة.. وحيث ترتفع جذوعٌ رائعة لأشجار الجوز، عين الجمل السوداء، والكستناء، وتنتشر وسطها شجرات بلوطٍ هُنا وهُناك؛ كانت الأغصان القوية المُمتدة جانبياً من جذوع أشجار الجوز خاصة، تتناثر في كل مكان على حافة الجرف الصخري. إذا مضيت في طريقك نحو الجنوب، سوف تُشاهد في أول الأمر النوع نفسه من الأشجار، لكنها أقل ارتفاعاً وذات طبيعة خلابة؛ ثم يُمكن أن يُشاهد المُستكشف أشجار الدردار الأكثر نحافة، يتبعها الصفصاف والخروب.. تقطعها مرة أُخرى أشجار الزيزفون الأكثر نحافة، وبراعمُ الكاتالبا القلبية، والقيقب الحمراء.. وهذه أيضاً تتخلّلها أنواع أكثر جمالاً ونحافة من الأشجار. الجانب كله للمُنحدر الجنوبي مُغطى بشجيرات برية فقط.. وفي مكان وآخر كما يتوقع المرء بضع صفصافات فضية أو حور بيضاء. في قاع الوادي نفسه.. (لا بُدّ أن نتذكّر أنّ النباتات الخضراء التي ذكرناها حتى الآن تنمو فقط على السفوح أو جوانب التلال).. يُمكن أن نرى ثلاث أشجار مُنعزلة. إحداها: شجرة دردار ضخمة شكلها مُختلف عن غيرها؛ هذه الشجرة تنتصب فوق المدخل الجنوبي للوادي كأنّها تحرسه. وشجرة جوز أُخرى، أضخم من شجرة الدردار، وأجمل في منظرها، مع أنّ الشجرتين في مُنتهى الجمال؛ يبدو أنّهما تهيمنان على المدخل الشمالي الغربي، تبرزان من الصخور الناتئة بين شدقي الوادي، وتلقيان جذعيهما الجميلين في زاوية تكاد تبلغ خمسة وأربعين درجة، بعيداً عن المكان الذي تقع عليه أشعة الشمس في المدرج. لكن على مبعدة حوالى ثلاثين ياردة من هذه الشجرة، عروس الوادي، وهي دون شك أروع شجرة رأيتها في حياتي، إلّا إذا استثنينا السّرو المُسمّى أجياتوكاني. تلك شجرة خزامى ثلاثية [941]الجذع.. يُسمّونها علمياً ليريودندرون توليبيفيروم.. تنتمي إلى النظام الطبيعي لنبات المغنوليا دائم الخضرة. جذوعها الثلاثة تنفصل بعيداً عن الجذع الأصلي بمسافة ثلاثة أقدام تقريباً عن التربة، وتتفرّع منها أربعة أغصان نحيفة جداً تدريجياً بعيداً عن بعضها عند النقطة التي تخرج فيها الأوراق؛ كل هذا على ارتفاع حوالى ثمانين قدماً. الارتفاع الكلي للفرع الرئيسي يصل إلى مائة وعشرين قدماً. لا شيء يفوق جمال شجرة الخزامى، أو نعومة ولمعان أوراقها الخضراء النضرة. في هذه اللحظة رأيت أنّ

عرض أوراقها ثمان بوصات بالتمام والكمال؛ غير أنّ زهو ونضارة الأوراق ينحسر كلياً بإزاء جمال البراعم التي تتوزّع عليها بكثرة. تخيّل وجود مليون شجرة خُزامى ضخمة بهيّة المنظر! فقط من خلال هذا يستطيع القارئ أن يحصل على فكرة عن الصورة التي أُريد نقلها. ثم هُناك سيقان النباتات ذات المنظر الخلاب كأنّها أعمدة رخامٍ صقيلة، قطر أعرض ساقٍ فيها أربعة أقدام، وتبعد عن الأرض مسافة عشرين قدماً. الأعداد التي لا تُحصى من البراعم تمتزج مع براعم أشجار أُخرى نادراً ما تكون أقل جمالاً، على الرغم من أنّها أقل مهابة في منظرها إلى درجة غير محدودة، تملأ الوادي بأريجٍ أزكى من العطور العربية.

القاع المُتدرّج كله تغطيه أعشاب ذات طبيعة مُشابهة لما وجدته على الطريق؛ يُمكن أن نقول: إنها أعشاب رقيقة تمتع الناظرين، أو سميكة، أو مخملية، أو خضراء في خليطٍ إعجازي. من الصعب تخيل كيف أنّ كل هذا الجمال يتجمّع في مكانٍ واحد.

تكلّمت حتى الآن عن ممرّين يقودان إلى الوادي. من الممر الذي يقع إلى الشمال الغربي يجري جدولٌ صغير، تدمدم مياهه برفق وبطء وهي تزبد، يجري إلى أسفل الوادي، إلى أن يرتطم بمجموعة من الصخور التي تحتضن شجرة الجوز المُنعزلة. هُنا، بعد أن يلتفّ النهير حول الشجرة، يندفع قليلاً إلى الشمال الشرقي، تاركاً شجرة الخُزامى على مسافة عشرين قدماً إلى الجنوب، لكن لا يتغيّر اتّجاهه حتى يقترب من مُنتصف المسافة بين الحدود الشرقية والغربية للوادي. عند هذه النقطة، بعد سلسلة من الانحرافات، ينعطف في زوايا حادة ويُتابع مساره الجنوبي عموماً ويتلوى هُنا وهُناك مع تقدّمه.. إلى أن يضيع في بحيرةٍ صغيرة شكلها غير مُنتظم (تكاد تكون بيضوية)، تتألق مياهها بالقرب من الطرف الأدنى للوادي. هذه البحيرة ربّما كان قطرها مائة ياردة في أوسع بقعة منها. لا شيء أشد صفاءً من مياهها. أما قاعها، الذي من الواضح أنّه يتألف من الحصى اللماع الأبيض. وضفافها من العشب الزمردي الذي وصفته، فهي ذات ضفاف مستديرة، بدلاً من أن تكون مُنحدرة باتّجاه انعكاسات السماء الصافية في الأسفل؛ تلك السماء صافية تماماً في أوقات مُعينة، بحيث تعكس كل الأشياء

التي فوقها، تعكس أين تنتهي [942]الضفة الحقيقية وأين تبدأ الضفة المُزيفة، وهي نقطة يصعب على المرء تحديدها. كان السلمون المُرقّط وأنواع مُختلفة أُخرى من السمك، الذي يبدو أنّ هذه البحيرة تضمها رغم حجمها الصغير، تحمل مظهر السمك الطيار الذي لا تُخطئه العين. كان من المُستحيل تقريباً تصديق أنّ ذلك السمك ليس مُعلّقاً في الهواء. رأيتُ قارباً صغيراً يطفو في استرخاء على المياه، تنعكس صورته في أكثر الأشكال وضوحاً على أكثر المرايا صفاءً. ورأيتُ جزيرة صغيرة، تبدو مثل حسناء ضاحكة والزهور الجميلة المُختلفة الألوان تتناثر على خدّيها؛ زهورٌ تُغطي كل شيء ولا تكاد تسمح بظهور شيء، ومع ذلك رأيت كوخاً صغيراً، يبدو مثل قن الدجاج.. يبرز من جانب البحيرة ليس بعيداً عن ساحلها الشمالي.. الذي ترتبط به بواسطة جسرٍ بدائي الصنع خفيف لا يكاد يرى. كان الجسر مصنوعاً من جذع شجرة خُزامى عريض وسميك. طوله أربعون قدماً، ويمتد عبر فسحة بين الساحل والساحل في قوسٍ طفيف لكنه قابل للرؤية، مانعاً أي شكل من أشكال التذبذب. من الطرف الجنوبي للبحيرة ظهر تفرّعٌ آخر للجدول، بعد تعرج هُنا وهُناك ربّما لمسافة ثلاثين ياردة، يعبر أخيراً من المُنخفض (الذي وصفناه سابقاً) وسط المُنحدر الجنوبي فتتدفّق مياهه مُدمدمة إلى أسفل جرفٍ حاد طوله مائة قدم، فيشق طريقاً مُلتوياً ليس بالإمكان رؤيته وصولاً إلى نهر هدسون.

هذه البحيرة عميقة.. في بعض النقاط يصل عمقها إلى ثلاثين قدماً.. إلّا أنّ الجدول نادراً ما يتجاوز عمقه ثلاثة أقدام، بينما أقصى عرضٍ له حوالى ثمانية. أما قاعه وضفافه فهي مُماثلة لما رأيناه عند البحيرة.. إذا كان ثمّة من خلل يُمكن أن ينسب، من ناحية تتعلّق بالجمال، كان ذلك في الأناقة المُفرطة.

يتوقّف الامتداد الواسع لحلبة الجمال تلك، هُنا وهُناك، تعترضه شجيرة شائكة طائشة تراها العين من حين إلى آخر، مثل شجيرة كوب الماء، أو الكريات الثلجية التي من المألوف رؤيتها، أو في أحيان كثيرة إبرة الراعي ذات الأريج الفواح بمُختلف أنواعها. هذه الشجيرات تنمو في سنادين مدفونة بعناية في التربة، بحيث تُعطي النباتات مظهراً طبيعياً. إلى جانب كل هذا، فالمرج المخملي

مُرقّط بكثافة بالخراف.. قطيع كبير منها يتجول في أرجاء الوادي، برفقة ثلاثة ظباء أليفة، وعدد هائل من البط ذات الريش الرائع. ونوع من الكلاب الأوروبية الضخمة يقوم بحراستها، كلّ على انفراد أو مُجتمعة.

على السفوح الشرقية والغربية.. باتّجاه الجانب الأعلى من المُدرّجات، كانت الحدود على نحو أو آخر شديدة الانحدار.. تنمو عليها أشجار اللبلاب بكثرة.. [943]بحيث إنّه فقط هُنا وهُناك يُمكن للمرء أن يلمح صخرة جرداء. أمّا المُنحدر الشمالي، في وضعٍ مُماثل، فيكاد يكون مُغطّى تماماً بكروم العنب من الأنواع النادرة المُكتنزة؛ بعضها تبرز من التربة عند سفح الجرف الصخري، وأُخرى تخرج من نتوءات على جبهته.

المُرتفع الضئيل الذي يُشكّل الطرف الأسفل لهذه البقعة الصغيرة، كان مُتوّجاً بحائطٍ صخري مُتناسق، يكاد يكفي ارتفاعه لمنع هرب الظباء. لا يوجد أي أثر لسياجٍ يُمكن رؤيته في أي مكان؛ فلا حاجة لوضع سياجٍ اصطناعي.. فأيّما خروفٍ شارد، على سبيل المثال، يُمكن أن يُحاول الهرب ويمضي في طريقه إلى خارج الوادي، لا بُدّ أن يجد الطريق مسدوداً، بعد بضع ياردات، بسبب الحافات الصخرية الشديدة الانحدار التي تُدمدم فوقها شلالاتُ المياه التي جذبت انتباهي حين اقتربت أول مرة من هذا المكان. باختصار، سبيلُ الخروج أو الدخول الوحيد يتمثّل في بوابة أُقيمت على ممر صخري في الطريق، على بُعد بضع خطوات أسفل النقطة التي توقّفت عندها لاستطلاع المنظر.

لقد وصفت الجدول وقلت: إنّه مُتعرّجٌ على غير انتظام عبر مساره كله. الاتجاهان الرئيسيان اللذان يسلكهما، كما قلت سابقاً، أولاً من جهة الغرب إلى الشرقَ، ثم من جهة الشمال إلى الجنوب. عند نقطة التحوّل في الاتّجاه، يندفع الجدول مُتراجعاً، يقوم بالتفافة دائرية تقريباً، فتتشكّل هُناك شبهُ جزيرة، أو تكاد تكون جزيرة مساحتها ستة عشر فداناً تقريباً. على شبه الجزيرة هذه يوجد منزل.. وحين أقول: إنّ هذا المنزل الذي يُشبه مصطبة جهنمية أقصد فقط أن هيكله على الإجمال صدمني بإحساس حادّ لأنّه كان بالنسبة إليّ منظراً جديداً مُختلفاً.. باختصار، شيء يوحي بالإلهام الشعري إلى أقصى الحدود.. (لأنّي بغير الكلمات

التي استخدمتها، ما كان لي أن أُقدم وصفاً شعرياً بلغة مُجرّدة أكثر دقة لهذا المنظر).. ولا أعني أنّ النواحي الخارجية الشاذة فقط التي أدركتها بأي حال.

في حقيقة الأمر لا شيء هُنا يُمكن أن يكون أكثر بساطة ممّا هو عليه.. أو أكثر عفوية من ذلك الكوخ. كان تأثيره العميق يكْمن في تناسقه الفني كلوحة. كان في وسعي أن أتخيل، وأنا أُطيل النظر إليه، أنّ رسام مناظر طبيعية عبقري رسمه بفرشاته.

لم تكن الزاوية التي نظرتُ من خلالها لأول مرة إلى الوادي تُتيح لي رؤية كل أركانه إطلاقاً، على الرغم من أنّها تكاد تكون أفضل زاوية تُمكّن المرء من مسح ذلك الكوخ. سوف أصف إذن الكوخ كما رأيته لاحقاً.. من موقعي على حائط الحجارة في الطرف الجنوبي للجرف.

البناء كله يمتد إلى حوالى أربعة وعشرين قدماً وبعرض ستين قدماً.. [944]حتماً ليس أكثر ولا أقل من ذلك. أما ارتفاعه من الأرض إلى قمة السقف، فلا يتجاوز ثمانية عشر قدماً. إلى الغرب من هذا الكوخ يلتصق به بناء آخر يكاد يقل عنه حجماً بنسبة الثلث في كل خصائصه.. الخط الأمامي لواجهته يتراجع إلى ياردتين تقريباً عن واجهة الكوخ الكبير، وخط سقفه طبعاً ينخفض عن السقف المُجاور. في زوايا قائمة مع هذين الكوخين، ومن مؤخرة الكوخ الرئيسي.. ليس في المُنتصف تماماً.. تمتد حجرة ثالثة صغيرة جدّاً.. هي بصورة عامة تقل بنسبة الثلث عن الجناح الغربي. سقوف الكوخين الكبيرين تنحدر بحدة.. تنحدر إلى الأسفل من أعلى حافةٍ في مُنحنى مُقعّر، وتمتد على الأقل إلى أربعة أقدام خلف الجدران الأمامية، بحيث تُشكّل سقوف شرفتين. هذه السقوف الأخيرة طبعاً لا تحتاج إلى دعائم؛ ولكن بينما كانت في الظاهر تحتاج للدعائم، هُناك أعمدة نحيفة ملساء وضعت عند الزوايا فحسب. سقفُ الجناح الشمالي مُجرّد امتداد لجزءٍ من السقف الرئيسي. بين الكوخ الرئيسي والجناح الغربي ترتفع مدخنة رفيعة مُربّعة من قرميدٍ هولندي صلب، تتناوب حجارتها من سوداء إلى حمراء.. وإفريز ضئيل من قرميد ناتئ عند القمة. فوق الجملونات أيضاً تبرز السقوف كثيراً.. في الكوخ الرئيسي على مسافة أربعة أقدام إلى الشرق وقدمين

إلى الغرب. الباب لم يكن في الجزء الرئيسي، فهو في موضع يقع قليلاً إلى الشرق.. بينما كانت النافذتان إلى الغرب. هاتان النافذتان لا تمتدّان حتى تُلامسان الأرضية، بل هُما أطول وأضيق كثيراً مما هو مُعتاد.. لهما مصاريع مثل الأبواب.. والألواح تتّخذان شكلاً معيناً، لكنهما عريضتان. والباب نفسه نصفه الأعلى من الزجاج، وكذلك هو معيني الألواح.. وهُناك مصراعٌ مُتحرّك ينغلق ليلاً. الباب الذي في الجناح الغربي في الجملون، وهو بسيط الصنع.. ونافذة تطل على الجنوب. لم يكن هُناك أي بابٍ خارجي في الجناح الشمالي، وهذا الجناح له أيضاً نافذة إلى الشرق.

الحائط الفارغ للجملون الشرقي تتخلّله درجاتُ سلم (مع درابزون) يمتد عرضياً.. والصعود يكون من الجنوب. تحت غطاء الإفريز الذي يبرز عرضياً تفسح هذه الدرجات المجال إلى بابٍ يؤدي إلى العلية.. لأنّها مُضاءة فقط بنافذة واحدة تقع إلى جهة الشمال، ويبدو أنّ الغرض منها أن تكون مخزناً.

شُرفات الكوخ الرئيسي والجناح الغربي لا أرضية لها كما هو مُعتاد؛ لكن عند الأبواب وعند كل نافذة هُناك بلاطات عريضة مُسطّحة وغير مُنتظمة من [945]الغرانيت مُثبّتة في الطبقة العليا، تمنح موطئ قدم في كل الأجواء. وهُناك ممرات من المواد نفسها.. ليست مُرتبة جيداً، لكنها مع العشب المخملي الذي يملأ الفراغات بين الصخور، تقود المرء بعيداً عن المنزل، إلى ينبوع كريستالي المياه على بعد حوالى خمس خطوات على الدرب، أو ربما تقوده إلى كوخ أو كوخين جاثمين إلى الشمال وراء الجدول، تختفي عن الأنظار وراء بضع شجيرات خروب أو يوكالبتوس.

على بُعد ليس أكثر من ست خطوات عن الباب الرئيسي للكوخ ترى الجذع الميت لشجرة كمثرى رائعة المنظر، مُغطاة بدثارٍ عجيب من الرأس إلى القدم ببراعم وأزهار البغنونيا فائقة الجمال ولا يحتاج المرء إلى تدقيق نظر طويل ليكتشف حقيقة ذلك الجمال. من فروعٍ مُتعدّدة لهذه الشجرة تتدلّى أقفاص مُختلفة الأنواع. من أحد الأغصان المجدولة الكبيرة التي تتّخذ شكل أسطوانة ذات حلقة في أعلاها، يلهو طائرُ الضحاك داخل قفص؛ وفي قفصٍ آخر هُناك عصفور

الصّافر؛ وفي قفص ثان طائر الممراح بتغريده الصادح المرح.. بينما ثلاثة أو أربعة أقفاص جميلة فيها طيور كناري صاخبة.

أعمدة الشرفة تلتفّ عليها أغصان للياسمين وصريمة الجدي؛ بينما من زاوية تتشكل من الهيكل الرئيسي للكوخ وجناحه الغربي في الواجهة، تظهر كرمة أعناب ذات أريج فوّاح لا يُضاهيها شيءٌ في وفرة وترف ثمارها. في تحدٍّ لأي قيود، تتسلّق الكرمة أولاً نحو السقف الأدنى.. ثم نحو السقف الأعلى؛ وعلى حافة هذا السقف تُتابع الأغصان تسلقّها والتفافها، وتلقي عناقيدها ذات اليمين وذات الشمال، حتى تصل أخيراً إلى الجملون الشرقي، وتتدلى أغصانها فتتجرجر على درجات السلّم.

الكوخ على الإجمال، بجناحيه معاً مُشيدٌ من ألواح خشبية قديمة هولندية الطراز.. عريضة، زواياها ليست مستديرة. ومن الخصائص المُميزة لهذه المادة أنّها تُعطي المنازل التي تُبنى بها مظهراً يوحي بأنّها أوسعُ كثيراً عند القاع منها في القمة.. على غرار ما نجده في عمارة المصريين؛ وفي المثال الحالي، هذا التأثير المُبهر تُسانده أحواضٌ مُتعدّدة للزهور التي تكاد تُحيط به من كل جانب.

الألواح الخشبية مطلية بلونٍ رمادي كئيب؛ والإيحاء بالسعادة التي تذوب في هذا التدرج اللوني المُحايد نحو الاخضرار النضر لأوراق شجرة الخُزامى التي تُلقي بظلالها جزئياً على الكوخ يُمكن لأي فنان أن يتخيّله بسهولة.

من الجانب القريب للحائط الصخري، كما وصفته، يرى المرءُ الأكواخ بكل تفاصيلها.. لأنّ الركن الجنوبي يبرز للأمام.. بحيث تلتقط العين على الفور منظر الواجهتين معاً، وكذلك صورة الجملون الشرقي الرائع، وفي الوقت نفسه تحصل على لقطة كافية للجناح الشمالي، مع أجزاءٍ من السقف الجميل للكوخ الربيعي، [946]وتقريباً نصف جسرٍ خفيف يقطع الجدول قرب الأكواخ.

لم أبق طويلاً على حافة التل، رغم أنّ ذلك كان كافياً لإجراء مسحٍ للمنظر الذي يلوح عند قدمي. من الواضح أنّني تجوّلت من الطريق المؤدي إلى القرية، وحصلت بهذا على عذر كمسافر لفتح البوابة التي أمامي، لكي أستمر في

طريقي، مهما كلّف الأمر؛ وهكذا، دون أي ضجة، تقدّمت.

بعد اجتياز البوابة، بدا لي أنّ الطريق يمتد على جرفٍ طبيعي، وينحدر تدريجياً في مواجهة المُنحدرات الشمالية الشرقية. قادتني خطواتي وصولاً إلى المُنحدر الشاهق الشمالي، ومن هُناك اتّجهتُ إلى الجسر، مع التفافاتٍ تؤدي إلى الجملون الشرقي ثم انتهيتُ عند الباب الأمامي. خلال هذا المسار، لم أُلاحظ أي أثرٍ للمنازل الخارجية.

وعندما انعطفتُ من ركن الجملون، قفز الكلب باتّجاهي وسط ذلك الصمت المهيب، وكانت عيناه وتصرّفاته توحي بأنه نمر مُتوحّش. لكنّي أبعدته عني، في مُحاولاتٍ ودّية.. لم أكن أعرف في ذلك الوقت أنّ نباح الكلب يُناقض أخلاق سيده الكريم. ولم يفعل الكلب شيئاً سوى أن أغلق فمه وهز ذيله، لكنّه حتماً كان يُهددني بمخالبه.. وبعد ذلك امتدت تهديداته إلى كلبي بونتو.

لأنّي لم ألمح أي جرسٍ، خبطت بعصاي على الباب شبه المفتوح. وفي الحال تقدّم شخصٌ إلى العتبة.. رأيتُ امرأة في مُقتبل العمر، عمرها حوالى ثمان وعشرين سنة.. نحيلة قليلاً، قامتها فوق المُتوسط. كانت تتقدّم في خطواتٍ مُتواضعة وتصميم مؤكد لا يكاد يكون محسوساً. قلت في نفسي، «حتماً هنا يمكنني أن أرى الجمال الطبيعي، بالقياس إلى الجمال المُصطنع». الانطباع الثاني الذي تركته في نفسي، وهو الأكثر حيوية، يدلّ على ذروة الحماس. كم كان ذلك الانطباع رومانسياً، ربّما أسميه كذلك، أو هو لا يمت إلى دنيانا بصلة، تلك النظرة العميقة التي انطلقت من عينيها، لم يسبق لنظرةٍ أُخرى أن اخترقت لبّ القِلوب من قبل. لا أعرف كيف أُفسر الأمر، لكن هذا الانطباع الغريب من أثر النظرة، كان يتلوى هُنا وهُناك على الشفتين، كأنه أقوى تعويذة سحرية، جعل نظراتي تتسمّر على المرأة .«رومانسية»، على شرط أن يفهم القراء ما اعنيه هنا بالكلمة.. «رومانسية» و«أنوثة» تبدوان لي مُفردتين قابلتين لأن تحلّ الواحدة منهما محلّ الأُخرى؛ وعلى كل حال، فأي شيء يعشقه الرجل حقّاً في المرأة، غير أنوثتها ببساطة! عينا آني (سمعت شخصاً من الداخل ينادي عليها

«آني، حبيبتي!») «لونهما رمادي بلون الروح»؛ وشعرها، بلون الكستناء الخفيف؛ هذا كل ما أتاح لي الوقت مُلاحظته عليها.

استجابة لدعوتها المُهذبة، دخلت.. ومررت أولاً عبر دهليزٍ عريض. وبعد [947]أن تلفتّ حولي، لاحظت إلى جهتي اليمنى وأنا أدخل نافذة، مثل تلك التي في واجهة المنزل؛ وإلى اليسار بابٌ يؤدي إلى غرفة رئيسية؛ وفي الطرف المُقابل لي، رأيت باباً مفتوحاً أتاح لي رؤية حُجرة صغيرة، حجمها مُماثل تماماً للدهليز، مُرتّبة كغرفة مكتب فيها نافذة مُقوسة تطلّ على جهة الشمال.

بعد أن عبرت نحو الردهة، وجدت نفسي مع السيد لاندور.. لأنّ هذا، كما علمت لاحقاً هو اسمه. كان رجلاً مهذباً ودوداً في شخصيته، لكنّي في ذلك الوقت كنت مُنشغلاً بمُراقبة مُحتويات المكان الذي أثار انتباهي كثيراً، أكثر من اهتمامي بمظهر صاحب المنزل.

رأيتُ الآن الجناح الشمالي وكان عبارة عن حجرة نوم، بابها مفتوح على الردهة. إلى الغرب من هذا الباب رأيتُ نافذة تطلّ على الجدول. على الطرف الغربي من الردهة هُناك موقد، وبابٌ يؤدي إلى الجناح الغربي.. ربّما كان مطبخاً.

لا شيء أكثر بساطة من أثاث الردهة. على الأرضية فُرشت سجادة سميكة من نسيجٍ فاخر.. سطحها أبيض، مُرقّط بأشكال دائرية خضراء صغيرة. على النوافذ ستائر من الموسلين الأبيض الثلجي؛ كانت الستائر طويلة تكاد تُلامس الأرضية، وتتعلّق بإحكام، ربّما كان شكلها رسمياً أكثر مما ينبغي، مع ضفائر تتدلى إلى الأرضية.. والجدرانُ مُغطّاة بورقٍ فرنسي يوحي بمسحة من الأناقة، سطحه فضي مع خيوطٍ خضراء مُتعرّجة تتقاطع عليه في كل مكان. كان امتداد ورق الجدران ينقطع فقط بثلاث لوحات رائعة لجوليان بطباعة حجرية تتعلّق على الجدار دون أي إطارات. واحدة من هذه اللوحات تُصوّر منظراً شرقياً مُترفاً، أو بالأحرى مُثيراً للشهوات الجنسية؛ ولوحة أُخرى تُصوّر «كرنفالاً»، هي متعة للناظرين، لا شيء يُمكن مُقارنته بها؛ والثالثة فيها رأس أُنثى إغريقية.. وجهها ملائكي، عليه انطباعٌ مُستفز لا يعرف كنهه.. لم يسبق أن أثارتني لوحة مثلها.

قطع الأثاث الأساسية الأُخرى تتألف من طاولة مُستديرة، وبضعة كراسي (منها كرسي هزاز كبير)، وأريكة خشبها من شجر القيقب المُستوي مطلية بلون حليبي، مُرقّط قليلاً بالأخضر؛ ومقعد من الخيزران. كانت الكراسي والطاولة تستحق المُشاهدة، لأنّ أشكالها من الواضح أنّها صممها دماغ واحد كان قد خطّط للأرضية؛ من المُستحيل تصوّر أي شيء بمثل هذا الجمال.

على الطاولة بضعة كتب، وزجاجة كبيرة مُربّعة من الكريستال فيها عطر من [948]نوع غير معروف، ومصباح زجاجي نجمي (لا يُضاء بالنفط) عليه غطاء إيطالي، ومزهرية كبيرة لماعة.. فيها زهور مُتفتّحة. في الواقع هي زهور خلابة مُتعددة الألوان ذات رائحة زكية تُشكّل عنصر الديكور الوحيد للشقة. والموقد مُمتلئ تقريباً بالحطب وفوقه مزهرية رائعة فيها أزهار إبرة الراعي. على رفٍّ مثلث في كل ركنٍ من الغرفة أيضاً مزهرية مُماثلة، لا تختلفُ في شيءٍ إلا في نوع أزهارها الجميلة. وكان يُزيّن رفّ الموقد إكليل أو اثنان من الزهور، وأزهار بنفسجٍ قديمة تتجمّع حول النوافذ المفتوحة.

لا يتعدّى الغرض من هذا العمل إعطاء صورة مُفصّلة عن مكان إقامة السيد لاندور.. كما وجدته.

ترصيع فقرة بـحرف أكس

كما هو معروف جيداً فإنّ «الحكماء» غالباً ما يأتون «من الشرق»، ولأن [949]السيد تج أند غو العنيد ينحدر من الشرق في الأصل، يقتضي ذلك أنّ السيد بليتهيد كان حكيماً؛ وإذا ما احتجنا إلى دليلٍ إضافي يدعم هذا الرأي، فإليك الدليل.. السيد ب. كان مُحرِّراً في إحدى الصحف. سرعة الغضب هي نقطة ضعفه الوحيدة، لأنّ العناد الذي يتّهمه به الرجال كان في الواقع كل شيء باستثناء أنّه نقطة ضعف، ذلك لأنّه كان يعتبر العناد بحق حصناً يلوذ به. العناد نقطة قوته.. أو فضيلته التي يعتز بها؛ والأمر يتطلّب كل منطق براونسون لإقناع الرجل بأنّ العناد «شيءٌ آخر».

لقد ذكرت أنّ صاحبنا المُتعجّل العنيد تج أند غو بليتهيد كان من الحكماء؛ والمُناسبة الوحيدة التي لم يثبت فيها عصمته عن الخطأ عندما ترك ذلك المأوى الشرعي لكل الحكماء، أي: الشرق، وهاجر إلى مدينة الإسكندر العظيم نوبوليس[1]، أو إلى مكانٍ آخر يحمل عنواناً مُماثلاً في الغرب.

لكن ينبغي عليّ أن أُنصف الرجل فأقول: إنّه عندما قرّر أخيراً أن يستقر في تلك البلدة، كان يتوقّع عدم وجود أي صحيفة، وتبعاً لذلك فلا يوجد أي مُحرّر، في ذلك الجزء من العالم. ولدى تأسيس صحيفة «إبريق الشاي» كان يتوقّع أن يُهيمن على هذا المضمار دون مُنازع. إنّني أشعر بالثقة من أنّه لم يسبق أن حلم في أن يستقر به المقام في مدينة الإسكندر العظيم لو كان واعياً إلى ذلك؛ في مدينة الإسكندر العظيم، كان يعيش رجلٌ يُدعى جون سميث (إن كنت أتذكّر جيداً)، منذ سنواتٍ طويلة حقق شهرة عريضة بعد إصداره صحيفة «الإسكندر

---

(1) مدينة نوبوليس Nopolis تعني في سخرية «لا مدينة». [المترجم]

العظيم». ولأنّه غير مطّلع جيداً في الجغرافيا فقد حدث أن وجد السيد بليتهيد نفسه في مدينة الإسكندر.. ولكن لنفرض أنّنا نُسمي نوبوليس هكذا، للاختصار.. ولأنّه وجد نفسه هُناك، قرّر أن يُبقي شخصيته غامضة لمُجرّد العناد، أو التمسك بالرأي، فيبقى. وهكذا بقي؛ بل فعل أكثر من ذلك؛ فكك أجزاء مطبعته، وحروفه، إلخ.. إلخ.. واستأجر مكتباً يقع تماماً مُقابل مكتب صحيفة «غازيت»، وفي صباح اليوم الثالث بعد وصوله، أصدر العدد الأول من صحيفة «أليكسيان».. بمعنى آخر، صحيفة «إبريق شاي نوبوليس».. [950]كما أتذكّر تقريباً، كان هذا اسم الصحيفة الجديدة.

كان المقال الافتتاحي، عليّ أن أعترف بهذا، رائعاً.. إن لم نقل قاسياً. كان على وجه الخصوص قاسياً في أشياء مُحدّدة بصفة عامة.. وبالنسبة إلى مُحرّر «غازيت»، فقد تمزّق إلى نتفٍ على وجه التحديد. بعض تعليقات بليتهيد كانت حقّاً شديدة الوطأة بحيث كنت دائماً، منذ ذلك الوقت، مُضطراً للنظر إلى جون سميث، الذي لا يزال حيّاً يُرزق، على ضوء السمندل. ليس في وسعي الادعاء أنّني أقتبس كل الفقرات التي وردت في «إبريق الشاي» حرفياً، لكن إحداها جاءت على النحو الآتي:

«أوه، نعم!.. أوه، نحن ندرك! أوه، لا شك في هذا! أنّ المُحرّر الذي وراء هذا الكلام رجل عبقري.. أوه، يا..! أوه، يا إلهي، رحماك يا إلهي!.. إلى أين يتّجه هذا العالم؟ أوه، أعصابي! أوه، بحق موسى!».

ويا له من خطابٍ مؤثر لاذع وكلاسيكي، نزل مثل الصاعقة أو القنبلة على رؤوس مواطني نوبوليس الذين كانوا حتى الآن مُسالمين. وتجمع أفرادٌ منهم وقد استبدِ بهم الغضب عند مُنعطفات الشوارع. كل واحد منهم كان ينتظر، في تلهّف قلبي، رد سميث المُبجّل. وفي صباح اليوم التالي ظهر الرد التالي:

«لقد اقتبسنا من صحيفة «إبريق الشاي» العدد الذي صدر يوم أمس الفقرة المرفقة: «أوه، نعم!.. أوه، نحن نُدرك! أوه، لا شك في هذا! أنّ المُحرّر الذي وراء هذا الكلام رجل عبقري.. أوه، يا..! أوه، يا إلهي، رحماك يا إلهي!.. إلى أين يتجه هذا العالم؟ أوه، أعصابي! أوه، بحق موسى!» عجباً، كم يستخدم هذا

الكاتب من حروف الواو! ذلك يُفسّر مُستوى تفكيره في المقال، ويوضّح السبب في عدم وجود بداية ولا نهاية بالنسبة إليه، ولا لأي شيء يقوله. نحن حقّاً لا نُصدّق أنّ هذا المُتسكّع يستطيع كتابة كلمة تخلو من حرف الواو كما اعتاد أن يفعل؟ بالمُناسبة، يبدو أنّه ينحدر من الشرق مُباشرة. أتساءل إن كانت واواته هُناك تأتي بكثرة كما يستخدمها هُنا؟ .. كم هو أمر يستحق الإشفاق».

عن الإحساس بالاحتقار للسيد بليتهيد من هذه الإساءات المُخزية غير المُباشرة، لن أُحاول أن أقول شيئاً. لكن من حيث المبدأ لم يظهر أنّه قد تأثر كثيراً من الهجوم الذي استهدف حصافته كما يتوقّع المرء. كانت السخرية من أسلوبه هي التي جعلته يصل إلى ذروة الإحباط. ماذا!.. تج أند غو بليتهيد!.. يعجز عن كتابة كلمة من غير حرف واو! سوف يُثبت لذلك المُتبجح أنّه أساء تقديره. نعم! سوف يريه كيف أساء فهمه، ذلك الجرو الصغير! توج أند غو بليتهيد، من فروغبونديوم، سوف يجعل السيد جون سميث يُدرك أنّه، بليتهيد، يستطيع أن يُسطّر، إذا كان ذلك يرضيه، فقرة كاملة.. مرحى! أو مقالاً كاملاً.. لا يظهر فيه حرف العلة اللعين ذاك مرة واحدة ..ولا حتى مرة.. على الصفحة. لكن لا.. ذلك سيكون إذعاناً للمدعو [951]جون سميث. هو، بليتهيد، لن يجري أي تغيير على أسلوبه، من أجل أن يُرضي نزوات السيد سميث من كرستندوم. فلتُمحق أي فكرة سخيفة مثل هذه! ليذهب حرف الواو إلى الجحيم للأبد؛ سوف يُثابر على كتابة واواته. سوف يكون واوياً كما ينبغي أن يكون.

تحرّق شوقاً وحماساً لهذا التصميم، وخرج تج أند غو، في العدد اللاحق من «إبريق الشاي»، بمُجرّد فقرة واحدة بسيطة لكنها مُحكمة البناء، فيما يتعلّق بالمسألة البائسة هذه:

«إنّ لمُحرّر «إبريق الشاي» الشرف لأن ينصح صحيفة «غازيت» بأن تنتهز الفرصة التي تمنحها لهم «إبريق الشاي» لأن تُعلن في العدد الذي يصدر صباح الغد، بأنّ «غازيت» اقتنعت أن محرر «إبريق الشاي» يُمكنه، وسوف يفعل، أن يكون سيداً لهم في البلاغة، أو فيما يتعلّق بالأسلوب؛ فمُحرّر «إبريق الشاي» ينوي أن يُعرب لمُحرّر «غازيت» عن مدى احتقاره، وفي الواقع امتعاضه من النقد

الذي وجّهته إليه «غازيت» مؤخراً وما كان له من أثر على إلهام خيال مُحرّر «إبريق الشاي»' من خلال دفعه إلى كتابة، من أجل أن يُرضيه هو خاصة (؟) أي مُحرّر «غازيت» وسوف يكتب مقالاً رائداً، بطولٍ لا بأس فيه، يتكرّر فيه حرف العلة الجميل.. شعار الخلود.. مع أنّه يُسبّب انزعاجاً للحساسية المُفرطة له، مُحرّر «غازيت»، لكنه لن يتفادى وجوده حتماً من أجل إرضاء مُحرّر «غازيت» بل سيكون خادماً مُطيعاً، لمُحرّر «إبريق الشاي..» «هذا يكفي بالنسبة إلى بكنغهام!»»[2].

تنفيذاً لهذا الوعد الشنيع الذي كتب بهذا الأُسلوب الغامض بدلاً من أن يُعبّر عنه شفوياً، أغلق بليتهيد العظيم أُذنيه كي لا يستمع إلى أي توسّلات لطلب «نسخة» واحدة وقال ببساطة لمساعده أن يذهب إلى د.. آي، حيث أكّد له (الخادم)، أي أكّد لمُحرّر «إبريق الشاي» أنّ الوقت مُناسب تماماً «للذهاب إلى المطبعة»؛ وأن لا يُلقي أُذناً صاغية إلى أي شيء، أقول، جلس بليتهيد العظيم ولم ينم تلك الليلة حتى أشرق النهار، واستهلك زيت مُنتصف الليل، واستغرق في كتابة الفقرة التي لا يُضاهيها شيء، والتي جاءت على النحو التالي:

'So ho, John! how now? Told you so, you know. Don't crow, another time, before you're out of the woods! Does your mother know you're out? Oh, no, no!-so go home at once, now, John, to your odious old woods of Concord! Go home to your woods, old owl-go! You won't! Oh, poh, poh, don't do so! You've got to go, you know! So go at once, and don't go slow, for nobody owns you here, you know! Oh! John, John, if you don't go you're no homo-no! You're only a fowl, an owl, a cow, a sow,-a doll, a poll; a poor, old, good-for-nothing-to-nobody, log, dog, hog, or frog, come out of a Concord bog. Cool, now-cool! Do be cool, you fool! None of your crowing, old cock! Don't frown so-don't! Don't hollo, nor howl nor growl, nor bow-wow-wow! Good Lord, John, how you do look! Told you so, you know-but stop rolling your goose of an old poll about so, and go and drown your sorrows in a bowl!'

---

(2) الاقتباس من مسرحية شكسبير (ريتشارد الثالث). [المترجم]

«إذن يا هذا، جون! كيف حالك الآن؟ ألم أقل لك هذا، كما تعرف. لا تنعق [952]كالغراب، مرة أخرى، قبل أن تخرج من الغابات! ألا تعرف أُمك أنك خرجت؟ أوه، لا، لا!.. إذن اذهب إلى بيتك حالاً، الآن، يا جون، إلى غابتك القديمة، غابة كونكورد[3] المكروهة! ارجع إلى بيتك في الغابة، أيّتها البومة العجوز.. اذهب! لن تذهب! أوه، تباً، تباً، لا تُريد ذلك! عليك أن تذهب، كما تعلم! إذن ارحل فوراً، ولا تمشي بطيئاً، لأن لا أحد يعرفك هُنا، كما تعلم! أوه! جون، جون، إن لم تذهب فأنت لا بيت لك.. لا! أنت مُجرّد دجاجة، بومة، بقرة، أنثى خنزير.. دمية، رأس أجوف؛ مسكين، عجوز، لا يُصلح لشيء، لوح يابس، كلب، خنزير، ضفدع، يخرج من مُستنقع آسن. اهدأ، الآن.. اهدأ! أرجوك أن تهدأ، أيّها الغبي! توقّف عن النعيق، أيّها الديك العجوز! لا تقطب هكذا.. لا تفعل! لا تصرخ، لا تعوي، لا تتذمّر، لا تنبح! يا إلهي، جون، كيف تبدو! لقد أخبرتك بهذا، كما تعلم.. لكن توقف عن زجّ أنفك في ما لا يعنيك، واذهب لتغرق إحزانك في حوض الاستحمام!»

وبعد أن أخذ منه الإنهاك كل مأخذ، وهذا طبيعي جداً، نتيجة ذلك الجهد المُضني، لم يكن في وسع تج أند غو الاهتمام بشيء آخر في تلك الليلة. ثم ما لبث بثباتٍ وعزم وبقدرة واعية أن أعطى الرسالة إلى الشيطان الصغير الذي كان ينتظر، وبعد ذلك راح يتمشى الهوينى عائداً إلى المنزل مُنهكاً، وأحس بكرامته قد استُردت بشكل لا يوصف وهو يأوي إلى السرير.

في هذه الأثناء، كان الشيطان الصغير الذي تسلّم الرسالة، يركض صاعداً السلم مُتّجهاً إلى صندوق الحروف في سرعة جنونية، وعلى الفور بدأ بإجراء تعديلات على الرسالة.

في المقام الأول طبعاً.. لأنّ أول كلمة في الرسالة كانت تبدأ بحرف السين.. فقد غمز للحرف الكبير وخرج به مُنتصراً. ابتهج من هذا النجاح، وألقى

---

(3) كونكورد، ماساشوسيتس كانت موطن أمرسون وألكوت وغيرهما من المؤيدين لفلسفة التعالي. [المترجم]

نفسه مُباشرة على حرف الواو الصغير وخانته في طيش أعمى.. لكن من يستطيع أن يصف الرعب الذي أصابه حين خرجت أصابعه دون أن يلتصق بها الحرف المُتوقع؟ من يستطيع أن يرسم ملامح الدهشة والغضب حين رأى وهو يفرك مفاصل أصابعه، أنّه كان يُنقب فيها من غير هدف، على قاع الصندوق الفارغ. لم يجد حرف واو واحد في خانة الواوات الصغيرة، وراح يُحملق خائفاً في خانة الواوات الكبيرة، فوجد بإزاء رعبه الشديد، نفسه في مأزق مُماثل تماماً. صعقته الحسرة المُفاجئة، وكان أول رد فعل له أن اندفع إلى رئيس العمال.

«سيدي!» قال له وهو يلهث لالتقاط أنفاسه، «لا يُمكنني أن أفعل شيئاً من غير حروف الواو».

«ماذا تقصد بذلك؟» زمجر رئيس العمال الذي كان في مزاجٍ سيىء لأنّه تأخّر كثيراً على المطبعة.

«عجيب، سيدي، لم أجد أي حرف واو في المكتب، لا يوجد حرفٌ كبير ولا صغير!».

«ماذا.. ما الذي حلّ بحق الشيطان بكل تلك الحروف التي كانت في الحاوية؟».

«لا أعرف، سيدي»، قال الصبي، «لكن أحد الملاعين من مجلّة غازيت كان يحوم في المكان طوال الليل، وأشك في أنه سرق الحروف كلها».

«ليلعنه الله! لا يساورني الشك في الأمر»، أجاب المشرف وقد اصطبغ وجهه بالاحمرار من الغضب، «لكني أقول لك ماذا تفعل، بوب، أيّها الولد الطيب.. اذهب في أول فرصة واسرق كل حرف لديهم من حروف الآي الصغيرة و(ليلعنهم الله!) هؤلاء الملاعين».

«هذا ما سأقوم به»، أجاب بوب، وغمز لصاحبه وقطّب جبينه ..«سوف أقتحم [953]مكانهم، سوف أعلمهم شيئاً أو شيئين؛ لكن في هذا الأثناء، أين تلك الفقرة؟ عليك أن تذهب الليلة، كما تعلم.. وإلّا عليك أن تخسر بحق الشيطان، و..».

«وليس من وسيلةٍ أُخرى لتلافي الأمر»، قاطعه كبير العمال، وهو يتنهّد، «إنّها فقرة طويلة، بوب».

«لا ينبغي أن تقول عنها: إنّها طويلة»، قال بوب.

«آه، حسناً، إذن! افعل ما في وسعك! علينا فقط اللحاق بالمطبعة»، قال رئيس العمال الذي كان غاطساً حتى أُذنيه في العمل؛ «فقط عليك أن تضع حرفاً آخر بدلاً عن الواو؛ لن يقرأ أحدٌ هذه التفاهة على كل حال».

«حسناً جدّاً»، أجاب بوب، «انتهينا من الأمر!» وأسرع فوراً إلى حقيبته، وكان الرجل يُتمتم وهو يذهب: «الأمور على ما يرام، هذه مُجرّد تعبيرات تقبل هذا التفسير أو ذاك، خصوصاً بالنسبة إلى رجلٍ لا يقرأ ولا يكتب. هذا سوف يفقأ كل العيون، إيه؟ اللعنة على كل المُشعوذين! حسناً! هذا الصبي قادر أن يفعلها». الحقيقة أنّه على الرغم من أن بوب لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر وقامته أربعة أقدام، إلّا أنّه كان كفوءاً لكي يخوض أي نزال بطريقته الخاصة.

لم يكن الوضع المُحرج الذي نتكلّم عنه نادر الحدوث في مكاتب الطباعة؛ ولا يُمكنني أن أقول شيئاً عن الأسباب التي أدّت إليه، لكن الحقيقة التي لا تقبل الجدل أنّ مثل هذا المأزق عندما يحدث، فمن المُعتاد أن يستخدم حرف الأكس كبديلٍ عن أي حرفٍ مفقود. والسبب الحقيقي في هذا أن حرف الأكس هو الأكثر وفرة في الحاوية، أو على الأقل هكذا كان في الأيام الخوالي.. منذ زمنٍ يكفي لأن يجعل هذا الاستبدال الذي نتساءل عنه شيئاً عادياً لدى عمّال الطباعة. أمّا بالنسبة إلى بوب، فهو يعتبرها هرطقة أن يستخدم أي حرفٍ آخر، في حالة من هذا النوع، غير الأكس الذي طالما اعتاد عليه.

«عليّ أن أُرصّع هذه الفقرة بحرف الأكس، قال يُكلّم نفسه، وكان يقرأها على استعجال مُندهشاً، «لكنها من أبشع الفقرات المُرصّعة بالواوات التي رأيتها في حياتي».. وهكذا قام بترصيعها بحروف الأكس، دون ترددٍ أو وجل، وأرسلها إلى المطبعة في الحال».

في صباح اليوم التالي، فوجئ سكان نوبوليس جميعاً بقراءة مجلّة «إبريق الشاي»، بالمقال الافتتاحي المذهل التالي:

'Sx hx, Jxhn! hxw nxw? Txld yxu sx, yxu knxw. Dxn't crxw, anxther time, befxre yxu're xut xf the wxxds! Dxes yxur mxther knxw yxu're xut? Xh, nx, nx!-sx gx hxme at xnce, nxw, Jxhn, tx yxur xdixus xld wxxds xf Cxncxrd! Gx hxme tx yxur wxxds, xld xwl,-gx! Yxu wxn't? Xh, pxh, pxh, Jxhn, dxn't dx sx! Yxu've gxt tx gx, yxu knxw, sx gx at xnce, and dxn't gx slxw; fxr nxbxdy xwns yxu here, yxu knxw. Xh, Jxhn, Jxhn, Jxhn, if yxu dxn't gx yxu're nx hxmx-nx! Yxu're xnly a fxwl, an xwl; a cxw, a sxw; a dxll, a pxll; a pxxr xld gxxd-fxr-nxthing-tx-nxbxdy, lxg, dxg, hxg, xr frxg, cxme xut xf a Cxncxrd bxg. Cxxl, nxw-cxxl! Dx be cxxl, yxu fxxl! Nxne xf yxur crxwing, xld cxck! Dxn't frxwn sx-dxn't! Dxn't hxllx, nxr hxwl, nxr grxwl, nxr bxw-wxw-wxw! Gxxd Lxrd, Jxhn, hxw yxu dx lxxk! Txld yxu sx, yxu knxw,-but stxp rxlling yxur gxxse xf an xld pxll abxut sx, and gx and drxwn yxur sxrrxws in a bxwl!'

فأُثيرت ضجة عارمة بسبب هذا المقال الصوفي العجائبي، وكان استغرابهم [954]شيئاً لا يُوصف. أول فكرة خطرت على بال الناس أنّ نوعاً من اللّعنة الشيطانية تكْمن وراء هذه الحروف الهيروغليفية؛ فحدث اندفاعٌ شامل إلى مكان سكن بليتهيد من أجل مُحاكمته؛ لكن الرجل لم يكن موجوداً في أي مكان. لقد اختفى، ولا يعرف أحدٌ كيف؛ حتى شبحه لم يرَ منذ ذلك الوقت.

لم يتمكّن الناس من اكتشاف الهدف الحقيقي من وراء ذلك، فاستبدّ بهم الغضب لكنّهم خنعوا أخيراً؛ تركوا الأمر، وترسّب اهتمامهم في القاع شيئاً فشيئاً، رغم تفسيراتٍ مُتضاربة عن هذه المسألة المُزعجة.

قال أحدُ الأشخاص: إنّه يتصور أنّها مُجرّد مزحة سمجة.

وقال آخرٌ: إن بليتهيد أظهر لنا حقّاً براعة خيال نادرة.

واعترف ثالثٌ بأنه كاتبٌ غريب الأطوار، ليس أكثر من ذلك.

ولـم يكن في وسع الرابع إلّا افتراض أنّ من عادات اليانكيين وهو منهم أن يُعبّروا عن أنفسهم بأُسلوب مُنهك.

«أقول، بدلاً من كل هذا، أراد الكاتب أن يضع نموذجاً تقتدي به ذريته»، قال خامس.

أن يكون بليتهيد قد بلغ ذروة الطيش، فهو أمر أصبح واضحاً للجميع؛ في حقيقة الأمر، منذ أن اختفى ذلك المُحرّر، انتشرت بعض الأقاويل عن إعدام الغوغاء لمُساعده الآخر بلا مُحاكمة.

لكن الاستنتاج الأكثر قبولاً الذي تمّ التوصل إليه أنّ المسألة ببساطة غريبة ولا تقبل التأويل. حتى إنّ أحد علماء الرياضيات في البلدة اعترف أنه لا يستطيع التوصل إلى أي حلّ لهذه المعضلة المُحيّرة. لأنّ كل شخص يعرف أنّ حرف الأكس يعني كمية مجهولة؛ لكن في هذه الحالة (كما لاحظ بصورة صحيحة)، كانت هُناك كمية مجهولة من حرف الأكس.

أما رأي بوب اللعين (الذي أبقى الأمر سرّاً أنّه هو الذي قام بترصيع الفقرة بالأكس)، فلم يلقَ الاهتمام الذي يستحقه كما تصوّرت، على الرغم من أنّه عبّر عنه صراحة وبلا وجل. قال: إنّه من جانبه لا يُساوره أدنى شك في المسألة، وإنّها قضية [955]لا لبس فيها، وأنّ السيد بليتهيد «لم يكن بالإمكان إقناعه بأن يشرب مثلما يفعل الآخرون، لكنه كان باستمرار يحتسي تلك الجعة الثقيلة المريرة التي تحمل علامة فيها ثلاثة حروف أكس، والنتيجة المُتوقعة أنّها جعلته يفقد رشده، حتى تجاوز كل التوقّعات وبلغ ذروة التطرّف».

المحتويات

الجزء الأول

المقدمة 5

ببليوغرافيا مُختارة 21

حوادث مهمة في حياة إدغار ألن بو 23

حكاية من أورشليم 27

بون - بون 33

دوق لوميليت 59

انقطاع الأنفاس: (حكاية لم تقع داخل ولا خارج حدود بلاكوود) 67

مترنغيرشتاين 87

رسالة في قارورة 101

خرافة الصمت 117

أربعة وحوش في جسد: تجانس الزرافة 123

موعد لقاء 135

هانز فال ومُغامرته الفريدة 153

الظل - حكاية رمزية 217

بيرينايس 223

موريلا 235

المَلك طاعون: حكاية ذات مضامين رمزية 245

من طبائع الأسد 263
شيء من الغموض 273
حكاية أ. غوردن بايم (رواية) 285

الجزء الثاني

مقال إلى بلاكوود 513
مأزق مُحرج 529
لايجيا 541
انهيار صرح أوشير 563
الرجل المُسْتنفد: حكاية عن حملة بوغابو وكيكابو الأخيرة 587
محاورة أيروس وشارميون 601
وليم ولسون 609
شيطان برج الناقوس 635
رجل الأعمال 647
فلسفة الأثاث 659
رجل الزحام 669
لماذا يلفّ الفرنسي يده بعصابة؟ 681
السقوط إلى هاوية مايلستروم 689
جِرائم على جادة مورغ 711
جزيرة الجنّي 753
مُحاورة مونوس وأونا 761
لا تستأمن الشيطان على رأسك: حكاية لا تخلو من موعظة 773
إليونورا 787
ثلاثة أيام أحد في أسبوع 795

السر الغامض لمقتل ماري روجيه: ملحق «جرائم على جادة مورغ» 805
الحفرة والبندول 861
قناع الموت الأحمر 879
اللّوحة البيضوية 887
الخنفساء الذهبية 891

الجزء الثالث

القط الأسود 935
القلب الواشي 947
من فنون الاحتيال 955
خدعة المنطاد 969
الرسالة المسروقة 985
من إلهامات التنويم المغناطيسي 1009
الدفن قبل الأوان 1023
طريقة الدكتور تار والبروفيسور فيثر 1039
الحياة الأدبية للسيد ثنغوم بوب 1063
عفريت الحماقة 1089
مرحى أيها البطل! 1101
حكاية الجبال الوعرة 1117
النظارات 1129
الصندوق المستطيل 1157
حقائق عن قضية م. فلاديمير 1171
الحكاية الثانية بعد الألف لشهرزاد 1183
هوس الانحراف 1205

قوة الكلمات 1213
بضع كلمات مع مومياء 1219
برميل الامونتيلادو 1239
العنقاء 1249
جنة أرنهايم 1255
فون كمبلين واكتشافه 1273
ميلونتا تاوتا 1281
هوب فروغ 1297
كوخ لاندور 1309
ترصيع فقرة بحرف أكس 1323



إدغار ألن بو

- وُلِدَ في بوسطن، طفلًا ثانيًا لِمُمَثِّلين، في 19 من يناير عام 1809، وتوفي في 7 من أكتوبر عام 1849.
- كاتبٌ، وشاعرٌ، ومحرِّرٌ، وناقدٌ أدبيٌّ أمريكيٌّ يُعَدُّ جزءًا من الحركة الرومانسيَّة الأمريكيَّة.
- اشتهرَت حكاياتُهُ بالغُموضِ والتَّرويع، وكان من أقدم المُمارسينَ الأمريكيِّينَ لفنِّ القصَّة القصيرة، ويُعَدُّ عمومًا مُبتَكِرَ جنسِ قصَصِ التَّحَرِّي، ويُنسَبُ إليه فضلُ الإسهامِ في ظُهورِ جِنسِ قصصِ الخَيالِ العلميِّ.
- كانَ أوَّلَ كاتبٍ أمريكيٍّ معروفٍ يكسبُ لقمةَ العيشِ من طريقِ الكتابةِ وَحدَها، ممَّا أدَّى به إلى حياةٍ صعبةٍ ماليًّا ومهنيًّا.
- حضَرَ بو في جامعةِ فرجينيا سنةً دراسيَّةً واحدةً، لكنَّهُ تركَها لعدمِ وجودِ المالِ.
- بدأَ حياتَهُ المهنيَّةَ في النشرِ، ولو بتواضُعٍ، بمجموعةٍ من القصائدِ سَمَّاها تيمورلنك وقَصائدُ أُخرى (1827).
- نشَرَ في عام 1845 آخِرَ دَواوينِه الشِّعريَّةِ الذي ضَمَّ قَصيدَتَهُ 'الغُراب' التي حقَّقَتْ نجاحًا فوريًّا.
- نَشَرَ في عام 1848 رسالةً فلسفيَّةً علميَّةً عنوانُها 'وَجَدتُها'، حاولَ فيها وَضعَ تصوُّرٍ جديدٍ للكونِ.
- لم يكتُب بو القصَّةَ بُغيَةَ الإصلاحِ وإيقاظِ الضمائرِ، بل كتَبَها من أجلِ القصَّةِ، كما نظَمَ القصيدةَ من أجلِ القصيدةِ؛ كتَبَها ليتركَ أثرًا محدَّدًا في نفسِ القارئِ، فهو يتخيَّلُ أحداثًا مُفزِعةً تُثيرُ في نفسِ القارئِ مخاوفَ كامنةً أو دهشةً ممزوجةً بالرهبةِ، فيبقى في حالةٍ من الترقُّبِ وحُبِّ الاستطلاعِ.
- وكما اهتمَّ بو بالأحداثِ، ركَّزَ على الشخصيّاتِ والأثرِ الذي تتركُهُ في القارئِ أيضًا. ولأنَّهُ كانَ ميّالًا إلى العُزلة، فقد أضفى على شخصيّاته هذه الصفةَ؛ لأنَّهُ يُصنَّفُ كاتبًا رومانسيًّا لا يستطيعُ التجرُّدَ من عواطفِه ولا كَبتَ ما يُحِسُّهُ.



مصطفى ناصر

- مُتَرجِمٌ عِراقيٌّ، وُلِدَ في مدينةِ البصرةِ عامَ 1955، وتُوُفِّيَ في مَدينَةِ بَغدادَ عامَ 2020.
- حصَلَ على شهادةِ البكالوريوس من كلِّيَّةِ الآداب - قسم اللغات الأوروبِّيَّة بجامعة البصرة عامَ 1978، وكانَ ترتيبُهُ الأوَّلَ على قسم اللغة الإنجليزيَّة.
- اشتركَ في دورةٍ للغة الإنجليزيَّة في جامعة سسكس البريطانيَّة عامَ 1977.
- نالَ شهادةَ الدبلومَ العالي في التوثيقِ العلميِّ من الجامعةِ المستنصريَّة عامَ 1980.
- عملَ مُترجِمًا مع فريقٍ للأُمم المتَّحدةِ مُدَّةَ عامَين بعدَ انتهاءِ الحربِ مع إيران.

الجوائزُ التي حصلَ عليها:
- درعُ المترجم المبدع لعام 2013 من وزارة الثقافة العراقيَّة.
- جائزةُ الإبداعِ العراقيِّ لعام 2019 عن ترجمتِه لرواية المُتعاطِف للكاتب فاييت ثانه نغويين.
- درعُ الجواهريِّ للإبداعِ لعام 2020 من الاتِّحادِ العامِّ للأُدَباءِ والكُتّابِ في العراق.

من ترجماته الكثيرة:
- **مختصرُ تاريخ العدالة**، **لديفيد جونستون** - سلسلة 'عالَم المعرفة'، وقد رُشِّحَتْ هذه الترجمة لنيل جائزة الشيخ زايد لعام 2013، ووصلَتْ إلى القائمة القصيرة.
- **روايةُ العين الأكثر زُرقةً**، لتوني موريسون، الفائزة بجائزة نوبل لعام 1993، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة - العراق.
- **رواية في انتظار الماهاتما**، للكاتب الهندي ر. ك. ناريان، دار المأمون للترجمة - وزارة الثقافة، بغداد، 2006.
- **الأجنحة الحزينة: دراساتٌ في الأدب الإيرلنديّ**، لريتشارد إيلمان، دار المأمون للترجمة - وزارة الثقافة، بغداد، 2008.
- **كيف تقرأ القصيدة؟**، لتيري إيغلتون، كتابُ العدد (مجلَّة الثقافة الأجنبيَّة)، العدد 3، 2008، دار الشؤون الثقافيَّة - وزارة الثقافة، بغداد.
- **رواية نجمة بعيدة**، للروائيِّ التشيليِّ روبيرتو بولانو، دار المأمون للترجمة، بغداد، 2012.
- **لمحاتٌ اجتماعيَّةٌ من تاريخ العراق الحديث**، ج2، للدكتور عليّ الورديّ (إلى اللغة الإنكليزيَّة) بتكليف من وزارة الثقافة العراقيَّة، 2013.
- **الغيوم: طبيعة وثقافة**، مشروع كلمة للترجمة - أبو ظبي، 2019.
- **القانونُ وأثرُهُ على السلوك**، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، 2019.
- **رواية الصديق**، دار المدى، 2020.

ونشَرَ مقالاتٍ مترجَمَةً في الثقافة العالميَّة في صحف دوليَّة كصُحُف 'الزَّمان' و'المدى' و'المشرق'، ومجلّات كمجلّات 'الثقافة الأجنبيَّة' و'المأمون' و'كلكامش'، زيادةً على الإسهام في مجلَّة Iraq Quarterly Review.



الأعمال
القصَصِيَّة الكامِلَة

[إدغار ألن بو]، ذلكَ الشاعرُ، والفيلسوفُ، والرسّامُ، والموسيقارُ، نموذجٌ فريدٌ من عباقرة الرومانتيكيِّينَ، مع غرور شيطانيّ أخذَهُ من بايرون وشغف مَعرفيّ من كوليردج ... ووَسطَ ذلكَ المجتمع الذي عَبَّرَ عنهُ واشنطن إيرفنغ في كتاباته، والذي راقَتْهُ قصَصُ جيمس فينيمور كوبر التي تتحدَّثُ عن مغامرات وأسفار أخلاقيَّة تُمَجِّدُ قيَمَ الشهامة والرُّجولة، كانَ إدغار ألن بو يُصرُّ على التطرُّق إلى صُوَرٍ وأصواتٍ هي أقربُ إلى الجنون والخطيئة والموت منها إلى عقلانيَّة الحياة، في قصصه التي فرَضَها في عناده المألوف على قياسات الذوق العامّ ... حينَ يتعلَّقُ الأمرُ بالقصَّة القصيرة، لا يوجَدُ مُنافِسٌ لهُ من المعاصرينَ.

من مُقدّمة جون سيلاي

موضوع الكتاب **قصص**

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com



